التفسير الشامل للقرآن الكريم

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ٤٢١٨٤
الطابع الزمني: ٢٧-٣٠-٢١-٢٢-١٢-٢٠٢٠
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

المحتويات

عن الكتاب

الكتاب: التفسير الشامل للقرآن الكريم
المؤلف: الدكتور/ أمير عبد العزيز
[الكتاب مرقم آليا وهو غير مطبوع]

عن المؤلف

١ سورة الفاتحة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الكتاب: التفسير الشامل للقران الكريم
المؤلف: الدكتور/ أمير عبد العزيز
[الكتاب مرقم آليا وهو غير مطبوع]
سورة الفاتحة:
وهي قوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والاستعاذة بمعنى الالتجاء والاستجارة، استعاذ به، أي لجأ إليه، وهو عياذه، أي ملجأه، ومعاذ الله، أعوذ بالله - ١
والشيطان من شطن، أي بعد عن الخير، وسمي الشيطان بذلك، لعتوه وتمرده وبعده عن الحق والخير، وكل عات متمرد من الإنس والجن والدواب شيطان - ٢
والرجيم، من الرجم وهو القتل واللعن والطرد والإبعاد من الخير، وأصله الرجم بالحجارة فهو رجيم ومرجوم - ٣
على أن الاستعاذة مأمور بها عند أول كل قراءة من القرآن الكريم، لقوله تعالى: " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " وهذا الأمر إنما يفيد الندب لا الوجوب وهو قول الجمهور - وثمة قول بأنه للوجوب - والصواب قول الجمهور وهو الندب، أما التعوذ في الصلاة فهو مندوب في الركعة الأولى منها، وقيل بوجوبها في كل ركعة استنادا إلى عموم قوله: " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " وأجمعوا على أن التعوذ ليس من القرآن ولا هو آية منه.
وفي فضل التعوذ روى أبو داود عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال: «يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك، ومن شر ما خلق فيك، ومن شر ما يدب عليك، ومن أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكني البلد، ووالد وما ولد».
وأخرج الموطأ ومسلم والترمذي عن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من نزل منزلا ثم قال: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل».
تفسير سورة الفاتحة
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية، وهي سورة عظيمة القدر والشأن، فهي أم الكتاب وفاتحته، لما يتجلى فيها من كبير المعاني وأصول العقيدة، ولما تتسم به من جلال التعبير الذي يفيض بروعة الكلم وتشيع منه العذوبة وتمام الانسجام، لا جرم أن سورة الفاتحة نموذج الإعجاز الباهر في الكتاب الحكيم كله، وهي لفضلها وبالغ قدسيتها وعجيب إيقاعها ونخامة مضمونها ومعناها كانت طليعة الكتاب العزيز، وفي فضلها الكريم الطاهر روى الترمذي عن أبي كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنزل الله في التوراة ولا الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل».
أما أسماء الفاتحة فهي كثيرة منها: أولا: الصلاة، قال الله في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) (قال الله تعالى: حمدني عبدي وإذا قال العبد: (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» رواه مسلم عن أبي هريرة، وقوله سبحانه: «قسمت الصلاة» يريد الفاتحة، وسماها صلاة، لأن الصلاة لا تصح إلا بها.
ثانيا: الحمد: لأن فيها ذكر الحمد.
ثالثا: فاتحة الكتاب، من غير خلاف في ذلك، وسميت بهذا الاسم، لأن قراءة القرآن تفتح بها لفظا وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطا

وبها تفتح القراءة في الصلوات.
رابعا: أم الكتاب، وهذا الاسم عند الجمهور وكرهه ابن سيرين والحسن البصري إذ قالا: الآيات المحكمات هن أم الكتاب، والصحيح قول الجمهور، لما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب، والسبع المثاني والقرآن العظيم».
خامسا: أم القرآن، ودليله الخبر المبين آنفا.
سادسا: السبع المثاني، سميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة، وقيل غير ذلك.
سابعا: الشفاء، لما رواه الدرامي عن أبي سعيد مرفوعا: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم»
ثامنا: الرقية، وجمعها الرقى استرقاه فرقاه، يرقيه رقية فهو راقي - ٤
تاسعا: الواقية، لأنها لا تحتمل الاختزال فلا تنصف، فلو نصفت الفاتحة في ركعتين لما جاز ذلك، لكن لو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة أخرى جاز.
عاشرا: الكافية، لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها - ٥
١ - (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)
البسملة
وهي قوله: بسم الله الرحمن الرحيم، وقيل في تأويلها: إن بسم الله الرحمن الرحيم قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة يقسم لعباده: إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق، وإني أوفي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبري - ٦
وهل البسملة آية من القرآن؟ ثمة أقوال في هذه المسألة:
القول الأول: ليست البسملة بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول الإمام مالك واحتج لذلك بأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد، وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا خلاف فيه، قال ابن العربي في ذلك: يكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه الناس.
القول الثاني: إنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك وقد شذ في ذلك.
القول الثالث: وهو للشافعي، إذ قال هي آية في الفاتحة وحدها، وفي قول ثان له أنها آية من كل سورة.
القول الرابع: إن البسملة آية من سورة النمل، وهذا ما لا خلاف فيه.
أما قراءتها في الصلاة فثمة خلاف في ذلك، فقد قيل بوجوب قراءتها في صلاة الفرض والنفل وهو قول الشافعية والحنابلة وغيرهم، وذهب آخرون إلى الإسرار بها مع الفاتحة وهو قول الحنفية، وروي ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وعمار وابن الزبير.
وقال به أحمد بن حنبل، واحتجوا من الأثر بما روي عن أنس قال: «صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم».
وذهبت المالكية إلى أن البسملة ليست آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلي في المكتوبة ولا في غيرها لا سرا ولا جهرا، ويجوز أن يقرأها في النوافل.
قوله: «بسم الله» الباء زائدة ومعناها الإلصاق، ٧ تكتب بسم بغير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط، وذلك لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله (اقرأ بسم ربك الذي خلق) فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال، وبسم الله يعني بالله: أي بخلقه وتقديره نصل إلى ما نصل إليه، وقيل: «بسم الله» يعني بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته.
واللفظ «الله» هو أكبر أسماء الله تعالى، وهو لا ثني ولا يجمع، والله اسم للموجود القديم الحق الذي جمع صفات الإلهية والربوبية.
أما الرحمن، فقيل: إن هذا الاسم غير مشتق، لأنه من الأسماء المختصة بالله سبحانه، ولو كان مشتقا لعرفته العرب، ولم ينكروه حين سمعوه قالوا (وما الرحمن (وقيل: الرحمن مشتق من الرحمة مبني على المبالغة ومعناه: ذو الرحمة الذي ليس له فيها نظير، ولذلك لا يثنى

ولا يجمع مثلما يثنى الرجيم ويجمع، والراجح اشتقاقه، لما خرجه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته، وهذا نص يدل على الاشتقاق.
على أن الرحمن مختص بالله جلاله، ولا يجوز أن يسمى به أحد غير الله، ويدل على ذلك قوله:
(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن (فعادل اسم الرحمن اسم الله الذي لا يتسمى به أحد غيره - ٨
٢ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: (الحمد لله (مبتدأ وخبر، الحمد هو الثناء الكامل على الجميل من نعمة أو معروف أو غير ذلك، والألف واللام لاستغراق الجنس من كل المحامد، فالله جل جلاله يستحق الحمد أو الثناء جميعه، فقد أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه وافتتح كتابه الحكيم بحمده وذلك بقوله: (لحمد لله رب العالمين (أي أن الله سابق في الثناء على نفسه من نفسه قبل أن يحمده أحد من العالمين، (رب العالمين (أي مالكهم، وكل مملوك مربوب، أي مملوك لله، فالله رب كل شيء أي مالكه، فالرب يعني المالك وهو الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة - ٩ كقوله (اذكرني عند ربك (والمراد بالعالمين، جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ولا واجد له من لفظه مثل: رهط وقوم، وقال ابن عباس: العالمون الجن والإنس، لقوله تعالى:
(ليكون للعالمين نذيرا (ولم يكن النبيء نذيرا للبهائم.
٣ - (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)
وقوله: (الرحمن الرحيم (صفتان لله تحملان الثناء والتعظيم لله رب العالمين.
والله عز وعلا موصوف بالرحمة البالغة بالخلق، وقد تقدم الكلام عن معنى الرحمة.
ذلك أن الله عظيم الرحمة بالعباد على الكيفية التي ليس لها في درجات الرحمة نظير، وكذلك الرحيم صفة لله أخرى، وكلتا الصفتين تنبضان بكامل الرحمة، إذ تفيض على الوجود من خالق الوجود، فما يكون من شيء في الأرض أو في السماء إلا جاء في خلقه وطبيعته من خالق الوجود، فما يكون من شيء في الأرض أو في السماء إلا جاء في خلقه وطبيعته مكتملا، موزونا، لا يخالطه عوج، ولا يمسه في وجوده من الله ظلم، وفوق ذلك كله فإن رحائم الله بالعباد لا تحصى، بل إنها تتجاوز في كثرتها وعظمتها كل حسبان، وفي طليعة المعاني الكريمة من رحمة الله سبحانه وتعالى غفار للذنوب، يتجاوز عن معاصي الخلق مهما كثرت وعظمت، والإنسان من جهته كثير الزلات والمساءات، مستديم العدوان على حدود الله، ولا يبرح المعاصي والأخطاء، لضعفه ولفرط انشداده للشهوات ونفسه الأمارة بالسوء، لكن الله عز وعلا غفار لكل ما يفارقه الإنسان في حياته من الآثام إن استغفر وأناب أو ندم وتاب ما اجتنبت الخطيئة الكبرى وهي الإشراك بالله.
٤ - (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)
قوله: (ملك يوم الدين (يوم الدين أي يوم القيامة حيث الحساب والعقاب، والدين يعني الجزاء، دانه يدينه أي جازاه، ومنه، كما تدين تدان - ١٠
ويوم القيامة وغيره من مضامين هذا الوجود الهائل مملوك لله الخالق، فالله عز وعلا مالك الدنيا والآخرة ومالك الحياة والحياء والعالمين، بل إنه مالك كل شيء.
وتخصيص يوم الدين بالإضافة يحتمل وجهين: أحدهما: تعظيم هذا اليوم المشهود الذي يناقش فيه العباد الحساب، ويوم القيامة عصيب وحافل بالقوارع والأحداث الفوادح، لا جرم أن داهية القيامة أمر داهم ومزلزل لا يتصور مداه ذهن أو خيال لهول ما فيه من نوازل وبلايا.
ثانيهما: تعظيم الله سبحانه، فهو الذي يملك هذا اليوم العصيب وما فيه من أمور وأحداث ومخاليق، هذا اليوم الذي تحبس فيه الأنفاس فرقا ورعبا، وتحشر فيه الأصوات في الصدور فلا يسمع منها إلا ما كان همسا، وتغشى العالمين إذ ذاك غواش من الصمت الواجم

والتربص الحسير، وحينئذ يقف العالمون بين يدي الله ضعافا ذاخرين حيارى، فالله بذلك حقيق بالحمد والعبادة والخضوع له من الخلائق والعالمين.
٥ - (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)
قوله: (إياك نعبد وإياك نستعين (إياك مفعول نعبد، وقد قدم المفعول على الفعل اهتماما، والعرب تقدم في الكلام الأهم، أي لا نعبد إلا إياك، ونعبد يعني نطيع، من العبادة أي الطاعة والتذلل، والخضوع والامتثال لأوامر الله.
قوله: (وإياك نستعين (الاستعانة تعني طلب المعونة والتوفيق في كل الأقوال والأعمال، لا جرم أن الله خير معين لمن يستعينه وخير مجير لمن يستجير به.
وهو وحده حقيق بالرجاء والتضرع إليه داعين متوسلين عسى أن يكتب الخير والعون في الدين والدنيا وأن يدفع الشر والبلايا في الدنيا والآخرة.
٦ - (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)
قوله: (اهدنا الصراط المستقيم (اهدنا يتعدى إلى مفعولين وهما: الضمير «نا» والصراط، واهدنا من الهدى والهداية وهي الرشاد والدلالة، ١١ والصراط: معناه الطريق، والمراد بالصراط المستقيم هنا: طريق الحق وهو الإسلام، وهذا دعاء إخلاص وإنابة يناجي به المربوب ربه أن يرشده ويدله إلى دينه الحق، الاسم.
٧ - (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)
قوله: (صراط الذين أنعمت عليهم (صراط بدل من الصراط الأول ١٢ والمراد بالمنعم عليهم: النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، وهو قول أكثر المفسرين، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (وأنعمت من الإنعام وهو إيصال النعمة وهي في الأصل الحالة التي يستطيبها الإنسان ويستلذها، ونعمة الله وجوهها وضروبها كثيرة لتشمل أوجه الخير واللين والراحة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فنعم الله على الإنسان عظيمة ومستفيضة، فمنها: قوة العقل وما يتفرع عن ذلك من فطانة وبراعة وذكاء وإدراك.
ومنها: قوة الجسم بما حواه من حواس البصر والسمع والشم والغرائز، وما يستلزمه ذلك من أوجه الاستمتاع بالطيبات الدنيا.
ومنها سلامة الفطرة من كل ظواهر المرض والشذوذ ليأتي الطبع بذلك سويا مستقيما خاليا من المعضلات النفسية والعصبية والسلوكية، وفي هذه الحالة من سلامة الفطرة واستواء النفس والبدن لسوف يجد الإنسان في حياته كامل الراحة والاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا.
وأما في الآخرة فإن النعمة فيها لهي كبرى النعم وهي الفوز الأكمل الذي يحظى به الفائزون في يوم الحساب العصيب، لا جرم أن نعمة الله بالفوز بجنته ورضاه لهي خير النعم، وهذا ما يرتجيه المؤمنون المخلصون الحريصون لينجوا من عذاب الله يومئذ ويحظون بثوابه وجزائه.
قوله: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين (غير مجرور على البدل من الضمير في قوله: (عليهم (وقيل: مجرور على البدل من الذين، وقيل: مجرور على الوصف للذين، وهو قول الجمهور.
وقيل: (غير (منصوب على الحال، أو بتقدير أعني، أو على الاستثناء المنقطع، ١٣ (ولا الضالين (لا، زائدة للتوكيد، وقيل: بمعنى غير، ١٤ والغضب معناه في اللغة الشدة، والمراد به هنا في صفة الله العقوبة للمذنبين الخاطئين، والمراد بالمغضوب عليهم: الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق والصواب وعدلوا عنهما فاستحقوا بذلك الغضب من الله.
والمراد بالضالين: الهائمون في الضلالة، الشاردون عن دين الله الحق ليسدروا في العمى والتيه.
وجملة القول في الصنفين: أنهم الذين فسدت طبائعهم وضلت أذهانهم عن طريق الله المستقيم فسدروا تائهين جامحين، وانقلبوا خاسرين منتكسين، وقيل: المراد بالمغضوب عليهم: المشركون، والمراد بالضالين، المنافقون، وقيل (المغضوب عليهم (: اليهود، و (الضالين (: النصارى، وهو قول الجمهور - ١٥
أما التأمين عقيب قراءة الفاتحة: فهو مستحب لمن يقرأها، وهو أن يقول «آمين» وهو دعاء وليس من القرآن، وهو اسم فعل ومعناه: اللهم استجب لنا، وفيه لغتان: إحداهما: بالمد، فهو على وزن فاعل ومثل هابيل وقابيل، والثانية: بالمقصر، فهو على وزن فعيل مثل

رقيب وعتيد - ١٦
والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين (قال: «آمين» مد بها صوته، وفي لفظ أبي داود: رفع بها صوته.
وروى أبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين (قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول، وذلك منفردا أو إماما أو مأموما، وذلك لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»».
وقد ذهب إلى استحباب التأمين من الإمام والمأموم كثير من أهل العلم وفيهم المالكية والحنابلة، والشافعي في القديم، أما الحنفية، والشافعي في الجديد، ومالك في رواية عنه، فقد ذهبوا إلى أن الإمام لا يجهر بالتأمين بل يجهر بها المأموم، واحتجوا بما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال: «إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كثير فكبروا، وإذا قال: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين (فقولوا: آمين يحبكم الله»».
ومثلما يستحب القول: آمين في الصلاة، فإنه يستحب قولها أيضا لقارئ الفاتحة خارج الصلاة.
والراجح القول الأول وهو أن يجهر الإمام والمأمون بقراءة «آمين» وذلك لما يقويه من صحيح الأخبار، منها ما جاء في الموطأ والصحيحين عن ابن شهاب: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «آمين» وفي سنن ابن ماجة عن أبي هريرة قال: ترك الناس آمين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قال: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين (قال: «آمين» حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد - ١٧

٢ سورة البقرة:

سورة البقرة:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية، وهي تتناول جملة من المعاني والقضايا والقواعد التي تغطي جانبا أكبر من نظام الإسلام، وذلك فيما يمس الواقع البشري للإنسان بمختلف مناحيه النفسية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويمكن أن نعرض لما تناولته السورة في الأمور التالية:
أولها مسألة الحروف المتقطعة أو فواتح السور التي تأتي على رأس جملة من سور القرآن والتي اختلفت فيها أقوال العلماء والمفسرين، ثم التنويه السريع بفريقين من البشر: فريق المؤمنين، وفريق المشركين، ويعقب ذلك تنديد تفضيلي ومؤثر بفريق فاسد مشنوء من البشر، وهو فريق مذبذب مريض يخفي في نفسه الضلال والكفر ليبدي للناظرين والسامعين شاكلة مليحة خادعة، وهؤلاء هم المنافقون الذين يوجدون في كل مكان وزمان، والذين يؤذون المؤمنين من الداخل في صمت وتلصص.
وتتناول السورة ضربا من ضروب التحدي للمشركين والمكذبين أن يأتوا بسورة واحدة- أي سورة - من مثل هذا القرآن من حيث أسلوبه العجيب أو مستواه السامق الفذ، وهو تحد يظل قائما دون مبارحة لتستبين معه حقيقة الإعجاز لهذا الكتاب الحكيم.
ثم استخلاف الله للإنسان في هذه الأرض ليكون منوطا به احتمال الأمانة والمضيء في منهج الله وخطه المستقيم، مع ما رافق ذلك من مساءلة الملائكة لربهم عن جعل هذه الخليفة في الأرض، وهم المسبحون بحمد الله والمقدسون له.
ثم قضية السجود لآدم، وذلك أمر رباني كبير يفرضه الله على جنده الملائكة الأطهار والى جانبهم إبليس الذي ظل عابدا لله حتى تبينت الحقيقة يوم انحسر هذا الكائن الشقي عن طبيعة مستكبرة شاذة، طبيعة آيسة فاسدة تستعلي على الرحمن جل وعلى فلا ترضخ لأمر الله بالسجود لآدم، فكان ذلك بداية السقوط والهلاك.
ثم قضية آدم وزوجه اللذين استمعا لكلمة الله في النهي عن الأكل من هذه الشجرة لكنهما نسيا وأخطأ فأكلا منها، فاقتضت بعد ذلك حكمة الله أن يهبط الثلاثة إلى الأرض حتى حين، إلى أن يرتحلا إلى دار البقاء حيث الحساب.

وتتناول أيضا خطاب الله لبني إسرائيل من أجل أن يذكروا نعمة الله التي امتن بها عليهم فيوفوا بعهده ويرهبوه، ثم يؤمنوا بالقرآن الحكيم الذي جاء مصدقا لما نزل عليهم من كتاب، وألا يخلطوا بين الحق والباطل عمدا وتزويرا، وأن يضطلعوا بأداء ما فرض الله عليهم من صلاة وزكاة، وذلك كيلا يكونوا في عداد الذين يقولون ولا يفعلون.

وثمة تذكير كذلك لبني إسرائيل بما أنعمه الله عليهم وبما فضلهم به على العالمين من معطيات ومنن، وذلك كمنجاتهم من كيد فرعون الذي سامهم عذابا بئيسا من تذبيح أبناء واستحياء للنساء، وكذلك قد فرق الله البحر من أجل بني إسرائيل ليمروا من خلاله إلى حيث السلامة والنجاة مع تغريق فرعون وجنوده حتى أصبحوا من الهالكين.

وتعرض سورة البقرة في قدر عظيم من الآيات لقصة بني إسرائيل، وهي قصة طويلة وغريبة ومريرة بما يكشف عن طبيعة يخالطها التخلخل والشذوذ، يتبين ذلك من خلال مناسبات وأسباب شتى تثير في النفس الحيرة والاشمئزاز، وذلك لفرط التطاول والاجتراء على الله، وهو اجتراء مرفوض يأباه الضمير المؤمن، فقد طلب بنو إسرائيل من نبيهم موسى أن يمكنهم من رؤية الله جهارا وإلا فإنهم لا يؤمنون، حتى أخذتهم الصاعقة بالهلاك جزاء هذا الاجتراء الأحمق.

وقد أمرهم ربهم أن يدخلوا القرية ليأكلوا منها كما يشاؤون على أن يبادروا الدخول وهو ساجدون ثم يقولون (حطة (حين الدخول ليغفر الله لهم خطاياهم نظير ذلك.

لكن فريقا ظالما منهم قد تكلم بغير ما أمر به وذلك على سبيل السخرية والاستخفاف.

ثم استسقاء موسى لقومه حتى ضرب الحجر بعصاه (افانفجرت منه اثنتا عشرة عينا (ثم مطالبة بني إسرائيل بطعام أدنى من المن والسلوى كالبقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، وذلك ما يكشف عن النزوع للبطر والعتو في غير تواضع أو إقرار لله بالنعمة، حتى كتب الله عليهم الذلة والمسكنة والغضب والتفريق المشتت في الأرض وذلك بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير حق.

وتعرض السورة لقصة البقرة، وهي ما أمر الله بني إسرائيل على لسان نبيهم ومنقذهم موسى عليه السلام أن يذبحوها، وهي بقرة لم تتحدد بصفة من الصفات بل ورد الأمر بإطلاق غير مقيد، وقد ذبح اليهود بقرة، لكن بعد تردد وجدال طويلين غريبين.

وفي السورة كذلك نصيب كبير من الكلام عن بني إسرائيل على أنحاء متعددة من الكشف والتبيين تارة، أو من التنديد والتقريع تارة أخرى، أو من التهديد والوعيد تارة ثالثة، وذلك مثلما كشفت الآيات عن نفاق فريق من بني إسرائيل الذين إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والإخلاص، وإذا خلا بعضهم إلى بعض تلاوموا فيما بينهم وحرض بعضهم بعضا على خداع النبي والمسلمين.

وبعض الآيات كذلك ينطوي على تهديد مخوف لأولئك الذين يزيفون الكتاب ويحرفون الكلم ليقولوا هذا من عند الله، وأولئك لهم الويل والثبور.

وكذلك قد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل كيلا يعبدوا إلا الله ولكي يحسنوا للوالدين وذوي القربي واليتامى والمساكين وأن يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكاة، وكذلك أخذ ميثاقهم ألا يسفك بعضهم دماء بعض وألا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم بالإثم والعدوان، لكنهم بالرغم من هذه المواثيق المغلظة فقد ضلوا وتولوا معرضين، ثم قتلوا النفس بغير حق وأخرجوا فريقا من الناس من ديارهم ظلما، ومبعث ذلك كله الإيمان المضطرب أو العقيدة المجزأة المتلجلجة التي تسول لبني إسرائيل أن يجعلوا كتاب ربهم (عضين (أي يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه الآخر.

وفي السورة تنديد عظيم بفعلة بشعة مروعة تتمثل في قتل النبيين وفي عبادة العجل الذي أشربوا حبه في قلوبهم.

وتتضمن السورة كذلك حكما معنويا قاطعا يكشف عن طبيعة بني إسرائيل في كونهم (أحرص الناس على حياة (كيفما كانت هذه الحياة ما دامت تموج بالغواية والفتن والشهوات.

وفي السورة بيان أصولي لمسألة النسخ والفرق بينه وبين الإنسان، وذلك بشيء من الإيجاز الذي تسمح به طبيعة الكتابة في هذا التفسير.

وفيها كذلك مقالة اليهود والنصارى إذ زعموا أنهم وحدهم دون غيرهم سيدخلون الجنة، ومرة أخرى تتباين النوايا والقلوب لكل من اليهود والنصارى ليرمي بعضهم بعضا بالإفلاس والسوء، إذ يقول كل فريق عن الآخر إنه ليس على شيء من العلم أو الحق.

والحقيقة الحاسمة التي ينبغي أن تقال في مثل هذا الصدد والتي نطق بها القرآن في هذه السورة هي أن كلا الفريقين اليهود والنصارى لن يرضى في يوم من الأيام عن الإسلام ونبيه أو عن المسلمين حيثما كانوا إلا أن يحيد المسلمون عن دينهم ليتبعوا ملة إحدى الأمتين: اليهود والنصارى.

ثم تحكي السورة قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذ عهد الله إليه وولده إسماعيل بناء الكعبة وتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، وقد خفا عليهما السلام في همة لتنفيذ أمر الله بالبناء والتطهير وهما يدعوان الله سبحانه في توسل من أجل أن يتقبل منهما وأنم يجعل من نسلهما أمة مسلمة قانتة لله، وأن يبعث في عقبهما رسولا يعلم الناس الكتاب والحكمة.

وفي السورة دحض لمقالة اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم وعقبه من النبيين كانوا منهم، والآيات تبين في غير لبس أن هؤلاء النبيين جميعا كانوا على ملة التوحيد وكلمة الإخلاص لله، وأنهم ليسوا من اليهود أو النصارى لما كان عليه هؤلاء من الشرك والزيغ عن صراط الله المستقيم.

وفي السورة إيذان بتحويل القبلة شطر المسجد الحرام ليتوجه المؤمنون بتواصيهم وأفئدتهم شطره وذلك في خشوع وامتثال لأمر الله سبحانه.

وفيها حض على الصبر والاحتمال عند وقوع المصائب كيفما كانت وعلى المؤمنين الصابرين صلوات من الله ورحمة لأن الله مع الصابرين.

وفيها إظهار لشعيرتين من شعائر الحج وهما الصفا والمروة، وما يعقب ذلك من بيان شرعي لكيفية الاعتمار والتطواف، وغير ذلك من أفعال الحج أو العمرة.

وفيها تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله إلا أن يكون الآكل مضطرا فليس هو بالباغي ولا العادي.

وفيها توضيح لحقيقة البر وهو أنه لا يتحقق في مظاهر شكلية يحددها أن تولى الوجوه نحو الشرق والغرب، ولكن البر في حقيقته يتمثل في حسن المقصود وفي تمام العمل، أما حسن المقصود: فهو إنما يتم عن طريق الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين، وتلك هي أركان الإيمان في عقيدة الإسلام، وأما تمام العمل فهو يتحقق في أسباب كثيرة منها: إيتاء المال للذين يحيق بهم ضيق أو خلة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، ومن تمام العمل كذلك، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

وسوف يرد بيان مفصل لمثل هذه الكلمات أو المسائل عند التفصيل إن شاء الله.

وفيها الحكم بالقصاص في القتلى: الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، وما يقتضيه ذلك من تفصيلات فقهية يمكن أن نقررها في موضعها بشيء من التفصيل.

وفيها حكم الوصية بالمال للوالدين والأقربين، وهو حكم منسوخ على ما سوف نعلم في موضعه.

وكذلك قد وردت في السورة فريضة الصوم الذي كان قد فرض على من سبق هذه الأمة من الأمم الخالية، وثمة أحكام شرعية تتعلق بالصوم من حيث الرخصة بالإفطار وغير ذلك من أحكام تفصيلية، فضلا عن التنويه الظاهر بشهر رمضان العظيم الذي أنزل الله فيه القرآن ليكون (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان).

وفي السورة تحريض للمؤمنين على قتال الكافرين المعتدين، وذلك من أجل أن يقتلوهم حيث ثقفوهم وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم، لأن الفتنة بما يبعد المؤمنين عن دينهم لهي أشد من القتل نفسه، وقاعدة الإسلام في مفهوم القتال ألا تكون هناك فتنة في الأرض تحول بين الناس ودين الله، وحتى يكون الدين لله وهو أن يهيمن الإسلام على ما سواه من شرائع وملل.

وفي السورة كذلك بعض أحكام الحج الذي يتأذى في أشهر معلومات لا مصاغ لوقوع شيء من رفث أو فسوق فيهن، ومن أحكامه كذلك الإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام إلى بقية أعمال الحج من أركان وشروط وسنن.

وتعرض السورة لفريق من المنافقين الذين يعجب السامع لأقوالهم وهي تتعزز بفيض من الإيمان والشهادة لله بأنهم صادقون، لكنهم في الحقيقة طغمة من البشر المخادع الكاذب، البشر المنافق الذي ينطلق في الأرض ليعبث فيها فسادا وتخريبا.

وتعرض السورة كذلك للكافرين الذين زينت لهم الدنيا فانفلتوا عن صراط الله إلى حيث الضلال والشهوات والفسق، وفوق ذلك فقد مضى هؤلاء في خط الشيطان وهم يسخرون من المؤمنين.

وفي السورة تبيين لحقيقة التصور الديني الذي أساسه الوحي، وحقيقة هذا التصور أن المجتمعات أساسا كانت على ملة ربانية واحدة تقوم على الفطرة والتوحيد، وقد نيط بالنبيين المرسلين وظيفة التبليغ ليكونوا مبشرين ومنذرين فانقسم الناس إلى طرائق شتى تتردد بين الكفر والإيمان والنفاق على تفاوت.

وتذكر السورة أن دخول الجنة إنما يكون مسبوقا بامتحان عسير في الدنيا مثلما أصاب المؤمنين السابقين الذين مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى لجوا إلى الله ضارعين إليه بالإخلاص والنصر.

وأوجبت السورة فريضة القتال وهو كره للناس، لكنه لسوف يؤول بالتالي إلى السلامة والخير بما يحقق للناس الأمن والرخاء، حتى إن القتال في الشهر الحرام مشروع إذا ما قوتل فيه المسلمون.

والقتال في الشهر الحرام كبير لكن الأشد منه فظاعة أن يكون ثمة صد عن سبيل الله وكفر بالله والمسجد الحرام ثم إخراج أهله منه ظلما وعدوانا.

وتعرض السورة لجملة أحكام تتعلق بانحلال الزوجية منها: الإيلاء وقد أبطل القرآن ما كان شائعا بين العرب من قطيعة الرجل لزوجته إذا ما آلا عليها ألا يمسها، بات هذا العرف الجاهلي منسوخا بحكم القرآن الذي حدد مدة الإيلاء بأربعة شهور فإما الرجوع بعدها إلى الحياة الزوجية وإما الطلاق.

ومنها كذلك الطلاق، فإن وقع وجب على المطلقة أن تعتد ثلاثة قروء ليستطيع الرجل مراجعتها قبل أن تنتهي العدة على أن يكون ذلك كله بالمعروف.

وقد أرست الآية في هذا الصدد حكما ينبغي أن يسري في حياة المجتمعات وهو: أن للرجال على النساء درجة وهي القوامة المسؤولية على ما سنبينه في حينه إن شاء الله.

ثم أوردت السورة مهمة الوالدات في إرضاع الطفل كيلا يتضرر أو يشقى، وهن يرضعن أولادهن حولين كاملين إن أردن الإرضاع على التمام، والوالدون في ذلك ملتزمون بأداء النفقة للغذاء والكساء والإيواء وغيره من وجوه الإنفاق على أن يكون ذلك كله في حدود القدرة والإمكان.

وأوردت السورة أيضا الحكم حالة وفاة الأزواج، فإن على الزوجات إذ ذاك أن تمتد عدتهن إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، وبعد انقضاء هذه المدة فهن حرائر في ابتغاء الزواج إن أردن.

وفي السورة بيان عن نكول بني إسرائيل عن القتال وقد تعدي عليهم، مع أنهم قطعوا على أنفسهم عهدا موثقا بالقتال، لكنهم لما كتب الله عليهم القتال نكلوا وتولوا عن فريضة الجهاد ولم يثبت للقاء العدو إلا القليل منهم.

وتعرض السورة لأعظم آية في القرآن وهي آية الكرسي، ولا جرم أن تكون هذه الآية عظيمة لما تتضمنه من معان وثيقة الصلة بالعقيدة نفسها، وذلك شاهد من شواهد كثيرة تدل على إعجاز هذا الكتاب وأنه كلام رباني باهر.

آية الكرسي قصيرة من حيث المبنى والمظهر، وهي كذلك قليلة من حيث الكلمات لكنها غزيرة العطاء والمضمون، ووافية المعنى والمقصود بما يكشف عن ملامح جلية لعقيدة الإسلام بصورة عامة، وعقيدة التوحيد على وجه الخصوص.

وفي السورة كذلك أنه (لا إكراه في الدين) فقد استبان الحق وانجلت ظلمة الباطل والشرك فبزغ فجر الإسلام الذي ترتضيه العقول وتتملاه الطبائع السليمة.

وترد في السورة قصة النبي العظيم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهو يحاور الملك العاتي المتجبر الذي رفض الإقرار لله بالألوهية فاصطنعها لنفسه، وقد حاجه إبراهيم في حوار صارم أسفر عن إفلاس هذا الملك الفاسد الضال الذي أصيب بالبهت بعد أن تخاذل وتقهقر ولم يستطع الرد أمام الحجة الصادعة القوية، ثم ذلك الذي مر في طريقه على قرية قيل أنها بيت المقدس، فألقاها هامدة خاوية على عروشها فتساءل في نفسه حائرا (أنى يحي هذه الله بعد موتها (فقضى الله عليه بالموت مائة عام ثم بعثه، ليكون بذلك آية للناس، وليعلم أن الله قادر على بعث الموتى وأنه على كل شيء قدير.

ثم تعرض السورة للصدقات من حيث الصورة في الإعطاء على ضربين فإمام الإعطاء للفقراء علانية وإمام الإعطاء في كتمان، وعلى أية حال فإن الإخفاء أفضل كي يكون في الإعلان أذية للفقراء أو إحراج.

والله جلت قدرته يوصي بالفقراء المحصرين الذين لا يستطيعون السفر والانتشار في الأرض طلبا للرزق، وهذا الصنف من الناس يظل على الاستحياء والمروءة فلا يرتضي الهبوط إلى مذلة السؤال في إلحاف بما يخيل للناظر أن هؤلاء الناس أغنياء لما هم عليه من نزاهة وتعفف.

وفي السورة تنديد مروع بأكلة الربا، أولئك الجشعون الذين يعيشون على السحت والذي لا يقومون من قبورهم إلا كالذي يقوم وقد أصابه مس، والربا من كبائر الذنوب التي أغلظ عليها الإسلام في نكير مزلزل، حتى إن الولاة الذين يلون أمور المسلمين مخولون بتجريد فريق من عساكر المسلمين لمحاربة هؤلاء الأكلة المجرمين، وفي ذلك دلالة جلية تتكشف من خلالها فداحة الربا الذي لا يحتمل في تصور الإسلام أدنى لين أو تساهل.

وتحتوي سورة البقرة على أطول آية في كتاب الله وهي آية الدين، فإذا تداين المسلمون فيما بينهم فقد بات مندوبا أن يكتبا هذا الدين، وذلك من أجل التوثيق ولكي تصان الحقوق صونا فلا يأتي عليها النسيان أو النكران، على أن يشهد كتاب الدين شهيدان من الرجال، فإن لم يكونا رجلين فلا بأس أن يكون ثمة رجل شهيد وامرأتان أخريان تشهدان، وعلى الشاهد أيا كان أي يؤدي الشهادة على وجهها الصحيح وألا يكتم ما أشهد نفسه عليه، فإن كتم فإنه آثم قلبه وجزاؤه في حساب الله مرصود.

ويتحدث آخر السورة عن ربوبية الله الكبرى التي تغطي الكون كله ليكون كل شيء مملوكا له سبحانه غير أن يكون له في ذلك شريك.

ويتحدث كذلك عن أركان الإيمان في عقيدة الإسلام وهي أركان تتحقق في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وشأن المؤمنين المخلصين حيال هذه الأركان ألا يفرقوا بين أحد من رسل الله فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا بآخرين.

وأخيرا فإن السورة تتضمن إرساء لقاعدة دينية فاصلة تقوم على الموضوعية الكاملة التي تأنف من القسوة أو الحيف وهي أن الله لا يكلف أحدا من الناس إلا في حدود الطاقة والوسع، وأن لكل نفس ما كسبت من الخير وصالح العمل، وأن عليها ما اكتسبت من الإثم والخطيئة.

بيان تفصيلي للسورة

هذه السورة مدنية كلها باستثناء قوله تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله (فإن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن كما قبل، وقد نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى.

وقيل في سورة البقرة: إنها من أوائل ما نزل من السماء على النبي في المدينة بعد الهجرة، وثمة قول آخر بأنها أول ما نزل من القرآن في المدينة وهي سورة لا جرم أن تكون عظيمة في شأنها وقدرها، عظيمة في مضامينها وما تتدفق به من روائع وأسرار سوف نقف منها على ما أمكن خلال التوضيح المفصل التالي مستعينين بالله مستمدين منه العون والقوة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١ - (الم)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (ثمة أقوال للمفسرين في الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور، إلا أننا نعرض للحديث عنها هنا بإيجاز لنعاود الحديث عنها ثانية في سورة آل عمران.

فقد ذهب بعض أهل العلم من المفسرين واللغويين إلى أن المقصود بهذه الفواتح من الحروف المقطعة هو التحدي على نحو آكد في الكشف عن إعجاز القرآن وعن عجز العرب دونه وهم الراسخون في الفصاحة والبيان، فقد تحدى الله في قرآنه العاجزين من أجل أن يأتوا بمثل هذا الكلام فنكصوا جميعا، ويريد الله أن يبين للعرب على أعقابكم والذي عز عليكم أن تأتوا بمثل بعضه، لهو كلام من جنس ما تتخاطبون به مما تتألف من حروف في مثل (آلم (وغيرها من حروف أخرى مقطعة تأتي فواتح للسور، يوضح ذلك ويرجحه قوله بعد هذه الحروف المقطعة (ذلك الكتاب (أي أن هذه الحروف هي التي تؤلف هذا الكتاب، أو أن هذا الكتاب من جنس كلام العرب، وهو كلام أساسه الحرف المقطع المنفصل كالألف أو اللام أو الميم، وذلك آكد في التحدي وأشد في إظهار الدلالة على أن هذا القرآن

الكريم معجز وأنه لا تقوى مدارك الإنسان على أن تصطنع مثله.

وقيل: إن المشركين لما تواصوا فيما بينهم أن يعرضوا عن سماع القرآن، وقالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه (أراد الله أن يفاجئهم بما يثير فيهم الدهش ويحملهم على الانتباه والإصغاء ليسمعوا القرآن، فأنزل الله هذه الحروف الفواتح لبعض السور.

وقيل إن هذه الحروف الفواتح لهي من أسرار الكتاب الحكيم ولا يقف على المراد منها أحد من الناس، فهي علم مستور استأثر الله به وحده، وهو قول الصحابة وغيرهم وهم في ذلك يحدوهم التورع والحيطة خشية التكلف أو الزلل.

فكانوا يؤثرون أن لا يخوضوا في تأويل هذه الحروف، بل كانوا ينسبون حقيقة المراد بذلك الى الله فهو أعلم بالسر والمقصود.

٢ - (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

قوله: (ذلك الكتاب ((ذلك (اسم إشارة في موضع رفع مبتدأ، وخبره (الكتاب).

وقيل: (الكتاب (بدل من ذلك، وقيل: صفته، وخبر الإشارة (لا ريب فيه (يعني لا شك فيه فهو لوضوحه وسطوع برهانه لا يحتمل أيما ارتياب وأن ما يتجلى في القرآن من ظواهر في الإعجاز ينطق في يقين مكشوف أن هذا الكتاب منزل من عند الله فهو يعلو على الشبهات والظنون.

قوله: (هدى للمتقين (الهدى مصدر ومعناه الدلالة، ويراد به الدلالة التي توصل إلى البغية، وهو في مقابل الضلالة وهي الزلل والضياع، والمتقون هم الذين ثبتت لهم التقوى، والمتقي في اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية فرط الصيانة.

وكذا التوقي، ومنه فرس واق أي يقي راكبه مما يؤذيه، والتقوى في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة، وهي في الحقيقة والواقع إحساس ذاتي رهيف ينبثق عن عقيدة التوحيد الخالص ليرسخ في القلب الوجدان كله، لا جرم أن ذلك إحساس وجداني غامر يفيض على النفس فينمي فيها شعور الخوف من الله بما يظل للمؤمن رقيبا يحول بينه وبين الآثام والمعاصي، أو الدنايا والخسائس وصغائر الذنوب.

والقرآن بما حواه من روائع ومناهج في العقيدة والقيم، وفي الفكر والسلوك والنظم، فإنه هداية للبشرية كافة، وقد خص الله المتقين تشريفا لهم وإجلالا.

إن هذا الكتاب الحكيم يتضمن مقاليد الخير والسعادة والصلاح جميعا، وفيه من أسباب النجاة و والسلامة والفوز ما تنجو به البشرية من كل ألوان التعثر والخطيئة والزلل وما يجعلها على أقوم محجة لتفوز وتنجو في هذه الدنيا ويوم يقوم الإشهاد.

٣ - (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

قوله تعالى: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (الذين اسم موصول في محل جر نعت (للمتقين (التي قبلها، وقيل: في محل نصب على المفعولية لفعل محذوف تقديره أمدح.

وقوله: (يؤمنون (من الإيمان ومعناه في اللغة: التصديق، والإيمان في الشرع: كلمة جامعة للإقرار بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتصديق هذا الإقرار بالفعل، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، قال ابن كثير في هذا الصدد: الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا.

وهو قول أكثر العلماء، وعلى هذا فإن الإيمان إقرار بأركان العقيدة المعروفة واقتران ذلك بالعمل الصحيح المشروع، فلا اعتبار للإقرار أو التصديق المجرد والذي لا يشفعه عمل.

ومن ركائز الإيمان للمؤمنين تصديقهم عن يقين بالغيب المستور مما هو خلف الطبيعة ووراء الشهادة والحس في ظواهر لا يقف عليها الإنسان في تركيبته البشرية، وهي تركيبة يطلبها واقع الحياة في دنيا محدودة، لا تقوى على إدراك ما وراء الطبيعة المشهودة من عوالم الغيبات كالملائكة والكتب المنزلة والرسل واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والنشور والحساب، وكذلك الله تعالت أسماؤه إنما يؤمن به المؤمنون بالغيب لأن الله (ليس كمثله شيء (وهو سبحانه (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار (فإنه سبحانه لا يدركه المرء من باب الحس المشهود كالبصر أو السمع أو غير ذلك من أسباب حسية ثقيلة.

وثمة معنى آخر مثير يتفجر من خلال النص القرآني الكريم وهو يصف المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، فإن في ذلك ما يشير بوضوح مكشوف إلى تكريم المتقين، لأنهم يؤمنون بالغيب والإيمان بالغيب ضرب من الرقي المكرم الذي يرتقي من خلاله المؤمن ليكون في صف الأبرار والأطهار من البشر، ولا غرو فإن الإيمان بالغيب يرتفع بالمؤمن ليكون في عداد الغلاة الذين يتساموت على التصور المادي الممحص، التصور المادي المتبلد الثقيل الذي يودي بالإنسان إلى حمأة الهبوط المنحدر والارتكاس المتدهور.

وقوله: (ويقيمون الصلاة (إقامة الصلاة ترد بإطلاق لتشمل ما فيها من ركوع وسجود وقراءة وخشوع وقيام وقعود، وما يشترط لها من طهارة وستر للعورة واستقبال للقبلة وغير ذلك من وجوه إتمام الصلاة، وللمحافظة عليها وأدائها على أتم نحو وأوفى صورة.

والصلاة في اللغة تأتي على عدة معان منها: الدعاء والرحمة والعبادة والنافلة والتسبيح ثم القراءة، وقيل غير ذلك مما يتناول مفهوم الصلاة في لغة العرب، ولا جرم أن تكون مثل هذه المعاني جميعها وثيقة الصلة بالمفهوم الشرعي لكلمة الصلاة والصلاة في مفهومها الشرعي تتضمن جملة حركات وأقوال وقراءات يؤديها المصلي على سبيل التعبد والطاعة لله، أما تفصيل الصلاة في بيان موضح مستفيض فليس هنا موضع ذلك بل موضعه مظانه في كتب الفقه بما يعرض لفريضة الصلاة بالشرح المبسط التفصيلي.

وقوله: (ومما رزقناهم ينفقون (الرزق: معناه العطاء، وهو يشمل كل وجوه الخير من المال والطعام والكساء وغير ذلك، أما قوله (ينفقون (فهو من الفعل نفق ومعناه: نفد وفني، ويأتي بمعنى خرج، فالإنفاق الواقع على المال يعني إخراجه من اليد، وبذلك فإن النفقة أو الإنفاق هو إخراج المال من اليد على وجوهه المختلفة أو إفناؤه في سبيل الخير.

واختلف العلماء في المقصود بالنفقة هنا، فقد قيل: يقصد بها الزكاة المفروضة، وقيل: بل هي صدقة التطوع غير المفروضة، وفي قول آخر بأن المقصود ما أنفقه المرء على أهله وعياله أو من وجبت نفقتهم عليه، والقول الذي نرجحه ونطمئن إليه، أن النفقة عامة تتناول كل وجوه الإنفاق من فريضة وتطوع، وما كان لأهل أو عيال أو غيرهم - ١

٤ - (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

وقوله: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون).

ثمة خلاف بين أئمة التفسير في المقصود بالموصوف في هذه الآية، فقد قيل إنهم أهل الكتاب الذين آمنوا بهذا النبي وما أنزل عليه من كتاب وما أنزل على النبيين من قبله، أما المقصود بالموصوف في الآية السابقة لهذه فهم مؤمنو العرب.

أما القول الثاني: فهو أن المقصود بالموصوفين في الآيتين هم المؤمنون عموما سواء كانوا من العرب أو من أهل الكتاب، والذي يترجم لدي هو القول بأن الآيتين كلتيهما نزلتا في المؤمنين عموما.

وفي هذه الآية يثني الله على عباده المؤمنين الذين يصدقون القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وما نزل على النبيين قبله من كتب، وهم كذلك مؤمنون دون شك أو ارتياب أن الساعة قائمة، وأن الله سيبعث من في القبور، وهو تأويل قوله (وبالآخرة هم يوقنون (أي عالمون، واليقين معناه العلم دون الشك.

٥ - (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

وقوله: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (اسم الإشارة (أولئك (يعود على من سبقت صفاتهم في الآية من إيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإنفاق من عطاء الله، وإيمان بالكتب السماوية كلها دون تفريق بين أحد منها، وكذلك من تصديق بيوم القيامة وما يتخللها من أهوال وقوارع، فإن الموصوفين بذلك جميعا على هداية من الله وبصيرة ونور، ومن حيث الإعراب فإن (أولئك (اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وخبره شبه الجملة بعده وهو قوله: (على هدى من ربهم (وقوله: (وأولئك هم المفلحون (أولئك، اسم إشارة في محل رفع مبتدأ هم، ضمير الفصل، خبر أولئك، والمفلحون من الإفلاح وهو الفوز والنجاة، وقيل: معناه الشق والقطع، مثلما يقال: أفلح الأرض أي شقها بالحرث، لتكون صالحة للإنبات والزرع، وبناء على ذلك فإن (المفلحون (هم الذين يشقون طريقهم في الحياة فيحتملون المتاعب والمصاعب، كما تحقق لهم الأهداف والمطالب، أو هم الذين يصبرون على طاعة الله بالتصديق واليقين وأداء الواجبات جميعا ليفوزوا بعطاء الله في الدنيا والآخرة.

٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: (إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (الكفر معناه الجحد، وهو أن يجحد الكافر نعمة الله وفضله فيقابله بالعصيان والإنكار، ويأتي بمعنى الستر والتغطية، فالكافرون هم الذين يسترون الحق ويغطونه بغشاء الباطل لسوء في طبائعهم ومرض في قلوبهم، والكفار هم الزراع الذين يغطون الحب في الأرض بعد شقها ليستروه بالتراب، وفي ذلك يقول سبحانه: (كمثل غيث أعجب الكفار نباته (أي أن النبات قد أعجب الزراع الذين طمروا حباته في الأرض.

قوله: (سواء عليهم ءأنذرتهم (سواء مبتدأ (ءأنذرتهم (وما بعده خبر، والتقدير: سواء عليهم الإنذار وعدمه، والهمزة، الأصل فيها الاستفهام، والمراد بها هنا التسوية، وأنذرتهم فعل وفاعل ومفعول، وأم، عاطفة - ٢

وفي هذه الآية إنباء عن فريق من الكافرين قد سبق في علم الله أنه سيموت على الكفر، وأن هذا الفريق (سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (سواء معناها معتدل، أي يتساوى ويعتدل عند هؤلاء الجاحدين أن يستمعوا للنذير أو لا يستمعوا فإنهم فئة من الخلق ميؤوس منها فلن تؤمن أبدا، وذلك تمشيا مع علم الله في الأزل أن هؤلاء سيمضون في طريق الكفر مختارين، وبناء على ذلك فإن قوله: (إن الذين كفروا (يفيد بظاهره العموم، لكنه يراد به الخصوص، وقيل: إن الآية نزلت في كبراء اليهود الضالين أو في آخرين غيرهم ممن ماتوا على الكفر، إلا أن القول الأول هو الذي نطمئن إليه، والله سبحانه أعلم.

٧ - (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وقوله: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة (الختم هو الطبع، وقيل: التغطية للحيلولة دون ولوج الشيء في ما هو مغطى، والمقصود من ذلك: أن قلوب هؤلاء الكافرين وأسماعهم قد ختم الله عليها فلا ينفذ إليها إيمان أو يقين، وبذلك فإن هؤلاء سيؤول الأمر بهم إلى النار وبئس القرار.

وثمة مسألة تختلف فيها أقوال العلماء والمفسرين، وهي مسألة قد تصل إلى حد الإشكال الذي يثير جملة تأويلات وآراء، وهي: لمن يعود التأثير على القلوب والأسماع ليقع عليها الختم أو الطبع أو الإغلاق؟ هل يعود ذلك لله عز وجل ليكون سبحانه هو المؤثر في عملية الطبع على القلب والسمع للإنسان فلا يؤمن بحق ولا يستمع إلى كلمة الحق، أم أن ذلك يعود إلى الإنسان نفسه، فهو المختار المريد الذي يسلك سبيلا في الخير أو الشر وهو في ذلك حر؟.

أمام هذين القولين المختلفين أجدني أكثر اطمئنانا وقناعة أن أتصور أن معنى الختم أو الطبع على قلب الإنسان وسمعه قد ورد على سبيل الإخبار بعدم الإيمان وليس على سبيل القهر والإلزام أو على سبيل الخلق المحتوم.

وبعبارة أخرى، فإن الله جلت قدرته عالم علما أزليا بما هو كائن وما سيكون في الكون أو الطبيعة أو الإنسان، فإن ذلك كله مشمول بعلم الله، وهو علم أزلي غامر يحيط بالوجود جميعا من غير أن يند عنه شيء، فهو سبحانه عالم بأفعال الإنسان سواء ما كان منها خيرا أو ما كان شرا، فإنها تقع بإرادة الإنسان وهو في ذلك مخول قدرا من حرية الاختيار.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الختم الواقع على قلوب الكافرين وأسماعهم والواردة في هذه الآية قد جاء على سبيل الإخبار من الله أن هذا الصنف من البشر لن يختار طريق الهداية والإيمان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أما القلوب فمفردها القلب، وقد سمي بذلك لأنه ينقلب من حال إلى أخرى، فهو بذلك قلب أي سريع التقلب من حيث استيعابه لمزيد من الإيمان واليقين أو سرعة افتقاده لشحنة من زاد الإيمان والتقوى، وشأن القلب وفي مثل هذه المسألة أنك تراه اهتدى واستقام أو استكثر زادا قد تقلب فانتقل عن صراط الحق والإيمان فيما يؤول إلى تدهور خطير سريع يؤثر في السلوك والأعمال لتكون فاسدة، ويؤيد هذا المعنى حديث' الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: «مثل القلب مثل ريشة تقلبها الرياح بفلاة» ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ليثبت فؤاده على الإيمان قائلا: " اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك ".

ويقول الشاعر:
ما سمي القلب إلا من تقلبه - - - فاحذر على القلب من قلب وتحويل
أما عن القلب من حيث كيفيته وحقيقته والمقصود به، إن كان هو الموجود في صدر الإنسان على هيئة حبة الكمثرى فيكون بذلك جزءا من البدن ماديا، أو غير ذلك مما هو اعتباري الكينونة وعلى نحو غير مادي ولا محس - - .
ولعل الفهم السليم لهذه المسألة أن نتصور المقصود من القلب على شاكلته المرئية في الصدر وأن هذه الشاكلة لهي ذات علاقة أساسية وجوهرية بطبيعة التكوين النفسي والروحي للإنسان، إلا أن طبيعة هذه العلاقة أو كيفيتها غير معروفة للإنسان تماما، وكل الذي يمكن الوقوف عليه أن قلب الإنسان لهو جماع الخير أو الشر فيه (الإنسان) وأنه جهاز تكويني بالغ التأثير والفعالية في سلوك الإنسان وتصرفاته القولية والفعلية جميعا، وأنه لا يمكن إسقاط القيمة للصورة المادية للقلب وهو على هيئته من قطعة اللحم، وأن طبيعة العلاقة بين هذه القطعة المحسة والحوافز المعنوية والروحية غير مدركة إدراكا مستبينا.
أمام عن وجود القلب في الإنسان وفي الصدر على وجه الخصوص فقد قال الله في القرآن عن ذلك: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).
وقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: " إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ".
وقوله: (وعلى سمعهم (أي أن الختم طبع على أسماع هؤلاء الكافرين الذين لا يعون قولا كريما ولا يملكون أن يسمعوا نصحا.
أما إفراده للسمع مع أنه جمع القلوب فسبب ذلك أن السمع في الآية قد ورد على صيغة المصدر من الفعل " سمع " فكأنه يقول: إن الختم قد وقع على سماع هؤلاء الكافرين، وليس المقصود هنا أداة الاستماع وهي الأذن، وقيل غير ذلك.
قوله: (وعلى أبصارهم غشاوة (الواو للاستئناف، فالجملة هنا مستأنفة بحيث لا ترتبط من حيث الختم مع ما قبلها من القلوب والأسماع، وبذلك فإن الوقوف على قوله (سمعهم (مطلوب، ومن المستبعد المرجوح أن تكون الواو هنا عاطفة على ما قبلها فيكون الختم واقعا على الأبصار مع الأسماع والقلوب، ومعلوم أن الختم إنما يقع على القلوب والأسماع ولا يصلح أن يقع على الأبصار التي لا يناسبها غير الغشاوة وهو الغطاء، يؤيد ذلك قوله سبحانه: (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة (وبذلك فإن البصر تقع عليه الغشاوة ليستقيم المعنى، وغير ذلك لا يتفق والمعنى أو السياق.
ومما يلاحظ لدى تدبر الآية أن المذكورات الثلاثة، وهي: القلوب والسمع والأبصار قد وردت مرتبة بحسب الحظ من الأهمية، فأشد هذه المذكورات أهمية هو القلب ثم السمع وأخيرا يأتي البصر، ولا غرابة أن يرد ذكر القلوب في الطليعة من الاهتمام والأهمية، لأن القلب لهو مناط التأثير والفعالية، ومبعث التنشيط والعزم، وموئل التوجه والسلوك في الإنسان سواء كان ذلك صوب الخير أو الشر.
أمام السمع فلا جرم أن يكون أشد أهمية وتأثيرا في الإنسان من البصر، وذلك من حيث العواقب والسلبيات التي تترتب على افتقاد كل من الطرفين، والحقيقة التي لا شك فيها أن افتقاد الإنسان للسمع سوف يكون سببا لحرمان كبير يحيق بشخصه وذلك من الناحية العقلية والنفسية والروحية، وغير ذلك من النواحي التي تنشئ الشخصية المنسجمة المتسقة للإنسان.
فإن الملاحظ أن السمع في الإنسان لهو سبب لخصائل عظيمة شتى منها سماع العلم بضروبه المتعددة، والاستماع بتدبير للنصيحة النافعة التي يكتسب المرء عن طريقهما ظواهر في الاعتدال والاستقامة أو في الارتداع عن كل مظاهر الإثم والضرر.
ويأتي في طليعة المعطيات الخيرة لخاصية السمع للإنسان أنه يستطيع بوساطتها الاستماع الى القرآن الكريم، وذلك أمر هائل وبالغ الجلال، لما ينطوي عليه من كبير المعاني والمؤثرات التي تلج الكينونة البشرية وهي تتعامل مع كلمات الله في قرآنه الرائع المعجز.
أمام البصر فإن انعدامه لا يفقد شيئا من هاتيك المعطيات التي لا تحصل إلا بالجهاز السمعي، فالأعمى الذي يكون عاقلا يستطيع أن يستفيد بنفس القدر الذي يفيده المبصر، فهو الأعمى يستمع باهتمام ورهافة لكل ضروب الخير القولية والفعلية التي تطرح أمامه وهو يستمع إليها استماعا.
وقوله: (ولهم عذاب عظيم (العذاب من الفعل عذب أي منع وحبس، واستعذب بمعنى امتنع عن فعل الشيء أو انصرف عنه،

ونقول: أعذبه عن الأمر أي منعه منه أو حبسه عنه، وبذلك فالعذاب معناه في اللغة: ما شق على الإنسان ومنعه من تحصيل ما يريد، وبناء على هذا فإن العذاب الوارد في الآية معناه أن الإنسان العاصي يحبس عنه الخير ليحل عليه بدلا منه ما يضاده من ألوان الشر والضر والبلاء، وذلك ما أعده الله لأولئك الكفرة المتمردين الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (تفرغ كلمات الله الآن للحديث عن المنافقين بعد أن فرغت من الحديث عن المؤمنين ثم الكافرين في آيات قلائل، لكن دور الكلام عن المنافقين يستنفد قدرا أكبر من البيان والكشف والتوضيح بما يقتضي قدرا أكبر من الكلمات القرآنية المؤثرة الرائعة، قال مجاهد رحمه الله في هذا الصدد: نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين واثنتان في نعت الكافرين وثلاث عشرة في المنافقين وبذلك فإن هذه الآيات وما بعدها تعرض لصنف ثالث من البشر المضطرب الذي فسدت فيه القلوب والفطر فباءت تستمرئ الغش والباطل، وتفارق كل مظاهر الخداع والتدسس، هذا الصنف من البشر الآسن ينفر من الصدق وسلامة المسعى في صراحة مكشوفة، ويأبى إلا التعامل المريب وهو يتلصص في الظلام أو ساعة غفلة الناس.

هؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون غير ما يبطنون والذين تندد بهم هذه الآيات تنديدا يكشف عن مكنون قلوبهم المريضة الجائفة، فيقول سبحانه: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (الناس في اللغة أصلها أناس مخفف وقد ورد في معناها جملة أقوال أقتضب منها ثلاثة، أولها أنها من النوس ومعناه التذبذب والحركة، والناس شأنهم أن يدأبوا على التحرك والتذبذب في فعالية لا تنقطع.

ثانيهما: أن الناس من النسيان، وأصل ذلك الفعل نسي، ومعلوم أن الإنسان مبني على النسيان حتى إن أحدا منن البشر لا يتجرد عن هذه الحقيقة الأصيلة، وهي حقيقة لصيقة بطبع الإنسان فلا تبرحه، وأول الخلق كافة آدم عليه السلام كان قد نسي وقال الله سبحانه فيه: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما).

ثالثها: أن الإنسان من الأنس أو الإيناس فإن الإنسان كائن مستأنس بمن حوله من أفراد أو جماعات بشرية وفي ذلك يقول الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه - - - ولا القلب إلا أنه ينقلب

هذه الآية جاءت لتكشف عن طبيعة المنافقين الذين يكتمون في دخائلهم الكفر ثم يتظاهرون في محاكاة مصطنعة أنهم مؤمنون، وذلك حكم قرآني حاسم وهو أن هذا الصنف من الناس كفرة وأنهم جاحدون كاذبون، فهم يكذبون على الله ويكذبون على المؤمنين، إذ يتظاهرون في تقول متكلف مكذوب أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر، والله سبحانه يشهد أنهم كذابون وأنهم لم يلجوا حومة الإيمان وما بارحوا دائرة الكفر، يتضح ذلك من قوله جل وعلا: (وما هم بمؤمنين).

٩ - (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قوله: (يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ((يخادعون الله (جملة فعلية مستأنفة، ويحتمل أن يكون بدلا من الجملة الواقعة صلة لمن، وهي (بقول (٣ الخداع معناه الختل والرغبة في إلحاق الأذى والمكروه بالآخرين عن عمد، ومنه الخديعة والمخادعة أي المخاتلة، وذلك بيان لحال المنافقين الذين (يخادعون الله والذين ءامنوا (أما مخادعتهم لله: فهي بناء على تصورهم الفاسد وظنهم الموهوم، ذلك أنهم يتصورون في حماقة وعمه أنهم يستطيعون تمرير خداعهم وتحيلهم على الله سبحانه، وكذلك فإن المنافقين يعملون في خبث ومخادعة على التظاهر أمام المؤمنين بالمظهر الحسن فيصطنعون فعل الخيرات اصطناعا دون أن يحفزهم إلى ذلك نية راغبة أو قصد عازم، وذلك هو الرياء الذي يبطل العمل ويمحق الأجر والثواب.

وقوله: (وما يخادعون إلا أنفسهم ذلك يعني أن عاقبة الخداع لا تحيق إلا بالمخادعين أنفسهم (، وتلك حقيقة محتومة لا يدركها هؤلاء السفهاء المفسدون الذين لا تستوعب قلوبهم وأذهانهم جلال الألوهية والذين يتراءى لهم أنهم يخدعون الله مع أنه سبحانه لا يتطاول

إليه سلطان بشر ولا خداع مخاتل أو دجال.
١٠ - (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

قوله: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (تكشف هذه الآية عن طبيعة ملتوية للمنافقين الذين يخالط قلوبهم المرض، وقد ورد في تفسير المرض عدة أقوال منها: أنه يعني الشك، وقيل: النفاق والرياء، وقيل غير ذلك، وفي تقديرنا أن المقصود بالمرض هنا لا يمكن تحديده بأحد هذه الضروب المعنية وهي الشك أو النفاق أو الرياء أو الجحد والتكذيب كما قيل.

مع أن هذه الظواهر جميعها لا تخرج عن دائرة المرض في مفهومه الشامل، أو أنها أعراض فاسدة قبيحة يتمخض عنها المرض نفسه، لكننا نتصور أن المرض الذي يخالط القلوب فيسميها الإفساد والتخريب لتنشأ عن ذلك ظواهر الشك أو النفاق أو غيره، إنما هو الذي يأتي على الفطرة البشرية لتكون مشلولة فاسدة لا تزجي غير الشر والضلال، أو هو الذي يأتي على النفس فتكون ملتوية غير سوية وقد أفسدها التعقيد والانحراف.

ويمكن إيجاز ذلك في عبارة سريعة لتفسير المرض فنقول: إنه الانحراف الذي يغشى طبيعة الإنسان، فتكون ضالة عن صراط الحق السوي، أو تكون منحرفة انحرافا مشينا يتجه بالإنسان صوب الشر والفساد، أو صوب الضلال والميل عن منهج الله.

وقوله: (فزادهم الله مرضا (قيل: إن هذه العبارة الكريمة تحتمل أحد معنيين: أحدهما: الإخبار وهو أن الله سبحانه يزيد هؤلاء المنافقين مرضا على مرضهم، ثانيهما: الدعاء على المنافقين كي يزيدهم الله مرضا فوق مرضهم، غير أننا نرجح القول الأول، ويمكن أن نتصور كيفية ذلك وهو أن هؤلاء المنافقين سادرون في الغي والضلال، فلا تمر الأيام إلا وهم يزدادون رجسا على رجس، بحيث تتعاظم مفاسدهم وخطاياهم بفعل الفطرة الفاسدة الملتوية التي تسول لهم الخطيئة والحرام.

قوله: (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (الضمير عائد على المنافقين الذي أعد الله لهم العذاب الأليم، وهو على صيغة مبالغة من الفعل " ألم " والأليم هو المؤلم الموجع، وسبب ذلك أنهم كاذبون فقد كذبوا على الله وكذبوا على المؤمنين إذ قالوا لهم: إننا مؤمنون، وفي قراءة أخرى بالتشديد يكذبون أي يجحدون نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ويكذبونه فيما جاء به من كتاب.

١١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

قوله تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم ءامنوا كما آمن الناس قالوا أنومن كما آمن السفهاء ولكن لا يعلمون وإذا لقوا الذين ءامنوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون).

المقصود بالضمير في الآية الأولى هم المنافقون، أولئك الذين يعيشون في الأرض إفسادا وتخريبا، وهم مع ذلك يرفضون جحودا ومكابرة أن يسمون مفسدين، وهم إذا دعاهم المؤمن في نصح ألا يفسدوا في الأرض أنكروا أن يكونوا مفسدين، ثم انتحلوا لأنفسهم صفة الصلاح وأنهم ليسوا غير مصلحين ولا يبتغون من مسعاهم إلا التقريب بين المؤمنين والكافرين.

والفساد كلمة جامعة لمناحي الشر وضروب المعاصي فكل خطيئة أو إثم يفارقه أهل النفاق إنما يدخل في إطار الفساد، والمنافقون يدأبون دوما على مقاومة المحظورات والخطايا وكل ألوان الفساد والحرام.

وقد ورد في سبب هذه الآية أن المنافقين كانوا يملئون الكافرين ليأتمروا معهم بالمؤمنين مع أن ذلك حرام، فقد نهوا أصلا عن موالاة الكافرين حيثما كانوا لقوله سبحانه: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء (وقوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان (وقد زعم المنافقون أنهم يبتغون من ممالأتهم للكافرين الإصلاح وأنهم يعملون من أجل التوفيق والمصالحة بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، وذلك كذب وزور، فما كان هؤلاء العصاة المتلصصون في الظلام ليبتغوا الخير والإصلاح ولكنهم شرذمة فاسدة شريرة لا تنوي غير الشر والأذى تلحقهما بالمسلمين.

١٢ - (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ)

وقد زعم المنافقون أنهم يبتغون من ممالأتهم للكافرين الإصلاح وأنهم يعملون من أجل التوفيق والمصالحة بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، وذلك كذب وزور، فما كان هؤلاء العصاة المتلصصون في الظلام ليبتغوا الخير والإصلاح ولكنهم شرذمة فاسدة شريرة لا تنوي غير الشر والأذى تلحقهما بالمسلمين.
ولذلك يأتي النص الرباني قاطعا ليحسم المسألة على هؤلاء مفسدون لا مصلحون: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (وقوله: (ألا (يفيد التنبيه والاستفتاح، يدخل على الجملة الفعلية والاسمية - ٤
وقوله: (لا يشعرون (أي أن هؤلاء المنافقين الذين يقارفون كل ضروب المعاصي والذين يمالئون الكافرين ويوالونهم ضد المؤمنين لا يعلمون أنهم فسقة وأنهم خارجون عن صراط الله، وهم بذلك يجهلون أنهم عصاة مفسدون، لأنهم يرفضون الاستماع إلى الحقيقة والنصر ويستكفون عن مجرد الإصغاء لكلمة الحق بقولها لهم المؤمنون بإخلاص.
١٣ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ)
قوله: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس (ما، مصدر، في محل جر بالكاف، أمن الناس، صلتها ٥ وذلك وصف آخر لحال المنافقين، إذ يدعوهم المؤمنون من أجل أن تؤمن قلوبهم، فإن إظهار الإيمان نطقا باللسان وحده أمر لا يغني، وإنما التعويل كله في هذه المسألة الأساسية إنما يقع على القلب حيث الإيمان واستقرار العقيدة.
ولقد كان المؤمنون يهتفون بالمنافقين المفسدين ليؤمنوا إيمانا وافيا حقيقيا مثلما أمن الناس الآخرون من أنصار ومهاجرين - وذلك تذكير ودود تتأثر به النفس السليمة الكريمة لكن مثل هؤلاء الجبناء الذين يفارقون فسقهم في خسة لا تطوع لهم أنفسهم أن يقبلوا على الله في خشوع، أو أن يستقبلوا الموعظة والذكرى في تواضع، بل إنهم مستكبرون في حماقة وجهل، لذلك كان جوابهم عاتيا آثما ينم على استكبار متهكم.
سخيف إذ قالوا: (أنومن كما آمن السفهاء (والسفهاء مفردها سفيه وهو من السفه، ومعناه الخفة والطيش وبساطة الحلوم، كذلك كان يغلظ المنافقون عندما دعوا إلى الإيمان فلجوا واستكبروا في حماقة واستخفاف وهم يتصورون أنهم إذا آمنوا فلسوف يكونون مع أولئك المؤمنين الذين آمنوا سفها بغير علم، كذلك قال المنافقون وهم فريق من الكذبة الفساق الذين يهذون بما لا يعلمون إلا تخريصا وزيفا وافتراء - وحقيقة الحال تبين في غير ما شك أن هؤلاء الفساق هم السفهاء وأنهم ذوو الطبائع الفاسدة المريضة أو الأحلام التي سيمت التبلد والشلل، وفي ذلك يقول سبحانه شاهدا على هؤلاء بالسفه وفساد الأحلام: (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون).
١٤ - (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)
قوله: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون).
ذلك وصف آخر يميز المنافقون من غيرهم من الناس سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، إذا ما رجعوا إلى (شياطينهم (وهم رؤوس الكفر من أهل الكتاب والمشركين نفثوا أمامهم حقيقة ما تنطوي عليه قلوبهم المريضة من غش والتواء ومخادعة، وهم عندئذ يبادرونهم بالقول (إنا معكم إنما نحن مستهزئون (أي نحن على ملكتم وطريقكم، ولا تكن صدورهم للمسلمين غير الخديعة والاستهزاء.
والشياطين مفردها شيطان وهو مشتق من الفعل شطن، ومعناه: بعد عن الحق والخير، ومصدره شطون ويقال: تشيطن، واسم الفاعل شاطن، أي بعيد عن الخير والحق، والشيطان من الإنس أو الجن، هو الخبيث العاتي المتمرد وذلك لبعده عن الخير.
والشيطان صنفان من حيث الأصل أو الجنس، وهو إما أن يكون من الجن فهو بذلك مستور عن أعين الناس، لكونه ذا تركيبة أخرى لا يدركها بنو البشر، والشيطان من هذا الصنف يوحي لأتباعه وأعوانه بطرقته التغريرية الموسوسة أن يجترحوا السيئات، ويرتكبوا الخطايا، أما الصنف الثاني: فهو من البشر وذلك صنف قد لا يقل في اقتداره على الإطغاء والغواية عن الأول، فذلك صنف خبيث من الناس يملك من فساد الطبع وموات الضمير والرغبة الملحاحة في صنع الشر ما يمكنه من الإفساد والإغواء، وما أكثر الشياطين من البشر الذين يوحون للناس بفعل المنكر ويزينون لهم أن يبادروا الذنوب وكل أنواع الحرام، حتى إن الشياطين من البشر كثيرا ما يلجأون إلى الإغواء والتغرير عن طريق الإرهاب فيما يحمل الإنسان المغرور أو المفتون على اقتراف المحظورات والمفاسد.

ومن الحقائق الملموسة لكل ذي عقل ما يحيق بالبشرية دائما من أساليب التآمر والخداع، وما يحاك لها في الظلام من صنوف الحيل والمخططات، وذلك من أجل أن تساق هذه البشرية نحو الهاوية بكل ما في هذه العاقبة من ضروب الكوارث والمهالك، النفسية منها الاقتصادية والاجتماعية.

إن هذه الحقائق التي نلمسها من خلال الكتب أو الصحافة أو وسائل النشر والإعلام بما يدفع الإنسان نحو الدمار الذاتي أو نحو الانمياع والتفسخ، إن ذلك كله من كيد الشيطان الناموسي، شيطان البشر الذي ينطلق في الأرض خلسة، فينفث الشر والمنكر، ويعيث بين الناس فسادا وتدميرا من أجل أن تستحيل البشرية الى ركام من المجتمعات الحائرة المضطربة، المجتمعات التي يشينها فساد النفس وانهيار القيم وكل مقومات الإنسان الأصلية.

١٥ - (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قوله: (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (لفظ الجلالة مرفوع بالابتداء، يستهزئ جملة فعلية في محل رفع خبر، ٦ هؤلاء المنافقون الفسقة الذين يتصورون واهمين أنهم يخادعون المؤمنين بتظاهرهم المصطنع وأنهم لا يبتغون بهذا التظاهر غير الاستهزاء بهم والسخرية منهم، فإنهم مغرورون جهلة لا يعلمون أنهم هم موضع استسخار وهزء، وأنهم هم الذين تصفعهم من الله وصمة الاستسخار الغاضب سواء كان ذلك في هذه الدنيا أو في الآخرة حيث المهانة والتهكم من الملائكة والخلائق فضلا عن العذاب اللاهب الذي تستعر فيه جلود هؤلاء المجرمين وأبدانهم.

وكذلك فإن الله يستدرج هؤلاء المنافقين الواهمين استدراجا، إنه سبحانه يمهلهم ويمد لهم من العطاء واللعاع وهم سادرون في طغيان تجاوزوا به كل الحدود.

وقوله: (يعمهون (من العمه، والعموه وهو الضلال والتردد والحيرة، فإن المنافقين ماضون في الأرض طاغين فسقة يظنون أنهم على شيء من الوضوح والتبصر مع أنهم يخبطون في الأرض ضلالا وحيرة وقد أعماهم الإمداد والاستدراج حتى إذا جاء أمر الله سقطوا مع الهالكين في الأذلين، وباءوا من الله بالخسران العظيم.

١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

قوله تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون).

اسم الإشارة (أولئك (في محل رفع مبتدأ، واسم الموصول بعد الإشارة خبر دلت عليه الجملة الفعلية وهي صلة الموصول، الإشارة عائدة على المنافقين الذين بدلوا الهدى ليكون ثمنا ثم استعاضوا عنه ببدل رذل وهو الكفر أو الضلالة، هكذا يعقد المنافقون صفقة من البيع الخبيث الخاسر، وذلك على سبيل الاستعارة التي تكشف عن مبلغ الحماقة والضلالة والتعس الذي وصله أولئك المنافقون وهم يمسكون بالكفر ليطرحوا بدلا منه الإيمان وتلك تجارة خاسرة لم تأت بخير ولم تنطو على غير الوخامة والتخسير.

قوله: (وما كانوا مهتدين (ذلك نفي للهداية عن المنافقين، أما طبيعة هذا النفي فقد ورد فيها قولان: أحدهما: أن النفي جاء وصفا للمنافقين حال رفضهم للإيمان، فهم بذلك قد اختاروا الضلالة، ثانيهما: أن ذلك إخبار عن علم الله الأزلي بأن هؤلاء لن يهتدوا وأنهم صائرون- في علم الله- الى الضلالة، والراجح عندي هو الأول والله أعلم.

١٧ - (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ)

قوله: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (مثلهم مبتدأ كمثل جار ومجرور خبره، ٧

ذلك مثل يضربه الله لهؤلاء المنافقين وهو يطابق حقيقة المنافقين و ما سلكوه من طريق الضلالة والتعثر.

إن هؤلاء المنافقين الذين رأوا الحق واستمعوا إليه وأدركوه إدرا كا ثم رفضوه ونبذوه، مثلهم كالذي تكون من حوله نار مستوقدة مضيئة تكشف له عما حوله من أمور وأشياء حتى إذا أبصر ما حوله وكان مبصرا مهتديا انطفأت النار فذهب الضياء والنور وأصبح الذي كان

مستنيرا لا يرى شيئا فتعثر في الضلال والعمه.
تلك هي حال المنافق إذ تأتيه نسائم الإيمان، وتهتف به نداءات الخير والهداية من أجل أن يستقيم ويهتدي ثم يجحد ذلك كله وينفلت عنه انفلاتا عاتيا ليكون في صف العصاة والأذلين.
واختلف المفسرون في شأن المنافقين هنا من حيث كفرانهم بعد إيمان، أو أنهم لم يكونوا قد أمنوا من قبل، وأن الإيمان لم يدخل قلوبهم في يوم من الأيام، ثمة قولان في هذه المسألة مع أن ظاهر الآية يوحي باعتبار القول الأول وهو أن هؤلاء المنافقين قد كفروا بعد الإيمان، وأنهم اتبعوا الضلال بعد أن لامست الهداية قلوبهم.
١٨ - (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ)
قوله: (صم بكم عمي فهم لا يرجعون (تلك هي حقيقة حال المنافقين، وهي حال تكشف عن طبيعة شاذة ملتوية، لا يؤثر فيها النداء الكريم، ولا تلجها الذكرى، فهي طبيعة منكمشة صلدة لا تعي صدق الدين والنبوة، ولا تقوى على استلهام شيء من حلاوة الإيمان، وأصدق لهؤلاء المنافقين ما ذكرته الآية من كلمات شاملة معدودة (صم بكم عمي (وهذه كلمات قليلة تزجي بالمعنى المقصود على أتم ما يكون الإرجاء فهم صم لا يسمعون الحق، وذلك لإعراضهم وانثنائهم عنه، وهم كذلك بكم ومفردها أبكم وهو الأخرص الذي يظل قابعا دون إعطاء أو مشلولا لا يؤتي خيرا أو نفعا.
وهم يتفصون أيضا بالعمى الذي تحجب معه الرؤية وتنغلق به الأبصار فلا يكون إذ ذاك اهتداء أو استبصارا، وذلك كشف مريع يبين حقيقة المنافقين الذين انقلبوا إلى مغاليق في بصائرهم وفي كل أداة من أدوات الحس فيهم، سواء كان ذلك السمع أو النطق أو البصر - إن هؤلاء باتوا قساة في طبائعهم وقلوبهم إلى أن بلغوا الإيصاد المطبق يغشى فيهم كل مسلك من مسالك التفكير أو الفطرة، وتلك هي درجة الإياس الذي لا يرتجي بعده إيمان أو هداية، وذلك قوله سبحانه: (فهم لا يرجعون (لا رجعة للمنافقين الى حومة الخشوع المتذلل لله وحده، ولا رجاء لهم في العودة إلى الإيمان الذي نبذوه في خسة وحماقة ليستبدلوا به الكفر والعمه وليكونوا مع الجاحدين والفاسقين.
١٩ - (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)
قوله تعالى: (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير).
قوله: (أو (جاءت للتخيير وقيل للتفصيل وقيل للشك، وقيل: معناها الواو أي وكصيب من السماء والصيب هو المطر، وهو مشتق من الفعل صاب يصوب أي ينزل.
وذلك مثل آخر يضربه الله للمنافقين مثلما ضرب لهم المثل السابق عندما شبههم بالذي استوقد النار حتى استضاء ما حوله ورأى كل شيء انطفأت النار وذهب الضياء والنور.
فهؤلاء المنافقون مثلهم كأصحاب مطر منهمر من السماء تغمره الظلمات والكثيفة المتراكمة ويتخلله الرعد القاصف والبرق الخاطف، أما الظلمات فهي صورة عن الكفر الذي يركم في نفوس المنافقين والذي نهوا عنه، ويقصد بالرعد التخويف من عذاب الله وسخطه أن يحيق بهؤلاء المجرمين الفساق.
أمام البرق فهو يمثل آيات الله الكريمة التي تكشف عن سرائر هؤلاء المنافقين فتفضحهم فضحا،
والمنافقون دائما خائفون من سطوع الإسلام وإشراقه أن ينفذ إلى قلوبهم ولذلك فهم (يجعلون أصابعهم في آذنهم من الصواعق حذر الموت (أي أنهم يغمضون أعينهم عن رؤية الحق ويصمون آذانهم صما، كيلا يستمعوا إلى صوت الإسلام وكلمة الحق فينصرفوا عن الشرك والنفاق، وهم إذا ما انصرفوا فإن ذلك - في تصورهم- موت.
ذلك الذي تمكنا من تصوره في تأويل هذا المثل في هذه الآية، مع أن أقوالا كثيرة قد وردت في تأويله والله أعلم بالصحيح.

وقوله: (حذر الموت (حذر: مفعول لأجله منصوب، مضاف إليه مجرور، أما الصواعق فهي جمع صاعقة وهي نار تسقط من السماء مصحوبة بصوت مؤثر خارق، وتأتي الصاعقة بمعنى الصيحة تأتي بالعذاب ومنها الصعق ومعناه الإغماء والموت.

قوله: (والله محيط بالكافرين (إنه سبحانه حاصر لهم، ومطبقة إرادته وهيمنته عليهم فلا يستطيعون الإفلات من قبضته أو الند من سلطانه وجبروته.

٢٠ - (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: (يكاد البرق يخطف أبصارهم (يكاد من أفعال التقريب وتعمل عمل كان، والبرق هو الضوء اللامع الخاطف الذي يسبق الرعد، وذلك من خلال ملاصقات جرمية تماس في الفضاء بتقدير من الله.

وقد جاء في تأويل هذه الآية عدة أقوال لكننا نميل إلى أن المقصود بالبرق هنا نور الإسلام، أما الخطف فهو البهر، فالمعنى: إن إشراقة الإسلام المضيئة الوضيئة تبهر قلوب المنافقين وأذهانهم حتى إنهم ليؤمنون بصلوحه وروعته وصدقه وذلك ساعة استلهامهم لحقيقة هذا الدين وهو يمس فيهم الحس وينفذ فيهم الى صميم الفطرة، لكنهم بعد ذلك ينكصون مرتكسين كلما تراءت لهم ظلمات من الشك والتردد فينقلبون على وجوههم مضطرين حيارى.

هكذا يكون المنافقون فهم تارة يمسكون بحبل من الهداية والإيمان في فترة من زمان ثم لا يلبثون أن يبوءوا بالشك والتكذيب، إذ تتلطخ قلوبهم وأذهانهم بوصمة من التردد والارتياب.

قوله: (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير (لو، أداة امتناع لامتناع وهي تفيد التمني، وفي هذا الجزء من الآية تخويف يتهدد المنافقين في كل لحظة، يتهددهم بالإبادة أو المسخ جزاء ما اقترفوه من نفاق، وخواء للضمير، أما التهديد بالإبادة فإنه يكشف عنه إذهاب السمع والبصر وهما أعظم وأشرف ما في الإنسان من جوانب وأجزاء.

أمام التهديد بالمسخ: فلنا أن نتصور ذلك من خلال افتقاد الإنسان لهذين الجزأين الأساسيين فيه وهما السمع والبصر، والإنسان وهو يسام الصمم والعمى فإنه ينقلب إلى كائن خاسر مشلول لا يأتي بخير إلا الجمود والضعف والموات.

والله سبحانه وتعالى لا يعجزه أن يذيق الإنسان أشد البلاء والنكال سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، فإنه سبحانه من صفاته القدرة التي لا يند عن محيطها شيء: (إن الله على كل شيء قدير.

قوله تعالى: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون).

٢١ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

قوله: (يا (أداة نداء، (أي (منادى مفرد مبني على الضم، وها، للتنبيه، (الناس (نعت للمنادى، وقوله: (اعبدوا (من العبادة وهي الخضوع والتذلل، والرب، معناه المالك، وهو سبحانه مالك الأولين والآخرين فلا يند من ملكوته وسلطانه في هذا الوجود شيء.

والله جلت قدرته يدعو الناس كافة سواء فيهم المؤمنون والكافرون أن يعبدوا الله وحده من غير شريك، وأن يخلصوا له في القول والعمل فهو سبحانه مالكهم ومحيط بهم، وهو كذلك خالقهم الرحيم بهم والقريب منهم، فهو جدير بالامتثال لأمره والخضوع لجلاله، إنه سبحانه جدير أن يعبد الناس لجنابه، فهو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم من شعوب وأمم كثيرة مبثوثة في كل مناحي الأرض على مر الزمن - فإن في عبادة الناس لله وحده وفي انقيادهم لدينه وشرعه ما يجعل لهم الرجاء بأن يكونوا من المتقين، وذلك من الوقاية أو التقية وهي ما يكون ستارا يدرأ المرء العذاب، والمؤمن العابد التقي يدفع عن نفسه العذاب المحدق باتخاذه وقاية من الطاعات واجتناب المعاصي والموبقات.

٢٢ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ)
والله سبحانه أجدر أن يعبده الناس كافة ولا يعصوه في شيء لما أسبغه على الخلائق والبشر من نعماء ومنن، فهو سبحانه قد (جعل لكم الأرض فراشا (أي مهدها، ويسرها الممهد الذي يصلح للافتراش.
وكذلك قد جعل الله السماء للناس بناء كأنما هي مظلة، وهي مظلة ممتدة وكبيرة وغير محدودة قد صيرها الله على هذه الصورة الهائلة من البناء المرفوع الذي تتكاثف فيه الخلائق والأجرام في غاية من التوازن الدقيق والإحكام المنظم المضبوط.
بناء سماوي رفيع لا تدرك منه الأبصار والعقول إلا قليلا مما تحقق بأسباب شتى من النظر والرصد والعلم، وما في السماء من حقائق ومخبوءات لهو كثير لا يقف الإنسان إلا على جزء يسير منه كلما امتد به الزمان وتعاظمت له أسباب البحث والاكتشاف يقول سبحانه في ذلك: (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء (والفعل جعل يأخذ مفعولين وهو يعني صير من الصيرورة ويأتي على معان أخرى ترد في موضعها.
وقوله: (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم (السماء اسم مذكر ومؤنث وجمعه سماوات وأسمية، وهو يطلق على كل ما علاك فأظلك ويقال لسقف البيت سماء، وكذلك فإن السماء تسمى المطر فيقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، وأصل السماء من السمو وهو الارتقاء والعلو، تقول سموت وسميت أي علوت وعليت، وتقول فلان لا يسامى وقد علا من ساماه.
فقد أنزل الله المطر من السماء العالية المرتفعة بعد أن كان (المطر) حبات من الماء المنتشر المحمول عبر درات الهواء حتى إذا علا ذلك وتسامى فوق الأرض لامس أجواء باردة فتقاطر الماء من خلاله ليؤوب الى الأرض منهمرا تستقي منه الخلائق من بشر وزروع وأنعام، ثم تنبت به الأرض من خيراتها وثمراتها بما يقتات به الناس ويرتزقون أو ما يستمتعون به ويستطيبون.
وحول هذه العملية الربانية العجيبة في إنزال المطر بدءا بتصريف الرياح الموقرة بحبات الماء المتبخر، وانتهاء بالنزول الهاطل المنهمر يقول سبحانه: (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمسلمين فانظر إلى ءاثر رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير).
قوله: (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (الأنداد، مفردها ند وهو يرادف النديد الذي يستعمل للمبالغة، والأنداد بمعنى الأكفاء والنظراء والأمثال.
فالند أو النديد معناه الكفء أو النظير أو المثيل، وقيل: الأنداد تعني الأضداد، وأصل الكلمة من الفعل ند ندودا أو ندادا، تقول ند البعير أي نفر وذهب على وجهه شاردا، وفي قراءة بعضهم لقوله تعالى: (يوم التناد (أي يوم الشرود والهرب في جموح، ومنه التنديد من الفعل ندد أي أظهر العيب في تشهير وافتضاح والله سبحانه يحذر الناس أن يتخذوا من دونه شركاء عدلاء يجعلون لهم من الحظ في الخوف والتقديس والانقياد مثلما يجعلونه لله سبحانه، وذلك هو الإشراك المستشبع الذي تدنو دونه كل خطيئة أو محظور، على أن الإشراك ضروب شتى تورد الإنسان المشرك موارد الكفران الذي يفضي إلى غضب الله والنار - كأن يتجه الإنسان بحسه وهواه صوب آلهة مصطنعة لا تملك شيئا من ضر أو نفع، ولا تملك أن تغير من مقادير الله أدنى تغيير، ولكنه الوهم الفاسد المريب الذي يمس طبائع جانفة مريضة فيزين لها أن تتشبث بهذه الآلهة المختلفة الموهومة.
ومن ضروب الإشراك أن تخشع القلوب للأصنام في انقياد مضلل فاسد، كالذي كان عليه الناس في الأزمنة الغابرة، إذ كانوا يخرون للأصنام ساجدين وهي أصنام يصطنعونها من الحجر أو المدر أو التمر على شواكل مختلفة من هيئة الإنسان أو الطير أو الحيوان، وفي طليعة ذلك اللات والعزى ومناة ثم هبل وأسماء غير ذلك مما يفتعل أولئك في سفاهة وعمه، ومن ضروب الشرك كذلك أن ينصاع الإنسان في شعوره ووجدانه وفي تفكيره وجوارحه لأمر الحكام والساسة الذين يقضون بالباطل وبغير ما أنزل الله، فهم بذلك يضادون الله ويستنكفون عما أنزل من كتاب ودين، وأمثال هؤلاء الحكام والساسة إنما يقفون في غاية الضلال والجريمة التي تتجسد في الافتئات على سلطان الله والاعتداء على جلاله وجنابه العظيمين وذلك بانتحال الخصائص الأساسية الكبرى كالمعبودية أو الملكوت أو التشريع وهي

خصائص كبريات لا تتسنى لأحد من الخليقة كائنا من كان، وما انتحالها أو جزء منها إلا التعدي الصارخ المستكبر على الله في عليائه.
وعلى ذلك فإن اللحاق بمثل هؤلاء الحكام والساسة الذين يضادون الله لهو ضرب مستبين من ضروب الشرك الذيب تنشغل القلوب والأهواء لتسير في غير صراط الله، والذي يتثبت الطبع من خلاله بهؤلاء الفساق ليتلهى في خضم الرغائب والشهوات فيسدر مع السادرين إلى حيث السقوط في الأذلين.
ومن أحسن ما روي عن حبر هذه الأمة وإمام المفسرين عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في هذا الصدد وهو أن الأنداد تعني الشرك وهو أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان.
وقد ورد في الحديث: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت فقال له النبي: " أجعلتني لله ندا؟! ".
قوله: (وأنتم تعلمون (الواو للحال، والضمير في محل رفع مبتدأ والميم للجمع، (تعلمون (جملة فعلية في محل رفع خبر، والجملة الاسمية المبتدأ والخبر في محل نصب حال.
وهذا الجزء من الآية خطاب للكافرين والمنافقين الذين يتخذون أندادا من دون الله، مع أنهم يعلمون في قرارة صدورهم وفي العميق من نفوسهم أنهم ليسوا على شيء إلا الضلال والباطل، وأنهم ناكبون عن الطريق المستقيمة، عن صراط الله الذي لا يخالطه أمت أو اعوجاج، وأنهم يعلمون أن هذا النبي صادق في تبليغه عن ربه وأن شريعة الإسلام لهي الحق المبين.
إن هذا الجزء من الآية خطاب جدير به أن ينفذ إلى قلوب المشركين وأذهانهم أولئك الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى وهو في نفاذه إليها يقرعها في مواجهة مكشوفة لا تعرف المواربة أو الميل كما يعلم هؤلاء الكذناكبون أنهم متعصبون وأنهم مفترون عسى أن تتململ فيهم بقية من وازع أو فطرة - ٨
٢٣ - (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (ذلك تحد من الله للكافرين آحادا ومجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع العلم أن الله قد تحداهم مرارا عديدة في مكة فقال مثلا: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (وقال أيضا: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين).
وقد تحداهم الله كذلك في المدينة في مثل هذه الآية (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله - - - (فلئن كان المشركون في شك من هذا القرآن الذي تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فليأتوا بسورة واحدة من مثله إن استطاعوا ثم ليدعوا أعوانهم وأنصارهم ليحضروا عملية التحدي وليشهدوا بأنفسهم محاولة المشركين وهم يصطنعون مثل هذا القرآن.
والمقصود بالعبد هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقد سماه الله بذلك لشرف العبودية، له سبحانه، ولا جرم أن تكون العبودية هي الخضوع والتذلل ولا يكون ذلك إلا لله، والإنسان المؤمن إنما يكون ممتثلا لأمر الله في شرعه ودينه، ولا ينقاذ في خضوع وتخشع إلا له سبحانه، وتلك درجة سامية رفيعة يرقى إليها الإنسان، فلا يذل لأحد من دون الله كيفما كانت منزلته، والإنسان المؤمن في هذه الحال من العبودية الخالصة لله قمين به أن يسمى عبدا وهي أشرف ضروب التسمية حقا.
وقوله: (بسورة (السورة في اللغة معناها المنزلة من البناء، والسور يطلق على ما ارتفع من الأرض أو هو الحائط الذي يحيط بالبناء وسمي بذلك لارتفاعه وإشرافه، وسميت السورة من القرآن بذلك لشرفها وارتفاعها وهي في كلام العرب تفيد الإبانة والانفصال من سورة لأخرى أو أنها قطعت من القرآن على حدة وبعبارة أخرى وجيزة، فإن السورة من القرآن قد سميت بذلك لأنها منزلة منزلة مقطوعة عن الأخرى، وهي تجمع على سور أو سورات - ٩

وعلى ذلك فإن هذه الآية جاءت لتتحدى الناس جميعا كيما يجهدوا في أن يأتوا بمثل سورة واحدة من هذا القرآن وأن ينادوا أشياعهم وشركاءهم ممن هم على اللذين ستؤول إليهما محاولة المشركين.

وقوله: (إن كنتم صادقين (أي فيما تدعون، وهو أنكم قادرون على معارضة هذا القرآن بمثله تصطنعونه من عند أنفسكم.

وجدير بالبيان مما يشهد للقرآن والإعجاز أن العرب- وهم موطن الفصاحة والبلاغة واللسن - قد جهدوا في عناء بالغ ليأتوا بمثل هذا القرآن وقد كان يحفزهم لذلك ما كان يجبههم من تحد قائم لا يتحول، وهو تحد قد أثار في نفوسهم المرارة والإحساس بالخزي والضعف، لأنهم باتوا غير قادرين على محاكاة هذا الكتاب الحكيم، مع أنهم أحوج ما يكونون لمحاكاته أو المجيء بمثله ولو قدر سورة قصيرة واحدة، ولقد ظل القرآن على الدوام يتحدى هؤلاء البلغاء أفرادا ومجتمعين وهم الخصوم اللد للإسلام ونبيه وكتابه، ويدركون أن مكانتهم الذاتية الشخصية باتت تتزعزع، وأن مجدهم العربي الموروث آخذ في الترنح والأرجحة، وأن تصوراتهم وأعرافهم ومصالحهم آيلة الى التبدد والسقوط، وذلك كله بفعل العقيدة الإسلامية الجديدة التي جاء يحملها القرآن، فكانوا بذلك يودون في رغبة مغالية جامحة لو تصدوا لهذا القرآن عنه الناس، وليثيروا من حوله الشبهات والظنون، وهم أنفسهم أقدر الناس جميعا على اصطناع الكلام البليغ.

ولقد استبان عجز العرب عن المحاكاة واصطناع ما يشبه القرآن من خلال إقرارات واقعية صريحة أنطقت فريقا من رجالات العرب كانوا قمة العظماء والبلغاء، وفي طليعتهم عتبة بن ربيعة الذي سمع القرآن لأول مرة فغشيته غمرة من الدهش والذهول فأقر بغير تحفظ أو وناء أن هذا القرآن لم يكن قول بشر - كان ذلك عندما قرأ عليه النبي من سورة فصلت: (حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون).

وكذلك الوليد بن المغيرة وهو صناديد العرب البارزين وأحد مشاهيرهم في ميدان البيان واللسن، ومن الذين يتسنمون ذروة المجد في فن الخطابة والشعر بما يبدأ الخطباء والفصحاء جميعا، ذلك هو ابن المغيرة الذي راغ إلى النبي متحديا حتى سمع منه القرآن مرة فهجعت فيه السورة، واستنام فيه الغرور، وأخذته نوبة من العجب العجاب، قد كان ذلك عندما سمع ابن المغيرة كلمات القرآن تقرع ذهنه ووجدانه قرعا، (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكبر ولربك فاصبر - - - (فلم يلبث ابن المغيرة إلا أن يردد في إقرار خاضع " ما كان هذا الكلام ليقوله بشر ".

ثم ذاك الحكيم البليغ المفوه " الكندي " وهو المعروف بحكمته وامتلاكه لمقاليد البيان، وقد كان له: أنصار ومريدون لا يبارحونه ويتسابقون في استماع الحكمة المنطوقة من فمه، فقد قال له هؤلاء مرة: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا - ١٠

ذلك إقرار واضح من أحد الموغلين في فن القول والبيان يشهد للقرآن بأنه معجز فذ، كان ذلك عندما قرأ الكندي أول آية في سورة المائدة وهي (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد).

٢٤ - (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

قوله: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (تتضمن الآية شرطا وجوابه، فجملة الشرط منفية، والجواب ما اقترنت به الفاء وذلك في قوله (فاتقوا النار - - -).

والآية تنطوي على التحدي للمشركين: إن كانوا يستطيعون اصطناع مثل هذا الكلام العظيم، والآية كذلك تتضمن مسبقا حقيقة عجزهم عن هذا الاصطناع.

وعلى ذلك فالجملة الفعلية المنفية الأولى تفيد الحال، أما الجملة الفعلية المنفية وهي الواقعة في جواب الشرط فإنها تفيد الاستقبال، وهي لا جرم أن تكون آكد في التحدي وأبلغ في التأثير والاستثارة بما يدفع المشركين لبذل المزيد من الجهد كيما يأتوا بمثل هذا القرآن إن استطاعوا، ولكنهم لن يستطيعوا مهما بذلوا من عناء التكلف، ذلك هو الحكم الفصل الذي انطوت عليه الآية ليعلم كل من يبتغي العلم أن أحدا من البشر لن يقوى في يوم من الأيام على اصطناع مثل هذا القرآن أو بعضه، والحكم الفصل في قوله: (ولن تفعلوا (يرسخ

حقيقة الإعجاز للقرآن.

وبعد هذا التأكيد المسبق الحاسم على إخفاق أية محاولة لاصطناع مثل القرآن فإن الله جلت قدرته يحذر من النار الحارقة التي يتعذب بها الجاحدون لأنعم الله المنكرون لكتابه الحكيم، وذلك في قوله: (فاتقوا النار (أي اتخذوا من طاعة الله ومجانية نواهيه ومعاصيه وقاية تحتمون بها من حريق النار وما فيها من عذاب أليم لا يطاق.

ويزداد القلب هلعا وارتجافا لدى إدراك المرء أن وقود النار من الناس والحجارة، فيا لهول المشهد الذي يثير في النفس الوجل والترويع إنه مشهد يبعث على الصحو في تبكير كيلا تتعاقب الأيام والسنون ثم يفوت الأوان وتذهب الفرصة التي تتاح للمرء فيها أن يتوب ويعمل صالحا.

وفي اجتماع الناس والحجارة في النار أكثر من مدلول، فإن من جملة ذلك: أن يستوي الإنسان الجاحد ليكونا معا في النار، فهما عنصران سيان يلتقيان في الحريق بلا اعتبار أو حساب، إنهما الحجر الأصم، والإنسان التائه الصفيق الذي قارف ما لم يقارفه حجر ولا بهيمة.

ومن جملة ذلك أيضا: أن يشتد عذاب الكافرين في النار وهم تمسهم الحجارة الحامية مما يضيف إلى الأجساد المصطلية لهيبا واضطراما، وقد ورد في المقصود بالحجارة هنا أنها مصنوعة من الكبريت الأسود وهو شديد الاشتعال، وسواء كانت هي الحجارة المعروفة أمن أنها من الكبريت فإن المقصود الأهم هو بعث التحريق واللهب على نحو أشد لكي يذوق الكافرون والملحدون والمكذبون أقسى النكال الذي تتقاحم فيه أبدانهم وجلودهم وهم يحترقون في النار.

قوله: (أعدت للكافرين (أي أن هذه النار قد هيئت وتم رصدها للكافرين، ويدل ظاهر هذه العبارة على أن النار موجودة أصلا في هذا الزمان وفي سوابق الزمان، وذلك الذي عليه جمهرة أهل العلم من مفسرين ومحدثين، وثمة قول آخر وهو أن النار لم تخلق بعد وأن عملية الخلق كائنة يوم القيامة ولا يعز شيء من ذلك على الله.

وفي تقديري أن هذا القول مرجوح وأن ما عليه جمهور أهل العلم هو الصواب.

٢٥ - (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله تعالى: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها ثمرة قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون (بعد أن خوف الله الكافرين وحذرهم من عذاب النار التي وقودها الناس والحجارة إذا لم يؤمنوا بكتابه، فإنه بعد ذلك يبشر عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم جنات تجري تحتها الأنهار، وذلك الذي يطلق عليه في القرآن " المثاني " وهي الانتقال بالكلام من حال إلى حال أخرى مغايرة، وذلك مثلما تتناول الآية أو بعض الآيات مسألة العذاب الأليم الذي أعده الله للكافرين والعصاة، ثم يعقب ذلك بالكلام عن الجنة ونعيمها المقيم، أو مثلما يتكلم عن ملائكة الرحمة والبشرى، ثم يبادر الحديث بعد ذلك مباشرة عن ملائكة العذاب الذين تتزلزل لدى رؤيتهم أقدام المجرمين الذين يعيثون في الأرض فسادا، ذلك الذي عليه الجمهرة الكاثرة من المفسرين وقيل غير ذلك.

وفي هذه الآية يأمر الله بتبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات، والتبشير هو الإخبار عما يبعث على السرور، إذ تتبدى علائم البهجة والحبور لدى الإخبار بما يسر.

على أن التبشير بالجنات مشروط بالإيمان الذي يقترن بعمل الصالحات فإنه لا قيمة تذكر للإيمان وحده من غير عمل صالح، وذلك هو شأن القرآن دائما لدى تنويهه بذكر الإيمان، فإنه يشفعه بالعمل ليتبين للناس خطورة الإيمان المتجرد الذي لا يعقبه عمل كريم نافع مشروع.

وقوله: (جنات (من الفعل جن أي ستر وغطى، فالجنات مفردها الجنة وسميت بذلك لأنها تستر من يكون فيها ويستظل بظلها، ويشتق من ذلك أيضا الجن والجنة بكسر الجيم وهم خلق غير مشهود، وهم من غير بني البشر، وقد سموا بذلك لاستتارهم وأنهم لا يرون، وكذلك الجنين قد سمي بذلك لاستتاره داخل الرحم، ثم الجنون وهو استتار العقل بما يحول بينه وبين الوعي والإدراك، ويقال كذلك

للترس " مجن " بكسر الميم، لأن صاحبه يتستر به ليقيه الضربات - ١١
ولقد أعد الله للمؤمنين العاملين جنات عظيمة فسيحة وارفة بما لم يطرأ على قلب بشر ولم يتصوره إنسان، وذلك لفرط الهناء والحسن والروعة التي تظلل هذه الجنات والتي تنساب من بينها الأنهار الدائمة الجارية فتنشر من حولها البهجة والخير والحبور.
وقوله: (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل (أي كلما أعطوا من ثمار الجنة شيئا حسبوا أنه شبيه بما أعطوه في الدنيا فقالوا ذلك مثل الذي كان لنا من قبل في الدنيا، وذلك لتشابه الصنفين في الشكل واختلافهما في الجوهر والمذاق - ويوضح ذلك قوله تعالى: (وأتوا به متشابها (الجملة مستأنفة متشابها حال من الضمير في (به (١٢ أي أن ثمار الجنة تشبه الحياة الدنيا من حيث الصورة والمظهر والمنظر لكن الصنفين مختلفان تمام الاختلاف من حيث الحقيقة والطعم، ولذلك فإن المؤمنين إذ يلجون الجنة ثم يرون ثمارها يحسبون لأول وهلة أن هذه الثمار شبيهة بتلك التي يعرفونها حال حياتهم في الأرض قبل الفناء.
ولعل هذا المفهوم المستنبط من هذه الآية يشي بحقيقة مفيدة وهي أن حال هذه الدنيا غير تلك الحال في الآخرة، وأن بينهما من حيث الحقيقة والجوهر والكيفية والمعنى بونا أكبر، وشتان شتان ما بين الدارين، وهما إن اتحدتا لدى الوصف وذلك من حيث الصورة والشكل فإن ذلك لا يتجاوز الاتحاد الذي تحتويه الكلمات وذلك على سبيل التقريب للذهن فقط - أمام الاثنتان من حيث الكيفية وحقيقة التكوين، ومن حيث الطابع والجوهر وحقيقة ما تجري، فإنهما من هذه المناحي متنائيان تنائيا غير محدود.
ومن باب التمثيل نقول: تتشابه الدنيا والآخرة بما فيها من نعيم وعذاب، أو حر وقر، أو عذب وملح أجاج، أو ظل وارف ظليل، وسموم حارق حرور، أو حزن ممض وسرور مبهج، وغير ذلك من معان متماثلة أو متنافرة فإن كلا منها في هذه الدنيا يختلف عنها في الدار الآخرة، والمعنيان إذا تشابها مثلما يتراءى للسامع من خلال الكلمة فإنهما متباعدان أشد التباعد من حيث الحقيقة والمعنى، وهو الذي ينبغي أن يكون عليه التعويل، لأنه الأصل ولأنه الجوهر، وما عدا ذلك من مماثلة في الشكل والصورة فإن ذلك ما لا ينبغي التعويل عليه.
قوله: (ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون (وذلك من تمام الخير والنعيم الذي يمنن الله به على عباده الأبرار الذين كتب لهم الجنة، فإن لهم أزواجا طاهرات وهم جميعا في الجنة خالدون، وأزواج مفردها زوج، ويطلق ذلك على الرجل أو المرأة، فنقول امرأة زوج مثلما نقول رجل زوج، والزوج يعني الصنف الذي له نظير أو نقيض - ١٣
والمؤمنون العاملون يكتمل لهم الخير والنعيم في الجنة إذ يجدون لهم فيها أزواجا (مطهرة (وطهارتهن تتجلى في أوصاف شتى من طهارة البدن من خبث الحيض أو النفاس أو البول أو الغائط أو البصاق كما أورد أكثر المفسرين، أو أن طهارتهن تتسع لتشمل فيهن طابع النفس والروح معا، فهن بذلك كريمات تقيات طواهر لا يعرفن معنى الدنس ولا تجنح إليه نفوسهن فهن المبرآت العفائف.
قوله: (وهم فيها خالدون (يعود الضمير على الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين امتن الله عليهم بالجنة والزوجات الطاهرات، فإن ذلك كله من تفضل الله وامتنانه على عباده أن أنعم عليهم بالنعيم المقيم الذي لا يفنى ولا يحول - ١٤
٢٦ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ)
قوله تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون).
لما ضرب الله للمنافقين المثلين السابقين وهما: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا (ثم (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق (قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية، (إن الله لا يستحي (فقد بادروا بالتافه من القول على سبيل الهزء والاستخفاف بكلام الله سبحانه وهذان هزء واستخفاف تتقيأهما حناجر الذين لا يدركون مقاصد الكلم الفذ، وهي مقاصد لا جرم أن تستنهض في الذهن جدية التبصر والتفكير، لكن هؤلاء الجهلة المستخفين لا يعون من الأمور والأشياء إلا ما يتراءى لهم

على السطوح دون ما تدبر متمكن سابر، وهم كذلك قد خفي عن إدراكاتهم وتصوراتهم المتبلدة أن هذه الأمثال وغيرها لا ترد في القرآن عبثا ولا هي من قبل الكلمات التي تحفل بها السطور - هي أمثال تعرض للمعاني على شاكلة مرغوبة مثيرة تعين على الكشف عن مقاصد القرآن ومكتوباته التي تنقضي.

وقوله: (إن الله لا يستحي (لفظ الجلالة: اسم إن منصوب، والجملة الفعلية المنفية بعده في محل رفع خبر إن، ويستحي من الاستحياء وهو بالنسبة لبني البشر معلوم، لكنه بالنسبة لله ينبغي تأويله بما يتلاءم وجلاله سبحانه، ولعل خير ما يرد من تأويل لمعنى الاستحياء هنا بأنه الامتناع أو الاستكفاف، وقيل: معناه الخشية، ويترجح القول الأول، وبذلك يكون معنى الآية على هذا الأساس: إن الله لا يستنكف أن يضرب مثلا من البعوضة ونحوها أو دون ذلك.

وقيل في إعراب (مثلا (مفعول به منصوب، و (ما (زائدة، و (بعوضة (بدل من (مثلا (وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب مع أن الأول هو الراجح والله أعلم.

وقوله: (فما فوقها (الفاء بمعنى الى وتحتمل الفوقية هنا معنيين: أحدهما الدون، أي الأصغر والأشد حقارة.

وثانيهما: الكبر، أي يضرب مثلا بالبعوضة وبما أكبر منها.

وقوله: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم (ذلك إطراء للمؤمنين وثناء عليهم لسرعة تصديقهم بما يتنزل من السماء بوساطة الوحي، يستوي في ذلك الأمثال والآيات والأخبار، فهم بذلك يعلمون في يقين أن المثل المضروب في الآية لهو مثل حق جدير بإعمال الفكر وتركيز النظر من أجل الخلوص إلى معطيات شتى منها الربط والتقريب، ومنها الكشف والتيسير بما يمكن الإنسان الحريص من الوعي والاستفادة.

ولدى الكتابة في هذه المسألة نشهد في تثبت مستيقن أن هذا المثل حق من الله وأنه ليس من العبث أو اللغو في شيء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - بل إن الله يضرب الأمثال الكثيرة لكي يتدبر الناس ويتبصروا وليكون لهم من ذلك ما يحمل أذهانهم على الوعي والإدراك وما يحمل قلوبهم وطبائعهم على الإيمان والاستيقان.

والحق خلاف الباطل وهو مصدر للفعل الماضي حق بمعنى وجب وثبت، فالحق هو الوجوب والتثبت واليقين، وتلك أمور لا يخالطها شك أو باطل.

قوله: (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا).

الذين، اسم موصول في محل رفع مبتدأ والجملة الفعلية (فيقولون (وما بعدها خبر، والجملة من مقول القول في محل نصب مفعول به للفعل فيقولون.

ويتساءل الكافرون في جحود ونكر عن الذي يريده الله من ضربه لهذا المثل، وهو تساؤل سقيم وظالم يضيف إلى سجل الكفرة والمشركين مزيدا من الجهالات والضلالات التي تكشف عن عقول قد سميت العطب فلم تعد تقتدر على الاستفادة والاستبصار.

وقوله: (ماذا (جاء في إعرابها أكثر من قول: فقد ذهب بعضهم إلى أنها تشكل جملة اسمية من مبتدأ وخبر أي أن ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وذا معناه الذي في محل رفع خبر مبتدأ، وقيل: إن (ماذا (بمنزلة اسم واحد يفيد الاستفهام وهو في محل نصب مفعول به للفعل أراد، وقوله (مثلا (منصوب على التمييز - ١٥

قوله: (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا (الضلال معناه في اللغة الضياع، والإضلال التضييع، والإنسان الضال هو الشخص الضائع الذي يسير على غير بصيرة أو هدى، أما الهدى فهو يعني البيان أي الوضوح المتكشف المستبين.

وسبيل الهدى هي التي تتصف بالاعتدال والاستقامة كي يتيسر فيها المسير بغير تعثر - وأما المقصود الذي يعود إليه الضمير في قوله: (به (فهو المثل المضروب الذي سخر منه المنافقون وأهل الكتاب يحفزهم إلى ذلك الغباء المطبق والحماقة الكبيرة.

ولا يسخر من ذلك المثل الرباني المضروب إلا من كان في علم الله الأزلي ضالا، وكثيرون هم الذين يميلون عن صراط الله والذين تجنح قلوبهم وعقولهم نحو الخطأ من التصور فيحتسبون في علم الله مجرمين ضالين، وفي المقابل هؤلاء الجانحين إلى الهاوية يقف فريق

المؤمنين الصادقين الذين استروحت أنفسهم مذاق العقيدة والإيمان والذين أخبتت قلوبهم ومشاعرهم لأمر الله إخباتا.
قوله: (وما يضل به إلا الفاسقين (من الفسق وهو الخروج، سميت الفأرة فويسقة، وذلك لخروجها كي تعبث وتؤذي، والفاسقين منصوب على المفعولية للفعل يضل وفي الآية تبين لهذا الفريق الضال من الناس لما جحدوا الأمثال المضروبة الكريمة التي عرض لها القرآن من بين آياته، وهي أمثال ربانية تتوارد في سياق القرآن لمعاني وأغراض توضيحية تتعامى عنها أبصار الذين أضلهم الله على علم، وأولئك هم الفاسقون الذين خرجوا من ظل الرحمن ليلجوا طائعين حومة الشيطان.
٢٧ - (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)
قوله: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه (الذين اسم موصول نعت للفاسقين، والنقض معناه الهدم والإبطال، والميثاق هو العهد وجمعه مواثيق ومنه الوثاق ويعني القيد أو الحبل ونحو ذلك، فهؤلاء الفاسقون يهدمون عهدهم عهدهم مع الله من بعد إحكامه وتثبيته، قيل: إنهم أهل الكتاب فقد كانوا مكلفين تكليفا ربانيا من خلال كتبهم المنزلة عليهم أن يؤمنوا بمحمد النبي صلى الله عليه وسلم حال مجيئه وقد ألفوا ذلك مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، كانوا قد عاهدوا الله على ذلك من قبل، وألزموا أنفسهم بالإيمان بهذا النبي إذا بعث، لكنهم كذبوه وناصبوه الحرب والعداء فخالفوا بذلك عن أمر ربهم وأخلفوا موعدهم الذي قطعوه على أنفسهم.
وثمة قول ثان وهو أن الآية تشمل جميع الكافرين من مشركين وأهل كتاب أو غيرهم الذين كلفوا بالطاعة فعصوا، مثلما كلفوا بمجانبة المعاصي ومحارم الله، ثم أتوا ذلك كله فهؤلاء جميعا قد نقضوا عهدهم مع الله بعد أن كان هذا العهد متوثقا، قوله: (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل (خير ما قيل في ذلك من تفسير: أن هؤلاء الفاسقين الناقضين لعهدهم مع الله لم يأتمروا بأوامر الله التي تحل الحلال وتحرم الحرام، وذلك ما أمر الله به أن يوصل، وقيل أيضا: إن المقصود بقطع ما أمر الله به أن يوصل هي الأرحام، فقد قطعها هؤلاء ولم يصلوها، والراجح القول الأول، فهو أشد ملاءمة للسياق والمعنى، فإنه من البعيد أن يطلب من الفاسقين الخارجين عن دين الله أن يصلوا الأرحام، وهذه مسألة فرعية- مع أنهم يكذبون بالدين ويجحدون نبوة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.
قوله: (ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون (الإفساد في الأرض يشمل كل ألوان المعصية والإثم، وكل ما يقارفه العصاة من مخالفات عن أمر الله بما يتضمن الشرك وهو غاية الإفساد في الأرض، وغير ذلك من وجوه التمرد على شريعة الله، ولا جرم أن هؤلاء هم الخاسرون، وذلك من الخسارة وهي تعني الهلاك أو النقص، أما الهلاك: فإنه محيط بهؤلاء الذين يجنحون للمحظورات والخطايا، فإنهم آيلون إلى السقوط في عذاب الله، وأما النقص: فإنهم ناقصوا الحظ والمنزلة بما يسوقهم في النهاية إلى التدمير في هذه الدنيا ثم إلى السعير في الآخرة.
٢٨ - (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
أما إعراب قوله تعالى: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم (يتضمن السؤال في قوله (كيف (توبيخا للكافرين وتقريعا لهم جزاء كفرهم بالله، أما الكفر بالله المذكور في هذه الآية فهو يشمل النكران لوجوده سبحانه، وكذلك الجحود لأنعمه والجنوح عن صراطه إلى المحارم والموبقات، فليس بالضرورة أن يكون الكافر منكرا لوجود الله، مع أن ذلك يشكل غاية الكفران والجحد، وإنما يكون كافرا من عرف الله ومال عن صراطه ودينه، واتبع شرائع البشر أيا كانت هذه الشرائع لما يتصوره هذا المائل الجاحد أن شرائع الإسلام لا تصلح، أو نحو ذلك من وجوه الكفر، فإن معرفة الله متجردة وحدها لا تغني صاحبها شيئا إذا لم تقترن هذه المعرفة باليقين القاطع بصدق شريعة الله وبصلوحها للعالمين مع الإعراض عن الخطايا والموبقات والمحظورات.
قوله: (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم (ورد في بيان هذا الجزء من الآية جملة أقوال لعل أصولها: أن يكون المقصود هو الأمانة مرتين والإحياء مرتين، أما الموتة الأولى: فهي حين كان الناس غير مخلوقين بعد، فإن أي إنسان من قبل أن يخلق لهو في عداد الموتى

الذين لا يملكون حياة ولا انتشارا ولا تأثيرا، قال سبحانه في مثل هذا المعنى: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (وقوله كذلك في آية أخرى: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (هذه هي الموتة الأولى.

أما الموتة الثانية فهي معلومة ذاتها التي تحيق بالإنسان بعد حياة فإذا هو ميت وهي عاقبة محتومة سيفضي إليها كل كائن، طال الأجل أم قصر، (إنك ميت وإنهم ميتون (فتلكما موتتان.

أما الإحياء مرتين، فإن أولاهما: هذه التي يحياها الإنسان بعد أن يخلق ليدب على الأرض كادحا فترة من زمان إلى أن يقضي، وبعدها يظل برفاته حبيس الرمس راكدا لا يريم إلى فترة لا يدري سوى الله كم من السنين تبلغ، وبعدها يأذن الله للساعة أن تقوم، ليبعث الموتى من قبورهم إلى حيث النشر والحساب.

وثانيهما: تلك التي يكون عليها الإنسان بعد بعثه من قبره ليعود حيا على التمام وليلاقي حظه الحساب المسطور.

فتلكما موتتان: وذلكما إحياءان اثنان، وفي ذلك يقول سبحانه في آية أخرى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين).

وقوله: (ثم إليه ترجعون (بعد الإحياء الثاني الذي يعقب الموت يساق الناس إلى الله ليروا أعمالهم، وأصدق ما يجيء في هذا الصدد قوله سبحانه في سورة الزلزلة التي تزلزل لوقعها وشدة تأثيرها النفوس والمشاعر والأبدان وهي تتصور فداحة الموقف العصيب الرهيب في يوم مجلجل مشهود: (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

٢٩ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم (الله جل جلاله قد أنشأ الأرض وما فيها من العدم، إذ لا يتصف شيء في الحياة أو الوجود بالأزلية، وتلك صفة أساسية وكبرى ليست لغير الله الخالق المبدع الذي أوجد الحياة والكائنات والأشياء، أوجد الأرض وما عليها وما في باطنها من خلائق كثيرة كالمياه والمعادن وأصناف الأتربة.

وفي قوله: (لكم (تذكير بالمنة من الله على الناس، فقد أوجد لهم الأرض بما يركم في جوفها وعلى متنها من أسباب الحياة والعيش الآمن الميسور وذلك كالهواء والغذاء والماء وغير ذلك من خليقة مبثوثة في كل مناحي الأرض مما يحقق للإنسان عيشه الآمن.

قوله: (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات (الكلمة (ثم (تتعلق بالخلق لا بالإرادة أي تفيد الترتيب من حيث الإنشاء والإبداع لا من حيث الإرادة المقترنة بعلم الله الأزلي.

ذلك أن إرادة الله القاضية بخلق الأشياء لم تأت على مراحل فإن ذلك لا يتحقق إلا بالنسبة للخلق والإيجاد، أما إرادة الله القاضية بالخلق فإنها قديمة قدم الذات العلية نفسها - والله سبحانه من صفاته الإرادة فلم تكن هذه لتأتي على مراحل تعالى الله ذلك.

وقوله: (استوى إلى السماء (فإن أقوال المفسرين تكاد تجمع على أن (استوى (بمعنى قصد، فبعد أن خلق الله الأرض قصد إلى السماء ليخلقها، وقيل: (استوى إلى السماء (أي صعد إليها، والقول الأول هو الراجح والله أعلم.

على أن ظاهر الآية يفيد أن خلق الأرض كان سابقا لخلق السماء، يعزز ذلك قوله تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداد ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض اثنيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين).

واستدل آخرون على أن خلق السماء كان أسبق من خلق الأرض بقوله تعالى بعد ذكر خلق السماء: (والأرض بعد ذلك دحاها (لكن التأويل المناسب لمدلول النصين خروجا من التعارض بينهما هو أن الأرض إذ خلقت قبل السماء لم يكن خلقها على الشكل الأولى الذي تصلح معه الحياة، بل كان ذلك على سبيل الإيجاد البدائي المجرد أو التخليق الذي لم يكن متبلورا بعد، وإنما حصل التبلور والاكتمال في خلق الأرض بما تصلح معه للحياة بعد أن خلقت السماء، ويمكن إدراك هذا المعنى من المفهوم الوارد في الآية، فدحي الأرض يعني جعلها صالحة للحياة والعيش بإيجاد الأسباب لذلك من إخراج للمياه، وإنبات للزرع والشجر، وإيجاد للهواء وغير ذلك مما ييسر للخلائق أن تعيش.

قوله: (فسواهن سبع سماوات (أي جعلهن وصيرهن سبع سماوات، والفعل سواهن من الاستواء وهو الاعتدال والاستقامة، وبذلك فإنه يفهم من ظاهر العبارة أن الله خلق السماوات السبع على نحو سوي معتدل ليس فيه اعوجاج أو خلل، بل خلق متوازن مترابط لا يعتوره أدنى ضعف أو تعارض أو فوضى، يقول سبحانه في كلمات كريمة أخرى: (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير).

قوله: (وهو بكل شيء عليم ((هو (ضمير في محل رفع مبتدأ، وخبره (عليم (وذلك تعظيم لقدر الله، وإظهار لشأنه الأجل وعلمه الذي وسع كل شيء فهو سبحانه محيط علمه بالأشياء والحوادث جميعا وعالم بالأسرار والخفايا والأستار والخبايا وبكل ما استكن في هذا الوجود - ١٦

٣٠ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لم قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم ءادم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنت صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (إذ ظرف زمان يفيد الإخبار عن المستقبل، وقال أكثر المغربين، إنه مفعول به فهم يقدرون: اذكر وقت كذا - ١٧

والملائكة مفردها ملك وهو مشتق من الألوك وقيل من المألك وهي تعني الرسالة، وأصل ملك ملأك ثم نقلت حركة الهمزة إلى الام فسقطت، وقيل في لفظ ملك أنه مشتق من الفعل أنك بمعنى أرسل، وقيل غير ذلك وعلى العموم فإن الملائكة من حيث المفهوم اللغوي تعنى الرسل - ١٨

وفي الآية إخبار من الله عن خطابه للملائكة بأنه خالق في الأرض (خليفة (جاء في معناها عدة أقوال منها أنه يخلق من كان قبله من الملائكة أو غير الملائكة.

وقيل: بل سمي خليفة لأن نسله وذريته يعقب بعضهم بعضا على هيئة أمم وأجيال، وثمة قول ثالث جدير بالاهتمام وهو أن آدم خليفة الله في إمضاء أحكامه وتنفيذ أمره وشرعه، فالله سبحانه هو الآمر الموجب، وهو سبحانه شارع الدين لعباده بما في الدين من أصول وكليات وما يتفرع عن ذلك من فروع وتفصيلات، وذلك كله بتقدير الله وأمره الذي ينبغي للناس أن يمتثلوه دون تقصير أو تخلف، ومن بعد ذلك يأتي دور الإنسان وهو دور كبير حقا، يتجسد في اضطلاع هذا الإنسان الخليفة بتطبيق شرع الله كاملا غير منقوص وباتخاذ كل ما يلزم من أسباب إجرائية أو وقائية أو غير ذلك من أسباب وذلك لإجراء شرع الله على العباد.

والإنسان " الخليفة " لهو كائن عظيم القدر في تصور الإسلام، وهو كذلك بالغ الشأن وكبير الاعتبار في ميزان الله، وهو لا يعدله في شأنه واعتباره أي كائن آخر إذا ما كان (الإنسان) على صراط الله ويمضي في الحياة على بصيرة من منهج الله الكبير، أو كان من المؤمنين الأوفياء الذين صدقوا الله المقاصد والنوايا، واستمسكوا بعقيدة الإسلام تعمر قلوبهم بالأمن والرضا، ذلك هو الإنسان " الخليفة " الذي يمشي على الأرض ذاكرا لآلاء الله شاكرا لأنعمه، لا يند عن صراطه وشرعه ولو احتمل معطاء وباعثا للخير له ولمن حوله من الناس حتى البهائم والأنعام ينظر إليها بعين الرعاية والحدب والرحمة.

ذلك هو الإنسان " الخليفة " الذي يحمل في الأرض أفدح أمانة قد عجزت دون حملها السماوات والأرض والجبال، وتلك هي أمانة العقيدة التي يطويها القلب في شغافه وحناياه لينطلق في ضوئها عاملا كادحا باذلا لا يتوانى عن أداء الخير والفريضة والمعروف، ولا يثني عن وجيبة التبليغ للناس في شجاعة وحماسة وإحساس بفريضة الجهاد يؤديها العبد المؤمن دون تهيب أو فرق ودون ضعف أو جل أو نجل.

والإنسان وهو على هذه الشاكلة من الإيمان والعمل ومن البذل والاستقامة والصبر، لهو ذو شأن عظيم من حيث المنزلة، وهو الكائن

المكرم المفضل الذي يسمو على الكائنات جميعا والذي يرصد له الله من العناية والصيانة والتشريع ما يرقى به رقيا عظيما، وليس لأحد بعد ذلك أن يعتدي على هذا الإنسان " الخليفة " كيفما كان الاعتداء، فإنه لا يعتدي عليه إلا جانف هالك، وأصدق ما يرد في هذا الصدد، (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما (ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم) ١٩ ويقول في حديث آخر يطير منه القلب هلعا رعبا: (لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار) ٢٠ وفي الحديث القدسي: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذ بي لأعذته).

وقوله: (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء (لا نتصور أن مثل هذا السؤال من الملائكة يرد على وجه الاعتراض أو الاستنكار وهم العباد الأبرار المقربون الذين (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (ولكنه يرد على سبيل التعرف والاستفهام، على أن ظاهر الآية يدل على علم الملائكة بما ستؤول إليه حال البشر لدى وجودهم في هذه الدنيا، فلسوف يكون ثمة إفساد وسفك للدماء وغير ذلك من وجوه المعاصي والمفاسد والآثام وما يتفرع عن ذلك من قضايا ومشكلات تجرجر المتاعب والشدائد وتسبب الهموم والبلايا.

أما سبب إدراك الملائكة لهذه الحقيقة من الإفساد وسفك الدماء: فلعل ذلك لعلم قد علموه من الله بوجه من الوجوه كالإلهام أو غيره، فهم لا يعلمون الغيب، لكنهم أعلموا أن بني آدم لو جاءوا الى هذه الأرض فسوف يكثر الفساد، وتنتشر الآثام والمعاصي، ويقع القتل والجور وسفك الدماء بغير حق، وقد جاء في تعليل معرفة الملائكة كذلك أنهم قد أدركوا هذه الحقيقة من خلال اللفظة القرآنية التي واجههم بها الله وهي (خليفة (فعرفوا بما أوتوه من نباهة وعميق إدراك أن الخلافة مناط القضاء والفصل بين العباد، وفي ذلك من المنازعات والخصومات ما يقود في الغالب إلى المحظورات والخطايا والمعاصي، وقيل غير ذلك من تأويلات والله أعلم بالصواب.

ويستفاد من قوله تعالى: (جاعل في الأرض خليفة (وجوب نصب إمام أو خليفة للمسلمين يسمعون له ويطيعون، لتجتمع به كلمتهم وينفذ فيهم أحكام الشريعة فيفصل بين الناس فيما يعرض لهم من خلافات ومنازعات فينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم فيهم حدود الله بما يزجرهم عن فعل الفواحش والمنكرات إلى غير ذلك مما لا يمكن إقامته أو تنفيذه إلا بالإمام المسلم العادل، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

أما طريقة اختيار الخليفة للمسلمين فأوسط ذلك وأعدله أن يجتمع أهل الحل والعقد - وهم فئة العلماء في المسلمين - فينظروا أكثر الناس صلاحا لحمل هذه الأمانة الكؤود، لينصبوه إماما للمسلمين، فإذا رضي من نصبوه لذلك بحمل أمانة الخلافة بايعه أهل الحل والعقد، ثم بادره المسلمون جميعا بالبيعة بعد أن يعرض على مسامع الناس برامجه وخططه في سياسة البلاد ورعاية شؤون المسلمين.

أما الواجبات المنوطة بالإمام والتي يضطلع بمراعاتها وتنفيذها دون لين أو تردد فقد ذكرها الماوردي بما نوجزها هنا إيجازا وهي عشرة أشياء.

الأول: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.

الثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

الثالث: حماية البيضة ٢١ والذب عن الحريم ٢٢ لينصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

الرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

الخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون منها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما.

السادس: جهاد من عائد الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله في إظهاره على الدين كله.

السابع: جناية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف.

الثامن: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استكفاء الأمناء ٢٣ وتقليد النصحاء ٢٤ فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال.

العاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض ٢٥ تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين وبغش الناصح ٢٦.

ويشترط في الإمام كيما تناط به وجيبة الإمامة جملة شروط هي:

أولا: الإسلام فلا يجوز بحال أن تناط إمامة المسلمين بغير مسلم، وكيف يعقل أن يكون حاكم المسلمين على غير ملتهم ثم يسوسهم بشريعة الله التي يجحدها ويستدل على ذلك بقوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (وهذا يدل بظاهره على أن الذي يلي أمور المسلمين هو أحدهم وعلى ملتهم.

ثانيا: الذكورة فإنه لا يكون حاكم المسلمين إلا واحدا من الرجال، ولا يجوز أن تناط إمامة المسلمين أو ولايتهم بامرأة لقوله عليه الصلاة والسلام، " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " - ٢٧

أما وجه ذلك من المعقول: فهو أن وجيبة الخلافة أو الولاية ثقيلة وصعبة وكؤود إنها وجيبة لا يقوى على احتمالها غير الصناديد النوادر من الرجال أولي العزم والحزم والبأس، لا جرم أن الإمامة أو الولاية لا يطيقها الناس برمتهم أو جلتهم، وذلك بالنظر لفداحة هذه المهمة الخطرة التي تضطرب لها عزائم الرجال وهممهم فهي لا يصلح لها من الناس إلا من كان لا يلين ولا يضطرب ولا يتعثر لدى مواجهة الملمات والنوائب، وذلك – لعمر الحق- عمل فادح ومزلزل لا يطيقه إلا من أوتي حظا هائلا من قوة الإرادة والصبر، وشدة العزيمة والبأس فضلا عن أوصاف أخريات في العلم والحلم والخلق، لا جرم أن ذلك مما تنكص دون بلوغه النساء اللواتي جبلن على الرقة والعاطفة واللين تمشيا مع طبيعة الأنوثة التي لا تطيق مثل هذه الوجيبة الشاقة العسيرة، أما توليها لوظيفة القضاء فلا يجوز كذلك، وهو قول أكثر العلماء خلافا للحنفية إذ قالوا بجواز تقلدها القضاء، فلها أن تقضي في عامة الأمور باستثناء الدماء والحدود.

ثالثا: العدالة وهي ضد الفسق، ويراد بها الاعتدال في الأحوال الدينية، وبيان ذلك اجتناب الكبائر والمحافظة على المروءة بترك الصغائر، وأن يكون الإمام ظاهر الأمانة غير مغفل.

وقال ابن حزم في صفة الإمام: إن يكون مجتنبا للكبائر مستترا بالصغائر - ٢٨

رابعا: العلم الذي يكون بمقتضاه مجتهدا في مختلف النوازل والأحكام قال القرطبي في ذلك: أن يكون (الإمام) ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث.

خامسا: السلامة من العيوب وذلك كالعيوب البدنية، كما لو كان فاقدا أرجليه أو إحداهما، أوز كان فاقدا ليديه أو إحداهما أو كان ضريرا لا يبصر، أو أصم لا يسمع، أو كان أخرس لا ينطق، فتلك عيوب لا يستطيع المرء معها من تولي أمر الناس، فالذي تناط به وجيبة الإمامة ينبغي أن يكون على غاية من النشاط والحركة وتمام اليقظة والحذر وبالغ الاهتمام واليقظة والحرص، وتمام القدرة على الإقناع وفض النزاعات والخصومات.

وكذلك العيوب العقلية، كالجنون والعته والصرع وانفصام الشخصية، واضطراب الأعصاب المستديم إلى غير ذلك من الأمراض المزمنة والخطيرة التي تحول بين المصاب بها وبين تولي أمور المسلمين - ٢٩

سادسا: أن يكون الإمام من قريش إلا أن يطرأ زمان فلا يكون في قريش إمام مناسب تتوفر فيه شروط الإمام العادل الصالح، وحينئذ لا بأس في اختيار الإمام من غير قريش، ٣٠

ما رواه الحاكم والبيهقي عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " الأئمة من قريش " ٣١ وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته تعليلا لاشتراط الإمامة من قريش وذلك من وجهين:

الوجه الأول: مجرد التبرك من قريش لكونها موطن النبوة.

الوجه الثاني: الغلبة التي كانت لقريش، وذلك لقوة سلطانهم ونفوذهم بما يحمل الناس على السمع والطاعة بعيدا عن الفتنة والاضطراب - ٣٢

سابعا: أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحروب وإعداد الجيوش والتخطيط لقتال العدو في حنكة وبراعة واقتدار.

تاسعا: أن يكون بالغا عاقلا، وهو ما لا خلاف فيه - ٣٣

وإذا انبرم العقد للإمام فنصب خليفة للمسلمين ثم أصبح بعد ذلك فاسقا فسقا ظاهرا معلوما، فإنه تنفسخ إمامته وبخلع بفسقه الظاهر

المعلوم، ووجه ذلك: أن للإمام إنما نصب للإمامة لتنفيذ شريعة الله بين العباد بإقامة الحدود واستيفاء الحقوق والنظر في شؤون المسلمين بما يصلح حالهم، فإذا بات الإمام فاسقا كان ذلك مدعاة لإبطال ما أقيم لأجله، والحيلولة دون قيامه بواجب الرعاية للمسلمين فوجب بذلك خلعه، وهو قول الجمهور وقال آخرون: لا ينعزل بالفسق بل ينعزل بالكفر أو بترك شيء من الشريعة، وذلك للخبر: " إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ".

وإذا انعقدت الإمامة لأحد المسلمين باتفاق أهل الحل والعقد وجب على الناس جميعا أن يبايعوه على السمع والطاعة وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن أبى البيعة لعذر عذر، أما من أبى لغير عذر كان ناكفا مريئا فيجبر على المبايعة كيلا تفترق كلمة المسلمين - ٣٤

قوله: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك (تسبيح الله هو تنزيهه عن النقائص والعيوب وذلك من السبح وهو لغة الذهاب، أي أن المسبح ذاهب في عبادة الله وتقديسه وفي تنزيهه عما لا يليق بجلاله، أما التقديس فهو التطهير ويؤخذ من ذلك المقدس والقدس أي الظاهر النقي، ومنه بيت المقدس حيث يتطهر العبد فيه بالعبادة والصلاة والتحنث من الأخطاء والذنوب.

قوله: (قال إني أعلم ما لا تعلمون (الله جل وعلا يعلم ما لا تعلمه الملائكة، إنه سبحانه عليم بما كان وما هو كائن أو سوف يكون وقد جاء في إعراب (أعلم (قولان: أحدهما أن ذلك فعل مضارع وهو في تقديرنا الراجح، وعلى ذلك تكون ما اسم موصول في محل نصب مفعول به وقيل: اسم بمعنى عالم فيكون بذلك مضافا، وما مضافا إليه والله سبحانه وتعالى عالم بما سيكون عليه هذا الإنسان الخليفة وبما سيؤول إليه من أحداث ومعطيات وما يتحقق على يديه من ظواهر غاية في الضخامة والعجب، وغاية في الأهمية وبالغ التأثير بما ينطوي عليه ذلك كله من جليل القضايا في العقيدة والإيمان وما ينشأ عن ذلك من روائع ومثاليات تحار لها الملائكة وتعجب.

الله جل وعلا يعلم أن سيكون من نسل آدم الخليفة أنبياء ومرسلون ودعاة الى الله بإحسان، وأن سيكون من ذريته أتقياء بررة، ينشرون في الأرض منهج الخير والعدل، ويرسون فيها أسباب الهداية والاستقامة، وأن سيكون كذلك أجيال وأمم يؤمنون بالله ويدينون بدينه الذي يحوي كطل قواعد الحق والخير، ويندد بكل بواعث الجريمة والشر.

٣١ - (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: (وعلم آدم الأسماء كلها (آدم من الأديم وهو وجه الأرض حيث التراب أو الطين الذي خلق منه أبو البشر، وثمة أقوال أخرى للعلماء في أصل هذه الكلمة، وذلك كقوله تعالى: (إني خالق بشرا من طين (وقوله: (خلق الإنسان من صلصل كالفخار (وقوله: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين).

أما تعليم آدم الأسماء كلها فإن ذلك موضع خلاف بين العلماء والمفسرين في ماهية هذه الأسماء وفي حقيقتها، ولعل أصوب هذه الأقوال هو أن الله جلت قدرته قد علم آدم الأسماء التي يتعارف بها الناس مثل: إنسان وأنعام وأرض وسماء وبحر وبر وسهل وجبل وماء وتراب وطعام وهواء وزرع وثمر وذكر وأنثى وخير وشر وصدق وعدل وغير ذلك مما عرفته البشرية، ذلك هو القول الذي يمكن الركون إليه وترجيحه وإن كان قد ورد غير ذلك في المقصود من الأسماء والله أعلم.

قوله: (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء (عرض الله المسميات على الملائكة وطلب منهم أن يكشفوا عن أسماء هذه المسميات، وذلك على سبيل الامتحان لهم، كيما يعلموا فيما بعد أن هناك من خلائق الله من هم أعلم منهم أو من هم أعظم منهم درجة وهؤلاء هم النبيئون وذلك على القول الذي يذهب الى تفضيل النبيين على الملائكة.

وقوله: (إن كنتم صادقين (وذلك في زعمكم أنه لم يخلق أحد يبعد أعلم منكم، وفي قول آخر لابن عباس: إن كنتم صادقين في قولكم إن آدم وذريته سوف يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

٣٢ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

قوله: (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا (بادر الملائكة الأطهار توا بتنزيه الله جل وعلا على أن يحيط أحد بشيء من علمه أو أن

يقف أحد من الناس على جزء من علم الله غير العلم الذي أذن به الله لهم.

قوله: (إنك أنت العليم الحكيم (ذلك تأكيد منهم على أن الله تباركت أسماؤه عليم بالحقائق جميعها مما هو كائن أو ما سيكون وهو كذلك عليم بما يعلمه الناس وما لا يعلمونه، وكذلك فإن الله سبحانه حكيم في قضائه وتصريفه لشؤون الحياة والخلائق، ولا يصدر شيء من ذلك إلا حكمته البالغة المطلقة.

٣٣ - (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

قوله: (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم (أمر الله في ذلك آدم أن يدل الملائكة على أسمائهم أنفسهم وعلى أسماء الأشياء على اختلافها وتعددها، وذلك ليعلموا أن آدم لذو شأن عظيم ولسوف يكون من نسله أناسي كرام وأفراد أفذاذ يقفون على القمة الرفيعة من السداد والاستقامة والفصل.

وقوله: (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (كان إنباء آدم للملائكة عن أسمائهم وأسماء الأشياء المختلفة الأخرى، مبعث إعجاب الملائكة أنفسهم لهذا الكائن العظيم الجديد الذي ما كانوا يعرفونه من قبل حق المعرفة إلى أن كشف الله لهم عن شأنه واعتباره حتى سألهم الله: (ألم أقل لكم إني - - - (أي ألم أكن قد بينت لكم من قبل أني أعلم بالغيب، غيب السماوات والأرض، وأن شيئا فيهما لا يخفى على أمره وأن ما سيقع من أمور وأحداث بدءا بالهيئات منها حتى الجسام الفوادح فإني علام بذلك كله، وكذلك فإني عليم بما تظهرونه من أقوال وأمور وقضايا، وعليم كذلك بما تبطنونه من أخبار وأسرار تظل خبيئة النفوس والنوايا، وقيل في معنى هذا الشطر من الآية: إن الله عليم بحقيقة ما أبدوه وهو قولهم: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء (وأن مآل هذا القول ليس كما تحسبه الملائكة أو تتصوره، أما الشطر الأخير من الآية وهو (وما كنتم تكتمون (أي أن الله عليم بما كانت الملائكة تتصوره وهو أن الله سبحانه لن يخلق أحدا أعلم منهم أو أعظم منهم فضلا، وقيل غير ذلك والله جل وعلا أدرى وأعلم.

٣٤ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (

إذ ظرف زمان في محل نصب، قلنا جملة فعلية تتألف من الفعل ثم الفاعل وهو الضمير نا، وفي الآية بيان عن أمر الله للملائكة أن يسجدوا لآدم لكي يرسي في أذهانهم حقيقة هذا الكائن العظيم الذي سيكون له ولذريته شأن جليل وبالغ الأهمية، وقيل الخوض في معنى السجود الوارد في هذه الآية فإننا نؤثر أن نؤكد على أن السجود وهو قمة الخضوع والامتثال أصلا لا يكون إلا لله وحده - وعلى ذلك فإن السجود لآدم ليس من باب العبادة، ولكنه يقتضي تفصيلا نوضحه في الفقرات الآتية:

فقد اختلفت كلمة أهل العلم في حقيقة السجود الذي مارسته الملائكة لدى الطلب منهم بأداء ذلك، ولعل القولين التاليين هما اللذان يعول عليهما لدى التدقيق في هذه المسألة.

أما القول الأول: فهو أن السجود لآدم كان على النحو الذي حدده الشرع والعرف وهو وضع الجباه على الأرض، وذلك الذي يناسب ظاهر اللفظ في الآية الكريمة، وهو أقل إغراقا في التأويل الذي قد يحمل على التكلف، لكن ينبغي التركيز على الحقيقة الأساسية وهي أنه ليس المقصود من السجود العبادة، فإن العبادة لا تكون لأحد سوى الله، وعلى ذلك يمكن تفسير قوله: (اسجدوا لآدم (أن يكون السجود أمامه ليكون كالقبلة للمصلي، فالمسلمون في صلاتهم يتوجهون صوب الكعبة، فهم بذلك يسجدون إليها أي صوبها أو شطرها لا لها أو من أجلها وذلك كله على سبيل التكريم لآدم والتعظيم ولتعلم الملائكة أي كائن هذا الذي يقفون أمامه احتراما وإجلالا أو أنه كائن ذو شأن مقدور ومسطور في علم الله القديم، وسيكون من ذريته من أطهار النبيين والصديقين والمتقين ما يخلب اللب خلبا.

وأما القول الثاني: فهو أن السجود ليس على هيئته المعروفة من الانحناء ووضع الجبهة على الأرض مثلما هو مبين في الشرع، وإنما

المقصود بالسجود الذي أدته الملائكة هو التذلل والانقياد، وذلك الذي ينسجم مع المفهوم اللغوي لهذه الكلمة، فكأن الأمر من الله للملائكة في أن يخضعوا لآدم وأن يقفوا أمامه في تطامن وإجلال إقرارا منهم له بالفضل، هذان القولان خير ما ورد في تجلية حقيقة السجود، وهما قولان لا جرم أن يكونا موضع تقدير الباحث المتدبر، مع أن أقوالا أخرى للعلماء في هذا الصدد لا نجد حاجة لطرحها ومناقشتها.

قوله: (فسجدوا إلا إبليس (امتثلت الملائكة لأمر الله سراعا نخروا ساجدين غير إبليس الذي أبى أن يمتثل للأمر، وإبليس من الإبلاس وهو الأس، والفعل أبلس بمعنى أيس الرجل أي افتقد الأمل والرجاء ثم اسم الفاعل مبلس وهم الآيس، وقد ورد مثل ذلك في قوله تعالى: (فإذا هم مبلسون (وقيل أن هذا الاسم لا ينصرف لأنه أعجمي - ٣٥

على أن إبليس من حيث أصله يعتبر مسألة أثارت بين العلماء خلافا يمكن أن نعرض له هنا في إجمال، فقد ذهبت جمهرة كبيرة من العلماء إلى أن إبليس واحد من الملائكة، وذلك ما يوحي به ظاهر الآية، وعلى هذا يكون الاستثناء هنا متصلا لكن فريقا آخر من العلماء قد ذهبوا إلى أنه لم يكن الملائكة، وأنه من الجن فيكون الاستثناء بذلك منقطعا، أي أن المستثنى – وهو إبليس- ليس من جنس المستثنى منه وهم الملائكة واستدل هؤلاء على ذلك بأن الملك دائم الطاعة والتقوى لله، وأنه لا يعصي له أمرا كلفه به، وفي ذلك يقول سبحانه عن الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (وثمة نص قرآني آخر يزجي بالدلالة الواضحة الجلية على أن إبليس ما كان من الملائكة وهو قوله سبحانه: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه (وذلك تبيين لحقيقة إبليس وأنه من حيث أصله كان من الجن وهؤلاء صنف من الخليفة التي لا تشبه الملائكة أو البشر وذلك لتحليقهم أصلا من جنس النار، (وخلق الجان من مارج من نار (ذلك ما ورد في أصل إبليس وإن كنا نرجح القول الثاني وهو أنه من غير الملائكة والله سبحانه أعلم.

وقوله: (أبى واستكبر وكان من الكافرين (امتنع إبليس من السجود وتولى عن أمر الله مستكبرا بعد أن أغواه إحساسه بالعظمة والكبر، وذلك داء خطير يعصف بالمخلوق ويزين له كل ضروب المعصية والفسق عن أمر الله، الى أن يودي به أخيرا في الهاوية والسقوط في الأذلين ومع الكافرين الذين يجحدون نعمة الله ويعلنون عليه الحرب والتمرد في مجاهرة وتوقح.

٣٥ - (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (ذلك من قصص الله سبحانه وهو أصدق القائلين إذ يبين مناداته لآدم وزوجه أن يسكن وإياها معا في الجنة، أي يقيم وإياها مستأنسين مطمئنين، ثم يأكلا من الجنة رغدا حيث العيش الدائم المستقر الذي لا يخالطه عناء أو قلق أو إيحاش وزوج آدم هي حواء وسميت بذلك – كما قيل- لأنها خلقت مكن حي وهو زوجها آدم، وقد ثبت ذلك في نصوص كثيرة منها: (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها (وذلك الذي نستطيع أن نتصوره مستيقنين من غير وقوف على الكيفية التفصيلية لهذا الخلق إلا ما ورد عن خلقها من ضلعه الأيسر، وفوق ذلك من أقوال وتفصيلات لا نستطيع الركون إليها والتحقق من صحتها على التمام، وذلك لظنية المصدر الذي يستند إليه كثير من الناس لدى إيراد مثل هذه الأخبار.

والدعوة لآدم وزوجه أن يأكلا من الجنة رغدا، وليست الجنة – كما يتصور بعض الجاحدين في التفكير من أمثال المعتزلة- في الأرض استنادا إلى ظاهر من بعض النصوص القرآنية، وما هذا التصور إلا مجانبة للصواب الذي اجتمعت عليه الدلائل القاطعة الجلية، فلا تتردد مقال ذرة في التيقن بأن الجنة المذكورة هنا لهي في السماء.

وقوله (رغدا (صفة لمفعول مطلق محذوف، وتقديره أكلا رغدا، ٣٦ والرغد هو السعة والعيش الهانئ المطمئن الذي ليس فيه نصب أو ضيق، نقول راغدا ورغيد أي عائش في خير ولين وسعة.

وقوله: (حيث شئتما (حيث ظرف مبني على الضم، أي اسكنا أي مكان من هذه الجنة، واستمتعا بطيباتها وخيراتها وتقلبا هاتين خلالها

لا ينالكم فيها تعب، ولا يطرأ عليكم هم ولا حزن، وأنتم صائرون كذلك في هذا النعيم إلى ما شاء الله.
قوله: (ولا تقربا هذه الشجرة (وذلك نهي من الله لآدم وزوجه كيلا يقتربا مجرد اقتراب من الشجرة المعنية التي بينها الله لهما، والمقصود في النهي أصلا هو الأكل، لكن النهي عن مجرد الاقتراب لهو آكد في التحذير ومجانبة الشجرة ومن المبادئ الأصولية المعتمدة في شريعة الإسلام مبدأ " سد الذرائع " وهو يقوم على تحريم ما وقع في الحرام أو ما يوشك أن يكون سبيلا تقود إلى المحظور نفسه، وذلك كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما تبين في الحديث الشريف.
واسم الإشارة (هذه (في محل نصب مفعول به، والشجرة بدل منصوب لكن هذه الشجرة من حيث حقيقتها ونوعها غير معروفة، وكل التفسيرات التي وردت في هذا الصدد لتحدد هذه الشجرة بالاسم لا تستند الى دليل موثوق من نص، وهي لا تستند في ذلك إلا الى أقوال في التوراة أو الإسرائيليات التي لا نركن إليها والتي لا تصلح دليلا في مثل هذه المواقف الغيبية، وعلى ذلك فإنه لا مساغ لامرئ مسلم أن يخوض في مثل هذه المسألة خوض المتكلف فيما يورده موارد التمحل والزلل - إنما يجدر بالمسلم أن يقف في ذلك عند مفهوم العبارة المحدد للنص القرآني وهو أن آدم وزوجه قد نهيا عن الأكل من شجرة معينة، في الجنة لا نعلم عن حقيقتها وتحديدها شيئا، وكل الذي نعرفه أنها شجرة، الله أعلم بها.
قوله: (فتكونا من الظالمين (من الظلم ومعناه: وضع الشيء في غير موضعه وفي المثل " من استرعى الذئب في غير موضعه المناسب الذي يقتضي الإخلاص والحذر هكذا تكون المعاصي والذنوب دليلا على السير في غير المسار السليم أو الصراط المستقيم، حتى الإنسان نفسه إذا ما تنكب عن صراط الله أو تمرد على دينه ومنهجه سبحانه فقد وضع نفسه في غير موضعه الصحيح، بل إنه ضل ضلالا أو دس به إلى العمه والازورار ومضى يخيط في طريق وعر ملتوية، وما كان شيء من ذلك ليكون لولا التنكب عن صراط الله ليكون بدلا منه صراط آخر غير سوي ولا سليم وذلك هو الظلم.
٣٦ - (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)
قوله: فأزلهما الشيطان عنها أزلهما من الإزالة أو الزوال بمعنى الصرف والإبعاد، وقريب من هذا المعنى وهي التنحية، وثمة قول آخر وهو يتضمن معنى الزلل، أي أن الشيطان قد أوقع آدم وحواء في الزلل وهي الخطيئة بمعصية الله سبحانه، والذي يعول عليه هو القول الأول والذي يذهب إلى أن الكلمة تعني التنحية والإبعاد عن الجنة بسبب المعصية، وعلى ذلك يكون قوله: (عنها (معناه: بسببها أي بسبب الخطيئة المقترفة، والشيطان من الفعل شطن أي بعد وأشطن أي أبعد عن الخير والحق ونقول: تشيطن أي فعل فعل الشيطان، وهو البعد عن الخير والحق.
والمصدر شطون وهو البعد، وعلى ذلك فالشيطان كلمة تتضمن الكائن الجني أو الإنسي البعيد عن الخير والحق، فهو بذلك الكائن العاتي المتمرد الذي تجتمع في كيانه كل مسالك الشر والباطل، والذي يسعى في الأرض ليثير فيها أسباب الفساد والشر وكل ظواهر الأذى والباطل.
قوله: (فأخرجهما مما كانا فيه (قد أنزل الشيطان آدم وزوجه بإبعادهما وتنحيتهما عن الجنة حيث النعيم، المقيم وحيث الخير والأمن والعيش الرغيد، وقد كان ذلك حسدا من ذلك الكائن المتمرد اللعين الذي جهد في إغواء آدم ليخرجه وزوجه مما كانا فيه من نعيم الجنة.
قوله: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو (كان ذلك قرارا ربانيا حاسما لا معقب له، وهو أن يهبطوا من الجنة ليكون بعضهم لبعض عدو، والهبوط معناه النزول من عل إلى أسفل واختلف في حقيقة المخاطبين الذين تشير إليهم واو الجماعة في قوله: (اهبطوا (ولعل الراجح في ذلك أنهم آدم وزوجه حواء ثم إبليس، وقيل المقصود هم آدم وزوجه وذريتهما من بعدهما، لكن القول الأول أقرب للصواب وذلك بالنظر للإيحاء الذي يشير إليه قوله: (عدو (ذلك أن بني آدم في صراع محتوم ومستديم مع الشياطين، سواء منهم شياطين الجن أو شياطين الإنس، فكلهم شياطين يوحون لبني البشر بالفتنة وصنع الموبقات ليظلوا في عناء وعنت في هذه الدنيا وليكتب للهالكين منهم وتعس وسوء مصير.
وحقيقة النزول هنا يمكن تصورها على أنها مفهوم نسبي، وذلك بالنظر لتصور الإنسان الحسي عن الهبوط أو الانحدار مما هو عال مرتفع

مزعوم ليقول ألا هبوط أو نزول ما دامت الأجرام تدور في أفلاكها وسط هذا الفضاء الرحيب.

قوله: (بعضكم لبعض عدو (عدو من العدوان وهو الظلم، أو مجاوزة الحد كما قيل والعدوان هنا مجاوزة الحد حاصلان في هذه الدنيا بما تحويه على متنها من خلائق من البشر أو الشياطين، والبشر في هذه الحياة تدور فيما بينهم قوارع الصراع المحتدم وعواتي الظلم اللجوج ما دامت النفوس يحفزها الهوى الجانح أو الأنانية الضاغطة، وكذلك فإن الصراع عات ومحموم بين البشر أنفسهم و الشياطين، و كلا الفريقين يمران في الأرض لا يبرحهما الكيد و العداء و التربص.

و على ذلك فإن بني آدم و الشياطين بعضهم لبعض عدو فضلا عن العداء الذي يدور بين بني آدم أنفسهم، و سوف تظل الحال على هذا المنوال من العدوان المستحكم في هذه الأرض ومن عليها حتى يرث الله الأرض و من عليها - مع أنه قد قيل في المقصود من هذه الآية بأن العدوان المستحكم بين الناس أنفسهم و فيما بينهم.

و في تقديرنا أن هذا القول أن هذا القول مرجوح و أن القول الأول لهو الصواب و الله أعلم.

قوله: (و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين) الجار و المجرور في قوله: (لكم) في محل رفع خبر مقدم، و مستقر مبتدأ - الله جل جلاله يقرر بعد هبوط آدم إلى الأرض أن له و ذريته مستقرا و هو القرار المؤقت - و أن لهم كذلك فيها متاع، و هو كل ما يستمتع به من زاد أو كساء أو حديث أو صحبة أو مأوى - على أن ذلك كله يتسم بالتوقيت المحدود الذي ينتهي بعد حين و هو قدوم الموت - و على ذلك فإن الاستقرار و المتاع على هذه الأرض يكونان حال الحياة و قبل انتهاء الأجل، فالمقصود بقوله: (حين) الموت - و قيل: معناه قيام الساعة - و لا نتصور هذا، بل إن القول الأول هو الراجح.

٣٧ - (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

قوله تعالى: (فتلقى ءادم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) ثمة أقوال في تفسير التلقي هنا، و لعل الأصوب أن يكون معناه الاستقبال - فقد استقبل آدم من ربه كلمات علمه إياهن للحصول على التوبة، لكن ما هذه الكلمات و ما حقيقتها؟ و للإجابة عن ذلك يمكن الاطمئنان إلى أن المقصود بهذه الكلمات هو الدعاء المتضرع الخاشع من خلال كلمات يقولها آدم ليعلن أمام الله توبته و ندامته.

وبعد تحقيق ذلك امتن الله عليه بالتوبة و الغفران.

و قوله: (فتاب) من التوبة و هي الرجوع إلى الله بالإقلاع عن المعاصي إلى الطاعات، وكذلك تكون توبة العبد إذ يؤوب إلى ربه طائعا نادما عما اجترحه من مخالفات، أما التوبة من الله فلا يتصور فيها الرجوع منه سبحانه، لكن القول الذي يمكن اعتماده في بيان ذلك هو أن الله عز و جل يقبل توبة العبد إذا تاب و أناب، لأنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده - و الله من صفاته أنه (التواب الرحيم) فلا ريب في أنه دائم التوبة عظيم التجاوز عن الخطايا و الذنوب، و هو كذلك رحيم بعباده يغمرهم بواسع رحمته و فضله و إحسانه.

٣٨ - (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله تعالى: (قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون - و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ذلك تكرار للقرار الرباني العظيم بالهبوط إلى الأرض، و هو تكرار يقصد به التأكيد الذي لا ينفذ إليه تردد أو انثناء و هو أن ينزل آدم و زوجه إلى هذه المعمورة لتكون لهما عليها الذرية المنتشرة في بقاع الدنيا، و ليكون الصراع و الجد و العناء.

و قوله: (جميعا) منصوب على الحال - و الجملة الفعلية بعد القول في محل نصب مفعول به.

و قوله: (فإما يأتينكم مني هدى) أصل (فإما): فإن ما، أدغمت إن الشرطية بما الزائدة، و الجملة الفعلية بعدها للشرط - و الهدى ما يهتدي به الإنسان إلى سواء السبيل، يستوي في ذلك كتاب الله أو الرسل أو الملائكة، فكل أولئك دعاة إلى الله يكشفون للبشرية عن دروب التوفيق و الخير، و يحذرونها من عواقب الضلالة و التعثر.

و قوله: (هدى) فاعل لفعل الشرط قبله - و جواب الشرط مقترن بالفاء و هو قوله: (فمن تبع هداي) - و ذلك شرط آخر يتضمن

جملة الشرط (تبع هداي) و يتضمن أيضا جوابه (فلا خوف عليهم) أي أن جملة الشرط الثاني و جوابه جواب للشرط الأول.
هؤلاء المؤمنون الذين اتبعوا الهدى من ربهم هم الفائزون في الدارين - و أصدق ما ورد فيهم هذه المقالة الوجيزة العذبة و هي جواب الشرط الثاني (فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون) و خير ما قيل فيها من تفسير أن هؤلاء المؤمنين لا يخافون يوم القيامة يوم يخاف الناس و يوم ترتجف قلوبهم و أبدانهم، و ذلك لهول الموقف و جلال الخطب المروع - و كذلك فإنهم لا يحزنون كما يحزن الناس لدى مفارقتهم للدنيا حيث الصحب و الخلان و حيث العشيرة و الأهل و المال و الولد - و تلك أمور تشد إليها الإنسان شدا ليظل بها لصيقا من حيث حسه و عاطفته و هواه - فهو إذا ما أحس بفراق ذلك كله دهمته غمرة من الحزن المؤثر، لكن الذين هداهم الله لا يحزنون مثل ما يحزن هؤلاء، ليقينهم أنهم قادمون على خير من ذلك كله - فهم قادمون على رضوان من الله يملأ نفوسهم و أفئدتهم بالسكينة و الرضى و الحبور، ثم ما يتلو ذلك من عطاء الله الواسع مما لا عين رأت و أذن سمعت و لا طرأت على قلب بشر، جعلنا الله في زمتهم.
٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
وقوله: (و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) اسم موصول (الذين (في محل رفع مبتدأ وخبره الجملة الاسمية بعد صلة الموصول أي (أولئك أصحاب النار).
والذين كفروا هم الجاحدون لجلال الله المنكرون لأنعمه، وهم أصناف كثيرة من الظالمين الذين لا يرعون لله قدرا منهم المشركون والملحدون وأهل الكتاب وهم جميعا كافرون، وذلك لجحدهم وتكذيبهم لآيات الله وهي آيات بينات تنطق بالصدق والإعجاز ولا يمسها شيء من شك لكن الظالمين فريق من البشر الجاحد المستكبر الذي لا يصيخ لنداء الحكمة والعقل، فهؤلاء مكابرون لا يستمرئون غير التردد والفجور وغير التمرد المغتر اللجوج، إن هؤلاء الناس هم (أصحاب النار هم فيها خالدون (فهم بجحدوهم ولجوجهم وتمردهم أجدر أن يكونوا أصحاب النار - وصاحب الشيء أو المكان هو الذي يظل مستديم الإقبال عليه والثواء إليه في صحبة مقترنة متشاذة لا تعرف الهجران أو المبارحة، وهكذا يكون الكافرون المكذبون بآيات الله فهم أصحاب النار في ديمومة لا تنقطع، وفي اصطلاء حارق لا يعرف الفتور لكي يذوقوا وبال أمرهم جزاء ما اجترحوه من تمرد على الله وفسوق عن أمره.
٤٠ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)
قوله تعالى: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفي بعهدكم وإياي فارهبون وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين (إسرائيل اسم عجمي لا يقبل الصرف ومعناه عبد الله، وهو مرادف ليعقوب النبي عليه السلام، والله جلت قدرته يخاطب في هذه الآية اليهود وهم بنو إسرائيل ومن نسله وذلك لعبثهم في الأرض تخريبا وإفسادا على ما سوف نبين إن شاء الله يدعو الله هؤلاء اليهود أن يذكروا نعمته التي امتن بها عليهم، والذكر يكون بالقلب، كيلا ينسى، وباللسان كي يظل رطيبا بالشكران.
أما نعم الله التي أنعمها على بني إسرائيل فهي كثيرة وعظيمة لا نحسب أن أمة من الأمم قد أتيح لها مثل هذه النعم، ومن أنعم الله على بني إسرائيل أن جعل لهم في البحر طريقا يبسا يمشون فيه إلى أن كتب لهم الخلاص والنجاة من فرعون وجنوده الذين غشيهم من الإغراق في اليم ما غشيهم، وكذلك قد فجر الله لهم من الحجر الصلد، ماء دافقا يستقون منه جميعا بعد أن ضربه موسى بعصاه، ثم أنعم الله عليهم بالمن والسلوى وذان طعامان جيدان مهيئان يأكل منهما اليهود من غير أن يبذلوا عناء أو مشقة، ثم أظلهم الله بالغمام ليذرأ عنهم حر الشمس في الصحراء الممتدة التي لا يعمرها نبات ولا ظل، وكذلك قد أنعم الله على بني إسرائيل إذ بعث فيهم نبيين كثيرين، وجعلهم ملوكا وأعطاهم من الخيرات ما لم يعط أحدا غيرهم، ومن أجل ذلك فإن الله يذكرهم بقوله: (اذكروا نعمتي).
ومن لطيف القول أن يدرك المتدبر هذه المفارقة وهو يتلو تذكير الله سبحانه لأمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: (فاذكروني

أذكركم (فهو لم يقل كما قال لبني إسرائيل (اذكروا نعمتي (لما في ذلك من تذكير بالخير والنعمة ليخلصوا من بعد ذلك إلى ذكر الخالق سبحانه، وفي التذكير بالنعمة ما يشير إلى كثرة المنن التي أفاض الله بها على بني إسرائيل، وفيه كذلك مخاطبة الله لأمة الإسلام جاءت لتهتف بالقلوب والأذهان جميعا من أجل أن نتذكر جلال الله ولتقدره حق قدره وذلك على نحو مباشر لا يحتاج إلى تذكير بالنعمة إذ قال (فاذكروني أذكركم).

قوله: (وأوفوا بعهدي أوفي بعهدكم (الجملة الأولى للطلب والثانية جوابه، والله جلت قدرته يطلب من بني إسرائيل أن يوفوا بعهده، وهو هنا عام يتناول جميع الأوامر وما كلفوا به وعلى الأخص التكليف بأن يؤمنوا بالنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، إذ كان مكتوبا عندهم في التوراة فكان اسمه بذلك واضحا مستبينا لا يقبل المداهنة أو التحريف، فهو سبحانه يسجل كل ذلك عهدا عليهم، ويأمرهم أن يوفوا به ليوفيهم بعهدهم وهو أن يكتب لهم الخير والسلامة في الدنيا، وفي الآخرة لهم منه الجنة ونعم الجزاء الكريم المقيم.

قوله: (وإياي فارهبون (من الرهبة أو الرهب وهو الخوف، إياي مفعول به لفعل محذوف مقدر وتقديره: إياي ارهبوا فارهبون، وذلك خطاب من الله لبني إسرائيل ليخافوه فيبادروا بالطاعة ويتجنبوا المعصية، وأصل ذلك كله الخوف من الله جلت قدرته، وهو إذا ما خيف فقد تورع المرء عن التورط فيما يسيء الى جنابه الكريم، وانزجر عما نهى عنه الإله وحذر في كتابه وعلى لسان أنبيائه.

٤١ - (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

قوله: (وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم (يأمر الله بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزل وفيه تصديق لما معهم من التوراة والإنجيل وما فيهما من إيراد لذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في صراحة جلية، لولا أنهم كتموا وبدلوا وافتروا افتراء عظيما.

قوله: (ولا تكونوا أول كافر به (لعل أصوب تفسير لأول كافر بالقرآن أو النبي هو القول بأن المقصود بذلك أنهم أول من كفر من جنس أهل الكتاب بعدما سمعوا بمقدم النبي وما أنزل عليه من قرآن إذ كانوا يقرأون ذلك في كتبهم، ولا يستقيم المعنى إذا ما أخذ بظاهر العبارة التي تبين أنهم أول الناس كفرا، ذلك أنهم كانوا مسبوقين في الكفر بمشركي العرب.

قوله: (ولا تشتروا بئاياتي ثمنا قليلا (من حيث خصوص السبب فقد نزلت في بني إسرائيل الذين كانوا يكتمون خبر النبي في التوراة فقد جاء اسمه عليه فيها مكتوبا جليا، لكنهم أخفوا ذلك وأنكروه مقابل ما اشتروه من حطام الدنيا وما رضوه لأنفسهم من فسق عن أمر الله وتمرد عليه.

لكن عموم الآية أولى بالاعتبار وهو خطاب للناس عموما ألا يشتروا بأوامر الله ونواهيه أو بدينه وشرعه ثمنا قليلا، والثمن القليل يقصد منه الدنيا وما فيها من طيبات ومعايش وتلك هي صورة من صور البيع الذي يقوم على المعاوضة حيث الخسران الفادح الذي يتفاوت فيه العوضان تفاوتا ليس له نظير، مثلما يكون الفرقان بين الصدق والكذب، ولا محالة بعد ذلك أن يكون الثمن المقبوض بدلا من الدين والشرع قليلا، فهو قليل حقا، وهو هين بالغ الهوان حقا.

أما في أخذ الأجرة على تعليم القرآن وما استنبط منه من معان ودراسات فهو جائز رغم ما ورد في ذلك من أقوال مخالفة، ونستند في الجواز لقول النبي صلى الله عليه وسلم أنه سبحانه يحذرهم من هذه المخالفات الكبيرة، لاحتوائها على الجحد والغمط.

٤٢ - (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

وقوله: (ولا تلبسوا الحق بالباطل (تلبسوا من اللبس وهو الخلط، واللبس بالضم معناه الإشكال نقول: التبس الأمر أي اختلط وأشكل حتى عمك فيه وجه الحقيقة، والآية في أهل الكتاب، اليهود خاصة، فقد نهاهم الله عن فعلتهم المكشوفة - وهي لبس الحق بالباطل - وذلك يعني - كما ذهب إمام المفسرين عبد الله بن عباس - أنه لا تخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل وهو التغيير والتبديل أي أن التوراة حال نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم كانت يختلط فيها الحق بالباطل، كان من جملة الحق ذكر النبي محمد صراحة، أما الباطل فمعناه التغيير والتبديل اللذان اصطنعهما اليهود ظلما وزرا.

وقوله: (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون (وجه الإعراب في تكتموا يحتمل طريقتين: إحداهما أن يكون الفعل معطوفا على المجزوم الواقع

في النهي قبله، وثانيهما: أن يكون الفعل منصوبا بأن المضمرة، وعلى ذلك فإنه بناء على القول الأول ينهى الله سبحانه عن كتمان الحق وهو خبر النبي الكريم الذي ورد اسمه في التوراة والإنجيل من قبل، فقد كتمه اليهود وأخفوا ذكره كأن لم يسمعوا بخبره، أبدا مع أنهم يعلمون أنه نبي مرسل قد أوحى إليه ربه ليكون للناس بشيرا ونذيرا، ويعلمون كذلك أنه مذكور في كتبهم، وأنهم في أنفسهم كاذبون فجرة، والواو في وأنتم للحال والجملة الاسمية المؤلفة من المبتدأ والخبر في محل نصب حال.

٤٣ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

وقوله: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين (إقامة الصلاة بمعنى المداومة والثبات عليها وتأديتها على وجهها الصحيح، وذلك من حيث أركانها وهيئتها وسننها، وآتوا الزكاة من الإ يتاء وهو الإعطاء، وكل من الصلاة والزكاة قد ورد مجملا ليؤخذ التفصيل لكليهما من السنة المطهرة، فإنها المخلوة ببيان ما أجمله القرآن كالصلاة والزكاة وغيرها.

وفي هذه الآية يأمر الله بني إسرائيل أن يلتزموا بعبارة الصلاة والزكاة، ثم ليركعوا مع الراكعين من المسلمين.

وقد يتبادر للذهن تساؤل عن مخاطبة أهل الكتاب وتكليفهم بأجزاء الدين وفروعه مع أنهم كافرون وعلى ملة الشرك وفي تقديرنا أن الإجابة عن هذا التساؤل تحتمل الوجهين التاليين:

الأول: أن ذلك من باب المطالبة بالفرع ليكون التذكير بالأهم هو الأصل أي العقيدة وهي الأساس في هذا الدين كله.

الثاني: وهو التذكير بأهمية وخطورة مثل هذه الشعائر من حيث تأثيرها على النفس البشرية إذ تهذبها تهذيبا، ذلك الذي يمكن تصوره ليون إجابة عن التساؤل والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: (واركعوا مع الراكعين (الركوع في اللغة الانحناء، وهو في الصلاة مقترن بالخشوع والتذلل لله، وقد ذكر الركوع لأهميته فهو أحد أركان الصلاة التي لا تنعقد إلا به، وهو تعبير متذلل ينطق به الحس وتؤديه جوارح البدن، في أوفى صور الخشوع والرهبة خلال حركة هادئة واعية، تتلاقى فيها أعضاء البدن الممثل المنحني والشعور الخاشع المستفيض الموصول بالمثل الأعلى.

ونعرض هنا مسألة وهي صلاة الجماعة وذلك لإيجابه أداء الركوع مع جماعة الراكعين، وقد جاء في حكم صلاة الجماعة جملة أقوال يمكن أن تقتضب منها الخلاصة التالية في أقوال ثلاثة:

الأول: أنها سنة مؤكدة فهي بذلك دون الفريضة فلمن أداها أجر كبير، ومن لم يؤدها كان محروما من جزيل الثواب إلى أعده الله للمصلين في جماعة غير منفردين، يضاف الى ذلك أن الحرمان من ثواب الجماعة لا ينقضي عقابا، لأن العقاب يوجبه ترك الفريضة أو انتهاك الحرمان وهو قول الجمهور.

الثاني: أنها واجبة وأن تاركها آثم يستحق العقاب، وذلك استنادا لبعض الأئمة في السنة يقضي ظاهرها بوجوب الجماعة، وكذلك هذه الآية التي تحن بصددها (واركعوا مع الراكعين).

وقد ذهب الى وجوبها أحمد بن حنبل وأهل الظاهر وآخرون.

الثالث: أنها فرض كفاية بحيث يسقط الوجوب إذا ما أقيمت وأداها فريق من المسلمين وذلك الذي ذهب إليه بعض أهل العلم.

هذه خلاصة الأقوال الثلاثة الواردة في حكم الجماعة، وإني وإن كنت أتصور أهمية هذه الأقوال جميعا، نظرا لاستنادها الى الأدلة الصحيحة، لكنني أطمئن للقول الأول وهو أن الجماعة من حيث الحكم تأتي على السنة المؤكدة وذلك بالنظر الى إمكانية التأويل لأدلة القولين الآخرين، وهو تأويل يورد الاحتمال الذي يخرم معه الاستدلال، ويعزز القول بالسنية المؤكدة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عمر، وفيه بيان بالأفضل والمفضول وأن المفضول لا يكون إلا صحيحا مشروعا وهو لا يوجب عقابا والله سبحانه أعلم - ٣٧

٤٤ - (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه يرجعون (الهمزة في قوله: (أتأمرون (للإنكار والتوبيخ، أو للتعجب من حالهم -

٣٨
البر معناه الطاعة وهو يتضمن كل وجوه الخير والفضل فيما يكون طريقا الى مرضاة الله سبحانه، والنسيان الوارد في الايسة معناه الترك وليس ما يكون ضد الذكر والمقصود بالكتاب التوراة والإنجيل لما فيهما من خير ونور وذلك من قبل أن يصيبهما التزييف والتحريف. والآية تتضمن توبيخا وتقريعا يلتذع بهما أهل الكتاب، لأنهم يدعون الى الخير ويأمرون بالطاعات لكنهم يمتنعون من فعل شيء من ذلك، فهم بذلك يأمرون بالفضائل ويتركون أنفسهم من الائتمار أو هم يخالفون عما أمروا به الى عكس ذلك من وجوه الحرام.
قوله: (وأنتم تتلون الكتاب لأفلا تعقلون (الواو تفيد الحال، والجملة الاسمية بعدها في محل نصب حال، أي كيف يليق بكم أن تكونوا دعاة خير وبر أو أن تأمروا الناس بالطاعة والمعروف وأنتم تخالفون عن ذلك كله وتأتون خلاف ذلك الحرام والمنكر مع أنكم تقرأون ما في كتابكم المنزل عليكم من السماء والذي يأمر بالمعروف أولا، وينهي عن عدم الائتمار بالمعروف ثانيا، إذ لا يجوز لأحد بحال أن يأمر بخليقة حسنة ثم يأتي خلافها.
قوله تعالى: (أفلا تعقلون (أليست لكم عقول واعية متدبرة تكشف لكم عن وخامة هذا الخلق الفاسد المشين؟ ألستم تفهمون؟ فإن ذلكم من خلق الذين لا يعون ولا يدركون، هكذا يشدد الله في التقريع المرير على أولئك الذين يدعون الى الخير ويأتون غيره أو ينهون عن الحرام والباطل وهم شالعون في ما نهوا عنه - وذلك خزي وعار تتلطخ بهما أخلاق الذين لا يستحيون من الله والذين يسعون في الأرض فاسدين مذبذبين حيث لا تتوافق أقوالهم وأفعالهم سواء في الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر.
ومن أشد ما جاء في الكر من حيث الإغلاظ على هذا الصنف الكاذب الخسيس مخن النار قوله سبحانه: (يأيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).
وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك " مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقارض من نار، قلت من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم - ٣٩
وأخرج أحمد كذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم " يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " - ٤٠
وعنه صلى الله عليه وسلم: " إن الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء وبذلك فإن كلمات الله تندد أشد تنديد بالذين يقولون ما لا يفعلون، أو الذين يخالفون عما يأمرون به غيرهم، أو الذين لا يأتمرون بما يدعون الناس إليه أو يحذرونهم منه، وذلك خلق الفاسدين الجبناء من الناس الذين يقفون في خط النفاق ليكونوا في الأذلين مع الأشرار والتعساء والمعذبين يوم يقوم الناس لرب العالمين.
وتنديد القرآن بهذا الصنف الخسيس من البشر يظل قائما لا يبرح الأرض لأن الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه كثيرون، وهم لا يخلوا منهم مجتمع من المجتمعات، على أن هذا الخلق الذميم كان مركوزا على نحو واضح مستبين في بني إسرائيل، وذلك مما يمكن الوقوف عليه من خلال الكلمات الربانية في القرآن الحكيم، والتي تكشف عن إغراق أولئك الناس في الخسة والنفاق وهم يقولون ما لا يفعلون.
٤٥ - (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ)
قوله: (واستعينوا بالصبر والصلاة) - الصبر في اللغة معناه الحبس، نقول مات فلان صبرا أي حبس فظل كذلك حتى مات، ونقول عن كل ذي روح، قتل صبرا، بمعنى أنه أمسك وشد في الوثاق حتى يقتل، وعلى هذا فإن المقصود بالصبر في نظر الشرع هو حبس النفس على طاعة الله والتزامها بما شرع للناس في الدين.
وذلك يؤول بدوره الى الامساك عن المعصية وكل ما نهي الله عنه من محظور - وكذلك فإن الصبر على البلاء وما يمتحن الله به عباده في الدنيا لهو من باب الصبر الذي تحبس معه النفس عن السخط من تقدير الله أو التبرم مما قضى وحكم، واصطبار النفس عند الشدائد

يدخل الصابر في الطائعين أو الممتنعين من ارتكاب المعاصي.
ولا ريب في أن الصبر ذو شأن عظيم وهو في ميزان الله له من بالغ الحظ والاعتبار ما يجعله درجة عالية من درجات العبادة التي يقترب بها المرء من الله، وفي ذلك قوله سبحانه: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وبقول سبحانه في آيات قلائل مبدوءة بقسم رباني يهز النفس من الأعماق: (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).
ومن أعظم ما يجيء في السنة حول الصبر قول النبي صلى الله عليه وسلم: " الصبر شطر الإيمان " - ٤١
وضروب الصبر في الطاعة كثيرة، ومن جملة ذلك أن يصطبر المؤمن على كل وجوه الطاعة كالصلاة والصيام والحج والجهاد وبر الوالدين وغير ذلك، فإن مثل هذه الأمور تتطلب من المؤمن أن يتحلى بالصبر دائما، ليقوى على الاضطلاع هذه الفرائض الكبيرة وغيرها من فرائض.
وكذلك فإن ضروب الصبر عن المعصية كثيرة، ومن جملة ذلك أن يحبس المؤمن نفسه عن فعل المنكرات مثل الربا والخمر والزنا والزور والنفاق والشح وعقوق الوالدين والهروب من ساحة القتال وغير ذلك من وجوه الحرام والمنكر، فإن الإمساك عن مثل هذه المحرمات يتطلب قدرة على الاحتمال تحول دون السقوط في المعاصي والمحظورات.
وكذلك الصبر على البلاء فإنه ليس بالهين ولا اليسير ولكنه يقتضي قدرا عظيما من قوة الإرادة، ولا يؤتاه إلا الأقوياء وأولوا العزم من الناس الذين يملكون أنفسهم عند وقوع الشدائد والأهوال، فلا يضطربون اضطرابا يثنيهم عن الحق والتوازن، أو يتجاوز بهم الصراط المستقيم، ومثلما توصي الآية بالصبر ليستعين به المؤمن في حياته كلها فإنها كذلك توصي بالصلاة وذلك قوله (والصلاة)
وهي خشوع وتذلل خلال وقفة سائحة بين يدي رب البرية، ولا جرم أن تفيض على المؤمن وهو يصلي شآبيب من الرحمة ومن غذاء الروح بما يسكب فيه مزيدا من قوة العزيمة والاحتمال، وبما ينمي فيه معاني الخير والاعتزاز والثقة بالله (والصلاة) ويفجر فيه طاقات هائلة من عطاء النفس العالية الرضية، وأمام هذا العطاء الروحي الهائل تخنس قوى الشر في الإنسان وتذوي فيه بواعث المادية الآسنة التي إذا انفردت بالإنسان أجاءته إلى حمأة الشهوة المشبوبة المستعرة لتودي به في النهاية في أتون الضلالة والعمه والخسران.
والصلاة ذات وزن أكبر في شريعة الإسلام، لأنها الصلة المتينة الوثقى التي تربط العبد بربه، والتي تربط الأرض حيث الخلائق والبرايا والصراع والفتن بالسماء حيث الكمال والعلياء والمثل الأعلى، وبذلك فإن الصلاة لهي وسيلة روحية كبرى تجد الأرواح من خلالها متنفسا كريما مشدودا وهي تخاطب الإله الخالق الذي فطر السموات والأرض وأنشأ الخلائق والكائنات جميعا، ومن أروع ما يذكر في هذا الصدد عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يستروح بالصلاة استرواحا ليجد فيها حلاوة السكينة الودود وروعة الخطاب الكريم الحاني مع الله سبحانه، فقد روي عن حذيفة ابن اليمان قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة "، وروي عنه أيضا أنه قال " رجعت الى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلي وكان إذا حزبه أمر صلى، هكذا يستعين المؤمن بالصبر وبالصلاة وهو يواجه أفانين الأشرار والمناكيد في زحمة الصراع المحتدم بين الحق والباطل، والمؤمن خلال ذلك كله يظل ماضيا في مسار الخير، لا يرده عن ذلك طريق تعويق مصطنع ينتحله أهل الباطل والعدوان.
وقوله: (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) ثمة خلاف بين أهل العلم في عود الضمير في قوله (وإنها) فهل المقصود بذلك الصلاة وهي أقرب مذكور أم شيء آخر؟.
يمكن في هذا الصدد أن نعرض لأقوال ثلاثة في عود الضمير المذكور:
القول الأول: إن الضمير يعود على الصلاة، وبذلك فإن المقصود بالكبيرة هي الصلاة، لأنها أقرب مذكور كما بينا آنفا ولأن الصلاة كبيرة حقا، وذلك من حيث الحفاظ عليها وأداؤها على وجهها الكامل المشروع في مواقيتها المستديمة الرتيبة طيلة اليوم والليلة، على أن تكون ذلك مسبوقا بالطهارة العامة التامة، سواء في ذلكم طهارة البدن أو طهارة الثوب أو طهارة المكان الذي تتأدى فيه الصلاة.
القول الثاني: وهو للأستاذ الشهيد سيد قطب – عليه رحمة الله – فقد ذهب إلى أن الكبيرة هي الدعوة الإسلامية وذلك من حيث الانتماء الوافي إليها ثم حملها في شجاعة وصدق ودراية ثم تبليغها للناس في غير انثناء أو نكوص أو تردد، وتلك مهمة لا جرم أن تكون

ثقيلة وكؤود وذلك بالنظر إلى التحديات المتوقعة من الخصوم والحاقدين الذي يملؤون كل أطراف الأرض في كل زمان، والذين سوف يثيرون في وجه الإسلام ودعاته حربا طاحنة ضروسا لا تهدأ إلا بعد المفاصلة الحاسمة التي يعقبها خط واحد أو تصور واحد وهو إما الإسلام أو غير الإسلام.

القول الثالث: هو أن الضمير يعود على الصبر والصلاة كليهما، وقد ذكر الصلاة خاصة، لأهميتها وشمولها ولأنها الأغلب وذلك كقوله سبحانه: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) فقد ذكر كلا التجارة واللهو، لكنه رد الضمير إلى التجارة لشمولها وفضلها، وغلبتها على اللهو وهو داخل أصلا في التجارة وفي تقديرنا أن هذا القول صواب وهو الذي نعتمده مع تعظيمنا وإعجابنا باستنباط القولين السابقين والله جلت قدرته أدرى وأعلم - ٤٢

قوله: (إلا على الخاشعين) أي الخاضعين الخائفين الذين يوجلون من سلطان الله ويرهبون جنابه، وفي الآية بيان بأن كلا الصبر والصلاة أمر ثقيل على النفوس، لا يطيقه إلا من خشع قلبه لجلال الله، واستقامت جوارحه لتظل في خطه – سبحانه- وهداه.

٤٦ - (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وقوله: (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون (الذين اسم موصول في محل جر نعت للخاشعين، والجملة بعده صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والظن هنا بمعنى اليقين كما ذهب أكثر أهل العلم وكما ترد كثيرا في القرآن وذلك كقوله: (ورءا المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها (وقوله: (إني ظننت أني ملاق حسابيه (فالظن هنا بمعنى اليقين لا الشك.

هؤلاء الخاشعين الذين لا يثقل عليهم أمر الصبر والصلاة يعتقدون في يقين لا يعتريه شك أنهم (ملاقوا ربهم (أي راجعون إليه صائرون الى الحشر بين يديه في يوم عصيب تشخص فيه الأبصار.

٤٧ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزي عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (يذكر الله بني إسرائيل (يعقوب) بأنعمه عليهم وهي كثيرة قد أوتوها في حياتهم، وذلك مثل إنزال المن والسلوى وتظليلهم بالغمام في الصحراء الحارقة المكشوفة، وكذلك بما جعله فيهم من الملك وتعدد الأنبياء والرسل على نحو لم يتسن لأمة لأخرى، غيرهم، وفي ذلك يقول سبحانه في آية أخرى على لسان نبيهم ومنقذهم موسى عليه السلام: (وإذ قال موسى يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وءاتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين (بل هذا العطاء الجزيل الذي امتن الله به على بني إسرائيل لم يؤت مثله أحد من الناس، وذلك هو التفضيل المقصود في الآية (فضلتكم على العالمين (فليس لذواتهم هم أنفسهم أو لأنهم من نسل إسرائيل أو لأنهم أمة متميزة ذات اعتبار خاص ومعين كما يصور حاخامات يهود وهم يرددون المقولات المكرورة الفاسدة، وهي لا جرم أن تكون مقولات كاذبة خاطئة قد افتروا فيها على الله زورا، وافتروا فيها على كتبهم السماوية بالبهتان الذي يقوم على التعصب الذميم وعلى التحريف الظالم.

أجل: ليس المقصود من الآية أنهم خير الناس على مر الزمن أو أنهم أفضل الأمم في العالمين طرا طيلة الدهر والزمان، وإلا كان التناقض حاصلا في القرآن ونحن نتلوا قوله سبحانه عن أمة الإسلام: (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

إن المقصود من تفضيلهم على العالمين بالمفهوم الواضح المستبين أنهم قد أوتوا في زمانهم في هذه الدنيا خيرات وأنعم لم تتيسر لأحد غيرهم، وأنهم قد بعث الله فيهم أنبياء كثيرين ما بعث مثلهم في أمة أخرى، فالتفضيل بذلك قدح مضى وانقضى بعد أن جيء بأمة أخرى أفضل منهم.

وبعبارة أخرى فإن التفضيل ليس لأنهم يهود: أو من نسل يعقوب ولد إسحاق عليهما السلام ولا لأي اعتبار آخر يقوم على الجنس أو اللون أو العرق، وكذلك فإن التفضيل ليس للزمان وكل زمان مهما امتد الزمان كما يخلط أحبار يهود أو يغلطون في غير معرفة أو خشية من الله بل إن التفضيلغ كان مسألة دنيوية عابرة لما بينا من ضروب العطاء الذي أسبغه الله عليهم في هذه الدنيا، أما في الآخرة فلهم

شأن آخر من الحساب المرير على ما اقترفوه من جرائر وموبقات، مثل قتلهم النبيين والعلماء وقولهم على مريم بهتانا عظيما، وكذلك نكرانهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، مع أنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، ثم ما ارتكبوه في حق البشرية من حبك لمؤامرات الشر والفساد التي تحاك في الظلام من خلال منظمات خبيثة ألت على نفسها إلا أن تعيث في هذا العالم تخريبا وإفسادا بكل الأسباب والوسائل مهما سفت وعنت.

٤٨ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

قوله: (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا (يوما، مفعول به، أو منصوب على الظرف - ٤٣

يحذر الله من يوم القيامة، وليس المقصود اليوم نفسه وإنما المقصود ما في هذا اليوم من فوادح قواصم وأهوال رعيبة جسام، ويكشف عن ذلك قوله تعالى في آية أخرى حول هذا الموقف العصيب: (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (وفي هذا اليوم وما يتخلله من أحداث مخوفة قوارع: (لا تجزي نفس عن نفس شيئا (أي لا تكفي ولا تغني عن نفس شيئا، فكل امرئ مرهون بعمله لا تحمل نفس من أوزاره شيئا، قال سبحانه: (ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى).

قوله: (ولا يقبل منها شفاعة (والشفاعة من الشفع وهو ضم الفرد الى الفرد ليكونا اثنين، والفعل شفع أي ضم واحدا الى آخر، نقول شفعت الركعة أي جعلتها اثنتين، ويشتق من ذلك الشفعة والشفاعة وهي ضم ذات إلى ذات أخرى للمطالبة بشيء معين، ٤٤ والمراد من الآية أن هؤلاء المشركين الضالين لا تنفعهم شفاعة أحد من الناس، وفي مثل ذلك يقول عز من قائل: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين (وفي يوم القيامة تذهب المعايير التي أوجدتها تصورات البشر وأعرافهم، ولا تبقى أية قيمة للاعتبارات الدنيوية كالمال والولد والعشيرة وغير ذلك من المظاهر التي تعودت المجتمعات أن تعيرها كل اهتمام وتقدير.

قوله: (ولا يؤخذ منها عدل (العدل معناه الفداء، وهو ما يعادل في الوزن والقدر، وفي الآية: (أو عدل ذلك صياما (وذلك في المشركين الهلكى الذين لا تنفعهم عند الله شفاعة ولا يؤخذ منهم فداء من المال نظير خلاصهم أو العدول عنهم، وفي ذلك بقول سبحانه: (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم).

قوله (ولا هم ينصرون (ينصرون مبني للمجهول والواو نائب فاعل والمقصود بنو إسرائيل الذي لن يكون لهم عند الله نصير أو مجير، وليس لهم من دون الله من يدرأ عنهم الشدة أو يكشف عنهم العذاب، ذلك أنهم كانوا يخرصون في حماقة وسفه وغرور أنهم سوف ينجون من العذاب لحظوتهم بالشفاعة فهم أبناء النبيين والمرسلين، فجاءت الآية لترد عليهم هذا التخريص وتبين أنهم لن يكون لهم شفعاء، وأنهم لن يقبل من أحدهم فداء ولو كان ملء الأرض، ثم أنهم لن يكون لهم من دون الله معين أو نصير - ٤٥

٤٩ - (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون (ذلك تذكير لبني إسرائيل بنعمته عليهم، وهي نعمة تضاف إلى جملة النعم التي كتبها الله لهم، وهي هنا تنجيهم بإذن الله من آل فرعون، والنجاة أو النجاء بمعنى الفوز والخلاص من الضيق والكرب وآل فرعون هم أهله وأتباعه والذين على ملته وهواه، والكلمة آل أصلها أهل - كما قال بعض أهل البيان - ثم أبدلت الهاء ألفا فصارت آل، أما فرعون فإنه على الراجح اسم لكل ملك من الملوك الذين تعاقبوا على حكم القبط في مصر.

وقيل: إن الكلمة تعني العاتي ذا الدهاء والمكر، وقيل: معناه: بالقبطية التمساح واسم فرعون لا ينصرف للتعريف والعجمة - ٤٦

وقوله: (يسومونكم سوء العذاب (أي يذيقونكم أشد أنواع العذاب كأن يتخذوكم لهم عبيدا فتظلوا عندهم موضع حقار وزراية، وكاف المخاطب في محل نصب مفعول به للفعل يسوم، و (سوء (مفعول به ثان منصوب و (العذاب (مضاف إليه، وقوله: (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم (من الذبح وهو في اللغة الشق، والذبح معناه إحداث الشق في الحلقوم لقطعه أو فتقه، وجملة يذبحون قيل أنها بدل

من جملة يسومون في قوله: (يسومونكم (وقيل: هي تفسير لقوله يسومونكم، أي أن تذبيح الأبناء واستحياء النساء جاء توضيحا لسومهم سوء العذاب وهذا هو الراجح والله أعلم.

ولقد كان فرعون حاكما عاتيا متجبرا قضى على بني إسرائيل بالقهر والتقتيل في غير عطف أو رحمة، ويبدو للباحث المتدبر أن هذا المخلوق ما كان سوي النفس ولا مستقيم الطبع والشخصية، فقد كانت تؤرقه ظواهر الشذوذ والمرض النفسي حتى راغ في قسوة محمومة وفي طبع غليظ متحجر يأمر جنوده وأتباعه بقتل الأطفال المواليد من بني إسرائيل واستبقاء البنات منهم على قيد الحياة، وتلك غاية في الظلم وهو يمارس أسوأ أساليب القهر والعنف لمجرد وهم كان يراود تصوره وخياله، فقد ذكر له أن زوال ملكه وسقوط عرضه سيكون على يد واحد من بني إسرائيل كما قيل، ونحن لا نعبأ كثيرا بالسبب الذي أودى بهذا الطاغية الى هذا المستوى الإجرامي الذي يثير في النفس كآبة واشمئزازا - لا نعبأ بالسبب الذي كان وراء هذه الممارسة الغليظة فسواء كان ذلك إيهاما ركب رأس فرعون بأن فرعون أحد اليهود سوف يقضي عليه، أو أن ذلك كان تعبيرا عن نفسية شاذة ملتوية تستطيب عذابات المظلومين وتستمرئ أن ترى الدم المسفوح بقطر بغزارة من جلود المظلومين والمعذبين.

لا يهمنا السبب كثيرا ما دامت النتيجة البشعة قد حلت بأولئك المقهورين ظلما وعدوانا، لا يهمنا ذلك بقدر ما نلاحظه من خلال الدراسة، والبحث أن طبيعة يهود يهود قد سميت بعد هذه الهزات والمصائب الالتواء والشذوذ حتى باتت غير سوية بل باتت غاية من انحراف الطبع وشذوذ النفس، إن التجارب والدراسات كلها تشير إلى طبيعة اليهود الشاذة التي آلت إلى أن تمارس كل ضروب الأذى والتخريب وكل ألوان الإفساد والشر والتدمير، تجتاح أوساط البشرية كافة، فتذيقها الويل والثبور وعظائم الأمور، والكلام في ذلك طويل لأن حلقات البلاء والتآمر والكيد من اليهود للبشرية تحتاج مجالا غير هذا المجال، وذلك لفداحتها وتعدد مآسيها وأرزائها، وهو كذلك مرير، لأنه ينطوي على أحداث مذهلة مريعة منيت بها البشرية والمجتمعات عبر السنين الطوال وهي تعاني الأهوال والشدائد مثل الحروب الطاحنة المدمرة التي تتمخض عن الملايين من الضحايا والمعذبين، ثم الكيد للبشرية لضربها في أعز ما تملك وهي القيم والعقائد، ومكارم الأخلاق، وكذلك الأزمات النفسية والاقتصادية والاجتماعية التي يصطنعها رجالات دهاقنة من اليهود تحت شعار مزيف من العلم، ومن جملة هؤلاء فرويد في إفساد النفس وتمييعها لتظل فائرة مشبوبة خلف غريزة الجنس، ثم ماركس وهو الذي في عناد وتوقح عن صفقة آراء غريبة، لا تلبث أن تتداعى أمام المنطق السليم والمناقشة الموضوعية الحرة.

قوله: (وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم (اسم الإشارة وميم الجمع (ذلكم (تعني: فعلهم ذلك بكم، أي أن فعل فرعون وجنوده بكم وما أنزلوه بكم من ألوان العذاب لهو بلاء، أي امتحان واختبار عظيم، لما في ذلك من بالغ القسوة وشديد الامتهان.

٥٠ - (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

قوله: (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم (إذ في محل نصب على الظرفية الزمانية، وفرقنا من الفرق بالفتح والسكون وهو يعني فصل أبعاض الشيء، والفرق بين الحق والباطل معناه الفصل بينهما، وذلك كقوله سبحانه: (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (والفرقان هو القرآن سمي بذلك، لأنه يفرق أو يفصل بين الحق والباطل ومفرق الرأس وسطه الذي يفصل بين دفتي شعر الرأس، وقوله: (فرقنا (هنا أي فصلنا البحر، أو فلقناه بعضه عن بعض فلقا، وذلك لكم أنتم با بني إسرائيل، وعلى هذا فإن الباء في بكم تعني اللام كما قيل، وقيل غير ذلك.

على أن قصة انفلاق البحر لبني إسرائيل وقائدهم موسى عليه السلام معروفة ومبينة في كتب التفسير بوضوح وإسهاب، وكل الذي نبينه هنا أن بني إسرائيل بعد أن نجوا من سطوة فرعون، وهربوا من ويله وسلطانه اتبعهم فرعون بجنوده المسخرين المستخفين، وهم حشود كبيرة من الرجال الأشرار وذلك ليعيدهم إلى نفوذه وطغيانه، ولقد ظل بنو إسرائيل هاربين واجفين مذعورين لا يلوون على شيء حتى بلغوا البحر فوقفوا بساحله واجمين حيارى لا يقدرون على شيء وكلما دنا منهم فرعون وجنوده ازدادوا هلعا وفرقا، وغشيتهم غاشية مريعة من الخوف والاضطراب، وهم في مثل هذا الموقف الموئس العصيب كانوا يجأرون بالصياح المستغيث في وجه موسى عليه السلام/ ليخلع عنهم هذا الخطر القائم المحدق، الخطر الذي يوشك أن يسوقهم إلى الموت على يد فرعون وجلاديه المجرمين، ثم جاء الفرج بعد ذلك فتمخض العسر عن أجلى يسر وتحولت بهم الحال إلى أسعد حال من السلامة والنجاة من خلال معجزة ربانية أجراها

الله جلت قدرته على يد نبيه وكليمه موسى عليه السلام، وفي مثل هذه الساعة المكروبة الحرجة يقول سبحانه: (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم (فما أن ضرب موسى البحر بعصاه حتى انفلق، فكانت فيه جملة طرق يابسة مذللة للمسير، وكانت المياه تجف بالطريق من كلا الجانبين وكأنها الأطواد أي الجبال، ومفردها الطود وهو الجبل، أي أن جبالا من المياه الراكمة المجتمعة تتماسك على دفتي كل طريق وذلك بقدر من الله وبإرادته التي تخرق كل قانون مقدور والتي لا تحجبها نواميس الحياة والطبيعة.

هكذا كان يشير بنو إسرائيل من خلف قائدهم موسى خلال هذه الطرق الممهدة في وسط البحر وهم ينظرون عن يمين وشمال فيبصرون أطوادا من جبال من الماء واقفة بإذن الله من غير أن تميل عليهم فتغرقهم إغراقا، وهم وسط ذلك كله سائرون آمنون، وفي ذلك كله قوله سبحانه: (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يابسا لا تخاف دركا ولا تخشى).

لقد ضرب الله بني إسرائيل في البحر طريقا سهلا ممهدا يبسا، لكي يسلكوا فيه آمنين مطمئنين لا يدركهم فيه عدو لاحق، ذلك هو قرار الله الفاصل وهو أن يكتب لبني إسرائيل النجاة من طغيان فرعون، ولا جرم أن يكون هذا الحدث الهائل مكرمة ربانية فذة تضاف إلى المكارم التي امتن الله بها على اليهود في زمانهم الغابر، وهي مكارم ما أوتيت أمة في العالمين مثلها ليكون ذلك مظهرا من مظاهر التفضيل الذي حظي به أولئك القوم.

وبعد أن سلك بنو إسرائيل طريق النجاة في البحر أمر فرعون جنوده في حماقة وتغرير أن يتبعوهم فهلك وهلكوا جميعا، ثم قذفه البحر ميتا بلا حراك صوب الساحل فسقط بذلك شيطان أكبر من شياطين الإنس المجرمين العتاة في هذه الدنيا.

ومن لطيف ما يكتب عن هذه القضية أن يهود لمن يصدقوا خبر فرعون وانه أدركه الغرق في البحر، حتى لفظ أنفاسه ما كان اليهود ليصدقوا ذلك الخبر وهم لفرط الهلع الذي استحوذ عليهم ولفظاعة الفرق المرجف الذي أطار قلوبهم جميعا ما كانوا يستطيعون التصديق بأن فرعون قد مات حتى رأوا رأي العين فتثبتوا واطمأنوا لصحة الخبر.

لقد سقط هذا الجبار المتمرد الذي ساس الناس بالباطل بعد أن أزهق نفوسا كثيرة بغير حق طيلة حقبة من الزمن، إلى أن كانت النهاية البشعة وهو يلقى مصيره من التغريق فيطرحه البحر صاغرا خاسئا ليراه الناس جثة هامدة وتبصره الأجيال جيلا بعد آخر، وهو قابع مسجى حتى أيامنا هذه، وفي ذلك يقول القرآن في فرعون وهو يكشف عن ظاهرة من ظواهر إعجازه (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية).

٥١ - (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

قوله تعالى: (وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون) إذ تأتي في محل نصب على الظرفية الزمانية، وقوله (وعدنا) من المواعدة وأصلها الوعد الذي قرره الله عز وجل لموسى عليه السلام، فقد قرر مواعدته لموسى على الجبل في طور سيناء وذلك في ميقات امتد أربعين ليلة، وقد كان تقدير الفترة الزمنية للميقات في الأصل أن تكون ثلاثين ليلة، لكنها زيدت بعشر ليال أخريات، فكان هذا التأخر باعثا لبني إسرائيل على التطرف والشذوذ كعادتهم فقالوا عن موسى: قد أخلفنا موعده، وبعدها سقط اليهود في زلتهم الفادحة ظنا منهم أن موسى لن يعود فاتخذوا لهم من بعده إلها عجلا له خوار فعبدوه من دون الله وذهلوا عن ملة التوحيد وعن موثقهم الذي وثقوا به من الالتزام على الدوام بدين موسى نبيهم ومنقذهم.

قوله: (وأنتم ظالمون) الواو للحال والجملة الاسمية من المبتدأ وخبره في محل نصب حال، لقد فعل اليهود فعلتهم النكراء باتخاذهم العجل إلها فكانوا بذلك ظالمين أي مشركين، والظلم معناه الشرك وهو في اللغة وضع الشيء في غير موضعه.

٥٢ - (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وقوله: (ثم عفونا عنكم من بعد ذلك) العفو معناه المحو والإسقاط، نقول عفا الله عنك أي محا ذنوبك، وعفوت عنك الحق أي أسقطته عنك، نقول عافاه الله أي محا عنه الأسقام وتأتي عفا أيضا بمعنى كثر، نقول عفا الشيء أي كثر وزاد، وفي الآية الكريمة (حتى عفوا) أي كثروا وفي الحديث الشريف، " أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى " أي اتركوها لكي تكثر وتطول.

والفرق بين المغفرة والعفو، أن الأولى تكون من غير ذنوب قارفها العبد، لكن العفو يمكن أن يكون بعد مقارفة العبد للذنوب، وعلى هذا فقد عفا الله عن بني إسرائيل بعد أن ارتكبوا أسوأ جريرة وهي عبادتهم للعجل، وكان ذلك بعد أن أرهقهم الله بتكليف يؤدونه ليكون لهم عند الله توبة عوضا عن إفراطهم في اتخاذهم العجل إلها، فكان التكليف أن يقتلوا جميعا فيضرب رقاب بعض على نحو ما سنبينه في موضعه من هذه السورة إن شاء الله.

قوله: (لعلكم تشكرون) كاف للمخاطب في (لعلكم) في محل نصب اسم لعل والميم للجمع، والجملة الفعلية في قوله: (تشكرون) في محل رفع خبر لعل، والشكر هو الاعتراف بالنعمة عن طريق القول والفعل، أما القول فهو دوام النطق والإقرار بنعمة الله بوساطة اللسان، والفعل يتحقق بأداء الطاعات وتجنب المعاصي، ونقيض الشكر الكفر وهو الجحود ونكران النعمة والجميل، وفي الحديث " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " ومن الشكر الشكران ونقيضه الكفران.

لقد عفا الله عن بني إسرائيل ما اقترفوه من جريمة الإشراك بعد أن أرهقهم بعذاب الاقتتال عسى أن يكون ذلك باعثا لهم على الفيئة إلى الله والاعتراف بأنعمه التي أسبغها عليهم فيكونوا بذلك له من الشاكرين.

٥٣ - (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قوله تعالى: (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) إذ تفيد الظرفية الزمانية للماضي وآتينا بمعنى أعطينا فقد أعطى الله كليمه موسى الكتاب والفرقان، أما الكتاب فهو التوراة بغير خلاف، لكن الإشكال في المقصود بالفرقان - فقد ورد في ذلك أقوال كثيرة تتراوح بين التوسط والبعد، لكننا نقتضب من بين ذلك أقوالا ثلاثة في المقصود بالفرقان وهي:

القول الأول: إن الفرقان هو نفسه الكتاب وقد جيء به بعد الكتاب على سبيل التأكيد.

القول الثاني: معنى الفرقان هنا الفرج والمخرج، وذلك ما كتبه الله لبني إسرائيل بعد أن كانوا مقهورين أذلة تحت نير فرعون، ويعزز هذا القول الآية الكريمة: (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) والمقصود به هنا انفراج الكرب والخروج من العسر والضيق.

القول الثالث: إنه بمعنى التفريق بين الحق والباطل، أي أن موسى قد أوتي التوراة وكذلك أوتي من الله علما يفرق به بين الحق والباطل وذلك هو الفرقان، وهو ما نميل إليه ونرجحه والله أعلم.

قوله: (لعلكم تهتدون) كاف المخاطب في محل نصب اسم لعل، والميم للجمع والجملة الفعلية المكونة من الفعل وواو الجماعة الفاعل في محل رفع خبر، وقد أنزل الله على بني إسرائيل كتابه التوراة فيه هداية لهم ونور لينجوا من الضلالة ويتجنبوا السقوط في براثن الشر بكل أشكاله.

٥٤ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى باريكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير عند باريكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم (إذ تفيد الظرفية الزمانية، وأصل موسى موشا، كما قيل وهما كلمتان تعني أولاهما ماء وتعني الأخرى شجر فقد سمي موسى بذلك لأنه كان مخبوءا في تابوت يطفو على سطح الماء ومن حوله أشجار وقد بقي كذلك حتى ألقاه قوم فرعون الذين التقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا.

أما القوم فهم جماعة الرجال ليس فيهم امرأة، والواحد رجل، والجمع أقوام وقد سموا بذلك لقيامهم بالعظائم والمهمات، وقد تدخل النساء في القوم، فإن من المعلوم أن قوم كل نبي يتألف من الرجال والنساء، وينطبق على القوم كل من التذكير والتأنيث، فنقول: جاء القوم وجاءت القوم، وقوله: (يا قوم) أصلها قومي حذفت الياء للتخفيف، وهي يجوز إبقاؤها في غير القرآن.

قوله: (إنكم ظلمتم أنفسكم) ذلك تأكيد على أنهم أوقعوا أنفسهم في الظلم وهو في اللغة وضع الشيء في غير موضعه كما بينا سابقا، والظلم كثيرا ما يرد في القرآن بمعنى الشرك، وهو ما سقط فيه بنو إسرائيل عندما اتخذوا العجل لهم معبودا من دون الله، فهم بذلك قد ظلموا

أنفسهم وأوردوها سوء المورد وهو الشرك بسبب اتخاذهم العجل إلها، وهم من أجل ذلك قد استحقوا من الله العذاب ليتوب عليهم بعد ذلك - فما كان لجريمتهم النكراء هذه أن تمر بغير حساب في هذه الدنيا، وما كان الله ليتوب عليهم قبل أن يجهدهم بعظيم البلاء وهو بلاء لا جرم أن يكون شديدا - وهو ما يشير إليه قوله سبحانه: (فتوبوا الى باريكم فاقتلوا أنفسكم) والبارئ هو المبدع للشيء المخترع له، أو المحدث الي يصنع الشيء على غير مثال سبق، أما الخالق فهو من الخلق ويعني التقدير، فالخالق هو المقدر الذي ينقل الشيء من حال إلى حال.

أمر الله بني إسرائيل الذين كانوا مع موسى أن يعلنوا توبتهم بالقتل، وذلك لقوله تعالى: (فاقتلوا أنفسكم) وقد جاء في كيفية ذلك بضع أقوال للمفسرين نقتضب اثنين منها، أما الأول فهو أنهم وقفوا صفين متقابلين فقتل بعشهم بعضا، من غير تمييز، وقد ظلوا على تلك الحال من الاقتتال حتى سقط منهم خلق كثير ثم تاب الله عليهم من بعد ذلك.

وأما القول الثاني: فهو أن الذين عبدوا العجل وقفوا صفا ثم دخل الذين لم يعبدوه ومعهم السلاح، فمالوا عليهم ضربا بالسيوف والخناجر والسكاكين الى أن قتلوا منهم أناسي كثيرا، لكن الراجح في تقديرنا هو القول الأول وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين، وهو أنهم اقتتلوا فيما بينهم فجعل بعضهم يضرب رقاب بعض أو أحدهم يقتل الذي يليه كائنا من كان حتى أوحي إليهم أن يكفوا عن الاقتتال، كذلك كانت توبة بني إسرائيل إذا ما اقترفوا مثل هذه الكبيرة النكراء.

قوله: (ذلكم خير لكم عند باريكم فتاب عليكم) اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ والميم للجمع، و (خير) خبر مرفوع والإشارة في قوله: (ذلكم) تعود إلى إعلان التوبة الحقيقية من اليهود وهي على الكيفية المبينة من اقتتالهم فيما بينهم، إذ يقتل بعضهم بعضا دون تمييز أو تردد، وفي هذه التوبة العملية القاسية ما يشهد لهم عند الله بالتوبة وهو سبحانه البارئ الذي خلق الوجود والخلائق من العدم والذي يقبل التوبة عن عباده.

وقوله: (فتاب عليكم) ذلك إعلان من الله لهم بالتوبة بعد أن نفذوا عملية الاقتتال بغير موارية أو تملص وهي عملية لا ريب أن تكون ثقيلة كؤودا تمكن قوم موسى من مجوزتها فاستحقوا من الله التوبة والغفران، وهو سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعا والذي يتجاوز عن مساءات المسيئين مهما تكن من الفداحة والكثرة، (إنه هو التواب الرحيم) - ٤٧

٥٥ - (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

قوله تعالى: (وإذا قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام، أنهم لن يومنوا له أو يصدقوه إلا إذا رأوا ربهم جهرة أي علانية أو عيانا، وهي من الجهر أو المجاهرة أو الجهار بمعنى الظهور أو الإظهار.

وقد ورد قولان في حقيقة الذين اجترحوا هذه المقولة (لن نومن لك حتى نرى الله جهرة).

وأحد هذين القولين: أن ذلك في السبعين من بني إسرائيل الذين اخارهم موسى لميقات ربه، فلما أسمعهم موسى كلام الله عتوا وأسرفوا في التمرد وغالوا مغالاة يتورع عنها الخاشعون الذين يتقون الله فقالوا: (لن نومن لك حتى نرى الله جهرة) وذلك مطلب لا جرم ينطوي على غاية الاجتراء الفاجر أو التطاول الأثيم المغالي الذي ينم على طبع لجوج متوقح، خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء السبعين كانوا من خيرة بني إسرائيل وصفوتهم الذين اصطفاهم موسى لإعلان التوبة نيابة عن قومهم فوق الجبل المقدس.

هؤلاء هم صفوة القوم وطليعتهم في العلم والورع، لا يتورعون عن مطالبتهم السقيمة وهي أن يروا ربهم عيانا علانية، وهي مطالبة لا تتيسر للبشر في هذه الدنيا كما ذهب أكثر أهل العلم فضلا عن أن ذلك لا يليق بمثل هذه الصفوة من خيار بني إسرائيل الذين انتخبهم موسى لميقات الله على الجبل، إنه لا يليق بهم، وهم الطليعة المؤمنة المصطفاة من القوم أن يطلبوا مثل هذا المطلب المتطاول الذي لا تشفعه أية أثارة من تواضع أو تورع أو حياء.

وثاني هذين القولين: أن موسى لما رجع من عند الله ومعه الألواح قد كتب فيها التوراة وفيها علم وهداية ونور، أمرهم أن يهتدوا بهديها

وأن يأتمروا بما فيها من أوامر أو زواجر، فقال له قومه مقولتهم هذه العاتية المقبوحة: (لن نومن لك حتى ترى الله جهرة).

قوله: (فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) الصاعقة هي الصيحة، وقيل النار، أو هي النازلة من الرعد، وكلها معان متشابهة من حيث العذاب الحارق المدمر الذي لا يصيب شيئا إلا دكه دكا وحرفه تحريفا، لما قال قوم موسى مقالتهم العاتية سواء قالها السبعون أو عامتهم أصابهم الله بنوازل من الصواعق الحارقة التي تدمرهم تدميرا، وقد كان ذلك وهم ينظر بعضهم بعضا فكلما أصابت الصواعق فريقا منهم نظر إليهم بقيتهم بعين الوجل كالذي يغشى عليه من الموت.

٥٦ - (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله: (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وهذه حلقة في سلسلة العطايا والنعم التي حظي بها بنو إسرائيل بما لم تحظ به أمة في العالمين، وهي حلقة أخرى جديدة تمثل فيها العطاء الرباني الكريم بأجزل ما يكون عليه العطاء وهو بعثهم من بعد أن دكتهم الصاعقة وماتوا، لقد غفر الله لهم هذه الخطيئة فقرر سبحانه انبعاثهم أحياء بعد أن كانوا أمواتا مدكوكين من شدة الصاعقة القاصمة.

قوله تعالى: (لعلكم تشكرون) كاف المخاطب في محل نصب اسم لعل، والجملة الفعلية بعده في محل رفع خبر لعل، ولقد قرر الله انبعاثهم من بعد الموت من أجل أن يبادروا بالشكران، فعسى أن يكون في هذه المنة الربانية العظيمة ما يستنهض فيهم الفطرة، أو يذكي فيهم يقظة الحس فيدعوا لله بالامتثال والتذلل ويتوجهوا إليه شاكرين.

٥٧ - (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

قوله: (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى (ظللنا من التظليل وهو الستر وأصله الظل ومعناه الفيء الذي يغمر فيه المستظل ليحجب عن نفسه حر الشمس والغمام معناه السحاب الواقي الذي يصنع الظل، ومفرده الغمامة وهي السحابة سميت بذلك، لأنها تستر ما دونها نقول: غم الهلال أي ستر بغيم أو نحوه، وفي الحديث الشريف فإن غم عليكم فأكملوا العدة، أي إن سترت رؤية الهلال بغيم أو ضباب فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما.

والمعنى أن الله جلت قدرته قد من على بني إسرائيل في الصحراء الحامية فظللهم بالسحاب الواقي الرخي الذي يغمرهم بستار الفيء، كيلا تلتفح وجوههم وجلودهم بحرارة الشمس الحارقة، خصوصا وأنهم كانوا سادرين في التيه حيث الجفاف والقحط وحيث الشمس البارزة المتجلية التي تصلي من تحتها صليا، في هذا الجو الشديد الحامي أنعم الله على اليهود بأن سترهم بالغمام من فوقهم كأنما هي المظلة يثوي إليها الناس فتقيهم شر العوادي والبوائق.

قوله: (وأنزلنا عليكم المن والسلوى (أما تأويل (المن (فقد جاء فيه عدة أقوال للمفسرين وهي أقوال متقاربة تتراوح في تفسير المن بين اعتباره طعاما أو شرابا، ولعل خير ما ورد في ذلك ما قاله الإمام المفسر ابن كثير وهو يعرض لأقوال المفسرين في حقيقة المن فقال: والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كد، والمقصود الأهم أن المن ضرب من الطعام أو الشراب أو ما كان مختلطا من كليهما، كان اليهود يتخذونه لهم قوتا سائغا شهيا وهم يجدونه متقاطرا فوق الصخور والأشجار دون أي عناء.

أما (السلوى (فإنها صنف من الطير يشبه السماني أو هي السماني نفسه، وذلك طير نافع مأكول قد أفاض الله به على بني إسرائيل في سيناء ليأكلوا منه هنيئا مريئا من غير أن يجدوا في ذلك نصيبا، وفي ذلك يقول لهم سبحانه: (كلوا من طيبات ما رزقناكم (والطيبات مفردها طيبة، وهي من الفعل طاب يطيب نقول طاب الشيء فهو طيب إذا كان لذيذا أو حلالا، والأمر في قوله: (كلوا (يفيد الإباحة فقد أباح الله لهم أن يستمتعوا بما رزقهم من حلال لذيذ، وهي نعمة قد أفاشها الله عليهم في ساعات العسر، وفي أحلك أوقات الشدة، التي تجتمع فيها أهوال من الحر والجوع والارتباك والحيرة في مثل الصحراء اليابسة الجرداء التي تغيب فيها كل أسباب العيش والأمان.

ولا يكاد المتدبر يردد كلمات الله في هذا الصدد حتى يستذكر أحداثا من الأهوال والمآسي قد عانى منها أصحاب النبي الخاتم صلى الله عليه

وسلم، وهم يحتملون من الشدائد والكروب ما لا يقدر على احتماله بشر، نقول ذلك ونحن نستذكر حالات الحروف والجوع والأذى التي كان يعاني منها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، في مستهل دعوة الإسلام، يوم أن تمالأ عليهم الناس من بني عشيرتهم وقومهم إذ كانوا يناصبون الكيد والشر، ويتحرشون بهم ليضيقوا عليهم تضييقا، ثم يأتمرون بهم ليوثقهم أو يخرجوهم أو يقتلوهم قتلا، وفي طليعتهم القائد الملهم الفذ نبي الله محمد عليه الصلاة والسلام، وأصدق ما يرد في هذا الصدد ما نطق به القرآن الكريم: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين (ومع ذلك كله فقد ثبت أصحاب النبي عليه السلام في وجه الكوارث والأهوال فما وهنوا أو استكانوا لما أصابهم، وما تزعزعت عزائمهم أمام النوائب والكروب، ولا شددوا على نبيهم في الطلب والدعاء، ولكنهم ظلوا صابرين محتسبين إلى أن كتب الله لهم النصر المبين.

قوله: (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (آتيناهم كثيرا من النعم والخيرات، ورزقناهم كثيرا من الطيبات، وخولناهم ذلك كله ليأكلوا منه ويتمتعوا به ثم ليعبدوا الله ويذعنوا له بالطاعة وتقديم الشكران، لكنهم عصوا وفسقوا عن أمر الله فظلموا بذلك أنفسهم إذ أوردوها أتعس مورد ولم يظلمونا نحن فإننا لا يمسنا ظلم ولا يحيق بنا ضر أو لغوب.

٥٨ - (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون).

بعد أن من الله على قوم موسى فأذهب عنهم محنة الضياع في التيه حيث الحيرة والتلجلج والاضطراب بعد ذلك أمرهم الله أن يدخلوا (هذه القرية (والقرية من الفعل قرى يقري أي جمع يجمع، نقول قرى الماء في الحوض أي جمعه فيه، والمقراة مكان يجتمع فيه الماء وجمعها مقاري وهي الجفان الكبار ومفردها جفنة وهي وعاء واسع لاستيعاب الماء.

وتطلق القرية ويراد بها المدينة، وقد سميت بالقرية، لأنها مكان يجتمع فيه الناس، مثلما نقول قرية النمل مكان اجتماعها، والقارية الحاضرة الجامعة - ٤٨

على أن المقصود بالقرية هنا موضع خلاف المفسرين، فقد قيل إنها أريحا وقيل: هي مصر، وفي قول ثالث: إنها بيت المقدس، وهو ما يميل إليه أكثر العلماء، وسواء كان المقصود هذه المدينة أو غيرها من المدن فإن مثل هذا الأمر يعتبر في حكم المنطق والشريعة قد مضى وانقضى، فهو ليس جزءا من عقيدة التوحيد لا يقبل التغيير أو التطوير ولا هو قاعدة ثابتة في السلوك والأخلاق التي تعتمد القيم الراسخة الأصيلة والتي تظل على الدوام مستقرة لا تتحول - ليس هذا الأمر على شيء من ذلك ولكنه أمر مرحلي قابل للتغيير والتبديل وهو كذلك قابل للتحوير والتطوير بما تقتضيه ملابسات المجتمع ومقتضيات الأعراف والأوضاع والشرائع، فإذا ما خول الله بني إسرائيل أن يدخلوا القدس في غابر الزمان تحت قيادة منقذهم موسى عليه السلام، أو يوشع بن نون من بعده فإن مثل هذه المسألة ليس إلا أمرا مرحليا اقتضته ظروف معينة، وتلك مرحلة من تاريخ بني إسرائيل ليس لها أن تتكرر بالضرورة، لا بحكم المنطق السليم، ولا بحكم النبوة الصادقة، ولا بحكم الدين إذا لم يتخلله تحريف أو خلط أو تزييف، إنه ليس لهذه المرحلة من تاريخ بني إسرائيل أن تتكرر لمجرد أنها حدثت مرة من زمان، لأن حدوثها ما كان إلا تنفيذا لأمر من أوامر مرحلية يمكن أن يقع عليها التبديل أو النسخ لتصبح أثرا مسطورا في الكتب من غير مفعول أو تأثير، فإن من الأولى أن نتغير مثل هذه الأوامر المرحلية التي لا ترتبط بالعقيدة أدنى ارتباط خصوصا إذا علمنا أن ديانة السماء لا تقوم على التعصب للعرق أو الجنس، كيلا يدعي أحد وهو يتصور تصور الواهمين الحالمين، أنه ذو انتماء لشعب مفضل مختار خير من شعوب الأرض طرا، ذلك تصور خاطئ واهم، وأصدق ما يجيء في هذه المسألة من عدم الاعتداد بالآباء والأجداد الذين مضوا إلى غير رجعة ما قاله الله بني إسرائيل: (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم).

قوله: (فكلوا منها حيث شئتم) كلوا جملة فعلية تتألف من فعل وفاعله، حيث ظرف مكان مبني على الضم مضاف إلى الجملة الفعلية بعده، رغدا اسم مصدر منصوب نائب عن المفعول المطلق (أكلا) والرغد الرزق الكثير الواسع.

قوله: (وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة (أمرهم الله لدى وصولهم المدينة أن يدخلوها سجدا، والمقصود بالسجود هنا يحتمل أحد معنيين وهما: الركوع، فعلا، أو الخشوع الوجداني الغامر الذي يقترن بالتواضع عند الدخول، وكلا الاحتمالين جيد وإن كنت أرجح الأول وهو أنهم أمروا أن يدخلوا باب المدينة ركعا وذلك على سبيل الأخذ بالظاهر والاعتماد على مفهوم السجود الذي يراد به هنا الانثناء على هيئة الركوع.

وفوق أمرهم بالدخول سجدا، أمرهم الله أن يشفعوا ذلك بقولهم: (حطة) وهي خبر مرفوع لمبتدأ محذوف وتقديره: مسألتنا حطة، وقد اختلف أهل التأويل في المراد بهذه الكلمة، ويمكن أن نستخلص قولين في المراد بها، أحدهما: أن الله عز وجل قد تعبد بني إسرائيل بحرفية هذه الكلمة ليغفر لهم خطاياهم، فإنهم بذلك مأمورون أن يعبدوا ربهم بقولهم حطة، ليكفر الله عنهم مات اقترفوه من المعاصي والذنوب وهم يخالفون عن أمر نبيهم موسى وأمر ربهم ذي الفضل والمنة عليهم.

ثانيهما: أن كلمة حطة تعني احطط عنا الذنوب فهي بذلك منصوبة باعتبارها اسم مصدر، وفي تقديرنا أن القول الأول أقرب للصواب، ذلك أن الله سبحانه قد تعبدهم بقولهم هذه الكلمة ليغفر لهم خطاياهم لولا أنهم بدلوا تبديلا، ويعزز هذا القول ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاهم وقالوا: حبة في شعرة.

وأخرجه البخاري بلفظ آخر وقال: " فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة " ٤٩ وقد ورد مثل هذا الحديث في غير البخاري ومسلم بلفظ: " حنطة في شعر " وذلك كله على سبيل السخرية والاستهزاء فكتبت عليهم خطيئة مضافة إلى خطاياهم التي قد حفل بها سجل أعمالهم من حيث التمرد والفسق عن أمر الله.

وقوله: (وسنزيد المحسنين) وعد الله بالتفكير عن سيئات العاصين الذين خالفوا عن أمر الله بعد أن يقولوا حطة، وأنه سبحانه سيزيد في إحسان من ظل منهم مستقيما، فلم يعبد العجل وصان نفسه ولسانه عن الخطايا والذنوب.

٥٩ - (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

قوله: (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) أي أنهم سخروا مما أمرهم الله بقوله وهو حطة، فبدلوا ذلك بمقالة الفسق والسوء وهي حنطة في شعر، أو نحو ذلك مما بينا آنفا وذلك ظلم قد فارقه بنو إسرائيل فكان حقا على الله أن يذيقهم رجزا من عنده والرجز هو العذاب، وذلك في قوله تعالى: (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) قد أنزل الله عليهم عذابا من السماء جزاء فسقهم والفسق هو الخروج عن طاعة الله والخالفة عن أمره - ٥٠

٦٠ - (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) وتلك نعمة عظيمة أخرى أنعمها الله على بني إسرائيل إذ فجرت لهم من الصخر الصلد ينابيع تفيض بالماء فقال: (وإذ استسقى موسى لقومه) السين الأولى تفيد الطلب أي أن موسى طلب السقاية لقومه حال كونهم في التيه، فأوحى الله إليه أن يضرب الحجر بعصاه، وليس لنا هنا أن نخوض في حقيقة الحجر لنعلم أصله وموضعه وغير ذلك من وجوه المعرفة التي لا تزيد من أهمية القضية شيئا، فثمة روايات يخالطها الغلو والإفراط ولا تستند إلى الدليل الصحيح الموثوق مما يثير في الذهن الشك وعدم التصديق فمن قائل بأن الحجر كان مربعا طوريا، نسبة إلى جبل الطور وأنه على قدر رأس الشاة، وقائل بأنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى وقائل بأن الله تعالى أمر موسى أن يضرب حجرا بعينه بعد أن بينه له، وقائل بأنه هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل حتى برأه الله مما رماه به قومه، الى غير ذلك من الروايات المستمدة في غالبها من الإسرائيليات التي كثيرا ما يعوزها الدليل، ويخالطها الشك، وعلى هذا فكل الذي نركن إليه في هذا الصدد أن

نبي الله موسى عليه السلام قد ضرب الحجر بعصاه بناء على تكليف من ربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من غير أن نخوض في ذلك تفصيلا يقود إلى التكلف.
قوله: (قد علم كل أناس مشربهم) كان بنو إسرائيل في التيه كثيرين، فقضت مشيئة الله المنان أن تتدفق لهم المياه بغزارة ليشربوا في سهولة ويسر ولئلا يتضايقوا أو يتزاحموا فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عينا وفي ذلك ما يسد حاجة بني إسرائيل وزيادة، وفيه ما يدرأ عنهم حرارة العطش ويفيض عليهم ببركة العيش الهانيء الرخي.
ويبدو أن عدد العيون الدافقة بالماء جاء كفاء لعدد أسباط بني إسرائيل وهم أسباط قد انحروا من نسيل أبيهم يعقوب وكانوا اثني عشر فردا قد تناسلوا وتكاثروا حتى آلوا إلى خلق كثير قارب المليون من النسمات كما يظهر من الأخبار التي تروي مثل هذه القضايا، وقد علم كل سبط من هؤلاء الأسباط (مشربهم) أي موضع شربهم الذي يستقون منه دون تجاوز لغيره، ليكون في ذلك نظام لهم مطرد تستقيم فيه طريقتهم في الشرب، فلا يتزاحمون أو يفتاتون.
وقوله: (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعتوا في الأرض مفسدين) يأمرهم أمر إباحة بأن يأخذوا بنصيبهم من خير الله وفضله في المأكل والمشرب، فيأكلوا المن والسلوى وهما طعامان نافعان جيدان كان اليهود، يتناولون منهما ما شاؤوا دون تعب، ويشربون الماء العذب المتفجر من الحجر بإذن الله، وهو سبحانه نهاهم لذلك عن أن يعيثوا في الأرض مفسدين.
وذلك من الغيث وهو الشدة الفساد، وكأن العيث في الأرض بالفساد بات ديدنا تصطبغ به طبيعة بني إسرائيل الذين آلوا إلا أن يجحدوا النعم التي تهاطلت عليهم طيلة حياتهم مع أنبيائهم وفي طليعتهم موسى عليه السلام، وكذلك أن يصموا آذانهم عن كلمات الخير يرددها لهم أنبياؤهم وعلماؤهم، لكن ذلك كله لم يؤثر في هذه الطبيعة الفاسدة المعطلة إلا تأثيرا هينا، حتى بقي سوادهم الأعظم يجتر في دخيلته الغش والخداع فانطلقوا في الأرض يعيثون فسادا.
٦١ - (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)
قوله تعالى: (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).
تحكي لنا هذه الآية قصة البطر الذي ركب النفسية اليهودية بعد أن ضاقوا بطعام المن والسلوى فانقلبوا غير صابرين على هذا الطعام وحده ليرجوا بعد ذلك نبيهم موسى كي يتضرع الى الله عسى أن يخرج لهم من نبات الأرض المختلف كالبقل والفوم والبصل، أما البقل فهو نبات اخضرت به الأرض، وقيل: ما ليس له سوق من النبات.
والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة، وأما الفوم فهو موضع خلاف المفسرين وأهل اللسان فقد قيل: إنه الثوم المعروف، وقيل الحنطة وقيل غير ذلك.
هكذا بطر اليهود معيشتهم حتى عافت نفوسهم عيش الخير والنعيم حيث الراحة والرخاء وحيث الطعام النافع الجيد الذي كانوا يتناولونه في غاية اليسر وهو المن والسلوى ليستبدلوا بدلا من ذلك خسيس الطعام ودنيئه مثل البقل والقثاء والفوم وغير ذلك من أصناف الطعام الذي يدنو دون المن والسلوى سواء في المذاق والطعم أو في سهولة الحوز والتحصيل أو في كمال المشروعية والحل كما قيل:
وأروع ما يرد في هذا الصدد من بيان كاشف مصور ومعبر هو قول الله سبحانه:
(قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) وأداة الاستفهام تنطوي على التوبيخ المنقرع لمثل هذه الطبائع الفاسدة، وهي طبائع لا ترتضي ولا تهنأ بكريم العيش، ولكنها تظل على الدوام نزاعة للخسائس، ورحم الله الحسن البصري إذ يقول في يهود وهو يعرض لتبيين هذه الآية بالذات: كانوا نتانى أهل كرات وأبصال وأعداس، فنزعوا الى عكرهم عكر السوء، واشتقات طباعهم إلى ما جرت

عليه عادتهم فقالوا: لن نصبر على طعام واحد.

قوله: (أدنى) من الفعل دنا بغير همز ومنه الدنو أي قلة الثمن، والدناوة أو الدون وذلك يقال للخسيس من الأشياء أما الفعل المهموز دنأ فهو من الدناءة أي اللؤم والخبث كما قال بعض اللغويين، فجاءهم الرد بعد هذا المطلب الغريب البطر بأن يهبطوا مصرا، وفي قوله: (مصرا) جاءت عدة أقوال أهمها قولان: أحدهما أن المقصود بذلك أي مصر من الأمصار على غير تعيين خصوصا وأن مصرا قد وردت في الآية منكرة مصرفة على التنوين، وذلك الذي عليه جمهور المفسرين، وذهب آخرون الى أن المقصود هي مصر فرعون واستدلوا على ذلك بما جاء في القرآن من توريث الله لبني إسرائيل ملك فرعون في مصر، والراجح عندنا هو القول الأول وذلك ما يقتضيه ظاهر الآية في الأمر بدخول القرية علما بأنهم سكنوا الشام بعد ذلك، فضلا عن إيراد الكلمة (مصرا) هكذا منونة مصروفة.

قوله: (فإن لكم ما سألتم) ذلك قرار من الله بإعطائهم ما طلبوا من خسيس الطعام، وهكذا قد امتن الله على بني إسرائيل بإعطائهم ما سألوا لكنهم بطروا ذلك كله، وآلوا إلا أن يظلموا مدبرين لا يلوون على شيء من التورع أو الامتثال أو الشكران - فما عادوا بعد ذلك ليستأهلوا شيئا من الإعفاء أو التكريم إلا المهانة والهوان والتشتيت في الأرض شذر مذر، ومن أجل ذلك قال سبحانه: (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله).

وهذه كلمة الله التي تحمل القرار الرباني الحاسم، وهو قرار إلهي مقدور لا يقبل التعقيب، جاء ليعلن للأرض أن هؤلاء القوم قد ضرب الله عليهم الضعف والهوان ليسيروا في الأرض غير أعزاء ولا كرماء ولتحيط بهم غواشي المسكنة، والمسكنة من السكون وهو ذهاب الحركة، ومنه المسكين سمي بذلك لقلة حركته وسكونه الى الناس، ومنه الفعل استكان أي خضع وذل.

قد ضرب الله الذل والهوان على بني إسرائيل ليكون ذلك ديدنا لهم يتوارثونه كابرا عن كابر ليحيوا حياة الاستكانة والتدسس، والخور، وليكونوا أبد الدهر في شق المنافقين والأشرار من الناس، وليكونوا في طليعة الذين يتآمرون على البشرية في أروع ما تملك من عقائد وقيم، وذلك لكي تتبدد هذه المبادئ والقيم فتستحيل البشرية إلى ركام من الخلائق الضالة الممسوخة، ولتغيب عن وجه الأرض شمس الخير فتستطير بعد ذلك أصوات الشر والباطل والفساد.

ولئن تحقق لبني إسرائيل على مدار الزمن بعض الظهور والتسلط، فإن ذلك لا يحمل أية منافاة لقرار الله بضرب الذلة والمسكنة عليهم، ولكن مثل هذا الظهور أو التسلط ليس إلا انعطافا عابرا من مستثنيات الأحداث الشاذة التي يطويها التاريخ في مسيرته الطويلة أو هو مجرد التواء عارض مقدور، ربما يؤثر في عجلة الزمن الدائر بعض التأثير، وهو تأثير يحسب في عداد القضايا النادرة المستثناة التي تند من قواعد الأشياء الأساسية ندا والتي تطفو على سطح الأحداث لتمر بغير وزن أو حساب، ثم تبوء الحياة بعد ذلك الى سابق عهدها في الأصالة الثابتة والاستقرار الدائم.

وقوله: (وباءوا بغضب من الله) باء بمعنى رجع من البوء وهو الرجوع ومنه المباءة بمعنى أقر واعترف، نقول: باء الحق أو الشيء معناه أقر به وألزم نفسه به، ٥١ وهكذا باء بنو إسرائيل بغضب من الله أي رجعوا وانقلبوا يحملون على كواهلهم وجباههم غضبا من الله، والغضب هو شدة المقت، نعوذ بالله عوذا يجنبنا مقت الله وغضبه، ويباعد بيننا وبين أن نبوء بالآثام والمعاصي.

قوله: (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق) وذلك تعليل لضرب الذلة والمسكنة عليهم ولبوؤهم بغضب الله، فقد حق ذلك العذاب كله عليهم بسبب ما اقترفوه من جرائم شنيعة نكراء، منها كفرهم بآيات الله، وآياته تشمل كتابه المنزل عليهم من السماء، لهدايتهم وصلاحهم وتشمل كذلك المعجزات التي أوتيها النبيون لتكون لهم علامات واضحة تشهد على نبوتهم وصدق ما يقولون.

ومنها كذلك قتلهم النبيين، ومفردها النبي وهو من الفعل نبأ وأنبأ أي أخبر، والنبأ هو الخبر، ومنه النبوة وأصلها النبوءة ومعناها الإخبار عن الغيب من طريق الوحي، وقيل نبأ الشيء نبوء بمعنى ارتفع فكأن المقصود بالنبوة السمو والارتفاع - ٥٢

وهذه جريمة بشعة تضاف الى عداد الجرائم التي قارفها بنو إسرائيل وهي قتلهم النبيين بغير حق، ولا ينبغي أن يؤخذ بالمفهوم المخالف هنا ليظن خطأ أن النبيين يمكن أن يقتلوا بالحق، وذلك فهم فاسد لا يستقيم، فإن قوله: (بغير الحق) لهو مجرد وصف لجريمة اليهود

وهي أنهم كانوا يقتلونهم ظلما وعدوانا، ولا يعني ذلك أنهم يجوز قتلهم إن أخطأوا فهم أصلا معصومون عن الخطايا كافة في قول أكثر أهل العلم.

ومن المعلوم أن قتل الإنسان، المؤمن لهو من كبريات الكبائر التي تورد المقترف الجاني مور جهنم، فكيف بالقتيل إذا كان نبيا من النبيين الأطهار الذين قدسهم الله وعصمهم عصمة تحول بينهم وبين الخطايا والآثام؟ فلعمر الحق إن جريمة بني إسرائيل فظيعة مريعة ترجف لهولها وبشاعتها القلوب والأبدان، خصوصا إذا وقفنا على بعض أخبار تذهب الى أنهم كانوا يقتلون النبيين بالجملة كل يوم، حتى إنهم كانوا يبلغون بضع عشرات يقتلون مرة واحدة، فيا لهول الجريمة، وا لفداحة العدوان النكير الذي تهتز لشدته السماوات والأرض.

وقوله: (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (ذلك اسم إشارة وهو تأكيد للمشار إليه مرة أخرى وهو علة ضرب الذلة والمسكنة عليهم ثم بوؤهم بالغضب من الله، كل ذلك كان علته عصيانهم وعدوانهم (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

٦٢ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يبين الله في هذه الآية أن العبرة في الإيمان الصحيح الصادق وليس في الأشكال والمظاهر، وحقيقة الإيمان المقصود الذي يكون عليه التعويل إنما هو في اليقين بالله وباليوم الآخر، وتلكان حقيقتان تأتيان في طليعة الكبريات اليقينية التي تقوم عليها عقيدة الإسلام، ثم يأتي من بعد ذلك العمل الصالح المشروع، ومن دون ذلك كله لا تكون للإيمان أية قيمة إلا التثبت بالكلام المتحذلق والجدال الذي لا يغني.

يقول سبحانه: إن المؤمنين الصادقين الذين يرضى عنهم ربهم فيجزيهم خير الجزاء هم الصفوة المؤمنة في كل ذات كتاب أو ملة، سواء في ذلك أمة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، أو أمة كل من اليهود والنصارى والصابئين، إن الصفوة المؤمنة من كل هاتيك الأمم هي التي لها الحظ الأوفى والتي عليها المعول بغير اعتبار للاسم أو الشكل أو المظهر.

أما الذين آمنوا فهم الذين يصدقون نبوة الرسول محمد عليه السلام، والذين هادوا هم اليهود، وسبب التسمية بقوله: (هادوا) قيل فيه ثلاثة آراء، أحدها: أن هادوا فعل ماض والمضارع يهود بمعنى ثاب يثوب ومنه قوله تعالى: (إنا هدنا إليك) أي تبنا ورجعنا.

والرأي الثاني: أن الاسم نسبة إلى يهوذا وهو الابن الأكبر ليعقوب عليه السلام أبي اليهود، والرأي الثالث: أن هادوا من الهوادة وهي اللين والرقة، لكنني أرجح الرأي الأول القائل بأن هادوا نسبة الى يهوذا الابن الأكبر، لأن الرأيين الآخرين أساسهما الاشتقاق في العربية مع أن بني إسرائيل ما كانوا يتكلمون العربية في زمانهم بل كانوا ينطقون بلغة التوراة.

ومن جهة أخرى فإن نسبة القولين الأخريين إلى التوبة والهوادة أمر لا يستند الى دليل، أما (والنصارى) فمفردها نصراني، وسبب التسمية نسبة لقرية الناصرة حيث كان المسيح عليه السلام يقيم، فسموا بعد ذلك النصارى وقيل غير ذلك.

أما (والصابئين) فمفردها الصابئ من الفعل صبأ أو صبو صبأ وصبوء أي خرج، فالصابئ هو الذي يخرج من دين الى دين آخر، **٥٣** ذلك هو المفهوم اللغوي للكلمة، لكن الصابئين من حيث حقيقتهم وملتهم فموضع خلاف العلماء، وخلاصة ما جاء فيهم قولان: الأول: أنهم فرقة من أهل الكتاب تحل ذبائحهم وتنكح نساؤهم والقول الثاني: هو أنهم ليسوا من أهل الكتاب ولكنهم ذوو ملة يختلط فيها التوحيد بالشرك، فقيل إنهم يعبدون الملائكة أو يعتقدون تأثير النجوم - والراجح عندي أنهم ليسوا من أهل التوحيد ولا من أهل الكتاب وأنهم بذلك مندرجون في أهل الشرك، فلا تحل ذبائحهم للمسلمين، ولا تنكح نساؤهم من قبلهم وتصنيف الأمم في هذا الشأن معروف وهي أمم ثلاث: أمة القرآن ثم النصارى ثم اليهود، فليس من أمة ثالثة بعد هاتين الآخرين تنطبق عليها أحكام أهل الكتاب.

وقوله: (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) من مبني على السكون بدل من الذين قبلها وقد بينا آنفا أن الأهمية والاعتبار إنما

يكمنان في اليقين الصحيح والتصديق الأوفى اللذين يقومان على الإيمان بالله، وهذا الإيمان لهو أبسط الصور اليقينية التي يدركها العقل في غاية اليسر والتي توجبها الفطرة إيجابا لا يقبل الوناء أو التراخي.
وكذلك الإيمان باليوم الآخر وهو شطر أساسي وركين تنهض عليه العقيدة من أول لحظة، والإيمان باليوم الآخر قضية حاسمة قاطعة لا تحتمل شيئا من مداهنة أو موارية ولكنها يقينية قد نطقت بها الكتب السماوية جميعها وأجمعت عليها كلمة الأنبياء في كل زمان ومكان، وهي مفرق بفصل بين الحق والباطل أو بين الشك واليقين أو بين الكفر والإيمان، وهي كذلك حقيقة كبرى تحسر عن طاقة هائلة من التأثير والفعالية التي تقوم على أساسها شخصية الإنسان، وتركيبة المجتمع، وبالتالي فإنها تحسر عن طاقة ضخمة تتجاوز كل تصور وحسبان من حيث تنمية الإنسان وتكييفه ليجيء على نحو معين من الطابع والسلوك.
ثم يقرن الله سبحانه الإيمان بضرورة العمل الصالح لتكتمل الصورة المطلوبة، فلا إيمان بغير عمل، ولا قيمة للعمل إذا لم يسبقه إيمان متوطد يستكن في صميم الإنسان، حتى إن العمل المطلوب هنا هو المشروط بالصلوح (وعمل صالحا) على أن يكون ذلك مشفوعا بالنية التي يتوجه القصد من خلالها إلى الله، كيلا يختلط العمل بالرياء وهو صورة من صور الشرك.
وهؤلاء المؤمنون على اختلاف أجناسهم وتعدد أعراقهم وقومياتهم فهم عند الله لهم الثواب وحسن الجزاء وهم بذلك مأجورون خيرا - وفوق ذلك فإنهم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقد سبق تفسير هذا القول الكريم وخلاصته أن هؤلاء المؤمنين الذين تجمعهم عقيدة الحق وتؤلف بينهم قاعدة الإيمان لا يخافون كما يخاف الناس، وذلك في يوم مزلزل مذهل، وفي ساعة رهيبة حرجة، يشتد فيها الهول وتخور فيها الهمم والعزائم، وكذلك فإنهم لا يحزنون لدى مفارقتهم للدنيا حيث الأهل والنسل والمال وحيث العشيرة والصحب والخلان، ومن شأن المرء أن يحزن إذا أحس بفراق من حوله من خلان وأولي قربى، وكذلك ما حوله من روابط وعلائق وذكريات تشده الى الديار والأوطان ومسقط الرأس، شدا لكن أولياء الله المؤمنين لا يحزنون فإنهم مقبلون على الله الكريم المنان الذي يبسط لهم كل العطاء من خير وجنان بما تهون دونه الدنيا كلها وما فيها من ضروب الخير والراحة والمتاع - ٥٤
٦٣ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)
قوله تعالى: (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) أخذ الله على بني إسرائيل الميثاق وهو العهد الذي واثقهم به أن يؤمنوا به وبرسله، وأن يتبعوا التوراة وما فيها من هداية ونور إلا أنهم نقضوا كل ما طوقوا به أنفسهم من العهود والمواثيق - وبعد ذلك خوفهم الله تخويفا أحسوه عيانا، إذ رفع فوقهم الطور ليهتدوا ويتبعوا ما أنزل إليهم، واختلف أهل التأويل في حقيقة الطور فقد قيل: إن المقصود به طور سيناء وهو الطور المقدس، الذي كلم الله نبيه موسى عليه وأنزل عليه التوراة فيه، وقيل: إنه جبل من الجبال قد رفعه الله فوق اليهود ليرعبهم وليحملهم على اتباع ما أنزل إليهم، وقيل غير ذلك.
قوله تعالى: (خذوا ما آتيناكم بقوة) أراد الله جلت قدرته أن يزلزل بني إسرائيل لفرط عصيانهم وتمردهم واختلافهم على أنبيائهم ولشدة مخالفتهم عن أمر الله، فرفع الجبل فوق رؤوسهم حتى أيقنوا أنه ساقط عليهم فمدمرهم تدميرا، وذلك كي تلين نفوسهم للحق وتستقيم طبائعهم بعد اعوجاج وطول أرجحة وميوعة، فيقبلوا على الله باتباع دينه والعمل بما جاءت به التوراة - يبين ذلك ويوضحه ما قاله سبحانه في الآية الأخرى: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) والنتق هو الرفع فقد رفع الله الجبل فوق رؤوسهم، ليخافوا ثم يتبعوا كلام الله فقال وهم في هذه الحالة من الخوف الشديد بعد أن نتق فوقهم الجبل (خذوا ما آتيناكم بقوة) أي ألزموا أنفسكم بالتوراة التي أعطيناكم إياها لتكون لكم هاديا ومنيرا، وخذوها بقوة أي بجد واهتمام وعزيمة لا بضعف وهزل ورخاوة كما هي حالكم من الخور والميوعة، وفي قوله: (بقوة) ما يكشف عن طبيعة بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وهي طبيعة تقوم على الرخاوة واللامبالاة وعدم الجد بحيث لا يناسبها الأسلوب الين الكريم أو الخطاب المؤثر الحاني وإنما يناسبها الحزم والشدة، ويؤثر فيها الترويع والعقاب حق تأثير، ومثل هذه المعاني يكشف عنها قوله سبحانه: (بقوة)

ويكشف عنها كذلك نتق الجبل فوق رؤوسهم تهديدا لهم وترغيبا حتى انصاعوا للأمر فخروا ساجدين، وبغير هذا الأسلوب القاسي، المحسوس لا يصلح لمثل هؤلاء القوم شأن، فلا الحجة الدامغة ولا البرهان الساطع، ولا الخطاب الكريم الذي يلج في النفس فيؤثر فيها تأثيرا، ولا الأساليب الأخلاقية العالية التي تستنهض فطرة الإنسان، ولا غير ذلك من أسباب المنطق وأثارة الوجدان يمكن أن يحمل مثل هؤلاء على الالتزام بشرع الله والسير على صراطه المستقيم.

ولعل مثل هؤلاء القوم مجرد نموذج منن البشر الذي لا يثنيه عن الباطل غير القوة، فلا أحسب أن هؤلاء القوم وحدهم لا يستجيبون إلا للقوة ولكن أصنافا كثيرة من البشر في مختلف البقاع والأزمنة وفي مختلف الأجناس والملل لا يرعون إلا إذا أحاطت بهم الشدة وأخذوا بأسلوب العصا الغليظة، ويعزز هذه الحقيقة الحديث الشريف الذي يتسم بالعمومية والشمول إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وقوله: (واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) أمرهم سبحانه أن يأخذوا التوراة، ليتدبروا ما فيها وليعوها وعيا تاما وافيا، فعسى أن يكون في ذلك ما يقيهم العذاب ويدرأ عنهم الشدائد في الدنيا والآخرة.

٦٤ - (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

وقوله: (ثم توليتم من بعد ذلك) ما أعجب هؤلاء الناس، وما أعجب طبائعهم فكم مرة يؤمرون ويعصون ثم يحيق بهم العذاب يهددهم تهديدا حتى إذا انكشف عنهم العذاب عادوا الى الجحود والعصيان، وعادوا ديدنهم في الفساد والتمرد وذلك في غاية من الميوعة والهزل والتأرجح، وهذه مرة أخرى من المرات التي يتحدث فيها القرآن عن حمل بني إسرائيل على الطاعة بالقوة والتهديد، ثم إذا زال عنهم ما يرعبهم ويخوفهم رجعوا إلى المقصود (ثم توليتم من بعد ذلك).

وفوق ذلك كله فإن الله جلت قدرته رحيم بهؤلاء القوم فقد بسط لهم من أهداب الرحمة والمغفرة ما يثير في النفس العجب، ويرسم للذهن أجلى صورة عن مدى الرحمة التي تتجلى في جلال الله سبحانه، لا جرم أن رحمة الله تدنو دونها سائر الرحمات، فقال سبحانه: (فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) يمن الله على بني إسرائيل بفضله عليهم ورحمته، وأنه أولا هذان: الفضل والرحمة لكانوا من الخاسرين، والفضل هو الإحسان، والرحمة معروفة فهو سبحانه الرحيم الحنان المنان وهو أرحم الراحمين، وهو سبحانه لا يدانيه في هذه الخصيصة أي كائن حتى إنه اسمه الرحمن وهو اسم لا يليق أن يكون لأحد سوى الله، فهو وحده الحقيق بذلك.

وقوله: (الخاسرين) من الخسر والخسران والخسار والخسارة والتخسير - وهو ضد الربح وهو يعني الضلال والهلاك، ٥٥ فإنه لولا فضل الله على هؤلاء القوم ورحمته بهم لأصابهم الهلاك على الفور، ولهبطوا في الضلال دون إنظار أو وناء، ولكن الله تعالى كان في كل مرة يعصونه فيها يمن عليهم بالفضل والرحمة فيعفو عنهم ويبسط لهم جناح العفو والغفران ليعاودوا السير في ظل الله والالتزام بدينه من جديد، لكنهم أخيرا أبوا إلا التمرد المكرور الذي لا ينقطع حتى دمر الله عليهم تدميرا فكتب عليهم الذلة والمسكنة، ومزقهم في الأرض شر ممزق، وقطعهم في الأرض أشتات أمما.

٦٥ - (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

قوله تعالى: (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) ذلك خطاب من الله لليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يذكرهم بقصة العدوان والتحدي اللذين مارسهما آباؤهم من بني إسرائيل يوم تحيلوا على دينهم بطريقة مفضوحة تقوم على الكذب والخديعة فاصطادوا السمك والحيتان يوم السبت، وقوله سبحانه: (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم يوم السبت) ولم يقل عرفتم، فإن المعرفة متعلقة بذات الإنسان وعينه لكن العلم متعلق بأوصافه وأحواله - فاليهود الذين عاصروا النبي عليه السلام يعلمون عن حال آبائهم وأجدادهم من بني إسرائيل الذين اعتدوا في السبت.

والمعلوم أن السبت لدى اليهود هو يوم عبادة ينقطعون فيه عن جميع الأعمال والممارسات سوى العبادة وما لها من مقتضيات، فأحست الأسماك والحيتان بغريزتها أن هذا اليوم بات يوم أمن وسلام لها، فلا يصيبها فيه أذى أو اعتداء، فكانت بذلك تفيض صوب الشاطئ

بأعداد كثيفة كاثرة مما ألهب في نفوس بني إسرائيل غريزة الطمع وجمع المال فجعلوا يصنعون الحفر والحبائل والبرك لتلجأ إليها الأسماك يوم السبت دون أن تتمكن بعد ذلك من الخروج أو التخلص فتظل حبيسة محشورة على هذه الحال إلى أن ينقضي السبت، ثم تأتي جماعات يهود فتأخذ ما وقع من هذه الأسماك والحيتان متذرعين بأنهمن أخذوها الأحد، وتلك طريقة المعتدين الخونة الذين ألهبهم الطمع واستفز أعصابهم ونفوسهم لتجهد لاهثة وراء المال والحطام الزائل، وقد كان ذلك من خلال أسباب خسيسة في الاحتيال والغش والخداع الأثيم.

وقوله: (السبت) وهو مفرد مصدر جمعه أسبت وسبوت، ومعناه: الراحة والقطع، والانقطاع عن المعيشة والاكتساب، ٥٦ ليتسنى لهم أن يعبدوا الله غير منشغلين بما يعيق.

وقوله: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) كان ذلك جزاء لهم على فعلتهم الماكرة بالتحايل على أوامر الله بأسلوب رخيص ينم على سوء في النية وفساد في الطبع والسجية، فقد أمر الله بقدرته المطلقة التي تحقق فيما بين الكاف والنون (كن) أن يتحول هذا الفريق الفاسد المتجاوز المحتال الى قردة، لكن هل انقلبوا إلى قردة من حيث الحكم والمعنى أو من حيث الحقيقة والصورة فوق الحكم والمعنى.

ثمة قولان في هذه المسألة أحدهما: أن الذين اعتدوا في السبت قد نسخ الله نفوسهم وطبائعهم فحولها من هذه الناحية إلى ما يشبه القردة من حيث الطبائع والنفوس من غير أن يؤثر ذلك على ظاهر الخلقة في شكلها الآدمي.

والقول الثاني: أن الله قد مسخهم إلى قردة من حيث الحقيقة والصورة والمعنى فاستحالوا بذلك إلى قردة حقيقيين لا يفرقهم عنهم أي فارق، لا في الصورة ولا في المعنى وذلك ما ذهب إليه أكثر العلماء وهو الذي نرجحه أخذا بظاهر الآية الحقيقي، إذ لا تعويل على المجاز ما دامت الحقيقة للتعبير القرآني بارزة ومكشوفة والله تعالى أعلم.

على أن الأخذ بالقول الثاني يغني عن الأول أو هو يشمله فظاهر الآية يدل على تحويل هؤلاء المعتدين إلى قردة، وذلك من حيث الحقيقة والصورة، وكذلك من حيث المعنى وهو قد بات مندرجا في تركيبة القرود، ذلك أن من تحصيل الحاصل أن نقول أن القرد ينطوي على خلقة شكلية ومعنوية واضحة ومفهومة، وبعبارة أخرى فإن من المستحيل أن نتصور قردا في طبع يختلف عن طبائع القرود، فما دام هؤلاء قد تحولوا إلى قردة، فإن عملية التحويل باتت كاملة تماما ليكونوا قردة حقيقيين، وذلك من حيث الصورة والمعنى كلاهما.

وقوله: (خاسئين (أي مبعدين منزجرين، من الفعل خسأ وانخسأ أي بعد وطرد وانزجر والخاسئ هو القميئ الصاغر المطرود الذي لا يترك فيدنو من طارده - ٥٧

ومثل ذلك قوله تعالى: (قال اخشوا فيها ولا تكلمون (يقال ذلك لأهل النار الذين يتصايحون راجين فيقال لهم: (اخشوا (أي امكثوا مبعدين صاغرين مطرودين.

٦٦ - (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

وقوله: (فجعلناها نكالا) جعلناها جملة فعلية من فعل وفاعل ومفعول به أول نكالا مفعول به ثان، والضمير في جعلناها يعود على القرية التي مسخ أهلها قردة، وذهب أكثر المفسرين إلى أن القرية هي آيلة والمعروفة الآن باسم إيلات، وقيل إن الضمير يعود على العقوبة التي أنزلها بهؤلاء المخالفين العصاة، ونرجح القول الأول وهو المقصود القرية التي ضرب الله أهلها بالمسخ، أما النكال فهو العقوبة والزجر وهو اسم وفعله نكل أي منع، ومنه الإنكال بمعنى القيود التي ينكل بها أي يمنع بها من الفعل.

وقوله: (لما بين يديها وما خلفها) أي لما حولها من القرى، وذلك هو المعنى الراجح الذي نختاره - فقد قيل: جعل الله القرية المعذبة بالمسخ عبرة لما قبلها وما بعدها من حيث الزمان، وقيل: من حيث المكان، لكن المعنى الأول المختار هو المعتمد والذي عليه كثير من العلماء.

وقوله: (وموعظة للمتقين) مسخ الله أهل هذه القرية الظالمة، ليكون ذلك عظة للذين يتقون الله فيحسبون لعذابه كل حساب، وليعلموا أن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون، وأنه يوشك أن يسقط عليهم رجزا من السماء يدمرهم تدميرا، أو يصيبهم بعذاب من عنده فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

٦٧ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

وقوله تعالى: (وإذ قال يا موسى لقومه، إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزؤا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قالوا إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون)

لهذه الآيات مناسبة تتفق الروايات على أنها جاءت لتبين قصة قتيل من بني إسرائيل لم يعرف قاتله فأمرهم الله بذبح بقرة، ومما يلاحظ في اختيار البقرة بالذات دون غيرها من الأنعام أو البهائم أن ذلك شديد الصلة بعبادة بني إسرائيل للعجل، فأراد الله أن يبين لهؤلاء أن ما عبدوه من عجل ليس إلا صربا من الأوثان التي لا تضر ولا تنفع - وأنه كائن هين مهين أعجم لا يملك من العقل والإرادة ما ينجو به من المخاطر المحتملة، مخاطر الذبح وغيره فها هو ذا يهبط على الأرض ذبيحا بعد أن فصدت عنقه السكين الناحرة الحادة، فكيف يليق بذي عقل أن ينثني ساجدا عابدا لمثل هذه الدابة العجماء؟.

أما قتيل بني إسرائيل فقد ذكر أنه كان ذا مال كثير ولم يكن له أولاد يرثونه إلا بعض أولي قربى، فاستعجل هؤلاء الميراث قبل أوانه فقتلوا مورثهم المالك ثم اختفوا فتحاكموا إلى موسى لينظر في الأمر أو يطلعهم على القاتل، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة – أية بقرة من غير تقييد بوصف أو شرط - ولو أنهم بادروا في هوادة وبساطة ليذبحوا بقرة من البقر، صغيرة أو كبيرة ومهما كان لونها أو هيأتها لأجزأ ذلك عن المطلوب ولكنهم- كما قيل- شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم بعد أن ألحوا في الطلب المتكرر واستقصوا في معرفة الصفات استقصاء يتحرج منه كل تقي فهيم، وآلوا إلا أن يستوضحوا في مغالاة متنطعة كانوا في غنى عنها لو كانوا أتقياء متورعين أو كانوا معتدلين كراما يجملون في الطلب ويقدرون الله حق قدره.

والبقرة اسم جنس وهي تطلق على الذكر والأنثى، والجمع بقر أو بقرات وهي من الفعل بقر يبقر، بقرت الشيء أي شققته أو فتحته فتحا، ويسمى فلان بالباقر لأنه يبقر كل حجاب ليصل إلى صميم الحقيقة والعلم بعد أن يشق طريقه إلى ذلك شقا، وبقرت البطن أي شققته لبلوغ الجوف - وتبقر في العلم أو المال أي توسع فيه وسميت البقرة بذلك لإمكان شق الأرض وحرثها بالمحراث عن طريقها - ٥٨

أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا مجرد بقرة على طريق الوصول إلى معرفة من قتل الرجل ذا المال، لكن بني إسرائيل كان يعوزهم التواضع وسلامة الطبع والامتثال السريع لأمر الله فعجبوا لمثل هذا الأمر مستنكرين.

(قالوا أتتخذنا هزؤا) قالوا جملة فعلية تتألف من فعل وفاعل، والجملة الفعلية وهي مقول القول في محل نصب مفعول به، والضمير (نا) في محل نصب مفعول به أول، هزؤا مفعول به ثان - والاستفهام هنا بمثابة استنكار من بني إسرائيل لطلب موسى بذبح البقرة، وهو استنكار لا جرم أن يكون باعثه السفه والحماقة، ولا يصدر ذلك أمام جناب الله سبحانه إلا عن قوم نضبت في نفوسهم منابع الخشية والورع وأفلت عن طبائعهم شمائل التواضع والاستحياء من الله فانفلتوا عن التذلل لسلطانه وأمره بالمساءلة الباغية المستنكرة، على أن المطالبة بالذبح ما هي إلا ضرب من الاستهزاء الذي يترفع عنه كل تقي متواضع فكيف إذا كان الطالب نبيا عظيما كليما لله وهو موسى عليه السلام أحد المرسلين العظام أولي العزم؟ فأجابهم موسى ليرد عليهم مقالتهم الظالمة وتخريصهم الجهول.

(أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أعوذ من العوذ وهو الاعتصام والالتجاء وموسى عليه السلام يعلن اعتصامه بربه والتجاءه إليه من أن يخوض في عبث من القول الساخر اللاغط مثلما يعرفه هؤلاء القوم وهم يلغظون في عبث سقيم وهزل فاضح.

٦٨ - (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)

وقوله: (قوله ادع لنا ربك يبين لنا ما هي (وهنا يبدأ التعنت والسماحة والتبلد في الحس، إذ يطلبون من موسى أن يدعو ربه ليبين لهم ماهية البقرة، وقوله: (ما هي (جملة اسمية تتألف من مبتدأ وخبر، وما أهون الأمر لو أنهم بادروا بالذبح من غير تردد أو مساءلة لقد

كان الأمر في غاية اليسر الذي لا يستحق مثل هذا التمحل المغالي الذي ينم على طبع غريب.

(قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ((فارض (خبر مبتدأ محذوف تقديره هي وقيل صفة للخبر (بقرة (والفارض الهرمة التي ولدت بطونا كثيرة (ولا بكر (الواو للعطف، والبكر: الصغيرة التي لم يقع عليها فحل، فلا هي كبيرة هرمة ولا هي صغيرة لم تلد بعد ولكنها (عوان بين ذلك (العوان: النصف من النساء والبهائم وجمعها عون بضم العين، فهي بذلك وسط بين الكبر والصغر، والإشارة (ذلك (تعود على فارض وبكر، وبعد هذا الكشف عن ماهية البقرة يكرر الله دعاءه لبني إسرائيل أن يبادروا بالذبح فيفعلوا ما أمرهم الله به (فافعلوا ما تؤمرون).

وثمة قول بأن هذه الآية فيها دليل النسخ وأن النسخ نفسه واقع هنا، وصورته أن الله قد أمرهم أولا أن يذبحوا بقرة من البقر من غير تحديد بصفة معينة، فلما وصفها بعد ذلك كان نسخا يؤثر في الحكم وهو الطلب دون تقييد، ولا نرى مثل هذا الرأي فإنه لا يلزم مما سبق أن يعتبر ذلك نسخا - ولكن ذلك مجرد توضيح يكشف عن معاني أخرى جديدة ترد على نحو من الوصف أو التبيين، فلئن كان النص في الآية الأولى مطلقا بغير تقييد فهو في الأخرى مقيد بالوصف ولا يلزم من ذلك النسخ بل التقييد.

٦٩ - (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

وقوله: (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها (عادوا بنو إسرائيل الطلب من موسى ليبين لهم ربهم ما لون البقرة، وذلك امتداد آخر في المساءلة الفارغة الفجة التي ترد بغير تواضع ولا استحياء.

فبين الله لهم أنها صفراء فاقع لونها، ولا داعي للتأويل في معنى الصفرة أو في موضعها من البقر فخير في مثل هذا الحال أن يؤخذ بالظاهر لندرك أن الصفرة أو في موضعها الأصفر المعروف ولا نحمل في ذلك تكلفا، وكذلك فإن جسد البقرة كله أو غالبه كان يغمره اللون الأصفر، أما الفاقع من اللون الأصفر فهو الشديد الصفرة، وهو من الفقوع والمقصود بالفاقع من لونها الأصفر أن لونها خالص الصفرة لا يخالطه لون آخر - ٥٩

وقوله: (تسر الناظرين (أي أن الناظر إليها يعجب بها لمنظرها، وذلك من حيث اللون والسمت.

٧٠ - (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ)

وقوله: (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا (وذلك هو السؤال الرابع من يهود لنبيهم موسى إذ سألوه ليدعو ربه فيبين لهم ما هذه البقرة محتجين بأن البقر يشبه بعضه بعضا مما يلبس عليهم ما يريدونه.

لقد كان يهود في غنى عن كل هذه المساءلات التي تنم على التكلف الممجوج وتنم على طبع يستمرئ المواربة وطول الجدل، إنه الطبع المتلجلج الملتوي الذي يضيق بالاستقامة واليسر والوضوح، ولا يرضى بغير التكلف والتعسير أسلوبا ومنهاج حياة - لقد كانوا في غنى عن مثل هذه الثرثرة والاكثار من السؤال لو أنهم امتثلوا أمر ربهم وأنابوا إليه مبادرين فجاءوا ببقرة أية بقرة فذبحوها وكفى.

وقوله: (وإنا إن شاء الله لمهتدون (وهذه بادرة خير تحتسب لبني إسرائيل إذ سألوا نبيهم للمرة الرابعة فمضوا لينفذوا ما أمروا به فاستثنوا قائلين: (وإنا إن شاء الله لمهتدون (وفي ذلك صورة من الإنابة والذكرى التي ينبغي أن تقال في مثل هذا الموقف وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا الصدد، لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا.

٧١ - (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

قوله: (قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث) يأتي البيان الرباني ليصف البقرة بانها (لا ذلول) وذلول خبر مرفوع لمبتدأ محذوف وتقدير الجملة لا هي ذلول، وكذلك (تسقي الحرث) جملة فعلية في محل رفع خبر مبتدأ محذوف، وتقدير الجملة ولا هي تسقي الحرث، أما الذلول من الذل بكسر الذال ومعناه اللين وهو ضد الصعوبة نقول ذلت الدابة ذلا بالكسر أي سهلت وانقادت والذلول سهل الانقياد وجمعه الذلل بضم الذال واللام مثل رسول جمعه رسل، وبذلك فإن البقرة ليست بالمذللة التي روضها العمل أو التي تثير الأرض أي تقلبها بالتحريك، وهي كذلك لا تسقي الحرث أي لا تحمل عليها لسقي الزرع فإنها غير مذللة لمثل هذا العمل أيضا.

قوله: (مسلمة لاشية فيها) المسلمة التي تكون سليمة من العيوب كالصمم والعرج والعمى، وغير ذلك من عيوب وقوادح، وهي كذلك لاشية فيها - والشية العلامة أصلها وشيا وشية والجمع شيات والوشي هو نوع من الثياب الموشية أي المنقوشة، وفعله وشى، والمقصود أن البقرة ليس فيها لمعة أو علامة أو لون يخالف سائر لونها الأصفر.

قوله: (قالوا الآن جئت بالحق) أي الآن قد بينت لنا المطلوب وأفصحت لنا عن ماهية البقرة، وهم مع هذه المساءلات المتكررة ومع هذا التقصي الطويل الممل فإنهم ما ذبحوها إلا بعد جهد وما كادوا يذبحونها.

يقول بعض أهل التأويل: إنهم كادوا ألا يذبحوا البقرة لغلاء ثمنها أو لخشيتهم من الافتضاح إذا ما تبين فيهم القاتل - وفي تقديرنا أن مثل هذا التعليل صحيح، ولكن يضاف إليه طبيعة بني إسرائيل التي يخالطها الخور والجنوح للهزل المستديم وعدم الجد ثم الرغبة في السؤال المتكرر المنغص الذي لا يحتمل غير السماحة والإسفاف والثرثرة - ٦٠

٧٢ - (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)

قوله تعالى: (وإذ قتلتم نفسا فاذرأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتبون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم ءاياته لعلكم تعقلون ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون).

(قتلتم (جملة فعلية تتألف من فعل وفاعل، والميم للجمع (نفسا (مفعول به، منصوب وهذه الآية تأتي في مقدمة هذه القصة المنوطة بمعجزة البقرة، وذلك من حيث الترابط في المعنى خلافا لتركيبها من حيث النزول مثلما هو حاصل الآن وذلك هو أسلوب القرآن في كثير من هذه النماذج.

لقد قتل فريق من بني إسرائيل واحدا منهم، طمعا في ماله واستعجالا له قبل أوانه، ثم ادرأوا فيما بينهم حول هذا القتيل وقوله: (فأدرأتم فيها (الفاء للسببية، وأصل ادرأتم تدارأتم من الدرء وهو الدفع، قلبت التاء دالا، وسكنت لأجل الإدغام، ٦١ والمعنى: اختلفتم وتنازعتم في كيفية التعرف على القاتل حتى أتيتم موسى عليه السلام ليفصل بينكم (والله مخرج ما كنتم تكتمون (لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع، (مخرج (خبره، (ما (اسم موصول في محل نصب لاسم الفاعل (مخرج (أي إن الله جل وعلا سيخرج ما قد تمالأوا على إخفائه وكتمانه.

٧٣ - (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

أما الآن فإن المعجزة تتجلى تماما ليقف عليها الملأ، وليراها الجمهور رأي العين كي تستبين بعد ذلك قدرة الله البالغة ولكي يتثبت الناس من عظمة الخالق البارئ وهو يحيي الميت القتيل بعد أن يضربوه بجزء من بقرة ذبيحة، فقال سبحانه: (فقلنا اضربوه ببعضها) أمرهم الله أن يضربوا الميت القتيل بجزء من البقرة الذبيحة، ولا نتكلف القول لنزعم أن الجزء الذي استعمل للضرب كان كذا أو كذا من البقرة الذبيحة، فإن تكلفا كهذا لا يغني من الحق شيئا، وهو كذلك لا يوحي بشيء من فائدة لأهمية القصة المطروحة هنا، وكل ما في الأمر أن المعجزة ربانية قد وقعت بمشيئة الله تمثلت في إحياء ميت من بني إسرائيل بعد أن ضربوه بجزء من البقرة المذكورة ذلك هو المحور الأهم والذي يعول عليه في هذه القصة الفريدة الكبيرة.

قوله: (كذلك يحي الله الموتى) الكاف في اسم الإشارة للتشبيه في محل نصب صفة مصدر، محذوف وتقديره يحي الله الموتى إحياء مثل ذلك، ٦٢ أي مثلما أحيا الله الميت بضربه بجزء من بقرة مذبوحة، فإن الله يبعث الخلائق من بعد الموت في الآخرة، ولا جرم أن تكون قضية الإحياء بالنسبة للإسرائيلي القتيل بمثابة برهان واقعي محس قد عاينه الملأ بما يذكر بالحقيقة الأساسية الكبرى وهي يوم القيامة، وهي حقيقة تعمل آيات القرآن بما تحويه من نماذج وقصص وأحداث على ترسيخها في الذهن والقلب معا.

هكذا يحي الله الموتى وليس ذلك عليه بأمر عسير أو عزيز، وما تلك الأمثال التي يضربها للناس في القرآن كقصة البقرة أو نحوها غير أسباب تحمل المرء على أن يستفيض من حقيقة إحياء الموتى وبعثهم من القبور في يوم لا ريب فيه.

وكذلك فإن الله يطلع عباده على قدرته المطلقة الدالة على عظمته سبحانه لكي يعيها البشر وتعقلها الأمم جيلا بعد جيل فقال سبحانه:

(ويريكم آياته لعلكم تعقلون) من العقل وهو في اللغة بمعنى المنع، أي تمتنعون من فعل الحرام، فتكتب لكم النجاة والسعادة.

٧٤ - (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

وقوله: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) القسوة هي الانقباض واليبس والصلابة، وشبيه بذلك الكزازة ومنها الكز أي اليابس المنقبض، والمراد بيبس القلب وصلابته أي انقباضه دون الخير والرحمة، كيلا يستوعب بعد ذلك شيئا من الإيمان أو الإنابة أو الإذعان لله سبحانه، وتلك هي قسوة القلب، فإنها تورث في الإنسان إفلاسا من الخير وكل معاني العقيدة الصحيحة، وهي كذلك تصمه بالانقباض الشديد الذي يحول بينه وبين الخشوع لله أو الخشية منه حتى تنضب فيه مباعث الرغبة في الحق والخير والإيمان.

لقد قست قلوب بني إسرائيل عموما وذلك من بعد ما أراهم الله المعجزة بإحياء القتيل، وأطلعهم على قدرته التي تخرق طبائع الأشياء والتي لا تصدها النواميس والنظم - ومع ذلك كله فقد انقلب بنو إسرائيل مرتدين ناكبين بعد أن غابت في نفوسهم عوامل الخضوع والتقوى وبعد أن شحت فيهم معاني الفيئة والذكرى.

قوله: (فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقد اختلف في معنى (أو) فقد قيل: إنها للتخيير وقيل: معناها الواو العاطفة أي قلوب بني إسيرائيل تشبه الحجارة في قسوتها وأشد قسوة، وفي قول آخر بأن أو معناها هنا: بل، أي أن قلوبهم قاسية كالحجارة بل هي أشد قسوة من الحجارة.

وثمة معنى آخر نرجحه وهو أن الله جلت قدرته أراد أن يبين أن بني إسرائيل من حيث قسوة قلوبهم شطران شطرهم الأول: من كانت قلوبهم كالحجارة في قسوتها، وأما الشطر الثاني: فإن قلوبهم لهي أشد قساوة من الحجارة والله تعالى أعلم.

قوله: (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) يراد بذلك أن قلوب هؤلاء القساة العتاة لهي أشد قسوة من الحجارة نفسها وذلك من حيث التبلد في الحس، أو من حيث الإمساك والضن بالخير، فإن قلوب هؤلاء القوم شديدة الضن والشح، وهي لا تسخو بشيء من الخير كيفما كان، لكن الحجارة الصلدة الصماء تتفجر منها الأنهار، لتبعث في الأرض أسباب الحياة والنماء ولتزهو في الدنيا كل مظاهر الخصب والجمال، وكذلك فإن من الحجارة ما يتشقق أدغمت التاء في الشين فصارت يشقق حتى يتيسر للماء أن يسيل وينهمر ذلك كله منبعث من الحجارة القاسية التي لا تنطق في الظاهر، غير أنها في الحقيقة تسخو بعطاء سائح غزير يكسب في الحياة بواعث الرغد والجمال والبهاء والعيش الهنيء.

وقوله: (وإن منها لما يهبط من خشية الله) الهبوط في اللغة النزول، والانحطاط أو التردي من أعلى الى أسفل، ٦٣ لكن المقصود بهبوط الحجارة من خشية الله قد جاء على سبيل المجاز عن خشوعها وانقيادها لأمر الله لكن قلوب هؤلاء يابسة صلدة لا تلين لأمر الله ولا تصيخ لهتاف الحق الساطع الأبلج، وقيل: بل إن الهبوط من خشية الله لهو حقيقة لا شك فيها، وأساس ذلك كله أن الكائنات والخلائق جميعا تسبح بحمد الله وذلك على نحو لا يعرف الناس كيفيته - قال سبحانه: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ٦٤ وما دمنا نتلو هذا الكلام الرباني بتصديق ويقين فإننا لا نتردد في اطمئنان إلى أن الجبل والشجر والمدر والحجر كل أولئك يسبحون الله ويخشونه حق الخشية، ولا عجب أن يكون من مظاهر هذا التسبيح أو الخشية أن يهبط الحجر من العلو إلى السفل - ولست مترددا في ترجيح هذا الرأي؛ لما يعززه من دليل كقوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) ولأنه ليس من الممتنع أن ينطق الجماد بإذن الله - ونظير ذلك ما روي عن الجذع الذي كان يستند إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا خطب فلما تحوّل عنه حنّ - وفي صحيح مسلم: " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن " وغير ذلك مما في معناه.

قوله: (وما الله بغافل عما تعملون) ما نافية تعمل عمل ليس - لفظ الجلالة اسمها مرفوع - غافل خبرها والباء حرف جر زائد، وقيل: يستعمل للتوكيد - ذلك تعقيب ينطوي على تخويف يتهدد به الله بني إسرائيل الذين مردوا على العصيان والظلم، وأن الله سبحانه عليم بما يقارفه هؤلاء من مفاسد ومخالفات لا تخفى عليه.

٧٥ - (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد م عقلوه وهم يعلمون} الطمع هو نزوع النفس إلى الشيء، رغبة فيه وشهوة له.

{أفتطعمون} جملة فعلية تتألف من فعل وفاعل " واو الجماعة " والهمزة للاستفهام وهو هنا إنكاري، والآية تيئيس للمسلمين أتباع الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) من إيمان يهود - أي هل ترجون أن يؤمن لكم هؤلاء اليهود فيصدقوا نبيكم وكتابكم مع أن آباءهم كانوا أشرار غلاظا يسمعون التوراة كتابهم، ثم يتأولونها على غير معناها الصحيح؟ كل ذلك وهم يعلمون في قرارة نفوسهم أنهم كاذبون، وأن تأويلهم للتوراة كان على الوجه المحرف الفاسد - ذلك إيحاء مكشوف لأتباع ملة الإسلام بأن هؤلاء اليهود لا خير فيهم، وأنهم لا رجاء ولا أمل في إيمانهم وعودهم إلى الحق والرشاد، فمثل هذا العود يستلزم نفوسا كريمة خالية من الشذوذ والعطب، أو طبائع تنطوي على فطرة نقية سليمة غير شوهاء، وأنّى لهؤلاء القوم المتمردين الفساق أن يكونوا على هذه الخلقة من سلامة النفس والطبع والفطرة؟ أنّى لهم ذلك وهم الذين قرأوا التوراة كتابهم المقدس، ووعوه على حقيقته ثم انفتلوا يحرفونه تحريفا ويزيفونه تزييفا؟ وليس ذلك على سبيل الجهل أو سوء الدراية، ولكنه العمد المقصود الذي تحرض عليه النفس الخربة الكزة - كل ذلك التحريف والتزييف مقصود لا يحفز إليه إلا الرغبة المجردة في الشر والنكوص الجانح صوب الخطيئة والإثم.

{وهم يعلمون} تعلم يهود أنهم قد نبذوا كلام الله التوراة بعد ما درسوه ووعوه وعقلوه.

٧٦ - (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفل تعقلون - أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون} هذه الآية في منافقي اليهود، أولئك الذين آمنوا للمسلمين في الظاهر، لكنهم في بواطنهم يخفون الكفر - كان هؤلاء المنافقون من اليهود إذا لقي أحدهم مسلما تظاهر له بالإيمان وحدثه بصدق نبوة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وأن خبره قد ورد في التوراة من قبل أن يولد أو يبعث - لكن هؤلاء النفر من يهود كانوا إذا رجعوا إلى قومهم من بني إسرائيل لاموا قبلهم لوما مقرعا شديدا، لأنهم حدثوا المسلمين بما أطلعهم الله عليه - وذلك قوله سبحانه: {وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم} الفتح معناه القضاء والحكم - أي كيف تحدثون المسلمين بما حكم الله لكم من خبر نبوة محمد الذي ورد في التوراة {ليحاجوكم به عند ربكم} أي ليكون في ذلك حجة لهم عليكم، وهو أنكم كنتم قد وقفتم على صدق نبوة صاحبهم من قبل، ثم انقلبتم بعد ذلك مكذبين - وقيل: ليحاجوكم أي لعيروكم بأنهم خير منكم لما أطلعتموهم عليه من خبر التوراة في صدق رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) - قالوا لهم ذلك في تقريع وتوبيخ شديدين {أفلا تعقلون} أليس فيكم عقل يبصركم بعاقبة ما أقدمتم عليه من إخبار لهؤلاء المسلمين عن حقيقة أمرهم ودينهم في التوراة؟

٧٧ - (أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

قوله: {أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون} الله عليم بحال هؤلاء الكذبة المنافقين وهو سبحانه يوبخهم هنا توبيخا {أولا يعلمون أن الله - - .} ألا يعمل هؤلاء أن الله عليم بأستارهم وأخبارهم، ومطلع على ما تطويه صدورهم من أسرار وخبايا، وما تبديه جوارحهم من ظاهر القول أو الفعل - أما قوله: {ما يسرون} أي ما تمالأوا عليه من الكفر وما تلاقوا عليه من الجحود للإسلام، وذلك عند تلاقيهم فيما بينهم، وهم إذ ذاك يتكاشفون معا ليأتمروا بالنبي والمسلمين وهذا الدين فيتفقوا على محاربتهم والقضاء عليهم إن تمكنوا - {وما يعلنون} أي ما أظهروه لبعض المسلمين من تصديق مصطنع خادع للإسلام ونبيه - وذلك إعلان منهم قد ينطلي على المسلمين أو بعضهم لتوهيمهم أن هؤلاء مؤمنون مخلصون، والله يعلم أنهم كاذبون شرار تنثني صدورهم على الضغينة والحقد، ويتربصون بالإسلام

وأهله دوائر الهلكة والسوء، والله تبارك وتعال هو الحافظ لهذا الدين بتمكينه في الأرض وفي نفوس العباد حتى إذا اعترته فترة من ضعف أو هزة جاءته أجند أخرى جديدة من عباد الله المؤمنين المخلصين الذين يظلون ينافحون عن هذا الدين ويجاهدون فيه حق جهاده مهما تعاظمت الخطوب واشتدت الأهوال إلى أن يكتب الله النصر في هذه الدنيا أو الشهادة في سبيله وهي من خير ما يرتجيه المؤمن الصابر المجاهد.

٧٨ - (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ)

قوله تعالى: {ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون} يصف بذلك فريقا من اليهود بأنهم أميون - ومفردها أمي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ، سمي بذلك؛ لنسبته إلى الأمة الأمية وهي أمة العرب الذين كانوا في جاهليتهم الأولى لا يعرفون القراءة ولا الكتابة - وقد كان النبي نفسه ينتسب إلى هذه الأمة الأمية الذين كانت تلدهم أمهاتهم، فيظلون من غير دراية بعلوم ولا تمرس بكتابة أو قراءة - وكذلك اليهود فقد كان فيهم فريق من الأميين الذين يجهلون كتابهم التوراة، ولا يدرون ما فيه من الأخبار والمعاني، ثم يسعون في الأرض ليتقولوا الكذب ويفتروا على الله الأباطيل ويزعموا أنها من عند الله وما هي من عند الله.

وقوله: {إلا أماني} جمع أمنية - وهي ما يتمناه المرء لنفسه - وهؤلاء، لا علم لهم بالكتاب وهو التوراة؛ لأنهم أميون - والاستثناء هنا منقطع - فالمعنى أنهم لا يعلمون عن التوراة شيئا إلا ما تسوله لهم أمانيهم وأحلامهم السقيمة أن الله يعفو عنه ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فضلا عن أحبارهم الذين يمنونهم أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة - وقيل: الأماني بمعنى التخريص واختلاق الكذب والافتراء - وهو قول ابن عباس - قوله: {وإن هم إلا يظنون} إن أداة نفي بمعنى ما - أي أن هؤلاء الكاذبين المفترين الذين {لا يعلمون الكتاب إلا أماني} لا يتقولون ذلك إلا وهم في شك مما يقولون أي يعلمون أنهم كاذبون لا تقوم حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم إلا على الظن الفاسد الذي لا يغني شيئا والذي لا يلبث أن يتبدد أمام الصدق واليقين ٦٥.

٧٩ - (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

قوله تعالى: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون} ويل مبتدأ مرفوع، جاء نكرة لوروده مورد الدعاء وما بعده خبر في محل رفع ٦٦ - وقد جاء في معنى الويل أقوال كثيرة نستطيع أن نركن من بينها إلى المعنى الذي يتفق عليه أكثر المفسرين وهو الهلاك أو العذاب أو الدمار - وقيل: واد في جهنم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره ٦٧.

والويل واقع على الذين يفترون على الله الكذب، فيكتبون بأيديهم ما يفترونه ليقولوا للناس هذا من عند الله وما هو من عند الله ولكنه اختلاق من عند أنفسهم، فهو كلام فاسد مختلق لا ينطوي على غير الباطل والكذب وهو على شاكلة مختلقة من التحريف - أو التغيير والتبديل، وذلك أن يضيفوا للكتاب من عندهم أو يحذفوا تبعا لما تمليه أهواؤهم المريضة، فما راق لهم أبقوه وما لم يعجبهم حذفوه، كل ذلك يقارفونه من غير تورع أو خشية من الله إلا الرغبة في التضليل والإفساد والتخريب.

ونود في هذا الصدد أن نعرض بشيء قليل من التفصيل لأولئك الذين {يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله} فإن هذا النص الكريم واقع على فريق ظالم من بني إسرائيل، أولئك الذين مارسوا الكذب على الله في أشد الصور وأعتاها - لكن النص الكريم مع كشفه لهؤلاء الناس من بني إسرائيل إلا أنه من حيث المقصود الواسع يمتد ليشمل كل الأشقياء من كل ملة أو دين في زمان أو مكان ممن يفترون على الله الكذب والزور، ولا جرم أنهم كثيرون ومنتشرون في مناكب الأرض وعلى امتداد الأجيال والعصور.

ومن الحق أن نقول كذلك: إن فريق بني إسرائيل كانوا في طليعة الكاذبين والدجاجلة الذين كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله - وقصة بني إسرائيل في هذه المسألة الخطيرة بالذات طويلة، وهي تستأهل مزيدا من الشرح والبيان والتفصيل، لكننا لا نملك في مثل هذا الموقف إلا أن نبين سراعا ما أمكن، عن جريمة هؤلاء البشعة في تحريف الكتاب وتزييفه، أو في الاختلاق الفاجر

الذي ينسبونه إلى الله - ومثل التوراة في ذلك واضح تماما، ذلك أن أحبار بني إسرائيل قد تصرفوا في كتابهم الأصيل التوراة فراحوا يغيرون فيه ويبدلون ثم يحرفون ويزيدون - ومن بين ذلك تكذيبهم نبوة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة وكانوا يقرأونه في وضوح ويسر وكانوا يحدثون الناس من قبل بعث هذا النبي الكريم عن زمان يقترب منهم رويدا رويدا يبعث الله فيه نبيا، فما أن انبعث هذا النبي الكريم وعلموا أنه ليس من جنسهم انقلبوا على أعقابهم جاحدين منكرين، فتربصوا به الدوائر، وأتمروا به ليقتلوه، وحرضوا عليه الناس والسفهاء من عرب ومشركين؛ لينالوا منه شرا وليتخذوه لهم عدوا، وأشاعوا من حوله الشبهات والترهات؛ ليظن الناس أنه شاعر، أو ساحر، وليحسبوا أنه من المتقولين المفترين.

أما فيما يتعلق بالتوراة- وهي كتاب الله المقدس الذي أنزل على النبي الكليم موسى عليه السلام- فقد انثنى عنه بنو إسرائيل، لأنه لم يوافق أهواءهم ورغائبهم التي تقوم على الأنانية والهوى ولا تجنح إلا للشهوات؛ لذلك قد أكب أحبار يهود على التوراة، لما أصابها من تلاعب وتزييف - وأشد منذ ذلك نكاوة وعتوا ما قامت به أحبار يهود من وضع كتاب شارح للتوراة وهو التلمود - ذلك الكتاب العجيب الذي يستقطب كل مظاهر الشذوذ والانحراف في بني إسرائيل، بدءا بالحقد الذي تصطبغ به نفسية يهود من غابر الزمن، وانتهاء بكل خصال السماجة والتبلّد والشح والتوقح وانعدام المروءة والحياء وغير ذلك من ذميم الأخلاق التي تنبعث من تصور خبيث معتم ومن طبيعة غليظة كزة، خبث فيها كل بوادر اللين والرحمة بالخليقة، وغارت فيها أية ظاهرة من ظواهر الرأفة واللين - وقد كان ذلك كله يوم أن جيء لبني إسرائيل بالتلمود، ذلك الكتاب المشوه المريع الذي يحمل بين دفتيه تحريضا على الشر والضر والنيل المتواصل من بني البشر بغير توقف أو انقطاع - ذلك هو التلمود الذي جاء ليشرح التوراة فكان غاية في التحريف والتضليل، وغاية في إرساء بذور الكراهية والحقد لدى اليهود ليكيلوا للبشرية على مر الزمن كل ألوان التآمر والكيد.

وثمة كتب وقرارات ومواثيق تضمها قراطيس مخبوءة في أحشاء الظلام الأسود وهي تحوي من البرامج والمخططات ما يحمل للبشرية نذر البلاء والتدمير - ومن جملة ذلك كله ذلك الكتاب الرهيب وهو " بروتوكولات حكماء صهيون " وهو كتاب صغير الصفحات والكلمات، لكنه خطة شاملة خبيثة للقضاء على البشرية في أعز ما تملك من معان في الخير والفضيلة، وللقضاء عليها قضاء ماديا ساحقا يأتي على الحضارات كلها من القواعد؛ ليذرها قاعا صفصفا وذلك عن طريق الحروب المتتالية الضروس.

أما الإنجيل فلا ريب أنه كتاب سماوي عظيم قد جيء به من عند الله ليكون لبني إسرائيل هاديا ونذيرا، وهو كتاب قام في بدايته على التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شوائب الشرك، لكن المحسوبين على المسيح عليه السلام بغير حق قد افتروا على الله أشد افتراء يوم أن كتبوا الإنجيل بما تفرضه أهواؤهم ورغائبهم الذاتية، فجاء الإنجيل نائيا عن أصالة التوحيد الخالص، يستوي في هذه الحقيقة الأناجيل الأربعة: متى ولوقا ومرقس ويوحنا - أما الإنجيل برنابا فلا جرم أن يكون أقرب هذه الكتب جميعا إلى عقيدة التوحيد، وأنه ينطوي على تنويه بذكر النبي محمد عليه الصلاة والسلام - لكن أحبار روما قد أصدروا – في غاية من التعصب- ما يشير إلى بطلان هذا الكتاب والاقتصار على الكتب الأربعة الأولى، وفي ذلك من الدلالة على سوء المقاصد والنوايا، وعلى انعدام الخشوع والتقوى ما يكشف عن طبيعة هؤلاء الناس الذين يتطاولون على الله سبحانه في كتبه المقدسة؛ ليصموها التغيير والتحريف، وليجعلوها تبعا لأغراضهم وأهوائهم الذاتية لا تمت إلى الدين السوي المستقيم بصلة - ثم هذه المقولات الزائفة التي يلفقها الخراصون من الأحبار والرهبان، والتي تحتشد على شواكل من العبارات الغامضة المضطربة أو الألغاز الموغلة في التوهيم والتعمية واللبس.

وهذه النشرات والكتب التي تضم حشوا من الكلام المصطنع، الكلام الذي يثير في الأرض بواعث الشقاق والخصام؛ لتظل البشرية في تطاحن وعراك دائمين لا لشيء إلا لمرضاة الطبائع الملتوية التي تتجشأ الحقد والهوس، والتي لا تفتأ تتربص بالإسلام وأهله كل أسباب الكيد والشر.

إن هذه المقولات والنشرات والكتب إنما تسطر وتطلق باسم الدين افتراء على الله وتزييفا لدينه الحق الذي يندد بالشر والبطل وبكل مظاهر الظلم والخطيئة والفساد.

إنها مقولات ونشرات وكتب تحرض عليها نفوس المارقين من دعاة الشر والسوء الذين تتقاطر صدورهم وتورا وضطغانا لفرط كراهيتها المغالية للإنسانية عموما وللإسلام على وجه الخصوص.

أما المسلمون فإن من بين صفوفهم فريقا من المنافقين الذين يتقمصون أثوابا عديدة شتى تنطلي على المسلمين بمظهرها اللامع المخادع - وهي أثواب تنطوي على الغواية والفتنة، وتخفي وراءها الزور والكذب، يلبسها الأفاكون الدجالون من أدعياء المسميات المصطنعة منه الحرية والاشتراكية والوحدة، ومنها العدل والمساواة والشورى، ومنها الديمقراطية والشعبية وحقوق العمال - وغير ذلك من الشارات والمظاهر الفاسدة المزيفة التي فضحتها الظروف والأحداث، فباتت مكشوفة متعرية لا تنثني على غير النفاق والدجل، وهم مع ذلك كله يزعمون أنهم لا يعصون الله بذلك، وأنهم ليسوا بخارجين عن صراط الله ومنهاجه! وذلك هو الكذب المفضوح المتسبين.

إن هؤلاء الخراصين الدجاجلة الذين نبذتهم رسالات السماء كافة، والذين خرجوا على منهج الله القويم العادل؛ ليعيثوا في الأرض فسادا وخرابا، وليفتروا على الله البطل بما تكتبه أيديهم في الليل والنهار، إن هؤلاء جميعا قد توعدهم الله أشد توعد، وأنذرهم في كتابه الحكيم أن لهم الويل، وهو العذاب الحارق المستعر الذي تكتوي فيه أجسادهم وجلودهم، وتتقاحم خلاله جسومهم وأبدانهم لتلاقي هنالك من العذاب اللاذع المضطرم ما لا يقوى على احتماله بشر، ولا يصطبر على هوله وشدته كائن من الكائنات - وما أروع كلمات الله التي تأتي في هذا الصدد لتعبر أجلى تعبير في ألفاظ قليلة وجيزة، لكنه تحمل من الإيقاع المؤثر العذب، ومن النذير المخوف المزلزل، ومن التكرار الذي يزيد في التأثير والفعالية ما لا يحتمله أي كلام غير هذا الكلام: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون}.

٨٠ - (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون - بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} تقص هذه الآيات بعض أخبار بني إسرائيل وما كان يخطه لهم الأحبار في الكتب عن تصورات ومفاهيم زائفة - وذلك من جملة ما كانت أحبار بني إسرائيل تكتبه بأيديهم لينسبوه إلى الله ليشتروا به ثمنا قليلا - فقد كانوا يغلطون في هذيان وتخريف أنهم إذا دخلوا النار فسوف يبرحونها بعد أيام قلائل، قال بعضهم: إنها سبعة أيام، وقال آخرون: أربعون يوما، وذلك عدد أيامهم التي عبدوا فيها العجل، إلى غير ذلك من التخريص والتقول الذي يعتمد الهوى المتعصب أو الجهل المطبق المضلل.

وقوله: {قل أتخذتم عند عهدا فلن يخلف الله عهده} يسأل الله على لسان نبيه سؤال المستنكر الموبخ إن كان هؤلاء المفترون الحالمون قد أعطوا من الله عهدا فيما نشروه من مُكثهم في النار أياما معدودات - فإن كان الله قد خولهم مثل هذا العهد فإن موف بما عاهد - لكن الحقيقة لا مراء فيها أن شيئا من هذا العهد لم يكن، ولكنه التخريص والدجل، أو الاختلاف التي لا مراء فيها أن شيئا من هذا العهد لم يكن، ولكنه التخريص والدجل، أو الاختلاق المفترى الذي يهذي به هؤلاء الشُداد والمرضى - وأكرم رد وأوفاه على مثل هذا التقول هو قوله سبحانه: {أم تقولون على الله ما لا تعلمون} (أم) معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما - وقيل: منقطعة بمعنى بل، وذلك تأكيد على أن هؤلاء يتقولون على الله الكذب بغير علم ولا هدى - وذلك شأن الذين لا يستحيون من الله، ولا يجدون في أنفسهم أثارة من خشية أو تورع، والذين ترين على صدورهم أكنة كثاف من الشك والسوء والرغبة الضالة في التمرد على الله العياذ بالله.

٨١ - (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله: {بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} بلى حرف يأتي في جواب الاستفهام في النفي - وهو في مقابل (نعم) يأتي في جواب الاستفهام في الإيجاب ٦٨ - رد على ما زعمت يهود؛ إذ تصورت أن الله معذبهم في النار أياما قلائل - فليس الأمر كما زعموا أو وهموا، وبذلك فإن بلى تأتي ردا للنفي الذي تشبثت به يهود؛ ليكون المقصود هو الإيجاب - أي أن الله معذبهم وهم في زمرة الخالدين في النار؛ وذلك لأنهم قارفوا السيئة، وهي الشرك كما قيل - وقيل: إنها تشمل كل وجوه المعاصي التي يسقط فيها العبد وهو ذاهل عن جلال الله، أما الخطيئة فهي المخالفة عن أمر الله واقتراف ما يغضبه عن عمد - ولا نحسب أنها

تتناول الصغائر، وإنما تتناول الكبائر من الذنوب، فهي محيطة بهؤلاء الضالين المضلين.
٨٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
وعلى النقيض من هؤلاء الشذاذ الفواسق الذين يفترون على الله ما لم ينزل به سلطانا، والذين يجترحون في حياتهم المحرمات والمحظورات حتى أحاطت بهم السيئات والخطايا وطوقتهم المعاصي والكبائر - - - إنه على النقيض من هؤلاء، يأتي المؤمنون العاملون الذين يمشون في الأرض خُشعا متواضعين، وتظل قلوبهم وأرواحهم مستديمة الصلة بالله الواحد المنان من غير أن يتجاوزوا في قول أو عمل تصورا متجاوزا يرتد بهم إلى وهده الإفراط أو التفريط - وأولئك قد كتب الله لهم الجنة لينعموا مع الخالدين الآبدين ٦٩
٨٣ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)
قوله تعالى: {وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم وليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون} الميثاق العهد، جمعه مواثيق وهو من التوثيق أي الثبوت والإحكام ٧٠ - والله جلت قدرته يذكر بني إسرائيل بميثاقهم الذي أخذه الله عليهم على ألسن أنبيائهم وهو قوله {لا تعبدون إلا الله} وفي رفع الفعل ثلاثة أوجه: أولها: أن يكون مرفوعا؛ لأنه جواب لقوله تعالى: {وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل} لأنه في معنى القسم - فكأنه قال استخلفناهم لا يعبدون - كما يقال: حلف فلان لا يقومُ - والثاني: أنه إخبار في معنى النهي - كما تقول تذهب لفلان تقول له هذا تريد الأمر - وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي - والثالث: أن يكون {لا تعبدون} في موضع الحال ٧١ - على أن المقصود التأكيد على حق الله في العبادة الخالصة له سبحانه دون إشراك، ويحذر من انتكاسة الشرك أشد تحذير؛ لما في ذلك من إغضاب له سبحانه وهو الإغضاب الذي يهون دونه كل إغضاب؛ لأن الشرك أكبر الكبائر وأعتى الخطايا.
ثم تعرض الآية، بعد التأكيد على حق الله في العبادة، لحقوق العباد من خلال المواثقة التي واثق الله بها بني إسرائيل، ويأتي في طليعة هذه الحقوق ما أوجبه الله للوالدين من بالغ الطاعة والإكرام، حتى قرن ذلك بطاعته هو نفسه، وذلك كقوله: {أن اشكر لي ولوالديك} وقوله: {وبالوالدين إحسانا} وذلك بعد قضائه ألا يعبدوا إلا إياه - و {إحسانا}، منصوب على المصدر بالفعل المقدر، وتقديره: وأحسنوا بالوالدين إحسانا.
ثم يوجب الله الحق لذي القربى وهم الذين تربطهم بالمرء وشائج النسب والرحم من إخوة وأخوات وبنين وبنات وأعمام وعمات وأخوال وخالات وبني إخوة وبني أخوات إلى غير هؤلاء من ذوي القرابة، فهم جميعا أولو قربى تجب صلتهم بإحسان وبر.
وكذلك اليتامى وهو جمع مفردة يتيم من اليتم بضم الياء وفتحها - واليتيم في الناس بفقد الأب، أما في غير الناس فهو بفقد الأم - وقيل: اليتم في الناس من مات أبوه أو ماتت أمه، لكن من مات أبواه الاثنان فهو لطيم - والأصل في تسمية اليتيم بذلك؛ لكونه منقطع النظير - فاليتيم هو كل فرد عز نظيره، كالدرة اليتيمة سميت بذلك، لأنها لا نظير لها ٧٢ - واليتيم الذي تكون هذه حاله تجب العناية به، وتحرم الإساءة إليه تحريما شرعيا مغلظا، فإنه لا يجترئ على الإضرار باليتيم وإلحاق الأذية به إلا من كان ظالما لنفسه أو من أودى بنفسه في جهنم.
وكذلك المساكين، جمع تكسير مفرده مسكين وهو من السكون أي ذهاب الحركة - سمي المسكين بذلك؛ لسكونه إلى الناس - واختلفوا في حقيقة حال المسكين وفيها يفرق بينه وبين الفقير - فقد قيل: المسكين الذي لا شيء له بإطلاق، أما الفقير فهو الذي له بلغة من العيش، وقد سئل أعرابي: أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين - وخالف الأصمعي في ذلك فقال: المسكين أحسن حالا من الفقير واستدل على ذلك بقوله تعالى: {أما السفينة فكانت لمساكين} ومعلوم أن السفينة كانت تساوي جملة من المال، لكنه سبحانه قال في أية أخرى عن الفقراء: {لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف}.
وفي قول آخر وهو أن المسكين والفقير كليهما سيان لا فرق بينهما - وقيل: المسكين الذي يكون ذليلا مقهورا حتى ولو كان يملك

شيئا، وذلك يفهم من قوله تعالى في اليهود: {وضربت عليهم الذلة والمسكنة} ٧٣.

قوله: {وقولوا للناس حسنا} مفعول به منصوب - وقيل: صفة لمصدر محذوف، وذلك حق آخر جعله الله للناس على بني إسرائيل وهو أن يقولوا لهم القول الكريم الطيب النافع، بما في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في القول، والعفو عن الناس، والتحدث إليهم في تواضع وتودد.

وكذلك من مواثقته لهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وهذان عملان جليلان كبيران يأتيان في مقدمة العبادات جميعا بما يقرب المرء من ربه درجات، ويدنيه من الجنة فيكون من الفائزين.

ثم يخاطب الله بني إسرائيل الذين خلوا في الأزمنة الغابرة، وذلك في أشخاص أعقابهم من اليهود الذين كانوا شهودا في فترة النبوة المحمدية؛ وذلك لأن المتأخرين كانوا مثل أسلافهم من الآباء والأجداد الذي عصوا أمر ربهم، وشقوا عصا الطاعة على أنبيائهم - فآذوهم وكلفوهم العنت والتضييق فقال سبحانه: {ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون} التولي الإعراض عن دعوة الله في استكبار وجحد - تولوا عن أوامر الله وتعاليمه إلا القلة القليلة منهم - والجملة الاسمية {وأنتم معرضون} في محل نصب حال - أي توليتم عن أمر الله وأنتم في ذلك معرضون، من الإعراض وهو نفس التولي، وقيل: الإعراض يكون عن طريق القلب، لكن التولي يكون بالجسم.

٨٤ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

قوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكن من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون - ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسرى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون} كان مما أوجبه الله على بني إسرائيل في التوراة ألا يسفكوا دماء بعضهم بعضا، وألا يخرجوا بعضهم من ديارهم - وقد نسب فعل السفك والإخراج للمخاطبين أنفسهم، وكأنما هم أنفسهم يسفكون دماءهم بأنفسهم، وكذلك يخرجون أنفسهم بأنفسهم من ديارهم، والأصل في ذلك أن الأمة ذات الملة السماوية واحدة - هي أمة متحدة متعاونة كمثل الجسد الواحد المترابط الذي يشد بعضه بعضا، فإن يشتكي كل جزء فيه لاشتكاء أي جزء سواه - وعلى هذا الأصل فإن الذين ينتسبون إلى الملة السماوية الواحدة يؤلفون من البشر المجموعة المتجانسة المتراصة التي لا تفرق بينها أنانيات، ولا تشقها أحقاد أو عصبيات، حتى إن الواحد من هذه الأمة إذا أوقع في غيره أذية فكأنما أوقع ذلك في نفسه بالذات، وأيما مجموعة من أهل الملة الواحدة التي تقوم على التوحيد، آذت غيرها كانت كمن يعتدي على نفسه ويلحق بذاته الشر والمكروه.

وقوله: {تسفكون} من السفك وهو الإراقة والصب - أما الديار فمفردها دار هي وهي مؤنثة سميت بذلك؛ لدورانها حول البيت الذي يقام فيها.

قوله: {ثم أقررتم وأنتم تشهدون} إقرارهم كان واقعا على الميثاق الذي طوقوا به أنفسهم وكانوا على ذلك شهودا.

٨٥ - (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

لكنهم بعد ذلك تنكروا لما أقروا من ميثاق وما ألزموا به أنفسهم من عهد ألا يسفكون الدماء ولا يخرجوا أحدا من داره، فقال سبحانه في ذلك: {ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسرى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم}.

{أنتم} في محل رفع مبتدأ - {هؤلاء} اسم إشارة في محل رفع خبر المبتدأ - و {تقتلون} جملة فعلية في محل نصب حال من " أولاء "

وقيل: {أنتم} مبتدأ، و {تقتلون} في محل رفع خبره - و {هؤلاء}، في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره: أعني ٧٤ والمعنى أنكم أنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذه الله عليكم من العهد في التوراة بعد القتل والتهجير من الديار - وغير ذلك مما ذكرته الآية - فيقتل بعضكم بعضا وتخرجون فريقا منكم من ديارهم بغير حق، وأنتم تتعاونون عليه بالباطل والظلم - وقصة ذلك أن بني إسرائيل في المدينة وهو بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة كانوا فريقين متناحرين متحاربين - فريق منهم مع الأوس وفريق آخر مع الخزرج، وكلا الأوس والخزرج من العرب المشركين الذين لا كتاب لهم ولا ملة إلا عبادة الأوثان - وقد كانت الحرب سجالا بين الأوس والخزرج؛ لأسباب تقوم على العصبية والأنانية والجهالة - وكان أحد الفريقين من يهود ممالئا للأوس ضد الخزرج يناصرونهم ويظاهرونهم عليهم - والفريق الآخر كان ممالئا للخزرج ضد الأوس، فإذا نشب بين الأوس والخزرج قتال انحاز كل من طرفي يهود نحو حليفه من العرب المشركين " الأوس والخزرج " وقاتلوا إلى جانبهم ضد إخوانهم من بني إسرائيل فقتلوا منهم فريقا وأخرجوا منهم فريقا آخر من ديارهم وهم يتظاهرون عليهم بالإثم والعدوان - والتظاهر التعاون، والعدوان تجاوز الحد أو الإفراط في الظلم - وبذلك كان كل فريق من اليهود يظاهر حليفه من العرب بما يكون في ذلك من قهر للفريق الآخر من اليهود وإخراج لبعضهم من بلاده.

قوله: {وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم} - {أسارى} مفردها أسير وهو من الإسار بمعنى القيد الذي يكون وثاقا لمن يقع في الأسر - و {تفادوهم} من المفاداة أو الفداء وهو أن يطلب من الأسير دفع فدية مالية لتسريحه - كان اليهودي الذي يحارب إلى جانب حلفائه من العرب المشركين إذا وقع في أسر خصومه من اليهود الآخرين، فإنهم يضطرونه لدفع فدية من المال؛ كيما يسرحوه مع أن التوراة تحرم أن يقتل اليهود بعضهم بعضا، أو أن يخرجوا أحدا من دياره أو يظاهروا عليه خصومهم من الآخرين - وبعبارة أخرى: فإن التوراة تفرض على اليهود من خلال هذه الآية أربعة فروض هي: ألا يقتل بعضهم بعضا، وألا يخرج بعضهم بعضا من دياره، وألا يظاهروا غيرهم على بعضهم، وأن يفادوا أسراهم بالمال إذا وقعوا في أسر خصومهم - وبعبارة أخرى، ثمة عهود أربعة أخذت عليهم: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم - وهذه عهود أربعة أخذت عليهم: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم - وهذه عهود قد واثق الله بني إسرائيل بها في التوراة، لكنهم قد نقضوا كل هذه العهود باستثناء المفاداة التي تحققت على نحو يقوم على التحيل والتناقض - فهم قاتلوا إخوانهم في الملة، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا المشركين عبدة الأوثان عليهم، ثم فادوهم بالمال - لا جرم أن ذلك التواء وتناقض يكشف عن سلوك فاسد مضطرب - سلوك فيه مخالفة صريحة لما جاء في التوراة، فكيف يتطابق الإخراج والإيقاع في الأسر مع المفاداة بالمال لفكاكهم من الأسر؟! إن ذلك نكول صريح عن شرع الله - أو هو ضرب من تقسيم الملة إلى ما يؤخذ وما يترك!.

أما قوله: {وهو محرم عليكم إخراجهم} الواو للحال والجملة الإسمية بعدها في محل نصب حال - هو ضمير في محل رفع مبتدأ - {محرم} خبره،

{إخراجهم} بدل من الضمير المبتدأ - وقيل في إعراب هذه الجملة غير ذلك ٧٥.

أما قوله: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض} في ذلك استفهام ينطوي على توبيخ ونكير لفعلة هؤلاء الشنيعة - وهي فعلة تحتسب في عداد الكفر الصريح المكشوف - وهو إيمان هؤلاء القوم ببعض ما جاء في الكتاب والعمل به، ثم كفرهم ببعض الآخر وإعراضهم عنه.

والذي يلفت النظر هنا أمران يكشفان عن حقيقة الكفر في غاية من الوضوح الحاسم والذي لا يقبل المداهنة أو اللين.

الأمر الأول: أن إعراض هؤلاء القوم عن بعض ما جاء في كتابهم وانثناءهم عن العمل به لهو الكفر نفسه - حتى إن مجرد التصديق الباهت الذي يظل حبيس النفس ليس له أدنى وزن أو أهمية في ميزان الله تعالى، فلا خير في تصديق إذا لم يكن مقترنا بالعمل تمارسه الجوارح؛ وذلك ليعلم الإنسان المؤمن في ضوء هذا التصور الفاصل أنه لا يتاح له أن يعبر حومة المؤمنين الصادقين إلا إذا كان عاملا بما رسخ في ذهنه من مدركات وتصورات.

الأمر الثاني: أن الإيمان والعمل ببعض ما جاء في الكتاب لا يغني عن الإيمان والعمل به جميعا - فإن قضية الإيمان لا تتجزأ، والإيمان

حقيقة متكاملة متسقة لا تعرف التجزئة والانقسام، وأي إيمان أو تصديق بجزء من العقيدة لا يمحو عن المرء عار الكفر والجحد بالعقيدة كلها - وكذلك فإن العمل ببعض ما جاء في الكتاب ثم الإعراض عن العمل ببعضه الآخر لا يرد عن المرء وصمة الكفر التي كتب الله أنها تدفع المدبرين عن صراط الله ومنهجه الواضح المتسق - هؤلاء الذين يُقبلون على الله بوجه ثم يُقبلون على غيره بوجه آخر - أو الذين يفرقون في العبادة ليجعلوا جزاء منها لله وأجزاء أخرى لغير الله من الأرباب المنتشرة في الأرض.

لذلك فإن الله ينكر على هؤلاء الشاردين في توبيخ غليظ جنوحهم إلى غيره من مختلف الأرباب - وفي ذلك إعلان حاسم يكشف عن حقيقة الإيمان في مفهومه الصحيح المتسق وهو أنه لا مساغ للتفريط بجزء من الدين، وأن العمل بجزء آخر منه لا يرد عن المرء وصمة الكفر الشنيع.

قوله: {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون} ذلك نذير من الله شديد لأولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وهم الذين يجترئون من الدين ببعضه فيعملون به، ثم يعرضون عن بعضه الآخر - أو الذين يصدقون ببعض ما في الدين من قضايا أو أركان أو معان، ثم يرتابون ببعض الآخر، مجاراة لما تهواه أنفسهم أو اكتفاء بما يروق لهم من بعض المعاني أو الأحكام - ومثل هذا الإيمان المنتقص لا يغني عن حقيقة الإيمان الكبرى كالذي بينا آنفا - وبذلك فإن الله يتهدد هذا الصنف من الناس بوخيم العاقبة التي تؤول إلى شطرين من العذاب - أولهما: الخزي والعار في هذه الدنيا يصم الله بهما من يعرضون عن بعض ما جاء في منهجه سبحانه؛ لأن من أعرض عن بعض ما في المنهج كان كمن أعرض عن المنهج كله - لكن صور الخزي والعار في هذه الدنيا يندرج في خصمها كل أصناف الذلة والصغار والهوان، أو الفقر والجنوح والمعاناة وكل مظاهر المضانكة التي يذوق خلالها الشاردون عن منهج الله ألوان البلاء والنصب والمرارة.

وثانيهما: هو أشد فظاعة وعتوا وهو العذاب يوم القيامة - العذاب الذي يشم كل ظواهر الشدة والهول، والذي يدنو دونه كل عذاب من أعذبه الدنيا وما فيها من أرزاء وأهوال تمر سراعا - إن العذاب يوم القيامة لا يتصوره الخيال، ولا يستطيع الحس أن يستشعره، وذلك للكيفية البالغة في الإذهال والتي لا قبل للخلائق بها - إنه العذاب الحارق اللاهب الذي تتسجر فيه جسوم العصاة والأشرار الذين يشردون عن منهج الله ليلاقوا في النار من سوء المصير وفادح الويل ما لا يتصوره عقل بشر ولا يطيقه مقدور كائن كيفما كان!!.

ذلك الذي يتوعد الله به عباده الناكبين عن صراطه الشاردين عن منهجه وهم جميعا بين يديه وفي قبضته فيعلم ما في صدورهم من أسرار وأستار إن خفيت على الكائنات جميعا فإنها لا تخفى عليه سبحانه.

٨٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

قوله: {أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة} ليس المقصود بذلك اليهود وحدهم لشراء الحياة الدنيا وما فيها من متاع سريع زائل بدل الآخرة التي أعرضوا عنها ولم يعبأوا بالعمل والسير من أجلها - ليس المقصود اليهود وحدهم- وإن كانوا في طليعة الناكبين عن منهج الله اللاصقين بالدنيا ومتاعها وزخرفها- ولكن مقصود الآية يمتد ليشمل كل قبيل من البشر يبيع آخرته بدنياه، ويظل رهين الشهوة والمتاع، يستوي في ذلك أن يكون هؤلاء الأشرار الأشقياء من اليهود أو من العرب أو الفرس أو من غيرهم - وأولئك جميعا قد أعد الله لهم نظير شرهم وشقوتهم عذابا لا يقبل التخفيف في يوم من الأيام، بل إن يزداد مع مرور الزمان اشتدادا في اللهيب والاستعار - وكذلك فإن هؤلاء سوف لا يجدون لهم من يأخذ بأيديهم صوب النجاة والخلاص من هذا العذاب الأليم، ولن يكن لهم أي نصير يستطيع أن يعينهم أو أن يدرأ عنهم العذاب حتى ولو ساعة من نهار؛ لذلك قال سبحانه: {فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون} ٠٧٦

٨٧ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)

قوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم فريقا كذبتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} لقد أوتي موسى عليه السلام التوراة ثم جيء من بعده بالرسل متتابعين مردفين وكان من أجلّهم وأعظمهم النبي الطاهر الكريم عيسى بن مريم - وذكره هنا في الآية ينطوي على إبراز واضح لمكانته الجليلة - فهو النبي المعصوم، ذو العزم، الذي تخلّق من غير أب، ثم آتاه الله البينات – وهي الحجج والبراهين التي تشهد على صدق نبوته- وكذلك قد أيده الله بروح القدس وهو جبريل عليه السلام فقد كان له عونا وسندا يزداد به قوة وعزما.

لقد بعث الله النبيين من بعد موسى لهداية بني إسرائيل وترشيدهم إلى الحق والخير، وكان أخرهم عيسى المسيح الذي جاءهم بالمعجزات الحسية المستبينة وبالدعوة إل المودة والتسامح وطيب القلوب وأن يؤوبوا إلى حقيقة التوراة دون تحريف أو تزييف، لكن ذلك كله قد شق عليهم وأحنقهم فبيتوا في قلوبهم السوء والرغبة في الخداع والغدر، فانقلبوا مستكبرين عتاة يتطاولون على النبيين بسوء القول، ثم يميلون عليهم ميل الطغاة المجرمين فيقتلوهم قتلا، ذلك لأن الرسل قد جاؤوا بالحق وبما يخالف أهواء بني إسرائيل وبإلزامهم بأحكام التوراة التي تصرفوا في مخالفتها والتلاعب بنصوصها ومعانيها.

وليوافق ذلك ما يهواه بنو إسرائيل الذين مردت نفوسهم على التحريف في الكتاب واصطناع ما يروق لهم من ديانة وتعاليم - من أجل ذلك لم يستطيعوا طوق ما جاء به أنبياؤهم المرسلون فانفتلوا يكذبون تارة ويعتدون عليهم بالقتل تارة أخرى، وما فتئت هذه الوصمة تستحوذ على طبائع يهود حتى جاء النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم) فكادوا له كيدا وأرادوا قتله بالسم في خيبر: فقال عليه الصلاة والسلام في مرض موته: " ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري " ٧٧ وفي ذلك يقول سبحانه: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) الهمزة للاستفهام - والفاء للعطف - وكلما ظرف زمان - فريقا مفعول به منصوب بقوله كذبتم - وفريقا الثاني منصوب بقوله تقتلون - وقدم المفعول به للاهتمام به ٠٧٨.

٨٨ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين}.

قالت اليهود للنبي (صلى الله عليه وسلم) حينما دعاهم إلى التوحيد والإسلام {قلوبنا غلف} جمع أغلف - والقلب الأغلف كأنما أغشي غلافا فهو لا يعي ولا يفقه - والقلوب الغلف يعني عليها أغطية أو أغشية تغشاها وتحيط بها فتسترها عن الفهم والتمييز - وقال ابن عباس: أي قلوبنا ممتلئة علما فلسنا بحاجة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلمه - وقيل: غلف جمع غلاف - أي أن قلوبنا أوعية للعمل فكيف يعزب عنها علم محمد (صلى الله عليه وسلم) ٠٧٩.

هكذا يقولون في سفاهة وعتو وهم يعلمون أنهم كاذبون مبطلون - ومن أجل ذلك استحقوا من الله اللعن وهو الإبعاد والطرد من مواطن الخير، وذلك بسبب ما أظهروه من كفر صراح.

وقوله: {فقليلا ما يؤمنون} قليلا منصوب، لأنه صفة مصدر محذوف - وما زائدة - والمعنى أن هؤلاء الجاحدين الكفرة لا يؤمنون بغير القليل مما معهم من كتاب ويكفرون بأغلب ما فيه - وقيل: إنهم لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا، أي لا يؤمنون أقل إيمان - فالمراد بالقلة هنا النفي - والمعنى: لا يؤمنون أصلا - كقوله: {قليلا ما تشكرون} أي لا يشكرون أصلا ٠٨٠.

٨٩ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

وقوله: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا}.

المقصود بالكتاب هو القرآن، فلما جاءهم وفيه التصديق لما معهم من كتاب وهو التوراة وقد كانوا أيضا يستفتحون على الذين كفروا،

أي يستنصرون عليهم بمجيء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) - وفي ذلك يقول عبد الله ابن عباس- رضي الله عنهما-: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم - فكانوا إذا التقوا بهذا الدعاء هزموا غطفان، فلما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) كفروا فأنزل الله تعالى هذه الآية - وذلك هو شأن يهود في نقضهم للعهود وكذبهم على الله وعلى أنفسهم - فقد كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أن محمدا عليه الصلاة والسلام نبي قد أوحي إليه، وأن القرآن كلام الله المعجز المنزل على هذا النبي الأمي، ومع ذلك كله فإن ديدنهم النقض والزيغ والتكذيب لا لسبب إلا محض الزيغ والهوى والمريض.

من أجل ذلك فقد استوجب هؤلاء الجاحدون الطرد والإبعاد من كل خير، وذلك من خلال اللعن يَصِمُ هذا الصنف من البشر الخائر الفاجر المتردد.

٩٠ - (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

وقوله: {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده} بئس فعل ذم جامد، وما اسم موصول في محل رفع فاعل بئس، وتقديره: بئس الشيء الذي اشتروا به أنفسهم {أن يكفروا} في محل رفع مبتدأ، وخبره ما تقدم - وقيل: {أن يكفروا} في محل جر بدل من الهاء في {اشتروا به} أما الذي اشتروا به فهو الكفر أو الضلال، وذلك عوض لما باعوه وهو الحق أو الهداية - والمقصود بذلك اليهود، فقد وقع التنديد عليهم لنبذهم الحق من وراء ظهورهم واستبدالهم الباطل يتلقفونه تلقفا وهو (أن يكفروا بما أنزل الله) والبغي الوارد بعد ذلك معناه الحسد كما قيل وقد جاء منصوبا باعتباره مفعولا لأجله - وسبب الحسد أصلا ما أنزله الله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) من رسالة الإسلام - لقد كان ذلك سببا في إثارة الحسد والحقد في نفوس بني إسرائيل الذين يرتجون أن يكون هذا النبي منهم.

وقوله: {فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين} باؤوا أي رجعوا واستوجبوا، فقد استحق اليهود بعد هذا الإنكار، وجزاء ما اقترفوه من جحد - وتفريط غضبا من الله على غضب، وذلك لفرط زيغهم عن صراط الله وما سجلوه على أنفسهم من مخالفات كبيرة مشينة، منها عبادة العجل، وإبدالهم ما أمروا به من قول وهو حطة فبدلوا ذلك سخرية واستخفافا، ثم قتلهم النبيين بغير حق ومطالبتهم أن يروا الله عيانا وجهرة، وكذلك إنكارهم نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) مع إقرارهم المسبق بصدق نبوته من قبل أن يأتي، وغير ذلك من المقارفات الكبيرة - من أجل ذلك استحقوا من الله الغضب بعد الغضب، ثم إن لهم من الله العذاب المهين ٨١.

٩١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون} كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو من حوله من اليهود للإيمان بدعوته والدخول في دين الإسلام وتصديق ما نزل عليه من كتاب حكيم وهو القرآن - لكن اليهود كان جوابهم مخيبا إذ رفضوا الإعلان عن صدق نبوة الرسول محمد متذرعين بقولهم كما يحدثنا القرآن {نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه} وهم في ذلك يحدوهم التعصب الفاسد المريض؛ إذ يأبون التصديق بغير ما نزل عليهم وهي التوراة، ويرفضون ما وراء ذلك وهو القرآن مع أنه جاء مصدقا لما معهم من كتاب - والواو في الجملة الإسمية حالية، والجملة من المبتدأ والخبر {هو الحق} في محل نصب حال - و {مصدقا} أيضا حال منصوب.

وقوله: {قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين} سؤال فيه إحراج لهم وتوبيخ - فهم إن كانوا على شيء من الحق والإيمان فلم تجرؤوا على النبيين من قبل فقتلوهم ظلما وعدوانا؟ وهل يجرؤ على قتل نبي من كان يحمل في قلبه ذرة من إيمان؟!

٩٢ - (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

وكذلك قد جاءهم نبيهم موسى من قبل هاديا ومعلما ومنقذا، لكنهم مع ذلك زاغوا عن هديه وأوامره يوم اتخذوا العجل إلها من بعد مفارقته لهم حال ذهابه إلى الطور مناجيا ربه - كانوا يعملون ذلك كله وهم ظالمون وعن الحق والإيمان ناكبون - أما البينات التي جاءهم بها موسى عليه السلام فهي البراهين الحسية التي تدل على صدق نبوته، والتي عاينها بنو إسرائيل تماما ثم زاغوا من بعدها، وهي تشكل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون وفلق البحر وانبجاس الماء من الصخر وطعام المن والسلوى والتظليل بالغمام.

٩٣ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين}.

أخذ الله على بني إسرائيل العهد أن يستقيموا على صراطه ودينه وأن يعملوا بما في التوراة - لكنهم أبوا وتولوا معارضين مدبرين، كان ذلك بعد أن رأوا الأدلة الحسية على صدق الرسالة وبعد إعلانهم عن التوبة إلى بارئهم والرجوع إلى دينه مرارا حتى تهددهم الله بالجبل إذ رفعه فوق رؤوسهم كأنه ظُلة وأيقنوا أنه ساقط عليهم - ذلك تخويف من الله لبني إسرائيل، وهو تخويف واقع مشهود أرعب قلوبهم وأرعد فيهم المشاعر والأبدان؛ لكي يصيخوا إلى النذير الذي يغشاهم بالعذاب أو الموت إلا أن يهتدوا ويأخذوا بما في التوراة فينجوا - جاء هذا التهديد مقترنا بقوله سبحانه لهم: {خذوا ما آتاكم بقوة واسمعوا} أي ألزموا أنفسكم التوراة، واعملوا بما فيها من هداية وتعاليم وذلك {بقوة} أي بجد وعزم واجتهاد - وقوله: {واسمعوا} لا يعني مجرد السمع وحده ولكن الأهم المقصود هو الطاعة - فقد أمرهم أن يلتزموا بالتوراة طائعين مذعنين لله دون ميل أو انثناء أو تردد.

وقوله: {قالوا سمعنا وعصينا} وذلك على سبيل المجاز فقد لا ينطقون ذلك بألسنتهم حقيقة، وإنما كانت حالهم تنطق به كأنما يقولون سمعنا سماعا مجردا وعصينا أن نعمل بما في الأمر - وقيل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا وقوله: {وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم} أي خالط حب العجل قلوبهم فخلُص إلى صميمها خلوصا - وذلك هو الإشراب الذي يداخل القلب مداخلة تستعصي على الفكاك، وذلك على سبيل الاستعارة التي تتجلى من خلالها الصورة على التمام - وهي صورة القلب الزائغ المتجانف الذي استحوذ عليه حب العجل حتى مرد عليه مرودا شائنا - وفي صدد التعبير بالإشراب يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) في الفتن تتشربها القلوب تشربا: " تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا، فأيما القلب أشربها نُكت فيه نكتة سوداء " والنكتة العلامة، وقوله: {قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين} بعد الحديث الكريم عن القلوب المريضة التي أشربت حب العجل يأمر الله نبيه أن يخاطب هؤلاء القوم الفساق خطاب التنديد والذم بأنه بئس هذا الإيمان الفاسد الزائف الذي تنطوي عليه صدوركم، وبئس الذي يأمركم به هذا الإيمان من سقيم العبادة والتوجه - وهذا الضرب من الإيمان ليس من الحق أو الهداية في شيء وما هو إلا الباطل والضلالة برمتها.

٩٤ - (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} تلك صورة من صور التحدي يأمر الله نبيه عليه السلام بطرحها أمام يهود - غير أنهم خسئوا ونكصوا أمام هذا التحدي القائم الصارخ كان ذلك بعد أن زعمت يهود في ضلالة واغترار بأنهم خير الأمم، وأنهم غير معذبين في النار سوى أيام معدودات، وأنهم وحدهم يستأهلون الجنة وليس لأحد غيرهم أن يشاركهم فيها - وفي مثل هذا الزيف من القول يتحداهم الله أن يتمنوا الموت، ذلك أن الذي يكون متوثقا من دخول الجنة

والسلامة من عذاب النار لا جرم أن يتمنى الموت، فيبرح هذه الحياة الحافلة بالكد والنصب، ليلج الدار الباقية المستديمة حيث الهناء والأمن والسعادة، وهو تحد لا جرم أن يكون واضحا مكشوفا لا تعتريه مواربة ولا يجلله غموض - وخلاصته أن من أيقن أنه من أهل الجنة فهو يظل مشدودا إليها راغبا في الابتهاج بنعيمها السرمدي الفياض، وطريق ذلك نفاد سني العمر، والرحيل من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة حيث النعيم المقيم، كذلك كان التحدي الذي لم يلق إلا قلوبا فارغة خاوية وآذانا موقورة عطلها الصمم بما يدل على كذب هؤلاء القوم وسوء قصودهم، وأنهم ليسوا على شيء مما زعموا فقال سبحانه: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين}

٩٥ - (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

{ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين} الله أعلم بالإنسان من نفسه، وهو سبحانه عليم بما هو كائن وما سوف يكون - ومن خلال هذا النص الرباني الكريم يفيض الإعجاز في غاية من الوضوح والبساطة، وذلك بعد أن تحدى الله جماعة يهود كيما تتمنى الموت ما دام تزعم أنها ورثة الجنة، فرفضوا هذا التمني فعلا، لكن الرفض كان مسطورا في علم الله القديم، وأنه سبحانه يعلم ما سينطق به القوم من قبل أن ينطقوا فقال: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين} فهم يخشون الموت لخشيتهم مما بعده من وبال وخسران، وذلك بما صنعوه من الموبقات والخطايا، وما قدموه من جرائم ومخالفات، فهم بذلك آثمون ظالمون لا تخفى حالهم على الله سبحانه.

٩٦ - (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصيرا بما يعملون} ولتجدنهم اللام للتوكيد، والضمير متصل بالفعل المضارع في محل نصب مفعول به أول وهو يعود على اليهود الذين هم

{أحرص الناس على حياة} والمفعول الثاني: {أحرص} وأما الواو بعد حياة فهي تحتمل العطف والاستئناف - وفي تقديرنا أن العطف هو الصواب - وعلى هذا يكون المعنى أن اليهود أحرص الناس جميعا على حياة، وهم كذلك أحرص من الذين أشركوا على حياة - وذلك من باب عطف الخاص على العام - فالخاص المعطوف هم الذين أشركوا، والعام المعطوف عليه هم الناس.

أما القول الثاني وهو أن الواو تفيد الاستئناف فذلك يعني تمام الكلام عند حياة - وتبعا لذلك فالذين يودّ أحدُهم لو يعمّرُ ألف سنة، هم الذين أشركوا - والظاهر أن ذلك مخالف للسياق - فإن الصواب أن يكون المراد أي اليهود أشد خلق الله حرصا على حياة - وهم كذلك أشد حرصا حتى من الذين أشركوا، وهذه حقيقة حال اليهود التي تكشف عنها التجارب والممارسات القولية والعملية التي تكشف عن مدى حرص يهود على حياة - قال الشوكاني في فتح القدير: وتنكير حياة للتحقير - أي أنهم أحرص الناس على أحقر حياة وأقل لبث في الدنيا - فكيف بحياة كثيرة ولبث متطاول؟ ويرحم الله الأستاذ العلامة سيد قطب، إذ استطاع ببراعته وقدرته على الاستفادة من المعاني القرآنية أن يوقفنا على لفتة عجيبة تتجلى في قوله: {حياة} وذلك اسم نكرة غير معرفة وتنكير هذا الاسم {حياة} يعطي مدلولا واضحا عن طبيعة يهود في رغبتهم في مجرد العيش والحياة، كيفما كانت هذه الحياة - يستوي في ذلك أن تكون الحياة كظيظة بالشرور والمفاسد أو عامرة بالصلاح والخير - فلا قيمة لمثل هذه الاعتبارات في تصور يهود ما دامت الحياة جارية وهي مليئة بالرخاء والشهوات - والمهم أن تكون حياة - - - أي حياة!

قوله: {يود احدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر} إن حرص يهود يدفعهم للرغبة الملحاحة في طول الحياة والعيش - فإن أحدهم يتمنى {لو يعمر ألف سنة} لو مصدرية بمعنى أن - أي أن أحدهم يتمنى أن يمتد عمره ألف سنة، لكن هذا التعمير لا يزحزحه من العذاب - فهو إن عمر ألف سنة أو دون ذلك فإن هذا التعمير لا يغنيه من العذاب شيئا - وقوله: {أن يعمر} بدل من التعمير الذي يشير إليه الضمير (هو) وقيل غير ذلك.

قوله: {والله بصير بما يعملون} يصف الله نفسه بأنه عالم بخفايا الأمور فهو سبحانه عالم بالأشياء كلها خبير بها جميعا فلا يندّ عن علمه منها شيء ٨٢.

٩٧ - (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكة ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون} ذكر في سبب نزول هذه الآية كما أخرج الترمذي، أن اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم): إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي فمن صاحبك حتى نتابعك؟ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): " جبريل " قالوا: ذلك الذي نزل بالحرب وبالقتل ذاك عدونا - لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية إلى قوله تعالى: {عدو للكافرين}.

قوله: {فإنه نزله على قلبك} الضمير في قوله: (فإنه) يُحتمل عودُه على جلال الله سبحانه فهو الذي نزّل جبريل بالقرآن والهداية والنور على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) - ويحتمل عوده أيضا على جبريل عليه السلام فهو الذي نزل القرآن على قلب النبي الكريم - والقلب جهاز عظيم القدر والفعالية وهو موضعه الصدر من الإنسان، وهو كذلك مناط العقيدة والإيمان بما يقتضيه ذلك من المعاني والقيم والتصورات، أو على النقيض من ذلك حيث الشك والتكذيب والإلحاد - وقد سمي القلب بذلك، لتقلبه من حال إلى حال؛ فهو تتأرجح فيه الحال بين الإيمان والإنكار أو بين اليقين والتكذيب - حتى قيل إنه قلّب وذلك لتقلبه.

وفي هذه الآية يخاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدحض مقالة يهود بأن جبريل عدو الله - وحاشا لله! فما كان للوحي الأمين الكريم أن يكون عدوا لله وهو أمين السماء وحامل الأمر من ربه إلى العباد في الأرض - وهو عليه السلام لا ينشط من تبليغ رسالة أو أداء أمانة أو تلاوة كتاب إلا بإذن الله سبحانه - وقد نزل بالكتاب الحكيم على قلب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) {مصدقا لما بين يديه} أي أن الكتاب الذي نزله على قلب النبي فيه تصديق لما قبله من كتاب وهو التوراة والإنجيل وغيرهما من كتاب - وهو كذلك يحمل للمؤمنين الهداية والبشرى، ويخوف بالتحذير والتنذير.

ويخاطب الله نبيه عليه السلام أيضا أن يعلن للناس عن فداحة المعاداة لأحد من ملائكته أو رسله، فهؤلاء جميعا مصطفون قد اختارهم الله من بين العباد فهو سبحانه يقضي في ذلك كله ولا رادَّ لقضائه، ويحكم ولا معقب لحكمه - وعلى ذلك فإن معاداة أحد من ملائكته ورسله لهي معاداة لله جل جلاله، سواء كان الملك المعادى جبريل أو ميكال أو غيرهما من الملائكة، فهو جميعا أبرار أطهار لا يخصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - وما معاداة أحدهم إلا وصمة كفر تطبع على قلوب الضالين الفاسقين.

٩٨ - (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٧]

قوله تعالى: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكة ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون} ذكر في سبب نزول هذه الآية كما أخرج الترمذي، أن اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم): إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي فمن صاحبك حتى نتابعك؟ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): " جبريل " قالوا: ذلك الذي نزل بالحرب وبالقتل ذاك عدونا - لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية إلى قوله تعالى: {عدو للكافرين}.

قوله: {فإنه نزله على قلبك} الضمير في قوله: (فإنه) يُحتمل عودُه على جلال الله سبحانه فهو الذي نزّل جبريل بالقرآن والهداية والنور على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) - ويحتمل عوده أيضا على جبريل عليه السلام فهو الذي نزل القرآن على قلب النبي الكريم - والقلب جهاز عظيم القدر والفعالية وهو موضعه الصدر من الإنسان، وهو كذلك مناط العقيدة والإيمان بما يقتضيه ذلك من المعاني والقيم والتصورات، أو على النقيض من ذلك حيث الشك والتكذيب والإلحاد - وقد سمي القلب بذلك، لتقلبه من حال إلى حال؛ فهو

تتأرجح فيه الحال بين الإيمان والإنكار أو بين اليقين والتكذيب - حتى قيل إنه قلّب وذلك لتقلبه.
وفي هذه الآية يخاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدحض مقالة يهود بأن جبريل عدو الله - وحاشا لله! فما كان للوحي الأمين الكريم أن يكون عدوا لله وهو أمين السماء وحامل الأمر من ربه إلى العباد في الأرض - وهو عليه السلام لا ينشط من تبليغ رسالة أو أداء أمانة أو تلاوة كتاب إلا بإذن الله سبحانه - وقد نزل بالكتاب الحكيم على قلب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) {مصدقا لما بين يديه} أي أن الكتاب الذي نزله على قلب النبي فيه تصديق لما قبله من كتاب وهو التوراة والإنجيل وغيرهما من كتاب - وهو كذلك يحمل للمؤمنين الهداية والبشرى، ويخوف بالتحذير والتنذير.
ويخاطب الله نبيه عليه السلام أيضا أن يعلن للناس عن فداحة المعاداة لأحد من ملائكته أو رسله، فهؤلاء جميعا مصطفون قد اختارهم الله من بين العباد فهو سبحانه يقضي في ذلك كله ولا رادَّ لقضائه، ويحكم ولا معقب لحكمه - وعلى ذلك فإن معاداة أحد من ملائكته ورسله لهي معاداة لله جل جلاله، سواء كان الملك المعادى جبريل أو ميكال أو غيرهما من الملائكة، فهو جميعا أبرار أطهار لا يخصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - وما معاداة أحدهم إلا وصمة كفر تطبع على قلوب الضالين الفاسقين.
٩٩ - (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُونَ)
قوله: {ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون} تلك شهادة على صدق نبوة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى أن الله أنزل عليه في الكتاب آيات من البراهين والحجج تشهد له بأنه على الحق - ومن جملة هذه البراهين والحجج ما حواه الكتاب الحكيم من أخبار اليهود ومن مكنونات أسرارهم وما تضمنته كتبهم من أنباء قد حرفوها تحريفا - لكن اليهود قد كفروا بما جاءهم النبي من كتاب محكم صدوق ينبئهم بأخبارهم وأخبار الأولين من آبائهم السالفين - لقد كذبوا بالحق كله وهو من عند الله، وفيه الخبر الثابت اليقين - الخبر القاطع في حقيقته ومدلوله والذي يدرك عن طريق الحس وتصدقه الوقائع الثوابت.
ثم يعلن الله جلت قدرته أنه لا يكفر بهذه الدلائل والبراهين إلا الفاسقون - والفاسقون من الفسق وهو الخروج - والفاسق الذي يخرج عن صراط الله وعن منهجه القويم - وتسمى العرب الفأرة فويسقة؛ لخروجها من جحرها - والفاسقون أو الفسقة والفساق من الفسق كما بينا فكلهم خارجون عن تعاليم الله وعن دينه المستقيم - قال ابن عباس في سبب نزول قوله: {ولقد أنزلنا إليك آيات بينات} هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، ما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها، فأنزل الله هذه الآية ٨٣.
١٠٠ - (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله تعالى: {أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل وهاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرين من خلق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون}.
ذلك بيان لنكث يهود المواثيق ونقضهم للعهود التي طالما ألزموا أنفسهم بها - والله سبحانه ينكر عليهم هذا الطبع الفاسد فيسأل في إنكار وتنديد {أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم} الهمزة للاستفهام بمعنى التوبيخ والواو للعطف - وكلما تفيد الشرط - فكأن هذا الخلق الذميم بات فيهم طبعا متمكنا وديدنا قد مردت عليه نفوسهم وأعصابهم فما عادوا يوفون بعهد أو ميثاق - فما يكون من ميثاق تعقده يهود إلا وينبذه فريق منهم - والنبذ الإلقاء والاطراح.
قوله: {بل أكثرهم لا يؤمنون} أكثر هؤلاء القوم مكذبون رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) من أن التوراة قد احتوت ذكر الرسول

عليه الصلاة والسلام والأمر باتباعه ومؤازرته - يقول سبحانه في مثل ذلك: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل}.

١٠١ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم} المقصود بالرسول الذي جاء من عند الله هو النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأما الذين أوتوا الكتاب فهم اليهود، فقد جاءهم نبي الإسلام عليه السلام يدعوهم إلى منهج الله الحق وفيه التصديق لما معهم من كتاب- وهي التوراة- لكن فريقا منهم جحدوا وكذبوا - وذلك يدفعهم بالتكذيب لكتاب الله الذين بين أيديهم " التوراة " وفيها ذكر هذا النبي الخاتم في وضوح مكشوف كان يستبين لكل قارئ؛ وعلى ذلك فإن تكذيبهم لنبوة الرسول محمد لهو نبذ للتوراة نفسها لما فيها من تصديق مسبق بهذا النبي وبشرى مسطورة به من قبل أن يأتي.

قوله: {كأنهم لا يعلمون} نبذ هؤلاء التوراة بميلهم عما فيها من تصديق لنبي الإسلام ومضوا يجعلون أصابعهم في آذانهم؛ كيلا يصيخوا لنداء الحق وكأنهم لا علم لهم بحقيقة الأمر مع أنهم على علم سابق بالحقيقة التي كانوا يقفون عليها وهم يقرؤون التوراة - ومن أصدق ما يجيء في هذه القضية قول الله عن هؤلاء القوم في القرآن: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل}.

١٠٢ - (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

قوله: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان} الواو للعطف، والفعل المضارع بعدها معطوف على الفعل نبذ، والمقصود أن ذلك الفريق من اليهود نبذوا التوراة التي تنطوي على ذكر نبي الإسلام واتبعوا بدلا من ذلك ما كانت الشياطين تتلوه زمن سليمان عليه السلام.

أما الذي كانت الشياطين تتلوه على عهد سليمان فهو السحر الذي قيل إن الشياطين كانت تتبعه وتقرأه على الناس زاعمين أنه من صنع سليمان - والحقيقة أن ذلك السحر ما كان من صنع سليمان، بل إن من كيدهم وخبثهم - وحقيقة المسألة- فيما ذكره ابن عباس- أن سليمان عليه السلام قد دفن تحت كرسيه ما اطلع عليه من كتبهم في السحر - ولما توفي عليه السلام ظهر الإنس والجن على الكتب، وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخذوا به وجعلوه دينا لهم، فأنزل الله تكذيبا لهم، فقال سبحانه: (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وفي هذا دلالة على أن السحر ضرب من الكفر يورد المتشبثين به موارد الشرك والضلالة - وكذلك فإن الآية تنفي أن يكون السحر من صنع سليمان، ولكنه من صنع الشياطين فهم الذين اختلقوه وابتدعوه، وهم كذلك الذين افتروا على سليمان بقولهم: إنه كان يخفي تحت كرسيه سحرا - وحاشا لله فما كان لنبي أن تكون له أدنى علاقة بسحر، ولكنها النبوة الصادقة الميمونة، والوحي القدسي الكريم الذي يتنزل على هذا النبي المقصود بخبر السماء.

وبذلك فإن السحر لهو من اختلاق الشياطين الذين يعلّمون الناس إياه - وكذلك يعلمونهم كما قال سبحانه: {وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت} وما نريد أن نقول في ذلك شططا، ولا نفلت العنان للقلم والكلام في هذه المسألة فنذهب بعيدا إلى ما يقرّبنا من الزلل.

والذي نستطيع ذكره في توضيح هذه القضية ببساطة أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل الله على الملكين ببابل وهما هاروت وماروت، بدل من الملكين.

أما الذي أنزل على هاروت وماروت ببابل فكان سحرا، وهو ابتلاء من الله للناس على سبيل الفتنة، ويكشف عن هذا المدلول قوله تعالى: {وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر} - وعلى هذا فإن سليمان لم يكفر، وكذلك فإن الملكين ببابل لم يكفرا،

لكن الله جعلهما ببابل وأنزل عليهما السحر، فتنة للناس وليبتليهم بهما وبما أنزل عليهما - ويدل على ذلك قولهما لمن يأتيهما من الناس: (إنما نحن فتنة فلا تكفر فكأنهما يشرحان للناس ما أنزل عليهما من بلاء وفتنة ثم يحذران كذلك من اتباع السحر.

ذلك الذي نستطيع ذكره هنا ولا نمضي في هذه القضية أكثر من ذلك، خشية الزلل والتكلف - وقوله: {فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه} يراد بواو الجماعة في قوله {فيتعلمون} " السحرة " فهم الذين يقبلون على الملكين هاروت وماروت ليأخذوا منهما السحر من غير أن يعبأوا بالتحذير والنصيحة المقدمين من هذين الملكين قبل التعليم - بل كان السحرة يتعلمون منهما هذا الفن المحظور رغم النصيحة والزجر، ثم يمضون في الناس يفرقون بين المرء وزوجه بسحرهم والنفث فيهم.

قوله: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) ذلك نفي من الله لوقوع الضرر عن طريق السحر - والضمير (هم) بعد يعود على السحرة وقيل على اليهود، وقيل على الشياطين.

والمهم في ذلك أن هؤلاء الأشقياء لن يوقعوا بسحرهم ضررا بأحد (إلا بإذن الله) أي بإرادته وقضائه، لا بأمره فإن الله سبحانه لا يأمر بالشر والباطل، لكنه سبحانه لا يندّ عن إرادته وقضائه شيء أو حدث.

وفي الآية كذلك تقرير بأن الذين يمارسون السحر إنما يتعلمون ما ليس لهم فيه نفع أو خير، ولكنه يعود عليهم بالضرر في هذه الدنيا حيث الإهانة والزراية والنكال الذي يجب أن يحيق بالساحر المفتري الدجال - وكذلك فإن الضرر يعود عليهم في الآخرة حيث العذاب الأشد الذي يحيط بهذا الصنف من البشر الكاذب المحتال.

وقوله: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق} يؤكد الله جلت قدرته أن هؤلاء اليهود يعلمون ألاّ خلاق لمن آثروا السحر على دين الله القويم الذي جاءهم وهو

الإسلام والخلاق هو النصيب واللازم في {لمن اشتراه} لام الابتداء - من بمعنى الذي في محل رفع مبتدأ - وخبره قوله: {ما له في الآخرة من خلاق} واشتراه، صلة الموصول ٨٤.

وقوله: {ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون} يندد الله سبحانه بما باعث به يهود أنفسهم للشيطان حينما رضوا بالسحر بدلا من دعوة الحق التي دعاهم إليها النبي (صلى الله عليه وسلم) - فبئس ما صنع هؤلاء من صفقة خاسرة سوف تودي بهم إلى الهلاك والتخسير لو كانوا يعلمون ذلك.

١٠٣ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وقوله: {ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} لو أن هؤلاء اليهود آمنوا إيمانا صحيحا يتضمن إيمانهم بدعوة الإسلام، وكذلك لو أنهم اتقوا الحرمات ومنها السحر، لكان لهم عند الله بذلك ثواب، وهو خير لهم مما أركسوا أنفسهم فيه وهو السحر - وهذه هي الحقيقة لو كانوا يعلمونها علم اليقين ٨٥.

ولا بد هنا من كلمة في موقف الإسلام من السحر - فهل هو حقيقة أم غير ذلك؟ وما حكم الشرع في الساحر؟ وهل يباح العلم بالسحر؟ ذهب أكثر أهل العلم إلى أن السحر حقيقة، وأنه موجود بدليل قوله سبحانه في السحر والسحرة: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} وغير ذلك من نصوص تتضمن وقوع السحر بالفعل، وخالف المعتزلة وأبو حنيفة في ذلك، وذهبوا إلى أنه لا وجود للسحر أصلا - وهو لا يعدو في طبيعته وحقيقته دائرة الخيال والتوهيم - واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام والسحرة لما ألقوا حبالهم وعصيهم: {يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى} وبذلك فإن السحر ضرب من التخيل الذي يراود تصور الإنسان.

على أن السحر من حيث الحكم الشرعي معدود من الكبائر التي نهى عنها الدين أشد النهي؛ لما في ذلك من توهيم للناس وحملهم على التصديق بقدرة البشر على اختلاف المعجزات أو ما يشبهها - وفي ذلك من التخليط والإلباس ما يوقع الناس في الحيرة والشك والزعزعة في العقيدة - وعلى ذلك فقد حذرت الشريعة من السحر والسحرة، وتوعدت من يتلبس بهذه الكبيرة بالعذاب الشديد - يبدو ذلك من حديث السبع الموبقات التي حذر منها النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي: " الشرك بالله والسحر - - " ويقول عليه الصلاة والسلام: " من أتى عرافا أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد.

وعلى هذا ذهب إلى تكفير الساحر طائفة من السلف - وقيل: بل لا يكفر، ولكن وحده ضرب عنقه، لما رواه أحمد والترمذي عن جندب الأزدي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " حد الساحر ضربه بالسيف " وروى الشافعي وأحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ٨٦.
أما استعمال السحر فإنه يوجب العقاب عند بعض العلماء على الخلاف - فقد ذهب الإمامان مالك وأحمد إلى وجوب قتل الساحر الذي يستعمل السحر، وقد ثبت في حقه ذلك - وذهب أبو حنيفة والشافعي إلى عدم قتله، واشترط الشافعي لذلك أن يقتل الساحر بسحره أحدا، فإذا لم يقتل أحدا فلا يجوز قتله - واشترط أبو حنيفة لقتله أن يتكرر منه القتل عن طريق السحر، أو أن يقر بالقتل فعلا ٨٧.
وفي توبة السحر خلاف كذلك - فقد اتفق الأئمة مالك وأبو حنيفة وأحمد على عدم قبول التوبة من الساحر باعتباره كافرا - وذهب الشافعي وأحمد في رواية عنه إلى قبول توبته إلا إذا ظهر منه ما يوجب الكفر.
أما العلم بالسحر دون استعماله، وذلك لتجنبه واتقائه فإنه جائز، وذلك الذي ذهب إليه بعض أهل العلم، استنادا إلى قوله تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ومجرد العلم بالسحر لا يضر، بل ينفع، فإنه يمكّن العالم به من التفريق بينه وبين المعجزة، كيلا يخلط الناس بين الأمرين.
وقد رُد ذلك بأن تعلم السحر حرام، فقد ذهب أكثر العلماء إلى أن مجرد التعلم قبيح عقلا، وهو كذلك حرام من الوجهة الشرعية، بل إن تعلم السحر من أجل استعماله كفر، وقالوا أن الاستدلال بتلك الآية ليس في هذا الموضع، لأن تلك إنما دلت على امتداح العالمين بأمور الشرع، وليس السحر من الشرع في شيء ٨٨.
هذه خلاصة وجيزة في قضية السحر نكتفي بها على ما بيناه دون تفصيل.
١٠٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم} خير ما جاء في تأويل هذه الآية ما قاله ابن عباس- رضي الله عنهما-: كان المسلمون يقولون للنبي (صلى الله عليه وسلم): راعنا على جهة الطلب والرغبة من المراعاة، أي التفت إلينا وكان هذا بلسان اليهود سبا، أي اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا: كنا نسبّه سرا فالآن نسبه جهرا، فكانوا يخاطبون بها النبي (صلى الله عليه وسلم) ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود: عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي (صلى الله عليه وسلم) لأضربن عنقه، فقالوا: أو لستم تقولونها؟ فنزلت الآية ونُهوا عنها، لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه ٨٩.
وفي تأويل آخر أن اليهود إذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا - قالوا: راعنا - وذلك على سبيل التورية فهم يقصدون من " راعنا " الرعونة وليس المراعاة أو الالتفات إليهم - فوافق ذلك ما كانوا يقولونه بلغتهم مما يعني الرعونة ومنها الأرعن أي الخفيف السفيه المتطيش - وحاشا لله! فما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا القمة البالغة في سعة الإدراك، وفرط العبقرية والذكاء، وتمام الحكمة والاتزان، وجمال الخلق والطبع، وروعة الشجية والفطرة.
وهذان القولان في تأويل هذه الآية متكاملان متقاربان وقد تضمنتهما بتفصيل أكثر آية النساء {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم}.
وعلى هذا فقد أمر الله المسلمين ألا يقولوا للنبي {راعنا} ولكن يقولوا {انظرنا} أي أقبل علينا وانظر إلينا، لما في ذلك من جلال الخطاب الذي يتحقق به الاحترام للنبي (صلى الله عليه وسلم) بدلا من الكلمة المريبة تندلق من أفواه يهود وهي تحتمل الخبيث من المقصود نحو النبي الكريم
(صلى الله عليه وسلم).

ثم يؤكد الله على السمع، ويحذر من معصية أمره سبحانه، فإن معصيته تسوق إلى العذاب الذي سيمنى به الكافريون {واسمعوا وللكافرين عذاب أليم} أي وأحسنوا سماع ما يكلمكم به نبيكم بآذان واعية وقلوب حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الإعادة وطلب المراعاة.

١٠٥ - (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

وقوله {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} الكافرون من المشركين واليهود لا ينظرون للمسلمين دائما إلا بعين الكراهية والحسد، وهم جميعا لا يتمنون للمسلمين إلا التعثر والبلاء - وبذلك فهم لا يودون أن ينزل عليهم من خير - والمقصود به القرآن العظيم، لما ينطوي عليه من أسباب القوة والعزة للمسلمين، ولأن القرآن موئل الكرامة والشرف والنجاة في هذه الدنيا ويوم تقوم الساعة، بل إن القرآن الكريم لهو جماع الخير كله بكل ما تتناوله هذه الكلمة من معاني التعاون والتآزر والاستعلاء - وكذلك الوحدة الكاملة الشاملة الذي يتلاقى في خضمها المسلمون جميعا من غير تمييز، ثم الجهاد الذي يفرضه القرآن على المسلمين، كيلا ينزل بساحتهم شر أو ذلة - وهذه المعاني وغيرها من أطراف الخير والخلق والقوة قد رسخها القرآن في واقع المسلمين، وأوجبها عليهم إيجابا، ولأجل ذلك ما يود الكافرون من مشركين وأهل كتاب أن يكون هذا الكتاب الحكيم المعجز بين ظهراني المسلمين، بل يرغبون دائما أن يزول من الوجود كل معْلم من معالم هذا الكتاب وإذ ذاك يستريحون ويطمئنون.

قوله: {والله يختص برحمته من يشاء} الله جلت قدرته يختار لرسالته ودينه من يصطفي من العباد - فقد اختار من بين الأمم لحمل هذا الدين العظيم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس، واصطفى من بين العباد هذا النبي الأمي محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليكون أول مبلغ للرسالة فقام في الناس على خير ما يكون عليه التبليغ والأداء من غير تقصير، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

والله سبحانه هو المتفضل المنّان الذي ملأت آلاؤه أرجاء الوجود جميعا بما في الوجود من ملائكة وجن وإنس وكائنات {والله ذو الفضل العظيم}.

١٠٦ - (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} ما أداة شرط تجزم فعلين - {ننسخ} فعل الشرط مجزوم - والنسخ يأتي في اللغة بمعنى الإزالة والإبطال أو إقامة الشيء بدل غيره، أو النقل من مكان إلى آخر ٩٠ أما النسخ في الاصطلاح فهو: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر - أو هو الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم ٩١.

ويبدو هذه التعريفات أنها متقاربة وذلك من حيث إن النسخ يعني الإزالة أو التبديل، فهذه المعاني شديدة التقارب بما ذكره الأصوليون من تعريف للنسخ - أما النسخ من حيث ضروبه وأقسامه على التفصيل، ومن حيث المواضع التي يقع فيها النسخ، ومن حيث النسخ بين القرآن والقرآن، ثم بين القرآن والسنة، وغير ذلك من مسائل تتعلق بالنسخ، فإن موضع ذلك كله في كتب الأصول حث البيان المفصل والشامل لهذه القضية الهامة.

وعلى العموم فإن الآية تعني أنه: ما نرفع حكم آية، سواء كان الرفع واقعا على التلاوة والمعنى كليهما، أو على التلاوة دون المعنى، أو المعنى دون التلاوة، {أو ننسها} فإن الله جلت قدرته لسوف يأتي بخير منها أو مثلها - وقوله: {ننسها} معطوف على {ننسخ} - وفي قراءتها وجهان وهما: ننسأها بالهمز، وننسها بغير همز - وقراءتها بالهمز تعني: نؤخرها فلا ننسخها، وهو من الإنسان أو التأخير، وفعله أنسأ بمعنى أخر - نقول أنسأ الله أجلك أي أخره ليطيل في عمرك ٩٢.

وأما قراءتها بغير همز من النسيان وفعله نسي - أي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان الله سبحانه ينسيه ما يشاء من آيات لحكمة يعلمها ويقدرها هو جل ثناؤه - وفي تعزيز هذا المعنى يستشهد سعد بن أبي وقاص بقوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} وقوله: {واذكر ربك إذا نسيت} وفي تقديرنا أن هذا هو الصواب ليكون معنى الآية: أن الله لا يقدر لعباده رفعا لآية أو إباحة لتركها بعد نسيان إلا ويأتي بمثلها

أو خير منها من الآيات.

وقوله: {نأتي بخير منها أو مثلها} لا يفهم من هذا أن بعض القرآن خير من بعضه الأخر، فإنه كله خير، وهو كله مقدور من عند الله جاء متضمنا لجوانب الخير جميعا، وهو في روعته وبلاغته وكمال معناه يستوي أوله ووسطه وآخره، فهو في أعلاه عظيم باهر وفي أسفله رفيع مشرق - ومعنى الخير هنا الذي يأتي به الله فهو ما كان أنفع للعباد مما كان لهم به خير - فالله جل ثناؤه يقرر نسخ الآية أو نسيها ليخلفها بما هو أكثر نفعا للناس أو بما يكون مساويا له في النفع في هذه الدنيا وفي تلكم الأجلة الباقية.

قوله: {ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض} قوله: {ألم} في الآيتين سؤال ينطوي على تقرير لحقيقة ما ورد في هاتين الآيتين، لكن العلاقة وثيقة بين الاستفهام التقريري هنا وقضية النسخ السابقة - فقد عجبت يهود من ورود النسخ في القرآن وأخذوا يطعنون في صدق نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصدق القرآن الكريم - مع أنه لا غرابة في مثل هذه القضية، فإن النسخ قد وقع في كثير من الأحكام في التوراة - وليست المسألة هنا غير التعصب والحقد والهوى والعناء - وكم كان أجدى لو رضخت يهود وغير يهود لكلمة الله وتشريعه للنسخ - فليس في ذلك ما يثير عجبا، فإن الله شارع النسخ لهو المقتدر على كل شيء، وهو الذي يملك السماوات والأرض، بل له ملكوت كل شيء فله إقرار ما يشاء ونسخ ما يشاء، وله الحكمة في ذلك من غير معقب ولا نديد.

قوله: {وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} الولي من الولاية وهي السلطان - يقول سبحانه في آية أخرى: {هنالك الولاية لله الحق} أي له السلطان والهيمنة دون أحد من خلقه - فإنه ليس للناس سوى الله سلطان أو نصير يركنون إليه أو يستمدون منه العون والمدد - فهو -جل ثناؤه-يهب العزة لمن يشاء ويمنن بالقوة والمنعة يكتبهما لمن أراد من عباده.

١٠٧ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

قوله: {وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} الولي من الولاية وهي السلطان - يقول سبحانه في آية أخرى: {هنالك الولاية لله الحق} أي له السلطان والهيمنة دون أحد من خلقه - فإنه ليس للناس سوى الله سلطان أو نصير يركنون إليه أو يستمدون منه العون والمدد - فهو -جل ثناؤه-يهب العزة لمن يشاء ويمنن بالقوة والمنعة يكتبهما لمن أراد من عباده.

١٠٨ - (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

قوله: {أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل} أم منقطعة بمعنى بل - والكلام هنا ينطوي على توبيخ وتحذير لأمة هذا النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم) - وذلك لما أرادت قريش مضاهأة بني إسرائيل في سؤالهم لنبيهم موسى أن يريهم الله جهرة - فقد ذكر أن قريشا سألوا نبيهم محمدا (صلى الله عليه وسلم) أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلا، وسألوه كذلك أن يجعل لهم الصفا ذهبا - وهم لا يقولون ذلك إلا على سبيل التعنت واللجوج في الكفر - وليس في مثل هذه المساءلات إلا الشرود عن دعوة الحق الواضحة الجلية أو العتو والنفور من عقيدة التوحيد، ومن يفعل ذلك فقد تبدل الكفر بالإيمان وضل سواء السبيل - وسواء السبيل أي الطريق السليم وهو طريق الله الذي دعا إليه النبيون والمرسلون ٩٣.

١٠٩ - (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير} يتمنى كثير من أهل الكتاب - يهودا ونصارى- لو يرتد المسلمون عن دينهم إلى الكفر - وقوله: {حسدا} مفعول لأجله - أي أن تمنيهم بردة المسلمين إلى الكفر أساسه الحسد الذي تختزنه نفوس هؤلاء الضالين المبغضين والذين لا يتمنون للإسلام والمسلمين غير التدمير والخسران - فهم يحسدون المسلمين على ما جاءهم من الحق - وهو الحق في العقيدة الواضحة المستنيرة المستقيمة،

الحق في التشريع العظيم الذي يتناول قضايا البشرية في كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقضائية والتربوية، وهو الحق الذي يصنع الإنسان الصالح المميز، بكل ما في الكلمة من معنى - إنه المميز في طبعه السليم، وفي خلقه السوي المفضال، وفي سيرته وسلوكه المبرأ من آفات المشركين والمضلين والمفسدين.

إن هذا الإنسان الصالح، في طبعه ونفسه وسلوكه، والصالح في فكره وما حواه العقل من مذخور المعرفة والتصور، لهو الذي يثير في نفوس الكفرة المتعصبين اللُّد خصلة الحسد فيتمنون بذلك عودة المسلمين إلى دين غير دينهم، إلى دين أو ملة أخرى تحرفهم عن سلامة العقيدة والفكر، وعن سلامة الوعي والتصور الذي يبعثه الإسلام في الإنسان - يتمنون أن تتجه قلوب المسلمين وعقولهم إلى أية عقيدة أو ديانة أخرى غير الإسلام، ليتسنى بعد ذلك قودهم إلى مباءات الضعف والخور والانحلال والتبعية فينماعوا في الأرض شاردين ضالين حيارى - أو ليتقلبوا ضعافا تابعين تتشبث أهواؤهم بأهل الكتاب وهم يركضون وراءهم ركض اللاهث الذليل المستضعف.

والحسد نوعان: أحدهما مذموم، والآخر محمود - أم المذموم: فهو أن يتمنى المرء أن تكون له النعمة كالتي عند غيره مع رغبته في زوالها من عند هذا الآخر، والتمني في ذاته لا بأس فيه لو لم يكن مقترنا برغبة الزوال للخير والنعمة من عند الآخرين - وهو إحساس يبسط للعيان حقيقة طبع فاسد وبغيض يتمنى معه الحسود لو تمحق النعمة أو الخير من عند أصحابه.

وأما الحسد المحمود: فهو أن يتمنى المرء ما لدى غيره من الخير والنعمة مع رغبته في دوامها عنده - فهو يجب أن تكون له النعمة كالتي عند غيره، وما في ذلك من بأس، وذلك إحساس فطري معقول لا يصطدم بطبيعة هذا الدين الذي يلائم الفطرة البشرية أعظم تلاؤم، لكنه لا تخالطه أدران الأنانية والأثرة ليتمنى زوال هذه النعم من عند غيره - ويمكن أن يطلق على هذا التمني المشروع " الغبطة " وهي تمني ما عند الآخرين مع الرغبة في بقائها عندهم ٩٤ - وللاستدلال على وجود هذا الضرب من الحسد المشروع يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار " ٩٥.

قوله: {من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق} أي أنهم كانوا يحسدون المسلمين ويتمنون لهم الضلال والارتداد عن دينهم ولم يكن تمنيهم هذا صادرا عن كتاب لهم ولا أمروا به، بل كان من تلقاء أنفسهم وطبائعهم الحاقدة الحاسدة، هذه الطبائع الملتوية الشاذة التي لا تحب الخير للإسلام أو المسلمين - فهم في حسدهم هذا لا يستندون إلى مبرر أو دليل إلا الكراهية البحتة والحسد الحاقد الممحض - مع أن هؤلاء أعراف الناس بحقيقة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ وذلك لمعرفتهم المسبقة بأنه المبعوث من عند الله ليكون للناس رسولا وهاديا ونذيرا - وهي حقيقة ما كانت تغيب عن أذهانهم لولا الطبع الفاسد وما كان يركم في نفوسهم من حسد - فقد كانوا يتلون في كتبهم السماوية أن هذا النبي مرسل من عند الله، فلا هو بالمنتحل ولا هو بالمفتري.

قوله: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} يأمر الله عباده المؤمنين أن يظلوا صابرين على الحق مستمسكين بدين الله، فلا تزعزعهم مكائد الكافرين وأذاهم - ويأمر الله كذلك أن يتجاوزوا عن مساءلة الظالمين الكافرين بالعفو والصفح، فلا يؤاخذوهم ولا يحاسبوهم على ما اقترفوه من إضرار وتأذية إلى أن يكتب الله لهم النصر - وقد ذهبت جمهرة كبيرة من أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة، نسختها آيات القتال - وذلك كقوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}.

وقوله تعالى أيضا: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} ويؤيد قولهم بالنسخ هنا قوله تعالى بعد ذلك: {حتى يأتي الله}.

وقيل: إن الآية محكمة ولم يقع عليها نسخ - والمراد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين مدعوون جميعا للصبر على البلاء مما يلحق بهم من ضروب الضرر والتعدي - وذلك هو شأن المسلم؛ إذ يجلله الخلق الكريم فيبادر بالعفو والصفح عن مساءات الظالمين الذين ما فتئوا يثيرون في وجوه المسلمين الشر والعدوان والأذى.

قوله: {إن الله على كل شيء قدير} وهذه الحقيقة متسقة تماما مع الوعد السابق في قوله تعالى: {حتى يأتي الله بأمره} فهو جلت قدرته

قد كتب النصر لعباده الصابرين العاملين، وكتب أن الغلبة له سبحانه ورسله {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وذلك كله على الله هين ويسير؛ لأنه سبحانه على كل شيء قدير.

١١٠ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله} هذان ركنان عظيمان من أركان هذا الدين تنبه إليهما الآية الكريم وهما: أن تقام الصلاة خير قيام من تمام التنفيذ وكمال الأداء حتى تكتمل فيها الصورة وافية من التكبير والقراءة والقيام والركوع والسجود والقعود، وحتى يتحقق فيها الوعي والمضمون من خشوع وطمأنينة وإحساس تام بالخضوع والانقياد والتذلل لله وحده.

وكذلك أن تؤدى الزكاة، يدفعها من يملك المال والنصاب إلى الذين يستحقونها من متكففين وعالة وذوي عوز وغير ذلك من وجوه مبينة مشروعة تؤدى فيها الزكاة، وهاتان الفريضتان تتقدمان فرائض الإسلام، وتحتلان مكان الصدارة من حيث الأهمية، وهما يأتيان في طليعة الأعمال الكريمة التي سيجدها العامل أمامه بعد الموت - وسوف لا يجد إذ ذاك غير ما قدمه من خير الأعمال والأقوال والنوايا، وما عدا ذلك من شؤون الدنيا ليس إلا متاعا تتلذذ به النفس حال الحياة حتى إذا جاء الأجل المحتوم، باتت هذه المخلفات والرواسب التي يستمتع به الوارثون.

وجاء في الحديث أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: " أيكم مال وارثة أحب إليه من ماله؟ " قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثة - قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " ليس منكم من أحد إلا مال وارثة أحب إليه من ماله، مالك ما قدمت ومال وارتك ما أخرت ".

وجاء في حديث آخر: " إن العبد إذا مات قال الناس: ما خلّف، وقالت الملائكة: ما قدم " وهكذا يجد المرء ما قدمت يداه في دنياه من صالح القول والعمل، يجد ذلك كله محتسبا له عند ربه من غير نسيان - والله سبحانه عالم بما صدر عن كل إنسان، فلا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عن ملكوته من مثقال ذرة {إن الله بما تعملون بصير} ٩٦.

١١١ - (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قالوا هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون}.

يبين الله اغترار كل من الفريقين من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى؛ إذ زعم كل فريق أنه على الحق، وأنه الذي كتبت له الجنة دون غيره من الأمم - فزعمت يهود أن لن يلج الجنة إلا من كان على ملتهم وطريقهم - وفي المقابل زعمت النصارى أنهم وحدهم أهل الجنة، وأن غيرهم من خلائق محذوفون في النار - وهذه المزاعم التي يطلقها كل من الفريقين ليست إلا تمنيات حالمة واهمة تفيض بالحماقة والعمه والغرور الذي لا يستند إلى حقيقة أو برهان إلا الافتراء والسفاهة؛ ولذلك قال لهم الله في قرآنه متحديا: {هاتوا برهانكم} فإنهم لا يملكون برهانا من حجة أو دليل على صدق ما يطلقون من مقولات زائفة كاذبة - فلا التوراة الأساسية الصحيحة تحمل مثل هذا التصور الخاطئ المغرور، ولا الإنجيل المبرأ من التحريف يشهد لهذا القول الظالم المختلق.

١١٢ - (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

وقوله: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} قوله: {بلى} إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة - فهو تكذيب لقولهم فليس هذا القول إلا التخريص المفترى تطلقه يهود والنصارى بأن كلا منهما مستأثر بالجنة دون غيره - فالله سبحانه في هذه الآية يدحض ما أطلقه الفريقان - ويكذبهما تكذيبا؛ ليبين بعد ذلك أن الوارثين للجنة والداخلين فيها هم المخلصون العاملون من العباد بغض النظر عن الجنس أو اللون أو المسميات، فالذي يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فهو على الحق والخير، سواء

كان من بني إسرائيل أو من أتباع المسيح أو من قوم هذا النبي الخاتم محمد (صلى الله عليه وسلم).
قوله: {من أسلم وجهه لله} أي من استسلم لله وخضع - وقيل: من أخلص نفسه لله.
وقد ذكر الوجه هنا لشرفه، فإن الوجه يحتوي على صورة الإنسان المميزة - الصورة الحسنة المنسجمة التي تكشف عن إبداع إلهي كريم خُص به هذا الكائن المفضل وهو الإنسان الذي كرمه الله واختاره من بين الخلائق ليكون عظيمها وسيدها.
وفي الوجه كذلك ظواهر شتى من الخصائص الإنسانية التي كتبها الله لابن آدم، منها السمع والبصر والشم والذوق والنطق - وهي أسباب تتلاقي جميعا في هذا الجزء الأهم من الإنسان وهو الوجه.
ومن خلال الوجه تتراءى للناظر البصير ملامح معبرة مستبينة تكشف عما يجيش في صدر المرء من مكنون، وعما يعتور في أطوائه المستورة من مقاصد - ولا جرم أن تستبين مثل هذه المقاصد حتى توشك القسمات والملامح في الوجه أن تحدث عنها فتكشفها كشفا.
وقوله: (وهو محسن) الواو للحال، والجملة الإسمية بعدها في محل نصب على الحال - وفي هذه الآية: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن) تجتمع حقيقتان متكاملتان لا مناص من اجتماعهما معا وهما الإيمان والعمل - فإسلام الوجه إلى الله جزء من عقيدة الإسلام التي تفرض أن يكون الانقياد والخضوع لله وحده دون سواه - فإذا كانت هذه الحقيقة مركوزة في النفس بات الإنسان في تصوره وإحساسه مشدودا إلى الله بحبل متين وليس مشدودا أدنى شد لأي اعتبار من الاعتبارات أو جهة من الجهات - وهذا هو الأصل الأكبر الذي ينبني عليه هذا الدين - وهو دين شامل ومتسع وكبير يقوم أول ما يقوم على العقيدة المتينة الصلبة التي تضرب بجذورها في أعماق الكينونة البشرية.
أما الحقيقة المكلمة الثانية فهي العمل، وذلك في وقوله: {وهو محسن} وذلك تعبير يتسم بالشمول والمرونة - فإنه يندرج في مفهوم الإحسان كل وجوه الخير والعمل النافع المثمر - فتلكما حقيقتان وهما الإيمان والعمل المشروع يفضيان إلى استحقاق المرء من الله أجرا كريما - وله بعد ذلك ألا يخاف وألا يحزن {ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وخير ما جاء في تفسير ذلك أن المؤمن لدى مفارقته الدنيا لسوف يكون آمنا مطمئنا، فهو لا يحيق به خوف مما يواجهه بعد الموت من أهوال وشدائد، وهو كذلك لا يمسه الحزن أسفا على الحياة عند الفراق - وذلك لعمر الحق عطاء جزيل يمتنّ الله به على العبد المؤمن، وهو عطاء لا يتصوره الإنسان إلا عند معاينته الموت، فيدرك عظمة الخير المقدر في أحلك الساعات وأشدها عسرا - وهو كذلك يتصوره المؤمن وهو يتدبر آيات الله تتحدث عن عرصات يوم القيامة وأهوالها، وما يستقبله بعد الموت من بلايا وثبور وعظائم الأمور.
١١٣ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
وقوله: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب} جاء في سبب هذه الآية فيما ذكر عن ابن عباس قوله: " لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله
(صلى الله عليه وسلم): فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل - وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة - فأنزل الله في ذلك الآية - أما قوله: (وهم يتلون الكتاب) أي أن كلا من الفريقين يتلو في كتابه المنزل إليهم خبر الفريق الآخر وصدق ما أنزل إليهم من كتاب - فاليهود يقرأون في التوراة صدق نبوة عيسى وصدق الكتاب الذي أنزل عليه وهو الإنجيل - وكذلك النصارى يقرأون في الإنجيل صدق نبوة موسى وصدق التوراة التي جاءته من السماء - ولكنهم مع ذلك كله يكذب بعضهم بعضا، ولا يدفعهم لهذا التكذيب والجحد إلا الحسد والكراهية والعناد - لو أن النفوس كانت سليمة من المرض ولم يخالطها اللي والشذوذ لاستطابت كلمة الحق تنطق بها في إخلاص واستقامة وتجرد.
وقوله: (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) والمراد بالذين لا يعلمون يحتمل أربع جهات: أولها النصارى واليهود، وثانيهما الأمم

التي سبقت هاتين، وثالثها العرب، ورابعها جميع هؤلاء الذين تنكبوا عن صراط الله المستقيم، والذين ناصبوا نبي الإسلام الحرب والعداء، وذلك هو القول الراجح والله أعلم.

على أن الكافرين من المشركين وأهل الكتاب سيظلون على الدوام في تنازع وشقاق وهم تغشاهم بواعث الكراهية والأنانية والمشاحنة إلى أن تقوم الساعة وإذ ذاك يقضي الله بينهم بالعدل وهو سبحانه يتولى الصالحين وهو أعدل العادلين ٩٧.

١١٤ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} سؤال فيه نكير على أولئك الذين يمنعون مساجد الله أن تتأدى فيها العبادة من صلاة وموعظة وغيرها - أما المراد بالمانعين لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فقد قيل: إنها قريش؛ إذ منعت النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين عام الحديبية من الصلاة في البيت الحرام، مع أنهم ما كانوا ليمنعوا أحدا من دخول مكة والصلاة في البيت - وقد قال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وسلم حينئذ: " ما كان أحد يُصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده " فقال له المشركون: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق ٩٨.

ولعل هذا المراد الذي ذكره أكثر العلماء أقرب ما يكون إلى الصواب - غير أن مفهوم هذه الآية يمكن انسحابه على كل حداثة تتضمن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه - فإن صدّ المسلمين عن الصلاة في بيوت الله، والحيلولة بين أهل العلم وكلمة الحق يقولونها على الملأ، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك كله من ضروب المنع لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها.

وخراب المساجد تناول كل أوجه الهدم والتدمير أو الإفساد والتلويث أو صد المسلمين؛ كيلا يقيموا في المسجد شعيرة الصلاة وغيرها من الذكر والقول الحسن - ويتناول كذلك صد المرشدين وأهل العلم من الذين يدعون إلى الله على بصيرة، والذين يبعثون في المسلمين روح الهمة والاستعلاء، ويستنهضون فيهم العزائم والإرادات؛ لينطلقوا من عقال الضعف والاسترخاء؛ وليتحرروا من إسار المهانة والتخلف والجهل - إن منع هؤلاء المرشدين العالمين الداعين إلى الله على بصيرة لهو صورة مقبوحة مشهودة من صور الخراب لمساجد الله، وذلك بفعل الأفاكين والدجاجلة من ساسة وحاكمين وغيرهم، أولئك الذين يجهدون أنفسهم في الليل والنهار وهم يتآمرون على الإسلام؛ ليصدوه عن البشرية؛ وليحجبوا عن أهل الأرض الاستماع الواعي لكلمة الإسلام في كل القضايا والمشكلات.

قوله: {أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين} (أولئك)، مبتدأ - وما بعده في محل رفع خبره - والمصدر من {أن يدخلوها} في محل رفع اسم كان - {لهم} خبر كان {خائفين} في محل نصب حال ٩٩ - والجملة خبر معناه الطلب، فهي تنطوي على مبدأ وخبره ويفرق بينهما النفي - غير أن الآية تحمل في مضمونها الطلب للمسلمين ألا يمكنوا المشركين من دخول بيوت الله إلا تحت الهدنة والجزاء وهم متهيبون وجلون.

وفي قول آخر أن الآية تتضمن بشارة للمسلمين الأولين بأن الله جلت قدرته سوف يذل المشركين فلا يدخل أحد منهم البيت الحرام إلا على تخوف أن يؤخذ فيقتل، وقد كان ذلك بالفعل - فإنه لما فتح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة أمر في السنة التاسعة للهجرة أن ينادي مناد " ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته " ١٠٠.

وقوله: {لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} قد أعد الله لأولئك المشركين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والذين يسعون كذلك في خرابها ألوانا منا لخزي والذلة ترهق وجوههم ليبوءوا بسخط من الله وغضب - حتى إذا دخلوا الدار الآخرة واجههم هنالك العذاب الشديد البئيس الذي لا تطيقه طبائعهم ولا جسومهم؛ لفرط ما يسومون من هول التعذيب الأليم الموجع.

١١٥ - (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم} جاء في سبب هذه الآية عدة أقوال لعل أصوبها أنه بعد أن تحولت قبلة المسلمين عن بيت المقدس إلى البيت العتيق في مكة بأمر من الله أنكر اليهود ذلك واغتاظوا، ولم يرضوا بما شرعه الله لعباده من قبلة عظيمة مستديمة يتوجون إليها وتكون لهم على الدوام مثابة - وذلك من تقدير الله وشأنه، فهو يتعبّد الناس بما شرعه لهم من قبلة وما سواها من أحكام وشعائر من غير أن يكون له في ذلك راد أو معقب.

لقد تغيظ اليهود من ذلك أشد تغيظ، وساءهم أن يتولى المسلمون عن قبلتهم الأولى التي كانوا عليها، فزادوا من عداوتهم ونكارتهم للنبي وصحبه، وجعلوا يفترون على النبي ودينه والمسلمين الأكاذيب - ويثيرون من حولهم الأراجيف، يحفزهم إلى ذلك ضغينة وتعصب - وهو تعصب ذميم مسف، يعتمد الصورة والشكل دون الحقيقة أو الجوهر والمضمون - ولا جرم فهو تعصب لا يستند إلى شيء من تفكير سليم أو عقيدة واعية مستبينة سليمة، ولكنه التعصب الفارغ المتبلّد الذي يعتمد الحماقة والسفه، ويستند إلى المزاج والهوى.

والآية تبين للناس جميعا أنه يستوي عند الله أن تكون القبلة صوب جهة أو غيرها، فالجهات كلها من صنع الله وتقديره، وهو سبحانه يملك الأرض والسماء والحياة والثقلين، ويملك السماوات والأرض وما بينهما من أشياء وكوائن وما فوق التراب من أحياء نشطة تنوس أو جوامد ثوابت لا تريم، وهو سبحانه يملك الجهات جميعا بما في الجهات من مشرق ومغرب فذلكم كله لله، وهو محصور وبارز في قبضته وبين يديه - فلا داعي بعد ذلك أن تخاصم يهود في القبلة مادام ذلك كله مقررا بإذن الله وإرادته - فلا ينبغي أن نعبأ بالجهة في مفهومها الحسي، ولكن العبرة في أمر الله وفي تقديره، فهو سبحانه قد تعبّد المؤمنين باتباع القبلة التي ارتضاها وكتبها لهم سواء في ذلك مكة حيث البيت الحرام أو بيت المقدس حيث المسجد الأقصى.

وقوله: {فأينما تولوا فثم وجه الله} أينما أداة شرط تجزم فعلين وما زائدة - {تولوا} فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والجملة المقترنة بالفاء جواب الشرط - فأينما يتوجه الناس يجدوا أن الله أمامهم - فهو سبحانه لا تحيط به الجهات، ولا تحده الأمكنة والحدود، ويستوي عنده في المكان أو الزمان مشرق ومغرب أو قريب وبعيد، فذلك كله في حكم الله وميزانه سواء.

فلا عبرة بعد ذلك للتشبث بالمكان الحسي المحدود الذي تشنجت عليه يهود فإن المكان والزمان لله - وكيفما كان المكان أو الزمان فإنهما محوطان بقدرة الله وعلمه وهيمنته - ومن الناحية الشرعية فقد قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: {وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره} وقيل: بل الناسخ هو قوله تعالى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام} وذلك يعني أن يتوجه المصلون في صلاتهم نحو الكعبة قبلتهم الأبدية، وفي ذلك إبطال للتخيير السابق الذي يتوجهون بموجبه كما شاؤوا مشرقا أو مغربا.

ولست مطمئنا للقول بالنسخ هنا، بل إنني أرجح أن تكون الآية محكمة - فإنه ليس بالضرورة أن يكون مدلول الآية الخيار في الصلاة بين التوجه نحو المشرق أو المغرب - بل المقصود في الغالب أن تتوجه قلوب العباد ومشاعرهم إلى الله - وأن تظل المقاصد والنوايا مشدودة نحو الخالق سبحانه، ليستقيم العمل ويصفو من درن الشرك والرياء.

وذلك يرتبط أشد ارتباط بقضية العقيدة التي تقوم أول ما تقوم على التوحيد الخالص المبرأ من شوائب الشرك وغبش التصور.

وقوله: {إن الله واسع عليم} الله جلت قدرته يسع الناس والخلائق جميعا بعونه وإحسانه وتفضله وغفرانه، فهو الكريم المنان الذي تتهاطل آلاؤه وخيراته على الأرض لتشمل الخليقة كلها، فما من كائن إلا وهو عائش في حومة الفضل من الله سبحانه - وهو سبحانه عليم بخلقه، عليم بما تجترحه الكائنات من قول أو عمل وما تكنه الصدور من مكنونات وأسرار، كل ذلك في علم الله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ١٠١.

١١٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

قوله تعالى: {وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} يقصد بواو الجماعة في قوله: {وقالوا} النصارى؛ إذ ذهبوا إلى أن عيسى ابن الله - وقيل: بل المقصود اليهود؛

إذ قالوا: " عزيز ابن الله " وقيل كذلك إنهم العرب الذين جعلوا بين الله والجنة نسبا، فقالوا: إن الملائكة بنات الله - ويصلح أن تتناول الآية كل أولئك المشركين ومن هم على شاكلتهم ممن يجعلون لله سبحانه ولدا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وسبحانه مفعول مطلق يعنى التقديس والتنزيه لله عن نقيصه البنوة والوالدية، فإن الله جلت قدرته متنزه عن الضعف بكل صوره ومظاهره وأشكاله - ومن جملة ذلك اتخاذ الصاحبة- وهي الزوجة- أو اتخاذ الولد؛ فإن ذلك عنوان الضعف الذي لا يليق بجلال الله وعظمته التي تعلو على كل مظهر من مظاهر النقص أو الضعف.

ومن المعلوم يقينا أن يستشعر الإنسان بعواطفه الضاربة في أعماقه وعروقه حاجته للآخرين، ونخص بالذات حاجته للزوج يشاركه الحياة والعيش ويشاطره الحبور والمضاضة، ويرد عنه مرارة الإيحاش الذي لا يطاق - وكذلك حاجته للولد يستأنس بكلماته العابثة المستعذبة وهو طفل صغير، ويشتد به أزره وهو شاب قوي كبير، ثم يحس أن فيه امتدادا لحياته بعد الممات.

وهذا الإحساس كله لا جرم أن يزجي بالدليل على ظاهرة الضعف التي تخالط طبيعة الإنسان على وجه الأرض - وحاشا لله سبحانه أن ينسب إليه مثل هذا الإحساس، أو أن يُفتات ١٠٢ على جلالة وسلطانه بمثل هذا الافتيات الفاسد المقبوح - وهو افتيات لا جرم يثير غضب الرب ويبعث على سخطه واشتداد مقته والعياذ بالله.

قال سبحانه في مثل هذا الموقف: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إذا تكاد السماوات يتقاطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا أن دعوا للرحمان ولدا}.

ويقول النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم): " قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما: تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولدا فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا " ١٠٣.

إن الله جلت قدرته غني عن الصاحبة، وغني عن الولد، وغني عن الخلائق كافة - وهو سبحانه يملك الخلائق كافة، بل يملك الحياة والوجود جميعا، وكل ما في الوجود إنما يدور بأمره وتقديره، وهو صائر إلى مآله المقدور {بل له ما في السماوات والأرض} كل ما في الكون مملوك لله - كل ما في الأرض وما في السماوات من خلائق وكائنات أحياء وغير أحياء لهو مملوك لله وحده دون شريك من صاحبة أو ولد أو والد - فهو تباركت أسماؤه المتفرد في ملكوت هذا الوجود، فهو المالك لكل مالك، والأكبر من كل كبير - سبحانه.

وقوله: { كل له قانتون} قانتون مفردها قانت - وهو من القنوت بمعنى الطاعة والإحساس الكامل بالعبودية والخضوع لله ١٠٤ - ذلك أن كل ما في السماوات والأرض مطيع لله مقر له بالوحدانية.

وقد يتساءل متسائل من غير المؤمن كيف يُحتسبون في عداد القانتين؟

التأويل المناسب لهذا المسألة أن غير المؤمنين من البشر والجن يحتسبون مطيعين بالنظر لطبيعتهم التي خُلقوا عليها - وهي طبيعة التكوين التي يمضي على أساسها الكائن في حياته، ولا يستطيع أن يتحول عنها البتة - فهي طبيعة أصيلة مفطورة كانت من صنع الله ومن تقديره الذي لا يتخلف.

وعلى ذلك فإن الكائن وهو يتحرك في دائرة من الطبع والغريزة والميول الفطرية إنما يتحرك ضمن الكيفية الأصيلة التي جبل عليها هذا الكائن، وهي كيفية ليست من اصطناع أحد وإنما هي من صنع الله - وبذلك نقول: إن الكائن قانت لله دائما، يستوي في ذلك أن يكون مؤمنا أو غير مؤمن - فالجميع يتحركون ويتصرفون بناء على فطرتهم وكيفية تخليقهم، هذا التخليق الذي صنعه الله وقدره في الكائنات تقديرا.

أما الخلائق الكثيرة الأخرى من غير ذات العقل فلا ريب أنها جميعا قانتة لله على نحو وكيفية لا يعرفها أحد من الناس إلا من أذِن له الله فأوقفه على حقيقة ذلك - يقول سبحانه في ذلك: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}.

١١٧ - (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

قوله: {بديع السماوات والأرض} وهذا المعنى الكريم وثيق الصلة بما سبقه من معنى - والمقصود من ذلك: نفي ما نسب إلى الله

من اتخاذ الولد، فإنه سبحانه غني عن أن يكون له ولد، فهو مالك الأرض والسماوات التي يقنت لجلالة كل ما فيهن من خلائق، وهو كذلك بديع السماوات والأرض، أي مبدعهما ومنشؤهما على غير مثال سبق - وبديع على وزن فعيل وهو على صيغة مبالغة من الإبداع ومنه المبدع وهو اسم الفاعل - فالله عز وعلا سابق الحياة والأحياء والوجود جميعا، فإنه ليس قبله شيء؛ فهو وحده الذي أبدع السماوات والأرض وأنشأهما إنشاء من غير أن يكون لهن قبل ذلك سابق إنشاء أو وجود.

ومن البديع يرد مفهوم البدعة وهي نوعان: بدعة حسنة مشروعة وأخرى سيئة ممنوعة - أما البدعة الحسنة المشروعة فهي ما كانت موافقة لشرع الله من كتاب أو سنة أو عمل الصحابة، فهي بذلك ليست مخالفة لأمر من أمور الشرع أدنى مخالفة، لا صريحة ولا ضمنية تؤول إلى المحظور في النهاية.

ومثال ذلك ما رآه عمر بن الخطاب في البدعة الحسنة، إذ جمع الناس على صلاة التراويح في جماعة بعد أن كان الناس يصلونها فرادى زمن النبوة الكريمة وفي زمن الصديق الخليفة الراشد الأول- رضي الله عنه- وقال عمر في ذلك: " نعمت البدعة هذه ".

أما البدعة السيئة الممنوعة فهي ما كانت مخالفة لشرع الله من كتاب أو سنة أو عمل الصحابة، ويتضمن ذلك كل قول أو عمل لا يقوم على أساس من الشرع معتمد أو جاء على غير مثال سابق من أعمال الصحابة أو أقوالهم فهو بذلك ممنوع شرعا يجب النهي عنه ودفعه.

والبدع السيئة في هذا الزمان كثيرة يصعب التحدث عنها في هذا المجال الذي نعرض فيه لهذه المسألة مرورا سريعا - ومثال البدع السيئة زيارة القبور في أيام العيد من قبل الرجال، فقد اعتاد كثير من المسلمين من خلال أعراف ضالة زيارة القبور في مناسبات معلومة كالعيدين وهما الفطر والأضحى - فهم يذهبون إلى القبور حيث يزور بعضهم بعضا؛ ليتبادلوا هناك المعايدات أو يعاودون عبارات التعازي من جديد ثم يحتسون القهوة وبعدها ينصرفون.

وكذلك الأساليب التي يمارسها بعض المتصوفين وأصحاب الطرق وأخص منها بالذات " الدروشة " وهي حركة يمارسها المتصوف الدرويش في حالة من الهوس المخبول الذي يجد الدرويش فيها نفسه غير ذي وعي أو ضبط - ومعلوم أن الإسلام ينشر في المرء كل أسباب الوعي والإدراك والضبط، ليكون على بصيرة من أمره، فيعبد الله على علم، وليؤدي رسالته في الناس فاهما حاذقا بصيرا - أما الأساليب البلهاء التي يمارسها الدراويش في حركات مخبولة غير واعية، والتي يفتقد فيها الإنسان كل توازن فهي ليست من الدين في شيء - وكذلك الأذكار المضافة التي يرددها المؤذن بعد عبارات الأذان المشروع، فإنها زيادة عما هو مشروع مما بلغنا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) والصحابة، إلى غير ذلك من ألوان البدع الكثيرة - والله سبحانه أعلم.

وقوله: {وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} قضى بمعنى حكم وقدر أو أراد، إذا أراد الله إمضاء أمر من الأمور أو إنقاذ شيء قرره من قبل، فإنه يحقق ذلك فعلا بقوله: {كن} وهي فعل تام - بمعنى أحدث - فقوله: {كن فيكون} أي أحد فيحدث - والمراد هو حصول ما تعلقت به إرادة الله بلا مهلة، وذلك بطاعة المأمور المطيع بلا توقف - وقيل: الكلمة {كن} تجري على الأمور كلها - فلزم بذلك أن تأتي الكلمة على الجمع؛ لأنه إذا قال لكل أمر كن ولكل شيء كن فهن كلمات على الجمع، لا المفرد - وهو المراد بقوله عليه السلام: " أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق " وبهذه الكلمة أوجد الله عز وجل عيسى عليه السلام من غير أب - قال سبحانه: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}.

وبهذه الكلمة كذلك أوجد الله من خلق منذ القديم، ويوجد أيضا من يخلق حتى يرث الأرض والسماوات ومن فيهن - وهي كلمة الله التامة التي يحقق بها ما يريد من إبداع الخلق أو فعل أو أمر - وهو سبحانه بعد ذلك له ملكوت كل شيء، ولا تملك الأشياء والكائنات حيال قوله: {كن} إلا الإذعان المستسلم الكامل، والتنجيز المحقق الفوري استجابة للأمر الأكبر من رب العالمين ١٠٥.

١١٨ - (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

قوله تعالى: {وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات

لقوم يوقنون إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم}.

المقصود بالذين لا يعلمون هم مشركو العرب - وذلك الذي نميل إليه ونرجحه مع أنه قيل إن المقصود بهم اليهود، وقيل النصارى، لكن سياق الكلام يبين رجحان الأول، فقد قال المشركون العرب على نحو من الإحراج والتحدي للنبي: {لولا يكلمنا الله} ولولا هنا أداة تحضيض بمعنى هلا - أي يكلمنا الله تكليما فنسمع ذلك سماعا نطمئن به، وهلا أتيتنا يا محمد بآية – أي علامة- دالة على صدق دعوتك ورسالتك؟ هكذا يطلب السفهاء المعاندون الجهلة! وهو مطلب لا ينم على رغبة في التثبت والتصديق وسلامة المقصد، ولكنه مطلب يدل على رغبة مولغة في اللجوج والتحدي، وهو يدل كذلك على طبائع جبلت على العناد والاستكبار والصلف من غير إذعان لحجة واعية أو منطق سليم.

ومثل هذه المقالة كانت الأمم السابقة تحذلق بها على سبيل الخصام الفاجر والعناد العاتي المكابر - فقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم مثل ما قالته العرب للرسول (صلى الله عليه وسلم)، والقرآن يحدثنا عن مقالة بني إسرائيل لنبيهم موسى وهم في ذلك يضربون في المغالاة والجنوح رقما قياسيا، إذ طلبوا أن يروا الله جهرة {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة} وفي آية أخرى: {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}.

هكذا نتطابق مقالة العرب المشركين، وما قاله أهل الكتاب من قبل، ولذلك يقول سبحانه هنا: {كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم} أي أن قلوب هؤلاء وأولئك قد تشابهت جميعا في العمى أو في ترك الإيمان الصحيح وفي الاتفاق على الكفر - وقوله: (كذلك) الكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف - أي قولا مثل ذلك - وقيل: في محل رفع مبتدأ - وما بعد ذلك خبره - وقوله: {مثل قولهم} مثل مفعول به منصوب لقال - وقيل: صفة لمصدر محذوف ١٠٦.

وقوله: {قد بينا الآيات لقوم يوقنون} الآيات هي الدلائل والبراهين الواضحة الساطعة التي بينها الله للناس، تبيينا تتحقق منها عقول المنصفين الذين يبتغون المعرفة دون عناد أو مكابرة، وكذلك لتستيقنها نفوس الذين تبرأت طبائعهم من المرض والفساد.

١١٩ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)

وقوله: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا} يبين الله تباركت أسماؤه أنه أرسل نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) بالحق وهو الدين القيم الكامل فهو حق فيما حواه من رائع العقيدة الثابتة العميقة المكينة، ومن زاجر التشريع العظيم الذي يغطي الحياة البشرية برمتها، ومن جليل القيم وجلال المثاليات وحميد الأخلاق وكل الخصال الإنسانية الرفيعة التي غابت شمسها عن وجه المجتمعات في هذه الأرض باستثناء هذه الأمة الكريمة العتيدة التي تجلت فيها المثاليات ومكارم الأخلاق على أروع صورة.

وكذلك قد أرسل الله نبيه الكريم ليكون للناس بشيرا يحمل إليهم أخبار السعادة والأمن والطمأنينة وأخبار الجنة وما حوته من خيرات ليس لها في هذه الدنيا نظير.

وهو عليه السلام مبعوث أيضا، ليكون للناس نذيرا يخوفهم من سخط الله وعذابه، ويحذرهم من انتقامه الذي لا يرد عن الفاسقين إذا حاق بساحتهم، وهو كذلك يخوفهم من شديد عقابه الأكبر في اليوم العسير المشهود يوم القيامة.

قوله: {ولا تسأل عن أصحاب الجحيم} الواو السابقة للنفي تفيد العطف - أي أن مهمة النبي (صلى الله عليه وسلم) تتأدى على وجهها الصحيح الأوفى إذا بلغ رسالته للناس وقام بوجيبة التبشير لهم والتنذير دون تقاعس أو تحفظ أو وجل - وبذلك تبرأ الذمة ويستتم الأداء للأمانة ولا عليه بعد ذلك إذا ما لجت الأمة أو تمردت على دعوة الحق، فهو عليه السلام ليس مسؤولا عنهم إذا ما كبكبوا في الجحيم - وفي مثل هذا الموقف يقول سبحانه في آية أخرى: {فإنما عليك وعلينا الحساب} ويقول عز من قائل: {نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١٠٧.

١٢٠ - (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

قوله تعالى: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون}.
ذلك إعلان من الله مسبق للنبي والمسلمين يفيد أن اليهود والنصارى سوف لا يرضون عن هذه الملة الإسلام ولا أهلها - وسوف لا تُجدي معهم كل أسباب الحوار والإقناع والمنطق، ولا تؤثر في طبائعهم ونفوسهم الكزة كل البراهين والحجج - وليس هناك إلا سبيل واحدة يرضون عنها وهي أن يتبع النبي والمسلمون من بعده ملة الشرك التي عليها اليهود والنصارى، أما غير هذه السبيل من سبل المناقشة والمحاجة والبرهان فهو أمر ميئوس منه، وهو إنما يفضي بهم إلى مزيد من المكابرة والعناد والانتكاس - فإن أولئك فريق من البشر المتعصب الذي انكمشت فيه ظواهر اللين والخير، وغارت فيه معاني اللين والتواضع والاستحياء، وما باتت فيه عز النفوس التي مزقها الحسد والحقد، وألبسها التعصب أغشية صفاقا من سوء الطبع ورغبة مستديمة في الكيد والتآمر على الإسلام وأهله.
وقوله: {ملتهم} يستفاد منه أن ملة الكفر واحدة، وذلك الذي عليه كثير من العلماء والمفسرين - والملة هي الدين، وقيل الشريعة ١٠٨.
وبعد التيئيس من إرضاء اليهود والنصارى واستحالة موادتهم للنبي والمسلمين إلا باتباع ملة الارتكاس والتولي عن ملة الإسلام، فإنه بعد ذلك يأمر الله نبيه عليه السلام ليقرر في حسم قاطع ومكشوف بأن (هدى الله هو الهدى) فإن الهدى الصحيح الذي يقوم على الحق والاستقامة والرشاد لهو هدى لله - وهو سبيله العدل وصراطه المستقيم الذي لا زيغ فيه ولا عوج والذي تجتمع فيه كل عناصر الخير والصلوح - وليس غير هدى الله إلا السبل المعوجة التي أفرزتها أهواء البشر ورغبائهم الشاذة الضالة.
قوله: {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير} وذلك تهديد من الله يخوف به عباده، عسى أن يكون في ذلك ما يردعهم عن اتباع أهواء أهل الكتاب بعد أن عرفوا وجه الحقيقة والصواب بنزول القرآن - وليعلم المسلمون بعد ذلك أنهم إذا انحرفوا عن دين الله، وحادوا عن سبيله التي لا تعرف العوج وغرتهم الأماني الواهمة، فاتبعوا أهل الكتاب، ومضوا على أثرهم يقلدونهم في كل مناحي الحياة أو جلها، بعد أن نزل القرآن عليهم فلا جرم أن يكونوا خاسرين - فقد خسروا دنياهم؛ لتجردهم من أصالة الانتماء إلى شريعة الله والانسلاخ من ملة التوحيد الخالص - وهم بخسارتهم هذه باتوا فاسقين مما سيخ - وكذلك قد خسروا الدار الآخرة، فما لهم من الله حينئذ من عاصم ينصرهم ويدفع عنهم هول العذاب وبطش الإله المنتقم الجبار.
١٢١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)
قوله: {الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته} اختلف المفسرون في المراد بالذين آتيناهم الكتاب فقد قيل إنهم أصحاب هذه الملة {المسلمون}، وذلك استنادا إلى ما ذكره كثير من الصحابة الكرام، منهم ابن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم رضوان الله عليهم - وقيل نزلت هذه الآية في فريق من أهل الكتاب قدموا من الحبشة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في يثرب، وأعلنوا إسلامهم، وهذا هو القول الراجح عندي، مستندا في ذلك إلى ما ذكره بعض آخر من الصحابة ومستأنسا كذلك بكلمة {الكتاب} الواردة في هذا النص، ومثل هذه الكلمة غالبا ما ترد مضافا إليها النصارى أو اليهود وهم أهل الكتاب، وينبغي بعد ذلك أن ينسحب مفهوم هذا النص ليشمل كل من آمن برسالة الإسلام من أهل الكتاب في أي زمان أو مكان ليكون في عداد المسلمين على السواء وذلك على اختلاف أجناسهم وألوانهم.
وقوله: {الذين} اسم موصول في محل رفع على الابتداء، والجملة الفعلية من {يتلونه حق تلاوته} في محل نصب حال - وخبر المبتدأ في الجملة الإسمية {أولئك يؤمنون به} ١٠٩ وقوله: {يتلونه حق تلاوته} أي قرأونه قرة تدبر وإمعان وخشوع مع العزم على الاستفادة والامتثال، فيحلون بذلك حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفون كلمهُ عن مواضعه، ولا يتأولون منه شيئا على غير تأويله المناسب والصحيح.
قوله: {أولئك يؤمنون به} يشبه قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب الذين هدوا إلى الإيمان فآمنوا، والذين شرح الله صدورهم للإسلام لما وقفوا على أمره وحقيقته فأسلموا فقال سبحانه فيهم: {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه

الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} وقال أيضا {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا}.
قوله: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون} الخسران المبين الأكبر يحيق بكل أولئك الذين يكفرون بدين الإسلام، وينكرون نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وما أنزل عليه من كتاب وهو القرآن الحكيم الذي فيه خبر الأولين والآخرين وهو نذير للناس كافة بين يدي عذاب مقيم شديد - وذلك يشبه قوله تعالى: {ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده} ١١٠.
١٢٢ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون} يذكر الله بني إسرائيل بأنعُمِه الكثيرة التي أنعمها عليهم بما لم يُنعم مثله على أمه من الأمم، وذلك هو المراد بالتفضيل على العالمين - فهو ليس تفضيلا أخرويا فيكونوا خيرا من غيرهم من الشعوب والأمم، أو ينالوا بذلك خطورة التفضيل التي لم تتيسر لسواهم - ليس المقصود ذلك، ولكن المقصود أن الله جلت قدرته قد امتن عليهم من الخيرات والعطايا، وإبغ عليهم أثواب العفو والإحسان في هذه الدنيا، ودفع عن كواهلهم غوائل الأذى والشر والعداوة، وكتب لهم من المعجزات ما لم يؤته غيرهم من الناس - وذلك هو التفضيل.
أما أن يفضلوا على غيرهم من حيث التكريم والاعتبار تحت تصور موهوم بأنهم خلق مفضل متميز، أو أنهم شعب الله المختار، فإن ذلك لا يستند إلى شيء من دليل أو منطق إلا الهوى الجامح والتعصب الممجوج وهو تعصب للذات والعرق تنبذه أديان السماء نبذا
١٢٣ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)
قوله: {واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون} أصل التقوى من الوقاية وهي الحماية - والمقصود من ذلك هو أن يتخذ المؤمنون من الأعمال الصالحة واجتناب المناهي والمحظورات ما يقيهم أهوال اليوم المشهود وهو يوم القيامة حيث الشدائد والنوائب - فإن في ذلك اليوم لا يملك أحد أن يقدم لأحد أي جزاء كأن يزحزح عنه شيئا من عذاب أو يؤتيه شيئا من ثواب.
وفي هذا اليوم العصيب لا يقبل من أحد إلا ما قدمه من عمل خالصا لوجه الله الكريم - وإذا لم يكن للمرء يومئذ عمل كان في سجله مسطورا، فإنه لا ينفعه شيء ولا يدرأ عنه العذاب فداء أو شفاعة، فلا الفداء من مال أو غيره، ولا الشفاعة من أحد الشافعين ينجي المفرط الخاسر بمثقال قطمير، ويومئذ يخسر المبطلون والفساق ويحسون مرارة الحسرة والهوان، وهم إذ ذاك يلتفتون من حولهم في وجوم وحيرة وشخوص ويتشبثون في إياس مطلق بمن ينصرهم وينقذهم وليس من مجير أو نصير.
١٢٤ - (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود} في هذه الآية تذكير لأهل الكتاب والمشركين والناس جميعا بمقام إبراهيم العظيم، وهو مقام رفيع متميز بما حققه هذا النبي الكريم من عظيم الأعمال - لا جرم أن إبراهيم الخليل عليه صلوات الله كان إماما في الخير والبر والتقوى بما يعنيه ذلك من أوجه الصبر والثبات والجود والامتثال الكامل لأمر الله في أشق الأحوال وأحرجها وأحلكها - ومن أصدق ما يجيء به من حديث في الكشف عن حقيقة هذا النبي الفذ قول الله سبحانه: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين} وقوله سبحانه: {وإبراهيم الذي وفى} لقد وفّى إبراهيم عليه السلام كل ما أنيط بزه من الوجائب دون تقصير، مع أنها وجائب كانت غاية في الصعوبة التي تنوء بحملها الجبال الرواسي، لكن إبراهيم الخليل قد احتملها كلها صابرا ثابتا من غير أن يلين أو يتزعزع.
لقد امتحن الله إبراهيم عليه السلام {بكلمات فأتمهن} والمراد بالكلمات على وجه العموم مجموعة الأوامر والنواهي التي كُلف بها هذا

الخليل العظيم عليه السلام - وهي أوامر ونواه لا جرم أنها ثقيلة وعسيرة وأن احتمالها والاقتدار عليها بثقل كاهل كل إنسان إلا أن يكون فريدا في نوعيته ومستواه، أو أن يكون ذا عزم مكين لا يهون مهما اشتدت الخطوب أو تراكمت الأهوال والمحن.

أما حقيقة الكلمات على التفصيل والتي ابتلى الله بهن إبراهيم فهن موضع كلام طويل ومختلف للمفسرين - ولعل أصوب ما ورد في ذلك هو قول الحبر العظيم ابن عباس: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن، فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمروذا في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلاف، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمر به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتُلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: {أسلم قال أسلمت لرب العالمين} على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

هذا القول الجامع لابن عباس يكشف عن أمهات قواصم من التكليفات المزلزلة التي نيطت بإبراهيم عليه السلام، فنجح فيها نجاحا يكشف عن حقيقة هذا الإنسان العظيم الفذ - الإنسان الذي عجمه الله بأفدح البلايا والشدائد، فما لان ولا استكان، بل مضى لأمر الله ملبيا حتى وفّى تمام الوفاء.

ويا لله لهذا الإنسان الوفي العظيم الذي يُقبل في استسلام لله وطواعية أن يُلقى في النار بعد أن وثقه قومه بالقيود والأغلال، فظل صابرا محتسبا رابط الجأش فما تراجع ولا انثنى عن عقيدته ودينه ولا كرّ مهزوما في نفسه متقهقرا ليعود إليهم مستسلما معتذرا كما يفعل الضعفاء والمهزومين في الكروب وفي ساعات الضيق والعسرة.

ويا لله لإبراهيم الخليل وهو يوحَى إليه في المنام بذبحه ولده!! فما تلعثم ولا انثنى، بل، بل قص على ولده خبر الرؤيا، فأجابه ولده في بر وطاعة وامتثال: (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين).

إن الكلمات لتعجز بالغ العجز عن إيضاح الصورة لهذا الحدث المثير الجلل - وهو حدث لا يقوى على طوقه واحتماله إلا من كان كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

إن أحدنا يشق عليه أن يضرب ولده في قسوة وتبريح حتى وهو يؤدبه، فكيف به وهو يضع السكين على عنقه ثم يحزها حزا ليقطعها! ذلك الذي لا تبلغه طاقات الإنسان مهما تجمع فيه من مذخور العزيمة وقوة الاحتمال، لكن النبيين المرسلين صنف آخر من البشر المتميز الرفيع، يرقون إلى عظيم الدرجات التي لا ينثنون عندها عن أي تكليف من ربهم، وفي الطليعة من النبيين المرسلين هذا النبي الصابر الجليل إبراهيم الخليل.

قوله: {إني جاعلك للناس إماما} الإمام القدوة الذي يؤتم به؛ لفضله ومزاياه الخاصة، ولما أوتيه من خصائص في الثبات والاستقامة والطاعة والامتثال لأمر الله - وعلى ذلك فإنه عليه السلام جدير أن يجعله الله للناس جميعا إماما فيما بيناه ليقتدي به الآخرون في كل زمان ومكان.

قوله: {قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} طلب إبراهيم من ربه أن تكون الإمامة في ذريته من بعده؛ فيكون النبيون جميعا من بعده من نسله - فأجابه الله سبحانه بأنه {لا ينال عهدي الظالمين} والظالمين مفعول به للفاعل {عهدي} والعهد بمعنى النبوة - وقيل: الأمر، ويطلق العهد على الأمر أي لا ينبغي أن يلي الظالم من أمري شيئا - وقيل: العهد بمعنى الإمامة أو الاستخلاف - أي من كان ظالما من ذريتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال الإمامة والاستخلاف من كان عادلا مبرأ من كل صور الظلم وعلى هذا؛ فالإمام إنما يكون من أهل العدل والفضل والإحسان - أما أهل الفسوق والجور والفساد فليسوا أهلا لتولي إمامة المسلمين - وكيف يصلح لهذه المهمة العظيمة من كان جائرا فاسقا لا تقبل شهادته ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره ولا يقدم للصلاة؟! وإذا ابتلي المسلمون بإمام جائر فإن الصبر على طاعته أولى من الخروج عليه إن كان في منازعته والخروج عليه ما يثير الفتن والشر المستطير كإشاعة الفساد وإراقة الدماء وإغراق البلاد في الفوضى وخطر التدخل من الكافرين ١١١.

وخلاصة القول في هذه العبارة الكريمة أن الله تفضّل بالاستجابة لطلب إبراهيم أن تكون الإمامة والنبوة في عقبه المؤمنين الصالحين

على ألا يتولى أمر الله أحد من الظالمين من ذريته علما بأن في ذرية إبراهيم ظالمين كثيرين، وأمثال هؤلاء ليس لهم أن يكون أحدهم إماما فإن الإمام ينبغي أن يكون مؤمنا صادقا، وعلى ملى التوحيد والحنيفية ماضيا.

١٢٥ - (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

قوله: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} البيت هو الكعبة - والمثابة بمعنى المرجع من الفعل ثاب يثوب - فقد جعل الله الكعبة مرجعا للمسلمين جميعا تهوي إليه قلوبهم دائما، وتتشوف لرؤيته على الدوام أرواحهم حتى إن الواحد يحج البيت ثم ينصرف وهو يحس إحساسا عميقا رغبته في الإياب إليه من جديد؛ إذ لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطرا - والمقصود من الآية أن الله يذكر شرف البيت؛ إذ جعله مرجعا تشتاق له أرواح المسلمين وتحنّ إليه قلوبهم على مر الزمن حتى إنها لا تقضي منه الوطر ولو ترددت إليه كل عام.

وكذلك قد جعل الله الكعبة للناس أمنا، فهي مصدر أمن وسلام وطمأنينة لمن يعوذ بها أو يثوي إليها - ومعلوم أن العرب خارج البيت العظيم كانوا يقتتلون فيما بينهم ويتخطف بعضهم بعضا طمعا في مغنم أو رغبة في تسلط قبلي يقوم على العصبية السخيفة، لكن الذين يثوبون إلى البيت كانت تظللهم أجنحة الرحمة والأمان، فلا يمسهم شيء من أذى أو سوء - حتى قيل: إن الحد لا يقام على من لجأ إلى الحرم - وهو قول أبي حنيفة وآخرين - وقيل: بل يقام الحد عليه؛ لأن الحكم الأول منسوخ.

قوله: {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} مقام إبراهيم موضع خلاف المفسرين، لكننا نعتمد القول الذي نطمئن إليه فنرجحه وهو ما كره البخاري أنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت وغرقت قدماه فيه - قال أنس: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم - وقيل: إنه الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم.

ويريد الله جلت قدرته أن يثير الذكرى في نفس كل مسلم يؤم البيت الحرام فيتذكر إبراهيم الخليل عليه السلام وما تركه من أثر عظيم تجلى في بناء أقدس بيت في الأرض وهي الكعبة، وبذلك فكل حاج يؤت البيت مطالب بالصلاة في مقام إبراهيم، على ما ورد في هذه المسألة من خلاف بين العلماء - فقد قيل بأفضلية الصلاة لأهل مكة، والطواف للوافدين من خارج مكة - وهو قول الإمام مالك، خلافا للجمهور إذ قالوا: الصلاة أفضل مطلقا ١١٢.

وقوله: {مصلى} أي موضع صلاة - فإن على الآمّين البيت الحرام أن يصلوا ركعتي الطواف في المكان الذي كان إبراهيم يقف عليه ليناوله إسماعيل الحجارة لإتمام بناء الكعبة - أما موضع المقام نفسه فقد روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قوله: {وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود} عهدنا بمعنى أمرنا أو أوحينا وهما متقاربان - فقد أمر الله كلا من إبراهيم وإسماعيل عن طريق الوحي بتطهير الكعبة وما حولها من الأوثان والرفث والرجس وقول والزور، كما ذكر عن مجاهد وسعيد بن جبير - والمقصود الأساسي من ذلك أن يتطهر البيت من كل شيبة من أو شاب الباطل أو الشرك وأن يكون نقيا من أخلاط الرفث والقذر ليكون البيت نقيا طاهرا نظيفا كما يليق بحرمته وقدسيته واعتباره العظيم؛ فهو أول بيت وضع للناس في الأرض؛ ليذكر فيه اسم الله، وليؤمه الناس من كل حدب وصوب طيلة الزمان؛ لينالوا من الله المثوبة والغفران.

ويراد للبيت أن يظل طاهرا من درن الشرك والقذر؛ لتؤدى فيه العبادة والمناسك من قبل الطائفين وهم الذين يطوفون بالبيت وذلك من الطوف وهو السير رملا أو على مهل من حول الكعبة في عملية تعبدية معروفة مقترنة بالخشوع والتبتل والابتهال إلى الله سبحانه، وكذلك للعاكفين، من العكوف وهو حبس النفس عن التصرفات العادية وانشغالها بأمور العبادة من صلاة وذكر وتلاوة وغير ذلك - ثم الركع السجود وهم الراكعون الساجدون أي المصلون عند الكعبة.

ومع أن النص قد وقع على البيت العتيق بالاسم، فإنه لا مانع من انسحاب الحكم على كل بيت من بيوت الله ليشمله وجوب التطهير، فيؤمه العابدون من المصلين والعاكفين والذاكرين وهو على هيئته اللائقة الكريمة من شرف التطهر والنقاء من كل درن.
ويرد في هذا الصدد حكم الصلاة في جوف الكعبة أو على ظهرها - فإن الأصل الذي تعورف عليه بغير تكلف أو اختلاف أن تكون القبلة جهاتها جميعا مثابة للناس لتصح الصلاة شطرها - أما الصلاة في جوف الكعبة فموضع خلاف الفقهاء - فقد ذهب أبو حنيفة والشافعي إلى جواز الصلاة في جوفها إلا أن تكون الصلاة صوب الباب، ومع ذلك فإن الأفضل عند الشافعي أن يصلي النفل داخل الكعبة - أما الفرض فإن الأفضل أن يصليه خارجها - وخالفهما في هذه المسألة الإمام مالك؛ إذ ذهب إلى عدم صحة الصلاة في جوفها استدلالا بما رواه البخاري عن ابن عمر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل الكعبة ولم يصلّ حتى خرج، فلما خرج صلى صوب الكعبة ركعتين وقال: " هذه القبلة ".
أما الصلاة على ظهر الكعبة فغير صحيحة في مذهب مالك والشافعي؛ لأن المصلي على ظهرها لم يستقبل شيئا، وهي صحيحة عند أبي حنيفة - واشترطت الشافعية لجواز الصلاة على ظهر الكعبة أن يضع المصلي بين يديه سترة متصلة بالسطح ليكون المصلي متوجها نحو جزء من السطح - وبغير ذلك لا تصح الصلاة ١١٣.

١٢٦ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير}.

تتضمن الآية دعاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لمكة أن يجعلها الله بلدا آمنا فيعمها الرخاء والطمأنينة والرزق الوفير - وقوله: (آمنا) من الأمن والأمان وهو يعني الطمأنينة والسلام بعيدا عن الشك والاضطراب والتخوف وفي منجاة من كل ظواهر الشر والعدوان.

هذا هو دعاء إبراهيم لمكة أن يجعلها الله تعالى عامرة بالبركة والسلام فلا يتخللها أذى ولا يقع بساحتها بائقة من بوائق العدوان والشر، وما من شيء فيها إلا وهو آمن لا تتطاول إليه يد بأذى حتى الشوك والشجر يظل مسترسل الأوراق والغصون فلا يتجاوز عليها أحد بالقطع - حتى الصيد تمرح قطعانه في أرجاء مكة فلا يناله أحد بآلة أو شراك مادام يتظلل بأفياء هذه البلدة المباركة القدسية التي كتبها الله مثابة للمؤمنين على طول الزمن فتهوي إليها أفئدتهم وأرواحهم؛ ثم يدخلونها وهم آمنونا مطمئنون، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال، ولا عدوان ولا تخاصم، ولا قتال ولا اقتتال.

وثمة مسألة تستوجب التوضيح وهي ما إذا كانت مكة حرما آمنا بدءا بعهد إبراهيم وبفضل دعائه، أم أنها كانت كذلك قبل إبراهيم - فقد ذهب فريق من أهل العلم إلى أن مكة باتت آمنة بفضل الدعاء الخاشع الذي تضرع به إبراهيم عليه السلام في قوله: {اجعل هذا بلدا آمنا} واستدلوا على ذلك بجملة أحاديث نبوية نذكر منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: " كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإذا أخذه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه " ١١٤.

وأخرج مسلم أيضا في هذا الصدد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومُدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة " ١١٥ - وغير ذلك من الأحاديث كثير.

وذهب فريق آخر من أهل العلم إلى أن مكة قد جعلها الله بلدا حراما قبل إبراهيم الخليل بل يوم خلق الله السماوات والأرض، فهي بذلك حرام بحرمة الله تعالى بداء بإيجاد الخليقة حتى تقوم القيامة - واستدلوا لذلك بعدة أحاديث أخر، منها ما جاء في الصحيحين عن

عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة: " إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة - وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكُه، ولا يُنفر صيده، ولا يُلتقط لقطته إلا من عرّفها، ولا يُختلى خلاها " قال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: " إلا الإذخر " ١١٦.

وهناك أدلة أخرى من السنة غير هذا الحديث تدل كلها على أن حرمة مكة سابقة لدعاء إبراهيم، وأنها في كتاب الله وقدره محرمة يوم خلق السماوات والأرض وهو ما نرجحه والله أعلم.

وعلى هذا الترجيح لا نُتصور منافاة بين الأدلة لكل من الفريقين - ويمكن تصور التوفيق بين أدلة الفريقين أن ما احتج به الفريق الأول من أدلة إنما يكشف عن مجرد تذكير إبراهيم بحرمة مكة وإعادة الإخبار للناس بهذه الحقيقة - وعليه فإن مكة كانت بلدا حراما منذ القدم، لكن إبراهيم الخليل عاود التذكير مجددا بهذه الحقيقة.

أما أي البلدين خير وأفضل؟ فقد ذهب جمهور المفسرين وأهل العلم إلى أن مكة خير من المدينة وأفضل مع أن لكل منهما خيرا وفضلا، وأنهما كلتيهما مباركة ومقدسة، وأنهما مضافا إليهما بيت المقدس في فلسطين خير بقاع الله وبيوته في الأرض، إلا أن مكة لهي ذروة السنام في القدسية والأفضلية؛ لأنها بلد آمن ترسو على متنه الكعبة التي جعلها الله مثابة للناس وأمنا والتي جاء فيها قوله سبحانه: {ومن دخله كان آمنا} وقوله {أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم}.

وفي فضل مكة وحرمتها ووجوب نشر الأمن والسلام والطمأنينة فيما يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح ".

وعنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس؛ فلا يحلف لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب " وهو ما رواه أبو شريح العدوي لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ١١٧.

وقوله: {وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر} دعا إبراهيم ربه أن يرزق أهل مكة من بركات الأرض في ثمارها الطيبة ذات الطعوم النافعة الجيدة.

وقوله: {من آمن}: (من) اسم موصول في محل نصب بدل من (أهله) وهو بدل بعض من كل ١١٨ - وبذلك فقد كان دعاء إبراهيم لمن آمن من أهل مكة خاصة؛ ليخرج منا لمستفيدين من الأمن والثمرات من ليسوا مؤمنين، لكن الله تباركت أسماؤه قد كتب الرزق للناس كافة، سواء فيهم المؤمن والكافر وكذلك المستقيم والعاصي؛ ليأخذ الناس جميعا بحظوظهم من هذه الدنيا الحياة وما يملأها من الخيرات والمنافع والثمرات - وتلك هي سنة الله في الدنيا وفي الناس - فهو سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ويكتب الحياة واللذة والرغد للناس جميعا على اختلاف أهوائهم ومللهم وانتماءاتهم - والأصل في ذلك أن الحياة لهي ميدان اختبار وعمل، ثم تفضي بعد ذلك إلى الدار الآخرة حيث الجزاء ولا عمل - وخير الجزاء للذين أحسنوا في هذه الحياة الدنيا والذين أخلصوا لله النوايا ليعبدوه وحده بلا شريك.

وعلى هذا الأساس فإن الله- جلت قدرته- يكتب الرزق لمن يشاء من عباده، سواء في ذلك من آمن منهم ومن كفر، أما من كفر فإن الله يمتعه في الدنيا بما كتبه له من الحظ والعطاء الفاني، ثم يلجئه بعد ذلك إلى عذاب النار وهو أسوأ عاقبة يؤول إليها العبد المعذب الخاسر ليبوء بهوان المصير والعذاب البئيس، وفي ذلك يقول سبحانه: {ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير}.

١٢٧ - (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا

أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} القواعد مفردها قاعدة وهي الأساس - ويبين الله في هذه الآية أن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام كانا قد بنيا الكعبة، وأسسا قواعدها في الأرض؛ لتكون ثابتة مكينة، وليرفع عليها البناء الخالد للبيت العتيق، فيظل على الدوام ظاهرا شامخا يؤمه الحجاج والقاصدون من بلاد الله الواسعة ومن كل فج عميق.

وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يقولان حال رفعهما للقواعد من البيت: {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك - .} فهما يدعوان الله أن يتقبل منهما ما قدما من عمل وهو بناء البيت وتأسيس قواعده - وذلك هو شأن العابدين المخلصين في القول والعمل، الذين تتدفق قلوبهم بالإخلاص لله، الإخلاص الذي يتنافى مع أبسط مراتب الرياء أو الأثرة أو التعصب للذات.

وشأن المؤمن دائما أن يلح على الله سبحانه؛ كيما يتقبل منه العبادة، وأن يهبه الإخلاص ويباعد بينه وبين الرياء وحبوط الأعمال.

وقوله: {إنك أنت السميع العليم} كاف المخاطب في محل نصب اسم إن، أنت توكيد تابع لكاف المخاطب، السميع خبر، العليم صفته.

الله جلت قدرته سميع الدعاء، ويستجيب للذين يعبدونه مخبتين مخلصين والذين تترطب ألسنتهم وأفواههم بجميل الثناء على الله والعوذ به - وهو سبحانه عليم بما تكنه الصدور من توحيد لله وإخلاص إليه أو دون ذلك منا ينافيه من شرك أو رياء - الله سبحانه عليم بما يطويه المرء من خفايا المقاصد ومن أستار تظل دفينة مخبوءة لا يكشف سترها إلا هو سبحانه.

١٢٨ - (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

ويدعو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما أن يجعلهما مسلمين له - والمسلم من الإسلام وهو الامتثال لأمر الله في شرعه وأمره عن طواعية وتصديق ويقين - أو هو الاستسلام الكامل عن طريق الحس والوجدان فضلا عن الاستسلام الكامل لما شرعه الله من الأوامر والزواجر ولما فرضه من واجبات وتكليفات - ولمثل هذه القضايا الأساسية الكبرى يضرع إبراهيم وإسماعيل إلى الله - إنهما يضرعان إليه سبحانه أن ييسر لهما سبيل الامتثال لأمره العظيم ليكونا مسلمين - وكذلك يضرعان إلى الله سبحانه أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله، ممتثلة لأمره، سائرة على صراطه الحق المستقيم.

وقوله: {وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} المناسك مفردها منسك وهو المتعبّد ومنه الناسك وهو العابد - وعلى ذلك فالمنسك اسم للعبادة، والمقصود بالمناسك، هنا جميع ما يُتعبد به إلى الله يف الحج مثل الصفا والمروة ومنى ورمي الجمار ومزدلفة وعرفات والكعبة - فهذه وغيرها أماكن للحج أو مناسك يتعبد عندها الحجيج على النحو المبين المشروع.

ويدعو إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يمتن عليهما وعلى المسلمين من ذريتهما بالتوبة فإنه سبحانه تواب رحيم - أي شديد التوب عظيم الرحمة بالعباد.

١٢٩ - (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وقوله: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} (ربنا) منادى منصوب للإضافة، والضمير المتصل " نا " في محل جر مضاف إليه - وذلك من جملة الدعاء وتمامه الذي تضرع به إبراهيم وولده إسماعيل إلى الله، وهو أن يبعث في ذريتهما رسولا يحمل للناس أمانة الرسالة، ويدعوهم إلى الله سبحانه - وقد توافق هذا الدعاء مع قدر الله المقدور ببعث النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم)؛ إذ بعثه الله نبيا أميا في أمة أمية من نسل إسماعيل ولد إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه.

لقد كتب الله في مقاديره الأزلية ما يوافق دعوة إبراهيم الخليل ببعث محمد عليه السلام من العرب؛ ليكون رسولا للناس كافة وللزمان جميعا إلى أن يرث الله الناس والأرض والزمان - لقد بعثه الله للناس استجابة لدعوة إبراهيم التي وافقها ما كان مكتوبا في علم الله القديم، وما أنبأت عنها كلمات عيسى المسيح عليه السلام؛ إذ قال لقومه بني إسرائيل كما قص علينا القرآن: {إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد}.

وقد أخرجه الإمام في ذلك عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: " دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ".

ومهمة النبي (صلى الله عليه وسلم) - كما بينتها الآية- هي أن يتلو على الناس آيات الله وهي القرآن، ثم يعلمهم إياه.

ونستطيع أن نميز بين التلاوة للقرآن وتعليمه كما يتضح من ظاهر الآية، وهو أنه يراد بتلاوة الآيات مجرد قراءتها للناس، فيتلونها على سبيل التعبد، ومعلوم أن القرآن متعبد بتلاوته، فما يتلوه مؤمن أو يحفظه إلا كان له بذلك أجر.

وقوله: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يراد بالكتابة القرآن، أما الحكمة فقد قيل: إنها السنة، وقيل: بل هي جملة العلوم المتعلقة بأمور الدين - وقيل: الفهم، وهو سجية مهداة من الله للعبد.

وقوله: {ويزكيهم} جملة فعلية فعلها يزكي، والفاعل يعود على الرسول المبعوث من ذرية إبراهيم، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول به والميم للجمع - وأصل الكلمة من التزكية وهي التطهير والإصلاح - زكا فلان أي طهر أو صلح - وعلى ذلك فالرسول المبعوث يكون داعيا لإصلاح القوم وتطهيرهم تطهيرا حقيقيا بكل ما تحتمله كلمة التطهير من معنى - ومن ضمن ذلك أني قع التطهير على النفس فيغسلها وينقيها من أوضار الشذوذ والأمراض، ويقع على العقل والذهن فيخلصهما من منزلقات الفكر الجانح وانحرافات التصور الضال المريض، ويقع على الحياة الاجتماعية فيباعد بينها وبين كل ظواهر التفكك والتفسخ وكل أسباب الخلق الآسن بما يصون للمجتمع كرامته ونظافته؛ ليكون مجتمعا قويا نقيا متماسكا، لا تمسه أية وشيبة من أو شاب الفساد أو التفسخ أو الانمياع أو الفوضى.

قوله: {إنك أنت العزيز الحكيم} ذلك إقرار كامل ينطق به إبراهيم وإسماعيل على سبيل الخضوع لله خضوعا تاما وعلى سبيل الإخبات والإذعان لله وحده هو أنه سبحانه عزيز أي قوي في ملكوته وإرادته وتقديره، فلا يعجزه في الكائنات شيء، ولا يؤوده أمر أو خبر في السماء ولا في الأرض - وهو كذلك حكيم، فإنه يتصرف في الكون ببالغ حكمته التي لا يقف على حقيقتها إلا هو، وإنه لا يصدر عن أمره وإرادته شيء في الوجود إلا عن حكمة مطلقة بالغة - فلا مجال للصدفة أو الفوضى أو التدبير القاصر المحدود كالذي عليه البشر، ولكنه التدبير الكامل الأوفى، والحكمة التامة التي لا تحتمل الخطأ.

١٣٠ - (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون}.

تنطوي الآية الأولى على استفهام يتضمن تقريعا وتوبيخا لأهل الكتاب والمشركين الذين سفهوا أنفسهم بإبعادها عن ملة التوحيد التي كان عليها إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك قال: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه} أي لا يزهد عن ملة إبراهيم وهي الحنيفية البعيدة عن الشرك، ولا ينأى عنها إلا من فعل بنفسه من ظواهر السفه ما يجعله سفيها - والسفه معناه: الجهل: ضد الحلم: وهو الخفة والطيش - سوفه نفسه؛ أي حملها على السفه، أو بمعنى سفّه نفسه بالتشديد ١١٩.

قوله: {ولقد اصطفيناه في الديناج من الاصطفاء وهو الاختيار للنبوة والرسالة - ومعلوم أن ذلك يقع بتقدير الله واختياره وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو كذلك أعلم حيث يجعل اختياره من الصفوة المصطفاة من أولي العزم من الرسل من مثل إبراهيم الخليل عليه السلام - فالله جلت قدرته قد اصطفى إبراهيم في هذه الدنيا؛ ليكون رسولا خليلا وليكون أبا عظيما لنخبة عظيمة من النبيين والمرسلين.

وقوله: {وإنه في الآخرة لمن الصالحين} الضمير المتصل في محل نصب اسم إن وهو يعود على إبراهيم الخليل - وخبرها {لمن الصالحين} فقد كان إبراهيم ذا حظ مرتين، إحداهما في الدنيا، إذ اصطفاه الله برسالته - وأن يكون في ذريته الكتاب والنبوة ثم النبي الخاتم (صلى

الله عليه وسلم) - وثانيهما في الآخرة، إذ كتبه الله من الصالحين وهم الفائزون أهل الخير والنجاة والفلاح.

١٣١ - (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} من مقتضيات الاصطفاء من الله لإبراهيم أنه قال له: {أسلم} وذلك أمر له بالاستسلام والامتثال لله وحده، فينقاد لأمر ربه بقوله: {أسلمت لرب العالمين} وهذه مبادرة من إبراهيم فورية بالاستسلام والخضوع لله رب العالمين فهو سبحانه مالك الملك لا ينازعه في خلقه وملكوته شريك أو منازع.

١٣٢ - (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

قوله: {وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب}: (إبراهيم) فاعل مرفوع - (بنيه) مفعول به منصوب (ويعقوب) الواو للعطف، يعقوب معطوف على إبراهيم - فقد وصى إبراهيم بنيه بملة التوحيد أو الكلمة، وكذلك وصى بها يعقوب بنيه - وقيل أن يعقوب معطوف على بنيه ليكون المعنى بذلك أن إبراهيم وصى بنيه ووصى يعقوب (بها) ويعود الضمير في قوله بها على الملة التي اتبعها إبراهيم وهي الحنيفية أو التوحيد، وقيل: يعود على الكلمة التي هي قوله: {أسلمت لرب العالمين} وذلك أرجح.

قوله: {يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} هكذا أوصى كل من إبراهيم ويعقوب بنيه - أوصاهم باتباع الملة الحنيفية السمحة والالتزام بدين الله الذي ارتضاه واصطفاه لهم - وبناء على ذلك وصى كل منهم بنيه بخير وصية، وهي ألا يموتوا إلا وهم مسلمون - وفي ذلك تنبيه لهم بدوام الاستقامة والالتزام بشرع الله، فلا يميلوا أو يحرفوا؛ لأن المرء إنما يبعث يوم القيامة على هيئته في آخر حياته - فإن كانت هيئته وحاله على معصية الله بعث يوم القيامة مع العصاة والفساق - وإن كانت هيئته وحاله على طاعة الله بعث مع الأخيار والفائزين؛ ومن أجل ذلك يوصي إبراهيم ويعقوب بينهم أن يكونوا في حياتهم على صراط الله المستقيم، وأن يحافظوا على الملة وما تقتضيه من الأوامر والتكليفات، وأن يحاذروا المعاصي والمحرمات باستمرار؛ كيلا يفجأهم الموت وهم على حال من الفسق عن أمر الله فيبعثوا فاسقين.

١٣٣ - (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

قوله: {أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي} ذلك توبيخ للكافرين من مشركي العرب وأهل الكتاب وهم النصارى واليهود - فقد كان هؤلاء جميعا يتشبثون كذبا بانتسابهم لملة إبراهيم عليه السلام، مع أن إبراهيم كان على الحنيفية القائمة على التوحيد، أما هم فإنهم مشركون فساق مجانبون للحنيفية والتوحيد، وموغلون في الشرك والوثنية والضلالات، بل إنهم جميعا ضالعون في الموبقات والآفات بكل صورها وأشكالها.

وفي هذه الآية توبيخ لهؤلاء الكافرين جميعا كأنما يقول لهم: هل شهدتم يعقوب وهو يوصي بنيه بما أوصاهم به؟! والحقيقة أنكم لم تشهدوه ولم تعلموا عن ذلك شيئا - والمعلوم أن يعقوب إذ حضره الموت قال لبنيه وهم مجتمعون من حوله: {ما تعبدون من بعدي} أي سألهم عن حقيقة معبودهم من بعده وذلك على سبيل التنبيه إلى ضرورة الاستمساك بالملة السمحة، ملة أبيهم وإبراهيم والذين جاؤوا من بعده من النبيين، وعلى سبيل التحقق من سلامة إجابتهم؛ ليطمئن قلبه وهو يدنو من الموت ويوشك أن يبارح الدنيا.

فكان جوابهم مثلما أراد {قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا} فملة التوحيد واحدة لا تتجزأ ولا تحتمل اختلافا - وإنما هي الحنيفية الحقة التي قامت عليها الأديان السماوية جميعا بداء بأبي البشر آدم وانتهاء بالنبي الخاتم صلوات الله عليه - وهم جميعهم تشدهم عقيدة ملتئمة واحدة، ويجمعهم دين واحد وهو الإسلام الذي يعني الاستسلام والخضوع لله وحده والذي يقوم أساسا على التوحيد الكامل والإقرار لله سبحانه بالعبودية المطلقة - قال سبحانه: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}.

وفي الحديث النبوي الشريف ما يدل على الوحدة في الدين والعقيدة، والتفاوت في الشرائع " نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد " ١٢٠ والمراد بأولاد العلات، الأخوة لأب واحد وأمهات متعددة - وفي هذا التشبيه ما يبين أن النبيين جميعا يلتقون على صعيد الملة الواحدة وهي ملة التوحيد، ويتفاوتون من حيث الشرائع التي تغطي مقتضيات الأحوال والظروف والبيئات.

وعن حقيقة الاستسلام لله والإذعان له بالعبودية والامتثال يجيب بنو يعقوب أباهم {ونحن له مسلمون} أي عابدون خاضعون ممتثلون - وفي ذلك من الدلالة على أن النبيين جميعا مسلمون، وأن أتباعهم وأشياعهم والذين آمنوا برسالاتهم واتبعوهم- غير مشركين ولا محرفين- كذلك مسلمون - ذلك ما يفرضه مفهوم العبارة وحقيقة المدلول الواضح السليم لكلمة الإسلام بما يعنيه من امتثال وخضوع واستسلام لله وحده ١٢١.

١٣٤ - (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون} (تلك) اسم إشارة في محل رفع على الابتداء،

(أمة) خبر مرفوع - والجملة الفعلية بعده نعت - و (خلت) بمعنى مضت، ويراد بالأمة المشار إليها والتي مضت هي آباء بني إسرائيل من النبيين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم - فقد كان بنو إسرائيل يركنون إلى انتسابهم إلى آبائهم من النبيين والمرسلين، ويفاخرون الناس بهذا الانتساب، فبينت لهم هذه الآية أن السابقين من النبيين والصالحين قد مضوا، وأن ما كسبوه من عمل فهو لهم وليس بعائد عليكم، وأنه لن ينفعكم إلا ما قدمتموه لأنفسكم من أعمال.

وكذلك فإن أحد من أولئك لن يحمل من أوزاركم شيئا، وأن ما تقارفونه من الآثام والفسق والمعاصي إنما يحيق بكم وحدكم، ولن يغني عنكم أسلافكم من ذلك شيئا - وفي ذلك يقول سبحانه: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} أي لا تحمل نفس ما اقترفه نفس أخرى من مخالفات وسيئات.

وكذلك الذي ورد في الحديث المرفوع " من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " فإن كانت كفة الأعمال للمرء مرجوحة، فلن يشفع له أن يكون ذا نسب رفيع مشهور؛ إذ لا قيمة لا عتبارات الحسب أو النسب أو العصبية كيفما كان نوعها أو صورتها، ولكن الاعتبار كله للعمل الصالح المشروع الذي تسبقه النية الحسنة والإخلاص الكامل لله وحده.

وعلى هذا فإن ما قدمه السلف من خير العمل ليس عائدا إلا عليهم أنفسهم، وإن كان الذي قدموه شرا فهو عليهم وحدهم ولا يسأل عنه الخلف وفي هذا يقول سبحانه: {ولا تسألون عما كانوا يعملون}.

١٣٥ - (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله تعالى: {وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم}.

ذكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية الأولى أن عبد الله بن صوريا الأعور اليهودي قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد - وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله هذه الآية: (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) وهود مفردها يهودي، ونصارى مفردها نصراني - وكلا الفريقين أهل كتاب وهم جميعا من المشركين الذي زعموا أن لله شريكا؛ إذ قالت اليهود: {عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله} وكل فريق من هذين الفريقين يظن أنه على الحق، فهو بذلك يتجرأ في حماقة بالغة وسفه فاضح ليدعو النبي محمدا (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين فيكونوا من اليهود أو النصارى - لاجرم أن هذا الاجتراء المتوقح لهو غاية في النكر وفساد السجية.

ثم يأتي الرد حاسما مباشرا وفي الحال: {قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} وملة منصوب على المفعولية للفعل المحذوف المقدر

{نتبع} أي أخبرهم يا محمد أننا نحن هذه الأمة المؤمنة المسلمة لا نتبع ملة الشرك والميل عن الحق، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا - و {حنيفا} منصوب على المفعولية كذلك لفعل تقديره أعني، وقيل على الحال ١٢٢ - وقد كان إبراهيم على الحنيفية وهي التوحيد والاستقامة البعيدة عن أية صورة من صور الشرك - والحنيف من الفعل حنف أي مال ١٢٣ - فإبراهيم – عليه السلام- كان مائلا بطبعه وفطرته وسلامة تكوينه النفسي والروحي نحو الإسلام والامتثال لأمر الله تماما {وما كان من المشركين}.

١٣٦ - (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

وقوله: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط - - .} يأمر الله نبيه الكريم والمسلمين أن ويعلنوا عن إيمانهم الحق بالله ربا خالقا منشئا للوجود من العدم، وإيمانهم كذلك بما أنزل إليهم وهو القرآن، وما نزل من كتاب ووحي على النبيين من قبلهم وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط - والأسباط مفردها سبط وهو القبيلة أو الجماعة، وقد سميت بالسبط، لتتابعها إذ تأتي واحدة عقب أخرى - ويراد بالأسباط في الآية أبناء يعقوب الاثنا عشر، وقد ولد لكل واحد منهم أمة من الإسرائيليين، وقد بعث الله منهم نبيين ومرسلين كثيرين قد أنزل الله عليهم الوحي وأناط بهم وظيفة التبليغ والدعوة إلى الحنيفية المائلة عن الفساد والباطل والشرك.

ومما يلفت النظر ما ذكره ابن عباس إذ قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدا (صلى الله عليه وسلم) - وكذلك فإن على النبي والمسلمين أن يؤمنوا بما نزل على كليم الله موسى وروح الله عيسى بن مريم فقد أوتي الأول التوراة وأوتي الثاني الإنجيل وهما كتابان عظيمان فيهما خير الدنيا والآخرة، وينطويان على ما فيه إسعاد بني إسرائيل لو أنهم التزموا بما فيهما من مضمون ولم يتجرأوا عليهما بالتحريف والتزييف.

ويجب التنبيه هنا إلى حقيقة التكليف الوارد في الآية وهو قوله: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم - - .} فالمطلوب هو مجرد التصديق والإيمان بما أنزل على النبيين السابقين من كتب، وأنهم قد أوحي إليهم - وليس على المؤمن من هذه الأمة أن يلتزم بأكثر من ذلك - فالقضية المبدئية أن يؤمن المسلم ويصدق بحقيقة الكتب السماوية الصادقة المبرأة من التلاعب والتحريف - أما ما نشاهده بين ظهراني اليهود والنصارى من توراة وإنجيل فما علينا من بأس أن نقف منهما موقف المحايد الحريص فلا نصدق ولا نكذب، ذلك أننا إذا صدقنا وأيقنا بما فيهما من غير تحفظ فلسوف تقع لا محالة في خطأ التصديق بما ليس من كلام الله مما هو مزيد أو مفترئ قد أضيف إلى كل من التوراة والإنجيل - أما إذا كذبنا بهما جميعا فلسوف يفضي هذا التكذيب المطلق إلى التكذيب بما صح فيهما.

وعلى العموم فإن على المسلمين أن يؤمنوا بالتوراة والإنجيل كتابين منزلين من عند الله من قبل أن يمسهما التحريف والخلط - أما التوراة والإنجيل على حالهما التي نرى اليوم، فما على المسلمين من سبيل لو أنهم وقفوا منهما موقف المتوسط المحايد من غير تصديق ولا تكذيب، وخير ما يستدل به على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله " ١٢٤.

قوله: {وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم} أي أننا نؤمن بما نزل على النبيين ونصدقهم في ذلك جميعا دون استثناء، فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وإنما نؤمن بالنبيين كافة وأنهم جميعا صادقون ويصدرون فيما يقولون ويبلّغون عن وحي الله الأمين - ويشبه ذلك قوله سبحانه في المسلمين الذين يؤمنون بجميع النبيين والمرسلين من غير تفريق فلا يصدقون بعضا منهم ويكذبون آخرين {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} أي لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم الآخر كالذي عليه اليهود والنصارى.

قوله: (ونحن له مسلمون) الضمير في قوله: (له) يعود على لفظ الجلالة - أي أننا نحن أتباع هذه الملة نعلن في تصديق قاطع مستيقن أننا على صراط الله القويم وعلى سبيله المستقيم، وأننا ممتثلون لأمره ودينه وشرعه غير مترددين ولا مرتابين ولا مستنكفين.

١٣٧ - (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وقوله: {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق} على المسلمين أتباع هذه الملة أن يدعوا أهل الكتاب إلى الحق (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) أي إن صدقوا وأيقنت أنفسهم بما آمنتم به فقد اعتصموا بدين الله الحق وأصابوا تمام الصواب - وقيل: إن مثل زائدة ليكون المعنى: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا - وقيل: الباء زائدة ليكون المعنى: فإن آمنوا مثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ١٢٥ وقيل غير ذلك - ولعل القول الأول أصوب، لانسجامه مع السياق والمعنى - وهو أنهم إن آمنوا بما آمنتم به أنتم فقد أصابوا واستقاموا - ومعلوم أن المسلمين آمنوا بالنبيين جميعا وما أنزل عليهم من كتب يبلغونها للناس.

أما إن تولوا عما آمن به المسلمون وصدقوه {فإنما هو في شقاق} والشقاق والمشاقة بمعنى الخلاف والعداوة، نقول شاقة مشاقة وشقاقا أي خالفه، وحقيقة ذلك أن يأتي كل منهما ما يشق على صاحبه فيكون كل منهما في شق غير شق صاحبه ١٢٦.

قوله: {فسيكفيكهم الله} وهذه جملة فعلية - فعلها المضارع يكفي - وقد تعدى إلى مفعولين، أولهما الكاف في محل نصب مفعول به أول، وثانيهما الهاء في محل نصب مفعول به ثان والميم للجمع، ولفظ الجلالة فاعل - وذلك وعد من الله سبحانه لنبيه (صلى الله عليه وسلم) أنه سوف يكفيه أعداءه من الأشرار والمخالفين والمعاندين، هؤلاء الحاقدون اللد الذين حاربوا دين الله وشاقوا الله ورسوله - فسوف يكفي الله نبيه بأس هؤلاء ومكرهم، ويرد عنه ما يبيتونه له من سوء وعدوان - وقد أنجز الله لنبيه الكريم ما وعده من هزيمة للعدو وتدمير لخططه ومؤامراته وتبديد لجهوده وقُواه حتى مني أخيرا بالهزيمة تلو الهزيمة وبالانتكاس والتقهقر وذلك هو مصير الذين يشاقون الله ورسوله، ويحادون دين الله - لا جرم أنهم صائرون إلى ذل الهزيمة والخزي والعار.

قوله: {وهو السميع العليم} الضمير المنفصل في محل رفع مبتدأ، و (السميع) خبره مرفوع، و (العليم) نعت - فالله سبحانه يسمع ما تفوه به ألسنة البشر من أقوال، سواء في ذلك الأقوال التي تصاغ في اختلاف الشر وابتداع الأذى والمنكر يصيبان المؤمنين - أو الأقوال النافعة السديدة التي تنطق بها أفواه المؤمنين من الناس - فهو سبحانه سميع لذلك كله على نحو وكيفية لا يعلمها إلا هو - وهو كذلك (العليم) الذي يعلم أسرار الحياة والكائنات وما يختفي في أطواء الوجود من حقائق وأسرار، ومن معلومات وأخبار لا يعلم منها الناس إلا ما كان هينا يسيرا غاية في البساطة.

١٣٨ - (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

قوله تعالى: {صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) المراد بالصبغة هنا الإسلام وهو دين الله الحق القائم على الفطرة والحنيفية - وقد سمي بذلك على سبيل الاستعارة والمجاز؛ وذلك لبدوّ مظاهره وأعماله على الإنسان المتدين كما يبدو أثر الصبغ على الثوب، فالمتدين يتجلى في أفعاله وأقواله كل معاني الدين ومظاهره، وهو في جميع سلوكه وتصرفاته الشكلية والمظهرية والعملية إنما يسير على هدى من الدين وما يحتويه من مبادئ وقيم - وقوله: (صبغة) منصوب على المفعولية لفعل محذوف تقديره الزموا أو اتبعوا وقيل: منصوب على الإغراء؛ أي عليكم صبغة الله - وقيل: بدل من ملة ١٢٧.

قوله: (ومن أحسن من الله صبغة) (ومن) اسم استفهام في محل رفع على الابتداء، (أحسن) خبر مرفوع، (صبغة) منصوب على التمييز - وذلك سؤال إنكاري - أي ليس من صبغة أحسن من صبغة الله - ليس من دين ولا ملة ولا عقيدة ولا رسالة عرفتها البشرية خير من الإسلام - لا جرم أن الإسلام خير ما عرفت الدنيا من عقائد وملل ومبادئ - وذلك بما يتميز به الإسلام من خصائص عظيمة تخلو منها عامة المذاهب والعقائد والتصورات الأخرى - وبذلك يندد الله تنديدا بالذين يصطنعون لأنفسهم صبغة غير صبغة الإسلام، كالذين ينتحلون الشرائع والمذاهب والأفكار الضالة يختلقونها من عند أنفسهم لتكون بديلا عن صبغة الله وهي الإسلام - وأيما اختلاق مقبوح كهذا فإنه الكفران والاستكبار والتمرد على الله، والعياذ بالله.

قوله: {ونحن له عابدون} جملة إسمية مبتدأها الضمير (ونحن) وخبره (عابدون) أما الواو فهي عطف على قوله (آمنا بالله) كذلك يقول المؤمنون الصادقون فهم يقرون أنهم عابدون لله، ماضون على منهجه الثابت القويم ليظلوا على الدوام عابدين لله ممتثلين لأمره خاضعين

لسلطانه وجبروته.

١٣٩ - (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)

قوله تعالى: }قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون{ - }أتحاجوننا{ الهمزة للاستفهام، تحاجون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وواو الجماعة في محل رفع فاعل، والضمير المتصل في محل نصب مفعول به - وقوله تحاجوننا معناه تجادلوننا وهو من المحاجة أي مجاذبة الحجة، فكأن كل فريق من المتخاصمين يجذب حجة الآخر ليرسي حجته بدلا منها.

وقوله }في الله{ أي في دينه وحقيقة شأنه والقرب منه والحظوة عنده - والمقصود أهل الكتاب وخصوصا اليهود، فقد كانوا يجادلون النبي (صلى الله عليه وسلم) في الله وفي دينه وفي مبلغ القرب منه - فكانوا يفاخرون المسلمين بأنهم أقدم منهم دينا وأكثر أنبياء وأشد كرامة؛ لانتسابهم لآبائهم من النبيين والمرسلين كما يزعمون - وزعموا كذلك أنهم أنبياء الله وأحباؤه فهم بذلك أعظم عند الله حظوة ومكانة، إلى غير ذلك من المفاخرة الفاسدة التي تقوم على التعصب والجهل، ولا تستند إلى غير الحماقة والسفاهة والضلالة والتشبث بمقولات فارغة تافهة جوفاء لا تغني من الحق شيئا.

وبعد هذا الاستنكار لهذه المحاجة العميقة يأمر الله نبيه بالرد عليهم وهو أن الله }ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون{ أي لم هذه المحاجة العقيمة التي لا تنفع مع أن البدهيات تزجي بأن الله جلت قدرته هو رب الجميع، وليس ربكم وحدكم كما تزعمون وتتوهمون ولكنه (ربنا وربكم) وكذلك فإن أعمالنا غير أعمالكم، فكل منا يعمل على شاكلته، وكل منا ملاق حسابه عند ربه، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا وليس بغافل عما يعمل المفسدون، فأنتم بريئون منا ونحن بريئون منكم - جاء في ذلك قوله سبحانه في آية أخرى: (وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريئ مما تعملون).

وقوله: }ونحن له مخلصون{ من الإخلاص وفعله خلُص بضم اللام أي صفا وصار نقيا - نقول: خلُص الماء من الكدر أي صفا تماما، وخلاصة الشيء ما صفا منه - ويطلق الإخلاص في الشرع أو الدين على تصفية الفعل أو القول من ابتغاء المخلوقين - فإن ابتغاء أحد من الخاليق يعني التشريك في القصد الدافع للفعل أو القول - أو هو تفتيت للنية في توجهها إلى الله وإلى غيره من العباد، سواء كانوا من الجنة أو الناس أو الملائكة - ذلك أن الإخلاص في القول أو الفعل يعني أن يكون التوجه منصبا تماما في سبيل الله، وأن يكون القصد محصورا في ابتغاء مرضاة الله وليس منشطرا إلى شطرين أو إلى جملة أشطر لتتعدد النوايا والقصود ويكون التشريك في الابتغاء والعبادة، فلا يبقى للإخلاص بعد ذلك وجود - حتى إن الإشراك في الابتغاء والقصد لا يستحق إلا التنديد والرفض، ولا يستوجب غير التخسير والحبوط، ولا قيمة عندئذ للشطر من الابتغاء السارب في طريق الله والذي يحسبه الواهم ضربا من الإخلاص - والحقيقة أن قضية الإخلاص أساسية وخطيرة وكبرى وهي لا تقبل الانشطار أو التجزئة، ولكنها قضية واحدة منسجمة لا تتجزأ، فلا تصلح أن تنشطر بين الله وأحد من خلقه.

وبعبارة أخرى فإن الإخلاص لا يكون إلا لله وليس لأحد من خلقه معه، وإذا كان شيء من ذلك بانت الإخلاص منعدما وغير ذي وجود - يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الصدد من الإخلاص: " إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي - يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالي، فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنا لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء " ١٢٨

١٤٠ - (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

قوله: }أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى{ - (أم) معناها بل - أي بل إنكم تقولون

زاعمين أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - - - كانوا من اليهود أو النصارى - فقد زعمت يهود أن أولئك الأنبياء كانوا يهودا فهم بذلك أولى بهم، وزعمت كذلك النصارى أن أولئك كانوا نصارى فهم إذن أحق بهم، وفي الحقيقة أن كلا القولين خاطئ ومكذوب وهما قولان لا يستندان إلا إلى الزيف من التصور الفاسد والتعصب الأصم الذميم - ومعلوم بغير شك أو مراء أن إبراهيم كان مستمسكا بعقيدة التوحيد، وأنه كان على الحنيفية السمحة المستقيمة التي تنافي الشرك أعظم منافاة، ومعاذ الله أن ينتسب إبراهيم إلى ملة أي من اليهود والنصارى، تلك الملة التي عمادها الإشراك بالله، والمبنية على الهوى والتعصب السفيه، التعصب الفاجر الأصم الذي ترفضه العقائد والأديان الصحيحة، ويرفضه المنطق والتفكير السليم - فمعاذ الله أن ينتمي إبراهيم لملة أحد من الفريقين لقيامها على الإشراك بالله، ولكنه عليه السلام كان على دين الفطرة وملة التوحيد وكلمة الإخلاص، كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين، وأساس ذلك كله قول الله تباركت أسماؤه في فض هذه القضية: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين}، ولذلك فإن الله يأمر نبيه الكريم بالرد عليهم ردا فيه توبيخ لهم وتقريع

{قل أأنتم أعلم أم الله} ولا شك أن الله أعلم بحقيقة الأمر، فهو سبحانه أعلم أن إبراهيم ما كان من إحدى الطائفتين، وليس على ملة إحداهما، ولكنه كان حنيفا مسلما.

قوله: {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله} سؤال تهديد لأهل الكتاب ووعيد - فإنه ليس أظلم من الذي يخفي في نفسه شهادة فيها الحقيقة أو الخبر الصحيح وهو أن النبيين كانوا على ملة الإسلام بما يعنيه من استسلام لله وامتثال لأمره سبحانه - وقيل المراد بكتم الشهادة هو إخفاء خبر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ إذ كان مذكورا في التوراة والإنجيل وكان أهل الكتاب يجدونه مكتوبا باسمه عندهم، لكنهم تغاضوا عن ذلك وعمدوا إلى اسمه عليه السلام فأزالوه، وفي ذلك نكران للشهادة وكتم لما أودعهم الله إياه من أمانة العلم والخبر وكشفهما للناس، لا جرم أن هذا الكتم في الشهادة غاية في العتو أو الظلم يسقط فيه هؤلاء الجاحدون الضالون.

قوله: {وما الله بغافل عما تعملون} (ما) تعمل عمل ليس - لفظ الجلالة اسمها مرفوع - (بغافل) الباء حرف زائد، غافل خبر ما، وغافل من الغفلة وهي غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له على سبيل الإهمال - وحاشا لله سبحانه أن يلحقه شيء من عيوب البشر مثل الغفلة فإنه جل وعلا منزه عن الضعف والنقص كعيوب النسيان أو الغفلة أو غير ذلك من عيوب لا تبرح بني البشر، لكن الله غير غافل عما يعمله الناس، وذلك ينطوي على تخويف وتنذير لأهل الكتاب الذين جحدوا ملة الإسلام وكذبوا خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام - وما أولئك بمفلتين من قبضة الله وعذابه الذي سيحيق بهم لزيغهم وتكذيبهم وفساد قلوبهم.

١٤١ - (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون} ذلك قرار يراد به التأكيد لهؤلاء القوم الذين يفاخرون الناس بانتسابهم إلى الآباء والأجداد من النبيين والمرسلين - ويريد الله أن يبين لهم أنه لا وزن ولا اعتبار لهذه المفاخرة بالانتساب لأمة قد مضت؛ ذلك أن الذين مضوا لهم ما عملوا ولكم أنتم ما عملتم، وليس ينفعكم ما قدموه من عمل فهو لأنفسهم غير عائد عليكم، ولن يجديكم نفعا أن تظلوا تتشبثون بالانتماء إليهم والمباهاة بأنكم أحفادهم أو من ذراريهم - ١٢٩

١٤٢ - (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله تعالى: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم)

السفهاء مفردها سفيه وهو الخفيف العقل ذو الطيش الذي لا يضبط أقواله وتفكيره سبب من روية أو موضوعية أو اتزان - والمراد بالسفهاء هنا اليهود - وقيل بل اليهود والمشركون والمنافقون جميعا فكهم الذين سألوا في همس تارة في مجاهرة تارة أخرى؛ ليثيروا من

حول الإسلام والنبي كل بواعث الشك والتوهيم إذ قالوا: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها).
وفي سبب نزول هذه الآية ذكر عن ابن عباس قوله: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضعة عشر شهرا وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل عز وجل: (فولوا وجوهكم شطره) أي نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) ١٣٠.
هكذا يطلق المشركون والمنافقون واليهود في سفاهة وجهل سؤالهم عن تولي المسلمين للقبلة الجديدة - وهو سؤال سخيف وجاهل لا ينطوي على شيء من حسن النية أو سلامة التفكير أو رجاحة العقل - وذلك ديدنهم طيلة تاريخهم العابث الطويل - وهو ديدن السفهاء واللهو وفساد النية أو إطلاق العنان للسان بغير تحفظ ليهرف تهريفا أو يبعث بالعبارة في تسيب وثرثرة.
مع أن القضية هينة وبالغة اليسر لو صلحت النوايا وصفت القلوب وانتظم التفكير انتظاما يباعد بينه وبين الثرثرة السخيفة والتصور الهابط اللئيم.
إن القضية واضحة ويسيرة لمن يبتغي الوضوح واليسر، وهي أساسها أن الجهات جميعا لله وهي جزء من ملكوت الله العظيم المطلق، وهو سبحانه يأمر بالتوجه مثلما يريد سواء كان ذلك صوب الكعبة أو الشام أو المشرق أو المغرب؛ فكل أولئك ملك لله الكبير المتعال؛ ولذلك جاء الرد وجيزا ومؤثرا وحاسما (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) ويشبه ذلك قوله سبحانه في آية أخرى سابقة تبين أن التقوى والخير والصلاح إنما يتحقق بالإيمان الصحيح المقترن بالعمل المشروع الصالح وليس بالمظاهر الشكلية التي يحددها التوجه نحو الشرق أو الغرب (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله - -).
قوله: (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) يريد الله أن يهدي هذه الأمة إلى القبلة العظيمة قبلة إبراهيم عليه السلام لتكون القبلة المتبعة حتى آخر الزمان - والله جلت قدرته يهيء لعباده الصالحين من الأسباب ما ييسر لهم الاهتداء والمسير على الصراط المستقيم وهو الطريق الواضح الذي لا عوج فيه - وإذا فرط الناس في ما تهيأ لهم من أسباب الهداية كانوا من المفرطين الذين أوردوا أنفسهم موارد الخسران والهلاك.
نود أن نمر على بعض المسائل التي تنبثق عن هذه الآية لنناقشها من الوجهة الشرعية - منها: وقت تحويل القبلة بعد الهجرة إلى المدينة، أو حجم المدة التي توجه النبي والمسلمون خلالها نحو بيت المقدس بعد أن غادروا مكة إلى المدينة مهاجرين - فقد ذكر أن ذلك كان ستة عشر شهرا - وذلك ما أخرجه البخاري والدارقطني عن الباء قال: صلينا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المقدس - وقيل سبعة عشر شهرا استنادا إلى ما ذكر من رواية أخرى.
ومنها: كيفية استقبال بيت المقدس فهل كان ذلك عن رأي واجتهاد من النبي - صلى الله عليه وسلم - أو أن ذلك بناء على أمر من الله ووحي؟ والذي عليه جمهور العلماء وفيهم ابن عباس أن استقبال النبي لبيت المقدس لدى مقدمه إلى المدينة كان بناء على أن وتوجيه من الله، ثم نسخ ذلك بوجوب استقبال الكعبة - ودليل قوله سبحانه: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) - وذلك الذي نميل إليه ونرجحه.
ومنها: حين فرضت الصلاة على النبي والمسلمين في مكة، هل كانت قبلتهم حينئذ الكعبة أم بيت المقدس - جاء في ذلك قولان - فقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن النبي والمسلمين كانوا يستقبلون وهم في مكة بيت المقدس، وظلوا كذلك حتى هاجروا إلى المدينة ومكثوا يستقبلونه سبعة عشر شهرا أخر إلى أن أمرهم الله بالتوجه صوب الكعبة.
وثمة قول آخر، وهو المعتمد والذي نرجحه، وهو أن قبلة المسلمين الأولى كانت الكعبة فقد أمروا- وهم بمكة- بالتوجه إلى الكعبة كأول قبلة حتى هاجروا إلى المدينة فصرفهم الله إلى الشام حيث بيت المقدس إذ صلى صوبه ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا على الخلاف عسى أن يكون في ذلك تطييبا لقلوب يهود واستمالة لمشاعرهم فيما قد يكون سببا في ترغيبهم في الإسلام - وبعد ذلك أمر النبي

والمسلمون بالتوجه إلى الكعبة مرة أخرى.
ومنها: أن القبلة أول ما نسخ من القرآن وأنها نسخت مرتين، كذلك أجمع العلماء - أما المرتان اللتان وقع فيهما النسخ على القبلة فإحداهما نسخ التوجه إلى مكة؛ ليستقبل المسلمون بيت المقدس - وثانيتهما نسخ هذا الحكم ليستقبلوا الكعبة مرة أخرى ١٣١.
ومنها: جواز نسخ السنة بالقرآن، وهو المعتمد عند الأصوليين مع أن هذه مسألة خلافية - وقد ذهب الجمهور من الأشاعرة والمعتزلة والفقهاء إلى أن السنة تنسخ بالكتاب - وقالوا: إن ذلك جائز عقلا وشرعا - أما جوازه عقلا فبيانه أن الكتابة والسنة كليهما وحي من الله، لكن السنة وحي غير متلو - ونسخ أحد الوحيين بالآخر غير ممتنع عقلا - أما جوازه شرعا فهو وقوعه، كمسألتنا هذه، وهي نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه نحو الكعبة - وهو ما يقتضيه قوله تعالى: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم) والآية فيها الدليل على جواز نسخ السنة بالقرآن - وكيفية ذلك أن صلاة النبي في المدينة نحو بيت المقدس كانت حكما مبنيا على السنة أصلا إذا لم ينزل في هذا الحكم قرأن - حتى نسخ هذا الحكم باستقبال الكعبة؛ بناء على ما نزل من القرآن كقوله تعالى: (فول وجهك شطر المسجد الحرام) ١٣٢.

١٤٣ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

وقوله: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) اسم الإشارة في قوله كذلك يتعلق بتحويل القبلة نحو الكعبة - أي حولنا قبلتكم إلى الكعبة لتكونوا (أمة وسطا) والوسط هو العدل والأجود والخيار، وهو موضع الثناء والتفضيل، وجاء في في الحديث الشريف: " خير الأمور أوسطها " ١٣٣ ويقول الإمام علي رضي الله عنه: " عليكم بالنمط الأوسط، فإليه ينزل العالي وإليه يرتفع النازل ".
لقد جعل الله هذه الأمة بين الأمم وسطا؛ لتكون خير البشرية كافة بما أوتيت من خصائص مميزة قمينة بتفضيلها تفضيلا ظاهرا - وهي خصائص تتجلى في كمال الكتاب المعجز الحكيم الذي جاء حاويا لخبر الأولين والآخرين، وفيه صلاح البشرية في هذه الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين - وتتجلى كذلك في كمال الشريعة والمنهاج اللذين يغطيان واقع الحياة كلها بما فيها من قضايا السياسة والتربية والاقتصاد والسلوك ومطالب النفس والروح جميعا.
وتتجلى أيضا في الموقف المتميز السليم المجانب لكلا الإفراط والتفريط، وهاتان ظاهرتان مرفوضتان مغايرتان لطبيعة الإسلام القائمة على الاعتدال ومراعاة الفطرة السليمة، ومعلوم أن الإسلام دين وسط، فلا هو بالإفراط كالذي عليه اليهود من حيث تحريفهم للتوراة بما يلائم شهواتهم ويميل معها ميلا عظيما، ولا هو بالتفريط الذي عليه النصارى وذلك من حيث عزوفهم في ملتهم عن الحياة وما فيها من طيبات إلى الدرجة المغالية المذمومة التي لا تطاق والتي تحتسب ضربا من العذاب يؤز النفس ويؤلم الجسد.
ومن جهة أخرى فقد كان اليهود مفرّطين؛ وذلك لاجترائهم المذهل على أنبيائهم بالقتل والضرب والتكذيب والتعذيب، أما النصارى فقد كانوا مفرطين (بسكون الفاء)؛ وذلك لغلوهم المسرف في إجلال نبيهم عيسى عليه السلام حتى أحلوه مقام الإله، لكن أمة الإسلام ليست على شيء من ذلك - ولكنها الأمة المعتدلة الوسط التي تقوم على المحجة المستقيمة والتي تنفر من التفريط والإفراط - فهي أمة لا تعبد أحدا سوى الله، وترتكز في عقيدتها على أساس ثابت مكين واحد هو التوحيد القائم على أعظم مقولة في دين الإسلام وهي " لا إله إلا الله ".
وينظر المسلمون للأنبياء جميعا على أنهم عباد مصطفون أبرار قد اختارهم الله من بين خلقه لتناط بهم أمانة التبليغ - فهم بذلك أناس من جنس البشر، لكنهم يفوقون البشر بما أوتوه من حظوة الاصطفاء، وبما ركب في شخوصهم وفطرتهم من زخم الروح والاستعداد الذاتي العظيم ومن العصمة التي تدرأ عن طبائعهم مقارفة الخطايا.
قوله: (لتكونوا شهداء على الناس) اللام للتعليل، وواو الجماعة اسم تكون في محل رفع، (شهداء) خبر ومفردها شاهد أو شهيد.

وهذه خصيصة أخرى من كبريات الخصائص لهذه الأمة المبجلة الوسط - وتجلى هذه الخصيصة لهذه الأمة في كونها شهيدة على الناس يوم القيامة، إذ تشهد لهم أو عليهم بما أسلفوه من أعمال.

وفي هذا الصدد أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك، فيقول محمد وأمته ".

وأخرجه الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا - فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم - فيقال: من يشهد لك فيقول: محمد وأمته فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم - فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ".

هذا هو تأويل الشهادة لهذه الأمة على الناس يوم القيامة - وفي ذلك إبراز للشأن العظيم الذي تحتله هذه الأمة بما يجعلها خير أمة أخرجت للناس، ويجعلها كذلك أمة وسطا لتقف على ذروة السنام من التكريم والاعتبار في الدنيا والآخرة.

قوله: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) القبلة التي كان النبي عليها هي بيت المقدس - فهي قبلته والمسلمين حال هجرتهم إلى المدينة وذلك بأمر وتوجيه من الله سبحانه، ليميز أهل اليقين من الشك وليستبين الذين يثبتون في الطريق وهم ماضون على صراط الله وعلى منهجه القويم، ثم الذين ينكصون على أعقابهم وينتكسون انتكاسة المرتدين الأشقياء.

قوله: (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) كان تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة أمرا كبيرا أثار الاهتمام والتساؤل من كثير من الناس، وهو كذلك حدث يثير دهشة يهود وكثيرين غيرهم ممن راعهم هذا التحول غير المتوقع؛ لذلك كانت قضية تحويل القبلة بالنسبة لأولئك جميعا أمرا عظيما قد تمخض عن فتنة أفقدت ضعاف العزيمة والعقيدة جل إيمانهم أو بعضه (إلا على الذين هدى الله) فإنه يستثني من هؤلاء المفتونين المنتكسين من ثبتوا على الحق ولم يزعزعهم إعصار الفتنة ممن هدوا إلى الامتثال لأمر الله والانقياد لشرعه وما أنزله من تكليف مهما كان ثقيلا أو عسير الاحتمال.

قوله: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) كان ذلك جوابا عن سؤال طرحه بعض المسلمين عن مصير الذين صلوا نحو بيت المقدس ثم ماتوا من قبل أن تحول القبلة نحو مكة؛ فهل هم مأجورون على استقبالهم الأول؟ فقد أخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس أن قوما كانوا يصلون نحو بيت المقدس ثم ماتوا، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله هذه الآية - وبذلك فإن الله لا يضيع أجر هؤلاء العاملين الذين استقبلوا بيت المقدس في صلاتهم طيلة مقامهم في المدينة من قبل أن تحول القبلة إلى البيت الحرام ١٣٤ - أما قوله: (إيمانكم) أي بالقبلة الأولى التي كنتم عليها وذلك بناء على اتباعكم أمر نبيكم إذ توجه صوب بيت المقدس فأطعمتموه وتوجهتم معه دون مُشاقة أو خلاف - ولا شك أن ذلك كله منوط بإيمانكم بالله ورسوله وأنكم تتصرفون وتنشطون تبعا لما تفرضه العقيدة.

قوله: (إن الله بالناس لرءوف رحيم) ذلك تعقيب على ما سبق من حكم، وهو تعقيب ينسجم تماما مع ما سبقه من معنى، وبذلك يأتي الحكم السابق والتعقيب اللاحق في الآية مؤتلفين تمام الائتلاف ومتسقين غاية الاتساق - فالله جلت قدرته لا يظلم الناس شيئا ولا يحرم أحدا من حقه مثقال ذرة، حتى إن كانت هذه حسنة، فإنه يضاعفها أضعافا كثيرة - وهو سبحانه لن يتر العالمين المتقين الذين صلوا نحو القدس أجورهم فهو سبحانه (بالناس لرءوف رحيم) الرؤوف من الرأفة وهي أشد من الرحمة - فالله تباركت أسماؤه من حيث رحمته بالخاليق ليس كمثله أحد ورحمته بالعباد بالغة مطلقة لا تعرف الحدود.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين لولدها، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها - فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ألا تطرحه "؟ قالوا: لا يا رسول الله - قال: " فوالله لله أرحم

بعباده من هذه بولدها " ١٣٥
١٤٤ - (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذي أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون).

جاء في سبب هذه الآية ما ذكر عن ابن عباس قوله: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضعة عشر شهرا وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء) إلى قوله: (فولوا وجوهكم شطره).

وذكر عن البراء أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل بيت المقدس سنة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه قبلته قبل البيت، وأنه صلى صلاة العصر وصلى قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بلله لقد صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت.

وفي رواية عن البراء كذلك قال: لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة صلى نحو المقدس ستة عشرا شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يحول نحو الكعبة فنزلت (قد نرى تقلب وجهك في السماء) فصرف إلى الكعبة ١٣٦.

إن الله يرى ويعلم تحول وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى السماء متمنيا أن يأمره الله بتحويل قبلته وهو في الصلاة إلى مكة حيث الكعبة الشريفة.

وقد استجاب الله تباركت أسماؤه لهذه الرغبة المستكنة وهذا المطلب القدسي الذي يعتبر عن أصدق معاني الإخلاص والتشوف لأعظم مكان في الأرض، مكة حيث الكعبة التي جعلها الله مثابة للناس وأمنا.

استجاب الله لما كان يتمناه النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ أعلمه أنه منجز له رغبته بالفعل حتى يرضى وتطمئن نفسه (فلنولينك قبلة ترضاها) وذلك هو الوعد اليقين من الله، الوعد الذي لا يتخلف وهو تحقق حالما أمره الله بالتوجه ناحية الكعبة هو ومن معه ومن بعده من المسلمين إلى قيام الساعة (فول وجهك شطر المسجد الحرام) والشطر معناه الجهة أو القصد أو الناحية أو الحيال ١٣٧.

واختلف العلماء في حقيقة المراد بالجهة أو الناحية هنا والتي ينبغي على المصلي أن يتوجه صوبها حال الصلاة - فقد ذهب فريق من أهل العلم منهم الشافعي إلى أن المراد بالشطر هنا هو عين الكعبة، فلا تتم صلاة المسلم إلا إذا استقبل عين الكعبة، وذلك استنادا إلى ظاهر قوله: (شطره) أي جهته المعينة وهي الكعبة - وشطر منصوب على الظرفية المكانية - والهاء ضمير في محل جر مضاف إليه.

وذهب فريق آخر من العلماء وهم الأكثر إلى أن المقصود استقبال الجهة لا العين، وبذلك يكون معنى شطره جهته أو قبله - وذلك هو الراجح في تقديرنا للأدلة التالية:

أولا: ما رواه ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي " وفي حديث آخر عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " مابين المشرق والمغرب قبله " ١٣٨.

ثانيا: أن التكليف باستقبال العين غير مقدور عليه وهو من باب التكليف بالمحال أو بما يشق كثيرا، إذ ليس محققا أن يكون في مستطاع المصلي استقبال البيت عينه - ويمكن أن ينبني على ذلك:

ثالثا: ما لو تصورنا صفا طويلا من المصلين، فإن من المحال أن يتجه جميعهم إلى نفس البيت، وحقيقة ذلك ما لو كان طول الصف أضعاف طول البيت، فإنه لا يكون في استقباله عينا إلا الذين يتساوى مجموع طولهم مع طول البيت نفسه، أما الآخرون من الصف

فلا يستطيعون البتة أن يكونوا قبل البيت بالعين والتحديد؛ لذلك يمكن الجزم بأن المقصود بالاستقبال الجهة لا العين.
أما المشاهد للكعبة المعاين لها فإن عليه أن يستقبلها نفسها لا محالة، وهو إن ترك مثل هذا الاستقبال المحدد فلا صلاة له، ولا يعذر حينئذ إن صلى صوب أية جهة أخرى، وذلك الذي عليه إجماع العلماء.
وإذا خفيت القبلة على المصلي كأن يجنّ عليه الليل، أو يكون في سجن مظلم أو زنزانة ضيقة حاشرة غابت فيها معالم القبلة فإن على المصلي في مثل هذه الحال أن يتحرى القبلة ما أمكن، حتى إذا بذل الجهد المقدور واستبرأت ذمته من وجوب البحث والتحري جاز له أن يصلي صوب الجهة التي وقع عليها استدلاله ١٣٩.
وقوله: (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) هذا المدلول وثيق الصلة بما سبق من أحكام ومدلولات وهو رد على أهل الكتاب- اليهود- الذين ساءهم تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى البيت العتيق مع أنهم (اليهود) يعلمون تمام العلم أن عملية التحويل لهي حق لا شك فيه، وأنها قد أوحي بها إلى النبي فامتثل لأمر الله سبحانه - وهم كذلك يقرأون في كتابهم التوراة أن هذا النبي لصادق، وأنه لا ينطق عن الهوى وأن ما جاءهم به إن هو إلا من عند الله ساء في ذلك الأخبار أو التكليفات الدينية مثل تحويل القبلة وغيرها.
قوله: (وما الله بغافل عما يعملون) ذلك تهديد مخوف يرعب الله به أولئك الجاحدين من أهل الكتاب الذين مردوا على المناكفة الغليظة والتحدي اللئيم، فأبوا إلا الله أن يقاوموا دعوة الإسلام فيناصبوه العداء والحرب من أول مجيئه حتى يومنا هذا وما بعده من أيام إلى قيام الساعة - وبذلك فإن الله يتهدد هؤلاء الفاسدين الجاحدين مرضى النفوس، وينذرهم بعذابه المنتظر والذي سيحيق بهم والله سبحانه ليس بغافل عنهم - وأداة النفي (ما) تعمل عمل ليس ولفظ الجلالة اسمها مرفوع - وخبرها غافل والباء زائدة.
١٤٥ - (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين).
وقوله: (ولئن) اللام موطئة للقسم: والله لئن أتيت - وقوله: (ما تبعوا قبلتك) جواب القسم المقدر المحذوف سد مسد جواب الشرط.
يبين الله لرسوله في هذه الآية أن أي دليل من المنطق أو الحجة أو الدين لن يحمل اليهود أو النصارى على الاقتناع فيتبعوا القبلة التي استقر عليها حكم الله نهائيا - وهم في ذك لا يدفعهم لمثل هذه المواقف غير التعصب والهوى وشدة المكابرة والعناد.
وكذلك فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - ماضي على الحق باتباعه القبلة الأخيرة وهي البيت العتيق، وهو عليه السلام في ممتثل لأمر ربه مطيع لتوجيهه وشرعه دون أدنى تردد أو وناء - فما كان له البتة أن يتبع قبلة هؤلاء المشركين - والمشركون بدورهم معاندون مكابرون لا يتبعون قبلة الإسلام - بل إن الفريقين المشركين وهم النصارى واليهود مفترقان مختلفان متباينان لا تجمعهما قبلة واحدة، ولا يميل أحدهما لقبلة الفريق الآخر؛ ولذلك قال: (ومت بعضهم بتابع قبلة بعض) فاليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس، ثم يخوف الله عباده المؤمنين ويحذرهم من أتباه الكافرين في أهوائهم مع أنهم يعلمون تمام العلم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - نبي صادق، وأنه قد أوحي إليه من ربه - فيقول سبحانه في ذلك: (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) وبالرغم من أن الخطب في ظاهره موجه للنبي - صلى الله عليه وسلم -، لكن المقصود به المسلمون - فهم الذين يتعرضون لأسباب الفتنة وكل ظواهر الغواية والترهيب والتضليل والخداع، لكن النبي - صلى الله عليه وسلم - معصوم، مميز بفطرته المثلى وسجاياه العظام، لاجرم أنه لا تنال منه أعصاير الفتنة بكل ضروبها وألوانها.
١٤٦ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
قوله: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) (الذين) اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره الجملة الفعلية (يعرفونه) وفي

هذه الآية يبين الله لنبيه والمسلمين أن اليهود لا يكذبون عن قناعة ويقين، وإنما ذلك عن تعصب فاسد وجحد مكشوف لئيم - ذلك أنهم يعرفون حقيقة هذا النبي وأنه لصادق، فقد كانوا يقرأون في كتابهم (التوراة) عن خبره قبل مبعثه، وكانوا كذلك يعزمون على مناصرته وتأييده، لكنه ما أن ابتعث الله هذا النبي الكريم الخاتم حتى كانت يهود أشد الناس له عداوة، وأشدهم عليه تحريضا واستفزاز وتمالؤا مع أنهم يعرفون شخصه وصدق نبوته مثلما يعرفون أبناءهم - والمرء أشد ما يكون معرفة بابنه؛ وذلك لشدة تشبثه ولصوقه به ولعظيم رأفته به وفرط حدبه عليه؛ لذلك قال سبحانه: (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) إن فريقا من يهود يخفون خبر النبي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة (وهم يعلمون) يعلمون أن النبي حق، وأنه لصادق، ويعلمون أيضا أنهم كاذبون متعصبون، وأنهم لا يتورعون عن الخيانة والخداع والتضليل.

١٤٧ - (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

وقوله: (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) (الحق) مبتدأ مرفوع، وشبه الجملة بعده في محل رفع خبر - وقيل الحق منصوب على المفعولية لفعل محذوف تقديره لزم - الله جلت قدرته يثبت قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين من بعده ويبين لهم أنهم على الحق، سواء في ذلك استقبال القبلة الجديدة أو الدين العظيم الذي كتبه الله لهم طريق ومنهاجا - إن الله يبين لهم ذلك؛ ليثبتوا على الحق وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم وليظلوا على الدوام مستمسكين بحبل الله المتين، فلا يحيدوا أو يضلوا ولا يكونوا من (الممترين) وهو اسم فاعل من الامتراء ومعناه الشك، ومنه المرية والتماري - والفعل امترى وتمارى أي شك ١٤٠ - وفي هذا يحذر الله عباده من الوقوع في الشك فيظلوا مزعزعين مترددين متلجلجين ١٤١.

١٤٨ - (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فوق وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) (ولكل) جار ومجرور في محل رفع خبر مقدم، (وجهة) مبتدأ مؤخر مرفوع - (هو) ضمير في محل رفع مبتدأ (موليها) خبر، والهاء ضمير في محل جر مضاف إليه - والجملة (هو موليها) في محل رفع صفة للمبتدأ الأول (وجهة) ١٤٢ والوجهة أو الجهة على نفس المعنى والمراد بها القبلة - وموليها بمعنى متوليها أو متوجه نحوها - يقول سبحانه في ذلك أن لكل من الفريقين قبلة يتوجه صوبها - فالمسلمون يستقبلون قبلتهم التي صاروا إليها أخيرا وهي الكعبة، وأهل الكتاب لهم قبلتهم نحو الشام حيث بيت المقدس - لكن أهل هذه الملة الخاتمة هم المؤمنون حقا؛ لاعتصامهم بحبل الله، وطاعته له من غير عصيان، وامتثالهم لأوامره غير ممترين ولا مترددين - ومعلوم أن أهل هذه الملة ما أن بلغهم الأمر باستقبال القبلة الجدية حتى بادروا التوجه نحوها طائعين مستسلمين وفي الحال بادروا ممتثلين خاضعين من غير تردد في ذلك ولا ارتياب.

قوله: (فاستبقوا الخيرات) أي بادروا في تسابق جاد وعازم لفعل الخيرات وهي بعمومها تتناول كل وجوه الطاعة والامتثال من صلاة وزكاة وجهاد وإكرام الجار وبر بوالدين وإغاثة للمضطر والمكروب والملهوف حتى إماطة الأذى عن الطريق - ذلك كله من وجوه الطاعة والصلاح التي يتناولها مفهوم الخيرات - وهي جميعا قد دعا الله سبحانه لمبادرتها في نشاط لا يعرف التثاقل، وفي حماسة لا يناسبها الخذلان أو التبلد أو العجز - ينبغي أن يبادر المؤمنون فعل الخيرات جميعا في همة عالية وجد مندفع، يحفزهم لذلك العقيدة المؤثرة الفعالة التي تربط المؤمن به برباط من الثقة واليقين بعظمته وجلاله سبحانه، ليكون مستديم الصلة به وحده دون أحد من خلقه فيظل على الدوام عاملا بشرع الله وفاعلا لأوجه الخير في كل مناحي الحياة.

وقيل: إن المقصود باستباق الخيرات هو المبادرة بالصلاة على وقتها دون تأخير وذلك على الخلاف بين العلماء في هذه المسألة، مع أنهم متفقون على أفضلية الأداء في أول الوقت - فقد روى الدارقطني عن أبي هريرة – رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله

عليه وسلم -: " إن أحدكم ليصلي الصلاة لوقتها وقد ترك من الوقت الأول ما هو خير له من أهله وماله ".
وروى الدارقطني أيضا بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " خير الأعمال الصلاة في أول وقتها ".
وفي رواية ثالثة للدارقطني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " أول الوقت رضوان الله، ووسط الوقت رحمة الله، وآخر الوقت عفو الله ".
على أن هناك خلافا بين الفقهاء في بعض الصلوات من حيث أداؤها في وقتها أو تأخيرها - فقد ذهب الشافعي إلى أفضلية أداء الصلاة في وقتها دون تأخير، وهو في ذلك يعني الصلوات الخميس جميعا، سواء في ذلك الظهر أو العشاء الأخيرة، وسواء كانت الوقت صيفا أو شتاء، وذلك استنادا إلى ظاهرة الأدلة من السنة نفسها.
وذهب الإمام مالك إلى أفضلية تأخير صلاة الظهر عن وقتها حتى الإبراد، وذلك في الصيف حيث الحر الشديد، استنادا إلى ما أخرجه البخاري والترمذي بإسندهما عن أبي ذر الغفاري قال: كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في سفر، فأراد المؤذن أن يؤذن للظهر، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " أبرد " ثم أراد أن يؤذن فقال له: " أبرد " حتى رأينا فيء التلول فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " إن شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة " وهو ما ذهب إليه الإمام مالك أيضا فقد ذكر عنه قوله: أول الوقت أفضل في كل صلاة إلا الظهر في شدة الحر لما بينا من أدلة - وتفصيل هذه المسائل في مواطنه من كتب الفقه.
وقوله: (أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير) (أين ما) أداة شرط تجزم فعلين - (تكونوا) فعل الشرط مجزوم بحذف النون - (يأت) جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة من آخره.
بعد الدعوة للاستباق في فعل الخيرات ومبادرة الطاعات دون تأخير، يعيد الله للأذهان فكرة الموت، وهو أمر مريع مخوف جلل لا يطرأ على البال حتى يوقظ فيه دوام الصحو واليقظة، ولا يمس خبره الحس والوجدان حتى يثير في النفس الرهبة والتوجس.
فإن مصير الخليفة إلى الموت المتربص المحتوم، ثم نجد بعد ذلك مساقها إلى الله في يوم حافل بالأهوال والقواصم وحافل بالشدائد والوجل - وذلكم يوم القيامة حيث الحساب الدقيق الكاشف عن الأعمال والنوايا بين يدي الله سبحانه - وهو العالم بالأسرار والأستار، المطلع على خفايا الصدور وهو (على كل شيء قدير).
١٤٩ - (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
قوله: (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون).
قوله: (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام).
وقوله: (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره).
هذه آيات ثلاث تتفق من حيث التجانس في العبارة ومن حيث المعنى والمضمون.
وهي آيات يلاحظ فيها التكرار الذي لا يقع في الكتاب الحكيم عبثا، بل إنه تكرار ينطوي على كثير من المعاني والأحكام.
ويمكن القول هنا أن التكرار في هذه الآيات الثلاث حول استقبال الكعبة يحتمل في تعليله أمرين - أحدهما: التأكيد من الله جلت قدرته للنبي والمسلمين على الامتثال في طواعية تامة لاستقبال القبلة الجديدة بعد أن نسخ الحكم السابق وهو استقبال بيت المقدس، وذلك كيلا يجد بعض المسلمين في نفوسهم شيئا من التردد أو الشك أو العنت، وليبادروا التوجه في الحال نحو البيت العتيق، تنفيذا لكلمة الله وتحقيقا لأمره الذي لا معقب له.
الثاني: أن التكرار ينطوي على جملة فوائد شرعية تفصيلية في تبيين كيفية التوجه والاستقبال في مختلف الحالات أو الظروف أو المواضع:
منها: أن من عاين الكعبة مُشاهدة أو حسا عليه أن يتوجه نحوها عينها بالذات، وإذا لم يفعل ذلك كأن يتجه صوب جهة أخرى مخالفة فإنه لا صلاة له أو كالذي افتقد شرطا أساسيا من شروط الصلاة وهو استقبال القبلة، وقيل بل هو ركن من أركانها على الخلاف.
ومنها: أن من كان في مكة، لكنه لم يشاهد البيت فعليه أن يستقبل المسجد الحرام حيث الكعبة.
ومنها: أن من كان خارج مكة من مختلف البلدان فعلية أن يتوجه في قبلته نحو مكة، وقد بينا سابقا الحديث حول هذه المعاني إذ

يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي ".

ومنها: إذا سافر المسلم وأراد أن يقوم للصلاة فعليه أن يتوجه نحو القبلة أول دخوله الصلاة حين التحريم، ولا جناح عليه بعد ذلك إذا ما اتجهت به السفينة أو الطائرة أو وسيلة النقل نحو أية جهة أخرى مغايرة.

وقوله: (لئلا يكون للناس على الله حجة) الحجة المحاجة وهي المخاصمة أو المجادلة - والمراد أن الله شرع لكم الكعبة قبلة تتوجهون نحوها في الصلاة حيثما كنتم، ولا يشترط في ذلك أن يكون التوجه نحو العين ما دمتم منتشرين في بقاع الأرض ولم تستطيعوا معاينة البيت أو مشاهدته - فإن قال لكم المشركون: كيف تستقبلون البيت ولستم ترونه، فإن سؤالهم أصبح غير ذي قيمة مادام المقصود هو الجهة لا العين.

قال القرطبي في تأويل هذه الآية: لا حجة لأحد عليكم إلا حجة الداحضة إذ قالوا: (ما ولاهم)، وتحير محمد في دينه وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدى منه وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو منافق.

وقوله: (إلا الذين ظلموا منهم) أي ليس لأحد عليكم حجة إلا الحجة الداحضة التي تفرزها ألسنة الظالمين من أعدائكم، وهي حجة قائمة على الفساد وانتفاء التفكير السليم.

وقوله: (فلا تخشوهم واخشوني) " لا " تفيد النهي - (تخشوهم) فهل مجزوم بحذف النون وواو الجماعة في محل رفع فاعل - والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والميم للجميع - أما الخشية فهي الخوف، فإن الله يحذر عباده المؤمنين من خشية الناس بل عليهم أن يخشوا ربهم وحده؛ فإنه أحق أن يخشاه الناس.

وقد تنتاب قلب المرء غاشية من الخوف من البشر - فإنه لا إثم في ذلك مادامت هذه الخشية لم تؤثر في عزيمة المؤمن ولم تخفف من طاعته وامتثاله لأوامر الله، لكن الخشية من الناس إذا ما كانت سببا في اجتيال العباد عن عقيدتهم وفتنتهم عن دينهم، أو كانت سببا في زعزعة الإيمان وتبديده في النفوس فيما يحرف المؤمنين عن صراط الله ليسيروا في طريق الباطل والشهوات.

قوله: (ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) تمام النعمة من الله على عباده المؤمنين بجعلهم ملتئمين منسجمين على أساس من عقيدة الإسلام لمتينة الثابتة التي تقوم على التوحيد وعلى أساس من أخوة الإيمان تؤلف بين قلوب هذه الأمة؛ ليكونوا متحدين في تصوراتهم وتطلعاتهم وأهوائهم، وليكونوا متوجهين نحو قبلة ثابتة واحدة هي البيت العتيق الذي كتبه الله للناس مثابة وأمنا - وفي ذلك كله ما يجعل أتباع هذه الملة في نعمة من الله وفي هداية منه سبحانه - لا جرم أن الله كتب لهذه الأمة الهداية، فهي على المحجة البيضاء، والطريق السوي السليم - وهو قوله: (ولعلكم تهتدون) ١٤٣.

١٥٠ - (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٩]

قوله: (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون).

قوله: (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام).

وقوله: (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

هذه آيات ثلاث تتفق من حيث التجانس في العبارة ومن حيث المعنى والمضمون.

وهي آيات يلاحظ فيها التكرار الذي لا يقع في الكتاب الحكيم عبثا، بل إنه تكرار ينطوي على كثير من المعاني والأحكام.

ويمكن القول هنا أن التكرار في هذه الآيات الثلاث حول استقبال الكعبة يحتمل في تعليله أمرين - أحدهما: التأكيد من الله جلت قدرته للنبي والمسلمين على الامتثال في طواعية تامة لاستقبال القبلة الجديدة بعد أن نسخ الحكم السابق وهو استقبال بيت المقدس؛ وذلك كيلا يجد بعض المسلمين في نفوسهم شيئا من التردد أو الشك أو العنت، وليبادروا التوجه في الحال نحو البيت العتيق؛ تنفيذا

لكلمة الله وتحقيقا لأمره الذي لا معقب له.
الثاني: أن التكرار ينطوي على جملة فوائد شرعية تفصيلية في تبيين كيفية التوجه والاستقبال في مختلف الحالات أو الظروف أو المواضع:
منها: أن من عاين الكعبة مُشاهدة أو حسا عليه أن يتوجه نحوها عينها بالذات، وإذا لم يفعل ذلك كأن يتجه صوب جهة أخرى مخالفة فإنه لا صلاة له أو كالذي افتقد شرطا أساسيا من شروط الصلاة وهو استقبال القبلة، وقيل بل هو ركن من أركانها على الخلاف.
ومنها: أن من كان في مكة، لكنه لم يشاهد البيت فعليه أن يستقبل المسجد الحرام حيث الكعبة.
ومنها: أن من كان خارج مكة من مختلف البلدان فعلية أن يتوجه في قبلته نحو مكة، وقد بينا سابقا الحديث حول هذه المعاني إذ يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي ".
ومنها: إذا سافر المسلم وأراد أن يقوم للصلاة فعليه أن يتوجه نحو القبلة أول دخوله الصلاة حين التحريم، ولا جناح عليه بعد ذلك إذا ما اتجهت به السفينة أو الطائرة أو وسيلة النقل نحو أية جهة أخرى مغايرة.
وقوله: (لئلا يكون للناس على الله حجة) الحجة المحاجة وهي المخاصمة أو المجادلة - والمراد أن الله شرع لكم الكعبة قبلة تتوجهون نحوها في الصلاة حيثما كنتم، ولا يشترط في ذلك أن يكون التوجه نحو العين ما دمتم منتشرين في بقاع الأرض ولم تستطيعوا معاينة البيت أو مشاهدته - فإن قال لكم المشركون: كيف تستقبلون البيت ولستم ترونه، فإن سؤالهم أصبح غير ذي قيمة مادام المقصود هو الجهة لا العين.
قال القرطبي في تأويل هذه الآية: لا حجة لأحد عليكم إلا حجة الداحضة إذ قالوا: (ما ولاهم)، وتحير محمد في دينه وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدى منه وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو منافق.
وقوله: (إلا الذين ظلموا منهم) أي ليس لأحد عليكم حجة إلا الحجة الداحضة التي تفرزها ألسنة الظالمين من أعدائكم، وهي حجة قائمة على الفساد وانتفاء التفكير السليم.
وقوله: (فلا تخشوهم واخشوني) " لا " تفيد النهي - (تخشوهم) فعل مجزوم بحذف النون وواو الجماعة في محل رفع فاعل - والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والميم للجميع - أما الخشية فهي الخوف، فإن الله يحذر عباده المؤمنين من خشية الناس بل عليهم أن يخشوا ربهم وحده؛ فإنه أحق أن يخشاه الناس.
وقد تنتاب قلب المرء غاشية من الخوف من البشر - فإنه لا إثم في ذلك مادامت هذه الخشية لم تؤثر في عزيمة المؤمن ولم تخفف من طاعته وامتثاله لأوامر الله، لكن الخشية من الناس إذا ما كانت سببا في اجتيال العباد عن عقيدتهم وفتنتهم عن دينهم، أو كانت سببا في زعزعة الإيمان وتبديده في النفوس فيما يحرف المؤمنين عن صراط الله ليسيروا في طريق الباطل والشهوات.
قوله: (ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) تمام النعمة من الله على عباده المؤمنين بجعلهم ملتئمين منسجمين على أساس من عقيدة الإسلام لمتينة الثابتة التي تقوم على التوحيد وعلى أساس من أخوة الإيمان تؤلف بين قلوب هذه الأمة؛ ليكونوا متحدين في تصوراتهم وتطلعاتهم وأهوائهم، وليكونوا متوجهين نحو قبلة ثابتة واحدة هي البيت العتيق الذي كتبه الله للناس مثابة وأمنا - وفي ذلك كله ما يجعل أتباع هذه الملة في نعمة من الله وفي هداية منه سبحانه - لا جرم أن الله كتب لهذه الأمة الهداية، فهي على المحجة البيضاء، والطريق السوي السليم - وهو قوله: (ولعلكم تهتدون) ١٤٤.
١٥١ - (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) الكاف في قوله كما متعلقة بما قبلها وهي في محل نصب نعت لمصدر محذوف تقديره إتماما - وبذلك يكون تقدير المعنى: ولأتم نعمتي عليكم إتماما مثلما أرسلنا فيكم رسولا منكم وقيل: نعت لمصدر محذوف وتقديره اهتداء - أي ولأتم نعمتي عليكم اهتداء مثل ما أرسلنا ١٤٥.

وذلك تذكير من الله للمؤمنين بنعمته التي جعلها لهم مثل إرساله محمدا - صلى الله عليه وسلم - من بينهم هاديا لهم ومرشدا يتلو عليهم آيات الله سبحانه وفيها من الترشيد وخير البيان ما يخرجهم من الظلمات إلى النور، وما يطهرهم من دنس الجاهلية الضالة وما فيها من أدران الشرك وأوضار الباطل.

قوله: (ويعلمكم الكتاب والحكمة) (الكتاب)، يعني القرآن (الحكمة) معناها السنة النبوية، على الراجح من أقوال العلماء - فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - مخول من ربه بتبيين الكتاب للناس في سنته القولية والعملية، وذلك ليعلموه وليقفوا على حقائقه وتفصيلاته وما انطوى عليه من معان وأحكام وبينات مما لم يكونوا يعلمون من قبله بمثله.

١٥٢ - (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ)

قوله: (فاذكروني أذكركم) الذكر هو تنبه القلب وتيقظه - والمقصود بالذكر هنا طلب الطاعة من العباد لله - فالله سبحانه يأمر الناس بطاعته والخضوع لأمره في ذلك وخشية ليذكرهم بالمغفرة والرحمة وحسن الثواب، بل إن الجزاء الذي يُنعم الله به على العباد لهو أعظم من ذكرهم (طاعتهم وخضوعهم) الذي يقدمونه - فما من طاعة يقوم بها العبد لربه إلا جوزي بأعظم منها.

فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " قال الله عز وجل: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير من الملائكة – أو قال: في ملأخير منه- وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا، وإن دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة ".

قوله: (واشكروا لي ولا تكفرون) الشكر هو الاعتراف بالنعمة وفعل الطاعة وترك المعصية - وبذلك فإن الشكر يكون باللسان مع إقرار القلب المؤمن بالنعمة، ويرافق ذلك كله العمل بأوامر الله - فإنه لا يجدي شكران باللسان وإقرار بالقلب من غير اقتران بالطاعة - بل إن الشكران على وجهة الأتم إنما يكون بالقول والعمل مع انعقاد القلب على الإقرار والخضوع - وأيما انتقاص من ذلك لسوف يكون كفرانا قد نهى الله عنه فقال: (ولا تكفرون) والكفر هو الستر والتغطية - ويراد به هنا الجحود لنعمة الله - فإن العبد المؤمن مدعو لذكر الله بطاعته، ومدعو كذلك لشكرانه بالاعتراف بنعمه وفضله عليه وعدم كفرانه لهذه النعمة؛ فإن جحد هذه النعم لهو الكفران ١٤٦.

١٥٣ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) تلك دعوة للمؤمنين الذين يواجهون في طريقهم العراقيل والنوائب والصعاب، من أجل أن يستعينوا على ذلك كله بالصبر والصلاة - وهذان طريقان يقودان في النهاية إلى خير عاقبة - فإما النصر والغلبة في هذه الدنيا أو النجاة والرضوان يوم القيامة حيث الجنة الخالدة والنعيم المقيم.

والصبر لغة معناه حبس النفس عن الجزع - وبذلك فإن الإنسان الصابر هو الذي يحبس نفسه عن مواطن السقوط والضعف، فلا يضل أو يهوي، وقد ورد أن الصبر أنواعه ثلاثة: صبر على ترك المحارم والمعاصي، وصبر على فعل الطاعات والقربات، وصبر عل المصائب والنوائب كالمرض أو الفقر أو موت قريب أو عزيز.

والله جلت قدرته يدعو المؤمنين في كلامه هذا أن يستعينوا – حال مضيهم على طريق الله والدعوة إليه- (بالصبر والصلاة) فإن الصبر خير ما يهتدي إليه الإنسان الداعية ليظل قوي الأعصاب والبأس، فلا تنال منه الشدائد والفتن - وكذلك الصلاة فإنها من خير ما يفر نحوها المؤمن إذا انتابته النوائب والمحن، فإنه في الصلاة تجد النفس أمنها وسكينتها، ويجد القلب رجاءه وطمأنينته، فيهدأ هدوء الآمن من المحبور - حتى إذا فرغ من الصلاة وجد في نفسه من اشتداد العزم والهمة ما يزداد به ثباتا وحماسة واستعصاما.

ولقد كان من شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر صلى؛ لما في الصلاة من عذوبة الأمن والطمأنينة وسكون الأعصاب الفائرة المضطربة في ساعات تتوالى فيها الكروب وتشتد فيها الأحوال والخطوب - ولا يجد المؤمن العابد المبتلى حينئذ من مندوحة إلا الفرار إلى الله يبث إليه الشكوى، ويطرح ما في نفسه من لواعج التأزم والأسى، وذلك عبر خطاب يجلله الخشوع في الصلاة أو الدعاء، وبعد ذلك سوف يجد المؤمن العابد الصابر أنه غير مسيب ولا منقطع، وأنه في رعاية الله وكلاءته (إن الله مع الصابرين).

١٥٤ - (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ)

قوله: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون).

قوله: (أموات بل أحياء) أموات وأحياء، مرفوعان؛ لأن كل واحد منهما خبر لمبتدأ محذوف - والتقدير: هو أموات، بل هم أحياء

١٤٧ ينهى لله عن تصور الموت لمن يقتل في سبيل الله شهيدا - فإن الشهادة عظيمة الأمر والقدر - وإن الشهداء صنف مميز من الناس الذين كتب الله لهم الرفيع من الدرجات، ليجيئوا في المنزلة بعد النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

وفي هذه الآية برهان على أن الشهداء باقون أحياء، وأنهم لا يموتون، كقوله تعالى في آية أخرى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فهم دائمو الحياة بعد مقتلهم، وذلك على كيفية لا نعلمها نحن - وما نجاوز في العلم غير هذا الحد الذي بينته الآية هنا - وهو أن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء غير أموات - أما تفصيل ذلك وبيان كيفيته فما أحاطنا القرآن من علم ذلك شيئا - فقال سبحانه: (ولكن لا تشعرون) لا ندري كيف يظلون أحياء - وفي صورة أو كيفية - وما نوع الحياة التي جعلت لهم بعد الفوز بالشهادة، فهل هي حياة كحياتنا في هذه الدنيا، أم هي حياة من جنس آخر؟.

١٥٥ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

قوله تعالى: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) البلاء معناه المحنة، والابتلاء هو الامتحان والاختبار

١٤٨ - ذلك أن الله يؤكد لعباده المؤمنين أنهم لا بد مبتلون وأن الله ممتحنهم بضروب من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات - وكل صورة من صور البلاء هذه نقضّ الإنسان وتنال من عزمه وراحته إلا أن يعتصم برباط العقيدة ليزداد يقينا وثباتا، ثم يجد من سلاح الصبر ما يحقق له الأجر وعظيم الجزاء - والله جلت قدرته يبتلي عباده المؤمنين بشيء من هذه البلايا وليس بها جميعها فهو سبحانه يبتلي عبده بشيء من الخوف أي كان مصدره أو سببه، ثم بشيء من الجوع وهو قاس وأليم يُسام الإنسان به مرارة الطوى - ثم بنقص من الأموال كيفما كانت صورة هذا الانتقاص، سواء بالجدب والقحط عقيب احتباس المطر، أو نتيجة لجائحة من الجوائح تأتي على الزروع والثمرات، أو بسبب فناء يعصف بالماشية والأنعام، أو كساد يصيب أموال التجارة فأفضى بها إلى الفساد والخسارة.

وكذلك يبتلي الله عباده المؤمنين بمصيبة الموت، كأن يموت للمؤمن قريب أو حبيب يثير فيه بالغ الحزن والأسى.

ويبدو من صيغة التأكيد (لنبلونكم) والتي ترد في معنى القسم أن من سنة الله أن يُبتلى المؤمنون في أمنهم بالخوف، وفي قوتهم بالجوع، وفي أموالهم وثمراتهم بالنقصان والخسران، ثم في أنفسهم بالموت؛ ليكون في ذلك امتحان عسير يمحص الله به المؤمنين الصابرين، أو يميز الثابتين الأقوياء من الضعفاء الخائرين الذي يجزعون في الشدة ويتملكهم الروع والهلع.

ثم يأمر الله نبيه (ص) أن يبشر الصابرين بجزيل الثواب وعظيم الأجر على صبرهم واحتمالهم دون أن يميلوا أو يتزعزعوا.

١٥٦ - (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وقوله: (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) أولئك هم الصابرون الذين يبشرهم الله على لسان نبيه الكريم، والذين يبادرون بكلمة الحق التي تعلن الولاء الكامل لله والإقرار المطلق بأنه سبحانه مالك كل شيء؛ فهو مالك الناس والأموال والخيرات والثمرات، وأنه ما من شيء إلا هو راجع إليه وذلك في يوم حافل معلوم - يوم تتلاقى فيه الأحياء جميعا لتجد جزاءها والحساب.

على أن الصبر على المحن إنما يكون معتبرا إذا كان عند صدمة الخبر الفادح، فإذا ما ثبت المؤمن لدى ورود الصدمة واسترجع فذلكم الذي له البشرى بالرحمة والرضوان - وفي ذلك قد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إنما الصبر عند الصدمة الأولى ".

وشرط الصبر لتمامه وكمال شرفه ألا يجزع المبتلى عند صدمة الخبر الداهم، وألا يبث للناس شكايته على سبيل الإياس والزعزعة

والابتئاس، ولكن ليكظم ألمه ويحبس نفسه عن البث والشكوى أو الأنين في ضعف وخور.
ولا تنحصر المصيبة في أنواع معلومة مما يصيب الإنسان فيؤزه ويؤلمه، ولكنها تشمل كل صورة من صور الابتلاء مهما كان حجمها أو تأثيرها - وبذلك فإن المصيبة كما يراها الدين تتضمن كل وجه من وجوه الشر التي تصيب الإنسان فتؤذيه، صغيرا كان الأذى أو كبيرا - فقد ذكر أن مصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد انطفأ ذات ليلة فقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: " نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة " وأخرج مسلم في صحيحه بإسناده عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " ما يصيب المؤمن من وصب ١٤٩ ولا نصب ١٥٠ ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمُّه إلا كفّر به من سيئاته " ١٥١.
١٥٧ - (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)
قوله: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (أولئك) اسم إشارة في محل رفع مبتدأ - (عليهم) جار ومجرور في محل رفع خبر مقدم - (صلوات) مبتدأ مؤخر مرفوع - والجملة الإسمية من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول اسم الإشارة.
والصلوات مفردها صلاة - وهي من الله على عباده تعني العفو والمغفرة والثناء الحسن - اسم الإشارة (أولئك) عائد على الصابرين - وهم الثابتون المحتسبون الذين إذا أصابته مصيبة ثبتوا واسترجعوا - فإن أولئك يكرمهم الله بعفوه وغفرانه وينزل عليه رحمته وسلوانه؛ وذلك لثباتهم وتجلدهم دون جزع أو نكوص - قوله: (وأولئك هم المهتدون) أي للحق والصواب؛ حيث استرجعوا وأذعنوا واستسلموا لقضاء الله من غير جزع ولاتبرم.
١٥٨ - (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)
وقوله تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) جاء في سبب نزول هذه الآية أكثر من وجه نذكرها هنا اقتضابا غير مفصل - فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن عروة بن الزبير سألها: أرأيت قول الله تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) فوالله ما على أحد جناح ألا يتطوف بهما - فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أوّلْتها عليه كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت؛ لأن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يُهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل وكان من أهلَّ لها يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله عز وجل الآية - وقالت (عائشة): ثم قد سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطواف بهما؛ فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.
وفي قول ثان أن الناس يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية فكانوا بذلك يتحرجون من الطواف بينهما، فنزلت الآية من أجل ذلك.
وفي قول ثالث لبعض الأنصار قالوا: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فنزلت الآية.
وفي قول رابع أخرجه الإمام البخاري وهو شبيه بالقول الثاني - وهو أن أنسا رضي الله عنه سئل عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: (إن الصفا والمروة من شعائر).
والصفا في اللغة جمع ومفرده صفاة وهي الحجر الصلد الأملس الذي لا يُنبت ١٥٢.
وأما المروة فهي مفرد وجمعه المرو وهي حجارة بيض براقة توري النار ١٥٣.
وذكر القرطبي في تفسيره أن الصفا من الاصطفاء، وقد سميت بذلك؛ لأن آدم قد اصطفاه الله ليكون صفوته - وهو عليه السلام وقف

عليه فسمي به - ووقفت حواء على المروة فسميت باسم المرأة فأنّث لذلك.
وقوله: (من شعائر الله) (شعائر) جمع مفرده شعيرة وهي تعني العلامة من الشعار، فالشعائر المعالم أو العلامات التي جعلها الله أعلاما للناس يتعبدون عندها.
وحج البيت يعني قصده والتوجه إليه - والاعتمار يراد به العمرة أي الزيارة ١٥٤.
أما من الناحية الشرعية فإن المقصود بالتطوف بالصفا والمروة وهو السعي أن المسير بينهما مشيا وهرولة سبع مرات.
وقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: (إن الصفا والمروة من شعائر) ثم قال: " ابدأ بما بدأ الله به " وفي رواية ثانية: " ابدأوا بما بدأ الله به ".
وأخرج الإمام أحمد بإسناده أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يطوف بين الصفا والمروة والناس بيد يديه وهو وراءهم وهو يسعى ويقول: " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي ".
وفي روية أخرى عنه (ص): " كُتب عليكم السعي فاسعوا ".
أما السعي من حيث الحكم فقد ذهب الشافعي، وأحمد في رواية عنه، ومالك إلى أنه ركن؛ استنادا إلى النصوص النبوية آنفا.
وذهب أحمد في رواية أخرى عنه وآخرون معه إلى أنه واجب وليس بركن - فمن تركه عمدا أو سهوا أمكن جبره بدم.
وذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وآخرون إلى أن السعي سنة مستحبة.
واحتجوا لذلك بقوله سبحانه: (ومن تطوع خيرا) فإنه يفهم بذلك أن السعي مجرد تطوع فهو بذلك مستحب غير مفروض - والذي نميل إليه ونرجحه أن السعي فرض استنادا إلى الأدلة من سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - التي ذكرناها، ومنها قوله عليه السلام: " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي " أما قوله: (ومن تطوع خيرا) أي زاد (الساعي) في طوافه بينهما على القدر المطلوب وهو سبعة فيطوف ثامنة أو تاسعة - وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع - وقيل غير ذلك، لكن الراجح عندي الأول - وفي ذلك ما يبطل الاستدلال بهذه الآية على سنية السعي؛ وذلك لوقوع الاحتمال في أوجه الدليل - ومعلوم أنه إذا وقع الاحتمال سقط الاستدلال.
وقوله: (فإن الله شاكر عليم) يجازي الطائفين المتنفلين الذين يتطوعون زيادة على المفروض، وهو سبحانه عليم بأعمالهم كلها لا يعزب عنه منها شيء، صغير كان أم كبيرا ١٥٥.
١٥٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)
قوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون).
كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى يحتمل المراد به صنفان من الناس - أما الصنف الأول: فهم أهل الكتاب الذين كتموا الحق يوم أنكروا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وكذبوا القرآن مع أن ذلك كله وارد في كتابهم التوراة والإنجيل، وأنهم مكلفون بالتصديق والإيمان دون انحراف أوشك، لكنهم مع ذلك كذبوا وجحدوا وأبوا إلا التمرد والتكذيب في لجاجة وعتو كبيرين.
وأما الصنف الثاني: فهم الذين يكتمون العلم أيا كان اعتقادهم أو ملتهم، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو المسلمين فما يكتم علما إلا من كان ضالا أثيما سوف يُمنى بالعذاب الشديد - وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار " ١٥٦.
وجاء في لصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحدا شيئا (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى).
وعلى العموم فإن الله يتوعد الكاتمين الذين يخفون ما بينه الله في الكتاب، أي الكتب السماوية - وهؤلاء الذين يكتمون ما بينه الله من

العلم ولا يبينونه للناس سوف يلعنهم الله أي يبعدهم من رحمته ودائرة غفرانه وفضله ليبوءوا بالخزي والعار والعذاب البئيس - وكذلك سوف يلعنهم اللاعنون - و (اللاعنون) يراد بهم الملائكة والمؤمنون من الناس - وقيل: جميع الناس، وفي قول ثالث أنهم الكائنات جميعها - والراجح عندي القول الأول والله أعلم.

١٦٠ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

ثم استثنى الله من هؤلاء الذين تحل عليهم اللعنة من الله والعباد فريقا آخر فاء إلى الله بالتوبة ثم أصلح وبيّن للناس ما أوتيه من البينات والعلم النافع (فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم).

١٦١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

وقوله: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) هذه هي الخسارة الكبرى والإياس المطلق أنه يموت الإنسان كافرا - ولا يموت أحد كافرا إلا رافقته اللعنة دون انقطاع - فهو ملعون دائما وسوف تظل اللعنة تصاحبه على الدوام، إذ يلعنه الله وتلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس جميعا - وذلك في يوم القيامة، إذ يقذف الله به في النار ليبوء بالعذاب الأليم.

١٦٢ - (خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

وفي هذا اليوم الفاصل المخوف يشتد غضب الله على المجرمين الذين ظلموا أنفسهم فسقطوا في الجحيم خالدين (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) سوف يظلون يقارعون العذاب الشديد وهم تطوقهم ألسنة النار المستعرة الحامية - النار التي لا يزيدها مرور الأيام وتعاقب الزمن إلا اشتدادا في اللظى والاضطرام - وهم كذلك لا يؤخر عنهم العذاب أو يفتّر ولو فترة هينة من الوقت ١٥٧.

١٦٣ - (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

قوله تعالى: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ذلك هو أساسا العقيدة في هذا الدين العظيم، بل هو أساس الأمر كله بالنسبة لهذا الكون الهائل المعمور الذي تتزاحم فيه الكائنات والمخلوقات، سواء الأحياء أو الجوامد، فإن أولئك جميعا قد جيء بهم على قدر من الله - فهو الإله المعبود الأجل - الواحد أي ليس من إله معك شريك، بل هو وحده له السلطان والمعبودية، وهو سبحانه (الرحمن الرحيم) أنه ليس له في الرحمة شبيه أو نظير، ولا تملك الأحياء من مدى رحمته المطلقة إلا مثقال قطمير أو دون ذلك.

١٦٤ - (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون).

هذه مجموعة أدلة على وحدانية الله سبحانه، وعلى قدرته البالغة وهيمنته التي تحيط بالأشياء جميعا - وهي سبعة أدلة ينطق كل واحد منها بجلال الخالق الأعظم وإرادته المطلقة التي لا يصدرها أي يحول دون نفاذها شيء.

وأول هذه الأدلة: السماوات السبع التي جعلها الله طباقا عظاما كثافا - وهي على امتدادها وعظمة اتساعها وما يسبح في أرجائها وفضائها من هائل الأجرام وعظيم الخلائق، من كواكب سيارة وأخرى ثوابت غاية في الكثرة والضخامة والبعد بما لا يقوى على عدّه العادون، ولا يتصور مداه العالمون، إن ذلك كله ينطق بالبرهان المستبين على قدرة الخالق ووحدانيته وتفرده في الكمال والمعبودية.

وثانيهما: هذه الأرض التي ندبّ عليها، لما تقوم عليه من دقة النظام والناموس وروعة التناسق المتكامل ودوام الحركة المنتظمة الرتيبة وتمام التركيب المتماسك الموزون من أبحر وأنهر ومحيطات، ومن هاد وسهول وأطواد راسيات، ومن تراب مختلف ألوانه وأنواعه،

وأحجار متعددة الأنواع والصفات منها الصلد الأملس ومنها اللين السهل ومنها الأسود والأدكن أو الأسمر والرمادي أو الترابي - وغير ذلك من الكيفيات والصفات أو الحقائق المقدورة والسمات، كل أولئك ينطق بأجلى دليل وأسطع برهان على عظمة الإله الأحد الفرد الصمد.

وثالثها: اختلاف الليل والنهار، سواء كان الاختلاف بينهما في الطول والقصر، أو في النور والظلمة، أو في إقبال أحدهما وإدبار الآخر - وكل ذلك يؤلف وحده برهانا متميزا لا يقوى على تحقيقه وصنعه إلا الله القادر.

ورابعها: الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس - والفلك السفن - وهي تستعمل في المفرد والجمع، وفي المذكر والمؤنث - ولا جرم أن جريان الفلك طافية على وجه الماء فيه الدلالة على عظمة الله - ومما يثير الانتباه أن تكون في عنصر الماء خاصية الكثافة الملائمة التي تجعله مناسبا للطفو على سطحه - ومن أعجب ما نشاهد: هذه الأحمال الضخمة من الأمتعة والبضائع والأشياء الثقال التي تركم وسط السفينة الواسعة الكبيرة وهي تجري فوق الماء في سريان ليّن آمن عجيب، ولولا ما ذرأه الله في الماء من خاصية رائعة مميزة لغارت الأشياء في جوف الماء إذا ما أصابت سطحه - إن ذلك لبرهان عظيم يحمل الدليل الأكبر على أن الله حق، وأنه سبحانه موجد الخلائق والأشياء كافة.

وخامسها: المطر الذي ينزل منهمرا من السماء؛ لبعث الحياة في النبات والزرع فيكتسي وجه الأرض بثوب جميل أخضر مما يحمل للأذهان والحس بشائر الخير والخصب والبركة - ولولا الماء المنهمر من السماء لأجدبت الأرض وعمها اليبس والموات - وما ينزل المطر لسقي النبات والزرع وإحياء الأرض بعد موتها إلا بأمر الله وتقديره - وذلك هو البرهان على عظمته سبحانه.

وسادسها: تصريف الرياح - أي إرسالها على أشكال وكيفيات متعددة مختلفة.

فمنها البارد الحار، ومنها العاصف والليّن، ومنها ما كان بشيرا بالنصر أو كان نذيرا بالهلاك، ومنها ما كان جائيا من الجنوب أو الشمال، أو كان جائيا من المغرب أو المشرق - وكل ذلك بإرادة الله وتقديره، فلا يندّ عن أمره وقدره شيء - وهو برهان جلي على أن الله حق وأنه على كل شيء قدير.

وسابعها: تسخير السحاب - وهو يجمع على سحب والمفرد سحابة - وسمي بذلك؛ لانسحابه في الهواء - والتسخير معناه التذليل؛ ذلك أن السحاب وهو ما يحمل المطر، قد سخره الله من أجل العباد والأحياء؛ وذلك بإرساله مذللا من مكان لآخر؛ ليعم الخير وتفيض البلاد بالعطاء والخصب.

إن هذه الحقائق كلها تحمل من صدق البراهين والدلالات على قدرة الله وعظيم سلطانه وأنه مالك كل شيء وهو على كل شيء قدير.

١٦٥ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

قوله تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هو بخارجين من النار).

الكافرون الذين يشركون مع الله غيره يتخذون من دون الأنداد - ومفردها الند أو النديد وهو الضد أو النظير والمثيل.

إن هؤلاء المشركين يعبدون من دون الله آلهة أضدادا آخرين - وهؤلاء الأضداد الأنداد كثيرون ما بين صنم ووثن، أو حاكم طاغية متجبر، أو رئيس، أو ملك يستخف الناس لطاعته في كل الأحوال أو يرهبهم ويذلهم إذلالا - وسواء أطاعه قومه وامتثلوا لأمره وسلطانه من دون الله حبا أو نفاقا، فإنهم يحتسبون مع المشركين الذين يعبدون مع الله آلهة أخرى.

وقوله: (يحبونهم كحب الله) أي يحب المشركون هذه الآلهة المصطنعة مثل حبهم لله ذاته سبحانه - فقد استقرت في أنفسهم وأذهانهم الشائهة محبة هؤلاء الأنداد من أصنام وأوثان وحاكمين وملوك بما يعدل محبتهم لله سبحانه.

وأكاد أقول: إن كثيرا ما تترجح في نفوس هؤلاء المشركين المحبة للآلهة المزيفة المصطنعة لتصبح أشد محبتهم لله - نلاحظ مثل هذا

المعنى في أولئك المنافقين ن الناس- وفي زماننا هذا- الذين يعيشون داخرين أذلة وهم يتوددون في ملق للساسة وأولي الأمر والسلطان - وهم في ذلك يتوجهون إليهم في ضعف واستخذاء بأشد مما يتوجهون به إلى الله بارئهم.

قوله: (والذين آمنوا أشد حبا لله) إن المؤمنين يحبون الله الحب الأكبر، الحب الذي يتضاءل دونه كل حب، وإن محبتهم لله لهي أشد من محبة المشركين للأنداد على اختلاف صورها وأسمائها - بل إن محبة الله لهي إحساس مميز وفذ؛ لأنها محبة قائمة على الحق، مستندة إلى عميق الفطرة السليمة والذهن المستنير والوعي المسترشد البصير، والعقيدة الصادقة الراسخة.

قوله: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب) هؤلاء المشركون الذين ظلموا في هذه الدنيا، لو أنهم يرون العذاب الذي سيحيق بالظالمين لعلموا إذ ذاك أن القوة لله وحده.

وبعبارة أخرى لو يعلم المشركون ما سيحل بهم من عذاب على ظلمهم وشركهم، لكانوا قد انتهوا عما هم فيه من ظلم ومخالفة عن أمر الله.

١٦٦ - (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ)

قوله: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وفي يوم القيامة إذ يرى الظالمون العذاب معاينة، يتبرأ المتبوعون الذين كانوا يُعبدون، من التابعين العابدين الذين كانوا ينثنون في خزي وذلة وراء الطواغيت الفاسدة من أصنام وأوثان وحاكمين وساسة وملوك.

إنه إذا قامت القيامة يُهرع الظالمون إلى من يتشبثون به فينقذهم من العذاب النازل المحدق، وهم يومئذ تتغشاهم ظلمات من الرهب والإياس فلا يجدون من حولهم أحدا يرتجون منه خيرا أو شفاعة - فلا الأصنام ولا الأوثان ولا الحاكمون ولا الملوك ولا ذوو الجاه والسطوة والمال، ولا أحد غيرهم يملك يوم القيامة شفاعة أو يستطيع أن يزحزح من العذاب قيد أنملة.

ويوم القيامة تتقطع بالظالمين والمشركين والمجرمين أسباب الخلاص والنجاة، فلا سبيل لهم حينئذ غير سبيل العذاب البئيس يوم يُساقون مقهورين أذلة إلى جهنم؛ لذلك قال سبحانه: (وتقطعت بهم الأسباب) والأسباب جمع سبب وهو يعني في اللغة الحبل، ثم استُعير لكل شيء يُتوصل به إلى أمر من الأمور ١٥٨.

١٦٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

وقوله: (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا) هؤلاء هم المشركون الذين كانوا تبعا للسادة والكبراء في الدنيا، يتمنون يوم يرون العذاب في الآخرة وبعد أن يتبرأ منهم السادة والكبراء، لو أن لهم (كرة) أي عودة أو رجعة إلى الدنيا؛ ليتبرءوا من عبادتهم مثلما تبرأ المتبوعون يوم القيامة منهم، وليعاودوا العمل من جديد فيعبدوا الله وحده دون غير من شركاء أو أنداد.

وقوله: (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) مثلما أراهم الله العذاب فتمنوا أن يتبرأوا من معبوديهم في كرة أخرى، فإن الله يريهم أيضا أعمالهم حسرات عليهم أي أنهم يرون أعمالهم الفاسدة يوم القيامة فتأخذهم الحسرة وهي الندامة الشديدة والتلهف البالغ - ولسوف يرون العذاب القارع المروع فجأة حتى يُسقط في أيديهم وتتقطع قلوبهم وجلا ثم يساقون إلى النار فيمكثون دائمين ما بقي الزمان (وما هم بخارجين من النار) وقوله في الآية: (كذلك) الكاف في محل رفع على الابتداء - وتقديره: مثل ذلك الإراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) أي ندامات وتلهفات - والإراء هنا من رؤية البصر فيكون الفعل (يريهم) متعديا لمفعولين وهما الهاء في يريهن - والثاني (أعمالهم) - فتكون حسرات منصوبة على الحال - وقيل: من رؤية القلب، فتكون حسرات مفعولا به ثالثا ١٥٩.

١٦٨ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

قوله تعالى: (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إله لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون).

وذلك إرشاد من الله للناس وتوجيه لهم أن يأكلوا من خيرات الأرض (حلالا) وسمي الحلال بذلك؛ لانحلاله من عقدة الحظر

(المنع) أما الطيب فمعناه الحلال.
وقد جاء المعنى مكررا للتأكيد - وقيل معناه المستطاب المستلذ في نفسه، وهو ما كان غير ضار للأبدان أو العقول.
ومن أشد وجوه الشر التي يقارفها الإنسان في حياته أن يأكل غير الحلال من الطعام مما حرمه الشرع، ونهى عنه كالربا والغلول والرُّشا وغير ذلك من أوجه المال الخبيث - وهو مال يثقل به كاهل الإنسان المعتدي؛ لما يحمله من أوزار الاعتداء على أموال الناس بالباطل - وقد روي عن ابن عباس أنه لما تليت هذه الآية قام سعد بن أبي وقاص وقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: " يا سعد أطبْ مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يُتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به ".
وقوله: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) خطوات الشيطان هي طرقه ومسالكه التي تقود إلى الشر والمعصية وتفضي إلى النار - وما من شك أن الشيطان عدو ظاهر أكبر للإنسان يحرفه عن مسار الحق وعن صراط الله ومنهجه القويم السليم، وهو كذلك الذي يزلقه إزلاقا ليبوء بالخسران الكبير في هذه الدنيا حيث الشقوة والمعاناة والمضانكة، ثم ليهوي أخيرا في جهنم وذلكم هو الخسران المبين.
١٦٩ - (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)
وقوله: (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) وذلك هو دأب الشيطان، أن يحفز الناس للأعمال السيئة ويوحي إليهم في ترغيب مستديم بفعل المنكرات والفواحش من خلال مسالك ملتوية، وذلك هو ديدن الشيطان الخبيث المتدسس وهو يلج إلى مداخل النفس الإنسانية ليسول لها السوء والفحشاء - والسوء أو المساءة أو السيئة كل مخالفة عن أمر الله، أو اقتراف لمعصية من المعاصي ما يقود أخيرا إلى سوء العاقبة.
والفحشاء لغة القبح، والفاحش كل شيء جاوز الحد، ومنه الغبن الفاحش وذلك إذا جاوزت الزيادة ما يعتاده الناس ١٦٠.
والمقصود بالفاحشة أو الفحشاء ما نهت عنه الشريعة، وغالبا ما تردد في القرآن بمعنى الزنا، وقيل: السوء ما لا حد فيه، أما الفحشاء ما وجب فيه الحد.
وقوله: (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) جملة أن تقولوا في محل جر معطوف على السوء والفحشاء، فإن الشيطان لا يكتفي أن يغري عبيده وأتباعه من البشر بفعل السوء والفحشاء، ولكنه يذهب إلى أشد من ذلك إجراما ونكرا وهو التسويل لهؤلاء العبيد والأتباع أن يفتروا على الله الكذب بمختلف الوجوه - فيقولوا هذا حلال وهذا حرام حرام بغير علم - وقيل: بل المراد أولئك الذين حرموا على أنفسكم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فجعلوه شرعا لهم افتراء على الله - وغير ذلك من وجوه الافتراء على الله، سواء باصطناع الأقوال أو الآراء أو الشرائع أو المذاهب أو النحل التي تنسب إلى الله كذبا وزورا مما نسمعه أو نشاهده أو نقرأ عنه كثيرا، في هذا الزمان وفي الأزمنة الفائتة - وذلك هو القول على الله بغير علم يحفز الشيطان عبيده وأتباعه لاصطناعه؛ ليكونوا ظالمين مفترين، وليثيروا في الناس أسباب الشك والخلط والبلبلة، وليعيثوا في الأرض تشويها وافسادا.
١٧٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ)
قوله تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) - المراد بذلك المشركون الذين إذا دعاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى دين الله حيث التوحيد الخالص والشرع الكامل العظيم، فإنهم يتذرعون بذريعة سقيمة فاسدة (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) أي نتبع من العبادة والدين ما وجدنا عليه آباءنا، وذلك هو التقليد الفاسد الذي لا يركن إلى شيء من التفكير أو الوعي، ولا يستند إلى أدنى درجة من إعمال العقل، وإنما هو الاتباع المجرد الأعمى القائم على الضلال والسفه وتبلد الذهن والتفكير.
وفي مثل هؤلاء المقلدين الصم يقول الله في إنكار وتقريع: (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) الهمزة تفيد الاستفهام في إنكار، والواو للعطف - إن الله جلت قدرته ينعى على هؤلاء الجهلة السفهاء حماقتهم وضلالهم بأنهم يقلدون آباءهم في الباطل حتى ولو كان آباؤهم لا يملكون فهما ولا وعيا ولا هداية.

أما التقليد فهو الأخذ بقول من غير حجة، والمقلد من اعتقد صحة فتيا أو رأي دون استناد إلى برهان، يستوي في ذلك أن يكون المقلد من الجاهلين الذين لا يستطيعون أن يهتدوا إلى حجة أو دليل كالعوام، وهم فئة من الناس لا تملك أثارة من علم أو معرفة - أو أن يكون المقلد من المتعصبين الذين تنثني صدورهم وطبائعهم على أقوال أو آراء معينة، لا يبغون عنها حِوَلاً - ولا يرتضون من دونها بديلا - أولئك صنف من الناس يميل مع طبعه الجانف، ويحفزه هواه المريض فلا يعبأ بالحجة أو المنطق ولا يصبح لصوت العقل السليم والحجة القويمة.

وهذان الصنفان من المقلدين خاطئان - وذلكم هو التقليد الفاسد المرفوض الذي وقع عليه التنديد في الآية الكريمة؛ لما فيه من إزهاق للمنطق السليم أو الحجة النيرة الراجحة، ولما فيه من اتباع للهوى الذي يحرف المرء صوب العناية والضلالة والباطل.

لكن التقليد المستساغ ذلكم الذي يتبع فيه المرء سبيل الوحي المنزل من السماء - وأساس ذلك أن الوحي حق - أو هو وجه من أوجه الحق المطلق الأكبر - فهو بذلك صواب كله وحق كله؛ لأنه من إرادة الله سبحانه؛ إذا امتنَّ على الإنسان في هذه الأرض أن هداه إلى صراطه المستقيم، وعلمه من الحق ما لم يكن يعلم.

وما كان الإنسان ليعلم كثيرا من وجوه الحق لولا الوحي الصادق الأمين الذي يحمل إلى الأرض رسالة اليقين بما في ذلك العقيدة صادقة متماسكة متينة قائمة على صدق الفطرة وكامل الوعي والتفكير المستنير.

ومن التقليد السليم اتّباع العلماء والمستنبطين وأولي الألباب في مختلف مناحي العلوم والمعارف ما داموا من الصالحين الأتقياء الذين يعلّمون الناس الخير ويبصرونهم بحقيقة أمورهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذا الإتباع الحميد قد أثنى الله على النبي يوسف عليه السلام الذي أعلن عن اتباعه ملة آبائه من الأطهار الميامين، فقال سبحانه: (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس).

وفي اتباع أهل العلم وأولي الفكر النير السديد من العلماء والمتخصصين يقول سبحانه: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

١٧١ - (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

وقوله: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) يشبه الله المشركين الشاردين عن دعوة الحق بالدواب والأنعام التي ينعق بها راعيها مناديا لها وداعيا إياها إلى ما ينفعها ويرشدها، لكنها لا تفقه ولا تفهم مما يقول شيئا وإنما تسمع صوت دعاء ونداء فقط.

وفي قول آخر وهو أن ذلك مثل ضربه الله للمشركين في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه من دعائهم شيئا.

وفي تقديرنا أن القول الأول هو الراجح - ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لهو الراعي لهذه الأمة؛ فهو هاديا ومرشدها إلى السلامة والنجاة، لكن المشركين المعاندين أشبه بالأنعام والدواب التي لا تفقه من دعائه وندائه لهم شيئا، بل تسمع مجرد صياح فقط - وقريب من ذلك قوله تعالى في هذا النبي الكريم (ص) إذا دعا قومه لعبادة الله والانسلاخ من ربقة الجاهلية، لكنهم في أول الأمر نكصوا نكوصا جانحا، وكان مثلهم في ذلك مثل الحمر التي تتولى فرارا من أسد عظيم: (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة).

وقوله ينعق من النعيق وهو الصياح - والدعاء يعني العبادة - والنداء ما كان بصوت مرتفع يسمعه البعيد.

وقوله: (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) ذلك وصف للكافرين الشاردين عن نداء الحق لما غشيهم من شلل أصاب فيهم الآذان فباتوا صما، وأصاب فيهم الألسن التي تنطوي فباتت خرسا وكذلك قد أصاب فيهم الأبصار فارتدوا عميا لا يبصرون من الحق شيئا.

ومثل هذا الشلل العام الذي أصاب الآذان والألسن والأبصار قد آل أخيرا إلى أسوأ مآل، وهو أن هؤلاء المشركين المشلولين أصبحوا لا يفهمون من الحق والخير شيئا، بل إنهم لا يفهمون غير الفاسد من القول ولا يسلكون غير السبيل الباطل والخسران (فهم لا يعقلون).

١٧٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفورا رحيم) هذه الآية تشتمل على فوائد جمة وأحكام تفصيلية عظيمة جديرة بالحديث عنها والتبيين - لكن الآية الأولى فيها إباحة للمؤمنين أن يأكلوا من طيبات الرزق - وقد بينا سابقا معنى الطيب على قولين: أحدهما: أنه الحلال غير المحظور - وثانيهما: أنه ما تلذ به النفس وتستطيبه.

ويأمر الله كذلك أن يشكر المؤمنون ربهم عقيب استمتاعهم بالطيبات من الرزق، والشكر من العبادة لله يعني الاعتراف بالنعم التي امتن بها الله على الناس، ويقترن بذلك العمل وهو المبادرة بالامتثال والطاعات، وبذلك فإن الشكر يكون بالقول والعمل معا - ذلك إن كان المؤمنون يبتغون لأنفسهم الخير والرضى من الله ليظفروا بسليم العاقبة وحسن المآل - وفي الأكل الحلال والاستمتاع بالطيبات من الرزق أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِيَ بالحرام فأنّى يستجاب لذلك ".

١٧٣ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) (وقوله: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) (إنما)، اتصلت ما بإن فكفتها عن العمل، وإنما تجيء في الكلام لإثبات المذكور ونفي ما سواه ١٦١، وهي بذلك تفيد الحصر - أي أن التحريم محصور في الأعيان المبينة في هذه الآية - و (الميتة) منصوب على المفعولية للفعل (حرم) - وما بعدها معطوف عليها - أما من الناحية الشرعية فإن التحريم يشمل كلا من:

(الميتة) وهي الدابة مأكولة اللحم أصلا، لكنها فارقتها الروح من غير تذكية شرعية معلومة - فما كان كذلك فهو غير مأكول إلا ما استثني من ذلك وهما السمك والجراد؛ لقوله تعالى: (أحل لكم صيد البحر وطعامه) وفيما أخرجه أهل السنن عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " يشير بذلك إلى البحر.

وروى الإمام أحمد وابن ماجه والدارقطني عن ابن عمر حديثا مرفوعا: " أحل لنا ميتتان ودمان، السمك والجراد، والكبد والطحال " وبذلك فإن استثناء السمك والجراد يأتي على سبيل التخصيص لهذا الآية الكريمة.

أما الانتفاع بالميتة التي فارقتها الروح من غير تذكية شرعية معلومة فهو موضع خلاف كذلك - فثمة قولان في هذه المسألة: أحدهما: أن الانتفاع بالميتة جائز واستدلوا على ذلك بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرّ على شاة ميتة لميمونة فقال: " هلاَّ أخذتم إهابها فدبغتموها فانتفعتم به ".

وثانيهما: أن الانتفاع بالميتة كيفما كان غير جائز؛ استنادا إلى ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وفي حديث آخر: " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وفي حديث آخر: " لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب ".

والراجح عندي هو القول الثاني؛ استنادا إلى الدليل الظاهر: " لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب " وهو نص متأخر حتى يمكن الحكم بأنه ناسخ لما عارضه من حديث - والله سبحانه وتعالى أعلم.

والميتة إذا كانت في بطن الذبيح جنينا فثمة خلاف في ذلك - والراجح أنها تؤكل، إلا إذا ظل الجنين حيا بعد ذبح أمه أو نحرها - فإنه في مثل هذه الحالة يكون له حكم الحي الذي يذكى ليؤكل، لكنه إن كان ميتا فإنه يحتسب عضوا من أعضاء أمه فيؤكل دون تذكية - وقيل: لا يؤكل؛ لكونه ميتا، والقول الأول هو الراجح بدليل ما رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت فقال: " إن شئتم فكلوه، لأن ذكاته ذكاة أمه ".

وإذا وقع في الطعام حيوان طائر أو غيره فمات فثمة قولان: أحدهما: يذهب إلى نجاسة الطعام كله؛ لمخالطته الميتة - وثانيهما: يذهب

إلى نجاسة المرق، إذ لا يمكن تطهيره بل يراق، أما اللحم فيطهر إذا غسل بالماء - وفي تقديرنا أن هذا هو الراجح، لأن المرق الذي وقعت فيه النجاسة قد تخالط بها تماما فغير مستطاع فصلها عنه، لكن اللحم إذا غسل تماما أمكن تنقيته من أدران النجاسة - وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال: " يغسل اللحم ويؤكل ".

أما البيضة واللبن يخرجان من الدابة المأكولة بعد موتها، فقد اختلفت كلمة الفقهاء فيهما، وقد اتفق الإمامان الشافعي ومالك على أنهما لا يؤكلان لنجاستهما، لكنهما اختلفا في مصدر نجاستهما، لكنهما اختلفا في مصدر نجاستهما - فقال الشافعي: إنهما نجسان بنجاسة الأصل وهي الميتة وهما عضوان منها - وقد استند في ذلك إلى عموم قوله تعالى: (حرمت عليكم الميتة).

وذهب الإمام مالك إلى أن البيضة واللبن يكونان طاهرين في الأصل وذلك بعد موت الدابة من غير تذكية، لكنهما يتنجسان لمجاورتهما اللحم النجس.

أما أبو حنيفة فقد قال بطهارتهما - وعلل ذلك بأن اللحم يؤكل بما فيه من العروق مع القطع بمجاورة الدم لدواخلها من غير حاجة لتطهير أو غسل.

أما (الدم) فهو نجس ويحرم أكله أو الانتفاع به - إلا ما عمت به البلوى من الدم فهو معفو عنه، وذلك كالدم يخالط اللحم والعروق، أو ما يصيب بدن الجزار وثوبه مما يصعب معه التحرز - فإن كان كذلك فهو مما تعم به البلوى، أو ما يكون التحرز منه يفضي إلى الحرج - ومن قواعد الشريعة السمحة دفع الحرج - فإن من قواعد هذا الدين قيامه على التسهيل واليسر ودفع الحرج بكل ظواهره في كل مناحي الشريعة قال سبحانه: (وما جعل عليكم في الدين حرج).

على أن هذا النص الكريم في تحريم الدم يفيد العموم، لكنه حرج منه صنفان من الدم وهما الكبد والطحال، وذلك ما جاءت به السنة الكريمة فيما روي مرفوعا من حديث ابن عمر: " أحل لنا ميتتان ودمان، السمك والجراد والكبد والطحال " فهما بذلك مباح أكلهما على سبيل التخصيص - فالنص في ذاته عام، لكنه مخصص بالسنة الصحيحة.

وأما (لحم الخنزير) فهو محرم العين سواء ذكي أم لم يُذكّ - فهو حرام جملة وتفصيلا إلا ما روي عن شعره - والمقصود بتحريمه عينا أنه نجس وحرام لذاته وعلى هذا لا يتحول إلى مباح بالتذكية بل هو باق على صفته من النجاسة والتحريم فلا يجوز شرعا أن يؤكل منه شيء ولا أن يُباع أو يُشترى باستثناء الشعر فإنه يجوز استعماله للخرازة - فقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال " لا بأس بذلك " والمراد بالخرازة خياطة الثياب.

قوله: (ما أهل به لغير الله) الواو تفيد العطف - ما اسم موصول في محل رفع معطوف على الميتة - (أهل) فعل ماض مبني للمجهول - وهو من الإهلال، ومعناه رفع الصوت - نقول: استهل الصبي أي صاح عند ولادته - وقد كان من عادة العرب الصياح باسم المقصود بالذبيحة ١٦٢.

وقد ذكر عن ابن عباس وغيره من أهل العلم أن المراد بما أهل به لغير الله هو ما ذبح على الأنصاب أو الأوثان - فإذا توجه الذابح بنيته نحو غير الله كانت ذبيحته مما أهل به لغير الله فلا يحل إذن أكلها - وذلك المجوسي يذبح للنار، فإذا ذبح ذكر اسم النار - وكالوثني يذبح للوثن، فإذا ذبح ذكر اسم الوثن على المذبوح - ثم ذلك الذي لا دين له، فهو غير مبال بملة من الملل - ولا يهمه أن يكون ذا دين من الأديان كأولئك الماديين الملحدين، فهم إذا ذبحوا فما تحل ذبيحتهم للأكل، بل ترمي للكلاب ويندرج في هذا الحكم كل ذبيحة يكون توجه النية فيها لدى الذابح نحو غير الله - مثل ذلك الذي يذبح ذبيحته على الدار أو السيارة أو نحو ذلك - وشأن ذلك شان الذي يذبح على النصب أي من أجلها.

وقوله: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) المضطر هو المحتاج - من الفعل اضطر على وزن افتعل، وهو من الضرورة - فمن حاقت به ضرورة أبيحت له هذه المحظورات فله أن يأكل منها.

ويستوي في الاضطرار أن يكون سببه الإكراه من عدو أو ظالم، أو الجوع الشديد الذي يخشى معه الهلاك - فإن للمضطر حينئذ أن يأكل من الميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو ما أهل لغير الله به - على أن يكون المضطر غير واجد طعاما غير هذا المحظور، فإن وجد طعاما كالثمر وغيره لواحد من الناس وكان يعلم أنه ليس في أكله ما يجرّ عليه تهمة السرقة، فله أن يأكل منه ما يسد حاجته ويُذهب

عنه شدة المخمصة والتلف، ليقوى بعد ذلك على السعي إلى أن يبلغ ما يريد.
وفي ذلك أخرج ابن ماجه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل: أفرأيت إن احتجنا إلى الطعام والشراب؟! - فقال: " كل ولا تحمل، واشرب ولا تحمل ".
وأخرجه ابن ماجه بإسناده عن عبّاد بن شرحبيل قال: أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا ١٦٣ - من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلته في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته فقال للرجل: " ما أطعمته إذ كان جائعا أو ساغبا، ولا علمته إذ كان جاهلا " فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - فرد إليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق.
وأخرج الترمذي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل عن الثمر المعلق فقال: " من أصاب منه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه " والخبنة هي ما يحمل تحت الإبط - وخبنت الشيء خبنا أي أخفيته.
وقوله: (غير باغ ولا عاد) غير منصوب على الاستثناء - وقيل على الحال ١٦٤ - وباغ أي متجاوز للحد الذي تندفع معه الحاجة، إذ ليس للمضطر أن يأكل أو يشرب أكثر مما يحتاج إليه من إذهاب لشدة الجوع وخطره على الحياة - وعاد: أن يجد بديلا عن هذه المحرمات ثم يأكلها.
وفي قول آخر: (غير باغ) أي غير قاصد من أكل المحرمات تحصيل لذة أو شهوة، بل يقصد دفع الحاجة وغائلة الجوع الذي يخشى منه على النفس مع انعدام الطعام الحلال - (عاد) أي مستوف للأكل فوق ما يسد الرمق.
وفي قول ثالث: الباغي والعادي يشملان كل قاطع للسبيل أو مفارق للجماعة خارج على الإمام أو من كان خارجا من بيته في معصية فألمت به الحاجة - ومثل هؤلاء لا يستحق الرخصة في الأكل من الطعام المحظور حتى وإن كان مضطرا، وذلك لبغيه وعدوانه - ذلك ما ذهب إليه أكثر الفقهاء خلافا للإمام أبي حنيفة، إذ جعل لكم من هؤلاء رخصة الأكل من المحرمات حال الاضطرار استنادا إلى إطلاق النص الكريم - وهو أحد قولين للإمام الشافعي - وذلك الذي نرجحه ونميل إليه اعتمادا على الآية في إطلاقها هنا، ويقول سبحانه في آية أخرى: (ولا تقتلوا أنفسكم) فإن الإمساك عن أكل الحرام عند الضرورة ربما أوقع في الهلاك أو إذهاب النفس، وذلك أشد حرمة ونُكرا من أكل الطعام الحرام.
وقوله: (إن الله غفور رحيم) يغفر الله للمضطر خطيئته ويتجاوز له عن السيئة في الأكل من مال غيره بغير إذنه - وهو تبارك وتعالى (رحيم) إذ أباح للمضطر أن يأكل من مال غيره دون إذنه حفاظا على نفسه من الزهوق ١٦٥.
أما استعمال المحرمات للتداوي، كشرب الخمر ونحوه مما حرمه الشرع، فذلك موضع خلاف، فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى عدم جواز التداوي بما حرم الله كالخمر وغيره مما يحرم أكله أو شربه - وهو قول المالكية والحنابلة وكذا الشافعية - فقد منع بعضهم التداوي بكل محرم إلا بأبوال الإبل خاصة لحديث العرنيين - ومنع بعضهم التداوي بكل محرم، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: " إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليهم " ١٦٦ ولقوله عليه السلام لطارق بن سويد وقد سأله عن الخمر فنهاه، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال عليه السلام: " إنه ليس بدواء ولكنه داء " ١٦٧ - وهذا يحتمل أن يقيد بحالة الاضطرار، فإنه يجوز التداوي بالسم ولا يجوز شربه.
وقال الإمام أبو حنيفة: يجوز شرب الخمر للتداوي دون العطش - وهو قول الثوري - ودليل ذلك إباحة النبي - صلى الله عليه وسلم - لعبد الرحمن بن عوف أن يلبس الحرير لحكة أصابته ١٦٨.
أما مقدار ما يؤكل من المحرم كالميتة ونحوها: فإن المباح من ذلك ما فيه سد الرمق والأمن من الموت، فلا يبلغ بذلك حد الشبع وهو قول الحنفية، والحنابلة وأحد القولين للشافعي - ووجه ذلك أن الآية دلت على تحريم الميتة واستثنى ما اضطر إليه، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل له الأكل فوق ما يسد الرمق، لأنه بعد سد الرمق لا يكون مضطرا.
وذهبت المالكية إلى جواز الأكل من الميتة ونحوها من المحرمات حتى الشبع وهو أحد قولي الشافعي - ودليل ذلك ما رواه أبو داود

عن جابر بن سمرة أن رجلا نفقت ١٦٩ عنده ناقة ولم يكن عنده ما يقتات غيرها، فسأله النبي - صلى الله عليه وسلم -: " هل عندك غنى يغنيك " قال: لا - قال: " فكلوها " ولم يفرق بين الشبع وما دونه - وما جاز سد الرمق منه جاز الشبع منه ١٧٠.

١٧٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد).

المراد بالكاتمين لما أنزل الله هم اليهود، فقد أخفوا حقيقة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وصفته التي كانت مكتوبة عندهم في التوراة - وكان من أمانة الصدق والتبليغ أن يبينوا للناس أن هذا هو نبي الأمة، وأنه صادق أمين قد آتاه الله الوحي، لكنهم أنكروا ذلك بالكلية وكتموا في صدورهم خبر الرسالة المحمدية، وذلك في مقابل ما اشتروا به ثمنا قليلا - والثمن القليل هو جنوحهم للرياسة وعلو المكانة، فقد كانوا يتصورون أنهم موضع اعتبار وتكريم، فخشوا بذلك على مكانتهم أن تهون إذا أظهروا صدق الكتاب الحكيم " القرآن " أو اعترفوا بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

ومما يذكر أيضا أن اليهود كانوا يستفيدون من قريش عطاء ماليا بخسا وهو ما كانوا يأخذونه على هيئة رشا وهدايا عوضا لتملقهم إليهم وإطرائهم والثناء عليهم وكذلك الإعلان في صراحة أن العرب المشركين خير من محمد وأتباعه، وأنهم وما يعبدون على حق وصدق - وأن المسلمين على الباطل.

ذلك هو اشتراؤهم بدينهم وكتابهم ثمنا قليلا - فقد أعطوا كثيرا إذ فرطوا في دينهم وكتابهم، وأخذوا بدلا من ذلك ثمنا بخسا على هيئة عطايا أو هدايا أو رشاء.

وذلك ثمن حرام بخس أخذوه بدل تفريطهم في دينهم وكتابهم، فكان بذلك أن جزاءهم النار يأكلونها في بطونهم لتنصهر بها الأحشاء والأمعاء والحوايا وليذوقوا وبال أمرهم جزاء افترائهم على الله وممالأتهم للمشركين كذبا وملقا وزورا.

وكذلك فإن الله سبحانه لا يكلمهم يوم القيامة - أي يحيطهم بغضبه فلا يرضى عنهم (ولا يزكيهم) أي لا يجعلهم مع الطاهرين الأزكياء ولا يثني عليهم خيرا، بل إن الله قد أعد لهم عذابا مؤلما وهو العذاب الذي ليس له في صورة العذاب مثيل، لا في الإيلام، ولا في الإيجاع، ولا في التحريق - فإنه العذاب المخوف الذي تجتمع فيه كل أسباب الهوان والتعس والإيلام من إذلال وخزي أو تحريق وإصلاء او تعذيب بالسم والجوع أو إطعام بما لا ينفع ولا يغني من جوع كالزقوم والضريع والغسلين، والعياذ بالله من ذلك كله.

١٧٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

وقوله: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) (أولئك) اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وخبره الاسم الموصول (الذين) في محل رفع، والجملة الفعلية بعده صلة الموصول.

المراد باسم الإشارة (أولئك) هم اليهود الذين اعتاضوا عن الاستقامة وقول الحق والعدل والالتزام بشرع الله ودينه، بالزيغ والانحراف إذ كذبوا على الله بنكرانهم نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وتحيزهم إلى فئة المشركين - وذلك هو اشتراء الضلالة وهي الكفر والانحراف والتحيز للشرك والباطل، ودفعوا بدل ذلك عقيدتهم وملتهم إذ زيفوهما تزييفا وبدلوهما تبديلا - ومثل هذا التزييف أو التبديل أو الانحراف يؤول بهؤلاء المشركين إلى عذاب الله بدلا من مغفرته.

وقوله: (فما أصبرهم على النار) ما تفيد التعجب والتقدير: شيء أصبرهم - أصبر فعل ماض مبني على الفتح والضمير المتصل في محل نصب مفعول به - والميم للجمع وما في محل رفع مبتدأ، وما بعدها خبر ١٧١ - والآية تبين فظاعة العذاب الأليم الذي يحترق فيه هؤلاء المشركون الضالون - وهم حين يلجون النار يكبكبون فيها تكبكبا وهم داخرون مقهورون - حتى إن من يبصرهم وهم يتقاحمون في

النار يمتلكه العجب المدهش لصبرهم على النار المتأججة المستعرة التي تصهر الجبال فكيف بالجلود والأبدان؟!.
وقيل: (فما أصبرهم على النار) أي ما أدومهم وأطول بقاءهم في النار وقيل: ما تفيد الاستفهام ومعناه التوبيخ - وقيل: تعني الاستهانة والاستخفاف بهم.
١٧٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)
وقوله: (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) يراد باسم الإشارة (ذلك) العذاب أو الحكم بالنار - والتقدير هو: ذلك العذاب أو النار لهؤلاء الكافرين، لأن الله قد نزل كتبه بالحق - فهي ذاتها حق وهي إنما تنطوي على الحق وتدعو إليه - فقد جاء في تلك الكتب خبر النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - والأمر بتصديقه وتأييده إلا أن أهل الكتاب كتموا ما ورد من خبر في كتابهم، ونفوا عنه صفة النبوة، وأنكروا حتى مجرد ذكره في التوراة.
أولئك هم الكافرون المكذبون الذين اختلفوا في الكتاب بتكذيبهم النبي محمدا - صلى الله عليه وسلم - وبإعلانهم جهارا أنه لم يرد ذكره في الكتاب - إن هؤلاء الجاحدين المعاندين (لفي شقاق بعيد) والشقاق أو المشاقة بمعنى المخالفة - نقول: شاقه شقاقا أي خالفه مخالفة - وحقيقة ذلك أن يأتي كل من المتخالفين بما يشق على صاحبه، فيكون كل منهما في شق غير شق صاحبه.
١٧٧ - (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)
وقوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)
(البر) اسم جامع للخير - وهو منصوب على الخبرية لليس - والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع اسم ليس - والتقدير: ليس البر توليتكم ١٧٢.
وقد ورد في سبب نزول الآية أن أهل الكتاب وبعض المسلمين قد شق عليهم أن يغيروا قبلتهم التي كانوا عليها وهي بيت المقدس ثم يتوجهوا بعدها إلى مكة القبلة الجديدة - لقد غضب اليهود من ذلك أشد الغضب واستاءوا بذلك كثيرا - وكذلك قد ارتاب فريق من المسلمين من ضَعَفَةِ الإيمان وكأن البرّ والإيمان والإحسان كله محصور في شكل التوجه إلى جهة من الجهات، سواء كانت شرقا أو غربا - فليس البر في التوجه نحو مشرق أو مغرب إن كان ذلك عن غير أمر من الله - ولكن البر كما شرحته الآية هو الإيمان الصحيح الأوفى الذي يأتي مقترانا بالعمل الصحيح المشروع.
ما قيمة التوجه صوب جهة من الجهات مادام ذلك شكليا بحتا وغير قائم على العقيدة الواعية الراسخة، وغير مقترن بالعمل النافع المشروع - ليس الإسلام قائما على التعصب لمتشنج أو الشكلية الخاوية من المضمون - ولا هو بالدين الذي يعتمد طقوسا شكلية بلهاء تتلقاها الأجيال كابرا عن كابر دون وعي أو إدراك أو تبصر.
ولكن الإسلام دين الفطرة والعقل - وهو طريقه الوحي المنزل من السماء الذي يحمل للأرض معالم الهداية والرشاد ليثوب الناس إلى ربهم وليمضوا في طريقه، طريق الحق والعدل والنور، طريق الهداية والفضيلة والعمل المخلص النافع.
وها هي الآية الكريمة تبين حقيقة البر الذي ينفع الناس والذي يقودهم إلى الخير ومرضاة الله، فقال سبحانه: (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه - - .) ذلك هو البر الصحيح المقصود - وليس هو التوجه نحو شرق أو غرب دون ترشيد من الله إلا التعصب والاستعصام بالشكليات غير الواعية.
إن البر هو الإيمان بالله أولا - فإن الله جل شأنه حق يملأ الوجود كله - وما من ظاهرة في هذا الكون ولا حقيقة أو معلوم أو خليقة

من خلائق الأحياء وغير الأحياء إلا ويشهد في سطوح مكشوف على وجود الله وعلى عظمته وجلاله وهيمنته المطلقة.
وكذلك يوم الآخر - وهو يوم حافل ورهيب ومشهود تتلاقى فيه البشرية كافة وتجتمع فيه الأحياء جميعا - وفي هذا اليوم الشديد تلاقي كل نفس ما قدمت من عمل - وإذ ذاك لا مناص لكل امرئ من مواجهة مصيره المرتقب تبعا لما قدم في الدنيا - وحينئذ لا تنفع أحد شفاعة ولا تنجيه من العذاب خُلة كان يعقدها في الدنيا مع عظيم أو رئيس أو ذي مكانة وصولجان - بل إن هذه ساعة الفزع الأكبر التي تغيب فيها الوساطات والعلائق والشفاعات - وما من إنسان حينئذ إلا وهو حائر واجف مرتعب لا يلوي من خلفه أو خلفه أو حوله على شيء.
وكذلك الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين - وهذه أركان ثلاثة أخرى من أركان العقيدة في هذا الدين الكبير - فإنه لا قوام لا إيمان امرئ إلا أن يستوفي في نفسه أركان هذه العقيدة الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيرهما وشرهما.
ولا يكتمل البر تماما إلا بالعمل كذلك، فإنه لا يكفي أن تتركز في النفس معاني الإيمان إلا أن يقترن بعمل الصالحات، وهي في قوله: (وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب)، فإن من تمام البر إعطاء المال مع الحاجة إليه أو الرغبة فيه لذوي القربى والآخرين الذي بينتهم الآية - والمال منصوب على المفعولية - (ذوي) منصوب بالياء؛ لأنه مفعول ثان للفعل (آتى) أي أعطى - وبذلك فإن شبه الجملة- (على حبه) - تأتي معترضة؛ لما في ذلك من تبيين لتمام البر الذي يكون عند إعطاء المال مع الرغبة فيه أو الحاجة إليه - فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعا: " أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر.
وفي حقيقة المال الذي يُقدم على حبه خلاف - فقد قيل: إن المراد بهذا المال الزكاة - وفي قول ثان: إن المراد ما كان من مال يؤدي غير الزكاة - وذلك هو الصواب - فقد أخرج الدارقطني عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن في المال حقا سوى الزكاة " ثم تلا هذه الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم) ويشبه ذلك أيضا قوله تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) وقوله سبحانه: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون).
وقوله كذلك في آية أخرى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) - قوله: (ذوي القربى) هم أقرباء الرجل - فهم أولى بالبر والعطايا خصوصا إذا كانوا محاويج معوزين - فقد جاء في الحديث: " الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم اثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس يبرك وإعطائك ".
أما اليتامى فهم الذين مات آباؤهم، ولما يبلغوا الحلم ولم يكن لهم معيل كاسب - هؤلاء الصغار الذين مات آباؤهم ولا يستطيعون أن يتكسبوا؛ لصغرهم وافتقاد من يقوم على رعايتهم، هم الأيتام الذين أوصى الله بهم وأوجب أن يعطوا من المال ما يدرأ عنهم الفاقة، ويدفع عنهم غائلة الطوى والحاجة، أما إن بلغ اليتيم الحلم فقد بات رجلا يستطيع أن يكد ويكتسب - فهو حينئذ لا يعطي من المال بكونه يتيما، إلا أن يكون ذا حاجة فإنه يعطي - وقد جاء في الحديث الشريف: " لا يُتم بعد احتلام " ١٧٣.
أما المساكين فهو جمع تكسير مفرده مسكين - والمسكين هو الذي يملك ما يكفيه أو يسد حاجته من الطعام والكساء والإيواء - وفي ذلك جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ".
وأما ابن السبيل فإنه يراد به المسافر المنقطع الذي لا يمتلك مالا - أو هو البعيد عن أهله ودياره والذي انقطعت به أسباب العيش لافتقاده المال - فذلكم يعطي من المال ما يمكنه من بلوغ أهله ودياره.
وقيل: إنه يتناول الضيف فإنه معتبر من أبناء السبيل - والضيف الذي ينزل بأحد المسلمين له واجب الضيافة من إطعام وإيواء وإتحاف.
وقوله: (والسائلين) وهم الذين يسألون الناس آو يتعرضون لطلبهم، فإنهم ينبغي أن يعطوا سواء كان ذلك من مال الزكاة أو غيرهما.
على أن السائل يعطي دون مسائلته أو التنقيب عن حقيقة حاله - فما يعتبر في هذا الأمر غير الطلب من أحد السائلين، فإنه إذا سأل

وجب إعطاؤه دون مجادلة أو منّة حتى وإن جاء السائل يلبس الفاخر من الثياب - فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " للسائل حق وإن جاء على فرس ".
وقوله: (وفي الرقاب) وهم المكاتبون - ومن المكاتبة وهي عقد بين العبد والسيد يلتزم العبد بموجبه دفع مبلغ من المال لسيده بدل إعتاقه على أن يكون الدفع على التراخي - هؤلاء المكاتبون أمانات في رقاب الأسياد المالكين - فعليهم أن يرعوهم حق رعايتهم، وأن يعاملوهم بالرحمة والإحسان، وأن يستجيبوا لطلبهم في المكاتبة ليتمكنوا بعد ذلك من الفكاك من رق العبودية - وبذلك فإن الشريعة توجب إعطاء هذا الصنف من الناس قدرا من المال يستعينون به على التحرر - ومن المعلوم أن هذا القدر من المال غير داخل في مبلغ الزكاة الواجب إخراجه لمستحقيه، ولكنه يؤديه المؤمنون الراغبون في عمل البر - وفي الحديث الشريف: " في المال حق سوى الزكاة ".
قوله: (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) أي أتم الصلاة على أحسن وجه من تمام الركوع والسجود والقراءة وتمام الخشوع والطمأنينة مع ما يرافق ذلك من اجتماع النية وحضور القلب.
وكذلك فإن من البر إيتاء الزكاة - أي دفعها لمستحقيها دون تأخير أو تردد أو إنقاص - والمراد بالزكاة هنا المفروضة وهي غير المذكورة في أوجه البر السابقة، يؤيد ذلك ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " إن في المال حقا سوى الزكاة ".
وقوله (الموفون بعهدهم إذا عهدوا) العهد هو الموثق والأمان والذمة ١٧٤.
والوفاء به واجب على المسلم ليكتب عند الله مؤمنا صديقا وإلا كان على شعبة من النفاق، فقد صح في الحديث الشريف: " آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر ".
والوفاء بالعهد بعد الالتزام والتعاهد يكون بين العبد وربه، أو بين العبد وغيره من الناس، فإذا عاهد المسلم ربه ليلتزم بأمر من الأمور المشروعة وجب الوفاء بذلك - وهو كذلك إذا عاهد أحدا غيره من العباد، فما يكون له بعد ذلك أن ينقض عهده أو يُخلف ما ألزم نفسه بالوفاء به.
وقوله: (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) (والصابرين) منصوب على المفعولية لفعل مدح محذوف، وقيل: معطوف على قوله: (ذوي القربى) ١٧٥ و (البأساء) معناه الفقر - (والضراء) معناه المرض - أما البأساء فهو الحرب.
هذه هي المقتضيات الحقيقة للبر، والتي تنطق بها حقيقة هذا الدين العظيم، فلا طقوس أو شكليات، ولا مظاهر جوفاء يعوزها المضمون كشأن المشركين وأهل الكتاب الذين يعبأون بالصورة دون المعنى، وبالشكل دون الحقيقة، وبالطقوس الخاوية البلهاء دون العقيدة الواعية والفكر السليم - وسواء كان التولي نحو المشرق أو المغرب، فإنه لا قيمة لذلك ما لم يقترن بالتوجه الحقيقي والكامل نحو الله وحده وما لم يقترن كذلك بجملة الأسس الإيمانية والتطبيق العملي لظواهر هذا الدين، وهي مقتضيات البر التي متحدثنا عنها آنفا - ما بين إيمان صحيح وإيتاء للمال على حبه ثم إقامة للصلاة وأداء للزكاة ووفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس - ولا يمارس ذلك أو يحققه على التمام إلا من كان من الصادقين المتقين - وفي ذلك يقول سبحانه آخر الآية: (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) ١٧٦.
١٧٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) القصاص معناه المماثلة في العقاب فأيما أحد اعتدى عمدا بقتل أو دونه كالجرح وغيره، كان لولي القتيل أو للجريح أو المعتدى عليه أن يقتص بالمثل من المعتدي القاتل أو الجارح - وقيل: القصاص مأخوذ من قص الأثر، ذلك أن القاتل بعد عدوانه يولي ذاهبا فيكون لقدميه من بعده أثر مما يعين أولياء القتيل على تتبع أثره وملاحقته وإدراكه - وقيل: القصاص مأخوذ من القص أي القطع، وأساس ذلك أن يُقتل المعتدي أو يجرح قصاصا نظير عدوانه ١٧٧.

ولقد شرع الإسلام القصاص عقابا رادعا تنزجر به نفوس الذين يسول لهم الشيطان أن يعتدوا على الآخرين بغير حق - وقد بينا سابقا أن الإسلام جاء مناسبا للفطرة البشرية تماما، إذ جعل ولي القتيل أو المعتدى عليه بالخيار بين ثلاث - فإما القصاص، وإما الدية، وإما العفو - وذلك خلافا للكتب السماوية من قبل الإسلام فكانت من هذه القضية بالذات ما بين إفراط وتفريط - فالتوراة كان فيها إيجاب للقصاص دون الدية أو العفو - والإنجيل كان فيه إيجاب للعفو دون القصاص أو الدية.
ومن ذلك يبدو أن كلا الموقفين يأتي في غير صالح الفطرة البشرية أو أن كليهما لا يتلاءم مع المصلحة التي تقتضيها حقيقة التفاوت في رغبات البشر.
ومعلوم أن الناس متفاوتون ما بين حاد يؤثر الانتقام وإشفاء الغليل، أو راغب في مال تهدأ معه سورة الغضب في نفسه، أو وقور متبتل ودود يؤثر العفو على المال وإشفاء الغليل - فقد جاءت شريعة الإسلام ملاءمة لمثل هذه الطبائع المتفاوتة في رغائبها - وتطلعاتها - فشرعت بذلك الولي أو المصاب أن يختار بين أمور ثلاثة: القصاص والدية والعفو.
ويتبين من هذه الآية أن الناس كانوا لا يعدلون في القتل العمد، بل كانوا يقتلون الرجل بالمرأة والحر بالعبد وذلك على سبيل المفاخرة والاستكبار - فكانوا إذا قتلت المرأة في القبيلة المشهورة قال أولياؤها: لا نقتل إلا رجلا بدلا منها من قبيلة القاتل - وإذا قتل الرجل فيها قال أولياؤه: نقتل بدلا منه اثنين أو أكثر ولا نكتفي بواحد أو القاتل نفسه - وإذا قُتل العبدُ في القبيلة ذات النفوذ والصيت قالوا: لا نقتل بدلا منه إلا حرا.
وذلك تصرف جاهلي ظالم أساسه التصور الضال الذي يراود أذهان الفاسدين والمنحرفين من الناس الذين يعيشون على الجاهلية الحمقاء في تعصبها وسفاهتها واستكبارها؛ لذلك نزل قوله سبحانه ليضع الأمور في مواضعها الصحيحة وليقيم للقضايا وقواعد الحياة كلها خير ميزان: (كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) أي لا ينبغي أن يُقتل بدل العبد حر، ولا بدل الأنثى رجل - وإنما ينبغي أن يقتل القاتل نفسه سواء كان القاتل حرا أو عبدا أو أنثى - وسواء كان القتيل عبدا أو امرأة - ذلك هو القضاء العدل الذي يقوم على المماثلة دون انحراف أو تعصب أو جنوح للهوى.
ويتفرع عن هذه القضية جملة مسائل منها: هل يقتل الحر بالعبد؟ أي أن الحر إذا قتل عبدا فهل يقتل به؟
فقد هب الإمام ا [و حنيفة وداود الظاهري والثوري وآخرون أن الحر يقتل بالعبد - وهو مروي عن فريق من الصحابة والتابعين - واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: (كتب عليكم القصاص في القتلى) وكذلك قوله تعالى: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) وذلك فيه عموم وهو يشكل الأنفس كيفما كانت دون تمييز بين حر وعبد أو ذكر وأنثى ١٧٨ - واستدلوا كلك بالحديث: " المؤمنون تتكافأ دماؤهم " ١٧٩ فليس من فرق إذن بين حر وعبد - وذلك خلافا لمذهب الجمهور بعدم قتل الحر بالعبد ١٨٠ - وذهب آخرون من العلماء إلى غير ذلك فقالوا: لا يقتل الحر بالعبد.
والراجح عندنا المذهب الأول استنادا إلى ما ذكرناه من دليل، ويعزز ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن خصاه خصيناه " ١٨١
وهل يقتل المسلم بالكافر؟
ذهب أبو حنيفة إلى قتل المسلم بالكافر، وهو يستند في ذلك إلى عموم قوله تعالى: (كتب عليكم القصاص في القتلى) (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) فأيما نفس تُقتل عمدا وجب قتل قاتلها، مادام القتيل ذميا؛ لأن الذمي يساوي المسلم في حرمة الدم - فهو (الذمي) محقون الدم على التأبيد وهو من دار الإسلام - وكذلك لو سرق المسلم فإنه تقطع يده في ذلك؛ لأن مال الذمي مصون؛ لذلك يُحكم بقتل قاتله في العمد - لكن جمهور العلماء قالوا: لا يقتل المسلم الكافر، واستدلوا لذلك بما ثبت في البخاري عن علي قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يقتل مسلم بكافر " وذلك حديث صحيح، وهو يصلح لتخصيص العموم في قوله تعالى: (كتب عليكم القصاص) وقوله تعالى: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس).
وهو ما نميل إليه ونرجحه والله تعالى أعلم ١٨٢.
وهل يقتل الرجل بالمرأة؟

أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة - أما القصاص بينهما فيما دون النفس فهو المعتبر عند أكثر أهل العلم منهم مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبو ثور، لكن أبا حنيفة – رضي الله عنه- خالفهم في ذلك وقال: لا قصاص بين المرأة والرجل فيما دون النفس، وإنما يكون القصاص في النفس.

وفي تقديري أن قول الإمام في هذه المسألة مرجوح، فإنه إذا وجب القصاص بينهما في النفس فمن الأولى أن يكون القصاص بينهما فيما دون النفس ١٨٣.

وهل يقتل الوالد بولده؟

اختلف العلماء في هذه المسألة - فقد ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي إلى أنه لا قَود على الأب في قتل ابنه وأن عليه الدية فقط، وقد استندوا في قولهم هذا إلى الحديث: " لا يقاد والد بولده " ١٨٤ وتعلقوا أيضا في قضاء لعمر- رضي الله عنه- إذ قضى بالدية المغلطة في قاتل ابنه ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة.

وقد خالف الإمام مالك الجمهور في هذه المسألة، وقال بالتفصيل - فإن رماه الأب بالسلاح على سبيل التأديب أو الحنق ١٨٥ فقتله وما كان يقصد بذلك قتلا فقد ذكر عنه أنه يقتل به - وفي قول آخر عنه أنه لا يقتل به، بل يدفع ديته مغلظة.

أما إذا قصد قتله فعلا وعلى نحو مستبين ومكشوف كأن يضجعه ويذبحه ذبحا قتل به قولا واحدا ١٨٦.

وهل تقتل الجماعة بالواحد؟

ذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء إلى أن الجماعة يقتلون بالواحد، فإذا تمالأ كثيرون على قتل واحد بريء عمدا جاز قتلهم جميعا - وخالفهم في ذلك الإمام أحمد بن حنبل الذي قال: لا تقتل الجماعة بالواحد، وتوجيه ذلك عنده أن الله سبحانه شرط المساواة في القصاص ولا مساواة بين الجماعة والواحد - فقد قال تعالى: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) وذلك يقتضي المساواة ولا مساواة في قتل الجماعة بالواحد.

لكن الحقيقة الظاهرة أن هذا القول الذي ذهب إليه أحمد مرجوح وما ذهب إليه الجمهور هو الراجح والصحيح.

وتوجيه ما ذهب إليه الجمهور أن المراد بالقصاص في الآية المذكورة هو قتل من قتل أيا كان القاتل، ويستوي في ذلك أن يكون القاتل واحدا أو أكثر، فإن كانوا أكثر من واحد فكل واحد منهم مشارك في القتل - وفي ذلك رد مناسب على ما اعتاده العرب، إذ كانوا يريدون أن يقتلوا بمن قتل من لم يقتل، ويقتلون بدل القتيل الواحد مائة، وذلك على سبيل المفاخرة والاعتداد بالجاه والسيطرة - فأمر الله – ردا عليهم- أن يقتل كل من قتل.

ومن المعلوم كذلك أن عمر رضي الله عنه قتل سبعة برجل واحد في صنعاء، وقال قولته المشهورة: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم به جميعا - حتى قيل إنه لا يعرف له في زمانه من خالفه من الصحابة فكان ذلك كالإجماع.

وكذلك قاتل علي – رضي الله عنه- الحرورية لما قتلوا رسوله عبد الله بن خباب إذ ذبحوه كما تذبح الشاة - ولما علم علي بذلك قال: الله أكبر! نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتلناه ثلاث مرات - فقال علي لأصحابه: دونكم القوم - فما لبث أن قتلهم علي بعبد الله بن خباب.

ويعزز ذلك أيضا ما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار ".

ومن ناحية أخرى فإن صون الدماء وحفظ الأرواح يتطلب أن يقتل الجماعة بالواحد؛ لكيلا يكون ثمة مجال للاحتيال ينفذ منه القتلة - فإذا علمت الجماعة أن قتلهم للواحد لا يوقع عليهم قصاصا تعاون الخصوم على قتل خصم واحد لهم مشتركين - وفي ذلك تأدية لغرضهم المبيت المقصود وإشفاء لغيظهم وغليلهم ١٨٧.

وبعد القتل العمد فإن وليّ القتيل له الخيار، فإن شاء اقتص، وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل - فإن القاتل في هذه الحالة مكلف بدفع الدية بغير رضاه إن طلبها الولي - أي أن دفع الدية في حق القاتل يصبح فرضا عليه؛ وذلك لإحياء نفسه وإنقاذها من الموت، لقوله سبحانه: (ولا تقتلوا أنفسكم) وذلك ما ذهب إليه مالك والليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وآخرون

غيرهم.
قوله: (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وآداء إليه بإحسان) قوله (مَنْ) يراد به القاتل، والذي يعفو هو ولي المقتول - والمراد بأخيه، المقتول أو ولي الدم - والمراد بالشيء، الدم الذي يعفو عنه الولي ليكتفي بدلا منه بأخذ الدية - والمعنى، أن القاتل والجاني إذا عفا عنه ولي المقتول أو المجني عليه فيما يأخذه منه بالمعروف، وعلى القاتل أو الجاني أن يؤدي له ما عليه بإحسان، أي من غير مماطلة ولا تسويف وقوله: (فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) يأمر الله في ذلك بحسن الاقتضاء من ولي الدم وحسن القضاء من القاتل - فعلى الولي أن يطالبه بالدية برفق، وعلى الجاني القاتل أن يدفع إليه الدية بإحسان فلا يماطل أو يتردد في الأداء بما يشق على الولي الذي عفا له عن القصاص منه.
وقوله: (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) اسم الإشارة مبتدأ في محل رفع خبره تخفيف مرفوع، لقد خفف الله عن هذه الأمة ثقل الحكم الذي كان مفروضا في القتل العمد في كل من التوراة والإنجيل، فما كان في التوراة غير القصاص، وما كان في الإنجيل غير العفو، وفي كليهما قسوة كما هو معلوم، بل إن كليهما يقف من قضية القتل العمد موقف التطرف الذي يجلب لكثير من الناس حرجا وتعسيرا، لكن شريعة الإسلام جعلت للناس مندوحة أرحب في تقرير مجالات ثلاثة وهي: القصاص أو الدية أو العفو وذلك تخفيف عن كاهل هذه الأمة ورحمة بها.
وقوله: (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أي من قبل الدية أو أخذها بدل القول ثم عاد وقتل القاتل فله من الله عذاب موجع شديد؛ لما في ذلك من سوء النية وخبث القصد وفساد التصرف - فما دام الولي قد قبل الدية فليس له بعد ذلك أن يقتاد من القاتل، وإلا كان في زمرة الكاذبين الذين يخفون للناس مكرا وخداعا وليس ذلك من أخلاق المؤمنين الصادقين، بل هو من أخلاق المنافقين أو الجاهليين كما وصفهم الحسن البصري في هذه القضية فقال: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلا فرّ إلى قومه فيصالحون بالدية، فيقول ولي المقتول: إني أقبل الدية حتى يأمن القاتل ويخرج فيقتله ويرمي إليهم بالدية.
وقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي شريح الخزاعي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من أصيب بقتل أو خبْل ١٨٨ فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها ".
وثمة مسألة اختلف فيها العلماء وهي فيما إذا أقدم ولي القتيل على قتل القاتل بعد أخذ الدية - ففي ذلك تفصيل للعلماء نبينه في التالي:
ذهب فريق من العلماء ومن بينهم الإمامان مالك والشافعي إلى أن الولي المعتدي يكون شأنه في هذه الحالة كمن قتل ابتداء - وبذلك فإن ولي القتيل الثاني بالخيار، فإن شاء قتل القاتل أو عفا عنه، وهو في الآخرة من المعذبين بسبب اعتدائه بعد قبوله للدية.
وقال آخرون: جزاء القاتل الثاني المعتدي أن يقتل البته فلا دية ولا عفو، وذلك لما قارف من عدوان بالقتل بعد الدية - وفي ذلك روى أبو دوود عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا أعفى ١٨٩ من قتل بعد أخذ الدية " وفي رواية:: " لا أعافي ".
وقيل: عذاب المعتدي القاتل أن يرد الدية التي أخذها وعذابه في الآخرة - وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما يراه ملائما.
والراجح عندي هو القول الأول وهو أن يكون شأن الولي المعتدي كمن قتل ابتداء - ونستند في ذلك إلى ظاهر الآية في القتل العمد - فمن أخذ الدية أسقط حقه في القود وعاد به الأمر إلى حاله ابتداء - فإذا وقع بعد ذلك قتل وجب القضاء بالخيارات الثلاثة من جديد وهي: القود أو العفو أو الدية ١٩٠.
١٧٩ - (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)
وقوله: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون).
أما قوله: (ولكم في القصاص حياة) فهو غاية في الإيجاز والإحكام والروعة بما يعبر عن المقصود في جلاء واضح وبيان فصيح - فقد جاء في الأمثال البليغة لفصحاء العرب، أو الكتب المتقدمة في قول آخر: (القتل أنفى للقتل) وهذه العبارة رغم إيجازها وفصاحتها

فإنها لا تعدل في ميزان البيان والفصاحة شيئا إذا ما قيست بقوله سبحانه: (ولكم في القصاص حياة) فلا ريب أن القصاص زاجر كبير للناس، إذ يبعث فيهم اليقظة والخوف، كيلا يعتدي بعضهم على بعض، وقد ذكر أن العرب كانت إذا قتل الرجل الآخر استشاط قبيلاهما فاقتتلوا فيما بينهم بما يوقع بينهم عداوة وإزهاقا للنفوس حتى إذا شرع القصاص أمسكوا جميعا عن القتل.

لذلك فإن تشريع القصاص في الإسلام يحقق للناس الأمن والاستقرار وسلامة النفوس، ويحفظ عليهم المهج والأبدان - وبذلك تصان الأرواح وتحفظ الحياة.

وثمة مسألة تعرض في هذا الصدد وهي: هل لأحد أن يقتص بمفرده من أحد غيره؟ فإن المتفق عليه بين أهل العلم أن إقامة الحدود وتنفيذ القصاص مما أنيط بالسلطان فالحاكم أو نائبه هو المكلف شرعا أن يقيم العقاب على الجاني، والقاتل خاصة - فليس للأفراد أن يقتص الواحد فيهم من غيره وإلا وقع التجاوز وعمت الفوضى، فضلا عن أن ذلك افتيات على سلطة الدولة المكلفة بذلك ١٩١.

وإذا اعتدى الحاكم فقتل عمدا فهل يُقتص منه؟

فقد أجمع العلماء على أن الحاكم عليه أن يستقيد (يقتص) من نفسه للمعتدى عليه وذلك إن تعدى على أحد من الناس عمدا - فإنه ليس من فضل له على الناس أصلا إلا أنه قائم على شؤون الرعية يسوسهم بالعدل ويقيم شريعة الله - والأصل في ذلك أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ١٩٢.

وقد ثبت عن الخليفة الأول أبي بكر- رضي الله عنه- أنه قال لرجل شكا إليه من عامل قطع يده: لئن كنت صادقا لأقيدنك منه.

وروى النسائي في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقسم شيئا إذا أكبّ عليه رجل، فطعنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعرجون كان معه فصاح الرجل، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " تعال فاستقد " قال: بل عفوت يا رسول الله.

وذكر أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلي أقيده منه - فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين! لئن أدب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصنه منه؟ قال: كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقص من نفسه.

وذكر عنه –رضي الله عنه- أنه خطب الناس فقال: إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فُعل ذلك به فليرفعه إليّ أقصه منه.

وقوله: (لعلكم تتقون) أي تتركون القتل العمد فتسلمون من الموت قصاصا، وتحفظون بذلك حياتهم وأرواحكم من الهلاك - والتقوى هي اسم جامع لفعل الخيرات والطاعات وترك المعاصي والمحظورات.

١٨٠ - (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم).

هذه الآية في الوصية للوالدين والأقربين - وقد كان ذلك واجبا حتى نزلت آية المواريث (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدين والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) وما بعدها من آيات في الفرائض فكان ذلك ناسخا لما بين يدينا من آية في الأمر بالوصية للوالدين والأقربين.

وبعد نزول آية المواريث في النساء فرض الله لكل ذي حق حقه في الميراث، فما عاد الأبوان أن يرثا، أما الأقربون فمن كان له نصيب في الميراث فليس له أن يستحق وصية، ومن ليس له نصيب بقي على حاله من جواز الوصية له.

والظاهر من السياق في هذه الآية أن الوصية كانت مفروضة للوالدين والأقربين قبل نزول أية النساء في تبيين الفرائض - لكن الوصية باتت منسوخة بعد نزول آية البقرة هذه.

وقيل: إن الوصية للوالدين والأقربين منسوخة بالحديثة الصحيح: " إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث " ذلك أن آية

المواريث لا يتعين فيها مفهوم النسخ بوضوح مثلما هو في الحديث.

وعلى أية حال فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين منسوخ بالكتاب والسنة والإجماع حتى إنها باتت بعد ذلك منهيا عنها، لقوله عليه السلام: " فلا وصية لوارث ".

أما الأقارب الذين ليس لهم نصيب في الميراث فإنه يندب أو يوصى لهم في حدود ثلث المال، بل أنهم أولى بالوصية من الأباعد، لقوله سبحانه: (والأقربين بالمعروف).

وفي التخصيص على الوصية والدعوة لها أخرج الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده ".

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك إلا وعندي وصيتي.

وقوله: (إن ترك خيرا) الخير هو المال - ولم تحدد الآية حجم المال الذي يستحب إخراج الوصية منه - وفي تقديري أن ذلك منوط بتورع المؤمن الذي يبتغي الوصية على ألا يكون في ذلك ضير على الورثة.

وقوله: (بالمعروف) أي بالرفق والتوسط والاعتدال - إذ يوصي صاحب المال للأقربين وغيرهم في نغير إجحاف يلحق بالورثة - وخير ذلك ما كان معتدلا فلا إسراف ولا تقتير.

ولعل خير حجم للوصية أن يكون دون الثلث كالربع أو الخمس - ويستفاد ذلك مما ثبت في الصحيحين أن سعدا رضي الله عنه قال: يا رسول الله إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: " لا " قال: فبالشطر؟ قال: " لا " قال: فالثلث؟ قال " الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ".

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " الثلث والثلث كثير ".

وقد روي عن أبي بكر الصديق أنه أوصى بالخمس - وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلى من أوصي بالثلث - وروي عن عمر رضي الله عنه أنه أوصى بالربع.

وذهب فريق من العلماء إلى أن الذي له مال قليل وله ورثة فمن الأفضل له ترك الوصية - وقد روي ذلك عن علي وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم.

وثمة مسألة وهي: هل تجوز الوصية بأكثر من الثلث؟

فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث لكن الحنفية خالفوا في ذلك إذ قالوا: إذا لم يكن للموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كله - وعللوا ذلك بأن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثة أغنياء لا يتكففون الناس كما في الحديث الشريف.

وكذلك أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصي بجميع ماله.

أما إذا أذن ورثة الموصي أن تزيد الوصية على الثلث، فقد أجازها عامة العلماء باستثناء أهل الظاهر، إذ قالوا: لا يجوز الوصية بأكثر من الثلث حتى وإن أجازها الورثة - واستدل الجمهور على قولهم بالجواز بما أخرجه الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة ".

وقوله: (حقا على المتقين) حقا، منصوب على المصدر، وتقديره: حق حقا - ولا يعني الحق هنا الفرضية والوجوب - ولو كان كذلك لقال على المسلمين، وليس المتقين وحدهم بما يدل على أن المراد بالحق الندب - وقيل: بل الوصية واجبة من قليل المال وكثيره ١٩٣.

١٨١ - (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله: (فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه) من اسم شرط - بدل جملة الشرط - جوابه الجملة الإسمية المقترنة بالفاء (فإنما إثمه - - .) إثمه مبتدأ مرفوع - والهاء ضمير متصل مضاف إليه - (على الذين يبدلونه) في محل رفع خبر - وما اتصلت بإن فكفتها عن العمل.

والضمير (بدله) في محل نصب مفعول به، والمراد به الوصية أو الإيصاء الذي نطق به الموصي - فإنه ليس لسامع -وارثا كان أو غيره- أن يبدله أي ينقصه أو يزيد فيه أو يكتمه ليحرم منه الموصى له - ومن يفعل شيئا من ذلك فإنه آثم وما ينقص ذلك من أجر الميت الموصي مادام قد استبرأ لنفسه بالتوصية للآخرين على مسمع من الورثة أو غيرهم، وفوق ذلك فإن الله جلت قدرته مطلع على الوصية وهو سبحانه عليم بما يتعمده السامعون أو الورثة من تحريف للوصية كالنقص أو الزيادة أو الكتمان لذلك قال: (إن الله سميع عليم).

١٨٢ - (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله: (فمن خاف من موص جنفا أو إثما) الجنف في اللغة معناه الميل والظلم ١٩٤.

والجنف في الوصية يتناول الميل خطأ أو الميل المتعمد - فقد يميل الموصي بدافع من عاطفة أو شفقة نحو قريب أو حبيب، وذلك كأن يبيعه محاباة وهو ما كان بثمن بخس أو أن يوصي لابن بنته لينصرف المال بعد ذلك إلى بنته، أو أن يوصي إلى زوج ابنته ليصل المال بعد ذلك إلى ابنته.

وبذلك فإن الجانف في الوصية هو المائل عن العدل وخط الشرع المستقيم سواء كان الميل على سبيل الخطأ أو العمد - فهو غير جائز في الوصية ما دام يؤدي في النهاية إلى الأذية والإضرار بالورثة.

وقوله: (فأصلح بينهم فلا إثم عليه) المصلح المقصود هنا هو الوصي أو من يملك الإصلاح كواعظ ينهى عن الحيف ويأمر بالعدل.

وطريق الإصلاح في الآية تحتمل وجهين - أحدهما: أن المصلح سواء كان وصيا أو غيره لا إثم عليه إذا ما قام بالوعظ ورد الحيف بقصد الإصلاح ما بين الورثة أنفسهم أو ما بين الموصي والورثة - وبعدها فإن الله غفور للموصي إذ عدل عن الجنف وما فيه من إضرار بالورثة.

وثانيهما: أن الوصية إذا علم بالحيف في الوصية فله أن يعدل عما أوصى به الميت (الموصي) إلى ما هو مقبول شرعا ليأتي ذلك منسجما مع روح الشرع في العدل في الوصية وعدم الجنف فيها؛ كيلا يتضرر الورثة أن يتأذوا - ومثل هذا التصرف من الوصي جائز وهو من باب الإصلاح لا التبديل المحظور، وهو بذلك حق وعدل وهو المقصود من قوله تعالى: (فأصلح بينهم) فإن ذلك إصلاح وخير فلا إثم على الوصي إن قام به؛ لذلك جاء قوله: (فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) أما الميل المتعمد في الوصية بما يضر الورثة فإنه حرام - وقد أخرج الدارقطني عن ابن عباس أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: " الإضرار في الوصية من الكبائر " ١٩٥.

١٨٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون).

الصوم في اللغة الإمساك عن الطعام والشراب والكلام ١٩٦ - وهو في الشرع الإمساك عن الطعام والشراب والجماع بنية الطاعة لله، وذلك ابتداء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس - وعرفه ابن قدامة بقوله: الصوم عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة في وقت مخصوص ١٩٧.

على أن الصيام عظيم الفائدة للإنسان بما يحقق له المنفعة في جسده ونفسه، أما في مجال الجسد فإنه مناسبة زمنية فريدة ترتاح فيها المعدة من دوام الانهماك الشاغل في عملية الطعام ومعالجته - وفي ذلك من الجهد ما يقود في كثير من الأحيان إلى عديد من الأمراض - والنبي - صلى الله عليه وسلم - يبين للإنسان المؤمن أن الصوم طريق الصحة والعافية للأبدان رغم ما تشعر به النفس من لسعة الجوع وحرارة العطش أو انكسار وعناء يؤثران في ظاهر الإنسان، لا في جوهره وحقيقته - فقال عليه الصلاة والسلام في ذلك: " صوموا تصحوا " ١٩٨ وغير ذلك من فوائد للأبدان يحققها الصوم - وهي فوائد كثيرة تتحدث عنها أقلام المتخصصين من أهل الطب.

وأما في مجال النفس فلا جرم أن يكون الصوم نافعا - وتتجلى هذه المنفعة فيما نحسه من واقع الصوم، سواء كان ذلك في اشتداد العزم وتقوية الإرادة، أو في إطفاء لهيب الشهوة؛ كيلا تحتدم وتجنح - ومعلوم أن الطعام يمد الشهوات بطاقة التحرك والاشتداد والفوران، خصوصا شهوة الجنس فإنها يغذوها الإكثار من الطعام بطاقة مندفعة تظل في استعار فائر حتى تجد متنفسها بأي أسلوب، لكن الصيام

يخفف كثيرا من سورة هذه الشهوة الخطيرة حتى تأخذ في البرود والرقود والانكسار، وحينئذ يحس الإنسان روعة التحرر من غلواء الشهوة - وفي ذلك قد نبه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أهمية الصيام، وأنه خير سبيل للشباب العزاب، كيما تهجع شهواتهم أو ترقد، فقال: " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ".
وبالصوم تقوى الإرادة ويشتد العزم - وفي ذلك إكساب لنفس المؤمن إذ يزداد بالصوم قوة في الطبع والهمة فيكون في الحياة ثابتا صابرا متجلدا - ولا جرم أن الإرادة بالنسبة للإنسان من المذاخير الهامة التي تختزنها طبيعة الإنسان - فإنه بالإرادة يمضي في الحياة قدما دون أن تتعثر نفسه بمصاعب الطريق - وإذا منيت إرادة الإنسان بالضعف والخور بات الإنسان مخذولا ومسلوب العزم ليعيش مع المهزومين والخالفين - وليس شيء كالصوم في تقوية الإرادة وشحذ الهمة والعزم وتمكين النفس من دوام التشبث بالصبر وقوة الاحتمال.
ومن أجلى صور الفوائد للصوم أنه يهذب النفس الصائمة - ويأتي في طليعة التهذيب أن الصوم يُنّمي في النفس المؤمنة الصائمة حقيقة الوازع المرهف أو الإحساس الكبير المتواصل بصحوة الضمير ويقظة الحس الوجداني الذي يربط العبد المؤمن الصائم بربه.
وما يمضي الصائم في صومه حتى يحس بروعة الصلة الشعورية المتينة التي تربطه بربه والتي لا تقع عليها أبصار الناس أو مشاهداتهم - وإنما هي صلة ذاتية تتوطد في دخيلة الصائم وهو يحجب عن نفسه الطعام والشراب والملذات في غير ما استكراه أو اصطناع، ولكن عن رغبة وافية فياضة وعن توجه مطمئن طائع إلى الله وحده.
ومن أجل ذلك فقد استخلص الله الصوم بالذات من بين العبادات ليكون له سبحانه، لما فيه من سرية مستورة لا يطلع عليها أحد سوى الله - فقد ثبت في الحديث الشريف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال مخبرا عن رب العزة جل وعلا: " يقول الله تبارك وتعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ".
وما يجده الصائم لدى الإفطار من أمن النفس وسكينتها فإنه أمر محسوب - وذلك فيض من رحمة الله يسكبها في قلوب الصائمين وهم يحسون بكامل الراحة والرضى والحبور ساعة الإفطار، أن وفقهم الله لتمام الصيام بعد أن أمسكوا بخطام الشهوة واستحوذوا على زمام النفس فكانوا من الناجحين في هذا الامتحان القاسي - وفي ذلك يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه ".
ويخاطب الله في الآية عباده المؤمنين أنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم من قبلهم، وقوله: (كما كتب) الكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف تقديره " كتابا " أي كتب كتابا كما - وقيل في محل نصب على الحال من الصيام ١٩٩.
وقد جاء في كيفية صيام الذين من قبل هذه الأمة أقوال كثيرة - فقد قيل: كانوا يصومون أياما ثلاثة ويوم عاشوراء من كل شهر - وقيل: كانوا يصومون خمسين يوما في كل عام - وقيل غير ذلك مما لا نستطيع أن نركن إليه، لكن المهم في الآية أن الله جلت قدرته فرض الصيام على هذه الأمة مثلما فرضه على الأمم السابقة.
وبذلك لم تكن هذه الأمة وحدها مكلفة بالصيام.
كذلك فإن المقصود بزمن الصوم الذي ذكرته الآية هو شهر رمضان بقوله بعد ذلك (شهر رمضان) مع أن فريقا من العلماء قالوا: إن المقصود هو صيام ثلاثة أيام من كل شهر - وفي تقديرنا أن هذا القول مرجوح فإن المقصود هو الشهر الكريم المعروف والذي بينته الآية ٢٠٠.
وقوله: (لعلكم تتقون) الترجي هنا في حق الصائمين - فهم يصومون راجين أن يكونوا بالصيام من المتقين.
أما قوله: (تتقون) فيحتمل وجهين: أحدهما: أنكم بالصيام تكبحون جماح الشهوة، وتخففون من حدتها واشتدادها - وثانيهما: أنكم بالصيام تجتنبون المحرمات، وتنتهون عن المعاصي، وتكونون قد أديتم فريضة عظيمة كتبها الله عليكم؛ فيرضى عنكم ويجعلكم من المؤمنين العالمين المتقين - وكلا المعنيين متقاربان حتى يجدر الأخذ بعموم الدلالة لهذه العبارة - فالمتقون هم الممتثلون لأوامر الله المبادرون بالطاعة له سبحانه، سواء في ذلك تنفيذ ما كلف به وأمر أو تجنب ما نهى عنه وزجر.

١٨٤ - (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

وقوله (أياما معدودات) (أياما) مفعول به ثان للفعل المبني للمجهول (كتب) وقيل: منصوب على الظرفية الزمانية - أما الأيام المعدودات فالمراد بها شهر رمضان - وقيل هي الثلاثة أيام من كل شهر - والقول الأول الراجح.

وقوله: (فمن كان منكم مريضا أو على صفر فعدة من أيام أخر).

اختلفت كلمة العلماء في تحديد مستوى المرض الذي يرخص معه للمريض أن يفطر - فقد قال جمهور من أهل العلم: إذا كان المرض مؤلما ومؤذيا ويخشى تماديه وازدياده جاز للمريض أن يفطر.

وذهب الإمام مالك إلى أن المرض الذي يشق على الإنسان ويرهقه عسرا فإنه يُباح معه للمريض بموجب هذا الوصف أن يفطر.

وقال الشافعي: إنه ليس للمريض أن يفطر إلا إذا ألمت به ضرورة تضطره إلى ترك الصيام، فإن كان كذلك أبيح للمريض أن يفطر، لكنه إذا كان في مقدوره أن يحتمل الضرورة فليس له أن يفطر - وفي تقديري أن هذا القول لا يخلو من إعنات وتعسير ترفضهما شريعتنا السمحة.

وقال ابن سيرين: متى كان الإنسان في حال يستحق معها اسم المرض فقد جاز له أن يفطر، وذلك قياسا على المسافر لعلة السفر.

وفي ضوء هذه الأقوال التفصيلية يمكن أن نتصور المرض بالنسبة لرخصة الإفطار أو عدمها على أربعة ضروب.

الضرب الأول: وهو المرض الشديد الذي لا يطاق والذي يؤدي فيه الصوم إلى الهلاك غالبا، فإنه في مثل هذا الحال يصبح الإفطار بالنسبة للمريض واجبا، وليس له إذن أن يصوم مخافة أن يهلك؛ لقوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).

الضرب الثاني: وهو المرض الذي لا يحتمله الصائم إلا بضرر محقق أو بمشقة عسيرة مؤذية والصوم وإن كان لا يخلو من مشقة، لكنه ليس الأصل فيه أن يحتمل إعناتا وتعسيرا؛ لما في ذلك من حرج - ومن أصول الشريعة أن الحرج مرفوع؛ لقوله سبحانه: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) والمريض في مثل هذه الحال يستحب له أن يفطر - وذلك على سبيل الندب لا الإيجاب - وبذلك فإن الإفطار في حق المريض في الحال الأول واجب، لكنه في حقه في الحال الثاني مندوب ندبا.

الضرب الثالث: مريض لا يخلو من ألم أو إيجاع، لكنه يحتمله دون أن يلحق به ضرر أو عنت - وفي مثل هذا فإن المريض مباح له الإفطار، فلا الإفطار واجب ولا هو مستحب استحبابا كالحكمين السابقين، ولكنه لا يتجاوز حد الإباحة التي يستوي فيها الحكم بين الفعل وتركه.

الضرب الرابع: أن يكون المرض هينا يسيرا عابرا كنوبة من صداع بسيط أو حمى خفيفة تمر الإنسان، فلا ترهقه عسرا، ولا تؤثر في عافيته إذا صام أدنى تأثير، وفي مثل هذا المرض الهين اليسير خير للمرء أن يصوم - أو أن الصوم في حقه في هذه الحال أفضل - والله تعالى أعلم ٢٠١.

وقوله: (أو على سفر) للعلماء في مسألة السفر اختلاف وتفصيل - مع أنهم أجمعوا على رخصة الإفطار في سفر الطاعات كالحج والجهاد وصلة الرحم وطلب الرزق للعيش، أما سفر المباحات كالتجارة والنكاح فهو موضع خلاف، لكن الراجح جواز الإفطار، وأما سفر المعصية كالسرقة وقطع الطريق والزنا فمختلف فيه كذلك مع أن الراجح عدم جواز الرخصة بالإفطار فيه.

أما مسافة السفر التي يباح فيها الإفطار فهي موضع خلاف كذلك - فقد ذكر عن الإمام مالك أنها يوم وليلة، وهي عند الشافعي مقدرة بيومين، وذكر عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس والثوري أنها ثلاثة أيام، وقيل غير ذلك ٢٠٢.

هل يجوز للمسافر أن يبيت النية بالإفطار؟

اتفق العلماء على أنه ليس له أن يبيت النية بالفطر - وتوجيه ذلك أن المسافر لا يكون أصلا مسافرا بالنية، بل يكون مسافرا بالممارسة الفعلية وهي السفر نفسه، وذلك بخلاف المقيم فإنه تحقق إقامته بمجرد النية ولا يفتقر ذلك إلى عمل - فالمقيم إذا نوى الإقامة كان مقيما في الحال.

أما الذي يأمل أن يكون مسافرا فإنه لا يجوز له أن يفطر اعتمادا على مجرد الأمل بالسفر، لكنه إن نهض للسفر فعلا بعد الأمل جاز

له الإفطار، لوجود الممارسة الفعلية وهي اسلفر.
وإن أفطر اعتمادا على مجرد الأمل بالسفر، فذلك موضع خلاف وتفصيل للفقهاء لا مجال لذكره هنا ٢٠٣.
وثمة خلاف آخر بين الفقهاء في أيهما أفضل في السفر الإفطار أم الصوم؟
فقد ذهب الجمهور منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة إلى أن الصوم أفضل في السفر لمن يقوى على ذلك، ولا يشق عليه كثيرا - أما إن خشي الضرر والمشقة الكبيرة فالإفطار أفضل - وقال الأوزاعي وأحمد بن حنبل: إن الفطر أفضل: عملا بالرخصة المشروعة، كما جاء في الحديث: " إن الله يحب أن تؤتى عزائمه " وبقوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) - وقال آخرون إن المسافر مخير بين الصوم والإفطار، فهما بذلك من حيث الحكم سيان في حقه، وذلك لحديث أنس -رضي الله عنه- قال: سافرنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.
وذهب بعض أهل الظاهر إلى وجوب الإفطار للمسافر في رمضان - وقد احتجوا في ذلك بقوله تعالى: (فعدة من أيام أخر) فهم يقولون: إن ذلك يفيد الوجوب للإفطار في السفر ثم يقضي بدلا منه لعدة أيام أخر خارج رمضان - واحتجوا كذلك بالحديث: " الصائم في السفر كالمفطر في الحضر " وكذلك بقوله (ص): " ليس من البر أن تصوموا في السفر، وعليكم برخصة الله لكم فاقبلوا ".
وفي تقديرنا أن قول الجمهور هو الراجح، وذلك لما يعززه من أدلة واضحة مستفيضة - وهي أدلة بعيدة الاحتمال، وجليّة من حيث الاستدلال، لكن ما استدل به الآخرون من أدلة، فهي غالبا ما ترد واقعة معينة لا تشبهها الوقائع الأخرى، أو أن الدليل ربما جاء مطابقا لموقف دون غيره من المواقف المتعددة الناجمة أثناء السفر، وذلك تبعا لمستوى الضيق والمشقة اللذين يكونان في السفر ٢٠٤.
وقوله: (فعدة من أيام أخر) عدة خبر مرفوع لمبتدأ محذوف تقديره الواجب أو الحكم - والعادة بمعنى المعدود - و (أخر) صفة الأيام - وهي معدولة عن آخر - وقيل: جمع أخرى، كأنه أيام أخر ثم كثرت فقيل: أيام أخر - وقيل غير ذلك ٢٠٥ - والمعنى أن من أفطر يوما أو بعض أيام أو أفطر الشهر كله لعذر من سفر أو مرض فعليه أن يقضي بدلا من ذلك في غير رمضان حتى يؤدي المعذور ما في ذمته من حق لله بما يعدل الأيام التي أفطرها في رمضان.
وإذا أفطر المرء في رمضان لعلة من مرض ثم مات في مرضه أو كان مسافرا فمات أثناء السفر، فما من شيء عليه وتبرأ بذلك ذمته، وذلك قول الجمهور - وذهب آخرون إلى أن المريض يموت من مرضه في رمضان، فإنه يجب الإطعام عنه مقابل أيامه التي أفطر فيها.
وثمة خلاف في الذي يموت وعليه صوم من رمضان لم يقضه، فهل لأحد أن يصوم أو يطعن عنه؟ فقد ذهب مالك والشافعي والثوري إلى أنه ليس لأحد أن يصوم عن أحد - استنادا إلى قوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله سبحانه: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وكذلك ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدّاً من حنطة ".
وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثر والليث وأهل الظاهر إلى أنه يجوز أن يصام عنه، لكنهم خصصوا ذلك بالنذر - فإن كان قد نذر صوما ثم مات ولم يصم جاز أن يصام عنه، أما صوم رمضان فلا - وقد استدل هؤلاء على ذلك بما روي عن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله! إن أمي قد ماتت وعليها صوم نذر - أفأصوم عنها؟ قال " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته، أكان يؤدي ذلك عنها " قالت: نعم - قال: " فصومي عن أمك ".
وثمة قول ثالث لآخرين أجازوا فيه أن يصام عنه بإطلاق، سواء كان ذلك في رمضان أو في النذر، احتجاجا بما روي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " من مات وعليه صيام صام عنه وليه ".
وفي تقديرنا أن هذا الاحتجاج عام في الصوم كله إلا أنه مخصص بحديث النذر الذي رواه ابن عباس في المرأة التي جاءت تسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أمها التي ماتت وعليها صوم نذر - ويمكن القول كذلك أن حديث النذر مخصص، لعموم الحديث: " لا يصوم أحد عن أحد " أو أن هذا الحديث متعلق بصوم رمضان.

أما في الإطعام عن الذي مات ولم يصم فقد ذهب إلى جوازه أحمد وإسحاق استدلالا بقوله (ص) في الحديث السابق: " ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة " ٢٠٦

وقوله تعالى: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) (وعلى الذين) في محل رفع خبر مقدم (يطيقونه) جملة فعلية تتألف من فعل وفاعل ومفعول به، وهي صلة الموصول لا محل لها من الإعراب وتعني يحتملونه أو يقدرون عليه - (فدية) مبتدأ مؤخر مرفوع (طعام) بدل من فدية (مسكين) مجرور على الإضافة.

وهذه الآية قد جاء في تفسيرها عدة أقوال مختلفة، لكننا نستخلص منها ما نراه أصوب وهو قول ابن عباس: نزلت هذه الآية رخصة للشيوخ والعجزة خاصة وذلك إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم، أي يقدرون عليه دون أذية أو ضرر يقع عليهم، ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فزالت الرخصة عن هؤلاء الشيوخ والعجزة، إلا لمن عجز منهم عن الصوم إن كان معذورا - وعلى العموم فقد جاء في تفسير هذه الآية عدة أقوال مختلفة يمكن أن نوجزها في الأقوال الثلاثة التالية:

القول الأول: لما شُرع صيام رمضان شق ذلك على الناس، فصام فيهم من صام وأفطر من أفطر، فكان من أفطر أطعم عن كل يوم مسكينا بدل إفطاره - وكان قد رخص لهم في ذلك حتى نسخت هذه الآية بالآية بعدها: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه).

القول الثاني: وهو مروي عن ابن عباس، وهو أن هذه الآية نزلت رخصة للشيوخ والعجزة إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم، ثم نسخت هذه الآية بقوله: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فزالت الرخصة بالإفطار بعد النسخ إلا لمن كان عاجزا لا يقوى على الصوم - وذلك القول المعتمد كما بينا.

القول الثالث: وهو مروي عن ابن عباس أيضا وابن مسعود وآخرين من علماء السلف، وهو أن هذه الآية ليست منسوخة ولكنها نزلت في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة الذين لا يستطيعان الصوم فيطعمان بدلا عن كل يوم يفطران فيه مسكينا - فقد ذكر عن أنس- رضي الله عنه- أنه بعدما كبر أطعم عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا خبزا ولحما وأفطر - وذكر عنه أيضا لما ضعف عن الصوم صنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم - وفي قول آخر وهو أن ثمة " لا نافية " مقدرة - وتقدير الكلام هكذا " وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين " وهذا القول وإن كان يعنيه القول الثالث، إلا أنه قول بغير دليل.

ويمكن أن يلحق بالشيوخ والعجزة كل من المرأة الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما من جراء الصيام، فلهما بذلك أن تفطرا وتطعما فدية بقدر ما أفطرتا - كذلك الذي يكون في ساحة الجهاد فإن الإفطار في حقه واجب، وذلك لئلا يضعف بالصوم عن فريضة الجهاد فيميل العدو على المسلمين ميلة واحدة ٢٠٧.

أما غير هؤلاء المعذورين من النار فليس لهم إلا أن يصوموا.

وقوله: (فمن تطوع خيرا فهو خير له) نختار في تسفيرها ما قاله ابن عباس وهو أن الذي يبتغي الإفطار من الشيوخ والعجزة وقدم بدلا من ذلك فدية من طعام لمسكين، فإنه من الخير له أن يقدم فدية أخرى لمسكين آخر - وقيل: المراد، من تطوع خيرا فصام مع الفدية - وقيل: من تطوع خيرا فزاد المسكين على قدر طعامه ٢٠٨.

وقوله: (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) هؤلاء الذين يتجشمون الصيام وهم يقدرون عليه والذين أبيح لهم أني فطروا ويقدموا عن كل يوم فدية- إن هؤلاء خير لهم أن يصوموا بدلا من الإفطار والإطعام - كان ذلك قبل ورود النسخ بقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) والمراد على الجملة التحضيض على الصوم، فإنه خير من الإفطار مع الفدية - والمصدر من جملة أن تصوموا في محل رفع مبتدأ - (خير) خبر مرفوع.

١٨٥ - (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم لعلكم تشكرون} - الشهر من الإشهار وهو الإعلان والإظهار، وفعله أشهر يشهر، نقول شهر السيف أي سله، وشهر فلانا أو أشهره أي أبرزه وجعله ظاهرا،

وشهر الحديث بين الناس أي أفشاه فاشتهر ٢٠٩.
ورمضان من الفعل رمض رمضا أي اشتد حره - وفي الحديث الشريف: " شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرمضاء في جباهنا فلم يشكنا " ورمض الصائم يرمض إذا احترقت جوفه من شدة العطش - والرمضاء هي الحجارة شديدة الحر، ومنها اشتق اسم رمضان، وقد سمي بذلك لما وافقت تسميته الزمن الذي سمي فيه إذ كان شديد الحر كالرمضاء، ويجمع رمضان على رمضانات وأرمضة وأرمضاء، وقيل أيضا رماضين ٢١٠.
وثمة قول وجيه في تعليل هذه التسمية وهو أنه سمي بذلك؛ لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة - وذلك من الإرماض ومعناه الإحراق ٢١١.
وقوله: {الذي أنزل فيه القرآن} أي أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة، وكان ذلك في شهر رمضان وفي ليلة القدر بالذات - وفي ذلك يقول سبحانه {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} وقوله: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} وبعد إنزال القرآن إلى السماء الدنيا في تلك الليلة الكريمة المباركة تقرر تنزيله منجما على النبي - صلى الله عليه وسلم - تبعا للأحوال والظروف ومقتضيات الحياة.
وقوله: {هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} هذه حقيقة كاملة يقف عليها العارفون بهذا الدين، العاملون بالكتاب الحكيم وما ينطوي عليه من روائع الإعجاز في مختلف المناحي والضروب، سواء في ذلك روعة البيان والأسلوب أو روعة التشريع في كماله وشموله واتساعه بما يغطي واقع الحياة كلها، أو روعة التربية وتهذيب النفس بما يصنع الأعاظم من الرجال والعظيمات من النساء على نحو فذ عجيب وكيفية غريبة لا نظير لها في تاريخ الأفراد والأناسي.
وذلك الذي يدفعنا للقول مبادرين بأن القرآن جاء للناس هدى، فهو فيه هدايتهم وما يأخذ بأيديهم ونفوسهم وطبائعهم وأذهانهم وكل أسباب الحياة والمعايش إلى الخير والسعادة وإلى الأمن والرشاد، وما يقتضيه ذلك من معاني العدل والفضل والاستقامة والتعاون والتواد.
وكذلك فإن القرآن {بينات من الهدى والفرقان} أي أنه يحمل للبشرية دلائل وبراهين فيها الهداية والتفريق الجلي الواضح بين الحق والباطل.
وقد قدمنا في مطلع تفسير الآية أن هذا الشهر عظيم الفائدة والقدر - وهو ليس كغيره من الشهور، بل إنه خيرها وسيدها، وإن فيه كبير الأجر للعاملين المخلصين، وكبير الوزر على الخاطئين العصاة أو الساهين الناكبين عن شريعة الله وعن قسطاسه العدل.
وفي عظمة الشهر وجليل قدره أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إذا جاء رمضان فتحت أبواب الرحمة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين ".
وروى النسائي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أتاكم رمضان شهر مبارك، فرض الله عز وجل عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب جهنم، وتغل فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم ".
وروى النسائي عن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إن الله تعالى فرض رمضان عليكم، وسننت لكم قيامه فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ".
قوله: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} من اسم شرط - (شهد) فعل ماض والجملة الفعلية في محل جزم للشرط - (الشهر) ظرف زمان منصوب وليس مفعولا به - والفاء مقترنة بجواب الشرط - واللام للأمر يصمه مجزوم بلام الأمر وأصلها يصومه - والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به - ومعنى الآية أن من حضر شهر رمضان وكان غير معذور إلا هادم لركن عظيم من أركان هذا الدين، ومقارف لمعصية فظيعة هي إحدى الكبائر من الذنوب ٢١٢.
وفي هذا الصدد من الحديث عن الصيام وفرضيته على كل مسلم عاقل بالغ مقيم صحيح البدن، نعرض لجملة مسائل لنناقشها مناقشة فقهية.
المسألة الأولى: فهم بعض أهل العلم أن من كان مقيما في أول الشهر ثم سافر أثناءه فإنه لا يجوز له أن يفطر بحجة السفر، بل إنه يباح

الإفطار للمسافر الذي أقبل عليه الشهر وهو في حال السفر - وقد استندوا في هذا الرأي إلى ظاهر قوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فالذي حضر الشهر أثناء السفر له أن يفطر.
ولا نظن هذا القول إلا مرجوحا ضعيفا، وبذلك فهو قول لا يعول عليه، والرد عليه من السنة واضح، فقد ثبا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه خرج من شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر.
المسألة الثانية: في الإفطار في السفر، هل هو واجب أم مباح؟ فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه مباح وليس واجبا، وأن صورة الأمر الواردة في الآية لا تفيد الوجوب، بل تفيد التخيير، فالمسافر مخير بين الصيام والإفطار.
وذهب آخرون من العلماء إلى وجوب الإفطار في السفر استنادا إلى ظاهر قوله تعالى: (فعدة من أيام أخر) وفي تصورنا أن هذا الرأي (الثاني) مرجوح لا يعول عليه فهو بذلك غير معتمد - وقول الجمهور هو الصحيح - ويعزز ذلك ما روي أن الصحابة كانت تخرج مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيهم الصائم والمفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم - وبذلك فإنه لو كان الإفطار واجبا لأمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - به ولأنكر عليهم الصيام.
المسألة الثالثة: أيهما أفضل في السفر الصيام أم الإفطار؟ فقد قال الشافعي: إن الصيام أفضل، وذلك لما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يصوم في السفر.
وقال آخرون: إن الإفطار للمسافر أفضل، وذلك نظرا للرخصة بالإفطار حال السفر - وكذلك لما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الصوم في السفر قال: " من أفطر فحسن، ومن صام فلا جُناح عليه " وفي حديث آخر " عليكم برخصة الله التي رخص لكم ".
وذهب آخرون إلى أن الصيام والإفطار في السفر سواء، وذلك لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله! إني كثير الصيام أفأصوم في السفر؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " إن شئت فصم وإن شئت فأفطر ".
ولعل الصواب في هذه المسألة أن من شق عليه الصوم في السفر حتى بلغ منه حرجا، فإن الإفطار في حقه أفضل - ودليل ذلك حديث جابر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلا قد ظلل عليه، فقال: " ما هذا؟ " قالوا: صائم - فقال: " ليس من البر الصيام في السفر " أما إن كان الصوم لا يشق عليه في السفر، ولا يبلغ به الحرج والجهد، فإن الراجح لدينا إذ ذاك أن الصوم أفضل والله تعالى أعلم ٢١٣.
المسألة الرابعة: هل يجب القضاء متتابعا أو يجوز فيه التفريق؟
ثمة قولان في الإجابة عن ذلك - وأحد هذين القولين أنه يجب التتابع في قضاء الصوم بحيث تصام الأيام متتابعة يتلو أحدها الآخر دون تفريق بينها بإفطار يوم أو أيام، وليس من دليل على ذلك إلا الاحتجاج بأن القضاء يشبه الأداء ويقوم مقامه - والأداء لا يكون إلا متتابعا فكذلك القضاء.
وثان هذين القولين وهو الصحيح - وهو قول جمهور العلماء من السلف والخلف إذ ذهبوا جميعا إلى أن التتابع في صوم القضاء غير واجب، فالصائم قضاء إن شاء تابع وإن شاء فرق تفريقا - وتوجيه هذا القول أن التتابع إنما وجب في الشهر؛ لضرورة أدائه في نفس الشهر - وأما بعد انقضاء الشهر (رمضان) فلا يبقى بعد ذلك إلا المقصود وهو صيام عدة أيام - وذلك بعدد الأيام التي أفطرها المعذور في رمضان؛ ومن أجل ذلك قال سبحانه: (فعدة من أيام أخر) وذلك بإطلاق ليس فيه تحديد بالتتابع، بل إن الآية تنطوي على المقصود الأساسي وهو وجوب صيام عدة أيام على سبيل القضاء من غير اشتراط بتتابع ٢١٤.
وثمة مسألة هامة أخرى جديرة بالاعتبار والنظر، وهي ما لو رؤي الهلال في بلد، فهل يلزم الصيام كل البلدان الأخرى؟ وفي ذلك تفصيل نبينه في الآتي: إذا رؤي هلال رمضان في بلد فقد لزم الصيام كل البلدان الأخرى القريبة من بلد الرؤية، كما لو رؤي في بغداد مثلا وجب على أهل المدن الأخرى غير النائية كالبصرة والكوفة أن يصوموا - وكذا لو رؤي في دمشق لزم أهل حمص وحماة وحلب أن يصوموا، أي أن البلدان القريبة تلتزم بحكم الرؤية، سواء كان ذلك في هلال رمضان الموجب للصيام، أو في هلال شوال الموجب للإفطار حيث العيد - وإذا لم يره القريبون من بلد الرؤية فليس ذلك إلا لتقصيرهم في الملاحظة والتأمل لرؤية الهلال، أو

لعارض طرأ فحجب عنهم الرؤية - وذلك ما ليس فيه خلاف.
لكن الخلاف في اختلاف رؤية الهلال عند تباعد البلدان، وذلك كما بيم المشرق والمغرب - وهو أن يُرى الهلال في العراق ولم يُر في المغرب - أو رؤي في دمشق ولم يُر في اليمن أو الحجاز - وذلك للبعد بين بلد الرؤية والبلدان الأخرى.
على أن السبب في عدم الرؤية عند تباعد البلدان هو اختلاف مطالع القمر تبعا لكروية الأرض، وصغر حجم القمر إذا ما قورن بالأرض، فإذا رؤي الهلال في أقصى المشرق ربما لم يره أهل المغرب في نفس الليلة - وكذا ما بين شمال الأرض وجنوبها، فإن كان كذلك، كان في المسألة من حيث حكم الصيام ثلاثة أقوال:
القول الأول: وهو أنه إذا رؤي الهلال في بلد لزم جميع المسلمين أن يصوموا؛ وذلك لقوله تعالى: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} ولقوله عليه الصلاة والسلام: " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين) ٢١٥.
وهذا يقتضي وجوب الصيام في حق الجميع لمجرد الرؤية في بلد - وهو قول الحنابلة وبعض الشافعية وأكثر المالكية ٢١٦.
القول الثاني: وهو أنه إذا كانت البلدان بعيدة بعدا عظيما عن بلد الرؤية فلا تلتزم بالصيام، وإنما يلزم الصيام بلد الرؤية دون غيره؛ وذلك نظرا لاختلاف مطالع القمر مما يقتضي رؤية الهلال في بلد دون غيره من البلدان النائية - وهو قول الحنفية وأكثر الشافعية وبعض المالكية ٢١٧ وقد احتجوا بحديث كريب، وهو ما يعول عليه كثيرا في هذه المسألة.
فقد روى الجماعة عن كريب أن أم الفضل بعثته إلى معاوية بالشام، فقال: فقدمت الشام فقضيت حاجتها واستهل علي رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر، فسألني عبد الله بن عباس ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة - فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم - ورآه الناس وصاموا وصام معاوية - فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه - فقلت: ألا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا، هكذا أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.
وموضع الاستدلال هنا هو قوله: " هكذا أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " - والأمر المشار إليه هو ما قاله ابن عباس: " فلا نزال نصوم حتى نرى الهلال أو نكمل عدة شعبان ثلاثين يوما " - أي أن أهل البلد النائي والذين لم يروا الهلال لم يلزمهم حكم رؤيته في البلد الآخر، بل عليهم التربص حتى يروا الهلال أو يكملوا الثلاثين - ويؤيد ذلك ما رواه أحمد ومسلم وابن ماجه والنسائي عن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما " ولا ينبغي أن يفهم من واو الجماعة هنا الاستغراق ليجب الصيام في حق الجميع بمجرد الرؤية في أي بلد، بل إن الاستغراق هنا منوط ببلد الرؤية دون البلدان النائية الأخرى - وهو ما أشار إليه ابن عباس في تصريحه بالرفع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قوله: " هكذا أمرنا ".
ونقتضب جملة تقريرات من أقوال الفقهاء المشاهير من مختلف المذاهب في هذه المسألة:
فقد جاء في أحكام القرآن لابن العربي وهو من مشاهير المالكية في هذه المسألة: " واختلف في تأويل قول ابن عباس هذا، فقيل: رده؛ لأنه خبر واحد، وقيل: رده لأن الأقطار مختلفة في المطالع وهو الصحيح - ونظيره ما لو ثبت أنه أهلّ ليلة الجمعة بأغمات (غرب مراكش) وأهل بأشبيلية ليلة السبت فيكون لأهل كل بلد رؤيتهم لأن سهيلا يكشف من أغمات ولا يكشف من إشبيلية، وهذا يدل على اختلاف المطالع " ٢١٨.
وقال الإمام الماوردي – من مشاهير الشافعية- في هذا الصدد: " إذا رأوه في بلد دون بلد فثلاثة أوجه: أحدها: يلزم الذين لم يروا؛ لأن فرض رمضان لا يختلف باختلاف البلاد - والثاني: لا يلزمهم؛ لأن الطوالع والغوارب قد تختلف لاختلاف البلدان، وإنما خوطب كل قوم بمطلعهم ومغربهم، ألا ترى الفجر قد يتقدم طلوعه في بلد ويتأخر في بلد آخر؟ وكذلك الشمس قد يتعجل غروبها في بلد ويتأخر في آخر، ثم كل بلد يعتبر طلوع فجره وغروب شمسه في حق أهله فكذلك الهلال، إن كانا من إقليم لزمهم وإلا فلا ٢١٩.
وقال صاحب المجموع في ذلك: " إذا رؤي الهلال في رمضان في بلد ولم يروه في غيره، فإن تقارب البلدان فحكمهما حكم بلد واحد ويلزم أهل البلد الآخر الصوم بلا خلاف، وإن تباعدا فوجهان مشهوران، أصحهما: لا يجب الصوم على أهل البلد الأخرى - والثاني:

يجب - وأجاب هؤلاء عن حديث كريب عن ابن عباس أنه خبر واحد، وأنه لم يثبت عنده رؤية الهلال في بلد آخر بشهادة عدلين والصحيح أنه رده لاختلاف المطالع بين الأقطار " ٢٢٠.

وجاء في كتاب البدائع للكساني- من مشاهير الحنفية- قوله في هذا الصدد: " إذا كانت المسافة بين البلدين بعيدة فلا يلزم أحد البلدين حكم الآخر، لأن مطالع البلاد عند المسافة الفاحشة تختلف فيعتبر في أهل كل بلد مطالع بلدهم دون البلد الآخر " ٢٢١.

القول الثالث: وقد ذكره بعض أهل العلم، وهو متعلق بدور الإمام الأعظم في هذه المسألة، فقد قالوا، إن للإمام الأعظم أن يلزم المسلمين جميعا با ث تاب البدائع للكسائيبح أنه رده لاختلاف المطالع بين الأقطار " رؤية الهلال في بلدالأخرى - حكمهما حكم بلد واحد ويلزم أهل البلد اللصوم إذا ثبت له الرؤية حيث يقيم، ووجه ذلك: أن بلاد الإسلام في حقه كالبلد الواحد، فلا فرق عنده بين بلد وآخر، أو بين إقليم وإقليم، فحكمه يكون نافذا في الجميع.

قوله: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} هذه العبارة القصيرة عظيمة في مقصودها وما ترمي إليه من مدلول أساسي كبير يكشف عن طبيعة هذا الدين في اليسر والحنيفية.

إن الإسلام وهو دين الفطرة البشرية يقوم في أركانه وتفصيلاته عن عبادات وتشريع على التسهيل والتيسير ونفي الحرج - وتلك حقيقة تتجلى في طبيعة هذا الدين الميسور وهو يواكب حياة الإنسان بدءا بكونه جنينا مستورا ومرورا بمراحل حياته من الرضاع إلى الطفولة إلى اليفوع إلى الشباب إلى الشيخوخة، وانتهاء بمماته وزوال ظله عن هذه الدنيا.

إن الإسلام دين البشرية على اختلاف أجناسها وأعراقها ومشاربها طيلة الدهر وفي كل أرجاء هذه المعمورة - ومن أجل ذلك بات ضروريا أن يجيء الإسلام ميسرا غير معسر، وأن يكون أصلا قائما على قواعد من اليسر توافق طبيعة الإنسان، وتلائم فطرته التي تنفر من الإعنات والتضييق، وتضيق بالقسوة المرهقة والتنطع الممجوج.

وفي ذلك يحدثنا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الحقيقة الجلية بما يكشف عن طبيعة الإسلام في التيسير - فقال عليه السلام: " إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره " ٢٢٢ وقال عليه الصلاة والسلام: " إن دين الله في يسر " قالها ثلاثا - وذلك بعد ما سأله الناس: علينا حرج في كذا؟ ٢٢٣.

وفي حديث الأنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا " ٢٢٤.

وفيما ترويه المسانيد والسنن من حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا المشهور " بعثت بالحنيفية السمحة ".

وعنه (ص) أنه قال: " إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر " ٢٢٥.

وقوله: (ولتكملوا العدة) أي أن الله أمر بقضاء عدة أيام لتكتمل عدة الشهر، سواء كان هذا الشهر تسعة وعشرين أو ثلاثين، فإن المهم أن يقضي المعذور ما عليه من أيام ليكتمل في حقه الشهر فتبرأ بذلك ذمته من حق الله سبحانه.

وقوله: {ولتكبروا الله على ما هداكم} فإن غالب أقوال العلماء تذهب إلى ترسيخ التكبير في عيد الفطر، استنادا إلى هذه الأيام - وهو قول كل مسلم في هذا اليوم: الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثلاثا، لكنهم اختلفوا في حد التكبير من حيث بدايته ونهايته - فقال عبد الله بن عباس: حق على المسلمين إذا رأوا هلال شوال أن يكبروا - وروي عنه أيضا أن المرء يكبر من رؤية الهلال إلى خروج الإمام للصلاة.

وقال سفيان الثوري: هو التكبير يوم الفطر - وقال زيد بن أسلم: يكبر المسلم إذا خرج إلى المصلى، فإذا نقضت الصلاة انقضى العيد، وهو مذهب الإمام مالك - وقيل غير ذلك - وأساس القضية تكبير الله سبحانه، ويتحقق ذلك أولا باللسان وهو يلهج بتعظيم الله جل جلاله في ترديد هذه العبارة الضخمة ذات المدلول الزاخر العظيم " الله أكبر " ويتحقق ثانيا بالقلب حيث المشاعر والوجدان والحس، وحيث الضمير وما يرسخ فيه من وازع مؤثر وإحساس مرهف هذه الجوانب الأساسية في تركيبة الإنسان تعتبر مصدرا أساسيا وعظيما تنبثق منه طاقات الإنسان وقدراته، لتبعث في الحياة زخما هائلا من الفعالية والتأثير ومن العطاء والإيجابية.

إن هذه الجوانب الهامة في الإنسان تتلاقى فيما بينها جميعا لتعلن في تصديق كامل وفي يقين ضارب في أعماق النفس أن الله هو الأكبر

- فهو أكبر من كل كبير، وأنه أعظم من كل عظيم، بل إنه في عظمته وكبريائه يهون دونه كل كبير أو عظيم.
ذلك ما يردده المؤمن سواء في أيام الفطر والأضحى، أو في بقية الأيام جميعا - فهو يردد بلسانه على الدوام أن الله هو الكبير، بل إنه أكبر من كل كبير، لا باللسان وحده، ولكن يأتي اللسان مقترنا بالقلب وما ينبثق عنه من طاقات شعورية ووجدانية - حتى إذا ذكر المؤمن ربه وكبره بلسانه وقلبه تكبيرا ثم أخبت له طائعا خاشعا عاملا بما أمر ومنتهيا عما زجر، بات من الشاكرين لله سبحانه، السائرين على صراطه وما هداهم إليه، لذلك قال: {ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون}.
١٨٦ - (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)
قوله تعالى: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) جاء في سبب نزول هذه الآية أن أعرابيا قال: يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله (وإذا سألك عبادي عني).
وقيل سأل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -: أين ربنا؟ فأنزل الله الآية.
وقيل انه لما نزلت (وقال ربكم ادعوني أستجيب لكم) قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت (وإذا سألك عبادي عني) ٢٢٦.
وروى الإمام أحمد بإسناده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يده يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين ".
وأخرج أحمد عن أبي سعيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها " قالوا: إذا نكثر، قال: " الله أكثر ".
وروى الإمام مالك بإسناده عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يُستجب لي ".
وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم، وما لم يستعجل " قيل: يا رسول الله! وما الاستعجال، قال:: يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عنه ذلك ويدع الدعاء ".
ويستجيب الله للعبد إذ دعاه في غير إثم ولا معصية، على أن يكون الداعي حاضر الذهن والقلب وأن يكون موقنا بالإجابة - فلا يجدي الدعاء عن ظهر قلب غافل أو كان الداعي مرتابا غير موقن بأن دعاءه مستجاب - وفي يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه عنه عبد بن عمرو: " القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل ".
ومن الساعات الكريمة التي تتعاظم فيها أجور الأعمال ويزداد فيها العاملون من الله قربة، ساعات الصيام في شهر رمضان المبارك، ولعل أروع الظواهر وأهمها في هذا الشهر المفضل أن يستجيب الله فيه الدعاء، وبذلك فإن على المؤمن أن يحرص على الدعاء أثناء الصيام دون ملل؛ وذلك لأمرين.
أولهما: أن مجرد الدعاء إلى الله في خشوع وتذلل لهو عبادة عظيمة يكتب فيها الله الأجر للداعي.
وفي أهمية الدعاء وفضله يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " الدعاء مخ العبادة " ٢٢٧.
ثانيهما: أن الدعاء في شهر الصيام مستجاب على أن يكون الداعي مستكملا أسباب التقبل من خشوع وطمأنينة وتذلل ويقين بالاستجابة.
وقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة " فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا.

وفي حديث آخر رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أيضا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الصائم عند فطره دعوة ما ترد ".

وفي رواية لأحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين ".

وقوله: (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) وجاء في تأويل قوله تعالى: (فليستجيبوا) أن السين والتاء زائدتان، واللام لام الأمر - أي فليجيبوا دعوتي إليهم بالطاعة والامتثال، وليكونوا مؤمنين بي إلها خالقا فردا أحدا صمدا - وفي ذلك ما يسلك بهم سبيل الرشاد ويباعد بينهم وبين الغي والضلال والباطل - وقيل: معناه: فليستجيبوا لي بالطاعة يقال: استجبت له واستجبته بمعنى أجبته - وقيل: فليطيعوا لي - فالاستجابة بمعنى الطاعة - وقيل: فليدعوني ٢٢٨.

١٨٧ - (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

قوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن بشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون} (أحل) فعل ماضي مبني للمجهول - ليلة منصوب على الظرفية الزمانية والصيام مضاف إليه - (الرفث) نائب فاعل مرفوع.

كان في ابتداء الإسلام إذا حل شهر الصيام فإنه يحل للمسلم الأكل والشرب والجماع بعد الغروب حتى صلاة العشاء أو النوم، فإذا صلى العشاء أو نام- قل النوم أو كثر- فإنه ليس له بعد ذلك أن يأكل أو يشرب أو يواطئ، بل يظل ممسكا بقية ليلته والنهار حتى المغرب - وذلك فيه من المشقة ما هو معلوم وما يضيق به كثير من الناس.

ونعرض الآن لما ورد من سبب في نزول هذه الآية، فإن الكشف عن السبب يزيد كم بيان المقصود - فقد ذكر عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا كان الرجل صائما، فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها، وأن قسي بن صرمة الأنصاري كان صائما وكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال " هل عندك طعام؟ قال: لا ولكن أنطلق فأطلب لك - فغلبته عينه، فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائما قالت: خيبة لك أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية - ففرح المسلمون بها فرحا شديدا.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: إن الناس كانوا من قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله، ثم جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: أشكوا إلى الله وإليك الذي صنعت - قال: " وما صنعت " قال: إني سولت لي نفسي فوقعت على أهلي بعدما نمت وأنا أريد الصوم، فزعموا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما كدت خلقا أن تفعل " فنزل قوله تعالى: (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) والرفث هو معناه الجماع - فقد رخص الله للمسلمين في هذه الآية الأكل والشرب والجماع طيلة الليل بدءا بالمغرب حتى مطلع الفجر ٢٢٩.

وقوله: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) (هن) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (لباس) خبر - ذلك تعبير رباني كريم غاية في التصوير الموحي الذي يعبر عن امتزاج الجسدين امتزاجا مباشرا، كأنما الواحد منهما لباس يلتصق به الآخر ويستتر به - وهو التصادق مادي ومعنوي وثيق يكشف عن عمق المودة والانسجام والتلاحم بين الزوجين.

وقوله: (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) (تختانون أنفسكم) أي تخونون أنفسكم بإيقاعها في المحظور وهو الجماع

بعد صلاة العشاء أو بعد النوم قبيل العشاء في رمضان - وتلك خيانة من المسلم لنفسه، إذ يوقعها في ما حرمه الله - وهي خيانة للنفس أساسها طبيعة الضعف في هذه النفس، إذ يوقعها في ما حرمه الله - وهي خيانة للنفس أساسها طبيعة الضعف في هذه النفس التي تجنح للشهوة الغلابة، وتضيق بما يصدها عن ممارسة ذلك، فلا يتيح لها من فرص الإشباع بما فيه الكفاية لكن جل وعلا امتن بالتوبة والعفو عن عباده الذين اختانوا أنفسهم، ورخص لهم بالجماع بعد العشاء وكذلك الأكل والشرب.

قوله: (فالآن بشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) المراد بالمباشرة الجماع

فقد أباح الله لعباده المواقعة في الليل من رمضان ما بين الغروب والفجر، وأن يطلبوا ما كتب الله لهم والمراد به الولد المتحصل بعد الجماع - وقيل: المقصود بما كتب الله لهم ما أباحه لهم من الجماع في الليل من رمضان - وقيل غير ذلك.

وقوله: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) أباح الله للمسلم التمتع بالأكل والشرب طيلة الليل إلى أن يستبين له بياض النهار من سواد الليل - وجاء التعبير في الآية عن ذلك بالخيط الأبيض والخيط الأسود - ولا ينبغي أن يفهم النص على ظاهره فيوعى وعيا حرفيا كما وعاه بعض الناس إذ وهموا أن المراد بالخيط هو الحبل الدقيق المعروف؛ بل إن المقصود بالخيط الأبيض بياض النهار إذا انفجر ولاح ضوءه في الأفق - وأما الخيط الأسود فهو سواد الليل يغشى السماء - ومما يزيل اللبس والإبهام هنا قوله: (من الفجر) فذلك تبيين للمقصود من الخيط الأبيض والخيط الأسود - فليس المقصود من ذلك الحبل الدقيق كالعقال ونحوه وإنما النهار بضيائه والليل بسواده هما المقصودان.

فقد حدث الإمام أحمد بإسناده عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والأخر أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بالذي صنعت فقال: " إن وسادك إذا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل " وبذلك فإنه مباح للمسلم أن يأكل ويشرب ويواقع طيلة الليل حتى الفجر.

وهنا يرد الكلام عن أكلة السحور وهو ما كان قبيل الفجر بزمن قصير - والسحور مستحب شرعا للمؤمن، فقد ندب إليه النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ لما فيه من تقوية للبدن على الإمساك طوال النهار، ولما فيه كذلك من صحوة في الليل ترافقها صحوة للحس والقلب والذهن في فترة ساكنة هادئة من الليل - وهي فترة تحلو فيها اليقظة وتنبعث فيها النفس ناشطة بعد رقاد، إنها فترة السحر الوادع الذي تجد فيه الروح وأشواقها، فتفيض على الحياة والواقع بنسائم الأمن والراحة والإحساس بالطمأنينة الكاملة والحبور الغامر، هي فترى السحور التي يسن فيها الأكل شرعا؛ لما فيها من بركة، فهي بركة الطعام الذي يغدو البدن بطاقة الاقتدار والاحتمال، وبركة اليقظة التي تفيق فيها الروح بعد سهادٍ راقد لتعيش فترة وجيزة من الزمن حافلة بالرضا والسكينة.

وفي السحور يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في رواية الصحيحين عن أنس: " تسحروا فإن في السحور بركة " - وروى مسلم عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور ".

وفي حديث آخر لأبي سعيد قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " السحور أكله بركة فلا تدعوه، ولو أن أحدكم تجرع جرعة من ماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسرحين ".

ويستحب للمتسحرين تأخير السحور إلى قبيل الفجر بمدة وجيزة من الزمن مقدرة بتلاوة خمسين آية القرآن - فقد جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قمنا إلى الصلاة - قال أنس: قلت ليزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال قدر خمسين آية.

وفي حديث للإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخروا السحور ".

وجدير بالبيان هنا أن الفجر فجران - أولهما: ما كان ضياء ساطعا على هيئة بياض مستطيل في الأفق لا يلبث أن يزول لتعقبه ظلمة. وثانيهما: ما جاء عقيب الفجر الأول وكان ضوءه منتشرا، وهو إيذان بطلوع النهار - ومن أجل ذلك ينادي المؤذن بأذانين.

والأذان الأول منهما إنما هو لإيقاظ النائم وتذكير الساهي وإرجاع القائم - أما الثاني فهو الفجر المقصود الذي يجب معه الإمساك - يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " الفجر فجران، فالذي كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئا، وإنما هو المستطير الذي يأخذ الأفق فإنه يُحل الصلاة ويُحرم الطعام.

وقد ورد في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم؛ فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم؛ فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر ".

وعنه (ص) قال: " لا يمنعن أحدكم أذان بلال عن سحوره- أو قال نداء- بلال؛ فإن بلالا يؤذن بليل أو قال: ينادي لينبه نائمكم وليرجع قائمكم ".

وفيما رواه مسلم عن إسماعيل بن إبراهيم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يغرنكم أذات بلال ولا هذا البياض لعمود الصبح حتى يستطير " وفي رواية أخرى عنه (ص): " ليس الفجر المستطيل في الأفق ولكنه المعترض الأحمر ".

يؤخذ من هذه الأدلة أن ما تعورف عليه من أذان الإمساك في هذه الأيام والذي يسبق أذان الفجر لا يَصْدق عليه هذا الاسم - فإن أذان الإمساك في هذه الأيام هو في حقيقته مرادف لأذان بلال عندما كان يؤذن بليل لإيقاظ النائم وتحذير الساهي وإرجاع القائم - فإنه بعد هذا الأذان لا ينبغي الإمساك عن طعام أو شراب أو جماع، بل إن ذلك كله مباح حتى يحين وقت الأذان الثاني وهو أذان الفجر الذي يسبق طلوع النهار.

ومما يتبع ذلك من مسائل أن من أصبح جنبا في رمضان فلا حرج عليه - وعليه أن يغتسل نهارا - فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة- رضي الله عنهما- أنهما قالتا: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصبح جنبا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم.

وأما الحائض أو النفساء فليس لها أن تصوم، بل إن إفطارها واجب حتى وإن جاءها المخاض أو الحيضة قبيل الغروب بزمن قصير، وعليها القضاء بعدة أيام أخر خارج شهر رمضان، أما الصلاة فلا قضاء فيها تخفيفا من الله ورحمة، فلا تقضي المرأة الحائض ولا النفساء ما فاتها من صلوات بسبب الحيض أو النفاس ٢٣٠.

وفيما يتعلق بالنية فإن تبييتها في الصوم من قبل الفجر واجب؛ ذلك أن الصيام ضرب من العبادة التي لا تتم إلا بالنية - وهي غير النية ليست إلا عملا من الأعمال العادية التي لا يَصدق عليها اسم العبادة المراد بها وجه الله - فقد روى الدارقطني عن السيدة عائشة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من لم يبيت الصيام قبل طلوع الفجر فلا صيام له ".

وروى الدارقطني عن حفصة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له " ذلك الذي ذهب إليه جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة إذ قال: لا يشترط تبييت النية قبل الفجر - وقول الجمهور هو الراجح والمعتمد ٢٣١.

وقوله: (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فرض على الصائم أن يظل ممسكا عن الجماع وعن كل ما يلج الجوف طيلة النهار حتى تغرب الشمس، وبذلك فمجال الصيام من حيث الزمن ما بين الفجر والغروب، فإذا غربت الشمس أفطر الصائم ولا مساغ حينئذ للتأخير - وقد جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم ".

والحكم بإتمام الصيام إلى الليل يستلزم الحديث عن الوصال في الصيام - وهو أن يصل الصائم يوما بيوم يليه من غير أن يأكل أو يشرب بينهما شيئا، وذلك أمر منهي عنه شرعا؛ لما فيها من ضرر يلحق بصحة البدن أو احتمال الهلاك من طول الإمساك عما يسد الرمق.

وقد جاء في الحديث مما رواه أحمد عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تواصلوا " قالوا: " يا رسول الله! إنك تواصل، قال: " فإني ليست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني " قال: فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي - صلى الله عليه وسلم - يومين وليلتين ثم رأوا الهلال فقال: " لو تأخر الهلال لزدتكم " كالمنكل لهم.

وعن عائشة رضي الله عنهما قالت: نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الوصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل - قال: " إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني " وبذلك فإن وصال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الصيام كان من خصوصياته وهو مقتدر على ذلك ومعان عليه، أما إطعامه عليه السلام وسقيه فما كان حقيقيا حسيا وإنما كان معنويا روحيا.

ولا نستطيع في هذا المجال من التفسير أن نفيض من الأحكام والمسائل الفقهية بأكثر من ذلك - وعلى المستزيد أني عود لذلك في مظانة من كتب الفقه على اختلاف مذاهبه.

وقوله: (ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) (وأنتم)، الواو للحال - أنتم في محل رفع مبدأ - (عاكفون) خبر مرفوع - والجملة الإسمية في محل نصب للحال - وعاكفون من الاسم الاعتكاف وهو لغة الاحتباس والملازمة، ومنه الفعل عكف يعكف - عكف على الشيء الاعتكاف وهو لغة الاحتباس والملازمة، ومنه الفعل عكف يعكف - عكف على الشيء بمعنى أقبل عليه مواضبا ٢٣٢ يقول الله سبحانه في آية أخرى: (يعطفون على أصنام لهم).

والاعتكاف في الشرع هو كما عرفه القرطبي في تفسيره: ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص على شرط مخصوص في موضع مخصوص.

في هذه الآية نهى الله عن الجماع في فترة الاعتكاف - ومن أتى الجماع حال اعتكافه فسد اعتكافه، حتى إن أفعالا دون النكاح كالتقبيل وغيره حين الاعتكاف مكروه شرعا.

على أن الاعتكاف ركنه ملازمة العبادة والمواظبة في مدة مخصوصة - وليس ذلك واجبا على المسلم ولكنه نافلة من النوافل يتقرب بها المرء إلى ربه مثلما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة والتابعون من بعده يفعلون.

أما وقت الاعتكاف ومكانه، فإنه يستحب أن يكون في رمضان خصوصا العشر الأواخر منه، كما كان يفعل الرسول - صلى الله عليه وسلم -، واستحبابه في رمضان يستأنس له بذكر الاعتكاف في آية الصيام، مع أنه يجوز للمسلم أن يعتكف في أي وقت من السنة.

وأما مكان الاعتكاف فقد أجمع العلماء على اشتراطه في المساجد، لكنهم اختلفوا في حقيقة هذه المساجد المذكور في الآية (عاكفون في المساجد) فقد قيل إنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد تقام فيه الجمعة - وذهب آخرون إلى جواز الاعتكاف في كل مسجد - وه الراجح لدليلين: أولهما: أن المساجد في الآية ذكرت على سبيل العموم ولم يخصصها شيء وثانيهما: ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله في هذا الصدد: " كل مسجد له مؤذن وإمام فالاعتكاف فيه يصلح ".

وأما الاعتكاف من حيث مدته فقد اختلفوا: إذ ذهب الإمامان مالك وأبو حنيفة إلى أن أقل مدته يوم وليلة، وقال الشافعي: أقله لحظة ولا حد لأكثره، وهو ما نرجحه؛ ذلك أن الآية جاءت بصيغة العموم فلم تحدد الاعتكاف بمدة لأقله أو أكثره.

واشترط فريق من أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك وأحمد في أحد قوليه؛ الصوم لصحة الاعتكاف، فلا بد للمعتكف أن يصوم نهاره حال اعتكافه، واستدلوا على ذلك بالظاهر من النص الكريم؛ إذ ذكر الاعتكاف عقيب التكليف بالصوم - واستدلوا كذلك بما روي عن السيدة عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا اعتكاف إلا بصيام " وذهب آخرون وفيهم الشافعي وداود الظاهري وأحمد في أحد قوليه إلى أنه لا يشترط الصوم لصحة الاعتكاف - واحتجوا لذلك بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان قد اعتكف في رمضان، ولا يمكن أن يكون صوم رمضان لرمضان وغيره - حتى إن المعتكف في رمضان بصوم التطوع والفرض معا يفسد صومه لجمعه في النية بين فعلين - وذلك ما قاله الإمام مالك.

ويظهر لنا من ذلك أن اشتراط الصوم للاعتكاف هو الصحيح استنادا إلى الحديث: " لا اعتكاف إلا بصيام " والله تعالى أعلم ٢٣٣.

وقوله: (تلك حدود الله فلا تقربوها) اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ - (حدود الله) خبر - ولفظ الجلالة مجرور بالإضافة - وحدود مفردها حد وهو المنع - والحدود هي الموانع أو الحواجز التي لا ينبغي أن يتجاوزها أحد؛ لما في ذلك من معصية وعدوان.

والمراد بحدود الله في الآية أحكامه التي بينها فليس لأحد أن يقربها - أي يتعداها ويتجاوزها بالانتهاك والعصيان.

وقوله: (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) أي مثلما بين الله في الآية هنا الصيام وأحكامه وما تبع ذلك من تشريع للاعتكاف،

فإنه سبحانه يبين للناس في آياته الكريمة سائر الأحكام ليكون في ذلك الهداية لهم وما يجعلهم على صراط الله المستقيم ومنهجه الكامل القويم.

١٨٨ - (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون).

ذلك نهي عن أكل الأموال بغير الحق ويشمل ذلك كل وجوه الأكل الحرام مما تبين عن طريق الكتاب أو السنة - والأكل الحرام يذهب بالبركة، ويرسخ في النفس درن الشرح والجشع، ويشيع بين الناس الكراهية والتحاسد والبغضاء، وينتزع من بين الأفراد كل بقية للمودة أو الثقة أو البركة.

وأكل الأموال بالباطل أو جهة كثيرة، وهي كالرشا والقمار والسرقة والتطفيف في الميزان والمكيال، وكذلك أثمان الخمور والخنازير وأجور النساء الزواني اللواتي يأتين الفاحشة، ثم أكل المهور وغيرها من الأموال عن غير طيب نفس أو الاحتكار والربا والغش والخداع في البيع والتعامل وغير ذلك من أصناف الأكل الحرام الذي يسحت البركة ويودي بالآكلين الظالمين إلى النار - وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: " ومن نبت جسمه من حرام، فالنار أولى به ".

وقوله: (وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم) أي لا تأكلوا أموال الناس بغير حق، ثم تعمدوا بعدها لمصانعة الحكام أو القضاة فترشوهم بالمال لكي يقضوا لكم بالباطل - واعلموا أن أي قضاء من هذا النوع لا يُحل حراما ولا يقلب لكم الباطل حقا، بل إن الحرام لا يتحول عن صفته هذه بالحكم الجائر أو القضاء الباطل - فإذا قضى القاضي لأحد الخصمين بالباطل فما يأكل هذا الخصم إلا الحرام أو النار، ولا يبيت ماله هذا حلالا بمجرد القضاء غير المطابق سيء النية قد جار في حكمه عن قصد - ويمكن القول كذلك أن القاضي لا إثم عليه ولا حرج إذا ما قضى في ضوء ما يتراءى له من بينة جلية كافية، فهو يقضي بحسب الظاهر وليس له بعد ذلك أن ينقب عن القلوب والسرائر.

وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لاثنين جاءا إليه يختصمان: " لا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها " وبذلك فإن الحكم من الحاكم في قضية للمتخاصمين لا يغير الشيء عن حقيقة أمره - فهو لا يحوّل الحرام حلالا ولا يحول الحلال حراما - ولكن الحاكم يحكم على الظاهر من البينة - فلا يحل المال إذا لخصم ذي براعة في التحيّل واختلاق البينات الكاذبة مهما تعددت وتضافرت؛ لأنه يعلم أنه مبطل وأنه مفتر وأنه آكل أموال الناس بالباطل؛ لذلك قال سبحانه في الآية: (وأنتم تعلمون) الواو للحال - (أنتم) ضمير في محل رفع مبتدأ (تعلمون) جملة فعلية في محل رفع خبر.

١٨٩ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: (يسألونك عن الآهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وآتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون) (الأهلة) مفردها هلال - وهو يطلق على أول ليلة والثانية والثالثة ثم يكون بعد ذلك قمرا - وقيل: يطلق الهلال على الليلتين الأوليين من الشهر وعلى الليلتين الأخريين منه كذلك - وما بين هذين الطرفين يكون قمرا.

وسمي هلالا؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه - واستهل بمعنى تبين - نقول استهل الصبي أي صاح عند الولادة فظهرت حياته - وأهل المعتمر أو الحاج رفع صوته بالتلبية - وتهلل وجه الرجل فرحا أو استهل أي ظهر فيه السرور.

ومنه قوله تعالى: (وما أهل به لغير الله) أي نودي عليه بغير اسم الله تعالى وأصله رفع الصوت.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن معاذ بن جبل قال للنبي - صلى الله عليه وسلم -: يا رسول الله! إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم يتقص حتى يعود كما كان؟

وقيل: سبب نزولها أن قوما من المسلمين سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الهلال وسبب محاقة وكماله ومخالفته للشمس في دوام كمالها واستدارتها وعدم نقصانها.

وقوله: (قل هي مواقيت للناس والحج) ذلك جواب عن سؤال السائلين السابق، فالأهلة أصلها القمر - وقد جعله الله متفاوتا مختلفا وعلى منازل تتراوح بين الصغر والكبر أو بين الدقة والاكتمال أو بين السطوع المتلألئ والذبول الشاحب - كل هذه المراحل المتعددة المتعاقبة للقمر بانتظام قدرها الله لتكون (مواقيت للناس) و (مواقيت) مفردها ميقات وهو الوقت - فقد جعل الله من تعدد الأهلة بتعدد الهيئة والصورة للقمر ما يمكن الناس من يسر التعامل والعيش، وذلك بضرب الآجال والمواعيد لتحقيق القضايا والمعاملات وأداء الصوم والحج والالتزام بالعهود والمواثيق والعقود كالإجارات والرهان والمقارضات وسائر أنواع البيوع، إلى غير ذلك مما تقتضيه مصالح العباد - وهي مصالح وقضايا وشؤون تحدد على أساس من الزمن (المواقيت) ولولا ذلك لتعثرت حياة الناس ومعايشهم فلخالطها اللبس والتنازع والخصام.

ومن تسخير الأهلة الناس كي تكون لهم مواقيت للحج استنبط بعض الفقهاء حكما شرعيا وهو أن الإحرام بالحج في غير أشهر الحج يصح مع الكراهة استنادا إلى هذه الآية - ذلك أن الله جعل الأهلة كلها- على مدار السنة- مواقيت للحج - وقد ذهب إلى ذلك أبو حنيفة ومالك وخالف الشافعي في ذلك محتجا بقوله تعالى: (الحج أشهر معلومات) أما أن تكون الصلة كلها مناسبة للإحرام بالحج استنادا إلى ظاهر قوله: (مواقيت للناس والحج) فذلك مجانب للصواب وهو مرجوح ٢٣٤.

وقوله: (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) (البر) اسم ليس مرفوع - وهي كلمة جامعة للإحسان والخير - والمصدر من أن تأتوا في محل نصب خبر ليس - والظاهر من السياق للآية أن اتصال السؤال عن الأهلة بإتيان البيوت من ظهورها جاء متفقا فنزلت الآية في القضيتين كليتهما.

وفي سبب نزول هذه الآية ثمة قولان متقاربان: أحدهما: أن الأنصار كانوا إذا حجوا وعادوا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها، فقد كان من عاداتهم أنهم إذا أهلوا بحجج أو عمرة يلتزمون شرعا ألا يكون حائل بينهم وبين السماء - فكان الحاج فيهم أو المعتمر إذا عاد لبيته لا يدخل من الباب، كيلا يحول السقف بينه وبين السماء المكشوفة - فكان من أجل ذلك يتسلق الجدران ليتسنم ظهر بيته وهم يرون ذلك ضربا من النسك أو العبادة - فرد الله تصورهم هذا وبين لهم أن البر هو التقوى والتزامهم بما شرع.

ثانيهما: وهو لابن عباس إذ قال: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم بحج، فإن كان من أهل المدر نقب في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج، أو ينصب سلما ليتمكن من الصعود أو النزول بسببه - وإن كان من أهل الوبر فإنه يدخل إلى الخيمة من خلفها إلا إن كان من الحمس - والحمس جمع مفرده الأحمس وهو من الحماسة بمعنى الشدة، وسموا بذلك لشدتهم - فهم بذلك حمس أي شداد - ويدخل في الحمس قبائل عربية ذات شهرة ومكانة منها قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وآخرون ٢٣٥.

في ضوء ما تقدم من بيان لسبب النزول وغيره نود التذكير بالجزأين التاليين.

أولهما: أن السؤال عن الأهلة وإتيان البيوت من غير أبوابها كانا بمثابة قضيتين وردتا متفقتين معا - وبعبارة أخرى فإن السؤال عن الأهلة جاء في وقت كان الناس يدخلون بيوتهم من غير أبوابها، فنزلت الآية في القضيتين معا.

ثانيهما: ما وقف عليه الأستاذ الشهيد سيد قطب-رحمه الله- وهو أن السؤال عن الأهلة يخالطه التكلف والاستعجال، فما كان السائلون مؤهلين أصلا لمعرفة الحقيقة الطبيعية التي يسير على أساسها القمر في دورانه حول الأرض ليبدو على أشكال متفاوتة من لأهلة - ٢٣٦ إن هذا السؤال المتكلف المستعجل من السائلين عن هذه الحقيقة يوحي بالتكلف البطر غير المرغوب، كشأن الذي يستنكف عن الدخول في البيت من بابه المعلوم ثم يأتيه من خلفه إيثارا للاعوجاج الملتوي ومجانفة عن سواء السبيل.

كذلك الذين يقفزون في غير تبصرة موزونة ولا تفكير متئد سليم ليسألوا عن حقيقة طبيعية لجزء عظيم من أجزاء ها الكون (القمر) وذلك من حيث هيئته وتفاوت حجمه على نحو مطرد مقدور.

كان حريا بأولئك السائلين أن يكفوا عن مثل هذا السؤال الذي يعز عليهم إدراكه في زمانهم، وكان عليهم أن يأخذوا أنفسهم بالتقوى وما يتطلبه ذلك من مقتضيات البر والطاعة، فإن ذلك أبعد عن التكلف في السؤال وهو بمثابة الإتيان للبيوت من أبوابها لا من ظهورها

- والله سبحانه وتعالى أعلم.
١٩٠ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)
قوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل اله الذي يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)
كان القتال قبل الهجرة ممنوعا - وهو ما يدل عليه قوله تعالى: (ادفع بالتي هي أحسن) وقوله: (فاعف عنهم) وقوله: (واهجرهم هجرا جميلا) ولما هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة أمره بالقتال بقوله: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم) فكان النبي يقاتل من قاتل ويكف عمن كف عنه حتى نزل قوله تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وروي أن هذه أول آية نزلت في الأمر بالقتال - وقيل: أول آية في ذلك هي قوله تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا).
قوله: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المفسدين) فقد جاء في تأويل هذه الآية قولان:
القول الأول: إن الله يأمر عباده المؤمنين بمقاتلة أعدائهم الذين يقاتلونهم حتى إذا كف الأعداء عن مقاتلتهم، كان على المؤمنين أن يكفوا كذلك بالمثل؛ لأن قتالهم من لم يقاتلهم من الكافرين يعتبر عدوانا والله سبحانه (لا يحب المعتدين).
وقيل أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وبقوله تعالى: (وقاتلوا المشركين كافة).
القول الثاني: إن هذه الآية ليست منسوخة بل هي محكمة - وتأويل ذلك أن الله يأمر المؤمنين بمقاتلة أعدائهم الكافرين الذين شأنهم وحالهم وهمهم قتال المسلمين - فكأن الكافرين على قتال دائم مع المؤمنين، فمن كانت حالة هذه وجب قتاله.
أما الاعتداء الذي نهى الله عنه في هذه الآية فهو كما قاله الحسن البصري يتناول المنهيات من أمور الحرب مثل الغلول والمثلة وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ثم الرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة - ويصدق ذلك كله ما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: " اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلو، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع ".
وعن ابن عباس قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث جيوشه قال: " اخرجوا بسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوالدان ولا أصحاب الصوامع ".
وعن عبد الله بن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي - صلى الله عليه وسلم - مقتولة فأنكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتل النساء والصبيان.
وقد ذكر القرطبي في تفسيره صورا ستا لأولئك الذين يتجنبهم المسلمون في الحرب فلا يقتلونهم وهم على التفصيل التالي:
أولا: النساء إن لم يقاتلن المسلمين فلا يؤذين ولا يقتلن، أما إن قاتلن المسلمين أو عملن على تقوية الأعداء بتحريضهم على قتال المسلمين وإمدادهم بالمال والغذاء والعلاج وغير ذلك فإنهن بذلك يقتلن.
ثانيا: الصبيان فهم لا يقتلون، لما ثبت من دليل في النهي عن قتلهم؛ ولأنهم أصلا غير مكلفين، لكنهم إن حملوا السلاح مع الأعداء وقاتلوا المسلمين فقد بات قتلهم واجبا.
ثالثا: الرهبان - وهم كذلك لا يقتلون ولا ينبغي إيذاؤهم وإنما يتركون وحالهم من عبادتهم، لكنهم إذا شاركوا الأعداء في قتال المسلمين قتلوا - وفي يقول أبو بكر الصديق في وصية له ليزيد بن أبي سفيان حينما بعثه إلى الشام: وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، فإن كانوا مع الكفار في الكنائس قتلوا.
رابعا: الزمنى - وهم ذوو الأمراض والعلل المزمنة فإنهم إذا لم يعينوا الكافرين على قتال المسلمين تركوا على الراجح.
خامسا: الشيوخ المسنون - فإن في حكم هؤلاء تفصيلا - فإن كان المسن كبيرا هرما لا يستطيع قتالا أو تقديم رأي أو مشورة للعدو

فإنه لا يقتل - وقد ذهب إلى ذلك الإمامان مالك وأبو حنيفة- رضي الله عنهما- وهو قول الجمهور.
أما الإمام الشافعي فله في ذلك قولان - أحدهما: مثل قول الجمهور السابق.
وثانيهما: أنه يقتل - والصحيح ما ذاهب إليه الجمهور استنادا إلى وصية الصديق رضي الله عنه إلى يزيد بن أبي سفيان بعدم قتل أصناف من الناس وفيهم الشيوخ إلا إذا شاركوا في أذية المسلمين في قول أو رأي أو مشورة أو عمل.
سادسا: العسفاء - وهو جميع مفرده: عسيف وهو الأجير - وكذلك الفلاحون الذين ينقطعون لحراثة الأرض وزراعتها - ففي مثل هؤلاء خلاف من حيث الحكم - فقد قال الإمام مالك بعدم قتلهم - وقال الشافعي بقتلهم إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية - والظاهر أن ما ذهب إليه مالك في هذه المسألة وهو الراجح، وذلك لقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن حراثا كما ذكر ٢٣٧.
١٩١ - (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)
قوله: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) يوجب الله قتل المشركين المقاتلين في الحرب حيث ثقفوهم - أي حيث ظفروا بهم وأخذوهم - نقول: ثقفت الشيء ثقفا بمعنى أخذته - وثقفت الرجل في الحرب أي أدركته وظفرت به - وثقفت الحديث أي فهمته بسرعة ٢٣٨.
ويوجب الله كذلك إخراج المشركين من البلاد التي أخرجوا منها المسلمين - والظاهر أن خصوص السبب المقصود في هذه الآية هم كفار مكة، إذ أخرجوا المسلمين من بلادهم (مكة) فباتوا من بعد طلك مهاجرين، لكن العبرة بعموم اللفظ كما هو معلوم في الأصول - فإن الحكم بوجوب إخراج المشركين المعتدين ينسحب على كل الأحوال المشابهة التي يعتدي فيها الظالمون على المسلمين فيخرجونهم من ديارهم بغير حق.
وقوله: (والفتنة أشد من القتلى) تأتي الفتنة بمعنى الاستمالة - نقول فتن المال الناس أي استمالهم - وفتن فلان في دينه أو أفتن بمعنى أنه مال عنه - والفتنة بمعنى الشرك والمحنة والابتلاء ٢٣٩.
وجاء في المقصود من هذه الآية عدة أقوال نقتضب منها اثنين:
أولهما: أن فتنة المسلم بحمله على الكفر والبعد عن دين الإسلام وذلك بمختلف الوسائل والأسباب منها التعذيب والتخويف والتهديد ومنها الإغراء والإغواء بالمال وغيره، فإن ذلك لهو أشد من القتل - أو أن قتل المؤمن أهون عليه من فتنته عن دينه إلى الشرك.
ثانيهما: أن فتنته عن دينه أشد نكرا من قتله للمشركين في الأشهر الحرم وقد غيَّر المشركون المسلمين بذلك، وراحوا يصرخون بأن أصحاب محمد يقتلون الناس في الأشهر الحرم، وبذلك يريد الله أني علم هؤلاء الضالون والظالمون أن فتنتهم للمؤمنين وصدهم عن سبيل الله وعن دينه أعظم جرما من القتل في الشهر الحرام.
قوله: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) ينهى الله عن مقاتلة المشركين عند المسجد الحرام - أي ليس لهم أن يبدأوهم بالقتال في الحرم إلا إذا اعتدى عليهم المشركون وبدأوهم بالقتال - وفي مثل هذه الحال وجب على المسلمين أن يصدوهم ويقتلوهم جزاء عدوانهم ومبادأتهم بالقتال.
وبذلك فإن الحكم الثابت المستفاد من هذه الآية هو تحريم القتال عند المسجد الحرام باستثناء ما بينا من عدوان الكافرين ومبادأتهم - ولا ينبغي الاحتجاج في هذا الصدد بمقاتلة النبي لمشركي مكة يوم الفتح، وذلك لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوم فتح مكة: " إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يُعضد شجره ولا يختلى خلاه فإن أحد ترخص بقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ".
وقيل إن الآية منسوخة بقوله تعالى: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) والراجح أنها محكمة وليست منسوخة، يعزز ذلك ما بيناه من دليل وهو الحديث السابق.

١٩٢ - (فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله: (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) إذا انصرف المشركون عن قتال المسلمين والتعدي عليهم والتربص بهم ثم تابوا وأنابو وفاءوا إلى الإيمان فإن الله يغفر لهم كل ما قارفوه في شركهم من عدوان على المسلمين وقتل لهم.

١٩٣ - (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ)

وقوله: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) ذلك أمر من الله للمؤمنين بقتال المشركين في كل مكان، سواء بدأهم المشركون بالقتال أو لم يبدأوهم، فإن على دولة الإسلام أن تمضي قدما لتطهير الأرض من أوضار الشرك حتى تذهب شوكة الكافرين المجرمين، وحتى يتداعى سلطان الشرك أو يتبدد نهائيا - فلا يبقى بعد ذلك غير سلطان الإسلام وشوكته التي يوجب الله أن تعلو رايتها خفاقة فوق ربوع الدنيا - وحينئذ سوف لا تبقى فتنة - أو لا تبقى في الأرض بواعث تغري بالشرك أو تستميل المسلمين إلى الباطل، بل يكون المسلم آمنا مطمئنا على نفسه ودينه فلا يجد من بين يديه ولا من خلفه من أسباب تفتنه من دينه، او تغريه بالشرك - والأصل في ذلك أن يكون الدين لله - فيبقى الإسلام – وهو دين الله- المهيمن على الدين كله وليس بعد دين الله (الإسلام) لملة أو عقيدة أو ديانة أو فلسفة أن تتفشى في الأرض لتكون ظاهرة على الإسلام، بل إن الإسلام وحده ينبغي أن يظل ظاهرا على المبادئ والديانات والنحّل والمذاهب والتصورات جميعا؛ لذلك قال سبحانه في الآية: (ويكون الدين لله) وفي الحديث الشريف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " ٢٤٠.

وقوله: (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) إذا انصرف المشركون عن قتال المسلمين وعن إيذائهم وفتنتهم فدخلوا في الإسلام، أو كانوا من أهل الكتّاب ورضوا بدفع الجزية صاغرين فإن عليكم حينئذ أن تكفوا عن قتالهم؛ لأن العدوان لا يكون إلا على الظالمين ويأتي العدوان هنا بمعنى المقاتلة والجزاء - ذلك أن العدوان من المؤمنين على الظالمين هو بمثابة الجزاء على العدوان وذلك كقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) أما الظالمون فهم المشركون - أو يراد بهم الذين يعتدون فيبدأون بقتال المسلمين ٢٤١.

١٩٤ - (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) جاء في هذه الآية أنها نزلت في عمرة القضاء وعام الحديبية في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة - فقد صد المشركون النبي وحاولوا بينه وبين تأدية العمرة - فعاد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه المسلمون إلى مكة على أن يعودوا من قابل، فكتب الله له النصر إذ دخلها عليه السلام ومعه المسلمون في السنة السابعة فأقصه الله من المشركين قصاصا - وذلك معنى قوله تعالى في الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرم) أي أنه مقابل صدهم لك يا محمد عن البيت في الشهر الحرام فقد قاصك الله منهم إذا أرجعك إلى مكة في السنة التي بعدها ظافرا وفي الشهر الحرام ٢٤٢.

وقوله: (والحرمات قصاص) لحرمات مفردها حرمة، وهي تكون للشهر وللبلد وللإحرام - فنقول: حرمة البلد، وحرمة الشهر، وحرمة الإحرام، وحرمة المسجد، والحرمة هي ما لا يحل انتهاكه - وتأتي أيضا بمعنى المهابة وذلك على سبيل الاحترام.

وهذه المسميات التي بيناها لا يحل انتهاك واحد منها؛ لما لكل واحد منها من حرمة وهي حرمة البلد، وحرمة الشهر، وحرمة الإحرام، وحرمة المسجد.

أما الشهر الحرم فهي أربعة، واحد منها فرد وثلاثة سرد وهي: رجب ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ٢٤٣.

وقوله: (قصاص) أي مماثلة ومساواة - فقد أقص الله المسلمين من المشركين إذ أعادهم إلى مكة ظافرين في الشهر الحرام بعد أن صدوا من قبل ذلك في الشهر الحرام فكان ذلك قصاصا من الله أي مماثلة ومساواة.

وقوله: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) هذه الآية من أمهات ما جاء في الكتاب الحكيم مما اشتمل على أحكام وقضايا جنائية - او هي أصل في العقاب المثل الذي يسري على الناس عموما دون تمييز ما دام الجرم واقعا عن طريق العمد - فمن قتل بشيء وجب قتله بمثل ما قتل به إلا أن يعفو الولي كما بينا في آية القصاص - وذلك الذي عليه جمهور الفقهاء - ويستثنى من هذا العموم ما لو قتله بفسق، كالقتل بإسقاء الخمر أو باللواط فإنه في مثل هذه الحال يقتل بالسيف، لكن الشافعية قالوا: إنه بالرغم من القتل بالفسق فإنه يقتل بوسيلة مشابهة لما قتل به على ألا تكون فسقا - وكيفية ذلك عندهم أن يسقى بدل الخمر ماء حتى يموت، أو يُطعن في دبره بعود فيموت.

والأساس في ذلك كله أن يتحقق العدل بالمماثلة وهو العقاب بالمثل - وقد روي عن السيدة عائشة – رضي الله عنها- قالت: ما رأيت صانعا طعاما مثل صفية ٢٤٤ صنعت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - طعاما فبعثت به فأخذني أَفْكَلٌ، أي رعدة من شدة الغيرة، فكسرت الإناء - فقلت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ قال: " إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام ".

أما القتل بالمثقل ففيه تفصيل - وهو ما كان بالحجر أو العصا أو الخنق أو التردية من أعلى إلى أسفل أو التغريق في الماء أو القتل بالسم ونحو ذلك مما ليس بحديد محدد كالسيف أو الرمح أو السكين.

فقد شد الإمام أبو حنيفة- رحمه الله- في هذه المسألة إذ ذهب إلى أنه لا قصاص في القتل بالمثقل، بل تجب فيه الدية على العاقلة - واحتج أبو حنيفة لرأيه هذا بما نحسبه استنادا للعقل وحده، إذ قال إن القصاص عقاب كامل فهو بذلك يقتضي – من أجل تنفيذه بالعدل- أن تكون الجريمة كاملة - ولا تكون كاملة إلا إذا كان القتل بالحديد المحدد - وأي قتل بغير هذه الوسيلة يعتبر في تصور الإمام أبي حنيفة دون الجرم الكامل الذي يستوجب العقوبة الكاملة، ألا وهي القصاص وكذلك قد استند إلى جملة أخبار لا تخلو من احتمال فلا تصلح معه للاستدلال.

لكن جماهير الفقهاء وأهل العلم قد خالفوا الإمام أبا حنيفة في هذه المسألة إذ قالوا بوجوب القود (القصاص) في القتل بالمثقل - فإنه ما من قتل- كيفما كان سببه- إلا وهو معتبر جرما يقتضي قودا؛ وذلك لعموم الأدلة من الكتاب والسنة في إيجاب القصاص في القتل كيفما كانت وسيلته مادام عمدا ٢٤٥ - وقد روي عن أنس بن مالك أن جارية وجد رأسها قد رض بين حجرين، فسألوها: من صنع هذا بك، أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديا فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فأقر فأمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ترض رأسه بالحجارة - وفي رواية: " فقتله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين حجرين " وجاء في الحديث عن القتل بالإحراق والإغراق عمدا وأن في ذلك القصاص " من حرّق حرّقناه، ومن غرّق غرّقناه " ٢٤٦.

ذلك هو تأويل الاعتداء بالمثال الوارد في قوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) والعدوان على المعتدي هو بمثابة الجزاء على اعتدائه فلا مساغ بعد هذه الأدلة الظاهرة المتضافرة للقول بعدم القصاص في القتل بالمثقل ونحسب ان مثل هذا القول مرجوح، وأنه مدعاة لتفشي القتل ظلما ولاجتراء القتلة والمجرمين على القتل بغير حق - فإذا أيقن المجرمون القتلة أنه لا قصاص في القتل بالمثقل وأنه لا قصاص إلا ما كان بالحديد، عمدوا إلى القتل بغير وسيلة الحديد وذلك كالقتل تغريقا أو خنقا أو بالسم أو بالعصا أو التردية من مكان مرتفع.

قوله: (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) تقوى الله طاعته عن رضى ويقين وامتثال أوامره جميعا وذلك باتباع ما أمر والانتهاء عما زجر - وإذا كان العباد على تلك الحال من التقوى فليعلموا أن الله معهم مؤيدهم ومثبتهم في هذه الدنيا، وهو كذلك منجيهم يوم القيامة.

١٩٥ - (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) جاء في سبب نزول هذه الآية ما ذكر عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعناه أبو أيوب الأنصاري فقال

ناس: ألقى بيده إلى التهلكة - فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهدنا معه المشاهدة ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحببا فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه (ص) ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد قد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد ٢٤٧.

وقال حذيفة بن اليمان وابن عباس وكثيرون غيرهما في معنى هذه الآية: المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفقه.

هذان قولان في سبب نزول هذه الآية من أقوال أخرى كثيرة ومتقاربة يفضي كلها إلى المقصود بإلقاء النفس في التهلكة، وهما ترك الجهاد والنفقة في سبيل الله - فلا يترك أحد الجهاد ولا يبخل في النفقة في وجوهها المشروعة إلا من أودى بنفسه في التهلكة وهي مصدر فعله هلك يهلك.

وثمة أمثلة نسوقها لنبين فيها حكم الشرع وذلك في ضوء هذه الآية التي تحذر من إلقاء النفس في التهلكة.

فقد اختلف أهل العلم في الرجل يقتحم الحرب ثم يحمل على العدو بمفرده.

والراجح في هذه المسألة أنه إذا كان يقصد بذلك طلب الشهادة وقد خلصت فيه النية لله فلا بأس عليه في ذلك وليس ذلك من التهلكة في شيء - يقول الله سبحانه: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) فذلك هو الذي يبيع نفسه طلبا لرضوان الله.

ولو حمل الرجل بمفرده على أعداد كثيرة من المحاربين أو اللصوص أو المشركين، فإن كان في حمله عليهم ما ينكّل بهم أو يحدث فيهم رجة نفسية واضطراباً أو ثغرة ينفذ منها المسلمون إلى قلب العدو فذلك حسن وهو ضرب من الحماسة الشجاعة المندفعة التي يكتب الله به للمتحمس الشهادة إذا ما قُتل.

وكذلك لو حمل مسلم بمفرده على أعداد كثيرة من عساكر العدو في المعركة وهو ينبغي بذلك تجرئة المسلمين على الاندفاع في اقتحام هاجم، فضلا عن الترعيب الذي يحدثه في نفوس الأعداء فذلك حسن أيضا.

وحول هذا المعنى في مثل هذه المواقف رُوي أن رجلا قال للنبي - صلى الله عليه وسلم -: أرأيت إن قُتلت في سبيل الله صابرا محتسبا؟ قال: " فلك الجنة " فانغمس في العدو حتى قتل.

ومما نسمعه في عصرنا هذا أن يزجي أحد الناس بنفسه في وسط العدو فيموت وإياهم - وذلك كالذي يتمنطق بحزام من الذخيرة المتفجرة فيدفع بنفسه في قلب العدو ليفجر فيهم ما يحوطه من عتاد متفجر موقوت - ومثل هذا الرجل الشجاع كأنما هو في شخصه وجسده قنبلة قابلة للانفجار ساعة إلقائها صوب العدو - فما حكم ذلك - وهل من بأس على المرء الشجاع المندفع في مثل هذه الحال؟

نقول والله المستعان أن هذا المندفع الهاجم الشجاع وهو يبتغي الشهادة في سبيل الله، فضلا عن مراده تدمير العدو وإشاعة الرعب في صفوفه، له من بالغ الأجر والتكريم ما لم يعلم مداه وقدره إلا الله - وهو سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: (وأحسنوا إن اله يحب المحسنين) يأمر الله أن يعمل المؤمنون الطاعات على أفضل الدرجات وخير المقامات، سواء في ذلك الإنفاق أو الجهاد وغير ذلك من جوه الإحسان وهو أرقى الدرجات في مراتب الأعمال والطاعات ٢٤٨.

١٩٦ - (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا آمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام

ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب).

إتمام الحج والعمرة أي أداؤهما وإقامتهما على خير وجه من تمام النسك والإخلاص لله.

والعمرة من الاعتمار بمعنى الزيارة - وهي مفرد وتجمع على عمر وعمرات ٢٤٩.

ومن حيث المعنى الشرعي فهي الحج الأصغر، وهي ركنها الطواف والسعي وشرطها بينهما وبين الحج في إحرام واحد، فقد ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جمع في إحرامه بحج وعمرة ٢٥٠ - وثبت عنه كذلك في الصحيح أنه قال لأصحابه: " من كان معه هدي فليُهل بحج وعمرة " وعنه (ص) أنه قال في الصحيح: " دخلت العمرةُ في الحج إلى يوم القيامة ".

أما العمرة من حيث حكمها الشرعي فهي موضع خلاف - فقد ذهب فريق من أهل العلم وفيهم ابن عباس وعطاء وطاووس ومجاهد والحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن جبير والشافعي وأحمد وإسحاق إلى أنها واجبة - واحتجوا لذلك بحديث مرفوع عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن الحج والعمرة فريضتان لا يضُرّك بأيهما بدأت " واحتجوا كذلك بظاهر قوله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة لله) فقد أوجب إتمامها مثلما أوجب إتمام الحج، وذلك تكليف بالشيء فهو واجب لا سنة.

وذهب آخرون وهم الحنفية ومالك والنخعي إلى أن العمرة سنة وليست واجبا مستدلين لذلك بما ذكر عن جابر بن عبد الله قال: سأل رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الصلاة والزكاة والحج: أواجب هو؟ قال: " نعم " فسأله عن العمرة: أواجبة هي؟ قال: " لا وأن تعتمر خير لك ".

أما الآية فقد ردوا الاحتجاج بها على فرضية العمرة وقالوا أن الله سبحانه وتعالى إنما قرنها بوجوب الإتمام لا في الابتداء - أي أن الآية جاءت للإلزام بالإتمام لا للإلزام بالابتداء وهذا هو الراجح والله أعلم ٢٥١.

وقوله: (فإن حضرتم فما استيسر من الهدى) جاء في هذه الآية أنها نزلت عام الحديبية سنة ست عندما حيل بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبلوغ البيت الحرام لأداء العمرة.

فرخص الله للمسلمين يومئذ أن يذبحوا ما معهم من هدي وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رؤوسهم، وأن يتحللوا من إحرامهم.

والإحصار لغة معناه المنع والحبس - حصره العدو أو المرض، وأحصره، بمعنى منعه أو حبسه ٢٥٢ - والمحصر من حيل بينه وبين بلوغ البيت الحرام لسبب من عدو أو جور سلطان أو مرض.

لكن العلماء اختلفوا في تعيين حقيقة المانع الذي تكون به الرخصة للإحصار - وذلك على قولين - أولهما: أنه العدو خاصة وهو قول جماعة فيهم ابن عباس وابن عمر وأنس والشافعي فقد ذهب هؤلاء إلى أن الحصر يختص بالعدو فلا يتحلل من إحرامه إلا من حصره عدو وليس غيره.

وثانيهما: أن الحصر عام فهو يتناول كل سبب يمنع من الوصول إلى البيت سواء في ذلك العدو أو المرض أو الضلال في الطريق أو غير ذلك من أسباب - وهو ما ذهب إليه بعض السلف منهم ابن مسعود وابن الزبير وسعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير ومجاهد وآخرون غيرهم - وهو ما نرجحه استنادا إلى عموم المدلول لمفهوم الإحصار الذي يتناول جملة العوائق أو الأعذار دون تخصيص - ولما روي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله: " من كُسر أو وُجع أو عرج فقد حلّ وعليه حجة أخرى ".

وعلى العموم فإن المحصر الذي منعه من بلوغ البيت مانع سواء كان عدوا أو غيره- يتحلل من إحرامه حيث أحصر ثم ينحر هديه ويحلق رأسه - وقيل: يبعث بهديه إلى الحرام إن أمكن ذلك - فإذا بلغ الهدي محلّه صار المحصر حلالا - أي تحلل من إحرامه بمجرد بلوغ الهدي محلّه ٢٥٣.

وثمة خلاف آخر حول وجوب القضاء على من أحصر - فذهب مالك والشافعي إلى أن من أُحصر بعدو فلا قضاء عليه سواء في الحج أو العمرة، شريطة أن يكون قد حج الفريضة قبلها، أو اعتمر عند من أوجبها إيجابا، فإن حج أو اعتمر قبلها فما عليه من قضاء - وذهب

أبو حنيفة إلى أن المحصور بمرض أو عدو عليه حج أو عمرة من قابل أو في وقت يزول فيه الإحصار ٢٥٤.
وقوله: (فما استيسر من الهدي) ما اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف تقديره عليكم - والجملة الفعلية بعده صلة الموصول لا محل لها من الإعراب - وقيل ما في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره انحروا او اهدوا - والهدْي ما يُهدى إلى بيت الله من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم.
ومعنى الآية: انحروا مما كان في ميسوركم من بهيمة الأنعام سواء كان ذلك من الشياه أو الأبقار أو الإبل - وبذلك فإن الشاة مما استيسر من الهدي وأنها تجزئ - وذلك الذي عليه جمهور العلماء - وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة قالت: أهدي النبي - صلى الله عليه وسلم - مرة غنما.
وفي قول آخر لابن عمر وعائشة وابن الزبير بأنه لا يجزئ في الهدي من الأنعام للمحصر إلا من الإبل والبقر فقط، ولا يكون الهدي من الشياه - والقول الأول هو الراجح، نظرا للدليل من السنّة الذي ساقه الجمهور واستنادا إلى الظاهر من الآية وهو أن يقدم المحصر ما تيسر له من الأنعام وقد لا يتيسر له غير الشاة في هذه الحال ٢٥٥.
قوله: (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله) المخاطب بذلك من كان حاجا أو معتمرا سواء كان محصرا أو غير محصر فليس له أن يحلق إلا بعد أن يبلغ هديه موضعه، وموضع الهدي بالنسبة للمحصر هو موضع إحصاره الذي لا يستطيع مجاوزته إلى البيت العتيق، كالذي فعله النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بعد أن صدتهم قريش عن بلوغ البيت عام الحديبية فنحروا ثم حلقوا - وهكذا الحاج أو المعتمر إذا كان في حالة من الإحصار فإنه لا يتحلل من إحرامه بالحلق إلا بعد أني نحر الهدْي في محلّه الذي وقع عليه فيه الإحصار.
وأما موضع الهدْي بالنسبة لغير المحصر فهو البيت العتيق، فليس له أن يتحلل من إحرامه بالحلق إلا بعد نحره للهدي في محل وهو البيت؛ لقوله تعالى: (ثم محلها إلى البيت العتيق) وذلك في حق الآمن غير المحصر ٢٥٦.
وقوله: (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك).
جاء في سبب نزول هذه الآية ما روي عن كعب بن عجرة أنه كان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فآذاه القمل في رأسه، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يحلق رأسه وقال: " صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين مدّين مدّين لكل إنسان، أو انسك شاة، أي ذلك فعلت أجزأ عنك " - يستفاد من هذا أن الحاج أو المعتمر في حال الإحرام إذا أصابه في رأسه سوء أو مرض ونحوه مما يؤذيه ويسبب له المضايقة والحرج جاز له أن يحلق رأسه فيُذهب الشعر حيث المرض أو التفث أو الأذى على أن يفتدي بأي الأشياء الثلاثة المذكورة في الآية - وهي إما صيام أيام ثلاثة، أو إطعام ستة مساكين لكل واحد منهم مدّان، او تقديم نسك وهو شاة - ولا يشترط في هذه الأشياء الثلاثة الترتيب، بل للمعذور الرخصة في اختيار منها ما يشاء فورودها في الآية لا يفهم منه الترتيب، بل التخيير ويعزز ذلك الحديث الذي ذكرناه " أي ذلك فعلت أجزأ عنك ".
وقوله: (فإذا آمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي) إذا ذهب الخوف وزال الإحصار وأصبحتم آمنين ثم فرغتم من القران أو التمتع فعليكم أن تذبحوا ما أمكنكم من الهدي وأقّله شاة - ويؤخذ من هذه الآية تشريع الإحرام بأقسامه الثلاثة: الإفراد والقِران والتمتع - فمن أحرم بالحج وحده كان مفردا، ومن احرم بالعمرة والحج معا كان قارنا، ومن أحرم بالعمرة فتحلل منها بعد أدائها ثم أحرم بعد ذلك بالحج في موعده من نفس العام والشهر كان متمتعا - وذلك جائز كله بالإجماع - وأخرج مسلم في صحيحه عن السيدة عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " من أراد منكم أن يهلّ بحج وعمرة فليفعل، ومن أراد أن يُهل بحج فليهلّ، ومن أراد أن يهلّ بعمرة فليهلّ " قالت عائشة: فأهلّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحج، وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعمرة والحج - وأهلّ ناس بعمرة وكنت فيمن أهلّ بالعمرة.
أما التمتع بالعمرة إلى الحج الوارد في الآية فهو على وجهين:
أولهما: التمتع المعلوم الذي أجمع عليه العلماء، وهو المراد بقوله سبحانه: (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي) وكيفيته أن

يحرم المسلم بعمرة في أشهر الحج على ألا يكون من أهل مكة، فإذا قدم مكة واعتمر تحلل من إحرامه وظل مقيما حلالا بمكة حتى موعد الحج فيؤدي مناسكه قبل خروجه إلى بلده كما سنبينه.

ثانيهما: القِران: وكيفيته أن يجمع بين العمرة والحج في إحرام واحد فيهلّ بهما جميعا ويقول حين التلبية: لبيك اللهم بحجة وعمرة معا، فإذا قدم مكة طاف بالحجة والعمرة طوافا واحدا وسعى سعيا واحدا - وذلك الذي ذهب إليه مالك والشافعي وإسحاق وأبو ثور، وهو مذهب كثير من الصحابة والتابعين - واستدلوا على ذلك بما أخرجه البخاري من حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - لعائشة: " يسعك طوافك لحجك وعمرتك " وفي رواية أخرى: " يجزئ عنك طوافك بالصفا والمروة عن حجك وعمرتك ".

وذهب آخرون وفيهم أبو حنيفة والثوري والأوزاعي إلى أن القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين - واستدلوا لذلك بحديث عن علي كرم الله وجهه أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين، وسعى لهما سعيين، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعل.

أما أن يسمى القران تمتعا، فذلك لأن القارن يتمتع بترك السفر وما يتخلله من تعب مرتين - واحدة للعمرة وأخرى للحج فهو إذا متمتع بجبوحة الاختصار في السفر من مرتين إلى واحدة ويجمعهما معا في إحرام واحد - هذا وجه من التمتع يستفاد من قوله سبحانه: (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي) ٢٥٧.

وقوله: (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) - المتمتع بالعمرة إلى الحج إذا لم يجد هديا لعدم المال أو لعدم البهيمة نفسها، فإن عليه صيام عشرة أيام - الثلاثة الأولى منها في الحج، والسبعة الأخرى إذا رجع إلى أهله وبلده، واختلفوا في موعد الأيام الثلاثة الأولى - فقد ذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن المتمتع الذي لا يجد هديا يصوم اليوم الذي قبل يوم التروية ثم يوم التروية نفسه ثم يوم عرفة فتلك أيام ثلاثة، وذهب الشافعي وأحمد بن حنبل إلى صيامهن ما بين الإهلال بالحج إلى يوم عرفة - وقال الثوري والأوزاعي: له صيامهن من أول أيام العشر من ذي الحجة - وقيل: يصومها مادام بمكة في أيام منى وقيل غير ذلك.

ويبقى في ذمته صيام أيام سبعة أخرى - وقد رخص الله له في الآية أن يصومها إذا رجع إلى وطنه، فقال سبحانه في ذلك: (وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) ذلك تأكيد على اكتمال الأيام لتكون عشرة - وهو كقول تعالى: (ولا طائر يطير بجناحيه).

وقوله: (ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام) اسم الإشارة عائد على وجوب الدم على التمتع - ويراد به الغريب الذي ليس من أهل مكة - أما أهل مكة فإنهم لا متعة لهم وهو ما يفهم ظاهرا من الآية - فقد ذكر عن ابن عباس أنه كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم أحلّت لأهل الآفاق وحرمت عليكم، وإنما يقطع أحدكم واديا أو قال: يجعل بينه وبين الحرم واديا ثم يهل " بعمرة - على أنه يمكن تحديد مكان يكون ما دونه داخلا في الحرم (مكة) وما كان بعده خارجا من نطاق الحرم - وتحديد ذلك بالمواقيت التي جعلت للحجاج والمعتمرين ليبدأوا منها إحرامهم - وعلى هذا فمن كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة ليس له أن يتمتع - ومن كان أهله وراء المواقيت كان غريبا عن مكة فله أن يتمتع ٢٥٨.

١٩٧ - (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)

قوله تعالى: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يأولي الألباب) (الحج) مبتدأ مرفوع خبره أشهر (معلومات) صفة - ومن المعلوم أن جميع السنة وقت للإحرام بالعمرة - لكن الحج يقع في وقت محدد من كل عام بحيث لا يصح الإحرام به غير هذا الوقت - ذلك الذي ذهب إليه الشافعي، وهو مروي عن ابن عباس وجابر وآخرين استنادا إلى قوله: (الحج أشهر معلومات).

وقال آخرون بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة - وذلك الذي ذهب إليه الأئمة مالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق وغيرهم - وقد احتجوا لهذا القول بالآية: (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) - والراجح عندي ما ذهب إليه الشافعي وهو أن الإحرام بالحج لا يصح إلا في أشهره المعلومة، ويرجح ذلك حديث جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا ينبغي لأحد أن يحرم

بالحج إلا في أشهر الحج " يضاف إلى ذلك أن الإحرام طيلة العام إذا وقع، فإن فيه حرجا عظيما - وهو في قواعد الشريعة مرفوع - وقد اختلف العلماء في حقيقة الأشهر المعلومات الواردة في الآية - وثمة قولان في ذلك:

أحدهما: أن الأشهر المعلومات هي شوال وذو القعدة وذو الحجة كله، وهو قول ابن مسعود وابن عمر وعطاء ومجاهد والزهري وغيرهم.

ثانيهما: أنها شوال وذو القعدة والأيام العشرة الأولى من ذي الحجة كله، وهو قول ابن عباس وعمر وعلي وابن الزبير والسدي والشعبي والنخعي - وهو مذهب الأئمة أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور.

وقوله: (فمن فرض فيهن الحج) من اسم شرط في محل رفع مبتدأ وخبره فعل الشرط (فرض) وجواب الشرط الجملة المقترنة بها الفاء (فلا رفث).

والمعني أن من أحرم بالحج فألزم نفسه به (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) الرفث هو الجماع ومقدماته وأسبابه، فإن ذلك كله حرام في حال الإحرام - وبذلك يحرم على المحرم بالحج أو العمرة أن يباشر النساء أو يقبّل أو يعمل شيئا من دواعي الجماع كيفما كانت - وأما الفسوق فهو في اللغة الخروج، وفعله فسق يفسق أي خرج يخرج - وقد قال الله سبحانه عن إبليس إذ تمرد على ربع وعصاه - (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن أمره، والمراد بالفسوق جميع المعاصي التي يخرج بها المرء عن أمر الله وعن الامتثال لشرع، والمرء إذا أحرم بالحج أو العمرة أو كليهما فإن عليه أن يكون في غاية الطاعة والامتثال والأدب مع الله سبحانه فلا يرفث بشيء من أمر النساء أو الجمع ودواعيه، ولا يفسق بشيء من المعاصي - وهي وإن كانت محظورة في جميع أحيان السنة، لكن تحريمها في حال الإحرام آكد وأشد - ولا يتجنب المحرم هذه المحظورات من رفث أو فسوق في الحج حتى يفوز عند الله بخير الجزاء وعظيم الغفران - فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من حج هذا البيت فلم برفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ".

وأما الجدال في الحج فقد جاء فيه أقوال عديدة، نختار منها ما ذكر عن كثير من العلماء من الصحابة والتابعين وهو أنه المراء والملاحاة حتى إغضاب الآخرين - وقد سئل ابن عباس عن الجدال فقال: المراء، تماري صاحبك حتى تغضبه - والمراء والملاحاة أسلوب الغلاظ الجفاة من الناس الذين ديدنهم كثرة الحديث والتكلم في غير علم أو فائدة بما يغيظ السامعين ويغضبهم - ومن خلق المسلم أن يكون ذا وقار واتزان، وأن يؤثر طول الصمت وقلة الكلام على الثرثرة الفارغة.

وفي تجنب الجدال والفسوق في الحج يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه ".

ثم يرغّب الله عباده المؤمنين بفعل الخيرات - وهو سبحانه عليم بهذه الأفعال، وسوف يجزيهم بها؛ لذلك قال سبحانه: (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) ٢٥٩.

وقوله: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) جاء عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن أناسا كانوا يخرجون للحج وليست معهم أزودة، مفردها زاد، ويقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فأمرهم الله أن يتزودوا بما يكف وجوههم عن الناس.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فأنزل الله: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ٢٦٠ وفي ذلك ما يبين للناس أن طبيعة هذا الدين عملية، فإنه ليس من الدين التواكل الذي يعجز معه بعض الواهمين والجهلة عن السعي والبذل والعطاء ليقولوا: نحن المتوكلون - فإن المتوكلين الحقيقيين الذين يرضى عنهم الله هم العاملون الباذلون الذين يأخذون بزمام الجد والعمل في غير عجز أو كسل وهم مع ذلك كله يتوكلون على الله، ولا يبرح أنفسهم شعور الاعتماد عليه وحده سبحانه.

ومع الدعوة للتزود بزاد الدنيا من طعام وغيره فإن الله يدعو الحجاج والمعتمرين للتزود بزاد الآخرة ليكتب الله لهم النجاة وسلامة المصير - وذلكم هو زاد التقوى وهو خير زاد تتزود به القلوب، فقال سبحانه: (فإن خير الزاد التقوى) ثم يعطف الله بالتأكيد على التقوى إذ يخاطب من عباده أولي الألباب - وهم ذوو العقول والأفهام النيّرة، يخاطبهم بالدعوة لتقواه فيبادرون لعمل الطاعات ويبتعدون

سراعا عن المناهي والمحظورات، فقال سبحانه: (واتقوني يا أولي الألباب).
١٩٨ - (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ)
وقوله تعالى: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفت فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) كان الناس في أشهر الحج يتقون البيوع والتجارة تحرجا أن يكون فيها إثم فأنزل الله قوله: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) ٢٦١ والجناح معناه الإثم - والفضل يراد به التجارة من أجل الارتزاق والعيش - وعلى هذا فليس من جناح أو بأس على من أحرم بالحج أو العمرة إن عمل في المتاجرة بيعا أو شراء - مع أن الانقطاع للعبادة وأعمال الحج أفضل؛ لما في ذلك من تخليص للقلب والذهن والجوارح من أوضار الدنيا ومغريات الحياة.
وقوله: (فإذا أفضتم من عرفات) أي انصرفتم مندفعين من عرفات وذلك عقيب الغروب لهذا اليوم المشهود - واسم عرفات يطلق على البقعة من الأرض في الحرم التي يجتمع فيها الحجاج جميعا - وهو وقوف أساسي ومفروض لا يتم لأحد حج من دونه - وهو ركن للحج بإجماع العلماء وفيه يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " الحج عرفات- ثلاثا- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ".
وكذلك فإن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال لا يعتد بوقوفه ذلك ما وقع عليه الإجماع وذهب جمهور العلماء أيضا إلى تمام الحج لمن وقف بعرفة بعد الزوال ثم أفاض في النهار من ذلك اليوم قبل الليل، لكن الإمام مالكا خالف في ذلك واشترط لتمام الحج أن يأخذ الواقف في عرفة من الليل شيئا.
وإذا أفاض الحاج من عرفات قبل غروب الشمس ولم يرجع فما حكمه؟ ثمة خلاف في ذلك - فقد ذهب الثوري والشافعي وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأي وغيرهم إلى أن عليه دما يقدمه جبرا لهذا الخلل؟ وقال الحسن البصري: إن عليه هديا من شاة أو بقرة أو بعير. وقال الإمام مالك، إن عليه حجا من قابل والهدي يخره في حج قابل وهو كمن فاته الحج.
ومن جهة أخرى فإن يوم عرفة عظيم الفضل والشأن، فإن فيه يغفر الله للمؤمنين الذنوب، ويتجاوز لهم عن الخطايا والسيئات، ويضاعف لهم فيه الأجور والحسنات - وفي ذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما روته عائشة: " ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عددا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو عز وجل ثم يباهي بهم الملائكة يقول: ما أراد هؤلاء؟ ".
وجاء في الموطأ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما رؤي الشيطان يوما هو في أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: " إما أنه قد رأى جبريل يزع الملائكة ".
وفي فضل الصوم يوم عرفة يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " صوم يوم يكفر السنة الماضية والباقية ".
وفي فضل الدعاء وتقبله في يوم عرفة يقول عليه الصلاة والسلام: " أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ".
وقوله: (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) (المشعر) من الشعار وهو العلامة أو المَعْلَم باعتباره أحد معالم الحج - ويراد بالمشعر الحرام المزدلفة - وسميت بذلك؛ لاجتماع آدم وحواء فيها إذْ ازدلف آدمُ منها ازدلافا أي دنا منها دنوا - ويأمر الله الحجاج أن يكثروا من ذكره وذلك بالدعاء والتلبية عند المشعر الحرام - وهم يأتون المشعر الحرام (المزدلفة) بعد الإفاضة من عرفات عقب الغروب - وفي المزدلفة يصلّون المغرب والعشاء جمع تأخير وذلك بأذان واحد وإقامتين، مثلما يجمعون في عرفات بين الظهر والعصر إلا أنه جميع تقديم بأذان واحد وإقامتين اثنتين، وذلك على سبيل السنة والاستحباب لا الفرض ٢٦٢.

أما المبيت بالمزدلفة أو الوقوف بها من حيث الحكم فليس بركن ولا فرض - وذلك الذي عليه جمهور العلماء فقد ذهب الإمام مالك وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي إلى أنه سنة مؤكدة، وأن من قام بها أكثر ليله فليس عليه شيء.
وقال الشافعي: إن خرج الحاج من مزدلفة بعد نصف الليل فليس عليه من شيء، وإن خرج قبل نصف الليل ولم يعد إليها افتدى بشاة.
وذهب الشعبي والنخعي والحسن البصري إلى أن الوقوف بمزدلفة فرض - وأن من لم يقف بها فقد فاته الحج ويحوّل إحرامه إلى عمرة.
والراجح هو قول الجمهور بسنية الوقوف بمزدلفة، إذ ليس من دليل صريح أو ظاهرة يبين فرضيته، أما الآية الواردة في هذا الصدد فليس فيها ما يوجب الوقوف بمزدلفة ولا المبيت، وليس في الآية سوى مجرد الذكر لله - وقد أجمعوا على أنه لو وقف الحاج بمزدلفة ولم يذكر الله فإن حجه تام وصحيح - مع أن الذكر هو المأمور به في الآية - وعلى هذا فإن الوقوف أو المبيت ليس مفروضا.
واستدلوا كذلك بحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه " ولو كان الوقوف بمزدلفة أو المبيت بها مفروضا لبيّنة مع أنه واقع بين مذكورين وهما الوقوف بعرفة ثم منى ٢٦٣.
قوله: (واذكروه كما هداكم) الكاف في (كما) نعت مصدر محذوف - ما مصدرية أو كافة - (هداكم) فعل ماض وكاف المخاطب في محل نصب مفعول به، والميم للجمع - وتقدير المعنى: واذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة - وقد كرر الأمر بالذكر للتأكيد تنبيها للناس على ما أنعم الله به عليهم من الهداية، وإرشادهم إلى مناسك الحج التي هدى إليها إبراهيم عليه السلام من قبل - وقد كان ذلك بعد ضلالهم في الجاهلية وما كانوا عليه من تخبط وجهالة وإشراك؛ لذلك قال سبحانه: (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) إن مخففة من الثقيلة - والهاء في (قبله) ضمير مبني على الكسر في محل جر بالإضافة، يعود على الهدى - وقيل على القرآن - وقيل على الرسول - صلى الله عليه وسلم -.
١٩٩ - (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) (ثم) أداة عطف لجملة وليست للترتيب - والخطاب بذلك لقريش- وهم الحُمس- من اجل أن يقفوا بعرفة ويفيضوا منه كغيرهم من الناس - فقد كان الناس جميعهم يقفون بعرفة ليفيضوا منه إلى المزدلفة إلا قريشا، فكما كانوا يفيضون من عرفة مع الناس، بل كانوا يقفون بالمزدلفة ويفيضون منها ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته، وقد ظلوا كذلك حتى أمرهم الله بالإفاضة من حيث أفاض الناس، وليس في استنكافهم عن الإفاضة من عرفات كبقية الفائضين إلا الغرور والتعصب الذي لا يستند إلى دليل من الشرع أو المعقول.
وقيل: بل إن المقصود بالإفاضة في هذه الآية هي الإفاضة من مزدلفة إلى منى لرمي الجمار، والمراد بالناس هو إبراهيم الخليل عليه السلام، وبذلك فإن المخاطب هذه الأمة كلها وليست قريشا وحدها - وعلى هذا المعنى: أفيضوا مثلما أفاض أبوكم إبراهيم عليه السلام فقد أفاض من مزدلفة إلى منى.
والراجح من القولين الأول؛ وذلك لما رواه مسلم في صحيحه عن السيدة عائشة قالت: كان الحُمس هم الذين أنزل الله فيهم (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) قالت: كان الناس يفيضون من عرفات وكان الحمس يفيضون من المزدلفة يقولون: لا نفيض إلا من الحرم، فلما نزلت (أفيضوا من حيث أفاض الناس) رجعوا إلى عرفات.
وقوله: (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) يأمر الله عباده بالاستغفار عقيب كل عبادة ومنها الإفاضة فإذا اندفع الحاج من مزدلفة استغفر ربه وأناب إليه وتوجه إليه بالدعاء - والله جلت قدرته يحب التوابين والمستغفرين ويستجيب للخاشعين المخبتين الذين يدعونه وهم موقنون بالإجابة ٢٦٤.
٢٠٠ - (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

قوله تعالى: (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاف ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) إذا أديتم مناسك الحج وفرغتم منها فاذكروا الله ثناء عليه، لما امتن به عليكم من زاخر الخيرات والعطايا ومن عظيم الآلاء - اذكروا الله في ذلك مثلما تذكرون آباءكم - وروي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) ويستفاد من هذه الآية عموم مدلولها وهو أن يزداد اهتمامهم بذكر الله ليفوق أي ذكر آخر كذكر الآباء - وينبغي للمسلم أصلا أن يظل مستديم الذكر لله ليبقى اسم الله وجلاله حاضرا في ذهنه وحسه وتصوره على الدوام.

وما من شك أن المرء يملكه الغضب إذا ما نيل أبوه بشتم أو سباب - فمن الجدير به أن يكون أعظم غضبا وأشد غيرة إذا ما انتهكت حرمة من حرمات الله ليكون المسلم في ذلك أعظم حبا لله.

وقوله: (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) ذكر عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قوله: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا فأنزل الله هذه الآية.

الدعاء من أجل الدنيا وحدها بما تنطوي عليه من خيرات وثمرات ومباهج لهو أمر فيه دلالة مكشوفة على الاهتمام بالحياة الدنيا وزينتها، مع الذهول والغفلة عن يوم القيامة وما ينتظر الخلائق من أهوال وكروب يوم الفزع الأكبر - وما يسال أحد ربه أن يعطيه الدنيا منفردة إلا ظالم لنفسه خاسر - ولا جرم أن يبوء مثل هذا الجهول بفادح التخسير وسوء المصير.

لذلك قال سبحانه موضحا هذه النتيجة: (وما له في الآخرة من خلاق) أي حظ أو نصيب.

٢٠١ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

ثم تبين الآية في هذا الصدد أن من خير الدعاء طلب الحسنة في هذه الدنيا وفي يوم القيامة لتقترن السعادتان معا وذلكم هو الخلاق العظيم فقال سبحانه: (ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وهذه صورة واضحة ملتئمة تكشف عن طبيعة هذا الدين المتكامل المتوازن المتين الذي يجمع بين الدنيا والآخرة، أو يجمع بين الواقع المحس المشهود والمثالية العالية الرفافة، أو يجمع بينا لعادة والروح - وفي ذلك كله من تمام الانسجام الملتئم وكامل الترابط الوثيق ما يجعل الإسلام أكثر العقائد والأديان والفلسفات والنظم ملاءمة للحياة الإنسانية والفطرية والبشرية.

أما الحسنة في الدنيا فإنها تتناول كل خير حلال أباحته الشريعة ورضيه الله للناس، كيما يلذّوا ويستمتعوا به، ويدخل في إطار الحسنة في الدنيا الزوجة الحسنة الصالحة، والدار الرحبة الجيدة، والرزق الواسع الحلال، والأخلاء الأبرار الودودون، والعلم الزاخر النافع، والثناء الصادق الحسن، وغير ذلك من وجوه الخير والحُسن.

وقد جاء في السنة ما يبين أهمية هذا الدعاء الكريم الجامع، فقد سئل أنس: أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: يقول: " اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ".

وروي عن أنس أيضا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ " قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " سبحان الله لا تطيقه- أو لا تستطيعه – فهلا تقل: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) " قال: فدعا الله فشفاه.

قوله: (وقنا عذاب النار) (وقنا) جملة فعلية تتضمن فعل أمر، والفاعل يعود على لفظ الجلالة والضمير المتصل " نا " في محل نصب مفعول به أول - (عذاب) مفعول به ثان - وقنا من الوقاية وهي الصون والحماية - والآية دعاء عظيم يلهج به لسان المؤمن متضرعا إلى

ربه ان يحفظه من عذاب النار وأن يمتّن عليه بإدخاله الجنة فيكون من الناجين من العذاب والفائزين بعظيم العطاء والثواب.
٢٠٢ - (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)
وقوله: (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ - خبره الجملة الإسمية (لهم نصيب) في محل رفع - والإشارة تعود على المؤمنين الذين يدعون ربهم ويتضرعون إليه في خشية وتوسل وإخبات أن يعطيهم من خير الدنيا والآخرة - وهؤلاء هم أولو الحظ الكبير من عطاء الله ورضوانه يوم القيامة.
قوله: (والله سريع الحساب) (الحساب) يراد به الجزاء يوم القيامة - والله جل جلاله سريع المجازاة لعباده على أعمالهم - وهو سبحانه يحاسب الناس كنفس واحدة - قيل لعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم ٢٦٥.
٢٠٣ - (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)
قوله تعالى: (واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) يأمر الله عباده أن يذكروه في أيام معدودات والمراد بالأيام المعدودات أيام منى وهي أيام التشريق وعدتها على الأرجح أربعة أيام - وهي يوم النحر والأيام الثلاثة الأخرى بعده، وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء وفيهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو موسى الأشعري وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والزهري وغيرهم كثيرون.
وقيل: إن الأيام المعدودات ثلاثة هي يوم النحر ويومان آخران بعده، وللحاج أن يذبح في أيهن شاء - وهو مذهب علي بن أبي طالب.
وما يحتج به للقول الأول قوله تعالى: (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) وظاهر ذلك يدل على أن عدة هذه الأيام بعد يوم النحر أكثر من يومين - وفي الحديث ما يؤيد ذلك - فقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: " وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه " والأيام الثلاثة هي غير يوم النحر - والحاج الذي يريد أن يتعجل المقام للرمي في يومين يصير مقامه بمنى ثلاثة أيام بيوم النحر.
على أن هذه الأيام المعدودات يراد للمسلمين فيها أن يذكروا الله بالتكبير بعد الصلوات المكتوبات - وصورة التكبير في هذه الأيام الجليلة العطرة أن يهتف المؤمنون جميعا: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد.
وثمة خلاف بين العلماء في مدة التكبير من أيام العبد - فقال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس: إن مدة التكبير من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق - وقال ابن مسعود وأبو حنيفة أنها من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر - وقال مالك: مدة التكبير من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق وهو قول الشافعي.
وهي أيام عيد المسلمين يتلاقون فيها على صعيد العقيدة المتينة الصلبة، عقيدة الإيمان الواعي والتوحيد الخالص، يضاف إلى ذلك ما يظلل المسلمين في هذه الأيام من أفياء المودة والطمأنينة والحبور وهم يعيشون أياما ملؤها السلام والخير - وفي ذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب وذكر الله " - ٢٦٦
وعن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله " ٢٦٧.
وعن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث عبد الله بن حذافة يطوف في منى أن لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل.
قوله: (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) أيام منى للذبح والرمي عدتها بالتمام ثلاثة أيام غير يوم النحر كما بينّاه في حينه - فيوم النحر للنحر، والثلاثة الأخرى لرمي الجمار، ذلك لمن أراد لمقام للنسك على التمام، لكن الذي يتعجل فيرى في يومين بعد يوم النحر فجائز ولا إثم عليه - يدل على ذلك ما أخرجه الدارقطني والترمذي عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي أن ناسا

من أهل نجد أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بعرفة فسألوه فأمر مناديا فنادى " الحج عرفه، فمن جاء ليلة جَمْع قبل طلوع الفجر فقد أدرك، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه " ويراد بقوله: " جمع " المزدلفة - وقيل في سبب التسمية بذلك لاجتماع آدم وزوجته حواء فيها، أما منى فقد سميت بذلك لكثرة ما يمنى أي يراق فيها من دماء الذبائح ٢٦٨.

وقوله: (لمن اتقى) متعلق بالغفران - والتقدير أن مغفرة الله تكون لمن يتقي ربه من العباد فيقبل عليه بدوام التوبة والطاعة وينتهي عن مناهيه ومعاصيه.

وقوله: (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) أمر الله عباده بتقواه وذلك أن يخشوه حق الخشية، وأن يذكروه في السر والعلن، وأن يعبدوه كأنما يرونه، فهم بذلك يقبلون على طاعته إقبالا، ويدبرون عن معصيته إدبارا - وليعلموا دائما أنهم في آخر الأمر راجعون إليه، وأنهم محشورون ثم موقوفون بين يديه جميعا ولا يعزب منهم عن سلطانه وحسابه أحد.

٢٠٤ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)

قوله تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد).

ورد في سبب نزول هذه الآية أن الأخنس بن شريق الثقفي جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأظهر له الإسلام وهو يخفي في نفسه الكفر والخداع وقال: والله يعلم أنني صادق - وبعد أن انصرف من مكانه مرّ في طريقه بزرع للمسلمين وبحُمُرٍ فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله فيه (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا -).

وقيل: إنها نزلت في المنافقين الذين عابوا نفرا من الصحابة استشهدوا في الرجيع، وقالوا فيهم: ويح هؤلاء القوم، لا هم قاعدون في بيوتهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم.

ومع أننا لا ننكر مثل هذا السبب الخاص لنزول الآية إلا أننا نعوّل في هذا الصدد على القاعدة الأصولية التي تذهب إلى أن العبرة في عموم اللفظ لا في خصوص السبب - وعلى هذا فإن الآية يصدق بسطها على كل من يخفي في نفسه كفرا أو نفاقا وهو يظهر من حلاوة اللسان ومعسول القول خلاف ذلك - فالآية بذلك عامة تتناول كل مظاهر النفاق الذي يستتر به الخداعون والكذابون من الناس.

والمعنى للآية أن فريقا من الناس يطوي في صدره الكذب والخداع، سواء كان كافرا أو مسلما ثم يتظاهر أمام الناس بلبوس من الخلق المصطنع يعجب الناظرين - وهو مع ذلك (ويشهد الله على ما في قلبه) أي يقول للناس ليصدقوه: الله يعلم أو يشهد أنني صادق، لكن الحقيقة أن الله يعلم أنه ألدّ الخصام، والألدّ من الفعل لدّ يلدّ، أي اشتدت خصومته، والمصدر لدَد - نقول: لدّ الرجل خصمه لدّا أي شدد خصومته - ولدود مبالغة ومعناه خصيم، شديد الخصومة.

أما الخصام فهو مصدر خاصم - نقول خاص يخاصم خصاما - وقيل: جمع ومفرده خصم وهو الشديد الجدال في ظاهر حسن وباطن خبيث ٢٦٩.

٢٠٥ - (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ)

قوله: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) هذا المنافق الخصيم أو المراوغ الكاذب المحتال ذو المنظر الحسن والسريرة الجاحدة إذا انطلق في الأرض مدبرا، فإنه يسعى فيها حثيثا بالإيذاء والتخريب - ومن جملة إيذائه وتخريبه أمه يخرب الزرع والثمرات بتحريقها، ويقتل الدواب والأنعام التي يعثر عليها حال توليه وسعيه - وهذا الصنف من الناس فاسد خبيث لا يستطيب غير التخريب والسعي في الأرض بالفساد - فهو الصنف من الناس فاسد خبيث لا يستطيب غير التخريب والسعي في الأرض بالفساد - فهو صنف حقير منبوذ بغيض إلى الله سبحانه (والله لا يحب الفساد) و (الحرث) معناه الولد ويراد به ما خرج من كل أنثى من ولد.

٢٠٦ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)

وقوله: (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) العزة هي القوة والغلبة - وقيل المراد بها في الآية هنا الحمية - وقيل: المنعة وشدة النفس - والمقصود أن هذا الكافر أو المنافق أو الفاجر إذا وعظه واعظ وقال له: اتق الله أي كف عن إفسادك ومعاصيك (أخذته العزة بالإثم) أي اعتز في نفسه غرورا وحمية تحمله ذلك على الإثم، ويشبه ذلك ما قاله قتادة في هذا الصدد: إذا قيل له مهلا ازداد إقداما على المعصية - أي حملته العزة على الإثم.

وقوله: (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) هذا المعتد الفاجر العنيد سوف يكفيه من العذاب المرير أن تكون جهنم مثواه ومآله الأخير المحتوم (ولبئس المهاد) و (المهاد) جمع ومفرده المهد وهو الفراش - فيا لسوء الموطن والمفترش، وبالسوم المنام والمقام، هذا المثوى المحترق الذي تتلظى فيه الجحيم وتنبعث من ألسنة الشواظ واللهب ٢٧٠.

٢٠٧ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

قوله: (ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله) نزلت في صهيب بن سنان الرومي - هذا الصحابي العظيم الذي استهان بالمال والشهوة والأرض في سبيل العقيدة - واستهان بالكرامة في المقام في الوطن ليهجر الأهل والصحب والوطن نفسه؛ كيما تبقى العقيدة التي يعتبرها المؤمن أغلى من كل ما في الدنيا من اعتبارات، فلا المال ولا الولد ولا الخلان ولا الزوجة ولا العشيرة ولا المنزلة الرفيعة ولا الأوطان ولا غير ذلك يغني عن أعظم وأقدس رباط وتلكم هي عقيدة الإسلام - وهي من أجلها يهجر المرء كل شيء ليؤثر الهجران على المقام في الأوطان، ويؤثر البؤس والافتقار والموت على الراحة واليسر والحياة والرخاء - وذلك كله من أجل العقيدة.

وذلكم هو صهيب الرومي يتحدث عن قصته مع المشركين لدى هجرته من مكة إلى المدينة: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبدا فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلّون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: " ربح صهيب ربح صهيب " مرتين ٢٧١.

وقوله: (يشري نفسه) أي يبيعها - وذلك كقوله تعالى: (وشروه بثمن بخس) أي باعوه به.

وقوله: (ابتغاء مرضات الله) (ابتغاء) مفعول لأجله منصوب - مرضات مضاف إليه مجرور - لفظ الجلالة مجرور بالإضافة - و (مرضات الله) أي رضوانه.

ويستفاد من الآية العموم - فهي تناسب كل مجاهد في سبيل الله يبيع نفسه لله فداء لدينه وعقيدته، لا لشيء من أشياء هذه الدنيا الفانية العاجلة، بل طلبا لرضوان الله سبحانه وهو أقصى ما يرمي إليه المؤمن وأبعد غاية يرومها طيلة مكثه في هذه الدنيا الزائلة - والله جلت قدرته سوف يتولى أمثال أولئك الأبرار المجاهدين الذين باعوا أنفسهم طلبا لرضاه، وهو سبحانه مجازيهم بفضله وكرمه ورحمته (والله رؤوف بالعباد).

٢٠٨ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) أرجح الأقوال في معنى السلم أنه الإسلام - وقيل: الطاعة لله - وقيل: الاستسلام والامتثال، وهي أقوال متقاربة ويمكن التعبير عنها بالكلمة الجامعة الشاملة الضخمة " للإسلام " والله جلت قدرته يأمر عباده المؤمنين أن يأخذوا بتعاليم الإسلام جميعا سواء فيها العقيدة والعبادة والأخلاق وكل تكليف جاءت به الشريعة.

وقوله: (كافة) منصوب على الحال من السلم - وقيل من ضمير الداخلين وهم المؤمنون - و (كافة) تعني جميعا - والمؤمنون مخاطبون في هذه الآية أن يلتزموا بملة الإسلام وبشريعته دون زيغ أو انتقاص أو إبدال - وهم كذلك مأمورون أن يتجنبوا مسالك الشيطان كيفما كانت وحيثما كانت - وهي مسالك يقود جميعها إلى الضلال والغواية والخسران.

٢٠٩ - (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله: (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات) (زللتم)، زل فعل ماض والتاء في محل رفع فاعل، والميم للجمع - وهي من الزلل ومعناه

الانحراف والتنحي عن الصراط المستقيم - و (البينات) هي البراهين والمعجزات والحجج التي جاء بها القرآن العظيم.
والمعنى أنكم إذا انحرفتم عن دين الله وعن شرعه وتعاليمه بعد أن سمعتم بالأدلة والبراهين الدامغة على صدق هذا الدين (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) فهو عزيز أي قوي قادر، ولا يمتنع عليه شيء يريده - وهو حكيم في أمره وتقديره وما يفرضه أو يفضله، فليس من شيء أو فعل أو تقدير يصدر عنه عبثا من غير قصد أو معنى، وإنما هو في ذلك كله له الحكمة البالغة التي قد ندرك جزاء منها ثم نغفل عن أكثرها - ٢٧٢
٢١٠ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)
قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور) ذلك تهديد من الله للمعاندين المستنكفين عن عبادة الله الناكبين عن دينه فهو سبحانه يقول لهم: ما ينتظر هؤلاء إلى أن يأتيهم أمر الله وحكمه بما وعدهم من الحساب والعذاب، وذلك في ظلل من الغمام والملائكة، وذلك كله كائن يوم القيامة إذ يأتي أمر الله ويبعث على الخليقة ظللا من الغمام - والظلل جمع مفردة ظُلة، والغمام معناه السحاب - وتقدير المعنى أن ظللا من السحاب تغشى الناس يوم القيامة مع ما يرافق ذلك من إتيان الملائكة، وإذ ذاك تفنى الحياة والأحياء وتذهب الدنيا ومن عليها لتقوم الساعة ويرجع الأمر كله لله، فيرث الله الدنيا والآخرة جميعا - وفي ذلك يقول سبحانه في الآية نفسها: (وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور).
٢١١ - (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)
قوله تعالى: (سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينات ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) (سل) من السؤال وأصلها اسأل، حذفت الهمزة وحركت السين فلا حاجة للألف فصارت سل - والفاعل ضمير يعود على المخاطب وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - (بني) مفعول به منصوب بالياء - (إسرائيل) مضاف إليه - (كم) في محل نصب مفعول به ثان مقدم للفعل آتينا - والضمير في آتيناهم في محل نصب مفعول به والميم للجمع - (من آياته) - (من) حرف جر زائد - (آية) تمييز.
وفي الآية إخبار عن كثرة البينات والدلائل التي أحسّها بنو إسرائيل على يدي نبيهم ومنقذهم موسى عليه السلام، وذلك كتحول العصا إلى أفعى، وانفلاق البحر بعد ضربه بالعصا، ثم انبجاس الماء من الحجر الصلد بعد أن ضربه موسى بعصاه، وكذلك تظليلهم بالغمام لوقايتهم من حر الصحراء، وإطعامهم المن والسلوى رزقا كريما ميسورا - كل ذلك كان من جملة البراهين والآيات على صدق النبوة التي قدرها الله لكليمه موسى، لكن ذلك لم يجد إلى أسماع بني إسرائيل أو طبائعهم وأذهانهم سبيلا، بل صدوا عن سبيل الله ودينه صدودا وتولوا عن نداء العقل والحجة مدبرين - وذلك منهم بمثابة التبديل الأثيم لنعمة الله بالكفر والتمرد - ونعمة الله تتجلى في دينه الحق.
وقيل: المراد الإخبار عن كثرة البينات القاطعة على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - - فقد كانوا يتلون في كتابهم التوراة عن خبر هذا النبي الأمي وعن صفته فيعرفون عنه الخبر اليقين، إلا أنهم ركبوا متن التعصب والحسد والشطط، فما آمنوا ولا امتثلوا، بل إنهم جحدوا وأنكروا هذه الحقيقة الجلية القاطعة الكبرى - وذلك هو التبديل لنعمة الله وهي الإسلام بالكفر حيث الجحود والزيغ واتباع الهوى والشهوات.
وليس من جزاء لمن يبدل نعمة الحق بالباطل إلا أن يبوء بإثمه الكبير لتكون عاقبته الهوان والتخسير، لذلك قال: (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب).
٢١٢ - (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)
قوله تعالى: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) الحياة بما فيها من متاع وزخرف ولذة مقدور لها أن تكون محببة للإنسان، وأن تكون له باعثا للافتتان والاستحسان - والإنسان من جهته مفطور على حب الخير بكل ما في الخير من معنى أو صورة، وهو ذو طبيعة غلابة جُبلت على الافتتان بزينة الحياة الدنيا، سواء في ذلك المال أو النسل أو الشهر أو غير ذلك من ألوان الشهوات، وهذه حقيقة التركيب المفطور لدى الإنسان، وما من أحد إلا وقد

حُببت إليه الزينة بكل صورها ومظاهرها: وفي ذلك يقول الله في آية أخرى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب).

أما ذكره الذين كفروا في الآية هنا، فذلك لشدة إقبالهم على الحياة الدنيا وزخرفها وزيتها من غير أن يرعوا في ذلك حلال أو حراما ومن غير أن يعبأوا بشرع أو دين، فهم يتهافتون على الشهوات بكل أسلوب أو وسيلة، لا يودعهم عن ذلك تورع أو تقوى حتى ولا حساب من ضمير أو وجدان.

أما المؤمنون فهم يأخذون بحظهم من زينة الحياة الدنيا على نحو ما بينه الله لهم من شرائع وحدود دون مجاوزة أو اعتداء - ومثل هذا الأخذ مباح ومشروع مادام غير متجانف لإثم ولا مقارف لعدوان على حقوق الله أو الناس.

والكافرون وهم يقبلون على الشهوات في تهافت جامح، فإنهم يسخرون من المؤمنين الفقراء الذين لا يملكون غير القليل من الزاد والمؤونة أو دون ذلك، إنهم يسخرون منهم لإقلالهم وقلة ما لديهم من متاع.

ثم يبين الله في إخبار صارم أن هؤلاء الكفرة الذين ملكوا الزينة والثراء في هذه الدنيا، سيأتون يوم القيامة أذلة خزايا وقد غشيتهم كل غواشي العار والمهانة والإحساس بالندم - ولسوف يكون المؤمنون فوقهم سواء في المكان إذ يرتقون إلى أعلى عليين في الجنة، والكافرون دونهم في النار في أسفل سافلين، أو في المرتبة العالية حيث الاحتفاء والتكريم للمؤمنين، والزراية والحقار للكافرين.

قوله: (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أي أن الله سبحانه وتعالى يفيض بالرزق على من يشاء من عباده من غير عد أو حصر - ويؤيد هذا المعنى ما قاله النبي - صلى الله عليه وسلم -: " أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرض إقلالا ".

وقيل: إن الله يرزق عباده وليس له في الخلق محاسب يحاسبه على فعله وعلى تصرفه في تقسيم الرزق وإعطائه للناس - والأول أظهر.

٢١٣ - (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

كان الناس في السابق على دين واحد وعلى ملة واحدة هي ملة التوحيد الخالص - وقد ظلوا على هذه الحال من وحدة العقيدة وسلامة التوجه الخالص إلى الله فترة من الزمن مبدوءة بأبي البشر آدم عليه السلام حتى مجيء نوح عليه السلام - وبعد بعث هذا النبي الصابر العظيم اختلف الناس في دينهم وتفرقوا مللا شتى - وهي ملل قائمة على الإشراك والضلالة - وإذ ذاك أخذ كثير من الناس في الزيغ عن صراط الله والتنكب عن منهجه الكريم الذي بني على عقيدة التوحيد وتمام التوجه إلى الله من أول يوم - وما يختلف الناس في حقيقة الدين ويتعثروا في الاهتداء إلى الصواب، أو يضلوا السبيل ويتفرقوا طرائق قددا، حتى يبعث الله فيهم هداة مصطفين أخيارا ليكشفوا لهم عن سبيل الحق والنجاة وليحذروهم من وخامة التعثر خلف الشيطان - وذلك هو قوله في الآية: (فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين) فهم يبشرون المهتدين من الناس بأن لهم حسن مآب، أو ينذرون الفاسقين الناكبين بالويل وسوء العاقبة في دنياهم وأخراهم.

وقوله: (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (الكتاب) اسم جنس بمعنى الكتب - فقد بعث الله النبيين لهداية العباد وأنزل معهم كتبه متضمنة كل معاني الخير والهداية والترشيد وفيها من المناهج والتعاليم الربانية ما يحقق الإنسانية أكمل سعادة في هذه الدنيا وخير مفازة لهم يوم المعاد.

وتقدير الفاعل في قوله: (ليحكم) ضمير عائد على الكتاب فهو الذي أنزله الله (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا) وقيل إنه عائد على الله

سبحانه وتعالى، فهو الذي بعث النبيين وأنزل معهم الكتاب، وهو الذي يحكم (بين الناس فيما اختلفوا فيه) فقد اختلفوا فيما بينهم وضلوا السبيل حتى تفرقوا إلى ديانات وملل شتى.

وقوله: (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات) أي لم يختلف في الكتاب المنزل من السماء- بما ترتب على الاختلاف من تكذيب وتعدد في الديانات والملل والمذاهب التي ليست على منهج الله- إلا الذين أعطوا الكتاب، مع أن جاءهم بالبينات وهي الحجج والبراهين والأدلة التي تكشف عن وجه الحق والصواب في كل القضايا - لقد جاءهم الكتاب المنزل من السماء يحمل إليهم كل معاني الحق والهداية من أجل أن يهتدوا ويستعصموا بخير منهج وأكمل عقيدة، لكنهم مع كل ذلك قد اختلفوا، وركنوا إلى الشيطان فضلوا ضلالا بعيدا، وانحدروا بأنفسهم ومآلاتهم إلى الهاوية وسوء المصير - وما كان ذلك كله إلا (بغيا بينهم) (بغيا) مفعول لأجله منصوب - والبغي هو الظلم والاعتداء - والمعنى أنهم اختلفوا في الكتاب لسعيهم في الأرض مفسدين ولبغي بعضهم على بعض وعدم امتثالهم لنداء الحق إذ جاءهم.

وقوله: (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) أي أن الله جل وعلا قد أرشد الذين آمنوا وهم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الصواب ومعرفة الحق الذي اختلفت فيه الأمم السابقة من أهل الكتاب فقد هداهم الله لذلك بأن بين لهم ما اختلف فيه أهل الكتاب من قبلهم.

وقوله: (بإذنه) أي بعلمه، وقيل: بأمره، والراجح عندي أن المعنى يشمل العلم والأمر معا، فالله سبحانه قد هدى هذه الأمة لما اختلف فيه أهل الكتاب وذلك بعلمه وأمره.

قوله: (بإذنه) أي بعلمه، وقيل: بأمره، والراجح عندي أن المعنى يشمل العلم والأمر معا، فالله سبحانه قد هدى هذه الأمة لما اختلف فيه أهل الكتاب وذلك بعلمه وأمره.

قوله: (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يهدي) جملة فعلية في محل رفع خبر (من) اسم موصول في محل نصب مفعول به للفعل يهدي - وهذه الآية تدل على نحو واضح وظاهر لا يقبل التمحل المصطنع، على أن الله جل جلاله بيده الهداية وترشيد الناس إلى الحق، وأنه سبحانه قادر على هداية الخلق جميعا أو إضلالهم جميعا وما من مهتد ولا ضال إلا والله عليم بهدايته أو ضلالة في الأزل البعيد.

ومن جهة أخرى فإن الله قد بسط لعباده أسباب الهداية والرشاد كيلا يظلمهم أو يذرهم تائهين حيارى - ومما هو معلوم أن الله جلت قدرته زود الإنسان بقدر هائل من زخم العقل والإرادة والفطرة والدينونة - فما تركه ليمضي في الحياة عبثا وما جعله خاويا متعريا من ظواهر القدرة على الاهتداء إلى الله - ومن كان شأنه غير ذلك فهو كائن معطل مشلول قد غاضت فيه كل ظواهر الهداية والاستبصار ٢٧٣.

٢١٤ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

قوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) - (أم) تعني بل - للاستفهام - (حسبتم) أي ظننتم وهي تنصب مفعولين الأول المصدر من أن تدخلوا - والثاني محذوف تقديره واقعا - وتقدير العبارة: بل حسبتم دخول الجنة واقعا - ولما أداة نفي وجزم.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال، منها أنها نزلت في غزوة الخندق عندما أصاب المسلمين الفزع ونالهم من الكرب والشدة ما نالهم.

ومنها أنها نزلت بعد معركة أحد، وهي المعركة الحافلة بالمواقف والمشاهد والعبر، وقد مني المسلمون عقيبها بجراحات وقتل، وأصابهم من القرح ما هزهم هزا.

ومنها أنها نزلت؛ لتسري عن المهاجرين لتركهم ديارهم وأموالهم وأهليهم بعد أن خرجوا إلى المدينة لا يملكون من كراع الدنيا وزخرفها شيئا - وقيل غير ذلك ٢٧٤.

والصحيح أن هذه الآية تفيد العموم، فهي في مدلولها تنسحب على كل المؤمنين الذين يقعون تحت طائلة الظالمين ليسوموهم العذاب الأليم، وليست هذه الحقيقة قاصرة على زمن بعينه أو مكان محدود أو مجموعة من الناس بالذات، ولكنها تصدق على كل مؤمن أيا كان ابتلاه الله بشيء من عذاب.

ويذكر الله عباده المؤمنين من أصحاب الملة المحمدية بالذين خلوا من قبلهم أي مضوا وبيّن لهم أنهم (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) و (البأساء) معناها الفقر و (والضراء) المرض - فالذين مضوا من قبلُ من المؤمنين امتحنهم الله بالشدائد والأرزاء التي تفتر عندها الهمم وتلين أمامها الإرادات - وكذلك قد امتحنهم بالله بالخوف والترعيب من الأعداء حتى (زلزلوا) أي حُرّكوا واضطربوا من شدة الخوف - والزلزلة تكون في الأشخاص وفي الأوضاع والأحوال، وهي بمعنى الحركة والاضطراب لما حل من نكبات وقوارع ترتجف لها القلوب والأبدان.

وذلكم هو شان المؤمنين السابقين الذين ابتلوا بأشد ما يواجه الإنسان من شدائد كالفقر والسقم والترويع من الأعداء الذين بل يرعون في المؤمنين في كل زمان ومكان كرامة أو اعتبارا، وإنما ينقضّون عليهم انقضاض الوحوش الكواسر في غابات يغيب فيها النظام والمنطق والضمير والرحمة.

وفي مثل هذه الزلزلة التي كانت تغشى عباد الله المؤمنين الصابرين عبر العصور السابقة، يحدثنا الخباب بن الأرت قال: قلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا - فقال: " إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه " ثم قال: " والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون " - وفي هذا المعنى من التعذيب للمؤمنين والترويع لهم يقول عز من قائل في آية أخرى: (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).

وفي يوم الأحزاب " معركة الخندق " أخذت المسلمين نوبة من الزلزال الشديد؛ لما حاق بهم من شدة وضيق وخوف حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر - وفي ذلك قال عز من قائل: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا).

وقوله: (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) - (والرسول) اسم جنس، فهو لا يراد به خصوص رسول متعين، بل عموم الرسل الذين أصابهم والذين آمنوا معهم البلاء والشدّة - وقيل: المراد بالرسول هو محمد - صلى الله عليه وسلم - - والقول الأول الراجح؛ لعدم الدليل على تخصيصه - والمعنى أن الرسول والذين معه، ممن ابتلاهم الله بنكال الكافرين وعدوانهم كان الضيق يبلغ منهم أشد مبلغ بعد أن تنزل بساحتهم الويلات وعظائم الأمور ويزلزلوا، وإذ ذاك يجأرون إلى الله بالدعاء ليعجل لهم بالفرج وهم يقولون (متى نصر الله) (متى) اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم - (نصر) مبتدأ مؤخر - والجملة الإسمية من المبتدأ وخبره في محل نصب مفعول به ليقول - وبعد هذا الامتحان العسير والكروب المريرة التي تمر بالفئة المؤمنة الصابرة، وبعد ما ألم بعباد الله العاملين المخلصين من ضروب الشدائد والأهوال وضروب الترويع والترعيب، بعد ذلك كله ينبجس الفرج ويأتي الخلاص والنصر من عند الله - وفي ذلك يهتف القرآن في تقرير رباني حاسم ونداء علوي مبشر مريح (ألا إن نصر الله قريب).

٢١٥ - (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) (يسألونك) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وواو الجماعة فاعل - والكاف ضمير مخاطب في محل نصب مفعول به - ماذا ما اسم استفهام في محل رفع بالابتداء، ذا خبر، وقيل (ماذا) اسم مركب في محل نصب مفعول به مقدم للفعل (ينفقون).

وقيل: إن الآية نزلت في عمرو بن الجموح إذ قال: يا رسول الله إن مالي كثير فبماذا أتصدق وعلى من أنفق؟
وقيل أيضا: إن الذين سألوا عن الإنفاق فريق من المؤمنين - سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن كيفية الإنفاق من حيث جهاته أو فيما تكون الصدقة.
وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، فالأمر بالإنفاق في الآية للندب لا للوجوب فهو (الإنفاق) مندرج في صدقة التطوع إلا ما كان للوالدين فإن الإنفاق عليهما يأخذ حكم الوجوب لا الندب إلا إن كانا ذا يسرة ومال - ويمكن إلحاق بعض الأقربين بالوالدين من حيث الحكم بوجوب النفقة إن كانوا معسرين - وذلك كالأخوات والعمات والخالات أو الأخوة والأعمام والأخوال إن كانوا يبلغون من الأسنان عتيا ولا يقوون على العمل تحصيل الرزق، أما غير هؤلاء الأقارب ممن هم أقل درجة في القرابة فالنفقة لهم مندوبة - وكذلك (اليتامى والمساكين وابن السبيل) لا ينعقد لهم في ذمة المنفقين وجوب بالإنفاق، بل تكون النفقة عليهم من باب التطور لا الإجبار.
قوله: (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) ما اسم شرط، (تفعلوا من خير) جملة الشرط - وجوابه: (فإن الله به عليم) الفاء مقترنة بالجواب - وذلك تخصيص للمؤمنين على النفقة من أموالهم بسخاء على الأصناف المبينة وهم: الوالدون والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل - والله جل وعلا لا يخفى عليه العمل الصالح، فإنه به عليم وهو مجازي الذين ينفقون أموالهم خالصة لوجهه ٢٧٥.
٢١٦ - (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (كتب) فعل مبني للمجهول - (القتال) نائب فاعل - (وهو كره لكم) الواو للحال والجملة الاسمية من المبتدأ والخبر في محل نصب حال.
وفي هذه الآية فرض القتال على هذه الأمة؛ لما في القتال من ترسيخ لقواعد الدين والشريعة وتثبيت لأسس الحق والعدل والأخلاق - ولما في القتال كذلك من درء لأسباب الشر والأشرار وتبديد لمعالم الفساد والمنكر وإذهاب لدعاة الجريمة والباطل من وجه الأرض - ولولا القتال الذي شرعه الإسلام لاستعلى المبطلون والأشرار ونفخوا بكيرهم في الأرض لينفثوا معالم الفساد بكل صوره وأشكاله ولظلت دعوة الحق واليقين عاجزة عن أب انتشار أو بلوغ للأسماع والأذهان.
أما الجهاد من حيث حكمه في الشريعة فهو فرض على الكفاية إذا اضطلع به فريق من المسلمين سقطت فرضيته عن الباقين من المكلفين في هذه الأمة، وتظل فرضية الجهاد على الكفاية إلا أن يتجاوز العدو في عدوانه فيجوس خلال المسلمين ويحتل جزءا من ديارهم - وفي مثل هذه الحال يصبح القتال فرض عين، أي تنشغل ذمة كل مسلم مكلف بعينه بفرضية القتال، فلا تبرأ هذه الذمة من هذا الواجب إلا بتأدية القتال، وذلك ما قام عليه إجماع المسلمين حول هذه القضية الهامة، ولا يفرط المسلمون في هذا الواجب العظيم إلا وتحيط بهم غواشي المهانة والذل، وتأخذهم قوارع التهديد والعدوان من كل مكان، تلك القوارع التي ما فتئت تتوالى على المسلمين فتذيقهم الويل والثبور والذل.
وقوله: (وهو كره لكم) أي أن الطباع تكره القتال؛ لما يفضي إليه من مخاطر الموت أو الجرح أو الخوف أو غير ذلك من مقتضيات الحروب.
وقوله: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) عسى من الله في القرآن واجبة كما قيل - والمعنى المراد على وجه الخصوص في هذه الآية أن الناس عسى أن يكرهوا القتال، لما فيه من كرب ومشقة واحتمالات الضرر الخاص، ولكنه في النهاية سوف يفضي إلى خير كبير وهو النصر على أعداء الله وتحطيم شوكته والتمكين لهذه الأمة في الأرض لتصبح أمة قوية متمكنة - إلى غير ذلك من وجوه الأمن والاستقرار وتحصيل الخير والرزق والسعادة - وأما المعنى المراد على وجه العموم - أن المرء ربما كره شيئا لما يحسب أنه شر وأنه يؤول إلى نتيجة غير مرضية، وذلك بناء على حسابات الإنسان وتقديراته القاصرة والتي يعوزها الكمال في المعرفة أو الكشف عما يبطنه الغيب

من مجاهيل وأخباء - حتى إذا خاص المرء غمار ما كره وجد أنه الخير وأن ما كان يخشاه ويكرهه قد أفضى به إلى الخير والمنفعة.
قوله: (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) عسى أن يرغب المرء في الدعة والقعود دون الجهاد إيثارا للراحة وعدم المشقة والعناء، لكن ذلك سيودي به وبالآخرين إلى هاوية الذلة والاستعباد، وإلى الخنوع للكافرين الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويعلمون على تدميرهم والقضاء عليهم قضاء تاما.
وكذلك ربما رغب المرء في شيء ظنا أنه خير، لكنه محسوب في علم الله سرا، وأنه يقود إلى خسران وفشل لا يعلمهما من قبل إلا الله، فليس للمرء في هذه القضايا إلا أن يستسلم لتقدير الله ومشيئته، وأن يرضى بما جعله الله قدرا مقدورا - وإن ذلك ما كان صدفة أو عشوائية ولكنه معلوم مقدر محسوب - والإنسان مهما علم فإنه لا يتجاوز بعلمه نطاق المستطاع المحدود - وهو لا يبرحه الضعف والإحساس بالبساطة والهوان إلا أن يكون جاهلا مغرورا - فإن ظن أنه أكبر من حجمه ومقدوره فقد ظلم نفسه وغار بها في غياهب الضلالة والضياع، وليس أصدق ولا أجمل ولا أكمل من العبارة الربانية الجلية القصيرة إذ يقول سبحانه: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أي يعلم ما يصلحكم وما خير لكم في دنياكم وأخراكم، أما أنتم فلا تعلمون ذلك ٢٧٦.
٢١٧ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم).
جاء في سبب نزول هذه الآية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعث في رجب عبد الله بن جحش الأسدي ومعه ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب لعبد الله بن جحش كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه، ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به، فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا، وتعلّم لنا من أخبارهم " فلما قرأ الكتاب قال: سمعا وطاعة، ثم أخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا يستكره أحدا منهم، وأنه ناهض لوجهه بمن أطاعه، وأنه إن لم يطعه أحد مضى وحده، فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع - فقالوا: كلنا نرغب فيه وما منا أحد إلا وهو سامع مطيع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ونهضوا فسلك على الحجاز، وشرد لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان جمل كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه، ونفذ عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل بنخلة، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان، والحكم بن كيسان - فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرام ثم أنفقوا على لقائهم فقتلوا عمرو ابن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، ثم قدموا بالعير والأسيرين - فأنكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام، فسقط في أيدي القوم، فأنزل الله عز وجل (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه).
وهذه إحدى الروايات التي ذكرت في سبب نزول الآية، وهي في مجموعها تبيين أن نفرا من المسلمين بعثهم النبي - صلى الله عليه وسلم - لرصد قريش فقتلوا ابن الحضرمي ثم عادوا ومعهم أسيران والعير، وكان ذلك في أول رجب أحد الأشهر الحرم التي لا يباح فيها القتال - وقد عيّرت قريش المسلمين في ذلك بقولها: إن محمدا يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في

رجب - فرد الله مقالتهم فيما أنزله من هذه الآية - وهو أن القتال في الشهر الحرام غير مباح، ذلك صحيح، لكن الذي اقترفتموه أنتم أيها المشركون أكبر وأشد من القتل في الشهر الحرام، وهو أنكم كفرتم بالله، وصددتم عن دينه، وحاربتم نبيه وأصحابه، وكفرتم بالمسجد الحرام، وصددتم عنه المؤمنين وهم أهله، وأخرجتموهم منه، وفتنتم المسلمين في دينهم حين آذيتموهم وعذبتموهم ٢٧٧.

وقوله: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) (قتال) بدل من الشهر، وهو بدل اشتمال؛ لأنهم سؤالهم شمل الشهير والقتال - والمعنى أن المشركين يسألونك يا محمد مستنكرين للقتل الذي في الشهر الحرام.

وقوله: (قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله كفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) أي قل لهم يا محمد: لئن كان القتال في الشهر الحرام مستنكرا ومحرما فإن ما فعلتموه أنتم من صد عن الإسلام وكفر بالله والمسجد الحرام وإخراج المؤمنين من ديارهم وهو الحرم، لهو أشد نكرا وتحريما - فقبل أن تعيروا المسلمين بهذه المخالفة فاذكروا أنتم ما صنعتموه من مخالفات هي أشد وأعظم - فعيروا أنفسكم قبل أن تعيروا غيركم.

قوله: (والفتنة أكبر من القتل) الفتنة هي حرف المسلم عن دينه عن طريق التعذيب وغيره - المعنى أن تعذيبكم وتنكيلكم بالمسلمين لحرفهم عن دينهم وصرفهم إلى ملة الكفر، لهو أعظم جرما مما عمله المسلمون من القتل في الشهر الحرام.

قوله: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) وفوق جرائم المشركين في الصد عن دين الله والكفر به والمسجد الحرام وإخراج المؤمنين منه ظلما وعدوانا، فإنهم لا يزالون مصممين وماضين في حربكم وقتلكم ليردوكم عن الإسلام إن استطاعوا - ومن المعلوم أن الارتداد عن ملة الإسلام إلى ملل الكفر جريمة شنيعة بل هو كبرى الجرائم التي يتردى فيها التعساء في هذه الحياة، فإن الذي يبدل دين الإسلام ليدخل في الكفر ثم يظل على حاله من الارتداد إلى أن يموت كافرا قد باء الخسران وحبوط الأعمال في الدنيا والآخرة - وحبوط الأعمال أي فسادها أو بطلانها، ومنه الحبط وهو مرض يصيب الدواب والأنعام في بطونها؛ لكثرة ما تأكله من الكلأ مما يؤدي إلى انتفاخ أجوافها واحتمال موتها ٢٧٨ - وينسحب مثل هذا المعنى على الأعمال الصالحة إذا أتى عليها الحبوط، فإنه يفسدها ويجعلها هدرا بغير قيمة أو اعتبار، وذلك في الدنيا والآخرة - أما حبوطها في الدنيا فهو أن يُضرب عن ذكرها صفحا، فتصبح كأنها لم تكن، فلا يبقى لها في أذهان الناس وذكرياتهم أي تقدير أو حساب - ولا يكون للمرتد بعد موته وحبوط عمله من ثناء عليه أو إحساس بتذكره وإطرائه طيلة الحياة الدنيا، ليكون بذلك نسيا منسيا - وأما حبوطها في الآخرة فهو فسادها وزواها البتة حتى إذا جاء المرتد يوم القيامة لم يجد من أعماله الصالحة شيئا.

وثمة أحكام للمرتد نعرض لبعضها في هذا الصدد، وأولها الاستتابة - فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن المرتد عن الإسلام يستتاب، فإن تاب صين دمه وإذا لم يتب قتل.

وفي حجم المدة التي يتاح فيها للمرتد أن يتوب، اختلفوا، فقيل: يستتاب مدة ساعة من نهار، وقيل: يستتاب شهرا، وقيل كذلك: يستتاب أياما ثلاثة وهو قول الإمام مالك - وقال الحسن البصري: يستتاب مائة مرة - وللشافعي في أحد قوليه أن المرتد يقتل في الحال ودون استتابة.

وذكر عن أبي حنيفة أن المرتد يعرض عليه الإسلام فإن أسلم وإلا قتل مكانه، إلا أن يطلب التأجيل، فإن طلب ذلك أمهل أياما ثلاثة - مع أن المشهور في المذهب الحنفي أن المرتد لا يقتل حتى يستتاب.

أما الذي يبدل ملة الكفر بأخرى كالذي ينتقل من الكفر إلى الكفر، فلا شان لنا به؛ لأنه انتقل إلى ما لو كان عليه في الأصل لترك وحاله - وذلك الذي عليه جمهور الفقهاء - أما الإمام الشافعي فقد ذكر عنه أنه يقتل مستندا في ذلك إلى العموم من حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - " من بدل دينه فاقتلوه " وهو في لم يخص مسلما أو كافرا - وفي تقديرنا أن الأول أرجح؛ إذ لا صحة لما استدل به الإمام الشافعي من الحديث المذكور على القتل، فإن أصدق تأويل للحديث أنه ينطبق على من بدّل دينه الإسلام بدين آخر.

والآن ما حكم المرتد إذا رجع إلى الإسلام، فهل يحبط عمله السابق؟ فقد قال الإمام الشافعي: إن الذي يرتد ثم يعود إلى الإسلام لم يحبط عمله، وعليه فإن حجه وصيامه وصلواته وسائر أعماله باق بغير حبوط، وهو بعد عوده إلى الإسلام لا يبقى في ذمته فريضة بحج

أو صيام أو غيره، أما الذي يموت وهو باق على حاله من الردة فإن أعماله كلها قد أتى عليها الحبوط - وذهب مالك إلى أن المرتد يحبط عمله بمجرد ارتداده - وبناء على ذلك فإن المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم فإنه يلزمه الحج من جديد - وقال الشافعي: ليس عليه إعادة للحج من جديد، فإن حجه الأول باق ٢٧٩.

٢١٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) - لما قتلت سرية عبد الله بن جحش عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام، عنّف المسلمون ابن جحش وأصحابه، فلاقوا عن ذلك عنتا وأسفا، ثم فرّج الله بهذه الآية عنهم وكشف عنهم ما أصابهم من فعلتهم في الشهر الحرام، وبين لهم في الآية أنهم من المؤمنين الذين لهم أجر المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله - وقد مدحهم الله بأنهم (يرجون رحمة الله) أي يطعمون مؤملين أن يشملهم الله برحمته، فإنه سبحانه وتعالى ذو مغفرة للناس على ظلمهم وما اكتسبوا من الإثم، وهو الرحيم الذي تسبق رحمته عذابه والذي يتجاوز للعباد عن السيئات لما يحيطهم به من واسع منّه وفضله وإحسانه - فقال في ذلك: (والله غفور رحيم).

٢١٩ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم).

جاء في سبب نزول هذه الآية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعا الله في شأن الخمر قائلا: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا فنزل قوله تعالى: (يسألونك عن الخمر والميسر) فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أقام الصلاة ونادى: أن لا يقربّن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: الله بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) فقال عمر: انتهينا انتهينا ٢٨٠.

أما الخمر فهي مأخوذة من الفعل خمر أي سكر - ومنه خمار المرأة وهو ما يستر الرأس والجيب، وسميت خمرة؛ لأنها تستر العقل وتغطيه بتأثيرها وفعاليتها ٢٨١

على أن الخمر يصنع من ماء العنب إذا طبخ وغلي، ومن غير العنب إذا خامر العقل أو أسكر - وبذلك فمذهب الجمهور من علماء المسلمين أن ما كان من غير العنب إذا أسكر كثيره فإن قليله كذلك حرام استنادا إلى ما رواه الترمذي وأحمد وأبو داود عن ابن عمرو عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: " ما أسكر كثيره فقليله حرام " وقوله: " كل مسكر خمر وكل خمر حرام " وهو ما رواه مسلم وأحمد وأبو دود والنسائي عن ابن عمر.

وذهب آخرون منهم أبو حنيفة وابن شبرمة والثوري وغيرهم إلى أن غير خمر العنب إذا كان قليله غير مسكر فهو مباح ٢٨٢ - وبعبارة أخرى فإن ما كان من غير خمر العنب إذا كان كثيره هو المسكر دون قليله فإن قليله إذا مباح - وهم في ذلك يعتمدون على الحديث: " إنما الخمر من هذه " إشارة إلى العنب وحده - ولا نرى ذلك إلا مرجوحا لا يمكن الاطمئنان إليه - فالراجح هو القول الأول.

وأما الميسر فهو لغة قمار العرب بالأزلام - وهو من اليسر، بفتح الياء والسين، ومعناه وجوب الشيء لصاحبه - والياسر هو اللاعب بالقداح، وقيل هو نقيض اليامن (من اليمين) - ويشمل الميسر كل وجوه القمار كالنرد والشطرنج واليانصيب وغير ذلك من أصناف اللعب المقترن بالكسب الحرام ٢٨٣.

وقوله: (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) وإثم الخمر كبير حقا - وهو ما يترتب على الشرب من فاسد الخلق كالشتم والغيبة والقذف والنيل من أعراض الناس وكراماتهم وكذلك الكذب والزور وفاحش القول والخصام، ومن إثمه أن يفرط الشارب في الصلاة وأن يفتقد من شخصه كل ظاهرة من ظواهر التوازن أو الضبط والوعي.

ومن جليل ما يذكر في عاقبة الخمر ما رواه النسائي عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي أو تشرب من هذه الخمر كأسا أو تقتل هذا الغلام - قال: فاسقيني من هذه الخمر كأسا فسقته كأسا - قال: زيدوني فلم يرم (يبرح) حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه.

أما إثم الميسر فهو كذلك كبير - وهو ينشأ عن مفاسد القمار في تلويث الصدور وإتراعها بالحسد والكراهية والرغبة في الانتقام من اللاعب المقامر الأخر لكسب ماله وإغاظته - وغير ذلك من مفاسد كالخصومات والعداوات والمباغضات وتوتر الأعصاب وشحن النفوس بالحقد - وتلك مفاسد وأضرار توقع المقامرين في الإثم الكبير.

أما نفع الخمر والميسر فهو هيّن صغير إذا ما قيس بمفاسد الخمر والميسر وأضرارهما وما يقتضيه ذلك من كبير الإثم - ونفع الخمرة كما قيل يظهر في نشوتها واستمتاع السكارى بها وما تبعث فيهم من النسيان أثناء الشرب وعقيبه - وأما نفع الميسر فلا يعدو كسبا للمال يحرزه المقامر الكاسب إذا ما أوتي حظا من البراعة أو الحيلة في اللعب - ومثل هذا النفع لكلا المحظورين يكاد لا يُذكر لدى المقارنة بالضرر الفادح الناجم عنهما؛ لذلك يقول سبحانه في تعبير قصير واضح: (وإثمهما أكبر من نفعهما).

وجدير بالقول هنا أن بعض العلماء استدلوا بهذه الآية على تحريم الخمر؛ لتسميتها إثما؛ ولا يكون الإثم إلا حراما - ونحسب أن هذا الحكم وتوجيهه ضعيفان - ولا نستطيع أن نحكم بتحريم الخمر بناء على ما جاء في الآية أن الخمر فيها إثم، ولم يقل إنها إثم - والصواب في ذلك أن الآية جاءت في ذم الخمر لا تحريمها، أما الحريم فقد علم من آية أخرى وهي آية المائدة.

قوله: (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) السؤال ههنا عن حجم النفقة أو مقدارها، والجواب (العفو) مرفوع على الإخبار لمبتدأ تقديره هو - وقرئ بالنصب على المفعولية لفعل تقديره ينفقون.

ومما قيل في تأويل العفو ما ذكر عن جماعة بأنه ما فضل عن العيال، وهو مروي عن ابن عباس - وقال مجاهد: العفو صدقة عن ظهر غنى - وقيل: المراد بالعفو الزكاة المفروضة، وهو قول مرجوح، فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن العفو هنا يدخل في نطاق التطوع.

ويمكن استخلاص الصواب من القول في المراد من العفو، وهو أنه الفضل، فما فضل عن الحوائج ولم يكن في أدائه ما يؤذي النفس أو العيال فهو عفو - ويمكن الاستئناس لذلك بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " خير الصدقة ما أنفقت عن غنى " وأخرج الإمام مسلم في ذلك عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لرجل: " ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا " وذلك ما يدفع القول بنسخ هذه الآية - فالصحيح أنها محكمة غير منسوخة بآية الزكاة - ومما هو معلوم في قواعد الشريعة أن المسلم يبيت مكلفا بالتصديق بما يفضل عن الحاجة إذا دهمت المسلمين ظروف عصيبة شاذة عم فيها الفقر ومست الحاجة - وفي الحديث الشريف: " إن في المال حقا سوى الزكاة ".

قوله: (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) أي أن الله يبين لعباده في هذه الآيات أحكامه في النفقة وغيرها؛ ليتفكروا في شأن هذه الدنيا فيعلموا أنها دار زوال وفناء، وليتفكروا في أمر الآخرة فيعلموا أنها دار مقام ودوام - وقيل: ليتفكروا في الدارين فيؤثرون أبقاهما وأدومهما.

٢٢٠ - (فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١٩ إظهار

قوله: (يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) - ذكر في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) و (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يُفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأنزل الله تعالى: (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه.

وخلاصة ذلك أن الناس كانوا يتحرجون من مؤاكلة اليتامى ومخالطة أموالهم بأموالهم حتى نزلت هذه الآية؛ لتدفع الحرج من مؤاكلة اليتامى ومخالطتهم، ولتبين للناس أن الأصل في التفريق بين الحلال والحرام هنا مرهون بالنية وما يخفيه المرء في مقصوده من رغبة في الأذى والعدوان والطمع، أو رغبة في التنمية والتثمير والإصلاح - وتتضمن الآية كل هذه المعاني - فقال سبحانه وتعالى: (قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) أي أن مؤاكلة اليتامى والتعامل في أموالهم بقصد الإصلاح خير لا جناح فيه - وكذلك فإن الأوصياء على اليتامى لا حرج عليهم في مخالطة المثل لهم بالمثل لليتامى تخلط التمر بالتمر أو الدقيق بالدقيق - فقد كان كافل اليتيم قبل هذه الآية يشق عليه إفراد طعامه عن طعام اليتم وهو لا يجد مندوحة عن خلط طعامه بطعام عياله مع احتمال الزيادة أو النقصان في حصة اليتيم من هذه الطعام - فرخصت له المخالطة بهذه الآية - وهي مخالطة جيدة تقوم على أساس من الأخوة في الدين والثقة التامة في التعامل وذلك معنى قوله: (فإخوانكم).

قوله: (والله يعلم المفسد المصلح) أي لا يخفى على الله من داخل اليتيم بقصد الإفساد أو الإصلاح فيجازيه بما قصد - وقوله: (ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم) أي لو شاء الله لضيق عليكم ولكلفكم ما يشق عليكم أداؤه، وذلك بتحريم مخالطتهم لليتامى، ولكن الله أباح لكم ذلك فسهّل عليكم، فهو سبحانه (عزيز حكيم) أي قوي لا يمتنع عليه شيء قدره وأراده، وحكيم في تصرفه في ملكه ٢٨٤.

٢٢١ - (وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) يحرم الله بذلك على المؤمنين الرجال أن يتزوجوا النساء المشركات اللواتي يعبدن الأوثان، وظاهر هذه الآية يفيد تحريم الزواج من المشركات كافة سواء كن كتابيات أو غير كتابيات؛ لما يصدق عليهن من الشرك، لكن ذلك مخصص بآية المائدة (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان) فلئن كانت آية البقرة يفيد ظاهرها العموم إلا أن الله تعالى قد استثنى بآية المائدة نساء أهل الكتاب ليكون نكاحهن حلالا، وذلك الذي عليه جماهير العلماء سلفا وخلفا - وفي ذلك يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا " - وذكر عن بعضهم أن نكاح الكتابيات حرام استنادا إلى ظاهر العموم في الآية وإلى قوله سبحانه: (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) أما ظاهر العموم في الآية فقد بينا تخصيصه، وأما الآية في حبوط العمل فلا يستدل بها على موضع الخلاف هنا - وذكر عن عبد الله بن عمر القول بكراهة نكاح الكتابيات - وهو في ذلك يقول: لا أعلم شركا أعظم من أن تقول: ربها عيسى - ومثل هذا الرأي لا يعوِّلُ عليه؛ لمخالفته صريح النص في آية المائدة التي أباحت طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم بغض النظر عما تعتقد الكتابية من إشراك.

أما نكاح الكتابيات في حال الحرب فقد ذكر عن ابن عباس أنه حرام؛ لوجوب قتالهم جميعا لا التحبب إليهم بنكاح نسائهم.

وفي هذا يقول سبحانه: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).

وذهب الإمام مالك إلى كراهة نكاح الحربيات، وهو ما نرجحه ٢٨٥.

ورب سائل يسأل عن السبب في إباحة نكاح المسلم للكتابية، وتحريم ذلك على الكتابي فإنه ممنوع من نكاح المرأة المسلمة.
ولا نريد أن نخوض طويلا في تعليل هذا الحكم، ولكننا نكتفي بالقول: إن الإنسان المسلم يؤمن بنبوة المرسلين جميعا، ويؤمن كذلك بصدق الكتب السماوية بغير استثناء، فهو بذلك يؤمن بنبوة كليم الله موسى وروح الله عيسى المسيح عليهم الصلاة والسلام، ويؤمن بما أنزل إليهما من كتاب - ومثل هذا الإيمان لهو جزء من عقيدة الإنسان المسلم فهو بذلك مكلف تكليفا دينيا أن يحوط زوجته الكتابية -يهودية كانت أو نصرانية- بالرعاية والعطف والتقدير وأن لا يحيف عليها باعتداء أو إهانة - وأي اعتداء على الزوجة الكتابية في دينها أو إهانة لها في مشاعرها الدينية فهو محرم تحريما؛ لما في ذلك من نيل من قدسية الكتاب الذي تعتقده هي ويؤمن به زوجها المسلم، ومن نيل كذلك من قدسية نبيِّها الكريم الذي تنظر إليه هي بإجلال، ويؤمن بصدق نبوته زوجها المسلم، فلا خشية مع هذه الحال على الزوجة الكتابية إذا كانت في كنف الزوج المسلم وفي رعايته.
والأمر يختلف تمام الاختلاف لو تزوج الكتابي- يهوديا أو نصرانيا- المرأة المسلمة فهو أصلا لا يؤمن بدين الإسلام وهو ينكر نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، ويكذب كتاب الله القرآن - فمن كان هذا شأنه فأنّى له أن يكنّ من الاحترام أو التقدير للمرأة المسلمة لو كانت زوجة له - وإن لمن المعلوم أن الإنسان المسلم- والمرأة خاصة- شديد الاستمساك بعقيدته، وهو ذو شعور ديني مرهف فكيف إذا ما تسلط عليه أحد لا يستبقي في نفسه ذرة من إيمان بدينه وعقيدته (الإسلام)؟ وكيف تكون حال المرأة المسلمة وهي في رعاية زوج كتابي يسخر من الإسلام ونبيه وكتابه؟! لا نحسب في هذه الحال إلا أن يذيقها مهانة السخرية والاستهزاء بدينها ونبيها وكتابها لتظل في كنفه جريحة الشعر والقلب بدوام اعتدائه على أروع وأغلى ما تملك وهو دينها وعقيدتها - وفي ذلك يقول سبحانه: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أي الاستيلاء والظهور والهيمنة.
من أجل ذلك أبيح للمسلم نكاح الكتابية ومُنع الكتابيُّ من نكاح المسلمة.
قوله: (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) الأمة الجارية المملوكة - وهي إن كانت مؤمنة فإنها في ميزان الله خير من المشركة ذات الوسامة والحسب - ولا ينبغي للمؤمن الحريص أن يغفل حين الزواج عن الفتيات المؤمنات ذوات الخلق والعقيدة والتقوى لينصرف بهواه إلى زهرة الحياة الدنيا وزينتها فيختار من النساء ذوات الأحساب أو المال أو الجمال وهن فاسقات أو كوافر - وفي الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين؛ فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل " وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال أيضا: " تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك ".
وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فلطمها في غضب ثم ندم، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره، فقال: " ما هي يا عبد الله " قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد الشهادتين، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " هذه مؤمنة " فقال ابن رواحة: لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين؛ لنكاحة أمة، وكانوا يرون نكاح المشركات رغبة في أحسابهن - وقيل في نزولها غير ذلك وكله يشهد على أن المرأة المؤمنة خير من المشركة بغض النظر عن فوارق في الحسب والجمال وغير ذلك مما يعجب كثيرا من الناس ٢٨٦.
وقوله: (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) أي لا تزوجوا الرجال المشركين من نسائكم المؤمنات حتى يؤمنوا، فإن آمنوا رفع عنه الحظر وأبيح لهم الزواج منهن.
وفي الآية بيان واضح حاسم ليس في مداهنة أو مواربة على أن الإيمان أفضل، وأن ما عداه من اعتبارات مفضول - فالمؤمن وإن كان عبدا حبشيا كأن رأسه زبيبة لهو خير وأفضل من المشرك ذي الحسب أو المال أو المنزلة الرفيعة في الدنيا - وهو خير وأفضل كذلك من الفاسق ذي الوسامة الذي يبهو جماله كثيرا من النساء.
وينبغي للفتاة المؤمنة ألا تأخذها في الرجل ظاهرة الجمال أو الحسب لتغفل بعد ذلك عن أهم وأخطر ما فيه من جوانب، وذلكم هو جانب العقيدة وما ينبثق عنها من جمال الخلق والطبع والتصور.

وفي الآية كذلك ما يدل على أنه لا بد للنكاح من وليّ - فيتضح ذلك من قوله: (ولا تنكحوا) وهو فعل مصدره الإنكاح، والمخاطبون هنا الأولياء - وفي هذا يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا نكاح إلا بولي ".

وفي بطلان النكاح بغير وليّ يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل- ثلاث مرات- فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها، فإن تشجاروا فالسلطان وليّ من لا وليّ له "

وليس للمرأة بعد ذلك أن تزوج نفسها أو تزوجها امرأة غيرها - وفي هذا يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانيةَ هي التي تزوج نفسها " وتفصيل هذه المسألة في موضعه من كتب الفقه.

قوله: (أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه) اسم الإشارة (أولئك) يراد به المشركون جميعا رجالا ونساء فهم في مخالطتهم ومناكحتهم ودوام العيش معهم وتمام الركون إليهم، كل ذي يغري بالتشبث بالشهوات وزينة الحياة الدنيا ومتاعها، فضلا عن احتمال الإفساد للنسل - وفي هذا كله ما يسوق إلى الخسران وعذاب النار، لكن الله جلت قدرته بتشريعه الحكيم وترسيخ لأهمية المناكحات بين المسلمين والمسلمات دون غيرهم ما يقود إلى سلامة العاقبة ودخول الجنة - إن هذه الآيات تنطوي على الخير للناس - وهي آيات واضحات بينات تحمل للإنسانية أكمل وتشريع وخير سبيل فيه النجاة من ضلال الدنيا وشرورها - وما على الناس بعد ذلك إلا أن يعكفوا على دراسة الآيات الحافلة الشاملة البينة، وينهلوا من معينها الزاخر بكل أسباب الفوز والسلامة والنجاة (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون).

٢٢٢ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

قوله تعالى: (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فآتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فآتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) في سبب نزول هذه الآية روى الإمام أحمد بإسناده، عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوهن ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) حتى فرغ من الآية فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " اصنعوا كل شيء إلا النكاح " - المحيض هو الحيض وهو اسم مصدر فعله حاض يحيض، ومعناه السيلان - نقول حاضت الشجرة أي سال صمغها، وحاضت المرأة أو تحيّضت إذا سال الدم منها في أوقات معلومة، أما إذا سال منها في غير أيام معلومة وفي غير حال المحيض سمّي ذلك استحاضة، ونقول: إن المرأة بذلك مستحاضة، وقد أجمع العلماء على أن الحائض تدع الصلاة والصيام حال حيضها وذلك على الوجوب، وعليها بعد انقطاع الدم أن تغتسل وتقضي ما فاتها من صيام ولا تقضي الصلاة، أما مدة الحيض فهي موضع خلاف بين العلماء، فقد قال الشافعي: أقل الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يوما، وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وآخرين - وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره عشرة - وعلى هذا فما نقص عن أقل المدة أو زاد عن أكثرها بحسب الاختلاف الذي بيّناه فهو استحاضة - وقال الإمام مالك: إن ذلك مردود إلى عرف النساء وجبلّتهن المختلفة.

وأما دم النفاس عند الولادة فلا حد لأقلّه فقد ينتهي بعد يوم أو دون يوم من بدئه، وقد يكون دفقة من دم ثم ينقطع، لكنهم اختلفوا في أكثر، فقال أبو حنيفة: أكثر ستون يوما، وقال الشافعي: أربعون، وذهب الإمام مالك إلى أنه شهران، وقيل غير ذلك - وإذا جاوز المسيل هذه المدة تبعا لكل مذهب سمي ذلك استحاضة وفيها تصلي المرأة وتصوم بعد أن تغتسل ولا يضرها نزول الدم.

والمرأة الحائض أو النفساء لا يجوز في حقها كل من الأمور التالية: الصلاة والصيام والجماع والعدة والطلاق والطواف ومس المصحف ودخول المسجد والاعتكاف فيه وقراءة القرآن.

على أن المراد في الآية هو النهي عن الجماع حال المحيض، لأن الجماع فيه أذى (قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض) - الضمير

(هو) يعود على المحيض - والمقصود أن المحيض، أذى أي قذر تتأذى به المرأة من أجل الدم في نتنه وفساد ريحه، فلا يجوز حينئذ قربان المرأة جماعا إلا ما أبيح منها - ويبين ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا الصدد: " اصنعوا كل شيء إلا النكاح " وهو الجماع - فما كان دون الجماع فهو جائز، وتحديد ذلك بما كان فوق الإزار، فقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم -: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ فقل: " لتشد عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها " وذلك الذي عليه أكثر العلماء منهم أبو حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي وغيرهم.

وإذا أتى أحد زوجته جِماعا حال المحيض فهو آثم، وعليه أن يستغفر الله ويتوب إليه، وليس عليه شيء غير ذلك، وقيل بل عليه أن يتصدق بدينار، وقيل: نصف دينار، وذلك لما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " يتصدق بدينار أو بنصف دينار ".

والذي نختاره في هذه المسألة أن الذي يجامع حال الحيض عليه أن يستغفر ربه وأن يتصدق بدينار أو نصفه جمعا بين القولين وهو أحْوط.

قوله: (ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن) قال ابن عباس رحمه الله: (حتى يطهرن) بسكون الطاء أي ينقطع دم الحيض عندهن - أما قوله: (فإذا تطهّرن) بتشديد الهاء أي اغتسلن بالماء، وهو ما قاله آخرون أيضا.

لكن الفقهاء أجمعوا على تحريم الجماع بعد انقطاع الحيض حتى تطهر المرأة - واختلفوا في ماهية الطهر، فقال فريق من العلماء: إنه الاغتسال بالماء، وفي قول ثان: إنه الوضوء كالذي يكون للصلاة، وفي قول ثالث: هو غسل الفرج فقط وبعده يباح للرجل الوطء.

وذهب جمهور العلماء إلى أن الطهر الذي يحل به جماع الحائض بعد انقطاع الحيض هو الاغتسال بالماء كالذي يكون للجنب - وهو معنى قوله تعالى: (فإذا تطهرن) بتشديد الهاء - وهو قول مالك والشافعي وآخرون.

وقال آخرون إذا انقطع دم الحائض ثم توضأت حل جماعها ولو لم تغتسل، وأما الإمام أبو حنيفة فعنده إذا انقطع الدم بعد أكثر المدة وهي عشرة أيام، فإنه يباح للرجل الوطء قبل الغسل، والذي يبدو أن هذه الأقوال يعوزها الدليل فلا نطمئن إليها؛ ولذلك فإن الراجح الذي يطمئن إليه القلب ما ذهب إليه الجمهور وهو تحريم الجماع بعد انقطاع دم الحيض قبل الغسل - فإذا انقطع الدم وحصل الاغتسال أبيح الجماع والله تعالى أعلم.

قوله: (فأتوهن من حيث أمركم الله) أي فجامعوهن في الفروج ولا تتجاوزوا إلى الأدبار فإنه حرام، وهو أمر إباحة لا أمر وجوب.

قوله: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) يراد بالتوابين الذين يكثرون التوبة والاستغفار مما قارفوه من معاص وذنوب - والمتطهرون هنا الذين يتنزهون عن فحش الإتيان للنساء في أدبارهن أو وهن حوائض؛ لما في ذلك كله من أذى وقذر.

٢٢٣ - (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) الحرث يراد به موضع الولد كما ذكر عن ابن عباس - وإتيان الحرث يراد به الجماع في الفرج - وقوله: (أنى) أعم من متى وكيف وأين - فهل تشمل كل هذه الأسئلة من حيث المضمون - والمعنى للآية أن نساءكم موضع نسل لكم وتوالد حيث الفروج، فأتوهن في الفروج على الهيئة التي تريدون مقبلات أو مدبرات، على أن يكون الجماع في صمام واحد معروف، وأي تجاوز لهذا الصمام حيث النسل والولد، فهو حرام - وفي هذا الصدد جاء في الحديث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج ".

وذكر أن أناسا من الأنصار أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم -، فسألوه عن ذلك، فقال: " ائتها على كل حال إذا كان في الفرج " - أما الإتيان في الدبر فهو محظور استنادا إلى الدلالة المستفادة من هذه الآية والتي تنحصر فيها الإباحة على الوطء في الفروج حيث الحرث (النسل) - واستنادا كذلك إلى النصوص من السنة وما ذهبت إليه جماهير العلماء في هذه المسألة - وما من قول يبيح الوطء في الأدبار إلا هو ضعيف أو مرجوح.

ثم يدعو الله عباده أن يقدموا من الطاعات وصالح الأعمال ما يجدون ثمرته يوم القيامة؛ وعلى المؤمنين أن يكونوا دائما على تقوى من الله، وليعلموا في يقين أنهم ملاقوه في يوم يشتد فيه الهول ويغيب فيه الشفعاء (وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر

المومنين) ٢٨٧.

٢٢٤ - (وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم)

قيل إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق إذ حلف ألا يأكل مع الأضياف - والمعنى: لا تجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من عمل البر والطاعة والإصلاح بين الناس، بل عليكم أن تكفّروا عن أيمانكم ثم تفعلوا الخير من بر وطاعة وإصلاح - فإنه خير للمؤمن أن يكفّر عن يمينه، ثم يفعل الخير بدلا من امتناعه عن فعل الخير، لأنه حلف ألا يأتيه - وفي هذا روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها " أي آتي العمل الذي حلفت ألا آتيه، ثم أقوم بالتكفير تحلّة لما حلفت من يمين.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرا منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير " - وروى أبو دود عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله ولا في قطيعة رحم، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها، فليدعها وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفارتها ".

وقوله في الآية: (عرضة) أي نصبا - نقول: فلان عرضة للناس، أي نصبا لهم: بمعنى أنه معترض لهم فلا يزالون يقعون فيه - جعلت فلانا عرضة لكذا أي جعلته نصبا له أو نصبته له - وقوله في الآية: (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا - - .) أي كيلا تفعلوا البر والطاعة والإصلاح كصلة الرحم وغيرها - وعلى هذا فالمقصود هو ألا تجعلوا الله نصبا لأيمانكم بأن تكثروا من الحلف باسمه، لئلا (تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) أو لا تجعلوا أيمانكم بالله مانعة لكم من البر وصلة الرحم والإصلاح بين الناس إذا حلفتم على ترك ذلك - وقيل: ألا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم فتكون هذه الإيمان حاجزا لما حلفتم عليه ومانعا منه، بل افعلوا ما حلفتم عليه وكفروا عن يمينكم.

قوله: (والله سميع عليم) الله جل جلاله يسمع ما يقوله العباد وما يدور على ألسنتهم من كلام كالأيمان وغيرها، وهو سبحانه عليم بما تخفيه صدروهم من نوايا ومكنونات ٢٨٨.

٢٢٥ - (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

وقوله: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) اللغو مصدر وفعله لغا يلغو، أي قال باطلا واللغو، اختلاط الكلام بما لا ينفع ٢٨٩.

واللغو من الأيمان ما يأتي خلال الكلام أو المحاورة أو الجدل كقوله: لا والله، بلى والله، وذلك دون قصد لليمين أو الحلف - وقد روي عن السيدة عائشة في هذا الصدد قالت: أيمان اللغو ما كانت في المرء والهزل والحديث الذي لا ينعقد عليه القلب.

وورد في البخاري عن السيدة عائشة أيضا قالت: نزل قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) في قول الرجل: لا والله، وبلى والله.

وأما الأيمان فهي جمع مفرده يمين وهي الحلف، وقد سمي الحلف يمينا، لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل واحد منهم يمينه على يمين صاحبه فسمي الحلف يمينا مجازا - والمعنى المراد من الآية أن الله جلت قدرته لا يعاقب الناس فيما يحلفون من أيمان لاغية لا ينعقد عليها قلب الحالف، وإنما ينطق بها لسانه على سبيل العادة لا القصد والتأكيد.

وقوله: (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) الله سبحانه وتعالى يعاقب الناس، ويلزمهم بما حلفوا من أيمان على أشياء وهو يعلمون أنهم كاذبون - فقوله: (كسبت) أي تعمدت، والمراد: الحلف على كذب وباطل أي يحلف الرجل على شيء وهو يعلم أنه كاذب - فذاك الذي يؤاخذ به.

وقوله: (والله غفور حليم) هذا التعقيب الكريم جاء مناسبا لعدم مؤاخذة الله للعباد على ما تنطق به ألسنتهم دائما من اللغو في الإيمان -

وهي أيمان لا تكاد تبرح الألسن؛ لكثرة ما تدور وتتردد في كل حين وفي كل مجال ومناسبة، في التعامل والتمازح والجد والسمر وغير ذلك من مجالات - ولو كانت هذه الأيمان تحتمل مؤاخذة لكان الأمر بالنسبة للحالفين عسيرا وخطيرا، لكن الله بواسع مغفرته وحلمه قد تجاوز للعباد عن تلك الأيمان.

٢٢٦ - (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربع أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) - يؤولن: يحلفون - المصدر للكلمة إيلاء وفعله آلى يؤلي، أي حلف يحلف، والإيلاء هو الحلف - وعادة الإيلاء كانت منتشرة لدى العرب، وهو أن يحلف الزوج ألا يجامع امرأته، يبتغي إغاظتها والإضرار بها، وربما طالت قطيعته لها تمتد إلى سنة أو أكثر - وذلك فيه من الإهانة للمرأة والإساءة لها والإضرار بها ما هو عظيم لا يطاق، لكن هذه الآية الكريمة قد وضعت حدا لتلك السفاهات والحماقات الظالمة مما أزاح عن كاهل المرأة عبئا من المهانة والإهمال والأذية - وذلك أن الزوج ليس له في ظل الإسلام مطلق الحرية في تكييف الإيلاء مثلما يسول له مزاجه المتعجرف أو هواه الجانف الغاضب، بل عليه أن يختار أحد أمرين: فإما أن يفيء إلى زوجته ويراجعها، وإما أن يطلقها لتمضي في سبيلها وذلك إذا بلغ الهجران لها أربعة أشهر في كلتا الحالتين - وتفصيل ذلك أن الرجل إذا حلف ألا يجامع امرأته مدة من الزمن وكانت هذه المدة دون أربعة أشهر فله أن ينتظر حتى تنقضي هذه المدة ليبر بيمينه ولا يحنث ثم يراجع امرأته بعدها وكأن شيئا لم يكن، أما إن كانت هذه المدة أكبر من أربعة أشهر فإن للزوجة حينئذ أن تطلب من الزوج بعد مرور أربعة أشهر أن يختار أحد اثنين: فإما أن يفيء إليها أي يراجعها ثم يؤدي إليها حقها من الجماع، وإما أن يطلقها فتمضي في سبيلها؛ كيلا تظل مقهورة معلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلقة - وللحاكم في مثل هذه الحال أن يتدخل ليقضي بالحق، ويلزم الزوج بما فرضته الشريعة على الرجل من أحد الخيارين وهما الفيئة والطلاق.

وعلى هذا يكون معنى الآية: للأزواج الذين يحلفون ألا يجامعوا زوجاتهم وكانت المدة المحلوف عليها تزيد عن أربعة أشهر، أن ينتظروا حتى انقضاء هذه المدة وعليهم بعدها أن يختاروا الفيئة (الرجوع والجماع) أو الطلاق - إلا إذا كانت المدة المحلوف عليها دون أربعة أشهر، فعليهم حينئذ أن ينتظروا حتى مرور هذه المدة.

٢٢٧ - (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وفي قوله: (وإن عزموا الطلاق) ما يدل على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر بل لا بد لوقوعه بعد مرور هذه المدة من تطليق يوقعه الرجل أو يوقعه عليه القاضي - وذلك الذي عليه فريق من العلماء.

وذهب آخرون إلى أنه بمجرد مرور أربعة أشهر تقع تطليقة واحدة رجعية - وقيل بل طلقة بائنة.

أما التعقيب الكريم على الآية الأولى (فإن الله غفور رحيم) أي يتجاوز عن إساءة الأزواج في تعجلهم بالإيلاء بما قد يؤذي الزوجة.

وأما التعقيب الكريم على الآية الكريمة الثانية (فإن الله سميع عليم) فهو مناسب للموقف وذلك بعد التربص والفيئة، ولم يبق إلا الطلاق، فإن الله جلت قدرته يسمع ما يلفظه الزوج من تطليق ويعلم ما يكنه في نفسه من نية، سواء في ذلك قصد الإضرار بالمرأة وعدمه - وفي هذا من التخويف والتحذير ما هو ظاهر للحس الرهيف اليقظ ٢٩٠.

٢٢٨ - (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم) - هذه الآية متعلقة بالطلاق والعدة - وقد جاء لفظ المطلقات عاما، لكن المقصود به الخصوص، وذلك في المطلقات المدخول بهن وليس المطلقات جميعا - وبذلك تخرج من المراد بالآية المطلقة قبل الدخول؛ لقوله تعالى في آية أخرى: (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها)

وكذلك تخرج المطلقة الحامل فإن عدتها بحسب مدة الحمل وتنتهي بالوضع؛ لقوله تعالى: (أولئك الأحمال أجلهن يضعن حملهن) فالمعنى أن المطلقات المدخول بهن يجب عليهن أن (يتربصن) أي ينتظرن بعد طلاقهن مدة قروء ثلاثة؛ وذلك لتمام عدتهن - حتى إذا تمت هذه العدة كان لهن أن يتزوجن من رجال آخرين إن أردن.

أما القروء فهي جمع قلة ومفرده قرء وهو من حيث المفهوم اللغوي يطلق على الطهر والحيض؛ لأن القرء في اللغة يعني الجمع، فهو إذا أطلق على الطهر كان المقصود به اجتماع الدم في الجسد لا في الرحم - وإذا أطلق على الحيض كان المقصود به اجتماع الدم في الجسد لا في الرحم - وإذا أطلق على الحيض كان المقصود به اجتماع الدم في الحيض ٢٩١ - واختلف الفقهاء في المراد بالقرء - فقد ذهب أبو حنيفة وابن حنبل إلى أنه الحيض، وهو قول كثير من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وابن عباس وآخرون.

وذهب مالك والشافعي وداود الظاهري وأحمد في إحدى الروايتين عنه أنه الطهر - وهو قول السيدة عائشة وابن عباس وزيد بن ثابت وآخرين غيرهم ٢٩٢.

وقوله: (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول به للفعل (يكتمن) - والمقصود باسم الموصول، وهو الذي لا ينبغي كتمانه، موضع خلاف العلماء - فقد قيل: إنه الحيض، وقيل: بل هو الحمل، وثمة رأي ثالث بأنه الحيض والحمل معا - والراجح عندي أن الكتمان يقع على كل من الحيض أو الحمل، ولا يشترط أن يكونا معا، فربما تكتم المطلقة حيضتها زاعمة أنها لم تحض وذلك رغبة منها في تطويل العدة لحاجة في نفسها، أو تزعم أنها حاضت وهي في الحقيقة لم تحض وذلك استعجالا منها في انقضاء العدة.

وقيل المقصود بالمكتوم الحمل لتقطع صلته بأبيه الحقيقي، فقد ذكر أنه كانت عادة بعض النساء في الجاهلية كتمان ما في أرحامهن من حمل؛ وذلك من أجل أن يلحقن الولد بالزوج الجديد - وفي هذا نزلت الآية ٢٩٣.

قوله: (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) ذلك تهديد وتخويف من الله- عز وجل- للنساء المطلقات واللواتي يمضين في الاعتداد، فإن عليهن أن يكشفن في صدق ووضوح عن حقيقة ما في أرحامهن من حيض أو حمل، ولا يبغي أن يفهم من الشرطة المخالفة ليقال: إن كانت المطلقات يؤمن بالله واليوم الآخر فليس لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، وبناء على هذا فإن انعدم الشرط انعدم معه الوجوب بعد الكتمان، فإن كانت المطلقات لا يؤمن بالله واليوم الآخر فلا جناح عليهن في الكتمان، وذلك فهم فاسد، بل المقصود هو الإخبار أن كتمان ما في الرحم لهو عمل محرم وشنيع، بل إنه ليس من فعل أهل الإيمان.

قوله: (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك) البعولة جمع مفرده، البعل وهو الزوج، والفعل بعل يبعل أي تزوج يتزوج، وباعل مباعلة إذا باشر زوجته ٢٩٤ - والمعنى للآية أن الأزواج أحق بالزوجات المطلقات أن يراجعوهن وذلك أثناء العدة في الطلاق الرجعي، أما إذا انتهت عدتهن فإنهن أحق بأنفسهن من الأزواج المطلقين، ولهن في هذه الحال الخيار أن يرجعن لأزواجهن بعد عقد ومهر جديدين أو يمتنعن من ذلك - وإذا أراد الزوج إرجاع المطلقة قبل انتهاء العدة فله ذلك، بل هو أحق بها دون حاجة لعقد أو مهر، وليس عليه شيء إلا الإشهاد على الرجعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: (وأشهدوا ذوي عدل منكم).

أما كيفية الإرجاع أو صفته التي يكون فيها الزوج مراجعا في العدة فقد ذهب الإمام الشافعي إلى أنه لا يكون مراجعا على الوجه الصحيح المشروع إلا بالقول، وهو أن يقول لها: راجعتك - مع الإشهاد على ذلك، ولا تتم الرجعة عنده بطريقة أخرى غير القول - وقال الإمام مالك: إذا وطئ الرجل زوجته المطلقة أثناء العدة فقد راجعها، وعليه أن يُشهد على الرجعة قبل الوطء، ويكن كذلك مراجعا إذا قبّل أو باشر وهو ينوي الرجعة - وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن وطئها أو لمسها بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة، كان ذلك رجعة، وعليه أن يُشهد على ذلك ٢٩٥.

وقوله: (إن أرادوا إصلاحا) الزوج أحق برد زوجته المطلقة قبل انتهاء عدتها، على أن يكون قصده في ذلك الإصلاح، وهو أن يصلح شأنه معها بعد ردها، وأن يكون جادا في نشر أسباب التفاهم والود والعيش الكريم في البيت؛ لكنه إن كان يخفي في نفسه النية

بالإضرار واحتباسها في أسر النكاح المنكود فذلك حرام - وفي ذلك يقول سبحانه في آية أخرى: (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا).
وقوله: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) هذه قاعدة في العدل يقوم على أساسها التعامل بين الزوجين في البيت، فلا حيف ولا ضير ولا محاباة، بل لكل واحد منهما من الحق ما يكافئ الواجب الذي عليه.
وعلى هذا الأساس يقوم التعامل المتعادل الموزون بين الزوجين - وذلك في ضوء الآية الكريمة (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) أي للنساء من الحقوق على الرجال مثل ما للرجال عليهن من الحقوق، على أن يكون ذلك كله في إطار من الحسنى والخلق الودود الحاني؛ لقوله تعالى: (بالمعروف) فما من تعامل بينهما أو تفاهم أو تخاطب أو أمر أو نهي إلا وينبغي أن يكون (بالمعروف) أي بالرفق والود والرحمة والحسنى.
وفي الكشف عن مقاصد هذه الآية يقول الصحابي العظيم ابن عباس: إني لأتزين لا مرأتي كما تتزين لي، وما أحب أن أستنظف كل حقي الذي لي عليها فتستوجب حقها الذي لها عليّ؛ لأن الله تعالى قال: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف).
وقال الإمام الطبري في تفسير الآية: إن لهن على أزواجهن ترك مضارتهن كما كان ذلك عليهن لأزواجهن ٢٩٦.
وقوله: (وللرجال عليهن درجة) الدرجة هي الرتبة والمنزلة، لكن ما المقصود بهذه الدرجة المعطاة للرجال ليفوقوا بها النساء؟ فقد قيل: هي إنها خلقت من الرجل، وذلك أن الله جلت قدرته خلق أبا البشر آدم ثم خلق منه زوجه فهو بذلك أصلها - وقيل: الدرجة الميراث، فنصيبه في الميراث أكبر من نصيبها - وقيل الدرجة بمعنى الطاعة، فهي منوط بها أن تطيع زوجها؛ لكونه مسؤولا عنها - وقيل: الدرجة هي المهر الذي يلتزم الرجل بأدائه للمرأة.
على أن نطمئن إليه في المراد بالدرجة أنها القوامة أو المسؤولية التي أعطيها الرجل ليكون قواما على المرأة، فقد شرع الله للرجل أن يكون مسؤولا عن زوجته والأسرة ولا عكس، وذلك تبعا لطبيعة تكوينه البدني والنفسي - فهو أقوى منها جسدا وأشد بأسا وأثبت نفسا وجأشا، وأعظم ما يكون الرجل في سعة أفقه وتفكيره ورجحان عقله ومداركه ليكون بذلك كله مهيئا للاضطلاع بعبء القوامة (المسؤولية) - وهو ما نميل إليه في هذه المسألة مستدلين بقوله سبحانه وتعالى في آية أخرى (الرجال قوامون على النساء) ومنه القوامة أو المسؤولية.
وقوله: (والله عزيز حكيم) الله قوي، وهو منتقم ممن خالف عن أمره واستنكف عما شرع - وهو سبحانه حكيم في كل ما يبسطه على عباده من شرائع تقرر لهم السعادة في الدنيا، ثم النجاة في الآخر.
٢٢٩ - (الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)
قوله تعالى: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون).
كان الطلاق في الجاهلية وفي ابتداء الإسلام غير محصور في عدد الطلقات، بل كان الرجل يطلّق ما شاء ولو مائة مرة ثم يراجع زوجته في العدة لتظل بذلك كالمعلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلقة، وهو لا يبغي من ذلك إلا إغاظتها والإضرار بها - إلى أن نزلت هذه الآية فقيدت الطلاق بثلاث مرا، الثنتين الأوليين منها يحق للرجل مراجعة زوجته فيهما قبل انتهاء العدة في كل مرة - فإذا وقعت الثالثة باتت المرأة مبتوتة لا يحق له مراجعتها إلا بعد نكاح جديد من زوج جديد - وقد روي عن السيدة عائشة – رضي الله عنها- قالت: لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة - وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس فقال: والله لأتركنك لا أيما ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها، ففعل ذلك مرارا، فأنزل الله تعالى فيه (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فجعل الطلاق ثلاثا لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجا غيره

٢٩٧.
قوله: (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) إمساك مبتدأ وخبره محذوف تقديره أفضل أو أحسن وتقديره: فإمساك بمعروف أفضل
٢٩٨ والإمساك في اللغة معناه التعلق والاعتصام، أو حبس النفس ومنعها من فعل الشيء - وهو في الاصطلاح الشرعي خلاف الطلاق - والتسريح معناه الإرسال ويراد به في الآية الطلاق.
ومعنى الآية أن الرجل إذا طلق زوجته مرة أو اثنتين فهو عندئذ مخيّر في إرجاعها إليه على أن ينوي الإحسان في معاملتها وعدم الإضرار بها وذلك أثناء اعتداد الزوجة من الطلقة، أو أن يتركها إلى أن تنتهي عدّتها فتكون بائنة، وذلك تسريح لها على أن يكون ذلك بإحسان من غير أن يوقع عليها حيفا أو إضرارا كأن ينتقصها حقا من حقوقها - وبذلك يكون الرجل قد خسر طلقتين اثنتين، وبقيت له واحدة ثالثة وهي الآخرة - أو هي بمثابة صمام الأمان للحياة الزوجية بالنسبة للزوجين، فإذا ما انزلق لسان الرجل أو تعثّر في النطق بالطلقة الثالثة فقد انفصمت عرى الحياة بين الاثنين تمام الانفصام، وما عاد يرتجى لهم بعد ذلك تلاق إلا أن تنكح المبتوتة زوجا ثالثا يطلقها فتبين ثم ينكحها الأول، وهيهات لذلك أن يتحقق!.
وقد ذكر عن ابن عباس قوله في هذا الصدد: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك، أي في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئا.
وفي تبيين الطلقة الثالثة في الآية سأل رجل النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله أرأيت قول الله (الطلاق مرتان) فأين الثالثة؟ قال: " التسريح بإحسان الثالثة " - وفي حديث آخر أن رجلا جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا رسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة؟ قال: " إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ".
قوله: (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) - لا يحل للزوج أن يضيّق على زوجته، وأن يسومها العسر والضجر لتفتدي منه بما أعطاها من صداق أو جهاز وغيره - وفي يقول سبحانه في آية أخرى: (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وبهذا فإن أخذ المال من الزوجة على سبيل القهر والاستضعاف أو الابتزاز وذلك بعد قهرها وإرهاقها والتضييق عليها فإنه حرام - ومن ناحية ثانية: فإنه لا يحل للمرأة أن تطلب من زوجها الطلاق أو الافتداء منه بغير عذر إلا البطر والجحود - لا تسأل المرأة زوجها شيئا من ذلك دون مبرر مقبول إلا أن تكون آثمة عاصية لربها - وفي هذا يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة ".
لكن الذي عليه السلف من هذه الأمة وأئمة الخلف فيها أن الخلُع لا يجوز إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فلم تتمكن من تأدية حقوق الزوج أو معاشرته لإبغاضها له أو أنها لا تطيقه - فإنه يجوز حينئذ للرجل أن يقبل الفدية منها ثم يفارقها - وذلك هو المراد في قوله تعالى: (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) فإذا علم كل واحد من الاثنين أنه سوف لا يقيم حق النكاح لصاحبه، فإنه لا حرج إذ ذاك على المرأة أن تفتدي نفسها بصداقها أو بعضه تقدمه لبعلها؛ كيما يسرّحها، وليس من حرج كذلك على الزوج أن يأخذ هذا المال منها مقابل تسريحها - وهذه هي المخالعة أو الخلع.
وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري عن ابن عباس أن امرأة ثابت ابن قيس أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكن لا أطيقه - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أتردين عليه حديقته " قالت: نعم - وروى الحديث أيضا ابن ماجه عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت: والله ما أعيب على ثابت في دين ولا خلق، ولكن أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضا - فقال لها النبي - صلى الله عليه وسلم -: " أتردين عليه حديقته " قالت: نعم، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد - والذي يقال: إنها كانت تبغضه بغضا شديدا، ولكنه كان يحبها أشد الحب ففرق النبي - صلى الله عليه وسلم - بينهما بطريق الخلع، فكان أول خلع في الإسلام - أما صفة الخلع، فإنه طلاق بائن عند جمهور العلماء - وهو قول أبي حنيفة ومالك والشافعي في الجديد - وقال به الثوري والأوزاعي - وهو مروي عن عثمان وعلي وابن مسعود وبعض التابعين - وقيل: إن الخلع فسخ وليس بطلاق إلا أن ينويه المخالع -

وهو قول ابن عباس وطاووس وعكرمة وإسحاق وأحمد، والشافعي في القديم ٢٩٩.
وقوله: (فإن خفتم ألا يقيما حدود الله) إن خفتم، أي علمتم - والمخاطب في هذه الجملة هم المسؤولون كالولاة أو القضاة - وجملة (ألا يقيما حدود الله) في محل نصب مفعول به - والمراد بحدود الله ما يجب على الزوجين من حسن الصحبة وطيب العشرة وكريم التعامل بينهما - وعدم مراعاة هذه الحدود يكون من جانب المرأة إذا كرهت زوجة وأبغضته بغضا شديدا لم تستطع معه من أداء حقه في الطاعة وما له عليها من حقوق - وإذا كان الأمر كذلك فقد جعل الإسلام لهما- والزوجة خاصة- سبيلا للفراق أو الخلاص من عيشهما المنكود وتلاقيهما المتنافر، وهو أن تفتدي المرأة منه بصداقها أو بعض صداقها - وفي هذا يقول سبحانه: (فلا جناح عليهما فيما افتدت به).
وقوله: (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) حدود الله هي شرائعه التي شرعها للناس - وهي هنا ما تضمنته الآية من بيان لكيفية الطلاق، وأنه مرتان يتلوهما فراق تام - ثم تشريع المخالعة بين الزوجين تدفع الزوجة بموجبها ما أخذته من صداق أو دونه لزوجها على أن يسرحها مادامت تبغضه بغضا شديدا ولا تطيق معه العيش لدمامته أو سوء منظره أو نحو ذلك.
ولا ينبغي لأحد أن يتجاوز هذه الحدود التي رسمها الله وهي شرائعه المبينة في الآية - وهي لا يتجاوزها إلا ظالم لنفسه فموبقها.
وشبيه بذلك ما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: " إن الله حد حدودا فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها ".
ولو جمع الطلقات الثلاث في كلمة واحدة فهو من البدع التي تأتي على خلاف ما شرعه الله للناس من أحكام - أو هو خلاف السنة الصحيحة التي بينها الكتاب وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو أن يكون الطلاق مرات ثلاثا، كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى بزمن معلوم تحدده العدة تبعا لطبيعة المرأة، فهي في ذوات المحيض ثلاث أقراء، أما في الصغار واليائسات من النساء وهن اللواتي لا يحملن فقدرها ثلاثة أشهر.
وذهب بعض أهل العلم وفيهم المالكية إلى أن جمع الطلقات الثلاث في كلمة واحدة حراما شرعا - ويعزز قولهم هذا ما رواه النسائي في سننه عن محمود بن لبيد قال: أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا، فقام غضبان ثم قال: " أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟ " حتى قام رجل فقال: يا رسول الله ألا أقتله؟.
وعلى أية حال فإن الطلاق بلفظ الثلاث في جلسة واحدة تبين معه المرأة بينونة كبرى فلا تحل لزوجها المطلق إلا بعد نكاحها من زوج ثان ثم تبين منه وتعتد - وقد ذهب إلى ذلك جمهور الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب - وخالفهم في ذلك بعض العلماء إذ قالوا: الطلاق ثلاث في كلمة واحدة يقع طلقة واحدة رجعية - وهو مذهب أهل الظاهر - وقال به ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وروي مثل ذلك عن بعض الصحابة ٣٠٠.
٢٣٠ - (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) إذا وقع الزوج في الطلقة الثالثة بانت منه المرأة بينونة كبرى فلا يحل له بعد ذلك أن ينكحها حتى ينكحها زوج ثان نكاحا صحيحا - والمقصود بذلك أن يكون النكاح مستتما لأوصاف العقد من أركان وشروط ليكون عقدا صحيحا - وأن يكون الوطء من الزوج الثاني مشروعا، فلا يصح وطء المرأة وهي محرمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء، أو يكون الزوج نفسه محرما أو صائما أو معتكفا، فإن هذا الوطء الحرام لا يحل المرأة للأول.
والمراد يكون النكاح الثاني وافيا هو أن تحصل المواقعة من الزوج الثاني للمطلقة ثلاثا، بحيث يقع الجمع ويذوق كل منهما عسيلة الآخر كما ورد في الحديث الشريف، أما مجرد العقد من الثاني عليها من غير وطء فإنها لا تحل بذلك للأول - فقد روي عن أبي هريرة – رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المرأة يطلقها زوجها ثلاثا فتتزوج غيره فيطلقها قبل أن يدخل بها فيريد

الأول أن يراجعها قال: " لا حتى يذوق الآخر عسيلتها " - وفي حديث من رواية البخاري عن السيدة عائشة أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا فطلقها قبل أن يمسّها، فسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أتحل للأول؟ فقال: " لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول " - وروى البخاري أيضا عن السيدة عائشة قال: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدية، وأخذت هدية من جلبابها وخالد بن سعيد ابن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما زاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن التبسم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك " والمراد بالعسيلة الجماع - فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ألا إن العسيلة الجماع ".

ونعرض في هذا الصدد مسألة هامة جديرة بالبيان وهي نكاح المحلل، وذلك من الأنكحة الفاسدة التي نهت عنها الشريعة، وتوعدت من يتورط فيها باللعن والتوبيخ على أنه تيس مستعار - وفي هذا أخرج ابن ماجه عن عقبة بن عامر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له ".

وذكر عن ابن عباس قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نكاح المحلل، قال: " لا، إلا نكاح رغبة، لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله، ثم يذوق عسيلتها " وذكر أيضا أن رجلا جاء إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول، فقال: لا نكاح إلا نكاح رغبة، كنّا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لعن الله المحلل والمحلل له ".

وروى البيهقي بإسناده، أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما - وروي مثل ذلك عن علي وابن عباس وغيرهما من الصحابة.

وروى عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما.

وقوله: (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) وتفصيل ذلك أنه إذا طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة، فاعتدّت، ثم تزوجها رجل ثان زواجا صحيحا تاما، ثم طلقها واعتدت عدتها المشروعة، جاز لها ولزوجها الأول أن يتراجعا فيما بينهما وهو أن يتناكحا بعقد جديد - وذلك إذا علم الزوجان أنهما سوف يتعاشران بالمعروف ويقيمان الحياة بينهما بالخير والصلاح وعلى هدى من تعاليم الله وشرعه؛ ولذلك قال سبحانه: (إن ظنا أن يقيما حدود الله) وللمستزيد من الأحكام في هذه المسائل أن يراجع ذلك في مظانه من كتب الفقه.

وقوله: (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) وحدود الله هي أحكامه وشرائعه المتعلقة بمسائل النكاح والطلاق وما يحقق للزوجين والأسرة حياة ملؤها الطمأنينة والرضى والود والتفاهم؛ كيلا يكون ثمة خلل أو تنافر أو مباغضات ما أمكن - وهذه الأحكام والشرائع يبينها الله لتكون مفسرة واضحة للعالمين خاصة، أما الجاهلون فلا شأن لهم في هذا التبيين؛ لأنهم لا يعونه ولا يستطيعون الوقوف عليه - وليس لهم من سبيل إلا أن يستمعوا للعالمين من الناس فيأخذوا عنهم العلم والأحكام؛ لذلك قال سبحانه عن حدوده: (يبينها لقوم يعلمون) - ٣٠١

٢٣١ - (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم) بلوغ الأجل للمطلقات معناه، أن يقتربن من نهاية العدّة، فليس المقصود من بلوغ الأجل الوصول إلى نهاية العدّة

نفسها، فإنه إذا انتهت العدّة لم يعد للرجل من حق في إمساك المرأة، بل إنها تبين بمجرد انتهاء عدّتها.
وعلى هذا فإن الرجال الذين يطلقون زوجاتهم يكونون بالخيار عند الاقتراب من نهاية العدّة فإن شاءوا وأمسكوا النساء المطلقات، أي راجعوهن وهم تحدوهم في ذلك النية في الإصلاح والعيش والودود، أو سرّحوهن، أي طلقوهن دون شقاق ومخاصمة ودون تضييق وأذى.
وقوله: (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) جاء في نزول هذه الآية عن فريق كبير من الصحابة أن الرجل كان يطلق المرأة حتى إذا اقتربت عدتها من الانتهاء راجعها، كيلا يتزوجها غيره، ثم يعاود طلاقها مرة ثانية فتعتد حتى إذا قاربت على انقضاء عدتها راجعها، وهكذا، وهو يبغي من ذلك إطالة مدة العدة للمرأة وجعلها معلقة دائما فلا هي زوجة ولا هي مطلقة، وذلك إضرار بالمرأة كبير وهو كذلك اعتداء ظالم يقع على المرأة من تصرف الرجل إذا لم يخش الله - ولا بفعل ذلك من الأزواج إلا من ظلم نفسه، وذلك بتعرض نفسه للعذاب لاعتدائه على حدود الله ومخالفته أوامره - وقوله: (ضرارا) مفعول لأجله أو حال منصوب - أي مضارين - وذلك أي يطلق ثم يراجع ثم يطلق ثم يراجع وهكذا - فهذا هو الإمساك ضرارا بقصد إلجائهن إلى الافتداء - وذلك ظلم يستوجب العقاب من الله.
قوله: (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) آيات الله أحكامه وشرائعه - وهي جدّ كلها وليس فيها هزل - ولا ينبغي لأحد أن يطوق نفسه بحكم من الأحكام ثم يزعم بعدها أنه هازل، فما أنزل الله دينه وشرعه للهزل أو اللعب، بل للتطبيق والعمل والالتزام وذلك في جد واهتمام.
قال عبادة بن الصامت في تبيين هذه الآية: كان الرجل على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول للرجل: زوّجتك ابنتي ثم يقول: كنت لاعبا، ويقول: قد أعتقت ويقول: كنت لاعبا، فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات عليه، الطلاق والعتاق والنكاح " - وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال " ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة " - وقال الصحابي الجليل أبو الدرداء: كان الرجل يطلق في الجاهلية ويقول: إنما طلقت وأنا لاعب، وكان يعتق وينكح ويقول: كنت لاعبا، فنزلت هذه الآية، فقال عليه السلام: " من طلق أو حرر أو أنكح فزعم أنه لا عب فهو جد " وجاء في موطأ الإمام مالك أن رجلا قال لابن عباس: إني طلقت امرأتي مائة مرة فماذا ترى عليّ؟ فقال ابن عباس: طلقت منط بثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا.
قوله: (واذكروا نعمة الله عليكم) وهي نعمة عظمة تتجلى في هذا الدين الحنيف الذي يغطي واقع البشرية كلها بكل ما تقتضيه العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي من رائع التصورات والنظم التي تحقق للإنسان أمنه وسعادته ليكون هانئا مطمئنا في هذه الحياة، وناجيا مفلحا في الدار الآخرة.
قوله: (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) ما اسم موصول في محل نصب معطوف على نعمة - أي اذكروا نعمة الله واذكروا ما أنزل عليكم - والكتاب هو القرآن، والحكمة يراد بها هنا السنة على الراجح.
فالله جلت قدرته يأمر الناس بذكر نعمته التي أنعمها عليهم وهي الإسلام، ثم أن يذكروا كتابه الحكيم فيقبلوا عليه بالوعي والتفهم والادّكار، وكذلك السنة النبوية باعتبارها المبيّنة المفسرة للقرآن، وهي الشارحة الموضحة له - وهو سبحانه وتعالى يعظ عباده أي يأمرهم بطاعته؛ لكي يلتزموا بما في هذين المصدرين وهما الكتاب والسنة من زاخر المعاني والمبادئ والأحكام، ثم يدعو الله عباده أن يتقوه، أي يخافوه ويخشوا عقابه، ثم ليتخذوا من الطاعات والقربات والابتعاد عن المعاصي ما يدرأ عنهم العذاب الموعود - فهو سبحانه عليم بأحوال الناس مطلع على أسرارهم وأستارهم - وفي هذا يقول سبحانه: (واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم).
٢٣٢ - (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان

منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون).
سبب نزل هذه الآية هو معقل بن يسار - فقد ذكر أنه زوّج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقه لم يراجعها حتى انقضت عدّتها فهويها وهويته ثم خطبها مع الخُطاب فقال، له: يا لكع ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع إليك أبدا، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله الآية - وعلى هذا إذا طلق الرحل زوجته فانقضت عدتها وبانت ثم تذكرها من بعد ذلك وحنّ إليها وأراد أن ينكحها من جديد فليس لأولياء المرأة المطلقة أن يعضلوها عن ذلك - والعضل معناه المنع أو الحبس - فإذا كان الزوجان المتفارقان قد مال كل منهما للأخر بإخلاص فتراضيا بينهما وأراد أن يعاودا العيش معا في حياة زوجية مستأنفة راضية فلا يحل لأحد أن يمنعهما من ذلك.
وقوله: (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) يراد بالإشارة العضل أي أن الأمر من الله بعدم منع المطلقات من الرجوع إلى أزواجهن بعد تراض منهم- يتعظ به ويستجيب له من الناس من كان ذا إيمان بالله، فيسارع إلى الاستجابة لأمره، والامتثال لما أوجب وشرع، ثم كان ذا إيمان باليوم الآخر فهو دائم الخوف من الله فيحسب للقائه في اليوم الموعود كل حساب.
وقوله: (ذلكم أزكى لكم وأطهر) اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ - والميم للجمع - (أزكى) خبر مرفوع بضمة مقدرة - وذلك أمر يدركه الحس المؤمن والضمير السليم - وهو أن إرجاع المطلقات إلى أزواجهن إذا تراضوا فيما بينهم بالمعروف وعدم عضلهن عن ذلك لهو أنقى وأطهر للنفس وأبعد عن مواطن الحيف الناشئ عن العضل المتعمد.
قوله: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وهي حقيقة ناصعة نصوع الشمس ينكرها غير جاحد جهول - إن الله عنده علم الأشياء جميعا فضلا عن علمه الأكمل بموطن الحق والصواب، لكن الناس لا يعلمون من حقائق الحياة وزاخر المعلومات فيها إلا قليلا، حتى إنهم إذا علموا فلا يجاوز علمهم حد التخمين والظن إلا أن يعلمهم الله - ومن جملة ذلك هنا أن الله أعلم بما في قلب المطلقة من حب لزوجها المطلق ومن معاودة الحنين إليه، وكذا الزوج، ربما عاود الحب قلبه من جديد بعد أن ذكرها عقب الطلاق والعدة فتجدد حبها في قلبه، فالخير الذي لا شك فيه أن يتراجعا بعد عقد وصداق بدلا من عضلهما من ذلك؛ لما يحتمله العضل من احتمالات التلاقي المريب غير المشروع، لذلك قال: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).
٢٣٣ - (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
قوله تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير) - الوالدات مبتدأ مرفوع، خبره الجملة الفعلية (يرضعن أولادهن) - وذلك تبيين من الله للناس عن الولد من حيث إرضاعه وحضانته والإنفاق عليه، كيلا يبيت عرضة للتضييع والتقصير خصوصا بعد طلاق أمه.
أما قوله: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) فهو عام في النساء الوالدات، سواء كن ذوات أزواج أو مطلقات فإنهن يرضعن أولادهن مدة عامين كاملين، وهي المدة الوافية المثلى للرضاع؛ ولذلك قال سبحانه: (لمن أراد أن يتم الرضاعة) فلا بأس بالرضاع دون حولين إن كان في ذلك ما يكفي للطفل ولم يلحق به الضرر - وقيل: الآية في المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن - والأظهر أن الآية في الزوجات في حال بقاء النكاح؛ لأنهن المستحقات للنفقة والكسوة، أرضعن أو لم يرضعن.
وثمة مسألة اختلفت فيها كلمة العلماء وهي: الإرضاع حق للوالدة أم هو حق عليها؟

فقد قيل: إن الإرضاع للمرأة ذات الزوج واجب استنادا إلى قوله تعالى: (يرضعن) أي ليرضعن فما دام الزوج قائما، ونفقتها يضطلع بها الرجل، فإنها ملزمة بإرضاع الولد - أما المطلقة طلاقا بائنا فلا تكلف بالإرضاع إلا في حالات نبينها في الفقرات اللاحقة - وقيل: إنه في حقهن مندوب وليس واجبا؛ لان قوله: (يرضعن) محتمل - ولو أراد التصريح بكونه واجبا عليها لقال: وعلى الوالدات - كقوله: (وعلى المولود له رزقهن).

وقيل إن الحكم في هذه المسألة مرتبط بالعرف الذي عليه النساء والذي يلتزمن بموجبه بإرضاع أولادهن، فقد صار العرف ههنا كالشرط - وفي القواعد الفقهية أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا.

أما إذا اشترطت المرأة لنفسها خلاف هذا العرف وهو أنها غير ملزمة بإرضاع الولد فلها ذلك - وعلى الأب حينئذ أن يهيئ لولده الرضاع.

ويستثنى من ذلك كله ما إذا رفض الولد الرضاعة من غير أمه، فإن أمه تكون بذلك ملزمة بإرضاعه إلزاما - ومثل ذلك إذا انعدمت المرضعات في البلد وليس من ترضعه إلا الأم، فعليها الرضاع بغير منودحة أو مناص.

وإذا مات الأب وليس من مال للصبي وجب إرضاعه عليها بخلاف النفقة، فإنها يلتزم بها الأولياء من بعد الأب - وقيل: إرضاعه في هذه الحال على بيت المال.

أما المرأة المطلقة طلاقا بائنا فلا رضاع عليها - وعلى الأب أن يهيئ لولده ذلك استئجارا، إلا أن ترغب أمه في إرضاعه بالأجرة، فإنها أحق بذلك باعتبارها أكثر حنوا عليه وإخلاصا - وتصبح البائنة ملزمة بالإرضاع إلزاما إذا أبى الولد الرضاع من غيرها أو لم يكن في البلد من ترضعه إلا هي - وتفصيل ذلك في كتب الفقه ٣٠٢.

ويرد في هذا المجال من الرضاع مسألة التحريم - فقد تبين من الآية أن كمال الرضاعة يكون في سنتين - وليس من اعتبار للرضاعة خارج هذه المدة، وذلك الذي عليه أكثر العلماء من السلف والخلف - فقد قالوا أنه لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين، فإذا رضع الولد وكانت سنة فوق عامين لم يقع تحريم بهذا الرضاع، وقد احتج العلماء لمذهبهم هذا بما روي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذه المسألة - فقد روى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يحرّم من الرضاع إلا ما كان في الحولين ".

وروى الترمذي عن السيدة أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعات في الثدي وكان قبل الفطام " - وعلى هذا فإن الإرضاع لا يحرم إلا في الصغر دون الحولين، ولو فطم الصبي دون حولين ثم أرضعته امرأة بعد فصاله فإنه تثبت به الحرمة عند جمهور العلماء خلافا للإمام مالك، فإن هذا الرضاع لا يحرم عنده؛ لأنه صار بمنزلة الطعام - والراجح قول الجمهور استنادا إلى عموم خبر ابن كعباس " لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين ".

قوله: (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) (المولود له) هو الأب - والجار والمجرور في محل رفع خبر مقدم - و (رزقهن) مبتدأ مؤخر - والضمير في محل جر مضاف إليه.

والمراد في الآية أن على الأب أن ينفق على الزوجة نفقة رزق وكساء - والمقصود بالرزق هنا الإطعام، على أن يكون ذلك كله بالمعروف، أي بما تعورف عليه وبما جرت عليه العادة في الإنفاق من غير أن يكون في ذلك أسراف ولا تقتير، وتبعا لحال الرجل من اليسار أو الإعسار، وذلك كقوله تعالى: (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها).

أما الوالدات فإن المراد بهن في الآية الزوجات - ودليل ذلك وجوب النفقة عليهن؛ إذ لو كنّ غير زوجات لما وجبت لهن النفقة - وقيل المراد بهن المطلقات اللواتي لهن أولاد من أزواجهن، فإن على الأب أن ينفق عليهن ما أرضعن الولد - وقيل: الآية عامة في المطلقات ذوات الأولاد، وفي الزوجات حال بقاء النكاح.

وقد استنبط العلماء من هذه الآية ما يدل على أن الحضانة حق للأم سواء في الغلام أو الجارية - وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والشافعي - إلا أنه (الشافعي) قال: إذا بلغ الولد ثمانية أعوام وهي سن التمييز فإنه حينئذ يخيّر بين أبويه - واحتج الشافعي لذلك بما رواه النسائي عن أبي هريرة أن امرأة جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت له: زوجي يريد أن يذهب بابني، فقال له النبي -

صلى الله عليه وسلم -: " هذا أبوك وهذه أمك، نخذ أيهما شئت " فأخذ بيد أمّه.
وفي تقديرنا أن تقييد الحضانة بثماني سنوات من عمر الطفل لا يعوّل عليه - وما احتج به الشافعي لذلك لا يدل على تحديد سن الحضانة بهذه المدّة.
والراجح عندي أن الحضانة حق للأم - وهو حق يمتد حتى سن البلوغ، سواء كان صبيا أو جارية - والدليل على ذلك ما رواه أبو داود بإسناده عن عبد الله بن عمرو أن امرأة جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -: " أنت أحق به ما لم تُنكح " فإذا نكحت فليس لها في حضانة ولدها - وهو ما خلاف فيه.
وقوله: (لا تكلف نفس إلا وسعها) (نفس) نائب فاعل مرفوع - (إلا) أداة استثناء كفّها النفي عن العمل - (وسعها) مفعول به ثان منصوب والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة - أي أن الأزواج ينبغي عليهم أن ينفقوا على الوالدات مما في مقدورهم وحسب طاقتهم من غير أن يرهقوا في ذلك عسرا ٣٠٣.
وقوله: (لا تضار والده بولدها ولا مولود له بولده) أي ليس للأم أن تأبى إرضاع ولدها على سبيل الإضرار والنكاية بأبيه - وعلى أية حال فإن عليها إرضاعه اللّبأ وهو اللبن الذي يدّره الثدي في الأيام الأولى من ولادة الطفل وليس له عنه غنى، وكذلك فإنه ليس للوالد أن يصدّ الأم عن إرضاع ابنها مادامت ترغب في ذلك، وذلك على سبيل الإغاظة المقصود لها.
وقيل في معنى آخر قريب مما بينا وهو أن الأم لا يحل لها أن تدفع عنها الطفل إلى أبيه قاصدة بذلك إضراره بإرهاقه وإشغاله بتربيته وتدبير شؤونه، ولا يحل للأب.
كذلك أن ينتزع منها الولد لمجرد الإضرار بها والإساءة إليها، فإن في تصرف الوالدين على هذا النحو ما يسيء إليهما ويضر بهما إضرارا - وهو إضرار متعمد ومقصود، وقد كانا في غنى عن ذلك لو حبسا عن أنفسهما الغضب وتشبثا بالصبر والعفو وسعة الصدر.
قوله: (وعلى الوارث مثل ذلك) أي على وارث والد الطفل مثل ما على والد الطفل نفسه من وجوب الإنفاق على والدة الطفل وعدم الإضرار بها - وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء - وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض.
وقيل: المراد بالوارث هو وراث الصبي فيما لو مات - وهو يلزمه توفير الإرضاع للولد.
وقيل: المراد هم عصبة الأب فإن عليهم نفقة الصبي وذلك إذا توفي الأب نفسه.
وثمة أقوال مفصلة في هذه المسألة ندع للمستزيد فرصة الرجوع فيها إلى مواطنها من كتب الفقه.
قوله: (فإن أراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) الفصل معناه الفطام، والضمير في الفعل (أرادا) يعود على الوالدين - والتشاور هو أخذ المشورة للوقوف على الرأي المناسب النافع للطفل دون استبداد أحد الوالدين برأيه - فقد ذكرت الآية في مطلعها أن الرضاع بتمامه وكماله يكون في عامين كاملين، وما تجاوز ذلك فهو ضرب من العبث الذي لا يحرم النكاح، أما إذا اتفق الوالدان بعد تشاور منهما وتراض دون انفراد أحدهما برأيه على فطام الصبي قبل الحولين مادام ذلك نافعا له وفي مصلحته فهو جائز ولا بأس عليهما في ذلك.
قوله: (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) - المخاطب في الآية هم الوالدون والوالدات - والمعنى أنكم إذا أردتم لأولادكم الظئر لإرضاعهم، فلا بأس عليكم في تسليم الطفل واستلامه، إذ تسلّمه أمه لأبيه فيستلمه منها دون مغاضبة أو قصد لإضرار على أن يدفع لها أجرتها الماضية عن الإرضاع بالتي هي أحسن.
قوله: (واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير) يحذّر الله عباده من مخالفة شرعه مما أمر به أو عند زجر، وليعلموا دائما أن الله خبير بأعمالهم رقيب عليهم في أحوالهم وأقواهم وتصرفاتهم فلا يخفى عليه شيء من ذلك ٣٠٤.
٢٣٤ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في

أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) - التربص معناه الانتظار والتصبر عن النكاح مع عدم مبارحة بيت الزوجية ليلا.
والمعنى أن الأزواج الذين يموتون ولهم زوجات على قيد الحياة فإن عليهن أن يعتددن مدة أربعة أشهر وعشرة أيام - حتى إذا تمت عدتهن هذه أبيح لهن بعد ذلك أن يتزين للنكاح إن أردن.
ويشمل هذا الحكم جميع الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن، فإن عليهن جميعا أن يعتددن المدة المبينة استنادا إلى عموم الآية الكريم التي لم تفرق بين مدخول بها وغير مدخول بها، فضلا عما ورد في ذلك من دليل السنة، فقد ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله! إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ قال: " لا " مرتين أو ثلاثا ثم قال: " إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة ".
أما المرأة المطلقة تكون حاملا فإن تمام عدتها بوضع حملها بغير خلاف، لقوله تعال: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن).
لكن الخلاف في الحامل المتوفى عنها زوجها - فكيف تتم عدتها؟ فثمة قولان في هذه المسألة:
أولهما: أن الحامل المتوفى عنها زوجها تتم عدتها بوضع حملها - وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء - واحتجوا لذلك بما ثبت في الصحيحين عن سبيعة الأسلمية أنها سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك- وهو أنها نفست بعد وفاة زوجها بليال- قالت: فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي - وكذلك يستدل لهذا القول بالآية الكريمة: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) فإن هذه الآية محمولة في عمومها على الحوامل المطلقات والحوامل المتوفى عنهن أزواجهن.
ثانيهما: أن تمام عدّتها إنما يتحدد بآخر الأجلين - وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس، وهما في ذلك يبغيان الجمع بين قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) وقوله تعالى: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) فإذا مكثت المرأة حتى أقصى الأجلين تكون قد عملت بمقتضى الآيتين - أما إن اعتدّت بوضع الحمل فذلك يعني أنها تركت العمل بآية عدة الوفاة - ومعلوم أن الجمع بين النصوص المتعارضة أولى من الترجيح بينها.
ذلك الذي ذهب إليه علي وابن عباس، لكنه معارض بقول الجمهور وما استندوا إليه من دليل، وهو الذي نعتبره راجحا والله أعلم.
ويستفاد من قوله تعالى: (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها - فقد ثبت في الصحيحين أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ عل ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا " على أن المراد بالإحداد ترك الزينة مثل الطيب والاكتحال ولبس المعصفر أو المصبوغ من الثياب الذي يلبس للزينة - ولا بأس في المصبوغ بالأسود، لأنه لباس الحزن إلا أن يكون زينة قوم فتجتنبه، لما فيه من ترغيب فيها للخاطبين، فإذا انقضت مدة الإحداد جاز لها أن تتزين بكل مظاهر الزينة في حدود الشرع مادمت راغبة في النكاح، وذلك هو المعروف الوارد في الآية ٣٠٥.
٢٣٥ - (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلا مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
قوله تعالى: (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلوا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم)
يخاطب الله في هذه الآية الرجال الذين يبتغون الزواج من النساء في حال عدّتهن من وفاة أزواجهن، فإذا رغب الرجل في نكاح المتوفى عنها زوجها أثناء عدّتها فإنه لا إثم عليه في ذلك إذا ما كان خطابه لها تعريضا لا تصريحا، والتعريض ضد التصريح، وهو أن يحتمل الخطاب أكثر من معنى، وذلك كالنكاح وغيره - وهو من العرض، وعرض الشيء جانبه لا وسطه، والمعرّض حين الخطاب

إنما يحوم حول المقصود حوما من غير أن يخوض في صميمه - وبعبارة أخرى فإن التعريض يراد به التلميح لا التصريح ٣٠٦ ذلك إذا ما أراد الرجل أن يخطب المتوفى عنها زوجها أو المطلقة المبتوتة أثناء العدة لكل منهما - والتعريض بخطبة النساء أن يقول الرجل للمرأة على سبيل المثال: إني أبتغي الزواج من امرأة صالحة، أو: إنك امرأة صالحة، وددت أن يكتب الله لي واحدة مثلك، أو: إن لي حاجة في الزواج من الصالحات، أو: لا تسبقيني بنفسك، وغير ذلك من عبارات تحتمل أكثر من معنى، لكنها جميعا تأتي على سبيل التلميح بخطبة المرأة المتوفى عنها زوجها أو المبتوتة حال عدّتها، أما المطلقة طلاقا رجعيا فلا يجوز بحال أن يعرّض لها بخطبة؛ لأنها لم تبرح كنف الزوجية مادامت في عدّتها، وليس لأحد من الرجال أصلا أن يخاطبها بتلك العبارات باستثناء زوجها الذي يستطيع مراجعتها في كل آن.

قوله: (أو أكننتم في أنفسكم) (أكننتم) بمعنى أخفيتم، من الإكنان وهو الستر والإخفاء، والجملة معطوفة على نفي الحرج في التعريض بخطبة النساء - والمعنى أنه لا إثم عليكم ولا حرج فيما تخفونه في أنفسكم من الرغبة في خطبة المتوفى عنهن أزواجهن أو نكاحهن بعد انقضاء عدتهن.

وقوله: (علم الله أنكم ستذكرونهن) الله يعلم أنكم ستذكرون أولئك النساء وذلك بألسنتكم أو في نفوسكم، سواء كان الذكر لهن في السر أو العلن - ومن أجل ذلك قد أباح الله لكم مراودتهن في الخطبة تعريضا لا تصريحا.

ثم حذر الله من مواعدة النساء المعتدّات من وفاة أزواجهن سرا - ومواعدتهن بالسر تشمل كل كلام محرّم أثناء الاعتداد، وذلك كالمواعدة على الزنا، أو إلزامها بميثاق على ألا تتزوج غيره، أو أن يقول لها: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك.

ومثل هذه المواعدات حرام، إلا أن يكون القول معروفا وهو ما أبيح من التعريض وفي ذلك كله يقول سبحانه: (ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا) والاستثناء هنا منقطع - أي ليس لكم أن تخاطبوهن سرا لتنتزعوا منهن مواعدات محرّمة إلا أن تكون المخاطبة مباحة وهي الحديث إليهن تعريضا كما بينا.

قوله: (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) عقدة النكاح هي العقد بين الراغبين في التناكح والمؤلّف من ركنيه الإيجاب والقبول - ويراد بالكتاب العدّة - والمعنى أنه ليس لكم أن تعقدوا عقد النكاح على النساء المتوفى عنهن أزواجهن ولم تنقض عدّتهن بعد. وقد وقع الإجماع على أنه لا يصح العقد على المرأة حال عدّتها، بل إن ذلك حرام قد نهى عنه الشرع - وإذا تزوج الرجل المرأة في عدتها ولم يدخل بها وجب فسخ العقد، ثم يكون الرجل بعد ذلك خاطبا من الخطّاب إن شاء وقيل إن التحريم يقع مؤبدا مادام العقد قد وقع أثناء العدّة وإن لم يتم الدخول، أما إذا وقع الدخول بعد العقد وفي العدّة وجب الفسخ أولا، ثم تحرم المرأة على التأبيد وهو ما ذهب إليه الإمام مالك مستندا في ذلك إلى ما قاله عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: أيما امرأة نكحت في عدّتها، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فُرّق بينهما ثم اعتدت بقية عدّتها من زوجها الأول وكان خاطبا من الخطّاب، وإن كان دخل بها فُرّق بينهما ثم اعتدّت بقية عدّتها من زوجها الأول، ثم اعتدّت من الآخر، ثم لم ينكحها أبدا.

لكن جمهور العلماء ذهبوا إلى أنها لا تحرم على التأبيد، بل لمن دخل بها في عدّتها أن يخطبها بعد انقضاء عدّتها ٣٠٧.

قوله: (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) يحذّر الله عباده مما يكنونه في ضمائرهم من نوايا، فإن عليهم أن يخافوه، ويحذروا عذابه وبطشه، وأن يتجنبوا ما نهاهم عنه، وأن يمتثلوا لما بيّن للناس من حدود.

ثم إن الله لا يريد للعباد أن يعيشوا مع اليأس أو يقطعوا مع الله حبل الرجاء، بل عليهم أن يعلموا أن الله جلت قدرته (غفور حليم) فهو غفّار للذنوب يتجاوز عن المعاصي والخطايا، وهو كذلك حليم، يتجاوز عن السيّئات، ويشمل العباد بأفياء رحمته التي وسعت كل شيء ٣٠٨.

٢٣٦ - (لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا

بالمعروف حقا على المحسنين وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير).

تتضمن هذه الآية جملة أحكام فقهية تتعلق بالمطلقات وما لهن من حق الفريضة (المهر) والمتعة - ويتحدد ذلك كله في ضوء الحال التي عليها المرأة من الطلاق قبل المسيس أو بعده، ومن فرض المهر لها أو عدمه.

ويمكن القول إن المطلقات في هذا الشأن أربع:

الأولى: مطلقة مدخول بها ومفروض لها المهر، فهذه لها المهر كله بغير خلاف، وليس للزوج المطلق أن يسترد من مهرها المسمى شيئا حتى وإن كان الدخول لأدنى فترة من الزمن.

الثانية: مطلقة غير مفروض لها المهر، ولا مدخول بها، فإن لها المتعة وهي تعويض المرأة بشيء من المال تعطاه بحسب الحال من اليسار أو الإعسار الذي عليه الرجل.

الثالثة: مطلقة مفروض لها المهر، لكنها غير مدخول بها، فإن لها نصف ما سمّي لها من صداق - وذلك جاء قوله في الآية: (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم).

الرابعة: مطلقة مدخول بها لكنها غير مفروض لها المهر، فإن لها مهر مثلها كاملا؛ لقوله تعالى في آية أخرى: (فما استمتعم به منهن فآتوهن أجورهن) - حتى إن الأئمة الثلاثة أبا حنيفة ومالك ابن حنبل ذهبوا إلى وجوب الصداق لها كاملا بمجردة الخلوة وإن لم يقع مسيس (جماع).

وقوله: (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) أي لا حرج عليكم في طلاق نسائكم ما لم تمسوهن أي تجامعوهن - وما، هنا شرطية، أي إن لم تمسوهن أو تماسوهن، وقيل: مصدرية ظرفية، أي مدة عدم مسيسكم، وقيل: اسم موصول ومعناه اللواتي، فيكون المعنى: لا حرج ولا إثم عليكم إن طلّقتم النساء اللواتي لم تمسّوهن (تجامعوهن) ولم تسمّوا لهن صداقا، وعليكم في هذه الحالة أن تعطوهن متاعا أو متعة، وقد قدّرها بعضهم بالخادم يستأجره الرجل، وقيل: أدنى المتعة ما كانت ثلاثة أثواب وأوسطها ما كان خمارا وجلبابا وثوبا، وقيل غير ذلك - والمقصود بالمتعة أن يكون فيها التطيب لنفس المرأة المطلقة غير الممسوسة والتي لم يذكر لها صداق، وأن يكون فيها كذلك التعويض عما أصابها من صدمة الفراق بما تستعين به على العيش بحسب الوضع الذي عليه الرجل، وذلك هو المعنى لقوله تعالى: (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) والموسع هو ذو اليسار والسعة - وقدره أي وسعه - والمقتر هو المقلّ أو قليل المال - فكل منهما يؤتي المطلّقة غير المفروض لها الصداق وغير الممسوسة متاعا بحسب حاله من اليسار أو الإعسار كما ذكرنا آنفا.

أما المتعة من حيث الحكم الشرعي فهي موضع خلاف - فقد هب فريق من أهل العلم وفيهم عبد الله بن عمر، وعلي بن أبي طالب، وسعيد بن جبير، وغيرهم إلى أنها واجبة استنادا إلى ظاهر قوله تعالى: (ومتعوهن) وهو أمر يفيد الوجوب.

وذهب آخرون من العلماء إلى أن الأمر هنا للندب لا للوجوب استنادا إلى قوله: (حقا على المحسنين) ولم يقل على الجميع - والراجح عندي القول الأول؛ لما بينّا من استناد إلى مقتضى الأمر في الآية.

وأما المراد بالنساء في قوله: (ومتعوهن) فقد قيل: إنهن المطلّقات قبل الدخول وقبل فرض الصداق لها، فالمتعة لهن في هذه الحالة واجبة، أما في حق غيرهن فهي مندوبة - وهو ما ذهب إليه ابن عباس وابن عمر والحسن البصري والشافعي وأحمد والحنفية.

وذهب الإمام مالك وأصحابه إلى أن المتعة مندوب إليها في كل مطلقة سواء كانت مدخولا بها أو غير مدخول، باستثناء المطلقة غير الممسوسة والتي فرض لها الصداق، فإن لها نصفه ولا متعة لها، وأما المطلقة غير المدخول بها والتي لم يفرض لها صداق، فإنها لا شيء لها غير المتعة وهو ما أجمع عليه العلماء.

وقوله: (متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) (متاعا) مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف تقديره متّعوهن - والمعروف أي ما تعورف عليه وكان وسطا وهو الأمر يوافق ما عليه الشرع من دعوة للاقتصاد.

وقوله: (حقا) صفة للمفعول المطلق (متاعا) وهو ما استدل به العلماء على وجوب المتعة - تقول: حققت عليه الأمر أو أحققته أي

أوجبته عليه إيجابا.
وثمة مسألة - وهي إذا مات الرجل قبل أن يفرض لزوجته صداقا أو يدخل بها - فهي بذلك متوفى عنها زوجها دون مسيس أو مهر مسمّى - فقد ذهب العلماء من أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن هذه المرأة لها مهر المثل وعليها العدة ولها الميراث - وهو ما ذهب إليه أحمد وإسحاق والثوري - والدليل على ذلك عندهم ما ذكره الترمذي عن ابن مسعود: أنه سئل عن رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات - فقال ابن مسعود: لها مثل صداق نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بروع بنت واشق امرأة منا مثل الذي قضيت، ففرح بها ابن مسعود.
وذهب آخرون من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر إلى أنه إذا تزوج الرجل امرأة ولم يدخل بها ولم يفرض لها صداقا حتى مات، فإن لها الميراث وعليها العدّة ولا صداق لها - وهو ما ذهب إليه الشافعي أيضا، على أن مدار الاستدلال في هذه المسألة ينبغي أن يكون موقوفا على صحة خبر بروع وعلى تثبيته، فهو إن صح فلا مساغ عندئذ إلا الأخذ بالقياس كالذي ذهب إليه الآخرون.
٢٣٧ - (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
وقوله: (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) إذا وقع الطلاق على المرأة قبل المسيس وقد فرض لها الصداق من قبل، فإن لها نصفه - وذلك هو الحكم المأخوذ من هذه الآية وهو ما أجمع عليه العلماء - فالطلاق من قبل المسيس وبعد فرض الصداق يوجب لها النصف، خلافا لما يكون عليه الحكم بعد المسيس والفريضة؛ فإنها لها الصداق كله.
ويتبين من هذه الآية كذلك أن المطلقة المفروض لها الصداق لا يثبت لها شيء من متعة مادامت غير ممسوسة - وليس لها في هذه الحال غير النصف من الصداق المسمى؛ لأن المتعة إنما يختص بها من النساء المطلّقات من قبل المسيس ولم يفرض لهن فريضة كما بينّا في الآية السابقة.
ولكن فريقا آخر من العلماء قالوا: إن المتعة تجب لكل مطلّقة عموما استنادا لما سبق من آيات واردة في الأمر بالإمتاع على سبيل الوجوب.
وقوله: (إلا أن يعفون) وذلك استثناء منقطع؛ لأنه لا علاقة للعفو من الصداق بأخذه وليس أحدهما من جنس الآخر - و (يعفون) على وزن يَفْعُلْن أي يتركن والنون نون النسوة - والمعنى للآية أن المطلقة قبل المسيس والتي فرض لها الصداق تستحق من هذا الصداق نصفه على سبيل الوجوب لها إلا أن تعفو عن هذا الحق (النصف) أي تتركه للزوج تسامحا وكرما وعن طيب نفس.
وقوله: (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) (يعفوا) مضارع منصوب معطوف على يعفو الأولى - والذي بيده عقدة النكاح موضع خلاف، لكن الراجح أنه يراد به الزوج فهو الذي يملك أن يعقد النكاح وأن يهدمه، ويستدل على ذلك بما رواه الدارقطني مرفوعا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " وليّ عقدة النكاح الزوج " وروى الدارقطني أيضا عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة بني نصر، فطلقها قبل أن يدخل بها، فأرسل إليها الصداق كاملا وقال: أنا أحق بالعفو منها - وتأول قوله تعالى: (أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح) يعني نفسه - وقد سأل علي بن أبي طالب شريحا عن الذي بيده عقدة النكاح فقال: هو ولي المرأة - فقال عليّ: لا، بل هو الزوج - وذلك الذي عليه كثير من أهل العلم من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب - وقيل خلافا لذلك: إن الذي بيده عقدة النكاح وليّ المرأة كأن يكون أباها أو جدها أو أخاها أو من يكون إذنه ضروريا لنكاحها - وهو ما ذهب إليه فريق من العلماء منهم مالك، والشافعي في أحد قوليه، وذلك قول مرجوح، فإن الراجح أنه الزوج " لما بينّا من دليل.
وجملة المقصود في هذا الشأن أن المطلقة غير الممسوسة لها نصف الصداق إن كان مفروضا لها من قبل؛ إلا أن تسخو فتتنازل عن حقها في هذا النصف للزوج وذلك من باب العفو والتسامح وكريم الخلق، أو أن يسخو الزوج فيتنازل عن حقه في النصف فيدفع لها المهر

كاملا، وهو أمر متعلق بسمو الطبع وكريم الخلق لكل منهما، وهو فيه الثناء على الكريم منهما ما يجعله من المتقين، ولا جرم أن يكون في مثل هذا التنازل ما يسوق المتنازل الكريم منهما إلى التقوى، وفي ذلك يقول سبحانه مبينا مناشدا: (وأن تعفوا أقرب للتقوى).
وقوله: (ولا تنسوا الفضل بينكم) (الفضل) هو تواضع كل منهما وتنازله بسخاء عن شطر المهر للآخر - فقد تسخو المطلقة غير المدخول بها فتتنازل عن شطر المهر الذي تستحقه للرجل، وذلك فضل منها - وقد يسخو الرجل ليتنازل في خلق وإحسان عن الشطر الآخر للمهر فيقدمه لها كاملا وذلك فضل منه - وبذلك يكون الاثنان قد تعاملا بخلق كريم وإحسان واضح فلا ينبغي لهما أن ينسيا هذا الفضل، بل عليهما أن يذكراه؛ ليظل مثل هذا التذكر سببا في استتباب الأخوة في الدين بينهما وألا يكون الفراق الذي حصل مثيرا للألم والكراهية بينهما - والله جلت قدرته مطّلع على حالهما، وكاشف لما يبيت في نفس كل منهما، فلا يخفى عليه شيء من ذلك ظاهرا كان أو مستورا؛ ولذلك قال: (إن الله بما تعملون بصير) ٣٠٩.
٢٣٨ - (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)
قوله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا آمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) ذلك خطاب من الله لعباده المؤمنين آمرا إياهم أن يحافظوا على الصلوات كلها، وذلك بإقامتها وأدائها تامة غير منقوصة، سواء في ذلك شروط الصلاة وأركانها من قيام وقراءة وركوع وسجود وقعود وخشوع.
أما الصلاة الوسطى فهي موضع خلاف العلماء سلفا وخلفا.
فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنها الصبح؛ وتوجيه هذا القول أن ما قبلها صلاتا ليل يُقرأ فيهما جهرا، وما بعدها صلاتا نهار يُقرأ فيهما سرا - وكذلك فإن وقت الصبح يأتي والناس نيام فيجد الناس في أداء الصلاة في هذا الوقت مشقة وجهدا؛ وذلك لشدة البرد في الشتاء وقصر الليل في الصيف.
وقيل: إنها الظهر؛ لأنها وسط النهار - وهو قول زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وعائشة- رضي الله عنهم أجمعين-
وقيل: إنها المغرب؛ لأنها متوسطة في عدد الركعات، فهي ليست بأقل الركعات ولا بأكثر ولا قصر لها في السفر وأنها قبلها صلاتا سر وبعدها صلاتا جهر.
وقيل: إنها صلاة العشاء الآخرة؛ لأنها تجيء في وقت من النوم يهجع فيه الناس، فأراد الله أن يؤكد على الاهتمام بها وعدم التفريط فيها.
وقيل: إنها العصر - وهو الذي مال إليه أكثر العلماء من صحابة وتابعين ومذاهب - فهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمر وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وحفصة وأم سلمة وابن عمر وابن عباس وإبراهيم النخعي وسعيد ابن جبير وابن سيرين والحسن البصري، وهو مذهب أحمد بن حنبل والشافعي وأبي حنيفة وبعض المالكية - وقد استدلوا لذلك بجملة نصوص من السنة منها ما أخرجه أصحاب السنن عن علي قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحزاب: " شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا " ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء.
وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن سمرة بن جندب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " صلاة الوسطى صلاة العصر ".
وروى ابن جرير الطبري بإسناده عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " الصلاة الوسطى صلاة العصر " وأحاديث أخرى من طرق متعددة وكثيرة يمكن الاحتجاج بها على أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر.
وقوله: (وقوموا لله قانتين) (قانتين) منصوب على الحال - والقنوت معناه الطاعة والخشوع والسكوت والقيام في الصلاة والإمساك عن الكلام ٣١٠ والدعاء إلى الله في ضراعة وتذلل - وعلى هذا فمقصود الآية أن يدعو الناس ربهم في خشوع وتذلل، وأن يكونوا له طائعين مستسلمين ولأمرع وشرعه ممتثلين منفذين، وقيل: إن المراد بالقنوت في الآية السكوت في الصلاة - واستدل القائلون بهذا الرأي بأن هذه الآية نزلت في المنع من الكلام في الصلاة، فقد كان الكلام في الصلاة في صدر الإسلام مباحا، فقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نسلم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في الصلاة فيرد علينا فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه،

فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا؟ فقال: " إن في الصلاة شغلا ".
وروي عن زيد بن أرقم قال: كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.
وجاء في صحيح مسلم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لمعاوية بن الحكم السلمي حسن تكلم في الصلاة: " إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وكر الله ".
والذي نرجحه أن تكون الآية شاملة لكل هذه المعاني، فالمسلم مدعو أن يكون قانتا لله بكل ما يتضمنه القنوت من معنى - وهو مدعو كذلك أن يلتزم بالسكوت في الصلاة - وأيما كلام في الصلاة يفسدها إن كان ذلك عمدا ولغير حاجة ملحّة أو ضرورية.
أما إن كان الكلام في الصلاة لحاجة ملحة كأن يكون ذلك لإحياء نفس توشك أن تهلك فإنه جائز، فمن قطع صلاته لمثل هذا السبب كالذي يقطعها لينبه ضريرا مارا في الطريق ومن أمامه بئر يوشك أن يقع فيها فإن عليه أن يبني على صلاته ولا يستأنفها - وقيل غير ذلك.
وإن كان الكلام في الصلاة سهوا فإنه لا يفسدها، وهو ما ذهب إليه المالكية والشافعية خلافا للحنفية الذين ذهبوا إلى أن الكلام في الصلاة سهوا يفسدها.
والراجح ما ذهب إليه المالكية والشافعية استنادا إلى قوله عليه الصلاة والسلام: " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ".
ويستفاد من الآية كذلك وجوب القيام في صلاة الفرض إن كان المصلي صحيحا قادرا سواء كان إماما أو منفردا - ي قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في ذلك: " إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلى قائما فصلوا قياما " - وتفصيل ذلك في مظانّه من كتب الفقه.
٢٣٩ - (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)
وقوله: (فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) ذلك بيان لحال الصلاة والمصلين في ساعات الخوف والفزع إذا همهم العدوّ أو كانوا معه في تلاحم وقتال.
والرجال جمع مفرده راجل أو رجل وهو الإنسان إذا عدم المركوب ومشى على قدميه - وعكس الرجال الركبان، وهو جمع مفرده الراكب، سواء كان المركوب من الخيل أو الإبل أو غير ذلك من المطايا أو ما كان من مستحدثات العصر كالسيارة أو الطيارة أو السفينة ونحو ذلك، والمراد أن الصلاة حين الخوف من العدو أو غيره لا مناص من أدائها ولا مجال للاعتذار عنها مهما تكن الظروف ومهما اشتدت الخطوب أو ادلهمّت - فإذا كان المسلم في ساعات الخوف، والتحم مع العدو التحاما جاز له أن يصلي ماشيا على قدميه أو راكبا، مستقبل القبلة أو مستدبرها - فقد كان عبد الله بن عمر إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم أو ركبانا، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، وهو ما رواه البخاري وفي رواية أخرى لمسلم عنه: فإن كان خوف أشد من ذلك فصل راكبا أو قائما تومئ إيماء.
وجاء عن عبد الله بن عباس قال في هذه الآية: يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه.
وجاء عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه فذلك قوله: (فرجالا أو ركبانا).
وقال الأوزاعي في ذلك كلاما جيدا وهو: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا.
على أن سبب الخوف الذي رخّص فيه للمسلم أن يصلّي راجلا أو راكبا مستقبل القبلة أو مستدبرها، فموضع خلاف للعلماء، فقد ذهب الشافعي إلى أنه الخوف الذي سببه العدو - فإذا أطل العدو على المسلمين حتى تراؤوا فيما بينهم، أو جاءهم من يخبرهم بأن العدو قريب منهم وكان المخبر مصدوقا وموثوقا به جاز لهم أن يصلوا صلاة الخوف التي تضمنتها هذه الآية.
وذهب أكثر أهل العلم إلى أن سبب الخوف يستوي فيه أن يكون عدوا أو حيوانا مخوفا يريد أن يفترسه، أو سارقا أو متلصصا يريد

سلبه وقتله - فإن ذلك كله يبيح للخائف أن يصلي صلاة الخوف المذكورة، وهو الذي نرجحه ونميل إليه استنادا إلى الظاهر من مطلق الآية التي لم تتقيد بسبب من أسباب الخوف.

وقوله: (فإذا آمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) أي إذا زال الخوف واطمأننتم وجب عليكم أن تذكروا الله بأداء الصلاة على وجهها الأكمل بما فيها من قيام وركوع وسجود وقعود وخشوع، وعليكم كذلك أن تبادروا بالشكر لله الذي هداكم لدينه، وعلمكم من الأحكام ما لم تكونوا تعلمونه من قبل، وشرع لكم من التيسير والتسهيل ما يدرأ عنكم كل حرج ٣١١.

٢٤٠ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) هذه الآية باتت منسوخة - فقد نسختها الآية قبلها وهي: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) أما الآية المنسوخة فتأويلها أن المتوفى عنها زوجها كانت تقيم في بيت المتوفى عنها مدة حول كامل، وينفق عليها من ماله وذلك على سبيل الوصية الملزمة من الله ما لم تخرج من البيت، فإن هي خرجت بات الورثة في حِلّ من الإنفاق عليها، لكن مدة الحول هذه قد نسخت بالأربعة أشهر والعشرة أيام - وقال القاضي عياض في هذا الصدد: إن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشر.

ويعزز هذا التأويل ما ورد عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله: " إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة عند رأي الحول ".

وقوله: (وصية) منصوب على تقدير فعل محذوف، أي فليوصوا وصية، أو وألزم الذين يتوفون وصية - وقرئت بالرفع على أنها مبتدأ لخبر محذوف - أي عليهم وصية - وقيل: الخبر لأزواجهم وقوله: (متاعا) منصوب بوصية، أو بفعل محذوف - أي متعوهن متاعا - وقيل: منصوب على الحال.

وقوله: (غير إخراج) أي ليس لأولياء الميت أن يخرجوها من البيت خلا الحول - و (غير) منصوب على الحال، أي متعوهن غير مخرجات - وقيل منصوب؛ لكونه صفة للمتاع.

لكن النساء المتوفى عنهن أزواجهن، إذا خرجن من البيوت خلال الحول- سواء أوّله أو وسطه- فإنه لا إثم على الأولياء من هذا الخروج، وكذلك فإنه لا إثم عليهم إذا قطعوا عنهن النفقة للخروج؛ ذلك أن الأولياء كانوا مكلفين بإسكانهن والإنفاق عليهن ما لم يخرجن - وفي ذلك جاءت الآية (فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف) أي لا حرج ولا جناح على الأولياء في خروج النساء من البيوت أثناء الحول أو رغبن في النكاح بعد انقضاء عدتهن بالحول، وهو الذي يوافق الشرع - وذلك هو المقصود بقوله: (في ما فعلن في أنفسهن من معروف).

قوله: (والله عزيز حكيم) ذلك تهديد من الله وإخبار، فهو سبحانه يتوعد الذين يخالفون عن أمره بإخراج النساء المتوفى عنهن الأزواج من البيوت وقطع النفقة عنهن، وهو سبحانه حكيم فيما بيّن للعباد من شرائع وحدود وأحكام.

٢٤١ - (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

وقوله: (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) للمطلقات جار ومجرور في محل رفع خبر - متاع مبتدأ مرفوع مؤخر - (حقا) مفعول مطلق منصوب للفعل حق يحق - أي أن المطلقات لهن حق المتاع الذي تحدثنا عنه سابقا على أن يكون ذلك بالمعروف، وهو ما كان مجانبا لكل من التبذير والتقتير وكان مناسبا لحال الرجل من حيث إعساره أو يساره.

ثم إن الله يستنهض في المؤمنين المتقين همتهم النشطة في البذل والعطاء؛ وذلك من أجل أن يسخوا كرماء، فيقدموا للمطلقات متاعا؛ لذلك قال: (حقا على المتقين).

على أن العلماء في قضية الإمتاع فريقان - فثمة فريق منهم ذهبوا إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مدخولا بها أو غير مدخل، مفروضا لها الصداق أو غير مفروض، وذلك استناد إلى العموم في هذه الآية - وهو ما ذهب إليه الشافعي في أحد قوليه.
وذهب آخرون- وهو الراجح- إلى أن هذه الآية تفيد العموم؛ لكنها خصصها قوله تعالى في الآية السابقة: (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) ويفهم من هذه الآية أن المتعة لا تكون إلا للمطلقات قبل المسيس ولم يفرض لهن صداق، وهو تخصيص للعموم الوارد في الآية التي نحن بصدد تفسيرها.
٢٤٢ - (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)
قوله: (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) يفصل الله آياته للناس مبينا فيها بوضوح أحكامه من الحلال والحرام والفروض والحدود، وذلك من أجل أن يتدبر الناس أحكام هذا الدين ويقفوا عند حدوده من غير تفريط أو تقصير أو مجاوزة ٣١٢.
٢٤٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)
قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) - قيل نزلت هذه الآية في قوم بني إسرائيل استوخموا قريتهم لما أصابهم فيها من الوباء، وقيل الطاعون، فخرجوا منها فرارا من الموت هاربين إلى البريّة - لكنهم كتب الله عليهم أن يموتوا بعد خروجهم؛ ليعلموا أن وعد الله بالموت حق، وأن الحذر لا يغني من القدر، وأن الآجال والأعمار محدودة فهي لا تنقص ولا تزيد - ولا نستطيع الوقوف في يقين على عدد هؤلاء الهاربين من الموت فقد قيل: إنهم كانوا أربعة آلاف، وقيل: كانوا ثمانية، وقيل: إن عددهم جاوز العشرة آلاف، وذلك من قوله: (وهم ألوف) والواو تفيد الحال والجملة الإسمية بعدها في محل نصب حال - و (حذر) مفعول لأجله منصوب، (الموت) مضاف إليه.
وفي كل ما يبينه الله للناس من الأدلة الواضحة والبراهين المكشوفة، وما أنزله في الكتاب من الدلائل والأمثال والمواقف والبينات، فإنه يجلّي فضل الله على العباد - وكان عليهم أن يذكروا ذلك وأن يشكروا لله ما تفضل به وأنعم (ولكن أكثر الناس لا يشكرون).
٢٤٤ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
وقوله: (وقاتلوا في سبيل الله) الخطاب موجّه لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فقد كلف الله المسلمين من هذه الأمة بفريضة الجهاد، وأمرهم ألا يترددوا أو يجبنوا أو يتوانوا، فإن شيئا من ذلك لا يدفع عن النفس الموت، ولا يؤخر عنها الأجل الموعود - وفي ذلك يقول الله في آية أخرى: (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) - وعلى المؤمن الواثق المستيقن أن يعلم أن الأجل محدود، وأنه لا يغني حذر من قدر - ومن أعظم ما يذكر في هذا الصدد ما ورد عن فارس الفرسان وأشجع الشجعان سيف الله المسلول خالد بن الوليد- رضي الله عنه- لما حضرته الوفاة قال وهو على فراش الموت قولته المشهورة: لقد شهدت كذا وكذا موقفا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو ضربة أو طعنة، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.
قوله: (واعلموا أن الله سميع عليم) فلا تتذرعوا عن القتال بأية ذريعة فإن الله سامع ما تصطنعونه من احتجاج واهٍ أو ذريعة مزعومة، وهو سبحانه عليم بما تخفيه صدوركم من جنوح عن فريضة الجهاد، ومن رغبة للقعود عنها.
٢٤٥ - (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
قوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) المراد بالقرض هنا الإنفاق في سبيل الله، سواء في ذلك الإنفاق من أجل الحرب وما تقتضيه من بذل للموال في سخاء، أو الإنفاق على الأهل والعيال وذوي القربى، أو غيرهم من المعوزين

والمحاويج على أن يكون ذلك (حسنا) أي محتسبا طيبة بها نفسه.
ومن طريف ما ذكر في هذا الصدد أنه لما أنزلت هذه الآية قال أبو الدحداح: يا رسول الله أو إن الله تعالى يريد منا القرض؟ قال: " نعم يا أبا الدحداح " قال: أرني يدك، فناوله، قال: فإني أقرضت الله حائطا فيه سمائة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط (البستان) وأم الدحداح فيه وعياله فناداها: يا أم الدحداح - قالت: لبيك قال: اخرجي قد أقرضت ربي- عز وجل- حائطا فيه سمائة نخلة - ومن رواية لزيد قال: قالت أم الدحداح: ربح البيع! بارك الله فيما اشتريت - ثم أجابته أم الدحداح وأنشأت تقول:
بشَّرك اللهُ بخيْر وفَرَحْ
--مِثْلك أدَّى ما عليه ونَصَحْ
قد متَّع اللهُ عيالي ومنَحْ
-- بالعَجْوةِ السَّوْداءِ والزَّهْوِ البَلَحْ
والعبدُ يسعى وله ما قد كَدَحْ
--طولَ الليالي وعليهما اجْتَرَحْ
ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " كم من عِذق رَادَاح ودار فَياح لأبي الدحداح " ٣١٣.
وقوله: (فيضاعفه له أضعافا كثيرة) بعد أن استنهض الله في المؤمنين همتهم ونخوتهم من أجل الإنفاق، وسمى ذلك إقراضا منهم له؛ وذلك على سبيل التأثير في نفوسهم وبعض الشهامة فيهم وإثارة الحس فيهم والوجدان، بعد ذلك كله يبين الله للمؤمنين المقرضين أن لهم من الأجر أضعافا كثيرة قد تصل إلى سبعمائة ضعف - وفي مثل هذا يقول عز من قائل في آية أخرى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبات أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء).
وجاء في الخبر " النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف وأكثر ".
قوله: (والله يقبض ويبسط) أي يمسك الرزق عمن يشاء من عباده ويؤتيه من يشاء فهو سبحانه المالك الرازق - وهذه حقيقة يجدر بالمؤمن أن يعيها ويستيقنها قلبه لكي يبادر بالإنفاق ساخيا، فلا يتردد ولا يخشى من ذي العرض إقلالا - وليعلم المؤمن كذلك أن ما أنفقه من خير لهو باق له في رصيد حسناته يجده مسطورا أمامه يوم القيامة؛ ولذلك قال (وإليه ترجعون).
٢٤٦ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
وقوله: (ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين).
(الملأ) اسم جمع ويراد به هنا القوم من بني إسرائيل - والله عز وجل يقص علينا من أخبارهم من بعد موسى عليه السلام إذ كانوا يطلبون من نبي لهم- قيل: اسمه شمعون، وقيل: شمويل أني عين لهم من أنفسهم ملكا يقودهم إلى حرب أعدائهم الذين أذلوهم واحتلوا ديارهم فسألهم نبيهم: (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) أي هل من احتمال في أنكم سوف لا تقاتلون عدوكم إذا ما فرض عليكم قتاله؟ لكنهم أجابوا بصيغة الاستفهام الذي ينطوي على استنكار بما يؤكد على أنهم سيقاتلون عدوهم بغير تخلف أو إبطاء - هذا العدو الذي طردهم من البلاد فاستولى على الأموال وسبي الأولاد، وما أن كتب الله عليهم القتال حتى تخلف أكثرهم عن

هذه الفريضة ولم يتصدّ لحرب العدو إلا الفئة المؤمنة الثابتة الصابرة، وفي ذلك يقول سبحانه: (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم) ٣١٤.

٢٤٧ - (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

ثم توعدّ الله الذين نكصوا على أعقابهم وتولوا عن فريضة الجهاد مدبرين بقوله:

قوله تعالى: (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) استجاب الله لنبي إسرائيل فبث منهم ملكا لهم اسمه طالوت - وهو من غير ذوي النسب والحسب، ولم يكن سليلا لملوك أو مشاهير، بل كان من الفقراء الأتقياء المتواضعين، لكن هذا التقدير الرباني الكريم أثار في نفوس بني إسرائيل الحسد فجنحوا كعادتهم إلى الحدي عن صراط الله والتمرد على أمره، وذلك لما قالوا: (أنى يكون له الملك علينا ونحن حق بالملك منه) أي كيف لطالوت أن يكون ملكا علينا مع أننا أحق بذلك منه؛ وذلك لعراقتنا وصلتنا بالملوك، وكذلك فإن طالوت لم يؤت سعة من المال حتى يتسنى له أن يكون ملكا علينا، وذلك هو تصور يهود للأمر، تصور قائم على الاعتبارات التي اختلقتها الأعراف الضالة، الأعراف التي لا تعبأ بالعقيدة الصحيحة المجردة، ولا تعبأ بالقيم والمبادئ الكريمة، وإنما تعبأ باعتبارات المال أو النسب أو الحسب أو غير ذلك من وجوه الشهرة والامتيازات الفاسدة.

لكن الله جل وعلا ردّ مقالتهم وتصورهم هذين ليبين لهم أن طالوت قد اختاره الله ملكا عليهم؛ لما يتجلى في شخصه من مزايا تؤهله أن يسوس الناس - وقد ذكر الله من هذه المزايا اثنتين أساسيتين هما: البسطة في العلم، والبسطة في الجسم - وذلك ما يجعله الحاكم صالحا لهذه المهمة الكبيرة - فهو إذا كان ذا علم سديد نافع، وذا جسم متين قوي يكسبه المهابة وينتزع له من قلوب الناس ومشاعرهم مظاهر التقدير والإذعان والطاعة، فقد كتب له التوفيق والنجاح في حكمه.

ويقرر الله سبحانه أن يمتن بإعطاء الملك لمن يشاء من عباده - ويقرر سبحانه أن فضله واسع يعطيه من يشاء، وأنه سبحانه يعلم كيف يعطي المال والملك، فهو يعطي ذلك كله عن علم منه وحكمة؛ لذلك قال: (والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) أي واسع الفضل والعطاء فيوسع به على من يشاء من عباده، وهو أيضا عليم بمن يصطفيه من عباده للملك.

٢٤٨ - (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) لا نذهب في تفسير هذه الآية بعيدا عن الحقيقة لنتجنب في ذلك ما جاء من الأخبار الموهومة والمختلقة كالإسرائيليات - ولا نجاوز في تفسيرنا لمثل هذه الآية حدود الظاهر من النص الكريم دون توغل متكلف أو شطط.

فكل الذي نستطيع تحديده في الآية أن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يأتيهم ببرهان على أحقية طالوت في الملك، فأجابهم الله: (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) ولا نتكلف الحديث كذلك عن ماهية التابوت وبداية خلقه ومراحل انتقاله في أسباط بني إسرائيل مما يولع بذكره كثير من المفسرين، وهم يغرقون في الإسرائيليات.

كل الذين نقوله إن هذا التابوت كان علامة صدق نبيهم الذي أعلمهم أن الله باعث لهم ملكا منهم اسمه طالوت؛ ليكون قائدهم إلى النصر على أعدائهم - وكان التابوت كذلك علامة على أحقية طالوت في الملك، وأن هذا التابوت (فيه سكينة من ربكم) أي طمأنينة ووقار ورحمة، فكانوا إذا اصطحبوه في الحرب اطمأنوا وأحسوا بالراحة والشجاعة ثم الاندفاع في حرب أعدائهم غير خائفين.

وفي التابوت كذلك (بقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) يراد بالبقية عصا موسى ورُضاض الأولاح أي حطامها وفتاتها، وبعض الأمتعة لآل موسى وهارون كالثياب وغيرها - كل ذلك تحمله الملائكة في التابوت لتضعه بين يدي طالوت والناس ينظرون.

وقوله: (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) أي إن في إنزال التابوت وما فيه من سكينة وإيذان بالنصر لهو علامة بينة على صدق ما جاءهم به نبيهم وعلى أحقية طالوت في الملك - وذلك برهان صادق مشهور تستيقنه قلوب المؤمنين وعقولهم.

٢٤٩ - (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

قوله تعالى: (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) - لما خرج طالوت ببني إسرائيل لملاقاة العدو وأخبر قومه أنه مختبرهم بشيء من امتحان، ليستبين فيهم الصابر الذي يحتمل الشدة، وهي هنا العطش، وكذلك الذين يسقطون في أول الطريق ولم يقووا على احتمال البلاء وهم بذلك أحرى ألا يصبروا في الحرب عند ملاقاة العدو - وفي هذا يحدث الله عن ملكهم طالوت إذا أعلمهم أن الله ممتحنهم بنهر سيجاوزونه، لكنهم ليس لهم أن يشربوا منه، فمن ضعف وشرب منه (فليس مني) أي ليس من أصحابي في هذه الحرب. ولا يراد بذلك خروجهم من الإيمان أو الملة، بل خروجهم عن تمام الالتزام وعن كمال الإيمان، كقوله في الحديث: " من غش فليس منا " أي ليس على طريقنا وهدينا، وليس على كمال الإيمان وتمام الالتزام.

وقوله: (ومن لم يطعمه فإنه مني) أي سيكون على طريقي وهديي، أو سيجاوز النهر معي من لم يطعم النهر - ويطعم معناه يذوق، لم يقل يشرب؛ كيلا يكون في ذلك تكرار، بل قال يطعم وهو أقوم تعبيرا وأصح حديثا، ثم استثنى وقال: (إلا من اغترف غرفة بيده) الغرفة منها الفعل غرف يغرف ومنها المغرفة - والغرف باليدين ملؤهما بالماء بعد ضمهما معا، لكن أكثر القوم سقطوا في الامتحان وانهارت عزائمهم لما رأوا الماء، فما احتملوا وما صبروا، فما لبثوا أن شربوا من النهر حتى ارتووا مخالفين أمر قائدهم، ولم يستقم منهم إلا قليل ممن آمنوا وصبروا وثبتوا على الحق ولم تتزعزع هممهم وعزائمهم أمام فتنة الماء البارد العذب حين العطاش الحارق الشديد، ولقد جاوز طالوت النهر ومعه القلة من المؤمنين حتى إذا رأوا جحافل العدو الكثيف الزاحف أمامهم ارتعدت قلوب فريق منهم وغشيهم الجزع ونادوا خائفين: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أي لا نقدر على الثبات في وجه هذا العدو الكثيف القوي، لكن الفئة الباقية الأخرى من المؤمنين الصابرين الثابتين على الحق تصدّوا لجالوت وجنوده، ومكثوا أمامه صامدين أقوياء، وهم في ذلك يستمدون العون والنصر من الله هاتفين في ثقة ويقين واستبسال (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وهي حقيقة لا شك فيها - حقيقة تصدق على المؤمنين العاملين المخلصين المحتسبين الذين يمضون على طريق الله وعلى منهجه الحق في ثبات لا يتزعزع، وعزيمة مكينة صلبة لا تفتر - أولئك هم جنود الله من المؤمنين في كل زمان ومكان يظلون سائرين على صراط الله، لا يضرهم من خالفهم، وهم في ذلك صابرون حتى يكتب الله لهم النصر أو الشهادة.

٢٥٠ - (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين).

لما كان المؤمنون في مواجهة جالوت وعساكره الكثيرين، دعوا هنالك ربهم دعاء المتوكل عليه المتوسل إليه، الضارع إليه من خضوع وتذلل (ربنا أفرغ علينا صبرا وصبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) وذلك دعاء إلى الله أن ينزل عليهم من لدنه صبرا على المكاره وعلى شدائد القتال وأهواله، وأن يثبت أقدامهم في ساحات الحرب فلا يتزعزعوا أو يضطربوا ولا يوْجلوا أو يفرّوا،

٢٥١ - (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

فاستجاب الله لهم الدعاء وامتنّ عليهم أن كتب لهم النصر، فهزموا أعداءهم بجحافلهم الكثيرة، وعلى رأسهم قائدهم القوي جالوت الذي انبرى له داود عليه السلام فقتله - وفي ذلك قال سبحانه: (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) أي بعد أن تم لداود قتل جالوتَ جعله الله من بعد طالوت ملكا على البلاد، وأوحى إليه ليكون نبيا ورسولا، وبذلك فقد أوتي داود الملك والنبوة، وعلمه الله من علمه ما يشاء.

وقوله: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (لولا) أداة امتناع لوجود - (دفع) مبتدأ مرفوع ولفظ الجلالة مجرور بالإضافة - وخبر المبتدأ محذوف تقديره موجود - و (الناس) مفعول به للمصدر (دفع) - (بعضهم) بدل من الناس، والهاء في محل جر مضاف إليه.

وأما المعنى المقصود بالآية فهو موضع تفصيل للعلماء والمفسرين - فقد قيل: إن المعنى: لولا أن الله يدفع بمن يصلّي عمن لا يصلّي وبمن يتقي عمن لا يتقي لهلك الناس بذنبهم.

وقيل: لولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجّار والكفار لفسدت الأرض، وفسادها هلاكها، واستند القائلون بذلك إلى ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: " إن الله ملائكة تنادي كل يوم: لولا عباد ركّع، وأطفالٌ رضّع، وبهائمُ رتّع لصُبّ عليكم العذاب صبًا " - وغير ذلك من أحاديث تحمل مثل هذا المعنى.

وقيل: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا، والذي نختاره ونرجحه ما ذكر عن ابن عباس في تأويل هذه الآية إذ قال: ولولا دفع الله العدو بجنوده المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخرّبوا البلاد والمساجد.

ومما هو معلوم أن الله شرع القتال؛ لإظهار الحق وإزهاق الباطل، وليجعل منه وسيلة إحقاق للعدل وترعيب للظالمين والمشركين الذين يعتدون على الله في دينه وشرعه وحدوده؛ ولذلك قال سبحانه معقبا بعد أن قرر تشريع القتال؛ كيلا يستشري الباطل والشر وتفسد الأرض: (ولكن الله ذو فضل على العالمين) لله المنّة والفضل أن شرع للمؤمنين القتال، ليرسخوا قواعد الحق والخير والعدل في الدنيا، وليجتثّوا من هذه الأرض كل أسباب الشر والفساد، ولكي يأتوا على المجرمين والأشرار الذين لا يجدي معهم غير سبيل القوة والعنف والتدمير.

٢٥٢ - (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

قوله: (تلك آيات الله نتلوها عليكم بالحق وإنك لمن المرسلين) أي أن ما قصصناه عليك من أخبار الأولين قد احتوته آيات الله وكلماته الجليلة المعجزة، وهي التي نتلوها عليك بالحق، وهو اليقين والصدق اللذان لا يتسرب إليهما شيء من شك، ثم يؤكد الله لنبيه الكريم (ص) أنه على الحق وأنه لمن المرسلين ٣١٥.

٢٥٣ - (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

قوله: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) (تلك) اسم إشارة في محل رفع مبتدأ - ولم يقل: ذلك، مراعاة للاسم المؤنث المحذوف " جماعة " والتقدير: تلك جماعة الرسل - و (الرسل) نعت لاسم الإشارة - والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والمعنى أن الله جلّت قدرته جعل المرسلين أولي مراتب درجات، وأعظمهم درجات أولوا العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام - ومن معاني

التفضيل من الله للرسل أنه كلم بعضهم، وتلك درجة عالية فُضلى تصل بالمتكلّم معهم أسمى المراتب، فقد كلم الله آدم وموسى ومحمدا صلى الله عليهم جميعا وسلم.

لكن كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية التي يظهر فيها التفضيل بين الأنبياء والرسل، وما جاء في عدّة أحاديث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ينهى فيها عن التفضيل بين النبيين، ومن جملة ذلك الحديث: " ولا تفضلوا بين الأنبياء " أو الحديث: " لا تخيّروا بين الأنبياء " وأحاديث أخرى شبيهة بذلك.

يمكن الجمع بين الآية والأحاديث للخروج من التعارض الظاهر، هو القول بأن النهي عن التفضيل بين الأنبياء لا ينبغي أن يُفهم على ظاهره الحرفي أو حقيقته النصية - والصواب في ذلك أن يقال إن النهي جاء على سبيل التواضع من الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

وقيل: إن هذا النهي قد جاء في حال من الشجار والتنازع بين بعض من المسلمين وأهل الكتاب حول حقيقة النبي الأفضل - فإن كان كل فريق مستمسكا برأيه في النبي الأفضل، وكان ذلك مدعاة للتخاصم والصخب، فلا داعي لهذا التفضيل خصوصا إن كان مثل ذلك التفضيل يساق على سبيل العصبية - وقيل غير ذلك.

وقوله: (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) أي البراهين والدلائل التي تكشف لبني إسرائيل عن صدق نبوته وما جاءهم به من كتاب منزل كريم.

قوله: (وأيدناه بروح القدس) (القدس) الطهر - والمراد بروح القدس هذا الملك الهائل الكريم الطاهر، الملك الخاشع لله، والمبادر دون وناء لطاعة ربه وتنفيذ ما يناط به من أوامر، إنه الوحي جبريل عليه السلام، قد أيد الله به نبيه وروحه عيسى المسيح عليه السلام.

قوله: (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات) - تدل الآية على حدوث اقتتال بين الناس بعد كل نبي، وذلك بعدما جاءهم من الله برهان ودليل يكشف لهم عن وجه الحق ويحذرهم من الشر بكل صوره وهيئاته - وما كان اقتتال كل أمة فيما بينهما إلا بالباطل وابتغاء للدنيا، وما فيها من شهوات ولذائذ وحطام.

على أن هذا الاقتتال بين الناس بعد كل نبي ليس بخارج عن سلطان الله وهيمنته فإن الله قادر أصلا أن يحول دون هذا الاقتتال ولكنه سبحانه حد لعباده حدودا كيلا يعتدوها، وألزمهم بفرائض ليس لهم أن يضيعوها أو يفرطوا فيها، وشحنهم لطاقة العقل والإرادة ما هو كفيء لمقتضيات الحياة والعيش في هذه الدنيا - فإذا زاغوا ومالوا عن صراط الله ومنهجه الحكيم كان من الحق والعدل أن ينالوا من الجزاء ما يكون لهم وفاقا.

أجل، إن الناس قد اختلفوا بعد الذي أنزل عليهم من كتاب فيه الهداية والنور فتفرقوا مناحي شتى، وتمزقوا في الأرض إلى ملل ومذاهب وتصورات كلها باطل سوى الملة التي جيء بها على ألسنة النبيين المرسلين؛ ولذلك قال سبحانه: (ولكن اختلفوا فيمنهم من آمن ومنهم من كفر) - مع أن الله قادر- لو شاء- على ألا يكفر هؤلاء الناكبون الغاوون ولله في مقاديره وما أراد حكمة ومراد قد نهتدي للوقوف عليهما وقد يعز علينا ذلك؛ لذلك يقول سبحانه: (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد).

٢٥٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) يأمر الله بالإنفاق في سبيله بما يشمل كل وجوه الخير التي نتطلب مزيدا من السخاء والعطاء عن طواعية وطيب خاطر، ويأتي في طليعة هذه الوجوه الجهاد في سبيل الله.

وقوله: (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وذلك تحضيض من الله لعباده المؤمنين من أجل المسارعة في الإنفاق قبل أن تفجأهم القيامة - وإذ ذاك تتبدل الحال غير الحال، فلا بيع حينئذ ولا شراء ولا غير ذلك من تصرفات تعارف عليها الناس في حياتهم الدنيا، إنه ليس إذ ذاك إلا الهلع والوجل وبلوغ القلوب الحناجر؛ لفرط الرهب والخوف ولهول المنظر الواقع المشهود.

وكذلك فإنه لا (خلة) أي صداقة ومنها الخليل أي الصديق، والجمع أخلاء - وخلّة بالفتح بمعنى الفقر والحاجة - وتأتي الخُلّة مضمومة

أيضا ومعناها ما خلا من النبت - والخِلّة بالكسر بمعنى الخصلة، أو ما يبقى بين الأسنان - والجمع خلال - والمقصود أنه إذا كانت القيامة فإنه لا تنفع أحدا صداقة صديق إذا أبطأ به عمله، وكذلك فإنه لا تنفعه شفاعة الشافعين، فلا شفاعة حينئذ إلا لمن جعلت له تشريفا من الله.

وقوله: (والكافرون هم الظالمون) (الكافرون) مبتدأ - (هم) ضمير الفصل - (الظالمون) خبر، وقيل: (الكافرون) مبتدأ أول - (هم) مبتدأ ثان - (الظالمون) خبر المبتدأ الثاني والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول - هذه الجملة غاية في روعة التركيب والمدلول، لما فيها من حصر للمبتدأ في خبره، فيكون المعنى أنه ليس من ظالم أشد ظلما من الكافر - ومن لطيف ما ورد عن عطاء بن دينار في هذه الآية قوله: الحمد لله الذي قال: (والكافرون هم الظالمون) ولم يقل: (والظالمون هم الكافرون) ولو قال ذلك لكان كل من ارتكب ظلما كافرا - وذلك غاية في الحرج والعسير.

٢٥٥ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

قوله تعالى: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم) - هذه الآية أعظم ما في الكتاب الكريم وسيدة الآي في الذكر الحكيم - وقد ورد أنها تعدل ثلث القرآن، لما تضمنته من أصول هذا الدين الحنيف، وما حوته من قواعد في التوحيد والصفات الجليلة لله تبارك وتعالى - وللذي يقرأ هذه الآية في تدبر وعناية وادّكار من كبير الأجر وجزيل الجزاء في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده، عن أبيّ بن كعب أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سأله: أي أية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم - فرددها مرارا ثم قال: آية الكرسي - قال: " ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش ".

وفي حديث آخر عن أبي أمامة في فضل قراءة آية الكرسي بعد الصلاة المكتوبة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من قرأ دُبُر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت ".

وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أي آية أنزل الله عليك من القرآن أعظم؟ فقال: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

وروى الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أن رسول الله قال: " سورة البقرة فيها آية سيد آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي ".

قوله: (الله لا إله إلا هو) لفظ الجلالة مبتدأ - (لا) نافية للجنس، (إله) اسمها، وخبرها محذوف تقديره موجود أو معبود - (إلا) أداة حصر - (هو) ضمير الشأن في محل رفع بدل من خبر لا المحذوف - والجملة الاسمية من لا واسمها وخبرها في محل رفع خبر المبتدأ الأول (لفظ الجلالة).

وهذه أولى الكبريات من الحقائق، يبين الله فيها تفرده المطلق بالإلهية وأنه جلّت قدرته الإله الخالق للعالمين، وأنه ليس في هذا الوجود من إله خالق مبدع مسيطر إلا هو - سبحانه في ملكوته وجبروته تقدّس في سمائه وعليائه.

وقوله: (الحي القيوم) الحيّ نعت للفظ الجلالة (الله) - وقيل بدل من الضمير (هو) الله جلّت قدرته حيّ في نفسه وهو الذي يبعث الحياة ويهبها للكائنات لتنبعث فيها الحركة والإحساس والنشاط - وهوس بحانه لا يموت ولا يسهو ولا تأخذه غفلة - وهو (القيوم) من الفعل قام يقوم - ويرادفه القوام أو القيام أو القيم، وهو الذي لا ند له من أسمائه عز وجل - ومعناه: القائم بتدبير الكون والخلائق، المتصرّف في الوجود كله كيفما شاء ٣١٦.

وقوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم له) السنة بكسر السين، أصلها الوسنة حذفت الواو فصارت سنة - يرادفها الوسن أي النعاس وهو أخف من النوم - فالنعاس نوبة من استرخاء وفتور تصيب الإنسان ليجد أنه راغب في النوع، نفسه حالة من غياب الشعور والذهن تعقب النعاس ٣١٧.

والله جل جلاله منزّه عن معالم الضعف والنقص التي تمتزج بطبع الإنسان وتكوينه النفسي والعصابي والبدني، وذلك كالإحساس بالنعاس والجنوح للنوم إخلادا للراحة - فإن الله سبحانه لا يعتريه شيء من ذلك فهو القائم على الخلق مدبّرا أمرهم متصرفا في مقاديرهم - وقد جاء في الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأربع كلمات فقال: " إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ".

وقوله: (له ما في السماوت وما في الأرض) (له) جار ومجرور في محل رفع خبر مقدم، (ما) اسم موصول في محل رفع مبتدأ - وما، مع أنها لغير العاقل لكنها والاسم الموصول " من " يتعاقبان في القرآن من حيث الاستعمال في العاقل أو غيره.

والآية إخبار كبير بأن الله له الربوبية المطلقة في هذا الوجود، فهو الذي يملك كل ما في الكون من كائنات وأشياء، فلا يندّ عن سلطانه وملكوته شيء مما خلق سواء في الأرض أو في السماء.

وقوله: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (من) اسم استفهام في مجل رفع مبتدأ - (ذا) اسم إشارة في محل رفع خبر - (الذي) اسم موصول في محل رفع نعت للخبر، وقيل بجل منه.

في هذه الآية إنكار لشفاعة الشافعين باستثناء فريق من البررة والأطهار أذن الله لهم بالشفاعة للعصاة والآثمين والمفرطين من الناس - وجملة الشافعين الذين أذن الله لهم أن يتشفعوا يوم القيامة للمقصرين يأتي في طليعتهم النبيّون وهم خير البرية وأشرع العباد، ثم الصدّيقون وهم المقربون والأبرار من عباد الله المؤمنين، ثم العلماء الذين انقطعوا للعلم ونشره بين الناس؛ ليبصّروهم بتعاليم الله؛ وليكشفوا للبشرية عن وجه هذا الدين وما فيه من إشراق وكمال وجمال، ثم الشهداء وهم الذين باعوا أرواحهم في سبيل الله فآثروا الرحيل عن هذه الدنيا لتبقى من بعدهم عقيدتهم والأوطان والديار والكرامة، لا يبتغون من ذلك كله غير مرضاه الله.

على أن الشفاعة من الأبرار والمقربين لا تنبغي إلا لمن يشاء الله ويرضى، فهي أساسها أن يأذن الله بها لمن يريد من عباده المقربين وفي ذلك يقول سبحانه في آية أخرى: (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وكذلك قوله: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى).

قوله: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) (ما بيت أيديهم) أي قبلهم - (وما خلفهم) أي بعدهم - نقول: من بين يدي أي من أمامه - ومن خلفه أي من ورائه - والمراد أن الله تباركت أسماؤه محيط علمه بالكائنات كلها، سواء فيها ماضيها أو مستقبلها - والضمير في (أيديهم) و (خلفهم) يعود على كل عاقل مما في السماوات والأرض - وقيل: (ما بين أيديهم) والمقصود به الدنيا - (وما خلفهم) المقصود به الآخرة.

وقوله: (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء) أي لا يطلع أحد على شيء من علم الله المبثوث في مناحي الكون وفي أطرافه إلا أن يشاء الله إطْلاعه على ذلك، فكل علم كيفما كان مقداره أو نوعه إن هو إلا جزء من علم الله المطلق الذي لا يحده حد، فالله مالك كل شيء، وهو مالك لأرجاء الكون وما ينتشر فيه من علوم، فلله المشيئة الكاملة في أن يهب بعض علمه لمن أراد من الناس أو يحجبه عنهم.

وقوله: (وسع كرسيه السماوات والأرض) نمسك عن الخوض في حقيقة الكرسي من حيث ماهيته وطبيعة استعماله، وما ندركه من ظاهر هذا النص الكريم وغيره من النصوص أن الكرسي خلق هائل عظيم من خلْق الله، وأنه أكبر من السماوات والأرض ودون العرش الذي جعله الله آية قدرته وهيمنته وعظيم سلطانه - فقد ورد عن أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه- أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الكرسيّ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند

الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن فضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على تلك الحلقة ".
وجاء عن ابن عباس قوله: لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلت بعضهن إلى بض ما كنّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازاة.
وقوله: (ولا يؤوده حفظهما) (يؤوده) فعل مضارع مرفوع - نقول آد يؤود أودا - والأود معناه الإثقال بكسر الهمزة - والهاء في (يؤوده) ضمير متصل في محل نصب، مفعول به، وهو عائد على الله سبحانه وتعالى - (حفظهما) فاعل مرفوع - والضمير هنا في محل جر مضاف إليه أي أن الله عز وعلا لا يثقله ولا يعجزه أن يحفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما - فهو سبحانه حافظ لكل شيء، مريد قادر على كل شيء - وما من خليقة ولا تقدير ولا نظام في السماء أو في الأرض إلا هو كائن بمشيئته وحده - فالله جل ثناؤه العظيم في علاه حتى ما يكون من شيء إلا هو حقير هيّن يسير بين يديه، وهو سبحانه الأكبر من كل كبير، حتى ما يكون من عظيم في السماء أو في الأرض إلا هو فقير إليه، صغير بين يديه؛ لذلك قال سبحانه في الآية: (وهو العلي العظيم) ولا ينبغي أن يفهم من ذلك علوّ المكان فإنه سبحانه منزه عن التجسيم أو التحجيم في حيّز، بل المقصود علوّ المكانة والمنزلة وارتفاع الشأن وبلوغه ٣١٨.
٢٥٦ - (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).
هذه الآية تتضمن قاعدة كبيرة من قواعد هذا الدين - وهي قاعدة مبعثها التقدير والإجلال للكتب والأديان السماوية التي جيء بها عند الله - ومبعثها كذلك رفض القسر والإكراه أن يكونا سبيلا لحمل الناس على الإيمان أو الالتزام بعقيدة الإسلام.
وعلى ذلك فغنه لا ينبغي للمسلمين أن يستكرهوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الدخول في الإسلام قهرا، فقد استبان الرشد وهو الهداية وطريق الله المستقيم ومنهجه الحق، واستبان كذلك الغيّ وهو الضلال وما يندرج فيه من مبادئ الكفر ومذاهب الباطل وفلسفات الفساد والعمَهْ.
بعدما تميز الحق من الباطل، وحصحص الهدي ساطعا بلجا فإنه لا مساغ حينئذ للمسلمين أن يكرهوا الكافرين على الإيمان إكراها، فإن الإكراه في مثل هذا الأمر لا يجدي ولا يأتي بخير ولا يفضي بالإيمان إلى القلوب عن طواعية واستسلام، ولا بالقناعة والفكر إلى الأذهان والتصوّر عن تصديق وتثّبت ويقين.
إن الإسلام دين واضح متميز قائم على قواعد متينة من العقيدة الثابتة الصلبة، وعلى قواعد من القناعات والأفكار والتصورات التي تتحقق عن طريق الحجة الدامغة المكشوفة والمنطق القوي المستبين - فلا داعي بعد ذلك أن يُحمل الناس على الإيمان قسرا وقهرا؛ لأن ذلك سبيل الفارغين القساة الذين يقيمون حياتهم في الفكر أو الرأي أو المبدأ على أساس من التعصب الضيّق والأنانية المقيتة المنكمشة والتسلط الظالم الغاشم.
وثمة رأي ضعيف مرجوح حول هذه الآية بأنها منسوخة نسختها آية التكليف بمجاهدة الكفار والمنافقين، فضلا عن إكراه النبي - صلى الله عليه وسلم - العرب المشركين على الإسلام وقتالهم دون أن يرضي منهم غير الدخول في الإسلام - والصحيح أن هذه الآية غير منسوخة، بل إنها نزلت في أهل الكتاب خاصة - وهم لا ينبغي إكراههم على الإسلام إذا أدوا ما عليهم من جزية - والذين يُكرهون على الإسلام أو القتال دون قبول الجزية منهم هم عبدة الأوثان أو من كان على شاكلتهم من ملحدين وإباحيين - وأولئك لا يستوجبون التكريم والاعتبار؛ لأنهم باتوا بوثنيتهم وإلحادهم أولي عقول معطلة، وطبائع شاذة لا يروق لها غير الحماقة والضلالة والسفه.
وقوله: (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) من اسم شرط مبني على السكون - (يكفر) فعل الشرط -

(فقد استمسك) جواب الشرط، والفاء مقترنة به - والطاغوت من الفعل طغى يطغى، وهو مأخوذ من الطغيان، والطاغوت الكاهن والشيطان - وكل رأس في الضلال - وجمعه طواغيت وينسحب الطاغوت من حيث المراد به ليشمل كل سبب جرّ طغيانا - أو ما كان فيه إطغار للآخرين وإبعادهم عن صراط الله المستقيم - وذلك كشياطين الجن والإنس، ثم الأوثان التي يتصور المخدوعون جدارتها أو قدسيّتها سوء كانت الأوثان من الأحجار أو الأموال أو الحكام والساسة أو غير ذلك مما خلا الله سبحانه.

والآية تقرر في وضوح قاطع أن من ندّد بتلك الطواغيت ثم حاربها وأعرض عنها مع الإيمان بالله إلها خالقا قادرا منفردا بكل خصائص الإلهية والربوبية فقد اعتصم (بالعروة الوثقى) وهي الإسلام - ذلك الدين القويم المتين الكامل الذي جعله الله شريعة للناس يهتدون بهديه في هذه الدنيا - والتعبير بالعروة يشي بقوة هذا الدين وصلابته وكماله - يعزز ذلك قوله تعالى: (لا انفصام لها) أي أن هذا الدين في قوته ومتانته وصلابته وتماسكه وكماله أشبه بالعروة القوية من الحديث الصلب الذي لا يقبل الانكسار أو التهشيم.

قوله: (والله سميع عليم) الله جل جلاله يسمع ما تنطق به الشفاه والألسن، ويعلم ما تكنّه القلوب والنوايا من معتقدات ومكنونات وأسرار.

٢٥٧ - (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفوا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) الوليّ معناه الناصر - فالذين آمنوا وليّهم الله، لكن الذين كفروا وليّهم الطاغوت وهو الشيطان وأتباعه الذين يجتالون الناس عن صراط الله وعن منهجه الحق إلى حيث الضلالة والفسق والتمرد والجحود.

والله جل وعلا ناصر المؤمنين بما أنزل عليهم من كتاب فيه منهج الحق والعدل، وفيه من التبصرة لهم والهداية ما يخرجهم من الظلمات وهي ضروب الكفر والضلال حيث يتخبط الناس ويتيهون، وحيث تشتط البشرية وتضطرب ثم تهوي، إلى النور وهو الإسلام، دين الله ومنهجه إلى الإنسانية لتعيش في خير وراحة وأمن ولتظل في منجاة من التعثر والغواية والضياع.

ونقيض هذه الولاية الكريمة الراشدة، تلك الولاية المضللة التي يخدع بها الشياطين أتباعهم من الكافرين؛ ذلك أن الشياطين المتمردين من الإنس والجن يخادعون كثيرا من الناس؛ إذ يسوّلون لهم مناهج الكفر ويجتالونهم عن منهج الله بعد أن يضلّوهم ويغرروهم تغريرا وذلك إخراجهم لهم من النور وهو الإسلام إلى الظلمات وهي الكفر بكل أشكاله وصوره وضروبه، ومن طريف ما جاء في هذه الكلمات الربانية إفراد النور وجمع الظلمات، ومبعث ذلك أن النور وهو الحق واحد، أما الظلمات وهي الكفر فهي كثيرة متعددة بتعدد ألوان الكفر وصوره - كصورة الكفر في الجاهلية العربية الأولى أو ما قبلها من جاهليات كافرة خلال الأزمنة الغابرة، وكذلك صورة الكفر في الصهيونية الماكرة المتآمرة على الإسلام والبشرية جمعاء، ثم صورة الكفر في الشيوعية الملحدة الخبيثة، ثم صورته في الفلسفة الوجودية حيث الإلحاد واليأس والتمييع، ثم الرأسمالية التي تجعل من المال إلها معبودا، وغير ذلك من صور الكفر التي تغطّي وجه الأرض والتي ينفثها الشياطين بألسنتهم وأقلامهم وإيحاءاتهم؛ ليخرجوا بها الناس من النور وهو طريق الله إلى الظلمات وهي الكفر على تعدد صوره كما بينا.

ثم يبين الله أن هؤلاء الفاسقين عن أمر الله والذين أولياؤهم الطاغوت مردهم العذاب الشديد وهي النار المحرقة ليبوءوا بها وليكونوا أصحاب خالدين - وفي هذا يقول سبحانه: (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

٢٥٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك) فقد خاصم نمروذ إبراهيم في ربه جاحدا إياه؛ وذلك لفرط غروره وكبريائه نتيجة الملك الواسع الذي أعطاه الله إياه.

وقوله: (إذ قال إبراهيم رحبي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت) ساق إبراهيم هذه الحدة ليبرهن لنمروذ على يقينية الوجود لله وعلى عظمته وجلاله وسلطانه، فالذي بيده الإحياء والإماتة لهو إله خالق مطلق الإرادة والمشيئة، لكن الطاغية المتأله نمروذ لا يتورع أن يجحد ويتمرد ويستكبر هو يبادر في غرور لجوج وفي عماية مطبقة ليزعم أنه قادر على الإحياء والإماتة - وقد ذكر كثير من المفسرين والشرّاح أن نمروذ كان يقصد بذلك أن يعفو عن المدان بعد تجريمه وذلك إحياء له - أما إن قتله فلا يعني بذلك إلا أنه أماته بمشيئته وإرادته.

حتى إذا استبان لإبراهيم عُقم الاحتجاج المعتبر، وأن هذا الملك الجاحد الطاغية لا يعرف المنطق والبرهان إلى ذهنه وبصيرته سبيلا، بادر إلى مساءلته بما يتحداه ويحرجه إحراجا لا يجد معه مجالا للمواربة أو طول الجدل، فقال الله حاكيا عن إبراهيم في هذا الصدد: (قال لإبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فإت بها من المغرب) ذلك تحدّ صارخ مؤنس لنمروذ أن يأتي بالشمس من المغرب حال طلوعها خلافا لتقدير الله سبحانه، إذ يأتي بها من المشرق - وهنا ينكشف التمحل والاصطناع، ويتبدد الزيف والمراوغة، ويستبين الضعف الذي يركب طبيعة الإنسان (فبهت الذي كفر) وبهت كلمة جامعة، وهي بحث تعبّر عن المقصود أكمل تعبير - وهي تتناول كل معاني الدهشة والحيرة والإحراج والانهزام والتقهقر والارتباك.

قوله: (والله لا يهدي القوم الظالمين) لا يجعل الله لمثل هؤلاء الكفرة المشركين حجة و برهانا يوثق مزاعمهم، بل إن احتجاجهم وما يصطنعونه من برهان لهو دائما مكذوب وداحض.

٢٥٩ - (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) (أو) أداة عطف، وبذلك فإن الآية معطوفة على الآية قبلها - والتقدير: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه - - - أو كالذي مر على قرية - -).

والقرية كمن قرى يقري أي جمع يجمع - قريت الماء جمعته، وسمّيت القرية بذلك لاجتماع الناس فيها ٣١٩ - ولم تذكر الآية ماهية القرية المقصودة ولا الذي مر عليها - مع أن أكثر العلماء يقولون إن القرية هي بيت المقدس، والذي مر عليها هو عُزير وهو من علماء بني إسرائيل.

لقد مر العزير – أو غيره- بمدينة بيت القدس فألفاها (خاوية على عروشها) وخاوية من خواء وهو الخول - تقول خوت الدار فهي خاوية إذا خلت من السكان وخواؤها على عروشها أن تكون سقوفها وجدرانها ساقطة قد أتى عليها الهدم والتدمير - ولدى رؤية عزير ذلك الخواء والخراب وقف مدهوشا مذهولا وقال: (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) أي كيف لهذه القرية المتهدمة المندثرة ذات الأشلاء والركام والدثور أن تنبعث فيها الحياة من جديد؟ وهو في مقالته هذه ليس مرتابا في حقيقة البعث والنشور وإحياء الموتى - ذلك أن الذي مر على القرية مؤمن بمثل هذه القضايا الأساسية، لكنه قال قولته هذه على سبيل التعجب والدهش لقدرة الله البالغة، إذ يبعث الموتى لينقلبوا أحياء بعد تمزق وتناثر وشتات.

وقوله: (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) أماته فعل ماض والضمير المتصل في محل نصب مفعول به ولفظ الجلالة فاعل - (مائة) منصوب على الظرفية الزمانية - (عام) مضاف إليه مجرور - والعام معناه الحول أو السنة - والمراد هو الأهم أن الله جل وعلا قد أماته، وذلك بالتفريق بين جسده وروحه استنادا إلى ظاهرة العبارة القرآنية، ثم رد الله إليه روحه بعد مائة عام فنهض حيا يتحرك ويعي.

قوله: (قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام) - (كم) في محل نصب ظرف زمان، وقد اختلفوا في حقيقة

السائل فقيل: إن الله جل وعلا - وقيل: كان السائل جبريل عليه السلام وقيل غير ذلك، لكن المهم أن هذا الرجل الذي أماته الله ثم بعثه قد سئل عن حجم المدة التي لبثها في رقدته الطويلة هذه فأجاب بأنها كانت (يوما أو بعض يوم) فجاء الرد قاطعا حاسما ينطق بالحدث الهائل الذي يكشف عن معجزة ربانية لا يقوى على مثلها إلا الله، وهو القادر القاهر المالك الذي لا يعز عليه شيء، ولا يستنكف عن أمره وتقديره أحد (قال بل لبثت مائة عام) ولكي تكتمل المعجزة وتتضخم أبقى الله طعامه وشرابه على حالهما من الصلاح: فلم يأت عليهما الفساد والتسنّة، فقال سبحانه: (فانظر إلى طعامك وشرابك لن يتسنه) من السنّه وسمي بذلك؛ لأنه لم تغيّره السنون والأعوام والتسنه، التكرج الذي يقع على الخبز والشراب وغيره - يقال خبز متسنه ٣٢٠.

ثم يبين الله لعبده الذي استحياه بعد ما أماته كيف ينشر الحياة في حماره بعد أن استجمع أعضاءه واحدا بعد آخر ما بين عظم ولحم وعصب ودم - وفي هذا الإحياء تبيان من الله لهذا العبد أنه سبحانه لا يعز عليه إحياء الموتى، وأن ذلك عليه يسير، فقال سبحانه: (وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) (ننشزها) من النشز وهو الرفع - ومنه المرأة الناشز أي التي ترتفع عن طاعة زوجها مستنكفة - وبذلك فالمراد أن الله سبحانه وتعالى يبين لهذا العبد الصالح عملية الإحياء وذلك بإنشاز العظام وهو أن يرفع بعضها على بعض حتى إذا اكتمل جمعُها كسبت باللحم ليتم التركيب ثم الإحياء.

وقوله: (فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) عندما عاين قدرة الله في إحياء الميت وهو الحمار أعلن وأقر أن الله على كل شيء قدير - ولا ينبغي أن يفهم أن هذا الإقرار كان بعد نكران أو شك، بل إنه إقرار على سبيل الطمأنينة واليقين اللذين تحققهما المعاينة المشهودة - فما كان هذا العبد إلا مؤمنا مستيقنا قد ازداد بالمعاينة والحس ثقة وإيمانا.

٢٦٠ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى - وما كان الخليل عليه السلام شاكا في قدرة الله على الإحياء، وإنما كان يبتغي أن يزداد يقينا إلى يقينه - وذلك هو طبع ابن آدم، فإنه مطبوع على الرغبة في المعاينة أو المشاهدة الحسية بما يحمله على التصديق الكامل والإيمان المستيقن على نحو يدنو دونه مجرد الإخبار - وفي ذلك يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " ليس الخبر كالمعاينة " - فلا جرم أن المعاينة الحسية أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين.

أما سؤال إبراهيم (كيف تحي الموتى) لا يحمل أية دلالة على الشك في ذهنه عليه السلام، بل إن الاستفهام بكيف- كما هو معلوم- إنما هو سؤال عن أمر موجود ومتقرر بالفعل لدى كل من السائل والمسؤول - وعلى هذا فالسؤال بكيف يأتي استفهاما عن هيئة الإحياء الثابت المتقرر.

وقوله: (أو لم تؤمن) أي بقدرتي على الإحياء - وقد سأله ذلك مع علمه أن إبراهيم مؤمن وأنه ما كان شاكا - وإنما كان سؤاله له ليبين للناس أن غرض إبراهيم أن يستزيد إيمانا وأن يترقى من يقين إلى يقين؛ لذلك جاء قوله سبحانه: (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي).

وقيل في قوله: (أو لم تؤمن) الهمزة للإيجاب والتقرير وليست للاستفهام - ويشبه ذلك ما قاله الشاعر: ألستم خير من ركب المطايا - فالهمزة هنا غير استفهامية بل للتقرير والتحقيق، والراجح عندي القول الأول - والله أعلم.

وقوله: (بلى ولكن ليطمئن قلبي) يطمئن من الطمأنينة وهي الاعتدال والسكون - نقول: اطمأنت الأعضاء أي اعتدلت وسكنت فلا تريم - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في كيفية الصلاة الصحيحة: " ثم اركع حتى تطمئن راجعا " - وأما طمأنينة القلب فهي أن يؤمن إيمانا ليس فيه نقص - وقيل: طمأنينة أن يزداد يقينا مع يقينه.

قوله: (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا) لا حاجة لنا في الوقوف

على نوعية الطير المذكور في الآية - والأهم من ذلك جوهر القضية القائمة على المعجزة الربانية من أجل أن يستيقن قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويطمئن بعد أن يشهد عيانا عملية الإحياء للموتى - فقد أمره ربه أن يأتي بأربعة أطيار، وقال له: (فصرهن إليك) من الفعل صار يصور والمصدر صور وهو التقطيع - نقول: رأيت صوارا من البقر بالكسر أي قطيعا - وأصار الشيء فانصار بمعنى أماله ٣٢١ - فالمراد من قوله: (فصرهن إليك) أي أملهن إليك ثم اذبحن وقطعن تقطيعا، ثم ضع على كل جبل قطعة من هذه الأجزاء المقطعة ثم ادعهن، من الدعاة وهو النداء - أي يقول لهن: تعالين بإذن الله - حتى إذا دعاهن جئن إليه ساعيات مسرعات وقد رد الله إليهن أرواحهن.

وذلك ليشهد إبراهيم عملية الإحياء فيطمئن قلبه أي يزداد إيمانا مع إيمانه وليعلم أن الله جلّت قدرته قادر قوي لا يعز عليه أمر ولا يعجزه شيء وأنه سبحانه وتعالى حكيم فيما يقضي وفيما يفعل (واعلم أن الله عزيز حكيم) ٣٢٢.

٢٦١ - (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حب أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم).

إن هذه الآية نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما - وذلك في غزوة تبوك لما حضّ النبي - صلى الله عليه وسلم - المسلمين على الصدقة فجاءه إذ ذاك عبد الرحمن ابن عوف بأربعة ألاف وقال: يا رسول الله كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربي - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " - وقال عثمان بن عفان: يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له - وقيل: نزلت في نفقة التطوّع - وقيل غير ذلك - وعلى أية حال فإن الآية تفيد العموم لتناول وجوه الإنفاق في طاعة الله - ويأتي في طليعة ذلك الإنفاق في سبيل الله وهو الجهاد ٣٢٣.

والله جلت قدرته يحض عباده على الإنفاق مخلصين لوجهه - وقد وعدهم بدل ذلك من الأجر ما يكون أضعافا كثيرة - فما ينفق العبد نفقته يبتغي بها وجه ربه إلا جزاه الله أجرا عظيما، وذلك كالحبة يضعها الزارع في الأرض، تؤتيه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة لتكون الحصيلة سبعمائة حبة.

وقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه من أجلي ".

وفي حديث آخر من رواية أحمد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -: قال: " من أنفق في سبيل الله تضاعف بسبعمائة ضعف ".

قوله: (والله يضاعف لمن يشاء) ذلك إعلام من الله جل جلاله بأنه يضاعف الأجر أكثر من سبعمائة ضعف لمن يشاء من عباده العاملين المخلصين.

وقيل: ليس فوق السبعمائة ضعف من زيادة أخرى ولكن المراد هو التبيين والتأكيد لهذه الأضعاف السبعمائة نفسها - والراجح عندي الأول استنادا إلى الظاهر من الآية.

قوله: (والله واسع عليم) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع - (واسع) خبر - (عليم) صفة - المراد بالسعة الفضل والرزق، فإن خزائن الله عظيمة ومديدة ومدرارة وهي لا تنفد، وهو سبحانه عليم بمن يستحق الرزق ومن لا يستحقه إلا نزرا ٣٢٤.

٢٦٢ - (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صداقتكم بالمن والأذى كالذي

ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابحه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين) - قيل: إن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان – رضي الله عنه- إذ جاء في جيش العسرة بألف دينار، فصبها في حجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فجعل النبي يدخل يده فيها ويقلّبها ويقول: " ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم، اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان ".

وقال أبو سعيد الخُدري: رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - رافعا يديه يدعو لعثمان يقول: " يا رب عثمان إني رضيت عن عثمان فارض عنه " فما زال يدعو حتى طلع الفجر فنزله قوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) ٣٢٥ - وتتضمن الآية بعموم مدلولها عظيم الإطراء والثناء على المؤمنين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وذلك هو الإخلاص شرط القبول للأعمال، وهم كذلك، لا يُتعبون ما أنفقوا منّت ولا أذى - والمن هو ذكر النعمة على معنى التفضل والمفاخرة - نقول: مننت عليه منّا أي عددت له ما فعلت له من الصنائع - مثل أن تقول: أعطيتك، أو فعلت لك، أو أحسنت إليك ونحو ذلك ٣٢٦.

وينبغي التحذير من المن فإنه من الكبائر وإنه يذهب بأجر الأعمال مهما عظمت - فقد روى النسائي عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه والمرأة المرتجلة تتشبه بالرجال والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه والمدمن الخمر والمنان بما أعطى ".

وعن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر ".

أما الأذى فالمراد به ما كان مقترنا بالمن بعد العطية مما يمس شعور الآخذين وذلك كأم يقول المعطي للآخذ: ما أشد إلحاحك، أو خلصنا الله منك، ونحو ذلك فإنه لا يعطي أحد من ماله في سبيل الله محتسبا غير متبع عطيته منّا ولا أذى إلا كان له به عند الله جزيل الثواب.

وقوله (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي لا يخافون يوم القيامة من عذاب النار كما يخاف الناس، فهم آمنون مطمئنون - وكذلك فإنهم لا يشعرون بالحزن والأسى لفراق الدنيا وما فيها من لذات وخيرات وذكريات وصحبة وذلك عند الموت؛ لما يرونه من نعيم مقيم أفضل مقبلون عليه بعد رحيلهم عن هذه الحياة العاجلة الفانية الدنيا.

٢٦٣ - (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

قوله: (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) (قول) مبتدأ مرفوع - (معروف) صفته (ومغفرة) معطوف على المبتدأ - والخبر (خير من صدقة) والجملة الفعلية في محل جر صفة لصدقة ٣٢٧ - والقول المعروف يتناول الكلمة الطيبة تقال للسائل كالدعاء له بالصلاح والخير أو الرجاء له من الله أن يكتب له الخير واليسر - ولا ريب أن تكون الكلمة الطيبة على أية صورة كانت أفضل من التصدق يُبذل للسائل مع ما يرافقه من المن والأذية - يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه مسلم: " الكلمة الطيبة صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ".

وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردوا عليه بوقار ولين أو ببذل يسير أو رد جميل، فقد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرون صنيعكم فيما وأصل المغفرة من الغفر ويعني الستر - والمراد به هنا الستر لحالة المحتاج والتغاضي عن السائل إذا ألح في مسألته أو أغلظ - فإن العفو والتسامح والستر والتجاوز من غير إعطاء خير من التصدق الذي يتبعه منّ وأذى.

قوله: (والله غني حليم) إنه جل جلاله غني عن العباد وعن صدقاتهم، وهو سبحانه رحيم بالضعفاء والمحاويج والسائلين، وسوف يغنيهم من فضله، فلا حاجة له في صدقات المنانين الذين يمحقون أجورهم بالمن والأذى - وهو سبحانه حليم فلا يعجل للمسيئين عقوباتهم ولا يبادرهم الجزاء، بل يمهلهم حتى إذا تابوا وأنابوا صفح عنهم وتجاوز عن خطيئاتهم.

٢٦٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

ثم يعاود الحق سبحانه دعوة العباد أن يخلصوا في العمل ومنه الصدقات فلا يبطلوها بالمن والأذى - فقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) ويستفاد من ذلك أن الصدقات للسائلين يحبطها المن والأذى لتصبح بذلك مجرد عمل من الأعمال التي تجري دون وزن أو حساب - وقوله: (كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) الكاف في محل نصب لمصدر محذوف وتقديره: إبطالا كالذي - و (رئاء)، مفعول لأجله منصوب - وقيل: حال - وقيل: وصف لمصدر محذوف وتقديره: إنفاقا رئاء الناس ٣٢٨ - والله جل وعلا يحذر م بطلان الصدقات التي يعقبها المن والأذى - وشبيه بذلك بطلان صدقة المنفقين الذين يراؤون الناس - أولئك الذين ينفقون وهم يظهرون أنهم يبتغون وجه الله، لكنهم في حقيقة نواياهم يخفون غير ذلك، إذ يبتغون بنفقاتهم وصدقاتهم حسن الثناء والذكر وتمام الشهرة والمديح - ومعلوم أن أساس القبول للأعمال منوط بسلامة النوايا واستقامتها " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " ولا يكون الإنسان مرائيا منافقا يبتغي بعمله وصدقاته غير وجه الله إلا كان كالمنافق الذي ينفق أمواله رياء وطلبا لإرضاء الناس ولا يبتغي بذلك ثواب الآخرة فهو غير مؤمن بها؛ لذلك قال سبحانه: (كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) أي أن المنانين يبطلون صدقاتهم بمنهم وأذاهم، وهم في ذلك يشبهون المنافقين المرائين الذين يبتغون بنفقاتهم وصدقاتهم ثناء الناس وإطراءهم، ولا يبتغون وجه الله، فأولئك فاسقون كفرة لا يؤمنون بالله ولا بيوم القيامة.

وقوله: (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا) (صفوان) جمع ومفردة صفوانة - وقيل: مفرد بمعنى الصفا وهو الصخر الأملس - والصلد هو الحجر الأملس ٣٢٩ وذلك هو مثل الذي ينفق أو يتصدق ثم يبطل عمله بالمن والأذى أو لرياء - فمثله كالحجر الذي يغطيه التراب حتى إذا أصاب (وابل) وهو المطر الشديد ٣٣٠، بات عاريا أملس مجردا من التراب الذي يغطيه، والذي ينبعث منه الخير والرزق والنماء والبركة.

وتلك حال المتصدق المنان أو المرائي، فإن عمله حابط متجرد من الثواب والقيمة كالصخر الذي يتجرد من التراب مصدر الخير والبركة، كلما أصابه مطر غزير ليصبح بعد ذلك حاسرا مكشوفا أملس لا خير فيه.

وقوله: (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) هؤلاء المنانون المراؤون لا ينالون شيئا من ثواب بدلا عما قدموه من صدقات وأعمال، بل إن ما قدموا من عمل خالطته المنة لا جرم حابط.

قوله: (والله لا يهدي القوم الكافرين) هؤلاء المنانون المراؤون الذين لا يبتغون وجه الله أشبه بالكافرين، فهم لا يهتدون إلى سبيل الحق والنجاة، وليس لهم من الله دليل يقودهم إلى الخير، لأنهم ركنوا إلى الأهواء والشهوات - وذلك تعريض بحال منانين، وتنبيه على أن الرياء والمن والأذى في الإنفاق من صفات الكافرين - وفي ذلك تحذير للمؤمنين؛ لينأوا بأنفسهم عن مفسدة الرياء في النفقات.

٢٦٥ - (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وبل فطل والله بما تعملون بصير) بعد أن ضرب الله مثل المنانين المرائين وأنه كالصفوان الذي يأتيه المطر فيذهب بما عليه من تراب لِيَذَرَه صلدا أملسَ، بعد ذلك ضرب الله مثل المنفقين المخلصين الذين يبذلون أموالهم صدقات يطلبون بها مرضاة الله (وتثبيتا من أنفسهم) أي تصديقا ويقينا - وقيل احتسابا، أي أنهم ينفقون ويتصدقون وهم يحتسبون ثوابهم مقابل ذلك عند الله.

إن هذا الصنف التقي الزكي المخلص من العباد مثله (كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين) الجنة بمعنى البستان - وفعله جن يجن، أي ستر يستر - أجنه في صدره أي أكنه (فلما جن عليه الليل) أي غشيه وغطاه والجنين معناها الولد المستور في بطن أمه - فالمراد بالجنة ما كان من أشجار وارفة كثيفة يستتر فيها من يدخل إليها ٣٣١ والربوة المكان المرتفع قليلا والذي يجلله النبات والخصب لكثافة ترابه وتمام انكشافه للشمس والهواء.

هؤلاء المنفقون والمتصدقون المخلصون الذي يبتغون وجه الله مثلهم كمثل هذه الجنة على ربوة تعطي (أكلها ضعفين) أي تعطي ثمرها ضعفي ما تعطيه جنة أخرى من الثمر - وقيل: تحمل من الثمر في كل سنة مرتين، والراجح الأول - وقوله: (فإن لم يصبها وابل فطل) هذه الربوة متميزة بحسن مكانها وتمام خصبها، حتى إن إثمارها يأتي مضاعفا ضعفين ولو لم يصبها إلا طلّ، وهو المطر الخفيف الذي يشبه الرذاذ - فإذا لم يصبها الوابل وهو المطر الشديد بل أصابها الطل وهو الخفيف من المطر فإن حجم إثمارها وعطائها باق على حاله من المضاعفة.

وذلك هو مثل المؤمنين المخلصين الذين ينفقون أموالهم لا يبتغون بها جزاء الناس وشكورهم، إنما يبتغون بها وجه الله فقط، فإن الله جلت قدرته سيضاعف لهم الأجر ويمنح لهم من الثواب الجزيل ما لا يكافئه عمل العابدين في هذه الدنيا، ولا يقدم العبد من العمل اليسير الهين يرتجي به رضوان الله إلا جزاه الله خيرا منه مثوبة وأجرا.

قوله: (والله بما تعملون بصير) ذلك تخويف للعباد وتحذير لهم من مخاطر المنّة والرياء، لما في ذلك من إحباط للعمل، وليعلموا أن الله سبحانه مطلع على أسرارهم عليم بأستارهم وحقيقة مقاصدهم ونواياهم، فليخلصوا له العمل، كيلا يأتي عليه الحبوط.

٢٦٦ - (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) ذلك مثل يضربه الله للمنافقين والكافرين الذين يظنون أنهم يُحسنون صنعا بفعلهم الخيرات في حياتهم الدنيا - حتى إذا كان يومُ القيامة وجدوا أعمالهم بغير قيمة، وأنها لا تغني عنهم من الله شيئا، ووجدوا أنهم الأخسرون وأنهم يومئذ فرادى ضعفاء لا تنفعهم أموالهم ولا ذريتهم - ويومئذ يكون الخسران الأكبر والعاقبة المردية الوخيمة.

وقيل: إن الآية مثل ضربه الله لمن يحسن العمل في حياته، حتى إنا أفضت به السنون إلى آخر العمل تحوّل مع الخاسرين فبُدلت حسناته سيئات وساء عمله وفسدت سيرته والعياذ بالله وسقط مع الخاسرين والظالمين، ثم فارق الحياة على هذه الحال من الضلال والزيغ، فذلك مثله كالذي يكون له بستان فيه خير الشجر من النخيل والأعناب، تنساح من حوله الأنهار وفيه من الثمرات كل أصنافها، حتى إذا أصابه الكبر وله أولاد صغار ضعفاء، جاءتها ريح عاصف فيها نار فاحترقت، فبات خاسرا لا يلوي على شيء ولا يملك من جنته غير الحسرة واللهف.

وقوله: (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) مثل هذه الأمثال يضربها الله للناس؛ تقريبا لأذهانهم وليستطيعوا الوقوف على معاني الآيات ومقاصدها حتى تكون لهم من ذله عبرة ثم يتفكروا في عظمة الله وفي سلطانه وجلاله ٣٣٢.

٢٦٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

قوله: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذين إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله وسع عليم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب) يخاطب الله عباده المؤمنين أن ينفقوا من جيد ما يملكون من أموال - ويشمل الإنفاق كلا من الزكاة المفروضة وصدقة التطوع، وعلى ذلك فإن مفهوم الآية يستفاد منه العموم.

والمراد بالكسب ما أمكن تحصيله من الأموال مما كان سبيله التجارة أو الإجارة أو الميراث أو غيره من سائر الأرزاق والمكاسب.

أما ما أخرجه الله لعباده من الأرض فإن مدلوله عام يتناول كل ما حوته الأرض، سواء كان نباتا أو ركازا أو معدنا - فذلك كله مما امتن الله به على عباده فأخرجه لهم من الأرض لاستعماله والاستفادة منه في تحصيل مصالحهم.

قوله (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أي لا تقصدوا المال الرديء من أموالكم لتعطوه للفقراء والمحتاجين، بل عليكم أن تقدموا من أموالكم ما كان جيدا أو وسطا، أما الرديء فلا - فقد روي أن بعض الأنصار كانوا يخرجون من جذاذ نخيلهم قنو الحشف ٣٣٣ وهو يظن أنه جائز، فنزل فيمن فعل ذلك قوله: (ولا تيمموا الخبيث) ٣٣٤.

وقوله: (ولستم بآخذين إلا أن تغمضوا فيه) لو قدم إليكم مثل هذا المال الرديء لزهدتم فيه ولما أخذتموه إلا في إغماض، والإغماض يراد به التساهل والتجاوز - وهو أن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه.

والمرء مفطور على حب الجيد من المال، حتى إذا قدم إليه الرديء فإنه لا يأخذه إلا ونفسه تعافه أو تعزف عنه؛ لانحطاط قيمته ومستواه - وذلك هو مدلول العبارة القرآنية الفذة التي لا يجزي عنها تعبير آخر (إلا أن تغمضوا فيه) فلا جرم أن ذلك إعجاز.

وعلى هذا فإن الآية تستنهض همم المؤمنين أن يؤتوا من أموالهم أحسنها أو أوسطها، وألا يقصدوا الخبيث الدنيء منها فيتصدقوا به؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

قوله: (واعلموا أن الله غني حميد) أي أن الله غني عنكم وعن صدقاتكم وأموالكم، بل إن الناس جميعا فقراء إليه، وهو سبحانه مالك الملك بيده مقاليد السموات والأرض، وهو سبحانه حميد، أي معظم محمود، يحمده العباد والخلائق ويثنون عليه ثناء يليق بجلاله وكماله.

٢٦٨ - (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

قوله: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الشيطان يخوف الناس بالفقر؛ كيلا ينفقوا، فهو بذلك يوحي إليهم بمختلف أسباب الإيحاء، سواء كان ذلك بالسوسية النفسية التي تسري في صدر الإنسان، أو بالإغواء المباشر الذي تنطق به ألسنة الشياطين من البشر وهم ينفثون الرعب في قلوب المؤمنين، كل ذلك تخويف بالفقر من الشيطان لابن آدم من أجل أن يُمسك عن البذل والإنفاق - وهو كذلك يأمر الناس بالفحشاء وهي وجود المعاصي والمحرمات التي نهى الله عنها وحذر منها، ومن بينها الشح والإمساك دون البذل والنفقة.

وفي مقابل هذا التخويف من الشيطان اللعين فإن الله تباركت أسماؤه يزين لعباده خليقة الإنفاق ويرغبهم فيه ترغيبا، واعدا إياهم المغفرة وهي الستر من الله على عباده في الدنيا والآخرة، وكذلك واعدا إياهم الفضل وهو الرزق الحلال الحسن في هذه الدنيا ثم النعيم المقيم يوم القيامة.

وقوله: (والله واسع عليم) الله سبحانه وتعالى واسع رزقه ولا تنفد خزائنه فهو يعطي بغير حساب وكيفما شاء، وهو سبحانه يعلم الغيب والشهادة، ويعلم كيف يقسم الأرزاق - كل ذلك جار في إطار حكمته وعلمه.

وفي إغواء الشيطان لابن آدم وإضلاله، ثم في ترشيد الرحمن لابن آدم وتبصيره روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن للشيطان لمّة بابن آدم، وللملك لمّة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان " – ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء).

٢٦٩ - (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ)

وقوله: (يؤتي الحكمة من يشاء) الحكمة كلمة جامعة تتضمن وجوها شتى من المعاني كالعلم والفهم والعدل والعلة، والكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه، أو هي المعرفة بالقرآن والتفقه في الدين والإصابة في القول والفعل ٣٣٥ - كل واحدة من هذه الوجوه أو كلها مجتمعة بمثابة الحكمة التي أثنى عليها الله في كتابه الحكيم وامتدح من عباده من أوتيها فقال سبحانه: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) ولا ريب أن يكون عطاء الحكمة خير عطاء يؤتاه المرء في حياته؛ فهو خير من عطاء الدنيا وما حوته من متاع وزخرف، وهو كذلك خير من زينة الحياة وما فيها من نعيم زائل وبهجة آيلة للفناء (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) إن هذه هي الحقيقة التي يعيها ويدركها أولو الألباب الذين أوتوا حظا من الفهم الحاذق والبصيرة اليقظة الواعية؛ لذلك قال سبحانه: (وما يذكر إلا أولوا الألباب).

٢٧٠ - (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

قوله تعالى: (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار).

(ما) أداة شرط - (أنفقتم) جملة الشرط، وجوابه (فإن الله يعلمه) والفاء مقترنة بالجوب - والنفقة تتضمن الصدقة بنوعيها: التطوع والفريضة - أما النذر فهو في اللغة الالتزام بفعل خير أو شر ٣٣٦ - وفي الشرع أن يلتزم المكلف بشيء مما لو لم يوجبه على نفسه لم يلزمه سواء كان منجزا أو معلقا - فما ينفق المرء من نفقة أو ينذر نذرا إلا كان الله عليما بقصده وما يخفيه في نفسه من مكنون الإخلاص أو الرياء - والظالمون هم المشركون والعصاة الذين تزيغ قلوبهم وأفعالهم عن دين الله وعن منهجه القويم، فأولئك ليس لهم يوم القيامة من نصير يجيرهم من العذاب ٣٣٧.

٢٧١ - (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير) (إن) أداة شرط والجملة الفعلية بعدها جملة الشرط، وجوابه (فنعما هي)، والفاء مقترنة بالجواب - والمراد بالصدقات هنا ما كان للتطوع أو النفل الا الفرض - ومعلوم أن العبادات النوافل، إسرارها خير من إشهارها - أما الفرائض فإشهارها أفضل.

قوله: (فنعما هي) أي نعم ما هي - نعم فعل مدح جامد وفاعله ضمير مرفوع - ما في نصيب تمييز - والتقدير: نعم الشيء شيئا إبداؤها - فإبداؤها مخصوص بالمدح وهو مرفوع؛ لأنه مبتدأ - وما قبله خبر، ثم حذف إبداء وأقيم الضمير المتصل المضاف إليه مقامه فصار الضمير المجرور والمتصل ضميرا مرفوعا منفصلا - وهو مرفوع بالابتداء لقيامه مقام المبتدأ ٣٣٨ - والله تعالى يمتدح الصدقة الظاهرة - وكذا الخفية وهي أفضل إن كانت تطوعا - وبذلك فحكم الصدقة الظاهرة أن تكون أفضل من الخفية إن كانت نافلة، وذلك كيلا يكون الإظهار سببا لتسرب الرياء إلى نفس المعطي، أما إن كانت مفروضة فإظهارها أفضل من أخفائها؛ لما في ذلك من تشجيع للآخرين - ويستفاد ذلك من ظاهر الآية - (فهو خير لكم) والضمير يعود على الإخفاء والإيتاء - ويعزز هذا القول ما أخرجه مسلم في صحيحه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في إظهار الصلاة وعدمه إذْ قال: " أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة ".

قوله: (ويكفر عنكم من سيئاتكم) الواو موضع خلاف لدى النحويين - لكن الذي نعتمده ونرجحه تمشيا مع سياق الآية أن الواو للاستئناف - وعلى هذا فالفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة (الله) (من)، للتبعيض - أي يكفر الله عنكم بعض سيئاتكم - قوله: (والله بما تعملون خبير) الله عليم بأفعال العباد وأقوالهم - وهو سبحانه عليم كذلك بما تكنه صدرهم من إخلاص أو عدمه - وهو سبحانه مجازي العباد تبعا لما تحمله نفوسهم في أطوائها من مكنونات.

٢٧٢ - (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)

قوله تعالى: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) في سبب نزول هذه الآية روي عن سعيد ابن جبير مرسلا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم " فنزلت هذه الآية لتبيح الصدقة على الفقراء من غير المسلمين.

وروي عن ابن عباس قوله: كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية فيهم.

والذين يظهر من ذلك أن مقصد المسلمين والنبي - صلى الله عليه وسلم - من منع الصدقة عن الفقراء من غير المسلمين إنما كان ليسلموا وينقلبوا عن شركهم إلى دين الإسلام، فأنزل الله فيهم: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء).

وثمة خلاف بين العلماء في نوع الصدقة التي أباحت الآية إعطاءها للفقراء من غير المسلمين - فقد ذهب فريق من أهل العلم في قول مرجوح لا يعوّل عليه إلى جواز إعطائهم من الصدقات عموما، سواء في ذلك صدقة التطوع أو الفريضة.

لكن المذهب الصحيح المعتمد في ذلك أنهم يعطون من الصدقة النافلة (التطوع) ولا يعطون من الزكاة المفروضة - وفي ذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم " ويعزز ذلك ما ذكره من إجماع أهل العلم على أن غير المسلمين لا يعطون من زكاة الأموال شيئا، لكن أبيح إعطاؤهم من صدقة التطوع.

وجملة القول أن هؤلاء المشركين لا ينبغي حرمانهم من الخير إن تيسر - وما يكون حرمانهم سببا في هدايتهم، بل لا يملك الإنسان هداية غيره من خلق الله، فإن الله جلت قدرته هو الهادي وهو الذي ييسر للعباد من أسباب الهداية والاستقامة وما يقودهم إلى الرشاد.

قوله (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) الخير المراد به المال - فإن المؤمن لا ينفق من ماله إلا كان مكتوبا له في حسابه عند الله ولا يُضيع الله أجر العاملين والمحسنين.

قوله: (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) يحتمل معنيين - أحدهما: النفقة المعتبرة والتي يتقبلها الله هي التي يبتغي بها المنفق وجه الله، يكون مخلصا في بذله المال للفقراء، فلا يبتغي من ذلك المديح والثناء أو غرضا من الأغراض الدنيوية، بل يبتغي مرضاة الله، فهو في ذلك مأجور، سواء وقعت صدقته في يد بر أو فاجر، محتاج أو غير محتاج.

وثانيهما: أن هذه الآية شهادة من الله للصحابة الكرام – رضي الله عنهم- بأنهم إنما ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاته فهم بذلك مخلصون في إنفاقهم، وذلك على سبيل الإطراء لهم والثناء عليهم.

قوله: (وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) ذلك بتأكيد لما قبله (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) فإن المنفقين المخلصين توفّى إليهم أجورهم غير مبخوسين أو مظلومين ٣٣٩.

٢٧٣ - (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) اللام في قوله: (للفقراء) متصلة باسم محذوف تقديره الإنفاق أو الصدقة - فيكون تقدير الكلام: الصدقة للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله.

والمراد بالفقراء، أولئك المهاجرين الذين (أحصروا) أي حبسوا في سبيل الله فانقطعت عنهم أسباب العيش والارتزاق - وذلك بعد أن هجروا الدار والأهل والمال في مكة نازحين إلى المدينة، ابتغاء رضوان الله ولكي يتمكنوا من عبادة ربهم سالمين آمنين.

وقوله: (لا يستطيعون ضربا في الأرض) الضرب هو السفر - وذلك كقوله تعالى: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) فالمهاجرون الذين انقطعت بهم السبل في المدينة بعد أن هجروا مكة حيث المشركون والفتنة لا يستطيعون السفر خارج المدينة طلبا للرزق والمعاش.

قوله: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) المقصود بالجاهل الذي يجعل حقيقة حالهم وأمرهم - فهو لا يعرف فقرهم وسوء حالهم؛ لما يراه في ظاهرهم من علو الهمة وحسن المظهر - فهو بذلك يحسبهم (أغنياء من التعفف) أي يظنهم الجاهل بحالهم أغنياء - وهم في الحقيقة ليسوا أغنياء ولكنهم متعففون - والتعفف معناه التنزه وترفع النفس والعزف عما يهبط بها أو يشينها.

وفي هذا الصدد الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ليس المسكين بهذا الطواف الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا " ٣٤٠.

وقوله: (تعرفهم بسيماهم) السيما معناها العلامة، والمراد أن هؤلاء المهاجرين المتعففين تعرف فيهم الفقر ورقة الحال وشدة العوز، لما

يغشاهم من علامات تدل على ذلك - والمقصود بسيماهم التي تدل عليهم ما يبدو في وجوههم وظاهرهم من أثر التواضع والفاقة وافتقاد الخير والنعمة، لأنهم محصورون لله، وقد انقطعت بهم الأسباب فلا يستطيعون سفرا ولا سعيا لعيش أو ارتزاق.
قوله: (لا يسألون الناس إلحافا) (إلحافا) مصدر في موضع الحال منصوب - - - والإلحاف بمعنى الإلحاح في الطلب ٣٤١ وتلك هي أخلاق المؤمنين الصابرين الذين يكونون في فاقة وعوز، لكنهم يتعففون عن تكفف الناس فلا يسألونهم إلحافا، مع أنهم محتاجون للعون والعطاء - وهذا الصنف من الناس قد استوصى الله بهم خيرا من أجل أن يعطيهم الأغنياء أو الدولة من مال الله الذي آتاهم - وهؤلاء يوصي بهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة – رضي الله عنه-: " ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف اقرأوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلحافا) - وهذه الجملة في محل نصب حال، وكذلك (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) جملة فعلية في محل نصب حال من الفقراء - وكذلك (تعرفهم بسيماهم) ٣٤٢ وفي حقيقة المسكين روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافا ".
وفي معنى قوله تعالى: (لا يسألون الناس إلحافا) ثمة قولان للعلماء أولهما: أنهم لا يسألون البتة ولا يتكففون أحدا وأنهم دائما متعففون، فهم بذلك لا يسألون الناس، سواء كان ذلك إلحافا أو غير إلحاف، فالتعفف شأن وديدان - وذلك الذي ذهب إليه جمهور المفسرين وهو الراجح.
ثانيهما: أن المراد نفي الإلحاف فقط، أما إن سألوا الناس غير ملحفين فلا بأس - وهو قول مرجوح.
ولا يفوتنا أن نبين النهي عن المسألة مع الغنى وأن ذلك حرام، ولا يسأل أحد غيره وهو غني إلا كان آثما إثما يودي به إلى عذاب الله - يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: " من سأل الناس أموالهم تكثّروا فإنما يسأل جمرا فليستقلّ أو ليستكثر ".
وروى مسلم أيضا عن ابن عمران أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزعة لحم " المزعة بضم الميم معناها القطعة - وقوله (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) ذلك ترغيب من الله للمؤمنين، كيما ينفقوا في سخاء ليغيثوا المحاويج والمكروبين وليدفعوا عن الفقراء والعالة خلتهم، فإنه ليس من نفقة يؤديها هؤلاء إلا والله يعلمها، وهو سبحانه سيجازيهم عنها خير الجزاء.
٢٧٤ - (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)
قوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ذلك ثناء من الله على عباده المخلصين الذين يبادرون بالإنفاق في سبيله - يستوي في ذلك أن يكون الإنفاق ليلا أم نهارا، خفية أم جهارا - عن هؤلاء المنفقين مثوبون وأجرهم عند الله محسوب - وينبغي القول كذلك أن الإنفاق يشمل بعمومه ما كان على الأهل، فإن النفقة على الأهل تقتضي الأجر والثناء للمؤمنين المنفقين - فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضا عام الفتح " وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازدادت بها درجة حتى ما تجعل في فيّ امرأتك ".
وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة ".
قوله: (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي لا يخافون إذا خاف الناس يوم القيامة فإنهم صائرون إلى كنف الله وظله، فهم آمنون مطمئنون لا يصيبهم الفزع الأكبر مثلما يصيب غيرهم من العصاة والفاسقين.
وكذلك فإنهم إذا فارقوا الحياة والأهل والخلان عند الموت لا يحزنون كما يحزن غيرهم من الناس، وهو حينئذ يدركون أنهم صائرون إلى جوار ربهم حيث الأمن والراحة والنعيم والجنة ٣٤٣.

٢٧٥ - (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله تعالى: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم عن كنتم تعلمون).

هذه مسألة هامة من المسائل التي شدد عليها الإسلام، وهي أحد المناهي الكبيرة التي لا يسقط فيها إلا الخاسرون الوالغون في الرجس والذين ينذرهم الإسلام أن تكون جسومهم حصبا لجهنم - ألا وهي مسألة الربا.

والربا جريمة كبرى قد ندد بها الإسلام، وندد بالمتعثرين فيها الذين يأكلون أموال الناس بهذه الوسيلة الخبيثة التي تفضي إلى جمع مركوم من المال الخبيث أو السحت الذي يودي بالمرابين في أودية جهنم.

ولنا أن نتصور فداحة هذه الجريمة التي حذر منها الإسلام ونحن نردد كلمات القرآن في التهديد والوعيد لأكلة الربا الذين لا يأكلون في بطونهم إلا اللهب - يستبين ذلك من الكلمات الربانية المتوعدة المفزعة كقوله سبحانه: (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقوله سبحانه: (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وفي السنة النبوية ما يكشف عن فظاعة الربا وشدة تحريم - فيقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه عنه أبو هريرة: " أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحياة تجري من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا ".

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة – رضي الله عنه- قال: قال رسول اله (ص): " الربا سبعون جزءا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه ".

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه ".

وروى الدارقطني عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية في الخطيئة ".

قوله: (الذين يأكلون الربا) أي يأخذونه ويستبيحونه لأنفسهم، وقد عبر عن مطلق الأخذ بخصوص الأكل؛ وذلك؛ لأن الأكل أهم المقاصد التي من اجلها يجمع المال أو يؤخذ - والربا معناه الزيادة، فمن زاد أو استزاد أكثر مما ينبغي من رأس المال فقد أربى، على نحو ما سنبينه في موضعه بإيجاز، أما تعريفه في الشرع، فقد عرفه البابرتي في كتاب العناية بأنه " الفضل الخالي عن العوض المشروط في البيع ٣٤٤.

قوله: (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) ذلك وصف لتعس الذين يأكلون الربا ولوضعهم المشين؛ لما قارفوه في حياتهم من فاحشة الربا - فإنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ذاهبين إلى الحشر إلا كما يقوم المصروع وهو (يتخبطه الشيطان من المس) أي يفسده بالجنون - فهو يمشي متخبطا كمن يتعثر في خطاه حين السير فهو تارة يهوي ساقطا، وأخرى ينهض ماشيا - فهو لا يقوم مرة حتى يسقط أخرى كالمجنون الذي خالطه المس - والمس معناه الجنون.

يقول ابن عباس في هذا الصدد: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق - وقيل ابن عباس في هذا الصدد: آكل الربا يبعثون يوم القيامة وقد انتفخت بطونهم كالحبالى، فكلما قاموا ليمشوا سقطوا وانتكسوا والناس يمشون عليهم.

ويستفاد من هذه العبارة القرآنية أن الصرع يصيب ابن آدم ربما كان سببه مس الشيطان له والعياذ بالله من ذلك - وفي هذا روى النسائي في سننه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو قائلا: " اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم والغرق والحريق، وأعوذ

بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا، وأعوذ بك أن أموت لديغا ".
وفي حديث آخر عنه (ص) أنه كان يدعو: " اللهم إني أعوذ بك من الجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام ".
وجدير بالقول أن ثمة أصنافا من المطعومات والموزونات والمكيلات لا يجوز بيع بعضها ببعض من نفس الجنس إلا مثلا بمثل يدا بيد سواء بسواء.
فقد روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي فيه سواء.
وفي رواية أخرى: " (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد ".
يستفاد من هذا الحديث أن هذه الأصناف الستة لا يجوز أن يباع بعضها ببعض- أي من نفس الجنس- إلا أن يكون ذلك مثلا بمثل يدا بيد - المثل بالمثل يعني المساواة بين المبيعين كليهما، سواء كان موزونين أو مكيلين أو مطعومين او غير ذلك ما دام من نفس الجنس - واليد باليد يعني أن يكون التقابض في المبيعين حالا لا مؤجلا - وأي إخلال بهذين الشرطين يدمغ البيع بوصمة الربا - أما إذا اختلفت هذه الأصناف فلا بأس أن تباع متفاضلة على أن يكون التقابض فيها يدا بيد أي حالا لا مؤجلا - وذلك كما لو بيع الذهب بالفضة أو البر بالتمر أو الملح بالشعير، فلا بأس أن يقع التفاضل بينهما سواء في الوزن أو الكيل أو غيرهما مادام التقابض حالا.
ويؤكد هذا المفهوم ويوضحه حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو من رواية الدارقطني عن علي: " الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، من كانت له حاجة بورق فليصرفها بذهب، وإن كانت له حاجة بذهب فليصرفها بورق هاء وهاء " - أي هاك وهات، أو أخذ وأعط - وذلك يعني أن يكون التقابض بين البيعين حالا وفي مجلس العقد - وصورة هذا البيع ما كان على هيئة مقايضة وهي المعاوضة عرضا بعرض - ويستوي في ذلك أن يكون الذهب أحمر أو اصفر مضروبا أو غير مضروب، وكذلك الفضة يستوي فيها أن تكون بيضاء أو سوداء مضروبة أو غير مضروبة، فإنه لا يجوز بيع الواحد منها بجنسه متفاضلا إلا أن يكون مثلا بمثل سواء بسواء - أما بيع الواحد منهما بالجنس الآخر تفاضلا جائز على أن يكون ذلك يدا بيد؛ وذلك لما بيناه من دليل، ولما روي عن عبادة بن الصامت قال: إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ " بالبُرّ والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين من زادا أو ازداد فقد أربى.
وعلى ذلك فالربا نوعان: ربا الفضل وربا النسيئة بفتح النون، أما ربا الفضل فهو الزيادة في الميكلات والموزونات عند اتحاد الجنس إذا بيع أحدهما بالآخر - وذلك كبيع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة أو القمح بالقمح أو غير ذلك على أن يكون ذلك متفاضلا وهو حرام.
وأما ربا النسيئة أو النساء فهو الزيادة في المذكورات السابقة عند اختلاف الجنس إذا كان تسليم أحد المبين مؤجلا - أو هو فضل العين على الدين في الكيلين والموزونين عند اختلاف الجنس ٣٤٥.
قوله: (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) الضمير في قوله: (بأنهم) يراد به الكافرون الذين يضادون الله في شرعه - فقد أباح هؤلاء ما حرم الله، ولم يعترفوا بما أنزل الله للناس من شرع، فانفتلوا بذلك عن دين الله وراحوا يهرفون بفاسد الكلام من اعتراض على أحكام الله وإنكار لدينه فقالوا: (إنما البيع مثل الربا) أي هما مثيلان ولا فرق بينهما فلماذا جعل هذا مباحا وهذا محرما فقضى الله في الأمر بما يحسم المسألة حسما لا يحتمل تأويلا فقال عز من قائل: (وأحل الله البيع وحرم الربا).
ومن المعلومات القواطع أن الفرق بين البيع والربا ظاهر وكبي ومستبين - فالبيع عقد يقوم على المعاوضة - وبموجبه يقبض البائع الثمن ليدفع للمبتاع المبيع على أساس من الرضا وحرية الإرادة - وعقد البيع على هذا الأساس يحتمل الربح والخسارة - فربما أصاب أحد البيّعين في عقد البيع ربحا، وربما أصاب خسارة - وتتضح هذه الحقيقة على نحو أشد في الشركات ومنها المضاربة - ذلك أن المتعاقدين الاثنين يشتركان في كل من الغُنْم والغُرم أو الربح والخسارة - والقاعدة الفقهية في ذلك معلومة ومشهورة وهي " الغُرْم بالغنم " فكلا المتعاقدين يشتركان في الربح والخسارة وذلكم هو العدل والحق.

لكن الربا يقوم على غير هذا الأساس - فهو في الأصل يقوم على الغرر وقد نهى عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم -، لما فيه من توهيم وتغرير كبيع السمك في الماء أو الطير في الهواء وهكذا يكون الربا - فآخذه بين احتمالين، فهو إما أن يستفيد مما اقترض ويربح، وإما أن يتعثر ويخسر، لكن معطيه إنما يكون ربحه مضمونا - فهو رابح على التأكيد ولا سبيل له أن يخسر، لكن معطيه إنما يكون ربحه مضمونا - فهو رابح على التأكيد ولا سبيل له أن يخسر؛ لأن الفائدة الربوية المعلومة بالنسبة إليه مشروطة - فهو لا يقرض إلا وهو عالم أن ربحه مضمون ضمن أساس مشروط لا يتخلف - وذلك تغرير وحيف وهو باطل وظلم جعله الإسلام محرما وشدد عليه التغليظ والنكير وتوعد الساقطين فيه حربا في هذه الدنيا ونار جهنم في الآخرة.

وقوله: (فمن جاء موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) شرط وجوابه.

وجملة ذلك أن من بلغه تحريم الربا فانتهى عن فعله وتعاطيه فقد غفر الله ما سلف من أكل الربا - فما كان من أكل للربا قبل التحريم فقد سقطت تبعته في الدنيا وفي الآخرة، فهو في الدنيا غير مطالب بما زاد على رأس المال أو استزاد - وفي الآخرة غير مؤاخذ عن ذلك؛ لأن من قواعد الشريعة ألا مسؤولية أو جزاء إن لم يكن ثمة التحريم، فإن عليه أن يضع ما كان قد اشترط من ربا، أما الربا الذي أخذه قبل نزول التحريم فلا يلتزم برده؛ لأنه مندرج في قوله تعالى: (فله ما سلف) وقوله في آية أخرى: (عفا الله عما سلف).

وقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوم فتح مكة: " وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس " ولم يأمرهم عليه الصلاة والسلام برد ما أخذوا من زيادة ربوية قبل نزول التحريم؛ لأن الله سبحانه قد عفا عما سلف -

قوله: (وأمره إلى الله) الضمير عائد على المكلف المنتهي عن أكل الربا والذي عفا الله له عما سلف، فإن أمره إلى الله سبحانه يبسط له الخير وأسباب الهداية والطاعة ويجعل له من أمره يسرا.

وقوله: (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) الذي يعود إلى أكل الربا بعدما جاءه من موعظة وخبر التحريم، فإنه من أصحاب النار الخالدين، وذلك أن استحل لنفسه ما حرمه الله وذلك كفر، فإنه لا يأبى شرع الله ليجد لنفيه من دون الله شرعا آخر إلا من كان كافرا - ويدخل في ذلك من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله - واسم الإشارة (أولئك) في محل رفع مبتدأ - (أصحاب) خبره - والجملة الإسمية (هم فيها خالدون) في محل نصب حال.

٢٧٦ - (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

قوله: (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) (يمحق) بمعنى يبطل ويمحو - ومنه تمحّق وامتحق - والمُحاق من الشهر بالضم، برد به الأيام الثلاثة من آخره ٣٤٦ ومحقه الله ذهب ببركته - والمقصود من الآية أن الله يذهب ببركته الربا وإن كان كثيرا - والمحق الذي يصيب الربا إما أن يأتي عليه بالكلية وإما أن يذهب الله بالبركة ليكون هزيلا في الدنيا مع ما ينتظر صاحبه من عذاب في الآخرة - وفي إنقاص الربا وإذهاب بركته روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلّ ".

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل ".

ولئن كان الربا يمحقه الله ويذهب ببركته ويبده تبديدا، فإن الصدقات يربيها الله - أي يكثرها وينميها ويجعل فيها البركة في الدنيا - وفي الآخرة يضاعف لصاحبها الأجر حتى يكون أضعافا كثيرة - وفي ذلك أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من تصدق بعدْل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى يكون مثل الجبل ".

وفي رواية أخرى لأبي هريرة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الله عز وجل يقبل الصدقة ويأخذها بيمنه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره أو فلوّه حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد ".

قوله: (والله لا يحب كل كفار أثيم) الكفار معناه الجحود الذي ينكر نعمة الله عليه - وهذا التعقيب في الوصف يناسب حال الجشعين

الفسقة الذين يأكلون الربا - وهؤلاء صنف جاحد بطر من الناس لا يرضي بالحلال من الطعام أو المال مما ارتضاه له الله، بل إنه يُعرض في إدبار وتمرد ليستبيح لنفسه الجاحدة الطامعة ما حرمه الله عليه من أموال الناس فهو بذلك مخالف لشرع الله فاسق عن أمره، أثيم.

٢٧٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

وبعد التنديد بأكلة الربا، أولئك الفسقة العصاة يمتدح الله عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وفي رأسها وأهمها الصلاة والزكاة - هذا الصنف من البشر المؤمن العامل قد كتب الله لهم الأجر، وكتب أنهم يوم القيامة آمنون لا يخافون كما يخاف الناس، ولا يحزنون لمفارقة الدنيا كما يحزن غيرهم من المفرطين الآثمين؛ لذلك قال سبحانه: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

٢٧٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) يخاطب الله عباده المؤمنين داعيا إياهم أن يتقوه، أي تخذوا من الطاعات وترك المعاصي ومجانبة الربا وقاية لهم من عذاب الله وسخطه - والله جل وعلا يأمر المؤمنين أن يذروا ما بقي من زيادة لهم على رؤوس أموالهم، والتي كانوا قد اشترطوا أخذها قبل نزول التحريم - فما بقي من الربا غير مقبوض، فإنه بعد نزول التحريم بات موضوعا.

وقوله: (إن كنتم مؤمنين) ذلك تحضيض للمؤمنين على ترك الربا واستنهاض لهم أن يلتزموا بأحكام الله وأن يذروا ما كان مشروطا لهم من زيادة على رؤوس الأموال، ويشبه ذلك ما يقوله الواحد لغيره: إن كانت شجاعا فخذ سلاحك وامض لقتال المشركين - ومعلوم أن المخاطب شجاع؛ لأن المقصود بمخاطبته على هذه الصورة بعث الحماسة في نفسه ليمضي في سبيل الله.

٢٧٩ - (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)

قوله: (فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) إن لم ينته أكلة الربا عن فعلتهم الكبيرة هذه، فإن الله معلن عليهم الحرب ورسوله، وذلك في قوله المتوعد المثير: (فاذنوا بحرب من الله ورسوله) إن هذا التهديد الرباني قارع صارم مزلزل تخفق له القلوب والمشاعر، وتضطرب لهول إيقاعه الجلود والأبدان - لا جرم أن ذلك تهديد بالغ بكشف عن مدى التنديد الذي يثيره الإسلام في وجه الربا وأكلته والداعين إليه: وقوله (ائذنوا) فعل أمر، فاعله واو الجماعة - وذلك من الإيذان وهو الإعلان - وذلك أن الله جل وعلا يتوعد أكلة الربا إن لم يقلعوا ويخضعوا لأمره، فإنه معلن عليهم ورسوله الحرب.

وقد جاء عن ابن عباس في تأويل هذه الآية: إن من كان مقيما على الربا لا ينزع عنه كان حقا على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه ٣٤٧ - ذ

وثمة كلام جيد للحسن البصري وابن سيرين فقد قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح.

(وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم) يؤكد الله عز وجل تحذيره من الربا ونهيه عن أخذ الزيادة على رأس المال - فالمسلمون الذين تابوا إلى ربهم وكفوا عن أكل الربا، فإن عليهم أن يظلوا على يقين من العلم أنه لا يحل لهم إلا رؤوس أموالهم - وهي الأموال التي قدموها للمقترضين وذلكم هو الحق - وذلكم هو العدل - وتلكم هي السبيل القويمة التي لا يقع فيها الظلم على أحد من الطرفين، سواء المقروض والمقترض - وذلك يقول سبحانه: (لا تظلمون ولا تُظلمون) وفي الحديث الشريف في هذا الصدد عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه خطب في حدة الوداع فقال: " ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب ".

٢٨٠ - (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى مسيرة) (كان) تامة بمعنى حدث - (ذو) فاعل مرفوع بالواو، (عسرة) مضاف إليه - نظرة

خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: شأنه أو حاله، فنظرة، وهي الإنظار والعسرة بمعنى الضيق، والميسرة يراد بها اليسر والسعة ٣٤٨.
بعد أن وقع التنديد بالربا وأكَلته، وبعد النهي المشدد عن الزيادة على رأس المال، فإن الله يندب عباده المؤمنين أن يتراحموا فيما بينهم ليصير الدائن على مدينه إن كان معسرا كليلا فلا يرهقه من أمره عسرا - وذلك على النقيض من حال العرب وفي القرض قبل الإسلام؛ إذ كان الدائن يقول لمدينه: إذا حل وقت الأداء، إما أن تقضي، وأما أن تُربي.
والقرآن يدعو للتراحم والتعاون والفضل أكثر من مجرد الانتظار إلى حال اليسر، فإنه يندب للعفو والتسامح وإسقاط الدين بالكلية - وذلك في قوله سبحانه: (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون).
وفي هذا الصدد من العفو وإسقاط الحق عن طيب خاطر يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " من سره أن يُظلله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه " وفي حديث آخرك " من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة ".
وفي حديث آخر عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من أراد أن تستجاب دعوته وإن تكشف كربته فليفرج عن معسر ".
وفي حديث آخر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " من أنظر معسرا أو وضع عنه قواه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حزن بربوة ثلاثا، ألا إن عمل النار سهل بسهوة " و الحزن ما غلظ من الأرض - والسهوة الغفلة.
٢٨١ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)
قوله تعالى: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) (اتقوا) فعل أمر، فاعله واو الجماعة - (يوما) مفعول به منصوب - وقد تضافرت أقوال عديدة على أن هذه الآية آخر ما نزل في الكتاب الحكيم - وقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في هذه الآية: " اجعلوها بين آية الربا وآية الدين " - وورد في حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال فيها: " جاءني جبريل فقال اجعلها على رأس مائتين وثمانين آية ".
يحذر الله الناس ويخوفهم تخويفا من هذا اليوم العصيب المشهود وهو يوم القيامة، هذا اليوم الحافل الذي تتزلزل فيه الأبدان، وتقشعر لهوله الجلود، وتبلغ فيه القلوب الحناجر، يوم تُعرض فيه أعمال الخلائق على بارئها لتجزى كل نفس ما عملت غير أن يحيق بها ظلم - فالله جل وعلا أعدل العادلين ولا يظلم الناس مثقال ذرة؛ لذلك قال: (ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون) (كل) نائب فاعل مرفوع - (نفس) مضاف إليه، (ما) في محل نصب مفعول به ثان ٣٤٩.
٢٨٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب العدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهداء وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار

كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم).
هذه أطول آية في القرآن الكريم، وهي مشهورة بآية الدين - وجملة المقصود منها أن تُكْتَبَ المداينات توثيقا لها وصونا للحقوق، كيلا تضيع أو يأتي عليها النسيان أو الجحود - ومن المعلوم أن شريعة الإسلام تقوم على الواقعية التي تدعم بكل مظاهر التيقين والتوثيق مثل الكتابة والإشهاد - وإذا لم يكن الأمر كذلك باتت الحقوق عرضة للنسيان والإنكار - ولا تركن شريعة الإسلام إلى وازع الخشية الدينية وحدها رغم أن هذا الوازع عظيم الشأن، هائل العطاء - ولكن هذه الشريعة تعوّل على الاثنين معا وهما الخشية الدينية ترافقها الأسباب الواقعية المحسة التي يحاسب على أساسها الناس في هذه الحياة أمام القضاء - وليس للجاحد في هذا الصدد إلا أن تقام عليه الحجة أمام السلطان الحاكم ليناقش الحساب فيلقى جزاءه المستحق سواء كان تغريما أو سجنا أو غير ذلك من وجوه الجزاء والعقاب.
والدّين في جملته معاملة ذات عوضين أحدهما يكون نقدا والآخر في الذمة نسيئة - وبعبارة أخرى فإنه معاملة تتألف من عوضين أحدهما عين الآخر دين والعين ما كان حاضرا، أما الدين فما كان غائبا (في الذمة).
وقد ورد عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في السلم بفتح السين واللام - وقد ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدم المدينة وهم يستلفون في الثمار السنتين والثلاث فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من أسلف في ثمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم ".
والآية في عمومها تفيد استحباب الكتابة للدين أيا كان نوع سواء في ذلك القرض الذي يتم بين دائن ومدين، أو السلم الذي يعقد بين المسلم والمسلم إليه على أن يقبض المسلم إليه الثمن في الحال بدلا عن المسلم فيه الذي يؤخذ في موعده المحدد - ويفهم ذلك من قوله: (فاكتبوه) والأمر هنا للإرشاد والاستحباب وليس للإيجاب، وهو الراجح الذي عليه جمهور أهل العلم.
قوله: (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) يكتب فعل مضارع مجزوم بلام الأمر - بين ظرف مكان منصوب، وكاف المخاطب في محل جر مضاف إليه والميم للجمع - (كاتب) فاعل مرفوع.
وتدل الآية على أن يكون الكاتب طرفا ثالثا، فليس هو بالدائن ولا المدين؛ لأن الاثنين مظنة الجور والتهمة، لكن الطرف الثالث أقرب لتسجيل الحق والقسط فلا يزيغ أو يجور.
وقوله: (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أي ليس لكاتب أن يمتنع من كتابة الدين إذا ما دُعي لذلك؛ فإنه مثلما علمه الله الكتابة فعلية ألا يبخل على غيره بهذه المعرفة - وجاء في الحديث: " من كتم علما يعلمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار " - والكاف في قوله: (كما) بمعنى مثل، صفة لمصدر محذوف تقديره كتْباً - أيك لا يأب كاتب أن يكتب كتباً مثلما علمه الله.
واختلفوا في حكم الكتابة إذا طلبها المتداينان من الكاتب - فقد قيل: إنها واجبة على الكاتب إذا طلب منه ذلك - وقيل: إنها واجبة عليه في حال فراغه - وفي قول ثالث وهو أن الكتابة في حق الكاتب فريضة إذا لم يكن غيره من يقوم بها.
وهذا هو الذي نرجحه.
وقوله: (وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا) (يملل): من الإملاء أو الإملال - وفعله الماضي أملّ وأملى - واللام للأمر - فإن الله يأمر الذي عليه الحق وهو المدين أن يملل بنفسه على الكاتب بأدائه للدائن في الموعد المتفق عليه أو حين اليسر - والإملال من نفس المدين أوثق للحق؛ لما فيه من إقرار واضح ممن عليه الحق شخصيا - وعلى المدين كذلك وهو يملل أن يصدق في إملاله وأن يتقي ربه في ذلك فلا يحيف ولا يميل ولا يبخس من الحق الذي عليه شيئا - والبخس معناه الإنقاص ٣٥٠.
وقوله: (فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) السفيه من السفه هو الخفة ونقص العقل والطيش - فمن كان به طيش أو خفة كالذي يبذر تبذيرا أو ينفق ماله على غير وجهه النافع السديد كالتبذير أو العبث فهو سفيه.
أما الضعيف فهو من الضعف - وذلك مفهوم عام يتناول كل أوجه الضعف في الإنسان وذلك كالعي والخرس والجهل والحياء والخوف - فمن كان من الكاتبين كذلك أو لا يستطيع أن يمل لمرض أو شيخوخة أو نحو ذلك، فقد بات على وليه أن يملل بدلا منه - ووليه هو الأب أو الجد أو الوصي - عن على هذا الولي أن يملل على الكاتب حقيقة الدين على أن يكون ذلك بالعدل فلا جور ولا

زيغ وال محاباة.
وقوله: (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) السين والتاء للطلب - أي اطلبوا الشهادة على الدين لتوثيقه اثنين من رجالكم؛ ولذلك فحكم الشهادة أن يشهد اثنان من الرجال في الحقوق المالية والشخصية والحدود باستثناء الزنا الذي ينبغي أن يشهد فيه أربعة؛ وذلك لخطورته.
وقوله: (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) فإذا لم يتيسر اثنان من الرجال (فرجل وامرأتان) رجل مبتدأ مرفوع، امرأتان معطوف على رجل - والخبر محذوف تقديره يقومان مقامهما.
وينبغي التقيد بالنص من حيث الإشهاد - فلا يجوز أن يقوم بالشهادة أربع من النساء، بل الإشهاد المحدد معلوم بالنص وهو إما أن يشهد رجلان أو رجل وامرأتان ممن يغلب الظن في استقامتهم وتقواهم وأنهم من الشهود العدول الذين لا يزيغون ولا يميلون، والذين تكشف عن صدقهم وعدلهم سيرتهم الحميدة، وخلقهم الحسن.
وليس للنساء كذلك أن يشهدن في غير الأمور المالية حتى ولو شهدن مع الرجال، فليس لهن أن يشهدن في القصاص أو الحدود مثلا - ولعل التعليل للتفاوت في عدد الشهداء في هذه المسألة يبينه قوله تعالى: (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) (أن) بفتح الهمزة، مصدرية في محل نصب مفعول به، بتقدير فعل محذوف - أي يشهدون أن تضل إحداهما ٣٥١ - وتضل، من الضلال وهو هنا بمعنى النسيان والغفلة وغياب الحفظ - نقول: ضل الرجل الطريق أي زل عنه فلم يهتد إليه فهو ضال - وعلى هذا فالزلل مما يشمله مفهوم الضلال ٣٥٢ وإذا كان مفهوم الضلال يتسم بالعموم ليتناول الزلل والسنيان والغفلة وغير ذلك، فإنه يتسع ليضم كل معاني الضعف في المرأة، سواء في ذلك النسيان والغفلة والزلل أو الخوف والحياء، وتلك بعض من مركبات المرأة النفسية والعضوية التي تنبثق عن حقيقة أساسية مركوزة وهي الضعف - ولئن كان الرجل والمرأة كلاهما ضعيفين، لكن المرأة لا جرم أن تكون أشد ضعفا وتلك (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله).
ومن أجل هذا الضلال المحتمل في الشهادة والذي يتمخض عنه الضعف في المرأة لشدة حيائها وفرط استعدادها للرهبة والخوف والنسيان، قضت شريعة الإسلام أن يكون الشهود في قضايا المال رجلا واحدا واثنين من النساء؛ حتى إذا ضلت واحدة منهما ذكرتها الثانية عسى أن يكون تذكيرها يثوب بها إلى الصواب والرشد أو يحفزها أن تنزع عن الزلل وتحريف الشهادة - وذلك من أن تصان الحقوق فلا تضيع أو تبدد - يضاف إلى ذلك أن المرأة قليلة الإحاطة بشؤون الناس والمجتمع؛ وذلك لقلة اختلاطها بالآخرين؛ نظرا لعكوفها عل شؤون البيت والأسرة، فهي بذلك غير جديرة بأداء الشهادة كما يؤديها الرجل وهو الخبير بأمور الناس لاختلاطه بهم - ذلك هو القول الحق في مسألة الشهادة - ولا يجادل في ذلك إلا كل مكابر عنيد أو فاجر كفور يكذب بيات الله وما نزل من الحق من عنده.
وقوله: (ولا يأت الشهداء إذا ما دعوا) إذا ما نودي الشهداء لأداء شهاداتهم كان عليهم أن يلبوا النداء - والحكم الشرعي لأداء الشهادة موضع خلاف - إلا أننا نقف عل قولين في هذه المسألة نحسب أنهما خلاصة ما ورد في ذلك من أقوال.
أولهما: إن كان ثمة شهداء آخرون يستطيعون أن يؤدوا الشهادة عل وجهها الصحيح فإن الشهادة في حق الواحد بعينه أمر مندوب.
ثانيهما: إذا خيف من فوات الشهادة وضياع الحق وما يتبع ذلك من ضرر سيقع، فإن أداء الشهادة في حق المعطلين العارفين أمر واجب.
وقوله: (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) (تسأموا) مجزوم بحذف النون بلا الناهية - والمصدر من أن تكتبوه في محل نصب مفعول به - والهاء ضمير في محل نصب مفعول به للفعل تكتبون - (صغيرا) منصوب على الحال، كبيرا معطوف عل (صغيرا) - والفعل تسأموا أن يكتبوا مدايناتهم إل موعدها المحدد، سواء كانت قليلة أم كثيرة؛ لما في ذلك من صون لها وإبعاد عن تضييعها - لا جرم أن كتابة الدين والإشهاد عليه يحقق العدل للمتداينين - وذلكم (أقوم للشهداء) أي أثبت للشاهد، فهو إذا رأى خطه تذكر به الشهادة؛ إذ يحتمل أنه لو لم يكتبه لنسيه - وفي الكتابة ما يقرب الناس إل عدم الريبة والتردد؛ وما يفض النزاع بينهم والخصام - وذلك مقتض قوله تعالى: (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدن لا ترتابوا).
وقوله: (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) (إلا) أداة استثناء - والمصدر من أن والفعل في محل نصب مستثنى.

و (تجارة) خبر كان - (حاضرة) صفة لتجارة، والجملة الفعلية من (تديرونها) في محل نصب صفة ثانية لتجارة.
إذا كان البيع بالتقابض الحاضر أو يدا بيد، فليس من جناح (بأس) ألا يكون ثمة كتابة، بل يدفع البائع السلعة المبيعة للمشتري ليؤدي هذا الثمن حالا دون تأجيل أو نسيئة، فإن كان شيء من تأجيل أو كتابة ندبت الكتابة أو وجبت عل الخلاف.
وقوله: (وأشهدوا إذا تبايعتم) تلك دعوة كريمة للإشهاد على البيوع مهما كان حجم المبيعات، لكن الفقهاء اختلفوا في حكم الإشهاد عل المبايعات إل مذهبين.
أولهما: أن الإشهاد واجب استنادا إل ظاهر قوله تعالى: (وأشهدوا إذا تبايعتم) وذهب إلى ذلك أبو موسى الأشعري وعبد الله بن عمر والضحاك وسعيد بن المسيب ومجاهد وداود بن علي الظاهري.
ثانيهما: أن الإشهاد مندوب وليس مفروضا وهو قول أكثر الفقهاء، منهم مالك والشافعي والحنفية - وقد حمل هؤلاء الطلب في الآية على الندب والاستحباب لا الحتم والإيجاب - واستدلوا كذلك بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد كان عليه السلام يبيع دون أن يُشهد وقد اشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يُشهد أيضا - وذلك الذي نميل إليه؛ لما ورد من دليل - يضاف إليه أن إيجاب الإشهاد عل المبايعات مهما قلّت أو صغر حجمها وفي كل الأحوال والظروف يوقع الناس في حرج عظيم - ومعلوم أن الشريعة ميسورة وأنها في يسرها تأب الحرج؛ لقوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) ٣٥٣.
قوله: (ولا يضار كاتب ولا شهيد) (يضار) فعل مضارع مبني للمعلوم.
وأصله يضارر أدغمت الراء الأولى في الثانية فصار الفعل يضار.
(كاتب) فاعل مرفوع - (شهيد) معطوف على كاتب - وعل هذا الاعتبار فإن الكاتب والشهيد قد نُهي كل واحد منهما عن إيقاع الضرر - فليس للكتّاب أن يضر وذلك بكتبه غير الصحيح - وليس للشهيد كذلك أن يضر بزيغه عن قول الحق.
وقيل: (يضار) فعل مضارع مبني للمجهول - وعلى هذا فأصل الكلمة يضارر - (كاتب) نائب فاعل مرفوع - (شهيد) معطوف عل كاتب فيكون المعنى أنه ليس لكم أن تضروا الكاتب والشهيد إذا دعوتموهما للكتابة والشهادة فاعتذر لانشغالهما ونحوه.
قوله (وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) (إن) أداة شرط جملته (تفعلوا) - والفاء مقترنة بجواب الشرط - وجواب الشرط الجملة الاسمية من أن واسمها وخبرها - أي إن تفعلوا المضارة وذلك أن يزيغ قلم الكاتب فيكتب غير الحق أو يميل لسان الشاهد فيشهد بالباطل، وفي ذلك ضرر معلوم؛ فإن ذلك (فسوق بكم) أي حال بكم، والفسوق المعصية والخروج عن طاعة الله.
أو أن يكون المعنى على الوجه الآخر وهو إن تفعلوا المضارة بالكاتب والشهيد وذلك بإيذائهما لاعتذارهما عن الكتابة والشهادة فإن ذلك (فسوقا بكم) أي معصية لله واقعة بكم.
وقوله: (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم) يأمر الله عباده المؤمنين بتقواه وهو خوفه ومراقبته في السر والعلن، ومن يكن كذلك فإن الله يؤتيه علما ويجعل في قلبه نورا ويكشف له عن كثير من مغاليق الأمور ومعمياتها؛ ليزداد على الدوام علما على علم - والله جلت قدرته أعلم العالمين فهو عليم بكل شيء وإن علمه محيط بالكون والحياة وكل شيء.
٢٨٣ - (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: (وإن كنتم عل سفر ولم تجدوا كاتبا فرهانٌ مقبوضة فإن آمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه ثم قلبه والله بما تعملون عليم) ربما يتعذر على المرء أن يأتي بالكاتب ليكتب الدين، وكثيرا ما يكون ذلك في حال السفر، ويلحق بغياب الكاتب انعدام أدوات الكتابة مثل القرطاس والقلم والمداد - فإذا ما تعذر وجود شيء من ذلك وتعذرت الكتابة كان للدائن أن يستحصل من مدينه رهنا يقبضه يدا بيد، وذلك حال انعقاد الدين في مجلس العقد - وقد صنع النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل ذلك - فقد أهرج النسائي من حديث ابن عباس قال: توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودرعه

مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير لأهله.
والرهان جمع ومفرده رهن وفعله رهن أي ثبت ودام واستمر، والراهن هو الثابت الدائم المستمر، نقول رهنته المتاع بالدين أي حبست متاعه إلى أن يؤدي ما عليه من دين ٣٥٤.
والراهن في الاصطلاح الشرعي كما عرفه القرطبي رحمه الله هو: احتباس العين وثيقة بالحق ليستوفي الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم - وقد جعل الرهن بدلا عن الكتابة عند تعذرها وأغلب ما يكون في ذلك السفر والمقصود من الرهن توثيق الحقوق التي للدائنين عل المدينين؛ كيلا يجحدوها أو تصيبهم فيها غفلة أو إهمال ٣٥٥.
ولا يجوز للمرتهن (الدائن) أن ينتفع بشيء من الرهن الذي أصبح بحوزته وما الرهن عنده إلا لتوثيق دينه فيطمئن - والمعلوم في مثل هذه المسألة أن دينا جرّ نفعا فهو حرام؛ لصلته بالربا - وفي هذا الصدد يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " لا يُغلق الرهن من صاحبه الذي رهنه، له غنمه وعليه غُرمه " أي أن المال المرهون لا يخرج من ملكية صاحبه الراهن وهو المدين ليصبح مملوكا للمرتهن الدائن إذا لم يستطع الأول (المدين) أداء ما عليه من دين، بل إن المرهون يظل مملوكا عل الدوام للمدين وعليه نفقته وله ثمرته، وذلك معنى قوله: " له غنمه وعليه غرمه " أما أن يستعمل الدائن المرتهن ثمرة المرهون مادام عنده فذلك غير جائز لصلته بالربا ٣٥٦.
وقوله: (فإن آمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه) شرط وجوابه وجملة الشرط أمن بعضكم بعضا، والجواب ليؤد الذي أؤتمن أمانته، والفاء مقترن به - و (الذي أؤتمن) هو المدين الذي عليه الحق - والأمانة اسم لما يكون في الذمة والمراد أن المدين الذي عليه الحق إذا ائتمنه الدائن وكان موضع ثقته، فعليه أن يكون في موضع الثقة والأمان بالفعل - وعليه بالتالي أن يؤدي ما في ذمته من حق للدائن دون مطل أو تقاعس ودون بخْس للأمانة التي في ذمته من حق للدائن دون مطل أو تقاعس ودون بخْس للأمانة التي في ذمته.
وشأن القرآن دائما وهو يبين للناس حدودهم وخطوط شريعتهم ألا يبرح حتى يخاطب في الإنسان فطرته وقلبه؛ ليستنهض فيه الهمة، ويثير فيه رهافة الحس ويقظة المشاعر، فتظل على الدوام مبعثا للخير والاستقامة والعدل - يتجل ذلك فهي قوله سبحانه: (وليتق الله ربه) وذلك بعد إيجاب الأداء في أمانة وحق.
وقوله: (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) ينهى الله عن إخفاء الشهادة أو كتمانها؛ لما في ذلك من إزهاق للحقوق وتضييع لها.
وقد أوضحنا سابقا أن الأصل في أداء الشهادة من حيث الحكم الشرعي هو الوجوب على الكفاية، فإن كان الشهود كثيرين وتقدم منهم اثنان ليشهدا برئت ذمة الباقين جميعا، لكنه إذا لم يكن من الشهود غير اثنين فقد تعين عليهما أن يؤديا الشهادة صونا للحق، أو كانوا كثيرا لكن الحاكم لم يركن إلى غير اثنين منهم ليقوما بالشهادة، فقد تعين عليهما أيضا أن يقوما لأدائها - فإذا لم يفعلا ذلك وامتنعا من أداء الشهادة وقعا في المحظور وهو كتم الشهادة، (ومن يكتمها فإنه ثم قلبه) (ومن) اسم شرط جملته الجملة الفعلية (يكتمها) - والفاء بعدها مقترن بالجواب - والضمير في محل نصب اسم إن، (ثم) خبر مقدم - (قلبه) مبتدأ مؤخر، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر إن - وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب ٣٥٧.
والذي يكتم الشهادة عند الحاجة إليها عل النحو الذي بيناه يكون ثم القلب - ومن كان قلبه آثما فقد احتمل فسادا كبيرا وفسقا عن أمر الله.
قوله: (والله بما تعملون عليم) ذلك تحذير من الله للناس؛ كيلا يكتموا الشهادة فتظل حبيسة في صدورهم فإنه سبحانه يعلم ما تكنه هذه الصدور وما تنثني عليه من فاسد الخبايا وإخفاء للشهادات ٣٥٨.
٢٨٤ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله تعالى: (لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوها يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء

والله على كل شيء قدير) (لله) في محل رفع خبر مقدم - (ما) اسم موصول في محل رفع مبتدأ - والواو بعدها للعطف - والية بمثابة إعلان حاسم ومجلجل على أن كل ما في الوجود مملوك لله سبحانه، فإنه جل جلاله الواحد المتفرّد الأحد الذي ليس له ولي من الذل ولا يشاركه في الخلق أحد - ذلك هو الله الذي بيده ملكوت كل شيء.

وقوله: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوها يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) هذه الآية موضع تفصيل مختلف لدى المفسرين والعلماء، لكننا نستخلص من ذلك كله قولين يمكن التعويل عليهما في إدراك المقصود من الآية:

القول الأول: وهو أن هذه الآية منسوخة - فقد ذهب فريق من العلماء إلى أنه لدى نزول هذه الآية فزعت الصحابة واشتد الأمر عليهم وخافوا من محاسبة الله لهم على ما تكنه قلوبهم وما يخفونه في أنفسهم فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم جثوا عل الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها - فقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " أتريدون ان تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير - فلما دفعوا ذلك نسخ الله هذه الآية بقوله تعال: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وخلاصة هذا القول أن الأمر قد اشتد عل الصحابة وغشيهم خوف شديد لد نزول قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فمحاسبتهم عل ما يظهرونه من أعمال قد عرفوه، لكن الذي شق عليهم كثيرا أن يحاسبوا عما يخفونه في أنفسهم من أفكار ووسوسات وهواجس مجردة عن التنفيذ والممارسة - فنسخ الله الآية بقوله: (لا يكلف الله نفسها إلا وسعها) ٣٥٩ وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل ".

القول الثاني: وهو لكثير من العلماء وفيهم ابن عباس إذ قالوا: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة - والمعن: إن الله سبحانه وتعالى إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول لهم: أني إخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فإنه يخبرهم ثم يغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو معنى قوله: (يحاسبكم به الله) فالمراد بالمحاسبة الإخبار - وأما أهل الشك والنفاق، فإنه يخبرهم بما أخفوه في أنفسهم من السوء والشك والتكذيب - وعلى هذا فإنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة - فإن الله قد يحاسب فيغفر ولا يعاقب وربما حاسب وعاقب - وقد سأل رجل عبد الله بن عمر عن النجوى - فقال ابن عمر: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه ٣٦٠ فيقرره بذنوبه فيقول له: هل تعرف كذا، فيقول: رب أعرف مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لكم اليوم ".

وجاء في الخبر " إن الله تعالى يقول يوم القيامة: هذا يوم تُبلى فيه السرائر، وتخرج الضمائر، وإن كتابي لم يكتبوه إلا ما ظهر من أعمالكم، وأنا المطلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يخبروه ولا كتبوه، فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء " ذلك ما نستخلصه في تأويل هذه الآية مع تخريجنا للقول الثاني من أن الآية محكمة لم ينسخها شيء لما بينا من دليل والله تعالى أعلم ٣٦١.

والله جل وعلا يغفر إن شاء ويعذب إن شاء وهو سبحانه يقضي بالحق ولا معقب لقضائه، وذلك بما له من مطلق الإرادة وبالغها، ومن تمام الهيمنة وكاملها وهو سبحانه كما قال عن نفسه في آخر الآية في أجمل وصف وأكمله: (والله عل كل شيء قدير).

٢٨٥ - (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) ذلك إخبار من الله يثني فيه على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى أمته من بعده؛ ولذلك عطف بقوله: (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته - - .) والإيمان هو التصديق القائم على اليقين - فقد آمن النبي الكريم عليه السلام

وآمن معه ومن بعده المؤمنون - آمنوا جميعا بأركان هذه العقيدة التي بينتها الآية وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقوله: (لا نفرق بين أحد من رسله) وذلك ثناء آخر عل المؤمنين في هذه الأمة - وهو أن المؤمن لا يفرق بين الرسول كما فعلت اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، بل إن المؤمن من هذه الأمة لا يَصدق إيمانه إلا أن يؤمن بالنبيين والمرسلين أجمعين دون تفريق بينهم في الإيمان.

ومن شأن المؤمنين الصادقين المختبتين أن يسمعوا كلام الله ويبادروا بالطاعة دون تخلف، ومن شأنهم كذلك أن يتوسلوا إلى ربهم بالدعاء المتذلل ليغفر لهم خطاياهم وفي ذلك يقول سبحانه: (وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) (غفرانك) مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف تقديره اغفر (المصير) المرجع والمآب وذلك يوم القيامة.

٢٨٦ - (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قوله: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) هذه الآية هي إحدى الأمهات الكبريات التي تقوم عليها شريعة الإسلام - وهي سبب من أسباب الصلاح الذي يتجل في هذه الشريعة القائمة على الحنيفية السمحة أو السهولة واليسر؛ كيلا يكون في الإسلام ضيق أو إعنات أو حرج كالذي كانت عليه الشرائع قبل الإسلام.

وفي الآية بيان بأن الله جل وعلا غير مكلف أحدا من العباد بما لا يطيق، والوسع معناه الطاقة أو حجم الاقتدار للإنسان - فما كان فوق طاقة الإنسان مما يفوق حجم قدرته فهو غير مكلف به - وقد يكون التكليف بما يتضمن مشقة على أن يكون ذلك محتملا أو في حدود المقدور للإنسان.

وإن كانت المشقة غير محتملة أو لا يطيقها الإنسان فقد بات المرء فير مكلف بها استنادا إلى قوله تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) - إن هذه الحقيقة من التيسير والتسهيل ورفع الحرج تتخلل كل جوانب هذا الدين الميسور - سواء في ذلك العقيدة بكل أركانها وأفرعها والأحكام من معاملات وجنايات وسلوك، كل أولئك قد قرره الإسلام ليجيء منسجما مع طبيعة الإنسان وطاقته واقتداره - يدل على ذلك تشريع الإسلام للرخص في كل مناحي الشريعة لتكون للمسلمين مناصا ينفذون منه إلى حومة اليسر كلما حاق بهم ضيق أو حرج يصعب تجاوزه إلا بإعنات بالغ.

وقوله: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) كسب واكتسب بمعنى واحد وهو التصرف سواء في ذلك عمل الخير أو الشر، وعلى ذلك فالنفس لها ما أصابت من الخير وعليها ما أصابت من الشر من وجوه المحرمات والمحظورات - على أن اللفظين وهما الكسب والاكتساب من حيث المعنى والمدلول لا يفترقان، لكن التكرار المتجانس هنا يراد منه التنويع في التصريف مراعاة لحسن الكلام وجودته بما يروق للنفس وهي تتملاه، كشأن القرآن في هذه المسألة.

وقوله (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) ذلك تعليم من الله لعباده المؤمنين أن يدعوه بمثل هذا الدعاء وهو طلبهم إليه متوسلين ألا يؤاخذهم على النسيان والخطأ - ونفي المؤاخذة من الله في نسيان العبد وخطئه تعني رفع الإثم عنه في هذين الأمرين - وبذلك فإن العبد غير مؤاخذ في حال نسيانه وحال خطئه - وتلك رحمة من الله يفيضها على العباد - وفي هذا الصدد روى الطبراني في الكبير عن ثوبان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ".

وقوله: (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا)

الإصر في اللغة العهد - والمراد به هنا الذنب والثقل والضيق، وجمعه الآصار ٣٦٢ - وذلكم ترشيد آخر من الله للمؤمنين ليدعوه بأن لا يكلفهم من الأفعال الشاقة الصعبة التي لا تطاق، وذلك كالذي أثقل به كواهل الأمم السالفة من التكليف القاهر العسير.

ومن قواعد هذا الدين أنه قائم على الحنيفية والتيسير، وأنه ينفي الضيق والحرج والتعسير كما بيناه نفا؛ لأنه دين الفطرة الإنسانية، والذي يتلاءم وطبيعة الإنسان في غير ما إعنات أو إحراج - يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في ذلك: " الدين يسر فيسروا ولا تعسروا " ويقول عليه الصلاة والسلام: " بُعثت بالحنيفية السمحة "

وقوله: (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) وهو ترشيد ثالث للمؤمنين ليدعوا الله ألا يكلفهم من الواجبات والأعمال ما لا يطيقون - وقد استجاب الله لهذه الأمة دعاءها إذ أسقط عنها إثم النسيان والخطأ، ولم يحملها من الآصار وثقيل التكاليف ما لا يطيقون كالذي أثقل به كواهل الأمم السالفة، وبذلك قد أذهب عنها وطأة التكليف بما لا طاقة للإنسان به.

وأخيرا أفاض الله على المؤمنين بكريم العطاء وجزيل الخير إذا منّ عليهم بالعفو أولا وذلك عن الذنوب التي يقترفها العباد في حق الله، ثم منّ عليهم بالغفر أي الستر فقد ستر الله للمؤمنين ذنوبهم التي اقترفوها في حق العباد.

وفوق ذلك كله تأتي الرحمة من الله يفيضها على عباده المؤمنين ليكونوا دائما في كلاءته وهم تحف بهم أجنحة الرحمة في حلهم وترحالهم وفي حياتهم الدنيوية هذه وما يتخللها من الأفعال والأقوال - وفي يقول سبحانه: (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا).

ثم يأتي الإقرار الحاسم الأكبر من العباد المؤمنين بأن الله جلت قدرته هو وليهم وناصرهم، وإنه الرب المستعان وعليه الاعتماد والتكلان، وأنه ليس لهم دونه من ولي ولا ناصر يكتب لهم النصر عل الأعداء المتربصين الكافرين - وفي ذلك يقول سبحانه: (أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) ٣٦٣.

نضرع إلى الله متوسلين متذللين ألا يؤاخذنا فيما كسبت أذهاننا من نسيان، وما اكتسبت جوارحنا من أخطاء، وأن يعفو عن زلاتنا، ويغفر لنا الذنوب والآثام، وأن يستر علينا العيوب والمعاصي، وأن يفيض علينا برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يكتب النصر لدينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - آمين.

٣ سورة آل عمران:

سورة آل عمران:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية من غير خلاف، وفي فضلها وعظيم قدرها مع سورة البقرة يقول الرسول صلى الله عليه و سلم: " تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان ١ يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان " ٢.

وقد تضمنت هذه السورة فيضا من المعاني والمشاهد والمواقف والأحكام مما نعرض له بمشيئته الله وعونه وكلاءته في هذا التفسير.

ويأتي في طليعة ذلك كله الحديث عن حروف التهجي، وهي الألف واللام والميم - وهذه واحدة من فواتح السور المبدوءة بها سورتنا هذه.

ومن مضامين هذه السورة أيضا إطراؤها للكتب السماوية الثلاثة وهي التوراة والإنجيل والفرقان - وأن هذه الكتب قد جيء بها لبني البشر من أجل هدايتهم وترشيدهم، وكيما يمضوا في هذه الحياة آمنين سالمين أخيار وقد أظلتهم أفياء الخير والمودة والعيش المطمئن الراغد.

وفي السورة بيان بأن هذا الكتاب الحكيم شطران، أحدهما: آيات محكمات أي واضحات مستبينات - وهذا الشطر الأعظم من كتاب الله لا جرم أنه المتسع الأكبر لكل قضايا الدين والدنيا، وأنه المعين الفياض الذي تستمد منه البشرية على مر الزمن كل معاني الخير والهداية، وعامة قضايا الحكمة والمعرفة والتشريع.

ثانيهما: آيات متشابهات - أي غير واضحات من حيث معناها أو المراد منها، بل هن محتملات مجملات لا يظهر مقصودها إلا بالنظر والتمحيص البالغين، وإنما يناط ذلك بنخبة من أولي العلم والنظر ليبذلوا قصارى تفكيرهم واجتهادهم عسى أن يقفوا على المراد من مثل هذه الآيات المتشابهات.

وفي هذا الصدد يحذر الله سبحانه من فريق متحذلق يصطنع العلم والمعرفة اصطناعا - أولئك الذين يخوضون في كلام الله بغير حق ولا بصيرة، والذين تلوك ألسنتهم مقالات التحريف والفتنة متذرعين بالظواهر لمثل هذه الآيات المتشابهان بقصد أو بغير قصد - وفي ذلك من الفتنة والتضليل وتشويش الأذهان ما لا يخفى.

وتذكر السورة بما جبل عليه الإنسان من ميل للشهوات الحقيقية، الشهوات الأساسية المركوزة التي غالبا ما تأسر أعصاب الإنسان وعقله أسرا، وهو بدوره يجنح خلفها جنوحا إلا أن يكون له زاد ضخم ورصين من اعتصام كإرادة صلبة مكينة، أو عقيدة راسخة متينة تمسك بزمام الإنسان كله لتسلك به مسالك الخير والنجاة، فلا يضل أو يزل أو يتردى.

وفي طليعة هذه الشهوات حب النساء - لا جرم أن ذلك حب راسخ ومفطور، بل إن إحساس بالغ ومستكن لا مندوحة للإنسان عن مراعاته تمام المراعاة، ولكن في غاية من الاهتمام والاتزان ومن غير تسيب في ذلك ولا فوضى، وكلمة الإسلام في ذلك لهي خيرا ما عرفته البشرية في هذا الصدد - وهو ما نعرض له في حينه لدى الكلام عن تفسيره هذه الآية.

وكذلك حب البنين - وهم الأولاد والأحفاد، فلذات الأكباد - وهو بعض آبائهم وأمهاتهم؛ بل غنهم جزء من كيانهم العضوي والعقلي والروحي، فلا يبرح المرء- ذكرا أو أنثى- حتى تراوده موجة الحب والحنين لولده، فضلا عن استئثار البنين بالاعتبار الظاهر لدى العرب، وهم يجدون في أبنائهم وسيلة للتعضيد والظهور في زحمة الواقع.

وكذلك حب المال - فإنه يستأثر بالنسبة الكبرى لحب البشرية وولعها بالدنيا ولذائذها وزخارفها - لا جرم أن حب المال قد استحوذ على قلب الإنسان وعلى طبعه وأعصابه، فبات بذلك رهين هذه الشهوة الراسخة الحاحة، بل إن الإنسان على اختلاف أجناسه وتصوراته ومعتقده لا يبرح قلبه حب المال والرغبة المستديمة في الاستزادة من أكداسه الطائلة المركومة.

وتتضمن السورة الكريمة أيضا هذا القرار الرباني الحاسم - القرار الإلهي الأعظم الذي لا يخالطه شيء من ريبة أو زيغ - وإنما هو القرار الكامل الأمثل الذي يضع البشرية على الطريق السوي المتوازن، بل يضعها على المحجة الناصعة المستقيمة، المحجة السليمة من أي خلل أو اعوجاج، وذلك بعد أن استكملت البشرية دورتها في عجلة الحياة السائرة الدائرة، فاستقر بها الشأن إلى حال مكتمل من الثبات والتوازن والاعتدال - وهي في ذلك إنما يصلح حالها كله في ظل الإسلام الذي قرره الله للبشرية دينا كاملا شاملا طيلة حياتها الدنيا هذه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - ذلكم هو القرار الكوني المجلجل الذي كتبه الله لعباده إذ جعل لهم الإسلام وحده دينهم المميز الأمثل ليرسم للبشرية من خلاله حياتها الكريمة الفضلى - حياة حافلة بالخير والعدل والنجاة والرحمة - فقال عز من قائل: (إن الدين عند الله الإسلام).

وتتضمن السورة كذلك جملة اصطفاءات ربانية مميزة، أولها اصطفاء آدم أبي البشر إذ خلقه الله من تراب على نحو مغاير للكيفية التي خلق بها بقية البشر حيث التناكح والإنجاب - ثم نوح، وهو الأب الثاني للبشر بعد أن أهلك الله السالفين لما كفروا ولجوا بالجحود والعناد فأخذهم الطوفان الهادي فغرقهم تغريقا.

ثم آل إبراهيم - هذا النبي العظيم الخليل الذي جعل الله في ذريته النبوة فكان فيهم النبيون والمرسلون من بني إسرائيل - وهذا النبي خاتمهم الأكرم محمد صلى الله عليه و سلم.

وكذلك آل عمران إذ جعل الله من نسله خير نساء العالمين - تلك المرأة الطاهرة البتول الفضلى (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) هذه المرأة المبرأة المصون، عنوان الطهر والعفاف، قد كتب الله أن تحقق من خلالها معجزته العجيبة الخالدة بولادتها المسيح من غير أب ليكون نبيا وسيدا وحصورا.

وتتضمن السورة أيضا تقريرا لحقيقة راسخة ثابتة، وهي انتفاء اليهودية والنصرانية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام لتقرر في مقابل ذلك أن خليل الله إنما كان حنيفا مسلما، أي أنه كان على فطرة التوحيد الخالص الذي لا يخالطه ذرة من إشراك، خلافا لليهودية والنصرانية اللتين خالطهما الشرك على اختلاف صورة سواء في ذلك عبادة بعض النبيين أو الأشخاص أو غيرهم من أشكال الهوى.

وتتضمن السورة أيضا إظهارا لشأن البيت الحرام حيث الكعبة المعظمة التي جعلها الله مثابة للناس وأمنا - وفي هذا الصدد من تكريم الكعبة وإطرائها يأتي ذكر الحد إذ جعله الله فرضا على كل مسلم قادر عاقل بالغ مستطيع.

ومما تضمنته هذه السورة كغيرها من السور الكثيرة المدنية قصة بني إسرائيل مع الأمم على امتداد الأحقاب والأدهار - وهي قصة لا جرم أنها طويلة ومريرة ومثيرة للدهش والتعجب، إنها قصة الكيد للبشرية والتآمر عليها في قيمنها ومقوماتها وعظمائها من

النبيين والمصلحين - وقد تجلى ذلك في صور شتى من ألوان الكيد ما بين قمع وقتل وتدمير وإبادة - إلى غير ذلك من وجوه السلب للخيرات والثروات واغتصاب الديار والأوطان وتشويه المبادئ والحقائق والأديان ونشر الفوضى والإرهاب والترويع والفساد، يضاف إلى ذلك أيضا كيد الصليبية الحاقدة الظالمة، الصليبية المتربصة المتعصبة التي لا تقيم وزنا لدين من أديان السماء، ولا لقيمة من قيم الحق والإنسانية، إلا التعصب الفاجر الأعمى، والحقد الأسود المركوم، الحق الذي يتخلل النفسية الغربية فيشوبها بشائبة الكراهية المقيتة للإسلام والمسلمين.

وتتضمن السورة أيضا قصة أحد وما حوته هذه المعركة من دروس جليلة مستفادة ما كان ينبغي أن تغيب عن أهان المسلمين في يوم من الأيام، ويأتي في طليعة ذلك أن النصر المنزل من عند الله إنما يكتبه الله لعباده الأبرار الذين أخلصوا دينهم وسائر أعمالهم لله وحده، فلم يخالطهم في ذلك أيما توجه نحو لعاعة من لعاعات الدنيا أو حظوة من حظواتها، كالمال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك من وجوه الشهوة والهوى.

وغير ذلك من المواضيع والمسائل والمعاني كثير نقف عليه غي حينه إن شاء الله.

سبب نزول السورة:

قال المفسرون في نزول صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية: قدم وفد من نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه و سلم وكانوا ستين راكبا وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم - ومن بينهم ثلاثة نفر يئول إليهم أمرهم، وهم: أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه وهو عبد المسيح: ثم إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، ثم أبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحبرهم، فقد قدموا جميعا على رسول الله صلى الله عليه و سلم ودخلوا مسجده حين صلى العصر وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة، ولما حانت صلاتهم قاموا فصلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال رسول الله: " دعوهم " فصلوا إلى المشرق، فكلم أميرهم عبد المسيح وإمامهم الأيهم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه و سلم: " أسلما " فقالا: قد أسلمنا قبلك - قال: " كذبتما منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير " قالا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعا في عيسى، فقال لهما النبي صلى الله عليه و سلم: " ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ " قالوا: بلى، قال: " ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ " قالوا: بلى - قال: " ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ " قالوا: بلى - قال: " فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ " قالوا: لا - قال: " فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟ " قالوا: بلى - قال: " ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ " قالوا: بلى - قال: " فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ " فسكتوا، فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها ٣.

البيان التفصيلي للسورة

بينا سابقا أن هذا السورة حافلة بالمعاني الزاخرة والمشاهد والأحكام الظاهرة مما نعرض لكل من ذلك في حينه بعون الله.

١ - (الم)

قوله تعالى: (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

نبادر هنا بالحديث عن الأحرف الهجائية الثلاثة التي بدئت بها هذه السورة وهي الألف واللام والميم على نحو ما بيناه في سورة البقرة عن هذه المسألة.

وهذه الأحرف الثلاثة واحدة من فواتح السور التي بدئ بها كثير من سور الكتاب الحكيم، على أن الكلام في تفصيل هذه الأحرف الفواتح طويل مما هو موضع تفصيل وخلاف بين العلماء - حتى إن تأويل ذلك قد بلغ من الأقوال بضعا وعشرين وهي أقوال يميزها

العمق والتباين والتفاوت ٤ لكننا نقتضب منها أقوالا ثلاثة هي:
القول الأول: وهو أن مثل هذا العلم مستور وسر محجوب استأثر الله تبارك وتعالى به - وقد ذهب إلى ذلك فريق من الصحابة وآخرين - وفي هذا الصدد يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لله في كل كتاب سر - وسره في القرآن أوائل السور.
وقال علي رضي الله عنه: إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي.
وسئل الشعبي عن هذه الحروف فقال: سر الله فلا تطلبوه - وروي عن ابن عباس قال: عجزت العلماء عن إدراكها - وقال الحسين بن الفضل: هو من المتشابه، لكن أهل الكلام أنكروا هذا القول وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلق، واحتجوا على ذلك بالآيات والأخبار والمعقول ٥.
القول الثاني: وهو قول قطرب - وهو أن الكفار لما قالوا: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وتواصوا بالإعراض عنه، أراد الله تعالى أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون ذلك سبب لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليه من القرآن، فأنزل الله تعالى عليهم هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد صلى الله عليه و سلم: فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن، فكان ذلك سببا لاستماعهم واسترعاء أذهانهن وقلوبهم ٦.
ومثل هذا القول معقول وسديد إذا أدركنا ما كان يجده العرب الأقدمون من روعة اللمس والتأثير وهم يتسمعون للقرآن في أول مرة، فما كانوا يتسمعون لهذا الكلام الحكيم الفذ إلا وهو يجدون برد الإيقاع العجيب يمس قلوبهم ومشاعرهم مسا - ومن أجل ذلك تواصوا فيما بينهم أن يبادروا بالتشويش من لغط الكلام الفارغ اللاغي ما يحول بين القرآن وعقولهم، حتى بودروا بمثل هاتيك الفواتح من حروف التهجي فما استوقفهم استيقافا ونشر في قلوبهم وأفكارهم غاشية من الوجوم الغامر المذهل - فما كانوا لينصتوا ويستمعوا حتى تفجأهم ألفاظ القرآن بسحائب كثاف مجلجلة من البهر القارع والجمال المستحوذ الأخاذ ٧.
القول الثالث: وهو قول المبرد وكثير من المحققين، إذ قالوا: إن الله تعالى إنما مثل هذه الفواتح احتجاجا على الكفار - وذلك أن الرسول صلى الله عليه و سلم لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن - فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله وليس من عند البشر ٨.
ومثل هذا التأويل لا يقل –في نظري- سدادا ومعقولية عن التأويل الثاني السابق؛ لما في ذلك من استنهاض للوجدان والحس والذهن جميعا كيما يصحو على الحقيقة الساطعة البلجة الماثلة للفطرة السليمة في هذا الكلام المعجز.
٢ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)
قوله تعالى: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).
ذلك إخبار من الله جل جلاله عن ذاته أنه سبحانه متفرد بالإلهية، والكائنات جميعهم مخلوقون، فهو سبحانه الإله المعبود، وما عداه من الخلائق عبيد - وهو في ذاته وجلاله حي لا يأتي عليه موت أو فناء، وهو القيوم - أي القائم بذاته، والقائم بتدبير الخلق والمصالح لما يحتاجون إليه في معاشهم، بل القائم على كل نفس بما كسبت، الشهيد على كل شيء، فلا يغيب عنه شيء، ولا يندّ عن علمه وقدرته وإرادته شيء ٩.
على أن هذه الآية واحدة من محكمات الكتاب الحكيم بما انطوت عليه من صورة جلية للتوحيد الكامل لجلال الله، المتصف بكل صفات الكمال والجلال، المبرأ من كل العيوب والنقصان - وفي اشتمال هذه الآية على اسم الله الأعظم أخرج الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) و (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم): " إن فيهما اسم الله الأعظم " ١٠.
وكذلك في الحديث المرفوع عن أبي أمامة قال: " اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب: في ثلاث سور: البقرة وآل عمران وطه -

وقد قيل: أما البقرة: ف (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، وفي آل عمران: (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) - وفي طه: (وعنت الوجوه للحي القيوم) ١١.

٣ - (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ)

قوله: (نزل عليكم الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) المخاطب هنا الرسول صلى الله عليه و سلم فقد نزل الله عليه كتابه الحكيم (القرآن) منجما - أي نزل نجوما، شيئا بعد شيء تبعا للحوادث والوقائع ومقتضيات العقيدة وأحكام الشريعة وأحوال المسلمين - فقد أنزل الله كتابه هكذا بالحق، أي بالصدق وبالحجج البالغة المحققة أنه من عند الله - (مصدقا) حال منصوب - (لما بين يديه) أي أنه مصدق لكتب الله السابقة التي أنزلها على النبيين عليهم الصلاة والسلام من قبل الرسول الخاتم صلى الله عليه و سلم.

قوله: (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) التوراة والإنجيل كلمتان غير عربيتين في الراجح منهما اسمان أعجميان أحدهما بالعبرية والآخر بالسريانية - ولا وجه للحديث عن أصلهما واشتقاقهما مادام غير عربيين.

والمراد أن الله أنزل هذين الكتابين ترتيبا على موسى والمسيح عليهما الصلاة والسلام ليكون هذان الكتابان هداية للناس من قبل أن يتنزل القرآن، وذلك بما تضمنه هذا الكتاب.

٤ - (مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار

قوله: (وأنزل الفرقان) أي القرآن، سمي بذلك تعظيما له ومدحا، لأنه الفارق بين الهدى والضلال، والحق الباطل، والغي والرشاد. الحكيم المعجز من حجج مستبينات ودلائل واضحات وبراهين ساطعات - وقيل: المراد بالفرقان: جنس الكتب الإلهية كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، فإنها فارقة بين الحق والباطل - ومثل هذا القول ضعيف، والصواب أنه القرآن، لأنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ليجعله فرقا بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل ١٢.

قوله: (إن الذين كفروا بآيات اللهم لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) - ذلك وعيد من الله للكافرين الذين كذبوا آياته وجحدوا كتبه وردوها بالباطل - أولئك قد توعدهم الله بعذابه الشديد يوم القيامة حيث الهوان والتحريق والعاقبة الرهيبة البئيسة للمكذبين - ذلك أن الله (عزيز) أي منيع الجناب عظيم السلطان (ذو انتقام) لا جرم أنه منتقم من المكذبين المخالفين لرسله الكرام ١٣.

٥ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ)

قوله: (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ذلك إخبار من الله عن صفته في علمه المطلق بالعالم، فما من كائن ولا مخلوق من الأحياء أو الجوامد صغيرا أو كبيرا إلا كان الله عليما به - وذلك هو شأن الإلهية المطلقة التي لا يندّ عنها خبر ولا معلومة من المعلومات، سواء في الأرض أو في السماء.

٦ - (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم): وهو سبحانه الذي يقرر تخليق الإنسان في الرحم فيعطيه من الصورة والهيئة والكيفية مثلما يريد - وذلك من حيث اللون والطول والوسامة والدمامة والكيس والعجز - وكذلك مآله في الآخرة سواء كان شقيا أم سعيدا، وغير ذلك من مقدورات كتبها الله في حق الإنسان.

وفي التنويه بالتصوير في الأرحام تذكير بحقيقة العبودية الكاملة في حق المسيح عليه السلام - وذلك ردّ واضح لافتراء أهل الكتاب بأن عيسى هو الله أو أنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، بل إن عيسى بشر من البشر وإنسان من الأناسي لا يفوق غيره من الناس إلا بفضيلة النبوة الكريمة ومزية النفخ من روح الله ١٤.

٧ - (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ)

قوله تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب).
يتضمن القرآن صنفين من الآيات - أحدهما: آيات محكمات هن أم الكتاب - أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، والأم في اللغة تعني الأصل الذي يكون منه الشيء، فلما كانت المحكمات مفهومة بذواتها، والمتشابهات إنما تصير مفهومة بإعانة المحكمات، باتت المحكمات كالأم للمتشابهات ١٥.
وثانيهما: آيات متشابهات، وقد اختلف العلماء في المراد بالمحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة - ولعل أحسن ما قيل في ذلك أن المحكمات من القرآن: ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره - أما المتشابه: فما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعمله دون خلقه، وهو قول كثير من أهل العلم - وجملة ذلك أن الآيات المحكمات، ما أحكمت عباراتها بأن حفظت من الاحتمال والإجمال والاشتباه فكانت واضحة مستبية، وذلك كقوله تعالى من سورة الأنعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى ثلاث آيات بعدها - وقوله تعالى من سورة الإسراء: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) إلى ثلاثة آيات بعدها.
أما الآيات المتشابهات، فهي المحتملات أو المجملات التي لا يتضح مقصودها إلا بالفحص الدقيق والنظر العميق من أولي الألباب، ومثال ذلك الحروف التي في فواتح السور كقوله: (الم)، (الر)، (حم عسق)، (كهيعص) - وكذلك كقوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) وغير ذلك من الآيات المحتملة مما يكون دلالة الألفاظ بالنسبة إليها وإلى غيره على السوية.
ومن أحسن ما قيل في هذا الصدد: المحكمات هي التي فيها حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه - والمتشابهات لكهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد.
قال القرطبي في ذلك: المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحكام الإتقان، ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال ١٦.
قوله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) الزيغ معناه الميل عن الحق - زاغ البصر إذا كلّ، وزاغت الشمس، أي مالت - وذلك إذا فاء الفيء ١٧ - ومنه قوله تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) والذين في قلوبهم زيغ، أي انحراف عن القصد، وميل عن الحق، وجنوح مريض نحو الباطل بدلا من السبيل المستقيم - هؤلاء المائلون عن جادة الصواب، الجانحون صوب الباطل من أولي الطبائع الضالة والقلوب المريضة يستنكفون عن اتباع الآيات المحكمات الواضحات التي يعوّل عليها في إدراك هذا الدين عقيدة وشريعة، لكنهم تستخفهم قلوبهم الزائغة لاتباع ما تشابه من الكتاب الحكيم - فهم إنما يتمسكون بالمتشابه من الآيات؛ لما يمكنهم من تحريفه إلى مقاصدهم الفاسدة؛ نظرا لاحتمال لفظه ما يديرون عليه من تأويل مريب.
أما المحكم فلاحظ لهم فيه؛ لوضوحه وبيانه فهو دافع لمقاصدهم وحجة عليهم - وهذا الصنف الجانح من الناس إنما يصطنع مثل هذا التأويل (ابتغاء الفتنة) أي طلبا للتشكيك في القرآن وإضلال العوام - وذلك ديدان التائهين المضللين من العباد الذين لا يستمرئون غير طريق الضلال والفساد ولا يستطيبون غير ظواهر المرض والعمه تغشى المجتمع فتطيح به إطاحة أو تنسفه من القواعد نسفا ليظل أشباها من الناس التائهين الشاطحين الحائرين - وأمثال هؤلاء المفسدين المضلين كثير في أوساط المسلمين، بل إن تاريخهم طويل ومرير في زعزعة العقيدة الإسلامية وتشويه العلوم الإسلامية وإشاعة الريبة والفتن بين فئات المسلمين كالزنادقة على اختلاف مقولاتهم وإفرازاتهم الضالة المضلة - ومن جملتهم القرامطة والحشاشون والسبئية والنصيرية (العلويون) والبهائية والقاديانية والدروز - وكذا المجسمة والمشبهة والمعطلة، إلى غير هؤلاء من أصحاب الملل والنحل الضالة الفاسدة - كل أولئك من حيث الضلال والانحراف والزيغ في جانب، والجماعة المؤمنة المستقيمة في جانب آخر مميز - وهؤلاء هم أهل السنة الذين لا يتبعون ما تشابه من القرآن وإنما يتبعون آيات المحكمات فهم دوما على جادة الصواب - وفي وسط المحجة اللاحبة البيضاء سائرون ماضون إلى أن يلقوا الله على هذه الحال من الاستقامة والإخبات.
وعلى هذا فإن هذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة متبع لما تشابه من القرآن، وإن كانت الإشارة بهذه

الآية في ذلك الوقت إلى نصارى نجران الين حاوروا النبي صلى الله عليه و سلم في قصة عيسى المسيح وجادلوه في ذلك بغير حق متبعين لما تشابه من آيات الكتاب الحكيم في هذه المسألة ١٨.

وقوله: (وابتغاء تأويله) التأويل هو التفسير ما يؤول إليه الشيء - وقد أوله تأويلا وتأوله أي دبره وقدره وفسره ١٩.

قال الرازي في بيان التأويل: اعلم أن التأويل هوالتفسير، وأصله في اللغة المرجع والمصير - من قولك آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه، وأولته تأويلا إذا صيرته إليه - هذا معنى التأويل في اللغة، ثم يسمى التفسير تأويلا - قال تعالى: (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) وقال تعالى: (وأحسن تأويلا) وذلك أنه إخبار عما يرجع إليه اللفظ من المعنى - واعلم أن المراد منه أنهم يطلبون التأويل الذي ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان، مثل طلبهم أن الساعة متى تقوم؟ وأن مقادير الثواب والعقاب لكل مطيع وعاص كم تكون؟ ٢٠.

والذين يتبعون ما تشابه من القرآن إنما يطلبون بذلك- فوق طلبهم الفتنة- تأويله - أي يؤولونه التأويل الذي يشتهونه بتحريفه على ما يروق لهواهم الجانف وقلوبهم الزائغة الجانحة ٢١.

قوله: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما ذكر إلا أولوا الألباب).

اختلف العلماء في معنى الواو قبل (الراسخون) هل هي للاستئناف (الابتداء) أم للعطف؟ فثمة قولان في ذلك.

أحدهما: أن الواو للاستئناف - فالوقف بذلك على لفظ الجلالة (الله) ثم يأتي الكلام بعد ذلك مستأنفا - فالواو هنا لابتداء الكلام بعد تمامه - وعلى هذا فإنه لا يعلم تأويل المتشابه من الكتاب الحكيم إلا الله - وهذا قول ابن عباس وعائشة ومالك ابن أنس والكسائي والفراء والأخفش - ومن المعتزلة قول الجبائي - واختاره الرازي.

ثانيهما: أن الواو تفيد العطف، فالراسخون معطوف على لفظ الجلالة - وعلى هذا يكون العلم بالمتشابه حاصلا عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم - وهو قول أكثر المتكلمين - وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس ٢٢ وفي تقديري أن القول الأول هو الراجح - ووجه ذلك من عدة وجوه منها:

أولا: أن ما قبل هذه الآية يدل على أن طلب تأويل المتشابه مذموم حيث قال سبحانه (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ولو كان طلب تأويل المتشابه جائزا لما ذم الله تعالى ذلك.

ثانيا: لو كان قوله: (والراسخون في العلم) معطوفا على قوله (إلا الله) لصار قوله: (يقولون آمنا به) ابتداء كلام، وهذا بعيد عن ذوق الفصاحة، بل كان الأولى أن يقال: وهم يقولون آمنا به - أو ويقولون آمنا به.

ثالثا: ما ذكر عن ابن عباس قوله: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

ويؤيد ذلك ما ذكر أن مالك بن أنس رحمه الله لما سئل عن الاستواء قال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ٢٣.

وقوله: (والراسخون في العلم) من الرسوخ وهو الثبوت في الشيء - وكل ثابت راسخ - ورسخ الإيمان في قلب فلان يرسخ رسوخا، فالراسخون في العلم هم الذين ثبتوا وتمكنوا فيه - وقال الرازي في هذا الصدد: واعلم أن الراسخ في العلم هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية، وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية، فإذا رأى شيئا متشابها ودل القطعي على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى علم حينئذ قطعا أن مراد الله شيء آخر سوى ما دل عليه ظاهره، وأن ذلك المراد حق، ولا يصير كون ظاهره مردودا شبهة في الطعن في صحة القرآن ٢٤.

ثم حكى الله عن الراسخين في العلم قولهم: (آمنا به كل من عند ربنا) أي أنهم يعلنون عن إيمانهم القاطع أن هذا المتشابه من عند الله أو هو كلام الله ونحن مؤمنون به - وقالوا أيضا: (كل من عند ربنا) أي أن كل واحد من المحكم والمتشابه من عند الله فهما (المحكم والمتشابه) كلاهما حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع منزل من عند الله ٢٥.

قوله: (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أي ما يعي هذا ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لبّ، وهو العقل - ولب كل شيء خالصه ٢٦.

٨ - (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

قوله تعالى: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد).

هذه هي حال الراسخين في العلم - فهم أتقياء مخبتون متواضعون لا تبرحهم خشية الله - وهم دائما يبادرون بالدعاء إلى الله أن لا يزيغ قلوبهم، أي أن لا يميلها أو يحرفها عن دينه القويم وصراطه المستقيم بعد أن أقامها عليه وهداها إليه، وأن لا يجعلهم كالزائغين الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ليفرضوا على أنفسهم وعلى الناس ما يطيب لأنفسهم المريضة من المعتقدات والتصورات والأحكام المصطنعة - أولئك هم الزائغون عن طريق الله المستقيم، الجانفون عن قسطاس الإسلام القويم - وأمثال هؤلاء في كل مكان وزمان كثيرون ممن ابتلى الله بهم عباده المؤمنين الصابرين الذي قدر لهم أن يقطعوا الدهر في جهاد مستديم ضد الضلال بكل صوره وأشكاله، سواء في ذلك ضلال الكافرين والملحدين، أو ضلال المنافقين والخراصين، أو ضلال الزنادقة المارقين، أو ضلال الفسقة من الجاهلين الذين يتخذلقون بعبارة الزيغ والعمه وهم يحسبون أنهم على شيء ولكنهم في الحقيقة أدعياء جهلة، هائمون في غياهب الضلالة والوهم.

قوله: (وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) أي امنحنا من عندك نعيما صادرا عن الرحمة - أما الرحمة عينها فلا توهب؛ لأنها راجعة إلى إحدى صفات الذات الإلهية فلا يتصور منحها أو هبتها.

٩ - (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

وقوله: (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) هكذا يدعو الراسخون في العلوم الذين لا يفرقون بين محكم الكتاب ومتشابهه من حيث الإيمان بهما وردهما جميعا إلى الله- فهم فوق دعائهم أن يهبهم الله الوهاب رحمة من عنده فهم يقرون إقرارا لا شك فيه أن الله سيبعث الناس يوم القيامة حيث الحساب والجزاء - ذلك وعد من الله محتوم والله لا يخلف وعده ٢٧.

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

قوله تعالى: (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب).

يخبر الله تعالى عن عاقبة الكافرين وخسرانهم، فهم لا ريب أن مصيرهم إلى النار، ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، بل لا تدفع عنهم لهيب النار المستعرة، بل إنهم أنفسهم وقود النار حصبها ٢٨ الذي تزداد اضطراما وتسجيرا ٢٩ وشأنهم في ذلك شأن آل فرعون من قبلهم لما أتتهم آيات الله كذبوا بها وجحدوا جحودا واستكبروا عنها استكبارا فأخذهم الله- وهو المنتقم الجبار يعذب الطغاة المستكبرين أشد العذاب ويذيقهم من شديد العقاب ما يتجرعون خلاله الويل والهوان، أعادنا الله من ذلك وكتب لنا النجاة والسلامة في هذا الدار ويوم يقوم الأشهاد.

١١ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

قوله تعالى: (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب).

يخبر الله تعالى عن عاقبة الكافرين وخسرانهم، فهم لا ريب أن مصيرهم إلى النار، ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، بل لا تدفع عنهم لهيب النار المستعرة، بل إنهم أنفسهم وقود النار حصبها ٣٠ الذي تزداد اضطراما وتسجيرا ٣١ وشأنهم في ذلك شأن آل فرعون من قبلهم لما أتتهم آيات الله كذبوا بها وجحدوا جحودا واستكبروا عنها استكبارا فأخذهم الله- وهو المنتقم الجبار يعذب الطغاة المستكبرين

أشد العذاب ويذيقهم من شديد العقاب ما يتجرعون خلاله الويل والهوان، أعادنا الله من ذلك وكتب لنا النجاة والسلامة في هذا الدار ويوم يقوم الأشهاد.

١٢ - (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

قوله تعالى: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار).

جاء في سبب نزول هذه أنه لما أصاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قريشا ببدر فقدم المدينة جمع اليهود وقال: يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم - فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا ٣٢ - لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة - أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله تعالى: (قل للذين كفروا) يعني اليهود ٣٣ - يأمر الله رسوله صلى الله عليه و سلم أن يخبر اليهود أنهم سوف تحيق بهم الهزيمة لا محالة، وأنهم سوف يغلبون في هذه الدنيا وتحل بدارهم قارعة الخزي، ويوم القيامة لا جرم أن لهم من العذاب ما هو أشد وأنكى - وذلك هو عذاب جهنم (وبئس المهاد) المهاد: الموضع الذي يتمهد فيه وينام عليه كالفراش - قال الله تعالى: (والأرض فرشناها فنهم الماهدون) وبئس من البأساء وهو الشر والشدة - ذلك هو مصير الكافرين الذين يحاربون الله ورسول ويسعون في الأرض فسادا وتخريبا سواء كانوا من اليهود أو الصليبيين أو الوثنيين أو الماديين الملحدين، لا جرم أن هؤلاء جميعا حصب جهنم، فهم فيها يحترقون ويتقاحمون في لظاها وسعيرها مثلما تتقاحم القردة.

١٣ - (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ)

وقوله: (قد كان لكم آية في فئتين) أي كان لليهود آية، يعني دلالة على أن الله سيعز دينه، وينصر رسوله والمسلمين، وسوف يعلي كلمة هذا الدين القويم - وهذه الآية (الدلالة) ماثلة للعيان تبصرونها في فئتين التقيا للقتال في بدر - إحداهما الفئة المؤمنة بقيادة الرسول صلى الله عليه و سلم - والأخرى فئة المشركين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت بكل صوره وأشكاله، طاغوت العصبيات الفاسدة بكل صلفها وغرورها وحماقاتها - وطاغوت الطغيان والعدوان على الناس بغير حق إلا الظلم والاستعباد والشهوة في التسلط وترعيب المظلومين والمستضعفين ونشر الذعر والرذيلة في الأرض.

وتكتمل الدلالة على أن الله مع المسلمين وان قراره بالنصر إنما يكون لهؤلاء المؤمنين بقوله: (يرونهم مثليهم رأى العين) أي يرى المسلمون المشركين مثيلهم في العدد، مع أنهم كانوا في الواقع ثلاثة أمثالهم، فقلل الله المشركين في أعين المسلمين بعد أن أراهم إياهم مثلي عدتهم؛ لتتقوى أنفسهم وليتجاسروا على قتالهم، وفي نفس الوقت قلل الله المسلمين في أعين المشركين، ليتجرأ المشركون على قتالهم فينفذ الله حكمه فيهم- في المشركين- بالقتل والقهر.

والأصل في ذلك أن النصر من عند الله وأنه سينصر الفئة المؤمنة، لا جرم أنه ناصر عباده المؤمنين المخلصين - هذه حقيقة لا تقبل المراء أو الشك، حقيقة ينبغي أن تقف عليها البشرية والمسلمون خاصة، وهي أن النصر من عند الله، وأن العاقبة في النصر والغلبة إنما هي للمسلمين العاملين، وذلك بالرغم مما يحيق بالمسلمين من أهوال وشدائد، وبالرغم من تمالؤ قوى الكفر على الإسلام والمسلمين وإن طال الزمان وتوالت الارزاء والبلايا - وفي تعزيز ذلك يقول الله سبحانه: (والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) والعبرة الاعتبار وهي الآية التي يعبر بها من منزلة الجهل إلى العلم، وأصله من العبور وهو النفوذ من أحد الجانبين إلى الآخر، وأولوا الأبصار هم أصحاب العقول - كما يقال: لفلان بصر بهذا الأمر، أي علم ومعرفة - وهذا قول الرازي ٣٤.

وبذلك فأصحاب البصائر والأفهام الواهية لا جرم أنهم يهتدون إلى حكمة الله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، وذلك بين يدي قيام الساعة.

وفي جملة ذلك مما فيه توثيق لحقيقة النصر من عند الله مهما تمالأ الظالمون أو أعدوه من عتاد وعساكر وأساليب وخطط لتدمير الإسلام والمسلمين، يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن: إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة - ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة- ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة - وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف - وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة ٣٥.

١٤ - (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد).

يستفاد من بناء الفعل الماضي في الآية (زين) للمجهول أن الإنسان مزيّن له تزيينا أن يحب هاتيك الشهوات مما ذكر، وبذلك فالتزيين خارج عن إرادة الإنسان - وإنما الإنسان قد جيء به مفطورا على هذه الحال من إركاز الغرائز الفطرية والأهواء الذاتية كحب النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فلا جرم أن المزين للإنسان حب الشهوات من لذائذ وأهواء ومنافع هو الله، مع أنه قيل في المزين خلاف ذلك، لكننا نرجح أن المزين هنا هو الله - ذلك أن ما ذكر في الآية من وجوه الشهوات المختلفة ليس عارضا ولا مكتسبا، بل إنه إحساسات فطرية مركوزة في أعماق الطبيعة البشرية لا يملك حيالها غير الاعتبار والمراعاة.

إن ما ذكرته الآية من لذائذ ورغائب، إن هي الاستعدادات ذاتية أصيلة ضاربة في أغوار النفس البشرية، بل إنها جملة من المركبات الذاتية لطبيعة الإنسان - فهي ليست مصنوعة ولا مستفادة على سبيل الاكتساب، وإنما هي ذخائر فطرية بني عليها الإنسان قدرت في كيانه تقديرا.

إذا تبين لنا ذلك لزم أن نقول إن هذه الغرائز والشهوات لا ينبغي أن تثير في النفسي الاستهجان أو الغضاضة، فهذه الإحساسات ليست مستقبحة ولا نشازا ولا هي مثار للاستخفاف أو الازدراء، بل إن عكس ذلك هو الصحيح، فإن هذه المركبات الفطرية المستحوذة على كيان الإنسان جديرة بالمراعاة والاهتمام؛ لأنها من خلق الله ومن تقديره - فهي جملة من المركبات النفسية والعضوية الذاتية للإنسان، بل الإنسان كله حصيلة متوازنة متماسكة متكاملة لهاتيك المركبات العديدة المنسجمة، فلا جرم أن مثل هذا التخليق من صنع الله وتقديره.

وإذا كان الأمر كذلك بات من الضرورة الاستفادة من مثل هذا التركيب المتماسك المتوازن المنسجم الذين جاء عليه الإنسان؛ وذلك من أجل الإصلاح والخير وبناء المجتمع البشري على أحسن حال من الترابط والانسجام والرحمة، شريطة أن تأخذ هذه الغرائز والشهوات والرغائب مجراها السليم المعتدل - وذلك في إطار معقول ومقبول من التوازن والاعتدال، بعيدا عن الإفراط والتفريط - وكلا هذين العنصرين (الإفراط والتفريط) مدعاة محققة وخطيرة للتدهور والانهيار، بل إنهما مدعاة شنيعة لإعنات الإنسان بما يفضي به إلى الفساد والتدمير.

وقد كرت الآية جملة من الشهوات المحببة للإنسان والتي زينها الله للإنسان تزيينا لا يملك التنصل منه كليا، ويأتي في طليعة هذه الشهوات والرغائب اللاحاحة حب النساء، ويعبر عن ذلك بغريزة الجنس - وهي غريزة راسخة ومركوزة في النفسية البشرية، يستحيل إنكارها أو التحرر من غلبتها وسلطانها إلا الكبت المرهق الشنيع - الكبت الذي يسوم الأعصاب والجهاز النفسي كله الإرهاق والعنت والاضطراب.

هذه حقيقة مقدرة ومحسوبة، حقيقة قد راعاها الإسلام وحسب لها من التشريع ما يكافؤها من الاهتمام والحرص والرعاية، وذلك بتشريع النكاح - هذا العقد المبارك المقدس الذي يصون للأزواج طبائعهم ونفوسهم؛ كما تظل مرتاحة مطمئنة لا يعتورها خلل، ولا قلق ولا إرهاق، ويصون للأسر والبيوت حسن العيش في ود ومرحمة من غير شقاق ولا نزاع ولا فوضى، ويصون للمجتمع كله أمنه

واستقراره فيظل شامخ البنيان مستديم الصيانة والصلابة والائتلاف.

وكذلك حب الشهوة من (البنين) وواحده ابن، والإنسان مفطور على حب الذرية والنسل، لا جرم أن هؤلاء أقرب الخليقة إلى قلب الآباء والأمهات وهم الأصول؛ لأن الولد فرع الأصل، بل هو بضعة منه وجزء أساسي أصيل منبثق عن كيانه وبذلك فإن الآباء والأمهات لشدّ ما يكون حبهم وتعلقهم بأولادهم عظينا وغامرا.

على أن البنين خاصة تزداد الرغبة لدى الأصول في إنجابهم لإحساسهم المستكن أن ذريتهم من البنين والحفدة هم خير معوان لهم في رحلة العمر هائلة.

وكذلك حب الشهوة من (القناطر المقنطرة من الذهب والفضة) يراد بالقناطر المقنطرة – في الجملة- المال الكثير يتوثق به الإنسان في دفع أصناف النوائب - وهو قول الرازي.

أما الذهب والفضة فهما معيار الثمنية للأشياء كلها - قال الرازي في ذلك: الذهب والفضة إنما كانا محبوبين؛ لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء، وصفة المالكية هي القدرة، والقدرة صفة الكمال، والكمال محبوب لذاته - فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذي هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب، لا جرم كانا محبوبين ٣٦.

وحب الإنسان للمال حقيقة لا شك فيها - حقيقة تعترف بها الوقائع والاستقراءات المحسوسة التي تشهد على تشبث الإنسان المشبوب بالمال، إن حب المال يكاد يستحوذ كليا على قلب الإنسان وأعصابه وتفكيره إلا أن يستعصم بأهذاب العقيدة والتقوى ليتحرر من طوق هذه الشهوة الغلابة الجامحة.

وليت شعري هل ينجو من أسر هذه الشهوة الطاغية المستحوذة إلا القليل القليل من بني البشر - أولئك الذين استعلت طبائعهم وكراماتهم على المال بكل صوره وأصنافه ما بين ذهب ونقود مختلفة الأنواع والأشكال - نقود مرصودة في صناديق السحت والشنار داخل المصارف الربوية.

وكذلك حب الشهوة من (الخيل المسومة) الخيل اسم جمع ليس له واحد من لفظه، واحده فرس كالقوم والرهط والنساء والإبل ونحو ذلك - والخيل مؤنثة، وسميت خيلا لاختيالها وهو إعجابها بنفسها مرحا - ومنه يقال: اختال الرجل - وبه خيلاء وهو الكبر والإعجاب ٣٧ - والمسومة بمعنى الراعية - يقال: أسمت الدابة وسومتها إذا أرسلتها في مروجها للرعي - وقيل: الراعية المطهمة الحسان ٣٨ وهذه صنف من المال محبب للنفس ومرغوب في اقتنائه، تحصيلا لاشتهاء النفس لمثل هذا المتاع - وهو واحد من زخارف الدنيا يجد فيها الرجال حظهم من المفاخرة والتلذذ بالمرح والاختيال.

وكذلك حب الشهوة من (الأنعام والحرث) الأنعام جمع ومفرده نعم بالفتح، وهي الإبل والبقر والغنم، ولا يقال للجنس الواحد منها: نعم، إلا للإبل خاصة فإنها فلبت عليها - والحرث معناه الزرع - والمراد به في الآية اسم لكل ما يحرث وهو مصدر سمي به - نقول: حرث الرجل حرثا إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة ٣٩.

وهذان صنفان من المال تهوي إليهما النفوس؛ لما فيهما من استدرار للخير المستفاد من الأنعام من حيث لحومها وألبانها وأشعارها وجلودها وغير ذلك من وجوه المنافع الحيوانية - وكذلك الحرث حيث الأرض وما يستفيض فيها من خيرات ومذخورات وكنوز، ما بين زروع وثمار ومياه ومعادن ونحو ذلك من أصناف المنافع - كل أولئك مجتمع في العبارة القرآنية الوجيزة المعبرة (والأنعام والحرث).

وفي جملة هذه الأصناف من ضروب المتاع الزائل قال القرطبي: قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق ٤٠.

قوله: (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) الإشارة هنا إلى ما ذكر في الآية من وجوه المنافع والزينة وغير ذلك من أصناف المباهج والخيرات الزائلة مما يؤول إلى الزوال والفناء لا محالة - إن ذلك كله (متاع الحياة الدنيا) والمتاع معناه المنفعة والسلعة والأداة وما تمتعت به من الحوائج ٤١ - لكن ما عند الله خير وأدوم وأبقى (والله عنده حسن المآب) أي المرجع والنعيم المقيم المستديم - ما من متاع في هذه الدنيا إلا ومصيره الزوال القريب، وما يكاد المرء يمارس استمتاعه بمنافع هذه الحياة- على اختلاف هذه المنافع وتفاوتها حتى يجد نفسه قد فرغ منها في عجل من حيث يدري أو لا يدري، وما تمر الأيام أو السنون حتى تنطوي بالمرء صفحات العمر

وهو يظن أنه على شيء، ثم تفجأه صرعة الموت الداهم ليستيقن- في حقيقة لا ريب فيها- أنه فارق كل متاع وأنه لم يجن من دنياه ومآله وتطلعاته غير الندامة والإياس المطبق - وهناك الخسران والثبور!.
١٥ - (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

قوله تعالى: (قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) الهمزة الأولى في قوله: (أؤنبئكم) تفيد الاستفهام، والمعنى هل أنبئكم بخير من ذلكم؟ أي مما ذكر من وجوه المتاع والزينة في هذه الحياة الصائرة إلى الزوال - والجواب (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار) الجنات جمع ومفرده الجنة - وهي في لغة العرب تعني البستان ٤٢ - وذلك الذي يستطيع الحس البشري أن يتصوره عن معنى البستان حيث الأشجار الكثيفة بأغصانها وأوراقها وجذوعها وثمارها وظلالها، لكن ذلك يظل في مقياس هذه الدنيا قاصرا وهينا ومحدودا - بل إنه غاية في الهوان والبساطة بقدر ما تقوم عليه الحياة كلها من محقرات وصغائر أجل إن الجنة في مفهومها الدنيوي وفي حس الإنسان وتصوره ليست غير لعقة من زبد مهين - زبد يمر ويتبدد بلا حساب - أو ينقشع انقشاع السراب من على سطح القفار والمفاوز.

قال ابن كثير في بيان الجنات التي تجري من تحتها الأنهار: أي تخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء - وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قوله: (خالدين فيها) أي ماكثين فيها أبدا الآباد من غير خروج منها ولا تحول عنها.

قوله: (وأزواج مطهرة ورضوان من الله) هذه واحدة من خير النعم التي يتمتع بها المؤمنون في الجنة، لا جرم أن خير النعم التي يحظى بها المؤمن في حياته هي الزوجة الصالحة، وفي هذا المعنى من لطائف الزوجة الصالحة يقول الرازي: إن النعمة وإن عظمت فلن تتكامل إلا بالأزواج اللواتي لا يحصل الأنس إلا بهن - ثم وصف الأزواج بصفة واحدة جامعة لكل مطلوب فقال: (مطهرة) ويدخل في ذلك: الطهارة من الحيض والنفاس وسائر الأحوال التي تظهر عن النساء في الدنيا مما ينفر عنه الطبع، ويدخل فيه كونهن مطهرات من الأخلاق الذميمة ومن القبح وتشويه الخلقة، ويدخل فيه كونهن مطهرات من سوء العشرة ٤٣.

قوله: (ورضوان من الله) الرضوان بكسر الراء وضمها أي رضا الله وهو مصدر والرضاء اسم ٤٤ والرضوان هو أعلى منازل الكرامة لأهل الجنة، بل إن الرضوان من الله يكتبه لعباده المؤمنين الجنة لا جرم أنه خير ما عرفته الكائنات من لذائذ وطيبات، وخير ما حفل به هذا الكون المديد من مباهج وخيرات حسان.

جاء في ظلال القرآن قوله في هذا الصدد: ثم هنالك ما هو أكبر من كل متاع - هنالك (رضوان من الله) رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما - ويرجح - - - رضوان بكل ما في لفظه من نداوة وبكل ما في ظله من حنان ٤٥.

نسأل الله جلت قدرته أن يمن علينا بفيض من رضوانه الكريم الغامر وأن يحشرنا في زمرة الأتقياء الأوفياء.

قوله: (والله بصير بالعباد) أي خبير بهم وبأحوالهم وأفعالهم فيثيب المحسن فضلا ويعاقب المسيء عدلا - وفي جملة ذلك وعد ووعيد، فهو وعد من الله لعباده المؤمنين المخلصين بإحلالهم الدرجات من التكريم والنعيم - ووعيد منه للفاسقين والجاحدين والعصاة بإركاسهم في الأذلين ليبوؤوا بسخط الله وعذابه ٤٦.

١٦ - (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

قوله تعالى: (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار).

قوله: (الذين) يحتمل إعرابه ثلاثة وجوه الأول: البدلية من قوله: (للذين اتقوا) - الثاني: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم: الثالث " مفعول به لفعل مدح محذوف.

هؤلاء المؤمنون المطيعون يقرون لله بالوحدانية المطلقة، ويؤمنون بكتبه وأنبيائه ورسالاته، ويتضرعون لله في كل آن بالدعاء له وحده أن يغفر لهم الذنوب، أي يستر عليهم ما اقترفوه من السيئات والمعاصي، سواء منها الصغائر والكبائر، وأن يدفع عنهم النار بلهيبها الحارق

الذي تصطلي فيها الأبدان اصطلاء.

١٧ - (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)

أما قوله (الصابرين) من الصبر، وهو حبس النفس عن الجزع، والمراد بالصابرين في الآية الذين صبروا في البأساء والضراء وحين البأس، أو الذين صبروا عن المعاصي والشهوات وصبروا على طاعة الله تعالى.

وقوله: (والصادقين) الذين يصدقون مع الله في نياتهم وأقوالهم سرا وعلانية، وقبل غير ذلك.

وقوله: (والقانتين) يعني المطيعين.

وقوله: (والمنفقين) من الإنفاق، وهو بذل المال ونحوه في وجه من وجوه الخير طلبا لمرضاه الله، فهم المؤتون زكوات أموالهم وواضعوها على ما أمرهم الله وبإتيانها، والمنفقون في أموالهم في الوجوه التي أذن الله لهم جل ثناؤه بإنفاقها فيها ٤٧.

وقوله: (والمستغفرين بالأسحار) الأسحار، جمع ومفرده سحر، وهو آخر الليل قبيل الفجر، والمستغفر، من الغفر وهو التغطية - استغفر الله لذنبه أي طلب منه أن يستر ذنبه ويغطيه، وتخصيص هذا الوقت للاستغفار، لما فيه من قرب الإجابة من الله، لما في خصوص هذا الوقت من امتحان للنفس إذ يشدها ثقل الكرى دون النهوض للصلاة في همة ونشاط، فضلا عما يغشى النفس في هذه الساعة الحانية الودود من تخشع وسكون، وما يغمرها من لطائف الإيناس الرفيق إذ تستيقظ فيها الفطرة تماما لتكون عل غاية من البهجة والاستئناس والحبور.

١٨ - (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

جاء في نزول هذه الآية أنه لما ظهر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: " نعم " قالا: أنت أحمد؟ قال: " نعم " قالا: إنا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سلاني " فقالا له: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله تعالى؟ فأنزل الله تعالى الآية وأسلما - وقيل: نزلت في نصارى نجران لما حاجوا في أمر عيسى عليه السلام ٤٨.

وقوله: (شهد) أي بين وأعلم - والشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبينه وذلك إعلان من الله كبير، إعلان مجلجل وقارع يبين وحدانية الله، وأن الله خالق الكائنات والخلائق، وبارئ مدبر إلا هو سبحانه - ولا ريب أن هذه شهادة عظمى، بل إنها كبرى الشهادات في هذا الكون كله، شهادة ربانية مثيرة تصدر عن جلال الله وعن كماله الأعظم، على أنه وحده المتفرد بالإلهية من غير نديد له في ذلك أو شريك.

وكذلك الملائكة يشهدون، وأولو العلم - وهم هنا علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به إلى معرفتهما من علوم ومعارف.

وبذلك فإن الله جل جلاله يشهد، والملائكة كذلك يشهدون - وأهل العلم يشهدون أيضا على أن الله وحده خالق كل شيء (قائما بالقسط) قائما منصوب على الحال - فهو قائم بالعدل، وهذا شأنه جل وعلا، قيوم العالمين بالعدل والفضل والرحمة.

ثم كرر للمشهود به على سبيل التأكيد (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) والعزيز الذي لا يمتنع عليه شيء أراده - والحكيم في تدبيره فلا يدخله خلل ٤٩.

١٩ - (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

قوله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا

وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد).
الدين بكسر الدال لغة العادة والشأن - دانه يدينه دينا بالكسر أذله واستعبده وفي الحديث " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت " والدين أيضا الجزاء والمكافأة - يقال دانه يدينه دينا أي جازاه ٥٠.
ومعنى الدين في الآية هنا: الطاعة والذلة، وكذلك الإسلام وهو الانقياد بالتذلل والخشوع، وفعله أسلم بمعنى دخل في السلم وهو الانقياد بالخضوع وترك الممانعة - أو الاستسلام لله بالامتثال له بالطاعة والخضوع.
وقيل: الإسلام هو التسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل - ويرادف ذلك كله في الجملة ما قاله قتادة في ذلك وهو أن الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به - وهذا هو مقتضى قوله تعالى في هذه الآية: (إن الدين عند الله الإسلام) أي لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام - وهو شهادة أن لا إله إلا الله تعالى، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وهو دين الله تعالى مثلما قاله قتادة ٥١.
وقيل: بل إن الشهادة من الله والملائكة وأولي العلم هي علم (إن الدين عند الله الإسلام) وبذلك يكون التقدير: شهد الله أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الإسلام، وقيل: التقدير هو: شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام - وذلك يقتضي أن يكون الدين المقبول عند الله ليس إلا الإسلام - وهذه حقيقة معلومة لا تقبل الشك، ويزيدنا في ذلك يقينا قوله تعالى في آية أخرى: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ٥٢.
وكيفما يكون التقدير فإن الأهم من ذلك أن نتصور كون الشهادة من الله والملائكة وأولي العلم قائمة على أن الإسلام دون غيره لهو المعتبر - وهو وحده عنده الله المقبول، ويحمل المسلمون مثل هذه القناعة القطعية لا جرم أن ذلك مبعثه حقيقة التصور المتكامل عن الإسلام - وهو أن الإسلام لهو دين البشرية حقيقة وصدقا - دين البشرية في كل مكان وزمان، وذلك لما يتجلى في الإسلام من خصائص الصلوح المميز بما يراعي طبيعة الإنسان أصدق مراعاة، هذه الطبيعة المركوزة المتشابكة المنسجمة المتكاملة التي لا يناسبها غير هذا الدين - - - دين الإسلام.
وهذا ما ينطق به الواقع المحس، ويعززه البرهان السليم، وتشهد له الفطرة الراسخة الغلابة.
قوله: (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) المراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى - فقد اختلفوا في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم إذ أنكروها وقالوا: نحن أحق بالنبوة من قريش؛ لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب - قالوا ذلك بعد أن (جاءهم العلم) وهو البيان الحقيقي والكامل عن صفة الرسول محمد صلى الله عليه و سلم، وعن نبوته وهو ما وجدوه في كتبهم، لكنهم مع ذلك جحدوا نبوته صلى الله عليه و سلم وناصبوه العداء وتصدوا لدعوة الإسلام بالتآمر والخيانة والكيد والتشويه والتشكيك والافتراء، سواء كان ذلك في زمن النبوة الميمونة أو ما بعدها خلال عصور الإسلام حتى زماننا الراهن هذا، فما فتئ أهل الكتاب- يتجشأون- آناء الليل والنهار- سموم التواطؤ والعدوان على الإسلام؛ لتدميره واستئصاله من القواعد، ولن يفلحوا في ذلك بمشيئة الله، ولسوف ترتد مكائدهم مؤامرتهم ومخططاتهم إلى نحورهم ليزدادوا على مر الزمن قلقا وتغيظا، ولن يقضي بهم ذلك إلا إلى السقوط في مهاوي الفشل والخسران والعار - (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ٥٣.
قوله: (بغيا بينهم) بغيا مفعول لأجله منصوب - أي فعلوا ما فعلوه؛ لما يركم في نفوسهم المريضة من حسد وكراهية للإسلام والمسلمين.
قوله: (ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) ذلك وعيد من الله وتهديد لأولئك الجاحدين الذين أعرضوا عن دين الله وجحدوا الإسلام بتعاليمه الوضيئة الزاهرة، وحججه ودلائله الظاهرة الباهرة - لا جرم أن الله سيحصي عليهم أعمالهم الظالمة وتصديهم لدعوة الإسلام بالجحد والصد والتكذيب فيحاسبهم على ذلك بعد أن يصيروا إلى الله سراعا.
٢٠ - (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)
قوله تعالى: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد).
كان النبي صلى الله عليه و سلم قد أظهر لأهل الكتاب الحجة الثابتة على صدق نبوته، وكان قد أظهر لهم من المعجزات والبينات والدلائل ما يكشف على التمام أنه رسول أمين.
لكنهم مع ذلك كله قد جحدوا وتمردوا وأبوا إلا اللجوج في الضلال والغي؛ لذلك يأمر الله نبيه الكريم صلى الله عليه و سلم بالقول لهم (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) أي إن خاصموك بعد ذلك أو جادلوك بالأقاويل الفاسدة والافتراءات القائمة على التضليل والتحريض فقل لهم: إنني منقاد لله وحده، منقاد له بكياني كله - وعبر بالوجه في الآية ع بقية الجوارح وأعضاء البدن؛ لشرف الوجه وتميزه على الجسد كله بتمام الشكل والصورة وانسجام الأعضاء والمركبات التي يتألف منها الوجه، ما بين عين تبصر، ولسان نطاق ذاكر، وقسمات ترسم على الوجه علائم الهشاشة المريحة.
على أن المسلم إنما يسلم لله بكيانه كله - وفي طليعة ذلك كله عناصر أساسية كبرى في كينونة الإنسان وفي شخصيته المتكاملة الملتئمة، وأهمها الذهن والقلب والضمير والمشاعر: لا جرم أن ذلك كله مستسلم لله ومنقاد لأوامره وشرائعه دون إبطاء أو انثناء.
ويأتي الرسول صلى الله عليه و سلم في مقدمة المؤمنين من حيث الاستسلام لله كليا - والنبي عليه السلام هو إمام المسلمين الأول في هذه الدنيا ويوم تقوم الساعة، لا جرم أنه إمامهم وقائدهم إلى طاعة الله والخضوع لمنهج القويم، بل إنه قائدهم إلى الخير والسعادة والنجاة في الدارين.
ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه و سلم بالقول للكافرين – جميعا وهم أكل الكتاب والمشركون الأميون العرب-: (أأسلمتم) وهو استفهام معناه التقرير وفي ضمنه الأمر - أي هل أفردتم التوحيد وأخلصتم العبادة لله رب العالمين دون غيره من الشركاء والأنداد التي تشركونها معه في عبادتكم إياهم - - - (فإن أسلموا)، أي انقادوا لإفراد الوحدانية لله وإخلاص العبادة له والألوهية (فقد اهتدوا) أي أصابوا الحق وسلكوا محجة الرشد والسداد، لكنهم إن تولوا عن محجة الإسلام وطريق الله القويم (فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) أي ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة لهم - وهذه رسالة الإسلام إلى الناس - رسالة الحق واليقين وإخلاص العبادة والتوحيد لرب العالمين - وفي ذلك ما يسرّي عن الرسول صلى الله عليه و سلم بما يكفكف عنه الشعور بالأسى أو الحزن لكفرانهم وإدبارهم، فإنما هو مبلغ أمين قد أوفى بما اضطلع به من حمل لأمانة التبليغ تمام الوفاء وكفى.
قوله: (والله بصير بالعباد) وهذا وعد ووعيد - وعد من الله لعباده المؤمنين المخلصين الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله دون سواه - والذين صبروا على الحق خلال طريقهم الطويل الشاق وخلال جهادهم المرير للظالمين من وثنيين وصليبيين وملحدين وصهيونيين واستعماريين وغيرهم من أولي الملل الضالة الكفارة - لا جرم أن الله منجي عباده الأبرار الصابرين ومهلك الضالين المضلين الذين أبوا غير طريق الشيطان فاتخذوه سبيلا - أولئك ما كان لهم إلا الخسران في هذه الدنيا حيث اللعائن من الله تحيق بهم طيلة الزمان لتحل بديارهم على الدوام قوارع العذاب الدنيوي المهين كالعاهات والمآسي النفسية والاجتماعية والبدنية.
وذلك كله بين يدي الساعة والتلاقي الكوني المحتوم حيث الهوان المريح، والإبلاس المزلزل المطبق!
٢١ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)
قوله تعالى: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير حق و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) ذلك حكم الله في الطغاة من الكافرين سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو المجوس أو الوثنيين، أولئك العتاة الجاحدون الذين يكفرون بعقيدة الحق القائمة على التوحيد الخالص، والذين يجترئون في صلف وعتو وفظاعة على قتل أنبياء الله بغير حق - وكذلك (الذين يأمرون بالقسط من الناس) أي الذين يأمرون بالعدل وهم الآمرون

بالمعروف والناهون عن المنكر، أولئك هم دعاة الحق والهداية - الدعاة إلى طريق الله المستقيم في كل عصر ونصر - ومنهم الدعاة إلى دين الله القيوم في هذا الزمان - - - دعاة الإسلام.

إن الذين يجترئون على قتل النبيين ودعاة الإسلام العاملين المخلصين - أولئك هم الأشقياء من شر البشر الذين تجترئ طبائعهم الممسوخة وقلوبهم الجاحدة المريضة على مقارفة العدوان والنكر في أبشع صورة - تلك فظاعة العدوان والنكر في أبشع صورة - تلك هي فظاعة العدوان الصارخ على جلال الله وسلطانه الأعظم بقتل أنبيائه الأطهار وأتباعهم من دعاة الحق - - دعاة الإسلام.

على أن الإسلام في حقيقة أبعاده وشموله يعني الاستسلام لسلطان الله، والامتثال لأوامره والوقوف عند حدوده، وأساس ذلك كله عقيدة التوحيد الخالص لله دون سواه من الخاليق - وذلك إنما ينسحب على عامة الأديان السماوية الحقيقية الناصعة من غير أن يعتريها تحريف أو خلط أو تشويه.

وفي ذلك العدوان النكير على النبيين ودعاة الحق روي عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال: " رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلا من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله عز وجل " ٥٤.

فإن قيل: ذلك في الذين خلوا من بني إسرائيل إذ كان ديدنهم التقتيل فما جريرة أحفادهم في الأزمان التالية فيما بعد؟!

والجواب أنهم رضوا عما ورثوه عن آبائهم من تقتيل للنبيين وأتباعهم من الدعاة إلى الله، فضلا عن براعة يهود في صور التدسس من خلف المجتمعات وهم يتآمرون على البشرية بتدبير المؤامرات والمخططات وأساليب الكيد والإفساد لتدمير القيم والأديان، وإشاعة الفوضى والرعب، وكذلك إثارة الفتن والحروب وغير ذلك من وجوه الإبادة والتخريب.

هؤلاء الذين قتلوا أنبياء الله وكادوا للمؤمنين كيدا قد توعدهم الله بالعذاب الموجع البئيس سواء في الدنيا حيث الذلة والصغار، أو في الآخرة حيث التحريق والاضطرام في السعير الحامية المتأججة، وذلك في قوله تعالى: (فبشرهم بعذاب أليم) والبشرى إذا أطلقت استعملت في الخير، وإنما تكون للشر إذا قيدت به كهذه الآية والمراد هنا إنذار هؤلاء القوم بالعذاب الأليم ٥٥.

٢٢ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

يضاف إلى ذلك كله ما يصير إليه هؤلاء القتلة من الحبوط في الدنيا والآخرة - والحبوط أو الحبط هو وجع يصيب البعير في بطنه من كلأ يأكله ويكثر منه فتنتفخ منه ٥٦ - وذلك تصوير رعيب لحال الظالمين الذين تذهب حياتهم وأعمالهم هدرا بغير حساب أو قيمة لحبوطها
(بطلانها) وذلك في الدنيا والآخرة.

وأما حبوط أعمالهم في الدنيا فمقتضاه أن لا ينالوا بها محمدا ولا ثناء من الناس، لأنهم كانوا على ضلال وباطل ولم يرفع الله لهم بها ذكرا، بل لعنهم وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم فأبقى لهم ما بقيت في الدنيا مذمة، وذلك حبوطها في الدنيا، وأما حبوطها في الآخرة فهو بطلانها وذهابها هدرا بغير ثواب فوق ما يصيرون إليه من سوء الجزاء وهو الخلود في الجحيم، وليس لهم في كل أحوالهم من نصير ولا مجير ينفعهم أو يدرأ عنهم شيئا من العذاب ٥٧.

٢٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون).

جاء في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال نقتضب منها اثنين:
أولهما: إعراض أهل الكتاب اليهود عن دعوة الإسلام وتكذيبهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم - فهذا الحكم عام في كلا الفريقين، وذلك لأن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت موجودة في التوراة والإنجيل وكانوا يدعون إلى حكم التوراة والإنجيل وكانوا يأبون.
ثانيهما: المراد بهم في الآية يهود - وهو اختيار ابن جرير الطبري إذ قال: أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال إن الله جل ثناؤه أخبر عن طائفة من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده ممن قد أوتي علما بالتوراة أنهم دعوا فيه إلى كتاب الله الذي كانوا يقرون أنه من عند الله وهو التوراة في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسول الله صلى الله عليه و سلم، وقد يجوز أن يكون تنازعهم الذي كانوا تنازعوا فيه ثم دعوا إلى حكم التوراة فيه فامتنعوا من الإجابة إليه كان أمر محمد صلى الله عليه و سلم وأمر نبوته، ويجوز أن يكون ذلك كان أمر إبراهيم خليل الرحمن ودينه - ويجوز أن يكون ذلك ما دعوا إليه من أمر الإسلام والإقرار به ٥٨.
ويستفاد من ذلك أن شرائع من قبلنا شرع لنا نحن المسلمين إلا ما علمنا من تلك الشرائع أنه منسوخ بشريعة الإسلام - وعلى هذا فالأصل وجوب الحكم بشرائع النبيين السابقين إلا ما خالف منها شرعنا ٥٩ وإذا لزم الاستنكاف عن قراءة التوراة والإنجيل أو العمل بهما أو الاستفادة منهما فلأن هذين الكتابين باتا غير موثوق بهما، لأنهما في أيد غير أمينة - لا جرم أن أهل الكتاب ليسوا مؤتمنين على دياناتهم وما أنزل عليهم من كتب، بل إن هذه الكتب والديانات قد خالطها العبث والتلاعب والتحريف فلم تعد بعد ذلك صالحة لتصديقها أو العمل بها على أن هؤلاء المستنكفين عن شريعة الإسلام، المكذبين لنبوة محمد صلى الله عليه و سلم، والذين تولوا معرضين عن دعوة الحق، كانت تراودهم اوهمامهم المريضة بأنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام فقط - إذ يعذبون يوما واحدا عن كل ألف سنة من سني الدنيا، وقيل: الأيام المعدودات هي أربعون يوما وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم يخرجهم الله من النار، لا جرم أن ذلك ضرب من ضروب التخريف الفاضح، التخريف السادر في أطواء الوهم، السابح في أجواز الحلم الشاطح.
٢٤ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)
وفي زعمهم الشاذ هذا قال الله جل جلاله: (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) لقد اختلقوا ذلك زورا وافتروا به على الله كذبا واغترارا من عند أنفسهم، لم ينزل به من الله سلطان إلا تخريص هؤلاء وكذبهم على الله، فقال سبحانه في ذلك: (وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون).
٢٥ - (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)
ثم يتهدد الله هؤلاء المفترين الدجاجلة ويتوعدهم بالتنكيل والثبور مما نستشفه من كلمات القرآن الحكيم في أسلوبه المؤثر المعجز إذ يتدفق منه التخويف المرعب لهؤلاء المفترين المغرورين، فقال سبحانه: (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) أي كيف تكون حال هؤلاء الذين قتلوا الأنبياء والعلماء إذا جيء بهم يوم القيامة ليلاقوا الحساب والعذاب - وذلك واقع لا محالة ولا شك فيه - ويومئذ توفى كل نفس ما عملت من خير أو شر ٦٠.
٢٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله تعالى: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب).
قال ابن عباس وأنس بن مالك في سبب نزول (قل اللهم مالك الملك) لما افتتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قالت المنافقون، اليهود: هيهات هيهات - من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك - ألم يكف محمدا

مكة والمدينة حتى طمع في فارس والروم؟ فأنزل الله هذه الآية ٦١.

قوله: (اللهم) موضع خلاف لدى النحويين، ونختار من أقوالهم ما نجده راجحا وهو أن (اللهم) معناه: يا ألله - والميم المشددة عوض عن: يا - وهو قول الخليل وسيبويه - وقيل غير ذلك ٦٢ وبذلك يكون المعنى: يا مالك الملك - أي يا مالك الدنيا والآخرة - يا من له ملكوت الكون كله خالصا لك من غير شريك ولا نديد - أنت (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) أي تعطي من تشاء من عبادك في هذه الدنيا ما تشاء مما تملكه أو تسلطه عليه، وأنت قادر كذلك على انتزاع هذا الملك من مالكه المتسلط عليه من الناس - وكذلك فإن الله يعز بفضله ورحمته من يشاء من عباده إذ يسلبه الملك ويسلط عليه عدوه - وهو جل جلال بيده الخير - واليد بمعنى القدرة، أي أن الخير بقدرة الله يكتبه لمن يشاء من خلقه - وألف التعريف في الخير تفيد الاستغراق - أي أن الخير كله بيد الله وحده لا بيد غيره - على أن الخير كلمة جامعة يلج فيها كل وجوه النعمة والعطاء، سواء في ذلك المال أو الجاه أو الشرف أو السلطان - ويأتي في ذروة ذلك كله نعمة الدين والإيمان - وذلك مقتضى قوله: (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير) فهذه حقائق راسخة عن عظيم شأن الله وعظيم قدرته مما ينبثق عن التصور العظيم لألوهية الله المدبر لأمور الكون جميعا والذي بيده ملكوت كل شيء - فمثل هاتيك الحقائق الثوابت الكبريات تجليها العبارة القرآنية الفذة (إنك على كل شيء قدير).

٢٧ - (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

قوله: (تولج الليل في النهار) الولوج بمعنى الدخول ٦٣ والمراد في هذه الآية أن الله يأخذ من ساعات الليل فيجعلها في ساعات النهار فيكون الليل بذلك قصيرا ويجعل ذلك القدر الزائد داخلا في النهار - وتارة على العكس من ذلك - وهو أن الله يأخذ من ساعات النهار فيجعلها في ساعات الليل فيكون النهار بذلك قصيرا - أي أنه يزيد في ساعات الليل ما نقصه من ساعات النهار - وفي جملة ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ما نقص من النهار يجعله في الليل وما نقص من الليل يجعله في النهار.

قوله: (وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي) لمعرفة تأويل ذلك نقول: هل الحياة والموت في هذه الآية على الحقيقة أو من باب الاستعارة؟

فإن كان ذلك على الحقيقة فمثاله: إخراج السنبلة من الحبة وبالعكس، وكذا النخلة من النواة وبالعكس، وكذا الحيوان من النطفة وبالعكس.

وإن كان ذلك من باب الاستعارة فمثاله: يخرج المؤمن من الكافر، كإبراهيم من أبيه المشرك آزر - والكافر من المؤمن، مثل كنعان المشرك من أبيه نوح عليه السلام - أو يخرج الطيب من الخبيث وبالعكس - فقد ذكر أن الكلمة محتملة للكل، أما الكفر والإيمان فقال تعالى: (أو من كان ميتا فأحييناه) يريد أنه كان كافرا فهديناه فجعل الموت كفرا والحياة إيمانا، وسمي إخراج النبات من الأرض إحياء بعد أن كانت قبل ذلك ميتة فقال: (يحيي الأرض بعد موتها) وقال: (فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها).

وقوله: (وترزق من تشاء بغير حساب) جاء في تأويل ذلك: إن الله تعالى يعطي من يشاء من خلقه فيجود عليه بغير محاسبة منه لمن أعطاه؛ لأنه لا يخاف دخول انتقاص في خزائنه ولا الفناء على ما بيده - وقيل: يعطي من يشاء ما يشاء لا يحاسبه على ذلك أحد؛ إذ ليس فوقه ملك يحاسبه، بل هو الملك يعطي من يشاء بغير حساب، وقيل: ترزق من تشاء غير مقدور ولا محدود، بل تبسطه له وتوسعه عليه، كما يقال: فلان ينفق بغير حساب إذا وصف عطاؤه بالكثرة ٦٤.

٢٨ - (لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير).

ورد في سبب نزول هذه الآية جملة أقوال منها قول ابن عباس إنه كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبي الحقيق وقيس بن وزيد، وهؤلاء كانوا من اليهود يباطنون نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة

لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأنزل الله تعالى هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم.

وذكر عن ابن عباس أنها نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدريا نقيبا وكان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبي صلى الله عليه

وسلم يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبي الله إن معي خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) ٦٥ نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء وأعوانا وأنصارا ليسروا إليهم بالمودة من دون المؤمنين - وقوله: (أولياء) جمع ومفرده الولي ومعناه: المحب والصديق والنصير والصاحب والحليف والتابع، والولاء والموالاة ضد المعاداة والولاية بالفتح والكسر بمعنى النصرة ٦٦.

وجملة المراد من هذه الآية نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين أو اتخاذهم أعوانا وأنصارا من دون المؤمنين، لا جرم أن موالاة المؤمنين للكافرين واتخاذهم بطانة لهم مع مسارّتهم والدنو منهم في إطار من التحالف والصداقة والحب لهو ضرب من ضروب النفاق المكشوف، وأنه ظاهرة من ظواهر التهافت المسف الذي يفضي إلى تقليد للكافرين في عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم، وتلك مدعاة للانخلاع – في الغالب- من ربقة الإسلام شيئا فشيئا بما يولج المتهافت الخائر في زمرة الشرك والمشركين والعياذ بالله!.

لا مساغ بحال، في الأحوال العادية أن يوادع المسلم الكافرين على حساب المسلمين فيلاطفهم ويظاهرهم على المسلمين.

لا مساغ للمسلم أن يكون على هذا النحو من الضعة والإسفاف والخور، وهو في كل الأحوال يعلم أن العزة لله جميعا، فالله هو المعز والمذل، وأن الملك كله بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، وأن الله هو الرازق وهو الباسط وهو المانع وإليه يرجع الأمر كله.

قوله: (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) يعني من يوالي الكافرين في دينهم وعقيدتهم عن رضى وطواعية ليظهرهم بعد ذلك على عورات المسلمين وأسرارهم إلى غير ذلك من وجوه الموالاة للكافرين وموادتهم (فليس من الله في شيء) أي قد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن ملة الإسلام ودخوله بالكفر.

قوله: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) تقاة بمعنى تقيّة بفتح التاء الأولى - يقال: أتقي تقية وتقاة - والتوقية يعني الكلاءة والحفظ، واتقيت الشيء وتقيته أتقيه تقيً وتقية وتقاء - ووقاه الله وقاية أي حفظه - والاسم التقوى ٦٧.

والمراد نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين - وبعبارة أخرى فإنه ليس لهم أن يلاطفوهم أو يوالوهم إلا أن يكونوا في سلطانهم فيخافوهم على أنفسهم فيظهروا لهم الولاية بألسنتهم، على أن يضمروا لهم العداوة وأن لا يشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا يعينوهم على مسلم ٦٨.

قال ابن كثير في تأويل قوله تعالى: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أي من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال " إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم " ٦٩ ونكشر بفتح النون من الكشر بفتح الكاف وهو الضحك - نقول: كشر عن أسنانه يكشر كشرا، في الضحك وغيره ٧٠.

وقد ذكر الرازي جملة أحكام للتقية نبينها هنا وهي:

أولا: أن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان، وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان، بل يجوز أيضا أن يظهر الكلام الموهم للمحبة والموالاة ولكن بشرط أن يضمر خلافه وأن يعرّض في كل ما يقول، فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

ثانيا: لو أنه أفصح بالإيمان والحق حيث يجوز له التقية كان ذلك أفضل - ودليله أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول

الله صلى الله عليه و سلم فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم - نعم - نعم - فقال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم - وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة، ومحمد رسول قريش، فتركه ودعاة الآخر فقال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم - قال: أفتشهد أني رسول الله؟ فقال: إني أصم ثلاثا، فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: " أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئا له وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه ".

ثالثا: أن التقية إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة، وقد تجوز أيضا فيما يتعلق بإظهار الدين - فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائر البتة.

رابعا: ظاهر الآية يدل أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبين، إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس.

خامسا: التقية جائزة لصون النفس - وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز؛ لقوله صلى الله عليه و سلم: " حرمة المسلم كحرمة دمه " ولقوله صلى الله عليه و سلم: " من قتل دون ماله فهو شهيد " ٧١.

قوله: (ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) يخوف الله بذلك عباده من انتقامه وعذابه إذا هم خالفوه بموالاتهم أعداءه من المشركين الظالمين ومعاداتهم للمسلمين جريا وراء مكاسب مسفة رخيصة يمتن بها عليهم أعداء الله - إنه لا يلاطف الكافرين على اختلاف مللهم وعقائدهم فيوادهم ويناصرهم على حساب المسلمين إلا كل منافق خائن أو مشرك أثيم تمرد على شريعة الله فباء بالارتداد والزيغ عن ملة الإسلام وانتكس إلى حيث الخسران وسوء المصير.

٢٩ - (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد) ذلك تخويف من الله للمسلمين بما يزجرهم عن موالاة الكافرين الظالمين، وعن إضمار المودة لهم على حساب إخوانهم المسلمين، إلا أن يكون ذلك على سبيل التقية يوم يحيق بالمسلمين الضعف فيخشون على أنفسهم من الاصطلام أو التعذيب بما لا يطاق.

على أن الأشد من ذلك تأثيما وضلالا وعدوانا على الله ما يقارفه المنافقون الخائنون أو المرتكسون الأشرار من بين صفوف المسلمين وهم يوادون أعداء الله ليطلعوهم على عورات المسلمين وأحوالهم ودخائلهم من غير حاجة إلى ذلك ولا تقية، وهم يظنون أنهم في معزل عن أنظار الناس فلا يدري بهم أحد - وما علم هؤلاء المنافقون الخونة أن الله يعلم سرهم وجهرهم وأنه مطلع على أسرارهم وأغوارهم وما يستكن في صدورهم من خلجات وأستار، بل إن الله جل شأنه يستوي أمام علمه السر والعلن - فما تخفيه الصدور أو تظهره وتجهر به فهو عنده سيان، بل إن الله جلت قدرته عليم بكل شيء، بكل ما في هذه الكلمة من أبعاد العلم، إن علم الله محيط بالكون كله - وهو جل وعلا (على كل شيء قدير) وذلك غاية في التركيز على دوام الخوف من الله، الله الذي ينتقم من الأشرار المجرمين الذين يخادعون المؤمنين ويطعنونهم من الخلف طعنا.

٣٠ - (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

قوله: (يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضرا وما علمت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) ذلك تحذير من الله بالغ لكي يخافه المسلمون فيتجنبوا مناهيه، وينأوا بأنفسهم عن إضمار المودة للكافرين على حساب المسلمين - يحذرهم الله من الخسران والسقوط في الأذلين يوم القيامة - وإذ ذاك يجد الإنسان ما قدمت يداه من خير ومن شر بعد أن يطلعه الله على كتاب أعماله بين يديه منشورا لا جرم أن الموقف إذ ذاك رهيب ومرعب، وأن ساعة الحساب مريعة ومذهلة تتزلزل منها القلوب والأبدان، وتضطرب لهولها الأعصاب

والمشاعر - موقف عسير ومذل وبالغ الترعيب يأخذ بالقلوب أخذا لتظل واجفة مذعورة.
وفي هذه الساعة المخوفة من الإياس المطبق تتشبث النفس المشدوهة المذعورة بكل ما تظنه منجاة لها من الخسران والثبور - فإذا أيقنت أن لا منجاة حينئذ ولا مجير غشيتها الأماني الواهمة الخادعة أن لو كان بينها وبين هذا المصير الخاسر أمدا بعيدا من الزمان أو المكان - يعبر عن ذلك أكمل تعبير قوله تعالى: (تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا).
وقوله: (ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد) ذلك تأكيد منه للوعيد الذي خاطب به المسيئين المستنكفين عن أوامر الله ميلا يحل عليهم سخط الله وغضبه - ومع ذلك كله فإن رحمة الله الواسعة مرجوة للعباد، ولهم من المتسع الرحيب ما يبلغ بهم رحاب النجاة والخلاص - يستفاد ذلك من العبارة القرآنية المجيدة التي تتندى منها شآبيب فياضة من الرحمة، وتتدفق من ظواهر أحرفها الشفيفة ما يسكب في النفس الأمن والراحة والشرح.
٣١ - (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين).
جاء في سبب نزول هذه الآية أن أقواما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زعموا أنهم يحبون الله فقالوا: يا محمد إنا نحب ربنا فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وروي عن ابن عباس أن اليهود لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه أنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود فأبوا أن يقبلوها ٧٢.
وقيل غير ذلك من الأقوال بما هو شبيه بما ذكر.
وبيان ذلك أنه لا ينبغي التعويل على مجرد الحب لله من غير امتثال لأمره وانتهاء عن زواجره، وإنما الحب الصادق السليم أن تقترن محبة الله بالانقياد لشرعه والامتثال لأمره كله بعيدا عن زيغ القلوب وانحرافها صوب الهوى، وأيما حب كهذا لا جرم أن لا يكون صحيحا أو مقبولا، وكما قيل: ليس الشأن أن تحب الله وإنما الشأن أن يحبك الله، فإنه ربما حسب المرء أنه محب لله وهو في الحقيقة بعيد عن حب الله له؛ لأن محبة الله للعبد لا تتحقق إلا من خلال الالتزام الأوفى بتعاليم الإسلام كله من غير تقصير ولا تفريط ولا تنطع ولا شطط - ويمكن إجمال ذلك في أمرين.
الأمر الأول: أن يحب المرء ربع مع الامتثال لأمره الذي بينه وشرعه للناس ما بين أوامر وزواجر، أما دعوى الحب لله في معزل عن الامتثال والتطبيق فإنه لا يغني صاحبه شيئا، بل إنه مجرد أخلاط من المشاعر الجياشة السلبية التي لا تنفع ولا تنجي من سخط الله وعذابه - ومثل هذه الظاهرة، كثيرا ما يتشبث بها فريق من الناس إذ يحسبون أنهم بمفازة من عذاب الله وأنهم محظوظون برضوان الله مادموا يكنون لربهم الحب مجردا من كل عمل أو امتثال، لا جرم أن ذلك زعم خاطئ واهم لا يزحزح عن قائليه المساءلة يوم القيامة وعسير الحساب.
الأمر الثاني: ثمة ضرب من الحب المريب يخالج الإنسان في حسه وشعوره بعد أن خالط ذهنه الوهم فبات في تصوره وظنه وسلوكه يهذي هذيان الشاطح الحالم - ذلك صنف من الأناسي غرتهم أمانيهم وأحلامهم الواهمة فانفتلوا بأنفسهم عن حقيقة الحب المنسجم فانساحوا ذاهلين مضللين بعد أن خدعتهم عقولهم التائهة وقلوبهم التي غشيها الزيغ والخلل - إن هذا الصنف من الناس خاطئ وجهول وهو يحسب أنه على شيء يحسب أنه محب لله وأنه مع لفيفه من زمرة الهائمين الحالمين البلهاء يحظون بمحبة الله دون غيرهم، لا جرم أن ذلك ضرب من الهوس الوجداني المنفوش الذي يفضي إلى اشتداد في الهيام والتهاب في المشاعر المصطنعة من غير روية ولا تبصر، المشاعر الهائمة المشبوبة التي لا يسعفها الفكر النير ولا المعرفة الحقيقية الواعية لأمور هذا الدين المتكامل المتسق، الدين الذي تأتلف في خضمه كل مناحي الحياة والسلوك ما بين سياسة واقتصاد واجتماع وجندية ومعاملات، فضلا عن جمال الزهد وصلابة العقيدة وروعة الحب الغامر لله وحده - في ذلك يقول عز من قائل: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور

رحيم) وعلى هذا فإن من ادعى أنه محب لله وهو ليس على طريق الله وعلى نهج النبي صلى الله عليه وسلم فإنه كاذب مخادع، أو أنه مضلل تائه مخدوع حتى يؤوب إلى الله في شرعه ومنهاجه ويمتثل في عامة أقواله وأفعاله وسلوكه لتعاليم الإسلام كاملة غير منقوصة، وإذ ذاك يحظى بحب الله له وبغفرانه ورحمته.

٣٢ - (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

ثم يؤكد الله ذلك بمعاودة التذكير بضرورة الامتثال لشرع الله المبين في الكتاب الحكيم وفي السنة المطهرة - وعقيب هذا التأكيد ثمة تهديد لمن تولى عن طاعة الله ورسوله وعن الالتزام بشرائع الإسلام كاملة أنه سلك سبيل الكافرين والعياذ بالله - وذلك هو مقتضى قوله سبحانه: (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين)

٣٣ - (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم).

الاصطفاء معناه الاختيار - اصطفاهم أي جعلهم صفوة خلقه - وقد بينت هذه الآية المذكورين وعلو شأنهم ومكانتهم من بين العالمين - على أن المقصود بالاصطفاء فيه قولان: أحدهما: اصطفاء الدين - ففي الكلام محذوف - أي أن الله قد اصطفى دين آدم ودين نوح، وثانيهما: أنه اصطفى آدم نفسه وكذا نوح - واصطفى آل إبراهيم وآل عمران - لقد اصطفى الله هؤلاء أي صفاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصال الحميدة، وهو ما نميل إليه.

أما اصطفاء آدم فكان لما يتجلى فيه من مزايا وهي: أولا: أن الله خلقه بيده في أحسن صورة - وثانيا: أن الله علمه الأسماء كلها - وثالثا: أنه أمر الملائكة بالسجود له - ورابعا: أنه أسكنه الجنة - وخامسا: أن الله جعله أبا البشر.

أما اصطفاء نوح فإنه لما يتجلى فيه من مزايا، منها: أنه جعله أبا البشر بعد آدم؛ وذلك أن الناس كلهم- باستثناء من في السفينة- قد غرقوا وصار ذريته هم الباقين ومنها: إن الله حمله على السفينة فنجا ومن معه وهلك الباقون.

ومنها: أن الله استجاب دعاءه على الكافرين لما لجوا في كفرهم وطغيانهم حتى طال عليهم الأمد وهم على حالهم من الشرك والعتو وعبادة الأصنام فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبع نوحا على دينه.

وقوله: (وآل إبراهيم وآل عمران) ثمة أقوال في تأويل ذلك - فقد قيل: آل إبراهيم وآل عمران هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران - وقيل: آل إبراهيم يعني إبراهيم نفسه - وكذا آل عمران يعني عمران نفسه، وقيل: المراد بعمران أبو موسى وهارون؛ إذ فضلهما الله بكثير من العطايا كالمن والسلوى وغيرهما - وقيل: عمران أبو مريم - فقد اصطفى الله مريم بولادة عيسى من غير أب وليس لأحد في العالمين.

٣٤ - (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله: (ذرية بعضها من بعض) (ذرية) منصوب على الحال وذرية من الذر وهو النسل - والذرية هم صغار، وتكون الذرية واحدا وجمعا - وفيها ثلاث لغات أفصحها ضم الذال، والثانية كسرها - والثالثة فتحها مع تخفيف الراء - وتجمع على ذريات وذراري ٧٣ - وإنما جعل بعضهم من بعض في بعضهم في التناصر والموالاة في الدين والمؤازرة على الإسلام والحق - وذلك كقوله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقوله أيضا: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أي أن دينهم واحد وطريقتهم واحدة وهم في الضلالة مؤتلفون.

وعلى هذا فقوله: (ذرية بعضها من بعض) معناه: ذرية، دين بعضها دين بعض، وكلمتهم واحدة وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته - وأوهم بعضهم من بعض في النية والعمل والإخلاص والتوحيد.

وقوله: (والله سميع عليم) يحتمل معنيين، أحدهما: أنه يعلم من يصلح للاصطفاء من الناس تبعا لاستقامة أقوالهم وأعمالهم.

ثانيهما: أنه سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها ٧٤ إذ قالت ما في الآية التالية وهي: قوله تعالى: (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت

لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) موضع (إذ) من الأعراب جاء فيه أقوال كثيرة منها أنها زائدة، (امرأة عمران) هي أم مريم كانت لا تحمل فرغبت أن يكون لها ولد كغيرها من النساء، فدعت ربها أن يهبها ولدا فاستجاب لها - فلما حملت به نذرت أن يكون مولودها محررا لله - أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس - وهذا مقتضى قوله: (إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) (محررا) منصوب على الحال - وتدعو امرأة عمران ربها على أنه السميع العلي، أي السميع لدعائي العليم بنيتي.

٣٥ - (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]

قوله: (ذرية بعضها من بعض) (ذرية) منصوب على الحال وذرية من الذر وهو النسل - والذرية هم صغار، وتكون الذرية واحدا وجمعا - وفيها ثلاث لغات أفصحها ضم الذال، والثانية كسرها - والثالثة فتحها مع تخفيف الراء - وتجمع على ذريات وذراري ٧٥ - وإنما جعل بعضهم من بعض في بعضهم في التناصر والموالاة في الدين والمؤازرة على الإسلام والحق - وذلك كقوله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقوله أيضا: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أي أن دينهم واحد وطريقتهم واحدة وهم في الضلالة مؤتلفون.

وعلى هذا فقوله: (ذرية بعضها من بعض) معناه: ذرية، دين بعضها دين بعض، وكلمتهم واحدة وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته - وأوهم بعضهم من بعض في النية والعمل والإخلاص والتوحيد.

وقوله: (والله سميع عليم) يحتمل معنيين، أحدهما: أنه يعلم من يصلح للاصطفاء من الناس تبعا لاستقامة أقوالهم وأعمالهم.

ثانيهما: أنه سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها ٧٦ إذ قالت ما في الآية التالية وهي: قوله تعالى: (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) موضع (إذ) من الأعراب جاء فيه أقوال كثيرة منها أنها زائدة، (امرأة عمران) هي أم مريم كانت لا تحمل فرغبت أن يكون لها ولد كغيرها من النساء، فدعت ربها أن يهبها ولدا فاستجاب لها - فلما حملت به نذرت أن يكون مولودها محررا لله - أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس - وهذا مقتضى قوله: (إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) (محررا) منصوب على الحال - وتدعو امرأة عمران ربها على أنه السميع العلي، أي السميع لدعائي العليم بنيتي.

٣٦ - (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

قوله: (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى) كان الغالب على ظنها أنه ذكر وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى.

قوله: (والله أعلم بما وضعت) وهذا من كلام الله، لا أم مريم - وهو قول عامة القراء - أي أن ذلك خبر من الله عز وجل عن نفسه أنه العالم بما وضعت - وقيل: إن ذلك على وجه الخبر عن أم مريم أنها هي القائلة - والأول أصوب - وعلى هذه القراءة- وهي أن قائل ذلك هو الله- يكون المعنى أن الله تعالى قال: والله أعلم بما وضعت تعظيما لولدها وتجهيلا لها بقدر ذلك الولد - ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علق به من عظائم الأمور وأن يجعله (مريم) وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا فلذلك تحسرت.

وفي قراءة ابن عباس (والله أعلم بما وضعت) على خطاب الله لها - أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله العالم بما فيه من العجائب

والآيات.
قوله: (وليس الذكر كالأنثى) أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى.
قوله: (وإني سميتها مريم) أي العابدة في لغتهم.
قوله: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أي وإني أجعل معاذها ومعاذ ذريتها من الشيطان الرجيم بك، وأصل المعاذ الموئل والملجأ المعقل - نقول: عاذ به، واستعاذ به أي لجأ إليه - وهو عياذه، أي ملجؤه - ومعاذ الله، أي أعوذ بالله معاذا - وعذت به معاذا وعياذا، أي اعتصمت ٧٧.
أي أن امرأة عمران ما فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلا خادما لبيت الله تضرعت إلى الله تعالى أن يحفظها من الشيطان الرجيم وأن يجعلها من الصالحات القانتات ٧٨.
والشيطان: كل عاتٍ متمرد من الإنس أو الجن أو الدواب - والشاطن معناه الخبيث - والعرب تسمي الحية شيطانا ٧٩.
والرجيم - من الرجم وهو القتل، وأصله الرمي بالحجارة - رجم فلانا أي رماه بالفحش من القول، أو لعنه، أو اطرده ٨٠ أي أن امرأة عمران أعوذت ابنتها مريم بالله عز وجل من شر الشيطان، وأعوذ ذرية مريم وهو ولدها عيسى المسيح عليه السلام، أي تضرعت إلى الله أن تكون مريم وولدها في رعاية الله وصنه، وأن يكونا في عياذ الله أي في عصمته وكلاءته.
وقد استجاب الله لها دعاءها - يؤيد ذلك ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه إلا مريم وابنها " ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ٨١.
٣٧ - (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)
وقوله تعالى: (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) تقبل الله من أم مريم نذيرتها (مريم) خادمة لبيت الله بقبول حسن، أي بوجه حسن يقبل به النذائر وهو إقامتها مقام الذكر - وقد لفتها أمها في خرقة عقيب ولادتها وحملتها إلى المسجد وقالت: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها فأبوا إلا القرعة فكانت من حظ زكريا وهو زوج خالتها فتكفلها.
قوله: (وأنبتها نباتا حسنا) مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين.
قوله: (وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) أي جعل زكريا كافلا وذلك بعد الاستهام فطفا سهمه ورسبت سهام الآخرين - والمحراب هو مقدم كل مجلس ومصلى، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها، وكذلك هو من المساجد، والمحراب مفرد وجمعه محاريب ومحارب.
قوله: (وجد عندها رزقا) أي غذاء ميسرا هنيئا لتأكل منه مريم من غير نصب ولا جهد - وقد ذكر أن زكريا كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء - لا جرم أن ذلك دلالة على كرامات الأولياء المقربين وفي السنة لهذا نظائر كثيرة ٨٢.
قوله: (قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله) سألها زكريا متعجبا: من أين لك هذا الرزق، فأجابته مريم أنه من عند الله - أي أن الله هو الذي رزقها ذلك فساقه إليها؛ لأن الله (يرزق من يشاء بغير حساب) ويحتمل أن يكون هذا من جملة كلام مريم - أو أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى.
وقوله: (بغير حساب) أي بغير تقدير لكثرته أو تفضلا بغير محاسبة ومجازاة على عمل ٨٣.
٣٨ - (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)
قوله تعالى: (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين)

لما وجد زكريا ما كتب الله لمريم من كرامة الرزق الحسن على هذا النحو المثير العجيب، طمع حينئذ أن يهبه الله ولدا عسى أن يحظى بمثل الكرامة المفضلة المشهودة - مع أن زكريا كان شيخا، وقد وهن منه العظم واشتغل رأسه شيبا، وكانت امرأته كذلك كبيرة وعاقرا، وبالرغم من ذلك فقد سأل زكريا ربه أن يهب له من عنده ذرية طيبة، أي ولدا صالحا (إنك سميع الدعاء) أي تجيب دعاء من دعاك ولا تخيب رجاءه.

٣٩ - (فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)

فاستجاب الله الدعاء، وبيان ذلك أن الملائكة نادته خطابا فأسمعته وهو قائم في محراب عبادته يصلي تحمل له البشرى (أن الله يبشرك يحيى) يبشرك من البشرى وهي ما يبشر به - استبشر: فرح وسر - والبشارة: الخبر السار لا يعمله المخبر - تبشر: فرح وتهلل ٨٤.

بشرت الملائكة زكريا بولد اسمه يحيى (مصدقا بكلمة من الله) يعني المسيح عيسى - وهو قول أكثر المفسرين - وسمي عيسى كلمة، لأنه كان بكلمة الله تعالى التي هي " كن " فكان من غير أب - أما يحيى فهو أول من آمن بعيسى عليهما الصلاة والسلام، وصدقه وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين - وقيل: بستة أشهر، وكانا ابني خالة.

والظاهر في اسم يحيى أنه اسم أعجمي فلا يصرف كموسى وعيسى، وقيل عربي من الحياة وسمي بذلك، لأن الله أحياه بالإيمان.

قوله: (وسيدا) السيد الذي يسود قومه ويُنتهى إلى قوله - أي يفوقهم في الشرف - وقيل: الحليم - وجملة ذلك أنه الشريف في العلم والعبادة والتقى.

قوله: (وحصورا) من الحصر، وهو الحبس - والحصور الذي لا يأتي النساء - وقيل: المانع نفسه من الشهوات - وقيل: كان معصوما من الذنوب - أي لا يأتيها كأنه حصور عنها.

قوله: (ونبيا من الصالحين) هذه بشارة أخرى بنبوة يحيى بعد البشارة الأولى بولادته وهي أعلى من الأولى ٨٥.

٤٠ - (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

قوله تعالى: (قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) قال زكريا بعد أن بشرته الملائكة بيحيى: أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر؟ يعني من بلغ من السن ما بلغت كيف يؤتى الولد؟ وكذلك فإن امرأتي عاقر - والعاقر من النساء التي لا تلد.

قوله: (كذلك الله يفعل ما يشاء) أي أنه هين على الله أن يخلق ولدا من الكبير الذي يئس من الولد، ومن العاقر التي لا يرجى منها الولد ولا الولادة، لأن الله لا يمتنع عليه فعل شيء شاءه، لأن قدرته لا تشبهها قدرة.

٤١ - (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ)

قوله: (قال رب اجعل لي آية) أي اجعل لي علامة أستدل بها على وجود الولد مني فأستقبل ذلك بالبشاشة والشكر.

قوله: (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) لما حملت زوج زكريا بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا مع أنه قادر على قراءة التوراة وذكر الله - فإذا أراد مقالة أحد لم يطقه، أي أنه لم يستطع النطق فأصابه السكوت ولم يكن ذلك من مرض أو خرس أو نحو لك، بل كان ذلك بتقدير الله وحكمته - فقد طلب الآية (العلامة) ليستزيد بها من الطمأنينة - فيكون المعنى بذلك: أتمم علي النعمة بأن تجعل لي آية، زيادة نعمة وكرامة فقيل له: (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام) أي تمنع من الكلام ثلاث ليال - وقيل: بل كان ذلك على سبيل العقاب له إذ سأل ربه الآية بعد مشافهة الملائكة إياه بما بشرته به (بيحيى فأخذ بلسانه فبات غير قادر على الكلام (إلا رمزا) أي يومئ إيماء - والإيماء الإشارة - وذلك بالشفتين أو الحاجبين والعينين أو اليدين أو نحو ذلك - ورمزا منصوب على الاستثناء المنقطع.

قوله: (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) بعد أن قال الله جل ذكره لزكريا: (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمرا) بغير خرس ولا عاهة ولا مرض، أمره بذكر الله كثيرا فإنه لا يمنع من ذكره ولا يحال بينه وبين تسبيه إذا أمره بالتسبيح عشيا وإبكارا،

وذلك بتعظيم ربه بعبادته بالعشي، وذلك من حيث تزول الشمس إلى أن تغيب - وقيل: العشيء والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة، والعشاءان: المغرب والعشاء ٨٦.
والإبكار، مصدر بكر يبكر، إذا خرج للأمر في أول النهار - ومنه الباكورة لأول الثمرة - هذا في أصل اللغة، لكن المراد بالإبكار هنا: ما بين طلوع الفجر إلى الضحى ٨٧.
٤٢ - (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين).
المراد بالملائكة هنا جبريل وحده، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل - وهو قوله تعالى: (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) وقيل: بل خاطبتها الملائكة وهو ظاهر الآية.
وعلى أي الحالين فإن المراد هو الإخبار من الله انه جل وعلا قد اختار مريم بنت عمران بأن اختصها بالكرامة والتفضيل، وذلك لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها.
قوله: (وطهرك) فإنه يحتمل عدة وجوه وجملتها أنه طهرها عن الكفر والمعصية، وطهرها عن مسيس الرجال، وعن جبلة النساء كالحيض ونحو، وطهرها أيضا عن الأفعال والعادات الذميمة.
ثم كرر الاصطفاء في الآية بقوله (واصطفاك) أي وهب لك عيسى من غير أب وأنطقه (عيسى) حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة وجعلها وابنها آية للعالمين.
أما الاصطفاء الأول هو في جملة أمور، منها أن الله تعالى قبل تحريرها لتكون عابدة خادمة لبيت الله مع أنها كانت أنثى، ومنها أن رزقها كان يأتيها من عند الله خالصا سائغا من غير عناء ولا نصب، ومنها أن الله أسمعها كلام الملائكة شفاها.
وقوله: (على نساء العالمين) ثمة قولان في تأويل المراد بهذه الآية.
القول الأول: هو أن مريم خير نساء العالمين في زمانها - وفي جملة ذلك وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:
" حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون " ٨٨.
القول الثاني: وهو أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة - ويؤيد ذلك ما رواه ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة " ٨٩.
وروى الترمذي أيضا عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم أنها قالت عن بكائها وضحكها بعد أن توفي أبوها عليه الصلاة والسلام: أخبرني رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه يموت، فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران، فضحكت ٩٠.
وعن عمار بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين " ٩١.
ويضاف إلى ذلك أن الله قد خص مريم بما لم يؤته أحدا من النساء - ومن جملة ذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة وليس هذا لأحد من النساء، ولذلك سماها الله في تنزيله صدّيقة فقال: (وأمه صديقة) وقال: (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) فشهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت - وغير ذلك من المناقب مما ليس لامرأة من نساء العالمين ٩٢.
٤٣ - (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)
قوله: (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) القنوت كلمة جامعة تتضمن معاني الطاعة والسكوت والدعاء والقيام في الصلاة والإمساك عن الكلام.
وقيل: المراد بقنوت مريم أن تطيل القيام في الصلاة، وأن تخلص الطاعة لربها وحده.

وقوله: (واسجدي واركعي مع الراكعين) أمرها بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها - فقد كانت مأمورة بأن تصلي في بيت المقدس مع المجاورين وإن كانت لا تختلط بهم.

٤٤ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

قوله تعالى: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) هذه الأخبار من أستار الغيب، أي مما يخفى من أخبار القوم التي لم تطلع عليها أنت يا محمد ولا قومك، ثم أوحى الله بها إليك لتكون حجة لك على نبوتك وصدق ما جئتهم به.

وقوله: (نوحيه إليك) أي ننزله إليك وحيا، أي عن طريق الوحي، وأصل الإيحاء إلقاء الموحي إلى الموحى إليه، وذلك قد يكون بكتاب أو إشارة أو إيماء أو إلهام.

قوله: (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) أي ما كنت يا محمد عندهم فتعلم ما نعلمك به من أخبارهم التي لم تشهدها، لكنك إنما تعلم ذلك بإعلامنا لك به كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حيث اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر (إذ يلقون أقلامهم) أي سهامهم التي استهم بها المستهمون من بني إسرائيل على كفالة مريم.

قوله: (وما كنت لديهم إذ يختصمون) كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاحّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا بسهامهم أيهم يكفلها، فقرعهم زكريا وكان زوج خالتها، وقيل: زوج أختها، وذلك بعد اختصامهم فيها أيهم أحق بها وأولى ٩٣.

٤٥ - (إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

قوله تعالى: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) التبشير إخبار المرء بما يسره من خير.

وقوله: (بكلمة منه) أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له " كن " فيكون - وهو قول أكثر المفسرين - وقيل: بكلمة منه، أي برسالة من الله وخبر من عنده - وهو من قول القائل: ألقى إليّ فلان كلمة سرني بها، بمعنى أخبرني خبرا فرحت به - كما قال تعالى: (وكلماته ألقاها إلى مريم) يعني بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها - وقيل: بكلمة منه هي اسم لعيسى سماه الله بها - وهو قول ابن عباس وهي أن الكلمة هي عيسى المسيح.

أما كلمة (المسيح) فهي اسم مشتق في قول الأكثرين من العلماء وأهل اللغة - وثمة وجوه ذكرها العلماء في سبب تسمية عيسى بالمسيح منها:

أولا: لكثرة سياحته، إذ كان يمسح الأرض أي يقطعها.

ثانيا: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، أي أنه كان ممسوح الأخمصين - والأخمص هو ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض ٩٤.

ثالثا: لأنه كان إذا مسح أحدا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى.

رابعا: لأنه مسح من الأوزار والآثام.

خامسا: لأنه كان ممسوحا بذهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء لا يمسح به غيرهم - وقيل غير ذلك ٩٥.

قوله: (وجيها في الدنيا والآخرة) أي ذا وجاهة وشرف ومكانة عالية عند الله في الدنيا بفضل النبوة وما كتب الله له من مزايا وخصائص مميزة كخلقة من غير أب وكلامه وهو في المهد ونحو ذلك - وهو في الآخر من أولي العزم من الرسل (ومن المقربين).

٤٦ - (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)

وقوله: (ويكلم الناس في المهد وكهلا) (في المهد) يعني في مضجع الصبي في حال رضاعه - (وكهلا)، أي بين حال الغلومة وحال الشيخوخة - وكلامه للناس هو دعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره - وهذه معجزة تشهد على صدق نبوة عيسى عليه السلام، وأنه عبد من عباد الله المقربين الصالحين الذين اصطفاهم على سائر البشر لحمل رسالة الله وتبليغها للناس.

٤٧ - (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

قوله تعالى: (قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) لما أخبرت الملائكة ببشارة الله لها بولدها المسيح قالت في تعجب واستفهام - (أنى يكون لي ولد) يعني من أي وجه يكون لي الولد مع أنني لست بذات زوج ولست عازمة على الزواج وليست بغيا -حاشا لله- فأجابها الملك عن الله عز وجل (كذلك الله يخلق ما يشاء) يعني هكذا يخلق الله منك ولدا لك من غير مسيس، وذلك كيما يكون آية للناس وعبرة - والأصل في ذلك واضح ظاهر لا يحتمل الجدل أو الثرثرة أو الخصام، وهو أن الله يخلق ما يشاء سواء في ذلك خلق عيسى من غير أب، أو خلق آدم من قبله من غير أب ولا أم - وليس في ذلك من مدعاة لعجب، فالله جل وعلا خالق كل شيء ولا يعز عليه أن يصنع أي شيء، وإنما يقع ذلك كله أو يتحقق عقيب إرادته سبحانه وأمره قال: (كن فيكون).

٤٨ - (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ)

قوله تعالى: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم).

ذلك خبر من الله جل وعلا لمريم بشارة لها بابنها السيد الحصور أن الله يعلمه الكتاب والحكمة - والمراد به هنا الخط والكتابة، أما الحكمة فهي العلم والتفقه والحلم - وقيل: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ٩٦.

وبعد أن علمه الله الكتابة والعلم منّ عليه بتعلم الكتابين الكريمين، التوراة التي أنزلت على كليمه موسى، ثم الإنجيل، وهما كلاهما كتابان مقدسان حافلان بعلوم الدين والدنيا، هداية لبني إسرائيل خاصة دون غيرهم من الأقوام والأجناس وترشيدا لهم – لبني إسرائيل- كيلا يضلوا أو يسرفوا أو يطغوا.

٤٩ - (وَرَسُولا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: (ورسولا إلى بني إسرائيل) أي ونجعله رسولا لبني إسرائيل - وقيل: تقدير الكلام: ويكلم الناس رسولا - أي حال كونه رسولا - وقيل غير ذلك.

والمقصود في الآية أن المسيح عيسى ابن مريم أرسل إلى بني إسرائيل جميعهم وليس إلى فريق منهم دون غيرهم - أجل - بعث الله نبيه المسيح إلى هذا الصنف من البشر كيما تستقيم طبائعهم ونفوسهم فيسيروا في حياتهم على جادة الحق من غير عوج ولا استكبار ولا تمرد - أرسله الله ليقوم في بني إسرائيل اعوجاجهم، وليحملهم على المضي في طاعة الله وفي طريق اللاحب المستقيم، فلا يميلوا مع الهوى، ولا يأخذهم شطط النفس فيوغلوا في الرجس والدنس ويفسدوا في الأرض إفسادا.

قوله: (أنّي قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) هذه واحدة من المعجزات الحسية الظاهرة احتج بها المسيح عيسى لتكون للناس آية على صدق نبوته ورسالته للناس.

أولها: أنه يخلق من الطين طيرا، والخلق في حق العبد معناه التصوير والتقدير وهو هنا معقول، لكنه في حق الله يعني التكوين والإبداع، والمقصود هنا أنه يصنع من الطين على شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله.

الثانية: إبراء الأكمه - وهو الذي يولد أعمى ٩٧.

الثالثة: إبراء الأبرص، وهو من البرص وهو واحد من أمراض الجلد.

الرابعة: إحياء الموتى - وذلك بدعاء الله يدعوه عيسى لهم فيستجيب الله له فيحييهم.

الخامسة: إخبارهم بما أكل أحدهم الآن، وما هو مدخر لنفسه في بيته لغد - وذلك مقتضى قوله تعالى: (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) ٩٨ هذه خمس آيات معجزات احتج بها نبي الله عيسى ليحمل الناس على تصديقه واتباعه، لا جرم أنه دلائل حسية ومشهودة كان الناس يبصرونها ويشهدونها عيانا من غير شك في ذلك البتة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين).

وفي هذا الصدد من الكلام نقل ابن كثير رحمه الله عن كثير من العلماء قولهم: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداومة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد - وكذلك محمد صلى الله عليه و سلم بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا لو كان بعضهم لبعض ظهيرا - وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا ٩٩.

٥٠ - (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

قوله: (ومصدقا لما بين يدي من التوراة) (مصدقا) منصوب على الحال من جئتكم - وبيان ذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان مؤمنا بالتوراة مقرا بها على أنها من عند الله - وكلك الأنبياء كلهم كانوا يصدقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسالاته وإن اختلفت بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك.

على أن تصديق عيسى عليه السلام للتوراة معناه اعتقاده أن كل ما فيها حق وصواب - وهذه الحقيقة لا ينقضها قوله تعالى: (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) إنه لا تناقض بين المعنيين البتة - فتأويل هذه الآية بأمرين:

الأول: أن أحبار بني إسرائيل كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة مفتراة وكانوا قد نسبوها إلى كليم الله موسى عليه السلام - فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها.

الثاني: أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات.

وقال آخرون: إن عيسى عليه السلام رفع كثيرا من أحكام التوراة، وذلك كله ليس قدحا في كون عيسى مصدقا بالتوراة؛ لأن المقصود هو التخفيف عن بني إسرائيل مما أثقل كاهلهم وأعنتهم من الأحكام - ١٠٠

وجملة القول أن قوله تعالى: (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح.

قوله: (وجئتكم بآية من ربكم) أعاد ذكر المعجزات ليؤثر في قلوبهم وطبائعهم تأثيرا - ثم خوفهم تخويفا إذ قال: (فاتقوا الله وأطيعون) أي اتقوا الله يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه المنزل إليكم، وأوفوا بعهد الله الذي عاهدتموه فيه وأطيعون فيما دعوتكم إليه.

٥١ - (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

وقوله: (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) هذا تأكيد على الإقرار المطلق من عيسى عليه السلام بالعبودية لله، أي أنه عبد من عباد الله، وأن الله رب الأرباب، وأنه صاحب الإلهية بغير نديد، وأيما اختلاق متكلف من الكلام الزائف عن إلهية عيسى أو بُنوته لله لا جرم أنه محض ظلم وهراء، بل إنه اعتداء صارخ ومريع على جلال الله في عليائه وملكوته.

إن التصور الصادع المطلق على أن المسيح عبد من عباد الله لهو حقيقة كونية كبرى - حقيقة تنطق بها الأذهان والمشاعر السليمة،

وتفيض بها طبائع الخلائق كافة، بل يهتف بها الكون برمته من أقصاه إلى أقصاه، وليس على البشرية بعد هذه الحقيقة الراسية البلجة إلا أن تستضيء بتعاليم النبوة فتمضي على الطريق المبين - طريق الله المستقيم (فاعبدوه هذا صراط مستقيم).

٥٢ - (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

قوله تعالى: (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

الإحساس هو وجدان الشيء بإحدى الحواس، والمراد أن عيسى عليه السلام قد استشعر إصرار هؤلاء القوم على الكفر، وأنهم عازمون على قتله فخشي منهم على نفسه واختفى عنهم، عندئذ قال لمن حوله: (من أنصاري إلى الله) يعني من أعواني على المكذبين الجاحدين، (إلى الله) أي مع الله.

قوله: (قال الحواريون نحن أنصار الله) أي أنصار نبيه ودينه، والحواريون هم أصحاب عيسى عليه السلام وكانوا اثني عشر رجلا.

والحواريون جمع ومفرده الحواري - واختلفوا في تسميتهم بهذا الاسم، فقيل: الحواري أصله من الحور بفتح الحاء والواو وهو شدة البياض، والحور نقاء بياض العين، وتحوير الثياب تبييضها، وحورت الثياب أي بيضتها، فسموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: لأنهم كانوا قصارين وهم الذين يبيضون الثياب - وقيل: سموا بذلك؛ لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة، فسموا بذلك إطراء لهم بما يشير إلى نقاء قلوبهم التي هي كالثياب البيض.

وقيل: الحواري الناصر - فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " لكل نبي حواري، وحواري الزبير " ١٠١.

بعد أن استنصر المسيح بمن يمضي في طريق الله فيناصره ويشد أزره ضد العتاة الظالمين استجاب له الحواريون المؤمنون- وهو ما بيناه آنفا- إذ قالوا: (نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) ذلك إعلان واضح من هذه الفئة المؤمنة الصالحة – أي فئة الحواريين- على مناصرة دين الله ومؤازرة نبيه عيسى المسيح الذي جاءهم بعقيدة التوحيد - وذلك ما يقتضيه إعلانهم الشجاع المجلجل عن الإيمان بالله وعن الإقرار الكامل لله بالوحدانية واستشعار العبودية له دون سواه، وذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام، وهو دين كل الأنبياء بما يعنيه الإسلام من خضوع واستسلام لشريعة.

٥٣ - (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

ومما أعلنه الحواريون في جسارة لا تعرف الزعزعة أو الوجل هو تصديقهم بما أنزل الله إليهم على سيدنا عيسى عليه السلام، واتباعهم لدينه الذي اتبعته به ومعاونته في ذالك من أجل المضي على الحق.

قوله: (فاكتبنا مع الشاهدين) أي اكتب أسماءنا مع الذين شهدوا لك بالتوحيد والذين صدقوا أنبياءك فعزروهم وناصروهم، واجعلنا في عداد من تكرمهم به من كرامتك.

٥٤ - (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

قوله: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) المكر في اللغة: الاحتيال والخديعة أو السعي بالفساد في خفية ومداجاة، أما مكر هؤلاء الكافرين الظالمين بعيسى عليه السلام فهو أنهم هموا بقتله، وأما مكر الله تعالى بهم فإنه يحتمل عدة وجوه: منها: أن الله رفع عيسى إلى السماء فلم يمكنهم من إيصال الشر إليه، وذلك تملأ الظالمون على قتله فنجاه الله من كيدهم وسوء تدبيرهم.

ومنها: أن الحواريين كانوا اثني عشر، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم، ودل عليه اليهود، فألقى الله عليه شبه عيسى ورفع إليه عيسى، فأخذوا ذلك المنافق ثم قتلوه وصلبوه ظانين أنه عيسى عليه السلام، فكان ذلك هو مكر الله بهم.

ومنها: أن الله سلط عليهم ملك فارس فقتلهم وسباهم، فهذا هو مكر الله تعالى، وقيل غير ذلك ١٠٢.

ومما هو قمين ذكره هنا أن المكر هو المكر من حيث حقيقته ومعناه وما يفضي إليه من الويلات والشرور التي تحيق بالبشرية، وبخاصة

الفئة المؤمنة السائرة على منهج الله القويم، وهو في الجملة يعني التمحل والتحيل والخداع سعيا لا فتعال الشر وإلحاقه بالآخرين، ولا يحفز إلى ذلك إلا سوء القصد وفساد الطوية، وما برح الزمان أو التاريخ يحدثنا عن وجوه الخداع والتمالؤ الخبيث الذي يقارفه الأشرار من الناس في حق الفئة المؤمنة الصالحة، الفئة التي تمضي على صراط الله وتدعو إلى الحق على بصيرة ويقين.

ما برحت والسنون تحمل في طياتها أكدارا من صور الويلات والقواصم التي تلطخت بها أجبنة الطغاة المجرمين، سواء كانوا من بني إسرائيل أو غيرهم، لا جرم أن الأشرار والفجار والعتاة الظالمين كثيرون وهم تعج بهم جنبات الأرض عبر زمانها الطويل، يستوي في ذلك الأشرار والفجار من اليهود أو الهنود أو الأوربيين أو العرب أو غيرهم من أصناف البشر - أولئك الذين كادوا للفئة المؤمنة كيدا وتواطأوا فيما بينهم – في الليل والنهار- لتدمير الإسلام وإزالة شوكة المسلمين أو اصطلامهم البتة إن استطاعوا.

لكن الأهم من ذلك كله أن الله لهؤلاء وأمثالهم من الأرجاس والمناكيد بالمرصاد، لا جرم أن الله أكبر من كل كبير - فهو القاهر فوق عباده وهو خير الماكرين، فإنه سبحانه وتعالى يحصي على هؤلاء الأشرار من شياطين البشر كل أفعالهم الشريرة وكل ما جنوه في حق المؤمنين من خداع وتضليل ومكر.

وهو في ذلك إنما يملي لهم ويستدرجهم إلى جحيم الذل والعار والهزيمة استدراجا حتى إذا حان الأجل ودقت ساعة النصر والغلبة للمؤمنين الصابرين من دعاة الإسلام، سقط الظالمون في وهاد الخزي وباءوا بالانتكاس والإياس.

لا جرم أن ذلك مكر الله وأنه من تقديره وتدبيره! وهو مقتضى قوله عز من قائل: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

٥٥ - (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

قوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) المراد بالوفاة هنا النوم - وذلك كقوله تعالى: (هو الذي يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فهي في منامها متوفاة لكنها لم تمت - وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام عقيب قيامه من النوم: " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا ".

وعلى هذا فالمراد من قوله: (متوفيك) أني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت - وبعبارة أخرى: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل: توفيت مالي من فلان أي قبضته - ويحتج لذلك بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو قوله لليهود: " إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة " ١٠٣.

والقول الذي نجده صوابا في كيفية الوفاة هو أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، وذلك من شأن الله ومن تقديره، فهو القادر على كل شيء ولا يعز عليه أن يفعل أي شيء يريد.

قوله: (ومطهرك من الذين كفروا) أي مخرجك من بينهم ليندرأ عنك سوء قصدهم وسوء جوارهم.

أما عن كيفية الرفع إلى السماء فقد ورد فيها أقوال عديدة متقاربة من جملتها ما ذكر عن ابن عباس أنه لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا (الحواريون) من عين في البيت ثم قال لها: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم فقال: أنا - فقال عيسى: اجلس - ثم أعاد عليهم فقال الشاب: أنا - فقال عيسى: اجلس - ثم أعاد عليهم فقال: أنا - فقال عيسى: نعم أنت ذاك - فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام - ورفع الله تعالى عيسى من روزنة كانت في البيت إلى السماء - ثم جاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء - وهؤلاء اليعقوبية - وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه - وهؤلاء النسطورية - وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه - وهؤلاء المسلمون - فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم فقتلوا ١٠٤.

قوله: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة).

المراد بالذين اتبعوه هم الذين على دينه من عقيدة التوحيد الكامل، العقيدة الصحيحة السليمة المبرأة من كل أوضار الشرك؛ لا جرم أن أتباعه على هذه الملة السديدة من التوحيد الخالص هم المسلمون وحدهم، سواء كانوا في زمن المسيح - وهم الذين اتبعوه بحث على أنه عبد الله ورسوله، وليس شيئا غير ذلك مما تهرف به ألسن المبطلين والمضللين أو كانوا من المسلمين بعد ظهور محمد صلى الله عليه و سلم - إن هؤلاء المسلمين هم جاعلهم الله فوق الكافرين جميعا على تعدد مللهم وعقائدهم الفاسدة، عقائد الشرك والضلال والانحراف.

على أن المراد بالفوقية هنا يحتمل وجهين: أحدهما: الفوقية المادية: وهي فوقية العزة والسلطان، الفوقية التي يظللها قوة الإعداد والعتاد والقدرة على قتال الضالين المفسدين في الأرض.

ثانيهما: الفوقية الاعتبارية: وهي القائمة على قوة الحجة والبرهان وسطوع الدلائل التي تشكف عن وجه الحق واليقين - والمسلمون في ميزان الله دوما هم الأعلون، وهم الجديرون بريادة البشرية ليسوسوا الناس بالحق والعدل والقسطاس المستقيم.

حتى إذا قامت القيامة صار الناس جميعا إلى الله، سواء فيهم أتباع عيسى من أهل التوحيد الخالص، أو الذين كذبوه أو أشركوا به - وإذ ذاك يقضي الله بين هؤلاء فيما كانوا قد اختلفوا فيه، إذ تفرقوا في حقيقة عيسى طرائق قددا، فأما الذين جحدوا نبوة عيسى عليه السلام أو خالفوا ملته السليمة المبنية على الإقرار لله بالعبودية أو قالوا فيه من الأباطيل الظالمة المفتراة ما لم ينزل الله به من سلطان فلسوف يعذبهم الله عذابا شديدا في الدنيا - وذلك بإخضاعهم لسلطان الإسلام وظهور الغلبة والاستعلاء للمسلمين عليهم - فما يجترئون على قتال المسلمين إلا كتب الله النصر لعباده المؤمنين المخلصين وهم المسلمون الصادقون مادامو غير مختلفين ولا متفرقين - ومادامت تجمعهم العقيدة الإسلامية الراسخة وتشدهم كلمة الإسلام وحقيقة الإخلاص الكامل لله دون سواه - وإذا ما تحول المسلمون عن هذه الحقائق الراسخة إلى حيث التهاون والضعف والاستكانة أو التشبث بمذاهب غير إسلامية كالاشتراكية والفرعونية والقومية والإقليمية ونحو ذلك فلا جرم أن تحيق بالمسلمين الهزائم والأهوال وأن تدور عليهم دوائر القهر والإذلال.

وأما في الآخرة فإن مردهم إلى النار وبئس القرار، هنالك يجد الظالمون المضلون من عذاب التحريق والاصطلاء ما لا طاقة لهم باحتماله أو الاصطبار عليه - نسأل الله الغفران والرحمة.

وخلافا لأولئك الظالمين الذين باءوا بعذاب الله في كلتا الدارين، يمتدح الله عباده المسلمين الصادقين الذين آمنوا بعيسى المسيح، وصدقوه تمام التصديق، وأقروا له بكل تعاليمه التي بنيت على التوحيد الخالص وعلى تفرد الله وحده بالإلهية من غير شريك له في ذلك البتة، لا جرم أن هؤلاء سينالهم تكريم من الله وسيحظون من الأجر الأوفى ما هم به خليقون.

ذلك كله مقتضى قوله تعالى: (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين).

٥٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

قوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) المراد بالوفاة هنا النوم - وذلك كقوله تعالى: (هو الذي يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فهي في منامها متوفاة لكنها لم تمت - وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام عقيب قيامه من النوم: " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا ".

وعلى هذا فالمراد من قوله: (متوفيك) أني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت - وبعبارة أخرى: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل: توفيت مالي من فلان أي قبضته - ويحتج لذلك بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو قوله لليهود: " إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة " ١٠٥.

والقول الذي نجده صوابا في كيفية الوفاة هو أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، وذلك من شأن الله ومن تقديره، فهو القادر على كل شيء ولا يعز عليه أن يفعل أي شيء يريد.

قوله: (ومطهرك من الذين كفروا) أي مخرجك من بينهم ليندرأ عنك سوء قصدهم وسوء جوارهم.

أما عن كيفية الرفع إلى السماء فقد ورد فيها أقوال عديدة متقاربة من جملتها ما ذكر عن ابن عباس أنه لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا (الحواريون) من عين في البيت ثم قال لها: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم فقال: أنا - فقال عيسى: اجلس - ثم أعاد عليهم فقال الشاب: أنا - فقال عيسى: اجلس - ثم أعاد عليهم فقال: أنا - فقال عيسى: نعم أنت ذاك - فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام - ورفع الله تعالى عيسى من روزنة كانت في البيت إلى السماء - ثم جاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء - وهؤلاء اليعقوبية - وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه - وهؤلاء النسطورية - وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه - وهؤلاء المسلمون - فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم فقتلوا ١٠٦.

قوله: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة).

المراد بالذين اتبعوه هم الذين على دينه من عقيدة التوحيد الكامل، العقيدة الصحيحة السليمة المبرأة من كل أوضار الشرك؛ لا جرم أن أتباعه على هذه الملة السديدة من التوحيد الخالص هم المسلمون وحدهم، سواء كانوا في زمن المسيح - وهم الذين اتبعوه بحث على أنه عبد الله ورسوله، وليس شيئا غير ذلك مما تهرف به ألسن المبطلين والمضللين أو كانوا من المسلمين بعد ظهور محمد صلى الله عليه و سلم - إن هؤلاء المسلمين هم جاعلهم الله فوق الكافرين جميعا على تعدد مللهم وعقائدهم الفاسدة، عقائد الشرك والضلال والانحراف.

على أن المراد بالفوقية هنا يحتمل وجهين: أحدهما: الفوقية المادية: وهي فوقية العزة والسلطان، الفوقية التي يظللها قوة الإعداد والعتاد والقدرة على قتال الضالين المفسدين في الأرض.

ثانيهما: الفوقية الاعتبارية: وهي القائمة على قوة الحجة والبرهان وسطوع الدلائل التي تشكف عن وجه الحق واليقين - والمسلمون في ميزان الله دوما هم الأعلون، وهم الجديرون بريادة البشرية ليسوسوا الناس بالحق والعدل والقسطاس المستقيم.

حتى إذا قامت القيامة صار الناس جميعا إلى الله، سواء فيهم أتباع عيسى من أهل التوحيد الخالص، أو الذين كذبوه أو أشركوا به - وإذ ذاك يقضي الله بين هؤلاء فيما كانوا قد اختلفوا فيه، إذ تفرقوا في حقيقة عيسى طرائق قددا، فأما الذين جحدوا نبوة عيسى عليه السلام أو خالفوا ملته السليمة المبنية على الإقرار لله بالعبودية أو قالوا فيه من الأباطيل الظالمة المفتراة ما لم ينزل الله به من سلطان فلسوف يعذبهم الله عذابا شديدا في الدنيا - وذلك بإخضاعهم لسلطان الإسلام وظهور الغلبة والاستعلاء للمسلمين عليهم - فما يجترئون على قتال المسلمين إلا كتب الله النصر لعباده المؤمنين المخلصين وهم المسلمون الصادقون ماداموا غير مختلفين ولا متفرقين - ومادامت تجمعهم العقيدة الإسلامية الراسخة وتشدهم كلمة الإسلام وحقيقة الإخلاص الكامل لله دون سواه - وإذا ما تحول المسلمون عن هذه الحقائق الراسخة إلى حيث التهاون والضعف والاستكانة أو التشبث بمذاهب غير إسلامية كالاشتراكية والفرعونية والقومية والإقليمية ونحو ذلك فلا جرم أن تحيق بالمسلمين الهزائم والأهوال وأن تدور عليهم دوائر القهر والإذلال.

وأما في الآخرة فإن مردهم إلى النار وبئس القرار، هنالك يجد الظالمون المضلون من عذاب التحريق والاصطلاء ما لا طاقة لهم باحتماله أو الاصطبار عليه - نسأل الله الغفران والرحمة.

وخلافا لأولئك الظالمين الذين باءوا بعذاب الله في كلتا الدارين، يمتدح الله عباده المسلمين الصادقين الذين آمنوا بعيسى المسيح، وصدقوه تمام التصديق، وأقروا له بكل تعاليمه التي بنيت على التوحيد الخالص وعلى تفرد الله وحده بالإلهية من غير شريك له في ذلك البتة، لا جرم أن هؤلاء سينالهم تكريم من الله وسيحظون من الأجر الأوفى ما هم به خليقون.

ذلك كله مقتضى قوله تعالى: (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين).

٥٧ - (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

قوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) المراد بالوفاة هنا النوم - وذلك كقوله تعالى: (هو الذي يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فهي في منامها متوفاة لكنها لم تمت - وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام عقيب قيامه من النوم: " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا ".

وعلى هذا فالمراد من قوله: (متوفيك) أني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت - وبعبارة أخرى: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل: توفيت مالي من فلان أي قبضته - ويحتج لذلك بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو قوله لليهود: " إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة " ١٠٧.

والقول الذي نجده صوابا في كيفية الوفاة هو أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، وذلك من شأن الله ومن تقديره، فهو القادر على كل شيء ولا يعز عليه أن يفعل أي شيء يريد.

قوله: (ومطهرك من الذين كفروا) أي مخرجك من بينهم ليندرأ عنك سوء قصدهم وسوء جوارهم.

أما عن كيفية الرفع إلى السماء فقد ورد فيها أقوال عديدة متقاربة من جملتها ما ذكر عن ابن عباس أنه لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا (الحواريون) من عين في البيت ثم قال لها: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم فقال: أنا - فقال عيسى: اجلس - ثم أعاد عليهم فقال الشاب: أنا - فقال عيسى: اجلس - ثم أعاد عليهم فقال: أنا - فقال عيسى: نعم أنت ذاك - فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام - ورفع الله تعالى عيسى من روزنة كانت في البيت إلى السماء - ثم جاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء - وهؤلاء اليعقوبية - وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه - وهؤلاء النسطورية - وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه - وهؤلاء المسلمون - فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم فقتلوا ١٠٨.

قوله: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة).

المراد بالذين اتبعوه هم الذين على دينه من عقيدة التوحيد الكامل، العقيدة الصحيحة السليمة المبرأة من كل أوضار الشرك؛ لا جرم أن أتباعه على هذه الملة السديدة من التوحيد الخالص هم المسلمون وحدهم، سواء كانوا في زمن المسيح - وهم الذين اتبعوه بحث على أنه عبد الله ورسوله، وليس شيئا غير ذلك مما تهرف به ألسن المبطلين والمضللين أو كانوا من المسلمين بعد ظهور محمد صلى الله عليه و سلم - إن هؤلاء المسلمين هم جاعلهم الله فوق الكافرين جميعا على تعدد مللهم وعقائدهم الفاسدة، عقائد الشرك والضلال والانحراف.

على أن المراد بالفوقية هنا يحتمل وجهين: أحدهما: الفوقية المادية: وهي فوقية العزة والسلطان، الفوقية التي يظللها قوة الإعداد والعتاد والقدرة على قتال الضالين المفسدين في الأرض.

ثانيهما: الفوقية الاعتبارية: وهي القائمة على قوة الحجة والبرهان وسطوع الدلائل التي تشكف عن وجه الحق واليقين - والمسلمون في ميزان الله دوما هم الأعلون، وهم الجديرون بريادة البشرية ليسوسوا الناس بالحق والعدل والقسطاس المستقيم.

حتى إذا قامت القيامة صار الناس جميعا إلى الله، سواء فيهم أتباع عيسى من أهل التوحيد الخالص، أو الذين كذبوه أو أشركوا به - وإذ ذاك يقضي الله بين هؤلاء فيما كانوا قد اختلفوا فيه، إذ تفرقوا في حقيقة عيسى طرائق قددا، فأما الذين جحدوا نبوة عيسى عليه

السلام أو خالفوا ملته السليمة المبنية على الإقرار لله بالعبودية أو قالوا فيه من الأباطيل الظالمة المفتراة ما لم ينزل الله به من سلطان فلسوف يعذبهم الله عذابا شديدا في الدنيا - وذلك بإخضاعهم لسلطان الإسلام وظهور الغلبة والاستعلاء للمسلمين عليهم - فما يجترئون على قتال المسلمين إلا كتب الله النصر لعباده المؤمنين المخلصين وهم المسلمون الصادقون ماداموا غير مختلفين ولا متفرقين - ومادامت تجمعهم العقيدة الإسلامية الراسخة وتشدهم كلمة الإسلام وحقيقة الإخلاص الكامل لله دون سواه - وإذا ما تحول المسلمون عن هذه الحقائق الراسخة إلى حيث التهاون والضعف والاستكانة أو التشبث بمذاهب غير إسلامية كالاشتراكية والفرعونية والقومية والإقليمية ونحو ذلك فلا جرم أن تحيق بالمسلمين الهزائم والأهوال وأن تدور عليهم دوائر القهر والإذلال.

وأما في الآخرة فإن مردهم إلى النار وبئس القرار، هنالك يجد الظالمون المضلون من عذاب التحريق والاصطلاء ما لا طاقة لهم باحتماله أو الاصطبار عليه - نسأل الله الغفران والرحمة.

وخلافا لأولئك الظالمين الذين باءوا بعذاب الله في كلتا الدارين، يمتدح الله عباده المسلمين الصادقين الذين آمنوا بعيسى المسيح، وصدقوه تمام التصديق، وأقروا له بكل تعاليمه التي بنيت على التوحيد الخالص وعلى تفرد الله وحده بالإلهية من غير شريك له في ذلك البتة، لا جرم أن هؤلاء سينالهم تكريم من الله وسيحظون من الأجر الأوفى ما هم به خليقون.

ذلك كله مقتضى قوله تعالى: (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين).

٥٨ - (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

وقوله: (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) (ذلك) اسم إشارة مبتدأ في محل رفع - وخبره الجملة الفعلية (نتلوه) ويراد باسم الإشارة هنا تلك الأنباء التي بينتها الآيات فيما يتعلق بعيسى وأمه مريم وزكريا وابنه يحيى، وأخبار الحواريين واليهود (نتلوه عليك) أي نقرؤها عليك يا محمد (من الآيات) أي من العبر والحجج أو العلامات الدالة على نوبتك وصدق دعوتك.

قوله: (والذكر الحكيم) قيل: معناه القرآن فهو حكيم؛ لأنه ينطق بالحكمة التي تفصل بين الحق والباطل وبين التوحيد والشرك - وقيل: المراد بالذكر الحكيم هنا غير القرآن وهو اللوح المحفوظ التي نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء الكرام ١٠٩.

٥٩ - (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

قوله تعالى: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدام خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين).

قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية: إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: " وما أقول " قالوا: تقول إنه عبد - قال: " أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول " فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله - فأنزل الله عز وجل هذه الآية ١١٠.

تتضمن هذه الآية قياسا - وهو تشبيه عيسى المسيح الذي خلق من غير أب بآدم أبي البشر إذ خلقه الله من تراب- أي من غير أب ولا أم - فوجه الشبه بينهما خلقهما من غير أب، بل إنه من الوجهة القياسية المعقولة ينبغي القول إن خلق عيسى من غير أب لهو أشد تأكيد على حصول المقصود - وهو ما يحمل الذهن على سرعة التقبل والتصديق في يسر وبساطة من طريق الأحرى والأولى، فلئن كان آدم خلق من غير أب ولا أم وإنما خلق من تراب فلا جرم أن يكون خلْق المسيح من أم بغير أب لا يحتمل غير القطع واليقين.

والأمر جد هين ويسير لو حيل بين المرء وجنوحه للهوى والتعصب، وهذه أم المعضلات ومشكلة التي تصطدم بها البشرية طيلة حياتها - - - مسألة الهوى المضل والتعصب الذميم وما يرافق ذلك من نكوص عن نداءات اليقين والصواب التي تهتف بالإنسانية في كل آن، كيما تصيخ للحق والصواب، وكيما تتجافى بعقولها وطبائعها وتصوراتها عن الباطل بكل صور وألوانه.

الأمر جد هين ويسير لو حملت البشرة عقولها على استيعاب المدلول الهائل الذي تضنه قوله تعالى: (كن فيكون) فلسوف لا يبقى بعد ذلك مثار لغرابة ولا متسع لعجب، مادام كل شيء في الوجود رهين من الله بالكاف والنون.

٦٠ - (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)
قوله: (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) (الحق) خبر المبتدأ - وتقدير الكلام: هذا هو الحق: وقيل: الحق مبتدأ - وما بعده (الجار والمجرور) خبر.
وتأويل الآية أن ما أنبأ الله نبيه صلى الله عليه و سلم عن قصة المسيح وأمه مريم هو الحق، وأن ما دون ذلك ليس إلا الضلال، ومن أجل ذلك يخاطب الله المسلمين في شخص الرسول صلى الله عليه و سلم محذرا من الامتراء في خبر المسيح على أنه عبد الله ورسوله، وأنه جيء به من غير أب نتيجة لكلمة من الله وهي (كن) والممترين الشاكين - من الامتراء والتماري والمرية بمعنى الشك.
٦١ - (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)
قوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين) (فمن حاجك) أي جادلك وخاصمك يا محمد (فيه) أي في المسيح عيسى ابن مريم، أو في الحق الوارد في الآية (الحق من ربك) - من بعد أن أوحى الله إليك في ذلك من الخبر اليقين والعلم الصادق الساطع، فقل لهم هلموا (ندع أبناءنا وأبناءكم - - ثم نبتهل) أي نلتعن - من البهل بفتح الباء وهو اللعن - باهل بعضكم بعضا وتبهلوا أي تلاعنوا - والابتهال الاجتهاد في الدعاء - بهله الله أي لهنه الله ١١١ واللعن معناه الطرد والإبعاد من الرحمة ١١٢.
وسبب نزول هذه الآية أنه جاء راهبا نجران إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال لهما: " أسلما تسلما " فقالا: قد أسلمنا قبلك - فقال: " كذبتما- يمنعكما من الإسلام سجودكما للصليب، وقولكما اتخذ الله ولدا، وشربكما الخمر " فقالا: ما نقول في عيسى؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) إلى قوله: (تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) الآية - فدعاهما رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى الملاعنة - وجاء بالحسن والحسين وفاطمة وأهله وولده عليهم السلام، فلما خرج من عنده قال أحدهما لصاحبه: أقرر بالجزية ولا تلاعنه، فأقر بالجزية، فرجعا فقالا: نقر بالجزية ولا نلاعنك.
وجملة القول أن المباهلة ضرب من الاجتهاد في الدعاء يجعل اللعن على الكاذبين، لكن المشركين أبوا أن يطوقوا أنفسهم بمغبة هذا الدعاء الخطير لما يعرفونه في أعماق أنفسهم وهو أن محمدا صلى الله عليه و سلم صادق، وأنه يأتيه الوحي من السماء، وأن ما جاء به من أنباء المسيح وأمه مريم غاية في اليقين وقطع الثبوت.
ولقد استيقن هؤلاء المشركون أن قبولهم بالمباهلة سيفضي بالضرورة إلى أن تحيق بهم نقمة الله فيبوءوا بالسخط والاصطلام؛ من أجل ذلك أحجموا عن المباهلة - وتلك حجة ظاهرة تضاف إلى الدلائل الكاثرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
٦٢ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
قوله تعالى: (إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) هذا إشارة إلى ما تقدم من أخبار نبأ الله بها نبيه محمدا صلى الله عليه و سلم من أمر عيسى على أنه عبد الله ورسوله وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وهو روح من الله، ذلك كله لهو القصص الحق، والقصص في اللغة هو اتباع الأثر، قص أثره، تتبعه - يقال للقاص إنه قاص؛ لأنه يتبع الخبر بعد الخبر أو يسوق الكلام سوقا، فالمراد بالقصص تتابع المعاني في خبر من الأخبار ١١٣.
قوله: (وما من إله إلا الله) هذا تأكيد ومبالغة في أنه لا إله إلا الله الواحد الحق سبحانه وتعالى.
قوله: (وإن الله لهو العزيز الحكيم) العزيز الذي لا يُغلب - وهو القادر على كل شيء كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات - وهو الحكيم - أي العالم بكل شيء وبكل ما تفضي إليه الأمور من عواقب.

٦٣ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

قوله: (فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) بعدما تبين لهؤلاء المشركين الضالين وجه الحق وما سيق في ذلك من دلائل وحجج على صدق ما جاء به القرآن في كل الأمور ومنها خبر المسيح وأمه مريم؛ فإنهم إن تولوا عما بينت لهم ووصفت فاعلم أنهم معاندون مكابرون لا تجدي معهم الأدلة والبراهين، وهم ليسوا غير ناكبين عن صراط الله المستقيم، بل إنهم فاسدون مفسدون - والله مطلع على قلوبهم وأعمالهم وهو قادر على مجازاتهم والتنكيل بهم ١١٤.

٦٤ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى - والمراد بهم هنا في الآية موضع تفصيل - فقد قيل: المراد نصارى نجران - وقيل: المراد يهود المدينة - وقيل: بل نزلت في الفريقين كليهما وهما النصارى واليهود - ويؤيد ذلك ما روي في سبب نزول هذه الآية، وهو أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما تريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى - وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير!! فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) السواء يعني العدل والنصفة ومعنى الآية: هلموا يا أهل الكتاب إلى الكلمة العادلة المستقيمة نتبعها نحن وأنتم.

وقد فسر الكلمة العدل هذه بقوله تعالى: (ألا نعبد إلا الله) أي نوحد الله فلا نعبد غيره ونبرأ من كل معبود سواه فلا نشرك به شيئا، وهو مقتضى قوله: (ولا نشرك به شيئا) فلا نعبد مع الله وثنا ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتا ولا نارا ولا غير ذلك، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له.

قوله: (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) أي لا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه - ويشبه ذلك قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحله الله.

قوله: (فإن تولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أي إن أعرض هؤلاء عما دعوا إليه من الكلمة السواء فلم يستجيبوا فقلوا لهم: (اشهدوا بأنا مسلمون) يعني اجهروا لهم في إعلان قارع ظاهر لا تردد فيه ولا لبس أننا مستمسكون بدين الإسلام ماضون على صراطه القويم، لا نحيد عنه البتة، ولا نلين في الالتزام بكل شرائعه وتعاليمه ١١٥.

٦٥ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده - فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا - وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله هذه الآية (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم) أي أن اليهود كانوا يقولون إن إبراهيم كان على ديننا، وكذلك النصارى كانوا يقولون: إن إبراهيم كان على ديننا، فأبطل الله مقالتهم بأن التوراة والإنجيل إنما أنزلا من بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك برهان ساطع على كذب دعواهم وفساد خصامهم ١١٦.

قوله: (أفلا تعقلون) أي أفلا تفقهون خطأ ما زعمتم وفساد ما ادعيتم وقد علمتم أن اليهودية والنصرانية إنما حدثنا بعد موت إبراهيم بحين من الدهر، وفي ذلك من التقريع الشديد ما لا يخفى.

٦٦ - (هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قوله: (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) ها أداة تنبيه - أنتم مبتدأ (هؤلاء) خبره حاججتم أي جادلتم وخاصمتم - وهذا بيان لمدى الحماقة التي تغشى عقول هؤلاء المكابرين الضالين - ذلك أنهم إذا كانوا يحاجون (يخاصمون) فيما علموه مما ذكرته التوراة والإنجيل فلم المحاججة والخصام فيما لا يعلمونه مما ليس له ذكر في هذين الكتابين - لا جرم أن خصامهم في ذلك غاية في الحماقة والصلف والضلال ومجانبة الصواب.

ولقد كان أجدى لهؤلاء المكابرين الحمقى- لو أنهم أخلصوا النية في الحجاج- أن يخاصموا فيما هو مستبين لهم في كتبهم وأن يدعوا ما يعلموه لأمر الله لكي يحكم فيه بما يشاء، والله جلت قدرته أعلم بما ينفع الناس وما يصلح عليه شأن البشر؛ لأنه العليم بكل شيء الخبير بالأسرار والأستار، بل إنه عز وعلا يستوي في علمه ما كان خافيا أو معلنا؛ ولهذا قال: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

٦٧ - (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله تعالى: (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) هذا إعلان مجاهر وتصريح مجلجل وظاهر لا شك فيه ولا غموض عن نفي اليهودية والنصرانية عن خليل الله إبراهيم، فما كان هذا النبي عليه الصلاة والسلام تابعا لكلا الفريقين؛ لأنهم كانوا وما زالوا أهل شرك، وهم بعيدون كل البعد عن الحنيفية المسلمة - الحنيفية القائمة على التوحيد الخالص لله - الحينفية التي تبرأ كل البراءة من وثنية اليهود والنصارى، أما اليهود فقد عبدوا عزيرا فضلا عن عبادتهم للشهوات، شهوة المال، وشهوة التسلط وشهوة الكيد، وشهوة الهوى بكل صوره وألوانه. وكذلك النصارى فقد عبدوا المسيح وقالوا فيه من فرط المغالاة والشذوذ ما يثير النكر والاشمئزاز.

وقوله: (ولكن كان حنيفا مسلما) لكن حرف استدراك - والحنيف هو المائل عن العقائد الزائغة المنحرفة - أو المتحنف عن الشرك القاصد إلى التوحيد وهو من الحنف بالتحريك وهو يعني الاستقامة واعتزال عبادة الأصنام - ومنه الحنيفية وهي اتباع أمر الله والاستقامة على محجة الهدى ١١٧.

أما قوله: (مسلما) أي خاشعا لله بقلبه متذللا له بجوارحه، مذعنا لما فرض عليه - وهو من الاستسلام، أي الانقياد لأوامر الله والامتثال له بالطاعة والخضوع ١١٨.

هكذا كان خليل الرحمن إبراهيم، هذا النبي الأواه الحليم لا جرم أنه غاية في الحنيفية المستقيمة البعيدة أشد البعد عن كل صور الإشراك بالله، ما بين عبادة لصنم أو بشر أو غيرهما من الكائنات وأشكال الهوى والشهوات - ولهذا قال سبحانه: (وما كان من المشركين). وربما يهرف حانق مارق أو مجادل خصيم بأن ما اعترضتم به على مقالة اليهود والنصارى في دعواهم أن إبراهيم كان منهم- ينسحب كذلك على الإسلام القائل (ولكن كان حنيفا مسلما) مع أن إبراهيم سابق لنبوة محمد صلى الله عليه و سلم بزمن بعيد!

والجواب عن ذلك أن المراد بالحنيف المسلم ما بيناه آنفا - وجملته أن إبراهيم كان على الحنيفية السمحة المبرأة من كل أدران الوثنية والشرك، الحنيفية التي تعني الميل عن الشرك إلى الإسلام والثبات عليه - وأساس ذلك كله الإقرار الكامل لله بالعبودية وأنه وحده الإله المعبود الديان.

٦٨ - (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

والمسلمون في كل زمان خليقون بالمفاخرة أن يكون إبراهيم منهم - وذلك لحنيفيته وعظيم إقراره لله بالعبودية، فأولى الناس بإبراهيم هذه الأمة المستقيمة الموحدة - الأمة السائرة على المحجة السليمة البيضاء بقيادة نبيها العظيم الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه و سلم - فضلا عن الذين اتبعوا إبراهيم في زمنه - ولهذا قال الله عز وعلا: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله

ولي المؤمنين) أي أخص الناس بإبراهيم وأقربهم منه وأحقهم بنصرته وولايته وأجدر أن تكون لهم الحجة في ذلك هم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا به واتبعوا سنته وارتضوا بملة الإسلام دينا وهداية.

وأولئك هم أولياء الله، وهو سبحانه وليهم وناصرهم وسيجزيهم الخير والصلاح والحسنى ١١٩.

٦٩ - (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قوله تعالى: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) قوله في الآية: (من) للتبعيض - فقد ذكر أهل الكتاب ولم يعمهم؛ لأن منهم من آمن - وقيل نزلت الآية في معاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة إذ دعاهم اليهود إل دينهم.

قوله: (لو يضلونكم) لو للتمني بمعنى أن، وهي مصدرية - فيكون التقدير ودت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم أي أن يصدوكم عن الإسلام ويردوكم عنه إلى ما هم عليه من الكفر - وهذا هو ديدن الحاسدين الحاقدين من شرار البرية الذين تنفطر قلوبهم حسدا وحقدا على المسلمين؛ وذلك لفرط ما تكنه صدورهم لهم من الغيظ والكراهية لكونهم مسلمين - فهم بذلك يتمالؤون على المسلمين بكل الأسباب والأساليب والمخططات لحرفهم عن ملة الإسلام إلى ملل الكفر إن استطاعوا، بل إنهم ينفقون في ذلك الأموال الطائلة ويبذلون فيه أضخم الجهود من غير كلل ولا ملل لتشويه الإسلام في أذهان المسلمين ولحرف المسلمين إلى ملل الضلال والباطل.

وقوله: (وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) وإضلالهم أنفسهم معناه إهلاكهم أنفسهم باستحقاق العقاب وعود الوبال عليهم لقصدهم إضلال غيرهم - (وما يشعرون) أي لا يعلمون ولا يدرون أن وزر هذا الإضلال إنما يحيق بهم.

٧٠ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

وقوله: (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) (لم)، أصلها لما، لأن ما استفهامية دخلت عليها اللام فحذفت الألف لطلب الخفة ١٢٠ - هذا خطاب يحمل في مضمونه توبيخا لأهل الكتاب لجحودهم وسوء نواياهم وذلك على نحو من الاستفهام الإنكاري، فأهل الكتاب ينكرون ويجحدون آيات الله وهم على ذلك شهود - والمراد بآيات الله التي وبخهم الله على إنكارها هي الآيات الواردة في التوراة والإنجيل والتي تتضمن جملة أخبار وحقائق منها: البشارة بمحمد صلى الله عليه و سلم، ومنها: أن خليل الله إبراهيم كان حنيفا مسلما - ومنها أن الدين لهو الإسلام.

وقيل: المراد بآيات الله القرآن الكريم نفسه - هذا الكتاب العظيم الحكيم الحافل بالمعاني وظواهر الإعجاز - كل هذه الحقائق الباهرة كان أهل الكتاب يعلمون بها؛ إذ قرأوها في كتبهم واستيقنوها لكنهم أنكروها إنكارا - ولا يحفزهم إلى مثل هذا الإنكار الظالم غير الحقد والحسد - لا جرم أن هذه خسيسة من خسائس الطبع المريض - الطبع الموغل في ظلام الباطل والذي لا يستمرئ غير الرذيلة والفساد، ولا يتمل بذاته الملتوية غير سبيل الشر والعدوان - سبيل الشقاء والشيطان.

٧١ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله: (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) تلبسون من اللبس بالضم بمعنى الشبهة والخلط - والتلبيس: التخليط والتدليس نقول: في الأمر ليس أي إشكال، والتبس الأمر أي أشكل ١٢١.

وإلباس الحق بالباطل معناه خلط الحق بالباطل ليختفي الحق نفسه فلا يظهر - وذلك بإلقاء الشبهات من حول الإسلام فيصار به إلى الخفاء والتعمية ليظهر بعد ذلك في صورة من صور الباطل، بما يثير في النفس الريبة والشك ونحو هذا الدين.

قوله: (وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أي يكتمون نبوة محمد صلى الله عليه و سلم وما ورد من صفات له في التوراة والإنجيل بما يقطع أنه رسول الله إل البشرية كافة، لكنكم – أيها اليهود والنصارى- قد جحدتم كل ذلك وجعلتموه طي الخفاء والكتمان (وأنتم تعلمون) أي أنتم عالمون بما تقارفونه من خلط وتلبيس وافتراء على الإسلام وعلى نبيه عليه الصلاة والسلام - عالمون بأن هذا النبي حق وأن ما جاءكم به من دين لهو الحق - وعالمون أيضا بفداحة فعلتكم النكراء وهي تلبيس الحق وكتمانه.

٧٢ - (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
قوله تعالى: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون).
جاء في سبب نزول هذه الآية أن اثني عشر حبرا من يهود خيبر قد تواطأوا فيما بينهم لبعث الريبة والشك في أذهان الضعفة من الناس، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه - فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم - وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه و سلم والمؤمنين ١٢٢.
وهذه حيلة خبيثة مما ابتكرته عقول الحاقدين والحاسدين من شرار البرية - أولئك الذين يديمون التواطؤ ويصلون الليل بالنهار وهم يأتمرون بهذا الدين ليجتثوه من جذوره إن استطاعوا، أو يثيروا من حوله الأكاذيب والشبهات ليرتاب المسلمون في دينهم فينقلبوا عنه انقلاب المرتكس المخذول، ولينثنوا عنه انثناء المتردد الحائر:
حيلة خبيثة نكراء بادر أهل الكتاب لاصطناعها والتشبث بها عسى أن تتزلزل العقيدة الإسلامية في نفوس أصحابها، فيكون ذلك مدعاة لانهيار الإسلام وتداعيه كليا- لا قدر الله-.
هكذا يتمنى الحاقدون والحاسدون من أهل الكتاب، لكن هذه مجرد أحلام وأماني تظل تتزاحم في نفوس هؤلاء الأفاكين الدجاجلة لتقضهم قضا ولتؤز نفوسهم أزا - أما الإسلام فلا جرم أنه باق بقاء الدهر والزمان حتى يرث الله الدهر والزمان!
الإسلام باق برعاية الله وكلاءته كيما تستظل البشرية بأفيائه الدفيئة اللطاف.
وإذا كان الأمر بالظالمين كذلك من حيث التواطؤ فيما بينهم وتآمرهم على الإسلام بابتكار هذه الحيلة الماكرة، وهي تظاهر بعضهم باعتناق الإسلام في الظاهر أول النهار ثم ارتدادهم عنه آخر النهار، أو أن يكون الاعتناق فترة من الوقت ثم يعقبه الارتداد؛ ليرتاب الضعفة من المسلمين في دينهم أو ينثنوا عنه إلى ملل الكفر - - إذا كان الأمر كان كذلك بات لزاما أن يتصدى الإسلام بتشريعه لمثل هؤلاء المخادعين فيوجب إنزال الحد بالقتل في حق المرتدين عن ملة الإسلام؛ سدا لذريعة الفتنة والغواية التي يثيرها دهاقنة المكر والخيانة والتربص بالإسلام - وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه لدى الحديث عن حد الردة إن شاء الله.
٧٣ - (وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحدكم مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) - (ولا تؤمنوا) أي لا تصدقوا - وهذا من كلام يهود بعضكم لبعض - إذ قال الرؤساء والأحبار للعوام والسفلة منهم: لا تصدقوا إلا أهل دينكم، ولا تطمئنوا لغير أتباعكم من الذين على ملة اليهود - وذلك تعبير عما تكنه صدور هؤلاء من جحود لدين الإسلام ولنبوة محمد صلى الله عليه و سلم مع أنهم كانوا يجدون في كتابهم التوراة- وكذا الإنجيل- أن الإسلام حق، وأن نبي الإسلام صادق وأمين، وأنه رسول الله إل البشرية كافة، لكن المعضلة الكبرى في الطبيعة الضالة الجانحة لهؤلاء وفي تعصبهم البغيض الذميم - التعصب الذي يعمي ويصم والذي يفيض على المشاعر والجوارح إفرازات كثافا من ظلمات الحق المركوم.
قوله: (قل إن الهدى هدى الله) هذه جملة اعتراضية - وهي من قول الله - والهدى في اللغة يعني الرشاد والدلالة - هداه الله إلى الطريق أرشده ١٢٣.
والمراد أن البيان الحق بيان الله والهدى هداه، فليس من هداية ولا رشاد ولا صواب إلا ما كتبه الله وقرره للعالمين - وما كان من دلالة أخر من دلالات البشر لا جرم أنها خلاف الحق وأنها مغايرة لهداية الله، الهداية السوية المستقيمة التي كتبها الله للناس ليعيشوا طيلة الدهر سالمين مطمئنين.
قوله: (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) هذا الكلام متعلق بما قبله وهو قوله: (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) والمعنى المراد يحتمل أكثر

من وجه - فقد قيل: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه و سلم إلا من تبع دينكم وهم اليهود، لئلا يكون ذلك سببا لإيمان غيرهم بمحمد صلى الله عليه و سلم.
وقيل: لا تصدقوا إلا من تبع دينكم، لئلا يؤتى أحد من الهدى والبينات مثل ما أوتيتم - وقيل: لئلا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من التوراة، والمن والسلوى وفرق البحر وغير ذلك من الآيات والفضائل.
قوله: (أو يحاجوكم) عطف عل (أن يؤتى أحد) أي لا تؤمنوا بنوة محمد وتقروا بما في صدوركم لغير من تبع دينكم فيعلم بذلك المسلمون فيحاجوكم عند ربكم - أي يتخذن ذلك حجة عليكم فتقوم به عليكم الدلالة وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة ١٢٤.
قوله: (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) الفضل في اللغة ضد النقص - أو بمعنى الزيادة - وكذا الفضيلة ضد النقيصة ١٢٥ والمراد بالفضل في الآية: الرسالة أو الإسلام - وتقدير المعنى أن الأمور كلها بيد الله وتحت تصرفه فهو المعطي والمانع يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والخير.
قوله: (والله واسع عليم) يعني والله ذو سعة بتفضله على من يشاء من العباد - وهو ذو علم بمن هو أهل للفضل منهم.
٧٤ - (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)
قوله تعالى: (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) قوله: (يختص) من قول القائل: خصصت فلانا بكذا أخصه به - وأما الرحمة فالمراد بها هنا: الإسلام والقرآن والنبوة - أي أن الله اختص محمدا ليكون رسولا للناس كافة وآتاه الكتاب الحكيم المعجز - واختص أمته لتكون خير أمة أخرجت للناس بما أوتيت من دين قويم معتدل وسط، يصلح عليه حال البشرية في كل مكان وزمان.
٧٥ - (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين).
ذلك إخبار من الله عن أهل الكتاب وهم اليهود من بني إسرائيل، بأن منهم أهل أمانة يؤدونها ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته الفاجر في يمينه - وجملة ذلك أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدي أمانته وإن كانت كثيرة، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي أمانته وإن كانت حقيرة، ومن كان أمينا في الكثير فهو في القليل أمين بالأولى، ومن كان خائنا في القليل فهو في الكثير خائن بالأولى.
أما وجه إخبار الله نبيه صلى الله عليه و سلم بذلك فهو تحذير المسلمين من ائتمانهم على أموالهم وتخويفهم من الاغترار بهم لاستحال كثير منهم أموال المؤمنين.
والمؤمنون لا يستطيعون التمييز بين الخائن والأمين من أهل الكتاب، ومعلوم أن أهل الخيانة فيهم أكثر من أهل الأمانة لخروج الكلام على الغالب فلزم اجتناب جميعهم ١٢٦.
قوله: (لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما) المراد بالقيام هنا: الإلحاح والخصومة والتقاضي والمطالبة: ومعنى الآية أن هذا الخائن لهو من الشح وفساد النفس واستمراء الحرام أنك إن تأمنه على دينار واحد لا يؤده إليك إلا بالمطالبة والملازمة والخصومة والتقاضي لاستخلاص الحق منه - وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فإن ما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك.
قوله: (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) (الأميين) جمع ومفرده الأمي، وهو من لا يكتب أو من على خلقة الأمة لم يتعلم الكتاب وهو باق عل جبلته، والأمي منسوب إلى الأم، لأنها أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بقي على أصله في أن لا يكتب ١٢٧.
وذلك إخبار عن اليهود كانوا إذا بايعوا من على غير ملتهم من العرب أو عاملوهم فإنهم لا يجدون حرجا أو غضاضة في دينهم أن يظلموهم أو يجحدوا حقهم أو يكذبوا عليهم من أجل أن يأكلوا أموالهم بغير حق - وذلك مقتضى قوله تعالى عنهم: (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) أي ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب (سبيل) أي حرج أو إثم - وذلك شطط فاضح وغاية في

الإفراط المتعصب من غير تبصر ولا يقين ولا ضمير بما يبيح للمتعصبين الغلاة أن يعتدوا على غيرهم من أولي الأديان الأخرى بمختلف صور العدوان ما بين تقتيل وتهجير وتنكيل وأكل للأموال بالباطل.

قوله: (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أي أن هذه المقالة منهم كانت محض افتراء واختلاق، بل إن ذلك غاية في الإفك والضلالة وهي قولهم: لا جناح علينا في أكل أموال غير اليهود، لا جرم أن ذلك بهتان وكذب لا يتورع عن مقارفته من هان عليه دينه فعاث فيه تحريفا وتزييفا، وهانت عليه التوراة فألبسها التزوير والتشويه والخلط، كل ذلك (وهم يعلمون) أي لما قالوا: إن جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة كانوا كاذبين في ذلك وكانوا عالمين بأنهم كاذبون فيه، بل كانوا عالمين أن الخيانة محرمة وإن الخائن آثم. ولئن كانت هذه الخليقة هي ديدن يهود وطبيعتهم في التعامل والتقاضي مع الآخرين فلا جرم أن لا يكون هؤلاء خليقين بثقة غيرهم من الناس، ليسوا خليقين بالتصديق في عهد ولا عقد ولا ميثاق - ولا خليقين بالائتمان على الأموال والأنفس والأوطان، فضلا عن عدم ائتمانهم على القيم والأخلاق والعقائد.

أما المسلمون فلا جرم أنهم موضع الثقة والائتمان الكاملين على البشرية في أديانها وعقائدها وأوطانها وأموالها البشرية بكل دياناتها السماوية المعتبرة.

المسلمون مؤتمنون على رعاية الإنسان ليظل آمنا مطمئنا على نفسه وماله وعرضه ودينه، سواء كان من اليهود أو النصارى أو المجوس - وأولئك في ظل الإسلام سالمون مكرمون، وليس لأحد من الناس- مسلما أو غير مسلم- أن يعتدي عليهم أو يمسهم بسوء أو أذى ماداموا أهل ذمام وعهد ولهم حق المواطنة الكاملة.

سأل رجل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة - قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس - قال: هذا كما قال أهل الكتاب: (ليس علينا في الأميين سبيل) إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

٧٦ - (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

قوله: (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) (بلى)، نفي لما قبله وهو قوله إخبارا عن يهود: (ليس علينا في الأميين سبيل) فقال الله تعال رادا عليهم: (بلى) عليهم سبيل- إثم أو حرج- في أموال الأميين، لكن الذي أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب فيما وصاكم به في التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه و سلم وما جاءكم به من الشرائع والتعاليم، ثم اتقى ما نهى الله عنه من الكفر والمعاصي (فإن الله يحب المتقين) أي يحب الذين يتقونه وذلك بالخوف من عقابه ومحاذرة عذابه فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرمه عليهم ويبادرون بطاعته فيما أمرهم به ١٢٨.

٧٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) نزلت هذه الآية في نفر من رؤساء اليهود منهم حيي بن أخطب، إذ كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من شأن محمد صلى الله عليه و سلم، وبدلوه، وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا ١٢٩ - والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم ١٣٠ - ومعنى الآية أن هؤلاء اليهود الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه و سلم واتباع دينه وشرعه وبيان صفته وحقيقته للناس، ويعتاضون عن أيمانهم الفاجرة الكاذبة بأنهم يؤمنون بالنبي وبنصرته، بالأثمان الخسائس من عروض هذه الدنيا العاجلة الفانية (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) أي لا حظ لهم في خيرات الآخرة ولا نصيب لهم من نعيم الجنة (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أي لا يكلمهم بما يسرهم وينفعهم - وكلام الله لعباده المؤمنين يوم القيامة فيه تشريف لهم وتكريم، لكن الفساق الكفرة لا ينالهم من ذلك أيما تكريم، وكذلك لا ينظر إليهم بعين اللطف والرحمة.

قوله: (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) أي لا يطهرهم من دنس الذنوب والمعاصي ثم يبوؤون بالعذاب الموجع جزاء عتوهم وفسقهم عن أمر الله الذي أوجب عليهم أن يظهروا للناس ما حوته التوراة من نبوة محمد صلى الله عليه و سلم وصدق رسالته.

٧٨ - (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

المراد بالفريق في هذه الآية جماعة من اليهود كانوا يلوون ألسنتهم بالكتاب، وهو من اللّي، وهو عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج - يقال: لوى برأسه أماله وأعرض، ولوى الحبل أي فتله، والتو فلان إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضده ١٣١.

والمقصود هنا أن اليهود كانوا يلوون ألسنتهم بالكتاب، وهي التوراة، أي يحرفون كلام الله فيها عن مواضعه تحريفا، ويبدلونه تبديلا، ثم ينسبونه؛ إليه ليوهموا الجهلة أن هذا المحرف المبدل كلام الله، وهو في الحقيقة كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا على الله فيما صنعوا.

وذكر الرازي في تأويل (يلوون ألسنتهم) وجهين: أحدهما: أن معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفا يتغير به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية، وهو قول القفال.

ثانيهما: أنهم كتبوا كتابا شوشوا فيه نعت محمد صلى الله عليه و سلم وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد صلى الله عليه و سلم ثم قالوا: (هذا من عند الله) - وهذا تأويل ابن عباس.

٧٩ - (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

قوله تعالى: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوءة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيئين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أنه حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه و سلم ودعاهم إلى الإسلام، قال أبو رافع القرظي: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني " ١٣٢ فأنزل الله في ذلك من قولهما: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) أي ما كان ينبغي ولا يستقيم لأحد من البشر أن يدعو الناس لعبادته قائلا لهم: كونوا عبادا لي من دون الله مع أنه قد آتاه الله الكتاب وهو القرآن، وآتاه الحكم وهو العلم والفهم وشفافية البصيرة، وكذلك آتاه النبوة مبلغا بها من الوحي أمين السماء والأرض، فأنى لبشر كريم مفضال كهذا، أوتي من الله هاتيك الفضائل الكبريات وأسبغ عليه من كنوز هذا الكون ما يفوق في جماله وكماله كل تصور - - - أنى لبشر فريد مميز كهذا أن يأمر الناس بعبادته من دون الله، حاشا لله أن تصدر هذه المقالة من سيد الكائنات وإمام البشرية كافة صلى الله عليه و سلم!

قوله: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين، والرباني المنسوب إلى الرب لكونه عالما به مواظبا على طاعته مثلما يقال رجل إلهي إذا كان مقبلا على معرفة الإله وطاعته - وهو قول سيبويه - وقيل: الربانيون هم أرباب العلم؛ وهو جمع ومفرده رباني وهو الذي يرب العلم ويرب الناس أي يعلمهم ويصلحهم - وهو قول المبرد.

وقيل: الرباني هو العالم الحكيم ١٣٣.

قوله: (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي أن الرسول صلى الله عليه و سلم حقيق به على أن يقول للناس: كونوا ربانيين أي علماء حكماء مستمسكين بطاعة الله.

وذلك (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي بسبب كونكم عالمين، فإن حصول العلم والدراسة للإنسان يفضي به إلى تحصيل الربانية له - والربانية هي العلم وطاعة الله، وذلك إذا كانت القراءة بفتح التاء في (تعلمون الكتاب) أما إذا كانت القراءة بضم التاء وتشديد اللام، كان المعنى: كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الناس الكتاب، وبسبب دراستكم إياه، أي كونوا علماء بسبب كونكم معلمين وبسبب كونكم تدرسون العلم ١٣٤.

٨٠ - (وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

قوله: (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيئين أربابا) الواو في قوله: (ولا يأمركم) للعطف على قوله: (أن يؤتيه) ولا لتأكيد النفي - أي ليس للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بعبادة نفسه، ولا يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا، وهذا موجود في النصارى؛ إذ يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا.

قوله: (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) الهمزة للاستفهام الإنكاري بما يتضمن نفيا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بالكفر بعد كونهم مسلمين وهو انقيادهم لله بالطاعة وتذللهم له بالعبودية.

قال صاحب الكشاف: في قوله: (بعد إذ أنتم مسلمون) دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له ١٣٥.

٨١ - (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم عل ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معهم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون.)

اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على وجهين:

الوجه الأول: أن الله تعالى أخذ ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا بالإيمان، وأن يأمر بعضهم بعضا بذلك، وذلك معنى النصرة بالتصديق، وهذا ظاهر الآية، وهو قول فريق من أهل العلم فيهم سعيد بن جبير وقتادة وطاووس والحسن البصري وغيرهم - وجملة القول في هذا التأويل أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر - وقوله: (لما) اللام لام الابتداء - وما بمعنى الذي وهو مبتدأ وخبره: من كتاب وحكمة.

الوجه الثاني: أن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه على أن الذين أخذ عليهم الميثاق ليسوا هم النبيين؛ لأنهم عند بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في زمرة الأموات، بل إن الذين أخذ عليهم الميثاق هم أمم الأنبياء وهو قول كثير من العلماء - قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

قوله: (لتؤمنن به ولتنصرنه) أوجب الله الإيمان به ثم الاشتغال بنصرته، واللام لام القسم، كأنه قيل: والله.

قوله: (قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري) الإقرار معناه الإذعان للحق ١٣٦ - والإصر: العهد - والمعنى أنه بعد أن أخذ الله ميثاق النبيين بالإيمان والتصديق والنصرة قال لهم: (أأقررتم) يعني بالميثاق الذي واثقتموني عليه من أنكم لسوف تؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو أن يؤمن كل نبي فيكم بكل نبي يأتي بعده - (وأخذتم على ذلكم إصري) أي عهدي، ثم يستشهدهم الله على ذلك فيشهدون على أنفسهم وعلى أتباعهم بما عاهدوا الله عليه، والله جلت قدرته يشهد معهم على ذلك وهو خير الشاهدين.

٨٢ - (فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
أما من تولى من أمم الأنبياء عن الإيمان والنصرة بعد أخذ الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) أي الخارجون عن الإيمان بدين الله وعن طاعته سبحانه ١٣٧.
٨٣ - (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)
قوله تعالى: (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون).
جاء في سبب نزول هذه الآية أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا بينهم فيه من دين إبراهيم، كل فرقة تزعم أنها أحق بدينه - فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: " كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم " فغضبوا وقالوا: والله ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله هذه الآية ١٣٨.
قوله: (أفغير دين الله يبغون) الهمزة للاستفهام الإنكاري، غير مفعول به مقدم للفعل بعده (يبغون) وتقدير المعنى في هذه الآية إظهار النكر من الله لهؤلاء العتاة المعاندين الذين لا يروق لهم أن يستمعوا لكلمة الحق فيلجوا في دين الله السوي المستقيم، لا جرم أن ذلك غاية في الفسق والكفران بما يشير إلى فساد هذه الخليقة الجانفة المريضة.
قال الرازي في هذا المعنى: الوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكورا في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك، فقد كانوا عالمين بصدق محمد صلى الله عليه و سلم في النبوة، فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر، فأعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا طالبين دينا غير دين الله، ومعبودا سوى الله سبحانه، ثم بين أن التمرد على الله تعالى والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقلاء فقال: (وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) - (أسلم) من الإسلام وهو يعني الاستسلام والانقياد والخضوع.
و (أسلم) أي استسلم وانقاد وخضع وذل.
وتقدير المراد في الآية هو: أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون وله أسلم من في السماوات والأرض، أي وله خشع من في السماوات والأرض نخضع له بالعبودية وأقر بإفراد الربوبية وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية طوعا وكرها.
أما تأويل الاستسلام والخضوع من أهل السماوات والأرض طوعا أو كرها فثمة تفصيل في تأويل - على أن الذي أسلم طائعا من كان إسلامه لله عن رضى وطواعية - وذلك كالملائكة والنبيين والمرسلين، فإنهم أسلموا لله طائعين مخبتين ١٣٩.
أما من أسلم لله كرها فتأويل المراد منه يحتمل عدة وجوه:
منها: من يقر بأن الله خالقه وربه وإن أشرك معه في العباد غيره.
ومنها: من أقر بإسلامه لله حين أخذ الميثاق منه.
ومنها: أن أهل الإيمان أسلموا طوعا وأن الكافر أسلم في حال المعاينة حين لا ينفعه إسلام كرها - وقيل غير ذلك ١٤٠.
٨٤ - (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)
قوله: (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) الآية: يأمر الله نبيه بدعوة أهل الكتاب لدين الله، فإن ابتغوا غير دين الله بأن تولوا مستكبرين، قال لهم:
(آمنا بالله) أي صدقنا وأيقنا أن الله هو ربنا وإلهنا لا إله إلا غيره ولا نعبد أحدا سواه، وصدقنا أيضا بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله وهو القرآن، وكذلك ما أنزل الله من الوحي والصحف على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط.
والأسباط جمع ومفرده سبط بكسر السين وهو في اللغة ولد الولد ١٤١.

والمراد بالأسباط في الآية ولد يعقوب الاثنا عشر وما تفرع عنهم من بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل وهو يعقوب.
قوله: (وما أوتي موسى وعيسى) أن التوراة والإنجيل، فنحن مأمورون بتصديقها والإيمان بهما على أنهما أنزلا من عند الله، وكذلك نؤمن دون ريب بما أنزل على النبيين من الوحي والكتب، لا نشك في ذلك ولا نتردد في تمام اليقين مما أنزله الله على النبيين والمرسلين من الكتب والصحف والرسالات.
قوله: (لا نفرق بين أحد منهم) أي لا نصدق بعضهم ونكذب بعضهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى إذ صدقوا بعض أنبياء الله وكذبوا بعضهم، أما نحن المسلمين فلا جرم أننا نؤمن بجميع الأنبياء ونصدقهم، وذلك هو ديدن المسلمين في كل مكان وزمان - وهو الإيمان بجميع الأنبياء ونصدقهم، وذلك هو ديدن المسلمين في كل مكان وزمان - وهو الإيمان بجميع الأنبياء ونصدقهم، وذلك هو ديدن المسلمين في كل مكان وزمان - وهو الإيمان بجميع الأنبياء من غير تفريق بينهم في ذلك، يستوي في ذلك إيمان المسلمين بأبي الخليقة آدم وأبي البشر الثاني نوح، أو الإيمان بالنبيين والمرسلين من بني إسرائيل بداء بإسرائيل نفسه وهو يعقوب، وانتهاء بكلمة الله المسيح ابن مريم وغير هؤلاء من أنبياء الله.
المسلمون يؤمنون بهؤلاء جميعا من غير شك في ذلك ولا تردد، يدعوهم إلى ذلك إيمانهم بالله منزل الكتاب الحكيم- القرآن- الذي أمر ألا نعبد إلا الله وأمر أن نؤمن بالنبيين كافة من غير استثناء.
المسلمون مبادرون بالإيمان الكامل والتصديق الأدنى بما أنزل الله على أنبيائه من كتب وصحف ورسالات لا يثنيهم عن ذلك تعصب ولا زيغ ولا هوى، خلافا لأهل الكتاب من النصارى واليهود الذين جعلوا الإيمان والعقيدة عضين ١٤٢ - إذ آمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعضهم الآخر، لا يحدوهم في ذلك غير التعصب والجحود والتمرد الكامل على الله، لا جرم أن أولئك عتاة ضالون مستنكفون عن الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة، على أن أهل الكتاب جميعا متفقون على ما هو أنك من ذلك وأشد عتوا- متفقون على تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم!! هذا الرسول المفضال الأعظم ذو الملة الحنيفية السمحة والديانة الجامعة الشاملة الوسط، الديانة المتوازنة المعتدلة الميسورة التي تراعي فطرة البشر أكمل مراعاة، بخلاف الديانات والكتب السماوية الأخرى ومنها التوراة والإنجيل اللذان خالطهما التغيير والتبديل وغشيهما من التحريف والتزييف ما أسلمهما إلى حمأة التزوير والتشويه، فما يقرأ المرء شيئا من هذين الكتابين حتى تغشاه الريبة وانتفاء الثقة والتصدق.
ذلك هو شأن النصارى واليهود منذ تحريف التوراة والإنجيل، لقد بات حالهما مبينا على التكذيب الفاضح لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولعمر الحق وإن ذلكم غاية الهوان والانتكاس، بل غاية الاستخفاف بالعقل السليم وقسطاس الله المستقيم!!
ذلك هو مقتض قوله تعالى: (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) أي ونحن له منقادون بالطاعة متذللون بالعبودية مقرون له بالألوهية والربوبية وأنه لا إله غيره ١٤٣
٨٥ - (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
قوله تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) يستدل من هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند الله - ووجه ذلك أن الإسلام مصدر الصلاح والصواب كله، بل إنه أصل الكمال والاستقامة والتوازن جميعا - والإسلام في الحقيقة صورة مشرقة عن الجلال المنبعث من عند الله بما تستقيم عليه حال البشرية لكي تفوز في الدنيا والآخرة.
وإذا جيء بالأديان والنبيين السابقين على أحقاب متعاقبة من مراحل الزمن، فقد ظلت البشرية تتناوبها الملل والشرائع المحدودة بما ينسجم كل واحد منها مع طور دون غيره من الأطوار، فما يصلح لأمة أو مجتمع لا يصلح لغيره من الأمم والمجتمعات - وذلك هو مقتضى قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) فهي شرائع شتى تتناسب كل شريعة منها مع طبيعة الحال للأمة في فترة من الفترات.
ولقد ظل الحال كذلك حتى جيء بالإسلام، هذا الدين المنسجم المتكامل الذي تصلح عليه حياة الإنسان في كل الأحوال والأطوار

والظروف، وذلك لما يتجلى في شريعة الإسلام من الخصائص والمزايا، ولما تنبني عليه من المقومات والحقائق بما يجعلها المنهج الكامل المتسق الوحيد الذي يصلح لكل مكان وزمان.
وعلى هذا ليس لأحد البتة أن يبتغي غير ملة الإسلام ملة من الملل، وأيما ابتغاء كهذا فهو الجحود والكفران، بل إنه الضلال والعتو والتمرد على منهج الله، التمرد الذي يكشف عن اعوجاج في التصور الزائغ، أو جهل مطبق يغشى العقل فيحول بينه وبين التمييز والتمحيص - فلا يبتغي أحد دينا غير دين الإسلام إلا كان مسعاه غير مقبول، ولسوف يبوء في الآخرة بالمهانة والارتكاس - وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال: " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " ١٤٤.
٨٦ - (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم).
جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أن رجلا من الأنصار ارتد عن الإسلام والتحق بالشرك فندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم: هل لي من توبة فإني قد ندمت، فنزلت (كيف يهدي الله قوما كفروا) الآية، وقيل: نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد رأوا صفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم وأقروا به وشهدوا أنه حق، فلما بعث النبي من غيرهم أنكروه وكفروا به بعد إقرارهم وإيمانهم، وليس ذلك إلا حسدا من عند أنفسهم ١٤٥.
على أن ظاهر الآية يدل على عموم المقصود الذي تناول كل من آمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن برسالة الإسلام فصدقها تصديقا، سواء كان ذلك بعد مجيء الإسلام أو كان قبله، إذ صدقه أهل الكتاب من اليهود والنصارى لما وجدوه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل قبل مولد الرسول وبعثه، فما إن ولد وبعثه الله للناس حتى ناصبه أهل الكتاب الكيد والجحد.
قوله: (كيف يهدي الله قوما) استفهام إنكاري، أي كيف يستحق هؤلاء الهداية من الله بعد أن آمنوا وصدقوا وعرفوا ما أنزل من الحق، ثم تلبسوا بعد ذلك بالضلالة والكفر؟! أنى لهم أن يستحقوا الهداية عقيب كفرهم وارتدادهم مع أنهم كانوا قد صدقوا الرسول وشهدوا أنه مرسل من ربه، ووجدوا فيه من الدلائل والبينات ما يشهد على صدق نبوته؟
ليس لهؤلاء الفسقة أن يحظوا بهداية الله وترشيده وهم على هذه الشاكلة من الظلم.
٨٧ - (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)
قوله: (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله) الآية (أولئك) اسم إشارة مبتدأ، والجملة الإسمية بعده خبر - يبين الله أن هؤلاء المنتكسين إلى ظلمة الردة بعد تصديق وإيمان لسوف يبوؤون باللعن وهو الطرد والإبعاد من الخير، واللعين من يلعنه كل أحد - وهو الشيطان والممسوخ والمشؤوم والمخزي ١٤٦ ولسوف تكون اللعنة عليهم من الله، وذلك بالإقصاء والبعد من الخير والرحمة - وكذلك اللعنة عليهم من الملائكة وذلك بالقول.
٨٨ - (خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)
وقوله: (خالدين فيها) منصوب على الحال، أي ماكثين في اللعن، وقيل في العذاب الأليم الذي لا يخفف عنهم ولا ينقص منه شيء ولا يؤخر عنهم في حال من الأحوال - كما يقول المتكلمون: إن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب المنافع دائمة غير منقطعة- نعوذ بالله من ذلك عوذا- ١٤٧ وذلك مقتضى قوله تعالى: (خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون).
٨٩ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) استثنى الله من أولئك المرتدين، هؤلاء الذين تابوا بعد ارتدادهم

فتابوا إلى الله تائبين مخبتين، فاعلين الخير والصالحات، فإن الله عز وجل يستر على هؤلاء ذنوبهم وما قارفوه من الردة والمعاصي بفضله ورحمته.
٩٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)
قوله تعالى: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) ثمة أقوال في سبب نزول هذه الآية - فقد قيل: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والمسيح، ثم ازدادوا كفرا بمحمد والقرآن.
وقيل: نزلت في اليهود والنصارى؛ كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنبوته ونعته مما وجدوه عندهم مكتوبا في التوراة والإنجيل، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم عل كفرهم وبارتكابهم للمعاصي والذنوب.
وقيل: نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إل مكة، أما ازديادهم الكفر فهو أنهم قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون - وقيل غير ذلك - ١٤٨ -
قوله: (لن تقبل توبتهم) أي لن تقبل توبتهم ما داموا مقيمين على الكفر وبذلك تحمل الآية عل من ثاب كافرا غير تائب؛ لأنه لا تقبل توبته عند الموت.
قوله: (وأولئك هم الضالون) من الضلال، وهو في اللغة ضد الهدى والرشاد ١٤٩ المراد بذلك هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا، لا جرم أنهم ضلوا سبيل الحق وخرجوا عن منهج الله وهداه، فعموا عنه عماية أسلمتهم إل الغي والكفران.
٩١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)
قوله تعالى: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) المراد بذلك أن هؤلاء الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يصدقوا بما جاء به من عند الله، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو غيرهم من ذوي الملل الكافرة ثم ماتوا عل حالهم من الكفر والجحود، فلن يقبل منهم يوم القيامة جزاء ولا فدية ترد عنهم العذاب، ولو كان ذلك ملء الأرض ذهبا، والفدية معناها العوض والجزاء من المفتدى منه، وملء، ملا يملأ الشيء، أو ما يأخذه الإناء إذا امتلأ ١٥٠ وقوله: (ذهبا) منصوب على التمييز.
أما الواو في قوله: (ولو افتدى به) فثمة تفصيل في معناها - فقد قيل: الواو زائدة فيكون المعنى للآية: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو افتدى به.
وقيل: إنها للعطف، والتقدير: لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهبا لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهبا لم يقبل منه - وقيل غير ذلك ١٥١.
قوله: (أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) بعد أن بين الله حال هؤلاء المرتدين الجاحدين من الإياس المطبق وأنهم لا يرجى لهم غفران أو توبة ولو افتدوا أنفسهم من العذاب بما يملأ الدنيا؛ فإنه جل ثناؤه يؤكد أنه لا خلاص لهؤلاء من عذابه، وليس لهم من أحد يعينهم أو ينقذهم من الويل الذي حاق بهم أو يدرأ عنهم العذاب الذي يحيط بهم.
٩٢ - (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم) (تنالوا)، من النوال، وهو العطاء - فقوله: (تنالوا) أي تعطوا
و (البر) معناه الجنة - وقيل: العمل الصالح، و (تنفقوا) منصوب بأن المضمرة بعد حتى لانتهاء الغاية.
والمعنى الذي دل عليه ظاهر هذه الآية أن أحدا لن يعطى الجنة أو يكون في عداد الأبرار والصالحين حتى يبذل في وجوه الخير والإحسان من أفضل أمواله، فهو بذلك يعمد في همة وسخاء إلى الإنفاق من كرائم أمواله لا يصده عن ذلك شح ولا أثره.
أما المراد بالإنفاق المطلوب، فقيل: أراد به الزكاة المفروضة - وقيل: كل شيء أنفقه المسلم من ماله مبتغيا به وجه الله - وقيل: البر كل عمل صالح وهو في تقديري الصواب، خلافا للقول بأنه الزكاة المفروضة؛ لأن هذه من أحكامها أن لا تؤخذ من كرائم أموال

الناس، أما في الآية هذه فثمة استنهاض للهمة والمشاعر، كيما يسخو المسلم فيبذل مما يحب، أي من خير ما يعجبه ويهواه من ماله.
قوله: (وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم) أي مهما تنفقوا من شيء فتصدقوا به من أموالكم فإن الله يعلمه وهو مجازيكم عليه ١٥٢.
٩٣ - (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
قوله تعالى: (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فآتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فمن افتر على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).
جاء في سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه و سلم: إنك تدعي أنك عل ملة إبراهيم، فلو كان الأمر كذلك فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراما في دين إبراهيم، ويريدون بذلك إثارة الشبهة في دعوته عليه الصلاة والسلام، فأجابهم صلى الله عليه و سلم عن هذه الشبهة المصطنعة بقوله: ذلك أن حلا لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، إلا أن يعقوب حرمه على نفسه.
والذي حرمه يعقوب على نفسه كلحوم الإبل وألبانها، فقد قيل: كان به عرق النسا وهو شديد الإيجاع، حتى إنه ما كان ينام منه في ليله، فنذر لئن شفي من هذا المرض لا يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه - وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء ١٥٣ لكن اليهود أنكروا ذلك فأمرهم الرسول صلى الله عليه و سلم بإحضار التوراة وطالبهم بأن يستخرجوا منها آية تدل على أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام، فعجزوا عن ذلك، فاستبان أنهم كاذبون وأنهم أهل افتراء وباطل.
على أن يستفاد من ظاهر الآية جواز وقوع النسخ وهو ما ينكره اليهود، فقد كانوا يعولون في إنكار شريعة الإسلام على إنكار تشريع النسخ، فأبطل الله عليهم ذلك لما بين جواز حصول النسخ - وذلك من جملة الدلالات والحجج على صدق الإسلام وصدق رسول الله الأمين عليه الصلاة من الله والتسليم.
وفي بيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه قد وقع في التوراة هو أن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة أباه الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك.
وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه وقد حرم ذلك بعد كله - وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم عليه، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا وقد فعله يعقوب عليه السلام إذ جمع بين الأختين ثم حرم ذلك عليهم في التوراة - هذا كله منصوص عليه في التوراة عند اليهود، وهذا هو النسخ بعينه ١٥٤.
قوله: (كل الطعام كان حالا لبني إسرائيل) الطعام أي المطعومات - والمعنى أن كل المطعومات كانت حلالا لبني إسرائيل وهو يعقوب لم يحرم عليهم منها شيء إلا ما كان يعقوب حرمه على نفسه وهي لحوم الإبل وألبانها - وهذا مقتضى قوله تعالى: (إلا ما حرم إسرائيل على نفسه).
وقوله: (من قبل أن تنزل التوراة) أي قبل نزول التوراة كان حلا لبني إسرائيل كل المطعومات سوى ما حرمه إسرائيل (يعقوب) على نفسه - أما بعد التوراة فلم يبق كذلك، بل حرم الله تعالى عليهم أنواعا كثيرة بسبب ظلمهم وبغيهم - وفي ذلك رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه و سلم من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم وبغيهم كما في قوله: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية - فقد كانوا يقولون كاذبين: لسنا أول من حرمت عليه هذه المطعومات وما ذلك إلا تحريم قديم، فقد كانت هذه المطعومات محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهكذا - - إلى أن انته التحريم

إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا - وقصدهم من ذلك تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم علي ١٥٥ هم نوعا من الطيبات عقابا لهم.

قوله: (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) أمر الله نبيه أن يقول للزاعمين من اليهود الذين زعموا أن الله حرم عليهم في التوراة لحوم الإبل وألبانها (فآتوا بالتوراة) وذلك لكشف كذبهم في مقالتهم - وبذلك أمر الله أن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم تبكيتا بما هو منطوق به في التوراة من أن تحريم ما حرم عليهم إنما هو تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم وليس هو بالتحريم القديم كما ادعوا، لكن اليهود لم يجسروا على إخراج التوراة، بل إنهم بهتوا وانقلبوا مرتكسين - وفي هذا تقوم الحجة الساطعة على صدق النبي صلى الله عليه و سلم وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه - وهذا مقتضى قوله تعالى: (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين).

٩٤ - (فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قوله: (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) الافتراء معناه اختلاق الكذب - والفرية تعني الكذب والقذف، وأصله من فري الأديم وهو قطعه، فقيل للكذب: افتراء، لأن الكاذب يقطع به في القول من غير تحقيق في الوجود.

أما المراد بالآية فهو أن من زعم كاذبا أن ذلك كان محرما على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة على أن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ولم يكن محرما قبله (فأولئك هم الظالمون) الساقطون في ظلام الشرك والباطل لشدة جحودهم وكفرهم واستنكافهم عما جاء به الوحي في كتابهم التوراة.

٩٥ - (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا) ذلك تأكيد عل صدق ما أنزله الله في هذه المسألة وعلى تكذيب اليهود فيما افتروه فيها، وذلك لما بيّن الله أن كل المطعومات كانت حلالا لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة، وإنما حرم بعضها على بني إسرائيل جزاء لهم على معاصيهم ومخالفاتهم، فإذا تبين لكم صدق ما جاءكم به محمد فاتبعوا ملته وهي ملة الإسلام القائمة على الحنيفية المبرأة من الشرك، وهي ملة إبراهيم خليل الله.

قوله: (وما كان من المشركين) كان خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام على الحنيفية الكاملة، الحنيفية التي بنيت على التوحيد والمضادة للشرك بكل صوره وأشكاله، فلم يدع مع الله إلها آخر، ولا عبد شيئا سواه كما فعله أهل الكتاب من النصارى واليهود إذ عبدوا المسيح وعزيرا - أو كما فعله العرب بعبادتهم الأوثان أو غيرهم من الوثنيين على اختلاف نحلهم كعبدة النار والأبقار والأحجار.

٩٦ - (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان منا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا).

جاء في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين واليهود تفاخروا، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية ١٥٦.

يخبر الله تعالى في ذلك أن أول بيت وضع لعموم الناس من أجل عبادتهم لهو الذي ببكة - وليس المراد أنه أول بيت وضع في الأرض، لأنه كانت قبله بيوت كثيرة، يدل على ذلك من الأخبار ما رواه أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع أول؟ قال: " المسجد الحرام " قلت: ثم أي؟ قال: " المسجد الأقصى " قلت: كم بينهما؟ قال: " أربعون سنة " قلت: ثم أي؟ قال: " ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد " ١٥٧.

وقام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: ألا تحدثني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ١٥٨.

إذا ثبت أن هذا البيت (الكعبة) أول بيت وضع للناس كيما يعبدوا الله فيه، فإنه ينبغي القول أن هذا البيت خير بيوت العبادة في

الأرض طُرّا، وذلك لما يُحف به من الفضل والشرف وعلو المكانة - وذلك مستفاد من ظاهر الآية (مباركا) طيبا.
وقد دلل الإمام الرازي على ثبوت الأولية في الفضل والشرف للكعبة خاصة يجعلها تعلو في المنزلة على بيت المقدس - وذلك بجملة دلائل منها: أولا: اتفاق الأمم على أن باني البيت هو إبراهيم الخليل عليه السلام، وأن باني بيت المقدس هو سليمان عليه السلام - والخليل من حيث الدرجة أعظم من سليمان عليه السلام، فهو (الخليل) أحد النبيين الخمسة أولى العزم المفضلين على سائر الأنبياء والمرسلين - فمن هذا الوجه لزم أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس.
ثانيا: خاصية الأمن التي تتجلى في مكة حيث البيت الحرام بما ليس لذلك نظير في سائر بقاع الدنيا - وعلى هذا فإن كل من سكن مكة أمن من النهب والغارة، لا جرم أن ذلك ببركة دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث قال: (رب اجعل هذا بلدا آمنا) وقال سبحانه فيما يتجلى في هذا البيت من أمن: (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) ولم ينقل البتة أن ظالما هدم الكعبة وخرب مكة بالكلية، لكن بيت المقدس قد هدمه الطاغية الشقي، الكلداني بختنصر بالكلية.
ثالثا: لما قاد أبرهة الأشرم الجيوش والفيل متوجها صوب مكة لتخريب الكعبة وتدميرها وقد عجزت قريش عن مقاومة أولئك الطغاة المخربين ففارقت مكة لتظل الكعبة وحدها هدفا ميسورا لأبرهة وعساكره المفسدين فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل، وكانت صغارا تحمل أحجارا ترميمهم بها فهلك الملك وهلك العسكر بتلك الأحجار مع أنها كانت في غاية الصغير، لا جرم أن هذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة وهي إرهاص ١٥٩ لنبوة محمد صلى الله عليه و سلم ١٦٠.
قوله: (الذين ببكة) اللام تفيد التوكيد - وبكة المراد بها مكة، أما اشتقاقها فهو موضع خلاف، فقد قيل: من البك وهو التدافع والتزاحم - بكه يبكه بكا إذا دفعه وزحمه - وتباك القوم إذا ازدحموا - وعلى هذا سميت مكة بكة، لأنهم يتباكّون فيها أي يزدحمون في الطواف.
وقيل: البك معناه الدق - وسميت بكة، لأنها تبك أعناق الجبابرة فلا يريدها جبار بسوء إلا اندقت عنقه وقيل غير ذلك ١٦١.
قوله: (مباركا) منصوب على الحال، من البركة وهي النماء والزيادة، وقد جعل البيت الحرام مباركا لما يحصل لحاجه ومعتمره والعاكف عنده والطائف من حوله من الخير المضاعف الكثير، لا جرم أن فعل الخيرات وأداء الطاعات في بيت الله الحرام يفوق في كثرته فعل الطاعات والخيرات فيما سواه من الأماكن الأخرى، فضلا عما يسعد به العابد في تلكم الديار من تكفير للخطايا والذنوب واستجابة للدعوات يهتف بها القلب المؤمن، وهو في رحاب الله حيث البيت المفضل العتيق.
قوله: (وهدى للعالمين) الهدى يعني الرشاد والدلالة - هداه هدى وهديا وهداية، أي أرشده ودله - ومنه هداه الله الطريق ١٦٢ وتأويل الآية هو أن الكعبة جعلت قبلة للناس لكي يستدلوا على جهة صلاتهم فحيثما كانوا لزمهم عند أداء الصلاة أن يمموا شطرها.
٩٧ - (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)
قوله: (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) أي فيه علامات ظاهرات من قدرة الله وآثار خليله إبراهيم في الحجر الذي قام عليه فكان لقدميه فيه أثر - وقوله: (مقام) مبتدأ مرفوع وخبره محذوف تقديره منهن - أي في آيات بينات منهن مقام إبراهيم.
وقيل: مقام عطف بيان لقوله: آيات بينات - فإن قيل: كيف صح بيان الجماعة (آيات) بالواحد (مقام)، قيل: اشتمال المقام على الآيات، لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتّاب والملاحدة آلاف السنين آية - وقيل غير ذلك ١٦٣.
قوله: (ومن دخله كان آمنا) الضمير في قوله: (دخله) يراد حرم مكة: فإذا دخله الخائف فإنه يأمن من كل سوء، كذلك كان الأمر في الجاهلية، كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه أو يزعجه حتى يخرج - قال ابن عباس في تأويل هذه الآية: من عاذ بالبيت، أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه، وهو مذهب الحنفية إذ قالوا: من لزمه القتل في الحل بقصاص أوردة أو زنا فالتجأ إلى الحرم لم يُتعرض له إلا أنه لا يُؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج ١٦٤.

ومثل ذلك قوله تعالى: (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم).
وفي تحريم مكة من حيث حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ونحو ذلك من وجوه التحريم؛ فقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة: " لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا " وقال يوم فتح مكة: " إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار - فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يختلى ١٦٥ خلاها " وكذلك أخرج مسلم عن أبي شريح العدوي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال يوم فتح مكة: " إن مكة حرمها الله ولمي حرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيها فقولوا له: إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب ".
وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عدي الزهري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو واقف بالحرورة بسوق مكة يقول: " والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت " ١٦٦.
على أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: (ومن دخله كان آمنا) وثم قولان رئيسان في ذلك:
القول الأول: تأويله أن كل من جر في الجاهلية جريرة ثم عاذ بالبيت لم يكن بها مأخوذا، أي لم يؤخذ بجريرته مادام عائذا بالبيت، أما في الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله، فمن سرق فيه قطع، ومن زنا فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل، وبذلك يكون تأويل الآية أن من يدخله من الناس كان آمنا به في الجاهلية دون الإسلام.
القول الثاني: معنى ذلك أن من يدخله يكن آمنا بمعنى الجزاء - كقوله القائل: من قام لي أكرمته - وقد كان ذلك في الجاهلية لما كان الحرم مفزع كل خائف وملجأ كل جانٍ؛ لأنه لم يكن يهاج به ذو جريرة ولا يعرض فيه الرجل لقاتل أبيه وابنه بسوء، وكذلك هو في الإسلام؛ لأن الإسلام زاد البيت تعظيما وتكريما - قال ابن عباس في ذلك: إذا أصاب الرجل الحد: قتل أو سرق فدخل الحرم، لم يبايع ولم يؤو حتى يتبرم فيخرج من الحرم فيقام عليه الحد - وذكر عنه قوله أيضا: إذا أحدث الرجل حدثا في غير الحرم ثم لجأ إلى الحرم لم يعرض له ولم يؤو ولم يبايع ولم يجالس ولم يكلم ولم يطعم ولم يسق حتى يخرج من الحرم، فإذا خرج منه أخذ فأقيم عليه الحد.
وعن عطاء بن أبي رباح، في الرجل يقتل ثم يدخل الحرم قال: لا يبيعه أهل مكة ولا يشترون منه ولا يسقونه ولا يطعمونه ولا يؤونه، عدّ أشياء كثيرة- حتى يخرج من الحرم فيؤخذ بذنبه.
وذهب آخرون إلى أنه يُخرج من الحرام قسرا ليلقى جزاءه خارجه، وهو قول ابن الزبير ومجاهد والحسن - فقد قالوا: معنى ذلك أن من دخله من غيره ممن لجأ إليه عائذا به كان آمنا ما كان فيه، ولكنه يخرج منه فيقام عليه الحد إن كان أصاب ما يستوجبه في غيره ثم لجأ إليه، وإن كان أصابه فيه أقيم عليه فيه - فتأويل الآية بذلك: فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن يدخله من الناس مستجيرا به يكن آمنا مما استجار منه ما كان فيه حتى يخرج منه.
واختلفوا في صفة إخراجه من البيت فقال بعضهم: صفة ذلك معنى المعاني التي يضطر مع منعه منها إلى الخروج من الحرم - وقيل غير ذلك.
وثمة قول ثالث في تأويل الآية، وهو أن من دخله يكن آمنا من النار ١٦٧.
قوله: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) اللام في قوله: (ولله) لا الإيجاب والإلزام - ثم أكد ذلك بقوله تعالى: (على) وهي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب - وبذلك ذكر الله تعالى الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب تأكيدا لحقه وتعظيما لحرمته ١٦٨.
والحج في اللغة بمعنى القصد، والحج بالكسر الاسم، والحجة بالكسر أيضا المرة الواحدة، والحجة بالكسر أيضا تعني السنة، والجمع الحجج.
أما معناه في الاصطلاح الشرعي فهو: قصد مكة من أجل النسك في وقت معلوم ١٦٩.
إذا تبين ذلك نقول: يجب الحج على كل مسلم مكلف ذكرا أو أنثى مرة واحدة في العمر، وذلك بالنص والإجماع - فقد روي الإمام

أحمد رحمه الله عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: " أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا " فقال رجل: أكلّ عام يا رسول؟ فسكت حتى قالها ثلاثا - فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم " ثم قال: " ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم - وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " ١٧٠.

أما تفصيل القول في المناسك من بيان لأحكام الحج والعمرة فقد تعرضنا لكثير من ذلك في سورة البقرة - ومع ذلك نقتضب بعضا من الأحكام عن مناسك الحج فنقول: إن فريضة الحج ثابتة في الكتاب والسنة بما يدل على التراخي وليس على الفور، وهو قول كثير من أهل العلم، منهم الإمام مالك وكذا الشافعي - وقال به بعض الحنفية، ودليلهم في ذلك أن الله تعالى قال في سورة الحج: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا) وسورة الحج مكية - وقال تعالى: (ولله على الناس حج البيت) وهذه السورة مدنية نزلت عام أحد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى سنة عشر.

ويدل على كونه على التراخي إجماع العلماء على عدم تفسيق القادر على الحج إذا أخره العام والعامين أو نحو ذلك - وهو عند جميع العلماء ليس كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتها فقضاها بعد خروجها وقتها، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سفر فقضاه، ولا كمن أفسد حجه فقضاه، ولكنه إذا أدى فريضة الحج خلال عمره يكون مؤديا للفريضة وكفى، وليس عليه بعد بأس أو تقصير - وقد أجمعوا على أنه لا يقال لمن حج بعد أعوام من وقت استطاعته: أنت قاض لما وجب عليك - فيفهم من ذلك أن وقت الحج موسع فيه وأنه على التراخي لا على الفور - وقد خالف في ذلك فريق من العلماء فيهم أهل الظاهر وبعض المالكية، إذ قالوا بوجوب الحج على الفور لا على التراخي، وبذلك من قدر على الحج فأخره عاما أو أكثر فقد احتمل إثما للتأخير - ولا نجد لهم في هذا القول من احتجاج غير الاعتماد على ظاهر الآية وهو ما ليس فيه استدلال مستبين على الفورية ١٧١ وعلى هذا فالقول الأول هو الصواب والله تعالى أعلم.

وإنما يجب الحج على المكلف، وهو العاقل البالغ الحر المريد، فلا يجب على المجنون ولا الصغير ولا العبد، ولا من كان معدوم الإرادة كما لو كان سجينا أو حبيسا أو مقيدا في الأغلال، فأولئك غير مطالبين بفريضة الحج حتى تزول عنهم موانع الوجوب، وعلى هذا اتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذكورا وإناثا ما عدا الصغير، فإنه خارج عن دائرة الوجوب بالإجماع؛ لكونه غير مكلف، وكذلك العبد غير داخل في أصول التكليف؛ لعدم استطاعته، وكذا الأمة لا تكلف بالحج.

قال ابن المنذر في هذا الصدد: أجمع عامة أهل العلم إلا من شذ منهم ممن لا يعد خلافا على أن الصبي إذا حج في حال صغره، والعبد إذا حج في حال رقه ثم بلغ الصبي وعتق العبد إن عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا ١٧٢.

قوله: (من استطاع إليه سبيلا) (من) بدل بعض من الكل وهو الناس - وقيل: (مَنِ) أداة شرط - والأول أظهر.

أما السبيل ففي تأويله تفصيل - على أن جملة القول في ذلك أن استطاعة السبيل إلى الشيء عبارة عن إمكان الوصول - ويعتبر في حصول هذا الإمكان صحة البدن وزوال خوف التلف مما يخشى منه على النفس كسبع أو عدو أو فقدان الطعام والشراب، وكذلك القدرة على المال الذي يشتري به الزاد والراحلة وأن يقضي جميع ما عليه من الدين وأني راد ما لديه من الودائع - وإن وجب عليه الإنفاق على أحد لم يجب عليه الحج إلا إذا ترك من المال ما يكفيهم في الذهاب وفي المجيء ١٧٣.

والمراد بالسبيل التي يجب مع استطاعتها فرض الحج هو الزاد والراحلة، وقد ذهب إلى ذلك أكثر العلماء، ويحتج لذلك من الخبر بما رواه الحاكم من حديث قتادة بإسناد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل عن قول الله عز وجل: (من استطاع إليه سبيلا) فقيل: ما السبيل؟ قال " الزاد والراحلة " ١٧٤ قال ابن عباس في تأويل قوله: (من استطاع إليه سبيلا): السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به.

المراد بالزاد مؤونة السفر مما يحتاج إليه الحاج في سفره كالطعام والكساء ونحوهما، يضاف إلى ذلك ما يلزمه في هذا العصر من رسوم مالية يؤديها ضريبة للمرور، أو غير ذلك من وجوه المغارم المنكودة مما يعاني منه المسلمون، وخاصة في زماننا هذا، وذلك كلما جاوز

بلده إلى غيره من بلدان المسلمين كالحجاز.
أما الراحلة فهي في اللغة الناقة التي تصلح؛ لأن ترحل ١٧٥ وهي أحد الشرطين لتحصيل السبيل من أجل وجوب الحج - وعلى هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه، وإن عدم الزاد والراحلة أو أحدهم سقط عنه فرض الحج، وهو قول كثر العلماء، ويؤيد ذلك من الدليل جواب الرسول صلى الله عليه و سلم لما سئل عن السبيل فقال: " الزاد والراحلة " ١٧٦.
أما إن كان قادرا على المشي مطيقا له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد في الطريق فلا يلزمه الحج وجوبا، بل يستحب في حقه استحبابا - وإن قدر على تحصيل الزاد بمسألة الناس يتكففهم في الطريق كره له الحج؛ لأنه يصير بذلك كلا على الناس وهو ما لا يليق بكرامة المسلم وشهامته - وقيل: إذا قدر على المشيء ووجد الزاد فعليه فرض الحج وإن لم يجد الراحلة - وأجد أن في مثل هذا القول حرجا بالغا يصيب المسلم ويكلفه من التعسير والإعنات ما لا يطاق إلا بغاية من المشقة والكرب - وقد تعلمنا من شريعة ربنا قيام هذا الدين على السهولة واليسر ومنافاته للعنت والضيق وذلك في قوله عز من قائل: (وما جعل عليكم في الدين من حرج).
وإذ كان المرء المكلف مستطيعا بما تحصل له من زاد وراحلة، لكنه ربنا يعرض له ما يمنعه من الحج كالغريم (الدائن) يطالبه بالأداء فإن ذلك يمنعه عن الخروج حتى يؤدي الدين للغريم، أو يكون له عيال يناط به الإنفاق عليهم فإنه لا يلزمه الحج حتى تتوفر لهم نفقتهم مدة غيبته طيلة ذهابه ورجوعه؛ لأن هذا الإنفاق فرض على الفور، لكن الحج فرض على التراخي، فكان تقديم الإنفاق على العيال أولى وكذلك يسقط الحج إذا كان في الطريق عدو يطلب الأنفس أو الأموال.
وإذا لم يكن ثمة موانع لكنه لا يملك الناضّ ١٧٧ من المال بما يكفيه للحج، لكن عنده عروض للبيت كالأثاث والفرض فهل يبيع شيئا من ذلك لكي يحج؟ ثمة قولان في ذلك وهما: وجوب البيع وعدمه - والراجح عندي عدم وجوب البيع ليصير الحج في حقه غير مفروض مادام لا يملك مؤونة الحج من غير عروض البيت - لأن في بيع الأثاث وفرش البيت حرجا علاوة على أن مثل هذا الأثاث هو من قبيل المال المستهلك الذي لا ينبغي التعويل عليه عند تحصيل الزاد للسفر ولو كان مريضا أو معضوبا ١٧٨ لا يستمسك على الراحلة ولا يثبت عليها فهو بمنزلة من قطعت أعضاؤه إذ لا يقدر على شيء - وثمة خلاف بين العلماء في حكم ذلك بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسيرة إلى الحج؛ ه لأن الحج؛ لأن الحج إنما فرضه الله على المستطيع إجماعا، أما المريض والمعضوب فلا يستطيعان المسير أو السفر - وقد قال الإمام مالك: إذا كان معضوبا سقط عنه فرض الحج أصلا سواء كان قادرا على إنابة من يحج عنه بالمال أو بغير المال فلا يلزمه فرض الحج - ولو وجب عليه الحج ثم أصابه عضب أو زمانة، فقط سقط عنه فرض الحج ولا يجوز أن ينيب عنه من يحج عنه حال حياته، لكنه إن أوصى أن يُحج عنه بعد موته جاز على أن يكون من الثلث وكان ذلك تطوعا - ودليل ذلك قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ولأن الحج هو قصدُ المكلفِ البيتَ بنفسه، ثم إنه عبادة وهي لا تدخلها النيابة كالصلاة والصوم، ذلك هو الظاهر من مذهب المالكية في المسألة، خلافا لجمهور الحنفية والشافعية والحنبلية إذ قالوا: المريض الزمن والمعضوب والشيخ الكبير إن كان ثمة من يطيعه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطيع تماما ويجب في حقه الحج في الجملة - وصورة ذلك من وجهين:
أحدهما: أن يكون قادرا على مال يستأجر به من يحج عنه، فإنه يلزمه بذلك فرض الحج - وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فقد روي عنه أنه قال لشيخ كبير لم يحج: جهز رجلا يحج عنك، وهو مذهب الجمهور كما ذكرنا آنفا.
وثانيهما: أن يكون قادرا على ما يبذل له الطاعة والنيابة فيحج عنه، فقد لزم هذا الحج عنه - وهو قول الشافعية والحنبلية وآخرين - واحتجوا لذلك بما رواه ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت النبي صلى الله عليه و سلم فقالت: يا رسول الله إن أبي أدركته فريضة الله في الحج وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره - فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " فحجي عنه أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته "؟ قالت: نعم، قال: " فدّين الله أحق أن يقضى " فقد أوجب النبي صلى الله عليه و سلم الحج بطاعة ابنته إياه وبذلها من نفسها له بأن تحج عنه - فإذا وجب في حقه الحج بطاعة ابنته له، فإن من الأولى وجوبه عليه عند قدرته على المال الذي يستأجر به - وإذا لم يكن للمكلف قوت يتزود به في الطريق فإنه لا يلزمه الحج - وإن وهب له أجنبي مالا يحج به فإنه لا يلزمه قبوله ولا يجب في حقه الحج؛ لما يلحقه في ذلك من المنّة - وهو ما لا خلاف فيه ١٧٩.

ولا يفوتنا التنبيه هنا إلى التحول المذهل في وسائل النقل وأساليب السفر في هذا العصر حيث السفائن تمخر عباب البحار لتفضي إلى البلاد الحجازية خلال سويعات من نهار، أو الطائرات التي تجوب أجواز الفضاء لتبلغ في دقائق معدودات ما لم تبلغه الرواحل الظواعن في الزمان المنصرم، وما يستلزمه ذلك من أعباء مالية لا يستهان بها، إن ذلك ينبغي اعتباره في الحسبان لدى النظر في حقيقة الراحلة كشرط لوجوب الحج - يضاف إلى ذلك ما بيناه سابقا وهو اضطلاع الحجيج بضرائب السفر يؤدونها للدول عند المجاوزة أو المرور.

قوله: (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) أي من جحد فريضة الحج ولم يره واجبا فقد كفر والله غني عنه - وهو قول كثير من أهل العلم منهم ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وفي ذلك روى الترمذي عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله يقول في كتابه: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) " ١٨٠.

وروي عن عمر بن الخطاب قوله في هذا المعنى: من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا، وعن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين ١٨١.

٩٨ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون) ذلك استفهام إنكاري فيه تقريع وتوبيخ ليهود، الذين جحدوا آيات الله، وهي الحجج والدلائل الظاهرة التي تكشف لهم عن صدق رسالة الإسلام ونبي الله محمد صلى الله عليه و سلم مع أنهم يعلمون أن الله شهيد على أعمالهم المنكرة وأنه مجازيهم عليها - ذلك أنهم مستيقنون في قرارة أنفسهم أن الإسلام حق وأن هذا النبي مرسل من ربه، ومستيقنون كذلك أن الله يعلم ما في أنفسهم من التضليل وكتمان الحق - وهذا مقتضى قوله: (والله شهيد على ما تعملون).

٩٩ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

وثمة استنكار بالغ آخر فيه من التعنيف ما يندد بيهود لصدهم عن سبيل الله - والصد يعني المنع، صد عنه صدودا، أعرض، وصد فلانا عن كذا صدا أي منعه وصرفه عنه ١٨٢ والمراد بصدهم عن سبيل الله أنهم كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عن الإسلام بمختلف الأساليب والحيل كإلقاء الشبهات والشكوك في قلوب الضعفة منهم - وقيل: أتت يهود الأوس والخزرج فذكروهم بما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب، ليثيروا في نفوسهم البغضاء والمشاحنة فيعاودوا القتال بينهم، وسبيل الله يعني دينه الحق وهو الإسلام.

قوله: (تبغونها عوجا) أي تطلبون لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة و (عوجا) منصوب في موضع الحال، وكذلك الجملة القرآنية (تبغونها عوجا) في محل نصب على الحال، والهاء في (تبغونها) عائدة على السبيل، وتأويل الآية أنكم تطلبون لسبيل الله، الذي هو الإسلام، الزيغ والميل والاعوجاج - ذلك أنكم تلبسون على الناس وتوهموا لهم أن فيه عوجا عن الحق والاستقامة وأنكم وحدكم على الطريق المستقيم، مع أنكم تشهدون ما تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة أن الإسلام وهو دين الله وأنه الحق المستقيم، وأنه لا يجحده أو يستنكف عنه إلا ضال أثيم ١٨٣.

قوله: (وما الله بغافل عما تعملون) ذلك وعيد مرعب يتهدد به الله هؤلاء المفسدين الزائغين عن صراطه، إنه تهديد يثير في النفس الذعر والرهب، فما يكاد المرء يتملى إيقاع هذه العبارة حتى يجد نفسه ومشاعره مستجاشة ومذعورة، لكم هو تهديد الله لهؤلاء الضالين المضلين الذين يصدون عن دين الله ويفترون على الإسلام ونبيه الكذب والأباطيل ليثنوا المسلمين عن دينهم الحق وذلك بمختلف الحيل والمخططات في التضليل والتوهيم واصطناع الشبهات والشكوك والفتن.

أجل! يتوعد الله هؤلاء الأشرار لما قارفوه من الاعوجاج والزيغ والتحريف، بالعقاب الأليم والنكال البئيس، فهو سبحانه عالم بأفعالهم،

مطلع على أستارهم وما يكنون ولا تأخذه في ذلك غفلة ولا نسيان.
١٠٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانهم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم).
نزلت هذه الآية في يهودي أراد أن يثير الفتنة والعداوة بين الحيين من المسلمين وهما الأوس والخزرج بعد أن غاظ اليهود ما رأوه من اجتماع المسلمين وتآلفهم حول الإسلام، فذكرهم بما كان بينهم في الجاهلية من دماء وثارات وحروب حتى أثار فيهم حمية الجاهلية واستشاط في نفوسهم نزعة الجنوح للتأثر والضلالة فنادى هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج فقاموا للحرب والفتنة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: " يا معشر المسلمين أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا - ألله ألله ١٨٤ فأدرك القوم أن الشيطان نزغ بينهم فكادوا يرتكسون في الفتنة لولا ترشيد النبي صلى الله عليه و سلم لهم فرجعوا إلى صوابهم والرشد، وأقبل بعضهم على بعض متعانقين متوادين، فنزلت هذه الآية، وفيها يحذر الله المسلمين من طاعة أهل الكتاب الذين يحسدونهم حسدا شديدا والذين تكن لهم صدروهم من الضغن ما لا يرجون لهم معه غير الشر وسوء العاقبة في الدين والدنيا؛ وكل ذلك لأن المسلمين على الحق - وهم لا يبتغون لأنفسهم وللبشرية كلها غير الهداية والرشاد والاستقامة.
ذلك هو ديدن المسلمين، وتلك هي سجيتهم المستمدة من روح الإسلام ومن طبيعته السمحة الكريمة التي تقيم الحياة على العدل والخير والطهارة والمعروف، بعيدا عن الشر وكل مسالك الزلل والرذيلة؛ من أجل ذلك يكرههم الكافرون، سواء فيهم أهل الكتاب أو غيرهم من الوثنيين والملحدين.
أجل! يحذر الله عباده المؤمنين من الاغترار بأساليب أهل الكتاب في المراوغة والتضليل لكي يردوهم عن دينهم الإسلام إن استطاعوا لينقلبوا بذلك منتكسين كفارا!!
١٠١ - (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
ثم يقول سبحانه: (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله).
وذلك استفهام إنكاري - وتقدير الكلام: من أين يأتيكم الكفر والإغواء والفتنة ولديكم ما يمنعكم منه، وهو القرآن الكريم يتلى عليكم، ذلك الكتاب الذي تتقاطر منه نسائم الإعجاز البالغ ما بين حلاوة في النغم وفصاحة في الكلم، وروعة خارقة نفاذة في الأسلوب، لا جرم أن القرآن بإيقاعه المؤثر وجرسه النافذ الساحر وأسلوبه المعبر الباهر بحقيقة المعجزة الربانية المجلجلة من خلال هذا الكلام الحكيم.
وقوله: (وفيكم رسوله) أي رسول الله صلى الله عليه و سلم بين أظهركم ينبهكم ويعظكم ويزيل ما ينتابكم من شبهات المضلين، فضلا عن الشخصية الفذة لهذا النبي الحكيم، الشخصية المتكاملة المثلى التي عز نظيرها في العالمين، وخلال التاريخ كله، الشخصية التي تتندى من سجاياها ومزاياها كل معاني الخير والجمال والرحمة.
وفي مثل هذا الصدد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لأصحابه يوما: " أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟ " قالوا: الملائكة، قال: " وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم " قالوا: فنحن قال: " وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ " قالوا: فأي الناس أعجب إيمانا؟ قال: " قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها " ١٨٥
قوله: (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) ذلك تحريض من الله للمؤمنين لكي يعتصموا بالله، أي يستمسكوا بدينه القويم ويستنيروا بنور قرآنه العظيم، ومن يستمسك بذلك لا جرم أن مآله الرشاد والاهتداء إلى صراط الله المستقيم وهو الإسلام.
١٠٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت

الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) يأمر الله المؤمنين وأن يخافون وأن يراقبوه في السر والعلن فيطيعوه تمام الطاعة ويجتنبوا معاصيه تمام الاجتناب - قال ابن مسعود في تأويل قوله: (اتقوا الله حق تقاته) أي أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر - وقد رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعا - قال ابن كثير: والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

والتقوى في حقيقة مدلولها الإسلامي، هي حالة من كمال الخوف من الله، وما يستتبعه ذلك من كمال الوازع الديني الذي يغشى الجهاز النفسي كله لينشر فيه الشفافية وأقصى الدرجات من رهافة الحس والوجدان - ويستلزم ذلك بالضرورة أن تنقاد الجوارح لعمل الطاعات وتستعصم عن فعل المنهيات والمنكرات، لا جرم أن هذه الصفات النفسية والروحية والبدنية جد عسيرة، حتى إنها لتعز على التطبيق والعمل إلا قليلا، بل إنها لا يطيقها من الناس غير لفيف قليل مميز من الصالحين الأبرار - ويؤيد هذه الحقيقة ما روي عن أنس أنه قال: لا يتقي العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه ١٨٦.

وقد روي عن جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) وعن ابن عباس في قوله تعالى: (اتقوا الله حق تقاته) قال: لم تنسخ - ولكن (حق تقاته) أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله: (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) النهي في ظاهره واقع على الموت وليس هو المقصود، بل الأمر بالإقامة على الإسلام هو المقصود، أي لا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدركم الموت.

١٠٣ - (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قوله: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) اعتصموا من العصمة، وهي المنع - عصمه الطعام أي منعه من الجوع - والعصمة أيضا تعني الحفظ - اعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية - واستعصم بكذا إذا تقوى وامتنع ١٨٧.

الله جل جلاله يأمر عباده المسلمين أن يتعصموا، أي يتمسكوا بحبله، والحبل في اللغة فهو السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان حبلا، لأنه سبب يوصل إلى زوال الخوف، والنجاة من الجزع والذعر.

والمراد بحبل الله في الآية العهد - وقيل: الجماعة - وذهب آخرون إلى أنه القرآن وهو عندي الأظهر والأقوى - لما يعزز ذلك من خبر عن علي مرفوعا في صفة القرآن قال: " هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم " وورد في ذلك حديث خاص بهذا المعنى عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض ".

وفي حديث آخر عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه " ١٨٨.

قوله: (ولا تفرقوا) ذلك نهي من الله لمسلمين عن التفرق، وهو التبعثر والشقاق والاختلاف فيما بينهم في الدين - وليس المراد الاختلاف في الأقوال والآراء التفصيلية لأحكام الشريعة، فذلك مرغوب لا بأس فيه، ولكن المراد اختلاف القلوب تبعا لاختلاف الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية بما يفضي إلى زوال الألفة والاجتماع بين المسلمين وما يوقع بينهم العداوة والبغضاء والمشاحنة وإثارة الفتن والحروب.

إن قول الله: (ولا تفرقوا) يظل نداء مستديما وقائما يهتف بالمسلمين طوال الدهر أن لا تتفرق كلمتهم، وأن لا تتبعثر قلوبهم، وأن لا تتشتت جماعتهم، وأن يحذروا دائما من دعاة السوء والمكر والتخريب من الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر ليوقعوا بينهم الضغائن والفتن فتضعف وحدتهم ويتمزق شملهم، ليسهل على المجرمين والطغاة الطامعين من استعماريين وصليبيين ووثنيين وملحدين وصهيونيين- افتراسهم والاستحواذ عليهم - لا جرم أن التفرق داء وبيل ومدمر يوهن المسلمين ويودي بهم إلى التفكك والانهيار والسقوط في براثن

الشياطين من شرار البشر، إنه لا مناص للمسلمين إذ ابتغوا لأنفسهم العزة والمنعة والسلطان وتحصيل السعادة في الدارين- من الاجتماع في وحدة حقيقة واحدة - وحدة متماسكة متينة تجتمع فيها قلوبهم وأهواؤهم حول حقيقة واحدة كبرى، وذلكم هو الإسلام، دون غيره من الأديان والملل أو العقائد والفلسفات والمبادئ المختلفة.

وفي التحذير من الافتراق والاختلاف روي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة - وإن أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة " فقيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: " الجماعة واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ".

قوله: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا) أي اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم مشركين إذ يقتل بعضكم بعضا ويخاصم الواحد منكم الآخر لا يحفزه أو يثيره إل مثل ذلك غير الحماقة الطاغية، والهوى الجامح الضال.

لقد كنتم على هذه الحال من عصبية الجاهلية برعونتها ومفاسدهاه وحماقاتها حتى قيض الله لكم هذا النبي الكريم للناس هاديا وبشيرا - وقيض لكم الإسلام ليكون لكم فيه الخير والسلامة والنجاة من كل العيوب والأوضار والشرور، (فأصبحتم) (صرتم) بذلك إخوانا في عقيدة الإسلام متحابين متآلفين متحدين بفعل هذا الدين الذي فيه سر نجاتكم وفلاحكم، والذي حوى من القيم والمعاني ما يغسل القلوب من الأدران وأوشاب الدنيا "، ويغسل الأذهان من شبهات التفكير الضال؛ لينقلب الإنسان إلى كائن جديد مميز ومفضال يفيض بالعطاء والخير - كائن سليم من الأمراض والعقد والشذوذ.

قوله: (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) شفا الشيء، أي حرفه - وهو اسم مقصور - مثل شفا البئر - أي حده وحرفه، وشفيره أشفى على الشيء، إذا أشرف عليه كأنه بلغ شفاه أي حرفه، ومنه: أشفى المريض على الموت ١٨٩.

والمقصود أن هؤلاء المؤمنين كانوا قبل إسلامهم على طرف جهنم - وذلك بكفرهم وجاهليتهم الضالة حتى كادوا يكبكبون فيها لولا أن منّ الله عليهم بالإسلام فأنقذهم من النار - وكذلك تكون الحال لكل واحد من الناس أو أمة من الأمم فإنها قائمة موقوفة على شفير جهنم حتى لتوشك أن تهوي فيها إلا أن تفيء إلى كلمة الله - الكلمة الصادقة الأمينة- كلمة الإسلام العظيم - وفي ذلك ما ينتشل الإنسانية من رجس المفسدين ويفضي بها إلى النجاة والسعادة.

قوله: (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) الكاف في اسم الإشارة في محل نصب، نائب مفعول مطلق أو في محل نصب على الحال - والمعنى أنه مثل ذلك البيان البليغ المذكور الذي عرفكم فيه ربكم كيد الكائدين وتربصهم بكم، وعرفكم مواقع نعمه وصنائعه لديكم فإنه يبين لكم (آياته) أي دلائله وحججه الساطعة (لعلكم تهتدون) أي لتهتدوا إلى سبيل الرشاد فلا تضلوا أو تتعثروا؛ لأنكم أصبحتم بذلك على جادة الصواب ١٩٠.

١٠٤ - (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) الحرف من في قوله: (منكم) موضع خلاف في معناه وذلك على عدة أقوال:

أولها: أن " من " هنا للتبيين - وذلك كقوله: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) فيكون تقدير الكلام: كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر - والأصل في المسألة هنا أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة - فإنه ما من مكلف إلا ومنوط به أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر؛ وذلك للخبر " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه - وذلك أضعف الإيمان " وفي رواية " وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " ١٩١ ثم قالوا: إن ذلك وإن كان واجبا على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقين - وذلك كقوله تعالى: (انفروا خفافا وثقالا) فالأمر عام، لكنه إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزوال التكليف عن الباقين.

القول الثاني: إن " هنا " للتبعيض - وبذلك فإن المراد بالأمة في الآية جماعة من أمة المسلمين وهم العلماء، فالتكليف مختص بهم، فيكون

التقدير: أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذه الوجيبة العظيمة، وهي وجيبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء هم جماعة العلماء؛ لما يتجلى فيهم من مزية القدرة على فهم المعاني الدينية ووعيها - ومزية التبليغ للناس بما يثير فيهم الحماسة الدينية ويدعوهم إلى سبيل الرشاد، ولا يتسنى مثل هذه الوجيبة لغير الفئة الواعية العالمة من الأمة - الفئة التي أوتيت حظا من المعرفة بكتاب الله الحكيم - وعلى هذا فالواجب هنا على سبيل الكفاية بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين - وذلك شديد بالقول السابق الثاني.

القول الثالث: المراد من هذه الآية هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم: لأنهم كانوا يتعلمون من الرسول عليه الصلاة والسلام ويعلمون الناس.

والصواب في تقديري كما قاله ابن كثير في هذا الصدد: والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه - جاء في الخبر مما رواه أحمد أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده لم لتدعنه فلا يستجيب لكم " ١٩٢.

قوله: (يدعون إلى الخير) يراد بالخير الإسلام وشرائعه، بكل ما في هذه العبارة من عظيم المعاني - فالدعوة إلى الخير تتناول كل جوانب هذا الدين الشاسع الرحيب بما فيه من إثبات لذات الله وصفاته وتقديسه جل جلاله عما لا يليق بكماله - إلى غير ذلك من أصول وقواعد وأحكام ودروس ومواعظ مما حواه هذا الدين المتين.

وقوله: (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) عطف بالأمر المعروف والنهي عن المنكر على الدعوة إلى الخير - وذلك عطف للخاص على العام إيذانا بفضلهما وعظيم أهميتهما - ولا غرو فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل المسلمين جميعا لنشر الحق والفضيلة، وتبديد الباطل والرذيلة، بل إنهما سبيل لنشر الإسلام وعقيدة التوحيد بين الناس وفي الآفاق، ولإذهاب كل ظواهر الفسق والفساد والباطل من بين العباد، لا جرم أن البشرية برمتها مستديمة الحاجة الملحاحة لما يقرع آذانها من دعوات الخير الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر - فالإنسان بطبيعته خلق ضعيفا، وهو بذلك يخالطه الضعف في اصطباره واقتداره واحتماله للواجبات ليجنح في الغالب للزلل والنسيان والتقصير - ويعبر النبي صلى الله عليه و سلم عن ذلك خير تعبير، إذ يقول: " كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون " ١٩٣.

من أجل ذلك لا يستغني الإنسان عن تذكيره ومعاودة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

قوله: (وأولئك هم المفلحون) الفلاح معناه الفوز والنجاة والبقاء ١٩٤ - واسم الإشارة يعود على الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، فإن أولئك جميعا الناجون من كل ما يمس الناس من مكروه، والفائزون بالنعيم المقيم لا ينقطع.

١٠٥ - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) يحذر الله عباده المؤمنين في هذا البيان البليغ تحذيرا شديدا أن يكونوا كالذين خلوا من قبلكم وهم أهل الكتاب، إذ تفرقوا واختلفوا - ومعناهما واحد وذكرهما للتأكيد - وقيل: بل معناهما مختلف: فقد تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين - وقيل غير ذلك.

والمقصود تحذير المسلمين مما آلت إليه حال الأمم السالفة في تفرقهم إلى ملل وطوائف شتى، واختلافهم فيما بينهم اختلافا متباينا بسبب ركونهم للهوى وطاعتهم للنفس الجانحة للسوء واستسلامهم للطبع الخسيس الغلاب ألا وهو الحسد - يحذر الله هذه الأمة من الشقاق والفرقة والانقسام والتمزق طمعا في مكاسب دنيوية رخيصة، أو جريا وراء هوى جامح منحدر يهبط بصاحبه إلى أحط الدركات من الإسفاف والضعة والحقار.

يحذر الله من كل ظواهر التدابر والخصام من غير يقين في ذلك ولا برهان إلا محض الثرثرة واللغط واستمراء الجدل العقيم، أو انقيادا للوثة الحسد البغيض.

قوله: (من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لأهم عذاب عظيم) ذلك شأن أهل الكتاب فقد جاءتهم البينات وهي الآيات الواضحة التي تبين لهم الحق في غير إبهام والتي توجب الألفة والاتفاق وعدم الاختلاف، لكنهم مع ذلك تفرقوا واختلفوا - لا جرم أن عاقبة أولئك السوء وهو العذاب العظيم - فحذار أيها المسلمون أن يصيبكم ما أصابهم إذا نكصتم على أعقابكم فعصفت بكم رياح التفرق والاختلاف

.١٩٥
١٠٦ - (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)
قوله تعالى: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانهم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) ذلك كائن يوم القيامة حيث القواصم والشدائد وهول الحساب والميزان - هنالك تجد كل نفس ما عملت من خير أو سوء محضرا، وعندئذ يستيقن المرء من مآله إن كان في زمرة الناجين الفائزين بالنعيم أو كان في زمرة الخاسرين المكبكبين في سجّين - فإذا استيقن أنه ناج من العذاب استبشر وتهلل وغشيت وجهه غمرة من الإشراق والنضرة وعلائم الحبور، أما إذا استيقن أنه خاسر وأنه في الأذلين المعذبين غشيته غاشية من الاغتمام والعبوس وتظلل وجهة بظلة من سواد الإياس والابتئاس والعياذ بالله.
أولئك الخاسرون المبثورون يقال لهم حينئذ: (أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ذلك استفهام بمعنى الإنكار وفيه من التقريع والتوبيخ ما يليق بهذا الصنف الشقي من الناس، وهم الكافرون والمنافقون وغيرهم من المضلين المفسدين الذين زاغوا عن محجة الإسلام وعن طريقه السوي السليم وهم يحسبون أنهم على شيء، لكنهم ليسوا في الحقيقة غير مضللين مخادعين، أولئك عن أهل الأهواء والبدع الكافرة، كالدهرية والسبأية والغرابية والعلوية والباطنية والمجسمة والمشبهة والثنوية والحشاشين والدروز - إلى غير هؤلاء من الزنادقة وأولي الأهواء الجانحة الضاربة في أغوار الضلالة والفسق.
إن هؤلاء جميعا سيقرّعون يوم القيامة تقريعا وسوف يبوءون بالمهانة والتهكم اللاذع ما يزيدهم إيلاما وحسرة.
١٠٧ - (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
قوله: (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) المقصود برحمة الله هنا الجنة - وهي دار النعيم المقيم الذي لا يتحول ولا يتبدل، تلك الدار مأوى المؤمنين المخلصين، وهم أهل السنة والجماعة الذي استقاموا على محجة الإسلام البيضاء من غير زيغ ولا اعوجاج ولا ابتداع، لا يحدوهم في ذلك غير الإخلاص لله وحده، بعيدا عن الأهواء وكل ظواهر الضلال وانحراف الفكر أو العقيدة.
١٠٨ - (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) اسم الإشارة (تلك) في موضع رفع مبتدأ - وخبره (آيات الله) والمقصود بآيات الله القرآن - وقيل: آيات الله أي بيناته وحججه ومواعظه وعبره، ينزل بها جبريل عليك يا محمد (بالحق): أي بالمعنى الحق، أو بالصدق واليقين - والله جلت قدرته، في قضائه بين العباد وفيما أعده للعصاة والفساق والمشركين والمتمردين من عذاب ونكال إنما هو حق وعدل؛ لأن الله تعالى لا يظلم أحدا مثقال ذرة، وهو جل شأنه من صفاته العدل فلا يريد للعباد أن يحيق بهم ظلم - وذلك مقتضى قوله: (وما الله يريد ظلما للعالمين).
١٠٩ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)
وقوله: (ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) بعد أن ذكر الله أحوال المؤمنين وما أعد لهم من خيرات في الجنات، وأحوال الكافرين والمنافقين وأهل الأهواء وما أعد لهم من تحريق واصطلاء بالنيران اللاهبة المتأججة، وبعد أن نفى الله عن نفسه الظلم وأنه سبحانه لا يريد الظلم لأحد؛ لأن مستغن عن كل أحد بل عن العالمين جميعا - ودليل استغنائه المطلق هذا أنه له ملكوت كل شيء فهو مالك السماوات والأرض - وكل شيء في قبضته سبحانه في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد - يوم تصير الأشياء والخلائق والكائنات إلى الله الواحد القهار ١٩٦.
١١٠ - (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)
قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم

المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) الفعل كان في قوله: (كنتم) ناقصة - وبذلك فقوله: (كنتم) يحتمل المراد ثلاثة وجوه هي:
الأول: أنكم كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة.
الثاني: أن ذلك مخصوص بقوم معينين من أصحاب الرسول صلى الله عليه و سلم وهم السابقون الأولون.
الثالث: أن هذه الآية عامة في جميع الأمة الإسلامية كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - وهو الراجح والصواب.
وقيل: كان هنا تامة - فيكون المعنى: وجدتم وخلقتم خير أمة ١٩٧.
وكيفما كان اعتبار " كان " هنا فإنه يجب الاستفادة من مدلول الآية في خيرية أمة الإسلام بما يستثير الانتباه والنظر إلى هذه الحقيقة الكبرى - وهي أن أمة القرآن خير الأمم التي أقلتها هذه الأرض، ولا يقال مثل هذه الكلام من قبيل التعصب للجنس أو العرق أو غير ذلك من مختلف المظاهر النوعية والإقليمية - ولكنها الحقيقة المبنية على الدليل والبرهان - ووجه ذلك أن أمة الإسلام قد صنعها هذا الدين المتكامل المميز الوسط، الدين الذي يتسم بكل مزايا التوازن والتوسط، فضلا عن مراعاته الكاملة لفطرة الإنسان، لا جرم أن مثل هاتيك الخصائص لا تتجلى في ديانة ولا عقيدة ولا ملة ولا فلسفة من الفلسفات أو مبدأ من مبادئ الدنيا، ليس شيء من ذلك إلا مناهض لفطرة الإنسان أو مخالف لطبيعته مهما كان مدى هذه المخالفة، لكن الإسلام وحده جُماع مزايا الصلاح كله - يضاف إلى ذلك ما نبه عنه القرآن في هذه الآية وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وذان عنصران أساسيان قد تجليا في أمة الإسلام تجليا مكشوفا وعلى غير مثال ولا نظير في الملل السابقة - وفوق ذلك كله ما يتجلى في هذه الأمة من إيمان صادق وثيق، إيمان حقيقي سليم، مبرأ من كل زيف أو تضليل أو خرافة، إيمان بالله وحده لا شريك له وما يستتبعه ذلك من أسماء لله حسنى وما تقتضيه هذه من صفات الكمال لله جل وعلا.
إذا تبين ذلك أيقنا أن عقيدة الإسلام وحدها المبنية على التوحيد الكامل لله، الخالصة من كل أدران الشرك على اختلاف صوره وأشكاله، البعيدة عن كل صور الزيف والافتراء والباطل.
من هنا لزم القول إن أمة الإسلام وحدها لهي المخولة بقيادة البشرية إلى ما فيه أمنها وسلامتها وسعادتها، ذلك أن هذه الأمة قد صنعها الإسلام لتكون على خير حال من توازن الشخصية واستواء الطبع وجمال العقيدة والفكر، في غير ما خلل ولا شذوذ ولا اضطراب، وبعيدا عن كل صور الإفراط والتفريط - أمة منسجمة ملتئمة متسقة في أفكارها وتصوراتها وتطلعاتها وحضارتها، فهي وحدها معنية بحمل رسالة الإصلاح والهداية والترشيد للبشرية تخليصا لها مما يحيق بها من الأرزاء والملمات والأزمات - أمة الإسلام قائمة على الود والرحمة واليقين، وقد جيء بها لتحمل لواء الرحمة للناس جميعا، فتتبدد من وجه هذه الدنيا كل معالم الشر والفساد والباطل - ولتشعشع في الآفاق أنوار الخير والتعاون والسلام.
قوله: (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) أي لو صدق أهل التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه و سلم وما جاءهم في ذلك من عند الله، فآمنوا كإيمان المسلمين، هذا الإيمان الحقيقي الصادق الذي لا يعتوره زيف ولا تضليل ولا خلل، والذي لا يخالطه تحريف ولا تبديل ولا افتراء (لكان خيرا لهم) لسوف يفضي بهم هذا الإيمان الصحيح إلى الخير - إذ يصنع منهم أمة سوية رحيمة سليمة من عطب العقيدة وفساد الفكر والتصور.
ومع ذلك فقد آمن بنبي الإسلام نفر قليل من أهل الكتاب، لكن الأكثرين مهم الفاسقون، وذلك من الفسق أي الخروج، فقد خرج أهل الكتاب من اليهود والنصارى عن دينهم مما في التوراة والإنجيل - وكان هذان الكتابان قد تضمنا ذكر رسالة الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه و سلم وتحريض بني إسرائيل على تصديقه والإيمان به، لكنهم أبوا وعتوا عتوا كبيرا - وما فتئ اليهود والنصارى يزدادون على مرّ الزمن كفرا بدين الإسلام وبنبيه محمد صلى الله عليه و سلم، فضلا عن حملات الصدر والتضليل والتشويه لهذا الدين العظيم وعما يتفننون فيه من أساليب الإبادة والتدمير والتشريد للمسلمين.

١١١ - (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ)

قوله تعالى: (لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

جاء في سبب نزول قوله: (لن يضروكم إلا أذى) أنه في رؤوس يهود مثل كعب والنعمان وياسر وابن صوريا وغيرهم، فقد عمد هؤلاء إلى مؤمنهم عبد الله ابن سلام وأصحابه ممن آمنوا بدعوة الإسلام فآذوهم وآذوهم بالبذيء من القول مما فيه تنكيد وتنغيض ١٩٨.

يبين الله للمؤمنين في هذه الآية أنهم ماداموا صادقين مع الله، مستمسكين بعقيدة الإسلام، عاملين بشريعة الله، واقفين عند حدوده سبحانه فلن يستطع يهود إلحاق الضرر بهم إلا ما كان من أذى - والمقصود بالأذى هنا هو الطعن في الإسلام ونبيه والمسلمين وإلصاق العيوب والشبهات بدين الإسلام وفي شريعته الفضلى، مع ما يتخلل ذلك من اختلاق الأكاذيب والأباطيل والشبهات عن المسلمين في تاريخهم، وذلك بالدس والطعن والشتم والتشويه لنشر البلبلة والريبة في نفوس المسلمين وأذهانهم إن استطاعوا، فضلا عما كانوا يفترونه من باطل وهذيان كإشراكهم في عزير وتحريفهم للتوراة.

قوله: (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار لا ينصرون) (يقاتلوكم) فعل الشرط مجزوم بحذف النون - (يولوكم) جواب الشرط مجزوم بحذف النون أيضا.

قوله: (ثم لا ينصرون) وذلك بعد تمام الكلام فأفاد الاستئناف هنا وتقدير الكلام: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، وقيل: ثم تفيد معنى التراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

أما تأويل قوله: (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون - فنقول والله المستعان: إن ذلك ديدن يهود في الحرب، فهم ليسوا أكفاء للمسلمين في القتال: إذ لا يستطيعون الثبات أمام صولتهم ولا يملكون من طاقة على احتمال مواجهتهم في ساحات الوغى - ذلك هو الأصل الذي بينته الآية الكريمة في حسم قاطع وفي إخبار مستبين على أن المسلمين إن صدقوا مع الله واهتدوا بدينه وشرعه ولم يحيدوا عن عقيدة الإسلام ليتشبثوا بعقائد أخرى من عقائد الشرك، لا جرم أنهم هم المنصورون دائما، وأن دائرة الهزيمة والخذلان لسوف تدور على بني صهيون والصليبيين إذا وقعت واقعة الحرب وحمي وطيسها.

المعادلة في هذه المسألة مكشوفة لمن يبغي العلم، وهي أن التوكل على الله حق توكله بعد الأخذ الكامل بالأسباب والمقدمات من إعداد واستعداد كاملين، وذلك في غاية من الروية والدراية والتخطيط والحذر، على أن يكون المسلمون مستنين بسنن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة من غير تحول في ذلك ولا انفتال ولا تفريط - فإذا كان شأن المسلمين كما ذكر لا جرم أن النصر حليفهم وأن الله لعدوهم بالمرصاد - وخلاف ذلك من تفريط في دين الله واستنادا إلى العباد من الكافرين يتسول المسلمون منهم العون والمساعدة، فضلا عن غياب الإسلام كليا عن ساحة المسلمين وواقعهم، وما يتمخض عن ذلك من استرخاء واضطراب وتردد وخور وفوضى تغشى المسلمين، فلا ينبغي للمسلمين والحالة هذه إلا أن ينتظروا الهزائم تتوالي عليهم تترا.

وإذا أصابت يهود حظا من النصر في حربها مع العرب في العصر الراهن فمرد ذلك تفرق المسلمين وانقسامهم على أنفسهم إلى أشتات ودويلات هزيلة حقيرة.

وفوق ذلك ما أصاب المسلمين من وهن ذاتي غشيهم من الداخل بعد أن اعتزلوا دينهم الإسلام وركنوا إلى ملل الكفر والكافرين واستعاضوا عن شريعة الله ومنهجه في الحياة بمظلة واهية هشة من القومية الخاوية التي لم يجرجر المسلمون من خلالها غير الفرقة والضعف والتبدد والهوان - ذلك كله كان سبيل يهود لكسب المعركة وهزيمة العرب والمسلمين في زماننا هذا.

١١٢ - (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

قوله: (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي لزمهم الهوان والضغار أينما وجدوا (إلا بحبل من الله)

أي بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم وإلزامهم بأداء الجزية للمسلمين.
وقوله: (وحبل من الناس) المراد به الأمان يعطيه المسلمون لهم كالذي يكون عليه المهادن والمعاهد والأسير.
قوله: (وباءوا بغضب منه الله) أي رجعوا به ومكثوا فيه - من البوء وهو المكان - تبوأ فلان منزلا أي نزله، وبوأ له منزلا أي هيأه له ومكن له فيه - والمعنى أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه ١٩٩.
قوله: (وضربت عليهم المسكنة) أي كما يضرب البيت على أهله منهم ساكنون في المسكنة وهي الذلة والضعف - وقيل: الجزية - ومنها المسكين وهو الذليل المقهور.
قوله: (ذلك بأهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) (ذلك) اسم إشارة لما ذكر وهو ما حصل لليهود من بلايا وهوان وما حاق بهم من ضرب الذلة عليهم والمسكنة، واستحقاقهم الغضب، فإن ذلك كله بسبب كفرانهم بآيات الله وهي ما أنزل من بينات ودلائل وحجج وبراهين، وكذلك قتلهم الأنبياء بغير حق، يعني ظلما واعتداء - وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله في هذا الصدد: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي.
ولئن كان ذلك علته أفاعيل يهود وجرائرهم فيما مضى من قتل الأنبياء مما اقترفه الآباء السالفون فما جريرة الأبناء المتأخرين فيما بعد ممن لم يصدر عنهم مثل هذا القتل.؟ ويجاب عن ذلك بأن هؤلاء المتأخرين كانوا راضين بفعل أسلافهم فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل المشين فعلا لآبائهم وأسلافهم؛ إذ كانوا مصوبين لأسلافهم فيما فعلوه.
وقوله: (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) اسم الإشارة (ذلك) يعود على الكفر وقتل الأنبياء - أي أن علة كفرهم وقتلهم الأنبياء هو عصيانهم لله واعتداؤهم لحدوده.
فجملة القول في معنى الآية أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة والبواء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته وقتلوا أنبياءه - وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية ٢٠٠.
١١٣ - (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)
قوله تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين).
جاء في سبب نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس أنهما فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم، فقالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم - وقالوا لهم " خنتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره فأنزل الله (ليسوا سواء من أهل الكتاب) ٢٠١ والوقف على سواء - وبذلك فإن قوله: (ليسوا سواء) والمراد أنه لما وصف أهل الكتاب في الآية السابقة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب ليسوا كذلك من حيث المذمة والسوء، بل فيهم من يتصف بالصفات الحميدة والخصال الجيدة.
إذا تبين ذلك فقد مدح الله الفئة المؤمنة من أهل الكتاب ممن آمن من اليهود برسالة الإسلام بعدة صفات هي:
أولا: أنها قائمة، أي مستقيمة عادلة - وذلك من قولك: أقمت السيف فقام أي استقام.
ثانيا: التلاوة وذلك في قوله: (يتلون آيات الله آناء الليل) والمراد بالآيات المتلوة هنا آيات القرآن - وقيل غير ذلك.
وقوله: (آناء الليل) الآناء بمعنى الأوقات والساعات منصوب على الحال - وواحدها: أنا، وإنْي بكسر الهمز وسكون النون.
ثالثا: السجود - وذلك في قوله: (وهم يسجدون) في تأويل ذلك وجهان:
أحدهما: يحتمل أن تكون الآية (وهم يسجدون) حالا من التلاوة كأنهم يقرأون القرآن في السجود مبالغة في الخضوع والخشوع - واستبعد بعضهم ذلك؛ لأن التلاوة لا تكون في الركوع والسجود.
ثانيهما: يحتمل أن يكون ذلك كلاما مستقلا - فيكون تقدير الكلام أن من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم

وهم مع ذلك يسجدون فيها - فالسجود هو السجود المعروف.

رابعا: الإيمان بالله واليوم الآخر - وذلك في قوله: (يؤمنون بالله واليوم الآخر) أي يصدقون بالله وبالبعث بعد الممات ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم.

خامسا: الأمر بالمعروف والنهي عن النكر - وذبك في قوله: (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أي أنهم يدعون الناس إلى توحيد الله وتصديق محمد صلى الله عليه و سلم وينهونهم عن الشرك بالله وعن إنكار نبوة محمد صلى الله عليه و سلم - فهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما جاءهم به، وينهونهم عن المعروف وهو تصديق محمد صلى الله عليه و سلم فيما أتاهم به من عند الله.

سادسا: المسارعة في الخيرات - وذلك في قوله: (ويسارعون في الخيرات) أي أنهم يبتدرون فعل الخيرات خشية الفوت بالموت.

سابعا: الصلاح - وذلك في قوله: (وأولئك من الصالحين) أي أن هؤلاء الموصوفين بما وصفوا به من مزايا الخير هم من جملة الذين صلح حالهم في ميزان الله فكانوا من الفائزين، لا جرم أن ذلك غاية في المدح والتكريم.

١١٤ - (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٣]

قوله تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين).

جاء في سبب نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس أنهما فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم، فقالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم - وقالوا لهم " خنتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره فأنزل الله (ليسوا سواء من أهل الكتاب) ٢٠٢ والوقف على سواء - وبذلك فإن قوله: (ليسوا سواء) والمراد أنه لما وصف أهل الكتاب في الآية السابقة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب ليسوا كذلك من حيث المذمة والسوء، بل فيهم من يتصف بالصفات الحميدة والخصال الجيدة.

إذا تبين ذلك فقد مدح الله الفئة المؤمنة من أهل الكتاب ممن آمن من اليهود برسالة الإسلام بعدة صفات هي:

أولا: أنها قائمة، أي مستقيمة عادلة - وذلك من قولك: أقمت السيف فقام أي استقام.

ثانيا: التلاوة وذلك في قوله: (يتلون آيات الله آناء الليل) والمراد بالآيات المتلوة هنا آيات القرآن - وقيل غير ذلك.

وقوله: (آناء الليل) الآناء بمعنى الأوقات والساعات منصوب على الحال - وواحدها: أنا، وإِنْي بكسر الهمز وسكون النون.

ثالثا: السجود - وذلك في قوله: (وهم يسجدون) في تأويل ذلك وجهان:

أحدهما: يحتمل أن تكون الآية (وهم يسجدون) حالا من التلاوة كأنهم يقرأون القرآن في السجود مبالغة في الخضوع والخشوع - واستبعد بعضهم ذلك؛ لأن التلاوة لا تكون في الركوع والسجود.

ثانيهما: يحتمل أن يكون ذلك كلاما مستقلا - فيكون تقدير الكلام أن من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم
وهم مع ذلك يسجدون فيها - فالسجود هو السجود المعروف.

رابعا: الإيمان بالله واليوم الآخر - وذلك في قوله: (يؤمنون بالله واليوم الآخر) أي يصدقون بالله وبالبعث بعد الممات ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم.

خامسا: الأمر بالمعروف والنهي عن النكر - وذبك في قوله: (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أي أنهم يدعون الناس إلى توحيد الله وتصديق محمد صلى الله عليه و سلم وينهونهم عن الشرك بالله وعن إنكار نبوة محمد صلى الله عليه و سلم - فهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما جاءهم به، وينهونهم عن المعروف وهو تصديق محمد صلى الله عليه و سلم فيما أتاهم به

من عند الله.
سادسا: المسارعة في الخيرات - وذلك في قوله: (ويسارعون في الخيرات) أي أنهم يبتدرون فعل الخيرات خشية الفوت بالموت.
سابعا: الصلاح - وذلك في قوله: (وأولئك من الصالحين) أي أن هؤلاء الموصوفين بما وصفوا به من مزايا الخير هم من جملة الذين صلح حالهم في ميزان الله فكانوا من الفائزين، لا جرم أن ذلك غاية في المدح والتكريم.
١١٥ - (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)
قوله: (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين) ذلك إخبار من الله تعالى عن الجماعة الموصوفة سابقا بالقائمة، التالية آيات الله، الساجدة، بأنها لا تفعل من خير أو تعمل من عمل لله فلن يكفرهم الله - من الكفر وهو التغطية والستر - كفره أي غطاه وستره - والكفر والكفران بمعنى الجحود والستر.
والمقصود أن ما تعمله هذه الأمة من خير فلن يبطل الله ثواب أعمالهم ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم - ولكنه يجزل لهم الثواب ويكتب لهم الجزاء والكرامة، خلافا لما كان يهدي به أحبار يهود لما قالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم - أو خنتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره.
قوله: (والله عليم بالمتقين) الله عليم بأهل التقوى، وهم الذين يؤمنون به في قرارة أنفسهم من غير شك في ذلك ولا فتور ويخافونه خوفا دائما - فهم بذلك يبادرون لله بالطاعة، والانزجار عن المعاصي والموبقات - والله يطمئن عباده الصالحين المخلصين بأن أعمالهم الصالحة لا يأتي عليها حبوط ولا نسيان، بل إن الله عليم بها وهو مجاز عنها في الدين والدنيا، وفي ذلك ما يسكب في قلوب المؤمنين المخلصين البهجة والشرح لما يجدونه من تكريم الله لهو وعدم التفريط فيهم، وأنهم غير مضيعين ولا مهمشين، وإن همشهم الناس وتغافلوا عنهم ٢٠٣.
١١٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
قوله تعالى: (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكاهم وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون)
بعد أن بين الله حال المؤمنين من أهل الكتاب وما أعده لهم من الخير وحسن الجزاء، توعد الله الآخرين الفاسقين من أهل الكتاب الذين كفروا بدعوة الإسلام وبنبوة محمد صلى الله عليه و سلم توعدهم بأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم في الآخرة ولن تدفع عنهم عذاب الله في هذا اليوم العصيب.
ولئن حسب الإنسان أن بماله وولده ناج من البلايا والنوائب لما يجد في ذلك من عون له على دفع ما يصيبه من مكروه، أو حسب وهو يحوطه المال والولد أنه يتفيأ ظلال الأمن والرخاء فلا يعتوره بعد ذلك هم ولا قلق، لئن كان كذلك فلا ريب أنه موغل في الوهم والغفلة، وسادر في الغي وهوان التفكير - إن ذلكم الخاسر لسوف تحيط بهم القواصم الفواقر وهو موقوف على ربه ليناقش الحساب - وإذ ذاك يغيب عنه الأعوان والأموال ويذهل عنه الصحب والخلان فلا يبرح حتى يهوي في النار مع الخالدين.
أما ما ينفقه الكافرون من أموال في وجوه الخير والإصلاح والتعمير بما ينفع الناس فلا جرم أن ذلك كله في ميزان الله باطل وحابط - ولئن كان في إنفاقهم ما يجر للناس نفعا كبناء الجسور وإصلاح الطرقات وإطعام الجياع وإغناء العالة والمحاويج فليس لذلك أيما اعتبار أو قيمة ما دام هؤلاء المنفقون سادرين في الكفر، إذ لا يقبل الله من الكافرين أعمالهم، بل إنهم في زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة - وقد شبه الله إنفاقهم وأعمالهم التي أتى عليها الحبوط بزرع قد عصفت به ريح شديد هو جاء فيها صرّ يصرّ صريراً أي صاح صياحا شديدا، والصرة بالفتح تعني الصيحة ٢٠٤ - وقيل: الصر بمعنى النار الحارقة وإنما وصف بأنها صر لتصويتها عند الالتهاب.
وتقدير الكلام أن إنفاق الكافرين والمنافقين لا وزن له ولا قيمة، بل إن ما أنفقوه أشبه بريح باردة أو حارقة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفران والضلال فأهلكته إهلاكا - وتلك عاقبة المجرمين الذين لم يظلمهم الله ولكنهم ظالمون لأنفسهم بإيرادها في الكفر

والحبوط وضلال الأعمال، وهذا هو مقتضى قوله تعالى: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون).

١١٧ - (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٦]

قوله تعالى: (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكاهم وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون)

بعد أن بين الله حال المؤمنين من أهل الكتاب وما أعده لهم من الخير وحسن الجزاء، توعد الله الآخرين الفاسقين من أهل الكتاب الذين كفروا بدعوة الإسلام وبنبوة محمد صلى الله عليه و سلم توعدهم بأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم في الآخرة ولن تدفع عنهم عذاب الله في هذا اليوم العصيب.

ولئن حسب الإنسان أن بماله وولده ناج من البلايا والنوائب لما يجد في ذلك من عون له على دفع ما يصيبه من مكروه، أو حسب وهو يحوطه المال والولد أنه يتفيأ ظلال الأمن والرخاء فلا يعتوره بعد ذلك هم ولا قلق، لئن كان كذلك فلا ريب أنه موغل في الوهم والغفلة، وسادر في الغي وهوان التفكير - إن ذلكم الخاسر لسوف تحيط بهم القواصم الفواقر وهو موقوف على ربه ليناقش الحساب - وإذ ذاك يغيب عنه الأعوان والأموال ويذهل عنه الصحب والخلان فلا يبرح حتى يهوي في النار مع الخالدين.

أما ما ينفقه الكافرون من أموال في وجوه الخير والإصلاح والتعمير بما ينفع الناس فلا جرم أن ذلك كله في ميزان الله باطل وحابط - ولئن كان في إنفاقهم ما يجر للناس نفعا كبناء الجسور وإصلاح الطرقات وإطعام الجياع وإغناء العالة والمحاويج فليس لذلك أيما اعتبار أو قيمة ما دام هؤلاء المنفقون سادرين في الكفر؛ إذ لا يقبل الله من الكافرين أعمالهم، بل إنهم في زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة - وقد شبه الله إنفاقهم وأعمالهم التي أتى عليها الحبوط بزرع قد عصفت به ريح شديد هو جاء فيها صرّ يصرّ صريراً أي صاح صياحا شديدا، والصرة بالفتح تعني الصيحة ٢٠٥ - وقيل: الصر بمعنى النار الحارقة وإنما وصف بأنها صر لتصويتها عند الالتهاب.

وتقدير الكلام أن إنفاق الكافرين والمنافقين لا وزن له ولا قيمة، بل إن ما أنفقوه أشبه بريح باردة أو حارقة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفران والضلال فأهلكته إهلاكا - وتلك عاقبة المجرمين الذين لم يظلمهم الله ولكنهم ظالمون لأنفسهم بإيرادها في الكفر والحبوط وضلال الأعمال، وهذا هو مقتضى قوله تعالى: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون).

١١٨ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط).

روي عن ابن عباس وغيره في هذه الآية أنها نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ويواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم ٢٠٦. يحذر الله عباده المؤمنين من الاغترار بالمنافقين وأهل الكتاب لما يسري على ألسنتهم من حسن الكلام الخادع المنمق فيتخذون منهم

الأولياء والأصدقاء، ويطلعونهم على أسرارهم ودخائلهم، ويظهرونهم على ما خفي من أحوالهم - وذلك في الجملة.
لكن الأعتى من ذلك وأشد خطورة أن يتخذ بعض المتسلطين على رقاب المسلمين والمتحكمين فيهم من القادة والساسة والزعماء الظالمين- أن يتخذوا أصدقاء لهم أعوانا من المنافقين وأهل الكتّاب من ذوي البراعة والاقتدار على اصطناع الحديث الفاتن الغرور ليوسدوهم كثيرا من مقاليد الدولة والبلاد ما بين وزراء وخبراء ومستشارين ومستأمنين وقادة عساكر - لا جرم أن هذه فادحة من فوادح الساسة الظالمين الذين يحكمون المسلمين بالحديد والنار والكفر - فادحة خطيرة تفضي بأسرار الدولة والمسلمين إلى الإفشاء والشيوع، وتمكن للأعداء من الوقوف على أسرار الدولة والبلاد - لا جرم أن ذلك مدخل للأعداء والمتربصين ينفذون منه ليكيدوا للمسلمين كيدا وليضعفهم ويدمروهم إن شاءوا - وذلك هو مقتضى قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) البطانة، مصدر يسمى به الواحد والجمع - وبطانة الرجل خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره - وأصله من البطن خلاف الظهر - ومنه بطانة الثوب خلاف ظهارته ٢٠٧.
وقوله: (من دونكم) أي من غيركم من أهل الأديان والمنافقين الذين لا يؤتمنون على أسراركم وأستاركم مخافة أن يفشوها للأعداء والمتربصين، وفي الحديث عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت لهم بطانتان، بطانة تأمر بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه - والمعصوم من عصمه الله " ٢٠٨.
وعن ابن أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إن ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتبا، فقال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين.
وفي هذا الأثر ما يدل على أن المشركين لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم مخافة إفشائها إلى الأعداء والمتربصين، وكذا المنافقون الذي سجيتهم الخداع والخيانة والذين مردوا على التدسس وإخفاء الحقد ليكيدوا للإسلام والمسلمين كيدا.
قوله: (لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم) يألونكم، فعله: ألا يألو - أي قصر يقصر - لا آلو جهدا بمعنى لا اقصر - والخبال معناه الفساد، ومنه الخبل بسكون الباء وهو فساد الأعضاء - والخبل بالفتح معناه الجن - اختبله أي أفسد عقله أو عضوه - فالمراد من قوله: (لا يألونكم خبالا) أن هذه البطانة من المشركين والمنافقين لا يقصرون فيما فيه إفسادكم - وجملة (لا يألونكم) في محل نصب صفة لبطانة.
قوله: (ودوا ماعنتم) من العنت وهو المشقة، وما مصدرية، فيكون المعنى: ودوا عنتكم، أي ما يضركم ويشق عليكم.
قوله: (قد بدت البغضاء من أفواههم) البغضاء: العداوة وأشد البغض والمقصود أن هؤلاء المتدسسين الماكرين الذين اتخذتموهم لكم خاصة وأعوانا، يضمرون لكم بالغ الكراهية والحقد - وهم مهما تكلفوا في اصطناع المجاملة وحسن الحديث، فإن مكنون قلوبهم من الغيظ والحنق يتبدى على قسمات وجوههم وفلتات لسانهم مما يندلق من أفواههم من عبارات لئيمة تفيض بالبغضاء وفساد الضمير - ومع ذلك فإن ما يستكن في أغوار قلوبهم من شدة الغيظ والكراهية لهو أشد وأعظم مما يتفلت من أشداقهم بين الحين والآخر من كلمات مشحونة بالمكر والسوء والحسد؛ ولذلك قال سبحانه: (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر).
وقوله: (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) يعني قد بينا لكم من أمر هؤلاء المشركين المخادعين ما تعتبرون به وتتعظون إن كنتم تفهمون مثل هذه العبر والمواعظ وتتدبرونها وتأخذون بها؛ لما فيها من تنبيه لكم وترشيد.
١١٩ - (هَأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
قوله: (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) ها للتنبيه - أنتم، ضمير في محل رفع مبتدأ - (أولاء) خبر المبتدأ في محل رفع - وجملة (تحبونهم) في محل نصب على الحال من اسم الإشارة - وقيل: (أولاء) اسم موصول بمعنى الذين - وجملة (تحبونهم) صلة الموصول - والموصول مع الصلة في محل فع خبر المبتدأ (أنتم).
ذلك تنبيه مؤثر، لمن كان له قلب يعي أو عقل يتدبر من المسلمين - تنبيه يثير النفس ويدير الرأس، قمين بالتدبر والاهتمام مليا، فها أنتم

أيها المسلمون تحبون هؤلاء الكفرة والمنافقين؛ لما بينكم من علائق المصاهرة والرضاع أو الجوار ونحو ذلك - أو لما يظهره لكم هؤلاء من رقة الخطاب والتعامل، وحسن الكلام المنمق المصنوع لتحسبوا بذلك أن هؤلاء قلوبهم، معكم وأنهم قريبون من ملة الإسلام، لكنهم في الحقيقة كما ذكر الله عنهم (ولا يحبونكم) لأنكم مسلمون؛ ولأن الكفر مستقر ومركوز في سويداء قلوبهم فهم على الدوام تهفو قلوبهم ومشاعرهم لرؤية أعلام الصهيونية والصليبية، والنفاق ظاهرة مستعلية مع ما يخفونه في أعماقهم من تمنيات بهزيمتكم وزوال دولتكم لتكون لهم الإدالة والغلبة عليكم.

قوله: (وتؤمنون بالكتاب كله) الكتاب اسم جنس أي للكتب، والمراد الكتب السماوية المنزلة على النبيين، وتقدير الكلام أنكم أيها المسلمون تؤمنون بكل الكتب السماوية سواء في ذلك التوراة والإنجيل، فضلا عن إيمانكم بالكتاب الحكيم، القرآن.

من غير شك من ذلك ولو بمثقال ذرة، لكن يهود والنصارى لا يؤمنون بالقرآن، بل لا يؤمنون بجميع كتبهم، وإنما يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وهم في ذلك أتباع هوى فاضح ومزاج مضطرب مريض.

قوله: (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) يبين الله حال هؤلاء المخادعين الماكرين من أهل الكتاب والمنافقين وأهل الأهواء الذين يتخذهم المسلمون بطانة لهم وأعوانا؛ فإنهم إذا لقوا المسلمين لدى التعامل معهم والخطاب تظاهروا أمامهم أنهم يؤمنون بنبوة محمد صلى الله عليه و سلم، لكنهم إذا خلا بعضهم إلى بعض وكانوا في معزل عن المسلمين تكاشفوا فيما بينهم من إظهار العداوة للإسلام، وباحوا في صراحة بأسرارهم المخبوءة مما تنثني عليه صدورهم من حقد كثيف بالغ، وبغض لئيم مستكين للمسلمين - ويكشف عن هذه الحقيقة العبارة القرآنية الوجيزة العجيبة (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) والأنامل أطراف الأصابع - والعض لغة الإمساك بالأسنان، وهو كناية عن شدة الحنق والضغن، وذلك لما رآه هؤلاء الأنجاس الماكرون من تماسك المسلمين واجتماع كلمتهم وتشبثهم بعقيدة الإسلام والتفافهم حول منهج الله القويم، لا جرم أن ذلك يثير في نفوس الضالين من أهل الكتاب والمنافقين وذوي الأهواء وذوي الكراهية والحقد، ويحرضهم على التربص والتخطيط والتآمر على الإسلام والمسلمين.

قوله: (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) خرج ذلك مخرج الأمر، والمقصود منه الدعاء عليهم من الرسول صلى الله عليه و سلم أن يهلكهم الله كمدا، لفرط ما يركم في نفوسهم من الغيظ على المسلمين - وذلك إيذان بقوة الإسلام وعلو سلطانه، فالمراد من الدعاء عليهم بزيادة غيظهم هو التضرع إلى الله بازدياد قوة الإسلام وعلو شأنه مما فيه إغاظة للكافرين المنافقين الذين لا تخفى على الله حالهم، وذلك مقتضى قوله تعالى: (إن الله عليم بذات الصدور) ذلك تهديد لهؤلاء الحاقدين المتربصين الذين يعلمهم الله ويعلم ما تكنه صدورهم من الغل والبغضاء والاغتمام والكمد.

١٢٠ - (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

قوله: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) هذه واحدة من الأوصاف الذميمة للمنافقين - هؤلاء الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر ويرجون لهم كل وجوه الشر والضر، كالهموم والمنون والمضانكة إلى غير ذلك من ألوان الكرب والضيق والفقر والمرض والهزيمة، لكنهم يستاءون لما يصيب المسلمين من وجوه الخير والبركة ما بين نصر الإسلام وعلو شأنه ومكانته - وما يكتبه الله للمسلمين من الاستعلاء والائتلاف والعافية والخصب، وكثرة الأموال والثمرات وازدياد الأنفس والجموع المؤمنة.

قوله: (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) يعني إن تصبروا على طاعة الله وعن معصيته فتجتنبوا نواهيه ولا تتخذوا لكم بطانة من الكافرين والمنافقين فسوف لا يضركم كيدهم شيئا - والمراد بالكيد المكر والخبث وما يبتغيه لكم هؤلاء من غوائل ومفاسد وشرور - و (شيئا) نائب مفعول مطلق محذوف.

قوله: (إن الله بما يعملون محيط) ذلك من مجاز الله - والمقصود بالإحاطة أنه عالم بما يعمله هؤلاء الكافرين في المسلمين من فساد وصد عن سبيل الله، وهو تعالى حافظ لكل ما يجري من قول أو فعل ولا يعزب عنه شيء من ذلك ٢٠٩ - وفي ذلك من إيقاظ للحس والخيال، وتنشيط للذهن والقلب ما يجعل المرء دائب الوعي والتبصر والرهافة، ذلكم الإنسان البصير الذي يعي حقيقة الإحاطة الربانية

لكل ما حواه الوجود من شيء وموجود.
١٢١ - (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون).
نزلت هذه الآية في غزوة أحد وهو قول الجمهور من العلماء - فكان المشركون قد قصدوا المدينة في ثلاث آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر، فنزلوا عن أحد على شفير الوادي مقابل المدينة - وكان ذلك في الأربعاء في الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة - وقد رأى النبي صلى الله عليه و سلم في منامه أن في سيفه ثلمة وأن بقرا له تذبح وأنه أدخل يده في درع حصينة - فتأولها أن نفرا من أصحابه يقتلون وأن رجلا من أهل بيته يصاب وأن الدرع الحصينة المدينة.
قوله: (وإذ غدوت من أهلك) يعني واذكر إذ خرجت في الصباح من منزلك من عند عائشة (تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) أي تنزلهم وتهيء لهم - بوأته منزلا وبوأت له منزلا أي أنزلته فيه، وتبوأ منزلا أي نزله، والمباءة والباءة بمعنى التنازل، والجملة الفعلية (تبوئ المؤمنين) في محل نصب على الحال - والمعنى: اذكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال، أي أماكن يقعدون فيها.
قوله: (والله سميع عليم) أي أن الله سميع لما قاله المؤمنون للرسول صلى الله عليه و سلم فيما شاورهم فيه من موضع لقاء العدو، فمن قائل: اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم خارج المدينة، ومن قائل له: لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا، ومما يشير عليهم الرسول صلى الله عليه و سلم بأصلح الآراء وغير ذلك من أمرك وأمورهم.
١٢٢ - (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
قوله: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما) الهم يحتمل عدة معان فقد يراد به العزم، وقد يراد به الفكر، وقد يراد به حديث النفس، وقيل غير ذلك - والطائفتان اللتان همتا بالفشل وهو الجبن والخور، هما حيان من الأنصار وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وذلك لما انهزم عبد الله بن أبي بن سلول، همت الطائفتان باتباعه لكن الله عصمهم فثبتوا مع الرسول صلى الله عليه و سلم، وهذا مقتضى قوله: (والله وليهما) ٢١٠.
قوله: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) الله جل جلاله يدعو عباده المؤمنين أن لا يركنوا إلا إلى جنابه العظيم، وأن يعتمدوا عليه في كل الملمات والأهوال، فهم لا يدهمهم داهم عصيب، ولا تقرعهم نائبة من النوائب إلا توجهوا بقلوبهم إلى الله وحده، فهو وليهم وحافظهم ومثبتهم - وهو الذي يبدد عدوهم ويثير في نفسه الهلع والذعر ليبوء بالهزيمة والفشل، فلا ينبغي للمؤمنين بعد هذا النداء الرباني المجلجل أن يركنوا للبشر كما يركن كثير من المغفلين الفاشلين الذين يذهلون عن الله ذي الملكوت، ليعولوا في أهوائهم وفي وجدانهم على الخلائق من الساسة والطغاة والمتجبرين، حتى إذا سقطوا في عار الهزيمة وذاقوا وبال أمرهم من الانهيار والتداعي عرفوا أنهم ضلوا الطريق والتفكير.
١٢٣ - (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
قوله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) بدر مكان بين مكة والمدينة تعرف ببئر ماء منسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر - والمعنى أن الله نصر المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه و سلم يوم بدر، وكان يوم جمعة السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الحسم والفرقان؛ إذ أعز الله فيه الإسلام والمسلمين وهزم الشرك والمشركين.
قوله: (وأنتم أذلة) جملة اسمية في محل نصب على الحال - وإنما كانوا أذلة؛ لقلة عددهم إذ كانوا ثلاثمائة، وكان عدوهم يبلغ الألف - يضاف إلى ذلك ضعف الحال وقلة المال والسلاح، وفي مقابلة ذلك كان المشركون مدججين بالسلاح ومزودين بكل زاد من زاد الدنيا.
قوله: (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) يعني اتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه ونواهيه، ليكون ذلك منكم شكرا له سبحانه على ما امتن به

عليكم من النصر على عدوكم وإظهار دينكم وإعلان شأن الإسلام وعزه مع أنكم كنتم ضعفة تقاتلون عدوا قويا متمكنا متربصا - لا جرم أن ذلك فضل من الله ومنة، يستوجبان منكم الشكران بالطاعة والانزجار عن المعاصي.

١٢٤ - (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

قوله تعالى: (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم)

اختلف المفسرون في أن هذا الوعد حصل يوم بدر أو يوم أحد - فإن كان ذلك في يوم بدر كان التقدير: إذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة تقول للمؤمنين - وإذا كان في يوم أحدٍ كان ذلك بدلا ثانيا من قوله: (وإذ غدوت) ٢١١ على أن أكثر المفسرين على أن هذا الوعد كان يوم بدر، ويستدل على ذلك بأن قلة عدد المسلمين وعتادهم كانت أكثر يوم بدر، فكان الاحتياج إلى تقوية القلب في ذلك اليوم أكثر وذلك بإمدادهم بالملائكة فكان صرف هذا الكلام إلى يوم بدر أولى - وقد كان نزول الملائكة على المسلمين في بدر سببا من أسباب النصر - ومما لا شك فيه أن هذا السبب وغيره من الأسباب لا يحتاج إليه الرب عز وعلا وإنما يحتاج إليه المخلوق إذا أحاط به الأعداء من كل جانب وأحدقت به المكائد والمؤامرات والخيانات وطوقته المخاطر والأهوال تطويقا، لا جرم إذ ذاك أن يجد المرء في نفسه موجدة من الكرب والاضطراب والذعر - وأصل ذلك أن الإنسان خلق ضعيفا، فهو لضعفه دائم الحاجة المدد من الله يفيض عليه بالعون النفسي والمادي - من أجل ذلك أنزل الله ملائكته ليبادروا القتال مع المسلمين أو ليزيدوا من سوادهم فيثيروا في نفوسهم الأمن والرضى والبشرى فتزداد فيهم رباطة الجأش والقدرة على الثبات والاصطبار.

قوله: (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) الهمزة للاستفهام الإنكاري، وذلك إنكار من الله أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وقد جيء بلن لتأكيد النفي؛ وذلك للإشعار بأن المسلمين كانوا لقتلهم وضعفهم وكثرة عدوهم وقوة شوكته كالمستيئسين من النصر - وقوله: (منزلين) أي منزلين النصر - والنصر هنا مفعول به لاسم الفاعل منزلين.

١٢٥ - (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

قوله: (بلى) إيجاب لما بعد (لن) - يعني بل يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية - ثم قال: (إن تصبروا وتتقوا) يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسومين للقتال.

قوله: (ويأتونكم من فورهم هذا) يعني والمشركون يأتونكم من فورهم هذا أي من ساعتهم هذه وعندئذ (يمددكم) ربكم بالملائكة في حال إتيان المشركين وإمداده سيكون بأكثر من الثلاثة آلاف بل هو خمسة آلاف.

وقوله: (مسوّمين) صفة للملائكة، أي معلمين أنفسهم وخيلهم بعلامات هي موضع خلاف من حيث نوعها ولونها.

١٢٦ - (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

قوله: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) الضمير في (جعله) يعود على الإمداد بالملائكة - والبشرى، والبشارة تعني الخبر السار، أي أن الله أنزل الملائكة إمدادا لكم ليكون ذلك بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وتقوية لهممكم وتثبيتا بما يزداد به رجاؤكم بالنصر والطمع في رحمة الله.

قوله: (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ذلك قرار رباني ثابت لا يتخلف بعد ما ذكر من أن تقدير المدد من الله للمسلمين كان تطمينا لقلوبهم بما ينسجم مع طبيعة الإنسان المفطور على الضعف - وذلك هو شأن الإنسان ودأبه في رجاء العون والمدد المشهور تثبيتا لقلبه وأعصابه فلا تهون أو تتزعزع.

وبالرغم من ذلك كله فإن الحقيقة الماثلة الكبرى في هذا الصدد، والقيمنة بالاعتبار والوعي والتي ينبغي أن تظل راسخة في الأذهان

والقلوب هي أن النصر إنما يكتبه الله لمن يشاء من عباده - فهو سبحانه الناصر القاهر، وهو المعز المذل وهو الذي لا سند عن ملكوته وإحاطته وعلمه شيء - لا جرم أن الله ينصر جنده المؤمنين الأبرار إذا ما اتقوه وأطاعوه ثم توكلوا عليه حق التوكل مع ما يرافق ذلك كله من اتخاذ الأسباب المستطاعة - فإذا ما استتم الحال بالمسلمين على هذا المنوال من التقى والطاعة وتمام التوكل وحسن الإعداد فإنه الله ناصرهم - فهو جل وعلا مصدر النصر وهو الذي يقهر المشركين والمجرمين والظالمين مهما أخذ بهم الاغترار بقوة السلاح وكثرة الحشود من العساكر - وذلك مقتضى قوله س [حانه: (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أي أن النصر إنما يصدر من الله وحده وهو سبحانه العزيز الذي لا يقهر ولا يغالب، وهو الحكيم الذي ينصر ويخذل بمقتضى حكمه وعلمه.

١٢٧ - (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

قوله: (ليقطع طرفا من الذين كفروا) المراد بالطرف هنا هو الطائفة من القوم - وقطع الطرف يراد به قتلهم، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم.

قوله: (أو يكبتهم) الكبت في اللغة معناه الإذلال والإهانة والإخزاء والصرف والغيظ، يكتبه أي صرعه على وجهه ٢١٢ - والمراد إذلالهم وإغاظتهم بالهزيمة ليرجعوا وهم يكابدون الخيبة وهي الحرمان - خاب خيبة إذا لم ينل ما طلب وذلك بعد طول الأمل والتوقع؛ لذلك قال: (فينقلبوا خائبين).

١٢٨ - (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

قوله: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) روي عن أنس بن مالك في سبب نزول هذه الآية قال: كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد ودكي وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ويقول: " كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم " فأنزل الله الآية.

وروي أيضا عن سالم عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: " اللهم العن فلانا وفلانا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، الله العن صفوان بن أمية " فنزلت هذه الآية (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) فتيب عليهم كلهم ٢١٣.

قوله: (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) كلا الفعلين يتوب ويعذب منصوب لكون كل واحد معطوفا على (ليقطع) والتقدير: ليقطع طرفا منهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم - وقيل: (أو) هنا بمعنى حتى، فيكون المعنى: حتى يتوب عليهم وحتى يعذبهم - فالفعل منصوب بأن المضمرة بكعد حتى.

وقيل: (أو) بمعنى إلا أن - فتقدير المعنى: إلا أن يتوب عليهم وإلا أن يعذبهم ٢١٤ ومعنى الآية أنه يخاطب نبيه صلى الله عليه و سلم مبينا له أنه عبد مأمور ينر الناس ويبلغهم دعوة الحق وليس له بعد ذلك من مصير الناس أو مردهم شيء، بل إن ذلك كله لله، فهو سبحانه مالك أمر الناس جميعا، يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك أو الهزيمة أو التوبة إن أسلموا أو أن يعذبهم، فإن عذبهم فإنما يعذبهم؛ لأنهم ظالمون يستحقون التعذيب.

ومما يستقاد في هذا الصدد أن الله نهى نبيه صلى الله عليه و سلم عن لعن القوم أو الدعاء عليهم بالهلاك إشفاء لغليل أو إذهابا لغيظ تراكم من فرط ما فعله المشركون من فضائع الكيد والعدوان على الإسلام والمسلمين، لكن القلب المؤمن الكبير المتميز الموصول بالله والذي لا يضاهيه قلب في القلوب جميعا، ما كان ينبغي أن يكون كبقية القلوب لدى الأناسي في ذلك الزمان ولا في غيره من الأزمان - ولكن هذا القلب الذي يفيض بالإيمان وبالغ التقوى لا جرم أن يكون قمينا بالتسامي في الدرجات المعالي من التسامح والرحمة والبر بالخليقة - فهو أجدر أن يستنكف عن لعن القوم أو الدعاء عليهم بالاستئصال والإبادة - ولئن احتمل وغفر وصابر وعفا لسوف يجد في مقبل الأيام أن هؤلاء الأشرار الظلمة قد انقلبوا مؤمنين خيارا بعد أن فاءا إلى الصواب والرشد فباتوا من أشد الغيورين على دعوة الله.

١٢٩ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: (ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء).
والمقصود من هذه الآية التأكيد على ما ذكر مما اقتضاه قوله سبحانه: (ليس لك من الآمر شيء أو يتوب عليهم) فالأمر في ذلك كله لله، سواء في ذلك التوبة والغفران أو الحساب أو العقاب أو المخلوقات والكائنات والأشياء جميعا - وإنما ذلك من عداد الملكوت الكبير مما هو منوط بإرادة الله ومشيئته - على أن رحمة الله بالعباد بالغة السعة - لا جرم أن رحمة الله تفيض على الحياة والكائنات جميعا بما ينعكس على الوجود كله بالخير والبركة والنور المشعش، ومن جملة ذلك أن الله جل جلاله غفار للخطايا والذنوب والآثام مهما كثرت أو تراكمت - فقال سبحانه في الآية: (والله غفور رحيم).
١٣٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) ينهى الله في هذه الآية عن تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة - وذلك هو شأن الناس في الجاهلية كانوا يقولون لدى التداين وقد حل أجل الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاد الآخر في مقدار الدين - وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا.
قال الرازي في هذا الصدد: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال: زد في المال حتى أزيد في الأجل - فربما جعله مائتين ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافا فهذا هو المراد من قوله: (أضعافا مضاعفة) - و (أضعافا) منصوب على الحال - و (مضاعفة) نعته.
قوله: (واتقوا الله لعلكم تفلحون) يأمر الله المؤمنين أن يخافوه فيجتنبوا أكل الربا - فإنما يجتنب أكل الربا من دخل في زمرة الفالحين وهم الفائزون الناجون.
١٣١ - (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)
قوله تعالى: (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) ذلك وعيد مخوف لمن استحل الربا، فمن استحل الربا فقد كفر، وإذا لم يستحله لكنه سادر في أكله وتعاطيه فإنه في زمرة العصاة الفاسقين - ولا ريب أنه سيلقى جزاءه في النار ليعذب فيها تعذيبا إلا أن يبوء إلى الله بالتوبة والامتناع عن الربا.
على أن الربا واحد من أكبر الكبائر وهو لفظاعته وبشاعته قد خُص من بين سائر المعاصي بشديد الإنكار والتغليظ - فهو الذين أذن الله فيه بالحرب في قوله: (فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله).
وفي التشديد على بشاعة الربا ونكره روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه " ٢١٥.
وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: " لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه " - وقال: " هم سواء " ٢١٦.
١٣٢ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)
قوله تعالى: (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبكم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العالمين).
طاعة الله بالامتثال لفرائضه - وطاعة الرسول بالاستجابة لما جاء في السنن - وذلك مقتضى قوله: (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) وذلك وعد من الله لعباده بأن رحمته تغشاهم إذا ما أطاعوه وأطاعوا رسوله.
١٣٣ - (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

وقوله: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) سارعوا أي بادروا، والمسارعة بمعنى المبادرة - وفي الآية حذف - تقدير الكلام: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة - وقيل: أداء الفرائض - وقيل: المراد الإخلاص - وقيل: التوبة من الربا - وقيل غير ذلك - والصواب أن هذه الآية تعم الجميع.

قوله: (وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين) ندب الله عباده إلى المسارعة في فعل الخيرات وتقديم الطاعات لتحصيل المغفرة من الله وللفوز بالجنة الواسعة المديدة، الجنة الوارفة الدائمة بكل ما فيها من آلاء وخيرات ومباهج، وبكل ما يتمناه المرء من نعيم وبهجة واستمتاع مما ليس له في تصور الإنسان نظير ولا نديد، لا جرم أن الجنة التي وعد الله عباده المتقين لا يدركه بال قاصر ولا يتصوره ذهن محدود من أذهان البشر، فهي من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، ومن روائه ما قدره في الوجود تقديرا.

ولا يكشف للحس البشري أو تصوره عن روعة الجنة ومبلغها من الجمال والكمال غير آيات الكتاب الحكيم في ألفاظه الباهرة الفذة من مثل قوله سبحانه: (وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين).

ومع ذلك كل هذا المدى من روعة الكلم الذي حواه القرآن عن وصف الجنة بأسلوبه الخارق الساحر، لا تتردد بعض العقول القميئة في إفراز ما يندلق من سخائم النقد المتهافت مما يدينها بالإفلاس وعقم التفكير - ومن جملة ذلك قول بعضهم: إذا كانت الجنة عرضها مثل عرض السماوات والأرض فأين النار؟

فقد روى الإمام أحمد في مسنده أن هرقل كتب إلى النبي صلى الله عليه و سلم: " إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟

وذكر أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم إذا جاء النهار أين الليل، وإذا جاء الليل أين النهار؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة.

وروي عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت: أرأيت قوله تعالى: (جنة عرضها السماوات والأرض) فأين النار؟ قال: " أرأيت الليل إذا جاء ليس كل شيء فأين النهار " قال: حيث شاء الله - قال: " وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل " ٢١٧ قال ابن كثير في تبيين ذلك: وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزمه من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه - وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى معليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله عز وجل: (كعرض السماوات والأرض) والنار في أسفل سافلين - فلا تنتفي بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار والله أعلم ٢١٨.

قال الإمام الرازي في بيان ذلك: والمعنى والله أعلم أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم، والليل في ضد ذلك الجانب - فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل ٢١٩.

وينبغي التذكير بحقيقة معقولة وهي أن رحابة الوجود أو اتساعه لا يتحدد مداه بسعة السموات والأرض، فإن ما خلقه الله من وجود هائل ممتد لهو أكبر من حجم السماوات والأرض - وليس حجمهما إلا الجزء اليسير من حجم الوجود الكبير الذي تنطوي في خلاله الأشياء والخلائق جميعا ومنها السماوات والأرض.

١٣٤ - (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) هذه صفات للمتقين في قوله: (أعدت للمتقين) وتلكم هي الصفات.

الصفة الأولى: الإنفاق في السراء والضراء، أي في اليسر والعسر - وقيل: الرخاء والشدة، وقيل: الصحة والسقم - والظاهر ما جملته

الغنى والفقر - فهم ينفقون من أموالهم في كل حال من أحوال الغنى والفقر أو الشدة والسعة.
الصفة الثانية: كظم الغيظ، أي رده في الجوف - يقال: كظم غيظه إذا اجترعه أو سكت عليه ولم يظهره لا بقول ولا بفعل ٢٢٠ والغيظ هو أصل الغضب - وكاظم الغيظ الذي إذا ثار به الغضب كتمه ولم يعمل به - وذلك من أقسام الصبر والحلم وترفع النفس عن الانزلاق إلى مساءات الغضب.
وفي إطراء الكاظمين الغيظ وامتداحهم روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ".
وروى الإمام أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " ما تعدون الصّرعة فيكم " قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: " لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب ".
وروى الإمام كذلك عن رجل شهد النبي صلى الله عليه و سلم يخطب فقال: " أتدرون من الصعلوك؟ " قالوا: الذي ليس له مال - فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " الصعلوك كل الصعلوك الذي له مال فمات ولم يقدم شيئا " ثم قال: " ما الصُّرعة؟ " قالوا: الصريع الذي لا تصرعه الرجال فقال صلى الله عليه و سلم: " الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه ".
الصفة الثالثة: العفو عن الناس - والعفو معناه المحو والصفح وترك العقوبة ٢٢١ وذلك مقتضى قوله: (والعافين عن الناس) والمراد بالناس العموم في ظاهر الآية سواء فيهم الضعفاء والأقوياء، الأغنياء والفقراء - والمطلوب الصفح عن كل أحد في كل المساءات والمظالم مادام العافي مقتدرا على الانتصار لنفسه وأخذ حقه من المسيء - والأصل في ذلك أن العفو في ذاته شيمة رفيعة من شيم الأبرار المتقين.
وهو درجة مثلى من مقامات الإحسان الذي يستحق الإطراء والثناء؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: (والله يحب المحسنين).
١٣٥ - (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
قوله: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) روي عن ابن عباس في سبب نزولها أن نبهان التمار أتته امرأة حسناء باع منها تمرا فضمها إلى نفسها وقبلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبي صلى الله عليه و سلم وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية ٢٢٢.
وهؤلاء صنف دون الصنف الأول ألحقوا بهم وهم التوابون، والفاحشة وصف لموصوف محذوف، وتقدير ذلك: فعله فاحشة، وهي تطلق على كل معصية - وقد كثر اختصاصها بالزنا.
قوله: (أو ظلموا أنفسهم) أي أذنبوا أي ذنب كان - وقيل: ظلم النفس فعل الصغيرة بخلاف الفاحشة فهي الكبيرة - وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما.
قوله: (اذكروا الله) وذلك بمختلف وجوه الذكرى - ومن جملة ذلك الحياء من الله والخوف منه، ومنه أن يتفكر المذنب في نفسه ما الله سائله عن ذنبه يوم العرض ويوم الحساب، ومنه تصور المذنب أن الله ناظره ورقيبه فيما فعل.
قوله: (فاستغفروا لذنوبهم) أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار والندامة، ومن أعظم صور الاستغفار الذي تمحي به الذنوب والخطايا مهما كثرت ما رواه البخاري عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " ٢٢٣.
قوله: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) هذه جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه - فالمعطوف (ولم يصروا) والمعطوف عليه (فاستغفروا لذنوبهم).
والاستفهام هنا للنفي، والمراد أنه لا أحد يغفر الذنوب سوى الله، فهو سبحانه بواسع رحمته وفضله يغفر الذنوب جميعا.

قوله: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه - واختلفوا في تأويله هنا - فقيل: يراد به الثبوت على المعاصي وقيل: السكوت على الذنب وترك الاستغفار، وقيل: الإصرار أن ينوي أن لا يتوب فإذا تاب التوبة النصوح خرج عن الإصرار - وفي الخبر " لا توبة مع إصرار ".

وفي جملة المقصود من الإصرار على الفعل يقول ابن كثير رحمه الله في تأويل قوله: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها - ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه - وأورد في ذلك عن أبي يعلى في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة " ٢٢٤.

وقوله: (وهم يعلمون) في محل نصب على الحال من فعل الإصرار، والمعنى: أنهم ليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها وبالوعيد عليها ٢٢٥.

١٣٦ - (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

قوله: (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) الإشارة عائدة إلى المتقين الذين سبق وصفهم بما وصفهم به.

فهؤلاء (جزاؤهم) أي ثوابهم الذي أعطاهم الله إياه يتجلى في أمرين: أحدهما الأمن من العقاب - وذلك في غفران الله وعفوه عن نوبهم.

ثانيهما: إيصال الثواب - وذلك فيما أعده الله لهؤلاء من جنات - وهي البساتين تجري خلال أشجارها الأنهار - إلى غير ذلك من وجوه الخيرات والثمرات واللذات فضلا عن رضوان الله يغشى أهل الجنة ليذيقهم به كمال البهجة والحبور.

ويكتمل هذا النعيم الرخي الوارف بخير ما تكتمل به النعائم واللذات وذلك بديمومة الحال وبقائه - وذلكم الخلود الذي قال الله فيه: (خالدين فيها ونعم أجر العالمين).

١٣٧ - (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

قوله تعالى: (قد خلت من قبلكم سنن فسيرا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) هذه تسلية من الله للمؤمنين بعد أن أصابهم القرح يوم أحد إذا انتابهم من الهم والحزن ما أصابهم فقتل منهم سبعون، من بينهم والحزن يبين الله للمؤمنين أنه فيمن كان قبلكم من الأمم كعاد وثمود وقوم هود ولوط وغيرهم من السابقين الذين كانوا عتاة ظالمين، فقد مضت فيهم سنن، أي ما سنه الله فيهم من المثلات ٢٢٦ والدوائر - ثم كانت العاقبة لأنبياء الله ومن معهم من المؤمنين الصابرين، ولهذا قال سبحانه: (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وذلك لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم - وليس المراد الأمر بنفس المسير، بل المقصود تعرف أحوالهم فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض فقد حصل المقصود.

١٣٨ - (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

قوله: (هذا بيان للناس) هذا إشارة إلى القرآن قد جعله الله بيانا للناس كافة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة - وهو قول الحسن وآخرين - وقيل: هذا إشارة إلى ما تقدم من الأمر والنهي والوعد والوعيد وما ذكره من سنن السابقين، وهو ما اختاره الإمام الطبري رحمه الله إذ قال: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هذا إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله جل ثناؤه المؤمنين وتعريفهم حدوده وحضهم على لزوم طاعته والصبر على جهاد أعدائه وأعدائهم ٢٢٧.

أما البيان فمعناه الشرح والتفسير أو ما يدل على إزالة الشبهة - والهدى معناه الدلالة على سبيل الحق ومنهج الله - والموعظة هي التذكير بالصواب والرشاد وذلك عن طريق الكلام الذي يفيد الزجر عما هو محظور.

١٣٩ - (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين

الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون).
قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد - فبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بين الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل - فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا حول ولا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس بعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر " فأنزل الله تعالى هذه الآيات - وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم - فذلك قوله: (وأنتم الأعلون).
وقوله: (إن يمسسكم قرح) جاء في سبب نزولها أنه لما انصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم كئيبا حزينا يوم أحد، جعلت المرأة تجيء بزوجها وابنها مقتولين وهي تلدم ٢٢٨ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " أهكذا يفعل برسولك؟ " فأنزل الله: (إن يمسسكم قرح).
وقوله: (وما محمد إلا رسول) جاء في سبب نزولها أنه لما كان يوم أحد انهزم الناس، فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هو إخوانكم - وقال بعضهم: إن كان محمد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليكم نبيكم حتى تلحقوا به فأنزل الله تعالى في ذلك (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) ٢٢٩.
بعد ذلك نقول: إن الله تعالى يعزي المؤمنين ويسرّي عنهم بما يكفكف عنهم نائبة الحزن والاغتمام فيقول: (ولا تهنوا ولا تحزنوا) أي لا تضعفوا ولا يمسنكم الخور أو العجز والفشل، ولا يقعدنكم الحزن عن جهاد أعدائكم (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وهذه بشارة لهم بالعلو والغلبة - أي وأنتم الأعلون في العاقبة أي الغالبون، (إن كنتم مؤمنين): أي إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.
١٤٠ - (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)
قوله: (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) القرح معناه الجراح، قرحة: جرحه فهو قريح وهم قرحى ٢٣٠ ومعنى الآية: أنهم إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، إذ قاتلوكم هنا في أحد، فأنتم أولى أن لا تضعفوا - وذلك كقوله: (فإنهم يألمون كما تألمون) وعلى هذا إن أصابكم منهم قتل وجراح فقد أصابهم مثل ما أصابكم من القتل والجراح.
قوله: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) (تلك) في محل رفع مبتدأ - (الأيام) صفته - (نداولها) جملة فعلية في محل رفع خبر المبتدأ - ويجوز أن تكون تلك مبتدأ، والأيام خبرا.
والمراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة - (نداولها): من المداولة، وهي نقل الشيء من واحد إلى آخر - يقال: تداولته الأيدي إذا تناقلته - ومنه قوله تعالى: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي تتداولونها ولا تجعلون للفقراء منها نصيبا - ويقال: الدنيا دول، تنتقل من قوم إلى آخرين ثم عنهم إلى غيرهم - ويقال: دال له الدهر بكذا إذا انتقل إليه - والمعنى أن أيام الدنيا دول بين الناس لا يدوم مسارها ولا مضارها، فيوم يحصل فيه السرور له والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس من ذلك ٢٣١.
والمقصود بالآية: أننا نصرف الأيام بين الناس، نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء - ومن أمثال العرب في هذا الصدد: الحرب سجال - وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم وهذا أبو بكر وها أنا عمر - فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال ٢٣٢.
إن ما حصل للمسلمين في أحد جدير بالتدبر الوقوف مليا كيما يستفيد المسلمون كثيرا من العبر والدروس بما يقيم لهم معالم تنير لهم الطريق، وتكشف عن كثير من مواطن الضعف التي تتعثر بها إرادات الناس وهممهم في ساعات الهول والشدة - لا جرم أن انهزام المسلمين في أحد وما آل إليه ذلك من قروح أو أحزان ما فتئت الأقلام ترويه وتتحدث عنه كلما قرعت أسماعنا الذكرى وذلك لفداحة

الصورة ومرارة القرح، لكن ذلك كله قد تمخض عن دروس وعبر كانت في أهميتها وعظيم اعتبارها فوق ما خلفته هذه الحرب من خسارة مشهودة في الأرواح واضطرب العزائم، وما حصل للمسلمين في ذلك اليوم أجدر أن ينشر في نفوسهم الثقة واليقين بقدر الله الذي لا يتخلف والذي لا يصدر عن عشوائية بل عن حكمة بالغة قد نعلمها وقد لا نعلمها إلا بعد طول تبصر وإدكار.

لقد تناولت الآيات هنا جملة من المعاني والحكم المقدورة في علم الله والتي تكمن فيما أصاب المسلمين في أحد مما نعرض لذكره هنا في هذا التفصيل وذلك في الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: تمييز الثابتين على الحق، وذلك مستفاد من قوله تعالى: (وليعلم الله الذين آمنوا) وهو معطوف على علة محذوفة، وتقدير الكلام هنا: وتلك الأيام نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت، وليعلم الله الذين آمنوا، وإنما حذف المعطوف عليه للإيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة لسليهم عما جرى، وليعفرهم أن ما حصل لهم في هذه الواقعة فيه من المصالح ما لو عرفوه لسرهم.

لكن الإشكال في ظاهر قوله: (وليعلم) وظاهر ذلك يشي باكتساب العلم في حقه سبحانه - ومثل هذا الفهم باطل، والصحيح ما قاله المتكلمون في هذا الصدد، وهو أن الدلائل العقلية دلت على أنه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها فثبت أن التغيير في العلم محال، إلا أن إطلاق لفظ العلم على المعلوم، والقدرة على المقدور مجاز مشهور - يقال: هذا علم فلان والمراد معلومه - وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره، فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد تجدد المعلوم - إذا عرفت هذا فنقول: في هذه الآية وجوه:

أحدها: ليظهر الإخلاص من النفاق، والمؤمن من الكافر، والثاني: ليعلم أولياء الله، فأضاف إلى نفسه تفخيما ٢٣٣.

الحقيقة الثانية: اتخاذ الشهداء - وهو مقتضى قوله تعالى: (ويتخذ منكم شهداء) أي يكرمكم بالشهادة، وهذه درجة عالية وكريمة وبالغة في الرفعة والسمو يكتبها الله لفريق من الأبرار المجاهدين الذين يقتلون بسلاح العدو في معركة النضال والشرف وهم يذودون عن دين الله ويدرأون عن الإسلام والمسلمين كيد الأشرار والأعادي - أولئك هم الأعلون الذين بوأهم الله ذروة التكريم في الجنة.

والشهداء، جمع ومفرده شهيد - وهو القتيل في سبيل الله - وفي تعليل هذه الاسم عدة وجوه: منها: أن ملائكة الرحمة تشهد مقتله.

ومنها: أن الله وملائكته يشهدون له بالجنة.

ومنها: أنه يوم القيامة يشهد على الأمم السابقة مع النبيين والصديقين.

ومنها: سقوطه على الشاهدة وهي الأرض وذلك عقيب إصابته بما يقتل.

ومنها: سمي شهيدا بمعنى حاضر فهو حي عند ربه لم يمت، وبذلك فإن أرواح الشهداء حية وقد حضرت دار السلام أما رواح غيرهم فلا تشهدها ٢٣٤.

ثم قال بعد ذلك: (والله لا يحب الظالمين) أي المشركين، وهذه الجملة اعتراض بين بعض التعليل وبعض - وتأويل ذلك أن الله لا يحب المشركين - وهم إن أنالهم الله من المؤمنين فإن ذلك لما فيه من حكم وفوائد - وإنما يحب الله عباده المؤمنين.

١٤١ - (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

الحقيقة الثالثة: تمحيص المؤمنين - وذلك في قوله: (وليمحص الله الذين آمنوا) والتمحيص معناه الاختبار والابتلاء - وقيل: التطهير والتصفية - فيكون المعنى، أن الله قد ابتلى المؤمنين بما حصل لهم لكي يطهرهم من ذنوبهم فيخرجوا بعد الابتلاء مطهرين أنقياء من الذنوب.

الحقيقة الرابعة: محق الكافرين - يعني استئصالهم بالهلاك - وهو مقتضى قوله تعالى: (ويمحق الكافرين) من المحق والتمحيق وهو في اللغة الإبطال والمحو ٢٣٥ وتأويل قوله: (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) أن الله تعالى جعل الأيام مداولة بين المسلمين والكافرين، فإن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين، وإن كانت الغلبة للمؤمنين على هؤلاء الكافرين كان المراد محق آثار الكافرين ومحوهم - فقابل تمحيص المؤمنين بمحق الكافرين؛ لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم - وهذا من قول الزجاج ٢٣٦.

١٤٢ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

قوله: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين).

(أم حسبتم)، كلام مستأنف - وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها للإنكار، أي بل حسبتم - وجملة (ولما يعلم) في محل نصب على الحال - ولما بمعنى لطم إلا أن فيها ضربا من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل - ويعلم مجزوم بلما وكسرت فيها الميم لالتقاء الساكنين (ويعلم الصابرين) يعلم منصوب بإضمار أن - وقيل: الواو بمعنى حي، أي حتى يعلم الصابرين ٢٣٧.

والمعنى المراد من الآية: أتحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة منكم وصبر - فإنه من البعيد أن تصلوا إلى السعادة والفوز برضى الله والجنة من غير مجاهدة وتضحية وصبر.

١٤٣ - (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

وقوله: (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون).

ذلك ضرب من العتاب الرقيق يخاطب به الله المؤمنين أولي أحد - أولئك الذين حملوا النبي صلى الله عليه و سلم على القتال وألحوا عليه بالخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة - وقد كانوا يتسوقون لملاقاتهم في وقعة ثانية كوقعة بدر، خصوصا أولئك الذين فاتهم شرف الجهاد في بدر - لقد تمنى هؤلاء القتال والشهادة في سبيل الله من قبل، فلما كان يوم أحد انهزموا ولم يثبت منهم إلا نفر قليل من الخيار الأشاوش من الصحابة مثل أنس بن النضر عم أنس بن مالك، فإنه لما انكشف المسلمون قال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - وباشر القتال وقال: إيْهاً إنها ريح الجنة! إني لأجدها - ومضى حتى استشهد - قال أنس: فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بضعا وثمانين جراحة - وفيه في أمثاله نزل قوله تعالى: (رجال صدقوا ما عهدوا الله عليه).

قوله: (وأنتم تنظرون) الواو واو الحال، والجملة بعدها في محل نصب حال لرؤية القتال، أي رأيتم القتال أو ما هو سبب للموت (وأنتم تنظرون) تكرير بمعنى التأكيد.

١٤٤ - (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين).

قال ابن عباس وآخرون في سبب نزول هذه الآية: لما نزل النبي صلى الله عليه و سلم بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل، وأن لا ينتقلوا عن سواء كان الأمر لهم أو عليهم.

فلما وقفوا وحملوا على الكفار وهزموهم وقتل علي طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم، وشد الزبير والمقداد على المشركين، وحمل النبي ومعه الصحابة فهزموا أبا سفيان - ولما رأى بعض المسلمين انهزام الكفار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة، وكان خالد بن الوليد صاحب ميمنة الكفار، فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرق جمعهم وكثر القتل في المسلمين، ورمى عبد الله بن قميئة فظن أنه قتل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: قد قتلت محمدا - وصرخ صارخ: ألا إن محمدا قد قتل، وكان الصارخ هو الشيطان - ففشا في الناس خبر القتل، وحينئذ تعثر المسلمون واضطرب حالهم، فقال بعضهم: ليت عبد الله بن أبي بن سلول يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان - وقال قوم من المنافقين: لو كان نبيا لما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم - فقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه - ومر بعض المهاجرين بأنصاري يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل؟ فقال: إن كان قد قتل فقد بلّغ، قاتلوا على دينكم - ولما شج ابن قميئة وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم وكسر رباعيته، احتمله طلحة بن عبيد الله ودافع عنه أبو بكر وعلي رضي الله عنهم ونفر آخرون معهم ٢٣٨.

قوله: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية - (ما) نافية - (محمد) مبتدأ، (رسول) خبره - يبين الله في ذلك أن الرسل جميعا ليسوا باقين ولا مخلدين على وجه هذه الأرض، بل إنهم سيرحلون عن هذه الدنيا ليمضوا إلى رحاب الله - وتلك سنة الله في العباد ومنهم رسل الله، ومحمد صلى الله عليه و سلم أحد الرسل الذين خلوا (مضوا) وسيخلوا هو مثلما خلوا - وإن كان المرسلون السابقون قد خلوا فإن أتباعهم لم يستنكفوا عن الحق بل ظلوا مستمسكين بدين الله - فعليكم أن تمسكوا بدين نبيكم بعد خلوه؛ لأن الغرض من بعثه الرسل هو تبليغ الرسالة وإلزام الحجة وليس الغرض وجودهم بين قومهم أبدا.

قوله: (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للسببية - والمعنى: أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمدا أو قتل؟ وانقلابهم على أعقابهم يراد به رجوعهم القهقرى - أو إدبارهم عما كان عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم من أمر الجهاد وغيره من الدعوة إلى الله - وقيل: معناه الارتداد أي صيرورتهم كفارا بعد أن كانوا مؤمنين - والأعقاب مفرده العقب وهو مؤخر القدم - والمراد بالانقلاب على الأعقاب: الانهزام والتراجع - ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عقبيه.

قوله: (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) ذلك وعيد من الله للمنقلبين على أعقابهم المدبرين عن القتال أو المرتدين عن الإسلام، فإن هؤلاء لأن يضروا الله شيئا؛ العالمين بل هؤلاء لا يضرون إلا أنفسهم إذ يوردون أنفسهم موارد العقاب والخسران.

قوله: (وسيجزي الله الشاكرين) وهم الذين صبروا وقاتلوا ولم ينقلبوا على أعقابهم، فهم بذلك شاكرون؛ لأنهم شكروا الله على إسلامهم وعلى ثباتهم على الإيمان وشدة تمسكهم به - وهم من أمثال أبي بكر وأنس بن النضر وعمر وعلي رضي الله عنهم جميعا.

١٤٥ - (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

قوله تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين).

ذلك تحريض من الله للمسلمين على الجهاد في سبيله من غير أن يصدهم عن ذلك خور أو مخافة موت، فإنه ما من إنسان إلا سيموت لا محالة - ولا يأتيه الموت أو القتل إلا إذا حضر الأجل - وهذه حقيقة مسطورة في علم الله ومقدوره لا تحتمل الشك أو الجدل - ويقرر ذلك ويؤكده قوله تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا) (كتابا) مفعول مطلق منصوب - أي كتب الله كتابا مؤجلا - ومؤجلا صفته، والمؤجل معناه المؤقت الذي له أجل معلوم فلا يتقدم على أجله ولا يتأخر - كقوله تعالى: (وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقوله: (لكل أجل كتاب) وذلك تأكيد من الله على أن الحياة أو الموت بتقدير من الله - وإذا لم يحن أجل المرء وكان له من العمر جزء أو بقية فهو لا محالة مستوف ما بقي له من الحظ في هذه الحياة ولو اجتمعت من حوله كل أسباب المنايا ومكائد الإنس والجن - فلا الشجاعة والإقدام في ساحة القتال حتى ما يكون بين المرء وعدوه قيد شبر- ولا غير ذلك من ظواهر الجراءة والجسارة، مدعاة لوقوع الأجل إلا أن يشاء الله - وإذا أيقن المسلم أن كل شيء بقدر وأن الأعمار والآجال مرهونة بقدرة الله وإنه فلا يعبأ بعد ذلك من مواجهة الأهوال والنزول إلى الغمرات والأهوال جهادا في سبيل الله وطلبا لمرضاته سبحانه.

قوله: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها).

نزلت في الذين انكفأوا عن أماكنهم في أحد طلبا للغنيمة - وهي مع ذلك عامة في كل من أراد الدنيا دون الآخرة، فمن ابتغى من مساعيه وجهوده الدنيا حيث المال والجاه وغيرهما من ضروب الشهوات، فإنه يؤتى من ذلك ما قدره له الله، لكنه ليس له في الآخرة من نصيب، أما من ابتغى بذلك الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما يجري عليه من رزقه في دنياه.

وقوله: (وسنجزي الشاكرين) وهم الذين امتثلوا أمر الله بالقتال فلم يفروا ولم يزعزعهم إرجاف أو وجل، فأولئك سيعطيهم الله من فضله ورحمته ثوابه الأبدي في الآخرة - ولا يحرمهم من عطاء الدنيا إن شاء، كيلا يظن أحد أن المؤمنين محرومون من خير الدنيا ورزقها.

١٤٦ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

قوله تعالى: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) ذلك تحضيض للمؤمنين على القتال من غير تردد ولا تعثر ومن غير التفات لإرجاف المرجفين - وهو كذلك أمر لهم بالاقتداء بخيار أتباع النبيين السابقين - فقد قاتل أو قتل مع النبيين السابقين كثير من الربيين فما ضعفوا ولا انثنوا عن الجهاد ومقارعة الظالمين.

قوله: (وكأين) بمعنى كم - وأصل الكلمة أي، دخلت عليها كاف التشبيه وتبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى كم، وصورت في المصحف نونا؛ لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغيير معناها ثم كثر استعمالها فتصرفت فيها العرب بالقلب والحذف فصار فيها أربع لغات منها قوله: (وكأين) بالتشديد - والمعنى كثير من الأنبياء قاتل معه العدد الكثير من أصحابه وهم الربيون، فأصابهم من عدوهم قرح فما وهنوا؛ لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة رسوله - فكذلك ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد - وهذا المعنى مبني على قراءة " قاتل " - وثمة قراءة أخرى وهي: قتل معه ربيون كثير ٢٣٩ والأولى الراجحة في نظري لاتساق المعنى المقصود - وهو تشجيع المسلمين على القتال وعدم الفرار أو قبول الإرجاف - فإن كثيرا ممن سبقكم من النبيين قاتل معهم جموع كثيرة من أتباعهم فما وهنوا.

قوله: (ربيون كثير) الربيون الجماعات الكثيرة، وهم ألوف من الناس - والمفرد: ربّي – بكسر الراء وتشديد الباء- وأصله من الربة وهي الجماعة كأنه نسب إلى الربة ٢٤٠ - قال ابن عباس وآخرون: الربيون، الجموع الكثيرة.

قوله: (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) (وهنوا) من الوهن وهو الضعف، أو هو انكسار الجد بالخوف - (وما استكانوا) من الاستكانة وهي الذلة والتخشع والخضوع - فيكون المعنى أن هؤلاء الربيين ما ضعفوا عن عدوهم ولا عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله ولا ذلوا أو تخشعوا لعدوهم بمداهنة عدوهم خيفة منهم ولكنهم مضوا قدما على دينهم الحق وعلى منهاج نبيهم صابرين على ما أصابهم في سبيل الله.

قوله: (والله يحب الصابرين) أي الصابرين على الجهاد وملاقاة العدو وما يقتضيه ذلك من خوف وآلام وجراح وإزهاق لمهج.

١٤٧ - (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قوله: (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (قولهم) خبر كان منصوب - واسمها (إلا أن قالوا) - أي المصدر من أن والفعل.

والمراد بقوله: (وما كان قولهم) يعني ما كان قول الربيين وهم الجموع الكثيرة الذين ناصروا النبيين السابقين بعد أن أصابتهم محن القتل والجراح والآلام إلى أن لجأوا إلى الله بالدعاء وهو (ربنا اغفر لنا ذنوبنا) فدخل فيه كل الذنوب، سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر، ثم إنهم خصوا الذنوب العظيمة الكبيرة منها بالذكر وذلك لفظاعتها وعظم عقابها وهو المراد من قوله: (وإسرافنا في أمرنا) والإسراف في الشيء والإفراط فيه، وما فيه مجاوزة الحد - والمراد بذلك ههنا: الكبائر.

قوله: (وثبت أقدامنا) أي اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم ولا تجعلنا ممن يفر أو ينهزم أو يستكين.

وذلك ترشيد من الله لأمة محمد صلى الله عليه و سلم يدعوهم فيه للثبات على الحق ومحذرا إياهم من التردي والانتكاس والركون للوهن والذلة، أسوة بالربيين السابقين ويحضهم بعد ذلك للاستعانة بالله واستدامة الدعاء والرجاء بالمغفرة وتثبيت الأقدام في الحرب والنصرة على الكافرين.

١٤٨ - (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) أي أعطاهم ثواب الدنيا يعني النصر والظفر والغلبة على العدو - وآتاهم أيضا

حسن ثواب الآخرة - أي ثواب الآخرة الحسن - وهو الجنة.
قوله: (والله يحب المحسنين) المراد بالمحسنين ههنا أولئك الربيون الذين بينا صفاتهم من المجاهدة والثبات والصبر واشتداد البأس والعزيمة واللجوء إلى الله بالدعاء - وفي ذلك دلالة على أن أولئك محسنون يستحقون أن يكون الله معهم ٢٤١.
١٤٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين).
لما أرجف المشركون أن محمد صلى الله عليه و سلم قد قتل، ودعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى العودة للأصنام والوثنية حذر الله المسلمين من الالتفات إلى كلام هؤلاء المنافقين - وقال لهم: (إن تطيعوا الذين كفروا) المراد أبو سفيان فقد كان كبير المشركين إذ ذاك - وقيل: المراد عبد الله بن أبي وهو كبير المنافقين حينئذ، وأتباعه من أهل النفاق - فقد أثار هؤلاء الشبهات والفتن وأذاعوا الأراجيف واختلفوا الأخبار الكاذبة التي توهم الهمم وتضعف العزائم - وقيل: بل المراد اليهود فقد كانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين؛ ليرتابوا في عقيدتهم وينقلبوا عن دينهم - من أجل ذلك يحذر الله المسلمين من إطاعة هؤلاء أو الاستماع إلى أراجيفهم وإلا ردوهم على أعقابهم، أي ردوهم إلى الكفر فينقلبون بذلك خاسرين في الدنيا والآخرة - وخسران الدنيا يراد به هنا خضوعهم للكافرين، أما خسران الآخرة فهو الحرمان من الثواب والتردي في العذاب.
١٥٠ - (بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)
قوله: (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) بل حرف إضراب عن مفهوم الجملة الأولى وهي طاعة الكافرين التي تجرجر الخسران والارتداد على الأعقاب، بل الله ناصرهم - وقرئ لفظ الجلالة بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله، فهو مولاكم أي ناصركم، وهو خير نصير لكم ولا تحتاجون معه إلى نصرة أحد غيره وولايته.
١٥١ - (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)
قوله: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) جاء في سبب نزول هذه الآية أنه لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة تركناهم ارجعوا فاستأصلوهم - فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به وأنزل الله تعالى هذه الآية ٢٤٢.
وفي هذه الآية يبشر الله المسلمين بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ليبوءوا بالذلة والهزيمة؛ وذلك بسبب كفرهم وشركهم، فضلا عما ادخره الله لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال.
على أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد بل هو عام ليشمل كل المواجهات العسكرية التي تقع بين المسلمين والكافرين، فلسوف يلقي الله الرعب في قلوب أعدائه الكافرين الذين يتربصون بالمسلمين الآمنين الدوائر، والذين يحاربون دين الله يوصدونه صدا - وفي هذا أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " نصرت بالرعب على العدو " ٢٤٣ والرعب معناه الخوف - وأصله الملء رعبت الإناء أي ملأته - وسمي الفزع رعبا؛ لأنه يملأ القلب خوفا.
ومقتضى هذه الآية يبين لنا ما يلقيه الله من خوف وذعر في قلوب المشركين الظالمين على اختلاف مللهم ودياناتهم سواء كانوا من عبدة الأوثان أو أهل الكتاب أو الملاحدة أو المنافقين، فإن هؤلاء جميعا يجتمعون على كراهية الإسلام وعلى التآمر عليه، فهم جميعا تفيض صدورهم بالغيظ والحنق على الإسلام والمسلمين، وهم بقدر تغيظهم وحقدهم وكراهيتهم لدين الله وأهله يجعل الله في قلوبهم من الذعر والخوف ما يخالجهم مخالجة تؤرقهم وتؤزهم على الدوام - وليس أدل على ذلك من ديمومة التآمر والكيد الذي يجمع هؤلاء

المشركين الظالمين جميعا على نحو ليس له في تاريخ التآمر والكيد والحقد نظير.
وقوله: (بما أشركوا) الباء للسببية - وما مصدرية، أي بسبب إشراكهم - فيكون المعنى أن السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به ما لم ينزل الله به حجة ولا برهانا، ولذلك قال: (ما لم ينزل به سلطانا) والسلطان يراد به الحجة والبرهان ولا يجمع، لأنه في مجرى المصدر - رجل سليط أي فصيح حديد اللسان - وامرأة سليطة أي صخابة ٢٤٤ والمقصود أن هؤلاء الفاسقين الظالمين قد أشركوا بالله إشراكا ليس لهم فيه من الله برهان ولا دليل، إذ لم يرد فيه حجة صادقة لا من كتاب سماوي صحيح، ولا من منطق حقيقي مجرد يصدقه العقل السليم - فكان ذلك سببا في إلقاء الرعب في قلوبهم ليغشاهم من الخوف المستديم ما يقضهم قضا.
قوله: (ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) المأوى المنزل الذي يأوي إليه الشيء ليلا أو نهارا - وهؤلاء المشركون الظالمون إنما يرتدون إلى النار مأواهم، حيث التحريق والاستعار - وحيث العذاب الرهيب الواصب - ويا له من مثوى (مأوى) بئيس تاعس يتقاحم في جحيمه الظالمون من أعداء الله والنبيين، أعداء الإسلام والمسلمين.
١٥٢ - (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)
قوله تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم مّن يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعلمون).
روى البخاري في ذلك عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه و سلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال: " لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا " فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يتشددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير: عهد إلى النبي صلى الله عليه و سلم أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: " لا تجيبوه " فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: " لا تجيبوه " فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: " لا تجيبوه " فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال له: كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يحزنك - قال أبو سفيان: اعل هبل - فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " أجيبوه " قالوا: ما نقول؟ قال: " قولوا: الله أعلى وأجل " قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: " أجيبوه " قالوا: ما نقول؟ قال: " قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم " قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال: وستجدون مثله (تنكيلا) لم آمر بها ولم تسؤني ٢٤٥.
ومن رواية الإمام أحمد عن ابن عباس أن المسلمين نظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها - فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " أكلت شيئا " قالوا: لا - قال: " ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة في النار " ٢٤٦
قوله: (ولقد صدقكم الله وعده) وذلك لما قال بعض المسلمين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر، فأجابهم الله بأن الغلبة كانت لهم ابتداء فقد قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده، لكنهم بعد ذلك اشتغلوا بالغنيمة، وترك الرماة أماكنهم طلبا للغنيمة، فكان ذلك سببا لهزيمتهم.
وقوله: (إذ تحسونهم بإذنه) من الحس وهو القتل والاستئصال ٢٤٧ والمعنى أنكم كنتم تقتلونهم بعلم الله وبتسليطهم عليهم.
وقوله: (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) كلمة حتى للغاية، بمعنى إلى أن - وتقدير الكلام أنكم كنتم غالبين تقتلونهم إلى أن (فشلتم) أي ضعفتم وفرتم (وتنازعتم في الأمر) أي اختلفتم - أي الرماة حين قال بعضهم لبعض: نلحق الغنائم - وقال بعضهم: بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي صلى الله عليه و سلم بالثبوت فيه - ثم خالفتم أمر الرسول صلى الله عليه و

سلم بالثبوت فيه وذلك من بعد الغلبة التي كانت لكم أول الأمر في أحد - وفي ذلك قال سبحانه: (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) أي أن فريقا منكم جنح للدنيا وهي الغنيمة - قال ابن مسعود في هذا: ما شعرنا أن أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد، لكن آخرين ثبتوا في أماكنهم ولم يخالفوا أمر نبيهم صلى الله عليه و سلم مع أميرهم عبد الله بن جبير، فحمل عليه خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل مع المشركين فقتلوه مع من بقي رحمهم الله.

قوله: (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) أي ردكم الله عنهم بالانهزام بعد أن ظفرتم بهم وغلبتموهم؛ وذلك ليمتحنكم.

قوله: (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة لما علمه من ندمكم - والله تعالى متفضل على المؤمنين بالعفو والمغفرة، بل إنه متفضل عليهم في كل الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم.

١٥٣ - (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله: (إذ تصعدون ولا تلوم على أحد) (تصعدون) بضم التاء وكسر العين، من الإصعاد، ومعناه الذهاب في الأرض والإبعاد فيه - يقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض.

وقوله: (ولا تلون على أحد) أي لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب، أو لا تعرجون، فإن المعرج إلى الشيء يلوي إليه عنقه أو عنق دابته - فيكون المعنى أنكم توليتم صاعدين في الجبل مدبرين لا يقف أحد على أحد ولا ينتظره وذلك لفرط ما أصابكم من دهش وخوف ٢٤٨.

وقوله: (والرسول يدعوكم في أخراكم) أي آخركم - والمعنى أنه صلى الله عليه و سلم كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم؛ لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه.

قال ابن كثير رحمه الله في تأويل قوله تعالى: (والرسول يدعوكم في أخراكم) أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرة - قال السدي: لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها - فجعل الرسول صلى الله عليه و سلم يدعو الناس: " إليّ عباد الله " ٢٤٩ وقال ابن عباس وغيره: كان دعاء النبي صلى الله عليه و سلم: " أي عباد الله ارجعوا ".

قوله: (فأنبئكم غما بغم) أثابكم بمعنى جزاكم - وهو من الثواب، وأصله كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرا أو شرا - بيد أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير - والغم في اللغة بمعنى التغطية والستر ٢٥٠ والمراد به هنا الكرب.

أما الباء فتحتمل معنيين: المعنى الأول: أن تكون بمعنى المعارضة - كما يقال: هذا بهذا، أي هذا عوض عن هذا، وعلى هذا الوجه يكون المعنى أنكم لما أذقتم الرسول صلى الله عليه و سلم غما بسبب عصيانكم أمره، فالله تعالى قد أذاقكم غما حصل لكم عقيب الانهزام والقتل - أي أن الله جزاكم من ذلك الغم بهذا الغم.

المعنى الثاني: أن تكون بمعنى على - أي جزاكم غما على غم أو جزاكم غمّاً بعد غم، أو غمّا متصلا بغم، فالغم الأول هو القتل والجراح، والغم الثاني الإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه و سلم إذا صاح به الشيطان - وقيل: الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة - والثاني ما أصابهم من القتل والهزيمة ٢٥١.

قوله: (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) اللام في لكيلا متعلقة بقوله: (فأثابكم غما بغم) فيكون المعنى: أن هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ولا ما أصابكم من الهزيمة لتتمرنوا على تجرع الغموم واحتمال النوائب والمصائب.

قوله: (والله خبير بما تعملون) الله جل وعلا عالم بما يستكن في صدوركم من نوايا وقصود - وهو كذلك عالم بسائر أعمالكم من خير أو شر، لا جرم أن هذه الحقيقة تفيض على النفس إحساسا غامرا بعظيم قدرة الله وتمام الشعور برقابته الدائمة التي تتجلى في سلطانه على القلوب.

١٥٤ - (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله تعالى: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إنا الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم للقتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور).

ذلك إخبار من الله عن امتنانه على عباده فيما أنزله عليهم من الأمن والنعاس بعد ما غشيهم من الغم ما غشيهم - وفي مثل هذه الحال من الكرب والهم تهفو نفس المغتم إلى شيء من الراحة والسكينة - وإنما يتجلى ذلك تماما في نعيم الأمن يستظل به الإنسان المكروب مع غمرة ظليلة من النعاس الرخي يغشاه فيستشعره بذلك نداوة الطمأنينة وسكينة الأعصاب - فقال سبحانه: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) الأمنة بمعنى الأمن والسكينة - ونعاسا بدل من أمنةً - وقيل مفعول لأجله - وفيما امتن الله به على المؤمنين من الأمن والنعاس بعد ما غشيهم الخوف والقلق والحزن- في ذلك روى البخاري عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه ٢٥٢ - والمراد بالطائفة هذه المؤمنون الذين خرجوا للقتال مع النبي صلى الله عليه و سلم قاصدين أن تعلو راية الإسلام مبتغين بذلك مرضاة الله، أولئك هم أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل على الله.

قوله: (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) وهذه الطائفة الثانية هم المنافقون - وهم عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وأصحابهما - فكان هؤلاء قد خرجوا طمعا في الغنيمة وخشية من المؤمنين، فهؤلاء قد اشتد جزعهم وخوفهم فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسفون على الحضور ويقولون الأقاويل وينشرون الأراجيف، وأهمتهم أنفسهم، يعني حملتهم على الهمّ - فكان همهم خلاص أنفسهم - أهمني الأمر أي اقلقني - وهمني الشيء أي كان من همي وقصدي - والمقصود أن هؤلاء المرجفين المضطرين لم يعبأوا بغير أنفسهم - وهم لفرط فزعهم وهلعهم تملكهم الذعر فذهلوا عن كل شيء سوى أنفسهم.

قوله: (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) الجملة في محل نصب حال - والمقصود أن هؤلاء المنافقين أهل جبن وخور وإرجاف - فقد اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا في أحد لن تقوم للإسلام بعد ذلك قائمة، وإن المسلمين صائرون إلى الإبادة - إلى غير ذلك من الظنون والأراجيف الباطلة.

وقوله: (ظن الجاهلية) بدل من غير الحق - وهو الظن الذي دأب عليه أهل الجاهلية، وهو ظنهم أن أمر النبي صلى الله عليه و سلم باطل وأن دينه لن يكتب له النصر.

قوله: (يقولون هل لنا من الأمر شيء) ذلك إخبار عما حكاه المنافقون بعد الذي أصاب المسلمين في أحد - والاستفهام هنا للإنكار والجحد - ومعناه: ما لنا شيء من أمر الخروج، وإنما خرجنا كرها فرد الله عليهم ذلك بقوله: (قل إن الأمر كله لله) أي أن القدر كله خيره وشره بيد الله فينصر من يشاء ويخذل من يشاء - وقوله: (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) أي يضمرون التكذيب والجحد ولا يظهرونه لك - وفسر ذلك بقوله: (يقولولن لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) أي لو كان لنا اختيار أو رأي عند محمد لما برح المدينة كما كان رأي عبد الله بن أبي وغيره - ولما غلبنا فقتل منا من قتل - وفي هذا الصدد ذكر عن عبد الله بن الزبير أن أباه الزبير قال: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه و سلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره - قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن فشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههانا).

وقوله: (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي لو كنتم جالسين في بيوتكم ولم تشهدوا القتال مع المؤمنين فلسوف يخرج الذين كتب عليهم القتل للموضع الذي كتب عليهم فيه مصرعهم؛ ذلك أن الحذر لا يغني من القدر وأن التدبير لا يدفع التقدير فالذين قدر الله عليهم القتل لا مناص لهم من قدر الله المحتوم.

قوله: (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) الابتلاء معناه الاختبار والإمتحان - وجملة التعليل (وليبتلي الله) على لفعل محذوف - أي فعل ذلك مما حصل لكم في أحد ليمتحن ما في صدوركم فيظهر سرائر المنافقين، ويكشف عن مكنون قلوبهم من الغش والمرض والنفاق فيطلع عليها المؤمنين - وكذلك (ليمحص ما في قلوبكم) أي لتطهركم من الذنوب والمعاصي - أو لتطهر قلوبكم من الوساوس والشبهات.

قوله: (والله عليم بذات الصدور) أي أن الله يعلم بما يستكن في ضمائر العباد من خير وشر أو من إيمان وكفر - فإنه جل جلاله لا يخفى عليه شيء من أمور الخليقة ويستوي في ذلك عنده ما كان خافيا أو معلنا.

١٥٥ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

قوله تعالى: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) المراد بذلك أن القوم الذين تولوا يوم أحد عند التقاء الجمعين وهم المؤمنون والمشركون وفارقوا المكان وانهزموا قد عفا الله عنهم بعد أن أوقعهم الشيطان في الزلل - وقوله: (استزلهم) أي حملهم على الزلل - أو طلب منهم الزلل - ومفرد الزلل زلة بمعنى خطيئة.

وتأويل الآية أن الذين انهزموا من أمام المشركين في أحد كان السبب في توليهم (فرارهم) أنهم كانوا أطاعوا الشيطان، إذ (استزلهم) - أي دعاهم إلى الزلة بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب ومنها أن زين لهم الهزيمة فانهزموا؛ إذ تركوا المكن الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم بالثبات فيه فجرهم ذلك إلى الهزيمة، لكن الله جلت قدرته قد عفا عن كهؤلاء القوم إذ تجاوز لهم عن توليهم يوم التقى الجمعان - وذلكم شأن الله مع عباده، فهو بفضله ومنه يعفو عن المذنبين ويمحو الخطايا ويتجاوز عن ذنوب المسلمين المسيئين - وهذا مقتضى قوله: (إن الله غفور حليم) أي عظيم المغفرة لمن تاب وأناب، وحليم لا يعجل بالعقوبة ٢٥٣.

١٥٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون).

البيان الإجمالي لهذه الآية أن المنافقين كانوا يعيرون المؤمنين في الجهاد مع الكفار، فكانوا يقولون في ذلك: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا وربما أفضى ذلك إلى تثبيط بعض المسلمين وفتور هممهم في الجهاد فوقع ما وقع في أحد؛ من أجل ذلك نهى الله عن أن يقول أحد المؤمنين مثل هذه المقالة المغرضة المريبة - وعلى المؤمنين أن يستيقنوا أن الأجل بيد الله فمن كتب الله له البقاء فلا شك في بقائه إلى أن يشاء الله وإن تكالبت عليه أسباب المنون من كل مكان أو كان الموت أقرب إليه من حبل الوريد - ومن كتب الله له حينونة الأجل فلا مناص ولا محيد عن قدر الله وإن أحاطت بالمرء كل أسباب الحراسة والرعاية أو الاستكنان في غياهب الصياصي والحصون.

قوله: (لا تكونوا كالذين كفروا) وهم المنافقون الذين يثيرون الإرجاف بين المؤمنين فيحولون بينهم وبين الجد والعمل سواء في الجهاد أو السعي لطلب الرزق ونحوه.

وقوله: (وقالوا لإخوانهم) أي في النفاق أو في النسب وإن كانوا مسلمين - لا جرم أن الأخوة ضروب فمنها الأخوة في الدين والأخوة

في الكفر والأخوة في النفاق ثم الأخوة في النسب - ونظير ذلك قوله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هودا) (وإلى ثمود أخاهم صالحا) أما الأخوة في هذه الآية فتحتمل ما كان منها في النفاق وما كان منها في النسب.

قوله: (إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) الضرب في الأرض معناه السفر للتجارة أو غيرها - و (غزى)، أي غزاة، ومفرده الغازي، ويجوز أن يجمع على غزاة ٢٥٤.

والمعنى أن هؤلاء المنافقين كانوا يقولون عن إخوانهم في النفق أو النسب: (لو كانوا عندنا) مقيمين في البلد (ما ماتوا وما قتلوا) أي ما ماتوا في السفر وما قتلوا في الغزو.

قوله: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) الحسرة بمعنى التلهف والتأسف والندامة - ومعنى الآية أنهم قالوا ذلك الكلام واعتقدوه ليثير الحزن والألم والندامة في قلوب أقاربهم، ذلك أن أقارب المقتول إذا سمعوا مثل هذا الكلام ازدادت الحسرة والحزن والاغتمام في نفوسهم مما يحملهم على الظن أن السبب في موتهم هو خروجهم للسفر في تجارة أو من أجل الجهاد - لا جرم أن هذه مدعاة للتثبيط البالغ يلج في نفوس الضعفة من المسلمين ليثنيهم عن الخروج النافع سواء من أجل الارتزاق أو الجهاد في سبيل الله.

قوله: (والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) لا مجال للحذر من القدر - فكل ما هو مسطور في علم لا محالة قادم، ولكل أجل كتاب - وما الحياة والآجال إلا بيد الله وحده، فهو سبحانه يكتب الحياة للعبد حتى يحين أجله، وإذا حان لا يبطّئه ضرب في الأرض ولا خوض للوغى أو تقحم للأهوال والمخاطر.

وبعد ذلك يخاطب الله عباده ليحذرهم التحذير المؤثر القارع وليثير في نفوسهم دوام اليقظة والتخوف من بطشه وعذابه، فإنه سبحانه علام الغيوب بصير بالأعمال ما ظهر منها وما بطن.

١٥٧ - (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

قوله: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله خير مما يجمعون) اللام في قوله: (ولئن قتلتم) لام القسم - والتقدير: والله لئن قتلتم في سبيل الله - واللام في قوله: (لمغفرة من الله) للتأكيد.

والمعنى المقصود، أن الموت لا محالة واقع - ولا ريب أنه المصير المحتوم لكل إنسان سواء كان ذلك في ساحة القتال أو كان حتفا على الفراش أو على غير ذلك من صور الموت.

فإذا تبين ذلك لزم أن يعلم الإنسان أنه إذا مات قتلا أو حتف أنفه وكان ذلك في سبيل الله وابتغاء مرضاته فلا جرم أن يكون ذلك خيرت من الدنيا وما فيها، بل إن ذلك خير مما يجمعه الإنسان طيلة حياته من أموال كاثرة يركم بعضها فوق بعض - وليست الأموال ولا الشبهات ولا الأهواء في هذه الدنيا غير حطام مركوم لا يلبث أن يزول أو يتبدد حتى لا يبقى منه عين ولا أثر.

١٥٨ - (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

قوله: (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) قرئت (متّم) بضم الميم وكسرها - وذلك ترغيب من الله للمؤمنين في الجهاد في سبيله من أجل إعلاء كلمة الإسلام - ولئن فعلوا ذلك فجاءهم الأجل وهم على هذه الحال من الجهاد والذود عن دين الله لا جرم أن الله يتقبلهم في رحمته ويظلهم بظله إذ يحشرون إليه آمين مطمئنين ٢٥٥.

١٥٩ - (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

قوله تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين).

(ما) صلة زائدة للتأكيد - وذلك كقوله: (فيما نقضهم ميثاقهم) فيكون التقدير: فبرحمة من الله - أي أن محمدا صلى الله عليه و سلم صار رحيما بالمؤمنين لينا لهم بفضل من الله ورحمة - فالله سبحانه قد صنع هذه النبي العظيم على عينه ليكون على طبيعته الفذة وسجيته

المميزة من فرط الرقة والعطف واللين، فما كان قاسيا ولا فظا ولكن كان يخاطب الناس في غاية من الهشاشة والبشاشة التي لا تتجلى بهذه الدرجة العليا في غير نبي أوتي العصمة.

قوله: (ولو كنت فظا غليظ القلب) الفظ: الشديد الغليظ - والفظ من الرجال يعني الغليظ الجافي، السيء الخلق - نقول: فظظت تفظ فظاظة فأنت فظ - والغليظ القلب أي القاسي - أو قليل الإشفاق والرحمة.

قوله: (لانفضوا من حولك) أي تفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم - وذلك درس بليغ جدير بالدعاة إلى دين الله أن يعوه وأن يقفوا عليه في تدبر واستبصار - وأصل ذلك خطاب الله لرسوله الكريم أن يا محمد لو كنت جافيا قاسي القلب مع هؤلاء المؤمنين لتفرقوا عنك هيبة لك واستحياء منك بعد الذي كان من توليهم، لكنك كنت معهم رحيما رفيقا حانيا - ولا عجب في ذلك، فإن ذلكم كان خلق الرسول صلى الله عليه و سلم - كان خلقه ودأبه الرفق والرحمة والتواضع والعفو عن زلات المسيئين، كان عليه الصلاة والسلام غاية في اللين وطيب العشرة وطهارة القلب - لا جرم أنه أكمل الخليقة طرا في حميد خصاله وشرف محاسنه التي يعز على الكون أو الكائنات أن تضاهيها.

قوله: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) الفاء تدل على التعقيب - وذلك بعد أن بين الله مدى ما يتجلى في نبيه الكريم من خصال الرحمة واللين، وانتفاء الغلظة والفظاظة يكلف الله نبيه بما يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: أن يعفو عنهم فيما يتعلق بحقه - أي ما له في خاصته عليهم من تبعة.

الثاني: أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة - أي فيما يختص بحق الله عليهم.

الثالث: أن يستشيرهم فيما يستشار فيه من قضايا الحرب ونحوها مما لم ينزل فيه وحي - وفي اللغة يقال: شاورهم مشاورة وشوارا ومشورة، والاسم الشورى - والمشاورة مأخوذة من قولهم: شرت العسل أشوره إذا أخذته من موضعه واستخرجته - وقيل: مأخوذة من قولهم شرت الدابة شورا، إذا عرضتها في المشوار - وتشاور القوم واشتوروا (وأمرهم شورى بينهم) أي لا يستأثر أحد بشيء دون غيره ٢٥٦.

لما أمر الله نبيه بمشاورة المسلمين في أمور الحياة مما يعرض لهم من قضايا ومشكلات، كان عليه الصلاة والسلام أحرص الناس على العمل بمبدأ المشاورة، فكان يستشير أصحابه في قضايا الحرب وغيرها من أمور الدنيا مما لم ينزل فيه وحي - فقد شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا: يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا على برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون - ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون.

وكذلك شاورهم أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم وكذلك وشاورهم في أحد في أن يعقد في المدينة أو يخرج إلى العدو - فأشار جمهور المسلمين بالخروج إليهم نخرج إليهم.

وكلك شاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك.

وكذلك شاورهم يوم الحديبية في أني ميل على ذراري المشركين - فقال له الصديق: إنا لما تجيء لقتال وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال: وقال صلى الله عليه و سلم في قصة الإفك: " وأشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم - و أيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن؟ والله ما علمت إلا خيرا " - ٢٥٧ وقوله: (أبنوا) بفتح الباء أي اتهموا - أبنه بشيء يأبنه فهو مأبون بخير أو شر - فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر - وابنه تأبينا أ] عابة في وجهه - وأبن فلان يؤبن بكذا أي يذكر بقبيح ٢٥٨.

وكذلك استشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها، إلى غير ذلك من وجوه المشاورة في مختلف الأحوال والوقائع مما ليس فيه شرع؛ لما في ذلك من تطيب لقلوب المسلمين وترويضهم على المشاورة وإسداء النصائح والسديد من الأقوال في صراحة مكشوفة لا تعرف اللبس أو المداهنة أو المصانعة، عسى أن يكون في ذلك ما ينتفع به المسلمون فيجتنبون مواطن التعثر والزلل.

ولئن كان ذلك شأن النبي في مشاورة القوم لانتزاع الأصلح من الرأي، وهو عليه السلام في القمة الرفيعة من درجات الذكاء والفطنة

والعبقرية، وهو المؤيد أيضا من الله بالوحي والعصمة والكلاءة، فلا جرم أن يكون المسلمون من بعده أشد حاجة للمشاورة كيما يكون مبدأ الشورى راسخا في أذهانهم، فيطبقونه في كل الأحوال - وفي ذلك من نشر المودة وتبديد المباغضة والأثرة ما يثير في المسلمين النزوع للتفاهم والتآخي ومبادلة الثقة - وبخلاف ذلك تشيع فيهم علائم الريبة وانتفاء الثقة والاستبداد والجنوح للطغيان والتسلط.

قوله: (فإذا عزمت فتوكل على الله) العزم معناه قصد الإمضاء، عزم على الأمر يعزم عزما وعزمه واعتزمه وتعزم أي أراد فعله وقطع عليه أو جدّ في الأمر ٢٥٩.

أما التوكل فمعناه الاعتماد على الله مع إظهار العجز - والاسم التكلان - ٢٦٠ والمعنى المراد أنه إذا حصل الرأي المشفوع بالمشورة فلا ينبغي الاعتماد عليه، بل يجب الاعتماد في كل حال على الله - فهو سبحانه يكتب لعباده السداد والتوفيق، ويجنبهم مزالق الضر والشر والعثرات - وعلى هذا لا ينبغي لمسلم أن يعتمد على أحد غير الله من المخاليق، بل المسلم مكلف أن يتخذ من الأسباب ما يجده موصلا لمراده من غير أن يكون في ذلك توكل أو اعتماد على شيء أو أحد سوى الله - وما كان لمسلم أن يعتمد على ذاته وما أوتي من عزائم وقدرات ومواهب، ولا أن يعتمد على عظيم ولا ملك ولا جبار ولا غير هؤلاء من مشاهير الدنيا وذوي الجاه والسلطان - ومع ذلك فإن المسلم مكلف بالسعي والجد والعزم مهما تكن النتائج - والله جلت قدرته يتعبد عباده بوجيبة الأخذ بالأسباب كيلا يؤخذ معليهم مثلبة التقصير والتفريط، أو العجز والكسل.

قوله: (إن الله يحب المتوكلين) ذلك أن التوكل على الله من غير عجز ولا تواكل ولا تفريط، إنما يشير إلى صدق الإيمان بالله، وإلى تمام الثقة واليقين بكمال قدرته، وأنه يجبر عبادة المخلصين المخبتين، وهو سبحانه خير مجير ومعوان ٢٦١.

١٦٠ - (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ذلك تحريض من الله للمؤمنين على أن يديموا التوكل على الله وليس على غيره؛ فإن الأمر كله بيده الله - وهو جل وعلا يهب عباده النصر، أو يكتب لهم الخذلان - وما من شيء يصدر في هذا الكون إلا بقدر محسوب وموزون - وعلى هذا إذا كتب الله لعباده النصر فلن يغلبهم أحد، وإن أراد الله لهم غير ذلك من الهزيمة والخذلان فليس من أحد من آحاد هذه الدنيا يقوى على نصرهم بعد خذلان الله لهم - فما على المؤمنين بعد هذه الحقيقة الراسخة إلا أن يحسنوا التوكل على الله والاعتماد عليه اعتمادا تنشد به قلوبهم إلى الباري انشدادا - وذلك هو شأن المؤمنين الصادقين المخبتين فإنهم إنما يتوكلون على الله حق التوكل بعد أن يستنفدوا كل أسباب الكد والجد والعزم.

١٦١ - (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله تعالى: (وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون).

ذكر عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: فقدت قطيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المشركين - فقال أناس: لعل النبي صلى الله عليه و سلم أخذها - فأنزل الله تعالى (وما كان لنبي أن يغل) ٢٦٢ وقوله (يغل) أي يخون، من الغلول بمعنى الخيانة، والمراد بها هنا من لغنيمة - وأصل الغلول أخذ الشيء خفية ٢٦٣.

وتأويل الآية أنه ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم فيأخذه لنفسه من غير إطلاع أصحابه - وفي ذلك تنزيه للأنبياء عن الغلول - فإن النبوة والغلول لا يجتمعان لا جرم أن النبوة أعلى مراتب الشرف والجلال، بل إنها أعلى المراتب الإنسانية في الدنيا والآخرة - فما يليق بنفس كريمة عالية فضلى أن تغل - وما يليق بأحد ولا طائفة من البشر أن تقدح في مقام النبوة المقدس الميمون فتتهمها بالغلول.

ولقد توعد الله الخائنين أهل الغلول بالعذاب الشديد يوم القيامة مما يدل على أن ذلك كبيرة من الكبائر - فقال سبحانه: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) أي يأتي الغال حاملا ما غله على ظهره وعنقه معذبا بحمله وثقله، مرعوبا بصوت ما يحمله، وهو تحيط به الفضيحة والعار على رؤوس الأشهاد - وفي فداحة الغلول وهول ما يجده الغال يوم القيامة روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي

عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين في الأرض- أو في الدار- فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا، فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة ".

وروى أحمد عن المستور بن شداد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: " من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادما، أو ليس له دابة فليتخذ دابة، ومن أصاب شيئا سوى ذلك فهو غال ".

وروى أحمد أيضا عن أبي حميد الساعدي قل: استعمل رسول الله صلى الله عليه و سلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء قال: هذا لكم وهذا أهدي لي فقام رسول الله صلى الله عليه و سلم على المنبر فقال: " ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي: أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، وإن بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر " ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة ٢٦٤ إبطيه، ثم قال: " اللهم هل بلغت " ثلاثا.

وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " ردوا الخياط والمخيط، فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة " ٢٦٥.

ويستفاد من هذه الآية جملة أحكام، منها: أن أخذ الطعام وأخذ علف الدابة أو ما تيسر به الحوافل في حال القتال جائز، على أن يكون ذلك بقدر الحاجة.

ومنها: إذا غل الرجل في المغنم ووجد ما غل أخذ منه وعوقب تعزيرا.

ومنها: أن الغال له أن يرد جميع ما غل قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيل إلى ذلك، فإذا فعل ذلك كانت هذه توبة له وخروجا عن ذنبه.

ومنها: أن هدايا الولاة والقضاة والحكام غلول، أي خيانة - وحكمه في الفضيحة في الآخرة حكم الغال ٢٦٦.

قوله: (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) أي تعطى كل نفس جزاء ما كسبت من خير أو شر عطاء وافيا غير منقوص - وهذه الآية تعم كل الكاسبين من خير أو شر - وهي تتضمن بمفهومها الغال على الأولى؛ لأن سياق الكلام هنا في الغلول - فما من غلول في المغنم وسائر وجوه الكسب الباطل والحرام إلا سيجزى مقارفة الغال ما يستحقه من الجزاء يوم القيامة - وحينئذ يجازي الله كل نفس بما كسبت من غير أن يحيق بأحد في ذلك ظلم.

١٦٢ - (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون).

الهمزة في قوله: (أفمن) للاستفهام الإنكاري - والفاء للعطف على محذوف - فيكون تقدير الكلام: أمن اتقى فاتبع رضوان الله.

ومعنى الآية أن من اتبع رضوان الله بالامتثال لأوامره واجتناب زواجره، ليس كمن رجع بسخط من الله بسبب ما قارفه من المعاصي والآثام.

واتباع رضوان الله من مقتضياته فعل الطاعات والصبر على الجهاد وترك الغلول وهو الخيانة في المغنم وغيره من وجوه السحت وأكل الحرام.

أما الرجوع بسخط من الله فمن مقتضياته السقوط في العصيان بكل صوره وأشكاله، ومنه التولي عند الزحف وتخذيل المسلمين وإشاعة الأراجيف بينهم لينكفئوا عن الجهاد وملاقاة العدو - والسخط بفتحتين أو بالفتح والسكون، ضد الرضا، نقول سخط أي غضب، فهو ساخط - أسخطه أغضبه.

والذي يستوجب سخط الله إذا لم يتب فلسوف يكون مأواه جهنم والمرجع البئيس - وهو تأويل قوله: (ومأواه جهنم وبئس المصير).

١٦٣ - (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

وقوله (هم درجات عند الله) أي هم ذوو درجات، أو على درجات أو لهم درجات عند الله - والمقصود أن من اتبع رضوان

الله ليس كمن باء بسخط منه، وهم مختلفو المنازل عند الله فمن اتبع رضوان الله الكرامة وحسن الجزاء، ولمن باء بسخط منه المهانة والعذاب - فالمؤمن والكافر لا يستويان في الدرجة، وكذلك المؤمنون أنفسهم يختلفون فيما بينهم من حيث الدرجات - فبعضهم أعلى درجة من بعض - وكذا الكافرون، فبعضهم أحط درجة من بعض - والدرجة تعني المرتبة والطبقة - والجمع: الدرجات.

والأصل في هذا التأويل أن الضمير (هم) عائد إلى الكل وهو المتبعون رضوان الله والذين باؤوا بسخط منه - فدرجات أهل الثواب متفاوتة - ودرجات أهل العقاب متفاوتة أيضا تبعا لتفاوت أعمال الناس.

وقيل: الضمير (هم) عائد إلى قوله: (أفمن ابتع رضوان الله) فيكون تقدير الكلام: أفمن اتبع رضوان الله سواء؟ إنهم ليسوا سواء، بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم فهي متفاوتة - واحتجوا لذلك بأن الغالب في العرف استعمال الدرجات في أهل الثواب، واستعمال الدركات في أهل العقاب ٢٦٧.

قوله: (والله بصير بما يعملون) أي لا يخفى على الله شيء مما يعمله المتبعون لرضوان الله أو المستوجبون لسخطه - لا جرم أن الله عليم بما يصدر عن الفريقين من قول أو عمل.

١٦٤ - (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

قوله: (منَّ) من المنة بكسر الميم والجمع منن - منّ عليه أو امتن عليه بكذا، أي أنعم عليه به - مننت عليه منّا، أي عددت له ما فعلت له من الصنائع، كأن تقول: أعطيتك، وفعلت لك ٢٦٨.

الله جل جلاله يمتن على عباده المؤمنين بأن بعث فيهم محمدا صلى الله عليه و سلم - هذا النبي المفضل الفذ - الذي خلب بسيرته وخصاله وفعاله العظيمة كل الألباب، وأدهش بسداده وبراعته الأذهان والنهي، وبهر الطبائع والبصائر لحسن أخلاقه وجمال فطرته الناصعة البيضاء - لا جرم أن محمدا صلى الله عليه و سلم خير العالمين وإمام البشرية في هذه الدنيا ويوم تقوم الساعة حيث البقاء والقرار والديمومة.

يمتن الله على المؤمنين ببعث هذا النبي المكرم المفضال - أما وجه الامتنان ببعث هذا النبي عليه السلام فهو يتجلى في كونه (من أنفسهم) أي من جنسهم - وعلى هذا كان لسانه كلسانهم، فسهل عليهم أن يقفوا على ما يحدثهم به، لما في ذلك من قرب للقلوب والعقول.

ولكونه من جنسهم فهم أعلى الناس بأحواله وسلوكه وحقيقة شخصيته من الصدق والأمانة والسجاحة وسلامة الطبع والفطرة - فكان ذلك مدعاة لهم أن يصدقوه ويثقوا به.

قوله: (يتلو عليهم آياته) الجملة في محل نصب نعت لرسول - والمراد بآيات الله هنا القرآن الكريم - فقد تلاه النبي الكريم على العرب بعد أن كانوا أهل جاهلية بكل ما في الجاهلية من حماقات وضلالات.

وقوله: (ويزكيهم) أي يطهرهم من خطايا الجوارح وفساد القلوب والنوايا.

وقوله: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) أي القرآن والسنة.

وقوله: (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) أي لقد كانوا من قبل بعثة الرسول محمد صلى الله عليه و سلم لفي غي وجهالة وعمه ظاهر لا شك فيه.

١٦٥ - (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر

يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين).

الألف في (أو) للاستفهام - والواو للعطف - والمراد بالمصيبة ما حاق بالمسلمين في أحد من هزيمة إذ قتل منهم سبعون.

وقوله: (قد أصبتم مثليها) أي يوم بدر فقد قتل المسلمون من المشركين سبعين وأسروا سبعين آخرين - فهذان مثلان، إذ الأسير في حكم المعدوم.

وقوله: (قل أنى هذا) أي من أين أصابنا هذا الانهزام وما فيه من قتل مع أننا مسلمون وهم مشركون؟! وجواب ذلك قوله سبحانه: (قل هو من عند أنفسكم) أي أنكم وقعتم في هذه المصيبة بمعصيتكم فقد عصوا الرسول صلى الله عليه و سلم في جملة أمور منها: أن النبي صلى الله عليه و سلم قد بين لهم أن المصلحة في عدم الخروج من المدينة بل البقاء فيها لكنهم أبوا إلا الخروج فلما خالفوه توجه نحو أحد.

ومنها: اشتغالهم بطلب الغنيمة وإعراضهم عن طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم إذ أمرهم بعدم المبارحة مهما تكن الظروف، لكنهم نسوا ذلك وانحازوا صوب الغنيمة تاركين مواقفهم ليلج منها المشركون فيطعنوا المسلمين من ورائهم.

قوله: (إن الله على كل شي قدير) ما من شيء يعز على اللهف عله - فالله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد - ومنه النصر يكتبه لعباده إن أراد وذلك وفق حكمة ربانية عليا لا تضل ولا تضطرب.

١٦٦ - (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) الجمعان هما جمع المسلمين وجمع المشركين - وكلا الجمعين التقيا في أحد وكان ذلك بإذن الله - أي بعلمه - كقوله تعالى: (فأذنوا بحرب من الله) أي اعلموا - فالمراد العلم - وقيل: بإذن الله يعني قضاء الله قدره.

قوله: (وليعلم المؤمنين) أي ليميزهم فيتبين المؤمن من المنافق.

١٦٧ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

قوله: (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا) المراد بذلك المنافقون وهم أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا في أثناء الطريق تاركين المسلمين والنبي صلى الله عليه و سلم - فمشى في أثرهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الرجوع والقتال مع المسلمين فأبوا.

قوله: (أو ادفعوا) أي كثروا سواد المسلمين وإن لم تقاتلوا معهم، فإن في السواد ما يرهب العدو ويدفعه.

قوله: (قالوا لو نعلم قتالا لأتبعنكم) أي لو نعلم أنكم تلقون حربا أو تواجهون قتالا لجئنا معكم نقاتل، ولكننا نعلم أنكم لا تلقون قتالا.

وحدث كثير من الصحابة قالوا: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه - حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله ابن أبي سلول بثلث الناس فقال: أطاعهم فخرج وعصاني ووالله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن تبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب - وأتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال - فلما استعصوا عليه وأبوا إلا انصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم - ومضى رسول الله صلى الله عليه و سلم ٢٦٩.

قوله: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) كان هؤلاء المنافقون قبل يوم أحد يتظاهرون بالإيمان - ولم تظهر منهم إذ ذاك أمارة تدل على كفرهم لكنهم لما انحازوا عن المسلمين وخذلوا رسول الله صلى الله عليه و سلم بينوا حالهم وكشفوا عن نفاقهم ونواياهم الخبيثة فصاروا بذلك أقرب إلى الكفر - وقال كثير من أهل العلم: إن هذا تنصيص من الله تعالى على أنهم كفار.

قوله: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) أي أنهم أظهروا الإيمان بألسنتهم وأضمروا الكفر في قلوبهم - ذلك أن الإيمان ما تجاوز في هؤلاء المنافقين أفواههم ولا تجاوز منطوق الكلام الذي تهرف به ألسنتهم من غير أن يستقر شيء من ذلك في قلوبهم.

قوله: (والله أعلم بما يكتمون) أي ما يخفونه في أنفسهم من النفاق - وما يدور بينهم من أحاديث في ذم المسلمين وفي تسفيههم والتعبير عن الشماتة بهم وغير ذلك من وجوه الكيد والتربص، لكن الله سبحانه عالم بالأسرار - ومطلع على ما يركم في قلوب هؤلاء من حقد وما يدور بينهم من أحاديث في الإرجاف والتهكم والشماتة بالمسلمين.

١٦٨ - (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (الذين) في محل نصب بدل من الذين نافقوا - وقيل: في محل نصب على الذم - وقيل غير ذلك.

والمراد بالذين قالوا، عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين - فقد (قالوا لإخوانهم) أي لأجل إخوانهم - وهي الأخوة في النسب أو الأخوة بسبب المشاركة في الدار أو في عداوة الرسول صلى الله عليه و سلم أو في عبادة الأوثان- قالوا لهم حال كونهم قاعدين عن الجهاد: (لو أطاعونا ما قتلوا) أي أن هؤلاء الذين قتلوا لو قعدوا كما قعدنا وفعلوا كما فعلنا بالتخلف عن القتال لنجوا ولم يقتلوا.

لكن الله تعالى رد مقالتهم هذه بقوله: (قل فادرءوا عن أنفسهم الموت إن كنتم صادقين) أي إن كنتم أيها المنافقون صادقين في قيلكم لو أطاعنا إخواننا في عدم الخروج للجهاد لما قتلوا، فجدوا إلى دفع الموت عنكم سبيلا - والحقيقة أن هذا الدرء (الدفع) لا يغني شيئا في الموت المحتوم - فمن لم يمت بهذا السبب فأسباب الموت الأخرى ككثيرة ولسوف يحيق بالهاربين المتخلفين عن الجهاد سبب من أسباب الموت ليلاقوا أجلهم المقدور إذا حان.

١٦٩ - (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين).

يبين الله أن الذين يقتلون مجاهدين في سبيل الله قد أعد لهم كرامة خاصة لا تتسنى لغير الشهداء - فالناس بالقتل تزهق أرواحهم ليكونوا في عدد الموتى، لكن قتلى الجهاد لا يموتون، بل يكونون أحياء ينعمون بالحياة الخاصة الحافلة بالنعيم والتكريم - والآية في شهداء أحد - وقيل: نزلت في شهداء بئر معونة - وقيل: بل هي عامة في جميع الشهداء - وفي الكشف عن طبيعة الحال التي يكون عليها الشهداء وما أعد الله لهم من الحياة الخاصة عقب القتل، أخرج مسلم بإسناده عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله) فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: " أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القنادل ".

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة " ٢٧٠.

قوله: (لا تسحبن الذين قتلوا) الخطاب للرسول صلى الله عليه و سلم فهو الحاسب - وقيل: كل أحد - فيكون (الذين) في محل نصب مفعول به أول - و (أمواتا) مفعول به ثان منصوب وقوله (أحياء) خبر مرفوع لمبتدأ محذوف تقديره هم - وتقدير الكلام: بل هم أحياء.

والمراد أن الشهداء أحياء يرزقون في الجنة - وهم وإن فارقوا الحياة الدنيا وأجسادهم في التراب فإن أرواحهم حية لم يأت عليها الموت - وقد فضلهم الله بالرزق في الجنة عقب القتل مباشرة.

١٧٠ - (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله: (فرحين بما آتاهم الله من فضله) (فرحين) منصوب على الحال - أن الشهداء تغشاهم بهجة من إشراق الأنوار الربانية يكونون بها

في غاية من الفرح الغامر لما فازوا بالشهادة وما سيق لهم بمقتضاها من الكرامة والتفضيل والتنعم برزق الله.

قوله: (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلقهم) أي يسرون بالبشارة بلحوق إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا ليشركوهم فيما أعطاهم الله من ثواب ونعيم - وقوله: (من خلفهم) أي الذين بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم بالاستشهاد.

قال السدي في هذا الصدد: يؤتى الشهيد بكتاب فيه: يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا - ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغبائهم إذ قدم.

وقال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة - فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير - فأخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بأمرهم وما هم فيه من الكرامة - وأخبرهم أي ربهم أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك.

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم - قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع " أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا " ٢٧١.

قوله: (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي أن هؤلاء الشهداء مستبشرون بإخوانهم، فرحون أنهم إذ صاروا مثلهم شهداء فإنهم: (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي لا خوف عليهم من عقاب الله فهم آمنونا مطمئنون ولا يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا، إذا لا يمسهم في ذلك أيما حزن على فراق الحياة وما فيها.

١٧١ - (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وهذا التكرير في الاستبشار الأول - فالاستبشار الأول كان بلحوق إخوانهم بهم في الشهادة وبمنجاتهم من الخوف والحزن - والثاني بنعمة الله وفضله - والنعمة يراد بها الجنة - والفضل داخل فيها - وعلى هذا فإن الله تعالى يبين أن هؤلاء الشهداء قد استبشروا مرتين:

الأولى: استبشارهم بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

والثانية: استبشارهم بأحوال أنفسهم خاصة.

وثمة تفصيل يتعلق بأحكام الشهيد نبينه في اقتضاب فنقول:

إن الشهيد لا يغسل إذا قتل في المعترك وهو يواجه العدو - وهذا قول الجمهور - لما روي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر بقتلى أحد فدفنوا بثيابهم ولم يصل عليهم - أما الشهيد غير قتيل المعترك فإنه يغسل - وهو قول الحنفية والشافعية والمالكية وآخرين - فقد ذهب هؤلاء جميعهم إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم إلا قتيل المعترك في قتال العدو خاصة - أما من قتل مظلوما كقتيل الخوارج واللصوص وقطاع الطريق وشبه ذلك فإنه يغسل في قول المالكية والشافعية، خلافا للحنفية إذ قالوا: كل من قتل مظلوما لم يغسل ولكنه يصلى عليه وعلى كل شهيد.

أما إذا حمل الشهيد حيا ولم يمت في المعترك وعاش وأكل فإنه يصلى عليه كما صنع بعمر رضي الله عنه.

أما الصلاة على الشهيد فموضع خلاف كذلك - فقد ذهبت المالكية والشافعية والحنابلة وأهل الظاهر إلى أنه لا يصلي على الشهيد المقتول في المعركة؛ وذلك لحديث جابر قال: كان النبي صلى الله عليه و سلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم - أما الحنفية فقالوا بوجوب الصلاة على الشهيد، لكنه لا يغسل لما ورد في ذلك من آثار أكثرها مراسيل على النبي صلى الله عليه و سلم على حمزة وعلى سائر شهداء أحد - وهذا ما لا خلاف فيه.

ولو دهم العدو المسلمين بغتة فقتل منهم، فهل يكون حكم القتيل منهم كحكم قتيل المعترك؟ ثمة قولان في ذلك، أصحهما: أنه يغسل ويصلي عليه؛ لأنه لم يقتل في المعترك بين الصفين ٢٧٢.

ويستفاد من هذه الآية ما أعده الله للشهيد من عظيم الثواب فضلا عن تكفير الخطايا والذنوب جميعا إلا الدين، وذلك للخبر " القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين، كذلك قال جبريل عليه السلام ".

والتنصيص هنا على الدين تنبيه على ما في معناه من حقوق الناس المتعلقة بالذمم - وذلك كالسرقة والغصب وأخذ المال بالباطل ونحو ذلك من التبعات الثقال - فذلك كله أولى ألا يغفر بالجهاد والاستشهاد من الدين، لأن ذلك أشد وُبوقا من الدين.

على أن الدين يحول بين الشهيد ودخول الجنة هو الذي يترك له المدين وفاء ولم يوص به - أو قدر على الوفاء حال حياته ولم يؤده ولم تحدثه نفسه بالوفاء ولا بالتوصية بالأداء بعد موته - أما إذا أدانه في حق بسبب من فاقة أو عسر ونحو ذلك ومات من غير أن يترك وفاء فإن الله لا يحول بينه وبين الجنة بمنته وفضله ٢٧٣.

١٧٢ - (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) كان ذلك يوم حمراء الأسد - وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم - فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لم يتموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة - فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه - فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه و سلم ٢٧٤.

قوله: (الذين استجابوا) في إعراب (الذين) ثلاثة وجوه، الأول: في موضع جر نعت للمؤمنين - الثاني: في موضع جر يدل من المؤمنين - الثالث: في محل رفع مبتدأ - وخبر (للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم).

١٧٣ - (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

وقوله: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) المقصود بالناس نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمرا، فقال له أبو سفيان: يا نعيم إني واعدت محمدا أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل - فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي - أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد - أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم فوالله لا يفلت منكم أحد - فقال المسلمون: (حسبنا الله ونعم الوكيل) هكذا قال المسلمون عقب تثبيط المثبطين بما توعدوهم به من جموع المشركين الكثيرة فلم يعبأوا بهم، ولم يكترثوا لهم، بل توكلوا على الله واستعانوا به، فلم يثنهم ترعيب ولا تخويف، ولم تزلزهم أراجيف المثبطين والمنافقين - وما زادهم ذلك إلا تصديقا ويقينا في دينهم وحفزهم على البذل والاستعداد والجراءة بما هو أعظم - وذلك هو شأن المؤمنين الصادقين المخلصين الذين تشتد من حولهم الأهوال والخطوب وتزداد في وجوههم المضايقات والمثبطات وتتراكم من أمامهم ومن خلفهم المؤامرات والدسائس والمكائد، لكنهم وسط هذه الأجواء الحوالك من الإرهاب وألوان الكروب، لا يزدادون بذلك كله إلا التوكل على الله والمضي على الطريق الحق داعين إلى الله على بصيرة، يحرضون الناس على التوجه إلى الإسلام - وهم كلما حز بهم بأس وازدادت من حولهم الأراجيف والمثبطات، وأترعت البلاد بفقاقيع النفاق والمنافقين وانتفخت أوداج الساسة من الطغاة والمستبدين فراحوا يتربصون الدوائر بالدعاة إلى الله لينالوا منهم ألوانا من العذاب والتنكيل- إنهم وسط ذلك كله لا تلين قناة، بل يلوذون إلى الله ويستعصمون بحبله المتين ويتوكلون عليه تمام التوكل مرددين بغير انقطاع.

ومقالة (حسبنا الله ونعم الوكيل) خ هذه المقالة قالها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين ألقي في النار - وقالها محمد صلى الله عليه

و سلم حين: (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) كذلك روى البخاري عن ابن عباس.

وقوله: (فزادهم إيمانا) ضمير الفعل (فزادهم) يعود إلى مقالة المثبطين - والتقدير هو: فزادهم ذلك القول إيمانا - وعلى هذا تكون الزيادة في الإيمان هنا هي في الأعمال.

أما هل يزداد الإيمان أو ينقص؟ فقد قيل: الإيمان الذي هو ذات وجوهر، أو هو الذي يعني التصديق، وإنما هو معنى فرد لا يحتمل الزيادة أو النقصان، بل إن الزيادة في ذات الإيمان تذهبه وكذا النقصان، فأيما زيادة أو نقصان في معنى الإيمان أو في ذاته إنما تزول معه حقيقة الإيمان نفسه - وهو ما ذهب إليه جمع من العلماء - وقالوا: الزيادة أو النقصان إنما يكون في متعلقات الإيمان دون ذاته - وذلك في الطاعة والأعمال الصادرة عنه - أي أن الإيمان ليس المقصود به التصديق بل الطاعات.

وقيل: الإيمان يزيد وينقص وذلك في مراتبه وفي شعائره - وذلك إذا أريد بالإيمان أعمال القلوب كالنية والإخلاص والتقوى - لا جرم أن هذه مشاعر وإحساسات قلبية تتفاوت مقاديرها لدى الناس مثلما تتفاوت أقدار البشر كالنبيين والصديقين والعلماء وسائر المسلمين - فإن المسلمين تتفاوت مراتب الإيمان فيما بينهم تفاوتا عظيما فإنه ربما انحدر مدى الإيمان في قلب المسلم حتى يكون في مثقال حبة الخردل - وربما علا في قلبه حتى يكون في حجم الراسية الشماء.

وثمة أسباب تفضي إلى زيادة الإيمان، منها: سماع الموعظة البالغة التي تلج في سويداء القلب والمشاعر فتهزها هزا - ومنها: الحجج والبراهين الساطعة التي تحمل الذهن حملا لينا على التثبت والاستيقان - ومنها: طول التأمل في آيات الله الباهرة من كتابه الحكيم المعجز - فلا ريب أن التفكر مليا في آي القرآن، وفي عباراته وكلماته وما يجلل ذلك ويتخلله من إيقاعات وجرس وحلاوة نغم- يؤثر في الإنسان أشد تأثير، ويسكب في قلبه من برد الجمال والروعة والعذوبة ما يزيده إيمانا على إيمان - إلى غير ذلك من أسباب تفضي إلى زيادة الشحنات الإيمانية في قلوب الناس، لكن انعدام ذلك أو بساطته لا جرم يفضي إلى نضوب الإيمان في الصدور أو هوانه حتى ما يبقى منه غير القدر اليسير.

ويستدل على زيادة الإيمان ونقصانه بظاهر الكتاب الحكيم، ومن جملة ذلك قوله تعالى: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) ٢٧٥ وكذلك قوله تعالى: (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) ٢٧٦ وقوله تعالى: (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) ٢٧٧.

وفي الأثر عن ابن عمر قلنا: يا رسول الله! إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: " نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ".

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيمانا - فيذكرون الله تعالى.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها ٢٧٨ وهو ما يدل بظاهره على أن الإيمان يزيد وينقص - وهو ما نرجحه والله تعالى أعلم.

قوله: (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) حسبنا أي كافينا الله - نقول: حسبك درهم أي كفاك، وشيء حساب أي كاف - ومنه عطاء حسابا أي كافيا.

ونقول: حسيبك الله، أي انتقم الله منك - وكفي بالله حسيبا أي محاسبا أو كافيا ٢٧٩.

وقوله: (ونعم الوكيل) (نِعْمَ) - فعل ماض جامد لإنشاء المد - (الوكيل) فاعل نعم مرفوع - و (الوكيل) بمعنى الكفيل - وقيل: الكافي - أو الموكول إليه.

والمؤمنون دائما مطمئنون إلى قدر الله وحكمته وأنه جل وعلا لا يظلم الناس مثقال ذرة - وهم إذ يلوذون إلى الله يتضرعون إليه بالدعاء ويبثون إليه شكواهم وحزنهم كلما ضاقت بهم الحياة الدنيا أو ألمت بهم الإحن والشدائد قائلين: (حسبنا الله ونعم الوكيل) حقا إنها خير ما يتفجر من الأفواه والقلوب المكلومة حين اشتداد البأس وتكالب العدوان والباطل - فالله جل جلاله كاف عباده المؤمنين المظلومين وهو كفيل بكشف البلاء والضر عنهم ودفع الطغاة والمتجبرين ليذيقهم نكال الدنيا وهوانها قبل أن تفجأهم صعقة القيامة بأهوالها المذهلة العظام.

١٧٤ - (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

قوله: (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله) أي أن هؤلاء المؤمنين الذين استجابوا لله ورسوله بسيرهم في إثر عدوهم صوب حمراء الأسد قد رجعوا إلى المدينة بنعمة من الله وهي العافية من ربهم؛ إذ لم يلقوا عدوا، ورجعوا أيضا بفضل، أي أصابوا أرباحا في التجارة التي اتجروا بها - ولم يمسسهم سوء، أي لم ينلهم من عدوهم مكروه ولا أذى - وفوق ذلك كله اتبعوا رضوان الله، أي أنهم أرضوا الله بما فعلوه وهو اتباعهم رسول الله لما دعاهم إليه من الخروج في إثر العدو.

قوله: (والله ذو فضل عظيم) فقد تفضل الله عليهم بالتوفيق فيما فعلوا فصرف عنهم عدوهم الذي همَّ بالكرَّة إليهم ليقضي عليهم - وذلك شأن الله في عون عباده المؤمنين وإمدادهم بالعزيمة والعون والصبر.

١٧٥ - (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) (ذلكم) في موضع رفع مبتدأ - وخبره (الشيطان) - والمراد بالشيطان إما نعيم بن مسعود أو غيره.

قوله: (يخوف أولياءه) أي يخوفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه من المشركين - وقيل: يخوف بأوليائه - فيكون تقدير الكلام: ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه.

قوله: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي لا تخافوا أولياء الشيطان، أولا تخافوا المشركين الذين جمعوا لكم، بل خافوا الله وحده فامضوا مع رسوله للجهاد ولا يصدنكم عن ذلك تخويف المفسدين من شياطين الإنس والجن ولا تثبيطهم ٢٨٠.

١٧٦ - (وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين).

ونزلت هذه الآية في قوم أسلموا ثم ارتدوا، وقيل: المراد بذلك المنافقون ورؤساء اليهود فقد كتموا صفة النبي صلى الله عليه و سلم؛ إذ كان مذكورا ومبينا في كتابهم.

وقيل: المراد أصناف الكافرين جميعهم - فقد كانوا يسارعون في الكفر، ويظاهرون على النبي صلى الله عليه و سلم والمسلمين بالكيد والعدوان - ومن أجل هذه المسارعة في الكفر من الكافرين الحاقدين كان النبي صلى الله عليه و سلم يغتم وينتابه الحزن، فنهاه الله عند ذلك مع أن الحزن والاغتمام والغضب من كفر الكافرين ومعاصيهم ومكائدهم عبادة يثاب عليها المسلم، فكيف يأتي النهي عن ذلك - وتأويل ذلك أن النهي يقع على الإفراط أو الإسرف في الحزن والاغتمام مما يفضي إلى لحوق الضرر بالمحزون المغتم - كقوله تعالى: (فلا تذهب نفسك عليهم حسارات) أي لا تهلك نفسك عليك من فرط تحسرك على غيهم وإصرارهم على العتو والتمرد والتكذيب - وعلى هذا فإن النهي هنا عن الإفراط في التحسر المفضي إلى ضرر المحسر - لا جرم أن الإفراط المغالي في كظم الحزن والحسرة يودي بالمحزون المغموم إلى الاعتلال أو الهلاك - وهو ما وقع عليه النهي في الآية (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم) هؤلاء الناكبون عن دين الله لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، فهم لا يضرون الله بذلك، والله سبحانه منزه عن طبائع البشر الين يضرهم الأذى والكيد، لكن الله خالق كل شيء وخالق الحياة والأحياء جميعا لا يضره كفران الكافرين ولا ضلال الضالين المضلين.

إن هؤلاء الناكبين التعساء الذين يسارعون في الكفر لا يضرون سوى أنفسهم ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم دون غيرهم - وكيفية ذلك في قوله: (يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة) أي نصيبا من الثواب العظيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين؛ إذ كتب لهم الجنة، لكن أولئك التعساء المتنكبين عن منهج الله لا جرم أنهم محرومون من نعيم الله في الجنة، وفوق حرمانهم هذا أعد الله لهم النار

يتعذبون فيها لزاما ودون مبارحة - وهو مقتضى قوله: (ولهم عذاب عظيم).

١٧٧ - (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم) أي أن هؤلاء، المنافقين أو اليهود قد استبدلوا الكفر بالإيمان بعد أن عرفوه، فالمنافقون يظهرون للمسلمين الإيمان - وإذا خلا بعضهم إلى بعض أباحوا بكفرهم وجحودهم - أما اليهود فكانوا يستنصرون على أعدائهم بالنبي محمد صلى الله عليه و سلم فلما بعثه الله كذبوه وكادوا له كيدا - فهؤلاء الناكبون عن الحق قد ابتاعوا الكفر بإيمانهم فارتدوا عن الإسلام ارتدادا وهم بارتداداهم وكفرانهم (لن يضروا الله شيئا) (شيئا) منصوب على المصدر - والتقدير: لن يضروا الله شيئا من الضرر - وإنما يحيق بهم عذاب الله الأليم بسبب كفرهم.

١٧٨ - (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

وقوله: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي خير لأنفسهم) قرئت (يحسبن) بالتاء فيكون الفاعل المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه و سلم - و (الذين)، في محل نصب مفعول به أول لتحسب، و (أنما نملي لهم) بدل عن الذين - و (خير لأنفسهم) مفعول ثان - والتقدير هو: لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيرا لهم.

وقرئت " يحسبن " بالياء - وهي فعل يقتضي مفعولين - (الذين) في محل رفع فاعل - والمقصود بالذين الكفار - وجملة (أنما نملي لهم خير لأنفسهم) سد مسد مفعولين للفعل يحسبن.

وقوله: (نملي) أي نطيل ونؤخر، من الإملاء وهو الإمهال والتأخير - ومنه قوله (واهجرني مليا) أي حينا طويلا - والملا معناه الدهر - والملون يعني الليل والنهار.

ومعنى الآية: لا يظنن هؤلاء الناكبون المكذبون أن إملاءنا لهم بإطالة العمر والإنساء في الأجل وإمدادهم براغد العيش أو بما أصابوا من ظفر يوم أحد، كان خيرا لهم، بل إن هذا الإملاء ليس لهم فيه خير وإنما يزدادون به بغيا وطغيانا ليكون مآلهم العذاب المهين.

وذلك كقوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) وقوله: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وقوله: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقوله: (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون).

١٧٩ - (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير).

المخاطب في قول أكثر المفسرين هم الكفار والمنافقون - أي ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبي صلى الله عليه و سلم، ذلك أن قريشا قالوا للنبي صلى الله عليه و سلم: تزعم محمد أن من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان، وأن من اتبعك على دينك فهو من أهل الجنة والله عنه راض، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك؟ فأنزل الله (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب).

وقيل: الخطاب للمصدقين جميعا من أهل الإخلاص والنفاق - فيكون المعنى: ما كان ليدع المؤمنين المخلصين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق فلا يعرف هذا من هذا حتى يميز الخبيث وهو المنافق الذي يستتر الكفر من الطيب وهو المؤمن الصادق.

أما كيفية التمييز بين المخلصين والمنافقين فثمة وجوه في ذلك:

منها: إلقاء المحن والمصائب كالقتل والهزيمة ونحوهما: وعندئذ يظهر المنافق ويستبين المؤمن الصادق.
ومنها: الهجرة والجهاد، وهذان امتحانا يعز على المنافق أن يحتملهما حتى تنكشف حاله للناس واضحا معزولا - بخلاف المؤمن الصادق فإنه مطوع لأوامر الله ورسوله لا يميل عنهما ولا يتردد في الاضطلاع بهما.
ومنها: أن المؤمنين الصادقين يغمرهم الفرح والبهجة عند كل نصر يظفر به المسلمون، لكن المنافقين يغشاهم بسبب ذلك اغتمام وتنغيص.
قوله: (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) المخاطب المؤمنون - والمعنى أن الله لا يطلعكم على الغيب المستور فيقول لكم إن فلانا منافق وفلانا مؤمن - فلا يتسنى مثل هذا الإطلاع للناس - ولا سبيل للمؤمنين للوقوف على النفاق وتمييز المنافقين إلا بالمحن والابتلاءات يمتحن الله بها عباده - وقد ظهر ذلك في يوم أحد إذا تخلف المنافقون عن الجهاد - بل شمتوا بالمسلمين وفرحوا لما أصابهم من قتل وهزيمة.
قوله: (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) أي أن الله يختص أو يستخلص لرسالته من يشاء من عباده فيطلعه على بعض المغيبات.
وقوله: (فآمنوا بالله ورسله) لما سأل الكفار رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يبين لهم من هو مؤمن منهم ومن هو كافر أنزل الله
قوله: (فآمنوا بالله ورسله) أي لا يشغلنكم ما ليس يعنيكم فإن الخوض في مثل هذه المساءلات لا جدوى منه لكم، لكن اشتغلوا بما يعنيكم وينفعكم وفيه النجاء لكم وهو الإيماء فآمنوا، أي صدقوا وأيقنوا وامتثلوا، فإنكم صدقتم واتقيتم ربكم بطاعته فيما أمر، وفيما نهى فإن لكم بذلك من الله عظيم الثواب؛ لذلك قال: (وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم).
١٨٠ - (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
قوله: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو مخيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) قال جمهور المفسرين: إن هذه الآية نزلت في مانعي الزكاة وفي البخل بالمال والإنفاق.
وقوله: (ولا يحسبن الذين) (الذين) فاعل - والمفعول به الأول محذوف - فيكون التقدير: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم هو خيرا لهم - والضمير (هو)، مبتدأ وشر خبره.
والآية تتضمن ذما للبخل ووعيدا للبخلاء - والمعنى: لا يتوهمن هؤلاء البخلاء أن بخلهم فيه خير لهم فيدفع عنهم غائلة الفاقة والعوز ويحقق لهم البحبوحة واليسر، له عكس ذلك صحيح - فإن البخل شر أيما شر - إنه شر الحرمان في هذه الدنيا، الحرمان من محبة الناس ودعائهم الرقيق الحاني المستجاب، وامتعاض نفوسهم من الأشحة المنبوذين، الأشحة الذين تنفر منهم طبائع الخليقة وتتقزز منهم نفوس البشر سواء فيهم الأقارب والأباعد، أما في الآخرة فهنالك الخسران الأكبر؛ لما يلاقيه البخلاء الأشحة من ضروب الويل والتنكيل - وفي ذلك يأتي التعبير القرآني على غاية ما يكون فيه الكلام المؤثر الزاجر (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي (سيطوقون) ما بخلوا به من نار - أو أن هذه الأموال التي بخلوا بها تصير أطواقا حول أعناقهم - ويمكن أن يكون الطوق من نار أو من حبات تلتوي في أعناقهم - وفي هذا أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزيمه – يعني شدقيه- يقول: أنا مالك أنا كنزك - ثم تلا هذه الآية (ولا يحسبن الذين يبخلون) ٢٨١.
قوله: (ولله ميراث السماوات والأرض) الله جلت قدرته هو مالك الأولين والآخرين، وهو مالك كل شيء، بل ما في الوجود كله من أملاك وأشياء - وفي ذلك السماوات والأرض، الله تعالى مالكهما - ولئن ملك الناس من كراع الدنيا ولعاعتها شيئا فإنما ذلك ملك مؤقت إلى حين وعلى سبيل المجاز - لكن مالك ذلك على الحقيقة والديمومة هو الله - حتى إذا أزفت الساعة ووقعت الواقعة ذهب الناس المالكون وبقي المال من ورائهم - وبقي المالك الحقيقي وحده - المالك الإله المتفرد الديان - وذلك مقتضى قوله: (ولله ميراث السماوات والأرض).
وقيل في تأويل الآية: إن الله له ما في السماوات والأرض مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره فما لهم يبخلون على الله بملكه ولا ينفقونه

في سبيله - وذلك كقوله: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه).
قوله: (والله بما تعلمون خبير) الله يعلم هؤلاء الأشحة الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله فيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من جزاء ٢٨٢.
١٨١ - (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)
قوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد).
جاء في سبب نزول هذه الآية أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل ذات يوم بيت مدارس اليهود فوجد ناسا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة، فآمنْ وصدّق وأقرضْ الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب - فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقا فإن الله إذا لفقير ونحن أغنياء - ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا - فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدوّ الله - فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا محمد انظر إلى ما صنع بي صاحبك - فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبي بكر: " ما الذي حملك على ما صنعت؟ " فقال: يا رسول الله صلى الله عليه و سلم إن عدو الله قال قولا عظما، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله عز وجل ردا على فنحاص وتصديقا لأبي بكر (لقد سمع الله قول الذين قالوا) ٢٨٣.
والمراد هنا فداحة الاجتراء الأثيم على الله بمقالة السوء يتعثر بها لسان فريق من يهود، وهي أن الله فقير وهم أغنياء - وذلك لما سمعوا قول الله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) - على أن مقالة يهود هذه إنما قيلت على سبيل السخرية أو التهكم والاستخفاف بدين الله وكتابه الحكيم - لا جرم أن ذلك غاية في الجحد والكفران يستحقون بموجبه من الله أشد العذاب، لذلك قال سبحانه: (سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق) اسم الموصول (ما) في محل نصب مفعول به - (وقتلهم) معطوف على الاسم الموصول وهو منصوب - الأنبياء مفعول به للمصدر (وقتلهم).
والمعنى أن سيكتب مقالتهم هذه في كتاب أعمالهم ليجدوه أمامهم مسطورا يوم القيامة - وقيل: سيحفظ ما قالوه ليجازيهم عليه.
قوله: (وقتلهم الأنبياء بغير حق) أي وسنكتب قتلهم الأنبياء - وذلك أنهم رضوا بما فعله أجدادهم السالفون، إذ قتلوا الأنبياء ظلما - ومن يرض بالمعصية يكن شريكا في الإثم وإن لمي فعل ولم ير، مادام رضاه حاصلا بما حصل من منكر.
قوله: (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) يقال لهم ذلك عند الموت أو في جهنم - ومثل هذه المقولة الربانية لهؤلاء الماكرين الكفرة في ذلك الوقت المؤس الرهيب - يضيف إلى عذابهم مزيدا من التنكيل والإيلام.
١٨٢ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)
قوله: (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) اسم الإشارة (ذلك) عائد إلى العقاب الذي جعله الله لهؤلاء الأشقياء العصاة جزاء فعلهم إذ وصفوا الله بالفقر وأقدموا على قتل الأنبياء، وذكر الأيدي على سبيل المجاز، لأن الفاعل هو الإنسان، لكن اليد يزاول بها الإنسان أعماله في الغالب.
على أن هذا العقاب الأليم الذي سيحيط بهم لا ريب أنه عدل لا جور فيه البتة ولذلك قال: (وأن الله ليس بظلام للعبيد).
١٨٣ - (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير).

نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا ومالك بن الصيف، فقد أتوا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا: تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا، وإن الله قد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى هذه الآية ٢٨٤.

وفي إعراب (الذين) ثلاثة وجوه، الأول: أنه في محل جر نعت للعبيد.

والثاني: أنه في محل جر بدل من الذين في قوله: (لقد سمع الله قول الذين قالوا).

والثالث: أنه في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم الذين.

قوله: (إن الله عهد إلينا) أي أمرنا في التوراة وأوصانا أن لا نؤمن لرسول الله حتى يرينا قربانا، تنزل نار من السماء فتأكله - وقد كانت هذه آية أنبياء بني إسرائيل على زعمهم - وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله - ولو كان ما زعموه صحيحا لكانت معجزات كل الأنبياء هذا القربان - والصحيح أن الأمر ما كان كذلك - فقد كانت معجزات موسى عليه السلام عند فرعون أشياء سوى هذا القربان.

قوله: (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم).

وهذا دحض وتكذيب لزعمهم - فقد جاءهم أنبياؤهم بالبينات أي الدلائل الظاهرة والحجج البلجة التي تستلزم منهم التصديق، وجاءوهم أيضا بما طلبوه وهو القربان تأكله النار، لكنهم كذبوهم وقتلوهم - فقد قتلوا زكريا ويحي وشعيا وغيرهم من أنبياء الله - وبذلك ما كان هؤلاء القوم جادين فيما طلبوه من أنبيائهم، وإنما كان ذلك منهم على سبيل التعنت والمكابر والعناد - وهو مقتضى قوله تعالى مستنكرا على هؤلاء قتلهم الأنبياء (فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) أي إن كنتم صادقين في زعمكم أن الله عند إليكم أن تؤمنوا بمن أتاكم من رسله بقربان تأكله النار حجة له على نبوته ٢٨٥.

١٨٤ - (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

قوله: (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) وهذا إيناس وتسلية من الله لرسوله صلى الله عليه و سلم - وتقدير الكلام هنا: لا يوهنك ولا يحزنك تكذيب هؤلاء لك - فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبتهم أقوامهم مع ما جاءوا به من البينات وهي الحجج والبراهين والدلائل الظاهرة (والزبر) بضمتين، جمع ومفرده الزبور - وهو الكتاب - وفعله: زبر يزبر - زبرت الكتاب زبرا أي كتبته فهو زبور أي كتاب، وكل زبور فهو كتاب - وقوله: (والكتاب المنير) أي المضيء والكتاب المنير من الزبر - وقيل: يراد به التوراة والإنجيل والزبور.

١٨٥ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

قوله تعالى: (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) هذه تسلية للرسول صلى الله عليه و سلم والمؤمنين، سواء في ذلك المؤمنون في زمن النبوة أو المؤمنون في كل زمان ومكان - عن ذلكم إيناس بالغ ومؤثر من الله لعباده المؤمنين الذين يواجهون الأهوال والصحاب، ويصطدمون في طريقهم بالمعوقات والمثبطات والعراقيل التي يصطنعها المجرمون الكافرون، سواء من أهل الكتاب أو المشركين أو الملحدين والمرتدين والمنافقين، إن ذلكم إيناس رباني حكيم يواسي به الله عباده المؤمنين الصالحين؛ فتهون أمامهم الملمات والنوائب، وتصغر في حسهم العقبات والشدائد، يواسيهم الله ويؤنسهم في كلماته العجيبة الباهرة النافذة - كلماته المحببة المصطفاة وهي تسكب في أذهان المسلمين وفي روعهم وقلوبهم فيضا من القناعة والسكينة والراحة، وتنشر في أعماقهم الرضا بقدر الله الحكيم، والزهد في مباهج هذه الدنيا الفانية وهو ما يتضح في قوله سبحانه: (كل نفس ذائقة الموت) من الذوق وهو اختبار الطعم - والمقصود هنا أن يذوق المرء هذه الجرعة المريرة الرهيبة - وهي جرعة الموت

المحدق.
والحقيقة الكونية المذهلة أن الناس كافة لا مناص في حقهم من معاينة الموت - فما من إنسان حيثما كان وكيفما كان لا جرم أنه مفض إلى الأجل المحتوم - - - الموت! وهذه حقيقة أو نهاية لا مفر منها البتة - فلسوف تفجأ هذه كل الأحياء من البشر سواء فيهم العظماء والحكماء والسلاطين، أو كانوا من الضعاف والمحكومين والعالة، أو كانوا من الصغار أو الكبار أو اليافعين، أو كانوا من المؤمنين والصالحين والأبرار، أو من المضلين والأشقياء والفجار - إنهم جميعا ملاقوا مصيرهم الذي لا يتخلف - مصير الرحيل عن هذه الدنيا إلى حيث المساءلات والمكاشفات والحساب.
وقوله: (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) يُوفى المؤمنون الصالحون أجورهم على ما قدموه من طاعات وأعمال صالحات يوم القيامة وليس في الدنيا - فإنه لا قيمة ولا وزن لكل مكارم الدنيا و درجاتهما وخيراتها - وإنما الأجر الثابت الباقي لهو في الآخرة حيث الخير والفضل والجزاء السرمد، وحيث النعيم المقيم الواصب.
وقوله: (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) زُحزح من الزحزحة وهي التنحية والإبعاد - والزحزحة في الأصل: تكرير الزح، وهو معناه الجذب بعجلة - وزحه، أي نحاه عن موضعه وجذبه في عجلة ٢٨٦.
قوله: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) المتاع: المنفعة والسلعة والأداة وما تمتعت به من الحوائج - وجمعه أمتعة - وبالضم معناه: الدول والسقاء والزاد القليل والبلغة وما يتمتع به - والمقصود بالمتاع هنا: ما ينتفع به الإنسان ثم يزول فلا يبقى ٢٨٧.
والغرور، بالضم وهو الأباطيل والخداع - وهو جمع ومفرد - الغار بالتشديد، ومعناه الغافل اغتر بالشيء، أي خدع به - غره غرور، أي خدعه - والغرور بالفتح معناه الشيطان ٢٨٨.
ذلك هو شأن الدنيا كما وصفها الله على أنها متاع الغرور - فهي ما يستمتع به المرء في هذه الحياة القصيرة من لذة وزينة، ما بين طعام يأخذ منه بلغته، أو شراب يحتسيه فيطفئ غلته، أو لباس يحويه فيستر جسده وعورته، إلى غير ذلك من وجوه الملذات والشهوات التي تمضي سراعا والتي تمر مرّ السحاب أو مرّ الزمن بساعاته المتتابعة السريعة - لا جرم أن ذلك هو الغرور، أي الخداع بذاته، الخداع الذي يغتر به الإنسان وهو يطوقه الوهم وإعجابه بنفسه، وتغشى قلبه وفكره سحائب مركومة كثاف من الغفلة والنسيان والاغترار حتى إذا دهمته فاقرة الموت أيقن أن الدنيا سراب وأن كل شيء إلى زوال وتباب.
وبعد ذلك نعرض لجملة أحكام سريعة عن الميت بدءا باحتضاره حتى الدفن في الثرى، فنقول: يستحب أن يلقن الميت المسلم عند الاحتضار شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك للخبر: " لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله " ٢٨٩ لتكون هذه آخر كلامه من الدنيا فيختم له بالشهادة - ويستحب أن يقرأ عنده في هذه الساعة سورة " يس "، وذلك للخبر: " أقرؤوا يس على موتاكم " ٢٩٠ فإذا قضي وأسلم الروح لباريها كان على الناس ممن حوله إغماض عينيه، وإعلام الصلحاء من المسلمين بموته - ثم يؤخذ بغسله وهو سنة لجميع المسلمين عدا الشهيد في المعترك فإنه لا يغسل - وقيل: غسل الميت واجب، والأول المشهور.
أما التكفين فهو واجب بغير خلاف - وعلى هذا يكفن الميت من ماله فإن لم يكن له مال قام بتكفين من تلزمه نفقته حال حياته وإلا كفن من بيت المال.
والأصل في وجوب التكفين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية وكذلك كفن مصعب بن عمير يوم أحد بنمرة فكانوا إذا غطوا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا بها رجليه خرج رأسه - فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه من الأذخر " واتفقوا على أن الميت يغطى رأسه ويطيب إلا المحرم إذا مات في إحرامه فإنه لا يغطي رأسه ولا يمس طيبا - وهو قول الشافعية، خلافا للحنفية والمالكية إذ قالوا: المحرم كغير المحرم في تغطية رأسه وتطييبه.
ويستحب الإسراع في المشي مع الجنازة - وصفة الإسراع ما كان فوق السجية قليلا، والعجلة أفضل من الإبطاء - ويكره الإسراع بما يشق على ضعاف الناس ممن يتبعها - وقد سئل النبي صلى الله عليه و سلم عن صفة المشي مع الجنازة فقال: " أسرعوا بجنائزكم فإنما وهو خير تقدمونه إليه، أو شر تلقونه عن رقابكم " ٢٩١.
أما حكم الصلاة على الجنازة فإنها واجب على الكفاية كالجهاد وصفتها أن يكبر المصلي أربع تكبيرات غير تكبيرة الإحرام، وهو المشهور

من أقوال الفقهاء - وأصل ذلك أن النبي صلى الله عليه و سلم " نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات " ٢٩٢.

أما دفن الميت في التراب فهو واجب بالإجماع - ودليل ذلك قوله تعالى: (ألم تجعل الأرض كفانا أحياء وأمواتا) وقوله تعالى: (فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه).

على أنه يكره تجصيص القبور - وهو قول الشافعية والمالكية خلافا للحنفية فقد أجازوا ذلك، إلى غير ذلك من أحكام الموتى مما يقع تفصيله في مظانه من كتب الفقه ٢٩٣.

١٨٦ - (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)

قوله تعالى: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور).

جاء في سبب نزول هذه الآية أن كعب بن الأشرف اليهودي – وكان شاعرا، وكان يهجو النبي صلى الله عليه و سلم ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان النبي صلى الله عليه و سلم قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون ومنهم المشركون ومنهم اليهود - فأراد النبي صلى الله عليه و سلم أن يستصلحهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشد الأذى - فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و سلم بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب) ٢٩٤.

قوله: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم) اللام للقسم - والنون للتوكيد.

والابتلاء معناه الاختبار والامتحان - والمعنى: لتمتحنن في أموالكم وذلك بتكليفكم بإنفاقها في سبيل الله ووجوه الخير أو بما يصيبها من إتلاف وآفات.

أما الابتلاء في الأنفس، فهو بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والأرزاء.

وقوله: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا).

يبين الله لرسوله صلى الله عليه و سلم والمسلمين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسليا لهم عما ينالهم من أذى أهل الكتاب والمشركين - وفي ذلك ترويض لهم مسبق؛ كيما يوطنوا أنفسهم فتحتمل البلاء والمصاعب وما تهذي به حناجر المشركين وأهل الكتاب من ضروب التشويه والتحريض والفتنة - فقد كانوا يطعنون في الرسول صلى الله عليه و سلم بكل ما استطاعوا - وقد هجاه كعب بن الأشرف اليهودي، وكان شاعرا وكانوا يحرضون الناس على مخالفته، وكذلك المشركون كانوا يحرضون الناس على مخالفة الرسول صلى الله عليه و سلم ويؤلبون العساكر على محاربته ويثبطون المسلمين عن نصرته - وذلك هو ديدن الكافرين من المشركين وأهل الكتاب في كل زمان ومكان - فما كان دأبهم على الدوام غير تشويه الإسلام، وتخويف المسلمين، والطعن في عقيدتهم وقرآنهم، والتشكيك في نبوة الرسول الأعظم صلى الله عليه و سلم وذلك بسائر الأساليب والأسباب القائمة على الافتراء والدجل وفساد الفطرة والضمير.

قوله: (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) الصبر هنا يراد به احتمال المكروه - والتقوى هي الاحتراز عن فعل المعاصي والعزم على إتيان الطاعات - والمعنى أن الصبر والتقوى (من عزم الأمور) أي من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها - وعلى هذا فتأويل الآية التحريض على المصابرة على الابتلاء في النفس والمال، والمصابرة على تحمل الأذى والطعن والتجريح بفاسد القول من أعداء الرسالة الإسلامية - فمثل هذه المصابرة وما يشفعها من تقوى (من عزم الأمور) أي مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه - والعزم من جملة الحزم أو الاجتهاد والجد في الأمر.

١٨٧ - (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير).

ذلك تنديد بأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد والالتزام أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه و سلم ويتبعوه ويمضوا على طريقه ودينه وأن يبينوا للناس صدق رسالة الإسلام وصدق نبوة محمد صلى الله عليه و سلم وأن لا يكتموا ذلك عن الناس بل يبينوه تبيينا كما وجدوه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم كتموا خبر الإسلام عن الناس وكذبوا نبوة محمد صلى الله عليه و سلم - وهو قوله: (فنبذوه وراء ظهورهم) أي نبذوا الميثاق، من النبذ وهو الإلقاء والطرح ونبذت العهد، أي نقضته - والنبذ وراء الظهر، مبالغة في النقض وعدم الاعتداد.

وقوله: (واشتروا به ثمنا قليلا) أي أخذوا بدلا عن كتمان الحق وتحريف كتبهم ما أخذوه من عرض خسيس من أعراض الدنيا وحطامها المهين الفاني - فبئس البيع وبئست الصفقة التي ينقض فيها الميثاق وتؤخذ فيها الخسائس من حقارات الدنيا ولعاعاتها الدائرة عوضا عن دين الله وعن كشف الحقيقة للناس - وهو تأويل قوله: (فبئس ما يشترون).

على أن هذا التنديد بالمكذبين الكاتمين من أحبار يهود الذين أخفوا عن الناس ما وجدوه في كتابهم من تنويه بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه و سلم، ينسحب بالضرورة على العلماء في كل ملة من ملل السماء - أولئك الذين يخفون ما علموا عن الناس طمعا في جاه رخيص أو حظوة هابطة مهينة يتزلفون من أجلها لدى أعتبة الحكام والسلاطين، بل على العلماء – ومنهم المسلمون خاصة- أن يجهروا بالدعوة إلى الله وأن يصدعوا بالحق ليعلنوا للبشرية في كل الآفاق وفي سائر أنحاء الدنيا أن الإسلام حق وأن فيه البلسم الشافي لكل المجتمعات ومن كل المعضلات الإنسانية، النفسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية وغير ذلك من مختلف القضايا - وإذا لم يضطلع علماء الإسلام بهذه الوجيبة العظيمة فلسوف يبوءون بعذاب الله والمساءلة العسيرة يوم الحساب حيث الخزي والافتضاح والمهانة لكل المنافقين الخائرين الذين باعوا دينهم بدنياهم - وفي هذا أخرج أحمد في مسنده وآخرون من أصحاب السنن وكذا الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار " ٢٩٥.

١٨٨ - (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: (ولا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) وسبب نزول الآية ما رواه البخاري ومسلم أنه قيل لابن عباس: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين - فقال ابن عباس: ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، سألهم النبي صلى الله عليه و سلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره نخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه - ثم قرأ ابن عباس (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) ٢٩٦.

وروى البخاري أيضا عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه و سلم فإذا قام رسول الله صلى الله عليه و سلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا - فنزلت الآية (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أني حمدوا بما لم يفعلوا) اسم الموصول (الذين) في محل نصب مفعول به أول - والمفعول الثاني: (بمفازة) والمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه و سلم والمعنى المقصود: لا تحسبن يا محمد أولئك الماكرين والمنافقين الخبثاء الذين يفرحون بما فعلوه من تدليس وكتم للحق ليخفوه عن الناس، والذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الوفاء والصدق وإظهار الحق (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) وهو تأكيد - والمعنى لا تحسبنهم (بمفازة) أي بمنجاة من العذاب - أي فائزين بالنجاة منه، بل إن لهم العذاب الأليم؛ لسوء طبعهم وفساد قلوبهم وأخلاقهم إذ يأتون بالفعل الذي لا ينبغي ويفرحون به ثم يحبون من الناس الإطراء والثناء فيصفون بسداد السيرة والاستقامة.

١٨٩ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: (ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير) أي أن الله جل جلاله يملك كل ما حوته السماوات والأرض - وما من شيء في هذا الكون إلا هو مملوك لله، وهو بين يديه لا يعز عليه أن يفعل فيه ما يريد ٢٩٧.

١٩٠ - (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ)

قوله تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب).

ذلك نداء رباني مجلجل يحرض الله فيه الإنسان على حسن التفكر وإدامة التملي والنظر في مركبات هذا الكون الهائل المديد - الكون الشاسع المخوف الذي يستوقف الذهن والحس ويشده البال والنفس، ويهتف بالفطرة لتظل رهيفة مستجاشة لا جرم أن الكون الهائل المذهل حافل بعجائب الأشياء والخلائق، ومترع بغرائب الدقائق والحقائق - فلا يبرح المرء وهو يديم النظر والتبصر والتفكر حتى تأخذه غمرة غاشية مثيرة من الدهش الذي يخلب اللب خلبا - وما سيتزيد المرء من ساعات التدبر والادكار في صفحات هذا الكون المريع حتى تتعاظم في أطوائه العقلية والروحية حقيقة اليقين الجازم على أن الله حق وأنه جل في علاه خالق كل شيء.

وهذه حقيقة مكينة وراسخة في أذهان أولي العقول البصيرة المستنيرة، وهم يتدبرون ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ما بين شموس وأقمار ونجوم ضخام ثوابت، أو كواكب دائرة سيارة تمضي في أفلاكها ومداراتها دورانا منتظما رتيبا من غير خلل ولا تخلف ولا اضطراب - وما بين أجرام كونية عظام تعدل من أحجام الأرض والشمس والقمر ملايين المرات، فضلا عن أنواع الأجرام الكاثرة المتناثرة في هضم هذا الكون الذي لا تعي مداه أو اتساعه مدارك البشر - وفوق ذلك كله هذا الناموس الإلهي الراسخ المطرد الذي يضرب في أغوار الخليقة برمتها سواء في ذلك الأرض والسماء - الناموس الإلهي الذي تسير بمقتضاه الحياة والكائنات والخلائق والأجرام على غاية من التوازن والانسجام والإحكام - فلا خلل أو تعثر أو فوضى - ولا اضطراب أو اختلاف أو تفاوت، وإنما هو النظام الرباني الثابت المتسق الذي تأخذه بموجبه عجلة الحياة والكائنات في المسير والحركة على أتم صورة وأكمل نظام - وذلكم هو الناموس أو القانون الذي يقوم عليه بنيان السماوات والأرض.

وذلك كله يسترعي الثلة الواعية البصيرة من البشر ليتدبروا ما خلق الله - فقال سبحانه: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب): وقوله (واختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما، إذ يأتي الواحد منهما عقب الآخر، وكذلك تقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر الآخر، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرا، ويقصر الذي كان طويلا - وهو قول ابن كثير رحمه الله.

وقوله: (لآيات لأولي الألباب) أي أن في ذلك دلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته وعلى كمال علمه وقدرته - إن ذلكم الله الحق المبدع المقتدر الحكيم.

١٩١ - (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

قوله تعالى: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار) ذلك وصف لأولي الألباب فهم (يذكرون الله) وذكر الله عبادته باللسان المعبر عما في القلب من إقرار وتصديق - وهذا شأن المؤمن، يذكر الله بلسانه اللاهج بتعظيم الله، وقلبه حافل بالتصديق واليقين.

وقوله: (قياما وقعودا) منصوب على الحال - وكذلك قوله: (وعلى جنوبهم) في محل نصب على الحال عطفا على ما قبله - والمعنى أنهم يذكرون الله دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين - فهم في كل الحالات يذكرون جلال الله وعظمته وسلطانه - فلا تبرح الذكرى عقولهم وقلوبهم لتظل مشدودة إلى بارئ الكون ومبدع الخلق والخلائق لا يأتي عليها نسيان أو غفلة - وفي الخبر: " من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله ".

وقيل: المراد الصلاة على الهيئات الثلاث (قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وذلك بحسب الطاقة والإمكان كيلا يضيع المسلم الصلاة في أي حال من الأحوال، فكيفما تكن حاله من العافية أو المرض تجب في حقه الصلاة على الهيئة التي يستطيع أن يؤدي الصلاة فيها سواء كان قائما أو قاعدا أو على الجنب أو مستلقيا، فقد ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فأن لم تستطع فعلى الجنب " ٢٩٨.

وعلى هذا فإن المسلم يؤدي الصلاة قائما، فإن لم يستطع أداها قاعدا، فإن لم يستطع أداها على الجنب.

وثمة خلاف في كيفية صلاة المريض، مع التذكير بإجماع العلماء على أن المريض مخاطب بأداء الصلاة، لكنه إذا لم يستطع القيام سقط عنه فرضه- أي فرض القيام- وكذلك يسقط عنه فرض الركوع والسجود إذا لم يستطعهما أو أحدهما ويومئ مكانهما إيماء - أي إشارة بحاجب أو يد أو نحو ذلك.

والذي يصلي جالسا هو الذي يشق عليه القيام بسبب المرض - وهو مذهب مالك - وقيل: لا يصلي جالسا إلا الذي لا يستطيع القيام أصلا.

أما صفة صلة الذي لا يقدر على القيام ولا القعود فإنه يصلي على الجنب مضطجعا ووجهه إلى القبلة وهو قول الشافعي، وقد احتج بظاهر الآية (وعلى جنوبهم) فقد مدح الله من ذكره على حال الاضطجاع على الجنب مادام غير مستطيع القيام أو القعود.

وقيل: إذا لم يستطع على جنبه صلى مستلقيا ورجلاه إلى القبلة.

وهو قول مالك وأبي حنيفة ٢٩٩ إلى غير ذلك من الأحكام المتعلقة بصفة الصلاة عند عدم التمكن من القيام أو القعود.

قوله: (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) هذه عبارة أخرى تناط بأولي الألباب - وهي عبادة التفكر في خلق الله - والتفكر من الفكر وهو إعمال النظر في الشيء ٣٠٠.

والكلام هنا عن أولي الألباب، وهم أولوا العقول النيرة والبصائر الواعية والأذهان المنبسطة التي تمتد لتبلغ الآفاق في سائر أنحاء العالمين لتقف على كثير من الحقائق والعلوم - ولتطلع على ما لا يدركه القاصرون والجهلة من أولي العقول الصفيق.

الله جل جلاله يمتدح الفئة المؤمنة الواعية من الذين يتفكرون في خلائق الله والذين يلجون ببصائرهم في ملكوت السماوات والأرض بما يثير فيهم حاسية الإيمان بخالق كل شيء وبقدرته البالغة المطلقة التي تكشف عن كمال الله وعن روعة الصانع المتعال.

والإنسان السوي ذو اللب إنما يناط به التفكير في خلق الله ليصل بالضرورة وفي اذكار مطرد إلى أن الله هو الخالق المبدع - ومن العبث الخاسر أن يذر الإنسان هذه الخلائق من مركبات هذا الكون العجيب ليتجاوز مداه المحدود ومقدوره القاصر فيتفكر في ذات الله - إن ذلك لهو الخطل الفادح الذي تتعثر فيه تصورات كثير من الواهمين والمغترين - وفي هذا الصدد يقول النبي صلى الله عليه و سلم: " تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره " وهو مروي عن ابن عباس ٣٠١.

وقال صلى الله عليه و سلم: " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا " وهو مروي عن أبي ذر " ٣٠٢.

وعنه صلى الله عليه و سلم أنه قال محذرا الناس أني تفكروا في ذات الله بل في خلقه: " تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله " ٣٠٣ فذلك نهي واضح عن التفكير في ذات الله جلت قدرته - فإن التفكر في ذات الله ضرب من العبث والضلال والمكابرة؛ لأن الإنسان بفطرته الأساسية الراسخة غير مخول ولا مقتدر على التفكر في حقيقة الله سبحانه - فإن الله في حقيقته وذاته فوق كل طاقات البشر، بل إنه فوق الكون والكائنات كافة، وفوق كل مقدور ومستطاع - فلا يقوى الإنسان مهما جهد في النظر على أن يجاوز الخلق ليتطاول في النظر فيفكر في ذات الله - لا جرم أن ذلك من صفاقات الذهن الشاطح التائه الذي ركب صاحبه متن الغرور والضلالة حتى ما يلبث بعد ذلك أن يهوي في الأذلين أو يوغل في الغواية والتردد والارتياب - وذلكم لسوف يفضي في الغالب إلى التخسير والتباب.

وقوله: (ربنا ما خلقت هذا باطلا) (هذا)، إشارة إلى المتفكر فيه وهو الخلق والمراد به السماوات والأرض ويعرب (باطلا) على ثلاثة وجوه، الأول: مفعول لأجله منصوب.

الثاني: منصوب على الحال من (هذا).

الثالث: نعت لمصدر محذوف، أي خلقا باطلا، والباطل، ضد الحق، ومعناه الزائل الذاهب ٣٠٤ والمعنى أن هؤلاء المتفكرين في خلق

السماوات والأرض يقرون بعد يقينهم وإدكارهم أن الله ما خلق هذا الخلق العجيب (باطلا) أي عبثا وهزلا، بل خلقه ليحمل الأذهان والقلوب على التصديق والتثبت واليقين بوجود الله الأحد المتعال.

قوله: (سبحانك فقنا عذاب النار) (سبحانك)، اسم مصدر أقيم مقام المصدر - وذلك تنزيه لله تعالى عن أن يخلق شيئا باطلا، فالله جل وعلا منزه عن النقائص والعيوب والعبث - وهو وحده المرجو والمقصود أن يدرأ عنا عذاب النار.

١٩٢ - (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

قوله: (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار) ذلك وعاء يتضرع به العابدون المخلصون إلى ربهم وهم تغشى قلوبهم الرهبة والخوف من الله، وتحيك بهم ظواهر الخشية من عذاب النار - لا جرم أن من يدخل النار لسوف يبوء بالخزي وهو الافتضاح والإهانة - وليس يومئذ للظالمين، وهم المشركون- من مجير لهم من عذاب الله - وليس لهم من ناصر ينجيهم بشفاعة أو غيرها، ليس لهم إلا النار وبئس القرار.

١٩٣ - (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ)

قوله تعالى: (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد).

المنادي الذي ذكره الله هنا هو الرسول صلى الله عليه و سلم - وهو قول أكثر المفسرين ويؤيد ذلك من الكتاب مثل قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك) وقوله: (وداعيا إلى الله بإذنه).

وقيل: المراد به القرآن فليس كل الناس قد سمع الرسول صلى الله عليه و سلم، أما القرآن فقد سمعه كل أحد وفهمه - ودليل ذلك ما أخبره الله تعالى عن مؤمني الجن إذ قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد) والجملة الفعلية من قول: (ينادي للإيمان) في محل نصب صفة للمنادي - وقوله: (للإيمان) يعني إلى الإيمان.

وتأويل الآية هو: ربنا سمعنا داعيا يدعو إلى الإيمان، وهو التصديق بك والإقرار بوحدانيتك ونبذ الشرك والشركاء واتباع رسولك الأمين وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه (فآمنا) أي فصدقناه واستجبنا له واتبعناه.

قوله: (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) الغفر والكفر (بفتح الكاف) بمعنى واحد - وأعيد ذكر الثاني بعد الأول في الآية على سبيل المبالغة والإلحاح في الدعاء، فإن الله يحب العبد اللحاح في الدعاء.

والمعنى: يا ربنا استر علينا خطايانا ومعاصينا ولا تفضحنا بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، بل امحها بفضلك ورحمتك.

قوله: (وتوفنا مع الأبرار) (الأبرار) جمع ومفرده: بار، وبر، بالفتح - والبر بالكسر معناه الخير والفضل والطاعة - ورجل بار، أي صادق أو تقي، وهو خلاف الفاجر - ٣٠٥ والمعنى: توفنا يا ربنا معدودين في جملة الأبرار كالنبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا - وقيل: توفنا على مثل أعمالهم حتى نكون في درجاتهم يوم القيامة.

١٩٤ - (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

قوله: (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) ذلك دعاء المؤمنين لله بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم من الثواب والكرامة على ألسنة رسله - ففي الكلام حذف وهو لفظ الألسن، كقوله: (واسأل القرية).

قوله: (ولا تخزنا يوم القيامة) والخزي معناه الذل والمهانة والفضيحة وذلك تضرع من المؤمنين لله العلي القدير أن يدرأ عنهم الخزي يوم القيامة فيبعثهم غير خزايا ولا مفضوحين.

وقوله: (إنك لا تخلف الميعاد) سألوا ربهم وهم يعلمون أنه لا يخلف الميعاد - وكان ذلك منهم على سبيل العبادة والدعاء - فإن الدعاء مستحب، بل إنه مخ العبادة.

١٩٥ - (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

قوله تعالى: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب).

روي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله! لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله (فاستجاب لهم ربهم) الآية ٣٠٦ - والفاء في قوله: (فاستجاب) تفيد التعقيب.

والمعنى أن الله قد استجاب للمؤمنين المخبتين بعد ما دعوه وتضرعوا إليه وسألوه ما سألوه من الغفران والستر على الذنوب، والتوفي مع الأبرار، وأن يؤتيهم ما وعدهم به من الفضل والثواب، وأن لا يخزيهم يوم القيامة- استجاب الله لهم أنه لا يضيع ثواب عمل لأحد سواء كان ذكرا أو أنثى - فإنه لا تفاوت بين ذكر وأنثى في الأجر والثواب على العمل، والاستجابة لأدعية الداعين ما داموا مؤمنين مستمسكين بدين الله - ولا وزن في ذلك لاعتبارات البشر من الحسب والنسب والمال وغير ذلك - ويؤكد ذلك قوله سبحانه: (بعضكم من بعض) حرف الجر (من) بمعنى الكاف - أي بعضكم كبعض، أو مثل بعض في الثواب على الطاعة على المعصية - فأصلكم واحد فالذكر من الأنثى والأنثى من الذكر - أي يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد فكل واحد منكم من الآخر أي من أصله - وعلى هذا رجالكم مثل نسائكم في الأحكام والنصرة والدين - وليس من مجال بعد ذلك للتفاوت أو التفضيل بين ذكوركم وإناثكم.

قوله: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا).

ذلك إطراء من الله للذين هجروا وطنهم مكة فارين إلى الله بدينهم، راحلين من دار الفتنة حيث التعذيب والإذلال والصدر عن دين الله، بعد أن أخرجهم الظالمون من أرضهم حيث الأهل والأحباب والخلان والأقارب، وبعد أن آذوهم بالقهر والتنكيل وكل ألوان الأذى، وذلك كله في طاعة الله - أو بسبب إيمانهم بالله إيمانا حقيقيا صادقا بعيدا عن الشرك والأوثان وسفاهة الجاهلية وضلالاتها - وهو مقتضى قوله: (في سبيلي).

وقوله: (وقاتلوا وقتلوا) وذلك ضرب من ضروب الطاعة لله، وهو أن ينبري المؤمنون الأوائل لقتال الكافرين الظالمين الذين يفتنون الناس عن دينهم ويتصدون للمسلمين بالقهر والتنكيل والفتنة ليحرفوهم عن دينهم إن استطاعوا، فلا مناص إذن من قتال هؤلاء الظالمين الفجار - لا جرم أن قتالهم من جليل الأعمال وخيرها - وقد كان ذلك شأن المسلمين الأوائل لدى المهاجرة من مكة فقد قاتلوا المشركين المعتدين وبعضهم قتل فكتبت له الشهادة.

قوله: (لأكفرن عنهم سيئاتهم) أي لأسترنها عليهم فلا أفضحهم بها يوم القيامة - وفوق ذلك يدخلون الجنة ومن حولها الأنهار الجارية السائحة، ليجدوا هنالك من الخير والنعيم ما لم يطرأ لهم على بال؛ ولذلك قال: (ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار).

قوله: (ثوابا من عند الله) (ثوابا)، مصدر مؤكد لما قبله، لأن قوله: (ولأدخلنهم جنات) يعني لأثيبنهم ثوابا - أي إثابة أو تثويبا من عند الله - وقيل: منصوب على التمييز - وقيل غير ذلك ٣٠٧.

قوله: (والله عنده حسن الثواب) أي حسن الجزاء الذي يستحقه العامل بعمله الصالح

١٩٦ - (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ)

قوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار).

نزلت هذه الآية في مشركي مكة - وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش وكانوا يتجرون ويتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله يتنعمون فيما نرى من الخير، ونحن قد هلكنا من الجوع والجهد، فنزل قوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا) (يغرنك)، من التغرير والغرور وهو الخداع، اغتر بالشيء خدع به، وغرته الدنيا غرورا أي خدعته ٣٠٨ - والخطاب هنا للرسول صلى الله عليه و سلم

أول كل أحد من المكلفين والمراد بالتقلب تصرف هؤلاء المشركين المفسدين في أصناف الأموال والتجارات والثمرات.
والمعنى هو: لا تغتر بظاهر ما تراه من تبسيط هؤلاء المشركين في مكاسبهم وأموالهم وتجاراتهم وما يتمتعون به من خيرات وأرزاق وثمرات - لا تنظر إلى كل هاتيك الحظوظ من مباهج الدنيا وزينتها وما يتراءى لك من ألوان المتعة والسرور - فإن ذلك كله (متاع قليل)

١٩٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(متاع) خبر لمبتدأ محذوف، تقديره تقلبهم، متاع قليل - (قليل) صفة - والمتاع هو ما يعجل الانتفاع به من نعيم الدنيا - وقد وصفه الله بالقلة؛ لفرط هوانه وحقارته وضعته - وأظهر برهان على أنه تافه ووضيع كونه زائل فانيا فهو لا يلبث أن يذهب وينقضي.

قوله: (ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) ما يلبث هؤلاء المشركون المغترون يتمتعون بمنافع الدنيا الفانية ويتقلبون في نعيمها ولذاتها وشهواتها حتى تفجأهم داهية الموت فيبوءوا بالخسران العظيم، إذ يفضون إلى جهنم، فبئس ما مهدوه لأنفسهم من سوء الفراش حيث النار المستعرة تحيط بهم وتطبق عليهم وتصلي جلودهم وأبدانهم صليا.

١٩٨ - (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ)

قوله: (ولكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) (لكن) أداة استدراك بعد نفي ٣٠٩ أي أن المتقين خلاف المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتقلبهم في البلاد، فالمتقون مطيعون لله مستمسكون بدينه وشرعه، فهم بذلك يستحقون الجنة لتكون لهم النعيم الدائم والجزاء العظيم المقيم.

قوله: (خالدين فيها نزلا من عند الله) (خالدين)، منصوب على الحال - و (نزلا) منصوب على المصدر المؤكد، والتقدير: انزلوها نزلا - وقيل: منصوب على الحال من جنات - ٣١٠

ويراد بالنزل، ما يهيأ للنزيل من طعام وشراب وإتحاف - والنزيل أو النازل بمعنى الضيف - خير للأبرار- وهم المؤمنون الأتقياء- مما يجمعه الفجار ويتقلبون فيه من المتاع الدنيوي القليل الزائل.

١٩٩ - (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) نزلت هذه الآية في النجاشي، وذلك لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه و سلم في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأصحابه: " اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم " فقالوا: ومن هو؟ فقال: " النجاشي " فخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى البقيع وكُشف له من المدينة إلى أرض الحبشة - فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه وكبّر أربع تكبيرات واستغفر له، وقال لأصحابه، " استغفروا له " فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج ٣١١ حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه ٣١٢.

وقيل: نزلت في مسلمة أهل الكتاب - وهم فريق من اليهود والنصارى آمنوا بالله وحده لا شريك له، وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه و سلم وبما أنزل إليه وهو الكتاب الحكيم، وآمنوا بما أنزل على المرسلين السابقين من الكتب وهي التوراة والإنجيل والزبور - هذا الفريق من أهل الكتاب آمنوا إيمانا صحيحا وصدقوا نبوة محمد صلى الله عليه و سلم فكانوا في زمرة المؤمنين الصادقين الأبرار.

وقوله: (خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا) (خاشعين) منصوب على الحال من فاعل يؤمكن - والمعنى أنهم خاضعون لله بالطاعة مستكينين لها بها متذللين.

وقوله: (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا) أي لا يحرفون ما في كتبهم من ذكر محمد صلى الله عليه و سلم ونعته فلا يكتمون خبره الذي جاءت به كتبهم طمعا في كسب مهين خسيس يعطونه على ذلك التحريف والكتمان كما فعله أكثر أهل الكتاب من اليهود والنصارى

إذ كذبوا نبوة محمد صلى الله عليه و سلم وكتموا ما جاءت به كتبهم من ذكر وتصديق للنبي الخاتم صلى الله عليه و سلم.
قوله: (أولئك لهم أجرهم عند ربهم) هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب الذين جهروا بما جاء في كتبهم عن نبوة محمد صلى الله عليه و سلم، لهم عوض إيمانهم وتصديقهم وطاعتهم لله ورسوله خير الجزاء يصيرون إليه يوم القيامة.
قوله: (إن الله سريع الحساب) أي أن ما أعده الله لهؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب من الجزاء العظيم الموعود لهو سريع الوصول إليهم؛ لأن سرعة الحساب تقتضي سرعة الجزاء، والله جل وعلا غني عن التأمل والنظر، بل إن علمه نافذ في كل شيء.
٢٠٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) يأمر الله عباده المؤمنين أن يصبروا على الدين وتكاليفه فيلتزموا العمل بمقتضاه من غير زيغ ولا تردد - قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين.
ويأمرهم الله أيضا أن يصابروا أعداء دينه في الجهاد، أي يغالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ولا يكونون أقل صبرا وثباتا منهم - والمصابرة باب من الصبر، وقد ذكر بعض الصبر تخصيصا لشدته وصعوبته - قال الحسن البصري في ذلك: أن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم.
ويأمروهم أيضا أن يرابطوا - والمرابطة الإقامة في الثغور، أو هي مرابطة الغزو في نحر العدو وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ٣١٣.
وثمة أخبار في الترغيب في المرابطة منها ما رواه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها " ٣١٤ وروى الإمام أحمد عن أبي ريحانة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " حرمت النار على عين دمعت- أو بكت- خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله " ٣١٥.
وقيل في معنى الرابط أو المرابطة: انتظار الصلاة بعد الصلاة - وهو قول ابن عباس وآخرين - واحتجوا بالخبر من رواية مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة - فذلكم الرباط - فذلكم الرباط، فذلكم الرباط ٣١٦.
وقوله: (واتقوا الله لعلكم تفلحون) أي خافوه واحذروا مخالفة أمره فاجتنبوا القبائح والمنكرات لكي تفوزوا برضوانه وجناته ٣١٧.

٤ سورة النساء:

سورة النساء:
ترتيبها: ٤
عدد آياتها: ١٧٦
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح هي قوله تعالى: [إن الله يأمركم أن تؤدوا الآمانات إلى أهلها].
ولا جرم أن تكون هذه السورة عظيمة بكونها من أكبر وأشمل السور التي وردت في القرآن الكريم خصوصا وأنها مدنية - فهي بطبيعتها قد جاءت لتشتمل على ضروب شتى من الأحكام والتفصيلات في مختلف أمور الدين و الدنيا من خلال أسلوب قرآني متميز، غاية في الروعة والسموق بما يحقق للقرآن معجزته الخالدة وحجته التي تنطق بإلهية هذا الكلام الرائع الخلاب.
ولدى استعراض السورة نجد حقيقة الشمول الذي يتناول مسائل وجوانب عديدة كان أولها الخطاب الموجه لبني الإنسان كيما يتقوا الله الذي خلق البشرية من نفس واحدة هي آدم أبو البشر ومن زوجه حواء التي خلقها من نفسها (آدام) على نحو وكيفية لا نعلمها نحن على اليقين إلا ما ورد في ذلك من أقوال لا تستند إلى حجج قواطع.

وفي السورة تحضيض على ملاطفة اليتامى وألا تؤكل أموالهم بغير حق وبالطرق غير المشروعة فإن ذلك من كبائر الآثام والمعاصي.
وفي السورة كذلك حض على النكاح فإنه من الأمور التعبدية التي تتراوح بين الندب والوجوب بحسب الحال من الرغبة واليسر وامتلاك المهر والنفقة - ثم تعرض الآية في هذا الصدد إلى إباحة تعدد الزوجات في صراحة لا تقبل التأويل أو التمحل الفاسدين - فإن حقيقة التعدد حتى الزوجة الرابعة لا يداور فيها أو يكابر إلا جاهل أو مضطرب يحس بضاغط الهزة تزلزل شخصه وكيانه تحت وابل كثيف من افتراءات الأعداء والخصوم اللّد وهم ينشرون أسباب الشبهة والريبة والظنون حول دين الإسلام ونبيّه الكريم (عليه الصلاة والسلام) وفي هذه المسألة بالذات مزيد من البيان المفصل نشرح من خلاله تعدد الزوجات وما يدور حول ذلك من ترّهات ظالمة ساقطة، تبثها أقلام الحاقدين أو المارقين الذين ينعقون نعيق الغربان في جهل مطبق وتقليد فاسد أعمى - وكذلك توجب السورة إيتاء النساء مهورهن على وجه الفريضة وعن طيب خاطر إلا أن تجود أنفسهن أنفسهن بشيء من ذلك لمن يشأن من غير قسر أو إكراه.
وتوصي الآية باختبار اليتامى حتى إذا علم الأوصياء أنهم على درجة مقبولة من التعقل والتمييز وجب أن تدفع إليهم أموالهم وألا تؤكل مبادرة قبل أن يكبروا إلا أن يكون ذلك على وجه الأجرة المشروعة يأخذها الوصي الفقير، أما إن كان غنيًّا فإن عليه أن يستعفف.
وفي السورة بيان مجمل سريع لمسألة هي من أجل وأروع ما في الفقه من مسائل - وتلك هي مسألة المواريث.
ومما لا ريب فيه أن مسألة التوريث في شريعة الإسلام قد جاءت على غاية من الإحكام المضبوط الذي لا نظير له في مختلف شرائع الأرض عل مد الأحقاب والأزمان - وهي مسألة هامة وعظيمة باعتبارها بالغة اللصوق بحياة الأفراد والأسر من حيث حقوقهم المشروعة في أموال المورثين، ومن حيث التوزيع الرائع لهذه الحقوق - وسوف نعرض لهذه المسألة لدى تفسير آيات المواريث إن شاء الله.
وفي السورة بيان بالنساء المحرمات من حيث النكاح - وتحريم النكاح يقع تحت أسباب ثلاثة وهي النسب والصهرية والرضاع - وقد ورد ذلك في السورة على نحو وجيز مجمل يتطلب مزيدا من الشروع والتفصيلات التي نقف عليها من خلال السنة النبوية وأقوال الفقهاء المسلمين.
وفي السورة نهي عن أكل الحرام وقتل الإنسان نفسه فإن ذلك عدوان عل الأموال والأنفس، وظلم يحيق بمن تؤكل أمواله بغير حق وبمن هريق دمه ظلما وجورا.
وتأتي بعد ذلك مسألة القوامة وهي المسؤولية وقد نيطت بالرجل باعتباره القيّم والمسؤول عن الأسرة، لما في ذلك من مسايرة لبديهيات الأمور ومراعاة حقيقة لجانب الفطرة التي تنطق بصلاحية الرجل لاحتمال المسؤولية عن البيت ومن فيه من زوجة وأطفال - ولا يعني ذلك شيئا من التحكم والمحاباة أو الاعتساف والاستبداد من غير تشاور مع الزوجة وتقدير لرأيها في البيت - بل المقصود أن يكون الرجل هو المسؤول الأول لكونه مهيئا بعامل الخلقة والفطرة لقيادة الأسرة نحو الخير والسعادة وفي هذا يحرص الإسلام أعظم الحرص على أن يكون عنصر التكامل والتوافق والتآزر مستديما داخل البيت لكي يتبدد من سماء الأسرة والبيت كل شبح يشي بالقطيعة أو التمزق أو يلوح من بعيد ليحمل شيئا من بواعث الفراق أو الطلاق - وفي السورة نهي عن قربان الصلاة ساعة السكر، كيلا يقع للمصلي حال الصلاة شيء من الخلط أو الخطأ - وكذلك فإنه ليس للجنب أن يصلّي إلا بعد اغتسال كامل سابغ - وإن تعسر ذلك لانعدام الماء أو كان في مسه ما يسبب أذى أو ضررا جاز للمصلي أن يتيمم لاستباحة الصلاة وغيرها من تلاوة القرن ودخول المسجد.
ثم تعرض السورة للذين هادوا وهم اليهود الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه عل نحو خبيث من التحريف واللّيّ في العبارة بما يوهم السامع خلاف ما تحويه الصدور المريضة والتي تحتبس في جوفها ركاما من الضغن والكراهية للإسلام والنبي الكريم عليه الصلاة والسلام.
هؤلاء الذين هادوا قد أوتوا نصيبا من الكتاب (التوراة) يؤمنون بالشرك والطاغوت ويطلقون الفتوى الكاذبة بأن العرب المشركين الجاهلين هم أصوب طريقا وأصدق دينا من المسلمين - وذلك قول ظالم كاذب يستحق قائله اللعنة من الله سبحانه لتصم القائل المفتري بوصمة الزيغ والضلال إلى نهاية الزمان.
ويأمر الله سبحانه وتعالى أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فإن في أدائها وفاء بالعهد الملزم وإبراء للذمة التي تثقل الكاهل وخلوصا بالنفس إل حيث التطهر والاستقامة والبراءة من حقوق الناس.

وبعد ذلك يأتي دور المنافقين وهم فئة ضالة خبيثة مفسدة في الأرض لما تطهره من صلاح خادع مصطنع وما تخفيه من خبايا السوء الذي تنثني عليه النفوس الملتوية المريضة - هذه الفئة الخبيثة المتدسسة تصد عن الإسلام ونبيه صدودا، فتعمل في الظلام لتبث الأكاذيب والإشاعات والشبهات بما ينشر في المجتمع أسباب الريبة والتخاذل والهزيمة - كل ذلك من طرف خفي والناس في غفلة إلا أن ينتبه فريق من المؤمنين الحذرين ليكشفوا عن هؤلاء المنافقين أغشية الدجل والخداع.
ثم يأتي القسم المجلجل الحاسم الذي يتضمن حَلْفا إلهيا مؤثرا بأن أحداً لا يكون على الإيمان الصحيح أو جادّة الإسلام الحق إلا إذا جعل من كلمات الله وسنّه نبيه حكما تنفض به المشكلات والقضايا من غير أن يجد المرء في ذلك شيئا من حرج أو مضايقة - وتلك مسألة هامة وخطيرة ترتسم عندها صورة حية للمفاصلة التامة التي يفترق عندها الحق عن الباطل ويميز الله بها الخبيث من الطيّب أو الشرك بكل صوره وأشكاله عن الإخلاص الذي يستلزم المضيء في خط الله وفي ظلاله من غير انحراف أو ازورار.
وفي معرض التحريض عل الجهاد ومحاربة الأعداء يأمر الله المسلمين في هذه السورة بأن يأخذوا حذرهم ثم ليكن نفيرهم بعد ذلك على الحالة التي يرون لد اندفاعهم في ملاحقة العدو أو مقابلته سواء كان ذلك عل نحو من الكتائب والسرايا أو أن ينفروا جميعا - وفي هذا الصدد تحتوي السورة عل نصيب كبير من الدعوة للحرب لمجاهدة اللئام المتربصين الذين يرفضون شرع الله والذين يبتغون الفساد والخراب في الأرض - ولا ريب أن هؤلاء يقاتلون من أجل الباطل وفي سبيل الشيطان فيجب قتالهم دون تريّث أو هوادة ويجب أن لا يأخذ المسلمين في ذلك شيء من هلع أو خشيه فالله سبحانه هو أحق أن يخشى وأن يطاع.
وفي السورة تبيين لحال القتل سواء كان خطأ أو عمدا - وثمة مرتبة أخرى وسط وهي شبه العمد وهي أقرب للخطأ منها للعمد لانعدام القصد المبيّت بالقتل.
وفي السورة كذلك تجويز لقصر الصلاة عند السفر وذلك أن تتحول الصلوات ذوات الركعات الأربع إلى ركعتين اثنتين - ثم تلي ذلك صلاة من نوع اخر وهي صلاة الخوف وذلك عند حمي الوطيس واشتداد لهيب المعركة.
وفي السورة ما يعرف في الفقه بالخلع، بضم الخاء، وهو المخالعة بين الرجل والمرأة (الزوجان) إذا استحكم بينهما الشر من غير اقتدار بعد ذلك عل الاحتمال والعيش - فلا يبق بعد ذلك مناص من المفارقة لكي يذهب كل منهما في سبيله مقابل شيء من المال تدفعه المرأة لبعلها.
ثم تحذّر السورة من مغبة الحيف يوقعه الرجل على المرأة في حال التعدد - وهو حيف ظالم ومحرّم إذا كان ذلك يتم في مجال الواقع والحسّ كالنفقة والمبيت وكل صور الإكرام - أما إن كان التفضيل وجدانيا محشورا في خبايا القلوب فإن ذلك ما لا بأس فيه ولا إثم عليه؛ لأنه احساس وجداني لا طاقة للرجل عل التحكم فيه.
ثم يأمر الله المؤمنين بتصريف أمورهم وقضاياهم بالقسط مجانبين الميل والمحاباة مهما تكن الظروف وأن تكون شهاداتهم قائمة على الحق والقسطاس المستقيم حتى ولو كان ذلك على أنفسهم بالذات أو أقرب الأقربين إليهم من أبناء وآباء وغيرهم دون أن يأخذهم في ذلك إحساس عاطفي مؤثر تحت وطأة الشعور بالميل صوب الأرحام وأولي القربى أو الشعور بالحدب والإشفاق نحو الفقراء، أو أن يكون ذلك تزلفا للأغنياء ومخاطبة لودّهم ورضاهم.
ثم تعود الآيات الحكيمة لتكشف عن خبايا المنافقين وسوء مقاصدهم وهي تعرض في وضوح مكشوف لكذب المنافقين وخداعهم وسلوكم المتثاقل المصطنع وهم يقومون إلى الصلاة كسالى يراءون الناس - والمنافقون هم مجموعة من البشر الفاسد الذي يسير في الحياة خاوي الضمير، بليد الحس، لا يحفزه للخير أي حافز ولا يستشعر في نفسه إلا كل معاني الخسة والضعة والانحطاط - وهم بذلك أجدر أن يكونوا في الأذلين وأن يكونوا في الدرك الأسفل من النار.
وكذلك تعود الآيات الحكيمة لتكشف عن طبيعة بني إسرائيل فيما فطروا عليه من الشح والضن بالخير وتطاولهم على أنبيائهم بكثرة الطلب والسؤال ثم بالأذى والقتل، وافترائهم عل مريم العذراء البتول ليتقولوا عليها بالزور والبهتان - وفي هذا الصدد تركز الآيات الحكيمة عل نبذ الدعوى المفتراة بقل المسيح وصلبه، وأن ذلك لم يكن إلا من قبيل التشبيه فقط.

ومما يجدر ذكره بعد ذلك كله أن نبين سبب تسمية هذه السورة بهذا الاسم (النساء) فنقول إن سورة النساء تحمل في اسمها مدلولا عظيما يشير إل الشأن الواضح الكبير الذي يرسيه الإسلام للمرأة باعتبارها شطر الإنسانية ونصفها المعتبر.

ومن خلال الآيات في هذه السورة يعطينا الإسلام حشدا كبيرا من الاهتمام والعناية بالمرأة في إحقاق حقوقها كاملة والتنذير بالعذاب الشديد لمن يعتدي من الأولياء أو الأزواج عل شيء من هذه الحقوق، وليس في هذا التعدي إلا التجاوز لحدود الله والانتهاك لمحارمه فيما يورد المتجاوز المنتهك موارد الهاوية والسخط من الله.

والقران وهو يعرض لشأن المرأة في إفراز حقوقها وتفصيل واجباتها والتوصية بها والتخويف من النيل منها فإنه يحقق في أذهان الأفراد والأجيال وفي تصورهم فكرة سليمة كريمة عن المرأة كيما تكون عل مر الأجيال موضع إجلال وإكرام - وهي فكرة حقيقية تتأكد على الطبيعة وبالفعل عبر مراحل الحياة التي تمر بها المرأة بدءا بكونها وليدة صغيرة يوصي الإسلام بحسن استقبالها والاغتباط لمجيئها وعدم الامتعاض لدى التبشير بمقدمها، ثم وهي زوجة يوجب الإسلام أن تتكرم وألا تمس بأذى أو مهانة أو اعتداء إلى درجة يوصم معها المعتدي المهين باللؤم، وكذلك وهي أم فإنها تقفز إل غاية الإجلال والتقدير وإلى قمة الحظ المتميز الذي لا يبلغه أحد من البشر - هنالك تكون المرأة في أعل المعالي من الاحترام والإكرام وفي المستوى السامق المرموق الذي تحتله الأم لتكون مغمورة بفيض من الإخلاص والطاعة والتواضع تفرضه شريعة الإسلام على الأبناء للأمهات.

ولا نطن بعد هذا التصور أن ثمة عقيدة أو نظاما أو ملّة تضفي عل الأم من الإجلال ما يضفيه الإسلام - نتصور ذلك ونحن نمعن النظر والتفكير في حديث النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله فسأله النبي: ((هل امك حية)) قال نعم - فقال النبي: " الزم رجليها فثم الجنة ".

١ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

البيان التفصيلي للسورة

بسم الله الرحمن الرحيم

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا).

الناس من النوس ومعناه الحركة والتذبذب ١ - وكأنما تتحقق الحركة بوجود البشر حيث التصرف والتعامل والتلاقي وفي أمور تتمثل في حركة دائمة الفعالية والنشاط - والتقوى من الفعل وقى - والاسم وقاية وهي الحماية ٢ - وهي تعني أن يتخذ الناس من طاعة الله والامتثال لأمره سبيلا يكسبون بها مرضاة الله وستارا يحجب عنهم سخطه وعذابه، وربكم من الرب ويعني المالك ٣ - والله سبحانه يملك الحياة والأشياء والوجود كله.

وفي هذه الآية يخاطب الله الناس كافة ليتقوه فيأتمروا بأمره ويتجنبوا معاصيه ويقفوا عند حدوده، فهو سبحانه صاحب الفضل والمنّة الذي خلقهم جميعا من أصل واحد وهو أبو البشر ادم عليه السلام ومن زوجة حوّاء التي خلقها الله من ادم نفسه على الطريقة التي لا يعلمها إلا هو سبحانه - فإنه ليس في القران ما يكشف عن كيفية الخلق لحواء - وفي مسألة كهذه نؤثر أن نقف عند مفهوم النص القرآني دون استقصاء إلى ما قد يحمل عل التكلف أو يوقه في الزلل.

ولذلك فإن ادم وحواء هما أبوا البشر كافة وقد خلق الله عن طريقهما تفرعا وتسلسلا هذه الجموع البشرية المنبثة في بقاع الأرض والتي توجد عل هيئات شتى من الشعوب والقبائل والأجناس والأعراق، سواء كان ذلك في الأمصار أو الأرياف أو البوادي أوفي البراري والصحاري وعبر البحار - كل أولئك رجالا ونساء هم من نسل دم ومعه زوجه حواء - وفي ذلك ما يكشف عن شان الله العظيم الذي يتجلى في مقدرته المطلقة بما يجعله سبحانه أهلا للمعبودية دون أحد من خلقه، وليس ذلك إلا بتقدير الله وإرادته وحكمته،

فهو سبحانه القادر عل كل شيء والذي لا يعز عليه أن يخلق أو يصنع أي شيء.
وقوله: (واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام) - يأمر الله عباده في تأكيد مكرور بأن يتقوه فهو الذي يتساءلون به - أي الذي يحلّف به بعضهم لبعض وذلك أن يقول أحدهما للآخر سألتك بالله.
(والأرحام) يحتمل إعرابها وجهين: أولهما: أنها منصوبة عل المفعولية لكونها معطوفة على لفظ الجلالة قبلها - وثانيهما: أنها مجرورة لكونها معطوفة عل الضمير المتصل في الكلمة " به " قبلها.
والراجح القول الأول وهو النصب - فيكون المعنى عل نحو السياق التالي: فاتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا الأرحام؛ لأن ذلك أبعد عن المحظور الذي يقع في الحلف أو التساؤل حلفا بغير الله - فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ".
وكذلك روى الشيخان عن ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال: " لا تحلفوا بآبائكم ".
قوله: (إن الله كان عليكم رقيبا).
ذلك تعقيب مناسب مؤثر يرد في هذا المجال ليؤثر في نفوس المؤمنين فيزدادوا إيمانا ومن ثم يكونون دائمي الصلة بالله ومستشعرين لمخافته التي تمس قلوبهم بغير مبارحة.
وقوله: (رقيبا) بمعنى حافظ أي مراقب لسائر الأحوال والأعمال، وعالم بالمقاصد والنوايا، فهو سبحانه لا تخفى عليه الأسرار والخفايا.
٢ - (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)
قوله تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا).
يأمر الله الأولياء والأوصياء أن يعطوا اليتامى أموالهم - والمقصود باليتامى هنا الذين كانوا أيتاما فيما مضى ثم بلغوا الرشد، إذ لا يجوز أن تدفع الأموال لليتامى حال يتمهم فإن في ذلك تبديدا وتضييعا لها - وعلى ذلك فإن المقصود في الآية الذين كانوا أيتاما، وذلك كقوله تعالى: (فألقي لسحرة ساجدين) إذ لا يسجد السحرة ماداموا على حالهم من الضلالة والشرك، ولكنهم سحرة باعتبار ما كانوا عليه من السحر والشرك قبل الإيمان - وكذلك كان يقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - حال كبره ونبوته: " يتيم أبى طالب " وذلك بالنظر ليتمه؛ إذ كان صغيرا.
قوله: (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) الخبيث والطيب هما صفتان للمال - والمقصود بالخبيث المال الزيف الهزيل أو الرديء الذي تعزف عنه النفس - أما الطيب فهو المال الجيّد المرغوب.
والله سبحانه ينهى الأولياء والأوصياء الذين يرعون اليتامى أن يأكلوا أموالهم الجيدة رغبة منهم فيها ليبذلوا مكانها أموالا رديئة ويقولوا: أموال بأموال - فإن ذلك لا يعدو أن يكون ضربا من التحايل الذي يدفع إليه الطمع والشهوة الجامحة في جمع المال - وذلك حرام بغير شك.
وقيل: الخبيث هو مال اليتيم إذا أكلتموه بغير حق - والطيب هو مالكم الحلال المشروع - أي لا تتبدلوا أموال اليتامى لتأكلوها خبيثة بدلا من أموالكم وهي حلال.
قوله: (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) - أي لا تخلطوا أموالهم بأموالكم فتنفقوا من الخليط بغير تمييز واضح لتضيع أموال اليتامى - فإن خلط أموالهم بأموال الأوصياء طريق التفريط والتبديد بغير داع أو حاجة - وقد كانوا يخلطون أموالهم بأموال اليتامى دون تحرج حتى نزلت هذه الآية فانتهوا عن الخلط خشية الوقوع في الحرام.
وقد قيل: إن النهي عن الخلط قد نسخ بقوله: (وإن تخالطوهم فإخوانكم) مما جعل الأوصياء لا يتحرجون من خلط أموالهم بأموال اليتامى عندهم - ولعل الصواب أن نعتبر الآية في النهي موضحة على نحو أكبر بالآية الأخرى في جواز الخلط وليست منسوخة - فإن النسخ عملية إبدال حكم بحكم آخر يقوم مقامة تماما - لكن الوارد هنا أن النهي قد وقع على الخلط الذي تضيع فيه أموال اليتامى فيأكلها من ضم اليتيم إليه - وذلك فيه من سوء النية وفساد القصد ما هو مبين - أما إذا وقع الخلط بغير النية في التعدي على مال اليتيم فإن

ذلك ما لا بأس فيه ولا حرج عندئذ في خلط المالين معا.
قوله: (إنه كان حوبا كبيرا) والحوب الكبير متعلق بخلط المال بنية سيئة - يقال: حاب الرجل حوبّا أي أثم - ويقال في الدعاء: اللهم اغفر لي حوبتي أي إثمي - وتأتي الحوبة بمعنى الحاجة أيضا ٤.
٣ - (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)
قوله تعالى: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا).
سبب نزول هذه الآية أن عروة بن الزبير وهو ابن أسماء بنت أبي بكر الصديق قد سأل عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية فقالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليّها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليّها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ٥.
وعلى العموم فإن الآية من حيث سببها متعلقة بالخشية من الحيف يوقعه الوليّ على اليتيمة التي تكون في حجره فيما إذا رغب أن يتزوجها - فعليه إذ ذاك أن يعدل إلى من سواها من النساء تجنبا للظلم أن يقع على اليتيمة.
وقبل الحديث عن هذه الآية بالتفصيل فإنه ينبغي أن نعرض لحملة الحقد والتشويه المضلل التي يثيرها أعداء الإسلام في كل زمان ومكان حول تعدد الزوجات - وهي حملة عارمة خبيثة يثيرها خصوم الإسلام من المنافقين والكافرين، يستوي في ذلك أن الحافز إلى مثل هذه الحملة هو الحقد المركوز في تلك الصدور أو الجهل المطبق الذي يركب رؤوس كثير من المضللين والواهمين والمخدوعين.
على أن الحكم من الناحية الشرعية هنا أن نصم بالكفر أو الردّة كل من يتطاول على الإسلام بما يلصق به شيئا من عيب أو نقيصة - فإن الإسلام هو دين الله وهو فوق كل العيوب والشبهات، وأكمل من أن تناله نقائص أو قوادح.
أما تعدد الزوجات فهو حقيقة صريحة لا تقبل المواربة أو التأويل المتكلف - وهو كذلك إجراء إسلامي ممتاز يحسب للأمور والأحداث والظروف كل حساب - وليس الإسلام قاصرا عل أمة معينة ولا هو رهن بفترة من الزمان تمر كأي زمان - ولكن الإسلام دين البشرية مهما ازدادت أو انتشرت وهو كذلك دين الزمان كله إلى أن ينتهي الزمان كله - وعلى ذلك فإنه قمين بالإسلام أن تتحقق فيه كل عناصر الحيطة والتحسب لكافة الأحوال والملابسات فردية كانت أم جماعية كيلا يقف عاجزا عن مراعاة الظروف مهما امتدت أو الفطرة كيفما تباينت أو تفاوتت.
والإسلام بطبيعته دين وسط يقوم على الاعتدال والتوازن ويجانب التفريط أو المغالاة - فهو لا يفرض الزواج من واحدة فقط مهما تكن الظروف، وهو لا يدع أمر النكاح بغير ضبط أو تحفظ، فلا تفريط يحمل بواعث الضيق والتنطع والإحراج، ولا إفراط أو مغالاة تسوق إلى الإسراف في تلفت وتسيب - بل إن الإسلام يقف من هذه المسألة الخطيرة خير موقف وينتهج أسلم أسلوب - فهو يدعو إلى الزواج أولا ويحذر من التبتّل والعزوبة - فإن كانت الحال عل السلامة والوئام بحيث يغمرها الرضى والطمأنينة والقناعة فبها ونعمت - أما إن كان ثمة ظروف ملحة تفرض شيئا من التعدد تحت اعتبارات شتى فلا مناص إذ ذاك من اللجوء إلى التعدد - وتلكم هي الاعتبارات أو بعضها:
أولها: المرض العضال يصيب الزوجة فيقعدها عن الالتزام بمهام الزوجية وفي مقدمتها المسيس - ولا يستطيع الزوج في حالة كهذه أن يظل مضطلعا بمشقة الاصطبار إلى زمن طويل حتى إنه يخشى عليه من التورط في أسباب العنت والانزلاق إذا ما سدت في وجهه سبل الزواج من أخرى.
ثانيها: العقم فقد تكون المرأة عقيما لا تلد - وفي ذلك من المضايقة والحرج ما لا يخفى إلا إذا أبيح للزوج أن ينكح أخرى عسى أن يرزق النسل - والإنسان مفطور على حب النسل، وهو تظل تخالطه نسائم الشوق والحنين لأبناء وأحفاد تقرّبهم عينه وتطمئن لهم نفسه

- وعلى ذلك فإن من أشد ألوان المرارة التي تحيق بالنفس البشرية أن تسأم التشريع الذي يحرم عليها سببا يقود إلى النسل.
ثالثها: الحرب - وتلك حقيقة لا شك في وقوعها بين الحين والآخر - ذلك أن البشرية دائمة التطاحن والاقتتال المدمر - والشعوب والدول إذا ما اختلفت فإنها لا تتردد في اللجوء إلى أقسى السبل لفض المشكلات والخلافات، وهي الحرب - وهي سبيل معلومة في العود على البشرية والمجتمعات بالقتل - ولا ريب أن يكون القتل في الرجال من أبرز مظاهر الحرب - الحرب التي تذهب بالرجال وتستبقي النساء لأنهن لطبيعتهن أقل اضطلاعا بواجب القتال - وفي ذلك بيان واضح في اختلال النسبة بين الرجال والنساء من حيث العدد، فلا مناص عندئذ من معالجة الموقف بغير التعدد في الزواج، وإلا وقعت مشكلات اجتماعية ونفسية خطيرة لسوف تفضي في الغالب إلى مفاسد وانحرافات.
رابعها: التباين بين الأفراد من حيث المطلب الغريزي - بمعنى أن ثمة تفاوتا متحققا بين الرجال في الرغبة - والناس في أمور الحياة كلها متفاوتون، فهم متفاوتون من حيث أخلاقهم وأمزجتهم، و من حيث طاقاتهم ومهاراتهم و من حيث قدراتهم العقلية والنفسية والروحية والبدنية ' ومن حيث رغائبهم في المال أو البنين أو الطعام - وهم كذلك متفاوتون من حيث رغائبهم في شهوة الجنس - إذ يفترقون في هذا المجال لتتراوح النفوس والرغبات بين الفتور أو الاعتدال أو الشدة - وتلك هي سنة الله في الناس والخلائق أجمعين.
ومن جهة أخر فإن الإسلام دين صريح ومستبين، يخاطب الإنسان عل نحو مكشوف وواضح وبغير مواربة أو ازورار - ذلك أن الإسلام يعترف للإنسان بما ركّب فيه من شهوات مركوزة فهو (الإسلام) يدعوه للأخذ بحظه من هذه الشهوات بعيد عن التحيل أو التدسس في الظلام - إن الإسلام بذلك يدعو بكل صراحة لا تعرف المجاملة أو التكلف إلى أن يمارس الإنسان الشهوة بالطريقة المشروعة الحلال من خلال التعاقد المشهود عل ملأ من الناس - أما أن تكون ممارسة الشهوة في غياهب الظلام وفي بطون المواخير حيث التلصص والخيانة وموات الضمير فذلك ما يأباه الإسلام ويعلن عليه الحرب والنكير - نقول ذلك ونحن نقف على حقائق مذهلة من أفاعيل الأفاكين دعاة التحرر الذين يعيبون على الإسلام صراحته النظيفة في التعدد مع أنهم مرتكسون في حمأة الأوساخ والقاذورات التي تتلطخ بها بيوت الدعارة والخنا ومواخير الفاحشة والرذيلة - وهذه هي الصورة التي يرتضيها المفسدون دعاة التحرر ويدعون لتطبيقها خيانة في الظلام وممارسة الرذيلة في خسة مخبوءة في أوكار الوحل والدنس - أما أن يتم ذلك بالتعاقد المشروع المشهود من خلال نكاح شرعي حلال فإن ذلك أمر مشين ومقبوح يعيبه المفسدون دعاة التحرر المبتذل!! إن هؤلاء لا يعارضون أن يقارف الرجل الشهوة مع عشرات النساء في المواخير وبيوت الدعارة، أم أن يمارسها في زواج ثان مشروع ومحسوب فذلك تأخر ورجعية كما يتصور الأفاكون المضللون!!
ثم متى يقع الحيف على الزوجة الثانية الجائية من جراء التعدد في الزواج؟ إنه لم يوقع أحد عليها حيفا؛ لأنها ارتضت الزواج بنفسها من غير قسر أو إكراه - ولو أن شيئا من القسر أو الإكراه قد وقع عليها حين الزواج لجاز أن تعتبر محيفة لكنها هي التي ارتضت لنفسها ذلك بمحض رغبتها ومطلق إرادتها.
أما الزوجة الأولى التي قد جيء إليها بضرة فإنها ليس لها أن ترفض حقا لزوجها لتحرمه من التمتع به تحت مختلف الأحوال والظروف كما بينا آنفا - لكنها إن وقع عليها حيف بسبب هذا الزواج وكان الحيف حقيقيا وخطيرا ومتعمدا من الزوج نفسه بحيث يترتب عليها من ذلك ضرر كيفما كان، فإن لها أن ترفع الأمر إل القضاء - وشأن القاضي في ذلك أن يرفع عنها الضرر حتى ولو أد ذلك إلى التطليق.
بعد هذا الكلام لا نتصور أن حيفا أو ضررا حقيقيا يقع على إحدى الزوجتين - ولو أن شيئا من ذلك وقع فإنه لا يساوي حيفا أو ضررا يحيق بالرجل من جرّاء إكراه على الاكتفاء بواحدة مهما تكن الظروف - لا جرم أن إكراهه في ذلك مدعاة لكثير من احتمالات الجنوح وفساد النفس والأعصاب.
ولا نتصور كذلك أن مثل هذه الشبهة غير اجترار تلغط به حناجر الذين يكرهون الإسلام لدوافع شتى منها الحقد أو الحسد، ومنها التقليد في نعيق سفيه أعمى للأجانب من شرقيين ملاحدة أو غربيين صليبيين واستعماريين وجميعهم يلتقون على صعيد الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين.
قوله: (فأنكحوا ما طاب لكم من النساء) قد يرض سؤال هنا: كيف جاءت " ما " للادميين مع أنها تستعمل لغير العاقل - فقد قيل

في ذلك عدة أقوال لعل خيرها أن " من " و " ما " قد يتعاقبان - ومثل ذلك قول الله سبحانه: (والسماء وما بناها) أي ومن بناها - وقوله أيضا: (فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي عل رجلين ومنهم من يمشي على أربع) - وعلى ذلك فإن هذين الاسمين يتعاقبان وقيل: (ما) هنا للصفة أي انكحوا الطيب من النساء أي الحلال والأمر في قوله: (فأنكحوا) للإباحة لا للوجوب على الأرجح - أي أن الله جلت قدرته قد أباح للمؤمنين الزواج ممن يحل من النساء - فقد اكتفى بذكر من يجوز نكاحها؛ لأن المحرمات من النساء كثير.
قوله: (مثنى وثلاث ورباع) إعراب كل من هذه الأعداد النصب على البدل من الاسم الموصول " ما " وكل من هذه الأعداد نكرة لا تنصرف؛ لأنها معدولة من لفظها - بمعنى أم مثنى معدولة عن اثنين، وثلاث معدولة عن ثلاثة، ورباع معدولة عن أربعة - ٦ وتعني الآية إباحة التعدد بالخيار من الواحدة حتى الرابعة دون زيادة - وأي زواج من خامسة مع وجود أربع زوجات فهو باطل غير معتبر ولا مشروع - ولا يدل هذا العدد الوارد في الآية وهو المثنى والثلاث والرباع على إباحة تسع زوجات بزعم أن الواو تفيد الجمع - فإن هذا الفهم فاسد؛ لمجانبته للظاهر المحكم من الكتاب والسنة ولمخالفته لما أجمع عليه سلف الأمة وخلفها مثلما هو مخالف للسان العرب - فالعرب لا تقول اثنين وثلاث وأربعة بدلا من قولها تسعة - وثمة فهم خر أشد قبحا ونكرا تمسك به بعض الروافض فقالوا بإباحة الجمع بين ثماني عشرة زوجة قائلين: إن العدد في هذه الألفاظ يفيد التكرار وأن الواو للجمع - فمثن تعني اثنين اثنين - وثلاث تعني ثلاثة ثلاثة - فأفاد ذلك إباحة الزواج من ثماني عشرة زوجة معا - وذلك مناف للشريعة واللغة في آن واحد.
وعلى ذلك فإن التحديد بأربع زوجات للإباحة أمر لا يقبل الجدال - وفي ذلك قد أخرج الإمام مالك في الموطأ وكذلك النسائي والدارقطني في سننهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لغيلان بن أمية الثقفي بعد أن أسلم وله من الزوجات عشر نسوة: " اختر منهن أربعا وفارق سائرهن ".
وأخرج أبو داود في سننه عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة فذكرت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: " اختر منهن أربعا ".
أما ما أبيح للنبي - صلى الله عليه وسلم - فوق أربع فإن ذلك من خصوصياته وذلك أمر مبني على بواعث وأسباب فرضتها اعتبارات شتى من التشريع الذي يتعلق بهدم لمفاهيم وتصورات جاهلية، أو التحبب لمختلف بطون العرب ورجالاتهم ذوي الصولة والمكانة، أو الحدب على المضيعات من النساء المسلمات اللواتي انقطعت بهن الأسباب بعد ممات أزواجهن فتعرضن للفتنة والضياع وغير ذلك من الاعتبارات التي تحركها المصلحة العليا للدعوة الإسلامية.
وبذلك فإن الاحتجاج بزواج النبي من تسع لا يصلح دليلا في هذا المجال - أما قولهم بأن الواو جامعة فإن ذلك مخالف لقواعد اللسان العربي السليم - فالله سبحانه قد خاطب العرب بأفصح اللغات ولا يعقل أن تقول العرب اثنين وثلاثة وأربعة ولا تقول تسعة - والصحيح أن الواو في هذا الموضع تعني البدل فيكون المعنى: انكحوا ثلاث بدلا من مثنى، ورباع بدلا من ثلاث.
وكذلك قولهم بأن العدل يفيد التكرار تنفيه أبسط أساليب اللغة - فالعرب لا تقول أربعة ستة ثمانية بدلا من قولها ثماني عشرة.
وقوله: (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) واحدة منصوب بإضمار فعل تقديره: انكحوا واحدة - ذلك يعني أنكم إن خشيتم عدم العدل بين الزوجات من حيث النفقة والقسم والعشرة والجماع (فواحدة) أي ينبغي الوقوف عند واحدة دون غيرها؛ كيلا يكون في التعدد حيف أو مجانبة للعدل - وقرئت واحدة بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف - والتقدير: فهي واحدة - ٧
وقوله: (أو ما ملكت أيمانكم) يريد بذلك الإماء - أي يجب الاكتفاء بواحدة أو ما تيسر من الإماء وهن ملك اليمين - ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة لنبيّن مسألة ظالما خاض فيها المبطلون والجاحدون ليثيروا حول الإسلام الظنون والشبهات، وليبعثوا في نفوس المسلمين كل ظواهر الشك والوهن.
أما الإماء أو ملك اليمين أو الجواري فإن ذلك كله ناشئ عن موضوع رئيس قد استغله الخصوم أبشع استغلال وذلك هو نظام الرق - ومن الحقيقة المغمورة التي تخف على كثير من الناس أن الإسلام قد عالج مسألة الرقيق على خير ما يكون عليه العلاج، عل نحو يستأصل هذا النظام من أساسه لو قدر للإسلام أن يظل مهيمنا على الحياة ومؤثرا في المجتمع من غير إعاقة ولا تعثير.

وحقيقة المسألة أن نظام الرق كان متفشيا في العالم كله في غير ما غرابة أو استقباح - فقد كان من الأمور العادية تماما أن ينتشر الرقيق والإماء في كل مكان، سواء كان ذلك في البيت أو الحقل أو دوائر الدولة - حتى يمكن القول بأن هذا النظام كان يمثل الدعامة الأساسية التي يستند إليها النظام الاقتصادي والاجتماعي لدى المجتمعات في الأزمنة الخالية - لقد كان نظام الرق مشروعا ومعتبرا لدى جميع النظم والشرائع والأديان التي سبقت الإسلام - فلم تنكره التوراة ولا الإنجيل ولا شريعة حمورابي ولا مذهب كونفوشيوس ولا فلسفة الإغريق وعلى رأسهم أرسطو وأفلاطون لم يستنكر هؤلاء نظام الرقيق، بل العكس هو الذي كان واقعا - فلقد كان نظام الرقيق يحظى بتقدير وإقرار العلماء والفلاسفة والمشرعين في الأزمنة الخالية جميعها - وهنا يأتي دور الإسلام في المسألة - فقد جيء بالإسلام إلى هذه الدنيا وهي على حالها من تفشي ظاهرة العبيد في كل مجالات الحياة - ومن العسير البالغ أن يعمد الإسلام لتحريم الرق طفرة واحدة من غير توطئة ولا مقدمات - ولو عمد الإسلام لهذا التحريم أول مقدمه لكان في ذلك مدعاة لانهيار اجتماعي ونفسي مرير لا يطاق - لكن الإسلام وهو يعالج مسألة الرق قد سلك في ذلك سبيلين يؤديان إلى زوال هذا النظام بالكامل ثم الخلاص نهائيا من الرق وما يتعلق به من توابع وذيول.

السبيل الأولى:

وهي تبديد أسباب الرق للقضاء على كل مظاهره ووجوده - وفي ذلك استئصال لمنابع هذا النظام من جذوره بإبادة كل مقدماته ودواعيه التي تؤول إليه - يتبين ذلك في تحريم أسباب الرق كتحريم الإسلام للظلم والاستعباد بغير حق أو إيجاب الانتظار من الدائن للمدين حتى المسيرة فلا يسترقه مقابل دينه الذي يعجز عن أدائه - قال سبحانه: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إل ميسرة) - وكان من عادة العرب الجاهلين إذا استقرض منهم الفقير مالا ولم يستطع أن يؤديه عند حلول أجله، استرقه الدائن في مقابل دينه - لكن ذلك في الإسلام محظور البتة وعلى الدائن أن ينتظر حتى ميسرة المدين.

وعلى هذا فإن نظام الرق لا يلبث أن يتبدد ويتلاش مع مرور الزمن مادامت أسبابه وبواعثه قد أوقفت، أو مادامت أبوابه التي تؤدي إليه قد أوصدت، نتصور ذلك ونحن نتخيل نهرا كبيرا جاريا له روافد عديدة تمده بالأمواه من كل مكان حتى إذا تلاقت جميعا تمخضت عن نهر كبير جار - ولا سبيل إلى تجفيف هذا النهر الكبير إلا إذا عولنا عل تجفيف روافده وأسبابه - وتلك هي الحال بالنسبة للرق الذي كانت له دواع ومؤديات كثيرة قد عمد الإسلام من أول يوم لإيقافها وتحريمها كيما يتسنى لهذا النظام أن يتلاش ويضمحل.

السبيل الثاني:

وهي التحرير أي تحرير الرقاب المسترقة من إسار العبودية إلى حيث الانعتاق والحرية - وللإسلام في ذلك دوره العظيم فيما يتعلق بتحرير الرقيق نهائيا - وقد تجلى ذلك في دعوة الإسلام من أجل إعتاق العبيد حتى أقبل المسلمون جميعا في همة عظيمة ونخوة لا يحدها حد من أجل إعتاق العبيد لا لمطمع مادي أو دنيوي بل ابتغاء وجه الله ومرضاته.

وقد شرع الإسلام من أجل ذلك حكمين - أحدهما يفيد الوجوب المفروض وثانيهما يفيد المندوب المستحب، وفي كلا الحكمين يكون المعتق مأجورا و له من ربه كبير المثوبة - أما حكم الوجوب المفروض فهو منتشر في جوانب شتى من السلوك والتصرفات التي تتعلق بمخالفات يرتكبها الناس في حياتهم كلما زلوا أو أخطأوا.

ومن جملة ذلك القتل الخطأ والحنث باليمين والظهار والجماع حال الصيام وغير ذلك من المخالفات - فإن من يجترح شيئا من ذلك فقد بات لزاما عليه أن يعتق رقبة.

أما حكم المندوب المستحب فهو ينتشر في كل جوانب الحياة بغير حدود - وهو حكم لا يتجاوز حد الندب والاستحباب وقد أهاب الإسلام بالمسلمين جميعا أن يسخوا في همة وتضحية في العتق - لقد هتف الإسلام بالمسلمين هتافا حانيا مؤثرا يخاطب الحس والوجدان، وينفذ إلى القلب في صميمه كيما يسارعوا في نخوة عارمة لا تتردد من أجل تحرير العبيد - وقد استجاب المسلمون في مختلف الأزمنة والأمكنة لنداء الإسلام بالتحرير حتى كان الناس يتسابقون في سخاء وشهامة رفيعة على الإعتاق عن طيب خاطر - فكانت ظاهرة العتق للعبيد مثار اهتمام المسلمين واستباقهم المتزاحم على التحرير.

بمثل هذا التشريع يتبدد نظام الرق ويذوي ليتلاش رويدا رويدا - وتبعا لذلك فلسوف تنتهي مسألة الإماء أو الجواري - وهي مسألة

لصيقة بنظام الرق أصلا - وليس بعد ذلك لمتحذلق مغرض أن يطعن في الإسلام طعنا يصمه بالكفر أو الردة ولا يجترئ على مثل هذا الطعن الغادر إلا معتد خصيم أو جاهل يلغط في نعيق كنعيق الغربان.

إن الإسلام فوق كل شبهة، وهو يسمو على الطعون لو قدّر لبني ادم أن يقفوا عل هذا الدين في تشريعه وتصوره وفكره - وأن يعوه في تدبر وتبصر بعيدا عن التعصب والحقد والجهل.

وقوله: (ذلك أدنى ألا تعولوا) تعولوا من العول وهو الميل والجور والمعنى: أن الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت أيمانكم أقرب إلى أن لا تميلوا عن الحق والعدل فتحيفوا وتظلموا - نقول: عال الميزان عولا إذا مال - وعال الحاكم في حكمه إذا جار - وقيل: تعولوا من العيلة وهي الفقر - مصدر عال يعيل فهو عائل أي فقير، والجمع عالة - وقال الإمام الشافعي في تأويل (ألا تعولوا): ألا تكثر عيالكم ٨.

٤ - (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا)

قوله تعالى: (وءاتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا).

الصدقات مفردها صدُقة بضم الدال، وهي المهر يعطي للمرأة حال الزواج، ٩ ونحلة بمعنى عطية أي أن الله هو الذي أعطى النساء مهورهن - وقيل: نحلة معناها عن طيب نفس وبغير نزاع - وقيل: نحلة تعني: فريضة واجبة - ١٠

والمخاطب في هذه الآية موضع خلاف المفسرين - فثمة قول بأنهم الأزواج قد أمرهم الله بعطاء الزوجات مهورهن دون تردد أو شح - وفي قوله آخر: إنهم الأولياء وقد كلفهم الله ألا يأكلوا مهور البنات عند الزواج كالذي كان عليه الشأن في الجاهلية، وقد أورد أهل البيان معنى لطيفا مأخوذا من نوعية الحروف التي تتألف منها كلمة الصداق وهي الصاد والدال والقاف - وقالوا: إن هذه الحروف تنطوي على الشدة والحزم وهي إنما يليق استعمالها في مجال العزم والقوة - وفي ذلك دلالة على أن مهر المرأة قد شددت الشريعة عل دفعه للمرأة بحزم من غير وناء أو لين - وتدل الآية على وجوب الصداق للمرأة عند الزواج بغير خلاف - فقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن أقل المهر عشرة دراهم - وقال الإمام مالك: إن أقله ربع دينار أو ثلاثة دراهم - وقال آخرون: إنه يصح أن يكون المهر عملا يؤديه الزوج لزوجته كأن يكون ذلك تعليما أو زراعة أرض - ويصح أن يكون المهر كذلك منفعة من المنافع التي تتقوم بالمال مثل سكنى الدار أو الانتفاع بالأرض.

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه لا حد لأقل المهر، وقالوا: إن كل ما يصلح أن يسمى مالا جاز أن يكون مهرا لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لأحد الخاطبين: " التمس ولو خاتما من حديد " ١١.

ويحل للأزواج أو الأولياء أن يأكلوا شيئا من المهر إن طابت به أنفس الزوجات وقدمنه بغير قسر أو إكراه أو استحياء - وقوله (نفسا)، منصوب على التمييز.

وقوله: (فكلوا هنيئا مريئا= ليس المقصود هنا صورة الأكل بالذات، بل المراد هو استباحة الاستفادة والاستغلال بأي وجه من وجوه الانتفاع - وقد ذكر الأكل لوقوعه في الغالب.

(هنيئا مريئا) كلاهما منصوب على الحال - والتقدير هو: فكلوه أكلاه هنيئا مريئا - والهنيء معناه الطيب الذي لم يأت بتعب أو مشقة - والمرئي السهل الذي لا ضرر فيه ولا أذى.

٥ - (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا)

قوله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) - أمر الله تعالى ألا تعطى الأموال للسفهاء وهم الجهال والطائشون الذين يبددون الأموال في خفة وطيش - وبذلك فإن الآية في شمولها واتساعها تتناول من يتصرف في المال باستخفاف وبغير روية أو اتزان أو ما كان في غير مصلحة معتبرة ويندرج في مفهوم هذه الآية من وجب الحجر عليه لسفهه ورعونته واستخفافه كالمبذرين الذين يبددون الأموال في إسراف كريه، والصغار الذين لا تسعفهم أحلامهم في التصرف الحسن الموزون، وكذلك المغفلون الذين يتعاملون ويتبايعون في غير وعي ولا إدراك ولا خبرة في مثل هذا المجال بحيث يظلون عرضة للاستغفال من الطامعين الذين لا ينثنون عن أكل الحرام واستغلال الضعفاء.

وفي قوله: (أموالكم التي جعل الله لكم قياما) ما يشير بوضوح إلى أن المسلمين جميعا مستخلفون في المال وأنهم جميعا مدعوون بالحفاظ على المال وصونه، كيلا يتبدد بسبب السفه والسفهاء - والمال وإن كان يملكه صاحبه لكنه مجرد أمانة في ذمة صاحبه يتوجب عليه أن يحافظ عليها فيرعاها وينميها لينتفع بها هو والمسلمون من حوله - وليس لأحد أن يزعم أنه حر في ماله بإطلاق ما دام يملكه - بل إنه حر بالقدر الذي لا يتضرر به المال فيتلاشى ويتبدد - أو أنه حر بقدر متوسط ومناسب بحيث يستطيع القيام بتنمية هذا المال الذي في حوزته فلا يتضرر هو والآخرون من جراء انعدام المال والافتقار - وقوله: (قياما) أي تقوم بها معايشكم وتصلح بها أموركم في دوام من الحال وثبات - وقياما، مصدر بمعنى الثبات والدوام في صلاة الحال ١٢.

وقوله: (وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) - بعد أن يقوم الحجر على السفهاء فلا يتصرفوا في المال بغير هدى أو تبصر سليم وجب ألا يقع عليهم حيف - فإنه على الأوصياء أو الأولياء الذين يتصرفون في أموال السفهاء بالحق أن ينفقوا على هؤلاء السفهاء ليبذلوا لهم كل ما يحتاجون إليه من وجوه الرزق والاكتساء والإيواء فيتمكنوا من العيش بخير وراحة - وكذلك يندب الله الأولياء والأوصياء أن يقولوا للسفهاء قولا معروفا مثل الدعاء لهم بالقول: بارك الله فيكم، أو مخاطبتهم باللين وكريم القول بما فيه ترضية لنفوسهم وتطييب لخواطرهم.

٦ - (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

قوله تعالى: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا).

نزلت هذه الآية في ثابت بن رفاعة وفي عمه - فقد توفي رفاعة وترك ابنه صغيرا من بعده فأتى عم ثابت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال: إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ فنزلت الآية ١٣.

قوله: (وابتلوا اليتامى) أي امتحنوهم واختبروهم لتعلموا نجابتهم ومعرفتهم بالسعي في مصالحهم وضبط أموالهم، ويكون ذلك عقب بلوغهم النكاح أي البلوغ أو الحلم.

قوله: (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) الرشد معناه: الصلاح وإصابة الصواب، وهو خلاف الغي والضلال والمراد به هنا: الصلاح في العقل والدين وحفظ المال ١٤ أي إن أبصرتم وأحسستم منهم صلاحا في العقل والدين وحفظ المال ولم تخشوا منهم تفريطا في المال وتبديدا فأعطوهم أموالهم التي كانت لهم بحوزتكم وتحت رعايتكم.

ويؤخذ من هذه الآية أن دفع المال لليتيم إنما يكون بشرطين هما: إيناس الرشد ثم البلوغ - فإن وجد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال إليه - وذلك الذي عليه جمهور الفقهاء - لكن أبا حنيفة قد أسقط إيناس الرشد ببلوغ خمس وعشرين سنة - فإنه لو بلغ اليتيم خمسا وعشرين سنة وجب دفع المال إليه ولو لم يكن راشدا - وقد علّل أبو حنيفة ذلك بأنه (الموصى عليه) في مثل هذه السن يصبح جدا ولا يعقل أن يحجر على الجد - والراجح عندي ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من بقاء الحجر عليه مادام غير راشد بالغا من السن ما بلغ - وذلك ما يقتضيه ظاهر الآية (رشدا) فلا معنى لدفع المال إليه ما دام مفرطا في المال، وغير صالح في التصرف؟

واختلف الفقهاء في لزوم الرفع إلى السلطان عند دفع المال إلى اليتيم أم أن ذلك موكول إلى اجتهاد الوصيّ فسه من غير حاجة إلى إبلاغ السلطان - فقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الرفع إلى السلطان ليثبت عنده رشد اليتيم ثم يدفع إليه ماله - وقال آخرون: إنه يكفي في ذلك اجتهاد الوصي ومعرفته بحال اليتيم إن كان قد بلغ الرشد أو لم يبلغ.

ولو أن الوصيّ سلّم اليتيم ماله بعد الرشد ثم عاد إليه السفه لتبذير أو سوء تدبير أو غيره فعل يعود إليه الحجر في ماله؟ قال مالك والشافعي في أحد قوليه بعودة الحجر - وقال أبو حنيفة: لا يعود إليه الحجر لمجرد بلوغه عاقلا وذلك بدليل صحة إقراراه في الحدود والقصاص - واستبدال مالك والشافعي على عودة الحجر بقوله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) وهذا هو الراجح والله أعلم

١٥.
وقد ورد في بيان كلمة (بالمعروف) أقوال عديدة نقتصر منها على اثنين - فقال قوم: المقصود بالمعروف هو القرض يأخذه الوصي من مال اليتيم إذا احتاج إليه حتى إذا أيسر قضه إياه - وهو قول كثير من أهل العلم منهم عمر بن الخطب وعبد الله بن عباس والأوزاعي وغيرهم - أما القول الثاني: فلا قضاء على الوصيّ الفقير فيما يأكل بالمعروف، لأن ذلك في مقابل حرصه وانشغاله بالعناية والاهتمام بمال المحجور - وهي طعمة من الله له - وقدر المعروف هنا أن يأكل ما يسد جوعته ويكتسي بما يستر عورته ولا يلبس الرفيع الفاخر من الحلل وغير ذلك - وذلك هو قول جمهور الفقهاء - وهو الراجح، والدليل على صحة ذلك إجماع الأمة على أن الإمام الناظر لشؤون المسلمين لا يجب عليه دين عوضا عما أكل بالمعروف من أموال المسلمين.

قوله: (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا) إذا دفع الوصيّ مال اليتيم إليه بعد البلوغ والرشد فعليه الإشهاد على ذلك وهو من قبيل التثبت وإزالة الشبهة والتهمة - وهذا الإشهاد مستحب عند فريق من أهل العلم - وقال آخرون: بل انه فرض لظاهر الآية والله أعلم.

والتعقيب المناسب في الآية أن يخوف الله عباده الأوصياء فلا يميلوا أو يقصروا، فإنه سبحانه يجازيهم على أفعالهم أو ما تكنه صدورهم وكفى به محاسبا ومجازيا ١٦.

٧ - (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

وقوله تعالى: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) هذه الآية توطئة لنظام المواريث ومقدمة لها - وقد ورد أنها نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري، إذ توفي وترك امرأة اسمها أم كجة وثلاث بنات له منها - فقام رجلان هما ابنا عم المتوفّى يقال لهما سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئا وقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وطاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز الغنيمة - فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهما فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكأ عدوا - فقال عليه السلام: " انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن " فأنزل الله هذه الآية ردا عليهم بما في ذلك من إبطال لقولهم وتصورهم - وعلى ذلك فإن هذه الآية تنطوي على مبدأ عام وأساس يتعلق بنظام المواريث وهو أن الذكور والإناث مشتركون جميعا في التركة التي يموت عنها المورّث - وأنه لا تمييز في ذلك ولا اعتبار للذكورة أو الأنوثة في هذه المسألة كما أن الصغار والكبار في الاستحقاق سواء - فإن الأخ الكبير يرث بقدر ما يرثه الأخ الصغير ولو كان رضيعا، حتى أن الجنين في بطن أمه له في الاستحقاق حساب كما لو كان كبيرا ساعيا يدب على الأرض ١٧.

ولعل في تسمية السورة – أساسا- بهذا الاسم ما يحمل الدلالة على مدى الحرص الذي يحشده الإسلام وهو يحوط النساء بالاهتمام والرعاية ليدفع عنهن كل بوائق التعدي والظلم ويجلب لهن أسباب الخير والتقدير والإكرام - واهتمام السورة بأمر النساء إلى هذا الحد العظيم كان مدعاة تلفت النظر إلى الدرجة التي تسمى فيها السورة كلها باسم " النساء ".

٨ - (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا)

قوله تعالى: (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا) تتعلق هذه الآية بالذين لا يستحقون شيئا من الإرث وقد حضروا قسمة التركة وكانوا من الأقارب أو اليتامى أو المساكين - فإن هؤلاء عند القسمة يكرمون بشيء من المال ولا يحرمون - وإن كان المال قليلا أو عقارا لا يقسم قوبلوا بالاعتذار عن الإعطاء - وعلى هذا الأساس فإن الآية محكمة ولم يقع عليها ما ينسخها - وذهب بعض العلماء إلى أن الآية منسوخة بآية المواريث وهي (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) والراجح القول الأول وهو أن الآية محكمة وليسن منسوخة - ويمكن دفع الظن بالنسخ بأن المقصود بالأقارب هنا من ليسوا من الورثة لنجزم بعد ذلك أن الآية محكمة ولم يقع عليها نسخ.

أما قوله: (فارزقوهم) فإنه يفيد الندب والترغيب وذلك من باب الاستحباب لعمل الخير والشكر لله سبحانه وتعالى - وقيل: إن الآية

تدل على الوجوب أخذا بالظاهر - وإن كان الوارث صغيرا لا يتصرف في ماله للحجر عليه فهل يُعطي وليّه من ماله لمن بينّا آنفا؟ فقد قال فريق من العلماء بأن له ذلك - وقيل: لا يعطي بل يعتذر لمن حضر القسمة بأنه ليس له من المال شيء إنما هو لليتيم.
قوله: (وقولوا لهم قولا معروفا) - مع تقديم الرزق لمن حضر القسمة من الأقارب واليتامى والمساكين يقول لهم الورثة: خذوا بورك لكم، أو: وددت أن لو كان أكثر من هذا - أو من هذا القبيل وكله من القول المعروف.
٩ - (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)
قوله تعالى: (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا).
وليخش: اللام للأمر - والمقصود في الآية موضع خلاف العلماء - فقد قيل: هم الأوصياء، فإن الله يعظهم أن افعلوا باليتامى من الخير والنصح والرعاية ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم - وقيل في رأي ثان: المراد جميع الناس فقد أمروا بأن يتقوا الله في اليتامى فيحسنوا معهم المعاملة ويسددوا لهم القول مثلما يريدون أن يُفعل بأولادهم من بعدهم.
وفي قول ثالث لجمع كبير من المفسّرين وهو الراجح، أن الرجل يحضره الموت فيقول له من يحضره عند وصيته: إن الله سيرزق ولدك فانظر لنفسك وأوص بمالك كله أو معظمه في سبيل الله، فيأتي على ماله أو غالبه مما يوقع ضررا فادحا بورثته فنهاهم الله عن ذلك - وعلى ذلك فالنهي والتحذير هنا متعلقان بمن يحضر الوصية إذا حضرت الوفاة المورث - فكأن الآية تقول لهم: مثلما تخشون على ورثتكم وأهليكم وذريتكم من بعدكم فكذلك خافوا على ورثة غيركم وذريتهم ولا تحملوا الموصي الموروث على التبذير في العطاء والوصية ليدع من بعده أهله عالة فقراء يتكففون الناس.
قال ابن عباس في ذلك: إذا حضر الرجل الوصية فلا ينبغي أن يقول: أوص بمالك فإن الله تعالى رازق ولدك ولكن يقول قدّم لنفسك واترك لولدك، فذلك قوله تعالى: (فليتقوا الله).
قوله: (وليقولوا قولا سديدا) القول السديد هو الكلام العدل أو الصواب من القول والفعل ١٨، والمعنى أن الله سبحانه يدعو الحاضرين للوصية أن يأمروا المريض وهو المورث الموصي بأن يوصي من ماله بالقدر المناسب الذي لا يلحق ضررا بورثته.
١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)
قوله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) - ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية قد نزلت في الأوصياء الذين يأكلون ما لا يجوز أكله من مال اليتامى - ولعل الأظهر في الآية أن تدل على العموم ليشمل المراد بها كل من يعتدي على مال اليتيم سواء كان وصيا أو غيره - إذ لا يشترط أن ينحصر أكل مال اليتيم في الأوصياء دون غيرهم فإن كثيرا من الطامعين والعصاة من غير الأوصياء يتطاولون على اليتيم في ماله ليأكلوه دون تورّع أو تقوى.
ولا ينحصر الاعتداء في الأكل، بل إنه يشمل كل وجوه الأخذ والإتلاف - لكنه قد ذكر الأكل لكونه الغالب في كيفية الاستفادة من المال - وفي الجملة فإن الاعتداء على مال اليتيم بأكله أو استلابه وأخذه بغير حق لا جرم أن يكون ظلما، والظلم معناه وضع الشيء في غير موضعه، وهو انحراف وميل عن القسطاس المستقيم وعن شرع الله الحكيم - والآكلون لأموال اليتامى هم من الظلمة الفسّاق الذين ستكتوي جلودهم وأبدانهم بلظى النار الحارقة فضلا عن أكل النار إذ تلج بطونهم فتتأجج فيها تأججا.
ومن لطيف المعنى المنبثق من التعبير بالبطون أن يكون في ذلك بيان لنقص الآكلين وخستهم وما هم عليه من ضعة وابتذال وفساد للطبع - ولا جرم أن يكون ذلك من التشنيع عليهم وإركاسهم في الهوان والحضيض.
وفي ذلك روي عن أبي سعيد الخدري قال: حدّثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ليلة أسري به قال: " رأيت قوما لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكّل بهم من يأخذ بمشارفهم ثم يجعل في أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم فقلت: يا جبريل من هؤلاء - قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما " وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " اجتنبوا السبع الموبقات " قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال " الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال

اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " وعلى ذلك فإن أكل مال اليتيم لهو من كبائر الإثم والفواحش التي تودي بالآكلين الظالمين في العذاب الشديد.

قوله: (وسيصلون سعيرا) من الصلي أو الصلاء وهو حر النار أو الوقود، أو هو التسخين أو التحمية بالنار سواء كان ذلك بالاقتراب منها أو مباشرتها ١٩.

١١ - (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

قوله تعالى: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد ورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما).

هذه الآية، وما بعدها في المواريث تبيين وتفصيل لما أجمله قوله تعالى: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون - - .) ولا جرم أن هذه الآية التفصيلية وما بعدها مما تعلق بالمواريث لهي من أركان الشريعة الإسلامية ومن أمهاتها - فهي آيات عظيمة القدر والمعنى؛ لاحتوائها على أخص الحقوق للبشر وهي الفرائض (المواريث) التي روي أنها ثلث العلم أو نصفه وهو أول علم ينزع من الناس وينسى - وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم وهو أول شيء ينسى وهو أول علم ينتزع من أمتي " - وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " تعلموا القرآن وعلّموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلّموها الناس فإني امرؤ مقبوض وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يفصل بينهما ".

والسبب في نزول هذه الآية موضع خلاف العلماء، وقد ورد في ذلك جملة أقوال نجتزئ من بينها ما نجده صوابا - لما رواه في ذلك الترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارقطني عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت: يا رسول الله إن سعدا هلك وترك بنتين وأخاه فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد وإنما تنكح النساء على أموالهن، فلم يجبها النبي في مجلسها ذلك - ثم جاءته فقالت: يا رسول الله ابنتا سعد؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ادع لي أخاه " فجاءه فقال له: " ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي ".

وقيل في سبب النزول: إن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون إلا من لاقى الحروب وقاتل العدو فنزلت الآية لتبين أن لكل صغير وكبير حظه في التركة، يستوي في ذلك أن يكون ذكرا أو أنثى ٢٠.

قوله: (يوصيكم الله في أولادكم) ذهبت الشافعية إلى أن المقصود على الحقيقة هم أولاد الصلب، أما أولاد الأبناء فهم أولاد على المجاز لا الحقيقة - وخالف في ذلك أبو حنيفة وقال بدخول أولاد الأبناء على الحقيقة إن لم يكن ثمة أولاد أصلاب ٢١.

ولا يؤخذ بظاهر الآية على إطلاقها ليدخل في الميراث جميع الأولاد ولو كانوا كفارا - فإن ذلك الإطلاق مقيّد بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا يرث المسلم الكافر " وبذلك لا يتوارث المسلمون وغير المسلمين إنما يتوارث أهل الملة الواحدة - وفي ذلك روى البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث عن أسامة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر ".

ولا يرث القاتل لمورّثه عمدا كان أو خطأ - فإن قتله عمدا فلا يرث بالإجماع - أما إن قتله خطأ فلا يرث أيضا عند جميع المذاهب باستثناء الإمام مالك إذ قال القتل الخطأ لا يمنع التوريث - ولعل ظاهر الدليل من السنّة يجعل رأي الجمهور الصواب فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول فيما رواه ابن ماجه: " ليس لقاتل ميراث " وهو نص صحيح لا نقف على ما يقيده فأجدر أن يؤخذ بإطلاقه.

والفرائض الواقعة في كتاب الله تعالى ستة هي: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس - أما النصف فهو فريضة خمسة من

الورثة هم: ابنة الصلب، وابنة الابن، والأخت الشقيقة والأخت لأب، والزوج - وذلك في حال انفرادهم عمّن يحجبهم من هذه الفرائض أما إن كان ثمة من يحجبهم انخفض فرض كل منهم بحسب حاله.
وأما الرابع فهو فرض الزوج مع الحاجب وهم الأولاد - وفرض الزوجات مع عدم الحاجب من الأولاد.
وأما الثمن فهو فرض الزوجة والزوجات مع وجود الحاجب من الأولاد.
وأما الثلثان فهو فرض أربعة من الورثة هم: اثنان فأكثر من بنات الصلب، وبنات الابن، والأخوات الشقيقات، أو الأخوات لأب - وذلك في حالة انفراد هؤلاء عمن يحجبهن عن هذه الفرائض.
أما الثلث فهو فرض صنفين وهما: الأم مع عدم الولد أو ولد الابن أو عدم الاثنين فأكثر من الإخوة والأخوات - ثم فرض الاثنين فصاعدا من ولد الأم وهذا هو ثلث كل المال - أما ثلث ما يتبقى من المال فهو للأم وذلك في حالة الزوج والزوجة والأبوين فإن للأم فيها ثلث ما يبقى.
وأما السدس فهو فرض سبعة وهم: الأبوان والجد مع الولد وولد الابن، ثم الجد والجدات إذا اجتمعن، ثم بنات الابن مع بنت الصلب، ثم الأخوات للأب مع الأخت الشقيقة ثم الواحد من ولد الأم ذكرا كان أو أنثى.
على أن الأسباب الموجبة لهذه الفروض بالميراث ثلاثة أشياء: نسب ثابت، ونكاح منعقد، وولاء عتاقة - وقد تجتمع الثلاثة في آن واحد كأن يكون الرجل زوج المرأة ومولاها وابن عمها فيرث بالنسب والزوجية وولاء العتاقة - وقد يجتمع منها شيئان فقط كأن يكون الرجل زوج المرأة ومولاها، أو زوجها وابن عمها فيرث بوجهين ويكون له جميع المال إذا انفرد، فله بذلك نصف المال بالزوجية والنصف الآخر بالولاء أو النسب ٢٢.
أما أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين فإن ذلك غاية في الاعتدال والنصفة، وغاية في التقسيم الذي يراعي حاجة الصنفين وهما الذكر والأنثى - وهذا التقسيم المتوازن السليم إنما ينبثق من تصور الإسلام للحياة والمجتمع ومن تشريعه المتميز الذي ينظّم حياة الأفراد والجماعة على غاية من الإحكام والترابط والعدل - والإسلام في هذه المسألة بالذات يوازن موازنة تامة بين الحقوق والواجبات أو بين حاجة كل من الرجل والمرأة للمال نظرا للتفاوت بينهما في مدى الحاجة للمال؛ كيلا يكون شيء من حيف أو إرهاق أو مكابرة.
والمرأة في التوريث لها من النصيب نصف ما للرجل باستثناء بعض الأحوال في تقسيم التركة، وهي لها من الحظ بقدر ما تضطلع به من التزام، أو هي تتلقى من المغنم بما يكافئ ما عليها من مغرم جزاء وفاقا.
ومن المعلوم في شريعة الإسلام أن المرأة لا تضطلع بأعباء مالية في معظم مراحل حياتها - فهي يضطلع بالإنفاق عليها وليها الأب أو الجد أو غيرهما حال كونها غير متزوجة، وإذا لم يكن أحد من الأولياء فالوالي هو الولي - وهي كذلك في بيت الزوجية لا تضطلع بشيء من التزام مالي كيفما كان حتى ولو كانت موسرة وزوجها معسرا عند كثير من العلماء - وفوق براءتها من الاضطلاع بمهمة الإنفاق فقد كتبت لها الشريعة نصيبا مفروضا من التركة وهي نصف الذكر.
وليس لأحد بعد هذا التصور أن يتحذلق في سوء طوية وفساد قصد ليفتري على الإسلام الأباطيل من حيث يعلم أولا يعلم - إنه لا يجترئ على الطعن في الإسلام إلا كل جاحد كافر، أو مضلّل مخدوع، يهذي بما لا يدري إلا أن يردد كالببغاء ما تلعقه ألسنة الحاقدين والمتعصبين من أعداء الإسلام ممن أفرزتهم الحضارة الغربية الحديثة بكل مفاسدها وضلالاتها وشرورها وتمردها على رسالات السماء.
قوله تعالى: (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) فرض الله للبنت الواحدة نصف التركة - وإن كانت البنات ثلاثا فأكثر فلهن ثلثا التركة بدليل الآية المذكورة - أما البنتان الثنتان فليس فيهما نص واضح هنا فاختلف العلماء في الذي يعطي للبنتين - فثمة قول بأن لهما النصف كما ذهب ابن عباس - والراجح أن لهما الثلثين بالقياس على الأختين اللتين قال الله فيهما: (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك).
قوله: (وإن كانت واحدة فلها النصف) أي إذا كانت المولودة واحدة فلها نصف التركة وإن كان مع بنات الصلب بنات ابن وكانت بنات الصلب اثنتين فصاعدا حجبن بنات الابن فلا يرثن بالفرض؛ لأنه لا مجال لبنات الابن في التوريث بالفرض في غير الثلثين - وإن كانت بنت الصلب واحدة فإن ابنة الابن أو بنات الابن يرثن حينئذ مع بنات الصلب تكملة للثلثين؛ لان " الثلثين " فرض تشترك فيه

البنتان فصاعدا - وبنات الابن يقمن مقام البنات عند عدمهن، وكذلك أبناء البنين يقومون مقام البنين عند عدمهم ٢٣.
فلو توفي عن زوجة وبنت وبنت ابن وأخت - كان للزوجة الثمن وللبنت النصف ولبنت الابن السدس تكملة للثلثين وهو فرض البنات، وما بقي فهو للأخت - ولو توفي عن زوجة حبلى قسمت التركة بين الورثة الموجودين على أن تحتجز حصة الجنين ريثما يولد؛ لأنه يرث ويورث إذا خرج حيا واستهل (بكى عند الولادة) أما إن خرج ميتا فلا يرث وأعيد توزيع حصته على الورثة كل بحسب نصيبه.
وحق الجنين في التوريث معتبر، فإذا قسمت التركة حسبت حصته على أنه ذكر، وقيل حسبت على أن الجنين توأمان وقيل ثلاث وقيل أكثر - وفي ذلك دلالة على الاهتمام بالمولود كي يتمكن من العيش في خير وعافية.
وترد هنا مسألة الخنثى فهل يورث باعتباره ذكرا أم أنثى وكيف يتحقق من نوعيته على إحدى الصورتين؟ والمسألة موضع خلاف طويل نقتصر من ذلك كله على بيان واضح ومجمل، وهو أن العلماء اتفقوا على أن الخنثى يمكن توريثه على الكيفية التي بها يبول - فإن بال من حيث يبول الرجل ورث كما يرث الرجل، وإن بال من حيث تبول المرأة ورث كما ترث المرأة - فهو معتبر على الكيفية التي بها يبول ومن ثم يكون على إحدى الصورتين إما الذكورة أو الأنوثة - وهناك أقوال كثيرة في هذا الصدد لا مجال لذكرها هنا ٢٤.
قوله: (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك وإن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس).
المقصود بالضمير في أبويه هو المتوفى - والأبوان هما الأب والأم ولهما في الإرث أحوال:
أولها: أن يجتمعا مع أولاد الميت فيفرض لكل واحد منهما السدس - فإذا لم يكن للميت غير بنت واحدة كان لها الصنف ولكل واحد من الأبوين السدس - والسدس الآخر للأب بالتعصب فيرث في هذه الحالة بالفرض والتعصب.
ثانيها: أن ينفرد الأبوان بالميراث فيكون للأم الثلث ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب فقط.
ولو كان مع الأبوين زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع - ثم ماذا للأم بعد ذلك؟ هناك ثلاثة أقوال للعلماء في هذه المسألة:
القول الأول: إن تأخذ الأم ثلث الباقي في المسألتين وليس ثلث المال كله؛ لأن الباقي يعتبر كأنه جميع المال الموروث بالنسبة لها، مع أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لها نصف ما للأب فيكون لها بذلك الثلث وللأب الثلثان - وذلك الذي ذهب إليه جمهور العلماء.
القول الثاني: إن الأم تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله تعالى: (فلأمه الثلث) وهو قول ابن عباس وعلي ومعاذ بن جبل.
القول الثالث: إنها تأخذ ثلث جميع المال في حال الزوجة لا الزوج - وتأخذ ثلث الباقي في حال الزوج؛ وذلك لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال - فتكون المسألة هنا من ستة أسهم - للزوج النصف وهو ثلاثة أسهم - وللأم ثلث الباقي وهو سهم - وللأب الباقي وهو سهمان - ويبدو أن القول الأول هو الراجح وهو أن تأخذ الأم ثلث الباقي في الحالتين.
ثالثها: أن يجتمع الأبوان مع الأخوة سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم - فلا يرث الإخوة مع الأب شيئا؛ لأنه يحجبهم - أما الأم فإنهم يحجبونها حجب نقصان إذ تأخذ السدس بدلا من الثلث فيفرض لها مع وجودهم السدس ولا يرثون - وهي لا يحجبها الأخ الواحد، بل يحجبها ما فوق ذلك ليتحول فرضها من الثلث إلى السدس ٢٥.
قوله: (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وذلك من الحقوق المتعلقة بالتركة، فإذا مات المرء تعلقت بتركته حقوق الآخرين غير الورثة - وأول هذه الحقوق الدين الذي يشغل ذمة الميت إذا بقي إلى ما بعد الوفاة بغير أداء - ثم الوصية وهي التي وعد بها الموصي حال حياته - فكلا الحقين وهما الدين والوصية يقدمان على حق الورثة في تقسيم التركة - وليس لهم أن يطالبوا بتوزيع تركة المتوفى أو التصرف بها إلا بعد أداء الدين أولا ثم الوصية في حدود ثلث المال ثانيا.
وفي تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين في الآية ما يثير التساؤل، مع أن العلم من السلف والخلف قد أجمعوا على أن الدين مقدم على الوصية - وفي هذا المعنى أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة عن علي بن أبي طالب قال: إنكم تقرأون (من بعد وصية يوصى بها أو دين) إن رسول اله (ص) قضى بالدين قبل الوصية.
وثمة وجوه في الحكمة من تقديم ذكر الوصية في الآية على ذكر الدين، نقتضب منها ثلاثة وجوه هي:

الوجه الأول: أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان في إخراجها ما يشق على أنفس الورثة، فكان أداؤها مظنة للتفريط منهم، وذلك بخلاف الدين فإن الورثة مطمئنون إلى أدائه - من أجل ذلك قدم الله ذكر الوصية على ذكر الدين تحريضا للورثة على أدائها وترغيبا لهم في إخراجها من غير تردد أو تثاقل - ويؤيد استواء الوصية والدين في الوجوب قوله: (أو).

الوجه الثاني: قدم الوصية لكثرة وقوعها - فأكثر المسلمين لا يفارقون هذه الدنيا إلا وقد تركوا لأنفسهم من خلفهم وصية يرجون بها جزيل المثوبة من الله - لكن الدين أقل وجودا - فهو ربما يقع أو لا يقع.

الوجه الثالث: قدمت الوصية في الآية، لأنها حظ المساكين والضعفاء، أما الدين فإنه حظ الغرماء - والغريم يطلب دينه من المدين بقوة السلطان والقضاء.

قوله: (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) لا داعي للمحاباة ومجانبة العدل والمساواة - وليس لأحد أن يميل بهواه وعاطفته صوب من يرغب من آباء أو أبناء، فإن المنفعة متوقعة ومرجوة من هذا مثلما هي متوقعة ومرجوة من الآخر - وعلى ذلك فإن الله سبحانه قد فرض لهذا وهذا وساوى بين الجميع في أصل الميراث كل بحسبه خلافا لما كانت عليه الحال في الجاهلية - وليت شعري هل يدري المرء من أنفع له، هل هو الابن أم الأب؟ والمراد بالنفع في الدنيا الدعاء المستجاب، والشفاعة يوم القيامة، فقد ذكر عن ابن عباس والحسن أن الابن إذا كان أرفع من درجة أبيه في الآخرة سأل الله فرفع إليه أباه - وكذلك الأب إذا كان أرفع من ابنه.

قوله: (فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما) أي ما تبين من أحكام للتوريث وإعطاء بعضهم أكثر من بعض هو فرض قد فرضه الله وقضاه بعلمه وحكمته فهو العليم بمواضع الخير والحق الحكيم في تصرفه وتقديره ٢٦.

١٢ - (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ)

قوله تعالى: (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين).

الخطاب في هذه الآية موجه للرجال - والمقصود بالولد هنا هم بنو الصلب وبنو بنيهم وإن سفلوا كانوا ذكورا أو إناثا، واحدا أو أكثر، وذلك ما أجمع عليه العلماء بغير خلاف وأجمعوا أيضا على أن للزوج نصف ما تركته الزوجة من مال إذا لم يكن لها ولد وإن سفل - وللزوج مع الولد الربع - أما الزوجة فإن لها ربع ما تركه زوجها بعد وفاته إذا لم يكن له ولد وإن سفل - ولها الثمن إن كان لزوجها ولد وإن سفل ذكرا كان أو أنثى.

وأجمع العلماء كذلك على أن الزوجة الواحدة أو الزوجات يشتركن جميعا في الربع إذا لم يكن للزوج ولد منهن أو من غيرهن - فإن كان له ولد فإن الزوجة الواحدة أو الزوجات يشتركن في الثمن - وشرط ذلك كله أن يكون توزيع التركة على نحو ما سبق بعد أداء الدين وإنفاذ الوصية.

قوله تعالى: (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم) الكلالة مشتقة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ٢٧ - والمقصود به هنا ورثة الميت من حواشيه لا أصوله وفروعه - وقد سئل أبو بكر الصديق عن الكلالة فقال: أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه، الكلالة من لا ولد له - وهو قول عامة العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأئمة السلف والخلف.

والذي يموت كلالة أي ليس له ولد ولا والد وله أخ أو أخت فإن لكل واحد منهما السدس، أما إن كانوا أكثر من واحد أو واحدة

فإنهم يشتركون في ثلث التركة - وقد أجمع العلماء على أن المقصود بالأخوة في هذه الآية هم الأخوة للأم والعلماء متفقون على أن الأخوة للأب والأم أو للأب وحده ليس ميراثهم هكذا - وأخوة الأم يخلفون بقية الورثة من حيث التوريث من عدة وجوه:

أولها: أنهم يرثون من أدلوا به وهي الأم.

ثانيها: أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء.

ثالثها: لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة - وبذلك فهم لا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ابن.

رابعها: أنهم لا يزيد نصيبهم على الثلث وإن كثروا.

قوله: (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم) غير، منصوب على الحال - وصية منصوب على المصدر ٢٨ - ذلك التفصيل في أحكام المواريث والتقسيم إنما يكون بعد إنفاذ الوصية والدين - ولا يدل تقديم الوصية في الذكر على أسبقيتها على الدين، ذلك أن الدين أولى أداؤه من إنفاذ الوصية وهو مقدم عليها بإجماع العلماء - لكن تقديم الوصية من حيث التلاوة هنا إنما يحمل إيحاء على التذكير بالوصية والحض عليها فلا يحول دونها حائل من بواعث الشح والضن بالخير - أما الدين فثمة في الناس من يطلبه ويلح في مطالبته دون تردد لكن الوصية قد تتثاقل دون إنفاذها النفوس التي يحضرها الشح وهو ما بيناه سابقا - يقول سبحانه في آية أخرى: (وأحضرت الأنفس الشح) - ولا يجوز أن يكون في الوصية ما يضر بالورثة بما يلحق بهم أو بعضهم جورا - ومن ذلك أني يتعمد المورث الوصية على نحو يُحرم فيه بعض الورثة أو ينقصه حقه أو يزيده، فوق ما كتب الله له من الفريضة - وليس في ذلك إلا المضارة التي يعصي بها العبد ربه ويضاده في شرعه وحكمه العادل المستقيم - وقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: " الإضرار في الوصية من الكبائر " - وقوله (ص): " إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث ".

ومن شمول النهي في الآية كذلك تحريم الإسراف في الوصية بما يأتي على جزء عظيم من المال، بما يفضي إلى افتقار الورثة وسوء حالهم والله أعلم.

١٣ - (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) - أي هذه الأحكام في الفرائض والمقادير التي بينها الله في كيفية التوريث هي حدود الله فليس لكم أن تعتدوها أو تتجاوزوها، فإن الوقوف عند هذه الحدود والعمل بهذه الأحكام لهو طاعة لله ورسوله (ص) تكسب المرء رضوان الله وتدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، لكن التعدي على هذه الحدود وتعطيل ما ورد من أحكام في المواريث لهو مدعاة لعذاب الله الحارق وهي النار التي يتلظى فيها العصاة خالدين والعياذ بالله.

١٤ - (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣]

قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) - أي هذه الأحكام في الفرائض والمقادير التي بينها الله في كيفية التوريث هي حدود الله فليس لكم أن تعتدوها أو تتجاوزوها، فإن الوقوف عند هذه الحدود والعمل بهذه الأحكام لهو طاعة لله ورسوله (ص) تكسب المرء رضوان الله وتدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، لكن التعدي على هذه الحدود وتعطيل ما ورد من أحكام في المواريث لهو مدعاة لعذاب الله الحارق وهي النار التي يتلظى فيها العصاة خالدين والعياذ بالله.

١٥ - (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلا)

قوله تعالى: (والتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو

يجعل الله لهن سبيلا).
اللاتي مفردها التي واللاتي في محل رفع على الابتداء - والمقصود هنا - النساء اللواتي يقترفن الفاحشة وهي الزنا - وقد كان الحكم في بدء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة أو الإقرار حبست في بيتها فلا تخرج حتى تموت - وقوله: (أو يجعل الله لهن سبيلا) أي يظللن هكذا في الحكم بالحبس أو يبدل ذلك الحكم بالسبيل وهو الناسخ - وقد جاء الناسخ في سورة النور حيث يقول سبحانه وتعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدة منهما مائة جلدة) - وقد روى أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم " وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد رجم ماعزا والغامدية واليهوديين لمقارفتهم الزنا من غير أن يجلدهم قبل ذلك - وفي ذلك دلالة على أن الجلد غير حتم بل هو منسوخ.
وذهب آخرون إلى اجتماع الجلد مع الرجم وهو قول الحسن البصري وإسحاق وداود بن علي الظاهري - وهي إحدى الروايتين عن الحنابلة - فقد ذهب هؤلاء إلى أن الجلد ينبغي اجتماعه مع الرجم - واحتجوا بعموم قوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فهذا يعم جميع الزناة - لكن السنة جاءت بالرجم في حق الثيب والتغريب في حق البكر فوجب الجمع بينهما - وقد ذكر عن علي رضي الله عنه أنه جلد شراحة الهمدانية مائة ورجمها بعد ذلك - وقال: " جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ٢٩.
١٦ - (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا)
قوله تعالى: (والذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تاب وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما) - اللذان مثنى الذي - والمقصود من قوله: (والذان) الرجل والمرأة إذا زنيا فإنه يجب إيذاؤهما بالشتم والتعيير والضرب بالأيدي والنعال - كذلك كان الحكم حتى نسخ بالجلد في سورة النور وبالرجم في السنة النبوية - وقيل نزلت في الرجلين إذا تلاوطا، وذلك ضعيف؛ لأن عقوبة اللواط القتل من غير اشتراط لتحصين أو عدمه وفي هذا أخرج أهل السنن عن ابن عباس مرفوعا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ".
قوله: (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما) أي فإن أقلعا ورجعا عن السوء وصلحت حالهما واستقامت أخلاقهما فأقلعوا عن إيذائهما بقبيح الكلام والتعيير - ومن تاب فإن الله يتوب عليه فهو سبحانه شأنه التوبة عن المسيء إذا رجع عن مساءته وهو سبحانه رحيم بعباده يتجاوز عن ضعفهم وخطيئاتهم بعد أن يتوبوا - وعلى أية حال فإن الحكم في هذه الآية نظير الحكم في الآية السابقة من حيث النسخ، فإمساك الزواني في البيوت حتى الموت وإيذاء الزناة بالضرب والشتم والتعيير ثم الإقلاع عن ذلك بعد صلاح الحال، كل أولئك بات منسوخا بعد نزول الناسخ في سورة النور (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وكذلك بعد ثبوت الرجم في السنة عند التحصين - وبعد ثبوت الناسخ فإن التوبة لا تدفع حدا عن الحدود إذا ما بلغ ذلك الحاكم.
١٧ - (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)
قوله تعالى: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) هذه الآية عامة لكل مذنب - ومن اقترف ذنبا فرض عليه أن يتوب إلى الله كيلا يظل متلبسا بالإثم ولا ذهاب للإثم بغير توبة - وفي وجوب التوبة على المؤمنين المقارفين للمعاصي يقول سبحانه: (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) وليست التوبة لزاما مفروضا على الله ولا يليق بكماله وجلاله أن تفرض عليه التوبة عن المسيئين فرضا وإنما الله سبحانه بالخيار إن شاء تاب وغفر وإن شاء حاسب وعذّب.
والتوبة الصحيحة التي يقبلها الله ذات شروط لا تصح بدونها وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره - وقوله: (بجهالة) جاء فيها جملة أقوال تتركز في معنى جامع وهو أن كل من عصى الله خطأ أو عمدا فهو جاهل - فمن الجهالة أن يعصي العبد ربه كيفما كانت معصيته - وإن من الحق أن نتبين أن العبد لا

يتعدى حدود الله ولا يتجرأ بالمعصية إلا وهو جاهل بجلاله وعظيم شانه، قال قتادة في هذا الصدد: أجمع أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن كل معصية فهي بجهالة عمدا كانت أو جهلا.
ولو اجتمعت للمرء كامل المعرفة والتبصر بعظيم الهيمنة الإلهية والقدرة الربانية لأمسك عن المعاصي والآثام ولبادر بالطاعة والخضوع لأمر الله جلّت قدرته فلا يأخذه في ذلك عتو ولا استنكاف.
قوله: (ثم يتوبون من قريب) ورد فيها جملة أقوال نكتفي منها بثلاثة لتحديد معنى القرب هنا - فقد قيل: ما كان دون الموت فهو قريب - وقيل: ما كان قبل الغرغرة فهو قريب وقيل: الدنيا كلها محسوبة من القريب - وكل هذه المعاني جيدة تجتمع على إرساء معنى أساسي واحد وهو أن كل شيء قريب وأن كل أمر وإن تصوّره الإنسان بعيدا فهو في ميزان الحقيقة قريب وكل ما هو آت آت ٣٠.
١٨ - (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)
قوله تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما).
قد يوحي ظاهر الآية بعدم قبول التوبة قبل الموت - ولا يُتصور هذا الفهم على هذا النحو لما في ذلك من معارضة لصحة التوبة على أية حال حتى الغرغرة - والأحاديث في ذلك كثيرة ومتضافرة لتتفق على أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر - فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ".
وبذلك فإن التوبة جائزة من العبد إلا إذا جاوزت الروح الحلقوم عند النزع وحصلت الغرغرة فإن التوبة حينئذ تكون مردودة.
ويمكن فهم الآية على أنها مشابهة من حيث المعنى لقوله تعالى: (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) - أو قوله تعالى: (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) - وذلك يعني أن الناس إذا قامت الساعة غشيتهم قوارع الخوف الشديد فيندمون أشد الندم ويسارعون في التوبة لكن توبتهم هذه لا تنفعهم إذ ذاك.
وكذلك فإن الذين يموتون على الشرك – كيفما كانت صورته- فإن توبتهم بغير قيمة - وإنما شرط التوبة من أجل القبول أن تكون مسبوقة بإسلام العبد - فالمشركون حينما يعاينون الساعة والعذاب يأخذون في التوبة وهي لا تغنيهم ولا تقبل منهم.
وأولئك جميعا لهم سوء العاقبة والمصير حيث العذاب الموجع الذي لا يطاق ولا يحتمل، وقد روى الإمام أحمد في ذلك عن أبي ذر الغفاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع في الحجاب " قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: " تخرج النفس وهي مشركة " وعلى هذا لا تجدي التوبة من حضره الموت وصار في حين اليأس - كشأن فرعون حين غشيه الغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان ٣١.
١٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا).
تبين الآية الصورة البائسة التي كانت تعيشها المرأة قبل الإسلام - كانت تعيش بغير كرامة أو اعتبار، وكانت تلاقي من العنت والقهر ما يثير السخط والحزن - ولقد كان العرب الجاهليون إذا مات الرجل بات أولياؤه أحق بامرأته فإن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا لم يزوجوها فهم أحق بها من نفسها وأهلها فنزلت هذه الآية - وقيل: كانت المرأة إذا مات زوجها فجاء رجل فألقى عليها ثوبا كان أحق الناس بها فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها إياه الميت فنزلت الآية ٣٢ - وفي قوله: (أن ترثوا النساء) ما يوحي بفقدان المرأة لكرامتها في الجاهلية فقد كانت غير ذات اعتبار حتى لكأنها سلعة تقتنى وتورث فنهى الله سبحانه عن ذلك ليبدد عن

الأذهان أنها سلعة أو مال فيورث، وإنما هي إنسان كالذكر لا تفضيل ولا تمييز بينهما إلا بالتقوى - قوله: (كرها) بالفتح أي بالإكراه، منصوب على المصدر في موضع الحال - أي لا تأخذوا النساء على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات - وقوله: (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) العضل معناه المنع والحبس - وقيل: القهر والتضييق - وكلها معان متقاربة في دلالتها على المقصود من الآية - فالله سبحانه ينهى عن مضارة النساء في العشرة وقهرهن ليتركن ما لهن أو ما بحوزتهن من صداق أو حق فيقدمنه لأزواجهن ليفارقوهن - وذلك تصرف ينطوي على القسوة والفظاظة ويلحق بالمرأة ظلما قد حرمته الشريعة ونهت عنه أشد النهي - فإن من الظلم المحرم أن يقهر الرجل زوجته بالأذى وسوء العشرة مما يضطرها للمبادرة بافتداء نفسها بما عندها من صداق تؤديه لزوجها الكاره لها أو بما كان لها من الحقوق في ذمته - ليس للأزواج أن يقترفوا شيئا من ذلك إلا إذا اقترفت النساء فاحشة مبينة - وقيل المقصود بالفاحشة الزنا - فالزوجة إذا زنت فلا بأس أن يشق الزوج عليها حتى تفتدي منه - وعند الإمام مالك أن المقصود بالفاحشة المبينة هو النشوز وبذاءة اللسان وسوء العشر فعلا أو قولا.

وقوله: (وعاشروهن بالمعروف) أي لتكن عشرة الأزواج لهن على نحو ما أمر الله من الحُسن وكريم الخطاب والمعاملة فلا تكونوا معهن أفظاظا غلاظا لغير ذنب - والمعاشرة هي المخالطة ٣٣ - وبهذا يوجب الإسلام ان تحاط الزوجة بالعناية والاهتمام والتكريم والنصفة؛ كيلا يمسها بعد ذلك حيف أو إساءة يجنيهما في حقها الرجل.

قوله: (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) قد يكره الرجل زوجته فلا يستبقي لها في قلبه شيئا من مودة كأن يكون ذلك لدمامتها أو سوء خلق فيها من غير أن يكون ذلك فاحشة أو نشوزا، فإن كان كذلك فإنه يندب للرجل أن يحتمل ويصبر فعسى أن يؤول ذلك إلى خير لا يعلمه هو حال نفوره وكراهيته - ومن يدري فلعل الله يرزقه منها الذرية الصالحة تقر بهم عينه ويطمئن لهم قلبه ومن خير ما يرد في هذا الصدد قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لايفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر " يفرك بفتح الراء يعني يبغض - أي لا يبغض زوج زوجته بغضا يحمله على فراقها بل عليه أن يحتملها ويصبر عليها ويتغاضى عن سيئتها لحسنتها فإن كان فيها ما يكره فإن فيها ما يحب من خلق - قال مكحول: سمعت عمر يقول: إن الرجل ليستخير الله تعالى فيخار له فيسخط على ربه عز وجل فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خير له - خير بكسر الخاء ومعناها: كان خيرا له.

وفي هذا القول نقف على دليل يبين كراهة الطلاق وإن كان مباحا - وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " إن الله لا يكره شيئا أباحه إلا الطلاق والأكل وإن الله ليكره المعي إذا امتلأ " ٣٤.

٢٠ - (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

قوله تعالى: (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا).

إذا أراد الرجل مفارقة زوجه من خلال طلاق لينكح غيرها من النساء فليس له أن يأخذ ما كان أصدق الزوجة الأولى شيئا وإن كان أصدقها بما يبلغ القنطار وفيه دلالة على جواز الإكثار من المهر بغير تحديد - مع أن الإقلال والتيسير في المهور أحب إلى الله ورسوله.

وعلى أية حال فإنه ليس للمهر من حد أعلى - وقصة عمر بن الخطاب في هذا الصدد مشهورة ومستفيضة فقد روى الإمام أحمد عن أبي العجفاء أن عمر – رضي الله عنه- قد ركب منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صدق النساء (بفتح الصاد وسكون الدال) وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه والصدقات (بضم الدال) فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك - ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها - فالأعرف ما زاد رجل في صدق امرأة على أربعمائة درهم - ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم - قال: نعم فقالت: أما سمعت ما أنزال الله في القرآن - قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: (وآتيتم إحداهن قنطارا) فقال

عمر: اللهم غفرا، كل الناس أفقه من عمر - ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهم على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب - وقيل: لا ينبغي أن يفهم من الآية جواز المغالاة في المهور - لأن التمثيل بالقنطار جاء على سبيل المبالغة - بل يستفاد من الآية منع المغالاة في المهور - والقول بجواز المغالاة هو الراجح والصواب لحصول ذلك من كثير من الصحابة من غير إنكار.

قوله: (أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا) بهتانا هنا حال منصوب - وإثما معطوف على ما قبله، والبهتان معناه افتراء الكذب ٣٥ - والهمزة استفهام إنكار وتوبيخ - أي أتأخذون باهتين وآثمين وفي الآية ما يفيد بأن استرجاع الصداق أو جزء منه من المرأة بعد فراقها لهو أخذ للمال بغير حق وهو في منزلة الافتراء والكذب اللذين نهت عنهما الشريعة بشدة - وكذلك فإن أخذ الصداق على هذه الصورة لهو إثم واضح مكشوف لا يحتمل أي تبرير.

٢١ - (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

قوله تعالى: (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا) أفضى بعضكم إلى بعض من الإفضاء وهو الجماع - وقيل هو أن يخلو الرجل بالمرأة وإن لم يجامعها - والراجح أن الإفضاء يشمل المعنيين المذكورين - وهذه الآية تثير استنكارا لفعل لا يليق أن يأتيه أزواج قد أفضوا إلى زوجاتهم إفضاء تاما من الجماع والخلوة وغيرهما - وهم لا يكونون على تلك الحال من الإفضاء إلا بعد إزهاق لأية صورة من الحواجز أو الحوائل - وهم في تزاوجهم كأنما هم أرواح متلاصقة متحانية بغير فصام أو أنهم أجساد تتلاحم في تلاق ودود لا يعرف الخصام فكيف يليق بالأزواج – والحالة هذه – أن يعاودوا المطالبة بما قدموه لزوجاتهم من صداق - إنه لا وجه لهذه المطالبة من الناحية الشرعية - فضلا عن منافاتها لقواعد الخلق والوفاء وكريم الطبع خصوصا وأن الزوجات أخذن من أزواجهن ميثاقا غليظا قد عوّلن عليه واطمأنن إليه وهو عقد النكاح الذي يمكن للمرأة من المال في ذمة الزوج - ويبيح للرجل من عفاف الزوجة ما كان محظورا - فقد بات ذلك كله نافذا أو سائغا بالميثاق الغليظ وهو العقد المتين.

٢٢ - (وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا)

قوله تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) - في هذه الآية نهي عن فعلة جاهلية نكراء وهي أن ينكح الرجل منكوحة أبيه - فقد حرم الله زوجات الآباء تكرمة لهم واحتراما وإكراما أن يوطأن من بعدهم - حتى إن هذا التحريم يصبح ساريا بمجرد العقد ولو لم يقع جماع.

أما قوله: (ما نكح) فقد قيل في إعراب (ما) بأنها مصدرية فيكون النهي واقعا على نكاح الآباء؛ لأنه فاسد ومخالف للدين، وبذلك يكون التقدير: لا تنكحوا مثل نكاح آبائكم الفاسد - وقيل في إعراب (ما) بأنها في موضع " من " وهي اسم موصول بمعنى الذي - أي لا تنكحوا النساء اللواتي نكحهن آباؤكم - وهو الأرجح لأنه الذي عليه الصحابة ومنه استدلوا على منع نكاح حلائل الآباء - وهي عادة كانت متفشية ومباحة في الجاهلية حتى نزول هذه الآية فباتت هذه العادة حراما مستبشعا.

وقوله: (إلا ما قد سلف) جاء في تأويل قوله: (إلا) عدة وجوه، منها: أن قوله: (إلا ما قد سلف) أي قبل نزول آية التحريم فإنه معفو عنه.

ومنها: أن هذا استثناء منقطع؛ لأنه لا يجوز استثناء الماضي من المستقبل - والمعنى: لكن ما قد سلف فإن الله قد تجاوز عنه.

ومنها: أن (إلا) هنا بمعنى بعد - أي بعد ما سلف.

ولقد شددت الآية في النكير على نكاح الأبناء لزوجات قد نكحهن آباؤهم بأن ذلك أمر منهي عنه بشدة وذلك بالنظر لفحشه وكونه مقتا، أي بغضا بمعنى أنه يبعث على بغض الله وغضبه وهو كذلك سبيل سيئة تفضي إلى وخيم العواقب - وقيل إن النهي هنا متعلق بنكاح الزوجات اللاتي نكحهن الآباء نكاحا مشروعا عن طريق العقد - أما إن كان الآباء قد وطئوهن بغير عقود مشروعة فذلك زنا لا تحرم به النساء الموطوءات على الأبناء في قول الشافعي ومالك وكثير من المفسرين؛ لأن النكاح عندهم عبارة عن العقد الصحيح، خلافا لأبي حنيفة فإنه يحرم عنده أن يتزوج الرجل بمزنية أبيه؛ لأن النكاح عنده عبارة عن الوطء ٣٦.

وتثبت المصاهرة والتحريم بغير الوطء من دواعيه كاللمس بشهوة ونحوه، فذلك بمنزلة الجماع - وهو قول الحنفية والمالكية أيضا والشافعية

في رواية عنهم - وذهب الحنابلة وأهل الظاهر، والشافعية في الراجح من مذهبهم إلى أن المصاهرة لا تثبت بغير الوطء - فلا تثبت بدواعيه كاللمس ونحوه - ٣٧

٢٣ - (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله تعالى: (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم التي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما) - يتبين من هذه الآية ثلاثة موانع مؤبدة للزواج وهي: النسب والرضاع والمصاهرة - وبعبارة أخرى فإن النساء المحرمات ثلاث أصناف على النحو التالي: المحرمات للنسب أو القرابة - المحرمات للصهرية - المحرمات للرضاع.

المحرمات للنسب وهن سبع فرق:

الأولى: الأم - فإنه تحرم على الرجل أمه وكذلك جداته سواء كن من قبل الأب أو الأم فالأم يشملها اللفظ على الحقيقة - أما الجدة فيشملها اللفظ على المجاز.

الثانية: البنت - وضابطها: كل من ولدتها فهي بنتك حقيقة - أو ولدت من ولدها ذكرا كان أم أنثى كأن تكون بنت ابن وإن نزل - أو بنت بنت وإن نزلت.

الثالثة: الأخت - يستوي في ذلك كل من الأخت لأب وأم وهي الشقيقة والأخت لأب - ثم الأخت لأم.

الرابعة: العمة - وهي تشمل أخت الأب لأب وأم، أو لأب، أو لأم.

الخامسة: الخالة - وهي تشمل أخت الأم لأب وأم - أو لأم.

السادسة: بنت الأخ - ويدخل في ذلك بنت الأخ لأب وأم، أو لأب، أو لأم - وبنات الأخ يحرمن وإن نزلن.

السابعة: بنت الأخت - ويدخل في ذلك بناء الأخت لأب وأم، أو لأب، أو لأم - وهن جميعا يحرمن وإن نزلن.

المحرمات للرضاع:

فقد وقفنا عليهن من قوله تعالى (وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) - وكذلك من السنة - ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله (قال: " إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة " وفي لفظ لمسلم أن النبي (() قال: " يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب " - وكذلك فقد انعقد الإجماع على التحريم بسبب الرضاع.

على أن سبب التحريم للرضاع يكون من جهتين:

الجهة الأولى: المرضعة: فإن التحريم ينتشر منها إلى فصولها نسبا أو رضاعا وإن نزلوا - وينتشر التحريم كذلك إلى حواشي المرضعة نسبا أو رضاعا - وهم اخوتها وأخواتها سواء كانوا أشقاء أو غير أشقاء - وكذلك أعمامها وعماتها وأخوالها وخالاتها حقيقة أو مجازا.

الجهة الثانية: الفحل، وهو الزوج (صاحب اللبن) فإذا أرضعت المرأة ذات الفحل ولدا صار الفحل أبا له ولفروعه - وحينئذ ينتشر تحريم الرضيع وفروعه من الفحل إلى كل من أصوله وفروعه وحواشيه.

التحريم للرضاع:

كل من حرم بسبب النسب من الأصناف السبعة السابقة فإنه يحرم كذلك بسبب الرضاعة - والأصل في هذه القاعدة هو الحديث الشريف القائل: " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب " وتفصيل المحرمات بسبب الرضاع يأتي على النحو التالي: الأم من الرضاع - وضابطها هو: كل من أرضعتك، أو أرضعت من أرضعتك، أو أرضعت من ولدك، أو ولدت مرضعتك فهي أم من الرضاع.

البنت من الرضاع، وضابطها هو: كل امرأة ارتضعت بلبنك أو لبن من ولدته، فهي تحرم عليك وكذلك بناتها من نسب أو رضاع وإن نزلن.

العمة من الرضاع - وضابطها هو: كل أخت لصاحب اللبن وهو الفحل أو لأبيه وإن علا سواء كان ذلك من نسب أو رضاع.
الأخت من الرضاع، وضابطها هو: كل من أرضعتها أمك أو ارتضعت بلبن أبيك كأن يكون صاحب لبن من امرأة أخرى، أو ولدتها من أرضعتك.
الخالة من الرضاع - وضابطها هو: كل أخت للمرضعة أو أخت للمرضعة أو أخت لمن ولدت المرضعة سواء كان ذلك من نسب أو رضاع.
بنات الأخوة والأخوات من الرضاع، وضابطهن هو: كل أنثى من بنات أولاد المرضعة أو الفحل سواء كان ذلك من رضاع أنسب، وكذلك كل أنثى ارتضعت بلبن أختك أو أخيك سواء كانت هي الرضيعة أو بناتها وبنات أولادها من نسب أو رضاع ٣٨.
المقدار المحرم من اللبن:
اختلف العلماء في مقدار الرضاع الذي يوجب التحريم، وقد اقترفوا إلى ثلاثة أقوال في هذه المسألة:
القول الأول: وهو مذهب الحنفية والمالكية: وهو مروي عن عمر وعلي وعبد الله بن عباس وغيرهم، فقد ذهب هؤلاء إلى عدم التحديد بمقدار معين وأن أي قدر كان من اللبن يوجب التحريم بالرضاع - وبذلك فإن قليل الرضاع وكثيره إذا حصل في مدة الرضاع تعلق به التحريم - وقد استدل هؤلاء بإطلاق قوله تعالى: (وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) فإن اسم الرضاع يتناول الكثير والقليل دون تحديد أو تقييد.
القول الثاني: وهو مذهب الشافعية وأحمد بن حنبل، فقد قالوا أنه لا يحرم من الرضاع إلا خمس رضعات متفرقات - وذلك أن يرضع المولود ثم يقطع الرضاع ثم يرضع ثم يقطع - وفي كل مرة تحتسب له رضعة - وذلك مروي عن ابن مسعود وعائشة وعبد الله بن الزبير وغيرهم - وقد استدلوا على ذلك بما رواه مسلم في صحيحه عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " كان فيما أنزل تعالى في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات " - ثم توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - وهن ما يقرأ من القرآن.
القول الثالث: وهو مذهب زيد بن ثابت وأبي ثور وداود الظاهري وأحمد في رواية - فقد ذهبوا إلى تحديد القرد المحرم بثلاث رضعات فما فوقها، وبذلك فلا تحرم الرضعة والرضعتان - واستدلوا على ذلك بقوله (ص): " لا تحرم الرضعة والرضعتان أو المصة والمصتان " ٣٩.
المحرمات للمصاهرة: وهن على النحو التالي:
أم الزوجة: وهي حرام نكاحها لقوله تعالى: (وأمهات نسائكم) فإذا عقد الرجل النكاح على امرأة ترتب على ذلك أن تحرم عليه كل أم لهذه المرأة سواء كانت أما مباشرة حقيقة أو مجازا ويستوي في ذلك أن تكون من جهة النسب أو من جهة الرضاع، دخل الرجل بالمرأة أو لم يدخل - والقاعدة في ذلك: أن العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرّم البنات - ومما جاء في ذلك من دليل قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " إذا نكح الرجل المرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها فله أن يتزوج ابنتها وليس له أن يتزوج أمها ".
بنت الزوجة: وهي الربيبة كما سماها القرآن - فإنها يحرم نكاحها بالنسبة للزوج ويشمل التحريم هنا بنات الزوجة وبنات بناتها وبنيها وإن نزلن - وشرط التحريم أن يقع الدخول وإذا لم يكن ثمة دخول فلا تحريم؛ لقوله تعالى: (وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم التي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم).
حليلة الابن: هي زوجة الابن المحللة له - وهي حرام على الأب أن ينكحها بمجرد عقد الابن سواء دخل بها أو لم يدخل؛ وذلك لقوله تعالى: (وحلائل أبنائكم) - وبذلك فإنه يحرم على الرجل نساء أبنائه وأبناء أبنائه وبناته وإن نزلوا سواء كان ذلك من نسب أو رضاع وذلك بمجرد العقد ولو لم يكن ثمة دخول.
حليلة الأب: يحرم على الرجل أن ينكح زوجة من ولده سواء كان أبا أو جدا من قبل الأب أو الأم وإن لم يدخل بها؛ وذلك لقوله تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) - والمقصود بالنكاح هنا العقد فمتى عقد أحد من أصول الحص على امرأة فإنه لا يحل تزوجها من قبل أبنائه وأبناء ابنائه وأبناء بناته - وبعبارة أخرى فإنه لا تحل للشخص امرأة أبيه أو امرأة جده لأبيه وجده لأمه قرب أو بعد ٤٠.

وقوله تعالى: (و أن تجتمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) - نصت هذه الآية على تحريم الزواج من أخت الزوجة فلا يجوز أن يجمع بين المرأة وأختها في النكاح سواء كانتا أختين شقيقتين أو لأب أو لأم - سواء كانتا أختين من النسب أو الرضاع - وكذلك فإنه يحرم الجمع بين المرأة وكل من عمتها وخالتها أو بنت أخيها أو بنت أختها؛ للحديث الشريف: " لا تنكح المرأة على عمتها، ولا العمة على بنت أخيها، ولا المرأة على خالتها، ولا الخالة على بنت أختها " - والقاعدة في هذا التحريم هي: تحريم الجمع بين امرأتين إذا كانتا بحيث لو قُدرت إحداهما ذكرا حرمت عليه الأخرى سواء كان ذلك من نسب أو رضاع ٤١.

٢٤ - (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

وقوله تعالى: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما وحكيما.

المحصنات - مفردها محصنة: والتحصّن يعني التمنع - ومنه الحصن الذي يمتنع فيه من يلجه ليكون داخله مصونا ممتنعا من الشرور والعوادي - ومنه الحصان؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك - وكذلك الحصانة بمعنى الامتناع - والحصن ما يلجأ إليه الإنسان ليمتنع به مما يضر - والمرأة المحصنة أي المتزوجة وتأتي بمعنى الحرة والعفيفة ٤٢ - وتفيد هذه المفردات في جملتها عن إحصان المرأة وهو امتناعها من الفسق - والواو في المحصنات تفيد العطف على النساء المحرمات اللواتي ذكرن من قبل - فالنساء ذوات الأزواج يحرمن على غير أزواجهن إلا إذا كن مسبيات فإن السبي يهدم النكاح السابق - وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان قد بعث يوم حنين جيشا إلى أوطاس (واد في هوزان) فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا، فكان ناس من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قد تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين فأنزل الله عز وجل: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) أي فهؤلاء حلال لكم بعد انقضاء عدّتهن ٤٣.

وقوله: (كتاب الله عليكم) (كتاب) منصوب على المصدر بفعل تقديره كتب - أي، كتب ذلك كتابا الله - ثم أضيف المصدر إلى الفاعل.

وقيل: منصوب بمحذوف تقديره عليكم أو ألزموا، أي ألزموا كتاب الله، والقول الأول الراجح ٤٤.

وقوله: (وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) بعد تبيين المحرمات من النساء يأتي الحكم بتحليل من لم تحرم سواء ثبت التحريم بالكتاب أو السنة - وبذلك فإن ما عدا من ذكرن من المحارم هن حلال لمن يبتغي النكاح بالطريق الشرعي بعد دفع المهر - وقوله: (محصنين) أي متعففين عن الزنا (غير مسافحين) أي غير زناة - والسفاح هو الزنا وهو مأخوذ من سفح الماء أي إراقته وتسبيله.

قوله: (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) الاستمتاع معناه التلذذ - والمقصود بالأجور المهور - وعلى ذلك فإن المهر يسمى أجرا - والآية تعني أن ما انتفعتم به من الجماع من النساء بالنكاح المشروع الصحيح فآتوهن مهورهن، ولو جامعها مرة واحد وجب لها المهر كاملا إن كان مسمى، وإذا لم يكن مسمى وجب لها مهر المثل - وقوله: (فريضة) منصوبة على المصدر ومعناه مفروضة - وقيل: حال من الأجور ٤٥.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المراد بهذه الآية نكاح المتعة الذي كان مباحا في صدر الإسلام - ويؤيد ذلك قراءة أبي بن كعب وابن عباس وابن جبير (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن) ثم نهى عنها النبي - صلى الله عليه وسلم - - قال ابن المسيب: نسختها آية الميراث؛ إذ كانت المتعة لا ميراث فيها - وقالت عائشة – رضي الله عنها-: تحريمها ونسخها في القرآن - وذلك في قوله تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) وليست المتعة نكاحا ولا هي ملك يمين - وروى الدارقطني عن علي بن أبي طالب قال: " نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن المتعة " قال: وإنما كانت لمن لم يجد - فلما نزل النكاح والطلاق والعدة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت - وعن ابن مسعود قال: المتعة منسوخة نسخها الطلاق

والعدة والميراث - وروي عن ابن عباس قال: ما كانت المتعة إلا رحمة من الله تعالى رحم بها عباده، ولولا نهي عمر عنها ما زنى إلا شقي ٤٦.

قال ابن المنذر في هذا الصدد: جاء عن الأوائل الرخصة فيها – أي المتعة- ولا أعلم اليوم أحدا يجيزها إلا بعض الرافضة - ولا معنى لقول يخالف كتاب الله وسنة رسوله.

وذهب فريق من العلماء إلى تفرد ابن عباس في إباحة المتعة ٤٧ - وذكر الصنعاني في سبل السلام أن المتعة نسخت بعد أن رُخص فيها في ستة مواطن:

الموطن الأول: في خيبر.

الموطن الثاني: في عمرة القضاء.

الموطن الثالث: في عام الفتح.

الموطن الرابع: في عام أوطاس.

الموطن الخامس: في غزوة تبوك.

الموطن السادس: في حجة الوداع ٤٨.

وقال النووي: الصواب أن تحريمها وإباحتها وقع مرتين: كانت مباحة قبل خيبر ثم حرمت فيها، ثم أبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس، ثم حرمت تحريما مؤبدا - وإلى هذا التحريم ذهب أكثر الأمة.

وقال الشافعي – رحمه الله-: وجماع نكاح المتعة المنهي عنه: كل نكاح كان إلى أجل من الآجال قرب أو بعد - وذلك أن يقول الرجل للمرأة: نكحتك يوما أو عشرا أو شهرا - أو نكحتك حتى أخرج من هذا البلد - أو نكحتك حتى أصيبك فتحلين لزوج فارقك ثلاثا، أو ما أشبه هذا مما لا يكون فيه النكاح مطلقا لازما على الأبد ٤٩.

وقوله: (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعض الفريضة) أي لا إثم عليكم فيما تتراضون عليه من زيادة في المهر أو نقصان وذلك بعد استقرار الفريضة ما دام عن تراض - وكيفية التراضي تتحقق في أحد أمرين: فإما أن تبرئ المرأة زوجها عن شيء من المهر - وإما أن يوفيها الرجل كل المهر إن طلق قبل الدخول مع أنها لها في هذه الحالة نصف المهر - وقيل: هذا في نكاح المتعة - وهو إشارة إلى ما تراضيا عليه من زيادة في مدة المتعة، فإنه كان يتزوج الرجل المرأة شهرا على دينار مثلا - فإذا انقضى الشهر قال لها: زيدني في الأجل أزدك في المهر - وكان ذلك جائزا عند التراضي.

هذه الأحكام المبينة يجب مراعاتها والالتزام بتنفيذها فإن الله مطلع على الأعمال جميعها، وهو عليم بالأفعال والنوايا وهو سبحانه له الحكمة البالغة في تشريعه لمثل هذه الأحكام وغيرها من أحكام - وهو مقتضى قوله: (إن الله كان عليما حكيما).

٢٥ - (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن آتينا بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) - - من لا يملك الطول وهو المال والسعة وخشي العنت وهو الزنا فلا عليه أن يتزوج من أمة مؤمنة - والأصل الذي يدعو إليه الدين أن يكون الزواج من النساء الحرائر فذلك أفضل - وفي الآية ما يدل على جواز النكاح من الإماء بشرطين: أولهما عدم السعة والمال، وثانيهما خشية الوقوع في الزنا - وانعدام أحد الشرطين هذين يمنع من جواز نكاح الإماء المؤمنات - وعلى أية حال فإن الأمة المؤمنة لهي خير من الحرة المشركة ولو كانت تعجب الناظر؛ ولذلك قال: (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) وإذا ما توفر الشرطان المذكوران

من أجل نكاح الفتيات المؤمنات بقي أن يكون ذلك بإذن أهلهن، وأن يؤتين مهورا بالمعروف أي بالشرع والسنة والأداء الحسن - وليس لأحد أن يواعد إحداهن سرا، بل وجب أن يكون النكاح بإذن واضح مشهور من أهلهن ليكنّ بذلك محصنات أي عفائف لا مسافحات أي زانيات ولا مُتخذات أخدان - ومفردها: خدن - وهو الصاحب في السر أو الخليل - فهن إذا ارتكبن فاحشة الزنا وجب عليهن من العقاب نصف ما على المحصنات وهن الحرائر - وذلك مراعاة لحال الإماء من الابتذال وسهولة الطمع فيهن وهو ما درجن عليه عبر الأزمنة والعصور - فكان في ذلك مدعاة لسهولة التحرش بهن والنيل منهن مما اقتضى تسهيلا في العقاب عليهن بنصف ما على الحرة من عقاب كل حال فإن الصبر عن هذا - وعلى النكاح حتى يتيسر المال والسعة ليمكن الزواج من الحرة لهو أفضل - وقد بينا سابقا عند مناقشة مسألة الرقيق كيف أن هذا النظام كان متفشيا في سائر أنحاء الدنيا وفي كل مواقف الحياة ومجالات المجتمع حتى أن الرق والاسترقاق كان أمرا مألوفا وطبيعيا لا يلاقي أدنى غرابة أو عجب، بل كان هذا النظام ساريا ومستطيرا - وقد أقرته عامة الشرائع والملل والفلسفات التي سبقت الإسلام سواء في ذلك اليهودية والمسيحية والقانون الروماني وفلسفة الإغريق وعلى رأسها أرسطو وأفلاطون - فما كان الرقيق إذ ذاك إلا شائعا مرغوبا لا يخالط أذهان الناس فيه أيما استقباح أو نفور - إلى أن جاء الإسلام فما كان ليستطيع هدم هذا النظام المستشري من خلال آية أو تعليم - وإنما ركّز الإسلام على استئصال هذا النظام من أساسه ولكن في هدوء وضمن مراحل وخطى ثابتة وئيدة - وقد بينا كذلك أن الإسلام قد سلك في ذلك مسلكين: احدهما إبادة أسباب الرق والقضاء على كل بواعثه ودواعيه من إجراءات مسلكية ظالمة - وثانيهما التحرير وهو عملية واسعة كبيرة شملت جوانب شتى من السلوك فيما يضطر معه المسلم من العتق ولو كلّفه ذلك بذل المال لشراء الرقيق من أجل إعتاقهم وتحريرهم.

٢٦ - (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) - واللام في قوله (ليبين) بمعنى أن - وقيل غير ذلك - فالمعنى أن الله سبحانه يريد أن يبين لعباده أمر دينهم وما ينفعهم في دنياهم في مختلف مصالحهم - ويريد كذلك أن يدلهم ويبين لهم طرق الصالحين من قبلهم ليسلكوها وليكونوا من الفائزين الناجين الذين تاب الله عليهم - والله سبحانه هو أعلم بالخير وبما يؤدي إليه وله سبحانه في كلما يقضي ويشرّع شأن وحكمة ٥٠.

٢٧ - (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)

وقوله تعالى: (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) من عظيم صفات الله أنه تواب، فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده مهما زلوا أو قارفوا من معاصي وآثام - فالله من شانه أن يتجاوز عن الخاطئين التائبين - لكن الذين يتبعون الشهوات لا يريدون لأهل الإيمان خيرا ولا يبتغون لهم إلا متابعتهم في الفساد والضلال ليكونوا جميعا على طريق واحدة من الزيغ والانحراف - وقد يكون المقصود بالذين يتبعون الشهوات النصارى واليهود - وقيل هم اليهود، وثمة قول آخر بأنهم الزناة - لا جرم أن هؤلاء متبعون للشهوات ويريدون للمؤمنين أن يضلوا ويشاركهم في السوء والفحشاء ليميلوا بإسراف وإفراط عن خط الله المستقيم وعن صراطه القويم.

٢٨ - (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

والله سبحانه بعفوه عن السيئات ومغفرته للإنسان في زلاّته وآثامه وتجاوزه لكل ما يسجله الحفظة لابن آدم من سقطات، إنما يقع ذلك من أجل التخفيف عن الإنسان وذلك بالنظر لما جبل عليه من ضعف وقوله: (وخلق الإنسان ضعيفا) ضعيفا منصوب على الحال وهذه غاية الحقيقة التي تصدق على الإنسان، ذلك الكائن الذي يخالطه الضعف مخالطة غامرة ومؤثرة يدل على ذلك حقيقة الإنسان من حيث البداية وخلال الحياة والممات فبداية الإنسان الأولى من طين لازب ثم تخلّق من نطفة مذرة مهينة، حتى إذا اكتمل فيه التخليق والتكوين ما بين لحم وعصب وعظم ودم لم تبرحه ظاهرة الإحساس بالضعف سواء في صغره حيث الضعف في الجسد والوعي والإدراك - وكذلك في الشباب حيث التسرع والاندفاع واشتداد الغريزة - ثم ما يعقب الشيخوخة من هزال عميم وهرم مدنف ثم الإفضاء إلى الموت المحتوم حيث التعفن والتحلل والبلى وذلكم الضعف الذي يكشف عنه مدى اقتداره على المصابرة والاحتمال في

زحمة الصدام مع الشدائد والعقبات أومع المؤثرات والمغريات - وفي هذا الخضم الحافل المزلزل يستبين جانب الضعف في الإنسان وهو تهزّه قوارع الفتنة والشهوات التي تستنزف كوامن الهوى من مراقده وتبعث على التململ والحراك والاضطراب وتؤز النفس لتنجح بها نحو المحظورات والمفاسد في كثير من الأحيان إلا أن نتضافر أسباب التربية والتهذيب والتشريع فيما يبدد معالم الفتنة والغواية فيميطها عن الطريق.

٢٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) يحذّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من أن يأكلوا أموالهم فيما بينهم بالباطل - والباطل ضد الحق ومعناه الخسران والضياع والفساد ٥١ - والباطل من أكل الأموال يشمل كل وجوه الحرام عامة أنواع المكاسب غير المشروعة مثل الربا والقمار والرّشى والخمر والخنزير وأكل مال اليتيم وما كان عن طريق الغصب أو النهب أو السرقة أو غير ذلك فهو أكل للمال بالباطل.

قوله: (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) استثناء منقطع أي ولكن تجارة عن تراض - فبعد أن حذّر من أكل الحرام استثنى التجارة المباحة، فالمستثنى لم يكن من جنس المستثنى منه - والتجارة معناها المعاوضة إذ يكون ثمة سلعة مبيعة وفي مقابلها ثمن مدفوع وتلكم معاوضة لما يجري بين المادتين من مبادلة - وتقوم التجارة على التعاقد بين اثنين من خلال ركن أساسي للعقد وهو الإيجاب والقبول ويكون ذلك بالتراضي لا بالإكراه أو الغبن الفاحش أو الغش والخداع - وذلك قوله: (عن تراض منكم) أي عن رضى - فلا يخالط البيع ما ينافي الرضا من المتعاقدين كالغش والغبن الفاحش والعيب - ونحو ذلك ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس - وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " البيعان بالخيار ما لم يتفرقا " وفي لفظ البخاري " إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا " وذهب إلى القول بمقتضى هذا الخبر جمهور السلف والخلف - وكذا الشافعية والحنفية - ومقتضى هذا الخبر أن العقد لا يلزم إلا بعد افتراق المتعاقدين بالأبدان - لكن صورة الافتراق عند الحنفية والمالكية أن يكون ذلك بالكلام، فإذا صدر القبول بعد الإيجاب في مجلس العقد لزم العقد ٥٢.

وقوله: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) قتل النفس يتناول إيرادها موارد الهلكة مثلما يتناول إزهاق الأنفس بغير حق عن طريق الاقتتال من أجل رغائب دنيوية أو دوافع شيطانية، ويتناول كذلك الانتحار وهو الاعتداء على النفس بعد غضب شديد غامر والانتحار من أعظم الكبائر التي يسقط فيها أولو النفوس الضعيفة والقلوب الخاوية التي تتهاوى أمام الشدائد والخطوب - والنبي - صلى الله عليه وسلم - ينذر المنتحرين بأشد العذاب وسوء المصير إذ يقول: " من قتل نفسه بشيء عذّب به يوم القيامة " وقال عليه الصلاة والسلام: " من قتل نفسه بشيء عذّب به يوم القيامة " وقال عليه الصلاة والسلام: " من قتل نفسه بحدية فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا " ٥٣ - كذلك ينهى الله عباده المؤمنين وهو يحذرهم من الاعتداء على النفس كيفما كان الاعتداء والله جلت قدرته إنما يرضى لعباده الهداية والسداد والتوفيق، ولا يرضى لهم العنت والمكابدة والشقاء فهو سبحانه رحيم بالخلق رحمة لا تعرف الحدود أو القيود.

٣٠ - (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

قوله تعالى: (ومن يفعل ذلك عدونا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) - اسم الإشارة (ذلك) يعود على أقرب مذكور وهو القتل - وقيل بل هو عائد إلى القتل والأكل بالباطل معا وعدوانا منصوب على المصدر في موضع الحال ٥٤ - والعدوان معناه: مجاوزة الحد - والظلم معناه: وضع الشيء في غير موضعه - فيكون معنى الآية، أن من يعتدي بالقتل أو الأكل عدوانا وظلما فسيكون عقابه أليما وهوا لصلي بمس النار اللاهبة الحارقة التي لا يطيق مسها كائن ذو حياة.

٣١ - (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا)

قوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) - ذلك وعد من الله كريم بالتجاوز عن صغائر الذنوب إذا ما اجتنبت الكبائر - وفي ذلك دلالة على أن الذنوب قسمان: كبائر وصغائر - والكبائر أشدها الشرك بالله، وتأتي بعد ذلك آثام كثيرة مثل الزور والربا وعقوق الوالدين وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات والهرب من أرض المعركة في جبن وخسّة وكذلك إلحاق الأذى بالجار والزنا وشرب الخمر والميسر، كل أولئك من كبريات الذنوب الموبقة التي تودي بصاحبها إلى الجحيم إلا أن يتفضل الله برحمة - وعلى العموم فإن الضابط الذي يمكن أن نتعرف بوساطته على الكبيرة هو أن يكون الذنب الذي ورد فيه النهي قد ختم بغضب من الله أو لعنة أو ما توعد الله فيه بالنار والعذاب الشديد - وما كان غير ذلك فهو من الصغائر التي يعفوا الله عنها إن شاء - ومن مثل الصغائر اللمس والنظرة - وقيل القبلة.

قوله: (وندخلكم مدخلا كريما)، (مدخلا) بضم الميم وفي إعرابه وجهان: احدهما: أن يكون منصوبا على المصدر - أي إدخال - ويحتمل أن يكون المدخل هنا بمعنى المكان فيكون منصوبا على أنه مفعول به، والمدخل الكريم هو الجنة وذلك جزاء المتقين الذين يحبسون أنفسهم عن المعاصي الكبيرة ويقبلون على الطاعات والفرائض - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر " ٥٥.

وأخرج الإمام احمد عن أبي أيوب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من عبد الله لا يشرك به شيئا وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان واجتنب الكبائر، فله الجنة " فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: " الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار من الزحف ".

٣٢ - (وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

قوله تعالى: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما).

التمني كما عرفه الرازي على أنه عبارة عن إرادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون - وقال القرطبي: التمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضي - والتمني المتعلق بأمور الدنيا ومصالحها وحطامها مذموم لما في ذلك من إشغال للقلب وإرهاق للأعصاب، ولما في ذلك من دوام المراودة للنفس كيما تظل مشهودة ولاهية عن غايات سامية عليا يصبو إليها المؤمن - ولا جرم أن تكون اهتمامات المؤمن سامية رفيعة لتعلو على الدنايا والخسائس ولتسمو على الأغراض الهزيلة التي تتهافت حولها نفوس الضعفاء والمبتذلين - إن الآية الكريمة تنهى عن الانشغال في التمني لما فضل الله به بعض الناس على بعض في الرزق وعطايا الدنيا، فإن لكل حظه مما اكتسبه سواء كان ذكرا أم أنثى - وقد قيل إن هذه الآية نزلت في أم سلمة – رضي الله عنها- قالت: يغزوا الرجال ولا يغزوا النساء وإنما لنا نصف الميراث - وقيل غير ذلك - والآية تفيد بعمومها التحذير من مفسدة التلهي بتمني الخير والمال أو مختلف المكاسب - وليس من دافع لمثل هذا الشعور غير الحسد البغيض - ومن شأن المسلم في مثل هذا الأمر أن يكد ويسعى في الأرض بجد ونشاط مع دعوته لله بأن يهب له الرزق الحسن - والله سبحانه لهو أعلم حيث يقسم الرزق، إنما يقسمه بقدر وقسطاس مستقيم - على أننا نضيف إلى ذلك أن المحظور في الآية والمنهي عنه هو الذي يكون مصحوبا بالحسد والبغض مع ما يرافق ذلك من تمن لزوال النعمة لدى الآخرين - أما إن كان التمني مجردا عن لوثة الحسد مع تمني الخير ودوام النعمة عند الآخرين فليس في ذلك من بأس، وذلك ما ذهب إليه أكثر أهل العلم - ومن ناحية أخرى فإن التمني المتعلق بأمور الدين والآخرة مما لا علاقة له بشهوات النفس وزخارف الدنيا- فإنه حسن ومفضل، وليس أدل على ذلك من قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " وددت أن أحيا ثم أقتل " فقد تمنى عليه الصلاة والسلام الشهادة وقد أعطيها بالفعل وذلك لما أثرت فيه لعقة السم في الشاة المسمومة حيث قال: " ما زالت أكلة خيبر تعاودني الآن أوان قطعت أبهري " - ومثل ذلك كثير.

قوله: (واسألوا الله من فضله) أي لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض فإن التمني لا يجدي شيئا، لكن اسألوا الله من فضله أي ادعوه واطلبوا منه الخير في غير ملل ولا كلل فإن الله جلت قدرته أكرم الكرماء وهو الرحيم الوهاب - وفي هذا روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " سلوا لله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج ".

وقوله: (إن الله كان بكل شيء عليما) أي أن الله عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، ومن لا يستحق من الدنيا إلا القليل فيعطيه مثل ذلك القليل.

وبعبارة أخرى فإن الله عالم بما يكون صالحا للسائلين، وعلى السائلين أن يجملوا في الطلب فإن كل شيء مقدور وعند الله مسطور ٥٦.

٣٣ - (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

قوله تعالى: (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا).

كان المسلمون يتوارثون في أول الإسلام بدافع من أخوة الدين حتى أنم لم يكونوا إذ ذاك ليعبأوا برابطة القربة فنزلت هذه الآية لتنسخ التوارث لأخوة الدين وتفرض أن يكون ذلك لأولي القربى - فالله يقول: (ولكل جعلنا موالى) أي ورثة يرثون ما يتركه الآباء والأقارب من أموال - أما الذين تحالفتم معهم بإيمان مغلظة على أن تورثوهم فليس لهم بعد الآن حظ في التوريث بل آتوهم نصيبهم من الوصية - وقيل: نصيبهم من النصيحة والإرشاد والنصرة - والله سبحانه يشهد على كل ما تقومون به من فعل أو قول فاحذروا مخالفة أمره والزموا حدوده وشرعه ٥٧.

قوله: (والذين عقدت أيمانكم) قرأها أكثرهم بالألف، أي (والذين عاقدت أيمانكم) مبتدأ ضمن معنى الشرط فوقع خبره مع الفاء، وهو قوله: (فآتوهم نصيبهم).

والمراد بالذين عاقدت أيمانكم موالي الموالاة - فقد كان الرجل يعاقد الرجل فيقول له: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف فنسخ بقوله تعالى: (وأولوا الأرحام بعضكم أولى ببعض) على أنهم أمروا بالوفاء بالعهود والعقود والحلف الذي كانوا قد تعاقدوا عليه مثل ذلك - وقد روى الإمام أحمد في ذلك عن جبير بن مطعم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة " أما بعد ذلك فلا مساغ للتوارة بالحلف كما هو مذهب الحنفية خلافا للجمهور وفيهم الشافعية والحنابلة والمالكية إذ قالوا بعدم التوارث على أساس الحلف.

قوله: (فآتوهم نصيبهم) أي من النصرة والنصيحة والمعونة، وليس المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث ٥٨.

٣٤ - (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا)

قوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا).

قوله: (الرجال قوامون على النساء) قوامون مفردها: قوّام وهو القيّم على الشيء أي المسؤول عنه والذي تناط به مهمة الحفاظ والحماية والنفقة - والقوام أو القيّم من القوامة وهي المسؤولية - وذلك تقدير رباني حكيم فيه تقرير لحقيقة تنطق بها الفطرة وتوجبها طبيعة التباين والاختلاف بين الذكورة والأنوثة.

وذلك في مختلف الجوانب العضوية والنفسية والدهنية - لا جرم أن ذلك تقدير رباني مركوز في أعماق الكينونة البشرية لتجيء الحياة على غاية الانجسام والتآلف والتكامل - والفوارق الذاتية بين الرجل والمرأة معتبرة ومقدورة لا ينكرها إلا جاهل مخدوع أو مضلل واهم - فالرجل يفوق المرأة – في الغالب- في قوة الجسد ومتانة الأعصاب ورباطة الجأش وسعة الأفق والمدارك، ومدى الاحتمال والصبر

واشتداد العزم والشكيمة - لكن المرأة في ذلك كله أشد جنوحا للنعومة واللين - وهي أخصب ما تكون إدرارا لعواطفها الصادقة الحرى، وإحساساتها الرقيقة الجياشة - لا جرم أن هاتيك الفوارق العضوية والنفسية والذهنية تفرض نفسها على الواقع البشري وفي حياة الناس والمجتمع بما يقتضي أن تناط القوامة بالرجل دون المرأة - فهو قمين باحتمالها والتلبس بها أكثر من المرأة بكثير.

وليست القوامة في ذلك بالمنة المفضلة التي حباها الله الرجل، ولكنها الوجيبة الثقيلة والأمانة الأساسية التي نيطت بالرجل ليكون مسؤولا عنها أمام الله - ولسوف يناقش من أجلها الحساب ليجد جزاءه العسير ان كان من المقصرين المفرطين.

وفلسفة الإسلام في ذلك أصلا قائمة على التنفير من التلبس بالمسؤوليات أو المراكز التي لا ينبري للتشبث بها أو الحرص عليها إلا الخاسرون الهلكى - فلسفة الإسلام في هذه المسألة مبنية على الترغيب في التواضع وبذل العون والخدمات للناس بعيدا عن صخب الشهرة وحب الظهور وإطراء الجمهور.

وقاعدة الإسلام في التفضيل أصلا إنما تقوم على التقوى قبل كل شيء، من غير التفات في ذلك لأية اعتبارات أخرى كالذكورة أو الأنوثة أو غير ذلك من اعتبارات الدم أو العرق أو اللون أو الحسب والنسب - وإنما الاعتبار الأكبر في ذلك هو التقوى - وأصدق الكلام في هذه الحقيقة قوله تعالى: (إن أكرمكم عند اله أتقاكم) وكذلك قوله عز وجل: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ذلك هو الاعتبار الحقيقي والمقدور في تصور الإسلام والذي يقع على أساسه التفضيل بين العباد - على أن الاستفادة من خبرة المرأة في كثير من الأمور لهي ذات شأن - فإن الاستفادة منها عن طريق التشاور معها أمر لا مفر منه خصوصا وأنها لذات عاطفة صادقة تتندى إخلاصا وبرا وبذلك فإن مشاورة الزوجة والوقوف على رأيها النافع الجيد لا يتعارض بحال مع إحاطة القوامة بالرجل - وبعد ذلك فإنه ليس لمتفلسف زنديق أو لذي رأي جاحد فاجر أن يصطنع الكلام في حذلقة فارغة ليفتري على القرآن بالطعن الكاذب والاجتراء الفاسد المقبوح - فقد قال قائلهم: إن المرأة لا تقل عن الرجل في أية كفاءة من الكفاءات أو قدرة من القدرات أو موهبة من المواهب - وقال آخرون: لا نرضى أن تناط القوامة بالرجل، بل كلاهما ينبغي أن يكون قواما - ومثل هذه الحذلقات كثير مما يكشف عن طبائع جانفة يغمرها الحقد أو التعصب أو تحف بها غاشية الجهل بحقيقة الإنسان في طبعه وحقيقة تركيبه - ولا جرم أن يكون الرحمن – جلت قدرته- أعلم العالمين بهذا الإنسان في أصالة تركيبه وجوهر فطرته وهو سبحانه أعلم بحقيقة الحال التي يصلح عليها الإنسان ذكرا كان أم أنثى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

قوله: (بما فضل الله بعضكم على بعض) والتفضيل هنا للخصائص العضوية والذهنية والنفسية التي يتغاير فيها الصنفان وذلك في ضوء التركيب الفطري المختلف.

وتفضيل الرجال على النساء حاصل من وجوه كثيرة، فبعضها صفات حقيقية، وبعضها صفات شرعية، أما الصفات الحقيقية فيرجع حاصلها إلى أمرين، وهما العلم والقدرة فإنه من الحقيقة أن علوم الرجال أكثر وأن قدرتهم على الأعمال الشاقة أعظم - فمن أجل هذين السببين جعلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة - وان من الرجال الأنبياء والعلماء والشهداء والنوابغ والأفذاذ والمصلحين ٥٩.

قوله: (وبما أنفقوا من أموالهم) وذلك أحد أسباب القوامة المنوطة بالرجال وهي التزامهم بالانفاق والبذل من أموالهم سواء كان ذلك على سبيل المهر يقدم للزوجة أو مؤونة الإطعام والإيواء والكساء - وهي أمور قد نيطت بالرجال ليقوم بأدائها كاملة نحو زوجته من غير تأخر - أما المرأة فإنها مبرأة من مثل هذا الالتزام حتى وإن لحقت بالزوج حالة من الإعسار، فلسوف يبقى هو المكلف في سائر الأحوال فإن لم يستطع القيام بهذا التكليف باتت المرأة مخيّرة بين البقاء أو التفريق.

قوله: (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) - الله جلت قدرته يثني على النساء الصالحات العابدات اللواتي يطعن أزواجهن في المنشط والمكره إلا في معصية الله واللواتي يقمن بحق أزواجهن في صون أموالهم وأنفسهن حال غياب أزواجهن - وفي الحديث الشريف: " خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك " وفي حديث آخر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مخاطبا عمر: " ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء؟! المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته، و إذا

أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته ".
قوله: (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) قيل في سبب نزول هذه الآية أن سعد بن الربيع نشزت امرأته حبيبة بنت زيد فلطمها فقال أبوها: يا رسول الله أفرشته كريمتي فلطمها - فقال عليه السلام: " لتقتصّ من زوجها " فانصرفت مع أبيها لتقتصّ منه فقال عليه السلام: " ارجعوا هذا جبريل أتاني " فأنزل الله هذه الآية - فقال عليه السلام: " أردنا أمرا وأراد الله غيره " وفي رواية أخرى: " أردت شيئا وما أراد الله خير " ٦٠ - واللاتي جمع التي - تخافون بمعنى تعلمون وتتيقنون - والنشوز يقصد به العصيان من الزوجة لزوجها وتعاليها عليه - وأصل النشوز في اللغة الارتفاع - ونشزت المرأة على بعلها بمعنى ارتفعت عليه ويكنّى بذلك عن العصيان له والاستكبار عليه وعدم طاعته ٦١ - يبين الله كيفية التعامل مع الزوجات النواشز اللاتي يستكبرن على أزواجهن ولا يطعنهم فيما يكون إصلاحا لطبعهن وردا لهن إلى الصواب - وذلك من خلال مراحل المعالجة والتأديب حتى إذا لم يتحقق الإصلاح في مرحلة جيء بأخرى عسى أن يكون فيها ما يعيد الزوجة إلى الهداية والسداد والرشد كيلا يقع التفريق وهو في شريعة الإسلام أقسى سبيل ومبغض لله سبحانه.
وبذلك فإن أسلوب الإسلام في الإصلاح والتوفيق بين الزوجين حال نشوز الزوجة يتم من خلال مراحل ثلاث:
أحدها: الوعظ الحسن والكلام المؤثر الرفيق.
ثانيها: الهجر في المضجع وهو طريقة نفسية لا جرم أن تؤثر في الغالب.
ثالثها: الضرب الهيّن الحاني المشروط بعدم التبريح.
فإذا نشزت المرأة في عصيان لبعلها ليس له أن يبادر ليوقع الطلاق فإن ذلك أسلوب عقيم ومشنوء وهو كذلك مبغض للرحمن - بل إن الزوج في هذه الحال يتذرع بالصبر وسعة الصدر وطول الاحتمال ليبادر زوجته بالكلام المؤثر الحاني فيما يستغدق منها فائض حنانها وزاخر عاطفتها - وفي ذلك من الأسلوب الكريم ما عساه يستعيد المرأة إلى حظيرة الزوجية في طاعة وافية، وعشرة هانئة راضية - ومما لا ريب فيه أن الكلمة المؤثرة الطيبة لهي أشد ما تكون نافعة ونافذة حتى تجد سبيلها إلى عميق القلب بما يحمل الإنسان على التغيير من مواقفه تغييرا كبيرا - وتلك هي حال الإنسان ذي العاطفة والوجدان فإنه يؤثر فيه الكلمة لتنقله من حال إلى حال - يستوي في ذلك أن تكون الكلمة طيبة أو سيئة قاسية - ولا نفترض أن الناس جميعا تأخذهم الكلمة الطيبة لتنفذ إلى قلوبهم نفاذا ثم لتقلب فيهم المزاج قلبا - ولو صح هذا الافتراض لصح معه التصور بأن الناس جميعا قد جاءوا على نمط واحد من التركيبة النفسية والروحية وأنهم لا توجد بينهم شذرة من افتراق في الطبع أو الفطرة - وعلى هذا فإنه لا مناص من أن يكون ثمة علاج ثان ليس من جنس الأول - فقرر القرآن أن يكون هذا العلاج مخاطبا للأنوثة في صميمها بما يقضها بهزة نفسية بالغة قد تكون أشد على المرأة من أسلوب الوعظ والكلام الحسن - والعلاج هنا هو الهجر في المضاجع - بمعنى الابتعاد عن التلاقي في الفراش وعدم المسيس (الجماع) فعسى أن يكون في ذلك من القسوة النفسية ما يحمل الزوجة على الإقلاع عن مناشزة زوجها والاستكبار عليه - لكن ثمة عناصر أخرى من النساء اللواتي يختلفن من حيث طبعهن ومزاجهن عن كثير من النساء بحيث لا يحقق الوعظ والهجران نجاعة أو عودا إلى الطاعة وحسن المعاشرة - وقرار الإسلام هنا أن يتحقق ذلك في الضرب المشروط بعدم التبريح - وهنا تقوم قائمة الحاقدين المبغضين أو المتعصبين والجهلة الذين يتصيدون المنافذ فيلجون منها إلى الإسلام ليشيروا من حوله الشبهات - وفي هذا الصدد يردون على المعالجة بالضرب لينفوا عنها نجاعة الأسلوب فضلا عن الأباطيل والأقاويل التي تقال في هذا المجال افتراء على الإسلام وتخريصا - أما بالنسبة للمعالجة بالضرب فما كان ذلك غريبا وما كان ليثير أدنى تساؤل أو امتعاض لو أن الأمر نوقش بإخلاص وتجرد وروية - لكن المتسائلين المستغربين لهذا الإجراء (الضرب) لا يفارقهم التعصب أو الجهل بحقيقة الإنسان - ذلك أن الضرب وسيلة للمعالجة تدخل في جملة الوسائل العلاجية المتعددة - وما الضرب إلا إحدى هذه الوسائل باعتباره الرادع المناسب والذي يستقيم به الطبع الناشز أو الخلق الذي سيم الميل والانحراف - على أن الضرب لا يقصد به الانتقام أو إشفاء الغليل ولا هو نتيجة لكراهية وحقد - ليس في وسيلة الضرب شيء من ذلك ولكنه مجرد وسيلة للعلاج باتت هي الاكثر ملاءمة للموقف الحاصل أو هو سبب يتحقق به التأديب و العود إلى الصواب والاستقامة - وقد يعرض

لمتسائل هذا السؤال: أفلا يجوز للزوجة أن تعاقب زوجها بالضرب حال سفهه أو تجاوزه عليها، وللإجابة نقول: إذا ما تحقق ذلك فإنه سيكون قلبا للاعتبارات والموازين رأسا على عقب مثلما يضرب المرؤوس رئيسه أو الجندي ضابطه في الكتيبة أو الميدان، إن ذلك يعني التشويه الممجوج للصورة في حقيقتها ووجهها الناصع أو يعني المخالفة الصريحة لأبسط قواعد التربية والمنطق - فالمرؤوس لا يؤدب رئيسه بالضرب وليس للابن أن يعاقب أباه بحجة التأديب - ليس الأمر كذلك إلا أن يقع شيء من ظلم، فإن وقع ظلم كان للمظلوم أن يرفع ظلامته للقضاء ليباشر دوره في التحقيق وإحقاق الحق، كما لو كان قصاصا ينبغي أن يقاد فيه للمظلوم من الظالم.

وعلى أية حال فإن الضرب إن وقع فهو مشروط فلا يكون فيه خدش للجسم أو كسر للعظم ولا لطم للوجه فإن الوجه موضع احترام فلا يجوز ضربه - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم عن جابر: " اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرّح " والتبريح ما أدى إلى الكسر أو الجرح.

وجدير بالقول كذلك أنه يحسن الاصطبار على نشوز الزوجة وعدم ضربها فهو أفضل من الوجهة الشرعية لعموم حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: " ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم ".

وقوله: (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا) إذا عادت المرأة إلى طاعة الزوج وأقلعت عن النشوز والعصيان فليس للزوج بعد ذلك أن يلحق بها أذى أو ظلما بقول أو فعل - وهو لم يبق له بعد عودتها للطاعة سبيل عليها كيلا يحيف عليها في ظلم وإن اقترف شيئا من ذلك فإن الله كبير ومنتقم وهو سبحانه يتوعد المخالفين عن أمره توعدا.

٣٥ - (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

قوله تعالى: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا) - خفتم بمعنى: علمتم - والشقاق من الشق وهو يعني الجهة أو الناحية - فكأن كلا من الزوجين يأخذ شقا غير شق صاحبه أو يكون على ناحية مقابلة ومخالفة للناحية التي انتحاها الآخر - وقد أضيف المصدر إلى الظرف المكاني وذلك كقوله تعالى: (بل مكر الليل والنهار) أو كقولنا: " صوم يوم عرفة ".

والمخاطب في الآية هم الولاة والأمراء - وقيل: الخطاب موجه للأولياء - والقول الأول هو الراجح وهو قول الجمهور - أما المخاطب في قوله: (إن يريدا إصلاحا) قيل: الحكمان - وقيل: الزوجان - ومعنى الآية: إنكم إذا علمتم بوقوع خلاف وتنافر بين الزوجين فابعثوا حكمين من أجل الإصلاح بينهما بحيث يكون الحكم الأول من أهل الزوج والحكم الثاني من أهل الزوجة على أن تتحروا عدالة هذين الحكمين وأنهما من ذوي السيرة الحسنة الحميدة - وإذا لم يوجد من أهل الزوجين من تتوفر فيه هذه الأوصاف وجب اصطفاؤهم من غير أولي القربى على أن يكونا من أهل العدل والعلم والتقوى.

أما مهمة هذين الحكمين فإنها الإصلاح بين الزوجين المتناشزين المتنافرين - حتى إذا اجتمع كل حكم بمن يليه في القربى حدثه حديث العظة والتذكير، ورغّبه في موادّة زوجه، ونفّره من فداحة التفريق عسى أن يكون في هذا الحديث الحسن الرؤوف ما يؤلف بين القلبين المتباغضين وما يكون سببا في إذهاب النشوز والبغضاء وتحقيق التآلف والمودّة فيعودان زوجين مؤتلفين متحابين.

والحكمان وهما يراوضان الزوجين على التداني والتآلف يستطيعان الوقوف على مقصد كل من الزوجين فان كانا راغبين في العودة إلى حظيرة الزوجية كان به ونعمت - وإن كان غير ذلك من التدابر الذي لا رجعة بعده قدم الحكمان تقريرهما في ذلك إلى القاضي أو الوالي - والحكمان في ذلك كله مؤتمنان تماما بحيث يقع حكمهما موقع الإلزام الحاسم الذي يأخذ القاضي بموجبه ليقضي بما قضيا - وعلى ذلك فإن قضى الحكمان بالتفريق كان ذلك بمثابة طلاق بائن وهو قول الشافعية والمالكية وآخرين من أهل العلم، وذلك استنادا إلى قوله تعالى: (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وهذا نص من الله تعالى أن الحكمين قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان - وقيل:

إن الحكمين ليس لهما إيقاع الطلاق ما لم يوكلهما الزوج في ذلك ويطلعا القاضي عليه - وهذا بناء على أن الحكمين رسولان شاهدان، والإمام يفرق إن أراد ويأمر الحكمين بالتفريق - وهو قول الحنفية، وأحد قولي الشافعي.

أما إذا اختلف الحكمان فقال أحدهما بما يخالف الآخر بات قولهما غير ذي اعتبار ولا هو بنافذ حتى يتفقا - فلو قضى أحدهما بالتفريق ولم يقض الآخر بذلك لم يؤخذ بقولهما معا - وكذلك لو حكم أحدهما بمال وأبى الآخر فليس ذلك بشيء حتى يتفقا ٦٢.

٣٦ - (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا)

قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجانب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) العبودية تعني التذلل والخضوع لله وحده والإخلاص له في القول والفعل - حتى إن العبادة التي يشوبها رياء أو نقص في الإخلاص فإنها غير مقبولة إذ لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصا لله تماما - قال سبحانه في هذا الصدد: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " عن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: " الرياء، يقول الله يوم القيامة، إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء " - وبذلك يأمر الله سبحانه عباده أن يخلصوا له العبادة بعبادته وحده من غير شريك ذلك أن الإشراك بالله هو أكبر الكبائر وأعظم العظائم - والله تعالى أشد ما يغضب للإشراك به من قبل العباد كيفما كانت صورة الشرك، وصور الشرك كثيرة وشتى فمنها أن يتخذ الناس مع الله آلهة أخرى كالأوثان والأوطان والملوك، فكل أولئك أصناف من الشركاء التي يتخذ منها الناس آلهة تعبد مع الله أو من دونه - ومنها الرياء وهو إحساس خفي يخالط قلب الإنسان فيحرفه عن الإخلاص لله في القول والعمل ليبتغي بذلك إطراء الناس وثناءهم.

قوله: (وبالوالدين إحسانا) إحسانا مصدر لفعل محذوف تقديره أحسنوا - والله يأمر بالإحسان لجملة من الناس يأتي في طليعتهم أحقهم بالفضل والإجلال والتكريم، وهما الوالدان - وقد قال العلماء: إن أحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة والإذعان ذلكما اللذان قرن الله الإحسان إليهما بعبادته سبحانه ألا وهما الوالدان - ويبدو ذلك في قوله تعالى: (أن اشكر لي ولوالديك) وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين " - والإحسان للوالدين في هذه الآية لا يرد على سبيل الندب والاستحباب، بل هو وارد مورد الفرضية والإيجاب - فإن طاعة الوالدين في غير معصية والإحسان إليهما وبرهما أمور أوجبها الله إيجابا على كل مسلم عاقل بالغ له أبوان أو أحدهما على قيد الحياة - وليس في معصيتهما والنكول عن البر بهما والإحسان إليهما أو أحدهما إلا ضرب من ضروب الجريمة الكبرى التي يسقط فيها الخاسرون التعساء، وهي جريمة بشعة نكراء قد شدد الإسلام في الإغلاظ عليها بأنها إحدى السبل التي تؤدي بالعاقين العصاة إلى جهنم والعياذ بالله.

وتوجب الآية كذلك الإحسان لذوي القربى بعد أن عطفهم على الوالدين - وأولوا القربى هم الذين تربطهم بالمرء رابطة النسب على اختلاف درجاتهم، سواء كانوا من أولي الأرحام أو العصبات وسواء كانوا من الورثة أو غير وارثين.

وكذلك توصي الآية بالإحسان للمساكين وهم جمع تكسير مفردة مسكين - وفي بيان حقيقة المسكين قد وردت أقوال كثيرة مختلفة لعل أصوبها وأرجحها أن المسكين هو الذي يملك من المال والمؤونة ما لا يكفيه - فهو بذلك من ذوي الحاجة الذين ليس لديهم ما يكفي لسد حاجتهم فهؤلاء يجدر بالمسلمين أن يحدبوا عليهم وأن يحسنوا إليهم بمختلف وجوه الإحسان.

وقوله: (والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب) الجار من الجوار وهو الأمان والعهد وإعطاء الرجل ذمة فيكون بها جاره فيجيره - يقال " هو في جواري " أي في عهدي وأماني ٦٣ - وفي كلمة الجار ما يوحي بوجوب صون الجار من الضرر وكف الأذى عنه ثم الإحسان إليه باعتباره داخلا في الجوار لجاره أي في أمانه وعهده - وهذه مرتبة عظيمة يحتلها الجار من حيث وجوب

الإحسان إليه ودفع الشر والبوائق عنه - وإسداء النصح والبر وكل وجوه البر والخير له.
وفي الآية تقسيم للجار إلى صنفين - أولهما: الجار (ذي القربى) أي القريب، ثانيهما: (الجار الجنب) - وهو الغريب - وقيل المقصود بالجار ذي القربى المسلم - أما الجار الجنب فهو النصراني أو اليهودي وكل هؤلاء موصى بهم سواء كانوا أقرباء أم غرباء، أو كانوا مسلمين أو غير مسلمين - وقد أوصى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالجار حق التوصية وعلى نحو ينتزع الاهتمام البالغ بالجار وحقه فقد روى أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " وما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " وروى البخاري ومسلم عن أبي شريح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " والله لا يؤمن والله لا يؤمن " قيل: يا رسول الله ومن؟ قال: " الذي لا يأمن جاره بوائقه " - وروى البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق وجار له حقان وجار له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام - والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار - والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار ".
أما في حد الجوار فقد قيل إن حده أربعون دارا من كل ناحية استنادا إلى الحديث الذي يقول: " ألا إن أربعين دارا جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " وفي إكرام الجار أخرج مسلم عن أبي ذر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك ".
وذلكم حديث آخر قد جمع فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - حقوق الجار وهو مروي عن معاذ بن جبل قال: " قلنا يا رسول الله، ما حق الجار؟ قال: " إن استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن احتاج أعطيته، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير سرّك وهنيته، وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزّيته، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، ولا تستطل عليه بالبناء لتشرف عليه وتسد عليه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فأهد له منها، وإلا فأدخلها سرا لا يخرج ولدك بشيء منه يغيظون به ولده وهل تفقهون ما أقول لكم لن يؤدي حق الجار إلا القليل ممن رحم الله ".
وقوله: (والصاحب بالجنب) قيل في تفسيره: هو الرفيق في السفر - وقيل: هي الزوجة، وقيل: الضيف والقول الأول أرجح والله أعلم.
قوله: (وابن السبيل) قيل هو الضيف - وقيل هو الذي يمر بك مجتازا في السفر، وهذا الأرجح.
قوله: (وما ملكت أيمانكم) هم المماليك أو الأرقاء يوصي الله سبحانه بالإحسان إليهم وألا يمسوا بأذى يكرهونه - وقد جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يوصي بهم في مرض موته ويقول: " الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم " جعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه - وفي البر بالمماليك وجوب الإحسان إليهم ورفع الأذى والظلم عنهم روى البخاري ومسلم عن أبي ذر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم " وقال عليه الصلاة والسلام: " لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا سيء الملكة " أي الذي يسيء معاملة من عنده من مماليك.
قوله: (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) - المختال هو ذو الخيلاء المستكبر الذي يجد نفسه عظيما ولا يقوم بحقوق أحد فهو يأنف من أقاربه وجيرانه إذا كانوا ضعفاء، بل يأنف من ضعاف الناس ومحاويجهم فلا يحسن عشرتهم - قال صاحب الكشاف في المختال: التياه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه فلا يتحفى بهم ولا يلتفت إليهم.
وأما الفخور فهو الذي يعدد مناقبه ويمتن على عباد الله بما أعطاه الله ٦٤.
٣٧ - (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)
قوله تعالى: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (الذين) في محل نصب على البدل من الاسم الموصول (من) في قوله: (من كان مختالا فخورا) والبخل هو الإمساك عن الخير والبذل والامتناع من أداء ما

فرضه الله يستوي أن يكون ذلك مالا أو علما - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذم البخيل والبخلاء: " وأي داء أدوأ من البخل " وقال أيضا: " إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا ".

قوله: (واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) الكفر معناه الستر والتغطية - فالبخيل يستر نعمة الله ويجحدها - ولذلك قد ذم الله البخلاء الذين يجحدون نعمة اله فلا تظهر عليهم لا في مأكل ولا في ملبس ولا في مأوى ولا في سخاء أو بذل مع أن الله جلت قدرته يحب أن يرى أثر نعمته على عبده - والأشد من ذلك عتوا وجحودا كتم العلم عن الناس كشأن يهود لما كتموا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة.

وقيل: إن الآية نزلت في اليهود فقد جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل والمال وكتمان ما أنزل الله في التوراة من ذكر النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - - وذلك غاية البخل الذي ينطمس فيه وجه الحق وتخان فيه الأمانة - وقد توّعد الله هؤلاء الأشحّة الذين يخلون بالخير والبذل ثم يحرضون غيرهم على الشح كذلك ليكونوا أمثالهم- بعذاب الخزي والمهانة ٦٥.

٣٨ - (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)

قوله تعالى: (والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) عطف على (الذين يبخلون) وقيل: عطف على الكافرين.

والكلام هنا عن الباذلين أموالهم (رياء) منصوب على الحال وقيل مفعول لأجله ٦٦ وهو الرياء الذي يبتغي المرائي به السمعة والثناء وحسن الحظ بين الناس ولم يقصد به وجه الله - وهؤلاء المراؤون صنف من أهل النفاق الذين لا يؤمنون باليوم الآخر فهم قرينهم الشيطان ومن كان الشيطان قرينه فبئس هذا القرين - والقرين هو الخليل أو الصاحب من الإقران.

٣٩ - (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا)

قوله تعالى: (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما) (وماذا): ما اسم في محل رفع مبتدأ - ذا في محل رفع خبر بمعنى الذي - فيكون المعنى: ما الذي يكون على أولئك الجاحدين الأشحة المرائين لو أنهم آمنوا بالله إيمانا صحيحا وأخلصوا العبادة له ثم أنفقوا مما رزقهم الله وتحرروا من إسار الشح والضن بالخير على العباد - ثم يبين الله أنه عز وجل لا يخفى عليه أمر أولئك العصاة فإنه مطلع على نواياهم وأسرارهم ٦٧.

٤٠ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)

قوله تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) في الآية تأكيد بالغ على نفي أن يصدر الظلم من الله - فإنه حاشا لله أن يكون ظالما بل حاشا له سبحانه أن يظلم ولو مثقال ذرة، وهي المتناهية في الصغر والبساطة - والله عز وجل أعدل العادلين وأكرم من أي كريم وهو يعامل بفضله فوق عدله لينال العباد في ذلك خيرا كثيرا يفوق كل حسبان أو تقدير - وهو سبحانه بفضله لا يجازي عن الحسنة بمثلها، بل إنه يضاعفها أضعافا كثيرة لا يعلم عدّها إلا هو - وذلك هو الأجر العظيم الذي يعطيه الله عباده من لدنه أي من عنده.

٤١ - (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا)

قوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) - ذلك سؤال مثير يبعث على الرهبة والخوف ويذكر بيوم مشهود عصيب يشتد فيه الكرب وتخلع فيه القلوب لهول الحدث القارع المفزع وذلك هو يوم القيامة، حيث يجاء على رأس كل أمة من الأمم برسولها الذي بعث فيها ليكون شهيدا عليها بما قدمته من أعمال في الخير أو الشر - وهو موقف عصيب ورعيب حقا! موقف حافل بالرعب والهول بما لا يتصوره إنسان وذلك إذا جيء بالخلائق كلها لتقف حاسرة عارية بين يدي الرب فيسألها عن كل صغيرة وكبيرة أمام الناس والملائكة جميعا.

قوله: (وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) المخاطب هو الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه سيجاء به يوم القيامة ليكون شاهدا على أمته التي بعث فيها - وقد أخرج البخاري بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أقرأ عليّ " قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: " إني أحب أن أسمعه من غيري " فقرأت عليه سورة " النساء " حتى بلغت (وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال: " أمسك " فإذا عيناه تذرفان - أما المقصود بقوله " (هؤلاء) فقد قيل هم كفار قريش فهم وزرا من غيرهم من المشركين وذلك لمعاينتهم النبوة ولما رأوه من الأدلة والمعجزات التي تبرهن على صدق الرسول الكريم، لكنهم لصلفهم وعنادهم لجوا مستكبرين جاحدين - وقيل: المقصود جميع أمة النبي فهم الذين سوف يقف النبي عليهم شهيدا يوم القيامة ليشهد على أعمالهم لدى العرض والحساب - نسأل الله العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة.

٤٢ - (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)

قوله: (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) في ذلك الموقف المخوف المزلزل يتمنى الكفرة والجاحدون لو تسوى بهم الأرض - أي أن يجعلهم الله والأرض سواء - وبعبارة أخرى تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فغاروا وانساحوا فيها - وهو تصوير تتكشف من خلاله حال المشركين والعصاة وهم يصارعون أشد ضروب الويل والمعاناة بدءا بهول الزحام والكربات في المحشر وانتهاء بالتكبكب والانقذاف في الجحيم وما يتخلل ذلك كله من فظاعة التحريق والاصطلاء وغير ذلك من أهوال القيامة وشدائدها ٦٨

قوله: (ولا يكتمون الله حديثا) في الواو هنا وجهان: أحدهما العطف على (تسوى) فتكون لا زائدة - والثاني: أنها واو الحال، والجملة في محل نصب حال ٦٩.

٤٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)

قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا) جاء في سبب نزول هذه الآية أن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقرأت (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ونحن نعبد ما تعبدون - فأنزل الله هذه الآية لتنهى عن الصلاة حال السكر - وفي ذلك ما يدل على أن السكر كان مباحا في أول الإسلام - وقد نزل في شان الخمر ما يشي بالتنفير منها من غير تحريم - قوله تعالى: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) فقال عمر بن الخطاب: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا - ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى - .) فقال عمر أيضا: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا - حتى نزل قوله تعالى: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه - - فهل أنتم منتهون) فقال عمر: انتهينا ٧٠ - وفي الآية نهي عن قربان الصلاة حال السكر - وفي ذلك دلالة على جواز شربها في فترة بعيدة عن وقت الصلاة كالعشاء الأخيرة مثلا وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة أوقات من الليل والنهار فلا يتمكن الشارب من أداء الصلاة في أوقاتها دائما والله تعالى أعلم ٧١ - والمراد بالسكر هو سكر الخمر وما قيس عليها من مخدّرات محرّمة يتخذها المدمنون وسيلة لإذهاب العقل من أجل العبث واللهو - والمقصود بالصلاة هنا موضع خلاف - فقد ذهبت طائفة إلى أنها العبادة المعلومة التي تؤدي في أوقاتها - وهو قول أبي حنيفة - وذهب طائفة أخرى إلى أن المقصود هو موضع الصلاة - وهو قول الشافعي وثمة قول ثالث بأن المقصود هو الصلاة وموضعها معا.

قوله: (وأنتم سكارى) مبتدأ وخبره - والواو تفيد الحال - وبذلك فان جملة المبتدأ والخبر في محل نصب حال - وسكارى جمع تكسير مفرده سكران على وزن فعلان - والسكر نقيض الصحو ومنه التسكير، كأن تقول: سكرت الشق أي سددته وجعلته مسدودا ٧٢ وعلى

هذا فإن السكران مسدود العقل بما أصابه من آفة السكر بفعل الخمرة وهي ما يخامر العقل، ومن ذلك الخمار أي الستار الذي يغطي الشيء فيحجبه عن الرؤية - وعلى ذلك فالخمرة ستار يخامر العقل فيغشاه بحجاب كثيف من الإسكار ٧٣.

قوله: (حتى تعلموا ما تقولون) أي حتى يمكن التيقن مما تقولونه تلاوة وغيرها في صلاتكم - والسكران لا يعلم ما يقول فلا يلزمه طلاقه؛ لأنه كالمعتوه الذي لا يفهم ولا يعي - وهو مروي عن ابن عباس - وقال به عثمان - وهو قول الليث بن سعد وأبي ثور والمزني، ورواية عن الشافعي - وكذلك البنج من ذهب به عقله فلا يقع طلاقه - وأجاز طلاقه آخرون - فقد روي ذلك عن عمر وبعض التابعين وهو قول أبي حنيفة والثوري والأوزاعي ورواية أخرى عن الشافعي.

أما الإمام مالك فقد ألزمه الطلاق والقود في الجراح والقتل، ولم يلزمه النكاح والبيع ٧٤.

قوله: (ولا جنبا إلا عابري سبيل) الجنب من الجنابة وهي مخالطة الرجل المرأة حتى يحصل الإنزال - والجنب لا يؤنث ولا يجمع - والأصل فيه من البعد كأن الجنب يكون بعيدا عن حال الصلاة ٧٥ - وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الجنب هو غير الطاهر سواء كان بسبب الإنزال أو ملامسة الختان للختان ولو بغير إنزال وهو الصحيح.

قوله: (إلا عابري سبيل) قيل: عابر السبيل هو المسافر فلا يصح لأحد بذلك أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد الاغتسال، إلا المسافر فإن له أن يتيمم ثم، يصلي وهو قول أبي حنيفة - وذكر آخرون في سبب نزول الآية أن قوما من الأنصار كانت أبواب دورهم شارعة في المسجد فإذا أصاب أحدهم الجنابة اضطر إلى المرور في المسجد - فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال: " وجّهوا هذه البيوت عن المسجد " - ثم دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يصنع القوم شيئا رجاء أن تنزل لهم رخصة فخرج إليهم فقال: " وجهوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب " - وفي هذا دليل على صحة القول الثاني وهو سبب نزول الآية - وفيه الحكم بجواز عبور المسجد للجنب الذي لا يجد مندوحة عن دخول المسجد بقصد الوصول إلى بيته.

وثمة محظورات على الجنب إلا أن يغتسل، وهي قراءة القرآن قلّ ذلك أو أكثر - فقد أخرج ابن ماجه عن ابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يقرأ الجنب والحائض شيئا من القرآن " وأخرج الدارقطني عن علي بن أبي طالب قال: " كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جنبا " - وكذلك أخرج الدارقطني عن عبد الله بن رواحة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب.

ومع ذلك فإنه يحل للجنب أن يقرأ من القرآن على سبيل الأذكار أو المواعظ والأحكام، كقوله عند الركوب: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) وقوله عند المصيبة: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

ويذهب الإمام مالك وأصحابه إلى جواز التلاوة للآيات اليسيرة من الجنب بقصد التعوذ أو الاستدلال وذلك كما لو قرأ آية الكرسي أو الاثنين الأخيرتين من سورة البقرة ٧٦.

أما أهل الظاهر فقد غالوا في ذلك إذ قالوا: يجوز للجنب أن يتلو القرآن ما قل منه أو كثر - ونحسب أن هذا القول مجانب للصواب ٧٧.

قوله: (حتى تغتسلوا) فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى - وعلامة النصب حذف النون من آخره - والاغتسال هو إسباغ الماء على الجسد مع إمرار اليد على المغسول وهو التدليك - على أن التدليك ليس شرطا لصحة الغسل وهو قول جمهور العلماء - وذهب الإمام مالك إلى وجوب التدليك عند الاغتسال، وقول الجمهور أصوب لما روى عن عائشة وميمونة في صفة غسل النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه ليس فيه تدليك.

وبالنسبة للنية فقد اشترطها بعض الفقهاء منهم مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم مثلما اشترطوا النية في الوضوء والتيمم؛ لأن مثل هذه الأمور عبادة وهذه لا تتحقق إلا بالنية لقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " إنما الأعمال بالنيات " وخالف في ذلك الأحناف وقالوا بصحة الغسل والوضوء بغير نية - لكن الطهارة عن طريق التيمم لا تتم إلا بالنية ٧٨.

قوله: (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط - - .) ثمة ظروف وأحوال يعز فيها الحصول على الماء أو استعماله فإنه حينئذ يتسنى للمرء أن يتيمم من أجل استباحة بعض العبادات التي يشترط لها الطهارة مثل الصلاة وتلاوة القرآن ودخول المسجد - وأول هذه الظروف والأحوال: المرض: فإن خشي المريض على نفسه الهلاك أو فوات جزء من أعضائه أو تأخير البرء إن اغتسل وذلك لبرودة الماء أو غير ذلك جاز له إذ ذاك أن يتيمم بالتراب الطاهر على نحو ما سوف نبيّن - فقد روى أبو داود والدارقطني عن عمرو بن العاص قال: احتملت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت باصحابي الصبح فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " يا عمر صليت بأصحابك وأنت جنب؟ " فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله عز وجل يقول: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فضحك نبي الله (ص) ولم يقل شيئا - ويعزز ذلك أيضا قوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) - وأخرج أبو داود والدارقطني عن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجّه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبر بذلك فقال: " قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما يكفيه أن يتيمم ويعصب أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده ".

السفر: يجوز التيمم للمسافر سواء كان السفر قصيرا أو طويلا إذا لم يتوفر الماء من غير اشتراط لما يجوز فيه قصر الصلاة - وذلك ما ذهب إليه جمهور أهل العلم خلافا لما قيل بأنه لا يكون تيم إلا في سفر تقصر فيه الصلاة وهو ضعيف.

أما بالنسبة لجواز التيمم في الحضر (الإقامة) فثمة خلاف بين الفقهاء في ذلك فقد ذهب الإمام مالك وأصحابه وأبو حنيفة إلى أن التيمم في الحضر جائز مثلما هو جائز في السفر وذهب الشافعي إلى أنه لا يجوز للحاضر المقيم أن يتيمم إلا إذا كان سقيما يخشى الهلاك أو التلف أو لغير ذلك من المعاذير الشرعية - وقال أيضا إنه إذا عدم الماء في الحضر جاز للصحيح والسقيم التيمم للصلاة على أن يعيدا بعد الحصول على الماء.

ويبدو أن الراجح ما ذهب إليه الشافعي وهو منع التيمم لغير المسافر وتوجيه هذا القول أن الله تعالى جعل التيمم رخصة للمسافر والمريض وبذلك فإنه سبحانه لم يبح التيمم إلا بشرطين هما السفر والمرض ويخرج من ذلك المقيم والصحيح.

نفاد الماء: إذا عدم الماء ولو في الحضر جاز التيمم لقوله تعالى: (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا).

فإذا نفد الماء في الحضر، أو بيع بثمن لا يطاق لغلائه، أو كانت الحاجة إليه من أجل الشرب ماسّة جاز التيمم، سواء احتيج إليه لسقاية الآدميين أو البهائم كالفرس أو الشاة أو الهرة أو كلب الحراسة أو غير ذلك.

والغائط أصله في اللغة ما انخفض من الأرض ويجمع على غيطان - وكان من عادة العرب إذا مشوا لقضاء الحاجة أن يذهبوا بعيدا عن أعين الناس ليغيبوا في الغائط من الأرض أي المنخفض، وبعد ذلك قد سمي قضاء الحاجة بالغائط ٧٩.

قوله: (أو لامستم النساء) ورد في تفسير الملامسة وفي حكمها جملة أقوال:

أولها: أن الملامسة مختصة باليد فقط فإذا وقعت الملامسة فيما بين الرجل والمرأة الأجنبية باليد وجب الوضوء لنقض الطهارة باللمس - وهو قول طائفة من أهل العلم - وهو مروي عن عمر وابن مسعود، وقال به الأوزاعي.

ثانيا: أن الملامسة مختصة بالجماع وما كان دون ذلك فلا وضوء فيه ولا تيم وهو قول أبي حينفة، إلا أن يطأها دون الفرج فينتشر فيها فيجب في حقه الوضوء، وذلك لما رواه أبو داود وابن ماجه عن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل امرأة من نسائه وخرج إلى الصلاة ولم يتوضأ.

ثالثها: إذا كانت الملامسة بغير شهوة فلا وضوء - وعلى ذلك يجب الوضوء عند اللمس إذا اقترن بالشهوة سواء وقع اللمس بحائل أو بغير حائل - وذلك ما ذهب إليه الإمام مالك وأحمد - وبذلك إن لمسها من رواء حائل لم ينتقض وضوءه في قول أكثر العلماء - وقال مالك والليث: ينتقض إن كان الحائل ثوبا رقيقا.

رابعها: إذ أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة وجب الوضوء أو التيمم عند عدم الماء سواء كان ذلك مقترنا بالشهوة أو بغيرها - فالمهم هو اللمس يقع بين الأبدان في أي جزء منها من غير تقييد لذلك باليد - وهو قول الإمام الشافعي.

على أن اللمس الذي ينتقض به الوضوء، موضعه المرأة الأجنبية الكبيرة، وليس ذات المحرم ولا الصغيرة - أما إن كانت من المحرمات على التأبيد أو من الصغار فلا ينتقض الوضوء بلمسها - وهو قول أكثر أهل العلم - خلافا للحنابلة والظاهرية، إذ قالوا: إذا مس الرجل المرأة، أو المرأة الرجل بأي عضو مس أحدهما به الآخر فقد انتقض الوضوء سواء كانت المرأة كبيرة أو صغيرة، أجنبية أو ذات محرم كما لو كانت أمه أو بنته أو أخته - أو هي مست أباها أو ابنها - وقد استدلوا لذلك بعموم قوله تعالى: (أو لا مستم النساء) فهو لم يفرق بين امرأة وأخرى.

والراجح عندي من بين هذه الأقوال جميعا هو ما ذهب إليه الإمام مالك - وتوجيه ذلك أن المقصود بالملامسة إنما هو اللمس أو التقبيل ولا يكون ذلك إلا عن شهوة ولا معنى للتقبيل من غير شهوة مادامت المرأة أجنبية - ثم لا يكون المقصود بالملامسة الجماع وهو ما يؤدي إلى الجنابة، لأن الآية قد تحدثت قبل ذلك عن الجنب فلا معنى للتكرار ٨٠.

قوله: (فتيمموا) التيمم في اللغة معناه القصد - تيممت الشيء أي قصدته ٨١.

وفي قوله تعالى: (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أي لا تقصدوا المال الرديء لتنفقوا منه - أما في الشرع فهو مسح الوجه واليدين بالتراب عند تعذر استعمال الماء لاستباحة بعض العبادات كالصلاة ومس القرآن - والملاحظ أن المعنى اللغوي للتيمم قد تحول بسبب كثرة الاستعمال إلى المعنى الشرعي.

والتيمم يلزم كل مكلف بالصلاة عند انعدام الماء أو تعذر استعماله إذا دخل وقت الصلاة - وأجمع العلماء على أن من تيمم ثم وجد الماء قبل الدخول في الصلاة فقد بطل تيممه وعليه أن يستعمل الماء - أما من تيمم وصلى فإن صلاته تامة ولا تجب عليه إعادة.

قوله: (صعيدا طيبا) الصعيد معناه التراب الطاهر الذي على وجه الأرض، سمي بذلك، لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض وجمعه صعدات ٨٢.

وقد اختلف الفقهاء في تحديد الصعيد، وذلك بسبب تقييده بالطّيب - فما هو الطيب؟ ثمة قول بأنه الطاهر وبذلك يجوز التيمم بالرمل والحجارة والمعدن، لأن ذلك من جنس التراب باعتباره طاهرا وهو مذهب مالك وأبي حنيفة - وزاد أبو حنيفة فقال: يجوز التيمم بكل ما يتولد من الأرض من الحجارة مثل الزرنيخ والجص والطين والرخام.

وفي قول آخر بأن الطيب يعني التراب المنبت فالذي لا ينبت لا يسمى طيّبا وعلى هذا فإنه لا يجوز التيمم بغير التراب الخالص وهو المنبت ذو الغبار - وهو قول الشافعي وأحمد، والإمام أحمد يعتبر جواز التيمم بوجود التراب ولو كان غبارا - وعلى هذا لو ضرب يده على صخرة أو حيوان أو حائط أو ثوب أو أي شيء فصار على يديه بذلك غبار جاز له التيمم به - وإذا لم يكن فيه غبار فلا يجوز.

قوله: (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا) المراد بالمسح هو إمرار اليد على الممسوح - واختلفوا في اشتراط نقل جزء من التراب إلى العضو محل التيمم - فقد اشترط الإمام الشافعي ذلك استنادا إلى قوله تعالى في آية أخرى (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) وقوله: (منه) يفيد نقل جزء من التراب - وخالف مالك في ذلك وذهب إلى عدم اشتراط نقل التراب استنادا إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما وضع يديه على الأرض للتيمم ورفعهما نفخ فيهما، وفي رواية أخرى نفضهما.

وثمة مسألة أخرى وهي: هل يكفي في التيمم ضربة واحدة أم لا؟ فقد ذهب الأئمة مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري والليث إلى أن التيمم لا بد فيه من ضربتين إحداهما للوجه والاخرى لليدين الى المرفقين قياسا على الوضوء وذهب الامام احمد بن حنبل وأهل الظاهر إلى أنه يكفي فيه ضربة واحدة، واحتجوا لذلك بما رواه الشيخان عن عمار قال: بعثني النبي - صلى الله عليه وسلم - في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة - ثم أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرت ذلك له فقال: " إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا " ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة - ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه ٨٣.

(إن الله كان عفوا غفورا) الله سبحانه كان وما زال عفوا غفورا - والعفو هو المحو - والمغفرة تعني الستر والتغطية - فالله جلّت قدرته

بفضله ومنّه وكرمه يمحو الخطايا والذنوب التي يقارفها المسيء ويسترها فلا يظهر عليها أحدا من خلقه.
٤٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)
قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) يخاطب الله نبيه (ص) عن (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) وهم اليهود والمراد بالكتاب التوراة وقد كان من شأن اليهود أنهم حرّفوا كتابهم المنزل مثلما سولته لهم أهوائهم الفاسدة، فكان ذلك بمثابة الشراء الفاسد المقبوح الذي يستبدل فيه الضلال ليكون موضع الهدى وهم يبتغون مع ذلك كله للمسلمين أن يضلوا فيسلكوا مسالك الضلالة والهلاك.
٤٥ - (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا)
قوله تعالى: (والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا)
والله سبحانه وتعالى عليم بحقيقة هؤلاء الضالين المنحرفين الذين يعادون المسلمين شديد العداوة، وهم رغم عداوتهم ومكرهم فإن الله سبحانه يكفي المسلمين ويدرأ عنهم كل عوادي الكيد والدسائس وهو سبحانه الولي والنصير.
٤٦ - (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)
قوله تعالى: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) - قيل عن (من) بأنها بيان للجنس - أي جنس الذين هادوا وهم اليهود - وقيل (من) منقطعة عن الكلام قبلها وثمة كلمة محذوفة وتقديرها " قوم " أي من الذين هادوا قوم يحرّفون - - .
وقوله: (هادوا) أي اليهود - وهادوا تعني لغة تابوا ورجعوا إلى الحق فهو هائد، ومنه الهوادة أي اللين - والتهود بمعنى التوبة والعمل الصالح - ويقال أيضا هاد وتهود أي صار يهوديا والهود أي اليهود - وقيل: اليهودي نسبة إلى يهوذا وهو الابن الأكبر لإسرائيل (يعقوب) ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ٨٤ وقد وصف الله اليهود بهذا الوصف اللصيق بهم وهو تحريفهم للكلم أي الكلام إذ كانوا يتأولون كلام الله فيحملونه على غير محمله الصحيح جريا وراء أهواء شخصية ضالة - وكانوا كذلك يفسرون كلام الله تفسيرا مجانبا لحقيقة ما يقصده الدين السماوي من معاني الخير والبر والصلاح ومن مبادئ العدل والمساواة والرحمة التي أوجبتها شرائع السماء على جميع المؤمنين بالله - وأنكى من ذلك مجاهرتهم بالجحود الظالم لنبوة الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم يجاهرونه بالمعصية والنكران (ويقولون سمعنا وعصينا).
قوله: (واسمع غير مسمع) غير، منصوب على الحال أي اسمع ما نقول لا سمعت! وهو دعاء خبيث واستهتار تكنه قلوبهم فلا تلبث أن تنطقه ألسنتهم وهو مرادهم - مع أنهم يتظاهرون بأن مقصودهم هو: اسمع غير مسمع مكروها ولا أذى.
قوله: (وراعنا) يظن السامع حال سماعه هذه الكلمة أن المقصود المراعاة أو راعنا سمعك، لكن اليهود عندما كانوا يقولون للنبي: (وراعنا) قد قصدوا غير ذلك فقد كانوا يقصدون بذلك الرعونة وذلك على سبيل السب والاستهزاء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - - وهذا المقصود من قوله تعالى: (ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) لقد كان التلاعب بمثل هذه الألفاظ مع ما كان يختبئ وراءها في الصدور من خبيث المقاصد، لهو اللّي والتحريف - والأصل في اللي هو الفتل - وإعراب (ليا) النصب على المفعول لأجله - وقيل مفعول مطلق ٨٥.
وكذلك قد كان تلاعبهم بمثل هذه الألفاظ وإخفاؤهم لخبيث المقاصد (وطعنا في الدين) والطعن هنا يتناول سب النبي والتشكيك في نبوته إذ كانوا يقولون: لو كان نبيا لعلم أننا نقصد سبّه والسخرية منه، مع أن الله جلت قدرته قد أطلع نبيّه على هذه المقاصد الخبيثة الخبيئة.

قوله: (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) لقد كان خيرا لهؤلاء المحرّفين الملتوين (وأقوم) أي أعدل وأسد لو استقامت طبائعهم وخلصت نواياهم مقاصدهم فقالوا: (سمعنا وأطعنا - - .) فإنه ليس في هذه المقالة شيء من تحريف أو مخاتلة أو فتل، ولكنه الكلام المتكشف المستبين الذي يكشف عن نفس مبرّأة من الحقد والضغينة والالتواء - لكن الله خذل هؤلاء الماكرين وأبعدهم عن الإيمان والخير بسبب كفرهم، وهو تأويل قوله تعالى: (ولكن لعنهم الله بكفرهم).

قوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا) أي أنهم إيمانهم هيّن وغاية في البساطة والضعف حتى لكأنهم لم يوقنوا البتة ٨٦.

٤٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا)

قوله تعالى: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) - جاء في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلم رؤساء من أحبار يهود منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسد فقال لهم: " يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الله الذي جئتكم به الحق " قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصرّوا على الكفر.

والذي يفهم من الآية أن المخاطب بها هم اليهود فقد دعوا إلى الإيمان بالقرآن الذي جاء مصدقا لما معهم وهي التوراة ٨٧.

قوله: (من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) ذلك تهديد مرعب لليهود ليحملهم على الإيمان بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وما تنزل عليه من كتاب وهو القرآن وإلا فإنهم معرّضون لطمس وجوههم - وقد ورد في معنى الطمس قولان - أحدهما على الحقيقة وهي أن تنقلب صورتهم قلبا تاما وبذلك ستتحول وجوههم بما فيها العيون والأنوف والأفواه إلى القفا وبعدها يرتد أحدهم على الدبر فيمشي القهقرى ليكون مشيه معكوسا أو تطمس وجوههم فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أنف ومع ذلك ترد إلى ناحية الأدبار - وذلك معناه الطمس - والقول الآخر أنه على المجاز أي أن الطمس محمول على الضلالة في مسعاهم وحرمانهم من كل مظاهر التوفيق والسداد والصواب ٨٨.

والطمس في اللغة معناه الاستئصال والإذهاب البتة - طمسته طمسا أي محوته - وطمست الشيء أي استأصلت أثره ومنه قوله سبحانه: (فإذا النجوم طمست) أي امّحت وذهب ضوؤها ٨٩.

قوله: (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) اللعن هو الطرد أو الإبعاد - فالملعون أو اللعين من كان مطرودا بعيدا من رحمة الله - وأصحاب السبت هم اليهود الذين اعتدوا على حرمة ذلك اليوم (السبت) إذ كان الاصطياد فيه حراما فاحتالوا بمكر وخسّة ليصطادوا في اليوم نفسه فكان جزاؤهم أن مسخهم الله قردة وخنازير - والسبت مصدر - نقول: سبتوا سبتا - وجمعه سبوت وأسبت - وسبت اليهود أي انقطاعهم عن المعيشة والاكتساب ٩٠.

قوله: (وكان أمر الله مفعولا) أي أن أمره واقع لا محالة فلا راد لما أراد ولا مانع لما قدّر.

٤٨ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) في هذه الآية تأكيد على أن غفران الله وعفوه لا يصيبان من قارف جريمة الشرك - والله سبحانه قد يتجاوز عن المسيء بالغا من العصيان والإساءة ما بلغ إلا أن يقارف شركا، ذلك أن (الشرك لظلم عظيم) - وفي هذه الآية دلالة واضحة على المغفرة يمتن الله بها على العصاة الذين يسقطون في المعاصي والكبائر كيفما كانت مادامت لا تصل إلى الشرك، وثمة دلالة أخرى هي أن الذنوب جميعا على اختلافها وتفاوتها في الصغر والكبر إنما هي دون الجريمة الفظيعة الكبرى وهي الشرك بالله - فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة " قلت: وإن زنى وإن سرق " قال وإن زنى وإن سرق

قلت: وإن زنى وإن سرق " قال وإن زنى وإن سرق ثلاثا - ثم قال في الرابعة: " على رغم أنف أبي ذر " فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر.

وأخرج البزار عن أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئا: فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض - وعن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك ".

والشرك بالله يأتي على ضروب وصور أشدها وأعتاها اتخاذ إله آخر مع الله كأن يكون الإله صنما من الأصنام التي يقدسها ويحني لها المشركون في خضوع - أو أن يكون حاكما جبارا من الجبابرة في الأرض الذين يستخفّون الناس فيفرضون عليهم طاعتهم وعبادتهم مثلما كان عليه ملوك مصر الفراعنة أو النمروذ خصيم إبراهيم في العراق.

أو أن يكون جزءا من الطبيعة والكون كمن يجسد للشمس أو القمر أو البحر أو النهر - أو كمن يذهل في إفراط وهو يغمره الشوق والحنين لبلده مسقط رأسه فيقدس أحجاره وترابه تقديسا يصل بالمشتاق المتلهف درجة التقديس والعبادة.

ومن ضروب الشرك كذلك أن تنطمس معالم التقوى والإيمان من الإنسان في زحمة الصراع مع الهوى والشهوات حتى يصير إلى كائن منغلق عن الخير ومشدود إلى الدنيا وحطامها وزخرفها كمن يؤثر المال على العقيدة والمبدأ - وتلك مرتبة من مراتب الشرك يرتكس فيها الإنسان ارتكاسا مقبوحا يودي به إلى التلبس بوصمة الشرك والكفران.

ومن ضروبه كذلك الرياء ولكنه ضرب من نوع أصغر - وهو أن تنثني نية الإنسان في عمله دون مرضاة الله لتتجه لإرضاء البشر وذلك هو الشرك الأصغر الذي كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحذر أمته منه وأنه أخوف ما كان يخاف منه على أمته - ومما هو جدير بالبيان هنا حقا ذلك الضرب من الشرك الذي غفل عنه معظم الناس في هذا الزمان وفي غالب الأزمان - وتلكم هي طاعة الحاكم الذي نبذ شرع الله واتخذه وراءه ظهريا والذي تعمد أن يقصي شرع الله عن ساحة البشر لكي يقيم مقامه شرعا وضعيا بعيدا عن منهج الله - وتلك جريمة بالغة كبرى تنطوي على التنكر لدين الله وإبعاده عن واقع التطبيق وإبداله بتشريع من صنع البشر وهو في تصوّر الإسلام جحود ونكران يصم صاحبه بالكفر الصريح لقوله سبحانه: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) لكن الأفراد والرعية الذين يسارعون لطاعة الحكام في تشريعهم البديل هم منحرفون عن صراط الله ومنهجه فلا غرابة بذلك أن تلحقهم وصمة الإشراك بالله - ذلك أنهم عبدوا الساسة والحكام الذي يشرعون للبشر على غير ما أنزل الله - وفي تصوّر الإسلام أن من أحلّ ما حرّم الله أو حرّم ما أحلّ الله أو عمل على تعطيل شرع الله لإبداله بشرع آخر فقد شرّع وهو يعني أنه جاء بشرع من عنده بدلا من شرع الله - أما الرعية وعامة القوم الذين يلهثون في خسة وذلة وراء الساسة المارقين المعطلين لشرع الله الرافضين لمنهجه، فقد سقطوا في ظلام الشرك، قال الله سبحانه في النصارى الذين أطاعوا الأحبار والرهبان عندما أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال: (اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم).

قوله: (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) من اكتسب الشرك فقد تلطخ بأنكر الآثام وأشدها عتوا - وإثم الشرك- كما بينا- لهو من الفظاعة والنكر بما يصغر دونه أي ذنب أو جريرة مهما كانت - فقد أخرج أبو يعلى في مسنده عن جابر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب " قيل: يا نبي الله وما الحجاب؟ قال: " الإشراك بالله - ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئا إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى إن شاء أن يعذبها وإن شاء أن يغفر لها ".

٤٩ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا)

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا) - المراد من ذلك اليهود فهم الذين كانوا يزكون أنفسهم - لكن نوع التزكية لأنفسهم كان موضع خلاف المفسرين - فقد قيل

أنهم زكّوا أنفسهم بقولهم: (نحن أبناء الله وأحباؤه) وقيل بقولهم: (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وقيل: قولهم نحن كالأطفال في عدم الذنوب - فما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا بالليل - وما من ذنب نعمله بالليل إلا كفر عنا بالنهار - فهذا الذي زكوا به أنفسهم - وأحسن ما قيل في ذلك هو ثناء بعضهم على بعض فيكلون لأنفسهم أو لبعضهم بعضا أفرادا وجماعات كل معاني الإطراء والثناء ٩١.

والتزكية هي التطهير - ويتم ذلك بامتداح النفس أو الغير بما ينفي عنه النقائص والعيوب والذنوب ٩٢.

ومع أن الآية نزلت في اليهود لتبرأتهم أنفسهم من العيوب ولتظاهرهم بالإخلاص والقرب من الله وأنهم متميزون عن غيرهم بمحبة الله لهم وأن ذنوبهم مغفورة- فإنه مع ذلك كله تفيد الآية النهي عن تزكية الإنسان نفسه - وقد جاء في ذلك قوله سبحانه: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ولا يزكي أحد نفسه إلا من كان من أهل الرعونة والخيلاء وذلك خلق ذميم يجلب سخط الله ويبطل الأعمال لتكون هباء منثورا.

ومن جهة أخرى فإن الآية توجب ألا يمدح أحد غيره - فإن كان ذلك حال غياب الممدوح محظورا فلا جرم أنه حال شهوده أشد سوءا ونكرا وفي صحيح مسلم عن المقداد قال (ص): " أن أحثوا في وجوه المدّاحين التراب " وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمع رجلا يثني على رجل فقال: " ويحك قطعت عنق صاحبك " ثم قال: " إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدا " - وأخرج الإمام أحمد عن معاوية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح " - ولعل من الأنسب أن يتكيف الحكم بحسب الممدوح على أن تكون التزكية قائمة على الحق والصدق - أما إن كانت التزكية لا أساس لها من الحق والصدق فذلك حرام ومحظور - وعلى هذا فإن امتداح المرء بما فيه من حميد الخصال جائز ان كان الممدوح متين العزيمة والإيمان لا يزيده الثناء والإطراء إلا حبا في الخير وفعله - فهو إذا أطري بما هو أهله ازداد بذلا وعطاء وكان في ذلك ما يشجّع الآخرين على فعل الخير ويحرّضهم على الأفعال النافعة السديدة والإكثار من بذل الخير - لا جرم أن ذلك مرده إلى النوايا - فإن قصد إطراءه بما هو أهله تحريضا له على الإكثار من البر جاز ٩٣ - (والله يعلم المفسد من المصلح).

قوله: (بل الله يزكي من يشاء) الله جلّت قدرته أعلم بالمتقين المتزكّين ذوي النوايا السليمة والأخلاق الكريمة الحميدة - فإن المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل فهو أعلم بخفايا الأسرار وحقائق الأمور.

قوله: (ولا يظلمون فتيلا) الفتيل هو الخيط الذي يكون في شق نواة التمرة.

وقيل: الفتيل هو ما يتكون من أوساخ مفتولة بين الكفين إذا تفاركا بشدّة ٩٤.

٥٠ - (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا)

قوله تعالى: (انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا) - الافتراء هو الاختلاق وأصله الفري وهو القطع ولكثرة الاستعمال أريد به اصطناع الكذب - والله يخاطب نبيه (ص) لينظر مبلغ الفحش الذي يقارفه اليهود وهم يكذبون على الله بزعمهم أنهم أبناؤهم وأحبّاؤه وأنهم لا يحتملون ذنوبا فإن خطيئاتهم مغفورة في النهاية، وذلك كله من قبيل التزكية لأنفسهم من غير برهان وهو أمر محظور شرعا وكفى به أن يكون إثما عظيما وقوله: (إثما) منصوب على التمييز.

٥١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا)

وقوله: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) - (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) هم اليهود قد أوتوا التوراة وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت - وفي معنى هذين الاسمين وردت أقوال كثيرة:

الأول: لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه- قال: الجبت هو السحر، والطاغوت معناه الشيطان.

والثاني: أن الجبت معناه الشيطان - وهو قول طائفة.
والثالث: أن الجبت معناه الأصنام - وهو قول ابن عباس.
والرابع: أن الجبت معناه الكاهن - وهو رواية عن ابن عباس.
والخامس: أن الجبت هو حيي بن أخطب - وهو قول ابن عباس.
والسادس: أن الجبت كعب بن الأشرف - وهو قول مجاهد.
والجبت في اللغة هو الصنم والكاهن والساحر والسحر والذي لا خير فيه - وكل ما عبد من دون الله تعالى مما يطغي الإنسان ٩٥ وذلك هو تأويل الجامع الذي نرجه.
هؤلاء الكفرة الذين يؤمنون بالسحر والشيطان أو ما عبد من دون الله يقضون في حكم فاسد جائر بأن المشركين عبدة الأوثان يتبعون الحق، وأن المسلمين أتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - يتبعون الباطل وعلى ذلك فالمشركون عبدة الأوثان خير من المسلمين - وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن كعب بن الأشرف وهو سيد يهود المدينة قد خرج في سبعين رجلا منهم إلى مكة بعد وقعة أحد لحالفوا قريش على حرب المسلمين - فقال أبو سفيان لكعب بن الأشرف: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميّون لا نعلم فأيّنا أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ فقال كعب قولة البهتان والزور: أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ٩٦.
٥٢ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)
وقوله: (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) المقصود بقوله: (أولئك) اليهود، فقد لعنوا لعنة تظل لاحقة بهم إلى يوم الدين، ويا لسوء الحظ وفداحة العاقبة الوخيمة يلحقان بأولئك الضالين ليكونوا مطرودين من رحمة الله وفضله أمد الدهر ويوم يقوم الأشهاد.
٥٣ - (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا)
قوله: (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) (أم) هنا منقطعة وغير متصلة بما قبلها البتة - كأنه لما تم الكلام الأول قال: بل لهم نصيب من الملك، وهذا الاستفهام استفهام بمعنى الإنكار - أي ليس لهم شيء من الملك البتة - وعلى هذا فإن الاستفهام هنا يفيد الإنكار بما ينفي أن يكون لهؤلاء الضالين حظ من الملك فالملك كله بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه عمن يشاء - ولو كان لليهود حظ في هذا الملك لأمسكوا عن إعطاء أحد شيئا فهم بخلاء وأشحة على الخير لا يقدمون لأحد من الناس نقيرا - والنقير هو النقرة في ظهر النواة ٩٧.
٥٤ - (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا)
قوله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنم سعيرا) المراد بالحاسدين هنا اليهود - والمراد بالناس الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ كانوا يكرهون كراهية بالغة ويغتاظون منه أشد التغيظ لنبوته أولا، ثم لكونه من غير بني إسرائيل ثانيا - وعلى هذا فقد كانوا يحسدونه ويتآمرون عليه ويكيدون له كل ألوان الكيد بما يدل على طبائع مريضة قد خالطها الحسد والضغن - فلئن حسدوه على ما آتاه الله من نبوة كانوا يعلمونها وكانت مبعث إثارة وإغاظة لهم فقد آتي الله آل إبراهيم الكتاب والحكمة - والمقصود بالكتاب ما أنزل عليهم من كتب سماوية - والحكمة هي مجموعة المعاني والأقوال النافعة السديدة - وقيل هي السنن التي سار عليها النبيون - وكذلك آتاهم الله الملك وهو الجاه والسلطان فقد جعل الله من ذرية إبراهيم ملوكا منهم داود وسليمان، والمقصود بآل إبراهيم ذريته من أسباط بني إسرائيل، فلماذا الحسد وهو خصلة فاسدة ذميمة مع أن آباء كم من أسباط إسرائيل وهم ذرية إبراهيم قد أوتوا النبوة والحكمة والسلطان من قبل هذا النبي - صلى الله عليه وسلم -؟
٥٥ - (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)

قوله: (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) مع أن النبوة كانت سابقة في آل إبراهيم من آباء اليهود لكنهم لم يؤمنوا بها - بل إن فريقا منهم قد صدق واتبع فريقا آخر قد أدبر واستكبر وجعل يصد الناس عن دين الله صدودا.
ثم إن الله جلت قدرته يندد بهؤلاء الكفرة الأشرار ويتوعدهم عذاب جهنم وكفى بها نارا حارقة لاهبة مستعرة، فقال: (وكفى بجهنم سعيرا).
٥٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)
قوله تعالى: (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما) ذلك تفصيل عن كيفية التعذيب الذي تصطلي به جلود الذين كفروا بآيات الله ويستوي في ذلك المشركون على اختلاف مللهم وعقائدهم أو الملحدون الذين لا يؤمنون بخالق الحياة والكون - أولئك جميعا قد أعد الله لهم نارا لاهبة تحترق فيها جسومهم كلها - ولا تتسايخ لحومهم وأبدانهم بلظى جهنم الحارق حتى يبدلهم الله بجلود أخرى تأخذ في الانصهار والاصطلاء من جديد - وهكذا تظل الأبدان والجلود في تحريق وتبديل دائمين وهي تعاني فظاعة العذاب المؤلم الذي لا تصطبر عليه النفوس إلا راغمة مقهورة.
قوله: (إن الله كان عزيزا حكيما) إنه سبحانه وتعالى قوي يحكم بما يريد ولا راد لقضائه ولا يعجزه شيء - وهو كذلك حكيم في تقديره العذاب للكافرين و العصاة.
٥٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا)
وقوله: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا).
بعد الحديث عن الكافرين وما أعد الله لهم من شديد الويل والثبور يأتي الحديث عن أهل الإيمان الذين لا تقف بهم الحال عند الاعتقاد المحشور في النفس، بل إنهم يقرنون إيمانهم وعقيدتهم بالعمل السديد المشروع - فهم بذلك عاملون نشطون لفعل الصالحات وممارسة كل وجوه الخير من القول أو العمل - أولئك الذين قد أعدّ الله لهم خير الجزاء والعطاء في جنّات عامرة وارفة ممتدة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا طرأ على قلب بشر - ومن بين ذلك الأنهار الجارية المنسابة من الماء والعسل وغيرهما - ثم الأزواج الصالحات الطاهرات وهن المبرآت عن عيوب الأذى والرذيلة اللواتي تتحقق فيهن كل ظواهر الصلاح من خلق وبهاء وود.
قوله: (وندخلهم ظلا ظليلا) هو الظل الكثيف الرخيّ الطيّب الذي لا يتخلله الحر أو البرد - وقيل: ذلك كناية عن الراحة التي ينعم خلالها المؤمنون المتقون في الجنة تغشاهم نسائم ندية من رحمات الله العاطرة الزكية - لا جرم أن ذلك غاية الراحة والسكينة والحبور والرضا.
٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)
قوله تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا).
هذه الآية جاءت خطابا للنبي - صلى الله عليه وسلم - في مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وكانا كافرين عند فتح مكة، فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - عثمان وشيبة وقال: " خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ".
على أن خصوص هذا السبب في النزول لا يمنع العموم في دلالة الآية - فهي بذلك جاءت لتأمر بأداء الأمانة كيفما كانت - حتى يمكن القول في هذا الصدد إن هذه الآية من أمهات الأحكام التي تضمنت جميع الدين والشرع كما قال الإمام القرطبي- رحمه الله-

فهي تتضمن وعي الأمانة وأداءها على التمام في مختلف جوانب الحياة الدينية والدنيوية - ويأتي من جملة ذلك الصلاة والصيام والزكاة والجهاد والشهادة بالقسط فتلكم أمانات يجب أن تؤدى على أحسن حال - وكذلك حفظ المال فلا يتبدد بسرف به، وحفظ الودائع سليمة بغير انتقاص إلى أن تدفع إلى أصحابها، والحفاظ على النسل من البنين والبنات لتندرئ عنهم كل أسباب الفساد والتلويث ولتتحقق فيهم كل معاني القوة الخلقية والروحية والفكرية ليكونوا أفرادا أخيارا صالحين، فإن ذلك من صور الأمانة التي أوجبت الآية حفظها وأداءها - وكذلك الوطن فإن أمانة عظيمة يُرمز من خلالها لمثوى الإنسان وكرامته - فهو بذلك واجب صونه والحفاظ عليه بكل ما في المستطاع من قدرة وإمكان - ولا جرم بعد ذلك أن يأتي التأكيد على أهمية دين الله وشرعه فإن ذلك لهو الأمانة الكبرى التي يجب الحفاظ عليها في حرص وعناية بالغين - والتفريط في دين الله وشرعه هو البداية في الهزيمة الفادحة الشاملة - الهزيمة التي تأتي على الإنسان كله لتنسفه من القواعد فتذره تائها ضالا خاسرا - وكذلك الحكام والساسة يضطلعون بأثقل أمانة، وهي أمانة الرعية، ليسوسوها بالقسط فلا يجوروا أو يفرطوا - فإن اقترفوا شيئا من ذلك فقد أساءوا وخانوا - وهكذا فإن الأمانة مفهوم كبير يتناول عامة الالتزامات والوجائب التي يضطلع بها الإنسان وتناط به تأديتها على أكمل وجه وإلا كتب في عداد المقصرين المفرطين أو الخائنين الذين خانوا الله ورسوله.

قوله: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) يخاطب بذلك على وجه الخصوص الحكام والأمراء والولاة - وقيل إن الخطاب موجه في معناه لجميع الناس فهم مدعوّون للحكم بالعدل إذا ما حكموا - وبذلك فإن كل إنسان مسلم مكلف نيط به وجوب الحكم بالعدل مهما تكن منزلته بين الناس أو مرتبته التي يتخوّل بموجبها أن يسوس جزءا من أمر العباد - والعدل من الجوانب العظيمة التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام وهو جانب أساسي وركين يتجلى بسببه وجه الحق جليا مستبينا وإذا لم يكن الأمر كذلك فثمة وجه الباطل يسام العباد من خلاله ألوان الشقاء والبلاء - والله جلّت قدرته يحذّر من الظلم في عواقبه الوخيمة وبوائقه التي تبعث الشر والفتة وتغمر الأرض بالأزمات والويلات والمعاناة، فإنه سبحانه سميع بصير، فهو يسمع ويرى كل ما يجري على الأرض أو يدب على متنها بدءا بالنملة البسيطة السارية أو ما دونها وانتهاء بالإنسان المفكر المدبر المريد، إنه سبحانه محيط علمه بما يدور بين الكائنات جميعا - فهو كما قال عن نفسه: (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) ٩٨.

٥٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا).

الطاعة هي الخضوع والامتثال للأمر، والمعصية تعني المخالفة للأمر - والله سبحانه يأمر المؤمنين بطاعته هو جلّت قدرته - وطاعته تتحقق في الالتزام بتعاليم القرآن بما فيه من أوامر وزواجر أو حدود وقصاص أو نهي وتحذير - وكذلك يأمرهم بطاعة رسوله الكريم بالالتزام بسنته حال حياته أو بعد مماته - وكذلك فإن أولي الأمر طاعتهم واجبة - وقد قيل: إن المقصود بأولي الأمر هم الحكام والأمراء والقادة الذين يتسلمون مقاليد الحكم والرئاسة ليسوسوا الناس بالحق والعدل - وقيل: بل المقصود معاشر العلماء والفقهاء الذين يبينون للناس ما نزل إليهم في الكتاب وما ورد في سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذان القولان خير ما جاء في بيان (وأولي الأمر) ولا نركن لما ورد من أقوال أخرى بعيدة عن الصواب.

وفي طاعة الحكام والأمراء المسلمين الذين يسوسون الناس بشريعة الله يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخاري: " واسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة " وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا حبشيا مجدوع الأطراف " - وأمثال ذلك كثير من السنة النبوية بما يدل على وجوب الطاعة من الرعية للراعي في المنشط والمكره - على أنه يجب التنبيه إلى شرطين ينبغي توفرهما لتكون طاعة المسؤول مشروعة وملزمة.

أحد هذين الشرطين: أن تكون الطاعة في غير معصية الله فإن كان شيء من معصية فلا مساغ عند ذلك للطاعة - فقد أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ".
ثاني هذين الشرطين: أن يكون الحاكم أو المسؤول الذي تجب له الطاعة من المسلمين لا من غيرهم وذلك لقوله: (منكم) وكاف المخاطبين هنا تشير إلى المسلمين أي أطيعوا الحكام والولاة الذين منكم وعلى دينكم وملتكم - فإن كان هناك من غير المسلمين من يحكمهم فلا طاعة له على المسلمين البتة - ونحن إذ نتصور عدم الطاعة من المسلمين إذا حكم الحاكم بمعصية وهو من المسلمين، فكيف إن كان الحاكم من غير المسلمين كأن يكون يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا مشركا أو شيوعيا ملحدا فإن هؤلاء جميعا لا طاعة لهم على المسلمين - بل ينبغي قتالهم والخروج عليهم مهما كلف الثمن.
ومن ناحية أخرى فإن كل مسلم ومسلمة قد نيطت بهما بيعة فلا مساغ لأحدهما أن يتغاضى عن هذه البيعة أو يتنصل منها - فلا تبرأ له ذمة بالنسبة لهذه المسألة إلا أن يعقد مبايعة مع الإمام، فالرجل يبايع مصافحة والمرأة تبايع بالخطاب، فقد أخرج مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " قوله: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) التنازع بمعنى التجاذب والمجادلة وهو من الانتزاع فكأن كل واحد من المتجادلين المتخاصمين يجهد في انتزاع حجة الآخر وطرحها - والآية تقضي برد جميع الخصومات والجهالات وما اختلف فيه المسلمون فيما بينهم من أمور الدين والدنيا إلى كتاب الله وسنة نبيه (ص) فإنهما بما فيهما قواعد وكليات ومبادئ وأصول أو ما انبثق عنهما من جزئيات وفروع واجتهادات - لحقيقان بفض كل ما يطرأ على البشرية من مشكلات وقضايا مهما امتد الزمن أو دارت عجلة الأيام أو تغيّرت صور الأعراف والبيئات والأوضاع أو تجددت حوائج الناس في شتى بقاع الأرض في مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغير ذلك.
ورد الأمر إلى الكتاب والسنة حال الخلاف والتنازع أمر واجب لا محيد عنه وهو بالنسبة للمسلمين معتبر من الفرائض الخطيرة التي يحذّر الإسلام من التفريط فيها - ولا يحيد عن الاحتكام إلى شرع الله إلا من خلع ربقة الإسلام من عنقه وارتضى أن يكون من غير المؤمنين لقوله تعالى: (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر).
قوله: (ذلك خير وأحسن تأويلا) الإشارة تعود إلى ردّ التنازع والخلاف إلى الكتاب والسنة - وهي في محل رفع مبتدأ - (خير) خبر مرفوع - ولا ريب في أن الرجوع إلى الله ورسوله خير للراجعين وهو كذلك (وأحسن تأويلا) أي عاقبة ومآلا - فإن الاحتكام إلى الله أبعد عن كل مواطن الضعف والزلل وأسلم من الوقوع في الضلالة والخطل وأنجى للبشرية لتعيش على الدوام سالمة آمنة مطمئنة بعيدة عن المفاسد والشرور وعن كيد الإنسان لأخيه الإنسان.
٦٠ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا)
قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضللا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا).
سبب نزول هذه الآية أن رجلا من الأنصار وآخر من اليهود قد تخاصما فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، والآخر يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف وهو زعيم اليهود - وقيل كان بين أحد المنافقين ورجل من اليهود خصومة فدعا اليهودي المنافق إلى أن يحتكما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ لأنه يعلم أنه لا يقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودي لكي يحتكما إلى كعب بن الأشرف زعيم اليهود في المدينة؛ لأنه يعلم أنه يقبل الرشوة فأبى اليهودي أن يخاصمه لغير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى المنافق ذلك فأتى معه إلى النبي والاحتكام إليه فقضى النبي - صلى الله عليه وسلم - لليهودي فلما خرجا كلاهما من عند النبي قال المنافق: لا أرضى انطلق بنا

إلى أبي بكر ليقضي بيننا فحكم لليهودي فلم يرض المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر فقال اليهودي: إنا صرنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم إلى أبي بكر فلم يرض (يقصد المنافق) فقال عمر للمنافق: أكذاك هو؟ قال: نعم فقال عمر: رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل فأخذ السيف ثم ضرب به المنافق فقتله، وقال: هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله وهرب اليهودي - فنزلت الآية فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعمر: " أنت الفاروق " ونزل جبريل وقال: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق ٩٩.

ومن المناسب أن يتسع مفهوم هذه الآية ليشمل كل من يزعم أنه يؤمن بالله وما أنزل على النبيين من قبله ثم يحتكم إلى غير ما أنزل الله من شريعة وتصوّر - وذلك هو الفصام المصطنع الفادح الذي يفصم عرى الدين عروة عروة - فصام يسوّل للخاطئين أن يقتصروا من الدين على بعض أجزائه ليذروا ما فيه من جوانب أساسية أخرى لا قوام للدين بغيرها - مع أن من أجلى ما في الإسلام من خصائص أنه كل لا يتجزأ وأنه يؤخذ جملة واحدة متماسكة متكاملة كيلا يتخذه الخاطئون عضين - والقرآن يندد بشدة بأولئك المارقين الخاطئين الذين يتخذون القرآن عضين من الذين يؤمنون من القرآن ببعض أجزائه ومعانيه ثم يتخذون ما بقي ظهريا - قال سبحانه: (كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين) - وعضين جمع ومفرده عضة وهي الفرقة أو القطعة من الشيء ١٠٠.

وعلى ذلك فإن من أفدح الفوادح المنكرة أن يقتصر من يظن نفسه مؤمنا على بعض الجوانب المفروضة في هذا الدين ثم يظن بعدها أنه على الصواب - لكنه في تصور الإسلام بعيد عن الصواب بعدا يزحزحه عن نطاق الإسلام كله، أو يقذفه في مهاوي الضلالة والشرك من حيث يعلم أو لا يعلم.

ومن هنا تستبين لنا خطورة الموقف الذي يقفه هذا الصنف من الناس الذين يربطهم بالإسلام بعض أجزائه أو قليل من المشاعر المتدينة لكنهم يحتكمون في أمور حياتهم ومعايشهم إلى البشر في شرائعهم وتصوراتهم - فثمة قدر يسير من العلاقة تربط هؤلاء بالإسلام بما يتجلى في أمور العبادة والأحوال الشخصية، لكن القدر الكبير الأعظم من التصور والتشريع عندهم بعيد عن طبيعة الإسلام لاستمداده من مبادئ وضعية قد صاغتها أدمغة البشر وأهواؤهم - وفي هذا الشرود الجامح عن حقيقة الإسلام والركون إلى مبادئ الشرك والضلالة يندد الله بهؤلاء الذين (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) - والطاغوت هو الشيطان مبعث الإطغاء والغواية والمنفذ إلى الشر كله فهو إذن يعني الباطل وهو يتمثل في كل ما سوى الإسلام من شرائع ومبادئ وتصورات - وعلى ذلك فإن الاحتكام إلى غير الإسلام في أية مسألة أو قضية إنما يعني بالضرورة التحاكم إلى الطاغوت وهو الشيطان - ولا يكون على هذه الشاكلة إلا منافق أو مضلل جاهل وليس له في جهله عذر إلا أن يفيء إلى منهج الله أو دينه الحق، وهو الإسلام - وبغير الاحتكام الكامل للإسلام لا يعني غير العتو عن أمر الله أو التمرد على دينه وسلطانه.

أما المنافقون فإنهم كاذبون خادعون يخفون في أنفسهم الكفر ليندسوا في صف المسلمين ليشيعوا فيهم التخريب والفتن، وإذا ما دعوا إلى الإسلام الحق المبرّأ أخذوا يصدون عنه صدودا - أي يعرضون عن دعوة الله ويحرّضون غيرهم على الجحود والضلال.

٦١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضللا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا).

سبب نزول هذه الآية أن رجلا من الأنصار وآخر من اليهود قد تخاصما فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، والآخر يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف وهو زعيم اليهود - وقيل كان بين أحد المنافقين ورجل من اليهود خصومة فدعا اليهودي المنافق إلى أن يحتكما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ لأنه يعلم أنه لا يقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودي لكي يحتكما إلى كعب بن الأشرف زعيم اليهود في المدينة؛ لأنه يعلم أنه يقبل الرشوة فأبى اليهودي أن يخاصمه لغير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى المنافق ذلك فأتى معه إلى النبي والاحتكام إليه فقضى النبي - صلى الله عليه وسلم - لليهودي فلما خرجا كلاهما من عند النبي قال المنافق: لا أرضى

انطلق بنا إلى أبي بكر ليقضي بيننا لحكم لليهودي فلم يرض المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر فقال اليهودي: إنا صرنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم إلى أبي بكر فلم يرض (يقصد المنافق) فقال عمر للمنافق: أكذاك هو؟ قال: نعم فقال عمر: رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل فأخذ السيف ثم ضرب به المنافق فقتله، وقال: هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله وهرب اليهودي - فنزلت الآية فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعمر: " أنت الفاروق " ونزل جبريل وقال: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق ١٠١.

ومن المناسب أن يتسع مفهوم هذه الآية ليشمل كل من يزعم أنه يؤمن بالله وما أنزل على النبيين من قبله ثم يحتكم إلى غير ما أنزل الله من شريعة وتصوّر - وذلك هو الفصام المصطنع الفادح الذي يفصم عرى الدين عروة عروة - فصام يسوّل للخاطئين أن يقتصروا من الدين على بعض أجزائه ليذروا ما فيه من جوانب أساسية أخرى لا قوام للدين بغيرها - مع أن من أجلى ما في الإسلام من خصائص أنه كل لا يتجزأ وأنه يؤخذ جملة واحدة متماسكة متكاملة كيلا يتخذه الخاطئون عضين - والقرآن يندد بشدة بأولئك المارقين الخاطئين الذين يتخذون القرآن عضين من الذين يؤمنون من القرآن ببعض أجزائه ومعانيه ثم يتخذون ما بقي ظهريا - قال سبحانه: (كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين) - وعضين جمع ومفرده عضة وهي الفرقة أو القطعة من الشيء ١٠٢.

وعلى ذلك فإن من أفدح الفوادح المنكرة أن يقتصر من يظن نفسه مؤمنا على بعض الجوانب المفروضة في هذا الدين ثم يظن بعدها أنه على الصواب - لكنه في تصور الإسلام بعيد عن الصواب بعدا يزحزحه عن نطاق الإسلام كله، أو يقذفه في مهاوي الضلالة والشرك من حيث يعلم أو لا يعلم.

ومن هنا تستبين لنا خطورة الموقف الذي يقفه هذا الصنف من الناس الذين يربطهم بالإسلام بعض أجزائه أو قليل من المشاعر المتدينة لكنهم يحتكمون في أمور حياتهم ومعايشهم إلى البشر في شرائعهم وتصوراتهم - فثمة قدر يسير من العلاقة تربط هؤلاء بالإسلام بما يتجلى في أمور العبادة والأحوال الشخصية، لكن القدر الكبير الأعظم من التصور والتشريع عندهم بعيد عن طبيعة الإسلام لاستمداده من مبادئ وضعية قد صاغتها أدمغة البشر وأهواؤهم - وفي هذا الشرود الجامح عن حقيقة الإسلام والركون إلى مبادئ الشرك والضلالة يندد الله بهؤلاء الذين (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) - والطاغوت هو الشيطان مبعث الإطغاء والغواية والمنفذ إلى الشر كله فهو إذن يعني الباطل وهو يتمثل في كل ما سوى الإسلام من شرائع ومبادئ وتصورات - وعلى ذلك فإن الاحتكام إلى غير الإسلام في أية مسألة أو قضية إنما يعني بالضرورة التحاكم إلى الطاغوت وهو الشيطان - ولا يكون على هذه الشاكلة إلا منافق أو مضلل جاهل وليس له في جهله عذر إلا أن يفيء إلى منهج الله أو دينه الحق، وهو الإسلام - وبغير الاحتكام الكامل للإسلام لا يعني غير العتو عن أمر الله أو التمرد على دينه وسلطانه.

أما المنافقون فإنهم كاذبون خادعون يخفون في أنفسهم الكفر ليندسوا في صف المسلمين ليشيعوا فيهم التخريب والفتن، وإذا ما دعوا إلى الإسلام الحق المبرّأ أخذوا يصدون عنه صدودا - أي يعرضون عن دعوة الله ويحرّضون غيرهم على الجحود والضلال.

٦٢ - (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)

قوله تعالى: (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسنا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا) - تدل الآية في سياقها وظاهرها على تعلقها بالمنافقين وذلك من حيث كذبهم وافتراؤهم وانكشاف مقاصدهم - فهم إذا أصابتهم مصيبة العقاب من قصاص أو حد أو غير ذلك بسبب معاصيهم وما كسبته أيديهم من مفاسد لجوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم يحلفون له الأيمان مؤكدين على سلامة نواياهم وأنهم ما أرادوا من تصرفهم إلا الإحسان والتوفيق بين الناس - وقيل: إنهم اعتذروا للنبي بأن تحاكمهم لغيره من أعدائه ما كان عن كراهية له وإنما كان ذلك على سبيل المداراة و المصانعة.

٦٣ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا)

قوله: (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) يعلم الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء منافقون، وأنهم يخفون في صدورهم المكر والخديعة، لأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون.
هؤلاء الذين يأمر الله نبيه بالإعراض عنهم وهما تكنّه صدورهم من نوايا السوء إذ ليس لأحد على المنافقين سبيل ما داموا يخفون كيدهم في صدورهم - أما إذا اظهروا ذلك جهارا فاستبان على جوارحهم بالقول أو الفعل فقد لزم حينئذ أن يحيق بهم العقاب المناسب المشروع - وكذلك قد أمر الله نبيّه أن يعظهم بالنصح والتخويف من الله على ما تكنّه نفوسهم من خبايا السوء والكيد - وأن يقول لهم في ذلك كلاما رادعا مؤثرا عسى أن يكون في ذلك ما يزجرهم أو يردهم عن الشر وعن جنوحهم للخداع.
٦٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)
قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ما بعث الله الرسل إلا ليطاعوا، فطاعتهم مفروضة، وعلى الناس أن يبادروهم الائتمار بأمرهم والانتهاء عما نهوا عنه - ذلك هو الأصل الذي ينبغي أن يكون وليس الاختلاف على الرسل من بعد ذلك أو المخالفة عن أمرهم إلا الجنوح صوب الضلال أو الخروج عن صراط الله المستقيم وعن دائرة الإسلام في عقيدته وشرعه.
وقوله: (بإذن الله) أي بقدرته ومشيئته - ولا يستدل من ذلك على المخالفة فالله لا يقضي الظلم ليكره الناس على الغواية أو الكفر قسرا وإكراها وهو سبحانه يقول عن نفسه: (ولا يرضى لعباده الكفر) والمعنى أن طاعة الإنسان لربه لهي من صميم قدرة الله المطلقة ومشيئته التي لا تضبطها القيود - وأية طاعة من الطاعات أو ممارسة من الممارسات أو مآل من المآلات ما كان ليقع خارجا عن قدرة الله وسلطانه وعلمه المطلق - والله سبحانه قادر أن يمنع أو أن يرسل فهو له الإرادة المطلقة مثلما يشاء.
قوله: (ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم - - .) ذلك بيان للعصاة والمذنبين الذين يخالفون عن أمر الله ويقارفون المنكرات، فإن عليهم أن يسابقوا بالاستغفار أمام النبي - صلى الله عليه وسلم - حال حياته وليستغفر هو لهم بدوره - أما وقد لحق النبي الكريم بالرفيق الأعلى فعلى المسيء الذي تجاوز حدود ربه فغوى وظلم نفسه أن يتعجل الاستغفار والتوبة الصادقة ليعلم بعد ذلك أن الله تباركت أسماؤه سوف يشمله بفضله ورحمته.
٦٥ - (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)
قوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)، تتضافر الأقوال والدلائل على أن سبب نزول هذه الآية العظيمة هو تخاصم الزبير مع رجل من الأنصار في سقاية، فقد أخرج البخاري بإسناده عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا في شراج الحرة فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك " فقال الأنصاري: آن كان ابن عمتك؟ فتلّون وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: " اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك " وبذلك فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد استوفى للزبير حقه بعد أن أحفظه (أغضبه) الأنصاري مع أنه عليه السلام كان قد قضى بينهما بما فيه سعة لهما وتصالح بينهما على أن يسقى الزبير أولا وذلك لقربه من الماء ١٠٣.
قوله: (فلا وربك لا يؤمنون) تقديره: فلا يؤمنون وربك لا يؤمنون - فأخبر أولا وكرره بالقسم ثانيا فاستغنى بذكر الفعل في الثاني عن ذكره في الأول أو أن قوله: (فلا) رد على ما تقدم ذكره - والتقدير - فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك - ثم استأنف القسم بقوله: (وربك لا يؤمنون).
وقال صاحب الكشاف: (فلا وربك) معناه: فوربك - كقوله تعالى (فوربك لنسألنهم) ولا هنا زائدة لتأكيد معنى القسم - وقوله: (لا يؤمنون) جواب القسم ١٠٤ - وهذا الكلام الرباني يتضمن نفيا حاسما لما يتصوره الخاطئون والمنافقون من إيمان وهم يتحاكمون للطاغوت كيفما كان ضربه أو لونه - فليس من احتكام لغير الله وما ذلك إلا صورة مكشوفة من صور الشرك التي لا يتشبث بها إلا

اللاهثون وراء الطواغيت - ثم يحلف الله بذاته الكريمة العظيمة ليقطع في تأكيد عام تنتفي معه حقيقة الإيمان عن أحد من الناس إلا إذا تحاكم إلى الله في كتابه وإلى النبي عليه السلام في سنته وذلك (فيما شجر بينهم) أي ما وقع بينهم من خصام وتنازع - وشجر بمعنى اختلف ومنه الشجر لاختلاف أغصانه وتداخل بعضها في بعض.

قوله: (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا - - .) فإذا قضيت بينهم بشرع الله فليس لهم بعد ذلك أن يستشعروا في دخائل أنفسهم شيئا من ضيق أو سخط بل إن عليهم أن يأخذوا بحكمك وقضائك عن رضى وقناعة وطواعية دون أن يثير ذلك في نفوسهم شيئا من تبرّم أو امتعاض - وإنما عليهم أن ينقادوا لأمرك وقضائك انقيادا فيه الخضوع والاستسلام لأمر الله، وكلمته التي تسبق كل كلام والله يقول في ذلك: (من يطع الرسول فقد أطاع الله).

وبذلك يمكن الوقوف على اعتبارات ثلاثة حين اشتراط تحقق الإيمان وتمامه في النفوس وهي على النحو التالي مستمدة من الآية المبينة:

الأول: أن الاحتكام لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون لأحد غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي لا ينطق عن الهوى ثم هو الذي نيط به أن يبلغ الناس دعوة الله وقد خوله الله أن يبين للناس ما نزل إليهم.

الثاني: أن لا يجد الناس في أنفسهم غضاضة أو تبرما أو ضيقا لدى الاحتكام لكتاب الله وسنة نبيه الكريم - بل عليهم أن يأخذوا بذلك عن نفس راضية مطمئنة، ورغبة حقيقية لحّاحة.

الثالث: أن يسلّموا لأمر الله تسليما فيه الانقياد الكامل وذلك بغير وناء أو تردد أو تلجلج أو استنكاف.

وعلى ذلك فإن من الأهمية بمكان أن نديم التنويه باستمرار عن خطورة الانثناء عن تطبيق شريعة الله والجنوح نحو الشرائع والعقائد التي اصطنعتها أدمغة البشر فإن ذلك ليس إلا تعديا صارخا على خصائص الألوهية، تلك الخصائص التي تتجلى في جملة حقائق يأتي في مقدمتها التشريع وهو شأن منوط بالألوهية وليس لأحد من البشر أن ينتحله أو يصطنعه بإطلاق - فإنه ليس في مثل هذا الانتحال أو الاصطناع إلا الخروج عن دائرة الإسلام في عقيدته وشرعه - إنه ليس في ذلك إلا التمرد المتوقح على الله والتطاول عليه سبحانه بانتزاع خصيصة أساسية كبرى من خصائص الألوهية وهي التشريع، ذلك أن الله وحده هو الخالق الموجد وأنه القادر المبدع وأنه المشرّع الديّان فلا شريك له في مثل هاتيك الخصائص العظيمة سواء في ذلك الخلق أو القدرة أو التشريع.

٦٦ - (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

قوله تعالى: (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) ورد في سبب نزول هذه الآية أن ثابت بن قيس بن شماس قد تفاخر هو وأحد اليهود - فقال اليهودي: والله لقد كتب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا وبلغت القتلى سبعين ألفا - فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا - وفي رواية أخرى أنه لما نزلت هذه الآية قال فريق من الصحابة منهم عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وثابت بن قيس: لو أن الله أمرنا أن نقتل أنفسنا أو أن نخرج من ديارنا لفعلنا فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " للإيمان أثبت في قلوب الرجال من الجبال الرواسي " ١٠٥، ذلك امتحان عسير يفتن به المؤمنون فلا يكادون يتجاوزونه بمنجاة من السقوط أو التداعي وهو امتحان لا جرم أن يضيق به الناس ذرعا لقلة صبرهم وضعف احتمالهم للأهوال والشدائد - إنه امتحان شاق وكؤود لا ينجو منه غير الصابر من الأشداء من الناس، أو الأتقياء الأوفياء من أولى العزائم القوية والهمم العالية أولئك الذين يمضون سراعا لأمر الله فيبادرون بالطاعة من غير تثاقل أو عجز أو اضطراب.

وبعد ذلك يحض الله عباده على العمل بما يوعظون به والمبادرة للعمل بأوامره سبحانه، ثم الوقوف عند حدوده من غير اعتداء أو تجاوز ولسوف يجزيهم الله خير الجزاء في الحياة وبعد الممات - في الحياة حيث الرخاء والأمن والطمأنينة والنعيم المقيم، وبعد الممات حيث النجاة من العذاب الأليم الواصب.

قوله: (وأشد تثبيتا) أي على الإيمان والحق - وقيل: أشد تصديقا والتثبيت كلمة جامعة تتناول كل صور التمكين والاستقرار والقوة، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، فإن أولي العقيدة الصحيحة المكينة لا تثنيهم النوازل والأهوال والمحن عن منهج الله وعن دينه القويم، ولكنهم دائما ثابتون أقوياء يغمرهم برد اليقين ليكونوا في هذه الحياة آمنين ثابتين مطمئنين، وهم في الآخرة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وكذلك فإنهم حينئذ (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون).

٦٧ - (وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

قوله تعالى: (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) ورد في سبب نزول هذه الآية أن ثابت بن قيس بن شماس قد تفاخر هو وأحد اليهود - فقال اليهودي: والله لقد كتب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا وبلغت القتلى سبعين ألفا - فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا - وفي رواية أخرى أنه لما نزلت هذه الآية قال فريق من الصحابة منهم عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وثابت بن قيس: لو أن الله أمرنا أن نقتل أنفسنا أو أن نخرج من ديارنا لفعلنا فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " للإيمان أثبت في قلوب الرجال من الجبال الرواسي " ١٠٦، ذلك امتحان عسير يفتن به المؤمنون فلا يكادون يتجاوزونه بمنجاة من السقوط أو التداعي وهو امتحان لا جرم أن يضيق به الناس ذرعا لقلة صبرهم وضعف احتمالهم للأهوال والشدائد - إنه امتحان شاق وكؤود لا ينجو منه غير الصابر من الأشداء من الناس، أو الأتقياء الأوفياء من أولى العزائم القوية والهمم العالية أولئك الذين يمضون سراعا لأمر الله فيبادرون بالطاعة من غير تثاقل أو عجز أو اضطراب.

وبعد ذلك يحض الله عباده على العمل بما يوعظون به والمبادرة للعمل بأوامره سبحانه، ثم الوقوف عند حدوده من غير اعتداء أو تجاوز ولسوف يجزيهم الله خير الجزاء في الحياة وبعد الممات - في الحياة حيث الرخاء والأمن والطمأنينة والنعيم المقيم، وبعد الممات حيث النجاة من العذاب الأليم الواصب.

قوله: (وأشد تثبيتا) أي على الإيمان والحق - وقيل: أشد تصديقا والتثبيت كلمة جامعة تتناول كل صور التمكين والاستقرار والقوة، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، فإن أولي العقيدة الصحيحة المكينة لا تثنيهم النوازل والأهوال والمحن عن منهج الله وعن دينه القويم، ولكنهم دائما ثابتون أقوياء يغمرهم برد اليقين ليكونوا في هذه الحياة آمنين ثابتين مطمئنين، وهم في الآخرة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وكذلك فإنهم حينئذ (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون).

٦٨ - (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

قوله تعالى: (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) ورد في سبب نزول هذه الآية أن ثابت بن قيس بن شماس قد تفاخر هو وأحد اليهود - فقال اليهودي: والله لقد كتب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا وبلغت القتلى سبعين ألفا - فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا - وفي رواية أخرى أنه لما نزلت هذه الآية قال فريق من الصحابة منهم عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وثابت بن قيس: لو أن الله أمرنا أن نقتل أنفسنا أو أن نخرج من ديارنا لفعلنا فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " للإيمان أثبت في قلوب الرجال من الجبال الرواسي " ١٠٧، ذلك امتحان عسير يفتن به المؤمنون فلا يكادون يتجاوزونه بمنجاة من السقوط أو التداعي وهو امتحان لا جرم أن يضيق به الناس ذرعا لقلة صبرهم وضعف احتمالهم للأهوال والشدائد - إنه امتحان شاق وكؤود لا ينجو منه غير الصابر من الأشداء من الناس، أو الأتقياء الأوفياء من أولى العزائم القوية والهمم العالية أولئك الذين يمضون سراعا لأمر الله فيبادرون بالطاعة من غير تثاقل أو عجز أو اضطراب.

وبعد ذلك يحض الله عباده على العمل بما يوعظون به والمبادرة للعمل بأوامره سبحانه، ثم الوقوف عند حدوده من غير اعتداء أو تجاوز ولسوف يجزيهم الله خير الجزاء في الحياة وبعد الممات - في الحياة حيث الرخاء والأمن والطمأنينة والنعيم المقيم، وبعد الممات حيث النجاة من العذاب الأليم الواصب.

قوله: (وأشد تثبيتا) أي على الإيمان والحق - وقيل: أشد تصديقا والتثبيت كلمة جامعة تتناول كل صور التمكين والاستقرار والقوة، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، فإن أولي العقيدة الصحيحة المكينة لا تثنيهم النوازل والأهوال والمحن عن منهج الله وعن دينه القويم، ولكنهم دائما ثابتون أقوياء يغمرهم برد اليقين ليكونوا في هذه الحياة آمنين ثابتين مطمئنين، وهم في الآخرة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وكذلك فإنهم حينئذ (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون).

٦٩ - (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)

قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما).

جاء في سبب نزول هذه الآية عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله! إنك لأحب إليّ من نفسي، وأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك - فلم يرد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلت هذه الآية.

وقيل: نزلت في ثوبان مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه يعرف في وجهه الحزن فقال له: " يا ثوبان ما غيّر لونك؟ " فقال: يا رسول الله ما بي ضرّ ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك، لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا فأنزل الله هذه الآية ١٠٨ - وهي مطمئنة للمؤمنين الذين يمضون في طاعة الله ورسوله الكريم، فأولئك قد منّ الله عليهم إذ جعلهم في الجنة مع النبيين والصدّيقين والشهداء لا في الدرجة أو المنزلة ولكنهم معهم في دار واحدة، وهي دار النعيم والخلود، يستمتعون برؤيتهم وزيارتهم، فأهل الجنة يتزاورون فيما بينهم بالرغم من تفاوت درجاتهم في الجنة - فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون أو ترون الكوكب الدري الغابر في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات ".

والنبيّون مفردها نبي من النبوة وأصلها النبوءة ثم حذفت الهمزة للتخفيف وهي تعني الإخبار عن طريق الوحي، ولا يلزم أن يكون النبي رسولا بل يلزم أن يكون الرسول نبيا - فكل رسول نبي قد نيطت به وجيبة التبليغ، أما النبي غير المكلف بالتبليغ فما أوتي رسالة يبلغها الناس ولكنه متعبد متحنث.

أما الصدّيقون، فمفردها صدّيق على وزن فعّيل وهو يفيد المبالغة في الصدق والتصديق فضلا عن مزية التحقيق بالفعل لما يقال باللسان.

وأما الشهداء فمردها شهيد وهو من الشهادة بمعنى الحضور - وثمة أقوال في سبب التسمية بالشهيد - فقد قيل إن الملائكة تشهد مقتله، إذ يصاب في المعركة أو غيرها - وقيل إن هذا القتيل لا يموت بل يظل حيا حاضرا على نحو لا نعلمه نحن - وفي قول آخر بأنه سمي بذلك لوقوعه على الشاهدة وهي الأرض وذلك حال إصابته ثم سقوطه عليها.

قوله: (وحسن أولئك رفيقا) الرفيق من الرفق وهو اللين - واسم الإشارة (أولئك) يعود على النبيين والصدّيقين والشهداء - وقد حسن كل واحد من هؤلاء المذكورين رفيقا فنعمت الصحبة والرفقة مع هؤلاء الأطهار الأبرار - أنها الصحبة المثالية الفضلى يترافق من خلالها المؤمنون المحظوظون مع هذه الفئة المكرمة الممتازة - الفئة التي بلغت من علو الدرجة وعطاء الرحمن ما لم تبلغه بقية البشر - لا جرم أن هؤلاء هم خير البرية ويسعد برفقتهم من كتبت له السعادة في الجنة مع هؤلاء الميامين.

وقوله (رفيقا) منصوب على التمييز - وقيل: منصوب على الحال.

٧٠ - (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا)
وقوله: (ذلك الفضل من الله) اسم الإشارة (ذلك) يعود على الرفقة التي كتبها الله للمؤمنين الطائعين الذي يحظون بصحبة النبيين والصدّيقين والشهداء في الجنة - فذلك هو الفضل ولا ريب، وهو المنة وجزيل العطاء يؤتاه المؤمنون الطائعون ليعيشوا في نعيم دائم مقيم في خير صحبة وأكرم مثوى.
قوله: (وكفى بالله عليما) الله جلّت قدرته أعلم حيث يجعل هدايته وتوفيقه وكفى به سبحانه أن يحيط بكل شيء في الكون والوجود جميعا فلا يند عن علمه وإحاطته شيء ١٠٩.
٧١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما).
ذلك توجيه من الله لعباده المؤمنين أن يأخذوا حذرهم عند لقاء العدوّ في المعركة حيث الصراع والتقحم الشديدان في حين يشتد فيه القتال المحتدم - وهو حين يستلزم مزيدا من الحرص والعناية الفائقين ومزيدا من التنبيه لمكائد العدوّ كيلا يأخذهم على غرّة فينال منهم نيلا فادحا.
إن الله سبحانه يأمر المؤمنين أن يكونوا على غاية اليقظة والحيطة وأن لا يلهيهم شيء عن المعركة والإعداد لها - وإذا لم يكن المسلمون على هذا النحو من الحذر والانتباه فلسوف يميل العدو عليهم ميلة واحدة ليقوّضهم تقويضا ويدمرهم تدميرا لا رحمة فيه، علما بأن العدو دائم التربص بالمسلمين ليحس منهم جانب ضعف أو ثغرة أو يدرك فيهم شيئا من غفلة أو لهو فيبادرهم الضرب الصارم القاصم - مع أن المؤمن الحقيقي لا يكون مغفلا أو لاهيا ولا هو بالمتطيش الأرعن أو المختال في خفة وغرور - فتلك حماقة هوجاء يستعلي عليها المؤمن استعلاء - لا ينبغي أن يأخذ المسلمين العجز والتثاقل أو يعميهم اللهو والغفلة وقد علموا أن أعداءهم كثيرون يريدون أن يصطلموهم اصطلاما وليستأصلوا الإسلام من الأرض استئصالا - وهذه حقيقة ماثلة للعيان ما كان ينبغي أن تغيب عن أذهان المسلمين ولو برهة من زمان.
قوله: (فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) انفروا من النفور أو النفر أو النفار وهو الإسراع للقتال ١١٠ - وثُبات مفردها ثبة وهي الجماعة أو العصابة من الناس - والثبات يعني الجماعات المتفرقة - وأصلها من: ثبت الشيء أي جمعته - وجميعا، أي مجتمعين ١١١.
يأمر الله المؤمنين أن ينفروا لقتال العدو على الهيئة التي يرونها مناسبة ومثلما تقتضيه حال المعركة - فإما أن يخرجوا جماعة بعد جماعة أو كتيبة بعد كتيبة، وإما أن يخرجوا مجتمعين بغير تخلف - وذلك أمر يقرره التخطيط للحرب من ذوي الاختصاص من العسكريين أولي الخبرة في القتال - فأولئك يضطلعون بمهام التخطيط للمعركة في حذر ودهاء وبراعة من أجل أن يتحقق لهم النصر وتقهقر قوى الشر والعدوان.
٧٢ - (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا)
قوله: (وإن منكم لمن ليبطئن) المقصود بذلك المنافقون - وقيل عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين في المدينة - وعلى العموم فالمنافقون هم المراد في الآية ذلك أنهم يبطئون - وقوله: (لمن ليبطئن) اللام الأولى لام الابتداء - واللام الثانية واقعة في جواب القسم - والاسم (من) في قوله (لمن) اسم موصول في محل نصب اسم إن - وقوله (ليبطئن) من الإبطاء أو التباطؤ - ومعناه التثاقل والتخلف عن المعركة ١١٢ - فالمنافقون كانوا يتباطأون في أنفسهم عن الخروج للمعركة ثم يبطئون غيرهم كذلك - وتلك خسيسة من خسائس المنافقين المنهزمين الذين يكيدون للإسلام في الظلام فيأتمرون عليه بالدس والتخويف والإرجاف.
وقوله: (فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا) يبين الله حال المنافقين ويكشف عما يختلج في صدورهم من سوء النوايا وخبيث المكنون فهم دائما في أرجحة كيلا يكونوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وكيلا يكونوا على طريق مستقيم مكشوف من غير تردد أو تذبذب تفرضه المصلحة الخاصة أو الهوى المتلجلج الفاسد.

والمنافقون تنطق ألسنتهم بما تخفيه قلوبهم من ارتياح وحبور إذا ما مُني المسلمون بمصيبة القتل أو التراجع في المعركة ويفرح أحدهم (المنافقون) إذ لم يكن مع المسلمين في الجهاد، كيلا يكون نصيبه الموت - وقوله (شهيدا) لهو ذو إيحاء يؤتي مدلولا حول انسلاخ المنافقين من ربقة الإيمان وهم يغتبطون تمام الغبطة أنهم لم يكونوا مع الشهداء - مع أن الشهادة مطلب عظيم يتمناه المؤمن ويلح في دعائه إلى الله كلما ذكره من أجل أن يكتب له هذا الشرف (الشهادة) كيما يحتسب في سجل الأبرار والأخيار في عليين أو ينال عظيم الحظوة الرفيعة من الفردوس من الجنة - لكن المنافقين يعيشون في سرور مع أنفسهم ويتهامسون فيما بينهم بأنهم نجوا من خطر الشهادة وأخلدوا إلى الأرض في عيش مهين رخيص يحفه الكذب والخسّة والتدسس والخداع.

٧٣ - (وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا)

قوله: (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - .) وذلك كشف آخر لحقيقة المنافقين فيما تنطوي عليه أفئدتهم من خواء العقيدة، وهم يترقبون نتيجة المعركة بين المؤمنين والمشركين - فإذا ما كتب للمسلمين فضل من الله كأن يكون ذلك نصرا أو غنيمة حزن المنافقون وجهدتهم الندامة، إذ لم يكونوا مع المسلمين في الجهاد يكون لهم نصيب في الغنيمة.

ومما يثير الانتباه في هذه الآية قوله: (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) ذلك أن المنافق وهو يتمنى أن لو كان مع المسلمين ليغنم نصيبه من الغنائم إنما يزجي بهذا التمني اللئيم رغبتهم الحاحة في مجرد المال دون غيره - وهم في مثل هذا التمني يقطعون أية وشيجة من وشائج الإيمان والتقوى تربطهم بالمسلمين - وكأن شيئا من مودّة أو صلة لم يكن بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون فيه فهم غرباء في أنفسهم وتصورهم وقناعاتهم عن الناس من حولهم، إذ لم يكن ثمة رباط من المودة في العقيدة تشدّهم إلى هذا الدين وأتباعه.

وكذلك قوله سبحانه: (فأفوز فوزا عظيما) أفوز منصوب بأن المضمرة بعد الفاء (السببية) - يكشف عن طبيعة النفس للمنافقين فهم صنف من البشر الشهوان الذي يركن للشهوة والهوى تمام الارتكان ويغلو في حب المال غلوا يدنو دونه أي حب - فالمال لدى المنافقين هو المعبود المألوه الذي يتخذونه إلها من دون الله سبحانه - وهم إذا ما أدركوا غايتهم المنشودة في المال بلغوا أقصى ما يتمنون وهو عندهم الفوز العظيم - وذلك اهتمام خسيس هابط يتحدر فيه المنافقون ليكونوا في الأذلين.

ومعلوم أن المسلم لذو اهتمام رفيع أكرم يعلو على السفاسف والدنايا ويستعلي على القصود الوضعية التي تتلهف للمال وكفى! فهو إنما يجد نفسه مشدودا بحبل الإيمان والمبدأ ليكون هواه ومبتغاه رضوان الله أو إعلاء كلمة الله - وفي ذلك يقول النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم -: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " وكذلك ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أنس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " ولكن المنافقين لا يعبأون بغير المال ذلك المطلب الأساسي الأول أو الغاية التي يكد المنافقون من أجلها حتى إذا بلغوها فازوا فوزا عظيما كما يتصورون - فتلكم هي الغاية وذلكم هو المقصود لا أكثر ولا أقل!!

٧٤ - (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

قوله تعالى: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما). بعد الكشف عن حقيقة المنافقين من حيث تكالبهم على المال وإيثارهم الحياة على الشهادة، فإن الله- جلت قدرته- يحرض على القتال في قوله: (فليقاتل) واللام للأمر - ولا يكون القتال مقبولا أو مشروعا إلا إذا تحقق فيه الشرط الأساسي وهو أن يكون ذلك (في سبيل الله) والسبيل هي الطريق - فالمعنى هو وجوب القتال الذي تحقق به طريق ممهدة سهلة يسلكها المجاهدون ليدخلوا الجنة - وغاية المجاهدين في ذلك هو رضوان الله وطاعته وإعلاء كلمة الإسلام دون غيره.

وقوله: (الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أي الذين يبيعون حياتهم بما فيها من طيبات ولذائذ ليحظوا بالآخرة حيث النعيم الأبدي الخالد - والخطاب هنا لأولئك المؤمنين الذين يؤثرون الموت على البقاء ما دام في ذلك سبيل إلى رضوان الله ثم إلى جنته الواسعة - وأولئك المخاطبون شأنهم أن يعقدوا صفقة بيع رابحة يكون الثمن فيها الحياة الدنيا بما تحويه من رغائب وأهواء وشهوات، وفي المقابل

يكون الجزاء الأعظم الذي لا يساويه أي جزاء حيث الجنة الباقية التي لا تأتي عليها السنون ولا يؤثر فيها امتداد الزمن.
قوله تعالى: (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب - -.)
(ومن) اسم شرط - (يقاتل) جملة الشرط، وجوابه: (فسوف نؤتيه - - .) وذلك وعد من الله للمجاهدين الذين يقاتلون لإعلاء كلمته وفي سبيله أنه سوف يعطيهم عظيم الأجر والمثوبة - والوعد بالعطاء للمجاهدين قائم سواء كتب لّهم الموت والشهادة أو كان لهم النصر والغلبة، فعادوا إلى مساكنهم سالمين - ويدل ظاهر الآية على التسوية بين الذي يقتل شهيدا أو الذي يعود إلى أهله سالما غانما ما دام الشرط الأساسي متحققا وهو إخلاص النية في القتال لله وحده من غير إشراك أو رياء - ويعزّز ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: " تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادا في سبيلي وإيمانا بي وتصديقا برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ".
والراجح عندي هنا عدم التسوية هنا بين الذي يموت شهيدا فيمضي إلى جوار ربه مع قوافل الشهداء والأبرار وبين المنقلب إلى أهله يحمل معه السلامة والغنيمة - والقول بالتسوية بينهما يوحي بأن الشهيد والعائد سالما، فيما بذلاه مستويان والحقيقة أنهما غير مستويين - فالشهيد قد بذل الروح ثم مضى إلى ربه مفارقا هذه الدنيا حيث الأهل والصحب والمال والولد والدار - لكن الآخر لم يفقد من ذلك شيئا - وبذلك فإني أحسب أنهما لا يستويان إلا في مجرد الخروج لقتال العدو.
أما الحديث المذكور آنفا فلا أرى فيه تعزيزا لمفهوم التسوية - وهو إنما يدل على عظيم الجزاء للشهيد والعائد كليهما وهو كذلك يتضمن تكفلا من الله لمن يجاهد في سبيله أن يدخله الجنة إن مات أو أن يعيده إلى مسكنه غانما مأجورا، وذلك لتوفر الشرط الذي يعوّل عليه قبل كل شيء من أجل القبول وذلك هو الإخلاص - وإذا لم يتوفر الإخلاص في القول والعمل فلا يرتجى بعد ذلك جزاء أو ثواب ولا قبول أو رضى - والله تعالى أعلم ١١٣.
٧٥ - (وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)
قوله تعالى: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الله الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا).
قوله: (وما لكم) ما، في محل رفع مبتدأ - لكم خبره وجملة (لا تقاتلون) في محل نصب حال - وهذا استفهام إنكاري يتضمن تنديدا بالتخاذل عن الجهاد وقتال المشركين والأعداء - والأصل في العمل كله كيفما كان أن تتوجه فيه المقاصد والنوايا إلى الله، وتلك هي سبيل المؤمنين العاملين الذين يمضون في الحياة مخلصين من دون إشراك أو رياء - ذلك هو الأصل الذي يجب أن يظل مركوزا في الرؤوس بغير مبارحة - ولا تكون الأعمال بغير ذلك إلا التصرف الشخصي المحض والذي لا يساوي في ميزان الله شيئا - وثمة أعمال وممارسات أخرى تنبثق عن الأصل الأكبر (سبيل الله) ويتضح ذلك في قوله سبحانه: (والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) وقيل في العطف بأنه على اسم الجلالة - وفي قول آخر بأنه على (سبيل) فالتقدير يكون: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين – أو في المستضعفين- من الرجال - .
والخلاصة أن يكون القتال- أصلا في سبيل الله- ثم ينبثق عن هذا الأصل القتال من أجل إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان أولئك الذين يعانون من الذل في ظل المشركين الأعداء ليسوموهم البلاء والفتنة والتعذيب.
والآية تعرض لحال المسلمين المستضعفين وهم يتضرعون إلى الله في ضعف ومسكنة ويشتكون إليه حالهم البائسة تحت نير الأعداء الذين لا يرعون في المسلمين أينما كانوا إلا ولا ذمة.
قوله: (أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - - .) يدعون الله أن يعجّل لهم الفرج وأن يزحزح عنهم كابوس الطغيان ليخرجوا من بين

ظهراني الشرك في مكة التي مارس أهلها مع المسلمين المستضعفين أنواع القهر والإذلال - ويدعون الله كذلك أن يهيئ لهم من عنده من يكون لهم وليا ونصيرا يستنقذهم من ذل المهانة تحت وطأة المشركين الظالمين.

ولئن كانت هذه الآية قد جاءت لتبين حال المستضعفين من المسلمين في مكة فإن ذلك ينطوي على الحكم بفرضية المناصرة والإنقاذ لأية فئة من المسلمين باتت تعاني من الظلم والقهر تحت سطوة الكافرين الأعداء في أية بقعة من بقاع الأرض - إن على المسلمين الذين تجمعهم دولة الإسلام أن يبادروا فورا ومن غير وناء أو تردد لاستنقاذ المسلمين المستضعفين حيثما كانوا فيقدموا لهم أسباب النصرة والعون ليمكنهم من الثبات في وجه الأهوال والأعاصير السافية التي تعصف بالعقيدة عصفا، وليردوا عنهم كيد المعتدين الذين لا يألون في محاربة الإسلام ومطاردة أهله جهدا.

وتذكّرنا هذه الآية وأمثالها بحال المسلمين في العصور الأواخر وفي هذه الفترة بالذات - فهي فترة حافلة بالمآسي والأرزاء، كظيظة بالنكبات والويلات التي يعاني منها المسلمون في شتى بقاع الدنيا على أيدي الجلادين من الساسة الكفرة على اختلاف ميولهم ومشاربهم - يبدو ذلك ونحن نستجلي أحوال المسلمين قي كل مكان من العالم حيث الأهوال والآلام بدءا بالحروب الصليبية وما عقبها من مجازر وفظائع، وانتهاء بالزمن الراهن حيث الضياع والتمزق والضربات التي يكيلها المشركون والملحدون للمسلمين - مثلما حدث ويحدث للمسلمين في كل من القفقاس والفلبين وبخارى وسمرقند وكشمير والبوسنة والهرسك حيث الأهوال والبلايا التي حاقت بالمسلمين في تلك البلاد - لقد عاث الصليبيون الصربيون في المسلمين هنالك فسادا وخرابا وأثخنوا فيهم التقتيل والتشريد والاستئصال والإبادة على نحو من الترويع المذهل الذي لا يفعله غير الأشرار والظالمين من شياطين البشر يضاف إلى ذلك ما ارتكبه الصليبيون الصربيون في حق المسلمين من انتهاك للأعراض والحرمات وارتكاب الفظائع والمجازر بالجملة بما يقضّ الحس قضا، ويؤز القلب والمشاعر أزا - وما كان ذلك ليكون لولا الموات الذي أصاب المسلمين والحكام خاصة في ضمائرهم ومشاعرهم بعد أن أفلت عن قلوبهم شمس العقيدة الساطعة النابضة - ليس ذلك في البوسنة أو الهرسك وحدها بل في كل بلدان الإسلام المبتلاة بقوى العدوان في الغرب والشرق معا - ولقد عانت هذه البلدان صنوفا من البلاء والكوارث والتدمير إلى درجة الاستئصال والمحق تماما في بعض الأحوال كالذي حدث للمسلمين في الأندلس على أيدي الصليبيين - ناهيك عن صور الإبادة والقتل والإذلال التي لاقاها هؤلاء المسلمون على أيدي الجلادين المجرمين من التابعين لحضارة الغرب المتفسّخ الماجن أو حضارة اليهودي كارل هنريك مردخاي ماركس وتلميذه الصهيوني الماسوني المتعصب لينين.

وأخيرا وليس آخر هذه النكبة المريعة المزلزلة للذهن والحس والأعصاب والتي حلّت بفلسطين وشعبها المغلوب على أمره، هذا الشعب الذي لاقى من التآمر والجريمة والعدوان ما لا يخطر ببال وما ليس له نظير في تاريخ البشرية - وهي معضلة قد تألبت على حبكها وتنفيذها قوى العدوان في أوربا وأمريكا مسخرة للصهيونيين الماكرين الحاقدين - كان ذلك يوم أن تآمرت دولة الإنجليز المستعمرين في خسة ووقاحة مع الصهاينة في الظلام لتشريد المسلمين من فلسطين إلى أن تم ذلك بجهد كثيف من دولة الدنس والدولار-أمريكا- بالموافقة والإقرار من السوفييت دولة الشيوعية والإلحاد والقهر وخنق الحريات يوم أن بادرت بالاعتراف فورا بدولة بني صهيون في فلسطين.

كل هذه الويلات والمصائب تهتف بالمسلمين أن يتّحدوا جميعا كيما تجمعهم دولة واحدة هي دولة الإسلام ليمدوا بعدها يد العون والنصرة لإخوانهم في العقيدة من الذين يصطلون بنار التعذيب على أيدي الحاقدين الذين يكرهون أشد ما يكرهون عقيدة الإسلام والمسلمين.

٧٦ - (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

قوله: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا).

يحدد الله في هذه الآية سبيلين اثنين متقابلين يفضي أحدهما إلى الشر والباطل بينما يفضي الآخر إلى الخير والحق - وذلك تحديد من الله للمسلمين من أجل أن تتضح أمامهم الرؤية فيمضوا على الطريق في وضوح وهداية من غير تعثر أو خبط - والخط الفاصل الذي يفرق بين المسلمين والمشركين، أن المسلمين يقاتلون في سبيل الله فهم بذلك على الحق في كفاحهم ومسعاهم وهم يسيرون على طريق

السلامة والإسلام في ثقة ويقين وتثبّت إلى أن يكتب الله لهم النصر أو أن يبتليهم لحكمة يعلمها هو - أما المشركون فإنهم على الباطل والضلالة من أول يوم فهم إنما يقاتلون من أجل الطاغوت وهو الشيطان مصدر الإطغاء والغواية.

إن المشركين لا يحاربون إلا لمقاصد غاية في الفساد والتنكب عن الصواب أو هي من أجل الشر والباطل حرصا على الشهوة الرخيصة أو الهوى الجامح الذي لا يعبأ بالخير ولا يزن الأمور إلا بميزان الغريزة المتأججة العمياء.

بعد هذا التمييز الذي يفصل بين سبيلين لتتضح الرؤية أمام المسلمين فيقاتلوا عن قناعة وتثبت، يحرّض الله عباده المؤمنين على مقاتلة الكفرة أولياء الشيطان أي أعوانه وأتباعه - ولا جرم أن يتمثل الشيطان في جماع الرذيلة والفساد والشر، وتلك معان نكراء يقاتل من أجلها أولياء الشيطان.

ثم يأتي التعقيب المناسب ليجعل للمسلمين سبب الطمأنينة ترتكز في قلوبهم ليقاتلوا بشجاعة وثقة بالله في النصر وذلك بأن (كيد الشيطان كان ضعيفا) - والكيد هو المكر والتحيّل والتدبير - وحقيقة الضعف في كيد الشيطان قائمة لا ريب فيها لو عرف المسلمون قدر عقيدتهم فوعوا حقيقة الإسلام ومعانيه في تزكية النفوس وترقيتها لتكون كبيرة مستعلية على الدون من سقط الاهتمامات وسفاسف الحضارات البائسة التعسة التي تتراءى للمخدوعين والمشدوهين فاتنة براقة وهي في حقيقة مضمونها ليست على كل شيء إلا التفكك والمرض والخلخلة - تلك حقيقة ينبغي أن يقف عليها المسلمون ليعاودوا الثقة بأنفسهم وهم يراجعون الحساب مع هذا الذين الذي يأخذ بهم إلى ذروة المجد والقوة والاستعلاء والخير.

٧٧ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا).

ورد في سبب نزولها أن فريقا من المسلمين في مكة كانوا قد رجوا النبي ليأذن لهم بالجهاد فيردوا المشركين ويدفعوهم عن أنفسهم بعد ما لاقوا منهم أذى وعدوانا مع أن الجهاد حينئذ لم يكن مفروضا، إذ كان المسلمون مأمورين بالصفح والصبر وفعل العبادات كالصلاة والزكاة وغيرها - فلما أن بات الجهاد فرضا على المسلمين من بعد الهجرة تخلف هؤلاء الذين كانوا يبدون في مكة حماسة ويطالبون بمحاربة مشركي مكة - لقد نكصوا على أعقابهم وانكشفوا عن خذلان وتخوّف حتى لجوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالشكوى والاضطراب - على أن الذي يراود الذهن هنا أن هذه الفريق من الناس الذين كانوا يتمنون في مكة أن يؤذن لهم بالجهاد ورد المشركين لم يكونوا من المنافقين ولا المؤمنين حقا - أما أن يكونوا منافقين فلا يتصور ذلك، إذ لا وجود للنفاق والمنافقين في تلك الفترة العصيبة التي لاقى فيها المسلمون العنت والعذاب ولا يكون النفاق إلا حيث الشوكة والمنعة للإسلام ١١٤.

وأما أن يكونوا من المؤمنين من أمثال عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له كما قيل فذلك مالا يتصور أيضا ولا يلج حيّز المعقول - إن المؤمنين المخلصين في مرتبة عبد الرحمن بن عوف لا يعقل أن يتمنوا الجهاد حتى إذا بات ذلك مفروضا كفوا وامتنعوا وأبدوا تخاذلا وجبنا ثم خشوا الناس أشد من خشيتهم لله!

إن الذي يمكن تصوره أن هؤلاء كانوا من ضعاف الإيمان الذين كانوا يغمرهم الخوف والتلجلج والذعر - فهم ليسوا من المسلمين الثابتين الأقوياء، الذين لا تأخذهم في دين الله صيحة حرب ولا قتال للأعداء.

قوله: (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال -.) المقصود بواو الجماعة في قوله: (وقالوا) هم ضعاف الإيمان من المسلمين الذين خشوا لقاء العدوّ مثل خشيتهم لله أو أشد خشية فقد تمنّوا كذلك أن لو لم يكتب الله عليهم القتال - وقالوا: (لولا أخرتنا) لولا بمعنى هلا وهي أداة تحضيض - فهم يتمنون على الله أشد التمني أن لو أخر عنهم فريضة الجهاد إلى حين آخر - وذلك هو شأن الضعاف المهزومين الذين

يرغبون في التسويف في مثل هذه الأمور أو الإبطاء فيها ليمتد بها الزمن فيطويها النسيان - لكن المؤمن المتقي يتورع عن التسويف في ما افترض الله عليه فلا يلبث أن يخف لطاعة الله أو يسارع للاعتصام بحبله المتين من غير مداهنة أو مصانعة أو تسويف.
قوله: (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى - -.) متاع مبتدأ، وقليل خبره - وهنا يأمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبسط للناس هوان الدنيا وبساطتها، وأنها مجرد عرض زائل يستمتع به الناس إلى حين من الزمان يمر مرا سريعا لتنتهي بعدها السالفة إلى حيث المطاف الأخير الذي ينتظر كل كائن على وجه هذه الأرض - - الموت.
وما أعظم حديث النبي الكريم في هذا الصدد، إذ يرسم صورة تكشف عن حقيقة الحياة الدنيا وأنها حطام مندثر يستمتع به البشر في غمرة اللهو والمرح إلى أجل محدود - يقول عليه الصلاة والسلام: " مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل بظل شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها " ١١٥.
وإذا ترسخ هذا الاعتبار في التصوّر أدركنا في يقين لا يخالطه شك أن الآخرة لهي خير وأفضل لما تتصف به من حسن وبقاء مستديم - وتلك حقيقة يؤمن بها المتّقون الذين يخشون الله ولا يخشون أحدا سواه والذين يزنون الأمور على الدوام بميزان الله، فلا يجنحون إلى الدنيا بحطامها ومتاعها تحت مطارق الشهوات العاتية الحامية.
وفي اليوم الآخر تتكشف السرائر والخبايا لتقف البشرية حاسرة أمام الخالق القاهر الديان لتناقش الحساب (ولا تظلمون فتيلا) أي لا يكون هناك ظلم ولو بمقدار الفتيل وهو الخيط على لفافة التمرة التي تحيط بالنواة - أو ما يتحصل من أوساخ مفتولة تظهر على الكفين إذا تفاركا.
٧٨ - (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)
قوله تعالى: (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) قوله: (أينما) أداة شرط، وما زائدة - (تكونوا) جملة الشرط، وقوله: (يدرككم الموت) جواب الشرط - وذلك خطاب عام للناس جميعا بأنهم صائرون إلى الموت لا محالة وأنهم لا يدرأون عن أنفسهم الموت مهما اتخذوا من الوسائل والأسباب التي قد تدرأ عنهم بعض الشدائد والعوادي أو تخفف عنهم حدة الأزمات والكوارث، لكنها لا ترد عنهم داهية الموت الذي سيؤول إليه كل كائن مهما امتد به العمر والأيام - قال سبحانه: (كل من عليها فان) وقال جلا وعلا: (كل نفس ذائقة الموت).
قوله: (ولو كنتم في بروج مشيدة) البروج المشيّدة هي القصور المنيعة المحصّنة وقيل هي الحصون والقلاع والآطام المبنية - وقيل غير ذلك وهي جميعها أقوال متقاربة يقصد منها الثواء إلى حصون مكينة منيعة ظنا أنها تدرأ عن الثاوين المخاطر والمقادير - لكن داهية الموت إذا دهمت وجاء الأجل المقّدر المحتوم باتت كل هذه الأسباب والمحاذير غير ذات قيمة أو اعتبار - فلا يغني حينئذ حذر من قدر ولا تجدي المحاذير أو الحسابات البشرية مما هو مسطور في علم الله وقدره، لأن (أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) ولا يتشبّث أحد بمثل هذه الأسباب إلا وهو يخالطه الحرص البالغ على الحياة أو المكث فيها طويلا، وهو لا تدنو منه قارعة الموت إلا ويجد نفسه شديد اللصوق بالحياة والإخلاد إلى الأرض في انشداد عجيب مؤمّلا أن يستزيد من البقاء ما هو أكثر - وتظل بوادر المنيّة وأعراضها تتكشف له عن النذير بالفراق المرعب الطويل، لكنه يظل يستمسك بحبائل الحياة في عناء وهو يعلل نفسه بطول الآمال والأماني - وما ذلك إلا العبث اللاهي الذي يتيه خلاله الإنسان ليبعد عن نفسه شبح الموت، وهو شبح مخوف مزلزل يتراءى للإنسان في كل لحظة فيراود فيه الحس والخيال مراودة غليظة تنذر بحلول الأجل الذي تلتفظ معه الأنفاس وتزهق فيه الروح زهوقا.
قوله: (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) يرجع الضمير في قوله تصبهم على المنافقين - فهم الذين تهرف ألسنتهم بالسوء ليغمزوا النبي في وقاحة فاجرة بأن الحسنة تصيبهم سببها فضل الله عليهم اما اذا اصابتهم السيئة فسببها

شؤم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - والمقصود بالحسنة هنا مجموعة السلامة والأمن والرزق والخير والخصب - ويقصد بالسيئة ما اشتمل على السوء والضراء وذلك كالفقر والمرض والجدب وانحباس المطر وغير ذلك من أنواع الشدة.

وفي قول آخر بأن الضمير في قوله: (تصبهم) يعود على اليهود والمنافقين معا وذلك أنهم لما قدم عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة مهاجرا قالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه - لا جرم أن ما قالوه غاية الباطل والافتراء، بل إنه اجتراء خسيس وجهول ووقح تحسر عنه قلوب هؤلاء الكاذبين المرضى - ومن بدهيات القضايا الكونية في هذا الوجود أن النبي الكريم محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان وما زال بشخصه وطبعه وسيرته وذكراه مثار خير وبركة وراحة تنهمر في نفوس المؤمنين انهمارا - فما يتصور الإنسان روعة الشمائل والسجايا وكريم الطبع والخصال في شخصية النبي الكريم حتى يغمره الحبور والدهش وينشر في أغواره فيض الإعجاب البالغ بهذا الإنسان المتميز الفذ.

أما مقالة هؤلاء الظالمين الضالين عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإنها غاية في التخريص الظالم والافتراء المهين - قالوا: إنهم إذا أصابهم خير مثل الرزق والرخاء العطاء فهو من عند الله ومن فضله وتقديره - وإذا أصابهم السوء مثل المرض والخوف والقحط قالوا: " هذه من عندك " أي بشؤمك الذي أصابنا بسببك وذلك على جهة التطيّر.

وقوله: (قل كل من عند الله) وتلك قاعدة أساسية للتصوّر الإسلامي الصحيح في مثل هذه المسألة - كل شيء من عند الله بما في ذلك الحسنة والسيئة على نحو ما بينا، وفي ذلك المعنى شيء من الإجمال الذي يقتضي البيان والتفصيل وهو آت في الآية التي تلي هذه.

قوله: (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) أي كيف لا يعلم هؤلاء أن الله هو الباسط والقابض والرازق؟ وكل ذلك إنما يصدر عن حكمة وتقدير - ذلك تنديد بهؤلاء الفسّاق الذين قالوا مقالة السوء ونسبوا الشؤم للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - إنه تنديد تتسفّه به أحلام هؤلاء الفسّاق ليوصموا بفرط الغباوة والجهل - ولا جرم أن يكون ذلك قرين المجرمين الفاسدين الذين يفترون على النبي وأصحابه بأفدح فرية.

٧٩ - (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

وقوله: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ذلك تبيين مفصّل لقوله سبحانه: (قل كل من عند الله) وإيضاح لما فيه من إجمال - فإن ما يصيب الناس من خير عميم كالرزق والخصب والنصر كل ذلك بفضل من الله ومنّة - لكن ما يصيبهم من بلاء وكروب وشدائد فذلك من أنفسهم، أي بسبب معاصيهم وما اقترفوه من آثام ومحظورات - والله سبحانه يبتلي عباده بضروب من البلاء جزاء ما اكتسبوا من أخطاء، وذلك على سبيل الجزاء الذي تتكفّر به السيئات - وفي الحديث الشريف: " لا يصيب رجلا خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ".

وفي حديث آخر عنه (ص): " والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همّ ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله عنه بها من خطاياه ".

قوله: (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) رسولا، مصدر مؤكد بمعنى إرسال وشهيدا منصوب على البيان - ذلك تثبيت لفؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - لكي يمضي على الطريق فلا تهزّه الصعاب، أو تنال من عزمه واصطباره الرياح السوافي التي تعصف بالضعفة من الناس والتي يثيرها المنافقون واليهود من حين لآخر - وهو عليه الصلاة والسلم مبعوث من ربه للناس ليبلغهم دعوة الله، وهي دعوة الحق التي لا يقوى على الاضطلاع بأدائها إلا أولوا العزائم الكبيرة من الرجال - ويكفي أن يكون الله- جلّت قدرته- وهو الشاهد على نبوّة الرسول وصدق رسالته (ص) ١١٦.

٨٠ - (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)

قوله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) الاسم (من) أداة الشرط (يطع الرسول) جملة

الشرط - (فقد أطاع الله) جواب الشرط - والفاء مقترنة بالجواب - وفي الآية تدليل على أهمية طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فإن طاعته مقترنة بطاعة الله سبحانه، وعلى ذلك يمكن القول بأن طاعة الله وطاعة نبيّه الكريم كليهما صنوان، وأنه لا استتمام لإحداهما دون الأخرى - والمنطلق الأساسي لهذا التصوّر هو قوله سبحانه: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) فإن ما يصدر عنه (ص) من أقوال أو أفعال أو تقريرات إنما يتحقق من طريق الوحي لا التصرف الشخصي الذي يحتمل الأخطاء والزلات - وفي هذا فإن طاعة الله عز وجل تستوجب أن يبادر المؤمن لطاعة النبي؛ لأن ذلك طريق المعرفة الوافية التي يتحصل بها التعرف على مضمون القرآن وما فيه من أحكام وقواعد ومقتضيات - وفي أهمية الطاعة للنبي الكريم يقول عليه الصلاة والسلام: " من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني " - رواه الصحيحان عن الأعمش.

قوله: (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) من أدبر معرضا عن دعوة الإسلام فما عليك منه يا محمد - وما عليك إلا التبليغ وكفى فمن لم يهتد فلست عليهم حفيظا - أي رقيبا على أعمالهم فدعهم وشانهم وحسابهم على الله.

٨١ - (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

قوله: (ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول) المقصود بذلك هم المنافقون فقد كانوا- على عادتهم- يظهرون الموافقة لما يقوله النبي والإقرار لما يحكم به ويقضي في طاعة وانصياع حتى إذا خرجوا من عنده بدّلوا ما كانوا أظهروه أمام المسلمين والنبي واستسرّوا فيما بينهم شيئا آخر خلاف ما أظهروه - وقوله: (طاعة) خبر لمبتدأ مرفوع تقديره (أمرنا) وفي قراءة أخرى النصب على أنه مفعول مطلق ١١٧.

قوله: (والله يكتب ما يبيتون) يأمر الله ملائكته الحفظة أن يكتبوا ما استسرّه هؤلاء المنافقون في بهيمة الليل المعتم - وفي ذلك لفت للأذهان بأن الله مطّلع على ما يستسرّ في النوايا والمقاصد وأنه سبحانه يستوي أمامه المعلوم والمجهول أو الظاهر والمستور، وهو سبحانه يعلم كل ما يستكن في أرجاء الكون وأطرافه وجوانبه - وهو سبحانه عليم بكل مكنون ولو لم يكن ثمة ملائكة كتبة حفظة يسجلون ما يجري لكنه جل وعلا إنما يتعبد خلائقه من الملائكة إذ يضطلعون بوظيفة الكتابة والرقابة.

قوله: (فأعرض عنهم - .) يخاطب الله نبيّه أن يعرض عن هؤلاء المبيتين المفسدين ويصفح عنهم ولا يعاقبهم ماداموا يستسرّون كيدهم ليظل حبيس نفوسهم وطواياهم من غير إظهار - وكذلك فإن على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتوكل على الله بالاعتماد عليه والركون إليه سبحانه فإنه جلّت قدرته خير ملاذ للثاوين والحائرين والمستضعفين، وكفى به وليا ونصيرا للمنيبين إليه المتوكلين عليه.

٨٢ - (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)

قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) وردت الآية الأولى في المنافقين - لكن هذه الآية تظل تخاطب البشرية على مر العصور والأزمنة عقلها وضميرها من أجل الوقوف على القرآن المجيد وتدبّر معانيه واستيعاب حقائقه وروائعه ومعجزاته - والقرآن معجزة النبي الكبرى التي تظل على الدوام تتحدى المقدور البشري فيما انطوى عليه من ظواهر تنطق بالإعجاز - وفي ذلك من الدلالة البالغة على أن هذا الكتاب الكريم لم يكن من نسق البشر ولا هو من ظواهر الطبيعة المقدورة في شيء لكنه الظاهرة الكونية الفذة، أو هو كلام من نوع آخر، وذلك من حيث اتساقه وعذوبته وإحكامه وقوة تأثيره، ومن حيث اشتماله على خصائص جمّة لا تتحقق في أي كلام غير هذا الكلام - ولو تهيأت للبشرية أسباب التفهم والوقوف على خصائص هذا القرآن لكانت الحال بهم غير هذا الحال من حيث الأوضاع والأحوال سواء كانت نفسية أو مادية أو اجتماعية أو غير ذلك - لكن أسباب التفهم والوقوف على القرآن في خصائصه وروائعه ومبادئه لم تتيسر لبني الإنسان ولم تتهيأ لهم بالقدر المطلوب - وفوق ذلك فإن ثمة أسبابا من المعوقات والعراقيل التي تصد الناس عن هذا الكتاب صدا والتي تحرّض على النفور منه والتقاعس

عن معرفته والعمل به - وهي أسباب كثيرة يصطنعها المارقون والملحدون - وكل أولئك يعلنون على الإسلام حربا حامية لا هوادة فيها - وهي حرب يلتقي في خضمها الظالمون من كل ملّة أو مشرب ابتداء بالصليبيين الذين تتقاطر قلوبهم حقدا وكراهية، ثم الشيوعيين الضالعين في حمأة الإلحاد الفاسد والذين تتكدس في نفوسهم بلادة الحس المادي البحت كيلا تتزكى بمذاق الروح الشذية وأريجيتها العاطرة الندية، وانتهاء بالجهلة الناعقين من بني قومنا الذين تخطف أبصارهم بارقة الحضارة الغربية اللامعة وهم يجدون أنفسهم يلهثون راكضين في تقليد معيب أعمى - كأنما هم (حمر مستنفرة فرت من قسورة).

وفي هذه الآية الكريمة يستنهض الله عزائم هؤلاء المتخاذلين وهممهم ليتدبروا القرآن - والتدبر هو التفكر والتبصّر لاستخلاص المعنى، والمقصود الذي لا يتكشف بغير إمعان وطول نظر.

قوله: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) لو كان القرآن من وضع المخلوقات سواء كانوا بشرا أو ملائكة أو جنة لكان فيه اختلاف كثير - ولا جرم أن يكون قوله: (اختلافا) قد احتوى جملة معان أو مضامين - فإنه يندرج تحت هذه الكلمة كل من التباين والتفاوت والتعارض والتناقض والتضاد - وبذلك فإن اختيار الكلمة (اختلافا) بالذات يوحي بشيء من إعجاز - إذ لو كان القائل واحدا من الخلق لما طرأ على باله أن يصطفي هذه الكلمة بالذات وهي قوله: (اختلافا) ولكان على الغالب أن يختار كلمة من صنف محدد آخر.

وتلك ظاهرة من ظواهر الإعجاز في القرآن وهو أنه لا وجود للاختلاف فيه - فهو كلام متكامل ومتّسق لا مجال للتعارض فيه أو التناقض أو التباين بين آياته ومعانيه سواء في العبارة أو المعنى فإن ذلك كله قد جاء على مستوى رفيع واحد وعلى درجة سامقة رائعة واحدة بحيث تتشابه فيه الآيات والعبارات والمقاطع لتكون جميعها في نفس المرتبة من فصاحة البيان أو روعة الأداء أو حلاوة التعبير أو قوة التأثير أو براعة التصوير أو غير ذلك مما اشتملت عليه لغة العرب - وانتفاء الاختلاف من بين آيات القرآن لهو أعظم دليل على إعجازيته، إذ لا يتأتى لبشر- كائنا من كان من البلاغة واللسن- أن يصوغ طويل الكلام ليأتي ذلك على وتيرة متسقة موحدة لا يتخللها شيء من معاني الاختلاف - والذي يتبدى للذهن مما هو معلوم من طريق المعاينة والحس أن كل كلام يحمل مضامين شتى وأخلاطا من المعاني والعقائد والأحكام لا بد وأن يخالطه اختلاف كثير بما تعنيه هذه الكلمة من مفاهيم في التباين والتعارض وغير ذلك من جوه الضعف التي تركب الأسلوب البشري مهما بلغ من القوة والعلوّ - لكن القرآن وحده ليس على شيء من " الاختلاف " ولا يعتريه شيء من ظواهر الضعف مهما امتد الزمن - ندرك ذلك في يقين ونحن نتصور كرّ الزمن الذي يمتد بالقرآن والذي نيّف على الأربعة عشر قرنا وهو ما فتئ على حاله من الاتساق والانسجام - بل إن امتداد الزمن يكسب القرآن مزيدا من الوضوح والجلاء لكثير من معانيه التي تتفجر للأذهان في سهولة ويسر والتي طالما كانت على قدر من الإجمال إلى أن اتضحت في ضوء الخبرات والتجارب والمعطيات العلمية الحديثة.

وفي هذا الصدد نستذكر إحدى خصائص القرآن المميزة وهي الجدة - بكسر الجيم - ومنه الجديد - فالقرآن لا تبدو عليه علامة واحدة من علائم البلى والقدم وهو في تناسق ألفاظه واتساق أسلوبه وسحر معانيه فإنه دائم الجدة كأنما تنزّل من أمد قريب - ولو كان هذا الكتاب من قول البشر أو أحد من خلق الله لتكشف عن مواطن الضعف والاختلاف حينا بعد حين ولظل يدفع بعضه بعضا أو يكذب بعضه بعضا كلما امتد بالناس الزمان وتجددت بهم الظروف والأحوال أو اختلفت القناعات والمقتضيات بفعل المعارف التي تتحصل وتنمى بغير توقّف وبفعل التجارب العلمية التي تتمخض عن معطيات هائلة متجددة.

٨٣ - (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا)

قوله: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم - - ٠) ذلك في ضعفة المسلمين الذين يتعجلون في إفشاء الأخبار حول النصر أو الهزيمة - وذلك استعجال من هؤلاء الضعفة بإطلاق الإشاعات من غير تحفظ أو انضباط وقد تكون هذه المرويّات التي يبادرون بنشرها غير صحيحة وفي ذلك من التثبيط لعزائم المسلمين ما هو معلوم - فإذا كان لكل

فرد من أفراد المجتمع أن يشيع الأخبار والتخرصات بإطلاق لا يعرف التقييد أو الضبط باتت الأمور في المجتمع سائبة غير مضبوطة بما يؤدي إلى فوضى وإرجاف يغشيان الأمة فتعيش في اضطراب وارتباك وحيرة.
وعلى ذلك فإن الآية تدعو المسلمين إذا ما بلغ أحدهم خبر من الأمن أو الخوف- وذلك يعني النصر أو الهزيمة- فإن عليه أن يرد ذلك إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وله أن يتصرّف بمثل ما يراه مناسبا، أو أن يرد ذلك لأولي الأمر وهم العلماء أو الولاة والأمراء كما قيل وهم بدورهم يستطيعون أن يقرروا الشأن الذي تقتضيه المصلحة وذلك بعد التشاور المستفيض والدراسة للأمر من كل جوانبه - وفي هذا من الأسلوب الصحيح ما تتجنّب به الأمة بواعث الفوضى والإرجاف لتسير على بصيرة واعية من أمرها.
قوله: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) الاستنباط هو الاستخراج، ومنه النبط أي الماء عند أول خروجه من البئر عقب الحفر ١١٨ - فالمعنى أن من جاءه خبر يتضمن خيرا أو شرا يتعلق بمصير المعركة، ثم رد الخبر إلى القائد الأول وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم -، أو الخلفاء والولاة والحاكمين من بعده لكان قد علم المستنبطون منهم ما ينبغي أن يفشى وما ينبغي أن يخفى أو أنهم أجمعوا على أمر قد انقدح لأذهانهم فاعتمدوه دون غيره - والمستنبطون هنا هم أهل البصيرة والنظر الذين يبحثون عن الحقيقة يخرجونها بعد جهد إخراجا وذلك كيلا يتسبب الأمر ويعم الإرجاف والبلبلة والفوضى عن طريق التعجل بانفراد في بث الأخبار وإطلاق الأقاويل مع أن ذلك ليس من أخلاق المسلمين في شيء - وشأن المسلم في ذلك أن يتسم بالروّية والاتّزان فلا يطلب الخبر أو الإشاعة دون تثبّت أو تحفّظ، وإلا كان من المرجفين الطائشين الذين يعبدون الله على حرف أو الذين لا يعبأون بالكلمة تلوكها أفواههم فتقضي إلى وخيم العواقب وأفدحها - وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " كفى بالمرء أن يحدّث بكل ما سمع " - وجاء في سنن أبي داود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " بئس مطيّة الرجل زعموا ".
قوله: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) لولا أداة امتناع لوجود، وفضل مرفوع للابتداء والخبر محذوف تقديره موجود - جاء في تأويل هذه جملة أقوال: أولها: أنهم أذاعوا به إلا قليلا منهم لم يذع به.
ثانيها: أي لعلمه الذين يستنبطون منهم إلا قليلا منهم.
ثالثها: أي لولا فضل الله عليكم ورحمته ببعثه فيكم رسولا هاديا لكم ومنيرا لكفرتم وأشركتم إلا قليلا منكم كان على فطرة التوحيد - وقوله: (قليلا) منصوب، لأنه صفة لمصدر محذوف وتقديره: إلا اتباعا قليلا - وقيل: مستثنى من قوله: (لتبعتم الشيطان) وقيل غير ذلك ١١٩ - ولعل الصواب القول إن الله قد تفضّل على العباد بإحسانه ورحمته وغفرانه حتى نجوا من غواية الشيطان ووسوسته إلا بعضهم فقد ضل وسار في طريق الباطل والغواية.
٨٤ - (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلا)
قوله تعالى: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) - الفاء متعلقة بما قبلها والمخاطب في ظاهر اللفظ هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - - وفي حقيقة التكليف بالقتال وحده وردت عدّة أقوال نستخلص منها أقربها إلى الصواب وأبعدها عن الغرابة في الحكم - وهو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مأمور بقتال المشركين بنفسه أما من نكل عن مشاركته في القتال من المسلمين فلا بأس ولا تثريب عليه (أي البني) أي لا تلزم فعل غيرك ولست مؤاخذا به، وشبيه بذلك ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه - أي أن الخطاب موجه لك يا محمد ولكل واحد من أمتك وهو: " فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك " فكل مسلم مكلف قد نيطت به وحده وجيبة الجهاد بمفرده ولا عليه بعد ذلك إن نكل عنه الآخرون أو تخلّفوا.
ويأمر الله نبيّه كذلك بتحريض المؤمنين على قتال المشركين والمتربصين - والتحريض هو الحض والتشجيع - فإن في تحريضه على القتال واشتداد المسلمين في التصدي للأعداء ومقارعتهم ما عساه أن يكون سببا في أن يكف الله عن المسلمين سلطان عدوّهم وسطوته فيرتد خاسرا مدحورا.

قوله: (والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) البأس هو الصولة والمنعة والشدّة - والتنكيل بمعنى العقوبة - وبذلك فإن قوة الله تفوق كل قوة وعقوبته موجعة أليمة تدنو دونها كل عقوبة، فهو سبحانه القادر على التنكيل بالفسّاق والمجرمين وعلى أن يذيقهم من شديد عذابه ما لم يكونوا يتصوّرون ١٢٠.

٨٥ - (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

قوله تعالى: (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا).

الشفاعة في اللغة من الشفع وهو العدد الزوجي خلافا للفرد أو الوتر وفي الآية: (والشفع والوتر) ومنه الشفيع سميّ بذلك؛ لأنه في ضمه إلى صاحب الحاجة يصير شفعا أي زوجا - وبعبارة أخرى فإن الشفع معناه: ضم ذات إلى ذات أخرى - وعلى ذلك فإن الشفاعة تعني أن ينضم واحد بجاهه واعتباره إلى آخر لما في ذلك من إظهار لمنزلة الشفيع بقصد إيصال المنفعة إلى المشفوع له ١٢١.

واختلف أهل التأويل في حقيقة المقصود من هذه الآية على جملة أقوال - ويمكن استخلاص الصحيح منها لنعلم أنها تتعلق بشفاعات الناس في حوائجه فيما بينهم - فمن سعى سعيا ترتب عليه وصول خير أو منفعة للآخرين كأن يكون ذلك تحصيلا لمنفعة أو تحقيقا لمصلحة أو إظهارا لحق مضيّع أو دفعا لضرر، فإن في ذلك أجرا ومثوبة للساعي الشفيع - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " اشفعوا تؤجروا " رواه مسلم.

أما الذي يشفع في السيئة بأن يسخّر جاهه ومكانته في إلحاق الأذى والظلم بالآخرين فإنه له في ذلك كفل من الوزر أو الإثم - والكفل معناه النصيب ويستوي فيه أن يتضمّن الأجر أو يتضمّن الوزر - وفي هذه الآية تشجيع على فعل الخير وبث أسباب العون والمساعدة لكل محتاج أو ملهوف، وفيها كذلك تنديد بالشفاعة السيئة التي يعتمد بموجبها الآثمون إلى إخفاء الحق لكي يظهر الباطل بما في ذلك من وجوه الإضرار والشرور والموبقات التي تلحق بالناس ظلما وعدوانا - وذلك نتيجة للوساطات الفاسدة التي ينبري من خلالها الشفعاء لإخفاء الحق وإظهار الباطل فيحيق الظلم بالمستحقين ويتطاول المبطلون المعتسفون فيسلبون حقوق الآخرين ظلما وعدوانا.

قوله: (وكان الله على كل شيء مقيتا) المقيت معناه الحفيظ الشهيد وقيل: المقتدر وهو مشتق من القوت؛ لأنه يمسك النفس ويحفظها.

٨٦ - (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)

قوله: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها - - .) حيّيتم من الفعل حييت ويقصد من ذلك السلام - والتحية معناها الدعاء بالحياة - وقولنا: التحيات لله يعني البركات لله ومن الله - وقيل: معناها السلامة من النقائص والآفات والعيوب - وقد كان من عادة العرب قبل الإسلام أنه إذا لقي بعضهم بعضا قالوا: حياك الله - وهو مشتق من الحياة كأنه يدعو له بالحياة - فلما جاء الإسلام بدل ذلك بالسلام فجعلوا التحية اسما للسلام ١٢٢ - وفي الآية إشارة إلى مشروعية التحية بالسلام - وقد أجمع أهل العلم على أن الابتداء بالسلام سنّة مرغوبة وأن ردّها فريضة.

وإذا ابتدأ الواحد بالسلام على الجماعة فهل يجزئ رد أحدهم؟ ثمة قولان في هذه المسألة - أحدهما: أن رد الواحد من الجماعة على المبتدئ بالسلام يجزئ عن الآخرين.

ثانيهما: أن رد السلام من فروض العين بمعنى أن الرد فرض متعين بالنسبة لكل واحد من الجماعة الحاضرة واستدلوا أيضا بما لو رد غير المسلم على من ابتدأ السلام لم يسقط ذلك فريضة الرد - وفي ذلك دلالة على لزوم الرد على كل واحد بعينه.

والراجح أن الابتداء بالسلام من واحد يكفي - وأن الرد من أحد الآخرين مجزئ لما رواه أبو داود في سننه عن عليّ بن أبي طالب أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " يجزئ من الجماعة إذا مرّوا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم ".

قوله: (فحيوا بأحسن منها أو ردوها) رد التحية على البادئ أن يقال: عليكم السلام - أما الأحسن فهو أن يقال: عليكم السلام ورحمة

الله - وإذا أضاف البادئ قوله ورحمة الله - كان الرد: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته - وهذا هو النهاية بغير زيادة.
ويسنّ في التحية والردّ عليها الجهر وذلك عن طريق الكلام باللسان، أما الإشارة بالأصبع أو الكف فإن ذلك لا يكفي ولا يقوم مقام الرد للتحية إلا إذا كان الاثنان متباعدين.
وإذا كانت التحية من غير المسلم فحكم الرد أن يقال له: وعليكم، وقيل: رد السلام عليهم واجب، كما ذهب بعض أهل العلم استنادا إلى عموم الآية إذ لم يرد ما يجعلها خاصة بالمسلمين وهو قول ابن عباس والشعبي وقتادة - وقد ذكر عن ابن عباس قوله في هذا الصدد: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا ذلك بأن الله يقول: (فحيوا بأحسن منها أو ردوها) - وقيل غير ذلك، والقول الأول أرجح - ولا يسلّم أيضا على من يقضي حاجته وإن سلّم فلا يرد عليه أثناء قضاء الحاجة - ولا يسلّم كذلك على من يقرأ القرآن وإن سلّم عليه فهو بالخيار إن شاء رد وإن شاء أمسك حتى يفرغ من القراءة ثم يرد.
ومن جملة الأحكام في هذه المسألة أن السنة أن يسلم الراكب على الماشي والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر، والقائم على القاعد - وإذا استقبلك رجل واحد فقل: سلام عليكم، بقصد الرجل والملكين فإنك إذا سلمت عليهما ردا: السلام عليك.
وإذا دخلت بيتا خاليا فسلم - وذلك؛ لأنك تسلم من الله على نفسك، وإنك تسلم على من في البيت من مؤمني الجن - ثم إنك تطلب السلامة ممن في البيت من الشياطين والمؤذيات ببركة السلام.
قوله: (إن الله كان على كل شيء حسيبا) أي حفيظا - وقيل: كافيا وذلك كقولنا: حسبنا الله - بمعنى أنه يكفينا - فالله جلّت قدرته كان وما يزال حافظا عالما بكل شيء ١٢٣.
٨٧ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)
قوله تعالى: (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا) لفظ الجلالة الأول مرفوع على الابتداء - والجملة الاسمية بعده في محل رفع خبر المبتدأ أو اعتراض، والخبر (ليجمعنكم) - واللام في قوله (ليجمعنكم) للقسم - وقيل موطئة للقسم - وقد نزلت هذه الآية في المرتابين الذين يكذبون بيوم القيامة - والله – جلّت قدرته- يقسم أن سيجمع الخلائق كلها على صعيد واحد يوم القيامة من القيام وهو يوم لا يحتمل الشك أو التردد أو التأويل، بل إنه حقيقة واقعة لا محالة - ومعنى القيامة أو النهوض في خوف وذهول - وسمّيت بهذا الاسم؛ لأن الناس جميعا يقومون لله وبين يديه في ذلك اليوم الذي يشتد فيه الهول والكرب - وفي قول آخر لهذه التسمية بأن الناس ينهضون قياما من قبورهم - وهما معنيان متقاربان يؤولان إلى قيام الناس في نهوض يساوره الذهول والحيرة والرعب لتجتمع الخلائق كافة من أجل الحساب.
قوله: (ومن أصدق من الله حديثا) ذلك استفهام يتضمن النفي الكامل لوجود من أصدق من الله - إنه تباركت أسماؤه وتقدّس في جلاله وعليائه لهو أصدق الصادقين حديثا فكيف إذا أقسم؟! فإن في ذلك عين التأكيد على صدق حديثه سبحانه - وقوله: (حديثا) منصوب على التمييز.
٨٨ - (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا)
قوله تعالى: (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدوركم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا).
ثمة اختلاف في سبب نزول هذه الآيات - فقد ورد أنها نزلت في المنافقين الذين انشقّوا عن المسلمين في معركة أحد، مما جعل المسلمين في شديد من الحرج والحظر وكان على رأس المنافقين حينئذ كبيرهم عبد الله بن أبيّ بن سلول - ومن بعد ذلك اختلف المسلمون في حقيقة أمر هؤلاء المنشقّين الذين خانوا الله ورسوله في أخطر الأحوال، فقال بعضهم: ما لنا ولهؤلاء فهم مؤمنون مثلنا ولا يضر ما

احتملوه من الخطأ - وقال آخرون من المسلمين: بل إنهم منشقّون ضالّون يجب محاربتهم وقتلهم حتى نزلت هذه الآيات.
وورد أيضا أنها نزلت في الذين أبدوا إيمانهم في مكة لكنهم رفضوا أن يهاجروا مع المسلمين والنبيّ إلى المدينة رغبة في بلدهم وقومهم وقالوا: إن ظهر محمد على خصومه فهو يعرف أننا مؤمنون فلا يضرّنا وإن وقعت الدائرة على المسلمين كنّا مع قومنا هنا وبذلك نجو على كلتا الحالين - فنزل قوله تعالى: (فما لكم في المنافقين فئتين - - .) وعلى أية حال فإن هؤلاء الذين نزلت فيهم الآية هم فريق من أهل النفاق وقد وصمتهم الآية بذلك في وضوح مع الاعتبار بأن سياق الآيات يرجّح الرواية الثانية في سبب النزول لقوله تعالى: (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله - - .) ١٢٤.
وقوله: (فما لكم) فيه استفهام يتضمن استنكارا لما يظنه بعض المسلمين بأن هذه الفرقة المتخاذلة المتخلفة على شيء من الإيمان، وفي الحقيقة هم ليسوا من أهل الإيمان في شيء، بل إنهم فرقة فاسدة قد انطوت على الغش والخداع وهم يتربصون بالمسلمين دائرة السوء - أما وقد اتضحت مقاصدهم الفاسدة فقد بات قتالهم مشروعا - وقد يرد في ذلك تساؤل عن قتال هؤلاء المنافقين مع أنهم لا يقاتلون أصلا، ولا ينبغي قتال أحد غير المشركين - والجواب عن ذلك أن هؤلاء – وإن كانوا منافقين- فقد ظهر كفرهم، واستبانت حقيقتهم، وهي أنهم منافقون أظهروا كفرا واضحا بدليل الآية فوجب قتالهم - ولا يدفع عنهم القتل إلا أن يهاجروا؛ لما في ذلك من دفع لتهمة الكفر عنهم والله سبحانه أعلم.
وقوله: (فئتين) منصوب على الحال - ثم قوله: (أركسهم) من الركس أو الارتكاس وهو يعني الانتكاس أي قلب الشيء رأسا على عقب ١٢٥.
وفي الآية رفض لظن بعض المسلمين بأن هؤلاء المتخلفين المتخاذلين على شيء من الإيمان فهم فئة ضالة انكشف فسادها وسوؤها (والله أركسهم بما كسبوا) أي أن الله- جلّت قدرته- قد ردّهم منكوسين إلى الضلال والهاوية بسبب تخلّفهم عن ركب المسلمين وتخذيلهم لهم سواء بانصرافهم من أرض المعركة في أحد أو إيثارهم البقاء في مكة حيث الشرك والمشركون بعد أن رفضوا طلب النبي - صلى الله عليه وسلم - بالهجرة.
قوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) - وذلك استنكار للظن بأن الهداية مقدور عليها من أحد من الناس وأن الناس يملكون هداية البشر وحملهم على الإيمان - ذلك إن كانت الهداية يقصد بها الرشاد والاستقامة أما إن كان يقصد بها الدلالة فذلك شأن آخر - وما يمكن تسجيله هنا في هذا الصدد هو أن الله- جلت قدرته- قادر على كلا الأمرين الهداية والإضلال، وأن من اهتدى أو ضلّ من الناس لم يكن بذلك متجاوزا لسلطان الله وقضائه، فالله جلّت قدرته لا يعز عليه إضلال أحد أو هدايته ولا يعجزه سوق أحد إلى حيث يكتب أو يريد - ولكن الله سبحانه قد بث في الإنسان أسباب الاهتداء وأسباب الضلال، وهو (الإنسان) ماض في الحياة على شيء من الاقتدار على التصرف الحر أو الإرادة المقدورة - فإن أساء وظلم ولم يتخيّر سبيل الهداية بات مستحقا لإضلال الله له بعد أن فرّط في الأسباب التي تقوده إلى السلامة - والإنسان إذا ما فرّط في أسباب الخير والاهتداء التي خوله الله إياها والتي بموجبها يمضي مهتديا مستقيما بات غير مستحق لرحمة الله وإرشاده، وهو إن كان كذلك فليس له إذن من يهديه ولن يكون له بعد ذلك طريق مؤدية إلى النجاة أو الفوز.
٨٩ - (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)
قوله: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) يتمنى هؤلاء المنافقون كفران المسلمين ليكونوا جميعا في الكفر سواء.
و (لو) مصدرية - وهي والجملة الفعلية بعدها في محل نصب مفعول به - أي ودوا كفرانكم - وفي الآية دلالة على أن هؤلاء المنافقين كفرة وهم بكفرهم وسوء مقاصدهم يودّون أن يكونوا مع المسلمين على الكفر (سواء) أي متساوين.
قوله: (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله) لا ينبغي أن يتخذ المؤمنون من هؤلاء المنافقين الذين افتضح شأنهم (أولياء) مفردها ولي وهو النصير - لا ينبغي اتخاذ الأعوان والأنصار من هؤلاء المنافقين ما لم تصلح نواياهم وأعمالهم ثم يهاجروا من دار الحرب

في مكة إلى دار الإسلام في المدينة حيث المسلمون والنبي - صلى الله عليه وسلم - وحيث السلطان والشوكة للمسلمين في ظل الإسلام وهم يعبدون الله أحرارا آمنين مطمئنين.
قوله: (فإن تولوا فخذوهم واقتلوه حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) أي إن أعرض هؤلاء عن الإيمان والهجرة وجب القبض عليهم وقتلهم حيث يوجدون فإنهم شرذمة فاسدة بات دمها هدرا - ومن كان على هذه الشاكلة فلا يصلح أن يكون وليا أو نصيرا للمسلمين - وتلك إشارة مكشوفة يدرك من خلالها المسلمون أن المنافقين لا يؤتمنون وأنهم فئة خسيسة مرتكسة تعيش بغير وازع من عقيدة أو تقوى.
٩٠ - (إلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا)
وقوله: (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) ذلك استثناء من أولئك الذين وجب أخذهم وقتلهم - والمستثنون هم الذين يلوذون – من خلال جوار أو حلف- بأناس يربطهم بهم ميثاق أو عهد، فأولئك المستثنون لا يؤخذون ولا يقتلون بالنظر لرباطهم الموثوق - وقد ذكر أن هذا الحكم منسوخ بالتحلل من العهود الواردة في سورة " براءة " حيث النبذ لعهود المشركين والشروع في محاربتهم أينما كانوا.
قوله: (أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) وذلك استثناء آخر فهو معطوف على المستثنى الآنف ذكره وهو متعلق بفريق من المشركين المسالمين الموادعين الذين (حصرت صدورهم أن يقاتلوكم) أي ضاقت صدورهم عن قتالكم وهم مبغضون لذلك، وهم كذلك يعز عليهم قتال قومهم المشركين - فهؤلاء ليسوا لكم أو عليكم.
وقوله: (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم - - .) من شأن الله سبحانه أن يبلو عباده المؤمنين ويصيبهم بضروب من المصائب والمحن؛ وذلك لمعاص قد ارتكبوها، ثم يريد الله أن يمحو بذلك من سيئاتهم إن احتملوا وصبروا، أو أن الله يبلوهم ليمحّص المؤمنين وليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين - أو أنه – جلت قدرته- يتعبد المؤمنين بابتلائهم ليصبروا وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم. وعلى هذا فلو شاء الله لابتلى عباده المؤمنين بأن سلّط عليهم هؤلاء الذين غمروا في صفوف المشركين بعد ضعف، وتخلّفوا عن مركب الإيمان من غير حيلة فقاتلوهم قتالا لا يرعون فيهم إلا ولا ذمة - وذلك فضل من الله أن نجّى عباده من هذا الكيد المحتمل.
هذا الصنف من الناس إذا ما اعتزلوا المسلمين ثم لم يقاتلوهم وألقوا إليهم المسالمة والموادعة فليس للمسلمين بعد ذلك أن يقاتلوهم ١٢٦.
٩١ - (سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)
قوله تعالى: (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا).
وهذا فريق من الناس يشبهون الصنف السابق الذين حصرت قلوبهم عن قتال المسلمين - وهو شبه في الظاهر ولكن الباطن يختلف فيما بين الفريقين اختلافا كبيرا،
الفريق الأول ما كان يكنّ غيظا أو سوءا للمسلمين وهو باق على حاله من إيثار المسالمة والموادعة - لكن الفريق الآخر وهو الوارد هنا ينطوي على سوء في القصد وفساد في النيّة - وهؤلاء يتظاهرون أمام النبي بأنهم موادعون مصانعون وأنهم يوادّون المسلمين ولا ينوون لهم شرا حتى إذا خلوا إلى المشركين انحسرت نفوسهم عن أخبث قصد وأسوأ غاية ثم كاشفوا المشركين بأنهم معهم وأنهم وإياهم جميعا على الشرك.
وبهذا الأسلوب المتأرجح المتلجلج يمسك هؤلاء المنافقون بخيط الأمان والسلامة ليظلوا دائما في منجاة من صولة أحد مع العلم بأنهم يضمرون العداء للمسلمين والمودّة للمشركين - وفي ذلك تقول الآية:
(كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أي كل ما خلوا إلى المشركين حيث الشرك والغواية انقلبوا إلى الفتنة وانتكسوا فيها انتكاسا،

وفي قول آخر هو أنهم إذا دعوا إلى الفتنة (الشرك) عادوا إليها وسقطوا فيها.

وقد نقل الإمام الطبري عن مجاهد أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - فيسلمون أمامه رياء فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا - ومن أجل ذلك قوله تعالى: (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم) وهو المهادنة والمصالحة (ويكفوا أيديهم) الكف هو المنع والصرف، أي يمنعون أنفسهم من قتال المسلمين - فإذا لم يكونوا كذلك من اعتزال المسلمين والامتناع من محاربتهم والتآمر عليهم وجب أخذهم والتمكن منهم ثم قتلهم بغير رحمة أو هوادة وذلك حيث لقيهم المسلمون.

قوله: (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أي برهانا واضحا بينا - ومعنى ذلك أن الله جلّت قدرته قد سوّغ للمسلمين بما خوّلهم من حجة وبرهان أن يقتلوا أولئك الفاسدين المذبذبين الذين يتظاهرون بالموادعة للمسلمين ومصالحتهم وهم يكنّون للمشركين الودّ ١٢٧.

٩٢ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

قوله تعالى: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما).

المعنى: لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ، أو لا يصح ولا يستقيم ولا يليق به أن يقتل مؤمنا ابتداء - والاستثناء هنا منقطع - ومعنى " إلا " لكن - وتقدير الجملة كما ذهب سيبويه وغيره هو: ليس لمؤمن أن يقتل مؤمنا البتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا وكذا ١٢٨.

وقال صاحب الكشاف: والمعنى أن من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد بأن يرمي كافرا فيصيب مسلما أو يرمي شخصا على أنه كافر فإذا هو مسلم.

وقوله: (وما كان) لا يفيد النفي، بل يفيد التحريم والنهي - ولو كان في ذلك نفي لانتفى بذلك حدوث القتل العمد مع أن ذلك حاصل وموجود - وضروب الخطأ كثيرة مردّها جميعا إلى عدم القصد - ومن جملة الخطأ أن يعمد المسلم إلى رمي المشركين ثم يصيب مسلما فيقتله، أو أن يقصد بالرمي غرضا من الأغراض فيصيب مسلما، أو أن يحمل على مستحق القتل فيرمي غيره وهو يظن أنه المستحق للقتل - ومثال ذلك كثير - والمعلوم أن المسلم مصون الدم إلا بإحدى ثلاث كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثّيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة " حتى إنه ليس لأحد من الناس أن يحمل على واحد من هؤلاء الثلاثة ليقتله، بل إن ذلك من شأن الدولة المسلمة فهي التي قد نيط بها تنفيذ العقوبات سواء في ذلك القصاص أو الحدود أو التعزير - وإذا كان لكل فرد أن يتصرف مندفعا ليقتل من يستحق القتل آل الأمر إلى فوضى وتسيّب.

وقتل المؤمن خطأ يجب فيه تحرير رقبة مؤمنة ثم الدية التي يتسلمها أهله - أما الرقبة فهي العبد فإنه إذا تحرر فهو كأنما تنبعث فيه الحياة المتحركة بعد موات وركود ناشئين عن مهانة العبودية أو هو بمثابة انعتاق لإنسان مؤمن لينتشر في الأرض حرا نشطا بعد استرقاق - ولا جرم أن يتضمن هذا الإعتاق تلافيا لنكسة يمنى بها المجتمع نتيجة لموت امرئ مؤمن وافتقاده من على وجه الأرض وفي ذلك من الخسارة على الأمة الإسلامية ما يوجب سدا لهذه الثغرة بتشريع الإعتاق وهو على سبيل الجبر لما حل به من كسر - وشرط الرقبة أن تكون مؤمنة، إذ لا يجزئ الكافر وهو ظاهر الآية - أما أوصاف الرقبة وشروطها من أجل أن تجزئ وذلك من حيث الصغر والكبر أو من حيث السلامة والعيوب وغير ذلك فإن ذلك موضع خلاف العلماء.

والإعتاق فيه التطهير للقاتل عما اقترفه من تقصير قد أدّى إلى هلاك امرئ مسلم وكان عليه أن يحتاط ويأخذ زمام الحرص كيلا يقع

في خطورة القتل لكنه قد ترك الحرص والحر وأهمل الاحتياط والتنبيه الذي ينبغي أن يسبق القتل فقتل فلزمه بذلك أن يضطلع بالعتق جزاء بما فرّط وجبرا لما أحدث من زوال لكائن مسلم يعبد الله ويدين له في خضوع واستسلام.

أما الدية بكسر الدال - ومنه الفعل: ودى يدي - نقول وداه أي أعطى ديته ١٢٩ - فهي ما يعطي لولي القتيل عوضا عن دمه - وقوله: (مسلّمة) أي مؤداه ومدفوعة - وإيجابها في الآية ينطوي على إجمال غير مبيّن وتبيين ذلك تفصيلا إنما يؤخذ من السنّة النبوية - وبذلك فلا مندوحة عن السنّة وأقوال الفقهاء من المجتهدين من أجل الوقوف على نوعية ما يعطي للوليّ ليكون دية ثم إيجابها على العاقلة بدلا من القاتل نفسه - وهي تجب على العاقلة لا على سبيل العقاب لهم وإنما على سبيل المؤازرة والمواساة فقط.

وتفصيل ذلك أن الدية مقدّرة بمائة من الإبل كما ثبت في أخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد روي في الموطأ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب كتابا لعمرو بن حزم في العقول (الديات) فكتب " أن في النفس مائة من الإبل " - وإذا لم يكن هناك إبل قدّرت الدية بالذهب وهي ألف دينار، أو بالفضة إذا لم يتيسر الذهب وهي من الفضة اثنا عشر ألف درهم - وتلك خلاصة ما ذهب إليه الفقهاء في هذه المسألة استنادا إلى السنة الصحيحة والاستنباط السليم - وهو تقدير للدية في ضوء ما ثبت في الخبر الصحيح، فقد أخرج النسائي عن عمرو بن حزم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب إلى أهل اليمن " وأن في النفس مائة من الإبل وعلى أهل الذهب ألف دينار ".

وكذلك أخرج أبو داود عن ابن عباس " أن رجلا من بني عدي قُتل فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - ديته اثني عشر ألفا " يعني من الدراهم - أما التقدير بالنقد في العصر الحديث فهو شأن يناط بأهل الخبرة من ذوي الاختصاص حتى يمكن الكشف عن كمية الدية على نحو محدد ومضبوط.

والدية في القتل الخطأ تجب على العاقلة وذلك ما قضى به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو إجماع العلماء - والعاقلة معناها عصبته أي أقرباؤه من طريق الذكورة - وهي في اللغة من العقل بمعنى المنع والحبس - فالعاقلة هم الأقربون الذين يمنعون قريبهم من الاعتداء عليه أو التمكن منه - والعقل على لسان الفقهاء معناه الدية - وسميت الدية عقلا؛ لأنها تعقل الدماء من أن تسفك ١٣٠.

والمقدار من الدية الذي تلتزم بأدائه العاقلة ما جاوز الثلث، فالثلث يؤديه القاتل نفسه والثلثان الآخران يقوم بدفعهما الأقربون وهم ما يعرفون بالعاقلة - وذلك قول المالكية والحنابلة وآخرين - فالعاقلة تحمل من الدية ما يبلغ الثلث أو أكثر - وما كان دون ذلك فيتحمله الجاني في ماله.

واستدلوا لذلك بما روي عن ابن عباس مرفوعا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تحمل العاقلة عمدا ولا عبدا ولا اعترافا ولا صلحا ولا ما دون الثلث ".

أما الحنفية فقالوا: إنما تحمل العاقلة ما كان نصف عشر الدية فأكثر - واستدلوا بحديث ابن عباس مرفوعا أنه " لا تعقل العواقل عمدا ولا صلحا ولا اعترافا ولا ما دون أرش الموضحة " وقالوا: أرش الموضحة ما بلغ نصف عشر بدل النفس - أما ما نقص عن نصف عشر الدية فهو في مال الجاني.

أما الشافعية فقالوا: تجب الدية على العاقلة مهما كان قدرها، سواء كانت قليلة أم كثيرة - وحجتهم في ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - " قضى على العاقلة بالدية " وإطلاق ذلك يوجب الدية كلها على العاقلة ١٣١.

ولا تقدم الدية للولي دفعة واحدة فإن في ذلك مشقة وإرهاقا وإنما تقدم على دفعات من خلال ثلاث سنوات يقوم بأدائها من يعقل عن الجاني.

وإذا كان القتيل جنينا فثمّة تفصيل - فإن مات في بطن أمه وذلك أن تضرب أمه على بطنها فتلقيه حيا ثم يموت ففيه الدية كاملة كما لو كان كبيرا.

أما ما تعلم به حياته فقد اتفق العلماء على أنه يعتبر حيا فيما إذا ارتضع أو تنفّس بعد نزوله وكذلك إذا استهل صارخا أي جاء يبكي كعادة المولود لدى نزوله - فإن كانت الحالة كذلك فإن الدية تجب كاملة - لكن الشافعي وأبا حنيفة قد قالا بكفاية أدنى حركة لتدل على أنه حي - وخالف الإمام مالك في ذلك واشترط أن تقترن حياته لدى نزوله بطول الإقامة ليقضي فيه حينئذ بالدية كاملة - ذلك

إذا ألقته أمه حيا ثم مات - أما إذا ألقته ميتا بسبب ضرب أو غيره فإن فيه غرة وهي عشر دية الأم - وذلك لما رواه المغيرة بن شعبة أن امرأتين لزوجين من الأنصار قد تغايرتا فضربت إحداهما الأخرى بعمود فقتلتها فاختصم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - الرجلان فقالا: ندي من لا صاح ولا أكل ولا شرب ولا استهل فمثل ذلك يطلّ - أي كيف ندفع دية لمخلوق ليس كالأحياء من حيث الصياح أو الأكل أو الشرب ولم يستهل فإن من كان كذلك يطلّ أي يهدر دمه فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - مستنكرا: " أسجع كسجع الأعراب " فقضى فيه غرة وجعلها على عاقلة المرأة - فإن كانت دية المرأة على العاقلة فإن غرة الجنين على العاقلة كذلك من باب القياس.

وإن ماتت الأم وبقي الجنين في بطنها فلا شيء فيه - وكذلك إذا خرج من بطنها ميتا بعد موتها فلا شيء فيه أيضا، وذلك موضع اتفاق العلماء وقيل إجماعهم - وخالف داود الظاهري في هذا وقال: إذا خرج الجنين ميتا بعد موت أمه فإن فيه الغرّة يستوي ذلك أن تلقيه الأم قبل موتها أو بعده ما دامت قد ضربت على بطنها وهي حية فالحكم هنا منوط بحياتها عند الضرب - وما أجمع عليه العلماء هو الصحيح ويعزز ذلك القياس وهو أنه لو ضربت الأم على بطنها وهي حية فماتت وهي حامل من غير أن ينزل الجنين فإنه لا شيء فيه - فالحكم نفسه إذا سقط الجنين بعد موتها.

وقد اتفق العلماء على أن الجنين إذا سقط حيا ثم مات فإنه تجب فيه الكفارة (عتق رقبة) والدية - أما إذا سقط الجنين ميتا فهل تجب فيه كفارة؟ ذلك موضع خلاف - فقد ذهب الشافعية والحنابلة إلى أن فيه الغرّة مع الكفارة - وخالفهما الإمام مالك إذ استحسن الكفارة استحسانا دون وجوب - وقال الحنفية: لا كفارة في الجنين؛ لأن الشرع إنما أوجب الكفارة في النفس المطلقة.

وفي ميراث الغرّة عن الجنين خلاف - فقد قيل إنها (الغرّة) موروثة عن الجنين بمعنى أن الجنين قد توفي عن مال الغرة فأصبح هذا المال من نصيب ورثة الجنين على النحو المبين في كتاب الله وسنة نبيه (ص) - وذلك قول المالكية والشافعية والحنابلة.

وفي قول آخر بأن الغرّة من نصيب الأم وحدها - وتوجيه ذلك أن الجنين بمثابة عضو من أعضاء أمه، وإسقاطه يعتبر من باب الجناية الواقعة عليها (الأم) فاستحقّت بذلك الغرّة بدلا عما أصابها وهو قول أبي حنيفة، وقيل غير ذلك ١٣٢.

قوله: (إلا أن يصدقوا) أصلها يتصدقوا من التصدّق وهو الإعطاء - ومعنى ذلك أن يبرئ أولياء القتيل خصمهم القاتل مما لهم في ذمته من دية - والأصل في ذلك أن الدية حق للأولياء الورثة فلهم حق التنازل عن هذا الحق وإبراء من وجب في ذمته شيء من هذا الحق - لكن الكفارة لا حق لأحد في التنازل عنها؛ لأنها حق الله وليست حقا للعباد - فالقاتل خطأ تظل ذمته مشغولة بحق من حقوق الله، وتلك هي الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة، ولا تبرأ هذه الذمة بعفو من الأولياء أو إبرائهم وإنما بالتحرير - وهو إذا ما حرر رقبة مؤمنة فإنه يتدارك ليقيم مؤمنا عتيقا مقام مؤمن آخر قد تسبب في قتله وقطعه من جماعة المؤمنين الذين يعبدون الله.

قوله: (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) إذا كان القتيل خطأ من قوم كافرين يعادون المسلمين فإن فيه الإعتاق فقط ولا دية هنا؛ وذلك لأن في الدية تقوية للأعداء على المسلمين - وأضاف بعضهم وجها آخر وهو ضعف حرمة هذا المؤمن الذي رضي البقاء في حومة الكافرين ولم يعمل على تخليص نفسه من إيذائهم وفتنتهم له - والله سبحانه يقول: (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وليتهم من شيء حتى يهاجروا).

قوله: (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين - -).

ثمة قولان في حقيقة القتيل: فهل المقصود به أنه مؤمن من أولي ميثاق مع المسلمين، أم أنه ذمي أو معاهد من قوم أولي ميثاق؟ ويأخذ بكل من هذين القولين فريق من العلماء، لكن الذي يترجح للمحقق القول الأول وهو أن الذي يقتل خطأ وهو مؤمن إن كان من قوم أولي ميثاق أو معاهدين فقد وجب فيه شيئان أولهما: الدية تدفع لورثة القتيل ويضطلع بأدائها عاقلة القاتل - ثانيهما: تحرير رقبة مؤمنة، وهو إعتاقها مثلما بينا سابقا - ووجه هذا القول الراجح أنه لو كان المقصود بالقتيل أن يكون ذميا من أولي ميثاق لما لزم وجوب الكفارة على القاتل وهو تحرير رقبة - ذلك أن تحرير الرقبة كما أوضحنا في حينه يشكّل عملية تعويض لإنسان بإنسان - فثمة إنسان عابد لله قد مات ثم حرّر إنسان عابد آخر من رق العبودية ليقوم مقامه - وذلك هو المعنى المفهوم في عملية التحرير.

وتجب الدية للقتيل خطأ في أحوال كثيرة منها: أن يقود احدهما الآخر فيسقط في حفرة أو بئر ثم يقع أحدهما على الآخر فيقتله - أو يسقط أحد الناس من أعلى على آخر في الأسفل فيموت الساقط أو الذي أسقط عليه - أو اثنان تصادما فمات أحدهما لشدة الصدمة - أو الفارسان يصطدمان فيموتان كلاهما أو يموت أحدهما - أو السفينة التي تجنح إلى الغرق بفعل القيادة السيئة ونتيجة للإهمال - أو السيارة تصدم أحد المارّة فإن كان ذلك عمدا ففيه القصاص، وإن كان خطأ ففيه الدية والكفّارة - وغير ذلك كثير من الأمثلة والنماذج على القتل الخطأ مما ليس موضعه هنا ١٣٣.

قوله: (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) الذي لا يملك الرقبة وليس له مال يشتريها به وجب عليه أن يصوم شهرين على التتابع بغير انقطاع إلا لعذر شرعي مقبول كالحيض والنفاس والمرض - أما السفر فهو موضع خلاف من حيث كونه عذرا مشروعا - وغير ذلك من المعاذير لا تبرر قطع الصوم فلو صام شهرا ثم أفطر وجب عليه الاستئناف.

وثمة رأي بأن المقصود بغير الموجود هنا الدية مع الكفارة - وذلك قول ضعيف ومرجوح؛ لأن الدية في القتل الخطأ إنما تجب على العاقلة فلا يلزم منه إذن وجوب الصيام لشهرين متتابعين ما دامت الدية على العاقلة لا القاتل - وبذلك فإن المقصود بغير الموجود هو تحرير الرقبة فقط ١٣٤.

قوله: (توبة من الله وكان الله عليما حكيما) كذلك يتوب القاتل خطأ إذا لم يجد الكفارة وهي عتق رقبة، وذلك أن شهرين متتابعين بغير انقطاع جزاء لإهماله وعدم تحرّره - وقوله: (توبة) منصوب على المفعول المطلق، أو المفعول لأجله - (وكان الله) في الأزل الممتد والأبد الأبيد المديد - وهو سبحانه عالم بما يصلح عليه حال الناس من تشريع وحكم - أو من أوامر وزواجر - وهو كذلك له الكلمة البالغة فيما أوجب من تكليف أو فيما يصدر عنه من أمر ونهي فإنه في ذلك كله أحكم الحاكمين وأعلم العالمين.

وترد مسألة في باب الخطأ في القتل وهي ما لو قتل جماعة واحدا خطأ - فهل تجب الكفارة عليهم مجتمعين أم أنها واجبة على كل واحد منهم بمفرده - جاء في ذلك قولان ظاهران - أولهما: أن الكفارة تجب على كل واحد من هؤلاء الذين قتلوا خطأ وذلك ما ذهب إليه الحسن البصري والنخعي ومالك والشافعي وابن حنبل والحنفية - ثانيهما: أن القاتلين مجتمعين تجب عليهم كفارة واحدة فقط، وهو قول طائفة من العلماء - إلا أن القول الأول هو الراجح لسببين: الأول: أن إيجاب الكفّارة على كل واحد من القاتلين لهو أوقع في نفس القاتل وأشد تأثيرا فيه بدلا عما اقترفه من تقصير وعدم تحفّظ واهتمام - لكن اشتراك الجميع في كفّارة واحدة أمر تتبسط به الكفارة كثيرا كيلا يبقى تأثير بعدها في نفس الجاني وهو المقصود من الكفارة - الثاني: أن كل واحد من القاتلين قد أسهم بنفسه في عملية القتل وشارك فيها مع الآخرين - وأن كل واحد منهم لو لم يقم بدوره في عملية القتل لما وقع القتل نفسه - وذلك يستوجب لزوم الكفارة على كل واحد من القاتلين ١٣٥.

٩٣ - (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)

قوله: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) وهذه إحدى الجرائم الفظيعة التي يشدد عليها الإسلام؛ لأنها غاية في البشاعة والنكر، ولأنها من القواصم الفادحة التي تضطرب بسببها أوضاع الناس فضلا عن إزهاق أرواحهم بغير حق.

إن الاعتداء على الإنسان بإزهاق روحه لهو من أنكر الفوادح والموبقات التي تودي بالفاعل المجرم إلى الدركات السحيقة من عذاب الله، وهو كذلك مجلبة لغضب الله ولعنته سبحانه، ليحيقا بالقاتل الأثيم الذي يتجاسر في اجتراء كنود ظالم على قتل امرئ مؤمن، لا جرم أن ذلك غاية في النكر والفظاعة ولا غرو، فقد أعدّ الله لهؤلاء القتلة السفّاحين نارا تلظّى تصطلي بلهيبها جلودهم ليذوقوا وبال أمرهم - وهو عذاب شنيع لا يطاق يتكبكب فيه من تجرأ في صلف وظلم فأودى بحياة امرئ وادع مطمئن.

روى النسائي في سننه عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا " وروى أبو داود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قول: " لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل لأكبّهم الله في النار ".

وأخرج النسائي أيضا بإسناده عن ابن عباس أنه سأله سائل فقال: يا أبا العبّاس هل للقاتل توبة؟ فقال له ابن عباس كالمتعجّب من مسألته: ماذا تقول! مرتين أو ثلاثا - ثم قال ابن عباس: ويحك! وأنّى له توبة! سمعت نبيّكم (ص) يقول: " يأتي المقتول معلقا رأسه بإحدى يديه متلببا قاتله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقفا فيقول المقتول لله سبحانه وتعالى: رب هذا قتلني فيقول الله تعالى للقاتل: تعست ويذهب به إلى النار ".

والقاتل عمدا فيما إذا كانت له توبة أم لا، فثمة قولان في هذه المسألة - والقول الأول لجماعة منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وآخرون وهو أن الذي يقتل عمدا ليست له توبة أبدا وأنه خالد في النار - فقد ذكر عن ابن عباس قوله: نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) وهي آخر ما نزل (في حكم القتل) وما نسخها شيء - وهو كذلك يذهب إلى أن عموم هذه الآية ينفي التوبة عن القاتل عمدا وهو مخصص لعموم قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) الذي استند إليه المحتجون بإمكانية وقوع التوبة للقاتل عمدا - وقال ابن عباس كذلك أنه يمكن الجمع بين هاتين الآيتين على النحو التالي: التقدير هو: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء إلا من قتل عمدا - أما القول الثاني فهو لجمهور أهل العلم وهو أن القاتل عمدا له توبة بدليل قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله سبحانه: (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) واستندوا أيضا لظاهر قوله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) ومن أوضح الأدلة على ذلك قوله النبي - صلى الله عليه وسلم -: " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " وفي مجموع هذه الأدلة ما يرجح القول الثاني وهو أن القاتل العمد إذا تاب وأناب، وإذا أخلص التوبة في ندم شديد فإن الله جل وعلا يقبل التوبة وذلك الذي نميل إليه.

أما الخلود الوارد في الآية فأفضل التأويل فيه أن يطلق على غير التأبيد وأن المقصود به طول المكث.

قوله: (ومن يقتل) اسم الشرط وفعله - وجواب الشرط في الجملة الاسمية من قوله تعالى: (فجزاؤه جهنم) والفاء مقترنة بجواب الشرط.

وخلاصة القول في صفة القتل العمد أنه ما استعملت فيه آلة وكان مثلها يقتل غالبا على أن يقترن ذلك بقصد القتل - يستوي في ذلك أن يكون القتل بالحديد كالسيف أو الخنجر أو الرمح أو السكّين مادام ذلك يقتل غالبا، أو أن يكون بالمثقل كالضرب بالحجر الكبير أو إخماد سقف ونحوه وهو من شانه أن يقتل، أو أن يكون القتل تحريقا بالنار أو تغريقا في الماء فذلك كله ضروب في القتل؛ لأن من شأنه أن يقتل في الغالب - وهذا هو القتل العمد الذي يستوجب القود إلا أن يعفو ولي القتيل مطلقا أو يعفوا على الدية فقط.

أما إذا وقع القتل بآلة لا تقتل في الغالب كالقذف بحجر صغير أو الضرب بعصا خفية أو العضة أو اللطمة ونحو ذلك فإن القتل في مثل هذه الأحوال يسمّى شبه عمد - وهو أن تجتمع النية لدى القاتل على ضرب القتيل ولكن بآلة لا تقتل غالبا كالمعلم يضرب تلميذه بعصا خفيفة ليؤدّبه ثم يموت فما كان المعلم يقصد بذلك القتل، وإن قصد أن يضرب تلميذه بالذات - وهذا النوع من القتل يأتي وسطا بين العمد والخطأ فلا هو بالعمد الذي يقع بآلة تقتل في الغالب مقترنا بالنية في قتل الشخص نفسه - وعلى هذا فشبه العمد هو ما كان القصد بضرب الشخص نفسه حاصلا إلا أن الآلة التي حصل بها القتل ليس من شأنها أن تقتل غالبا.

وهذا الصنف من القتل (شبه العمد) ذهب إليه كثير من أهل العلم منهم الشعبي والنخعي وقتادة والثوري والحنفية والشافعية وهو مروي عن عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب وقد أنكر ذلك جماعة آخرون منهم الإمام مالك والليث بن سعد - وقيل: إن ذلك قد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين وقد نقل عن الإمام مالك قوله: ليس في كتاب الله إلا العمد والخطأ وأما شبه العمد فلا نعرفه - وذكر عن مالك والليث أن من قتل بما لا يقتل مثله غالبا كالعضة واللطمة وضربة السوط وشبه ذلك فإنه عمد وفيه القود (القصاص).

والراجح ما ذهب إليه الجمهور من أهل العلم وهو أن شبه العمد نوع من القتل متميز فلا هو بالعمد الذي يحققه قصد القتل أو النية المسبقة لذلك، مع الضرب الذي يقع على شخص معيّن مقصود بآلة تقتل غالبا - ولا هو بالخطأ الذي تحقق فيه النية في القتل بآلة تقتل غالبا لكن القتيل ما كان مقصودا للقاتل بل غيره هو الذي كان مقصودا - وحقيقة شبه العمد ليست على أحد من هذين النوعين من القتل فهو بذلك أحرى أن يأخذ من التسمية ما يجعله مستقلا وذلك من حيث الصورة التي يجيء عليها ومن حيث الحكم الذي يجعله له الشرع.

فقد أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها ".
وروى الدارقطني عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " العمد قود اليد، والخطأ عقل لا قود فيه، ومن قتل في عمّية بحجر أو عصا أو سوط فهو دية مغلّظة في أسنان الإبل " والعمية بكسر العين وتشديد الميم المكسورة والياء المفتوحة - ومعناه أن يقع القتل في حال يعمى فيه أمر المقتول فلا يعرف قاتله ولا كيف قتل.
وروى الدارقطني أيضا بإسناده عن عمرو بن شعب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " عقل شبه العمد مغلّظ مثل قتل العمد ولا يقتل صاحبه ".
تلك نصوص تحوي الدليل على صحة ما قاله الجمهور وهو قتل شبه العمد، وهو قتل يشبه كلا من الخطأ والعمد بعض الشبه ولكنه لا يستوي مع احدهما تمام الاستواء من حيث الصورة والحكم.
أما الذي يتلزم بدفع دية شبه العمد فموضع خلاف - فقد قيل إن الذي يلتزم بذلك هو القائل نفسه فتجب الدية عليه في ماله، وهو رأي بعض أهل العلم منهم ابن شبرمة وقتادة وأبو ثور - وثمة قول ثان وهو الراجح وهو مذهب الجمهور منهم الشعبي والنخعي والشافعي والثوري وأحمد بن حنبل والحنفية كلهم - فقد ذهب هؤلاء وغيرهم إلى أن دية القتل شبه العمد تجب على عاقلة القاتل وهم أولياؤه الورثة.
وفي تعزيز هذا الرأي وترجيحه ما رواه أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه جعل دية الجنين على عاقلة الضاربة - وذلك حديث المرأتين اللتين اقتتلتا فضربت إحداهما الأخرى بعمود فقتلتها ومن في بطنها فقضي النبي فيه غرة وجعلها على عاقلة المرأة وبذلك فإن الدية في قتل الخطأ والديه المغلظة في شبه العمد إنما تجب كل واحدة منهما في مال العاقلة - وذلك على سبيل العون وبذلك المساعدة للقاتل ما دامت فعلته لم تقترن بسوء النية أو القصد المبيت - وعلى هذا فإن النية من حيث وجودها وعدمه لهي الأساس الركين الذي تقوم عليه الأحكام والمقاييس الشرعية، وهي كذلك الأصل الذي تفترق به القضايا والمسائل لتأخذ أحكاما متفاوتة شتى.
والنية شأنها عظيم فإن ما يتميز الحرام من الحلال أو الخبيث من الطيّب مثلما يتميز الطيبون في مقارفات تساورها البراءة من قصد الأذى والبائقة، من الأشرار الذين تختلط قلوبهم بالشر المبيّت قبل الفعل أو القول - وليس للطيب عندئذ إلا أن تتحقق له المعاذير لينجو من عقاب الآخرة الشديد، لكن الخبيث الشرير هو الذي يوجب الشرع أن يحيق به عقاب ملائم في الآخرة جزاء ما قارفت يداه عن سوء في النية والمقصود - وأعظم ما يجيء في هذا الصدد من شواهد السنة الطاهرة هو حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " ١٣٦.
٩٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا) في سبب نزول هذه الآية أخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان رجل في غنيمة (بضم الغين) له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته - وقد ورد في رواية أخرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حمل إلى أهله ديته ورد عليه غنيماته - وقد ورد في رواية أخرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حمل إلى أهله ديته وردّ عليه غنيماته - وفي رواية أخرى للإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يرعى غنما له فسلّم عليهم فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منها، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي - صلى الله عليه وسلم -، فنزلت هذه الآية وهي فيها ردع زاجر لمن يؤثر المال فيبادر بالقتل من ينطق بالإسلام كيفما كان سريرته - وذلك خطأ فاحش يقترفه المتعجلون من المسلمين طمعا في مال يملكه المشرك قبل أن يسلم، وعلى المسلم في مثل هذه

الحال أن يقبل في الإنسان ظاهر حاله بعد أن يقول كلمة الإسلام من غير تنقيب عما يكنّه في صدره من مستور - والأصل في ذلك أن يُحكم على الناس بحسب الظواهر والله هو الذي يتولى السرائر - أما الذي يبادر بالقتل محتجا بأن القتيل لم ينطق بالسلام أو بالشهادة إلا خشية القتل، فذلك تبرير غير مقبول يجب به إنزال القصاص بالقاتل وما كان عفو النبي عن القاتلين لصاحب الغنيمة إلا لجدتهم وأنهم حديثو عهد في الإيمان خصوصا وأن ذلك كان في صدر الإسلام وأول بزوغه.

قوله: (وإذا ضربتم في الأرض) الضرب في الأرض معناه السير فيها طلبا للرزق ١٣٧ وإطلاق الضرب مقيّد هنا بقوله: (في سبيل الله) أي الجهاد.

وقوله: (فتبينوا) أي تأملوا وتثبّتوا - والله جل وعلا يأمر عباده المجاهدين أن يتثبتوا حال مواجهتهم غيرهم؛ كيلا يبادروهم في استعجال بالقتل أو التكذيب - وعلى المسلمين في مثل هذا الموقف أن يتبينوا حقيقة من يبدأهم بالسلام فيسألوه إن كان مسلما فإن أقرّ بأنه مسلم طلبوا منه أن يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فإن قالها فهي له عاصمة يصان بموجبها دمه وماله، وإن أبى ضربت عنقه إلا أن يكون من أهل الكتاب فتكون له حقوق الذميين - وليس للمسلمين أن يعجلوا فيقولوا لمن يواجههم من غير: (لست مؤمنا) فإن في ذلك افتئاتا يجر عدوانا وظلما وإهراقا لدم بغير حق.

قوله: (تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) - ليس لكم أن تتعجلوا قتل من يظهر الإسلام متذرعين بأنه أسلم مصانعة وخوفا منكم، وذلك رغبة منكم في الاستيلاء على المال وهو عرض زائل - وهو كذلك عارض غير ثابت يملكه الإنسان حال عمره القصير حتى إذا قضى نحبه بات كأن لم يكن شيئا وكأن لم يملك من المال شيئا - وخير لهؤلاء المتعجلين الراغبين في هذا العرض الزائل أن تنسلخ نفوسهم من متاع الدنيا وحطامها حيث الخطيئة والمعصية وقتل الأبرياء من الناس ليرغبوا في مغانم الله الكثيرة الحلال - ومغانم الله في فضله الواسع العميم ورزقه الغامر الميسور.

قوله: (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم - - .) كنتم في مكة قبل الهجرة تخفون إيمانكم في صدوركم وتكنّون عقيدتكم في أنفسكم خشية أن يميل عليكم أعداؤكم المشركون فينالوا منكم شرا - كان شأنكم في الخوف من المشركين وأنتم تتخافتون لئلا يطّلعوا على إسلامكم كشأن هذا الذي جاءكم يبادركم السلام والإسلام بعد أن ظن أنه نجا من سطوة الكفرة واطمأن فقتلتموه - هكذا كنتم من قبل حتى منّ الله عليكم بأن كتب لكم الغلبة والنصر فاطمأنتم - وفي هذا المعنى يقول سبحانه: (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون).

وفي الآية كذلك تأكيد مكرر على ضرورة التثبيت والتحقق ممن يأتي قادما ثم يبادر بكلمة الإسلام - والله جل وعلا يحذّر من مغبّة التعجل فيما يسوق إلى الخطيئة والتّجني على الأبرياء والطيبين وذلك في قوله عز وجل: (إن الله كان بما تعملون خبيرا).

٩٥ - (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

قوله تعالى: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) - جاء في سبب نزول هذه الآية عن زيد بن ثابت قوله: كنت إلى جنب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فغشيته السكينة فوقعت فخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فخذي فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم سري عنه فقال: " اكتب " فكتبت في كتف [عظم عريض] (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله) إلى آخر الآية - فقال ابن أم مكتوم –وكان رجلا أعمى- لما سمع فضيلة المجاهدين: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السكينة فوقعت فخذه على فخذي ووجدت من ثقلها

في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى ثم سرّي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " اقرأ يا زيد " فقرأت: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " غير أولي الضرر " قال زيد فأنزلها الله وحدها فألحقتها والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع في كتف ١٣٨.

وأخرج البخاري عن ابن عباس في معنى الآية أنه لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون منها وأيا ما يكون السبب فإن المقصود واضح وجليّ وهو نفي المساواة فيما بين القاعدين الممسكين عن الجهاد إلا أن يكونوا ذوي أعذار قاهرة وهم أولو الضرر، والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم - إن هذين الصنفين من الناس لا يستويان في المرتبة ولا في الأجر ولا في الاعتبار باستثناء فريق خاص من ذوي الزمانة كالعمى والمرض والعرج ونحو ذلك فإن هؤلاء معذورون - لكن غيرهم من الأصحّاء الأسوياء ليس لهم في ميزان الله اعتبار ومرتبة إلا بقدر ما قدّموا من طيبات - وفي ضوء ذلك لا يتفاوت الناس من حيث أقدراهم على نحو ما تبتدعه المجتمعات في أعرافها وموازينها الضالة وهي أعراف وموازين مشدودة نحو الأرض بحبل ثقيل صفيق من الهوى والشهوات - وذلك مبعثه فساد في العقيدة والتصور بما يميل بالإنسان عن كل قيم المروءة والخير والفضيلة لتتجه العزائم والهمم بعد ذلك وجهة تقوم على الهدى وإيثار الذات من أول يوم وحتى النهاية.

قوله: (غير أولي الضرر) وهم العاجزون من ذوي المعاذير كالعمى وغيره بما لا يقوى معه المتضرر من الاضطلاع بعبء الجهاد حيث العناء والشدّة والهول، والرفع في (غير) على النعتية للقاعيدن - وسياق العبارة على هذا هو: لا يستوي القاعدون غير أولي الضرر - وقرأها بعض أهل اللسان مجرورة باعتبارها نعتا للمؤمنين فيكون سياق العبارة هو: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر - وفي قراءة أخرى على النصب وذلك من باب الاستثناء من القاعدين أو المؤمنين - فتكون العبارة بهذا التقدير على النحو التالي: لا يستوي القاعدون من المؤمنين إلا أولي الضرر ١٣٩.

وفي الآية برهان على استنباط يثير الاهتمام والنظر وهو الاستواء في المرتبة والأجر بين من يمضي للغزو والمعركة مجاهدا بنفسه وماله وهو معافى من المرض ومن يتخلف عن شرف الجهاد لا عن تقاعس أو خذلان ولكن حبسه العذر القاهر الذي يبيت معه المرء عاجزا عن التماسك والاحتمال في مثل هذا الموقف الصعب الذي يستلزم القوة والمعافاة في البدن.

إن هذين الصنفين متساويان في الأجر والرتبة وتلك منّة وفضل من الله حقا واحتواء متّسع كريم لذوي المعاذير ممن خلصت فيهم النوايا فكانوا مع الله في شرعه ودينه طائعين مخلصين أبرارا.

وقد جاء في الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد عن أنس: " لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه " قالوا: وكيف يكونون معنا فيه يا رسول الله؟ قال: " نعم حبسهم العذر ".

هؤلاء الأقوام المتخلّفون عن ركب المجاهدين قد حبسهم عن واجب الجهاد حابس العذر، فهم أولو نيّة صادقة تحمل في ثناياها الإخلاص وتلين لله بالمحبة والخشوع، فاستأهلوا بذلك أحسن الجزاء وهو أن يتساووا مع المجاهدين الذين يضربون في الأرض إعلاء لكلمة الله وترعيبا للكفرة والمشركين - والأصل في ذلك كله النيّة، وهي مناط الرضى والقبول من الله جل وعلا - أو هي الأساس- كما بينا سابقا الذي تنبني عليه الأعمال والأقوال كافة لتكون إما نافعة متقبلة وإما مدفوعة باطلة لا تغني عن صاحبها شيئا.

ومن جليل ما يقال عن فضل الله المنّان وعن مكانة النيّة وخطورتها أن الله جل شأنه يثيب على الفعل، والأصل في ذلك أن الفعل يظل بغير قيمة ولا يحتسب له من الأجر شيء إذا لم يقترن بالنيّة المخلصة - لكن النيّة وحدها غير مقترنة بعمل نتيجة عجز غالب لهي قمين صاحبها أن يستحق مثوبة وأجرا وذلك لمجرد النيّة الصادقة المخلصة وحدها - وفي هذا يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " نية المرء خير من عمله ".

قوله: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) المفضّل هم المجاهدون لكن من المفضول؟ ثمة قولان في ذلك: الأول: أنهم القاعدون غير أولي الضرر - والثاني: أنهم القاعدون بإطلاق ومن بينهم أولي الضرر - لكن الراجح القول الأول وهو أن

المفضول في الآية هنا هم القاعدون باستثناء أولي الضرر وفي ذلك استقامة للمعنى وهو ما يفرضه السياق وهو كذلك أبعد عن التناقض الذي يؤول إليه الأخذ بالقول الثاني - ذلك أن مطلع الآية قد نفى الاستواء بين المجاهدين والقاعدين باستثناء أولي الضرر وفي ذلك إشارة واضحة- كما بينا سابقا- إلى أن أولي الضرر مستثنون وأنهم في الأجر مساوون للمجاهدين - فإن قيل بعد ذلك إن المفضول هم القاعدون ودون استثناء جاء القول متضمنا لما ينفي مفهوم الاستثناء الذي تقرر معه الاستواء بين المجاهدين وأولي الضرر القاعدين.

وعلى هذا فإن الصواب لمعنى هذه الآية هو أن الله جل وعلا قد فضّل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر، أو القاعدين تخاذلا وتثاقلا مع أنهم جميعا من المؤمنين مع فارق الدرجة والتفضيل - والقاعدة المشتركة بين الصنفين هي ركيزة الإيمان التي يلتقي على صعيدها المؤمنون جميعا مهما تفاوتت هممهم وعطاءاتهم أو تباينت درجات إيمانهم - وهكذا الناس لا يكونون على مستوى واحد من حرارة العقيدة والإيمان أو رهافة الحس والتقوى، أو يقظة الوازع والضمير، أو شدّة البأس والشكيمة والعزيمة، أو مبلغ التحصيل والعطاء، ولكنهم على الدوام متفاوتون وإن كانوا مسلمين وأن لهم الحسنى - ولهذا يقول سبحانه: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى).

ثم يأتي التأكيد على أفضلية المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر فيقول عز من قائل: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما).

٩٦ - (دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٥]

قوله تعالى: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) - جاء في سبب نزول هذه الآية عن زيد بن ثابت قوله: كنت إلى جنب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فغشيته السكينة فوقعت فخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فخذي فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم سري عنه فقال: " اكتب " فكتبت في كتف [عظم عريض] (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله) إلى آخر الآية - فقال ابن أم مكتوم –وكان رجلا أعمى- لما سمع فضيلة المجاهدين: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السكينة فوقعت فخذه على فخذي ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى ثم سرّي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " اقرأ يا زيد " فقرأت: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " غير أولي الضرر " قال زيد فأنزلها الله وحدها فألحقتها والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع في كتف ١٤٠.

وأخرج البخاري عن ابن عباس في معنى الآية أنه لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون منها وأيا ما يكون السبب فإن المقصود واضح وجليّ وهو نفي المساواة فيما بين القاعدين الممسكين عن الجهاد إلا أن يكونوا ذوي أعذار قاهرة وهم أولو الضرر، والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم - إن هذين الصنفين من الناس لا يستويان في المرتبة ولا في الأجر ولا في الاعتبار باستثناء فريق خاص من ذوي الزمانة كالعمى والمرض والعرج ونحو ذلك فإن هؤلاء معذورون - لكن غيرهم من الأصحّاء الأسوياء ليس لهم في ميزان الله اعتبار ومرتبة إلا بقدر ما قدّموا من طيبات - وفي ضوء ذلك لا يتفاوت الناس من حيث أقدراهم على نحو ما تبتدعه المجتمعات في أعرافها وموازينها الضالة وهي أعراف وموازين مشدودة نحو الأرض بحبل ثقيل صفيق من الهوى والشهوات - وذلك مبعثه فساد في العقيدة والتصور بما يميل بالإنسان عن كل قيم المروءة والخير والفضيلة لتتجه العزائم والهمم بعد ذلك وجهة تقوم على الهدى وإيثار الذات من أول يوم وحتى النهاية.

قوله: (غير أولي الضرر) وهم العاجزون من ذوي المعاذير كالعمى وغيره بما لا يقوى معه المتضرر من الاضطلاع بعبء الجهاد حيث

العناء والشدّة والهول، والرفع في (غير) على النعتية للقاعيدن - وسياق العبارة على هذا هو: لا يستوي القاعدون غير أولي الضرر - وقرأها بعض أهل اللسان مجرورة باعتبارها نعتا للمؤمنين فيكون سياق العبارة هو: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر - وفي قراءة أخرى على النصب وذلك من باب الاستثناء من القاعدين أو المؤمنين - فتكون العبارة بهذا التقدير على النحو التالي: لا يستوي القاعدون من المؤمنين إلا أولي الضرر ١٤١.

وفي الآية برهان على استنباط يثير الاهتمام والنظر وهو الاستواء في المرتبة والأجر بين من يمضي للغزو والمعركة مجاهدا بنفسه وماله وهو معافى من المرض ومن يتخلف عن شرف الجهاد لا عن تقاعس أو خذلان ولكن حبسه العذر القاهر الذي يبيت معه المرء عاجزا عن التماسك والاحتمال في مثل هذا الموقف الصعب الذي يستلزم القوة والمعافاة في البدن.

إن هذين الصنفين متساويان في الأجر والرتبة وتلك منّة وفضل من الله حقا واحتواء متّسع كريم لذوي المعاذير ممن خلصت فيهم النوايا فكانوا مع الله في شرعه ودينه طائعين مخلصين أبرارا.

وقد جاء في الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد عن أنس: " لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه " قالوا: وكيف يكونون معنا فيه يا رسول الله؟ قال: " نعم حبسهم العذر ".

هؤلاء الأقوام المتخلّفون عن ركب المجاهدين قد حبسهم عن واجب الجهاد حابس العذر، فهم أولو نيّة صادقة تحمل في ثناياها الإخلاص وتلين لله بالمحبة والخشوع، فاستأهلوا بذلك أحسن الجزاء وهو أن يتساووا مع المجاهدين الذين يضربون في الأرض إعلاء لكلمة الله وترعيبا للكفرة والمشركين - والأصل في ذلك كله النيّة، وهي مناط الرضى والقبول من الله جل وعلا - أو هي الأساس- كما بينا سابقا الذي تنبني عليه الأعمال والأقوال كافة لتكون إما نافعة متقبلة وإما مدفوعة باطلة لا تغني عن صاحبها شيئا.

ومن جليل ما يقال عن فضل الله المنّان وعن مكانة النيّة وخطورتها أن الله جل شأنه يثيب على الفعل، والأصل في ذلك أن الفعل يظل بغير قيمة ولا يحتسب له من الأجر شيء إذا لم يقترن بالنيّة المخلصة - لكن النيّة وحدها غير مقترنة بعمل نتيجة عجز غالب لهي قمين صاحبها أن يستحق مثوبة وأجرا وذلك لمجرد النيّة الصادقة المخلصة وحدها - وفي هذا يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " نية المرء خير من عمله ".

قوله: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) المفضّل هم المجاهدون لكن من المفضول؟ ثمة قولان في ذلك: الأول: أنهم القاعدون غير أولي الضرر - والثاني: أنهم القاعدون بإطلاق ومن بينهم أولي الضرر - لكن الراجح القول الأول وهو أن المفضول في الآية هنا هم القاعدون باستثناء أولي الضرر وفي ذلك استقامة للمعنى وهو ما يفرضه السياق وهو كذلك أبعد عن التناقض الذي يؤول إليه الأخذ بالقول الثاني - ذلك أن مطلع الآية قد نفى الاستواء بين المجاهدين والقاعدين باستثناء أولي الضرر وفي ذلك إشارة واضحة- كما بينا سابقا- إلى أن أولي الضرر مستثنون وأنهم في الأجر مساوون للمجاهدين - فإن قيل بعد ذلك إن المفضول هم القاعدون ودون استثناء جاء القول متضمنا لما ينفي مفهوم الاستثناء الذي تقرر معه الاستواء بين المجاهدين وأولي الضرر القاعدين.

وعلى هذا فإن الصواب لمعنى هذه الآية هو أن الله جل وعلا قد فضّل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر، أو القاعدين تخاذلا وتثاقلا مع أنهم جميعا من المؤمنين مع فارق الدرجة والتفضيل - والقاعدة المشتركة بين الصنفين هي ركيزة الإيمان التي يلتقي على صعيدها المؤمنون جميعا مهما تفاوتت هممهم وعطاءاتهم أو تباينت درجات إيمانهم - وهكذا الناس لا يكونون على مستوى واحد من حرارة العقيدة والإيمان أو رهافة الحس والتقوى، أو يقظة الوازع والضمير، أو شدّة البأس والشكيمة والعزيمة، أو مبلغ التحصيل والعطاء، ولكنهم على الدوام متفاوتون وإن كانوا مسلمين وأن لهم الحسنى - ولهذا يقول سبحانه: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى).

ثم يأتي التأكيد على أفضلية المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر فيقول عز من قائل: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما).

٩٧ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا

فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

قوله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا).

سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المسلمين في مكة تخلّفوا عن الهجرة مع من هاجر من المسلمين وفيهم النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أنهم مكلفون بالهجرة للخروج من محيط الشرك في مكة وللخلاص عن الفتنة التي كان يتعرض لها كل مسلم عندما تمالأ المشركون على المسلمين فساموهم سوء الفتنة والعذاب ١٤٢.

لقد بقيت هذه الجماعة من المسلمين المتخلفين عن الهجرة في مكة حيث الفتنة والبلاء الذي لا يطاق إلى أن فتن بعضهم وكان أن خرج بعض منهم كذلك في صف المشركين يوم بدر لقتال المسلمين - وفي هذه القصة ما يذكر المسلم بضرورة الالتفاف حول قيادته المؤمنة الصالحة وألا يتنكب عما ترسمه هذه القيادة من خطط وبرامج، فكيف بالقيادة إذا كان متمثلة في خير الخلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -!

إن هؤلاء الذين تثاقلوا إلى البقاء في أرض الشرك وتخلّفوا عن الهجرة مع ركب المسلمين قد ظلموا أنفسهم؛ إذ أوردوها موارد الفتنة والضلال فافتتن بعضهم بارتداده عن دينه إلى الشرك، وافتتن آخرون بخروجهم مع المشركين يكثّرون سوادهم ويشدّون أزرهم فكان السهم يُرمى صوب المشركين فيصيب أحد الذين أسلموا فيموت وهو مفتون قد ظلم نفسه - وحينئذ تتوفاهم الملائكة وهم على هذه الحال من ظلمهم أنفسهم ثم تُسائلهم الملائكة في تقريع غليظ وتأنيب مشدّد: (قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) أي أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فآثروا البقاء على الخروج إلى حيث الشوكة والاستعلاء، إنها تقرّعهم في توبيخ مرير وهي تنتزع أرواحهم انتزاعا أليما عسيرا ثم تُسائلهم مُساءلة لا تقبل اعتذارا: (فيم كنتم) فيرد المتخلّفون على ذلك ردا ينطوي على الإفلاس والاستخذاء بأنهم كانوا مستضعفين في الأرض - واعتذار كهذا غير مقبول من وجه الشرع حيث التكليف حينذاك بالهجرة ما دام المسلم غير عاجز عن الهجرة وهو صحيح معافى - عندئذ تردّ عليهم الملائكة تعذير لتصمهم بالتقصير والإخلاد إلى التفريط والفتنة: (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) ذلك استفهام تستنكر فيه الملائكة تعذير أولئك المستضعفين المفتونين، فقد كان عليهم أن يفروا إلى الله في أرضه الممتدة المترامية حيث الانفلات من إسار الشر والفتنة، وحيث التمكن في حرية من عبادة الله وحده في أمن وطمأنينة - ويمكن الاستدلال من هذه الآية على وجوب الهجرة من الأرض التي توجد فيها الفتنة بكثافة حتى لتوشك أن تلفّ من كان فيها من أفراد مسلمين قلّة - وإذا كانت الحال على هذا النحو من احتمال الارتكاس في الفتنة أو السقوط في مهاوي الشرك والمعاصي باتت الهجرة مفروضة على المسلم ليخرج إلى حيث السلامة والحفاظ على الدين والعقيدة.

على أن مثل هذا المعنى يتصوّر عندما يكون المسلمون في أرض الشرك والفتنة أفرادا قلائل لا يطيقون الصبر على الأذى أو لا يقوون على التماسك أمام تيار الفتنة العاتية الجارفة - يكونون كذلك إذا كانوا قلة مستضعفين يوشك أن ينقلبوا متقهقرين نحو الفساد والمعصية أو أن يبوؤوا بالردة عن دينهم كله إلى ملل الطواغيت على اختلاف ضروبها وألوانها.

أما أن يكون المسلمون مجتمعين على صعيد واحد وهم كثيرون فما ينبغي لهم أن يبرحوا الأرض مهاجرين ولا أن ينزحوا عن ديارهم ليغمرها طغيان الكفر والمعصية من بعدهم - وبذلك فليس لهم أن ينزحوا ما دموا على حالهم من الكثرة والتجميع إلى الدرجة التي يملكون فيها أن يتآلفوا جميعا ليقفوا في وجه الباطل والفتنة صفا واحدا مهما تكن الظروف في قسوتها واشتدادها ومهما تتقاطر من حولهم الأرزاء والفتن إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

قوله: (فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) اسم الإشارة يعود على المستضعفين الذين تثاقلوا إلى المكث في بلد المشركين حيث الفتنة - وهؤلاء قد عصوا أمر نبيهم بالهجرة ولم ينصاعوا له بالطاعة في المنشط والمكره، فاستحقوا بذلك عذابا أليما يأوون إليه وهي جهنم

(وساءت مصيرا) وذلكم هو أسوأ مصير وأتعس عاقبة تؤول إليهما حال هؤلاء الأشقياء التعساء - وقوله: (مصيرا) منصوب على التمييز.
٩٨ - (إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا)
قوله: (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان - - .) ذلك استثناء من المتخلّفين عن الهجرة، وهو استثناء لفريق من المسلمين المستضعفين الذين لا حيلة لهم في مبارحة الدّيار بأي سبب من الأسباب؛ وذلك لضعفهم وهم الشيوخ الطاعنون أو النساء الضعاف العواجز والصغار البرئاء الأغرار، هؤلاء لا حيلة لهم أو اقتدار على المبارحة والهجرة، حتى لو أنهم همّوا بذلك فلا (يهتدون سبيلا) أي لا يعرفون الطريقة المؤدية إلى المدينة ولا يتحققون من سلامة السفر لضعفهم ولقلّة معرفتهم - وهذا الفريق من الناس
٩٩ - (فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا)
(فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم) وكلمة (عسى) تفيد اليقين المشفوع بالرجاء - فإن الله سبحانه سيشمل هؤلاء المستضعفين بواسع فضله وغفرانه لتخلّفهم - ذلك ما يمكن أن نطمئن إليه من قوله: (عسى) ولا أجدني مطمئنا من أن هذه الكلمة تعني الوجوب على الله كما قيل فهو سبحانه إن شاء غفر أو شاء عذّب، وله في ذلك كله القدرة المطلقة والحكمة البالغة.
١٠٠ - (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)
قوله تعالى: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مرغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما).
ذلك تحريض من الله على الهجرة والخروج من أرض الفتنة إلى حيث الأمن وسلامة الدين والنفس وحيث العبادة والتحدّث في أمر الإسلام لتثبيته ونشره في الآفاق - وفي التحريض وعد من الله سبحانه بأن من يهاجر سوف يجد في الأرض مراغما كبيرا - وجاء في معنى المراغم بأنها التحوّل من أرض إلى أرض أو المتزحزح عما يؤدي أو الذهاب في الأرض - وقيل المبتغى للعيش وفي قول آخر مستنبط من الكلمة اشتقاقا وهو أن المراغم من الإرغام في غلبة وقهر - وكأن المؤمن المهاجر قد غمس أنوف المشركين في الرغام (التراب) حينما وجد مندوحة عن موطن قهرهم لحصوله بالهجرة على المنعة والتحصين ١٤٣.
قوله: (وسعة) بمعنى الزرق والغنى بعد القلّة والضيق - وفي ذلك طمأنة للمؤمن الذي تحيط به الفتنة وسوء العذاب فيخرج مهاجرا في سبيل الله إلى حيث الأمن والسلامة - إنها طمأنة له كيلا يضطرب أو يتزعزع فيتثاقل إلى البقاء والاستدامة في أرض الضلال والإغواء خشية منه على الرزق أو هربا من عواقب الضيق والفاقة تحيق به إذا ما هاجر - فمن خلال هاتيك الظنون والهواجس التي قد تساور المسلم ينشر الله وعده بأن من يهاجر في سبيله سوف يجد في الأرض من الفضل والسعة ما يمكنه من العيش في هناءة وارتياح، وأنه لن يكون في عداد الهائمين المضيعين - فالله ضمين لعباده الأتقياء الصابرين أن يدرأ عنهم كل أشكال العوادي والبوائق.
قوله: (ومن يخرج من بيته مهاجرا - - .) جاء في سبب نزولها جملة أقوال لعلّ أقواها ما ورد في ضمرة بن جندب فقد خرج من مكة مهاجرا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمات في الطريق قبل أن يصل - وقيل غير ذلك ١٤٤.
وتدل الآية على أن من يخرج من بيته مهاجرا في سبيل الله لا في سبيل مغنم أو دنيا، ثم مات في الطريق (فقد وقع أجره على الله) أي حصل له عند الله من الثواب ما يساوي ثواب من هاجر - والحساب في ذلك أصلا يدور مع النية وهي أساس القبول والرضوان من الله جل وعلا، وهي المثابة التي توزن في ضوئها أفعال العباد وأقوالهم فينالون أجورهم كاملة غير منقوصة - وثمة حديث عظيم نظل نعرض له باستمرار لأهميته وخطورته وهو ما ثبت في كتب الصحاح والمسانيد والسنن جميعا بإسناد عن عمر بن الخطاب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ".
ولذلك فإن من يحمل بين جوانحه قصدا للخير أو نية في التصرف الصالح فإن أجره محسوب ولو لم يتمكن من تحقيق ذلك بالفعل - وقد

أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه بإسناده عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " من خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله، ثم قال: وأين المجاهدون في سبيل الله، فخرّ عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله ".

وفي حديث آخر أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاجّ إلى يوم القيامة، ومن خرج متعمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة " ١٤٥.

١٠١ - (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا)

قوله تعالى: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) الضرب في الأرض معناه السفر، وهو مسوّغ لقصر الصلاة شرعا - والقصر في اللغة هو الإنقاص أو هو ضد الإطالة - فإذا كان أحد مسافرا فليس عليه من إثم إذا ما قصر صلاته حال السفر إلى أن ينوي الإقامة - ولا يكون القصر إلا في الصلاة الرباعية فيخرج من ذلك صلاة المغرب وصلاة الفجر فإنها باقية على حالها من غير قصر.

أما حكم القصر فهو سنّة عند جمهور السلف والخلف من الفقهاء فيكون القصر على هذا الأساس مستحبا لا مفروضا - ونقل عن الإمام مالك بأنه فرض، وذهب عامة أصحابه إلى أن المفروض هو التخفيف، فالمسافر مخيّر بين الإتمام والقصر، وذلك (التخيير) هو المفروض وهو الراجح في المذاهب.

ولدى التحقيق في أقوال الأئمة وأهل العلم يتبين أن قصر الصلاة أمر مسنون وخلاف ذلك يعتبر مخالفة للسنة - وقد روي عن الشافعي قوله: من صلّى أربعا فلا شيء عليه ولا أحب لأحد أن يتم في السفر رغبة عن السنة.

وسئل أحمد بن حنبل عن الرجل يصلّي في السّفر أربعا قال: لا، ما يعجبني، السنّة ركعتان - وسأل رجل عبد الله بن عمر: إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر - فقال عبد الله بن عمر: إن الله بعث إلينا محمدا - صلى الله عليه وسلم - ولا نعلم شيئا فإنا نفعل كما رأيناه يفعل.

أما حد المسافة التي يقطعها المسافر ليتسنى له القصور فذلك موضع خلاف العلماء - فقد ذكر أصحاب المذهب الظاهري إلى جواز القصر في كل سفر سواء كان طويلا أو قصيرا استنادا إلى ظاهر النص القرآني هنا - وذهب مالك والشافعي وأحمد وآخرون إلى تحديده، بيوم واحد وعوّلوا في ذلك على حصول المشقة غالبا وهي تحصل من السفر يوما تاما والاستناد في ذلك إلى الحديث: " لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها ".

وذهب أبو حنيفة إلى تحديده بثلاثة أيام ولياليها سيرا على الأقدام، وهو قول عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وحذيفة، واستدلوا في ذلك بما أخرجه البخاري عن ابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم ".

وثمة قول آخر في تحديد السفر لإباحة القصر وهو يومان وهو قول الحسن البصري والزهري استدلالا بما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " لا تسافر المرأة مسيرة ليلتين إلا مع زوج أو ذي محرم " ١٤٦.

أما صفة السفر الذي يجوز فيه قصر الصلاة فذلك موضع خلاف العلماء أيضا على أن الإجماع حاصل فيما يتعلق بالسفر الذي تحصل به الفرائض أو الواجبات أو السنن وذلك كالحج والجهاد والعمرة وصلة الأرحام وغير ذلك من وجوه السفر المأمور به، فقصر الصلاة في ذلك جائز.

أما السفر الذي يتحصّل فيه المباح كالتجارة والنزهة والصيد والنكاح ونحو ذلك فقد ذهب جمهور العلماء إلى جواز قصر الصلاة فيه - ومرتبة القول بذلك هي دون الإجماع إذ هي قول الجمهور وقد روي عن عبد الله بن مسعود قوله بعدم قصر الصلاة إلا في سفر يتحقق

به واجب كالحج أو الجهاد.
وإن كان السفر في معصية كالباغي وقاطع الطريق ونظارهما من المفسدين في الأرض، فقد ذهب الجمهور إلى عدم القصر في مثل ذلك؛ لأنه سفر معصية.
وخالف أبو حنيفة في ذلك وهو أن القصر في جميع ضروب السفر جائز يستوي في ذلك أن يكون السفر في طاعة أو معصية استنادا إلى عموم الآية.
على أن الراجح هو قول الجمهور بجواز القصر في السفر المباح فضلا عن جوازه حين أداء الفريضة - ومناط ذلك أن المقصود بشرعية القصر هو التخفيف عن المسافر إذا حصل له مشقة، وهي حاصلة في غالب الأسفار - ومن المعلوم في الدين نفي العسر والحرج في عامة الأحوال لقوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله: (وما جعل عليكم في الدين من حرج).
أما السفر في المعصية فالراجح أنه لا قصر فيه؛ لأن القول بالقصر طريق إلى المحظور وعون للمسافر العاصي على المعصية وهو سبحانه يقول: (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) ١٤٧.
أما زمن القصر للمسافر ففيه خلاف كذلك - فثمّة قول بأنه ليس له أن يقصر حتى يخرج من بيوت البلدة التي ينوي السفر منها - وذلك مذهب جمهور العلماء.
وفي قول آخر لفريق من الصحابة وعطاء بن أبي رباح وهو جواز البدء في القصر عند العزم على السفر فله بذلك أن يقصر وهو في بيته يزمع على السير - وهذا المعنى مأخوذ من تأويل آخر للآية: (وإذا ضربتم في الأرض) أي المقصود هو فيما إذا عزمتم على الضرب في الأرض - وقيل غير ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.
وتلك مسألة أخرى في مدة الإقامة التي إذا نواها المسافر بات مقيما وعليه الإتمام - وقد جاء فيها عدة أقوال:
أحدها: إذا نوى المسافر أن يقيم أربعة أيام فعليه الإتمام - وهو قول مالك والشافعي والليث وهو مروي عن سعيد بن المسيّب.
ثانيها: إذا نوى المسافر أن يقيم خمس عشرة ليلة فعليه الإتمام وإن نوى الإقامة أقل من ذلك سمح له أن يقصر - وهو قول أبي حنيفة وأصحابه - وقد روي هذا القول عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس.
ثالثها: أن يعزم المسافر على الإقامة مدة إحدى وعشرين صلاة مكتوبة، فإن كان كذلك جاز له القصر، وإن عزم على أن يقيم أكثر من هذه المدة وجب عليه أن يتم - وهو قول أحمد وداود الظاهري.
رابعها: جواز القصر أبدا ما دام المسافر بعيدا عن وطنه ولم ينو الإقامة فلو كان مسافرا وطال به حال السفر ولم ينو أن يقيم فهو معتبر مسافرا وله حق القصر حتى يعود إلى وطنه أو ينوي الإقامة بعيدا عن موطنه السابق - فقد روي عن أنس (رضي الله عنه) أنه كان قد أقام بنيسابور مدة سنتين وهو يقصر الصلاة من غير أن ينوي الإقامة؛ إذ كان يؤخر من رجوعه من حين لآخر لما يعرض له من أسباب تعيق - وروي كذلك عن عبد الله بن عمر أنه أقام بأذربيجان مدة طويلة لم يستطع فيها الرجوع بسبب الثلوج المتراكمة وكان خلال هذه المدة يقصر صلاته من غير نية في الإقامة طيلة هذه المدة - لكنه كان مؤملا في الرجوع من وقت لآخر لولا أسباب تعرض له فتحول دون الإياب - فالمسافر والحالة هذه لا يعتبر مقيما؛ لأنه لم يقصد الإقامة فجاز له القصر وذلك عندي هو الراجح المختار ١٤٨.
قوله: (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) الفتنة هي الشرك، أو العذاب يحيق بالمؤمن فيردّه عن دينه إلى ملّة الكافرين.
يتبين من ظاهر هذه الآية أن قصر الصلاة حين الضرب في الأرض جائز بشرطين اثنين وهما: الضرب في الأرض والخوف معا - ذلك في الكتاب الكريم، لكن السنّة قد ورد فيها جوز القصر لحصول السفر وحده من غير إشراك للخوف - وقد سأل ابن عمر النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال: " تلك صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ".
وثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قصر الصلاة من أربع ركعات إلى اثنتين في أسفاره جميعها حالة كونه آمنا وليس من خوف - وذلك معتبر سنّة من سننه - صلى الله عليه وسلم - مما ليس في القرآن له بيان - وهو عليه الصلاة والسلام مخوّل من ربه ليضطلع

بوجيبة التشريع فيما يكون بيانا أو توضيحا للكتاب الحكيم لقوله سبحانه: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم).
ويقول عليه الصلاة والسلام في هذا الصدد عن مهمته في الإتيان بما ليس في الكتاب: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه " وهو يقصد بذلك السنة لما تنطوي عليه من معان وأحكام لا وجود لها في الكتاب.
والظاهر من قوله: (إن خفتم أن يفتنكم) أن ذلك قد خرج مخرج الغالب فقد كان المسلمون في غالب أسفارهم تحيق بهم أسباب الخوف فلا يشترط أن يقترن الخوف بالسفر لجواز القصر بل إن مجرّد السفر وحده يكفي.
ومن جهة أخرى فلو حصل الخوف وحده من غير سفر جاز القصر وتلك صلاة الخوف وهي لا لزوم لوجود الشرطين معا من أجل جوازها، وذلك كما لو داهم العدوّ المسلمين في دارهم فيجوز القصر حينئذ من غير اشتراط لحصول السفر.
قوله: (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) ذلك بتوجيه للمسلمين كي يحاذروا ويأخذوا بأسباب اليقظة والحيطة فإن الكافرين لهم بالمرصاد يودّون أن يميلوا عليهم فيجتثوا شأفتهم - وقد يغتنمون فرصة انشغال المسلمين بالصلاة إذا كانت فترتها الزمنية طويلة نسبيا مثل الصلاة الرباعية - وبذلك فقد شرع الله للمسلمين أن يقصروا الصلاة تخفيفا لهما وإعجالا لكي يبادروا العدو بدوام الترقب والذر فلا يأخذهم على غرّة أو يجتاحهم في فترة يذهلون خلالها من أسلحتهم وأنفسهم وهم يصطفّون للصلاة خشّعاً آمنين متفرغين ١٤٩.
١٠٢ - (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)
قوله تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا)
هذه صلاة الخوف يؤديها المسلمون في ساحة الجهاد إن كانوا يخشون العدو المتربص بهم والذين يتحيّن فيهم ساعة من غفلة أو انشغال - والعدو المتربص ماكر حاقد يودّ للإسلام أن يتهدّم أو يتداعى ويتمنّى للمسلمين سوء الحال من الهزيمة والدمار؛ ولذلك شرع الله لعباده المؤمنين هذا الضرب من الصلاة ليكونوا على حذر وليفوتّوا على أعدائهم المتربصين أية فرصة ينفذون منها لمحاربتهم والقضاء عليهم.
وقد ورد في صلاة الخوف من حيث كيفيتها وصفتها روايات كثيرة نقتصر منها على ثلاث لتتضح من خلالها صورة وافية مستبينة عن هذه الصلاة.
الرواية الأولى: وهي عن الإمام أحمد فقد أخرج بإسناده، عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد بيننا وبين القبلة فصلّى بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الظهر فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرّتهم - ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم - فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال: فحضرت- يعني الصلاة- فأمرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذوا السلاح قال: فصففنا خلفه صفين قال: ثم ركع فركعنا جميعا، ثم سجد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلمّا سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدّم هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعا ثم رفع فرفعوا جميعا ثم سجد النبي - صلى الله عليه وسلم - والصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس الآخرون فسجدوا ثم سلّم عليهم ثم انصرف ".
الرواية الثانية: وهي عن الإمام أحمد أيضا بإسناده عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محارب حفصة رجل منهم يقال غرس بن الحرث حتى قام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالسيف فقال: من يمنعك مني؟! " قال: الله فسقط

السيف من يده فأخذه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: من منعك مني؟ قال: كن خير آخذ - قال " أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " قال: لا ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلّى سبيله، فقال: جئتكم من عند خير الناس - فلما حضرت الصلاة صلّى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة الخوف فكان الناس طائفتين، طائفة بإزاء العدوّ وطائفة صلّوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلّى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا، فكانوا مكان الطائفة الذين بإزاء العدو، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ركعتين فكان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين ".

الرواية الثالثة: وهي عن البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: قام النبي - صلى الله عليه وسلم - وقام الناس معه فكبّروا وكبّروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه والناس كلهم في الصلاة ولكن يحرس بعضهم بعضا.

هذه روايات ثلاث من أخرى كثيرة تتعلق كلها بصلاة الخوف وهي بأسانيد صحيحة وقوية - وما يبدو من اختلاف أو تعارض بين تلك الروايات لا يقلل من أهميتها أو اعتماد واحدة منها - والاختلاف أو التعارض- كما يبدو- قد جاء تبعا لاختلاف الظروف والمناسبات العسكرية التي كانت تمر بالمسلمين والنبي وهم في ساحة المعركة يواجهون العدو - وذلك كان يجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلّي بالمسلمين في الحرب على أكثر من هيئة، فتارة صلّى بهم مجتمعين، وصلّى بهم متفرقين تارة أخرى، فضلا عن اختلاف الهيئة للصلاة نفسها حين الاجتماع أو حين التفريق - والمعلوم في ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى بالمسلمين صلاة الخوف مرات عديدة تبعا لطبيعة المعركة ووجهة العدو - وبذلك فإن الاستناد إلى آية رواية لاعتمادها والركون إليها يعتبر صحيحا لما يعززها من دليل صحيح.

أما صلاة المغرب من حيث هيئتها وكيفيتها فإن الذي عليه الجمهور وهو أن يصلي الإمام بالفرقة الأولى من المسلمين ركعتين وبالثانية ركعة واحدة - وقيل غير ذلك.

وثمة مسألة تتعلق بصلاة الخوف حال الالتحام مع العدو في حرب طاحنة ضروس يصعب معها على المسلمين أن ينتظموا جميعا في صف واحد أو صفين - وفي هذه خلاف، فقد ذهب مالك والشافعي وعامة أهل العلم إلى أن لكل مسلم- والحالة هذه- أن يصلي مثلما يستطيع، سواء كان راكبا أو قائما أو قاعدا، وهيئته في ذلك أن يوميء إيماء، وسواء عليه كذلك أن يصلي مستقبل القبلة أو مستدبرها أو غير ذلك.

وإذا كان الخوف أشد من ذلك والمسلمون في ضراب شديد متلاحم لا مجال عنده للانثناء عن القتال ولو فترة تقام فيها الصلاة حتى ولا الإيماء إيماء، إذا كان الخوف كذلك جاز للمسلمين أن يؤخروا الصلاة ريثما تهدأ المعركة وينطفي لهيبها ثم تؤدى الصلاة في أمن وطمأنينة ١٥٠.

ومن أعظم ما نقف عليه هنا ونحن نتلو هذه الآية، هذا الاعتبار العظيم للصلاة الذي لا يدانيه اعتبار وهذا التشديد البالغ على الالتزام بفريضة الصلاة لكي تؤدى في وقتها مهما تكن الظروف إلا أن يشتد التلاحم اشتدادا يستحيل معه الاصطياف للصلاة في جماعة أو حتى مجرد الصلاة انفرادا - وذلك تأكيد عظيم على أهمية الصلاة وخطورتها باعتبارها العماد الأساسي الذي ينبني عليه الدين كله.

ونقف كذلك على حقيقة أخرى تكشف عن طبيعة اليسر في هذا الدين - وهو دين يلائم الفطرة الإنسانية، أفضل وأمثل ما تكون عليه الملاءمة من هوادة ومراعاة - وفي هذا من التيسير ودفع الحرج ما يكتب للإسلام دوام الصلوح والبقاء وما يجعله مناسبا لحياة الإنسان في مختلف جوانبه ومركّباته البدنية والنفسية والروحية.

على أن المخاطب في الآية هو النبي - صلى الله عليه وسلم - أولا، ثم الولاة والأمراء من بعده إلى يوم القيامة وذلك الذي ذهب إليه أهل العلم جميعا إلا ما كان من شذوذ لا يعوّل عليه.

وقوله: (وليأخذوا أسلحتهم) المقصود بواو الجماعة موضع خلاف على ثلاثة أقوال:

الأول: هي الطائفة التي تواجه العدوّ وتحرس المسلمين.
الثاني: هي الطائفة نفسها التي تصلي مع الإمام، فهي المطالبة بأخذ السلاح حال الصلاة وفي ذلك ترعيب للأعداء وتخويف.
الثالث: أن المقصود هم المحاربون جميعا سواء منهم المصلي أو القائم - فهم مقصودون بهذا النداء الرباني لكي يحملوا أسلحتهم وذلك أشد ترعيبا للعدو وتخويفا.
ذلك ما قيل عن المقصود بالواو في قوله: (وليأخذوا) لكن الذي يترجّح لديّ هو القول الأول استنادا إلى أن حمل المصلّي للسلاح لا ينطوي على كبيرة فائدة مادام ساكنا خاشعا لا يحارب - فإنه ليس من شأن المصلي غير التفرغ الكامل لأعمال الصلاة وأدائها في وعي وطمأنينة - وأي انفتال عنها يبطلها - وكذلك فإن سياق الكلام الذي يعرض لهذه المسألة يعزّز أن يكون القول الأول هو الصحيح - يتبين ذلك في جلاء من قوله تعالى: (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك) - ثم يأتي التأكيد لهذا المقصود في قوله تعالى: (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم).
قوله: (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) يتمنى الأعداء غفلة المؤمنين عن أسلحتهم وأمتعتهم التي يقوون بها على المرابطة والجلاد لينقضّوا عليهم في هجمة حاسمة قاصمة، تتبدد فيها شوكتهم وتذهب معها ريحهم - وذلك شأن المشركين الذين يشاقّون الله ورسوله ويودّون أن تحيق الهزيمة القاضية بالإسلام وأهله وأن يروا الدين وقد تحول إلى أثر بعد عين أو أنه استحال إلى ذكريات وخواطر تتضمنها الكتب والقراطيس - ولا جرم أن تذكرنا هذه الآية بما حل بالمسلمين من هزائم ونكسات ذاقوا بعدها البلاء والشدّة نتيجة للثقة الزائفة بقدرتهم الموهومة أو بقياداتهم الكاذبة المخادعة، وكذلك نتيجة لركونهم للإهمال واللامبالاة حتى إذا كانوا في غمرة عارمة من اللهو والغفلة مال عليهم العدو ميلة واحدة فأنزل فيهم ضربة باترة موجعة تدمّر عليهم قواهم ومنجزاتهم ثم تجتاحهم اجتياحا لتغزوهم في عقر ديارهم وهم داخرون مقهورون.
قوله: (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا). أكثر أهل العلم على أن حمل المصلّي للسلاح في ساحة الجهاد مندوب - فإذا قام المؤمن للصلاة أخذ سلاحه وذلك أفضل من الوجهة الدينية وقد حمل العلماء قوله تعالى: (وليأخذوا أسلحتهم) على الندب والاستحباب - وذهب أهل الظاهر والشافعي وغيرهم إلى وجوب حمل السلاح للمسلم حال الصلاة وذلك لظاهر الأمر في قوله تعالى: (وليأخذوا) على أن يكون ذلك حين الخوف فإن وجوب أخذ السلاح في ظاهر الآية مشروط بحصول الخوف من العدوّ فعلا - والراجح ما قاله أكثر أهل العلم وفيهم أبو حنيفة وهو أن أخذ السلاح للمصلي مندوب لحمل الأمر في الآية على الندب؛ ولأن في دوام الحمل مشقة كبيرة وتعريضا للسلاح للتلف.
وفي قوله سبحانه: (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر - - .) نفي للبأس أو الحرج فيما وضعوا السلاح خشية التأذي من المطر أو كانوا مرضى فيشق عليهم حمله حين الصلاة على أن يكونوا على حذر دائم لا ينقطع؛ كيلا يفجأهم العدو على غرّة - والآية تعاود التأكيد في تحضيض بالغ لكي يحذر المسلمون عدّوهم حذرا يمكنهم من دوام الحيطة والمراقبة وذلك في قوله تعالى: (وخذوا حذركم).
ويأتي اختتام الآية في وعيد من الله لهؤلاء الخصوم الكفرة الذين قد أعد الله لهم سوء العذاب تكوى به جسومهم وهم يصارعون المرارة والهوان، بعد أن يذيقهم بأس التقهقر وذلك الهزيمة في هذه الدنيا على أيدي المسلمين الصادقين المخلصين ١٥١.
١٠٣ - (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)
قوله تعالى: (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما).
قضاء الصلاة معناه إتمامها والفراغ منها كقوله: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) - والمؤمنون مطالبون عقيب صلاة الخوف

أن يذكروا الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم وذلك حال كونهم قائمين أو قاعدين أو مضطجعين على الجنوب - تلك حالات تكون عليها هيئة الإنسان وهو مدعوّ من ربه لكي يديم ذكره والدعاء إليه في توسّل خاشع وضراعة تامّة - ولا يقتصر الذكر أو الدعاء على الفراغ من الصلاة حين الخوف من العدوّ، ولكن ذلك هنا آكد وأشد تنبيها مما لو كان المسلم في ظروف معتادة لا رهبة فيها ولا وجل - والأصل في ذلك كله أن المسلم لا مندوحة له عن الاعتصام والتشبث بحبل الله المتين أو عن المداومة في دأب لا ينقطع عن ذكر الله والدعاء إليه بالرحمة والإحسان والغفران، وكذلك بالسلامة والنجاة يكتبها للمرء في هذه العاجلة ويوم التناد - لكن المرء إذ تحيق به النوائب والمخاطر فإنه تزداد لديه أسباب الثواء إلى الله والاستعانة به في دعاء متذلّل لحّاح ليكتب له حسن الجزاء وليؤيده بالثبات والعزيمة والاصطبار.

قوله: (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) الطمأنينة معناها الأمن وسكون النفس بعد ذهاب الخوف - فإذا اطمأنت النفوس المؤمنة وغمرتها السكينة بعد أن أراحها الله من الخوف وجب أن تقام الصلاة على أكمل هيئة وعلى أتم صفة وأداء من حيث الأركان والصفة والخشوع.

قوله: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) الكتاب الموقوت أي الفرض المؤقت في حينه المتعيّن - وقد قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) في تفسيرها: إن للصلاة وقتا كوقت الحج، وذلك تبيين للمقصود على التمام، فالصلاة قد كتبها الله على المسلمين وجعلها فريضة يمارسونها في أوقاتها المعيّنة المحدودة فكلما مضى وقت فيه فريضة الصلاة جاء وقت آخر فيه فريضة أخرى.

١٠٤ - (وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

قوله: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) الوهن هو الضعف وهو محذور قد نبّهت الآية إليه كيلا يستسلم المؤمنون للخذلان والخور ولكي يشتدوا في مواجهة العدو لمحاربته وقهره - يجب على المؤمنين أن يخلعوا عن أنفسهم أوبقة الوهن ثم ينطلقوا في خفة وحماسة ليردوا أعداء الله ردا عنيفا لا يأخذهم في ذلك تقاعس أو رهبة ولا يثنيهم عن هذا العمل المقدّس المفروض شيء من تردد أو هوادة أو خذلان - لا مناص للمسلمين من مقارعة العدو الخبيث الحاقد لقهره وتحطيم شوكته كيما تكتب لهم الطمأنينة وسلامة الأنفس والديار.

وفي الآية مواساة للمسلمين وتثبيت لعزائمهم وقلوبهم من أجل أن يمضوا في طلب القوم المشركين والقعود لهم كل مرصد - إن ذلك مواساة لهم وتثبيت لئلا يقهرهم الألم مما لحق بهم من أذى فإن كانوا يألمون فإن أعداءهم المشركين يألمون ويعانون مما أصابهم من قتل وجراح - قوله: (وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما) لقد كان المسلمون والمشركون يألمون مما أصابهم من قتل وجراح إلا أن المسلمين قد امتازوا بصلتهم الوثقى بالله ليدعوه ويرتجوه يجأروا إليه بالطلب مستعينين به مستنصرين - وأصل ذلك الإيمان بالله سبحانه وهو (الإيمان) يسكب في النفس الأمن والسكينة ويثلج الصدر باليقين والطمأنينة ليظل العبد موصولا قلبه بالله فيعتمد عليه وحده من غير شريك - وايم الحق إن هذه المزية عظيمة فريدة قد امتاز بها المسلمون، إذ أوتوها وغابت عن المشركين فلم تتيسر لهم لافتقادهم الأصل الذي تنبثق عنه هذه المسألة وهو الإيمان الصحيح بالله - والإيمان الذي لا يعتريه شيء من زيف أو خلل أو انحراف - والمشركون وهم يتيهون في الأرض متلجلجين بغير إيمان صحيح يهديهم فإنهم لا يرجون من الله مثلما يرجو المسلمون، وذلك فارق فاصل أكبر بين هذين الصنفين من البشر - (وكان الله عليما حكيما) قد كان الله وما زال يحيط علمه بكل مستور مثلما يعلم الظاهر المعلن فإن ذلك عنده سواء - والله سبحانه عليم حيث يوجب لعباده من الفرائض والأمور الشرعية ما يصلح عليه حالهم في الدين والدنيا، وحيث يقدّر لهم من ضروب المشقة المحتملة في الجهاد وغيرها ما يؤول بهم إلى اكتمال المصلحة أو دفع الشر والمفسدة وهو سبحانه له في ذلك كله الحكمة البالغة التي لا يجليها على حقيقتها إلا هو.

١٠٥ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)

قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما

ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا).

يخاطب الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - في هذه الآيات بما تتضمن من تقويم وتأنيب وتحذير، وهي معان يتدفق من مجموعها الإعجاز لهذا الكتاب الحكيم الذي ما يكون له أن يصدر عن بشر بهذا الأسلوب في الخطاب.

وقد أنزل الله الكتاب على النبي بالحق - ويعني ذلك أنه هو نفسه الحق المبين الذي لا يعتريه باطل على الدوام ولا يأتيه كذلك باطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه حق بإطلاق - وهو كذلك قد جاء من طريق حق لا زيف فيه ولا تخويف، وهو طريق الوحي الذي يتنزّل على النبيّين والمرسلين ليبلغهم أمانة السماء للبشر - وهي أمانة كلها حق وتتناول في مضمونها ودخائلها صورة وافية شاملة للحق في أصالتها ومعناه وفي جوهره ومبناه - وأخيرا قد تنزل هذا الكتاب الكريم من أجل الحق كيما يتجلّى ويظهر ومن أجل أن يستقيم الناس في عامة أمورهم وأحوالهم ومعايشهم فتكون على الحق ومن أجل أن يتبدد الباطل فتغيب عن وجه الأرض سحائبه القاتمة العبوس ويستقر مكانه الحق على تعدد ضروبه من تشريع وقوّة وخلق ومودة وتعاون.

والسبب في نزول هذه الآيات كان غاية في الروعة التي يحققها الإسلام بعقيدته وتشريعه الذي يوجب العدل مهما تكن الظروف في غير ما ميل، ولو كان صاحب الحق صعلوكا أو عبدا أو يهوديا أو نصرانيا وكان الخصم عظيما أو حاكما أو ذا فضل أو قرابة.

وسبب النزول تحكيه لنا كتب السنة لنعلم أي قمة في العدل والاستقامة تبلغها كلمة الإسلام عندما يتحقق في الأرض تنفيذا وتطبيقا - وخلاصة ما رواه الترمذي في صحيحه وابن جرير الطبري في تفسيره بإسناد عن محمد بن مسلمة الحرّاني أنه قد رفع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر بني أبيرق وكانوا ثلاثة أخوة: بشر وبشير ومبشّر، ومعهم أسير بن عروة وهو ابن عم لهم نقبوا مشربة (غرفة) لرفاعة بن زيد في الليل وسرقوا أدراعا له وطعاما فعثر على ذلك - وقيل: السارق بشير وحده اخذ درعا قيل إنه كان في جراب فيه دقيق فكان الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره فجاء ابن أبي رفاعة واسمه قتادة يشكوه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فجاء أسير بن عروة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله إن هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين فأنبوهم بالسرقة ورموهم بها من غير بيّنة وجعل يجادل عنهم حتى غضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قتادة ورفاعة فأنزل الله تعالى: (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) وأنزل الله تعالى: (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا) وكان البريء الذي رموه بالسرقة لبيد بن سهل وهو يهودي - وقيل عن بشير أنه كان رجلا منافقا يهجو أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقول فيهم الشعر ثم ينحله لبعض العرب ثم يقول: قال فلان كذا وكذا - فإذا سمع أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث، وهم يعنون بذلك بشيرا - وفي رواية أخرى لابن عباس أن سارق الدرع هو طعمة بن أبيرق وأنه هو الذي ألقاها في بيت رجل بريء.

وهذه القصة تدل على رائعة من روائع الإسلام - وهي رائعة العدل المطلق في سائر الأحوال والمقتضيات ومهما تكن الظروف - وهو عدل حقيقي مطلق قد مارسه المسلمون إبّان سلطانهم الغابر وهم يحكمون البشرية بما أنزل الله - أو وهم يسوسون الناس بكلمة الله التي لا تعرف الميل أو المحاباة أو الحيف والجنوح.

إن العدل الذي يفرضه الإسلام ويوجب تحقيق في الأرض لهو القمّة في الاستقامة والنصفة بما لا قبل للبشرية والأجيال به! ذلك أن العدل الذي ينبثق عن الإسلام إنما ينبثق عن العقدية الراسخة الضاربة في أغوار النفس من الإنسان، وهي عقيدة تقوم على الحق والعدل بإطلاق لا يعرف القيود فلا غرو بعد ذلك أن تبلغ العقيدة بالإنسان صورة سامقة فذة لا تعرف الحدود ١٥٢.

وهذه آيات تسع قد قررت إرادة الله القدير تنزيلها تبرئة لإنسان متهم بعد أن حاق به ظلم افتراه منافق - وفوق ذلك قد ليم النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - على نحو من التأنيب الشديد - وتلك غاية في كمال العدول وروعة العقيدة والخلق نتخيلهما ونحن نتلو ذلك التأنيب

الرباني المخوف يتنزل على قلب النبي الكريم وشخصه إنقاذا ليهودي مظلوم - بعدله وفضله، إذ يفرض العدل والحق في واقع البشر، في كل الأحوال ومهما تكن الظروف - ويستوي أمام عدل الإسلام الناس كافة سواء كانوا مسلمين أو يهوديا أو نصارى لا جرم أن يكون في مثل هذا النموذج المذهل ما يزجي بقاطع من البرهان على أن هذا الكتاب منزل من عند الله سبحانه وإنه لمن العبث واللغط في هذيان أن يفتري على هذا الكتاب بأنه من وضع بشر.

آيات تسع نقرأها كلما مررنا بسورة النساء وكلما أردنا التلاوة في شوق وتحنّث لندرك روعة الإسلام وهو يزن الأمور بقسطاس العدل في غاية الموضوعية البحتة التي لا تميل مع الهوى ولا تجنح - تحت ضاغط العاطفة- لأي من اعتبارات القرابة أو الصحبة أو الصهرية ولا تخضع لأي لون من ألوان التعصب للوطن أو القومية أو الدين وقاعدة الإسلام في ذلك أن الحق أحق أن يُتّبع.

قوله: (لتحكم بين الناس بما أراك الله) قد خوطب النبي في تكليف من ربه أن يحكم بين الناس على نحو ما أراه الله، وذلك يحتمل أحد المعنيين التاليين أو كليهما معا - وهما النص المنزل الذي يقوم على الوحي، أو النظر المشدود للنص، فهو بذلك أساسه الوحي الذي لا يخطئ ولا يزل - وما يراه النبي عليه السلام في المعنيين يعتبر صحيحا يجب الأخذ به، والأصل في ذلك العصمة المقدورة للنبيين وهي تخويل لهم من الله أن يحكموا بين العباد بموجبها ليأتي حكمهم صائبا على الدوام تمشيا مع قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

قوله: (ولا تكن للخائنين خصيما) ينهى الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يخاصم عن الخائنين وهم بنو أبيرق الذين قارفوا السرقة ثم افتروا على اليهودي ظلما وعدوانا - والخصام معناه الجدال - فالخصيم عن الخائنين هو الذي يجادل عنهم مدافعا وذلك ما ورد فيه النهي؛ لأنه ظلم لا يرضى عنه الإسلام ولا يقرّه بأية حال لما فيه من ميل عن الحق والعدل وجنوح للهوى والخطأ.

وفي ذلك تذكير لنا بعدم الدفاع عن أهل الباطل أو النفاق فلا تأخذنا في ذلك لومة لائم وذلك ما يفرضه الإسلام وهو ألصق بالصواب والحق وأبعد عن الظلم والمحاباة والباطل.

وثمة إدراك جيّد للعلماء في حقيقة توجيه الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم -، فقد قيل: إن المراد من ذلك ليس النبي بالذات، ولكن المراد هم ضعاف الإيمان من المسلمين الذين انطلقوا يدافعون عن هؤلاء الخونة الذين خانوا الله ورسوله، إذ اجترحوا السرقة ثم رموا بها اليهودي البريء - ويعزّز هذا الفهم قوله تعالى: (ها آنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا) ١٥٣.

١٠٦ - (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله: (واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما).

جاء في سبب الاستغفار جملة أقوال:

الأول: أن ذلك سبب الذنب في المجادلة والدفاع عن الخائنين - حتى أن النبي أوشك أن يقطع يد اليهودي بعد أن تحقق من إدانته بناء على توثّقه من دعوى بني أبيرق.

الثاني: لا يدل الاستغفار هنا على ذنب اقترفه النبي - ولكن المقصود هو دعاء النبي واستغفاره للمذنبين من أمته الذين يتخاصمون بالباطل.

الثالث: المقصود بالاستغفار هو ما كان على طريق التسبيح - والمسلم شأنه دائما أن يستغفر الله وذلك من قبيل التسبيح حتى لو لم يكن قد قارف ذنبا - ومن باب الخضوع والإقرار لله بالعبودية والامتثال يظل المسلم في تسبيح دائم لا ينقطع - وقيل غير ذلك.

١٠٧ - (وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)

قوله: (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما) ذلك نهي عن المجادلة عن الخائنين الذين يخونون أنفسهم بإزلاقها في مزالق الافتراء والبهتان فضلا عن الحرام والسحت الذي يقتات به هؤلاء الفسّاق - والجدال والمجادلة من الجدل وهو لغة الفتل - والجدالة هي الأرض، وربط ذلك بكل من الخصمين؛ لأن كلا منهما يودّ جاهدا أن يطرح خصمه على الأرض مقهورا - ولا غرو فإن الله تباركت أسماؤه لا يرضى عن الخوّان وهو المغالي في الخيانة وفعل الحرام والذي لا يتورع عن ممارسة كل

محظور أو خطيئة.

١٠٨ - (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا)

قوله: (وكان الله بما يعملون محيطا) المقصود بذلك هم المنافقون بما فيهم سارق الدرع والذين خفّوا ينافحون عنه أمام النبي - صلى الله عليه وسلم - - وذلك تنديد بهؤلاء الخائنين المنافقين الذين يفترون الكذب ويسعون في نشاط لطمس جريمتهم وخيانتهم كيلا يطّلع عليها الناس - فهم لا يعبأون بغير النجاة من الناس ولا يتورعون عن ارتكاب المعصية إذا ما غابت عنهم الأبصار - وليس في استخفائهم من الناس وهم يطمرون كل معالم السرقة الحاصلة إلا الدلالة على أنهم يستحيون من البشر ولا يستحيون من الله - والأصل الذي ينبغي أن يكون هو الاستحياء من الله مع التحرر الكامل من كل سلطان للأرض على الإنسان في خلقه وطبعه وأعصابه.

إن الأصل الذي ينبغي أن يكون، هو أن يبادر هؤلاء في الكشف عن الحقيقة من غير مواربة وافتراء ومن غير كذل وتحيل وليكن بعدها ما يكون مادام التوجه في القلب والوجدان والمشاعر إلى الله وما دامت السميرة تمضي في خط الله وفي ظله - أما أن يستخفي هؤلاء من الناس استحياء منهم من غير أن يخشوا ربهم ويستحيون منه فذلك هو الضعف الغامر الذي يؤول في الغالب إلى شر مفسدة وهو النفاق.

وعلى المرء أن يعلم في كل آن أن الله معه يسمع ويرى ويعلم كل ما يصدر عنه من حركة أو سكنة ليشمل ذلك كل همسة أو نبسة وكل خلجة أو خفقة، كل ذلك يعلمه الله سبحانه وهو المطلع على الخفايا وما تكنه النوايا والقصود - إن الله مطلع على هؤلاء الذين لا يخجلون منه ويخجلون من عباده، وهو كذلك رقيب عليهم من حيث أعمالهم وأقوالهم جميعا وهو سبحانه شاهد عليهم حيثما كانوا أو وهم (يبيتون ما لا يرضى من القول) أي يقولون ويأتمرون فيما بينهم بياتا والناس تغطيهم هجعة الليل الساكن، فهم يأتمرون بالإسلام وأهله لينالوا منهم شرا.

هؤلاء المتأرجحون الذين اختانوا أنفسهم يتهددهم الله في وعيد مكشوف بقوله: (وكان الله بما يعملون محيطا) فالله عز وجل محيط عمله وهيمنته وجبروته بهذا الصنف من البشر حتى لا تخفى منهم عليه خافية.

١٠٩ - (هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلا)

قوله: (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنه يوم القيامة) ها أداة تنبيه في (ها أنتم) وفي (هؤلاء) وهما مبتدأ وخبر - أولاء اسم موصول بمعنى الذين - وجادلتم صلته ١٥٤.

إن كان هؤلاء المختانون لأنفسهم قد خاصموا دفاعا عن السارق أمام النبي بالباطل وهم يعلمون أنهم مفترون مبطلون، إن كان خصامهم في هذه الدنيا يمر فأنى له أن يمر يوم القيامة؟! بل ليس لهم أن يملكوا أية مخاصمة أو مجادلة عن السارق في ذلك اليوم الرعيب الحافل المشهود ليس لهم أن ينسبوا بشيء أمام جبروت الله إذ هم ناكسوا رؤوسهم، وأبصارهم شاخصة وأفئدتهم هواء وقد أحاطت بهم أسباب الخوف المزلزل - وفي تلك الحالة لا يقوون على الدفاع أو الخصام عن الخوّان ولا يقوون كذلك أن يقفوا وكلاء عنه - والوكيل هو الذي تناط به مهمة التصرف والتدبير في شأن من الشؤون أو في مجموعة الشؤون كلها - وقد سيق أمر الوكيل ليتبين للمخاصمين الذين ينافحون عن الخائنين أنهم إذ أمكنهم ذلك في هذه الدنيا فهم أعجز عن المنافحة والتوكيل في الآخرة.

١١٠ - (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله تعالى: (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما).

في قوله: (ومن يعمل سوءا - .) ما يتضمن التوبة لبني أبيرق هؤلاء الذين نافقوا وافتروا - فإذا ما تابوا إلى ربهم واستغفروه فإنه متجاوز

لهم عمّا ارتكبوه من سيئة السرقة والافتراء، وكذلك عن تلطخهم بالشرك الذي ظلموا به أنفسهم - ومعلوم أن النفاق قرين الشرك، وكلاهما مما تنفتل به القلوب عن الله إلى ما سواه من غايات ومقاصد.

وقيل إنها نزلت في وحشي " قاتل حمزة لتتقرر توبة الله عليه إن هو آمن وأناب والصواب الذي يترجّح أن هذه الآية تفيد العموم لتزجي بحقيقة أساسية كبرى وهي أن من تاب فقد تاب الله عليه مهما اقترف من الخطايا والذنوب - والله تباركت أسماؤه وهو الغفّار المتفضّل المنّان يقبل التوبة عن عباده ويأتي على الذنوب ليمحوها جميعا بعد أن يؤوب العبد إلى ربه مستغفرا نادما.

وقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن علي (رضي الله عنه) قال: حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ما من مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له ".

وجملة القول في ذلك أن من يقترف الخطيئة أو يظلم نفسه بإيقاعها في المعاصي والذنوب ثم يطلب من الله المغفرة بعد ذلك لسوف يجد أن الله غفور لذنبه، رحيم به - وذلك هو شأن الله جلت قدرته في التجاوز عن الخطايا والرحمة بالعباد - لا جرم أن ذلك ترغيب من الله لمن قارف شيئا من الذنوب والمعاصي، لكي يبادر بالتوبة والاستغفار فيحظى من الله بالرحمة والغفران.

١١١ - (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

قوله: (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه - .) إذا أساء الإنسان أو ظلم أو قارف من الذنوب والخطايا شيئا فلا يحيق ذلك إلا بنفسه ولا يعود ضرر ذلك على أحد غيره - وهو كقوله سبحانه: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) - أي أن نفسا لا تغني عن نفس شيئا وليس لها أن تحمل منها ما اكتسبت من سيئة، وبذلك فكل نفس غنما تجني عليها وذلك هو الحق والعدل وهو ما تقرر بعلم الله وحكمته فإنه سبحانه يعلم كيف تتقرر الأمور بالحق والعدل والحكمة.

١١٢ - (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

قوله: (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به برئيا - - .) ذلك تنديد بالظلمة المفترين الذين تتلطخ أيديهم وأنفسهم بالإثم والخطيئة مثل بني أبيرق ثم يأخذون غيرهم من البرئاء والصلحاء بالتهمة والافتراء وهم يعلمون أنهم مبطلون كاذبون - إن من يكسب مثل هذه الخطيئة الظالمة يأتي وقد (احتمل بهتانا وإثما مبينا) البهتان من البهت بضم الباء وهو قذف الغير وهو بريء بالذنب والسوء - وفي بيان ذلك أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " أتدرون ما الغيبة؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم قال: " ذكرك أخاك بما يكره " قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهتّه ".

وعلى هذا فإن كسب الخطيئة أو الإثم والتنصل منه لرمي الغير به في ظلم لهو من كبائر الذنوب لما في ذلك من احتمال للبهتان وهو ما يحيق بالبريء من تهمة مصطنعة مفتراة يختلقها أهل السوء من المبطلين.

ومما يثير العُجب حقا هذا الزخم الهائل من معاني التحذير والتنديد أو الوعيد والتهديد أو الإخبار والبيان أو التنكر والإغلاظ أو التكريم والتأنيب أو التقويم والتوجيه كل أولئك من أجل أن يتبرأ يهودي مظلوم!! من أجل أن تبدد من واقع البشر كل سحابة عاتية تغشى الناس بظلم - والظلم من المفاسد البشعة التي شدد الإسلام في استنكارها والتنديد بها.

تسع آيات محكمات يتنزلن تحت العرش على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ليتلوها هو والناس في زمانه ومن بعده حتى الأبد الأبيد، وهي حاشدة بالمعاني الدافقة المختلفة درءا لظلم قد أحاط بيهودي بعد أن افترى عليه فريق من الناس بغير حق - وهذا هو الإسلام في إحقاقه الحق، وفي دفعه للباطل، وفي رفضه للظلم أن يحيق بإنسان، يستوي في ذلك أن يكون المظلوم مسلما أو غير مسلم - ذلك هو شأن الإسلام في ترسيخ الحق والعدل بين الناس في كل الأحوال - إنه الحق أو العدل الذي ليس له في تاريخ الملل والشرائع نظير - عدل حقيقي مطلق تستظل بظله الخلائق من الناس على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم مما لم تعرف البشرية له مثيلا طيلة زمانها المستدير.

١١٣ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

قوله: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء) لولا أداة امتناع لوجود - واسم الجلالة بعد لولا مرفوع على الابتداء والخبر محذوف تقديره موجود - وذلك يعني أنه لولا فضل الله عليك يا محمد إذ أيّدك بالعصمة ونبهك لما ائتمر عليه المنافقون المخادعون، الذين استهمّوا في تآمر خبيث ليزلقوك في الضلالة فتجنح صوب الظلم والباطل، وذلك أنهم جاءوك يسألونك تبرئة ابن أبيرق السارق " سواء كان بشيرا أو طعمة " من تهمة السرقة ثم إلحاقها بالبريء لبيد بن سهل وقيل هو زيد ابن السمين وكلاهما يهودي - لكن هؤلاء المنافقين المخادعين إنما يضلّون أنفسهم بإيرادها موارد المعصية والهلاك لما اقترفوه من كذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وافتراء على البرئاء - وذلك يستوجب لهم من العقاب ما يدفعهم مقهورين إلى جهنم إلا أن يشاء الله غير ذلك - وهم كذلك لا يملكون للنبي عليه الصلاة والسلام ضرا ولا أذى فإنه عليه السلام قد أحاطت به عناية الله ليكون مصونا معصوما.

قوله: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) الواو في قوله: (وأنزل) تحتمل أحد معنيين وهما الحال والاستئناف - واعتبارها على الحال يجعل المعنى على النحو التالي: أن هؤلاء لا يضرونك حال إنزال الله عليك القرآن والحكمة وهي معناها السنّة، وفي قول آخر بأنها القضاء في موضع الوحي وهو نفس المعنى الذي يتضمن مفهوم السنة - ذلك أن السنة هي ما يصدر عن النبي من طريق الوحي، فما يتصرف النبي تصرفا من قول أو فعل أو تقرير إلا جاء صحيحا قائما لا يعتريه زيغ أو اعوجاج؛ لأنه عليه السلام الملهم المقوّم من ربه فلا يضل ولا يطغى - ذلك هو المعنى المطابق لاعتبار الواو مفيدة للحال، مع ترجيح القول الثاني وهو أنها تفيد الاستئناف.

ويمن الله على نبيه بما علّمه إياه من العلم والحكمة والتشريع مما لم يكن يعلم قبل هبوط الوحي عليه - وتلك نعمة هائلة جليلة لا تعدلها أنعم الأرض جميعا - فلا غرو بعد ذلك أن يمنّ الله على نبيه بما أتاه من عظيم الفضل وما طوّقه به من كبير النعمة والعطاء ممثلا في النبوّة الطاهرة المعصومة وما يستتبعه ذلك من زاخر المعرفة والحكمة ١٥٥.

١١٤ - (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

قوله تعالى: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) النفي في الآية يقع على الجنس والنجوى والمناجاة والنجاء تعني المسارّة بين اثنين أو أكثر - والاستثناء هنا منقطع؛ لأنه استثناء من غير الجنس - وفي الآية رفض غليظ لما تناجى به بنو أبيرق من تمالؤ خائن وهم يصطنعون لرجلهم البراءة في غش والتواء - إنه لا خير في ما يستسره هؤلاء المنافقون من إخفاء للحق وإظهار للباطل - على أن الآية تتناول الإغلاظ والنكير على أية مناجاة يقع فيها التمالؤ المحظور، وهي مثال يبصرنا بحقيقة هذا الصنف من البشر المنافق الذي يؤثر العيش في الظلام حيث الخديعة والائتمار والتدسس - وتلك مفاسد خلقية يحرّمها الإسلام أشد تحريم ويفرض مكانها الصراحة والوضوح والصدق واستقامة القصد وفي ذلك من براءة النية والضمير ما يكفل التوبة والغفران من الله - فليس الأمر قاصرا على بني أبيرق الذين أوقعوا يهوديا بريئا في ظلم استنقاذا لواحد منهم كان سارقا، بل إن المقصود ترسيخ الحق، والقضاء بالعدل في كل الأحوال مهما تكن الظروف والملابسات ومن غير التفات للتباين في مقادير الأشخاص واعتباراتهم الاجتماعية أو السياسية أو غير ذلك من صور الاعتبارات التي تعتمدها أعراف الأرض - وقوله: (إلا من أمر بصدقة أو معروف - - .) ذلك استثناء منقطع على الراجح وذلك للاختلاف بين الأمر بجملة فضائل كالصدقة والمعروف والإصلاح، والمستثنى منه وهو النهي عن الاستمرار والمناجاة بالسوء.

والاستثناء في الآية يدل على طلب الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس وهي فضائل كريمة يتزين بها الفرد والجماعة لتكون لهم خير مظهر يكشف عن صدق القصد والمضمون - وفي هذا يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما ترويه أم حبيبة قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ذكر الله عز وجل أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر " وقد روى

مثله كل من الترمذي وابن ماجه.
وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا " وقالت: لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها ".
وأخرج الإمام أحمد أيضا عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟! " قالوا: بلى يا رسول الله قال: " إصلاح ذات البين " - قال: " وفساد ذات البين هي الحالقة "
وأخرج البزار عن أنس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لأبي أيوب: " ألا أدلك على تجارة؟! " قال: بلى يا رسول الله قال: " تسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا ".
أما المعروف فهو ضد المنكر وهو من المعرفة والتعارف حيث التلاقي وانعقاد الألفة والمودة - وهو في معناه لذو شمول يتضمن وجوه الخير والبر جميعا، وذلك كالصدق وإسداء النصيحة وإكرام الضيف والجار وحسن التقاضي والتعامل في تسامح وهوادة وغير ذلك من ضروب الرفق والإحسان وطيب العشرة.
وأما الصدقة فهي عنوان العطاء والبذل في همّة وسخاء وهي كسر لإسار الشحّ البغيض الذي يستحوذ على النفس في الغالب ولا يلفت من غلّة إلا من جاهد نفسه فملك زمامها - يقول سبحانه: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) والصدقة نوعان: أحدهما للتطوع والآخر فريضة - وهما كلاهما مجلبة للأجر والمثوبة من الله ومطردة الخطايا والسيئات بما يزحزح العبد عن فيح جهنم حيث العذاب البئيس.
وقد تطلق الصدقة من حيث المعنى فتتضمن وجوها في الخير تتجاوز حصول البذل والجود بالمال تطوعا أو فريضة - وإطلاق الصدقة يشمل معاني شتى في الخير وذلك مثل إماطة الأذى عن الطريق، أو الأخذ بيد أعمى لهدايته إلى الطريق، أو في عون ذي الحاجة الملهوف في قضاء شأن من شؤونه، أو الملاطفة يبذلها المرء نحو أخيه أو تبسمه في وجهه، وهي معان في الأخلاق الكريمة تندرج في المفهوم المطلق للصدقة مثلما ورد في السنّة المطهرة.
وأما الإصلاح بين الناس فهو في طليعة المحاسن من الأخلاق التي تتجلى في المؤمن التقي العامل - ذلك أنه وسيلة التوفيق بين المتدابرين والمتخاصمين وأنه السبيل التي تسعف في التئام المسلمين كيما يتآزروا وتتحد كلمتهم وكيما يكونوا دائما يدا واحدة على من سواهم - وانعدام الإصلاح دليل التمزق والشتات وذهاب ريح الأمة.
ومنوط بالمسلم أن يندفع في نشاط وحماسة ليصلح بين الناس إذا ما تخالفوا أو دبّ بينهم دبيب الفرقة والبغضاء - ولمن يبادر في الإصلاح كبير الأجر والثواب بما لا يعلم مداه إلا الله سبحانه - وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد " ١٥٦.
١١٥ - (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)
قوله تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا).
ورد في سبب نزول هاتين الآيتين أكثر من قول - فقد قيل أنهما نزلتا في السارق ابن أبيرق فإنه لما تبين له أنه قد افتضح تسلل إلى مكة هربا من القطع مرتدا - وفي مكة سطا ببيت من البيوت بعد أن نقبه فأدركه المشركون فقتلوه، وقيل إن الحائط الذي نقبه سقط فبقي في النقب حتى أخرجوه منه، ثم خرج بعدها إلى الشام في قافلة فقبض متلبسا بسرقة أموال فرجموه وقتلوه.
وقيل إنهما نزلتا في نفر قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم انقلبوا إلى مكة مرتكسين في الردة ١٥٧.
وأنسب الكلام في ذلك أن يقال إنهما تتناولان كل من يخالف عن أمر الله في شرعه ودينه أو من يخالف المسلمين في طريقهم الذي

ارتأوه وسلكوه، والعبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب رغم ما يحتويه السبب من وسيلة تسعف في الوقوف على حقيقة المعنى.
وقوله: (يشاقق) فعل مضارع مجزوم لوقوعه في جملة الشرط وهو من المشاققة أو الشقاق ومعناه الخلاف والعداوة - وأصل ذلك الشق ومعناه نصف الشيء، أو الناحية من الجبل، وتلك حال الذين يخالفون عن أمر الله في شرعه ودينه أو الذين يعادون النبي - صلى الله عليه وسلم - فلا يؤمنون ببعثه ورسالته ويناصبونه الكيد والخصام، فأولئك جميعا مثلهم كالذي يصير في شق (ناحية) وشرع الله ورسوله في شق آخر - وهما شقان مختلفان قد بعدت بينهما الشقة واختلفت الحال - وفي ذلك تصور كريم يجعل للذهن حقيقة وافية مستبينة تتجلى فيها حال أهل الباطل من مشركين وملحدين ومنافقين وهم جميعا ليسوا على منهج الله ويرفضون السير في ظله حيث يغشاهم التوفيق والهناءة والرحمة ولكنهم أبوا إلا المضيّ في طريق زائغ متعرّج مقابل للطريق السوي المستقيم الذي كتبه الله للناس.
هؤلاء الذين يشاققون الرسول على نحو ما بينا، بعد أن تجلت لهم طريق الحق والإيمان، والذين يستنكفون عن الانضواء في حومة الإسلام والمسلمين فيرتضون لأنفسهم سبيلا غير سبيلهم- هؤلاء قد أعد الله لهم عذاب جهنم تصطلي بها أبدانهم ولحومهم - وقوله: (ويتبع غير سبيل المؤمنين) الفعل (ويتبع) معطوف على قوله: (يشاقق) واتباع غير سبيل المؤمنين يحتمل أحد معنيين:
أحدهما: المخالفة عن أمر الله في شرعه ودينه وذلك هو التنكب عن سبيل المؤمنين الذين يحيون على ما جاء به الكتاب الكريم والسنة المطهرة أو الذين يحكمون بما أنزل الله لتكون أوضاعهم وتصوّراتهم وأحوالهم ومعايشهم على هدى من الإسلام.
ثانيهما: الإجماع، وهو في اللغة يعني الاتفاق - وفي الاصطلاح ثمة أقوال في حده - فقد حده الغزالي بأنه اتفاق أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة على أمر من الأمور الدينية.
وحده القرافي بأنه اتفاق أهل الحل والعقد من هذه الأمة في أمر من الأمور.
وحده الرازي بأنه اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - على أمر من الأمور - والمراد بالاتفاق: الاشتراك إما في الاعتقاد أو القول أو الفعل - وبأهل الحل والعقد: المجتهدون في الأحكام الشرعية.
ويمكن القول في تعريف الإجماع على نحو جامع مانع على أنه اتفاق كلمة العلماء المسلمين في زمن من الأزمان على مسألة من المسائل أو قضية من القضايا الشرعية المستنبطة في ضوء الكتاب والسنة - ١٥٨ والمعلوم أن إجماع أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يحتمل الخطأ لتحقق العصمة لهم لدى اتفاقهم جميعا وذلك تعظيم لهذه الأمة الرائدة التي نيط بها أن تبادر دائما لتأخذ الزمام فتقود البشرية كابرا بعد كابر إلى حيث الخير والأمن والسلام وإلى حيث التعاون والودّ والاستقرار (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).
وقد أدرك الشافعي رضي الله عنه حقيقة الإجماع وفرضيته في هذه الآية وأنه (الإجماع) لحجيته يلتزم المسلمون بالعمل به فلا مساغ لأحد بعد ذلك أن يخالفه - ويعزز ذلك ما ورد من أحاديث في هذا الصدد كقوله عليه الصلاة والسلام: " لا تجتمع أمتي على الخطأ ".
والآية تحمل استنكارا غليظا لمن يندّ عن خط المسلمين ويتخذ لنفسه سبيلا غير سبيلهم التي لا تحتمل ميلا أو اعوجاجا - ولا يتنكب عن هذه السبيل إلا ضال وجزاؤه أن الله سيوليه ما تولّى، أي يكله إلى ما ارتضاه لنفسه من منهج وسبيل، أو يتركه وما يعبد كما قيل - ثم مرده من بعد ذلك إلى (جهنم وساءت مصيرا) ساءت عاقبة ومردا ولبئس المثوى والملتحد والعياذ بالله - وجاء قوله: (مصيرا) منصوبا على التمييز.
١١٦ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا)
قوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ذلك تأكيد من الله سبحانه على أنه لن يرضى عن المشركين ولن يتجاوز لهم عن إشراكهم وأنهم في الأذلين يوم القيامة حيث العذاب الأليم الخالد.
والشرك هو أعتى ضروب الخطيئات والمنكرات وأفدح ما يقارفه العبد من فوادح الذنوب، وهو لفداحته واشتداد غضب الله من أجله فإنه لا أمل في محوه برحمة الله أو غفرانه - ويفهم من هذا النص أن المشركين خالدون في النار وأنهم لا محيد لهم من عذاب الله

الواصب.
لكن مغفرة الله تصيب كل المعاصي دون الشرك - فأيما ذنب مهما كان كبيرا فإنه يظل دون فظاعة الشرك وأنه يمكن تجاوزه إذا ما خلصت النية وأقلع المسيء وأناب.
قوله: (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) - ذلك بيان مريع ومؤثر عن فداحة الشرك الذي يبغضه الله أشد البغض، ويشدد على استبشاعه أبلغ تشديد فهو أعظم الكبائر وأفظع السقطات التي يرتكس فيها العبد ليكون في الأذلين ولينحدر بنفسه إلى أسفل سافلين - ولا يسقط في الشرك إلا من ظلم نفسه فضلّ ضلالا بعيدا - ولا جرم أن يؤول الشرك إلى الضلال البعيد وهو الذهاب بالنفس إلى سحيق المهاوي وإلى أعمق أعماق الدركات حيث العمه والتّيه.
١١٧ - (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا)
قوله: (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) إن بمعنى ما وهي نافية - أي ما يعبد هؤلاء المشركون إلا أوثانا - وقد عبدوا الملائكة من ذلك وكانوا يعتبرونها بنات الله وكانوا يقولون: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ثم اتخذوا لهن صورا مادية محسّة تمثلت في الأصنام كاللات والعزّى ومناة.
وهذه الآية تشهير الجهلة الحمقى وتسفيه لأحلامهم التي تنطوي على التحجّر والسخف إذ سوّلت لهم عبادة الأحجار الصمّ فضلّت بذلك أبعد الضلال عن طريق الهداية والنور.
وهم كذلك لا يعبدون (إلا شيطانا مريدا) الشيطان من الفعل شطن أو شيطن أو تشيطن ومعناه البعد عن الحق والخير - وعلى هذا فالشيطان هو الكائن الجني أو الإنسي البعيد عن الحق والخير - وقيل هو العاتي المتمرد الذي يتمثل في كيانه الشر والشقاوة - والمريد صيغة مبالغة على وزن فعيل وهو من التمرد ومعناه العتوّ ومجاوزة الحد - وقيل هو العصيان والتجرّد من الخير، ١٥٩ وهي معان متقاربة يجمعها معنى واحد مشترك وهو الاستنكاف عن الخير والجنوح نحو الشر مع خروج عن الطاعة في خبث - وجملة ذلك أن المشركين ضالّون في عبادتهم، وهم كذلك تعساء في تقديرهم ومآلهم وهم إنما يعبدون أجساما موهومة جوامد من الحجارة القاسية الصلدة - والأصل في هذا الضلال كله هو الشيطان فهو الذي أوحى إليهم بزخرف من الوسواس والقول فسوّل لهم أن يجنحوا عن صراط الله المستقيم ليعبدوا من دونه آلهة مفتراه - فالشيطان بذلك معبود هؤلاء الفسّاق المخدوعين؛ لأنهم أطاعوه من دون الله واستسلموا لتوهيمه بعد أن نفث فيهم غرورا.
١١٨ - (لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)
قوله تعالى: (لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا).
هذه قصة الحوار المثير بين الإله الأوحد القهار وبين الكائن الخبيث العاتي الذي يتجسد في طبيعته المبنية على الشر والرذيلة والإغواء على نحو ليس له نظير في الكائنات جميعا - حوار تتكشف فيه حقيقة هذا الكائن عن طبيعة خبيثة لئيمة تستكبر على طاعة الله ثم تمضي في تمرّد عليه غريب وفي استنكاف يستوجب من الله اللعن وهو الإبعاد والطرد من رحمة الله في غضب وسخط.
قوله: (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) وهو تأكيد إجرامي متوقح من الشيطان وهو يعصي أمر ربه في اجتراء مقبوح بأنه سيجهد في الغواية والإضلال ليفتل البشرية عن طريق الله ومنهجه إلى حيث الباطل والفساد وإلى حيث الغواية والضلالة في هذه الدنيا الفانية وفي تلك الأخرى الباقية - والنصيب معناه الحصة أو الحظ - والمفروض يعني المعيّن المقدّر - وذلك الذي أشار إليه إبليس وهو أنه سيجعل له جزءا ونصيبا من البشر المضلّل المخدوع بعد أن ينفث فيهم من تضليله وتوهيمه ليساقوا معه بالتالي إلى الجحيم فيكون وإياهم في العذاب سواء.

١١٩ - (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)

قوله: (ولأضلنهم ولأمنّينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) وذلك تأكيد منه آخر يتضمن تفصيل لكيفية الإغواء والإفساد تتبدى في كل من التضليل والتمني والأمر بالبتك - فهو بعدئذ استكبار جاحد متمرّد بأنه سيصرف البشر عن الهداية وعن منهج الله بكل الأسباب في الصرف والإغواء، سواء كان ذلك عن طريق الترغيب في المال والولد والجاه والسلطان أو طريق الترعيب من الموت أو الفقر أو غير ذلك من وجوه الصرف والغواية.

قوله: (ولأمنينهم) أي يسوّل لهم دوام التشبث بالأماني ليذهلوا بذلك عن الركون إلى الله وعن التوبة إليه في كل آن فتظل نفوسهم معلقة تتعلل بالآمال والتمنيات وتتشاغل عن ذكر الله وطاعته بمختلف ألوان التمني مثل طول البقاء أو الإكثار من المال والنسل أو الرغبة في وجاهة ظاهرة مرموقة، كل بما يهواه ويترجاه.

ثم يتطاول اللعين على ربه في حوار مذموم وهو يتوعد بالأمر بالبتك، ومعناه القطع ١٦٠ - والتشقيق وموضع ذلك الأنعام فيما يسمّى السائبة والبحيرة - فقد كان العرب يقطعون آذان هذه الأنعام أو يشقّونها ليظل ذلك سمة فيها بما يشير إلى أنها حظ الله - تعالى الله عن تلك السخافات والجهالات علوا كبيرا - وذلك من صور الشرك في بدائية وسوء تفكير التي كان العرب يتخيّلونها ثم يمارسونها في الواقع على هذه الكيفية الجاهلية السخيفة، وذلك كله بتأثير مصطنع يوحي به الشيطان إلى نصيبه من البشر المضلّل المخدوع.

قوله: (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) وقد ورد في المقصود بتغيير خلق الله عدّة أقوال نقتصر منها على ثلاثة وعلى المستزيد أن يراجع في ذلك كتب التفسير.

القول الأول: هو الإشارة إلى تغيير الخلقة طلبا لتحسين مصطنع وذلك كالوشم والتنميص والتفليج لما في ذلك من تكلف مبغوض تتغيّر به الخلقة التي قدّرها الله - وفي هذا أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: " لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ".

والواشمة هي التي تفعل الوشم بأخرى، والمستوشمة التي يفعل بها الوشم - والوشم هو غرز الجسد بالإبرة ثم حشوه بالنيلج أو الكحل ليصير فيه رسوم وخطوط بقصد التزيين والتحسين.

أما المتنمصات فمردها المتنمصة وهو من التنمص أو النمص ومعناه أن تقوم المرأة باستئصال الشعر من وجهها بالمناص وذلك حرام.

وأما المتلفجات فمردها المتفلجة وهي من الفلج أو التفلّج ومعناه التشقيق والتقسيم - ونقول الأسنان المفلّجة أي المنفرجة - والمتفلجة هي التي تفرّج بين أسنانها بالصنعة والتكلف وهو حرام لما في ذلك من تغيير لخلق الله - ويندرج في هذا المفهوم الوصل وهو أن تصل المرأة شعرها وذلك أن تضيف إليه شعرا آخر يصبح به كثيفا - وفي ذلك يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم: " لعن الله الواصلة والمستوصلة ".

القول الثاني: المقصود بخلق الله هو دينه، فالتغيير هنا واقع على الدين نفسه، وذلك يستتبع تغييرا لما انطوى عليه الدين من أمور وتكاليف شرعية فيما يسوق بالتالي إلى المعصية - وذلك قول ابن عباس والنخعي وهو الذي اختاره الإمام الطبري في تفسيره.

القول الثالث: هو أن المقصود بالخلق هنا الفطرة التي فطر الله الناس عليها - والفطرة من الفعل فطر بمعنى خلق وأنشأ، فالفطرة هي الخلقة التي جاء عليها الإنسان أو هي طبيعة تكوين الإنسان من حيث خلقته النفسية والروحية.

والفطرة التي جاء عليها الإنسان هي الإسلام - فإن الله عز وعلا قد خلق ابن آدم على أساس من التدين الذي يسري في الصميم من أغوار النفس البشرية، ولا يجرؤ على جحود هذه الحقيقة إلا غبي مكابر أو زنديق أثيم - وليس في جحود هذه أو تغييرها إلا التغيير في خلق الله - ذلك أن الفطرة من خلق الله وأنها تتضمن الإسلام الذي يعني الامتثال والخضوع لله في دينه وشرعه - قال سبحانه في ذلك: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وعلى هذا فإن إقامة الوجه للدين الحنيف لهي الفطرة عينها وهي الكيفية أو الكينونة التي خلق الله عليها الإنسان، وأي تلاعب في

تصوّر هذه الحقيقة أو مجرّد التغيير فيها يعتبر تغييرا لخلق الله.
وفي السنة المطهرة ما يكشف عن هذه الحقيقة بجلاء لنعلم أن الإنسان قد خلق مسلما على الفطرة، إذ يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمّاء هل تجدون بها من جدعاء ".
وأخرج مسلم بإسناده عن عياض بن حمّاد قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: قال الله عز وجل: " إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ".
وجملة ذلك أن الفطرة البشرية تتطابق تطابقا كاملا مع دين الإسلام وأن الالتزام بالإسلام في تعاليمه وشرائعه وتصوراته وعقيدته لهو الفطرة نفسها التي جاء عليها الإنسان والتي لا يجوز بحال أن تتغيّر فإن تغييرها يعني التغيير في خلق الله ١٦١.
وقوله: (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) الذي يلوذ بالشيطان ويركن إليه ليستمد منه العون والنصرة لهو الذي حاق به الخسران في الدنيا والآخرة.
وهذه حقيقة لا ريب فيها فقد نطق بها الكتاب الحكيم مثلما نتلوا الآن وكذلك قد صدّقها الحس من خلال الواقع والتجربة التي يمر بها الإنسان - ذلك أن الخروج على طاعة الله والانصياع لأمر الشيطان اللعين الرجيم لهو الخسارة الفادحة القاصمة التي تؤدي بالمرء إلى السقوط والتخسير - وهو تخسير غامر شامل يتناول من يذهل عن أمر ربه ليكون في دنياه تعسا شقيا متضانكا وهو يعاني من جراء ذلك أشد ألوان المعاناة من ضيق ومكابدة وقلق.
أما في الآخرة فلا جرم أن يكون الخُسران في الدنيا بالقياس إليه إلا هيّنا هزيلا حتى لكأنه لا يعدل شيئا - وهو خسران فظيع مريع لا يطيق احتماله بشر لهوله واشتداد تحريقه الأليم.
ولذلك فقد تعس من استعان بغير الله من الشياطين - لقد تعس تعسا مذهلا بما تنطوي عليه من إهلاك وتخسير - أجل إنه تعس وانتكس وإلى الدركات في الجحيم قد ارتكس!!.
١٢٠ - (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا)
قوله: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) يعد الشيطان أتباعه بكل ضروب الخير والأهواء كالمال والرياسة والشهرة ونحو ذلك، وأنهم سوف يحظون بكل ما يتمّنونه من مثل هذه الخيرات بما يرضي فيهم الميول والرغائب - لكن الحقيقة التي تغيب عن أذهان هؤلاء الأتباع المغفلين أن ما يعدهم به الشيطان من عطاء وتمنيات ليس إلا غرورا تنخدع به نفوسهم الهلوعة المخدوعة - والغرور بالضم، معناه الباطل وبذلك فإن ما يعد الشيطان به أتباعه ويمنّيهم به ما هو إلا افتراء منه وباطل.
١٢١ - (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)
وهم بالتالي مصيرهم الهلاك والتخسير وأنهم صائرون إلى جهنم لا محالة وليس لهم من دونها محيص - والمحيص من الفعل حاص واحتاص ومعناه لجأ أو تحفّظ، والمحيص هو الملجأ أو الملاذ أو المناص الذي يلجأ إليه الثاوي حفاظا على نفسه من الضر والأذى.
١٢٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا)
وقوله: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أولئك هم ذوو الحظ العظيم ورثة جنة النعيم وهم الذين آمنوا ثم اقترن إيمانهم بالعمل الصالح - وذلك هو شرط الفلاح والنجاة أن يقترن الإيمان العميق بالعمل في طاعة الله جل وعلا، ذلكم هو التكامل الحقيقي في شخصية المسلم أن تجتمع في قلبه أركان الإيمان فتحيط بشغافة كله، مع العمل النافع الصالح الذي يتحقق عن طريق الحس والجوارح سواء باللسان أو اليدين أو القدمين أو غير ذلك من أعضاء البدن التي تتسخر طيّعة نشطة للعمل بما يرضي الله.

هؤلاء الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان ثم سعوا في الأرض جادين عاملين، أولئك الذين وعدهم الله أحسن تأويل وخير عاقبة، حيث النعيم والمقيم في جنات الله الخوالد، حيث الأنهار التي تجري سائحة فيّاضة وهي تطوي معها الخير وروعة البهاء والجمال، والمؤمنون حينئذ آمنون محبورون تحفّ بهم الخيرات والبركات من كل جانب وتحف بهم الملائكة بالسلام الميمون ثم تجليهم إشراقة البركة والنور من الله التي تسري في الكون كله لتبدّد منه الظلمات وتنشر في أرجائه الضياء والبهجة.

قوله: (وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا) وعد مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف تقديره وعد - حقا، مصدر ثان مؤكد لغيره - أي حق ذلك حقا، وتبين الآية بأن قول الله صدق، ووعده حق، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا ريب أنه سبحانه أصدق الصادقين إذ ليس من أحد أصدق من الله (قيلا) أي قولا وهو منصوب على التمييز - وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في خطبته إذا خطب " إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد - صلى الله عليه وسلم - " ١٦٢.

١٢٣ - (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)

قوله تعالى: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا).

ثمة روايات عديدة ومختلفة في سبب نزول هذه الآية - فقد قيل إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم - وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيّين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به).

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: تخاصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب ونبيّنا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام وكتابنا نسخ كل كتاب ونبيّنا خاتم النبيين وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا فقضى الله بينهم وقال: (ليس بأمانيكم - - .) ١٦٣ الأمانيّ مفردها الأمنية ومعناها البغية أو ما يُتمنى من الأمور - وفي الآية بيان حاسم يفصل بين هؤلاء المتجادلين في غير مجاملة أو محاباة أو هوادة، والأصل في ذلك أن الإسلام لا يقيم وزنا للنعرات العصبية الفارغة، أو المفاخرة بالآباء والأجداد ولا المباهاة بالأشخاص والعناوين وكل المظاهر الشكلية، لا يعبأ الإسلام بشيء من ذلك، إنما يعبأ بالعقيدة الصحيحة المستقيمة والإيمان الساطع المستنير ليزن الأمور والأشخاص جميعا بميزان الإيمان الصحيح والعمل المخلص النافع المتواصل وكفى، والله سبحانه يحسم الخلاف هنا ليبين للمتخاصمين أن النجاة لا تكون بالتمني ولا بإطلاق الأماني من غير عمل مخلص مشروع، فإن الذي يعمل السوء لسوف يلقى جزاءه كيفما كانت ملّته التي يدين بها، فلا يسرع بالمرء نحو الفوز والنجاة إلا عمله الصالح، وليس في مجرّد تمنّيه من غير عمل إلا ما يبطئ به دون النجاة والخلاص.

ويبدو أن ثمة إشكالا في قوله تعالى: (من يعمل سوءا يجز به) فإن هذا المفهوم يفيد العموم من غير تخصيص كما يفهم من ظاهر الآية فليس من أحد يقارف سيئة أو محظورا إلا وهو مسؤول عنه ومجازى، وكأن التوبة من العبد لا تؤثر في إذهاب الجزاء عنه!.

وخير ما جاء في ذلك فيما يزيل الإشكال هو ما قاله جمهور المفسرين: وهو أن لفظ الآية عام وأن كلا من الكافر والمؤمن يجازى بعمل السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار، وذلك لكفره الذي أورده أشدّ الجزاء، وأما مجازاة المؤمن فتتحصل له بما يمسه من ضروب الشقاء والمتاعب كالفقر والمرض والحزن والنصب وغير ذلك مما يقع الإنسان في الدنيا - ومثل هذه المصاب والمتاعب تتكفّر بسببها سيئات المؤمن وخطاياه لينجو في الآخرة - وهي نفسها الجزاء المقرر للمؤمن في حياته في مقابلة ما ارتكب من تقصير وخطيئات.

فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! كيف الفلاح بعد هذه الآية: (من يعمل سوءا يجز به) فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ " قال: بلى قال: " فهو ما تجزون به ".

وفي حديث آخر أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال: لما نزلت: (من يعمل سوءا يجز به) شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " سدّدوا وقاربوا، فإن كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة

ينكبها ".

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أنه قال عقيب نزول هذه الآية: بكينا وحزنّا وقلنا يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أبقت هذه الآية من شيء قال: " أما والذي نفسي بيده إنها لكما أنزلت ولكن أبشروا وقاربوا وسدّدوا، فإنه لا يصيب أحدا منكم مصيبة في الدنيا إلا كفّر الله بها من خطيئته، حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه ".

قوله: (ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) لا ينفع أحدا أن يتمنى ولا ينجيه من العذاب أن يطلق التمنيات بغير حساب من عمل صالح - فإن ما يجتاز به العبد صراط الحساب هو العمل الخالص لوجه الله، وهو في أية حال ليس له من دون الله أي معين أو مجير أو نصير، يستوي في هذا الحكم أن يكون العبد مؤمنا أو كافرا.

١٢٤ - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

قوله تعالى: (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) - تلك قاعدة من قواعد الإسلام المرساة، وهي قاعدة أساسية ثابتة تقوم على التكافؤ العادل بين العطاء والجزاء، أو بين العمل والمثوبة المستحقة، يستوي في ذلك الإناث والذكران - فلكل عامل أجره ذكرا كان أم أنثى، ولا يغني اختلاف الجنس في هذا المجال شيئا، وليس من شيء يغني سوى العمل الصالح، فلا تغني الذكورة أو الأنوثة، ولا الحاكمية أو المحكومية، ولا الغنى أو الفقر، ولا الوسامة أو الدمامة، ولا الشباب أو الكهولة، ولا العرق أو اللون، ولا شيء من أشباه ذلك يغني - لكن العمل الصالح وحده يغني صاحبه بغضّ النظر عن جنسه من حيث الذكورة أو الأنوثة، على أن يسبق ذلك كله الإيمان الصحيح المستقيم.

على أن العمل كيما يكون مقبولا لا يجب فيه شرطان، ولا قيمة أو اعتبار للعمل المبذول إذا لم يتحقق هذان الشرطان معا حتى إن تحقيق أحدهما دون الآخر لا يغني.

والشرطان أحدهما: أن يكون العمل المبذول مشروعا أي موافق للشرع فلا يأتي مخالفا له أو معاوضا - وذلك تحديد يفهم من قوله (الصالحات) فالصالحات من الأعمال ما كان موافقا للشرع وليس مخالفا - ومخالفة الأعمال للشرع تبطلها، وموافقتها له أمر مشروط - وبذلك فإن ميزان القبول هو تحقق هذا الشرط الأساسي وهو ألا يتعارض الشرع والعمل - ويؤخذ من ذلك أن الأعمال المحظورة أو المنهي عنها أو ما كان من المحدثات والضلالات والبدع، كل أولئك غير مشروع؛ لأنه وقع على غير مقتضى الشرع.

ثانيهما: النيّة: وهي شرط عظيم في القبول ولا تسويغ للعمل من دونها - والنيّة محلّها القلب كما ورد وهي سابقة على العمل في الحصول - ومعناه أن يتجه العبد بقصده إلى الله أو أنه يبتغي من وراء ما قدّمه من عمل مرضاة الله، وهي الغاية العظيمة القصوى التي تراود المؤمن طيلة حياته - وفي أهمية النية وضرورة وجودها وسبقها من أجل القبول يقول الحديث المشهور المستفيض: " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ".

على أن اشتراط النية يستلزم بغير مندوحة أن يتحقق الإيمان لدى العبد - فشرط النية لتكون سليمة صحيحة أن يكون العبد مؤمنا، وإذا لم يكن على الإيمان فإن عمله يظل هباء منثورا لا يشفعه قبول ولا يغني صاحبه إلا الذكر وحسن الثناء في هذه الدنيا - أما في الآخرة فإنه يأتي بغير عمل ولا جزاء - وقد جاء تأكيدها هذا المعنى في قوله: (وهو مؤمن) الواو حالية، والجملة الإسمية في محل نصب على الحال فلا يغني العمل عند الله شيئا إذا كان من كافر فمن كان على غير الإيمان فقد جهر بالعداء والجحود لله وأقام نفسه في مشاققة خصيمه مع الله، وذلك هو الكفران المتنكر الغليظ فأنى لله سبحانه أن يتقبّل عملا من هذا العبد الجاحد المتنكر في غلظة؟!

قوله: (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) المؤمنون الذين يعملون الصالحات مثلما بينا من اشتراط القبول، فأولئك جزاؤهم الجنّة إكراما من الله لهم على ما قدّموا ورحمة وفضلا يمتنّ بهما سبحانه على عباده العالمين المخلصين.

قوله: (ولا يظلمون نقيرا) لا يبخس هؤلاء شيئا من الجزاء الذي يستحقونه مقابل ما أسلفوا في الأيام الخالية ولا يقع عليهم أدنى ظلم حتى ولو كان (نقيرا) والنقير معناه النقرة في ظاهر نواة التمرة.

١٢٥ - (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا)

قوله تعالى: (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا) ذلك استفهام فيه تقرير ونفي، فهو تقرير لحسن الإسلام وإظهاره على الدين كله، وهو كذلك يتضمن نفيا أن تكون ثمة ملة أحسن من الإسلام - ذلك أن الإسلام ينطوي على قواعد وأسباب تجعله أكمل الأديان كلها وأعظمها صلوحا للحياة البشرية، ولئن كان كل دين خاصا بأمة محدودة من الأمم في زمن معين فإن الإسلام مقدور له أن يكون للبشرية كلها وللزمان كله إلى أن تفنى الحياة وما فيها - ولا نقول ذلك إلا من الإدراك الكامل بأن الإسلام نظام الحياة جميعا - وهو نظام يقوم على جملة مقوّمات وخصائص تجعله صالحا لكل زمان ومكان وتجعله يلائم الطبيعة البشرية وينسجم معها أكمل انسجام من غير إفراط في ذلك ولا تفريط.

قوله: (أسلم وجهه لله) من شأن المسلم أن يسلم كيانه البدني والشخصي كله إلى الله ليكون بذلك متوجها بجوارحه وجوانحه وحسه وشعوره إلى الله - أما ذكر الوجه هنا فهو لشرفه؛ ولأن فيه ما يغني عن ذكر الجسد كله - والوجه في الإنسان أجلى وأحسن ما فيه وهو يمثل الصورة الوافية المميزة للإنسان، فضلا عما في الوجه من أجزاء ومركبات أساسية مثل السمع والبصر والذوق والشم والنطق، وهي أجزاء ومركبات بها تركيبة الإنسان فيستتم كيانه وتشخصه، وبذلك فإن ذكر الوجه لهو تعبير عن الكيان كله وذلك من باب ذكر الجزء بدلا من الكل؛ لما للجزء من الأهمية وشرف المكانة والشأن - والمراد في الآية إخلاص النفس لله وحده فلا تعرف لها ربا ولا معبودا سواه - وقوله: (دينا) منصوب على التمييز وقوله: (وهو محسن) الواو للحال والجملة بعدها اسمية تتألف من مبتدأ وخبره - والمحسن من الإحسان وهو كما بينه (ص) لدى إجابته عن سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وتلك هي حال المؤمن مع ربه؛ إذ يعبده في السر والعلن، ويخشاه في كل آن، وهو يقظ الحس رهيف الضمير، ومستديم الصلة بربه سبحانه فلا تبرح قلبه اليقظة والرهافة في جميع الأحوال والهيئات، وذلك هو الإحساس المؤثر الذي ينطبع في قلب المؤمن ليظل دائما رقيب نفسه ويظل يغمره اليقين بأن الله يراه وأنه سبحانه مطّلع عليه في معلناته وخفاياه.

قوله: (واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا) - الملة معناها الطريقة أو الشريعة أو الدين ١٦٤ - والحنيف من الفعل حنف، ومعناه مال - والحنفية هي التوحيد والميل عن الشرك - فالحنيف هو الذي يعبد الله وحده من غير ميل إلى أحد سواه ١٦٥ - وفي الآية يأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يتّبعوا ملّة إبراهيم في الإخلاص والتوحيد والحنيفية، فقد كان عليه السلام (أمة) أي إماما يقتدى به في الاستقامة والميل عن الشرك، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لذو شأن عظيم ومنزلة رفيعة قد خصّه الله بها لما تجلّى في شخصه المميز من ورعة الإخلاص والتقوى وسمو الطاعة والخشوع والإخبات لله بما يعز على الهمم وطاقات البشر أن تبلغ مثله وحسب إبراهيم الخليل أن تصدع له الشهادة من السماء بالإمامية والقنوت والحنيفية والإخلاص: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وقوله: (خليلا) من الخلّة وهي الصداقة ولا تكون إلا بين الآدميين - لكنها في حق العبد مع الله تعني أرفع الدرجات أو أعلى مراتب القربة.

وقيل: الخليل من التخلّل أي أن محبّته تخلل القلب فلا يبقى منه مكان إلا وقد ملأته هذه المحبة، فالمقصود أنه عند الله مقرّب ومحبوب، وقيل غير ذلك.

١٢٦ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا)

وقوله: (ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا) ذلك بيان قاطع وكبير من الله جلّت قدرته بأنه مالك كل شيء في السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن - فالخلق والكائنات جميعا قبضته وبين يديه - ولعل في ذلك إشارة لاتخاذه إبراهيم خليلا؛ كيلا يسأل واهم عن حاجته لمثل هذه الخلّة - وهي ليست خلة الصديق للصديق كالذي عليه الناس ولكنها مرتبة قاصية سامقة في التقرّب والإكرام، ذلك أن الله غني عن صداقة أحد وأعوانه فهو الذي يملك كل شيء بما في ذلك الخلائق والأحياء والأجرام وما تناثر في أرجاء الكون الهائل المخوف من أشياء وكائنات.

قوله: (وكان الله بكل شيء محيطا) إنه سبحانه منذ الأزل الغائر في القدم وفي الأبد الممتد الأبيد لهو محيط بكل شيء - وإحاطته تتضمن علمه المطلق غير المحدود وهيمنته الغامرة المستحوذة، فهو سبحانه عليم بما كان وما سيكون وما لم يكن بعد، وهو لا يندّ من علمه خبر من أخبار السماوات والأرض أو أخبار الأحياء والأموات أو أخبار الأولين والآخرين، سواء في دنيا الفناء أو دار الآخرة حيث الديمومة والبقاء - وهو كذلك مهيمن على الوجود وما فيه بماله من قدرة متسلطة قد بسطها على الخليقة كافة - كل ذلك نتلمسه من كونه محيطا بكل شيء كما جاء في الآية، والإحاطة لفظة معبّرة أو في التعبير لا نتصوّر لفظة أخرى تعطي مدلولا مثل ما لها من مدلول - وتلك واحدة من روائع القرآن في التعبير بما يقطع أنه معجز وأنه من طريق الوحي ١٦٦.

١٢٧ - (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)

قوله تعالى: (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء التي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما).

المعنى الإجمالي لهذه الآية أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يرغب في زواجها فله ذلك على أن يقدّم لها المهر كاملا ولا يظلمها في شيء، وإذا لم يفعل ذلك فعليه أن يعدل عنها إلى غيرها من النساء وهن كثيرات - وهذا المعنى قد ورد في مطلع السورة في قوله: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع).

وإذا لم يكن الرجل راغبا في الزواج من هذه اليتيمة التي في حجره لدمامتها أو سبب آخر فلا يحق له أن يحيف عليها بعضلها (منعها) عن الزواج من آخرين مخافة أن يشاركوه في ماله الذي اختلط فيما بينه وبينها - وهذا هو المراد في هذه الآية: (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن) فالله يفتي المسلمين في سؤالهم النساء وطريقة التعامل معهن من حيث الزواج والعشرة وما لهن من حقوق.

قوله: (وما يتلى عليكم في الكتاب) ذلك رجوع إلى مطلع السورة المتعلق بأمر النساء - واسم الموصول (ما) في محل رفع معطوف على لفظ الجلالة قبله - وعلى ذلك فالمعنى هو أن الذي يتلى عليكم وهو القرآن يفتيكم - أي أن الله يفتيكم، وكذلك القرآن يفتيكم مثلما ورد في أول السورة: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع).

قوله: (في يتامى النساء التي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن) ذلك في اليتيمة تكون في حجر الرجل وليست له الرغبة في الزواج منها لدمامتها أو نحوه ثم يمنعها من الزواج من غيره ليستأثر بمالها فلا يشاركه فيه غيره - وفي قوله: (وترغبون أن تنكحوهن) قيل: (أن) معناها عن - أي وترغبون عن نكاحهن - وفي الآية نهي عن هذا العضل (المنع) لما فيه من حيف يحيق بالمرأة فتظل معلّقة بغير زواج بغية مالها الذي يطمع فيه الوليّ الظالم فيطغى عليها من أجله.

وقوله: (والمستضعفين من الولدان) عطف المستضعفين على النساء الأولى أي أنهم يسألون عن أحكام الولدان الصغار مثلما سألوا عن أحكام النساء، وذلك من حيث حقهم في الميراث - فقد كان العرب لا يورثون النساء ولا الذكور الولدان حتى نزلت شريعة الإسلام فأوجبت لكل ذي حق حقه سواء كان ذكرا أم أنثى - والأساس في ذلك هو قوله تعالى: (للذكر مثل حظ الأنثيين) يستوي في ذلك الكبار والصغار بدءا بالجنين في بطن أمه حتى الشيخ الطاعن المتقدم فهم جميعا تفرض الشريعة لكل واحد منهم نصيبا مفروضا لا تملك أية قوة في الأرض أن تحرمه منه.

وقوله: (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) هذه الوصية من الله للأولياء والأوصياء باليتيمات اللواتي في حجورهم ممن لسن على شيء من الجمال - فعلى هؤلاء القائمين عليهن أن يرعوهن ويقسطوا إليهن، فإما أن ينكحوهن أو يزوجوهن غيرهم - وذلك تأكيد لما سبق من بيان.

ولعل من الصواب أن تأتي التوصية باليتامى على وجه العموم سواء كانوا من الذكور أو الإناث وسواء كانت الإناث ذوات جمال أو دمامة - فالله جلت قدرته يوصي باليتامى عموما كيما يحاطوا بالعناية والاهتمام، وأن يعاملوا بالرفق والقسط والحسنى.

قوله: (وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) ذلك ترغيب للمسلمين في عمل الخير - والخير ضروبه كثيرة، لكن المقصود منها هو

الإحسان لليتامى ومعاملتهم بالود والقسط والحسنى - وخصوصا إن كان اليتامى من البنات اللواتي في الحجور فهن أشد حاجة للعطف والاهتمام وعدم الحيف عليهن، ولا ريب أن يكون الإحسان لليتامى مجلبة لعظيم الأجر من الله وهو سبحانه عالم بذلك، إذ يكتب لعباده الأبرار المقسطين ما أسلفوا فيجزيهم عن ذلك خير الجزاء ١٦٧.

١٢٨ - (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

قوله تعالى: (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما).

قوله (إن) أداة شرط - (امرأة خافت من بعلها - -). جملة الشرط - امرأة فاعل مرفوع لفعل مقدر يفسره ما بعده - وتقدير الكلام: وإن خافت امرأة من بعلها - - - وجواب الشرط مقترن بالفاء ويتألف من الجملة الإسمية (فلا جناح عليهما - -).

والبعل هو الزوج - والنشوز من الفعل نشز ومعناه ارتفع - والمرأة الناشز هي المستعصية على زوجها والتي تترفّع عليه فلا تطيعه - أما النشوز من الرجل للمرأة فهو أن يجفوها وينفر منها أو يحيف عليها إضرارا - والنشوز والإعراض يؤديان إلى نتيجة مشتركة من الجفوة والنفور والإدبار - وقيل: النشوز معناه التباعد، أما الإعراض فمعناه ألا يكلمها ولا يأنس بها.

وقد أورد البخاري في سبب نزول هذه الآية عن عائشة قالت: الرجل تكون عنده المرأة المسنّة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل فنزلت الآية.

وجاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب فسأله عن هذه الآية فقال: يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها أو كبرها أو سوء خلقها أو قذذها فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئا حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج - وورد غير ذلك من الروايات بما يبيّن حكم النشوز من قبل الرجل إذا نفر من زوجته لدمامة أو سوء خلق أو غير ذلك ففكر في طلاقها - والآية تدل بوضوح على أن الصلح خير من الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله، وحقيقة الصلح عند ظهور النشوز أن يتصالح الزوجان على أن يترك كل واحد منهما بعض حقه رغبة في البقاء والاستبقاء ورغبة عن التباعد والفراق.

ولا يخلو النص من تحضيض واضح على المصالحة فيما يجود كل واحد من الزوجين بشيء من نصيبه وحقه للآخر بغية الالتئام وصونا للأسرة أن تتداعى - فيقول سبحانه (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) وقوله: (صلحا) منصوب على المصدر - والتقدير: فيصلح الأمر صلحا - وهو فيه تأكيد على أهمية هذه الحقيقة المرغوبة المشروعة وهي الصلح - فإنها سبيل المودّة وإذهاب للحقد والمباغضة من القلوب لكي تستقيم الحياة ويأتلف الزوجان والأسرة في عيش ودود كريم.

وقوله: (والصلح خير) الصلح اسم من المصالحة وهي وسيلة التراضي وفضّ الخصام مع ما يصاحب ذلك من زوال الكراهية والبغضاء - وقد ورد أن الصلح خير من التقاضي، فإن الأخير لا تخلو فيه القلوب من امتضاض وامتعاض لما في التقاضي من إجهاز ملزم على الموافقة في تراض، لكن الصلح دليل الرضى الاطمئنان، وهو وسيلة التفاهم الذي تتبدد من خلاله بواعث القطيعة والأثرة - فلا ريب أن الصلح كله خير - فهو خير بإطلاق بمعنى أنه طريق الخير وهو ما يتحقق به الخير في مختلف الوجوه - أو أن الصلح خير من الطلاق كما قيل في تفسير الآية.

ويتحقق الصلح بين الزوجين إذا ما تخلى كل منهما عن جزء من حقه للآخر وفي ذلك دلالة السخاء وحسن الخلق وطرد الخسيس من الأنانية في النفس - فالزوجة تعفي زوجها من أن يجد نفسه مجبرا نحوها على المبيت أو المواقعة أو ما شابه ذلك مما تعافه نفسه ولا تطيقه لدمامة فيها أو سوء طبع أو خلق - وكذلك الزوج يظل يؤوي إليه زوجته فلا يطلّقها لما في ذلك من كراهة - وفي ذلك روى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " وبهذا التسامح أو التنازل عن بعض الحق من كلا الزوجين يتم الصلح وهو خير من الفراق.

ولعل وهما يراود أحدا في تصوره وفهمه حول إسقاط المرأة حقها في المبيت أو العشرة بدل استبقائها في البيت بغير فراق - وقد يرى الواهم في ذلك ضربا من الحيف، وما هو بحيف وليس فيه شيء من ميل أو ظلم، لكنه العدل المطلق في أجلى صوره - بل إنه المراعاة الحقيقية الكاملة لطبيعة الإنسان سواء كان ذكرا أو أنثى، ويكشف عن ذلك سببان:

أولهما: أن الزوجة مخيّرة بين أمرين، فإما المفارقة وإما التغاضي عن جزء من حقها فهي ليست مجبرة على شيء من ذلك إجبارا - وعوضا عن ذلك يتغاضى الرجل عن جزء من حقه في وقوع الطلاق فلا يوقعه لما بينا - فليس من حيف أو ميل مادام الأمر على التخيير.

ثانيهما: أن المسألة تكشف عن المراعاة التامة والمطلقة للفطرة البشرية - وهي مراعاة فذّة لا تتحقق في غير هذا الدين الذي يلائم طبيعة الإنسان ويوائم جبلّته التي جاء عليها، وذلك من حيث النوازع والرغائب والاستعدادات التي فطر عليها الإنسان، وهي أساسيات نفسية عميقة لا تملك الأسباب والوسائل طمسها أو إزالتها مهما تعددت في ذلك أقوال المتحذلقين من مصطنعي التربية وأصحاب النظريات الكاثرة المتهافتة في السلوك.

والذي نقصد أن نقوله هو أن الرجل قد يُبتلى بانتكاسة من نفور محض نحو زوجته لسبب من دمامة أو طبع أو خلق بغيض - فما الحكم بعد ذلك؟ فهل نحكم على الرجل بدوام الاحتمال في صبر وفي أناة ثم نكلفه أن يصطنع المحبة اصطناعا عن قسر وإكراه؟! هل نظل نحمله على المحبّة حملا وهو لا يستطيع، أو نفرض عليه الرغبة والميل من حيث يبغض ويستنكف؟ لئن وقع شيء من ذلك فتلك خطيئة بحق الرجل؛ لما في ذلك من القهر المشين، أو لما في ذلك من إرهاق عسير يحيق به فلا يطيقه ولا يحتمله - لكن السبيل إلى الخلاص عن مثل هذا المأزق النفسي أن يُدعى كل من الزوجين إلى الصلح (والصلح خير) لما في ذلك من تنازل معتدل من كل منهما عن بعضه حقه حتى تظل الزوجية صائرة إلى حيث يريد الله لها أن تصير.

وقوله: (وأحضرت الأنفس الشح) الأنفس نائب فاعل مرفوع، والشح مفعول به ثان منصوب وهو يعني البخل والحرص - وهذا البيان من الله غاية في الكشف عن طبيعة الإنسان من حيث حبه لنفسه وتفضيله لمصالحه وشؤونه على الآخرين وتلك هي الأنانية - وهي تخليق مفطور جاء عليه الإنسان بلا مندوحة - والأنفس قد خالطها الشح منذ البداية فهو قد حضرها حضورا أو هو متأصل فيها كالمشهود المحسّ الذي لا يغادر ولا يبارح لعظيم مخالطته ومداخلته.

وتظل الكلمات التي تأخذ على عاتقها التبيين والتفسير تحوم من حول العبارة القرآنية الرائعة الفذّة فلا تعطي من الدلالة مثل ما تعطيه (وأحضرت الأنفس الشح) تظل الكلمات البشرية الموضحة ترفرف من حول هذه العبارة الربانية وما تبلغ إلا جزءا هينا يسيرا مما بلغته العبارة الكريمة من إعطاء للمقصود من خلال ألفاظ قليلة جاءت على نحو فريد معيّن من متانة الصوغ المؤثر العجيب - وفي ذلكم دلالة من دلالات عديدة على إعجازية هذا الكلام الحكيم.

وفي الآية دعوة للزوجين المتناشزين أو اللذين نشز أحدهما أن يبوء كلاهما إلى الصواب، وهي المصالحة التي تحقق بإسقاط كل منهما لجزء مما له على الآخر لتزول عن الزوجية لائحة الفرقة التي تلوح في أفق البيت، ولتعود لهما وللأسرة حياة تموج بالتعاطف والود - إن على الزوج ألا يضن بالبذل أو التغاضي عما له من حق إذا التمست منه الزوجة عدم تطليقها - وأن على الزوجة كذلك ألا تضن بالتغاضي عن حقها في العشرة والمسيس إذا وجدت من بعلها نفورا قد نضبت معه بواعث الرغبة لدمامة أو شيخوخة أو نحو ذلك مما لا يملك الرجل معه أن يجبر نفسه على المحبّة والرغبة في المسيس إجبارا.

في الآية تأكيد على نبذ الشح ما أمكن واطراحه من النفس اطّراحا بعد مجاهدته من خلال مكابدة وترويض إلى أن تتخلص النفس من هذه اللوثة المستحكمة المستعصية قدر المستطاع.

وقوله: (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) - ذلك ترغيب للأزواج في أن يكبحوا ما في نفوسهم من جنوح لغيرهن ورغبة عنهن بسبب افتقادهن للجمال أو المال أو غير ذلك، وفي أن يحتملوا مشقة الصبر على البقاء معهن في عدل ووفاء وفي معاشرتهن بالمعروف ومساواتهن بغيرهن من الزوجات إن كن موجودات دون ميل عنهن أو نفور - وتلك شيمة الأزواج الكرام الذي يعاملون زوجاتهم بالحسنى والذين يظلّون على تقوى من الله فيربأون بأنفسهم عن نوازع الشهوة الجموح وضواغطها الثقال - والله جلت قدرته

مطلع على ما يفعله الرجال الأبرار حيال زوجاتهم من خير وإحسان، فلا يظلمونهن ولا يؤثرون عليهن في حق من الحقوق ولا يميلون عنهن لسبب من أسباب النفس الضعيفة التي تتوق في الغالب إلى الاستمتاع والشهوة.

١٢٩ - (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

وقوله: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) ذلك بيان من الله حاسم يكشف عن طبيعة الضعف في الإنسان - وهو ضعف أساسي مفطور يخالط الإنسان في مبلغ قوته واحتماله، وفي مدى ثباته واصطباره، وفي طاقته الروحية والنفسية والبدنية - وتلك حقيقة ماثلة لا مراء فيها، وهي من الثبوت والقطعية بما لا يقبل الجدال والمشاحنة.

والمقصود بهذا البيان الكريم هو الرجل - فإنه لا يستطيع أن يعدل بين زوجاته حتى ولو حرص على ذلك - والعدل المقصود هنا ما كان باعثه القلب أو الرغبة المستكنّة في دخيلة النفس - فالقلب أساس الحب والبغض وهما إحساس وجداني غير إرادي فلا حيلة للإنسان في تغييرهما أو التأثير فيهما فإنهما من وحي القلب وتأثيره وما القلب إلا بيد الله جلّت قدرته.

وأما النفس فهي أساس الشهوة التي تجنح للجماع ونحوه ويتحقق ذلك كله بوجود الرغبة، وهي خارجة عن مستطاع الإنسان ومقدروه - فإذا لم يكن الرجل راغبا في الجماع ولم يكن له ميل فيه فمن العبث أن يفرض عليه ذلك فرضا؛ لأن ذلك ينبع من داخل النفس حيث الشهوة والرغبة في المسيس.

وعلى ذلك فإن النفي الوارد في هذه الآية متعلق بالتسوية بين النساء من حيث الظواهر اللاإرداية كالحب والرغبة في الجماع - ومثل ذلك يعز على الرجل أن يعدل تماما فيه حتى لو جهده الحرص؛ لأن الطبع غلاّب.

وما يستطيع الرجل أن يعدل فيه هو ما كان فعلا أو ممارسة مقدورين، وذلك كالنفقة والمبيت ولو لم يكن فيه جماع، والبشاشة وحسن الاستقبال، وكريم العشرة في هشاشة ومعروف، كل ذلك يستطيع الرجل أن يقوم بتحقيقه في تسوية بين النساء ولا يجوز له في مثل ذلك أن يميل أو يحابي - وإن وقع شيء من ذلك فهو حرام - وفي مثل هذه الأمور المقدّرة كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أعدل العادلين مع نسائه، فما كان يميل أو يجنح لإحداهن في نفقة أو مبيت أو هشاشة دون غيرها، لكنه فيما لا يملك من حس وجداني أو رغبة نفسية دخيلة قد يميل بقلبه وحسه لإحداهن دون الأخريات - وفي هذا روى الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة فقال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: " اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " وهو يعني بهذا القلب.

على أن الكثير من جهلة هذا الزمان ممن لا يدركون من معارف البيان أو القرآن مثقال قطمير يظنون أن هذه الآية فيها تحريم لتعدد الزوجات بالكلية لنفيها القدرة على العدل بين النساء - وأن الآية الأخرى في مطلع السورة تشترط لجواز التعدد عدم الخوف من انعدام القسط، وذلك فهم خاطئ وموهوم، وهو إنما يدل على جهل مطبق بقواعد اللسان وأصول اللغة، فضلا عن الجهل بأسباب النزول لمثل هذه الآيات الكريمة - والمعلوم أن الآية التي في مطلع السورة ذات معنى ودلالة مستقلين تماما - والآية الثانية وهي الواردة هنا ذات بعد ومدلول من صنف آخر، فلا علاقة لهذه بتلك - ذلك أن الأولى كما بينّا في موضعه تتحدث عن تحرّج بعض المسلمين من نكاح اليتيمات اللواتي تربين في حجورهم خشية أن يظلموهن، فإن كانوا على مثل هذه الحال من التحرج فلا جناح عليهم أن يلتمسوا زوجات أخريات: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) على ألا يكون في مثل هذا التعدد حيف يحيق المرأة، فإن كان ثمة حيف أو عدم عدل فلا - والمقصود بالعدل هنا ما كان مستطاعا وهو من مقدور الرجل وذلك كالإنفاق ونحوه - لكن العدل الذي لا يستطيعه أحد من الناس فهو ما كان وجدانيا أو نفسيا، أو ما كان مبعثه القلب والنفس - حيث الحب والبغض والشهوة.

قوله: (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) وهو نهي عن الميل بالكلية لإحدى الزوجات؛ كيلا تظل الأخرى كالمعلّقة - أما المقصود بالميل كل الميل ففيه قولان:

الأول: وهو أنكم إذا ملتم بقلوبكم ونفوسكم إلى واحدة من الزوجات فلا تغلوا في الميل نحوها غلوا - ومفهوم هذا الرأي أن النهي واقع

على الجنوح الوجداني بإسراف ومغالاة، فإن كان جنوحا في غير مغالاة فلا جناح فيه مادام مبعثه القلب أو النفس، لكن الجنوح في إفراط ومغالاة محظور، لأنه يترك الأخرى كالمعلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلقة.

القول الثاني: وهو أن المقصود بالميل المنهي عنه هنا هو العدول عن التسوية بين الزوجات في القسم والنفقة وغير ذلك مما يستطاع.

وما ينقدح للذهن من قول مرجح هو الأول - وهو ما يفرضه سياق النص الذي يضمن نفي القدرة على العدل مع ما يرافق ذلك من حرص - فإن كان الميل الذي يكون أصله القلب أو النفس مباحا فإنه لا يجوز لأحد بعد ذلك أن يجنح جنوحا مفرطا في الميل متذرّعا بنفي الإثم عند عدم العدل والتسوية كما بيّنا - فإن مثل هذا الجنوح المغالي يجعل المرأة كالمعلّقة - وهو جنوح كثيرا ما يقود إلى عواقب مذمومة تحيق بالمرأة وهي تجد نفسها لا على شيء - فلا هي مطلقة فتكون أجنبية يتسنى لها الزواج ولا هي زوجة بالفعل - ومثل هذه الدرجة من الجنوح قد نهى عنها الشرع وحذّر مرتكبيها تحذيرا شديدا، فقد أخرج الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط ".

قوله: (وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما) ذلك شرط إذا ما تحقق فإن الله يغفر للمسيئين المتجاوزين من الأزواج الذين يميلون في حبهم ورغبتهم كل الميل والذين لا يستطيعون أن يعدلوا ولو حرصوا - والشرط هو الإصلاح والاستقامة والتقوى، فإن على من يجنح نحو زوجة أن يبادر بإصلاح أمره وما حوله وأن يكون على تقوى من الله في جميع شؤونه - وله من الله بعد ذلك رجاء في الغفران والرحمة.

١٣٠ - (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)

قوله: (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما) إذا لم يُجد الصلح نفعا ولم يؤثر في جمع القلوب النافرة وباتت الحياة الزوجية مريرة مستعصية فلا مناص حينئذ من الفراق، وذلك هو الحل النهائي الوحيد الذي تزول به بواعث النفرة والتشاحن من غير رجاء في الصلاح - وهما إذا تفارقا فإن الله جلّت قدرته سيغني بواسع فضله وكرمه كلا منهما - فعسى بعد ذلك أن يهيء الله للزوج من تسكن نفسه إليها من زوجة جديدة تلائم هواه وطبعه، وعسى أن يهيء للزوجة كذلك من تطمئن إليه من زوج جديد ليكونا معا زوجين منسجمين متوادين.

وقوله: (وكان الله واسعا حكيما) الله الباسط المنّان صاحب الفضل والعطاء الواسع يهيء للعبد من الخير والفضل ما ليس في الحسبان، وهو سبحانه له في مقاديره حكمة قد نقف على بعض منها أو نجهل منها كثيرا ١٦٨.

١٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)

قوله تعالى: (ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا).

ذلك إعلان أكبر تقرره هذه الآية، وهو إعلان صادع مجلجل يخاطب الله فيه الإنسان من خلال كلمات سريعة قصيرة تحمل في مضمونها أعظم مدلول - وهو أن الله جلّت قدرته يملك كل شيء بما في ذلك السماوات ومن فيهن والأرض ومن عليها من خلائق وأحياء وما بين الأرض والسماء من كائنات وأشياء - فالله سبحانه هو المالك الأكبر الذي يهون دونه كل مالك في المالكين، وهو الغني الأكبر الذي يصغر دونه كل غنيّ - ذلك مدلول أساسي عظيم تحمله الآية ليعلم العبد أن الله هو القادر وأنه الغني بإطلاق وأنه مالك الكون كلّه أو الوجود كله.

هذا الإله الخالص الكبير المبدع جدير بالعبادة كلها وهو سبحانه قمين بأن يتّقيه الخلق جميعا وأن يوجلوا منه وجلا شديدا - وبذلك فقد وصّى الله هذه الأمة والأمم الخالية أن يتّقوه وحده من غير شريك - ولئن قارفوا شيئا من كفر بعد هذه التوصية وذاك الإعلان فإنه سبحانه لا يعبأ بهم جميعا؛ لأنه غني عنهم فهو مالكهم ومالك غيرهم من سموات وأرض وغير ذلك من خلائق - فمن يملك مثل

هذا الملك الهائل المطلق قمين ألا يعبأ بالناس كافة، سواء آمنوا أو ارتكسوا في الكفر، ولذلك قال سبحانه: (وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا).

١٣٢ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

وهذا المعنى في عظمته وجلاله يقتضي التكرار في غير مرة إحقاقا لتصوّر ديني أساسي ليظل مركوزا في صميم الذهن والقلب من الإنسان فقال سبحانه للمرة الثالثة:

(ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) وكيلا منصوب على التمييز ومعناه حافظا مدبّرا.

١٣٣ - (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا)

وقوله: (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) ذلك نذير من الله للناس يظل يتهددهم بالزوال والتدمير ليستخلف من بعدهم آخرين خيرا منهم - وذلك مثل قوله تعالى في موضع آخر (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وقوله: (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) فإذا لم يفئ الناس إلى منهج الله عقيدة وأخلاقا وتصورا وتشريعا، فإن قرارا من الله بالزوال والتدمير يوشك أن يحيق بهم، فإذا هم أثر بعد عين أو أنهم أخبار وأقاصيص تتناقلها الكتب والقراطيس - فليحذر الناس الذين يخالفون عن أمر الله في منهجه للحياة أن تنزل بساحتهم قوارع التبديد المدمّر الذي يأتي على الحياة والأوضاع والحضارات جميعا فيذرها قاعا صفصفا بعد أن كانت تموج بالحركة والحياة - والله سبحانه قادر على مثل هذا التبديد والتدمير، وهو سبحانه لا يعز عليه شيء أراد له أن يكون، فإنه لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه.

١٣٤ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

قوله: (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا) - ذلك خطاب لهواة المتاع وطلاب الدنيا من مشركين ومنافقين وضعاف الإيمان - أولئك الذين يبتغون الدنيا وحدها، ويسعون من أجلها سعيا كثيفا حثيثا، ويكدحون في سبيل الشهوات ما يسبب لهم العناء والرهق - - .

إلى هؤلاء تعلن الآية أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة - وإذا أبى الناس إلا البغية والطلب فليبتغوا الدنيا والآخرة معا لا الدنيا وحدها - فابتغاء الدنيا من دون الآخرة معناه الحرمان الفادح من عطاء الله وفضله أو هو التخسير البئيس الذي يدنو دونه كل تخسير - وخير حال للمؤمن الصادق المخلص أن يدعو بمثل ما قالت الآية الكريمة عن عباد الله الصابرين الأطهار: (ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وقد جاء قوله هذا بعد قوله: (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق).

وقوله: (وكان الله سميعا بصيرا) الله مطلع على أعمال الناس فلا يخفى عليه شيء - وما يفعل البشر من فعل ولا ينطقون من كلمة أو يشيرون من إشارة إلا كان الله رقيبا عليهم فهو يسمعهم ويراهم ويحيط علمه بهم وبما يستكن في دخائلهم من خبايا ومكنونات.

١٣٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) - هذا أمر من أوامر الله للمؤمنين بأن يلتزموا بالعدل في القضاء أو الحكم أو الشهادة، فإن عليهم أن يعدلوا مهما تكن الظروف وكائنا من كان المشهود عليه - وقوله: (قوامين) خبر منصوب مفردها قوّام، وهو مبالغة من حيث الصيغة - والقوّام الذي يكون كثير القيام - واشتراط القيام المطلوب أن يكون بالقسط من غير التفات لأي اعتبار من الاعتبارات - وقوله: (شهداء) منصوب على أنه صفة القوامين - وقيل منصوب على الحال والأول أقوى.

وقوله: (شهداء لله) أي أن تأتي الشهادة بالقسط من أجل مرضاة الله وفي سبيله - والعدل أصل ركين أكبر من الأصول التي دعا

إليها الإسلام - وهو أصل قامت عليه السماوات والأرض، وبالتالي قامت الحياة وما في وسطها من خلائق وكائنات - ذلك كله قد جاء بالحق والعدل، فضلا عن حكمة الله البالغة المقدورة فيما أراد وفيما قدّر وخلق.

وقوله: (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) حقيقة الشهادة بالقسط توجب ألا يتزحزح الشاهد عن كلمة الحق قيد أنملة فلا يحرّف ولا يبدّل ولا يكتم، فإن كان كذلك كان عن المقسطين، على ألا يجنح في الشهادة للسقوط في الهوى تحت ضاغط مؤثر من عاطفة الأنانية للذات أو الوالديّة التي تشد المرء نحو أبيه شدا، أو القرابة التي تثير في نفس الشاهد فيضا من الإشفاق والحياء - ولقد ذكرت الآية أصنافا ثلاثة من الناس هم أدنى الخلق إلى الشاهد، وقد جاء ذكرهم بالتحديد؛ لأنهم مظنّة التهمة بما يثير الشك أو الريبة لدى النطق بالشهادة في أي ظرف من الظروف.

وقوله: (ولو على أنفسكم) ينبغي للشاهد لدى النطق بالشهادة أن يقول الحق حتى وإن كان في ذلك ما يجعله مدينا فعلا - وذلك شرف له أمام الخالق إذ يكتبه من الصادقين الثابتين الذين ينطقون بالحق - وكفى بمثل هذا المرء أن يبوء بالفضل من الله والمثوبة وليكن بعد ذلك ما يكون مما يتصوره البشر عسيرا لا يطاق.

وقوله: (أو الوالدين والأقربين) (أو) أداة عطف وما بعدها معطوف على أنفسكم - وذكر الوالدين فيه تأكيد مشدّد على إرساء حقيقة العدل في الذهن أولا ثم في ساحة الواقع الذي تتزاحم فيه القضايا والمشكلات وتكتظ فيه الخصومات والنزاعات بلا انقطاع - وهناك تستبين عزائم المؤمنين الثابتين الذين لا يخشون في الله لوم لائم، والذين يقولون الحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين وتستبين كذلك عزائم الضعاف والخائرين الذين تتهاوى فيهم الهمم والإرادات ليلوذوا بالمداهنة أو المصانعة تحت مطرقة الهوى الجارف الذي تلين أمامه أعصاب الكثيرين وهم تغشاهم غاشية من عاطفة حرّى أو حياء شديد.

قوله: (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) اسم كان محذوف وتقديره المشهود عليه - فلا ينبغي أن تتأثر الشهادة بحال المشهود عليه سواء كان غنيا أو فقيرا - فإن كان غنيا روعي لغناه رهبة أو قلقا، وإن كان فقيرا روعي لفقره عطفا وحدبا - فإن الشهادة لا تتقوّم على شيء من مثل هذه الاعتبارات وإنما تتقوّم على أساس موضوعي بحت لا تراعى فيه حالات الغنى والفقر أو الحسب والنسب أو الصهرية أو بقية الروابط القائمة على الشهوة والهوى - ينبغي أن تقوم الشهادة بقسط لا يعرف الميل أو الزيغ فإن كان المشهود عليه غنيا أو فقيرا فإن الله جل وعلا لهو أولى بكل واحد منهما، ولن يكون الشاهد أكثر عطفا أو حدبا عليه من الله، فالله وحده هو الذي يتولّى مثل هؤلاء وما على الشهداء إلا أن يؤدّوا الشهادة على وجهها الصحيح.

وقوله: (أن تعدلوا) أي لئلا تعدلوا - وذلك متعلق بما قبله، فالله يحذّر من اتبّاع الهوى، الذي يضيع معه العدل أو أنه إذا اتّبع الهوى رفع العدل.

قوله: (وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) قوله: (تلوا) من اللّيّ وأصله اللّوي ثم أدغمت الواو في الياء فصارت ليا - واللّي هو الميل والتحريف في الشهادة عن وجهها الصحيح، وذلك من الزور ومعناه الانحراف عن الحق والميل في الشهادة إلى الباطل - وذلك من أكبر الكبائر التي ندد بها الإسلام وحذّر من بشاعتها وفظاعتها التي يتجرجر بها الشاهد المفتري في جهنّم جزاء ما اقترف من كذب وتزييف - أما الإعراض عن الشهادة فهو كتمانها ورفض الإدلاء بها وهو حرام لقوله تعالى: (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) - وفي ذلك دلالة على وجوب أداء الشهادة عند لزومها أو عند حصول ما يدعو إليها، فإن مجرد إخفائها وتركها طيّ الكتم في الصدر غير جائز.

وقد حذّر الله المخالفين الذين يتبعون الهوى فيلوون في الشهادة أو يعرضون عنها بقوله: (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) فهو سبحانه عالم بما تنطوي عليه القلوب من شهادات مكتومة حبيسة أو بما اجترحته نفوس الكاذبين من ازورار وتحريف في الشهادة - الله جل جلاله مطلع على هؤلاء الزائغين فمجازيهم الجزاء المفروض.

١٣٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا).

يأمر الله المؤمنين أن تعي قلوبهم وأذهانهم معاني العقيدة من حيث أركانها وفروعها وأجزاؤها ومقتضياتها وهم إن كانوا كذلك فلا جرم أنهم صائرون إلى الدرجات العلى من الإيمان - ولعل من يظن أن خطاب الله للمؤمنين وأمرهم فيه بالإيمان يتضمن شيئا من تكرار - وذلك ظن غير صحيح، فليس في الخطاب من تكرار ولا هو تحصيل لحاصل، ولكنه تأكيد للمؤمنين على الالتزام بقواعد الإيمان على أكمل وجه وترويض لهم على استلهام العقيدة استلهاما يلج بهم رياض الصالحين والأبرار.

وأركان العقيدة التي يوجب الخطاب أن تترَكز في القلب والذهن هي: الإيمان بالله إلها خلقا منشئا من العدم، إلها يدين له العباد بالخضوع والامتثال والطاعة - ثم الإيمان برسوله الأمين (ص) وهو صاحب المحجة البيضاء ومعلّم البشرية ما فيه صلاحها وسعادتها في المحيا وبعد الممات وهو عليه الصلاة والسلام قائد المؤمنين إلى الجنة حيث النعيم المقيم - ثم الملائكة وهم عباد مكرمون أطهار (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ثم الكتب المقدسة المنزلة من السماء التي يحوي كل منها بين دفّتين هدى وبشرى وفيه من العناية بالإنسان ما يسلك به سواء السبيل وما يلج به حومة الفوز والنجاة.

وكذلك اليوم الآخر وهو يوم عصيب مزلزل حقا - إنه يوم تتزلزل فيه الحياة والأحياء جميعا ويرتج فيه الكون والكائنات كافة لهول الموقف العسير المدمر الذي تقف فيه الخلائق ذاهلة واجمة حائرة تنتظر الحساب وتنتظر من الله فصل الخطاب - ذلكم هو يوم القيامة.

وقوله: (والكتاب الذي نزل على رسوله) المقصود به القرآن، فقد نزله الله منجما مفرقا - وقوله: (والكتاب الذي أنزل من قبل) يقصد بالكتاب مجموعة الكتب السماوية التي نزلت على المرسلين قبل نبي الإسلام عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين - وقوله: (أنزل) معناه نزل دفعة واحدة من غير تنجيم خلافا للقرآن فقد نزل بحسب الحاجة والوقائع طيلة فترة البعثة الطاهرة، فكان ذلك أرسخ للدين في العقول والقلوب، وأمكن له في النفس وفي واقع البشر - وتلك حقيقة لا مراء فيها، حقيقة ينطق بها التاريخ والضمير وما قدّمته أمة الإسلام للبشرية من عطاء هائل في كل ميادين الحياة.

وقوله: (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) هذه أركان العقيدة التي لا يصح إيمان امرئ إلا إذا استيقنتها نفسه - هي أركان تقوم من الدين مقام الركائز والأساسيات التي ينهض عليها بنيان الدين كلّه مع الاعتبار بأن ثمة ركنا سادسا هاما لا مفر للعبد من استيقانه ألا وهو القضاء والقدر.

إن هذه الركائز والأساسيات تأتي متتامة متكاملة ولا بد من الإيمان بها جميعها، لأنها بمجموعها وحدة متماسكة واحدة من العقيدة الثابتة المكينة التي لا تقبل التجزئة والتنجيم - ولا يعني أحدا إيمانه إذا ما آمن ببعض هذه الأركان وكفر ببعض، كأن يؤمن بالله وحده من غير إيمان ببقية الأركان، أو أن يؤمن بمعظم هذه الأركان ثم يكذّب بأحدها مثل يوم القيامة أو القضاء والقدر، فلا جرم أن يكون ذلك كفرا بواحا يدمغ صاحبه بوصمة الجحود ليهوي به في جهنم - وذلك الذي قال عنه سبحانه: (فقد ضل ضلالا بعيدا) أي بعد عن صراط الله المستقيم وكان مع التائهين الذاهلين الذين ضلّوا الطريق وأوغلوا في الضلالة والعمه والبعد.

١٣٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا)

قوله: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذي يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا).

ذلك في المتلجلجين المرتابين الذين لا يثبتون على حال مستبينة من الإيمان أو الكفر، فتارة يؤمنون وأخرى يكفرون وثالثة يؤمنون، وبعد ذلك يرتكسون في الكفر ثم يزدادون شقاوة وارتكاسا - وتلك أسوأ حالات التردد في حياة الإنسان المتأرجح - الإنسان الذي يراوده التفكير المستديم بالنقلة من حال إلى حال من غير تثبّت أو استيقان، ومن غير اقتناع موثوق أو برهان إلا الرغبة الجانحة الهوجاء التي تسوّل للمرء أن يظل متأرجحا بين الإيمان والكفر أو بين التصديق والنفاق - وهذا الصنف المتلجلج من الناس الذي ينتكس مرتدا بعد إيمان ثم يقلع عن الكفر ليعود في حومة الإيمان من جديد، ثم تعاوده الشقاوة والضلال بعد ذلك ليبوء بالكفر مرة أخرى وعلى

نحو مزيد من الكفران بما هو أشد وأعتى مما كان عليه حال كفره السابق، هذا الصنف من الناس (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا)؛ وذلك لأنهم لجّوا في الكفر بالارتداد أكثر من مرة ثم تمادوا في كفرهم الأخير وماتوا وهم كفار - وهؤلاء لا توبة ولا غفران لهم وهم كذلك محرومون من أن يسلكوا سبيلا إلى الجنة - وإنما مردهم إلى النار وبئس القرار.

١٣٨ - (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله: (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) التبشير معناه الإخبار - وهؤلاء الذين بيّنتهم الآية وكشفت عن حالهم من الإيمان ثم الارتداد المتكرر ثم التمادي في الانتكاس والجحود، إن هؤلاء قد خالط نفوسهم وطبائعهم النفاق فهم صنف من المنافقين الذين يستحقون من الله العذاب الأليم في نار مستعرة تتلظى.

١٣٩ - (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)

ومن أبرز الأخلاق المذمومة لهؤلاء المتلجلجين المنافقين ممالأتهم الكافرين واتخاذهم إياهم أعوانا وأنصارا من دون الله طلبا للعزة عندهم - والعزة هي المنعة والغلبة والقوة وخاطئ ذلك الذي يتصور العزة في الكافرين - إنه خاطئ وموغل في الخطيئة والوهم - فإن الكافرين لا يملكون العزة، فضلا عن إعطائها للآخرين وهم في الحقيقة خاوون من العزة، لكنهم يملكون من المظهر المصطنع والصورة المغالية في التوهيم والتخريص ما يخدع كثيرا من الناس فيبتغون عندهم العزة - مع أن الحقيقة التي لا شك فيها أن العزة لله جميعا - فهو وحده صاحب العزة ومصدرها وهو يؤتيها لمن يشاء من خلقه وينزعها عمن يشاء وليس له في ذلك نديد أو معقّب - فمن أراد القوّة والغلبة فليس له من دون الله أحد يبتغي عنده ذلك، والله تقدّست أسماؤه كفيل بإمداد العباد بالغلبة والنصر والسلطان إذا ما ركنوا إليه وحده دون سواه ثم اتخذوا من أجل ذلك الأسباب والمحاذير ولهم يلههم الأمل والتمني مجردين عن الحيطة والجد والعمل.

وفي العزة من حيث مصدرها وامتلاكها وإيتاؤها يقول سبحانه: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) فالله صاحب العزة ومالكها ومؤتيها لمن يشاء ونازعها ممن يشاء، وليس له في ذلك شريك - ويقول عز وجل في النهي عن موالاة المؤمنين للكافرين: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة) - ويقول سبحانه مخاطبا المؤمنين: (لا تتخذوا آباؤكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) ويحذّر النبي - صلى الله عليه وسلم - من الاستنصار بأحد سوى الله: " إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله " ١٦٩.

١٤٠ - (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)

قوله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) ذلك قرار رباني مفروض على المؤمنين، وهو أن يتجنبوا مجلسا يجتمع فيه الكافرون ليسخروا فيه من كلام الله - وقد ورد أن الآية نزلت في بعض المنافقين كانوا يحضرون مجالس يديرها فريق من الأحبار اليهود، فكانوا يتناولون فيها آيات الله بالطعن الرخيص على نحو من السخرية والاستهزاء.

وقوله: (أن إذا سمعتم آيات الله) معناه: أنه إذا سمعتم -.، ليكون الضمير المتصل اسم أن، وهي هنا مخففة - ولا ينحصر مدلول الآية في مثل هذا السبب المذكور لكن مدلولها ينسحب ليشمل كل حادثة تمتهن فيها كلمات الله أو كتابه الحكيم - وأي امتهانه من هذا القبيل لهو عين الكفر الصراح الذي لا يحتمل وجها آخر، ولا يجرؤ على النيل من كلام الله بالطعن أو السخرية أو الاستهزاء أو التجريح أو الغمز أو التعييب بشيء من تحقير أو زراية إلا معاند كافر أو منافق جحود يخفي في نفسه الكفر.

وقوله: (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) ذلك نهي واضح عن القعود مع هؤلاء الكفرة في مجالس السوء حيث يقع التطاول الظالم على كلام الله بالقدح أو الزراية والاستخفاف - على أن القاعدين في مثل هذه المجالس يختلف في شأنهم الحكم بالنظر للمواقف التي يكون عليها هؤلاء القاعدون - فإذا كان القاعد مستمعا لألسنة السوء وهي تنطق بالكفر وتتناول آيات الله بالتحقير

والاستخفاف، دون أن يردّ عليهم طعوناتهم وأباطيلهم ودون أن يسفّه فيهم الأحلام الفاسدة والمفترية لينافح بذلك عن دين الله فإنه إذن مثلهم - وهو مثلهم من حيث المعنى غير أنه من حيث الحكم والصورة يكون منافقا، ومعلوم أن الكافرين والمنافقين جميعا في النار. ذلك هو شأن الذي يقعد في مجالس الكفرة وهم يسخرون من كتاب الله وهو ساكت راض يحمل في نفسه الموافقة بالإقرار بما يقال من كذب وخسة وتخريص - وهو لا يعبأ بما يسمعه من اجترار لئيم تزدرده حناجر الكافرين والمارقين عن الإسلام إذ يتناولونه بالشتائم والقبائح من القول المهين والتجريح المسف - فلا جرم أن يبوء القاعدة في هذه المجالس بالكفر لرضاه بما شاهد وسمع من غير أن يختلج فيه القلب اختلاج الغاضب الغيور على دين الله أن تنتهك حرمته.

وإذا كان الحاضر لمثل هذه المجالس يعلم في نفسه القدرة على الرد على ما يساق من افتراء وتخريص، والتصدي لحملات الكذب والتشويه التي تثار في وجه الإسلام أو كتاب الله الحكيم، فقد بات الرد في حقه أو التصدي واجبا؛ لأن ذلك ضرب من ضروب الجهاد الذي تنتشر بموجبه كلمة هذا الدين الحنيف أو ترتد عنه أقوال السوء والافتراء والأباطيل التي يثيرها أعداء القرآن في كل زمان.

ويمكن أن يقاس على ذلك حضور مجالس الفسق والعصيان التي تجري فيها المعاصي والموبقات من خمر وقمار ولهو ومفاسد أخرى - ولا ريب أن ينسحب الحكم بالحظر كما بيناه آنفا على مثل هذه الحالة أيضا - فإن القعود مع العصاة والفسقة وهم يقارفون ألوان الحرام يعتبر حراما؛ وذلك لأمرين:

أحدهما: أن السكوت على ما يقع من معصية حال حضورها دليل الموافقة والرضا، وهو فيه من الإقرار والقبول ما ينافي عقيدة المسلم القاضية بالغضب والانفعال والنكير في مثل هذه المواقف - وشأن المؤمن في هذه الحال أن يكون ناهيا عن المنكر وإن احتمل في ذلك أذى وإعناتا.

ثانيهما: أن القعود في مثل هذه الجلسات التي تقع فيها المعاصي لهي مظنّة الغواية والفتنة بما يوشك أن يغري القاعد بالمشاركة في المعصية نفسها، أو أن القعود نفسه مدعاة تفضي للسقوط في المعصية، فهو إذا ما قعد فإن بواعث السقوط في المحظور تجذبه نحوه جذبا - وعلى ذلك فإن القعود في مجلس المعصية حرام وذلك من باب سد الذرائع، وقد ورد في مثل هذا المعنى عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر ".

قوله: (حتى يخوضوا في حديث غيره) إذا أقلع الجالسون عن الخوض في آيات الله وانصرفوا إلى حديث آخر فلا على المؤمن بعد ذلك أن يجالسهم عسى أن يكون في مجالسته لهم ما يؤثر فيهم بإسماعهم أخبار العقيدة والإسلام وترغيبهم في الاحتكام إلى الشريعة الكريمة الغراء التي تأتي بالخير وتباعد بين الإنسان وكل ظواهر الضر والشر.

وقوله: (إنكم إذا مثلهم) إذا حضر أحد مجلس الكافرين وهم يفترون على دين الله وكتابه الحكيم فإنه وإياهم في الحكم سواء مادام يشهد ذلك في سكوت ورضى - أو أنه شريك في الإثم؛ لأنه شهد المعصية أو الكفر وهو ساكت فقد رضي بما وقع - والرضا بذلك إثم وهو صنو الفعل المحرّم نفسه - وقد كان عليه أصلا أن يغادر هذا المجلس فلا يقعد مع الكافرين الخائضين في آيات الله إلا أن يجد في نفسه القدرة على التصدي للظالمين الخراصين فيرد مقالاتهم وافتراءاتهم بالحجة والمنطق المؤثر السليم.

قوله: (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) هؤلاء الذين يحضرون مجالس الكافرين وهم يفترون على الإسلام والقرآن الحكيم من غير تصد لهم أو ردّ عليهم فيما يقولون أو يهذون من سخرية فإنهم منافقون ولهم من العذاب ما للكافرين - وهو والكافرون يتقحمون في النار جميعا بما قارفوا من خوض في آيات الله بالتجريح والسخرية أو بما أظهروا من نفاق ينطوي على كفر مستور ١٧٠.

١٤١ - (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا)

قوله تعالى: (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) المراد بالمتربصين المنافقون، فإنهم يتربصون بالمسلمين

أن تقوم عليهم دائرة الهزيمة، وذلك تعبير عما تكنه صدورهم من غل للذين آمنوا ومن تربص بهم أن تدول دولتهم وتتمزق كلمتهم ووحدتهم - إن هؤلاء الأشرار المنافقين تنطوي صدورهم على الكيد والتمني الآثم الخبيث من غير أن يجرؤوا علي البوح بذلك صراحة فهم مذبذبون يأتون للمؤمنين بوجه، ثم يأتون المشركين بوجه آخر - وفي هذا يقول الله سبحانه: (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) إذا جعل النصر للمسلمين في إحدى المعارك مع الكافرين بادر المنافقون بالمن والمصانعة والروغان فقالوا: (ألم نكن معكم) نذب عنكم الأذى وندفع عنكم صولة المشركين، وهم يبتغون من وراء ذلك أن ينالوا حظا من الغنيمة عقيب القتال.

أما إذا ابتلى الله المؤمنين باندحار وتقهقر فكان بذلك للكافرين نصيب من النصر والإدالة على المؤمنين بادر المنافقون بالقول للمشركين: (ألم نستحوذ عليكم) الاستحواذ من الحوذ ومعناه الحوط - نقول حاذ الشيء أي حاطه وحافظ عليه - واستحوذ الشيء بمعنى: تغلب عليه واستولى عليه.

يقول المنافقون المذبذبون للمشركين إذا كان لهم نصيب في الغلبة مرة: ألم نغلب عليكم فكان لكم النصر على المسلمين - ولولا أن مكنّاكم من ذلك بتخذيلنا عنكم المسلمين ونشر الوقيعة والرهبة في صفوفهم لما كان لكم أن تظفروا ما ظفرتم به من غلبة ونصر، ومرادهم من ذلك كله أن ينالوا حظا من الغنيمة التي كسبها أعداء المسلمين والدين.

وقوله: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) ذلك تخويف لهؤلاء المراوغين المخادعين الذين يأتون المسلمين بوجه والمشركين بوجه آخر - إنه تخويف مؤثر حقا لو كان هؤلاء على شيء من التبصر السديد أو التقوى، أو لو كانت طبائعهم سوية بغير خلل أو فساد - إن الله يحكم بين الناس يوم القيامة ليفضح أمثال هؤلاء المنافقين فيكشف عن مستور نواياهم وما تخفيه قلوبهم من ضغينة ورجس ليكون ذلك أمام الخلائق كلها في مشهد كوني معلن يطلع عليه الناس جميعا فإن ظن المنافقون أنهم مغمورون وأنهم يسترهم تذبذبهم الرخيص وتأرجحهم المضطرب بين هؤلاء وهؤلاء فإن ذلك مما يستطيعونه في الدنيا علما بأن الشرع لا يقضي إلا بحسب الظاهر، لكن المنافقين مردهم إلى الله جل وعلا فهو الكفيل بمجازاتهم أشد المجازاة لينالوا من العذاب الأكبر ما لا يتصوره ذهن ولا يخطر ببال.

قوله: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) والسبيل بمعنى الحجة والسلطان والغلبة - وقد ورد في تفسير هذا النص الكريم جملة أقوال نعرض لأبرزها وهي ثلاثة:

القول الأول: وهو مروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إذ سئل عن معنى الآية فقال: ذلك يوم القيامة يوم الحكم - أي أن الكافرين مغلوبون يوم القيامة، ولن يجعل الله لهم هنالك سلطانا أو حجة على المسلمين لما يحيق بهم من ذلة وقهر - ولست ميالا لهذه القول لما فيه من تحصيل لحاصل لا فائدة في بيانه وذكره - فإنه من معلومات الدين الجلية أن الكافرين يوم القيامة مقهورون، وأنه لن تكون لهم إذ ذاك غلبة أو سبيل على أحد، فضلا عما يحيق بهم من عار وخزي وعما يرهق وجوههم من ذاته وقتر - ويبدو أن قوله: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) السابق قد حمل للذهن أن المقصود بالآية واقع يوم القيامة وذلك مجانب للصواب.

القول الثاني: المرد بالسبيل للكافرين على المؤمنين هو الاستيلاء المطبق الذي يكون فيه استئصال شأفة المسلمين والقضاء عليهم قضاء مبرما تتبدد فيه دولتهم وكلمتهم وينمحي فيه كيانهم البتة - أما إذا ألمت بهم هزيمة جانبية فذلك ليس بغريب وهو من ابتلاء الله لعباده المؤمنين؛ إذ يكون لهم النصر تارة ولأعدائهم تارة أخرى، لكن هزيمة فيها اصطلامهم ومحوهم وإبادتهم فغير كائنة بعون الله.

القول الثالث: يكون السبيل للكافرين على المؤمنين إذا انصرف المؤمنون عن دينهم فاستحبوا العمى على الهدى وارتضوا بشريعة الكفر والباطل لتكون مكان شريعة الله ولم يغيروا من واقع المعصية والفساد حتى استشرى ذلك بين العباد، فعمت الرذيلة والفوضى، واسترخى المسلمون للشهوات فلم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر - فإذا بلغ الأمر كذلك أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده فيسلط عليهم من الأعداء اللد من يستبيح دماءهم وديارهم ثم ينكل بهم أشد تنكيل أو ينتزعهم من وطنهم ليتفرقوا في البلاد ضائعين حيارى أو يقضي على كيانهم ودولتهم ليظلوا ضعافا مهزومين.

مثل هذه الحالة من العصيان والفساد يبلغها المسلمون، تبرر التدمير والاستئصال والإبادة - ذلك ما ذهب إليه بعض المفسرين في تأويل هذا النص القرآني الكريم - وهو تأويل تعززه وقائع رهيبة حلت بالمسلمين فذاقوا خلالها ويلات وشدائد على ضروب من البلاء كثيرة

ومتعددة منها التقتيل والتشريد وتخريب العمران والبنيان والاستئصال الكامل للحضارة من أساسها حتى باتت أثرا بعد عين - وما كان ذلك إلا بعد أن ذهل المسلمون عن دينهم فأخلدوا للشهوات والهوى وتركوا شريعة الله وراءهم ظهريا ١٧١.

١٤٢ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا)

قوله تعالى: (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) الخداع معناه الإظهار بغير ما يخفى وإلحاق الأذى والمكروه بالمخدوع ١٧٢ - والمراد أن المنافقين يتوهمون رواج أمرهم عند الله مثلما راج عند البشر - والمسلمون إنما يقاضون المنافقين بحسب الظاهر من سلوكهم وليس لهم في ذلك أن ينقبوا عن قلوبهم ونواياهم فإن ذلك متروك إلى الله - ولئن راج أمر المنافقين في الدنيا وخفي شأنهم على الناس بتدسيسهم وتلصصهم وأساليبهم في الخداع والمراوغة، فإن ذلك لا يخفى على الله وهو العالم بالأسرار المطلع على الخبايا - وقوله: (وهو خادعهم) أي مجازيهم على سوء نواياهم وفساد أعمالهم وخداعهم المسلمين ومن ذلك أن يستدرجهم الله من حيث لا يعلمون إلى حيث هلاكهم في مقابل اعتقادهم أنهم قادرون على خداع الله.

وقوله: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس) هذه حال المنافقين إذ قاموا إلى الصلاة، فإنهم لا يقومون إلا في تثاقل وتقاعس وكسل - وهم لا يحفزهم إلى ذلك شيء من رغبة أو يقين إلا المراءاة طلبا لمرضاة الناس أو تخلصا من جزاء يفرض عليهم لتقصيرهم وتخلفهم عن أداء واجب من الواجبات - والرياء هو التظاهر بالسلوك الحسن ليراه الناس من غير إخلاص لله أو ابتغاء لرضوانه، وهو صورة من صور الشرك بل هو الشرك الأصغر - وفي الحديث الشريف " اليسير من الرياء شرك ".

والصلاة هي عماد الدين وركيزته الأولى وأشرف ما في الإسلام من أعمال لكنها تستلزم همة ونشاطا كبيرين - وبذلك فإنه كثيرا ما يتخلف عنها المنافقون لافتقاد ما يحفزهم إليها أو يرغبهم فيها، وهم لا يأتونها إلا راغمين كسالى ولا يؤدونها إلا وهم فارغة أرواحهم وقلوبهم من أي معنى أو خشوع، وأكثر ما يتخلفون عن صلاة العشاء والفجر، وهم ينتشر فيهما الظلام فلا يراهم الناس - وفي ذلك يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - كما ثبت في الصحيحين: " أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم انطلق برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار ".

وقوله: (ولا يذكرون الله إلا قليلا) المنافقون تخلو قلوبهم من الإيمان فهم صنف من البشر الخبيث الفاسد الذي يخفي في نفسه الكفر ويتراءى للناس في مظهر أو سمت حسن - وهم في حقيقتهم جاحدون منكرون ولا يحملون لله في نفوسهم أي وقار أو خشية أو ذكر إلا بقدر ما يتظاهرون به أمام الناس أنهم مسلمون - وهم إذا ما ذكروا الله فلا يذكرونه عن خشية وخشوع وإنما يذكرونه على مرأى من الناس ليرضوا عنهم وبذلك يكون ذكرهم لله قليلا حسبما تقتضيه طبيعة النفاق من آن لآخر - وقيل في تأويل ذلك: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا زمانا قليلا.

١٤٣ - (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا)

وقوله (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) - التذبذب أو الذبذبة بمعنى التردد بين أمرين مع ما يخالط ذلك من حيرة واضطراب - وتلك حال المنافقين فإنهم دائما مترددون (بين ذلك) أي بين الإيمان والكفر وهم كذلك كما وصفتهم الآية (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أي ليسوا مع المؤمنين ولا مع الكافرين - وحقيقة ذلك أنهم ليسوا مع المؤمنين لا في الظاهر ولا في الباطن، وليسوا مع الكافرين في الظاهر وإن كانوا معهم في الباطن، فهم على هذه الحالة متأرجحون حيارى يغشاهم القلق والاضطراب ويجانبهم الوضوح والثبات المستقر - وتلك هي حال المنافقين المترددين الذين يظلون في معاناة تؤزهم وتقضهم قضا؛ وذلك لما اختاروه لأنفسهم من أسلوب متلجلج خسيس، ولما انتحلوه لأشخاصهم من شواكل يظللها الغش والتأرجح والتدسس.

وقوله: (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) هؤلاء المنافقون الفاسدون قد آثروا الباطل وارتضوا لأنفسهم أسوأ أسلوب من التدسس

الرخيص والاضطراب المتلجلج - وكان عليهم أن يختاروا منهج الله القائم على الحق والثبات والقسطاس المستقيم، ولله سبحانه يحب لعباده أن تستقيم حاله ليحيوا آمنين مسلمين مطمئنين - لكن هذه النفوس الملتوية المريضة تأبى منهج الله الذي يفرض الحق والاستقامة وحسن القصد، وتأبى إلا أن تعيش في الظلام والضلال فاستحقوا بذلك أن يضلهم الله ليكونوا من أهل الشقاوة والعذاب - أو أن الله جلت قدرته قد هيأ لمثل هؤلاء من أسباب الهدية ودواعي الخير والاستقامة ما يكفي لحمل المرء على المضي في ظل الله وعلى صراطه المستقيم، لكنهم جنحوا في عتو وتمرد ليكونوا في أصحاب السعير وليفروا من نداء الله الكريم إلى نداء الشيطان الرجيم مثلما تفر الحمر البطرة المستنفرة من نداء راعيها المشفق الرحيم ١٧٣.

١٤٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما).

يحذر الله عباده المؤمنين من اتّباع الكافرين واتخاذهم أعوانا وأنصارا - وأشد من ذلك نكرا أن يصاحب المؤمنون الكافرين ويسروا إليهم بالمودة بما يكون في ذلك من إفشاء لأحوال المؤمنين وأوضاعهم، وما يكون فيه كذلك من تنكر للمؤمنين أنفسهم وحيف عليهم بالتآمر والممالأة لأعدائهم المشركين - ولا جرم أن ذلك ضرب من الخيانة التي يمارسها ضعاف الإيمان على حساب المسلمين جريا وراء مصلحة محدودة أو طمعا في مأرب من المآرب التافهة الرخيصة.

وقوله: (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) الاستفهام للتقريع والتوبيخ إذ تتضمن الآية سؤالا فيه استنكار لما يقوم به بعض ضعاف الإيمان من الإسرار للمشركين وممالأتهم لهم على حساب المسلمين - فإن الله يستنكر مثل هذا التصرف غير المقبول الذي يكون لله بموجبه الحجة والبرهان لعذابهم وإنزال العقوبة الشديدة بهم.

١٤٥ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

وقوله: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) الدرك بسكون الراء، وقيل بفتحها وجمعها أدراك ودركات، وهي الطبقات أو المنازل، واستعمال العرب للدرك فيما نزل أو تسافل هابطا، وعكس ذلك الدرج وهو مستعمل فيما تعالى صعدا - وفي استنباط أهل العلم أن النار سبعة دركات أهونها وأعلاها جهنم وأحطها وأشدها الهاوية - والدركات السبعة هي: جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية.

والمنافقون أسوأ حالا ومآلا من الكفار، وذلك بالنظر لشدة إفسادهم ولما يؤول إليه خبثهم وسلوكهم المشين من مخاطر تأتي على الإسلام فتهزه من الأعماق هزا، وتأتي على المسلمين فتذيقهم ألوانا من المكائد والدسائس فيما يعود عليهم بالهزيمة والتدمير إلا أن يحوط الله المؤمنين برعايته وعنايته، والمنافقون صنف من الخليقة الحقيرة التي تتزين بالمظهر الخادع الحسن، وتتكلف من حيث الأسلوب والعبارة ما ينطلي على كثير من الخاليق؛ وذلك لفرط البهاء المصطنع الذي يجلل وجوه هؤلاء المنافقين وهم يخادعون الناس في مكر وخسة من خلال مظهر كاذب مصطنع يخفي وراءه نوايا الحقد والإجرام.

وكم يهون الأمر لو كان العدو مستبينا مكشوفا - فإننا إذ ذاك نمسك بالحذر والحيطة لنكون متنبهين يقظين حتى إذا بادرنا هذا العدو المكشوف بالعدوان دفعناه في صولة جادة محسوبة بعد أن نكون قد أخذنا الحساب لذلك كله - لكن العدو الذي يتظاهر بالإسلام ويصطنع مع المسلمين أعمال العبادة وهو يخفي في نفسه الحقد والكراهية ويتمنى في دخيلته أن تدور على الإسلام والمسلمين الدوائر، فذلكم يحذر منه القرآن بين حين وآخر أشد تحذير.

هذا الصنف الوضيع من الناس قد أعد الله لهم العذاب بما قارفوه من خديعة وتآمر - لقد أعد لهم أن يكونوا في الطبقات السفلى من النار وهي الدركات - وقد روي عن عبد الله بن مسعود في معنى الدركات أنها توابيت من حديد مقفلة وهي في أسفل النار - وكل

ذلك يدل على فظاعة النفاق وأنه طريق إلى النار، بل إلى أسوء الدركات في النار.
وقوله: (ولن تجد لهم نصيرا) إذا هوى المنافقون في الدركات من النار وتقاحموا هناك كما تتقاحم القردة والثيران وعانوا في العذاب أشد المعاناة، فإنه ليس هنالك من ينقذهم أو يستجيب لعويلهم - ولن يكون لهم إذ ذاك نصير ولا مجير.
١٤٦ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)
وقوله: (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) ذلك استثناء من المنافقين - والمستثنى هم أولئك الذين تابوا إلى الله وأنابوا وأقلعوا عن جريمة النفاق.
والتوبة تتضمن الندامة عن فعل الحرام والعزم على عدم العودة وذلك يستتبع عمل الخير كالإصلاح والاعتصام بحبل الله المتين؛ وذلك من أجل أن يكتب الله المغفرة ويتجاوز عما قارفه العبد من سيئات، أما إخلاص الدين لله فهو نقيض النفاق والرياء، وعلى الذي كان منافقا أو على شعبة من النفاق أن يبادر بالتوبة ثم يخلص النية والقلب لله ليكون مستسلما منقادا أو على شعبة من النفاق أن يبادر بالتوبة ثم يخلص النية والقلب لله ليكون مستسلما منقادا إلى الخالق دون سواه - وعلى ذلك فالتوبة والإصلاح والاعتصام بالله أو برباط العقيدة ثم إخلاص الدين لله في مجانبة كاملة للشرك أو النفاق والرياء والنفاق كل أولائك سبب في الدخول في حومة الإيمان والتقوى بعد الرياء والنفاق والمخادعة؛ ولذلك يقول سبحانه: (فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) المراد من اسم الإشارة (فأولئك) الذين كانوا منافقين ثم تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - فمثل هؤلاء قد بابوا مؤمنين وقد وجب إدراجهم في صف المؤمنين ولهم من الله أجر عظيم لتوبتهم وإصلاحهم وإخلاصهم.
١٤٧ - (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)
وقوله: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما) ذلك استفهام يتضمن تقريرا - ذلك أن الله سبحانه ليست له حاجة في تعذيب الناس إلا مجازاة العصاة منهم، وهم إذا ما كفروا فإن ذلك لا ينقص من ملكوت الله شيئا، وهو سبحانه لا يعبأ بالخلق من حيث إيمانهم أو إشراكهم وجحودهم - وعلى هذا فما الذي ينال الله من تعذيبه للعباد؟ إنه لا يناله من ذلك شيء، والناس إن آمنوا أو لجوا في الكفر فكل ذلك عنده سواء - قال صاحب الكشاف في تأويل: (ما يفعل الله بعذابكم - .) أي شيء يفعل الله سبحانه بسبب تعذيبكم أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب نفعا؟ أو يستدفع به ضررا كما هو شأن الملوك وهو الغني المطلق المتعالي عن أمثال ذلك؟ وإنما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء ١٧٤ - والله جلّت قدرته يشكر عباده على طاعته فيثيبهم عليها.
١٤٨ - (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)
قوله تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) الجهر بالشيء يعني الإعلان به والإظهار له - جهر بالقول أي رفع صوته به - والتقدير: لا يحب الله أن يعلن أحد بالسوء من القول إلا جهر من ظلم - وذلك بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره - بما فيه من السوء - فإن من مكارم أخلاق المسلم ألا يجهر أمام الناس بالسوء من القول، لكنه إن كان مظلوما فلا جناح عليه حينئذ أن يكشف عما حاق به من ظلم في مجاهرة مسموعة - على أن جمهرة كبيرة من المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالسوء من القول هو الدعاء - إذ لا يحب الله للمؤمن أن يعجل فيدعو على غيره إلا أن يظلمه فإن ظلمه فله أن يجهر بالدعاء عليه - وفي المعنى أخرج أبو داود عن عائشة قالت: سرق لها شيء فجعلت تدعو عليه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تسبخي عنه " والتسبيخ هو التخفيف والمراد بالحديث ألا تخفف من عقوبة السارق بدعائها عليه.
وقال الحسن البصري في معنى الآية: لا يدعو عليه وليقل اللهم أعنّي عليه وأستخرج حقي منه - وروي عنه أيضا جواز الدعاء من المظلوم على من ظلمه، فالسوء من القول هو الدعاء على من يظلم الناس.

وذهب بعض العلماء إلى إدراج حق الضيافة في مدلول الآية باعتبار أن الضيف له حق الضيافة عند مضيفه، فإن على المضيف أن يُقري ضيفه، ويتحفه بالتكريم والعناية وإذا لم يؤد له هذا الحق بات الضيف مظلوما وله عند ذلك أن يجهر بالتشهير بمثل هذا الظلم، وذلك من باب الجهر بالسوء من القول، وقيل غير ذلك ١٧٥.

وجملة القول أن يتسامى المؤمن عن القول السيئ في كل الظروف والأحوال إلا أن يكون مظلوما، فإن كان كذلك فله أن يجهر بالكشف عن ظلمه وعما حاق به من ظلامة - يؤيد ذلك قوله في آية أخرى: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل).

وقوله: (وكان الله سميعا عليما) ذلك تخويف لمن يحتمل للناس ظلما ولمن يتجاوز في الجهر بالسوء من القول إذا ما وقع عليه ظلم - أي أن ذلك تحذير للظالم كيلا يظلم، وللمظلوم كيلا يتعدى الحد في الانتصار لنفسه.

١٥٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)

قوله تعالى: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما) المراد بالكافرين هنا أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، فقد كفروا جميعا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - إذ آمن اليهود بالتوراة وموسى والنبيين باستثناء عيسى المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام - - وآمن النصارى بالتوراة والإنجيل والنبيين باستثناء النبي الخاتم محمد - صلى الله عليه وسلم - - وقيل: المراد بهم اليهود وحدهم - والصواب أن الآية تتناول العموم - ذلك أنهم جميعا كفروا بالله ورسله - وبيان ذلك أن الكفر بمحمد كفر بالله وبجميع النبيين؛ لأن ما من نبي إلا وقد أمر قومه أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبجميع النبيين عليهم الصلاة والسلام - وبذلك فإن الكفر بمحمد لهو عتوّ عن أمر الله وتمرد على أنبيائه واستنكاف عن شرعه سبحانه وذلكم الكفر.

قوله: (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) معناه أنهم يفرقون بين الإيمان بالله، والإيمان برسل الله - ذلك أنهم آمنوا بالله وجحدوا نبوة بعض الرسل وهم مع ذلك يظنون أنهم على شيء - وهم في الحقيقة ليسوا على شيء - فالتفريق في الإيمان بين الله ورسله كفر؛ لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه لهم على ألسنة الرسل فإذا جحدوا الرسل وردوا عليهم شرائعهم كانوا من المستنكفين عن التزام العبودية لله وذلكم كفر.

قوله: (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) ذلك أن أهل الكتاب يجاهرون معلنين عن جحودهم نبوة بعض المرسلين مثل تمالؤهم على نكران نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فهم ينكرون أي ذكر لهذا النبي الكريم، ويزعمون في كذب ظالم أنهم لم يجدوه في كتبهم، مع أن الأخبار الصحيحة المستفيضة التي احتوتها كتب السيرة وأقوال الباحثين والعلماء وأحبار اليهود قد أجمعت على ذكر النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المنزلة من قبل القرآن - وليست المسألة بعد ذلك منوطة بالذكر أو البيان أو الإعلان، ولكن المسألة منوطة بالنفوس التي يخالطها المرض والضغينة - أو الطبائع الوالغة في الزيف والفساد، فلا تستمرئ غير الكذب والخداع والافتراء، ولا تستسيغ إلا العيش في الرجس والخضوع للهوى الجانح والمزاج المريض.

إن هذه النفوس والطبائع هي التي تسول للمشركين والجاحدين أن ينكروا نبوة الرسول العظيم خاتم النبيين والمرسلين لا لشيء إلا مجانبة للحق وركونا للشيطان.

وقوله: (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أي طريقا وسطا بين الإيمان والكفر - فإيمانهم ببعض النبيين وكفرانهم بآخرين أوهمهم أنهم ماضون في طريق سليمة وسط، لكن ذلك عين الجحود والكفران، لقوله سبحانه فيما يصف هذا الصنف من الناس:

١٥١ - (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

(أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) واسم الإشارة يعود على الذين يكفرون بالله ورسله، ويفرقون بين كل من

الإيمان بالله والإيمان برسله، ويكفرون ببعض ثم يظنون - واهمين- أنهم على الحق لاتخاذهم في ذلك سبيلا وسطا.
وهؤلاء قد وصمتهم الآية بالكفر الصراح من خلال تعبير حاسم لا يعرف المداهنة أو اللين في مثل هذا الموقف فقال سبحانه: (الكافرون حقا) وذلك تأكيد قاطع على أن هؤلاء كافرون كفرانا كاملا كيلا يتغرر بهم أحد فيتوهم أنهم على شيء من الإيمان؛ لأنهم يصدقون بعض النبيين - وقوله: (حقا) منصوب على الصدر - وعامله محذوف - أي حق ذلك حقا - وقيل: حقا صفة لمصدر الكافرين أي هم الذين كفروا كفرا حقا لا ريب فيه - وهذه القضية بالذات يعاني منها الدعاة إلى الله، الذين يحملون عقيدة الإسلام عن وعي وثقة عميقين في هذا الزمان وهي أن كثيرا من الذين يحملون عقيدة الإسلام عن وعي وثقة عميقين في هذا الزمان وهي أن كثيرا من المخدوعين الجهلة يفترون على الله الكذب وهم يصدرون الفتوى الضالة بأن أهل الكتاب مؤمنون وأنهم ليسوا كافرين - ذلك افتراء جاهل وكذاب وخبيث لا يقوله إلا جهلة مضللون أو معاندون معرضون من خصوم الإسلام الذين ينتشرون في جنبات الأرض في كل زمان - ونود أن نذكر في حسم قاطع أن أهل الكتاب ليسوا مسلمين ولا مؤمنين - فإن المؤمن كما يصوره الإسلام هو الذي آمن بالنبيين والمرسلين جميعا من غير أن يجحد نبوة أحد منهم - وإذا لم يكن كذلك فهو في شرع الإسلام كافر.
وقوله: (واعتدنا للكافرين عذاب مهينا) أي هيأنا لهم يوم القيامة عذابا يعانون فيه مرارة الويل والمهانة؛ وذلك جزاء بجحدهم بعض النبيين وهم يظنون أنهم مؤمنون لإيمانهم ببعض النبيين - والصحيح أن هذا النوع من الإيمان لا يغنيهم شيئا ولا يدفع عنهم وصمة الكفر ولا يرد عنهم سوء العاقبة حيث الجحيم الحارق الذي تصطلي فيه جلودهم وأبدانهم.
١٥٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)
وقوله: (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما) المراد بذلك أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فقد آمنوا بالله خالقا عظيما مبدعا، إلها ليس كمثله شيء وليس له من خلقه نديد أو شريك - وآمنوا كذلك بالنبيين والمرسلين جميعا دون استثناء، يستوي في ذلك كليم الله موسى، وهو من الرسل الأعاظم في بني إسرائيل، ثم المسيح بن مريم كلمة الله ألقاها إلى العذراء البتول وحجة الله على الناس في هذه الدنيا ويوم الدين - لقد آمن المسلمون إيمانهم ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله فلم يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض مثلما فعل أصحاب الديانات السالفة، ولكنهم آمنوا بهم جميعا بغير تفريق.
هذه هي أمة الإسلام، أمة النبي الخاتم محمد - صلى الله عليه وسلم -، وهي خير الأمم بحق وجدارة لما يتجلى فيها من خصائص كبرى لم تتيسر لغيرها من الأمم من الغابرين - وهي خصائص تتبدى في اكتمال دينها بما يتسم من اتساع ومرونة وشمول يتناول أطراف الحياة كلها، ويغطي حاجات الإنسان جميعها سواء في ذلك حاجات النفس أو البدن أو العقل أو الروح.
هذه هي أمة الإسلام التي تقوم على العقيدة المتينة المستنيرة، وعلى الفكر العميق السليم والتصور السوي المستقيم بعيدا عن الهوى والتعصب الذميم فلا جرم أن تكون رائدة الأمم لتقود قوافل البشر عبر الأدهار والسنين إلى السعادة والسلامة والرخاء - ولا جرم أن يثيب الله هذه الأمة خير الثواب، وأن يغفر لها الذنوب والخطايا برحمة منه وفضل ١٧٦.
١٥٣ - (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا)
قوله تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) - ذلك في تعنت اليهود وكيدهم للإسلام ونبيه وأهله - وهو تعنت فاجر يكشف عن طبائع هؤلاء الناس الذين يستمرئون الكيد والعناد والشطط طيلة حياتهم وفي كل سلوكهم وتعاملهم مع الآخرين - وهنا تكشف الآية الكريمة عن شطر من هذه الطبائع الشاذة التي يخالطها اللّي والمرض بغير مبارحة - فقد سألوا النبي محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن ينزل عليهم من السماء كتابا ليس مفرقا، بل جملة واحدة يتضمن تصديقا له فيطلع عليه الناس - وذكر أيضا

أنهم سألوه إنزال هذا الكتاب على هيئة نسخ مكتوبة إلى فلان وفلان من الناس فيرونه عيانا ليؤمنوا ويصدقوا بما جاءهم به من رسالة، وفي قول آخر أشد نكرا وهو أنهم سألوه (ص) أن يصعد إلى السماء بنفسه وهم ينظرون إليهم ثم يعود إليهم بكتاب من عند الله فيه تصديق له - وذلك هو التعنت الجاحد المكابر والتحدي الفاخر الذي لا يستند إلى منطق ولا خلق إلا اللجوج والعتوّ والصلف - إنه منطق الفاجرين الحمقى وخلق المعاندين والمرضى في غير ما اعتدال ولا اتزان لا في الطلب ولا في السؤال ولا في الاقتضاء ولا في التخاطب ولا في غير ذلك من أساليب السلوك والتعامل - والمسألة لا تحتمل مثل هذا العنت والجحد ولا مثل هذا السؤال الفاجر الخصيم، لو كانت الطبائع سليمة سوية أو كانت النفس مبرأة من اللّيّ والمرض - وكل الأمر أن رجلا من الناس قد أوحي إليه فاحتمل أمانة التبليغ والإرشاد، مع أنه في شخصه وسلوكه وسيرته وفي مجموع طبائعه وسجاياه يزجي بأوفى الدلالة على أنه نبي مرسل - ومعلوم لكل ذي لب أن من يحتمل الكذب لا جرم أن تتبدى في شخصه علائم الكذب ولو بعد حين، لكن هذا النبي الأمي (ص) كانت تتجلى في خلقه وسلوكه وخطابه أجلى معاني الصدق والأمانة والطهر بما يبعث على اليقين الأوفى أنه رسول كريم وأنه نبي أمين.

لم يثبّت الله نبيه بالقول الثابت وهو يبين له عن سؤال من اليهود لنبيهم موسى كان أشد نكرا مما سألوه (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) وهو سؤال لا جرم أن يكون أشد فظاعة ونكرا وأشد عتوا واجتراء على الباطل والاستكبار، فقد سألوا نبيهم موسى أن يطلعهم على الله جهارا عيانا ودون حجاب - وذلكم سؤال مقبوح ومرفوض من الوجهة الدينية التي تستند إلى الوحي والعقل - فرؤية العبد لله لا تتحقق وذلك بالنظر لطبيعة الإنسان التي فطر عليها فهو ذو طبيعة نفسية وروحية وعضوية لا تتيسر له بموجبها حقيقة الرؤية لربه، وذلك مطلب كبير وخطير لا يقوى على إطاقته واحتماله إلا من كان ذا طبيعة أخرى طبيعة تتضافر فيها أسباب القوة والاحتمال والتماسك إذا ما تجلى الله للإنسان - غير أن هذه الطبيعة على نحوها وتركيبها الحاليين لا تقتدر أن ترى الله جهرة - ومن جهة أخرى فإن الإجتراء على مثل هذا الطلب ينافي أدنى مقادير التواضع الذي تفرضه العقيدة الكريمة السمحة أو ينافي ظاهرة الخوف من الله أو الخضوع له إذ لا يجترأ على مثل هذا الطلب الفاسق إلا لئيم جاحد أو عتل أثيم؛ ولذلك قد استوجب اليهود أن يحيق بهم عذاب من الله جزاء شركهم وعتوهم - فقال سبحانه: (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) والصاعقة هي نار تسقط من السماء مقترنة بصيحة الرعد العاتية المدمرة وقوله: (بظلمهم) أي بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم الفاجر الكنود.

وقوله: (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) بعد أن بعثهم الله عقيب أخذهم بالصاعقة، وبعد أن نجاهم الله من طغيان فرعون وإغراقه في اليم، وبعد أن جاوزوا البحر سالمين آمنين رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام: (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) وذلك بيان لقوله هنا: (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) فإنه رغم معرفتهم بفظاعة الإشراك واشتداد غضب الله على المشركين بالرغم من ذلك كله فقد سألوا نبيهم موسى أن يجعل لهم إلها - وتلك غاية الصفاقة والحماقة والعمه، وغاية ما يبلغه الجاحد من استهتار وفسق وتوقح.

لكن رحمة الله أكبر من كل خطيئة وأوسع من الأرض والسماء والكائنات، فإن رحمته وسعت كل شيء حتى وسعت كفران بني إسرائيل وعتوهم وتمردهم على ربهم بالرغم مما قارفوه من فظائع نكيرة من قتل وإفساد وتقديس للعجل ومطالبة عاتية برؤية الله جهرة، إنه مع ذلك كله امتن الله على هؤلاء القوم فغفر لهم (فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) فقد عفا الله عن بني إسرائيل بما ارتكبوه من خطيئات، وكذلك قد ثبت الله نبيه وكليمه موسى تثبيتا مبينا بما آتاه من حجج وبراهين وهي الآيات الباهرات الدالة على صدق نبوته ورسالته.

١٥٤ - (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

وقوله: (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدو في السبت) رفع الله الجبل فوق رؤوس أولئك العصاة من بني إسرائيل؛ وذلك بسبب نقضهم العهد مع الله بالطاعة والاستقامة والصلاح - وهو كقوله تعالى في آية أخرى: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة) فقد رفع الله الجبل فوق رؤوسهم لما عصوا ربهم وشاقوا نبيهم

وأسرفوا في الفسق والعصيان - وما أن رأوا الجبل فوقهم حتى غشيهم الرعب والهلع فبادروا بالطاعة وتنفيذ الأمر ومن ذلك أن يدخلوا الباب سجدا وهو يقولون: (حطة) وسجدا منصوب على الحال.

وكذلك قد أمرهم الله بقوله: (لا تعدوا في السبت) أي ألا يعتدوا باصطياد الحيتان لدى اقترابها من الساحل فيسهل اقتناصها وذلك في يوم السبت وهو من الفعل سبت ومعناه قطع والسبت يعني القطع والراحة - وجمعه أسبت وسبوت - والمسْبت الذي لا يتحرك ١٧٧ وعلى هذا فإن مثل هذا اليوم كان بنو إسرائيل مكلفين بالانقطاع للعبادة وعدم الاصطياد في البحر.

وقوله: (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الميثاق هو العهد وقيل اليمين - وذلك يعني أن الله قد أخذ عليهم عهدا مؤكدا موثقا بتنفيذ ما كلفهم به من أوامر كدخول الباب سجدا وألا يعتدوا باقتناص الحيتان يوم السبت ١٧٨.

١٥٥ - (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا)

قوله تعالى: (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) - قوله: (فبما نقضهم ميثاقهم) أي بسبب نقضهم ميثاقهم الذي قطعوه على أنفسهم - وما هنا زائدة وذلك كقوله: (فبما رحمة من الله لنت لهم) والميثاق الذي أخذوه على أنفسهم هو أن يعترفوا بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره، وأن يعلنوا إيمانهم به ويصدقوه لما يعلمونه من صفاته قبل مجيئه - على أن ثمة جرائم وأفاعيل ارتكبها اليهود طيلة حياتهم كنقضهم للميثاق وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وغير ذلك من جرائم كانت سببا في أخذهم بالصاعقة مثلما بينا آنفا - وميثاقهم مفعول به منصوب للمصدر (نقضهم) الذي ينوب مناب الفعل ١٧٩.

وقوله: (وكفرهم بآيات الله) المقصود بآيات الله البراهين والمعجزات التي تحققت على أيدي النبيين من بني إسرائيل - وقيل هي الكتب السماوية المنزلة على أنبيائهم والتي حرفوها وبدلوها تبديلا فباتت كتبا مزيفة محرفة.

وقوله: (وقتلهم الأنبياء بغير حق) الأنبياء مفعول به منصوب للمصدر (وقتلهم) الذي ينوب مناب الفعل، وتلك جريمة نكيرة من جرائم شتى اركبها اليهود على امتداد حياتهم، وهي جريمة غليظة كبرى اقترفها اليهود وهم يعتدون على أنبياء الله ليسومهم التعذيب والتقتيل - وليت الأمر اقتصر على واحد أو اثنين من النبيين يقتلان، ولكنهم كانوا يقتلون منهم بالجملة حتى ذكر أنهم كانوا يقتلون من النبيين بالعشرات في يوم واحد - وتلك جريمة فظيعة تأتي في طليعة الجرائم والموبقات التي يهتز لها عرش الرحمن!!

يا لله لهذا الذنب العظيم الذي يجترحه فريق أثيم من بني إسرائيل وهم يعتدون على صفوة طاهرة من خير العباد وهم النبيون المرسلون، إذ كانوا يأتمرون بهم ليقتلوهم - ومعلوم ما في كتب الله ودياناته من تنديد مغلّظ بالقتل ومن تبشيع صارخ لمثل هذا الذنب الموبق - وهو ذنب يستوجب سخط الله وغضبه فيما يجرجر القاتل الأثيم في نار جهنم!!.

وقوله: (بغير حق) تأكيد للظلم الذي وقع فيه بنو إسرائيل وهم يعتدون على رسل الله بالقتل - ومع أن مجرد العدوان عليهم بالقتل يعتبر غاية الظلم والخطيئة والباطل، وإنه النكر البالغ الذي يدنو دونه كل نكر أو خطيئة - وهو من الفظاعة المكشوفة التي تقتضي برهانا- مع ذلك فإن الآية تؤكد بأجلى عبارة (بغير حق).

وقوله: (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) عندما دعوا إلى الإيمان بالقرآن ونبي الله محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا مقالتهم: (قولبنا غلف) أي قلوبنا داخل غلاف، فهي مجللة بالغطاء فلا تعي ما يقال لها - وذلك كقوله عنهم في آية أخرى: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) أي قلوبهم يغطيها الكنان الواقي الذي يحول دون السماع أو الوعي - وقيل: غلف مفردها غلاف فيكون المعنى أن قلوبنا أوعية للعلم - فقد تحصّل لنا من العلم ما وعته قلوبنا بالقدر الوافي فنحن في غنى عن أي علم

جديد - والذي يظهر أن الأول أصوب فإن قلوبهم كانت الغطاء الحاجب فلا تؤمن ولا تعي، ويرجح ذلك قوله تعالى بعدها: (بل طبع الله عليها بكفرهم) فليس صحيحا ما زعموه من احتوائهم للعلم الوافي وأنهم مستغنون عن أحد غيرهم يأتيهم بعلم، ولكنهم قد عموا وصموا وتحجرت طبائعهم ونفوسهم، واستعصى الفهم والوعي على عقولهم وقلوبهم، فباءت بالانكماش والشلل والكزازة؛ فاستحقت بذلك أن يطبع الله عليها بالختم فتظل آيسة مبلسة لا يغنيها ما زعمته من علم وما تظنه من إيمان ببعض الأنبياء، وهو إيمان قليل لا ينجي ولا ينفع.
وقوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا) قليلا منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف - أي لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، وصار إيمانهم قليلا؛ لأنهم لم يصدقوا على ما أمرهم الله به، ولكن صدقوا ببعض النبيين وببعض الكتب وكذبوا ببعض، فهم مصدقون من وجه ومكذبون من وجه آخر ومثل هذا الإيمان لا يجدي وليست له قيمة؛ لأن الكفر ببعض كفر بالكل.
١٥٦ - (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)
وقوله: (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) كان ذلك من أسباب إهلاكهم وتدميرهم بالصاعقة وغيرها - وقد أورد كفرهم هنا مكررا ليؤكد على مواقفهم الكافرة والمفرطة في الفسق والتأثيم - وكذلك افتراؤهم على مريم بالبهتان فقد رموها بالزنا، وهي المرأة الفاضلة العابدة البتول، خير نساء الدنيا كما ذهب بعض أهل العلم ويعزز ذلك قوله تعالى: (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) ويا له من بهتان ظالم آثم تقترفه يهود وهم تتدنس أفواههم وألسنتهم بأبشع اختلاق مفترى؛ إذ يتطاولون على الطاهرة العذراء خير نساء الدنيا بقاذورة الزنا، وحاشا لامرأة طاهرة قانتة كمريم أن تجنح للفاحشة - وكلمة مريم سريانية معناها مرتفعة، وقيل: الخادمة لبيت الله، والبهتان أو البهت معناه الكذب المفترى الذي يبعث على الدهشة والحيرة - فقد أفطرت يهود في الافتراء على مريم؛ إذ رموها بالفاحشة زورا وبهتانا وذلك سلوك ذميم ظالم يستوجب من الله العقاب والمقت - وبهتانا منصوب، صفة لمصدر محذوف أي قولا بهتانا - وقيل: مفعول به لقولهم.
١٥٧ - (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)
ومن أباطيلهم وجرائمهم كذلك ما قالوه من زعم كاذب: بأنهم قتلوا المسيح وفي هذا يقول سبحانه: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) سمي المسيح بذلك لما كان يمسح به من الدهن - وقيل سمي بذلك لسياحته في الآفاق داعيا إلى الله، وقيل غير ذلك، وعيسى بدل من المسيح وهي كلمة عبرانية - ابن بدل من عيسى ومريم مضاف إليه - ورسول منصوب على المفعولية لفعل محذوف تقديره أعني وقيل على البدلية.
وهذه واحدة أخرى من مفتريات يهود؛ إذ كذبوا على الله والناس حين زعموا أنهم قتلوا المسيح - وقوله: (رسول الله) يوحي بما قصده اليهود من التهكم، فهم أصلا لا يصدقون رسالته ونبوته، ولكنهم ينسبون إليه الرسالة ساخرين متهكمين يضاف إلى ذلك جانب الغمز الذي ينوون به نفي النبوة عن سيدنا عيسى عليه السلام فكأنهم يقولون: لقد قتلنا هذا الرسول، ولو كان رسولا حقا لدافع عنه ربه ولما أمكننا قتله.
والقول الفاصل الحق الذي لا ريب فيه أن المسيح لم يقتل ولم يصلب، بل إن الله قد رفعه إليه رفعا - وما القتل المزعوم إلا حدثا موهوما قد شبه لليهود والنصارى معا فانطلقوا يهذون في تخريص واهم بقتل المسيح وصلبه.
وحقيقة المسألة تأتي في غاية السهولة والبساطة لو صاخ الناس لكلمة الوحي الفاصلة التي تقضي في الأمر في صدق ويقين قطعيين، أن حقيقة المسألة سهلة وبسيطة لا تحتمل شيئا من مثل هذا الصخب المصطنع وهذه الضجة العارمة المفتعلة وما صاحب ذلك كله من خلاف عميق أثار في الأرض رياح النزاع والتخاصم بين المجتمعات والطوائف على مر الزمن.
إن المسألة لا تحتمل مثل شيء من هذا الذي حدث، إن هي إلا قصة مولود جيء به من غير نكاح، ولا يقع ذلك إلا بإذن الله، وهو القادر على كل شيء - نتصور سهولة ذلك وبساطة حدوثه عندما نستذكر مسألة الخلق بالنسبة لأبي البشر آدم عليه السلام؛ إذ خلقه الله

من طين لازب، فليس ثمة أب وليس ثمة أم - ذلك كل الذي يقال ببساطة في مثل هذا الموقف كيلا نتعثر فيما تعثرت به الطوائف والأناسي من الخلاف والخصام وما أعقبه ذلك من فتن وخلافات وخصومات دينية معقدة مستعصية لا سبيل لفضها طيلة الدهر.
وقوله: (ولكن شبه لهم) والعبارة على هذا النحو تحتمل الإجمال مما حدا بالعلماء والمفسرين أن يدلوا بأقوال شتى في الكشف عن المقصود بالتشبيه - ولا نلمك في هذا المقام أن نخوض في الكشف والتبيين خوضا يعقبه تكلف - لكن الذي نملك أن نقوله أن قصة القتل والصلب كاذبة موهومة وكل الذي حصل أن ذلك شبه لهم، على ما في هذا التعبير من إجمال، سواء كان التشبيه بإلقاء صورة المسيح على أحد الحواريين فشابهه تماما، أو أن اليهود قد قتلوا الذي قتلوه وهم في شك إن كان هو المسيح أو غيره فظنوا ذلك ظنا.
قوله: (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه) واختلافهم فيه قد جاء في تفسيره جملة أقوال منها: أن المسيح إله وذلك غاية الإفراط الذي بلغه النصارى في تقديس عيسى عليه السلام - وقال بعضهم: بل هو ابن الله.
ومنها: أنه قد رفع إلى السماء ولم يقتل - وذلك قول فريق من قومه الذين عاينوا رفعه.
ومنها: أن عيسى قد صلب من حيث ناسوته لا من حيث لاهوته - بمعنى أن جانبه الإنساني هو الذي وقع عليه القتل والصلب، لكن جانبه الإلهي لا يقع عليه قتل ولا يحتمل شيئا من ذلك؛ لأنه يمثل جزءا من إله والقتل فيه غير متصور.
ومنها: أنه قد قتل وصلب من حيث ناسوته ولاهاوته معا - فقد وقع القتل على ما فيه من جانبين متكاملين.
وقيل غير ذلك من مثل هذه الأقوال المتكلفة المعقدة التي تقوم على الظن والتخمين، والتي لا يسعفها المنطق الثابت أو الحجة المعتبرة - لا جرم أن ذلك تفكير هائم سابح في غياهب الوهم الشاطح المريض - وهؤلاء الذين اختلفوا في المسيح على نحو ما بينا (لفي شك منه) أي في حيرة وارتياب مما حدث - فهم ليسوا على قطع أو يقين من وقوع القتل والصلب، ولكنهم مضطربون في ذلك وشاكون - وهم كذلك لا يسعفهم في الذي زعموا أية أثارة من علم أو دليل، وليس لهم في ذلك إلا الاعتماد على الظن والاستناد إلى التخمين أو الهوى المتعصب - وفي ذلك يقول سبحانه: (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) اتباع منصوب على الاستثناء المنقطع - ثم تعاود الآية التأكيد مرة أخرى لتنفي مقتل المسيح أو موته، وأن ما أشيع عن قتله ليس إلا ظنا وما هو من اليقين في شيء (وما قتلوه يقينا) ما نافية - قتلوه جملة فعلية تتضمن فعلا ماضيا، والفاعل واو الجماعة، والضمير في محل نصب مفعول به - يقينا نعت لمصدر محذوف تقديره قولا وتقدير العبارة أن الله قال هذا قولا يقينا - فالله سبحانه يحسم المسألة في يقين لا يعتريه ظن أو شك أن عيسى لم يقتل (بل رفعه الله إليه) وقيل في قوله: (وما قتلوه يقينا) إنهم لم يقتلوه وهم متيقنون أنه هو، بل إنهم قتلوه وهم في شك من ذلك.
١٥٨ - (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)
وقوله: (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) رفعه الله إلى السماء ويحتمل الرفع وجهين:
أحدهما: العلو المكاني المنوط بالمسافة والبعد.
وثانيهما: العلو المعنوي وذلك منوط بعلو الشأن وارتفاع المنزلة - ثم إن الله جل جلاله لهو القوي فمن تمسك بدينه واحتمى بجنابه عز وانتصر، وأنه سبحانه منتقم جبار يسلط على المجرمين الذين يعتدون على الأنبياء ويقتلونهم بغير حق عذابا من السماء أو الأرض فيدمرهم ويدمدم عليهم إن شاء - وهو كذلك حكيم فيما يقدره وفيما يجريه أو يقرره من حوادث ووقائع، كل ذلك يتم بحكمة من لدنه قد نقف على شطر منها أو نجهل حقيقتها وأبعادها.
١٥٩ - (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)
قوله: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) إن أداة نفي بمعنى ما - وأهل الكتاب اليهود والنصارى - فكل واحد منهم سيؤمن به قبل موته.
وقد جاء في بيان المقصود من ذلك عدة أقوال نذكرها فيما يلي:
القول الأول: كل واحد من اليهود والنصارى سوف يؤمن بالمسيح بعد نزوله إلى الأرض، ثم يدركه الموت بعد ذلك كغيره من العباد - وبذلك فإن الضمير في موته يعود على المسيح وكذلك الضمير في (به) أي أن كل كتابي حال حياة المسيح بعد أن ينزل من السماء

إلى الأرض سوف يؤمن به إيمانا صحيحا بعيدا عن الشرك وهو أنه نبي الله وعبده ورسوله.
القول الثاني: كل واحد من أهل الكتاب سوف يؤمن بالمسيح قبل أن يموت (الكتابي) فالضمير في موته يعود على الكتابي، فكل يهودي ونصراني عند معاينته الموت سيؤمن بالمسيح إيمانا صحيحا - أما الضمير في (به) فإنه يعود على المسيح.
القول الثالث: وهو عود الضمير في (به) على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - - وبذلك فكل كتابي من اليهود والنصارى إذا عاين الموت فإنه سينكشف له الحق فيعلم أن هذا النبي حق، لكن هذا التصديق لا ينفعه؛ لأنه حاصل بعد فوات الأوان الذي تستقيم فيه التوبة وتقبل - وينبغي القول كذلك أن الكتابي لا ينفعه إيمانه إن كان ذلك عند معاينة الموت سواء تعلق إيمانه بالمسيح أو محمد عليهما الصلاة والسلام - فإن التوبة عن الكفر تكون صحيحة إذا كانت قبل معاينة الموت - وفي ذلك يقول سبحانه في آية أخرى سابقة: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما).
ولدى النظر في هذه الأقوال يتبين أن القول الأول هو الصحيح - وذلك بالنظر للسياق الذي جاءت عليه الآيات في مطلعها وفي آخرها والمتعلقة بخبر المسيح عليه السلام، فمطلع الآيات يتناول الحديث عن فرية القتل والصلب، وأن ذلك ما كان إلا تشبيها أوقع المختلفين في الشك والاضطراب، وأن المسيح قد تم رفعه إلى السماء فانتفى ما نسبه إليه المرتابون والخراصون - وذلك كله متعلق بالمسيح نفسه - وأما آخرها فإنه يحقق أن المقصود هو المسيح - يستبين ذلك من قوله تعالى: (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) فالذي يشهد على أعمالهم وأقوالهم من التصديق له أو التكذيب هو المسيح، وذلك الذي يدل عليه السياق، وهو الذي يدور حوله الحديث خلال هذه الآيات.
وفي تعزيز هذا القول وفي عودة المسيح إلى الأرض يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها " ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: " وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) وقد ورد مثل ذلك جملة أحاديث متضافرة تؤكد المقصود من الآية.
وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله " لكن أمثال هذا الحديث من حيث التحقيق تظل تحتمل مدلولين - أحدهما أن يكون ذلك في الدنيا وهو أن تحقق للمسلمين أسباب القوة والمنعة، فتكون لهم الغلبة على اليهود بعد أن تضيق البشرية بهم ذرعا وتعاني من كيدهم البلاء والشقاء.
أما الثاني: فهو أن يكون ذلك أحد أشراط القيامة؛ إذ لا ينطق الحجر إلا بحصول معجزة ولا يتيسر ذلك إلا أن تقوم الساعة حيث الأهوال والخوارق وحيث الانقلاب الكوني الهائل الذي يأتي على الحياة والخلائق جميعا ١٨٠.
١٦٠ - (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا)
قوله تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) - الظلم معناه وضع الشيء في غير محله - وعلى ذلك فالظلم يدخل فيه كل ما حرم الله من محظور؛ لأن ذلك إذا مورس لا يكون على النحو المستقيم أو السليم فهو بذلك وضع الشيء في غير محله.
ومعنى الآية أنه بسبب الظلم الذي ارتكبه اليهود فقد ضيق الله عليهم بما حرمه عليهم - وقوله: (هادوا) فعل ماض ومضارعه يهودون - وهاد أو تهود بمعنى تاب وأناب ورجع واسم الفاعل هائد - ونقول الهوادة والمهاودة أي اللين والرفق ويشتق من ذلك كلمة اليهود ومفردها اليهودي - على أن الملاحظ أنه شتان شتان بين المدلول اللغوي لهذه الكلمة والمدلول العرفي والسياسي والواقعي لها - فالمدلول اللغوي المجرد يأتي مبرأ من إيحاءات مشرومة ومنكودة، لكن المدلول الآخر وهو ما ينطق به الواقع المحس فإنه يوحي بالتعس والشؤم

ويقطع في غير ما شك بأن يهود فئة عاتية جانفة متمردة - والظلم الذي ارتكبته يهود والذي بموجبه عوقبوا يتضمن آثاما عظيمة علاوة على الذنوب والخطايا المحسوبة على اليهود والتي بيناها سابقا - لكن الظلم هنا يتضمن صدهم عن سبيل الله كثيرا فقد صدوا أنفسهم أولا، ثم صدوا غيرهم عن اتباع الحق الذي تنزلت به الشرائع السماوية وحمله الأنبياء المرسلون - وذلك شأن معهود في اليهود، وقد وقفنا على أخبارهم منذ سالف الزمان، فإنهم قد مردوا على التنكر للحق ومعاداة النبيين والمصلحين، والتصدي لرسالات الله بمختلف الوسائل والأسباب كالقتل والفتنة وبعث الشكوك والشبهات من حول العقيدة الصحيحة وأصحابها من الدعاة إلى الله.

١٦١ - (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

ومن الظلم (أخذهم الربا وقد نهوا عنه) والربا من أشد الكبائر نكرا - وهو محرم في جميع الكتب السماوية ومنها التوراة - وإذا لم يكن لهذا التحريم أثر واضح في هذه الكتب فلا جرم أن يكون ذلك سببه التحريف أو التغيير والتبديل الذي أحدثه أهل الكتاب فيما نزل عليهم من كتب.

ومن المعلوم أن جريمة الربا أكثر ما تكون لصوقا باليهود فهم قد مردوا على هذا السحت في غابر الزمن حتى يومنا هذا، وهم في ذلك يبتدعون مختلف الأساليب في التحيل للحصول على المال عن طريق الربا، يحفزهم إلى ذلك رغبتهم الملحاحة في الإكثار من المال والاستزادة منه في جشع ينافي القناعة ولا يرضى بالحلال.

ومن الظلم كذلك أكلهم أموال الناس بالباطل - وذلك ظلم؛ لكونه كسبا غير مشروع أو هو وضع للمال من استغلال واحتكار وتلاعب بأسعار، وكذلك الرشا والميسر وأجور الفسق والفاحشة في الملاهي وبيوت الدنس والخنا حيث الزواني والزناة، وغير ذلك من وجوه الكسب الحرام الذي يبتز من خلالها اليهود أموال الناس بالباطل.

من أجل هذه المحظورات التي ارتكبها اليهود بظلم فقد عاقبهم الله بالحرمان من طيبات كانت لهم حلالا، مع أن الطعام كان جله حلالا: لهم - وفي ذلك يقول سبحانه: (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) ولئن كان هذا العقاب مفروضا عليهم في الدنيا فإن عذاب الآخرة أشد وأنكى وأبقى - وفي ذلك يقول عز من قائل: (واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أي هيأنا للكافرين من بني إسرائيل عذابا مقيما يتسم بالإيلام والديمومة.

١٦٢ - (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)

وقوله: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) لكن حرف استدراك - والراسخون مرفوع على الابتداء، والخبر قوله: (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) والراسخون من الرسوخ وهو الثبوت - والمقصود العلماء ذوو القدم الراسخة في العلم من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار وآخرين من أحبار اليهود - أما المؤمنون فهم أتباع النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وهؤلاء جميعا (يؤمنون بما أنزل إليك) أي يصدقون القرآن الذي أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة كيما يتنزل عليك بالتالي منجما - إنهم يصدقون القرآن وما حواه من أخبار اليهود وما كان من تضييق عليهم بتحريم كثير من الطيبات بعد أن كانت حلالا، وذلك من باب العقاب لهم الذي يستحقونه في الدنيا - وهم كذلك يؤمنون بما (أنزل من قبلك) من كتب مثل التوراة، ذلك الكتاب المقدس الذي حوى من الشريعة والحكمة ما يصلح به بنو إسرائيل لو استقاموا وصلحت نفوسهم، ولو لم يحرفوا ويبدلوا تبعا لهواهم.

قوله: (والمقيمين الصلاة) ثمة خلاف بين المفسرين وأهل البيان في إعراب (المقيمين) وسبب نصبها - وقد ورد في ذلك عدة أقوال، لعل أصحها ما ذكره سيبويه وهو النصب على المدح أو التعظيم - وذلك كقوله تعالى في آية أخرى: (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) وذلك في كلام العرب كما قال الإمام المفسر ابن كثير رحمه الله - والصلاة مفعول به منصوب لاسم الفاعل - (المؤتون الزكاة) من الإيتاء أي الإعطاء، مرفوعة للعطف على (الراسخون) و (المؤمنون) قبلها ١٨١ والزكاة

تعني في اللغة الطهارة والنمو: وفي اصطلاح الشرع تعني قدرا من المال معلوما يؤديه مالك النصاب للمستحقين الثمانية أو بعضهم على الخلاف بعد أن يحول عليه الحول - والزكاة مفعول به منصوب لاسم الفاعل قبلها - وكذلك قوله: (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) فهؤلاء جميعا سيجعل الله لهم أجرا عظيما يتلقونه يوم القيامة ١٨٢.

١٦٣ - (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

قوله تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا) نزلت في قوم من اليهود قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى - وهم يرومون بذلك أن يظلموا معاندين فلا يؤمنون إلا قليلا، ولا يحفزهم إلى مثل هذا النفي المكابر إلا الرغبة اللئيمة في النكران والمعاندة والتصدي للحق وأنصاره لا يحفزهم لذلك غير الحسد الأسود المركوم قوله: (وأوحينا) من الوحي ومعناه التكليم خفية - وهو من الفعل وحى يحي - نقول: وحى إلى فلان أي أشار إليه أو كلمه سرا ١٨٣ - وفي هذه الآية دفع لمقالة الكاذبين من اليهود الذين زعموا أن الله لم يبعث رسلا من بعد موسى، أو الذين غلوا بأشد من ذلك إفراطا ونكرا فقالوا: إن الله لم يبعث رسلا البتة، فقد دفع مقالة هؤلاء المفترين جميعا ليؤكد في إيقان راسخ أنه سبحانه قد أوحى إلى نبيين كثيرين منهم أنت يا محمد - وقد أوحى إلى غيرك مثلما أوحي إليك، فأوحى إلى أبي البشر الثاني نوح، هذا النبي الذي احتمل من قومه أذى كثيرا واصطبر على نكرانهم وكفرانهم في مجالدة لا يقوى على احتمالها إلا من كان مثله عليه السلام - وأوحى الله أيضا إلى النبيين من بعده من غير ذكر لأسمائهم جميعا فهم كثيرون ولا يعلم عددهم إلا من بعثهم جل وعلا - لكنه سبحانه قد بين عددا من النبيين المرسلين الذين أوحي إليهم منهم: إبراهيم وقد اتخذه الله خليلا - من الخلة وهي الدرجة العالية والمرتبة الرفيعة التي أوتيها هذا النبي الأجلّ؛ وذلك لعظيم إيمانه وعزمه وقوة احتماله واصطباره ولكامل ركونه إلى الله وتوكله عليه - ثم إسماعيل عليه السلام وهو ولد إبراهيم الذي ولد بمكة حيث ترعرع ومات وقد شارك أباه الخليل في بناء الكعبة وكانت أمه من العرب وهو الذبيح الذي جرت بسببه المعجزة حتى فداه الله بكبش عظيم - ثم إسحاق وهو ولد إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وأمه سارة، وقد ترجح أنه عاش في فلسطين حيث مات ودفن - ثم يعقوب أو إسرائيل وهو من ولد إسحاق - ومن نسله جاء اليهود وانتشروا ونسبة إليه يسمون " بنو إسرائيل " ثم الأسباط ومفردها سبط بكسر السين ومعناه ولد الولد - فالأسباط يراد بهم الأنبياء الذين جاءوا من نسل يعقوب عليه السلام - ثم عيسى وهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطاهرة البتول فحملت به من غير مس بإذن الله - ثم أيوب النبي الصابر الذي كان مثالا يحتذى في قوة الجلد والاحتمال والاصطبار على المكاره التي أصابته في بدنه وماله وولده من غير أن يئن أو يشكو أو يتزعزع - ثم يونس وهو ذو النون، أي صاحب الحوت، وهو الذي ضاق بقومه، فلم يصطبر عليهم حتى ذهب مغاضبا، ويمم شطر البحر، فابتلعه الحوت، فلبث في ظلام بطنه أياما، فدعا الله منيبا إليه إلى أن قذفه الحوت بالساحل، وأنبت الله عليه شجرة يقطين، ثم ذهب إلى قومه بإيمان وعزيمة جديدين ليدعوهم من جديد فأمنوا له جميعا - ثم هارون وهو أخو موسى الكليم عليهما السلام وقد بعثه الله رسولا ليكون هاديا لبني إسرائيل وكان في ذلك استجابة لدعاء موسى؛ إذ دعا ربه ليرسل معه أخاه هارون عونا له في أداء هذه المهمة الثقيلة الجليلة.

وكذلك سليمان وهو من أنبياء بني إسرائيل وقد منّ الله عليه؛ إذ علمه منطق الطير وآتاه من أسباب القوة والمنعة ما مكن له في الأرض تمكينا، وقصته في القرآن وافية ومثيرة، منها إتيانه على وادي النمل، ولقاؤه مع ملكة سبأ، وغير ذلك من أخبار.

وقوله: (وآتينا داود زبورا) وداود نبي كريم من أنبياء بني إسرائيل المرسلين، وقد أنزل الله عليه كتابه المقدس فيه هداية لقومه ورشاد لو أنهم أنابوا واهتدوا، وذلك هو الزبور ومعناه الكتاب وجمعه الزُبُر وهو من الفعل زبر أي كتب ١٨٤.

١٦٤ - (وَرُسُلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)

قوله تعالى: (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) رسلا مفعول به لفعل محذوف تقديره أرسلنا، والقصص معناه الحديث، فقد قص الله على نبيه أخبار الرسل من قبل، أي من قبل الهجرة من مكة - وثمة رسل آخرون لم يحدث الله نبيه عنهم.

على أن النبيين والمرسلين كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله، والمرسلون أخص منهم فهم أقل، وقد ورد في ذلك روايات وأقوال شتى تتعلق بأعداد النبيين والمرسلين لكنها روايات وأقوال قابلة للنقد والتجريح وهي لا يطمئن لثبوتها وصدقها الباحث المتحقق، فنؤثر مع ذلك ألا نركن إليها في مثل هذا المجال - لكن المرسلين الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن أربعة وعشرون رسولا، واختلفوا في ذا الكفل إن كان رسولا أو غيره، والراجح أنه رسول - والأربعة والعشرون هم على النحو التالي: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والملاحظ أن عددا عظيما من المرسلين هم من بني إسرائيل بدءا بأبيهم يعقوب وانتهاء بعيسى المسيح عليهم صلاة الله وسلامه - أما العرب فلم يبعث من بينهم إلا أربعة من المرسلين وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام - وقد أورد مثل هذا أبو ذر الغفاري فيما يرويه عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.

قوله: (وكلم الله موسى تكليما) تكليما مفعول مطلق منصوب، وهو دليل تأكيد الكلام من الله لنبيه موسى عليه السلام؛ كيلا يظن متأول أو واهم بأن الكلام لم يكن من الله على الحقيقة بل على المجاز - والمعلوم أن الفعل إذا عقبه ما يؤكده فقد أفاد أنه بعيد عن المجاز؛ لأن المجاز مع تأكيد الفعل غير محتمل - وقد أفاد هذا النص القرآني عن عظيم المنزلة التي أنزلها الله نبيه موسى بما يكشف عن مرتبة عظيمة كريمة يحتلها موسى الكليم من بين رسل الله الطاهرين الأبرار، أو من بين الصفوة أولي العزم من الرسل الذين يجتازون إلى السنام من طليعة البشر المؤمن المفضل - نقول ذلك في غير ما تعصب لجنس أو عرق أو قوم أو غير ذلك مما اعتاد الناس وأصحاب الملل والديانات أن يتعصبوا من أجله - وشأن المسلم وهو يكتب أو يتحدث في مسألة أو قضية أن يصدق مع الله ليكون صادقا مع نفسه والآخرين - إن شاء المسلم في ذلك ألا يجانب الصواب وألا يحابي تحت ضاغط من تعصب لجنس أو عرق أو قوم أو ملة مثلما يفعل المتعصبون والموتورون والدجاجلة من الصليبيين واليهود وعبدة الأوثان.

أما التكليم من الله فلا ندري كيف يكون ولا ينسب إلى الله بعد ذلك تشبيه فإنه (ليس كمثله شيء) وكل الذي نستطيع أن نتصوره في تصديق ويقين أن الله جلت قدرته قد خاطب نبيه مباشرة على نحو من التكليم الإلهي والطريقة الإلهية.

١٦٥ - (رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

وقوله: (رسلا مبشرين ومنذرين) رسلا منصوب على البداية من قوله: (رسلا) السابقة - وقيل: منصوب على المدح بفعل مقدر وتقديره أمدح رسلا ١٨٥ - هؤلاء الذين ذكرتهم الآية من المرسلين قد بعثهم الله هداة للبشرية ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ولينقذوهم من ظلام الجاهلية والمادية إلى نور العلم والتوحيد.

ووظيفة المرسلين التبشير والتنذير وذلك بما يناسب أصناف البشر على اختلافهم من حيث الإيمان والتقوى، أو من حيث الكفران والضلالة؛ وذلك كله كيلا يكون للناس حجة على ربهم فيتذرعوا بالأسباب والترهات كأن يقولوا ما نزل علينا كتاب من السماء نقرأه، وما جاءنا من نذير ولا سمعنا من أحد يوقفنا على الحقيقة ويدعونا إلى منهج الله القويم وصراطه المستقيم - والكلمتان (مبشرين ومنذرين) كلتاهما نعت منصوب للبدل قبلهما.

أما وقد بعث الله للناس من بينهم رسلا كي يأمروهم ويحذروهم وينهوهم، ولكي يبينوا لهم دينهم الذي يصلح عليه حالهم ومآلهم ويكونوا به سعداء كرماء، فقد أصبح الناس أنفسهم محجوجين وأن الحجة لله عليهم، فلا يلومن هؤلاء بعد ذلك غير أنفسهم.

وقوله: (وكان الله عزيزا حكيما) إن الله سبحانه لهو صاحب العزة والقوة والجبروت، وهو لا يقوى على النيل منه أي كائن، وهو

كذلك ذو الحكمة فيما يحكم أو يقضي وفيما يقدر أو يريد، ولا يصدر ذلك كله إلا عن حكمته البالغة التي لا يحيط بها إلا هو تقدست أسماؤه.

١٦٦ - (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

قوله تعالى: (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) لكن أداة استدراك، ولفظ الجلالة بعدها مرفوع على الابتداء، والجملة الفعلية بعده في محل رفع خبر المبتدأ - وهذه شهادة من الله لرسوله بصدق النبوة والرسالة وما أنزل عليه من كتاب، وذلك بعد أن كذبه الكافرون وأهل الكتاب واليهود خاصة - فقد أنكر هؤلاء نبوته وشهدوا ضده بالباطل ليقولوا: ما نشهد لك فيما تقول - وبعد هذا التكذيب الجاحد والشهادة الظالمة الزور يأتي التصديق من الله لنبيه العظيم وهو يشهد له بالصدق والحق في الذي قاله وفيما أنزله عليه من كلام باهر معجز وهو القرآن الذي أنزله الله على نبيه بعلمه، أي بمعرفته واطلاعه وقدرته وقيل معنى ذلك أن الله أنزل القرآن وفيه علم من الله بأخبار الأولين والآخرين وما جاء فيه من حقائق وبراهين.

وقوله: (والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) الملائكة معطوف على لفظ الجلالة قبله أي أن الله يشهد على صدق نبوة رسوله وما نزل عليه من كتاب، وكذلك الملائكة يشهدون على هذه الحقيقة الثابتة القاطعة - والجملة الفعلية من (يشهدون) في محل رفع خبر الملائكة - ثم يعاود الخطاب التنصيص على شهادة الله في إبراز وتأكيد ليرسو في الذهن انها أعظم شهادة، وأنه سبحانه أعظم الشاهدين وأصدقهم (وكفى بالله شهيدا) أي يكفي أن يكون هو الشاهد على صدق نبيه وثبوت رسالته - وشهيدا منصوب على التمييز.

لا جرم أن الشهادة من الله عنوان الثبوت الجازم بما يضفي على رسالة الإسلام فيضا من الصدق واليقين - وحسب النبي والمسلمين أن يكون الله شهيدا لهم على صدق رسالتهم وأن دينهم لهو حق اليقين - والله جلت قدرته خير الشاهدين.

١٦٧ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالا بَعِيدًا)

قوله تعالى: (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما).

ذلك حكم من الله عام في الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله - ويتسع الحكم في الذين كفروا ليتناول الكافرين جميعا، سواء منهم المشركون أو أهل الكتاب أو الملحدون، وهؤلاء كافرون مخالفون عن أمر الله ومعادون للإسلام بكل أسباب العداء وطرقه وأساليبه وإذا اختلط الكفر بالصد عن سبيل الله فقد اكتملت الجريمة وازدادت فظاعة وعتوّا وذلك شأن الظالمين والكافرين اللّد الذين يقفون في وجه الإسلام؛ ليصدوا عنه صدودا، وليواجهوا أتباعه والداعين إليه بالصد - وفي الصد تعميم وشمول يتناول كل وجوه التحدي والردع وكل ضروب الكيد والمعاداة وكل صور التشكيك والتعذيب والتشويه فيما يرد الناس عن دين الله ويثنيهم عن اتباع منهج الحق، منهج الإسلام.

ولا يبوء بهذه الجريمة المزدوجة (الكفر والصد) إلا الذين يضلّون ضلالا بعيدا - أي بعدوا عن الهداية والخير بعدا عظيما، وهو بعد غائر سحيق يهوي بالكافرين الصادّين في أطواء الضلالة وأغوار التيه ليبوءوا بالهلاك والخسران.

١٦٨ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا)

ثم تعاود الآية قضية التأكيد على فظاعة الكافرين الظالمين باستحالة المغفرة لهم وأن طريقهم سيؤول بالقطع إلى جهنم فيقول سبحانه: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا) وهذه جريمة مزدوجة أخرى تتألف من كفر وظلم - والكفر هو الجحود والتنكر، أما الظلم فيأتي في القرآن بمعنى الشرك، وهو يأتي منسجما مع مفهومه في اللغة، وهو وضع الشيء في غير محله، فالذين ظلموا لا جرم أن ظلمهم- كيفما كان- لهو وضع للشيء في غير محله، وهؤلاء قد أوقعوا أنفسهم والآخرين في مغبة الظلم - وعلى ذلك فإن الله لا يغفر لمثل هؤلاء (ولا ليهديهم طريقا) أي أن هؤلاء الكافرين الظالمين الذين رفضوا منهج الله

وأبوا أن يهتدوا لا يستأهلون طريق الهداية والرشاد.
١٦٩ - (إِلا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)
ولكنهم يستأهلون ما يسوقهم إلى جهنم ليكونوا فيها خالدين خلود الآبدين - ولا يعز على الله مثل هذا الإجراء أو التقدير بل إن كل إجراء أو تقدير أو تصرف لهو عند الله أمر مقدور ميسور.
١٧٠ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)
وقوله: (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم) ذلك خطاب للناس كافة لكي يؤمنوا بالحق الذي جاءهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - - والحق هو القرآن، هذا الكتاب الإلهي المعجز وما يتبعه من سنة نبوية كريمة تكشف عن معانيه ومكنوناته، وتوضح مبهمه، وتزيل إشكاله وإجماله، وتخصص بعض ما فيه من عموم أو تقيّد بعض ما فيه من إطلاق - فالقرآن والسنة كلاهما الشقان الأساسيان اللذان يتم باجتماعهما الدين كله، مع الاعتبار بأن القرآن هو الأصل الأصيل والمنهل الزاخر والفياض الذي لا ينضب - ولا ريب أن الدين كله حق، وأن من سلك سبيله واتخذ منه للحياة منهاجا سوف يجد فيه ما يعصمه من الكوارث والسقطات والزلل وأنه سوف يجد خيرا لقوله سبحانه: (فآمنوا خيرا لكم) خيرا منصوب على الخبرية للفعل كان المحذوف وتقدير العبارة هو: فآمنوا يكن خيرا لكم.
وقوله: (وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما) بعد الإعلان للناس كافة أن ما جاءهم به الرسول حق، وبعد عودتهم للإيمان لما في ذلك من خير لهم، فإن الله يحذر من السقوط في الكفر فإنه لا يجني كافر إلا على نفسه وأن الله لا يعبأ بالخلق جميعا إذا كفروا وهو سبحانه في ملكوته وهيمنته واقتداره لا يضره كفران الكافرين أو جحد الجاحدين - وفي الأصل فإن الله جل وعلا غني عن العباد كافة فهو مالك الملك بما في ذلك من أرضين وسموات وما بينهن.
وقوله: (وكان الله عليما حكيما) إن الله يعلم ما هو كائن وما سوف يكون، وهو سبحانه أعلم بالخلق من أنفسهم، وإنه عالم بمصائر الناس جميعا من حيث إيمانهم وكفرانهم - والله جل وعلا حكيم فيما يقدر وفيما يقضي وله الحكمة البالغة فيما يقرر من حوادث ووقائع وفيما يفرض من أحكام وشرائع.
١٧١ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)
قوله تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) يخاطب الله في هذه الآية النصارى ناهيا إياهم عن الغلو وهو الإفراط والمغالاة أو مجاوزة الحد - وبالفعل فقد غالى النصارى مغالاة تتجاوز الحد - لقد غالوا مغالاة ظالمة ممجوجة لا يتصورها العقل السليم وتربأ عنها رسالات السماء التي لم يخالطها زيف أو تحريف، لقد غالى هؤلاء في إفراط بغيض إذ رفعوا عيسى المسيح حتى جاوزوا به وبقدره نطاق البشرية والناسوتية إلى نطاق الإلهية والربوبية - وذلك ضرب من التجني الخطير يهذي به هؤلاء في غير هدى ولا بصيرة إلا الشطط والهذيان والضلال؛ إن ذلك تصور فاسد يراود الأذهان الواهمة وهي تخيل هذه القضية المظنونة لتحسبها حقيقة وما هي بحقيقة - وإنما هي الوهم المخادع المريض الذي يسوّل للمضللين الجهلة وجه الباطل والتحريف.
وقوله: (ولا تقولوا على الله إلا الحق) يوجب الله على هؤلاء في تحذير وترشيد ألا يفتروا على الله افتراء مشينا مختلفا، وألا يتجرأوا عليه بالتقول الظالم المكذوب، وأن يتورعوا عن إطراء المسيح بما ليس له مما هو إشراك بالله كبير - ثم قال سبحانه: (إنما المسيح عيسى ابن

مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) المسيح مرفوع على الابتداء، وعيسى بدل منه وكذلك ابن بدل، ورسول خبر المبتدأ - وفي هذه الآية حصر قاطع لحقيقة المسيح في النبوة الكاملة المتولدة عن أمه مريم عليها السلام بعد أن حملت به حملا حقيقيا بإذن الله، ثم أجاءها المخاض إلى جذع النخلة حتى وضعته وليدا رضيعا ينطق كأنما هو كبير مكتهل - وتؤكد الآية بعد أداة الحصر (إنما) على أن المسيح عيسى لهو ابن مريم، وأنه ليس له أب، وأنه من عباد الله المرسلين كغيره من إخوانه النبيين الذين يشاركونه جميعا في حقائق كبرى ثلاث وهي: العبودية لله والنبوة والرسالة - وأي تجاوز لهذا المفهوم يشكل انزلاقة خطيرة تلج بالمنزلقين في وهدة الضلالة والإشراك بالله، وتجعلهم يجاهرون في اجترار أحمق بنسبة الولد إلى الله أو حاجته سبحانه لصاحبة وقد تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله: (وكلمته ألقاها إلى مريم) المقصود بالكلمة هنا قوله: (كن) فإنه بعد أن قالها تحقق الحمل والولادة بغير أبوة أو نكاح - وقيل يقصد بها الآية - فإن المسيح عليه السلام من حيث ولادته بغير أب ولا نكاح كان آية دالة على عظمة الله سبحانه وعلى قدرته في الخلق بغير قيود وقيل غير ذلك.

وقوله: (وروح منه) معطوف على كلمته مرفوع - وقد ورد في المراد بالروح هنا أقوال كثيرة نقتصر منها على قولين أحسبهما الراجحين والله تعالى أعلم - فقد قيل: إن سبب تسميته بالروح أن نفخة من روح الله عن طريق جبريل عليه السلام - والقول الثاني أن كلمة روح في الآية تعني رحمة - فالمسيح قد كان رحمة من الله للناس أي أن الله قد امتن على عباده فبعث إليهم رحمة منه تجسدت في هذا النبي الكريم عيسى عليه السلام.

قوله: (فآمنوا بالله ورسله) يدعو الله للإيمان به وحده لا شريك له فهو خالق الكون والحياة وخالق الناس والنبيين جميعا وخالق المسيح بن مريم نفسه.

وقوله: (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم) ثلاثة خبر لمبتدأ محذوف تقديره آلهتنا ١٨٦ - ذلك نهي شديد عن مقارفة خطيرة تشبث بها النصارى منذ أن كانوا ولا يزالون فقد أشركوا بالله أشد إشراك، وزعموا أنه اتخذ ولدا - ولهم في ذلك حذلقات عقيمة تقوم على التكلف واصطناع العبارات الباهتة الغامضة - العبارات المسوقة في خلط وإبهام والتي غالبا ما تثير في الأذهان الحيرة والتساؤل أو تبعث في النفس الشك والارتياب والتردد - عبارات مضطربة غوامض ليس لها في ميزان الواقعية والمنطق أيما حساب.

ومن الحذلقات قولهم بالأقانيم الثلاثة - ومفردها أقنوم وهو يعبر عن إله والأقانيم الثلاثة ترمز إلى الأب والابن وروح القدس، وكل شطر من هذه الشطور إنما- يعني- في تصور النصارى- إلها ينبثق عن جوهر الإله الأكبر - وقد تفرقوا في تفسير هذه الاصطلاحات فرقا شتى وافترقوا كذلك في التفصيلات افتراقا يدل على تبلد في التفكير بما ينتفي معه الإخلاص للحقيقة الإلهية من أول لحظة.

ومن جملة ما قالوه في الثلاثة: الآلهة ثلاثة - الله سبحانه، والمسيح، ومريم وقالوا: إن الله تعالى جوهر، وأحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس - وهم يريدون بالأول الذات أو الوجود، وبالثاني العلم أي الكلمة - وبالثالث الحياة - وقالوا: إن الله واحد بالجوهرية، وثلاثة بالأقنومية - والأقانيم صفات للجوهر القديم وهي الوجود والعلم والحياة - وعبروا عن الوجود بالأب، والحياة بروح القدس، والعلم بالكلمة - ثم اختلفوا أكثر من ذلك فذهبت الملكانية أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها إلى أن الأقانيم غير الجوهر القديم، وأن كل واحد منها إله، وصرحوا بإثبات التثليث - وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة وسبحانه وتعالى عما يشركون - وأن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته وامتزجت به امتزاج الماء بالخمر، وأن المسيح ناسوت كلي لا جزئي، وهو قديم أزلي، وأن مريم ولدت إلها أزليا - واتفقوا على أن اتحاد اللاهوت بالمسيح دون مريم، وأن القتل الصلب وقع على الناسوت واللاهوت معا، وأطلقوا لفظ الأب على الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وأطلقوا كذلك لفظ الابن على عيسى عليه السلام.

وذهب نسطور الحكيم إلى أن الله تعالى واحد والأقانيم الثلاثة ليست غير ذاته ولا نفس ذاته، وأن الكلمة اتحدت بجسد المسيح لا بمعنى الامتزاج، بل بمعنى الإشراق - أي أشرقت عليه كإشراق الشمس من كوة على بلور.

ومن النسطورية من قال: إن كل واحد من الأقانيم الثلاثة حي ناطق موجود - وصرحوا بالتثليث كالملكانية - ومنهم من منع ذلك

- ومنهم من زعم أن الابن لم يزل متولدا من الأب، وإنما تجسده وتوحده بجسد المسيح حين ولد - والحدوث راجع إلى الناسوت - فالمسيح إله تام وإنسان تام وهما قديم وحادث - وقالوا إن الصلب ورد على الناسوت دون اللاهوات - وذهب بعض اليعقوبية إلى أن الكلمة انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح، إلى غير ذلك من الأقوال الغامضة المتناقضة - الأقوال التي يضرب بعضها بعضا ويكذب بعضها الآخر تكذيبا - أقوال في غاية الضعف والتهافت والركاكة فلا تثير غير مزيد من الحيرة والشك والإبهام ١٨٧.

أقوال لا تستند إلى أدنى نصيب من البرهان ولا يسعفها شيء من المنطق والتفكير السليم، وما هي إلا ترهات تقال في تخريص متخبط، وفي هوى جامح مجانب للصواب.

وما أروع العقيدة الإسلامية في هذا الصدد، فإنها تقوم على السهولة والبساطة واليسر وتنبذ التعقيد والتكلف؛ لأنها عقيدة الحق والفطرة وعقيدة الإنسان المتكامل السوي الذي يمشي على صراط واضح ومستقيم لا عوج فيه - وهذه حقيقة ناصعة مكشوفة نعيها تماما ونحن نقرأ قوله سبحانه في سورة قصيرة من أعظم سور القرآن (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وهذه عبارات قاطعة حاسمة لا تحتمل شيئا من التكلف المضطرب أو الإغراق في متاهات التصور الشاطح والمغالاة في هذيان مريض.

فالله جل وعلا أحد لا شريك له، فليس له ولد، ولم يتخذ صاحبة وليس له نديد مكافئ في خلقه - هذا هو جوهر العقيدة في الإسلام - فهو واضح كل الوضوح وميسور كل التيسير، بحيث يلائم الفطرة البشرية تماما ولا يستعصي إدراكه على العقل، ويجتمع على وعيه واستيعابه الناس جميعا - وليس غير ذلك إلا البعد عن الحقيقة والصواب أو السقوط في الكفر وهو طريق إلى النار؛ يتقاحم فيها المشركون الذين غلوا في إطراء المسيح والثناء عليه حتى جعلوه إلها أو ثالث ثلاثة - وفي ذلك يقول سبحانه: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) وقال عز من قائل في آية أخرى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) فلم يبق بعد هذا البيان القرآني الحاسم أي مجال لانتزاع الحجج الدالة على عدم كفران أهل الكتاب من يهود أو نصارى - إنه لا مجال للتقوّل بأنهم ليسوا كافرين؛ بل إنهم كافرون لما بيّنّاه من أدلة في القرآن.

وقوله: (انتهوا خيرا لكم) خيرا منصوب على الخبرية لكان المحذوفة، وتقدير العبارة: انتهوا يكن خيرا لكم - وهو نص ينهى عن الإشراك بالله ويحذر من مغبة الوقوع في هذا الظلم العظيم فإن عاقبته وخيمة - وإذا انتهى المحذرون وأقلعوا عن شركهم بالله فإنهم سيمضون إلى خير وأن عاقبتهم ستكون حسنة مرضية.

ثم يعقب ذلك تأكيد قاطع بأن الله جلت قدرته واحد معبود وليس دونه من إله - فإنه سبحانه متفرد بالألوهية ولا يشاركه في هذه الخصيصة الكبرى أحد - وهو كذلك لا حاجة له في نسل أو ذرية، وما ذلك إلا شأن الضعفاء الذين يجدون أنفسهم محتاجين إلى الأعوان والأنصار كالأولاد والأحفاد والزوجات - لكنه سبحانه غني عن ذلك كله فهو مالك كل شيء بما في ذلك عيسى ومريم والناس والخلائق جميعا وكذلك السماوات والأرض ومن فيهن وما بينهن - وهو يقول في ذلك: (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) أي الله وكيل على كل شيء، ويتصرف في خلقه وملكوته بمثل ما يشاء - وكيلا منصوب على التمييز - والوكيل بمعنى الحافظ.

١٧٢ - (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)

قوله تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا).

يستنكف من الفعل نكف ومعناه عدل وامتنع - والاستنكاف أو النكف يعني الأنفة والعدول والامتناع والانقطاع، والانتكاف هو الخروج والميل ١٨٨ - والآية تعني أن المسيح عليه الصلاة والسلام لن يأنف من عبادة الله، ولن يمتنع من أن يكون عبدا خاشعا ذليلا لله وحده - بل إن المسيح نبي متواضع كريم خاشع لله تماما ولا يحمل ذرة من كبر يحول دون الخضوع والامتثال لأمر الله - لن يمتنع المسيح من ذلك (ولا الملائكة المقربون) والملائكة معطوف على المسيح، وهؤلاء صنف كريم رفاف من عباد الله الأطهار،

وهم كما وصفتهم الآية فإنهم مقربون من الله من حيث المنزلة والدرجة الرفيعة - حتى إن بعض العلماء قد استدلوا من هذه الآية على أن الملائكة أفضل من النبيين - ولا أتصور صحة هذا الاستدلال فإن الذي يؤخذ من هذه الآية أن الملائكة عباد مقربون، وكونهم مقربين لا يدل على أفضليتهم - وما التقرب الوارد في الآية إلا مجرد وصف من جملة أوصاف تليق بالملائكة - لكن الراجح أن النبيين خير الخلائق أجمعين.

والاحتمال المعقول من ذكر الملائكة هنا وأنهم مقربون هو دفع للتصور الفاسد الذي راود أذهان العرب المشركين عندما اعتبروا الملائكة بنات الله.

قوله: (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) ذلك بيان عام للعباد جميعا يتضمن تحذيرا لهم وتخويفا وهو أن العصاة الذين يمتنعون عن عبادة ربهم بإخلاص ثم يستكبرون استكبارا، فإنهم يوم القيامة محشورون بين يدي الله ليعاينوا الحساب ويروا جزاءهم الذي يستحقونه.

١٧٣ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)

وقوله: (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) هؤلاء هم المؤمنون حقا، لأنهم قرنوا إيمانهم بعمل الصالحات، فإنه لا قيمة للإيمان إذا لم يشفعه صالح العمل - والذين يكونون كذلك سوف يجزون أجورهم وافية بغير انتقاص، وسوف يكون لهم من الله زيادة في الأجر والجزاء - وذلك هو شأن الإله الكريم المنان، فإنه يعطي من الأجر ما لم يكن في حسبان العبد، ويفيض من الخير والعطاء ما يفوق العمل المبذول كثيرا، وتلك هي رحمة الله يبسطها لعباده، فينالوا بها السلامة والنجاة وحسن الجزاء، لكن الذين يمتنعون من عبادة الله استكبارا فإنهم معذبون أشد العذاب، وإنهم ملاقون من النكال الأليم ما يناسب استنكافهم واستكبارهم، وهم بالتالي سوف لا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا، إنهم إذا ما استنكفوا واستكبروا فإنهم واقعون في الهلاك والعذاب لا محالة حيث لا يجدون لهم هنالك عونا أو مجيرا أو نصيرا غير الله ١٨٩.

١٧٤ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)

قوله تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما) الخطاب للناس كافة بما يلفت أذهانهم إلى البرهان الذي جاءهم من الله - والبرهان هو النبي - صلى الله عليه وسلم - بما يحمله من حجة أو معجزة أو دلائل على صدق نبوته.

فإن سجاياه الكريمة وكمال خُلقه وشمائله وفيما يتجلى في شخصه الكريم من أطيب الملامح وأحسن المقومات لهو أجلى برهان على أنه نبي مرسل، وأنه صادق أمين لا ينطق عن الهوى، وإنما يأتيه الوحي من السماء ومعه الخبر اليقين - أما النور الذي أنزله الله فهو القرآن الكريم - ولا ريب أنه نور مبين تتكشف به الحقيقة ويتبدد الديجور المعتم لتشرق أنوار المعرفة والحق في وضح غامر مكشوف - وهو كذلك - (مبينا) أي واضح ظاهر في معانيه وأحكامه ومقاصده، وهو قائم على الصدق والاستقامة والجلاء من غير لبس أو تعقيد أو إبهام.

١٧٥ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

وقوله: (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل) أما للتفصيل والشرط والتوكيد ١٩٠ - الذين اسم موصول في محل رفع مبتدأ - والجملة الفعلية (فسيدخلهم) في محل رفع خبر وهي مقترنة بالفاء - والتفصيل بعد أما يفيد أن الذين آمنوا بالله واعتصموا به لسوف يدخلون في رحمة من الله - والاعتصام، ومنه العصمة والاستعصام وهو الاستمساك بحبل الله والامتناع من الشر والمكروه بالالتجاء إليه سبحانه، والمعتصمون بالله أو بكتابه سوف يدخلون في رحمة الله، أي تشملهم رحمته سبحانه، ومن كان كذلك فلا جرم أن يكون من السعداء الناجين الذين يجدون خيرا كثيرا وحبورا كبيرا - وسيكونون كذلك في فضل من الله - والفضل هو

الزيادة، فإنه فوق ما يجده المعتصمون من حظ جزيل في الجنة فإن لهم زيادة في الخير والجزاء.

وقوله: (ويهديهم إليه صراطا مستقيما) هؤلاء الذين آمنوا بالله واعتصموا به أو بكتابه سوف (يهديهم إليه) وذلك هو الجزاء - فالإيمان والاعتصام هما العمل السابق المقدم والهداية تأتي نتيجة لذلك - وسواء كان المقصود بالهداية في الدنيا أم في الآخرة أم فيهما معا فإن الأمر المعتبر هنا أن الهداية تأتي مسبوقة بالإيمان الصحيح والاعتصام الوافي بالله سبحانه أو بقرآنه على الخلاف بين المفسرين - فالله سبحانه سوف يهدي هؤلاء إليه ليكونوا على صراطه المستقيم سواء في الدنيا أم في الآخرة وصراطه المستقيم في الدنيا يتحقق في منهجه القويم وفي دينه الذي يقوم على الاستقامة والخير والعدل والرحمة - أما صراطه المستقيم في الآخرة فهو النجاة من عذاب الله والفوز بمرضاته بما يؤول على الجنة والنعيم - وإعراب (صراطا) مفعول به ثان لفعل محذوف دل عليه الفعل قبله (ويهديهم) وقيل مفعول به ثان للفعل (ويهديهم) ومستقيما نعت منصوب ١٩١.

١٧٦ - (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

وقوله تعالى: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم).

أخرج الإمام أحمد في سبب نزول هذه الآية عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب عليّ، أو قال: صبوا عليه، ففعلت فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) ١٩٢ أي يطلبون منك أن تفتيهم في الكلالة وهي كما بيناها سابقا مشتقة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ١٩٣ - وقد فسرها أهل العلم بالذي يموت وليس له ولد ولا والد، وذلك ما ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين والمذاهب الأربعة، وقال آخرون: هو الذي ليس له ولد استنادا إلى ظاهر الآية (إن امرؤا هلك ليس له ولد) والمراد بالهلاك الموت - فإذا مات أحد وليس له ولد ولا والد (الكلالة) وكانت له أخت فإنها ترث نصف التركة، أما إن كانت الكلالة أنثى فتوفيت عن أخ كان له التركة كلها.

فلو ماتت عن زوج وأخت لأب وأم، كان للزوج النصف وللأخت النصف الآخر - ولو مات عن بنت وأخت، كان للبنت النصف وللأخت النصف الآخر - وذلك أن النصف الذي للبنت يكون بالفرض وما للأخت فهو بالتعصيب استنادا إلى ما رواه البخاري عن معاذ بن جبل أنه قضى على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنصف للبنت والنصف الآخر للأخت.

ولو مات عن ابنة وابنة ابن وأخت فإن النصف للبنت ولبنت الابن السدس تكملة للثلثين وما بقي فللأخت - وذلك ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود الذي قضى بمثل ما قضى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وقوله: (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) أي إذا مات أحد كلالة وكان له أختان، فإن لكل واحدة منهما الثلث ليكون بذلك لهما الثلثان - وإذا زاد العدد عن الأختين كأن يكن ثلاث أخوات أو أكثر فإنهن جميعا يشتركن في الثلثين، ذلك أن الثلثين أقصى ما يكون للأخوات هنا وإن كثرن.

قوله: (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) إذا مات أحد وهو كلالة عن إخوة له من الذكور والإناث اتبع الأسلوب الذي ورد في مطلع السورة من حيث التوزيع وهو أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله: (يبين الله لكم أن تضلوا) وهو تبيين للفرائض والحدود التي رسمتها شريعة الله للمؤمنين لئلا يضلوا فيركبوا متن الضلالة والشطط أو يسيروا في طريق تائه متعثر.

وقوله: (والله بكل شيء عليم) الله جلت قدرته أعلم حيث يبين شرعه للناس فيوجب فرائضه لتتوزع التركات بين الورثة على أساس من القرابة أو الزوجية - وتلك هي سبيل الحق والعدل في التوزيع بما يلائم فطرة الإنسان وينشر بين أولي القربى أسباب المودة والالتئام - بعيدا في ذلك كله عن أساليب الإفراط والتفريط، وبعيدا عن كل ظواهر العسف والحيف.

٥ سورة المائدة:

سورة المائدة:
ترتيبها: ٥
عدد آياتها: ١٢٠
بيان إجمالي للسورة

نزلت هذه السورة في المدينة وفي هذا أخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح - وكذلك أخرج الحاكم عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم - فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه - وما وجدتم فيها من حرام فحرموه.

وقد تضمنت هذه السورة فيضا من المعاني والمواقف والمشاهد والمواعظ والأحكام - وجاء في طليعة ذلك كله إيجاب الوفاء بالعقود وهي العهود والمواثيق، وما كانوا يتعاقدون عليه من حلف وغيره - على أن ذلك جاء مجملا ثم عقب بعد ذلك بالتفصيل - وأول ذلك إباحة الأنعام من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك من أنواع البهائم المباحة كالظباء وبقر الوحش ونحو ذلك، مع النهي عن الاصطياد حال الإحرام - فإذا أحرم المسلم حُظر عليه الصيد بكل صوره وأشكاله حتى إذا أحل المحرم بات الاصطياد في حقه مباحا كالأصل.

وقد تضمنت السورة جانبا من المحظورات والمناهي التي حذر الباري جل وعلا من اكتساب شيء منها - ومن جملة ذلك الأكل من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وكذلك المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع باستثناء ما ذكي قبل موته، وكذلك ما ذبح من أجل الأصنام - وكذا الاستقسام بالأزلام وهي القداح التي كانوا يستعملونها في الاستخارة إذا أرادوا أن يفعلوا شيئا، خلافا لعقيدة الحق التي يركن من خلالها المسلم إلى الإيمان بقدر الله مع التوكل عليه تمام التوكل.

وفي السورة إعلان مثير يشير إلى اكتمال ملة الإسلام - هذا الدين الكامل الشامل الذي يقيم حياة البشرية على المحجة السوية المستقيمة - المحجة الناصعة البيضاء التي لا يعتريها عوج ولا انحراف ولا أمت - (١) ذلكم الدين الذي أركزه الله للعالمين ليكون هاديا للبشرية في هذا الزمان فتحظى بالنجاء والفلاح في الدارين.

وفي السورة تحليل للطيبات من المطعومات والمشروبات - وكذلك طعام أهل الكتاب من اليهود والنصارى فإنه مباح، يضاف إلى ذلك إباحة الزواج من نسائهم المحصنات، أي العفائف وفي السورة بيان بأركان الوضوء ووجوب التطهير من الجنابة بالماء - وإذا عز الماء أو كان استعماله ضرر فبالطهارة الضرورية وهي التيمم بالتراب الطاهر - وذلك على سبيل التخفيف والتسهيل على المسلمين، ودفعا للحرج أن يصيبهم، فإنه لا مكان للحرج أصلا في شريعة الإسلام.

وفي السورة تنويه واضح بقصة النصارى واليهود من حيث النقض للعهود والمواثيق والتحريف لكلام الله عن مواضعه - ذلك التحريف الفاضح الذي حوى من صور التزييف والتغيير والتبديل لكلمات الله ما استحالت به التوراة والإنجيل إلى ركام من الكلام الملفق المفترى - الكلام الذي انزلق بهاتين الأمتين إلى أغوار الضلالة والغواية والكفران، فضلا عن الانحراف المذهل عن تعاليم موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

وفي هذا الخضم الفظيع من التحريف والتضليل والجحد يعلن الله في صراحة مكشوفة عن كفران أولئك الذين جاهدوا بإلهية المسيح عليه الصلاة والسلام وهو عبد من عباد الله جيء به من غير أب ليكون بشيرا ونذيرا لبني إسرائيل.

وفي السورة بيان بفضل الله ومنته على بني إسرائيل إذ جعل أكثر النبيين فيهم، وجعل فيهم ملوكا أولي قدرة وسلطان عظيمين - وإذاك

أمرهم نبيهم موسى بتكليف من الله أن يقاتلوا العمالقة الذين كانوا مستحوذين على بيت المقدس، لكنهم نكلوا عن الجهاد خورا وجبنا، فعاقبهم الله بالضلال في أرض التيه أربعين عاما، يسيرون من غير أن يهتدوا للخروج، فظلوا على هذه الحال من الحيرة والضياع حتى فني هذا الجيل ثم جيء بجيل آخر يقوده يوشع بن نون الذي دخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة بعد أن من الله عليهم في التيه بالمن والسلوى وانبجاس الماء من الصخر والتظليل بالغمام - ولما دخلوا بيت المقدس قالوا فارهين بطرين وهم يزحفون على أستاههم: حبة في شعرة، وذلك في غاية من البطر وسماجة الطبع بدلا من قولهم: حطة، كما أمرهم نبيهم يوشع عليه السلام.

وفي السورة هذا النبأ المثير - النبأ الذي يكشف عن فظاعة الحسد وهو يجد قراره في النفس البشرية ليحرضها على اكتساب الأهوال والموبقات بغيا بغير حق - إنه الحسد الأثيم الأسود الذي يركب النفس البشرية عامة ليسومها القض والاستنفار فتستمرئ الإيذاء والإضرار وفعل المناهي والمحظورات - إنه الحسد الفاضح الخسيس الذي لا ينجو منه بنو آدم غير أولي العزائم من الناس أو المبرئين من هذا الدرن الوبيل، وقليل ما هم - يستبين ذلك من قصة ابني آدم وهما أخوان يجترئ أحدهما على قتل آخيه الأخر بغيا وحسدا.

وفي السورة تحذير شديد من اتخاذ أهل الكتاب أولياء، وإنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض - فما ينبغي للمسلمين أن يوالوا الكافرين ليتخذوا منهم الحلفاء أو الأصدقاء أو الأخلاء - ولئن فعلوا ذلك فلسوف يجدون أنفسهم ينسلخون من ربقة الإسلام رويدا رويدا، وهو ما يخطط له المشركون والظالمون من اليهود والنصارى - وتلكم هي الفاقرة القاصمة التي يسقط فيها المسلمون إذا هم مالأوا الكافرين على حساب الإسلام والمسلمين.

وفي السورة بيان أحكام اليمين من حيث ضروبه، وأولها يمين اللغو ثم اليمين المنعقدة وهي التي تجب فيها الكفارة عقيب الحنث - ثم اليمين الفاجرة الغموس التي يكتسبها الخاطئ كذبا متعمدا - وبيان ذلك كله في موضعه لدى التفصيل إن شاء الله.

وفي السورة نهي قاطع عن جملة محظورات، وهي الخمر والميسر الأنصاب والأزلام، فإن ذلك كله إثم وهو شر من شرور الشيطان - والشيطان كائن جني ماكر وخبيث يعمل الليل والنهار لا يفتر من أجل الوقيعة بين المسلمين ولإركاز بذور الخصام والنزاع بينهم بسبب الخمرة التي تمس العقول فتضعفها إضعافا، وكذلك الميسر الذي يثير في نفوس المتقامرين الكراهية والنزاع.

وفي السورة تنديد بواحد من مخلفات الجاهلية الضالة - وقد تجلى ذلك في تصور شنيع فاسد - تصور قائم على الإشراك الظالم والوثنية السخيفة العمياء - وذلك فيما سمي من الأنعام لدى الجاهليين بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي - وتلك أسماء أطلقها المشركون على بعض الأنعام لتكون من حظ الآلهة، فلا يسري عليها شيء من تصرف معروف كالبيع أو الحمل أو الذبح.

وفي السورة أيضا ذكر لبعض المعجزات مما أوتي عيسى عليه السلام كتكلمه وهو في المهد ونفخه فيما يشبه الطير من الطين ليصبح طيرا حقيقيا - وكذلك إبراؤه الأكمه والأبرص وإحياؤه الموتى، كل ذلك فإذن الله - وأخيرا دعاؤه ربه أن ينزل على بني إسرائيل مائدة من السماء ليروها ويأكلوا منها لعلهم يؤمنون - وقد أنزلها الله عليهم في الراجح - والله تعالى أعلم.

١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)
البيان التفصيلي للسورة

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد}.
هذه الآية بالرغم من قصرها وإيجازها، فإنها يتجلى فيها الإعجاز في أنصع صوره - فهي بقلة ألفاظها تتضمن جملة من المعاني المختلفة المنسجمة سواء في ذلك الأمر بالوفاء وتحليل بهيمة الأنعام وإباحة الصيد لغير المحرم، يضاف إلى ذلك استثناء يعقبه استثناء - وذلك كله في كلمات معدودة تضمنها آية بليغة مثلى - لا جرم أن ذلك ضرب من الإعجاز المثير.

وقد حكي في هذا الصدد أن أصحاب الكندي قالوا له: أيها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن - فقال: نعم! أعمل مثل بعضه - فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد - إني فتحت المصحف فخرجت سورة " المائدة " فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد ٢.

قوله: {أوفوا بالعقود} يعني العهود - وهي ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره - وقيل: العقود التي أمر الله بالوفاء بها ستة هي: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين - وقيل: يعني بذلك عقود الدين - وهي ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتدبير وغير ذلك من الأمور، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة - وكذلك ما عقده على نفسه لله من الطاعات كالحج والصيام والاعتكاف والنذر وما أشبه ذلك من طاعات الإسلام.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على عدم خيار المجلس في البيع، لأن قوله {أوفوا} يدل على لزوم العقد وثبوته ويقتضي نفي خيار المجلس - وهو قول الحنفية والمالكية، خلافا لأكثر العلماء وفيهم الشافعية والحنابلة - إذ قالوا بلزوم خيار المجلس في البيع هو أن كلا من العاقدين مخير في إمضاء العقد أو عدم إمضائه ما دام في مجلس العقد، إلا أن يتفرقا بأبدانهما من مجلس العقد - فإن تفرقا كلاهما أو أحدهما فقد لزم العقد، واحتجوا لذلك بخبر الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " البيعان بالخيار ما لم يتفرقا " وفي لفظ آخر للبخاري " إذ تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا " وهذا صريح في إثبات خيار المجلس الذي يأتي عقيب البيع وهو من مقتضياته شرعا فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود ٣.

قوله: {أحلت لكم بهيمة الأنعام} جاءت هذه الآية لتنزيل ما كان يراود أذهان العرب من ضلالات فاسدة عما أسموه البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي - أما البهيمة، فهي كل ذات أربع قوائم ولو في الماء، أو كل حي لا يميز - وجمعه بهائم - والبهمة: أولاد الضأن والمعز والبقر ٤ - والأنعام هي الإبل و البقر والغنم، وقيل: الأنعام: الأزواج الثمانية، ويأتي بيانها فيما بعد إن شاء الله - وقيل بهيمة الأنعام: الظباء وبقر الوحش ونحوها - مما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم في الاجترار وعدم الأنياب.

قوله: {إلا ما يتلى عليكم} ما في موضع نصب على الاستثناء - والتقدير: إلا ما يقرأ عليكم في القرآن والسنة - وفي القرآن كقوله: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع} فهذه وإن كانت من الأنعام فإنها محرمة بما أصابها من عوارض كالخنق والوقذ والنطح وغير ذلك - أما في السنة فكقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم والنسائي: " كل ذي ناب من السباع حرام ".

قوله: {غير محلى الصيد وأنتم حرم} غير منصوب على الحال - والواو للحال {أنتم حرم} في موضع نصب على الحال - وهذا الاستثناء التالي - وكلا الاستثناءين من قوله: {أحلت لكم بهيمة الأنعام} أما قوله: {غير محلى الصيد وأنتم حرم} فتأويله أن ما كان صيدا فهو حلال في الإحلال - أما الإحرام فهو حرام.

قوله: {إن الله يحكم ما يريد} أي ما يريده من الأحكام مما فيه خير لكم ومصلحة، وهو سبحانه الحاكم لا معقب لحكمه ولا راد لما يقضي ٥.

٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا ءامين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوركم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب}.

قيل في سبب نزول هذه الآية: إن المشركين كانوا يحجون ويعتمرون ويهدون فأراد المسلمون أن يصدوهم فأنزل الله تعالى {لا تحلوا شعائر الله} ٦ - والشعائر جمع شعيرة وهي في اللغة العلامة - والمراد بها هنا البدنة تهدى لبيت الله الحرام - وإشعارها بجز سنامها حتى يسيل منه الدم فيعلم من يراها أنها هدي فلا يمسها بأذى - وقيل: شعائر الله هي جميع مناسك الحج وهو قول ابن عباس - فقد نهى

الله عن التهاون بحرمة شيء من هذه الشعائر أو أن يحال بينها وبين المتنسكين بها.
وقيل: شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه - أي دين الله كله ٧ فقد نهى الله عن التهاون بشيء من محارم الله مما حواه دينه الواسع الكبير.
وقوله: {ولا الشهر الحرام} الشهر الحرام اسم جنس يدل على جميع الأشهر الحرم وهي أربعة: واحد فرد وثلاثة سرد ٨ وفي صحيح البخاري عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: " إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض - السنة اثنا عشر شهرا منها: أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم - ورجب الذي بين جمادى وشعبان ".
والمراد بقوله: {ولا الشهر الحرام}: لا تستحلوا القتال في الأشهر الحرم، لكن ذلك منسوخ - وعلى هذا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم كغيرها من أشهر السنة كاملة - وهو قول الجمهور - واحتجوا بقوله تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}.
قوله: {ولا هدي} الهدي، جمع ومفرده هدية بسكون الدال - وهي ما يهدى من الأنعام (الإبل والبقر والغنم) إلى بيت الله الحرام تقربا إلى الله - والمراد سوق الهدي إلى الحرم وذبحها فيه وعدم ترك ذلك – أي الهدي – لما فيه من تعظيم شعائر الله، وأن لا يتعرض أحد للهدي بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله.
قوله: {ولا قلائد} جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدي من عروة أو لحاء شجر أو غير ذلك لتكون علامة على كونه هديا - والمقصود أن لا تتركوا تقليد الهدي في أعناقها لتتميز بذلك عما سواها من الأنعام ليعلم الناس أنها هدي، أي مهداة إلى الكعبة فلا يمسها أحد بسوء ولا يمنعها من بلوغ محلها.
قوله: {ولا ءامين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا} آموا البيت الحرام، هم قاصدوه من الحجاج والعمار وغيرهم - والمعنى: لا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذين يبتغون الفضل من الله بالتجارة في موسم الحج - لا ينبغي لكم أن تمنعوهم من ذلك، لأنهم إنما قصدوا البيت الحرام طلبا للرزق والمعاش وطلبا لرضوان الله والدار الآخرة وفي ظنهم، وإن كانوا لا ينالون ذلك.
على أن هذا الحكم منسوخ - وقد نسخه قوله تعالى: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} وقوله: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر} وقوله: {واقتلوهم حيث وجدتموهم} وقد حكى الطبري الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس ٩.
قوله: {وإذا حللتم فاصطادوا} حللتم، أي فرغتم من إحرامكم - أحل في اللغة دخل في أشهر الحل - أو خرج من ميثاق كان عليه ١٠ والمعنى: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرما عليكم من الصيد في حال الإحرام.
وثمة مسألة في هذا الصدد اختلف فيها علماء الأصول وهي: الأمر بعد الحظر ماذا يفيد؟ ثمة قولان في ذلك:
القول الأول: الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الوجوب - وهو قول الحنفية وبعض الشافعية، وهو قول القاضي الباقلاني والمعتزلة، واختاره الرازي - واحتجوا لذلك بأن الإلزام هو مقتضى صيغة الأمر " افعل " عند الإمكان إلا أن يقع مانع والمقتضي للوجوب " صيغة الأمر " قائم وتقدم الحظر لا يصلح مانعا - ودليل ذلك قوله تعلى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين} فقتلهم هنا على الوجوب، لأن المراد الجهاد، واحتجوا أيضا بأمر الحائض والنفساء وبالصلاة والصوم وقد ورد بعد الحظر وهو للوجوب ١١.
القول الثاني: لأمر الوارد بعد الحظر يفيد الإباحة - وهو قول أكثر الشافعية - وقال به الآمدي، واحتجوا لذلك من الكتاب الحكيم بقوله تعالى: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض} فقد كان الانتشار محظورا ضرورة الالتزام بتلبية الدعوة بالدخول للصلاة ثم أمرهم بعد ذلك بالانتشار - وكذلك قوله تعالى: {فإذا طعمتم فانتشروا} ونظير ذلك قوله تعالى هنا: {إذا حللتم فاصطادوا} ومقتضاه أن الأمر بالاصطياد بعد الحظر على الإباحة.
وثمة قول ثالث في المسألة وهو أن الحكم هنا يرد إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجبا رده واجبا، وإن كان مستحبا فمستحب،

أو مباحا فمباح ١٢.

قوله: {ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوركم عن المسجد الحرام أن تعتدوا}

لا يجرمنكم، أي لا يحملنكم، وهو يتعدى إلى مفعولين - وتقديره: لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا - ومنه أجرم واجترم أي كسب واكتسب - وجريمة أهله أو القوم أي كاسبهم - والجارم بمعنى الكاسب - ولا جرم أي لا بد أو حقا أو لا محالة - ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم، فلذلك يجاب عنه باللام فيقال: لا جرم لآتينك ١٣.

والشنآن، معناه البغض - شنئت الرجل أشنؤه شنأ وشنأة وشنآنا، إذا أبغضته - والمعنى: لا يحملنكم أو يكسبنكم بغض قوم بصدهم إياكم أن تعتدوا عليهم بصدهم - وذلك لما صد الكافرون المسلمين عن البيت عام الحديبية ثم مر بهم ناس من المشركين يريدون العمرة، فقال المسلمون: نصدهم كما صدنا أصحابهم فنزلت هذه الآية - ومقتضاها أن لا تعتدوا على هؤلاء ولا تصدوهم لأن صدوكم.

وقوله: {أن تعتدوا} في محل نصب مفعول به ثان - والأول كاف المخاطب - والتقدير: لا يجرمنكم بغض قوم الاعتداء ١٤ أي لا يحملنكم بغضهم على الاعتداء عليهم بصدهم عن البيت والانتقام منهم بإلحاق المكروه بهم.

قوله: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} البر هو فعل الخيرات - والتقوى هو ترك المنكرات - وقيل البر يتناول الواجب والمندوب - والتقوى رعاية الواجب - وقيل: البر والتقوى بمعنى واحد - وإنما كرر باختلاف اللفظ على سبيل التأكيد والمبالغة.

والإثم، معناه الحكم الذي يترتب على الجرائم - والعدوان هو ظلم الناس - وقيل: الإثم والعدوان بمعنى الانتقام والتشفي.

والمعنى أن الله يأمر عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات، وينهاهم عن التناصر أو المعاونة على فعل المحارم والمآثم وكل صور الباطل من ظلم ومجاوزة وعدوان ١٥ وفي جملة ذلك كله أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوما، فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قال: " تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره ".

وأخرج أحمد أيضا عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ".

وروى البزار عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدال على الخير كفاعله " وله شاهد في الصحيح وهو قوله: " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا "

وروى الطبراني عن ثمران بن صخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام ".

قوله: " واتقوا الله إن الله شديد العقاب " يأمر الله عباده أن يتقوه، وذلك بفعل الطاعات ومجانبة المحظورات، فالله عقابه أليم شديد لا يطيقه أحد - وفي ذلك من التهديد والوعيد ما فيه مزدجر.

٣ - (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم}

بعد أن أحل الله بهيمة الأنعام استثنى من ذلك جملة محرمات كان أهل الجاهلية يأكلونها، فنعرض لها في التفصيل الآتي:
أولا: الميتة - وهي البهيمة من الأنعام تموت حتف أنفها - وهذه الميتة يحتبس فيها الدم فتفسد وتتعفن وبذلك يصبح أكلها ضارا - ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها - وفي ذلك روى مالك في الموطأ وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر فقال: " هو الطهور ماؤه الحل ميتته ".
ثانيا: الدم ويراد به المسفوح ١٦ - فقد روي عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: " كلوه " فقالوا: إنه دم - فقال: " إنما حرم عليكم الدم المسفوح " ومن رواية محمد بن إدريس الشافعي عن ابن عمر مرفوعا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال ".
ثالثا: لحم الخنزير - فهو كله حرام كله سواء في ذلك أكله أو بيعه وشراؤه أو الانتفاع به - ويستثنى من ذلك شعر الخنزير فإنه يجوز استعماله في الخرازة وهي خياطة الثوب - وما عدا ذلك فحرام كله، ذلك أن الخنزير نجس العين أصلا - وقيل في اشتقاق الخنزير: إنه من الخزر بالتحريك، ومعناه ضيق العين وصغرها - والخزيرة: النظر بلحظ العين ١٧.
رابعا: وما أهل لغير الله به - وذلك من الإهلال وهو رفع الصوت - يقال: أهل فلان بالحج إذا لبى به - أي قال: لبيك اللهم بحج - وكذلك إذا استهل الصبي إذا صرخ - واستهلاله معناه صراخه عند الولادة - فقد كان من عادة الجاهليين أن يقولوا عند الذبح: باسم اللات والعزى - أو غير ذلك من الأصنام، فحرم الله أكل مثل هذه الذبائح - وعلى هذا فأيما ذبيحة ذكر عليها اسم غير اسم الله سواء كان هذا صنما أو وثنا أو طاغوت من الطواغيت أو غير ذلك من المخلوقات، فإن هذه الذبيحة حرام أكلها بالإجماع ١٨.
خامسا: المنخنقة - وهي التي تموت خنقا، إما قصدا بفعل آدمي، كعادة الجاهلين كانوا يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها - أو أن تختنق اتفاقا بأن يدخل رأسها بين عمودين في شجرة أو نحوها فتختنق فتموت - ومن جملة ذلك أيضا ما يخنق فيها بحبل الصياد - وغير ذلك من وجوه الاختناق الذي تصير به البهيمة ميتة فيحرم أكلها.
سادسا: الموقوذة - من الوقذ، وهو شدة الضرب - وشاة وقيذ وموقوذة: قتلت بالخشب ١٩ والمراد بالموقوذة: البهيمة أو الحيوان الذي يضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى يموت - وذلك كما لو ضربه بالعصا أو الخشبة أو الحجر أو نحو ذلك مما ليس له حد فيجرح - فأيما بهيمة تموت ضربا من غير أن يسيل دمها فهي في حكم الميتة.
وقد ورد في الصحيح أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله! إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب قال: " إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله " وبذلك قد فرق بين ما أصاب البهيمة بما يخرج كالسهم والسكين والمزراق ونحوه فيحل أكلها، وما أصاب بعرض الآلة أو الأداة فجعله وقيذا لا يحل - وهو ما لا خلاف فيه.
أما لو أرسل كلبه على صيد فقتله بثقله أو صدمه صدما ولم يجرحه فمات فإنه لا يحل أكله، لأنه يجري عليه حكم الموقوذة، إذ لم يرق منه دم - وهو قول الحنفية والحنابلة وبعض الشافعية - وقيل: إنه حلال لعموم قوله تعالى: {فكلوا مما أمسكن عليكم} وهو أحد القولين للشافعي ٢٠.
سابعا: المتردية - وهي التي تتردى من العلو إلى الأسفل فتموت، سواء كان التردي من جبل أو سطح دار شاهقة أو في بئر أو حفرة، ويستوي في ذلك ما لو تردت بنفسها أو رداها غيرها - فالمتردية التي تسقط من موضع مشرف فتموت - وهذا من الميتة، لأنها ماتت من غير أن يسيل منها الدم.
ويلحق بذلك ما لو أطلق سهمه فأصاب صيدا، فتردى من أعلى إلى أسفل، فمات فإنه لا يحل أكله، لأنه ربما مات بالتردي وليس بالسهم ٢١.
ثامنا: النطيحة - على وزن فعيلة بمعنى مفعولة - أي منطوحة - وهي الشاة تنطحها أخرى أو غيرها من النواطح فتموت قبل أن تذكى - فالنطيحة التي ماتت من النطح أي بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها قرن الناطحة وخرج منها الدم ٢٢.
تاسعا: وما أكل السبع - السبع كل حيوان له ناب ويعدو على الإنسان والدواب ويفترسها كالأسد والنمر والذئب وغيره من ذوات الأنياب المفترسة - وفي الجملة فهو المفترس من الحيوان - والمراد هنا ما أكل منه السبع فمات قبل أن يذكى وفيه حياة، فهو حرام -

فقد كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع بهيمة فقتلها وأكل بعضها أكلوا بقيتها، فحرمه الله تعالى - وفي الآية لفظ محذوف والتقدير: وما أكل منه السبع - أما ما أدركه أهل البهيمة منها قبل أن تموت فيحل أكله - وهذا مقتضى قوله: {إلا ما ذكيتم} والاسم الموصول في محل نصب على الاستثناء المتصل عند جمهور أهل العلم - وهو راجع على كل ما أدركت ذكاته من المذكورات السابقة باستثناء ما لا يقبل الذكاة من الميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به - فيكون العود على المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، فما أدركوه من كل ذلك وفيه بقية حياة يضطرب المذبوح فذكوه فهو حلال.

على أن أدنى ما يدرك به الذكاة أن يجده وهو يحرك الأذن أو الذنب أو الجفن فإنه يحل أكله بعد تذكيته - وقيل: الاستثناء مختص بقوله: {وما أكل السبع} ولا وجه لهذا الاختصاص - وقيل: الاستثناء منقطع - أي حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما ذكيتم فهو غير حرام وهو قول الإمام مالك ٢٣.

وقوله: {ذكيتم} من الذكاة - وهي في اللغة بمعنى التمام - فمعنى {ذكيتم} أدركتم ذكاته على التمام - وتذكية الذبيحة مأخوذة من التطيب - فإذا ذبح الحيوان وسال دمه فقد تطيب.

أما ما تقع به الذكاة، فقد ذهب الجمهور إلى أن كل ما أفرى الأوداج وأنهر الدم فهو مما يصلح أن يذكى به ما عدا السن والعظم فلا يجوز التذكية بهما - على أن كيفية الذكاة موضع خلاف، فقد قال الإمام مالك: لا تصح الذكاة إلا بقطع الحلقوم والودجين - وقال الإمام الشافعي: تصح الذكاة بقطع الحلقوم والمريء من غير حاجة إلى قطع الودجين - فالواجب عنده لتصح التذكية قطع المريء والحلقوم فقط - أما الإمام أبو حنيفة فالواجب عنده في التذكية هو قطع ثلاثة غير معنية من الأربعة، فإما الحلقوم والودجان، وإما المريء والحلقوم وأحد الودجين، وإما المريء والودجان.

وثمة مسألة وهي الجنين إذا خرج بعد ذكاة أمه ميتا فإنه يحل أكله، ذلك أن ذكاة الأم ذكاة لجنينها وهو مذهب جمهور العلماء - وقال به مالك والشافعي واستدلوا على ذلك بما أخرجه الدارقطني من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وعلي وعبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ذكاة الجنين ذكاة أمه " - وقالت الحنفية: إذا خرج ميتا بعد ذكاة أمه فهو ميتة لا يحل أكله ٢٤.

عاشرا: وما ذبح على النصب - والنصب حجارة كانت حول الكعبة، قيل: ثلاثمائة وستون نصبا كانت العرب في الجاهلية يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، فنهى الله المؤمنين عن فعل ذلك وحرم عليهم أكل الذبائح التي ذبحت عند النصب حتى لو ذكر عليها اسم الله عند الذبح عند النصب ٢٥ - وقيل، النصب بمعنى الأصنام، لأنها تنصب فتعبد من دون الله - والراجح أن النصب أحجار كان الجاهليون ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون عندها للأصنام، ويلطخونها بالدماء، ويضعون اللحوم عليها، وهو نظير القول الأول.

وقوله: {على} فيه وجهان، أحدهما: أن على بمعنى اللام - أي ما ذبح للنصب، أو من أجل النصب.

ثانيهما: أنها على أصلها، والمعنى ما ذبح على اعتقاد تعظيم النصب ٢٦.

قوله: {وأن تستقيموا بالأزلام} الأزلام جمع زلم وهو القدح - أي وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح - وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدهما: " أمرني ربي " - ومكتوب على الثاني " نهاني ربي " - وأبقوا الثالث غفلا لم يكتب عليه شيء - فإن خرج الآمر مضوا لحاجتهم - وإن خرج الناهي لم يمضوا - وإن خرج الغفل أجالوها مرة ثانية، والاستقسام بالأزلام معناه: طلب معرفة ما قسم لهم مما لم يقسم لهم وذلك عن طريق الأزلام ٢٧.

وقيل: المراد قداح الميسر وهي عشرة، سبعة منها فيها حظوظ، وثلاثة أغفال وكانوا يضربون بها مقامرة لهوا ولعبا - وقيل: الأزلام هي كعاب فارس والروم كانوا يتقامرون بها - وقيل: هي الشطرنج والاستقسام بهذا كله هو طلب القسم والنصيب، وهو من أكل المال بالباطل وهو حرام - ونظير ذلك كل مقامرة بحمام أو نرد أو شطرنج أو بغير ذلك من هذه الألعاب فهو استقسام بما في معنى الأزلام - فهو حرام كله - وهو ضرب من ضروب الكهانة والتشبث بدعوى علم الغيب ٢٨.

وربما قيل: إن هذه الأعمال من باب الفأل - ومثل هذا القول باطل، فإن الاستقسام بالأزلام على اختلاف صورها وضروبها ليس

من الفأل في شيء - وإنما ذلك استشارة مع الأصنام واستعانة بها - ودل على هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم إذا أرادوا ذلك أتوا بيت أصنامهم وفعلوا ما فعلوا، فلهذا صار حراما.

ومن جهة أخرى فإن الاستقسام بالأزلام فيه افتراء على الله إن أراد المستقسم بقوله " بربي " الله تعالى - أو فيه جهالة وشرك إن أراد المستقيم به الصنم - فكل ذلك حرام وهو ليس من باب الفأل الحسن الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه لما تنشرح به النفس وتستبشر ببلوغ المرام.

ومن حميد الخصال حسن الظن بالله سبحانه - وفي الحديث القدسي " أنا عند ظن عبدي بي " وعكس الفأل الطيرة - والفرق بينهما أن الفأل طريقه حسن الظن بالله، لكن الطيرة طريقها الاتكال على غير الله.

على أن المؤمنين إذا ترددوا في أمر من أمورهم كان عليهم أن يستخيروا الله، وذلك أن يعبدوه ويسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه - وفي هذا روى أحمد والبخاري وأهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله صلى اله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول: " إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب - اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر – ويسميه باسمه – خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال – عاجل أمري وآجله – فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه - اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كنت ثم رضني به ".

قوله: {ذلكم فسق} اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ، وخبره فسق - والإشارة هنا إلى الاستقسام بالأزلام - وقيل: إلى جميع ما تقدم من المحرمات، فإن ذلك كله {فسق} أي خروج عن طاعة الله إلى معصيته، أو خروج من الحلال إلى الحرام ٢٩.

قوله: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم} أي يئس الذين كفروا أن ترجعوا إلى دينهم كفارا - واليأس معناه انقطاع الرجاء - والتقدير أن هؤلاء الكافرين قد انقطع رجاؤهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه باستحلال هذه المحرمات والخبائث.

أو أنهم استيأسوا من غلبتهم عليكم لما رأوه من إظهار الله لهذا الدين بعد أن وعد عباده المؤمنين بإعلاء شأنهم وإظهار دينهم على كل الأديان.

قوله: {فلا تخشوهم واخشون} أي لا تخافوا من الكافرين بعد أن أذلهم الله وأظهركم عليهم - وبعد أن عز شأن الإسلام وأعلا راية المسلمين - بعد ذلك ما كان لكم أن تخافوهم وإنما عليكم أن تخافوا من الله وحده دون غيره من المخاليق.

قوله: {اليوم أكملت لكم دينكم} نزلت هذه الآية يوم عرفة وكان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأول ملوك الإسلام معاوية، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس وسمرة بن جندب رضي الله تعالى عنهم ٣٠ - وقد تحقق إكمال الدين بكمال الإسلام في نظامه كله - هذا النظام الكبير الشاسع الذي تناول كل قضايا الحياة الدنيا يضمن للبشرية تمام السعادة في الدارين.

وكمال الإسلام حقيقة لا مراء فيها يقف عليها الدارسون وأولو الألباب والنظر ليروا عظمة هذا الدين بسعة مداه وامتداد شرعه وتفصيلاته التي غمرت الواقع كله حتى ما يكون من صغيرة ولا كبيرة من قضايا الدين والدنيا إلا وهي موضع حساب - ولم يمض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتى أكمل الله دينه بكمال حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه - فصار بذلك وافيا شاملا مراعيا لفطرة الإنسان تمام المراعاة - ولا جرم أن يكون ذلك جوهر الصلوح الأبدي لهذا الدين الحنيف السمح.

قوله: {وأتممت عليكم نعمتي} وذلك بفتح مكة ودخولها آمنين منتصرين وهزيمة الشرك والمشركين وهدم أركان الجاهلية بكل مقتضياتها من الظلم والفساد والضلال.

قوله: {ورضيت لكم الإسلام دينا} دينا منصوب على التمييز - وقيل: مفعول به ثان - وذلك إيذان من الله للمسلمين أنه اختار لهم دين الإسلام ليكون لهم الدين المرضي دون غيره من الأديان - ويؤكد ذلك قوله عز وعلا: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه}

وقوله: {إن الدين عند الله الإسلام} - قوله: {فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم} اضطر، أي دعته ضرورة إلى فعل هاتيك المحظورات مثل أكل الميتة وغيرها من المحرمات والمخمصة تعني المجاعة - أو هي خلو البطن من الطعام وجمعه خماص، ومنه الخبر " تغدو خماصا وتروح بطانا " أي تذهب في الصباح ضامرة البطون لخلوها من الطعام، وتعود في المساء مليئة البطون شبعا.

والمتجانف، من الجنف وهو الميل - والإثم المعصية وفعل الحرام: وقيل: معنى الإثم هنا أن يأكل فوق الشبع تلذذا - وقيل: أن يكون عاصيا بسفره.

وجملة القول أن من ألجأته ضرورة لتناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله في الآية - فإنه غير مؤاخذ بذلك ما دام غير متعمد ولا منحرف لفعل الحرام ولا مختار له، ولذلك قال: {فإن الله غفور رحيم} ٣١.

٤ - (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

قوله تعالى: {يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب}.

نزلت هذه الآية بسبب عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير بدلا من اسمه زيد الخيل، فقد قالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، وإن الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما نقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا؟ فنزلت الآية ٣٢.

قوله: {ماذا} ما في محل رفع مبتدأ، وخبره {أحل لهم} وذا زائدة.

قوله: {أحل لكم الطيبات} يعني الحلال - وهو ما ليس بخبيث وكل ما لم يأت تحريمه في كتاب ولا سنة ولا قياس - وقيل: الحلال ما التذ به آكله وشاربه ولم يصبه به ضرر في الدنيا ولا في الآخرة - وقيل: الطيبات هي الذبائح، لأنها بالتذكية تطيب.

قوله: {ما علمتم من الجوارح} معطوف على الطيبات أي أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم - فقد حذف المضاف وهو " صيد " والجوارح معناها الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين، كقوله تعالى: {ويعلم ما جرحتم بالنهار} أي يعلم ما كسبتم من خير ومن شر.

وقوله: {مكلبين} في محل نصب على الحال من علمتم - ومكلبين جمع وفرده مكلب - وهو مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها دون غيره ومروضها لذلك - وذلك مشتق من الكلب، لأن التعليم أو التأديب أكثر ما يكون في الكلاب - فاشتق من لفظه لكثرة حصوله في جنسه، أو لأن السباع تسمى كلابا - ومنه دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم على ابن أبي لهب " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك " وفي رواية " من كلاب الشام " فأكله الأسد وهو في أرض الشام.

على أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب، لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب بأنيابها، وهو قول المذاهب الأربعة وغيرهم من أهل العلم - فقد روى عن عدي ابن حاتم قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيد البازي فقال: " ما أمسك عليك فكل ".

وقوله: {تعلمونهن مما علمكم الله} تعلمونهن في محل نصب حال أخرى وقيل: جملة استئنافية - وتعليمهن بالتضرية والترويض على إمساك الصيد لصاحبه - وقوله: {مما علمكم الله} أي مما علمكم من الحيل وطرق التعليم والتأديب، فإذا أرسله استرسل، وإذا زجره انزجر وإذا أخذ الصيد فلا يأكل منه وإنما يمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه.

وعلى هذا إذا كان الجارح معلما وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله فقد حل الصيد وإن قتله، وذلك بالإجماع - ويؤكد ذلك ما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله، فقال: " إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك " قلت: وإن قتلن؟ قال: " وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك

إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره " قلت له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: " إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإن أصابه فإنه وقيذ فلا تأكله " وفي لفظ لهما " إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركته حيا فاذبحه، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته " وهذا دليل على أنه إذا أكل الكلب من الصيد فإنه يحرم مطلقا - وهو قول أكثر أهل العلم.

وذلك بمقتضى قوله تعالى: {فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه} أي كلوا مما حبسن لكم من الصيد ولم يأكلن منه - فإن أكلن منه لم يؤكل ما بقي، لأن الكلب بذلك أمسك على نفسه ولم يمسك على صاحبه وقوله: {واذكروا اسم الله عليه} أي سموا عليه عند إرساله - وقيل: سموا عليه إذا أدركتم ذكاته - والأمر هنا للندب عند الإمام الشافعي - وهو للوجوب عند أبي حنيفة.

قوله: {واتقوا الله إن الله سريع الحساب} أي خافوا الله باجتناب نواهيه ومنها أكل صيد الجوارح غير المعلمة، فإن الله حسابه سريع إتيانه أو أنه سريع إتمامه، فيوم القيامة قريب إذا شرع فيه فإن الله يحاسب الخلائق دفعة واحدة.

ويستفاد من هذه الآية جواز اتخاذ الكلاب واقتناؤها للصيد وكذلك للحراسة قياسا على كلب الصيد، ولما رواه مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من اقتنى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " - وعلى هذا فإن المباح اتخاذه من الكلاب مما يجوز بيعه وشراؤه، فضلا عن كلب الصيد فهو الذي يحرس الماشية والزرع والدار - أما اقتناؤها على غير ذلك من المنفعة فهو منهي عنه - ولعل الحكمة في النهي عن ذلك ما في الكلاب من ترويع للمسلمين والتشويش عليهم بنباحها، أو لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ٣٣.

٥ - (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله تعالى: {اليوم أحل لكم الطيبت وطعام الذين أوتوا الكتب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخذان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين} أعاد قوله: {اليوم} على سبيل التأكيد - والمراد باليوم الوقت الذي جاء في الإسلام ليحل للمؤمنين الطيبات وليحرم عليهم الخبائث - وقد بينا الطيبات في الفقرات السابقة.

وقوله: {وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم} طعام مبتدأ، وخبره، حل لكم - والمراد بطعامهم ذبائحهم - وقيل: جميع مطامعهم - والأول الراجح وهو قول أكثر المفسرين، لأن غير الذبائح لم يختلف في حله - والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، فإن ذبائحهم تحل للمسلمين - أما المجوس فإنه يسن بهم سنة أهل الكتاب من حيث أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحه ونكاح نسائهم، وذلك لإجماع أكثر المسلمين على ذلك، ولما رواه البيهقي عن الحسن بن محمد بن علي قال: " كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قبل، ومن أصر ضربت عليه الجزية غير ناكحي نسائهم " وهو مرسل.

واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني إذا ذكر عليها اسم غير الله تعالى، مثل عزير، والمسيح - فقد ذهب أكثر العلماء إلى أنها تحل استنادا إلى عموم الآية - فقد أحل الله ذبائح أهل الكتاب وهو يعلم ما يقولون - وقال ابن عمر: لا تحل - وقول سائر العلماء بالحل هو الصواب.

وقال الحسن البصري: إذا ذبح اليهودي أو النصراني فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل - فإذا غاب عنك فكل فقد أحل الله تعالى لك.

وقوله بعدم الحل عند السماع لا يصح لمخالفته عموم الآية وهي يدل ظهرها على حل ذبائح أهل الكتاب من غير تقييد.

وجدير بالذكر هنا جواز الأكل والشرب والطبخ في أوان الكفار كلهم سواء كانوا كتابيين أو مشركين على اختلاف شركهم، إلا أن

تكون أوانيهم من الذهب أو الفضة أو جلد الخنزير - فإن كانت من غير ذلك جاز استعمالها للأكل والشرب بعد أن تغسل أو تغلى، وذلك لأن الكفار لا يعبأون بالنجاسات تصيب آنيتهم، فإذا استعملوها وجب غسلها لتطهيرها - وإن كانت من الفخار وجب غلي الماء غليا لإزالة النجاسة السارية في أجزاء الفخار.
قوله: {وطعامكم حل لهم} أي مباح لكم إطعام أهل الكتاب من ذبائحكم مثلما أكلتم من ذبائحهم - وهو من باب المكافأة والمجازاة ٣٤.
قوله: {والمحصنات من المؤمنات} معطوف على الطيبات - أو مبتدأ، وخبره محذوف تقديره حل لكم والمراد بالمحصنات من المؤمنات العفائف - وقيل: الحرائر - وقيل: العفائف الحرائر، أي أحل لكم نكاح العفائف الحرائر من النساء المؤمنات.
وقوله: {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم} فقد قيل: أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء - وقيل: المحصنات العفيفات عن الزنا - يؤكد ذلك قوله {محصنات غير مسافحات}.
على أن المراد بالكتابيات الذميات دون الحربيات، وهو قول أكثر الفقهاء - وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى نكاح النصرانية ويقول: لا أعلم شركا أعظم من أن تقول إن ربها عيسى وقد قال الله: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن} على أن قول ابن عمر مرجوح - والصحيح قول أكثر أهل جواز نكاح الكتابيات استنادا إلى ظاهر الآية - وقيل كذلك يدخل في الكتابيات الحربيات فضلا عن الذميات.
قوله: {إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين} المقصود بالأجور هنا المهور - وقد قيد النكاح بإيتاء المهور للتأكيد على وجوبها – أي المهور، وقوله: {محصنين} حال منصوب - أي أعفاء بالنكاح.
وقوله: {غير مسافحين} حال ثانية - وقيل: صفة لمحصنين - أي غير مجاهرين بالزنا - والسفاح معناه الزنا على سبيل الإعلان.
وقوله: {ولا متخذي أخذان} أخذان جمع خدن - والخدن بالكسر معناه في اللغة الصاحب - ويراد به ههنا ذو العشيقة، واتخاذ الخدن هو الزنا في السر.
قوله: {ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله} أي يكفر بشرائع الإسلام ومن جملتها أحكام الحل والحرمة هنا، أو يمتنع عن قبولها - فمن كان هذا شأنه فقد حبط عمله - أي زال ثواب إيمانه وعمله قبل كفره.
وقوله: {وهو في الآخرة من الخسرين} أي الهالكين الذين أفضى بهم كفرهم واستنكافهم عن شريعة الله إلى عذاب الله ونكاله ٣٥.
٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
قوله تعالى: {يأيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون}.
يأمر الله عباده المؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة أن يتوضأوا - وذلك في قوله: {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم - - .} أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون فعليكم أن تتوضأوا لاستباحة الصلاة - ويستدل من الآية على أن الوضوء شرط لصحة الصلاة.
وقوله: {فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين} يتضمن أربعة أركان للوضوء فلا تصح الصلاة إلا بأدائها على التمام، وأيما انخرام في واحد من هذه الأركان، لا تصح معه الصلاة - وتفصيل ذلك في البيان الآتي:
الركن الأول: غسل الوجه - والوجه في اللغة من المواجهة - فحده من حيث الطول من أول الجبهة عند منابت الشعر إلى منتهى اللحيين - وحده من حيث العرض، من الأذن إلى الأذن - ولا بد في غسل الوجه من نقل الماء إليه وهو يعني الإسالة وإمرار اليد عليه بمعنى الدلك وهو قول مالك - وقيل: إنما يجب إمرار الماء على الوجه ولا يجب دلكه باليد.
أما شعر اللحية فإن كان خفيفا بحيث تظهر منه البشرة فلا بد من إيصال الماء إليه، وإن كان كثيفا فقد انتقل الفرض إليه - أي يجب

إيصال الماء إلى ظاهر اللحية كشعر الرأس، لأن ظاهر اللحية يقوم مقام جلدة الوجه - وعلى هذا لا يجب إيصال الماء إلى منابت الشعر وهي الجلد وذلك عندما تكون اللحية خفيفة - وقيل: يجب تخليلها كتخليل أصابع اليد.

الركن الثاني: غسل اليدين إلى المرفقين - والمفرد بكسر الميم - والمرفق هو موصل الذراع بالعضد ٣٦، وهو المكان الذي يرتفق به أي يتكأ عليه من اليد - وهو داخل في وجوب الغسل مع اليد - وقالوا {إلى} بمعنى مع - أي اغسلوا أيديكم مع المرافق - وقيل: المرفق جزء من اليد، لأن ما بعد {إلى} من نوع ما قبلها فدخل المرفق في اليد.

الركن الثالث: مسح الرأس - وذلك من قوله تعالى: {وامسحوا برءوسكم} وثمة تفصيل في القدر المجزئ من مسح الرأس - فيجب مسح الرأس كله عند الإمام مالك وكذلك أحمد في أظهر الروايات عنه - ويحتج لذلك بأن الباء في قوله: {برءوسكم} مؤكدة زائدة وهي ليست للإلصاق - فوجب بذلك استيعاب الرأس كله في المسح.

وذهب الإمام أبو حنيفة وكذا الشافعية إلى أن مسح بعض الرأس مجزئ وهو الفرض دون غيره - أما المجزئ من بعض الرأس عند أبي حنيفة وأصحابه فهو الربع وحجتهم في ذلك ما رواه مسلم عن المغيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم " توضأ فمسح بناصيته " وقدروا الناصية بربع الرأس.

وعند الشافعية، يسقط الفرض بأدنى ما يطلق عليه اسم المسح، لأن النص هنا مطلق فيجب فيه أقل ما يقع عليه اسم المسح - وقالوا أيضا: إن الباء في الآية للتبعيض فيجزئ من المسح ما كان في قدر بعض الرأس قل الممسوح أو أكثر - أو أنها تفيد الإلصاق - فالمراد إلصاق اليد بالرأس من أجل المسح - فيتحقق الواجب بكل ما يكون مسحا.

الركن الرابع: غسل الرجلين إلى الكعبين - وهو مقتضى قوله تعالى: {وأرجلكم إلى الكعبين} أرجلكم منصوب لفعل تقديره، اغسلوا - والكعبان هما العظمان الناتئتان من الجانبين عند مفصل الساق والقدم - ومنه الكاعب، وهي الجارية إذا بدا ثديها للنهود.

على أن الفرض في الرجلين الغسل وليس المسح، وهو قول عامة العلماء واحتجوا بما ثبت في الصحيحين عند عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته: " أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار ".

وقيل: الواجب في الرجلين المسح وليس الغسل وهو مذهب الشيعة الإمامية وغيرهم - وحجتهم في ذلك القراءة بالجر - وهي تقتضي كون الرجلين معطوفتين على الرؤوس - وهو ضعيف - وقال داود الظاهري: يجب الجمع بينهما.

ويدخل الكعبان في الغسل، لأن ما بعد {إلى} من نوع ما قبلها فدخل فيه، أي أن الكعبين جزءان من القدمين فوجب غسلهما - وهو قول أكثر العلماء ٣٧.

أما جملة الوضوء على وجه العموم فيمكن إيجازها فيما رواه البخاري عن عبد الله بن زيد أنه سئل عن وضوء النبي صلى الله عليه وسلم فدعا بتور ٣٨ من ماء فتوضأ لهم وضوء النبي صلى الله عليه وسلم " فأكفأ على يده من التور فغسل يديه ثلاثا ثم أدخل يده في التور فمضمض واستنشق واستنثر ثلاث غرفات - ثم أدخل يده فغسل وجهه ثلاثا، ثم أدخل يديه فغسل يديه إلى المرفقين ثلاثا ثم أدخل يده فمسح رأسه فأقبل بهما وأدبر مرة واحدة، ثم غسل رجليه إلى الكعبين "

هذه هي فروض الوضوء، وهي أركانه الأربعة، وهي غسل الوجه واليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين، مرة واحدة لكل عضو - ذلك أن الواجب من طهارة الأعضاء المغسولة هو مرة مرة إذا أسبغ الماء - وأن الاثنين أو الثلاث مندوب إليها، لما صح أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرة مرة وتوضأ مرتين مرتين وتوضأ ثلاثا ثلاثا، ولأن الأمر بالوضوء لا يقتضي إلا الفعل مرة مرة - يضاف إلى ذلك من السنن غسل الكفين والمضمضة والاستنثار ثلاثا لكل عضو - ثم مسح الأذنين مرة، وذلك من السنة وهو قول الشافعية وبعض المالكية، خلافا للحنفية، إذ قالوا مسح الأذنين فرض إلا أنهما يمسحان مع الرأس بماء واحد - وقيل: يجدد لهما الماء.

أما النية فهي شرط من شروط الوضوء - وهو قول الشافعية والمالكية والحنابلة وأهل الظاهر - وحجتهم أن الوضوء عبادة محضة وهي غير معقولة المعنى فلا تصح إلا بالنية لقوله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} ولقوله صلى الله عليه وسلم: " إنما الأعمال

بالنيات ".
وذهبت الحنفية إلى أن النية ليست شرطا لصحة الوضوء - ووجه ذلك أن الوضوء عبادة معقولة المعنى كغسل النجاسة فهو بذلك عبادة ونظافة فلا يفتقر إلى النية.
أما ترتيب أفعال الوضوء فقد قيل: إنه سنة - وهو قول الحنفية والمالكية وأهل الظاهر - وقال آخرون إنه فرض، وهو قول الشافعية والحنابلة - ومثار الخلاف هو وضع الواو العاطفة في الآية - فمن قال: إن واو العطف في الآية تقتضي الترتيب قال بإيجاب الترتيب - ومن رأى أنها لا تقتضي الترتيب لم يقل بإيجابه وثمة سبب آخر في اختلافهم وهو اختلاف في أفعاله صلى الله عليه وسلم، هل هي محمولة على الوجوب أو على الندب؟ فمن حملها على الوجوب قال: بوجوب الترتيب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرو عنه أنه توضأ قط إلا مرتبا - وحملها على الندب قال: إن الترتيب سنة وليس فرضا.
أما الموالاة في أفعال الوضوء فهي عند الإمام مالك ما لم يكن ناسيا أو غير قادر - بخلاف الحنفية والشافعية قالوا: الموالاة ليست فرضا - وسبب الخلاف فهمهم لواو العطف في آية الوضوء - فمن قال: إنها يعطف بها الأشياء المتتابعة المتلاحقة المتراخية بعضها عن بعض قال: بعدم وجوب الموالاة.
أما التسمية في الوضوء فهي سنة وهو قول أكثر العلماء - وقال أحمد وإسحاق: التسمية فرض حتى لو تركها متعمدا بطلت الطهارة - والصحيح كونها سنة، لأن التسمية غير مذكورة في الآية وقد حكم بحصول الطهارة من دونها.
أما الاستنجاء فليس واجبا عند الحنفية استنادا إلى هذه الآية، لأنه ذكر الوضوء في الآية ولم يذكر الاستنجاء - ولو كان واجبا لكان أول ما بدأ به في الآية، وقالوا إنما تجب إزالة النجاسة إذا زادت على قدر الدرهم البغلي وهو الذي على هيأة المثقال قياسا على فم المخرج.
وقالت الشافعية وآخرون من أهل العلم: بوجوب الاستنجاء، استنادا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في صاحبي القبرين: " إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله " ولا يعذب إلا على ترك الواجب ٣٩.
وثمة مسألة وهي المسح على الخفين - وهو جائز عند جمهور الفقهاء ولم ينكره غير الشيعة والخوارج، ورواية عن مالك في إنكاره مطلقا - والصحيح جواز المسح على الخفين لمن لبسهما ورجلاه طاهرتان بطهارة الوضوء - وحجتهم في الجواز ما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم " مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية ".
وأخرج الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة وأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح بعد ما أسلمت.
وفي الصحيحين عن همام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل: تفعل هذا؟ فقال: " نعم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح على خفيه ".
أما شرط المسح على الخفين فهو أن تكون الرجلان طاهرتين بطهر الوضوء، وذلك لما ثبت في حديث المغيرة، إذ أراد أن ينزع الخف عنه فقال عليه الصلاة والسلام: " دعهما فإني أدخلتهما وهما طاهرتان ".
أما صفة الخف، فهو أن يكون صحيحا غير مخرق تخريقا فاحشا - فإن كان الخرق يسيرا فلا بأس في المسح عليه - وهو قول مالك وأصحابه.
أما الحنفية فقد حددوا اليسير والفاحش في الخرق بما كان الظاهر منه أقل من ثلاثة أصابع - فإن كان دون ثلاثة أصابع فهو يسير - وما زاد فهو فاحش لا يجوز المسح عليه - وكذا لو كان بمقدار ثلاثة أصابع.
وقال آخرون: يجوز المسح على الخف المنخرق ما دام يسمى خفا وإن تفاحش خرقه - وهو قول الثوري.
أما توقيت المسح، ففيه خلاف بين أهل العلم - فقد ذهبت الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أن المقيم يمسح يوما وليلة، والمسافر ثلاثة أيام ولياليهن - واستدلوا بحديث مسلم عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوما وليلة للمقيم ".
وذهب الإمام إلى أن المسح غير مؤقت، وعلى هذا فإن لابس الخفين يمسح عليهما دائما ما لم ينزعهما أو تصبه جنابة - وهو قول الليث

ابن سعد ٤٠.
قوله: {وإن كنتم جنبا فاطهروا} أي فتطهروا، أدغمت التاء في الطاء لأنهما من مكان واحد - وهذه هي الطهارة الكبرى بعد أن بين الطهارة الصغرى - والكبرى هنا الغسل من الجنابة.
وتحصل الجنابة لسببين - أولهما: نزول المني، لقوله عليه الصلاة والسلام: " إنما الماء من الماء " وبذلك فإن مجرد نزول المني يوجب الغسل من أجل الجنابة.
وثانيهما: التقاء الختانين، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: " إذا التقى الختانان وجب الغسل " والغسل معناه إسباغ الماء على أعضاء البدن كله - أما المضمضة والاستنشاق فهما غير واجبين في الغسل وهو قول الشافعية، خلافا للحنفية إذ قالوا بوجوبهما، لأنهما من البدن وهما مما يمكن إيصال الماء إليهما من غير حرج - واحتج الشافعية بالخبر " أما أنا فأحثي على رأسي ثلاث حثيات فإذا أنا قد طهرت ".
ويحرم على الجنب جملة أمور منها مس المصحف وقراءة القرآن ودخول المسجد - وتفصيل ذلك في مظانه من كتب الفقه.
قوله: {وإن منتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا} أبيح للمسلم أن يتيمم لاستباحة الصلاة إن كان مريضا مرضا يخشى منه على النفس أن تهلك أو يخشى منه ازدياد المرض باستعمال الماء.
ويباح التيمم أيضا للمسافر سواء كان السفر قصيرا أو طويلا - وقد بينا تفصيل ذلك في سورة النساء.
وإذا كان المسافر معه ماء وهو يخشى على نفسه العطش باستعمال الماء للوضوء جاز له أن يتيمم دفعا للحرج.
وإذا كان معه ماء وثمة حيوان عنده عطشان يوشك أن يهلك من العطش، جاز له أن يتيمم كيما يسقي الحيوان العطشان - بل إن صرف الماء للحيوان في مثل هذه الحال واجب، لأن حق الحيوان في الشرب مقدم على الوضوء الذي يستعاض عنه ببدله وهو التيمم.
إذا كان لا يملك الماء لكن غيره يملكه ولا يمكنه شراؤه منه إلا بغبن فاحش جاز له التيمم، لأن في احتمال الغبن الفاحش ما يفضي إلى الحرج وهو مرفوع - لقوله تعالى: {وما جعل عليكم في الدين من حرج}.
قوله: {أو جاء أحد منكم من الغائط} الغائط جمع غوط بالضم، وأغواط وغيطان والغائط كناية عن العذرة أو قضاء الحاجة ٤١.
قوله: {أو لامستم النساء} ولمس المرأة ينتقض به الوضوء - يستوي في ذلك اللامس والملموس - وقد بينا ذلك في سورة النساء.
قوله: {فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا} لا خلاف في جواز التيمم لعادم الماء إن كان مريضا أو مسافرا - أما إذا عدم الماء وهو صحيح في الحضر كما لو كان سجينا أو مربوطا فإنه يتيمم بدلا من الوضوء، لأنه عادم للماء - ولو كان في حالته هذه من السجن أو الربط ولم يجد ماء ولا ترابا وخشي خروج الوقت ففي حكم ذلك عدة أقوال:
أولها: أنه يصلي ولا شيء عليه - وهو الصحيح من مذهب المالكية.
ثانيها: أنه يصلي ويعيد صلاته إذا زال المانع فيما بعد - وهو قول الشافعي.
ثالثها: أنه يصلي ولا يعيد - وهو قول أشهب من المالكية.
رابعها: أنه يصلي ولا يقضي وهو قول أبي حنيفة.
قوله: {فتيمموا صعيدا طيبا} التيمم في اللغة معناه التوخي والتعمد والقصد ٤٢ وفي الشرع: الضرب باليدين على الصعيد ثم مسح الوجه واليدين بهما، على الخلاف في تفصيل ذلك، وهو ما بيناه في سورة النساء - فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن التيمم باليدين على الصعيد - فضربة للوجه وضربة لليدين - وقيل: ضربة واحدة للوجه والكفين معا.
أما الصعيد الطيب فهو التراب الطاهر، على الخلاف في تفصيل المراد بالصعيد - فقد ذهب الشافعي إلى أنه لا يجوز التيمم إلا بالتراب الخالص وهو المراد بالصعيد.
وذهب الإمام مالك وأصحابه إلى جواز التيمم بكل ما صعد على وجه الأرض من أجزائها كالحصا والرمل والتراب وذلك هو الصعيد - وزاد الإمام أبو حنيفة فقال: بكل ما يتولد من الأرض من الحجارة مثل النورة والزرنيخ والجص والطين والرخام - وقال الإمام أحمد: يجوز التيمم بغبار الثوب واللبد.

أما شروط جواز التيمم فهي ثلاثة:
الشرط الأول: النية - فقد ذهب جمهور العلماء إلى اشتراط النية في التيمم لجوازه، ووجه ذلك أن الطهارة بالتيمم عبادة غير معقولة المعنى فهي عبادة محضة يلزم فيها النية.
الشرط الثاني: طلب الماء - فهو شرط لجواز التيمم عند عدم الماء - وهو مذهب المالكية والشافعية - إذ قالوا: لا يسمى المرء عادما للماء من غير طلب، فإن طلب الماء ولم يجده سمي عادما له فجاز له التيمم - قال الشافعي في هذا الصدد: المسافر إذا لم يجد الماء بقربه لم يجز له التيمم إلا بعد الطلب عن اليمين واليسار، وإن كان هناك واد هبط إليه، وإن كان جبل صعده.
واحتجوا لذلك بقوله تعالى: {فلم تجدوا ماء فتيمموا} فقد جعل عدم وجدان الماء شرطا لجواز التيمم - وعدم الوجدان مشروط بتقديم الطلب، فدل هذا على أنه لا بد من تقديم الطلب.
وذهب أبو حنيفة رحمه الله: إذا غلب على ظنه عدم الماء لم يجب عليه طلبه.
الشرط الثالث: دخول الوقت - فقد اشترطه الشافعية والمالكية لجواز التيمم، استنادا إلى ظاهر الآية الذي يقتضي أن لا يجوز التيمم إلا عند دخول الوقت.
فقوله: {يأيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلوة - - فتيمموا}، أوجب التيمم عند وجوب القيام إلى الصلاة وذلك إذا دخل الوقت - أما الوضوء فلا يشترط دخول الوقت لجوازه، لأن الشرع خصصه بجواز الحصول قبل الوقت - أما الحنفية وأهل الظاهر فلم يشترطوا دخول الوقت لجواز التيمم قياسا على الوضوء فإنه يجوز حصوله قبل الوقت.
وجملة القول في ذلك كله أنكم أيها المؤمنون إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم مرضى مقيمون أو كنتم مسافرين أصحاء أو أن أحدكم قد جاء من قضاء حاجته أو كان جنبا ولم يجد الماء فتيمموا صعيدا طيبا - أي اقصدوا الأرض الطاهرة فتيمموا منها - وهذا مقتضى قوله: {فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه} أي امسحوا وجوهكم وأيديكم مما علق بأيديكم من الصعيد، على الخلاف في تفصيل ذلك مما بيناه سابقا ٤٣.
إذ تبين ذلك بقي أن ننوه بفضل الوضوء والطهارة، فضلا عن النظافة التي تشير إلى حسن السمت في المؤمن - لا جرم أن حسن سمت المرء ظاهرة من ظواهر الكمال الذي تهوي لبلوغه نفوس البرية السليمة - وفي الحديث " بني الدين على النظافة " أما الوضوء فيكشف عن حقيقته اسمه، وهو من الوضاءة أي الحسن والنظافة ٤٤.
والوضوء والطهارة صنوان بنيا على طهارة الإنسان المؤمن من حيث ظاهره وباطنه ليكون بذلك نقيا سليما من القذر والأدران بكل أنواعها المادية والمعنوية، وفي فضل الطهارة والوضوء روى مسلم بسنده عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحانه الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك - كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ".
وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور ".
قوله: {وما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون} أي ما يريد الله بما فرضه عليكم من الوضوء من أجل الصلاة، والغسل من الجنابة، والتيمم بالصعيد الطيب عند عدم الماء، أن يلزمكم في ذلك حرجا، وهو الضيق، ولا ليكلفكم بذلك ما فيه إعنات لكم - وإنما يريد الله بهذا التشريع أن يطهركم بما فرضه عليكم من الوضوء والغسل والتيمم فتكونوا بذلك أطهارا أنقياء من الأدناس والذنوب - ودليل نفي الحرج من هذه الشريعة السمحة القائمة على اليسير والتسهيل ما شرعه الله لعباده من إباحة التيمم عند المرض أو السفر أو فقد الماء أو حاجتهم إليه للشرب - لا جرم أن ذلك رحمة وتوسعة للعباد، فلزم في حقهم أن يبذلوا الله الشكران على ما أفاض عليهم من نعمة التشريع الرحيم - التشريع الذي جاء حافلا بالرحمة والتسهيل والسماحة والرخصة ٤٥.
وذلكم هو شأن الإسلام - هذا الدين الكريم السمح القائم على اليسر والرحمة بالعباد بعيد عن كل ظواهر الضيق والعنت - لا جرم أن هذه مزية كبرى من مزايا الإسلام - تلك المزايا التي تكشف عن كامل الصلوح للإسلام - هذا النظام الهائل الشامل الذي يراعي فطرة الإنسان وينسجم وطبيعته الأساسية الأصيلة ٤٦.

٧ - (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله تعالى: {واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور} ذلك تذكير من الله لعباده ليذكروا نعمة الله عليهم وهي الإسلام - هذا الدين بسومه وشموله وكماله وما حواه من عقيدة وتشريع يصلح عليهما حال البشرية في الدنيا والآخرة - وكذلك أن يذكروا هذا النبي المكرم العظيم الذي أرسله الله للناس داعيا وبشيرا - النبي الرحيم الهدي الذي جاء يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى الحق والتوحيد والفضيلة والإخاء ليكونوا على مر الزمن إخوانا متحابين متعاونين.

وقوله: {وميثاقه الذي واثقكم به} الميثاق معناه العهد، أي اذكروا العهد الذي التزمتم به للنبي صلى الله عليه وسلم وهو السمع له والطاعة في المنشط والمكره ومتابعته ومؤازرته في نشر دينه - وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسلامهم، إذ كانوا يقولون: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله.

قوله: {واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور} اتقوا الله، أي خافوه باجتناب نواهيه واتباع أوامره - وذلك وعيد من الله للمؤمنين الذين عاهدوا رسوله على السمع والطاعة وعلى مؤازرته في حمل رسالة الإسلام والاضطلاع بنشرها في الآفاق – وعيد لهم وتهديد أن ينقضوا هذا الميثاق الذي واثقهم به أو أن ينكثون ما قطعوه على أنفسهم من عهد بالمناصرة والتأييد سواء كان النكث في السر أو العلن - والله جل ثناؤه لا تخفى عليه خافية وهو سبحانه عليم بما يختلج في الضمائر من أسرار وخواطر ٤٧.

٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {يأيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هم أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون}.

سبب نزول هذه الآية أنه لما فتح المسلمون مكة أمرهم الله أن لا يكافئوا كفار مكة بما سلف منهم من مكروه وعدوان، بل أن يعاملوهم بالعدل والإحسان في القول والفعل ٤٨.

وقوله: {كونوا قوامين} أي كثيري القيام بحقوق الله عليكم تعظيما لشأنه وإقرارا بربوبيته وإظهارا لعبوديته - ومما يقتضيه ذلك تأدية الشهادة على وجهها الحق من غير زيغ ولا ميل ولا محاباة في كل الأحوال والظروف - وهو قوله: {بالقسط} أي العدل - وذلكم هو خلق المسلم إذ يقضي بين الناس فلا يضل أو يميل ولا يحابي أو يداهن لأيما اعتبار من الاعتبارات الشخصية وإنما يقضي أو يشهد بالحق.

قوله: {ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا} أي لا يحملنكم بغضكم لقوم كان بينكم وبينهم عداوة – أن تحيفوا عليهم أو تميلوا عن العدل فتظلموهم وتجوروا في معاملتهم في القول أو الفعل - ما كان ذلك ليفعله المسلمون الأتقياء الأوفياء الذين ديدنهم أن لا يزيغوا عن صراط الله المستقيم وعن الحكم أو الشهادة بالعدل.

ما كان المسلمون الأتقياء الأوفياء ليزيغوا عن طريق العدل فيحيفوا على غيرهم لكونهم مشركين أو لما أنزلوه في ساحة المسلمين من جرائم ومظالم - إن المسلمين الأتقياء يخشون الله تمام الخشية فلا يعصونه فيما أمرهم به ليبادروا بأداء الشهادة على وجهها القويم الحق - فلا يصدنهم عن ذلك عداوة لقوم أو أحد، ولا يزيغن بهم عن مقالة الصدق والعدل حافز من حوافز الهوى الظالم الذي تصطنعه المصالح الشخصية أو علائق الدم والقربى أو غير ذلك من الأهواء والاعتبارات المرفوضة.

وقوله: {اعدلوا هو أقرب للتقوى} ذلك تكرير مؤثر يؤكد على مداومة العدل في كل الأحوال - ولا جرم أن ذلك خلق المسلمين الأتقياء الأوفياء الذين يخافون الله فلا يعصونه فيما أمر أو نهى وزجر.

قوله: {واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون} ذلك تأكيد آخر على التزام التقوى، وهي جماع الخير كله - فالتقوى تنشر في أطواء النفس حب الله والخوف منه فما يكون أحد ولا كائن ولا محبوب أشد حبا للمؤمن من الله ولا أعظم مخوفا له منه سبحانه - وهو سبحانه يعلم

ما يكتسبه الناس من خير أو شر، ويعلم ما يختلج في نفوسهم من أسرار ونوايا فقال سبحانه: {إن الله خبير بما تعلمون}.
٩ - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)
قوله تعالى: {وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحت لهم مغفرة وأجر عظيم (٩) والذين كفروا وكذبوا بئايتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٠) يأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.
ذلك وعد من الله للذين صدقوه ورسله وأقروا بما جاءهم من ربهم، فأتمروا بما أمر وانتهوا عما حظر وزجر، فوفوا بالعقود والعهود والمواثيق وأعلنوا الطاعة التامة لله وحده.
١٠ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)
وأولئك الذين كفروا، بتكذيبهم كلام الله وبجحودهم وحدانيته فمضوا على سنن الشرك والجاهلية في الاعتقاد والقول والفعل - لا جرم أنهم ملاقو جزائهم من عذاب الجحيم.
١١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
قوله: {يأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم} روى في سبب نزولها عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتفرق في العضاه ٤٩ يستظلون تحتها وعلق النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه فسله ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يمنعك مني؟ قال: " الله عز وجل " قال الأعرابي مرتين أو ثلاثا: من يمنعك مني؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " الله " قال فشام ٥٠ الأعرابي السيف فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه - والأعرابي هو غورث بن الحارث وقصته ثابتة في الصحيح - وقيل: نزلت في بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك وأمره إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه فأطلع الله النبي صلى الله عليه وسلم على ما تمالؤوا عليه فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية ٥١.
قوله: {اذكروا نعمت الله عليكم} ذلكم تذكير بنعم الله على العباد - لا جرم أن نعم الله كثيرة لا تحصى وأن فضائله غزيرة زاخرة لا يحدها الحصر - وفي قمة هاتيك النعم والفضائل نعمة الإسلام - هذا الدين الكامل الشامل الذي حوى من قيم الحق والعدل والفضل ما يغمر الدنيا بالخير والسلام والود والرحمة.
وكذلك هذا النبي الكريم الهادي إلى سواء السبيل - النبي الذي أوتي جوامع الخير والفضيلة والرحمة فكان بصفاء فطرته وروعة طبعه وجنانه وسعة أفقه وذهنه خير ما يكون للبشرية كافة هاديا وبشيرا ونذيرا - هاتان النعمتان تأتيان في ذروة الأنعم الكاثرة التي امتن الله بها على الوجود كله.
وذلك يقتضي من العباد ذكر النعمة التي أنعم الله بها على المؤمنين إذ نجاهم من براثن الشر والضلالة والمنكر - ونجى نبيه الكريم من تمالؤ الأشرار والظالمين الذين أشربت نفوسهم الكراهية والحقد والحسد فما توانوا عن الكيد للنبي والائتمار به ليقتلوه - لكن الله ضمين بعصم هذا النبي العظيم من كل مكر وكيد، فلا يخلص إليه سوء أو شر يبتغيه هؤلاء الجاحدون المجرمون.
قوله: {إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم} إذ ظرف للماضي - وهم بمعنى القصد - وبسط اليد مدها للبطش بالمبطوش به - وذلك أن المشركين أو اليهود قد هموا بمد أيديهم للأذى والتخريب إذ أرادوا الشر برسول الله صلى الله عليه وسلم.
قوله {فكف أيديهم عنكم} أي منعهم أن يمدوا إليكم أيديهم بالسوء والأذى وتلك كلاءة من الله كتبها لرسوله صلى الله عليه وسلم إذ

عصمه من شر الأشرار وكيد الكائدين والخائنين والمتربصين على اختلاف مللهم وعقائدهم الفاسدة الضالة ٥٢.

قوله: {واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنين} يأمر الله المؤمنين أن يتقوه - أي يخافوه بدوام شكرانه وذكر نعمته والالتزام بأوامره، وأن يديموا التوكل عليه دون غيره، فإن الله ضمين أن يدرأ عنهم المفاسد والشرور.

١٢ - (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

قوله تعالى: {ولقد أخذ الله ميثق بني إسرءيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلوة وءاتيتم الزكوة وءامنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل}.

أخذ الله من بني إسرائيل المواثيق والعهود أن يخلصوا له إخلاصا فلا يعبدوا أحدا غيره وأن يصدقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فينصروه ويقدروه حق قدره، لكنهم نقضوا ذلك كله - ومن مواثيقه لهم أن بعث منهم اثني عشر نقيبا - والنقيب هو كبير القوم القائم بأمورهم والمنقب عن مصالحهم - والنقباء هم الأمناء على قومهم.

فقد بعث الله النقباء من بني إسرائيل أمناء على الاطلاع على الجبارين والوقوف على منعتهم وقوة شوكتهم - وتفصيل ذلك أنه لما فرغ بنو إسرائيل من أمر فرعون أمرهم الله أن يسيروا إلى أريحا من أرض الشام وكان فيها الجبابرة الكنعانيون فقال لهم: اخرجوا إليهم وجاهدوهم فإني ناصركم عليهم - وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط من أسباط بني إسرائيل نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به، فأخذ النقباء وهم اثنا عشر نقيبا فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون ليكشفوا لهم قوة العمالقة الكنعانيين فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوه، وكان نبيهم موسى عليه السلام قد نهاهم أن يحدثوهم، لكنهم نكثوا العهد إلا اثنين وهما كالب ويوشع بن نون فإنهما كتما عن الناس ولم ينكثا - ولما علم بنو إسرائيل عن قوة العمالقة هابوا واضطربوا وانثنوا عن المسير إلى أريحا وقالوا لموسى: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} قوله: {وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلوة وءاتيتم الزكوة وءامنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا} قيل: الخطاب للنقباء - وقيل لجميع بني إسرائيل، إذ قال لهم: {إني معكم} أي ناصركم على عدوي وعدوكم - ثم وعدهم الله بتكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنة إذا وفوا بجملة شروط، وهي أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فلا يضنوا ببذل الخير للمعوزين كديدنهم في الشح، وكذلك أن يؤمنوا برسل الله وبخاصة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم الذي وجدوه مكتوبا عندهم في التوراة فلا يؤمنوا ببعض ويكفرون ببعض، وأن يعزروهم - والتعزير معناه التعظيم والنصرة، وأن يقرضوا الله قرضا حسنا - والمراد بإقراض الله الإنفاق في وجوه الخير - فلئن فعلوا ذلك فلسوف يعفو الله عن خطيئاتهم وضلالاتهم - وفق ذلك يدخلهم الجنات الظليلة الوافرة المديدة التي تجري من خلالها ومن تحتها الأنهار بمائها الفرات وانسيابها الرخي البهيج ٥٣.

قوله: {فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل} أي من تنكب عما أمرته بفعله أو فعل ما أمرته بتركه بعد أن كذب بدعوتي ورسالاتي {فقد ضل سواء السبيل} أي أخطأ قصد الطريق اللاحب وزل عن سبيل الله المستقيم القاصد.

١٣ - (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {فبما نقضهم ميثقهم لعنهم وجعلنا قلوبهم قسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف واصفح إن الله يحب المحسنين}.

قوله: {فبما نقضهم} الباء السببية - وما زائدة تفيد التوكيد - وميثاقهم مفعول به للمصدر - أي بسبب نقضهم ميثاقهم {لعنهم} أي

طردناهم وأبعدناهم من الخير ومن رحمتنا عقوبة لهم - وقيل: معنى الطرد هنا مسخهم قردة وخنازير، والأول أقوى - وكذلك عاقبهم الله بقسوة قلوبهم إذ قال: }وجعلنا قلوبهم قاسية{.

قوله: }يحرفون الكلم عن مواضعه{ أي لفرط ما ران على قلوبهم من الكزازة والقسوة وما غشيهم من الغلظة واليبوسة صاروا يتأولون كتاب الله " التوراة " على غير تأويله الصحيح أو يبدلون حروفه وكلماته تبديلا - وكذلك تركوا نصيبا عظيما من كتابهم التوراة مما جاء فيه ذكر محمد صلى لله عليه وسلم وأمره بتصديقه واتباعه لكنهم كذبوه وناصبوه الكيد والعداء من أول يوم - وذلك تأويل قوله: }ونسوا حظا مما ذكروا به{.

قوله: }ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم{ أي لا تزال يا محمد تقف على خيانة هؤلاء المغضوب عليهم - وقوله خائنة بمعنى خيانة - أي أن الخيانة والغدر ديدنهم وعادتهم }إلا قليلا منهم{ وذلك استثناء متصل - والمراد بالقليل المستثنى عبد الله بن سلام وغيره ممن صدق وأيقن.

قوله: }فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين{ وذلك إذا تابوا عن الخيانة والغدر ودفعوا الجزية - والتقدير: اعف عنهم واصفح ما داموا على عهدك وهم أهل ذمة ولم يخونوك - وقيل: هذا منسوخ بآية السيف }قتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله{.

قوله: }إن الله يحب المحسنين{ العفو والصفح من الإحسان - وذلك من خلق المؤمنين الصادقين - وفي الآية تحضيض على العفو والصفح ٥٤.

١٤ - (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

قوله تعالى: }ومن الذين قالوا إنا نصرى أخذنا ميثقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤) يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتب مبين (١٥) يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم{.

كلمة النصارى من النصرة فقد ألبسوا أنفسهم دعوى النصرة لله فادعوا أنهم أنصار الله - وذلك هو وجه تسميتهم بهذا الاسم وقيل: النصارى نسبة إلى الناصرة أو نصورية التي أقامت فيها العذراء مريم وابنها عيسى المسيح، وبها سميت النصارى.

وبعد أن فرغ من الحديث عن اليهود أخذ في الحديث عن النصارى ليكشف عن جناياتهم وجرائمهم المنكرة في الجحد والكفران وإنما قال سبحانه: }قالوا إنا نصرى{ ولم يقل – من النصارى – إشارة إلى أنهم على دين النصرانية بزعمهم وليسوا عليها في الحقيقة لعدم عملهم بمقتضاها ولمخالفتهم ما حواه الإنجيل من التبشير بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: }أخذنا ميثقهم فنسوا حظا مما ذكروا به{ أي أخذنا من النصارى العهد على طاعتي واتباع أوامري والتصديق برسلي، لكنهم بدلوا كما بدل اليهود فنسوا نصيبا أساسيا عظيما من الإيمان وهو ما ذكروا به في الميثاق، وهو الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

إنما نسوا ذلك تبعا للهوى والرغبة الضالة المريضة في التحريف والتبديل، وذلكم هو الكفر والضلال.

قوله: }فأغرينا بينهم العدواة والبغضاء إلى يوم القيمة{ وذلك جزاء كفرهم وعنادهم وجحدهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم - ونتيجة لتمالؤهم على الإسلام والمسلمين بما يكيدونه لهم في الظلام من تدبير للمؤامرات وحبك للحيل والأساليب والمخططات الماكرة لاستئصال شأفتهم وإذلالهم وإضعافهم وغزوهم في عقر ديارهم - وكذلك نتيجة لكيدهم لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بمختلف الأساليب الخسيسة من التشويه والافتراء وإشاعة الكذب في أذهان البشرية عن هذا النبي الطهور المفضال - من أجل ذلك أغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

وأغرينا، فعله غرا أي لزق به - وغرا الجلد، ألصقه بالغراء - والغرا بالفتح، ما طلي به أو لصق به ٥٥ وهو مأخوذ من الغراء وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ ونحوه - وقيل: الإغراء تسليط بعض النصارى على بعض وقيل: الإغراء معناه التحريش بينهم ليظلوا على الدوام في عداوة وبغضاء فيما بينهم - والعداوة والبغضاء مركوزان مستكأن في طبائع النصارى ليظلوا على الدوام في تنافر بغيض وتنافس حقود قائم على الكراهية والأنانية وحب الشهوات والملذات حتى تنفجر بينهم الحروب الطاحنة الضروس التي أذاقتهم الويلات والأهوال، وأزهقت فيهم من الأرواح عشرات الملايين - ومن جملة ذلك في العهد القريب من هذا القرن، تلك الحرب العالمية الثانية بين دول المحور وفي طليعتها ألمانيا النازية، والحلفاء وفيهم الأمريكان والإنجليز - هذه الحرب الرهيبة التي عز نظيرها في تاريخ الحروب كافة والتي استمرت عدة سنوات فكان حصادها سبعين مليونا من البشر، فضلا عن التدمير والتخريب والتشويه وإتلاف الأعصاب.
ولسوف تبقى الحال بينهم هكذا من العداوة والبغضاء ما داموا منتكسين مدبرين عن منهج الله الصحيح - وما داموا يتمالئون ويتآمرون على دعوة الحق ليبددوها وأهلها تبديدا تاما، وما داموا يثيرون في الدنيا الأذى والتخريب والفساد وإشاعة الباطل والجريمة والمنكر - وكان ذروة ذلك كله الظاهرة البغيضة المشؤومة، وهي ظاهرة الاستعمار - الاستعمار الذي يثير في النفس التقزز والامتعاض والاشمئزاز، الاستعمار الذي قام على الجريمة والعدوان والأنانية الميكافيلية، وذلك في غاية من دركات الخسة واللؤم والتوقح الصارخ - ذلك هو الاستعمار الأوروبي والأمريكي الذي عاث في ديار المسلمين الخراب والهوان فدمرهم تدميرا وأزال شوكتهم ودولتهم البتة، واصطنع فيهم من أسباب التفرقة والتشتيت ما مزقهم شر ممزق إلى غير ذلك من ظواهر الإبادة والإهلاك والإذلال - وأشد من ذلك ما أشاعه المستعمرون وأتباعهم المبشرون والمستشرقون من أكاذيب وافتراءات وتخريص عن عقيدة الإسلام ومنهجه ونظمه وقيمه - وعن شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بما يشوه تشويها وما يثير في أذهان المسلمين والبشرية أبشع صورة وفكرة والحديث المرير عن أفاعيل النصارى في المسلمين يطول!!
ومن أجل هاتيك الجرائم النكراء التي ارتكبها الصليبيون الحاقدون في حق الإسلام والمسلمين والبشرية لسوف يذيقهم الله الويلات والمحن، ما بين أمراض سارية غريبة فتاكة، أو تمزق اجتماعي فظيع فاضح، أو مباغضات ومشاحنات نفسية ومذهبية دينية نتيجة لاختلافهم إلى طوائف وملل شتى كاليعقوبية والنسطورية قديما ثم البروتستانت والكاثوليك والأرثوذوكس فيما بعد.
قوله: {وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} توعدهم بالعذاب والنكال يوم القيامة بعد أن ينالوا في الدنيا جزاءهم من المباغضات والكراهية والحروب - وسوف ينبئ الله هؤلاء الضالين بما جنوه في الدنيا من نقض للميثاق ومن جحود وكفران وفظائع في حق الإسلام والمسلمين والبشرية كلها.
١٥ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)
قوله تعال: {يأهل الكتب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتب مبين (١٥) يهدي به الله من اتبع رضونه سبل السلام ويخرجهم من الظلمت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم}.
أهل الكتاب، اليهود والنصارى - والكتاب اسم جنس، أي الكتب - والله يخاطب أصحاب الملتين بأنهم أهل الكتاب فهم أجدر أن يفيئوا إلى الحق، وأن يهتدوا إلى سبيل الله وأن يسلكوا طريق الصواب الذي جاء به الإسلام، إنهم أجدر الناس طرا باتباع دين الإسلام والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم - من أجل ذلك خاطبهم على أنهم أهل كتب سماوية منزلة فيها خبر النبي الأمين الخاتم صلى الله عليه وسلم فقال: {يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب} أي جاءكم الرسول محمد كاشفا للحقيقة التي حوتها كتبكم السماوية والتي أخفيتموها ظلما وعتوا - فقد أخفيتم خبر الرسول محمد الذي بشر به المسيح عليه السلام والذي جاء ذكره كذلك في التوراة، وأخفيتم قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة وخنازير، وأخفيتم أيضا حد الرجم للزاني المحصن وغير ذلك من أحكام وقضايا.

قوله: }ويعفوا عن كثير{ أي لا يبين ولا يذكر كثيرا مما أخفيتموه في كتابكم التوراة، بل يتركه، لأنه لا تدعو إلى إظهاره حاجة.
قوله: }قد جاء كم من الله نور وكتب مبين{ النور هو الإسلام.
هذا الدين الكامل الحنيف بعقيدته وتشريعه وتصوراته وقيمه يصنع الإنسان الصالح - الإنسان السوي الرحيم - الحافل بكل ظواهر الخير والبر والود والصلوح - ذلكم الإنسان السليم المبرأ من عيوب المجتمعات الضالة والأهواء المريضة التي تمخضت عنها الملل الجانحة والعقائد والفلسفات الفاسدة السقيمة.
وقيل: النور هو محمد صلى الله عليه وسلم، المؤيد بالوحي - والمبعوث للبشرية هاديا ومنيرا، بما خوله الله من وجيبة التبيين للكتاب الحكيم، وبسنته الوافية الزاخرة، وسيرته العاطرة المثلى التي تكشف عن شخصيته السامقة الفذة.
والكتاب هو القرآن - وهو مبين، أي ظاهر الإعجاز بما يقطع أنه من كلام الله - وهو مستبين وواضح كل الوضوح لمن أراد أن يعي أو يتذكر، ولم يعتره شيء من التحريف أو التغيير أو التبديل - وقيل: مبين بفعله المتعدي - أي المظهر للناس ما اختلفوا فيه وما خفي عليهم والذي كشف للبشرية عن منهج الحق فيكون لها خير سبيل يفضي إلى الفلاح والنجاة.
١٦ - (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
قوله: }يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام{ يهدي به في محل نصب على الحال - ورضوان الله معناه القبول منه أو المدح والثناء - وسبل السلام أي طرق السلامة والنجاة التي توصل إلى دار السلام وهي الجنة - وقيل: السلام هو الله والمراد شرائعه التي شرعها لعباده - فالمعنى أن الله يسدد بقرآنه المجيد من ابتغى رضوانه فيرشده إلى طريق السلامة والنجاء.
قوله: }ويخرجهم من الظلمت إلى النور بإذنه{ الظلمات يراد بها كل ألوان الكفر على اختلاف أسمائه ومسمياته وأصنافه - وكل ما سوى الإسلام كفر وإشراك بالله ومجانبة لمنهج الله الحق القويم - والنور هو الإسلام - أي أن الله جلت قدرته يخرج الناس بقرآنه المجيد من ظلمات الكفر والشر والباطل إلى ضياء الإسلام، وذلك بإذنه سبحانه - أي بتوفيقه، إذ كشف للناس عن سبيل الحق وعن منهجه السليم القويم، وأراهم ما كان خافيا عليهم وما لم يكونوا يعلمونه من قبل.
قوله: }ويهديكم إلى صرط مستقيم{ أي يرشدهم إلى صراطه المستقيم وهو الإسلام، بروعة عقيدته وكمال تشريعه وجمال قيمه ومعانيه ٥٦.
١٧ - (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله تعالى: }لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن راد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير{ هذا إعلان صارم مجلجل لا يحتمل المداهنة أو المواربة أو اللين - إعلان هادر مكشوف بأن الذين تلبسوا بدعوى الإلهية للمسيح كافرون سواء فيهم المبتدعون السابقون في هذه الضلالة الذين اختلقوا هذه الفرية العظمى أو الأتباع الذين جاؤوا من بعدهم فاتبعوهم تقليدا بغير علم ولا حجة ولا منطق سليم - وفي هذا الصدد روي عن محمد بن كعب القرظي أنه لما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع طائفة من علماء بني إسرائيل فقالوا: ما تقولون في عيسى عليه الصلاة والسلام؟ فقال أحدهم: أو تعلمون أن أحدا يحيي الموتى إلا الله؟ فقالوا: لا - فقال: أو تعلمون أحدا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ قالوا: لا - قالوا: فما الله تعالى إلا من هذا وصفه - أي حقيقة الإلهية فيه ٥٧.
ويستوي في الكفران من هذى بنسبة الإلهية للمسيح، أو قال إنه خليقة مزدوجة من اللاهوت والناسوت أو غير ذلك من الهذيان السقيم المحموم - والحقيقة الناصعة الساطعة البلجة أن عيسى المسيح واحد من عباد الله الخاليق، ذرأه الله من غير أب، وأمه النقية، التقية البتول، المرأة المفضلة المثلى سيدة نساء العالمين عليها السلام.
قوله: }قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا{ الفاء في قوله: }فمن{ عاطفة من أداة استفهام للإنكار والتوبيخ - ويملك بمعنى يقدر أو يستطيع - والمعنى: قل لهم يا محمد مبكتا: من ذا الذي يقدر أن يمنع من قدرة الله

ومشيئته شيئا إن أراد الله أن يهلك المسيح وأمه والعالمين كافة، فلو كان المسيح إلها كما تزعمون لرد الموت عن أمه أو غيرها - فليس المسيح إلا عبدا من عباد الله المصطفين الأخيار وكفى ٥٨.

قوله: {ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما} الله مالك كل شيء فما في الكون الواسع الرحيب من أشياء وخلائق ظاهرة وباطنه إلا وهي من خلق الله وتحت قهره وفي ملكوته - ومن جملة ذلك كله المسيح ابن مريم - فهو واحد من الأناسي في هذا الوجود الذي يحيط به علمه وقدرته - فهل يليق بعد ذلك بذي لب أن يصدق اصطناع الألوهية للمسيح - لا جرم أن هذا الزعم هراء - بل إنه افتراء ظالم وممجوج.

قوله: {يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير} وذلك كخلق عيسى من غير أب، وخلق آدم من غير أم ولا أب بل من تراب - وما يجري في هذه الدنيا من معجزات أو ظواهر خارقة للقوانين الكونية كخلق الطير من الطين وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص - فإن ذلك كله من خلق الله وتدبيره فهو القادر أن يفعل ما يشاء ٥٩.

١٨ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {وقالت اليهود والنصرى نحن أبنؤا الله وأحبوه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير} قال ذلك بعض اليهود ونسب إلى الجميع، لأنهم لم ينكروا هذه المقالة بل أقرها وتشبثت بها قلوبهم وعقولهم - وفي ذلك أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن آصى وبحري بن عمرو وشاس ابن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله تعالى وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ٦٠ - وتلك فرية مقبوحة حوتها أساطير بني إسرائيل - وهي أساطير كثيرة ومريبة وغريبة تلطخت بها بطون الكتب الدينية التي أفرزتها قرائح الدجاجلة والمشعودين من الحاخامات والأخبار - ومن جملة ذلك زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه - وقيل: مرادهم بالأبناء المقربون عند الله - والأحباب جمع حبيب بمعنى المحبوب - والمقصود أنهم مفضلون على غيرهم من الناس - وأنهم أولو مزية لا تتسنى لغيرهم من البشر.

قوله: {قل فلم يعذبكم بذنوبكم} أي إن صح زعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم يعذبكم الله بذنوبكم يوم القيامة أياما بعد الأيام التي عبدتم فيها العجل، وهو زعمكم أنفسكم؟ كيف يعذبكم وأنتم المقربون المميزون؟! اللهم إن هذا افتراء وتخريص وبهتان!

قوله: {بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} أي ليس الأمر مثلما زعمت اليهود والنصارى - فما زعمهم غير تخريص واهم مكذوب لا يستند إلى أثارة من برهان إلا الاغترار والحماقة - وهم جميعا ليسوا إلا صنفا من البشر من ذرية آدم خلقهم الله كبقية خلقه لا يتميزون عن غيرهم من الناس بشيء - فمن صلح فيهم جوزي من الله خير الجزاء - ومن عصى وبغى وجنف فإنه مجزي بسوء فعله ما يستحق من العذاب والنكال يوم القيامة - والله جلت قدرته إنما يغفر لأهل الطاعة ويعذب أهل المعصية - وهذا مقتضى قوله: {يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}.

قوله: {ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير} ذلك من تتمة الرد لمقالة اليهود والنصارى من أنهم أبناء الله وأحياؤه - فإن هذيهم ضال ومكذوب، وافتراءهم على الله مستقبح وداحض، وما هم إلا كغيرهم من الخلائق - وسيجازي الله كلا بعمله من خير أو شر - والله جل جلاله قادر على ذلك كله فكل شيء قبضته وملكه وبين يديه - فهو سبحانه مالك السموات والأرض بما فيهن وما بينهن من الملائكة والجنة والأناسي وغير ذلك من مختلف الخلائق الكاثرة المبثوثة في أطواء هذا الكون المعمور - الكون الشاسع الكبير الحافل بالأشياء والأحياء والأسرار والحقائق - الكون الذي يئول في النهاية إلى الله حيث الفناء المحتوم والطاقة الكبرى!

١٩ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله تعالى: {يأهل الكتب فقد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير} هذا خطاب كريم ومثير لأهل الكتاب يعلن فيه الله عن جيئة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مبينا لهم الأحكام والشرائع التي تحقق لهم المصالح النافعة وتدرأ عنهم الشرور والمفاسد في المعاش والمعاد - أو ليبين لهم ما أخفوه عن الناس مما في كتبهم وما اختلفوا فيه وما زعموه وافتروه من دعاوى واختلاقات عن تميزهم وتفضيلهم على سائر البشر - يبين الله لهم عن طريق رسوله الكريم حقيقة الدين القائم على التوحيد الخالص لله بعيدا عن المغالاة والإفراط والضلالات وشرود الذهن والتصور.
قوله: {على فترة} من الفتور وهو السكون - فتر، أي سكن بعد حدة ولان بعد شدة - والفترة ما بين كل نبيين فالمراد بالفترة عند جميع المفسرين ما بين الرسولين ٦١ فالمعنى المقصود أن الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي، أو بعد مدة متطاولة بين إرساله وعيسى ابن مريم - وهذه المدة موضع تفصيل واختلاف لا حاجة للخوض فيه.
قوله: {أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير} أي لئلا تقولوا، أو كراهية أن تقولوا – متذرعين محتجين – إنه ما جاءكم من نبي مبشر ولا منذر يبلغكم وينهاكم - قال ابن عباس: قال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أن محمدا رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه بصفته - فقالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده من بشير ولا نذير فنزلت الآية ٦٢.
قوله: {فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير} وذلك رد لاعتذارهم واحتجاجهم فقد أرسل الله إليهم بمبعوثه محمد صلى الله عليه وسلم ليبين لهم ما أشكل عليهم، وما اختلفوا فيه كيلا يقولوا: لم يأتنا رسول يبين لنا ما نحن عليه من الضلالة والانحراف - فذلكم هو الرسول الأمين قد جاءكم بالحق مبشرا ونذيرا يبين لكم منهج الله الذي فيه صلاحكم وشفاؤكم - فمن آمن وصدق جوزي الفوز، ومن أعرض وصدف فقد باء بالغضب والنار - والله جلت قدرته قادر على فعل ذلك كله - بل إنه لا يعجزه أن يفعل ما يشاء ٦٣.
٢٠ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: {وإذ قال موسى لقومه يقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وءاتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين (٢٠) يقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥) قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين}.
هذا نصيب من قصة إسرائيل مع نبيهم ومنقذهم كليم الله موسى وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام - وقصة موسى مع قومه مريرة أليمة تثير في النفس الدهشة والحيرة، وذلك لغرابة الطبع وشذوذ الفطرة، ولفرط ما لاقاه موسى من قومه في كيفية تفكيرهم وعجيب تصرفهم وسلوكهم بما ليس له في تاريخ الشعوب والمجتمعات نظير.
وهذه الآيات تتجلى فيها الصورة عن طبيعة بني إسرائيل لتأتي واضحة متبينة للعيان لا ينكرها أو يغفل عنها إلا خاسئ كذاب أو غبي موغل في الضلالة والجهالة.
قوله: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا} ذلك مما امتن الله به على بني إسرائيل - فلقد امتن عليهم بمنن كثيرة لم يقدموا لله الشكران عليها، بل غالوا في الجحود والتغاضي والنسيان وأول هذه المنن أن جعل منهم أنبياء - فإن الله ما بعث في أمة من الأمم مثل ما بعثه في بني إسرائيل من الأنبياء.
وثاني هذه المنن أن جعلهم ملوكا - وتأويل ذلك يحتمل وجوها ثلاثة:

أحدهما: أنه جعلهم أحرارا يملكون أنفسهم بعد ما كانوا مملوكين في أيدي القبط، فصاروا بعد ذلك سادة غالبين لا مغلوبين ولا مقهورين.

ثانيها: أنهم جميعا ملوك - والملك من كان له الزوجة والخادم والدار.

وقيل: من كان له مركب ونزل وخادم سمي ملكا - وجملة ذلك أن من أوتي أسباب الرفاهة والراحة في الدنيا سمي ملكا - وفي الحديث " من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه ٦٤ عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ".

ثالثها: لكثرة الملوك فيهم، صاروا كلهم كأنهم ملوك لسلوكهم مسلكهم في السعة والترفه، أو لأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء ٦٥.

قوله: {وءاتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين} وهذه المنة الثالثة من الله على بني إسرائيل إذ اختصهم بجملة عطايا ما أعطيت لغيرهم من الأمم - وذلك من فضل الله عليهم ليخبتوا له حق الإخبات ويشكروه حق الشكران لكنهم عتوا وعصوا.

ومن هذه العطايا فلق البحر عقب ضربه بالعصا - وإغراق فرعون وزبانيته وجنوده، وتراكم المياه على حفاف الطرق وسك البحر كأنها الجبال الشوامخ لتمر أسباط إسرائيل الاثنا عشرة وهي آمنة مطمئنة، وتظليلهم بالغمام، وانفجار الماء من الصخر الصلد، وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما من الله عليهم من العطايا المخصوصة.

وقوله: {العالمين} ألف التعريض يحتمل معنيين - أحدهما: العهد - أي أن الله آتاهم من الآلاء والعطايا ما لم يؤت أحدا من العالمين في زمانهم.

ثانيهما: الاستغراق - فيكون التأويل أنهم أعطوا جملة عطايا لم تعطها أمة من الأمم - وذلك مثل كثرة الأنبياء، والمن والسلوى، وانفلاق البحر وغير ذلك مما ستكون لله به الحجة عليهم يوم القيامة لعتوهم وجحودهم النعم - لكنهم مع ذلك ليسوا خير الأمم كافة ولا أفضلها فإن تفضيل الأمة من عدة وجوه لا يستلزم تفضيلها من كل الوجوه - فإنه قد يكون للمفضول ما ليس للفاضل - وعلى أية حال فليس أفضل ولا أكرم ولا أصدق من أمة الإسلام - فهي بكريم محتدها وكمال ملتها وسداد شريعتها وروعة نبيها لا جرم أنها على الذروة السامقة من سلامة الفطرة وجمال الطبائع والأخلاق وحميد الخصال والصفات.

٢١ - (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

قوله: {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين} الأرض المقدسة أي الطاهرة - سميت مقدسة، لأنها جعلت موطن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه - أو لبركة بيت المقدس الذي كان مكتوبا في علم الله أن سيكون في هذه الديار - والأرض المقدسة هي بيت المقدس - وقيل: دمشق وفلسطين والأردن، وقيل الشام.

فقد أمر الله نبيه وكليمه موسى عليه السلام أن يحرض بني إسرائيل على مجاهدة العمالقة الجبارين ليستعيدوا منهم البلاد المقدسة فيسكنوها لما كتب الله أنها تكون لهم شريطة أن يقاتلوا الجبابرة ولا يرهبوهم أو يهابوهم - وهو مقتضى قوله: {التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين} أي لا تنكصوا على أعقابكم مدبرين هاربين خوفا وجبنا من العمالقة الجبارين - وقيل: لما حدثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم مجهشين بالبكاء مما أصابهم من شدة الذعر والهلع وانهيار الأعصاب - وقالوا: يا ليتنا متنا بمصر - وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأسا يعود بنا إلى مصر ٦٦ وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الفقرات القادمة.

٢٢ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)

قوله: {قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون} الجبارون جمع جبار وهو العاتي الذي يقهر الناس على فعل ما يريد - وقيل: الجبار، الطويل العظيم القوي - فقد كانوا في غاية القوة وعظم الجسم حتى خافهم القوم واضطربت قلوبهم من شدة الهول والهلع، فانثنوا عن أمر موسى بالدخول عليهم ومجاهدتهم إلا إذا خرجوا منها، فإن خرجوا منها فلسوف يدخلها بنو إسرائيل من غير جهد ولا بلاء إلا التربص والتردد والخور.

٢٣ - (قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: {قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} هذان الرجلان اللذان حرضا على المضي لدخول باب البلدة حيث العمالقة كانا من النقباء الاثني عشر فهما ممن أنعم الله عليهما بالهداية واليقين والثقة بنصر الله، فحرضا القوم على الجهاد ودخول البلد متوكلين على الله وستكون الغلبة لهم على أعدائهم إذا هم حملوا عليهم مجالدين مستنصرين بالله.

وقيل: الرجلان كانا من العمالقة وكانا من المؤمنين الذين يخفون إيمانهم ويخافون: أي يخافون من الجبارين أن يطلعوا على إيمانهم فيفتنوهم وكانا يعلمان أن الجبارين العمالقة خاوية قلوبهم - وهم ليسوا إلا أجسادا هائلة ضخمة فارغة من كل ظواهر الشجاعة أو البأس - فلئن قاتلهم أصحاب موسى ودخلوا عليهم باب البلد فلسوف يفرون (العمالقة) فرارا - ولسوف تطير قلوبهم فرقا ورعبا ثم يولون مدبرين مقهورين لا يلوون على شيء.

٢٤ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ)

قوله: {قالوا يموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والتهكم والاستهانة بالله ورسوله وقلة المبالاة أو الاهتمام بهما وبأمرهم وعدم الثقة بالنصر الذي وعدهم الله به شريطة أن يدخلوا، فكانوا لقسوة قلوبهم الغلف وخواء نفسهم المهزومة يستشعرون الإياس المطبق، فضلا عن مبلغ الرعب الذي ملك عليهم العقل والقلب والمشاعر جميعا، فأبوا إلا النكوص والامتناع عن دخول الأرض المقدسة أبدا - أي دهرا طويلا ما دام العمالقة فيها - ثم قالوا قولتهم المثيرة التي تكشف عن طبائع قد خالطها الخور والحبوط فباتت تستمرئ العناد والمكابرة والإحساس بالذل وهوان النفس {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} ذلك نكول صارخ عن الامتثال لأمر الله بمجاهدة الجبارين الطغاة - بل إنه كفر صراح لما ينطوي عليه قولهم من شبهة التجسيم إذ يجوزون الذهاب على الله وانتقاه من مكان إلى مكان وذلكم كفر - وقيل: قالوا ذلك على وجه التمرد والاستخفاف بالأمر وهو فسق.

وهنا قد حصحص الحق ليتجلى واضحا بلجا للعالمين - وليعي من يود أن يعي من الناس أو من أولي الألباب والنظر السوي السديد - والحق المقصود هنا هو حرمان بني إسرائيل من الأرض المقدسة، فصاروا لا يستحقونها، لأنهم فرطوا فيما اشترطه الله عليهم ليكتب لهم في المقابل الأرض المقدسة - وقد اشترط عليهم الدخول على العمالقة لقتالهم ومجاهدتهم، فإن دخلوا عليهم فلسوف يكون النصر حليفهم وهو وعد الله لهم - لكنهم انتكسوا ولوا رؤوسهم وولوا مدبرين فلم يمتثلوا للشرط الذي جعله لهم - قال ابن عباس في هذا الصدد عن الأرض المقدسة وبني إسرائيل: كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم - وجملة القول أن الوعد بقوله {التي كتب الله لكم} مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط - وهو قول الإمام الرازي ٦٧.

٢٥ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} في إعراب أخي قولان - أحدهما: الرفع - وتقديره: لا أملك إلا نفسي - وأخي لا يملك إلا نفسه - ثانيهما: النصب، لكونه معطوفا على نفسي فيكون التقدير لا أملك إلا نفسي ولا أملك إلا أخي.

لما رأى موسى منهم ما رآه من العناد والنكول وفساد الطبع والعزيمة قال قولته المؤثرة المثيرة على سبيل البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى عسى الله أن يسبغ عليه وأخيه بشؤبوب من رحمته - وجملة قيله المتوسل المتضرع أنه ما عدا أحد يجيبني أي طاعتك وتنفيذ أمرك سواي وأخي هارون - ثم دعا ربه {فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} أي افصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون - وهو في معنى الدعاء عليهم - والمراد بالفاسقين، الخارجين عن طاعة الله والناكلين عن أمره.

٢٦ - (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين} حرم الله على بني إسرائيل الأرض المقدسة

فلا يدخلوها ولا يملكونها - فإن قيل: كيف يمكن التوفيق بين هذا التحريم عليهم وبين قوله {التي كتب الله لكم} والجواب أن الله تعالى كتب لهم الأرض المقدسة شريطة أن يجاهدوا العمالقة الذين كانوا فيها - فلما نكلوا عن الجهاد ومقاتلة الجبارين لم يفوا بالشرط فلم يبق المشروط - فهي بذلك تبقى محرمة عليهم.

وقوله: {أربعين سنة} منصوبة بقوله بعدها {يتيهون} والتقدير أنهم بقوا يتيهون أربعين سنة - وقيل: منصوبة بالتحريم - وقوله: {يتيهون في الأرض} يقال تاه يتيه وتوها - والتيهاء المفازة التي لا يهتدي فيها - أي يسيرون فيها حيارى لا يهتدون طريقا - قال الحسن البصري في ذلك: كانوا يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا.

وفي أرض التيه حيث الحيرة والضياع والضلال حصلت لهم خوارق عجاب كتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وإخراج الماء الجاري من الصخرة الصماء كان موسى يضربها بالعصا فتتفجر منها اثنتا عشرة عينا - وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام - إلى غير ذلك من الخوارق و لآلاء التي من الله بها على بني إسرائيل وهم ضائعون تائهون بالرغم من نكولهم عن أمر ربهم واجترائهم عليه بالمعاصي والفسق والتمرد - لا جرم أن ذلك امتنان من الله بالغ، فاق ما حظيت به أمة من من الخير والرغد والبحبوحة - ولا غرو فلله الحجة البالغة على بني إسرائيل.

قوله: {فلا تأس على القوم الفاسقين} هذه تسلية لكليم الله موسى بما يسري عن نفسه ويكفكف عنها الندم والحزن لما أصاب قومه من بلاء التيه استجابة من الله لدعائه - فما ينبغي له أن يحزن عليهم فإنهم مستحقون لما حل بهم ٦٨.

٢٧ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ ابني ءادم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الأخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (٢٧) لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العلمين (٢٨) إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاؤا الظالمين (٢٩) فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٠) فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوري سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخي فأصبح من النادمين}.

ثمة صلة وثيقة بين قصة آدم هذه وما لقيه الرسول صلى الله عليهم وسلم من كيد يهود - فقد جحدوه وكذبوه وناصبوه الكيد والعداء بالرغم من إقرارهم قبل بعثه بصدق نبوته وأنه مبعوث من الله للناس - حتى إذا جاءهم بشيرا ونذيرا ردوه وكذبوه حسدا من عند أنفسهم - فما كان من سبب للتكذيب والجحد سوى المكابرة والحسد والبغي.

وهذه قصة مثيرة مريعة تكشف عن أفدح مثلبة تستحوذ على أكثر البشر - مثلبة في غاية الخسة والبغي وسوء الطبع المشين - وتلكم هي مثلبة الحسد - هذه الخسيسة المهينة التي لا ينجو منها أحد من الناس إلا أن يكون معصوما بوحي أو ببالغ التقوى كالصديقين والزاهدين والأبرار.

إنها المثلبة من المرض الخبيث العضال الذي يخالط أكثر القلوب - فما على التحرر من أسرها والتلطخ بلوثتها إلا النوادر من عباد الله - وهي لوثة تظل تشاغل النفس من الداخل لتقضها قضا أو تؤرقها تأريقا فتسومها المكابدة والمرارة - ذلك هو شان الحاسدين الآثمين الذين لا تبرح نفوسهم مفسدة الحسد ليظلوا على الدوام يألمون ويكابدون كلما أحسوا فضلا من الله على عباده - نسأل الله النجاة والمعافاة من لوثة الحسد والحاسدين.

أما قصة ابني آدم فنبينها هنا بإيجاز واقتضاب مما ذكره كثير من أهل العلم وفيهم ابن عباس وابن مسعود وهي أن آدم عليه السلام كان لا يولد له مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، وذلك للضرورة إذ ذاك - حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل قابيل - وكان قابيل صاحب زرع، وهابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهما وكانت له أخت أحسن من أخت هابيل - وقد طلب هابيل أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه - وقال: هي أختي

ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى - فقال لهما: قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها - فقرب هابيل جذعة - وقيل: كبشا وقرب حزمة سنبل - فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وكان ذلك إيذانا بالقبول فغضب قابيل وقال: لأقتلنك فأجابه هابيل بما قصه الله علينا.

وقوله: {بالحق} أي اتل عليهم بالصدق تلاوة زبر الأولين من غير لبس في ذلك ولا وهم ولا كذب ولا تبديل.

قوله: {إذ قربا قربانا} ظرف زمان لنبأ - والتقدير أن قصتهم في ذلك الوقت - والقربان، اسم لما يتقرب به إلى الله من نسك أو صدقة.

قوله: {فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر} الذي تقبل الله منه قربانه هو هابيل، وذلك لتواضعه وتقواه وامتثاله لشرع الله - والذي لم يتقبل منه هو قابيل، لأنه أبى واستكبر وفسق عن أمر الله وسخط لما أراه أبوه في حكم الحق.

قوله: {لأقتلنك} النون المشددة للتوكيد - وذلك قسم من قابيل الحاسد الذي آلى أن يقتل أخاه المؤمن لفرط ما اعتور قلبه من حسد على قبول القربان من أخيه وعلو شأنه ومنزلته عند الله فضلا عن زواج أخته الحسناء.

قوله: {إنما يتقبل الله من المتقين} قال ذلك جوابا لمقالة أخيه الظالم الحاسد الذي آلى أن يقتله بغيا وحسدا - فرد مقالته بأن قبول الأعمال إنما يكون بناء على التقوى فإن الله لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق - والمتقي المتلبس بالتقوى وهو الذي يجتنب الشرك والمعاصي والآثام.

٢٨ - (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك} بسط اليد يعني مدها للبطش وغيره - أي لئن مددت إلي يدك لتقتلني ما أنا بماد يدي لأقتلك - فلا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت في الخطيئة سواء.

قوله: {إني أخاف الله رب العلمين} أي إني أتورع لخوفي من الله أن أفعل مثلما تريد أن تفعل من خطيئة منكرة - لكني أصطبر وأحتسب عند الله إمساكي عن القتال والمدافعة، يذكرنا ورع هابيل وإحجامه عن القتل والمقاتلة ما هو جدير بالمتقين في كل زمان أن يصونوا أنفسهم من السقوط في الفتن التي طالما حاقت بالمسلمين عبر تاريخهم الطويل فعصفت بهم عصفا وأوقعت فيهم الخسائر المريعة في الأنفس فضلا عن القطيعة والتمزق وشتات الكلمة، وفي ذلك روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي " قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني فقال: " كن كابن آدم ".

٢٩ - (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

قوله: {إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزؤا الظالمين} تبوء من البوء وهو اللزوم - باء رجع إلى المباءة وهي المنزل - أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي - أي ألتزم وأرجع وأعترف - وذلك تعليل آخر لامتناع هابيل عن بسط يده لقتل أخيه - والمعنى أني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك - وقيل: ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك - وقيل: ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك {فتكون من أصحاب النار} خوفه هابيل من جناية العدوان الظالم والبوء بإثم هذه الخطيئة التي تودي بصاحبها إلى النار - وذلك هو الجزاء الذي يستحقه الناكبون عن طريق الحق المتجاوزون لحدود الله وهم الظالمون.

٣٠ - (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله: {فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين} في قوله: {فطوعت} من الشمول ما يتسع لجملة معان متقاربة وهي: سهلت وسولت وشجعت وحسنت وصورت له أن قتل أخيه ممكن وسهل - وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز في القرآن الحكيم.

لقد ساقه تصوره المشؤوم هذا أن يقتل أخاه فقتله فكانت بذلك خسارته فظيعة وكبرى إذ خسر الدنيا والآخرة - ففي الآخرة عذاب النار وبئس القرار وفي الدنيا قد باء قابيل بفاحش الذكر والإثم المتعاضم على مر الزمن إلى قيام الساعة - وفي هذا أخرج مسلم وغيره عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان

أول من سن القتل ".
٣١ - (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)
قوله: {فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه} جاء في تأويل ذلك أقوال كثيرة نقتضب منها ما رواه السدي بإسناده إلى الصحابة أنه لما مات هابيل تركه بالعراء ولم يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم جثى عليه فلما رآه قال: {يويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي} والسورة بمعنى العورة ومالا يجوز أن ينكشف من جسده - وقوله: {فأوارى} منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية.
قوله: {فأصبح من النادمين} لم يندم ندم توبة، ولكنه ندم لسخط أبيه ولما أصابه من خرج وعجز أمام الغرابين اللذين تتلمذ عليهما في كيفية مواراة أخيه الميت ٦٩.
٣٢ - (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)
قوله تعالى: {من أجل ذلك كتبنا على بني إسرءيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينت ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون} من أجل ذلك، أي بسبب هذه النازلة المريعة وهي قتل ابن آدم أخاه ظلما {كتبنا على بني إسرءيل - - - فكأنما قتل الناس جميعا} أي قضينا وشرعنا لهم أن من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو لفساد في الأرض موجب لهدر الدم كالشرك أو قطع الطريق {فكأنما قتل الناس جميعا} وتأويل ذلك موضع خلاف وتفصيل نعرض له في عدة وجوه:
الوجه الأول: المقصود المبالغة في تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه - أي فكما أن قتل كل الناس أمر فظيع ومستعظم، فكذلك يجب أن يكون قتل الواحد من الناس فظيعا ومستعظما - أي أن المقصود اشتراكهما في البشاعة والفظاعة والاستعظام.
الوجه الثاني: أن الذي يقتل النفس المؤمنة ظلما وعدوانا جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما - وكذا الذي يقتل الناس جميعا لم يزد جزاؤه على ذلك.
الوجه الثالث: المعنى أن من قتل نفسا فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعا.
الوجه الرابع: أن الله جعل إثم قاتل الواحد إثم قاتل الجميع - وقيل: كان هذا الحكم مختصا ببني إسرائيل تغليظا عليهم - وقيل غير ذلك ٧٠.
قوله: {ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا} إحياؤها يراد به استنقاذها من سائر المهالك كالحرق والغرق والإفراط في الجوع والعطش والبرد والحر المفضي إلى الموت - وتأويل إحياء النفس الواحدة بما يكافئ إحياء النفوس جميعا يشبه ما بيناه من أن قتل النفس الواحدة كقتل النفوس جميعا - وجملة ذلك: المبالغة في تعظيم استنقاذ النفس المؤمنة من سائر أسباب الهلكة - وأن من يستنقذ النفس المؤمنة من براثن الموت ليس له من الجزاء ممن يستنقذ الناس جميعا ٧١.
٣٣ - (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)
قوله تعالى: {إنما جزاؤا الذين يحابون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم}.
ثمة خلاف في سبب نزول هذه الآية - لكن الراجح والأقوى والذي عليه الجمهور هو ما رواه أئمة الحديث عن أنس بن مالك أن قوما من عكل – أو من عرينة – قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتروا ٧٢ المدينة، فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا - فلما صحوا قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا النعم فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم من أول النهار فأرسل في آثارهم فما ارتفع النهار حتى جيئ بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمر ٧٣ أعينهم وألقوا في الحرة ٧٤ يستسقون فلا يسقون " فأنزل الله الآية في هذا الصنف من الناس الذي يعيث في الأرض فسادا وتخريبا فيثير بين الناس الرعب والفوضى، ويبدد في المجتمع ظواهر الأمن والاستقرار فيعيش المسلمون في وجل وهلع - من أجل ذلك شدد الإسلام في التنديد بهؤلاء الفاسقين المفسدين وشرع في حقهم من العقوبة الزاجرة الرادعة ما يكافئ جنايتهم النكراء - على أن محاربة الله ورسوله يراد بها محاربة أهل شريعته وملته من المسلمين - فإن محاربة المسلمين في حكم محاربة الله ورسوله - سواء كان ذلك في عصر النبوة أو غيرها من الأعصار.

والكلام في ذلك عن الحرابة، وهي إشهار السلاح وقطع السبيل خارج المصر، أو داخله على الخلاف فيمن يستحق اسم المحاربة - فقد ذهبت المالكية والشافعية إلى أن الحرابة إشهار داخل المصر أو خارجه - فهما من حيث وجوب الحد سواء - استنادا إلى عموم الآية وعلى هذا فإن المحارب من حمل على الناس السلاح في المصر أو في البرية وكابرهم على أنفسهم وأموالهم من غير عداوة أو ثأر.

واشتراط الشافعي في ذلك حصول الشوكة - ومعناها عنده قوة المغالبة - فهو بذلك يشترط البعد عن العمران، لأن المغالبة إنما تتأتى بالبعد عن العمران - وعند الإمام أبي حنيفة وآخرين أن المحاربة لا تكون إلا خارج المصر حيث الخوف وقلة النصرة والبعد عن السلطان ٧٥.

واختلف الفقهاء وأهل العلم فيما يجب على المحارب من القتل أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض - فهل هذه العقوبات على التخيير فيكون الإمام مخيرا في إيقاع العقاب الذي يجده زاجرا أم أن هذه العقوبات مرتبة على قدر الجنايات تبعا للاختلاف في معنى قوله: {أو} - فقد ذهب فريق من أهل العلم إلى أن {أو} هنا للتخيير - وهو قول ابن عباس في رواية عنه - وقال به الحسن البصري وسعيد بن المسيب ومجاهد - فيكون المعنى بذلك أن الإمام إن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل، وإن شاء نفى - فأيما واحد من هاتيك العقوبات شاء الإمام فعل - وهو مذهب الإمام مالك - وقال به عمر بن عبد العزيز - وآخرون، إذ قالوا كلهم: الإمام مخير في الحكم على المحاربين - فهو يحكم عليهم بأي الأحكام التي أوجبها الله تعالى من القتل والصلب أو القطع أو النفي بظاهر الآية - قال ابن عباس: ما كان في القرآن {أو} فصاحبه بالخيار.

وذهب آخرون إلى أن {أو} لبيان أن هذه العقوبات تختلف باختلاف الجنايات وهي رواية عن ابن عباس - وعلى هذا فمن اقتصر على القتل قتل - ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب - ومن اقتصر على أخذ المال قطع يده ورجله من خلاف - ومن أخاف السبيل ولم يأخذ المال نفي من الأرض - وهو قول أكثر العلماء - وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وحمد - واحتجوا بما ذكره الطبري عن أنس بن مالك أنه قال: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن الحكم في المحراب فقال: " من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يده للأخذ ورجله للإخافة، ومن قتل فاقتله، ومن جمع ذلك فاصلبه ".

واحتجوا أيضا بالقياس الجلي إذ قالوا: القتل العمد العدوان يوجب القتل فغلظ ذلك في قاطع الطريق وصار القتل حتما لا يجوز العفو عنه - وأخذ المال يتعلق به القطع في غير قاطع، فغلظ ذلك في قاطع الطريق بقطع الطرفين - وإن جمعوا بين القتل وبين أخذ المال جمع في حقهم بين القتل وبين الصلب ولما في الصلب من زجر للآخرين عن الإقدام على مثل هذه المعصية ٧٦ - وتفصيل الكلام في أحكام الحرابة بأكثر من ذلك في مظانه من كتب الفقه.

قوله: {أو ينفوا من الأرض} اختلف في المراد بالنفي - فقد قالت الحنفية: النفي من الأرض معناه الحبس - وهو اختيار أكثر أهل اللغة - ووجه القول بأنه الحبس أن النفي إما أن يكون المراد منه النفي من جميع الأرض، وذلك غير ممكن - وإما أن يكون المراد إخراجه من تلك البلدة إلى بلدة أخرى فهو غير جائز، لأن المقصود من نفيه أن يندفع شره عن المسلمين - فإذا أخرج إلى آخر استضر أهله به - وإما أن يكون المراد إخراجه إلى دار الكفر وهو كذلك غير جائز لما في إخراج المسلم إلى دار الكفر من تعريض له بالردة وهو غير جائز - فإذا بطل الكل لم يبق إلا أن يكون المراد من النفي نفيه عن جميع الأرض إلا مكان الحبس - والمحبوس يسمى منفيا

من الأرض لأنه لا ينتفع بشيء من طيبات الدنيا ولذاتها بل ينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها.
وقال الشافعي: معناه، إن وجد الإمام هؤلاء الحاربين قتلهم وصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف - وإن لم يجدهم طلبهم أبدا حتى إذا قدر عليهم فعل بهم ما ذكرناه - وهو قول أحمد وإسحق - وجملة ذلك أن المحارب يطلب حتى إذا قدر عليه أقيم عليه الحد أو يظل هاربا فزعا إلى أن يتوب ويرجع.
وقال الإمام مالك: ينفي من البلد الذي أحدث فيه جنايته إلى بلد آخر ويحبس فيه كالزاني - وقيل غير ذلك.
والذي نختاره في معنى النفي من الأرض أنه النفي من بلد إلى غيره وحبسه فيه حتى تظهر توبته من فسوقه ونزوعه عن معصيته ربه ٧٧.
قوله: {ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم} اسم الإشارة {ذلك} في محل رفع مبتدأ - وجملة {لهم خزي} من خبر مقدم ومبتدأ - والجملة في محل رفع خبر للمبتدأ الأول (اسم الإشارة) - واسم الإشارة عائد على ما فصل من الأحكام والأجزية التي يستحقها قطاع الطرق ما بين قتل وصلب وقطع للأيدي والأرجل من خلاف ونفي من الأرض، فذلك كله خزي لهم أي ذلة وفضيحة في هذه الدنيا - وكذلك لهم في الآخرة {عذاب عظيم} حيث النار والأهوال - وذلك إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - أما إن تابوا في الدنيا قبل الممات فإن الله تواب رحيم - وفي ذلك روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أذنب في الدنيا فعوقب به فالله أعدل من يثني عقوبته على عبده - ومن أذنب ذنبا في الدنيا فستره وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه ".
٣٤ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} اختلف العلماء في تأويل هذه الآية - فقد قال بعضهم: معنى ذلك: إلا الذين تابوا من شركهم ومناصبتهم الحرب لله ولرسوله والسعي في الأرض بالفساد بالإسلام والدخول في الإيمان من قبل قدرة المؤمنين عليهم فإنه لا سبيل للمؤمنين عليهم بشيء من العقوبات التي جعلها الله جزاء لمن حاربه ورسوله وسعى في الأرض فسادا من قتل أو صلب أو قطع يد ورجل من خلاف أو نفي من الأرض فلا تبعة عليه لأحد فيما كان أصاب في حال كفره وحربه المؤمنين في مال ولا دم ولا حرمة.
وهذا القول ضعيف، لأن المشركين إن آمنوا بعد القدرة عليهم لم يقتلوا بالإجماع.
لأنه في حق المشركين يجب الإسلام ما كان قبله من شرك وآثام - وهذا معلوم والصحيح أن الآية في قطاع الطرق وهم فئة ضالة مارقة من المسلمين الخارجين على الإمام، والذين مالت نفوسهم الأثيمة للتخريب والإفساد وترويع المسلمين ظلما وعدوانا - فقد استثنى الله جل جلاله في هذه الآية التائبين من قاطعي السبيل قبل القدرة عليهم من إيقاع الحد عليهم - ولا استثناء في القصاص وحقوق الآدميين فإن ذلك لا يسقط بالتوبة إلا أن يعفو الأولياء - أما التوبة بعد القدرة عليهم فلا تغني لظاهر الآية.
وقال الشافعي في المسألة: ويحتمل أن يسقط كل حد لله بالتوبة، لأن ماعزا لما رجم تاب، فلما أتموا رجمه ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه " وهو يدل على أن التوبة تسقط عن المكلف كل ما يتعلق بحق الله تعالى - انتهى.
وفي ذلك نظر - فإن قوله: " هلا تركتموه يتوب " لا يفيد رفع الحد بالتوبة بل إن رفع الحد عن الماعز إنما كان لانخرام شرط من شروط إقامة الحد على الزاني وهو الثبات على الإقرار - فلما لم يثبت ماعز على إقراره، وبخهم النبي صلى الله عليه وسلم توبيخا لاستمرارهم في رجمه حتى مات بعد رجوعه عن الإقرار.
فالصواب أن المحاربين لا مناص من تنفيذ الحد فيهم بما يستحقونه إن قدر الإمام عليهم قبل التوبة - أما إن ظهرت منهم التوبة قبل أن يقدر عليهم الإمام فلا يقام عليهم حد من حدود الله إلا ما كان من حقوق الآدميين من قصاص أو مال فهم أحق باستيفاء حقوقهم إلا أن يعفوا ٧٨.

٣٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: }يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجهدوا في سبيله لعلكم تفلحون (٣٥) إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيمة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم (٣٦) يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم{.

يأمر الله عباده بتقواه - وذلك بترك ما يجب اجتنابه من المعاصي، وبفعل الطاعات - وأن يطلبوا لأنفسهم الوسيلة، وهي القربة أو ما يتوسل به ويتقرب إلى الله من فعل الطاعات وترك المعاصي مما فيه تحصيل لمرضاته سبحانه وتعالى ٧٩.

واستدل بعض العلماء بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم - وهو أن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا.

وجملة القول في هذه المسألة أن الاستغاثة بمخلوق من الصالحين والأبرار وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه جائز شريطة أن يكون المطلوب منه حيا لا ميتا - يستوي في ذلك ما لو كان الطالب فاضلا والمطلوب منه مفضولا أو عكس ذلك فقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه تعالى لما استأذنه في العمرة: " لا تنسنا يا أخي من دعائك " وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بطلب الوسيلة له - فقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة " وفي صحيح مسلم مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا، ثم اسلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ".

أما إذا كان المطلوب منه ميتا أو غائبا فغير جائز - وذلك كمن يقول للغائب أو الميت من عباد الله الصالحين: يا فلان ادع الله أن يرزقني كذا وكذا، وهو يزعم أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة - فإن هذه بدعة من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف، إذ ليس لمسلم أن يطلب من ميت شيئا.

وأما القسم على الله تعالى بأحد من خلقه كأن يقول: اللهم إني أقسم عليك وأسألك بفلان إلا ما قضيت لي حاجتي، فذلك جائز في النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره من الناس - وعلى هذا لا يجوز القسم على الله بأحد من النبيين أو الملائكة أو الأولياء باستثناء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - ودليل ذلك ما رواه الترمذي عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني - فقال: " إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك " قال: فادعه - فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء " اللهم إني أسألك وأتوجه بنبيك صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، يا رسول الله إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي - اللهم فشفعه في ".

وذهب بعض العلماء إلى عدم جواز التوسل بالذات والقسم على الله بأحد من خلقه البتة - وهو قول ابن تيمية رحمه الله - وقد نقله عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما - وأجاب ابن تيمية عن الحديث المذكور آنفا بأنه على حذف مضاف - أي أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك فحذف المضاف (بدعاء) أو شفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم.

ففيه جعل الدعاء وسيلة، وهو جائز - أي أنه لا يجوز التوسل بذات الرسول صلى الله عليه وسلم ولا الإقسام به على الله سواء كان الرسول حيا أو ميتا - وكذلك لا يجوز التوسل أو الإقسام به على الله سواء كان الرسول حيا أو ميتا - وكذلك لا يجوز التوسل أو الإقسام بذات غيره من الأرواح المقدسة مطلقا قياسا عليه صلى الله عليه وسلم بجامع الكرامة - بل يجوز الاستشفاع به صلى الله عليه وسلم والتوسل بدعائه فقط - والاستشفاع معناه أن يطلب من الشخص الدعاء والشفاعة من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته - وقالوا كذلك إن من الإقسام على الله الغير مشروع قول القائل: اللهم أسألك بجاه فلان - فإن ذلك لم يرد عن أحد من السلف.

وأجيب عن ذلك بأنه لا بأس في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي صلى الله عليه وسلم عند الله حيا أو ميتا، على أن يراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، كأن يراد به المحبة التامة التي تستدعي عدم رده قبول شفاعته فيكون المعني: اللهم اجعل محبتك لرسولك وسيلة في قضاء حاجتي وهو يشبه قول الداعي: اللهم إني أتوسل برحمتك أن تفعل كذا ٨٠.

قوله: {وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون} وذلك من الجهاد - وهو بذل الجهد، بالفتح والضم بمعنى الطاقة والمشقة - والمراد قتال الكفار المشركين من أعداء الله والدين، ومن جملته مجاهدة النفس بحملها على أداء الطاعات واجتناب المحظورات، لا جرم أن ذلك يقتضي من راسخ العزيمة والقدرة على الثبات والمصابرة، وذلك جهاد كبير تظل معه النفس قائمة على الحق من غير زيغ أو اعوجاج - وقد وعد الله عباده الصابرين المجاهدين الثابتين على طريقه المستقيم أن يكونوا من المفلحين وهم الناجون من عذاب يوم القيامة، الفائزون بالدرجات والسعادة الخالدة في جنات النعيم.

٣٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ذلك تيئيس للكافرين من النجاة يوم القيامة - إذ لا مناص لهم يومئذ من العذاب الأليم - ولسوف تحيق بهم دواهي القيامة وأهوالها من التحريق وضروب التنكيل مما يجل عن الوصف وما لا تذكره الأذهان والأبصار - إنه لا نجاة لهؤلاء الظالمين المستكبرين من عذاب الله، ولو بذلك ملء الأرض من الكنوز والخيرات ومثل ذلك معه ليجعلوه فدية لأنفسهم ما كان ذلك ليقبل منهم بل إن عذاب الله واقع بهم لا محالة.

٣٧ - (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

قوله: {يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخرجين منها} الله جل جلاله يكشف عن حال الكافرين وهو يتقاحمون في النار يريدون الخروج منها هربا من لظاها اللاهب وهولها المذهل الرعيب فما يستطيعون ذلك - وهم على حالهم هذه من تجرع الويل بكل صوره، ثم لم يلبثوا أن يعاودوا الكرة بعد الكرة في طلب الخروج حتى يضطروا للسقوط خاسئين أذلة في النار حيث العذاب المقيم الواصب الذي لا يزول ولا يحول.

٣٨ - (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٣٨) فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم (٣٩) ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير} تتضمن هذه الآية أحكام السرقة كثيرة ومستفيضة يمكن الوقوف عليها في مظانه من كتب الفقه.

على أن عقوبة السارق بقطع يده صارمة يراد منها الحيلولة بين المجتمع وأسباب الفساد والتخريب والفوضى التي يقترفها فريق فاسد من الخائنين أولي الهمم الخاوية والطباع المريضة - ونعرض هنا للحملة المسعورة الحمقاء التي يثيرها خصوم الإسلام من صليبيين واستعماريين وصهيونين وشيوعيين ووثنيين وأتباعهم من المقلدين الناعقين - لقد أثار هؤلاء الظالمون ضجة لاهثة هوجاء من التجني على الإسلام من أجل هذه العقوبة التي فرضها الإسلام لدرء الشر والأذى عن المجتمع - أثاروا حملة مجنونة كاذبة من الدعايات الظالمة لتشويه الإسلام ولتنفير الناس من الإقبال على هذا الدين الكريم العظيم - لا جرم أنها دعايات مصطنعة ومفتراة لا تحتمل الثبات أو التماسك عند النظر والتبصر ولدى المناقشة في تعقل وروية - إن ما يثيره أعداء الإسلام من شبهات وتخريص حول هذا الدين لا يساوي في ميزان الحقيقة إلا ما تزنه الفقاقيع من ذرات البصاق المتطاير في الأفق عقيب الكلام الملفق الفاضح - الكلام الذي تجترحه حناجر الخراصين الدجاجلة من أعداء الإسلام في كل مكان وزمان.

لقد حسب هؤلاء الحاقدون الجهلة أن أيدي الناس سوف تقطع بالجملة لو عمل المسلمون بشريعة الإسلام - أو ظنوا أن مئات أو آلافا من الناس سوف يساقون في طوابير لتقطع أيديهم إذا ما طبق الإسلام، لا جرم أن هذا بهتان مبين - بل إنه تصور ضال وجهول يراود هؤلاء الفارغين الذين لا يفهمون عن حقيقة الإسلام إلا ما يعيه الأطفال الرضع عن حقيقة الكون والحياة!

إن عقوبة السرقة بالقطع لا يفرضها الإسلام إلا ضمن ضوابط وشروط - وتلكم هي الشروط نذكرها باقتضاب وإيجاز.

الشرط الأول: التكليف - أي أن يكون السارق مكلفا - والتكليف يناط هنا بالعقل والبلوغ والاختيار - أما البلوغ فهو سن الاحتلام عند الذكور، والمحيض لدى النساء.

أما الاختيار فهو كون السارق غير مكره - فإن أكره على السرقة فلا حد عليه، وذلك للخبر " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " ويستدل لدرء الحد عن السارق إن كان غير بالغ ولا عاقل بالحديث " رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق ".

الشرط الثاني: أن يكون المسروق مالا متقوما - وبذلك لو سرق خمرا أو خنزيرا أو كلبا أو جلد ميتة فلا تقطع يده - وكذلك لو سرق صنما أو أداة الملاهي لا حد عليه - يستوي في ذلك ما لو كان المسروق منه مسلما أو كتابيا من أهل الذمة ٨١.

الشرط الثالث: أن يكون المسروق بالغا نصابا - ومقدارا موضع خلاف بين العلماء - فقد ذهب الجمهور وفيهم المالكية والشافعية والحنابلة والشيعة الإمامية وآخرون أن نصاب السرقة ربع دينار أو ثلاثة دراهم، فإن كان دون ذلك فليس نصابا ولا يجب فيه الحد - واحتجوا بجملة أخبار، منها ما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا ".

وذهبت الحنفية إلى أن نصاب السرقة الموجب للقطع هو دينار أو عشرة دراهم فإن كان دون ذلك فلا حد على السارق ٨٢ واستدلوا لذلك بجملة أحاديث منها ما رواه النسائي عن أيمن قال: " لم يقطع النبي صلى الله عليه وسلم إلا في ثمن المجن وثمن المجن يومئذ دينار ".

الشرط الرابع: كون المسروق محرزا - أي أن يأخذه السارق من داخل الحرز - وهو الموضع المكين الحصين الذي يوجد فيه المال عند سرقته - نقول حرز حريز للتأكيد، مثلما يقال حصن حصين - ونقول احترز من كذا - أي تحفظ منه ٨٣.

على أن شرط الإحراز عظيم الأهمية للغاية - ذلك أن المال المحرز محفوظ في مكانه المناسب المحصن بما لا يستطيع معه السارقون ومرضى النفوس أن ينفذوا إليه.

فإنهم يعوزهم الاقتدار على أخذه ما دام مخبوءا في موضعه الحصين - وذلك بخلاف غير المحرز فإنه مال في حكم المسيب الذي يصير عرضه لسطو اللصوص - بل إن كونه مسيبا وغير محرز فيه من الإغواء للسارقين ما يثيرهم ويغريهم بالنفاذ إليه لأخذه - وبذلك فإن صاحب المال غير المحرز ملوم لتقصيره وتفريطه إذ جعل ماله عرضة للسرقة - ومن بالغ العدل المطلق في شريعة الإسلام أن يكون لسارق المال من غير حرز بعض العذر ليندرئ عنه الحد.

وذلك بخلاف المال الذي يكون في حرز حصين مكين فإنه يصير بعيد المنال عن السارقين واللصوص لاستحالة بلوغه أو صعوبة الحصول عليه إلا بتحطيم الحرز وإتلافه.

فهو – في هذه الحال – لا ينفذ إليه إلا من كان حاذقا بارعا في الخيانة واللصوصية - أو كان على غاية من الاجتراء المتوقح الذي يستوجب العقاب الصارم وهو القطع.

واشتراط الحرز لوجوب القطع قال به عامة أهل العلم خلافا لأهل الظاهر وآخرين: إذا احتجوا بظاهر آية السرقة على وجوب القطع في كل سرقة كيفما كانت ومهما كان حجمها، محرزة وغير محرزة - والصحيح الأول وهو اعتبار الحرز لإيقاع الحد ٨٤ ويستدل على ذلك بما أخرجه البيهقي عن عثمان بن عفان قوله: " ليس على سارق قطع حتى يخرج المتاع من البيت " وكذلك روى البيهقي عن ابن أبي حسين المكي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة ٨٥ جبل فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن " والتفصيل بأكثر من ذلك في مسألة الحرز يطلب من مظانه في كتب الفقه.

الشرط الخامس: أن تكون ثمة دعوى أو خصومة يقيمها صاحب المال المسروق ليطالب الحاكم أو القاضي بتضمين المتهم بالسرقة - فإذا ما استبان للحاكم اقتراف السرقة تماما وبشروطها المعروفة أقام الحد على السارق - وبذلك لو اعترف الجاني بالسرقة أو قامت عليه بينة بحصول السرقة منه فلا يقطع، إلا أن يأتي صاحب المال يباح بالبذل والإباحة - ومن المحتمل أن صاحب المال قد أباحه لآخذه وهو المتهم بالسرقة - أو أن يكون وقفه على المسلمين وهو واحد منهم أو أنه أذن له في دخول حرزه - ومثل هاتيك الاحتمالات تفضي إلى تحصيل الشبهة التي يدرأ بها الحد.

وبذلك لا يقام الحد على السارق إلا عقب المطالبة من صاحب المال ٨٦.
الشرط السادس: انعدام الشبهة - والشبهة في اللغة من الاشتباه وهو الالتباس - نقول تشابها واشتبها أي أشبه كل واحد منهما الآخر فالتبسا - وأمور مشتبهة ومشبهة أي مشكلة - وشبه عليه الأمر تشبيها أي لبس عليه - فالشبهة تعني الالتباس ٨٧.
والشبهة في الحدود ما كان من انخرام أو نقص في شروط الجناية الموجبة للحد بما يجعل هذه الجناية لا تكافئ العقوبة المقدرة في الشرع. وهنا السرقة، فأيما انخرام أو نقص في شروطها يجعله الشرع شبهة تهبط بمستوى السرقة لتكون دون الجناية الموجبة للقطع - ذلك أن القصور في درجة الجناية قمين بدفع الحد كيلا يقع على الجاني، لأن جنايته بحصول الشبهة كانت دون الجناية الكاملة المكافئة لعقوبة القطع.
وجدير ذكره هنا أن الإسلام قد حرض تحريضا على التماس الشبهات لدرء الحدود عن الجناة ما أمكن - والتصور الإسلامي في ذلك أن الخطأ في إيقاف العقوبة خير من إيقاع العقوبة ظلما عند حصول الشبهة.
فقد أخرج الترمذي عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة ".
وأخرج الإمام أبو حنيفة في مسنده عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ادرؤوا الحدود بالشبهات ".
وروي عن عمر رضي الله عنه قوله: " لأن أخطئ في درء الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات " ٨٨.
وثمة أمثلة تطبيقية يتبين منها أن الشبهة تدرأ حد السرقة عن السارق الذي لم تكتمل جنايته - وهي أمثلة منتشرة وكثيرة:
منها: لو اجتاحت الناس مجاعة مضنية تلين فيها العزائم، وتسترخي بسببها الهمم فتجنح أنفس كثيرة قد عضها الطوى – للسرقة من أموال الناس - فلا مساغ للحاكم في مثل هذه الحال أن يقيم الحد على السارقين لما يحل بساحتهم من شبهة الجوع المضني - يقول الله جل وعلا في عموم ذلك: {فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم}.
وكان عمر بن الخطاب يقول: " لا قطع في عام المجاعة والسنة " وذلك في عام الرمادة إذ حل بالمسلمين الجدب والقحط فقضهم الجوع قضا حتى إن بعضهم قد سرق لفرط الجوع فلم يقم عليهم عمر الحد - وذلك ما لا خلاف فيه ٨٩.
ومنها: لو سرق ضيف من مضيفه - فإنه ينظر، إن كان سرق منه من غير حرز فلا قطع عليه، لأنه مأذون له بالدخول - ونفس الإذن يجعله الشرع شبهة تدرأ الحد - لكنه إذا سرق من حرز في داخل الدار وجب قطعه، لأنه غير مأذون له بالدخول في الحرز - وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة - بخلاف الإمام مالك فلا يجب عنده القطع حتى لو كسر الحرز وسرق منه المتاع، لأنه مأذون له بدخول الدار - ومجرد الإذن بدخول الدار شبهة تمنع الحد ٩٠.
ومنها: لو سرق من أصله وإن علا، أو من فرعه وإن نزل – كأن يسرق من أبيه أو جده، أو يسرق من ولده أو ولد ولده، فلا حد عليه - وهو قول الجمهور من العلماء، وفيهم الحنفية والشافعية والحنابلة - أما المالكية فقالوا بعدم قطع الأصل بسرقة الفرع، لكن الفرع إذا سرق من مال الأصل وجب قطعه وهو قول الشيعة الإمامية وابن المنذر وأبي ثور ٩١.
على أن إجماعهم على عدم قطع الأب بسرقة ولده يؤيده ما رواه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصم أباه فقال: يا رسول الله! إن هذا قد اجتاح مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنت ومالك لأبيك ".
وأخرج ابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من أموالهم ".
أما عدم قطع الابن بسرقة مال أبيه، فوجهه أن النفقة تجب في مال الأب لابنه حفظا له من التلف فلا يجوز إتلافه حفظا للمال.
ومنها: لو نقب أحد السارقين وحده بيتا، ثم دخل الآخر البيت وحده، فأخرج من المتاع المسروق فلا قطع على الاثنين، لأن الأول الذي نقب البيت لم يسرق بل نقب الحرز (البيت) فقط - أما الثاني فلم يهتك الحرز (البيت) بل سرق من حرز مهتوك هتكه غيره - فهو كما لو نقب رجلا بيتا ولم يدخله وذهب ثم جاء آخر فوجد البيت مهتوكا - فسرق منه فلا قطع على واحد منهما ٩٢.

ومنها: لو دخل حرزا وأخذ متاعا فحمله أو لم يحمله ثم مسك قبل أن يخرج من الحرز فلا قطع عليه - ولو رمى المتاع خارج الحرز ثم مسك قبل أن يخرج منه فلا قطع عليه أيضا، لأن يده لم تثبت على المأخوذ في الحالتين - فلا الأخذ لا يتم بإخراج المسروق من الحرز - وهو قول الحنفية ٩٣.
ومنها: لو سرق نقودا من بيوت غير حريزة كما لو كانت غير مغلقة تماما وليس عندها حارس يحرسها فلا قطع.
ومنها: لو سرق من بيت في غير العمران، كأن يكون ذلك في البر أو الصحراء أو سرق من البساتين وليس فيها حافظ يحرسها فلا قطع، لأن المال في مثل هذه الأمكنة لا يكون محرزا بغير حافظ مستيقظ ٩٤.
إلى غير ذلك من الشبهات التي لا تقبل الحصر والتي تحول دون تنفيذ القطع وبذلك لا يتحقق القطع إلا في حق فريق من اللصوص المجاهرين بالسرقة في وقاحة مكشوفة واجتراء لئيم مفضوح - أولئك فريق من المجرمين الأشرار يقتحمون بيوت الناس وأماكنهم فيهتكون أستارها هتكا لسرقة أموالهم في مجاهرة خسيسة ظالمة - لا جرم أنهم قلة وهم مفسدون أشقياء لا يستحقون غير العقاب الصارم وهو القطع - فلا يحسبن أحد من الجاهلين أن تطبيق الشريعة مدعاة لقطع كثير من الأيدي - إن هذا الزعم ليس إلا الوهم الغليظ يغشى الأذهان المتربصين والمتعصبين الحانقين الذين يكرهون الإسلام.
إن تنفيذ هذا الحد قليلا ما يتحقق لشدة الضوابط التي قررتها الشريعة في ذلك - وهي ضوابط لا يتجاوزها من السارقين المستحقين للقطع- إلا القليل.
قوله: {جزاء بما كسبا} جزاء، مفعول لأجله منصوب - أي اقطعوا أيديهما للجزاء وقيل: منصوب على المصدر لاقطعوا - وبما كسبا، أي بسبب كسبهما أو ما كسباه من السرقة.
قوله: {نكالا من الله} مفعول لأجله أيضا - أو منصوب على المصدر كالقول في {الجزاء} فيكون تقدير الكلام: جازوهم ونكلوا بهم جزاء بما كسبا نكالا من الله - والنكال اسم - نكل به تنكيلا، أي صنع به صنيعا يحذر غيره - ونكل به نكلة أي أصابه بنازلة - ونكل به التشديد للمبالغة ٩٥.
قوله: {والله عزيز حكيم} أي أن الله قوي في انتقامه من السارقين وهو سبحانه لا يغالب في كيده لهم والانتقام منهم بما أوجبه عليهم من حد، وهو كذلك حكيم فيما فرضه على السارقين والعصاة من حدود ٩٦.
٣٩ - (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله تعالى: {فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم (٣٩) ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير}.
من تاب من السارقين من بعد ما قارفه من ظلم وهو السرقة وأصلح أمره بفعل الطاعات واجتناب المحظورات ورد ما سرقه إلى أصحابه إن أمكن أو أنفقه في سبيل الله واجتناب المحظورات ورد ما سرقه إلى أصحابه إن أمكن أو أنفقه في سبيل الله إن جهله فإن الله يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة - أما القطع فلا يسقط بالتوبة عند الجمهور، لأن فيه حق المسروق منه وهو صاحب المال.
وقال بعض التابعين: يسقط الحد بالتوبة قبل القدرة على السارق وهو أحد القولين للشافعي، لأن ذكر الغفور الرحيم في آخر الآية يدل على سقوط العقوبة عن السارق - والعقوبة هنا الحد، وظاهر الآية يقتضي سقوطه - وكذلك قوله تعالى في آية الحرابة: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} وذلك استثناء من الوجوب فوجب حمل جميع الحدود عليه ٩٧.
٤٠ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله: {ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء} الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل أحد - وهو إعلان من الله أنه هو المالك لجميع الكائنات والمخلوقات مما في السموات والأرض وما بينهن - فهو يحكم كما يشاء ويقضي بما يشاء من غير معقب لذلك - وهو سبحانه يغفر لمن يستحق المغفرة ويعذب من يستحق العذاب - وقد قدم المغفرة على العذاب، لأن من شأن الله جل وعلا أن تستبق رحمته عذابه.

قوله: {والله على كل شيء قدير} هذا تبديل يناسب ما سبق من حكم الله في العصاة والتائبين إذ عذب العصاة وغفر للتائبين - والأصل في ذلك كله أن الله قدير أن يفعل ما يشاء ٩٨.

٤١ - (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: {يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم ءاخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم}.

جاء في سبب نزول هذه الآية عدة قوال من أهمها ما أخرجه الإمام أحمد عن البراء ابن عازب قال: مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي محمم ٩٩ مجلود فدعاهم فقال: " أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم " فقالوا: نعم - فدعا رجلا من علمائهم فقال: " أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم " فقال: لا والله - ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك - نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه " قال: فأمر به فرجم - قال: فأنزل الله الآية {يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم} ١٠٠ ذلك تأنيس من الله لرسوله الكريم ونهي له عن التأثر والمبالاة من تهافت المنافقين في الكفر بسرعة - أي لا تعبأ ولا تحزن من مسارعة هؤلاء القوم في الكفر بموالاتهم للمشركين وكيدهم للإسلام والمسلمين - فإن الله جل وعلا ناصرك عليهم جميعا وكافيك شرهم ومكرهم.

قوله: {من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم} يعني بذلك المنافقين وقيل: أراد بهم المنافقين وبعض أهل الكتاب من اليهود - فقد كان هؤلاء يظهرون الإيمان بألسنتهم، إذ يتفوهون به كلاما من غير أن تضمره قلوبهم - والجملة {ولم تؤمن قلوبهم} جملة حالية من ضمير {قالوا} وقيل: عطف على {قالوا}.

قوله: {ومن الذين هادوا} منقطع مما قبله - والذين هادوا مبتدأ وخبره ما بعده وهو قوله: {سماعون للكذب} والذين هادوا بمعنى اليهود - أي من اليهود قوم سماعون للكذب - وقيل: يأتي قوله: {من الذين هادوا} عطفا على قوله: {من الذين قالوا} ويكون هذا تمام الكلام - ثم ابتدأ فقال: {سماعون للكذب} أي هم سماعون للكذب والمعنى أن لديهم الاستعداد لقبول ما يفتريه أحبارهم وما يتقولونه من الكذب على الله بتحريف التوراة.

قوله: {سماعون لقوم ءاخرين لم يأتوك} والمراد بالقوم الآخرين الذين لم يأتوه فريق من اليهود لم يصلوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجافوا عنه لفرط بغضهم له وحقدهم عليه، فلا يقدرون أن ينظروا إليه لشدة ما تكنه صدورهم من الكراهية له - وقيل: المعنى أنهم سماعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيونا وجواسيس ليبلغوهم ما سمعوا منه - وقيل: السماعون بنو قريظة والقوم الآخرون يهود خيبر.

قوله: {يحرفون الكلم من بعد مواضعه} أي يتأولون كلام الله على غير تأويله الصحيح بعد أن فهموه وعرفوا مواضعه وأحكامه التي بينها الله من فرض للفروض وتحليل للحلال وتحريم للحرام - ومن تحريفهم أنهم قالوا: شرع محمد ترك الرجم وجعل بدله الجلد أربعين جلدة - وذلك تغيير منكر لشرع الله.

قال المفسرون في هذا الصدد: إن رجلا وامرأة من أشراف أهل خيبر زنيا - وكان حد الزنا في التوراة الرجم فكرهت اليهود رجمهما

لشرفهما، فأرسلوا قوما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن حكمه في الزانيين إذا أحصنا - وقال: إن أمركم بالجلد فاقبلوا. وإن أمركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا - فلما سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك نزل جبريل بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به - فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم " ابن صوريا " فقال الرسول: " هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فداك يقال له ابن صوريا "؟ قالوا: نعم وهو أعلم يهودي على وجه الأرض - فرضوا به حكما - فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم، وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن "؟ قال ابن صوريا: نعم - فوثبت عليه سفلة اليهود - فقال: خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب - ثم سأل رسول الله عن أشياء كان يعرفها من علاماته - فقال ابن صوريا: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون - ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده ١٠١.

وعلى هذا فقوله: {يحرفون الكلم من بعد مواضعه} يعني أنهم وضعوا الجلد أربعين مكان الرجم - فهم بذلك يميلون ويزيلون كلام الله عن مواضعه التي وضعه الله فيها ١٠٢.

قوله: {يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن تؤتوه فاحذروا} أي أن أوتيتم هذا المحرف المزال عن مواضعه التي وضعه الله فيها فخذوه واعلموا أنه الحق واعملوا به - وإذا لم تؤتوه وأفتاكم محمد بخلافه فاحذروه وإياكم أن تأخذوه فهو الباطل - وبعبارة أخرى فإنهم وضعوا الجلد مكان الرجم، وهو تحريف للكلم عن مواضعه.

قوله: {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا} لفظ الفتنة يحتمل عدة معان - أولها: العذاب - كقوله تعالى: {يوم هم على النار يفتنون} أي يعذبون - فالله تعالى يعذب هؤلاء المفسدين المضلين لكفرهم ونفاقهم.

وثانيها: الفضيحة - أي ومن يرد الله فضيحته وخزيه بإظهار ما ينطوي عليه من خبث وباطل.

وثالثها: الإضلال - الحكم بضلاله وتسميته ضالا.

ورابعها: الاختبار - يعني من يرد الله اختباره بما يبتليه به من القيام بالتكاليف ثم يتركها ولا يؤديها فلن تستطيع أن تدفع عنه هذه الفتنة، ولن تملك له من الله ثوابا ولا نفعا - ويندرج في عموم هذه المعاني المذكورون وهو المنافقون واليهود.

قوله: {أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم} أي لم يرد الله أن يطهرها من رجس الكفر وخبيث الضلالة - والآية تبين أن إرادة الله لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم المقتضي لهذه الفتنة - فليست هذه الفتنة واقعة من الله ابتداء ولكنها متعلقة باختيار القوم السيء.

قوله: {لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} الضمير في قوله: {لهم} يعود على المنافقين واليهود - أما المنافقون فخزيهم يعني افتضاحهم وهتك سترهم بانكشاف سرهم وما تخفيه صدورهم من مكر وخبث وكيد للإسلام وأما اليهود فخزيهم بقهرهم وإذلالهم وظهور كذبهم في كتمان التوراة وازدياد غمهن من سرعة انتشار الإسلام وكثرة الإقبال عليه من الناس.

أما عذاب الآخرة فهو أشد وأنكى، لأنه الخلود الدائم في النار حيث الهوان والتنكيل والغضب الشديد من العزيز الجبار ١٠٣.

٤٢ - (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

قوله تعالى: {سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٤٢) وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين}.

كرر قوله: {سماعون للكذب} على سبيل التأكيد والتفخيم - والمراد بالكذب هنا الدعوى الباطلة وما كان يفتريه الأحبار من أكاذيب وتحريف للتوراة - أما السحت فالأصل فيه أنه الهلاك والاستئصال - أسحت أي استأصل - والمراد هنا بالسحت المال الحرام أو ما خبث من المكاسب فيلزم عنه العار - وقد سمي سحتا، لأنه يسحت الطاعات ويسحت البركة أي يذهبها ويستأصلها ١٠٤ وقيل: سمي

الحرام سحتا، لأنه يسحت مروءة الإنسان - فإنه بذهاب الدين تذهب المروءة، ولا مروءة لمن ليس له دين - وقيل: المراد به هنا الرشوة في الحكم - وفي الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به " قيل: يا رسول الله - وما السحت؟ قال: " الرشوة في الحكم " - وأخرج عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هدايا الأمراء سحت " وأخرج ابن المنذر عن مسروق قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أرأيت الرشوة في الحكم أمن السحت هي؟ قال: لا - ولكن كفر - إنما السحت أن يكون للرجل عند السلطان جاه ومنزلة ويكون للآخر إلى السلطان حاجة فلا يقضي حاجته حتى يهدي إليه هدية.

وذكر الرازي في قوله: {سماعون للكذب أكالون للسحت} ثلاثة وجوه:

الأول: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه من كان مبطلا في دعواه برشوة سمع كلامه ولا يلتفت إلى خصمه - فكان يسمع الكذب ويأكل السحت - وهو قول الحسن.

الثاني: قال بعضهم: كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالا ليقيموا على ما هم عليه من اليهودية فالفقراء كانوا يسمعون أكاذيب الأغنياء ويأكلون السحت الذي يأخذونه منهم.

الثالث: سماعون للأكاذيب التي كانوا ينسبونها إلى التوراة، أكالون للربا ١٠٥.

قوله: {فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم} هذا تخيير من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بين الحكم في أهل الذمة من اليهود أو الإعراض عنهم - أي إن جاءك هؤلاء متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات {فاحكم بينهم} أي بما أراك الله {أو أعرض عنهم} من غير أن تعبأ بهم أو تكثرت، فهذا تخيير للنبي صلى الله عليه وسلم بين الحكم بين أهل الذمة لدى تحاكمهم إلينا، والإعراض عنهم - فالآية على هذا التأويل محكمة لم ينسخها ناسخ - وهو قول فريق من التابعين.

وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله} وقد روي النسخ عن ابن عباس - وقال به أكثر السلف - وهو مذهب الحنفية والشافعية وآخرين - قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أولا مخيرا بين الأمرين، ثم أمره الله بإجراء الأحكام عليهم - قال النحاس في " الناسخ والمنسوخ " قوله تعالى: {فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم} منسوخ، لأنه إنما نزل أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود فيها يومئذ كثير - وكان الأدعى لهم والأصلح أن يردوا إلى أحكامهم - فلما قوي الإسلام أنزل الله عز وجل {وأن احكم بينهم بما أنزل الله} وقال الشافعي في كتاب " الجزية ": ولا خيار له إذا تحاكموا إليه، لقوله عز وجل: {حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صغرون} أي أن من مقتضى صغارهم إجراء أحكام المسلمين عليهم - فإذا وجب ذلك كانت الآية منسوخة. وعلى هذا وجب أن تجري على أهل الذمة أحكام الشريعة الإسلامية - ومن أقوال الحنفية في هذا المعنى: أهل الذمة محملون على أحكام الإسلام في البيوع والمواريث وسائر العقود إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرون عليه ويمنعون من الزنا كالمسلمين فإنهم نهوا عنه.

قوله: {وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا} قال صاحب الكشاف في تأويل ذلك: كانوا لا يتحاكمون إليه لطلب الأيسر والأهون عليهم كالجلد مكان الرجم - فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم شق عليهم وتكرهوا إعراضه عنهم وكانوا خلقاء بإن يعادوه ويضاروه فأمن الله سربه ١٠٦.

قوله: {وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: كانت قريظة والنضير - وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة أدى مائة وسق وتمر، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت {وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط} ١٠٧.

وفي الآية يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحكم بين أهل الكتاب بالعدل - والعدل بتمامه وكماله ما تضمنه شريعة الإسلام - الشريعة الربانية المميزة القائمة على الحق والعدل.

والله جلت قدرته يحب الذين يحكمون بين الناس بالحق والعدل والنصفة - أولئك سينالهم من الله فضل وجزاء كريم فوق ما ينالهم من عاطر الذكر والسيرة مما يستجيش القلوب والألسن أن تديم الثناء والدعاء للمقسطين بالخير.

٤٣ - (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وكيف يحكمونك وعندهم التورة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك} هذا تعجيب من تحكيم يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مع أنهم لا يؤمنون به أصلا - فقد حكموه في حد الزاني وهو منصوص عليه في كتابهم الذي يدعون الإيمان به، وهو التوراة - والحقيقة أن التحكيم منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن القصد منه معرفة الحق وإنما هو لطلب الأهون وهو لم يكن حكم الله تعالى بزعمهم، بل كانوا يعلمون الحكم الصحيح الذي تضمنته التوراة وهو الرجم - وبعد ذلك كله أعرضوا عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم في المسألة بعد أن حكموه فيها - وما ذلك كله إلا لفرط عنادهم وجهلهم ونكولهم عن الحق حيثما كان، سواء في التوراة أو القرآن - وإنما مرادهم بلوغ الأسهل والأهون إقبالا على الأهواء والشهوات وحرصا على الحياة الدنيا.

قوله: {وما أولئك بالمؤمنين} أي ليسوا مؤمنين بك يا محمد ولا بصحة حكمك فهم بذلك كافرون - وقيل: ليسوا مؤمنين بكتابهم التوراة وإن كانوا يصطنعون الإيمان بها - فقد أبوا الاحتكام إليها في أمر الزاني، لأنه الرجم وهو يرومون دون ذلك وهو الجلد - وبذلك فإنهم لا إيمان لهم بشيء ١٠٨.

٤٤ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

قوله تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بئايتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} أنزل الله التوراة هدى لبني إسرائيل، أي ترشيد لهم بما يدلهم على طرق السعادة والنجاة ويبين لهم الأحكام والشرائع والتكاليف - وكذلك أنزلها لهم نورا، أي ضياء يكشف ما تشابه عليهم - وقيل: بيان بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم حق.

قوله: {يحكم بها النبيئون الذين أسلموا} الجملة حال من التوراة - وقيل الجملة مستأنفة مبينة لشأن التوراة وسمو رتبتها - والمراد بالنبيين هنا، النبيون من لدن موسى إلى عيسى المسيح عليهم الصلاة والسلام، وكان بين الاثنين ألف نبي.

وقيل: أربعة آلاف نبي - وقيل: المراد بهم هذا الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ومن قبله من أنبياء بني إسرائيل - ويقتضي هذا التأويل أن يكون شرع من قبلنا شرعا لنا ما لم ينسخ.

قوله: {الذين أسلموا} أي استسلموا وانقادوا لأمر الله، امتثالا لما كلفهم به - والإسلام لفظ عام معناه الخضوع والإذعان لأوامر الله والانقياد للتكاليف والأحكام الشرعية - فلا جرم أن يتناول مضمون الإسلام سائر النبيين والمرسلين من لدن آدم حتى النبي الخاتم عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: {للذين هادوا} أي تابوا من الكفر - وهم اليهود.

والتقدير، أن النبيين من بعد موسى – وكلهم على ملة الإسلام بما يعنيه الإسلام من خضوع وامتثال واستسلام لأمر الله – كانوا يحكمون بالتوراة فيما بين اليهود فلا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها أيما تحريف.

قوله: {والربانيون والأحبار} معطوف على {النبيون} - وذلك في الحكم بأحكام التوراة وحمل الناس على العمل بها - والربانيون بمعنى العلماء والحكماء وقيل: العلماء والفقهاء وهم فوق الأحبار - وقيل: هم الذين يسوسون الناس بالعلم - وهو قول ابن عباس وغيره.

أما الأحبار، فهم الفقهاء والمفرد بكسر الحاء - وسمي بذلك من أجل الحبر الذي يكتب فيه - وقيل: حبر بكسر الحاء وفتحها - وقيل: أصله من التحبير، أي التزيين والتحسين - فالأحبار يحبرون العلم أي يبينوه ويزينوه - والمراد بذلك أحبار اليهود ١٠٩.

قوله: {بما استحفظوا من كتاب الله} أي بالذي استحفظوه من النبيين وهي التوراة - فقد سألهم النبيون أن يحفظوها من التغيير

والتبديل، وأن يعملوا بأحكامها كاملة دون انتقاص - ويدل ذلك على استخلاف النبيين للعلماء والفقهاء في أداء هذه الأمانة التي أودعوها - قال ابن جرير الطبري في تأويل ذلك: وأما قوله: {بما استحفظوا من كتب الله} فإن معناه: يحكم النبيون الذين أسلموا بحكم التوراة والربانيون والأحبار يعني العلماء بما استودعوا علمه من كتاب الله الذي هو التوراة.

قوله: {وكانوا عليه شهداء} أي أن هؤلاء النبيين والربانين والأحبار كانوا شهداء على أن كل ما في التوراة حق وصدق وهو من عند الله - فهم رقباء على كتاب الله (التوراة) يحمونه من التغيير والتبديل.

قوله: {فلا تخشوا الناس واخشون} ذلك تحذير من الله للحكام والعلماء ونهي لهم أن يخشوا غير الله فيجوروا في أقضيتهم وأحكامهم، ويمضوها على خلاف ما أمروا به من الحق والعدل خشية من سلطان أو ظالم أو خوفا من أذى يحيق بهم أو تحرجا من لوم لائم من قريب أو صديق بل عليهم أن يخشوا الله وحده في ذلك كله فلا يميلوا أو يزيغوا وأن يظلوا على تخوف من الله وحده دون سواه، فهو الأجدر أن يخافه الناس وأن يرهبوه، فإن بيده مقاليد كل شيء وهو القاهر فوق عباده وهو المقتدر على فعل كل شيء كإعزاز المؤمنين الثابتين على الحق وقصم الجبارين والطغاة والمضلين.

قال الرازي في هذا المعنى: والمعنى إياكم أن تحرفوا كتابي للخوف من الناس والملوك والأشراف فتسقطوا عنهم الحدود الواجبة عليهم وتستخرجوا الحيل في سقوط تكاليف الله تعالى عنهم - فلا تكونوا خائفين من الناس، بل كونوا خائفين مني ومن عقابي.

قوله: {ولا تشتروا بئاياتي ثمنا قليلا} أي إياكم أن تستبدلوا أو تستعيضوا عن آياتي وهي أحكامي وشرائعي التي فرضتها عليكم، بالثمن المهين البخس من محقرات الدنيا وخسائسها ومغرياتها كالرشوة والجاه ورضا الناس وغير ذلك من متاع الحياة الفانية، كالذي فعله أحبار يهود في كتمانهم التوراة، إذ حرفوها تحريفا وغيروا أحكامها ومعانيها تغييرا يناسب أهواءهم ورغبتهم في الدنيا بما فيها من زخرف وغرور ١١٠.

قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكفرون} جاء في تأويل هذه الآية عدة أقوال، منها: أن هذه نزلت في اليهود فتكون مختصة بهم دون غيرهم وهذا القول ضعيف، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومنها: أن المراد ليس كفرا ينقل عن الملة كمن يكفر بالله واليوم الآخر - فكأنهم بذلك حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين - وهذا ضعيف أيضا، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر في الدين.

ومنها: أن من لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلا يضاهي أفعال الكفار ويشبه بذلك الكافرين - وهذا ضعيف كذلك، لأنه مخالف لظاهر الآية.

ومنها وهو الذي نختاره ونرى أنه الصحيح: أن قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكفرون} تأويله أن من جحد ما أنزل الله فقد كفر - ومن أقر بما أنزل الله فهو ظالم فاسق وليس كافرا - فالمعنى يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه - أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه أنه حكم الله كذلك، لكنه أتى بما يخالفه فهو حاكم بما أنزل الله إلا أنه تارك له - فلا يلزم دخوله في زمرة الكافرين بل الفاسقين الظالمين - وبعبارة أخرى فإن المصدق لشريعة الله المقر بها إقرارا والمستيقن أنها من عند الله، وأنها صالحة للناس لكنه عمل بخلافها فهو ليس كافرا ولكنه مندرج في أفواج الفاسقين الخارجين عن منهج الله - أو الظالمين الذين بدلوا شريعة الله ليحلوا مكانها شريعة غيرها - لا جرم أن أولئك عصاة خاطئون وإن كانوا غير كافرين.

قال ابن عباس: في الآية إضمار - أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردا للقرآن وجحدا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر.

قال ابن مسعود والحسن في ذلك: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقدا ذلك ومستحلا له - فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ١١١.

٤٥ - (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قوله تعالى: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن

تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}.

فرض الله على بني إسرائيل في التوراة أن يسووا في النفس والنفس، لكنهم خالفوا ذلك عمدا وعنادا فغيروه وبدلوه ففضلوا بني النضير على بني قريظة، وخصصوا إيجاب القود على بني قريظة دون بني النضير، فكانوا لا يقيدون القرظي من النضري بل يعدلون إلى الدية، مثلما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، إذ عدلوا عنه إلى الجلد والتحميم والإشهار - من أجل ذلك جاء قوله {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس} توبيخا لهم وتقريعا، لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة.

وقد اختلف العلماء في شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟

وثمة قولان في هذه المسألة:

القول الأول: إننا متعبدون بشرع من قبلنا ما لم يظهر ما ينسخه - وقد ذهب إلى ذلك أكثر الحنفية وبعض الشافعية، أحمد في إحدى الروايتين عنه - وقالت به طائفة من المتكلمين - وهو قول الفقهاء - واختاره الرازي وابن الحاجب - وقال به معظم المالكية ١١٢.

واحتجوا في ذلك بعدة أدلة منها قوله تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا} والنبي صلى الله عليه وسلم من جملة النبيين فوجب في حقه الحكم بها.

وكذلك قوله تعالى: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يقتدي بهدي من سبقه من النبيين - وشرعهم من هداهم فوجب عليه اتباعه.

ومنها قوله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} فدل على وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لشريعة نوح ومنها قوله تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم} فقد أمر باتباع ملة إبراهيم والأمر للوجوب.

واحتجوا من السنة بأدلة منها ما أخرجه مسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها " وتلا قوله تعالى: {وأقم الصلاة لذكري} وهذا خطاب مع موسى عليه السلام - ولو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته متعبدين بما كان موسى متعبدا به في دينه لما صح الاستدلال بالآية.

القول الثاني: إن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا - وهو قول المعتزلة والمتكلمين وأكثر الشافعية، وأحمد في الرواية الثانية عنه، واختاره الآمدي والغزالي - واستدلوا على ذلك بعدة أدلة منها: قوله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} وهذا يدل على أن كل واحد من النبيين ينفرد بشرع لا يشاركه فيه غيره - وأجيب عن ذلك بأن مشاركتهم في بعض الأحكام لا يمنع من أن يكون لكل واحد منهم شرع يخالف شرع الآخر، فمشاركتهم في التوحيد لا تمنع انفراد كل واحد منهم بشريعة تخالف شريعة غيره.

ومنها: ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأي عمر رضي الله عنه ومعه شيء من التوراة ينظر فيه فقال: " لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي " ١١٣ وهذا يدل على نسخ ما تقدم.

وأجيب عن ذلك بأنه إنما نهي عن النظر في التوراة لما أصابها من تغيير وتبديل - لكن المراد هنا ما حكى الله عن دينهم في الكتاب أو ثبت عنهم بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ١١٤.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قاضيا له: " بم تحكم "؟ قال: بكتاب الله - قال: " فإن لم تجد " قال: " بسنة رسول الله " قال " " فإن لم تجد " قال: " أجتهد رأيي - ولم يذكر شيئا من كتب الأنبياء الأولين وسننهم - وقد أقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال: " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله " - ولو كانت الشرائع السابقة شرائع لنا لما جاز لمعاذ العدول إلى اجتهاد الرأي.

وأجيب عن ذلك بأن معاذا لم يتعرض لذكر التوراة والإنجيل اكتفاء منه بآيات في الكتاب الحكيم تدل على اتباعهما - ولأن اسم الكتاب يدخل تحته التوراة والإنجيل لكونهما من الكتب المنزلة ١١٥.

أما أحكام القصاص المختلفة في النفس فقد بيناها في تفسير سورة البقرة عند قوله: {كتب عليكم القصاص في القتلى} ولا داعي بعد ذلك للتكرار هنا - لكننا نعرض هنا للكلام عن القصاص في الأطراف أو فيما دون النفس وما يتفرع عن ذلك من أحكام - والأصل

في ذلك قوله تعالى: }والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص{ هذه تدل على جريان القصاص فيما ذكر إلا أن يعفو المجني عليه مطلقا أو على الدية - وذلكم بيان تفصيلي بأحكام الجناية على ما ذكر في الآية - على أننا نعرض لجملة شروط يجب تحققها كيما يجوز القصاص في الأطراف أو فيما دون النفس - وتلكم هي الشروط بإيجاز واقتضاب.

الشرط الأول: التكليف في حق الجاني - فإن كان غير مكلف فلا قصاص عليه - وكونه مكلفا أن يكون بالغا عاقلا.

الشرط الثاني: أن يكون الجاني غير أصل للمجني عليه، كأن يكون أباه أو جده.

الشرط الثالث: العصمة - وهي أن يكون المجني عليه معصوما على التأبيد - وبذلك لا يقطع المسلم بالحربي أو المستأمن لعدم العصمة المؤبدة.

الشرط الرابع: أن تكون الجناية عمدا عدوانا - فلا قصاص في الخطأ إجماعا.

وكذلك شبه العمد.

الشرط الخامس: أن يكون الاستيفاء ممكنا ومن غير حيف - وذلك بالمماثلة الكاملة دون نقص أو زيادة لقوله تعالى: }وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به{ ويضاف إلى ذلك عدم السراية إلى النفس غالبا - وذلك ككسر العنق والترقوة والصلب والفخذ - فإن القصاص في مثل هذه الأعضاء لا تؤمن معه السراية إلى النفس غالبا ١١٦.

أما الأطراف فهي مفردها طرف بالفتح - ويعني في اللغة الناحية - وعند الفقهاء ما له حد ينتهي إليه من أعضاء الجسد ١١٧ وذلك كاليد والرجل والسن والأذن والأصابع وغير ذلك مما ينتهي إلى حد كالمفصل - فإن كان كذلك جاز فيه القصاص لإمكان حصوله من غير حيف - أما إن كان مما لا ينتهي إلى حد فلا يجوز إيقاع القصاص فيه لعدم استيفاء القصاص في مماثلة تامة ومن غير حيف بما يحتمل معه حصول النقص أو الزيادة.

ويضاف إلى هذا الاشتراط الأساسي لإجراء القصاص في الأطراف شرطان آخران هما:

أولا: التساوي - أي أن يكون الطرف في المجني عليه مساويا لنظيره في الجاني، وبذلك لا يؤخذ طرف صحيح بطرف أشل - ولا يد كاملة الأصابع بناقصة الأصابع، ولا تؤخذ أصبع أصلية بأخرى زائدة.

ثانيا: الاشتراك في الاسم الخاص بالعضو أو الطرف - فلا تؤخذ يمين بيسار - ولا يسار بيمين - وكذلك لا تؤخذ أصبع بأخرى مخافة لها، كالخنصر بالسبابة، أو البنصر بالوسطى - ولا تؤخذ شفة سفلى بشفة عليا، ولا جفن أيمن بجفن أيسر، أو أذن يمنى بأذن يسرى، لأن كل واحد مما ذكر مختص باسم منفرد ١١٨.

إذا تبين ذلك، نأخذ في الكلام عن الأطراف المذكورة في الآية وهي:

العين: وهي طرف من الأطراف التي تنتهي إلى مفصل فيجري فيها القصاص مع اعتبار الشرطين المذكورين آنفا وهما التساوي والاشتراك في الاسم - ولا ينبغي اعتبار صفة العين كالصغر والكبر، أو الضعف والقوة، أو الحسن والقبح، فمثل هذه الصفات لا يؤثر في إجراء القصاص - وعلى هذا تؤخذ عين الشاب بعين الشيخ - أو العين السليمة بالعين المريضة - أو العين الحسنة بالعين القبيحة.

الأنف: يؤخذ الأنف قصاصا بالأنف من غير اعتبار للفرق في الصفة بين الأنفين، كالصغر والكبر، أو الحسن والقبح أو المنفعة وعدمها - فيقطع الأنف الأخشم بالأخشم ١١٩ والأخشم بالشام لتساويهما في سلامة الصورة والمنظر؟

أما القصاص في الأنف فإنما يكون في المارن، لأنه ينتهي إلى مفصل - والمارن هو ما لان من لحم الأنف دون قصبته، لأنه ينتهي بحد - وبذلك يقتص من مارن الجاني بمثله ويقدر ما قطع من الأنف بالأجزاء كالنصف والثلث والربع، ولا يقدر القصاص بالمساحة.

الأذن: تقطع الأذن قصاصا في العمد، لأنها تنتهي إلى حد فاصل، وذلك بغض النظر عن اختلاف الأوصاف بين الآذان، ولذلك تؤخذ الأذن الكبيرة بالأذن الصغيرة - وتؤخذ أذن السميع بأذن الأصم - وأذن الأصم بأذن السميع لتساويهما في السلامة من نقص الصورة والمنظر.

ولو قطع بعض الأذن كان للمجني عليه أن يقطع من أذن الجاني بقدر ما قطع من أذنه على أن يقدر ذلك بالأجزاء كالنصف والثلث والربع ١٢٠.

السن: وهو الضرس وجمعه أسنان وأسنة - وهو مما يجري فيه القصاص وعلى هذا تؤخذ السن الصحيحة بالصحيحة - وتؤخذ المكسورة بالصحيحة - لكن لا تؤخذ الصحيحة بالمكسورة، كيلا يأخذ المجني عليه أكثر من حقه - وتؤخذ السن الزائدة بالسن الزائدة إذا اتفق محلهما لكونهما متساويين.

ولو كسر بعض سن، كان للمجني عليه أن يقتص من الجاني - وذلك أن يقدر المكسور بالأجزاء - فيؤخذ النصف بالنصف والثلث بالثلث وكل جزء بمثله - ولا يقدر ذلك بالمساحة، لأن التقدير بها ربما يؤدي إلى أخذ جميع سن الجاني ببعض سن المجنى عليه ١٢١.

وقوله: {والجروح قصاص} قصاص مصدر يراد به المفعول: أي والجروح متقاصة بعضها ببعض - وذلك إجمال بعد تفصيل - والمراد إجراء القصاص في كل ما يمكن أن يقتص منه على أن تراعي الشروط في ذلك والتي بيناها سابقا - وعلى هذا يجب القصاص في كل ما ينتهي إلى حد أو مفصل من الأطراف أو أعضاء الجسد، كالشفتين واليدين والقدمين والأنثيين والذكر.

ديات الأعضاء والمعاني

يراد بالأعضاء هنا أطراف البدن أو أجزاؤه التي تنتهي إلى مفاصل أو حدود والجناية على الواحد من هاتيك الأعضاء يستوجب دية كاملة أو دون ذلك، على التفصيل في المسألة.

وكذلك الجناية على المعاني وهي منافع أعضاء البدن، فإنها تستوجب الدية في مقابل كل معنى أو منفعة من منافع الجسد، كالبصر والسمع الشم والذوق وغير ذلك من المعاني - على أن الضابط في ديات الأطراف ومعانيها هو أن كل ما في الإنسان منه شيء واحد ففيه الدية الكاملة - وذلك كاللسان والأنف والذكر - ففي كل واحد من هذه الأعضاء دية كاملة لانفراده في الإنسان.

وأما ما كان في الإنسان منه شيئان ففيهما كليهما الدية وفي كل واحد منهما نصف الدية - وذلك كالعينين والأذنين واليدين والقدمين.

وأما ما كان في الإنسان منه أربعة أشياء ففي الواحد منها ربع الدية وذلك كأجفان العينين، وفيها مجتمعة الدية كاملة.

وأما ما كان في الإنسان منه عشرة أشياء ففي الواحد منها عشر الدية وفيها مجتمعة الدية كاملة - وذلك كأصبع اليدين والرجلين.

وكذلك منافع أعضاء البدن فإن في إتلاف المنفعة الواحدة الدية كاملة - وذلك كإذهاب السمع أو البصر أو الشم أو العقل أو غير ذلك من المنافع ١٢٢.

إلى غير ذلك من الأحكام في الجناية على النفس وما دونها من الأطراف سواء في ذلك القصاص أو الديات - والتفصيل بأكثر من ذلك في هذه المسائل يراجع في مظانه من كتب الفقه.

قوله: {فمن تصدق به فهو كفارة له} أي أن المجني عليه المستحق للقصاص إن تصدق بالقصاص بأن عفا عن الجاني، فإن ذلك كفارة للمتصدق، إذ يكفر الله عنه بتصدقه ذنوبه.

وقيل: إنه كفالة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته في الآخرة، لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه - والأول هو الراجح، وهو قول أكثر العلماء ١٢٣.

ووجه الضعف في القول الثاني أن أمور الآخرة من الثواب والعقاب، أو العفو والمؤاخذة، منوط كل ذلك بتحقق النية في التوبة من الجاني أو غيره - فما لم يتب الجاني المتعمد أو يعتوره الندم فأنى له التوبة من الله ما دام غير عابئ ولا مكترث ولا متمعر ١٢٤.

قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ - هم، ضمير الفصل - الظالمون خبر الإشارة - وقيل: الضمير مبتدأ ثان وخبره الظالمون - والجملة في موضع رفع خبر الإشارة - الظلم معناه الشيء في غير موضعه - وفي المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم ١٢٥ إذا تبين لنا ذلك علمنا أن تأويل الآية هو أن النكول عما فرضه الله من أحكام القصاص في القتل العمد أو الجروح ليستعاض عن ذلك بأحكام أخرى جائرة مخافة لشرع الله كقتل اثنين بواحد أو نحو ذلك فإن ذلك ظلم - أي وضع حكم الله في غير موضعه الصحيح الذي يليق به - أو هو وضع لرأي الإنسان القاصر في موضع أحكام الله.

٤٦ - (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {وقفينا على ءاثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وءاتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه

من التوراة وهدى وموعظة للمتقين (٣٧) وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} قفينا، أي أتبعنا، من التقفية أي الإتباع - نقول: قفيته بمعنى عقبته إذا أتبعته - وقفا فلان إثر فلان إذا تبعه - والتقدير هنا: أتبعناهم على آثارهم {بعيسى ابن مريم} أي جعلنا عيسى يقفو آثارهم - أي آثار النبيين الذين أسلموا - وقوله: {مصدقا} الأولى منصوب على الحال من عيسى - وقوله: {لما بين يديه} يعني التوراة - والمعنى أن عيسى عليه السلام مقر بأن التوراة كتاب منزل من عند الله، وأنها حق، وأن العمل بها واجب إلى أن يأتي ما ينسخها.

قوله: {وءاتيناه الإنجيل} معطوف على {قفينا} وقوله: {فيه هدى ونور} الجملة في محل نصب على الحال من الإنجيل، هذا الكتاب الرباني الكريم الذي حوى من معاني الهداية والترشيد والضياء ما يصلح عليه حال بني إسرائيل في ذلك الزمام لو اتبعوه.

قوله: {ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين} مصدقا منصوب على الحال من الإنجيل - والتقدير أن عيسى عليه السلام قد أوتي الإنجيل حال كونه مصدقا للتوراة، وعلى هذا فالتصديق الأول منوط بعيسى إذ جاء مصدقا للتوراة، والتصديق الثاني منوط بالإنجيل إذ جاء مصدقا للتوراة كذلك - وقيل {مصدقا} الثاني يمكن حمله على التبشير بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {وهدى وموعظة للمتقين} معطوف على {مصدقا} أي أن الإنجيل جاء مشتملا على النصائح والمواعظ والنواهي البليغة، وقد خصها الله بالمتقين لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم من المعرضين المستنكفين.

٤٧ - (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قوله: {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه} اللام للأمر - وذلك كقوله {وأن احكم بينهم بما أنزل الله} والتقدير: ليحكم أهل الإنجيل بما في كتابهم (الإنجيل) من أوامر وتعاليم، ومن جملتها الدلائل المبينة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما قررته شريعته عليه الصلاة والسلام من أحكام - أما ما نسخته شريعة الإسلام فلا مساغ للعمل به بعد نسخه البتة - وإنما يتصور ذلك في الفروع - أما الأصول كالتوحيد وأركان الإيمان فلا يتصور فيه نسخ - وقد ذكر الرازي جملة المراد بكيفية الأمر بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن، في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن المراد ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثاني: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه مما لم ينسخ بالقرآن.

الوجه الثالث: أن المراد زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره كالذي فعله اليهود في إخفاء أحكام التوراة.

قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} اسم الإشارة، أولئك في محل رفع مبتدأ - هم، ضمير فصل - الفاسقون خبر المبتدأ - وقيل: هم مبتدأ ثان، وخبره الفاسقون - وكلاهما خبر أولئك في محل رفع - والفاسقون من الفسق، وهو الترك لأمر الله والخروج عن طريق الحق - ومنه الفاسق لانسلاخه من الخير؟ وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على الناس - والفاسقون من الناس الخارجون عن حكمه وعن الإيمان - أو الخارجون عن أمر الله، المخالفون له فيما أمرهم ونهاهم في كتابه ١٢٦.

٤٨ - (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

قوله تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة وحدة ولكن ليبلوكم في ما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون}.

المخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم - والمراد بالكتاب، القرآن الكريم - فاللام في الكتاب للعهد.

وقوله: {بالحق} حال مؤكدة من الكتاب - أي أن كتاب الله الحكيم أنزله الله على رسوله متلبسا بالحق والصدق - وقيل: أنزله بالأمر

الحق.
وقوله: {مصدقا لما بين يديه من الكتاب} مصدقا، منصوب على الحال من الكتاب - واللام في الكتاب للجنس - أي جنس الكتاب - أي أن القرآن جاء مصدقا لكل كتاب نزل قبله من السماء.
قوله: {ومهيمنا عليه} مهيمنا، منصوب على الحال من الكتاب كذلك - والمهيمن معناه الحافظ - وقيل: المصدق - وقيل: المؤتمن - وهو قول ابن عباس - أي أن القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب السماوية - وقيل: معناه الرقيب - أي الرقيب على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير، إذ يشهد لها بالصحة والثبات - وقيل: الشاهد عليه بأنه الحق - على أن الكتاب الحكيم حقيق أن يكون مهيمنا على الكتب السماوية كلها، لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا كليا - ولا يعتوره شيء من التحريف أو التغيير أو التبديل - بل إنه {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} وهو جدير بكل معاني الكمال والثبات والصدق - فقد حفظه الله من العبث - وهو محفوظ إلى أبد الدهر - وفي ذلك يقول عز وجل من قائل: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.
قوله: {فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} أي احكم بين أهل الكتاب {بما أنزل الله} أي بالقرآن بما فيه من أحكام وتعاليم - فإنه الحق الذي لا محيد عنه وهو المشتمل على سائر الأحكام الشرعية الثابتة الباقية - وهذا نسخ للتخيير في قوله: {فاحكم بينهم أو أعرض عنهم}.
قوله: {ولا تتبع أهوائهم} الأهواء جمع هوى - وهو ميل النفس وانحرافها عن الشيء - ثم استعمل في ميل مذموم - فيقال: اتبع هواه - وهو من أهل الأهواء ١٢٧ أي لا تعمل بأهوائهم الجانحة عن الحق فتترك الحكم بما بينه الله في القرآن الكريم.
قوله: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} الشرعة بمعنى الشريعة - وهي في اللغة بمعنى مشرعة الماء وهو مورد الشاربة - والشريعة أيضا ما شرع الله لعباده من الدين - وقد شرع لهم، أي سن - والشارع الطريق الأعظم وشرع في الأمر أي خاض فيه ١٢٨.
والشرعة والشريعة بمعنى الطريقة الظاهرة التي يوصل بها إلى النجاة - أما المنهاج، فمعناه الطريق الواضح، أو المستقيم - وقيل " هما بمعنى واحد؟ والتكرير يراد منه التأكيد - وقيل: معناه السبيل والسنة - وقيل غير ذلك.
والخطاب في الآية من الله للأمم الثلاث وهي: أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد عليهم الصلاة والسلام - أي أن الله جعل التوراة لأهلها - وجعل الإنجيل لأهله - وكذا القرآن جعله لأهله - وبعبارة أخرى - فإن الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام كانت شرعتها ما في التوراة والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث أحمد كانت شرعتهم ما في الإنجيل - أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فشرعتهم ما في هذا الكتاب الحكيم وهو القرآن وكفى - فيجب العمل بمقتضاه وما حواه من أوامر وزواجر وتعاليم تصلح عليها البشرية في الدنيا والآخرة.
وذلك كله في الشرائع والعبادات والأحكام التفصيلية - أما الأصل وهو التوحيد فلا اختلاف فيه بين الأديان جميعا - وإنما تنبثق الأديان السماوية كلها من مشكاة واحدة فتدعو الناس كافة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له - إلى غير ذلك من أركان الإيمان الأخرى - وجملة القول في ذلك أن الدين واحد والشريعة مختلفة - وفي ذلك ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد " وهو يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله - أما الشرائع فمختلفة الأوامر والنواهي.
فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس - وقد يكون خفيفا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه - وذلك لما لله في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الساطعة ١٢٩.
قوله: {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة} الأمة تأتي على عدة معان - منها: الجماعة - ومنها: الحين، كقوله تعالى: {وادّكر بعد أمة} أي بعد حين من الزمن وتأتي بمعنى الطريقة والدين - كقوله تعالى: {كنتم خير أمة} أي كنتم خير أهل دين ١٣٠ - ومعنى الآية هنا، أن الله لو شاء لجعل الناس جماعة متفقة على شريعة واحدة.
أو جعلكم ذوي أمة واحدة أي دين واحد لا اختلاف فيه - لكن الله جعلكم على شرائع مختلفة ليبتليكم - أي ليختبركم هل تعملون

بتلك الشرائع فتنقادوا خاضعين لأوامر الله أم تضلوا وتفرطوا وتتبعوا الغي والأهواء.
قوله: {فاستبقوا الخيرات} أي ابتدروها وتسابقوا نحوها، وامضوا لفعلها مسرعين جادين غير متوانين ولا متثاقلين.
قوله: {إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} ذلك استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات بما تضمنه ذلك من الوعد والوعيد - فإذا آل الأمر بالناس إلى الله فسوف يخبرهم إذ ذاك بالمجازاة التي لا يشكون معها في معرفة المحق والمبطل - أي أن الأمر سيؤول إلى ما تزول معه الشكوك ويحصل معه اليقين وذلك عن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ١٣١.
٤٩ - (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)
قوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون}.
قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، عليه الصلاة والسلام، لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة - ونحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك - فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله فيهم {واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} ١٣٢.
قوله: {وأن احكم} في محل نصب معطوف على الكتاب - وتقدير الكلام: وأنزلنا إليك الكتاب - وأنزلنا إليك أن احكم بينهم بما أنزل الله - وتكرير الأمر بالحكم يأتي للتأكيد على الالتزام بشرع الله والحكم بما أنزل في كتابه الكريم دون غيره من الأحكام والشرائع - واستدلوا بهذه الآية على نسخ التخيير في قوله تعالى:
{فاحكم بينهم أو أعرض عنهم}.
قوله: {ولا تتبع أهواءهم} تقدم تفسير ذلك وجملته أن لا تترك العمل بما جاءك من الحق لتعمل بأهوائهم ومرادهم.
قوله: {واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} أي احذر فتنة اليهود وغيرهم من الماكرين المضلين مخافة أن يستزلوك أو يصرفوك عن أقل القليل مما أنزل إليك.
وفي قوله: {عن بعض} ما يثير التنبه إلى خطورة الانصراف عن أقل القليل من شريعة الله - لا مجال ولا مساغ بحال أن يتهاون المسلمون في شيء من تعاليم الإسلام مهما قلت ومهما كان السبب إلا في الأخذ بالرخص عند الضرورة ووقوع الحرج - لا مبرر في غير ذلك البتة لغض الطرف عن أي حكم من أحكام الشريعة - بل إن شريعة الإسلام وافية متكاملة لا مناص من الأخذ بها كليا - وأيما تقاعس أو تناس أو تهاون في واحد من معاني الإسلام لا جرم أنه انفتال فاحش عن صراط الله المستقيم - انفتال عن منهج الله الكامل الشامل الذي لا يقبل التجزئة والمداهنة - انفتال مثير لا يطاق ولا يحتمل فهو في تصور الإسلام مرفوض.
قوله: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} هؤلاء اليهود الذين اختصموا عندك يا محمد، إن أبوا حكمك وأعرضوا عنك فاعلم أن الله جل جلاله إنما يريد أن يتعجل لهم العقوبة في الدنيا في مقابلة بعض من ذنوبهم التي اقترفوها - وقد عذبهم الله بالجلاء والتقهقر أمام جند الإسلام بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قوله: {وإن كثيرا من الناس لفاسقون} المراد أكثر الناس فاسقون أي خارجون عن منهج الله متمردون على أوامره مستنكفون عن طاعته - وقيل: المراد بهم هنا اليهود - والراجح الأول، ويؤيده قوله تعالى: {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين} وقوله: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله}.
ولا يخفى على البصير المدكر ما في الآية من تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما يكفكف عن نفسه الألم والإحساس بالمرارة كلما تزاحمت عليه الخطوب من فرط كيد اليهود، وما تشبث به المشركون العرب من ضلالات الجدود ١٣٣.

٥٠ - (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

قوله تعالى: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر - أي أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية - حكم، منصوب بالفعل بعده {يبغون} والجاهلية كلمة جامعة شاملة تعني كل ضروب الملل والشرائع البعيدة عن منهج الله، والتي تقف من رسالة السماء موقف المخالف الخصيم، ولأنها لا تستند إلى وحي السماء ولا تصدر عن كتاب الله الحكيم.

فهي صريح الهوى، والتمرد الصارخ على الدين الحق ارتضاه الله حكما للبشرية.

الجاهلية في ذاتها ملة عامة تضم عامة المذاهب والفلسفات والآراء والنحل والقوانين التي تخالف المنهج الإلهي الكامل والتي لا تركن لغير الرأي الممحض القاصر - فهي بذلك كفر شنيع ولا يدعو لها أو يحرض عليها أو يتشبث بها إلا معاند كفور.

قال صاحب الكشاف في بيان الجاهلية: الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل ولا تصدر عن كتاب سماوي ولا ترجع إلى وحي من الله وقال الحسن البصري في حكم الجاهلية: هو عام في كل من يبغي غير حكم الله.

ويقول الأستاذ سيد قطب في حقيقة الجاهلية: إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص - فالجاهلية – كما يصفها الله ويحددها قرآنه – هي حكم البشرللبشر، لأنها عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله ورفض ألوهية الله والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله.

إن الجاهلية – في ضوء هذا النص – ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع - هذا الوضع يوجد بالأمس ويوجد اليوم ويوجد غدا فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام والمناقضة للإسلام.

قوله: {ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} الاستفهام للإنكار والتعجيب وحكما، منصوب على التمييز - واللام للبيان فيكون المعنى أن هذا الخطاب بما فيه من إنكار وتعجيب إنما هو لقوم يوقنون - أي يتدبرون ويعقلون شرع الله وهم موقنون أن الله أحكم الحاكمين ١٣٤.

٥١ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول.

فقد ورد عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: وإني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي: " يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه " قال: قد قبلت: فزل الله الآية ١٣٥.

قوله: {يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصرى أولياء} اليهود مفعول به أول - وكذا النصارى - أولياء، مفعول ثان للفعل {تتخذوا} ومعنى لا تتخذوهم أولياء، أي لا تركنوا إلى الاستنصار بهم ولا تتوددوا إليهم فتتخذوا منهم الأحباب والأنصار والأعوان.

قوله: {بعضهم أولياء بعض} أي إنما يوالي بعضهم بعضا، فبعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين - وهم يد واحدة على جميعهم - وكذلك النصارى بعضهم أنصار بعض على المؤمنين - أي يوالي اليهود اليهود، ويوالي النصارى النصارى.

وهم جميعا يعادون الإسلام والمسلمين ولم يبرحوا طيلة حياتهم التآمر والتآزر فيما بينهم – وهم الضالون المضلون، المتشبثون بالعقيدة المشوهة المحرفة – فلا جرم أن يكون المسلمون أجدر بالتناصر والائتلاف والتواد فيما بينهم.

قوله: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم} أي من يتول اليهود أو النصارى دون المؤمنين، بأن يناصرهم ويؤيدهم ضد المسلمين فإنه يصبح من

جملتهم وحكمهم وهو من هل دينهم وملتهم - إذ بات منسلخا عن ملة الإسلام والمسلمين بعد أن خان الله ورسوله والمسلمين، وأودى بنفسه في الخيانة والعار، وباء بالخسران المبين في الدنيا والآخرة.

قوله: {إن الله لا يهدي القوم الظالمين} الظالمون، المتلبسون بالظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه - أي ظلموا أنفسهم بموالاة الكافرين، أو ظلموا المسلمين بموالاة أعوانهم من أهل الكتاب والمشركين على اختلاف مللهم - والله جل وعلا لا يهدي هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بمحادتهم الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم للكافرين - أي لا يرشدهم إلى الإيمان، بل يخليهم وشأنهم ليسقطوا في الكفر والضلال - لا جرم أن موالاتهم للكافرين ظلم، وذلك تعريض لأنفسهم لعذاب الله الخالد ووضع للشيء في غير موضعه.

٥٢ - (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

قوله تعالى: {فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين (٥٢) ويقول الذين ءامنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين} الفاء في قوله: {فترى} تفيد ترتب مآل المنافقين على عدم هدايتهم - والمراد بالذين في قلوبهم مرض، المنافقون مثل عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه من المنافقين وقوله: {يسارعون فيهم} حال من المفعول به - أي يسارعون في موالاة اليهود والنصارى وموادتهم، لأنهم كانوا أهل مال وثراء وكانوا يعينونهم على مهماتهم، وملماتهم إذ يقرضونهم المال.

قوله: {يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة} الدائر في اللغة ما أحاط بالشيء أو الحلقة - ويراد بها هنا الداهية والهزيمة، أي نخشى أن يدور الدهر علينا بداهية أو مصيبة كأن ينقلب الأمر للكفار وتكون الدولة لهم على المسلمين فنحتاج إليهم - أو نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه كالجدب والقحط فلا يميروننا ولا يقرضوننا - إلى غير ذلك من وجوه المعاذير الباطلة المصطنعة التي يبرر بها المنافقون موالاتهم للكافرين فيقفون معهم ويؤيدونهم ضد المسلمين - لا جرم أنها مبررات وأسباب كاذبة مرفوضة لا تتفق مع أبسط المقادير من الإيمان بالله الذي وعد عباده المؤمنين المخلصين بالنصر فقال: {فعسى الله أن يأتي بالفتح} كلمة (عسى) من الله وعد محتوم - ووجه ذلك أن الكريم إذا وعد خيرا فعله دون أن ينثني أو يخلف - فكيف إذا كان الواعد أكرم الأكرمين؟! والمراد بالفتح موضع خلاف فقد قيل: فتح مكة - وقيل: فتح بلاد الكفار - وقيل: معناه القضاء الفصل بنصر الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه من المؤمنين وإعلاء شأن الإسلام.

قوله: {أو أمر من عنده} أي إظهار نفاق المنافقين والأمر بقتلهم لما استبان كفرهم واستبانت أسماؤهم - وقيل: الخصب والسعة -

قوله: {فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين} هؤلاء المنافقين الذين تولوا الكافرين واستيأسوا من ظهور الإسلام، إذا رأوا نصر رسول الله والمؤمنين عضهم الندم لما كانوا يحدثون به أنفسهم وهو شكهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقادهم أن الغلبة والدولة ١٣٦ لهؤلاء الكافرين ١٣٧.

٥٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

قوله: {ويقول الذين ءامنوا أهؤلاء الذين أقسوا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم} هذا الكلام مستأنف، سيق لبيان سوء حال المنافقين.

وقوله: {ويقول} قرئ بالنصب على أنه معطوف على قوله: {أن يأتي} وقرئ بالرفع على أنه كلام مبتدأ - أي ويقول المؤمنون في ذلك الوقت: {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم} يقولون ذلك مخاطبين اليهود على سبيل التوبيخ مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون عزهم ويظهرون لهم المناصرة والمودة في كل الأحوال حتى إذا أظهر الله الإسلام وهزم الكفر والكافرين خاب رجاء هؤلاء المنافقين وانتكسوا انتكاس الذليل المفضوح - وكان المؤمنون يقولون ذلك وهم يغمرهم العجب مما يحصل من النفاق وأهله فضلا عما يخالط قلوبهم من الحبور والابتهاج لما امتن الله به عليهم من الإخلاص والثبات على دين الله.

ويحتمل أن يقول المؤمنون ذلك بعضهم لبعض - أي يقولون متعجبين: أهؤلاء الذين كانوا يحلفون لنا أنهم مؤمنون وأنهم معنا، لقد

هتك الله سترهم وكشف كذبهم وخيانتهم.
وقوله: {جهد أيمانهم} منصوب على أنه مصدر لأقسموا - والمعنى أقسموا إقساما مجتهدا فيه - والمعنى أن هؤلاء المنافقين اجتهدوا في حلف الأيمان المغلظة على أنهم مع اليهود أو المؤمنين، على الخلاف في ذلك.
قوله: {حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين} ذلك من جملة قول المؤمنين عن المنافقين وهو بطلان أعمالهم التي كانوا يتكلفون صنعها ملقا وزلفى - وفيه معنى التعجيب - أي ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم.
وقيل: ذلك من قول الله عز وعلا في حق المنافقين على أنه شهادة لهم بحبوط أعمالهم - وسوء مصائرهم وأحوالهم ١٣٨.
٥٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: {يأيها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكفرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٥٤) إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو راكعون (٥٥) ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا فإن حزب الله هم الغالبون}.
نزلت هذه الآية في أهل الردة - وهذا من إعجاز القرآن، إذ أخبر عن ارتداد العرب عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - فكان ما أخبره به الله في قرآنه قبل وقوعه - فقد ورد في السيرة عن ابن إسحق قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عظمت به مصيبة المسلمين - فكانت عائشة، فيما بلغني تقول: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم، حتى جمعهم الله على أبي بكر - وفيما ذكر أيضا أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم هموا بالرجوع عن الإسلام حتى خافهم عتاب بن أسيد (والي مكة حينئذ) فتوارى - فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه - فتراجع الناس وكفوا عما هموا به، وظهر عتاب بن أسيد - فهذا المقام الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله لعمر بن الخطاب: إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه ١٣٩.
يتبين من مثل هذه القصة وغيرها من الأشباه والنظائر أن هذا القرآن معجز وأنه من عند الله وأن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه ليكون للناس بشيرا ونذيرا.
قوله: {من يرتد منكم عن دينه} أصل يرتد يرتدد: بدالين - ويرتد بدال واحدة مشددة للإدغام.
وتأويل الآية يحتمل وجهين:
الأول: وهو تحذير المؤمنين من تولي المشركين ومناصرتهم في محاربة المسلمين.
فإن موالاة الكافرين ومعاضدتهم وذل العون والنصرة لهم لحرب المسلمين ليس إلا الردة التي ينسلخ بها المنافق من ربقة الإسلام ليكون في عداد الكافرين الذين تحل دماؤهم، وليعلم هؤلاء أن الله سيأتي بأقوام آخرين ينصرون دينه.
الوجه الثاني: الكشف عن علم الله بأن قوما من المسلين سيرجعون عن الإسلام بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرهم الله أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه، وعلى هذا الوجه فإن الآية إخبار عن غيب مستور، وقد وقع ما أخبرت الآية به - وذلك وجه من وجوه الإعجاز في الكتاب الحكيم - وهذا مقتضى قوله تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} ومحبة الله لعباده المؤمنين إنما هي على الكيفية والمعنى اللذين أرادهما الله - ومن ظواهر محبة الله للعباد أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويجزيهم بفيض الرضا والثناء - وأما محبة العباد لربهم فهو أن تميل قلوبهم ومشاعرهم إلى الله بما يشير إلى كامل التوجه إليه وصادق الإخلاص له وحده جل شأنه - وهو ما يقتضي منهم طاعة ربهم وابتغاء رضوانه ومجانبة زواجره ونواهيه.

قوله: {أذلة على المؤمنين} أذلة صفة لقوم - وهو جمع ذليل وليس ذلولا فجمعه ذلل - وليس المراد من كونهم أذلة أنهم مهانون يجدون في أنفسهم استخذاء وزراية - بل إن المراد المبالغة في وصفهم بالرفق والهوادة ولين الجانب - وذلك هو خلق المسلمين الحقيقيين فيما بينهم - فهم لا جرم أخوة متوادون متراحمون يعامل بعضهم بعضا بالتسامح والرأفة وفي غاية التواضع والرحمة.

قوله: {أعزة على الكفرين} أي أشداء في مواجهتهم متغلبون عليهم - من قوله عزّه أي غلبه - والمسلمون في ذلك يجدون في أنفسهم الإحساس بالعزة والاستعلاء لما تحفل به أذهانهم وتصوراتهم من مطلق القناعة الكاملة بروعة الإسلام وكماله وصلوحه - فهم بذلك على الحق ويدعون الناس إلى الحق.

قوله: {يجاهدون في سبيل الله} وذلك بكل أساليب الجهاد سواء بالكلمة الحانية المثلى أو المجادلة المؤثرة النافذة إلى القلوب والعقول، أو القتال إذا لم تجد أسباب الهداية والمنطق والرفق - وذلك كله من أجل إعلاء كلمة الله وإحقاق الحق ليشيع في الآفاق وكيما تترسخ في الدنيا قواعد العدل والأمن والرحمة.

قوله: {ولا يخافون لومة لائم} الواو للعطف - أي أن المؤمنين الصادقين من شأنهم أنهم مجاهدون ابتغاء رضوان الله وأنهم أقوياء صلاب في الحق وفي الدعوة إلى الله مجاهرين عن ثقة ويقين بالإعلان عن دين الإسلام من غير أن يثنيهم عن ذلك خوف أو وجل، أو تصدهم عنه لومة اللائمين على اختلاف مراتبهم ومسمياتهم - إن الدعاة إلى الإسلام لا يعبأون بكل هاتيك العراقيل التي ينصبها المعوقون والمبطلون والظالمون في طريق الإسلام - فهم ماضون على طريق الله داعين إليه على بصيرة مهما تفاقمت النوائب والخطوب حتى يحكم الله بأمره بين الناس وهو خير الحاكمين.

قوله: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} اسم الإشارة هنا إلى ما تقدم ذكره من أوصاف المؤمنين بالتواد والتراحم فيما بينهم، والعزة على الظالمين، والمجاهدة لإعلاء كلمة الله، وعدم الخشية من لومة اللائمين، فإن ذلك كله حاصل للمؤمنين بفضل من الله وإحسان - والله جلت قدرته {واسع} أي كثير الفضل، جواد - وهو كذلك {عليم} أي كامل العلم لا يخفى عليه شيء في الكون، فلا يقع في إخباره ومواعيده خلف أو هو عليم بمصالح العباد ١٤٠.

وثمة مسألة عن المراد بالقوم الذين سيأتي بهم الله، والذين يحبهم الله وهم يحبونه فقد قيل: إنهم أبو بكر وأصحابه الأبرار، لأنهم هم الذين قاتلوا المرتدين فكسروا شوكتهم وأخضعوهم لسلطان الله وشرعه - وهو قول علي وآخرين من أهل العلم - وقيل: نزلت الآية في الأنصار، لأنهم هم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوه على إظهار الإسلام - وقيل: نزلت في أهل اليمن - ففي الحديث المرفوع أنه لما نزلت هذه الآية أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي موسى الأشعري وقال: " هم قوم هذا " وقيل: غير ذلك.

أما ما تحذلقت به حناجر الروافض من أن الذين أقروا بخلافة أبي بكر وإمامته كلهم كافرون مرتدون، فإنه ضرب من الهذيان الأرعن الذي لا يستحق غير الاستهجان والاستقباح والازدراء، فهو تخريص باطل ومكذوب وفي غاية التهافت الفاجر والإسفاف الظلوم.

ومن الحق واليقين أن كلا من الخلفاء الراشدين الأربعة موضع ثقة وائتمان خالصين - وأن إمامتهم موضع احترام واعتبار وتقدير لدى كل المسلمين في سائر الأزمان - أما استدلال الروافض بهذه الآية على أن الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو علي ابن أبي طالب وأن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا خاطئين لمخالفتهم مدلول هذه الآية وبانتزاعهم الإمامة من علي مع التشنيع عليهم بفاحش القول، ومهين الشتائم، فذلك محض فسق وافتراء وإيغال شنيع في الجهالة - بل إنه بهتان من القول تتقزز منه مشاعر المؤمنين الصادقين وفي طليعتهم على بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقد كان من أعلم الناس بتأويل الكتاب الحكيم وهو أعلم من هؤلاء الروافض بذلك قطعا فلو كانت الآية دالة على إمامته هو دون غيره لاحتج بها ولو مرة واحدة.

٥٥ - (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

قوله: {إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا} بعد أن نهى الله في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين ذكر عقب ذلك من هو حقيق بالموالاة بطريق القصر في قوله: {إنما} فلا تنبغي الموالاة لأحد من المشركين الذين يحادون الله ورسوله والذين يكيدون للإسلام والمسلمين

في كل آن، وهذا ديدنهم في كل حال - بل الموالاة لله وحده ولرسوله والمؤمنين - أي أن الكلمة {إنما} تفيد وجوب اختصاص المذكورين بالموالاة وهو الله ورسوله والمؤمنون دون غيرهم من الخلق - أما قوله: {وليكم} بالإفراد وليس الجمع، إذ لم يقل أوليائكم، فتأويله أن أصل الكلام: إنما وليكم الله - فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ثم جعلت لرسول الله والمؤمنين على سبيل التبع.

أما المراد بقوله: {والذين ءامنوا} فهو عامة المؤمنين، وذلك لأن عبادة بن الصامت لما تبرأ من اليهود وقال: أنا بريء إلى الله من حلف قريظة والنضير، وأتولى الله ورسوله هذه الآية على وفق قوله - وروي كذلك أن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله إن قومنا قد هجرونا وأقسموا أن لا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل فنزلت هذه الآية فقال: رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء - وهذا يدل على أن الآية عامة في حق كل المؤمنين، فكل مؤمن هو ولي كل المؤمنين - يدل على ذلك قوله تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض}.

وروي عن ابن عباس أن المراد بالذين آمنوا، علي بن أبي طالب - وفي رواية عنه أخرى أن المراد هو أبو بكر - والصحيح القول الأول، وهو أن المراد كل المؤمنين، استنادا إلى عموم الآية هذه وغيرها من الآيات الدالة على أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض.

قوله: {الذين يقيمون الصلاة} الذين بدل من الذين آمنوا - أو صفة له، أو خبر لمحذوف تقديره هم - أو النصب على المدح - والغرض من ذكر المؤمنين هنا هو تمييز المخلصين منهم عمن يدعون الإيمان وهو مفرطون، لكن المؤمنين الخلص يكشف عن صدقهم وإخلاصهم أداؤهم للصلاة وإيتاؤهم للزكاة - - وهذا مقتضى قوله: {الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة}.

وقوله: {وهم راكعون} الواو للحال - والجملة حالية - أي يعملون ذلك حال الركوع وهو بمعنى الخشوع والخضوع والإخبات والتواضع أي أنهم يصلون ويزكون وهو خاضعون منقادون لأوامر الله ونواهيه - وقيل: المقصود بالركوع الصلاة - وقد خص الركوع بالذكر تشريفا له كقوله تعالى: {واركعوا مع الراكعين} - وقيل: حال من فاعل الزكاة - أي أنهم يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة - فقد ذكر أنها نزلت في علي كرم الله وجهه عندما سأله سائل وهو راكع في صلاته فنزع خاتمه من خنصره فطرحه له متصدقا به عليه على سبيل التطوع - ونميل للتأويل الأول على أنه الراجح، لأن محل لفظ الزكاة على التصدق بالخاتم فيه بعد - ذلك أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها الخاص بها وهو الزكاة المفروضة فهي اسم للواجب لا للمندوب ١٤١.

على أن اعتبار قوله: {وهو راكعون} حالا من قوله: {ويؤتون الزكاة} أي في حال ركوعهم، فيه ضعف - لأنه لو كان ذلك كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه مذكور هنا في معرض المدح - وهو ما لا يقوله من يعتبر قوله.

٥٦ - (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)

قوله: {ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا فإن حزب الله هم الغالبون} التولي من الولي بسكون اللام وهو القرب والدنو - والولي بكسر اللام، وهو القرب والدنو، والولي بكسر اللام، ضد العدو، وهو يعني الناصر والمحب والحليف والتابع والنصير - والموالاة ضد المعاداة وتعني المناصرة والولاية بالفتح والكسر بمعنى النصرة والتناصر والتحالف - والموالاة ضد المعاداة، أي المناصرة - وعلى هذا فتأويل قوله: {ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا} أي من ينصر الله ورسوله فيفوض أمره إلى الله ويتبع دينه وهداه ويمتثل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ويوالي المسلمين أي يتخذهم أولياء فيكون لهم عونا ونصيرا ١٤٢.

قوله: {فإن حزب الله هم الغالبون} الحزب، بمعنى الطائفة وجماعة الناس، وجند الرجل وأصحابه الذين على رأيه - حزبه الأمر أي نابه واشتد عليه - وأمر حازب وحزيب أي شديد - وحزب الله أي جنده وأنصاره وهم الذين يدينون بدينه ويعملون جاهدين لإعزاز شرعه ومنهاجه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

هذه الطائفة المؤمنة الصادقة المخلصة التي تسير على منهج الله لا جرم أنهم حزب الله فهم الغالبون الذين كتب الله لهم الغلبة والنصر ١٤٣.

٥٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين (٥٧) وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} جاء في سبب نزول الآية أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الإيمان ثم نافقا وكان رجال المسلمين يوادونهما فأنزل الله الآية {لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا} وفيها تنفير للمؤمنين من موالاة أهل الكتاب {والكفار} وهو منصوب على العطف على {الذين اتخذوا} والمقصود أن أهل الكتاب من يهود ونصارى وكذا المشركون كلهم كافرون يسخرون من تعاليم الإسلام - فلا ينبغي لمسلم بعد ذلك أن يواليهم - أي يحالفهم ويناصرهم ويلقي إليهم بالمودة.

ومن شأن الكافرين على اختلاف مللهم ومشاربهم أن يهزأوا إذ يهزأوا بالإسلام والمسلمين - فهم لا يبرحون السخرية والاستهزاء بالإسلام في معانيه وقيمه وشعائره وتعاليمه - فتارة بالغمز واللمز في كلام مبطن ملفوف - وتارة بالطعن والتجريح وإطلاق الشتائم - وتارة أخرى بإثارة الشبهات والافتراءات والأباطيل من حول الإسلام ليشوهوه تشويها ولينفروا من حوله المسلمين والناس جميعا - فهؤلاء الحاقدون الفارغون المتربصون الكفرة ما كان ينبغي للمسلمين إلا أن يستعلوا عليهم استعلاء، وأن يبادروهم التصدي لهم فضلا عن مبارحتهم والتغيظ منهم والتقزز والاشمئزاز من موالاتهم والدنو منهم.

قوله: {واتقوا الله إن كنتم مؤمنين} أي خافوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه - ويدخل في ذلك موالاة الكافرين جميعا - ويتحقق ذلك بكونكم مؤمنين حقا، لأن الإيمان الحق يفرض على المسلمين أن لا يوالوا الكافرين المستهزئين بل يجانبونهم ويستعلون عليهم.

٥٨ - (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)

قوله: {وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا} قال السدي في هذه الآية: أنها نزلت في رجل من نصارى المدينة، كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدا رسول الله - قال: حرق الكاذب - فدخل خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم وأهله نيام فطارت منها شرارة في البيت فاحترق هو وأهله ١٤٤ وقد دلت الآية على ثبوت الأذان بنص الكتاب الحكيم وليس بالمنام وحده إذ أريه عبد الله بن زيد وعمر ابن الخطاب وأبو بكر الصديق، وكان النبي قد سمع الأذان ليلة الإسراء في السماء.

وتأويل الآية أنه أذن مؤذن المسلمين يدعوهم إلى الصلاة سخر من دعوتهم إليها هؤلاء الكافرون من اليهود والنصارى والمشركين وقوله: {اتخذوها هزوا ولعبا} أي اتخذوا الصلاة، أو المناداة إليها هزوا ولعبا، وبذلك قد تلبسوا بكامل الشقاوة والكفران وهم يهزؤون بها ويلعبون.

قوله: {ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} أي أن سبب فعلتهم الشنيعة من الاستهزاء بالصلاة أو الأذان لهو السفه المطبق الذي يغلف عقول هؤلاء المجرمين الضالين - وكذا الران الذي يغشى قلوبهم ليذرها جاحدة كزة ١٤٥.

٥٩ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

قوله تعالى: {قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن كثركم فاسقون (٥٩) قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل}.

بعد التنديد بأهل الكتاب والمشركين لاتخاذهم الإسلام هزوا ولعبا يقول الله لهم مندداً: ما الذي يجده هؤلاء من مطعن يعيب الإسلام - وهو الدين الذي حوى قواعد الحق كله كالإيمان بالله وما أنزله على النبيين من كتب ورسالات - والله يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لأهل الكاتب: {هل تنقمون منا إلا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل} تنقمون بمعنى: تعيبون، أو تسخطون أو تنكرون - أي هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالله وبكتبه المنزلة كلها - أو هل لكم علينا من مطعن أو عيب إلا هذا الإيمان مع أنه ليس بعيب ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعا.

قوله: {وأن أكثركم فاسقون} معطوف على {أن ءامنا} بمعنى وما تنقمون إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان - كأنه قيل: ما تنكرون منا إلا أننا خالفناكم، إذ دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه - وقيل: الواو بمعنى مع - أي وما تنقمون منا إلا

بالإيمان بالله وبكتبه جميعها مع أن أكثركم فاسقون - وقيل غير ذلك.
٦٠ - (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)
قوله: {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله} ذلك توبيخ لهؤلاء الضالين المضلين إذ بين الله لهم أن الذي هو حقيق بالطعن والعيب ما هم عليه من دين محرف وما هم عليه من ظلم وافتراء على دين الإسلام بالطعن والتجريح - فالله يبين لرسوله أن في هؤلاء المستهزئين من العيب ما هو قمين أن يسمى هو عيبا وهو ما هم عليه من الكفر الذي استوجب اللعن من الله وغضبه ومسخه لهم - وتأويل الآية هو: هل أنبئكم بشر من نقمكم (طعنكم) علينا أو بشر مما تريدون لنا من المكروه، أو بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تضنونه بنا، هم أنتم المتصفون بصفات اللعن والغضب والمسخ - وهذا جواب مقولة نفر من يهود كما رواه ابن عباس أنهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: (أومن بالله تعالى وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ومما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به - ثم قالوا: لا نعلم دينا شرا من دينكم - فأنزل الله تعالى الآية - فالمخاطبون في قوله: {هل أنبئكم} هم أهل الكتاب.
فالله يقول لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب والمشركين: هل أنبئكم يا معشر أهل الكتاب بشر من ذلك، أي من ذلك المنقوم، مثوبة عند الله، أي جزاء ثابتا عند الله، هم أنتم، إذ لعنكم الله وغضب عليكم ومسخكم قردة وخنازير.
قال صاحب الكشاف في ذلك: كان اليهود يزعمون أن المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب فقيل لهم: من لعنه الله شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام في زعمكم ودعواكم.
قوله: {من لعنه الله وغضب عليه} من لعنه، يحتمل ثلاثة أوجه: الأول: الجر، على البدل من {بشرّ}.
والثاني: الرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف مع حذف مضاف، وتقديره: هو لعن من لعنه الله - فحذف المبتدأ والمضاف.
والثالث: مرفوع على الابتداء، وخبره {أولئك} ١٤٦.
ولعنه الله أي أبعده وأسحقه من رحمته - وغضب عليه، من الغضب وهو نقيض الرضا.
قوله: {وجعل منهم القردة والخنازير} أي مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهو كفار مائدة عيسى عليه السلام - وقيل: كان المسخان في أصحاب السبت إذ مسخت شبانهم قردة، وشيوخهم خنازير - وقد عرضنا لحقيقة المسخ في سورة البقرة بما يغني عن التكرار هنا - على أن المسخ لم يأت على بني إسرائيل جميعا، وليس كل القردة والخنازير من ذرية بني إسرائيل - بل إن قوما من بني إسرائيل حاق بهم المسخ فصاروا قردة وخنازير - وكذلك ليس كل القردة والخنازير من مماسيخ بني إسرائيل، بل إنهم خلق من خلق الله وكانوا من قبل أن يحيق المسخ بالقوم - وفي ذلك أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: " إن الله لم يهلك قوما – أو قال: لم يمسخ قوما – فيجعل لهم نسلا ولا عقبا وأن القردة والخنازير كانت قبل ذلك ".
قوله: {وعبد الطاغوت} ذكر صاحب الكشاف أنواعا من القراءات في ذلك، منها: وعبدوا الطاغوت - وهي قراءة أبي.
ومنها: ومن عبدوا الطاغوت - وهي قراءة ابن مسعود.
ومنها: ومن عبد الطاغوت - فهو عطف على صلة " من ".
ومنها: وعابد الطاغوت، عطفا على القردة.
أما الطاغوت، فالمراد به موضع خلاف - فقيل: العجل الذي عبده اليهود، وعن ابن عباس والحسن البصري أنه الشيطان - وقيل: معناه الكهنة والأحبار - فإن كل من أطاع أحدا في معصية الله فقد عبده.
قوله: {أولئك شر مكانا} اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ - شر خبره - مكانا منصوب على التمييز - أي أولئك الممسوخون المقبوحون

الذين حاق بهم اللعن والغضب شر مستقرا ومنصرفا وهو جهنم وبئس المصير - وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة.

قوله: {وأضل عن سواء السبيل} أي أنتم يا بني إسرائيل أكثر ضلالا وأشد جورا عن سبيل الرشد والقصد وأعظم بعدا عن طريق الحق القويم حيث الحنفية السليمة المستقيمة والتوحيد الكامل الخالص والإخبات والخضوع والإذعان لله وحده دون سواه والاهتداء بهديه ومنهاجه من غير زيغ ولا تحريف ١٤٧.

٦١ - (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

قوله تعالى: {وإذا جاءوكم قالوا ءامنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون (٦١) وترى كثيرا منهم يسرعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعلمون (٦٢) لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون} نزلت هذه الآية في أناس من اليهود كانوا يدخلون على الرسول صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الإيمان نفاقا فأخبره الله عز وجل بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلق بقلبهم شيء من نصائحك وتذكيراتك وما تبينه لهم من المعاني والقيم والمواعظ ١٤٨.

الخطاب في قوله: {جاءوكم} موجه للرسول صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم، أو أنه موجه له ولمن عنده من المؤمنين المخلصين وهم أصحابه الكرام رضوان الله عليهم - والمعنى أن هؤلاء اليهود إذا جاءوك أظهروا لكم الإسلام وأنهم يؤمنون معكم، وهم في الحقيقة يخفون في أنفسهم الكفر، ولم يكسبهم الاستماع إليكم وإلى نصائحكم شيئا - ولكنهم على حالهم من الكفر والعناد وإيثار التكذيب والتمرد - وهو مقتضى قوله: {وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به} الجملتان في محل نصب على الحال من ضمير {قالوا} أي أن هؤلاء اليهود يخرجون من عندك كما دخلوا، إذ لم ينتفعوا بحضورهم بين يديك ولم يستجيبوا لما تدعوهم إليه بالحجج الدامغة والدلائل الظاهرة ولم يؤثر فيهم ما سمعوه منك.

قوله: {والله أعلم بما كانوا يكتمون} تلك مبالغة في الكشف عما في قلوب هؤلاء المنافقين من اليهود، إذ كانوا يكنون للإسلام والمسلمين الغيظ والبغض والعداوة - وكانوا يمكرون بهم مكرا ويكيدون لهم كيدا - ويمكن استقراء الوعيد من هذا القول - فالله جلت قدرته عليم بأحوال هؤلاء المنافقين الماكرين وما تكنه صدورهم من كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه العظيم - وما يحيق مثل هذا المكر السيء أو القصد الخبيث إلا بأهله.

٦٢ - (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون} أي هؤلاء المنافقون من اليهود {يسارعون في الإثم والعدوان} في موضع نصب على الحال من {كثيرا} وقيل: مفعول ثان لقوله {ترى} ويسارعون من المسارعة، أي الشروع في الشيء بسرعة - والإثم معناه الحرام - وقيل: الكذب - وقيل: يراد به الكفر - أما العدوان، فمعناه: الظلم - وقيل: مجاوزة الحد في المعاصي.

قوله: {وأكلهم السحت} السحت مفعول به للمصدر {أكلهم} المراد بالسحت هنا: الرشوة التي كانوا يأخذونها على حكمهم بغير كتاب الله لمن حكموا له به - وقيل: معناه الحرام مطلقا.

قوله: {لبئس ما كانوا يعملون} أي لبئس شيئا عملوه - أو لبئس العمل كان عملهم - ذلك تنديد بيهود وما جنوه في حق النبيين والمؤمنين من أفاعيل السوء والمجاوزات لحدود الله وانتهاك لشريعته كالظلم والعدوان والخدع وأكل الحرام.

٦٣ - (لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

قوله: {لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت} لولا أداة تحضيض بمعنى هلا - والربانيون يراد بهم علماء الإنجيل - والأحبار علماء التوراة - وقيل: كلهم في اليهود، لأن الكلام هنا متعلق بهم، والمراد في الآية تحضيض العلماء الذين يقتدى

بهم على نهي هؤلاء العصاة عما يفعلونه من مناكير وآثام ومجاوزات لحدود الله - أي هلا نهاهم علماؤهم وأحبارهم وساستهم من اليهود عن قولهم الإثم وهو الكذب والزور، وأكلهم الحرام.

قوله: {لبئس ما كانوا يصنعون} يصنعون، من الصنع، بمعنى العمل إلا أنه يقتضي الجودة - وليس كل عمل يسمى صناعة إلا بتكرار العمل حتى رسوخه ليكون ملكة لفاعله فيسمى صنعا أو صناعة، وبذلك فإن الصنع أبلغ من العمل، لأنه يقتضي الرسوخ - وعلى هذا فإن الآية تشير إلى أن ترك النهي عن المنكر لهو أقبح من ارتكابه - قال ابن عباس في هذه الآية: هي أشد في القرآن - وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها ١٤٩.

٦٤ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيمة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين} روي عن ابن عباس وآخرين في سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا أكثر الناس مالا وثروة إذ بسط الله لهم الرزق فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كذبوه وعصوه فكف الله عنهم ما كان بسط لهم وضيق عليهم معيشتهم، عندها قال فنحاص بن عازوراء رأس يهود قينقاع: يد الله مغلولة - ولما لم ينكر الآخرون عليه مقالته بل رضوا بها، نسبت هذه المقالة الفظيعة إلى الجميع - ومعنى قولهم: {يد الله مغلولة} أي أن الله سبحانه بخيل بما عنده ويده مقبوضة عنا في العطاء - فغل اليد مجاز عن البخل، وبسطها مجاز عن الجود.

قوله: {غلت أيديهم} ذلك رد من الله عليهم لما قالوه وقابلهم فيما افتروه من باطل وائتفاك فدعا عليهم بالبخل المذموم - وقد وقع لهم ذلك إذ جعل في نفوسهم خليقة الشح والإمساك والضن بالخير - لا جرم أن فيهم من مثالب البخل والحسد والتدسس ما ليس له في غير نظير.

وقيل: المراد أنهم شدت أيديهم إلى أعناقهم في نار جهنم.

قوله: {ولعنوا} أي أبعدوا عن رحمة الله وفضله - وهذا دعاء ثان معطوف على الأول {غلت أيدهم} وذلك بسبب مقالة السوء والباطل التي اندلقت من أفواههم وهو ما نسبوه من البخل إلى الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لذلك قال: {بما قالوا} أي بسبب ما قالوه من ائتفاك شنيع.

قوله: {بل يداه مبسوطتان} أي، ليس الشأن ما كذبوا بل إن الله جلت قدرته جواد كريم - وهو في غاية ما يكون من الجود والسخاء - ويشير إلى ذلك تثنية اليدين مبالغة في الرد ونفي البخل عن جلاله سبحانه بما يدل على أقصى غايات العطاء والسخاء.

أما اليد فقد قيل في تأويلها جملة أقوال منها: أنها النعمة، وأنها القوة، وأنها الملك، وأنها القدرة - وسائر هذه المعاني حاصلة في المراد باليد، خلافا للتأويل المرفوض الذي تكلفته المجسمة، إذ قالوا: يد الله عضو جسماني ككل أحد ذي يد - وهو تأويل باطل تكذبه أصول العقيدة وتدحضه نصوص الكتاب والسنة.

قوله: {ينفق كيف يشاء} الجملة في محل نصب على الحال من ضمير {ينفق} أي أن الله يرزق مثلما يريد، فإن شاء قتر وإن شاء وسع، كل ذلك وفق حكمته البالغة التي تقوم على أساسها الحياة والأحياء.

قوله: {وليزيدن كثيرا منهم ما أزل إليك من ربك طغيانا وكفرا} اللام للقسم {كثيرا} مفعول به أول - ما في محل رفع فاعل - طغيانا مفعول به ثان - كفرا، معطوف - والكثير المقصود في الآية هم علماء اليهود، فإنهم يزدادون بنزول القرآن إنكالا وكفرا - فما كان القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتوالى عليه نزوله حتى يزداد علماء يهود وأحبارهم ورؤساؤهم تغيظا وعتوا ومبالغة في الإعراض والنكوص والتمرد.

قوله: {وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} ذلك عقاب لأهل الكتاب في هذه الدنيا، لما عتوا عن أمر ربهم ومكروا بأنبيائهم واعتدوا عليهم بالتكذيب والتنكيل والافتراء والقتل، خصوصا هذا النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم وهو سراج العالمين وضياء الكون كله وإمام الثقلين في الدارين فقد كذبوه وآذوه وقابلوه بالكيد والصد والعدوان والقتال - وفي مقابل هذا الكفر والجحود والعدوان على الحق وأهله ابتلاهم الله بعذاب من عنده في هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة جزاء لما فعلوه في حق الكتب الربانية المنزلة والأديان السماوية من تحريف وتشويه وافتراء.

على أن المقصود بالعداوة والبغضاء ما بين اليهود والنصارى من العدوان القديم.

وقيل: المقصود ما بين اليهود أنفسهم فهم فيما بينهم متباغضون متنافرون تطغى عليهم ظواهر الأنانية المقيتة والمشاحنات الممضة التي تمزق القلوب وتزرع الكراهية والمباغضة التي تفضي إلى الافتراق والشقاق، ولا يغرن أحدا ما يجده في يهود من شعب يتظاهر بالالتئام في دولة صهيونية أقامها تحالف الاستعماريين والصليبيين والماسونيين والشيوعيين في فلسطين - لا يغترن أحد بالظاهر من الالتئام والاتفاق المصطنع الذي يخفي وراءه المباغضات والعداوات فيما بين الأفراد والأحزاب والطوائف - مباغضات وعداوات

لا يخفيها إلا كثافة الإعلام الكاذب - والتخوف من العدو المحدق المنتظر وهم المسلمون.

أما العداوة والبغضاء بين النصارى أنفسهم فذلك مستقر ومستطير - عداوة وبغضاء تزعجهم إزعاجا وتقض قلوبهم وأعصابهم قضا - فهم ما تكاد تتفق أهواؤهم وقلوبهم ولا تتحدد كلمتهم وشعوبهم - وإنما هم باقون على حالهم من الانقسام والشقاق والتنافر حتى تعصف بين دولهم وشعوبهم حروب القتل والتدمير في كثير من الأحايين وبخاصة في مطلع العصر الراهن وهذا القرن بالذات والذي حصدت فيه الحرب عشرات الملايين من الناس - وفي مقدمة ذلك الحرب العالمية الثانية تلك الحرب اللاهبة الضروس بين ما يسمى دول المحور بقيادة النازيين، ودول الحلفاء بقيادة الأمريكيين والبريطانيين.

وربما يعيّرنا بعض المغرضين من الجهلة والمضلين فيقولون: لقد حصل مثل ذلك عند المسلمين - فيجاب عن ذلك بأنه قياس متهافت وموهوم - فلئن كان بين المسلمين مذاهب غريبة وشاذة فإنما هي صغيرة واهية ومحدودة - بل إنها بالغة الهوان والضعف فليس لها في واقع الإسلام والمسلمين تأثير يذكر سواء في العقيدة أو الفكر أو التصور أو حياة المجتمع - بل إن هاتيك المذاهب الغريبة والشاذة قد تلاشت وانقضت ومضى ذكرها وزمانها فما عادت تذكر إلا بين السطور في الكتب.

وذلك كالسبأية والغرابية والعلبائية والباطنية والمانية والجهمية والمشبهة والمجسمة والإسماعيلية والرافضة والزرادشتية وإخوان الصفا وغيرهم من المذاهب والفئات الشاذة التي ما كان لها أيما تأثير على المجتمع الإسلامي طيلة حياته - فهو المجتمع المتماسك المصون الذي بني على العقيدة السمحة الراسخة رسوخ الجبال الرواسي.

المجتمع الذي يستمد تصوره ومنهجه في الحياة من الكتاب والسنة - فالمسلمون في الحقيقة، جلهم على السنة الصحيحة السليمة فهم على الدوام ملتئمون متفقون متحدون، إلا من ندر ممن ليس له أثر.

قوله: { كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله} المراد بالذين أوقدوا الحرب اليهود - أي كلما خططوا وأعدوا وجمعوا لإشعال الحرب خذلهم الله وأثار فيهم الرعب والجبن وأفضى بهم إلى التقهقر - وإيقاد نار الحرب كناية عن إشعال الحرب نفسها - وقيل: إظهار الكيد للمؤمنين وإطفاؤها معناه دفع شرهم أو صرف أذاهم وكيدهم عن المؤمنين - والمقصود بالحرب من اليهود محاربتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وقيل: أعم من ذلك - فأيما حرب خططوا لها أو أرادوا إثارتها كتب الله فيها لأعدائهم الغلبة فكان اليهود فيها مقهورين داخرين.

وقيل: إن اليهود لما خالفوا التوراة وحرفوها وبدلوها تبديلا أرسل الله عليهم الطاغية بختنصر فدمرهم تدميرا، واستأصل شأفتهم استئصالا، وبدد هيكلهم تبديدا وجعله شذر مذر - ثم أفسدوا فأرسل عليهم الرومان فقضوا عليهم وأذهبوا شوكتهم وأذلوهم إذلالا - ثم أفسدوا فأرسل عليهم المجوس - ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين، فأزالوا شوكتهم وجعلوهم أهل ذمة يؤدون الجزية لدولة الإسلام ليأمنوا على أنفسهم وذرياتهم وأموالهم - لا جرم أن اليهود استظلوا بظل الإسلام والمسلمين إبان سلطانهم ردحا عظيما من الزمن فكانوا آمنين سالمين مطمئنين لا يمسهم رهب ولا ظلم ولا عدوان خلافا لما لاقوه من ويلات الإبادة والاستئصال والإذلال خلال عيشهم ووجودهم بين شعوب الأرض من غير المسلمين.

وإذا ما طرأت لليهود دولة في أرض المسلمين – كفلسطين – فلا جرم أن هذه ظاهرة مخالفة لطبيعة الأشياء ومناهضة لمنطق الحقيقة والتاريخ - وما كان لمثل هذه الظاهرة المذهلة أن تجسد على سطح الواقع لولا انفتال المسلمين عن دينهم بعد أن خبت في قلوبهم جذوة العقيدة الدافعة الوهاجة وبعد أن تبددت وحدتهم وكلمتهم فتمزقوا في الأرض شعوبا واهية مستضعفة، فضلا عن كثافة التمالؤ بين أعداء الإسلام من استعماريين وصليبيين وصهيونيين وشيوعيين وغيرهم عبر مؤامرة دولية هائلة كبرى خطط لها في الظلام لكسر المسلمين وتدمير سلطانهم ومجدهم وقتلهم بددا.

قوله: {ويسعون في الأرض فسادا} فسادا، منصوب لأجله - أو حال من ضمير {يسعون} - والمعنى أنهم يجتهدون في الكيد للإسلام بتشويه صورته بمختلف الأساليب كإشاعة الأكاذيب والشبهات عن حقيقة الإسلام وعن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بما يثير الكراهية والنفور في نفوس المسلمين وغيرهم من الناس - وهم في ذلك يتفقون مع الاستعماريين والصليبيين في التحريض على ملة الإسلام ليضعفوا المسلمين فيذروهم خاوين مزعزعين وقد طغى عليهم الوهن والخور والإحساس بالنقص وضرورة التبعية للحضارة المادية الكافرة ١٥٠.

٦٥ - (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

قوله تعالى: {ولو أن أهل الكتاب ءامنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون} أهل الكتاب هم اليهود والنصارى - والكتاب اسم جنس يشمل التوراة والإنجيل أي لو أن هؤلاء – بالرغم مما فعلوه من كبائر الجنايات والخطايا – لو أنهم آمنوا الإيمان الصحيح بما يندرج في ذلك إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم {واتقوا} أي اجتنبوا ما حرم الله وما تعدد من معاصيهم الكثيرة كمخالفة كتبهم {لكفرنا عنهم سيئاتهم} أي لغفر الله لهم ما اقترفوه من سيئات وإن كانت في غاية الفظاعة والنكر.

قوله: {ولأدخلناهم جنات النعيم} أي لكانوا من الفائزين بخير ما يطرأ على قلب بشر من الخيرات الحسان والبركات العظام في جنات الخلد.

٦٦ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

قوله: {ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل} أي أقاموا أحكامهما وحدودهما وآمنوا بما اشتملا عليه من تبشير بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: {وما أنزل إليهم من ربهم} أي القرآن - وقيل: سائر كتب الله، فهم مكلفون بالإيمان بجميعها.

قوله: {لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم} لما أصر اليهود على تكذيب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أصابهم القحط والجدب والشدة فعانوا بذلك قسوة الفقر والمضانكة - فالله يبين لهم أنهم لو استجابوا لداعي الحق وتحرروا من إسار الشذوذ واللؤم والعناد لوسع الله عليهم في الرزق، ولأفاض عليهم من بركات السماء والأرض فعاشوا في النعماء والبحبوحة - هذا مقتضى قوله: {لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم} وتأويل ذلك يحتمل عدة وجوه هي:

الأول: أن المراد من ذلك المبالغة في ذكر السعة والخصب - وليس المراد أن هناك فوقا وتحتا كالذي عليه ظاهر العبارة أي لأكلوا أكلا دائما ومنعما وغير منقطع لكثرته.

الثاني: إن الأكل من فوق يراد به نزول المطر، ولأكل من تحت الأرجل معناه خروج النبات والثمر.

الثالث: من قول الزمخشري وهو كثرة الأشجار المثمرة والزرع المغلة وأن يرزقهم الله الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم.

قوله: {منهم أمة مقتصدة} الاقتصاد معناه الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير - وأصله القصد، ومعناه العدل واستقامة الطريق - وهو ضد الإفراط ١٥١ والمراد بقوله: {أمة مقتصدة} أي طائفة معتدلة من اليهود غير مغالية ولا مفرطة - فهي على الحق والاعتدال، ومجانبة للإفراط والتفريط وهم الذين آمنوا واتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأمثاله من اليهود الذين أسلموا،

وآخرون من النصارى آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذي أنزل معه كالنجاشي وأصحابه من النصارى.
وقيل: المراد بهم الكفار من أهل الكتاب الذين كانوا عدولا في دينهم وطبائعهم وسلوكهم، إذ لم يكونوا مغالين ولا غلاظا - وما كانوا يؤذون المؤمنين بالكيد وفاحش القول.
قوله: {وكثير منهم ساء ما يعملون} أي أن كثيرا من أهل الكتاب أجلاف متعصبون وهم مبغضون لئام، طغت عليهم الكراهية، وملك قلوبهم الحقد فساء عملهم إذ عاثوا في البلاد إفسادا وتشويها وتحريضا على التصدي للإسلام والمسلمين - وفيه معنى التعجب أي أن كثيرا منهم ما أسوأ عملهم ١٥٢.
٦٧ - (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّــغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)
قوله تعالى: {يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين} ذلك نداء كريم من الله جل جلاله لرسوله صلى الله عليه وسلم يأمره فيه القيام بوجيبة التبليغ في مجاهرة ظاهرة مسموعة فلا مبرر للتخفي والاستسرار، بل دعوة الناس صراحة إلى دين الله - وذلك بعد أن كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم خفية خشية من إيذاء المشركين - فما إن أمره الله بإظهار دينه علانية بادر العالمين بالدعوة إلى الله جهارا ممتثلا أمر ربه أتم الامتثال - روى البخاري في تفسير هذه الآية عن عائشة رضي عنها قالت: " من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب " وذلك رد لقول من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من أمر الدين تقية - وهو قول الرافضة - لا جرم أن هذا زعم باطل - فقد دلت الآية على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسر إلى أحد شيئا من أمر دينه، بل إنه مكلف أن يبلغ العالمين كافة ما أنزل إليه من ربه - وقد قام بذلك خير قيام - يدل على ذلك كذلك ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم حجة الوداع: " يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ " قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت - فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: " اللهم هل بلغت ".
قوله: {وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} أي بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كتمت منه شيئا إذن لم تبلغ ما كلفت بأدائه ولم تؤد منه شيئا قط، لأن بعضها ليس أولى بالأداء والتبليغ من بعضها الآخر، وإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا - والشأن في ذلك شأن الذي لم يؤمن ببعضها فهو كمن لم يؤمن بكلها، لأنه بكتمان بعضها يضيع ما أدى كترك بعض أركان الصلاة فإنه يضيعها كلها.
وفي ذلك تذكير للمؤمنين وأهل العلم خاصة أن لا يكتموا من تعاليم الإسلام شيئا مهما تكن الظروف - وعلى المؤمنين وأهل العلم خصوصا أن يبينوا للناس رسالة الإسلام تبيينا واضحا وصريحا من غير انتقاص منه ومن غير اضطراب أو تعثر أو وجل - فالعلماء والدعاة إلى الله أجدر أن يقولوا كلمة الحق، وأن يحملوا للبشرية لواء الإسلام بكل وفاء وجلاء وفي غاية الحماسة والإخلاص لله دون أن يخشوا في ذلك لومة لائم.
قوله: {والله يعصمك من الناس} وسبب نزول هذه الآية ما رواه مسلم عن عائشة قالت: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال: " ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة " قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال " من هذا؟ " قال: سعد بن أبي وقاص - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما جاء بك؟ " فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه - فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام - وفي غير الصحيح قالت: فبينما نحن كذلك سمعت صوت السلاح فقال: " من هذا؟ " فقالوا: سعد وحذيفة جئنا نحرسك - فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه - ونزلت هذه الآية - فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبة أدم وقال: " انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله " ١٥٣ وروي عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها فينزل تحتها فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه

فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الله يمنعني منك ضع السيف " فوضعه فأنزل الله عز وجل {والله يعصمك من الناس} والمراد بالناس الكفار بدليل الآية بعد ذلك وهي قوله: {إن الله لا يهدي القوم الكافرين} على أن المقصود بالعصمة حفظه من القتل وليس من أنواع البلاء الأخرى مما دون القتل - فقد كان عليه الصلاة والسلام قد ابتلاه ربه بأصناف البلاء مما فيه تعذيب وامتحان - فلا جرم أن الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل - على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد شج وجهه وكسرت رباعيته يوم أحد ١٥٤.

لقد وعد الله جلت قدرته نبيه الكريم بعصمه من كل أحد يبغي له الشر وفي ذلك من الدلالة البلجة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى - لقد عصم الله نبيه من كيد المشركين والمنافقين وأهل الكتاب الذين خططوا في الظلام طيلة حياته معهم ليقتلوه حتى كان الموت في كثير من الأحوال أقرب إليه من حبل الوريد لولا أن الله كتب له السلامة والنجاة بعصمه من الناس - مع أنه في كل أحواله ما كان له من الناس من يحرسه إلا أن عين الله التي لا تنام كانت ترعاه وتحرسه - لا جرم أنه النبي الصدوق الأمين المبعوث من رب العالمين هداية للناس ورحمة - ولنا أن نتصور كم يحاذر الحكام والرؤساء والساسة المتسلطون وهم يحيطون أنفسهم بغلاف كثيف حصين من الحراس والناظرين والمراقبين فضلا عن التقارير المستفيضة التي تكتبها أجهزة الاستخبارات في الداخل والخارج إسهاما في صون الحاكم المتسلط - ومع ذلك كله تبوء هاتيك الأساليب والأجهزة والمؤسسات بالفشل الذريع عندما تنفذ أيدي المتربصين المعارضين إلى الزعيم المتسلط فتقتله غيلة.

٦٨ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغينا وكفرا فلا تأس على القوم الكفرين (٦٧) إن الذين ءامنوا والذين هادوا والصابئون والنصرى من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صلحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} روى عن ابن عباس قال: جاء فريق من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس وأنا بريء من إحداثكم " قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن بك ولا نتبعك - فأنزل الله {قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم} المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى - والكتاب يراد به التوراة والإنجيل - والله جل وعلا يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهراني مهاجره {لستم على شيء} أي لستم على دين يعتد به حتى يسمى شيئا وذلك لبطلانه مثلما نقول: هذا ليس بشيء، تريد بذلك تحقيره وتصغير شأنه.

وقوله: {حتى تقيموا التوراة والإنجيل} أي حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتؤمنوا بما فيهما من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن لا تفرقوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض فإن الكفر بواحد منهم كفر بالجميع.

وقوله: {وما أنزل إليكم من ربكم} أي القرآن الحكيم - فقد أمروا أن يؤمنوا بما جاء فيه - فهو الكتاب الإلهي الحكيم الذي كتبه الله للبرية كافة لهم نورا وبرهانا ونجاة في الدنيا والآخرة - فما من تردد أو ارتياب أو تكذيب لهذا الكتاب المجيد إلا يعني التمرد على الله واللجوج في العصيان والكفران.

قوله: {فلا تأس على القوم الكفرين} أي تأسف ولا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم - فإن ضرر ذلك حائق بهم دون غيرهم - وهذه تسلية كريمة رحيمة تفيض بها الكلمات الربانية على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم لتسري عنه أيما تسرية - ولا يعني ذلك النهي عن الحزن - لأن أحدا لا يملك أن يرد عن قلبه الحزن خصوصا إن كان يحمل في قلبه الحدب والحنو والرأفة بالبشرية - فإن

أعظم ما يصبو إليه حامل لواء الدعوة إلى الله في هذه الحياة أن يؤمن الناس وأن يذعنوا للإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة. ولسوف يعتصر قلبه الأسى والحزن والمرارة عندما يجد من الناس النكير والصدود.

٦٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله: {إن الذين ءامنوا والذين هادوا والصابئون والنصرى من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا} الذين آمنوا هم المسلمون الذين صدقوا الله ورسوله وألزموا أنفسهم بمنهج الله قولا وعملا واعتقادا.

والذين هادوا، هم اليهود - أما الصابئون ففي حقيقتهم خلاف - فقد قيل: إنهم طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين - وقيل: إنهم طائفة من اليهود والمجوس - وقيل: هم قوم خرجوا عن دين اليهود والنصارى ثم عبدوا الملائكة وكانوا يصلون إلى غير القبلة ويقرؤون الزبور - وقيل غير ذلك - والصابئون، مرفوع لوجهين:

أحدهما: الرفع على الاستئناف - فيكون في الآية تقديم وتأخير - والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك.

ثانيهما: أن يكون قوله: {من ءامن بالله واليوم الآخر} خبر للصابئين والنصارى - وأن يقدر للذين آمنوا والذين هادوا خبر مثل الذي قدر للصابئين والنصارى ١٥٥ وإما النصارى، جمع نصران وهم حملة الإنجيل - أما تأويل الآية فإنه لا يحصل لأحد فضيلة أو منقبة إلا إذا تحقق فيه الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل صالحا سواء كان من المسلمين أو اليهود أو الصابئين أو النصارى، إذ لا ينبغي التعويل على المسميات فإنها وحدها لا تغني بافتقاد العنصرين الأساسيين هما الإيمان الصحيح والعمل الصالح المشروع - وعلى هذا من أحدث من هؤلاء الطوائف إيمانا حقيقيا خالصا بالبعث بعد الممات على الوجه الصحيح – وليس كما يزعمه أهل الكتاب من إيمان محرف باطل – وعمل عملا صالحا يقتضيه هذا الإيمان {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} أي لا خوف عليهم يقدمون عليه من أهوال القيامة حيث القوارع والقواصم التي تضطرب من فظاعتها القلوب ويشيب من ويلاتها ودواهيها الولدان.

وقوله: {ولا هم يحزنون} أي لا يأسون على ما خلفوه في الدنيا وما تركوه وراء ظهورهم، ولا يمسهم الحزن لفراقهم الأحباب والخلان والأوطان، بل يغمرهم الرحمن بسكينة منه ورضوان حتى إذا عاينوا ما أعده الله لهم من نعيم وتكريم نسوا الدنيا وما فيها من متاع وبهجة وروابط ١٥٦.

٧٠ - (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)

قوله تعالى: {لقد أخذنا ميثاق بني إسرءيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٠) وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون} الميثاق معناه العهد - فقد أخذ على بني إسرائيل أنبياؤهم العهد أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن يعملوا بالأحكام والشرائع المكتوبة في التوراة دون إنقاص أو زيادة أو تحريف - وأرسل إليهم رسلا كثيرين منهم مبالغة في تذكرهم وتنبيههم وتحذيرهم من مخالفاتهم ونكولهم عن شرائع الله فضلا عن تلاعبهم فيها بالتغيير والتبديل والتحريف - لكنهم مع ذلك كله ظلوا سادرين في غيهم وطغيانهم، ضالعين في التمرد على أحكام الله، موغلين في إتيان المنكرات وكبائر المعاصي - فكان من أعتى العتو في ذلك قتلهم الأنبياء ظلما وعدوانا - لا جرم أن هذه جريمة بالغة نكراء يذهل من فداحتها العقل والجنان، وتتزلزل من هولها الأرض والسماء! وإلى ذلك يشير الباري في قوله {وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفرقا يقتلون} أي كلما أتاهم رسول مبعوث من عند الله هاديا لهم ومذكرا ومحذرا وداعيا لهم أن يأخذوا بأحكام الله وأن لا يخالفوها، فرأوا أنه مخالف لهواهم، مضاد لشهواتهم كذبوه أو قتلوه تبعا لهواهم ولما يروق لأمزجتهم وطبائعهم الغريبة - فمن الذين كذبوهم ولم يقتلوهم عيسى ابن مريم وغيره - وممن قتلوهم زكريا ويحيى وغيرهما من النبيين - وليس من سبب للتكذيب أو القتل إلا أن ما دعاهم إليه لا يوافق هواهم - فالمعيار والمسبار لدى بني إسرائيل في عامة القضايا، ما فتئ حتى الساعة هو الهوى - فما وافق هواهم رضوا به وأخذوه، وما خالف هواهم رفضوه وجانبوه في غلظة وأعلنوا عليه النكير والنفير.

٧١ - (وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

قوله: {وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا} تكون فعل تام منصوب بأن - وفتنة فاعل - وهي بمعنى الامتحان والعذاب - أي ظن بنو إسرائيل أنه لن يصيبهم من الله بلاء وعذاب بما فعلوه من عصيان وافتراء كزعمهم مثلا أنهم أبناء الله وأحباؤه - أو بسبب الإهمال من الله لهم - لكنهم وقع لهم خلاف ما ظنوه - وهو قوله سبحانه {فعموا وصموا} والفاء تفيد الدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها - أي أنهم أمنوا بأس الله تعالى فتمادوا في الغي والعتو والتخريب {فعموا وصموا} أي عموا عن دين الله بعد أن هداهم الرسل إلى معالمه وبينوا ما فيه من الهداية لهم والترشيد - وكذلك صموا، عن استماع الحق الذي دعاهم إليه أنبياؤهم.

قوله: {ثم تاب الله عليهم} في الكلام إضمار - أي تابوا فتاب الله عليهم - وقيل: حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد حال مكثهم ببال دهرا طويلا وهم تحت قهر بختنصر أسارى مغلوبين وفي غاية الذل والمهانة، فوجه الله ملكا من ملوك الفرس إلى بيت المقدس فعمره ورد من بقي من بني إسرائيل في أسر بختنصر إلى وطنهم وعاد من تفرق منهم في الآفاق فاطمأنوا وكثروا وعادت بهم الحال كأحسن ما كانوا عليه - وذلك قوله: {ثم رددنا لكم الكرة عليهم}.

قوله: {ثم عموا وصموا كثير منهم} والعمى والصمم هنا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من العصيان الكبير كقتل يحيى وزكريا، وقصدهم قتل عيسى - وقيل: إشارة إلى ما كان في زمن النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم من كفرانهم وعصيانهم - وقوله: {كثير} مرفوع على البدل من واو الجماعة في الفعلين {عموا وصموا}.

قوله: {والله بصير بما يعملون} الله جلت قدرته بصير بما يعمله هؤلاء الأفاكون السفاكون الدجاجلة من تكذيب للمرسلين وقتل لبعضهم وما جنوه في حق التوراة من تحريف وتزييف، وفي حق البشرية والمسلمين خصوصا من إفساد وتخريب وكيد وتشويه وفتن - والمقصود من ذلك التهديد والوعيد - فالله بصير بهؤلاء الظلمة وهو لهم بالمرصاد - ولسوف يكيد لهم من ألوان العقاب في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا هو سبحانه ١٥٧.

٧٢ - (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

قوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرءيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار}.

هذا إعلان قاطع ومجلجل عن كفران النصارى الذين اتخذوا المسيح إلها معبودا فقد أخبر الله عن فتنة بني إسرئيل في نقضهم الميثاق الذي واثقهم الله به وأخذه عليهم وهو أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن لا يتخذوا من دونه آلهة أخرى - لكنهم نقضوا ما أخذه عليهم بارتكاسهم شر ارتكاس، إذ قالت اليعقوبية من النصارى: {إن الله هو المسيح ابن مريم} مع أن المسيح خلق من خلق الله وعبد من عباده وبشر معروف نسبه وأصله وقد أقر للناس في كل حال وكل محفل أنه عبد الله ورسوله وكان يدعوهم إلى عبادة الله وهو ربه وربهم ومع ذلك استنكفوا وأدبروا وأنطقهم تعسهم وشقوتهم بشر منطوق، إذ زعموا أن الله هو المسيح - فهم بذلك كافرون جاحدون لا تبرحهم لعائن الله لهول ما قالوه.

قوله: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار} وهذا ابتداء كلام من الله - وقيل: هو من قول عيسى عليه السلام - والمعنى أن من يشرك بالله شيئا فيعبد معه أحدا سواه أو يشرك به فيما يختص به من الصفات، كأن ينسب إلى غير الله علم الغيب أو إحياء الموتى أو نحو ذلك من الصفات المختصة بالله {فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار} أي عاقبه عقابين - أحدهما: منعه من دخول الجنة - فالجنة دار المؤمنين الموحدين المتقين الذين لا يشركون مع الله أندادا.

وثانيهما: وهو أشد - وهو أن جعل مستقره في النار وبئس القرار - قوله: {وما للظالمين من أنصار} المشركون المكذبون إذا أحاطت بهم خطيئة الشرك يوم القيامة حاق بهم الإياس المطبق ولم يجدوا ساعتئذ من ينقذهم أو ينجيهم - فليس من نصير إذ ذاك ولا مجير.

٧٣ - (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله وحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٣) أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٤) ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} ذلك إعلان رباني مستبين لا يحتمل التكلف - وهو يقضي بكفران النصارى {الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} في تأويل مقالتهم هذه وجهان:

أحدهما: قولهم بالأقانيم الثلاثة - وهو أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب والابن - تعالى الله عن هذا الباطل علوا كبيرا.

ثانيهما: جعلهم المسيح، وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة - وذلك كقوله: {وإذ قال الله يعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله}.

قوله: {وما من إله إلا إله واحد} من مزيدة تفيد معنى الاستغراق - والتقدير أنه ليس في الوجود من إله معبود موصوف بالوحدة متعال عن قبول الشركة إلا فرد واحد وهو الله.

قوله: {وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} ذلك تهديد من الله للنصارى فقد توعدهم إذا لم يكفوا عن القول بالتثليث – بالعذاب الأليم في الآخرة حيث التعذيب والنكال.

٧٤ - (أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه} ذلك تقرير وإنكار يتضمن توبيخا لهؤلاء وتعجيبا - والمعنى: ألا ينتهي هؤلاء الضالون السفهاء عن مقالة التثليث الباطلة وما ينبثق عنها من عقائد الزيغ والضلال؟! ألا يستغفرون الله مما أركسوا فيه أنفسهم من كبرى الخطيئات وهو الإشراك بالله ثم ينزهون الله عما نسبوه إليه سبحانه من افتراء؟!

قوله: {والله غفور رحيم} من صفات الله سبحانه أنه غفار للخطايا، وهو رحيم بالعباد - وإنه بالرغم من فداحة العصيان وبشاعة الخطايا التي يقع فيها الظالمون فإنهم لئن تابوا فلسوف يشملهم الله برحمته ليغفر لهم ما فعلوه مهما كثر أو كبر.

٧٥ - (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

قوله: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} أي ليس المسيح إلا رسولا كغيره من الرسل المتقدمين - فهو من جنس الرسل الذين سبقوه - ولئن جاء المسيح بآيات معجزات فقد أتوا من قبله بآيات معجزات فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده، فقد أحيا الله العصا وجعلها حية تسعى وفلق البحر على يد موسى - وإن كان خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم.

قوله: {وأمه صديقة} مبتدأ وخبره - أي وكذلك، ما أمه إلا كسائر النساء أولات الصدق، المصدقات للأنبياء، المؤمنات بهم - وقيل في تأويله {صديقة} أنها صدقت بآيات الله وكتبه - وقيل: اتصافها بالطهر والعفة وبالغ الشرف.

قوله: {كانا يأكلان الطعام} الأكل دليل على الحاجة إلى الطعام عقب الجوع - والحاجة من أقوى الأدلة على أنه ليس إلها - فالله غير محتاج لشيء أو لأحد - وأما الجوع فإنه لو كان واحد منهما إلها لدفع عن نفسه ألم الجوع من غير طعام أو شراب - فدل ذلك على أنه ليس إلها - قال القرطبي عن عبودية المسيح في هذه الآية: إنه مولود مربوب - ومن ولدته النساء وكان يأكل الطعام مخلوق محدث كسائر المخلوقين - فمتى يصلح المربوب لأن يكون ربا؟!

قوله: {انظر كيف نبين لهم الآيات} هذا تعجيب من حال هؤلاء المكابرين الذين يدعون الربوبية للمسيح وأمه - انظر كيف نبين لهم الدلائل القطعية التي تصدع ببطلان قولهم.

قوله: {ثم انظر أنى يؤفكون} يؤفكون، من الأفك بفتح الهمز - وهو مصدر أفكه أي قلبه وصرفه عن الشيء - وكل مصروف عن الشيء مأفوك عنه ١٥٨.

والمعنى: انظر كيف يصرف هؤلاء المعاندون السفهاء عن الحق الظاهر الساطع بالرغم من كل ما سبق لهم في ذلك من دلائل وبراهين ١٥٩.

٧٦ - (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم (٧٦) قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} ذلك توبيخ من الله للنصارى عقب التعجيب من أحوالهم وفعالهم والمراد بالذي لا يملك الضر والنفع هو عيسى عليه الصلاة والسلام - ومعنى الآية: أتعبدون عيسى وهو كأحدكم لا يملك أن يضركم بمثل ما يضركم الله من البلايا والمصائب والنوائب في الأنفس والأموال - وهو كذلك لا يملك أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به الله من السعة في الرزق والصحة في البدن ونحو ذلك مما ليس في مقدور عيسى أن يفعله، بل الله وحده قادر على كل شيء - وفي ذلك دليل قاطع ومكشوف على أن أمر عيسى مناف للربوبية - إذ لا يملك لأحد ضرا ولا نفعا - ومن صفات الرب الخالق أنه قادر على فعل كل شيء - وما من شيء إلا هو ضمن إرادته ومقدوره.

قوله: {والله هو السميع العليم} الجملة حالية متعلقة بقوله: {أتعبدون} وهي تتضمن توبيخا فيه وعيد للنصارى لتفريطهم في حق الله واتخاذهم عيسى وأمه إلهين من دونه - وتقدير المعنى: كيف تعبدون غير الله وتشركون معه من لا يقدر على شيء وأنتم تعلمون أن الله وحده مختص بالإحاطة بكل معلوم ومسموع - بل إن الله وحده يسمع ويعلم كل ما يدب أو يجري في العالمين.

٧٧ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

قوله: {قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق} يخاطب الله أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى قائلا: {لا تغلوا في دينكم غير الحق} والغلو هو الخروج عن الحد - غالى في أمره مغالاة، أي بالغ - غلا في الدين: شدد حتى جاوز الحد ١٦٠ وذلك أن الحق إنما يكون بين طرفي نقيضين وهما الإفراط والتفريط - وذلك هو دين الله المبرأ من التزييف والتحريف - وهو وسط بين الغلو والتقصير.

قوله: {غير الحق} منصوب على أنه صفة للمصدر - أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق، وكلا الفريقين مغال في حق المسيح عليه السلام - فقد غالى اليهود في حقه مغالاة بشعة تهبط بهم إلى الدركات السحيقة من الفجور والظلم والخسة، إذ نسبوه إلى الزنا - وحاشا لابن مريم النبي الزكي الرفاف - وحاشا لأمه العذراء البتول مثابة الصون والطهر والعفاف.

وفي المقابل غالت النصارى في حق عيسى، إذ ادعوا فيه الإلهية أو قالوا إنه إله - سبحانك اللهم هذا ظلم عظيم! فكلا الفريقين مغال مجانف مجانب للحق والصواب.

قوله: {ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل} الأهواء جمع ومفرده هوى - سمي بذلك، لأنه يهوي بصاحبه في النار - فالهوى الباطل الموافق للنفس أو الذي تدعو إليه الشهوة دون الحجة - وقيل: ما ذكر لفظ الهوى في القرآن إلا في موضع الذم والشر - فلا يقال: فلان يهوى الخير بل يقال: يريد الخير - وقال ابن عباس: كل هوى ضلالة - والمراد في الآية: لا تتبعوا الضلال الذين هم سلفكم من الناس الذين ضلوا قديما {وأضلوا كثيرا} أي أضلوا خلقا كثيرا من الناس ممن تبعهم ووافقهم {وضلوا عن سواء السبيل} أي خرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال - وسواء السبيل يعني السبيل المعتدل السوي وهو الإسلام - ذلك أنهم حسدوا الرسول حسدا بالغا حسدا شغل قلوبهم وأعصابهم وكل اهتمامهم - فكذبوه وآذوه وتمالئوا عليه لإسكاته أو إخراجه أو قتله.

٧٨ - (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

قوله تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إسرءيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٧٩) ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خلدون (٨٠) ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون} لعن الله الكافرين

من بني إسرائيل في الزبور على لسان داود عليه السلام - ولعنوا كذلك في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام - وروي عن ابن عباس قوله في ذلك: الذين لعنوا على لسان داود هم أصحاب السبت - والذين لعنوا على لسان عيسى هم الذين كفروا بالمائدة بعد أن أنزلها الله عليهم - وقيل: لعن الأسلاف والأخلاف من بني إسرائيل ممن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم على لسان داود وعيسى، لأنهما أعلما أن محمدا نبي مبعوث فلعنا من يكفر به.

قوله: }ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون{ ذلك اللعن الذي حاق بالكافرين من بني إسرائيل كان بسبب عصيانهم ومجاوزتهم للحد في العصيان.

٧٩ - (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

قوله: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه} ذلك تفسير لمعنى المعصية والاعتداء - وهو أن الكافرين من بني إسرائيل كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن فعل المنكر وهو المعاصي والمحرمات - فإن عدم النهي عن فعل المنكرات في ذاته حرام.

فالواجب في حق المؤمن في هذه المسألة شيئان، أحدهما: أن ينهى المؤمن أخاه عن فعل الحرام على اختلافه وتعدد ضروبه.

ثانيهما: أن يكون الناهي منتهيا عما ينهى عنه وإلا كان شريك الفاعل في المعصية - وفي هذا أخرج الإمام أحمد عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم " قال: وأحسبه قال: " في أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فقال: " لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا " ١٦١ أي تعطفوهم عليه.

وأخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك - ثم يلقاه بالغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض " ثم قال: " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو تقسرنه على الحق قسرا ".

ويحذر الرسول الله صلى الله عليه وسلم من السلبية وعدم الاكتراث من شيوع المعاصي داعيا أمته في كل زمان ومكان أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، فيقول: " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر و ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم " رواه أحمد عن حذيفة بن اليمان.

على أن المنكر ظاهرة قبيحة شنيعة تشيع من خلالها المفاسد والشرور والآثام بما يفضي بعد ذلك إلى فساد المجتمع وتفككه واضطرابه - فما من مسلم مكلف إلا وقد نيطت به وجيبة النهي عن المنكر من غير تعثر ولا تردد ولا خور - وإنما يأتي ذلك من خلال أساليب ثلاثة، أولها: النهي عن طريق الحجة الدامغة والبيان المؤثر الساطع - وسبيل ذلك اللسان.

وثانيها: القسر والشدة - وذلك للحيلولة دون وقع المنكر وكيلا يجترئ العصاة والأشرار على إتيان المحظورات وانتهاك الحرمات، وذلك إذا لم تجد الدلائل والبراهين والحجج - وسبيل ذلك القوة.

وثالثها: الامتعاض والإحساس بالغضب والمضاضة وكراهية ما يصنعه الآثمون الخاطئون من معاص ومنكرات - وسبيل ذلك القلب - وهو أن تشمئز نفس المسلم وتتغيظ من الفساد والمفسدين وذلك إذا لم يقتدر أن ينهى عن المنكر بشيء مما بيناه، لفرط ما يجده من ضرر محدق متوقع ربما أودى به أو ألحق به أذى لا يطاق، لو أنه تصدى للعصاة بالحجة الصريحة أو القسر والشدة - وفي ذلك كله روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطعه فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ".

قال ابن عطية في هذا الصدد: الإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين - فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه.

وعلى هذا فكراهية المنكر مجزية في تبرئة المسلم من الخطيئة حتى لو شهد العصاة متلبسين بها - فما دام قلبه حافلا بالامتعاض والألم مما

يفعله العصاة الفاسقون كان بريئا وغير مقصر - أما لو لم يشهد المنكر لكنه قد علم به فرضيه ولم يتمعر وجهه غضبا ولا غيظا كان شريكا في الإثم - وفي هذا أخرج أبو داود عن ابن عميرة عن النبي الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها – وقال مرة – فأنكرها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها " - ولا ينبغي للمسلمين – والعلماء خاصة – أن يخذلهم الخوف فينثنوا عن الصدع بالحق أمام الحكام والأمراء، بل عليهم أن يجهروا بذلك في صراحة وشمم، كيلا يحتسبوا من الحائرين والمخذولين والجبناء - وفي هذا روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه ".

قوله: {لبئس ما كانوا يفعلون} اللام للقسم وبئس فعل جامد للماضي - ما اسم موصول بمعنى الذي في محل رفع - وتقديره: لبئس الذي كانوا يفعلون ١٦٢.

وذلك تقبيح لسوء ما فعله الكافرون من بني إسرائيل - وهو عدم تناهيهم عما كان يجري بينهم من منكر - وفي ذلك تنديد غليظ زاجر بكل من يمسك عن الأمر بالمعروف وينثني دون النهي عن المنكر.

٨٠ - (تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

{ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا} المراد بالكثير منهم كعب بن الأشراف وأصحابه من اليهود - والمراد بالذين كفروا المشركون في مكة - فقد ذكر أن فريقا من اليهود خرجوا إلى مكة ليتفقوا مع مشركيها على محاربة الرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

وقيل في تأويل الآية: إن الكثير من علمائهم وقادتهم يوالون الجبارين والطغاة ويزينون لهم أعمالهم كيما ينفذوا خططهم ويتمكنوا من تحقيق مآربهم وأهوائهم.

قوله: {لبئس ما قدمت لهم أنفسهم} أي لبئس ما قدموه من عمل ليجدوا جزاءه في الآخرة.

قوله: {أن سخط الله عليهم} الجملة هي المخصوص بالذم في محل رفع - كما تقول: بئس رجلا زيد - فزيد مخصوص بئس مرفوع - وفي رفعه وجهان - أحدهما: أن يكون مبتدأ، وخبره بئس ومعمولها، وثانيهما: أن يكون (المخصوص) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو زيد - أو هو {أن سخط الله عليهم} ١٦٣ وسخط، أي غضب - والسخط ضد الرضا وهو الغضب ١٦٤.

قوله: {وفي العذاب هم خلدون} الجملة في محل نصب على الحال.

والمعنى أن هؤلاء المنافقين المفسدين من اليهود قد غضب الله عليهم وأن جزاءهم أنهم مخلدون في النار أبد الآبدين.

٨١ - (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

قوله: {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء} أي لو أن هؤلاء اليهود كانوا يؤمنون إيمانا حقيقيا صحيحا بالله وبنبيه موسى وما أنزل الله إليه من التوراة كما يدعون لما اتخذوا المشركين الوثنيين أولياء، بالرغم من تحريم ذلك عليهم في التوراة، فضلا عما حواه هذا الكتاب الكريم من ذكر لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومن تحريض لبني إسرائيل على تصديقه واتباعه - وفي ذلك أبلغ دلالة على أن مراد يهود ليس تقرير التوراة أو شريعة موسى - بل كان مرادهم تحصيل الأهواء والشهوات كالمال والرياسة وغير ذلك من زخارف الدنيا وملذاتها - فهم بذلك عتاة خارجون عن دينهم الحقيقي، مستنكفون عما أمرهم به كتابهم التوراة ولذلك قال: {ولكن كثيرا منهم فاسقون} ١٦٥.

٨٢ - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)

قوله تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين ءامنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين

(٨٤) فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (٨٥) والذين كفروا وكذبوا بئايتنا أولئك أصحب الجحيم}.
نزلت هذه الآيات في وفد النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه ويروا صفاته فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه - وقيل: كانت عدة الوفد اثنا عشر، سبعة قساوسة وخمسة رهابين - وقيل: خمسون - وقيل: بضع وستون - وقيل: سبعون رجلا - والله أعلم بعدتهم.
وقيل في سبب النزول إن جعفر بن أبي طالب وأصحابه قدموا من الحبشة ومعهم سبعون رجلا بعثهم النجاشي وفدا إلى رسول صلى الله عليه وسلم عليهم ثياب الصوف، اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام فيهم بحيرا الراهب - فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة " يس " إلى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى - فأنزل الله تعالى فيهم الآيات ١٦٦.
قوله: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين ءامنوا اليهود} اللام للقسم - وعداواة تمييز منصوب - والمراد باليهود عمومهم، سواء فيهم من كان في زمن النبوة من يهود المدينة وغيرهم من يهود الأرض في كل زمان، استنادا إلى ظاهر الآية.
وقيل: المراد بهم يهود المدينة دون غيرهم - والراجح الأول وهو أن المراد سائر يهود: وهذه حقيقة تتكشف للناظر المتدبر في طبائع يهود وتاريخهم الحافل بالفظائع - وفي طليعة ذلك قتل الأنبياء، لا جرم أن قتل الأنبياء أمر جلل وشنيع ومروع تهتز من هوله الأرض والسموات، وتضطرب لسماعه المشاعر والضمائر - وغير هذه الفعلة الفظيعة قبائح شتى غاية في النكر تصم النفسية اليهودية بوصمة الشذوذ والميل عن سواء السبيل كالإفراط في حب المال والشهوات والتسلط، والإيغال في الكيد للبشرية - والتخطيط لتدمير الأديان والقيم والأخلاق الحميدة، والجنوح المغالي عن ربقة الحق والعدل والرحمة إلى حيث القسوة والظلم والكيد - فلا غرور بعد ذلك أن تكون يهود أشد عداوة للمؤمنين بما يكنوه للبشرية عامة، والمسلمين خاصة، من بالغ الكراهية والاضطغان - وبما يحيكونه لهم من أساليب ومخططات للإبادة والتخريب وتشويه الأفكار والعقائد والتصورات - وكذا القتل جهارا وغيلة - يشهد لذلك تمالؤهم على سيد الأولين والآخرين وإمام البشرية في الدنيا والآخرة، المصطفى صلى الله عليه وسلم، وذلك في محاولات مكرورة لقتله - ومن جملة ذلك قصة الشاة المسمومة التي قدمت للنبي صلى الله عليه وسلم في خيبر - فقد جاء في سيرة ابن هشام أن زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم أهدت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقيل لها: الذراع - فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأما بشر فأساغها - وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ثم قال: " إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم " ثم دعا بها فاعترفت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال في مرضه الذي توفي فيه، ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده: " يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري ١٦٧ من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر " فكان المسلمون يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة ١٦٨.
وما فتئت يهود تكيد للإسلام بالتمالؤ عليه وتأليب الأمم والشعوب من مختلف الملل على التصدي له - وذلك بمختلف الأساليب والسبل كتشويه الصورة عن هذا الدين وأهله ليستنكف عنه الناس ويزهد فيه المسلمون - وكذلك اصطناع النظريات العلمية الموهومة في التربية والنفس والسلوك بما يفضي إلى الإباحة الجنسية وتدمير الأفراد والأسر والمجتمعات والأخلاق تماما - وكان الرائد المظفر في ذلك بطل التخريب والإفساد بغير منازع اليهودي سيجموند فرويد الذي نجح نجاحا فاضحا مذهلا فيما أودى بشطر البشرية إلى التفسخ والانهيار والسقوط، فضلا عن أمراض نفسية وعضوية واجتماعية أخرى تنكل بالمجتمعات الشاردة عن منهج الله تنكيلا.

وكذلك الافتراء على المسلمين بأنهم متخلفون إرهابيون وأن الإسلام لا يصح فهو دين قد مضى زمانه وقد استنفذ أغراضه!! والله يشهد، وأولو العلم يشهدون أن هذا بهتان عظيم وافتراء ظلوم - فالإسلام دين السماحة والمرونة والصلاح واليسر - بل إنه دين الإخاء الإنساني الشامل القائم على العدل المطلق والرحمة الحقيقية الكاملة - ولسوف تظل البشرية في مسيرتها الطويلة الضالة تلهث لهث الحائر والمضطرب والمكروب حتى تفيء إلى منهج الله وهو الإسلام.

وأخيرا تلكم المؤامرة الكبرى التي قصمت ظهر الإسلام بفعل الكيد الذي برعت فيه يهود، إذ نجحت في القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية، والاستعاضة عن دستورها الإسلام بالنظم الرأسمالية العلمانية المناهضة لدين الله.

وكذلك المشركون يكنون العداوة والكراهية للإسلام والمسلمين - المشركون الذين يعبدون الأوثان على تعدد صورها وأشكالها ومسمياتها، سواء الذين يعبدون النار أو الشمس والقمر، أو المدر والحجر أو الذين يقدسون البقر، كل ذلك في غاية الحماقة والجهالة والعمه - ثم الملحدون الماديون الذين ينكرون الإلهية - أولئك جميعا كافرون ضالون ظالمون - لقد ظلموا أنفسهم وعقولهم، إذ جعلوها حبيسة العناد والصلف والمكابرة فباتت مشلولة شائهة لا تعي ولا تتدبر إلا ما تمليه الغريزة العمياء والطبع الخسيس {أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}.

إن هذا الصنف من الناس بعيد عن الحق - فهو بذلك يستمرئ الخطيئة والظلم والباطل ويشمئز من الخير وأهله، لما خالط فطرته من تلويث وإفساد ومرض - فهو بالضرورة يجد نفسه مسوقا في طريق الشيطان حيث الشر والعدوان - الطريق المخالف لطريق الإسلام.

قوله: {ولتجدن أقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا إنا نصارى} بينا أن هذه الآية نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه وليروا صفاته - فلما سمعوا القرآن بكوا وخشعوا ورقت له قلوبهم فأعلنوا إسلامهم - وعلى هذا فإن تأويل هذه الآية يبينها سبب النزول وهو إسلام قوم من النصارى قد صفت نفوسهم وطبائعهم من الفساد والتعصب - فما أن سمعوا القرآن ووجدوه مطابقا في معانيه ومقاصده لما في الإنجيل أيقنوا أنه حق، وأنه منزل من عند الله فأسلموا - وقد قيل: نزلت الآية في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، فلما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا به فأثنى الله عليهم.

وبذلك فإن المراد من النصارى الذين هم أقرب الناس مودة للمسلمين هم الذين نزلت الآية في حقهم، وكل الذين على شاكلتهم من براءة الطبع وخلوص القلب من الكراهية والشرك - أولئك الذين زعموا أنهم نصارى ومن أتباع المسيح - فلقد كان فيهم إذ ذاك مودة الإسلام والمسلمين وما ذاك إلا لما كان في قلوبهم من رقة ولين ورأفة، لأنهم كانوا على المسيحية الصادقة السمحة - المسيحية الخالصة المبرأة من التحريف والتزييف - ولا يعقل أن ينطبق ذلك على الخلائف من النصارى الذين جاءوا فيما بعد والذين ربوا على الديانة المحرفة والأناجيل الكظيظة بالتغيير والتبديل والتي غالت في إفراط مشين في إطراء المسيح حتى نصبت منه الإله المعبود - فضلا عن النكران الظالم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم - بل إن النصارى كانوا وما فتئوا يعادون الإسلام والمسلمين ويرصدون لهم كل سبيل لتدميرهم وإضعافهم وتشتيت وحدتهم وصفهم، وإبادتهم إن استطاعوا.

إن النصارى في العصور الوسطى كانوا وما فتئوا في زماننا هذا يناصبون المسلمين العداء فيبادرونهم التقتيل والتشريد والاستئصال - لقد ساموا المسلمين في مختلف البلدان الويلات وأذاقوهم أشد ألوان التنكيل والبطش ليدمروهم تدميرا - وخطب الأندلس المذهل أعظم شاهد من شواهد الويل والثبور والمرارة على ما حاق بالمسلمين على أيدي الصليبيين الحاقدين - إلى غير ذلك من صور الاستعمار البغيض المشؤوم الذي أذاق المسلمين كؤوس العذاب والهوان والقهر ما يتجاوز كل حسبان - هؤلاء هم نصارى الأناجيل المحرفة، من شعوب الظلم والعدوان الصارخ على المسلمين والنصارى الذين نتبرأ منهم المسيحية السمحة ويتبرأ منهم النبي الطهور عليه السلام - خلافا للفئة الطيبة المحدودة من نصارى الحبشة الذين استجابوا لنداء الحق، خير استجابة - وذلك لما سمعوا القرآن.

قوله: {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون} أي كونهم أقرب مودة للذين آمنوا بسبب أن {منهم قسيسين ورهبانا} والقسيسون هم علماء النصارى ورؤساؤهم، ومفرد القسيسين، قس - والرهبان جمع راهب، من الرهبنة والرهبانية، والترهيب بمعنى التعبد في صومعة - وأصله من الرهبة وهي المخافة - وفي الحديث " لا رهبانية في الإسلام " وأصلها من الرهبة وهي الخوف - والمراد بها

التخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها واعتزال أهلها - قوله: {وأنهم لا يستكبرون} أي وبأنهم لا يستنكفون عن الانقياد للحق إذا استمعوا إليه ووعوه.

٨٣ - (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

قوله: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق} الجملة معطوفة على قوله: {لا يستكبرون} أي وبسبب أنهم إذا سمعوا القرآن تفيض أعينهم بالدمع - وذلك لرقة قلوبهم وشدة خوفهم من الله ومسارعتهم إلى قبول الحق إذا سمعوه - والمراد بهم الذين قالوا إنا نصارى - وهم الذين جاءوا من الحبشة إلى النبي صلى الله عليه وسلم - وكذا من كانوا على شاكلتهم من النصارى غير الضالين المشركين الذين اتخذوا المسيح إلها - فهم العابدون لله على المسيحية السليمة المبرأة من التحريف والذين يبادرون الانقياد لله والإذعان لما جاء به القرآن الحكيم - وهو تأويل {مما عرفوا من الحق} أي أن فيض دموعهم لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم لهو من كتاب الله الذي أنزله على رسوله وأنه حق - وقيل: مما عندهم من عرفان بالبشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، والمراد بهم النجاشي وأصحابه من الموحدين العابدين لله على المسيحية الصحيحة، وهذا ما بيناه آنفا.

قوله: {يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} الجملة {يقولون} في محل نصب على الحال من ضمير {عرفوا} أي هؤلاء الذين تفيض أعينهم دمعا لما أيقنوا أنه حق، يقولون يا ربنا صدقنا ما سمعنا وهو الذي أنزلته على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأقررنا به أنه من عندك وأنه حق لا ريب فيه {فاكتبنا مع الشاهدين} أي اكتبنا مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

٨٤ - (وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

قوله: {وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق} لا نؤمن، في محل نصب على الحال - والاستفهام إنكاري واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمع في الدخول في زمرة الصالحين - وقيل: إنهم كانوا فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم " فقال: لن ننتقل عن ديننا - فأنزل الله ذلك من قولهم {وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق}.

قوله: {ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين} واو نطمع للحال - والجملة في موضع النصب على الحال - أي ونحن نطمع بإيماننا هذا أن يدخلنا ربنا مع المؤمنين بالله المطيعين له، المستحقين بطاعتهم جنته - وقيل: المراد بالقوم الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

٨٥ - (فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} أي أن الله جازاهم بتحقيق مرادهم وما طمعوا فيه بسبب ما قالوه أو تكلموا به عند اعتقاد ويقين وإخلاص - وجزاؤهم النعيم الدائم في جنات الخلد التي لا تزول ولا تحول.

٨٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

قوله: {والذين كفروا وكذبوا بئايتنا أولئك أصحب الجحيم} الجحيم بمعنى النار الشديدة الاتقاد والتأجج - وهي كل نار بعضها فوق بعض ١٦٩ والمراد هنا عامة الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم ممن لا دين لهم - فهؤلاء جميعا جحدوا عقيدة التوحيد لله وكذبوا بكتاب الله الحكيم - فلا جرم أن جزاءهم أنهم {أصحب الجحيم} وفي إضافة الأصحاب للجحيم مدلول لاذع يشير إلى فظاعة التعذيب الواصب الذي لا يزول ١٧٠.

٨٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٨٧) وكلوا مما رزقكم الله حللا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون}.

قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فذكر الناس ووصف القيامة وبالغ في الإنذار

والتحذير فرق الناس وبكوا فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي منهم أبو بكر وعلي وابن مسعود وابن عمر وأبو ذر، واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا ينامون على الفرش، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ١٧١ ويترهبوا ويجبوا المذاكير، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم فقال: " ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا؟ " فقالوا: بلى يا رسول الله - وما أردنا إلا الخير - فقال: " إني لم أومر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقا، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا - فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم الدسم، ومن رغب عن سنتي فليس مني " ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال: " ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا - أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع - وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد - واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا - وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان - فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع " فأنزل الله تعالى الآية - فقالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها وكانوا حلفوا على ما عليه اتفقوا - فأنزل الله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم} ١٧٢.

وهذه الآية تتضمن ردا صريحا على الغلاة من المتزهدين والمتصوفين الذين عدلوا عن طريق الشريعة المستقيم - الطريق الميسور الحكيم الذي يقف بين الإفراط والتفريط - فلا هو بإفراط يهود ولا بتفريط النصارى - وإنما هو المنهج القائم المعتدل الوسط الذي يراعي فطرة الإنسان خير مراعاة وينسجم وطبيعته النفسية والروحية والعضوية أكمل انسجام - خلافا للغلاة من الزهاد والمتصوفة الذين ركنوا إلى الشطط والمغالاة، ومضوا في طريق التزمت والتنطع على غير ما تقرره شريعة الإسلام من بساطة وتيسير - ومن جملة التنطع والمغالاة تحريم ما أحل الله، وإيثار الخشونة والشظف على التنعم والاستمتاع باللذائذ المباحة من غير ما حجة في ذلك ولا برهان، إلا الجنوح صوب التزهد المشتط أو التصوف المغالي رغبة في تعذيب النفس - والحقيقة التي يقررها الإسلام أنه لا مساغ لأحد من المسلمين أن يعذب نفسه بتحريم شيء أحله الله وهو يزعم خاطئا أنه يتقرب بذلك إلى الله - وليس ذلك في الحقيقة إلا الوهم أو الجهل الذي يراود أحلام هؤلاء الشاطحين الجانحين عن جادة الإسلام، الهائمين في متاهات الجهالة والزلل - وخير دليل على سواء ١٧٣ الإسلام قوله سبحانه {يا أيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم} أي لا تمنعوا أنفسكم ما طاب ولذ من حلال المطعومات والمشروبات والملبوسات والمناكح وغير ذلك من وجوه اللذائذ المستطابة المباحة - ومعنى لا تحرموا، أي لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا على سبيل المبالغة في العزم على تركها تزهدا وتقشفا - وقيل: لا تلتزموا تحريمها بنذر أو يمين.

وفي جملة المقصود عن سهولة الشريعة وقيامها على السواء يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة " ١٧٤.

قوله: {ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} أي لا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم - وقيل: لا تسرفوا في تناول الحلال، فإنه لما أباح الطيبات حرم الإسراف فيها بقوله تعالى: {ولا تعتدوا} ونظير ذلك قوله: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا} فيكون المعنى: لا تعتدوا في تناول الحلال بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الجد فيه.

وقيل: لا تحرموا على أنفسكم المباحات مبالغة منكم في التضييق على أنفسكم فإن ذلك اعتداء منكم - والله سبحانه وتعالى يبغض المتجاوزين لحدود ما أحله لهم، المجانبين للسبيل الأمثل وهو الانتفاع بالحلال والطيبات في قصد واعتدال من غير إفراط ولا تفريط.

٨٨ - (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

قوله: {وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا} حلالا مفعول به للفعل {كلوا} ويحتمل أن تكون {حلالا} حالا لاسم الموصول - والآية تتضمن إباحة التمتع بكل الطيبات من الأكل والشرب واللباس والركوب وغير ذلك - وخص الأكل بالذكر لأنه أغلب وجوه الانتفاع - أي اكلوا مما حل لكم وطاب من ضروب الانتفاعات قوله: {واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} أي خافوا فلا تتعدوا حدوده فتحلوا ما حرم عليكم أو تحرموا ما أحل لكم، واحذروا أن تخالفوا أوامره ونواهيه فهو إلهكم الذي آمنتم به ١٧٥.

٨٩ - (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم ءاياته لعلكم تشكرون}.

روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم وحلفوا على ذلك، فلما نزلت {لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم} قالوا: كيف نصنع بأيماننا؟ فنزلت هذه الآية ١٧٦.

تتضمن هذه الآية أحكام اليمين - وهي في اللغة بمعنى القوة - ومنه قوله تعالى {لأخذنا منه باليمين} أي بالقوة واليمين مفرد - وجمعه أيمن بالضم وأيمان - واليمين في الشرع: عقد يتقوى به عزم الحالف على الفعل أو الترك ١٧٧ ويتبين من الآية أن ضروب اليمين ثلاثة هي: يمين اللغو، واليمين الغموس، واليمين المنعقدة - ونعرض لكل واحد من هذه الضروب بإيجاز فإن التفصيل في مظانه من كتب الفقه.

يمين اللغو

اللغو، أو اللغا، بوزن الفتى، هو السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره - والمراد به هنا ما يجري في العادة على لسان الحالف من قسم لا يريده ولا يقصد معناه ولم تنعقد عليه النية - كما لو قال: لا والله - أو بلى والله.

وتبين الآية أنه لا إثم على المرء في يمين اللغو - وهو ما يبدر منه بغير قصد كقول الرجل: لا والله - بلى والله - وهو قول الشافعية - قالت السيدة عائشة في ذلك: أيمان اللغو ما كان المراء والمزاحة والهزل، وروى الموطأ عنها أنها قالت: لغو اليمين قول الإنسان: لا والله - وبلى والله.

أما الحنفية فقالوا: يمين اللغو هي اليمين الكاذبة خطأ أو غلطا في الماضي أو في الحال، سواء في الإثبات أو النفي - وذلك كأن يقول الرجل: والله ما كلمت فلانا، وهو يظن أنه لم يكلمه وقد كلمه - أو يقول: والله لقد كلمت فلانا وهو يظن أنه كلمه لكنه في الحقيقة لم يكلمه - أو حلف أن هذا القادم فلان أو أن هذا الطائر غراب وهو يظن أنه كذلك ثم تبين أنه خلاف ما ظن - ومثل هذه الأيمان لغو - وهو مذهب الإمام مالك في المقصود باللغو - فقد ذكر عنه قوله: اللغو في اليمين أن يحلف على الشيء يظن أنه كذلك - كقوله: والله لقد لقيت فلانا أمس، وذلك يقينه - وإنما لقيه قبل ذلك أو بعده فلا شيء عليه في ذلك لكونه لغوا، واستدلوا لذلك بالآية {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان} فقد قابل يمين اللغو باليمين المقصودة وفرق بينهما في المؤاخذة وفي نفيها - ومقتضى ذلك أن تكون يمين اللغو غير اليمين المعقودة تحقيقا للمقابلة ١٧٨.

يمين الغموس

هي اليمين الكاذبة قصدا في الماضي والحال نفيا أو إثباتا - كقوله: والله ما فعلت كذا، وهو يعلم أنه فعله - أو يقول: والله لقد فعلت كذا، وهو يعلم أنه لم يفعله.

وسميت يمين الغموس بهذا الإسم، لأنها تغمس صاحبها في الإثم أو النار - فهي بذلك فاجرة وضرب من ضروب الزور، أو الازوار، أي العدول والانحراف عن الحق والصدق - وبذلك فإن اليمين الغموس واحدة من أكبر الكبائر التي حذر منها الدين وشدد عليها النكير وندد بها تنديدا.

فقد أخرج الترمذي عن عبد الله بن أنيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أكبر الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس - والذي نفسي بيده لا يحلف رجل على مثل جناح بعوضة إلا كانت كيا في قلبه يوم القيامة " وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع ".

وأضاف الإمام مالك إلى يمين الغموس ما لو حلف وهو غير متيقن مما حلف عليه - وذلك كأن يقول: والله ما لقيت فلانا أمس،

وهو لا يقين له في ذلك - أو لا يعرف حين الحلف أنه لقيه أمس أو لم يلقه - ثم تبين له بعد ذلك أنه خلاف ما أقسم عليه - فإن ذلك كمن حلف عامدا للكذب - وعليه أن يستغفر الله، لأن هذه اليمين أعظم من أن يكون لها كفارة ١٧٩.
أما الكفارة في اليمين الغموس ففي وجوبها قولان:
أحدهما: عدم وجوب الكفارة في اليمين الغموس - وهو قول أكثر أهل العلم - وقد ذهب إلى ذلك الحنفية والمالكية والحنابلة وأصحاب الحديث وغيرهم من الصحابة والتابعين - واستدلوا لذلك من النصوص ما فيه وعيد للحالفين الكاذبين بأن مصيرهم إلى النار - كقوله تعالى: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة} وقوله صلى الله عليه وسلم: " من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مالا لقي الله وهو عليه غضبان " يستدل من ذلك أن موجب اليمين الغموس العذاب في الآخرة، فمن أوجب الكفارة فقد زاد على النص وهو لا يجوز.
واستدلوا من المعقول أيضا بأن اليمين الغموس من الكبائر التي لا تمحوها الكفارة، لأنها أكبر من أن تكفرها كفارة ولا يمحوها غير التوبة والندامة والاستغفار ١٨٠.
القول الثاني: وجوب الكفارة في اليمين الغموس - وهو قول الشافعية وآخرين وهو مذهب أهل الظاهر - والدليل على وجوب الكفارة في الغموس من المعقول إذ قال الإمام الشافعي: إن اليمين الغموس معتبرة يمينا منعقدة وهي مندرجة فيها - والله سبحانه وتعالى يقول في وجوب الكفارة في الأيمان المنعقدة: {ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين} وهذا يعم الماضي والمستقبل - وتعلق الإثم لا يمنع وجوب الكفارة، كما أن الظهار منكر من القول وزور وتتعلق به الكفارة - وأجيب عن الاحتجاج بكفارة الظهار بأنها لا تجب بنفس الظهار، بل بالعودة إلى الوطء بعد الحلف بالظهار - والراجح قول جمهور أهل العلم وهو عدم وجوب الكفارة في الغموس لما ذكره من دليل - ويضاف إلى ذلك الاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم: " خمس من الكبائر لا كفارة فيهن " وعد منها اليمين الفاجرة - وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " خمس ليس فيهن كفارة: الشرك بالله - وقتل النفس بغير حق، وبهت المؤمن، والفرار من الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق " ١٨١.
اليمين المنعقدة
هي اليمين على شيء في المستقبل نفيا أو إثباتا - وكيفيتها أن يعقد الحالف قلبه على شيء مع قصد اليمين فإذا حلف وجب في حقه كفارة - وذلك كأن يقول: والله لأفعلن كذا وكذا - أو يقول: والله لا أفعل كذا وكذا - فمثل هذه اليمين قد قصدها الحالف وانعقد قلبه فلزمته بذلك كفارة عن يمينه إذا حنث، أو قبل الحنث، على الخلاف.
قال الماوردي في هذا: للكفارة ثلاث حالات: أحدهما قبل الحلف فلا تجزئ اتفاقا - ثانيها: بعد الحلف فتجزئ اتفاقا - ثالثها بعد الحلف وقبل الحنث ففيها الخلاف ١٨٢.
على أن الكفارة من أجل الحنث في اليمين المعقودة واجبة استنادا إلى قوله تعالى: {ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم}.
بما عقدتم الأيمان، أي بسبب تعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد والنية - فتكون ما هنا مصدرية، لأن الكلام هنا في مقابلة اللغو، إذ ليس فيه قصد أو تعقيد للنية.
ويستدل كذلك من السنة بما أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا عبد الرحمن بن سمرة إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك ".
وكذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها " وفي لفظ " إلا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير " وفي لفظ " إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني " وذلك يدل على وجوب الكفارة بسبب الحنث في اليمين المنعقدة على أمر في المستقبل.
أما هل يجوز التكفير قبل الحنث فثمة قولان:
الأول: جواز التكفير قبل الحنث - وهو مذهب الجمهور - واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: " إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو

خير " وهذا يدل على جواز التكفير قبل الحنث - واستثنى الإمام الشافعي الصيام في التكفير قبل الحنث - ومع ذلك فهم يذهبون إلى أن التكفير بعد الحنث أفضل من التكفير قبله.
القول الثاني: عدم جواز التفكير قبل الحنث - وهو قول الحنفية - واستدلوا بظاهر الآية {ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم} والمراد: إذا حلفتم فحنثتم - ورد ذلك بأن المقصود: إذا حلفتم فأردتم الحنث ١٨٣.
الكفارة
الكفارة من الكفر – بالفتح – بمعنى الستر والتغطية - سمي الليل المظلم كافرا، لأنه يستر بظلامه كل شيء - وسمي الكافر بهذا الاسم، لأنه يستر نعمة الله أي يجحدها - ويطلق الكافر على الزارع، لأنه يغطي البذر بالتراب - والكفار يراد بهم الزراع - قال الله سبحانه: {كمثل غيث أعجب الكفار}.
والكفارة في الشرع تعني الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة - أي تسترها ١٨٤.
على أن أصناف الكفارة لليمين أربعة هي: الإطعام والإعتاق ثم الصيام بعد ذلك.
والحالف إذا حنث بيمينه كان له الخيار بين الإطعام والكساء والإعتاق - فواحد من هذه الخيارات يجزئ في التكفير عن الحنث في اليمين فإذا لم يستطع أن يكفر بواحد من هذه الخيارات كان له أن يصوم أياما ثلاثة - ويستفاد ذلك من قوله في الآية {أو} فإنها تفيد التخيير بين أن يطعم أو يكسو أو يعتق رقبة - قال ابن عباس في معنى {أو: ما في كتاب الله {أو} فهو مخير فيه - على أنه لا يجوز للحانث أن يكفر بالصيام إلا بعد العجز عن الخيارات الثلاثة الأولى - وذلك لقوله: {فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام}.
قوله: {إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم} ويشترط في المساكين الذين يطعمون تحقق أربعة شروط وهي: الحاجة والحرية والإسلام وأن يكونوا من الأباعد.
أما الحاجة فهي أن يكون المسكين فقيرا معوزا محتاجا للصدقة ونحوها.
وأما الحرية فهي أن يكون المساكين أحرارا، فلا تجزي الكفارة في العبيد، لأن في دفعها لهم مظنة الدفع لمالكيهم.
وأما الإسلام فهو شرط آخذ الكفارة - فلا يجزي أداؤها غير المسلمين وإن كانوا فقراء، وإنما تضطلع الدولة الإسلامية بإعطاء غير المسلمين ما يكفيهم من بيت المال من غير الزكاة ولا الكفارات - وهو مذهب الجمهور - خلافا للحنفية، إذ قالوا بجواز دفعها لهم استنادا إلى عموم الآية، ولأن المسكين غير المسلم معتبر من أهل دار الإسلام فهو في ذلك كالمسلم.
وأما اشتراط البعد، وهو أن يكون الآخذون من الأباعد غير المنفق عليهم وجوبا وهم الأصول والفروع والزوجات فهؤلاء لا يعطون من كفارة اليمين - قال الشافعي في هذا الصدد: ويعطي الكفارات والزكاة كل من لا تلزمه نفقته من قرابته وهم من عدا الوالد والزوجة - وإن كان ينفق عليهم متطوعا أعطاهم - وهو قول أكثر العلماء ١٨٥.
أما مقدار ما يعطاه الواحد من المساكين العشرة فقد تبين في الآية مجملا غير مفصل وهو قوله تعالى: {من أوسط ما تطعمون أهليكم} فموضع الاستدلال هنا قوله: {من أوسط ما تطعمون أهليكم} فقد اختلفت كلمة العلماء في مقدار الطعام - فقد قيل: يجزي في الخبز والتمر، أو الخبز والزيت، أو الخبز والسمن - أو الخبز واللحم - وقيل: أفضل الإطعام الخبز واللحم - وأوسطه الخبز والسمن وأخسه الخبز والتمر.
وجملة القول في ذلك أن يغذي كل مسكين من العشرة أو يعشيه فيقدم له من الطعام من أوسط ما يطعمه المرء أهله - والأوسط هو الأقصد في النوع أو المقدار.
وهو عند الشافعية والمالكية والحنبلية وآخرين مد من حنطة لكل مسكين - وإن كان أهل البلد يقتاتون صنفا من الطعام وهو لهم عرف، أجزأ صرف الكفارة منه، وذلك كأن يكون قوتهم الذرة أو الأرز أو التمر أو الزبيب - أما عند الحنفية فمقدار الكفارة نصف صاع من حنطة أو دقيق أو صاع من شعير أو تمر.
وأما إعطاء القيمة عن مقدار الكفارة فلا يجوز عند جمهور الشافعية والمالكية والحنبلية، خلافا للحنفية، إذ قالوا بجواز إعطاء القيمة عن الكفارة ١٨٦.

ويشترط تمام العدد لصحة الكفارة بالإطعام، وهو عشرة مساكين - وهو قول الشافعية والمالكية وآخرين - فقد ذهبوا إلى أنه لا يجزي في التكفير إلا إطعام عشرة - قال الشافعي في الأم: ليس له إذا كفر بإطعام أن يطعم أقل من عشرة - وإن أطعم تسعة وكسا واحدا كان عليه أن يطعم عشرا أو يكسو تسعة - واحتجوا بظاهر الآية {إطعام عشرة مساكين - - - أو كسوتهم} وبذلك لا يجوز للمكفر أن يردد على مسكين واحد عشرة أيام، بخلاف الحنفية قالوا: يجوز له أن يردد الكفارة على مسكين واحد عشرة أيام، بخلاف الحنفية قالوا: يجوز له أن يردد الكفارة على مسكين واحد في عشرة أيام، لكنه لا يجوز له أن يدفعها له في يوم واحد - وهي رواية على أحمد ١٨٧.

الكساء

الكساء أو الكسوة مستفاد من قوله تعالى: {أو كسوتهم} عطف على إطعام - وهذا الصنف الثاني من أصناف الكفارة من أجل الحنث - واختلف العلماء في تقديره الكسوة المجزئة التي يؤديها المكفر للمستحق بشروطه من الفقر والحرية والإسلام والبعد وهو ما بيناه في الإطعام - فقد ذهبت الحنفية والمالكية والحنبلية وآخرون إلى تقدير الكسوة في كفارة اليمين بما يجزئ للصلاة وهو ما كان ساترا للعورة - فإن كان السكين رجلا أجزأ من الكسوة في حقه ثوب ساتر تصح به الصلاة - وإن كانت امرأة أجزأ في حقها خمار ودرع وهما يستران عورتها فتصح بهما الصلاة - أما ما كان دون ذلك من الكسوة مما لا تصح به الصلاة فلا يجوز التكفير به سواء في حق الرجل أو المرأة.

وعند الشافعية يجزئ من الكسوة كل ما وقع عليه اسم كسوة كما لو كان عمامة أو سراويل أو إزار أو مقنعة أو غير ذلك للرجل أو للمرأة، استنادا إلى عموم النص {أو كسوتهم} فكل ما وقع عليه اسم كساء سمي كسوة حتى لو منديلا أو نعلا أو منطقة ١٨٨.

الإعتاق

وهذا واحد من خصال الكفارة الثلاث - ويراد به تحرير رقبة استنادا إلى قوله سبحانه: {أو تحرير رقبة} ويراد بالتحرير هنا الإخراج من الرق - ويشترط في الرقبة المحررة جملة شروط هي: الإيمان - فلا يجزئ إعتاق غير المؤمنة من الرقاب، وهو قول مالك والشافعي، خلافا لمذهب الحنفية إذ لم يشترطوا الإيمان لجواز الإعتاق - وحجتهم في ذلك إطلاق الرقبة في الآية - وبذلك فأيما رقبة تجزئ من أجل التكفير للحنث.

وشرط ثان وهو الكبر - وهو أن يتجاوز المعتوق سن الطفولة إلى السن التي يقدر عندها أن يصلي ويصوم - أي السن التي يكون معها مكلفا فتصح منه العبادة - وهو قول الحنبلية، خلافا للحنفية والشافعية إذ لم يشترطوا الكبر، فيجزئ عندهم إعتاق الصغير والكبير.

وشرط ثالث، وهو السلامة من العيوب، فلا يجزئ إعتاق من كان معيبا كمقطوع اليد والرجل أو المجنون أو الأعمى أو الأبكم أو الأصم ١٨٩.

ولا ينبغي أن نسهب أكثر من هذه العجالة في مسألة الرقيق - فهي مسألة قد مضت وانقضت - ومع ذلك ما فتئت أقلام مريبة تنبري للنيل من كرامة الإسلام بالطعن والتجريح، خصوصا من أجل هذه المسألة - وهي أقلام متجنية وغاشمة تجتهد في اختلاق الأباطيل عن الإسلام لتزهد فيه البشرية أو تتردد في الإقبال عليه - مع أن المسألة ظاهرة وبينة لكل ذي قلب سليم ولكل ذي طبع غير ذي عوج - فكثيرا ما بينا أن ظاهرة الرقيق كانت واحدة من الظواهر العادية والمقبولة التي قررتها الأعراف والقوانين والمجتمعات عبر تاريخها الطويل كله - فما من شريعة ولا نظام ولا قانون ولا عرف إلا وقد أقر ظاهرة الرق إقرارا يعبر عن قناعة البشرية في كل الأزمان والأجيال من غير خلاف في ذلك ولا استنكاف - سواء في ذلك الساسة والقادة والممفكرون والمشرعون والفلاسفة - وكذا الديانتان اليهودية والمسيحية - كل أولئك قد أقروا نظام الرقيق دون غرابة أو تردد - حتى جاء الإسلام، فما كان من المعقول أن يقضي على هذا النظام بجملة واحدة بجرة قلم - أو بنص من النصوص، لأن نظام الرقيق كان الأساس الركين من أسس المجتمع على امتداد التاريخ - بل هو الأساس الأكبر للبناء النفسي والاجتماعي والاقتصادي لكل المجتمعات الغابرة - فكان هذا النظام بذلك متأصلا مستشريا في أعماق المجتمعات السابقة - وشأن الإسلام في معالجة هذه القضية أن يحرم أسباب الاسترقاق كالظلم والاستبداد واسترقاق الدائن للمدين المعوز لعجزه عن أداء الدين - وغير ذلك من وجوه التعسف التي تبرر للظالمين أن يستعبدوا الأحرار.

وطريقة الإسلام في التحرير واضحة ومؤثرة - وهي تسهم إسهاما عظيما في تحرير العبيد، كالتحريض على الإعتاق تكفيرا للخطايا، أو

الإعتاق من غير سبب ابتغاء مرضاة الله - لا جرم أن الإسلام فاق عامة النظم والقوانين والشرائع والأعراف التي عرفتها البشرية في معالجة هذه الظاهرة من أجل تحرير العبيد خلافا لما سبق الإسلام من ديانات ودساتير وقوانين وشرائع قد مردت على ترسيخ هذا النظام (الرق) وتقريره - فلا مجال بعد ذلك لجهول زنديق أن يجترئ على الإسلام بمقالة سوء وباطل - فإنه لا يجتزئ على الإسلام بطعن أو غمز إلا خراص أو خصيم مضطغن مغرض.

التكفير بالقيمة

هل يجوز إعطاء قيمة الكفارة للمساكين كأن تكون من الدراهم أو الدنانير بدلا من الطعام أو الكسوة أو الرقبة؟ ثمة خلاف بين العلماء في ذلك - فقد ذهب جمهور الشافعية والمالكية والحنبلية وأهل الظاهر إلى عدم جواز التكفير بالقيمة - وهو قول كثير من السلف من الصحابة والتابعين واحتجوا بظاهر الآية، إذ يتعين فيها الإطعام والكساء والعتق - وذهبت الحنفية وآخرون إلى جواز التكفير بالقيمة - ووجه ذلك أن المقصود بالكفارة دفع حاجة المسكين ويتحقق ذلك بدفع القيمة له ١٩٠.

التكفير بالصيام

إذا لم يكن في المقدور التكفير بواحد من الخصال الثلاث جاز التكفير بالصيام ثلاثة أيام - وذلك مقتضى قوله تعالى: {فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام} أي من لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاثة من الإطعام أو الكسوة أو العتق، كفر بالصوم، على الخلاف في التتابع - فقد ذهب فريق من أهل العلم إلى اشتراط التتابع في صوم الكفارة - وهو مروي عن علي وعطاء ومجاهد - وقالت به الحنفية والحنبلية وآخرون - وحجتهم في ذلك قراءة ابن مسعود " فصيام ثلاثة أيام متتابعات " وقياسا على الصوم في كفارة الظهار.

وذهبت الشافعية والمالكية إلى عدم اشتراط الولاء (التتابع) في صوم الكفارة للحنث، استنادا إلى مطلق النص، وإلى القياس على قضاء الصيام من رمضان للمعذورين لقوله تعالى: {فعدة من أيام أخر} فلم يشترط فيها التتابع - والراجح عدم التتابع، وذلك لضعف الاحتجاج بقراءة ابن مسعود فهي منسوخة من حيث التلاوة والحكم ١٩١.

وقوله: {ذلك كفرة أيمانكم إذا حلفتم} ذلك إشارة إلى ما تقدم ذكره من الطعام والكسوة وتحرير الرقبة - أي ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم وحنثم، لأن الكفارة لا تجب بمجرد الحلف.

قوله: {واحفظوا أيمنكم} أي راعوها بالمبادرة إلى ما لزمكم من الكفارة إذا حنثم - وقيل: احفظوا أنفسكم بترك الحلف كيلا تتوجه عليكم هذه التكليفات - وقيل: المراد، قللوا الأيمان ولا تكثروا منها.

قوله: { كذلك يبين الله لكم ءايته لعلكم تشكرون} أي مثل ذلك البيان يوضح الله لكم أعلام دينه وأحكام شريعته لتشكروه على هدايته إياكم وتوفيقه لكم وما أسبغ عليكم من نعمة التعليم والتبيين وغيره من النعم ١٩٢.

٩٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: {يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون (٩١) وأطيعوا الله وطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا المبين} روى الإمام أحمد في سبب نزول هذه الآية عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في البقرة {يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير} فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا - فنزلت الآية في سورة النساء {يا أيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وأنت سكارى} فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا - فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى {فهل أنتم منتهون} قال عمر: انتهينا - وقيل في أسباب نزول الآية أقوال أخرى ١٩٣.

والخمر في اللغة يذكر ويؤنث فيقال: هو الخمر، أو هي الخمر - وهي اسم لكل مسكر خامر العقل أي ستره وغطاه - نقول: اختمرت الخمر أي أدركت وغلت - وخمرت الشيء تخميرا أي غطيته وسترته - والخمار ما يغطي رأس المرأة - والخمرة من المخامرة أي المخالطة ١٩٤.

والخمرة واحدة من كبريات المعاصي والذنوب التي ندد بها الإسلام تنديدا وشدد عليها التشنيع والنكير - فهي أم الخبائث ومثار الخطايا

والموبقات - إذ تصير بالعقل إلى الزوال لينفلت السكران بذلك من ربقة الوعي والإدراك والضبط فيتيه في عمه واضطراب وتخبط، وهو يغمره الهذيان والحماقة - ذلك هو السكران المألوف المستخف الذي استهوته الخمرة فأسلس لها القياد فمضى تائها في زمرة المخمورين والمخبولين.

وفي التحذير من شرب الخمر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " ثلاثة لا ينظر إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه والمدمن الخمر والمنان بما أعطى " رواه النسائي عن عمر بن محمد بن محمد العمري.

وروى أحمد عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ".

وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم " لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر ".

وروى ابن ماجه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مدمن الخمر كعابد وثن ".

وكذلك روى ابن ماجه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لعنت الخمر على عشرة أوجه: بعينها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها وشاربها وساقيها ".

ماهية الخمر

ثمة تفصيل للعلماء في ماهية الخمرة التي حرمتها الشريعة بل أوجبت في حق شاربها الحد - والخمر هو العصير من العنب وغيره من الأشربة إذا طبخ واشتد وقذف زبده لصيرورته مسكراً.

على أن المجمع علي تحريمه هو عصير العنب إذا اشتد وقذف زبده، فهو حرام قليله وكثيره - أما ما عداه من الأشربة المسكرة فهو كذلك محرم عند أكثر العلماء سواء ما كان منه قليلاً أو كثيراً، مصنوعاً من العنب أو غيره من سائر العصارات، فمادام فيه علة الإسكار فهو حرام - وقد روي تحريم ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وأبي هريرة وسعد بن أبي وقاص، وعائشة وأنس رضي الله عنهم - وقال به عطاء وطاووس وقتادة وعمر بن عبد العزيز - وهو قول الجمهور من المذاهب الفقهية - إذ قالت المالكية والشافعية والحنبلية والظاهرية وغيرهم من أهل العلم (١٩٥) واحتجوا بأدلة كثيرة منها قوله تعالى:{ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} واسم الخمر في هذه الآية يدل بعمومه على كل مسكر كيفما كان أصله، ما قل منه أو كثر، فهو حرام منهي عنه ومأمور باجتنابه؛ لأنه رجس من عمل الشيطان.

واحتجوا من السنة بجملة أخبار منها ما أخرجه مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كل مسكر خمر وكل خمر حرام " ولفظ كل من ألفاظ الاستغراق، لتشمل بذلك كل أصناف الأشربة المسكرة.

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام ".

وأخرج ابن ماجه أيضاً عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما أسكر كثيره فقليله حرام ".

وأخرج مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن شراب يشربه أهل اليمن من الذرة يقال له " المزر " فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أو مسكر هو؟ " قال: نعم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل مسكر حرام إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال " قالوا: وما طينة الخبال؟ قال: " عرق أهل النار أو عصارة أهل النار ".

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال: بعثني النبي صلى الله عليه وسلم أنا ومعاذ بن جبل إلى اليمن فقلت: يا رسول الله إن شراباً يصنع بأرضنا (اليمن) يقال له المزر من الشعير وشراب يقال له البتع من العسل فقال: " كل مسكر حرام ".

إلى غير ذلك من الأخبار والآثار مما يدل على تحريم كل شراب مسكر ما قل منه أو كثر سواء كان مصنوعاً من العنب أو غيره.

قول الحنفية في المسألة

لا يختلف علماء المذهب الحنفي عن غيرهم في تحريم كل مسكر من العنب ما قل منه أو كثر - لكنهم يخالفون جماهير العلماء في تحريم الأشربة أو العصارات من غير العنب، إذ قالوا (الحنفية): ما كان من عصارات من غير العنب لا يحرم إلا إذا أسكر فإن أسكر بات حراماً - وبذلك فإن الأشربة من الحنطة والذرة والشعير وغير ذلك مما سوى العنب فهو كله حلال إلا ما بلغ السكر - واحتجوا بعدة

أخبار أو آثار - منها ما أخرجه أبو حنيفة في مسنده عن ابن عباس قال: " حرمت الخمر قليلها وكثيرها وما بلغ السكر من كل شراب ".
ومنها ما أخرجه البيهقي عن عائشة قالت: " اشربوا ولا تسكروا ".
ومنها ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنبة " وفي رواية " الخمر من هاتين الشجرتين: الكرمة والنخلة " فيستفاد من ذلك أن ما سوى عصير العنب ليس حراماً شربه إلا إذا بلغ السكر - وهو ما نظنه قولاً مرجوحاً فلا ينبغي الركون إليه لاستناده إلى أدلة طعن فيها كثير من العلماء لضعفها واضطرابها - وبذلك فإن سائر الخمور حرام مهما كان مصدرها سواء كانت من العنب أو العسل أو التمر أو الشعير أو غير ذلك من عصارات الفواكه - فما صار من العصارات مسكراً فهو حرام قليله وكثيره - وليس أدل على ذلك من حديث ابن ماجه " إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً ".
وقوله عليه الصلاة والسلام: " كل شراب أسكر فهو حرام ".
وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " ما أسكر كثيره فقليله حرام ".
ويعزز ذلك أيضاً قول عمر رضي الله عنه في تعريف الخمر: " الخمر ما خامر العقل " والمخامرة تعني المخالطة والستر - فكل ما خالط العقل وستره من المسكرات سمي خمراً فهو بذلك حرام.
ولو تحولت الخمر بنفسها إلى خل فقد طهرت وحل أكلها بغير خلاف.
ولا يجوز تخليلها، أي تصييرها خلاً بالمعالجة - وهو قول الجمهور من العلماء.
ودليل ذلك ما رواه أبو سعيد قال: كان عندنا خمر ليتيم فلما نزلت المائدة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إنه ليتيم؟ قال: " أهرقوه " رواه الترمذي.
وروى مسلم عن أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتتخذ الخمر خلاً - قال: " لا ".
وروى أبو داود عن طلحة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أيتام ورثوا خمراً؟ فقال: " أهرقها " قال: أفلا أخللها؟ قال: " لا " وهذا نهي يقتضي التحريم - ولو جاز استصلاحها بالمعالجة لما جازت إراقتها لكونها بالاستصلاح مالاً - وهو لا يجوز إتلافه - فدل ذلك على أنها لا تصير بالمعالجة حلالاً.
ولو نقلت الخمر من شمس إلى ظل أو من ظل إلى شمس فتخللت من غير أن يلقي فيها شيئاً ففي إباحتها عند الشافعية والحنبلية قولان.
وذهب آخرون إلى أن الخمر تطهر إذا تخللت بالمعالجة - وهو قول الحنفية والثوري والأوزاعي والليث بن سعد، وذلك لأن علة تحريمها قد زالت بتخليلها فطهرت كما لو تخللت بنفسها (١٩٦).
قوله: {وَالْمَيْسِرُ} عطف على الخمر - والميسر معناه القمار - وهو من اليسر بفتح الباء، وهو اللعب بالقداح للقمار - والياسر الذي يلعب بالقداح - والياسرون الذين يتقامرون - واشتق الميسر من اليسر، لأنه أخذ للمال من الرجل بيسر وسهولة - وبذلك فإن المقصود بالميسر: القمار - وهو المخاطرة بين اثنين على مال أو غيره - فأيهما قمر صاحبه أخذ ماله (١٩٧).
والميسر أو القمار واحد من الأساليب الخسيسة لكسب المال حراماً - فأيما مال اكتُسب عن طريق الميسر أو المقامرة فهو حرام لا يحل لآخذه - بل إنه من جملة السحت الذي يمحق البركة من عيش المتقامرين وحياتهم ثم يفضي بهم إلى عذاب الله.
وضروب الميسر كثيرة ومختلفة، منها اللعب بالنرد أو القداح أو الكعاب المصنوعة من الحجارة وغيرها - وكذا الشطرنج إن كان للمقامرة على المال - وغير ذلك من صور القمار أو الميسر - فهو اسم يجمع كل أنواع القمار - قال ابن سيرين ومجاهد وعطاء في ذلك: كل شيء فيه خطر فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالكعاب والجوز - والخطر، معناه السبق الذي يتراهن عليه - نقول أخطرت المال إخطاراً أي جعلته خطراً بين المتراهنين - وخاطرته على مال، أي راهنته عليه.
أما الشطرنج ففيه تفصيل - فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: النرد والشطرنج من الميسر - وقال الشافعي رحمه الله: إذا خلا

الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان، والصلاة عن النسيان لم يكن حراماً، وهو خارج عن الميسر، لأن الميسر ما يوجب دفع المال أو مال - وهذا ليس كذلك فلا يكون قماراً ولا ميسراً.

وقيل: اللعب بالنرد والشطرنج حرام، قماراً أو غير قمار - لأن الله قرن مطلق الميسر بالخمر وهي محرمة - وكذلك فإن اللعب بالشطرنج كالميسر في إلهائه اللاعبين به - إذ يشغل أذهانهم وبالهم ويلهيهم عن ذكر الله وعن الصلاة - وهو الظاهر من مذهب المالكية - قال الإمام في ذلك: الميسر ميسران: ميسر اللهو وميسر القمار - فمن ميسر اللهو: النرد والشطرنج والملاهي كلها - وميسر القمار، ما يتخاطر الناس عليه وكل ما قومر به فهو ميسر (١٩٨).

قوله: {وَالأَنْصَابُ} جمع ومفرده النصب بسكون الصاد وضمها (١٩٩) والأنصاب هي الأصنام المنصوبة للعبادة - والفرق بينها وبين الأصنام أن الأنصاب حجارة غير مصورة كانوا يقصدونها للعبادة ويذبحون عندها - أما الأصنام فهي ما صور وعبد من دون الله.

قوله: {وَالأَزْلاَمُ} مفرده زلم بالتحريك - ويراد بها القداح أو السهام التي كانوا يستقسمون بها في الجاهلية (٢٠٠).

قوله: {رِجْسٌ} أي قذر تعاف منه النفوس وتشمئز منه الطبائع السليمة - أو هو ما استقذر من عمل قبيح - ويقال للنتن والعذرة رجس.

قوله: {مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} في محل رفع صفة لرجس - أي أن هذا الرجس سببه تزيين الشيطان وتسويله لابن آدم، فهو الذي يحمله على فعله.

قوله: {فَاجْتَنِبُوهُ} أي اتركوه وارفضوه - أو اجعلوه جانباً - أو كونوا جانباً منه - وفي ذلك إيحاء بشدة النهي والتحريم؛ لأن الأمر بالاجتناب يتضمن تكليفاً جازماً بالابتعاد عن هذه المذكورات ومجانبتها وعن مجرد الاقتراب منها لأجل مسها أو حملها.

والضمير في اجتنبوه، يعود على الرجس - والرجس واقع على الأربعة المذكورة المنهي عنها وهي الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وقيل: عائد على الشيطان الذي يزين للناس فعل هذه المنكرات - قوله: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} لكي تدركوا النجاح والنجاة فتفوزوا عند ربكم بترككم هذه المعاصي والمنكرات واجتنابها.

٩١ - (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

قوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} أي أن الشيطان يسول لكم شرب الخمر والمقامرة، إرادة منه أن يغويكم فيوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر وفي مياسرتكم ومقامرتكم ليعادي بعضكم بعضاً ويبغض بعضكم بعضاً فيتشتت أمركم ويتمزق صفكم بعد أن ألّف الله بين قلوبكم بالإيمان وأخوة الإسلام.

أما وجه العداوة والبغضاء في الخمر، فإن الشاربين إذ يحتسون الخمر يقبلون عليها بشره وتعشّق طلباً للذة والطرب والانتشاء الزائف المصطنع - حتى إذا ولغوا فيها ولوغاً خالطت عقولهم مخالطة، وأثرت في أحلامهم بالغ التأثير - لا جرم أنه تأثير سلبي فاضح يحول بين المرء وكامل وعيه وإدراكه ويسدل على العقل كثيفاً من الحجاب الصفيق ليحول بينه وبين القدرة على الإدراك والتمييز.

والسكارى وهم يعبّون من كؤوس الخمرة عبّاً يلفهم غطاء الغفلة والخدر وانعدام الإحساس والوعي فتأخذهم حالة من الهذيان المطبق، فلا يلبث المخمورون المأفونون بعد ذلك أن يلجوا في الصياح والصخب والغضب واللجاج بفعل الخمرة التي استحوذت على عقولهم فأفقدتهم القدرة على التماسك والضبط - وما يلبث المخمورون أن تتعثر ألسنتهم بقبائح الكلام من فحش وقذف وطعن وخوض في أعراض الناس والمحرمات - وكل ذلك لسوف يفضي بالضرورة إلى الكراهية والعداوة والتباغض بين الشاربين السكارى.

أما وجه العداوة والبغضاء في الميسر - فإن اللاعب المقامر لا ينجو من الخسارة - فلئن ربح من مرة أو مرات فلسوف يذوق وبال الخسارة في مرات أخرى - وربما يخسر ماله كلياً في جلسة واحدة أو أكثر من جلسات الخسة والخزي على موائد القمار حيث السحت والجشع والأمل اللاهث المكروب - وذلك يعني أن المقامر سوف لا ينجو من الخسران مهما أوتي من براعة في المياسرة.

والمقامر الخاسر يجد قلبه كظيظاً مترعاً بمرارة الكراهية والحقد وفيض الامتعاض والمضاضة بما يحمله على مباغضة خصمه الآخر ومعاداته أشد المعاداة - فلا يكون المتقامرون بذلك إلا الأشتات من البشر المتهافت، والأناسي المتباغضين المتنافرين الذين تغمر قلوبهم موجة

مستعرة من الضغن المتأجج لما جنوه على أنفسهم من التلطخ بلوثة السحت البشع على مائدة القمار الذميم.

قوله: {وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ} يريد الشيطان للعباد كل سوء وشر - فهو لا يفتأ طيلة الأيام والأزمان يحرضهم لفعل السيئات والمعاصي، ويتربص بهم السقوط في الخطيئة بما يودي بهم إلى الهاوية وسوء المصير - والخمر والميسر سببان يلج منهما الشيطان لابن آدم فيسول له فعل كل معصية من قول أو فعل، ثم يصدهم فوق ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة.

أما الخمر فهي تخامر العقل مخامرة لتسدل عليه ستاراً من الذهول والعمه فيعجز عن الاستبصار والتمييز - والشارب الذي طغى على ذهنه وقلبه وأعصابه حسوات من خمر، أجدر أن لا يكون في عداد الذاكرين لله - بل هو في زمرة اللاهين السامدين الذين يتيهون حماقة ورعونة - فأنَّى لمثل هذا المخمور التائه المأفون أن يعي أو يتدبر وجيبة الذكر لله.

وكذا الصلاة - فإن من تبددت في كيانه ظواهر الوعي والفهم والتدبر أجدر أن لا يتذكر الصلاة - هذه العبادة الرائعة المميزة المكرورة مرات في كل يوم - العبادة الخاصة التي تتكامل فيها مركبات الشخصية المؤمنة لتلتئم في كيان واحد متسق عجيب يناجي ربه وهو بين يديه - حتى ما يكون في كيان الإنسان كله من أعصاب وحواس وتفكير إلا ويقف واجماً ضارعاً متوسلاً خاشعاً في لحظات الصلاة - فأنّى للمخمور المتطيش مسلوب العقل والإرادة أن يؤدي مثل هذه العبادة الجليلة - لا جرم أنه بذلك مصدود عن ذكر الله وعن الصلاة.

وكذلك الميسر - فإنه شَرَك للمقامر الجشع - المقامر الوالغ في أكل الباطل والحرام، السادر في اكتساب السحت ظلماً وعدواناً - ذلك هو المقامر المنكود الذي يترعرع في عيشه المتدنس على حساب الآخرين الخاسرين بغير حق.

والمقامر الذي تنشغل فيه أعصابه وذهنه وجسده كله في عملية الميسر إنما يجد نفسه مشدود الإرادة والعزيمة والقلب لهذه العملية المقبوحة فلا متسع عنده لأيّما اهتمام بذكر الله أو الصلاة - وأنَّى لمثل هذا المقامر اللاهث المخبول أن يذكر ربه فينيب إليه طائعاً مخبتاً أو يعبأ بالصلاة فيبادر القيام بها؟!

قوله: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} هذا الاستفهام ينطوي على تأكيد ظاهر على النهي، عن الخمر والميسر - فما بقي من عذر بعد هذا التنديد البالغ بالخمر والميسر، لما فيهما من إشاعة للمباغضات والعداوات - ولأن كل واحد منهما ملهاة للمؤمن تصده عن ذكر الله وعن الصلاة - وقد أدرك عمر رضي الله عنه أن هذا وعيد شديد لمن يتخلف أو يتردد فقال مبادراً: انتهينا يا رب.

٩٢ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

قوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا} أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله فيما تقدم من الأمر باجتناب الخمر والميسر - وهذا مبالغة في التأكيد على مجانبة ما ذكر - والله سبحانه يحذر كذلك من مخالفة أمره فيما ذكر.

قوله: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ذلك تهديد بالغ - ووعيد رعيب لمن خالف عن أمر الله وأعرض عن حكمه - فإن الذي يتولى عما كلفه به الله قد وقعت عليه الحجة ولم يبق له من عذر وليس له بعد ذلك إلا العقاب الشديد - أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن يضيره إدبار الناس عن دعوة الله وتوليهم عما أمرهم به - فهو إنما نيط به التبليغ وقد بلغ ولم يأل (٢٠١) في ذلك - فقد خرج بذلك عن عهدة ما كلف به (٢٠٢).

٩٣ - (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} روى الإمام أحمد في سبب نزول هذه الآية بسنده عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال ناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فأنزل الله الآية وروى البخاري عن أنس قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر منادياً ينادي - فقال أبو طلحة: اخرج فانظر ما هذا الصوت! قال: فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد

حرمت - فقال: اذهب فأهرقها، وكان الخمر من الفضيخ (٢٠٣) - قال: فجرت في سكك المدينة - فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم - فأنزل الله عز وجل {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} الآية (٢٠٤).

وتأويل الآية أنه ليس على هؤلاء المؤمنين جناح في كل شيء طعموه من مستلذات المطاعم والمشارب قبل تحريمها إذا كانوا متقين ما حرم الله عليهم منها - {وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح {ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا} أي ثم ثبتوا على التقوى والإيمان {ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا} أي ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم - أو أحسنوا إلى الناس بالمواساة وبذل الخير لهم.

قوله: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وهم أهل الإحسان - وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات.

وقيل: الاتقاء على ثلاث مراتب، الأولى: الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل - والثانية: الثبات على التصديق - والثالثة: الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل - وهو من قول ابن جرير الطبري.

ويستدل من الآية أيضاً على أن نبيذ التمر إذا أسكر سمي خمراً فصار شربه حراماً، قليلاً أم كثيرًا - وليس صحيحًا ما قيل من حصر التحريم في عصير العنب دون غيره من الأشربة - بل إن كل ما أسكر نوعه حرم شربه قليلاً أو كثيرًا، نيئاً أو مطبوخاً سواء كان من العنب أو من غيره من أنواع العصير - ويؤكد ذلك ما ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب على منبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس، ألا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل، وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير - والخمر ما خامر العقل - وهذا أوضح ما يكون في معنى الخمر (٢٠٥).

٩٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} يخاطب الله عباده المؤمنين جميعاً من ذكر وأنثى بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ} جواب لقسم محذوف - ويبلونكم من الابتلاء وهو الاختبار - أي والله ليعاملنكم معاملة المختبر {بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ} من للتبعيض - أي ببعض الصيد - والمراد به مصيد البر - فاللام في الصيد للعهد.

فقد نزلت الآية في عمرة الحديبية حيث ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون إذ كانت الوحوش والطيور تغشاهم في رحالهم بكثافة وكانوا متمكنين من صيدها بأيديهم وبرماحهم فنهاهم الله عن ذلك ابتلاء - ومن شأن الله جلت قدرته أن يمتحن عباده المؤمنين بوجوه من الابتلاء ليميز القوي الصابر من الضعيف الخائر - أو يمحص الأتقياء الصابرين ويكشف المتخاذلين والمنافقين - أو ليجزي المؤمنين الثابتين مغفرة منه ورضواناً.

قوله: {تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ} الذي تناله الأيدي يراد به فراخ الطير وصغار الوحش - والذي تناله الرماح الكبار من الصيد.

قوله: {لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالغَيْبِ} أي ليتميز من يخاف عقاب الله الأخروي الغائب فيتقي الصيد، ممن لا يخاف الله فيصيد - ولا ينبغي أن يفهم قوله: {لِيَعْلَمَ اللَّهُ} على ظاهره - فإن الله عالم من الأزل ولا يزال عالماً.

قوله: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي من تجاوز حد الله وتعرض للصيد بعد بيان أن هذا التشريع ابتلاء - وقيل: بعد ما بينه الله من التحريم والنهي عن الصيد {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} المراد عذاب الدارين - فعذاب الآخرة يعلمه الله ويعلم كيفيته ومداه - أما عذاب الدنيا فهو أن يضرب ظهره وبطنه جلداً - وقيل: المراد عذاب الجلد في الدنيا فقط - وهو قول ابن عباس.

٩٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} يراد بالقتل كل فعل يفضي إلى الموت كالنحر والذبح والخنق والرضخ (الكسر والدق) وغير ذلك - فقد حرم الله على المحرم حال إحرامه فعل كل ما يمات منه - والمراد بالصيد هو صيد البر دون البحر، فاللام هنا للعهد.

وقوله: {وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} أي وأنتم محرمون - بحج أو عمرة - والحرم بالضم جمع حرام وهو يقال للذكر والأنثى - فنقول: هذا رجل حرام - وهذه امرأة حرام - والإحرام معناه الدخول في الشهر الحرام أو في الحرم - والحرام بمعنى المحرم - والمراد به من أحرم بحج أو عمرة وإن كان في الحل - وكذلك من كان في الحرم وإن كان حلالاً - أي أن كلمة {حُرُمٌ} تتناول من كان محرماً ومن كان داخلاً في الحرم - وبذلك لا يحل قتل الصيد إلا للحلال وهو في الحل - وليس له أن يقتله وهو في الحرم.

على أن الصيد المنهي عن قتله من حيث نوعه موضع خلاف - فهو عند الشافعية يتناول مأكول اللحم فقط - أما غير مأكول اللحم من حيوانات البر فيجوز للمحرم قتله.

أما الجمهور فقد ذهبوا إلى تحريم قتل حيوانات البر جميعها سواء كانت مأكولة اللحم أو غير مأكولة اللحم - ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور " وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور " وكذا الحية فإنها لا شك في قتلها وليس في جواز ذلك خلاف.

وألحق بعض العلماء بالكلب العقور: الذئب والسبع والنمر والفهد، لأنها أشد ضرراً منه - وهو قول المالكية والحنبلية - ويستأنس لذلك بما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: " اللهم سلّط عليه كلبك بالشام " فأكله السبع بالزرقاء.

وقالوا أيضاً: يستثنى من ذلك صغارها، سواء صغار المنصوص عليها أو صغار الملحق بها من السباع فلا يحل قتلها؛ لأنها لا تصول على الإنسان ولا تضره وقالت الشافعية: يجوز للمحرم أن يقتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق في ذلك بين صغاره وكباره، والعلة الجامعة في ذلك كونها غير مأكولة.

قوله: {وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} متعمداً، منصوب على الحال من الضمير في " قَتَلَهُ " وجزاء مبتدأ مرفوع - وخبره محذوف وتقديره: فعليه جزاء (٢٠٦) ويراد بالمتعمد هنا القاصد لقتل الصيد مع علمه بالإحرام - والمخطئ هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً - وأما الناسي فهو الذي يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه.

أما حكم ذلك فهو موضع خلاف بين العلماء - وفيه جملة أقوال هي:

القول الأول: عدم الحكم على من أصاب الصيد خطأً - وإنما يحكم على من أصابه متعمداً - وعلى هذا فالتكفير إنما يكون في العمد - وهو مروي عن ابن عباس - وقال به طاووس، استناداً إلى ظاهر الآية.

القول الثاني: عدم الحكم على من أصاب الصيد مخطئاً أو ناسياً - وهو قول داود الظاهري وأبي ثور - وهي رواية عن أحمد - وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير مثل ذلك - ودليل ذلك أن الله خص المتعمد بالذكر، فدل ذلك على أن غيره بخلافه - وغيره يعني المخطئ والناسي - والأصل براءة الذمة - فمن ادعى شغلها جاء بالدليل.

القول الثالث: العامد والناسي والمخطئ سواء في وجوب الجزاء عليه - وعلى هذا يحكم على قاتل الصيد في العمد والخطأ والنسيان - وهو قول الجمهور - قال الزهري في هذا الصدد: وجب الجزاء في العمد بالقرآن - وفي الخطأ والنسيان بالسنة - أي أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: {لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ} أما السنة فتضمنت من

أحكام النبي صلى الله عليه وسلم وأحكام أصحابه ما يوجب الجزاء في الخطأ مثلما دل عليه الكتاب في العمد.

القول الرابع: أن يقتله متعمداً لقتله وهو ناسٍ لإحرامه فعليه الجزاء - أما إن قتله متعمداً غير ناس أنه محرم وهو لا يريد غيره فقد حل وليس له حج لارتكابه محظوراً من محظورات الإحرام - وذلك كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها فإنها تبطل.

أما الحرم من حيث مكانه فهو حرمان: حرم مكة وحرم المدينة - وحرم المدينة لا يجوز لأحد أن يصطاد فيه ولا أن يقطع فيه شجراً - وهو في ذلك كحرم مكة - فإن فعل أثم ولا جزاء عليه عند المالكية والشافعية - واحتجوا لتحريم الاصطياد فيه أو قطع شجره بما روي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة مثل ما حرم به مكة ومثله معه - لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها - ولا ينفّر صيدها " وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في المدينة: " ما بين لابتيها حرام " وبذلك فإنه يحرم صيد المدينة كحرمته في مكة - بخلاف الحنفية إذ قالوا: صيد المدينة غير محرم.

قوله: {فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ} قرئ قوله: {فَجَزَآءٌ} على عدة قراءات أظهرها رفع جزاء وتنوينه - ومثل، صفته - وخبر المبتدأ مضمر، وهو ما بيناه سابقاً - والتقدير: فعليه جزاء مماثل لازم من النعم - وعلى هذا فالمثل هو الجزاء - وذلك يدل على وجوب الجزاء من مثلما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي - وهو قول الجمهور خلافاً لأبي حنيفة، إذ أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليّاً أو غير مثلي - وقال: يقوّم الصيد دراهم في المكان الذي قتله فيه، أو في أقرب موضع إليه فيشتري بتلك القيمة هدياً إن شاء أو يشتري بها طعاماً ويطعم المساكين كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر.

قوله: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ} أي يحكم في جزاء الصيد رجلان صالحان عدلان منكم - أي من أهل ملتكم ودينكم - أما هل يجوز أن يكون القاتل أحد الحكمين؟ ثمة قولان في ذلك - أحدهما: عدم الجواز، لمظنة التهمة في حكم القاتل على نفسه - وهو قول المالكية والظاهر من مذهب المالكية.

ثانيهما: الجواز - وذلك لعموم الآية، وهو مذهب الشافعية والحنبلية - ومما احتجوا به أن بعض الصحابة أوطأ فرسه ظبياً فقتله وهو محرم - فقال له عمر: احكم معي - فحكما فيه جدياً - جمع الماء والشجر - فقال عمر: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ} وهو يدل على جواز كون القاتل أحد الحكمين - ولو اشترك جماعة في قتل صيد، ففي حكم ذلك قولان - أحدهما: أن على كل واحد من الجماعة جزاء كاملاً - وهو قول مالك وأبي حنيفة، استناداً إلى ظاهر الآية.

ثانيهما: عليهم جميعاً كفارة واحدة، وهو قول الشافعي لما رواه الدارقطني أن موالي لابن الزبير أحرموا إذ مرت بهم ضبع فحذفوها بعصيهم فأصابوها فوقع في أنفسهم فأتوا ابن عمر فذكروا له فقال: عليكم كلكم كبش.

قوله: {هَدْياً بَالِـغَ ٱلْكَعْبَةِ} هدياً منصوب على الحال - أي إذا حكم العدلان بالهدي فإنه يرسل إلى مكة وينحر ويتصدق به هناك - وليس المقصود عين الكعبة وإنما المقصود الحرم - وسميت الكعبة بهذا الاسم لارتفاعها وتربيعها - والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة - والمراد بها هنا الحرم؛ لأن الذبح أو النحر لا يقع في الكعبة ولا في قرب ملاصق لها، بل يرسل الهدي إلى مكة ليذبح أو ينحر فيها ثم يوزع على مساكينها ومحاويجها.

قوله: {أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً} كفارة عطف على قوله {فَجَزَآءٌ} - طعام بدل من كفارة - وقيل: خبر مبتدأ محذوف - وتقديره هي طعام (٢٠٧) والعدل، ما عدل الشيء من غير جنسه - وصياماً، منصوب على التمييز - وكلمة {أَوْ} للتخيير - وذلك في أصل اللغة - وهو قول الجمهور وعلى هذا إذا قتل المحرم الصيد فهو مخير بين ثلاثة أشياء: إن شاء أخرج المثل - وإن شاء قوّم المثل بدراهم ويشتري بها طعاماً ويتصدق به، وإن شاء صام - وأما الصيد الذي لا مثل له فالقاتل مخير بين شيئين: بين أن يقوّم الصيد بالدراهم ويشتري بها طعاماً ويتصدق به، وبين أن يصوم.

وقيل: {أَوْ} للترتيب وليس التخيير - وهو قول الحنبلية وزفر من الشافعية - إذ قالوا: الواجب هنا قد شرع على سبيل التغليظ بدليل

قوله تعالى: {لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ} والتخيير ينافي التغليظ - وأجيب عن ذلك أن إخراج المثل ليس أقوى عقوبة من إخراج الطعام - فالتخيير لا يقدح في القدر الحاصل من العقوبة في إيجاب المثل.

قوله: {لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} الذوق هو إدراك طعم الشيء بواسطة الأعصاب المنتشرة على اللسان - والذوق هنا مستعار ليشي بتغليظ العقاب على المخالفين - والوبال، معناه سوء العاقبة - والوبيل: الثقيل الوخيم.

قوله: {عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ} أي عما كان في الجاهلية من صيد في حال الإحرام - وقيل: قبل نزول الكفارة.

قوله: {وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ} يعني من عاد للصيد وهو محرم فإن الله ينتقم منه بالكفارة - وقيل: ينتقم منه في الآخرة.

قوله: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} أي منيع في ملكه، غالب على أمره لا يمتنع عليه ما يريد - وهو ينتقم ممن عصاه أو تعدى حدوده وخالف أوامره - قال ابن جرير الطبري في تأويل ذلك: الله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ولا يمنعه من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه والأمر أمره له العزة والمنعة (٢٠٨).

٩٦ - (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} يخاطب الله المؤمنين ليبين لهم تحليل صيد البحر، وهو المصيد - أي ما صيد من الماء سواء كان بحراً أو نهراً أو غديراً أو نحو ذلك من أشكال المياه التي تتوالد فيها الأحياء المائية.

قوله: {وَطَعَامُهُ} أي ما يطعم من صيده - وهو عطف على {صَيْدُ} وهو من عطف الخاص على العام - أي أحل لكم جميع ما يصاد في المياه والانتفاع به وكل ما يؤكل منه.

وجملة ما يصاد من البحر ثلاثة أنواع: الأسماك بكل أنواعها، فهي حلال - والضفادع بكل أنواعها فهي حرام - وما سوى هذين النوعين. وفيه خلاف بين العلماء - فهو عند الحنفية حرام أكله - فإنما يحل عندهم أكل الأسماك دون غيرها مما حواه البحر من حيوان - خلافاً لابن أبي ليلى من الحنفية إذ يحل عنده أكل جميع حيوانات البحر - فقد جعل الضمير في قوله: {وَطَعَامُهُ} راجعاً إلى صيد البحر وليس البحر - أي يحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه وتأكلوه - وهو قول المالكية والشافعية والأوزاعي والثوري - فقد ذهب هؤلاء إلى أنه يؤكل كل ما في البحر من السمك والدواب وسائر ما في البحر من الحيوان، وسواء اصطيد أو وجد ميتاً - واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " وفي الحوت أخرج الصحيحان عن جابر قال: لما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال: " هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا " فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله.

أما السمك الطافي في البحر فهو حلال أكله عند الشافعية - وهو مروي عن أبي بكر وعمر وابن عباس، وذلك لعموم قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ} وكذا عموم الخبر " هو الطهور ماؤه الحل ميتته ".

وعند الحنفية: لا يؤكل السمك الطافي، ويؤكل ما سواه من السمك دون غيره من سائر الحيوان - وكرهه كثير من أهل العلم لعموم قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} ولما رواه أبو داود والدارقطني عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كلوا ما حسر عنه البحر - وما ألقاه وما وجدتموه ميتاً أو طافياً فوق الماء فلا تأكلوه ".

قوله: {مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ} متاعاً منصوب على المصدر - وقيل: مفعول لأجله - أي أحل لكم تمتيعاً لكم (٢٠٩) أي أحل الله لكم صيد البحر منفعة لمن كان منكم مقيماً أو حاضراً في بلده فيستمتع بأكله - وكذلك منفعة ومتعة للسيارة وهم السائرون المسافرون من بلد إلى بلد ومن أرض إلى أرض - إذ يتزودونه في سفرهم - والسيارة جمع سيار - أي يستمتع به المقيمون فيأكلونه طرياً ويستمتع به المسافرون إذ يتزودونه قديداً مالحاً.

قوله: {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً} فقد حرم الله بهذه الآية على المحرم كل معاني صيد البر من اصطياد وأكل وقتل وبيع وشراء وإمساك وتملك - وصيد البر ما صيد فيه مما يتوالد فيه - وإن كان يعيش في البر تارة وفي الماء تارة أخرى فذلك كله صيد البر - وذلك كالسلحفاة والسرطان والضفدع وطير الماء - ويجب على قاتله الجزاء.

أما الصيد الذي يصيده الحلال هل يحل للمحرم؟ ثمة أقوال في ذلك:

القول الأول: عدم جواز أكل الصيد للمحرم بالكلية والمنع من ذلك مطلقاً وذلك لعموم الآية {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً} وقد ذهب إلى ذلك علي وابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير وطاووس والثوري - فقد قالوا: صيد البر يدخل فيه ما اصطاده المحرم وما اصطاده الحلال - وكل ذلك صيد البر.

القول الثاني: إباحته للمحرم مطلقاً، أي على كل حال، إذا اصطاده الحلال سواء صيد من أجله أو لا - وقد روي هذا القول عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام وكعب الأحبار ومجاهد وسعيد بن جبير - وهو قول الحنفية - وذلك لظاهر قوله: {لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} فحرم صيده وقتله على المحرمين دون ما صاده غيرهم.

القول الثالث: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد فإنه لا يجوز أكله للمحرم - وهو قول المالكية والشافعية والحنبلية وآخرين - ودليلهم ما أخرجه الصحيحان عن الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه فلما رأى ما في وجهه قال: " إنا لم نرده عليك إلا أنا حرام " أما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه - وذلك لحديث أبي قتادة حين صاد حماراً وحشياً وكان حلالاً لم يحرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " هل كان منكم أحد أشار إليها وأعان في قتلها " قالوا: لا - قال: " فكلوا " وأكل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولو أحرم وبيده صيد بر أو كان في بيته عند أهله، فإن كان في يده لزمه إرساله - وإن كان في أهله فليس عليه إرساله - وهو قول الحنفية والحنبلية والمالكية - وعند الشافعي في أحد قوليه ليس عليه إرساله سواء كان في يده أو في بيته - وهو مروي عن مالك - وقيل: عليه أن يرسله سواء كان في بيته أو في يده، فإن لم يرسله ضمن - وهو قول ابن أبي ليلى والثوري - والقول الثاني للشافعي - وذلك لقوله: {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً} وهذا عام في الملك والتصرف.

ولو دل المحرم محرماً آخر على الصيد فقتله فقد وجب على كل واحد منهما جزاء وهو قول الحنفية وأشهب من المالكية - وقيل: الجزاء على المحرم القاتل - وهو قول المالكية والشافعية لظاهر قوله تعالى: {وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً} فعلق وجوب الجزاء بالقتل فانتفى بغيره.

قوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} أي احذروا واجتنبوا ما نهاكم الله عنه من الصيد والمعاصي كشرب الخمر والمقامرة واعتقاد الأنصاب والأزلام - فإنكم صائرون إلى الله فيعذب من يعصيه ويستنكف عن طاعته وعبادته (٢١٠).

٩٧ - (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالهَدْيَ وَالقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ}.

الكعبة من التكعيب وهو التربيع، وسميت بذلك؛ لأنها مربعة - أو من التكعب وهو الارتفاع - فسميت كعبة لكونها مرتفعة - ومن ذلك كعب الإنسان لنتوئه وارتفاعه - والكعب معناه العظم الناشز فوق القدم، والناشزان من جانبيها والجمع أكعب وكعوب وكعاب - ويقال للجارية إذا نتأ ثديها كاعب - واصطلاح الكعبة للشرف والمجد - فهي لما سما ذكرها في الدنيا وشاع أمرها في العالمين سميت بهذا الاسم (٢١١).

والبيت الحرام، عطف بيان على جهة المدح والتعظيم - سمي حراماً لتحريم الله إياه أن يصاد صيده أو يختلى خلاه أو يعضد شجره -

والحرم والحرام ما لا يحل انتهاكه - والمحرم الذي يدخل في عمل حرم عليه به ما كان حلالاً (٢١٢) والمراد بالكعبة هنا الحرم كله. والمعنى أن الله جلت قدرته خلق البيت الحرام {قِيَاماً لِلنَّاسِ} أي قواماً لهم، من قام يقوم - وهو ما يستقيم به الأمر ويصلح - أي أن البيت الحرام خلقه الله للناس ليكون لهم موطن صلاح ومعاش إذ يطمئنون فيه ويسكنون - ليكون بذلك مأمناً وملجأ، لأنفسهم وتجاراتهم إذ يأتون إليه من كل فج عميق - وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو ابنه فلا يصيبه بسوء.

قوله: {وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ} الهدي: اسم جنس - والمراد به الأشهر الحرم الأربعة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد (٢١٣) وهذا سبب آخر يضاف إلى السبب الأول وهو البيت الحرام في كونه مدعاة لقيام الناس وصلاح أمرهم وعيشهم آمنين مطمئنين، وهو أن العرب كانوا يقتتلون في سائر الأشهر حتى إذا دخل الشهر الحرام ذهب الخوف وعمّ الأمن فزاولوا أسفارهم وتجاراتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم - وكانوا يستحصلون من الأقوات والأرزاق في الشهر الحرام ما يكفيهم السنة كلها - فلولا حرمة الشهر الحرام لهلكوا وتفانوا من الجوع والشدة والضيق.

قوله: {وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ} الهدي: ما يُهدى إلى البيت ويذبح هناك ويفرق لحمه على الفقراء فيكون ذلك نسكاً للمهدي وقواماً لمعيشة الفقراء وذلك سبب آخر لقيام الناس وصلاح حالهم ومعاشهم.

والقلائد: ذوات القلائد من الهدي - وهي المقلدة من لحاء شجر الحرم - فقد كان الرجل يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء - وكان الناس يهرعون في الأشهر الحرم إلى معايشهم طلباً للرزق والاكتساب ولا يخشون أحداً - وقيل: إنهم توارثوا ذلك من دين إسماعيل عليه السلام.

قوله: {ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} اسم الإشارة ذلك في محل نصب بفعل مقدر - والتقدير: فعل ذلك لتعلموا - وقيل: في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك (٢١٤).

والإشارة هنا إلى ما سبق ذكره من تشريع لأسباب الأمن وتحصيل الخير والرزق والمعاش الحسن للناس، بما يحقق لهم السعادة والحياة الآمنة الراغدة والعيش الكريم المطمئن - وذلك يزجي بالدلائل الوافية على أن صاحب هذا التشريع لهو صاحب الحكمة البالغة وأنه العليم بما ينفع الناس وما يصلح عليه حالهم، وأنه يعلم ما في السماوات والأرض - وهو جل وعلا عليم بكل شيء.

٩٨ - (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ وأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ذلك تخويف وترجية من الله، أو وعيد منه ووعد - فالتخويف والوعيد لمن عصاه وتمرد عليه وأعرض عن ذكره وشرعه فذلكم الأثيم الذي أعدّ الله له العقاب الشديد - وأما الترجية والوعد فلمن تاب إليه وأناب وامتثل أوامره واجتنب نواهيه - فذلكم الفائز الناجي الذي يحظى بغفران الله ورحمته - وفي التعقيب بالمغفرة والرحمة بعد العقاب ما ينشر في نفوس المؤمنين الطمأنينة والرضا لما تقرره هذه العبارة الكريمة من فضل الإحسان والتجاوز عن الذنوب والآثام.

٩٩ - (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

قوله: {مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ} البلاغ اسم أقيم مقام المصدر وهو الإبلاغ أو التبليغ، ومعناه الإيصال - وفي الآية تخويف للناس من الله، لئن لم يئمنوا ويستجيبوا لله ولرسوله فلسوف يجازيهم بذنوبهم التي يستحقونها - والرسول الكريم ليس غير مبلغ لكم، وجيبته إيصال الدعوة إليكم وتبيينه ما نُزّل إليكم وهو نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

قوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} هذا تخويف بالغ ينفذ إلى أطواء النفس ليهزها من الأعماق هزّاً، وليثير فيها على الديمومة فيضاً من المشاعر المستجاشة الحرور لتظل يقظة مذعورة، كلما طرقتها قوارع هذه الكلمات الربانية النفاذة، بأن الله عالم بالظاهر المنظور، مطلع على الباطن المستور - فهو سبحانه لا يعزب عنه شيء، بل يستوي عنده المعلن والخفي المكتوم (٢١٥).

١٠٠ - (قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: {قُلْ لاَّ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} نزلت في أعرابي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خمر عنده فقال: يا رسول الله إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي فاقتنيت من بيع الخمر مالاً فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة - إن الله لا يقبل إلا الطيب، فأنزل الله الآية تصديقاً لنبيه صلى الله عليه وسلم (٢١٦).

لا يستوي، أي لا يعتدل - استوى اعتدل - والاسم السواء - والخبيث والطيب جاء في تأويلهما أقوال كثيرة منها أنهما بمعنى الرديء والجيد، والصالح والطالح، والمطيع والعاصي، والحلال والحرام، والكافر والمؤمن - والصحيح أن المراد بهما جميع ما ذكر - فالخبيث من كل الأقوال والأعمال والمقاصد والتصورات والمعارف والمكاسب لا يساوي الطيب من ذلك كله: فكل اثنين متناقضين من الاثنين لا يستويان.

وقوله: {وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ} الواو للحال، وقيل للعطف على مقدر (٢١٧) - والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعجبه كثرة الخبيث - وجواب لو محذوف، أي ولو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان - والمراد تحذير المسلمين من الاغترار بكثرة الخبيث من فساد وحرام وكافرين وغير ذلك من وجوه الباطل - فإن البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله، وإن كان قريباً عند الناس، فلا ينبغي أن يعجبوا بكثرة الخبيث على اختلاف صوره ووجوهه - فإن الخبيث قائم على الباطل والحرام أو على الزيغ عن صراط الله - وهو على كثرته لا يعدو شكله الخادع المنتفش الذي لا يساوي في ميزان الحق شيئاً إلا ما يساويه البعوض في مقابلة الوحوش الكواسر في الآكام - لا جرم أن الكافرين والمضلين والظالمين والأشقياء من أنصار الباطل ليسوا إلا الغثاء الجفاء الذي ما يلبث أن ينقشع أو يتبدد ليستقر بعده الحق وأنصاره والداعون إليه بالرغم من قلة عددهم وعدتهم، وقلة حيلتهم وإمكاناتهم المادية - والمؤمنون الصابرون المعتصمون بمنهج الله هم الثابتون في كل الأحوال والظروف ومهما ادلهمت النوائب والخطوب - فلا تنال من صلابتهم وقوة عزائمهم كل الملمات والفتن - لا جرم أن هؤلاء أنفع للناس - بل إنهم الحاملون لمشاعل النور والهداية والخير للبشرية خلافاً لأهل الباطل الذين تموج أعدادهم بالكثرة والذين يتيهون عُجباً بقوة سلطانهم وعظيم طاقتهم المادية - لا ينبغي لمسلم ذي عقل وبصيرة أن يستخفه الوهم بهؤلاء الضالعين في الخطيئة والرجس - بل إن هؤلاء وقدراتهم وإمكاناتهم لا تجرجر للبشرية غير الإفساد والتخريب ولسوف تؤول بهم الحال إلى التدمير وسوء المصير - ولذلك قال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي آثروا الطيب وإن قلّ على الخبيث وإن كثر - ووطنوا أنفسكم على المضي في طريق الله وعلى منهجه القويم - وباعدوا بين أنفسكم وبين الباطل وأهله وأنصاره على اختلاف مشاربهم ومسالكهم وطرائقهم - ولئن فعلتم ذلك فإنكم من المفلحين - أي الناجين الفائزين (٢١٨).

١٠١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ} أشياء، أصلها شيئاء على وزن فعلاء - فاستثقلوا اجتماع همزتين بينهما ألف، فقدموا الهمزة الأولى فقالوا: أشياء بوزن لفعاء - وأشياء لا ينصرف؛ لأن الألف في آخرها للتأنيث - وهذا قول الخليل وسيبويه - أما قوله: {إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} فهو جملة مركبة من شرط وجزاء في محل جر صفة لأشياء (٢١٩) - روى البخاري عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وروى الإمام أحمد عن علي قال: لما نزلت هذه {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} قالوا: يا رسول الله أفي كل عام؟

فسكت - قال: ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: " لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم " فأنزل الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} (٢٢٠) - ذلك نهي للمؤمنين عن السؤال عن الأشياء التي إذا علموا بها ساءتهم - فالأولى الإعراض عنها وتركها - وبذلك لا ينبغي الإكثار من السؤال عن أشياء ومسائل وتكاليف شاقة عليهم إذا علموا الإجابة عنها اغتموا وتضايقوا منها ولم يستطيعوا القيام بها وتنفيذها وذلك مدعاة للعصيان والاستنكاف عما كلفوا به - وفي ذلك أخرج مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعاً وهات - وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال " والمراد بكثرة السؤال: الإكثار من المسائل في قضايا الفقه من غير حاجة ولا داع - بل على سبيل التنطع والتكلف والإغراق في الجدل والكلام - أو الإكثار من السؤال عما لا يعني من أحوال الناس بما يكشف عوراتهم ودخائلهم، والاطلاع على عيوبهم وأستارهم.

قوله: {وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} أي إن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي والرسول بين أظهركم – تبين لكم تلك التكاليف الصعبة التي تسوءكم فلا تطيقونها لما فيها من تشديد وتضييق عليكم - وبذلك تعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها - وفي الحديث " أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته " أما إذا كانت لهم حاجة إلى الاستفسار فلا حرج فيه - كما لو نزل القرآن بأحكام مجملة فسألوا عن بيانها بينت لهم لحاجتهم إليها.

قوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} أي عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثله - والله سبحانه يتجاوز لكم عما يفرط منكم فلا يعاجلكم بعقوبته - وقيل: عفا الله عما لم يذكره في كتابه فاسكتوا أنتم عنه مثلما سكت عنها هو سبحانه - وفي الصحيح " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها ".

١٠٢ - (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)

قوله: {قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ} ذلك إخبار من الله عز وجل عن أقوام سابقين سألوا أنبياءهم آيات مثل ما سألتموه أنتم فلما بينها الله لهم وفرضها عليهم كفروا بها وقالوا: ليست هذه من عند الله - واختلفوا في تعيين القوم - فقد روي عن ابن عباس أنهم قوم عيسى عليه السلام سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها - وقيل: هم قوم صالح عليه السلام سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها - وقيل: هم قوم موسى عليه السلام (بنو إسرائيل) سألوه أن يريهم الله جهرة أو سألوه بيان البقرة - وقيل: كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم فهلكوا (٢٢١).

١٠٣ - (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}.

هذه جملة أشياء حرمها الجاهليون على أنفسهم تحريماً ما أنزل الله به من سلطان - وإنما هي من اصطناع مزاجهم السقيم، وخيالهم التائه الضال والأشياء هي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

أما البحيرة، فهي المشقوقة الأذن من النوق - فهي من البحر أي الشق يقال: بحر ناقته إذا شق أذنها - وكان العرب الجاهليون إذا نتجت لهم الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً شقوا أذن الناقة وحرموا على أنفسهم ركوبها ولحمها ولم يجزوا وبرها ولم يحملوا على ظهرها وسيبوها لآلهتهم فلا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى ولا ينتفع بها أحد لكونها مسيبة للآلهة.

أما السائبة، فهي التي تركت حتى تسيب إلى حيث شاءت - وهي المسيبة وذكروا في تعليل تسيبها عدة وجوه: الأول: أن الرجل كان

إذا مرض أو قدم من سفر أو نذر نذراً سيب بعيراً - فكان بمنزلة البحيرة في كل ما حكموا لها (٢٢٢).
والثاني: إذا ولدت الناقة عشرة أبطن كلهن إناث، سيبت فلا تركب ولا تحلب ولا يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ولد أو ضيف - والثالث: وهو قول ابن عباس: إنها التي تسيب للأصنام - أي تعتق لها (٢٢٣) أما الوصيلة، فكانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم - وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم - وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم (٢٢٤).
وأما الحام، فهو الفحل إذا نُتج من صلبه عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء (٢٢٥).
هذه جملة من افتراءات الجاهلية وتصوراتها الضالة - وذلكم ضرب من التشريع السقيم - التشريع الذي بني على الوهم والهوى مما أفرزته أحلام هؤلاء الضالين السفهاء.
على أن المبادر في مثل هذا الانتكاس الأثيم وهذه الشقوة المردية جدير به أن يذوق وبال أمره في العذاب الحارق البئيس - وفي ذلك روى البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ورأيت عمرو يجر قصبه (٢٢٦) وهو أول من سيب السوائب " وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته يجرّ أمعاءه في النار ".
والمراد من ذلك كله أن الله لم يسنّ مثل هذا الحكم ولا جعله شرعاً لأحد - فما بحر الله بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حامياً ولكن المشركين الضالين اختلقوا ذلك، إذ حرموه على أنفسهم افتراء على الله.
قوله: {وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} كان الرؤساء في العرب الجاهليين يفترون على الله الكذب باختلاقهم هذه الأحكام ثم يتبعهم في ذلك السواد الأعظم من الناس جهلاً وضلالاً - فأكثرهم بذلك لا يعون ولا يفهمون - ولكنهم رعاع أتباع يسيرون خلف السادة المضلين كشأن الأتباع والرعاع في كل مكان وزمان.
١٠٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ)
قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} إذا قيل لهؤلاء الضالين السفهاء الذين افتروا على الله الكذب باشتراع البحائر والسوائب والوصائل والحوام: تعالوا إلى كتاب الله الحكيم وسنة نبيه الكريم ليتميز لكم الحق من الباطل وليتبين لكم كذب ما افتريتموه أجابوكم بالاستنكاف، إذ يقولون: يكفينا ما ألفينا عليه آباءنا في هذا الشأن فهم لنا أئمة وقادة ونحن لهم تبع ورضينا بما شرعوه من تحليل وتحريم ولا نرضى بغيره بديلاً.
قوله: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام الإنكاري - والتقدير: أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم {لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} وذلك توبيخ مرير يليق بهؤلاء السفهاء الذين تعطلت فيهم حاسة الوعي والإدراك فراحوا يقلدون آباءهم وأجدادهم الظالمون في الباطل والضلال! على أن الاقتداء لا يصح بغير العالم المهتدي - وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة والدليل والاستغراق في علوم الشريعة من لغة وفقه وأصول وغير ذلك من علوم الدين.
أما الاقتداء بغير العالمين بكتاب الله وسنة رسوله من القادة والساسة وأئمة الباطل فذلك لعمر الحق هو الضلال - بل إنه الإيذان بالسقوط في مهاوي الضياع والخسران الأكبر في الدنيا والآخرة - ولا يتبع الناس أئمة الباطل وساسة الكفر من الذين يحكمون المسلمين بغير منهج الإسلام، إلا كان ذلك سبباً حقيقيّاً يؤذن بالانتكاس في الردى والهزيمة، بما يدمغ الأمة كلها بوصمة الخزي والعار والذل، كالذي حاق بالمسلمين في كثير من الأزمان – وفي العصر الراهن على وجه الخصوص - فباتوا بذلك أشتاتاً ممزقين قد استحوذ عليهم أعداؤهم الكافرون من استعماريين وصليبيين ووثنيين وصهيونيين وملحدين، فعاثوا في ديارهم إفساداً وتخريباً وتبديداً (٢٢٧).
١٠٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.
أنفسكم، منصوب على الإغراء - أي احفظوا أنفسكم - كما تقول: عليك زيداً - يضركم، رفع على الاستئناف - أو جزم على جواب الأمر، وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة والأصل لا يضرركم (٢٢٨).
وقيل في سبب نزول هذه الآية: إن المؤمنين كان يحزنهم ويؤزهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالتهم فقيل لهم: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} أي لا يضركم ضلال من ضل ولا فساد من فسد من الناس إذا كنتم أنتم مهتدين للحق - ولا يفهمن أحد أن في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فهذا الفهم خاطئ مبطل: فإن من الحقائق الثابتة المقررة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الفروض الدينية التي أوجبها الإسلام - ولا يعذر من وجيبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا من كان عاجزاً عن القيام بهذا الواجب الكبير - أو كان يظن أن كلامه غير ذي قيمة ولا تأثير البتة - أو كان يخشى على نفسه أن يحل به ضرر بالغ يسوغ له الترك.
وفي أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي التحريض البالغ على هذا المطلب العظيم، أخرج الإمام أحمد عن قيس قال: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} إنكم تضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه ".
وأخرج الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني إذ سئل عن هذه الآية فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم ".
قوله: {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ذلك وعد ووعيد من الله لكلا الفريقين - وخلاصته أن مصير المهتدين والضالين جميعاً إلى الله يوم القيامة - وحينئذ ينبئهم الله بما قدموه في الدنيا من أعمال الهداية والضلال فيجزي الصالحين المهتدين الثواب ويجزي الطالحين الضالين العقاب (٢٢٩).
١٠٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ)
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَوات فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الأَثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذلك أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.
روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء وكانا نصرانيين فمات السهمي وكان مسلماً بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما (٢٣٠) من فضة مخوصاً بالذهب - فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم - ووجدوا الجام بمكة - فقيل: اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من

شهادتهما وأن الجام لصاحبهم - وفيهم نزلت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} الآية (٢٣١).

قوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ} شهادة، مبتدأ، وخبره اثنان - والتقدير: شهادة بينكم شهادة اثنين (٢٣٢) وشهادة بينكم أصلها: شهادة ما بينكم، فحذف ما وأضيفت إلى الظرف - وتأتي الشهادة على عدة معانٍ منها: العلم والحلف والحضور (٢٣٣) وكذا الوصية - والمختار أن الشهادة هنا المؤداة من الشهود.

وقوله: {إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} إذا في موضع نصب ظرف للشهادة والمراد إذا قارب الحضور، لأن الميت لا يمكنه الإشهاد - وحين الوصية بدل من الظرف " إذا " وقوله: {اثْنَانِ} أي فيما فرض عليكم أن يشهد {اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ} فيكون المعنى: ليشهد بينكم إذا حضر أحدكم الموت وقت الوصية، شاهدان اثنان عدلان ذوا عقل ورشد منكم، أي من المسلمين على وصية الموصي المحتضر.

هذا إذا اعتبرنا صفة الاثنين وماهيتهما على أنهما شاهدان يشهدان على وصية الموصي وقيل: هما وصيان - والأول المختار.

قوله: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} معطوف على {اثْنَانِ} - أي شاهدان عدلان آخران من غير المسلمين من أهل الكتاب - وقيل: من غير الأقربين، أي الأباعد - والأول الراجح، لأن الخطاب موجه لأهل الإيمان وهم المسلمون وليس لذوي القرابة - فإذا لم يكن مع الموصي عند احتضاره من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد له رجلان من غير المسلمين من أهل الكتاب.

والإشكال هنا في شهادة غير المسلمين على المسلمين، بعد أن تبين وجوب الشهادة من اثنين عدلين من المسلمين على وصية الموصي الذي تحضره الوفاة، وذلك في الحضر - أما في السفر وهو الضرب في الأرض ولم يكن مع الموصي حينئذٍ أحد من المسلمين فعليه أن يشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر - فإذا أديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما لم يكذبا ولم يبدلا ولم يكتما وأن ما شهدا به حق، فيحكم بشهادتهما.

على أن تحليفهما هو مقتضى قوله: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} أي شككتم في شهادتهما واتهمتموهما - وإن استبان بعد ذلك أنهما كذبا وخانا في شهادتهما حلف رجلان آخران من أولياء الموصي في السفر وغرم الشاهدان الكاذبان - وهذا قول كثير من أهل العلم من السلف والخلف - وعلى هذا قالوا: شهادة أهل الذمة على المسلمين جائزة في السفر فقط إذا لم يكن ثمة مسلمون - فقد نزلت هذه الآية وليس من مسلم إلا في المدينة، وكانوا يسافرون بالتجارة ومعهم بعض أهل الكتاب وعبدة الأوثان.

وقيل عن قوله: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} إنه منسوخ - وهو قول الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم من الفقهاء - والمختار جواز الشهادة من أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر خاصة - وذلك للضرورة إذا لم يكن ثمة مسلم، ومع وجود مسلم لا يجوز - ويقوي ذلك قول ابن عباس عن سورة المائدة: إنه لا منسوخ فيها.

قوله: {إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ} الضرب في الأرض معناه السفر - أي إنكم إن سافرتم ثم دهمكم في السفر داهم الموت ولم يكن معكم أحد منكم فاستشهدوا على الوصية اثنين من غيركم - فيستدل من الآية على اشتراط السفر لجواز الاستشهاد بغير المسلمين إن لم يكن عند الموصي أحد من المسلمين - وإذا ذهب الاثنان الشاهدان إلى ورثة المتوفى الموصي فاتهموهما وارتابوا في أمرهما، وقفوهما لتحليفهما.

قوله: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَوَاتِ} تحبسونهما، جملة فعلية في محل رفع صفة {آخَرَانِ} (٢٣٤) والمراد بحبسهما توقيفهما -أي الشاهدين- من أجل أن يحلفا بعد الصلاة - وقيل: المقصود بها صلاة الظهر - وقيل: الصلاة مطلقاً - وقيل: صلاة العصر - وهو قول المفسرين - وذلك من باب التغليظ على الشاهد المستحلف بالزمان عند مظنة التهمة، لما في حرمة الزمان من تأثير في نفس الحالف فيحترز عن الكذب.

قوله: {فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ} يقسمان معطوف على {تَحْبِسُونَهُمَا} وإن أرتبتم، اعتراض بين القسم والمقسم عليه - أي إن شككتم في أمر الشاهدين أو الوصيين في قول واتهمتموهما فحلفوهما.

قوله: {لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ} أي لا نشتري بقسمنا عوضاً نأخذه بدلاً مما أوصى به الميت - ولا

نستبدل بصحة القسم بالله عرض الدنيا الفانية فلا نحلف كاذبين ولا نبذل ما أوصى به إلى أحد ولو كان الذي نقسم له ذا قربى منا - ولا نكتم ما أعلمنا الله به من الشهادة - ولئن فعلنا شيئاً من ذلك كتحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية {إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الأَثِمِينَ}.

١٠٧ - (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

قوله: {فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً} أي إن علم أو اطُّلع بعد التحليف على أن هذين الشاهدين –أو الوصيين في قول- فعلا ما يوجب إثماً من كذب أو زور أو تحريف للشهادة أو أكل للموصى به بغير حق فليشهد بدلاً منهما شاهدان آخران.

قوله: {فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا} آخران مبتدأ و {يَقُومَانِ} صفته - وخبر المبتدأ {الأَوِلَيَانِ} - أي رجلان شاهدان - مقامهما مصدر (٢٣٥).

والمعني أن يقوم شاهدان آخران أو حالفان آخران مقام الشاهدين اللذين كذبا وفرطا وخانا فيشهدا أو يحلفا على ما هو حق.

قوله: {مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ} ثمة قراءتان مشهورتان لقوله: {اسْتَحَقَّ} إحداهما: القراءة بالبناء للمفعول أي بضم التاء في قول الجمهور - فيكون الأوليان مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف - أي هما الأوليان - وقيل: بدل من ضمير يقومان - أو من {آخَرَانِ} فيكون المعنى بذلك: من الذين جُني عليهم وهم الورثة فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم - والأوليان مثنى أولى.

أما القراءة الثانية فهي البناء للفاعل أي نفتح التاء - فيكون الأوليان فاعل استحق - والأوليان الأقربان للميت، وهما الوارثان الأحقان بالشهادة أو اليمين لقربهما واطلاعهما - أما مفعول {اسْتَحَقَّ} فهو محذوف، وتقديره: تجريدهما للشهادة ليظهرا بها كذب الكاذبين - وقيل: الوصية - وقيل: مال الورثة وتركتهم.

قوله: {فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا} يقسمان معطوف على {يَقُومَانِ} والمراد بالشهادة هنا اليمين - وهو قول ابن عباس وآخرين كثير: والمعنى: أن يحلف الآخران اللذان قاما مقام الشاهدين الآثمين - على أن يميننا أحق من يمينهما الكاذبة لما ظهر من استحقاقهما للإثم {وَمَا اعْتَدَيْنَا} أي ما تجاوزنا القول الصدق ولا الشهادة بالحق - ولئن تجاوزنا أو فرطنا في شهادتنا أو يميننا {إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} أي الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بوضع الباطل موضع الحق فعرضوا أنفسهم لسخط الله وعذابه.

١٠٨ - (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا} الإشارة إلى الحكم الذي سبق تبيينه، من تحليف للشاهدين وحبس بعد الصلاة - أو ما بينه الله في هذه القصة من أحكام الوصية والشهادة في السفر وليس عند المسافر أحد من أهله وورثته، وعنده غير المسلمين - فإن ذلك أقرب إلى أن يؤدي الشهود الشهادة على حقيقتها ووجهها الأكمل الصحيح من غير تحريف في ذلك ولا تبديل ولا خيانة، خشية من الله أو خوف الفضيحة بظهور الخيانة وانكشاف الكذب ورد الأيمان على الورثة بعد أيمانهم فيفتضحون فيما بين الناس.

قوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا} أي خافوا الله واجتنبوا عصيانه ومخالفة أحكامه واسمعوا أوامره ومواعظه سمع خشوع وإخبات وإجابة ولا تخونوا في الأمانات.

قوله: {وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ} إذا لم تتقوا الله وتسمعوا أوامره وأحكامه فإنكم إذاً من الفاسقين، أي الخارجين عن طاعة الله وشرعه - والله عز وعلا لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق الجنة (٢٣٦).

١٠٩ - (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)

قوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ} يوم ظرف زمان لقوله: {لاَ يَهْدِي} وقيل: لقوله: {وَاسْمَعُوا} وقيل: منصوب لفعل محذوف تقديره: احذروا - أو اذكروا {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ} وفي ذلك تهديد وتخويف ينذر

الغافلين والمفرطين بسوء المصير.
قوله: {مَاذَا أُجِبْتُمْ} أي ماذا كان جواب أممكم إذ دعوتموهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده والإذعان لدينه وشرعه - فيقول النبيون: {لاَعِلْمَ لَنَا} واختلفوا في المراد بنفي العلم يوم القيامة - فقد قيل: معناه لا علم لنا ببواطن الأمم - وقيل: معناه لا علم لنا إلا ما علمتنا - ولعل التأويل المقبول لذلك أن النبيين تدهمهم وسائر الأمم غاشية القيامة بأهوالها وأرزائها وفظائعها - وإذ ذاك تجثو الخلائق على الركب فتطيش فيهم الأحلام وتبلغ فيهم القلوب الحناجر فيصيبهم من الروع والفزع ما يصيبهم فيذهلون عن الإجابة.
قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ} علام صيغة مبالغة - والمراد الكامل في العلم - والغيوب جمع غيب - وهو جمع لاختلاف أنواعه - فالله جل وعلا عليم بكل أنواع الغيب مما حواه هذا الكون العظيم من خفيّ ومخبوء - عليم بأحوال الناس وأسرارهم وخفاياهم وأرزاقهم ومصائرهم - عليم بحقائق الخلق عن غير الأناسي من الجن والملائكة وغير ذلك من المخاليق الكثيرة المنتشرة في أرجاء الكون الرحيب - وعليم بأهوال القيامة وما يقع فيها من زلازل ونوازل وقوارع (٢٣٧).
١١٠ - (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)
قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} إذ بدل من {يَوْمَ يَجْمَعُ} وقيل: منصوب بفعل تقديره اذكر - عيسى منادى، في محل رفع؛ لأنه منادى مفرد موصوف بمضاف - ويحتمل أن يكون في محل نصب في قول الجمهور - هذا إذا أعرب ابن صفة لعيسى.
ذلك بيان لما جرى بين الله تعالى وبين واحد من رسله الأبرار - وهو النبي المميز الطهور عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام - ليكون ذلك نموذجاً يكشف عن تفاصيل أحوال الباقين من النبيين - وقد خص المسيح بالذكر لتعلقه بكلا الطائفتين وهم اليهود والنصارى - إذ فرّط الأولون في حقه وأفرط الآخرون فيه - وفي هذه الآيات تفصيل لجنايات الفريقين الذين كذبوا أو غالوا أو تمالئوا عليه.
قوله: {اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ} يذكّر الله تعالى بما امتن به من النعم على عيسى وأمه البتول، بما يبين للبشرية طوال الدهر ما خصهما الله به من الكرامة وعلوا المنزلة والمقام - ثم أخذ بعد ذلك في تبيين نعمه العديدة عليهما، فقال سبحانه: {إذ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ} أيدتك، من الأيد بمعنى القوة - أي قويتك بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - وقيل: المراد الروح الطاهرة الشفيفة التي تفيض نورانية وإشراقاً - والقدس بمعنى الطهر.
قوله: {تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً} الجملة في محل نصب حال - والمعنى أنك تكلم الناس حال كونك طفلاً وكهلاً من غير أن يكون في كلامك بين الطرفين تفاوت - وهذه خصيصة من خصائص المسيح بل هي واحدة من الخوارق المعجزة التي خوله الله إياها.
قوله: {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} الكتاب يراد به الجنس - أي جنس الكتاب - وقيل: المراد بالكتاب: الكتابة وهي الخط - والحكمة، معناها الكلام المحكم الصواب - والتوراة هي الكتاب المنزل على كليم الله موسى موعظة وتنذيراً وإرشاداً لبني إسرائيل - وقد ذكرت هنا من جملة الإنعام على المسيح لشرفها؛ ولأنه كان عليه السلام يحتج بها على اليهود في غالب جداله معهم - أما الإنجيل فقد أنزله الله عليه ليبين لهم فيه وجه الحق في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وليكون لهم شفاء لصدورهم المريضة وعقولهم التي مسها اللي والتمسيخ.

قوله: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي} أي تصنع من جنس الطين هيئة مثل هيئة الطير بإذن الله ثم تنفخ في تلك الهيئة المصنوعة فتصير بعد النفخ طيراً فيه الحياة والحركة كسائر الطيور - وذلك بإذن الله وتوفيقه وتقديره.

قوله: {وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي} الأكمه، من الكمه بالتحريك معناه العمى يولد به الإنسان - والأكمه الذي يولد أعمى - بخلاف الأعمى فهو ولد بصيرا ثم عمي ٢٣٨ والبرص: بياض يقع في الجسد لعلة ٢٣٩.

وإبراء الأكمه مطموس البصر لينقلب بصيرا، أمر كبير خارق من الخوارق التي لا تحقق بغير إذن الله - وكذا البرص وهو داء يصيب البدن فلا يبرحه إلا بخارق من الخوارق - فذلكم المسيح عليه السلام كان يمسح بيده الشريفة على جسد المريض فيبرأ في الحال بإذن الله.

قوله: {وإذ تخرج الموتى بإذني} أي تخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتا وقد استحالوا إلى رفات رميم أتى عليه البلى - وذلك بإذن الله ليكون معجزة باهرة للناس وحجة لنبي الله عيسى تشهد على صدق نبوته وتدفع أعداءه المكذبين بالعناد والكفران.

قوله: {وإن كففت بني إسرائيل عنك} معطوف على قوله: {وإذ تخرج} وكففت من الكف وهو الرد والمنع ٢٤٠ أي رددت عنك بني إسرائيل إذ هموا بقتلك لما جئتهم بالدلائل والمعجزات على صدق نبوتك - فقال الذين جحدوا نبوتك وكذبوك من بني إسرائيل: {إن هذا إلا سحر مبين} أي ما هذا إلا سحر بين - وقد قالوا ذلك بعد أن بهرتهم الخوارق الساطعة والمعجزات الدامغة التي تكشف عن صدق دعوته ورسالته فلم يجدوا من حجة يتشبثون بها إلا أن تنسبوا معجزته للسحر.

وذلك هو ديدن المفلسين الآيسين في كل زمان، الذين يخطف أبصارهم شعاع الحق المنير فينقلبون مدبرين وقد أعمت أبصارهم السفاهة وهوان الأحلام.

١١١ - (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

قوله تعالى: {وإذ أوحيت إلى الحوارين أن ءامنوا بي وبرسولي قالوا ءامنا واشهد بأننا مسلمون} أوحيت من الوحي - وهو هنا الإلهام والقذف في القلب - ولا ينبغي أن يفهم الوحي هنا على ظاهره فإنه مخصوص بالأنبياء فقط، وليس الحواريون كذلك - بل هم وزراء سيدنا عيسى عليه السلام الذين اتبعوه ونصروه وكانوا على دينه.

والمعنى أن الله ألهم الحواريين، أو قذف في قلوبهم، على قول آخر، أن يؤمنوا بالله ربهم وأن يصدقوا برسوله عيسى - فقالوا: آمنا وصدقنا بما أمرتنا به واشهد علينا يا ربنا بأننا خاضعون مستسلمون لك ٢٤١.

١١٢ - (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {إذ قال الحواريون يعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين (١١٢) قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين (١١٣) قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وءاخرنا وءاية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين (١١٤) قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين}.

يبين الله مقالة الحواريين لنبيهم عيسى عليه السلام {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء} وفي سؤال الحواريين مثل هذا السؤال وبمثل هذه الصيغة ما يثير إشكالا يبعث التساؤل والاستغراب - إذ لا يليق بمؤمنين صادقين كالحواريين أن يسألوا عن استطاعة الله إنزال مائدة من السماء - فهم لا يشكون في قدرة الله ويعلمون علم اليقين أن الله يستطيع أن يفعل كل شيء وأن يصنع كل ما يريد - وللخروج من هذا الإشكال يمكن تأويل ذلك من وجهين: أولهما: أن الآية قرئت " هل تستطيع " بالتاء - وهي قراءة علي و ابن عباس وغيرهما فيكون المعنى هل تستطيع سؤال ربك.

ثانيهما: أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين، ونظير ذلك ما قاله بعض الناس من قوم موسى: {اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة} والمائدة بمعنى الخوان بكسر الخاء وضمها - اسم معرب وهو الذي يؤكل عليه - وقيل: المائدة بوزن فاعلة - من ماد يميد إذا تحرك، فهي

تميد بما عليها - وقيل: سميت المائدة بذلك، لأنها عطية - ماد فلان فلانا يميده ميدا إذا أعطاه وأحسن إليه - وعلى هذا فالمائدة بمعنى: معطية - وقيل: المائدة هي الطعام نفسه وإن لم يكن هناك خوان - ماد أهله إذا أعطاهم ومارهم ٢٤٢.
لقد سأل الحواريون نبيهم عيسى أن يسأل ربه إنزال مائدة عليهم تحمل طعاما فيأكلون منه - وذلك لحاجتهم وفقرهم.
قوله: {قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} أي خافوا الله أن ينزل بكم نقمته وعذابه على قولكم هذا لما يحتمله من شك منكم في قدرة الله على إنزال المائدة {إن كنتم مؤمنين} أي بكمال قدرة الله وبصدق الله وبصدق نبوة نبيهم ومرشدهم عيسى عليه الصلاة والسلام - وقد جاءكم من البينات والدلائل المعجزة ما فيه كفاية وغنى.
١١٣ - (قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)
قوله: {قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين} ذكر الحواريون لنبيهم عيسى أن سؤالهم إنزال المائدة من السماء مرده إلى أربعة أسباب هي:
الأول: الأكل منها، لأنهم كانوا في قلة ومجاعة مما جعلهم يلجون بالدعاء إلى الله ليطعمهم من جوع.
الثاني: ازدياد اليقين والطمأنينة لدى نزولها - والإنسان بطبعه يزداد تثبتا واستيقانا بإدراك الحواس - ومن جملة ذلك العين الباصرة، إذ تنظر إلى المائدة وهي تهبط من السماء إلى الأرض حاملة لهم الطعام على متنها، لا جرم أن ذلك مدعاة حقيقية ومؤثرة في زيادة التصديق.
ثالثها: أن يستيقنوا أن عيسى نبي مرسل إليهم من ربه.
رابعها: أن يشهدوا على نزولها عند من لم يحضرها من بني إسرائيل.
١١٤ - (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)
قوله: {قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وءاخرنا وءاية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين} اللهم يعني يا ألله.
والميمان بدل من (يا) اللهم، نداء - وربنا نداء ثان - والمائدة بمعنى الخوان الذي عليه الطعام - وهي فاعلة من الفعل ماد يميد - ماد خادمه يميده أي أطعمه وأعطاه.
فالمائدة هي المطعمة والمعطية الآكلين الطعام.
قوله: {تكون لنا عيدا} في محل نصب صفة لمائدة - أي نجعل يوم نزولها علينا يوم عيد لنا نسر فيه ونبتهج - والعيد مشتق من العود بفتح العين ويطلق على الزمان المعهود، لأنه يعود في كل عام بالبهجة: والحبور، إذ تغشى الناس فيه غاشية رحيمة من الفرح والسعادة قوله: {لأولنا وءاخرنا} أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيدا نعظمه نحن في زماننا ويعظمه الذين يجيئون من بعدنا من الأمم اللاحقة - وقد روي أن المائدة نزلت عليهم يوم الأحد ومن أجل ذلك اتخذه النصارى عيدا لهم.
قوله: {وءاية منك} أي دلالة كائنة منك تكشف عن كمال قدرتك.
قوله: {وارزقنا وأنت خير الرازقين} الرزق معناه العطاء أو ما ينتفع به ٢٤٣ أي أعطنا هذه المائدة وغيرها من الأرزاق وأنت يا ربنا خير من أعطى ورزق.
١١٥ - (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)
قوله: {قال الله إني منزلها عليكم} هذه إجابة لسؤال عيسى بإنزال المائدة وهو وعد من الله ووعد الحق - ويحقق حدث الإنزال قوله: {إني} فهو للتأكيد فضلا عن كون الله {لا يخلف الميعاد} وهو سبحانه منجز ما وعده - وقد ذهب إلى ذلك أكثر أهل العلم - وصيغة المبالغة في قوله: {منزلها} يشير إلى نزولها عدة مرات - والله تعالى أعلم.
قوله: {فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العلمين} ذلك تهديد من الله لبني إسرئيل الذين سألوا الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء يأكلون منها وتطمئن بها قلوبهم وتكون لهم ولمن بعدهم عيدا - وقد استجاب اللهم لهم مقرنا ذلك بالوعيد لمن يكفر

بعد تنزيل المائدة أن الله سوف يعذبه تعذيبا لم يعذب بمثله أحدا من العالمين في زمانهم أو العالمين مطلقا - والظاهر أن فريقا من القوم جحدوا وكفروا وكذبوا نبوة عيسى فعذبهم الله في الدنيا أن مسخهم قردة وخنازير وعذبهم في الآخرة أن جعلهم من أصحاب الجحيم - وعن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون ٢٤٤.

١١٦ - (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قوله تعالى: {وإذ قال الله يعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٦) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (١١٧) إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨) قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفور العظيم (١١٩) لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير}.

يخاطب الله نبيه عيسى في هذه الآية قائلا له على رؤوس الأشهاد يوم القيامة: {ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} وهذا تهديد وتوبيخ لمن عبد المسيح وأمه من النصارى لإشراكهم مع الله آلهة أخرى - وقيل: ذلك في الدنيا عند رفع المسيح إلى السماء - والأول أولى القولين وهو قول أكثر المفسرين والمقصود بالاستفهام هنا التوبيخ للقوم الذين اتخذوا المسيح وأمه آلهة من دون الله من تلقاء أنفسهم ومن محض أحلامهم الضالة.

قوله: {سبحانك} مصدر غير متصرف ٢٤٥ وسبحان مبالغة في التنزيه - أي تنزيها لك من أن أقول ذلك في حقك - أو أنزهك من أن يكون لك شريك.

قوله: {ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} ما، الأولى للنفي - وما الثانية موصولة في محل نصب مفعول {أقول} والمعنى: لا ينبغي ولا يليق أن أقول قولا لا يحق لي أن أقوله مطلقا لأنني مربوب ولست برب، وعابد ولست بمعبود.

قوله: {إن كنت قلته فقد علمته} يستدل ابن مريم بذلك على براءته من القول المذكور عنه - إذ لو قاله لكان الله به خبيرا فهو سبحانه أعلم العالمين وهو علام الأسرار والغيوب - وليس في علم الله أن عيسى قال ذلك، فينتفي بالضرورة صدور هذا القول عنه.

قوله: {تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك} النفس عبارة عن الذات - نفس الشيء أي ذاته - ونفس الشيء وذاته بمعنى واحد - وتطلق النفس أيضا على الروح، وعلى القلب، وعلى الدم، وعلى العينين التي تصيب - على أنها حقيقة في المعنى الأول وهو الذات ومجاز فيما عداه - وقد جاء في تأويل ذلك عدة أقوال، منها:

أنك تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم - وقيل: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه - وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد - وقيل: تعلم سري ولا أعلم سرك.

قوله: {إنك أنت علام الغيوب} ذلك تقرير لحقيقة كبرى وخصيصة من خصائص الإلهية العظمى، وهي أن الله عالم بخفيات الأمور التي لا يطلع عليها سوى الله.

١١٧ - (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قوله: {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم} ذلك إقرار خالص من عيسى عليه السلام وفي غاية الأدب والخضوع لله إذ ينفي عن نفسه دعوتهم أن يتخذوه وأمه إلهين، فيقول ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من القول وهو {أن اعبدوا الله ربي وربكم}

أن، تأتي هنا مفسرة بكسر السين - والمفسر، بالفتح هو الهاء في " به " الراجع إلى القول المأمور به - أي ما قلت لهم إلا قولا أمرتني به - وذلك القول هو أن أقول لهم: {اعبدوا الله ربي وربكم}.

قوله: {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم} أي كنت رقيبا وشاهدا على أفعالهم وأقوالهم {ما دمت فيهم} ما في موضع نصب على الظرفية الزمانية - أي مدة دوامي فيهم.

قوله: {فلما توفتني كنت أنت الرقيب عليهم} توفيتني يعني قبضتني بالرفع إلى السماء - يقال: توفيت المال إذا قبضته - وقيل: الوفاة في القرآن على ثلاثة أوجه: وفاة الموت وقت انقضاء الأجل - ووفاة النوم - ووفاة الرفع إلى السماء - وهو المقصود هنا - فقد رفع الله إليه عيسى ابن مريم - وهو الآن حي في السماء ولسوف ينزل إلى الأرض إيذانا بقيام الساعة فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويدعو الناس إلى ملة الإسلام، دين الفطرة والتوحيد - والمراد هنا - فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت أنت الحفيظ عليهم دوني، لأني إنما شهدتهم وأنا بين أظهرهم.

قوله: {وأنت على كل شيء قدير} أنت تشهد على كل شيء، لأنه لا يخفى عليك شيء - أما أنا فإنما شهدت بعض أقوالهم وأفعالهم وأنا مقيم بين أظهرهم - فأنت الشهيد لي وأنا بينهم - وأنت الشهيد عليهم بعد مفارقتي لهم.

١١٨ - (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {إن تعذبهم فإنهم عبادك} يعني إن تعذب هؤلاء الذين قالوا مقالة الباطل لا يلحقك بتعذيبهم اعتراض من أحد - فأنت مالكهم وخالقهم ولا يجترئ أحد عليك باعتراض - وقيل: إن تعذبهم فإنهم عبادك مستسلمون لك لا يمتنعون مما أردته بهم ولا يدفعون عن أنفسهم أمرا قدرته لهم - وقيل: قال ذلك على سبيل الاستعطاف وطلب الرحمة بهم مثلما يسترحم العبد من سيده.

١١٩ - (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله: {قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم} يوم بالرفع على أنه خبر للمبتدأ هو - وقرئ بالنصب على أنه ظرف للقول - والقراءة الأولى أولى وهو قول أكثر المفسرين - والمراد بالصدق في الآية صدقهم في الدنيا - فهم الصادقون المستمرون على الصدق في قضايا التوحيد والأحكام والسلوك - وقيل: المراد صدقهم في الآخرة - والأول أولى.

قوله: {لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا} لهم، في محل رفع خبر مقدم - جنات، مبتدأ مؤخر - {تجري} جملة فعلية في محل رفع صفة للمبتدأ - أي أن الله أثاب الصادقين في مقابلة صدقهم وبرهم وإخلاصهم لله جنات تجري من تحتها ومن خلالها الأنهار حيث النعيم الدائم والعطاء الخالد الذي لا يزول.

قوله: {رضي الله عنهم ورضوا عنه} الرضى من الله أرقى مراتب النعيم وأعظم منازل التكريم - فقد أفاض الله على هؤلاء الصادقين رضوانه العظيم - وهو فوق ما ذكره من نعيم الجنات الباقيات الخالدات - والرضوان من الله غاية سامقة قصوى لما يتخيله البشر من كريم النعمة المميزة التي تفوق كل الأنعم - جعلنا الله ممن رضي عنهم - آمين - وقوله: {ورضوا عنه} وذلك بما جزاهم من خير الجزاء مما لم يخطر على بالهم ولم تتصوره أذهانهم.

قوله: {ذلك الفوز العظيم} ذلك إشارة إلى الرضوان من الله جل شأنه وقيل: إلى جميع ما تقدم من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وهم تفيض عليهم من الله نداوة الرضوان الغامر - لا جرم أن ذلك هو الفوز الذي يجل عن الوصف بما يعز على الألباب والأخيلة أن تدركه أو تتصوره - وهو لا يضاهيه ولا يدانيه من ضروب الفوز والفلاح شيء.

١٢٠ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: {لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير} ختم الله السورة بهذه الآية ليؤكد على أنه وحده مالك السماوات

والأرض دون عيسى وأمه مريم ودون سائر مخلوقاته - وما عيسى وأمه غير عبدين من عباد الله ينالهما ما ينال الخلائق من الإهلاك والإفناء - والله جل شأنه القادر على كل شيء وهو المسيطر على كل ما في الكون من مخلوق وموجود ٢٤٦.

٦ سورة الأنعام:

سورة الأنعام:
ترتيبها: ٦
عدد آياتها: ١٦٥
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية - وهي تتضمن فيضا من المعاني والمواعظ والمشاهد والحقائق بما يرسخ في الواقع البشري عقيدة التوحيد وحقيقة الألوهية المطلقة الكبرى لله وحده - وذلك في الواقع كله مبدوء بالثناء الأكبر من الله على ذاته العظيمة، إذ خلق العالمين جميعا وخلق كل شيء في هذا الكون الواسع - سواء في ذلك الأحياء والجوامد والكائنات جميعا - وتتضمن السورة تنديدا بالمشركين الذين أعرضوا عن آيات الله وما فيها من حجج ودلائل - والذين لجوا في كفرهم لجوجا فسقطوا في الضلالة وفرط الجحود حتى إنهم لو رأوا كتاب الله يتنزل عليهم من السماء في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقالوا مكابرين معاندين: {إن هذا إلا سحر مبين} وقالوا أشد من ذلك، إذ سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل معه من السماء ملك يشهد له بصدق نبوته - وتتضمن السورة أيضا تحنانا من الله لرسوله الكريم بما يخفف عن نفسه وطأة الحزن والاغتمام كيلا يأسى عليهم كثيرا - فيعلمه ربه أنه قد استهزئ برسل آخرين من قبله فأحاط بهم العذاب الذي كانوا يتخذونه من قبل هزوا - وفي السورة يأمر الله نبيه الكريم أن يسأل قومه المشركين الضالين عن أعظم الشاهدين له بصدق ما أنيط به من النبوة والرسالة، ليقرر بعد ذلك أن الله هو الشاهد له على أنه الحق وأنه مرسل من ربه، يأتيه الوحي من السماء وكفى بالله شهيدا - وفي السورة بيان عن حال المشركين يوم القيامة حين يجمعهم الله مقهورين أذلة في أرض المحشر ليلاقوا الويل وضروب العذاب - وهنالك يسألهم الله وملائكته عن الشركاء الذين اصطنعوهم في الدنيا ليعبدوهم مع الله فينكرون أنهم فعلوا ذلك، ينكرون أنهم كانوا مشركين {قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}.
وفي السورة إخبار عن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ كان يدفع الأذى عن رسول الله ويرد عنه كيد المشركين المعتدين إذا ما أرادوا أن ينالوا منه نيلا - لكنه مع ذلك كان ينأى بنفسه عن الدخول في الإسلام - وهو مقتضى قوله تعالى: {وهم ينهون عنه وينئون عنه}.
وفي السورة تزهيد للإنسان في الحياة الدنيا، فما هي إلا لهو ولعب، إذ تنشغل بها القلوب والأذهان عن طاعة الله وعن التوجه إلى جنابه - ولا جرم أن الدنيا دار زوال وفناء وإنما البقاء والديمومة في دار القرار، وهي الآخرة - وتتضمن السورة كذلك تسلية لرسول الله، إذ أعرض عنه المشركون وكذبوا دعوته وأنكروا نبوته، فبين الله له أن هؤلاء لا يكذبونك أنت ولكنهم يكذبون الله الذي أوحى إليك - وذلك هو شأن النبيين من قبلك، إذ كذبتهم أممهم فصبروا على أذاهم وتكذيبهم - ويندد الله بسؤال المشركين للنبي أن يطرد من حوله من المؤمنين الضعفاء كصهيب وعمار وبلال وسلمان كيما يجلسوا هم إليه ويحادثوه - وأنى لرسول الله أن يطرد هؤلاء المؤمنين الكرام الذين بادروا بالتصديق والطاعة.
وتتضمن السورة كذلك ذكرا مستفيضا لحقيقة هائلة من الحقائق الكبريات في هذا الكون - وهي مفتاح الغيب كلها عند الله سبحانه - فهو العليم بالأشياء كافة لدى حدوثها ومن قبل أن تحدث - فما من غيب خفي مستور ولا حدث ولا خبر، هين أو جلل إلا هو في علم الله وإحاطته.
وفي السورة تحذير من القعود في مقاعد الذين يتناولون الإسلام بالسوء والطعن من الأشقياء والسفهاء والفاسقين - فإن علم المؤمن أنه

لا يملك القدرة على التصدي لمثل هؤلاء الضالين الفجرة الذين يتطاولون على الإسلام بالشتائم والسخرية أو الاستخفاف والغمز فلا مساغ له بعد ذلك أن يقعد هذا المقعد - ولا مساغ له كذلك أن يجالسهم أو يحادثهم وهم يخوضون في آيات الله بالسخرية وبالبذيء من القول وهو ساكت واجم لا يريم ولا ينبس.

وفي السورة قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أبيه وقومه بعد أن ظن أن الكوكب ربه - وكذا الشمس - حتى إذا استبان له وجه الحق أبلج أيقن أن الله وحده بيده ملكوت كل شيء وهو الذي فطر السموات والأرض - فهو القاهر القادر الذي عنت له الوجوه، وخشعت له القلوب ولانت له الجوانح والجوارح.

إلى غير ذلك من المعاني الكبيرة والجليلة التي حوتها هذه السورة العظيمة.

بيان تفصلي للسورة

هذه السورة العظيمة مكية في جملتها - وهي أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين - وفيها من أصول العقيدة الثابتة ما تجلى من خلاله بنيان هذا الدين الكبير وما قام عليه من أصول وقيم وتصورات وقد أنزلت هذه السورة ليلا جملة واحدة ومن حولها الملائكة يجأرون بالتسبيح مشيعين - وفي هذا أخرج الحاكم في مستدركه عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: " لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق ".

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

قوله تعالى: {الحمد لله الذي خلق السموت والأرض وجعل الظلمت والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}.

الحمد معناه الثناء - ومنه معنى التعجب والتعظيم للممدوح والخضوع من المادح - فهو أعم من الشكر الذي لا يكون إلا في مقابلة الصنيع ١.

فقد بدأ الله هذه السورة بالحمد على نفسه الكريمة تقديسا لذاته وتعظيما لجلاله وترسيخا للحقيقة الكبرى وهي الألوهية ليرسو في الأذهان والقلوب أن التعظيم الأكبر إنما يكون لله وحده دون أحد من خلقه.

قوله: {الذي خلق السموت والأرض} الله تعالى حقيق بالمدح الكامل ودوام الثناء لما امتن به على الكون من أنعم وخوارق وعجائب تدير الرأس وتثير الدهش وتبعث على البهر الغامر - ومن جملة ذلك كله خلق السموات والأرض، على هذه الكيفية الدقيقة الرتيبة المنتظمة - السموات العظام الطباق العلى وما فيهن من أجرام وأنجم وكواكب تمور في أفلاكها الدائرة مورا - وذلك في حركة دائبة مقدورة لا تهدأ إلا أن تحين ساعة الفناء - لا جرم أن ما بثه الله في السموات من خلائق وأشياء كاثرة مبثوثة في أرجاء هذا الكون المعمور ينطق بعظمة الخالق المبدع المقتدر.

الخالق البارئ المتفرد بالألوهية، المتعالي على الكائنات - وكذلك الأرض وما فيها من عجائب التركيب المنسجم، ما بين سهول منبسطة رداح، وجبال رواسي شامخات، وأبحر هادرة مائجة تثير الهول والوجوم، وأنهر جارية منسابة عذاب تشق بطون السهول والوهاد من الأرض - إلى غير ذلك من عجائب المناخ واختلاف المواسم بطقوسها وفصولها المتفاوتة المتكاملة التي تسير وفق نظام فلكي مقدر لا يند ولا يتخلف {صنع الله الذي أتقن كل شيء}.

قوله: {وجعل الظلمت والنور} معطوف على {خلق السموت} وهو من جملة الإشعار بعلة الحمد - والظلمات مفعولة لقوله: {وجعل} وهو يتعدى إلى مفعول واحد، بمعنى خلق ٢ - والجعل هنا بمعنى الخلق - وقد اختلفوا في معنى الظلمات والنور - فقد قيل: المراد بالظلمات سواد الليل - وبالنور ضياء النهار - وهو قول أكثر المفسرين - وقيل: معناه: الكفر والإيمان - وقيل: الضلال والهدى - والصحيح أن اللفظ يعم ذلك كله - وقد أفرد النور لشرفه - فهو واحد لا يتعدد، لأنه الحق - وجمع الظلمات وهي كثيرة وذلك كقوله: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}.

قوله: {ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} يعدلون، أي يشركون به غيره - من العدل وهو التسوية - عدل الشيء بالشيء إذا ساواه به - أي يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه - فقد جعلوا لله عدلا وشريكا وهو سبحانه الذي خلق الأشياء كلها وقيل: يعدلون، من العدل وهو العدول - أي الانصراف عن الإيمان بالله وحده - وقوله {ثم} في أول الآية، تفيد الاستبعاد - أي استبعاد عدولهم عن الإيمان

بالله وعن طاعته وحده بعد وضوح الدلائل على كمال قدرته - أو استبعاد أن يعدلوا بالله غيره من المخاليق الذين اتخذوهم شركاء مع الله.

وقيل: {ثم}، هنا تفيد التوبيخ والتقبيح لهؤلاء الكافرين الضالين الذين يجعلون لله شريكا وهو الذي خلق كل شيء - فإنه بعد أن تبين لكل ذي لب وبصيرة أن الله خالق الأشياء جميعا، وأن نعمه على الكون لا تحصى عددا - فإنه مع ذلك كله يتخذ الظالمون المشركون عدلا يعبدونه من دون الله.

٢ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

قوله تعالى: {هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون (٢) وهو الله في السموت وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون} خلق الله الناس من طين - والمراد أصلهم وهو آدم عليه السلام، والناس كلهم من نسله والفرع يضاف إلى أصله - وسمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض وهو ما يلي وجهها ٣.

قوله: {ثم قضى أجلا} أي ما بين أن يخلق إلى أن يموت - وقيل: معناه الموت.

وقوله: {وأجل مسمى عنده} أجل، مبتدأ مرفوع - مسمى، صفته - وعنده، خبر المبتدأ - وهو ما بين موته إلى أن يبعث وهو البرزخ - وقيل المراد بذلك الآخرة - وقيل في تأويل الأجلين غير ذلك.

قوله: {ثم أنتم تمترون} من المرية والامتراء وهو الشك - أي أنكم تشكون وتجادلون في الله بالرغم مما ظهر لكم من الدلائل الساطعة البلجة على قدرة الله وكماله وأنه الموجد المبدع لكل الخلائق.

٣ - (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

قوله: {وهو الله في السموت وفي الأرض} الله ضمير الشأن، مبتدأ، وخبره {في السموت} ٤ أي أن الله هو المعبود والمعظم والمتصرف في السموات وفي الأرض - وقيل: هو المدعو الله في السموات وفي الأرض - أي يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السموات ومن في الأرض ويسمونه الله - فيكون نظير هذه الآية هو قوله تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} أي هو الله في السماء وهو الله في الأرض.

قوله: {يعلم سركم وجهركم} أي أن الله عليم بما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال والأفعال - فكل شيء عنده، ما من خبر أو حقيقة أو علم إلا هو مكشوف وظاهر بين يدي الله بل يستوي عند الله ما كان خافيا وما كان ظاهرا.

قوله: {ويعلم ما تكسبون} الكسب، الفعل الذي يفضي إلى النفع أو الضرر - فالله عز وعلا عليم بما يصدر عن الإنسان من خير أو شر فيجازيه على ذلك ٥.

٤ - (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

قوله تعالى: {وما تأتيهم من ءاية من ءايت ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون (٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهر تجري من تحتهم فأهلكنهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا ءاخرين} ذلك إخبار من الله عن جحود المشركين وعن عنادهم وإعراضهم عن الدلائل الظاهرة التي تكشف عن وحدانية الله وعن صدق رسله.

قوله: {وما تأتيهم من ءاية من ءايت ربهم إلا كانوا عنها معرضين} من، الأولى مزيدة للاستغراق - ومن الثانية، للتبعيض - والمعنى، أنه ما يظهر لهؤلاء المشركين المعاندين من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن الحكيم بروعته وإعجازه وعجيب رصفه وتركيبه إلا كانوا عن كل ذلك {معرضين} أي تاركين النظر فيه بل غير ملتفتين إليه.

٥ - (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

قوله: {فقد كذبوا بالحق لما جاءهم} المراد بالحق القرآن - والفاء في قوله: {فقد} تفيد الترتيب - والمراد ترتيب ما بعدها على ما قبلها

من المعاني - والمقصود أن هؤلاء المعاندين الجاحدين لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم ما أنزل الله على العالمين من آيات ومعجزات، فكيف لا يعرضون عن غيره من الدلائل الأخرى.

قوله: {فسوف يأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون} المراد بالأنباء العذاب الذي أعده الله لهؤلاء الضالين - وهذا تهديد من الله لهم ووعيد شديد في مقابلة تكذيبهم وإعراضهم عن الحق فلسوف يذوقون وبال هذا الإعراض وهذا النكول - وسيظهر لهم وبال استهزائهم بهذا الدين وهذا القرآن العظيم عندما يحيق بهم الخزي في الدنيا عقيب ظهور الإسلام وعلو شأنه، أو في الآخرة حيث العذاب الحارق الواصب.

٦ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

قوله: {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن} كم، اسم للعدد في موضع نصب على المفعولية بأهلكنا وليس {يروا} لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما بعده ٦ والقرن، يراد به هنا الجيل من الناس ٧ - وهذا تخويف وموعظة من الله للناس عسى أن يكفوا عن الإدبار والجحود، فتصيخ قلوبهم للحق أو يلينوا لسماع القرآن الحكيم - فقد وعظهم الله وذكرهم بما حل بالأمم السالفة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم من الأمم السابقة الذين أعرضوا عن ملة التوحيد واستكبروا في الأرض بغير الحق فأصابهم من الوبال والخسران ما أصابهم فكانوا عبرة خالدة ماثلة لمن يعتبر.

قوله: {مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم} أي جعلنا لهم فيها مكانا وقررناهم فيها وأعطيناهم من القوى والقدرات ما لم نجعل مثله لكم - أو أعطيناهم وجعلنا لهم من السعة وطول المقام ما لم نجعل لكم يا أهل مكة.

قوله: {وأرسلنا السماء عليهم مدرارا} المراد بالسماء هنا المطر - وقيل: السحاب - والمدرار على وزن مفعال، للمبالغة ومعناه المغزار، كثير الصب.

قوله: {وجعلنا الأنهر تجري من تحتهم} أي من تحت مساكنهم وأشجارهم - والمعنى أن هؤلاء الأقوام السابقين عاشوا في خصب وسعة ورخاء، إذ كانوا في بيوتهم الآمنة المكينة وهم تحف بهم الأنهار والأشجار والثمار فعاشوا آمنين منعمين.

لكنهم لفسقهم وعتوهم وتكذيبهم لرسل الله أخذهم الله بالعذاب البئيس - فحقيق بكم أنتم يا أهل مكة، وأنتم الأقل منهم حظا والأضعف منهم في الكثرة والسعة في الأموال والأجساد، أن تتعضوا وترعووا لتثوبوا إلى الحق والامتثال لأمر الله.

قوله: {فأهلكناهم بذنوبهم} الفاء للتعقيب - أي فكفروا فأهلكناهم - والباء للسببية - أي أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب عتوهم واستكبارهم وما قارفوه من الذنوب والخطايا في حق النبيين والمرسلين، إذ آذوهم وكذبوهم - فالذنوب سبب لزوال النعم وغير ذلك من وجوه الانتقام.

قوله: {وأنشأنا من بعدهم قرنا ءاخرين} بعد أن أهلك الله أولئك الظالمين المكذبين أوجد بدلا منهم قوما آخرين - فالله تعالى لا يعجزه أن يهلك مثل هؤلاء المكذبين الجاحدين - وإنما يهلكهم إهلاكا ليأتي بآخرين بدلا منهم، فاحذروا أنتم يا مشركي مكة أن يحل عليكم من الهلاك ما حاق بالسابقين من قبلكم بسبب جحودهم وتكذيبهم ٨.

٧ - (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {ولو نزلنا عليك كتبا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧) وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (٨) ولو جعلنه ملكا لجعلنه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كونوا به يستهزءون (١٠) قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عقبة المكذبين}

جاء في سبب نزول هذه الآية أن مشركي مكة قالوا: يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله ٩.

الكتاب مصدر بمعنى الكتابة - والقرطاس معناه الورق - وقيل: الكراسة - وقيل: الصحيفة - وهي معان متقاربة - والمراد أننا لو أنزلنا

على هؤلاء المشركين كتابا من السماء في صحيفة {فلمسوه بأيديهم} أي عاينوه معاينة ومسوه مسا أو قلبوه وجسوه بأيديهم جسا لما آمنوا، بل جحدوا وأبوا إلا أن يكفروا وقالوا: {إن هذا إلا سحر مبين} إن نافية - يعني ما هذا الذي نشاهده إلا ظاهر السحر - وذلك لفرط عنادهم وجحودهم وقسوة قلوبهم وتبلد عقولهم.

٨ - (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ)

قوله: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك} لولا أداة تحضيض بمعنى هلا - فقد اقترح المشركون السفهاء أن ينزل مع رسول الله ملك ليروه فيصدقوا - وهم في الحقيقة متعصبون لئام قد طغى عليهم استكبارهم وغلبت عليهم شقوتهم فلا يعون أنهم لو أنزل عليهم الملك لكانت القاضية - ولذلك قال سبحانه: {ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون} أي لو أنزل الله عليهم الملك فرآه على صورته الهائلة المخوفة لماتوا من هول المنظر، ولأنهم لا يطيقون رؤيته لطبيعتهم التي بنيت على الضعف.

وقيل في تأويل الآية: لو أنزلنا عليهم ملكا كما سألوا ثم كفروا ولم يؤمنوا لجاءهم العذاب بالاستئصال عاجلا غير آجلا ولم ينظروا بتأخير العذاب عنهم.

٩ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)

قوله: {ولو جعلنه ملكا لجعلنه رجلا} الضمير الأول يعود على الرسول عليه الصلاة والسلام - والضمير الثاني يعود على الملك - وفي تأويل الآية يقول ابن عباس: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور - أي لو بعثنا إليكم رسولا من الملائكة لصيرناه على هيئة رجل لتأنسوا به ولتتمكنوا من مخاطبته والأخذ عنه، لأن كل جنس إنما يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه - ولو جعل الله الرسول إلى الناس ملكا لنفروا من مقاربته ولما استأنسوا به ولكان قد داخل نفوسهم الرعب من صورته ومن كلامه مما يحفزهم بالضرورة على الكف عن كلامه أو مساءلته - وبذلك تتعطل المصلحة فلا ينتفعون ولا يهتدون.

قوله: {وللبسنا عليهم ما يلبسون} لبسنا من اللبس وهو الخلط - التبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه واللبسة بضم اللام بمعنى الشبهة - لبست الأمر على القوم ألبسه لبسا إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا ١٠ فيكون تأويل الآية: لخلطنا عليهم بتمثيله رجلا، ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، إذ يقولون له: إنما أنت بشر ولست ملكا - قال الرازي في ذلك: والمعنى أنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر فهم يظنون كون ذلك الملك بشرا فيعود سؤالهم أنا لا نرضى برسالة هذا الشخص - وقال الزمخشري في الكشاف: ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك فإن قال لهم: دليل أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز وهو ناطق بأني ملك لا بشر كذبوه كما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم.

وقال الشوكاني في تأويل الآية: أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك - فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه.

١٠ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

قوله: {ولقد استهزئ برسل من قبلك فحق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون} ما كانوا، في محل رفع فاعل (حاق) وما مصدرية - أي عقاب استهزائهم ١١ هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما يخفف عنه وطأة الحزن والاغتمام لنكولهم وجحودهم - والمراد، لست أنت وحدك يا محمد قد استهزئ بك من قبل المشركين الضالين، بل استهزئ برسل آخرين من قبلك، إذ استخف بهم أقوامهم وناصبوهم الأذى والصد وسخروا منهم ومن دينهم بل سخروا مما أنذرهم النبيون فقد أنذروهم العذاب {فحق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون} حاق بمعنى أحاط ونزل أي فأحاط بهم وبال استهزائهم أو وبال الذي كانوا يستهزئون به وهو العذاب الذي كان الرسل يخوفونهم إياه - إذ خوفهم نزول النقم وحلول المثلات بهم.

١١ - (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عقبة المكذبين} كيف في محل نصب خبر كان - فقد أمر الله نبيه محمدا صلى

الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء الذين عدلوا بالله الأوان والأنداد أن يجولوا في بلاد الذين كفروا وكذبوا رسلهم من الأمم السالفة ليروا بأنفسهم كيف أعقبهم تكذيبهم ذلك الهلاك والخزي والعار في الدنيا فضلا عما حل بهم من سخط الله عليهم بالدمار وخراب الديار وعفو الأمصار والآثار - وذلك ليحذروا مثل مصارعهم وليربأوا بأنفسهم ما حل بهم من الوبال والخسران ١٢.

١٢ - (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {قل لمن ما في السموت والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} أي قل لهم يا محمد على سبيل التقريع والتوبيخ {لمن ما في السموات والأرض} أي لمن الكائنات جميعا؟ من خالقها ومالكها والمتصرف فيها؟ {قل لله} فقد أمر الله بالسؤال أولا ثم بالجواب عن السؤال ثانيا - وهو أن كل شيء في السموات والأرض مملوك لله - وأن ما من شيء إلا وهو من مخاليق الله سواء كان ذلك باعترافهم أو قيام الحجة عليهم.

قوله: {كتب على نفسه الرحمة} أي أوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والإحسان من غير وسائط - وقيل: وعد بها (الرحمة) فضلا منه وكرما: وقيل: قضى أنه بعباده رحيم لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم الإنابة والتوبة - وهذا من الله استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة - وقيل: تأويله فيما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي ".

قوله: {ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه} اللام لام القسم، والنون نون التوكيد - وجملة {ليجمعنكم} مستأنفة على جهة التبيين فيكون تمام الكلام عند قوله: {الرحمة} فيكون المعنى: ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم {إلى يوم القيمة} وقيل: ليجمعنكم في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه - وقيل: {إلى} بمعنى (في) أي ليجعلنكم في يوم القيامة - وهذا اليوم الموعود والذي توعد الله فيه الظالمين والمعرضين والمستكبرين، واقع لا محالة وهو يوم لا شك فيه - قوله: {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} اسم الموصول {الذين} إعرابه ثلاثة وجوه: الأول: الرفع على أنه مبتدأ، وخبره {فهم لا يؤمنون} ودخلت الفاء في خبر الموصول - وهي تتضمن معنى الشرط والجزاء.

والثاني: النصب على البدل من الكاف والميم في قوله: {ليجمعنكم}.

والثالث: النصب على الذم ١٣.

قل الزمخشري في الكشاف في المقصود بالآية: الذين خسروا أنفسهم في علم الله تعالى، لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون - أي أن الذين حكم الله تعالى بخسرانهم لاختيارهم الكفر لا يؤمنون - والحكم بالخسران سابق على عدم الإيمان، لأنه مقارن للعلم باختيارهم للكفر ١٤.

١٣ - (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {وله ما سكن في اليل والنهار وهو السميع العليم (١٣) قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموت والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكون من المشركين (١٤) قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين}.

ذكر عن ابن عباس في سبب نزول {وله ما سكن في اليل والنهار} أن كفار مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة، فنحن نجعل لك نصيبا من أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه - فنزلت الآية ١٥ وقوله: {سكن} أي ثبت - والسكون هنا بمعنى الحلول - فالتقدير أن الله له كل ما حصل في الليل والنهار - أي كل ما اشتمل عليه الزمان سواء كان متحركا أو ساكنا مستقرا - أي أخبرهم يا محمد أن كل شيء دخل في إطار الزمان من ليل أو نهار إنما هو مملوك لله - فالله سبحانه يملك الخير والمال والفضل وكل أسباب الغنى، بل إن الله يملك ما حواه الليل والنهار من أشياء.

قوله: {وهو السميع العليم} السميع والعليم بصيغة المبالغة - فالله ذو إحاطة كاملة بكل شيء من حيث القدرة ومن حيث السمع والعلم

- فهو يسمع كل ما يجري في الكون من دعاء لضارع هاجس أو لمستخلف كظيم نابس - فما من حركة ولا همسة ولا صوت خفي باطن أو صادح ظاهر إلا كان الله يسمعه - وما من قول أو فعل أو خبر أو مكان أو زمان إلا ويحيط به علم الله - فالله يحيط سمعه وعلمه بكل شيء.

١٤ - (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: {قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموت والأرض} ذلك توبيخ من الله للمشركين السفهاء الذين يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين الآباء والأجداد وذلك بعبادة الأصنام - فهو سبحانه يأمر نبيه الكريم أن يقول لهم موبخا ومقرعا {أغير الله أتخذ وليا} استفهام إنكاري لاتخاذ غير الله وليا - والولي معناه الناصر ١٦ والمراد به هنا المعبود - أي كيف أتخذ غير الله إلها معبودا.

وقوله: {فاطر السموت والأرض} فاطر مجرور على أنه نعت لاسم الله - وفاطرهما، أي خالقهما ومبدعهما.

قوله: {وهو يطعم ولا يطعم} الجملة في محل نصب على الحال - والمراد بالطعم هنا الرزق - أي أن الله يرزق ولا يرزق - والرزق يتناول كل ما ينتفع به - وقد خص الإطعام دون غيره من أصناف النعم من باب التعبير بالخاص عن العام، لأنه أعظمه ولأن حاجة الإنسان إليه أشد.

قوله: {قل إني مرت أن أكون أول من أسلم} أي أمرني ربي أن أكون أول من استسلم لأمر الله وأسلم وجهه لجنابه الكريم - ولا غرو فإنه عليه الصلاة والسلام إمام العالمين بل هو معلم البشرية كافة وهاديها إلى الصراط السوي الحكيم - فهو المثال المحتذى، وهو النبراس المقتدى، حقيق أن يكون أول الممتثلين المذعنين لشرع الله ودينه القويم.

قوله: {ولا تكونن من المشركين} أي أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

١٥ - (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قوله: {قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} عذاب مفعول أخاف - أي إن عصيت ربي بعبادة غيره فإني أخاف أن يعذبني بعذابه - وهو عذاب يوم القيامة العظيم لشدة ما يقع فيه من الأهوال.

١٦ - (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

قوله: {من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه} أي من يصرف الله عنه العذاب يوم القيامة {فقد رحمه} والراحم هو الله، إذ يكتب للمؤمنين المخلصين السلامة والنجاة في اليوم الموعود الذي تشخص فيه الأبصار.

قوله: {وذلك الفوز المبين} اسم الإشارة ذلك عائد على صرف الله العذاب عنه يوم القيامة ورحمته إياه - والفوز المبين - يعني النجاة الحقيقية الظاهرة ١٧.

١٧ - (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير} أي إن يصبك الله بضر أي بشدة أو بلية في هذه الدنيا كالجوع والمرض والفقر أو ضيق العيش فلن يكشف عنك ذلك أحد سوى الله - وكذلك إن أصابك خير، كالرخاء والبسطة في الرزق والعيش وغير ذلك من وجوه النعمة، فليس من أحد يقدر على رده - فهو من الله، وهو سبحانه قادر على كل شيء، ومن جملته إنزاله النعم عليك ١٨.

١٨ - (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

قوله تعالى: {وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (١٨) قل أي شيء أكبر شهدة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله ءالهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني برئ مما تشركون}.

الله جل شأنه الغالب على أمره، القادر على كل شيء، إنه في عليائه وملكوته قد دانت له الرقاب واستسلمت له الجباه والنواصي وتضاءلت أمام جبروته همم الأعاظم من الرؤساء والملوك والجبابرة، وهبطت من خشيته العوالم والخاليق إحساسا بالذل والهوان والصغار أمام عظمته البالغة المطلقة - فقال سبحانه: {وهو القاهر فوق عباده} القاهر، من القهر وهو الغلبة - والقاهر الغالب ١٩ - وفوق عباده، من الفوقية المعنوية لا المادية أي فوقية الاستعلاء وليس المكان - فالله تعالى هو الغالب المستعلي على العباد، المستذل لهم بكبريائه وعظمته - وما الخلائق بين يديه إلا مقهورة ذليلة تستشعر أقصى غايات البساطة والصغار.

قوله: {وهو الحكيم الخبير} الله تعالى حكيم في تدبيره وفي تصرفه في الكون - فيفعل ما يشاء عن علم بالغ وقدرة قاهرة ظاهرة - فما يصدر عنه من فعل ولا حكم ولا تقدير إلا عن حكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه والراسخون في العلم - وهو كذلك خبير بأقوال العباد وأفعالهم وأحوالهم - بل إنه خبير بكل ما يجري في الكون من الحوادث والأمور.

١٩ - (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

قوله: {قل أي شيء أكبر شهدة} قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: من يشهد لك يا محمد بأنك رسول الله، فنزلت الآية - وأي مبتدأ، وخبره، أكبر - وشهادة تمييز - وإذا كانت {أي} استفهامية فقد لزم أن تكون مسمى باسم ما أضيفت إليه، فوجب بذلك أن يسمى الله تعالى {شيء} ٢٠ وتأويل الآية هو: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون أنك نبي: أي الأشياء أعظم شهادة؟ ثم أخبرهم بأن أعظم الأشياء شهادة هو الله وحده فهو العليم بالمحق منا من المبطل، وبالرشيد من السفيه، وبالمهتدي من الضال المتخبط - وهو شهيد بيني وبينكم على أنني نبي مبعوث من عنده سبحانه وأنني قد أبلغتكم رسالة ربي وصدقت فيما قلته لكم.

قوله: {وأوحي إلي هذا القرءان لأنذركم به ومن بلغ} أوحي مبني للمجهول - القرآن نائب فاعل مرفوع - من اسم موصول في محل نصب معطوف على المنصوب في {لأنذركم} أي قل لهؤلاء المشركين أن الله أوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به عقابه وكذلك أنذر به من بلغه من سائر الناس غيركم، فإن لم تهتدوا أنتم وهم بهديه وتتخذوه شرعة لكم ومنهاجا فلسوف يحل عليكم سخط الله ومقته ونقمته.

قوله: {أئنكم لتشهدون أن مع الله ءالهة أخرى} الهمزة الأولى في قوله {أئنكم} للاستفهام - وهو استفهام تقريع وتوبيخ - أي قل لهؤلاء المشركين الذين يعدلون بالله ربا سواه من الآلهة المصطنعة والأنداد المختلقين: أئنكم أيها المشركون الجاحدون تشهدون أن مع الله معبودا غيره من الأوثان والأصنام - وقال: {أخرى} ولم يقل أخر - لأن الألهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث.

قوله: {قل لا أشهد} أي قل لهم: لا أشهد بما تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بل إني أجحد ذلك وأنكره.

قوله: {قل إنما هو إله واحد} اتصلت ما بإن فكفتها عن العمل - هو في محل رفع مبتدأ - إله خبره - واحد، صفة للخبر - أي إنما هو معبود واحد لا شريك له - وليس من شيء في الكائنات إلا هو مستسلم لجلاله ووجل من سلطانه وجبروته - ومخبت لعزه وعظمته.

قوله: {وإني برئ مما تشركون} أي أبرأ من كل شريك تعبدونه مع الله وتصطنعون له الإلهية المختلقة فإني أربأ بنفسي من مثل ما تختلقون من الأنداد فإني لا أعبد شيئا من ذلك - إنما أعبد الله الذي خلق كل شيء ٢١.

٢٠ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {الذين ءاتينهم الكتب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون}.

الاسم الموصول {الذين ءاتينهم} في محل رفع مبتدأ - وخبره {يعرفونه} وكذلك الاسم الموصول {الذين خسروا} مبتدأ - وخبره {فهم لا يؤمنون} ٢٢.

والمراد بالموصول هنا اليهود والنصارى - والمراد بالكتاب، التوراة والإنجيل - فكلا الفريقين من أهل الكتاب يعرفون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه - ويعرفونه تمام المعرفة مثلما يعرفون أبنائهم - فقد وجدوه مكتوبا عندهم في كتابهم وذلك من حيث

اسمه ومولده وصفته ومهاجره - لكنهم بجحودهم وإنكارهم وتكذيبهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باءوا بالهلاك والخسران، إذ أوردوا أنفسهم موارد الخزي وسوء المصير حيث النار يصلونها وبئس القرار.

٢١ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

قوله تعالى: {ومن أظلم مم افترى على الله كذبا أو كذب بئايته إنه لا يفلح الظلمون (٢١) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون (٢٢) ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (٢٣) انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون}.

افترى، من الافتراء وهو الاختلاق - والفرية تعني الكذب ٢٣ وقوله: {ومن أظلم ممن افترى} الآية - يعني من أشد خطيئة ممن اختلق من نفسه على الله باطلا، فزعم أن له شريكا مما خلق، أو اتخذ معه إلها يعبد من دونه أو ادعى أن له ولدا أو صاحبة {أو كذب بئاياته} أي أنكر حججه ودلائله التي عزز بها أنبياءه المرسلين فكذب بها اليهود والنصارى - لا جرم أن هؤلاء لا يفلحون ولا ينجون من سخط الله وغضبه، بل إنهم في العذاب هاوون مكبكبون.

٢٢ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

قوله: {ويوم نحشرهم جميعا} يوم منصوب على أنه مفعول به لفعل تقديره، واذكر - وقيل: تقديره: احذروا ٢٤.

وفي المحشر حيث الكرب والهوان والذل وحيث الضيق والقهر والذعر، تحت الشمس الحارقة اللاهبة الدانية في مثل هذا الموقف الرعيب المذهل يسأل الله الكافرين المكذبين برسالة الإسلام سؤال إفضاح وتوبيخ {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون} يعني أين الأنداد الذين كنتم تزعمون أنهم لكم آلهة من دون الله افتراء وكذبا والذين كنتم تهرفون أنهم شفعاء لكم عند الله بزعمكم وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى.

٢٣ - (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

قوله: {ثم لم تكن فتنتهم إلا قالوا والله ربنا ما كنا مشركين} الفتنة الاختبار والابتلاء - أي لما ابتليناهم بسؤالنا لهم عن شركائهم الذين اتخذوهم من دون الله، ما كان جوابهم إلا قولهم {والله ربنا ما كنا مشركين} وذلك لما رأوا ما تفضل الله به على المؤمنين من تجاوز عن السيئات ومغفرة للذنوب والخطيئات، خلافا للمشركين الذين لا ينالهم الله برحمة منه ومغفرة - فإذا رأوا ذلك أحاط بهم الذعر والاستيئاس، فقالوا فيما بينهم: تعالوا نقسم لربنا على أننا كنا أهل ذنوب وما كنا مشركين - لكنهم أنى لهم أن يخفوا عن أنفسهم وصمة الشرك أو ينجوا من مصيرهم الرهيب المحتوم؟ وأنى لهم أن يستخفوا بأنفسهم عن الله علام الغيوب الذي أنطق فيهم الجلود والأبدان يوم القيامة ليشهدوا عليهم بشركهم وظلمهم وتكذيبهم للإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

٢٤ - (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: {انظر كيف كذبوا على أنفسهم} المراد بالنظر ما كان بالقلب وليس بالبصر وهو نظر تدبر واعتبار - والله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم، أن اعلم وتبين يا محمد كيف كذب هؤلاء المشركون الضالون على أنفسهم عند لقاء ربهم يوم القيامة - وذلك بقيلهم: {والله ربنا ما كنا مشركين} فقد سلكوا هنالك سلوكهم المعتاد في الكذب والافتراء الذي كانوا عليه في الدنيا، إذ كان الكذب والدجل واختلاق الباطل ديدنا لهم في هذه الدنيا وهم يحاربون الله ورسوله ويعترضون سبيل المؤمنين الذين يدعون إلى الإسلام وهو الحق من ربهم - الحق الذي كتبه الله للبشرية ليكون لها هاديا ومنيرا - ولكن هؤلاء المشركين المكذبين {ضل عنهم ما كانوا يفترون} أي فارقهم وتخلى عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله من أنداد وأصنام فلم يغن كل ذلك عنهم يومئذ شيئا ٢٥.

٢٥ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهون وفي ءاذانهم وقرا وإن يروا كل ءاية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجدلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أسطير الأولين} الأكنة جمع كنان وهو الغطاء الساتر - والأكنة، الأغطية - ومنه أكننت الشيء في نفسي أي أخفيته وسترته - والكن بالكسر، وقاء كل شيء وستره ٢٦ والله يبين حال المشركين الظالمين وما يتيهون فيه من الحماقة والعماية والسفه، حتى لكأنهم بغير بصر ولا سمع ولا بصيرة - أو لكأنهم ركام مصفوف من التماثيل الجوامد التي لا تعي ولا تعقل - كذلك كان حال المشركين الجاحدين - بل ما فتئوا يكررون ديدنهم في الضلالة والجهالة لدى سماعهم تعاليم الإسلام - فما يدعوهم المسلمون إلى الخير ويبينون لهم طريق النجاة والسلامة، ويحذرونهم من طريق الشر والشيطان ومخالفة أمر الله ويبصرونهم بخير منهاج وتشريع يصلح عليه حالهم في الدنيا والآخرة إلا أعرضوا وصدوا عن ذلك صدودا ولم يعبأوا بنداء الحق الظاهر الأبلج - فقال سبحانه: {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا} أي جعلنا على قلوبهم ستارا جزاء لهم على كفرهم - فهم ما داموا غير منتفعين بما يسمعون ولاهم مستجيبون لنداء الحق فإنهم بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم البتة - أو بمنزلة البهيمة لا تسمع إلا صياحا ونداء وهي لا تعي مما يقال شيئا - ومن أجل ذلك جعل الله على قلوبهم الأكنة وهي الأغطية {أن يفقهوه} أي لئلا يفهموا القرآن ولا ما يقال لهم من الدلائل والحجج والذكر والمواعظ وكذلك قوله: {وفي ءاذانهم وقرا} الوقر معطوف على أكنة - والوقر معناه الثقل والصمم.

قوله: {وإن يروا كل ءاية لا يؤمنوا بها} يبين الله أن هؤلاء الذين يعدلون الأوثان والأنداد بهم والذين ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لا تؤثر فيهم حجة ولا يحملهم برهان على توحيد الله والاستجابة لدعوة الإسلام - بل إنهم يهرعون مدبرين مستنكفين عن الحق فلا يؤمنون مهما يروا من الدلائل والبراهين.

قوله: {حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أسطير الأولين} يعني إذا جاءك هؤلاء المشركون الظالمون السفهاء ليحاجوك وناظروك فيما جئتهم به من الحق قالوا: {إن هذا إلا أسطير الأولين} أي ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا مأخوذ من أساطير الأولين أي كتبهم وأحاديثهم - والأساطير جمع إسطارة وأسطورة مثل أضحوكة - وقيل: الأساطير بمعنى الخرافات والترهات.

وذلك هو ديدن المشركين المعاندين في كل زمان - فإنهم لا تؤزهم حجة ولا يستنفرهم برهان فينزعوا بذلك صوب الحق واليقين - ولكنهم يتثاقلون إلى الباطل والضلال فيأبوا إلا التمرد والعتو والاستكبار - ثم لا يألون بعد ذلك جهدا في محاربة الإسلام لصده وإيقافه كيلا يشيع أو ينتشر وذلك بمختلف الأساليب والوسائل من القهر والإذلال والتنكيل والتشريد والتشويه والتشكيك وافتراء الأباطيل.

٢٦ - (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قوله تعالى: {وهم ينهون عنه وينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون} الضمير {هم} يعود على الكفار - وقيل: المراد بذلك أبو طالب - والضمير في قوله: {عنه} يعود على القرآن - وقيل: يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم - والنهي معناه: الزجر - والنأي معناه: البعد - وذلك بيان لحال الكافرين في كل مكان وزمان، على اختلاف مللهم ونحلهم فإنهم كانوا وما فتئوا يزجرون الناس أن يتبعوا دعوة الإسلام أو يستمعوا لتعاليم القرآن الحكيم بما فيه من عقيدة وتشريع ومنهاج حياة - وهم كذلك ينأون بأنفسهم عن هذا الدين، إذ يباعدون بين أنفسهم وأممهم، وهذا الدين الحنيف - الدين الذي جاء لينقذ البشرية من الفساد والتخبط فيلج بهم حومة النجاة والسعادة.

وقيل فيما رواه أهل السير في سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عله وسلم كان قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلي - فلما دخل في الصلاة استنهض اللعين أبو جهل من يقوم فيفسد عليه صلاته - فنهض ابن الزبعري فأخذ فرثا ٢٧ ودما فلطخ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم - فانفتل النبي من صلاته ثم أتى أبا طالب عمه - فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبي صلى الله عله وسلم: " عبد الله بن الزبعري " فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه وقال للقوم: والله لئن قام رجل لجللته بسيفي - فقعدوا حتى دنا منهم فقال: يا بني، من الفاعل بك هذا؟ فقال: " عبد الله بن الزبعري " فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء

لهم القول - فنزلت هذه الآية - فقال النبي صلى الله عله وسلم: " يا عم نزلت فيك آية " قال: وما هي؟ قال: " تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي " فأنشد أبو طالب قائلا:

والله لن يصلو إليك بجمعهم - - - حتى أُوسَّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة - - - وأبشر وقر منك عيونا

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي - - - فلقد صدقت وكنت قبل أمينا

لولا الملامة أو حذار مسبة - - - لوجدتني سمحا بذاك يقينا

فقالوا: يا رسول الله، هل تنفع أبا طالب نصرته؟ قال: " نعم دفع عنه بذاك الغل ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جب الحيات والعقارب، إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذابا " وفي الصحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عله وسلم: " أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه " وكذلك أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عله وسلم لعمه: " قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة " قال: لولا تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع (الخوف) لأقررت بها عينك - فأنزل الله تعالى {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}.

أما عبد الله بن الزبعري فقد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه واعتذر إلى رسول الله صلى الله عله وسلم فقبل عذره - وكان شاعرا بليغا فقال يمدح في شعره النبي صلى الله عله وسلم:

يا خير من حملت على أوصالها ٢٨ - - - عيرانة ٢٩ سرح اليدين غشوم

إني لمعتذر إليك من الذي - - - أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

فاليوم آمن بالنبي محمد - - - قلبي ومخطئ هذه محروم

مضت العداوة فانقضت أسبابها - - - وأتت أواصر بيننا وحلوم ٣٠

فاغفر فدى لك والدي كلاهما - - - زللي فإنك راحم مرحوم

ولقد شهدت بأن دينك صادق - - - حقا وأنك في العباد جسيم

والله يشهد أن أحمد مصطفى - - - مستقبل في الصالحين كريم

قرم علا بنيانه من هاشم - - - فرع تمكن في الذرى وأروم

قوله: {وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون} إن أداة نفي بمعنى ما أي هؤلاء المشركين المكذبين – بصدهم عن سبيل الإسلام وإعراضهم عن الكتاب الحكيم وكفرهم بالله ورسوله لا يهلكون إلا أنفسهم، إذ يوردونها الردى والخسران حيث السخط من الله والعقاب الأليم - وهم بفسقهم وانثنائهم عن دعوة الحق لا يدرون ما هم مفضون إليه من العذاب المهين ٣١.

٢٧ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يليتنا نرد ولا نكذب بئيت ربنا ونكون من المؤمنين (٢٧) بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكذبون (٢٨) وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (٢٩) ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}.

لو أداة امتناع لامتناع - وقيل: بمعنى (إن) الشرطية - وإذ بمعنى إذا فإن العرب قد تضع إذ مكان إذا - وتضع إذا مكان إذ - أما جواب لو فهو محذوف - والتقدير: لرأيت شيئا عظيما وهولا مفظعا - وحذف الجواب أبلغ في التخويف، لأن السامع بذلك تذهب نفسه كل مذهب - فلو صرح له بالجواب لكان قد وطن نفسه عليه فلم يخش كثيرا منه ٣٢.

وقوله: {وقفوا} مبني للمجهول، يعني حبسوا - وقوله: {على النار} أي فوقها - قيل: على تعني الباء - أي وقفوا بقرب النار وهم يعاينونها

- وشبيه بذلك أنهم جمعوا على أبوابها - وهو ما نختاره - فإن الكافرين يوقفون يوم القيامة قريبا من النار تجمعهم الملائكة جمعا كاثرا متراكما مجردين من كل كرامة أو اعتبار وهم واجمون شاخصون وجلون أمام جهنم يعاينون شواظها واستعارها معاينة، وقد غشيهم الرعب المريع وأحاطت بهم كل ظواهر اليأس والشقوة وانقطاع الرجاء - لا جرم أن ذلك مشهد مرعب لا يطيقه كائن من الكائنات بل لا تطيقه الجبال الشم الشواهق - أعاذنا الله منه عوذا.

قوله: {فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بئايات ربنا} نكذب منصوب بأن بعد واو المعية - كقوله: لا تأكل السمك وتشرب اللبن - وقيل: منصوب بإضمار أن على جواب التمني - وقيل غير ذلك كلام طويل - لكن الأول أصوب ٣٣.

والمراد أن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بشركهم وكفرهم يتمنون يوم القيامة أن لو يردهم الله إلى الدنيا ثانية حتى يتوبوا أو يبادروا الطاعة لله، وأن لا نكذب بما أنزل الله من الدلائل والآيات قوله: {ونكون من المؤمنين} أي نكون من المصدقين بالله وآياته ورسالاته والمتبعين لدينه وشرعه.

٢٨ - (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله: {بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل} بل إضراب عن تمنيهم وادعائهم الإيمان لو ردوا - وقيل: للانتقال من قصة إلى أخرى ٣٤.

والمعنى أن الكافرين الظالمين لم يقصدوا بتمنيهم الرجوع إلى دنيا الندامة على تفريطهم في حق الله لكنهمم قالوا ذلك لهول ما هو نازل بهم من العذاب المطبق جزاء معاصيهم وخطيئاتهم التي كانوا يخفونها عن أعين الناس ويسترونها منهم فأظهرها الله على الملأ كافة يوم القيامة فافتضحوا بذلك على رؤوس الأشهاد - نسأل الله السلامة والنجاة والستر.

وقيل: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنسفهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة.

واختلفوا في تعيين المراد بذلك - فقد قيل: المراد المنافقون - وقيل: المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم خافوا وأخفوا ذلك الخوف في أنفسهم لئلا يفطن بهم ضعفاؤهم، فيظهر الله ذلك يوم القيامة.

قوله: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكذبون} أي لو ردوا إلى الدنيا فأمهلوا لصاروا ورجعوا إلى ما كانوا يعملونه من إشراك بالله وجحود لآياته وفعل السيئات والمنكرات - لسوف يعودون لمثل ذلك كله حتى وإن عاينوا العذاب معاينة - فقد عاين إبليس ما عاين من آيات ورأى من الدلائل الظاهرة ما رأى لكنه طغى واستكبر وفسق عن أمر ربه - والله تعالى يعلم أنهم كاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون ويكونون من المصدقين.

٢٩ - (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

قوله: {وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين} إن، أداة نفي {هي} في محل رفع مبتدأ - حياتنا، خبر هي ٣٥.

هذا إخبار من الله تعالى عن مقالة هؤلاء المشركين الضالين إذ قالوا: {إن هي إلا حياتنا وما نحن بمبعوثين} نحن اسم ما - بمبعوثين خبرها - لقد أنكر هؤلاء الظالمون البعث بعد الموت وكذبوا أن الله يحيي الخلائق بعد مماتها وأعلنوا في اجتراء فاجر كنود أنه لا حياة بعد الموت ولا نشور بعد الفناء - بمثل هذه المقالة الظالمة الفاجرة يهذي المشركون والملحدون والكفرة في كل زمان - أولئك الذين تعطلت فيهم العقول وفسدت فيهم الفطرة فسادا أركسهم إلى الحضيض من العماية والانفتال والتمسيخ.

٣٠ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

قوله: {ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا} وقفوا أي حبسوا - يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: لو ترى يا محمد ما سوف ينزل بهؤلاء المكذبين من الهول المفظع، إذ يحبسون على ربهم ينتظرونه أن يقضي فيهم - لا جرم أنه موقف رعيب ومزلزل لا تطيقه العزائم وتهبط دونه الهمم والقدرات - وإذ ذاك يخاطب الله هؤلاء الظالمين سائلا إياهم في تقرير وتوبيخ {أليس هذا بالحق} أليس هذا البعث الذي كنتم تكذبونه والذي عاينتموه الآن بعد مماتكم حقا؟ فأجابوا مقرين مذعنين مؤكدين اعترافهم بالقسم

فقالوا: {بلى وربنا} قوله: {قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} أي ذوقوا مس العذاب بكفركم وتكذيبكم بالبعث وبالعذاب الذي لاقيتموه الآن ٣٦.

٣١ - (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

قوله تعالى: {قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون} أي باء بالهلاك والخسران أولئك الذين أنكروا البعث بعد الموت وكذبوا بلقاء ربهم حيث الجزاء والحساب {حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة} وسميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها على الله تعالى - وبغتة، منصوب على الحال - وقيل: مصدر في موضع الحال - وقيل غير ذلك ٣٧ - والمراد إذا بغتتهم الساعة مباغتة – كشأنها، إذ تفجأ الناس فجاءة وهم لاهون غافلون – {قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها} الحسرة: التلهف والندامة - أي يا ندامتنا ولوعتنا على تفريطنا في العمل بطاعة ربنا ونحن في الدنيا - والتفريط معناه التقصير في الشيء مع القدرة على فعله - وقيل: معناه التضييع ٣٨.

قوله: {وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم} الواو للحال - أي قالوا: يا حسرتنا في حالة حملهم أوزارهم - والحمل هنا مجاز عما يقاسونه من العذاب - وقيل: هو حقيقة - والأوزار جمع وزر - وهو الأصل بمعنى الثقل - ومنه وزرته أي حملته شيئا ثقيلا - وكذا الوزير، لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تصريف شؤون الناس - والمعنى أنهم لزمتهم الآثام والمعاصي بأحمالها الثقال فيبعثون بها محملة على ظهورهم {ألا ساء ما يزرون} أي ما أسوأ وأقبح الشيء الذي يحملونه ٣٩.

٣٢ - (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {وما الحيوة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الأخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون}

الحياة مبتدأ - ولعب خبره واللعب: ما يشغل النفس عما تنتفع به - وقيل: ما يشغل الإنسان عما يغنيه ويهمه - واللهو: صرف النفس من الجد إلى الهزل ٤٠.

وذلك رد وتقبيح لما يتصور الكافرون في قولهم: {إن هي إلا حيتنا الدنيا} فالله يبين لهم أن هذه الحياة الزائلة السريعة بكل ما حوته من لذائذ ونعم ومباهج وزخارف ليست إلا لعبا تنشغل به النفوس فتذهل عن وجائبها الكبرى - أو هي لهو يهيم خلاله الساهون اللاهون فترة من زمان لتؤول بعد ذلك إلى زوال محتوم يأتي عقيبه فجائع جسام وأهوال مريعة عظام تنتظر الآثمين الذين استعاضوا عن الآخرة بلعاعة الدنيا الفانية.

قوله: {وللدار الأخرة خير للذين يتقون} اللام الأولى لام الابتداء واللام الثانية للتعريف - والدار مبتدأ وخبره {خير} ٤١ يبين الله سبحانه أن الدار الآخرة بنعيمها المستديم الباقي وبكل ما حوته من ضروب الخير والنعمة والجمال مما يظل على الدوام سرمدا فلا يفنى ولا يزول - ولا يأتي عليه مرور الأدهار والسنين - لا جرم أن ذلك خير من الدنيا القاصرة العاجلة التي تمر مر السحاب وتغرر ببريقها المخادع تغرير السراب - إذ ذلك خير للذين يتقون الله، إذ يخشونه حق الخشية ويخافون جلاله وسلطانه خوفا يحفزهم لعمل الطاعات ويحول بينهم وبين السيئات والخطيئات.

وقوله: {أفلا تعقلون} يعني أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بيوم القيامة، السادرون في الغي واللهو، المدبرون عن طاعة الله – حقيقة ما نبينه لهم من أن الحياة الدنيا قصيرة وفانية وأنها مجرد لهو تنشغل به الأذهان والقلوب عن طاعة الله وعن فعل الخيرات والطاعات - وها هم يرون بأعينهم ويدركون بإحساسهم أن الناس جميعا ميتون فرادى وجماعات - وأنه ما من موجود حي إلا ويأتي عليه داهم الموت المحقق أفلا يدّكرون أو يتدبرون مثل هذه الحقيقة؟!

٣٣ - (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

قوله تعالى: {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظلمين بئايت الله يجحدون (٣٣) ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتهم نصرنا ولا مبدل لكلمت الله ولقد جاءك من نبإى المرسلين (٣٤) وإن كان كبر عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بئاية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجهلين (٣٥) إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون}.

{قد} هنا حرف تحقيق - وهو لتأكيد الشيء وتصديقه - ونعلم، بمعنى علمنا.

وكسرت إن لدخول اللام - وفي هذا الآية تسلية من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم - وذلك في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه وصدهم عن دينه فأصابه بذلك من الحزن ما أصابه.

كقوله سبحانه: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرت}.

وجاء في سبب نزول الآية عن أبي زيد المدني أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصالحه فقال له رجل: ألا أراك تصالح هذا الصابئ؟ فقال: والله إني أعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد المناف تبعا؟ فنزلت الآية {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظلمين بئايت الله يجحدون}.

وذكر أنه التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا - فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجارة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت الآية ٤٢.

والمراد هنا أن المشركين ما كانوا يكذبونك أنت يا محمد - بل إنك عندهم لصادق - ولكنهم يكذبون ما جئتهم به من تنزيل ويجحدون الوحي النازل إليك من السماء - فما ينبغي لك أن تحزن عليهم أو تأس وتغتم لأجلهم فقد كذب كثير من المرسلين من قبلك فاحتملوا الأذى والضر وصبروا على البلاء والإساءة - وهو مقتضى قوله تعالى: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتهم نصرنا}.

٣٤ - (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتهم نصرنا} فهذه تسلية من الله وتعزية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم لما أصابه من المساءة بتكذيب المشركين له - وهو إن يكذبه قومه فما ينبغي له أن يأسى ويحزن بل عليه أن يحتمل ويصبر على أذاهم وتكذيبهم حتى يأتي نصر الله المحقق الموعود، وله في ذلك أسوة في إخوانه المرسلين الذين خلوا من قبله فقد كذبتهم أممهم فصبروا على تكذيبهم ولم يثنهم ذلك عن المضي لأمر الله بل إنهم ثبتوا على الحق ومضوا عليه دعاة إلى الله من غير أن تنال من هممهم المكاره والمعوقات أو تردهم المكائد والعراقيل عن الصدع بأمر الله.

قوله: {ولا مبدل لكلمت الله} المراد بكلمات الله وعده لنبيه بالنصر على المشركين الظالمين - فالله يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم مؤيدا له ومثبتا أنه لن يقدر أحد أن يدفع ما كتبه الله لك من النصر الموعود - فالله جلت قدرته لا يخلف وعده وليس من أحد ينقض قضاءه - وكفى بالله أن يقول في مثل هذا الموقف {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وكذلك قوله: {وإن جندنا لهم الغلبون}.

قوله: {ولقد جاءك من نبإى المرسلين} أي جاءك من أنباء من سبقك من المرسلين وأنباء أممهم وما صنع الله بهم حين جحدوا وتمادوا في الغي والضلال فحاق بهم البلاء والتدمير، ونجى الله رسله الكرام وأيدهم بنصره المبين، فاقتد أنت بهم في صبرهم على الأذى من قومهم يكن الله معك ويجعل العاقبة لك، وللمتقين الصابرين.

٣٥ - (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

قوله: {وإن كان كبرعليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بئاية} يعني إن كان قد عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك وانصرافهم عن الإيمان بك وعن تصديقك فيما جئتهم به من الحق فشق ذلك عليك ولم

تصبر على ما أصابك من أذاهم فافعل ما بدا لك - فإن استطعت أن تتخذ {نفقا} ٤٣ أي سربا مثل نافقاء اليربوع فتذهب فيه أو تتخذ {سلما} أي مصعدا كالدرج تصعد فيه ثم تأتيهم بعد ذلك بآية أو برهان على صحة دعوتك أفضل مما أتيناك به من الدلائل فافعل.

قوله: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى} أي لو شاء الله أن يجمعهم على ما أنتم عليه من محجة الإسلام فتكونوا جميعا على ملة واحدة لفعل ذلك - وذلك بأن يوفقهم للإيمان فيؤمنوا معكم - لكن الله لم يشأ ذلك لسوء ما اختاره هؤلاء لأنفسهم حسبما علمه الله منهم في أزل الآزال - أو لسابق علمه بأن هؤلاء كائنون من الكافرين اختيارا وليس إجبارا ويرومون ما هو خلافها.

وقيل: لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيب هؤلاء المشركين الظالمين - وما ينبغي لك أن تجزع من إعراضهم عن دين الله، فإن شدة الأسى والجزع وفرط الإحساس بالضيق، من صفات الجاهلين - ولا جرم أن يكون مثل هذا الأسلوب من التحذير والتنذير ما يحمل للذهن - بالقطع الجازم أن هذا القرآن من عند الله - وهذه واحدة من ظواهر شتى فريدة تزجي للعاملين بالدليل الكامل على أن القرآن معجز - فإنه ما من عاقل أو كائن أوتي مسكة من عقل يصدق أن عظيما فذا مميزا كمحمد ينذر نفسه بنفسه أو يكله نفسه ثقل التحذير والتنذير.

٣٦ - (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

قوله: {إنما يستجيب الذين يسمعون} المراد بالسماع هنا سماع التفهم والإصغاء والتدبر وابتغاء الحق والصواب وبذلك لا يستجيب لنداء الحق أو داعي الإسلام إلا من سمع سماع فهم وتدبر وادكار من أولي الفطرة السوية السليمة - الذين يستقبلون النداء الكريم ودعوة الحق أحسن استقبال من الرضى والقناعة والشرح الذي يعمر الصدر.

قوله: {والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون} المراد بالموتى الذين لا يسمعون نداء ولا يعقلون دعاء ولا يفقهون قولا إلا كما تفقه الأنعام من أصوات الرعاة - إن هؤلاء المشركين الظالمين الذين ختم الله على قلوبهم وطبع على أبصارهم ليسوا على استعداد ولا تهيئة لاستقبال الإسلام بمعانيه الرائعة وقيمه الكريمة الفضلى وتشريعه الشامل المتكامل - هذا الصنف من البشر قد تعطلت فيه أجهزة الفطرة التي فطر الله الناس عليها - فما عاد ليستمرئ بعد ذلك غير الهوى وكل صور الباطل والانحراف عن سبيل الله المستقيم - وعلى هذا فالموتى هم الكفرة، لأنهم بمنزلتهم في أنهم لا يقبلون حجة ولا يستمعون إلى صواب ولا يستسيغون غير الباطل والاعوجاج.

فهؤلاء لا يسمعون ولا يصدقون إلا بعد أن يبعثهم الله من قبورهم إلى الجزاء والحساب، وحينئذ يسمعون ويعون ويصدقون - أما قبل ذلك فلا سبيل لإسماعهم وإقناعهم لما يغشى قلوبهم من الأكنة وما يثقل آذانهم من الوقر ٤٤.

٣٧ - (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وقالوا لولا نزل عليه ءاية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل ءاية ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٧) وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثلكم ما فرطنا في الكتب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون (٣٨) والذين كذبوا بئايتنا صم وبكم في الظلمت من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صرط مستقيم}.

قوله: {وقالوا لولا نزل عليه ءاية من ربه} يحكي الله جل جلاله مقالة المشركين السفهاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قالوا: لولا، أي هلا نزل، أي أنزل على محمد آية من ربه أي علامة تكون له حجة كأن ينزل عليه ملك يشهد له بالنبوة، أو يلقى إليه كنز يغنيه من الفقر أو تكون له جنة يأكل منها - وذلك بالرغم من كثرة ما رأوه من الدلائل الساطعة على صدق نبوة هذا الرسول الكريم - وعلى رأس ذلك كله هذا القرآن الحكيم المعجز الذي ما زال قائما للناس أبد الدهر عاجزين أن يأتوا بسورة من مثله - ثم أمر الله نبيه أن يقول لأصحاب هذه المقالة من المشركين المعاندين: {إن الله قادر على أن ينزل ءاية ولكن أكثرهم لا يعلمون} أي أن الله قادر على إنزال آية أو حجة كما يريدون فهو سبحانه لا يعجزه شيء من ذلك {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أي أن أكثر هؤلاء الضالين الفاسقين الذين يسألون مثل هذه الآية أو العلامة لا يعلمون ما سوف يحيق بهم من البلاء والاستئصال لو أنهم أنزل عليهم ما سألوه ثم لم يؤمنوا.

٣٨ - (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

قوله: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثلكم} الدابة: كل شيء ماش على الأرض - من دب يدب دبيبا - أي سار سيرا لينا ٤٥ وهذا الكلام مستأنف قد سيق لبيان كمال قدرة الله تعالى وحسن تدبيره وحكمته وإحاطة علمه الذي يشمل الأشياء والكائنات جميعا - وهو برهان قائم ظاهر آخر يكشف عن عظمة الله وعن قدرته البالغة وعن صدق نبوة هذا المبعوث الكريم - وذلكم البرهان هو أنه ما من دابة على اختلاف أنواعها، إذ تمشي على الأرض، ولا طائر يجوب الفضاء وهو يطير بجناحيه سابحا مطوحا في جو السماء {إلا أمم أمثلكم} أي هي جماعات مختلفة من أنواع الدواب والطيور كأمثالكم في أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم - فما تركهم سائبين هملا من غير عناية - وهم كذلك أمثالكم في الجريان على سنن الله وعلى تدبيره الرباني السديد، فضلا عن كونها دائمة التسبيح بحمد الله - وفي ذلك من الدلالة البلجة على عظمة الصانع وعلى وحدانيته ما يستنفر العقول للتفكر والإدكار.

قوله: {ما فرطنا في الكتب من شيء} التفريط: التقصير والتضييع والإغفال ٤٦ والمراد بالكتاب فيه وجهان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ - فقد أثبت الله فيه علم الأولين والآخرين وكتب فيه كل ما يقع من حوادث منذ الأزل البعيد حتى الأبد الأبيد.

ثانيهما: أنه القرآن - وهو الراجح والأولى - لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق - والمعهود من الكتاب عند المسلمين هو القرآن - فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن ٤٧ فقد بين الله في هذا الكتاب الحكيم كل ما يحتاج إليه العباد من أمر الدين والدنيا مما ينفعهم ويكفل لهم الحياة الكريمة والعيش الآمن.

على أن ما حواه القرآن من بيان لمشكلات العباد ومصالحهم جاء إما مفصلا، وإما مجملا فما كان مفصلا جاء مبينا مستفيضا ومشروحا - وما كان مجملا فهو المثابة لأمهات القضايا في العقيدة والتشريع والكون وحياة الإنسان مما يتضح عن طريق السنة والإجماع أو القياس أو النظر - وقوله: {من شيء} من، زائدة - كقوله: ما جاء من أحد - أي ما جاء أحد - وقيل: من للتبعيض - فالمعنى: ما فرطنا في الكتاب بعض شيء يحتاج إليه المكلف - قوله: {ثم إلى ربهم يحشرون} في المراد بالحشر هنا قولان: أحدهما: أن الحشر هنا مراد به الموت - فالله تعالى يحشر الدواب والطير بموتها.

وثانيهما: أن المراد بالحشر الجمع لبعث الساعة - وقيام القيامة - إذ يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة سواء فيهم البهائم والدواب والطير وكل شيء ثم يقضي الله بينهم جميعا بالعدل حتى يبلغ عدل الله في ذلك يومئذ مبلغه - فيأخذ للجماء، وهي عديمة القرن، من القرناء، وهي ذات القرن - ثم يقول لها جميعا: كوني ترابا - ومن أجل ذلك يقول الكافر، إذ يرى ذلك: {يا ليتني كنت ترابا} وفي ذلك أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء ٤٨ من الشاة القرناء " ويدل ذلك على أن البهائم تحشر يوم القيامة - وهذا القول أصح، لقوله تعالى: {وإذا الوحوش حشرت}.

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: {والذين كذبوا بئايتنا صم وبكم في الظلمت} صم وبكم خبر لاسم الموصول - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف تقديره بعضهم - أي بعضهم صم وبعضهم بكم - أي أن الذين كذبوا بقرآن الله أو بحججه ودلائله صم عن سماع الحق فلا يسمعون الآيات سماع المتأثر المستجيب - وهم كذلك بكم لا يقولون الحق ولا ينطقون بمقتضى الآيات من الصدق والصواب والحكمة - وهم مع ذلك كله سادرون حيارى، إذ يتخبطون {في الظلمت} أي ظلمات الكفر - أو ظلمات الجهل والعناد والسفاهة والتقليد بالباطل.

قوله: {من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم} أي من يرد الله سبحانه أن يخلق فيه الضلال عن الحق يخلقه فيه فيضل - فيسوقه للضلال حينئذ اختياره الناشئ عن استعداده - ومن يرد الله أن يخلق فيه الهدى إلى الحق يخلقه فيه فيساق إليه تبعا لاختياره الناشئ عن استعداده.

وقالت المعتزلة: في تأويل قوله: {من يشإ الله يضلله} الآية: أي يخذله ولم يلطف به - وضلاله عدم اللطف به، لأنه ليس من أهل اللطف - أما من يرد الله أن يجعله على صراط مستقيم، فالمراد به أن يلطف به، لأنه من أهل اللطف ولأن اللطف يجدي به - والصواب الأول وهو قول أهل السنة - فهو الظاهر المستبين من الآية - ويعززه غير ذلك من الآيات كقوله عز وعلا: {ويضل الله

الظلمين} وقوله {وما يضل به إلا الفسقين} وقوله: {يهدي به الله من اتبع رضونه} وقوله: {يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت} ٤٩.
٤٠ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {قل أرءيتكم إن أتكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صدقين (٤٠) بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون} التاء في {أرءيتكم} ضمير متصل في موضع رفع فاعل - والكاف والميم لمجرد الخطاب ولا موضع لهما من الإعراب - وقيل: الكاف والميم منصوب بوقوع الرؤية عليهما - والمعنى: أرأيتم أنفسكم والراجح القول الأول وهو أنه لا محل للضمير الثاني – أي الكاف – من الإعراب، لأنه لو جعل للكاف محل من الإعراب لكان كأن تقول: أرأيت نفسك زيدا ما شأنه، وهو غير سليم - والصواب القول: أرأيتك زيدا ما شأنه.

والمعنى: قل لهؤلاء الكافرين يا محمد: أخبروني إن أتاكم عذاب الله في الدنيا أو عند قيام الساعة، هل ترجعون إلى غير الله في رفع ذلك البلاء، وذلك على سبيل التوبيخ والتقريع.

قال القرطبي في هذا الصدد: أي أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله وسترجعون إليه يوم القيامة أيضا، فلم تصرون على الشرك في حال الرفاهية! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب.
٤١ - (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

قوله: {بل إياه تدعون} بل، إضراب عن دعائهم غير الله، وإيجاب للثاني وهو دعاؤهم إياه سبحانه - أي أنكم لا تدعون لدفع البلاء والمحن عنكم غير الله فلا ترجعون في ذلك إلا إليه وحده.

قوله: {فيكشف ما تدعون إليه} أي يشكف الله عنكم ما نزل بكم من الكروب والمحن إذا استغثتم به وتضرعتم إليه إن شاء، لأنه هو القادر على فعل كل شيء وليس ما تدعون من دونه من الأنداد والأصنام.

قوله: {وتنسون ما تشركون} أي تنسون حين يأتيكم العذاب أو تأتيكم الساعة بأهوالها وفظائعها ما كنتم تعدلون بالله من الآلهة المصطنعة والأنداد الموهومة التي لا تضر ولا تنفع بل إنكم حينئذ تعرضون عنها إعراض الناسي - أو إعراض المستخف المستخسر ٥٠.
٤٢ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

قوله تعالى: {ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (٤٢) فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطن ما كانوا يعملون (٤٣) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبوب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العلمين}.

في الآية الأولى تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم - والمعنى أن الله أرسل رسله إلى أمم من قبلك يا محمد فكذبوا وأعرضوا فأخذهم الله {بالبأساء} أي شدة الفقر والقحط والجوع {والضراء} أي الأقسام والأمراض - وقيل: البأساء، البؤس والمصائب تأتي على الأموال - والضراء، المصائب والمحن تصيب الأبدان - وذلك على سبيل التعذيب والانتقام في هذه الدنيا - فإن الله ينتقم من المجرمين الظالمين الناكبين عن منهج الله بضروب من المحن في هذه الدنيا قبل الممات وذلك في مقابلة عتوهم وإعراضهم عن دين الله.

قوله: {لعلهم يتضرعون} من الضراعة والتضرع وهو الابتهال والتذلل أي فعلنا بهم ذلك لكي ينزجروا عن التوجه للأنداد فيخلصوا العبادة لله ويتذللوا إليه بالطاعة والاستكانة والابتهال.
٤٣ - (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا} لولا، أداة تحضيض بمعنى هلا - وهذا إخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا حين نزول العذاب بهم - وتأويل الكلام: هلا إذ جاء العذاب هذه الأمم المكذبة المدبرة عن دعوة الحق، تضرعوا فاستكانوا لربهم وتوجهوا إليه وحده دون غيره غيره من الأرباب والأنداد فيصرف الله عنهم العذاب - لكنهم أقاموا على التكذيب والإعراض معاندين فأصروا على ذلك واستكبروا

مستهينين مستخفين عقاب، ولذلك قال: {ولكن قست قلوبهم} أي صلبت وغلظت فأصرت على الكفران والمعصية.
قوله: {وزين لهم الشيطن ما كانوا يعملون} التزيين من الشيطان معناه إيجاد الشيء حسنا مزينا في نفس الأمر - أو جعله محبوبا مشتهى لنفس الإنسان وطبعه - وقيل: أغواهم الشيطان بالمعاصي وحملهم على فعلها وسبيل ذلك الوسوسة والإيحاء.
٤٤ - (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)
قوله: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبوب كل شيء} نسوا بمعنى تركوا - أي تركوا ما ذكروا به مما دعاهم إليه رسل الله فلم يتعظوا ولم يصدقوا بل انهمكوا في المعاصي والآثام وفعل المنكرات - ولم يعبأوا بما نزل بهم من البأساء والضراء - وعقيب ذلك فتح الله عليهم أبواب كل شيء من النعم الكثيرة كالرخاء والرغد والسعة على سبل الاستدراج للظالمين الغافلين السادرين في الغي والظلم والشهوات - وذلك وجه من وجوه الفتنة الكبيرة التي تنشد إليها قلوب الكثير من البشر ممن تستهويهم المغريات والشهوات، وتستذلهم مطامع الدنيا الكثيرة فيهبطون منتكسين في ذلة وخور - حتى كانوا ضالعين في الإعراض والغواية والملذات أتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا.
قوله: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون} أي فرحوا بطرا، وظنوا أن ما أتوه من الخير والعطاء الجزيل لا يغني ولا يبيد وأنه كان باستحقاقهم - عندئذ على غرة ومن غير أمارة أو قرينة مقدمة - ولا يخفى أن الإهلاك وإنزال النقمة على حين غفلة أو غرة من الظالمين لهو أشد نكاية وإيلاما - فضلا عن كون ذلك جائيا بعد رخاء وسعة من العيش الراغد.
قوله: {فإذا هم مبلسون} من البلس، بالتحريك: من لا خير فيه - والإبلاس وهو الإنكار والحزن واليأس - وأبلس بمعنى يئس وتحير ومنه إبليس - والملبس، الذي انقطع رجاؤه - والمبلسون، الآيسون من كل خير ٥١.
٤٥ - (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {فقطع دابر القوم الذين ظلموا} الدابر، معناه الآخر - دبر القوم دبرا او دبورا إذا كان آخرهم - والمراد بقطعهم هانا استئصالهم عن آخرهم فلم تبق لهم باقية - والمراد أنهم استؤصلوا وأهلكوا.
قوله: {والحمد لله رب العلمين} ذلك ثناء من الله على نفسه الكريمة لإفناء هؤلاء الأشرار المفسدين الذين آذوا النبيين والمرسلين والمصلحين ودوخوا العباد بمكرهم وكيدهم وعاثوا في البلاد فسادا وتخريبا - فكان في القضاء عليهم واستئصالهم نعمة من الله على الناس، إذ تخلصوا من شؤم عقائد الظالمين وفساد طبائعهم الحافلة بالخبث - فالله بذلك حقيق بالحمد والثناء، بل حقيق أن يحمده الناس ويبالغوا في الثناء عليه باستئصاله للشر والأشرار ٥٢.
٤٦ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)
قوله تعالى: {قل أرءيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الأيت ثم هم يصدفون (٤٦) قل أرءيتكم إن أتكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظلمون (٤٧) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن ءامن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤٨) والذين كذبوا بئايتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون}.
قوله: {قل أرءيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصركم} أفرد السمع، لأنه مصدر يدل على الجمع - والأبصار جمع ومفرده بصر - والمعنى، قل يا محمد لهؤلاء المشركين الضالين: أرأيتم أيها المشركون إن أصمكم الله فذهب سمعكم، وكذلك ذهب بأبصاركم فأصبحتم عميانا، وختم على قلوبكم أي طبع عليها حتى لا تعوا قولا ولا تفهموا حجة، فمن غير الله بعد ذلك يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام - والمراد أن الذين تعبدونهم من دون الله من الأنداد والشركاء لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، وإنما الله وحده يستحق العبادة عليكم، فهو القابض الباسط القادر على كل شيء.
قوله: {انظر كيف نصرف الأيت ثم هم يصدفون} يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينظر كيف يصرف لهؤلاء المشركين الآيات، أي كيف يضرب لهم الأمثال والعبر المتتابعة، وهي ما بين تنبيه وتذكير وتنذير وترغيب وترهيب - وغير ذلك من الأدلة

والحجج ليؤمنوا ويتعظوا فيثوبوا إلى ربهم - لكنهم مع ذلك كله {يصدفون} أي يعرضون - صدف عنه يصدف، أي أعرض عنه - وصدف صدوفا وصدفا، انصرف ومال ٥٣.

٤٧ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

قوله: {قل أرءيتكم إن أتكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظلمون} أي بعد الذي عاينتموه من الأدلة والبراهين والحجج، أخبروني إن أتاكم عذاب الله عقابا لشرككم وتكذيبكم {بغتة أو جهرة} أي فجأة وعلى حين غرة وأنتم لا تشعرون - أو أتاكم العذاب {جهرة} أي وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه، فهل يحيق الهلاك حينئذ إلا بالظالمين وهم المشركون المكذبون، أي نتم؟ والاستفهام للتقرير.

٤٨ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله: {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين} أي ما نرسل رسلنا إلى الناس إلا ليبشروا المؤمنين منهم بالجنة والفوز العظيم يوم القيامة جزاء لهم على طاعة ربهم - وكذلك نرسلهم لينذروا الظالمين المعرضين بالعذاب يوم القيامة جزاء عصيانهم وإعراضهم عن دين الله.

قوله: {فمن ءامن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} الفاء الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها - والفاء الثانية مقترنة بجواب الشرط - والمعنى أن من آمن بما يجب الإيمان به وعمل صالحا في هذه الدنيا وأتى من المعروف والصالحات ما يوافق الشريعة {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} أي لا يخافون مما يستقبله الناس من العذاب الذي أعده الله للظالمين والفاسقين والعصاة - وهم أيضا لا يحزنون لما فاتهم وما تركوه وخلفوه وراء ظهرهم في الدنيا.

٤٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

قوله: {والذين كذبوا بئايتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون} يتوعد الله الذين كذبوا آياته وهي القرآن أو ما أنزل من البينات والدلائل والمعجزات – بالعذاب الذي سينزل بهم في الدنيا والآخرة، بسبب فسقهم وهو خروجهم من ربقة الإيمان والطاعة - أو بسبب خروجهم من حظيرة العقيدة وتمردهم على الله في شرعه ودينه ٥٤.

٥٠ - (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون (٥٠) وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون (٥١) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظلمين (٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣) وإذا جاءك الذين يؤمنون بئايتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم (٥٤) وكذلك نفصل الأيت ولتستبين سبيل المجرمين}.

الخزائن جمع خزينة أو خزانة - وهي في الأصل ما يحفظ فيه من الأشياء النفائس - والمراد بالخزائن هنا رزق الله ومقدوراته - وذلك جواب لاقتراحات المشركين أن يطلب النبي صلى الله عليه وسلم من ربه إنزال الآيات أو أن يقلب الجبال ذهبا أو أن يوسع عليهم منافع الدنيا وخيراتها ويفتح عليهم أبواب سعادتها - فخاطب الله نبيه أن يجيبهم {قل لا أقول لكم عندي خزئن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك} أي لا أدعي أن خزائن الله مفوضة إلي فأتصرف فيها كيفما أشاء حتى تقترحوا علي فعل الخوارق من الأعمال فمثل ذلك ليس من شأني بل هو بيد الله القادر القاهر - وكذلك قال لهم: {ولا أعلم الغيب} وذلك أن القوم كانوا يظنون أن الذي يكون رسولا سيكون مطلعا على الغيب ومكتشفا لخوافي الأمور مما هو خفي مستور - فكانوا يقولون له: إن كنت رسولا من عند الله فأخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح ودفع تلك المضار - فأجابهم النبي صلى الله عليه

وسلم أنه لا يعلم الغيب بل إن الغيب لا يعلمه إلا الله فكيف تسألوني ما ليس من شأني وما لا أملك.
وكذلك أمره ربه أن يقول لهم: {ولا أقول لكم إني ملك}، لأنه لا ينبغي للملك أن يظهر بصورته لأنظار البشر في هذه الدنيا - وقد كانوا يتوهمون أن النبي ما ينبغي له أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق - ويفعل ما يفعله البشر، فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه ليس بملك ولكنه بشر بطبعه وصورته وأصله.
قوله: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي} يعني ما أتبع فيما أقوله لكم وأدعوكم إليه إلا ما أوحى إلي من ربي - فأنا لما جاءني من الله وحيا فأمضي لوحيه وأئتمر بأمره وأنزجر عن نواهيه - وتعرض في هذا الصدد مسألة وهي اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم - فقد اختلف العلماء في جواز اجتهاده عليه الصلاة والسلام وثمة مذاهب ثلاثة في هذه المسألة.
المذهب الأول: جواز الاجتهاد من الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو قول الجمهور - إذ ذهبوا إلى جواز الاجتهاد منه عليه السلام فيما فيه نص، واحتجوا لذلك بعدة أدلة منها:
أولا: عموم قوله تعالى: {فاعتبروا يأولي الأبصار} والنبي صلى الله عليه وسلم كان أعلى الناس بصيرة وأعلمهم بالقياس - فهو بذلك حقيق أن يكون في جملة المأمورين هنا بالاعتبار.
ثانيا: الاجتهاد أكثر ثوابا لما فيه المشقة وبذل الجهد - وفي الحديث " أفضل العبادات أحمزها " ٥٥ أي أشقها - وقال - وقال عليه السلام: " ثوابك على قدر نصبك " ٥٦ أي تعبك - والأكثر ثوابا أولى وأفضل - وعلو درجته صلى الله عليه وسلم توجب أن لا يسقط عنه ذلك، تحصيلا لمزيد الثواب - وكيلا يختص غيره بفضيلة ليست له.
ثالثا: العمل بالاجتهاد أدل على الفطانة وكمال البصيرة من العمل بالنص - وذلك لتوقف الاجتهاد على النظر الدقيق والقريحة المستجاشة - فلا يتركه النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه فضيلة.
المذهب الثاني: عدم جواز الاجتهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم - وهو قول الأشاعرة، وهم التابعون لأبي الحسن الأشعري، إذ منعوه شرعا وكذلك منعه أكثر المعتزلة عقلا - واحتجوا لذلك بعدة أدلة منها قوله تعالى: {وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى} وكذلك هذه الآية التي نحن بصددها وهي {إن أتبع إلا ما يوحى إلي} وهذا ظاهر في العموم وأن كل ما ينطق به فهو وحي وهو ينفي الاجتهاد، لأنه قوله بالرأي - وأجيب عن ذلك بأن الظاهر من قوله: {وما ينطق} أنه رد لما كانوا يقولونه في القرآن من أنه مفترى، فيختص بما بلغه وينتفي العموم.
ومنها: أنه لو كان متعبدا بالاجتهاد لما أخر جوابا عما سئل عنه - وقد أخر كثيرا كما في الظهار واللعان - وفي هذا الاستدلال نظر - فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤخر الجواب في الظهار واللعان - بل أجاب في اللعان بقوله: " البينة أو الحد في ظهرك " وهو من رواية ابن ماجه عن ابن عباس - وكذلك قوله في الظهار " ما أرى إلا أنها قد بانت منك " ثم نسخ الحكمان بنزول آيتيهما.
المذهب الثالث: الوقف عن القطع بشيء من ذلك - هو أبي بكر الباقلاني والغزالي - وقال الشوكاني في رد ذلك: لا وجه للوقف في هذه المسألة لما قدمناه من الأدلة الدالة على الوقوع.
ويدل على علة وقوع الاجتهاد من الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم} فقد عاتبه ربه على ما وقع منه - ولو كان ذلك بالوحي لم يعاتبه - وكذلك معاتبه صلى الله عليه وسلم على أخذ الفداء من أسرى بدر بقوله: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} إلى غير ذلك مما يدل على جواز الاجتهاد من الرسول صلى الله عليه وسلم ٥٧.
قوله: {قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون} الأعمى يراد به المشرك الظالم لنفسه، والذي فسق عن دين الله وكذب رسله وجحد وشريعته.
وعمي عما الله من الأدلة والبراهين التي تكتشف عن وجه الحق - ويراد بالبصير، المؤمن الذي وعى البينات والحجج وصدق رسل الله الكرام جميعا وأيقن أن القرآن حق - فهل يستوي هذان الاثنان؟ لا جرم أنهما لا يستويان - كعدم استواء الحق والباطل، أو كل متضادين متناقضين.

قوله: {أفلا تتفكرون} الاستفهام هنا للتقرير والتوبيخ - والمعنى: أفلا تمنعون التفكير والنظر فيما بيناه لكم من الدلائل والمعجزات التي تكشف عن حقيقة هذا الدين وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاءكم به من ربه؟ أفلا تفرقون بين الحق القائم على التوحيد والذي جاء به الإسلام هداية للناس - والباطل القائم على الشرك والضلال والهوى؟

٥١ - (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

قوله: {وأنذر به الذين يخفون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع} يعني أنذر بالقرآن يا محمد أولئك الذين يخافون يوم القيامة حيث الحشر بأهواله وويلاته - وهؤلاء هم المؤمنون المصدقون بوعد الله ووعيده، العاملون بما يرضي الله، السائرون في ضوء ما أنزله إليهم من عقيدة وتشريع، المشفقون من عقابه يوم الزحام - وإذ ذاك ليس لهم من دون الله من ناصر ولا قريب ولا حليف ولا متشفع لهم من العذاب، حيث الحشر بأهواله وويلاته.

قوله: {لعلهم يتقون} أي يتقون الله في أنفسهم فيبادروا بطاعة ربهم والعمل لمعادهم فيجتنبوا معاصيه ويحذروا نواهيه.

٥٢ - (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)

قوله: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون وجهه} في سبب نزول هذه الآية أخرج مسلم عم المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد قال: نزلت هذه الآية فينا ستة - في وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال - قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهؤلاء فاطردهم، فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما شاء الله أن يدخل - فأنزل الله تعالى هذه الآية ٥٨.

وروى ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب بن الأرث وصهيب وبلال وعمار، قالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء؟ أتريد أن نكون تبعا لهؤلاء؟ فأنزل الله تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم} ٥٩ وجملة القول أن هذه الآية في سبب جماعة من ضعفة المسلمين، قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك.

قوله: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدة والعشي يريدون وجهه} المراد بالدعاء هنا، الذكر أي أنهم يذكرون الله طرفي النهار.

وقيل: المراد صلاة الصبح وصلاة العصر، إذ يؤدونهما بالغداة والعشي.

وقيل: المراد به، الصلوات المكتوبة الخمس - لأن ذكره للغداة والعشي ينبه على أنهم مواظبون على الصلوات الخمس.

أما الغداة، فهي أول النهار - أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ٦٠ والعشي، ما بين زوال الشمس وغروبها، وصلاتا العشي هما الظهر والعصر ٦١.

قوله: {يريدون وجهه} في موضع نصب على الحال من ضمير {يدعون} والمراد بوجه الله، ذاته الكريمة - ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها - أي أن هؤلاء المؤمنين المتقين يدعون ربهم مخلصين له سبحانه - فهم يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله ويتوجهون بذلك كله إليه وحده دون أحد غيره.

قوله: {ما عليك من حسبهم من شيء وما حسبك عليهم من شيء} من، الأولى للتبعيض - ومن، الثانية زائدة للتوكيد - وشيء في موضع رفع، لأنه اسم {ما} ٦٢ وهذا الكلام معترض بين النهي عن الطرد وجوابه - والمعنى، أنه ليس عليك من حسابهم، أي جزائهم ورزقهم من شيء إنما جزاؤهم ورزقهم على الله - وكذلك ليس عليهم من حسابك، أي من جزائك ورزقك من شيء - إنما جزاؤك ورزقك على الله وليس على أحد غيره - وإذا كان الأمر كذلك فجالس هؤلاء المتقين الفقراء وحادثهم ولا تطردهم مراعاة للظالمين المعتسفين.

قوله: {فتطردهم فتكون من الظلمين} فتطردهم منصوب بالفاء في جواب النفي - فتكون - منصوب بالفاء في جواب النهي - والتقدير: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فتكون من الظالمين وما عليك من حسابهم من شيء فتطردهم ٦٣.

٥٣ - (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

قوله: {وكذلك فتنا بعضهم ببعض} الفتنة، الاختبار والابتلاء - وفتنة الله خلقه بعضهم ببعض تحقق فيما جعله بينهم من التفاوت في الأرزاق والأخلاق والطبائع - فجعل بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا - وجعل بعضهم قويا وبعضهم ضعيفا - وهذا يفضي إلى حاجة بعضهم لبعض اختبارا من الله لهم - قال ابن عباس في تأويل ذلك: يعني أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء - فقال الأغنياء للفقراء: {أهؤلاء من الله عليهم من بيننا} وذلك على سبيل السخرية والاستهزاء بهم.

قوله: {ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا} اللام لام التعليل - والاستفهام للإنكار - والمقصود بهؤلاء: الضعفاء والفقراء - أي أن المشركين المستكبرين وهم الأغنياء والساسة يقولون في جحود وإنكار وسخرية: أهؤلاء الذين أكرمهم الله بالهداية وإصابة الحق وهم فقراء ضعفاء أذلة من بيننا ونحن أغنياء أقوياء - وقد قالوا هذه المقالة على سبيل الاستهزاء بالمؤمنين الضعفاء ومعاداة الإسلام.

قوله: {أليس الله بأعلم بالشاكرين} الاستفهام للتقرير بعلمه - وهذا جواب من الله ورد منه لمقالة المشركين المستنكرين الساخرين من المؤمنين لفقرهم وضعفهم - فبين سبحانه أنه عليم بالصالحين من العباد، إذ يمن عليهم بالإيمان والهداية دون الرؤساء والعظماء الذين لا يستحقون فضلا ولا تكريما.

ذلك هو القسطاس المستقيم الذي لا يميل ولا يحابي، والذي يزن به الإسلام مقادير الناس واعتباراتهم - وإنما الاعتبار الحقيقي الأكبر للعقيدة السليمة المستقيمة والتزام شرع الله قولا وعملا، بغض النظر عن بقية الاعتبارات الأخرى وهي كثيرة ومختلفة - كاعتبار المال والحسب واللون والأصل - لا جرم أن هذه اعتبارات في مقابل العقيدة، تمضي من غير وزن ولا حساب في تصور الإسلام - إنما التقدير والتكريم لأولي الإيمان الصالح، والعمل الصالح، من عباد الله الأتقياء الأبرار.

وهذه حقيقة لا يزيغ عنها إلا معاند مستكبر يؤثر الدنيا بغرورها وزخرفها الفارغ المنفوش على الآخرة بخيرها وفضلها ونعيمها الباقي.

٥٤ - (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بئايتنا فقل سلام عليكم} نزلت هذه الآية في الذين نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن طردهم فكان إذا رآهم النبي صلى الله عليه وسلم بدأهم بالسلام وقال: " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام " ٦٤

والمراد: إذا جاءك من آمن بالآيات القرآنية وما أنزل من البينات والحجج فابدأهم بالسلام عليهم وهو أن يبادرهم الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: {سلام عليكم} أي سلمكم الله في دينكم وفي أنفسكم وأنجاكم من كل مكروه.

قوله: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} أي أوجبها على ذاته الكريمة تفضلا وإحسانا وامتنانا.

قوله: {أنه من عمل منكم سوءا بجهالة} الجملة بدل من الرحمة - بجهالة في موضع نصب حال - وتقديره: من عمل ذنبا وهو جاهل ٦٥ والجهالة تعني الخطيئة من غير قصد - وقيل: كل من عمل خطيئة فهو جاهل.

قوله: {ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم} أي تاب بعد ما عمل خطيئة بجهالة وأصلح في توبته بإتيان شروطها من العزم على عدم العود أبدا، والمبادرة بفعل الطاعات والحسنات {فأنه غفور رحيم} خبر مبتدأ محذوف - والتقدير: فأمره أنه غفور رحيم - وقيل: مبتدأ، وخبره مضمر - وتقديره: فله أنه غفور رحيم ٦٦.

٥٥ - (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {وكذلك نفصل الأيت} التفصيل معناه التبيين - يعني كما بينا لك يا محمد في هذه السورة أدلتنا وحجتنا على المشركين كذلك نبين لك الآيات في أمور الدين مما تحتاجون إليه - وكذلك نبين لكم أدلتنا وحججنا في تبيين الحق وكشف الباطل لدمغه ودحضه.

قوله: {ولتستبين سبيل المجرمين} تستبين: تتبين وتظهر - وسبيل، يذكر ويؤنث - فهو عند تميم مذكر - وعند أهل الحجاز مؤنث - والراجح في قراءة {سبيل} الرفع على أنها فاعل - أي وكذلك نفصل الآيات لتتضح لك يا محمد وللمؤمنين طريق المجرمين - أي أن الله فصل آياته في كتابه الحكيم ليتبين بها الحق من الباطل ٦٧.

٥٦ - (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

قوله تعالى: {قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهوءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين (٥٦) قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين (٥٧) قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظلمين}.

هذا أمر من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المشركين أهل الظلم والباطل الذين يدعونه إلى موافقتهم على دينهم فيعبد معهم أوثانهم – أن يقول لهم قطعا لأطماعهم الفاسدة وأهوائهم الضالة: إن الله نهاني أن أعبد الذين تعبدونهم من دونه - فلن أتبعكم على ما دعوتموني إليه، لأن ما دعوتموني إليه لهو محض باطل، وهوى سقيم - ولئن فعلت شيئا من ذلك فقد تنكبت عن الحق وسلكت سبيل الضالين الناكبين عن دين الله القويم، أمثالكم.

٥٧ - (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

قوله: {قل إني على بينة من ربي وكذبتم به} أي قل لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى الإشراك بالله معهم: إني على بينة من ربي - أي على برهان ودلالة ويقين من ربي أنني على الحق وهو التوحيد الخالص الكامل لله ولإخلاص العبودية المطلقة له وحده من غير إشراك في ذلك البتة.

وقوله: {وكذبتم به} الضمير في {به} يعود على ربي - والمراد أنني آمنت بربي وامتثلت لأمره وتوجهت إليه وحده دون أحد سواه، وأنتم كذبتم به وأشركتم به من الأنداد والأرباب المصطنعة ما لم ينزل به من الله سلطان.

قوله: {ما عندي ما تستعجلون} نزلت في النضر بن الحارث ورؤساء قريش كانوا يقولون: يا محمد ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به استهزاء منهم - فنزلت هذه الآية ٦٨ والذي يستعجلون به هو العذاب - فإنهم لشدة جحودهم وتكذيبهم كانوا – على سبيل التهكم والاستهزاء – يستعجلون نزول العذاب والنقم بهم - وذلك كقولهم: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} فأمر الله نبيه الكريم أن يقول لهؤلاء العتاة أهل الباطل: ما تستعجلونه من العذاب والنقم ليس بيدي ولا أنا بقادر على ذلك وإنما أنا رسول الله، وما علي إلا البلاغ لما أرسلت به - والله جلت قدرته يقضي بالحق ويفصل به بيني وبينكم فيتبين المحق من المبطل - وهو سبحانه لا يقع في حكمه جور ولا حيف فهو أعدل العادلين؟

لذلك قال: {إن الحكم إلا لله يقص الحق} أي ما الحكم في تأخير العذاب أو تعجيله إلا لله وحده وليس لأحد من خلقه فهو سبحانه {يقص الحق} أي يقضي القضاء الحق - وهو سبحانه {خير الفاصلين} أي خير من ميز بين الحق وأهله، والباطل وأهله ٦٩.

٥٨ - (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

قوله: {قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظلمين} الاستعجال: طلب تعجيل الشيء قبل وقته - أي قل لهؤلاء المكذبين الذين يستعجلون وقوع العذاب: لو كان في قدرتي ومكنتي إنزال ما تستعجلونه من العذاب بكم لأنزلته فأهلكتكم عاجلا، غضبا لله وامتعاضا من تكذيبكم - ولكن ذلك بيد الله فهو أعلم بوقت الانتقام وإنزال العذاب على الظالمين المشركين أمثالكم ٧٠.

٥٩ - (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمت الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتب مبين}.

المفاتح جمع مفتح بكسر الميم - وهو المفتاح - والمراد بالمفاتح: المفاتيح - والمفتاح عبارة عن كل ما يحل غلقا سواء كان محسوسا كالقفل، أو معقولا كالنظر - والمفاتح في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، أي أنه جعل للغيب مفاتح على سبيل الاستعارة،

لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن الموثوقة الإغلاق - والعالم بتلك المفاتيح يمكنه التوصل بها إلى ما في الخزائن - وكذلك الله سبحانه هنا لما كان عالما بجميع المعلومات والمغيبات عبر عن ذلك بقوله: {مفاتح} ٧١ والمراد بالغيب ما غاب علمه عن الناس مما هو خفي ومستور ولا يعلمه إلا الله - وهو سبحانه العالم بالمغيبات من مجاهيل الأمور والحقائق والمخلوقات - وهو المكتشف المطلع على الأسرار والخفايا مما يستكن في بواطن الغيب والأشياء - الله تعالى عليم بذلك كله، لا يند عن علمه وإحاطته وقدرته شيء صغيرا أو كبيرا، ظاهرا أو مستورا - سواء كان في السماء أو الأرض - أو في أي مكان من بقاع هذا الكون الهائل - إن الله علام الغيوب لا يفوته ولا يعجزه خبر أو معلوم في أرجاء العالمين وفي ضمائر الأزمان جميعا.

إن هذه الحقائق الضخمة عن علم الله المطلق لهو مما يقتضيه قوله سبحانه: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}.

قوله: {ويعلم ما في البر والبحر} أي يعلم ما فيهما من الموجودات على كثرتها واختلاف أجناسها وأنواعها - فهو يعلم ما في البر الواسع من النبات والحب والنوى - وما يستكن في جوف الأرض من أصناف وألوان ومركبات ومذخورات - وكذلك يعلم ما في البر الهادر الزاخر من الدواب والأحياء والأرزاق.

قوله: {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمت الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتب مبين} ذلك مما يرد في تفصيل الحقيقة الكبرى، وهي علم الله بكل ماهو مخبوء في بطن الغيب - ومن جملة ذلك أنه ما من ورقة تسقط في الصحارى أو البراري، ولا في الأمصار أو القرى أو الجبال أو السهول والبوادي إلا يعلمها الله - إذ يعلم أين سقطت ومتى كان سقوطها وكيف كان ذلك - وأوراق الأشجار والنبات كاثرة وزاخرة لا يعلم عدها غير باريها - ولا يدري أحد كيف تسقط الأوراق فرادى ومجتمعة - فإما أن يأتي عليها والموات في الخريف الواجم فتبرح أغصان النبات ساقطة على الأرض لتصبح بعد ذلك في جملة الهشيم الذي تذروه الرياح - أو أنها تصفق باشتداد وحماسة إذا ضربتها الرياح السافية بتيارها العاصف المنداح لتخر على الأرض ساقطة مفارقة - ومثل هاتيك الأخبار عن أشياء العالمين لا يدري بها إلا الله.

وكذلك ما يكون من حبة مطمورة مغمورة في باطن من بطون الأرض بكل أغوارها وطباقها ومجاهيلها الموغلة في الغيب – سواء في ذلك كله الرطب واليابس، إلا هو مسطور في {كتب مبين} وهو علم الله - أو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه علم الأولين والآخرين، سواء فيه الأعمار والأرزاق والأشياء وكل ما حواه الوجود من أخبار فإنه مسطور في الكتاب المبين ٧٢.

ومما هو حقيق بالتنبيه أن الإنسان يهيم في عالم حافل بالمغيبات، لا يدري منها شيئا - ومن جملة ذلك ما ينتظره من حوادث ووقائع وأشياء مما لا يعلم به قبل وقوعه - حتى إنه لا يعلم ما هو حائق به في مستقبله القريب الداني - وكذلك لا يعلم الإنسان عن مصيره المحتوم وهو داهية الموت - فمتى يحين هذا يحين هذا الأجل القاهر فتنتهي السالفة ليفضي المرء بعد ذلك إلى التراب - لا يعلم الإنسان عن الأوان الذي تحين فيه ساعة الفراق ولا الكيفية التي ينتهي فيها الأجل المنتظر وكذلك لا يدري الإنسان شيئا عن خبر الساعة - وهذه هي الداهية الكبرى - بل إنها الطامة التي تهون دونها كل الفوارق والدواهي - وهي مما استأثر به في علم الغيب عنده مما لا يعلمه الإنسان - إلى غير ذلك من صور الغيب المجهول الذي لا يعمله إلا من عنده مفاتح الغيب.

٦٠ - (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {وهو الذي يتوفاكم باليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون}.

يتوفاكم بالليل، أي ينيمكم فيه - فقد استعار التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال التميز والإحساس من الحواس - وأصل التوفي قبض الشيء أو استيفاؤه - توفيت الشيء واستوفيته بمعنى واحد، أي قبضته أو استوفيته - وتوفي الميت أي استوفي أيام عمره في هذه الدنيا.

قوله: {ويعلم ما جرحتم بالنهار} جرحتم، أي كسبتم، من الاجتراح وهو عمل الإنسان بيده أو رجله أو فمه وهذه جوارح الإنسان أي

أعضاؤه التي يكتسب بها - ويقال لمن يكتسب عملا بواحد من جوارحه إنه جارح أو مجترح أي مكتسب ٧٣ والمعنى أن الله يعلم ما كسبتم من الأعمال في النهار سواء فيها الذنوب وغيرها من الأعمال - وفي ذلك من التهديد ما لا يخفى.

قوله: {ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل المسمى} أي يوقظكم في النهار ليتم لكل فرد أجله المسمى وهو بقاؤه في هذه الدنيا - والمقصود أن إمهال الله للكافرين ليس لغفلة منه عن كفرهم ولكنه قضى أن يكون لكل إنسان أجله المسمى من الرزق والحياة حتى إذا تم ذلك رجع إلى الله ليلقى عنده الجزاء - ولذلك قال: {ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون} ٧٤.

٦١ - (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ)

قوله تعالى: {وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفطرون (٦١) ثم ردوا إلى الله مولهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين} الله سبحانه وتعالى القاهر فوق عباده - أي الغالب فوقهم - والمراد فوقية الرتبة والسمو وليس فوقية الجهة والمكان.

قوله: {ويرسل عليكم حفظة} جمع حافظ - والحفظة كاتبون كرام من الملائكة يرسلهم الله ليكتبوا ما يصدر عن الخلق من الطاعات والمعاصي والمباحات جميعها - وقيل: لا يكتبون المباحات.

قوله: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا} يعني إذا انتهت مدة أحدكم وجاءته أسباب الموت أرسل الله ملائكة آخرين ليباشروا قبض الروح - وقيل: المباشر هو ملك الموت وله أعوان وأشياع من الملائكة مفوضون بقبض الأرواح.

قوله: {وهم لا يفرطون} أي لا يضيعون ولا يقصرون بل يطيعون الله فيما أمرهم به.

٦٢ - (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

قوله: {ثم ردوا إلى الله مولهم الحق} أي ردهم الله بعد البعث والحشر إليه حيث الحكم والجزاء - والله هو مولاهم أي مالكهم الذي يلي أمورهم - وهو سبحانه الحق - نعت لاسم الله - وهو من أسمائه - وقيل: الحق مصدر وهو نقيض الباطل.

قوله: {ألا له الحكم} أي له القضاء والفصل وحده يوم القيامة.

قوله: {وهو أسرع الحاسبين} أي يحاسب الخلائق جميعا في أسرع زمان ٧٥.

٦٣ - (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

قوله تعالى: {قل من ينجيكم من ظلمت البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} ذلك استفهام وتوبيخ لهؤلاء المشركين السفهاء الذين يعدلون بربهم سواه من الأنداد والآلهة المصطنعة - توبيخ لهم وتحقير لحلومهم واعتقاداتهم الضالة، إذ يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم على سبيل التوبيخ والتنديد {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر} أي مما فيهما من شدائد وأهوال وكروب وكل وجوه المخاطر من خسف وخوف وغرق وغير ذلك - فهل من أحد غير الله ينجيكم من كل ذلك.

قوله: {تدعونه تضرعا وخفية} في محل نصب حال - أي من الذي ينجيكم حال كونكم داعين له جهرا وسرا، أو إعلانا وإسرارا.

قوله: {لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشكرين} في محل نصب على المفعولية لقول مقدر، أي قائلين {لئن أنجيتنا من هذه} أي الشدائد والبلايا التي نزلت بنا، يقولون ذلك عند الخوف واشتداد الكرب الذي حل بهم حتى إذا حاطت بهم أسباب الهلاك والموت وأحاط بهم اليأس من كل مكان دعوا الله أن ينجيهم من هذه الأهوال المحدقة آخذين على أنفسهم العهد لئن نجاهم الله مما حاق بهم ليكونن من الشاكرين - أي الراسخين على الشكر المستديمين عليه لما من الله علينا من كشف ما وقع بنا من بلاء.

٦٤ - (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

قوله: {قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب} أي قل لهم: إن الله هو الذي ينجيكم مما أصابكم من الخوف أو الشدة {ومن كل كرب} أي من كل غم ينزل بكم.

قوله: {ثم أنتم تشركون} ذلك تقريع لهم وتوبيخ - وذلك لفساد نفوسهم وطبائعهم القائمة على الجحود وكفران النعمة - فبعد أن نجاهم الله من الغم وأزال عنهم ما حل بهم من البلاء والخوف فعاهدوا على الشكران بعد إنجائهم – بعد ذلك كله عادوا منكسين لسجيتهم الفاسدة - السجية التي أشربت حب الخضوع لغير الله والخنوع أمام أصنام لا تضر ولا تنفع - وذلك كله مقتضى قوله: {ثم أنتم تشركون} ٧٦.

٦٥ - (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

قوله تعالى: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الأيت لعلهم يفقهون} بعد أن بين الله أنه هو الذي يكتب النجاة لعباده ويرفع الشدائد عن المكروبين، فإنه يبين عقيب ذلك أنه هو القادر على إلقائهم في المهالك وإنزال البلاء بهم فيقول سبحانه: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم} العذاب من فوقهم يراد به الطوفان والرجم بالحجارة والصيحة والريح، مثلما فعل بقوم نوح وقوم لوط وعاد وثمود - وأما العذاب من تحت أرجلهم فهو الخسف والرجفة، مثلما فعل بقارون وأصحاب مدين.

قوله: {أو يلبسكم شيعا} جمع شيعة وهم الأتباع والأنصار - وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، والجمع شيع - مثل سدرة وسدر ٧٧ ويلبسكم، من اللبس وهو الخلط - لبست عليه الأمر إذا خلطته فأنا ألبسه - ويلبسكم أي يخلط أمركم فيجعلكم أهواء مختلفة وأحزابا مفترقة.

قوله: {ويذيق بعضكم بأس بعض} البأس معناه العذاب، والشدة في الحرب ٧٨ ويذيق، من الذوق - وأصل ذلك من ذوق الطعام، ثم استعمل في كل ما وصل إلى الإنسان من لذة وحلاوة ومرارة ومكروه وألم - والمراد أن تعمكم الفتنة فيقتل بعضكم بعضا.

ولقد حل بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من أنواع الفتن ما يثير الحزن والمضاضة - وهذه حقيقة أليمة نذكرها في غاية الإحساس بالمرارة والأسى.

لقد دهمت المسلمين من القلاقل والفتن التي كثيرا ما عصفت بكلمتهم ووحدة صفهم بعد أن انقلبوا شيعا مختلفي الأهواء وبعد أن استحوذ عليهم الشيطان وطغى عليهم حظ النفس من الدنيا في كثير من الأحيان فدارت بينهم معارك وحروب طاحنة أزهقت فيها أنفس كثيرة - وذلك عقيب لحاق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى - مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذر من فداحة الاختلاف في الأهواء أو الحرص المتكالب على حظ النفس من الدنيا، بما يفضي في النهاية إلى اختلاف القلوب وتنافرها ثم الاقتتال والاحتكام إلى السيف فقال عليه السلام: " لا تنقلبوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف " فقالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله؟ قال: " نعم ".

وذلك الذي حل بالمسلمين وا أسفاه! إذ انصاعوا لنداء الشيطان يحرض شيعهم وفرقهم على الحرب والاقتتال - مع أن جدير بالمسلمين أن يكونوا أكثر أمم العالمين طرا تماسكا وائتلافا وانسجاما ما دامت عقيدتهم الراسخة العظيمة قائمة على التوحيد - وهي تدعو بالضرورة إلى الوحدة والتئام الصفوف - لقد كان جديرا بالمسلمين أن يظلوا طوال الدهر أحرص الناس على الإخاء والوحدة وتمام التلاقي في إطار العقيدة والدين وأن لا يفتلهم عن ذلك أي سبب من أسباب الغواية أو الهوى أو حب الدنيا والحرص على الشهوات.

قوله: {انظر كيف نصرف الأيات لعلهم يفقهون} أي نبين لهم الدلائل والحجج، أو من أنواع الكلام ما بين وعد ووعظ ووعيد لكي يعتبروا فيذكروا أو يزدجروا عما هم عليه من الشرك و التكذيب ٧٩.

٦٦ - (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

وقوله تعالى: {وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦) لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون} الضمير في قوله: {به} يعود إلى القرآن، فإنه الحق المنزل من عند الله - وقيل: يعود إلى العذاب الذي توعدهم الله به، وهو الحق، فلا بد أن ينزل بهم.

قوله: {قل لست عليكم بوكيل} أي لست عليكم بحفيظ ولا رقيب حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن تصديق الحق وقبوله.
٦٧ - (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)
قوله: {لكل نبإ مستقر} أي لكل خبر يخبره الله تعالى كما لو كان وقتا أو مكانا – قرار يستقر عنده أو نهاية ينتهي إليها من غير خلف ولا تأخير.
قوله: {وسوف تعلمون} وهذا وعيد من الله يخوف به المشركين المعاندين الذين يعدلون بربهم الأصنام والأنداد - أي سوف تعلمون أيها المشركون المكذبون صحة ما أخبركم به من الوعيد وحلول العذاب بكم، إذ تعاينون ذلك بأنفسكم وقد وقع لما قتلوا بأيدي المؤمنين ٨٠.
٦٨ - (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: {وإذا رأيت الذين يخوضون في ءايتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسيك الشيطن فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظلمين} يخوضون، من الخوض وهو التخليط في المفاوضة على سبيل العبث واللعب ٨١ والمراد هنا من الخوض: الشروع في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء والطعن.
والمعنى أن الله يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم وكل أحد من المسلمين، إذا رأى المشركين الضالين يخوضون في آيات القرآن أو في تعاليم الإسلام بالتضليل والافتراء والباطل والطعن فعليه أن يعرض عنهم - وذلك بالقيام من مجلسهم والتخلي عن القعود معهم البتة حتى يأخذوا في حديث آخر غير الاستهزاء بكتاب الله الحكيم أو دينه القويم - وأيما عود مع هؤلاء الضالين المستهزئين بالإسلام لا جرم أن يكون مخالفا لأمر الله وفيه من الذنب ما يجعل القاعدين شركاء في الخطيئة.
وهذه حال المشركين الظالمين في كل زمان، فإنهم لفرط كراهيتهم وتغيظهم يلجأون في وقاحة فاجرة لئيمة للطعن في شيء من تعاليم الإسلام لما يجدونه في ذلك من إشفاء لغليلهم الأسود المقبوح - فلا يجترئ على الطعن في شيء من تعاليم الإسلام أو معنى من معانيه أو آية من آيات الكتاب الحكيم إلا كافر لئيم أو مرتد أثيم - فلا مساغ بذلك لمسلم أن يجالس أمثال هؤلاء العصاة الفاسقين بل يعرض عنهم إعراضا يجدون فيه التحقير لهم والازدراء.
قوله: {وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين} إما، إن شرطية، وما مزيدة - والمخاطب في الآية الرسول صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته - والمعنى إذا أنساك الشيطان أيها المسلم فقعدت مع المشركين المستهزئين فقم إذا ذكرت ٨٢.
٦٩ - (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)
قوله: {وما على الذين يتقون من حسبهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون} قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: قال المسلمون: لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لما قدرنا على أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف بالبيت - فنزلت الآية وحصلت الرخصة فيها للمؤمنين بأن يقعدوا معهم وأن يذكروهم ويبينوا لهم.
وقوله: {وما على الذين يتقون من حسبهم من شيء} أي ليس على هؤلاء الذين {يتقون} أي يجتنبون الشرك والكبائر والفواحش {من حسبهم من شيء} أي ليس عليهم إثم من آثام أولئك الخائضين الظالمين - من، زائدة للاستغراق.
وقوله: {ولكن ذكرى} لكن استدراك من النفي السابق - أي ولكن عليهم أن يذكروهم {لعلهم يتقون} أي يتقون الله فينتهون عما هم فيه من الخوض والطعن في آيات الله - وقيل: نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: {إذا سمعتم ءايات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره} وإنما كانت الرخصة قبل الفتح وكان الوقت وقت تقية ٨٣ والأظهر أن الآية غير منسوخة والمعنى أنه ليس عليكم إثم من إثمهم بل عليكم تذكيرهم وزجرهم فإن أبوا فما حسابهم إلا على الله - وقوله: {ذكرى} في محل نصب على المصدر - وقيل: في محل رفع مبتدأ، خبره محذوف - أي ولكن عليهم ذكرى ٨٤.
٧٠ - (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ

وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

قوله تعالى: {وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحيوة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون} يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن هؤلاء الظالمين الأشقياء الذين اتخذوا دين الله لهوا ولعبا، إذ يسخرون من آيات الله ويستهزئون بتعاليم الإسلام - وهؤلاء صنف من البشر الفاسد المغرور الذي يعشق كراهية الإسلام ويجيد صنعة الطعن في الإسلام وإيذائه بمختلف الأساليب - وهو في ذلك كله سادر مغرور، غرته الحياة الدنيا بسرابها الخادع فغار في ظلامها هائما تائها - فهؤلاء المجرمون المناكيد أعرض عنهم يا محمد فإن الله لهم بالمرصاد وهو إنما يملي لهم حتى إذا جاء أجل عقابهم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر - وقيل: هذه نسخت بما أنزله في سورة براءة {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}.

قوله: {وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت} الضمير في {به} يعود للقرآن - أي ذكر بهذا القرآن هؤلاء المعرضين عن دين الله {أن تبسل نفس بما كسبت} تبسل بمعنى تسلم للهلكة - أبسله: أسلمه للهلكة فهو مبسل {أن تبسل} يعني لئلا تبسل - أو كراهة أن تبسل - فيكون المعنى - وذكر بالقرآن هؤلاء الخائضين في آيات الله بالطعن والتهكم، وكذلك غيرهم من الأشرار الذين سلكوا سبيلهم في الخوض والطعن كيلا تسلم أو تحبس نفس كل واحد من هؤلاء المشركين للعذاب بما كسبت من الكفر ومعاداة الإسلام.

قوله: {ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع} عندما تفضي هذه النفس المجرمة إلى مصيرها في النار، ليس لها حينئذ من أحد فينجيها سوى الله، ولا شفيع يشفع لها فيفقدها مما حل بها من العذاب.

قوله: {وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها} العدل، الفداء - أي لو جيء بملء الأرض فداء لهذه النفس الهالكة تنجية لها من عذاب الله لا ينفعها ذلك ولا يقبل منها.

قوله: {أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا} اسم الإشارة عائد إلى الخائضين الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا - وهم الذين أبسلوا، أي هلكوا وأفضوا إلى ما قدموه في الدنيا من خوض واستسخار فكان مصيرهم النار.

قوله: {لهم شراب من حميم وعذاب أليم} الحميم: الماء الحار - استحم أي اغتسل بالحميم - هذا هو الأصل ثم صار كل اغتسال استحماما بأي ماء كان ٨٥ وذلك استئناف يفسر كيفية الإبسال - وهو أن هؤلاء المجرمين الخائضين سوف يبوءون بالعذاب الشديد - ومن جملته أن يسقوا ماء حارا تتقطع به أمعاؤهم ولا يطفئ لهم غلة - ويضاف إلى ذلك أصناف أخرى من العذاب غير المذكورة - وعدم ذكرها يزيد من شدة الخوف والترغيب - وذلك في قوله: {وعذاب أليم}.

قوله: {بما كانوا يكفرون} أي بسبب كفرهم وعنادهم في الدنيا، إذ كانوا معادين لدين الله وصادين الناس عنه وخائضين فيه خوض المجرمين المعاندين الحاقدين ٨٦.

٧١ - (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقبنا بعد إذ هدنا الله كالذي استهوته الشيطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العلمين (٧١) وأن أقيموا الصلوة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون}.

قيل: نزلت في المشركين، إذ قالوا للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله هذه الآية {قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا} يعني أنعبد من دون الله آلهة مصطنعة اختلقتموها أنتم من أوثان وأنداد موهومة لا تضر ولا تنفع؟ أتدعوننا أن نترك عبادة الله الأحد الصمد خالقكم وخالق كل شيء لننتكس مرتدين سفهاء عن دين الله الحق إلى شرككم وباطلكم وهوان أحلامكم؟!

قوله: {ونرد على أعقبنا بعد إذ هدانا الله} الأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم ٨٧ والمراد بذلك الرجوع إلى الضلال والشرك

والجاهلية - والتعبير بالأعقاب فيه تقبيح وإنكار للارتداد عن ملة الإسلام إلى ملل الكفر - وذلك بعد أن من الله على المؤمنين فهداهم إلى توحيد الإسلام وما يؤول إلى النجاة والفوز برضى الله ونعيمه في الآخرة.

قوله: {كالذي استهوته الشيطين في الأرض حيران} الكاف في الاسم الموصول في محل نصب نعت لمصدر محذوف - أي أنرد ردا مثل رد الذي استهوته الشياطين - وقيل: في موضع الحال، واستهوته بمعنى هوت به إلى أسفل - وهو من الفعل هوى أي سقط ونزل من الموضع العالي إلى الوهدة العميقة السحيقة من قعر الأرض - وهذا تشبيه لحال هذا المنتكس الضال بحال الساقط من العلا إلى حيث الهبوط والتردي مع السافلين.

وقيل: استهوته من الهوى والجنوح - أي أغوته وسولت له الكفر والباطل - وحيران، منصوب على الحال - وهو من الحيرة بمعنى التردد في الأمر ٨٨ وهذه حال المنتكس الساقط الذي استزلته الشياطين فهوى من العلو حيث الهدى والإيمان، إلى السفل حيث الضياع واليأس والاضطراب - فمن كان حاله هكذا لا جرم أنه يهيم في التردد والحيرة والجزع.

قوله: {له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا} قيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه كان يدعو أباه إلى الكفر، وأبوه كان يدعوه إلى الإيمان ويأمره أن يعرض عن الجهالة إلى الهداية وعن ظلام الباطل إلى ضياء الحق.

والمقصود أن ذلك فيمن أطاع الشيطان وعمل في حياته بالمعصية وضل عن طريق الله وله أصحاب يدعونه إلى الحق وإلى المحجة المستقيمة البيضاء، محجة الإسلام - لكنه أبى وأعرض مستكبرا.

قوله: {قل إن هدى الله هو الهدى} هذا إعلان من الله للبشرية على أن هدى الله الذي هو دين الإسلام لهو الهدى وحده دون غيره من السبل والطرائق - فما من ملة ولا شرعة ولا منهاج غير دين الإسلام لا جرم أنه مخالف للمحجة السليمة المستقيمة ومغاير للحق الذي بينه الله للناس تفصيلا - ومن أجل ذلك أمرنا الله باتباعه دون غيره من الملل المحرفة القائمة على الإفراط والشطط - فقال سبحانه: {وأمرنا لنسلم لرب العالمين} أي أمرنا الله أن ننقاد له مخبتين مطيعين وأن نستسلم لأمره بالامتثال والعمل.

٧٢ - (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قوله: {وأن أقيموا الصلوة واتقوه} معطوف على قوله: {إن هدى الله هو الهدى} وقيل: معطوف على {لنسلم لرب العلمين} والمراد بإقامة الصلاة المحافظة عليها، وأداؤها بحدودها وأحكامها المفروضة.

وكذلك أمر الله عباده أن يتقوه وهو أن يخافوه أشد الخوف - فالله جل وعلا حقيق بكمال الخوف من جلاله وجبروته وذلك بتمام طاعته وامتثال أمره ومجانبة عصيانه ومناهيه - وهو سبحانه الذي تصير إليه البشرية في اليوم الموعود لتجد هنالك الحساب والجزاء - ولذلك قال: {وهو الذي إليه تحشرون} ٨٩.

٧٣ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

قوله تعالى: {وهو الذي خلق السموت والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير} الله وحده حقيق بالعبادة والخضوع لجلاله والامتثال لأمره وليس الآلهة المصطنعة والأنداد المختلفة الموهومة - الله وحده خليق بتوجه القلوب والنواصي إليه، فهو خالق السموات والأرض بالحق - أي خلقهما حقا وصدقا لا باطلا ولا لهوا - وقيل: بالحق يعني بقوله: {كن}.

قوله: {ويوم يقول كن فيكون} أي واذكر يوم يقول كن فيكون - والمراد بذلك كل ما يحييه الله من الخلائق يوم القيامة بعد موته في الدنيا أو يعيده بعد فنائه.

قوله: {قوله الحق} قوله: مبتدأ - والحق صفته - وخبر المبتدأ مقدم وهو {ويوم يقول كن فيكون} والتقدير: ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق - وقيل: قوله خبر، والحق صفته، والمبتدأ تأويله خلق السموات والأرض بالحق وقوله للخلائق كن، كل ذلك مبتدأ.

والمعنى أن خلق السموات والأرض وإحياء الخلائق بعد موتها بقوله: {كن} كل ذلك حق أي صدق وعدل ويصدر عن حكمة إلهية.

قوله: }وله الملك يوم ينفخ في الصور{ أي أن الملك كله لله في هذا اليوم الذي ينفخ فيه في الصور - وفي معنى الصور اختلاف بين المفسرين والصحيح في ذلك أن المراد به القرن الذي ينفخ فيه الملك الموكل بذلك - وثمة نفختان ينفخهما الملك العظيم وهما نفخة الموت والفناء، ثم نفخة البعث والإحياء - والمراد هنا الثانية - وقد روى مسلم في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ".

قوله: }عالم الغيب والشهدة{ عالم مرفوع على أنه نعت (للذي) في قوله }وهو الذي خلق السموت والأرض{ أي أن الله يعلم الغيب وهو المستور الذي تعجز عن إدراكه الحواس والأبصار - وذلك هو الشطر الأعظم مما في هذا الوجود الحافل بالأشياء والحقائق وجلها خفي مستور لا يعلمه إلا الله.

وكذلك }والشهدة{ وهي كل مشهود معاين تدركه الأبصار والحواس.

قوله: }وهو الحكيم الخبير{ الحكيم، المصيب في أفعاله وتصريفه أمور خلقه وفي تدبيره الحياة والأحياء والكائنات جميعا - وهو كذلك الخبير - أي العالم بكل ما يقع وبكل ما تكسبه الأحياء والبرية من غير اشتباه ولا التباس ٩٠.

٧٤ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: }وإذ قال إبراهيم لأبيه ءازر أتتخذ أصناما ءالهة إني أراك وقومك في ضلال مبين (٧٤) وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموت والأرض وليكون من الموقنين (٧٥) فلما جن عليه اليل رءا كوكبا قل هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين (٧٦) فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضلين (٧٧) فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلكا أفلت قال يقوم إني برئ مما تشركون (٧٨) إني وجهت وجهي للذي فطر السموت والأرض حنيفا وما أنا من المشركين{.

ذلك من خبر الأولين يقصه الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تدعيما له وتأييدا لما في ذلك من تثبيت له على الحق مهما اشتد عناد المشركين وخصامهم من عبدة الأوثان والحجارة.

قوله: }وإذ قال إبرهيم لأبيه ءازر{ اختلف المفسرون في تأويل كلمة آزر فقيل: إنه اسم صنم كان يعبده أبو إبراهيم - وقيل: آزر اسم أبيه - وقيل: اسم أبيه تارخ وليس آزر - والراجح أن اسم أبي ابراهيم آزر - فقد يكون له اسمان وهما آزر وتارخ - أو يكون أحدهما لقبا - وقرئ آزر بالفتح على أنه علم أعجمي لا ينصرف وهو بدل من أبيه، أو عطف بيان له ٩١.

قوله: }أتتخذ أصناما ءالهة{ أصناما مفعول به أول - وآلهة مفعول به ثان لتتخذ - والاستفهام هنا على سبيل الإنكار - أي أتجعل هذه الأصنام التي لا تعي ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع آلهة؟! والأصنام جمع صنم والصنم معناه التمثال من الحجر أو الخشب أو من غير ذلك في صورة إنسان وهو الوثن.

قوله: }إني أراك وقومك في ضلال مبين{ أي أراك يا آزر وقومك المشركين الذين يعبدون الأصنام معك ويتخذونها آلهة من دون الله }في ضلال مبين{ أي في بعد سحيق عن سبيل الصواب وعن المحجة السليمة المستقيمة - وإن هذا البعد السحيق التائه عن سبيل الله الحق واضح ومكشوف لكل ذي بصر.

٧٥ - (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

قوله: }وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموت والأرض{ ملكوت، من الملك زيدت الواو والتاء للمبالغة كالرهبوت من الرهبة، والرغبوت من الرغبة، والجبروت من الجبر، والرحموت من الرحمة ٩٢ والمعنى أنه مثلما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه، وأريناه الحق خلافا لما كان عليه قومه من الضلال فإننا نريه }ملكوت السموت والأرض{ المراد بذلك خلق السموات وارض بما يعنيه هذا الخلق من عجائب المخلوقات والمكنونات - وما تضمنه خلق السموات والأرض من سعة وشمول وامتداد - وما حوته أطواء هذين البناءين الهائلين من المقدورات والمخبوءات والأسرار، ومن زاخر الخلائق والأشياء المترامية المتسقة على غاية من روعة البناء ومتانة الإحكام وذلك ما بين أقمار وشموس ونجوم وكواكب وأجرام مختلفة متفاوتة مبثوثة في أرجاء هذا الكون الهائل المعمور بما يثير الدهش ويدير الرأس - صنع الله الذي أتقن كل شيء.

قوله: {وليكون من الموقنين} ذلك كله ليستيقن إبراهيم وليكون من الراسخين في اليقين بحقيقة التوحيد الكامل لله وقدرته المطلقة المثلى.

٧٦ - (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ)

قوله: {فلما جن عليه اليل رءا كوكبا قال هذا ربي} جن عليه الليل أي ستره بظلامه - ومنه الجن ضد الإنس - سموا بذلك، لأنهم لا يرون - أجنه في نفسه أي أكنه وكتمه - والجنين معناه الولد ما دام مستورا في البطن - واستجن أي استتر بسترة - والمجن: الترس للاستتار به ٩٣.

والمعنى أن إبراهيم لما غشيه الليل بظلامه رأى كوكبا - وإنما يتحقق ذلك بزوال نور الشمس عن الحس.

قوله: {هذا ربي} قال ذلك إذ لم يكن عارفا بربه لطفوليته - والجهل بسبب الطفولة قبل قيام الحجة لا يضر ولا يكون كفرا - لكن هذا التأويل قد رد على أنه غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات وهو غير موحد ولا عارف بالله - وهو كذلك بريء من كل معبود سواه.

وقيل: لما خرج إبراهيم من السرب (النفق) رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربه فظن أنه ضوؤه قال: {هذا ربي} أي بأنه تراءى لي نوره.

وقيل: إنه قال: {هذا ربي} على قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر - وهو نظير قوله تعالى: {أين شركاءى} وهو سبحانه واحد ليس له شريك - والمقصود: أين شركائي على قولكم.

قوله: {فلما أفل قال لا أحب الأفلين} أي لما غاب الكوكب الذي ظنه ربا أعلن عن نفوره من مثل هذه الأرباب التي تنتقل من مكان إلى آخر، وتتغير من حال إلى أخرى.

٧٧ - (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

قوله: {فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضلين} بزغت من البزوغ وهو الطلوع - أي لما رأى إبراهيم الكوكب مبتدأ في الطلوع {قال هذا ربي} وذلك كالحال الأولى، إذ ظن أن الكوكب ربه {فلما أفل} أي غاب كما غاب الكوكب {قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضلين} يعني لئن لم يوفقني ربي في إصابة الحق والهداية ويثبتني عليهما لأكونن من التائهين المضيعين - وفي ذلك تنبيه منه لقومه إلى أن القمر كالكوكب لا يصلح أحدهما للألوهية وأن من اتخذهما إلها فإنه ضال.

٧٨ - (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

قوله: {فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريئ مما تشركون} بازغة منصوب على الحال، لأن الرؤية بصرية - والبزوغ معناه الطلوع - فقد رأى إبراهيم الشمس يطلع ضوؤها وأدرك أنها أكبر الكواكب والقمر، فظن من أجل ذلك أنها ربه - لكنها بعد ذلك ما لبثت تأخذ في الأفول عن الأفق حتى أيقن إبراهيم صادحا الكريمة المميزة، للناس ببراءته من الشرك كله.

٧٩ - (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: {إني وجهت وجهي للذي فطر السموت والأرض حنيفا وما أنا من المشركين} أي وجهت عبادتي وطاعتي وتوحيدي لله وحده - وذكر الوجه نيابة عن الكيان الإنساني كله، وذلك لشرفه، ولأنه أظهر ما في الإنسان - فقد أعلن إبراهيم عن توجه كيانه الشخصي كله، قلبه وروحه وعقله وبدنه كله – مطيعا ممتثلا خاضعا لله الذي {فطر السموات والأرض} أي أوجد وأنشأ السموات بطباقها الواسعة الغائرة في مجاهل هذا الكون، وكذلك بأجرامها الهائلة المبثوثة المذهلة لهول كثرتها وضخامتها وتناثرها - وكذلك أوجد وأنشأ الأرض بما فيها من أصنام يعبدها المشركون الضالون سفها وحماقة.

قوله: {حنيفا وما أنا من المشركين} حنيفا مائلا إلى الدين القيم - أو صحيح الميل إلى الإسلام، من الحنف، بالفتح بمعنى الاستقامة - والحنفية: التوحيد - وهذا إعلان من إبراهيم، إذ صدع بالحق جهرة على مسامع الملأ والأشهاد أنه على الحنيفية المبرأة من دنس الشرك على تعدد صوره وأشكاله، وأعلن كذلك مجانبته للشرك ونفيه المطلق أن يكون من المشركين ٩٤.

٨٠ - (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا

تَتَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {وحاجه قومه قال أتحجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون (٨٠) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (٨١) الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٢) وتلك حجتنا ءاتينها إبرهيم على قومه نرفع درجت من نشاء إن ربك حكيم عليم}.

حاجه، أي خاصمه وجادله - والتحاج، التخاصم - والحجة بالضم: البرهان - والمحجاج بمعنى الجدل ٩٥.

قوله: {وحاجة قومه} أي جادلوه وخاصموه في دينه وهو التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له - وقد هددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن لم يعبدها.

قوله: {أتحاجوني في الله وقد هدان} استفهام توبيخ - والمعنى: اتجادلونني في أمر الله وأنه سبحانه واحد لا شريك له وقد من علي بالهداية إلى الحق والصواب؟! أيليق بذي عقل أن يخاصم في الحق الأبلج المستبين وفي الاستمساك بهذا الحق دون غيره من صور السفاهة والباطل؟!

قوله: {ولا أخاف ما تشركون به أن يشاء ربي شيئا} هذا برهان على كذب المشركين وفساد قولهم، إذ هددوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمس الأصنام له إن لم يعبدها، وهي في الحقيقة ليست إلا أحجارا صماء أو نحوها من الجوامد المصطنعة المركومة فلا تعقل أو تسمع ولا تضر أو تنفع - والتهديد بها ليس إلا ضربا من الهذيان والتخريف - فبين إبراهيم عليه السلام للمشركين أنه لا يخشى أصنامهم فهي حجارة خرساء بلهاء لا ينبغي الالتفات إليها أو الاهتمام بها أو التخوف منها.

قوله: {إلا أن يشاء ربي شيئا} استثناء منقطع - وشيئا منصوب على المصدر - أي مشيئة - أي لا يصيبني شيء من هذه الأصنام فإنها جوامد لا تريم بل الذي يضر وينفع هو الله - فإن شاء أن يصيبني بمكروه كان ذلك.

قوله: {وسع ربي كل شيء علما} أي وسع علم الله كل شيء - أو أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية - وبذلك ما من مكروه يصيب الإنسان ولا مصيبة تحل به إلا هي جارية على سنن الله وضمن علمه الواسع الذي يحيط بالأشياء كافة - وقوله: {علما} منصوب على التمييز ٩٦.

قوله: {أفلا تتذكرون} استفهام تقريع وتوبيخ، أي أفلا تعتبرون مما بينته لكم فتبادروا بالإيمان والطاعة - فقد بينت لكم أن ما تعبدونه باطل وإنما المعبود الحق الله وحده خالق ما تأفكون وما تصطعنون من آلهة.

٨١ - (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله: {وكيف أخاف ما أشركتم} استفهام إنكاري - والمعنى كيف أخاف من هذه الأصنام التي تهددونني بها فتفترون وتهرفون زورا وترخيصا أنها ستصيبيني بسوء إذا لم أعبدها - ومعاذ الله أن أخاف هذه الأشباح المركومة المهينة فضلا عن عوذي بالله أن أطأطئ أمامها الرأس خضوعا أو تبجيلا - وإنما أخاف الله وحده، فهو حقيق بالخوف البالغ من سلطانه، وحقيق بالرهبة المطلقة من جبروته.

قوله: {ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطنا} أي كيف أخاف أنا من أصنامكم ولا تخافون أنتم من كونكم مشركين؟ فقد أشركتم بالله - أي اتخذتم مع الله آلهة كاذبة أخرى {ما لم ينزل به عليكم سلطنا} أي ما أنزل بها من حجة ولا برهان - فهي آلهة موهومة مفتراة اختلقها المشركون الظالمون لما سول لهم الشيطان فعل ذلك.

قوله: {فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون} المعنى: أي الطائفتين منا حقيق بالأمن من عذاب الله وغضبه؟ أنحن الذين آمنا بالله الخالق الموجد المبدع، خالق كل شيء، وخالق العالمين والأصنام، أم أنتم المشركون التائهون السادرون في طريق الضلال والباطل، الناكبون عن عقيدة الحق ونهج الله؟ أنتم الذين سول لكم الشيطان عبادة أوثان مهينة بلهاء لا تضر ولا تنفع - وتقدير الجواب: أن لا

جرم أننا نحن خليقون بالأمن وعدم الخوف - لكنكم أنتم أحق بالخوف وعدم الأمن لشرككم وكفركم ونكولكم عن نداء الرسل فينبغي أن لا يبرحكم شبح العذاب الذي ينتظركم - وذلك إن كنتم تدركون هذه الحقيقة التي لا مراء فيها - وهو بذلك يستنهض فيهم العقل والفطرة كيما ينسلخوا من إسار الوثنية والضلال.

٨٢ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

قوله: {الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمناهم بظلم} أي المؤمنون الذين لم يخالطوا إيمانهم بشرك بل أخلصوا عبادتهم لله وحده لا شريك له - فهؤلاء هم الآمنون الذين تطمئن قلوبهم فلا يعتريهم يوم القيامة خوف ولا حزن ولا رهب - وهم الذين هداهم الله إذ كتب لهم الهداية بسلوكهم طريق السلامة والنجاة ولذلك قال: {أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود لما نزلت {الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: {يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} فالمراد بالظلم الشرك - وفيه قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " إنما هو الشرك ".

٨٣ - (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

قوله: {وتلك حجتنا ءاتينها إبراهيم على قومه} تلك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ - حجتنا خبره مرفوع - والمراد بالحجة التي أعطيها إبراهيم جميع ما خاصمهم به من الدلائل والحجج.

قوله: {نرفع درجت من نشاء} درجات، منصوب على التمييز - وقيل مفعول به للفعل نرفع - والمراد بالدرجات يحتمل عدة وجوه منها أنها الأعمال في الآخرة - وقيل: المراد بها الرتب العالية في العلم والحكمة - وقيل الدرجات الرفيعة في الجنة - أي نرفع من نشاء رفعه إلى الدرجات العلا في العلم أو الحكمة أو الثواب حسبما تقتضيه الحكمة الربانية البالغة - والله تعالى منزه عن العبث والباطل - ولذلك قال: {إن ربك حكيم عليم} أي حكيم في تدبيره لأمور خلقه، عليم بأحوال البشر وما يصلح عليه شأنهم وما يؤول إليه أمرهم وما يصيرون إليه يوم الحساب ٩٧.

٨٤ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصلحين (٨٥) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العلمين (٨٦) ومن ءابائهم وذريتهم وإخوانهم واجتبينهم وهدينهم إلى صراط مستقيم (٨٧) ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (٨٨) أولئك الذين ءاتينهم الكتب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكفرين (٨٩) أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعلمين}.

لقد كان فضل الله على إبراهيم عليه السلام عظيما إذ جزاه من خير الجزاء ما هو أهله، ذلك لطاعته لربه وإخلاصه له ومفارقته دين قومه المشركين الضالين - وذلك كله في صراحة وجراءة لا نظير لهما في العالمين - وقد لقي إبراهيم من المحن على أيدي الظالمين من أعداء الله ما لا يطيقه بشر - وكان أوج ذلك كله إلقاؤه في النار المستعرة المتأججة وهو صابر ثابت محتسب - فجزاه الله في ذلك جزاء عظيما إذ اتخذه خليلا ورفعه إلى الدرجات العلا في الجنة يوم القيامة، ووهب له في هذه الدنيا الذرية الصالحة الذين خصهم الله بالنبوة والكرامة - فقال سبحانه: {ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا} أي وهب الله لإبراهيم إسحق ولده من سارة - وكذلك وهب الله له يعقوب هو ابن إسحق.

قوله: {كلا} مفعول به مقدم للفعل بعده {هدينا} أي لسبيل الرشاد إذ وفقهم الله للحق والصواب - وكذلك قوله: {ونوحا} مفعول للفعل بعده {هدينا} ٩٨ وقد هدى الله نوحا من قبل إبراهيم - ولما أغرق الله أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه واتبعوه

في السفينة جعل الله ذريته هم الباقين - وبذلك فإن الناس كلهم من ذرية نوح - وأما إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فلم يبعث الله بعده نبيا إلا من ذريته - وفي هذا يقول سبحانه: {وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب}.

قوله: {ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون} الضمير في {ذريته} يعود إلى نوح، لأنه أقرب مذكور - وقيل: يعود إلى إبراهيم، لكن يشكل على هذا القول لوط عليه السلام فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه إلا أن يقال: دخل في ذريته إبراهيم تغليبا - وتأويل الكلام أن الله قد هدى من ذرية نوح داود وسليمان وأيوب وموسى وهارون - فقد وفقهم الله للحق والصواب وكتب لهم الهداية والسداد.

قوله: {وكذلك نجزي المحسنين} أي نجزي كل محسن جزاءه المستحق كجزائنا لكل المخلصين الصالحين الأبرار كإبراهيم عليه السلام بالنبوة في ذريته، ونوح بصبره على أذى المشركين.

٨٥ - (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: {وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصلحين} أي هدينا لمثل الذي هدينا له نوحا من السداد والرشاد كلا من زكريا وهو من ذرية سليمان وقد قتل بعد مقتل ولده يحي - ثم عيسى بن مريم وهو اسم عبراني أو سرياني - وهو ربعة أحمر - ثم إلياس، واختلفوا فيه - فقيل: هو إدريس - وقيل: ابن هارون بن عمران بن أخي موسى - وهؤلاء المذكورين كلهم {من الصلحين} أي الكاملين في الصلاح.

٨٦ - (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

قوله: {وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العلمين} يعني وكذلك هدينا من ذرية نوح أو إبراهيم، على الخلاف في ذلك، كلا من إسماعيل وهو ابن إبراهيم وأكبر ولده - وكذلك اليسع، وقرئ بلام واحدة مخففة، وقرئ بلامين بالتشديد " والليسع " والصواب القراءة بلام واحدة مخففة للإجماع على ذلك وهو اسم أعجمي - وكذلك يونس، وهو ابن متى بالتشديد - ثم لوط، وهو ابن أخي إبراهيم في الراجح من الأقوال - وهؤلاء كلهم من ذرية نوح قد فضلهم الله بالنبوة على العالمين في زمانهم.

وهذا يدل على أن النبيين أفضل من الملائكة - لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله - فيدخل في لفظ العالم الملائكة - فقوله: {وكلا فضلنا على العلمين} والملائكة من جملة العالمين - فهذا يقتضي كون الأنبياء أفضل من الملائكة.

٨٧ - (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: {ومن ءابائهم وذريتهم وإخونهم واجتبينهم وهدينهم إلى صرط مستقيم} وكذلك هدينا من آباء هؤلاء النبيين الذين سميناهم، ومن ذرياتهم وإخوانهم آخرين سواهم لم نسمهم ولقد {اجتبينهم} أي اخترناهم لديننا وتبليغ رسالتنا للناس ممن أرسلناهم إليهم - وهديناهم إلى الحق والتوحيد وإلى الدين الصحيح الخالص الذي لا تشوبه شائبة من شرك.

٨٨ - (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده} هذا الهدى الذي أرشدهم الله إليه فوفقهم به إلى إصابة الدين الحق هو الهدى الحقيقي - أي التوفيق الكامل من الله الذي يوفق به من يشاء من عباده الذين أوتوا استعدادا لاستقبال الحق والرشاد.

قوله: {ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون} هؤلاء المذكورون من النبيين لو أشركوا، أي عبدوا مع الله أحدا غيره {لحبط عنهم} ما عملوه - أي لذهب وسقط أجر أعمالهم - وهذا تشديد وتغليظ لأمر الشرك فإنه بالغ الفظاعة والنكر - إذ لا تجدي معه الأعمال الصالحة بل مآلها الحبوط والبطلان وعدم القبول.

٨٩ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

قوله: {أولئك الذين ءاتينهم الكتب والحكم والنبوة} أي هؤلاء الذين سميناهم من النبيين والمرسلين وهم نوح وذريته الذين هداهم الله للإسلام واصطفاهم لحمل رسالته وتبليغها للناس، هم الذين {ءاتينهم الكتب} أي صحف إبراهيم وموسى وزبور داود وإنجيل عيسى

عليهم الصلاة والسلام - وكذلك آتيناهم {الحكم} أي فصل الأمر بين الناس بالحق - وقيل: العلم والفقه - وقيل: الحكمة، وهي معرفة حقائق الأشياء.

قوله: {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين} أي إن يكفر بآيات الله، أو بالنبوة {هؤلاء} وهم كفار قريش وسائر الكافرين في الأرض {فقد وكلنا بها} المؤمنين من المهاجرين والأنصار وقيل: كل مؤمن في الأرض - أي استحفظناهم واسترعيناهم إياها والقيام بها فإنهم لا يجحدون منها شيئا بل يؤمنون بها من غير تفريط ولا تردد.

٩٠ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)

قوله: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} أولئك، مبتدأ، وخبره ما بعده {الذين هدى الله} والمراد باسم الإشارة الأنبياء المذكورون - أي هداهم إلى الحق والصواب وإلى العمل بما أمره الله فوفقهم لذلك كله.

قوله: {فبهداهم اقتده} الاقتداء معناه اتباع الأثر والقدوة: الإسوة بالكسر والضم - نقول قدوة وقدوة وقدة - اقتدى به، أخذ بهديه: نقول: فلان يقدو فلانا إذا نحا نحوه واتبع أثره ٩٩ - وتأويل الآية هو: بالعمل الذي عمل به أولئك النبيون والمنهاج الذي سلكوه والعقيدة التي اتبعوها اقتد يا محمد - أي اعمل وخذ به واسلكه فإنه من عمل به اهتدى.

قوله: {قل لا أسئلكم عليه أجرا} أي قل لهم يا محمد: إني لا أسألكم على تبليغي لكم وتذكيري إياكم، والهدي الذي أدعوكم إليه وما جئتم به من الآيات من رب العالمين – لا أسألكم على ذلك عوضا ولا أطلب منكم عليه جعلا ولا عرضا من عروض الدنيا.

قوله: {إن هو إلا ذكرى للعلمين} أي ما القرآن إلا " ذكر " أي تذكير للناس كافة - ولست أنا إلا نذيرا لمن بين يدي عذاب شديد وما أريد لكم إلا الإصلاح والخير والسداد ١٠٠.

٩١ - (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

قوله تعالى: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا ءاباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون (٩١) وهذا كتب أنزلناه مبرك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالأخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحفظون}

قال ابن عباس: قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتابا؟ قال: " نعم " قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابا فنزلت الآية - وقيل: نزلت في مشركي قريش ١٠١.

قوله: {وما قدروا الله حق قدره} أي ما عظموه حق تعظيمه - أو ما عرفوه حق معرفته.

قوله: {إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء} هذا إنكار من هؤلاء الكافرين لبعثة الرسل وإنزال الكتب السماوية - وذلكم الكفر الصارخ والجحود الظالم الفاجر - والجمهور من أهل العلم على أن المقصود هنا اليهود - وهم يبتغون بذلك الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتشكيك في رسالة الإسلام.

قوله: {قل من أنزل الكتب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس} نورا منصوب على الحال - وهدى معطوف عليه، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين الذين ينكرون إرسال الرسالات البتة: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى {نورا} أي ضياء يبدد ظلمه الباطل ويبين للناس وجه الحق من الباطل فيما أشكل عليهم من أمر دينهم - ذلك أن الله أنزل التوراة على موسى ولا سبيل لجاحد معاند أن ينكر ذلك - فلم لا يصدقون إنزال القرآن على رسول الله محمد مثلما أقروا موقنين بنزول التوراة على موسى - لكنه الحسد والحماقة ومرض القلب والعقل، كل أولئك يحول بين هؤلاء السفهاء الأشرار وبين التصديق بالقرآن الحكيم ونبيه المصطفى العظيم.

قوله: {تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا} قراطيس منصوب بالفعل تجعلونه ١٠٢ والجملة استئنافية لا محل لها من الإعراب وقد سيقت لنعي ما فعلته يهود من تحريف التوراة وتغييرها - وقيل: في موضع نصب على الحال - أي تضعونه في قراطيس مقطعة وأوراق

مفرقة مبعثرة - وذلك توبيخ لهم على سوء صنيعهم، إذ أخرجوا التوراة من جنس الكتاب لينزلوه منزلة القراطيس المفرقة.
على أن التوبيخ هنا ليس لمجرد وضعهم التوراة في قراطيس، فكل كتاب موجود في القراطيس بل التوبيخ من أجل جعلهم التوراة في القراطيس موصوفة بقوله تعالى: {تبدونها وتخفون كثيرا} أي تظهرون كثيرا مما تكتبونه في القراطيس للناس وتخفون كثيرا مما تثبتونه فيها فتسرونه وتكتمونه عن الناس - ومن جملة ما كتموه عن الناس خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ونبوته - والمراد بهم هنا اليهود لا محالة فقد أظهروا من التوراة ما أظهروه، وأخفوا كثيرا من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم - وبذلك فإن موضع الذم هنا أنهم لما جعلوا التوراة قراطيس فرقوه تفريقا وبعضوه تبعيضا فقدروا بذلك على إظهار بعضه وإخفاء بعضه الآخر الذي فيه صفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.
قوله: {وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا ءاباؤكم} الخطاب لليهود، إذ من الله عليهم - أي أنكم علمتم ما لم تكونوا تعلمونه من قبل لا أنتم ولا آباؤكم - والذي علموه هو الذي أخبرهم به محمد صلى الله عليه وسلم مما أوحى الله إليه به - فقد اشتمل ذلك على ما لم يعلموه من كتبهم ولا على لسان أنبيائهم ولا علمه آباؤهم من قبل.
وقيل: المراد التوراة - كانت مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم - وقد كان اليهود قبل مقدم الرسول يقرأون تلك الآيات وما كانوا يفهمون معانيها فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أظهر أن المراد من تلك الآيات هو مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم - وذلك هو تعلمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.
قوله: {قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون} هذا جواب السؤال للمشركين لما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بسؤالهم {قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى} والجواب هو قوله: {قل الله} أي الله تعالى أنزله - ولفظ الجلالة مبتدأ، وخبره محذوف تقديره الله تعالى أنزله - أو لفظ الجلاله فاعل وفعله مقدر.
قوله: {ثم ذرهم في خوضهم يلعبون} أي دعهم في باطلهم وكفرهم بآيات الله يستهزئون ويسخرون ويلعبون - ولا جرم أن ذلك من الله وعيد مخوف يتهدد به هؤلاء الفاسقين الغلاظ - فهو سبحانه لهم بالمرصاد وهو آخذهم أخذ عزيز مقتدر.
٩٢ - (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)
قوله: {وهذا كتب أنزلناه مبرك مصدق الذي بين يديه} كتاب يراد به القرآن الكريم - وتنكيره هنا للتفخيم، وكتاب خبر - والجملة {أنزلناه} صفته ومبارك، من البركة، أي الزيادة والنماء والسعادة تبارك الله أي تقدس ١٠٣ والكتاب الحكيم مبارك مقدس بآياته وكلماته وحروفه - وهو من الله هبة مهداة للعالمين ليكون لهم خير منهاج في حياتهم فيحقق الله به عزهم وسعادتهم ونجاتهم.
إن هذا الكتاب الإلهي الميمون لا يستمسك به أو يعمل بأحكامه أو يسعى جادا لنشره وتبيينه للناس إلا كتب الله له بفضله السعادة والنجاة والخير والأمن والرضى في الدارين - نضرع إلى الله منزل الكتاب أن يجنبنا الفواحش ظاهرها وباطنها وأن يمن علينا بالسلامة والنجاة والعافية والستر والسعادة في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.
قوله: {مصدق الذي بين يديه} أي أن هذا الكتاب وهو القرآن جاء مصدقا لما قبله من الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء من قبل هذا النبي، عليهم الصلاة والسلام أجمعين.
قوله: {ولتنذر أم القرى ومن حولها} اللام، لام كي تتعلق بفعل مقدر - وتقديره: ولتنذر أم القرى أنزلناه ١٠٤ - أم القرى أي مكة سميت بذلك، لأنها أعظم القرى شأنا، فغيرها من القرى تبع لها كما يتبع الفرع الأصل - أو لأنها قبلة أهل القرى، إذ يحجون إليها ويجتمعون من حولها كما يجتمع الصغار حول أمهم الرؤوم.
ومن حولها، أي من القرى إلى المشرق والمغرب - وقيل: من حولها يعني الأرض كلها.

والمراد أن الله أنزل القرآن لتحل في الدنيا البركة وليكون للناس نذيرا إذ ينذر به النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة والعالمين جميعا ليحذروا بأس الله وسخطه أن يحل بهم.

قوله: {والذين يؤمنون بالأخرة يؤمنون به} الذين يؤمنون بالآخرة، في محل رفع مبتدأ - وخبره {يؤمنون به} والمعنى أن الذين يؤمنون بالآخرة إيمانا صحيحا وحقيقيا لا جرم أنهم يؤمنون بالقرآن الحكيم أو بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم - والمراد هنا، الإيمان الذي جاء به الوحي الأمين من السماء وتحدث به الكتب السماوية السليمة الخالية من التلاعب والتحريف - الإيمان الحقيقي السليم من العبث والافتراء والتخليط - إيمان العقيدة الصادقة، البعيدة عن بعث العابثين وافتراء المفسدين المكذبين للإيمان بصدق القرآن وصدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: {وهم على صلاتهم يحافظون} في محل نصب على الحال - وهذه حال المؤمنين الصادقين المخلصين - فهم يحافظون على صلاتهم فلا يغفلون عنها ولا يفرطون فيها - وقد خص المحافظة على الصلاة، لأنها عماد الدين وأعظم ما فيه من عبادات وأعمال وشعائر ١٠٥.

٩٣ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

قوله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظلمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن ءايته تستكبرون (٩٣) ولقد جئتمونا فردى كما خلقنكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعائكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركؤا لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون}.

نزلت في مسيلمة الكذاب، إذ ادعى النبوة وافترى من الكلام المتهافت المصطنع الذي زعم أنه من عند الله ما يثير السخرية والاشمئزاز - وفي الآيات هنا تهديد رعيب لكل مفتر كذاب ولكل وضاع دجال يدعي على الله الكذب ويهذي للناس أنه أوحي إليه وهو كاذب خادع مأفون - لا جرم أن هذا الصنف من الناس غائر في الكفر والعتو، وسادر في الضلالة والباطل، أولئك فريق أثيم توعدهم الله بأشد العذاب والتنكيل سواء في الدنيا لدى الموت في سكراته المريرة، العسيرة ثم في الآخرة وما فيها من القواصم والبلايا.

قوله: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا} من، في محل رفع مبتدأ - وخبره أظلم - أي ليس من أحد أسوأ ولا أظلم من أحد اختلق كذبا على الله فادعى أنه مبعوث من عنده نبيا ورسولا للناس أو زعم أن الوحي يأتيه من السماء وهو في الحقيقة كاذب، إذ لم يوح إليه بشيء - وهذا شأن الكذابين الدجاجلة من أشرار البرية كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح.

قوله: {ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله} والمراد بهذا ما قاله النضر بن الحرث وهو قوله: {لو نشاء لقلنا مثل هذا} وقوله في القرآن: إنه من أساطير الأولين، وكل أحد يمكنه الإتيان بمثله - وهذا من دعوى الكذابين الأفاكين الذين يهذون بأن القرآن يمكن معارضته.

قوله: {ولو ترى إذ الظلمون في غمرات الموت} إذ، ظرف زمان لترى - والمراد بالظالمين الذين يعدلون بربهم الآلهة والأنداد والذين قالوا {ما أنزل الله على بشر من شيء} والذين افتروا على الله الكذب بزعمهم أن الله أوحى إليهم ولم يوح إليهم - وغمرات الموت جمع غمرة وهي في الأصل: المرة من غمر الماء - ومنه غمره الماء، ثم استعير للشدة والمكروه - وغمرات الموت، أي سكراته وشدائده التي يكابد منها الظالمون لدى انتزاع أرواحهم فيذوقون من فظاعة النزاع ما لا يتصوره غير المعاينين لهذا العذاب المزلزل.

قوله: {والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم} {والملائكة باسطوا أيديهم} في محل نصب على الحال، بسط اليد يعني مدها - والمراد به هنا الضرب - فهم يضربون وجوه هؤلاء الظالمين وأدبارهم قائلين لهم: {أخرجوا أنفسكم} أي خلصوها من العذاب إن استطعتم وهو توبيخ لهم وتعجيز - وقيل: المراد أخرجوها كرها، لأن روح الكافر تنزع انتزاعا عنيفا شديدا - بخلاف المؤمن، إذ تنشط روحه للخروج لملاقاة ربها - قال الرازي في تأويل قوله: {أخرجوا أنفسكم}: أي أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف والتشديد في

إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال.

قوله: {اليوم تجزون عذاب الهون} اليوم، أي حين الموت، وما بعده - والهون، أي الهوان الشديد - وهو عذاب جهنم حيث الإهانة والإذلال والتنكيل.

قوله: {بما كنتم تقولون على الله غير الحق} أي ما يصيب الظالمين المفترين من ويل ونكال وهوان إنما سببه قولهم على الله غير الحق - وهو افتراؤهم الكذب على الله - وكذلك سببه استكبارهم عن آيات الله - أي عن التصديق بها والعمل بمقتضاها فجوزوا بذلك عذاب الهون جزاء وفاقا.

٩٤ - (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

قوله: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة} فرادى في محل نصب حال - ولا ينصرف، لأن في آخره ألف التأنيث - وفرادى جمع ومفرده فردان - مثل سكارى وسكران - وكسالى وكسلان، وقيل: فرادى جمع فريد - وقيل: جمع وواحده: فرد - والكاف في {كما} في محل نصب وصف لمصدر محذوف - وتقديره: لقد جئتمونا منفردين مثل حالكم أول مرة ١٠٦ والمعنى: أنكم جئتمونا إلى الحشر وحدانا - أي واحدا واحدا ليس معكم مال ولا أعوان ولا شفعاء بل جئتمونا حفاة عراة غرُلا كما خرجتم من بطون أمهاتكم ليس معكم شيء، لا أهل ولا ولد ولا ناصر.

قوله: {وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم} خولناكم: أعطيناكم وملكناكم - خوله الله الشيء تخويلا، ملكه إياه ١٠٧ أي تركتم ما ملكناكم وما أعطيناكموه في الدنيا من المال والخدم وأصناف الخير والنعم التي شغلتم بها أنفسكم عن الآخرة - لقد تركتم ذلك كله خلفكم وجئتمونا اليوم آحادا بغير شيء تملكونه أو ينفعكم.

قوله: {وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركؤا} نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث لقيله إن اللات والعزى يشفعان له عند الله يوم القيامة وقيل: كان ذلك قول سائر عبدة الأوثان - فرد الله بهذه الآية مقالتهم الباطلة وظنهم الواهم الكاذب بما يقرعهم تقريعا ويوبخهم توبيخا زيادة في التنكيل والتغليظ بهم - والمعنى أنكم أيها المشركون الظالمون الذين كنتم تتشبثون بشفاعة الأصنام لكم، ها أنتم جئتمونا فرادى حيارى وجلين وليس معكم من نصير ولا شفيع يدرأ عنكم العذاب - ولم نر معكم أصنامكم التي اتخذتموها في الدنيا شركاء لله فعبدتموها وظننتم كاذبين أنها لكم شفعاء إذا ما قامت القيامة.

قوله: {لقد تقطع بينكم} أي تقطع بينكم وصلكم - فوقع التهاجر والتقاطع بينكم وبين شركائكم الأصنام، إذ تبرأوا منكم - وذهب ما كان بينكم من تواصل وتواد.

قوله: {وضل عنكم ما كنتم تزعمون} أي ضاع وذهب عنكم شركاؤكم من الأصنام الذين كنتم تزعمون أنهم منجوكم وأنهم لكم شفعاء - فيومئذ لا ينفعوكم ولا يشفعون لكم - وليس إذ ذاك إلا النار وبئس القرار، ولات حين مندم ولا شفاعة ولا مناص ١٠٨.

٩٥ - (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

قوله تعالى: {إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون (٩٥) فالق الإصباح وجاعل اليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم (٩٦) وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون}.

يبين الله في هذه الآيات بعضا من عجائب صنعه في الحياة والخلق - بما يكشف للأذهان والعيان عن العظمة المطلقة للخالق، والقدرة البالغة لجلاله سبحانه وأنه الإله المربوب الذي ذرأ كل شيء وقدره تقديرا - فما يكون من صغير ولا كبير، ولا دقيق ولا جليل، ولا يسير ولا عسير إلا هو من صنع الله وإتقانه - وهذه شواهد نزرة من شواهد عظام على صدق الكتاب الحكيم وعلى أن الله وحده له الإلهية العظمى بعيدا عن الشرك والشركاء - وما الأنداد والأصنام والأرباب المصطنعة بعد ذلك إلا الأباطيل المفتراة التي تراود أوهام التائهين التعساء فتمس حلومهم وفهومهم الواهية المريضة مسا.

قوله: {إن الله فالق الحب والنوى} فالق، من الفلق بسكون اللام وهو الشق - والحب معروف ومنه حبة الحنطة والشعيرة والذرة، وسائر أنواع الحبوب - وأما النوى فهو جمع نواة وهي العجمة - وهو يجري في كل ما له عجم كالمشمش والخوخ والتمر ١٠٩.

والمقصود أن الحبة الميتة اليابسة بعد أن توارى الثرى وتمس الرطوبة تتشقق - ومن شقها يخرج النبات والزرع وهو محمول على سوقه وتعلوه السنابل المحفلة بالحبوب على أصناف شتى - وكذلك النواة اليابسة الميتة تتشقق فيبرغ منها الشجر بوقه الأخضر الوارف، وظله الرخي الظليل، وثمره اليانع المستطاب - لا جرم أن ذلك يدل على قدرة الإله الصانع المربوب - وهو يشير كذلك إلى قدرة الله المطلقة في الإحياء - فقال سبحانه: {يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي} في تأويل إخراج الحي من الميت والميت من الحي، نختار حمل اللفظين (الحي والميت) على الوجه المجازي - فنقول إخراج الحي من الميت معناه إخراج النبات الغض الطري الأخضر من الحب اليابس - وإخراج اليابس من النبات الحي النامي، أو هو إخراج السنبل الحي من الميت، وإخراج الحب الميت من السنبل الحي والشجر الحي من النوى الميت، والنوى من الشجر الحي - والشجر ما دام قائما على أصوله لم يجف والنبات على ساقه لم ييبس فإن العرب تسميه حيا فإذا يبس وجف أو قطع من أصله سموه ميتا.

وقال ابن عباس في تأويل ذلك: إن الله يخرج المؤمن من الكافر، كما في حق إبراهيم، والكافر من المؤمن، كما في حق ولد نوح، والعاصي من المطيع، وبالعكس ١١٠.

وقيل: يخرج العالم من الجاهل وبالعكس - وذلك أن العلم حياة ونور - وهو ضياء يستنير به الإنسان في حياته فيمضي مهتديا غير متعثر - أما الجهل فإنه الضلال والاضطراب والأرجحة بما يفضي بالضرورة إلى التعثر والزلل والهلاك، وما الجاهلون إلا اشباها لأناسي يمرون بلا حساب أو أشباحا تائهة تروح وتجيء من غير وعي ولا تدبر ولا بصيرة - وكأنما هم صور بلهاء لموتى لا ينبسن ولا يريمون ١١١.

أما قوله: {يخرج الحي} ثم قوله بعدها: {ومخرج الميت} فقد عطف الاسم على الفعل، فسببه أن قوله: {ومخرج الميت من الحي} معطوف على قوله: {فالق الحب والنوى} فقد عطف الاسم على الاسم - أما قوله: {يخرج الحي من الميت} فهو كالبيان والتفسير لقوله: {فالق الحب والنوى} وهو قول الزمخشري والرازي.

قوله: {ذلكم الله} مبتدأ وخبره - أي صانع كل هذه الأعاجيب وبارئ كل هذه الخلائق على اختلاف أنواعها وكثرة عجائبها هو الله وحده الواجب الوجود المستحق للعبادة.

قوله: {فأنى تؤفكون} تؤفكون من الأفك بفتح الهمز مصدر أفك بالفتح - أي قلب وصرف عن الشيء والمؤتفكات المدن التي قلبها الله تعالى على قوم لوط.

وقوله: {أجئتنا لتأفكنا} أي لتصرفنا ١١٢ والمعنى: فكيف تصرفون عن عبادة الله وحده وقد علمتم وعاينتم الشواهد على قدرته البالغة وأنه الصانع لكل شيء؟!

٩٦ - (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

قوله: {فالق الإصباح} فالق من الفلق بسكون اللام وهو الشق - والإصباح مصدر أصبح إصباحا - وفالق الإصباح معناه - شاق الصبح عن ظلمة الليل وسواده - أو شاق الضياء عن الظلام ١١٣.

قوله: {وجعل اليل سكنا} الليل، مفعول أول لجعل - وسكنا، مفعول ثان - وسكنا من السكينة - وهي الطمأنينة والرزانة والوقار أو من السكون وهو الهدوء والاستقرار - والله جعل الليل سكنا، لأنه يسكن فيه كل متحرك بالنهار فيهدأ فيه ويستقر في مسكنه ومأواه ١١٤ فتأويل الآية أن جعل الليل ليسكن فيه الناس - إذ يطمئون أو يهجعون - أو يستأنسون ويستروحون لتسترخي أبدانهم وأعصابهم في هجعة الكرى طلبا للداعة والراحة والنوم.

قوله: {والشمس والقمر حسبانا} الشمس والقمر منصوبان بتقدير الفعل {جعل} وحسبانا مفعول ثان ١١٥ أي جعلهما يجريان في أفلاكهما بحساب دقيق ومضبوط لا يزيد ولا ينقص.

قوله: {ذلك تقدير العزيز العليم} العزيز معناه القاهر الغالب - والعليم الذي يحيط علمه بكل شيء فلا يغيب عن علمه شيء ولا خبر -

والإشارة في قوله: {ذلك} يعود إلى ما سبق ذكره من خلق الله وصنعه - إن ذلك كله من جملة الشواهد المعاينة الدالة على قدرة الله البالغة وأنه سبحانه الصانع لكل شيء ليس له في ذلك شريك ولا نديد.

٩٧ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

قوله: {وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر} جعل بمعنى خلق وصير - أي خلق الله النجوم وصيرها لكم أدلة في البر والبحر إذا ضللتم الطريق أو لم تهتدوا فيهما ليلا - إذ تستدلون بها {النجوم} على المحجة والمعالم لتهتدوا وتنجوا بها من الظلمات - سواء في ذلك ظلمة الليل أو ظلمة البحر أو ظلمة الأرض أو ظلمة الضلال.

قوله: {قد فصلنا الأيات لقوم يعلمون} أي بينا الأدلة والحجج والعلامات الدالة على عظيم قدرته وصنعه بيانا مفصلا ليتفكر فيها ويتدبرها أولو العلم والحجا منكم عسى أن ينيبوا إلى ربهم وينزجروا عن عصيانه ومخالفة أمره ١١٦.

٩٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

قوله تعالى: {وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الأيات لقوم يفقهون (٩٨) وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لأيات لقوم يؤمنون}.

قوله: {وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة} يعني بدأ خلقكم من نفس واحدة وهو آدم عليه السلام.

قوله: {فمستقر ومستودع} مرفوعان بالابتداء - وخبرهما محذوف، وتقديره: فمنكم مستقر ومنكم مستودع ١١٧ - وفي تأويل ذلك خلاف بين العلماء - فقد قيل: منكم مستقر في الأرحام ومنكم مستودع في القبور حتى البعث يوم القيامة - وقيل: مستقر في بطون النساء وبطون الأرض أو على ظهورها - ومستودع في أصلاب الآباء - وقيل: المستقر في الدنيا، والمستودع في الآخرة - وقيل غير ذلك.

قوله: {قد فصلنا الأيات لقوم يفقهون} أي بينا الآيات في تفصيل خلق البشر كهذه الآية، لقوم يتدبرون مواضع العبر - فإنهم بمعاينتهم حقيقة الخلق وتدبرهم صنع الله سيوقنون أن ذلك من فعل الله القادر الذي ليس له في ملكوته وسلطانه شريك.

٩٩ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء} - أنزل الله من السماء المطر فأخرج به كل صنف من أصناف النبات المختلفة - والنبات هو كل ما يخرج من الأرض من الناميات مما له ساق كالشجر، أو ليس له ساق وهو المسمى بالنجم.

قوله {فأخرجنا منه خضرا} ذلك تفصيل لما أجمل في الكلام السابق - والخضر معناه الأخضر - أي أننا أخرجنا من النبات الذي ليس له ساق شيئا غضا أخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة - والمراد رطب البقول - وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب.

قوله: {نخرج منه حبا متراكبا} أي بعضه فوق بعض كما في سنبل الحنطة والشعير وغير ذلك من السنابل التي حبها يركب بعضه بعضا.

قوله: {ومن النخل من طلعها قنوان دانية} شرع في تفصيل حال الشجر عقيب بيان حال النجم وطلع النخلة هو أول ما يرى من عذقها - والواحدة طلعة - والعذق بكسر العين معناه عنقود النخلة ١١٨.

والقنوان جمع قنو كالصنو جمعه صنوان - والقنو بمعنى العذق يقال للواحد قنو وقنا - ويثنى قنوان، ويجمع قنوان ١١٩.

والمراد بالقنوان الدانية، أي العراجين التي تدلت من الطلع لتكون قريبة ممن يجتنيها.

قوله: {وجنات من أعناب} قرأ عامة القراء جنات على النصب على أنه معطوف على {نبات كل شيء} أي وأخرجنا به جنات - أي أخرجنا بساتين من أعناب.

قوله: {والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه} معطوف على جنات أي أخرجنا الزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه - أي مشتبها ورقه

مختلفا ثمره - وقيل: هذه الفواكه قد تكون متشابهة في اللون والشكل مع أنها تكون مختلفة في الطعم واللذة - وقيل: قد تكون مختلفة في اللون والشكل مع أنها متشابهة في الطعم واللذة.

قوله: {انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه} أي انظر نظر تدبر واعتبار لا نظر إبصار مجرد عن التدبر والتفكر - والينع معناه النضج - ينع الثمر وأينع أي نضج - والينيع واليانع أي النضيج والناضج ١٢٠.

والمقصود النظر بتدبر وادكار في الشجر إذا أثمر حتى ينع - فإنه يمر بمراحل شتى من كيفية النماء والإثمار - فهو يخرج أولا ضئيلا لا ينتفع به ثم يأخذ في النماء شيئا فشيئا ليكون مخضرا يابسا ثم يكون زاهيا في حلاوة من باكورة النضج ثم يكون يانعا مستطابا محفلا باللذة وعذوبة المذاق - وذلك هو صنع الله الذي أنشأ ذلك من حبة ميتة أو عود يابس.

قوله: {إن في ذلكم لأيات لقوم يؤمنون} إن في كل ما سبق ذكره من بديع خلق الله وعظيم صنعه في الطبيعة والكائنات والثمرات أجلى الدلالات وأكملها على وجود القادر الحكيم وعلى وحدانيته سبحانه كيما يدرك ذلك المؤمنون ويستيقنوه - وذلك بما أوتوه من فطرة سليمة من التلويث والتدنيس ١٢١.

١٠٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)

قوله تعالى: {وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠) بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم (١٠١) ذلكم الله ربكم لا إله إلا هوخالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل (١٠٢) لا تدركه الأبصر وهو يدرك الأبصر وهو اللطيف الخبير} شركاء مفعول به أول منصوب - والجن مفعول له ثان للفعل جعلوا ١٢٢ كقوله: {وجعلكم ملوكا} والتقدير: وجعلوا لله الجن شركاء.

قوله: {وخلقهم} أي خلق المشركين الذين جعلوا الجن شركاء لله - وقيل: خلق الجن الشركاء أنفسهم - ومعنى إشراكهم بالجن أنهم أذعنوا لهم بالطاعة كإذعانهم لله - والمراد بهم هنا الشياطين الذين أطاعهم المشركون كما يطاع الله سبحانه أو عبدوا الأوثان لما حرضهم الشياطين على ذلك وسولوه لهم - وقيل: المراد بالجن هنا: الملائكة - إذ قالت العرب: إنهم بنات الله فعبدوهم - وقد سموا جنا على سبيل المجاز - وذلك لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين كالجن.

قوله: {وخرقوا له بنين وبنات بغير علم} خرقوا أي كذبوا - وهو من التخريق ومعناه كثرة الكذب - والتخرق: خلق الكذب أو التخلق من الكذب - اخترق الكذب أي اختلقه ١٢٣.

وتأويل الآية أن المشركين السفهاء كذبوا على الله بجعلهم له بنين وبنات وبيان ذلك أن العرب جعلوا له بنات، إذ قالوا: الملائكة بنات الله وقالت اليهود: عزيز ابن الله - وقالت النصارى المسيح ابن الله - وكل ذلك تخريق وتخريص وافتراء فاضح ونكر مشين - والله تعالى منزه عما وصفه به هؤلاء الخراصون من خلقه له شركاء من الجن وتخريقهم له البنين والبنات - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وإن ما وصفوه إن هو إلا من شأن البشر حيث التناكح والشهوات والنسب والصهرية - والله جل في علاه منزه عن مثل هاتيك الصفات المختصة بالبشر حيث الضعف والإحساس باللذة والهجوم على المنافع الدنيوية والركون للشهوات.

١٠١ - (بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: {بديع السماوت والأرض} بديع، خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو - أي أن الله محدث السموات والأرض وموجدها ومبدعها على غير مثال سبق وعلى نمط عجيب يفوق تصور البشر، وعلى شاكلة موزونة مقدورة ولا عوج فيها ولا خلل ولا اضطراب.

ومن كان هذا شأنه فكيف يكون له ولد وهو ليس له صاحبة (زوجة) وإنما يكون الولد من الذكر والأنثى وهو شبيه بهما - والله تعالى لا يشبهه شيء بل إنه خالق كل شيء {ليس كمثله شيء} فقال سبحانه: {أنى يكون له ولد ولم تكون له صاحبة}.

قوله: {وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم} الله جل وعلا خالق كل شيء - وهو عالم بما يجري في الحياة والكون - فما من خبر ولا حدث ولا دبيب يسري في ظلمات الأرض وأطواء السماء إلا هو يعلمه.

١٠٢ - (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

قوله: {ذلكم الله ربكم} الإشارة تعود إلى ما تقدم ذكره من وصف الله بأنه {بديع السماوات والأرض} وغير ذلك من صفاته - فهو الله مالككم، المتصرف في أقداركم ومصائركم وأحوالكم.

قوله: {لا إله إلا هو خالق كل شيء} ذلك حصر الألوهية في ذاته الكريمة وجلاله العظيم - وإخبار منه سبحانه أنه الخالق الذي أوجد الأشياء كلها من أصناف الخلق وذلك بكمال قدرته وعظيم سلطانه.

قوله: {فاعبدوه} الله تعالى حقيق بعبادة الخلق له - فهو خالقهم ورازقهم والمنعم عليهم بنعمه الجليلة التي لا تحصى - إنه جل وعلا خليق أن يدين له الناس بالطاعة والخضوع والامتثال.

قوله: {وهو على كل شيء وكيل} أي حافظ - والوكيل على الشيء هو الحافظ الذي يحوطه ويدفع عنه الضرر.

١٠٣ - (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

قوله: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} اختلف أهل التأويل في تأويل الإدراك والأبصار - فقيل الإدراك هنا بمعنى الرؤية وهي عند المعتزلة مستحيلة قال الزمخشري في هذا الصدد: والمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنه متعال أن يكون مبصرا في ذاته لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا كالأجسام والهيئات - وهو يدرك الأبصار - وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك.

أما أهل السنة فقد جوزوا حصول الرؤية يوم القيامة لقوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة}.

وقيل: الإدراك معناه الإحاطة بالحقيقة - أو هو الوقوف على كنه الأشياء - فالله تعالى لا تحيط بحقيقته الأبصار وهو يحيط بحقيقتها - وقيل: الإدراك معناه الإحاطة - وإدراك الشيء معناه الإحاطة به - والأبصار جمع بصر ويعني الحاسة - وقيل غير ذلك - وجملة القول أن الله في ذاته وحقيقة كماله لا تحيط به أبصار الخلق على الخلاف في معنى الأبصار سواء في ذلك الرؤية أو غيرها من حواس الإنسان.

لكن الله جل وعلا محيط بالأبصار، ومطلع على سائر الأخبار والأسرار، عالم بظواهر الكائنات وأكناهها.

قوله: {وهو اللطيف الخبير} اللطيف من اللطف وهو الرحمة والرفق - أي أن الله رفيق بعباده رحيم بهم - والخبير: العالم الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ١٢٤.

١٠٤ - (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

قوله تعالى: {قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنسفه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) وكذلك نصرف الأيت وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون} البصائر جمع بصيرة، وهي الحجة والبينة والدلالة.

والله جل وعلا يبين لعباده أنه جداءهم منه آيات ودلائل تبصرهم بما ينفعهم ويدرأ عنهم السوء والخسران ويصير بهم إلى الفوز والنجاة.

قوله: {فمن أبصر فلنسفه ومن عمى فعليها} أي من تبين حجج الله وعرفها وأقر بها وأيقن دلالتها من توحيد الله وتصديق رسوله {فلنسفه} أي لنفسه أبصر وعرف الصواب واهتدى - أما من عمي عن هذه البينات والحجج ولم يستدل بها ولم يصدق بما دلت عليه من الإيمان بالله ورسوله فإلى نفسه أساء، وعليها جنى جناية الجحود والعصيان.

قوله: {وما أنا عليكم بحفيظ} أي لست حافظا لكم من عذاب الله - وقيل: لست رقيبا عليكم فأحصي عليكم أعمالكم - وإنما أنا نذير لكم أبلغكم ما أرسلت به، والله سبحانه وتعالى مجازيكم على أعمالكم.

١٠٥ - (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

قوله: {وكذلك نصرف الأيات} الكاف في اسم الإشارة، في موضع نصب صفة للمصدر - أي نصرف الآيات مثل ذلك - وتأويل الآية أنه كما بينا لكم الآيات والحجج في السورة كتبيين وحدانية الله وتصديق رسوله وما أنزلنا عليكم من كتاب وغير ذلك من المعاني

فكذلك نبين لكم الآيات والدلائل في كل ما لا تعرفونه من الحقائق والأحكام.
قوله: {وليقولوا درست} وليقولوا، عطوف على فعل مقدر - والتقدير: نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست - أي ليصير عاقبة أمرهم إلى الجحود وإلى أن يقولوا: {درست} أي قرأت وتعلمت من أهل الكتاب - وهذا إخبار من الله ينبئ فيه عن المشركين أنهم كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنما يتعلم محمد ما يأتيكم به من غيره - وقيل: درست وتعلمت من غلامين نصرانيين بمكة ١٢٥ - إذ قال أهل مكة: إنما يتعلم محمد منهما - وهذه مقالة سوء وفرية فاضحة يهذي بها المشركون السفهاء هذيان الأحمق الكذاب الذي تضيق به سبل الاحتجاج ليتشبث في النهاية بأكذب ما تصطنعه حناجر السخفاء والأشقياء والمعاندين وهم يتهمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يتعلم ما يقرأه على الناس من قرآن، من أهل الكتاب - إن هذا لإفك التعساء والخراصين والمناكيد!
قوله: {ولنبينه لقوم يعلمون} اللام للتعليل - والضمير لمصدر {نصرف} فيكون المعنى: لنبين تصريفنا للآيات لقوم يتبعون الهدى إذا سمعوه ويقبلون الحق إذا تبين لهم - وقيل: الضمير للقرآن ١٢٦.
١٠٦ - (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)
قوله: {اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين (١٠٦) ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل} يأمر الله نبيه بدوام الاتباع لما أوحاه إليه ربه من دين قد حوى من الأحكام والمعاني ما يكفل للإنسانية السعادة والخير والنجاة - ويأمره أيضا بمجانبة الشرك وما يدعوه المشركون إليه من عبادة الأوثان - فإنه لا معبود ولا خالق ولا هادي يستحق العبادة سوى الله جل وعلا - ويأمره كذلك بلزوم الإعراض عن المشركين وعدم الالتفات إليهم وأن يدعهم وما يدينون - ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في سورة براءة: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}.
١٠٧ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)
قوله: {ولو شاء الله ما أشركوا} أي لو شاء الله أن لا يشركوا ما أشركوا - ولا يعني ذلك أن الله يمنع الإيمان عن الكافر مع توجهه إليه - بل المعنى أن الله تعالى لا يريد الإيمان من الكافر لسوء اختياره الذي نشأ من سوء استعداده.
قال النسفي في تأويل هذه الآية: لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فشاء شركهم فأشركوا بمشيئته.
قوله: {وما جعلناك عليهم حفيظا} أي ما جعلناك رقيبا تحفظ عليهم أعمالهم وأقوالهم أو ليس في مستطاعك أن تحفظهم من العذاب.
قوله: {وما أنت عليهم بوكيل} أي ما أنت عليهم بقيم ولا موكل على أرزاقهم وأمورهم - ما أنت إلا مبلغ وعلى الله الحساب ١٢٧.
١٠٨ - (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون}.
قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: قالوا: يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم.
وفي رواية عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم فإنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله ١٢٨.
والمعنى أن المسلمين قد نهوا عن سبب آلهة المشركين، كيلا تستفزهم غيرتهم الفاسدة على أصنامهم فيسبوا الله {عدوا} أي جهلا أي جهلا واعتداء وتجاوزا إلى الباطل.
ويستدل من ذلك المصلحة إذا كانت تفضي إلى مفسدة أعظم منها - وفي مثل ذلك جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال: " ملعون من سب والديه " قالوا يا رسول الله! وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: " يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ".

وفي هذه الآية دليل على وجوب الحكم بسد الذرائع في كل حال - والذرائع جمع ذريعة، وهي الوسيلة - ومعنى سد الذرائع هو حسم مادة وسائل الفساد دفعا له - فإذا كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة تفضي إلى المفسدة منعنا من ذلك الفعل - وذلك مذهب المالكة والحنبلية - وجملته أن سد الذرائع ما ظاهره مباح ويتوصل به إلى محرم - وهذا أصل من أصول الشريعة يستدل به على الأحكام، على الخلاف في ذلك ١٢٩.

واستدلوا على جواز الاحتجاج بسد الذرائع ببعض النصوص منها: ما رواه الترمذي عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ".

ومنها ما رواه البخاري عن النعمان بن بشير، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " الحلال بين والحرام بين - وبينهما أمور مشتبهة - فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك - ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله - ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ".

ومنها: الإجماع من الصحابة - وذلك أن عمر رضي الله عنه قال: أيها الناس إن النبي صلى الله عليه وسلم قبض ولم يفسر لنا الربا فاتركوا الربا والريبة، بمحضر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر ذلك عليه أحد.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بناء المساجد والقبور ولعن من فعل ذلك ونهي عن تجصيص القبور وتشريفها واتخاذها مساجد - وكذلك نهى عن الصلاة إليها أو عندها، وعن إيقاد المصابيح عليها وأمر بتسويتها - ونهى عن اتخاذها عيدا وعن شد الرحال إليها لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثانا والإشراك بها.

ومنها: أن الله تعالى نهى عن البيع وقت النداء لصلاة الجمعة لئلا يتخذ ذريعة إلى التشاغل بالتجارة عن حضور الصلاة.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن، أو السفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين، سدا لذريعة ما يحاذر من الفتنة وغلبات الطبع.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم منع المقرض من أخذ الهدية أو قبولها حتى يحسبها من دينه، لئلا يتخذ ذلك ذريعة إلى تأخير الدين لأجل الهدية فيكون ربا - - - إلى غير ذلك من الأدلة التي احتجوا بها على تحريم الحلال المفضي إلى الحرام ١٣٠.

قوله: {عدوا بغير علم} عدوا مصدره وفعله عدا يعدو عدوانا - ومنه قول القائل: عدا فلان على فلان إذا ظلمه واعتدى عليه - والمقصود أن المشركين يسبون الله ظلما وعدوانا وجهالة بالله وبقدره العظيم وبما يستوجبه من يقين الإيمان وكامل الإخبات والطاعة.

قوله: {كذلك زينا لكل أمة عملهم} الكاف في اسم الإشارة صفة للمصدر.

والتقدير: زينا تزيينا مثل ذلك - أي زينا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفر - وهو قول ابن عباس - ولعل التأويل الراجح للآية هو أن مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من الأمم عملهم من الخير والشر - وذلك بإحداث القدرة والاستعداد فيهم لفعل ما يمكنهم فعله.

قوله: {ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون} بعد هذا التزيين للناس فإن مردهم ومصيرهم إلى الله، وذلك يوم البعث حيث الحساب والجزاء - وإذ ذاك يوفقهم الله على ما أسلفوه من أعمال في الدنيا وعلى حقيقة مصيرهم في هذا اليوم الذي يجدون فيه ما يستحقونه من جزاء ١٣١.

١٠٩ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم ءاية ليؤمن بها قل إنما الأيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون (١٠٩) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} روي في سبب نزول هذه الآية عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه

اثنتا عشرة عينا - وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى - وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ " قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا فقال لهم: " فإن فعلت تصدقوني؟ " قالوا: نعم - والله لئن فعلت لنتبعك أجمعين - فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: إن شئت أصبح الصفا ذهبا ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بل يتوب تائبهم " فأنزل الله الآية ١٣٢ - قوله: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم} جهد مصدر في موضع الحال والمعنى أن المشركين حلفوا واجتهدوا في الحلف بأغلظ ما عندهم من الأيمان.

قوله: {لئن جاءتهم ءاية ليؤمن بها} أي لئن حصل لهم ما اقترحوه من الآيات والخوارق فلسوف يؤمنون - وهم في الحقيقة غير صادقين في قولهم وما اقترحوه - وما قالوا ذلك إلا مكابرين معاندين فهم العتاة الغلاظ الذين مردت قلوبهم وعقولهم على التمرد والطغيان - ولو أنهم رأوا كل آية أو خارق من الخوارق المعجزة ما آمنوا لفرط جحودهم وشدة تشبثهم بالأصنام - وهم المشركون أنفسهم الذين كانوا واقفين تماما على حقيقة الإنسان الفذ والرجل الكريم المبارك، ذي السيرة العاطرة المميزة والخلق الباهر المثير، الذي ليس له في العالمين نظير - ذلكم هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهم موقنون في أعماق ضمائرهم أنه النبي الصادق الأمين فضلا عما لمسوه بأعينهم وإدراكهم من معجزات حسية كانشقاق القمر وغيره - لكنهم مع ذلك كله أبوا وجحدوا وانقلبوا جاحدين منتكسين.

قوله: " قل إنما الأيات عند الله " أي أن الله هو القادر على أن يأتيكم بالآيات إذا شاء - وهو سبحانه يتصرف فيها حسب مشيئته المطلقة وحكمته البالغة.

قوله: {وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون} الخطاب في قوله: {يشعركم} للمؤمنين - أي وما يدريكم ويعلمكم أيها المؤمنون أنه إذا جاءت الآيات المشركين يؤمنون - وزيدت {لا} كقوله: {ما منعك ألا تسجد} والمعنى ما ممنعك أن تسجد - وزيدت لا لتأكيد المنع.

وقيل: المعنى، أنه إذا جاءتهم الآيات يؤمنون أو لا يؤمنون.

وقيل: الخطاب للمشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم - وقد انتهى الخبر عند قوله: {يشعركم} ثم استأنف الحكم عليهم بأنهم لا يؤمنون إذ جاءتهم الآيات فقال: {أنها إذا جاءت لا يؤمنون} وذلك بكسر همزة إن على أنها استئناف الخبر عن المشركين بنفي الإيمان عند مجيء الآيات.

١١٠ - (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قوله: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} نقلب، أي نصرف ونحول - تقلب الأمور: تصرف كيف شاء ١٣٣ والتقليب هو تحويل الشيء عن وجهه - وتأويل الآية أننا نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون بل نحول بينهم وبين الإيمان فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان بالله وكتابه ونبيه أول مرة - و {أول مرة} ظرف زمان منصوب.

قوله: {ونذرهم في طغيانهم يعمهون} أي ندع هؤلاء المشركين الأشقياء في عصيانهم وفسقهم يترددون - فهم حيارى يتيهون في ضلالهم وقد غلبت عليهم الشقوة واستحوذ عليهم الشيطان ١٣٤.

١١١ - (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

قوله تعالى: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون}.

ذلك تيئيس من إيمان هؤلاء المشركين الضالين الذين ختم الله على قلوبهم والذين فسدت فيهم الفطرة فتبدد من طبائعهم وأكنافهم كل معلم من معالم الاستعداد الذاتي - فما عاد هؤلاء بعد ذلك ليستقبلوا الإيمان أو التوحيد الخالص لله أو الامتثال لأوامره - لا جرم أن هذا الصنف من البشر ممسوخ الفطرة والقلب، لو جيء إليه بكل آية أو معجزة أو خارق من خوارق الطبيعة ما آمن ولا استجاب لنداء الحق ولكنه سيظل سادرا في غيه وفسقه وشروده الجامح الأثيم إلى أن يصير في النهاية إلى جهنم ليكبكب فيها كبكبة القذارة أو

الحجارة.
قوله: {ولو أننا نزلنا إليهم الملئكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا} يبين الله عدم الاقتصار على ما طلبه المشركون واقترحوه من معاينة الآيات بل يقول: لو نزلنا عليهم الملائكة فشاهدوهم معاينة، وأحيينا لهم الموتى ليشهدوا لهم بحقية الإيمان وصدق رسالة الإسلام وهم يسمعونهم سماعا ويرونهم عيانا، وكذلك لو جمعنا عليهم كل شيء قبيلة قبيلة وصنفا صنفا وجماعة جماعة فقابلوهم وواجهوهم وبينوا لهم حقية التوحيد والنبوة {ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله} جواب لو.
أي أنهم لا يؤمنون، على كثرة الآيات والمعجزات المذكورة - فهم مساقون إلى أن يفعلوا ما يصدر عنهم من شرك وعصيان - وذلك باختيارهم ولسوء استعدادهم الثابت في علم الله الأزلي - وليس بالإكراه والجبر - قوله: {ولكن أكثرهم يجهلون} أي يجهلون أنهم لو أتوا بكل آية لا يؤمنون وقيل: يجهلون الحق - وقيل: يجهلون أن كل ذلك من الله وبقضائه وقدره ١٣٥.
١١٢ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)
قوله تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شيطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالأخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون}.
الكاف في اسم الإشارة، في محل نصب نعت لمصدر مؤكد لما بعده - أي مثل ذلك الجعل جعلنا لك أعداء - شياطين، منصوب على البدل من قوله: {عدوا} وقيل: منصوب على أنه مفعول ثان للفعل جعلنا - وغرورا منصوب على المصدر في موضع الحال - وقيل: منصوب على البدل من البدل من قوله: {زخرف} وقيل: منصوب، لأنه مفعول لأجله - أي لغروره ١٣٦ - هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يشاهده من عداوة قريش وما افتروه من الأقاويل والأباطيل وما كادوه للإسلام ونبيه.
قوله: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شيطين الإنس والجن} وشياطين الإنس والجن، هم العتاة المردة من النوعين - وهم الذين يحفزون الناس ليجنحوا عن صراط الله، ويسولون لهم الجحود والعصيان والتمرد على الله بكل صور العصيان والتمرد - لا جرم أن شياطين الإنسان والجن خلف كل الخطايا التي يقرفها بنو البشر في هذه الأرض - وهم وراء كل ظواهر الكفر أو الفسق أو الإلحاد الذي سقط فيه الأشقياء والتعساء من بني آدم - أما شياطين الجن فهم صنف من الخليقة غير منظورة ولا محسة، ترى من حولها من حيث لا يراها الناس - وليس لها من وظيفة ولا شاغل إلا إفساد الإنسان بكل ظواهر الإيحاء من إغراء وإغواء، أو ترغيب وترهيب - وغير ذلك من الأساليب النفسية والباطنية التي يتدسس من خلالها الشيطان العاتي إلى العميق من دخائل الإنسان لينفره من فعل الخيرات، ويسول له فعل المعاصي والمنكرات، فضلا عن تحريضه على السقوط في جحيم الباطل بكل ضروبه من كفر وإلحاد وإيذاء للمسلمين وكيد للإسلام.
أما شياطين البشر فهم صنف آخر من الجنس المنظور من ذرية آدم - وهؤلاء مغايرون لشياطين الجن، في أمر أساسي واحد - وهو أن الأولين مخلوقون أشقياء في الأصل - فهم قد فطروا على الكفر والتمرد والرغبة الملحاحة في الإفساد منذ جيئتهم إلى هذه الدنيا - لكن الآخرين – وهم شياطين البشر- لم يخلقوا كافرين ولا عتاة فاسقين، لكنهم قد خالطهم الفساد بعد حين من البراءة التي جبلوا عليها وهم صغار - فما لبثوا بعد ذلك أن أشربت أذهانهم وقلوبهم وطبائعهم الكفر والفساد - وذلك لما لامست عقولهم ونفوسهم أساليب الشياطين الشريرة بمختلف الوسائل التربوية والفكرية والثقافية فانقلبوا مردة شياطين كإخوانهم من شياطين الجن أو أعتى وأشد - وفي هذا روى عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس قد أطال فيه الجلوس - فقال: " يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن " قلت: يا رسول الله! وهل للإنس من شياطين؟ قال: " نعم شر من شياطين الجن ".
قوله: {يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} الجملة في محل نصب حال من شياطين - أو صفة لعدو؟ وقيل: الكلام مستأنف سيق لبيان عداوة الكافرين من شياطين الإنس والجن - ويوحي، من الوحي وهو الإشارة السريعة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي ١٣٧ وسمي وحيا لحصوله خفية - والمراد بقوله {يوحى} يلقي أو يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس - وقيل كذلك

يوسوس بعض كل فريق من الفريقين للآخر - وقيل أيضا: إن مع كل جني شيطانا، ومع كل إنسي شيطانا فيوحي الشيطان لصاحبه بزخرف القول - ويدل على ذلك من السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن " قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: " ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير ".

أما زخرف القول، فهو الكلام المزين المحسن خداعا - والزخرف معناه الزينة والتمويه - والغرور، ما غر الإنسان وخدعه فصده عن الحق إلى الباطل - والمقصود أن شياطين الجن يغرون ويوسوسون لشياطين الإنسان بالمزين من الكلام اللامع المخادع ليغروهم فيجانبوا الحق مجانبة وليسدروا في الأرض عتاة مفسدين، يحرضون الناس على المعاصي وفعل المنكرات ويخوفوهم من الإذعان لأوامر الله والامتثال لدينه وشرعه - ومثلما يوحي شياطين الجن إلى البشر فإنه لا يفوتنا أن نؤكد على أن شياطين البشر أشد إيحاء وإغراء وتمويها، وأقدر على إفساد الإنسان وإغوائه وإغراقه في الموبقات والآثام، بل أجدر أن يحاذرهم المؤمنون ويحرصوا على اجتنابهم والتعوذ بالله منهم ومن كيدهم ومكرهم وتمالئهم على الإسلام والمسلمين في كل الأحوال، بل في كل زمان ومكان.

ولَعمرُ الحق ما فسد المسلمون ولا انثنوا عن دينهم الإسلام ولا غاروا في الهوان والضياع والذلة، ولا ارتكسوا في المفاسد والفواحش وأوضار المحرمات والمحظورات، إلا بالجهود الهائلة الكُثاف التي بذلها شياطين الإنسان وما فتئوا يبذلونها لتحطيم العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين ولتشويه الصورة عن حقيقة الإسلام فكرا وفقها وأخلاقا ومنهاجا ونظاما للحياة.

أجل! ما ضل المسلمون ولا وهنوا ولا مالوا عن دينهم وارتاب كثير منهم في صلاح الإسلام للحياة البشرية إلا بفعل الأفاعيل المذهلة التي خطط لها الشياطين الإنسيون العتاة من دهاقنة الإفساد والتدمير والتشويه والتشكيك، من استعماريين وصليبيين وشيوعيين وصهيونيين وغيرهم من الناعقين الأتباع المتواطئين من أبناء المسلمين.

قوله: {ولو شاء ربك ما فعلوه} الضمير في {فعلوه} عائد إلى عداوة الشياطين وإيحاءاتهم الخبيثة بزخرف القول - وتأويل الآية أن الله قادر على هداية الناس ليكونوا جميعا مؤمنين - ولو شاء أن يجعلهم مؤمنين لفعل، لكنه ابتلى بعض الناس لينال كل فريق منهم جزاءه الذي يستحقه مما هو مسطور في الكتاب الرباني أن يفنى هذا الزمان.

قوله: {فذرهم وما يفترون} أي دع هؤلاء الشياطين من البشر الذين يجادلونك بالباطل ويخاصمونك بما يوحي إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن - دعهم {وما يفترون} أي وما يختلقون من الزور والأباطيل - وذلك هو شأن المسلمين الذين يدعون الناس إلى منهج الإسلام ويبلغون الناس دعوة الحق - فإنه خليق بهم أن يبينوا للناس كلمة الإسلام بالتي هي أحسن وفي أسلوب علمي كريم ومحبوب كيما يطلع الناس على روعة الإسلام، وأن هذا الدين لهو الأمثل الذي يصلح عليه حال البشرية في هذه الدنيا - ولا مناص بعد ذلك من الاصطراع مع فريق الباطل وهم شياطين البشر الذين يكذبون على الله وأنبيائه ورسله ويزيفون الحق والتاريخ ويثيرون الشبهات والافتراءات من حول الإسلام!

وما على الداعين إلى دين الإسلام في مثل هذه الحال إلا أن يصطبروا ويحتملوا الأذى وقول الزور والإرجاف، وأن يتركوا الشياطين وما يكيدون ويأتفكون إلى أن يحكم الله بالحق وهو خير الحاكمين.

١١٣ - (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

قوله: {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالأخرة} تصغى: تميل - صغى يصغى صغيا - والصغي الميل ١٣٨ ولتصغى معطوف على {غرورا} وهو علة ثانية لإيحاء الشياطين - والتقدير: يوحي بعضهم إلى بعض ليغروهم {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالأخرة} يعني حتى تميل إلى الزخرف من قول الشياطين وما يزينونه من معسول الكلام المموه الكاذب، قلوب الكافرين من أقرانهم وشركائهم في الكفر، الذين لا يؤمنون بالآخرة.

قوله: {وليرضوه} أي ليحبوه لأنفسهم بعد ما مالت إليه قلوبهم.

قوله: {وليقترفوا ما هم مقترفون} أي ليكتسبوا ماهم مكتسبون من الخطايا والآثام وقبائح الأعمال ١٣٩.

١١٤ - (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

قوله تعالى: {أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتب مفصلا والذين ءاتينهم الكتب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلمته وهو السميع العليم}.

قيل في سبب نزول الآية أن مشركي قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك.

قوله: {أفغير الله أبتغي حكما} الاستفهام للإنكار - والفاء للعطف - غير مفعول به للفعل أبتغي - حكما منصوب على الحال - وقيل: منصوب على التمييز ١٤٠ والمعنى: قل لهم يا محمد لما طلبوه من أن يجعل بينه وبينهم حكما فيما اختلفوا فيه - فالله جل جلاله هو الحكم العدل وهو الصدوق ذو الفضل.

قوله: {وهو الذي أنزل إليكم الكتب مفصلا} الجملة في محل نصب على الحال مؤكدة للإنكار - والمعنى: أأبتغي حكما غير الله، والحال أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن العظيم المعجز على كونكم أميين لا تعلمون - أنزله إليكم مبينا كل ما تختصمون فيه - ومميزا فيه الحق من الباطل والحلال من الحرام، وغير ذلك من الأحكام - ذلك أن القرآن جاء تفصيلا وبيانا لكل شيء - فإنه مبين لأصول الأشياء والأحكام ومتضمن للقواعد والأسس من قضايا الإنسان والكون.

قوله: {والذين ءاتينهم الكتب يعلمون أنه منزل من ربك الحق} كلام مستأنف سيق لتأكيد حقية القرآن - والمراد بالكتاب هنا التوراة والإنجيل - والمقصود باسم الموصول علماء اليهود والنصارى - فإنهم موقنون في أعماقهم أن القرآن منزل من عند الله بالحق - أي أن كل ما حواه هذا الكتاب الحكيم من أخبار وأحكام ووعد ووعيد لحق - وقوله: {بالحق} في محل نصب على الحال.

قوله: {فلا تكونن من الممترين} الفاء لترتيب النهي على الإخبار بعلم أهل الكتاب أن القرآن منزل من ربك بالحق - والمراد بالممترين: المترددون الشاكون - والمعنى، أن الله نهى رسوله الكريم أن يكون من الشاكين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بالحق - وقيل: نهاه عن مطلق الامتراء وذلك من باب التعريض لأمته كيلا يمتروا - أي لا يكن أحد من الناس ممتريا - والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد بمقتضاه أمته ١٤١.

١١٥ - (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلمته وهو السميع العليم} صدقا وعدلا، منصوبان على المصدر - وقيل: يجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال بمعنى صادقة وعادلة - وقيل: منصوبان على التمييز ١٤٢ - وكلمة تعني الكلام والمراد به القرآن - وتمام الكلمة معناه كمال القرآن - ومن مقتضيات كماله أنه الصدق والعدل - فهو صادق في كل ما قص أو أخبر، أو توعد أو أنذر - فالله تعالى لا يضاهيه ولا يدانيه في صور العدل والصدق أيما نظير، لأنه أصدق الصادقين وأعدل العادلين.

قوله: {لا مبدل لكلمته} أي لا مغير لما أخبر في كتابه - فوعده الحق، إذ لا خلف في وعده ولا رادا لقضائه.

قوله: {وهو السميع العليم} الله سميع لما يجري في العالمين من كلام وأحاديث فما من قول ينطق به الناطقون في العالمين، من حق أو باطل أو افتراء أو لغو أو غير ذلك من وجوه الكلام، إلا والله يسمعه - وكذلك فإن الله عليم بكل ما يقع في العالمين بل في الكون كله من أحداث أو أسرار، يستوي في ذلك ما كان منطوقا مسموعا أو كان مهموسا خفيا ١٤٣.

١١٦ - (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)

قوله تعالى: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (١١٦) إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}.

ذلك إخبار من الله عن أهل الأرض، أن أكثرهم ضالون - ويؤيد هذه الحقيقة قوله تعالى: {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين}

فذلك تحذير من طاعة هؤلاء الضالين المضلين من أكثر البشرية - فإن طاعتهم تفضي إلى معصية الله ومجانبة أمره والركون إلى الهوى والشهوات - لا جرم أن اتباع المفسدين والأشرار من البرية سيؤول إلى الصدوف عن منهج الله والسقوط في وهدة الكفر والعصيان - وما ينبغي على المسلمين في كل زمان إلا الحذر من مطاوعة المفسدين من أهل الأهواء والضلال صونا وتنجية لأنفسهم من الوقوع في غضب الله وسخطه حيث النار وبئس القرار.

وقوله: {إن يتبعون إلا الظن} أي ما يتبع هؤلاء المشركون في عبادتهم ومقاصدهم وتصوراتهم إلا الظن الذي ليس له أصل من الحق أو اليقين - وإنما هو الشك القائم على الخطأ والحسبان وذلك لا يغني من الحق شيئا.

قوله: {وإن هم إلا يخرصون} يخرصون أي يكذبون - وذلك من الخرص بسكون الراء ومعناه الكذب وكل قول بالظن - والخراص الكذاب - تخرّص، أي كذب ١٤٤ والمعنى أن هؤلاء المشركين المضلين ما هم إلا يكذبون في مقالاتهم وأحاديثهم وعباداتهم - وهم كذلك كاذبون واهمون في تصوراتهم وفيما يحسبونه صوابا.

١١٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

قوله: {إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله} من، في موضع نصب بفعل مقدر دل عليه {أعلم} والتقدير: يعلم من يضل عن سبيله ١٤٥.

والمقصود أن الله أعلم بالمضلين، فاحذروهم وضلالاتهم وغواياتهم - احذروهم وما يكيدون لكم أو يتربصون بكم وما يخططونه لكم من أساليب التخريب والإفساد والتضليل - وهو كذلك أعلم بمن هم المهتدون الذين سلكوا سبيل النجاة ومضوا على المحجة السوية البيضاء - أولئك أجدر أن نكون في زمرتهم لنسير في هذه الدنيا مسيرة الخير والبركة والطاعة لله دون غيره من الأنداد المضلين.

١١٨ - (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بئايته مؤمنين (١١٨) وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوئهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين} ورد في سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها - فقال عليه الصلاة والسلام: " الله تعالى قتلها " قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر والكلب حلال وما قتله الله تعالى حرام - فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروي أن المجوس من أهل فارس لما أنزل الله تعالى تحريم الميتة كتبوا إلى مشركي قريش وكانوا أولياءهم في الجاهلية وكانت بينهم مكاتبة أن محمدا عليه الصلاة والسلام وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله تعالى ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال وما ذبح الله تعالى فهو حرام - فوقع في أنفس أناس من المسلمين من ذلك شيء - فأنزل الله الآية.

وأخرج أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أنأكل مما قتلنا ولا نأكل مما يقتل الله تعالى - فأنزل الله الآية ١٤٦.

قوله: {فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بئايته مؤمنين} الفاء متعلقة بما قبلها - وبيان ذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتموه أنتم - فرد الله مقالتهم الباطلة مبينا لهم أنهم إن كانوا مؤمنين حقا فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه - وهو ما ذكي عند ذبحه بالقول: " باسم الله " ولا يحل غيره مما ذكر عليه اسم الله أو ما مات حتف أنفه - وذلك هو الحكم الصواب الذي يعيه المؤمنون ويوقنون أنه الحق لأنه من شرع الله فقال: {إن كنتم بئايته مؤمنين}.

١١٩ - (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

قوله: {وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه} ما استفهام تقريري - ما، مبتدأ -

لكم في محل رفع خبره - والمعنى: وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه - مع أن الله جل وعلا بين للمؤمنين إباحة ما ذكر اسمه عليه وكذلك ما ذبحه أهل الكتاب، وتحريم ما أهل به لغير الله من الحيوان - وحذر الله مما سوله لهم الشيطان مما يحرم أكله كالميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية وغير ذلك مما حرمه الله من المطاعم - ويستثنى من ذلك ما اضطر إليه المؤمنون من المطاعم المحرمة كالميتة وغيرها من المحظورات حتى تزول الضرورة.

قوله: {وإن كثيرا ليضلوا بأهوائهم بغير علم} يبين الله أن كثيرا من المضلين الفاسقين يضلون أتباعهم المشركين بأن يحرموا عليهم الحلال ويحلوا لهم الحرام كالذين ابتدعوا من عند أنفسهم للناس فرية البحائر والسوائب والأوصال والحوامي ونحو ذلك مما لم ينزل الله به من سلطان - ومثل ذلك إنما يصدر عن هؤلاء المضلين تبعا لأهوائهم الفاسدة - إنه لا يصدر عن علم مقتبس من شريعة الله.

قوله: {إن ربك هو أعلم بالمعتدين} الله يعلم المعتدين المضلين الذين يتجاوزون الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام - أولئك يجازيهم الله بما أساءوا وبما اقترفوا من الضلال والباطل ١٤٧.

١٢٠ - (وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

قوله تعالى: {وذروا ظهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون (١٢٠) ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشيطين ليوحون إلى أوليائهم ليجدلوك وإن أطعتموهم إنكم لمشركون}.

يأمر الله عباده أن يكفوا عن الإثم، ما كان منه في السر وما كان في العلن، أي سره وعلانيته - وقيل: المراد بالعلن الزنا الظاهر - أما السر فيراد به المخادنة - والمقصود بها إتيان الزنا مع الصواحب في السر، فقد ذكر أن أهل الجاهلية كانوا يستسرون بالزنا ويرون ذلك حلالا ما كان سرا - وإذا ظهر كان إثما - ومثل هذا التصور باطل وسخيف - فإن الفواحش كلها حرام يستوي فيها الظاهر والباطن - وشأن المسلم على الدوام أن يخشى الله في كل آن - يخشاه في علانيته وخفيته ويتجنب عصيانه وهو ظاهر للملأ - أو وهو مستور في جنح الظلام أو في معزل عن أبصار الناظرين.

ولئن قارف المسلم شيئا من إثم في علانيته أو سره وجب في حقه أن يبادر التوبة والندامة والاستغفار عسى الله أن يتجاوز عن مساءاته وذنوبه.

قوله: {إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون} يتوعد الله الآثمين من الناس الذين يقترفون المعاصي ما ظهر منها وما بطن بأنهم سيلقون جزاءهم من العقاب الذي يستحقونه يوم القيامة.

١٢١ - (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

قوله: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه} يدل ظاهر الآية على أن الله نهى عن الأكل من الحيوان الذي لم يذكر اسم الله عليه سواء تركت التسمية عمدا أو سهوا - وهو قول داود بن علي الظاهري وأتباعه من أهل الظاهر - وهو رواية عن مالك وأحمد - وعلى هذا فإن التسمية عند الذبح فرض على الإطلاق وذهبت الشافعية إلى عدم اشتراط التسمية بل هي مستحبة - فإن تركها عمدا أو سهوا لا يضر - وهي رواية أخرى عن كل من أحمد ومالك - وقد حملوا هذه الآية {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق} على ما ذبح لغير الله - كقوله: {أو فسقا أهل لغير الله به} وكذلك قوله تعالى: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه} قالوا: هذا نهي عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ونهي عن ذبائح المجوس أيضا.

واحتجوا بما رواه البخاري والبيهقي عن عائشة أن ناسا قالوا: يا رسول الله إن قوما حديثي عهد بجاهلية يأتون بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: " سموا عليه أنتم وكلوا ".

واحتجوا كذلك بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: " إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله ".

وذهب آخرون إلى أن ترك التسمية على الذبيحة سهوا لا يضر - وإن تركها عمدا لم تحل - وهذا هو المشهود من مذهب المالكية والحنفية

والحنبلية وهو مروي عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى وآخرين - ودليلهم في ذلك حديث ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " ١٤٨.

قوله: {وإنه لفسق} الفسق معناه الخروج - والمقصود به هنا الخروج عن أمر الله - على أن ترك التسمية لا يكون فسقا، والظاهر أن المراد به هنا الذبح لغير الله.

قوله: {وإن الشيطين ليوحون إلى أوليائهم ليجدلوكم} الشياطين من جنود إبليس يوسوسون إلى أعوانهم وأتباعهم من كفرة البشر ليجادلوا المؤمنين - أي يخاصمونهم - جادله: خاصمه - والمجادلة والجدال بمعنى الخصام - والاسم الجدل بالتحريك وهو شدة الخصومة ١٤٩.

هكذا يلقي الشياطين في قلوب أولياؤهم وأتباعهم المشركين الجدال بالباطل، ويوحون إليهم بالزخرف من القول المموه الخادع ليخاصموا به المؤمنين فيشقوا عليهم بالخصام الفاجر أو يحرجوهم إحراجا أو يطوقوهم بالإعنات والتضييق هذا ما يفعله شياطين الجن، إذ يوحون إلى أوليائهم من شياطين البشر الخبيث من القول، وكاذب الأخبار ليخلطوا على المؤمنين دينهم وليشاقوهم بالجدل العقيم الجاحد مشاقة، وذلك بمختلف الأساليب من الخصام الذي يراد منه إحراج المسلمين وإثارة الريبة في نفوسهم تثبيطا لهممهم وتفتيرا لعزائمهم وإذاواء لوهج العقيدة الدافعة في قلوبهم.

قوله: {وإن أطعتموهم إنكم لمشركون} إن أطعتم المشركين في أكل الميتة وغيرها من المطعومات المحرمة استحلالا منكم لها فأنتم مثلهم في الشرك - وحقيقة الأمر في هذه المسألة أن الذي يستحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله معتقدا ذلك لا جرم أنه مشرك خارج عن الملة - وذلك بخلاف المعتقد لأحقية ما أحل الله وما حرم ثم يقترف شيئا من المحظورات فذلكم عصيان لا شرك - ولا غرو فإن المسلم ربما يقع في المعاصي والسيئات لا يسوقه إلى ذلك سوى الضعف وهو موقن في قرارة نفسه تمام اليقين أحقية ما أمر الله، وأن أحكام الشريعة كلها حق، فمثله يظل في زمرة المسلمين وإن خالف وعصى ١٥٠.

١٢٢ - (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {أو من كان ميتا فأحيينه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمت ليس بخارج منها كذلك زين للكفرين ما كانوا يعملون}.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حمزة وأبي جهل، إذ رمى الرسول بفرث ١٥١ فأخبر بذلك حمزة حين رجع من قنصه وبيده قوس، وكان ذلك قبل أن يسلم، فغضب وعلا بها أبا جهل وهو يتضرع إليه ويقول: سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا - فقال حمزة: ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله وأسلم ١٥٢ وقيل: نزلت في كل مؤمن وكافر.

الهمزة للاستفهام الإنكاري: وقرأ الجمهور الواو بالفتح - وقرأها بعضهم بالسكون من، اسم موصول في محل رفع مبتدأ - والكاف في قوله: {كمن} خبره ١٥٣ - والمراد بالميت هنا الكافر، فقد أحياه الله بالإسلام - وقيل: كان نطفة فأحياه الله بنفخ الروح فيه - والتأويل الأول أولى لإشعار السياق بذلك - فالمقصود التنفير من اتباع المشركين لأنهم على الكفر وهو عين الباطل - وما يتبع الباطل إلا كل عات جحود، أو عتل مستكبر كنود - فإن الذي يعرض عن دعوة الله ويستنكف عما يهتف به النبيون والمصلحون والدعاة إلى الله الذين يبلغون الناس رسالة الله، لا جرم أنه صنو الميت - فكلاهما يخرجان من وهدة سحيقة غائرة واحدة - تلك هي وهدة الظلام والجهالة - وهدة التبلد والموات وركود الذهن - وذلكم الموت الذي لا يسفر عن علم ولا نور ولا هداية، والمراد به هنا الكفر حيث التخبط والظلم والمرض - والمراد بالنور: الهداية - وقيل: القرآن - والمقصود هو نور الحق من الإسلام الذي جعله الله هداية للناس.

قوله: {كمن مثله في الظلمت} مثله، مبتدأ مرفوع - وخبره في الظلمات - والجملة صلة لمن - والظلمات جمع ظلمة - وقيل: مجاز عن الكفر - والمعنى: أنه لا يستوي من كان كافرا ثم أحياه الله بالإيمان وجعل الله له نورا وهو الإسلام يمشي به في الناس مستنيرا ومهتديا وداعيا إليه الناس – لا يستوي هو والذي في الظلمات سادرا تائها يتخبط لا يهتدي إلى الصواب ولا يعرف أين السبيل - وشأن هذا

كالذي يخبط في الظلمة الحالكة ليهيم على وجهه ضائعا متعثرا - شأنه شأن الكافرين الضالين يهيمون في غياهب الكفر على اختلاف أنواعه، لا جرم أنهما لا يستويان - لا يستوي المؤمن المهتدي والكافر المتعثر الضال - فالمؤمن مطمئن ومستيقن ومستنير - والكافر تائه وحائر وجهول - وعلى هذا فإن المؤمنين الذين أشربت نفوسهم وأذهانهم معاني الإسلام بكل قيمه وتصوراته وموازينه، لا شك أنهم راضون وماضون في طريقهم المستنير اللاحب - لكن الكافرين على اختلاف نحلهم ومللهم وتصوراتهم أشبه بالمضللين الحيارى السادرين في الظلام الذين لا يجاوزون ضلالهم المنقطع إلا إلى المهالك والشقوة وسوء المصير.

قوله: {ليس بخارج منها} في محل نصب الحال - أي حال الكافر الضال الذي هوى الظلمات فهام على وجهه تائها سادرا لا يعرف كيف الخروج أو الخلاص.

قوله: {كذلك زين للكفرين ما كانوا يعملون} الكاف في اسم الإشارة في محل نصب صفة للمصدر - والتقدير: زين للكافرين مثل ذلك التزيين أي الشيطان لهؤلاء الكافرين أعمالهم من الشرك وعبادة الأصنام وهو قول ابن عباس - وقيل: زين الشيطان للكافرين الكفر فعملوا به كما زين الله الإيمان للمؤمنين فعملوه ١٥٤.

١٢٣ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قوله تعالى: {وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون (١٢٣) وإذا جاءتهم ءاية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون} مجرميها، مفعول أول لجعلنا - وأكابر مفعول ثان مقدم ليمكروا - واللام لام كي، والتقدير: جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر فيتعلق الجار والمجرور بالفعل - وقيل: أكابر مفعول أول - ومجرميها بدل منه ١٥٥.

والأكابر، جمع أكبر مثل أفضل أفاضل - وأسود أساود - والمراد بمجرميها: فساقها من رؤوس الكفر والضلال والعصيان - وهذه هي سنة الله الظاهرة في الحياة والمجتمعات، أن يكون المجرمون في كل قرية أو بلد أكابر فساقه ومجرميه - لكن المؤمنين المصدقين – في أغلب الأحوال – يكونون من الضعفاء والفقراء والبسطاء، لكنهم هم الذين كتب الله لهم النصر وجعل لهم حسن الثواب والعاقبة في هذه الدنيا حيث النصر - وفي الآخرة حيث الجنة والرضوان - ومثل هذه الحقيقة نقف عليها بالملاحظة والتدبر والاستقراء لتعلم أن أكابر الأمصار والأقطار هم من المجرمين العتاة أو الجبابرة العصاة سواء كانوا من الساسة والقادة والحكام أو كانوا من المفكرين أولي النظريات والفلسفات الزائفة الجانحة عن صراط الله، المناهضة لمنهجه العظيم - وقد خص الله الأكابر، لأنهم أقدر على الإفساد والتحيل والمكر والكيد - وذلك لسطوتهم ورئاستهم وقوة مكانتهم في الناس - فهم بذلك يستتبعون الضعفاء والمحاويج لجانبهم فيستخفونهم لطاعتهم استخفافا - وفي زمن النبوة كان هؤلاء الفساق المجرمين يجلسون على طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس - عن الإيمان برسول الله ولينفروهم من الإسلام - وهذا ما يحدث للإسلام في كل زمان - إذ يتصدى أكابر المجرمين من ساسة وقادة وحكام متسلطين وأولي فكر مضلل مقبوح، ونظريات شائهة كاذبة، وأقلام مأجورة للظالمين والشياطين – يتصدون للإسلام بالتضليل والافتراء أو يتصدون للمسلمين فيذيقونهم النكال والويل والتعذيب.

قوله: {ليمكروا فيها} المكر معناه الاحتيال والخديعة والمكر والختل والغدر نظائر ١٥٦ اللام لام كي، وهو ما بيناه سابقا - وقيل اللام لام العاقبة - ويسمى لام الصيرورة - والتقدير: وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليطيعوني ويمتثلوا أمري وكان عاقبتهم أن يمكروا بالمؤمنين وخدعوهم وكادوا بهم لينكلوا بهم ويقضوا عليهم أو يجعلوهم عالة صاغرين مستضعفين.

قوله: {وما يمكرون إلا بأنفسهم} هؤلاء الماكرين الذين يخادعون الإسلام والمسلمين، والذين يأتمرون بالمسلمين لينكلوا بهم أو يقتلوهم أو يبددوا كلمتهم وشملهم لسوف يحيق بهم هذا المكر الغادر - إذ يجعل الله الدائرة عليهم أو يصيبهم من قوارع الدنيا وكوارثها ما يزلزلهم ويدمر عليهم حتى يصيروا إلى أتعس مآل من الشقاوة والمرض والعيش الآسن المنكود.

قوله: {وما يشعرون} هؤلاء المجرمون المفسدون في الأرض سادرون في غيهم وضلالهم، لاهون عن مصيرهم الرهيب المحتوم، وساهون عن مآلهم المظلم الذي ينتظرهم - حتى إذا انتقم الله منهم أو أخذهم أخذ عزيز مقتدر تذكروا وعضهم الاستيئاس والندم ولات حين

مندم.

١٢٤ - (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

قوله: {وإذا جاءتهم ءاية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله} الآية بمعنى العلامة الدالة على وحدانية الله وعلى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما أنزل عليه من عند الله حق - وقيل: المراد بالآية النبوة - وسبب نزول هذه الآية أن الوليد ابن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا - وقيل: نزلت في أبي جهل - وذلك أنه قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه - والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه.

ولذلك قال: {لن نؤمن حتى نؤتى مثا ما أوتي رسل الله} يعني مثل ما أوتوا من الرسالة أو النبوة - ويعزز هذا التأويل قوله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} ذلك إنكار من الله عليهم من أجل هذه المقالة الظالمة التي اجترؤوا فيها على حكمة الله وتقديره - فالله تعالى أعلم بمن هو أحق بالرسالة، ومن هو جدير بحمل هذه الأمانة العظمى التي لا يطيق حملها غير النوادر القلة من أخبار البشرية - أولئك الأعاظم الأفذاذ من هداة العالمين الذين يعلم الله وحده حقيقة أكاهم وروعة فطرتهم وكمال خصالهم الحميدة المميزة - وقوله: {مثل} منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف - وما مصدرية - والتقدير: لن نؤمن حتى نؤتها إيتاء مثل إيتاء رسل الله - وحيث، مفعول لفعل مقدر - أي يعلم - والجملة بعدها صفة لها - وقيل: حيث مضاف - والجملة بعدها مضاف إليه.

قوله: {سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون} ذلك وعيد من الله لؤلئك المضلين المجرمين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين والذين يتربصون بالمسلمين السوء والضعف والهوان - لقد توعد الله هؤلاء الشياطين من البشر الغادر، بالصغار - وهو الذل والمهانة والخزي من عند الله سواء في الدنيا أو الآخرة - أما في الدنيا فلا مناص للمجرم الغادر الذي تمالأ على الإسلام والمسلمين، من سقوطه في عذاب الدنيا ليذوق وبال أمره - وألوان العذاب الدنيوي كثيرة - منها الأمراض الأليمة، وأمراض النفس الممضة - أو غير ذلك من صور البلاء كالخزي والإذلال والافتضاح - وإذا تصور الناس أن هؤلاء المجرمين الأكابر ما أصابهم من الدنيا عذاب بحسب الظاهر، فإنهم سيفيضون إلى عذابهم المحقق المنتظر في أشد الساعات ضيقا وثبورا وحراجة وهم يكابدون أشد المكابدة في سكرات الموت - لا جرم أن ذلك ذرة العذاب في هذه الدنيا، بل إنه أنكى ما يحيق بالمجرمين في دنياهم من العذاب - ولعمر الحق إن عذاب الآخرة أشد نكاوة بما كادوه للإسلام وما صنعوه في المسلمين من ويلات وأفاعيل ١٥٧.

١٢٥ - (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون}.

من يرد الله هدايته للحق والإيمان {يشرح صدره للإسلام} أي يفتح قلبه لنور الإسلام حتى يستقبله بانشراح وراحة ورضى فيقبله قبول المتيقن المطمئن ويعيه وعي الجذلان المحبور.

قوله: {ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا} أي من يرد الله إضلاله وخذلانه {يجعل صدره ضيقا حرجا} منصوبان على الحال، إذا كان {يجعل} يعني يخلق - وقيل: {حرجا} وصف للمصدر - مثل: رجل عدل.

والضيق يراد به هنا القسوة والنبو عن قبول الحق - أي يضيق صدره وينسد انسداد الكز ١٥٨ المغاليق - وذلك هو تقدير الله في خلقه، يصنع ما يشاء لحكمة لا يعلمها إلا هو فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه - وهو سبحانه أحكم الحاكمين - والحرج معناه الضيق الشديد - وقيل: أضيق الضيق - قال ابن عباس في تأويل قوله: {ضيقا حرجا}: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه - وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك.

وذلك هو شأن العتاة الجاحدين من خصوم الإسلام في كل زمان - منهم بارعون ناشطون دهاة في التصدي للإسلام بالكيد والعداء والتخطيط الخبيث في الظلام - أولئك يكرهون الإسلام كراهية بالغة مسرفة - كراهية مركومة ومركوزة في العميق من نفوسهم الحافلة بالغيظ والحقد على الإسلام وأهله - إن هذا الصنف من الناس ما يكاد يسمع عن عزة الإسلام وروائعه وأمجاده شيئا تحيط به الحسرة والنفور ويأخذه التسخط والامتعاض ويطوق قلبه وروحه التبرم والحسد لفرط ما يحبس في صدره من كراهية للإسلام وأهله - مع أن الإسلام جاء رحمة للبشرية كافة - وكذلك المسلمون فإنهم أحرص الناس على الرحمة بالإنسانية ودفع الأذى والشر والضر عنها - الله يعلم أن المسلمين أعطف الخليقة بالخلائق عامة لما قذفه الإسلام بعقيدته وتعاليمه من غامر الرأفة والتحنان في قلوبهم.

قوله: {كأنما يصعد في السماء} يصعد، بالتشديد، أي يتكلف ما لا يطيق من المشقة والعناء مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء - وقيل: كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوّا عن الإسلام - والمراد أن الذي يضيق صدره حرجا لدى سماع القرآن أو الإسلام فإنه يشق عليه الإيمان مثلما يشق عليه صعود السماء، وهو ما لا يستطيعه أو يطيقه كائن بقدراته العادية - وفي الصعود إيحاء ببالغ المشقة والإرهاق والتعسير - ومنه قوله سبحانه: {سأرهقه صعودا} وذلك تصوير رباني بالغ ومبين يكشف عن حال المعاندين الغلاظ الذين تتجافى قلوبهم عن قبول العقيدة الإسلامية أو تتعامى أنظارهم وعقولهم عن إدراك الإسلام بحقائقه الكريمة المستفيضة - هؤلاء الجفاة المتربصون إذا سمعوا الإسلام أو دعوا إليه ضاقوا ذرعا بل ضاقت بهم السبل والدنيا بما رحبت، وأخذهم من فرط الاغتمام والحنق والمكابدة مثل ما يجده الذي يصعد في السماء حسيرا وجلا مذعورا.

قوله: {كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون} الكاف في اسم الإشارة صفة للمصدر - والتقدير: مثل ذلك الجعل يجعل الله الرجس والأصل في الرجس أنه النتن، والنجس - وقيل: العذاب وقيل: الإثم - والمعنى: أنه مثلما جعل الله الصدر ضيقا حرجا فإنه يجعل الرجس: العذاب أو الإثم على الجاحدين للتوحيد المكذبين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ١٥٩.

١٢٦ - (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

قوله تعالى: {وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الأيت لقوم يذكرون (١٢٦) لهم دار السلم عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعلمون} مستقيما، منصوب على الحال المؤكدة من صراط - وإنما كانت مؤكدة، لأن صراط الله تعالى لا يكون إلا مستقيما ١٦٠ والإشارة {هذا} عائدة إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من المؤمنين الذين ارتضوا بمنهج الله سنة وسبيلا يسلكونه للنجاة في الدارين - وهذا هو طريق الله المستقيم - أي دينه الحق المبين الذي لا عوج فيه ولا ظلم ولا لغو - وإنما هو الدين العدل الصادق الذي يشمل الخير والاستقامة والصواب والحق كله - الحق بكل صوره ومعانيه ومقوماته - لا جرم أن الإسلام نظام الحياة الشامل الكامل - النظام الذي تستقيم عليه أحوال الأفراد والمجتمعات على مر الأيام والأزمان حتى يرث الله الحياة والعالمين.

قوله: {قد فصلنا الأيت لقوم يذكرون} أي بيناها ووضحناها وجعلناها مستبينة ميسرة لمن أراد أن يتدبر أو يتذكر - أو لمن كان يملك زمام عقله وفكره وشخصه فيتحرر بذلك من إسار التعصب أو الجهالة أو الحقد أو الهوى الجامح ليجد أن القرآن كلام الله السامق الفذ وأنه بروعته وعذوبته وجمال آيه وكلمه غاية الإعجاز الذي ليس له في الكلام نظير - وليجد كذلك أن الإسلام طريق الإنسانية إلى التفاهم والتعاون والسلام - وهو منهاجها الشامل المتكامل الذي يتناول قضايا العالمين ومشكلاتهم جميعا.

١٢٧ - (لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {لهم دار السلم عند ربهم} المراد بدار السلام الجنة - والسلام من أسماء الله تعالى - وأضيفت الدار إلى اسمه تعالى تشريفا لها وتعظيما لمكانتها وما حوته من خير وكرامة وطيب عيش للمؤمنين الأبرار.

وقيل: السلام، بمعنى السلامة - أي دار السلام من الآفات والنوائب والأهوال والمكاره جميعها مما يجده الأشقياء التعساء في النار.

قوله: {وهو وليهم بما كانوا يعملون} الله تعالى ناصر هؤلاء المؤمنين المخلصين العاملين وهو حافظهم ومؤيدهم جزاء ما قدموه من الأعمال الصالحة في الدنيا ١٦١.

١٢٨ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا يمعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولاؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثوكم خلدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨) وكذلك نولي بعض الظلمين بعضا بما كانوا يكسبون}.

قوله: {ويوم يحشرهم جميعا} يوم، منصوب بفعل مقدر - وتقديره: اذكر يوم نحشرهم - وقيل: منصوب على الظرفية والعامل فيه مقدر - أي اذكر، أيضا جميعا، منصوب على الحال من الهاء والميم في {يحشرهم} ١٦٢.

في الآية يذكر الله بذلك اليوم المشهود الذي يجمع فيه عبدة الأوثان والأصنام - أولئك الذين اتخذوا الأنداد شركاء لله في الخضوع والعبادة – يجمعهم مع أعوانهم وأنصارهم من الشياطين الذين أغووهم والذين أوحوا لهم بالزخرف من الكلام المموه الخادع - هؤلاء جميعا يحشرهم الله يوم القيامة حشرا - والتعبير بالحشر يوحي بحال هؤلاء المحشورين المقبوحين من الشقاوة والتعس وانتفاء الكرامة والاعتبار - لا جرم أن الضالين المشركين من الشياطين وأتباعهم من البشر الفاسق مجموعون بين يدي الله في الآخرة ليجدوا هوان الحشر وما فيه من ضيق وإعانات وتحقير ومهانة.

قوله: {يمعشر الجن قد استكثرتم من الإنس} معشر الجن أي جماعتهم - والمراد بهم هنا الشياطين - والمعنى أن الله يقول لهذا الفريق المضل من الجن على سبيل التقريع والتوبيخ: لقد أضللتم كثيرا من الإنس بإغوائكم إياهم وإفسادكم لهم - وقيل: أكثرهم من إغوائهم وإضلالهم.

قوله: {وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض} استمتع من الاستمتاع وهو التلذذ والانتفاع ١٦٣ والأولياء من الإنس يراد بهم الأتباع من الناس الذين أطاعوا الشياطين وساروا في سبيل الضلال الذي سيقوا إليه بإغواء الشياطين من الجن لهم - وكل فريق من الطرفين قد استمتع بالآخر - فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس لهم، إذ أطاعوهم فيما دعوهم إليه من الفسق والعصيان والغواية ومخالفة أوامر الله فضلا عن تعظيم الإنس لهم في استعاذتهم بهم - واتخاذهم لهم قادة ورؤساء - وأما انتفاع الإنس من الجن فهو أن الجن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إلى مختلف الأهواء والمنكرات - إلى غير ذلك من وجوه الشهوات الرخيصة التي تهبط لها وتتهاوى أمامهم عزائم الأنذال من الفاسقين والعصاة، أتباع الشيطان في كل زمان.

قوله: {وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا} أي بلغنا الموت بعد كل الذي حصل من الاستمتاع والتلذذ بالشهوات والمحظورات وكل وجوه الحرام - وذلك بفعل التزيين والإغراء من الشيطان الذي أضلنا وأغوانا - وقيل: يقولون ذلك يوم القيامة إقرارا بذنوبهم ومعاصيهم بعد أن أطاعوا الشياطين واتبعوا الهوى والشهوات وكذبوا بالرسل والبعث - قالوا ذلك وهم تحيط بهم الأهوال والفظائع واليأس من كل جانب - لقد قالوا مقالتهم وهم في غاية الإحساس بالندامة والحسرة والإياس موقنين أنه لن يجديهم بعد ذلك ندم ولا توبة وأن مصيرهم المحتوم إلى الثبور وعظائم الأمور.

قوله: {قال النار مثوكم خلدين فيها} مثواكم: منزلكم - والمثوى معناه المنزل - ثوى بالمكان، أي أقام فيه ١٦٤ ويجوز أن يكون المثوى مصدرا بمعنى الثواء وهو الإقامة - وخالدين، حال النار مكان إقامتكم في حال الخلود ١٦٥ وذلك جواب فاصل وقاطع من الله لا معقب له من أحد - وهو أن النار منزلكم ومحل إقامتكم الدائم يوم القيامة، إذ تثوون إليها ثواء اللابثين بغير فراق ولا مبارحة، لا جرم أن النار لهي دار مقام للفاسقين من البشر الذين أضلهم الشيطان ليظلوا فيها يكابدون العذاب بكل ألوانه وصنوفه - نعوذ بالله من ذلك عوذا كبيرا.

قوله: {إلا ما شاء الله} الاستثناء منقطع، فهو ليس من الخلود في النار - والمعنى أنهم خالدون في النار باستثناء المدة التي ما بين مبعثهم من قبورهم ومصيرهم إلى جهنم - أي باستثناء مقدار حشرهم في قبورهم ومقدار لبثهم في الحساب.

قوله: {إن ربك حكيم عليم} الله حكيم في معاقبة هؤلاء الفاسقين المعرضين، أتباع الشياطين - حكيم في تعذيبهم وما لهم من المصير

المهين - بل إنه حكيم في كل ما يصدر عنه من أفعال وأحكام - وهو كذلك عليم بما يستحقه هؤلاء العصاة من الجزاء.

١٢٩ - (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله: {وكذلك نولي بعض الظلمين بعضا} نولي، من الموالاة - وهي المتابعة بين الشيء والشيء - نقول: واليت بين كذا وكذا، إذا تابعت بينهما - وعلى هذا، فالمعنى: أننا نتبع بعضهم بعضا - أي أن الله يتبع بعض الظالمين بعضا في النار - وقيل: نولي بمعنى نسلط - أي نسلط بعض الظلمة على بعض - وهذا المعنى ينسحب على سائر الظالمين الذين يظلمون الناس - فما من ظالم إلا يوشك أن يبليه الله بظالم آخر يظلمه - وهذا تهديد من الله لكل ظالم يظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأقدارهم وكراماتهم - فإن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر.

وقيل: نولي، من الولي وهو الناصر والحليف - أي نجعل الظالمين حلفاء ونصراء ومتعاونين فيما بينهم على الكفر والضلال والباطل - وذلك هو ديدن الكافرين الظالمين من أهل الباطل في كل زمان ومكان - إنهم يوالي بعضهم بعضا - أي يناصر بعضهم الآخر لما بينهم من شعيرة التحالف والتعاون على الشر والباطل - بل على الإضرار بالمؤمنين بفعل ما يؤذيهم وينزل بساحتهم الشرور والمفاسد والموبقات.

قوله: {بما كانوا يكسبون} أي نولي بعضهم بعضا بسبب ما اكتسبوه من الذنوب والمعاصي ١٦٦.

١٣٠ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

قوله: {يمعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم ءايتي وينذروكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحيوة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كفرين}.

شرع بعد ذلك في تقريع المعشرين (الإنس والجن) وتوبيخهم بسبب تفريطهم وإجرامهم في حق أنفسهم وحق الآخرين - ومثل هذا التوبيخ والتقريع إلى جملة التنكيل الذي سيلاقيه المفرطون العصاة من الإنس والجن - فقال سبحانه: {يمعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم ءايتي}.

هذا قول الله للكافرين من الإنس والجن يوم القيامة موبخا لهم توبيخا: ألم أبعث إليكم رسلي يخبرونكم بما أوحي إليهم مما فيه تنبيهكم وإرشادكم وتفصيل الدلائل والحجج لكم على توحيدي وصدق أنبيائي ولزوم ائتماركم بأوامري والانتهاء إلى حدودي؟

لكن هل التأويل اختلفوا في الجن هل أرسل منهم إليهم مرسلون أم لا؟ فقد قيل: أرسل الله من الجن رسلا كما أرسل من الإنس، استدلالا بهذه الآية - وقيل: لم يرسل الله من الجن رسلا إليهم ولم يكن منهم قط رسول - وإنما الرسل من الإنس خاصة - أما الجن فمنهم النذر، بدليل قوله تعالى عن الجن: {ولوا إلى قومهم منذرين} وذهب إلى هذا ابن عباس - وقالوا في تأويل قوله: {ألم يأتكم رسل} إن المراد كون الرسل من أحد الفريقين كما قال سبحانه: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الماء الملح دون العذب منهما - وإنما المعنى أنه يخرج من بعضهما أو من أحدهما.

قوله: {وينذروكم لقاء يومكم هذا} أي أرسل الله المرسلين إلى معشر الجن والإنس ليخوفوهم من أهوال هذا اليوم العصيب - اليوم الذي يحشرون فيه إلى ربهم فيجدون فيه من البلايا والويلات ما ليس له في نوائب الدنيا نظير.

قوله: {قالوا شهدنا على أنفسنا} هذه شهادة الظالمين على أنفسهم يوم القيامة من غير زيغ أو إنكار أو دوران - وإنما الاعتراف الواضح المكشوف بجيئة المرسلين إليهم وتبليغهم إياهم دعوة ولزوم التصديق والائتمار بأوامر الله.

قوله: {وغرتهم الحيوة الدنيا} هذا خطاب من الله للمؤمنين - وهو أن هؤلاء الظالمين الناكبين عن صراط الله، المجانبين لمنهجه الرباني الكامل، كانوا قد غرتهم – أي خدعتهم الحياة الدنيا بكل ما في العبارة (الحياة الدنيا) من مضامين - والحياة الدنيا حافلة باللذات والغوايات والمباهج وغير ذلك من خسائس الحياة العاجلة التي تمر مرور الأطياف والآفلين سراعا - وهذه الدنيا بالرغم من هوانها و حقارتها وزرايتها في نظر المؤمن المتدبر الحريص، فإنها شركا للغافلين من شرار الناس الذين خدعتهم الحياة خداعا فسقطوا في أرجاسها

وأدناسها ومعايبها التي استغلتهم وجنحت بهم عن دين الله جنوحا مغاليا فباؤوا بذلك بالخسران ليكونوا يوم القيامة من أصحاب الجحيم.
قوله: {وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كفرين} هذا إقرار من الكافرين الذين أغوتهم الشياطين – على أنفسهم بأنهم كانوا في الدنيا كافرين - يقولون مقالتهم هذه في صراحة منطوقة لا خفية ولا مخبوءة - وإنما هو الاعتراف العجيب في مثل هذا الموقف المرعب المشهود بما يكشف عن هول ما يطوق هؤلاء الخاسرين من الحسرة والندامة والإياس ثم ليصروا بعد ذلك إلى النار ١٦٧.
١٣١ - (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)
قوله تعالى: {ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غفلون (١٣١) ولكل درجت مما عملوا وما ربك بغفل عما يعملون}.
اسم الإشارة {ذلك} يحتمل وجهين من الإعراب - أحدهما: أنه في محل رفع على أنه خبر، ومبتدأه تقديره: الأمر ذلك - وثانيهما: أنه مبتدأ وخبره محذوف مقدر - أو خبره قوله تعالى: {أن لم يكن ربك مهلك القرى} وأن، مخففة من الثقيلة - وتأويل الآية أن الله لم يعذب الناس إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل إليهم - فلم يعاجلهم بالعقاب لشركهم وهم في غفلة حتى يبعث إليهم رسله لتنبيههم على حجج الله وتنذيرهم عذابه يوم معادهم إليه كيلا يحتجوا ويقولوا: {ما جاءنا من بشير ولا نذير}.
وقيل في تأويلها وجه آخر وهو: أن الله لا يهلك القرى بشرك من أشرك وكفر من كفر من أهلها وهم غافلون - وهو كقوله: {ولا تزر وازرة أخرى}.
١٣٢ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)
قوله: {ولكل درجت مما عملوا} أي لكل عامل في طاعة الله أو في معصيته منازل ومراتب من عمله يجزيه الله عليها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر والمنازل والمراتب تتناول الدركات وهي للمسيئين العصاة - وبذلك أعد الله لكل العاملين بطاعة الله درجات في الثواب والتكريم - وفي مقابل ذلك العاملون بمعصية الله أعد لهم دركات في العقاب وسوء الجزاء - قوله: {وما ربك بغفل عما يعملون} ليس الله لاهيا ولا ساهيا عما يفعله الخلق - فالله عليم بما يفعلونه من طاعة أو معصية ولا يغيب عن علمه منها شيء - بل الله خبير بذلك كله وهو سبحانه يحصي على العباد كل ما يصدر عنهم من سوء أو إحسان ليجازيهم عليه عند المعاد.
١٣٣ - (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)
قوله: تعالى {وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم ءاخرين (١٣٣) إن ما توعدون لأت وما أنتم بمعجزين (١٣٤) قل يقوم اعملوا على مكانتكم إني عمل فسوف تعلمون من تكون له عقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون}.
ربك الغني: مبتدأ وخبره - ذو الرحمة صفة للغني - والمعنى أن الله غني عن سائر الكائنات - وهو غني عن عباده وعن كل ما يصدر عنهم من طاعات وعبادات - والحقيقة الراسخة في هذا الصدد والتي يعيها كل مسلم واع متدبر هي {إن اله لغني عن العلمين} بل إن العاملين والخلائق كافة محتاجة إلى الله - فهو بعظيم سلطانه ورحمته مرجو ومقصود يتضرع إليه داعيا متذللا كل مؤمن عابد.
قوله: {إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء} ذلك تخويف للمكذبين العصاة وفيه من الوعيد ما لا يخفى على كل مدرك بصير - فالله تعالى إن يشأ يهلك الضالين المضلين الذين خلقهم من ذرية آدم ثم يأت بآخرين سواهم ليخلفوهم في الأرض من بعدهم وليكونوا أمثل منهم وأطوع.
قوله: {كما أنشأكم من ذرية قوم ءاخرين} الكاف في موضع نصب، صفة للمصدر المحذوف - وما مصدرية - والتقدير: ويستخلف استخلافا مثل إنشائكم من ذرية آخرين - والمراد أن الله إن يشأ يخلق غيركم من نسل قوم آخرين أفضل منكم وليسوا مثل صفتكم.
١٣٤ - (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)
قوله: {إن ما توعدون لأت} ما في موضع نصب اسم إن - وخبرها لآت - ذلك تأكيد قاطع من الله جلت قدرته على أن ما وعده عباده حق وصدق - ووعده أن تقوم الساعة ويحشر الناس جميعا بعد الموت ثم يواجهون الحساب والجزاء - وإذ ذاك تقع المفاصلة

الكبرى بين العباد ليساق المؤمنون زمرا إلى الجنة، ويساق المكذبون الضالون إلى النار - لا جرم أن وعد الله حق - وهو آت لا ريب فيه - وما الدنيا هذه التي يكابد فيها المؤمنون المتاعب والفتن غير أيام وليالي معدودات تمر مرا حتى تفجأهم داهية الموت بداية الجزاء.

قوله: {وما أنتم بمعجزين} بمعجزين أي بفائتين - والمعنى أنكم أيها الضالون المكذبون لن تعجزوا ربكم هربا منه في الأرض فتفوتوه، لأنكم حيث كنتم في قبضته فإنه قادر على أن يعاقبكم فاحذروه وأنيبوا إليه قبل أن يحل عليكم غضبه وعقابه.

١٣٥ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

قوله: {قل يقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل} أي اعملوا أيها المشركون على طريقتكم وشاكلتكم وأنا عامل على طريقتي وشاكلتي - أي اعملوا ما أنتم عاملون فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني ربي به وهو الثبات على الإسلام والامتثال لأوامر الله والخضوع لدينه الحنيف - أما أن يؤمر المشركون بالثبات على ما هم عليه، فذلك على سبيل التهديد لهم والوعيد - وذلك كقوله تعالى: {فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا}.

قوله: {فسوف تعلمون من تكون له عقبة الدار} المراد بالدار: هذه الدنيا - والعاقبة: الحسنى، أو عاقبة الخير، أو العاقبة المحمودة - وعاقبة الدار أي العاقبة الحسنة التي خلق الله تعالى هذه الدار لها - ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وقنطرة يمر من فوقها العباد في طريقهم إلى يوم الحساب - ومن، استفهامية، في محل رفع على الابتداء، والجملة بعدها خبرها - والمعنى: سوف تعلمون أيها المشركون أينا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار - وقيل: من اسم موصول بمعنى الذي وهو في محل نصب مفعول {تعلمون} أي سوف تعلمون الذي له عاقبة الدار - وفي ذلك من الإنذار والوعيد ما لا يخفى.

قوله: {إنه لا يفلح الظالمون} أي أن هؤلاء المشركون لن يفوزوا أو يفلحوا في حياتهم الدنيا ولا الآخرة - فلسوف يحرمون في حياتهم هذه من البركة ورضى النفس وسكينتها فضلا عما يبتليهم به الله من أمراض الهلع والجشع وفرط الأنانية واحترار الشهوات التي تظل تؤزهم أزا ثم يثوبون بعد ذلك إلى جحيم البرزخ وهو التوطئة المفروضة للعذاب الواصب الأكبر في الآخرة ١٦٨.

١٣٦ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

قوله تعالى: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعم نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركئنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون} هذه صورة عن عقلية العرب الجاهليين، يشار فيها إلى مبلغ الضلال والسخافة وهوان الأحلام فقد جعل العرب المشركون مما خلق الله من الحرث (الزرع) والأنعام جزءا لله - أي جعلوا لله نصيبا من زرعهم ونتاج أنعامهم - وقالوا: {هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا} وسموا الأصنام شركائهم، لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم فيها - وقد روي أنهم كانوا يعينون شيئا من الزرع والنتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئا آخر لآلهتهم، إذ ينفقونه على سدنتها بزعمهم - أي بافترائهم وكذبهم وتصورهم الفاسد - فإذا ذهب ما لشركائهم (الأوثان) بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوا منه ما لله - وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضيفان والمساكين لم يعوضوا منه شيئا، وقالوا: الله مستغن عنه، وشركاؤهم فقراء - لا جرم أن ذلك محض هراء وباطل وافتراء - وهو مجرد اجترار مقبوح من اجترارات الأحلام المريضة والفهوم التي تتيه في الضلال.

قوله: {فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم} أي فما عينوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لله تعالى - وما عينوه لله تعالى يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لآلهتهم - وقال ابن عباس في تأويل ذلك: كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزما جعلوا منها لله سهما، وسهما لآلهتهم - وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوا لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم.

وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه - وروي عنه قوله أيضا أنهم: جعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيبا، وللشيطان والأوثان نصيبا فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله في نصيب الشيطان والأوثان تركوه، وإن سقط مما جعلوه

للشيطان في نصيب الله التقطوه وحفظوه وردوه إلى نصيب الشيطان - وقيل غير ذلك من نحوه وما يشبهه من التأويل مما تتصوره الحلوم السخيفة لأهل الجاهلية.

قوله: {ساء ما يحكمون} ما في محل رفع ساء - أي ساء حكمهم في تفضيل آلهتهم على الله - وساءت أحلامهم التي سول لها الشيطان مثل هذا الضلال المبين ١٦٩.

١٣٧ - (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

قول تعالى: {وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولدهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون} الكاف في محل نصب صفة للمصدر - والتقدير: مثل ذلك التزيين الذي زينه الشيطان للمشركين في قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم، زين لهم قتل أولادهم شركاؤهم - وشركاؤهم هنا فاعل - والمراد بشركائهم هنا الشياطين - وقيل: الغواة من الناس - وكلهم في بشاعة الأفاعيل وفظاعة النكر شياطين يضلون الناس عن سواء السبيل - والمعنى: أنه مثلما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين السفهاء أن يجعلوا لله مما خلق من الحرث والأنعام نصيبا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق (الفقر) وكذلك زينوا لهم وأد البنات خوفا من العار - فقد أمرتهم شياطينهم من الجن والإنس أن يئدوا البنات ويقتلوا الأولاد مخافة العار والعيلة: لا جرم أن ذلك ضلال فاضح وتصورهم سقيم وجهول كان يراود حلوم أولئك الواهمين الضالين فيسول لهم شيطان الجن والإنس قتل أولادهم سواء كانوا ذكورا أو إناثا لذرائع كاذبة خاطئة متهافتة ما أنزل الله بها من سلطان.

قوله: {ليردوهم} اللام للتعليل أي ليهلكوهم - من التردية بمعنى الإهلاك - رديته تردية - ومنه أرداه يرديه أي يهلكه ١٧٠ والمراد إهلاكهم بالإغواء والتضليل.

قوله: {وليلبسوا عليهم دينهم} من اللبس وهو الخلط، والتلبيس وهو التخليط - التبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه ١٧١ والمعنى أن الشياطين قد خلطوا على المشركين دينهم – وهو دين إسماعيل القائم على التوحيد – فالتبس عليهم التباسا - لقد خلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسماعيل حتى انحرفوا عنه البتة إلى الشرك بكل ما فيه من خرافات وترهات ومفاسد وأباطيل، ومن جملتها جعلهم لله نصيبا مما خلق فضلا عن وأد البنات وقتل الأولاد.

قوله: {ولو شاء الله ما فعلوه} لو شاء الله أن لا يفعل المشركون ما فعلوه لما فعلوا، لأنه ما من شيء إلا هو مندرج في ملكوت الله وسلطانه فلا يند عن تقديره ومشيئته شيء - وما يكون من طاعة ولا معصية ولا غير ذلك من فعل إلا وهو تحيط به إرادة الله المطلقة.

قوله: {فذرهم وما يفترون} أي دعهم واجتنبهم وما هم فيه من الافتراء والباطل ولا تعبأ بهم وبما يخرصون - وفي ذلك من الوعيد للمشركين ما لا يخفى ١٧٢.

١٣٨ - (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله تعالى: {وقالوا هذه أنعم وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعم حرمت ظهورها وأنعم لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون}.

وهذا لون آخر من ألوان الكفر وصورة أخرى من صور الجهالة والضلالة قد ارتكس فيهما المشركون الجاهليون أشنع ارتكاس - إذ قالوا: {هذه أنعم وحرث حجر} أي أنعام وزرع {حجر} والحجر، بالكسر معناه الحرام والمنع ١٧٣ فقد حرموا أنعاما وجعلوها لأصنامهم - فهي ممنوع منها كل أحد غير آلهتهم الأصنام - وقالوا أيضا: {لا يطعمها إلا من نشاء} أي نحتجرها عن النساء ونجعلها للرجال - وقيل: احتجروها لخدم الأصنام - لا جرم أن ذلك تحكم وباطل لم يرد به شرع ولم يأمر به الله - وهو قوله: {بزعمهم} أي بظنهم المشوب بالكذب والذي لا تسعفه حجة أو برهان.

قوله: {وأنعم حرمت ظهورها} المراد بها البحائر والسوائب والوصائل والحوامي - وقد سبق توضيح معاني هذه الأسماء - فهذه الأنعام

تعتق وتمنع ظهورها من الركوب أو الحمل عليها لتظل بزعمهم محتجرة للآلهة - وقيل: المراد بالأنعام هنا ما يجعلونه نصيبا لآلهتهم، فيسيبونه لها ويمنعون ظهوره من الركوب والحمل.

قوله: {وأنعم لا يذكرون اسم الله عليها} وهذا قسم آخر من أقسام الأنعام كانوا لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها بل كانوا يذكرون عليها اسم الأصنام - وقيل: المراد: ما ذبح من الأنعام على النصب - أي من أجل آلهتهم.

قوله: {افتراء عليه} مفعول لأجله منصوب - أو مصدر مؤكد - أي فعل هؤلاء المشركون ما فعلوه، وقالوا من الكفر ما قالوا مما نسبوه إلى الله ظلما، إنما كان كذبا عليه سبحانه.

قولهم: {سيجزيهم بما كانوا يفترون} ذلك وعيد من الله لأولئك المشركين الخراصين الذين يفترون على الله الكذب، بأنه مجازيهم من العقاب ما يستحقونه في مقابل شركهم وضلالهم وافترائهم على الله بالباطل ١٧٤.

١٣٩ - (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {وقالوا ما في بطون هذه الأنعم خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم} وهذا لون آخر من ألوان الضلال الذي كان الجاهليون يقارفونه عدوا بغير علم وهو ما تكشف عنه هذه الآية - وقد اختلفوا في المراد بقوله: {ما في بطون هذه الأنعم} فقيل: معناه اللبن كان للرجال دون النساء - أي أن ألبان الأنعام كانت خالصة لذكرانهم، محرمة على إناثهم - وقيل: كانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه وكان للرجال خاصة دون النساء - وإن كانت أنثى تركب فلم تذبح - وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، أي الرجال والنساء.

فقوله: {سيجزيهم وصفهم} وصفهم منصوب لوقوعه موقع مصدر " يجزيهم " والتقدير: جزاء وصفهم - والمعنى: سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله - وقيل: سيجزيهم جزاء وصفهم - والمراد بوصفهم افتراؤهم على الله فيما أحلوه وحرموه.

قوله: {إنه حكيم عليم} أي أن الله في مجازاة هؤلاء المشركين على افترائهم على الله الكذب وقيلهم الباطل {حكيم} فما يصدر عنه من جزاء أو عقوبة أو وعيد إنما هو عن حكمة ربانية لا تزيغ - وهو كذلك {عليم} بما يصلح عليه الناس من الأحكام أو الجزاء ١٧٥.

١٤٠ - (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

قوله تعالى: {قد خسر الذين قتلوا أولدهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين} نزلت هذه الآية في فريق من المشركين العرب ممن كان يقتل الأولاد خشية الإملاق، ويئد البنات لأجل الحمية ومخافة العار - لا جرم أن ذلك صنيع فاضح ومشين يصم هؤلاء السفهاء الفجار بالخسران والعار.

وقد ذكر القرطبي رواية في هذا الصدد تؤز القلب والمشاعر أزا، وتقض الوجدان والأعصاب قضا - وتستنفر في النفوس بالغ الأسى والاتياع والأشمئزاز رواية في ظلم المشركين الجاهلين تطير لها القلوب والعقول، وتقشعر لفظاعتها ونكرها النواصي والأبدان، إذ قال: روي أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مغتما بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مالك تكون محزونا؟ " فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنبا في الجاهلية فأخاف ألا يغفر الله لي وإن أسلمت! فقال له: " أخبرني عن ذنبك " فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفعت إلي امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل الناس نخطبوها، فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زواج - فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق بألا أخونها - فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر - فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت! أيش ١٧٦ تريد أن تفعل بي! فرحمتها - ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي - فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة،

وهي تنادي في البئر يا أبت، قتلتني - فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت - فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال: " لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل في الجاهلية لعاقبتك ١٧٧ ".

قوله: {سفها بغير علم} سفها منصوب على المصدرية لفعل محذوف - وقيل: على الحال - وقيل: على أنه مفعول لأجله - والمعنى أنهم فعلوه من وأد وغيره لجهالتهم وخفة أحلامهم.

قوله: {وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله} المقصود بما رزقهم الله مما حرموه على أنفسهم هي البحائر والسوائب والوصائل والحوامي - فقد حرموا ذلك على أنفسهم اجتراء على الله بالباطل والكذب.

قوله: {قد ضلوا وما كانوا مهتدين} أي ضاعوا عن صراط الله المستقيم - وهم في الأصل ليسوا من أهل الهداية بل من أهل الضلال ١٧٨.

١٤١ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

قوله تعالى: {وهو الذي أنشأ جنت معروشت وغير معروشت والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشبها وغير متشبه كلوا من ثمره إذا أثمر وءاتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} يقيم الله في ذلك دلائل من الطبيعة والخلق على تقرير حقيقة التوحيد وعلى قدرة الخالق الجليل الذي صنع هذه الخلائق وأشباهها وأبدع فيها طبيعتها وصفاتها من مختلف الطعوم والمذاقات والأكل بما يقطع في يقين كامل علة وجود الله سبحانه وأنه الإله الأحد المتعالي الذي أوجد كل شيء من لا شيء وعلى غير مثال سبق فقال سبحانه: {وهو الذي أنشأ جنت معروشت وغير معروشت} الجنات: البساتين.

والمعروشات، من العرش وهو أعلى الشيء - وعرش البيت يعني سقفه - واعترش العنب إذا علا على العريش - وعرش الكرم عرشا وعروشا - أي رفع دواليه على الخشب - والكروم المعروشات: ما حمل منها على العريش، وهو عيدان تصنع على هيئة السقف ليوضع عليها الكرم ١٧٩ أما غير المعروشات فما كان من الكرم ممدودا على الأرض غير مرفوع - قال ابن عباس في ذلك: معروشات ما عرش من الكرم، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم - وفي رواية عنه أخرى أن المعروشات ما عرش الناس وهو ما يغرسونه من بساتين ونحوها - وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمرات.

قوله: {والنخل والزرع مختلفا أكله} النخل والزرع، معطوف على جنات، سمي أكلا، لأنه يؤكل - والمعنى أنه سبحانه خلق النخل والزرع مختلفا ما يخرج منه مما يؤكل من الثمر - يعني مختلفا طعمه فمنه الجيد ومنه دون ذلك.

وقيل: أنشأهما مختلفين في الصورة والمعنى، أو في الهيئة والكيفية.

قوله: {والزيتون والرمان متشبها وغير متشابه} الزيتون والرمان معطوف على جنات كذلك - متشابها حال منصوب - أي خلق الزنتون والرمان حال كونه متشابها وغير متشابه - واختلف في تأويل {متشبها وغير متشبه} فقيل: المراد في الطعم فمنه الحلو والحامض والمر - وقيل: متشابها في المنظر وغير متشابه في الطعم - فهذه الأنواع من النبات كالنخيل والزرع والزيتون والرمان وغير ذلك من أنواع المغروسات والثمرات على اختلاف أنواعها وهيئاتها، وتفاوت طعومها ومذاقاتها، وتباين أصنافها وأحجامها، كل ذلك ينطق بالبرهان الساطع، والدليل الأبلج اللامع لكل امرئ عاقل فطين على وجود الله وعلى جلال ملكوته وعظيم سلطانه وجبروته - لا جرم أن ذلك كله من صنع الله وتقديره ليكون ذلك كله أعظم شاهد على وحدانية الخالق الحكيم.

قوله: {كلوا من ثمره إذا أثمر} الأمر في قوله: {كلوا} للإباحة - فقد أباح الله للناس الأكل من ثمر ما غرسوا - وظاهر الآية يدل على إباحة الأكل قبل النضج والينع قوله: {وءاتوا حقه يوم حصاده} اختلفوا في المراد بحقه يوم حصاده على ثلاثة أقوال هي: القول الأول: على أن المراد به الزكاة المفروضة - وهي العشر ونصف العشر لكيفية السقي - فما سقي بماء المطر ففيه العشر، وما سقي بالسانية – وهي الناقة يستقى عليها – فيقتضي ذلك كلفة مالية، ففيه نصف العشر - وهو قول فريق من أهل العلم فيهم أنس بن مالك وابن عباس وطاووس والحسن البصري وسعيد بن المسيب - ويفهم من هذا القول أن هذه الآية نزلت في المدينة - وقد تمسك الإمام أبو

حنفية بهذه الآية في وجوب الزكاة في كل ما تنبته الأرض من النبات، مطعوما أو غير مطعوم - واستدل على ذلك أيضا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم: " فيما سقت السماء العشر، وفيما سقي بنضح ١٨٠ أو دالية نصف العشر " وتفصيل ذلك في موضعه من تفسير سورة البقرة.

قوله: {ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} السرف، بالتحريك: ضد القصد أو مجاوزته - والإسراف معناه التبذير ومجاوزة القصد - أو ما أنفق في غير طاعة الله ١٨١.

وثمة تفصيل لأهل التأويل في تأويل الإسراف الذي نهى الله عنه بهذه الآية.

وذلك على جملة أقوال:

منها: أنه مجاوزة القدر في العطية إلى ما يجحف برب المال - والتقدير: لا تجاوزوا الحد فتبسطوا أيديكم كل البسط في الإعطاء - وقالوا في هذا الصدد: إنهم كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة ثم تسارفوا - أي تباروا في الإعطاء وأسرفوا فأنزل الله الآية.

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، إذ جذ نخلا فقال: لا يأتين اليوم أحد إلا أطعمته - فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فقال الله: {ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين}.

ومنها: أن الإسراف المنهي عنه في الآية هو منع الصدقة (الزكاة) وتلك معصية كبيرة.

ومنها: أن المراد بالإسراف في الآية هو الأكل من الزرع والثمر قبل الحصاد أو الجذاذ لما في ذلك من إضرار بالفقراء بخسهم حقهم.

ومنها: أن المراد بالإسراف النفقة في معصية الله.

ومنها: أن الخطاب في الآية للولاة وأهل السلطان، إذ نهاهم عن الأخذ من الرعية ما ليس لهم أن يأخذوه من أموالهم.

الراجح هنا، القول بالنهي عن عموم معاني الإسراف من غير تخصيص لواحد من هذه المعاني دون غيره ١٨٢.

١٤٢ - (وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {ومن الأنعم حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطن إنه لكم عدو مبين} حمولة، منصوب بالعطف على جنات - وتقديره: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا ١٨٣ والحمولة: كبار الإبل التي يحمل عليها - وقيل: المراد بها ما يحمل عليه من الأنعام ولا واحد لها من لفظها - والمراد بالفرش: صغار الإبل التي لا يحمل عليها وقيل: ما يفرش المنسوج من صوفه وشعره ووبره - ذلك من منن الله على عباده، إذ خلق لهم من الأنعام ما يحملون عليه أثقالهم أو يستغلونه للدفء والأكل.

قوله: {كلوا مما رزقكم} الأمر في قوله: {كلوا} للإباحة - ومن، في قوله: {مما} للتبعيض - والرزق بعمومه شامل للحلال والحرام، فالمراد هنا: كلوا بعض ما رزقكم الله تعالى وهو الحلال.

قوله: {ولا تتبعوا خطوت الشيطن} خطوات يعني طرقه وأوامره في التحليل والتحريم - أي لا تتبعوا أوامر الشيطان وإغواءه بتحريم ما أحل الله من الأنعام كتحريم البحيرة والسائبة وغيرهما من الأنعام، وكذلك تحريم ما جعلوه من الحرث نصيبا لله افتراء عليه.

قوله: {إنه لكم عدو مبين} الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فهو عدوه القديم الألد، إذ أخرج آدم من الجنة بكيده وخداعه وحسده - وما فتئ الشيطان يناصب الإنسان العداوة والإغواء والتضليل حتى يهوي في الفسق والفساد كيما يتردى معه يوم القيامة في جهنم - وسيظل الشيطان على حاله من فرط الخبث والحسد والكيد لبني آدم وهويزين لهم الحرام وينفرهم من الحلال ويغريهم بفعل المنكرات جميعها ليكونوا أشقياء تعساء في هذه الدنيا وليتقاحموا في النار معذبين يوم القيامة - أعاذنا الله من كيد الشيطان وإغوائه وإغرائه ١٨٤.

١٤٣ - (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {ثمينة أزوج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صدقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظلمين} ثمانية منصوب على البدل

من الحمولة والفرش - وقيل: منصوب بفعل تقديره: أنشأ - أي أنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أي أصناف أو أفراد - والزوج ضد الفرد - وكل واحد منهما يسمى زوجا أيضا.

ويقال للاثنين: هما زوجان وهما زوج، وكما يقال: هما سيان وهما سواء ونقول: عندي زوجا حمام يعني ذكرا وأنثى وعندي زوجا نعل - وثمانية أزواج يعني ثمانية أفراد - وسمي الفرد زوجا في هذه الآية، لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة للآخر - والواحد إن كان منفردا سواء كان ذكرا أو أنثى سمي فردا - وإن كان الذكر مع الأنثى من جنسه قيل لهما: زوج - ويقال لكل واحد منهما على انفراده زوج ١٨٥.

وقوله: {من الضأن اثنين} الضأن جمع ضائن - كركب وراكب، وصحب وصاحب - والأنثى ضائنة والجمع ضوائن ١٨٦ والضأن هي ذوات الصوف من الغنم، وهي خلاف المعز من الغنم - واثنين منصوب على البدل من ثمانية.

قوله: {ومن المعز اثنين} المعز من الغنم ضأن - وهو اسم جنس - وواحد المعز ماعز - مثل صاحب وصحب - والأنثى ماعزة وهي العنز، والجمع مواعز ١٨٧.

قوله: {قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين} الاستفهام للإنكار والتوبيخ، لنسبتهم ما حرموه إلى الله افتراء عليه فكانوا مرة يحرمون الذكور، ومرة يحرمون الإناث، وغير ذلك من صور التحريم الباطل.

والمراد بالذكرين: ذكر الضأن والمعز - والمراد بالأنثيين: أنثى الضأن والمعز - أي قل لهم: أجاءكم التحريم فيما حرمتم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الذكرين أم من الأنثيين؟ فلو قالوا: من قبل الذكر، لاقتضى ذلك تحريم كل ذكر عليهم - ولو قالوا: من قبل الأنثى لاقتضى ذلك تحريم كل أنثى عليهم - وإن قالوا بتحريم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فذلك يستلزم أن كل مولود حرام سواء كان ذكرا أو أنثى وكلها مولود.

قوله: {نبئوني بعلم إن كنتم صدقين} أي بينوا لي ما حرمتموه بعلم يظهر صدق ما تقولون - وذلك على سبيل التبكيت لهم والتوبيخ - والله يعلم أنهم كاذبون فيما زعموه من تحريم وأنهم ليس لهم في ذلك برهان.

١٤٤ - (وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قوله: {ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين} ذلك تفصيل لتمام الأزواج الثمانية - والكلام في تأويل {من الضأن اثنين ومن المعز اثنين} نظيره هنا - وجملة ذلك أن المشركين الجاهلين كانوا يقولون: {ما في بطون هذه الأنعم خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا} وكذلك حرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام - فقد كانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال - فلما أن جاء الإسلام وتبينت فيه الأحكام جادل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم: إذ قالوا: يا محمد بلغنا أنك تحل أشياء مما كان آباؤنا يحرمونه فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: " إنكم قد حرمتم أشياء على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم، من قبل الذكر أما من قبل الأنثى؟ " فسكت كبير المشركين، الناطق باسمهم وهو مالك ابن عوف الجشمي، وتحير ولم يتكلم - فلو قال: جاء هذا التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرم جميع الذكور - ولو قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث - وإن كان باشتمال الرحم عليه فيجب أن يحرم الكل، لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى.

قوله: {أم كنتم شهداء إذ وصكم الله بهذا} أم للاستفهام الإنكاري - وهي بمعنى بل والهمزة - أي بل أكنتم شهداء - يعني حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم - والمراد تبكيتهم وتقريعهم وإظهار سفاهتهم وخفة أحلامهم وطيش تفكيرهم السقيم.

قوله: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغيرعلم} أي ليس من أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرمه افتراء عليه ولم يقتصر ظلمه على افتراء الكذب على الله، بل تجاوز ظلمه هذا حتى أضل غيره من الناس فسن لهم هذه السنة

الضالة وأغواهم بفعل ما لم ينزل به الله سلطانا.

قوله: {إن الله لا يهدي القوم الظلمين} إن الله لا يكتب هدايته لمن فسد طبعه ومال عن الحق واتبع هواه وأضل الناس بغير علم أو برهان أولئك هم الظالمون الذين فتنوا الناس عن دينهم وأفضوا بهم إلى الفسق والكفران ١٨٨.

١٤٥ - (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {قل لا أجد ما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم}.

لما ذكر الله أن المشركين حرموا ما حرموا افتراء على الله، أمر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بإخبارهم أن مصدر العلم بالتحريم الحقيقي هو الوحي وهو من الله وحده، إذ يبين للناس سائر الأحكام وكل وجوه الحلال والحرام، ولا ينبغي الركون في ذلك إلى أهواء الناس وما يختلقونه باطلا وتخريصا أو يفترونه على الله افتراء - فأخبرهم النبي بما بين له ربه، أنه لا يجد فيما أوحى الله إليه شيئا محرما غير هذه المذكورة في الآية.

وبذلك فإن المحرمات محصورة هنا في هذه الآية، بيد أنه نزل في المدينة سورة المائدة، وزيد فيها على هذه المحرمات مذكورات أخرى وهي - المنخنقة والوقوذة والمتردية والنطيحة - وهو ما بيناه في سورة المائدة - وكذلك بينت السنة محرمات أخرى من البهائم كتحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير - وكذلك تحريم الحمر الأهلية والكلام وغير ذلك من المحرمات والخبائث.

واختلفوا في هذه الآية هل هي منسوخة أم محكمة؟ فقد قيل: إنها محكمة وبهذا ليس من شيء محرم من الحيوان إلا ما ورد ذكره فيها دون غيره - أي أنه لا حرام إلا ما ذكره الله تعالى في هذه الآية - وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن عمر وعائشة - وهو قول ضعيف مخالف لما ذهب إليه أكثر العلماء من السلف الخلف، وهو أن حصر التحريم فيما ذكرته الآية هنا منسوخ، فما ذكرته الآية هنا من محرمات محكم ثم أضيف إليه كل ما ذكر تحريمه بعد ذلك في الكتاب أو السنة - وهو الصواب - وبذلك فإن الآية هذه محكمة وقد أخبر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يجد فيما أوحي إليه إذ ذاك من القرآن سوى ما ذكر - فجميع ما حرم بالمدينة لم يكن قد سبق فيه وحي بمكة - فلا تعارض بين ما حرم بالمدينة وبين ما أخبر أنه أوحي إليه تحريمه بمكة.

قوله: {على طاعم يطعمه} أي على آكل يأكله - وجملة {يطعمه} في محل جر صفة لطاعم.

قوله: {إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير} أي لا أجد فيما أوحاه إلي من كتابه شيئا محرما على آكل يأكل مما تزعمون أنه محرم من هذه الأنعام إلا أن يكون ميتة - وهي التي ماتت بغير تذكية - أو لم تذبح ذبحا شرعيا كالمنخنقة ونحوها - مسفوحا (مصبوبا) الدم الجامد كالكبد والطحال - وفي الحديث " أحلت لنا ميتتان السمك والجراد، ودمان الكبد والطحال " وكذلك حرم لحم الخنزير - وقد مر بيانه.

قوله: {فإنه رجس} الضمير عائد إلى المحرمات المذكورة – وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير – والرجس معناه القذر والنتن ١٨٩.

قوله: {أو فسقا} معطوف على قوله: {أو لحم خنزير} ١٩٠.

قوله: {أهل لغير الله به} صفة لفسق - وأهل من الإهلال، وهو رفع الصوت أي ذبح على الأصنام - وسمي فسقا لتوغله في الفسق وهو الخروج عن أمر الله وطاعته.

قوله: {فمن اضطر غير باغ ولا عاد} بعد أن يبين تحريم هذه الأربعة المذكورة، بين أنه عند الضرورة أو الاضطرار تصير هذه المحرمات مباحة للأكل أي أن من اضطر إلى أكل ما حرم الله من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به مما ذبح على النصب، أبيح له أن يأكل شريطة أن يكون الذي يأكل {غير باغ} أي لا يأكله على سبل التلذذ - بل للضرورة من الجوع، {ولا عاد} أي غير متجاوز قدر الضرورة في أكله وهو أن يأكل منه ما يدفع عن نفسه الهلاك من الجوع.

قوله: {فإن ربك غفور رحيم} الله جل وعلا يغفر لمن يفعل المحظور من أجل الاضطرار فلا يعاقب على ذلك رحمة منه بالعباد - وذلك يدل على حصول الرخصة في أكل ما حرم أكله بسبب الضرورة التي يخشى عندها من الهلاك ١٩١.

١٤٦ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

قوله تعالى: {وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزينهم ببغيهم وإنا لصدقون (١٤٦) فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة وسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين} المراد بالذين هادوا اليهود أو الهود - وقيل: اليهودي نسبة إلى يهودا بن يعقوب عليه السلام - وهوده أي حوله إلى ملة يهود - والهوادة اللين ١٩٢ فقد حرم الله على اليهود {كل ذي ظفر} أي ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير مثل الإبل والأنعام والأوز - قال ابن عباس: المراد البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب مما حرمه الله على اليهود دون غيرهم من الأولين والآخرين عقابا لهم؟

قوله: {ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا} حرم الله خاصة شحوم البقر والغنم دون لحومها فهي مباحة لهم - واستثنى من هذه الشحوم المحرمة ما بينته الآية {إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم} فكل شحم سوى ما استثناه الله من البقر والغنم في هذه الآية فإنه كان محرما عليهم - وفي الحديث فيما رواه البخاري ومسلم " قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها ١٩٣ ثم باعوها وأكلوا أثمانها " والمراد بما حملته ظهورها ما علق بالظهر من الشحم فهو مستثنى من التحريم - والحوايا جمع ومفرده حاوية وحوية وحاوياء وهي ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار وهي المباعر وفيها الأمعاء - والحوايا معطوف على الظهور - فيكون معنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما ما حملت ظهورها أو ما حملت الحوايا - فما حملته الحوايا من الشحم غير حرام، أما الحوايا نفسها فهي مما أحل لهم.

قوله: {أو ما اختلط بعظم} ما في محل نصب معطوف على {ما حملت} والمعنى: حرمنا على اليهود شحوم البقر والغنم سوى ما حملت ظهورها أو ما حملت حواياها أو ما اختلط بعظم فهو لهم حلال - والمراد بما اختلط بعظم شحم الألية والجنب والرأس وما أشبه مما كان من شحم على عظم.

قوله: {ذلك جزينهم ببغيهم} ذلك، في موضع نصب مفعول به ثان لقوله: {جزينهم} وتقديره: جزيناهم ذلك ببغيهم ١٩٤ - والبغي معناه الظلم والتعدي والمجاوزة ١٩٥ والمعنى: أن هذا الذي حرمناه على اليهود من الأنعام والطير ذوات الأظافر غير المشقوقة، وما حرمناه عليهم كذلك من شحوم البقر والغنم – كان عقابا لهم من الله في مقابل معاصيهم وبغيهم على ربهم - والبغي معناه الظلم والتعدي والمجاوزة ١٩٦ فقد اعتدوا على حدود الله وعصوه عصيانا نكرا وقارفوا من الموبقات والخطايا أشنعها كقتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله واستحلالهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل وغير ذلك من وجوه الظلم والاعتداء على الناس وعلى أولياء الله من المؤمنين الصادقين.

قوله: {وإنما لصدقون} أي فيما أخبرناكم به عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من لحوم الأنعام والطير والشحوم.

١٤٧ - (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة وسعة} أي إن كذبك هؤلاء اليهود فيما أخبرناك به عما حرمناه عليهم، وأصروا على تكذيبهم وزعمهم أن هذا التحريم قديم، قد حرمه إسرائيل من قبل على نفسه فنحن نحرمه مثلما حرمه هو على نفسه، فقل لهم: {ربكم ذو رحمة وسعة} أي رحمة الله واسعة تسع المؤمنين والخلق أجمعين - والله جل وعلا لا يعاجل من كفر منكم بالعقوبة والانتقام إلا إذا اشتد غضبه عليكم لفرط ظلمكم، ولهول ما توقعونه في البشرية من فظائع ومكائد وأفاعيل غاية في الشناعة والنكر - ولذلك قال: {ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين} ١٩٧.

١٤٨ - (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ)

قوله تعالى: {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١٤٨) قل فلله الحجة البلغة فلو شاء لهدكم أجمعين (١٤٩) قل هلم شهداء كم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بئايتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون}.

ذلك إخبار من الله بالغيب عما سيقوله العرب المشركون قبل أن يقولوه وقد قالوه حسبما تحكيه الآيات هنا عن أباطيل المشركين الجاهلين وسفاهاتهم وتهافت أفكارهم وتصوراتهم وما اصطنعوه من حجج سقيمة واهية، إذ قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أراد الله منا الإيمان غير إيماننا وإفراده بالعبادة دون الأوثان والأصنام وتحليل ما حرم علينا من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي وبطلان ما جعلناه لله نصيبا من الحروث والأنعام وغير ذلك من الأحكام لما فعلنا شيئا من ذلك ولكان الله قد حال بيننا وبين هذه الأفعال، لأن الله قادر على الحيلولة بيننا وبين ما عبده آباؤنا من الأصنام والأوثان، ولما قلدناهم فيه من مختلف الأحكام - الله قادر أن يصدنا وآباءنا من قبل عن عبادة الأصنام وعن كل ما فعلنا من تكريم لآلهتنا وإجلال لها! لا جرم أن ذلك ترخيص وهذيان تتقوله ألسنة الضالين من الناس وهم تتيه أحلامهم في غاية السفاهة والسقم، لذلك رد الله مقالتهم بقوله: {كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا} أي كما كذب هؤلاء المشركون ما جئتهم به يا محمد من الحق والبيان فقد كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طغوا – أنبياءهم وما جاءوهم به من الآيات والدلائل حتى أسخطوا الله عليهم فاستحقوا بذلك منه غضبه فأحل بهم البأس وهو قوله: {حتى ذاقوا بأسنا} أي أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم، فذلوا في هذه الدنيا وباءوا بالخسران والعمه والضياع، فضلا عما أعده الله لهم من العذاب البئيس يوم القيامة.

قوله: {قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا} أي قل لهؤلاء المشركين الطاغين السفهاء: هل عندكم برهان على صدق دعواكم وزعمكم أن الله راض عنكم وعن إشراككم أصنامكم في عبادته وعما تزعمونه من الأحكام المفتراة كتبحير البحيرة وغيرها وما جعلتموه من أموالكم نصيبا لله – هل عندكم من علم أو دليل على ما تقولونه فتظهروه لنا؟! ولا يخفى ما في ذلك من توبيخ لهؤلاء السفهاء - فهم يستحقون من التقريع ما يؤز مشاعرهم ويوقظ فيهم العقول الراكدة المستنيمة.

قوله: {إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون} أي ما تتبعون في عبادتكم وتصوركم وأفعالكم إلا الباطل وهو لا يغني من الحق شيئا - وما أنتم إلا {تخرصون} أي تكذبون وتتقولون الباطل.

١٤٩ - (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: {قل فلله الحجة البلغة} الفاء مقترنة بجواب شرط محذوف - أي إذا ظهر أنه لا حجة لكم فلله الحجة البالغة - والمراد بالحجة هنا: كتاب الله الحكيم ورسوله الأمين ومعجزاته المسخرة للنبيين لتكون آية للعالمين والبالغة، أي الواضحة، والكاملة المتانة والقوة بما يقطع كل عذر لكل محتج.

قوله: {فلو شاء لهدكم أجمعين} الله قادر أن يجعل الناس كلهم مؤمنين - قادر أن يخلق بني آدم على طبيعة لا تعرف غير الهدى، فلا تميل للشر ولا تجنح للضلال البتة - قادر أن يجعل الإنسان على هذه الكيفية من التخلق، لكنه سبحانه شاء أن يجعله على غير هذه الخلقة الرفافة المثلى - فقد جعله حافلا بحوافز الفضائل وحوافز الشهوات، فهو بذلك مستجيب لنداء الهداية مثلما هو مستجيب لنداء الضلال، وذلك مستجيب لنداء الضلال، وذلك بما بث في كينونته من استعداد ذاتي مفطور لفعل كل من الخير والشر - فهو إذا ما مضى في طريق الهداية فقد اهتدى وأعانه الله على الخير وفعله - وإذا ما اختار أن يسلك طريق الباطل مكن الله له فعل ذلك بما أوتيه من استعداد جبل عليه في الأصل - وفي كل حال من الأحول أو خيار من خيارات الإنسان إنما يكون ذلك محوطا بقدرة الله وسلطانه - فهو مهما اختار أو فعل، وأنى سار أو توجه إنما هو سادر في قدر الله ومن خلال إرادته المطلقة التي لا تعرف القيود أو

الحدود.

١٥٠ - (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

قوله: {قل هلم شهداء كم الذين يشهدون أن الله حرم هذا} هلم اسم فعل أمر بمعنى هات - وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع والمعنى: هاتوا شهداء ليشهدوا أن الله حرم عليكم ما تزعون أنه حرم عليكم من الحروث والأنعام - فإن جاءوا بشهداء يشهدون على مقالتهم الكاذبة وافترائهم الفاضح فلا تصدقهم، لأنهم كاذبون يشهدون الزور ويتقولون على الله الباطل، ولذلك قال سبحانه: {فإن شهدوا فلا تشهد معهم}.

قوله: {ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بئايتنا} ذلك تحذير من الله لعباده المؤمنين من اتباع الفاسقين الطغاة الذين كذبوا بالوحي وبما أنزل الله للناس من كتاب - تحذير للمؤمنين قائم بقاء هذا الزمان، من الركون للظالمين الغواة الذين لا يتبعون في هذه الحياة غير الهوى والشهوات، ولا يسيرون في غير طريق الضلال والظلم - فليحذر المسلمون باستمرار من الاغترار بهم، والانخداع بسلوكهم وأساليبهم ومناهجهم المضلة الكافرة.

قوله: {والذين لا يؤمنون بالأخرة} معطوف على {الذين كذبوا بئايتنا} أي لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيتنا وأهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة فهم مكذبون جاحدون - وهم بعد ذلك غير مؤتمنين على عقيدة أو ملة أو خلق - وما ينبغي لمؤمن بعد جحودهم وكفرانهم أن يثق بسلوكهم ومناهجهم، لأنهم إنما يتبعون الهوى ويسول لهم الشيطان أعمالهم.

قوله: {وهم بربهم يعدلون} من العدل، وهو الذي يعادل غيره في الوزن والقدر - وكذا العديل - ومنه التعادل أي التساوي ١٩٨ والمعنى أن هؤلاء المكذبين الجاحدين يجعلون لله عدلا مساويا - أو يتخذون معه شريكا في العبادة من الأوثان ونحوها - والجملة معطوفة على قوله: {لا يؤمنون} وقيل: في محل نصب على الحال ١٩٩.

١٥١ - (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسنا ولا تقتلوا أولدكم من إملق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصكم به لعلكم تعقلون (١٥١) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصكم به لعلكم تذكرون (١٥٢) وأن هذا صرطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصكم به لعلكم تتقون}.

ما اسم موصول في محل نصب مفعول لقوله: {أتل} ولا، في قوله: {ألا} زائدة - وتقديره: حرم عليكم أن تشركوا - ويجوز أن تكون ما استفهامية - فهي بذلك في محل نصب بالفعل {حرم} وتقدير ذلك: أي شيء حرم ربكم؟.

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس للإقبال عليه لكي يبين لهم شرع الله فيما حرمه عليهم - يأمره أن يقول لهم: تعالوا إلي أيها القوم أقرأ عليكم ما حرم ربكم عليكم - وما أقوله لكم لهو الحق اليقين الذي أبينه لكم وليس تخريصا كتخريصكم - وكذلك يكون واجب العلماء وهو أن يدعوا الناس إلى دين الله ومنهجه الحق فيبينوا لهم الحق الذي تتضمنه شريعة الإسلام، ويحذروهم من الباطل بكل صوره وأشكاله ويحذروهم كذلك من الوقوع في المحرمات والفسق كما بينته الآية هنا.

قوله: {ألا تشركوا به شيئا} ألا تشركوا، في محل نصب بدل من {ما} أي أتل عليكم تحريم الإشراك - وشيئا، يحتمل المفعولية - أي لا تشركوا به شيئا من الأشياء - ويحتمل المصدرية - أي لا تشركوا به شيئا من الإشراك - وقد بدأ الله بالنهي عن الشرك، فهو أكبر الكبائر وأفظع المعاصي - لا جرم أن الشرك فادحة شنيعة تدنو دونها كل الموبقات والفوادح فإنه لا يشرك بالله ظالم أثيم قد تردى في

هاوية الخاسرين اليائسين - ويستوي في الشرك كل صوره وألوانه من الأوثان الخسران والآلهة المزيفة، ما بين حجر أصم، أو كوكب دائر في فلكه يسبح بحمد الله على الدوام، أو شبحا من الأشباح الموهومة، أو طاغوتا من طواغيت البشر يدين له المغفلون السفهاء بالطاعة المطلقة والولاء الكامل من غير روية ولا نظر، إلا العماية والخور، أو السفاهة والضلالة وانعدام البصر.

قوله: {وبالولدين إحسنا} إحسانا منصوب على المصدر، لفعل مضمر من لفظه - أي أحسنوا بالوالدين إحسانا - والإحسان إلى الوالدين يعني البر بهما وامتثال أوامرهما وبذل الخير والنصح لهما، وكامل التواضع واللين في مخاطبتهما ودفع الأضرار والشرور عنهما.

قوله: {ولا تقتلوا أولدكم من إملق نحن نرزقكم وإياهم} بعد أن بين الله حق الوالدين على الأولاد، ذكر عقيب ذلك حق الأولاد على الوالدين فنهى عن قتلهم خوفا من الفقر مثلما كان الجاهليون يفعلون بالذكور والإناث على السواء - إذ كانوا يقتلون خوفا من الفقر ويئدون البنات خشية العار - لا جرم أن ذلك مربع الشناعة وبالغ الفداحة والنكر - فإنه لا يجترئ على قتل النفس البريئة إلا مقبوح ظلوم، أو عات وعتل وغشوم - ما ينبغي لعاقل ذي قلب وكينونة بشرية سوية أن يجترئ على قتل ولده خشية الفقر - فإن الله جلت قدرته لهو القمين برزق الوالدين ومن يعولونهم من الأولاد - فليس من مدعاة بعد ذلك للخوف من الفقر على الأسرة والأولاد ما دام الله عز وجل متكفلا بالرزق.

قوله: {ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن} الفواحش جمع فاحشة، وهي الزنا وكل ما يشتد قبحه من الذنوب وكل ما نهى الله عنه والفحش ككل شيء جاوز حده، والفاحش ما جاوز الحد ٢٠٠.

على أن تأويل الفواحش ما ظهر منها وما بطن موضع خلاف - فقد قيل: المراد بما ظهر منها زواني الحوانيت، وأما ما بطن فما خفي - وقد كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ذلك حلالا ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية - فما ظهر منها يعني العلانية، وما بطن يعني السر - وقد ذكر مثل ذلك عن ابن عباس، إذ قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بأسا بالزنا في السر ويستقبحونه في العلانية فحرم الله الزنا في السر والعلانية.

وقيل: الأولى أن لا يخصص هذا النهي بنوع معين بل يجري على عمومه في جميع الفواحش والمعاصي ظاهرها وباطنها، لأن اللفظ عام يتناول بعمومه سائر المعاصي والمناهي.

قوله: {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق} ذلك نهي من الله عن قتل النفس التي حرم الله قتلها لعصمتها بالإسلام أو بالعهد كالذمي والمستأمن، {إلا بالحق} وهو ما يوجب قتلها - أي لا تقتلوا النفس المعصومة بالإسلام أو الذمة أو العهد في حال من الأحوال إلا في حال الحق - أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق - وهو ما يوضحه الحديث - فقد جاء في الصحيحين وكتب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " وهذا الحق عدة أمور نعرض لها في الأخبار التالية - فقد روى الشيخان عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة ".

وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان محصن يرجم، ورجل قتل متعمدا فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض ".

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس " فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفسا، فبم تقتلوني.

إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لقتل المسلم - أما غير المسلم وهو الذمي أو المعاهد - ويراد بالمعاهد، المستأمن من أهل الحرب الذي

يدخل دار الإسلام بعقد الأمان من قبل دولة الإسلام - وقد جاء في قتل الذمي والمعاهد ظلما أشد الزجر والتهديد من الله بما يتوعد القاتلين ظلما الحرمان والخسران في الآخرة - فقد روى ابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عيه وسلم قال: " من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر ٢٠١ بذمة الله فلا يُرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا ".

وأخرج أبو داود والنسائي عن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من قتل معاهدا في غير كنهه ٢٠٢ حرم الله عليه الجنة ".

قوله: {ذلكم وصكم به لعلكم تعقلون} الإشارة عائدة إلى المنهيات المذكورة - فقد وصاكم الله بوجوب المحافظة على ما كلفتم به وهو اجتناب المنهيات لعلكم بعقولكم تكونون من الراشدين - ومن المعلوم أن كمال العقل هو الرشد.

١٥٢ - (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

قوله: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن} أي لا تقربوا ماله إلا لإصلاحه وتثميره وما فيه تحقيق لمصلحته - وقيل: النهي عن قربان مال اليتيم {إلا بالتي هي أحسن} يعني الاتجار فيه لتنميته وتكثيره - والخطاب هنا للأولياء والأوصياء، لأنه قال بعده: {حتى يبلغ أشده} أي احفظوه له فإذا بلغ سلموه إليه - والأشد واحد لا جمع له - وقيل: شد بضم الشين - وقيل جمع شد بفتح الشين - وكيفما كان ذلك فإن الأشد من القوة ٢٠٣ والمراد بذلك بلوغ الحلم - وقيل: أن يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة - وقيل: أن يبلغ خمسا وعشرين سنة - وهو قول الإمام أبي حنفية - وجملة المقصود أن يبلغ اليتيم سن الوعي والفهم وتمام الإدراك والخبرة.

قوله: {وأوفوا الكيل والميزان بالقسط} أي أتموا الكيل وهو المكيل، {والميزان} أي موزون الميزان {بالقسط} في محل نصب حال، أي بالعدل - والمعنى: لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم بل أوفوهم حقوقهم بإعطائها لهم كاملة غير منقوصة - وذلك بالقسط، أي بالعدل.

قوله: {لا نكلف نفسا إلا وسعها} أي طاقتها في إيفاء الكيل والوزن - بما يسعها ولا يعسر عليها - وقد جيء بهذه الجملة عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل - والمراد أن هذا الأمر يراعى فيه اقتدار البشر وطاقته من التحفظ والتحرز لتمام الإيفاء - فما لا يمكن الاحتراز عنه كما بين الكيلين من تفاوت فهو معفو عنه ولا يؤاخذ به المرء - وقيل: المراد أن من اجتهد في أداء الحق أو أخذه فأخطأ بعد ما استفرغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه ولا إثم.

قوله: {وإذا قلتم فأعدلوا ولو كان ذا قربى} يتضمن ذلك وجوب العدل في الأحكام والشاهادات بعيدا عن الجور والاعتساف والزور - فقد أوجب الله أن تجري الأحكام بين الناس بالعدل في غير ميل ولا جنوح - وكذلك في الشهادات لتؤدى في صدق واستقامة لا تعرف اللين أو الكذب أو المحاباة على حساب أهل الحقوق.

ومن واجب المسلم كيفما كان شأنه أو قدره إذا ما حكم أن يقضي بالحق، وإذا ما شهد أن يقول الحق مهما تكن الظروف - ومثل هذا الواجب منوط بكل مسلم أن يلتزمه ليقول الحق إذا علمه - وأن يقضي بالحق إذا كان من القضاة أو الولاة - ولا يميل حاكم أو قاض أو شاهد لقريبه أو صديقه - وإذا مال لا جرم أنه من المفرطين الآثمين أو المائلين الخاطئين.

قوله: {وبعهد الله أوفوا} العهد معناه: اليمين والموثق والأمان والذمة والوصية ٢٠٤ - والمعنى: أوفوا بكل ما عهده الله إليكم وذلك أن تطيعوه فيما أمركم به وأن تنزجروا عما نهاكم عنه وأن تعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - وذلك هو الوفاء بعهد الله - وقيل: المراد ما انعقد بين الناس من العهود والعقود والمواثيق - فهم مأمورون بالوفاء بها دون نقض أو غدر أو تفريط - وقيل: ما عهدتم الله عليه من أيمانكم ونذوركم ونحو ذلك.

قوله: {ذلكم وصكم به لعلكم تذكرون} الإشارة عائدة إلى ما فصله الله لعباده من الأحكام والتكاليف - فقد {وصكم به} أي أمركم بمراعاته

وامتثال أمر الله فيه لعلكم تتعظون وتنتهون عما زجركم وحذركم منه الله.

١٥٣ - (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

قوله: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصكم به لعلكم تتقون} أن بالفتح، في محل نصب، والتقدير: واتل أن هذا صراطي - أو على تقدير حذف حرف الجر، وتقديره: ولأن هذا صراطي - مستقيما، منصوب على الحال ٢٠٥. على أن هذه الآية عظيمة في مدلولها ومعناها، بل إنها بالغة الأهمية في التأكيد على التزام دين الله الحق وهو الإسلام - وذلك بالسير على هداه واتباع عقيدته وقيمه وتشريعه من غير تفريط في شيء من أحكامه وتعاليمه - ومن غير زيغ عن منهج الإسلام أو اغترار بغيره من شرائع الكفر وعقائد الضلال.

أما صراط الله المستقيم، فهو دينه الإسلام الذي ارتضاه لعباده ليكون لهم منهج حياة يسلكونه في دنياهم فينجون ويحظون بسعادة الدارين - وهو كذلك مستقيم أي قويم مستو لا اعوجاج فيه عن الحق - وقد أمر الله العباد باتباعه دون غيره من الأديان والملل والضلالات فقال: {فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} فتفرق منصوب بأن المضمرة وجوبا بعد فاء السببية ٢٠٦ والسبل، جمع سبيل - والمراد بالسبل: الملل والعقائد وغير ذلك من الطرق المذهبية الفاسدة ومختلف المناهج الأرضية كالضلالات البشرية التي ابتدعتها العقول الضالة والطبائع الشاذة كعقائد المجوس والبهائيين والهندوس والبوذية والاشتراكية وغير ذلك من نظم الأرض التي أفرزتها أهواء البشر، والتي بنيت على الشهوات والأنانيات كالذي بني على عبادة المال وهو نظام رأس المال - أو الذي بني على التعصب للإقليم والجنس بما يسمى بالقوميات، فضلا عن الديانات السماوية المحرفة التي خالطها التحريف والتزييف والتبديل فنسفها من الأصول والفروع نسفا، كاليهودية والنصرانية - إنه لا مساغ بحال من الأحوال أن تتبع البشرية غير منهج الإسلام، لأنه من عند الله حقا وصدقا، إذ لم يصبه تحريف ولا تزييف ولم يمسه مثقال ذرة من تغيير أو تبديل - وإنما هو المنهج الرباني الكامل الذي يراعي فطرة الإنسان أكمل مراعاة، ويلبي رغباته ومطالبه النفسية والروحية والبدنية أتم تلبية من غير إنقاص ولا حرمان ولا كبت ومن غير إسراف ولا تبذير ولا إفراط - وإذا سلكت البشرية صراط الإسلام المستقيم فلسوف تهتدي تمام الاهتداء، ولسوف تمضي في طريق الحق والسداد بعيدا عن كل ظواهر الزيغ والضلال والخوف وجنوح النفس والذهن - وإذ ذاك لسوف تستظل البشرية بظلال الإسلام الوافرة الرخية ونسائمه المشرقة الندية لتعيش عيش الآمنين الكرماء وتحيى حياة المطمئنين السعداء - وذلك هو مقتضى قوله: {ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} أي لا تتبعوا الملل والضلالات والمذاهب الأرضية التي ابتكرتها الطبائع الخبيثة والأذهان الشاردة التائهة من شياطين البشر - وإذا اتبعتم مثل هاتيك العقائد الفاسدة، والمذاهب الفكرية الكاذبة فسوف تفضي بكم إلى التفرق عن سبيل الله - أي تجنح بكم عن طرق الله وهو الإسلام لتذهب بكم مذاهب شتى فتنقلبوا متفرقين أشتاتا أو تبوءوا مختلفين متدابرين - فتذهب ريحكم وتهون شوكتكم ثم تصيرون بعد ذلك إلى سخط الله وعذابه - وفي هذا أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال: " هذا سبيل الله مستقيما " وخط عن يمينه وشماله ثم قال: " هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعوا إليه " ثم قال {وأن هذا صرطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} وقد جمع السبل من غير صراط الله، لأنها عبارة عن مجموع الضلالات والأباطيل والأديان المحرفة وهي كثيرة ومختلفة وعديدة - بخلاف صراط الله المستقيم وهو سبيله الواحد لأنه الحق - وهو واحد لا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتعدد - كقوله تعالى: {ليخرجكم من الظلمت إلى النور}.

قوله: {ذلكم وصكم به لعلكم تتقون} الإشارة إلى اتباع سبيل الله وهو صراطه المستقيم، والكف عن اتباع السبل الأخرى الضالة - فقد وصى الله عباده بالسير في سبيله واتباع منهجه الحكيم واجتناب سبل الضلال التي تفرق القلوب وتجعل الناس أشتاتا متنافرين - لقد وصى الله بذلك عباده ليكون لهم في ذلك منجاة لهم من هوان الدنيا وشقائها وتعسها، ومنجاة لهم من عذاب الله يوم القيامة ٢٠٧.

١٥٤ - (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {ثم ءاتينا موسى الكتب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (١٥٤) وهذا كتب أنزلنه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون} ثم تفيد التراخي - وقيل: العطف - موسى والكتاب مفعولان للفعل {ءاتينا} - تماما، منصوب على المصدر، أو مفعول لأجله ٢٠٨ وأحسن، قرئ بفتح النون على أنه فعل ماض وهو صلة الذي - وتقديره: تماما على من أحسن القيام به وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: على الذي هو أحسن - واختلفوا في تأويل الآية - فقد قيل: آتيناه التوراة فضيلة على ما آتى المحسنين من عباده - وقيل: آتينا تماما على الذي أحسن موسى فيما امتحنه الله به في الدنيا من أمره ونهيه - وقيل: آتينا التوراة تماما كاملا جامعا لوجوه المصلحة والسداد مما يحتاج إليه في شريعته جزاء إحسانه في العمل وقيامه بأوامر الله وطاعته الكاملة له - وذلك إخبار من الله على سبيل الامتنان - على نبيه موسى، إذ أنعم عليه بنعمة التوارة لما سلف له صالح الأعمال وحسن الطاعات.

قوله: {وتفصيلا لكل شيء} يعني تبيينا مفصلا لكل ما لقومه حاجة إليه من أمور دينهم بما يوضح لهم أحكام الحلال والحرام.

قوله: {وهدى ورحمة} الهدى يراد به هنا الدلالة التي ترشدهم إلى الحق والسداد وطريق الله المستقيم كيلا يضلوا - والرحمة، أي من الله في أحكامه للمكلفين لينجوا من الضلالة والتعثر.

قوله: {لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون} أي أنزل الله التوراة على موسى لتكون هداية لبني إسرائيل ورحمة لعلهم إذا سمعوا ما فيها من الذكر والمواعظ خافوا وآمنوا بلقاء الله وهو يوم البعث والحساب.

١٥٥ - (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

قوله: {وهذا كتب أنزلنه مبارك} هذا مبتدأ - كتاب خبره - أنزلنا، جملة فعلية في محل رفع صفة لكتاب - ومبارك صفة ثانية ٢٠٩ - والمراد بالكتاب الذي أنزله الله، القرآن - فإنه مبارك - من البركة وهي النماء والزيادة واليمن ٢١٠ والمعنى أن القرآن أنزله الله للعالمين ليكون لهم مصدر خير وعطاء لا ينضب - فهو يمن من الله ورحمة تفيض على الدنيا وأهلها من صنوف الخيرات والبركات الدينية والدنيوية ما يجلل حياة الإنسان بالسعادة والحبور والرضى سواء في هذه الدنيا ويوم المعاد عند لقاء رب العباد.

قوله: {فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون} أي اجعلوا القرآن لكم إماما تتبعونه فتمتثلون أوامره وتعملون بما فيه {واتقوا} أي خافوا الله واجتنبوا مخالفة أوامره ومجاوزة حدوده واستحلال محارمه {لعلكم ترحمون} أي لتشملكم الرحمة من الله فتنجوا من عذابه الأليم ٢١١.

١٥٦ - (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

قوله تعالى: {أن تقولوا إنما أنزل الكتب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغفلين (١٥٦) أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بئايت الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن ءايتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون}.

أن تقولوا يعني كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا - وإن كنا - إن مخففة من الثقيلة - وتقديره: وإنه كنا ٢١٢ - وتأويل الآية أن الله أنزل القرآن عليكم مباركا لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب وهو التوراة والإنجيل {على طائفتين من قبلنا} وهم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب {وإن كنا عن دراستهم لغفلين} أي وإنه كنا عن تلاوة كتبهم التي أنزلت عليهم غافلين لا ندري ما هي؟ ولا نعلم ما يقولونه، لأنه أنزل بغير لساننا، فتتخذوا ذلك حجة - لكنه بإنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع الله حجتكم.

١٥٧ - (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

قوله: {أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتب لكنا أهدى منهم} عطف على قوله {أن تقولوا} أي ولئلا تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين من قبلنا، لتبين لنا الخطأ من الصواب ولكنا أحسن عملا بما فيه من الطائفتين السابقتين ولكنا أكثر منهم استقامة على الصواب والطريق المستقيم.

قوله: {فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة} الفاء شرطية متعلقة بمحذوف - والتقدير: لا حجة لكم بما تذرعتم به فقد جاءكم بينة وهي الحجة البالغة الكبرى، القرآن، هذا الكتاب العربي المبين - فهو هدى لكم أي يرشدكم إلى الحق ويكشف لكم عن المحجة السوية البيضاء - وهو كذلك رحمة لمن يأخذ به فيتمثل لعقيدته إيمانا صادقا، ولأحكامه عملا وتطبيقا، فسوف يجد المستمسكون به من فيض الرحمة والخير ما يكون لهم مناجاة في الدارين، قوله: {فمن أظلم ممن كذب بئايت الله وصدف عنها} ذلك تنديد بالظالمين المعرضين عن الله المستكبرين عن آياته بما فيه من استفهام ينطوي على الوعيد - إذ يقول سبحانه: فمن أشد عتوا وعدوانا، وأفحش فعلا وخطيئة من المشركين المكذبين الذين صدفوا عن آيات الله، أي أعرضوا عنها ونأوا ولم يصدقوا بها - والصدف، بالسكون ومعناه الإعراض.

قوله: {سنجزي الذين يصدفون عن ءايتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون} ذلك وعيد لهؤلاء الصادفين، أي المعرضين عن آيات الله، مبينا جزاء إعراضهم وتكذيبهم أو صدهم عن دين الله وهو {سوء العذاب} أي أشد العذاب وأسوأه تنكيلا وإيلاما - وذلك بسبب إعراضهم عن آيات الله ٢١٣.

١٥٨ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملئكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض ءايت ربك يوم يأتي بعض ءايت ربك لا ينفع نفسا إيمنها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمنها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون} ماذا ينتظر المشركون الظالمون، المعرضون عن منهج الله، والذين يحادون الله ورسوله والمسلمين ويدرأون الناس عن الحق بصدهم عن سبيل الله؟! ماذا ينتظر هؤلاء الضالون المضلون، بعد أن تبين لهم الحق وعرفوا أن سبيلهم هي الباطل وأنهم سادرون في ظلام الضلالة والفساد والشر؟! ماذا ينتظرون بعد الذي بينه الله لهم في قرآنه المجيد وبعد ما استبانت لهم تعاليم الإسلام العظيم وما فيه من العدل والفضل والهداية والرحمة؟! ماذا ينتظر هؤلاء الأفاكون الطغاة؟! هل ينتظرون {إلا أن تأتيهم الملئكة} يعني هل ينتظرون بعد ذلك كله غير الملائكة لتأتيهم فتنتزع أرواحهم انتزاعا مفظعا غليظا؟! {أو يأتي ربك} أي يأتي آيات ربك، وهي علامات الساعة والهلاك الشامل.

قوله: {أو يأت بعض ءايت ربك} وذلك أن تظهر على العالمين بعض أشراط الساعة - وإذا ذاك تحل بالوجود والكائنات رجة كونية عصبية تتزلزل منها القلوب والأبدان وتأخذ موجة من الذعر والوجوم ليسيروا هائمين حيارى في أجواء شداد كوالح من الحيرة المذهلة والترقب المفزع - وحينئذ يستيقن المجرمون والطغاة والجبابرة وكل جموع الكفر والعصيان أنهم أحيط بهم وأنهم صائرون لا محالة إلى النار وبئس القرار - حتى رأوا ما يوعدون آمنوا وصدقوا فلا ينفعهم حينئذ إيمانهم وتصديقهم - وأشراط الساعة معلومة تكشف عن حقيقتها الأخبار الصحيحة التي تستنبه أذهان الغافلين المضللين، وتستثير نفوس الفاسقين الشاردين من أولي الأهواء والشهوات - ومن جملة ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها " وفي لفظ " فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل " ثم قرأ هذه الآية.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث إذا خرجن {لا ينفع إيمنها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمنها خيرا}: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ".

وروى مسلم وأهل السنن الأربعة بإسنادهم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا " وذلك تأويل قوله: {يوم يأتي بعض ءايت ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمنها خيرا} أي لا ينفع الإيمان حينئذ

نفسا لم تقدم إيمانها قبل حصول أشراط الساعة - وكذلك لو كانت مقدمة إيمانها غير كاسبة به خيرا فلا ينفعها - وهذا دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل - قال صاحب الكشاف في تأويل قوله: {أو كسبت في إيمنها خيرا} عطف على قوله: {ءامنت} والمعنى: أن أشراط الساعة إذا جاءت وهي ملجأة ٢١٤ مضطرة ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسا غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات - أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيرا - فلم يفرق بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكتسب خيرا.

وقال الرازي: والمعنى أن أشراط الساعة إذا ظهرت ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان نفسا ما آمنت قبل ذلك، وما كسبت في إيمانها خيرا قبل ذلك.

قوله: {قل انتظروا إنا منتظرون} وعيد وتهديد للكافرين الشاردين عن منهج الله وهو الحق - إذ يقول لهم الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت فتنتزع أرواحكم أو تأتيكم أشراط القيامة بما تحمله لكم من الدواهي والأهوال.

وعندئذ تتبينوا بمن المحقمنا من المبطل، أو من الناجي من الهالك، أو الصادق من الكاذب، أو من الذي يحيق به العذاب الأكبر - ستعلمون أننا نحن المحقون والفائزون - وأننا على الصواب والسداد والرشاد، وأنكم في الأذلين مع الخاسرين ٢١٥.

١٥٩ - (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

قوله تعالى: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (١٥٩) من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون}.

نزلت آية المفرقين لدينهم في اليهود والنصارى - فقد اختلفوا قبل مبعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فتفرقوا فلما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قولان: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء} وقيل: نزلت في كل أهل الكفر والضلال والبدع - وقرأها بعضهم " فارقوا " أي فارقوا دينهم، إذ تركوه وارتدوا عنه، من المفارقة - وقرأها آخرون بالتشديد " فرقوا " أي جعلوا دينهم متفرقا فأخذوا ببعضه وتركوا بعضه.

وشيعا، أي فرقا وطوائف وأحزابا - وأولى التأويل في المراد بالمفرقين، القول بأن الآية عامة، لأن اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه كل طوائف الكافرين من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم من المبتدعين من أهل الإسلام - من أولي الأهواء والضلالات والبدع المختلفة التي لا تستند إلى دليل من كتاب أو سنة أو إجماع معتبر إلا القول بالهوى والتشهي والجنوح المغالي خلف الشيطان الذي يهتف بأمثال هؤلاء الأغرار والجهال والحمقى ليغريهم بإيحاءاته ووسوساته ونفثاته كيما يغويهم إغواء وليضلهم عن صراط الله الحق - صراط الإسلام السوي الذي يستند إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - والإسلام بعقيدته السمحة الوضيئة وتشريعه الواسع المنبسط وتصوره الواضح المنضبط، مستبين وظاهر لا يقبل التضليل أو التوهيم أو الخداع ولا يقبل كل صور الاستغراق المريب في بحور الشطحات الذهنية الشاردة والضلالات المفتراة البلهاء التي يصطنعها التائهون المغرورون من أهل البدع - لا جرم أن ذلك ضلال مبين وأنه مجانبة صارخة لحقيقة الإسلام الساطع الأبلج - فلا مساغ بعد وضوح العقيدة وما ينبثق عنها من شريعة عظيمة هائلة مستفيضة أن تطفو على سطح المجتمع الإسلامي فرق وطوائف ليست موضع ائتمان ووثوق - فهي جماعات قليلة هزيلة تائهة في ضلالها الشاطح وبالرغم مما يبتلى به الإسلام والمسلمون من حين لآخر بمختلف الأهواء والضلالات والبدع فلسوف تبقى كلمة الإسلام هي الأقوى والأمثل والأجل - وذلكم هو الإسلام الكامل الشامل القائم على الكتاب والسنة - ولسوف يبقى المسلمون على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم، وعلى كثرة أعدادهم وجموعهم، وترامي بلدانهم وبقاعهم – ممتثلين لمنهج الله وحده دون غيره من مناهج الأرض وإفرازات البشر، ليظلوا على مر الزمن أمة واحدة متماسكة يشد بعضها بعضا بعيدا عن ظواهر الزيغ والتفرقة والأهواء والضلالات، وليقفوا صفا منيعا متراصا في وجه الأعاصير الفكرية والمذهبية الخطيرة المحدقة التي تدهمهم دهما - وذلك كالوثنية والإباحية والاشتراكية والرأسمالية وكل وجوه الضلال والزندقة والكفر على اختلاف صوره وألوانه.

قوله: {لست منهم في شيء} أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم بريء كل البراءة من أولئك الذين فارقوا دينهم الحق أو فرقوه وكانوا فيه فرقا وأحزابا شيعا فهو ليس منهم، ولا هم منه، لأنه على الدين الحق الذي بعثه الله به وهو الإسلام دين إبراهيم الذي جاء بالحنفية - فمن فارق دين الحنفية التي جاء بها إبراهيم من ربه إلى حيث الكف فقد برئ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان المفارق يهوديا أو نصرانيا أو مبتدعا ضالا من أهل الإسلام.

قوله: {إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون} ذلك وعيد من الله لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا أحزابا وطوائف - فالله يتوعدهم بأنه سائلهم يوم القيامة عن أفعالهم المريبة ومخالفتهم لشرع الله، ليلاقوا في مقابلة ذلك جزاءهم من العقاب.

١٦٠ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها} هذا تفضل من الله ورحمة غامرة يفيض بها الله على عباده المؤمنين، إذ يجازيهم في مقابل الطاعة أضعافا كثيرة ولا يجازيهم في مقابل المعصية إلا بمثلها فمن فعل حسنة جوزي عشرة أضعافها، ومن فعل سيئة فإنما يجزى من الجزاء بمثل ما أساء - والله سبحانه لا يظلم أحدا من الفريقين وهم فريق الإحسان وفريق الإساءة - فإن الله يجازي كل واحد منهم جزاءه الذي يستحقه - وذلك تأويل قوله: {وهم لا يظلمون} بل إن الله يضاعف للمحسنين أجورهم أضعافا كثيرة ويغفر للمسيئين إن تابوا، بل إنه يبدل سيئاتهم حسنات - والله سبحانه إنما يجازي على النية، وهي مناط المسؤولية والحساب - فمن هم أن يفعل خيرا ولم يفعله جوزي بمثله حسنة، وإن هم بفعل سيئة ولم يفعلها لم تكتب له شيئا - وقيل: يجزى مقابل الكف عنها حسنة - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: " إن ربكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك إلا هالك ".

وروى الإمام أبو يعلى بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من هم بحسنة كتب الله له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها فإن عملها كتبت عليه سيئة فإن تركها كتبت له حسنة يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتي " ٢١٦.

١٦١ - (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله تعالى: {قل إنني هدني ربي إلى صرط مستقيم دينا قيما ملة إبرهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٦١) قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}.

بعد الحديث عن المفرقين دينهم والذين افترقوا طوائف وأحزابا يأمر الله نبيه أن يعلنها صريحة للناس في غير إبطاء ولا مجاملة {إنني هدني ربي إلى صرط مستقيم} أي أرشدني ربي بما أوحاه إلي من كتاب منير – إلى صراطه الحق المستقيم وهو الإسلام {دينا قيما} دينا منصوب مفعول هداني - أي هداني دينا - وقيما بكسر القاف وفتح الياء والمخففة صفة لقوله: {دينا} ٢١٧ ومعناه المستقيم الذي لا عوج فيه.

قوله: {ملة إبرهيم حنيفا} ملة، منصوب بتقدير (أعني) وقيل: عطف بيان وحنيفا منصوب على الحال من إبراهيم - والحنيف هو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه ٢١٨ أو هو المائل عن الباطل بكل أشكاله وصوره وألوانه ومخلصا لله وحده بكامل الخضوع والامتثال والطاعة.

قوله: {وما كان من المشركين} في محل نصب معطوف على {حنيفا} وذلك تقرير وتأكيد للحنفية الحقيقية التي كان عليها إبراهيم - وفي تقرير هذه الحقيقة الراسخة ما يدحض مقالات أهل الكتاب الذين يزعمون افتراء أنهم على دين إبراهيم - لا جرم أن هذا اختلاف وزور - فإن إبراهيم عليه السلام كان مخبتا لله بكامل الامتثال والطاعة، مبرأ من إشراك أهل الكتاب وضلالاتهم.

١٦٢ - (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين} المراد بالصلاة هنا جنسها فتشمل المفروضة منها والمندوبة - أما النسك فهو العبادة على اختلاف أنواعها وذلك من باب عطف العام على الخاص - وقيل: النسك يعني الذبح في الحج والعمرة - والأول أولى بالاعتبار إلى الظاهر من معنى اللغة - فالنسك معناه العبادة، ومنه الناسك وهو العابد، وتنسك أي تعبد ٢١٩.

وقوله: {ومحياي ومماتي} محياي يعني ما أعمله في حياتي فإنه خالص لله - ومماتي، يعني ما أوصي به من خير وصدقات بعد موتي - فهو كذلك في سبيل الله طلبا لمرضاته - ولنا القول إن الحياة في حق المسلم مسخرة كلها في طاعة الله - وذلك بكل ما تحويه الحياة من أفعال وأقوال يبذلها الإنسان - وذلك أن المسلم إنما يبتغي من كل تصرفاته طيلة حياته رضوان الله - وكذلك الممات في حق المسلم ضرب من ضروب الطاعة لله التي يتقرب بها المؤمن من ربه - ووجه ذلك أن المؤمن لا تبرح قلبه وسريرته الرغبة الكاملة في أن يحيى على منهج الله وصراطه المستقيم وأن يموت كذلك على التوحيد الكامل والطاعة التامة ليحظى بغفرانه وينجو من سخطه وعذابه.

قوله: {لله رب العلمين} فالصلاة بمختلف ضروبها، والنسك على اختلاف معناه وكذا الأفعال في الحياة وما يبقى منها بعد الممات إنما يبذلها المؤمن لله رب العالمين فيبتغي بها رضوانه.

١٦٣ - (لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

قوله: {لا شريك له وبذلك أمرت} كل ذلك من الصلاة والنسك والعمل في المحيى والممات إنما هو خالص لله وحده لا أشرك به غيره.

قوله: {وأنا أول المسلمين} يعني أنا أول من أذعن لله بالخضوع والطاعة وأقر له بالوحدانية الكاملة - ذلك أن كل نبي متقدم على أمته في إسلامه لله وطاعته له، ولا ينبغي أن يفهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أول مسلم في الناس كافة - بل المراد أنه أول مسلمي زمانه ٢٢٠.

١٦٤ - (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

قوله تعالى: {قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} روي في سبب نزول هذه الآية أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل تباعة (تبعة) نتوقعها في دنياك وآخرتك، والاستفهام للإنكار والتوبيخ - وغير الله، منصوب مفعول {أبغي} ربا منصوب على التمييز ٢٢١ - أي قل لهؤلاء المشركين الضالين الذين يتبعون الباطل ويسيرون في طريق الشيطان: أأطلب سوى الله ربا {وهو رب كل شيء} أي وهو مالك كل شيء - وهو الذي خلقكم وما تعبدون من الآلهة المصطنعة؟! ألمثل شركائكم الصم أدين بالعبادة والخضوع بدلا من عبادة الله وحده والخضوع له دون سواه؟! هل يليق بذي عقل ووعي وبصيرة أن يدبر عن عبادة الله وحده ليتوجه صوب أوثان مختلفة أو أصنام بلهاء من الحجر أو المدر ثم يذر التوجه لله الخالق البديع الديان؟!

قوله: {ولا تكسب كل نفس إلا عليها} أي أن ما كسبته كل نفس من الخطايا والمعاصي إن هو إلا عليها ولا يتجاوزها إلى غيرها - ولا يؤاخذ به أحد سواها.

قوله: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} تزر أي تحمل، من الوزر وهو الثقل والإثم وسمي السلاح وزرا لثقله - وكذلك سمي الوزير بهذا الاسم، لأنه يحمل ثقل التدبير عن الملك أو الأمير - ومنه الوزارة بالكسر ٢٢٢ والمراد به هنا الإثم أو الذنب - والمعنى أنه لا تؤاخذ نفس آثمة نفس أخرى - أي لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها بل كل نفس مأخوذة بخطيئتها فتعاقب بها.

قوله: {ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} ذلك وعيد شديد من الله للناس الذين ضلوا وفسقوا عن أمر الله واتبعوا خطوات الشيطان فإن مردهم إلى الله في اليوم الموعود - وهنالك ينبئهم الله بأعمالهم التي كانوا عليها في الدنيا، وبأحوالهم من الشرك على اختلاف صوره وأشكاله - إذ كان منهم الوثنيون، ومنهم المجوس ومنهم الزنادقة وأهل الضلال، ومنهم أهل الكتاب الذين حرفوا

دينهم تحريفا ٢٢٣.

١٦٥ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {وهو الذي جعلكم خلئف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجت ليبلوكم في ما ءاتكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم} خلائق جمع خليقة - مثل كريمة وكرائم - وهو من الخلف بسكون اللام أي القرن بعد القرن ٢٢٤ والمعنى أن الله جعل الناس {خلائف الأرض} أي يخلف بعضهم بعضا، كلما مضى قرن جاء بعده قرن آخر - أو كلما ذهب جيل خلفه جيل غيره - وهكذا الأمم على مر العصور يخلف بعضها بعضا - فما تجيء أمة من الأمم حتى تؤول إلى الهلاك والزوال لتعقبها أمة بعدها إلى أن تقوم الساعة - وذلك كله من تدبير الله القدير الذي صنع الحياة والعالمين بعلمه وتدبيره وحكمته.

قوله: {ورفع بعضكم فوق بعض درجت ليبلوكم في ما ءاتكم} درجات مفعول ثان لرفع - وقيل غير ذلك ٢٢٥ والمعنى أن الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات في العقل والعلم والرزق والقوة والجاه وغير ذلك من المظاهر الدنيوية التي جاءت نتيجة لما أوتي الإنسان من قوة العقل أو الجسم أو التفكير أو التدبير - والناس بطبيعتهم متفاوتون فيما أوتوه من قدرات فطرية أو طاقات خلقية، كطاقة الذكاء أو البسطة في الجسم أو السعة في مدى الذهن وأفق التفكير، أو القوة في الاحتمال والتخطيط والتدبير وغير ذلك من وجوه التفاوت في القدرات الذاتية الخلقية للإنسان - لا جرم أن التفاوت في مثل هذه القدرات سيفضي بالضرورة إلى التفاوت في مدى الكسب أو التحصيل أو التميز ليكون الناس بعد ذلك درجات كما بينته الآية - فيكون فيهم القوي والضعيف، وفيهم الغني والفقير، وفيهم العالم والجاهل، وفيهم النشيط والخامل.

قوله: {ليبلوكم في ما ءاتكم} من الابتلاء وهو الامتحان والاختبار - فإن الله جل وعلا يختبر العباد فيما أوتوه من قدرات ودرجات في العقل أو الجسم أو غير ذلك من المزايا، ليحاسب الموسر على ما آتاه الله من مال، وليحاسب العالم بعلمه، هل عمل به أم لم يعمل - وليحاسب ذا الجاه والمكانة بما فعله في جاهه أو مكانته، هل استعملها في نصرة الحق أم في الباطل كظلم الناس والترفع عليهم في استكبار واستخفاف - وبذلك فإن العبد غير مسيب ولا منفك من تحمل التبعة عما أوتيه من مزايا في دنياه ولكنه مؤاخذ بها ومسؤول عنها يوم القيامة.

قوله: {إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم} أي أن عقاب الله سريع الإتيان لأن كل ما هو آت قريب - فما يكون من آت إلا كان بالغ الدنو والقرب وإن طال زمانه حتى بلغ الدهر كله - فما تغني الكافرين والظالمين والمضلين أموالهم أو مكانتهم ما دام الموت ينتظرهم، والعذاب واقع بهم لا محالة، وإن امتد زمانه؟!

وفي المقابل فإن الله {لغفور رحيم} إن الله غفار للذنوب والعيوب سواء في الدنيا إذ يسترها لعبده التائب المستغفر، أو في الآخرة فيمحوها بواسع فضله ورحمته ٢٢٦.

٧ سورة الأعراف:

سورة الأعراف:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها إلا بضع آيات منها - وهي تتضمن فيضا من المعاني والمشاهد والقصص والأحكام - والسورة مبدوءة بثلاثة أحرف مقطعة - وهي من جملة فواتح السور التي تندرج في تطاق متشابه من القرآن والتي لا تقف على حقيقة المراد منها سوى الله، وإن قيل في تأويله ما قبل.

ويأمره الله عباده باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وينهاهم في الوقت نفسه عن اتباع غير الله من الشركاء أو الآلهة المصطنعة كالأوثان

والأصنام وغير ذلك من صور الآلهة المزيفة المفتراة.
ويحذر الله عباده أيضا عاقبة الإعراض عن دينه، فلئن لم يؤمنوا وظلوا مستنكفين سادرين في ضلالهم وعدوانهم على دين الله، فإنهم يوشك أن يحيق بهم ما حاق بالأمم الغابرة، إذ جاءهم من الله العذاب فدمرهم بسبب ظلمهم وعدوانهم على أنبياء الله - وذلك غير ما ينتظر هؤلاء الظالمين المضلين من عذاب الله بئيس يوم القيامة، يوم يضع الله الموازين الحق ليناقشوا الحساب.
وفي السورة بيان عن قصة إبليس الذي أعرض وتمرد وفسق عن أمر أمر الله فأبى أن يسجد لآدم - ثم أمر الله آدم وزوجه أن يسكنا الجنة ويأكلا مما شاءا منها باستثناء شجرة معلومة لهما، لكنهما قد أضلهما إبليس بعد أن خاض معها جولة من الجدال والتغرير والخادع حتى أغواهما فأكلا منها - ثم أمرهم الله جميعا بالهبوط إلى الأرض ليحيوا حياتهم الدنيا إلى أجل معلوم، وليفعل إبليس وجنوده فعلتهم الطاغية الملعونة في الفتنة والإفساد حتى إذا قامت الساعة سيق إبليس وجنوده وأتباعه من شياطين الإنس والجن فكبكبوا جميعا في النار - من أجل ذلك، ها هو القرآن الحكيم ما زال يهتف بالبشرية في كل آن لكي تحاذر فتنة إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس وأن تبوء إلى الله القادر الحكيم باتباع منهجه القويم فلا تزيغ عنه ولا تنثني.
وفي السورة ما يكشف عن طبيعة الإسلام القائم على الاعتدال والتوسط والمراعاة الكاملة للفطرة البشرية - ومن جملة الأدلة على هذه الحقيقة: إباحة الزينة بكل صورها وأنواعها، وإباحة الأكل والشرب مما يستلذه الإنسان ويستطيب شريطة مجانية الإسراف في ذلك كله، أي اجتناب ما فيه عصيان لله، أو ما حرمه الشارع الحكيم.
وفي السورة تصوير مريع لحال الكافرين الضالين، والأشقاء الظالمين من الإنس والجن وهم يتقاحمون في النار بعضهم إثر بضع - وما تهوي أمة من الأمم في جهنم حتى تلعن أختها التي سبقتها فما من أمة من الأمم تهوي في النار إلا ويحيق بها اللعن من أمة أخرى، حتى إذا اجتمعوا في النار جميعا أخذوا في التقريع فيما بينهم، إذ توبيخ كل أمة غيرها من الأمم، فيزجر الضعفاء الأقوياء، لأنهم أغووهم وأضلوهم، ثم يرد الأقوياء مقالتهم ليرجعوا إليهم التوبيخ والتعنيف والانتهار مما يزيدهم لوعة واستحسارا وتلك حال الذين كفروا في النار سواء فيهم الضالون والمضلون، فهم جميعا مصبورون في النار يجدون من أوان العذاب المفظع ما لا تحتمله الرواسي الشم.
وفي السورة تيئيس للكافرين الظالمين من كل رحمة فهم مبعدون غاية من الخير كيلا يجدوا من المال غير الخزي والهوان في هذه الدنيا، وهم في الآخرة محرومون من جنات الله، إذ لا أمل لهم البتة يدخلوها إلا بمقدار ما يتخيله الذهن من ولج الجمل في اسم الخياط!
ويقص علينا القرآن في هذه السورة حال أصحاب الجنة في النعيم المقيم، وحال أصحاب النار في العذاب الحارق المستديم - يوم يصطرخ الكافرون في النار وهم ينادون أهل الجنة عسى أن يسكبوا علهم شيئا من الماء فيبردون به أو يخفف عنهم من حرارة اللهب أو يطفئ فيهم بعض الظمأ والغلة.
وتعرض السورة لبعض الحقائق الكونية التي يقررها القرآن بأسلوبه المميز كخلق السموات والأرض في سنة أيان وما عقب ذلك الاستواء على العرش - وكذلك الإخبار عن بعض من حقائق الفلك والطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والمطر مما لم يكن في حسبان الأولين عند نزول القرآن.
ويقص علينا القرآن من أخبار الأمم السالفة الذين عتوا من أمر ربهم وعصوا أنبياءهم فأخذهم الله بالعذاب الشديد في هذه الدنيا - فهؤلاء قوم نوح أخذهم الله بالطوفان الهادر بعد أن طغوا واستكبروا واستيأس منهم نوح - ثم قوم عاد أصحاب هو دمر الله عليهم بالريح الصرصر العاتية - ثم قوم صالح الذين عقروا ناقة الله فجزاهم الله بالصيحة والرجفة تأتي عليهم لتذرهم صفصفا بياتا - ثم قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة النكراء مما لم يسبقهم إلى مثله أحد في العالمين، فجعل الله عاليهم سافلهم وأمطرهم بعد ذلك بالحاجرة زيادة لهم في العذاب والنكل - ثم قوم مدين الذين نصح لهم شعيب وحذرهم الفساد والغش والخيانة في الكيل والميزان فعصوا واستكبروا فأخذهم الله بالصيحة والرجفة فزهقت أرواحهم وتبددت أجسامهم تبديدا.
وأخيرا تقص علينا السورة من أخبار بني إسرائيل ونبيهم موسى عليه السلام، إذ أرسله الله إلى فرعون فأبي وطغي ثم أراه موسى الآية

الكبرى الدالة على صدق نبوته لكنه مع ذلك استكبر وتجبر، ثم حشر الناس والسحرة ليواجهوا بسحرهم معجزة موسى، فهزم موسى السحرة، ثم أعلنوا إيمانهم وتصديقهم بمعجزة السماء فتوعدهم فرعون بالتنكيل، لكنهم ثبتوا على الحق وصبروا على ظلم فرعون وزبانيته، ثم جمع فرعون جنوده ليلحق بموسى وبني إسرائيل لينكل بهم تنكيلا - فيمم موسى ومعه بنو إسرائيل صوب البحر فضربه موسى بعصاه فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقا يبسا ممهدا للمشي فيه والمسير.

وتقص علينا السورة كانت مجاوزة بني إسرائيل البحر ليجدوا قوما مشركين يعكفون على أصنام لهم فمالت إلى مثله نفوسهم لولا أن زجرهم موسى زجرا - ثم ذهب وموسى لميقات ربه ليتلقى منه التوراة والأحكام والمواعظ، وليبتهل إليه بالدعاء والذكر، وكان قد استخلف أخاه هارون في قومه ليقودهم ويرشدهم في غيابه لكنهم سرعان ما جنحت نفوسهم لعبادة المحسوس فأبوا إلا أن يصطنعوا لأنفسهم من الحلي عجلا لعبادته بما يكشف عن طبيعة القوم - هذه الطبيعة العجيبة الغائرة في الالتواء والخور.

ثم تقص علينا السورة من أنباء إسرائيل عن القرية التي كانت حاضرة البحر (أيلة) إذ احتال أهلها على ملتهم التي حرمت عليهم الاصطياد في السبت لكنهم استحلوا ما حرم الله عليهم فعله باحتيالهم المكشوف الفاضح فجزاهم الله بفعلتهم هذه خزي المسخ إلى قردة وخنازيرا!! لا جرم أنه الخزي والشنار أصاب هؤلاء الأشقياء ليظل التاريخ والكتب مستغرقة في الحديث عنه طيلة الدهر إلى قيام الساعة.

٢ - (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

البيان التفصيلي للسورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: {المص ١ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ٢ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ٣}.

كتاب، خبر للمبتدأ {المص} وقيل: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب ١، والمراد بالكتاب القرآن - والمخاطب في الآية هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعنى: أن الله أنزل إليك القرآن يا محمد لتقوم بتبليغه للناس {فلا تكن في صدرك حرج منه} أي لا تحرج من إبلاغه للناس ولا تكن في ضيق من إعراضهم وصدهم عنه بل اصبر كما صبر أولو اعزم من الرسل.

قوله: {لتنذر به وذكرى للمؤمنين} أي أنزلنا هذا الكتاب إليك يا محمد لتنذر به الناس فيكون لهم نذيرا يخوفهم العذاب في الدنيا والآخرة - وهو كذلك ذكرى للمؤمنين - أي أنه تذكير لهم لقبلوا على الله بفعل الطاعات والانزجار عن إتيان المعاصي.

٣ - (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ)

قوله: {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم} الخطاب للناس كافة - والاسم الموصول {ما} يراد به الكتاب الحكيم المنزل على النبي الأمين - وهذه دعوة واضحة عالية من الله للناس أن يتبعوا ما جاءهم به الرسول من عند الله ليمضوا في حياتهم على منهج الله دون غيره من المناهج الضالة المختلفة - ولذلك قال: {ولا تتبعوا من دونه أولياء} والأولياء هم الشياطين والكهان والعتاة المفسدون من البشر الأشرار الذين يضلون الناس عن سبيل الله ويفتنونهم عن الصواب وعن الصراط المستقيم.

قوله: {قليلا ما تذكرون} قليلا منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، والتقدير: تذكرون تذكرا قليلا - وما زائدة ٢ والمعنى: أنكم قليلا ما تعتبروا أو تتعظون، فها أنتم لا تتأثرون بالآيات والدلائل ولا تفيئون إلى الحق والصواب بل تتبعون غيره من سبل الضلال والباطل.

٤ - (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

قوله تعالى: {وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون - فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين}.

كم، خبرية للتكثير في محل رفع مبتدأ - خبره {فجاءها بأسنا} بياتا - منصوب على المصدر في موضع الحال - وهم قائلون جملة اسمية في نحل نصب حال من أهل القرية ٣.

ذلك تخويف من الله لهؤلاء الضالين المشركين - وفيه تذكير بالذل حل بالأمم السابقة من التدمير والتنكيل لفسقهم وإعراضهم عن

دعوة الله وتكذيبهم رسل الله فقد جاءهم عذاب الله {بياتا} أي ليلا وهم نائمون {أو هم قائلون} أي نهارا في وقت القائلة أو القيلولة وهي منتصف النهار، أي أن عذاب الله قد جاءهم وهم في غفلة من السهر والراحة أما ليلا أو نهارا.

٥ - (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

قوله: {فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين} البأس من الله، عذابه وتنكيله بالظالمين المعرضين عن دينه - ودعواهم بمعنى الدعاء منهم والاستغفار - وفي وجه آخر للدعوي على أنها الادعاء - والمراد به هنا الدعاء - والمعنى: أنه ما كان دعاء أهل القرية أو استغاثتهم حين نزل بهم العذاب إلا اعترافهم على أنفسهم أنهم كانوا آثمين خاطئين، ولأنفسهم مسيئين مهلكين - فكان اعترافهم بذلك على سبيل الشعور بالحسرة والندامة، إذ يطمعون أن يغفر الله لهم ما سلف من الذنوب والإعراض عن سبيل الله - وهيهات هيهات لما يتمنون أو يرجون.

٦ - (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ٦ فلنقص عليهم بعلم وما كنا غائبين ٧ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلا موازينه فأولئك هم المفلحون ٨ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون}.

الفاء في قوله: {فلنسألن} لترتيب الأحوال الأخوية على الأحوال الدنيوية واللام لام القسم - والذين أرسل إليهم يعني الأمة - والمراد بالمرسلين الرسل الذين بعضهم الله لدعوة العباد إلى عقيدة التوحيد ٤.

و تتضمن الآية وعيدا للكافرين وتوبيخا على ما فرطوا في حق الله، ومن أجل عصيانهم النبيين ومجانبتهم دعوة الله، فلسوف يسأل الله الأمم عما أجابوا به رسلهم لما دعوهم إلى دنيه، دين الحق والعدل والتوحيد - وكذلك فإن الله يسأل النبيين المرسلين الذين بعثهم الله للناس، هل بلغوا ما أرسلوا به وماذا أجابهم به قومهم - وذلك كله على سبيل التوعد والتخويف للكافرين مع أنه معلوم أن الله يعلم جواب كل من الفريقين قبل أن يجيب، ويعلم الحقيقة قبل أن يقولها لكل من الفريقين - لكن هذه المساءلة يوم القيامة لهي زيادة في التخويف والتعنيف والتنكيل بالعصاة الذين ظلموا أنفسهم في الدنيا وظلموا غيرهم من الناس.

٧ - (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

قوله: {فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين} أي أن الله يخبر الجميع يقين، كتاب أعمال الذين أرسل إليهم فهي لا تخفي عليه وهو عليم بها كامل العلم، فيكشفها على الملأ لتراها الخلائق جميعا، زيادة في الافتضاح والتنكيل.

٨ - (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله: {والوزن يومئذ الحق} الوزن مبتدأ مرفوع - ويومئذ خبره - والحق صفة للمبتدأ (الوزن) وقيل: خبر للوزن - ويومئذ ظرف للوزن ٥.

والمراد بالوزن، وزن أعمال العبد - وإنما يكون ذلك بالحق وهو العدل - وقيل: الوزن مصدر، إذ تقول: وزنت كذا أزنه وزنا وزنة - ومعناه بذلك: أن الوزن يوم القيامة الحق وهو العدل.

قوله: {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون} الموازين جمع ميزان، وهو المعروف والذي يوزن به - فيكون المعنى: أن الموازين تثقل بثقل ما يوضع فيها تبعا لحال الموزون له - فالمؤمن تثقل حسناته على سيئاته - وعكسه الفاسق فإنه تثقل سيئاته على حسناته - وقيل: الموازين جمع موزون، فيكون المراد بالموازي الحسنات - فمن كثرت حسناته {فأولئك هم المفلحون} أي الفائزون بالنجاة والثواب الذين ظفروا بالخلود في جنات الله.

٩ - (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

وفي المقابل أولئك الذين تخف حسناتهم فثقل عليها سيئاتهم {فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون} أي أوردوا أنفسهم العذاب في النار بسبب جحودهم آيات الله وهي حججه ودلائله، فقد كذبوا بها تكذيبا.

١٠ - (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)
قوله تعالى: {ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ١٠ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين} يذكر الله عباده بما أسبغ عليهم من النعم - ومنها: تمكنهم في الأرض، إذ جعل لهم فيها مكانا مستقرا وهيأ لهم فيها كل أسباب المعايش وهي جمع معيشة أي ما يعيشون به من المطاعم والمشارب - فالأرض ممهدة للعيش فيها والاستقرار لكنهم قليلو الذكر والشكران {قليلا ما تشكرون} قليلا منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف - أي تشكرون شكرا قليلا - وما، زائدة، والمعنى: أنكم قليلا ما تشكرون الله على ما أنعمه عليكم من النعم الكثيرة.
١١ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)
وقوله: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم} والمراد بقوله: {وخلقناكم} آدم، فهو المخلوق.
وقوله: {صورناكم} أي ذرية آدم، وحقيقة ذلك: أن آدم خلق من طين ثم صور وأكرم بالسجود - أما ذريته فقد صوروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصرب الآباء.
قوله: {ثم قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين} أي لما صورنا آدم وجعلناه خلقا سويا ونفخنا فيه من روحنا، أمرنا الملائكة بالسجود له، ابتلاء واختبارا لهم بهذا الأمر كي يستنبن الطائع منهم من العاصي، فسجدوا كلهم باستثناء إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم - على أن المراد بالسجود هو تعظيم آدم وليس نفس السجدة - وقيل: المراد نفس السجدة لكن المسجود له هو الله - وقيل: بل إن المسجود له هو آدم.
١٢ - (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)
قوله تعالى: {قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} ما استفهامية في موضع رفع مبتدأ. والجملة الفعلية من {منعك} في محل رفع خبر المبتدأ - وألا، في موضع نصب مفعول منعك - ولا زائدة - والتقدير: ما منعك أن تسجد - وإذ، ظرف زمان ٦ وهذه الآية مما استدل به كثير من الأصوليين على أن الأمر المطلق يفيد الوجوب على الفور، لأن الله ذم إبليس على ترك المبادرة - ولو لم يكن الأمر للفور لما استحق إبليس الذم على التأخير، ولكان له أن يقول: إنك لمن تأمرني بمبادرة السجود على الفور - وقد خاطب الله هذا المخلوق الشقي محتقرا إياه، وتقدير ذلك أنه: أي شيء منعك من السجود لآدم إذ أمرتك بالسجود له؟ وذلك أن إبليس كائن غريب يختلف اختلافا أساسيا عن سائر الكائنات الأخرى، فغنه هو وجنوده من شياطين الجن ذوو جبلة مستعصية، فطرت على الخبث والنزوع للشر والفسق.
ذلك هو إبليس وجنوده من شياطين الجن - إنهم لا أمل ف هدايتهم البتة، لأنهم أولو طبائع خاوية شريرة، محفلة بالعتو والجحود، غاية في الالتواء والشذوذ.
وهم إنما يجنحون بطبيعتهم في كل آن للإفساد والتضليل والإغواء.
ومما يدل على هذه الحقيقة الراسخة، ما أجاب به إبليس اللعين، ربه إذا قال {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} ومثل هذا الجواب لا يصدر إلا عن كائن لئيم مقبوح، جبل على الشر والباطل - ومن يجترئ على مثل هذا الجواب اللئيم المتوقح العاتي لرب العالمين إلا كائن لعين أثيم كإبليس ينطق بهذه المقولة في وقاحة لا تبلغها وقاحة الأشرار والعتاة إلا في مثل إبليس الرجيم.
قوله: {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} ذلك اجتراء فاضح من إبليس على ربه، إذ يقول في اغترار جهول أحمق إنه أفضل من آدم، لأنه مخلوق من نار لكن آدم خلق من طين - والنار أشرف من الطين وهو قياس فاسد وسخيف يتعلل به هذا الكائن الشقي أمام حضرة الإلهية - والله جل وعلا حقيق بامتثال لأمره دون تردد، وخليق أن تخر له الجباه والنواصي وتخشع لجلاله وجبروته القلوب الأشر ٧ من إبليس بتفضيل النار على الطين مع أنهما كليهما مخلوق لله - بل إنهما معا من جملة المخاليق التي تسبح بحمد الله على الدوام فلا تفتر.
١٣ - (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

قوله تعالى: {قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ١٣ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ١٤ قال إنك من المنظرين}.

الفاء في قوله: {فاهبط} لترتيب الأمر بالهبوط على ما حصل منه عصيان ومخالفة لأمر الله - والهبوط معناه النزول والانحدار ٨ والضمير في قوله: {منها} يراد به الجنة؛ فقد طرد الله منها إبليس لينحدر إلى الأرض صاغرا ذليلا، فإن الجنة بنعيمها الدائم ورخائها الناعم الرخي الكريم لا يستحقه العصاة المستكبرون، فكيف إن كان العاصي إبليس - هذا المخلوق المنكود الظلوم الذي عتا عتوا يدنو دونه العتاة والظالمون جميعا؟!

وقيل: يراد بالضمير السماء؛ أي أمره الله بالنزول من السماء لينحدر منها خاسئا طريدا إلى الأرض؛ فإن المكث في السماء لا يليق بغير الملائكة الأطهار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - لكن واحدا لئيما خسيسا كإبليس ما بقي له في الميزان الحق والعدل شيء من كرامة أو اعتبار أو رحمة، إلا اللعن والإبعاد إلى الأرض ليضل فيها فتانا غرورا شريرا حتى يجد جزاءه الفظيع يوم القيامة - وهذا مقتضى قوله: {فاخرج إنك من الصاغرين} وهو تأكيد للأمر بالهبوط؛ فقد أمره الله بالخروج منحدرا إلى الأرض تغشاه مذلة الصغار والتوبيخ والهوان لتفريطه ونكوله عن أمر الله.

١٤ - (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

قوله: {قال أنظرني إلى يوم يبعثون} سأل إبليس ربه أن يمهله ولا يميته {إلى يوم يبعثون} والمراد في ظاهر الآية: أنه يوم البعث الذي يبعث الله فيه ذرية آدم من الموت وذلك بعد النفخة الثانية هكذا طلب إبليس - لكن الله ما أمهله إلى يوم النفخة الثانية حيث البعث بل أمهله إلى يوم النفخة الأولى حيث الموت والفناء - وقد سأل إبليس ذلك ليجد لنفسه من الفسحة ما يستطيع خلالها إشفاء غليله بإغواء بني آدم وتضليلهم فيفسقون عن أمر الله فيكون بذلك قد أخذ لنفسه الثأر من آدم وذريته.

١٥ - (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

قوله: {قال أنظرني إلى يوم يبعثون} سأل إبليس ربه أن يمهله ولا يميته {إلى يوم يبعثون} والمراد في ظاهر الآية: أنه يوم البعث الذي يبعث الله فيه ذرية آدم من الموت وذلك بعد النفخة الثانية هكذا طلب إبليس - لكن الله ما أمهله إلى يوم النفخة الثانية حيث البعث بل أمهله إلى يوم النفخة الأولى حيث الموت والفناء - وقد سأل إبليس ذلك ليجد لنفسه من الفسحة ما يستطيع خلالها إشفاء غليله بإغواء بني آدم وتضليلهم فيفسقون عن أمر الله فيكون بذلك قد أخذ لنفسه الثأر من آدم وذريته.

١٦ - (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

قوله تعالى: {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ١٦ ثم لآتيناهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ١٧ قال اخرج منها مذموما ومدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ١٨} الفاء في قوله: {فبما} لترتيب جملة الإغواء ما قبلها - والباء سببية - وقيل: للقسم - وما مصدرية - والإغواء معناه الإضلال أو الإيقاع في الغي وهو الضلال ٩ صراطك، مفعول أقعدن ١٠ وتأويل ذلك أن إبليس الرجيم قال لربه عز وعلا في اجتراء ظلوم فاجر: بما أضللتني، أي بسبب إغوائك إياي من أجل آدم وذريته فلأجلسن لهم طريقك المستقيم وهو دينك الحق القويم، أي الإسلام بعقيدته وشريعته ومنهجه للحياة - ولأصدن ذرية آدم عن طاعتك وعن التوجه إلى دينك وشرعك - ولأضلنهم ولأزينن لهم كل ضروب الفساد والمعصية، ولأرغبنهم عن ملة الإسلام ليميلوا صوب الشرك والمعاصي وذلك إغوائي لهم ف مقابل إغوائك لي.

١٧ - (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

قوله: {ثم لأتيناهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالهم} تأويل ذلك: أن إبليس سوف يسول لبني آدم الكفر والعصيان بكل صوره وأشكاله - ولسوف يزين لهم الضلال والباطل بكل الأسباب والوسائل وبمختلف طرقه وأساليب في التزيين والإغراء والإغواء ليودي بهم في النهاية إلى الجحيم فيكونوا شركاءه في النار؛ إذ يلتقي الكافرون الظالمون في جموع حاشدة كاثرة وهم

من مجرمي الجن والإنس ليكونوا جميعا في خندق الخزي والعذاب - إن إبليس يتدسس إلى بني آدم من كل مكان أو موقع، ومن كل جهة أو ناحية، ومن كل سبيل أو درب ليستنفر في كيانهم نزعة الشر، وليستثير فيهم الشهوات والغرائز فيميلوا كل الميل فإذا هم منزلقون في هاوية الضلال والباطل.

وقيل: المراد بقوله: من بين أيديهم: من الدنيا، ومن خلفهم: من الآخرة، وعن أيمانهم، من قبل الحق، وعن شمائلهم: من قبل الباطل. أما إتيانهم من قبل الدنيا، فهو أن يدعوهم إلى لذائذها ومباهجها وزينتها وكفى: فيرغبون فيها عما سواها - وأما إتيانهم من قبل الآخرة فهو أن يشككهم فيها ليرتابوا في قيام الساعة فيكونوا في زمرة الجاحدين الكافرين - وأما إتيانهم من قبل الحق أو الحسنات فهو أن يزهدهم فيها - وإتيانهم من قبل الباطل أو السيئات فهو ترغيبهم في الاستغراق في الباطل والاستكثار من السيئات والمعاصي.

قوله: {ولا تجد أكثرهم شاكرين} أي لا تجد أكثر بني آدم موحدين لك أو ذائعين لأمرك أو شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم - وذلك بسبب إغوائهم، وإزلاقهم في الخطيئة والعصيان - ولقد قال ذلك إبليس على سبيل الظن؛ لقوله تعالى في آية أخرى: {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه} كذلك كان ظن إبليس في ابن آدم؛ إذ يعلم مبلغه من الضعف - ضعف العزيمة والإرادة والاحتمال - ويعلم من فطرته المركوزة في عميق كيانه انه نزاع للشهوات فلا تهفو نفسه أو تصبو في الغالب إلا الرغائب الجسد من الطعام والشراب والزينة والاستمتاع والتلذذ بمختلف اللذائذ - وهو لا يضبطه دون الإسراف في ذلك ضابط مقتدر إلا أن يركن إلى عقله المتدبر البصير - ولا يتحقق ذلك إلا قليلا - فوازع العقل في معترك الملذات واستمتاع الأجساد بالغ الضعف والهوان في مقابلة الدوافع المتأججة للغرائز والشهوات - ومن هنا وجد إبليس ضالته في الاقتدار على إغواء الإنسان - أعاذنا الله من إغواء إبليس وجنوده عوذا.

١٨ - (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: {قال اخرج منها مذءوما مدحورا} مذءوما، منصوب على الحال من ضمير {اخرج} ١١ وهنا يخاطب الله عدوه إبليس في توبيخ وتحقير، أن أخرج من الجنة {مذءوما} أي معيبا، من الذأم وهو العيب ١٢ ومدحورا، أي مقصيا أو مبعدا - وذلك توبيخ وإهانة لإبليس الرجيم الذي يخاطب ربه في اجتراء لئيم فاجر؛ إذ يأمره ربه أن يبح الجنة وهو يجرجر ثوب الخزي والعي والصغار؛ إذ أقصاه الله وطرده من رحمته.

قوله: {لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين} اللام الأولى للقسم، وجوابه {لأملأن جهنم} وقيل: اللام لام الابتداء تفيد التوكيد - ومن اسم موصول مبتدأ، والجملة بعده خبر - لأملان، اللام للقسم - فهذا قسم من الله جل جلاله أن من اتبع إبليس من البشر فأطاعه وسار على طريقه، طريق الفسق والضلال، وصدق ظنه عليه، فإنه (الله عز وعلا) يملأ جهنم منهم جميعا؛ أي يملأ جهنم من إبليس وأتباعه من الجن والإنس ١٣.

١٩ - (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ١٩ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ٢٠ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين}.

بعد أن أخرج الله إبليس من الجنة وأهبطه الأرض صاغرا مهينا، قال لآدم وزوجه حواء: {اسكن أنت وزوجك الجنة} - وذلك من السكن، بالتحريك وهو الرحمة والبركة - ومنه السكينة، أي الطمأنينة والوداع والوقار ١٤ فقد أمرهم الله بالبث في الجنة ليستقرا فيها آمنين مطمئنين، تحف بهما الراحة والرحمة وتجللهما الوداعة والطمأنينة، إذ يمكثان في خير معاش وأكرم حياة مما لا يتصور بشر - حياة حافلة بالهناءة واليمن والاستقرار - يضاف إلى ذلك كله ما تشتهيه أنفس بني آدم وهو الطعام بأصنافه وأشكاله على اختلاف طعومه ومذاقه، فقد أتاح الله لآدم وزوجه أن يأكلا مما شاءا من الجنة بكل أنعمها وخيراتها باستثناء شجرة معينة نهاهما عن الأكل مما شاءا من الجنة بكل أنعمها وخيراتها باستثناء شجرة معينة نهاهما عن الأكل منها نهيا باتا مؤكدا، إذ قال ك {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين} أي فتصير من الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان والمخالفة عن أمر الله.

أما نوع الشجرة أو اسمها فغير معلوم على نحو قطعي مجزوم، لوروده في الآية مبهما لإطلاقه، فهو غير مخصص ولا مبين - وكل الذي نعلمه في هذه المسألة أن المنهي عن قرابة أو الأكل منه إن هو إلا شجرة - وما يقل من تأويلات في نوعها وحقيقتها ليس إلا ضربا من الظن الذي لا يغني، فضلا عن أن الخوض في مثل ذلك لا يغني ولا يجدي ولا يزيد من أهمية القصة شيئا ولو كان في الحديث عن اسم الشجرة ما يجدي أو ينفع لبينه الله سبحانه.

٢٠ - (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

قوله: {فوسوس لهما الشطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما}.

الوسوسة، الصوت الخفي، وحديث النفس بما لا نفع فيه ولا خير - والوسواس اسم الشيطان ١٥ - والمعنى: أن إبليس بما أوتي من قدرة ذاتية على التزيين والتغرير والإيحاء للنفس من داخلها بما يغريها ويغويها قد ألقى وسوسته لآدم وزوجه لكي يغويهما بعصيانهما أمر ربهما - فقد وسوس إبليس لهما {ليبدي لهما ما روي عنهما من سوآتهما} السوءات جمع سوأة، وهي العورة ويراد بها الفرج، لأن ظهوره يسوء صاحبه - واللام لم كي، أي لكي يظهر لهما ما غطي أو ستر من عوراتهما - وكانت عوراتهما مستورة بنور الله، فلما عصيا زال عنهما النور فانكشفت عوراتهما.

قوله: {وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين} ذلك من تغرير إبليس وخداعه لآدم وزوجه - فإن إبليس لا يألو سبيلا أو حلية في إغواء آدم وذريته وإفسادهم - فها هو كشأنه في الإفساد والتضليل، يراوغ آدم ويخادعه بزعمه الكاذب المكشوف أن الله ما نهاكما عن الأكل من هذه الشجرة {إلا أن تكونا ملكين} أي كراهة أن تكونا ملكين - أو لئلا تكونا ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الشهوات.

قوله: {أو تكونا من الخالدين} أي الذين لا يموتون بطبيعتهم، أو الذين يلبثون في الجنة ماكثين خالدين.

٢١ - (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

قوله: {وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين} لكما، متعلق بمحذوف - والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين ١٦ - وقاسمهما، أي أقسم أو حلف لهما، بصيغة فاعلهما من اجل المبالغة - والمعنى: أن إبليس أقسم لآدم وزوجه إنه لمن ينصح لهما في مشورته لهما وفي أمرهما بالأكل من الشجرة.

كذلك يكذب إبليس ويخادع ويفتري على الله الكذب وهو يصطنع من الأساليب والحيل ما يغرر به البعاد فيضلهما تضليلا - وكذلك جنود إبليس من البشر في كل زمان، فإنهم ليسوا أقل براعة ولا فظاعة في التحيل والخادع واصطناع المخططات والبرامج المذهلة لإيقاع البشرية في الفساد والضلال ولإغواء المؤمنين بالغ الإغواء ليبعدهم عن دينهم وليحرفوهم عن ملة الإسلام حرفا كليا إن استطاعوا وليثيروا في نفوس المسلمين على امتداد بلادهم وأوطانهم الشبهات والشكوك في منهج الله، منهج الإسلام سواء كان ذلك بالترغيب الناعم المصطنع، المموه بزخرف القول أو بالترهيب بكل ألوان التنكيل والتخويف والترويع ١٧.

٢٢ - (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ٢٢ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ٢٣ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين} دلاهما من الفعل دلى الدلو في البئر - ودلاه بغرور، أي أوقعه فيما أردا من تغريره ١٨ - والمراد أنه أنزلهما عن درجة الطاعة إلى درجة المعصية - وقيل: دلاهما، من الدالة، وهي الجرأة، أي جرأهما على المعصية - والمقصود: أن إبليس خدع آدم وزوجه بغرور، إذ كلمهما بزخرف من القول المموه الخادع ليحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا منها - وهو قوله: {فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما} أي أنهما أكلا منها شيئا يسيرا لمعرفة الطعم - فما إن ذاقاها حتى

انكشفت لهما عوراتهما، لأن الله قد أعراهما من الكسوة التي كانت تسترهما قبل خطيئتهما فلبسهما الله ذلك بما وقع فيه من خطيئة وهي عصيان أمر الله.

قوله: }وطفقا يخطفان عليهما من ورق الجنة{ طفقا يخصفان، أي جعلا يخصفان، من الخصف بالسكون وهو الخرز - أي جعل آدم وحواء يلصقان بعض عدو مبين{.

أي أن الله جل وعلا نادى آدم وحواء نداء عتاب وتأنيب ١٩: ألم أنهكما وأحذركما قربان هذه الشجرة أو الأكل منها، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو، إذ أبان لكما عداوته لنا ترك السجود لآدم حسدا وبغيا؟

ألم أبين لكما قل ذلك أن إبليس لهو العدو الأول والألد لكما ولذريتكما من بعد كما طيلة أحقاب هذه الدنيا؟ لا جرم أن إبليس وجنوده من الجن والإنس قد علموا في التضليل والغواية ما فيه الكفاية - فقد أضلوا ذرية آدم وأفسدهم أيما إفساد، وأوردوا بهم إلى التعس والشقاء في هذه الدنيا، وإلى الذل والهوان والخسران في الدار الآخرة.

٢٣ - (قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله: }قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين{ هذا إقرار متضرع إلى الله مقرون بالتوبة والندم من آدم وزوجه بما اكتسباه من خطيئة العصيان لأمر الله، إذ اعترفا على أنفسهما بالذنب، وبظلم أنفسهما، فسألا ربهما بعد ذلك التوبة منه والغفران والرحمة - وذلك أن يستر عليهما ذنبهما ولا يفضحهما بعقابهما على ما فرطا في حق الله وأن يتولاهما برحمته ورضوانه كيلا يكونا من الخاسرين - أي الهالكين.

٢٤ - (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

قوله: }قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو{ يخاطب الله آدم وحواء وذريتهما أو أن المخاطب آدم وزوجه وإبليس - وهو الأولى، لظاهر العداوة المتأصلة بين بني آدم وإبليس - فقد أمرهم الله جميعا بالهبوط من الجنة إلى الأرض كيما يعيشوا فيها جيلا بعد جيل، وأمة إثر أمة طيلة هذه الدنيا }بعضكم لبعض عدو{ في موضع نصب على الحال - أي أن العداوة ثابتة ومركوزة ومستقرة بين ذرية آدم وجنود إبليس فلا تزول البتة - الصراع بينهم دائم ومستمر فلا ينقطع ولا يفتر حتى تزول هذه الدنيا - وذلكم هو الصراع بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر - صراع محتدم وحرور لا يفنى ولا يتبدد - ولسوف يظل أهل الحق يكابدون بسببه أشد المكابدة ويلاقون على الطريق من أجله كل ظواهر العدوان والشر والعنت مما يكيده لهم إبليس وأتباعه وجنوده من مختلف ألوان التآمر والتأليب والمكر - ولسوف تبقى الحال بالمسلمين الداعين إلى الله على هذه الحال من احتدام الصراع واشتداد القراع ومرارة الاحتمال والتصدي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

قوله: }ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين{ المستقر موضع الاستقرار أي لكم قرار في الأرض تستقرونه، وفراش تمتهدونه في حياتكم وبعد مماتكم حتى تقوم الساعة حيث الحساب والجزاء - أما المراد بالمتاع إلى حين فهو استمتاعهم في حياتهم إلى انقطاع الدنيا ٢٠.

٢٥ - (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

قوله تعالى: }قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون{ ذلك إخبار من الله عما قاله لدى إهباطه من الجنة - وهو أنكم تعيشون في هذه الأرض التي تهبطون إليها، وفيها يكون مماتكم ومنها تخرجون للبعث والحساب يوم القيامة - هذه سنة الله كتبها على آدم وذريته من بعده، أن يحيوا وقتا معلوما في هذه الدنيا، ثم يفضوا بعد ذلك إلى الموت، ثم يأذن الله بقيام الساعة، لملاقاة الحساب والجزاء - ذلك تقدير كوني هائل كتبه الله العزيز العليم على الخلق والخلائق، بإرادته المطلقة التي، لا تعرف القيود ولا تحدها الحدود.

٢٦ - (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

قوله تعالى: }يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوأتكم وريشا ولباسا التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ٢٦ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوأتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا

جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون} اللباس ما يلبس ٢١ والمراد بالإنزال هنا الخلق، أي خلقنا لكم لباسا يستر عوراتكم التي أظهرها إبليس من أبويكم وهما في الجنة - ويستدل بذلك على وجوب ستر العورة لكل من الرجل والمرأة فسترها فرض بإطلاق، لكن العلماء اختلفوا في تحديد ماهية العورة لكل منهما - فعورة الرجل ما بين السرة والركبة - واختلفوا في كون السرة والركبة من العورة، فقد قالت الحنفية: عورة الرجل ما تحت السرة إلى الركبة - وبذلك فغن السرة ليست عندهم من العورة، للخبر: (عورة الرجل ما بين سرته وركبته) أما الركبة عندهم فهي من العورة، للخبر: (الركبة من العورة): أما الشافعية فقالوا: السرة من العورة - أما الركبة فليست عورة - وعند المالكية، العورة ما بين السرة إلى الركبة - يعني أن عورة الرجل التي يحرم النظر إليها، ما بين السرة والركبة، فيجب ستر ذلك سواء في الصلاة أو خارجها - أما الفخذ فهو عندهم عورة مخففة ويكره كشفها ولا يحرم - واحتجوا لكونها عورة بما رواه البخاري عن جرهد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (غط فخذاك فإن الفخذ عورة).

وقال أهل الظاهر: العورة من الرجل هو الفرج نفسه، وهما القبل والدبر دون غيرهما استنادا إلى ظاهر الآية {لباسا يواري سوآتهما} والسوءة الفرج، فهو عورة دون غيره.

أما المرأة الحرة فكلها عورة باستثناء الوجه والكفين - وهو قول أكثر أهل العلم - ويستدل لذلك بالخبر: (من أرادا أن يتزوج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيها)، ولأن كشف ذلك من الإحرام واجب - وقالت الحنفية: قدم المرأة ليست بعورة دفعا للحرج عنها بستر قدمها - وقال أخرون: كل شيء من المرأة عورة حتى ظفرها.

أما الأمة فعورتها ما تحت ثديها ولها أن تبدي رأسها ومعصميها ٢٢ فحكمها في ذلك حكم الرجل - فلما كان عورة من الرجل فهو عورة من الأمة، فبطنها وظهرها عورة، وما سوى ذلك من بدنها ليس بعورة، لأنها تخرج في حاجة سيدها في ثياب مهنتها عادة، وتكليفها بلباس الحرة يلحق بها حرجا شديدا ٢٣.

أما قوله: {وريشا} فالمراد بالريش هنا اللباس الفاخر - وقيل: المال والخصب والمعاش ٢٤ والمقصود بيان واحدة من نعم الله على عباده، إذ خلق لهم ما يلبسونه لستر عوراتهم وأجسادهم وما يتجملون به في حياتهم من زينة اللباس وفاخرة مما يكسبهم إحساسا بالسعادة ورفاهة العيش.

قوله: {لباس التقوى ذلك خير} لباس مرفوع على أنه مبتدأ، وخبره {ذلك خير} ٢٥.

أما لباس التقوى، فتأويله على أنه لباس الورع والاستقامة على طريق الله والتزام دينه وشرعه معاصيه، والائتمار بأوامره - وقيل: لباس التقوى يشمل كل وجوه الصلاح والاستقامة مما ينبثق في الأصل عن عقيدة التوحيد الخالص والإيمان بالله وحده دون شريك سواه والازدجار عما نهي عنه وزجر، والاستعصام بشرعه وما أمر - لا جرم أن التمسك بعقيدة الإسلام والأخذ بمنهج الله وحده دون غيره من مناهج الأرض، لسوف يصير بالإنسان المسلم إلى أشرف صيرورة من سلامة الطبع وطهارة الطوية وجمال الخلق بما يفيض على المرء من محاسن السلوك وروعة الحياء وحسن التصرف ما يجعله الإنسان المميز المفضال.

قوله: {ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون} الإشارة هنا إلى ما تقدم من إنزال اللباس والرياش ولباس التقوى - فذلك كله من آيات الله الدالة على فضله على عباده ورحمته بهم {لعلهم يذكرون} أي يتفكرون فيما خلقه الله من هذه الآيات وأمثالها فيؤمنون بالله إيمانا صحيحا فيفرون إلى الله وحده، مبادرين الإنابة إليه والثواء إلى جنابه العظيم.

٢٧ - (يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله: {يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة} - {يفتننكم}، من الفتن والفتون، بمعنى الإضلال والاستمالة نحو الباطل ٢٦ والكاف في قوله {كما} نعت لمصدر محذوف، والتقدير: لا يفتننكم مثل إخراج أبويكم من الجنة - والله عز وعلا يحذر بني آدم فتنة الشيطان لهم مثلما فتن أبويهم من قبل، بالأكل من الشجرة فأخرجا بذلك من الجنة - يحذرهم غواية الشيطان وتغريره بهم وإزلاقهم ناحية الشهوات والمحظورات والمعاصي - ودأب الشيطان أنه مستديم التحيل والخداع بكل أساليب الإغراء والإغواء، وبكل أسباب المكر والفتنة، ليحرف الناس عن دين الحق إلى ملل الباطل.

وذلك هو دأب الشياطين من البشر في حرصهم البالغ وتمالؤهم بالليل والنهار على الإسلام، ليستأصلوه استئصالا، وعلى المسلمين، ليقضوا عليهم قضاء، أو ليذروهم ضعافا مضطرين أشتاتا لا يربطهم بحقيقة الإسلام غير الاسم الخاوي من كل معاني الإسلام وقيمه ومضامينه.

قوله: {ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما} ينزع، جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير أخرج ٢٧ وتقدير ذلك: أخرج أبويكم من الجنة نازعا عنهما لباسهما لكي تظهر عوراتهما فيرياها - وغرض الشيطان في رؤية آدم وحواء عوراتهما هو أن يغتما، لأنه يسوءهما أن تظهر سوءاتهما لغيرهما كما بدت لهما، وهذه صفة أهل المروءة، إذ يترفعون عن رؤية سوءات أنفسهم أو أن يراها غيرهم - أما ثيابهما التي كانت عليهما قبل العصيان فقد كانت نورا - وقيل: من ثياب الجنة.

قوله: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم} المراد بالضمير، الشيطان - والقبيل، معناه الجماعة من الثلاثة فصاعدا - وجمعه قبل، بالضم ٢٨ والمراد بهم هنا أعوان الشيطان وجنوده - وحيث، مبينة على الضم، لأنها مقطوعة عن الإضافة إلى المفرد، إذ لا يجوز إضافتها إلا إلى الجمل، فأنزلت منزلة بعض الكلمة، وبعض الكلمة مبني - وقيل: مبني على الضم، لأنه أشبه الحرف، والحرف يكون مبينا، فكذا شبيهه مبني ٢٩.

هذه مبالغة هامة في تحذير العباد من خبث الشياطين ومكرهم، لأنهم يرون العباد من حيث لا يراهم العباد - لا جرم إذن أن يكون الشياطين بصفتهم هذه، أشد اقتدار على الخداع والإغواء والإضلال، فكيدهم بذلك عظيم وبالغ - وذلك كشأن الذي يرى خصمه من حيث لا يراه خصمه، لا جرم أن الرائي منهما صاحبه أقدر على إيذائه والإيقاع به - ولو كان الآخر يراه لأخذ لنفسه الحسبان والحيطة فكان الإيقاع به أهون وأخف.

وعلى هذا كان حقا على العباد أن يحذروا الشيطان فيتخذوا لمجانبته وعدم الافتتان به كل أسباب الحيطة والحذر.

قوله: {إنا جعلنا الشيطان أولياء للذين لا يؤمنون} أولياء، أي قرناء أو أعوان، فقد سلط الله الشياطين على أعوانهم من غير المؤمنين، ليضلوهم ضلالا مبينا - قال الزمخشري في تأويل ذلك: خلينا بينهم وبينهم، فلم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سولوا لهم من الكفر والمعاصي ٣٠.

٢٨ - (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ٢٨ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ٢٩ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون}.

الفاحشة، كل ما عظم قبحه - والفاحش كل شيء جاوز حده ٣١ - والمراد بالفاحشة هنا كل فعل قبيح بلغ في مراتب القبح النهاية، والمراد بالفاحشة التي كان يفعلها الجاهلون طوافهم بالبيت عراة - وقيل، معناها الشرك.

والحقيقة أن الفاحشة تصدق على عموم الذنوب والخطايا الكبيرة التي كان الجاهليون يتلبسون بها معتذرين بأنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم، إذ وجدوهم يفعلونه فهم على آثارهم سائرون - وزعموا أيضا أن الله أمرهم بذلك - وكلا الاعتذارين داحضين - لا جرم أنهما زعمان في غاية الافتراء والبطلان أما الأول، فغن ما فعله آباؤهم من ضلالات ما كان يليق بذي عقل وبصر أن يتشبث به أو يفعله، لأن آباءهم كانوا سادرين في الغي والجهالة، وأنهم في جل حياتهم وأهوائهم وسلوكهم وتصوراتهم إنما كانوا يتيهون في العمالة والضلالة - فأنى لأمثال هؤلاء الضالين السفهاء أن يقلدهم الناس ويعتبروا آثارهم.

وأما الثاني، فإن الله برئ من هؤلاء المشركين وضلالاتهم وافتراءهم - إن الله ما أمر بالفحشاء ولا يرضي لعباده الكفر والعصيان والباطل - وفي ذلك قاله سبحانه: {قل إن الله لا يأمر بالفحشاء} ثم قال سبحانه موبخا هؤلاء الكاذبين السفهاء الذين زعموا أن الله أمرهم بالفحشاء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا: فقد رد الله فعالتهم ردا شديدا فيه التعنيف لهم والاستنكار {أتقولون على الله ما لا تعلمون} استفهام توبيخ وإنكار، فقد عنفهم الله على كذبهم وافترائهم تعنيفا.

ولا يفوتنا ونحن نتكلم في هذه الخصلة الذميمة وهي تقليد الآباء واتباع آثارهم ومعتقداتهم وإن كانوا على العماية والضلالة، أن ننبه

إلى فداحة هذه الخصلة الذميمة ومبلغ خطورتها؛ فلقد ضل أكثر الناس من مشركين وملحدين وأهل كتاب ووثنين تحت وطأة التقليد الفاسد للآباء الضالين والجاهلين والسفهاء - لقد غرر الآباء المضلون بالأحفاد المغرورين بما تركوه لهم من ركام الضلالة الموروث سواء في العقيدة أو التشريع أو التصور - إنهم ما تركوا سوى الإشراك والركام المضطرب من ضلالات العقيدة المقلوبة المشوهة - ومن أشتات الأحكام والأقوال والتصورات الخارجة عن دائرة العقل السليم، والمجاوزة لكتب الله الحقيقية الأصلية كل مجاوزة، والتي خالطها من التحريف والتزييف والتغيير ما قبلها رأسا على عقب أو جعلها ضربا من عقائد التخريف والهذيان والهوس المحموم.
ومن شديد الخطورة التي تبعث على الأسى والمضاضة أن نجد هذه الظاهرة متلبسة بأهل الكتاب من اليهود والنصارى - أولئك الذين لم يبرحوا تقليد آبائهم وأجدادهم من غير تمحيص أو استبصار أو تدبر، إلا الاتباع الأعمى والانقياد المضلل، لما ورثوه من ملل باهتة مشوهة محرفة، ومن تصور جانح شاطح مجانب للتفكير السليم ومخالف لحقيقة ما جاء به النبيون من بني إسرائيل - لقد اتبعوا ما ورثوه من ركام الضلالات والأخبار المزيفة فزعوا زيغا عظيما - زيغا أفضى بهم إلى الاصطفاء في معسكر العداء والبغضاء والتربص بالإسلام والمسلمين - فها هم أهل الكتاب من يهود ونصارى ما فتئوا يكيدون للإسلام وأهله كل المكائد - ويفتنون في براعة واستباق في التآمر والتأليب على هذا الدين العظيم؛ ليصطلموه اصطلاما ٣٢؛ وليجتثوه من الأرض اجتثاثا أو يذروه مشوها ممزقا مضطربا كالذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم - لكن الله لكل الظالمين والمجرمين والخائنين والمتربصين بالمرصاد؛ ليرد كيدهم في نحورهم ويذيقهم بأس الخزي والافتضاح، ثم ينصر الله جنده المؤمنين المخلصين {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون}.
٢٩ - (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)
قوله: {قل أمر ربي بالقسط} القسط معناه العدل - وقيل: الحق والصدق - قال ابن عباس: القسط هنا لا إله إلا الله.
وهذه هي الشهادة الكبرى، وهي أعظم مقولة تنطق بها الكائنات في هذا الوجود - وهي شهادة ساطعة مجلجلة تحمل الإقرار الجازم الكامل على وحدانية الله، وأنه سبحانه الموجد لكل شيء، وأنه بذلك يستوجب من العباد أن يعبدوه وحده لا شريك له وان لا يعبدوا غيره من الأنداد المصطنعة والآلهة المفتراة من الأوثان والأصنام والطواغيت - وكل صور الأنداد الذين اصطنعتم أهواء الضالين المفسدين والأصنام والطواغيت - وكل صور الأنداد الذين اصطنعتم أهواء الضالين المفسدين من شياطين الجن والإنس - وعلى هذا يأمر الله نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما أمرهم به ربهم؛ فقد أمرهم بالحق والعدل والاستقامة على صراط والاستمساك بمنهجه وحده دون غيره من مناهج البشر.
قوله: {وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد} أي توجهوا حيثما كنتم في الصلاة نحو الكعبة - وقيل: اجعلوا سجودكم خالصا لله - وقيل: إذا حضرت الصلاة صلوا في كل مسجد، ولا يقل أحدكم: أصلي في مسجدي - وقيل: المراد إباحة الصلاة في كل موضع من الأرض؛ أي حيثما كنتم فهو مسجد لكم، يلزمكم الصلاة عنده وإقامة وجوهكم فيه لله.
قوله: {وادعوه مخلصين له الدين} أي اعبدوه وأطيعوه مخلصين له دون سواه - ويراد بعبادة الله: مختلف ضروب الأعمال الصالحة والطاعات التي ينبغي بها العابد المطيع وجه الله - ويأتي في طليعة العبادات والطاعات توجه العبد إلى الله بالدعاء - ولئن كان العبد المطيع لربه يدعو ربه في إلحاح وضراعة وخشوع لا جرم أن الله مستجيب إن شاء.
قوله: {كما بدأكم تعودون} الكاف في {كما} في موضع نصب، صفة لمصدر محذوف - وتقديره: وتعودون عودا مثلما بدأكم ٣٣ - وفي تأويل هذه الآية وجهان: أحدهما، وهو قول ابن عباس: كما خلقكم أولا، تعودون بعد الفناء - وفي الحديث مما أخرجه الصحيحان عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: (يا أيها الناس إنكم تحشرون على الله حفاة عراة غرلا ٣٤ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا فاعلين) وبعبادة أخرى في تأويل الآية: أنه كما أحياكم في الدنيا يحييكم في الآخرة، وليس بعثكم بأشد من ابتداء إنشائكم.
ثانيهما: أن الناس يبعثون على ما ماتوا عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفرانه.

٣٠ - (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

قوله: {فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة} فريقا الأول، منصوب بهدى - وفريقا الثاني، منصوب بتقدير فعل دل عليه ما بعده - وتقديره: وأضل فريقا حق عليهم الضلالة - ويجوز أن يكون منصوبا على الحال من ضمير {تعودون} وتقديره: كما بدأكم تعودون في هذه الحالة ٣٥ أو تعودون فريقا.

والناس لا محالة فريقان: أحدهما: الفريق المهتدي من عباد الله - أولئك الذين وفقهم الله للهداية والرشاد فكانوا السعداء والصالحين والناجين - وثانيهما: الفريق الضال - وهو الذي أعرض واستكبر، ولما سمع ذكر الله وكلمة الحق والنور طغى وعتى وتجبر، ومضى جامحا مع الفاسقين الشاردين.

على أن المراد بالهداية والإضلال، هو الدلالة التي تنشرح بها صدور المؤمنين للاهتداء، وتضيق بها صدور الكافرين؛ لشدة إعراضهم عن الحق وفرط نفورهم عن صراط الله القويم.

قوله: {إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله} الأولياء، جمع ومفرده الولي - وهو الناصر والحليف ٣٦ - والمعنى: أن هذا الفريق الضال وهم الفاسقون والجاحدون والمعارضون عن دين الله قد لتخذوا الشياطين لهم حلفاء وأنصارا وأعوانا ليتولهم وينتصروا بهم، كقول بعض المشركين العرب، إذ يخاطبون أصنامهم الصم: أعل هبل - وذلك غاية ما تفضي السفاهة وهوان الأحلام بالإنسان؛ إذ تفضي به إلى هاوية الضلالة وإلى الدركات السحيقة من الجهل المطبق وموات الفطرة السليمة.

وهذه حقيقة مريرة تتراءى للعيان في كل الأشقياء من أعوان الشيطان الذين تشمئز قلوبهم من ذكر الحق ومن منهج الإسلام - لكنهم يستبشرون إذا ذكر أولياؤهم من طواغيت البشر الطواغيت الباغية الشريرة الذين استحوذوا على شطر البشرية أو أكثر، بالإضلال والإفساد والتلويث؛ فأزاغوهم عن دين الله، وأشربوهم الكفر والإلحاد والفساد إشرابا - فباتوا أشباحا من الأناسي المضللين المأفونين ٣٧ الذين يركضون لاهثين سراعا في خفة وذلة وصغار وراء أسيادهم الشياطين المضلين من طواغيت البشر.

قوله: {ويحسبون أنهم مهتدون} يحسبون من المحسبة والحسبان بكسر الحاء، يعني الظن ٣٨ - هؤلاء المشركون المعاندون، والذين عتوا عن منهج الله وعاثوا في الدنيا إضلالا وإفسادا يظنون أنهم على الهداية والرشاد، ولم يعترفوا أنهم على الباطل والضلال - لا جرم أن هؤلاء أشد في تمردهم وكفرهم؛ لأنهم يستندون في غيهم وضلالهم إلى حسبانهم الخاطئ وظنهم الواهم المريض، إن هؤلاء الجاهلين السفهاء أشد عتوا واضطغانا ممن يعلم في قرارة نفسه أنه على الباطل بالرغم من كونه سادرا في غيه وظلمه ٣٩.

إن هذه إحدى المعضلات الذهنية والنفسية المستعصية في طبائع أهل الديانات المحرفة من اليهود والنصارى وغيرهم من الوثنيين - أولئك الذين يتيهون في غياهب التعصب الذميم والجهالة الطاغية المطبقة ويتشبثون بما ورثوه عن الآباء من كتب قد خالطها التغيير والتبديل، وصيرها التزييف والتحريف حشدا من الكلام الملفق الموهوم - الكلام المصطنع الغالي الذي يسول لصاحبه ظلم الآخرين من الناس والاعتداء عليهم بكل صور العدوان والإجرام - وهم مع ذلك يظنون واهمين أنهم ورثوا عن آبائهم حقا وصدقا!! والله يعلم، أولوا العلم الصادقون من الناس يعلمون أنهم ما ورثوا من العقائد والملل والتصورات غير الضلال والأوهام والتلفيق من الكلام المتهافت الخاوي.

٣١ - (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

قوله تعالى: {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ٣١ قل من حرم زينة الله التي أخرج لبعاده والطيبات الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ٣٢ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطان وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}.

ذلك رد من الله على المشركين السفهاء من عرب الجاهلية فيما كانوا يفعلونه في طوافهم بالبيت عراة؛ فقد روي مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة وعلى فرجها خرقة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله - - - وما بدا منه فلا أحله
فنزلت {خذوا زينتكم عند كل مسجد} ونزلت {قل من حرم زينة الله} ٤٠.
وقيل: نزلت في حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجا أو معتمرا يقول: لا ينبغي أن أطوف في ثوب قد دنست فيه - فيقول: من يعترني مئزرا، فإن قدر على ذلك، وإلا طاف عريانا، فأنزل الله: {خذوا زينتكم عند كل مسجد}.
وقيل: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس قريش وأحلافهم، فمن جاء من غيرهم وضع ثياب أحمس، فغنه لا يحل له أن يلبس ثيابه، فغن لم يجد من بعيره من الحمس، فإنه يلقي ثيابه ويطوف عريانا، وإن طاف في ثياب نفسه، ألقاها إذا قضى طوافه يحرمها فيجعلها حرما عليه - فأنزل الله الآية ٤١ وفي رواية أخرى لمسلم عن عورة عن أبيه قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا فيعطي الرجل الرجل، والنساء النساء، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات.
وفي رواية لغير مسلم: ويقولون نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا - فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوابا، ولا يسار يستأجره به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانا، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد - وكان ذلك الثوب يسمى اللقى ٤٢.
وفي هذه الآية يخاطب الله سائر بني آدم، وإن كان المقصود بنزولها العرب الذين كانوا يطوفون البيت عراة - والعبرة في عموم اللفظ وليس في خصوص السبب - والآية رد ظاهر للعادات السقيمة التي كان العرب الجاهليون يتلبسون بها، إذ يطوفون بالبيت عراة - وذلك ما كانت تأمرهم به أحلامهم الضالة ويسوله لهم الشيطان - وليس أدل على ذلك من الطواف بالبيت وهم عراة، ظاهرة سوءاتهم للعيان.
ويستفاد من الآية: وجوب ستر العورة في الصلاة أو خارجها، وذلك في حق الرجل والنساء - وهو ما بيناه سابقا - وفي ذلك أخرج مسلم عن المسور بن مخرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (ارجع على ثوبك نخذه، ولا تمشوا عراة) وقوله: {خذوا زينتكم عند كل مسجد} أي البسوا ثيابكم لموارة عوراتكم - والأمر المطلق يفيد الوجوب - والواجب هنا إنما هو في ستر العورة وليس في سائر وجوه الزنية - والزينة في الأصل كل ما يتزين به ٤٣، فهي تعم كل ما يتزين به المرء من اللباس وتوابعه - والآية لما دلت على وجوب أخذ الزينة لستر العورة فقد فهم منها في الجملة استحباب التجمل عند الصلاة لا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، ومن الزينة المستحبة أيضا الطيب والسواك واللباس الحسن - ومن أفضل اللباس البياض، فقد روي الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البسوا من ثيابكم البياض، فغنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإثمد، فغنه يجلو البصر وينبت الشعر).
وأخرج أحمد واهل السنن عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بثياب البياض فالبسوها، فإنها أطر وأطيب، وكفنوا فيها أمواتكم).
قوله: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} الأمر هنا يفيد الإباحة، فقد احل الله لعباده الأكل من صنوف الطعام، والشراب من أنواع الشراب شريطة اجتناب كل محظور منهما - ونهي عن الاسراف - والمراد به تحريم الحلال، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من الطعام إلا ما كان للقوت، ولا يأكلون دسما في أيام حجهم تعظيما لحجهم - فرد الله في هذه حكمهم وما كانوا يعتقدونه، إذ أباح لهم الأكل والشراب شريطة عدم الإسراف - ومعناه (الإسراف) موضع تفصيل - فقد قيل: المراد به هنا تحريم الحلال أو التعدي إلى الحرام - وقيل: معناه الشره في الأكل أو الإفراط في الطعام والشراب - وذكر عن عمر بن الخطاب قوله في ذلك: (إياكم والبطنة ٤٤ من الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنها أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغضن الحبر ٤٥ السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه).
وقيل: الإسراف هو مجاوزة الحد في كل شيء في ذلك الأكل والشراب واللبس وغير ذلك من وجوه الاستمتاع والزينة - وفي ذلك

روي الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده).
روي الإمام أحمد كذلك عن المقداد بين معد يكرب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه).
٣٢ - (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)
قوله: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق} الاستفهام للإنكار، إذ ينكر الله تحريم ما أحله لبعاده من الزينة، وذلك مما يتجمل به من الثياب وغير ذلك من أصناف اللباس {التي أخرج لعباده} أي خلقها الله وسخرها لعباده كيما ينتفعوا بها سواء كان ذلك من النبات أو الحيوان أو المعادن - وكذلك ينكر الله تحريم الطيبات من الرزق، فقد خلق الله لعباده سائر المستلذات مما تستطيبه النفس وتشتهيه - وقيل: المراد بالطيبات كل ما حل من المطعومات والمشروبات - ويستدل من هذه الآية على أن الأصل في الأشياء الإباحة، لأن الاستفهام في الآية لإنكار تحريم الزينة وما خلقه الله لعباده من طيبات الرزق - والرزق كل ما ينتفع به والجمع الأرزاق ٤٦، ويستدل منها كذلك على إباحة التجمل بالرفيع من اللباس في الجمع والأعياد وعند لقاء الناس وزيارة الأصدقاء - وقد روي مكحول عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب نخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوي لحيته وشعره - فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: (نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال).
واخرج مسلم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة - قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط ٤٧ الناس) - وجاء في طبقات ابن سعد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسافر بالمشط والمرآة والدهن والسواك والكحل - وغير ذلك من الآثار كثير مما يدل على النظافة والتجمل وحسن الهيئة.
قوله: {قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا} أي أخبرهم يا محمد أن المسلمين يشاركون الكافرين في زينة الحياة الدنيا وفي طيباتها، ثم تكون للمؤمنين يوم القيامة خالصة لهم من دون الكافرين - وقيل - عن زينة الله والطيبات من الرزق إنما خلقت للمؤمنين على طريق الأصالة زيادة في كرامتهم على الله فهم يأخذون بحظهم منها ما استطاعوا في حدود ما أحل الله لهم - أما الكافرون فغنما شاركوا المسلمين في طيبات الدنيا بالتبعية لهم.
قوله: {خالصة يوم القيامة} خالصة، منصوب على الحال من ضمير {للذين} والتقدير: قل هي استقرت للذين آمنوا في حال خلوصها يوم القيامة - وقرئت خالصة بالرفع على أنها خبر ثان للمبتدأ (هي) ٤٨ أي بعد أن كانت الدنيا بزينتها وطيباتها مشتركة بين المؤمنين والكافرين، فغنها تصير يوم القيامة خالصة للمؤمنين دون الكافرين الذين لا يستحقون حينئذ غلا النار وهوان الذل والعار.
قوله: {كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون} الكاف في {كذلك} صفة لمصدر محذوف، أي مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام - والمعنى: كما بين لكم الأحكام في اللباس والزينة والحلال من المطعومات والمشروبات وما حرم منها، فغنه يبين لكم جميع أدلته وأحكامه في الحلال والحرام - وذلك كله لقوم يفقهون ما يبينه الله لهم.
٣٣ - (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)
قوله: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن} ما في موضع نصب على البدل من الفواحش ٤٩ أي أن الله لم يحرم عليكم الزينة والطيبات مما حلقه لكم وأنعمه عليكم فجعلتموه أنتم حراما على أنفسكم، ولكن الله حرم {الفواحش ما ظهر منها وما بطن} أي

حرم عليكم القبائح من الأشياء مما تفعلونه علانية أو خفية - وقيل: ما ظهر منها يعني طواف أهل الجاهلية بالبيت عراة - وما بطن يعني الزنا - وقيل: غير ذلك.

قوله: }والإثم والبغي بغير الحق{ الإثم المعصية أو يوجبه من الذنوب - والبغي: التعدي والظلم وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء ٥٠.

قوله: }وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا{ وأن تشركوا، المصدر من هذه الجملة في موضع نصب معطوف على الفواحش - وكذلك قوله بعدها: }وأن تقولوا على الله{ ٥١ أي كذلك الله حرم عليكم أن تعبدوا معه إلها غيره - والإشراك بالله يأتي في قمة الموبقات والخطايا العظيمات وهو ما لم يجعل الله فيه للمشركين سلطانا، أي حجة وبرهانا.

قوله: }وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون{ أي حرم الله عليكم أن تفتروا الكذب كاتخاذكم الأوثان آلهة مع الله، وتجردكم من الثياب عند الطواف بالبيت فتطوفون عراة، وتحريمكم ما أحله الله لكم مما خلقه لكم كتحريم البحائر والسوائب والوصائل والحوامي وغير ذلك مما تزعمون وتفترون وانتم جاهلون لا تعلمون ٥٢.

٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

قوله تعالى: }ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون{ ذلك تهديد من الله للمشركين الظالمين الذين طغوا وتجبروا والذين قرروا من الأحكام والأهواء والتصورات ما لم يأذن به الله، والذين آذوا عباد الله المؤمنين فناصبوهم الكيد والظلم والعدوان بغير حق إلا أن يقولوا إننا مسلمون - إن هؤلاء يتهددهم الله تهديدا ويتوعدهم بالمثلات ٥٣ - والويلات وصنوف التنكيل في هذه الدنيا يوم يأتيهم الأجل وهو الموعد الموقت لإهلاكهم وتدميرهم قبل يوم القيامة - ويوم يحين موعد التدمير والإهلاك لا يزحزحه عنهم أحد - بل إن موعد تدميرهم وإهلاكهم إنما يأتي في وقته المقدور الذي كتبه الله لهم }لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون{ أي لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا ساعة من ساعات اليوم وهي جزء قصير من أجزاء الليل والنهار - وكذلك فإنهم لا يتقدمون في ذلك عن الوقت الذي جعله الله لهم موعدا محددا لهلاكهم وزوالهم ٥٤.

ذلك إعلان مرعب ومخوف يبينه الله للطغاة المجرمين الذين يحادون الله ورسله - والذين تمردوا على الله تمرد العتاة الأشقياء الجبابرة فراحوا يعيثون في الأرض الفساد، وينكلون بالمسلمين أشد تنكل، ويقطعون جل زمانهم في التآمر على الإسلام والمسلمين.

إن هؤلاء التعساء الطغاة من البشر قد تودعهم الله أن يحيق بهم العذاب الغليظ على اختلاف صورة وأشكاله لتحل بديارهم النوازل والمصائب والمحن قبل يوم القيامة مثلما حل بالأمم السالفة التي طغت وبغت فأخذها الله بالتدمير والهلاك - فلا يظنن بعد هذه الحقيقة واهم أو جاهل أو مغرور أن الله يعذب الظالمين في هذه الدنيا - فذلك فهم مجانب للصواب - بل إن الله للظالمين المعتادين الذين يبغون في الأرض بغير الحق بكامل المرصاد حتى إذا جاء وعد الله وحان أجل العذاب المقدر، أخذ الله الطاغين والمجرمين والخائنين أخذ عزيز مقتدر.

٣٥ - (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله تعالى: }يا بني آدم إما يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٣٥ والذين كذبوا بآيتنا واستكبروا عنها أوليك أصحاب النار هم فيها خالدون{.

اللفظ (إما) هو إن الشرطية، ضمت إليها ما لتأكيد الشرط ٥٥، والخطاب في هذه الآية من الله لعباده من ذرية آدم مبينا لهم أنه عن يجئكم رسلي الذين بعثتهم إليكم آمرين وناهين، مبشرين ومنذرين، وهم من أنفسكم ومن جنسكم ليبينوا لكم أحكامي وشرائعي وما ينفعكم في دنياكم أو أخراكم، وذلك جملة شرط، وجوابه الجملة الشرطية بعده وهي: }فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون{ وقيل: جوابه محذوف وتقديره: إن يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فأطيعوهم؟

وقوله: }اتقي وأصلح{ أي خاف الله وعمل صالحا يرضيه وانتهى عما نهاه عنه }فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون{ أي لا يخافون يوم

القيامة كما يخاف الناس من العذاب إذا عاينوه فوردوا عليه - وكذلك لا يحزنون لفراق الدنيا ولما فاتهم فيها من شهوات ولذائذ تجنبوها رغبة في رضوان الله، ولا لما تركوه وراءهم في الدنيا من الأموال أو الصحب والخلان والأحباب.

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله: {والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} الذين جحدوا آيات الله وما تضمنته من الدلائل والبينات والأحكام والشرائع واستنكفوا عنها استكبارا، إنما يصيرون إلى النار خالدين فيها خلودا مستديما ٥٦.

٣٧ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

قوله تعالى: {فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمعنى: من أشد خطيئة وأعتى ظلما وأبشع إجراما ممن يفتري الكذب على الله فيزعم إذا أتى منكرا أو فعل فاحشة أن الله قد أمره بذلك {أو كذب بآياته} أي يجحد ما انزل الله من دلائل وآيات بينات تصدع بحقيقة وحدانيته وصدق نبوة أنبيائه - عن هؤلاء جميعا {ينالهم نصيبهم من الكتاب} أي سوف يصيبهم العذاب الذي أعده الله لهم جزاء افترائهم وتكذيبهم - وقيل: سينالهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال بالرغم من ظلمهم وافترائهم على الله وتكذيبهم آياته، فهم لا يحرمون ما كتب لهم من ذلك إلى أن ينقضي أجلهم - وقيل: سوف ينالهم نصيبهم في الآخرة من أعمالهم التي عملوا وأسلفوا.

قوله: {حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله} حتى، لابتداء خبر، أي ابتداء الكلام بعدها وهي غاية لما قبلها - والمعنى: أن هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب وكذبوا بآيات الله سينالهم حظهم من الدنيا مما كتب الله لهم وسبق لهم في علمه سبحانه، من رزق وعمل واجل على أن تأتيهم رسلنا وهم ملك الموت وجنده لقبض أرواحهم {يتوفونهم} في محل نصب حال.

قوله: {قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله} قالت الملائكة لهؤلاء المعرضين الخاطئين لدى قبضهم أرواحهم موبخين معنفين: أين أولياؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟! هلا يدفعون عنكم ما نزل بساحتكم الآن من عظيم البلاء؟! هلا ينقذونكم مما حاق بكم من شقاء وتعس؟!

قوله: {قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} قال الكافرون الخاسرون لملائكة الموت: ذهب أولياؤنا الذين كنا نعبدهم وتخلوا عنا فلم ينفعلوا - وبذلك أقروا إقرارا أنهم كانوا في الدنيا كافرون مكذبين - يقولون ذلك في هذه الساعة العصيبة وهم تأخذهم غمرة الحسرة والإياس المطبق - وحينئذ لا يجدي ندم ولا توبة ولا عتبى ٥٧.

٣٨ - (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادراكوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ٣٨ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون}.

يقول الله يوم القيامة لهؤلاء المكذبين المفترين الذين جحدوا آيات الله واستكبروا عن اتباع دينه ومنهجه للحياة: ادخلوا النار مع أمم من قبلكم من الجن والإنس قد كذبوا وافتروا على الله بالباطل.

قوله: {كلما دخلت أمة لعنت أختها} الأمة جمعها الأمم - والمراد بها هنا أهل الملل الكافرة المصطنعة المفتراة أو الذين لا يؤمنون بدين ممن يسمون في الزمن الراهن (ملحدين) وهم الماديون الذين يجحدون الإيمان بالغيب كله فينكرون الإلهية البتة ويكذبون الوحي والنبوة.

أولئك جميعا أمم كافرة ضالة عن سبيل الله، ماضية في سبيل متفرقة شتى، لا يتعبون في ذلك غير الباطل وخطوات الشيطان - لا جرم أن مصيرهم جميعا إلى النار - وهم كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة من هاتيك الملل الكافرة شتمت أختها أهل الملة الكافرة الأخرى التي سبقتها في دخول النار - والمراد بالأخت هنا الأخوة في الدين والملة - فأهل الملل الضالة الكافرة جميعا إخوة في الضلال والكفر - وهذه بعض حال الكافرين الذين يكبكبون في النار وهم يتلاعبون ويتشاتمون؛ إذ تعلن كل واحدة الأخرى، فما من أهل ملة من هذه الملل الكافرة إلا وتنزيل بها اللعائن والشتائم من الضالين الآخرين لا جرم أن ذلك يزيد في الهوان والتنكيل بهؤلاء الخاسرين التعساء.

قوله: {حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار} ذلك من جملة التخاصم الشديد بين أهل النار وهم يتلاومون ويتشاتمون في النار ويوبخ كل قبيل منهم الآخر - والمراد بأخراهم في الآية الأتباع والرعاع - أما أولاهم فهم القادة وأئمة الكفر الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر والباطل - ومعنى الآية: أنه إذا تداركت الأمم أو اجتمعت جميعا في النار فالتقى فيها الأولون والآخرون من الأمم الضالة المكذبة قالت آخر كل أمة وهم الأتباع عن أولادهم وهم السادة والقادة مخاطبين ربهم: يا ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك في الدنيا ودعونا إلى عبادة غيرك من الآلهة المفتراة، وهم الذين سولوا لنا الكفران والطغيان وأن نعبد الشيطان، فآتهم اليوم في مقابلة ذلك الضعف من العذاب - والمراد بالضعف الزائد على مثله مرة أو مرات.

قوله: {قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون} ذلك إخبار من الله أن لكل من الفريقين وهما الأتباع والمتبوعون الضعف - فللأولى ضعف، وللأخرى ضعف أما ضعف الأتباع: فهو من أجل ضلالتهم واتخاذهم الرؤساء وقادة الضلال والكفر أئمة لهم، لا يصدون إلا عن أمرهم - وأما المتبوعون فضعفهم من العذاب من اجل إضلالهم غيرهم وإغوائهم إياهم فضلا عن ضلالهم أنفسهم وتكذيبهم رسل ربهم - {ولا كن لا تعلمون} أي ولكنكم يا معشر أهل النار لا تعلمون ما أعده الله لكم من العذاب.

٣٩ - (وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

قوله: {وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل} بعد أن سأل الأتباع ربهم أن يضاعف العذاب لمن أضلوهم من الساسة والرؤساء، وبعد الجواب من الله الذي لا معقب له، قالت أولى كل أمة لأخراها: نحن وإياكم في العذاب شركاء متساوون، فليس لكم علينا من فضل بتخفيف شيء من العذاب عنكم.

قوله: {فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون} ذلك من كلام القادة لأتباعهم الضالين وهو أننا جميعا ساقطون في العذاب بسبب اشتراكنا وإياكم في الضلال والكفر وتكذيبنا لما انزل الله، فذوقوا العذاب لما كسبتموه من العصيان والتكذيب - يقولون ذلك على سبيل التشفي ومن باب اليأس وانقطاع الرجاء ٥٨.

٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

قوله تعالى: {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ٤٠ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين} هذا نذير غليظ شديد من الله للكافرين الذين كذبوا بآيات الله، وهي ما أنزل من الأدلة والحجج والعلامات الدالة على وجوده وقدرته وعظيم سلطانه وعلى صدق كتابه الحكيم ورسوله النبي الكريم، فكذبوا بذلك كله وجحدوه وأعرضوا عنه مستكبرين مدبرين، هذا نذير من الله مخوف لهؤلاء الضالين بأنهم سيبوءون بالخسران والحرمان فلا يجدون من نسائهم رحمة الله ما يجيرهم أو ينجيهم بل إنهم ملاقوا مصيرهم الرعيب من الإبعاد والتنكيل والإهانة - هؤلاء قد قال الله فيهم: {لا تفتح لهم أبواب السماء} أي لا تنفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء ولا يصعد لهم في حياتهم الدنيا إلى الله قول أو عمل؛ لأن ما يصدر عنهم من شيء فهو مردود عليهم بسبب كفرهم؛ إذ لا يقبل الله من الكافرين أعمالهم - وقيل: لا يرتفع لهم عمل و لادعاء - والصواب، عموم ذلك كله؛ إذ لا يتقبل الله من الكافرين الجاحدين عملهم ولا دعائهم،

والسماء موصدة في وجوههم فلا تلجها أرواحهم بل تصد دونها صدودا إلى أسفل سافلين.

قوله: {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط} الجمل هو البعير، أي ذكر الناقة - وسم الخياط معناه ثقب المخيط أو الإبرة ٥٩ ذلك تيئيس من الله للكافرين المضلين الذين شاقوا الله ورسوله، والذين استكبروا عن دينه وشرعه وأبوا إلا الجحد والصد عن سبيل الله بكل الوسائل والحيل؛ فقد أخبر الله في هذه الآية كغيرها من آيات أخريات ان هؤلاء المضلين المفسدين المعاندين لن يدخلوا الجنة البتة ولا رجاء لهم في دخلوها أبدا كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة أبدا - ذلك تصوير بالغ ومؤثر يرتسم للخيال والذهن في مثل هذه العبارة البليغة القصيرة ليتبدد كل احتمال أو ظن في دخول الكافرين الجنة - لا جرم أن دخلوهم الجنة كحال قطعا - وهذه حقيقة لا تقبل الخلاف أو الجدل استنادا إلى العبارة الربانية القطعية في معناه ومدلولها.

قوله: {وكذلك نجزي المجرمين} أي مثل ذلك الجزاء الغليظ والعقاب الأليم نجزي المجرمين - وهم الكافرون الذين أجرموا وفرطوا في دين الله الحق - أولئك يتوعدهم الله بالعذاب الأليم يوم القيامة فضلا عن حرمانهم من دخول الجنة.

٤١ - (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

قوله: {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش} المهاد جمع مهد ومعناه الفراش ٦٠ وغواش بمعنى الغطية أو اللحف - ومفردها غاشية، وهو الغطاء، وكذا الغشاء والغشاوة تعني الغطاء ٦١ - وذلك وعيد من الله لهؤلاء المشركين المستكبرين المفترين بان لهم مهادا من جهنم وهو فراشهم فيها وامتهدوه مما يقعدون عليه أو يضطجعون كالفراش الذي يفرش والبساط الذي يبسط - وكذلك تغشاهم من فوقهم غواش من الناس يلتحفون بها التحافا - حقا تلك حال الكافرين الخاطئين الذين افتروا على الله وصدوا الناس عن دينه؛ فهم في جهنم غنما يفترشون نارها اللاهبة المضطرمة، وتغطيهم من فوقهم ألسنتها بشواظها الحارق المتأجج.

قوله: {وكذلك نجزي الظالمين} أي مثل ذلك الجزاء الأليم نجازي هؤلاء الظالمين، فقد وصفهم الله آنفا بالمجرمين، والآن بالظالمين؛ لأنهم جمعوا صفات الصنفين من الكافرين الخاطئين حيث الإجرام والظلم، فهؤلاء الذين استكبروا عن دين الله الحق وحادوا الله ورسوله وصدوا الناس عن منهج الله بمختلف الأساليب والبرامج والمخططات؛ لا جرم أنهم مجرمون ظالمون - يستوي في ذلك الكافرين المعاندون في الزمن الغابر وما بعده من أزمنة وعصور، أو في هذا الزمان الراهن الذي يشتد فيه الكيد والحقد على الإسلام والمسلمين، كيد الصليبيين والملحدين والاستعماريين والوثنيين والصهيونيين - إن هؤلاء جميعا يتلاقون على اتفاق مشترك واحد وهو التآمر على الإسلام والمسلمين بكل الأساليب والحيل والمخططات - ذلك التآمر الشيطاني الخبيث المزلزل الذي كاد من خلاله هؤلاء المجرمون الطغاة للإسلام والمسلمين أشد الكيد ٦٢.

٤٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ٤٢ ونزعنا ما في صدورهم من غل من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذين هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله قلد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون}.

الذين آمنوا، مبتدأ - والمراد بهم المصدقون بآيات الله ورسله - وكذلك الذين يعملون الصالحات من الأعمال - والخبر، الجملة الإسمية {أولئك أصحاب الجنة} أي هؤلاء المؤمنون العاملون الصالحات قد وعدهم الله الحسنى وهي خير الجزاء حيث الجنة وما فيها من النعيم الدائم، أما قوله: {لا نكلف نفسا إلا وسعها} فهذه جملة اعتراضية بين المبتدأ وخبره، والمراد منها ترغيب العباد في عمل المستطاع من الصالحات للفوز بمرضاة الله وبالجنة حيث النعيم والخلود - وفي الجملة الاعتراضية هذه ما يوحي بيسر الطاعات وعمل الصالحات والتزام دين الله وشرعه؛ فغن ذلك ليس عسيرا ولا حرج فيه - بل إن سائر التكليفات الشرعية إنما جئ بها لتكون في نطاق المستطاع للإنسان بما يحتمله مقدروه ولا يتجاوز طاقته الإنسانية المحدودة - وهذه سمة من سمات الصلوح لهذا الدين المتين الذي يراعي الطاقة البشرية خير مراعاة فلا يتجاوزها إلى ما هو عسير أو مرهق؛ أي أن الإيمان الصحيح الكامل المقترن بعمل الصالحات مما ليس فيه ما يرهق الإنسان

أو يشق عليه كثيرا، ومما هو في نطاق الوسع الإنساني، سوف يفضي بأهله من المؤمنين العاملين إلى دخول الجنة.
٤٣ - (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {ونزعنا ما في صدورهم من غل} النزع معناه القلع ٦٣ والغل معناه الغش والحقد والضغن ٦٤ - وفي هذه الآية يصف الله حال المؤمنين في الجنة من حيث طهارتهم النفسية الكاملة فيقول: وقلعنا ما في صدور أهل الجنة -في الجنة- من الحقد والعداوة والحسد الذي كان يخالط بعضهم لبعض في الدنيا - بل إنهم إذا دخلوا الجنة تطهرت نفوسهم وطبائعهم من الضغن والغش والكراهية، فكانت في غاية السلامة والطهارة والبراءة من كل أوضار الخسائس النفسية التي كانت عالقة بنفوسهم وهم في الدنيا - وهذه هي حال المؤمنين في الجنة، إذ يمتازون عن حالهم في الدنيا بطهارة القلوب كليا - وبراءتها على التمام من كل ما يشينها من أردان الطبع.

قوله: {تجزي من تحتهم الأنهار} جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الضمير هم في {صدورهم} وهذا وصف لحال أهل الجنة في الجنة، إذ يطهر الله قلوبهم تماما من خصال الضغن والعداوة ورذائل الغش والحسد التي كانت لصيقة بقلوبهم في الدنيا - لكنهم الآن في الجنة يحبرون وينعمون بكل صنوف النعيم ومن بينها الأنهار السارية تجري من تحتهم وهم ينظرون إليها في ابتهاج واستمتاع وحبور.

قوله: {وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} للام في لنهتدي، لام الجحود - والمصدر من {أن هدانا} في موضع رفع مبتدأ - والخبر محذوف تقديره موجود، لأن لولا هداية الله موجودة لهلكنا ٦٥ - والمعنى: كأن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين جزاهم الله الجنة وما فيها من الأنعم والخيرات إذا رأوا ما آتاهم الله من نعيم الجنة وما بسطه لهم من خيراتها ومباهجها فضلا عن تنجيتهم من عذاب النار -إذا أدركوا ذلك كله حمدوا الله حمدا كثيرا وأثنوا عليه بالشكران البالغ أن وفقهم للاعتصام بدين الله ومجانبة ما يسخطه ويغضبه مما أوصلهم إلى الجنة بكل آلائها وبركاتها - وقالوا أيضا: ما كنا لنرشد لما نحن فيه من النعيم لولا أن الله أرشدنا إلى طريق الحق والصواب، وجعلنا على المحجة المستقيمة البيضاء فحظينا بالتوفيق والهداية والجنة.

قوله: {لقد جاءت رسل ربنا بالحق} ذلك قول أهل الجنة الذين نجاهم الله من العذاب ووفقهم لدخول الجنة - فهم لدى معاينتها يقولون فرحين مجبورين: هذا الذي نجده اليوم من نعيم الجنة قد أخبرتنا به رسل الله من قبل - وهو وعد من الله لأهل طاعته بالخير والأهل معصيته بالعذاب الأليم - ذلك إخبار من الله عن وعده، ووعد حق وصدق.

قوله: {ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون} نودي أهل الإيمان والطاعات من قبل الملائكة - وهم عباد الله المركون الأطهار الذين ينادون المؤمنين في الجنة {أن تلكم الجنة} أن مخففة من أن الثقيلة، أي بأنه تلك هي الجنة التي كانت الرسل الله في الدنيا تخبركم عنها وتحدثكم عن وعد الله لبعاده المؤمنين بها {أورثتموها} الميراث هنا مجاز عن الإعطاء أي أعطيتموها برحمة الله وفضله.

وقوله: {بما كنتم تعلمون} الباء سببية - أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة من الله فحظيتم بدخول الجنة - فالأعمال وهي السبب ليست موجبة لدخول الجنة - وإنما يدخل المؤمنون الطائعون الجنة بفضل من الله ورحمة - وفي صحيح مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) ٦٦.

٤٤ - (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {و نادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ٤٤ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون}.

بعد أن يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار - وصيغة الماضي {و نادى} لتحقق الوقوع، وهو أن هذا الكلام واقع لا محالة يوم القيامة، إذ ينادونهم تبكيتا لهم وزيادة لهم في التحسير والالتياع {أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا

الحق فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا} أن مخففة من الثقيلة - وقيل: مفسرة - وحقا، منصوب على الحال - وقيل: مفعول ثان لوجدنا؛ أي أننا نحن المؤمنين الطائعين لله قد ألفينا ما وعدنا الله إياه على ألسنة رسله من نعيم الجنة وسعادتها جزاء تصديقنا وطاعتنا له دون سواه - وجدنا حقا وصدقا - وتلكم هي الجنة التي وعدنا الله إياها ننعم فيها نعيم الآمنين المطمئنين إلى أبد الآبدين، فهل ألفيتم ما وعدكم الله على ألسنة رسله من العذاب والهوان في مقابل جحودكم وتكذيبكم وعصيانكم؟ هكذا يخاطب أهل الجنة أهل النار، على ما بينهما من المفاصلة الفارقة الكبرى؛ إذ المخاطبون -بالكسر- في الجنة آمنون محبورون - والمخاطبون -بالفتح- في النار يسجرون تسجيرا ويواجهون كل ألوان الخزي والهوان والنار تلفح وجوههم الكالحة المسودة - فيا لهول الموقف، ويا لفداحة الويل والثبور!!

قوله: {قالوا نعم} أي وجدنا ذلك حقا - وذلك إقرار ذليل من الظالمين الخاسرين، وهم يحيط بهم الإحساس بالحسرة الغامرة والإياس الكامل؛ لفرط ما يستحوذ عليهم في ذلك اليوم من شدة الهول والفزع.

قوله: {فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين} أي نادى مناد من الملائكة بين الفريقين وهما أهل الجنة وأهل النار {أن لعنة الله على الظالمين} أن مخففة من الثقيلة أو مفسرة؛ أي أن غضب الله وسخطه على من كفر به أشرك معه في العبادة آلهة أخرى وعصى أمره وضل عن سبيله - وذلك مما يزيد في اغتمام أهل النار واستحسارهم وما يطوقهم من الذعر والهم والهوان.

٤٥ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ)

قوله: {الذين يصدون عن سبيل الله} الذين في محل جر نعت للظالمين - أو في محل رفع خبر لمبتدأ تقديره الضمير، هم - أو في محل نصب لفعل محذوف تقديره أعني، ويصدون من الصد وهو الصرف أو المنع؛ أي يمنعون عن سبيل الله وهو دينه ٦٧.

هذا من جملة النداء الذي ينادي بين أهل الجنة وأهل النار - والمنادي في ندائه مخول من ربه أن يلعن الظالمين الذين كانوا في الدنيا يصدون الناس عن دين الله؛ فهم أنفسهم معرضون عن دين الله ومنهجه القويم للناس، ثم يتعدون هذا الإعراض إلى صد البشرية بصرفها عن التوجه نحو الحق - لا جرم أن دين الإسلام بعقيدته ومثله وقيمه وتعاليمه وتشريعه لهو عين الحق والصدق والكمال - وهو ما تصلح عليه البشرية تمام الصلاح، وتستقيم على أساسه كامل الاستقامة في كل أحوالها النفسية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية - وهذه حقيقة واضحة وملموسة بفعل التجربة الواقعية التي عاينها المسلمون إبان الحكم بهذا الدين، وإبان سلطان الإسلام الوارف المهين على الأرض لكن الظالمين الذي تتفطر قلوبهم ضغنا وحسدا لفرط كراهيتهم للإسلام والمسلمين ما برحوا يصدون عن الإسلام منذ أن بزغ فجره إلى هذه الدنيا ما برح المشركون والمتربصون على اختلاف مللهم وأديانهم وعقائدهم يحادون الله ورسوله، ويشاقون الإسلام أفظع مشاقة، ويتآمرون على المسلمين أبشع تآمر - ولئن كان التآمر والكيد للإسلام والمسلمين في الأزمنة الماضية بالوسائل البدائية الهمجية كالقتل والإبادة والاستئصال، كالذي حل بالمسلمين في بغداد على أيدي المغول التتار، أو الذي حل بالمسلمين في الأندلس على أيدي الصليبيين الحاقدين - - لئن كان التآمر والكيد في الأزمنة الفائتة على هذه الصورة والكيفية من الاستصال وإزهاق الأرواح وتعذيب الأجساد، فإن الظالمين في الزمان الراهن أشد براعة ونكرا وأخبث وسيلة وأسلوبا في صد البشرية عن الإسلام وصرف المسلمين بالذات عن هذا الدين العظيم - وذلك بما برعوا من أساليب التشويه والتشكيك وافتراء الإشاعات الكاذبة والأخبار الملفقة المكذوبة عن منهج الإسلام؛ وذلك لتشويه الأفكار وتسميم العقول لدى المسلمين حتى ينثنوا عن دنيهم.

ولقد انبرى لمثل هذه العملية الهائلة الظالمة متخصصون في مختلف المجالات التشريعية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية وسائر ما يسمى في الاصطلاح الراهن بالعلوم الإنسانية - وقد زود هؤلاء بكل ما يحتاجون إليه من أسباب الدعاية والنشر كالطباعة ووسائل الإعلام وكتابة الصحائف والنشرات والمؤلفات المخلفة بالافتراءات والأكاذيب على الإسلام، والطعن في أغلب معانيه وتعاليمه بما يصد الناس عن هذا الدين صدا، وبما يثير في أذهان المسلمين تشويها كبيرا عن دينهم فينثنون عنه انثناء الجامحين الشاردين الذين استحوذت عليهم الشياطين من خصوم الإسلام فأغووهم وأضلوهم ضلالا مبينا.

ويضاف إلى هذه الأساليب النفسية والفكرية الخبيثة ما أنزله أعداء الإسلام بساحة المسلمين من العذاب والويلات الجسدية والإبادة الجماعية كحملات التقتيل والتنكيل والتشريد - ومن جملة ذلك ما حل بالمسلمين في كشمير نتيجة للتواطؤ القذر بين البريطانين

الاستعماريين، والوثنيين الهندوس عبدة البقر - ثم ما حل بالمسلمين في بلاد وطئتها أقدام الشيوعيين الملحدين، فعاثوا فيها خرابا وإذلالا مثل كمبوديا وسمرقند - وكذلك ما حل بالمسلمين في فلسطين حيث التدمير والتشريد والاستئصال نتيجة للتواطؤ الخسيس بين الاستعماريين البريطانيين والصهيونيين من اليهود وأعوانهم، لقد توطأ هؤلاء جميعا في أوكار العار والتآمر والخيانة على المسلمين في فلسطين، إذ أخرجوهم منها إخراجا بعد أن فعلوا فيهم صنوف الأفاعيل الشيطانية كالتخويف والترهيب والتقتيل والتهجير بالقوة - وأخيرا مأساة المسلمين في بلاد البوسنة والهرسك، وما تحمله لنا الأخبار الفظيعة والمذهلة عن أهوال رعيبة ارتكبها المجرمون الطغاة من الصرب والروس في حق المسلمين، إن ما يقترفه هؤلاء الأشرار والأنجاس من صور الطغيان والظلم والاغتصاب وانتهاك الحرمات في بلاد المسلمين ما ينبغي أن تطأطئ له رؤوس العالمين وجباههم خجلا واستحياء - إن هؤلاء المجرمين الطغاة إنما يقارفون أفاعيلهم المنكرة الشنيعة بما تحملونه في نفوسهم وأذهانهم وقناعاتهم من الحوافز على قتل المسلمين وتعذيبهم وإبادتهم - حوافز خبيثة رعناء تجتمع فيها الصليبية الضالة الحمقاء مع الماركسية الماكرة الحاقدة.

قوله: {ويبغونها عوجا} الضمير في: يبغونها، يعود على سبيل الله وهو دينه الاسلام - والعوج، معناه الميل، وهو خلاف الاعتدال ٦٨ هؤلاء الظالمون الذين يصرفون الناس عن الحق ويمنعون المسلمين من التزام دنيهم وما فيه من منهج للحياة يريدون أن يكون الإسلام تبعا لما يبتغونه له من الميل والاعوجاج عن طريقه المستقيم - يريدون للإسلام أن يكون موافقا لأهوائهم ورغبتهم في تمييعه وحرفه عن طبيعته الحقيقية المتماسكة - طبيعته المنزلة من عند الله والتي أراد الله لها أن تكون وافية كاملة شاملة لا تقبل التجزئة أو التفريق - وذلك هو دأب المتربصين بالإسلام من خصومه الاستعماريين والصليبيين والملحدين والصهيونيين؛ فهم جميعا يبذلون كل طاقاتهم وجهودهم من أجل التلبيس على المسلمين ليروا دينهم الإسلام على غير حقيقته من التوحيد والاستقامة والعدل والاستعلاء والجد - يريدون أن يلبسوا على المسلمين دينهم ليأخذوا به مشوها مائلا عن حقيقته السليمة المستقيمة؛ ليأخذوه دينا مضطربا محرفا - أو ليأخذوه أشتاتا من الدين المشوه المختلط - أو يجعلوه نمطا من التدين المضلل كالصوفية الهائمة الشاطحة البلهاء التي تركن إلى السلبية بالتوقع واعتزال الجهاد ومواجهة الظالمين، أو يجعلوه دينا مفككا مضطربا يأخذ المسلمون ببعضه في الأحوال الشخصية والأخلاق الحميدة والعبادات المجردة، ويعرضون عن بعضه الآخر من مقتضيات الإسلام الأساسية كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحمل لواء الإسلام للعالمين في غاية الهمة والشجاعة، والاستعلاء على الظالمين المتربصين من أعداء الإسلام؛ وذلك هو الإسلام الحقيقي الكامل الذي فرضه الله للعالمين كافة، وإن كرهه الظالمون وكادوا له كيدا بليغا.

قوله: {وهم بالآخرة كافرون} هؤلاء المشركون الظالمون الذين يصدون عن دين الله ويبغون الإسلام أن ينقلب ضعيفا مفككا مضطربا، لا جرم أنهم كافرون بيوم القيامة وما تنطوي عليه من أهوال وقواصم تنتظر العتاة المجرمين من دعاة الفساد والإلحاد والتخريب في الأرض، إنهم لا يعبأون بالحق أو الفضائل، ولا تصيخ قلوبهم وآذانهم لنداء المنطق والحكمة، وإنما دأبهم الانزلاق سراعا خلف الشيطان بوسوسته وإغوائه وإطغائه تحصيلا لشهواتهم وأهوائهم الهابطة الرخيصة.

٤٦ - (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

قوله تعالى: {وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ٤٦ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين}.

ذلك إخبار من الله عن هيئة الجنة والنار، وما فيها من ظالمين ومجرمين وفجار، فيقول سبحانه: {وبينهما حجاب} أي بين الجنة والبار سور أو حاجز فلا تلتقيان أو تجتمعان.

قوله: {وعلى الأعراف رجال} الأعراف جمع عرف وهو أعلى الشيء أو أعلى موضع فيه - والمراد بالأعراف هنا شرفات السور المضروب بين الجنة والنار؛ قال بان عباس: الأعراف هو الشيء المشرف - ومنه عرف الفرس وعرف الديك؛ وهو أعلاه ٦٩.

أما الرجال على الأعراف: فقد اختلف فيهم العلماء - فقد قيل: هم الشهداء - وقيل: هم صالحون فقهاء علماء - والقول الراجح في ذلك أنهم قوم من بني آدم استوت حسناتهم وسيئاتهم فجعلوا هنالك إلى أن يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة - وهو قول كثير من

أهل العلم فيهم ابن عباس وابن مسعود وحذيفة ابن اليمان وغيرهم - ويحقق هذا القول حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة ٧٠ دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار) قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: (أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون) - قوله: {يعرفون كلا بسيماهم} جملة فعلية في موضع رفع صفة لرجال ٧١، أي يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار {بسيماهم} أي بعلاماتهم الدالة على حقيقتهم والتي جعلها الله على وجوههم فيعرفون منها كبياض الوجوه لدى أهل الجنة وسوادها لدى أهل النار والعياذ بالله من النار وعذابها - أما السيما فهي العلامة - وكذا السمية والسيمياء بالكسر، والسومة بالضم بمعنى العلامة ٧٢.

قوله: {ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم} أي نادى أصحاب العراف وهم الموقوفون على مشارف السور، نادوا أصحاب الجنة، إذ عرفوهم من سيماهم؛

وهي علامة الإشراق والوضاءة على وجوههم قائلين لهم: سلام عليكم - وذلك من باب التحية والدعاء لهم - أو أنكم نجوتم من العذاب وفزتم بالجنة فهنيئا لكم.

قوله: {لم يدخلوها وهم يطمعون} هم، مبتدأ - ويطمعون جملة فعلية في محل رفع خبر المبتدأ - والمبتدأ وخبره في محل نصب على الحال من ضمير {يدخلوها} فيكون المعنى على هذا: أن أصحاب الأعراف كانوا يائسين من دخول الجنة، إذ لم يكن لهم طمع في الدخول، لكنهم دخلوا وهم على يأس من ذلك.

وقيل: لم يدخلوها بعد ولكنهم يطمعون في الدخول - وعلى هذا الوجه لا يكون للجملة موضع من الإعراب ٧٣.

٤٧ - (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله: {وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين} أي إذا صرفت أنظار أصحاب الأعراف إلى جهة أهل النار وعاينوا حالهم من العذاب البئيس، وتراءت لهم وجوههم الكالحة المسودة التي تشير إلى فظاعة النكال النازل بهم قالوا مذعورين متعوذين ضارعين: {ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين} أي دعوا الله أن لا يجمعهم في النار مع هؤلاء الظالمين الذين خسروا أنفسهم فهم في العذاب محضرون ٧٤.

٤٨ - (وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

قوله تعالى: {و نادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ٤٨ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون}.

أي نادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل الأرض، من رؤساء الكفر كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأبي خلف وغيرهم من قادة الكافرين في الدنيا، إذ رآهم أصحاب الأعراف فيما بين أهل النار، وهم يعرفونه بعلاماتهم الدالة على ظلمهم وخسرانهم، وأنهم حصب جهنم وذلك مما يعلو وجوههم من العبوس والسواد {ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون} ذلك استفهام توبيخ وتعنيف - وقيل: ما نافية - أي ما كفاكم ولا نفعكم جمعكم وهم أباعكم وأشياعكم - أو جمعكم من المال واستكباركم عن قبول الحق وعن التصديق بدعوة الله - ذلك كله لم ينفعكم ولم يجد لكم شيئا، الآن فقد خسرتم آخرتكم هذه وضعتموها بعوض بخس وهي الدنيا الفانية.

٤٩ - (أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

قوله: {أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة} الهمزة الأولى للاستفهام - وهؤلاء مبتدأ - والذين خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم، أي أهؤلاء هم الذين أقسمتم عليهم ٧٥ - والاستفهام للتوبيخ والتقريع - والمنادي هم أصحاب الأعراف - والإشارة إلى أهل الجنة الذين كانوا محتقرين في نظر الكفار في الدنيا، وهم من أمثال: سلمان وصهيب وبلال، فقد كان الكافرون يحلفون أن الله لا يصيبهم برحمته وفضله.

قوله: {ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون} وذلك من كلام أصحاب الأعراف، كذلك فهم إذا رأوا أهل الجنة قالوا لهم: ادخلوا الجنة أو دوموا فيها دواما أبديا لا ينفي ولا ينقطع غير خائفين من شيء يضركم أو يخيفكم ولا محزونين على ما فاتكم في الدنيا.
وقيل: القائل لهم ذلك هو الله - وقيل: الملائكة ٧٦.
٥٠ - (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)
قوله تعالى: {و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ٥٠ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسو لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون}.
بعد أن يستقر المؤمنون في الجنة، والكافرون والظالمون في النار يخبر الله عن حال هؤلاء من التعس والويل والبلاء - وما يجدونه في النار من النكال والاغتنام والاستحسار ما يعجز القلم والكلمات عن وصفه إلا كلمات الله في كتابه الحكيم؛ إذ تصف فظاعة التنكيل بالكافرين المجرمين العتاة، ومن جملته: ذلك العطاش الشديد الذي يحرق القلوب والأكباد حرقا، وكذا الجوع الأليم اللسع الذي يدفع الظالمين للمجرمين إلى الاستغاثة بأهل الجنة قائلين في كرب وهوان {أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله} أفيضوا أي أسيلوا أو صبوا ٧٧؛ فهم يستغيثونهم أن يصبوا عليهم شيئا من الماء ليطفئوا به ظمأهم الحران، ويسكنوا عطاش قلوبهم الظامئة الحرى {أو مما رزقكم الله} أي من خيرات الجنة مما فيها من الطعام والثمرات؛ فهم بذلك يستسقونهم ويستطعمونهم وهم يعانون من حر جهنم واستحرار لهيبها ما يجل عن البيان أو الصوف، إنهم ينادونهم بذلك رجاء منهم أن يستجيبوا لهم فيفيضوا عليهم مما سألوه لكنهم لم يستبقوا لهم في قلوب المؤمنين رأفة بهم ولا يستحقون من الله شيئا من رحمته وإحسانه - لا يستحقون في هذه الحال البئيسة الرهيبة غير الصدود والامتناع من غوثهم - وهو قوله سبحانه: {قالوا إن الله حرمهما على الكافرين} أجابوهم بمنعهم مما طلبوه وهو الطعام والشراب؛ فقد حرموا من ذلك ومن كل وجوه الرزق والنعمة يوم القيامة فلا يستحقون من الجزاء حينئذ إلا النار بما أسلفوه من الكفران والعصيان والصد عن سبيل الله وتحريض الظالمين والمشركين والمتربصين على المسلمين، فضلا عن استسخارهم بدين الله والاستهزاء به، فقال سبحانه: {الذين اتخذوا دينهم لهو ولعبا}
٥١ - (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)
{الذين اتخذوا دينهم لهو ولعبا} ذلك جواب أهل الجنة لأهل النار في سبب منعهم من شراب الجنة وطعامها - وهو كفرهم بالله وبدينه الذي شرعه لهم وأوجبه عليهم فاتخذوه لهوا ولعبا - والأصل في اللهو أنه الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ٧٨ وهؤلاء الكافرين كانوا لاهين عن دنيهم الذي أنزله الله إليهم، وقد شغلت قلوبهم وعقولهم بزخارف الدنيا فما قابلوا هذا الدين إلا بالإعراض والسخرية والاستهزاء والتهكم العابث المفضوح.
قوله: {وغرتهم الحياة الدنيا} أي خدعتهم الدنيا بمتاعها وزخارفها وما حوته من عرض سريع زائل فاغتروا بها اغترارا ثناهم عن الاهتمام بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء - وذلك هو شأن الدنيا، تغر أكثر الناس فينشغلون بها انشغالا يطغي على قلوبهم وعقولهم ويلهيهم عن أوجب واجباتهم وهو الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة والتزام دينه الذي ارتضاه وشرعه لهم - وأيما انشغال عن ذلك أو اغترار أو انثناء فإن مآله التعس والخسران.
قوله: {فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا} الكاف في {كما} في محل نصب نعت لمصدر محذوف؛ أي ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم - وذكر النسيان في حق الرحمن يأتي على سبيل التمثيل - فالله تعالى لا ينس، إذا قصد النسيان في أصل معناه وهو عدم الذكر - {وما كان ربك نسيا} وقال عز من قائل: {لا يضل ربي ولا ينسى} لكن المقصود بنسيان الله للكافرين هو تركهم في النار عطاشا جياعا معذبين على التأبيد لا يخرجون، مثلما تركوا دينهم الذي أنزله الله إليهم فأعرضوا عنه إعراضا ولم يستعدوا بالإيمان والطاعة للقاء الله في هذا اليوم المخوف.
قوله: {وما كانوا بآياتنا يجحدون} معطوف على {كما نسوا} أي ننساهم بتركهم في النار كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله في هذا اليوم

٧٩ - وكذلك نتركهم لما كانوا يكذبون بآيات الله وهي حججه وكتبه ودلائله التي يحتج بها النبيون على صدق دعوتهم.

٥٢ - (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ٥٢ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون}.

يقول الله مبينا حجته على الناس، أنه أنزل إليهم كتابه الحكيم وهو القرآن، مفصلا ومستبينا لا عوج فيه ولا نقص ولا إبهام، ميز الله فيه الحق من الباطل - وذلك {على علم} أي علم منا - أو أننا عالمون بما جاء فيه من خير وصلاح وتنجية للعالمين - وليس فيه شيء من وجوه النقص أو الضعف أو النسيان وإنما هو كامل البيان والتفصيل أنزله {هدى ورحمة لقوم يؤمنون} هدى ورحمة، منصوبان على الحال في هاء {فصلناه}.

أي أنزله الله يكون هداية للناس فتستقيم أحوالهم وطبائعهم وحياتهم - وهو كذلك بعقيدته وشرعه ومنهجه للحياة، يفيض على الدنيا وأهلها بالرحمة والإحسان والتحنان - وقد خص المؤمنين بالهداية والرحمة؛ لأنهم المدكرون المتعظون الذين بادروا التصديق بآيات الله والتزام دينه وشرعه دون إبطاء أو شك - فقال: {هدى ورحمة لقوم يؤمنون}.

٥٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: {هل ينظرون إلا تأويله} استفهام وعيد - و {ينظرون} من النظر وهو الانتظار؛ أي هل ينتظر هؤلاء المنكرون الجاحدون الكفرة {إلا تأوليه} أي عاقبته - وهو تأويل ما يؤول إليه تكذيبهم مما توعدهم به القرآن من سوء الحساب والعذاب.

قوله: {يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت الرسل ربنا بالحق} أي يوم القيامة يظهر عاقبة ما أخبروا به من العذاب ومصيرهم إلى النار، فأدركوا أن ما جاءتهم به الرسل حق، واعترفوا حينئذ بذنبهم العظيم وخطيئتهم الكبرى، وأيقنوا أنهم كانوا سادرين في الضلال؛ فهم الآن صائرون لا محالة إلى الشقوة والتعس.

قوله: {فهل لنا من شفعاء فيشعوا لنا} فيشفعوا، منصوب بتقدير أن بعد فاء السببية ٨٠ الشفيع هو السائل لصاحبه إسقاط العقاب عن المشفع فيه والعفو عن خطيئته - وهو من تعريف الطبرسي ٨١ يسأل الخاسرون التعساء يوم القيامة عن شفعاء يشفعوا لهم بدر العذاب عنهم وبتجنبهم مما عاينوه من العذاب المحيط المحدق - وهو استفهام اليائسين الخاسرين الذين أيقنوا أنهم أحيط بهم وأنهم صائرون إلى النار لا محالة - وهذا هو شأن اليائس المكروب الذي تملكه الحيرة، وغشيه اليأس المطبق، لا جرم أن يتشبث بما يظن أو يتمنى أنه منجاة له من النار - لكنه تشبث الحالمين الحياري الذين تقطعت بهم الآمال والسبل وعملوا أنه ليس حينئذ من شفيع ولا مجير إلا التداعي في النار والحرور.

قوله: {أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل} فنعمل منصوب على جواب التمني بالفاء بتقدير ٨٢ أن يتمنون كذلك أن يردوا إلى الدنيا لاستئناف العمل الصالح فيعملوا غير ما كانوا يعملونه إبان غفلتهم وعصيانهم ولا يعدو ذلك دائرة التمنيات الحائرة الشواطح يطلقها الخاسرون الهلكى لما طغى عليهم اليأس وعضتهم الندامة عضا لا يجديهم ولا يغنيهم من العذاب الواقع شيئا - ولذلك قال: {قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون} خسروا أنفسهم، بإهلاكها وإسقاطها في العذاب الأليم الدائم - وذلكم هم الخسران الكبير - وفوق خسرانهم هذا {صل عنهم ما كانوا يفترون} أي بطل ما كانوا يلفقون من الأكاذيب والافتراءات على الله - أو غاب عنهم ما كانوا يتخذونهم شركاء مع الله فيعبونهم معه أو من دونه - وهذا شأن المشركين الضالين في كل زمان؛ إذ يتخذون مع الله أربابا من دونه سواء كانت الأرباب من الجوامد الصم كالأصنام، أو البهائم التي لا تعي ولا تنطق كمن يقدس البقر ويتخذها مع الله شركاء، أو كان المعبود من البشر كالرؤساء الطواغيت أو الساسة والملوك الجبابرة المتسلطين الذين يستعبدون الناس استعبادا ويستخفونهم لطاعتهم استخفافا.

والرعاع وعامة الناس -وهم أكثر البشرية- يخفون في همة بالغة ونشاط ليس له نظير، لطاعة هؤلاء الجبابرة العتاة في كل ما يأمرونهم به - ولا يتردد المستخفون الرعاع يبادرون الطاعة لأسيادهم، ولو كلفهم ذلك الخروج عن منهج الله، وعصيان الله فيما أمرهم به - وذلك ضروب من ضروب الإشراك بالله يهوي فيه الضالون الحائرون ٨٣.

٥٤ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} ذلك إخبار من الله عز وجل عن غيبه المستور وعلمه الخفي المكنون الذي لا يحيط به إلا هو، بما يدل على عظيم صنعه وبالغ قدرته وإرادته وحقيقة وجوده التي حفل بها الوجود كله والتي تشهد لها كل الحقائق والخلائق والدقائق كافة - إن ذلك كله يشهد بما يشهد الحس شدها ويقرع الجنان والعقل قرعا، على أن الله لهو ذو الجلال والإكرام وأنه الخالق الموجد المبدع - ومن جملة خلقه، خلق السموات والأرض بكل ما فيهما وما بينهما من عجائب كبريات وغرائب بواهر، وذلك في ستة أيام - ولا نقف على حقيقة المراد بالأيام هذه إلا ما أوقفنا عليه ظاهر النص من غير تكلف في ذلك ولا تمحل أو إقحام للعقل فيما لا يطيق أو يحتمل؛ فقد قيل: ستة أيام كأيام الدنيا - وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة - والله أعلم بما يريد - مع أن الله قادر أن يخلقهما في طرفة عين أو دون ذلك إن شاء، لكنه يفعل ما يشاء؛ فالسموات والأرض من خلقه، والأيام من صنعه وتقديره، وله أن يقرر ما يريد دون معقب من أحد أو نديد - وفي هذا الصديد يقول سعيد بن جبير: كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهن في سنة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور - وفي الحديث مما رواه أبو يعلي وغيره عن أنس: (التأني من الرحمة، والعجلة من الشيطان).

قوله: {ثم استوى على العرش} {استوى} في اللغة بمعنى استقر - استوى على دابته إذا استقر على ظهرها - واستوى إلى السماء؛ أي قصدها، واستوى بمعنى استولى وظهر - وهو من تأويل المعتزلة - واستوى الشيء؛ أي اعتدل - والاسم السواء ٨٤.

على أن الاستواء على العرش صفة للرحمن بغير كيفية يقف على حقيقتها الإنسان، بل يجب عليه الإيمان باستواء الله على العرش، وأن يكل العلم في ذلك إلى الله عز وجل - وقد سأل رجل الإمام مالك بن أنس عن قوله: {الرحمن على العرش استوى}: كيف استوى؟ فاطرق رأسه مليا وعلته الرحضاء ٨٥ - ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالا، ثم أمر به فأخرج.

والعرش، في اللغة، بمعنى سرير الملك، ويطلق أيضا على الملك والعز والسلطان - وعرش البيت سقفه - وقيل: العرش معناه البناء العالي ٨٦ والمراد بالعرش في هذه الآية وغيرها من الآيات، في ضوء ما تكشف عنه الأحاديث الصحيحة: أنه الخلق العظيم الهائل الذي يحيط بالسموات والأرض؛ فهو أكبر منهما وأوسع، لاشتماله عليهما وإحاطته بهما ٨٧.

قوله: {يغشي الليل النهار} الجملة الفعلية في محل نصب حال - والتقدير: استوى على العرش مغشيا الليل النهار - ويغشي معناه يغطي، من الغشاء والغشاوة؛ أي الغطاء؛ أي يجعل الليل والنهار غشاء فيجلله بظلامه - أو يغطي ضياءه بسواده الشديد.

قوله: {يطلبه حثيثا} الجملة الفعلية في محل نصب من الليل - صفة لمصدر محذوف تقديره طلبا حثيثا - والحثيث معناه المسرع ٨٨؛ أي أن الليل يطلب النهار طلبا سريعا لا يعرف الفتور - وذكر الطلب هنا على سبيل المجاز - وذلك أن أحدهما يعقب الآخر ويخلفه فكأنما يطلبه طلبا سريعا دائما لا انقطاع فيه ولا اضطراب ولا فتور - وهو من استمرار طلبه للنهار لا يدركه بل هو في أثره طوال الزمان حتى ينقطع الزمان إذ تتكدر النجوم انكدارا وتنثر الكواكب انتثارا - وهذا إيذان داو ومزلزل بقيام الساعة، بعد أن يتبدد نظام الكون في هذه الدنيا وينفرط عقد الكائنات وما حوته الطبيعة من قوانين مقدورة.

قوله: {والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره} الأسماء الثلاثة الأولى معطوفة على السموات - ومسخرات، منصوب على الحال؛ أي أن الله خلق السموات والأرض وخلق الشمس والنجوم مذللات بأمره أي بإرادته وقدرته وبمقتضى حكمته وتدبيره؛ فهن

مأمورات لله الذي فطرهن.
قوله: {ألا له الخلق والأمر} الخلق: الإيجاد والاختراع مثلما قدر وأورد - والأمر: أي يأمر في خلقه بما يشاء، وليس له في ذلك شريك.
قوله: {تبارك الله رب العالمين} تبارك من البركة، وهي في اللغة بمعنى النماء والزيادة - والتبريك: الدعاء والبركة - وتبرك به، أي تيمن به ٨٩ و {تبارك الله} أي علا وعظم أو تعالى وتعظم - وقيل: تبارك وتقدس، والقدس بمعنى الطهارة - وقيل: كثرت بركته واتسعت لتصيب الحياة والأحياء جميعا ٩٠ ورب العالمين، أي مالك كل شيء في الوجود - إذ ما من شيء في السموات والأرض أو بينهما أو خارج حدودهما مما هو أوسع منهما إلا هو مملوك له؛ لأنه سبحانه له ملكوت كل شيء.
٥٥ - (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)
قوله تعالى: {ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ٥٥ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين}.
يأمر الله في هذه الآية عباده المؤمنين بالدعاء إليه - والدعاء ضرب عظيم من ضروب العبادات - بل إنه عبادة رهيفة كريمة مميزة يتقرب بها المؤمن الداعي من ربه درجات - والحرص على الدعاء بغير كلل ولا ملل ولا قنوط دليل الإخلاص المستكين وهو يكشف أيضا عن استقرار الإيمان الوطيد في قلب المؤمن الداعي - فلا جرم أن يكون الدعاء علاقة يقين وتصديق كاملين لدى المؤمن - وهو كذلك ظاهرة أساسية ومفضلة من ظواهر العبادات على اختلاف أنواعها وضروبها - بل إن شعيرة الدعاء تأتي في طليعة العبادات جميعا إن لم تكن هي نتيجة أصيلة كبرى تؤول إليها العبادات برمتها - فما يزال المؤمن يصلي ويصوم ويتصدق ويتنسك ويتطهر ويكثر من الطاعات حتى تتعاظم صلته الروحية بخالقه العظيم؛ لعبر عن حقيقة ذلك ومداه بالدعاء الصادق المخلص - وليس أدل على هذه الحقيقة من الحديث: (الدعاء مخ العبادة) ٩١.
وكذلك ما رواه كثير من أصحاب السنن والمسانيد عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدعاء هو العبادة) وذلك تعظيم للدعاء بما يجعله في ذروة المراتب من الطاعات التي يتقرب بها المرء من الله - إلى غير ذلك من الأحاديث المبينة لقدر الدعاء العظيم - هذه الشعيرة القلبية الخفية التي تشير إلى إخلاص المسلم العابد وهو يتذلل خاشعا لله بالمناجاة والرجاء - على أن الدعاء الصحيح المطلوب ما كان مضبوطا بضوابطه مما في الكتاب أو السنة لكي يكون دعاء سليما متقبلا - وهو ما تبينه الآية هنا {ادعوا ربكم تضرعا وخفية} تضرعا وخفية منصوبان على الحال؛ أي متضرعين بالدعاء مخفين له - وقيل: صفة لمصدر محذوف تقديره: ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية.
والتضرع، من الضراعة وهي الخضوع والذلة والاستكانة والخشوع - تضرع إلى الله؛ أي ابتهل ٩٢ - والخفية، خلاف العلانية وهي السر؛ لن الإسرار في الدعاء أقطع للرياء وأبعد عن الإخلال بالإخلاص - باعد الله بيننا وبين الرياء كما باعد بين المشرق والمغرب.
وعلى هذا يحاذر المؤمن كل شائبة تشوب الإخلاص في الدعاء إذا ابتغى لدعائه الاستجابة والتقبل - ومن الشوائب التي يتخرم بها الإخلاص في الدعاء المجاهرة الصارخة في الدعاء أو الصياح الرفيع المستهجن الذي يذهب ببركة العبادة ويبدد منها النقاء وحلاوة التذلل إلى الله - وإنما يدعو المؤمن ربه إسرارا وهمسا بينه وبين ربه حتى لا يدري أحد أو يسمع ما يقول - قال الحسن البصري في ذلك: أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سرا فيكون جهرا أبدا - ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت، وإن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم ٩٣.
واختلفوا في رفع اليدين في الدعاء؛ فقد كرهه طائفة من العلماء منهم: جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وشريح ومسروق وعطاء وطاووس ومجاهد - وأجز رفعه آخرون من الصحابة والتابعين - واستدلوا لجواز الرفع بما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه - ومثل ذلك عن أنس - وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة مادا يديه، فجعل يهتف بربه - - وذكر الحديث - وفي رواية عن أنس بن مالك قال: كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه.
أما مدى رفع اليدين في الدعاء فهو أن يرفعهما القانت حتى تصيرا بمحاذاة صدره - وهو قول الحنفية والحنبلية - وهو ما روي عن عمر وابن عباس وابن مسعود - وفي رواية عن أنس قال فيها: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه) ٩٤.
قوله: {إنه لا يحب المعتدين} الاعتداء يراد به مجاوزة الحد - وفي الحديث ما أخرجه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سيكون قوم يعتدون في الدعاء) والاعتداء في الدعاء يكون على وجوه منها: الجهر الكثير والصياح، وهو ما بيناه في الفقرة السابقة - ومنها ان دعاءه أن يكون له منزلة نبي أو يدعو في محال مما لا يحصل إلا بمعجزة، كما لو دعا ربه أن يصعد إلى السماء أو ينقلب له الحجر ذهبا وذلك ضرب من الشطط والعبث غير المعقول ولا المقبول في الدعاء.
وللدعاء آداب كثيره منها ان يكون الداعي على طهارة وأن يكون مستقبلا القبلة وأن يكون قلبه خاليا من شواغل الدنيا وأن يفتتح الدعاء ويختتمه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يرفع يديه نحو السماء - وأن يتحرى ساعات يستجاب فيها الدعاء منها يوم الجمعة ووقت نزول المطر وعند الإفطار.
٥٦ - (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)
قوله: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} نهى الله عن عموم الفساد في الأرض بعد أن شاعت فيها كلمه الحق والعدل وشاع فيها الإيمان والأمن والخير والاستقرار وكل وجوه الصلاح الذي يرسخ بأمر الله وبدينه العظيم الرحيم.
على أن وجوه الإفساد كثيرة يأتي في أشدها وأنكرها الإشراك بالله - لا جرم أن الإشراك بالله غاية الإجرام والإفساد في الأرض - وكذلك وجوه العصيان وارتكاب المحظورات وإشاعة الأذى والمنكر في البلاد بما يؤذي الناس ويضر بالعباد.
قوله: {وادعوا خوفا وطمعا} أي عبدوا الله، وأطيعوه بكل وجوه الطاعة، وتذللوا له خاشعين بالدعاء أن يدرأ عنكم العذاب، وأن يتفضل عليكم برحمته وجزيل ثوابه.
قوله: {إن رحمت الله قريب من المحسنين} قريب مذكورة بالتذكير على النسب؛ أي ذات قرب؛ كقولهم: امرأة طالق وطامث وحائض؛ أي ذات طلاق وطمث وحيض - وقيل غير ذلك ٩٥ - وتأويل الآية: أن رحمة الله قد كتبها لمن أطاعوه فاتبعوا أوامره واجتنبوا زواجره - إن هؤلاء المؤمنين المطيعين ينالون من الله رحمته التي وسعت كل شيء - ورحمة اله بفيضها الغامر الواسع تشمل كل معاني الخير والفضل والإحسان والعطاء الكريم - وذلك ما أعده الله بعباده الصالحين يوم القيامة ٩٦.
٥٧ - (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)
قوله تعالى: {وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ٥٧ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون}.
الرياح التي تحمل السحاب وما فيه من مطر، يرسلها الله للبعاد لتحمل لهم البشريات بنزول الخير والرحمة - وقوله: {بشرا بين يدي رحمته} أي مبشرات قدام رحمة الله وهو المطر المحمول - وقد سمي برحمة: لما يترتب عليه بحسب العادة من الخير والخصب والبركة والرزق - و {بشرا}، بضم الباء وسكون الشين، جمع بشير منصوب على الحال - وقرئت الكلمة بقراءات غير ذلك ومنها (نشرا) بالنون ٩٧.
قوله: {حتى إذا أقلت سحابا ثقالا} {حتى} غاية لقوله: {يرسل} و {أقلت}، أي حملت ٩٨ من لإقلال وهو الحمل - والحساب؛ معناه الغيم سواء كان فيه ماء أو لم يكن، وجمعه سحب وسحائب ٩٩، والسحاب الثقال، ومعناه الغيم الموقر بالماء يسوقه الله بإرادته إلى بلد ميت، ليس فيه ماء ولا نبات - بلد دارس مجدب غابت عنه كل ظواهر الحياة والحركة - حتى إذا ساق الله إليه السحائب الموقرات بماء المطر انبعثت فيه الحياة والبركة وشاعت فيه الخيرات والثمرات بما يفيض على الحياة والناس الأمن والرخاء والنعمة - وذلك هو

مقتضى قوله تعالى: {حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات}.
قوله: {كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون} الكاف في اسم الإشارة في محل نصب صفة لمصدر محذوف - وتقدير الكلام: مثل ذلك الإخراج نخرج محل نصب صفة لمصدر محذوف - وتقدير الكلام: مثل ذلك الإخراج نخرج الموتى من القبور - وهذا برهان من الله لكل ذي عقل سليم وفطرة سوية - برهان منتزع من الواقع المنظور مما لا يعز على الأذهان أن تعيه أو تصوره، وجملته: أن الله القادر على إحياء الأرض بعد مواتها ويبسها وجدبها، ثم يثير فيها الحياة والحركة والنمو، لهو قادر على إحياء الموتى من الأحياء في يوم البعث بعد أن أتى عليهم البلى والتعفية والدروس.
ألا يتشابه الحالان؟ بلى إنهما متشابهان لا يختلفان لا في الأصل ولا في الكيفية، فكلاهما في الأصل ميت وجامد وهامد - الأرض الميتة اليبس قبل أن يردها الماء مقفرة مجدبة ليس فيها حياة البتة - لكنها إذا ما سقيت ماء انبعث فيها الحياة والنماء والعطاء لتستحيل الأرض القفر بعد الماء إلى جنات حسان حيث الزروع والثمرات، فتعبق بها الروائح الزكية الفواحة، وتفيض على الناس زهوا وبهجة وجمالا.
إن الذي صنع من حبات الثرى الجوامد جنات خصيبة بهيجة مخضرة لهو قادر -بداهة- أن يحيي الخلائق بعد موتهم - وذلك هو تأويل قوله تعالى: {كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون} إن هذا الإحياء العجيب الباهر، وهذه العملية الربانية المذهلة في الخلق، وبعض الحياة بعد موات واقفرار وركود، لا جرم أنها خر دليل على حقيقة البعث يوم القيامة - وفي ذلك من قوة البرهان الساطع ما يعيه ويتذكره أولو النباهة والفطانة من الناس.
٥٨ - (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)
قوله: {والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا} نكدا، منصوب على الحال ١٠٠ والبلد الطيب، يراد به الأرض ذات التربة الخصيبة الكريمة، إذا أنزل الله عليها الحيا والغيث خرج منها النبات الوافر ذو الثمر الطيب الغدق بإذن الله - أما الذي خبث فيراد به الأرض العسيرة التي لا تجدي ولا تنفع لكونها سبخة أو ذات حجارة وشوك، فإنها لا تخرج غير النبات النكد - أي القليل الذي لا يخر فيه - ولا يخرج إلا نكدا أي عسرا وفي شدة - والنكد بالفتح، مصدر وهو الشدة والضيق والشؤم واللؤم، وعطاء منكود، أي نزر قليل - والرجل المنكود، هو الذي كثر سؤاله وقل خيره - ورجل نكد، أي عسر، وقوم أنكاد ومناكيد ١٠١.
هذا مثل يضربه الله للناس، يبين فيه اختلاف القلوب - فثمة قلب مؤمن كريم متفتح يعي حقيقة الإيمان والإخلاص ويقبل المواعظ والذكر ويلين للكلمة الصادقة الودود فيقبل على الله في طواعية ولين واستسلام - وقلب آخر مغاير كل مغايرة أو بعضها، فهو منكود وموصد وعسر لا خير فيه - قلب جاحد فظ لا يروق له الصدق والعدل والصواب، ولا تعطفه المواعظ والذكرى، وهو لفرط قسوته وتبلده وضموره لا نؤثر فيه أسباب الهداية أو الترشيد، فهو بذلك مستعص على كل هاتف من هواتف الدين المستقيم، أو نداء من نداءات الهداة والمرشدين - ذلكم هو الإنسان النكد الشرير - الإنسان الظالم العتل الذي خبت فيه بصائص اللين والرحمة والجمال وغارت فيه كل ظواهر التدين والخير، فأبى إلا التمرد والشرود والعصيان قوله: {كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون} أي مثلما صرفنا الآيات والبينات والدلائل لدحض الشرك وافتراءات الظالمين والمشركين، فإنما نردد الآيات والحجج ونكرها لتدل على قدرة الله البالغة فيتدبرها الشاكرون وهم الذين يحسنون الانتفاع بهذه الدلائل والبينات.
٥٩ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
قوله تعالى: {لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلاه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ٥٩ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ٦٠ قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ٦١ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون} شرع يقص علينا أخبار المرسلين السابقين وما بذلوه من جهود هائلة لا يحتملها إلا أمثالهم من النبيين المرسلين - لقد بذلت رسل الله غاية طاقاتهم من التبليغ والأداء ودعوة الناس إلى عبادة الله والتزام دينه وشرعه وأن يجانبوا عبادة الطواغيت والمعاصي ليكونوا من الراشدين المهدين - فها هو جل جلاله يقص علينا من أخبار نوح عليه الصلاة والسلام - هذا النبي

الكريم المفضال الذي عاش في قومه هديا ومبلغا ألف علم إلا قليلا - وقد يكون يدعوهم خلال هذا الزمن الطويل إلى الله وإلى الانثناء عن ضلالاتهم وحماقاتهم في الإذعان للأصنام - لكنه لقي من جحود قومه وعتوهم وعصيانهم وإيذائهم مالا يطيقه بشر من البشر إلا من كان في درجة نوح عليه الصلاة والسلام.

وفي حقيقة هذا الاسم (نوح) قيل: إنه سمي بذلك لكثرة ما ناح على نفسه - واختلفوا في سبب نياحه على نفسه فقيل: سببه دعونه على قومه بالهلاك - وقيل: مراجعته ربه في شأن ابنه كنعان - وقيل: إصرار قومه على الكفر - فكان كلما دعاهم وأعرضوا عنه بكي وناح عليهم - وقيل غير ذلك من الأخبار الظنية غير المستندة إلى أدلة معتبرة ومقبولة إلا الإغراق في الظن البعيد الذي لا يغني من الحق شيئا - والظاهر أن هذا الاسم قد وضع له عليه الصلاة والسلام لدى ولادته؛ فهو غير مشتق من النياحة أو النياح أو المناحة أو النوح - بل هو اسم أعجمي منصرف لخفته ١٠٢.

قوله: {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلاه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} غيره، مرفوع صفة لإله، أو بدل منه باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء - وقيل: مجرور على أنه صفة لإله باعتبار لفظه ١٠٣.

وفي الآية هذه ينادي نوح قومه الضالين المشركين نداء الرفيق الشفيق أن اعبدوا الله وحده وأطيعوه وأذعنوا له بالانقياد وذروا هذه الأنداد المصطنعة المفتراة؛ فإنها جميعا لا تضر ولا تنفع؛ فهي صم بلهاء لا تعي ولا تسمع ولا تملك لكم شيئا؛ فإنه ليس لكم في الحقيقة من إله خالق قادر رازق سوى الله.

قوله: {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} وهذا تنذير من نوح لقومه يخوفهم به تخويفا، فإذا لم يفيئوا إلى الله بعبادته وحده ونرك الأصنام كليا والانخلاع من هذه الربقة المهلكة - ربقة الشرك والضلال والتعس، والتشبث بالأصنام المفتراة -لئن لم يفيقوا من هذا العمه الطاغي يستنقذوا أنفسهم من كابوس الوثنية الضالة العمياء؛ فلسوف يحيق بهم العذاب من الله - وهو عذاب أليم شديد قي يوم مذهل رعيب يشتد فيه الهول ويتعاظم فيه البلاء - ونوح عليه السلام حريص على قومه كل الحرص لتنجيتهم من العذاب - بل إنه يخاف عليهم أن يحل عليهم العذاب يوم القيامة، وحينئذ لا يحول دونه حائل، ولا تجدي معه شفاعة الشافعين.

٦٠ - (قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله: {قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين} الملأ يعني الجماعة وهم أشراف القوم وسراتهم وجمعه أملاء ١٠٤ - لما دعا نوح قومه إلى دين الله، دين التوحيد والاستقامة أجابه أشراف القوم وهم رؤوس الكفر والضلال وقادة الفساد والشرك الذين مردوا على الوثنية والباطل، والذين أشربت نفوسهم حب الأصنام وكراهية الحق -أجابه هؤلاء المسرفون في الضلالة والعدوان: {إنا لنراك في ضلال مبين} وأصل الضلال، الضياع والغياب والهلاك ١٠٥، والمراد به العدوان عن سبيل الله وهو منهجه الحكيم، أو دينه المعتدل القديم - لكن المقصود بالضلال في تصور هؤلاء الظالمين من قوم نوح هو العدول عن ملتهم السخيفة وعبادتهم الفاسدة المفتراة، وعن أصنامهم المختلفة الجوامد - هكذا يفتري الضالون المشركون على نبيهم الكريم العظيم بالكذب والباطل - وذلك هو ديدن الكبراء والساسة والأشراف من قادة الضلال والإجرام في كل زمان؛ إذ يفترون على الداعين إلى الله وتطبيق شريعته ومنهجه فيتهمونهم بمختلف الأكاذيب والترهات.

٦١ - (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين} بمثل هذا النداء الشفيق المخلص الحاني ينادي نوح قومه {يا قوم} نافيا ما زعموه في حقه من الضلالة وهي العدول عن الحق قائلا لهم: إنه ليس بي ما تظنون من الضلال ولكني أرسلت من رب العالمين؛ لأبلغكم رسالته فأدعوكم إلى توحيده وعبادته والإقلاع عن هذه الآلهة المفتراة المصطنعة.

٦٢ - (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله: {أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم} أبلغكم بالتشديد للمبالغة - والرسالات جمع رسالة - وذكرها على الجميع؛ لتنوع ما أرسل به إليهم

من مختلف المعاني والمواعظ والأحكام - أو أن المراد رسالته هو ورسالات غيره من النبيين كإدريس وشيث فهو عليه السلام يخبرهم بأسلوب رحيم ودود أنه مرسل إليهم ليبلغهم رسالات الله وينصح لهم - والنصح في اللغة معناه الإخلاص وصدق المشورة والعمل - والناصح معناه الخالص من كل شائبة - ورجل ناصح، أي نقي القلب ١٠٦: والمراد: أنني أبين لكم وجه المصلحة فيما ينفعكم في دنياكم وأخركم.

قوله: {وأعلموا من الله ما لا تعلمون} أي أعلم من قبل الله بوحيه الكريم من المعلومات والأخبار ما ليس لكم بها علم وذلك عن قدرته القاهرة وبطشه الشديد، وعما يلاقيكم يوم القيامة من الأهوال والشدائد وفظاعة التعذيب، إن لم تؤمنوا برسالتي إليكم، وتكفوا عما أنتم عليه من الشرك والباطل ١٠٧.

٦٣ - (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

قوله تعالى: {أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ٦٣ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين} الهمزة في {أو} للاستفهام الإنكاري - والواو للعطف، أي لم هذا العجب منكم؟ وهو عجب ليس له داع ولا مبرر، أتعجبون أن يجيئكم موعظة من ربكم فيها بيان لكم عما ينفعكم في دينكم ودنياكم {على رجل منكم} أي من جنسكم تعرفون أصله ونسبه وخلقه، جاءكم ليحذركم العقاب المنتظر بسبب تفريطكم في حق الله وعصيانكم أمره، ومن أجل أن تخافوا الله ربكم فلا تتوانوا عن طاعته ولا تترددوا في مجانبة عصيانه - وذلك كله سبيل خلاصكم ونجاتكم، وهو ما يفضي بكم إلى الظفر برحمة الله.

٦٤ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)

لكنهم بالرغم من كل هذه النصائح المشداة، وبالرغم من مواعظ نوح الطويلة وتحذيره المتواصل لقومه في الليل والنهار طيلة ألف عام إلا قليلا، بالرغم من ذلك كله لم تجد النصائح ولا المواعظ مع هؤلاء العتاة الغلف شيئا - بل لجوا في عتوهم وتكذيبهم لجوجا، وظلوا سادرين في طغيانهم وتكذيب نوح حتى كانت النهاية البالغة الفاصلة التي أنجي الله فيها نوحا والذين آمنوا معه في السفينة - وعددهم من نوح ثلاثة عشرة من المؤمنين والمؤمنات - وهم نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم، وستة أناسي آخرون ممن أمن به - ثم أغرق الله الباقين الأكثرين الذين لجوا ف عتوهم وعصيانهم وأسرفوا في غرورهم وعنادهم فلم يؤثر فيهم النصح الأمين ولا الوعظ الحليم حتى أخذهم الله بالطوفان الغامر الهادر، فكانوا من الهالكين الخاسرين الذين خسروا الدنيا والآخرة - لا جرم أن ذلك لهو الخسران الفادح المبين ١٠٨.

٦٥ - (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

قوله تعالى: {وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ٦٥ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ٦٦ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ٦٧ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ٦٨ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا الآلاء الله لعلكم تفلحون}.

لقد أرسل الله نبيه ورسوله هودا عليه السلام إلى قوم عاد وهو قوله: {وإلى عاد أخاهم هودا} أي صاحبهم - وقيل: أخوهم في القبيلة - وكان هود أوسط قومه نسبا وأفضلهم حسبا - أما عاد فهم من ولد سام بن نوح - كانوا ينزلون الرمال بنواحي حضر موت من اليمن - وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة - وظاهر حقيقتهم ووصفهم أنهم كانوا عتاة غلاظا أشداء، عبدوا الأصنام وعتوا عن أمر ربهم عتوا شديدا لما دعاهم نبيهم هود، إذ قال لهم: {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلاه غيره أفلا تتقون} أي اقبلوا على الله بالتصديق والطاعة، وأفردوا له العبادة، وأعتقوا أنفسكم من العبودية للأصنام، فغنه ليس لكم من إله معبود يستوجب منكم الخضوع والامتثال سوى الله - فهو خالقكم وخالق أصنامكم، وهو الذي ذرأ لكم ما تتقلبون فيه من نعيم الدنيا ورخائها {أفلا تتقون} أي أفلا تخافون الله فتحذروه

وتخشوا عقابه فتبادروا الإيمان به والطاعة له قبل ان يحل عليكم غضب الله وعذابه.
٦٦ - (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)
قوله: {قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين} ذلك جواب القوم الظالمين -قوم عاد- إذ كذبوا نبيهم تكذيبا وجحدوا توحيد ربهم عنادا واستكبارا {إنا لنراك في سفاهة} والسفاهة في الأصل الخفة، والمراد بها نقص العقل ١٠٩ أي نجد أنك يا هود ناقص عقل وضال عن الحق والصواب، إذ فاقت قومك وتركت دين آبائك وعبادة آلهتهم {وإنا لنظنك من الكاذبين} قيل: الظن هنا بمعنى العلم - أي نعلم يا هود أنك من الكاذبين في دعواك حمل الرسالة وقيلك إنك مرسل من ربك - وقيل: الظن جار على ظاهره وهو خلاف اليقين - فقد قالوا ما قالوه مع كونه عليه السلام معروفا بصدقه وأمانته.
٦٧ - (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {قال يا قوم ليس بي سفاهة ولاكني رسول من رب العالمين} هذا رد من داود للسفاهة عن نفسه في خطاب رفيق لقومه - خطاب تبدوا فيه نداوة الإشفاق على قومه والتجنب لهم، استمالة لقلوبهم الفظة - وذلك في قوله: {يا قوم} فهم أهله وعشيرته وقومه وهو من جنسهم يسوؤه ما يصيبهم من عنت.
وقد نفي هود عن نفسه أيما سفاهة، فإنه ما ضل ولا مال عن الحق والصواب - ولكنه مرسل من ربه جاء يبلغ الناس رسالة ربهم ففيها الهداية لهم والترشيد، وفيها ما يصلح عليه حالهم في الحياة وفي المعاد وهو قوله: {أبلغكم رسالات رب وأنا لكم ناصح أمين}
٦٨ - (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)
قوله: {أبلغكم رسالات رب وأنا لكم ناصح أمين} أي أنصح لكم في دعوتي لكم وتبليغي إياكم، وما أقول لكم إلا الحق والصدق، وما أريد لكم إلا الإصلاح والخير والنجاة.
٦٩ - (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
قوله: {أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم} أي أتعجبون من أن ينزل الله رسالته فيها موعظة وتذكير لكم على رجل من جنسكم تعرفون نسبه وخلقه لكي ينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه فتهتدوا وتثوبوا إلى الله عابدين طائعين؟!
قوله: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة} إذ، في محل نصب مفعول لا ذكروا، أي اذكروا وقت استخلافكم.
فإن هودا عليه السلام يدعوا قومه أن يتذكروا منن اله عليهم، لا رجم أنها منن عظمة تستوجب منهم الشكران لله والثناء عليه، فقد جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح يخلفونهم في مساكنهم وفي الأرض من بعدهم - أو أنه جعلهم من بعدهم ملوكا وسادة - وكذلك (زادهم في الخلق بسطة) أي قوة وزيادة في الجسم، أو طولا في الخلق وعظمته في الجسم - فقد قيل: كانت قامة الطويلة منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا - وقيل: كانت هامة الرجل منهم مثل القبة العظيمة - وقيل: كانوا كأنهم النخل الطوال، وقيل غير ذلك من الأوصاف لقوم عاد في عظمة طولهم وضخامة أجسادهم وقوتهم الهائلة بما يميزهم في ذلك عن غيرهم من الناس - وذلك من منن الله عليهم التي تستوجب منهم الذكرى والشكر لله بإفادة في الإلهية والعبادة.
قوله: {فاذكروا الآلاء الله لعلكم تفلحون} الآلاء: النعم - وهي جمع ومفرده إلي، بالكسر فسكون على وزن حمل - أو ألي، بالضم فسكون على وزن قفل وأو إلى بالكسر ففتح، مقصور - وفي الآية بيان لدعوة هود عليه الصلاة والسلام قومه أن يتذكروا ما أسبغ الله عليهم من نعمه العظيمة المميزة، وذلك لما في تذكر هذه النعم ما يفضي إلى شكرهم الله واعترافهم بفضله وعطائه - ومن شكر الله واعتراف له بالفضل والمنة فقد أدرك الحقيقة، وأيقن أن الله وحده المعبود دون أحد سواه من خلقه العبيد ١١٠.
٧٠ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

قوله تعالى: {قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٧٠ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ٧١ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا وما كانوا مؤمنين}.

هكذا كان جواب قوم عاد - لقد أجاب هؤلاء السفهاء عما دعاهم إليه نبيهم هود من التصديق والتوحيد والطاعة لله دون سواه، وعما ذكرهم به من آلاء الله الكبيرة عليهم -أجابوه في استنكار وسفاهة بما يكشف عن قلوبهم الغلف وطبيعتهم الكزة التي تنفر من الحق وتستمرئ التقليد والضلال والباطل {أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا} الآية - يعني أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين لنعبد الله وحده دون غيره من الأنداد فندين له بالعطاء ونهجر عبادة الآلهة الأخرى التي ألفينا آباءنا يعبدونها من قبل - فما نحن بمؤمنين لك ولا مصدقين ما جئت به فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على عدم إخلاص التوحيد لله وعبادة ما دونه من الأوثان إن كنت صادقا فيما تقول.

٧١ - (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

قوله: {قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب} الرجس معناه هنا العذاب ١١١ والغضب معناه السخط وإرادة الانتقام ١١٢، وقد أجاب هود قومه عقب ما أظهروه من بالغ السفاهة والعتو والاستكبار، بعد كل الدلائل والحجج التي سيقت لإقناعهم وتخويفهم -أجابهم بأنه قد حل بهم من الله عذاب وسخط وأن إرادة الله بالانتقام منهم نازلة بهم ولا راد لها من أحد.

قوله: {أتجدلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان} قال لهم نبيهم هود مستنكرا مستقبحا مقالتهم الظالمة: {أتجدلونني في أسماء سميتموها} الآية - أي أتخاصمونني في مسميات وضعتم أنتم لها أسماءها التي لا تستحقها ولا يليق بها فسميتموها آلهة افتراء وضلالا وسفها، وهي في الحقيقة تماثيل صماء لا تدرك ولا تنطق، وهي كذلك لا نضر ولا تنفع {ما نزل الله بها من سلطان} أي ليس لكم من الله فيها حجة ولا برهان تعتذرون أو تحتجون به.

قوله: {فانتظروا إني معكم من المنتظرين} الفاء للترتيب على ما تقدم - وذلك تهديد ووعيد للقوم الظالمين الذين عتوا وأبوا إلا الكفر والوثنية قائلا لهم: انتظروا نزل العذاب الذي طلبتموه أنتم وإن معكم من المنتظرين حكم الله وقضاءه فينا وفيكم.

٧٢ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

قوله: {فأنجيناه والذين معه برحمة منا} أي أنجينا هودا ومن معه من المؤمنين الذي صدقوه واتبعوا ما أنزل إليه من توحيد الله وإفراده بالإلهية دون غيره من الأوثان والأنداد المفتراة {برحمة منا} أي كانت تنجيتهم مما حل بالقوم المشركين من العذاب رحمة من الله يكتبها لعباده المؤمنين الصابرين الثابتين على الحق، لا يفتنهم المضلون الظالمون.

قوله: {وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا} الدابر معناه آخر كل شيء، أو الأصل ١١٣ - والمراد هنا الكناية عن الاستئصال - وذلك أن الله أهلكهم بالكلية فلم يبق منهم أحدا.

قوله: {وما كانوا بمؤمنين} معطوف على قوله: {كذبوا بآياتنا} أي أنهم مكذبون بآيات الله، وجاحدون نبوة هود، ومنكرون ما جاءهم به من عند الله ١١٤.

٧٣ - (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ٧٣ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من

سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الآلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ٧٤ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسلا من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ٧٥ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ٧٦ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ٧٧ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين}.

ثمود اسم عربي بمعنى الماء القليل - ثمد الماء: قل - وثمد الماء على النصب، إي استنبطه من الأرض - وقد ورد فيه الصرف وعدمه - أما الصرف، فلأنه اسم للقليل من الماء - وأما عدم الصرف: فهو باعتباره اسما للقبيلة ففيه العلمية والتأنيث ١١٥.

وثمود قبيلة العرب العاربة جاءوا بعد عاد وهم من سلالة سام بن نوح - ومساكنهم فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله - وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع للهجرة - وكانت ثمود في سعة من المعايش - ولكنهم كانوا ظالمين مشركين، إذ عبدوا الأصنام وأفسدوا في الأرض إفسادا، فبعث الله إليهم صالح نبيا ورسولا منهم - وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا - فدعاهم إلى عبادة الله وحده وهجر الأصنام والشرك، فلم يطعه منهم إلا قليلون مستضعفون ١١٦.

وهذا تأويل قوله سبحانه: {وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}.

قوله: {قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية} البينة هنا يراد بها آية أو معجزة ظاهرة تشهد على صدق نبوة صالح عليه السلام - والمعجزة هي في قوله تعالى: {هذه ناقة الله لكم آية} وآية منصوب على الحال - لما دعا صالح ثمودا إلى التوحيد ونبذ الأصنام والشرك سألوه أن يخرج لهم ناقة من جوف الصخر الصلد ليؤمنوا به ويصدقوه ويشهدوا أن ما جاءهم به حق - فاخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن تحقق ذلك ليصدقنه وليؤمنن به - قالوا: نعم - فأعطوه على ذلك عهودهم، فدعا صالح ربه أن يخرج لهم ناقة من تلك الهضبة كما وصفوا، فاستجاب الله لنبيه صالح وانصدعت الهضبة الصلدة الصماء عن ناقة عظيمة كما سألوا - فرأوها عيانا ويقينا - وكان لها يوم تشرب فيه الماء - ولهم الشرب في اليوم الثاني، ثم تعطيهم اللبن الكثير فيشربون ما يشاءون ويدخرون - فالماء بذلك نصفان، لها يوم ولهم يوم.

قوله: {فذروها تأكل في أرض والله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم} أمرهم نبيهم صالح أن يتركوا الناقة تأكل من النبات الأرض وهي ليست أرضهم وما فيها من الكلأ إن هو إلا من تخليق الله وهو ليس مملوكا لهم - ونهاهم أيضا عن إيذائها أيما إيذاء - وقد توعدهم بأشد العذاب من الله إذا مسوها بسوء، فمكث الناقة ترعى الكلأ مدة من الوقت حتى حانت ساعة الشر والمكر، إذ تحركت في القوم بواعث الشر والأذى، ونزعت نفوسهم المهينة الكزة إلى العصيان اللئيم الفاجر، وزين لهم الشيطان فعل السوء والمنكر وهو أن يقتلوا الناقة ظلما وعدونا - - فقتلوها - وذلك بعد أن أبوا أن يؤمنوا لنبيهم صالح، إذ نكثوا العهد الذي كانوا قطعوه على أنفسهم بالإيمان والتصديق - ولجوا في العتو والإجرام حتى عقروا الناقة وهي آية لهم من الله - لا جرم أن ذلك دأب اللئام من البشر الغيظ - هؤلاء الأشرار القساة الذين لا يعطف قلوبهم عن اللؤم إحسان يبذله لهم أهل البر والخير - وما كان ينبغي للمستفيد من الخير والمبذول إلا إبداء والرقة والإقرار بالمعروف والجميل للمحسنين الكرام - لكن الخسيس من الناس الذي جبل على اللؤم وكزازة الطبع يأبى إلا النسيان المصطنع، والجحود الممجوج.

٧٤ - (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

قوله: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد} خلفاء جمع خليفة - وهذا تذكير من صالح لقومه المشركين واعظا لهم ومحذرا من العصيان وإيذاء الناقة وقائلا لهم: تذكروا نعمة الله عليكم، إذ خلفتم عادا في الأرض بعد هلاكها - أو استخلفكم في الأرض بجعلكم ملوكا وساسة.

قوله: {وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا} بوأكم في الأرض، أي أنزلكم فيها - من الباءة وهي عبارة عن المنزل - بوأته دار: أي أسكنته إياها - وتبوأ بيتا: أي اتخذه مسكنا ١١٧.

والنحت معناه والقشر بفتح القاف فسكون ١١٨ وذلك تذكير من نبي الله صالح لقومه ثمود، إذ مكنهم الله في الأرض فاتخذوا منها المنازل العالية، والقصور، وهي البيوت العظيمة الشامخة - وكذلك مكنهم من نحت الجبال وهو نقبها وقطع الحجارة منها لاتخاذ المساكن المكنية الشامخات.

وذلك كله من فضل الله عليهم، إذ من عليهم بالاستقرار وحسن المعايش.

قوله: {فاذكروا الآلاء اله ولا تعتوا في الأرض مفسدين} دعا صالح عليه السلام قومه أن يذكروا آلاء الله وهي نعمه الكثيرة عليهم، وذلك مما ذكر ومما لم يذكر.

وليس الذكر بمجرد اللسان بل بفعل الصالحات وبالشكران المبعوث من القلب والانزجار عن المعاصي وفي طليعتها الإشراك بالله - ودعاهم كذلك ألا يعثوا في الأرض مفسدين - وهو من العثو، بضم العين والثاء، ومعناه الإفساد - ١١٩

٧٥ - (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

قوله: {قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه} ذلك سؤال الأشراف من القوم الذين استكبروا وأبوا إلا العتو والجحود والمعاندة، إذ قالوا للمستضعفين المؤمنين، أي المساكين الذين آمنوا صالحا {لمن آمن منهم} بدل من الذين استضعفوا - وهو بدل بعض من الكل - لأن المستضعفين من ليسوا بمؤمنين - أما السؤال فهو حكاه الله عن هؤلاء المستكبرين، إذ سألوا المستضعفين المؤمنين عن حال صالح وعن أمره فيما جاءهم به من هذا الدين - فأجابهم هؤلاء المستضعفين المؤمنين أنهم موقنون مصدقون بما جاءهم له - وذلك جواب صادع أبلج من المؤمنين، لأنهم أهل ثبات ويقين لا يردهم عن ذلك تهديد ولا جل، ولا يحول ضعفهم دون الجهر بعقيدتهم الصادقة - عقيدة الحق واليقين والتوحيد.

٧٦ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

لكن الكافرين العتاة بادروا الرد في عتو ووقاحة واستكبار وهو ما تبينه الآية {قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون} أي نحن منكرون نبوة صالح وجاحدون مكذبون بما آمنتم به أنتم.

٧٧ - (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

قوله: {فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم} العقر، معناه الجرح أو النحر ١٢٠ والمراد هنا النحر - وعتوا، من العتو - نقول: عتا عتوا وعتيا - أي استكبرا استكبارا وجاوز الحد فهو عات ١٢١ - والمعنى: أنهم عقروا الناقة، أي قتلوها سواء بالنحر أو الطعن أو القطع - قد نسب العقر إلى الجميع من أن العاقر واحد أو بعض منهم، لأنهم جميعا راضون بفعل الجريمة أو أنهم كانوا متمالئين على قتلها - وكذلك قد عتوا عن أمر ربهم بالاستكبار المغالي والإدبار الشنيع.

قوله: {وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين} أي جئنا يا صالح بما تعدنا من عذاب الله ونقمته إن كنت رسولا من الله حقل إلينا - فقد استعجلوا العذاب استعجالا، وقالوا مقالتهم من التحدي اللئيم الأحمق ليكونوا جنودا طائعين للشيطان الذي زين لهم الكفر والجحود وفعل المعاصي والمنكرات، فغاروا سحيقا في الهلاك الملازم والعذاب المستديم بدءا بالتدمير والزلزلة في هذه الدنيا، ليتصل ذلك بمستقرهم في العذاب الواصب وهم يتقاحمون في جهنم يوم القيامة.

٧٨ - (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

قوله: {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين} الرجفة تعني الزلزلة ١٢٢ وجاثمين، من الجثوم وهو لزوم المكان - جثم جثوما إذا لزم مكانه فلم يبرحه أو لصق بالأرض فهو جاثم ١٢٣ لقد أخذت الرجفة هؤلاء الضالين الظالمين، وهي الزلزلة - وقيل: الصحية، إذ تقطعت منها قلوبهم حتى هلكوا {فأصبحوا في دارهم جاثمين} أي هامدين صرعى لا حياة فيهم ولا حراك ١٢٤.

٧٩ - (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

قوله تعالى: {فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغناكم رسالة ربي ونصحت لكم ولاكن لا تحبون الناصحين}.
خرج صالح من بين أظهر قومه ثمود بعد يأسه من إيمانهم وبعد أن أخبرهم عن وحي الله بإحلال العذاب بهم وعقيب أيام ثلاثة وكانوا قد استعجلوا العذاب.
لقد خرج صالح من بينهم مدبرا وهو متحزن متحسر على كفرهم وجحودهم وعلى مصيرهم البئيس في الدنيا والآخرة - وقال لهم: {يا قوم أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولاكن لا تحبون الناصحين} أي لم آل جهدا في تبليغكم رسالة ربي، فقد جهدت في البيان لكم وبذلت لكم في ذلك نصائحي وترشيدي بكل ما وسعني من أسلوب في الترغيب والترهيب - لكنكم معاندون مستكبرون لا تحبون من ينصحكم ويبتغي لكم الخير والنجاة - قال ذلك في شأنهم وهو تغشاه نوبة من الاغتمام والأسى كما يبدو من ظاهر الكلمات الربانية الموحية بحزنه وأسفله على قومه الضالين المعاندين - وقيل: قال لهم ذلك بعد هلاكهم بالرجفة.
٨٠ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: {ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ٨٠ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ٨١ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ٨٢ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ٨٣ وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين}.
لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية؛ فهو غير مشتق وقد صرف لخفته؛ لأنه من على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط - قال سيبويه: نوح ولوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة فصرفت - وقيل: لاط يلوط أي عمل عمل قومه كلاوط وتلوط - استلاطه، أي ألزقه بنفسه ١٢٥.
ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل وكان معه في أرض بابل من العراق - وقد هاجر إبراهيم إلى الشام ونزل فلسطين وأنزل لوطا الأردن فأرسله الله إلى أهل سدوم بحمص - أو هي مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سدوم ١٢٦.
وقوم لوط أهل فاحشة وقذر تنفر منه الطبائع السليمة وتتقزز منه النفس الإنسانية المستقيمة - وهم قوم أسرفوا في المجاوزه المشينة الكريهة، وغالوا في الإفلات من ربقة الفطرة الكريمة والمنطق السليم، فقارفوا من الفحش والرذيلة ما جاوز الأوهام والظنون - ولنا: أن نعي هذه الخصلة الشاذة النكراء ونحن نتصور نكاح الرجال للرجال - إن ذلكم غاية في البشاعة والنكر - وذلكم اللواط - لا جرم أن فاحشة اللواط من أخس الخسائس التي سقط فيها هؤلاء القوم الذين فسدت فيهم الفطرة الآدمية فغاصوا في الرجس غوصا ما سبقهم إليه شعب من الشعوب ولا أمة من الأمم إلا ما نسمعه من نداءات مهينة مسفة في زماننا الراهن حيث الحضارة المادية الكنود - حضارة المال والشهوات والجنس - الحضارة التي تتيح لأولي الطبائع المستقبحة أن يجاهروا بقذر اللواط في القانون الراعي لذلك والمجوز له تجويزا صريحا - فيا لعار الحضارة المريضة النتنة التي تروج للقاذروات وخسائس الطبع الآسن الشاذ لتجاهر به علانية من على منصات الإعلام كله وتحت قبب البرلمانات الدولية في أوربا وأمريكا!!
لقد سبق القرآن كل هذه الحضارات الآسنة المزيفة، إذ حرم اللواط تحريما غليظا وشدد في النهي عنه والتحذير منه، حرصا على الإنسانية أن ينال منها الرجس والقذر والشذوذ، وصونا للأفراد والمجتمعات من كل ألوان المفاسد والقاذورات والموبقات النفسية والشخصية والاجتماعية المدمرة كاللواط - وها هو القرآن يهتف بالتنديد بهذه الفعلة الوبيلة النكراء، إذ يحكي قصة نبي الله لوط مع قومه الفاسدين الأشقياء الذين سقطوا في وهدة هذا المرض الوبيل - فقال سبحانه: {ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين} لوطا منصوب بفعل محذوف تقديره أرسلنا والاستفهام في قوله: {أتأتون} للتوبيخ والتقريع - وإيتان الفاحشة يراد به هنا إتيان الذكور على سبيل التلاوط - فقد خاطب لوط قومه مستنكرا موبخا: أتفعلون تلك الفعلة النكراء التي لم يسبق أن فعلها أناس أو أمة قبلكم؟!
٨١ - (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)
قوله: {إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء} ذلك تأكيد آخر على بشاعة الفعلة القذرة بما يزيد في توبيخ القوم الضالعين في الرجس

والإسفاف بإتيانهم الرجال {شهوة} منصوب على الحالية أو مفعول لأجله، فقد أتوا الرجال متجاوزين النساء اللاتي هن محل الشهوة لدى الرجال الأسوياء أولي الطبائع السليمة - لا جرم أنهم مجاوزون حدود الفطرة السوية وبالغون في الإسراف المشين ما يهبط بهم إلى المنحطين من الأشقياء المناكيد والمنبوذين - وذلك ما يبينه قوله تعالى: {بل أنتم قوم مسرفون} بل للإضراب - وهو يفيد الإضراب عن الإنكار إلى الإخبار بأن دأبهم الإسراف في الخطايا والمحرمات.

٨٢ - (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

قوله: {وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قرتكم إنهم أناس يتطهرون} ذلك جواب المقبحين من قوم لوط لنبيهم لوط عليه السلام وهو قولهم: أخرجوا لوطا والذين على دينه، الذين يتنزهون عن فعل هذه الكبيرة وهي إتيان الرجال في الأدبار - أخرجوهم من بلدتكم حيث تقيمون وتسكنون - وبمثل هذا يحتج قوم لوط لإخراجهم من بلدتهم - وهو أنهم طاهرون منزهون عن فعل الخبائث - وذلك هو شأن المفسدين الساقطين من الناس الذين يسول لهم الشيطان فعل الأدناس والأرجاس مما لم يسبقهم إليه أناس ثم يتهمون غيرهم من المؤمنين الأطهار بغير تهمة - ويرمونهم في أشخاصهم بصور الظلم ما ليس له وجود البتة - أولئك هم المسرفون في العهر والعار والضلال!

٨٣ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

قوله: {فأنجيناه وأهل إلا امرأته كانت من الغابرين} لما أبى قوم لوط دعوة نبيهم لوط لهم بالتطهر والترفع عن رجس اللواط، وتمادوا في فعل هذه الرذيلة المستقذرة أنجى الله أهله الذين آمنوا معه باستثناء امرأته {كانت من الغابرين} أي الباقين في العذاب - غبر الشيء أي بقي - وغبر أيضا مضى، فهو من الأضداد، فقد أهلك الله امرأة لوط، لكفرها وخيانتها وإسرارها للقوم عن أخبار زوجها عليه السلام فهلكت مع الهالكين.

٨٤ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} دمر الله قوم لوط شر تدمير، إذ جعل عالي قراهم سافلها وأمطرنا فوق ذلك بحجارة من سجيل ١٢٧ - كذلك يأخذ الله القرى الظالم أهلها الذين يوغلون في المعاصي والموبقات حتى إذا جاء الكتاب أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وبعد هذا الإخبار المخوف عما حل بقوم لوط من الهلاك أمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنظر والتأمل تعجبا من حال القوم الهالكين وتحذيرا للناس في كل زمان من فعل الفواحش ١٢٨.

عقوبة اللواط

عقوبة اللواط الحد - وهو يثبت بما يثبت به الحد في الزنا بين الذكر والأنثى - وهو أن تغيب الحشفة أو قدرها - وإنما يتحقق ذلك بالإقرار أو البينة بأربعة شهود عدول كما هو في الزنا.

وقد اختلف الفقهاء في عقوبة اللواط - وهم في ذلك فريقان:

الفريق الأول: هو الإمام أبو حنيفة، فقد ذهب إلى أن اللواط ليس فيه حد بل فيه التعزير عن كل من الفاعل والمفعول به - وروي عنه أنه يودع السجن فوق التعزير الذي يجب في حقه - واحتج لذلك من المعقول، إذ قال: ليس اللواط زنا، لاختلاف الصاحبة في عقوبته - فقد قيل: عقوبة الإحراق بالنار وهو ما روي عن أبي بكر وعلي –رضي الله عنهما- - وقيل: عقوبته التنكيس من مكان مرتفع ثم إتباعه الحجارة زيادة في التنكيل.

وقال في احتجاجه أيضا: ليس اللواط في معنى الزنا، لأنه ليس سببا لإضاعة الولد واشتباه الأنساب كما يقع في الزنا الحقيقي - وكذلك فإن وقوعه نادر، لانعدام الرغبة فيه فهو بذلك إنما يجب فيه التعزيز وليس الحد ١٢٩.

الفريق الثاني: وهم جمهور المالكية والشافعية وصاحبي أبي حنيفة، فقد ذهب هؤلاء إلى وجوب الحد على جريمة اللواط إن كان المتوطلان عاقلين بالغين - أما إن كان أحدهما صغيرا أو مجنونا كان الحد على العاقل البالغ منهما - واحتجوا من العقول فقالوا: اللواط صورة من صور الزنا ففيه الحد.

واحتجوا من السنة بما أخرجه البيهقي عن أب موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذ أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان).

واختلفوا أيضا في ماهية الحد في اللواط تبعا للإحصان وعدمه، فقد ذهبت الشافعية في المعتمد من مذهبهم - وكذا الحنبلية في إحدى الروايتين عنهم، وصاحبا أبي حنيفة إلى أن حد اللواط مثل حد الزنا في المرأة من غير فرق بينهما - وعلى هذا يجب فيه (اللواط) الجلد على البكر والرجم على المحصن - واحتجوا لذلك بالخبر (إذ أتى الرجل الرجل فما زانيان).

وذهبت المالكية، وكذا الحنبلية في الرواية الثانية عنهم وهو القول الثاني غير المشهور للشافعية -ذهبوا إلى وجوب قتل اللائط والملوط به سواء كان الواحد منهما بكرا أو محصنا، وذلك لما أخرجه أبو داود عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) وكذلك أخرج البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من وقع على الرجل فاقتلوه).

أما لو كانا غير مكلفين، وهو أن يكونا صغيرين، فإنهما يؤدبان تأديبا فلا عقاب عليهما بحد أو تعزير - أما لو كان أحدهما مكلفا دون الآخر، فإن كان المكلف هو الفاعل فقد وجب في حقه حد الرجم - أما لو كان المفعول بع مكلفا، والفاعل، غير مكلف فلا يرجم المفعول به بل يؤدب الصغير وهو غير المكلف، ويعزر البالغ وهو المكلف ١٣٠.

٨٥ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ٨٥ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ٨٦ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذين أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين}.

يطلق اسم مدين على القبيلة أو على المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة - ومدين ممنوع من الصرف، لأنه اسم علم مؤنث أضيف إلى مضاف قبله، وتقديره أهل مدين - أما شعيب فهو من أولاد إبراهيم، فقد قيل: إنه ابن حرة بن يشجر بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، فقد أرسل الله إلى أهل مدين رجلا منهم وهو شعيب ليبلغهم دعوة الله ويأمرهم بالتوحيد والاستقامة وينهاهم عن الشرك والمنكر، ويحذرهم من بخس الناس أشياءهم وهو قوله تعالى: {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم} البينة، العلامة والحجة من الله بحقيقة ما يقول لهم نبيهم شعيب وبصدق ما يدعوهم إليه من التوحيد والاستقامة - وقيل: يراد بالبينة المعجزة الظاهرة من رب العالمين مالك كل شيء - ولم يذكر ماهية المعجزة التي جعلت لشعيب: وقوله: {فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم} أوفوا يعني أتموا.

فقد أمرهم بإتمام الحقوق لأصحابها وذلك بالكيل الذي يكيلون به، وبالوزن الذي يزنون به من غير خيانة في ذلك ولا غش - فأيما انتقاص من حقوق الناس عن طريق الكيل أو الميزان لهو كبيرة من الكبائر تصم المنتقمين بوصمة الخيانة وفساد القلب - وذلك شكل من أشكال الحرام أو السحت الذي يودي بصاحبه إلى النار.

وفي التحذير من الخيانة في الكيل والميزان روي الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والوزن: (إنكم قد وليتم أمرا فيه هلكت الأمم السالفة قبلكم).

قوله: ولا تبخسوا الناس أشياءهم} من البخس وهو النقص ١٣١ فقد نهي عن كل وجوه الانتقاص من أموال الناس ظلما كالغش في المبيعات بتعييب السلعة والتدليس فيها أو التزهيد فيها لتبوء بالخسارة أو الاحتيال في الكيل والميزان بما يجر للمحتال مالا مقتطعا من نصيب العاقد الآخر - إلى غير ذلك من وجوه الحرام وأكل الأموال بالباطل.

قوله: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} كانت الأرض قبل مبعث شعيب رسولا إلى أهل مدين، يعمل فيها بكل المعاصي من إشراك وجور وسفك للدماء واستحلال المحارم وفعل للموبقات، وذلك هو فسادها - أما إصلاحها: فهو ابتعاث النبي شعيب فيها يأمرهم بالخير والمعروف والطاعات، وينهاهم عن الشرك والجور وفعل المعاصي - وفي هذه الآية ينهي شعيب قومه عن فعل المحرمات والمحظورات مما كانوا يعملونه قبل بعثه إليهم كالشرك، وبخس الناس في الكيل والميزان، وغير ذلك من وجوه الظلم والحرام.

قوله: {ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين} أي هذا الذي بينته لكم وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده دون سواه وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والميزان واجتناب البخس والفساد في الأرض، كله خير لكم في دنياكم، إذ تكسبون حب الناس لكم وتصديقهم إياكم وثقتهم بكم، فتتبايعون وتتعاملون وتستربحون، فتعيشون في مودة وسعادة وتآلف - وهو كذلك خير لكم في آخرتكم يوم القيامة، إذ تحظون بنعيم الله ورضوانه - وذلك كله {إن كنتم مؤمنين} أي إن كنتم مصدقي فيما دعوتكم إليه وما أمرتكم به او نهيتكم عنه - وقيل: إنما يجاء بمثل هذا الشرط في أخر الكلام للتأكيد.

٨٦ - (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

قوله: {ولا تقعدوا بكل صراط وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا} أي لا تجسلوا بكل طريق من طرق الناس توعدون من آمن بشعيب بالقتل - فقد كان قومه يقعدون على طريق من يقصد شعيبا ليؤمن به فيتوعدونه ويخوفونه ويحذرونه من تصديقه ويحرضونه على تكذيبه ويقولون له: إنه كذاب.

كذلك كان شأن المشركين المجرمين الذين يكرهون الحق ويحادون الله والنبيين جريا وراء أهوائهم وشهواتهم وكراسيهم ومكاناتهم - بل إن ذلك شأن المشركين المجرمين في كل زمان - وفي هذا الزمان الراهن خاصة، إذ يتصدى الظالمون والمتربصون من أعداء الإسلام بهذا الدين بوسائل شتى من التعويق والتعطيل والصد - ولئن كانت وسائل الظالمين الغابرين بسيطة وبدائية، إذ كانت تتخذ من الطابع المحسوس أسلوبا كالضرب والقتل ونحو ذلك من تعذيب الأجساد لكنهم ما كانت لهم حيلة ينفذون منها إلى قلوب المعذبين المظلومين وعقولهم أو أفكارهم - وذلك بخلاف الظالمين المتربصين في زمننا هذا فهم أقدر على محاربة الإسلام والمسلمين بمختلف الأساليب والوسائل، فضلا عن أساليب القمع والقتل والإبادة التي كانت ديدن الظالمين السابقين، فقد برع المشركون المعاصرون في محاربة الإسلام بوسائل أخرى مضافة لا جرم أن تكون أعظم نضوجا وأشد خبثا وخداعا، وأفظع في التأثير والمراوغة - وفي طليعة أساليبهم هذه تشويه العقيدة والفكر بمختلف الافتراءات والأكاذيب وكل صور الخداع والتمويه والتضليل بما يزعزع قناعة المسلمين وتصورهم، ويثير في نفوس الكثيرين منهم الشك والارتياب - وقد أوتي الظالمون من أعداد الإسلام كل القدرات المادية والإعلامية والفنية والعسكرية لمحاربة الإسلام أو تشويه وتشكيك البشرية فيه في الوقت الذي يرزح فيه المسلمون –والمفكرون والدعاة خاصة- تحت كابوس الطغيان من الحكام الظلمة الذي يسوسون المسلمين بالجوار والفساد والذين ينفرون من تعاليم الإسلام، ويهرعون سراعا ليكونوا أتباعا لأسيادهم من الكافرين الأجانب من أوروبين وأمريكيين.

نقول ذلك ونحن حافلون بالقناعة واليقين أنه لو حيل بين الإسلام والبشرية فأتيح للمفكرين من دعاة الإسلام لنشر هذا الدين والحديث عن عقيدته وعن تعاليمه في حرية بعيدا عن الخوف والفتنة والمكر، ليشاع الإسلام في كل بقاع الدنيا ولكان الناس قد أقبلوا على هذا الدين إقبالا يحفزهم إليه الود والرغبة، ولسقطت كل مزاعم الظالمين وأقاويلهم عن الإسلام، ولا ستبانت للناس أنها ترهات وأباطيل بل إنها أشبه بالفقاقيع المستخفة تطيش في الهواء ثم ما تلبث أن تذوب وتنقشع - لكن الإسلام يتلقى الضربات والتحديات والحملات من الدس والتشكيك والتشويه الفكري من أساطين المستشرقين والاستعماريين والصليبيين والصهيونين والماسونين.

وذلك في غاية الحرية والتسهيلات المضمونة الكاملة، في الوقت الذي ليس فيه للإسلام دولة ولا سلطان يدرأ عنه العوداي، ويدفع عنه تطول الخبثاء والسفهاء والشياطين، من أولي الأقلاع الموغلة في الدس والكيد والافتراء على الإسلام.

قوله: {وتبغونها عوجا} أي تبغون أن تكون سبيل الله معوجة غير مستقيمة - وذلك بإلقاء الشبهات حول الإسلام أو وصفه للناس بأنه

معوج أو غير صالح، لينفر منه الناس أو يزهدوا فيه - وهذا هو ديدن الظالمين المجرمين على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وأزمانهم، فهم جميعا يبتغون للإسلام أن يكون على حقيقته وطبيعته من ثبات العقيدة وكمال التشريع وتمام الفضيلة والاستقامة - لا يردون للإسلام أن يكون مميزا بما يتجلي فيه من أوجه الاستقلال عن الملل والعقائد الأخرى، وما يباعد بينه وبين التبعية لغيره من النظم والفلسفات الضالة - بل يريدون للإسلام أن يكون مشوها مضطربا ضعيفا، وقد انتزعت منه كل ظواهر القوة والاستقامة والشمولية والاستعلاء.

قوله: }واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين{ إذ، في موضع نصب على الطرف - وقيل: مفعول به - وتقدير: اذكروا –على سبيل الشكر- وقت كونكم قليلا عددكم فكثركم الله وتكثيرهم يحتمل وجهين: أحدهما: تكثير عددهم بعد أن كان قليلا - وثانيهما: تكثيرهم بالغنى بعد أن كانوا فقراء - والوجه الأول أظهر، فهو يدعوهم أن يشكروا نعمة ربهم عليهم، إذ جعلهم أقوياء بتكثيرهم بعد أن كانوا قلة - ثم يخوفهم بما حل بمن سبقهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ولوط، أولئك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ومجانبة التوحيد فأخذهم الله بالعذاب المهين في هذه الدنيا - وما بين زلزلة وصيحة وتغريق وتدمير بالقلب والحجارة - يدعوهم أن يتفكروا فيما حل بهؤلاء الظالمين التعساء من فادح العواقب، فضلا عما أعده الله لهم يوم القيامة من التعس والهوان حيث الجحيم والنيران - وهذا مقتضى قوله: }وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين{.

٨٧ - (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

قوله: }وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين{ الطائفة بمعنى الجماعة - والطائفة من الشيء، قطعة منه - والطائفة من الناس، الواحد فما فوقه ١٣٢.

والمراد أن قوم شعيب كانوا قسمين، حدهما: المؤمنون الذين صدقوا شعيبا واتبعوه وهم قلة - وثانيهما: الكافرون - وهم الأكثرون - وفي الآية تهديد ظاهر للمشركين الظالمين الذين عتوا عن أمر ربهم، ووعيد لهم بالهلاك والعذاب، فوق ما تتضمنه الآية من تحضيض للطائفة المؤمنة على الصبر والاحتمال - وتقدير الكلام في قول شعيب لقومه هو: إن كنتم يا قوم قد اختلفتم علي فآمنت منكم طائفة وكفرت طائفة أخرى فاصبروا أيها الكفرة حتى يقضي الله بيننا وبينكم بأن ينصر الله جنده المؤمنين الصابرين وينتقم من المشركين الظالمين، فيأخذهم بعذاب الخزي في الدنيا - ثم يردهم في الآخرة إلى مصيرهم البئيس في الجحيم.

٨٨ - (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)

قوله: }قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجكم يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا{ ذلك رد الكافرين المعاندين الذين لا تجدي معهم الحجج والبراهين ولا يثنيهم سطوع المنطق والدليل عن غيهم وضلالهم واستكبارهم - والأشد من ذلك أنهم لم يكتفوا بجحودهم وتكذيبهم وطغيانهم بل جاوزوا ذلك إلى فظاعة النكر والبطر وإلى بشاعة العتو والأشر، إذ توعدوا شعيبا والذين آمنوا معه بالإخراج من البلد إلا أن يعودوا إلى ملة الكفر والإشراك بالله - فإما الإخراج والتهيج، أو العود إلى ظلام الكفران والعصيان - وذلك هو ديدن الكافرين الظالمين في كل زمان، إذ يستكبرون على الحق استكبارا، ويلجون في الضلالة والعدوان لجوجا، فوق ما يذيقون المؤمنين من ألوان الظلم، من تنكيل وتخويف وتهديد وطرد وتشريد وفتنة عن دين الله، ليرتدا إلى ملة الظلام والفساد والكفر.

قوله: }قال أولو كنا كارهين{ الهمزة للاستفهام الإنكاري - أي إنكار ما طلبوه من الإخراج أو العود في ملة الكفر - وذلك إشعار ببشاعة ما طلبوه من الإخراج عن أوطانهم بغيا وعدوانا، إلا ما يعودوا في الكفر والضلال - والواو للحال - أي أتعيدوننا في ملتكم كارهين العود إليها أو تخرجوننا من قريتكم حال كراهيتنا الخروج منها؟! أيقع منكم أحد هذين الأمرين حتى في حال كراهيتنا الخروج منها؟!

٨٩ - (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)

قوله: }قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها{ الافتراء، الاختلاق والكذب ١٣٣ والملة، معناها الدين والشريعة ١٣٤.

ذلك إقرار كامل من شعيب عليه الصلاة والسلام ببطلان ما سوى ملة الإسلام حيث التوحيد واليقين وتصديق النبين أجمعين، ومجانبة الشرك والمشركين - إقرار كامل بأن العود إلى ملة الكفر بعد التنجية منها سقوط في ظلام الكفر والضلال وانتكاس إلى ردة الجحد والباطل بعد أن من الله بالتنحية والإنقاذ من هذه الوهدة المظلمة السحيقة.

قوله: {وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا} أي ما يستقيم لنا وما ينبغي أن نعود في ملتكم -ملة الكفر والباطل- إلا حال مشيئة الله - فإن يشأ الله إضلال أحد أضله - على أن إيراد هذا الاستثناء قد جيء به على سبيل الإيمان المطلق بقدر الله فإن كان قد سبق في علم الله وتقديره العود في ملتهم، فإن حكم الله في ذلك نافذ - ومع ذلك فإن المؤمن المدكر الحريص، له في كل الأحوال والأوقات بالغ الرجاء والضراعة إلى الله أن يكتبه في زمرة الناجين الآمنين مكره وعذابه.

قوله: {وسع ربنا كل شيء علما} علما منصوب على التمييز، أي أحاط علم الله بكل شيء فلا يند عن علمه شيء من المعلومات، فهو عليم بما هو كائن وما سيكون سواء في ذلك هداية الناس وضلالهم، أو ما هم صائرون إليه في كل حال.

قوله: {على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين} أي اعتمدنا على الله دون أحد سواه في أن يثبتنا على الحق والإيمان، وأن يحول بيننا وبين الباطل وأهله، وأن يدرأ عنا شر الفتن ويعصمنا من البلايا والنقم، وأن يدفع عنا كذلك ما توعدتمونا به من ظلم الإخراج وفظاعة الإضلال والفتنة.

وبعد أن أيس شعيب من استجابة قومه وأيقن أنهم لا محالة سادرون في الغي والضلال دون انثناء أو رجوع، عندئذ دعا ربه أن {افتح بيننا وبين قومك بالحق وأنت خير الفاتحين} أي اقض بيننا وبين قومنا المشركين بالحق وهو نصر المحقين وإهلاك المبطلين.

٩٠ - (وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)

قوله: {وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون} اللام في قوله: {لئن} موطئة لقسن محذوف - وجوابه {إنكم إذا لخاسرون} واللام في {لخاسرون} للتوكيد في خبر إن - ذلك إخبار من الله عز وجل عن مقالة هذه الزمرة الضالة المضلة من قوم شعيب الذين حذروا قومهم من الإيمان بنبي الله، وخوفوهم من تصديقه واتباعه فيما جاءهم به من عند الله - لقد خوفوهم بما ينفرهم من دين الله تنفيرا - وذلك بمختلف الأسباب والوسائل التي تفتنهم عن اتباع الإسلام وتزجرهم عنه زجرا لتميل بهم عنه إلى الشر والفساد - وكذلك صنع الطغاة من قوم شعيب، إذ خوفوا الناس من عواقب الإيمان بدين الله الحق - وقالوا لهم على سبيل الفتنة والإغواء والتنذير {لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون} أي مغبونون ١٣٥.

وقيل: عجزة - وقيل: أرادوا بذلك خسرانهم بسبب إيفاء الكيل والميزان وترك التطفيف - والأظهر عموم ذلك.

٩١ - (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

قوله: {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين} لقد أخذوا بالرجفة وهي الزلزلة ١٣٦ - فدمر الله عليهم بذلك شر تدمير، فباتوا في ديارهم صرعى - لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم لصوقا، يشير إلى فظاعة التنكيل والعقاب في هذه الدنيا لما كانوا عليه من الجحود والاستكبار عن دين الله.

٩٢ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)

قوله: {الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين}.

اسم الموصول الأول في محل رفع مبتدأ، وخبره {كأن لم يغنوا فيها} ١٣٧ ويغنوا: يقيموا - غني بالمكان، أي أقام به - والغاني يعني النازل - والمغنى المنزل - وجمعه المعاني وهي المنازل أو المواضع التي يقام فيها ١٣٨، وهذا بيان مثير، ينشر في النفس مزيجا من الخوف والتحسر والأسى لحال الكافرين من قوم شعيب، هؤلاء الذين أقاموا في نعيم من العيش الرخي، لكنهم طغوا واستكبروا وأبوا إلا الكفر والفساد في الأرض، فأخذهم الله نكال بجحودهم وعصيانهم شر أخذة - أخذهم بالزلزلة الماحقة التي تقطع القلوب تقطيعا وتمزق الأجساد تمزيقا، فقطع دابر القوم واستؤصلت كأنهم لم يكونوا ولم يقيموا في موطنهم.

ثم كرر على سبيل التأكيد والمبالغة في التحسير والتخويف {الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين} {هم} ضمير فصل - {الخاسرين} خبر كانوا، أي أن الذين كذبوا نبيهم شعيبا هم الذين خسروا أنفسهم، إذ أوردوها النار وبئس المورود، وليس كما زعموا من قبل أن الذين يتبعون شعيبا خاسرون.

٩٣ - (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)

قوله: {فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين} حين نزل العذاب بقوم شعيب خرج شعيب من بين أظهرهم وقد أخذته غاشية من الحزن على قومه المعذبين لما حل بهم من البلاء المدمر الماحق - ثم أخذ شعيب يعزي نفسه ليكفكف عن نفسه الحزن وهو يقول: يا قوم لقد بالغت في لإنذار والنصح لكم والإشفاق عليكم فأبلغتكم ما بعثني به ربي إليكم من دعوتكم للإيمان والتوحيد والانزجار عنا نهاكم عنه من المعاصي والخطايا، لكنكم جحدتم واستكبرتم فكان جزاؤكم العذاب والاستئصال فكيف أحزن عليكم لما أصابكم وأنتم له مستحقون؟! ١٣٩

٩٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

قوله تعالى: {وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ٩٤ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذتهم بغتة وهم لا يشعرون} البأساء، يعني شدة الحال وشظف العيش وضيقه - أو المشقة والفقر ١٤٠ - والضراء، نقيض السراء - وهي الشدة وكل ما يضر - أو هي النقص في الأموال والأنفس ١٤١ وذلك إخبار من الله عز وعلا عن سنته في الأمم الخالية من قبل هذه الأمة، بأنه ما أرسل في قرية من نبي يقبل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلا أذاق الله لأهلها البؤس والشدة والشظف وضيق العيش وسوء الحال - وذلك لكي يتضرعوا إلى ربهم ويتذللوا له بالعبادة والطاعة وينيبوا إليه بالكف عن الشرك والضلال والباطل، ولكي يصيخوا لدعوة الحق التي جاءهم بها أنبياؤهم - ولا جرم ان البشرية في غالب أحوالها ووقائعها تجنح للفسق والضلالة واقتراف المعاصي، استجابة لنداءات الشياطين من الإنس والجن، وتخاذلا أمام جواذب الغرائز والشهوات التي تلين حيالها العزائم، وتفتر أمام كابوسها الهمم لتميل بالإنسانية إلى الشر والفساد في الغالب - وبذلك بات من المفيد حقا أن اصطدم البشرية في حياتها بكثير من الأرزاء والنوائب فتهزها من الأعماق هزا، ولتبدد من أعماقها مشاعر الجحود والاستكبار، ولتضعف في كوامنها فرط التذلل والخنوع للأهواء والشهوات عسى أن تزجر وترعوي أو تقشع عن نفسها غشاوة العمه والنسيان، فتفيء إلى أمر الله لتبادر الامتثال لشرعه والسير في طريقه المستقيم وهو مقتضى قوله سبحانه: {لعلهم يضرعون}.

٩٥ - (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

قوله: {ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذتهم بغتة وهم لا يشعرون} أي حولنا حال هؤلاء المشركين من شدة إلى رخاء، ومن سقم إلى عافية، ومن فقر إلى سعة ويسر؛ ليشكروا الله على إنعامه وتفضله فما شكروا {حتى عفوا} أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم وقالوا: لقد مسنا من الشدة والضيق والكرب ثم بعده من الرخاء واليسر والنعمة مثل ما أصاب آباءنا السالفين من ضراء وسراء - أي أن هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا وأسلافنا ونحن لسنا إلا أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة والرخاء - ولم يفطنوا أن ذلك ابتلاء من الله لهم ليتعظوا ويثوبوا إلى محجة الإسلام، وأن يبتهلوا إلى الله بالضراعة والتوبة والإياب، ويعرضوا عن ملة الشرك والباطل؛ فهم على هذه الحال من الضلال والعصيان والاستكبار عن عقيدة التوحيد حتى يأخذهم الله بعقابه الأليم فجأة وهم سادرون في الغفلة والنسيان.

٩٦ - (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا وتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ٩٦ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيتا وهم نائمون ٩٧ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ٩٨ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} القرى جمع قرية، وهي المصر الجامع - قرى الماء في الحوض يقريه قريا وقري؛ أي جمعه ١٤٢

واللام في {لقرى} للعهد؛ أي لو أن أهل القرى التي أرسلنا إليها آمنوا بالله ورسله وأطاعوا الله فيما أمرهم به واجتنبوا الشرك والباطل والمعاصي ومضوا على المنهج الحق، منهج الله المستقيم، لأغدق الله عليهم من بركات السماء والأرض؛ فبركات السماء: إنزال المطر عليهم مدرارا؛ لينبت به الزرع، وليشربوا ويغتسلوا ويترفهوا - وأما بركات الأرض: فما تكتسي به من خصب الثمرات والزروع والكلأ ليأكل الناس والأنعام، ويعم الرخاء والرغد، ويعيش الناس في سعة وبحبوحة آمنين بلاء الجدب والقحط والجفاف والجوع - وفي ذلك إيذان بالتهديد للعصاة والفاسقين الذين يلجون في الآثام والسيئات ويجترحون من وجوه الحرام والفسق ما يباعد بينهم وبين صراط الله ودينه القويم - أولئك يتوعدهم الله بالبلاء في هذه الدنيا قبل بلاء الآخرة وهو أشد وأعظم - ومن أوجه البلاء في هذه الدنيا: انحباس القطر من السماء، وانقطاع المياه أو نزوره في الأرض وما يعقب ذلك من شدة القحط والفقر وضنك المعيشة، فضلا عن أوجه البلاء الأخرى مما يصيب الأفراد والمجتمعات الشاردة عن منهج الله كالأمراض الاجتماعية والنفسية والبدنية - وهي أمراض كثيرة ووجيعة وممضة - ويجوز ان يكون اللام في {القرى} للجنس؛ أي أن الناس حيثما كانوا، وفي أي البلاد أقاموا، لو أنهم آمنوا بربهم حق الإيمان، واتقوه حق تقاته باتباع أوامره والانتهاء عن معاصيه؛ لفتح الله عليهم خيرات السماء والأرض - لكنهم إذ جحدوا دين الله وأبوا إلا الشرك والضلال واقتراف المحرمات والموبقات طاعة للشياطين الذين يسولون لهم الفساد والشهوات؛ فقد أخذهم الله بالعذاب على اختلاف ألوانه وصوره في هذه الدنيا؛ وذلك بسبب ما اكتسبوه من الذنوب والخطايا - وهو قوله تعالى: {ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}.

٩٧ - (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ)

قوله: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيتا وهم نائمون} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والفاء للعطف - والمراد بأهل القرى: المذكورون في الآيات السابقة، وقيل: مكة وما حولها من الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرضوا عن دينه وناصبوه الكيد والعداء - والأظهر أن يراد العموم ليتناول النص عموم المشركين الضالعين في الشرك والباطل، الشاردين عن دين الله ومنهجه العظيم في كل مكان وزمان - وبيانا، منصوب على الظرفية، أو على الحال: وذلك تقريع للظالمين الذين عتوا عن أمر الله، وعاثوا في البلاد مفسدين أشرارا، وأبوا إلا الضلال والكفر والعصيان - وهو كذلك تعجيب من هؤلاء السفهاء المبطلين، السرين في الحماقات والضلالات والشرور؛ فهم بظلمهم وغيهم وإسرافهم في أمرهم هل يأمنون أن يحيق بهم العقاب من الله، أو أن ينزل الله عذابه عليهم وهم نائمون؟! كي يأمن هؤلاء السفهاء المخبولون ١٤٣ الظالمون أن يساقط علهيم الرجز والبلاء من السماء، أو يأتيهم من الأرض من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون، وهم سادرون غافلون - لا جرم أن عذاب الله محدق بكل الظالمين العتاة ومحيط بهم أيما إحاطة، فإذا نزل بساحتهم لا يصرفه عنهم أحد - والله جل وعلا يتهدد عباده المجرمين المفسدين في كل حين بأن يصيبهم العذاب المزلزل بكل صوره وأشكاله - وليس ذلك عن الظالمين الضالين ببعيد - وحيت يأذن الله بإنزاله عليهم لا يرده عنهم أحد، ولا تدفعه عنهم قوى الأرض والسماء طرا ولو اجتمعوا له.

٩٨ - (أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

قوله: {أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون} الهمزة للاستفهام، والواو للعطف لكونها مفتوحة - وإذا قرئت بالإسكان كانت الهمزة والواو أصليتين وكانت أو، للتخيير الذي يراد بها أحد الشيئين ١٤٤ - الاستفهام للتوبيخ والتقريع - وضحى، في الأصل جمع ومفرده ضحاء أو ضحوة مثل: قرى وقرية - ثم استعملت الضحى استعمال المفرد - والمراد النهار بعد طوع الشمس ثم بعده ١٤٥ - والاستفهام في الآية للتوبيخ والتقريع وتأويله: هل أنتم أيها الظالمون المبطلون أن يأتيكم عذاب الله في ضحوة النهار من بعد طلوع الشمس وانتم لاهون مشغولون بما لا ينفعكم؟! هل تأمنون أن يتنزل عليكم العذاب في هذه الساعات من مبتدأ النهار وأنتم سادرون في ملاهيكم واهتماماتكم ومشاغلكم الدنيوية؟!

٩٩ - (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله: {أفأمنوا مكر الله فلا مكر الله إلا القوم الخاسرون} المكر من الله جزاؤه، إذ سمي باسم مكر المجازى - وقيل: المكر من الله: إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه - أو هو عذابه وجزاؤه على مكر أعدائه - وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات فيتوهم أنها مقبولة وهي مردودة - وأصل المكر: الخداع ١٤٦ وذلك توبيخ لهؤلاء الظالمين الغافلين عن دين الله واللاهبين بالانشغال في سفاسف الدنيا وزخارفها الزائفة الزائلة، والذين غرتهم الحياة بسرابها المخادع الموهوم - توبيخ لهم لما أمنوا مكر الله بهم وهو عذابه المحدق الماثل الذي يوشك أن ينزل بهم فيدمرهم أشد تدمير، فلم يأخذوا لذلك كل احتياط واهتمام، ولم يسبقوا لأنفسهم الأسباب والمحاذير، ولم يبادروا بالطاعات والضراعات إلى الله كي يدرأ عنهم البلاء المتربص؛ فإنه لا يأمن عذاب الله وجزاءه الوجيع، ولا يترك اتخاذ كل الأسباب والاهتمامات ومبادرة الصالحات والطاعات {إلا القوم الخاسرون} وهم الذين فرطوا في دين الله وعصوا أمر ربهم فوقعوا في وعيده الشديد وباءوا بالهلاك والخسران.

وما ينبغي للفطين المتدبر أو الحريص المدكر أن يمر بهذه الآيات من غير أن يمسه بها التذكر والوجل من بلاء الله المحتمل - وبلاء الله وعذابه باختلاف ألوانه وأشكاله يظل يتهدد الظالمين الغافلين من الناس أو اللاهين الساهين عن أمر الله، المنشغلين بملاهي الحياة الدنيا وما حوته من لذائذ وزخرف - وما تظل المجتماعت تلهو وتعلب وتعيث وتيها وغفلة وهي تشتغل بطيبات الدنيا ولذائذها عن طاعة الله فتميل عن دينها، وتجمع وراء الشيطان جموح الناعقين السفهاء؛ بل جموح المخبولين المغرورين الذين تملكهم النسيان والبطر، وطغت عليهم الشهوات على اختلافها حتى ينزل عذاب الله وبلاؤه بساحتهم - وما ينبغي كذلك أن ننسى فداحة البطر في الإنفاق والعيش وذلك على نحو من الإسراف الباذخ البغيض الذي لا تطيش فيه الأمة وهي تغرف من حظوظ الشهوة في المطعم والمشرب والملبس والمأوى ما يجاوز المعقول والمقبول - وذلكم الإسراف الفاضح والتبذير المحظور - وليس على الأمة المسلمة في كل آن إلا أن تمسك بزمام الحذر والاعتدال والوسط - وذلك كله يقتضي تكريم النعمة التي من الله بها عليهم؛ فإنه لا يغفل عن تكريم النعمة إلا كل بطر وأشر مستغرق في الغفلة والإسراف - وذلكم الذي يوشك أن يحيق به البلاء من الله سواء كان البلاء بالأسقام، أو زوال النعم، أو غير ذلك من وجوه البلاء - وفي هذا الصدد أخرج ابن أبي حاتم من طريق معاذ بن رفاعة عن موسى الطائفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكرموا الخبز؛ فإن الله أنزه من بركات السماء، وأخرجه من بركات الأرض).

وكذلك أخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن أم حرام قال: صليت القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أكرموا الخبز؛ فإن الله أنزله من بركات السماء، وسخر له بركات الأرض، ومن تتبع ما يسقط من السفرة؛ غفر له) واخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان أهل قرية أوسع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبر؛ فبعث الله عليهم الجوع.

١٠٠ - (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)

قوله تعالى: {أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون}.

قوله: {أن لو نشاء} في موضع رفع فاعل للفعل {نهد} وهو من الهدي وهو البيان الذي بعث لهم هاديا مبينا مرشدا - ولولا لم يرشدوا؛ يعني ألم يتبين لهؤلاء المشركين الضالين الذين استخلفوا في الأرض بعد إهلاك من قلبهم فساروا سيرتهم في الضلال والفسق وصنعوا من المحرمات والمعاصي ما فعله أولئك الأسلاف {أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم} أي لو نشاء لفعلنا بهؤلاء الفاسقين العاتين عن أمر ربهم كما فعلناه بالذين سبقوهم من الهلاك والتدمير والختم على قلوبهم فلا يستطيعون بعد ذلك سماع موعظة ولا ذكر.

وذلك تهديد من الله يخوف به عباده الغافلين الساردين في الغي والضلالة، والمنشغلين عن دينهم وعقيدتهم بالشهوات والاهتمامات الدنيوية المهنية - تهديد من الله بإحلال البلاء في الذين يخالفون عن أمره ويسيرون سيرة الظالمين الفاسقين - ولئن لم ينته الغافلون عن المخالفات والمعاصي فلسوف تجتاحهم البلايا والمحن على مر الأحوال والزمن.

١٠١ - (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: {تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ١٠١ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين} الإشارة {تلك} إلى القرى الظالمة التي حاق بها الهلاك - وهي قرى نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب؛ فهي التي يقص الله علينا من أخبارها وما حل بساحتها من البلاء والتدمير بعد قيام الحجة عليهم من الله، إذ بعث فيهم النبيين المرسلين ومعهم الدلائل والبراهين القاطعة التي تشهد على صدق نبوتهم ورسالاتهم - وفي مثل هذا القصص ما يسري عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يواجه من قومه الظلم والأذى والصد عن دينه، وليكون ذلك موعظة للناس وعبرة تزجرهم عن الشرك، وتردعهم عن الاجتراء على محارم الله وحدوده.

قوله: {فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل} أي فما كان أولئك الكافرون الخاسرون ليؤمنوا بعد إهلاكهم، بما كانوا كذبوا به لو أننا أحييناهم - وذلك كقوله: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون}.

قوله: {كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين} الكاف في {كذلك} صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، فلا تجدي معهم بعد ذلك موعظة، ولا يعطفهم بيان أو برهان.

١٠٢ - (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

قوله: {وما وجدنا لأكثرهم من عهد} الضمير في {أكثرهم} يعود في أهل القرى الذين أهلكهم الله وخسروا أنفسهم، وهم الذين ذكروا سابقا؛ أي وما وجدنا لأكثر هؤلاء المشركين الذين قصصنا أخبارهم عليك من عهد، وهو الوفاء بما وصاهم به الله من توحيده، واتباع رسله، والتزام دينه وشرعه، ومجانبة زواجره ونواهيه.

قوله: {وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين} إن مخففة من عن الثقيلة، وضمير الشأن محذوف، ووجدنا، بمعنى علمنا؛ أي: إن الشأن والحديث علمنا أكثرهم خارجين عن طاعة الله، مارقين ١٤٧.

١٠٣ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: {ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملإيه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ١٠٣ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ١٠٤ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل ١٠٥ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ١٠٦ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ١٠٧ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ١٠٨ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ١٠٩ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ١١٠ قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ١١١ يأتوك بكل ساحر عليم ١١٢ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ١١٣ قال نعم وإنكم المقربين}.

الضمير في قوله: {من بعدهم} يعود على نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - والمراد بالآيات هنا المعجزات التي أوتيها موسى عليه السلام؛ أي أرسلنا موسى إلى هؤلاء المشركين بعد ما أرسلنا رسلنا إلى الذين سبقوهم من الأمم - أرسلناه {إلى فرعون وملإيه} واسم فرعون لقب كل ملك من ملوك مصر بعد العمالقة - وملأ فرعون يراد بهم أشراف القوم وسادتهم من أعوان الطاغوت الكبير الخاسر فرعون - لقد أرسل الله إليهم مع نبيه موسى الدلائل القاطعة على صدق نبوته ورسالته، وهي ما أوتيه معجزات {فظلموا بها} أي ظلموا بالآيات التي جاءتهم - والمراد أنهم كذبوها وكفروا بها - والظلم معناه وضع الشيء في غير موضعه - ولما كانت هذه الآيات ظاهرة بلجة، وهم قد كفروا بها وكذبوها، فبذلك وضعوا الإنكار في موضع الإقرار، والكفر في موضع الإيمان، وذلك ظلمهم على تلك الآيات ١٤٨.

قوله: {فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} ذلك تحريض لكل أحد على أن يتدبر ويتذكر ما حل بفرعون وأعوانه الظالمين من تدمير شنيع مريع - وذلكم التغريق المفظع في البحر.

لقد كان مصير فرعون وأتباعه من الظالمين بالغ الشدة والنكال والترويع، لهول ما أصابهم من تعس العاقبة وهوان المصير - لا جرم أن ذلك حدث جلل يأتي في طليعة الذكريات المؤثرة الوجيعة من تاريخ البشرية الحافل بصنوف النوائب والبلايا لكي يظل هذا الحدث

المخوف ماثلا لخيال الإنسان فيستديم في ذهنه التذكير والاتعاظ والهاجس مما حل بالقوم الظالمين وعلى رأسهم طاغوتهم الأكبر فرعون.
١٠٤ - (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {وقال موسى يا فرعون إني رسول الله من رب العالمين} ذلك إخبار صريح وظاهر من نبي الله موسى لفرعون بأنه مرسل إليه من رب العالمين - لقد صدع له موسى بهذا الإخبار المجلجل من غير لين أو تمحل أو مصانعة أو مداهنة؟ ليكون ذلك بداية عنونا لحديثه معه - وفي ذلك من الجهر الصادع بالحق، والجرأة النافذة الفذة أما هذا الطاغوت المتجبر ما يكشف عن عظمة هذا النبي الكريم بيقينه البالغ وثقته الكاملة بربه الذي كتب الغلبة لرسله وللمؤمنين المستضعفين.
١٠٥ - (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)
قوله: {حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق} حقيق بمعنى واجب، أي واجب علي ولازم أن لا أقول إلا الحق، فما أبلغكم عن الله إلا القول الحق - وقيل: على بمعنى الباء، أي حقيق بان لا أقول على الله إلا الحق - كما يقال: جئت على حال حسنة وبحال حسنة - وقيل حقيق بمعنى حريص أي حريص أن لا أقول على الله إلا الحق ١٤٩ - نقول: حقيق به، أي خليق به أو جدير أو حري.
قوله: {قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل} البينة هي المعجزة الظاهرة التي بهرت الناظرين وذهل لهولها القوم المجرمون، فرعون وجنوده - والمراد ببني إسرائيل، سلالة النبي الكريم وهو إسرائيل (يعقوب) عليه السلام ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام - فقد خاطب موسى فرعون قائلا: ها أنا قد جئتكم ببرهان من ربي وربكم على صدق رسالتي وصدق ما أبلغكم إياه {فأرسل معي بني إسرائيل} أي خلهم وأطلق سبيلهم - وكان فرعون قد طغى على بني إسرائيل وغالي في تعذيبهم والعدوان عليهم بغير حق، فقد قتل أنباءهم واستحي نساءهم واستخدمهم في الأعمال الشاقة، وأذاقهم من فظاعة القهر والمهانة ما سماهم سوء القهر والذل والهوان ردحا طويلا من الزمن - ومن أجل ذلك خاطب موسى فرعون داعيا إياه أن يخلي سبيل بني إسرائيل، وأن يدعهم وعبادة ربهم.
١٠٦ - (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
قوله: {قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين} أجاب فرعون موسى قائلا: إن كنت تصدق فيما تزعم أنك جئتنا بآية من عند ربك فأظهر لنا واطرحها أما أعيننا كي نشاهدها عيانا.
١٠٧ - (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)
قوله: {فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين} إذ، للمفاجأة، وهي بمنزلة ثمة وهناك، وهي في محل رفع خبر - والمبتدأ ثعبان، أي ألقى موسى عصاه على الأرض فانقلبت ثعبانا وهو الذكر من الحيات - وقوله {مبين} أي صارت حية بارزة ظاهرة مخوفة قد رآها من كان حولها عيانا من غير لبس في ذلك ولا شك - وهذه واحدة كبرى من جملة معجزات أوتيها موسى لتكون لفرعون آية عسى أن يذكر أو يهتدي أو يرشد.
وفيما يذكره كثيرون من علماء التفسير عن حال فرعون لما رأى العصا تنقلب ثعبانا ضخما، لهو مثير للعجب، فقد ذكروا أن هذا الطاغوت الكبير لما رأى الثعبان الهائل، تملكه الذعر والهلع والارتباك وغشيته غاشية من الذعر والارتجاج، فما لبث أن أحدث في ثيابه - لا جرم أن قصة كهذه تكشف لذوي العقول والنباهة من الناس أن هؤلاء الطواغيت الذين يسوسون الناس بالقهر والطغيان والجبروت ليسوا غير آحاد من الشخوص المزيفة الكاذبة الخاوية، الشخوص المنتفخة انتفاخ المسلط المخادع المغرور، الذي استحوذ على الناس بزيفه وخداعه وأكاذيبه حتى يتخيل الناس ووهموا أنه عظيم - وهو في ميزان الحقيقة والواقع ليس إلا صنما من البشر المموه الفارغ - البشر المتلصص الدجال الذي يصطنع لنفسه الشجاعة والبراعة وحسن السمت والمظهر والناس عنه في غفلة - ولو أردك الناس حقيقته عيانا لأيقنوا أنه جبان وأرعن وخسيس ومذعور وهم عنه غافلون!.
١٠٨ - (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)
قوله: {ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين} أي أخرج موسى يده من جيبه ١٥٠ أو من جناحه ١٥١ فإذا هي بيضاء كالثلج، أو تتلألأ

ساطعة كالنور من غير سقم أو علة كالبرص ونحوه، ثم أعادها إلى موضعها الأول فعادت إلى لونه وكان أسمر البشرة كما قيل - لقد فعل موسى ذلك والناس من حوله.

١٠٩ - (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

قوله: {قال الملأ من قوم فرعون} ينظرون إليه لا يكتمون في أنفسهم غير الدهش والذهول - لكن القول كانوا من غلاة العتو والاستكبار والجحود وفي مقدمتهم الطاغوت الظلوم فرعون الذي ملأ الأرض فسادا وظلما، والذي غالى في الكفران البالغ والعدوان المقيت مغالاة لا ينزلق إلى مثلها أولو فطرة سليمة - أو من كان به مسكة من عقل - وسيأتي تفصيل ذلك من فرعون في موضعه إن شاء الله.

قوله: {قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لسحر عليم} لما شاهد الملأ من قوم فرعون وهم الأشراف من قومه الكافرين، هاتين المعجزتين العظيمتين وهما انقلاب العصا حية، وصيرورة يده بيضاء تتلألأ من غير سقم عجبوا لذلك عجبا - لكنهم لفرط عتوهم واستكبارهم وفساد قلوبهم ما لبثوا أن انتكسوا خاسرين معاندين، إذ قالوا: {عن هذا لسحر عليم} أي كثير العلم بالسحر وهو يسحر أعين الناس بخداعه إياهم - والسحر، هو كل ما لطف مأخذه ودق، أو هو كل أمر يخفي سببه ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخادع - وسحره؛ أي خداعه ١٥٢.

١١٠ - (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

قوله: {يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون} الجملة الخبرية في محل رفع صفة لساحر، والمراد بالأرض هنا مصر حيث التسلط الفرعوني الغاشم - والقائلون ذلك هم ملأ فرعون؛ إذ قالوا له بصيغة الجمع على سبيل التعظيم: بأي شيء تأمرنا أن نفعله لندرأ عنا خطر هذا الساحر ونحول بيننا وبينه؟! وقيل: القائل هذا هو فرعون؛ فقد قال الملأ من حوله: بأي شيء تشيرون فيه علي؟ وماذا ترون أن نعمل فيه؟ -أي في موسى عليه السلام - وقد زعم فرعون لقومه وهو يستخفهم ويخوفهم، أن موسى يريد أن يخرجهم من ملكهم ووطنهم مصر؛ ليكون ذلك أبلغ في اهتمام القوم.

١١١ - (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

قوله: {أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ١١١ يأتوك بكل ساحر عليم} أرجه؛ أي أخره - أرجأته وأرجيته يعني أخرته - أرجأ المر أي أخره ١٥٣ فقد قال الملأ وهم الأشراف من أتباع فرعون وجنوده: أخره أو أمله وأخاه هارون ولا تعجل، ثم أرسل رجالا يحشرون إليك من فيها من السحرة وكانوا في صعيد مصر، وهي المراد بالمدائن؛ فقد أرادوا أن يأتي هؤلاء الرجال بكل ساحر عليم؛ أي ماهر متمرس بصناعة السحر.

١١٢ - (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١١]

قوله: {أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ١١١ يأتوك بكل ساحر عليم} أرجه؛ أي أخره - أرجأته وأرجيته يعني أخرته - أرجأ المر أي أخره ١٥٤ فقد قال الملأ وهم الأشراف من أتباع فرعون وجنوده: أخره أو أمله وأخاه هارون ولا تعجل، ثم أرسل رجالا يحشرون إليك من فيها من السحرة وكانوا في صعيد مصر، وهي المراد بالمدائن؛ فقد أرادوا أن يأتي هؤلاء الرجال بكل ساحر عليم؛ أي ماهر متمرس بصناعة السحر.

١١٣ - (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

قوله: {وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين} أرسل فرعون رجاله ليأتوه بكل السحرة في البلد - فما تركوا منهم أحدا إلا جاءوا به إليه وهم كثيرون فأخبرهم فرعون أنه قد جاءنا ساحر ما رأينا مثله في قدرته وعلمه قط - فحرضهم على مواجهته بسحرهم ليغلبوه وقالوا له: {إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين} أي تعطينا جائزة أو مالا إن غلبنا موسى بسحرنا؟

١١٤ - (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

فرد عليهم فرعون بالإيجاب وهو قوله: {نعم وإنكم لمن المقربين} أي لكم عندي أجر على ذلك - وأنتم فوق ذلك مقربون أكثر من غيركم لتكون لكن المنزلة الرفيعة عندنا ١٥٥.

١١٥ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

قوله تعالى: {قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقون ١١٥ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ١١٦ *وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ١١٧ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ١١٨ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ١١٩ وألقى السحرة ساجدين ١٢٠ قالوا آمنا برب العالمين ١٢٠ رب موسى وهارون} قالوا له: يا موسى اختر أن تلقي عصاك أو نلقي نحن عصينا وحبالنا - وعلى هذا {أن} في موضع نصب، لأن معنى الكلام: اختر أن تلقي أنت أو نلقي نحن - وقيل: أن مفسرة بمعنى أي: فلا يكون لها محل من الإعراب ١٥٦ - فأجابهم موسى {ألقوا} أنتم وذلك على سبيل الاستخفاف بالقوم المشركين وبما جاءوا به من دجل وتمويه ومخادعة للناس بسحرهم - قال موسى ذلك -أي ألقوا- ليكونوا هم البادئين في الإلقاء فيستبين كذبهم على نحو أعظم ظهورا - وحينئذ ينظرون ما يحل بهم من الخزي والافتضاح أمام القبط المشركين الذين تنادوا من كل أنحاء مصر ليكونوا معوانا لطاغيتهم فرعون الذي استخلفهم استخفافا بل عبدهم تعبيدا.

١١٦ - (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

قوله: {فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم} أي لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم قلبوا أعين الناس قلبا، وخيلوا لأعينهم بما جاءوا به من تمويه يصنعه البارعون في الشعوذة، وبما أحدثوه في خيالهم من التصور، بأن هذه الحبال والعصي تسعى - وكذلك استرهبوهم بما سحروا به أعينهم، إذ خافوا من العصي والحبال وهي تتحرك ظانين أنها حيات {وجاءوا بسحر عظيم} أي جاءوا بتخييل عظيم في تصورهم وليس على الحقيقة.

١١٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

قوله: {وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون} تلقف أي تبلتع أو تلهم ١٥٧، و {يأفكون}، أي يكذبون، من الإفك وهو الكذب والزور ١٥٨ - {ما يأفكون}، ما مصدرية، وهي والفعل بعدها في موضع نصب على المفعولية لتلقف والتقدير: تلقف إفكهم - أو موصولية، والتقدير تلقف ما أو الذي يأفكون - فلقد أمر الله نبيه وكليمه موسى عليه السلام أن يلقي عصاه لتصير حية عظيمة مخوفة {تلقف} تبتلع كل ما اصطنعه السحرة من كذب وزور وخداع - وذلك بعد ما جاء به السحرة من تمويه وتخييل ودجل مكذوب حسبه الناس وحقيقة، وهم في الحقيقة مسحورون واهمون - وقيل: كنت الحبال والعصي مشحوة بالزئبق فتحركت من أجل ذلك فضلا عن كثرتها، إذ بلغت سبعين ألفا بعدد السحرة الذين جمعهم الحاشرون.

١١٨ - (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون} أي ظهر الحق بصدق نبوة موسى -عليه السلام- وبطلان ما صنعه فرعون والسحرة من الإفك والدجال.

١١٩ - (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

قوله: {فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين} الصغار معناه الذل والضيم - والصاغر، الراضي بالضيم ١٥٩، لقد كانت الغلبة لموسى عليه السلام وما جاء به من الحق - وكان الخزي والعار والافتضاح على فرعون وجنوده والذين جاء بهم من السحرة، فانصرفوا بعد ذلك جميعا {صاغرين} أي مقهورين أذلة.

فالله جل وعلا ينصر رسله والمؤمنين المخلصين مهما طال بهم الزمان واشتدت من حولهم المحن - والعبد المؤمن الصابر الذي يدعو إلى دين الله ويجاهر بالحق في حماسة وإخلاص أو يضطرب أو ينتزع - بل إنه صابر مرابط ثابت على الحق في عقيدة الإسلام ومنهج الله القويم، مهما ازدادت جموع الظالمين والمجرمين والمتربصين الغاشمين من حوله - وهكذا كان موسى عليه السلام بعد أن تعزز بثقته بربه فثبت في ميدان الصراع المحتدم وحده، إذ لم يكن له نصير ولا رديف مجبر من البشر، والدنيا من حوله يجللها الكفر البواح في ظل

الطاغوت الشقي فرعون، حتى كتب الله له (موسى) الغلبة والنصر.
١٢٠ - (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)
قوله: {وألقى السحرة ساجدين ١٢٠ قالوا آمنا برب العالمين ١٢١ رب موسى وهارون} عندما عاين السحرة المعجزة معاينة ظاهرة أدركوا قدرة الله في الخلق وأيقنوا أن ما جاءهم به موسى حق، وأن ما جاءوا هم به باطل ووهم فلم يملكوا إذا ذاك أنفسهم حتى وقعوا على الأرض ساجدين لله؛ إقرارا منهم بعظمته سبحانه وأنه الخالق الكبير القادر؛ فقد أنطقتهم فطرة الإيمان الدافع المجلجل ليصدعوا بكلمة الحق هاتفين مجاهدين {قالوا آمنا برب العالمين ١٢١ رب موسى وهارون} فهو الرب الأعظم الأكرم الذي يستحق الإخبات له والطاعة، وليس فرعون الطاغوت المتجبر ١٦٠.
١٢١ - (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٠]
قوله: {وألقى السحرة ساجدين ١٢٠ قالوا آمنا برب العالمين ١٢١ رب موسى وهارون} عندما عاين السحرة المعجزة معاينة ظاهرة أدركوا قدرة الله في الخلق وأيقنوا أن ما جاءهم به موسى حق، وأن ما جاءوا هم به باطل ووهم فلم يملكوا إذا ذاك أنفسهم حتى وقعوا على الأرض ساجدين لله؛ إقرارا منهم بعظمته سبحانه وأنه الخالق الكبير القادر؛ فقد أنطقتهم فطرة الإيمان الدافع المجلجل ليصدعوا بكلمة الحق هاتفين مجاهدين {قالوا آمنا برب العالمين ١٢١ رب موسى وهارون} فهو الرب الأعظم الأكرم الذي يستحق الإخبات له والطاعة، وليس فرعون الطاغوت المتجبر ١٦١.
١٢٣ - (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ١٢٣ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ١٢٤ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ١٢٥ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} {آمنتم}، مقروءة بهمزتين - فالأولى همزة الاستفهام ومعناه الإنكار والاستبعاد - فهو يستنكر إيمان السحرة قبل أن يأذن لهم (فرعون) بذلك.
وقرئت أيضا على الإخبار وذلك على سبيل التوبيخ من فرعون للحسرة الذين آمنوا من غير إذن منه - وذلك هو منطق الطاغية الغاشم فرعون؛ إذ يستنكر على أحد أن يؤمن أو يهتدي ويمضي على صراط الله دون إذنه - فأيما إيمان بالله والمرسلين والتزام منهج الله المستقيم من غير إذن الشقي الأثيم فرعون جريمة تستوجب القتل والصلب والتقطيع من خلاف - بل إن ذلك منطق الرؤساء الجبابرة العتاة في كل زمان؛ إذ لا يرضون للفئة المؤمنة الواعية من عباد الله، التي تحمل رسالة الله وتدعوا لدينه ومنهجه على علم وبصيرة - غنهم لا يضرون لهم إلا أن ينطلقوا من خلالهم وبعد الاستئذان منهم، وإلا كانوا -في منطق الحاكم والساسة والظالمين المتجبرين- خارجين متمردين يستوجبون العقاب الشديد بالقتل أو السجن أو النفي أو التعذيب.
قوله: {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها} يقول فرعون: هذا الإيمان منكم والتصديق بنبوة موسى ودينه عن هو إلا خداع منكم واحتيال قد تواطأتم عليه فيما بينكم وبين موسى ليستولوا على مصر وتخرجوا منها أهلها القبط ثم تقيموا فيها أنتم وبنو إسرائيل - وذلك محض كذب وافتراء من فرعون - فلم يكن ثمة مواطأة بين موسى واحد؛ فإنه عليه الصلاة والسلام قد جاء من مدين إلى فرعون مباشرة ولم ير قبل ذلك أحدا من السحرة.
فليس التقول بالمواطأة أو التمالؤ إلا افتراء وزورا اختلقه فرعون؛ ليستبيح به فعلته الشنيعة في الذين آمنوا، وذلك بالقتل والتنكيل لذلك تودعهم قائلا: {فسوف تعلمون} أي ستجدون ما تلقونه من عقابي لكم على صنيعكم هذا.
١٢٤ - (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)
قوله: {لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين} وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى - أو يقطع

يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع - فمخالفته هذه في القطع، وهو القطع من خلاف - ثم يعلقهم مصلوبين على جذوع النخل صلبا مبالغا في التنكيل والنكاية - وقد قيل: أول من سن القطع من خلاف وكذا الصلب لهو فرعون - وهو قول ابن عباس.

فيا لله لهؤلاء المؤمنين المخبتين الأوفياء الذين صدقوا مع الله حق الصدق وصبروا على فظاعة الطاغوت العتل واحتملوا من بالغ تنكيله ونكاية عذابه ما يجعل منهم النبراس ١٦٢ المحتذي على مر الزمن في اشتداد العزيمة والتجلد والاستعلاء على هوان الدنيا وما تحفل بم من المآسي وألوان المرارة، ليكون ذلك درسا كبيرا للمؤمنين الذين يدعون للإسلام في كل زمان بما يثير فيهم علو الهمة ورباطة الجأش والقدرة على احتمال الشدائد التي يكيلها لهم الظالمون والمتجبرون والمجرمون من شياطين الأرض.

١٢٥ - (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

قوله: {قالوا إنا إلى ربنا منقلبون} منقلبون أي راجعون - وذلك رد السحرة الذين آمنوا بعد أن توعدهم فرعون بالقتل والقطع من خلاف والصلب -إذ أجابوه في استعلاء ويقين أنهم على الحق، وأنهم صائرون إلى الله بالموت لا محالة.

١٢٦ - (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

قوله: {وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات من ربنا لما جاءتنا} تنقم، أي تنكر وتعيب ١٦٣، أي ما تعيب ولا تنكر علينا يا فرعون إلا لإيماننا بموسى وتصديقا بآيات ربنا وهي ما أنزله من الحجج والبراهين والأدلة على صدق هذا الدين جاء به موسى - فليس إيماننا مثارا للعيب والإنكار ولكنه مبعث للشرف والكرامة والثناء.

قوله: {ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} أفرغ من الإفراغ، وهو الإنزال والصب ١٦٤ - فبعد أن أدرك السحرة المؤمنين عزم فرعون على قتلهم والتنكيل بهم وأنه لا انفلات من إجرامه الواقع لجأوا إلى الله بالابتهال والضراعة أن ينزل عليهم صبرا، ليقووا به على الثبات والاستمساك في وجه الفتنة المحدقة، فلا يزيغوا أو يضطربوا عند اقتحام المحنة الشديدة، أن يكتب لهم خير الجزاء والإحسان، وأن يقبضهم إليه مسلمين مؤمنين غير مفتونين ١٦٥.

١٢٧ - (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

قوله تعالى: {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} الاستفهام للإنكار على فرعون من أجل تركه موسى - يعني: أتترك موسى وقومه الذين آمنوا ليفسدوا أرض مصر، فيفسدوا عليك شعبك وخدمك، ويثيروا في الأرض الفرقة وشتات الشمل - وقوله: {وآلهتك} أي عبادتك يعني: أتترك كذلك موسى يترك طاعتك وعبادتك - وقيل: كانت للفراعنة آلهة من الأوثان كالشمس والنجوم.

كذلك قال الأشراف المنافقون من قوم فرعون - وهذا هو دين كل بطانة فاسدة مضلة من حول الحاكم المسلط المغرور - أولئك الذين يلهثون وراء الساسة والرؤساء الطغاة نفاقا وخيانة ثم يسولون لهم قتل الصالحين من الناس الذين يؤمنون بالله ورسوله ويدعون لإعلاء كلمته ودينه في الآفاق هذا هو ديدن المنافقين المبتذلين الأنذال في كل أمة وموضع - وأولئك الذين يطوفون من حول الحاكم الفاسد الغاشم تزلفا ونفاقا ليحرضوه على إبادة الإسلام وليسولوا له التنكيل بالمسلمين وفي طليعتهم العاملون الدعاة إلى الله.

قوله: {قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم} ذلك جواب الطاغية المغرور فرعون - أجاب حاشية وزبانيته من المنتفعين ومنافقين والأنذال -وهو تنتفخ أوداجه حماقة وصلفا وغرورا- أنه سيبطش برسول الله موسى ومن معه من المؤمنين، وسيقتل- بالتشديد للمبالغة في التقتيل- أبناءهم الذكور ويستحي نساءهم، أي يستبقيهن في الحياة من أجل التسخير والاستمتاع.

قوله: {وإنا فوقهم قاهرون} يعني: وإنا عالون عليهم بالقهر والإذلال - كذلك كان فرعون، يخاطب المستضعفين من قوم موسى، وهو تحفه من حوله فئة النفاق والتزلف والتحريض من المنتفعين والأنذال، علاوة على طبيعة هذا الحاكم الغاشم المغرور الذي طغى وتجبر على نحو ليس له في العالمين نظير - وليس أدل على ذلك من اصطناعه الإلهية لنفسه بقوله لأهل مصر من القبط {أنا ربكم الأعلى}

ولفرعون من الأشباه والنظراء من الساسة والقادة المتسلطين كثيرون أولئك الذين يتعالون على عباد الله المؤمنين، ويكلون لهم صنوف التنكيل والقهر والعذاب في كل زمان ١٦٦.

١٢٨ - (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ١٢٨ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعده ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون} بعد ذلك لقيه موسى والمؤمنين معه من التنكيل فرعون وجنوده، وبعد الذي حل بهم من ألوان البلاء والعذاب من تقتيل وإذلال وتسخير وقهر، دعا موسى قومه إلى الاحتمال والصبر على ما حل بهم من بلاء فرعون وجنوده ثم بين لهم أن هذه الأرض لسوف يورثها الله من يشاء من عباده فعسى الله أن يورثكم إياها إن صبرتم واحتسبتم ذلك عند ربكم.

وذلك أن {والعاقبة للمتقين} أي أن عاقبة الخير والحسنى المصير المحمود في الدنيا والآخرة لسوف يكون للذين يتقون ربهم فيخافونه ويجتنبون معاصيه ويؤدون فرائضه ويلتزمون أحكامه - وفي ذلك ما يشير إلى دنو هلاك فرعون وجنوده الظالمين بما ينشر الأمل بني إسرائيل أن خلاصهم من طغيان فرعون قد اقترب.

١٢٩ - (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

قوله: {قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} بعد أن دعا موسى قومه للاصطبار واحتمال الأذى والمكروه قالوا له –وهم محزنون- إنهم أصابهم البلاء والإذلال والقتل على يد فرعون من قبل أن يبعثك الله إلينا رسولا؛ لأن فرعون كان عازما قبل أن تأتينا نبيا ورسولا، أن يقتل أبناء بني إسرائيل لما بلغه من خبر أن زوال ملكه كائن على يد مولود منهم - وكذلك قالوا له: إن العذاب نازل بهم من فرعون بعد مبعثه فيهم، فهم معذبون من فرعون من قبل موسى ومن بعده.

قوله: {قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون} ذلك تصريح بما يشير إليه من البشرى لبني إسرائيل بهلاك فرعون ليخلفوه في ملكه من بعده - وقيل: عسى، من الله واجب؛ فقد وعدهم الله بإهلاك فرعون واستخلافهم في مصر من بعده - وقد تحقق ذلك كله؛ فقد استخلفوا في مصر في زمان داود وسليمان عليها السلام وفتحوا بيت المقدس بقيادة يوشع بن نون - وذلك كله ليرى الله ما هو كائن منهم من العمل الحسن منه والقبيح، والطاعة أو المعصية، والشكران أو الكفران، ليجازيهم ربهم على ما يفعلون من ذلك.

١٣٠ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

قوله تعالى: {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ١٣٠ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا طائركم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون} السنين الجمع سنة وهي هنا بمعنى الجدب وليس الحول - والمراد بالسنين، الجدوب والقحوط؛ فقد ابتلى الله فرعون وقومه بنقص الثمرات، وبالقحوط سنة بعد سنة، جزاء كفرهم وجرائمهم وتلبسهم بالشرك والمعاصي {لعلهم يذكرون} أي لعلهم يتعظون أو تلين قلوبهم فيجتنبون المعاصي والباطل وينزجرون عن الأذى والشر.

١٣١ - (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه} إذا أصاب آل فرعون الخصب والرخاء وكل وجوه النعمة والسعة ورأوا ما يحبون من أنعم الدنيا فرحوا وقالوا {لنا هذه} أي نحن أحق بهذه الخيرات والنعم - أو أننا أعطينا ذلك لأننا أهل له ونستحقه.

أما إن أصابهم البلاء من جدوب وقحوط وكروب وأسقام؛ فغنهم عندئذ يتطيرون بموسى ومن معه من المؤمنين - أي يتشاءمون بهم؛ إذ يقولون: ما أصابنا هذا البلاء والسوء إلا بسبب موسى والذين معه - والتطير بمعنى التشاؤم، من الطيرة وهي ما يتشاءم به من الفأل الرديء ١٦٧.

قوله: {ألا إنما طائرهم عند الله} طائرهم، أي أنصباؤهم وحظوظهم من الرخاء والخير والنعمة أو غير ذلك مما يخالفه؛ فهو كله بتقدير الله - فما يصيبهم من خير أو شر إنما هو بقضاء الله وحكمه ومشيئته وليس شؤم أحد أو يمنه.

قوله: {ولكن أكثرهم لا تعلمون} أي يجهلون هذه الحقيقة، وهي أنه ما من خير أو سوء إلا هو بتقدير الله وحكمه ومشيئته، فهم لجهلهم تطيروا بموسى والذين معه ١٦٨.

١٣٢ - (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وقالوا مهما تأتينا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ١٣٢ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ١٣٣ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ١٣٤ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون}.

مهما، أصلها ما ما - ما، الأولى للشرط، وزيدت الثانية للتأكيد وركبت إحدهما مع الأخرى، وقيل غير ذلك ١٦٩، وهذه غاية قصوى في المعاندة والاستكبار من غير حجة ولا دليل إلا المكابرة ومجرد الاستمراء الأعوج المريض لخسيسة اللؤم والجحود - وذلك هو شأن فرعون والذين هم على شاكلته من المعاندين المجرمين الذين لا يصيخون لحجة ولا برهان ولا منطق ولا يثني طبائعهم عن الكيد والتمادي في الظلم والفساد آيات ولا معجزات، فقد قالوا لموسى: مهما تأتنا به من المعجزات {لتسحرنا} أي لتصرفنا أو تلفتنا عما نحن عليه من دين فرعون فما نحن لك بمؤمنين ولا مستجيبين.

١٣٣ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

فبعد هذا العتو والاستكبار بالرغم مما رأوه من المعجزات الحسية المشهودة التي تدل على صدق نبوة موسى عليه السلام –بعد ذلك كله أخذ الله هؤلاء الظالمين المجرمين بالبلاء والمحن - وأول ذلك {الطوفان} وهو المطر الغامر الشديد، فقد أرسل الله السماء عليهم هاطلة مدرارة حتى عاموا في طوفان الماء المغرق الذي يتلف الزروع والثمرات - وقيل: معناه الموت - وقيل: الطاعون - والمعنى الأول أظهر.

ثم {الجراد} وهو مأكول لما رواه أحمد وابن ماجه عن أبي عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال).

أما إذا حل الجراد بأرض فأفسدها فغنه يحل قتله، للتخلص من ضرره، ودرءا لفساده وأذاه - وهو قول الأكثرين من الفقهاء وأهل العلم - ويستدل على ذلك بالعقول وهو درء الفساد المتحصل بسبب الجراد، ولئن جاز قتل المسلم إذا اعتدى على أحد لأخذ ماله أو إفساده، فلا جرم أن يكون قتل الجراد أولى - وقيل: لا يحل قتل الجراد، لأنه جند من جند الله - والصواب الأول.

ثم (القمل) بضم القاف وتشديد الميم - وقد قيل: معناه السوس الذي في الحنطة - وقيل: معناه الجعلان - وقيل: البراغيث - وقيل: هو ضرب من القراد أكلت دوابهم وزروعهم ولزمت جلودهم كالجدري - وقيل: القمل، بفتح القاف وسكون الميم - وهو معروف.

ثم {الضفادع} وهي جمع ومفردها الضفدع - وهي حيوان صغير يعيش في الماء، وهي منهي عن قتلها لما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال: (نهى رسول الله عن قتل الصرد ١٧٠ والضفدع والنملة والهدهد) وقيل: عن أكثر الدواب تسبيحا الضفدع حتى إن نقيقها لهو تسبيح، فقد أرسل الله عليهم الضفادع لتملأ عليهم كل أوعيتهم وشرابهم، حتى إن أحدهم ليجلس فتغشاه الضفادع لتواريه إلى ذقنه - ولا يتكلم حتى يثب الضفدع في فمه.

ثم {الدم} امتلأت حياتهم بالدم حتى فاض الدم في أمكنتهم وآنيتهم ومياههم فما كان أحدهم يغترف من الماء إلا الدم الأحمر مما أوقع فيهم العنت البالغ والبلاء الشديد - فكانوا في كل مرة ينزل بهم البلاء من ربهم يضجون بالشكوى إلى موسى ليدعو ربه أن يزيل عنهم هذا البلاء من ربهم يضجون بالشكوى إلى موسى ليدعوا ربه أن يزيل عنهم هذا البلاء النازل بهم - فما يدعو موسى ربه ثم يستجيب الله الدعاء بإزالة البلاء عنهم حتى يجنح فرعون وقومه للكفر والتمادي في العدوان والباطل فتابع الله عليهم الآيات بأخذهم بالسنين وهي القحوط، ثم الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم {آيات مفصلات} أي بينات ظاهرات لمن يريد أن يتذكر أو يعتبر.

قوله: {فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين} فرعون اللعين كان فاسد الفطرة تماما - وهو ذو قلب غليظ بالغ الكزازة والقسوة فلا يلين ولا يرق

ولا يستقيم، وهو بلؤمه وقسوته وجموحه الشرير قد طغى عليه طبعه الجاحد الكنود، فما كان ليصيخ لهتاف المنطق أو الحق أو الفطرة بل استشرت في دمه وعروقه نزوة الشر والأذى والعتو، فاستكبر هو وقومه والذين اتبعوه في الضلال والباطل وأبوا إلا الفسق والتمرد والكيد لموسى نبي الله والذين آمنوا معه - وذلك بالرغم مما حل بهم من ألوان البلاء وكانوا في كل نازلة من هذه النوازل يسألون موسى أن يضرع إلى ربه لئن كشفت عنا هذا الضر لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل - لكنهم نقضوا ما وعدوه وعادوا إلى مفارقة الشر والفساد والإجرام.

١٣٤ - (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

وهو ما يتضح في الآية التالية وهي: قوله {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل}.

الرجز، معناه العذاب ١٧١ واختلفوا في المراد بالرجز الذي أرسله الله على فرعون وقومه، فقد قيل: المراد به الطاعون - وقيل: مطلق العذاب - وقيل: هو العذاب الذي سلطه الله عليهم وهو الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

فقد قال الظالمون المجرمون لموسى: لئن رفعت عنا هذا البلاء الذي نزل بنا لنؤمن لك ولنصدقن بما جئتنا به، ولنرسلن معك بني إسرائيل بإطلاقهم وتخليتهم.

١٣٥ - (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

قوله: {فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون} بعد أن سألوا موسى أن يدعو ربه بكشف العذاب عنهم، وأعطوه موثقا أن يصدقوه ويخلوا بني إسرائيل ليذهبوا حيثما شاءوا -إن أذهب هذا البلاء عنهم، استجاب الله لدعاء موسى فكشف العذاب عنهم {إلى لأجل هم بالغوه} أي إلى حين غرقهم في اليم - وقيل: الموت - وقيل: الأجل هنا هو الحد من الزمان الذي هم بالغوه لا محالة فيعذبون فيه ولا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وهو قول الزمخشري - وعقب هذا الكشف اللبلاء عنهم {إذا هم ينكثون} إذا، الفجائية ١٧٢ وينكثون، يعني ينقضون - من النكث، أي النقص - نكث العهد والحبل ينكثه، بالكسر والضم، أي نقصه فانتكث - وتناكثوا عهودهم، أي تناقضوا ١٧٣.

١٣٦ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

قوله تعالى: {فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ١٣٦ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون} انتقمنا من النقمة بالكسر، وهي المكافأة بالعقوبة ١٧٤ - أي كافأ الله آل فرعون الظالمين بالإغراق في البحر، فحل بهم من التنكيل والهلاك والذعر ما حل {بأنهم كذبوا بآياتنا} الباء للسببية، أي عاقبهم الله هذا العقاب المرير جزاء تكذيبهم بآيات الله من الدلائل والحجج والمعجزات الواضحة المشهودة {وكانوا عنها غافلين} أي جزاء غفلتهم عن هذه الآيات التي تبين لهم في وضوح كامل نبوة موسى وصدق رسالته وأنه مبعوث لهم من ربه - لكنهم لم يعبأوا بهذه الدلائل والبراهين ولم يكترثوا بها.

١٣٧ - (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

وبعد أن أهلك الله فرعون وجنده الظالمين أورث الله بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين والذين سامهم فرعون القهر والقتل والإذلال والاستعباد -أورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها، وهي أرض مصر والشام وقد بارك الله فيها بالماء والخصب والخيرات والسعة.

قوله: {وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا} الآية، أي مضت كلمة الله وهي وعده لنبي إسرائيل بالنصر والتمكن بعد كشف البلاء عنهم وإهلاك عدوهم فرعون وقومه الظالمين - والحسنى مؤنث الأحسن، وهي صفة للكلمة وذلك بسبب صبرهم على البلاء واحتمالهم الأذى وما حل بهم من طغيان فرعون وقهره وإجرامه.

قوله: }ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون{ أي اهلك الله ما أقامه فرعون وقومه من البينان والعمران }وما كانوا يعرشون{ أي ما كانوا يبينون من البيوت الفخمة والقصور العالية؛ فقد دمر الله ذلك كله تدميرا، فأتى عليه الإهلاك والتخريب حتى بات أثرا بعد عين.

١٣٨ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

قوله تعالى: }وجوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ١٣٨ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ١٣٩ قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ١٤٠ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم{.

المجاوزة، العبور، والمجتاز معناه السالك ومجتاب الطريق ١٧٥ والمعنى: أن الله يسر لبني إسرائيل أن يعبروا البحر فينفذوا إلى الساحل والبر آمنين سالمين بعد أن أهلك فرعون وجنوده غرقا في البحر - وبعد مجاوزتهم مروا على قوم مشركين كانوا يسكنون ساحل البحر وكانوا }يعكفون على أصنام لهم{ أي يواظبون على تقديسهم ويقيمون على عبادتها وهي تماثيل من الحجارة - وما أن رأى بنو إسرائيل ذلك حتى جنحت طباعهم التي لا تحتمل الثبات والجد، والتي جبلت على الاسترخاء والانمياع -جنحت للهزل والرغبة في الباطل والاعوجاج فسألوا نبيهم موسى أن يصنع لهم إلها من صنم كآلهة هؤلاء المشركون العاكفون على عبادة أصنامهم؛ فأجابهم موسى موبخا إياهم أيا توبيخ }إنكم قوم تجهلون{ أي إنكم جاهلون ما أوتيتم من الآيات والمعجزات التي تشهد بصدق ما جئتم به وبطلان ما سواه من ملة الوثنية والشرك.

١٣٩ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: }إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون{ }متبر{ أي هالك ومكسر، من التبر، بفتح التاء وهو الإهلاك - والتبار، بالفتح الهلاك - وتبره تتبيرا أي كسره وأهلكه - و }متبر ما هم فيه{، أي مكسر ومهلك ١٧٦ - وذلك جواب موسى لبني إسرائيل لما سألوه أن يجعل لهم إلها صنما كأصنام القوم المشركين؛ لقد أجابهم في جد وحزم ومفاصلة غاية في الوضوح - وهي أن هؤلاء المشركين هالك ما هم فيه من عبادة الأصنام وما اصطنعوه وتشبثوا به من ديانة فاسدة بنيت على الضلال والبطلان والشرك - فإن ذلك كله صائر إلى الدمار والهلاك ولا يبقى منه شيء - وكذلك }وباطل ما كانوا يعملون{ أي ذاهب وزائل ما قدموه من أعمال؛ فهي ماضية بغير وزن ولا اعتبار كقوله: }وقدمنا إلى ما علموا من عمل فجعلناه هباء منثورا{.

١٤٠ - (قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

قوله: }قال أغير الله أبغيكم غلها وهو فضلكم على العالمين{ الاستفهام للإنكار والتوبيخ - وغير، مفعول به الفعل الذي بعده - وإلها، منصوب على التمييز أو الحال - والجملة }وهو فضلكم على العالمين{ في موضع نصب على الحال، أي كيف أطلب لكم إلها تعبدونه غير الله؟! ولله وحده المستحق للعبادة وهو الذي هداكم لما فيه صلاحكم وخيركم ونجاتكم في الدنيا والآخرة - وفوق ذلك }فضلكم على العالمين{ والتفضيل يحتمل وجهين - أولهما: أنه فضلكم على سائر الناس من أهل زمانهم بما أنعم به عليهم من إهلاك عدوهم وتنجيتهم هم، واستخلافهم من بعد فرعون وقومه الظالمين، وإنقاذهم مما حل بهم من الذل والهوان.

ثانيهما: أنه خصهم بفضائل من النعم بالآيات والمعجزات الكثيرة مثل: انبجاس الماس من الصخر الصلد، وانفلاق البحر، وتمهيد السبل فيه لسيرهم ومضيهم فيه، وبعض النبيين الكثيرين فيهم أكثر مما بعض في الأمم السابقة - إلى غير ذلك من أنعم الله كالمن والسلوى وتظليل الغمام - وهو ما بيناه في تفسير سورة البقرة - فما ينبغي لأحد بعد هذا البيان الواضح للمراد من التفضيل على العالمين أن يصطنع من الكلام والتأويل ما يأباه المنطق السليم وتنفيه حقيقة المراد من الآية الكريمة ومما لم ينزل اله به من حجة ولا برهان.

ليس لمتحذلق ١٧٧ فارغ جاهل بعد ذلك أن ينتزع من مفهوم هذه الآية ما لا تحمله ليهذي بان بني إسرائيل جنس من البشر المميز الذي فضله الله لذاته وجنسه على سائر البشر!! ليس هذا الكلام إلا ضربا من الزيف والهراء الذي تجتره حناجر فريق من البشر

المتعصب الجهول.

والحقيقة الصحيحة المعتبرة هنا أن نبي إسرائيل قد امتن الله عليهم بمنن وعطايا دنيوية كثيرة فاقت ما أعطته أمة من الأمم في هذه الدنيا لتكون لله الحجة عليهم في ذلك - وهذا هو المراد بالتفضيل - أما بعد ذلك من تفضيل معتبر يتميز فيه الصالحون من غيرهم فهو منوط بالصلاح والتقوى والمضي في طريق الله والتزام شرعه القويم ومنهجه المستقيم من غير شطط ولا زيغ ولا تزييف ولا تغيير ولا تبديل لما أنزله الله من الآيات والبينات - والمفضلون عند الله هم الذين استقاموا على دينه ورسالته الحقة للناس فلم يبدلوها تبديلا، ولم يزيفوها تزييفا، ولم ينتقصوا من آياتها أو يتزيدوا عليها ما ليس منها؛ فكانوا بذلك هداة صادقين أوفياء للبشرية يحملون لها رسالة المحبة والأمن والخير والنجاة في هذه الدنيا ويوم تقوم الساعة - لا جرم أن هذه المزايا والخصائص والمعاني إنما تجلى في أمة الإسلام - أمة رسول البشرية محمد صلى الله عليه وسلم.

١٤١ - (وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

قوله: {وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسمونكم سوء العذاب} إذ، للظرفية الزمانية؛ أي اذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون الذين أذلوكم واستعبدوكم وامتهنوكم بأشد أنوله الامتهان - وجملة {يسمونكم سوء العذاب} في موضع نصب على الحال؛ أي أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم {يسمونكم سوء العذاب} ويسومونكم؛ أي يولونكم إكراها - سامه خسفا؛ أي أولاه إياه وأرداه عليه ١٧٨.

قوله: {يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم} مفسرة للجملة التي قبلها {يسمونكم سوء العذاب} أو بدل منها - والمعنى: أن فرعون الطاغية اللعين كان يقتل من تولد من بني إسرائيل ذكرا ويستبقي الإناث من أجل الاستخدام والتسخير - وفي ذلك من سوء المحنة وفظاعة الجور والعدوان والإسراف في القتل الظالم ما هو عظيم وجلل ١٧٩.

١٤٢ - (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين} المراد بالثلاثين ليلة شهر ذي القعدة - والعشر الأخريات هي من ذي الحجة - وهو قول أكثر المفسرين؛ فقد جعل الله هذه المدة ميقاتا لمناجاة موسى وتكليمه - على أن الإتمام بالعشر يراد به إضافة العشر إلى الثلاثين ليلة؛ ليكون الجميع أربعين ليلة - وقبيل المضي للميقات خاطب موسى أخاه هارون {اخلفني في قومي وأصلح} أي كن خليفتي في بني إسرائيل حال غيابي للمناجاة والتكليم، وأصلح أمرهم بإسداء النصح لهم، وسياستهم بالرفق والرحمة - واحذر سلوك سبيل العصاة والظالمين ١٨٠.

١٤٣ - (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}.

لما جاء موسى -عليه السلام- في الوقت الموعود للقاء ربه وتكليمه فناجاه الله وكلمه، أحب أن يرى ربه فسأله أن يراه - فأجابه ربه {لن تراني} لأنك لن تطيق أن تراني، ذلك أن موسى بشر قد جبل على طبع البشر من حيث محدودية العزم والقدرة والطاقة بالغرم من كونه نبيا ورسولا أوتي من ربه العصمة؛ فهو بطبيعته البشرية وطاقته البدنية والإنسانية لا يملك أن يرى الله جهرة - ولئن رآه لسوف ينفي ويتبدد! فهذا الجبال الشامخات، وتلك الأجرام الكونية الضخام لو ظهر لها الله بجلاله وعليائه وسطوع نوره؛ فإنها سوف تماع أو تسيخ أو تزول البته! فكيف بالإنسان، ضعيف البنية والاقتدار والاحتمال، لا جرم أنه أعظم ضعفا وأشد أن لا يتماسك أمام جبروت الله إذا تجلى له ظاهرا.

وقوله: {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}، {استقر}، أي ثبت وسكن - ويضرب الله لموسى مثالا من الجبل وهو

أعظم وأثبت من نبيه الإنسان، أي إنك يا موسى لن تطيق رؤيتي أو النظر إلي، لبساطة احتمالك واقتدارك وضعف بنتك وبدنك، لكن انظر إلى هذا الجبل، فإن ثبت أو سكن مكانه من غير اضطراب أو زعزعة أو تزلزل فسوف تزاني - وذلك برهان من الله مشهود، ليتحقق لموسى أنه لن يستطيع أن ينظر إلى الله، بدليل اندكاك الجبل لما تجلى له ربه وهو قوله سبحانه:

{فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا} تجلى، أي ظهر - أي لما ظهر الله للجبل، وقيل: ظهر له اقتداره وأمره {جعله دكا} دكا منصوب من وجهين، أحدهما: أن يكون منصوبا على المصدر، من: دككت الأرض دكا، إذا جعلتها مستوية.

وثانيهما: أن يكون منصوبا على المفعول وفيه حذف لمضاف، وتقديره: فجعله ذا دك، أي ذا استواء ١٨١، ودكا، من الدك وهو الدق - وقد دكه، إذا ضربه وكشره حتى سواه بالأرض - والدكداك من الرمل: ما التبد منه بالأرض ولم يرتفع ١٨٢.

وقيل: ساخ الجبل في الأرض - وقيل: تفرقت أجزاؤه وتناثرت حتى صار مستويا بالأرض.

والمعنى المراد، أنه ما إن عاين موسى اندكاك الجبل حتى هاله المشهد ترويعا فلم يحتمل مثل هذه المعانية الهائلة التي لا يقوى على رؤيتها كائن، لفرط هولها الذي يفوق الحس والتصور ويعلو على الكائنات في مبلغ قدراتها وطاقاتها - وبذلك {خر موسى صعقا} أي سقط مغشيا عليه - وقيل: مات ثم بعثه الله، وذلك لهول ما أحس وفظاعة ما رأى.

قوله: {فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} يعني لما ثاب إلى موسى وعيه مما غشيه من الرهب والصعق قال مخاطبا ربه: {سبحانك ثبت إليك} يعني أنزهك يا رب تنزيها يليق بكمالك وجلالك وعظيم سلطانك أن يراك مخلوق في هذه الدنيا ويقوي بعد ذلك على الثبات أو التماسك - وقد ثبت إليك يا رب عما سألتك إياه من رؤيتك {وأنا أول المؤمنين} أي المؤمنين بك من قومي - وقيل: من بني إسرائيل في هذا الزمان - أو أول من آمن بك أنه لن يراك أحد قبل يوم القيامة ١٨٣.

١٤٤ - (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

قوله تعالى: {قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ١٤٤ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين} الاصطفاء، الاجتباء والاختبار، أي فضلتك يا موسى واخترتك على الناس في زمانك {برسالتي} أي بأسفار التوراة لتكون للناس هدايا ومبلغا ومرشدا {وبكلامي} أي كلمتك تكليما وناجيتك مناجاة من غير واسطة ودون غيرك من الناس - وتلك خصيصة قد امتاز بها موسى عمن سواه، إذ كلمه ربه وناجاه - فهاتان نعمتان كبريان وشرفان عظيمان يمين الله بهما على موسى وهما شرف الإرسال وإنزال التوراة، ثم شرف التكليم من غير واسطة.

قوله: {فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين} أي خذ ما أعطيتك من الرسالة وشرف النبوة، واشكر الله بالإقرار بالقلب وتمام الطاعة لما أمر والمسارعة إلى إرضائه سبحانه.

١٤٥ - (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء وموعظة وتفضيلا لكل شيء} كتب الله التوراة لموسى، إذ كتبها جبريل بأمر ربه عز وعلا، وأضاف الله الكتابة إلى نفسه، تشريفا للتوراة وتعظيما - وقد كتب فيها {من كل شيء} مما يحتاجون إليه في دينهم من الأحكام ومن نبين للحلال والحرام - وقيل: لا يريد بكل شيء التعميم بل ذكر ذلك على سبيل التفخيم كقوله: {تدمر كل شيء} - وذلك كله {موعظة وتفصيلا لكل شيء} أي أنزلت التوراة على بني إسرائيل، لتكون لهم موعظة، أي ليتعظوا ويثوبوا إلى بارئهم، فلا يميلوا عن شرع الله - ولتكون {تفصيلا لكل شيء} أي تبيينا الأحكام الحلال والحرام وغير ذلك مما أمروا به أو نهوا عنه ١٨٤.

قوله: {فخذها بقوة} أي قال له ربه: خذ التوراة بجد واجتهاد ونشاط، وكذلك كلفه ربه أن يأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن التوراة وهو قوله: {وأمر قومك يأخذوا بأحسنها} المراد بأحسنها، المأمور بعلمه، فقد أمرهم أن يعلموا بما كان مأمورا به وهو أحسن من العمل بالمنهي عنه - وقيل: بأحسن ما فيها بما أجره أعظم من اجر غيره - كقوله: {فيتبعون أحسنه} ومن الأحسن الصبر على

الغير والعفو عنه، فهو أحسن من الانتصار للنفس والأخذ لها بالقصاص من الجاني - وكالعمل بالعزيمة أحسن من العمل بالرخصة، وبالفريضة دون النافلة.
قوله: {سأوريكم دار الفاسقين} ذلك إخبار من الله لموسى والذين استضعفوا معه أنه سيريهم {دار الفاسقين} أي جهنم - وقيل: سأوريكم دار الظالمين في مصر وهم فرعون وقومه - وقيل: المراد ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والذين أهلكوا - وذلك وعيد تهديد لما خالف أمر الله فتنكب عن شرعه وصراطه المستقيم وآثر الأهواء والشهوات فانزلق في المعاصي والموبقات - فأولئك الخاسرون الهالكون الذين زاغوا عن دين الله ومنهجه الحكيم للناس.
١٤٦ - (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)
قوله تعالى: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيلا الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ١٤٦ والذين كفروا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون}.
ذلك نذير من الله للفاسقين المتكبرين عن طاعة الله، والذين يتكبرون على الناس صلفا وغرورا -بأنهم ممنوعات من إدراك الآيات والبينات الدالة على قدرته وعظمته، وأنه سبحانه حقيق بالعبادة دون غيره - فهم بذلك قد ختم الله على قلوبهم فلا يتذكرون أو يفقهون - وهذا النذير مطرد في حق كل أمة بل في حق كل أحد من العالمين - فما من مستكبر عن آيات الله فيمشي في الأرض مغترا متكبرا إلا حيل بينه وبين فهم الكتاب الحكيم؛ إذ ران على قلبه الفسق والضلال فبات من المختوم عليهم فلا يعي ولا يزدجر.
قوله: {وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها} الآية؛ أي أن هؤلاء الذين صرفهم الله عن فهم الآيات والدلائل والحجج بسبب تكبرهم وعتوهم، ولا رجاء ولا أمل في إيمانهم؛ فقد باتت قلوبهم غلفا وما كانوا ليفقهوا أو يتدبروا الآيات بعد أن طبع على عقولهم قلوبهم - وهم كذلك قد عموا عن الصواب والحق فلا يختارون غير طريق الباطل والشر؛ لأن طبائعهم باتت تنفر من رؤية الحق أو سماعه بل تشمئز من التذكير بدعوة الخير والسداد، خلاف للشر والباطل؛ فإنها تستبشر بهما وتركن إليهما وتجد فيهما الراحة المزيفة المجدودة، والاستمتاع العاجل الموهوم - أولئك فريق ضال من الناس ختم الله على قلوبهم فلا يرون إلا الشر والخطيئة، ولا يبصرون إلا في الضلال والديجور - وهو مقتضى قوله: {وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا}.
قوله: {ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين} اسم الإشارة {ذلك} في محل رفع على الابتداء - والتقدير: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم - أو في محل نصب، والتقدير: صرفهم الله ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآيات الله بالرغم مما تضمنته لهم من الأدلة والحجج الظاهرة على عظمة الله وعلى صدق أنبيائه ورسله وبسبب غفلتهم وانشغالهم عما جاءهم من الحق؛ فقد كانوا لاهين سادرين في الغي وفي الملاهي الدنيا وزخرفها، راضين بزينة الحياة وما حفلت به من زينة ومتاع ما يلبث أن يبيد ويفني بعد حين سريع من الزمن.
١٤٧ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
قوله: {والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم} حبط، من الحبط؛ وهو وجع ببطن البعير من كلأ يكثر من أكله فينتفخ منه - واحبنطي، أي انتفخ بطنه - وحبط عمله حبطا وحبوطا؛ أي بطل ١٨٥ ومثل هذا المعنى من انتفاخ الدابة لإكثارها من أكل الكلأ ينسحب على عمل العاملين غير المقترن بالإيمان الصحيح، وبالتصديق الكامل بآيات الله ورسله وما أنزل من الحق؛ فهو أشبه بالجسد المنتفخ تورما وإيجاعا لما برح فيه الألم تبريحا أفقده كل فائدة أو جدوى، وبذلك فما من عمل قل أو كثر، ولو ملأ ما بين الخافقين -ليس له في ميزان الله قيمة أو اعتبار إذا لم يقترن بالإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانا حقيقيا كاملا، وعلى أن يبتغي العاملون بذلك رضوان الله - وإذا كان الأمر خلاف ذلك؛ كان العمل مآله الحبوط؛ أي البطلان وعدم التقبل من الله والعياذ بالله - وليس العمل الكبير الذي يتجرد عن الإيمان الصحيح غير ضرب من الفعل المركوم والمنتفش الذي لا يجدي ولا يغني.

قوله: {هل يجزون إلا ما كانوا يعملون} استفهام تقريري يتضمن التأكيد على أن هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة لا يجزون إلا جزاء ما عملوه من التكذيب والجحود والعصيان ١٨٦.

١٤٨ - (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

قوله تعالى: {واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ١٤٨ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ظلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ١٤٩ ولما رجع موسى إلى قومه غضبن أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ١٥٠ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الرحمين}.

لقد ضل بنو إسرائيل وافتتنوا، إذ أضلهم السامري باتخاذ العجل إلها بعد أن صنعه من حلي القبط - والحلي لما تزين به من الذهب والفضة، فقد ذكر أن السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فألقاها في الحلي المصنوع فصار عجلا له خوار - أما قصة الحلي: فهي أن السامري قال لبني إسرائيل وكان مطوعا فيهم: إن معكم حليا فاستعاروا لذلك اليوم - فلما أخرجهم الله من مصر وغرق القبط بقي ذلك الحلي في أيديهم - فقال لهم السامري: إنه حرام عليكم فهاتوا ما عندكم فنحرقه - وقيل: هذا الحلي ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وإن هارون قال لهم: إن الحلي غنيمة وهي لا تحل لكم فجمعها في حفرة حفرها فأخذها السامري ١٨٧ - وقوله: {جسدا} بدل من {عجلا} والجسد معناه البدن ذو اللحم والدم كسائر الأجساد - والخوار، صوت البقر - وقيل: إن العجل ظل على أصله من ذهب إلا أنه كان يدخل فيه الهواء فيصوت كخوار البقر فحسبوه عجلا، وقيل: لما سمعوا صوت العجل رقصوا من حوله وافتتنوا به وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى.

قوله: {ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا} استفهام توبيخ لهؤلاء الذين سألوا نبيهم أن يصنع لهم عجلا ليعبدوا مع أنهم يعلمون في يقين ومعاينة لا تحتمل الشك أن هذا المعبود لا يعي ولا يفهم - وليس أدل على ذلك من أنه لا ينطق البتة، وإن هو إلا جسد من الأجساد المركومة التي لا تفقه ولا تريم ولا تملك لهم هداية أو ترشيدا لسبيل.

قوله: {اتخذوه وكانوا ظالمين} أي فعلوا فعلتهم المنكرة من الإشراك بالله {وكانوا ظالمين} أي مشركين، واضعين الشيء في غير موضعه - وهو وضع العجل في موضع الإله المعبود - لا جرم أن ذلك فعل شنيع وبالغ النكر.

١٤٩ - (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله: {ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين} سقط أو أسقط -بالضم في الاثنين- في يده، يعني زل وأخطأ وندم وتحير ١٨٨ أي لما ندم بنو إسرائيل على ما فعلوه من عبادة العجل حال غياب نبيهم موسى، وأدركوا خطيئتهم الشنيعة وأقروا أنهم وقعوا في الضلال، ندموا أشد الندم فجأروا إلى الله بالدعاء والإقرار والاسترحام قائلين: لئن لم يرحمنا الله برحمته ويشملنا بعفوه ومغفرته لنكونن من الهالكين الذين خسروا أنفسهم فأوردوها البوار والتخسير.

١٥٠ - (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله: {ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي} الأسف: الغضب الشديد - آسفه، أي أغضبه ١٨٩ لقوله تعالى: {فلما آسفونا انتقمنا منهم} أي لما رجع موسى إلى قومه بني إسرائيل من مناجاة ربه على الطور وهو شديد الغضب لعلمه أنهم فسقوا عن أمر الله وقد أضلهم السامري إذ فتنهم بعبادة العجل -وبخهم توبيخا، إذ قال لهم: بئس ما صنعتموه في غيابي من عبادتكم العجل، إذ كنتم خلفاء من بعدي فتركتم عبادة الله وحده لتبوءوا بعبادة غيره من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

قوله: {أعجلتم أمر بكم} استفهام توبيخ وتقريع لهؤلاء القوم من أجل سلوكهم الغريب وتصرفهم المنغص المحير - والمعنى: أتعجلتم ميعاد

ربكم الذي وعدنيه قبل استكماله وهو أربعون يوما ففعلتم الذي فعلتموه وهو عبادة العجل.

قوله: {وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه} عندما قدم موسى من الطور حيث المناجاة ألفى قومه عاكفين على عبادة العجل فاعتراه غضب شديد وأسف بالغ، فالقى ما بين يديه من الألواح التي كتبت فيها التوراة، ثم أخذ برأس أخيه هارون أو بلحيته وشعر رأسه وهو يجره إليه؛ لظنه أنه لم ينكر على السامري فتنته لبني إسرائيل، ولم ينكر على قومه بني إسرائيل عبادتهم للعجل، وكان هارون أكبر سنا من أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام.

قوله: {قال بان أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين} قوله: {أم} مقروءة بكسر الميم وفتحها - أما الكسر: فهو على الأصل وهو أمي، فاجتزأ بالكسرة عن الياء وهو كثير في كلام العرب - وابن، منادي منصوب؛ لأنه مضاف - أما فتح الميم: فهو أن يبني ابن مع أم وجعلهما بمنزلة اسم واحد نخمسة عشر ١٩٠؛ فقد كان موسى شقيق هارون فهو أخوه ابن أمه وأبيه ولكن خاطبه بأخوة الأم استعطافا وليستثير فيه رقة الأمومة وعاطفة الرحم فيستجيش في قلبه الرحمة والتحنان؛ فهو بذلك يخاطبه في تودد ورأفة ولين مبينا له أنه قومه بني إسرائيل قد استضعفوه، أي عدوه ضعيفا، أو نظروا إليه نظرة استضعاف واستذلال، وقاربوا أن يقتلوه ثم قال: {فلا تشمت بي الأعداء} أي لا تسرهم بما يصيبني من مكروه - وذلك من الشماتة وهي سرور المرء بما يصيب الأخر من المصائب في أمور الدين والدنيا ١٩١ والشماتة فيما بني المسلمين حرام - والمعلوم أن المسلم أخو المسلم فليس معقولا ولا مقبولا، وما هو من الدين في شيء أن يشمت المسلم بأخيه المسلم فيفرح لما أصابه من سوء أو مكروه في نفسه أو ماله أو ولد وأهله! ومن أبرز صفات المسلم: أن يحب أخاه المسلم، فيسر لسروره، ويستاء لما يصيبه من مساءة أو مصاب أو اغتمام - أما أن يفرح لابتئاسه ولما يحل به من الكروب والمصائب؛ فهذه فادحة من الفوادح الثقال التي لا تليق بالمسلمين الذين يتقون الله، وإنما هي جديرة أن يتلطخ بها طبائع الآثمين والخاطئين من السفهاء في المسلمين - وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك) ١٩٢ وقد تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من الشماتة قائلا: (اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء) ١٩٣.

قوله: {ولا تجعلني مع القوم الظالمين} أي لا تجعلني -وأنت تعاقبني- في محل من عصاك مخالف أمرك وعبد العجل بعدك ولم يعبد الله فظلم نفسه بذلك، وأنا لست من هؤلاء.

١٥١ - (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

قوله: {قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين} لما علم موسى براءة أخيه هارون من أي تقصير في حق قومه، وأيقن عدم تفريطه فيما كان عليه من واجب حال غيابه، دعا ربه مستغفرا له ولأخيه، ومتضرعا إليه سبحانه أن يرحمهما برحمته الواسعة؛ فهو سبحانه أرحم من أي رحيم ١٩٤.

١٥٢ - (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)

قوله تعالى: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ١٥٢ الذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ١٥٣ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}.

ذلك وعيد من الله لأولئك الظالمين الذين عبدوا العجل باتخاذه إلها أنهم {سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا} أي سيصيبهم العقاب في هذه الدنيا وهو ما سينزل بهم من تكليفهم بقتل أنفسهم؛ فقد أمرهم موسى أن يقتل بعضهم بعضا - وكذلك الذلة؛ وهي التي ضربها الله عليهم ليذوقوا وبال أمرهم من صور البلاء والمذلة، سواء في ذلك ما يصيبهم من مهانة وتعذيب وإخراج وهوان على أيدي مختلف الشعوب والممالك والحكام، ثم يفضون بعد ذلك إلى العذاب الأشد يوم القيامة.

قوله: {وكذلك نجزي المفترين} الكاف في اسم الإشارة صفة لمصدر محذوف؛ أي نفعل بالمفترين مثل ما فعلناه بهؤلاء من إحلال

الغضب فيهم والذلة - والمراد بالمفترين الذين يكذبون على الله ويفترون عليه بالأباطيل والأقاويل زورا وظلما.
١٥٣ - (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله: {والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم} ذلك إخبار من الله للعباد، وهو أن الذين يعلمون السيئات كبيرة كانت أو صغيرة، كفرا كان ذلك أو دونه من المعاصي، ثم يتوبون من بعد ما فعلوا ذلك وآمنوا إيمانا تصديقا؛ فإن الله من بعد هذه الإنابة يتجاوز لهم عن خطيئاتهم وسيئاتهم؛ لأنه سبحانه غفار للذنوب محاء لآثام والمعاصي مهما كثرت أو كبرت - وهو كذلك رحيم بالعباد يدخل التائبين المؤمنين في رحمته ويشملهم بإحسانه.
١٥٤ - (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)
قوله: {ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون} لما ظرف زمان، وجوابه ما بعده {أخذ الألواح} وفي نسختها هدى، في محل نصب على الحال ١٩٥؛ أي لما كف موسى عن الغضب بتوفيق الله وبعد أن اعتذر له أخوه نبين له وجه الحقيقة فسكنت نفسه وركدت سورته وهجع فيه الغضب فعاد إلى طبيعته حانيا رقيق القلب ثم أخذ الألواح بعد ما ألقاها {وفي نسختها} أي فيما كتب له فيها {هدى ورحمة} والنسخ معناه النقل ١٩٦؛ أي أخذها بما كتب فيها من الهداية والنور والتبصرة {للذين هم لربهم يرهبون} أي لأولئك الذين يتقون الله، فيخشون عقابه، ويجتنبون معصيته ١٩٧.
١٥٥ - (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)
قوله تعالى: {واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وأنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ١٥٥ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون}.
{قومه}، و {سبعين} مفعولان لقوله: {واختار} لكن أحدهما حذف منه حرف الجر (من) والتقدير: واختار موسى من قومه سبعين رجلا ١٩٨.
لقد اختار موسى سبعين رجلا من خيار بني إسرائيل ليذهب بهم إلى طور سيناء فيعتذروا لربهم عما فعله بنو إسرائيل من عبادتهم للعجل وكان ذلك عن توقيت سبق وقته الله لموسى؛ إذ كان لا يأتيه إلا بإذن منه - ولما وصلوا إلى حيث المكان الموعود والميقات الموعود لكي يعتذروا قالوا لنبيهم موسى في اجتراء ممجوج {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} فأنت قد كلمته تكليما فأرنا إياه عيانا - لا جرم أن هذا القلب فيه من المجاوزة والإسراف والاجتراء والسفه ما فيه! وهو اجتراء ظالم ليس خليقا بالمؤمنين الأتقياء، فكيف إن كانوا من الصفوة المختارة من القوم!! من أجل مسألتهم هذه أخذتهم الرجفة وهي الزلزلة فصعقوا ميتين، وقيل: أخذتهم الرجفة من أجل أنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل - وقيل: لأنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمرهم بالمعروف - والقول الأول أظهر - وقد سبق بيان ذلك في سورة البقرة - وبعد صعقهم بالرجفة - قال موسى: {رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي}.
قال موسى ذلك على سبيل الأسى والتلهف والاستحسار؛ أي لو أمتنا يا ربنا جميعا قبل خروجنا إلى المقيات كيلا يتهمني بنو إسرائيل - وقد دعا موسى ربه بهذا الدعاء اعترافا منه بالذنب قبل هذا الوقت وحزنا على تقصير قومه وانثنائهم عن القيام بما يكلفهم به الله).
قوله: {أتهلكنا بما فعل السفهاء منا} والمراد بالاستفهام: الجحد؛ أي أن الله جل وعلا لا يفعل ذلك - وهو كالنفي في معنى الإيجاب - وقيل: معناه: الدعاء والطلب؛ أي لا تهلكنا يا ربنا - وقيل: المراد بالاستفهام استفهم استعظام؛ أي كأنه يقول: لا تهلكنا، وهو يعلم أن الله لا يهلك أحدا بذنب غيره - وأراد بالسفهاء عبدة العجل - وعلى هذا فالمعنى: أتعاقبنا يا ربنا بما فعله عبدة العجل؛ إذ اتخذوه إليها لهم، ونحن من ذلك براء؟! أي أتؤاخذنا بخطيئة غيرنا؟!

قوله: {إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء} الفتنة: الابتلاء والاختبار - والمعنى: أن ما فعله بنو إسرائيل من عبادة العجل ما هو إلا ابتلاء منك يا ربنا - فقد ابتلاهم بذلك ليتبين الذين يضلون عن دين الله فيعبدون غيره، والذين يهتدون بمجانبة الإشراك فلا يعبدون غير الله الواحد الخالق - وقد أضاف موسى إضلال القوم وهدايتهم إلى الله، كقوله تعالى: {وليبلوكم أيكم أحسن عملا}.

قوله: {أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} ذلك استرحام واستعطاف من موسى إذا يدعو ربه - والولي معناه الناصر أي يا ربنا أنت ناصرنا فاستر علينا ذنوبنا بعفوك عن سيئاتك وتجاوزك عن عقابنا ومن علينا برحمتك بنا {وأنت خير الغافرين} أي وأنت خير من يعفو ومن يصفح - وخير من يتجاوز عن الخطايا والآثام - وخير من يستر على الذنوب والمعاصي.

١٥٦ - (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

قوله: {واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك} أي يدعو موسى عليه السلام ربه أن اجعل لنا يا ربنا في هذه الدنيا حسنة وهي الصالحات من الأعمال - وكذلك اجعل لنا في الآخرة حسنة وهي أن تكتب لنا التوبة والغفران والنجاة من النار {إنا هدانا إليك} أي تبنا إليك - والفعل: هاد، يهود هودا، أي تاب ورجع إلى الحق - والهائد التائب الراجع إلى الله ١٩٩.

قوله: {قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء} المراد بالعذاب هنا: الرجفة التي أصابت السبعين رجلا من بني إسرائيل - ومثل هذا العذاب إنما ينزل بمن استحقه من المقصرين والمفرطين فيما فرض عليهم من الواجبات - وهو مصيبتهم كغيرهم من المقصرين والمفرطين - أما قوله في الحرمة: فهو عموم خصصه ما بعده وهو أن رحمة الله بالغة السعة والشمول لتسع الذين يتقون الله ويعلمون الصالحات - وهو قوله: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون}.

وبذلك فإن رحمة الله يشترط في الذين يستحقونها ثلاثة شروط:

الأول: تقوى الله، وذلك أن يكون المرء من المتقين الذين يبادرون فعل الطاعات، ويجتنبون فعل المعاصي - وما نظن مثل هذه الحقيقة مركوزة في غير أمة محمد صلى الله عليه وسلم - هذه الأمة المباركة المكرمة المعتدلة لا ريب أن فيها المتقين الذين يخشون الله فيفرون مما يسخطه أو يغضبه، ويبادرون لفعل الطاعات دون إبطاء أو تخاذل - لكن غيرهم من الأمم يفرون من طاعات ربهم ليبادروا فعل كل ألوان الموبقات والمعاصي كأكل الربا وأكل الحرام بكل صوره وأشكاله، وظلم الناس والاعتداء عليهم في أموالهم وأشخاصهم وأوطانهم وكراماتهم - إلى غير ذلك من وجوه الفحش والزنا والكفر الضلال.

الثاني: إيتاء الزكاة - وهذه عبادة أساسية من عبادات الإسلام، بل هي ركن من أركانه ومقوماته الكبرى - وما نظن انتظام مثل هذه الفريضة على نحوها الدقيق الكامل المميز في غير شريعة الإسلام.

الثالث: الإيمان الصحيح الكامل دون أي انتقاص - وهو الإيمان بسائر النبيين والمرسلين دون تفريق بين أحد منهم - وهذه خصيصة كبرى لا تتجلى في غير أمة محمد صلى الله عليه وسلم - هذه الأمة التي يلتزم أفرداها الإيمان الكامل بجميع النبيين والمرسلين بدءا بأولهم وانتهاء بعيسى ابن مريم، فالنبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام أجمعين - وأيما تفريق في ذلك أو تكذيب بأحد النبيين إنما يعني الكفر صراحة ووقاحة - فلا اعتبار ولا قيمة لمن آمن ببعض النبيين و أكثرهم ثم كفر ببعضهم أو بواحد منهم - إنه لا يكذب بواحد من النبيين أو المرسلين إلا كافر كنود أو شقي وضال وفاسق لا يستحق غير اللعن والمهانة والاستعار في عذاب النار وبئس القرار.

إن أمة الإسلام، أمة محمد صلى الله عليه وسلم تتجلى فيها كل هذه الحقائق والشروط لتستحق من الله الرحمة، فلا جرم أن شيع فيها الخير والأمن والود والبركة في هذه الحياة - ويوم القيامة يفضون إلى تكريم من الله ورضوان وهم في روضات الجنان في مقعد صدق عند مليك مقتدر ٢٠٠.

١٥٧ - (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ

الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هن المفلحون} هذه الآية تؤكد المعنى السابق ومفاده أن الله يكتب رحمته الواسعة {للذين يتقون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} وهم أمة الاسلام، أمة محمد صلى الله عليه وسلم - أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فلاحظ لهم في الإيمان الحقيقي والصحيح، لأنهم أمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعضهم وذلك هو الجحد والكفران فضلا عما فعلوه في كتبهم السماوية من تغيير وتبديل.

قوله: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} هذا الكلام من الله لموسى من قبل أن ينزل الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون في المستقبل - والرسول النبي الأمي هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من السذاجة والبدائية - فلم تتعلم الكتابة ولا القراءة - وفي ذلك جاء في الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وهذه علامة ظاهرة بلجة تكشف عن صدق نبوة هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم، وهي كونه أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة - لا جرم أن ذلك أبلغ في الدليل وأعظم في ظهور الحجة على صدق نبوته وأنه مرسل من عند الله، وأن ما أنزل إليه من ربه الحق، وهو القرآن الحكيم - هذا الكتاب المبارك الممجد الذي يعبق به الخير وتفوح منه الرحمة والبركة على الإنسانية والكائنات جميعا - وهو الذي تتندى منه ظواهر شتى من الإعجاز مما ليس له نظير في كلام الأولين والآخرين، إن هذا الكتاب في روعة كلمه، وجمال أسلوبه، وعلو مستواه، وكمال مبناه، وجليل مضمونه ومحتواه؛ إنما يدل على أنه من لدن رب العالمين - وأنى لبشر من البشر أن يصطنع شيئا مثل هذا الكلام العجيب الفذ؟! مع التذكير والتنبيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل أمي ما عرف الكتابة ولا القراءة - وما درس من العلوم أو المعارف شيئا - وما تلقى من أخبار التاريخ أو الفلك أو الطبيعة أو غير ذلك من علوم الحياة.

قوله: {الذين يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} ذلك هو ذكر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وصفته في الكتب السماوية السابقة، إذ بشر بها النبييون السابقون أممهم أن الله مرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مبعوثا للعالمين فأمرهم بتصديقه واتباعه ولم يزل صفته موجودة في التوراة والإنجيل لولا الضالون منهم الذين بدلوا كلام الله تبديلا، وأسرفوا في تحريف كتبهم، وأنكروا صفته صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك روي الإمام أحمد عن رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغت من بيعي قلت: لألفين هذا الرجل فلأسمعن منه - قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟) فقال برأسه: هكذا - أي لا - فقال ابنه: والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: (أقيموا اليهودي عن أخيكم) ثم تولى كفنه والصلاة عليه.

قوله: {يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث} ذلك إخبار عن رسالة الإسلام للبشرية - الرسالة الكاملة الشاملة المعتدلة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم لهداية العالمين وتخليصهم من الشرور والمفاسد والآفات النفسية والاجتماعية والفكرية وغيرها، ولتنجيهم من أهوال القيامة.

وأول هذه الواجبات من التبليغ التي نيطت برسول الله {يأمرهم بالمعروف} وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته في أوامره ونواهيه، والدعوة إلى مكارم الأخلاق كالبر والإحسان والحياء والرحمة وصلة الأرحام ونحو ذلك.

وثاني هذه الواجبات {وينهاهم عن المنكر} وهو الشرك بالله، واجتناب ما نهى اله عنه وزجر، كقطع الأرحام، وعقوق الوالدين، وأكل

أموال الناس بالباطل، وظلم الناس بكل صور الظلم وأشكاله.
وثالث هذه الواجبات {ويحل لهم الطيبات} أي يحل لهم ما كان أهل الجاهلية يحرمونه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي وغير ذلك من عادات الجاهلية مما كان فيه تضييق على أنفسهم.
ورابع هذه الواجبات: {ويحرم عليهم الخبائث} أي المحرمات كلحم الخنزير والربا والقمار والميتة وغير ذلك من المستقذرات كالأفاعي والعقارب والضفادع والخنافس نحو ذلك من الخبائث.
وخامس هذه الواجبات {ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} الإصر معناه الثقل والعهد ٢٠١، أي أن هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم جاء ليضع بشريعة القرآن العهد الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الواجبات الشديدة والأعمال الثقال مما تضيق به النفوس وتفتر العزائم وتنثني دونه الهمم بمرور الزمن - لقد وضع الله عنهم بشريعة الإسلام هذه التكاليف الشاقة كقرض الثوب بالمقراض إذا أصابه بول - وقيل: قرض الجلد من البول - وكذلك تحريم الغنائم، وتحريم مجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فقد كانوا إذا حاضت المرأة لا يقربونها - وغير ذلك مما كان مفروضا عليهم ثم نسخ بالقرآن، أما الأغلال، فهي جمع غل، بالضم - وهو طوق من حديد يجعل ف العنق ٢٠٢ والمراد به في الآية هنا، تلك التكاليف الشاقة والواجبات الثقال التي لزمت بني إسرائيل ثم نسخت بشريعة الإسلام - هذا الدين الذي بني على التيسير والسماحة وهو ما يعبر عنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (بعثت بالحنيفية السمحة).
قوله: {فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون} عزروه، من التعزيز، وهو التوقير والتعظيم ٢٠٣ - أي أن الذين صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرروه، أي وقروه وعظموه ونصروه وذادوا عنه كيلا يخلص إليه أذى أو مكروه {واتبعوا النور الذي أنزل معه} يعني القرآن {أولك من المفلحون} أي أن هؤلاء الذين يتصفون بتلك الصفات من الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وتأييده بالمناصرة، وبذل العون له والتعظيم، واتباع ما جاء به هذا النبي من الكتاب المنزل الحكيم؛ فإنهم الفائزون الناجون في الدنيا والآخرة ٢٠٤.
١٥٨ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
قوله تعالى: {قل يا يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلمته واتبعوه لعلكم تهتدون}.
يأمر الله في هذه الآية نبيه الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم أن يشهر دعوته ورسالته في صراحة ووضوح على أنه رسول مبعوث من عند الله للبشرية كافة بل للعالمين أجمعين سواء فيهم الإنس والجن - فما من نبي في السابقين إلا كان مبعوثا في قومه وعلى فترة من الزمن - لكن رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم قد نيط به وجوب التبليغ للثقلين طوال الزمن حتى لا يكون من بعده نبي البتة.
قوله: {الذي له ملك السموات والأرض} الذي، في موضع نصب على المدح، أو في موضع جر صفة لاسم الجلالة، أو خبر لمبتدأ محذوف - وهذا تعظيم لله جل جلاله بأنه المالك لكل شيء - ومن بين السموات والأرض بما فيهن وما بينهم من كائنات ومخلوقات.
قوله: {لا إله إلا هو يحي ويميت} ذلك بيان للقول السابق - فإن الذي يملك العالمين كان هو الإله وحده دون غيره من الأنداد - وكذلك كونه موصوفا بالإحياء والإماتة دون غيره، تحقيق لتفرده بالإلهية؛ فهو وحده حقيق أن تعبده الخليقة، وأن يذعن له العباد بالطاعة والامتثال.
قوله: {فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلمته} ذلك تأكيد على وجوب الإيمان بالله وبرسله هذا النبي الذي قدر له أن يكون أميا - فما كان ليقرأ كتابا ولا يخطه بيده - وهو عليه الصلاة والسلام موصوف بأنه أول المؤمنين بالله وبكلماته وهي القرآن - وقيل: كلماته يراد بها الكتب الإلهية التي أنزلت عليه وعلى النبيين من قبله.

قوله: {واتبعوه لعلكم تهتدون} ذلك تعليل للأمر بالإيمان بالله ورسوله النبي الأمي واتباع ما جاء به من عند الله؛ فإنهم إن آمنوا واتبعوا فسوف يحظون من الله بالهداية والتوفيق ٢٠٥.

١٥٩ - (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

قوله تعالى: {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ١٥٩ وقطعنهم اثني عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولاكن كانوا أنفسهم يظلمون}.

ذلك إخبار من الله عن قوم موسى وهم بنو إسرائيل بأنهم ليسوا جميعا ضالين بل كان فيهم جماعة على الحق والإيمان مثل عبد الله بن سلام وابن صوريا وغيرهما - فهؤلاء ذكرهم الله بأنهم {يهدون بالحق} أي يرشدون إلى الحق، ويدعون الناس إلى دين الله الحق {وبه يعدلون} أي يحكمون بالحق والعدل ولا يجورون.

١٦٠ - (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

قوله: {وقطعنا اثنتي عشرة أسباطا أمما} قطعناهم بمعنى فرقناهم وميزنا بينهم - اثنتي عشرة، مفعول ثان لقطعنا - وقد أنث اثنتي عشرة على تقدير أمة: وتقديره: اثنتا عشرة أمة - وأسباطا بدل من اثنتي عشرة - وأمما نعت لأسباطا أو بدل منه ٢٠٦، والأسباط جمع سبط بكسر السين وهو ولد الولد - والمراد بالأسباط القبائل ٢٠٧ - والمعنى: أن اله صير بني إسرائيل اثنتي عشرة أمة من اثني عشر ولدا؛ لرجع كل سبط إلى رئيسه فيخفف أمرهم على موسى؛ ولئلا يتحاسدوا ويختلفوا فيقع بينهم الاقتتال.

قوله: {وأوحينا إلى موسى إذ استقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا} لما أصاب بني إسرائيل العطاش في التيه سألوا موسى أن يستسقي لهم ربه، فأوحي الله إليه أن يضرب الحجر فضربه {فانبجست منه اثنتا عشرة عينا} انبجست، انفجرت، وذلك من الانبجاس وهو الانفجار، أو النبوع في عين الماء ٢٠٨.

فإنه عقب ضرب الحجر بالعصا انفجرت منه اثنتا عشرة عينا - وذلك بعدد الأسباط وهم الاثنا عشر؛ ليكون سبط عين مختصة بهم بشربهم منها، وكل سبط منهم هم بنو أب واحد - ولذلك قال: {قد علم كل أناس مشربهم}.

قوله: {وظللنا عليهم الغمم وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم} لما كان بنو إسرائيل في التيه وغشيهم من سموم الصحراء ولظى الشمس الحرور ما غشيهم؛ أظلهم الله بالغمام تضليلا - والغمام معناه السحاب ٢٠٩؛ فقد استظلوا بالسحاب الرخي الرطيب، يسكن بسكونهم، ويسر بسيرهم وكذلك أنزل عليهم المن؛ وهو كل طل ٢١٠ ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ٢١١.

كذلك انزل عليهم (السلوى) وهو طائر، واحدته سلوة - وقيل: هو السماني ٢١٢ - وقد سبق بيان ذلك في تفسير سورة البقرة - وذلك كله من فضل الله على بني إسرائيل؛ إذ تفضل عليهم بعطايا وخيرات ما سبقهم بها أمة من الأمم - فكانوا بذلك قد تميزوا بجزيل النعم من الله كنعمة الغمام والمن والسلوى وانبجاس الماء من الصخر - وغير ذلك من المنن الأخريات الكثيرة التي فضل الله بها بني إسرائيل على العالمين - إما في زمانهم دون غيره من الأزمنة، أو في الزمان كله - وذلك لتكون له الحجة عليهم إذا لم يؤمنوا ويهتدوا، فيعصوا وعتوا وأضلوا وأفسدوا في الأرض؛ فإنه إذا من الله على أناسي من عباده بجزيل من فضله ونعمه، فما شكروا ولا أذعنوا لله بالطاعة والامتثال بل طغوا وبغوا وتجبروا في الأرض وأفسدوا في البلاد وبين العباد، لا جرم أن ينالهم عذاب الله في الدنيا بالخزي والإذلال وغير ذلك من أنواع البلاء، وفي الآخرة لهم سواء الدار وبئس القرار.

قوله: {كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} بعد أن رزق الله بن إسرائيل بالمن والسلوى وهما من خير

الطعام المستلذ المفيد، مضافا إليه الماء البارد الفارت في جوف الصحراء الحارقة الحرور، وقد أظلهم السحاب الرخي العليل -بعد ذلك قال الله لهم: كلوا من هذه الأطايب المستلذة؛ لكنهم لم يقدروا الله حق قدره، إذ لم يشكروه على هذه النعم؛ بل خالفوا عن أمره سبحانه وجحدوا نعمه الجليلة: فهم بعصيانهم وكفرانهم لم يظلموا الله شيئا، فإن الله لا ينال منه ظلم الظالمين، ولكن الظالمين إنما يظلمون أنفسهم بإيقاعها في الهلكة والتخسير ٢١٣.

١٦١ - (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ١٦١ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون} إذ، ظرف زمان - و {هذه القرية} يراد بها بيت المقدس أو أريحا، أي اذكروا يا بني إسرائيل وقت قال الله لكم: اسكنوا بيت المقدس أو أريحا، وكلوا مما فيها من المطعومات {حيث شئتم} أي من أي مكان شئتم من أمكنتها لتكونوا بذلك مستمعين متلذذين آمنين - {وقولوا حطة} أي أحطط عنا الذنوب ٢١٤، وادخلوا باب القرية ساجدين - وبذلك قد أمرهم أن يدخلوا القرية ساجدين وهم يدعون الله أن يحط عنهم الذنوب وذلك في قولهم {حطة} وفي مقابل ذلك سيجزيهم الله جزاء - وهو أن يغفر لهم خطاياهم - وفوق ذلك سيزيد الله المحسنين من نعمه وفضله.

١٦٢ - (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

قوله: {فبدل الذين ظموا منهم قولا غير الذي قيل لهم} لم يلتزم بنو إسرائيل قول ما أمرهم الله بقوله وهو {حطة} بل بدلوا ذلك بقول آخر قالوه وهم يلفهم غشاء صفيق من الخفة والسفاهة والطيش - وذلك يشي بمبلغ الضلالة التي تلبس بها القوم فلم يقيموا وزنا لجد والاستقامة أو التزام الواجب، فأبوا إلا الاستخفاف والهزل، والتفريط بغير تردد - ومن أجل ذلك أرسل الله عليهم عذابا من السماء بسبب ظلمهم الذي أحط بهم فأرداهم ٢١٥.

١٦٣ - (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

قوله تعالى: {وسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ يأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون} أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل جبريل اليهود عن أخبار أسلافهم وعما حصل لهم من مسخ بعضهم قردة وخنازير - وهو سؤال تقدير وتوبيخ - لا جرم أن هذه دلالة من الدلالات على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بإطلاعه على الغيب من أخبار السالفين - والنبي عليه الصلاة والسلام لم يتعلم أخبار السالفين من أحد، فضلا عن كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب.

قوله: {وسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر} أي اسأل جيرانك اليهود عن أهل القرية - وذلك على تقدير محذوف وهو (أهل) كقوله: {وسئل القرية التي كنا فيها} والمراد أهلها - وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ) يعني اهتز أهل العرش من الملائكة فرحا واستبشارا بقدومه رضي الله عنه إليهم - أما القرية التي كانت حاضرة البحر: فهي أيلة، كانت بين مدين والطور - وقيل: هي مدين وبيت أيلة والطور - وقيل يغر ذلك - و {حاضرة البحر} أي بقربه.

وقوله: {إذ يعدون في السبت}، إذ، للظرفية الزمانية؛ أي وقت عدوهم في السبت ٢١٦ و {يعدون} بمعنى يعتدون أمر الله في السبت و يتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم، والاعتداء معناه التجاوز، والتعدي معناه مجاوزة الشيء إلى غيره ٢١٧ - أما {السبت} فهو مفرد وجمعه سبوت وأسبت - وسبت اليهود؛ أي انقطاعهم عن المعيشة والاكتساب - وهو مصدر - يقال: سبتوا سبتا - وسبت سبتا أي نام واستراح وسكن - واستبت الحية: أطرقت لا تتحرك - وسبت الشيء -بالتشديد- أي قطعه ٢١٨.

قوله: {إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم} إذ بدل من (إذ) الأولى - وشرعا منصوب على الحال من حيتانهم

٢١٩ - وتأتيهم حيتانهم شرعا، أي شارعة ظاهرة على الماء من كل مكان وناحية في يوم السبت وذلك لإحساس الحيتان أنها لا تصاد في هذا اليوم، فكانت بذلك تظهر بكثرة رافعة رؤوسها لكنهم يوم لا يدخلون في السبت ولا ينقطعون عن العمل في سائر الأيام الأخرى لا يأتيهم حيتانهم.

قوله: {كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون} الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم، وهو خروجهم عن طاعة الله.

والابتلاء معناه الامتحان والاختبار، فقد امتحن الله بني إسرائيل امتحانا لم يفلحوا فيه بل هووا وسقطوا في الامتحان تحت وطأة شهواتهم التي غلبت على طبائعهم وقلوبهم، وطغت عليهم طغيانا، كشأنهم في كل الأحوال والظروف والأزمان - امتحنهم الله بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في يوم السبت وإخفائه عنهم في الأيام الأخرى التي أحل الله لهم فيها صيدها.

وقيل في قصص هذه الآية: إن إبليس أوحى إليهم إنما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت فاتخذوا لها الحياض - فكانوا يسوقون الحيتان إلى الحياض يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد - وذلك ضرب من التمويه والخداع الذي يحتال به المريبون في خيانة مكشوفة وتلصص مفضوح على تعاليم الله الواضحة، هربا من التلبس بالحق والاستقامة - وطمعا في مكسب خسيس رخيص ٢٢٠.

١٦٤ - (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

قوله تعالى: {وإذ قالت أمة منهم ولم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ١٦٤ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ١٦٥ فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين} الأمة، هنا بمعنى الجماعة - وهو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع - وكل جنس من الحيوان أمة ٢٢١ - وفي الحديث: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقلتها كلما، فاقتلوا منها الأسود البهيم) رواه أبو داود والترمذي عن هبد اله بن مغفل - حديث صحيح - والبهيم، الذي لا يخلط لونه شيء سوى لونه، والجمع بهم ٢٢٢ - وفي تأويل الآية قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت أمر ربها وصادت السمك وكانوا نحوا من سبعين ألفا، وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا ألفا - وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص - وأن هذه الطائفة قالت للناهية: {ولم تعظون قوما} -أي الفرقة العاصية- {الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا} بسبب فسقهم وعصيانهم؟ فقالت الناهية: {معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون} معذرة، بالنصب على أنه مفعول لأجله - وبالرفع على أنه مبتدأ محذوف - وتقديره: موعظتنا معذرة ٢٢٣ و {معذرة إلى ربكم}، أي موعظتنا إبلاء إلى الله، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط {ولعلهم يتقون} أي ولطعمنا في أن يتقوا الله فينتهوا عن عصيانه - ولما وقع غضب الله على الطائفة الفاسقة العاتية، نجت الطائفتان الأخريان اللتان قالوا: {لم تعظون قوما الله مهلكهم}، والذين قالوا: {معذرة إلى ربكم}، وأهلك الله الذين عصوه وفسقوا عن أمره وصادوا الحيتان، فمسخهم قردة وخنازير.

١٦٥ - (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

قوله: {فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلمونا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون} يطلق النسيان على الساهي والعامد التارك - وتأويل الآية: أنه ما ترك أهل القرية الذين اعتدوا في السبت ما ذكرهم به الصالحون من ترك الاعتداء فيه وفرطوا في ما وعظهم الصالحون، فاستحلوا ما حرم الله، أنجي الله الذين ينهون منهم من السوء، أي المعصية، وأخذ الذين اعتدوا في السبت، فانزل الله بهم عذابا بئيسا، أي شديدا أليما بسبب فسقهم عن أمر الله وخروجهم من طاعته إلى عصيانه.

١٦٦ - (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

قوله: {فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين} عتوا، استكبروا - والعاتي: المجاوز للحد في الاستكبار - والعاتي: الجبار أيضا - وقيل: العاتي هو المبالغ في ركوب المعاصي، المتمرد الذي لا يقع منه الوعظ والتنبيه موقعا ٢٢٤ - والمعنى: أن هؤلاء الفاسقين

المستكبرين لما تجاوزوا في معصية الله وبالغوا في الظلم والتمرد {قلنا لهم كونوا قردة خاسئين} أي بعداء من الخير - تقول: خسأ الكلب وغيره؛ أي أبعده وأذله وطرده ٢٢٥، أي أن الله صير هؤلاء الخاطئين العتاة قردة وخنازير بعد ما كانوا رجالا ونساء - وذلك بلاء من الله كبير ينتقم به من الذين يحدون آياته، ويعلون في الأرض بغير الحق، ويأبون إلا العتو والبغي والفساد في الأرض - أولئك ينتقم الله منهم بعقوبة المسخ؛ إذ يصيرهم خلقا ممسوخا آخر بعد ما كانوا بشرا سويا كما حل بعتاة من بني إسرائيل - وذلك يدل على أن المعاصي سبب النقم، نجانا الله من الوقوع في الخطايا والمعاصي ودفع عنا البلاء والنقم ٢٢٦.

١٦٧ - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} تأذن، بوزن تفعل، من الإيذان وهو الإعلام - وأذن بمعنى علم - وآذت بالمد معناه أعلم - وأذن، بالتشديد، أي نادى - والأذن معناه الإعلام ٢٢٧ وتأذن، أجرى مجرى فعل القسم، كقوله: {شهد الله، وعلم الله - ولذلك أجيب بما يجاب له القسم - وهو قوله {ليبعثن عليهم} أي اليهود - والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه {ليبعثن عليهم} أي ليسلطن على اليهود {إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب} وذلك إعلان قائم مسلط مجلجل نادى به الله ليكون إخبارا للعالمين أنه الله مرسل على اليهود من الأقوام والأمم والشعوب من يسلطهم عليهم تسليطا فيسمونهم -أي يذيقونهم- سوء العذاب، وهو أشده وأنكاه، من الإذلال والصغار والمهانة، جزاء تفريطهم في حق الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وإفسادهم في الأرض وتمالؤهم على رسالة الله والداعين إليه في كل زمان ومكان - ولسوف يظل هذا الإعلان والنذير قائما مسلطا لا يزول ولا يتغير إلى يوم القيامة ما دامت يهود تعيث في الأرض فسادا وتخريبا - وما داموا يثيرون الفتن والقلاقل والحروب بين بني البشر - وما داموا يصطنعون الشبهات والافتراءات والأباطيل من حول الإسلام والمسلمين - لسوف يظل النذير بالتسليط والسوم بسوء العذاب قائما مولولا ٢٢٨ إلى نهاية الزمان - فما تتوالى الأيام والسنون حتى يبعث الله على اليهود من الأمم {من يسومهم سوء العذاب} مثلما سامهم بختنصر، إذ سباهم سبيا، وقتل رجالهم قتلا، ودمر عليهم تدميرا - ومثلما فعل بهم ملوك النصارى ورؤساؤهم خلال العصور السابقة والوسطى، مرورا بالعصر الحديث حيث الإذلال والتقتيل بالجملة؛ كالذي فعله بهم النازيون في هذا القرن - كل ذلك بلاء وسوء عذاب أصابهم بسبب عصيانهم وعتوهم - وما زال الإعلام والنذير من الله بسوء العذاب قائما لا يتغير ولا يتبدل حتى تقوم الساعة ويومئذ يفضي الظالمون والمجرمون والخائنون إلى جهنم وبئس المصير.

قوله: {إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} أي إن ربك يا محمد سريع عقابه إلى من يستحق العقوبة من الكافرين والظالمين والعصاة، الذين يتجبرون في الأرض ويعيثون في الدنيا الفساد ويشيعون الظلم والمصائب والنوائب بين العباد - إن الله منتقم من هؤلاء لا محالة، فمجازيهم الجزاء الألم المواجع في هذه الدنيا - والله لكل العتاة والمجرمين والخائنين والمتربصين بالمرصاد؛ فهو آخذهم بالعذاب البئيس على غرة من حيث لا يحتسبون - وفي المقابل فإن الله ساتر لذنوب التائبين والنادمين وزلاتهم، عظيم الصفح عن خطايا المنيبين إليه وعن معاصيهم ٢٢٩.

١٦٨ - (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله تعالى: {وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ١٦٨ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الأخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ١٦٩ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين} قطعناهم في الأرض أمما، أي فرقناهم في الأرض جماعات.

والمراد بنو إسرائيل؛ فقد قطع الله شملهم، وأذهب وحدتهم، وبدد شوكتهم، وجعلهم في الأرض جماعات متفرقين شتى حتى ما يكون من بقعة في الأرض إلا دخله قوم من اليهود في الغالب - وتلك ظاهرة خاصة ببني إسرائيل لم تشاركهم فيها أمة من الأمم - وفي ذلك من الدلالة الظاهرة ما يقطع بصدق كلمات الله في تفريق بني إسرائيل في الأرض أشتاتا نكالا من الله - بما عصوا وعتوا عن أمر بهم

وعاثوا في البلاد فسادا وفتنة.
قوله: {منهم الصالحون ومنهم دون ذلك} أي أن من بني إسرائيل الصاحين، وهم الذين يؤمنون بالله ورسوله، وهم الذين يؤمنون بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله، فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهم قلة - وهؤلاء هم مسلمة أهل الكتاب - {ومنهم دون ذلك} دون منصوب على الظرف ٢٣٠، أي الكافرون منهم الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وآذوا كثيرا من النبيين من قبله - وهؤلاء هم الأكثرون - قوله: {وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون} أي اختبرنا بني إسرائيل بالحسنات، كالرخاء والسعة وبسط الرزق والتمتع الراغد، واختبرناهم بالمصائب والرزايا في الأنفس والأموال والثمرات لعلهم ينزجرون ويثوبون إلى ربهم وينيبون إليه بالطاعة والامتثال والكف عن الجحود والعصيان والإفساد في الأرض.
١٦٩ - (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
قوله: {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه} الخلف، بفتحتين معناه البدل والعوض - والخلف بسكون اللام، معناه القرن من الناس - يقال: هؤلاء خلف سوء، لناس لاحقين بناس أكثر منهم - والخلف أيضا الرديء من القول - يقال: سكت ألفا ونطق خلفا - أي سكت عن ألف كلمة ثم تكلم بخطأ ٢٣١ - والمقصود هو توبيخ اليهود، فقد تبدل من بعد السابقين الذين فيهم الصالحون والطالحون {خلف} أي بدل آخر لا يقال سوءا عن الفاسقين العصاة من أسلافهم - وهم بذلك لا خير فيهم البتة، فقد ورثوا الكتاب وهو التوراة، فعلموه وعرفوا ما فيه لكنهم خالفوا أحكامه وأوامره - وبذلك كانت الأحفاد والذراري بدل سوء عن الأسلاف السابقين في العصيان والاستكبار على شرائع الله - ثم أخبر الله عن هؤلاء الخلف أنهم {يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا} أي يقبلون بنهم متجشع ما يعرض لهم من متاع الدنيا لفرط حبهم لها وحرصهم على الاستزادة من أموالها وعروضها سواء في ذلك الحلال أو الحرام - {ويقولون سيغفر لنا} فهم سادرون في إلحاح بالغ للأخذ من متاع الدنيا وزينتها بكل أسلوب من الأساليب سواء في ذلك الربا والرشى والابتزاز - واغتصاب الأموال من الآخرين بغير حق - وغير ذلك من أموال السحت ينتزعونها من الناس انتزاعا - ومع ذلك كله يزعمون أنهم لا جناح عليهم فيما يفعلونه فإنهم مغفور لهم.
قوله: {وإن يأتيهم عرض مثله يأخذه} العرض، بسكون الراء، معناه المتاع، وكل شيء سوى الدراهم والدنانير - يقال: أخذت في هذه السلعة عرضا: أعطيت في مقابلها سلعة أخرى - والعرض بفتحتين: متاع الدنيا قل أو كثر ٢٣٢، وتأويل الآية: أن هؤلاء القوم إذا أمكنهم أن يأخذوا من عرض الدنيا مما فيها من السحت وخبيث المكاسب أخذوه من غير تروع ولا تردد ولا رهبة من الله - فهم لاغترارهم وسفاهتهم يظنون أنهم مغفور لهم مما علموا - ويقول بعض المفسرين إن حال اليهود هذه من حيث تلبسهم بالشهوات وفرط إقبالهم على المال ومتاع الحياة الدنيا تنسحب على بعض المسلمين الذين يتقاحمون بإلحاح غليظ ومسف من أجل اكتساب المال بكل الطرق والأسباب - وأجد أن في هذا التشبيه نظرا - لأن الطامعين الجشعين من المسلمين الذين يغالون في حب المال، ويبالغون في كسبه وتحصيله بكل الأساليب يعلمون أنهم آثمون ولا يحملون في أذهانهم مسبقا أنهم مغفور لهم مهما فعلوا، كبني إسرائيل والفرق بين الصنفين عظيم.
قوله: {ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه} يقول الله موبخا هؤلاء الناهمين البطرين الذي يزعمون أنهم مغفور لهم مهما عملوا من السيئات واكتساب الحرام -يقول لهم: ألم يأخذ الله عليهم العهود بأن يقيموا التوراة وأن يعملوا بما فيها، وأن لا يقولوا على الله إلا الحق ولا يغيروا ما أنزل على نبيهم موسى في التوراة أو يحرفوا فيها أيما تحريف، فقد ورثوا الكتاب {ودرسوا ما فيه} أي أقروا التوراة وعرفوا ما فيها من الأحكام والتعاليم لكنهم ضيعوا كتاب الله وتركوا العمل بمقتضاه وخالفوا ما أخذ الله عليهم من العهود بالتصديق والاستقامة والتزام ما شرعه الله التزاما صحيحا لا محرفا ولا منقوصا.

قوله: {والدار الآخرة خير للذين يتقوت أفلا تعقلون} ذلك تذكير صادع بما هو خير وأبقى - وتلكم هي الدار الآخرة، لا جرم أن النجاة فيها رأس كل كسب وفلاح - وهي خير مما يجمعه الناس في حياتهم من وجوه الكسب والثراء، ورفيع المكانة والدرجات - إن ذلك كله حطام داثر، لأنه إلى الفناء والخراب صائر، فهو ليس إلا السراب واليباب الذي يؤول لا محالة إلى الزوال المحقق والغياب الذي لا يرجى من بعده مرد ولا إياب {أفلا تعقلون} الاستفهام للتوبيخ ومفاده: أفلا يعلم هؤلاء الذين يأخذون عرض الدنيا الفنية بغير حق ولا عدل ويزعمون أنهم مغفور لهم -أن ما عند الله في الدار الآخرة خير لهم مما جمعوه من السحت والحرام؟!

١٧٠ - (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

قوله: {والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين} يمسكون بالتشديد، لأنه يفيد الكثرة - مسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به، أي اعتصمت، أي أن الذين يستمسكون بالتوراة فيعملون بها ولا يخالفون أحكامها لهم أجرهم عند ربهم فلا يضيع أو ينسى ٢٣٣.

١٧١ - (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

قوله تعالى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون} إذ، في موضع نصب بتقدير فعل - وتقديره: واذكر إذ نتقنا الجبل ٢٣٤، والنتق بمعنى الرفع، أو قلع الشيء من موضعه والرمي به ٢٣٥، فقد اقتلع الله الجبل من موضعه ورفعه فوق بني إسرائيل {كأنه ظلة} أي سحابة فوق رؤوسهم يوشك أن يقع عليهم فيهلكهم {وظنوا انه واقع بهم} أي علموا وأيقنوا أن الجبل سيقع عليهم لا محالة إذا لم يطيعوا أمر ربهم ولم يأخذوا ما في التوراة - ثم قال لهم الله مهددا، وهم على حالهم من الذعر والهلع: {خذوا ما آتيناكم بقوة} أي التزموا تعاليم ما أنزلنا إليكم من الكتاب بجد، لا هزل ولا خور - واعملوا بما فيه من الشرائع والأحكام من غير تقصير ولا تفريط، واذكروا ما فيه من المواثيق والمواعظ والعبر، وإلا أرسلت عليكم الجبل فيبيدكم إبادة. ومن أجل هذا التهديد الماثل، وبهذا التخويف الذي أطار قلوب بني إسرائيل، وخارت منه عزائمهم، استجابوا طائعين مبادرين لا ينثنون ولا يتوانون - وفي ذلك درس نافع لمن يبتغي الوقوف على طبيعة يهود - فهم القوم الذين لا تلين طبائعهم لصوت الحجة والمنطق ولا يذعنون لنداءات الشرائع السماوية من توراة وغيرها - لا يصيحون لشيء من ذلك كله - إنما ينزجرون أو يرجون القهقري إذا أحاطت بهم ظواهر التهديد المرعب المنظور.

١٧٢ - (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

قوله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ١٧٢ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ١٧٣ وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون} إذ، في موضع نصب بتقدير الفعل اذكر - و {من ظهورهم}، بدل من بني آدم ٢٣٦، ذلك إخبار من الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وخالقهم وأنه لا إله إلا هو، فقد خلق الله الإنسان في الأصل على الفطرة ليجيء مؤمنا موحدا لا يعرف الشرك - لكن الإنسان قد تعثر فيما بعد - وذلك لما تبدلت يفه الفطرة الأصلية السليمة إلى أخرى مقلوبة أو مشهورة تشويها - وذلك بفعل المؤثرات الخارجية الكثيرة وبإيحاء من النوازع الشيطانية من الداخل - لا جرم أن العوامل الخارجية والمؤثرات التي تصطنعها أفكار الشياطين وأقلامهم لقلب الفطرة وتشويهها كثيرة وكبيرة - وهي متعثر متعددة وترى: ولا تقف عند نهاية أو حد بل إنها تزداد على مر الزمن ضراوة وفداحة وخبرة في تدمير الفطرة الأساسية للإنسان - الفطرة السليمة القويمة التي يجيء عليها الإنسان مبرأ من كل الأدران والأوضار النفسية والخلقية - ثم تستحيل فطرته بعد ذلك إلى فطرة ضالة ممسوخة متمردة على الله وعلى منهجه الحق بعد أن كانت سوية مؤمنة مخبتة إلى ربها إخباتا - وذلك كله بفعل العوامل الخبيثة التي برعت في إعدادها وتنشئتها أقلام الشياطين وأدمغتهم التي لا تفتر ولا تني عن الكيد للإنسان كيما ينقلب إلى إنسان مضلل شائه ممسوخ الطبع،

مقلوب الفطرة تمام - إنسان قد تزاحمت فيه ظواهر العتو والاستكبار والاغترار من الداخل فإذا هو عاث كنود بعد أن جيء به إلى هذه الدنيا مبرأ من كل العيوب - وفي هذا المعنى روي الصحيحان عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) وفي رواية (على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء ٢٣٧ هل تحسون فيها من جدعاء) ٢٣٨.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم).

أما كيف أخذ الله ذرية بني آدم من ظهورهم، فهو موضع تفصيل كبير نقتضب منه ما قاله كثير من أهل العلم ومنهم الرازي والزمخشري، وهو أن الله أخرجهم من أصلاب آبائهم ذرية - وكيفية ذلك: أنهم كانوا نطفة فأخرجهم الله تعالى في أرحام الأمهات، ثم جعلها علقة، ثم مضغة، ثم جعلهم بشرا سويا وخلقا كاملا، ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته وعجائب خلقه - وبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى، وإن لم يكن ثمة قول منطوق باللسان - وذلك مقتضى قوله سبحانه وتعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا}.

وسئل ابن عباس عن تأويل هذه الآية فقال: لما خلق الله آدم عليه السلام أخذ ميثاقه فمسح ظهره فاخذ ذريته كهيئة الذر فكتب أجالهم وأرزقهم ومصائبهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ٢٣٩.

قوله: {أن تقولوا القيامة غنا كنا عن هذا غافلين} {أن تقولوا}، في موضع نصب مفعول له، أي فعلنا ذلك، من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة أن تقولوا، أو لئلا يقولوا ٢٤٠ - أي خلقكم الله على الفطرة والتوحيد وجعل فيكم كامل الاستعداد للإيمان بالله ثم أشهدكم على أنه خالقكم ومالككم ومعبودكم دون غيره فشهدتم، إذ كنتم على الفطرة صادقين - غير مضللين ولا منحرفين - وذلك لئلا تقولوا يوم القيامة: {إنا كنا عن هذا غافلين} أي كنا غافلين عن وحدانية ربنا فضللنا

١٧٣ - (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

{أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون} أي ولئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا لا نعلم ذلك وكنا في غفلة منه - {أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا} ونحن ذريتهم من بعدهم اتبعناهم في دينهم ومهاجهم {أفتهلكنا} يا ربنا بما فعله أهل الباطل من الشرك والعصيان ٢٤١.

١٧٥ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ١٧٥ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ١٧٦ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون}.

ورد عن ابن عباس وغيره من المفسرين في سبب نزول هذه الآية وهو بلعم بن باعورا، رجل من بني إسرائيل، وكان يعلم اسم الله الأعظم - فلما نزل بهم موسى عليه السلام أتاه بنوعمه وقومه وقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه.

قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي - فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله بما كان عليه - فذلك قوله: {فانسلخ منها} ٢٤٢ الانسلاخ معناه الخروج - يقال: انسلخت الحية من جلدها، أي خرجت منه - والمعنى: أنه انسلخ من معرفة الله ومما أوتيه من العلم كما تنسلخ الشاة عن جلدها {فأتبعه الشيطان} أي لحقه الشيطان فأدركه عقب الانسلاخ من آيات الله فصار قرينا له فأتبعه خطواته {فكان من الغاوين} أي الضلعين في الغواية والضلالة والفسق.

وذلك هو مصير كل من يؤتي حظا من حظوظ العلم والهداية والمعرفة بجلال الله فصدق واستقام ثم انسلخ مما أوتيه من فضيلة العلم

والهداية فانقلب على وجهه وقد خسر الدنيا والآخرة وذلك بتأثير الشيطان الذي سول له التحول عن الحق، والانسلاخ عن طريق الله ومنهجه فسلك سبيل الشياطين والضالين المضلين فكان من الهالكين الخاسرين والعياذ بالله.

١٧٦ - (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله: }ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه{ أي لو شاء الله لرفعه بآياته التي آتاها إياه - والمراد بالرفع: ما كان في المنزلة - ومنها: الرفع في شرف الدنيا - ومنها: الرفع في الذكر الجميل والثناء الحميد - أو أن الله أعطاه كل هذه المعاني مجتمعة بان وفقه للعمل بآياته والتي كان قد آتاه إياها، وقيل في تأويل الآية: لو شئنا لأمتناه قبل أن يضل ويعصي ربه، فرفعناه إلى الجنة بذلك - أي بعمله الذي يستوجب (الجنة) }ولاكنه أخلد إلى الأرض{ من الإخلاد، وهو الركون واللزوم - أخلد بالمكان؛ أي لزمه فاطمأن وسكن ٢٤٣ - والمعنى: أنه ركن إلى الأرض أو نزع إليها أو مال إلى ملذاتها وشهواتها وزخارفها وعزف عن الحق واليقين الذي كان متلبسا به من قبل أن يضل.

وقوله: }واتبع هواه{ وهو الضلال والفسق عن أمر الله نزوعا للدنيا وما فيها من خسائس ومغريات موبقات، أو كان هواه مع القوم الظالمين الذين حرضوه على الإخلاد للأرض والزيغ عن عقيدة التوحيد ركونا للهوى والأموال والشهوات.

قوله: }فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث{ يلهث من اللهاث بالضم، وهو حر العطش في الجوف - يقال: هو يقاسي لهاث الموت، أي شدته - لهث الكلب لهثا ولهاثا: أخرج لسانه من حر أو عطش ٢٤٤ - ذلك مثل ضربه الله للذي ضل وغوى وخرج عن ملة الإسلام بعد أن آتاه الله آياته فانسلخ منها - فهو أشبه ما يكون بالكلب الذي دأبه اللهاث؛ فهو يلهث إذا طردته، ويلهث إذا تركته.

قال القتبي في هذا الصدد: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب؛ فغنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة، وحال الري، وحال العطش - فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل، وإن تركته ضل؛ فهو كالكلب إن تركته لهث، وإن طردته لهث، وقيل في تأويل الآية: إنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا، وإذا تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلا عليك، ودبرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان.

وتلك هي حال الذي انسلخ من آيات الله وفسق عن دينه بعد علم به وهداية؛ فإنه صار بذلك من غير فؤاد - أو أن فؤاده بات غليظا أجوف لا مكان فيه للإيمان أو اليقين؛ فهو سواء وعظ أو لم يوعظ، لم يأت بخير؛ لأن قلبه خال من الخير ولا يستسيغه؛ فهو بذلك ضال مجانب لدين الله - لا تجدي معه النصائح والمواعظ، ولا تعطف قلبه النواهي والزاجر، ولا يؤثر فيه الترغيب والترهيب ليثنيه عن فعل المعاصي والموبقات - فمثله في ذلك مثل الكلب اللاهث تماما؛ إذ يلهث في كل الأحوال - فما أروع هذا التعبير، وما أكمل هذا التصوير الذي لا يصدر بهذا الجمال والرصانة وقوة التأثير إلا عن حكيم خبير!

وقوله: }فاقصص القصص لعلهم يتفكرون{ أي أقصص على المشركين واليهود هذه الأخبار عن نقم الله وما أنزله بالمجرمين المضلين من العقوبات والمثلات - وكذا قص عليهم خبر أي انسلخ من آيات الله ثم ركن إلى الدنيا والشهوات فانتقم الله منه وهو من جنسهم -أي اليهود- أقصص عليهم هذه الأخبار لعلهم يرجعون إلى عقولهم فيفهمون وينزجرون عن الباطل والضلال.

١٧٧ - (سَاءَ مَثَلا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ)

قوله: }ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون{ ساء، فعل لازم، وفاعله مقدر، وتقديره: ساء مثلا مثل القوم - فحذف المضاف ونصب (مثلا) على التمييز، وأقيم المضاف إليه مقامه وارتفع على الابتداء وما قبله خبره.

وقيل: ارتفع؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف كقولهم: بئس رجلا زيد ٢٤٥، وساء بمعنى قبح - وساءه يسوءه مساءة، متعد - وهو من أفعال الذم كبئس - والمعنى: قبح مثل هؤلاء المجرمين؛ إذ شبهوا بالكلاب اللاهثة، وذلك لموت قلوبهم وفساد فطرتهم وتيه عقولهم؛ فما يعبأون في حياتهم بشيء سوى الشهوات والملذات والخنوع للغرائز؛ فهم بذلك سادرون في الفسق والضلالة، مكذبون بآياته، ظالمون

لأنفسهم أيما ظلم ٢٤٦.

١٧٨ - (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله تعالى: {من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأوليك هم الخاسرون} ذلك إخبار من الله أن الهداية والإضلال بيده سبحانه؛ فالله يهدي من يجاهد ليهتدي، قوله سبحانه: {والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا} وكذلك يضل الله من يبغي لنفسه الضلال ويولي مدبرا عن الحق المستبين وعن دلائل الهدى والإيمان؛ فيغلق قلبه وعلقه عن إدراك الصواب والحقيقة.

وأساس المسألة هنا أن الإنسان كائن مميز باستعداده المزدوج لكلا الهدى والضلال؛ فقد أودع الله فيه القدرة والاستعداد لفعل كل من الخير والشر - يضاف إلى ذلك كله علقه الذي يميز الحق من الباطل - وكذلك فطرته التي بنيت على التوحيد أو الإيمان بالله وحده؛ فغنه في ضوء ذلك كله يجد الإنسان نفسه في إحدى السبيلين وهما سبيل المؤمنين وسيبيل المجرمين الخاسرين وكل منها يحيط به قدر الله ومشيئته بالهداية والإضلال - فلا يهتدي أو يضل ضال من غير أن يكون في فلك المشيئة الإلهية ٢٤٧.

١٧٩ - (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

قوله تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أوليك هم الغافلون} خلق الله لجهنم من يملؤها من الجن والإنس - أولئك الذين جنحوا للضلال والباطل ليكونوا في مقابل الهدى والحق - والذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة فمالوا للشهوات والمفاسد والمعاصي فاستحقوا بذلك من الله العقاب في النار - أولئك هم حصب جهنم سيصلون فيها السعير والتحريق بما فعلوه في حياتهم الدنيا؛ إذ ضلوا قصد المحجة البيضاء - وسلكوا سبيل المجرمين المكذبين الذين ما كانوا ليجدي معهم النصح والإرشاد لفساد فطرتهم، وتيه عقولهم، وللران الذي غشي قلوبهم فاستحوذ عليها أيما استحواذ - وهو قوله سبحانه واصفا إياهم {لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذن لا يسمعون بها} يفقهون، من الفقه وهو الفهم أو العلم بالشيء ٢٤٨ - الله جل وجلاله يبين أن هؤلاء الضالين الجاحدين قد تعطلت حواسهم فما عادوا لينتفعوا بها؛ لأنهم قد استحوذ عليهم الشيطان وطغت عليهم شقوتهم وضلالتهم؛ فهم بذلك قلوبهم غلف لا يدركون بها الحق والهدى ولا يعون بها آيات الله ودلائله الساطعة والحجج الظاهرة الدامغة التي تكشف عن روعة الحق وزيف الباطل - وهم كذلك صم لا ينتفعون بآذانهم؛ إذ لا يسمعون بها نداءات المرسلين والداعين إلى الله - النداءات التي تهتف بهم في كل آن أن يثوبوا إلى ربهم فيؤمنوا إليه مخبتين مذعنين - لكنهم ما عادوا لينتفعوا بشيء من هذه الحواس التي كان قيمنا بهم أن يستدلوا من خلالها على الحق والهدى فهم بذلك {كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} إن هؤلاء المجرمين الذين هم حصب جهنم، والذين تعطلت فيهم حواس الأفئدة وأبصار والأسماع إنما يشبهون الأنعام في أنها لا تعي رشدا، ولا تبصر هداية أو حجة، ولا تسمع نصحا أو نداء - وإنما طبعها أن لا تعي ولا تدرك، وليس لها من الحياة إلا أن تعيش لتأكل وتشرب وتمارس غرائزها - وهكذا المجرمون المجانبون لمنهج الله المعادون لدينه وشرعه، بل إنهم أشد إضلالا من الأنعام؛ لأنهم مسؤولون موقوفون عند ربهم ليؤاخذهم عن ضلالهم وفسقهم وعما كانوا فيه من الغفلة والتفريط، خلافا للأنعام فغنها غير مؤاخذة ولا مسؤولة؛ إذ سقط عنها السؤال والحساب؛ لتجردها من حاسة الوعي والإدراك ٢٤٩.

١٨٠ - (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون} الأسماء الحسنى يراد بها أحسن الأسماء؛ لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وثناء؛ فهي الحسنة في الأسماع والقلوب؛ لأن مدلولاتها جامعة لكل معاني الخير والبركة والرحمة والإفضال والتوحيد.

وأسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسما؛ فقد أخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تعسا

وتسعين اسما، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر) وأخرجه الترمذي بسنده وزاد بعد قوله (يحب الوتر): (هو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور).

على أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تعسة وتسعين - بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي؛ إلا أذهب الله حزنه وهمه، و أبدل مكانه فرحا).

وذكر الفقيه المالكي أبو بكر بن العربي في كتابه الأحوذي في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم. وجاء في صحيح مسلم (الطيب) وخرج الترمذي (النظيف) وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: (رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي) وعلى هذا جائز أن يقال: يا خير الماكرين امكر لي ولا تمكر علي، والله تعالى أعلم.

قوله: {فادعوا بها} أي سموه بتلك الأسماء - أو أطلبوا منه بأسمائه فيطلب بكل اسم ما يليق به فتقول: يا رحيم ارحمنا - ويا حكيم احكم لنا: ويا رازق ارزقنا - ويا هادي اهدنا - ويا فتاح افتح لنا - ويا تواب تب علينا وهكذا.

قوله: {وذروا الذين يلحدون في أسمائه} يلحدون من الإلحاد - والأصل فيه العدول عن القصد والميل فيه والجور والانحرف - لحد في دين الله، أي عدل عنه وحاد ٢٥٠ والمعنى المقصود هنا: اتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب في أسماء الله فيسمونه بغير الأسماء الحسنى كأن يشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان - أو كما يسميه بعض الجهلة؛ إذ يقولون: يا أبا المكارم - يا أبيض الوجه - يا سخي ٢٥١.

١٨١ - (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

قوله تعالى: {وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} أي من الخلق الذين خلقنا، أمة مهتدية قائمة بالحق، إذ تقوله وتدعو إليه {وبه يعدلون} أي يعلمون ويقضون - وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة هنا هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم - فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية: (هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها} يعني بهذا قوله تعالى: {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} وفي الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل) وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة) وفي رواية: (حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) وفي رواية (وهم بالشام).

وقيل: المراد بذلك العلماء الذين يدعون إلى دين الله والأخذ بشريعته ومنهجه في كل زمان أو مكان - فيستدل من ذلك على هذا المعنى، أن الذين لا تخلو في زمن من الأزمان من دعاة يدعون إلى الحق ٢٥٢.

١٨٢ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {والذين كذبوا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ١٨٢ وأملي لهم إن كيدي متين} الاستدراج، معناه الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة - واستدرجه، أي أدناه منه على التدريج فتدرج، أو خدعه حتى حمله على أن يدرج - واستدرج الله العبد؛ أي أمهله ولم يباغته ٢٥٣، وذلك تهديد من الله للذين يعرضون عن منهج الله ويكذبون بآياته ودلالاته ويجحدون ما انزل إليهم من الحق؛ فإنه سيمهلهم إمهالا، ليظلوا سادرين في أهوائهم وضلالاتهم، لاهين في رغباتهم وشهواتهم، مغترين بالنعيم في حياتهم الدنيا حتى يأخذهم الله على غرة ومن حيث لم يحسبوا - وإذ ذاك يجدون أنهم سقطوا في الهلاك والثبور، فلا ينفعهم الندم ولا هم يستعتبون.

١٨٣ - (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

قوله: {وأملي لهم إن كيدي متين} معطوف على {سنستدرجهم} أي أطيل لهم مدة لهوهم وسهوهم واغترارهم وأؤخر لهم العقوبة إلى حين؛ ليكون ذلك أبلغ في إيلامهم وشديد عقابهم {إن كيدي متين} الكيد معناه الكيد: والمتين، الشديد؛ أي عن مكر الله شديد أليم سيحيق بالمكذبين المعرضين عن دينه، السادرين في السفاهة والظلام، الاهين عن التوحيد والطاعات.

١٨٤ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة عن هو إلا نذير مبين} الاستفهام للإنكاري - يعني أو لم يتفكر هؤلاء المعرضون المدبرون عن آياتنا، فيتدبروا ويعوا بعقولهم أن رسولنا الذي بعثا إليهم ليس به جنة وهي الجنون ٢٥٤، وأن ما دعاهم إليه لهم الحق القويم والصدق المبين - وما هو إلا نذير جاء لينذركم عقاب الله ويخوفكم عذابه إن لم تثوبوا إلى ربكم مؤمنين مخبتين - ووصف النذير بأنه مبين؛ أي ظاهر لمن كان له قلب أو عقل فيعي أو يصدق - والنذير، معناه المنذر والإنذار، ولا يكون ذلك إلا في التخويف ٢٥٥.

١٨٥ - (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ١٨٥ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون} أو لم ينظر هؤلاء المكذبون الجاحدون نظر استدلال وتدبر فيما يدل عليه هذا الملكوت وهو الملك العظيم الذي صنعه الله، وكذلك فيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف، ولعلهم يموتون قريبا؟ أو لم ينظروا في ذلك كله فيسارعوا إلى الإيمان وليبادروا للتصديق تنجيه لأنفسهم من الويل المنتظر؟!

قوله: {فبأي حديث بعده يؤمنون} أي بأي حديث أحق وأصدق من هذا القرآن يريدون أن يؤمنوا؟! هل من حديث أكرم وأطيب وأعظم وأطهر من كتاب الله الحكيم فيؤمنوا به ويصدقوه؟! إنه ليس في الكلام أيما كلام البتة خير وأصدق وأروع من القرآن - هذا الكلام الكريم المعجز الذي لا يضاهيه كلام ولا يدانيه خطاب، لا في روعة الجرس، ولا في جمال الأسلوب والصورة، ولا في حلاوة الإيقاع والنغم، ولا في رصانة الكلمات والعبارات، ولا في كمال المضامين والمعاني - فإذا لم يؤمن هؤلاء الجاحدون العصاة بهذا الكلام الرباني الفذ، فبأي كلام بعد ذلك يؤمنون؟!.

١٨٦ - (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قوله: {من يضلل الله فلا هادي له} أي أن ضلال هؤلاء المكذبين ليس لا لعدم توفيق الله لهم؛ فقد آثروا المضي في طريق الشيطان والباطل فأضلهم الله - وإذا أضلهم الله فليس لهم غيره من أحد يهديهم - بل إن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم يترددون؛ ليستحقوا بعد ذلك ما يجدونه أمامهم من سواء المصير في النار ٢٥٦.

١٨٧ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولاكن أكثر الناس لا يعلمون ١٨٧ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون}

جاء في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس قال: قال: حمل بن أبي قشير وشموال بن زيد من اليهود: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا فإنا نعلم متى هي، فأنزل الله هذه الآية - قال قتادة: فقالت قريش لمحمد: إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: {يسألونك عن الساعة} ٢٥٧.

الكاف، في {يسألونك} في موضع مفعول به أول - و {عن الساعة}، في موضع نصب مفعول به ثان - و {أيان مرساها}، مبتدأ وخبر - {مرساها}، مبتدأ و {أيان}، خبره ٢٥٨ - لقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين عن الساعة وذلك من باب الإحراج والتحدي والمكابرة إذ قالوا له {أيان مرساها} أي متى مثبتها ووقوعها - و {مرساها} بمعنى قيامها - من قول القائل: أرساها الله فهي مرساة - وأرساها القوم إذا حبسوها - ورست ترسو رسوا - فأجابهم أنها علمها مما استأثر الله به في علم الغيب عنده ولم يوقف عليه أحدا {لا يجليها لوقتها إلا هو} أي لا يظهرها في وقتها إلا هو سبحانه.

قوله: {ثقلت في السموات والأرض} أي ثقل علم الساعة على أهل السموات والأرض؛ فقد عز عليهم أن يعرفوا وقتها ومجيئها لخفائها عنهم واستئثار الله بعلمها، وبذلك لا يعرف متى تقوم الساعة لا نبي مرسل ولا ملك مقرب - وقيل: ثقلت بمعنى كبرت، فلا تطيقها السموات والأرض - ذلك أن الساعة إذا جاءت انشقت السماء، وانكدرت النجوم، وانتثرت الكواكب، وكورت الشمس، وسيرت الجبال - لا جرم أن ذلك هائل ومخوف ومزلزل، وفيه من الثقل على أهل السموات والأرض ما يخلع القلوب خلعا - وكذلك فإن الساعة إنما تأتي فجأة من حيث لا يشعر بها أحد فهي تبغت بقيامها الناس إذ تأتيهم على غفلة وفي الخبر: (إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه - وذلك تأويل قوله: {لا تأتيكم إلا بغتة) وبغتة، منصوب على المصدر في موضع الحال ٢٥٩.

قوله: {يسألونك كأنك حفي عنها} الحفي، معناه العالم المستقصي، الملح في السؤال ٢٦٠؛ أي يسألك المشركون عن الساعة يا محمد، كأنك عالم بها كثير السؤال عنها - وقيل: يسألونك عنها كأنك صديق بهم أو قريب منهم وتخفي عليهم، أو كأنك حفي بهم؛ أي كأنك فرح ومسرور بسؤالهم - نقول: احتفى به: بالغ في إكرامه وأكثر السؤال عن حاله؛ فهو حاف وحفي - وحفا الله به حفوا، أكرمه - والحفاوة، الإلحاح ٢٦١.

قوله: {قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون} أي أبلغهم يا محمد مبينا لهم بجلاء ووضوح أن علم الساعة خفي عن العالمين وقد استأثر الله به ولا علم لأحد في الخاليق بالساعة أو متى تقوم {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} أي أكثر الناس لا يعلمون أن الله وحده مستأثر بعلم الساعة، وأن الخلق جميعا لا يدرون متى تفجأهم.

١٨٨ - (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله} أي أبلغ هؤلاء الذين يسألونك عن الساعة متى تقوم: أنني لست قادرا على تحصيل النفع أو الخير لنفسي، ولا دفع الضر أو المكروه أن يحل بي إلا ما شاء الله لي أن أقدر عليه من ذلك وهو أن يمكنني ربي من ذلك ويعينني عليه - ومن كانت هذه حاله من ضعف الاستطاعة وهوان الاقتدار؛ فأحرى أن لا يعلم متى تقوم الساعة، ولأنها من مستور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

قوله: {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء} إنني لا علم لي بالغيب، ولو كنت أعلمه، فأعلم ما هو كائن وما

ليس بكائن لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير والمنافع واجتناب المضار والمكاره كيلا يمسني منها شيء، فلا أكون -مثلا- غالبا في الحرب مرة، ومغلوبا مرة أخرى، ورابحا في التجارات مرة، وخاسرا مرة أخرى، ومصيبا في التدبير مرة، ومخطئا مرة أخرى - بل لكنت دائما غالبا ورابحا ومصيبا.

بمثل هذه الصراحة الكاملة وهذا الوضوح التام يأمر الله رسوله الكريم بمخاطبة قومه - خطاب لهم ظاهر ومستبين لا لبس فيه ولا إشكال - خطاب فيه من طهر الغاية والمقصود واستقامة المنهج والأسلوب ووضوح المعنى وكماله ما يزجي بأبلغ برهان على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم - لا جرم أن هذه واحدة من الدلائل البلجة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه مبعوث من عند الله أرسله للعالمين هاديا ومنيرا.

قوله: {إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون} أي ليس من شأني أن أعلم الغيب بل، إني لست إلا رسولا من عند الله أرسلني إليكم لأنذر عقابه من عصاه منكم وخالف أمره، وأبشر بثوابه وجزائه من آمن به وأطاعه واتقاه، على أن المنتفعين ببشارة الرسول صلى الله عليه وسلم ونذارته هم المؤمنون الذين يستقينون بحقية ما جاءهم به من عند الله - ومن أجل ذلك خص المؤمنين هنا بالذكر ٢٦٢.

١٨٩ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

قوله تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهم لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ١٨٩ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون} ذلك إخبار من الله تعالى أنه خلق البشرية من أصل واحد وهو آدم، وخلق من آدم زوجه حواء {ليسكن إليها} أي ليستأنس بها ويطمئن ويستريح ٢٦٣، وذلك بعد أن خلقها الله من أحد أضلاعه - وكان ذلك حال كونهما في الجنة - ولما أهبطهما الله إلى الدنيا بدأت بهما مرحلة أخرى جديدة - وتلك هي مرحلة الحياة الدنيا - بما فيها من امتحان طويل وحافل، وبما يتخللها من مشكلات ومعضلات ونائبات وبلايا حتى يرث الله الأرض وما عليها - لقد كانت بداية هذه المرحلة عقب التوالد والتناسل وانبزاغ الذرية - ويشير إلى ذلك قوله: {فلما تغشاها حملت خفيفا} وهذا كناية عن الجماع - وبذلك حملت حملها الخفيف، أي الحمل غير الظاهر ولا المستبين {فمرت به} أي استخفته فقامت به وقعدت من غير تثاقل ولا مشقة.

قوله: {فلما أثقلت دعوا الله لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين} صالحا، منصوب، لأنه صفة للمفعول به الثاني المحذوف - والتقدير: ابنا صالحا - والمفعول به الأول الضمير (نا) في قوله {آتيتنا} ٢٦٤ أي لما صارت حواء ذات ثقل، إذ كبر الجنين في بطنها واقتربت ولادته نادى آدم وحواء ربهما قائلين: يا ربنا {لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين} والمراد بالصلاح هنا: أن يكون المولود بشرا سويا وليس غيره كبهيمة أو شيئا غير الإنسان - وقيل: الصلاح في استواء الخلق - وقيل: الصلاح في الدين - وقيل: في العقل والتدبير - أو الصلاح في عموم ذلك كله، فقد أقسما {لئن آتيتنا صالحا} بكل معاني الصلاح {لنكونن من الشاكرين} أي ممن يشكرك على خير ما مننت به علينا من الولد السوي الصالح.

١٩٠ - (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما أتاهما} المراد بذلك ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، فإنهم يدعون الله أن يرزقهم الولد الصالح فإذا رزقهما الله إياه جعلوه مشركا لله كما لو جعلوه يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا، أو أشركوا فيما آتاهم الله من الأولاد وذلك بتسميتهم منسوبين إلى الأصنام مثل: عبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس - وما أشبه ذلك بدلا من تسميته بعبد الله أو عبد الرحمن أو عبد القدر ونحو ذلك - ونستبعد أن يكون المراد من ذلك آدم وحواء وإنما المراد المشركون من ذريتهما - ولذلك قال: {فتعالى الله عما يشركون} ولم يقل: يشركان - وذلك تنزيه من الله نفسه وتعظيم منه لجلاله العظيم عما يخرصه المبطلون من اختلاق الأنداد والآلهة ٢٦٥.

١٩١ - (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

قوله تعالى: {أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ١٩١ ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ١٩٢ وإن تدعوهم إلى الهدى ولا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ١٩٣ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ١٩٤ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ١٩٥ إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ١٩٦ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ١٩٧ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}.

الاستفهام للتوبيخ والتعنيف من الله للمشركين السفهاء الذين يعبدون من دون الله ما لا يخلق شيئا - فهم بسفههم وضلالهم يعبدون الحجر والمدر والبقر - وكذلك يعبدون الطواغيت من البشر - الطواغيت من العتاة الظالمين المفسدين في الأرض، الذين استخفوا العوام م الرعاع و الأنذال و الدهماء من الناس فعبدوهم من دون الله أو أشركوهم في العبادة والخضوع والاستكانة مع الله - لا جرم أن ذلك سفه عظيم وظلم فادح - فهؤلاء المعبودون من دون الله ليسوا غير مخلوقين قاصرين من بين خلائق الله الكثيرين وهم

١٩٢ - (وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

{ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون} هؤلاء المعبودون من دون الله على اختلاف أصنافهم وأسمائهم لا يملكون للذين عبدوهم نفعا ولا ضرا؛ فهم بذلك لا يقدرون على بذل النصر لهم إذا ألم بهم حدث أو مصاب، فضلا عن عجزهم عن تحصيل النصر لأنفسهم.

١٩٣ - (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

قوله: {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم} ذلك تيئيس من هداية الأنداد والآلهة المصطنعة التي يعبدها المشركون السفهاء، أي إن تدعوا هؤلاء الشركاء أو الآلهة المختلفة المفتراة إلى ما هو هدى ورشاد أو تدعوهم إلى أن يهدوكم كما تطلبون من الله والرشاد فإنهم لا يتبعونكم على مرادكم ولا يجيبونكم لما دعوتموهم إليه؛؟ لأنهم صم بكم لا يعقلون - وإن كان المعبودون من البشر؛ فإن قلوبهم قاسية وغلف، وهم ميئوس من هدايتهم، فأنى بهم -وهم على هذه الحال من طمس القلوب وعمى الأبصار- أن يهتدوا أو يهدوا غيرهم.

قوله: {سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون} أي دعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سيان؛ فهم لا يعون ولا يبصرون ولا يستجيبون بل إنهم عمي وصم - وقيل: الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وضمير النصب للكفار؛ أي إن تدعوا هؤلاء المشركين الضالين على الهدى لا يقبلوا منكم دعاءكم، فدعاؤكم وصمتكم سيان، أي مثلان ٢٦٦.

١٩٤ - (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين} ذلك توبيخ بالغ للمشركين الضالين السفهاء الذين يعبدون من دون الله آلهة صماء كالأصنام التي لا تسعى ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع - فهم أمثالكم في أنهم عباد مخلوقون مملوكون للخالق - بل إنكم أنتم أفضل منهم في كونكم تنطقون وتسمعون وتعقلون - فأنى لمثل هؤلاء الأشباح الجوامد أن يكونوا معبودين لكم؟!

إن لكم السفه بالغ، والحماقة المسفة المغالية التي تنحدر بالتعساء السخفاء إلى سحيق العمه والخبل!! كيف بكم وأنتم السامعون المبصرون الناطقون الواعون أن تذعنوا بالخضوع والعبادة لهؤلاء المخاليق وهم ليسوا إلا تماثيل مصفوفة لا تعي ولا تحرك؛ إذ ليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يبطشون بها، ولا أعين يبصرون، بها ولا آذان يسمعون بها، فكيف يليق بكم وأنتم الواعون المبصرون العقلاء أن تدنوا لهم بالاستكانة والتذلل - وذلك تأويل قوله: {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أن لهم آذان يسمعون بها}.

قوله: {قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون} كيدون، من الكيد، وهو المكر والخبث ٢٦٧ - أمر الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يتحدى المشركين بدعوة شركائهم الأصنام ليكيدوا له جميعا بما شاءوا من وجوه الكيد وهو الخبث والخداع {فلا تنظرون}

أي لا تمهلون في الكيد لي، ولا تؤخروا عني إنزال الضرر بي بسبب أصنامكم وشركائكم - وذلك أقصى درجات التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم بما يكشف في وضوح عن فساد تصورهم وبطلان ما يعتقدون - وإن يعتقدون إلا الضلال والباطل والسفه ٢٦٨.

١٩٥ - (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩٤]

قوله: {إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين} ذلك توبيخ بالغ للمشركين الضالين السفهاء الذين يعبدون من دون الله آلهة صماء كالأصنام التي لا تسعى ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع - فهم أمثالكم في أنهم عباد مخلوقون مملوكون للخالق - بل إنكم أنتم أفضل منهم في كونكم تنطقون وتسمعون وتعقلون - فأنى لمثل هؤلاء الأشباح الجوامد أن يكونوا معبودين لكم؟!

إن لكم السفه بالغ، والحماقة المسفة المغالية التي تحدر بالتعساء السخفاء إلى سحيق العمه والخبل!! كيف بكم وأنتم السامعون المبصرون الناطقون الواعون أن تذعنوا بالخضوع والعبادة لهؤلاء المخاليق وهم ليسوا إلا تماثيل مصفوفة لا تعي ولا تحرك؛ إذ ليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يبطشون بها، ولا أعين يبصرون، بها ولا آذان يسمعون بها، فكيف يليق بكم وأنتم الواعون المبصرون العقلاء أن تدنوا لهم بالاستكانة والتذلل - وذلك تأويل قوله: {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أن لهم آذان يسمعون بها}.

قوله: {قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون} كيدون، من الكيد، وهو المكر والخبث ٢٦٩ - أمر الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يتحدى المشركين بدعوة شركائهم الأصنام ليكيدوا له جميعا بما شاءوا من وجوه الكيد وهو الخبث والخداع {فلا تنظرون} أي لا تمهلون في الكيد لي، ولا تؤخروا عني إنزال الضرر بي بسبب أصنامكم وشركائكم - وذلك أقصى درجات التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم بما يكشف في وضوح عن فساد تصورهم وبطلان ما يعتقدون - وإن يعتقدون إلا الضلال والباطل والسفه ٢٧٠.

١٩٦ - (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

قوله: إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين} بعد أن بين لهم بطلان عبادتهم وفساد توجههم نحو الأصنام وأراهم أن الله وحده حقيق أن يعبدوه دون غيره، اخبرهم عليه الصلاة والسلام أن الله لهم النصير وأنه المولى المرتجي وهو وحده المقصود الذي يؤيد ويحفظه من المكر والسوء، وينصره عليهم وعلى ضلالاتهم وأباطيلهم - وهو سبحانه الذي نزل القرآن - {وهو يتولى الصالحين} أي يحفظهم وينصرهم، ويدرأ عنهم الشرور والعوادي ويحول ما بينهم وبين أعدائهم الماكرين المخادعين الذين يتربصون بالمؤمنين المهالك والدوائر والعقابيل.

١٩٧ - (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

قوله: {والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون} ذلك تكرير لتوبيخ القوم المشركين وإهانتهم والتنقص بهم وإظهار سفاهتهم وهوان عقولهم - والمعنى: أن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا يملكون نصركم ولا نصر أنفسهم ولا يملكون أن يدفعوا عنكم ولا عن أنفسهم أي سوء و مكروه - فكان من هوان أحلامكم وفساد عقولكم أن تتخذوا لكم آلهة تعبدونها.

١٩٨ - (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)

وهم كذلك إن دعوتموهم إلى صلاح وخير ولا يسمعوا دعائكم.

قوله: {وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون} الجملة في محل نصب حال؛ أي والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون - والمراد هنا الأصنام؛ فإنها تشبه الناضرين بما جعلوه لها من الأعين المصنوعة التي لا تبصر فكانت بذلك في هيئة الناظرين، وهي في الحقيقة لا ترى شيئا ٢٧١.

١٩٩ - (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

قوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجهات ١٩٩ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ٢٠٠ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشطان تذكروا فإذا هم مبصرون ٢٠١ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون}.

العفو: المساهلة أو التساهل فيما بينه وبينهم وقبول اليسير منهم وهو الذي يسهل عليهم وأن يترك الاستقصاء عليهم في ذلك - والمعنى: خذ الميسور من أخلاق الرجال ولا تستقص عليهم - وعفو المال ما يفضل عن النفقة ٢٧٢ - والمراد هنا العفو في مطالبة الحقوق الواجبة لله تعالى وللناس، وفي معنى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد: (رحم الله سهل القضاء، سهل الاقتضاء) ولا ينافي ذلك أن يكون لصاحب الحق والديون وغيرها من الحقوق استيفاء ما له حق وملازمة الغرماء حتى الاستيفاء، لأن ذلك مندوب إليه دون أن يكون وجبا - وقد يكون العفو هنا في قبول العذر من المعتذر وترك المؤاخذة والإساءة - قال عبد الله بن الزبير وجمهور المفسرين في تأويل الآية: اقبل من الناس في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم بما أتى عفوا دون تكلف ولا تحرج - والعفو ضد الجهد، أي لا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى لا ينفروا - وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله: (يسروا ولا تعسروا) وقيل: سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عم قوله: {خذ العفو} فاخبره عن الله أنه يأمرك (أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك) - قال ابن عباس وغيره: إن هذه الآية في الأموال قبل فرض الزكاة، إذ أمر أن يأخذ ما سهل من أموال الناس، أي ما فضل وزاد، ثم فرضت الزكاة فنسخت هذه.

وقيل: الآية في مداراة الكفار وعدم مؤاخذتهم ثم نسخ ذلك بالقتال - والراجح القول الأول، وهو أن الله أمر بمكارم الأخلاق، وأن ذلك حكم مستمر في الناس وليس بمنسوخ.

أما العرف فهو المعروف، أي الجميل من الأفعال والأقوال - قال عنه الطوسي: هو كل ما حسن في العقل فعله أو في الشرع ولم يكن منكرا ولا قبيحا عند العقلاء.

قوله: {وأعرض عن الجاهلين} أي إذا أقمت الحجة على المشركين وقد أمرتهم بالمعروف فلم يقبلوا، أعرض عنهم ولا تمارهم بعد ذلك أيما مراء، ولا تسافههم في مقابلة ما يصدر عنهم من المرء والسفاهة - وقيل: إذا تسفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، كقوله في الآية: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} وهو سلام المتاركة، أي الترك ومجانبة السفه والسفهاء.

قال جعفر الصادق: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية - وفي هذا الصدد أخرج الترمذي عن عائشة (رضي الله عنها) قال: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفشحا، ولا سخابا ٢٧٣ في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، لكن يعفو ويصفح).

وفي الخبر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وإتمام محاسن الأفعال).

٢٠٠ - (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله: {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم} النزغ معناه الإفساد - (نزغ الشيطان بينهم) أي أفسد وأغرى ٢٧٤، والمقصود هنا الوسوسة، فقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إذا أدرك شيئا من وسوسة الشيطان أن يستعيذ بالله - وهو من الاستعاذة، أي الالتجاء إلى الله، أي إذا اعتراك أو أصابك أو عرض لك من الشيطان وسوسة فاستجر بالله والتجئ إليه، فإنه يدفع عنك كيد الشيطان ويدرأ عنك نسخه ووسوسته، فإن الله سبحانه يسمع منك الدعاء والاستغاثة والالتجاء ويعلمه - وهو قوله: {إنه سميع عليم}.

٢٠١ - (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

قوله: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} {طائف من الشطان}، أي لم من الشيطان - واللمم، الذنوب الصغيرة، وللمم أيضا طرف من الجنون - واللمة، بفتح اللام بمعنى المس - والعين اللامة، التي تصيب بسوء - يقال: أعيذه من

كل هامة ولامة ٢٧٥، فالمراد بالطائف، ما يطوف بالمرء من وسوسة الشيطان - والطيف بمعنى اللمم والمس، وهو أبلغ من النزغ - وهذا بيان لحال المؤمنين المتقين إذا طاف عليهم الشيطان بوساوسه {تذكروا} أي تذكروا ما أمرهم به الله وما نهاهم عنه، وعرفوا ما عليهم في ذلك من العقاب - قوله: {فإذا هم مبصرون} أي منتبهون فمجتنبون ومنتهون عن الآثام.

٢٠٢ - (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ)

قوله: {وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يبصرونّ} أي إخوان الشياطين من المشركين يمدهم الشيطان في الغي، وهو الغواية، أي يطلبون لهم الإغواء ويزيدونهم في الضلالة ويزينون لهم الباطل {ثم لا يقصرون} من الإقصار وهو الانتهاء عن الشيء - والمراد الشياطين، فإنهم لا يكفون عن استغواء الكافرين، ولا ينتهون عن إمدادهم بالغي والإضلال ٢٧٦.

٢٠٣ - (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {وإذا لم تأتيهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحي إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} اجتبيتها، أي افتعلتها واختلقتها - وجبيتها، أي جمعتها ٢٧٧ ولولا بمعنى هلا - ومعنى الآية: أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يأت المشركين بآية يطلبونها أو يقترحونها قالوا: لم لا تطلبها من ربك؟ هلا اختلقتها وانتحلتها من عند نفسك؟ فأمره الله أن يجيبهم بقوله: {إنما أتبع ما يوحي إلى من ربي} يعني أنا لا آتيكم بالآيات من عند نفسي كما تظنون جهلا وسفها، ولكنني أتبع ما أوحي إلي من عند الله فأبلغكم إياه، وأنا لست في ذلك إلا المكلف المأمور الذي يتبع ما أنزله الله فألتزمه وأعمل بمقتضاه.

قوله: {هذا بصائر من ربكم} البصائر جمع بصيرة وهي الحجة والدليل والبرهان الواضح النير - والمراد بالإشارة {هذا} القرآن، فإنه الدلائل المشرقة الظاهرة والحجج الساطعة البلجة لمن أراد أن ينتفع أو يهتدي أو يتدبر.

قوله: {وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} أي هذا القرآن جاء هداية يهتدي بها من هو جدير بالانتفاع به، والفوز والنجاة بسببه وهم المؤمنون - وهو كذلك رحمة لهم، فهو كله رحمة، سواء فيه الكلمات الباهرة العذاب، أو أسلوبه الشفيف النفاذ، وتصويره الرائع الأخاذ، وكذا مضامينه وما حواه من المعاني والمواعظ والمشاهد والأحكام، كل أولئك يفيض على البشرية بسحائب من الرحمة الغامرة الندية ٢٧٨.

٢٠٤ - (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

قوله تعالى: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ١٠٤ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين ١٠٥ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون} أمر الله كل مسلم مكلف إذا قرئ القرآن، أن يستمع له وينصت، أي يسكت ويصغي لسماعه ليتدبر معناه ويعتبر بما فيه مواعظ ودروس، وأن لا يغلو فيه ليرحمه ربه ببركة كتابه الحكيم - واختلف العلماء في الوقت الذي أمروا فيه بالإنصات والاستماع لدى قراءة القرآن - فقد قيل: أمروا إذا كانوا في الصلاة خلف الإمام الذي يأتمون به وهم يسمعون قراءته - فعليهم أن ينصتوا خاشعين وأن لا يقرأوا بل عليهم أن يستمعوا لقراءته - وعن ابن مسعود في ذلك أنه سمع ناسا يقرأون مع الإمام فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا} كما أمركم الله.

وقيل: كانوا يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض، وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم: كم صليتم؟ فيخبرونه، وكان ذلك مباحا في أول الأمر ثم نسخ.

وقيل: هذا أمر من الله بالإنصات للإمام إذا قرأ القرآن في خطبته - والقول الأول أقوى، فهو الراجح، لأنه ليس من حال يجب فيها الإنصات لقراءة القرآن إلا حال قراءة الإمام في الصلاة، فإن على المأمور الإنصات لذلك والاستماع له.

أما خارج الصلاة فلا خلاف أنه لا يجب الإنصات والاستماع إلا على وجه الاستحباب.

٢٠٥ - (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

قوله: {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول} {تضرعا وخفية} منصوبان على المصدر - وقيل على الحال ٢٧٩

{وخفية} بمعنى الخوف - والمراد بذكر الله هنا، القراءة في الصلاة - وهو قول ابن عباس؛ أي يقرأ سرا في نفسه في صلاة السر {تضرعا وخفية} أي متضرعا متذللا إلى الله خائفا من جلاله العظيم {ودون الجهر من القول} أي في صلاة الجهر لا يجهر المصلي جهرا شديدا بل في خفض وسكون؛ فيكون ذلك بين الجهر والمخافتة.
وقيل: المراد بذكر الله، الدعاء في تخشع وضراعة واستكانة، ويكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء.
قوله: {بالغدو والأصال} أي اذكر ربك داعيا إياه في الغدوات والأصائل - والغدو، جمع غدوة وهي أول النهار - والآصال جمع أصيل - ويجمع أيضا على أصرن - وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس - والمقصود هو دوام ذكر الله بالدعاء المتذلل المخلص في هذا الوقت - فإن الدعاء فيه سمة الإخلاص والتقوى، وهو أقرب للاستجابة والقبول.
قوله: {ولا تكن من الغافلين} فإنه لا يفرط في الدعاء، أو يزهد في الإكثار منه، أو الاهتمام به في هذه الأوقات إلا كل غافل قد انشغل قلبه وذهنه في أمور الدنيا وزينتها؛ فإنه خليق بالمؤمن أن يذكر ربه بالدعاء الخاشع المستديم من غير كلل ولا ملل؛ لما في الدعاء من عظيم الأجر والمثوبة؛ فهو مخ العبادة وعلامة كبرى من علامات الإخلاص للعبد المؤمن.
٢٠٦ - (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ)
قوله: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحون وله يسجدون} المرد بالذين عند ربك، الملائكة - وهم عنده؛ لأنهم قريبون من رحمته سبحانه - وكل قريب من رحمة الله فهو عنده - وقيل: المراد من كونهم عنده، التشريف لهم والتكريم؛ فهذا عبارة عن قربهم في الكرامة وليس في المسافة - أولئك هم الملائكة الأبرار الأطهار الذين يصلون الليل بالنهار وهم في طاعة الله وعبادته والذين تتبرأ طبيعتهم من الاستكبار أو العصيان - {ويسبحونه} أي منشغلون في تعظيمه وتنزيهه عن كل ضعف أو تقص {وله يسجدون} أي يصلون ويتذللون - وهم ماضون على حالهم هذا من دوام التذلل والتخشع والعبادة والتسبيح لا يعرفون العصية أو الملالة أو الكلال ٢٨٠.
وهذا موضع سجود للقارئ عند الجمهور - والسجود للتلاوة واجب عند الحنفية، ومندوب عند الملائكة والشافعية - أما صفة السجود: فإن القارئ يكبر إذا خفض وإذا رفع - وهو قول الشافعية والحنبلة - والمشهور من مذهب مالك أنه يكبر للسجدة في الخفض والرفع في الصلاة - أما على من يتوجه حكم السجدة؛ فقد أجمعوا على أنه يتوجه على القارئ في الصلاة أو غير الصلاة - أما السامع؛ فهو عليه أن يسجد عند أبي حنيفة؛ ومالك في رواية عنه.
على أن السجود للتلاوة يحتاج إلى الصلاة من طهارة حدث وتجس ونية استقبال قبلة - وأما من حيث الوقت: فإنه يسجد في سائر الأوقات مطلقا؛ لأنها صلاة لسبب - وهو قول الشافعي وآخرين - وقيل: لا يسجد في الأوقات المنتهي عن الصلاة فيها - وهو قول أبي حنيفة ومالك - وليس لسجدة التلاوة من سلام - وهو قول جمهور أهل العلم - وذهب آخرون إلى أنه يسلم منها ٢٨١.

٨ سورة الأنفال:

سورة الأنفال:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية وآياتها خمس وسبعون - وهي تتضمن فيضا حافلا زخيرا من الأحكام والمواعظ والمشاهد - أولها الكلام عن الأنفال، وهو عنوان السورة - ويراد بالأنفال الغنائم - ونعرض لبيان ذلك من حيث أنواعه وأحكامه وأقوال العلماء فيه.
وتتضمن السورة ذكر المؤمنين الذين توجل قلوبهم بذكر الله، وسماع آياته البينات، والذين يقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة.
وتتضمن كذلك بيانا بحال المؤمنين لما اختلفوا فيما يفعلونه في المشركين ذوي الشوكة، هل يقاتلونهم في بدر أو يكفون عن قتالهم ويكتفون بأخذ العير الموقرة بأموال قريش - ثم كتب الله التوفيق للمؤمنين الراغبين في الجهاد؛ إذ قاتلوهم وانتصروا عليهم بعون الله وتعزيزه لهم - وفي ذلك ما يؤكد للمسلمين طيلة الدهر أن النصر بيد الله وحده يؤتيه من يشاء من عباده العاملين المخلصين {وما النصر

إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم}.
ويأمر الله في السورة عباده المؤمنين أن يثبتوا في ساحة الجهاد وهم يواجهون أعداء الله فلا يولون الأدبار، فإنه لا يولي الكافرين دبره عند اللقاء إلا من باب بالغضب من الله وكان مأواه جهنم - ولما أظهر الله المؤمنين في بدر وأظفرهم على المشركين بين لهم أن ما تحصل لهم من النصر على عدوهم لم يكن بقوتهم واقتدارهم بل كان بمشيئة الله وفضله وامتنانه، إذ كتب النصر لعباده المؤمنين الصابرين، على ضعف عدتهم وقلة عددهم.
ويحذر الله في السورة عباده المؤمنين من كل فتنة لا تقتصر في الإصابة والإضرار على الظالمين وحدهم - ولكنها تصيب الظالمين والمؤمنين على السواء فما ينجو منها أحد - وثمة تفصيل في السورة لهذا المعنى نعرض له في حينه إن شاء الله.
وفي السورة تذكير من الله لعباده المؤمنين بحالهم في مكة، إذ كانوا قلة وكانوا مستضعفين، ثم أيدهم الله بتكثيرهم وجعلهم آمنين بعد أن كانوا خائفين - إلى غير ذلك من وجوه النعمة والرزق الذي من الله به على المؤمنين الصابرين - فعليهم بذلك أن يذكروا تلك النعم ولا ينسوها، ويبادروا دائما بطاعة الله وشكره على مننه وإفضاله.
وفي السورة بيان لمكر الكافرين وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم وتمالئهم عليه وتشاورهم فيما بينهم بشأنه، هل يحبسونه فلا يخرج، أو يقتلونه، أو يخرجونه خارج مكة - ثم وقع رأيهم وكيدهم على ابتغاء قتله عليه السلام، لكنهم خابوا وخسروا وباءوا بالفشل والخزي، فقد نجي الله رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم في حدث إعجازي جلل ومذهل - حدث ينطق في صدع وجهار أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}.
وتكشف السورة عن تواطؤ الكافرين جميعا على النيل من الإسلام والمسلمين، فهم يتمالئون في كل زمان ليكيدوا للإسلام كيدا، وينفقون في سبيل هذه الغاية الخبيثة الأموال الهائلة - لكنهم سوف يبرءون في النهاية بالخزي والفشل في هذه الدنيا ثم يفضون في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير.
ويأمر الله المؤمنين بقتال المشركين حتى تكون كلمة الإسلام هي العليا، ويكون منهج الله هو المسيطر والنافذ في العالم دون غيره من الملل والمذاهب الفاسدة الضالة - وإذ ذاك تنتهي ويعم الأمن ويشيع الرخاء في العالم كله، وهو قوله: {حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}.
وفي السورة تشريع للغنية بتخميسها - وهو أن يكون خمسها لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وأربعة الأخماس الأخرى للمقاتلين.
وفي السورة وصف للظروف النفسية والواقعية التي سبقت غزوة بدر الكبرى - وبذلك فإن الله يأمر عباده المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو، وليذكروا الله ذكرا كثيرا ليكونوا من المفلحين - ويحذرهم دائما من التنازع والشقاق والخصام فيما بينهم لما في ذلك من مدعاة لزوال شوكتهم وبأسهم وانهيارهم بالكلية.
وفي السورة تنديد بالخيانة ونقض العهود إلا أن يخاف المسلمون من غدر المعتدين الظالمين - فإن خافوا خيانتهم وغدرهم نبذوا إليهم عهدهم وميثاقهم، بإعلامهم جهارا وعلانية أنهم نقضوا العهد معهم.
ويأمر الله المسلمين بإعداد القوة لمقاتلة المشركين المعتدين ما استطاعوا إلى الإعداد سبيلا.
وتبين تفضيلا تأويل قوله: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها} كيلا يكون بعد ذلك مجال لمتحذلق متأول كذوب، أو مفتر مغرض منافق، أو منتفع دجال مريب، يحمل هذه الآية غير ما تحتمل.
ويأمر الله رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يحرض المؤمنين على قتال المشركين الظالمين المتربصين، الذين يعتدون على المسلمين في دينهم بالفتنة، وفي أموالهم وثرواتهم بالنهب والسلب، وفي أوطانهم وبلادهم وبالاغتصاب والاحتلال، وفي كراماتهم وشرفهم بالامتهان والإذلال.

وفي السورة تشريع لمسألة الأسرى نعرض لها بالتبيين إن شاء الله.
١ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
بيان تفصيلي للسورة
بسم الله الرحمن الرحيم
قوله تعالى: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ١ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ٢ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ٣ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم}.
في سبب نزل هذه الآية روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم اله تعالى العدو فانطلقت طائفة في أثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب - وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم - وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فزلت: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول} الآية.
وروي الإمام احمد أيضا عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء؛ أي عن سواء ١.
إذ تبين ذلك، فإنه رب سائل يسأل عن مثل هذا الاختصام على المال والغنيمة بين الرعيل الأول، أو الصفوة الأولى من المسلمين وهم الصحابة - ولا داعي للاستغراب أو العجب، وإذا تذكرنا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر من البشر وإن كانوا كراما عظاما مميزين في عطائهم وإخلاصهم وجزيل فضلهم وصنيعهم - فهم بشر تسري فهن طبائع الأناسي المخاليق - لا عجب ولا الحالة هذه أن تتجلى فيهم ظواهر الآدمية الأساسية كالرغبة في الامتلاك، والخصام من أجل تحصيله - ومثل هذه الظواهر والخصال الخليقة لا ينجو منها كائن عاقل إلا أن يكون مميزا بنبوة أو وحي، أو كان من جنس الملائكة النورانيين - أما غير هؤلاء من بن آدم؛ فإنهم قد جيء بهم على هذه الطبيعة ذات الاستعداد المزدوج من السمو في مدارج الكمال وجنوح النفس لأخذ بحظها من الدنيا كالمال ونحوه - ومع ذلك كله فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظيم فضلهم وروعة صنيعهم وهائل تضحياتهم وكامل إيثارهم يظلون الصفوة المفضلة التي تأتي في المقدمة من سلم البشرية.
وإذا ما قورنت بالصحابة بقية الناس من سائر البشر، كان البون بين الفريقين كالبون بين المشرقين - فلا مجال بعد ذلك لمتعثر أفاك أن يفتري الكذب والغمر على خير طائفة أقلتها هذه الأرض - لا جرم أن طائفة الصحابة نجوم الدنيا/ فيستضاء بنورهم وعلمهم طوال هذا الزمان بالرغم من افتراء الكاذبين والحاقدين والحاسدين.
أما الأنفال، فهي جمع نفل بالتحريك، ومعناه الغنية والهبة - والنفل: الزيادة على الواجب، وهو التطوع - والنافلة معناها الغنيمة والعطية ٢ - ومعنى الآية: يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي اغتنمتها أنت وأصحابك يوم بدر لمن هي، فقل هي لله ولرسوله - أي أن حكمها مختص بالله ورسوله، فيأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته - والرسول صلى الله عليه وسلم من جهته يمتثل أمر الله فيها - فليس الأمر في قسمتها مفوضا إلى رأي أحد منكم.
ولا ينبغي التساؤل في هذا الصدد –كما يتساءل كثير من خصوم الإسلام والمارقين- عن طبيعة المنطق الذي يجوز بمقتضاه اغتنام أموال الكافرين في الحرب - وجواب ذلك أن الكافرين أهل الفساد وباطل، وهم بكفرهم وتمردهم على منهج الله الحق، سادرون في

غيهم وظلمهم في هذه الدنيا - وهم بأموالهم يتقوون على الإفساد وإشاعة الخراب والشر، ويزدادون به قدرة على الإيذاء والإضرار بالعباد؛ لأنهم عاتون ظالمون لا تأخذهم في البشرية رحمة ولا عدل ولا لين - فلزم بذلك أن يجردوا من الأسباب التي تمكنهم من إشاعة الفتن والمصائب والمخاوف والفوضى بين الشعوب - وأبرز سبب في هاتيك الأسباب، الأموال وهي سبيل التعزيز والتقوية للظالمين المفسدين في الأرض - وعلى هذا لا غرابة في تقدير المنطق السليم ان تنتزع أموال هؤلاء الذين يؤذون البشر ويعتدون على الناس بقوتهم وكل طاقاتهم العقلية والمادية، وفي طليعتها المال الذي يوطئ لهم سبيل الظلم والعدوان؛ فلا غضاضة بذلك في انتزاع هذه الوسيلة إذهابا لكيد الظالمين المعتدين، وإخمادا لمكرهم أن يمس العالمين.

قوله: {فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين} أي خافوا الله بطاعة أوامره واجتناب معاصيه {وأصلحوا ذات بينكم} أي أصلحوا حال ما بينكم - أو أصلحوا ما بينكم من الحال حتى تكون حال ألفة وحبة واتفاق وليس حال ما تخاصم واستياب وتشاح - {وأطيعوا الله ورسوله} أي انتهوا أيها الذين طلبتهم الأنفال، إلى أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أفاءه عليكم؛ فقد بين الله لكم وجوه ما أفاءه عليكم وكيفية تقسيمه؛ فأطيعوا والتزموا {إن كنتم مؤمنين} أي إن كنتم مصدقين رسول الله فيما أتاكم به من عند الله؛ فسلموا لله ولرسوله فيما حكم في الأنفال.

٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

قوله: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} ذلك وصف لحقيقة المؤمن؛ فإنه يبادر بطاعة الله ورسوله ولا ينثني أو يتردد في التزام شرع الله وأحكامه سواء في الغنائم أو غيرها - والمؤمن شديد الوجل (الخوف) من الله - فإذا ذكر الله في موعظة من عقابه أو وعيده أو عظيم سلطانه وجبروته وجلت قلوب المؤمنين وانقادت لجلا الله فرقا من غضبه وعذابه.

قوله: {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا} إذا تلين آيات القرآن الحكيم بمعانيه الكبيرة، وبجرسه المؤثر النفاذ، وإيقاعه الرائع الموحي؛ ازدادت قلوب المؤمنين تصديقا على تصديق وخشية فوق خشية، وغمرت صدورهم بهجة عاطرة ندية من الانشراح والحبور والإثلاج.

قوله: {وعلى ربهم يتوكلون} وهذه صفة ظاهرة لأهل الإيمان؛ فهم على الدوام متوكلون على الله مفوضون الأمر الله - وتلك صفة المؤمن إذا اضطلع بما عليه من واجبات وأسباب فوض أمره بعد ذلك إلى ربه؛ فهم سبحانه عليه الاعتماد والتكلان.

٣ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

قوله: {الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} وهذه كذلك صفة من صفات المؤمنين الظاهرة - وهي أنهم يؤدون الصلوات المفروضة أداء تاما قويما، وينفقون مما رزقهم الله من الأموال في وجوه الطاعات والبر، كالزكاة المفروضة، وصدقات التطوع، والنفقة على ن تجب لهم النفقة، وبذل المال في وجوهه الواجبة والمسنونة؛ كالجهاد والحج والاعتمار والإنفاق على المساجد وبناء الطرق والجسور تيسيرا للمسلمين وتحقيقا لمصالحهم.

٤ - (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

قوله: {أولئك هم المؤمنون حقا} الإشارة إلى المتصفين بالصفات المتقدمة - وهو مبتدأ، وخبره {هم المؤمنون حقا} أي هؤلاء هم الكاملون إيمانا - وهم الذين استحقوا الإيمان بحق فأحقه الله لهم - نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا منهم.

قوله: {لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} هؤلاء الذين وصفه الله بصفات المؤمنين {لهم درجات عند ربهم} أي رفيع المراتب في الجنة - ولهم أيضا {مغفرة} إذ يمحو الله لهم الخطايا، ويعفو لهم عن الذنوب بالتغطية والستر، ولهم كذلك {رزق كريم} وهو ما أعده الله للمؤمنين في الجنة من هنيء العيش وطيب المقام حيث المآكل والمشارب والأمن والراحة والسكينة والطمأنينة ٣.

٥ - (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

قوله تعالى: {كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ٥ يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى

الموت وهم يظنون ٦ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلمته ويقطع دابر الكافرين ٧ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون}.
الكاف في قوله: {كما} للتشبيه، وفيها ثلاثة أوجه: الأول: أنها في موضع نصب صفة لمصدر محذوف دل عليه الكلام - وتقديره: قل الأنفال ثابتة لله والرسول ثبوتا كما أخرجك ربك.
الثاني: أنها صفة لمصدر محذوف وتقديره: يجادلونك جدلا كما أخرجك.
الثالث: أنها وصف لقوله: {حقا} وتقديره: أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ٤.
واختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: {كما أخرجك ربك} فقد قيل في معنى ذلك: إن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغاني وتخاصمتم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسم الله ورسوله فقسمها بينكم على التسوية والعدل؛ لكون ذلك هو المصلحة الكاملة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج لقتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين حرجوا لإحراز عيرهم والقتال دون أصنامهم وشركهم، فكان عاقبة كرههم للقتال أن قدره الله عليكم فجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد فكتب لكم فيه النصر والخير {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون} وقيل: معنى ذك: كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال، فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم ٥.
٦ - (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)
قوله: {يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون} جملة {يجدلونك} في محل نصب على الحال - وتفصيل المعنى: أنه لما ندب الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى العير، وفاتتهم العير، وأمرهم الله بقتال المشركين من غير استعداد ولا كثير أهبة، شق ذلك عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا له عدته؛ فهم بذلك يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم {في الحق} أي في القتال {بعد ما تبين لهم} أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر بشيء إلا بإذن الله - وقيل: بعد ما تبين لهم ان الله وعدهم إما الظفر بالعير أو بالمشركين من أهل مكة - فإذا فاتت العير فلابد بعد ذلك من لقاء أهل مكة والظفر بهم - والمراد من ذلك، الإنكار لمجادلة المسلمين - وهم في مجادلتهم هذه {كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون} أي أن هؤلاء الذين يجادلون في لقاء العدو، إذا دعوا للقائهم من أجل القتال، كأنما يساقون إلى الموت، من فرط كراهيتهم لقتالهم {وهم ينظرون} أي يشاهدون أسباب الموت ولا يشكون فيها؛ فهم يعلمون أن ذلك واقع بهم لا محالة.
٧ - (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)
قوله: {وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم} إذ متعلقة بفعل مقدر، وتقديره: واذكر يا محمد، إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنهم لكم - وإحدى الطائفتين في محل نصب مفعول به ثان للفعل يعد - والمفعول الأول الكاف والميم في قوله: {يعدكم} وأنها لكم، بدل اشتمال من إحدى ٦؛ أي اذكروا أيها القوم إذ يعدكم الله أن تظفروا بإحدى الفريقين، وهما فرقة أب سفيان والعير التي معه، وفرقة المشركين الذين نفروا من مكة لمنع عيرهم {أنها لكم} أي أن تظفروا بما فيها من غنيمة - لكنكم أنتم تودون أن تظفروا بالطائفة الضعيفة التي ليس لها شوكة؛ أي قوة او سلاح وهي طائفة العير، دون جماعة قريش الذين جاءوا لقتالكم.
قوله: {ويريد الله أن يحق الحق بكلمته ويقطع دابر الكافرين} يريد الله أن يظهر الإسلام {بكلمته} أي بأمره إياكم أن تقاتلوا الكافرين، وأنتم تريدون الغنيمة والمال {ويقطع دابر الكافرين} أي يريد الله أن يجب ٧ أصل هؤلاء المشركين جبا، فيقضي عليهم بالكلية - والدابر معناه المتأخر - وقطع الدابر يعني الإتيان على الجميع، فما يقتل الأخير من القيوم إلا بعد أن يقتل القوم جميعا.
٨ - (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

قوله: {ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون} أي ليظهر الله دين الإسلام - وذلك هو تحقيق الحق {ويبطل الباطل} أي يمحقه ويزيله ولو كره ذلك الذين أجرموا من الكفار ٨.

٩ - (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

قوله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ٩ وما جعله الله إلا بشرى ولنطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم}.

روي الإمام احمد في سبب نزول هذه الآية عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: (اللهم أنجز لي ما وعدتني - اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبدا) قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبه فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك - فأنزل الله {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين} فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ترى يا بان الخطاب) قال: قلت: والله ما أرى ما أرى أبو بكر - ولكني أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم - فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء - فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما - قال النبي صلى الله عليه وسلم: (للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة من النبي صلى الله عليه وسلم - وأنزل الله عز وجل: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقت منهم سبعون وفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعيته، وهمشت البيضة ٩ على رأسه وسال الدم على وجهه - وعن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: (اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد) فاخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) رواه النسائي عن عبد المجيد الثقفي ١٠.

وقوله: {إذ تستغيثون} بدل من (إذ) في قوله: إذ يعدكم ١١، أي يستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر {فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين} ومردفين، في موضع جر صفة لألف - وقيل: حال من ضمير ممدكم، أي استجاب الله لاستغاثتكم ودعائكم فأمدكم بألف من الملائكة متتابعين، أي فرقة بعد فرقة فيردف بعضهم بعضا ويتلو بعضهم بعضا.

١٠ - (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله: {وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله} أي لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضا وتتابعها لتصير مددا لكم في الحرب {إلا بشرى} أي بشارة لكم تبشركم بنصر الله لكم على أعدائكم وكيما تسكن قلوبكم بجيأتهم إليكم غوثا فتوقن بنصر الله.

وذلك هو شأن الإنسان - فما يدرك بحسه حتى يزداد يقينا وتثبيتا، مع اليقين الكامل والمطلق أنه {وما النصر إلا من عند الله} أي أن النصر من عند الله يكتبه لعباده المؤمنين العاملين المخلصين - وأولئك الذين يجازيهم الله بالنصر والتوفيق ما داموا صادقين مخلصين، وعلى منهج الله وحده سائرين، وعليه سبحانه معتمدين متوكلين، ومثل هذه الفئة المؤمنة الصادقة لا جرم أن يكتب الله لها النصر إذا

استوفت واجباتها من الإعداد الديني والنفسي والمادي ما استطاعت إلى ذلك سبيلا - تلك هي الفئة المؤمنة في كل زمان إذا استوفت ما عليها من الواجبات، وأدت ما في ذمتها من حقوق الله والبعاد، واستعدت للقاء العدو ما أمكنها من استعداد المادة والحس -وإن كان دون استعداد الكافرين- فإن الله جلت قدرته يكتب لهم النصر بعونه ومشيئته إنجازا لوعده القائم الدائم {وما النصر إلا من عند الله} وقوله سبحانه: {ولينصرن الله من ينصره} قوله: {إن الله عزيز حكيم} أي أن الله لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب - بل إنه عز وهلا القاهر فوق عباده، لا يهز عليه أن يقهر قاهر ولا يغلبه غالب - وهو كذلك {حكيم} أي فيما يفعل وفي تدبيره للكون والكائنات - فلا ينصر قوما أو يخذل آخرين إلا عن حكمة ١٢ يعلمها هو - ولا ينصر المؤمنين أو يصرف عنهم النصر في بعض الأحيان إلا عن إرادته الربانية وحكمته الإلهية، فهو أعلم بمن يستحق النصر أو يستوجب الهزيمة ١٣.

١١ - (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ)

قوله تعالى: {إذ يغشيكم النعاس أمنة وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ١١ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ١٢ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ١٣ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار} النعاس مفعول به ثان - أمنة منصوب على أنه مفعول لأجله ١٤.

يذكر الله المؤمنين بما أنعم به عليهم من إلقاء النعاس عليهم ليأمنوا، وليجدوا في أنفسهم الراحة والسكينة مما أصابهم من خوف لما رأوه من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فغشاهم النعاس، أي ألقوه عليهم {أمنة} ليكون لهم من الله أمانا فيرقدون ساكنين مطمئنين وقد ذهب عنهم الخوف من عدوهم - مع أنه النعاس إنما يغشى الآمن الذي لا يخاف، لكن ذلك قد حصل للمؤمنين في الليلة التي كان القتال من غدها فكان النوم في مثل هذه الساعات المخوفة الحرجة أمرا عجيبا - ولكن الله الذي سلم وكتب للمؤمنين النصر هو الذي ربط جأشهم وامتن عليهم بالصبر واشتداد العزم، فوق ما غشيهم من النعاس ليأمنوا - وفي هذا أخرج الحافظ أو يعلي عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح.

قوله: {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام} أنزل المطر على المسلمين يوم بدر ليتطهروا من حدث الجنابة أو دونها - فلما أصابهم الغيث من السماء اغتسلوا وتطهروا بعد أن كان الشيطان قد وسوس لهم بما يحزنهم أو يثير في نفوسهم القلق والتوجس، مما حاق بهم من الحرج وشدة العطاش وقلة العدد والعدة واستئثار المشركين بالماء دون المسلمين - لذلك قد ربط الله على قلوبهم بالأمن والتثبيت؛ إذ أنزل عليهم المطر من السماء ليشربوا ويتطهروا وليمحق الله من نفوسهم {رجز الشيطان} وهي وسوسته ١٥، وكذلك ليربط على قلوبهم فينشر فيها الطمأنينة والثبات.

قوله: {ويثبت به الأقدام} كان بينهم وبين عدوهم رملة لا يمشون عليها ولا تجوزها دوابهم إلا بجهد ومشقة؛ إذ كانت تسوخ فيها الأرجل والأقدام، ولما أنزل الله لهم المطر اشتدت لهم الأرض وتلبدت، فباتت صلبة متماسكة، فمشى عليها الناس والدواب من غير مشقة ولا حرج مما زادهم أمنا وتثبيتا، وأمدهم بقوة مستجدة من الصبر ورباطة الجأش وشدة العزم على ملاقاة العدو.

١٢ - (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

قوله: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} أوحي الله إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصرة نبيه ودينه والمؤمنين {أنى معكم} أي أنصركم وأؤيدكم، أو أني مع المؤمنين فانصروهم وثبتوهم - ويقويه قوله: {فثبتوا الذين آمنوا} أي اشددوا وأورهم وقووا عزائمهم

- وقيل: كثروا سوادهم - وقيل: قاتلوا منعهم المشركين - وقيل: كان الملك يسير أما الصف في صورة الرجل وهو يخاطب المسلمين قائلا لهم: سروا فإن الله ناصركم، ويظن المسلمون أنه منهم - وذكر أن بعض المسلمين سمع قائلا من الملائكة يقول: أقدم حيزوم - وهم اسن لفرس من خيل الملائكة.

قوله: {سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} أي سأملأ قلوب الكافرين فرقا ورعبا منكم حتى ينهزموا ويولوا الأدبار ويبوءوا بالتقهقر والعار.

قوله: {فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان} اختلفوا في تأويل الضرب فوق الأعناق، فقيل: معناه: اضربوا الأعناق - وقيل: فوق الأعناق يعني الرؤوس أي اضربوا الرؤوس - وقيل: اضربوا على الأعناق، لأن على وفوق متقاربات في المعنى - والصواب ضرب ذلك كله - سواء فيه الجماجم والرؤوس والأعناق مما فيه إثخان ومقتلة - والواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم.

قوله: {واضربوا منهم كل بنان} أي اضربوا منهم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم - وذلك على سبيل المبالغة في القتل والإثخان كسرا لشوكة الكفر وإذهابا لسطوة الظلم والظالمين - والبنان جمع بنانة، وهي أطراف الأصابع لليدين والرجلين ١٦.

١٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله} ذك، في موضع رفع مبتدأ - والتقدير ذلك الأمر - أو خبر مبتدأ - وتقديره: الأمر ذلك ١٧.

و {شاقوا الله ورسوله}، مجاز؛ أي شاقوا أولياء الله، ودين الله - وشاقوا، من الشقاق والمشاقة؛ أي الخلاف والعداوة - و {شاقوا الله ورسوله}، يعني فارقوا أمر اله ورسوله وعصوهما وأطاعوا أمر الشيطان - وقيل: شاقوا بمعنى جانبوا وصاروا في شق المؤمنين - والشق معناه الجانب ١٨.

والمقصود أن الأمر بضرب الكافرين فوق الأعناق وضرب كل بنان منهم إنما كان جزاء لهم بشقاقهم الله ورسوله، وهو مخالفتهم أمرهما، ومجانبتهم دينهما، واصطفافهم في شق مخالف لشقهما، وهو شق الظلم والظالمين - الشق المغاير لشق المؤمنين الصادقين.

قوله: {ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب} ذلك تهديد من الله للذين يشاقون الله ورسوله؛ أي يخالفون عن أمر الله وأمر رسوله الكريم، ويفرقون طاعتهما ليسيروا في طريق الشيطان حيث الضلال والباطل تهديد لهم من الله بشديد العقاب في الدنيا؛ إذا يستحقون فيها التقتيل لظلمهم وفسادهم، وفي الآخرة يكبكبون في النار على وجوههم داخرين مقبوحين خزايا.

١٤ - (ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

قوله: {ذالكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار} ذلكم، خبر مبتدأ مقدر، وتقديره: والأمر ذلكم - وأن للكافرين معطوف على {ذالكم} وتقديره: والأمر أن للكافرين عذاب النار ١٩ والمراد بالكلام هنا التوبيخ لهؤلاء الكافرين المشتاقين لله ورسوله؛ أي هذا هو العقاب الذي عجله الله لكم في الدنيا وضرب فوق الأعناق، وضرب لكل بنان بأيدي المؤمنين {فذوقوه} فهو العاجل لكم، غير ما أعده الله لكم من العذاب الآجل يوم القيامة ٢٠.

١٥ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ١٥ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير} الزحف، المشي - تزحف إليه أي تمشي - والتزاحف: التداني والتقارب - وقيل: الزحف معناه المشي قليلا قليلا - وأصل الزحف للصبي أن يزحف على استه قبل أن يقوم، وشبه الزحف في الحرب بزحف الصبي؛ إذ يذهب كل واحد من الطائفتين إلى صاحبتها للقتال فيمشي كل واحد منهما مشيا رويدا رويدا إلى الفئة الأخرى قبل التداني للحرب ٢١.

ذلك تحريض من الله للمؤمنين حال القتال على أن لا يفورا بل يثبتوا ويقبلوا على لقاء العدو شجعانا بواسل لا يعطفهم عن ذلك جبن ولا تخاذل ولا خور، فيقول: إذا كنتم متزاحفين بعضكم إلى بعض، وأنتم يقترب ويتداني بعضكم من بعض للقاء في ساحة القتال

فحذار أن تولوهم ظهورهم فتولوا منهزمين - بل اثبتوا فإن الله معكم، يثبتكم تثبيتا، وينصركم عليهم - وعلى هذا فإن الفرار يوم الزحف من غير سبب مشروع كبيرة من الكبائر التي وقع عليها التغليظ والنكير من الله ورسوله؛ فقد روي البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجتنبوا السبع الموبقات) قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتوالي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات).

واختلف العلماء هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر، أم هو عام في كل الزحزف إلى يوم القيامة؟ فقد قيل: إن ذلك مخصوص بأهل بدر؛ فلم يكن لهم أن يفروا؛ إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم - وفي هذا القول نظر، وهو ضعيف؛ فقد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج، ولم يكونوا يرون أن يكون قتال بل ظنوا أنها العير فقط - وقالوا: إن حكم الآية هنا منسوخ بآية الضعف وسيأتي بيانها فيما بعد إن شاء الله - وبقي حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم.

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية باقية إلى يوم القيامة؛ فهي بذلك محكمة غير منسوخة بشرط الضعف الذي بينه الله في آية أخرى وهي {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين} أما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من مثليهم - فإن كان العدو أكثر من مثلي المسلمين جاز لهم الفرار ما لم يبلغ عددهم اثني عشر ألفا - فإن بلغ اثني عشر ألفا لم يحل لهم الفرار، وإن زاد عدد المشركين على مثليهم - وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة) وبذلك فإن الصواب تحريم الفرار يوم الزحف في كل الأزمان على ما بيناه أنفا - فإن الفرار لا يجترئ عليه إلا الخائرون الخاسرون الذين يؤثرون أنفسهم على الإسلام والمسلمين والذين يرضون لأنفسهم الدنية، والاستخذاء ليكونوا مع الجبناء والرعناء وهم يأخذون في التسلل أو الهروب في خسة ومهانة فينجون بأنفسهم وحدهم تاركين إخوانهم المسلمين من خلفهم يقاتلون وحدهم العدو المتربص الظالم.

١٦ - (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله: {ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة} التحرف للقتال هو الكر بعد الفر؛ إذ يخيل المتحرف لعدوه أنه منهزم ثم يباغته الهجوم - وهذا من باب الخداع والمكايدة في الحرب، فالحرب خدعة، أو هو التحرف من جانب إلى جانب في المعركة طلبا لمكابد الحرب وخداعا للعدو.

أما المتحيز؛ فهم من التحيز، ومعناه التنحي - فالمتنحي عن جانب ينفصل عنه ويميل إلى غيره - فالمتحيز إلى فئة هو الذي يفر من هنا حيث لقاء العدو إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه - أو هو المتحيز إلى فئة (جماعة) من المسلمين غير الجماعة التي في مواجهة العدو.

وجملة القول: أن الفرار أو الانهزام من مواجهة العدو يوم الزحف حرام إلا في حالتين: الحالة الأولى: أن يكون {متحرفا لقتال} - وهو أن يتخيل إلى عدوه أنه منهزم ثم ينعطف (ينثني) عليه على سبيل الخدع والمكايدة.

الحالة الثانية: أن يكون {متحيزا إلى فئة} وقلنا: التحيز بمعنى التنحي عن جانب إلى آخر حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الأمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

وفي هذا الصدد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: كنت في سرية من سرايا رسول صلى الله عليه وسلم فحاص ٢٢ الناس حيصة فكنت فين حاص فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قال: لو دخلنا المدينة ثم بينا - ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا - فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: (من القوم؟) فقلنا: نحن الفرارون - فقال: لا بل أنتم العكارون، أنا فئتكم وأنا فئة للمسلمين) فأتيناه حتى قبلنا يده، ومعنى قوله: (العكارون) أي العطافون.

وكذلك قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في أبي عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس - فقال عمر: لو تحيز إلي لكنت له فئة.

وعلى هذا إذا كان الفرار عن غير سبب من هذه الأسباب فإنه حرام - بل إنه كبيرة من الكبائر - ولهذا قال سبحانه في حق الفار من غير سبب: {فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم} أي فقد رجع بغضب من الله، ومأواه ومنقلبه الذي يصير إليه يوم معاده هو جهنم {وبئس المصير} أي بئس الموضع والمآل الذي يؤول إليه يوم القيامة ٢٣.

١٧ - (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ١٧ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين} أي لم تهزموا قريشا هذه الهزيمة المشهودة ولم يقتلوا صناديدهم بحولكم وقوتكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، بل الله أظفركم عليهم ومكنكم منهم، {وما النصر إلا من عند الله} فهو سبحانه يكتب النصر لمن يشاء من عباده - وقيل: إن الله قتلهم بالملائكة الذين أمد بهم المسلمين - أما قوله: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي} فقد اختلف العلماء في المراد بالرمي على عدة أقوال:

منها: أن هذا كان يوم أحد حين رمي أبي بن خلف بالحربة في عنقه فكر أبي منهزما، فقال له المشركون: والله ما بك من بأس - فقال: والله لو بصق علي -يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم- لقتلني، أليس قد قال: بل أنا أقتله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوعد أبي بن خلف في مكة بالقتل - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل أنا أقتلك) فمات عدو الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرجعه إلى مكة بموضع يقال له (سرف) - وقد ذكر عن ابن شهاب أنهل ما كان يوم أحد أقبل أبي مقنعا في الحديد على فرسه يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله، فاعترض له رجال من المؤمنين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلوا طريقه فاستقبله مصعب ابن عمير يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل مصعب بن عمير وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة البيضة والدرع فطعنه بحربته فوقع أبي عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم، وفي ذلك نزل قوله: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} لكن الصواب نزل الآية عقيب بدر وليس في أحد.

ومنها: أن هذا كان يوم بدر، فقد روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه يوم بدر فقال: (يا رب إن تهلك هذه العصابة فلت تعبد في الأرض أبدا) فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين - وذكر أنه لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بالقبضة من التراب وقال: (شاهت الوجوه) ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله - ولهذا قال: وما رميت إذ رميت ولاكن الله رمى} أي أن الله هو الذي أوصل ذلك إليهم فأذلهم وأخزاهم به وليس أنتم وما تملكونه من العدة والعتاد.

ومنها: أن ذلك كان في حصب (حصى) رماه رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه المشركين يوم حنين، ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه من ذلك.

ومنها: أن المراد هم السهم الذي رمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه - وهذا أيضا بعيد والصحيح أن الآية كانت يوم بدر، لأن السورة بدرية، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للرسول صلى الله عليه وسلم: (خذ قبضة من التراب) فاخذ من التراب فرمى بها وجوه المشركين - وهو ما بيناه في القول الثاني ٢٤.

قوله: {وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم} وليبلي من البلاء، وهو هنا بمعنى النعمة - لا جرم أن النعمة من أشد ما يبتلي

به الإنسان فيعلم أن سيشكر أن يكفر، أي لينعم الله على المؤمنين ورسوله الكريم بالظفر فينصرهم عليهم نصرا ظاهرا عزيزا {إن الله سميع عليم} أي أن الله سميع لدعاء نبيه صلى الله عليه وسلم، إذ يناشد ربه ويدعوه في تضرع وتذلل أن يعلك عدوه وعدوهم - وهو سبحانه عليم بما فيه صلاحهم وبما تستقيم عليه أحوالهم، فهو سبحانه محيط علمه بكل شيء.

١٨ - (ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

قوله: {ذالكم وأن الله موهن كيد الكافرين} الإشارة في قوله: {ذلكم} إلى قتل المشركين وانهزامهم، وإلى ابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم والانتصار عليهم - ومع ذلك كله اعلموا أيها الناس أن الله {موهن} أي مضعف مكر الكافرين ليرتد مكرهم وخبثهم إلى نحورهم فيذلوا إذلالا.

١٩ - (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين} ذكر أن المستفتح أبو جهل، فقد قال حين التقى بالقوم يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لم نعرف فأحنه ٢٥ الغداة وكان استفتاحا منه - فنزلت {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح} ٢٦.

وقيل: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصر الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فقال الله: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}.

٢٠ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ٢٠ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ٢١ *إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ٢٢ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} هذا الخطاب للمؤمنين، إذ أمرهم الله بطاعته وطاعة رسوله الكريم فيما أمرهم به وما نهاهم عن التوالي عنه وهو الإعراض عنه - وكذلك عليهم أن يلتزموا طاعة نبيهم دو مخالفة أو إدبار {وأنتم تسمعون} أي تسمعون الآيات البينات وما يتندى فيها من ظواهر الإعجاز المثير، وتسمعون ما يصدر عن نبيكم من أوامر ونواه وحجج.

٢١ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

قوله: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون} المراد بهم المنافقون أو المشوكون أو اليهود، أو جمع هؤلاء، فإنهم يسمعون بآذانهم ولا يفضي السماع إلى قلوبهم، فلم يتعظوا بما سمعوا ولم يدكروا، فكأنهم لم يسمعوا البتة، فهم والذين لم يسمعوا البينات والحقائق سواء - والأصل في أولي الفطر السليمة والطبائع التي لم تفسدها أفاعيل الشياطين من الجن والإنس أن يبادروا فيستجيبوا لكلمات الله - الكلمات الباهرات العذاب، ذلت الروعة الجلية النفاذة إلى أعماق الكينونة والقلوب - لكنهم لما لم يستجيبوا إلى كلمات الله الندية البالغة، استبان أنهم قوم (بور) لا خير فيهم ولا جدوى من وعظهم أو سماعهم فكأنهم لم يسمعوا بحال.

٢٢ - (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

قوله: {إن شر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون} الدواب، جمع دابة وهي ما دب على الأرض - وكل حيوان في الأرض دابة - وهي تطلق على الذكر والأنثى ٢٧ والصم جمع أصم، وهو من الصمم - وهو آفة في الأذن تحول دون السمع - والبكم جمع أبكم وهو الأخرس بين البكم ٢٨، فقد سبه الله هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ويغمضون أعينهم عن آيات الله وما فيها من الدلائل والبينات ثم لم يؤمنوا ولم يتعظوا -بالدواب، وهي البهائم التي تمشي على الأرض بدبيبها الثقيل الذي ينبئ بحيوانيتها وانتفاء فهما وإدراكها.

هؤلاء الظالمون المظلون الذين استكبروا عن آيات الله ومنهجه، لهم أكبر شرا في الأرض مما سواهم من الدواب العجماوات، لأنهم

صم وبكم لا يسمعون الحق ولا يتدبرونه ولا يتعظون به فهم بذلك كالأنعام بل هم أضل.

٢٣ - (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

قوله: {ولو علم الله فلهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} ذلك إخبار من الله أن هؤلاء الظالمين المضلين لا خير فيهم، فإنهم الختم الذي غشي قلوبهم صاروا غير مستعدين لاستقبال الحق والهداية والاستماع لآيات الله في تدبر وادكار - ولو كان الله يعلم أنهم يصلحون بما يأتيهم من الحجج والآيات لأسمعهم سماع تفهم وقبول - ولو أن الله أسمعهم ما انتفعوا بما سهوا - وهو قوله: {لتولوا وهم معرضون} أي لأدبروا معاندين جاحدين مستكبرين عن الحق بهد ما ظهر لهم واضحا بلجا - وقيل: كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: احي لنا قصيا، فإنه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك - فقال له هز وجل: {ولو أسمعهم} أي كلام قصي {لتولوا وهم معرضون} ٢٩.

٢٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون}.

ذلك نداء كريم ومؤثر من الله رب العالمين للناس أن يستجيبوا لله ولرسوله الأمين - واستجابتهم تعني امتثالهم لأوامر الله وطاعته والمبادرة إلى طاعة الرسول الكريم إذا دعاهم لما يحييهم؛ أي ينشر فيهم الحياة الكريمة الهانئة الفضلى - وذلك بالقرآن الذي جاء يحمل للبشرية خير الدنيا والآخرة - القرآن الكلام الرباني المعجز الذي حوى في كلماته وعباراته كل معاني الخير والصلاح، وكل أسباب النجاة التي تفضي بالبشرية إلى الأمن والاستقرار والسلامة في هذه الدنيا، وإلى الفوز بالجنة، والمنجاة من النار يوم القيامة - لا جرم أن القرآن والإسلام هما الملاذ الوحيد للبشرية في كل مكان وزمان كيما تأمن من البلايا والقواصم والويلات في الدار الآخرة التي تتهاوى فيها جسوم الكافرين والظالمين والجاحدين وأبدانهم في قلب الجحيم التي تتهاوى فيما جسون الكافرين والظالمين والجاحدين وأبدانهم في قلب الجحيم لتذوق وبال أمرها من التنكيل والهوان، فضلا عن الشرور والكوارث النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تتجرعها هذه البشرية في حياتها الدنيا ما دامت عاتية عن ذكر الله متمردة على منهجه الحكيم القويم - وبذلك فإن القرآن والإسلام حياة للناس - حياة أيما حياة - حياة راغدة كريمة فضلى تجد فيها البشرية أمنها وسعادتها واستقامتها، وهي تمضي على طريق الله سالمة آمنة مجانبة لكل ظواهر الضلال والباطل كالشرور والمفاسد والأوضار التي ما زالت تتجرع مرارتها الخليقة في هذه الدنيا لعتوها وإدبارها عن منهج الله والاستعاضة عنه بقوانين البشر - قوانين الشرك والإفك والباطل.

قوله: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} وهذه الآية تحمل عدة وجوه، منها: أن الله يفرق بين المرء وقلبه بالموت فلا يمكنه بعد ذلك أن يستدرك ما فات - والمراد المبادرة بالتوبة من المعاصي والذنوب قبل فوات الأوان بالموت.

ومنها: أن الله يبدل قلب الإنسان من حال إلى حال - وقد سمي قلب الإنسان بهذا الاسم لتقلبه؛ فهو بذلك قلب - أي يتقلب من حال إلى حال - والله جل وعلا مقلب القلوب من حال الأمن إلى حال الخوف، ومن حال الخوف إلى حال الأمن - وقيل: لما خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو أعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه - بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا وشجاعة، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا ورعبا - وقيل غير ذلك.

قوله: {وأنه إليه تحشرون} وذلك تخويف للبشرية كلها يستوي فيها المؤمنون والكافرون - وذلك أن الله جامع الناس يوم القيامة فمجازيهم على أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

وفي التعبير بالحشر ما يثير في النفس الخوف من ذلك اللقاء الجامع الحاشد ليعادوا المرء مع نفسه الحساب فيتعظ ويزدجر ٣٠.

٢٥ - (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب} المراد بالفتنة هنا البلية - وقيل: الهرج؛ وهو الاختلاط والقتل ٣١، وقيل: الضلالة أو عدم إنكار المنكر، أو التلهي بالأموال والأولاد - وقيل: الفتنة، ظهور البدع - وقيل: افتراق

الكلمة، وأن يختلف الناس اختلافا كبيرا فيخالف يعضهم بعضا - وقيل مجموع ذلك كله - وهذا الخطاب ظاهره العموم باتقاء الفتنة وهو مجانبتها والحذر منها على اختلاف معانيها وصورها، فإنها إذا نزلت لا تختص بالظالم وحده ولكنها تعم الصالح والطالح - وقد ذكر عن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب - فقد جاء في البخاري والترمذي أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم اله بعذاب من عنده - وفي مسلم من حديث زينب بنت جحش: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث) والخبث، بفتحتين، معناه النجس - والمراد به هنا كثرة الذنوب ٣٢ روي أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به) وفي الخبر: (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه - فإذا فعلوا ذلك عذاب الله العالمة والخاصة).

وقال المفسرون: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعناه: تقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم - وقال السحن البصير: نزلت الآية في علي وعمار وطلحة والزبير (رضي الله عنهم) - قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أردنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، يعني ما كان يوم الجمل - وقال السدي ومقاتل الضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل.

قوله: واعلموا أن الله شديد العقاب} ذلك تهديد للذين لا يتقون الله، لا في أنفسهم ولا في دينهم ولا في المسلمين، فهم يهلكون أنفسهم بإيقاعها في المعاصي والآثام، إذ لا يأتمرون بأوامر الله، فلا يأمرون الناس بالمعروف ولا يعظونهم أو ينبهونهم، ولا يرغبونهم في دين الله وفعل الخيرات، ولا ينهونهم عن المنكر، ولا يحذرونهم منه تحذيرا، ولا يبصرونهم بعواقبه البئيسة الوخيمة - وكذلك لا يتقون الله في المسلمين، إذ يثيرون بينهم الاختلافات ويفتعلون بينهم المشكلات والقضايا من غير داع ولا جدوى إلا العبث وفساد القصد والفتنة وإشاعة الهرج والفوضى - وفي ذلك من خبيث المقاصد وسوء النوايا وفظاعة الأفعال المريبة الشريرة ما يستوجب أن يحيق العذاب الشديد من الله بأولئك الذين لا يرعون للإسلام والمسلمين أيما اعتبار أو اهتمام إلا الرغبة في الكيد والتدمير - أولئك الذين لا يبتغون ولا يرومون في الحياة إلا قضاء حاجاتهم ومصالحهم وشهواتهم وأهوائهم الذاتية بأي سبيل أو أسلوب.

٢٦ - (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون} ذلك خطاب للمؤمنين المهاجرين - فالله يذكرهم، إذ كانوا قلة مستضعفين في مكة ف ابتداء الإسلام، وكانوا مقهورين أذلة، والدنيا من حولهم تموج بالظلم والكفر {تخافون أن يتخطفكم الناس} التخطف، معناه الانتزاع والأخذ بسرعة - وذلك تصوير كاشف أبلج لحال المسلمين في مكة، إذ كانوا في غاية القلة والذلة والخوف، والمشركون من حولهم يتربصون بهم تربصا، ويوشك أن يميلوا عليهم ميلة واحدة فيبددوهم أو يستأصلوهم - لكن الله سلم فصان المسلمين ورعاهم، ورد عنهم سطوة الكافرين الظالمين وكيدهم - وهو قوله: {فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات} فقد جعل الله لكم مأوى آمنا حريزا تثوبون إليه وتسكنون فيه هي المدينة {وأيدكم بنصره} أي قواكم بالنصر الذي كتبه لكم في بدر - وأحل كم الغنائم المستفادة من الكافرين الظالمين الذين لا يستحقون المال - بل يجب تجريدهم من المال إلا ما يسد خلتهم (حاجتهم) - وما فوق حاجتهم من أموال طائلة كاثرة إنما يستعملونه في الإفساد والكيد والخيانة والدسائس وإشاعة الشرور والرذائل والفوضى في الأرض.

إن هؤلاء الضالين الذين يعيثون في الدنيا الخراب والفساد والفتن أحرى أن لا يملكوا المال فيتمكنوا به من الإيذاء والتخريب وافتعال المكائد والمؤامرات بين الشعوب والأمم - إن من دواعي المنطق أن تصان هذه الأموال بأيدي المؤمنين السائرين على منهج الله الحق،

ومنهج الإسلام، فهم المؤتمنون على البشرية في صونها ورعايتها وتكريمها وإشاعة الرحمة والحق فيها - لا جرم أن الإسلام والمسلمين أحرص من في الدنيا طرا على الرحمة بالخليقة، وعلى دفع الأذى والشر عنها لتعيش آمنة سالمة مطمئنة.

فلا ينبغي في ضوء هذا التصور السليم أن تضل الأموال بأيدي الأشرار من البشر، أولئك الضالعون في الظلم والرجس والتخريب - بل ينبغي أن تنتزع منهم هذه الأموال انتزاعا لتصان في أيدي المؤمنين الحقيقيين المؤتمنين على البشرية في أموالها وكراماتها وأوطانها وأديانها.

٢٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون} نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي أنه الذبح - ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه - وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كاد يخر مغشيا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه وأردوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسوله الله صلى الله عليه وسلم بيده: فحله - فقال يا رسول الله: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة - فقال: (يجزيك الثلث أن تصدق به) ٣٣.

على أن الأمانة تعم كل وجوه الواجبات وما يناط بالمؤمن أن يفعله سواء في ذلك الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من ضروب الطاعات والعبادات، قال ابن عباس في الأمانة: هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله والأعمال التي ائتمن عليها العباد - وذلك يتضمن بعمومه كل ما لزم الإنسان أداؤه، من صون لمال، وأداء لدين، وبذل لزكاة، ورعاية لوطن، ورعي لزوجة وولد، وإنجاز لوجيبة أو أعمال، في غير ما غش ولا تهاون ولا انتقاص - كل ذلك أمانات تناط بالمرء كيما يؤديها على خير أداء ويرعاها تمام الرعاية - وإذا لم يكن على هذه الحال من تمام الأداء وكامل الرعاية كان من المفرطين الذين خانوا الله ورسوله وخانوا أماناتهم.

قوله: {وأنتم تعلمون} أي تعلمون أنها أمانة، أو تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة ٣٤.

٢٨ - (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: {واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم} الفتنة هي المحنة والاختبار والإثم والعذاب - والمراد أن سبب الوقوع في ذلك كله ما ذكر في الآية من الأموال والأولاد - وقد قيل: هذا في أبي لبابة؛ لأن أمواله وأولاده كانوا في بني قريظة، فقال ما قاله لهم خوفا على أمواله وأولاده، فكانوا سببا في وقوعه في الفتنة وهي الإثم والعذاب أو البلاء والمحنة - وقيل: الآية تعم كل من يفتنون بالأموال والأولاد من الناس، وقد روي عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن النبي صلى الله عليه وسلم أي بصبي فقبله وقال: (أما إنهم مبخلة مجبنة، وإنهم لمن ريحان الله عز وجل).

وفي الآية تحذير بالغ من الله بعباده من فتنة المال والولد، فإن هذين الصنفين يأتيان في الأوج من زهرة هذه الدنيا - وهما تهواهما الطبائع وتمي إليهما النفوس ميلا عظيما، فهما رأس الافتتان، وأول ما تفتر أمامهما الهمم والعزائم نتضاءل إزاءهما الإرادات والطاقات - بل إنهما طريق الغواية التي تؤز الأعصاب وتستهوي القلوب فتجنح للاستزادة من المال وإيثار الولد على غيره.

إن في الآية هذه تحذيرا ينتبه به المؤمن الحريص كيلا يضل أو يزل أو يفتتن فيبوء بالسقوط في زمرة الخاسرين والهالكين - وللمرء في استعصامه واستمساكه دون السقوط في الفتنة عرض من الله كبير.

وشتان شتان ما بين فتنة الدنيا من مال وولد، وعطاء الله الكريم الذي جعله الله عوضا لمؤمنين المخبتين الصابرين على البلاء والمحن، الناجين من حبائل ٣٥ الشيطان والفتن - وهو قوله سبحانه: {وأن الله عنده اجر عظيم} ٣٦.

٢٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم}.

يخاطب الله عباده المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله، مبينا لهم أنهم إن اتقوا الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وترك خيانته وخيانة رسوله وخيانة الأمانات؛ فإنه سبحانه يجعل لهم {فرقانا} أي مخرجا من كل سوء ومكروه - أو مما يحيق بهم من الرزايا والنوائب والمصائب، كقوله تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ٢ يزقه من حيث لا يحتسب؛ وقيل: المراد بالفرقان، النجاة - وقيل: الفصل بين الحق والباطل.

قوله: {ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم} أي أن الله يمحو عنكم ما سلف من الذنوب والمعاصي فيغطيها ويسترها عليكم سترا فلا يحاسبكم بها، وهو سبحانه المتفضل على عباده بمننه الكثيرة عليهم - قوله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوا أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}.

روي في سبب نزول هذه الآية أن أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يأمر به قومك؟ قال: (يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني) فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: (ربي) قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيرا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي خيرا) فنزلت: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك} الآية.

وعن ابن عباس أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل - فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح - قالوا: أجل ادخل - فدخل معهم، فقال: انظر في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن ان يؤاتيكم في أموالكم بأمره - فقال قائل: احسبوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة - إنما هو كأحدهم، فصرخ عدو الله الشيخ النجدي - فقال: والله ما هذا لكم رأي - والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم - قالوا: فانظروا في غير هذا - فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه؛ فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه، واسترحتم وكان أمره في غيركم - فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي - ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه - والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم - قالوا: صدق والله - فانظروا رأيا غير هذا - فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره - قالوا: وما هو؟ قال؟ نأخذ من كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهدا ٣٧ ثم يعطي كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها - فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه - فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي - القول ما قال الفتى، لا أرى غيره، فترقوا على ذلك وهم مجمعون له - قال: فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل عليه بعد قدومه المدينة، الأنفال {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} ٣٨.

٣٠ - (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

قوله: {وإذ يمكر بك الذين كفروا} من المكر، وهو الخداع، وأن تصرف غيرك عن مقصده بحيلة ٣٩، أو هو التدبير في الأمر خفية - والمراد به هما: التدبير وإخفاء المكائد - والمكر من الله هو مجازاتهم بما يستحقونه من العذاب في مقابلة مكرهم وتمالئهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى دينه وعى المسلمين.

وقوله: {ليثبتوك} أي ليحبسوك أو يسجنوك - وقيل: ليوثقوك أو ليشدوك وثاقا.

قوله: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} أي ان المشركين يخفون المكايد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدينه وللمسلمين، وهم لا ينثنون في كل آن عن التمالؤ عليهم لإبادتهم واستئصالهم إن استطاعوا - وذلك هو ديدن الكافرين من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، لم يبرح طبائعهم المريضة الكيد للإسلام وأهله؛ فإنهم إنما يكرهون في الحياة الإسلام والمسلمين أيما كراهية؛ فهم بذلك يتربصون هم

الإذلال والنوازل، ويجهدون بغير انقطاع أن يفتي الإسلام من الدنيا فناء، وأن يبدد المسلمون في الأرض تبديدا - لكن الله العلي القدير يمكر بهؤلاء الظالمين المجرمين؛ إذ يخفي لهم ما أعداه من العذاب البلايا وسوء المصير - وهو سبحانه {خير الماكرين} أي أن مكره أشد نفاذا وأعظم تأثيرا من مكر العباد، ويضاف إلى ذلك أن مكر الله لا يكون إلا بالحق والعدل ولا يصيب إلا من كان مستحقا للجزاء.

٣١ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: {وإذ تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ٣١ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ٣٢ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} نزلت في النضر بن الحارث، كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار - ولما قدم وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس، جلس فيه النظر فحدثهم من أخبار أولئك - ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصا أنا أو محمد؟! ٤٠.

والأساطير، جمع أسطر وسطور وأسطار - والأساطير جمع الجمع؛ لأن مفرد الأسطر والسطور: سطر - وقيل: مفرد الأساطير، الأسطورة - والمعنى الأحاديث لا نظام لها، جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأسطور ٤١ وكذلك قال الكافرون الضالون - فقد {قالوا قد سمعنا} أي سمعنا ما نتلوه علينا يا محمد - قولون ذلك، مستكبرين معاندين غير عابئين - وقالوا أيضا: {لو نشاء لقلنا مثل هذا} وذلك عند ظالم وتبجح لئيم وإفراط في التخريص والادعاء المغالي؛ فهم موقنون من أنفسهم أنهم عاجزون عن محاكاة القرآن - وقالوا كذلك: {إن هذا إلا أساطير الأولين} أي أن هذا القرآن ما هو ما سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم فهو بذلك من البشر وليس من طريق الوحي - ذلك هو زعم الأفاكين الخراصين من الناس - لا جرم أن ذلك عناد وباطل تجتره حناجر المكابرين الخراصين من أعداء الله ودينه - أولئك الذين أبوا إلا الاستكبار والجحود من غير تبصر ولا روية ولا منطق سليم إلا الرغبة الرعناء في امتطاء الحماقة والشطط لمحاكاة الكتاب الكريم المعجز - مع أنهم كابروا معاندين وهم يلهثون لمضاهاة القرآن واصطناع بعض عبارات من مثله فأنكصهم العجز والقصور وأجاءهم الفشل إلى هاوية الخزي والانتكاس لا يلوون على غير الهزيمة التامة والخور الفاضح.

٣٢ - (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} الحق، منصوب، على أنه خبر كان - ومبتدأه الضمير (هو) ٤٢ والقائل ذلك أبو جهل - وقيل: النضر بن الحارث، قال ذلك اجتراء وعنادا وعلى سبيل الجحود والتهكم - يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا يا ربنا على إنكاره بإمطارنا بحجارة السجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب غيره أليم.

٣٣ - (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

قوله: {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم} اللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيب المشركين وأنت مقيم بين أظهرهم غير مستقيم - قال ابن عباس في هذا الصدد: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون ويلحقوا بحيث أمروا - وأيضا {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} والاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهر المشركين؛ أي وما كان الله معذب المشركين وفيهم من يستغفره من المسلمين - فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره ٤٣.

وقيل: الاستغفار راجع إلى المشركين؛ أي وما كان الله معذبهم وهؤلاء المشركون يستغفرون ربهم، يقولون: يا رب غفرانك.

٣٤ - (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون

٣٤ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} أي: وما يمنع هؤلاء المشركين من أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرونه من كفرهم، ويصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام - فهم مستحقون من كفرهم، ويصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام - فهم مستحقون للعذاب بما ارتكبوه من القبائح والموبقات.

قوله: {وما كانوا أولياءه إلا المتقون} أي كيف لا يعذب الله هؤلاء الظالمين الذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عام الحديبية وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت فنصد من نشاء وندخل من نشاء {وما كانوا أولياءه} أي أن هؤلاء المشركون الظالمين ليسوا هم أهل المسجد الحرام ولا يستحقون أن يكونوا ولاة أمره وأربابه {إن أولياءه إلا المتقون} أي ليس أولياءه وأهل غير النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذين يتقون الله والذين هم على جادة الصواب - فهم مجانبون للضلال والظلم والباطل، مستمسكون بالحق والعدل - أما الكفرة الظالمون، فإنهم غير مؤتمنين على صوت بيوت الله أو رعايتها وولاية شؤونها - كما قال سبحانه: {وما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر} وكيف وا لهفي والمسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين أسير يهود، إذ أطبقوا عليه إطباقا فحالوا بينه وبين المسلمين أن يدخلوه أو يصلوا فيه - سبحانك اللهم إن هذا لهو الجور المبين والظلم الفادح العظيم.

قوله: {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أي أن أكثر هؤلاء الضالين الخاطئين ضالعون في الجهالة والعمه، فلا يعلمون الحق ولا يفقهون على الصواب، ولا يمضون على جادة الصراط - وذلك هو شأن البشرية في غالب أزمانها وأحوالها وشعوبها، فإن الأكثرين من الناس قد غشيت بصائرهم العماية والتضليل والوهم، فلم يهتدوا سبيلا - وأسباب ذلك متعددة، وفي طليعة ذلك إغراء الشياطين من الإنس الذين يضلون الناس والذين يزينون لهمن مجانبة الحق والهداية والتزام الطاعات، وكذلك يزينون لهم فعل المحظورات جريا وراء الملذات والشهوات.

٣٥ - (وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

قوله: {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} المكاء: الصفير - مكا يمكو مكوا ومكاء، أي صفر بفيه ٤٤ - أما التصدية: فهي التصفيق - يقال: صدى يصدي تصدية، إذا صفق بيديه ٤٥ - فقد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون، وهم يظنون سفها أن ذلك عبادة - وقيل: كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا به على الرسول صلاته - أو على سبيل الاستهزاء بالمؤمنين ٤٦ - وفي ذلك رد على الصوفيين الذين يرقصون ويصفقون وهم يتغشاهم الغثيان وفقدان الوعي لفرط ما يمسهم من هوس - لا جرم أن ذلك منكر وجهالة تبرأ منهما ملة الإسلام - هذا الدين البين الحنيف الذي بني على التوحيد والعلم وفطانة العقل ونباهته والذي يحول بين أهله وبين الخدر والغثيان وهوسات العقل.

قوله: {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} أي ذوقوا إيلامه بالحس بسبب جحودكم وعصيانكم - والمراد بالعذاب هنا: ما توعدهم به من القتل والأسر والإذلال في بدر ٤٧.

٣٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

قوله تعالى: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ٣٦ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون}.

ذلك نذير من الله للكافرين الذين يجمعون الأموال الطائلة الكاثرة لإنفاقها في سبيل الشيطان من اجل الصد عن دين الله، ولحمل الناس على الشرود والنفور من دعوة الحق - إن ذلك لهو ديدن الكافرين في كل زمان - أولئك الحاقدون الماكرون المتربون الذين دأبهم الخيانة والتآمر في الظلام، فهم قليلا ما يهجعون أو يغفلون عن الكيد للإسلام وأهله - لقد شغلهم الحقد وكراهيتهم لهذا الدين العظيم - ومن أجل ذلك فقد تنادوا لجمع أموالهم كيما تصرف في وجوه الشر والعدوان والتنكيل بالمسلمين وإبادة الإسلام كله لكي يستحيل إلى أثر بعد عين.

ذلك هو شأن الكافرين في كل زمان، فهم في عهد النبوة، من الطور الأول من أطوار الإسلام قد تنادوا لجمع أموالهم كيما تنفق فيما يتهدد الإسلام والمسلمين بالإبادة والزوال - ثم ما لبث الكافرون والظالمون المتربصون -على مر الزمن- يتواصون فيما بينهم على ضرب الإسلام وتدميره واستئصاله أو إضعافه وتشويهه والتحريض على كراهيته ومجانبته البتة - وهم في ذلك ينفقون المقادير الهائلة من الأموال لتحقيق هذه الغاية الخبيثة الظالمة.

وفي زمننا العجيب هذا، زماننا المحفل بالويلات والملمات والنكبات والخيانات تلتئم قوى الشر والباطل والعدوان من مختلف الملل والمذاهب والنحل وهي تأتمر بالإسلام لنسفه من القواعد نسفا، أو لتحويله إلى دين ممزق مصطنع أشتات من المواعظ الفاترة الباهتة، ويأمرون بالمسلمين لإضعافهم وتمزيقهم وكسر شوكتهم ليكونوا أشباحا من الأناسي المتهافت المضطرب - الأناسي الذين ينسلخون عن دينهم انسلاخا ليرضوا بدلا منه بالتبعية للطغاة والظالمين - التبعية في كل مناحي الفكر والثقافة والتصور والسلوك للمتربصين الماكرين من استعماريين وصليبيين ووثنيين وملحدين وماسونيين وصهيونيين وغيرهم - أولئك الذين ما فتئوا على الدوام ينفقون الأموال الكبيرة من أجل هذه الغاية.

قوله: {فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون} أي سيقع منهم هذا الإنفاق ثم تكون عاقبة إنفاقهم حسرة عليهم؛ أي ندامة لما بذلوه من جهود مضنية - وما قدموه من أموال كاثرة لا تحصى - ثم بعد ذلك كله لسوف تبوء أساليبهم وخططهم بالخزي والفشل - وذلك على الرغم مما يصيب المسلمين في كثير من الأحيان من تقهقر وما يصيب الإسلام كذلك من انحسار وتشويه وإساءة - لكن كل هذه الحيل والمؤامرات لسوف تفضي إلى التبدد والانكشاف والاضمحلال بعد أن يأذن الله بالنصر لعباده المؤمنين الصابرين - وحينئذ يفرح المؤمنون بنصر اله ورحمته وتوفيقه، ويرتد سهم التآمر والخيانة إلى نحور المجرمين الظالمين فيبؤوا بالهزيمة والخذلان والعار.

قوله: {والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} هذه عاقبة الكافرين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، فيبيتون لهم المؤامرات والخيانات والمكائد والدسائس من اجل إضعافهم أو القضاء عليهم، فعاقبتهم الخسران والخزي والبوار، سواء في هذه الدنيا التي تكتب الله فيه النصر للمؤمنين المخلصين، أو في الآخرة؛ إذ يحشر هؤلاء المجرمون إلى جهنم وبئس المصير.

٣٧ - (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله: {ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم} هؤلاء المجرمون الخبيثون الذين ينفقون أموالهم للصد عن دين الله وإضعاف المؤمنين، يحشرهم الله يوم القيامة ليفرق بينهم وبين المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله ورسالاته وكتبه وأنبيائه - يفرق الله بين الصنفين تفريقا مميزا فيسكن المؤمنين الجنة - أما المجرمون الخائنون فينزلهم النار؛ إذ يجعل بعضهم فوق بعض {فيركمه جميعا} أي يجعلهم ركاما كأنما هم كثبان مركوم من الحجارة والتراب المتراكم بعضه فوق بعض - وفي ذلك بيان واضح ومستفيض لحال الكافرين المجرمين الضالعين في العدوان على المسلمين، وهم يتكبكبون في جهنم فيركم بعضهم فوق بعض زيادة في المهانة والزراية والتحقير - لا جرم أن هؤلاء الذين كادوا للإسلام والمسلمين، والذين بذلوا الأموال الهائلة في وجوه الظلم والباطل والتآمر على دين الله في كل مكان، هم الذين خسروا أنفسهم فباءوا بالخزي وسوء المصير - وهو قوله سبحانه: {أولئك هم الخاسرون} ٤٨.

٣٨ - (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين} ذلك تكليف من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ الكافرون هذا المعنى سواء بهذه العبارة أو غيرها، وهو أنهم إن كفوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه والمسلمين، وعن قتالهم وإيذائهم واليد لهم فيدخلوا في دين الإسلام {يغفر لهم ما قد سلف} أي يغفر الله لهم ما سبق أن فعلوه من الكفر والمعاصي - وفي هذا ما يدل على أن الإسلام، يجب ما كان قلبه من الكفر والخطايا والذنوب جميعا، مما اقترافه الكافرون قبل أن يسلموا.

ويأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أيضا أن ينذر قومه عاقبة الرجوع إلى الكفر، فغنهم إن عادوا {فقد مضت سنت الأولين} وذلك

وعيد وتهديد من الله للذين يعودون للكفر بعد أن ارتدوا عن الإسلام، أنهم ستمضي فيهم سنة الله في الانتقام منهم ومجازاتهم بالإهلاك والخزي بعد أن يجعل الله النصر والنجاة لعباده المؤمنين الصابرين.

٣٩ - (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: {وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الذين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ٣٩ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير} يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يقاتلوا الكفار الظالمين الذين يصدون عن دين الله ويبغون في الأرض بغير الحق ويشيعون الفوضى والفساد والمنكرات والرذائل في البلاد، والذين يحادون الله والمؤمنين، فيأبون للإسلام ورسالته العظيمة ونظامه الحق أن يشيع بين الناس.

من أجل ذلك يوجب الله على عباده المؤمنين الصادقين الذين التزموا منهجه وشرعه أن يقاتلوا هؤلاء الأشرار المفسدين الذين يصدون عن الحق كيلا يذيع أو ينتشر وذلك بكل الأساليب والمعوقات المادية والنفسية والفكرية - أولئك مجرمون عتاة لا تجدي معهم الحكمة أو المنطق، ولا ينفعهم النصح أو الإفاضة في البيان والاحتجاج - فلا مناص مع هؤلاء المستكبرين المفسدين إلا أن يقاتلهم المؤمنون فيهزموهم ويذلوهم ويسكتوا فيهم صوت الشر والظلم والفساد {حتى لا تكون فتنة} أي يجب قتالهم من اجل أن ينتهي الفتنة؛ أي لا يفتن مسلم عن دينه - فإذا ما شاع الحق والأمن والعدل من خلال الإسلام؛ زالت كل بواعث الفتنة التي يخشى معها على الناس من الانحراف عن دنيهم - لا جرم أن سطوة الكفر وعتو الكافرين إذ تسلطوا على رقاب المسلمين أن يكون (عتوهم) مدعاة كبرى للفتنة وزحزحة المسلمين عن دنيهم رويدا رويدا.

إن الناس إذا أظلهم الكفر بسطوته العاتية وكلكله الثقيل وطغيانه البشع؛ فغنهم لا محالة واقعون في الفتنة، وآخذون في الانسلاخ والتحلل من تعاليم الإسلام شيئا فشيئا - لذلك أمر الله أن يقاتل المؤمنون الكافرون ما دامت الفتنة قائمة ويخشى معها على العباد من مجانة الحق والسقوط في الباطل تحت مختلف الضواغط والأسباب والمغريات وتحت مطرقة الفتنة الخبيثة على اختلاف صورها وأساليبها من ترغيب وترهيب وإغواء وإغراء.

قوله: {ويكون الدين كله لله} أي يكون دين الله الحق وهو الإسلام ظاهرا على الملل كافة ومسيطرا على المبادئ والعقائد والأديان جميعا - وإذ ذاك يستحوذ الإسلام على الواقع البشري كله بنظامه الوارف الظليل وعقيدته الكريمة المرغوبة السمحة، فتفيض على الدنيا شآبيب الرحمة ونسائم الأمن والسعادة وتمحي من وجه الأرض كل أثارة من أثارات التهديد والوجل، أو الغواية والإفساد والفتنة.

قوله: {فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير} أي إن كف الظالمون عن كفرهم وطغيانهم فإن الله بصير بأعمالهم، مطلع على سرائرهم وأخبارهم.

٤٠ - (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

قوله: {وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير} ذلك تهديد من الله للكافرين، أنهم إن أعرضوا عن دين الله وظلوا سادرين في غيهم وعدوانهم فاعلموا أيها المؤمنون أن الله سيجعل الغالبة لكم؛ فهو سبحانه {مولاكم} أي ناصركم، وهو سبحانه {نعم المولى ونعم النصير} لله جل وعلا خير معين ونصير لعباده المؤمنين الصابرين - وما على المؤمنين المخلصين بعد ذلك إلا أن يثقوا كامل الثقة بالله، وأن يركنوا تمام الركون إلى جنابه العظيم بعد أن يأخذوا بالحيطة وأوفي الأسباب - سواء في ذلك الأسباب المادية أو المعنوية - وبعد ذلك فإن الله محقق لهم الغلبة والنصر ٤٩.

٤١ - (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان والله على كل شيء قدير} الغنيمة هي ما أخذه المسلمون من أموال أهل الحرب الكافرين

بقتال - أما الفيء: فهو ما أخذه المسلمون منهم بغير قتال - فهما بذلك معنيان مختلفان - وقيل: إنهما اسمان مترادفان لمعنى واحد - والمعنى المراد في هذه الآية: أن كل شيء يأخذه المسمون من الكافرين عنوة وقهرا فهو من الغنيمة - وهذا العموم مخصص بالأسارى؛ فإن الخيرة فيهم إلى الأمام ليرى فيهم ما هو أنفع للمسلمين بعد التشاور مع أهل الحل والعقد من المسلمين.

وقد بينا في آيات سابقة أن إباحة الغنائم للمسلمين ليس المراد منها إثراء الغانمين ليكونوا من أهل الثورة واليسار - وليس ذلك إذعانا لهوى النفس التي تميل لاحتواء المال وتكثره - ولا مجرد الكراهية الهوجاء للمالكين من غير المسلمين - ولكن المراد من تجريد الكافرين من أموالهم وإباحتها للمسلمين عقب الحرب إنما هو إضعاف شوكة الكفر والكافرين وتحطيم الوسيلة الأساسية الكبرى التي يعتمد عليها الكافرون العتاة في محاربة دين الله وصد الناس عن منهجه سبحانه - المراد أن تتبدد القدرة المؤثرة الأولى التي يستمد منها الطغاة والظالمون قوتهم واقتدارهم على الحيلولة بين الإسلام والبشرية - والإسلام هو دين الإنسانية كافة، يثير فيها الأمن والرخاء والاستقرار وينشرون في ربوعها الخير والود والرحمة، ويشيع في أجوائها كل ظواهر الإخاء والتعاون والتعارف والتحرر من ربقة الظلم والظالمين.

إذا تبين ذلك فإنه لا يعادي الإسلام بعد ذلك إلا مارقون جبابرة، أو طغاة متمردين غلاط لا يرضون البشرية إلا تتيه في الظلام والباطل - وسبيل المجرمين الظالمين إلى بلوغ مآربهم في الإفساد والتخريب هو المال؛ فلزم بذلك انتزاع هذه الوسيلة الكبيرة من أيداهم؛ ليظلوا ضعافا خزايا عاجزين بعد ذلك عن إفساد البشرية أو إشاعة التخريب والفتنة فيها، وعاجزين كذلك عن التلويح بقتال الحق وأهله فضلا عن اصطفافهم مع الظالمين والمفسدين في كل مكان أو زمان.

على أن الغنيمة تقسم خمسة أخماس: أربعة أخماس منها للمجاهدين الذين قاتلوا فأخذوا الأموال، والخمس الخامس يقسم على خمسة أصناف، وذلك في قوله: {لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل} أما ما نسب إلى الله من حصة في الخمس، فإنما هو افتتاح للكلام على سبيل التبرك - وليس المراد من ذلك أن سهما منفردا من الغنيمة لله - فالله جلت قدرته غني عن المال والعالمين، وهو سبحانه يملك الدنيا والآخرة وله ملكوت كل شيء.

أما الخمسة الآخرون الذين يقسم الخمس بينهم فهم:

أولا: الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن سهمه يصرف في مصالح المسلمين - وقيل: إن سهم الله ورسوله واحد؛ فهو يصرف في المصالح العامة كبناء المساجد والقناطير والجسور وإعمار الطرق - وفي أرزاق القضاة والجند - وغير ذلك من وجوه الإصلاح.

ثانيا: ذوو القربى، والمراد بهم موضع خلاف؛ فقد قيل: قريش كلها - وقيل: هم بنو هاشم وبنو المطلب، وهو قولب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وآخرين - وقيل: هم بنو هاشم خاصة - وهو قول مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم.

ثالثا: اليتامى، جمع يتيم؛ وهو الصغير المسلم الذي مات أبوه، وكان فقيرا.

رابعا: المساكين؛ وهم أهل الفاقة الذين أسكنهم الضيق والعوز عن تحصيل ما يحتاجونه.

خامسا: ابن السبيل؛ وهو المسافر البعيد عن أهله وماله - فهؤلاء الذين يصرف فيهم خمس الغنيمة.

قوله: {إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على بعدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان} أي اقبلوا هذا التقسيم للغنائم إن كنتم مؤمنين - فالمؤمنون مستسلمون لله، خاضعون لجلاله، مذعنون لأوامره، لا يترددون ولا ينثنون عن شرعه بل يتقبلونه بأحسن القبول من غير امتعاض ولا تسخط - وكذلك اقبلوا شرع الله في الغنائم إن كنتم آمنتم بما {أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان} والمراد قوله: {يسألونك عن الأنفال} فقد أنزل الله عليهم حكمه في الأنفال التي أخذوها من المشركين {يوم الفرقان} يعني يوم بدر - فقد فرق الله في هذا اليوم العظيم المشهود بين الحق والباطل {يوم التقى الجمعان} وهما حزب الله، وحزب الشيطان؛ فكان أن كتب الله النصير والغلبة للفئة المؤمنة المخلصة الصابرة وهم حزب الله.

قوله: {والله على كل شيء قدير} الله جل شأنه قادر على أن يظهر عباده المؤمنين على أعدائهم؛ إذ يكتب لهم العزة والنصر بالرغم من بساطة قوتهم المادية، وقلة عددهم ٥٠.

٤٢ - (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {إذ أنتم بالعداوة الدنيا وهم بالعداوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم}.

{إذ}، بدل من قوله: {يوم الفرقان} {والركب} اسم للجمع وليس بجمع تكسير لراكب ٥١.

ذلك تذكير من الله لعباده المؤمنين بلقاء أعدائهم المشركين في بدر، أي اذكروا إذ أنتم نزول {بالعداوة الدنيا} أي بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا تأنيث الأدنى {وهم بالعدة القصوى} يريد أعداءهم المشركين، إذ كانوا بشفير الوادي الأقصى من المدينة - والقصوى تأنيث الأقصى - وإذ ذاك كان الركب وهم أبو سفيان وأصحابه والعير التي معه {أسفل منكم} أي في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر على عدة أميال من بدر.

قوله: {ولو تواعدهم لاختلفتم في الميعاد} وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير، وخرج الكفار ليمنعوها فالتقى الجمعان على غير ميعاد - ولو أنهم تواعدوا قبل ذلك على الاجتماع ثم علم المسلمون كثرة المشركين وقتلهم هم لخالفوا موعدهم معهم، فما اجتمعوا وما التقوا - لكن الله جل وعلا قدر لهم أن يتلاقوا {ليقضي الله أمرا كان مفعولا} أي ليقضي أمرا من نصر دينه وإعزاز كلمته وهدم الكافرين وإذلالهم - وقيل: أي كان أمرا مقدرا في الأزل.

قوله: {ليهلك من علك عن بينة ويحيي من حي عن بينة} أي ليقتل من قتل من الكافرين عن بيان من الله رآه، وحجة قامت عليه وإعذار بالرسالة - وكذلك ليعيش من عاش عن بيان من الله وإعذار، ليس لأحد عليه حجة - وقيل: معناه الكفر من كفر بعد قيام الحجة عليه - ويؤمن من آمن على مثل ذلك - وبذلك فإن الهلاك معناه الكفر، والحياة معناها الإيمان.

قوله: {وإن الله سميع عليم} الله سميع لما يقول الناس، مؤمنين وكافرين، وهو كذلك عليم بما تخفيه صدورهم من المكنون والنوايا ٥٢.

٤٣ - (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله تعالى: {إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور} {وإذ} في موضع نصب بفعل مقدر، وتقديره: واذكر إذ يريكم الله ٥٣ والمخاطب هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقد تظاهرت الروايات أنها رؤيا منام - فقد روي الرسول صلى الله عليه وسلم فيها الكفار قليلا فأخبر بها أصحابه فاشتد أزرهم ٥٤، وقويت عزائمهم، وازدادت في نفوسهم الشجاعة والاستبسال واليقين - وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه عقب النتباهه من المنام: (أبشروا لقد نظرت إلى مصارع القوم) - والمراد بالقلة في الآية: ضعف القوم واستيئاسهم وأنهم مهزومون مصروعون فتكون الغلبة للمؤمنين قوله: {ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر} أي لو أراكم المشركين كثيرا لخارت عزائمكم، وانهارت قواكم، وأخذكم اليأس والخور، {ولتنازعتم} أي اختلفتم - والتنازع في الأمر معناه الاختلاف الذي يحول به كل واحد نزع صاحبه عما هو عليه - والمقصود: أنه لاضطراب أمركم واختلفت كلمتكم {ولاكن الله سلم} أي سلمكم من الفشل ومن المخالفة فيما بينكم - وقيل: سلمكم من الهزيمة.

قوله: {إنه عليم بذات الصدور} أي يعلم ما تخفيه صدوركم من الجراءة والخور، أو الصبر والجزع.

٤٤ - (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

قوله تعالى: {وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور} الضميران الكاف والهاء مفعولان - والمعنى: {وإذ يبصركم الله إياهم {قليلا} أي قللهم في أعينكم تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتزدادوا يقينا فتحملوا عليهم بجراءة وجد - قال ابن مسعود (رضي الله عنه): لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة - فأسرنا رجلا منهم - فقلنا له: كم كنتم؟ قال؟ ألفا.

وكذلك قلل الله المسلمين في أعين الكافرين - وهو قوله: {ويقللكم في أعينهم} حتى قال قائل من المشركين عن المسلمين: إنما هم أكلة جزور.

على أن الغرض من تقليل الكافرين في أعين المسلمين ظاهر - أما الغرض من تقليل المسلمين في أعين الكافرين: فوجهه أن الله قللهم في أعين الكافرين قبل اللقاء، كيلا يبالوا بهم فيجترؤوا عليهم - ثم كثرهم الله بعد ذلك لتفجأ كثرتهم المشركين فيبهتوا ويهابوا فتميد شوكتهم ويفل جمعهم فيولوا الأدبار بعد ما رأوا ما لم يكن في حسبانهم.

قوله: {ليقضي الله أمر كان مفعولا} تكررت هذه الآية، فقد ذكرت في الآية المتقدمة - والمقصود من ذكرنا هنا البيان من الله أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين ليصير ذلك سببا في أن لا يبالغ المشركين في تحصيل الاستعداد والحذر - وذلك سيفضي إلى هزيمتهم وإعزاز الإسلام والمسلمين.

قوله: {وإلى الله ترجع الأمور} مصير الأمور كلها إلى الله يوم القيامة - وحينئذ يجازي الله العباد بما علموا من إحسان وإساءة ٥٥.

٤٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ٤٥ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين} هذا بيان من الله لعباده المؤمنين، إذ يأمرهم بالثبات عند لقاء العدو - فما يحل لهم أن يفروا من وجه العدو الظالم ولا يضطربوا وينثنوا أو يتخاذلوا وتلين قناتهم - بل عليهم أن يستبسلوا في المواجهة والقراع، وأن يقاتلوا أعداء الله مع شجاعة وحماسة وجراءة.

إنه ما يجوز للمسلمين - بحال أن يتملكهم الجبن والذعر عند اللقاء في الحرب فيولوا الأدبار، فإنه لا يولي دبره عند لقاء العدو - إلا كل خائر جبان، غير خليق باحتسابه في فئة المؤمنين الصادقين - بل إن المؤمنين الصادقين أوفياء ثابتون على الحق، ماضون على أمر الله ودينه، لا تزعزعهم جحافل الكافرين الأنداد مهما جمعوا وأعدوا وكادوا - ومن أكرم ما يرد في هذا الصدد ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله ابن أبي أوفي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسألوه الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم) وفي الخبر عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنوا لقاء العدو واسألوه الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت) - وعن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا قال: إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة).

وقد أمر الله المسلمين عند لقاء العدو أن يذكروا الله كثيرا لكي يكونوا من الفالحين الفائزين بالنصر في الدنيا ورضوان الله في الآخرة.

أما ذكر الله عند لقاء: فهو أن يكونوا في كل أحوال القتال ذاكرين الله بألسنتهم معلنين الطاعة والضراعة والإخبات - وأن يذكروه بقلوبهم خاشعين مستسلمين وهم يستنصرونه ويدعونه أنه يظهرهم ويخذل عدوهم.

٤٦ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

قوله: {وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} يأمر الله عباده المؤمنين بطاعته سبحانه فيما أمرهم به، وأن ينتهوا عما زجرهم عنه - وكذلك أمرهم بطاعة رسوله الأمين، المبلغ بالصدق عن ربه - ويحذر الله جل وعلا عباده المؤمنين من التنازع، وهو الاختلاف، فإن الاختلاف يثير التنافر والمباغضة في القلوب، ويفضي إلى الفرقة والشقاق والتبدد وزوال الشوكة - وهو قوله: {فتفشلوا} منصوب بأن المضمرة بعد الفاء، وقيل: منصوب بالفاء في جواب النهي، أي فتضعفوا وتجبنوا - والفشل معناه الجبن في الحرب {وتذهب ريحكم} أي تذهب قوتكم وبأسكم فتضعفوا ويدخلكم الوهن والاضطراب.

قوله: {واصبروا إن الله مع الصابرين} أمر الله المؤمنين بالصبر في كل المواطن، وخاصة موطن الحرب، فالمؤمنون وهم يواجهون العدو

في حرب ضارية ضروس، مأمورون بالصبر والثبات، وأن لا ينهزموا، أو يفروا، أو يولوا الأدبار ٥٦.

٤٧ - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورياء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ٤٧ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريئ منكم وإني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ٤٨ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم} المراد بالذين خرجوا من ديارهم بطر: قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير، فقيل لهم: إن العير قد نجت فارجعوا، فقال أبو جهل مستكبرا مختالا: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وتنحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها ويهابوننا أبدا - لكن ذلك قد انعكس عليهم وبالا وهزيمة؛ فلقوا مصيرهم الأليم من القتل والذل والصغار مما كانوا يجهلونه؛ حين مضوا إلى مصارعهم تائهين واهمين.

وفي ذلك درس عظيم ومؤثر ما كان لفئة من المؤمنين طيلة الدهر أن تنساه وهو درس الاغترار والاستكبار والمضي في صلف وتيه وعجب - وإنما ينبغي للمؤمنين على الدوام أن يحسبوا لكل حدث أو خطب أو مواجهة أو صراع ما يستوجبه من تمام التقرير والاهتمام والحساب؛ حتى لا يقع المسلمون في الهزيمة والانتكاس نتيجة غرورهم وقلة مبالاتهم - وههنا يحذر الله عباده المؤمنين من مثل هذا المصير الأليم الفاضح إذ يقول: {ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورياء الناس ويصدون عن سبيل الله} بطرا، مصدر في موضع الحال ٥٧ - والبطر بمعنى الأشر، بالفتح - وهو الغلو في المرح والزهو - وبطر النعمة؛ أي استخفها فكفرها ٥٨، فقد خرج المشركون من مكه برئاسة أكابرهم من صناديد الكفر كأبي جهل وأصحابه، وهم بطرون يراءون الناس - وهو من الرئاء - ومعناه إظهار الجميل مع أن الباطن قبيح، أو هو إظهار الطاعة مع إبطان المعصية.

وذلك هو شأن الكافرين الذين خرجوا من مكة، وكل الذين يخرجون لملاقاة الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان، فغنما يخرجون ليبتغوا السمعة والذكر، لا يحفزهم إلى ذلك إخلاص لله ولا طلب لرضوانه - وإنما يحفزهم الخيلاء والغرور والمفاخرة بالأموال وكثرة العدد وقوة السلاح - وهم فوق ذلك {يصدون عن سبيل الله} أي يضلونهم عن دين الله ويغوونهم، ويصطنعون العراقيل والمعوقات والفتن التي تحول بين الناس وهذا الدين العظيم المبارك.

قوله: {والله بما تعملون محيط} أي أن الله عليم بمقاصد هؤلاء الأشرار الأشقياء وما تنثني عليه صدورهم من حقد وسوء، وما يبيتونه للمسلمين من خبيث المكائد والمؤامرات والفتن - الله عليم بذلك كله وهو سبحانه لا محالة مجازيهم أشد الجزاء في الآخرة حيث جهنم وبئس القرار، فضلا عن مجازاتهم في الدنيا بالخزي والتنكيل.

٤٨ - (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله: {وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب}.

روي عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه، رأيته في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم - فقال الشطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم - فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته: فقال الرجل: يا سراقة تزعم أنك لنا جار - قال: غني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب}، وذلك حين رأى الملائكة ٥٩ - لقد زين الشطان للمشركين أعمالهم في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن دين الله بكل وسائل الإغراء والترهيب والفتنة - ووسوس لهم بإيحائه الموهم المرجف أنهم لن يغلبوا ما داموا

يركنون إليه وإلى جنوده من الشياطين - فلما أن تلاقى الفريقان ورأى إبليس الملائكة {نكص على عقبيه} أي رجع وجحم وولى مدبرا هو وجنوده وتبرأ من المشركين؛ إذ بطل كيده حين نزلت جنود الله.

٤٩ - (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله: {إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم} المنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر - أما الذين في قلوبهم مرض: فيراد بهم الشاكون وضعاف الإيمان الذين لم تشرح صدورهم بالإيمان فهم على حرف؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام - فهم بذلك دون المنافقين - والمراد أن هؤلاء جميعا قالوا عند التقاء الصفين {غر هؤلاء دينهم} أي غر هؤلاء المسلمين الذين يقاتلون المشركين، من أنفسهم دنيهم وهو الإسلام - يعنون أن المسلمين قد اغتروا بدينهم وأنهم يتقون به فيستطيعون هزم خصومهم وهم الأكثرون الأقوياء.

قال ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركون في أعين المسلمين - فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم - وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك - فقال الله: {ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم} أي من يسلم أمره إلى الله ويثق به تمام الثقة ويركن إليه تمام الركون؛ فلسوف ينصره ويرعاه؛ لأن الله عزيز؛ أي قوي الجلال والسلطان، لا يغلبه شيء ولا يقهره قاهر - فمن استجار بجنابه؛ حفظه وكفاه - وهو كذلك {حكيم} فلا تصدر أفعاله وأوامره وزواجره وأقداره إلا عن حكمة، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من لا يستحق غير ذلك ٦٠.

وذلك أمر من الله لعباده المؤمنين بان يديموا التوكل على الله وحده دون أحد من خلقه؛ فإن الله حافظهم وجاعل الغلبة لهم.

٥٠ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

قوله تعالى: {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ٥٠ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظالم للعبيد} أي لو عاينت يا محمد هؤلاء الكفرة وهم تتوفاهم الملائكة؛ لرأيت ما يروع القلب ويرعب الوجدان مما يجده هؤلاء العصاة المجرمون من فظاعة التنكيل والإيلام حال انتزاع أرواحهم؛ إذ الملائكة {يضربون وجوههم وأدبارهم} والمراد بأدبارهم استاههم - على أن انتزاع الأرواح من الكافرين في ذاته غاية الإيلام والفظاعة، ثم يضاف إلى ذلك ضربهم على وجوههم واستاههم زيادة في الإيجاع والتنكيل - وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك ٦١ - قال (ذاك ضرب الملائكة).

قوله: {وذوقوا عذاب الحريق} وهذا قول الملائكة للظالمين الخاسرين لدى انتزاع أرواحهم من أجسادهم بغلظة وفظاظة، فضلا عن ضربهم بمقامع الحديد المحماة على وجوههم واستاههم - لا جرم أن ذلك تفظيع لحال هؤلاء الأشقياء سواء كان ذلك في الدنيا؛ إذ تنتزع الملائكة أرواحهم بقسوة، أو كان في يوم القيامة حيث الويل واشتداد الأهوال وعظائم الأمور! نسأل الله العفو والنجاة والرحمة في المقامين.

٥١ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)

قوله: {ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظالم للعبيد} ذلك، في محل رفع مبتدأ - وخبره محذوف تقديره جزاؤكم أو {بما قدمت أيديكم} هذا من قبل الملائكة للكافرين الخاسرين عند الموت؛ إذ يقولون لهم: هذا العذاب جزاء لكم بسبب ما اكتسبتموه من الآثام والأوزار وبما اجترحتموه من الخطايا وعصيان الملك الجبار - وهو سبحانه أعدل العادلين لا يظلم الناس مثقال ذرة ٦٢.

٥٢ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله تعالى: {كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله شديد العقاب} الكاف في قوله: {كدأب} صفة لمصدر محذوف - وتقديره: فعلنا ذلك بهم فعلا مثل عادتنا في آل فرعون ٦٣ - والدأب معناه العادة والشأن ٦٤ - أي فعلنا بهؤلاء المكذبين الكفرة من الصلي بالنار والضرب على الوجوه والاستاه عند انتزاع أرواحهم كالذي فعلناه بآل فرعون -

أولئك الأشقياء العتاة الذين عاثوا في الأرض الفساد والخراب {فأخذهم الله بذنوبهم} أي أهلك الله آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الظالمة التي عتت عن أمر الله، وأبت إلا الركون لأهوائهم والشياطين فضلوا ضلالا بعيدا - أولئك جميعا قد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر - والله جلت قدرته منتقم جبار - وهو القوي الشديد المحال الذي لا يغلبه غالب ولا يند عن سلطانه وجبروته مدبر أو هارب.

٥٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ٥٣ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين}.

{ذلك}، إشارة إلى ما حل بالظالمين جميعا من عقوبة الهلاك والتدمير، فقد فعل الله بهم ذلك بأنهم غيروا ما انعم الله عليهم، إذ ابتعث فيهم رسله يحلمون لهم البينات والدلائل فجحدوا وكذبوا وعتوا عتوا كبيرا - أو أنهم جوزوا هذا الجزاء الأليم، لأنهم غيروا وبدلوا نعمة الله عليهم - وأنعم الله عليهم كثيرة، فمنها: نعمة الأمن والخصب والسعة والعافية - فالله لم يذهب النعمة عن هؤلاء الفاسقين، ولم يبدلها بالنقمة حتى يبدلوا هم ما بهم من حال إلى حال أسوأ - وذلك كتغير قريش حالهم من مجرد الشرك وعبادة الأصنام إلى ما هو أعتى، كالصد عن دين الله ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين، وإلحاق الأذى والشر بهم وتكذيب الكتاب الحكيم والاستهزاء به.

وكذلك الأمم الظالمة، ومن ورائها الدول المغالية في الظلم والعدوان، والموغلة في تدمير القيم والمرواءت، والتي تعيث في الدنيا الفساد والفتن، والتي تتجرع من دواهيها وويلاتها الشعوب الملظومة المغلوبة كل ألوان الشقاء والحرمان والاغتصاب.

إن هذه الأمم العاتية الجاحدة وفي طليعتها القيادات الضالعة في الرجس والعدوان واستعباد الشعوب وظلمهما لا بد أن تحيق بها دائرة الهون والتداعي - وأن تزلزلها الضربات الإلهية المقدورة - وعندما يأذن الله بذلك ينزل بساحتهم البلاء ويأخذهم العذاب في هذه الدنيا من حيث لا يحتسبون - فإن الله عزيز منتقم يأخذ الظالمين المتجبرين وهو لهم بالمرصاد.

قوله: {وأن الله سميع عليم} الله سميع لما يقول المبطلون الظالمون، وما يهذون به من ضلال وإشراك وكفران - وهو كذلك عليم بما يفعله هؤلاء الأشقياء المقبوحون من تضليل البشرية وصدها عن منهج الله، واصطناعها الأكاذيب والافتراءات والشبهات من حول هذا الدين الحق.

٥٤ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

قوله: {كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم} أي فعل الله بهؤلاء المشركين ما فعله من تعذيب بالقتل والإذلال بسبب جحودهم نعمة الله، كشأنه سبحانه في عقاب الظالمين الجاحدين في كل زمان، فقد أخذ آل فرعون والذين من قبلهم فأهلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالريح العاصفة المدمرة - ثم أغرق آل فرعون وأوقع بهم أشد العذاب - وذلك كله بسبب جحودهم نعمة ربهم على اختلاف هذه النعم - سواء في ذلك نعمة الهداية والدين - أو نعمة الدنيا كالأموال والأولاد والرخاء والأمن والسعة ٦٥.

٥٥ - (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ٥٥ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ٥٦ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يتذكرون} أي أن شر ما دب على الأرض منا الكائنات والبرية عند الله أولئك الذين كفروا بربهم، فجحدوا وحدانيته، وكذبوا رسله المبعوثين لهم هداة ورحمة، ورفضوا منهج الله الكريم الهادي.

٥٦ - (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ)

أولئك {الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة} لقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا المشركين

بالسلاح والرأي وظاهروهم على المسلمين - ثم اعتذروا قائلين: نسيبا - فعاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم ثانية فنقضوا عهدهم معه يوم الخندق - والمراد بهم بنو قريظة وبنو النضير؛ فقد كانوا يعاهدون النبي صلى الله عليه وسلم على الموادعة والصلح ثم لم يلبثوا أن ينقضوا العهد معه كلما لاحت لهم فرصة للنقض.

قوله: {وهم لا يتقون} أي لا يخافون مما فعلوه من الجحود والتكذيب والخيانة أن تجتاحهم النوائب والمحن من الله فتهلكهم إهلاكا - ولا غرو فغن الذين مردوا على التدسس والغدر وخيانة العهود والمواثيق لا يملكون زمام أنفسهم المبتذلة الشوهاء وهم ينزلقون سراعا نحو المخالفات والمعاصي بالرغم من يقينهم المسبق أن ما اجترحوه سيفضي بهم إلى المهاوي والمهالك.

٥٧ - (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

قوله: {فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون} {تثقفنهم} أي تظفر بهم من الثقف وهو الإدراك والأخذ والظفر ٦٦.

والمعنى: فإما تلقين في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد أخرى من قريضة ونظرائهم فتأسرهم وتظفر بهم {فشرد بهم خلفهم} وهو من التشريد، أي التطريد والتبديد والتفريق، فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم إذا ظفر بالذين ينقضون العهد من هؤلاء الخائنين أن ينكل بهم تنكيلا ويثخن فيهم القتل إثخانا يخيف الذين من ورائهم من أتباعهم وأعوانهم الظالمين كيلا يجترءوا على مثل ما اجترأ عليه هؤلاء الغادرون من الخيانة ونقص العهود.

قوله: {لعلهم يذكرون} أي لكي يتعظون بما فعلت بهؤلاء من التنكيل والإثخان في القتل فيحذروا نقص العهود معك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء الناقضين ٦٧.

٥٨ - (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

قوله تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ٥٨ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون} تأويل هذه الآية: أنك إن خشيت يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد أن ينكث عهده وينقص ميثاقه فيغدر بك غدرا وخيانة {فانبذ إلهم على سواء} أي فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل أن تقاتلهم أنك قد فسخت ما بينك وبينهم من عهد أو ميثاق لما ظهر منهم من أمارات الغدو والخيانة تلوح لك، وذلك حتى تصير أنت وإياهم على سواء في العلم بأنك محار بلهم، فتبرأ من التلبس بالخيانة أو الغدر {إن الله لا يحب الخاسرين}.

وبعبارة أخرى: فإنه إذا خيف من العدو أن ينقض عهده مع المسلمين لما تبدي من آثار الغش والغدر وعلائم النكث والغدر، جاز المسلمين أن ينبذوا إليهم عهدهم؛ أي يطرحوه لهم - وذلك أن يخبروهم إخبارا مكشوفا جليل أنهم قطعوا ما بينهم وبينهم من عهد، حتى يستووا جميعا في العلم بانقطاع العهد بينهم، وأنهم كلهم باتوا الآن في احتراب فيما بينهم - لا جرم أن هذه ظاهرة بلجة من ظواهر العدل المطلق الذي يتجلى في هذا الدين العظيم - الذين الذي يأبى الغدر أو الغش أو الخيانة في كل الأحوال والظروف حتى في زمن الحرب، حيث المخاطر والأهوال والأحوال العصيبة الرهيبة التي تحدق بالمسلمين والتي يشتد فيها الحذر والوجل - فإن الإسلام بالرغم من ذلك كله يندد بالغدر والخيانة في كل الأحوال والوجوه، سواء في السلم أو الحرب - في مقابلة المسلمين أو الكافرين وهو كذلك يأمر أمرا جازما بدوام التلبس بفضائل الخلق الكريم وروائع القيم الرقية كالصدق والوفاء والحياء والمروءة وغير ذلك من وجوه الخلق الرفيع الذي لا يتجلى بمثل هذا القدر المطلق البالغ إلا في الإسلام.

٥٩ - (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ)

قوله: {ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون} أي ليس الكافرين فائتين ولا منفلتين من إدراكهم والظفر بهم؛ فغنهم لا يعجزون الله إذا أراد أن يهلكهم أو يبددهم سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة؛ فإن الله إذا جاء أجله لهو قادر على أخذهم والتنكيل بهم، فهم غير معجزين ولا هاربين من قدره ولا من إحاطته ٦٨.

٦٠ - (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا

تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون} أمر الله بالإعداد للحرب بمختلف آلاتها ووسائلها من أجل أن يقاتل بها المسلمون أعداءهم من الكافرين على اختلاف مللهم الضالة - على أن الأمر بالإعداد إنما يكون في حدود الطاقة المقدورة للمسلمين؛ لأنه {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} وهو هنا قوله: {ما استطعتم من قوة} وهذا يدل على وجوب الإعداد بأقصى ما يستطيعه الإنسان - فإن أعد ما دون طاقته كان مقصرا ولم تبرأ ذمته من فريضة الإعداد للجهاد.

أما القوة المبينة في الآية: فغنها تفيد بإطلاقها كل وجوه الآلات للحرب، وكل ما يلزم لقتال الظالمين من وسائل ومعدات - على أن آلات الحرب على اختلاف صورها وضروبها تقوم في الأغلب على فن الرمي كيفما كان شكله أو كيفيته - سواء في ذلك الرمي البدائي القديم بالقوس، أو الرمي المتطور في الزمن الراهن بالقذائف النارية المندفعة بقوتها الهائلة سواء في البر أو البحر أو الجو؛ فغن ذلك كله أساسه الرمي حيث القوة الدافعة التي تقذف بالأداة لتدمير الهدف المراد.

وفي التركيز على القتال بالرمي أخرج مسلم عن أبي علي ثمامة بن شفي أخي عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: {واعدوا لهم ما استطعتم من قوة} ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي).

قوله: {ومن رباط الخيل} الرباط، اسم للخيل التي تربط في سبيل الله - وقيل: الرابط بمعنى المرابطة وهي ملازمة ثغر العدو - وقيل: الرابط، الخيل الخمس فما فوقها ٦٩.

وفي قوله: {ومن قوة من رباط الخيل} ما يثير البهر والإعجاب لكمال هذا الكتاب الحكيم الذي يتسم بسمو المستوى سواء في جمال النظم، أو كمال المغنى، يستبين ذلك جليا إذا أدركنا شمول المراد بالإعداد سواء كان ذلك في الأزمنة الفائتة التي يناسبها الإعداد برباط الخيل - فقد كانت الخيل العنصر الأهم في عناصر الحرب وآلاتها في الزمن السابق، وكان المتقاتلون إنما يعولون عليها أبلغ تعويل فيما تقتضيه طبيعة الظروف الماضية - لكن إطلاق القوة في الآية هنا يعم كل وجوه الآلات للحرب - بما يشمل الوسائل القتالية المتطورة تطورا مذهلا في عصرنا الراهن - وهذا هو شأن القرآن في علو مستواه؛ إذ يخاطب أذهان البشرية وآفاقها في كل زمان حتى يظل القرآن إلى أبد سابقا للأذهان والآفاق، محيطا بالأدهار والأزمنة جميعها، وذلكم الإعجاز.

قوله: {ترهبون به عدو الله وعدوكم} أي تخيفون بقوة السلاح والمرابطة أعداء الله وأعداءكم؛ فهم مشتركون في العداوة - فمن عادي دين الله وأهله من المسلمين لا جرم أنه معاد لله سبحانه - وهؤلاء كثيرون منتشرون في كل بقاع الأرض التي يعيث فيها الظالمون الجناة أبشع صنوف الإفساد والتخريب - وهم بعدوانهم وطغيانهم ومجاوزتهم كل حسبان ومعقول لا تجدي معهم المجادلات والمحاورات القائمة على المنطق الهادئ المعقول - ولا تردعهم أساليب الموادعة واللين - إنما يردعهم التخويف بقوة السلاح على اختلاف أنواعه وضروبه، وذلك هو ديدن الأشرار الظالمين من شياطين البشر الذين لا يصيخون إلا لما يروعهم ترويعا ويرهبهم ترهيبا - وذلك بوسائل القتال الفتاكة التي تثخن هؤلاء المجرمين إثخانا يفضي إلى خزيهم وإخراسهم.

قوله: {وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم} والمراد بالذين من دونهم موضع خلاف؛ فقد يقل: إنهم المنافقون - وقيل: إنهم فارس والروم - وقيل: اليهود - والراجح أن المراد عموم من لا تعرف عداوته من أصناف البشر المحفل بالحقد من الذين تتقاطر قلوبهم كراهية للإسلام والمسلمين؛ فهم على مر الزمن يتربصون بهم المهالك والدوائر ويكيدون لهم المكائد والمؤامرات في كل الأحيان - وهذا ديدن الخصوم المبغضين للمسلمين منذ أن أشرقت شمس الإسلام على الدنيا حتى يومنا هذا والأعداء اللد يعقدون المؤتمرات والمؤامرات تدمير هذا الدين القويم وأهله.

قوله: {وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف لكم} أي ما أنفقتم من مال في شراء أسباب الجهاد وآلة الحرب أو غير ذلك من النفقات التي تقتضيها مصالح العساكر والجند من الطعام واللباس والدواء، فإن ذلك كله يخلفه الله على عباده المنفقين في الدنيا مع ما يدخره

لهم في الآخرة من عظيم الأجر والتكريم والرضوان.
قوله: {وأنتم لا تظلمون} أي لا يضيع الله أجر من أنفق منكم - بل إن الله يخلفكم من جزيل العطاء والمثوبة عوضا عما أنفقتموه.
٦١ - (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
قوله تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ٦١ وإن يريدون أن يخادعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ٦٢ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم}.
{جنحوا}، من الجنوح وهو الميل ٧٠ والسلم، بفتح السين - وقيل بالكسر - والسلم والسلام بمعنى المصالحة والمهادنة - والسلم مؤنثة، لذلك قال: {لها} والمعنى: إن مال الكافرون إلى مسالمتكم ومتاركة الحرب، إما بدخولهم الإسلام، أو بإعطاء الجزية، أو بالموادعة، أو نحو ذلك من أسباب الصلح {فاجنح لها} أي فمل إليها وابذل للكافرين الجانحين ما مالوا إليه من المصالحة.
وقد اختلفوا في نسخ هذه الآية، فقد قيل: نسخها قوله: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} وقوله أيضا: {وقاتلوا المشركين كافة} وقيل: نسخت سورة براءة كل موادعة حتى يقولوا لا إله إلا الله فيسلموا، والناسخ هو قوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر} إلى قوله: {حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} - وقتال ابن عباس: الناسخ لهذه الآية هو قوله تعالى: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم}.
وقيل: ليست هذه الآية منسوخة بل هي محكمة، والمراد به قبول الجزية من أهل الجزية، وقد قبلها منهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن عمر ومن بعده من الأئمة؛ إذ صالحوا كثيرا من أهل العجم على ما أخذوه منهم، وترموهم وشأنهم من حيث عبادتهم وطقوسهم وشعائرهم الدينية - وصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر بعد أن أظفره الله بهم.
على أن المسلمين إن كانت لهم مصلحة في الموادعة والصلح بما يحقق لهم المنفعة ويدفع عنهم ضرر، فلا بأس أن يبادر المسلمون بالمصالحة عند الحاجة، فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عنهم معه - واختلفوا في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة عام الحديبية، فقد قيل: كانت أربع سنين - وقيل: كانت ثلاثا - وقيل: كانت عشرا - وذهب الإمام الشافعي إلى أنه لا يجوز أن يهادن المسلمون المشركين أكثر من عشر سنوات على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية - وذكر عن الإمام مالك أنه تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث، وإلى غير مدة.
وإذا حاقت بالمسلمين الخطوب والمخاطر، واستحوذ عليهم العدو الغادر، وضاقت بهم الدنيا، وكانوا قلة، ورأوا أنه لا حيلة لهم في مواجهة العدو لقوته وضعفهم، جاز لهم حينئذ أن يبدلوا له المال لموادعته ومهانته حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.
أما المشركين من غير أهل الكتاب فما ينبغي أن يقبل المسلمون منهم غير الإسلام أو القتال، لأن هؤلاء المشركين الذين يقدسون الأوثان، أو الذين يعتنقون المادية المحضة فلا يعترفون بإلهية ولا دين، لا جرم أنهم جناة في حق أنفسهم وفي حق عقولهم التي عطلوها تعطيلا - فما كان لهم بذلك أن يستأهلوا من تكريم، فلا تؤخذ منهم جزية، ولا ينبغي لهم الصلح أو المهادنة إلا الإسلام، لأنه مبعث الهداية والترشيد والخير للإنسانية جمعاء - بخلاف أهل الكتاب، إذ جعل الله لهم بعضا من اعتبار بقبول الجزية منهم وتركهم وما يدينون.
أما المسلمون إذا كانوا كثيرا، وكانت جموعهم بأعدادها وأجيالها تملأ بقاع الأرض –كحالهم في هذا العصر- فإنه ما ينبغي لهم أن يهادنوا أئمة الظلم والظلمات أو يوادعوهم ما دام هؤلاء الظالمون قد بلغوا على المسلمين، فسلبوا ديارهم وأوطانهم، وأذلوا شعبوهم وأجيالهم، واغتصبوا أموالهم وخيرات بلادهم، وداسوا شرفهم وكراماتهم، وبدلوا دينهم وثقافتهم وقيمهم تبديلا - إنه لا مساغ البتة –والحال على ما هو عليه من التعس والعار والذلة- أن يهادن المسلمون أعداء الله - بل على المسلمين في كل أنحاء العالم أن يلتئموا جميعا ليكونوا أمة واحدة متآزرة متعاونة، يشد بعضها بعضا، فيواجهوا بوحدتهم والتئامهم وقوتهم وعقيدتهم عدو الله وعدوهم في حرب حامية مستعرة، مهما عظم فيها البذل والتضحيات - حتى يكتب الله للمؤمنين العاملين الثابتين النصر، فتخفق راية الإسلام فوق ربوع البلاد وفيها

فلسطين والقوقاز وسمرقند وأثيوبيا والأندلس.
قوله: {وتوكل على الله إنه هو السميع العليم} أي فوض الأمر إلى الله، ليكون لك خير معين ومجير، ولكي يقويك وينصرك على الأعداء الظالمين إذا عدلوا عن الوفاء بالعهد فنقضوه، والله جل وعلا عالم بما يخفيه العباد من نوايا، وسامع لما يصدر عنهم من أقوال سواء في الخير أو الشر والكيد والتآمر؛ فالله محيط بذلك كله ليجازي الأشرار والمتربصين وأعداء دينه ما ينبغي لهم من سوء الحساب.
٦٢ - (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله} أي إن أراد المشركون أن يصالحوك على سبيل المخادعة؛ فقد وجب قبول ذلك الصلح؛ لأن الحكم إنما يبني على الظاهر وليس الباطن - فلا تخف من إبطانها المكر في جنوحهم إلى السم، فالله كافيك وعاصمك من مكرهم وكيدهم وخداعهم.
قوله: {هو الذين أيدك بنصره وبالمؤمنين} الله جل وعلا هو الذي قواك بنصره إياك على أعدائك - وقواك كذلك بالمؤمنين وهم الأنصار.
٦٣ - (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
قوله: {وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم} ألف بمعنى جمع - من الألفة وهي الاجتماع والالتئام - تألف فلانا وائتلفه؛ أي استماله - وألف الشيء؛ وصل بعضه ببعض - وألف قلبه؛ أي استماله ٧١.
لقد جمع الله بين قلوب العرب بعد أن كانت متنافرة متباغضة - وبعد أن كانوا على العصبية الجاهلية المقيتة، المبينة على محض التعصب السخيف، التعصب للعائلة والعشيرة في كل الأحوال، سواء في الحق أو الباطل - لقد جمع الله بين الناس في زمن ما كان يشيع فيه غير الحمية الظالمة المجانبة لأبسط بدهيات المنطق أو التفكير السليم، والتي لا تعبأ بالحق أو الصدق أو العدل أيما إعباء - حتى إذا جاء الإسلام العظيم بعقيدته الكريمة الحليمة السمحة، وتشريعه الواسع الميسور، اجتمع الناس ليكونوا أمة واحدة متساندة متعاونة منسجمة تجمعها عقيدة التوحيد الخالص، ويوحدها الشعور الفياض بالإيمان بالله وبصدق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم - وهكذا يجمع الله بين الناس عقب تنافرهم وتناحرهم والتجافي بينهم - يجمعهم على العقيدة وحدها دون غيرها من الأسباب - ولن يستطيع أيما أحد أن يؤلف بين قلوب العباد مهما بذل من الأسباب لتحقيق هذا المقصود - وهو قوله: {لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم} أي لو بذلت للتأليف بين قلوب العرب ملء الأرض من المال والذهب والعروض؛ لما جمعت بين قلوبهم بهذا السبب، ولما استطعت أن تبدد من قلوبهم رواسب المحبة الجاهلية وآثار التعصب الغاشم المنكود - ولا يغرن أحدا ما نتظاهر به الأمم فيما بينها من التئام وانسجام؛ فليس ذلك إلا الظاهر المموه المصطنع القائم على الأثرة المطلقة والتقديس الأكبر للأهواء والشهوات ومختلف المنافع الدنيوية العاجلة - ثم لا يلبث هؤلاء المتظاهرون أن يأتي عليهم الانهيار والدمار، أو التبدد والزوال ولو بعد حين.
قوله: {ولكن الله ألف بينهم} الله وحده الذي يجمع بين قلوب العباد لتكون متوادة متؤتلفة - وذلك بدينه الأكرم - دين الإسلام الذي جاء ليشيع المودة والرحمة بين الناس ولينشر في القلوب رباط المحبة والتآلف كيما يكون الناس جميعا على قلب رجل واحد فلا يجمعهم غير شعار العقيدة جامع - ولا يؤثر فيهم غير إحساس الإسلام - فلا يستجيبون بعد ذلك لنداءات الضلال والباطل - النداءات الظالمة المريبة التي يهتف بها الضالون المظلون من شياطين البشر - أولئك الذين تنثني صدورهم على الكيد للبشرية ليضلوها ضلالا، وليودوا بها متاهات الضياع والفساد والخسران.
قوله: {إنه عزيز حكيم} الله قوي لا يقهره شيء، بل إنه هو الذي يقهر كل أحد - وهو الذي يقهر أعداءه أعداء الدين من المخادعين والخائنين - وهو كذلك حكيم يعلم ما ينبغي أن تكون عليه الأفعال والأحكام والأمور ٧٢.
٦٤ - (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
قوله تعالى: {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ٦٤ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ٦٥ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن

يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين} روي عن ابن عباس قوله: أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثون رجلا، ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين} ٧٣ - وروي عن عبد الله بن مسعود قال: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر - فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه - وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة.

و {حسبك الله}، يعني كافيك الله وناصرك ومؤيدك، {ومن اتبعك من المؤمنين} من، في محلها وجهان، هما الرفع والنصب - أما الرفع: فهو بالعطف على لفظ الجلالة {الله} أي حسبك الله وحسبك المؤمنون، بمعنى: كفاتك الله وكفاك المؤمنون - وأما النصب: فهو على أن الواو بمعنى مع وما بعده منصوب - كما تقول: حسبك وزيدا درهم - والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرا ٧٤.

ذلك تحريض من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه على قتال الأعداء ومناجزتهم في شجاعة واستبسال لا يثنيهم عن ذلك تخاذل ولا خور - ويخبرهم إخبارا لا ريب فيه أنه كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم بالرغم من كثرة أعدادهم وجموعهم وعظيم قوتهم، في مقابلة قلة المسلمين أو ضعف طاقتهم المادية؛ فإنه في كل الأحوال، الله ينصر جنده المؤمنين الصابرين الثابتين على الحق، وعلى منهجه الحكيم ما داموا غير مفرطين ولا مقصرين، وقد أعدوا للقتال وما وسعهم الإعداد، وتهيأوا لهذه الوجيبة العظيمة ما استطاعوا.

قوله: {ومن اتبعك من المؤمنين} أي الله كافيك، والمؤمنين كافوك، أو حسبك الله وحسبك المهاجرين والأنصار - وعلى المعنى الآخر، أن الله كافيك وكافي من تبعك.

٦٥ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

قوله: {يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال} {حرض}، من التحريض وهو الحث والإحماء ٧٥ يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحث المؤمنين ويحضهم حضا على قتال الأعداء في شجاعة وإقدام؛ فلا يجبنوه ولا ينثنون ولا يتخاذلون ولا يولون الأدبار عند اللقاء؛ فإنه لا يولي دبره عند اللقاء خائرا إلا الأنذال والخاسرون - ومن أجل ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال وعند مواجهة عدوهم - ونظير ذلك ما قاله لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في أعدادهم وجموعهم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض).

قوله: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون} ذلك تبشير من الله للمؤمنين بالنصر إن واجه الواحد منهم العشرة من الكافرين - لسوف ينصر الله المؤمنين على قلتهم إن كانوا صابرين ثابتين محتسبين - ثم نسخ هذا التكليف وبقيت البشارة وذلك أنه شق عليهم حين فرض الله عليهم أن لا يفر الواحد منهم من العشرة من الكافرين في القتال - وروي عن ابن عباس قال: لما نزلت {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين} شق ذلك على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال: {الآن خفف الله عنكم} إلى قوله: {يغلبوا مائتين} وروي البخاري نحوه - وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين - ثم خفف الله عنهم فقال: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا} فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفا - فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا} فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم - وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

قال القرطبي في ذلك: حديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض - ولما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين -

نخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ - وهذا حسن ٧٦.

قوله: {بأنهم قوم لا يفقهون} أي بسبب أن الكافرين سخفاء، وأنهم تافهون أشقياء يقاتلون في سبل الشيطان، ويموتون من أجل الباطل؛ حيث الأهواء والشهوات والسفاسف الرخيصة، غير عابئين بمرضاة الله ولا مكترثين بأيما احتساب للثواب عنده؛ فلا يستحقون بذلك من الله نصرا - إنما النصر للمؤمنين الذين يقاتلون على بصيرة طلبا لمرضاة الله وسعيا لنشر الحق والعدل وإشاعة الفضيلة والرحمة بين الناس.

وقد بينا آنفا أن الله خفف عن المسلمين في عدد الذين يتوجب عليهم الثبات عند اللقاء فلا يفرون؛ فأوجب عليهم أن لا يفر الرجل من الرجلين، وأن تصبر العشرة للعشرين، والمائة للمائتين، فإنهم؛ إن أعدوا وصبروا وتوكلوا على الله، فإن الله ناصرهم، وهازم عدوهم ٧٧.

٦٦ - (الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

قوله: {يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال} {حرض}، من التحريض وهو الحث والإحماء ٧٨ يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحث المؤمنين ويحضهم حضا على قتال الأعداء في شجاعة وإقدام؛ فلا يجبنوه ولا ينثنون ولا يتخاذلون ولا يولون الأدبار عند اللقاء؛ فإنه لا يولي دبره عند اللقاء خائرا إلا الأنذال والخاسرون - ومن أجل ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال وعند مواجهة عدوهم - ونظير ذلك ما قاله لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في أعدادهم وجموعهم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض).

قوله: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون} ذلك تبشير من الله للمؤمنين بالنصر إن واجه الواحد منهم العشرة من الكافرين - لسوف ينصر الله المؤمنين على قلتهم إن كانوا صابرين ثابتين محتسبين - ثم نسخ هذا التكليف وبقيت البشارة وذلك أنه شق عليهم حين فرض الله عليهم أن لا يفر الواحد منهم من العشرة من الكافرين في القتال - وروي عن ابن عباس قال: لما نزلت {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين} شق ذلك على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال: {الآن خفف الله عنكم} إلى قوله: {يغلبوا مائتين} وروي البخاري نحوه - وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين - ثم خفف الله عنهم فقال: {لآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا} فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفا - نخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا} فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم - وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

قال القرطبي في ذلك: حديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض - ولما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين - نخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ - وهذا حسن ٧٩.

قوله: {بأنهم قوم لا يفقهون} أي بسبب أن الكافرين سخفاء، وأنهم تافهون أشقياء يقاتلون في سبل الشيطان، ويموتون من أجل الباطل؛ حيث الأهواء والشهوات والسفاسف الرخيصة، غير عابئين بمرضاة الله ولا مكترثين بأيما احتساب للثواب عنده؛ فلا يستحقون بذلك من الله نصرا - إنما النصر للمؤمنين الذين يقاتلون على بصيرة طلبا لمرضاة الله وسعيا لنشر الحق والعدل وإشاعة الفضيلة والرحمة بين الناس.

وقد بينا آنفا أن الله خفف عن المسلمين في عدد الذين يتوجب عليهم الثبات عند اللقاء فلا يفرون؛ فأوجب عليهم أن لا يفر الرجل من الرجلين، وأن تصبر العشرة للعشرين، والمائة للمائتين، فإنهم؛ إن أعدوا وصبروا وتوكلوا على الله، فإن الله ناصرهم، وهازم عدوهم ٨٠.

٦٧ - (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: }ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ٦٧ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٨ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم{ روي الإمام أحمد عن أنس (رضي الله عنه) قال: استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأساري يوم بدر - فقال: (إن الله قد أمكنكم منهم) فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم - فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم - ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس) فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم - فاعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم - فقال للناس مثل ذلك - فقام أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فقال: يا رسول الله ترى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء - قال: فذهب عن وجه رسوله الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء - قال: وأنزل الله }لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم{ ٨١ وعلى هذا نزلت الآية يوم بدر عتابا من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وقوله: }ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض{ }يثخن{، يبالغ في قتل المشركين - وهو من الإثخان، ومعناه كثره القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنته الجراحات إذا أوهنته حتى تثقل عليه الحركة - وأثخنه المرض إذا أثقله ٨٢ - والمعنى: ما كان ينبغي لكم وما استقام أن تأسروا المشركين في بدر ثم تفادوهم بالمال قبل أن تثخنوا فيهم - وهو أن تبالغوا في قتلهم لإضعافهم وكسر شوكتهم كيلا يستطيعوا بعد ذلك أن يقاتلوكم }تريدون عرض الدنيا{ أي تبتغون بمفاداتهم بالمال منافع الدنيا وهو ما فيها من مال ومتاع }والله يريد الآخرة{ أي يريد الله لكم ما هو خير لكم وأنفع وأدوم، وهي الآخرة بنعيمها وجناتها وما فيها من رضوان الله ورحماته العاطرة الورود.

قوله: }والله عزيز حكيم{ أي إذا ابتغيتم الدار الآخرة فسوف لا يظهر عليكم الأعداء، لأن الله قوي لا يقهره ولا يغلبه غالب - وهو كذلك حكيم في تدبير أمر الخلق والعباد، فلا يعتور تدبيره ولا تصرفه شيء من خلل أو اضطراب.

٦٨ - (لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله: }لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم{ }كتاب{ مرفوع بالابتداء، و }من الله{، صفة له - و }سبق{ صفة أخرى لكتاب - أو حال من المضمر الذي في الظرف - وخبر المبتدأ الذي هو كتاب محذوف - وتقديره: لولا كتاب بهذه الصفة لمسكم ٨٣.

أما كتاب الله السابق ففي المراد فه عدة أقوال:

القول الأول: إن الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب بالذات وقيل: عموم الذنوب - وذلك لما رواه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر في أهل بدر: (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم؟).

القول الثني: إن الكتاب السابق هو ألا يعذبهم الله وفيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

القول الثالث: إن الكتاب السابق هو ألا يعذب الله أحدا بذنب آتاه وهو جاهل.

القول الرابع: إن الكتاب السابق هو مما قضى الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

القول الخامس: إنه ما سبق من إحلال الغنائم، فغنها كانت محرمة على ما قبلنا.

القول السادس: إن هذه المعاني جميعها داخلة في عموم اللفظ ٨٤.

٦٩ - (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: }فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا{ أباح بذلك أكل الغنائم المأخوذة من المشركين في الحرب - وقد تكلمنا سابقا عن حكمة الإسلام في أخذ الأموال من المشركين في الحرب، وأن الغرض من ذلك إضعاف الأشرار المفسدين في الأرض، وكسر شوكة الظلم والظالمين،

الذين يسعون في الأرض خرابا وفسادا؛ فهم إنما يستطيعون الإفساد والتخريب بما لديهم من أسباب، يأتي في أهمها وفي طليعتها المال، الذي يستطيع به الظالمون الغاشمون من تقوية أنفسهم ليجترءوا على محاربة الله ورسوله والمؤمنين، وعلى القدرة على صد الإسلام بمختلف الوسائل في التشويه والتشكيك - فيما ينبغي لهؤلاء الضالين المفسدين في الأرض أن يؤتمنوا على الأموال؛ لأنهم ضالعون في البغي والشر؛ فهم غير موثوق بهم - إنما الذين يوثق بهم ويؤتمنون على الأموال وغيرها من الأمانات على اختلافهم، هم المسلمون الصادقون وحدهم؛ فهم أجدر أن يمسكوا بالمال ليجعلوه في وجوه الخير والبر والصلاح.

قوله: {واتقوا الله إن الله غفور رحيم} أي خافوه باجتناب نواهيه والانزجار عما حذر منه وحرمه عليكم - وفي كل الأحوال فإن الله بعباده لذو مغفرة للناس على تقصيرهم؛ إذ يمحو عنهم الخطايا والذنوب ويستر عليهم الزلات والعيوب - وهو سبحانه {رحيم} الرحيم: الكثير الرحمة ٨٥، لا جرم أن الله بالغ الرحمة بالخلق، عظيم الصفح عما يجترحونه في ك الآناء من الخطايا والسيئات - وهو سبحانه بفضله وسعة امتنانه يتجاوز عن مساءات المسيئين، وعن زلات أهل الزلل ٨٦.

٧٠ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {يا أيها النبي قل من في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتيكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ٧٠ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم}.

جاء في البخاري عن أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه - فقال: {لا والله لا تذرون درهما} وذكر أن فداء كل واحد من الأساري كان أربعن أوقية إلا العباس فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أضعفوا الفداء على العباس) وكلفه أن يفدي ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بم الحارث - فادى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقية، وأخذ منه عشرون أوقية وقت الحرب - وذلك أنه كان أحد العشرة الذين ضمنوا الإطعام لأهل بدر - فبلغت النوبة إليه يوم بدر فاقتتلوا قبل أن يطعم، وبقيت العشرون معه فأخذت منه وقت الحرب، فأخذ منه يومئذ مائة أوقية وثمانون أوقية - فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد تركتني ما حييت أسأل قريشا بكفي - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أين ذهب الذي تركته عند امرأتك أم الفضل؟) فقال العباس: أي ذهب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنك قلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك) - فقال: يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ قال: (الله أخبرني) قال العباس: أشهد أنك صادق - وما علمت أنك رسول الله قط إلا اليوم - وقد عملت أنه لم يطعك عليه إلا عالم السرائر - أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله - وكفرت بما سواه، وأمر ابني أخويه فأسلما؛ ففيهما نزلت {يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى} وكان الذي أسر العباس أبا اليسر كعب بن عمرو أخا بني سلمة وكان رجلا قصيرا وكان العباس ضخما طويلا - فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (لقد أعانك عليه ملك) ٨٧.

ومعنى الآية: قل يا محمد لمن في يديك وفي أيدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم ما أخذ من الفداء: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاما يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء، ويؤتكم أزيد من ذلك، أنه يغفر لكم ما جنيتموه واجترمتموه من الخطايا ومن إشراككم بالله وقتالكم النبي وأصحابه - والله عز وعلا غفار للذنوب والخطايا، وهو سبحانه رحيم بالعباد أن يعاقبهم على المعاصي بعد التوبة.

٧١ - (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله: {وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا من قبل فأمكن منهم} أي وإن كان هؤلاء الأساري فيما أظهروه لك من الإسلام يريدون الخداع والارتداد والنكث بما بايعوك عليه من الإسلام، والجنوح لدين آبائهم من الوثنية والشرك؛ فقد كانوا من قبل بدر من الخائنين؛ إذ كانوا مشركين، وكانوا يمكرون بك ويقاتلونك والذين آمنوا معك - لكن الله بعد ذلك أمكن منهم؛ إذ أظهركم عليهم وأظفركم بهم.

قوله: {والله عليم حكيم} الله يعلم ما تصير إليه أمور العباد وما يصلح عليه أمرهم، وهو حكيم فيما قضى به وأمر - فما من أمر أو زجر

أو نهي او تشريع إلا ويصدر عن حكمة بالغة فيها الخير للعباد ٨٨.
٧٢ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بضع والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ٧٢ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}.

هذا بيان من الله بأصناف المؤمنين، إذ قسمهم إلى ثلاثة أصناف وهم:

الصنف الأول: المهاجرون، الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لينصروا الله ورسوله وإقامة دينه وترسيخ منهجه في الأرض - وبذلوا في ذلك أنفسهم وأموالهم - وذلك كله مقتضى قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله}.

الصنف الثاني: الأنصار - وهم المسلمون من أهل المدينة الذين أووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال مع المؤمنين المهاجرين لصد الشرك والمشركين - وكلا هذين الصنفين من المؤمنين {بعضهم أولياء بعض} أولاء من الولاية - وقيل: المراد بها هنا الميراث - وهو قول ابن عباس - وبذلك جعل الله سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة، فالقريب الذي آمن ولم يهاجر، فإن ما كان يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر - فكانوا بذلك يتوارثون إرثا مقدما على القرابة حتى نسخ الله ذلك بآية المواريث وبقوله تعالى: {وأولوا الأرحام بعضهم إلى ببعض}.

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عبد الله البجلي (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة).

وقيل: المراد بالولاية النصرة والمعونة - والمقصود أن المسلمين جميعا إخوة، سواء فيهم المهاجرون والأنصار - فهم يد واحدة على الأعداء - وهذا هو الراجح والصواب، فإن لفظ الولاية غير مشعر بمعنى الميراث بل إنه مشعر بالقرب والمناصرة - وذلك هو شأن المؤمنين الصادقين في كل زمان، فغنهم إخوان متناصرون ومتآزرون.

الصنف الثالث: وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا لب أقاموا في بواديهم وفي مكة - وهم المعنيون بقوله: {والذين آمنوا ولم يهاجروا}.

قوله: {ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا} أي هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا معكم ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام، فإنه ليس لكم أيها المؤمنون المهاجرون {من ولايتهم من شيء} يعني من نصرتهم وإعانتهم أو ميراثهم {حتى يهاجروا} فإن هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، كان لهم ما للصنف الأول وهم المؤمنون المهاجرون.

قوله: {وإن استنصركم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق} أي إن طلب هؤلاء الأعراب الذين آمنوا ولم يهاجروا -النصرة منكم في قتال عدو لهم في الدين فانصروهم، فغنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، أما إن طلبوا منكم النصرة في قتال قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أو مهادنة إلى مدة معلومة، فلا تخفروا ٨٩ ذمتهم، ولا تنقضوا أيمانكم معهم.

قوله: {والله بما تعلمون بصير} وهذا تحذير من الله للمؤمنين أن يتعدوا ما شرعه لهم وأوجبه عليهم.

٧٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

قوله: {والذين كفروا بعضهم أولياء بضع} أي أن الكافرين بعضهم أعوان بعض وأنصاره - وبعضهم أحق ببعض من المسلمين - فبعضهم أحق ببعض في النصرة والعون وفي الميراث، هم أحق ببعضهم في ذلك من قرابتهم من المسلمين - وبذلك قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون تبعا لملتهم - وعلى هذا لا

يكون مؤمنا من كان مقيما بدار الحرب ولم يهاجر - وقد ذكر أن الرجل كان ينزل بين المسلمين والمشركين، يقول إن ظهر هؤلاء كنت معهم - وإن ظهر هؤلاء كنت معهم، فأبى الله عليهم ذلك - وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين) ثم قال: (لا يتراءى نارهما)، وأخرج أبو داود عن حبيب بن سليمان بن سمرة بن جندب قال: ما بعد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جامع المشرك وسكن معه فغنه مثله).

وفي انقطاع الولاية بمعنى الميراث، بين المسلم والكفار أخرج الحاكم في مستدركه عن أسامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافرا، ولا كافرا مسلم) ثم قرأ: {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} - وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتوارث أهل ملتين شتى).

قوله: {إلا تفعلوه تكن فتنة في ارض وفساد كبير} {تكن}، تامة بمعنى: تقع - وهي لا تفتقر إلى خبر - وفتنة مرفوعة به ارتفاع الفاعل بفعله ٩٠ - يعني إذا لم تفعلوا ما أمرتكم بع من التعاون بينكم، والنصرة على الدين {تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} والمراد بالفتنة هنا، اختلاط المسلمين بالكافرين في الوقت الذي يكون فيه البأس والشوكة للكفر والكافرين، لا جرم أن ذلك سبب كبير وجد خطير يفضي في الغالب بالمسلمين تحت سطوة الشرك أن يصيروا مشركين، أو يتبدل فيهم كثير من سمات الإسلام بقيمه وأخلاقه وخصاله؛ فيكونوا نظراء الكافرين أنفسهم - وذلك هو شأن المسلم الذي يستظل بظل الكفر والكافرين إذا لم يجد لنفسه من حوله من صحبة المسلمين من يؤنسه ويذكره بأمور دينه، فلسوف تجتاحه محاذير التفكك والانحلال من ربقة الإسلام شيئا فشيئا - وتلكم فتنة كبيرة - وذلكم فساد عريض - لكن المسلم إذا بات في بلده وأهله غير آمن على نفسه من عدوان الظالمين المتسلطين من حكام المسلمين - الحكام الطغاة المجرمين الذين يسوسون المسلمين بالقهر والقسر والطغيان، ويحكمون بغير ما أنزل الله؛ فلا حرج عليه عندئذ وفي مثل هذا الظرف العجيب الغريب الذي يهجر فيه المسلم بلده ليأوي إلى ديار الكافرين حيث الأمن والاستقرار - والمسلم في ذلك إنما يختار لنفسه أهون الضررين ٩١.

٧٥ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتب الله إن الله بكل شيء عليم} أي الذين آمنوا بالله ورسوله من بعد الحديبية وبيعة الرضوان؛ فهؤلاء أقل رتبة ممن هاجر الهجرة الأولى؛ لأن الثانية وقع فيها الصلح وهدأت الحرب مدة عامين ثم كان فتح مكة - وفي الحديث: (لا هجرة بعد الفن) فمن آمن وهاجر بعد ذلك؛ فإنه يلتحق بالمؤمنين وهم المهاجرين السابقون - وهذا معنى قوله: {فأولئك منكم} أي في النصر والموالاة؛ فهم بذلك منكم في الولاية؛ إذ يجب لهم عليكم من الحق والنصرة في الدين مثل الذي يجب لكم عليهم ولبعضكم على بعض.

وقوله: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} وليس المراد بأولي الأرحام خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة؛ وإنما يدلون بوارث كالخالة والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات ونحوهم - بل إن الآية عامة تشمل جميع القرابات - وفيهم ذوو الأرحام بالاسم المخصوص، على الخلاف في توريث هؤلاء - وفي الجملة: فغن أولي القرابات أولى بالتوارث - وهذا نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة.

أما {أولوا الأرحام}، وهم من لا سهم لهم في الكتاب الحكيم وليسوا بعصبة كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة، والخالة، والعم أخ الأب للأم، والجد أبي الأم، والجدة أم الأم، ومن أولى بهم، ففي توريث هؤلاء خلاف؛ فقد قيل: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام - وهو قول المالكية والشافعية، وقد روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وابن عمر، وهو رواية عن علي، وهو قول مكحول والأوزاعي - ووجه هذا القول: الاستناد إلى قوله: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى بعض} وهذا مجمل فيما

حصلت فيه الأولوية - فلما قال بعدها: {في كتاب الله} كان معناه في الحكم الذي بينه الله في سورة النساء، فصارت هذه الأولوية مقيدة بما بينه الله من أحكام ذكرها في كتابه الحكيم - وهذه الأحكام هي ميراث العصبات دون غيرها، فلزم بذلك ألا نتعدى المراد من هذا المجمل إلى توريث دوي الأرحام.

وذهب آخرون من أهل العلم إلى توريث أولي أرحام - وهو قول الحنيفة، وأحمد وإسحاق، وقال به من الصحابة: عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الدرداء وعائشة، وعلي في رواية عنه.

واحتجوا بظاهر هذه الآية: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} وقوله تعالى: {للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون} واسم القرابة يشمل بإطلاقه ذوي الأرحام.

واحتجوا من السمة بما أخرجه أبو داود والدارقطني عن المقدام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ترك كلا فإلي، ومن ترك مالا فلورثته، فأنا وارث من لا وارث له، أعقل عنه وأرثه، والخال وارث من لا وارث له، يعقل عنه ويرثه).

وروي الدارقطني عن طاووس قال: قالت عائشة (رضي الله عنها): (الله مولي من لا مولى له، والخال وارث من لا وارث له) - وروي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الخال وارث).

واستدلوا بالمعقول على توريث أولى الأرحام فقالوا: إن ذوي الأرحام أولى بالتوريث من المسلمين، لأنهم قد اجتمع لهم سببان وهما القرابة والإسلام، فأشبهوا تقديم الأخ الشقيق على الأخ للأب، فهم أولى ممن له سبب واحد وهو الإسلام.

قوله: {إن الله بكل شيء عليم} اله عليم بالأشياء، ما ظهر منها وما بطن - وهو سبحانه أعلم بما ينفع الناس وما يصلح عليه حالهم من أحكام وتشريع - وما شرعه الله لعباده لهو الحق والصواب - وليس فيه شيء من البعث او الباطل ٩٢.

٩ سورة التوبة:

سورة التوبة:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وهي عظيمة في معانيها ومضامينها ومشاهدها وقصصها، ففيها فيض من الأحكام والدروس والمواقف والأخبار نعرض لها في هذا البيان الإجمالي المقتضب.

فالسورة تتضمن السبب في كونها غير مبدوءة بالبسملة - ولها عدة أسماء هي: براءة، والتوبة، والمقشقشة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدمدمة، وسورة العذاب - فهي تقشقش ١ من النفاق، أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم ٢ - وعن حذيفة (رضي الله عنه) قال: إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب - والله ما تركت أحدا إلا نالت منه ٣.

وفي السورة تبرؤ من الله ورسوله من العهد الذي كان بين المسلمين والمشركين على نحو ما نبينه تفضيلا في موضعه إن شاء الله.

وفي السورة ذكر للأشهر الحرام، وبيان لمعناها وحكم القتال فيها.

وفي السورة تنديد بالغ بالاستيثاق بالمشركين، فإنهم ماكرون خادعون لا يرقبون في المؤمنين إلا ولا ذمة.

وفي السورة تحريض على قتال المشركين الظالمين إذا ما نكثوا العهود مع المسلمين فباءوا بالغدر والخيانة.

وفي السورة تحذير شديد من الافتتان بأولي القربى من الآباء والأبناء والإخوة وكذا الزوجات والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن.

وتندد السورة بإشراك أهل الكتاب الذين اتخذوا عزيزا والمسيح والأحبار والرهبان أربابا من دون الله.

وتتضمن السورة كذلك تحذيرا رعيبا من فظاعة الكنز للمال إذا لم تؤد زكاته، فهو سحت يحمي عليه في نار جهنم لتكوى به جلود الذين يمنعون الزكاة من الكانزين.

وأما الله في السورة بقتال المشركين كافة مثلما يقاتلون المسلمين كافة - وفيها ذكر كريم ومؤثر لقصة الهجرة، إذ أوى النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق إلى الغار فكانت المعجزة الظاهرة والخبر المثير.

ويتناول السورة بيانا مجملا للصدقات، والذين يستحقونها وهم الأصناف الثمانية.

ونتناول أيضا الكشف عن المنافين بما يفضحهم فضها ويعريهم للسامعين والناظرين تعرية تميط اللثام عن خبثهم وفساد قلوبهم ومقاصدهم.

وفي السورة في مقابلة ذلك -إطراء للمؤمنين والمؤمنات، لأن بعضهم أولاء بعض في فعل الطاعات والنعي عن المعاصي والمنكرات.

وفي السورة إخبار عن مسجد الضرر الذي يتدسس من خلاله المنافقون ليفتنوا المريب تحذيرا - ومن أبرز ما حوته السورة ذكر الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابهم من اجل ذلك ندم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، لفرط ما غشيهم من الأسف على ما فرطوا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تاب الله عليهم.

إلى غير ذلك من المسائل والأحكام والأخبار التي نبينها تفضيلا في موضعها بمشيئة الله.

١ - (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

بيان تفصيلي للسورة

قوه تعالى: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عهدتم من المشركين ١ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين}.

هذه السورة العظيمة من أواخر ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روي البخاري عن البراءة قال: أخر آية نزلت {يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة} وآخر سورة نزلت براءة - وإنما لم يبسمل في أولها، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه - وقد روي الترمذي بإسناده عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر {بسم الله الرحمن الرحيم} ووضعتموها في السبع الطوال - ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: (ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا) وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدية وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكان قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر {بسم الله الرحمن الرحيم} ووضعتها في السبع الطوال ٤.

قوله: {براءة من الله ورسوله} {براءة}، مرفوع خبر لمبتدأ محذوف - وتقديره: هذه براءة - وقيل: براءة مرفوع على أنه مبتدأ وخبره قوله: {إلى الذين عهدتم} ٥ والبراءة تعني انقطاع العصمة - يقال: برئت من فلان أبرأ براءة، أي انقطعت بيننا العصمة.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وأرجفوا بالأراجيف، جعل المشركون ينقضون العهد، فنبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم العهد.

وإذا قل: كيف يجوز للنبي أن ينقض العهد؟ فإنه يجاب عن ذلك بأنه يجوز له نقض العهد مع المشركين على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن تظهر منهم الخيانة فيخشى معها غدرهم وضررهم فينبذ لهم العهد حتى يستوي المؤمنون والكافرون مع معرفة نقض العهد - وهو ما بيناه سابقا في النبذ على سواء عند الخوف من خيانة العدو.

الوجه الثاني: أن يكون الإمام قد شرط لهم أو لبعضهم أن يقرهم على العهد فيما ذكر من المدة إلى أمر الله تعالى بقطعه فلما أمر بقطعه قطعه لأجل الشرط.

الوجه الثالث: أن يكون مؤجلا إلى مدة معلومة، فإذا قضي الأجل انقضى العهد - وفيما وراء هذه الأحوال الثلاثة لا يجوز نقض

العهد ٦.
٢ - (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)
قوله: {فسيحوا في الأرض أربعة أشهر} سيحوا من السياحة وهي الضرب في الأرض والبعد عن المدن والعمران مع الإقلال من الطعام والشراب ٧ - والمعنى: اذهبوا في الأرض كيف شئتم - وليس ذلك من باب الأمر؛ بل المقصود الإباحة فهي إطلاق، لهم وإعلام بحصول الأمان لهم وزوال الخوف عنهم؛ فهم بذلك يسيحون في الأرض آمنين مطمئنين من القتل في هذه المدة - ويستفاد من قوله: {أربعة أشهر} أن من كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر حطها إلى أربعة ومن كانت مدته أقل من أربعة أشهر رفعها إلى أربعة.
والمراد من ذلك تنذير المشركين وتحذيرهم؛ فيتفكرون خلال هذه المدة؛ ليعلموا أنه لا حيلة لهم في مواجهة المسلمين وقتالهم؛ فليس لهم إلا الإسلام؛ ليكونوا مع بقية المسلمين سواء في العقيدة والدين، أو الجزية؛ فيأمنون على أنفسهم وأموالهم وعبادتهم وإقامتهم - وإن أبوا؛ فلا يستحقون بذلك عنه غير المواجهة والقتال.
قوله: {واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين} ذلك إعلان للمشركين أنهم غير فائتين ولا هاربين من إحاطة الله وقدره وإن أمهلهم الله؛ فإنه في كل الأحوال محيط بهم، وهو مخزيهم بإيجاب قتلهم وأسرهم في الدنيا، وتعذيبهم بناره في الآخرة.
٣ - (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)
قوله تعالى: {وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريئ من المشركين فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم} {وأذان}، معطوف على براءة - وفيه الوجهان من الإعراب اللذان ذكرا في {براءة} وهو أنه خبر مبتدأ محذوف - أو أنه مبتدأ، وخبره قوله: {إلى الناس يوم الحج} ٨ والأذان، معناه الإعلام - وهذا إعلام صادر من الله ورسوله إلى الناس وهم جميع الخلق {يوم الحج الأكبر} واختلفوا في المراد بالحج الأكبر على قولين - أحدهما: أنه يوم عرفة، وهو مروي عن ابن عباس وعمر وعثمان وسعيد بن المسيب وابن الزبير وعطاء وطاووس، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي؛ فقد احتجوا بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خطيب عشية عرفة فقال: (أما بعد، فإن هذا يوم الحج الكبر).
ثانيهما: أنه يوم النحر، الذي هو أفضل المناسك وأظهرها - وهو رواية عن أبي عباس، وهو قول المغيرة بن شعبة وسعيد بن جبير –واحتجوا بما رواه أبو داود عن ابن عكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر في الحجة التي حج فيها فقال: (أي يوم هدا؟) فقالوا: يوم النحر - فقال: (هذا يوم الحج الأكبر).
وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر بالصديق (رضي الله عنه) فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الكبر يوم النحر - وقيل: يوم الحج الكبر، أيام منى كلها.
أما سبب التسمية بالحج الكبر؛ فلأن العمرة تسمى الحج الأصغر - وهذا هو الحج الأكبر - وقيل: سمي بذلك؛ لاجتماع المسلمين والمشركين فيه؛ فقد حجوا جميعا في تلك السنة - وقيل غير ذلك ٩.
قوله: {أن الله بريئ من المشركين ورسوله} رسوله، مرفوع بالابتداء، وخبره محذوف وتقديره: ورسوله بريئ - وقيل: مرفوع بالعطف على الضمير المرفوع في {بريئ} ١٠ على أن الفرق بين قوله: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين} وقوله: {أن الله بريئ من المشركين ورسوله: }من وجهين:
الوجه الأول: أن المقصود من الكلام الأول: الإخبار بثبوت البراءة - أما المقصود من الكلام الثاني: إعلام جميع الناس بما حصل وثبت.
الوجه الثاني: أن الله تعالى قد أظهر في الكلام الأول البراءة عن المشركين الذين عاهدوا ونفضوا العهد - أما في هذه الآية: فقد أظهر الله فيها البراءة عن المشركين من غير أن يصفهم بوصف معين، وفي ذلك تنبيه إلى أن الموجب لهذه البراءة هو كفرهم وشركهم ١١.

قوله: {فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله} يدعوا الله المشركين إلى التوبة من الشرك والضلال، فإن تابوا فهو خير لهم، لما يفضي إليه ذلك من النجاة في الدارين - لكنهم عن تولوا واستمروا على شركهم وضلالهم وعتوهم؛ فإنهم غير معجزين؛ بل إن الله قادر عليهم؛ فهم في قبضته وتحت قهره وجبروته، فلا يعز عليه إهلاكهم وتدميرهم.

قوله: {وبشر الذين كفروا بعذاب أليم} لفظ البشارة ورد هنا على سبيل التهكم والاستهزاء بالمشركين الذين ظلموا أنفسهم وسفهوا عقولهم بشركهم وضلالهم - والمراد الإخبار من اله بأن لهم العذاب الشديد في الآخرة فوق ما يحيق بهم من العذاب في الدنيا بالإذلال والخزي ١٢.

قال محمد بن إسحاق في هذا الصدد عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن علي قال: لما نزلت براءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل: يا رسول الله لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: (لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي) ثم دعا عليا فقال: (اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له إلى مدته) فخرج علي (رضي الله عنه) على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء ١٣ حتى أدرك أن أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور - ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو إلى مدته - فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان - ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وعن أبي الصهباء البكري قال: سألت عليا عن يوم الحج الأكبر - فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس يوم الحج، وبعثني معه بأربعين آية من براءة، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلي فقال: قم يا علي فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقمت فقرأت عليهم أربعين أية من براءة، ثم صدرنا ١٤ فأتينا منى، فرميت الجمرة، ونحرت البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمعة لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط ١٥ أقرأها عليهم ١٦.

٤ - (إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين} الاستثناء من حيث عودة فيه قولان - أحدهما: أنه عائد إلى {براءة} والتقدير هو {براءة من الله ورسوله} إلى المشركين المعاهدين إلا من الذين لم ينقضوا العهد.

ثانيهما: أنه مستثنى من قوله: {فسيحوا في الأرض} لأن الكلام خطاب للمسلمين فيكون المعنى: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فقالوا لهم: سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر - وهذا قول الزمخشري في الكشاف.

قوله: {ثم لم ينقضوكم شيئا} أي لم يقع منهم أيما نقص في الوفاء بعدهم {ولم يظهروا عليكم أحدا} أي لم يعانوا عليكم أحدا من أعدائكم {فأتموا إليهم عاهدهم إلى مدتهم} أي أدوا عهدهم الذي عاهدتموهم إلى مدتهم وإن كانت أكثر من أربعة أشهر - فلا تعاملوا الأوفياء معاملة الناكثين الغادرين بعد المدة المذكورة.

قال ابن عباس في هذا الصدد: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم إليهم عهدهم.

قوله: }إن الله يحب المتقين{ الذين يوفون بعدهم؛ فإن من شيم الإيمان وعلائم التقوى: الصدق في القول، والوفاء في العهود والمواثيق ١٧.

٥ - (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: }فإذا انسلخ الأشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم{ انسلاخ الأشهر الحرم؛ أي مضيها - سلخت الشهر: أمضيته وصرت في آخره ١٨.

واختلف العلماء في المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنها الأشهر الحرم المعروفة التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب؛ فهي ثلاثة سرد، وواحدا فرد - وعلى هذا المعنى وجب الإمساك عن قتال من ليس له عهد من المشركين حتى انسلاخ الأشهر الحرم وهي مدة خمسين يوما؛ لأن النداء بذلك كان يوم النحر؛ فكان الباقي من الأشهر الحرم التي هي المسودة خمسين يوما تنقضي بانقضاء شهر محرم - وقد أمرهم الله بعد مرور هذه المدة أن يتقلوا المشركين حيث يجدونهم - وهو قول جماعة، وهي رواية عن ابن عباس.

القول الثاني: إن المراد بها شهور العهد وهي الأربعة المشار إليها في قوله: }فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم{ وسميت حرما؛ لأن الله حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين أو التعرض لهم بأذى.

القول الثالث: إنها الأشهر المذكورة في قوله: }فسيحوا في الأرض أربعة أشهر{ وهي رواية أخرى عن ابن عباس، وقول جماعة آخرين.

قوله: }فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم{ المشركون عام في كل مشرك - لكن هذا العموم مخصوص بالسنة؛ فخرج من المشركين في وجوب القتال كل من النساء والصبيان والرهبان والعاجزون عن القتال لهرم ونحوه - وقد مر تفصيل هذه المسألة في سورة البقرة - وهو كذلك مخصوص بأهل الكتاب؛ فإنهم يجوز لهم أن يعقد لهم المسلمون عقد الذمة على أن يؤدوا الجزية.

قوله: }حيث وجدتموهم{ أي في كل موضع يجدونهم فيه - وقيل: هذا عام وقد خص بتحريم القتال في الحرم - وهو قول أبي حنيفة محتجا بقوله تعالى: }ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإنه قتلوكم فاقتلوهم{.

قوله: }وخذوهم واحصروهم{ المراد بالأخذ هنا، الأسر، فإن أسروهم؛ قضوا فيهم ما يرونه أصلح، سواء في ذلك المن أو الفداء أو القتل - وذلك منوط بالإمام ومعه الفئة الظاهرة من أهل العلم والاجتهاد.

أما حصرهم: فالمراد به منعهم من الخروج أو التصرف في البلاد.

قوله: }واقعدوا لهم كل مرصد{ }كل{، منصوب، على الظرف ١٩ والمرصد، هو موضع الرصد - ومنه الرصد؛ أي الراقب - والترصد معناه الترقب ٢٠ والمراد بالرصد هنا؛ الموضع الذي يرقب فيه العدو؛ أي اقعدوا لهم على كل طريق يمضون فيه إلى البيت أو الصحراء أو التجارة.

قوله: }فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم{ أي تابوا عن الشرك وخلعوا عن أنفسهم هوى العبودية لغير الله من الأصنام ونحوها - فآمنوا بالله ورسوله - وثمة شرطان آخران مضافان للإيمان بالله ورسوله لتتحقق التوبة الصحيحة فيخلي المسلمون سبيلهم -

أولهما: الصلاة - ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة أو سائر الفرائض استحلالا أو جحدا؛ فقد كفر - أما من تركها من غير جحد لها ولا استحلال، بل على سبيل التهاون والتثاقل أو الكسل؛ فإنه يكون فاسقا لكنه يقتل حدا وعقوبة، في قول مالك والشافعي؛ ويقتل كفرا، في قوله أحمد وإن لم يكن جاحدا لها - وقال أبو حنيفة: لا يقتل بل يسجن ويضرب حتى يصلي.

وثانيهما: الزكاة؛ فغنها تؤخذ من ذوي النصاب قسرا إن أبوا، ويقاتلون عليها قتالا إن منعوها؛ فهي اشرف أركان الإسلام وواجباته بعد الشهادة والصلاة لما فيها من منفعة للفقراء والمساكين والمحاويج.

ولهذا اعتمد الصديق (رضي الله عنه) في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية، وعلى غيرها من أدلة السنة - ومنها ما جاء في الصحيحين

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة).

قوله: {فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم} أي إن تحقق الشرط وهو توبتهم عن الشرك وأداؤهم الصلاة وإيتاؤهم الزكاة، فدعوهم يتصرفون في بلادكم ويدخلون البيت الحرام، فغن الله يغفر لمن تاب عن الذنوب وأناب إلى ربه بالطاعة وحسن العبادة - ذلكم وأن الله رحيم بعباده يتجاوز عن سيئاتهم وخطيئاتهم، ويسكنهم فسيح جناته، ويغشاهم بفضله ورضوانه ٢١.

٦ - (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وإن احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذالك بأنهم قوم لا يعلمون} {أحد}، فاعل لا مبتدأ، مرفوع بفعل مقدر دل عليه الظاهر - وتقديره: وإن استجارك أحد من المشركين استجارك؛ لأن (إن) الشرطية تقتضي الفعل ٢٢ - واستجارك أي سألك جوارك، والجوار معناه الأمان والذمام والعهد ٢٣ - وكلام الله يراد به القرآن - فيكون المعنى: إذا استأمنت، أو طلب منك الأمان والذمام أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع منك القرآن عسى أن يعلمه ويتعظ به، فإن آمن به وصدق فحسن، وإن أبي ولم يتعظ مما سمعه منك، فرده إلى مأمنه حيث يقيم ويأمن، وهو أن يلحق بداره وقومه من المشركين.

على أن ذلك فيمن يأتي المسلمين مبتغيا سماع القرآن والوقوف على منهج الاسلام وتعاليمه - أما الذي يأتي للتجارة أو مصالحه الأخرى فللمسلمين أن ينظروا في إجارته أو عدمها تبعا لما تقتضيه مصلحهم ٢٤.

ويستوقفنا مثل هذا المعنى حواه القرآن الحكيم، إذ يوجب أن تعطي الفرصة كاملة للمشركين والضالين كيما يستمعوا إلى رسالة الإسلام استماعا مباشرا وعن كثب من أجل أن تطرق أسماعهم وأفئدتهم حقائق هذا الدين الكريم المفضل بما يحمله للبشرية من معالم رصينة في الأخوة والرحمة والمنطق السليم، وقواعد ثوابت في الحق والخير والعدل - ومقتضى ذلك: أن الكافر المرتاب الذي يتيه في جهالته المطبقة للإسلام والذي تحيط به المعوقات والفتن والشبهات المصطنعة والمفتراة على الإسلام -إذا جاء يطلب الحجة من المسلمين على حقيقة دينهم وصدق رسالتهم، قبلوه وعرضوا عليه منهج الإسلام بعقيدته السمحة المرغوبة، وشرعه المتكامل الميسور، وتصوره المحبب الرائع الذي يتفق وفطرة البشر وطبائع الناس وينسجم وطبيعة هذا الكون الرتيب المتسق - لا جرم أن ذلك برهان ساطع على تكريم الإسلام للإنسان مسلما أو غير مسلم - وتكريم الإنسان المسلم معلوم في تصور الإسلام - وفي تشريعه الكبير - وكذلك غير المسلم؛ فإن الإسلام يحقق له من الأسباب والذرائع الحسية والذهنية ما يفضي إلى إقناعه في حرية موفورة وتودد بالغ، ويكشف اللبس والشبهات عن ذهنه وبصيرته بالحجة الواعية الكافية والمجادلة الحكيمة المستفيضة حتى يستيقن غير المسلم روعة هذا الدين وأنه الحق المبين المنزل من عند الله هداية الناس كافة.

من أجل ذلك شرع الأمان للمشركين في كل الأحوال كيما يتمكنوا من الدخول على المسلمين فيتعلموا منهم حقيقة هذا الدين عسى أن يهتدوا - على أن الأمان من حيث إعطاؤه يناط بكل واحد من آحاد المسلمين سواء كان رئيسا أو مرؤوسا، ذكرا أو أنثى، حرا أو عبدا - فأيما مسلم يجوز له أن يعطي الأمان لأحد المشركين ليلج عليه فيوفقه على مزايا هذا الدين وتعاليمه.

قال صاحب الكشاف - وهذا الحكم ثابت إلى ثوم القيامة - قال الحسن البصري: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله: {ذالك بأنهم قوم لا يعلمون} ذلك عائد إلى الإجازة، أي ذلك الأمر بإجارة المشركين كان بسبب كونهم جهلة لا يعلمون عن الإسلام شيئا، أو يعلمون عنه ظاهرا مصطنعا من المفاهيم المشوهة والأخبار الملفقة تلفيقا - أما حقيقة الإسلام بنصوعه وروعة نظامه الرحيم الشامل، فلا يدرك منه المشركون شيئا ٢٥.

٧ - (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين} {كيف} استفهام إنكاري متضمن للتعجيب - كما نقول: كيف تستحي من الحق؟! أي ما كان ينبغي لك أن تستحي من الحق - والله جل وعلا يبين في هذه الآية حكمته في البراءة من المشركين وإنظاره إياهم أربعة أشهر ثم يرقون بعد ذلك القتال حيثما ثقفوا - وذلك في قوله: {كيف يكون للمشركين عهد} يعني أنى يكون للمشركين بالله عهد أو ذمة عند الله وعند رسوله فيوفي لهم ويتركوا بسببه آمنين يتصرفون في بلاد المسلمين طلقاء كيف شاءوا؟ فما ينبغي أن يكون لهؤلاء المتربصين الخائنين عهد أو ذمة - بل الواجب النبذ إليهم على سواء لقتالهم وكسر شوكتهم إذهابا للظلم والباطل عن وجه الأرض.

ثم استدرك بقوله: {إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام} أي لكن الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام ولم تظهر منهم بادرة من بوادر النكث والخيانة {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم} أي فما استقاموا على الوفاء بالعهد فأقيموا لهم علة مثل ذلك {إن الله يحب المتقين} أي يحب الأتقياء والأوفياء الذين يوفون بعدوهم مجانبين للغدر والخيانة ٢٦.

٨ - (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

قوله تعالى: {كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبي قلوبهم وأكثرهم فاسقون ٨ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ما كانوا يعلمون} أعاد التعجيب والاستفهام الإنكاري في قوله ك {كيف} بما يدل على استبعاد ثبات المشركين على العهد، أي كيف يعطي هؤلاء الناكثون المتربصون عهدا، وحالهم من الخبث والغدر أنهم إن ظهروا عليكم بالغلبة أو الاستعلاء فسوف لا يرعون فيكم ولا يحفظون لكم {إلا} والإل معناه القرابة - وقيل: الحلف ٢٧ - {ولا ذمة} وهي العهد - وهم مع ذلك كله إنما يصانعوكم مصانعة ويداهنونكم مداهنة تتدلى منها حلاوة الكلام المراوغ الملفق لخداعهم، ولكي ترضوا عنهم {وتأبي قلوبهم} أي ما في قلوبهم مخالف تماما لا يظهرونه من معسول الكلام وملق الحديث المخادع - فقلوبهم إنما تنثني على الحقد والاضطغان وتفيض بالكراهية بالبالغة للإسلام والمسلمين.

قوله: {وأكثرهم فاسقون} أكثر المشركين راضون عن الكيد لكم والنكث بعدوهم معكم والانقضاض عليكم لاستئصالكم - فديدن المشركين النكث ونقض العهود والتحلل من كل التزام ميلا منهم للغدر والباطل ورغبة في الطمع والإيذاء.

٩ - (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا} لقد استبدل هؤلاء المشركون الضالون، بالقرآن والإسلام {ثمنا قليلا} وهو اتباع أهوائهم وشهواتهم جريا وراء الدنيا بحطامها العارض ولعاعاتها التافهة الخسيسة - وفوق ذلك صدوا عن سبيل الله، إذ صرفوا الناس عن دين الله بفتنتهم وإغوائهم بكل صور الفتنة والغواية {إنهم ساء ما كانوا يعملون} ساء عملهم من اتباع الباطل بالحق، والضلال بالهداية ومن صدهم الناس عن منهج الله وشرعه القويم ٢٨.

١٠ - (لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

قوله تعالى: {لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون} ليس في هذا تكرار، لأن الأول على الخصوص، إذ قال: {لا يرقبوا فيكم} فالمراد المؤمنين زمن النبوة، إذ كان المشركون يمكرون بهم ولا يرعون لهم عهدا أو قربى - لكن الثاني على العموم، لأنه قال: {لا يرقبون في مؤمن} وهذه صفة عامة لصيقة بالمشركين الظالمين الذين يكرهون الإسلام - وهم على الدوام لا يرعون للمسلمين عهدا ولا حلفا ولا ميثاقا، فهم متربصون حانقون {وأولئك هم المعتدون} أي الذين جاوزوا الغاية في الكيد والظلم وافتعال الشر ٢٩.

١١ - (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ١١ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} إن عاد هؤلاء المشركون إلى الحق وأنابوا إلى الله وجانبوا الشرك والوثنية والتزموا أحكام الإسلام بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فقد صاروا إخوانا لنا في الدين لا يفرق بيننا بعد ذلك أيما فارق من وطن

أو إقليم أو لون أو جنس أو لغة أو مذهب، بل إن الجميع بعد ذلك إخوة مؤتلفون مستوون في دين الإسلام.

قوله: {ونفصل الآيات لقوم يعلمون} أي نبين الدلائل والبينات والبراهين ليعيها أهل التفكير وولو العلم - وقد خصهم بذلك؛ لأنهم أحرى أن يقفوا على حقيقة ما أنزل الله دون الجلة والرعاع.

١٢ - (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

{وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم} أي إن نقضوا عهودهم من بعد ما عاهدوكم وأعطوكم المواثيق بعدم الخيانة أو مظاهرة أعدائكم عليكم {وطعنوا في دينكم} أي قدحوا في الإسلام وعابوه وانتقصوا من قدره أو ألحقوا به عيب أو مثلبة فقاتلوهم، فإنهم بذلك باتوا رؤوسا في الكفر - ويستدل بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في دين الإسلام، فهو بطعنه ينقلب كافرا - ومن وجوه الطعن أن ينسب خبيث أو مارق إلى الإسلام ما لا يليق به، أو يتقول عليه تقولا يراد به الاستخفاف أو السخرية من هذا الدين المبرأ من كل النقائص والعيوب - لا جرم أنه لا يجترئ على قدح الإسلام والطعن فيه بشيء من وجوه الانتقاض والاستخفاف والافتراء إلا مرتد أثيم أو كافر لئيم - وهو بكفره الشنيع هذا قد انتكس انتكاسا يهوي به في زمرة المرتدين والكافرين الخاسرين الذين نكثوا عهودهم وخانوا الله والمرسلين مع الأشقياء والمقبوحين.

ويلحق بالطاعنين الخاسرين، أولئك الذين يجاوزون في عصيانهم مجاوزة فظيعة تولجهم في الأخسرين الأذلين وهم الذين يسبون الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يسبون الذات الإلهية، أو يشتمون الدين الرباني الحق - ومن المعلوم بالضرورة أن دين الله لهم جماع الحق كله، وفيه تنضوي كل المعاني الكريمة في الخير والفضل والرحمة - فشاتم الدين الحق مغال في العتو والتمرد - وأمثال هؤلاء الخاسرين الهلكي يجب قتالهم لقوله سبحانه: {فقاتلوا أئمة الكفر} والأئمة جمع إمام - والمراد به من أقدام على نكث العهد والطعن في دين الله؛ إذ يصير بذلك رأسا من رؤوسه أو إمام من أئمته.

قوله: {إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} أي لا عهود لهؤلاء المشركين الماكرين، فهم مخادعون دجاجلة لا يوفون بعهد ولا يؤتمنون على إيمان أو مواثيق؛ فهم لا تعطفهم أساليب اللين والهوادة عن الشر والعداون - لا يعطفهم إلا أن تكسر شوكتهم وتزال سطوتهم ويتبدد طغيانهم - فلعل في ذلك ما يرجعهم عن الشرك والضلال ويحملهم على إدراك الحق والتزامه ٣٠.

١٣ - (أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ١٣ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدورهم قوم مؤمنون ١٤ ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم}.

في قوله: {ألا تقاتلوا} دخلت الهمزة على (لا) النافية للاستفهام التوبيخي - والمراد التحضيض على سبيل المبالغة، على قتال هؤلاء المشركين المضلين الذين نقضوا عهدهم معكم، وطعنوا في دينكم وظاهروا عليكم عدو الله وعدوكم - وهم الذين هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم فأخرجوه عقب تمالئهم عليه في دار الندوة - وكذلك هم الذين بدأوكم أول مرة بالقتال؛ إذ جمعوا لكم في بدر قاصدين استئصالكم {أتخشونهم} كرر زيادة في التأكيد والتحضيض على قتال المشركين المعتدين وهم أجدر ألا يخافون المسلمون - بل الله أحق أن يخشوه {إن كنتم مؤمنين} عن كنتم تقرون أن الله أحق بالخشية من هؤلاء الجبناء الأنذال - فما ينبغي للمؤمنين أولي العقيدة المتينة الحكيمة والصلة بالله العزيز الحميد والاعتصام بخير ملة عرفتها الدنيا ووفقت عليها البشرية –أن يخشوا أهل الباطل والضلال من المشركين - إنما يخشى المؤمنون ربهم خشية تفوق كل خشية.

١٤ - (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

قوله: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين} ذلك تحريض من الله للمؤمنين على قتال المشركين

المعتدين - وهو وعد منه للمؤمنين، بالنصر إن قاتلوهم - فلسوف يعذب الله هؤلاء المعتدين الظالمين بأيدي المؤمنون إذ يقتلوهم ويأسرونهم فيحيق بهم الخزي وذل الأسر.

وبذلك يجعل الله الغلبة والنصر لبعاده، المؤمنين الصابرين المجتهدين {ويشف صدور قوم مؤمنين} أي يبرئ الله قلوبهم مما أصابها من موجدة وغيظ نتيجة لما نالهم من أذى المشركين وعدوانهم.

١٥ - (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله: {و يتوب الله على ما يشاء والله عليم حكيم} يتوب مرفوع على الاستئناف، لأن ذلك ابتداء كلام وإخبار من الله بان بعض أهل مكة سوف يتوب عن كفره وقد تحقق ذلك في الواقع، فقد اسلم أناس منهم وحسن إسلامهم كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما {والله عليم حكيم} فهو سبحانه أعلم بما سيكون وهو كذلك أعلم بما قد كان - وهو سبحانه {حكيم} لا يصدر عنه إلا ما اقتضته الحكمة ٣١.

١٦ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعلمون} أم منقطعة بمعنى بل وهو حرف إضراب لأجل الانتقال من كلام إلى كلام آخر - والهمزة للاستفهام والتوبيخ، على وجود الحسبان - والمعنى: أنكم لا تتركون على ما انتم عليه حتى يستبين المخلصون منكم وهم الأتقياء الذين أخلصوا دينهم لله وحده والذين جاهدوا في سبيله، ومن اجل مرضاته ولم يتخذوا من دون الله ورسوله ولا من دون المؤمنين {وليجة} من الولوج - فالداخل الذي يكون في القوم وليس منه فهو وليجة - فالوليجة فعلية من ولج كالدخيلة من دخل ٣٢.

والمراد بها هنا البطانة من المشركين، أي كيف تتخذون أنفسكم بطانة من هؤلاء الكافرين الماكرين الذين يتربصون بكم الدوائر ويودون لو يقض عليكم فتبيدوا؟! فغنه لا يفعل ذلك إلا كل مغفل مغرور أو منافق مرتاب يروق له من الخلة مصاحبة المشركين فيبوح لهم بما لديه من أسرار المسلمين - والله سبحانه مطلع على الخفايا، عالم بنيات هؤلاء القوم وأعمالهم لا يخفى عليه من شيء وهو قوله: {والله خبير بما تعملون} ٣٣.

١٧ - (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

قوله تعالى: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ١٧ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الأخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين} أي ليس من المستقيم ولا الصحيح أن المساجد كلها وإمامها - أو لأن كل بقعة منه مسجد - وقيل: المراد جنس المساجد، لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها - أو لأن كل بقعة منه مسجد - وقيل: المراد جنس المساجد - فإذا لم يصلح المشركون لإعمار جنسها دخل ذلك في أن لا يعمروا المسجد الحرام {شاهدين على أنفسهم بالكفر} {شاهدين}، منصوب على الحال، أي ما ينبغي للمشركين إعمار مساجد الله وحالهم يشهد على أنهم كافرون - وشهادتهم هي ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت ليعبدوها ويطوفوا من حولها عراة - وكانوا كلما طافوا شوطا سجدوا لها - فكيف يعقل أن يعمر هؤلاء الضالون السفهاء مساجد الله.

ولما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون فغيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم وأغلظ له علي، وقال: ألكم محاسن؟ فقال: نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة (من الحجابة) ونسقي الحاج، ونفك العاني - فانزل الله تعالى ردا على العباس {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله} ٣٤.

على أن عمارة المساجد قسمان: أولهما: لزومها وكثرة الإقبال عليها من أجل الصلاة أو العبادة والذكر - وثانيهما: العمارة من حيث البناء - فإن أريد المعنى الثاني، فغنه لا يجوز للكافر إذن أن يقوم بعمارة مسجد من مساجد المسلمين - ولو أوصى بها لم تقبل وصيته -

وليس لغير المسلم أن يدخل مسجدا إلا بإذن من المسلمين - وإن دخل بغير إذن منهم استحق التعزير.
قوله: {أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون} أعمال هؤلاء المشركين قد أتى عليها الحبوط وهو البطلان - فلا جدوى لهم في الآخرة من أعمالهم - وليس لهم من ذاك إلا ثناء المطرين والمداحين في الدنيا - لكن أعمالهم في الآخرة ماضية بغير اعتبار كأنما هي هباء متناثر في أجواز الفضاء بغير وزن أو قيمة؛ لأن المشركون لم يقصدوا من أعمالهم وجه الله أو طاعته ولم يكونوا في الأصل مخلصين لله بحسن العبادة وتمام التوحيد ولكنهم كانوا ضالعين في الشرك والوثنية - وفوق ما أصابهم من الحبوط؛ فإنهم ماكثون في النار طيلة الآباد.
١٨ - (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)
قوله: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين} أي إنما يعمر مساجد الله برمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وكسوها بالحصير والفرش وبتكريمها وتعظيمها وارتيادها للذكر والعبادة –من كان مصدقا بوحدانية الله مخلصا العبادة والطاعة، مصدقا بيوم الدين، مقيما للصلاة المكتوبة على وجهها الصحيح بتمام أركانها وشروطها وواجباتها ومندوباتها، مؤديا زكاة ماله إلى المستحقين - وهو أيضا لا يخشى أحدا كخشية من الله؛ فخشية الله في قلب المؤمن تفوق كل خشية مما سواها {فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين} أي فخليق بأولئك الذين سبقت صفتهم أن يكونوا ممن هداهم الله للحق وبلوغ الصواب ٣٥.
روي الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان). وقال الإمام أحمد أيضا بإسناده عن معاد بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة، والعامة، والمسجد)؛ وقال عليه الصلاة والسلم: (من أسرج في مسجد سراجا؛ لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه).
١٩ - (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ١٩ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله أولئك هم الفائزون ٢٠ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ٢١ خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) روي عن ابن عباس قوله: قال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد؛ لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني؛ فأنزل الله {أجعلتم سقاية الحاج} الآية ٣٦ الساقية والعمارة مصدران، من سقى وعمر، كالصيانة والوقاية - وثمة محذوف وتقديره (أهل) - أي أجعلتم أهل السقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ٣٧ - والمراد إنكار تسبيه المشركين بالمؤمنين مع ما بينهما من فوق عظيم؛ فالمؤمنون على التوحيد الخالص لله دون أحد سواه، والمشركون على الشرك والجحود، مذعنون الوثنية البلهاء، سادرون في الضلالة العمياء - فلا يسوي بين الفريقين إلا كل مضلل مأفون، لا جرم أن التسوية بينهما محض ظلم وزور، ومجانية لقواعد المنطق السليم - وعلى هذا تتضمن الآية توبيخا من الله جل جلاله لأولئك المضللين الذين افتخروا بالسقاية وسدانة البيت مع شركهم وكفرانهم، فأعلمهم الله أن الفخر إنما يكون في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وليس فيما افتخروا به من مظاهر شكلية مقرونة بالشرك {والله لا يهدي القوم الظالمين} أي لا يجعل الله التوفيق والهداية لمن كان على الكفر والباطل، مجانبا لمنهج الله، حائدا عن التوحيد.
٢٠ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

قوله: {الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله} يفرق الله بين طائفتين، إحداهما، طائفة المؤمنين الذين آمنوا بوحدانية الله وخلعوا عن أنفسهم لوثة الجاهلية والوثنية ثم هاجروا بدينهم تاركين وراءهم ديارهم وأهليهم، قاصدين أرضا من بلاد الله يعبدون الله فيها آمنين، ويدعون الناس إلى عبادة الله وحده مطمئنين كيما يكف الناس عن الوثنية والضلال والشرك - وبادروا أيضا بالجهاد في سبيل الله لإعزاز الحق وإعلاء كلمة الإسلام بأموالهم وأنفسهم، وذلك أقصى غايات السخاء والجود - فلا ريب أن هذه الطائفة خير وأفضل من الطائفة الأخرى، طائفة المشركين الذين يفاخرون بسقاية الحاج وسدانة البيت وهم متشبثون بالأصنام حيث السفاهة والعمه وهوان الحلوم لا جرم أن الأولين أعظم درجة (منزلة) من سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام وهم مشركون - فكان الأولون هم الفائزين برضوان الله والجنة، الناجين من عذاب الله وغضبه.

٢١ - (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

قوله: {يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم} يبشرهم، أي يعلمهم، من البشارة، وهي الخبر السار لا يعلمه المخبر به ٣٨ - والمعنى: أن الله يبشر هؤلاء المؤمنين المهاجرين في سبيل الله، إذ يخبرهم في هذه الدنيا برحمته لهم في الآخرة، وبرضوانه الذي يفوق في روعته وبهجته كل تصور، وأنه قد كتب لهم الجنة يتقلبون في نعيمها الواصب ورغدها الدائب؛ فهم ماكثون في هذا النعيم أبدا - وهو نعيم كبير أعده الله جزاء كريما لبعاده المؤمنين العاملين المجاهدين - وهو قوله: {خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم} ٣٩.

٢٢ - (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

قوله: {يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم} يبشرهم، أي يعلمهم، من البشارة، وهي الخبر السار لا يعلمه المخبر به ٤٠ - والمعنى: أن الله يبشر هؤلاء المؤمنين المهاجرين في سبيل الله، إذ يخبرهم في هذه الدنيا برحمته لهم في الآخرة، وبرضوانه الذي يفوق في روعته وبهجته كل تصور، وأنه قد كتب لهم الجنة يتقلبون في نعيمها الواصب ورغدها الدائب؛ فهم ماكثون في هذا النعيم أبدا - وهو نعيم كبير أعده الله جزاء كريما لبعاده المؤمنين العاملين المجاهدين - وهو قوله: {خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم} ٤١.

٢٣ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ٢٣ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين} ذكر في سبب نزول هذه الآية أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده فيقولون: نشدناك الله إن تدعنا إلى غير شيء فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم وإخوانكم} ٤٢ وفي هذه الآية يأمر الله المؤمنين بمباينة الكافرين وعدم موالاتهم وإن كانوا آباءهم وإخوانهم إن اختاروا الكفر على الإيمان - وهذه مفاصلة ظاهرة بين الإيمان والكفر، أو بين الحق والباطل - فهما نقيضان متضادان لا يلتقيان - أو هما سبيلان مختلفان أعظم اختلاف؛ فسبيل الإيمان والهداية والتقى غير سبيل الكفران والعماية والفجور - فاولئكم يدعون إلى الحق والخير والجنة، وهؤلاء يدعون إلى الضلال والباطل والجحيم - لا جرم أن الفريقين لا يستويان، كما لا يستوي أهل الجنة وأهل النار.

ولذلك حذر الله تعالى تحذيرا من موالاة المؤمنين للكافرين؛ فإنه لا يتولى الكافرين أو يتبعهم ويناصرهم إلا من كانوا لهم نظراء وشركاء - وقد توعد الله في آية أخرى من يتولى الكافرين بقوله: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا

آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}
٢٤ - (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

وتوعد الله أيضا من يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، أو الذي يؤثر أهله وماله وأقرباءه ليحيد بذلك عن منهج الله وعن صراطه المبين، صراط الإسلام الحكيم؛ فقال سبحانه: {قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله} يعني إن كانت هذه الأشياء وهي الأقارب والخلان وما كسبتموه من أموال وتجارة ومنازل فاخرة {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله} أي إن كنتم تفضلون هذه الأشياء على الله ورسوله، فتحيدون عن الهجرة إلى دار الإسلام، وتؤثرون البقاء في دار الحرب والركون فيها للمشركين، وتأبون أن تجاهدوا في سبيل الله إعلاء شأن الاسلام {فتربصوا حتى يأتي الله بأمره} أي انتظروا ما يحل بكم من العقاب والنكال في الدنيا والآخرة، جزاء تفريطكم في حق الله - والله جل وعلا لا يجعل التوفيق والهداية للناكبين عن دينه الخارجين عن طاعته إلى عصيانه - وهو قوله: {لا يهدي القوم الفاسقين}.

وفي هذه الكلمات الربانية المؤثرة تركيز بالغ على قضية الموالاة وهي المناصرة؛ فما يجوز بحال أن تكون الموالاة من المسلمين للكافرين، وإنما يوالي المسلمون إخوتهم في الدين والعقيدة دون غيرهم من الكافرين - والأصل في ذلك أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ فإنه لا يوالي الكافرين أو يناصرهم بالإسلام الدوائر والبلايا - فأنى لامرئ مسلم تستكن في قلبه أثارة من إيمان أو إخلاص أو صدق مع الله، يوالي الكافرين ويناصرهم ويميل بقلبه وحسه ومشاعره إليهم ليحبهم ويهواهم من دون المسلمين؟! لا شك أن ذلكم فسق عن دين الله، أو تجاوز مفرط يولج الخائرين الخاسرين من ضعاف القلوب والهمم دار البوار.

روي الإمام أحمد بإسناده عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه) فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله: (الآن يا عمر).

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).

وفي التنديد بالناكلين عن الجهاد في سبيل الله، الجانحين للمنافع الدنيوية من بيع وزرع ونحوها روي الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) ٤٣.

٢٥ - (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

قوله تعالى: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٢٥ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ٢٦ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم} ذلك تذكير بفضل الله على المؤمنين وإحسانه غليهم؛ إذ نصرهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وما كان ذلك عم كبير عدة أو كثرة عدد وإنما كان بتأييد الله وتقديره - وكان عدد المسلمين الذين جاءوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتحة لمكة عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ومعه الذين أسلموا مع أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى العدو فاتلوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين، حيث

كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا والمشركون يبادرونهم الرشق بالنبال وإصلات السيوف، ففوجئ المسلمون بذلك أعظم مفاجأة؛ إذ أخذهم العدو على غرة فولوا مدبرين، فلم يغنهم جمعهم وكثرتهم شيئا، فهزموا وبلغت فلولهم مكة بعد أن أعجبتهم كثرتهم؛ فتملكهم الاغترار والإعجاب بالنفس وظنوا أنهم منصورون لا محالة ركونا إلى عددهم وكثرة جموعهم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ظل صابرا ثابتا لا يتزحزح من أرض النزال ولم يبرح ساحة الوغي ومن حوله قلة من المسلمين منهم عمه العباس؛ إذ كان آخذا بلجام دابته، وآخرون من صناديد الصحابة الأبرار، وإذ ذاك ضاقت بهم الأرض على سعتها حتى ما يجد المسلمون موضعا يهربون إليه لفرط ما أصابهم من الرعب {ثم وليتم مدبرين} أي منهزمين - ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس –وكان جهير الصوت- أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البقرة - فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك.

وانعطف الناس فترجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما اجتمعت منهم شرذمة قليلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمرهم أن يصدقوا الحملة، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجتلد القوم فقال: (الآن حمي الوطيس) فكتب الله لهم النصر، وجعل الهزيمة والخزي على المشركين الظالمين.

٢٦ - (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

قوله: {ثم أنزل الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين} أي بعد أن زلزل المسلمون لما أصابهم من هول المباغتة واشتداد الكرب، أنزل الله عليهم ما يسكنهم ويثبت قلبوهم بالرحمة والطمأنينة، فمكثوا ثابتين أشداء لا يروعهم الفزع ولا جموع المشركين.

قوله: {وأنزل جنودا لم تروها} أي أنزل الملائكة ليكونوا مع المؤمنين في ساحة القتال يشتدون أزرهم ويقوون من بأسهم وعزيمتهم، ويضعفون الكافرين بالتخذيل والتجبين من حيث لا يراهم أحد - وفي هذا الصدد قال الإمام أبو جعفر ابن جرير عن أبي جميلة الأعرابي قال: سمعت عبد الرحمن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في أدبارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا بنا: (شاهت الوجوه، ارجعوا) فانهزمنا وركبوا أكتافا ٤٤.

قوله: {وعذاب الذين كفروا وذالك جزاء الكافرين} أي عذاب الله الكافرين في الدنيا بالقتل والإذلال والهزيمة على أيدي المسلمين - وهذا جزاء كفرهم وجحودهم ومحاربتهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢٧ - (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم} بقد تاب الله على من بقي من هوازن بعد ما حل بهم من القتل والهزيمة فأسلم من بقي منهم؛ إذ قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم - والله جل شأنه غفار للذنوب والخطايا؛ فهو يتوب على التائبين المنيبين منهم، ويشملهم برحمته وفضله؛ فلا يؤاخذهم بما كسبوا من الإشراك والمعاصي بعد أن تابوا وأنابوا ٤٥.

٢٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا تقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم علية فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم} النجس، مصدر نجس نجسا وقذر قذرا - ومعناه ذو نجس، وقال الليث: النجس، الشيء القذر من الناس ومن كل شيء - ورجل نجس وقوم أنجاس، واختلفوا في معنى النجاسة المتلبسة بالمشرك؛ فقيل: إن نجاسته عينية فهو بذلك نجس البدن، وهو قول أهل الظاهر - وري عن ابن عباس قوله: إن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير - أما الفقهاء وأكثر أهل العلم على أن أبدانهم طاهرة وإنما نجاستهم حكيمة لا حسية؛ فهي إنما يراد بها ما يعتقدونه من الكفران والشرك - ويحتج لطهارة أبدانهم بما روي

أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب من أوانيهم.

على أن الكافر إذا أسلم وجب عليه أن يغتسل - وهو قول المالكية والحنبلية، وآخرين - وقيل: لا يجب في حقه الغسل بل يستحب - وهو قول الشافعي.

أما دخول الكافرين المسجد الحرام أو غيره من المساجد ففي حكمه أقوال:

القول الأول: الآية عامة في سائر المشركين وسائر المساجد - وبذلك لا يجوز للمشركين أن يدخلوا مسجدا من المساجد سواء كان ذلك المسجد الحرام أو غيره، وهو قول عمر بن عبد العزيز، وذهب إليه الإمام مالك.

القول الثني: الآية عامة في سائر المشركين لكنها خاصة في المسجد الحرام وبذلك لا يمنعون من دخل غير المسجد الحرام، وهو قول الإمام الشافعي، وهو أن الكفار جميعا يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة، وبذلك يباح دخول اليهود والنصارى سائر المساجد من غير المسجد الحرام.

القول الثالث: لا يمنع أهل الكتاب من اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام أو غيره من المساجد - ولا يمنع من دخول المسجد الحرام سوى المشركين وأهل الأوثان - ومثل هذا الإطلاق يرده ظاهر الآية من حيث منطوقها فلا ينبغي التعويل على هذا القول.

على أن المراد بالمسجد الحرام هو جميع الحرام - وقيل: المراد نفس المسجد - ويستدل على صواب الأول بقوله تعالى: {وإن خفتم علية فسوف يغنيكم الله من فضله} وذلك لأن موضع التجارات ليس هو عين المسجد، فلو كان المقصود من هذه الآية المنع من المسجد خاصة، لما خافوا بسبب هذا المنع من العلية، وإنما يخافون العلية إذا منعوا من حضور الأسواق والمواسم - ويتأكد هذا القول بقوله سبحانه وتعالى: {سبحان الذي أسرى بعيده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا} وإنما رفع النبي صلى الله عليه وسلم من البيت أم هانئ ٠٤٦.

قوله: {وإن خفتم علية فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء} العلية، بمعنى الفقر - وذلك أن الناس قالوا: لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، ولتذهبن عنا الخيرات وما كنا نصيب من المرافق فانزل الله الآية - ثم حقق الله وعده للمؤمنين إذ عوضهم مما أعطاهم من الجزية بدلا مما كانوا يسكبونه من المشركين قبل منعهم من قربان المسجد الحرام - {الله عليم حكيم} الله أعلم بما يصلح عليه الناس وما يستقيم عليه شأنهم - وهو كذلك {حكيم} في أوامره ونواهيه وأحكامه - ولا يصدر ذلك كله إلا عن حكمة بالغة وتدبير رباني منزه عن الخطأ والزلل، ويحتمل إغناؤهم من الله وجها آخر، وهو إدرار المطر عليهم، وقد أسلمت العرب فتمادى حجهم ونحرهم وذلك يفضي إلى تحصيل السعة لهم والبحبوحة.

٢٩ - (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

قوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}.

بعد استقرار الحال في جزيرة العرب ودخول المشركين في دين الله أفواجا مسلمين، أمر الله في هذه الآية بقتال أهل الكتاب - بذلك أمر الله في هذه الآية نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستعداد لقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك في سنة تسع - ومن أجل ذلك تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم في تبوك - وقد اجتمع له من المقاتلة نحو ثلاثين ألفان ويستدل من هذه الآية أن الجزية إنما تؤخذ من أهل الكتاب فقط أو من أشبههم المجوس، فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر - وبذلك لا تؤخذ الجزية من غير أهل الكتاب كالمشركين والوثنين، وهذا مذهب الشافعية والحنبلية، أما الحنفية الجزية عندهم من جميع الأعاجم سواء فيهم أهل الكتاب أو المشركين، لكنها لا تؤاخذ من العرب من غير أهل الكتاب ولا من المرتدين، لأن كفر هؤلاء قد تغلظ، فمشركو العرب قد نشأ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، والقرآن نزل بلغتهم، فالمعجزة في حقهم أظهر - أما المرتد: فلأنه

كفر بربه بعد أن هدى للإسلام ووقف على روائعه وكماله، فلا يقبل من الفريقين سوى الإسلام أو القتال زيادة في العقوبة.
أما الإمام مالك فقال بجواز أخذ الجزية من جميع الكفار، من أهل الكتاب والمجوس والوثنين ٤٧.
قوله: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر} نفي الله بالإيمان بالله عن أهل الكتاب، لأن سبيلهم سبيل من لا يؤمن بالله، إذ يصفون الله بما لا يليق أن يوصف به، فقد جعلوا له والدا، كيهود جعلت عزيزا ابن الله، والنصارى جعلوا المسيح ابن الله وقالوا بالأقانيم الثلاثة، إلى غير ذلك من المقولات المفتراة الظالمة فصارت بذلك عقائدهم مجرد تخيلات موهومة وتصورات مظنونة لا تطوي على غير التخريص الفاضح والضلال الشاطح دون استناد إلى ذرة من دليل سليم - من أجل ذلك نفي الله عنهم الإيمان به - وفوق ذلك فإنهم كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحسبهم ذلك ضلالة وكفرنا، مع أنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.
وكذلك فإن إيمانهم بالآخرة مريب ومصطنع، فقد أنقل عن اليهود والنصارى إنكار البعث الجسماني، فكأنهم يعتقدون البعث الروحاني - ومثل هذا التصور لا يستحق مجرد التسمية بالإيمان، لأن ما يتقولونه ويهرفون به ليس إلا ضربا من التصور المريض الواهم، أو الحلم المطوح في الخيالات من عالم اللاشعور - وليس ذلك من الإيمان في شيء.
قوله: {ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله} المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يتبعوا دينه ولا شريعته ففيهما ما احل الله ورسوله أو حرم - وقيل: المراد بالرسول رسولهم الذي يزعمون أنهم يتبعونه، فإنهم بدلوا شريعته، واحلوا ما حرم الله عليهم وحرموا ما احل الله لهم - وكل ذلك من عند أنفسهم اتباعا لأهوائهم، فهم بذلك لم يتبعوا شريعة الإسلام القائمة على الكتاب والسنة، ولم يتبعوا شريعتهم المنزلة على رسلهم، فهم بذلك غير مؤمنين إيمانا صحيحا لا بشريعتنا ولا بشريعتهم الخالصة المبرأة من التزييف والتحريف، فما يزعمون لأنفسهم من إيمانا بما ليس له وزن أو اعتبار لما بيناه، فوجب بذلك قتالهم.
قوله: {ولا يدينون دين الحق} أي الدين الثابت الكامل، الدين الحقيق الصحيح الذي تصلح عليه البشرية طيلة الدهر، الدين الذي تجتمع فيه مزايا الصلوح للحياة في كل مكان وزمان، وذلكم هو الإسلام دون غيره من الأديان والملل والشرائع - لكن أهل الكتاب إنما يدينون ما تسوله لهم أهواؤهم وغرائزهم وشهواتهم ومنافعهن الدنيوية، فهم بذلك دينا سماويا حقيقا سليما من التلاعب والتبديل، وما يزعمونه أنهم أهل كتاب ليس إلا التوهيم المكشوف الذي لا يخفى على أحد، وهو ليس إلا التحذلق المصطنع الذي لا يغني من الحق شيئا - لا جرم أن اليهود والنصارى أبعد الناس كافة عن حقيقة التوراة العظيمة ذات التشريع الرباني النافع، وعن حقيقة الإنجيل الرفاف الساطع الذي ينهي أشد النهي عن الفساد والشر والعدوان وظلم الإنسان لأخليه الإنسان - وما نجده أو نسمعه أو نقرأه من أخبار مذهلة عن فظائع اقترافها اليهود والنصارى في حق البشرية والمسلمين خصوصا يبرأ منها كليم الله موسى وروح الله عيسى المسيح - وهي فظائع شنيعة تجعل من انتساب هؤلاء الظالمين للتوراة والإنجيل شيئا مستهجنا، مثيرا للسخرية والاشمئزاز - إن هذه الفظائع تطبع هؤلاء الجناة بطابع الوحوش الكواسر في الغابات، لا جرم أن دين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام مبرآن من أفاعيل هؤلاء الطغاة الذين نكلوا بالشعوب المسلمة تنكيلا، والذين أذاقوا المسلمين وغيرهم عبر زمان طويل أعتى النوازل والويلات، وما زالوا على هذه الحال من تقتيل للمسلمين وترويعهم في كل بقاع الدنيا.
قوله: {حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} والجزية، من الجزاء وهي للإجزاء عن حقن دم الذمي - والجزية اسم مفرد وجمعه جزي مثل: لحية ولحي ٤٨ - أما الجزية في اصطلاح الشرعي: فهي المال الذي يؤخذ بعقد من أهل الكتاب لإقامتهم بدار الإسلام آمنين، وذلك على سبيل الإسهام في بناء الدولة التي ينعمون بالأمن والخير في ظلها ٤٩.
ممن تقبل الجزية
اجمع المسلمون على قبول الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود ومن دان بدينهم كالسامرة الذين يدينون بالتوراة ويعملون بشريعة موسى - وكذلك النصارى وفرقهم من اليعقوبية والنسطورية وغيرهم ممن دان بالإنجيل.
أما الصابئة: فلتهم وعقيدتهم موضع خلاف، فقد قيل: إنهم جنس من النصارى - وقيل: إنهم من اليهود، لأنهم يسبتون، وقيل غير ذلك.

أما الذين لهم شبهة كتاب: فهم المجوس، فإنه يروي أنه كان لهم كتاب قديم فصار لهم بذلك شبهة وجب بها أن تحقن دماؤهم، وأن تؤخذ منهم الجزية لكنهم لا تنكح نساؤهم ولا تحل ذبائحهم - وقد ذهب إلى هذا أكثر العلماء ٥٠.

المشركون من غير أهل الكتاب

والمراد بهم الكافرون من غير اليهود والنصارى والمجوس، أي بعدة الأوثان الذين ليس لهم كتاب منزل كعبدة الناس والشمس والقمر والكواكب والتماثيل والأحجار وغير ذلك من أشكال الأوثان - ويحلق بهم الدهريون والماديون والملحدون الذين يجحدون النبوة والأديان والرسالات جميعا، فهؤلاء من حيث وجوب الجزية في حقهم موضع خلاف - وثمة أقوال في ذلك:

القول الأول: وهو أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس وعبدة الأوثان من العجم، ولا تؤخذ من عبدة الأوثان من العرب، لأن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشأ بين أظهرهم، وقد أنزل القرآن بلغتهم، فالمعجزة في حقهم أظهر، فلا يقبل منهم غير الإسلام أو قتالهم - وهو قول الحنفية.

القول الثاني: وهو أن الجزية مال يضربه الإمام على كل كافر سواء كتابيا أو مشركا أو غيرهما ولو كان قرشيا - وهو قول المالكية ٥١.

القول الثالث: وهو قول الشافعية والحنبلية وأهل الظاهر، فقد ذهب هؤلاء إلى أنه لا يقر عبدة الأوثان والملائكة والشمس والقمر والنجوم ونظائرهم، فلا تؤخذ منهم الجزية، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتال - واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} وذلك عام وقد خص منه أهل الكتاب - وكذلك خص فيه المجوس بالخبر: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) ٥٢.

أركان الجزية

ثمة أركان خمسة للجزية هي:

الركن الأول: الصيغة - وهي الإيجاب والقبول، فالإيجاب من الإمام أو نائبه، فهو الموجب، إذ يقول لهم: أقررتكم، أو أقركم - ثم القبول من الطرف الآخر وهو المؤدي للجزية، فيقول: قبلت أو رضيت بذلك.

الركن الثاني: العاقد، وهو الإمام أو نائبه، ولا يصح عقد الجزية من غيرهما.

الركن الثالث: المعقود له، وله شروط هي:

أولا: العقل، فلا تجب الجزية على المجنون ذي الجنون المطبق، لعدم تكليفه.

ثانيا: البلوغ، فلا تجب الجزية على الصبي لعدم تكليفه.

ثالثا: الحرية، فلا تجب على العبد، لأنه مملوك لصاحبه، فهو غير مكلف.

رابعا: الذكورة، فلا تجب الجزية على النساء، لأنهن لسن من أهل القتال.

خامسا: أن يكون المعقود له كتابيا وهم النصارى واليهود - وكذلك المجوس لما فيهم من شبهة كتاب.

الركن الرابع: المكان القابل للتقرير، وهو سائر بلاد الإسلام باستثناء الحجاز ٥٣.

على أن الجزية لا تؤخذ من كل من الزمن وهو الذي أصابته هاعة أو آفة ولا يرجي برؤه منها ولا يقدر على القتال.

ثم الأعمى، لأنه ليس من أهل القتال، لعدم قدرته على ذلك، فهو في ذلك كالصبيان والنساء - وهو قول أكثر أهل العلم.

وكذلك الشيخ الهرم، وهو الكبير الفاني، فغنه غير مطالب بالجزية في قول أكثر العلماء، وهو قول الحنفية والمالكية والحنبلية، والشافعية في أحد القولين لهم - وعلى هذا لا تجب الجزية على كل من الزمن والأعمى والشيخ الكبير الفاني - وهم في ذلك كالنساء والصبيان، لعجزهم عن القتال.

وكذلك الفقير غير المعتمر، فإنه غير مطالب بأداء الجزية، وهو قول أكثر العلماء - ووجه ذلك: أن الفقير العاجز غير مكلف، لقوله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} واحتجوا أيضا بما أخرجه البيهقي عن محمد بن عبد الله الثقفي قال: وضع عمر بن الخطاب -يعني الجزية- على رؤوس الرجال، على الغني ثمانية وأربعين درهما، وعلى الوسط أربعة وعشرون درهما، وعلى الفيقر اثني عشر درهما - وقالوا المراد بالفقير هنا غير المعتل.

وكذلك الرهبان من النصارى، ومصدره الرهبة والرهبانية، وتعني التعبد بما فيه الاختصاء واعتناق السلاسل وليس المسوح ونحو ذلك

٥٤؛ فإن هؤلاء على العموم لا تجب في حقهم الجزية، وهو قول الحنفية والمالكية، خلافا للشافعية وأهل الظاهر ٥٥.
قوله: {حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} {حتى}، للغاية التي تمتد إليها العقوبة، وهذه ترتفع بالبدل وهي الجزية - و {عن يد}، يراد بها يد المعطي، وهي أن تكون مؤاتية غير ممتنعة لأن من أبي وامتنع لم يعط يده، وذلك بخلاف المطيع المنقاد، ولذلك يقال: أعطى يده إذا انقاد أطاعه - وقيل: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدا غير نسيئة ليس مبعوثا عن يد أحد ولكن عن يد المعطي على يد الآخر - وقيل غير ذلك.
أما قوله: {وهم صاغرون} يعني أذلاء خاضعون مطيعون للدولة التي يعيشون في ظلها وه دولة الإسلام.
وهذه واحدة من المسائل التي يثار من اجلها اللغط والتهويش والتشويش على الإسلام بقصد الطعن فيه وتجريحه والإساءة إليه، أو لكي ينفروا منه أهل الكتاب تنفيرا بعد أن يغرسوا في نفوسهم الحقد والكراهية لهذا الدين.
إن مسألة الجزية قد اتخذها الصليبيون والمستشرقون والاستعماريون والعملاء والأتباع الناعقون من ورائهم -سبيلا يلجون منه على الإسلام من اجل تشويهه في أنظار الناس - ولقد سيق كثير من المثقفين والدارسين خلف هذه الدعاية الخبيثة التي أثارها أسيادهم من جهابذة الاستعمار والصليبية والاستشراق، أولئك الذين تتقطع قلوبهم وأعصابهم تغيظا من الإسلام، فهم دائما عاكفون بغير كلالة ولا كلل على الكيد للإسلام بكل أساليب الطعن والقدح والتشويه، وهم في ذلك كله لا يسندهم منطق ولا تشفع لهم حجة سليمة إلا الغيظ ومحض التعصب والجهالة.
والمسألة في غاية البساطة لو تصورها الخصوم والجاهلون والمارقون فأحسنوا تصورها - وهي أن الجزية مبلغ محمد من المال يؤديه غير المسلم إسهاما منه في بناء الدولة التي يعيش في ظلها والتي ينعم في أمنها ورخائها كغيره من الناس - وهي في مقابل فريضة الزكاة التي يؤديها المسلم للدول، بل إن الجزية دون الزكاة كثيرا، وهي لا يؤديها غير القادرين من العاجزين كالفقراء والصبيان والنساء والشيوخ؛ فلا داعي إذن لكل هذه الضجة المصطنعة الفاجرة ولمثل هذا اللغط المستعمر المحموم! لا داعي لكل هذا الافتراء على الإسلام والإساءة إليه ما دامت المسألة مجرد مبلغ محدود وهين من المال يؤديه غير المسلم ليشارك المسلمين في بناء البلاد وإعمارها - وهذا المبلغ من المال لا يعدو أن يكون نظيرا للضريبة التي يؤديها المواطن للدولة التي يستظل بظلها - وهل كان إلزام الناس بدفع الضرائب قسرا، مثيرا لمثل هذا الصخب العارم الذي يثيره الاستعماريون والصليبيون والمستشرقون وأتباعهم من العملاء حول الإسلام؟! إنه لا شيء من ذلك - لكنه الحقد الطاغي والمركوز، والكراهية المسيطرة العمياء، والتعصب الجهول الذي تتعطل من خلاله العزائم والضمائر والإرادات.
٣٠ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)
قوله تعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قتالهم الله أنى يؤفكون ٣٠ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون}.
هذه واحدة من افتراءات اليهود والنصارى على الله بما يصمهم العتو الفادح المغالي ويجعلهم في عداد المشركين الكفرة لا محالة - إن ذلك تخريص من تخريصات الفريقين وهم يفترون على الله الكذب، إذ يزعمون أنه أب لمولود، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - أما عزير: فهي نبي من أنبياء بني إسرائيل بعثه الله فيهم ليجدد لهم التوراة، وليكون لهم آية بعد ما أماته الله مائة عام ثم بعثه - وذلك بعد أن عزا بختنصر بيت المقدس وظهر على بني إسرائيل فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصغارهم وأحرق توراتهم وسامهم سوء الإذلال والتنكيل - ثم خرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض فأتاه جبريل عليه السلام ولقاه التوراة فحفظها، ثم أملاها على بين إسرائيل دون أن يفقد منها حرفا - فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدر عزير وهو غلام إلا لأنه ابنه - وهذا محض باطل وهراء ما ينبغي لذي مسكة عقل أن يجترها لسانه.
وكذلك النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وذلك لما اشتبهت عليهم ولادته من غير أب، فسدروا في الافتراء والضلالة باختلاق هذه الفرية القطيعة التي تنفر منها أبسط مراتب التفكير السليم - والمسيح برئ من كل هذا اللغط الأحمق الفاجر، إذ كان عليه السلام يزجرهم

زجرا ويتبرأ من مقاتلهم المقبوحة ويبين لهم في قطع أبلج أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه مريم العذراء البتول أفضل نساء العالمين طهرا وتقي وعفافا وقد ولدته من غير أب بمشيئة الله.

قوله: {ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل} {يضاهون} بمعنى يشابهون - والمشاهأة تغني المضاهاة وهي المشابهة؛ ضاهاه: شاكله - وضهيك يعني شبيهك ٥٦، والمعنى: أنهم يلغطون بهذا الغلط الظالم المفترى بأفواههم من غير برهان على ذلك ولا حجة، فليس قولهم هذا إلا الألفاظ المهملة المفرغة من أي مضمون معتبر أو معنى يستحق الذكر، وهم في ذلك {يضاهون قول الذين كفروا من قبل} أي يشابهون في قوله من حيث العتو وشناعة الكفر قول الذين كفروا من قبلهم وهم المشركون الذين قالوا: الملائمة بنات الله –سبحانه وتعالى عما يقولون- قوله: {قاتلهم الله أنى يؤفكون} هذا دعاء عليهم، ولا ريب أن الهلاك حائق بمن قاتلهم الله - وقيل: لعنهم الله - وهو قول ابن عباس.

وفي الجملة: فإن المراد التشنيع على هؤلاء الضالين السادرين في ظلمة الإشراك بالله {أنى يؤفكون} أي كيف يصرفون عن الحف إلى الباطل بعد وضوح الدليل وسطوح الحجة.

٣١ - (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم} الأحبار، جمع حبر بالفتح والكسر - وهم علماء اليهود، وهو يطلق على العالم سواء كان مسلما أو ذميا؛ فقد كان يقال لابن عباس: الحبر - أما الرهبان: فهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع - وهم جمع ومفرد راهب، وهو مأخوذ من الرهبة؛ أي الخوف، وكانوا لذلك يتخلون من أشغال الدنيا ويتركون ملاذها وشهواتها، ويؤثرون الزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد مشاقها؛ حتى إن منهم من كان يختصي كيلا يرغب في النساء - ومن هنا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل هذا السلوك فقال (لا رهبانية في الإسلام).

لقد اتخذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابا من دون الله وكذل المسيح - أي أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه الله - وهذا هو التفسير المأثور - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد روي الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} فقلت أي –عدي-: غنهم لم يعبدوها - فقال صلى الله عليه وسلم: (بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عدي ما تقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا اكبر من الله - ما يضرك أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله؟) ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق - قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: (إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون) وهكذا قال حذيفة ابن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} غنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ٥٧.

قوله: {وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} أي أن هؤلاء جميعا أمروا في الكتب السماوية المنزلة من السماء على لسان أنبيائهم أن لا يعبدوا إلا الله وحده؛ فهو الله ذو الجلال والكبرياء يشهد أنه ليس من إله معبود سوى الله {سبحانه عما يشركون} أي تعالى الله وتقدس وتنزه عما يختلقون من الشركاء والنظراء والأولاد.

على أنه يستفاد من هذه الآية فداحة العصيان الشنيع وفظاعة النكر الموبق في الركون إلى الساسة والعادة وأولي الأمر في التشريع للناس؛

إذ يحلون لهم ما حرمه الله عليهم، أو يحرمون ما أحله الله لهم ولذلك في معزل عن دين الله وشرعه بل تبعا لما تجده أهواؤهم وأمزجتهم - حتى إذا أطاعهم الناس واتبعوهم فيما شرعوه لهم صاروا عبدة لهم - فما يطيع المرء أحدا من البشر في شرع من عنده مخالف لشرع الله فيما احل أو حرم إلا كان عابدا له من دون الله - وأيما امرئ من البشر شرع للناس تشريعا فيه تحليل لما حرمه الله، أو تحريم لما أحل الله، فقد اصطنع لنفسه خصيصة من خصائص الإلهية التي لا تنبغي لأحد سوى الله - وما الناس الطائعون الراضون بعد ذلك إلا المشركون الذين يعبدون مع الله آلهة مشرعة أخرى من البشر ٥٨.

ويستبين بذلك مدى الجريمة البالغة التي يتلبس بها المشرعون للناس من عند أنفسهم مما لم يأذن به الله، ومما لم ينزل الله به سلطانا - بل يصطنعون للناس تشريعا مخالفا لمنهج الله سواء في التحليل أو التحريم، فهم لذلك يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله - لا جرم أن هذه فاقرة فظيعة يسقط فيها الساسة والقادة وأولوا الأمر الذين يفتاتون على الله بما شرعوه للناس - وما شرعوه لهم مخالف لمنهج الله - وذلكم غاية العصيان والكفران.

وكذلك الرعاع من التابعين الذين يهرعون لطاعة الحاكم في كل ما أمر من غير تمحيص لما هو مخالف لشرع الله أو غير مخالف - منهم لا يعبأون عن كانت أوامر الحاكم مغايرة لشرع الله - وإنما يخفون سراعا وفي غاية الاستحقاق والرعونة؛ ليطيعوا الحاكم طمعا في بلوغ مأرب مهين مسف، أو لمجرد النفاق والمداهنة والخفة وخواء الضمير - لا جرم أن هؤلاء واقعون في مستنقع الشرك الذي غاص فيه سائر الكافرين والمنافقين والملحدين وعباد الملوك ولسلاطين.

ولا يظنن جاهل من الجاهلين أنه بصلاته وزكاته وصيامه ناج من الانهيار في الهاوية ليكون في زمرة المشركين الذين عبدوا الرؤساء والحاكمين؛ إذ أطاعوهم عن رضى ومودة.

٣٢ - (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

قوله تعالى: {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ٣٢ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}.

يريد الكافرون من أهل الكتاب والوثنين والملحدين وغيرهم من أهل الكفر {أن يطفئوا نور الله} وهو القرآن الكريم؛ فهو أصل الإسلام كله - الدين الكبير الشامل الذي يتناول القضايا والمشكلات والمسائل البشرية كافة - ذلكم الإسلام العظيم الرحب يريد الكافرون على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم أن يطفئوه بأفواههم - وذلك بأقاويلهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة التي يثيرونها في كل مكان ومجال - وذلك هو ديدن الكافرين في كل الأزمنة، وخصوصا في هذا العصر الذي تنشط فيه أفواه الظالمين من خصوم الإسلام من استعمارين وصليبيين وصهيونيين ووثنين ومحلدين وعملاء - كل أولئك يريدون أن يطفئوا نور الإسلام بما يبثونه وينشرونه من الكلمات والخطابات المنطوقة، لا يبتغون من ذلك إلا تشويه الإسلام والإساءة إلى سمعته وروعته وصلوحه.

ويلحق بما يخرج من الأفواه ما تخطه أقلام الظالمين والمعوقين الذين يصدون عن منهج الله، والذين يحرضون البشرية على الشرود والنفور من الإسلام وجنبته والارتداد عنه - ومجال الأقلام في محاربة الإسلام هائل وخطير وبالغ التأثير؛ فإن الأقلام التي تخط المقالات والمنشورات والكتب في محاربة الإسلام وصد الناس عن هذا الدين لهي فظيعة وخبيثة ومؤثرة - وكم عانى المسلمون من افتراءات الكافرين الظالمين الذين يشنعون على المسلمين في سمعتهم وقيمهم وأخلاقهم وعاداتهم تشنيعا! وكم واجه الإسلام نفسه من أباطيل أعدائه المتربصين الذين يكيدون له طيلة الزمان كيدا! وذلك بمختلف الأساليب في التشويه والتشكيك والتنفير للحيلولة بين البشرية وهذا الدين.

ولقد بلغ الكافرون والمتربصون غاياتهم في تشويه الإسلام بما تخطه أيديهم الأثيمة من مقالات السوء والافتراء، واصطناع الشبهات والأكاذيب الملفقة عن الإسلام - وبالرغم مما يبذله المشركون والحاقدون العتاة من هائل الطاقات المنطوقة والمخطوطة والمصورة في الكيد لهذا الدين من اجل تدميره أو استئصاله؛ فإن هذه الجهود والطاقات لسوف تبوء بالفشل الذريع - وهو قوله سبحانه وتعالى: {ويأتي الله إلا أن يتم نوره} وذلك قرار رباني كبير وخالد لا يقبل الشك أو الجدل؛ وهو أن هذا الدين لا جرم قائم، وأنه شائع في الآفاق وفي سائر أنحاء الدنيا؛ فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عن الله زوى ٥٩ لي الأرض

مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها).
وروي الإمام أحمد بإسناده عن تميم الداري (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنها - ولا يترك الله بيت مدر ولا بر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزا ويذل ذليلا، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر).
ولئن ظهر الإسلام وشارع في العصور الفائتة تحقيقا قوله تعالى: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} فإن عود الإسلام من جديد كيما يهيمن على الواقع البشري كله ليس بالأمر البعيد - بل إن ذلك مرهون بالأسباب التي تفضي بالضرورة لهيمنة الإسلام وتطبيق شريعته في المجتمع - وسبيل المسلمين لهذا الأمل الكبير المنتظر أن يتلاقوا جميعا على عقيدة التوحيد بعيدا عم كل ألوان الشرك والنفاق والرياء والفرقة والأثرة - وأن تترسخ في قلوبهم حقيقة التقوى وهي الخوف من الله وحده دون أحد سواه - وأن تتركز بينهم آصرة الأخوة في العقيدة والدين فتسمو هذه على كل الأواصر المحدودة الأخرى - وأن يتهيأوا لليوم الفاصل الذي يواجهون فيه أعدائهم المتربصين فيستعيدون لذلك كامل الاستعداد من غير تفريط ولا تقصير ولا تردد - فيتزودون لذلك بزاد القوة الكافية التي يرهب بها المسلمون عدو الله وعدوهم - وهذه إحدى الوسائل التي لا مناص من التلبس بها؛ لأن أعداء الله لا تردعهم أساليب المجادلات والمحاورات المنطقية، ولا يصدهم الخلق الكريم، أو التعامل بالرفق والمودة واللين، إن أعداء الله لا يردعهم ولا يصدهم عن الشر والعدوان على المسلمين إلا قوة السلاح المرعب بكل ما تعنيه القوة من الأسباب العلمية والتقنية والمادية والعسكرية - وهو مقتضى قوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} وبغير ذلك لسوف يبقى الظالمون والأشرار يعتدون على الإسلام والمسلمين، فيكيلون لهم الضربات والويلات بغير رادع ولا انقطاع.
وعلى أية حال؛ فإن الإسلام باق لا يزول ولا يفنى مهما طغى عليه العتاة والمتجبرون - ومهما تزاحمت من حوله المؤامرات والخيانات والافتراءات - إن الإسلام باق بقاء الشمس والقمر، وبقاء النجوم والكواكب التي توجب أجواز الفضاء بغير انقطاع ولا توقف حتى تقوم القيامة؛ لأن الإسلام قدر رباني حكيم وثابت - وظاهرة كونية كبرى من ظواهر هذا الوجود المستديم إلى قيام الساعة؛ وبذلك لا تقوى قوى البغي والظلام والعدوان والشر على استئصال الإسلام من الدنيا - وهو بالرغم من يعتريه الآن من ظواهر الضعف والاضطراب لفرط ما يحيق به من كيد وتآمر ولكثافة الضربات التي يوجهها إليه الظالمون والأشرار؛ فإنه لن يفنى ولن يزول بل إنه راسخ ومستطير وسيعاود الظهور والاستعلاء لا محالة؛ ليظهر على العالمين بإذن الله - وهذا مقتضى قوله سبحانه: {وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}.
٣٣ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]
قوله تعالى: {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ٣٢ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}.
يريد الكافرون من أهل الكتاب والوثنين والملحدين وغيرهم من أهل الكفر {أن يطفئوا نور الله} وهو القرآن الكريم؛ فهو أصل الإسلام كله - الدين الكبير الشامل الذي يتناول القضايا والمشكلات والمسائل البشرية كافة - ذلكم الإسلام العظيم الرحب يريد الكافرون على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم أن يطفئوه بأفواههم - وذلك بأقاويلهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة التي يثيرونها في كل مكان ومجال - وذلك هو ديدن الكافرين في كل الأزمنة، وخصوصا في هذا العصر الذي تنشط فيه أفواه الظالمين من خصوم الإسلام من استعمارين وصليبيين وصهيونيين ووثنين ومحلدين وعملاء - كل أولئك يريدون أن يطفئوا نور الإسلام بما يبثونه وينشرونه من الكلمات والخطابات المنطوقة، لا يبتغون من ذلك إلا تشويه الإسلام والإساءة إلى سمعته وروعته وصلوحه.
ويلحق بما يخرج من الأفواه ما تخطه أقلام الظالمين والمعوقين الذين يصدون عن منهج الله، والذين يحرضون البشرية على الشرود والنفور من الإسلام وجنبته والارتداد عنه - ومجال الأقلام في محاربة الإسلام هائل وخطير وبالغ التأثير؛ فإن الأقلام التي تخط المقالات

والمنشورات والكتب في محاربة الإسلام وصد الناس عن هذا الدين لهي فظيعة وخبيثة ومؤثرة - وكم عانى المسلمون من افتراءات الكافرين الظالمين الذين يشنعون على المسلمين في سمتهم وقيمهم وأخلاقهم وعاداتهم تشنيعا! وكم واجه الإسلام نفسه من أباطيل أعدائه المتربصين الذين يكيدون له طيلة الزمان كيدا! وذلك بمختلف الأساليب في التشويه والتشكيك والتنفير للحيلولة بين البشرية وهذا الدين.
ولقد بلغ الكافرون والمتربصون غاياتهم في تشويه الإسلام بما تخطه أيديهم الأثيمة من مقالات السوء والافتراء، واصطناع الشبهات والأكاذيب الملفقة عن الإسلام - وبالرغم مما يبذله المشركون والحاقدون العتاة من هائل الطاقات المنطوقة والمخطوطة والمصورة في الكيد لهذا الدين من اجل تدميره أو استئصاله، فإن هذه الجهود والطاقات لسوف تبوء بالفشل الذريع - وهو قوله سبحانه وتعالى: {ويأتي الله إلا أن يتم نوره} وذلك قرار رباني كبير وخالد لا يقبل الشك أو الجدل، وهو أن هذا الدين لا جرم قائم، وأنه شائع في الآفاق وفي سائر أنحاء الدنيا، فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عن الله زوى ٦٠ لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها).
وروي الإمام أحمد بإسناده عن تميم الداري (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنها - ولا يترك الله بيت مدر ولا بر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزا ويذل ذليلا، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر).
ولئن ظهر الإسلام وشارع في العصور الفائتة تحقيقا قوله تعالى: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} فإن عود الإسلام من جديد كيما يهيمن على الواقع البشري كله ليس بالأمر البعيد - بل إن ذلك مرهون بالأسباب التي تفضي بالضرورة لهيمنة الإسلام وتطبيق شريعته في المجتمع - وسبيل المسلمين لهذا الأمل الكبير المنتظر أن يتلاقوا جميعا على عقيدة التوحيد بعيدا عم كل ألوان الشرك والنفاق والرياء والفرقة والأثرة - وأن تترسخ في قلوبهم حقيقة التقوى وهي الخوف من الله وحده دون أحد سواه - وأن تتركز بينهم آصرة الأخوة في العقيدة والدين فتسمو هذه على كل الأواصر المحدودة الأخرى - وأن يتهيأوا لليوم الفاصل الذي يواجهون فيه أعدائهم المتربصين فيستعيدون لذلك كامل الاستعداد من غير تفريط ولا تقصير ولا تردد - فيتزودون لذلك بزاد القوة الكافية التي يرهب بها المسلمون عدو الله وعدوهم - وهذه إحدى الوسائل التي لا مناص من التلبس بها، لأن أعداء الله لا تردعهم أساليب المجادلات والمحاورات المنطقية، ولا يصدهم الخلق الكريم، أو التعامل بالرفق والمودة واللين، إن أعداء الله لا يردعهم ولا يصدهم عن الشر والعدوان على المسلمين إلا قوة السلاح المرعب بكل ما تعنيه القوة من الأسباب العلمية والتقنية والمادية والعسكرية - وهو مقتضى قوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} وبغير ذلك لسوف يبقى الظالمون والأشرار يعتدون على الإسلام والمسلمين، فيكيلون لهم الضربات والويلات بغير رادع ولا انقطاع.
وعلى أية حال، فإن الإسلام باق لا يزول ولا يفنى مهما طغى عليه العتاة والمتجبرون - ومهما تزاحمت من حوله المؤامرات والخيانات والافتراءات - إن الإسلام باق بقاء الشمس والقمر، وبقاء النجوم والكواكب التي توجب أجواز الفضاء بغير انقطاع ولا توقف حتى تقوم القيامة، لأن الإسلام قدر رباني حكيم وثابت - وظاهرة كونية كبرى من ظواهر هذا الوجود المستديم إلى قيام الساعة، وبذلك لا تقوى قوى البغي والظلام والعدوان والشر على استئصال الإسلام من الدنيا - وهو بالرغم من يعتريه الآن من ظواهر الضعف والاضطراب لفرط ما يحيق به من كيد وتآمر ولكثافة الضربات التي يوجهها إليه الظالمون والأشرار، فإنه لن يفنى ولن يزول بل إنه راسخ ومستطير وسيعاود الظهور والاستعلاء لا محالة، ليظهر على العالمين بإذن الله - وهذا مقتضى قوله سبحانه: {وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}.
٣٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)
قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون

الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ٣٤ يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون}.

بعد أن ندد بتهافت الأتباع والرعاع من الناس الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله، شرع في الكشف عن فساد الأحبار والرهبان أنفسهم؛ فإن كثيرا منهم فاسدون مفسدون ضالعون في الخطيئة والرجس، ويضلون الناس عن صراط الله الحق ويعمدون عن جشع وطمع إلى أخذ أموال الناس بغير حق؛ وذلك على سبيل الرشا والابتزاز ٦١ والكذب؛ فهم يفترون على الناس بما يصطنعونه لهم من كاذب الأحكام ليحلوا لهم الحرام، ويحرموا عليهم الحلال، ويغيروا من معالم دينهم وشريعتهم، أو يبدلونها تبديلا؛ ترضية للرعية في مقابلة ما يؤدونه لهم من العطايا والضرائب والبراطيل ٦٢ - كل ذلك على حساب دينهم الذي بغوا عليه وجاروا على أحكامه أشد الجور فاستحال إلى أشتات من الكلام المختلط المتهافت - الكلام الذي أتى عليه التحريف والتزيف فبدله دينا غير الله.

وفي ذلك تنبه للمسلمين وتحذير شديد من أن يسقط علماؤهم مثل ذلك السقطة التي انحدر إليها الأحبار والرهبان - ذلك تحذير للمسلمين في كل زمان كيلا تغريهم مباهج الدنيا وزينتها من الأموال والمناصب فيميلوا عن الحق فيما يبينونه للناس من علوم الشريعة وأحكامها - والعلماء في نظر الإسلام (ورثة الأنبياء) فهم احرص الناس كافة على صلاح السريرة والنصح للدين والأمة والأوطان، والاستعلاء على الشبهات والشهوات ومجانبة الباطل والسحت والغش والافتراء - بل إن العلماء خليق بهم أن يكونوا أعزة كراما مع أنفسهم ومع الناس من حولهم؛ فهم بذلك يسخرون بالنفاق والمنافقين، ويستهجنون التهافت حول أعتاب الساسة والرؤساء؛ لأن العلماء أعظم قدرا وتشريفا ممن سواهم من أولى الزمام الذين يتقلدون المناصب وقيادة البلاد والعباد؛ فلا حاجة للعلماء -على كبير قدرهم وبالغ شرفهم- للتزلف أو المصانعة أو الملق ٦٣ - وهم إذا عرفوا حقيقة أنفسهم وأقدارهم تجافوا بأنفسهم عن كل ظواهر الإسفاف والضعة والهبوط - وترفعوا عن كل الدنايا والرزايا والشبهات التي تحيط بأولي المناصب والكراسي والثراء؛ فيضل العلماء على الدوام أبرارا أتقياء وقد صانوا دينهم وشرفهم أن يخرم أو يتدنس - وبذلك تتحدث بذكرهم وفضلهم الألسن والقراطيس إلى يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قوله: {ويصدون عن سبيل الله} أي يصدون الناس عن دين الإسلام، أو عن المسلك الحقيقي الذي قرره الله في كتبهم - إنهم يصدون الناس عن ذلك إلى ما افتراه وحرفوه - وهم مع أكلهم الحرام يصدون غيرهم عن اتباع الحق ويخلطون الحق بالباطل ليلبسوا على الناس دينهم فلا يميزوا فيه بين الصواب والخطأ، ولا يعرفوا المحرف فيه من السليم - ومع ذلك كله فإنهم يظهرون لعامة الناس أنهم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، والله يعلم، وكذا الراسخون في العلم يعلمون أنهم مبطلون مخادعون دجاجلة؛ فلا يدعون إلا للباطل ولا يقودون أنفسهم والذين اتبعوهم إلا إلى النار وبئس القرار ٦٤.

قوله: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم} الواو في قوله: {والذين} فيها ثلاثة وجوه - الأول: أنها استئنافية، والذين، مبتدأ ضمن معنى الشرط، فدخلت الفاء في خبره.

الثاني: أن الموصول هنا من أوصاف الكثير من الأحبار والرهبان.

الثالث: أنه منصوب بفعل مقدر يفسره قوله: {فبشرهم} ٦٥.

قوله: {يكنزون} من الكنز - وهو في اللغة يعني: المال المدفون: وهو أيضا بمعنى الذهب والفضة وما يحرز به المال ٦٦ ولا يختص الكنز بالذهب والفضة بل يعم غيرهما من الأموال مما سواهما.

حكم الكنز

ثمة خلاف في المال الذي أدى صاحبه زكاته، هل يسمى كنزل أم لا؟ للعلماء في ذلك أقوال ثلاثة:

القول الأول: أربعة آلاف فما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وإن أديت زكاته، وهو قول علي رضي الله عنه ٦٧.

القول الثاني: الكنز، ما فضل عن الحاجة؛ فهو بذلك تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وهو مذهب أبي ذر رضي الله عنه - وهو من شدائده ومما انفرد به - وعلى هذا لا يجوز الكنز، بل يجب إنفاق الذهب والفضة جميعا مما يفضل عن حاجة العيال -واحتج أبو

ذر بظاهر الآية {والذين يكنزون الذهب والفضة} الآية ٦٨.
القول الثالث: ما أديت منه زكاته أو من غيره فليس بكنز، ولا يحرم جمعه أو ادخاره وإن كان كثيرا - وهو قول أكثر العلماء وهو الصحيح - ٦٩ ويستدل على ذلك من السنة بما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك) - وكذلك ما أخرجه أبو داود عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحا ٧٠ من ذهب فقلت: يا رسول الله أكنز هو؟ فقال: (ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز).
والمراد تخويف الكافرين الذين يمتنعون من تزكية أموالهم المكنوزة؛ لما في ذلك من العدوان على حق الفقراء والمساكين بما يفضي إلى غضب الرحمن، وإعواز المحاويج وإحساسهم بالأم والحسرة؛ وبذلك فقد أعد الله للكانزين الأشحة المانعين الزكاة شديد العذاب، وتوعدهم بالنار تصطلي بها جلودهم وأبدانهم - وذلك من خلال الآية وهي غاية البلاغة والتأثير تفيض بهما روعة هذا التعبير - وهو من كلام اله المعجز الذي ينكص دونه كل كلام، وتدنو دونه الكلمات وبراعة الأقلام
٣٥ - (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)
{يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم} {يوم}، منصوب بمحذوف يدل عليه قوله: {بعذاب} أي يعبدون يوم يحمي عليها - أو منصوب بفعل تقديره: واذكر يوم يحمى ٧١ - والمعنى: أن ما أكتنزه المالكون من أموال لم تؤد زكاتها سوف توقد عليها نار الحامية، والشديدة الحرارة - وقد جعل الإحماء للنار مبالغة في التنكيل والتحريق؛ لأن النار في نفسها حامية، فإذا وصفت بأنها تحمى؛ دل ذلك على شدة توقدها وفظاعة اشتعالها وتحريفها - والمراد أن النار تحمى على المال المكنوز ليصير حاميا بالغ الحرارة، ثم تكوى بها بعد ذلك جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم - وقد خصت هذه المسميات بالذكر؛ لأن غرض الكانزين هم كنزهم وجمعهم المال أن يكونوا عند الناس ذوي وجاهة وإطراء فينزعون بذلك إعجاب الناس وتكريمهم لهم، فضلا عن ظواهر الرغد والتنعيم بالشهي من المطعوم وفاخر الملبوس - ومن أجل ذلك يكتوون على الأعضاء التي كانت تبرز فيهم لدى المفاخرة والاختيال، وعند طلب الوجهة وحسن الصيت، وهي الجباه - ثم جنوبهم وظهورهم التي كانت محلفة بالسمن لفرط الأكل والترف والتنعم بطيبات الحطام الفاني - لا جرم أن الكي على هذه المواضع أشنع وأوجع وأخزى؛ فهي مواضع التعبير عن الغرور الذي هوى فيه هؤلاء اللئام الأشحة، أو البطر الذي غشيهم فأنساهم حق الفقراء والمساكين والمعوزين فيما كنزوه.
قوله: {فذوقوا ما كنتم تكنزون} ما، مصدرية ح أي ذوقوا وبال كنزكم - وقيل: موصولة؛ أي ذوقوا وبال المال الذي كنتم تكنزونه - ويقال لهم ذلك على سبيل التقريع والتهكم وزيادة في التنكيل الأليم كقوله: {ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ٣٨ ذق إنك أنت العزيز الكريم} فهذا هو الذي كنتم تكنزونه لأنفسكم فذوقوا كيه ومس لظاه - وفي الصحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار) ٧٢.
٣٦ - (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)
قوله تعالى: {إن عدة الشهور عند الله اثنا شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين}.
ذكر أن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات والحروب، فكانت إذا توالت عليها الأشهر الأربعة الحرم ضاقت عليهم الحال وافتقروا - فرغبهم ذلك في أن ينسئوا الشهور للعرب؛ أي أن يؤخرها؛ فكانوا يأتون إلى من نسئ لهم الهر ويقولونه له: أنسئنا شهرا؛ أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم فيغيرون فيه ويعيشون، ثم يلزمون حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة ويسمون ذلك الصفر المحرم ويسمون ربيعا الأول صفرا وربيعا الآخر ربيعا الأول وهكذا في سائر الشهور، فتجيء السنة من ثلاثة عشر

شهرا أولها المحرم للمحلل، ثم المحرم الذي هو في الحقيقية صفر، حتى حج أبو بكر في ذي القعدة حقيقة، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر في ذي الحجة حقيقة - وفي ذلك أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض و {إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم} ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان) وقد أضاف رجب إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم؛ فبين صلى الله عليه وسلم أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ٧٣.

قوله: {في كتاب الله} أي في اللوح المحفوظ - وقيل: في القرآن - وقيل: في حكم الله.

قوله: {يوم خلق السموات والأرض} أي في ابتداء إيجاد هذا العالم - والمراد أنه في ابتداء ذلك كانت الشهور عدتها ما ذكر وهي الآن على ما كانت عليه.

قوله: {ذالك الدين القيم} الإشارة عائدة إلى تحريم الأشهر الأربعة، وإلى ما ينبغي لها من التفخيم والتعظيم {الذين القيم} أي القضاء المستقيم، وهو قول بن عباس، وقيل: الشرع القويم؛ إذ هو دين إبراهيم عليه السلام.

قوله: {فلا تظلموا فيهن أنفسكم} الضمير في قوله: {فيهن} راجع إلى الأشهر الحرام؛ فقد نهي المسلمين عن هتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن كنهيه عن المظالم في هذه الأشهر العظيمة خصوصا، تشريفا لها وتعظيما؛ فقد خصها بالذكر، وإن كانت المظالم منهيا عنها في كل زمان.

على أن تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة منسوخ عند جمهور العلماء وأن الظلم المنهي عنه فيهن مؤول بارتكاب المعاصي - وقد بينا آنفا أن تخصيصها بالنهي عن ارتكاب المعاصي والآثام فيها، لتعظيمها، مع أن المعاصي منهي عنها مطلقا.

وعن عطاء بن أبي رباح أنه لا يحل القتال للناس في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا دفعا لعدوان وقع عليهم - لكن الراجح القول بالنسخ - وبذلك فإن قتال الكافرين في الأشهر الحرم بات فير محظور، ويؤيد هذا: أن النبي صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذي القعدة سنة ثمان - ولئن وقع على المسلمين عدوان من الكافرين بات قتالهم أعظم وجوبا وأشد تأكيدا ٧٤.

قوله: {وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة} {كافة}، منصوب على المصدر في موضع الحال كقولهم: عافاه الله عافية، ورأيتهم عامة وخاصة ٧٥؛ أي قاتلوا المشركين مجتمعين غير مختلفين، ومؤتلفين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعا مجتمعين غير متفرقين - وبعبارة أخرى: قاتلوهم جميعكم كما يقاتلونكم جميعهم - وذلك تهييج للمسلمين وتحضيض لهم على قتال المشركين مجتمعين مؤتلفين، غير متفرقين - كقوله تعالى: {إن الله يحب الذين يقاتلوهم في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} وذلك يذكرنا بأن المشركين الذين يكرهون الإسلام ويناصبونه العداء والكيد دوما، يواجهون المسلمين مجتمعين وقد حشدوا لقتالهم كل قواهم وطاقاتهم، واستنفروا من القدرات والأموال والعساكر كل ما لديهم - وذلك يوجب على المسلمين أن لا يتنازعوا ولا تختلف كلمتهم فتختلف قلوبهم وتلين قناتهم ويهون بأسهم وكيانهم في نظر أعدائهم؛ بل عليهم أن يلتئموا جميعا ليكونوا على قلب رجل واحد إن كانوا حقا مؤمنين يخشون الله في أنفسهم وعقيدتهم وأوطانهم وأمتهم.

إن على المسلمين أن يحشدوا جموعهم وعساكرهم ويستعدوا للقاء العدو الظالم، وهم مجتمعون متحدون؛ فإن أعداءهم ماكرون حاقدون، وهم كثيرون مجتمعون على محاربة الإسلام والمسلمين، وما فتئوا يتآمرون في الظلام ليكيدوا لهذا الدين أبلغ الكيد؛ فلا مندوحة إذن عن استعداد المسلمين في سائر أقطار الأرض للقاء الكافرين المعتدين دفاعا عن أنفسهم، ودرءا للمخاطر أن تحقي بدينهم وأمتهم.

وإذا لم يعبأ المسلمون بمواجهة الظالمين وركنوا إلى الدنيا بحطامها وزخارفها، واستسلموا للإياس والحور والسلاطين الفسقة؛ فلسوف تزداد من حولهم المخاطر والشدائد حتى يعودوا إلى دينهم الإسلام عودا حقيقيا.

قوله: {واعلموا أن الله مع المتقين} ذلك إعلان من الله للمؤمنين أنهم إن اتقوه وأطاعوه شرعه والتزموا ما أمرهم به كاجتماعهم كافة على قتال المشركين؛ فغنه سبحانه لا محالة ناصرهم ومؤيدهم وجاعل الغلبة لهم ٧٦.

٣٧ - (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: {إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله يهدي القوم الكافرين} {النسيء} معناه التأخير - وهو مصدر بمعنى الإنساء وهو التأخير، أنسأته إنساء، إذا أخرته عنه - والاسم النسيئة والنسء - ومنه: أنسأ الله فلانا أجله - ونسأ في أجله ٧٧ والمراد: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر؛ فقد كانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة سابقا، فإذا دعتهم الحاجة إلى القتال فيها، قاتلوا حرموا غيرها بدلا منها، فإذا قاتلوا مثلا في المحرم، حرموا بدلا منه شهر صفر وهكذا في غيره - وقد حملهم على ذلك أن أكثرهم كانوا يعيشون من الغارات وغزو بعضهم بعضا ونهب ما يمكنهم أن ينهبوه، فيقع بسبب ذلك بينهم القتال، ومن أجل ذلك كانوا يحللون لأنفسهم بعض الأشهر الحرم؛ ليحرموا مكانه بقدره من أشهر أخرى غير الحرم - وهذا هو النسيء.

قوله: {زيادة في الكفر} يعني هذا النسيء الذي بينا معناه آنفا، زيادة في كفرهم - فقد أتوا وجوها في الكفر، منها: بجودهم الخالق، وإنكارهم البعث، وتكذيبهم النبيين والمرسلين - فجاء النسيء زيادة على هذه الوجوه؛ أي أنهم ازدادوا بالنسيء كفرا على كفرهم؛ فهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم فضلوا به ضلالا زائدا - وهو قوله: {يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما}.

قوله: {ليوطئوا عدة ما حرم الله} {ليوطئوا}: ليجتمعوا ويتفقوا - واطأه على الأمر: وافقه - تواطأوا عليه؛ أي اتفقوا ٧٨ - والمعنى: أنهم يوافقون بعدة الشهور التي يحرمونها عدة الأشهر الأربعة التي حرمها الله من غير زيادة عليها ولا نقصان منها - فهم بذلك لم يحلوا شهرا إلا حرموا بدلا منه شهرا آخر؛ ليبقى الأشهر الحرم أربعة، وبذلك يحلون ما رحم الله من الأشهر الحرم التي أبدلوها بغيرها.

قوله: {زين لهم سوء أعمالهم} أي زين الشيطان لأتباعه المشركين الضالين ما اقترفوه من المعاصي وأنواع الكفر، ومن جملتها ذلك.

قوله: {والله لا يهدي القوم الكافرين} وذلك إذا اختاروا الباطل فمالت إليه نفوسهم بعد أن جنحوا عن طريق الله وأبوا إلا المضي في طريق الشيطان ٧٩.

٣٨ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ٣٨ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير} نزلت في الحث على غزوة تبوك؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف وغزوة حنين أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من البأس، وجدب من البلاد، وشدة من الحر، حين أخرفت النخل ٨٠ وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكين والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية ٨١.

قوله: {ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله} ما، حرف استفهام معناه التوبيخ - والتقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا؛ وذلك على سبيل العتاب والتوبيخ لمن تخلف من المسلمين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام.

وقوله: {انفروا} من النفر، بسكون الفاء، وهو في الأصل يعني الخروج من مكان إلى مكان آخر لأمر واجب - واسم القوم الذين يخرجون لذلك، النفير ٨٢؛ أي ما لكم إذا قيل لكم اخرجوا مجاهدين في سبيل الله لجهاد أعدائه {اثاقلتم إلى الأرض} أي تثاقلتم إلى نعيم الحياة ولزوم الأرض وما فيها من متاع وزينة، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم ومساكنكم حيث الاستقرار والدعة، وزهدتم في الخروج للقاء المشركين الظالمين.

قوله: {أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة} أي أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة؟! أرضيتم بهذه العاجلة التي تمر في عجل عابر

وتغفلون عن الآخرة حيث النعيم المستديم؟! فنعيم الدنيا حطام زائل، ونعيم الآخرة ماكث سرمد - فكيف يستعاض عن الماكث الباقي بالحطام الدائر؟ إنه لا يفعل ذلك إلا ضال مأفون.

قوله: {فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل} أي فما الذي تستمتعون به في دنياكم هذه مما فيها من اللذات والنعيم في جنب الآخرة {إلا قليل} أي متاع صغير بالغ الهوان.

٣٩ - (إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: {إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا} ذلك وعيد من الله للمؤمنين لئن تركوا النفر إلى عدوهم لقتالهم وصدهم، فلسوف يعذبهم الله عذابا العاجل الموجع في هذه الدنيا، كحبس المطر عنهم ونحوه، وكذلك يستبدل الله بكم آخرين ينفرون إذا استنفروا {ولا تضرون شيئا} أي أن المؤمنين لا يضرون الله بتركهم الجهاد، بل إن الله لا يعبأ بضلال العالمين جميعا ولا حاجة به سبحانه إلى الناس، بل إن الناس هم المحتاجون إليه.

قوله: {والله على كل شيء قدير} الله قادر على تعذيب المفرطين الذين نكلوا عن فريضة الجهاد، وقادر على استبدال آخرين غيرهم، بل إن الله قادر أن يفعل ما يشاء ٨٣.

٤٠ - (إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم} {إذ أخرجه}، في محل نصب ظرف زمان - و {ثاني اثنين} - أي أحد اثنين، منصوب على الحال، {إذ هما في الغار}، بدل من: {إذ أخرجه} - {إذ يقول}، بدل ثان ٨٤.

والمعنى: إن لم تنصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتركتم بذل العون له والتأييد، فإن الله جل وعلا يتكفل بذلك، فقد نصره الله في مواطن الشدة والخطر، وهو سبحانه ينصره في كل المواطن إن شاء مثلما نصره وثبته في أشد الأحوال من الخوف البالغ والخطر المحدق {إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين} يعني أحد اثنين - وكان صاحبه في الهجرة المباركة المشهودة صديقه المخلص الودود أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فقد خرجا كلاهما بدينهما إلى المدينة، ثم لجئا في الطريق إلى غار ثور ثلاثة أيام، حتى إذا جاء المشركون في اغترار بالغ وسفاهة عاتية حمقاء، أحاطوا بالغار ليجدوا من فيه، أو يفضوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوقعوا به ما ائتمروا به وهو القتل - والرسول صلى الله عليه وسلم مع ذلك مطمئن ثابت، بل هو أقوى في شموخه وثباته من الرواسي الشم، فما تزعزع فيه مثقال ذرة من مشاعره وأعصابه، ولا اضطراب من بدنه أو كيانه مثقال قطمير، ولا ازدادت في صدره خفقات قلبه الكبير ولو بقدر خفقة واحدة أو نصيفها، وحسبه هذا الحدث الهائل وحده شاهدا على صدق نبوته وحقيقة رسالته للعالمين كافة.

قوله: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} أي بالنصر والتأييد والكلاءة وإنما كان حزن أبي بكر، إشفاقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخشية أن يناله من أذى المشركين شيء، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك معصوما بالصون والحفظ المحتومين، فقد نزل عليه في المدينة قول الله تعالى: {والله يعصمك من الناس}.

وروي الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهما نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه - فقال (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟).

والله جل وعلا خالق كل شيء وبارئ المؤمنين والمجرمين قادر أن يرد كيد المجرمين في نحورهم، وأن ينشر الأمن والسكينة في قلب نبيه المعظم صلى الله عليه وسلم، فيشد من عزيمته البالغة التي لا تأتي عليها الأهوال والمحن، ولا يفلها مكر الشياطين من البشر الجاحد المتربص - وهذا مقتضى قوله سبحانه: {فأنزل الله السكينة} أي أنزل تأييده ونصره وتثبيته على الرسول صلى الله عليه وسلم {وأيده

بجنوده لم تروها} أي أيده بنزول الملائكة الأطهار مؤيدين له ومعززين.
قوله: {وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا} كلمة الله مرفوعة على الابتداء - و {هي العليا}، خبر المبتدأ ٨٥.
أما {كلمة الذين كفروا} فهي جامعة لمعاني الشرك والظلم والباطل والضلال، فقد جعلت هذه {السفلى} وذلك بالتبديد والمحق والقهر، فكل مقهور ومغلوب لهم أسفل من الغالب، والغالب لهو الأعلى.
أما {كلمة الله} فهي الحق بكل ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معاني الخير والبركة والعدل والفضل - لا جرم أن يأتي في قمة ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله، فهي الشهادة العظمى التي تأتي في الذروة السامقة من مراتب الحق والخير في هذا الوجود كله - وقد جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهي في سبيل الله).
إن كلمة الله بالشهادة العظمى ومنهج الله الحكيم القويم وما حواه ذلك من معاني راسخة في الخير والجلال والفضيلة، لهم الحق الأبلج الثابت الذي يصلح عليه الناس وتستقيم على أساسه الدنيا - لكن كلمة الكافرين تضم الشر والشقاء والباطل، وذلك كله في الأسفلين والأذلين حيث يصير إليه الكافرون بما استفرخ في أذهانهم وصدورهم من عقائد الضلال والكفر.
على أنه يستفاد من حدث الهجرة جواز الفرار بالدين خوفا من العدو، وكذلك الاستخفاء منهم مخافة كيدهم وإيذائهم، ومخافة أن يذهب الدين نفسه بذهاب دعاته وحملته - وما ينبغي الاحتجاج بما يقوله بعض الجاهلين، وهو أن من خاف مع الله سواه كان ذلك نقصا في توكله وتقواه ولم يؤمن بالقدر، ومثل هذا القول مجانب للصواب، ومخالف لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد دلت سنته العملية على فراره بدينه في حدث الهجرة ليكون ذلك مثالا يحتذى لدى المسلمين طيلة الزمان كلما حزب أحدهما أو بعضهم من الكافرين والخائنين كيد أو مكر فيفر بدينه - لا جرم أن ذلك أسلم للنفس أن يستحوذ عليها الكافرين بالفتنة أو القتل، فضلا عما في ذلك من مراعاة حقيقة لفطرة الإنسان التي تهتف بالخوف من الموت - وهذه حقيقة أساسية من حقائق كثيرة جبل عليها الإنسان - وخلاف ذلك من القول المغاير ليس إلا التكليف أو الجهل بطبيعة الإنسان وحقيقة فطرته التي جيئ به عليها {لا تبديل لخلق الله}.
أما رسولنا الهادي صلى الله عليه وسلم فما كان يخشى الكافرين على نفسه بقدر خشيته على الدين أن يفنى بهلاكه، ويكون في هجرته مناص للمكروبين من دعاة الحق والدين أن يفروا بأنفسهم إذا أحاطت بهم أسباب المنون بفعل الظالمين والخائنين.
قوله: والله عزيز حكيم} إنه لا يعز على الله أن يزلزل الطغاة والمستبدين والظالمين، وأن يقهرهم ويذيقهم الإذلال ومرارة التعس والشقاء، وهو أيضا قادر على نصر عباده المؤمنين المخبتين الصابرين، وهو يقضى في ذلك كله حسب مشيئته وتقديره وتقديره - وهو سبحانه حكيم في تدبيره وتصريفه لأمور العباد ٨٦.
٤١ - (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} {خفافا وثقالا}، منصوب على الحال ٨٧ - ذلك تحريض بالغ على رفض العدوان والظلم أن يصيب المسلمين فيؤذيهم أو يذلهم - إنه تحريض قائم مجلجل يهتف بالمسلمين في كل مكان وزمان لكي يرفضوا الضيم لأنفسهم فيدرأوه درءا ويدفعوه بكل الأسباب من غير تردد في ذلك ولا نكوص.
إن على المسلمين -بناء على هذه الآية ونظائرها من الآيات في هذا الصدد- أن يلتئموا جميعا ليكونوا يدا واحدة على من سواهم من المعتدين المتربصين الذين يتحرشون بالمسلمين ليطغوا عليهم أو يبيدوهم إبادة - وليس أدل على التحريض البالغ لصد المعتدين من هذا القول الرباني الهاتف المؤثر {انفروا خفافا وثقالا} فقد أمر الله المسلمين بالنفر في أحوال والثقل ليجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم - وتأويل الخفة والثقال هنا موضع خلاف، فقد قيل: المراد بالخفة هنا الشباب - أما الثقل فيراد به الشيخوخة، أي انفروا شيبا وشبانا، أو شيوخا وشبانا، أو كهولا وشبانا - وقيل: أغنياء وفقراء - وقيل: نشاطا وغير نشاط - وقيل: ركبانا ومشاة - وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل.

قوله: {ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون} يعني هذا الذي أمرتكم به من النفر في سبيل الله خفافا وثقالا للقاء العدو مجاهدين بأموالكم وأنفسكم لهم أنفع لكم من الركون للاسترخاء والدعة والنكول عن الجهاد {عن كنتم تعلمون} إن كنتم تعون وتدركون أهمية الجهاد في سبيل الله وفداحة الخطر الداهم الذي سيحيق بكم إذا نكلتم وتقاعستم عن الجهاد ٨٨.

٤٢ - (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله تعالى: {لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون}.

كانت جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد استأذنوه في التخلف عنه حين خرج إلى تبوك فأذن لهم - وفي ذلك يقول سبحانه كاشفا عما يختلج في قلوب هؤلاء المعتذرين من خبايا النفاق والأثرة والإخلاد إلى الأرض حيث الدعة والاسترخاء {لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك} العرض، بالتحريك، هو ما يعرض من منافع الدنيا - والمراد بالعرض القريب: الغنيمة القريبة - والسفر القاصد: معناه الموضع القريب السهل - فالمعنى: لو كان ما تدعو المتخلفين عنك إليه، والمستأذنين منك في ترك الخروج إليه –لو كان غنيمة حاضرة قريبة وموضعا قريبا سهلا لا تبعوك ونفروا معك إليهما؛ لكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرا شاقا عليهم؛ لأنك قد استنهضتهم في وقت الحر الشديد وفي زمن القيظ ٨٩، وعن الحاجة إلى الدعة والاستكان، وحيث التلذذ بالهجوع والرقود - ولهذا قال: {ولاكن بعدت عليهم الشقة} أي السفر إلى أرض بعيدة - والمراد بذلك غزوة تبوك.

قوله: {وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم} سيحلف هؤلاء المستأذنون في ترك الخروج إلى لقاء المشركين اعتذارا منهم إليك بالباطل لتقبل منهم عذرهم فتأذن لهم في التخلف عنك، سيحلفون بالله كاذبين {لو استطعنا لخرجنا معكم} أي لو أطقنا الخروج معكم، بان كان لنا ما يحتاجه المسافر الغازي من سعة المال والمراكب وصحة البدن؛ لخرجنا معكم للقاء العدو - ولقد قالوا ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون - وما تذعروا بما تذعروا بع إلا لضعف إيمانهم وعزائمهم وجنوحهم للإخلاد إلى القعود والتنعم بالراحة والرقود مع الخوالف.

قوله: {يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون} أي يوقعون أنفسهم في الهلاك والإفضاء إلى سخط الله وعقابه الأليم من اجل نفاقهم، وبما حلفوه من الأيمان الكاذبة - والله جل وعلا عليهم بأنهم كاذبون فيما حلفوا عليه بالله؛ فقد كانوا مطيقين أن يخرجوا معكم بوجود السبيل إلى ذلك من الأموال وصحة الأبدان وما يحتاجه المسافر في سفره؛ لكنهم يريدون أن يتخلفوا إيثارا للدعة والراحة والإخلاء للعيش حيث اللذائذ والمنافع - لقد قالوا ما قالوه وهم يعلمون أنهم كاذبون، وما تذرعوا به إلا لضعف إيمانهم وجنوحهم للإخلاد إلى القعود إلى العقود والتنعم بالراحة والرقود مع الخوالف ٩٠.

٤٣ - (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ٤٣ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الأخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ٤٤ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون} هذا عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من اجل إذنه لمن أذن لهم في التخلف عنه في تبوك لقتال الروم - والتقدير: عفا الله عنك يا محمد ما كان منك من الإذن لهؤلاء المنافقين الكاذبين الذين استأذنوك في العقود والتخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم، أو ما كان ينبغي لك أن تأذن لهؤلاء في التخلف عن تبوك حتى تعلم الصادق من المنافق.

وثمة تأويل آخر لقوله: {عفا الله عنك} وهو أن هذا افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمتك - لقد كان كذا وكذا ٩١.

٤٤ - (لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

قوله: {لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم} ذلك إخبار من الله عن سيما المنافقين؛ فغن من

سماتهم وعلاماتهم التي تكشف نفاقهم: تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، إذ يستأذنوك الرسول صلى الله عليه وسلم في ترك الخروج بعد أن يتذرعوا بالمعاذير الكاذبة.
أما المؤمنون الصادقون المخلصون: فغنهم لا يستأذنون للقعود ولا للخروج، بل إنهم يبتدرون القيام بالواجب والمسارعة في الطاعة دون حاجة إلى استئذان - قوله: {والله عليم بالمتقين} الله أعلم بمن يخافه فيبادر بطاعته واجتنبا عصيانه، ويسارع بغير تردد إلى الجهاد بماله ونفسه في سبيل الله.
٤٥ - (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)
قوله: {إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم} إنما يستأذن في التخلف عن الجهاد، فيقعد مع القاعدين، هم الخوالف المنافقون الذين خوت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الأخر، فغن التخلف عن ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المؤمنين، والقعود عن أداء الواجب العظيم بغير عذر ولا سبب مقبول، لا يفعله أولو العقيدة والتقوى، ولا الذين يخشون الله ويلتزمون دينه والعمل شبعه وأحكامه، إنما يفعله الخاوون الخاسرون الذين ضؤل في قلوبهم الإحساس بالإيمان الصحيح، بل تسرب إلى نفوسهم الشك في حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر.
قوله: {فهم في ريبهم يترددون} أي هؤلاء المستأذنون لعدم الخروج مرتابون حائرون، فهم سادرون في الحيرة والتردد والاضطراب ٩٢.
٤٦ - (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)
قوله تعالى: {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ٤٦ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سامعون لهم والله عليم بالظالمين ٤٧ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون} أي أن هؤلاء المستأذنين في تلاك الخروج للجهاد لو أرادوا الخروج لهذه الوجيبة العظيمة، لأعدوا لذلك العدة، فتأهبوا للسفر استعداد للقيام بالأمر - لكن تركهم الاستعداد لذلك دليل قصدهم التخلف، وأنهم ينتوون القعود دون الخروج.
قوله: {ولاكن كره الله انبعاثهم} أي كره الله أن يخرجوا معكم - ومن اجل ذلك ثبطهم، أي خذلهم دون الخروج تخذيلا فاستخفوا القعود في منازلهم واستثقلوا السفر والخروج مع إخوانهم المجاهدين.
قوله: {وقيل اقعدوا مع القاعدين} يعني اقعدوا مع المتخلفين من المرضى والضعفاء والعجزة الذين لا يجدون ما ينفقونه للخروج - وكذلك اقعدوا مع الخوالف وهم النساء والصبيان - وقد ثبطهم الله عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لعلمه سبحانه أنهم أهل نفاق وخيانة وأنهم مخادعون لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنهم لو خرجوا معهم لأقعدوا فيهم الوقيعة والفساد.
٤٧ - (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
قوله: {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا} {خبالا}، استثناء منقطع وهو أن لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه - والخبال في اللغة معناه: النقصان والهلاك والفساد والجنون - والمعنى: انه لو خرج فيكم هؤلاء المنافقون لم يزيدوكم بخروجهم إلا الخبال وهو الفساد والشر وإيقاع الفتنة والاختلاف والأراجيف.
قوله: {ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة} أوضعوا، من الإيضاع وهو الإسراع، أوضع بين القوم بمعنى أفسد بينهم - وأوضع الراكب الدابة إذا حملها على السير السريع ٩٣ - و {خلالكم}، أي فيما بينكم - والمعنى: أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم لأسرعوا السير بينكم بالنميمة والفتنة والتثبيط {يبغونكم الفتنة} جملة فعلية في موضع نصب على الحال من واو أوضعوا ٩٤، أي يطلبون لكم ما تفتنون به عن خروجكم وذلك بتثبيطهم لكم.
قوله: {وفيكم سماعون لهم} أي فيكم عيون للمنافقين يحدثونهم عن أخباركم، وقيل: فيكم من يسمع كلام هؤلاء المنافقين فيطيع لهم ويستجيب لحديثهم ويغتر بكلامهم وتثبيطهم.

قوله: {والله عليم بالظالمين} الله عليم بالمقاصد والأسرار المستكنة في الضمائر والصدود، فهو عليم بمن يستأذن لعذر صحيح معقول - ومن يستأذن عن شك وتردد ونفاق - وهو كذلك عليم بالخائنين الذين يسمعون الحديث من المؤمنين ليخبروا به المنافقين - فأولئك جميعا من الظالمين.

٤٨ - (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

قوله: {لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون} لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لكم من قبل أن يفتضح أمرهم، فقد ابتغوا أن يصدوا المؤمنين عن دينهم ليردوهم إلى الكفر، وذلك بتخذيلهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كالذي فعله عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد {وقلبوا لك الأمور} أي أجالوا الرأي من اجل إبطال دين الله بالتخذيل عن المؤمنين وتثبيطهم عن المضي في صراط الله الحق {حتى جاء الحق} أي ظهر أمر الإسلام وعلا شأنه بأسه وسلطانه {وهم كارهون} أي كاروهن للإسلام أن تعلو رايته إيذانا بانتصاره وعلو شأنه - وكارهون أن يعز الإيمان والمؤمنين فيكونوا غالبين أقوياء - وذلك هو ديدن المنافقين الذين يغتاظون من الإسلام أن يعلو مجده ويسمو شأنه ويظهر على الدين كله ٩٥.

٤٩ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: {ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٤٩ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ٥٠ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فيتوكل المؤمنون} من المنافقين من استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود عن الخروج للقاء الروم متذرعا بخشيته من الافتتان بالجواري من نساء الروم، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم للجد بن قيس أخي بني سلمة: (هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟) فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك) ففي الجد بن قيس نزل قوله: {ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني} الآية ٩٦.

والمعنى: أن المنافقين المتخلفين عن الخروج للجهاد إن كانوا يتذرعون بالاحتراز عن الوقوع في فتنة النساء، فقد وقعوا في عين الفتنة؛ لقد وقعوا فيما هو أشد من فتنة النساء وأعظم وهو الكفر بالله ورسوله والتمرد على دينه بعصيانه ومخالفة أمره.

قوله: {وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} النار الحامية المستعرة يوم القيامة مطبقة على الكافرين الجاحدين، فهي تحدق إليهم بهم إحداقا لا منجاة لهم منه ولا مهرب.

٥٠ - (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

قوله: {إن تصبك حسنة تسؤهم} يعني إن أصابك الله بخير أو سرور لأجل نعمة أنعمها عليك أو فتح من عنده، فإن ذلك يسوء المنافقين ويسومهم التنغيص والتغيظ - وفي مقابل ذلك: إذا أصابك مكروه من هزيمة أو نحوها من المساءات والأضرار {يقولوا قد أخذنا أمرنا} أي أخذنا الحيطة والحذر بتخلفنا عن الخروج وتركنا الذين خرجوا للقاء الكافرين وحدهم من قبل أن تحل بهم هذه المصيبة {ويتولوا وهم فرحون} أي يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحابه مرتدين منتكسين وقد غمرهم الإعجاب والفرح بما عملوا - لا جرم أن ذلك ديدن المنافقين الخبثاء، أولئك الذين يكنون في أنفسهم الغيظ والحسد للإسلام وأهله ويظهرون بالمداهنة والملق من الكلام الغرور أنهم مع المسلمين - وهم في حقيقة الأمر ليسوا إلا صنفا من البشر الفاسد المارق - البشر الماكر المداهن اللئيم الذي لا يستمرئ غير الغش والخيانة والخداع والتلصص، أولئك هم المنافقون في كل زمان يخفون في أفشهم الخداع والكذب، ويظهرون لمن حولهم من المسلمين أنهم منهم - والله يعلم أنهم كاذبون وأنهم لا يبتغون بانتسابهم للإسلام والمسلمين غير منافع دنيوية يريدونها لأنفسهم، أو مصالح مهينة عاجلة من المال أو الوجاهة أو غير ذلك من سفاسف الهوى وتفاهات الشهوة.

٥١ - (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قوله: {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} أبلغ المنافقين والناس انه لن يصيبنا من المكروه إلا ما كتبه الله لنا في اللوح المحفوظ وقضاه علينا، فلا شيء في الحياة والخلق غنما يجري بقضاء الله وقدره الذي لا يتخلف ولا يتبدل.

قوله: {هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون} أي الله هو ناصرنا، وليتوكل عليه المؤمنون - والتوكل معناه تفويض الأمر إلى الله وعقد الرجاء عليه لا على أحد غيره من العظماء وأولى السطوة والسلطان - فما يتوكل المؤمن إلا على ربه فيدعوه ويتضرع إليه ويلح عليه في الدعاء والرجاء في كل الأحوال - سواء في الأمن أو الخوف - في اليسر أو العسر - في الابتهاج أو الاغتمام؛ فهو سبحانه مزيل الضر والبلوى، كاشف الهم والحزن، جابر الزلات والعثرات، غافر الذنوب والخطايا ٩٧.

٥٢ - (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

قوله تعالى: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ٥٢ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ٥٣ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون} الاستفهام للتوبيخ - و {تربصون} من التربص، وهو الانتظار ٩٨، أي قل لهؤلاء المنافقين الذين لا يردون لكم غير السوء والمكروه: هل ينتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين التين هما حسنى العواقب، وهما النصرة والشهادة؟ فإما أن يكتب الله لنا الظفر والغلبة على عدونا، وهذه حسنى يتمن الله بها علينا، وإما أن يكتب لنا الشهادة في سبيله والفوز بالجنة والرضوان، وهذه حسنى عز ونظيرها.

قوله: {ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا} ونحن من جهتنا ننتظر بكم أن يصيبكم الله من عنده بعقوبة ماحقة تأتي عليكم فتهلككم إهلاكا {أو بأيدينا} وذلك بقتلكم وأسركم وإذلالكم.

قوله: {فتربصوا إنا معكم متربصون} ذلك تهديد ووعيد، أي انتظروا فوزنا بإحدى الخلتين الشريفتين وهما كلتاهما كسب عظيم ومنجاة كبرى نحظى بهما - لكننا نحن ننتظر بكم أن تسقطوا في عذاب الله الموجع، أو بأيدينا نحن المسلمين، لنقتلكم فنكسر شوكتكم ونذلكم.

٥٣ - (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

قوله: {قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم} أي قل لهؤلاء المنافقين: أنفقوا أموالكم كيف شئتم، فمهما أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يتقبل الله منكم نفقاتكم؛ لأنكم خارجون عن الإيمان بالله وعن زمرة المؤمنين الصادقين وذلك من احل نفاقكم وارتيابكم في دين الله.

٥٤ - (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ)

قوله: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} أي أن ما منع هؤلاء المنافقين من أن تقبل منهم نفقاتهم التي ينفقونها في مختلف الوجوه أو السبل غلا كفرهم بالله وبرسوله، فلئن أظهروا للناس الإيمان، فإن الله يعلم أنهم كاذبون منافقون - وكذلك الناس يقفون على نفاقهم من هيئة سلوكهم وفي لحن حديثهم.

وكذلك فإن المنافقين لا يصلون إلا متثاقلين فلا يؤدون صلاتهم إلا كسالى - قال ابن عباس في ذلك: عن كان (المنافق) في جماعة صلى وإن انفرد لم يصل - وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا يخشى في تركها عقابا.

وهذا مقتضى قوله تعالى: {ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى}.

قوله: {ولا ينفقون إلا وهم كارهون} أي لا يبتغي المنافقون من إنفاق أموالهم أيما ثواب من الله - وهم لا يعبأون بالإيمان أو الطاعة لله؛ فهم بذلك يعدون الإنفاق مغرما ووضعية ٩٩، ومن أجل ذلك فإن المنافين أموالهم عن اضطرار لا عن رغبة أو طواعية واختبار ١٠٠ - وعلى هذا فإن قبول الطاعة بالإنفاق مرهون بصدق النية وبراءة القصد من النفاق أو الرياء - وجمة ذلك أن يبتغي باذل المال

مرضاة لله ولأن يكون إنفاقه عن إخبات لله وإخلاص.
٥٥ - (فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)
قوله تعالى: {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ٥٥ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ٥٦ لو يجدون ملجأ أو مغرات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون} أي لا يعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وبذلك يكون في الكلام تقديم وتأخير - وهو قول ابن عباس فيكون المعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة - وقيل: معنى ذلك إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا بما ألزمهم فيها من فرائضه كأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله وذلك من غير طيب نفس منهم - لا جرم أن يجد المنافقون في أنفسهم بالغ المضاضة والابتئاس، إذ يبذلون أموالهم مكرهين غير راضين، وذلكم عذاب - لكن المؤمنين يبذلون أموالهم في وجوه الإنفاق المشروع فيجدون في أنفسهم الرضى والسكينة والشرح.
قوله: {وتزهق أنفسهم وهم كافرون} أي يموتون على كفرهم وجحودهم - وذلك إنباء من الله بأنهم يموتون كافرين.
٥٦ - (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)
قوله: {ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم} يحلف لكم هؤلاء المنافقون كذبا وزورا {إنهم لمنكم} أي على دينكم وملتكم، فهم مؤمنون أمثالكم - والله جل وعلا يقرر أنهم كاذبون وأنهم فاسدون مبطلون، فهم أهش شك ونفاق، وليسوا من أهل دينكم أو ملتكم.
قوله: {ولكنهم قوم يفرقون} {يفرقون}، من الفرق، بالتحريك، ومعناه الخوف ١٠١، أي أنهم قوم يخافونكم، فهم يخشون أن يظهروا لكم على حقيقة كفرهم وجحودهم فتعاقبوهم بالقتل وإقامة الحدود فيهم، فهم بذلك يزعمون بألسنتهم أنهم على يدنكم ليأمنوا على أنفسهم فلا يقتلوا.
٥٧ - (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)
قوله: {لو يجدون ملجأ أو مغرات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون} لو يجد هؤلاء المنافقون ملجئا من حصن أو معقل يأوون إليه منكم، أو يجدون {مغرات} واحدتها مغارة، وهي الموضع الذي يغور فيه الإنسان ويستتر، أو يجدون {مدخلا} وهم المسلك الذي يختفي فيه من يدخله، لنفروا إلى دخوله فزعا من المسلمين، إنهم لو يجدون شيئا من هذه المواضع لأدبروا إليه {وهم يجمحون} أي وهم يسرعون هربا منكم لفرط كراهيتهم لكم ونفورهم منكم، فهم لم يتلبثوا بينكم إلا على سبيل الحرص على أموالهم والاستقرار في منازلهم وبين أهليهم، وهم يظهرون لكم التلبس بدينكم مصانعة منهم لكم ونفاقا ١٠٢.
٥٨ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)
قوله تعالى: {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} روي الشيخان عن أبي سعيد الخدري في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص وهو أصل الخوارج لما اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين فقال له: اعدل فإنك لم تعدل، فقال: (لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفيا: (إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء) فنزلت الآية من أجل ذلك ١٠٣ أن فريقا من عابوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسم الصدقات واتهموه في ذلك بعدم العدل - وفي الحقيقة إنهم هم المتهمون المأفونون، بل
إنهم هم الميبون الخاطئون بنفاقهم وخيانتهم وفساد ضمائرهم - وهم فوق ذلك يخدشون الجناب المعصوم - الجناب الذي ترفرف على العالمين نسائم فضله الأكرم، وتشع على الخافقين سواطع نوره المشرق - يعيه المنافقون التافهون الجبناء بأكذوبة مفضوحة تندلق من حناجرهم القذرة وهي تزدرد مثل هذا التقول المكذوب على أقدس كريم أظلته السماء أو أقلته الأرض.
وقوله: {يلمزك في الصدقات} من اللمز، وهو العيب - وأصله الإشارة بالعين، ونحوها - ورجل لمزة، أي عياب ١٠٤.

قوله: {فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} {يسخطون} من السخط، وهو الغضب - تقول: أسخطه فسخط، أي أغضبته فغضب ١٠٥، والمعنى: أن هؤلاء المنافقين الذين يعيبونك في قسم أموال الزكاة، ويطعنون عليك فيها لم يكن مرادهم الرغبة في العدل أو في الدين؛ بل كان مبتغاهم الاستكثار من النصيب، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا، وإن أنت لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك ١٠٦.

٥٩ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

قوله تعالى: {ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون} أي لو أن هؤلاء الذين عابوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات، ورضوا ما أعطاهم الله ورسوله من العطاء، وقالوا عقب ذلك: الله كافينا، سيؤتينا الله من فضله، وسيؤتينا الرسول من الصدقة وغيرها: {إن إلى الله راغبون} ليس مرادنا من الدين والإيمان أخذ الأموال والفوز بالمناصب الدنيوية وإنما مرادنا وغايتنا أن نسعد برضوان الله ورحمته والفوز بالجنة والنجاة من النار - أما جواب لو: فهو محذوف وتقديره: لكان خيرا لهم ١٠٧.

٦٠ - (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن سبيل فرضية من الله والله عليم حكيم}.

{الصدقات} جمع صدقة - وهي إذا أطلقت في القرآن دلت على أنها الزكاة المفروضة - على أن الزكاة المفروضة قد جعلها الله لأصناف ثمانية من الناس على الخصوص دون غيرهم، وقد بينهم الآية - ويأتي في طليعة هذه الأصناف من الناس المستحقين للزكاة: الفقراء والمساكين - وثمة خلاف بين العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين - وذلك على عدة أقوال نقتضب منها أربعة.

القول الأول: الفقير هو المحتاج المتعفف، أما المسكين فهو الفقير السائل، فالفقير لا يسأل الناس، والمسلكين يسألهم.

القول الثاني: الفقير، هو الذي ليس له شيء - وأما المسكين فهو الذي له شيء، وبذلك فإن المسكين أسوأ حالا من الفقير، ويحتج لذلك بما رسول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تعوذ من الفقر - وروي عنه أنه قال: (اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا) - ولو كان المسلكين أسوأ حالا والفقير لتناقض الخبران - والفقير في اللغة أو المفقور هو الكسير الفقار - أو المكسور فقار الظهر - وهو يدل على شدة الحاجة وسوء الحال - هذا قول الشافعية ١٠٨.

القول الثالث: المسكين هو الذي لا شيء له، والفقير هو الذي له أدنى بلغة، أو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه - وهو قول الكرخي - وحكاه أبو العباس ثعلب، ويحتج لذلك بما روي البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحق أو لا يسأل الناس إلحافا) - وأخرج البخاري كذلك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسلكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس) وذلك يدل على أن المسكين لهم أسوأ حالا من الفقير ١٠٩.

القول الرابع: الفقير هو المحتاج الذي به زمانة، والمسكين هو المحتاج الصحيح - وهو قول قتادة ١١٠.

الصنف الثالث: {العاملين عليها} وهم السعاة أو الجباة الذين يبعثهم الإمام لجمع الزكاة من المالكين، فهم بذلك وكلاء عن الإمام في هذه الوجيبة، وهؤلاء السعاة يستحقون حظا من الزكاة جزاء عملهم.

أما ما يأخذونه من الزكاة، فقيل: يأخذون الثمن - وذلك بقسمة الله الصدقات على أصناف ثمانية - وهو قول الشافعي - وقيل: يعطون قدر عملهم من الأجرة - وهو قول الحنفية والمالكية - وقال به ابن عمر، وعمر بن عبد العزيز - وقيل: يعطون من بيت المال، ومن غير مال الزكاة، وهو ضعيف؛ لأن سهمهم في الزكاة مذكورا نصا في الآية {والعاملين عليها}.

الصنف الرابع: {المؤلفة قلوبهم} وهم قوم يتألفهم المسلمون على الإسلام فيعطون نصيبا من الزكاة - وهم ثلاثة أنواع:
النوع الأول: كفار يعطون لدفع معرتهم وكف أذيتهم عن المسلمين والاستعانة بهم على غيرهم من المشركين، والمعرة هي الإثم وهو يعر قومه؛ أي يدخل عليهم مكروها، وعرة بضم العين، وعارورة؛ أي قذر ١١١.
النوع الثاني: كفار يعطون لاستمالة قلوبهم وقلوب غيرهم من الكفار من اجل الدخول في الإسلام، ولئلا يمنعوا من أسلم من قومهم من الثبات على الإسلام، وعلى هذا فالمؤلفة قلوبهم من الكفار صنفان: من يرجي إسلامه، ومن يخشى شره - فهؤلاء كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم من اجل استمالتهم او دفع شرهم ١١٢.
النوع الثالث: مسلمون حديثو عهد بالكفر، يتألفهم الإمام من سهم الزكاة أو المصالح، على الخلاف في ذلك - وذلك لترسيخ العقيدة الإسلامية في قلوبهم ودفع الفتنة عنهم، المحتملة من الشرك والمشركين.
وما ينبغي لمرتاب أو جاهل أن يعجب أو يتساءل عن وجه الإعطاء لها النصيب من الزكاة من أجل أن تتألف قلوب الكافرين والحاقدين والمترددين؛ فإنه المسألة معقولة وجلية لمن تدبر أو تفكر - وأساس الأمر في هذه المسألة أن الإسلام يراعي أصناف البشر من حيث اختلاف طبائعهم وأهوائهم وفطرهم فما خلق الله الناس على نسق واحد متحد من الطبع والفطرة - وإنما الناس في ذلك مختلفون متفاوتون - فمن الناس من تستميله الكلمة الرقيقة الرحيمة والأسلوب الكريم الحاني ليسلس لمحدثه القياد والطاعة فيسير معه في لين وود، ومنهم من يؤثر فيه البرهان الساطع والحجة الدامغة حتى إذا دخله اليقين وغشيته القناعة؛ جنح للصواب، واستجاب لنداء الحق المبين، وسار مع السائرين في ظل الله وفي ضوء منهجه الحكيم الشافي - ومن الناس من لا تستميله حجة ولا برهان، ولا يؤثر فيه علم ولا بيان، ولا يعطف عقله أو قلبه أساليب العاطفة الغامرة أو التحنان الندي؛ بل تؤثر فيه أسباب القوة والسنان، وتردعه عن ظلمه وترديه في الفاحشة والضلال؛ شدة البأس وقوة الشكيمة والترهيب - ومن الناس من لا يعطفه أو يؤثر فيه شيء مما ذكر؛ فلا يجدي معه النقاش والبرهان، ولا يستميله الخلق وقوة البيان - ولا يستميله أو يستعطفه الترهيب واشتداد الشكيمة - وإنما يستميله المال وحده - فإذا هو أوتي نصيبا من المال رق ولان، وجنح لحب من يحسن إليه بالعطية - ومن أجل ذلك شرع الإسلام نصيب المؤلفة قلوبهم من الزكاة مراعاة لطبائع البشر التي لا يحبط بحقيقتها ولا يعلمها كامل العلم إلا بارئها {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}.
انقطاع سهم المؤلفة قلوبهم.
هل انقطع سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم؟ ثمة قولان للعلماء في ذلك:
القول الأول: وهو سقوط سهم المؤلفة قلوبهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - وهو قول الحنيفة والشافعية في أحد القولين لهم - وقال به عمر والحسن والشعبي وآخرون؛ فقد ذهب هؤلاء إلى انقطاع هذا الصنف من مستحقي الزكاة بعز الإسلام وظهوره - وعللوا انتهاء هذا الحكم بانتهاء علته، وذلك كانتهاء جواز الصوم بانتهاء وقته وهو النهار - وأجيب عن ذلك: بأن الحكم في البقاء لا يحتاج إلى علته كما في الرمل والاضطباع ١١٣ في الطواف، فإن انتهاءها لا يستلزم انتهاءه.
القول الثاني: إثبات سهم المؤلفة قلوبهم وعدم انقطاعه، وهو قول الحنبلية والشافعية في المعتمد من مذهبهم، واحتجوا بظاهر الآية؛ فقد سمى الله المؤلفة قلوبهم في الأصناف الثمانية الذين سمى لهم الصدقة - وكذلك السنة، فقد أخرج البيهقي بإسناده عن زياد بن الحارث الصدائي (رضي الله عنه) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته على الإسلام، ثم أتاه آخر فقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل لم يرض فيها بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى يحكم هو فيها، فجزأها ثمانية أجواء، فغن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك -أو أعطيناك- حقك) وقد ثبن عن النبي صلى الله عليه وسلم في أخبار مشهورة أنه أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يزل كذلك حتى مات - ولا يجوز نرك كتاب الله وسنة رسوله إلا بنسخ؛ ولا نسخ.
قال الزهري في هذا المعنى: لا أعلم شيئا نسخ حكم المؤلفة - وقال ابن العربي أيضا: الذي عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان يعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ١١٤.

والراجح عندي أن إعطاءهم منوط بالإمام، فإن وجد في إعطائهم مصلحة للإسلام أعاطهم، وإلا توقف إعطاؤهم، فإنما يعول في ذلك على مصلحة الإسلام من حيث ترغيب الناس فيه واستمالتهم إليه ودرء شرهم وكيديهم عنه.
الصنف الخامس: {وفي الرقاب} والمراد بهؤلاء موضع خلاف نوجزه في قولين:
الصنف الأول: المراد بهم المكاتبون، وهو أن يصرف إليهم هذا السهم من الزكاة، فلا يجزي العتق من الزكاة، وهو قول أكثر العلماء، وهو أن إعطاء المكاتبين من الزكاة هو المراد من الآية، أما عتق الرقبة، فإنه لا يسمى صدقة، لأن إيتاء الزكاة تمليك الأخذ، وليس العتق تمليكا لمال - ويستدل على ذلك أيضا من السنة بما أخرجه البيهقي عن يزيد بن أبي حبيب أن أبا مؤمل أول مكاتب في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أعينوا أبا مؤمل) فأعين ما أعطى كتابه، وفضلت فضلة فاستفتى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن يجعلها في سبيل الله.
القول الثاني: {وفي الرقاب} معناه فك الرقاب، وبذلك يجوز للإمام أن يشتري رقابا من مال الصدقة ويعتقها عن المسلمين ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين، وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز، وهو قول المالكية، وقد روي عن ابن عباس والحسن، وهي رواية عن أحمد، وقال به إسحاق وأبو عبيد وأبوة ثور - واحتجوا بقوله: {وفي الرقاب} فإن كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشتري الفرس فيحمل عليه في سبيل الله - فإذا كان له أن يشتري فرسا من الزكاة، فإنه يجوز له أن يشتري رقبة، ولا فرق بين ذلك ١١٥.
الصنف السادس: {والغارمين} وهو جمع ومفرده الغارم - وهو المدين، وقد يكون الغريم الدائن - والغرامة ما لزم أداؤه - وكذا المغرم والغرم، وعلى العموم فإن الغارمين هم الذين أثقلهم الدين وليس عندهم ما يوفون به دينهم، فإن هؤلاء يعطون من الزكاة بغير خلاف إلا إذا كان استدان في سفاهة، فإنه لا يعطي من الزكاة إلا أن يتوب إلى ربه ١١٦ - وثمة مسائل في هذا الصدد:
المسألة الأولى: إذا كان لرجل على معسر دين فأراد أن يجعله عن زكاته فقال له: جعلته عن زكاتي، ففي جواز ذلك قولان:
القول الأول: عمد الجواز، وهو قول الحنبلية والشافعية، وكذا المالكية في أحد القولين لهم - ووجه ذلك: أن الزكاة في ذمة المزكي ولا يبرأ إلا بإقباضها - واحتسابها بدلا عن الدين لا يكون إقباضا، فلا يحتسب الدين من الزكاة قبل قبضه - ومعلوم أن الزكاة إيتاء، أما هذا فهو إسقاط، وهما مختلفان.
القول الثاني: الجواز، وعلى هذا لو تصدق على مدينه الفقير جاز، لأن المدين قبض عينا، والعين تجوز عن العين والدين جميعا، وهو قول الحنفية وكذا الشافعية والمالكية في قول لهم، وقد ذهب إليه الحسن البصري وعطاء ١١٧.
المسألة الثانية: لو مات وعليه دين وليس له تركة، هل يقضي دينه من سهم الغارمين؟ ثمة قولان في هذا:
أحدهما: الجواز، وهو قول المالكية، والشافعية في أحد قوليهم - وعلى هذا لو مات فإنه يوفى دينه من الزكاة إن استدان في غير فساد كشرب خمر أو قمار ونحو ذلك.
ثانيهما: عدم الجواز، وهو قول الحنفية، والشافعية في قولهم الثاني، وهو مذهب أحمد - ووجه هذا القول: أن قضاء دين الغير لا يقتضي التمليك منه - ودليل ذلك أن ما أخرجه الدراقطني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا أولى بكل مؤمن من نفشه، من ترك كالا فلورثته، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي، أنا أقضي دينه، وأفك عانيه) ١١٨.
المسألة الثالثة: وهي نقل الزكاة من بلد على بلد آخر - فثمة خلاف بين العلماء في ذلك، فقد ذهبت الحنفية إلى أن الزكاة تقسم في كل بلد في فقرائه ولا يخرجها إلى غيره من البلدان - وإن أخرجها وأعطاها الفقراء جاز مع الكراهة - وروي عن أبي حنيفة قوله إنه لا بأس أن يبعث الزكاة من بلد إلى آخر إلى ذي قرابته.
وذهبت الشافعية إلى أن صرف الزكاة إلى الأصناف في البلد الذي فيه المال دون غيره واجب - أما إن نقلها إلى بلد آخر ففي المذهب قولان: الجواز، لأنهم من أهل الصدقات - والثاني: عدم الجواز، لأن الزكاة حق واجب لأصناف البلد - فإذا نقل عنهم إلى غيرهم لا يجزئه ذلك.
وذهبت الحنبلية إلى أن الصدقة لا يجوز نقلها من بلدها إلى مسافة القصر واحتجوا بالخبر وهو ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: (أخبرهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم) وهذا يختص بفقراء بلدهم، ولأن المقصود إغناء

الفقراء بها فإذا نقلها أفضى ذلك إلى بقاء فقراء ذلك البلد محتاجين - على أنه لو خالف ونقلها إلى بلد آخر أجزأه ذلك - وهو قول أكثر العلماء ١١٩.

الصنف السابع: {وفي سبيل الله} وفي ذلك تفصيل وخلاف بين العلماء، فالمراد بذلك عند أبي يوسف من الحنفية: فقراء الغزاة وهم المجاهدون - وقال محمد ابن الحسن الشيباني: المراد به منقطع الحاج - واحتج بما روي البخاري عن أبي لاس قال: (حملنا النبي صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج) ولا تصرف الزكاة باتفاق الحنفية إلى أغنياء الغزاة، فإن مصرف الزكاة هم الفقراء، وذلك لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن حنبل حين بعثه إلى اليمن: {فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) وهذا يدل على أن الزكاة لا تصرف لأغنياء المجاهدين بل للفقراء ١٢٠.

أما الشافعية فذهبوا إلى أن سهم سبيل الله المذكور في الآية يصرف إلى الغزاة الذين لا حق لهم في ديوان السلطان بل يغزون متطوعين، واحتجوا من السنة بما أخرجه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لعامل عليها، أو لغاز في سبيل الله، أو لغني اشتراها بماله، أو فقير تصدق عليه فأهداها لغني أو غارم) وبذلك فإنه يعطي المجاهد سواء كان غنيا أو فقيرا، ويعطي ما يستعين به على الغزو من نفقة الطريق وما يشتري به السلاح والدابة وغير ذلك من أسباب الحرب - على أنه يعطي الدين يتطوعون للجهاد وليس لهم أرزاق مرتبة في الديوان - أما الغزاة المرتبون في ديوانه السلطان ولهم فيه حق: فلا تعطون من الزكاة من غير خلاف في المذهب ١٢١.

وذهبت المالكية إلى أن المراد بهذا الصنف الغزاة وموضع الرباط؛ فهم يعطون ما ينفقون في غزوهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء ١٢٢ واحتجوا بما أخرجه أبو داود عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغاز في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهداها المسكين للغني).

أما الحنبلية فقالوا: إن المراد بقوله: {وفي سبيل الله}: الحج - وبذلك يعطي هذا السهم للحجاج والعمار - وهو قول الحسن وإسحق - وقال به محمد بن الحسن من الحنفية - واستدلوا على ذلك بقول أبي لاس: حملنا النبي صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج.

الصنف الثامن: {وابن السبيل} والمراد به المسافر الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده وماله وإن كان غنيا في بلده، فإنه يعطي من الصدقة وإن كان له مال في بلده ولا يلزمه إشغال ذمته بالدين.

وعلى هذا فإن ابن سبيل وهو المسافر المجتاز في بلد وليس معه شيء يستعين به على سفره، يعطي من الصدقات ما يكفيه إلى بلده - وكذلك من أنشأ سفرا من بلده وليس معه شيء؛ فإنه يعطي من مال الزكاة ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويستدل على ذلك بظاهر الآية، وبالخبر: (لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، أو ابن السبيل، أو جار فقير تصدق عليه فيهدي لك أو يدعوك).

ويعطي المسافر ما يحتاجه للمؤونة فيلا سفره ولا يضر غناه في غير سفره - وإن كان سفره في طاعة كحج أو جهاد أو زيارة مفروضة أو مندوبة أو نحو ذلك، دفع إليه من الزكاة - بغير خلاف في ذلك - أما إن كانت سفره في معصية كقطع الطريق ونحو ذلك من وجوه المعصية والإفساد، فلا يعطي من الزكاة بغير خلاف لما في الدفع إليه من عون على المعصية - وأما إن كان السفر في مباح كتحصيل رزق، أو استيطان في بلد، أو يقصد التنزه؛ فإنه يدفع له على الأصح - وذلك على سبيل الرفق بالمسافر في المباح، قياسا على الرفق به في الطاعة ١٢٣.

أما هل تعطي الزكاة لصنف واحد، فثمة قولان في ذلك:

القول الأول: جواز إعطاء الزكاة صنفا واحدا من الأصناف الثمانية، فإن أعطاها صنفا واحدا أجزأته - وهو قول الحنفية والمالكية والحنبلية، وقال به من السلف عمر وحذيفة وابن عباس، وسعيد بن جبير والسحن والنخعي وعطاء وعمر ابن عبد العزيز ١٢٤ - واستدلوا على ذلك بظاهر قوله تعالى: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} وهذا عموم في جميع الصدقات؛ لأنه اسم جنس لدخول الألف وللام عليه - ويدل ذلك على دفع جميع الصدقات إلى صنف واحد من المذكورين وهم الفقراء - وكذلك قوله تعالى: {في أموالهم حق معلوم ٢٤ للسائل والمحروم} وهذا يجوز إعطاء الصدقة هذين الصنفين والمستحقين وهو ما ينفي وجوب قسمتها على ثمانية أصناف.

واستدلوا من السنة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ: (فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) فدل ذلك على أنه مأمور برد الصدقة بجملتها في الفقراء وهم صنف واحد ولم يذكر سواهم.
واستدلوا بجملة من الآثار منها ما أخرجه البيهقي عن حذيفة قال: إذ أعطى الرجل الصدقة صنفا واحدا من الأصناف الثمانية أجزأه - وكذلك ما أخرجه البيهقي عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء} قال: يجزيك أن تجعلها في صنف واحد من هذه الأصناف ١٢٥.
القول الثاني: وجوب صرف الزكاة إلى ثمانية أصناف وهم المذكورون في الآية - ودليل ذلك قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن سبيل} فقد أضاف جميع الصدقات إلى الأصناف الثمانية كلهم - وذلك بلام التمليك وأشرك بينهم بواو التشريك - فدل ذلك على أن مال الزكاة مملوك لهم، مشترك بينهم - على أنه يجب التسوية بين الأصناف الثمانية في التوزيع دون تفضيل بينهم - وهذا قول الشافعية وأهل الظاهر؛ لأن الله سوى بينهم في الآية - فإن وجدت الأصناف الثمانية وجب لكل صنف ثمن - وإن وجد منهم خمسة أصناف وجب لكل صنف خمس، ولا يجوز تفضيل صنف على صنف بالاتفاق في المذهب - وإذا فقد بعض الأصناف فلم يوجدوا في البلد ولا غيره، قسمت الزكاة بكمالها على الموجودين من باقي الأصناف.
صرف الزكاة في غير مصارفها الثمانية
لقد خصت الآية الأصناف الثمانية بالزكاة - وتبين ذلك من قوله: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين} الآية، وإنما، تفيد الحصر - فالزكاة بذلك يجب حصرها في الأصناف الذين ذكرتهم الآية وهم ثمانية دون غيرهم - وعلى هذا لا تصرف الزكاة في وجوه البر أو المشاريع الخيرية المختلفة كبناء المساجد والقناطير والجسور والسقايات وإصلاح الطرقات وتكفين الموتى والتوسعة على الأضياف ونحو ذلك من وجوه الخير والإصلاح - ٣ وقد ذهب إلى ذلك هامة أهل العلم احتجاج بقوله تعالى: {إنما الصدقات} فقوله: {إنما} يفيد الحصر والإثبات؛ فهي تثبت المذكور وتنفي ما عداه - وذهب أنس والحسن إلى صرف الزكاة في المشاريع الخيرية ومختلفة وجوة البر والإصلاح من غير الأصناف استنادا إلى عموم قوله تعالى: {وفي سبيل الله} ١٢٦.
حد الغنى
اختلفوا في وصف الغني الذي لا يجوز معه أخذ الزكاة؛ فقد ذهبت الحنفية إلى أن الغني هو ملك النصاب؛ فمن ملك نصابا كان غنيا، وليس له أن يأخذ من الزكاة ١٢٧.
وذهب الحنبلية في الأظهر من مذهبهم إلى أن الغنة هو مالك خمسين درهما أو قيمتها من الذهب، أو وجود ما تحصل به الكفاية من كسب أو تجارة أو عقار أو نحو ذلك - ولو ملك من العروض أو الحبوب أو السائمة أو العقار ما لا تحصل به الكفاية لم يكن غنيا وإن ملك النصاب، وهو الظاهر من مذهب أحمد، وقال به الثوري والنخعي وإسحاق ١٢٨.
أما المالكية والشافعية في جملة قولهم: أن الغني من كانت عنده كفاية تغنيه - وعلى هذا فالفقير الذي يستحق سهما في الزكاة هو الذي ليس له كفاية من مال وهو غير متكسب؛ فمن كان له دار يسكنها أو ثوب يلبسه متجملا به وليس له مال أو كسب فهو فقير ١٢٩.
قوله: {فريضة من الله} {فريضة} منصوب على المصدر؛ أي فرض الله الصدقات على المسلمين فريضة.
قوله: {والله عليم حكيم} الله عليم بما ينفع الناس وما يصلح عليه حالهم من الأحكام، وهو كذلك حكيم؛ إذ يضع الأشياء في مواضعها، ويدبر الأمور، خير تدبير وذلك عن حكمة بالغة وعلم أزلي مطلق ١٣٠.

٦١ - (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم} نزلت هذه في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلا أذلم أحمر العينين أسفع

الخدين مشوه الخلقة، وهو الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: من أراد أن ينظر الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث - وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن، من حديثه شيئا صدقه، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية ١٣١.

وهذا صنف آخر من المنافقين الذين كانوا يبسطون ألسنتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء والأذية والتشويه؛ إذ يأفكون بالباطل والزور إفكا ظالما كاذبا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم {أذن} أي مستمع قابل، أو يقبل كل ما قيل له، أو هو أذن سامعه يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه - لا جرم أن ما يفتريه المنافقون من إيذاء خبيث لهو الباطل - فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يوهمون ويخصون، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مستمع في العالمين لخير الكلام وليس دونه من شر الكلام وسوءه - وهو قوله سبحانه {قل إذن خير لكم} {أذن خير}، خبر لمبتدأ مقدر، وتقديره: هو أذن خير؛ أي هو مستمع شر وفساد ١٣٢؛ أي هو أذن خير لا أذن شر؛ إذ يسمع الخير ولا يسمع الشر، ويعرف الصادق من الكاذب.

قوله: {يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} أي يصدق بالله وحده لا شريك له، إلها خالقا معبودا، ويصدق المؤمنين لا الكافرين ولا المنافقين - وهذا رد لمقالة المنافقين والكافرين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم مستمع خبر، مصدق بالله وما أوحي إليه من عنده سبحانه، ومصدق المؤمنين وليس المنافقين والكافرين.

قوله: {ورحمة للذين آمنوا منكم} أي جعل الله رسوله رحمة لمن اتبعه من الناس واهتدى بهديه؛ بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة للعالمين كافة، يهديهم إلى سوء السبيل ويقودهم إلى النجاة والسلامة في الدارين، دار الفناء ودار البقاء.

قوله: {والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم} هذا وعيد من الله للمنافقين الخبثاء الذين يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ يصفونه بأنه {أذن} أن لهم جهنم حيث العذاب الأليم ١٣٣.

٦٢ - (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ٦٢ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم} روي أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرفنا وإن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين، فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار، فسعى بها الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: (ما حملك على الذي قلت؟) فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله: {يحلفون بالله لكم} الآية.

وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وطعنوا في الدين، فنقل حذيفة ما قالوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم، فحلفوا ما قالوا شيئا من ذلك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذابا لهم ١٣٤.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين يحلفون لكم أيها المؤمنون بالله لترضوا عنهم ولتصدقوهم فيما أنكروه وكذبوه مما نسب إليهم من إيذاء وطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد حلفوا الأيمان الفاجرة أنهم ما قالوا شيئا مما نسب إليهم، وأنهم على دينكم وهم معكم على من خالفكم - وهم في الحقيقة إنما يبتغون بذلك إرضاءكم أنتم غير عابئين بكونهم كاذبين فاسقين.

قوله: {والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين} لفظ الجلالة مبتدأ - وخبره {أحق} - والتقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه ١٣٥؛ أي أن الله أحق أن يبتغوا رضوانه بالتوبة إليه والإنابة مما اقترفوه من الكذب والباطل على رسول الله إن كانوا صادقين مصدقين بالله ورسوله وما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحق.

٦٣ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

قوله: {ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها أبدا ذلك الخزي العظيم} المراد المنافقون - وقوله: {يحادد} من المحادة وأصلها المحاددة - حاددته، أي خالفته - والمحاددة كالمجانبة والمخالفة - واشتقاقه من الجد - وحاد فلان فلانا، أي صار في حد غير حده - كقوله: {شاقه أي صار في شق غير شقه ١٣٦، ومعنى يحادد الله، أي يصير في حد غير حد الله ورسوله والمؤمنين.

والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذبا لإرضاء المؤمنين أنه من يحارب الله ورسوله فيكون على سبيل مخالف لسبيلهما، ودين غير دينهما، سيؤول إلى نار جهنم خالدا فيها - {ذالك الخزي العظيم} ذلك هو الهوان البالغ في الفظاعة والتنكيل - الهوان الذي يهون دونه كل هوان - وفي ذلك من الوعيد للمنافقين، والتنديد بهم ما يزجرهم أعظم زجرا لو كانوا يعقلون ١٣٧.

٦٤ - (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

قوله تعالى: {يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون}.

ذكر أن بعض المنافقين قالوا: والله وددت لو أني قدمت فجلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا - فنزلت الآية.

والمعنى: أن المنافقين يتحرزون من نول سورة على المؤمنين تخبرهم بمخازي المنافقين ومفاسدهم وما يستسرونه فيما بينهم منس سوء الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين - ومن أجل ذلك سميت هذه السورة الفاضحة، لأنها تفضح المنافقين، إذ تكشف ما يبطونه في قلوبهم، وسميت الحافرة، إذ حفرت عما في قلوب المنافقين - وغير ذلك من الأسماء التي بيناها في أول السورة.

ذلك هو شأن المنافقين مع أنفسهم، فهم يعلمون أنهم على الباطل وأن المسلمين على الحق - وهم موقنون تمام اليقين أن ملة الإسلام لهي الصواب وعين الحق، لكنهم منتكسون خاسئون أمام سطوة الغريزة الجامحة، فركنوا للضلالة والهوى، وأبوا إلا العتو والاستكبار، خنوعا للشهوات، لكي تتحصل لهم المنافع المالية والاجتماعية والشخصية وغير ذلك من وجوه المنافع المسفة.

قوله: {قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون} وهذا أمر وعيد وتهديد، أي استهزئوا فالله سيفضحكم بإظهاره عليكم ما كنتم تحذرون أن تظهروه ١٣٨.

والمنافقون واهمون سفهاء إن كانوا يظنون أن مقاصدهم وأسرارهم ستظل حبيسة مستكنة في صدورهم طيلة الزمان كيلا تظهر للناس - والحقيقة خلاف ذلك، وهي أن المنافقين مهما برعوا في التحيل والخداع والاستتار وإخفاء المثالب، فإنهم لا محالة مفضوحون، لتظهر للناس أستارهم ونوايا السوء فيهم.

٦٥ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

قوله تعالى: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ٦٥ ولا تعتذروا قد كفرتم بعد أيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين} روي عن زيد بن أسلم أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرائنا هؤلاء أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند الله، فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فوجد القرآن قد سبقه، فقال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقا بحقب ١٣٩ ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحاجرة يقول: غنما كنا نخوض ونعلب - فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون).

وعن قتادة قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين قالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات - فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم: (احبسوا علي هؤلاء الركب) فأتاهم - فقال: (قلتم كذا - قلتم كذا) قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض وتلعب - فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون ١٤٠.

والخوض، أصله الدخول في مائع كالماء والطين - ثم كثر استعماله حتى أطلق على كل دخول فيه تلويث وأذى، أي كنا نخوض في الباطل.

قوله: {قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون} استفهام يستنكر فعل المنافقين، إذ كانوا يتهكمون ويستهزئون بالله وكتابه ورسوله.

وعلى هذا فإنه لا يسخر من آيات الله أو بعض آياته أو من نبيه صلى الله عليه وسلم إلا كان كفور أثيم، فإن ذلك خوض في دين الله بالباطل، يستوي في ذلك ما لو كان الخوض على سبيل الجد أو الهزل، فإن ذلكم كله كفر بغير خلاف.

٦٦ - (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

قوله: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} أي لا تعتذروا بالباطل فتقولوا: كما نخوض ونعلب، أو لا تذكروا هذا العذر الباطل في دفع ذلك الجرم الفظيع - وبذلك نهاهم عن الاعتذار، لأن قولهم {إنما كنا نخوض ونلعب} لي عذرا حقيقيا في الذين فعلوه من الاستهزاء والتهكم.

وقوله: {قد كفرتم بهد إيمانكم} أي إيمانكم الذي أظهرتموه للمسلمين، فقد ظهر لكم كفركم بعد أن كنتم في ظنهم مسلمين.

ويستفاد من ذلك أن الاستهزاء بالدين كفر بالله، لأن الاستهزاء ضرب من الاستخفاف وهو خلاف ما يستوجبه الله على العباد من تعظيمه - والجمع بين الاستخفاف والتعظيم محال - ويستفاد أيضا أن الكفر يقع بالأفعال والأقوال من غير اشتراط لنوايا القلوب، وهذا يدل على بطلان قول من يقول إن الكفر لا يدخل إلا في أفعال القلوب ١٤١.

قوله: {إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين} يتبين من هذه الآية أن ثمة طائفتين، إحداهما، المعفو عنها، والثانية المعذبة - وقد ذكر المسفرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة - استهزأ اثنان وضحك واحد، فالطائفة الأولى الضاحك، والطائفة الثانية الهازئان - ولما كان ذنب الضاحك أخف، فقد عفا الله عنه، وذنب الهازئين أعظم فما عفا الله عنهما.

قوله: {بأنهم كانوا مجرمين} أي نعذب الطائفة المستهزئة بما اكتسبوه من الجرم وهو الكفر بالله وطعنهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٤٢.

٦٧ - (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قوله تعالى: {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسهم إن المنافقين هم الفاسقون ٦٧ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم} {المنافقون والمنافقات} هم الذين يظهرون بألسنتهم للمسلمين أنهم مسلمون مثلكم، لكنهم يسرون الكفر بالله ورسوله وكتابه - وهم جميعا بعضهم من بعض، أي هم صنف واحد، وأمرهم من حيث إظهار الإيمان وإخفاء الكفر واحد لا يختلف، فهم كالشيء الواحد أو الصنف الواحد في كفرهم وخروجهم من دين الله - سواء في ذكورهم وإناثهم.

ثم بين الله تفصيل حال المنافقين والمنافقات بما يكشف عن فضائحهم وقبائحهم وأفعالهم المنكرة - ومن جملة ذلك: أنهم يأمرون الناس بالمنكر، ويدخل فيه كل معصية أو قبيح - وفي طليعة ذلك الكفر بالله ورسوله وكتابه - وهم أيضا ينهون عن فعل المعروف، ويدخل فيه كل حسن - وأعظم ما في ذلك الإيمان بالله ورسوله وكتابه.

وهم أيضا يقبضون أيديهم، أي يمسكونها عن فعل الخيرات كإيتاء الزكوات والصدقات، وأداء النفقات، وبذل الخير للمحاويج والمكروبين.

قوله: {نسوا الله فنساهم} النسيان هنا بمعنى الترك، أي تركوا ما أمرهم به الله فتركهم الله يسدرون في الشك والحيرة وقد حرمهم من توفيقه ورحمته.

قوله: {إن المنافقين هم الفاسقون} ذلك تأكيد من الله على المنافقين خارجون عن الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، بل إن المنافقين لأشد عتوا من الكافرين - ومن اجل ذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار.

٦٨ - (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

قوله: {وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها} ذلك وعيد من الله للمنافقين والمنافقات والكفار بان لهم نار جهنم يصلونها ماكثين فيها، فلا يخرجون منها البتة، ولا يبرحهم لظالها المستعر.

قوله: {هي حسبهم} نار جهنم تكفيهم عقابا وجزاء على كفرهم بالله وخروجهم عن الإيمان بالله وطاعته.

قوله: {ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم} أي أبعدهم الله من رحمته وأعد لعم العذاب الدائم الذي لا يحول ولا يزول ١٤٣.

٦٩ - (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله تعالى: {كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون} الكاف في قوله: {كالذين} في موضع نصب صفة لمصدر محذوف وتقديره: وعدا كما وعد الذين من قبلكم ١٤٤، أي قل لهؤلاء المنافقين الخائضين المستهزئين بالله وآياته ورسوله إنكم كنتم تستهزئون كما استهزأ الذين من قبلكم من الأمم، إذ فلعوا ما فعلتم من الاستهزاء، فأخذهم الله بذنوبهم فاحذروا أن يحل بكم من العقاب ما حل بهم، مع أنهم كانوا أعظم منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا.

قوله: {فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم} الخلاق، معناه النصيب ١٤٥ - يبين الله لهؤلاء المنافقين أن الذين من قبلهم من الأمم السابقة تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا - وكذلك أنتم تمتعتم بنصيبكم كما تمتع الذين من قبلكم بنصيبهم - فأنتم في هذا الاستمتاع مشابهون للذين من قبلكم - والمراد من هذا التمثيل: التنديد بهؤلاء المنافقين من أجل مشابهتهم الذين من قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله، أي أن المنافقين سلكوا سبيل الكافرين من الأمم السابقة في الاستمتاع بلذائذ الحياة الدنيا والإدبار عن أوامر الله ونسيان الآخرة.

قوله: {وخضتم كالذي خاضوا} أي خضتم أيها المنافقون في الباطل والكذب على الله كخوض الكافرين من الذين سبقوكم - قال ابن عباس في هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة {كالذين من قبلكم} هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم - وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال؟ (فمن؟).

قوله: {أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون} هؤلاء المنافقون قد حبطت أعمالهم التي كانت على صورة الطاعة، فقد ذهبت باطلا، إذ لا جزاء لهم عليها إلا النار - أما بطلانها في الدنيا: فلأنها تفضي إلى النقيض مما كانوا يرجونه بعد أن أتت عليها أحوال شتى من الموت والفقر والتحول من القوة إلى الضعف ونحو ذلك - وأما بطلانها في الآخرة: فليصرورتها إلى الزوال والفناء، فهي بذلك تمر بغير قيمة أو اعتبار - {وأولئك هم الخاسرون} السادرون في الهلاك والخسران ١٤٦.

٧٠ - (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

قوله تعالى: {ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ونوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبنيات فما كان الله ليظلهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} الاستفهام للتقرير - والضمير في {يأتيهم} عائد إلى المنافقين الذين يسرون الكفر وينهون الناس عن الإيمان بالله ورسوله وعن فعل الصالحات أولئك الذين يشبه حالهم حال الكافرين السابقين الذين دمر الله عليهم تدميرا وهو قوله: {نبأ الذين من قبلهم} أي خبر الأمم السابقة وما فعلون من العصيان والتمرد وتكذيب المرسلين، وما حل بهم في مقابل ذلك من العقاب الشديد - أفلم يأت هؤلاء المنافقين أنباء ما حل بنظرائهم السابقين من العذاب فيزدجروا وينتهوا عما هم فيه من الظلم والعصيان لكي ينجوا مما يعددهم من العقاب.

على أن المشبه بهم من السابقين هنا في الآية ست أمم وهم: قوم نوح وقد أهلكهم الله بالطوفان والتغريق، ثم قوم عاد وقد أهلكهم الله بالريح العقيم، الريح الصرصر العاتية، ثم قوم ثمود وقد أخذتهم الصيحة، ثم قوم إبراهيم وقد بعض الله عليهم البعوض فنخرهم نخرا

حتى فنوا، ثم أصحاب مدين وهم قوم شعيب، وقد أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة، ثم أصحاب المؤتفكات وهي قرى قوم لوط، وقد سميت بالمؤتفكات، من الائتفاك وهو الانقلاب؛ فقد انقلب بهم الأرض حتى صار عاليها سافلها.
هذه الأمم جميعا {أتتهم رسلهم بالبينات} أي جاءهم المرسلون بالنور والهدى ليؤمنوا بالله ويستقيموا على دينه وشرعه فأبوا وعصوا؛ فجزاهم الله بما فعلوه شر الجزاء؛ إذ بعث عليهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وسيأتيهم يوم القيامة من سوء العذاب ما هو أشد وأخزى.
قوله: {فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} أي لم يكن الله ليظلم أحدا في العالمين ولا ليظلم هذه الأمم بما حل بهم من البلاء وسوء العقاب؛ ولكنهم هم استحقوا من الله أن يحيق بهم العذاب بسبب إجرامهم وما تلبسوا به من الجحود والمعاصي ١٤٧.
٧١ - (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
قوله تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم} بعد الحديث عن حال المنافقين في سوء خوضهم وكذبهم وفاحش أعمالهم، يذكر الله في هذه الآية حال المؤمنين المتوادين المتآلفين مبينا بعض صفاتهم وهو أن بضعهم أعون بعض؛ فهم فيما بينهم متناصرون متآخون في عقيدة الإسلام؛ كما جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وشبك بين أصابعه.
وفي الصحيح كذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى لع سائر الجسد بالحمى والسمر).
قوله: {يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله} وهذه صفة ظاهرة ومميزة للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهم يدعون الناس إلى الخير، ويأمرونهم بكل وجوه المعروف، ويأتي في طليعة ذلك حضهم ودعوتهم للإيمان بالله وحده دون غيره من الشركاء والأنداد، وما يقتضيه ذلك من جوه العبادات وأعمال الإحسان والبر.
وهم كذلك ينهون الناس جميعا عن المنكر بكل صوره وأشكاله، ويأتي في طليعة ذلك: الإشراك بالله، والخضوع والاستسلام الامتثال لأوامره الشبر التي تخالف منهج الله، ثم ينهون بعد ذلك عن كل وجوه المحظور والمنكر على اختلاف أنواعه وضروبه من المعاصي والآثام.
من الصفات الظاهرة المميزة لهذه الأمة: أداؤهم الصلوات المفروضة أداء صحيحا تاما من غير تثاقل أو إغفال او تفريط؛ وذلك لما في الصلاة من بالغ الحكمة والمعنى وعظيم الرباط والصلة برب العباد؛ وهي صلة روحية وثيقة تديم الخطاب المخلص المباشر والمناجاة العقلية والقلبية والوجدانية العليا بين العبد المخلوق، والإله الخالق.
ومن صفاتهم الظاهرة المميزة: أنهم يبذلون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم إلى إخوانهم المؤمنين من المحاويج والعالة - وهم كذلك إنما يطيعون الله وحده فيما أمر ويزدجرون عما زجر، ولا يذعنون للمعاصي والسيئات من أوامر البشر - يضاف إلى طاعتهم لله طاعتهم لرسوله المبلغ الهادي إلى سواء السبيل.
قوله: {أولئك سيرحمهم الله} هؤلاء المتصفون بهذه الصفات العظيمة المميزة ستنالهم من الله رحمة غامرة رضية، فيمضون في الحياة آمنين كرماء في ظل منهج الله الحكيم الذي شرعه لعباده - ويوم القيامة يصيرون إلى السعادة الدائمة التي لا يأتي عليها فناء ولا نهاية.
قوله: {إن الله عزيز حكيم} الله قوي غالب على كل شيء، لا يعز علي في الخلق ما يريد - وهو سبحانه حكيم في تدبيره وما يفعل؛ فإنه يضع الأشياء في مواضعها دون خلل في ذلك ولا نقصان ١٤٨.
٧٢ - (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)
قوله تعالى: }وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم{ ذلك وعد الله لبعاده المؤمنين والمؤمنات، والعاملين بكتابه وسنة رسوله، المجانبين للشرك والضلال –وعدهم }جنات تجري من تحتها الأنهار{ وهي المنازل الفخمة والمقامات العالية الكريمة حيث الخير والسعادة والجمال بما يعز على المرء أن يتصور مبلغ روعته ومداه حتى يعاينه ويراه - وهذه هي جنات عدن؛ أي دار إقامة وخلود.
وقوله: }ورضوان من الله أكبر{ وهو غاية ما يزين الجنة من كمال البهجة والفضل والحبور؛ بل إنه أقصى ما يخطر للأذهان والقلوب من كمال السعادة والاستشراق والرضى - إن رضوان الله على المؤمنين في الجنة يفوق كل ما حوته الجنات من صنوف اللذات والدرجات وألوان النعيم - وهذا ما ينبه إليه الوصف بقوله: }أكبر{.
قوله: }ذالك هو الفرز العظيم{ الإشارة عائدة إلى ما تقدم مما وعد الله به عباده المؤمنين من جنات الخلود حيث الإقامة الدائمة والقرار المكين السعيد - ثم رضوان الله الذي يفوق كل ما دونه من ألوان النعيم - لا جرم أن هذا لهو الفوز العظيم - الفوز الذي يهون دونه كل فوز مما يتخيله الناس أو يحسونه.
٧٣ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)
قوله تعالى: }يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ٧٣ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن تابوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير{.
أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين - أما الكفار: فيجاهدهم بالسلاح والقتال - وأما المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويخفون في نفوسهم الكفر: فإنه يجاهدهم باللسان وحجة البيان وأن لا يرفق بهم، وهو قول ابن عباس.
قوله: }وأغلظ عليهم{ أي اشدد عليهم بالقتال والإثخان والإرعاب - قوله: }ومأواهم جهنم وبئس المصير{ أي بئس المكان الذي يصير إليه هؤلاء المجرمون من الكافرين والمنافقين؛ فإنهم صائرون إلى نار جهنم؛ فهي مقامهم الدائم ولبثهم الذي لا يزول.
٧٤ - (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)
قوله: }يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم{ نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأمصاري فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك - وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله؛ فأنزل الله فيه هذه الآية.
وقيل: نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء - فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من الحمير التي نحن عليها - فقال له ابن امرأته: والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله بما قلت؛ فإني أن لا أفعل أخاف أن يصيبني قارعة وأؤاخذ بخطيئتك فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الجلاس فقال: (يا حلاس أقلت كذا وكذا؟) فحلف ما قال - فأنزل الله الآية ١٤٩.
قوله: }وهموا بما لم ينالوا{ أي هموا أن يدفعوا ليلة العقبة وكانوا قوما قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم معه يلتمسون غرته حتى اخذ في عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك كان ليلا، قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل - فالتقت فإذا هو بقوم ملثمين -

فقال: إليكم يا أعداء الله، فأمسكوا - ومضى النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل منزله الذي أرده - فأنزل الله قوله {وهموا بما م ينالوا} يعني المنافقين هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك، وكانوا اثني عشر رجلا - قال حذيفة: سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدهم كلهم ١٥٠.

قوله: {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله} نقموا، بمعنى أنكروا وعابوا ١٥١ - والمراد بذلك المنافقون الذين يكرهون النبي صلى الله عليه وسلم ودينه ويفترون عليها الكذب والباطل، وكانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم في ضنك من العيش، فلما قدم عليهم صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم وصاروا في سعة وبحبوحة - فيكون المعنى: أنهم ما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا إلا أن أغناهم ورسوله من فضله - فما للرسول صلى الله عليه وسلم عندهم من ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن مقامه فيهم - وذلك كما قال عليه الصلاة والسلام للأنصاري: (ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟) والمثل المناسب في هذا الصدد قول القائل: (اتق شر من أحسنت إليه).

قوله: {فإن يتوبوا يك خيرا لهم} أي هؤلاء المنافقون الذين قالوا كلمة الكفر، فإنهم إن تابوا من قيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه إلى الإيمان والتصديق والطاعة، تكن توبتهم وإدبارهم عن الباطل والنفاق خيرا لهم من حالهم في النفاق والغش وخيانة الإسلام والمسلمين - أما إن تمردوا وأدبروا عن التوبة وأبوا الجحود والاستكبار والنفاق {يعذبهم الله عذابا أليما} أي يأخذهم الله في هذه الدنيا بالقتل والإذلال، ويأخذهم في الآخرة بالعذاب الموجع البئيس وهو عذاب النار التي أعدها الله للأشقياء من الناس وأشرارهم - ولئن أخذهم الله بعذابه الأليم فلن ينصرهم من الله أيما نصير، وليس من مجير يجيرهم أو ينقذهم مما يحل بهم من الخزي والتنكيل - وهو قوله سبحانه: {وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير} ١٥٢.

٧٥ - (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله تعالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ٧٥ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ٧٦ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ٧٧ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب} نزلت هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري؛ فقد روي أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اعد الله أن يرزقني مالا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيق) ثم قال (ثعلبة) مرة أخرى - فقال (أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فو نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت) قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم ارزق ثعلب) فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما - ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما فعل ثعلبة؟) فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره - فقال: يا ويح ثعلبة - يا ويح ثعلبة) وأنزل الله جل ثناؤه {خذ من أموالهم صدقة} الآية - ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: (مرا بثعلبة وبفلان –رجل من بني سليم- فخذا صدقاتهما) فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أهت الجزية، ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي - فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها، فلما رأوه قالوا، ما يجب عليك هذا، وما نريد أن تأخذ هذا منك - فقال: بلى نخذوها فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي لله، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما، فقرأه، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى

رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال: (يا ويح ثعلبة) قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة - فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي - فانزل الله عز وجل {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن} الآية - وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك، نخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ان يتقبل منه صدقته فقال: (إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك) فجعل يحثو على رأسه التراب - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا عملك، قد أمرتك فلم تعطني) فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبض صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته - فقال أبو بكر: لما يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك؟ فقبض ولم يقبلها - فلم ولي عثمان (رضي الله عنه) أتاه فقال: اقبل صدقتي - فقال: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر وأنا اقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان ١٥٣.

وقوله: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين} أي ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن رزقه الله من رزقه الله بعمل أهل الصلاح من الإحسان وصلة الأرحام والبر والإنفاق في سبيل الله.

٧٦ - (فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

فلما رزقه الله من فضله مالا ووسع عليه فيه بخل ولم يوف ما عاهد الله عليه من ذب الصدقة وفعل الإحسان {وتولوا وهم معرضون} أي أدبروا عما عاهدوا الله عليه، وهم ديدنهم الإعراض عن دين الله وطاعته.

٧٧ - (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

قوله: {فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه} الفاعل هو الله جل شأنه - {فأعقبهم نفاقا في قلوبهم} أي جعل عاقبة فعلهم من البخل والإعراض عن دين الله وطاعته نفاقا في قلوبهم {إلى يوم يلقونه} أي يلقون ربهم بالموت أو يوم القيامة - وذلك {بما أخافوا الله ما وعدوه} الباء للسببية، أي بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والبذل والإنفاق في وجوع البر والإصلاح بسبب كذبهم في قيلهم - وهو معنى قوله: {وبما كانوا يكذبون}.

ويستدل من ذلك أن الكذب في الحديث له أمارة من أمارات النفاق المتلبس بالقلب، فما يكذب المرء ويكثر كذبه أو يزداد من غير وازع ولا ندامة إلا من ران على قلبه النفاق ليكون في زمرة المنافقين الخاسرين أعاذنا الله منهم - وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان).

قال الرازي في هذا الصدد: ظاهرة الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه - فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به - ومذهب الحسن البصري: أنه يوجب النفاق لا محالة ١٥٤.

٧٨ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قوله: {ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب} وهذا توبيخ من الله لهؤلاء المنافقين الخاسرين الذين يكفرون بالله وبرسوله وبدينه سرا ويظهرون للمؤمنين أنهم منهم والله سبحانه يبين لهم في تقريع واستنكار في هذا المعنى: ألم يعلموا أن الله يعلم ما يسرون في أنفسهم من الخبث والخداع، وما تنطوي عليه قلوبهم من الكفر والكراهية لدين الإسلام؟! ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يسمع نجواهم، إذ يتناجون فيما بينهم بالطعن في دين الله ورسوله والمسلمين؟! أفلا يخشى هؤلاء المنافقون أن تحل بدارهم القوارع والمثلات من الله عقابا لكفرهم وفساد قلوبهم وسرائرهم؟! ١٥٥.

٧٩ - (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله ولهم عذاب أليم} {يلمزون}، من اللمز وهو العيب والإشارة بالعين ونحوها - واللمزة بضم اللام المشددة معناه العياب باللسان ١٥٦.

ذلك إخبار عن فضائح المنافقين وعن صفة من صفاتهم الذميمة وهي للمز - والمنافقون صنف لئيم خسيس عياب من الناس لا ينجو أحد من عيبهم ولمزهم في كل الأحوال - فإن أحسن الناس وكثر إحسانهم عابهم المنافقون وطعنوا في حقيقية مقاصدهم واتهموهم بالرياء - وإن أحسنوا قليلا شنعوا عليهم وتقالوا إحسانهم، وسخروا مما بذلوه على أنه حقير ويسير ليست له قيمة - هؤلاء هم المنافقون الأنذال أولو الضمائر الخاوية، والألسن التي لا تبرع إلا في الحسد واللمز والثرثرة وعتك الأستار في أسلوب خسيس وخبيث ومبتذل. وفي هذا الصدد روي البخاري بإسناده عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: لنا نزلت آية الصدقة كما نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت {الذين يلمزون المطوعين} الآية ١٥٧ و {المطوعين} أي المتطوعين - من التطوع، وهو التبرع والبذل تقربا لله وابتغاء مرضاته - قوله: {والذين لا يجدون إلا جهدهم} أي أن المنافقين يلمزون المتطوعين من المؤمنين الذين يقدمون ما في وسعهم مما يجدونه فاضلا عن حاجتهم وليس عندهم غيره وهو جهد المؤمن المقل - والجهد، بالضم معناه القدرة والطاقة {فيسخرون منهم} معطوف على يلمزون - والمعنى: أن هؤلاء المنافقين يستهزئون بالمتطوعين المؤمنين الذين يتصدقون بالقليل؛ لأنه غاية ما يقدرون عليه ويتمكنون منه؛ إنهم يستهزئون بهم وبما يقدمونه من الصدقات لقتلها وبساطتها - قوله: {سخر الله منهم ولهم عذاب أليم} أي جازاهم الله بما يستحقونه من المجازاة والعقاب في مقابلة استسخارهم بالمؤمنين؛ فقد أخزاهم الله بفضح نواياهم وما تكنه صدورهم من خبيث المقاصد، فضلا عما أعده لهم من أليم العذاب في جهنم ١٥٨.

٨٠ - (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

قوله تعالى: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين} يبين الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه لن يغفر لهؤلاء المنافقين ما وقعوا فيه من النفاق والغش والخيانة، وإن استغفرت لهم بالغ الاستغفار - وقد ذكر السبعين للتأكيد على عدم حصول المغفرة للمنافقين؛ ولذلك قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} {سبعين} منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف - والسبعون هنا جار مجرى المثل ف كلام العرب للتكثير وليس على التحديد والغاية؛ فإن العرب في أساليب كلامها كانت تذكر السبعين على سبيل المبالغة ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وذهب بعض أهل العلم إلى التقييد بهذا العدد وهو السبعون يدل على قبول الاستغفار في الزيادة على هذا العدد وهو مفهوم المخالفة - فما زاد على السبعين من الاستغفار لم يشمله التيئيس من الاستغفار، وحتجوا بما روي أنه لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبي قد احتضر ١٥٩ فأجب أن تشهده وتصل عليه - فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ما اسمك) قال: الحباب بن عبد الله - قال: (بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان) فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق ١٦٠ وصلى عليه - فقيل له: أتصلي عليه؟ قال (إن الله قال: {إن تستغفر لهم سبعين مرة} ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين).

والراجح من القولين عدم المغفرة للمنافقين مهما استغفر لهم المستغفرون - ويدل على ذلك قوله: {ذالك بأنهم كفروا بالله ورسوله} {ذلك}، إشارة إلى اليأس من المغفرة لهم - والباء للسببية؛ أي لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله {والله لا يهدي القوم الفاسقين} فتبين بذلك أن العلة التي لأجلها لا ينفع المنافقين استغفار الرسول لهم وإن بلغ استغفارهم سبعين مرة، هي كفرهم وفسقهم ١٦١.

٨١ - (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

قوله تعالى: {فرح المخالفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ٨١ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون}.

يفرح المنافقون أشد الفرح كلما نالوا حظا من حظوظ الدنيا، كالمال والراحة والدعة والاستمتاع بكل ألوان المتاع والمكاسب في الحياة الدنيا وسفاسفها - وأشد ما يواجه المنافقين في حياتهم تكليفهم ما يشق عليهم، كالتكليف باحتمال المصاعب والمخاطر مثل الجهاد، إنهم أشد الناس هروبا وتخلفا عن فريضة الجهاد، ولذلك قد فرح المنافقون بخلفهم عن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهاد الكافرين في تبوك - والمراد بالمخلفين: هم المتروكون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأذن لهم وخلفهم في المدينة، أو هم الذين خلفهم الشيطان، او تخاذلهم ونفاقهم وإخلادهم إلى الأرض، لقد فرحوا {بمقعدهم} أي بقعودهم {خلاف رسول الله} {خلاف} منصوب، على أنه مفعول له - وقيل: على المصدر ١٦٢ - وخلاف، بمعنى خلف - أو بمعنى مخالفين، أي أنهم قعدوا عن الجهاد لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو مخالفين أمره بالخروج.

قوله: {وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله} لقد كره هؤلاء المنافقون المخلفون ان يخرجوا للقاء أعداء الله فيجاهدوهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، جانحين إلى الدعة والاسترخاء والتخاذل، ومؤثرين الحياة الدنيا على الآخرة، وشحا بالمال الذي تهون بصدده العقيدة والملة والقيم في نظرهم.

لما استنفر النبي صلى الله عليه وسلم الناس للسفر إلى تبوك من أجل الجهاد، وكان ذلك في حين من اشتداد الحر إبان الصيف الحرور، وقد حان أوان القطاف وجني الثمار، تثاقل المنافقون وانثنوا عن الخروج انثناء فاضحا كشف اللثام عن نواياهم الخبيثة وعن مبلغ إخلادهم المسرف إلى حطام الدنيا، ثم تواصوا فيما بينهم قائلين بعضهم لبعض: {لا تنفروا في الحر} ثم قال لهم الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: {قل نار جهنم أشد حرا} فإن نار جهنم بلظاها المخوف المفظع، واستعار لهيبها المتأجج المضطرم، لهي أحرى أن تحذروها وأن تحسبوا لها كل حساب واستعداد - قوله: {لو كانوا يفقهون} لو كان المنافقون يتدبرون هذه الحقيقة المذهلة عن شدة العذاب وفظاعة اللهب يوم القيامة لما تخلفوا عن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والسفر معه للقاء العدو.

٨٢ - (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله: {فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا} وهذا أمر بمعنى التهديد، أي فليضحكوا فرحين قليلا في هذه الدنيا الفانية بقعودهم في منازلهم مخالفين رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ خرج إلى لقاء الكافرين - وفي المقابل ليبكوا طويلا وهم في جهنم - قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيما ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا.

وقيل: الآية أمر بمعنى الخبر، أي أنهم سيضحكون قليلا وسيبكون كثيرا {جزاء بما كانوا يكسبون} أي جزاء من الله على تخلفهم عن رسول الله وانثنائهم عن الخروج للقاء الكافرين ١٦٣.

٨٣ - (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

قوله تعالى: {فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ٨٣ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون} {رجعك الله}، مع الرجع، بالسكون، وهو مصير الشيء إلى المكان الذي كان فيه - نقول: رجعته رجعا، أي رددته ردا - والمراد بالطائفة في الآية، طائفة المنافقين، وقد ذكر أنهم كانوا اثني عشر رجلا - وقد خصص الطائفة، لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين، بل كان بعضهم مخلصين معذورين كالعجزة من المسنين والنساء والمرضى.

والمعنى: إن ردك الله يا محمد من غزوتك هذه إلى المدينة حيث المنافقون فاستأذنوك للخروج معك في غزوة أخرى {فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا} أمر الله نبيه الكريم أن يقول لهم ذلك عقابا هم وتعزيزا، وقد علل ذلك في الآية بقوله: {إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين} أي الرجال الذين تخلفوا عن الجهاد - والمعنى: اقعدوا مع الذين قعدوا من المنافقين مخالفين

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد صرتم منهم وأنتم الآن على ملتهم وطريقتهم.
٨٤ - (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)
قوله: {ولا تصل على أحد منهم أبدا} نزلت هذه الآية في شأن الصلاة على عبد الله بن أبي بن سلول، فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه - فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا كذا وكذا -يعدد أيامه؟ - قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: (أخر عني يا عمر - إني خيرت فاخترت - قد قيل لي: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} لو أعلم أني لو زدت على سبعين غفر له لزدت) قال: ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه - قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: فوالله ما كان يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا} الآية، فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل - فيستدل من ذلك على عدم الصلاة على المنافق الذي يظهر للمسلمين أنه منهم ولكنه يكتم في قلبه الكفر.
قوله: {ولا تقم على قبره} كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبيت، فقد روي أبو داود بإسناده عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: (استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل).
قوله: {إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون} وهذا تعليل لترك الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم - وهو أنهم كانوا يخفون في صدورهم الكفر بالله ورسوله ولم يتوبوا عن ذلك، بل ظلوا على حالهم من الكفر والجحود حتى ماتوا {وهم فاسقون} أي ماتوا وهم خارجون من ملة الإسلام مفارقون أمر الله ورسوله ١٦٤.
٨٥ - (وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)
قوله تعالى: {ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون} ما ينبغي للمؤمنين أن تغرهم كثرة الأموال والأولاد لدى الكافرين والمنافقين ليسترضوهم ويداهنوهم.
ما ينبغي لأهل الإسلام، أهل الكرامة والشهامة والاستعلاء أن يستحوذ عليهم الإعجاب بما أوتي الكافرون والمنافقون من زخارف الدنيا وزينتها - فما أوتيه هؤلاء من خير وولد منصب، ليس إلا فتنة لهم، فيعذبهم الله بها في الدنيا من فرط ما يغشاهم من الهموم ودوام التفكير والاغتمام من أجلهم - فضلا عما يبتلي الله به في أموالهم وأولاهم من الرزايا والنائبات - وبعد ذلك كله تزهق أنفسهم، أي يموتون، فيفارقون المال والولد وزينة الحياة الدنيا كلها - وإذ ذاك تهب على أرواحهم لواعج كثاف من الحسرة الغامرة، والالتياع الممض أسفا على فراق ما تركوه وراء ظهورهم.
٨٦ - (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)
قوله تعالى: {وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله الله استأذنوك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ٨٦ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ٨٧ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ٨٨ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم}.
إذا أنزل الله على رسوله سورة من القرآن فيها دعوة المنافقين إلى الإيمان بالله وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، وتآمرهم بالجهاد مع رسول الله بادر {وأولوا الطول منهم} أي أهل الغنى والسعة والمال -بالاستئذان في التخلف عن السفر للقاء العدو فيمكثوا في أهليهم

قاعدين: سالمين {وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين} أي دعنا يا محمد نقعد في منازلنا مع الضعفاء والعجزة من الناس - وذلك هو شأن المترفين البطرين من الأغنياء والموسرين في كل زمان - أولئك الذين وهنت عزائمهم واسترخت نفوسهم إزاء المال المركوم بقناطير المقنطرة، فانفلت قلوبهم عن الإيثار والشجاعة والغيرة على الدين والوطن والعباد؛ فهم لإيغالهم المسرف في حب المال، والاجتهاد اللحوح المضني في تحصيله وجمعه؛ لا تميل نفوسهم إلا إلى الدنيا وما فيها من زهرة الحياة ومتاعها؛ فهم بذلك أشد ممن سواهم نكولا عن الجهاد أو التفكير في لقاء العدو حرصا على أرواحهم أن تزهق، وعلى أموالهم أن يصيبها البخس - وبذلك آثروا أن يكونوا مع القاعدين وهم الضعفاء من الناس كالمرضى والعميان والأطفال والمسنين.

٨٧ - (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)

قوله: {رضوا بأن يكونوا مع الخوالف} {الخوالف}، جمع خالفة - والهاء للمبالغة - والخالفة هي القاعدة في الدار من النساء - وهو المتخلف عن القوم في الغزو، والفاسد من الناس، والذي لا يخر فيه ١٦٥ - والمراد بالخوالف في الآية، النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال - لقد رضي هؤلاء الجبناء الخائرون الرعاديد لأنفسهم أن يكونوا في زمرة النساء وغيرهن من العجزة كالصبيان والعميان والمسنين والمرضى - وفي ذلك من التوبيخ اللاذع بحقهم ما لا يخفى.

قوله: {وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} أي ختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين من أجل نكولهم عن الجهاد وإيثارهم الدعة والاسترخاء مع العجزة والنساء؛ فهم بذلك لا يفهمون ما فيه صلاحهم وما يضرهم؛ بل إنهم فاسدون سفهاء.

٨٨ - (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله: {لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم} لكن حرف استدراك - والمعنى المستفاد منه: أن تخلف هؤلاء المنافقين عن الجهاد لا يضير ولا يغير من حتمية للإسلام، فإن ثمة من يقوم بفريضة الجهاد خير قيام - {وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون} أعد الله لعبادة المؤمنين المخلصين الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله وهم يقاتلون أعداء الله –أعد لهم الخيرات وهي ما حوته الجنة من أصناف اللذائذ والنعم مما لم يخطر على قلب بشر - ولا جرم أن هؤلاء بما من الله عليهم من أنواع الخيرات والبركات والمباهج في الجنة –هم الفائزون حق الفوز، الناجون تمام النجاة ١٦٦.

٨٩ - (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]

قوله: {لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم} لكن حرف استدراك - والمعنى المستفاد منه: أن تخلف هؤلاء المنافقين عن الجهاد لا يضير ولا يغير من حتمية للإسلام، فإن ثمة من يقوم بفريضة الجهاد خير قيام - {وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون} أعد الله لعبادة المؤمنين المخلصين الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله وهم يقاتلون أعداء الله –أعد لهم الخيرات وهي ما حوته الجنة من أصناف اللذائذ والنعم مما لم يخطر على قلب بشر - ولا جرم أن هؤلاء بما من الله عليهم من أنواع الخيرات والبركات والمباهج في الجنة –هم الفائزون حق الفوز، الناجون تمام النجاة ١٦٧.

٩٠ - (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم} {المعذرون}، بالتشديد، في قراءة الجمهور - وفي تأوليه وجهان - أحدهما: أن يكون أصله المعتذرين، وهو جمع معتذر، وقد أدغمت التاء في الذال - وهو المحق الذي له عذر.

ثانيهما: أن يكون المعذر، بالتشديد، غير محق؛ لأنه ليس له عذر، أو هو الذي يعتذر بغي عذر - وعلى هذا فالمعذرون مبطلون؛ لأنهم اصطنعوا أعذرا لا أصل لها؛ فيكون المعنى: أن هؤلاء الأعراب ١٦٨ جاءوا بأعذارهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محقين أو مبطلين –على الوجهين السابقين- لكي يأذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود والتخلف عن القتال {وقعد الذين كذبوا الله

ورسوله} وهذه طائفة أخرى قعدوا عن الجهاد من غير أن يعتذروا، وهم منافقون من الأعراب قد كذبوا على الله ورسوله واعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالباطل.

قوله: {سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم} وهذا وعيد من الله للمنافقين الجاحدين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اصطنعوه من كاذب الأعذار - أو الذين قعدوا عن الجهاد دون اعتذار - لقد توعدهم الله جميعا بأليم العذاب في هذه الدنيا، بافتضاحهم وإيقاعهم في الخزي والذل - وكذلك في النار وبئس المصير والقرار ١٦٩.

٩١ - (لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ٩١ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون} هذا أصل في عدم التكليف في حق ذوي الأعذار من أهل الزمانة والهرم والمرض أو العاجزين عن السفر لسبب حقيقي معقول - أو الذين لا يملكون أهبة الجهاد من النفقة - ونحو ذلك من المعاذير المشروعة التي تحول بين المرء وفريضة الجهاد - وهذا مدلول من مدلولات الإسلام في مراعاته لقدرات البشر وإمكاناتهم المادية والجسدية والمعنوية، بعيدا عن التكليف بما لا يطاق - والأصل في ذلك كله أنه {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} وعلى هذا فإنه ليس من إثم على الضعفاء ولا المرضى ولا الفقراء العالة الذين لا يجدون أهبة للجهاد - إنه ليس على هؤلاء المعذورين من بأس أو مساءلة في التخلف عن الجهاد لضعفهم وعجزهم عن القيام بهذا الواجب الكبير الذي لا يحتمله غير الأصحاء والأسوياء والقادرين من الناس.

قوله: {إذ نصحوا لله ورسوله} {نصحوا} من النصيحة، وهي قول فيه دعا إلى صلاح ونهي عن فساد - ومنه الناصح، وهو الخالص من كل شيء - نصح الشيء نصحا ونصوحا ونصاحة؛ أي خلص - ونصح قلبه، أي خلا من الغش ١٧٠ - والمعنى المراد هنا: هو قبول الأعذار من هؤلاء المعذورين، ورفع الإثم عنهم لتخلفهم عن الجهاد على أن يلتزموا النصيحة لله ورسوله في مقابلة قعودهم، فإذا لبثوا في المدينة قاعدين أذاعوا في الناس الأخبار السارة، ونشروا في أوساطهم الأمن والطمأنينة، وبذلوا لهم من العون المعنوي ما يحول بينهم وبين الأراجيف وأخبار السوء.

قال الرازي في تأويل قوله: {إذا نصحوا لله ورسوله}: معناه: أنهم أقاموا في البلد احترزوا عن إلقاء الأراجيف، وعن إثارة الفتن، وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا، إما بان يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم، وإما بأن يسعوا في إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم؛ فغن جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد ١٧١.

قوله: {ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم} أي من نصح لله ورسوله بعد أن تخلف عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعذر من الأعذار، ليس عليه سبب يوجب عقابه - أو ليس على المعذورين الناصحين من سبب يدعو إلى عقابهم ومؤاخذتهم؛ بل إن الله يستر على المحسنين ذنوبهم ويشملهم برحمتهم فلا يعذبهم.

٩٢ - (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ)

قوله: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه} نزلت في البكائين وكانوا سبعة: مقعل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله ابن كعب الأنصاري وسالم بن عمير وثعلبة بن غنيمة وعبد الله بن مغفل، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله إن الله عز وجل ندبنا للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة معك - فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وهم يبكون ١٧٢.

هذه نماذج من المؤمنين الأبرار الذين تتعلق قلوبهم وأهواؤهم بعقيدة الإسلام - فلا تعبأ بالشهوات والمنافع الدنيوية إلا بقدر ما يكفل لها العيش المبسط المعقول - العيش الوسط المجانب لكل من النقيضين وهما الترف والشظف.

أولئك نفر من المؤمنين الأتقياء الذين رغبوا في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - لكنهم قد منعهم من ذلك مانع الفقر وقلة المؤونة والعجز عن الأهبة للحرب، فأدبروا راجعين وأعينهم تفيض دمعا، إذ يبكون حزنا أنهم لم يجدوا ما يمكنهم من الذهاب لقاء العدو - لا ريب أن ذكر هذا النفر بمثل هذه الكلمات الكريمة المؤثرة يبين أن خصلة الإخلاص لهي القمة السامقة في درجات الخصال العظام التي تجعل المسلم في عداد الصالحين المتقين - فما يعود هؤلاء الأبرار وهم باكون إلا لإخلاصهم لله وأوامره، وغيرتهم على هذا الدين المستهدف من قبل المتربصين في كل مكان وزمان - وقد جاء في الصحيحين في ذلك من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا، ولا سرتم سيرا إلا وهم معكم) قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: (نعم حبسهم العذر).

وروي الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا، ولا سلكتم طريقا إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض) ١٧٣.

٩٣ - (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون} {السبيل} معناه هنا الإثم والمؤاخذة، فهما على المنافقين الذين يستأذنون في القعود عن الجهاد وهم أغنياء أصحاب، فقد أنبهم الله تأنيبا ووبخهم بما يستحقونه من التوبيخ المقرع؛ لأنهم رضوا أن يقعدوا عن الجهاد فيكونوا في صف الخوالف من النساء {وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون} هؤلاء المنافقون المخادعون قد ختم الله على قلوبهم بفساد ما يخفون من سوء النوايا، وبما اكتسبوا من الذنوب، وهم في ذلك كله لا يعلمون ما ينتظرهم من سوء العواقب في الدنيا حيث الخزي والتقريع وسوء الذكر والسيرة، وفي الآخرة الجحيم والنار - أعاذنا الله من كل ذلك عوذا كبيرا.

٩٤ - (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ٩٤ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبوا إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ٩٥ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين}.

يعتذر المنافقون الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فينتحلون للمؤمنين لدى رجوعهم إلى المدينة مختلف المعاذير والأباطيل المكشوفة - والله جل وعلا يأمر المؤمنين أن لا يعذروهم ولا يقبلوا لهم معذرة {قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم} أي لن نصدقكم فيما تقولون وتنتحلون من المعاذير البطالة {قد نبأنا الله من أخباركم} لقد أعلمنا الله من أمركم وأخباركم ما يبين لنا أنكم كاذبون مبطلون، فأنتم المنافقون الخادعون، البارعون في الغش والتخريص.

قوله: {وسيرى الله عملكم ورسوله} أي يسري الله ورسوله فيما بعد أنكم باقون على هذه الحالة التي تزعمونها من الصدق وإظهار المحبة للمؤمنين، أو أنكم مقيمون على خداعكم ونفاقكم.

قوله: {ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} بعد دنياكم هذه وما كسبتموه فيها من الكذب والنفاق والقعود مع الخوالف دون المؤمنين المجاهدين -لسوف ترجعون إلى بارئكم الذي يعلم الغيب والشهادة، المطلع على الأسرار والخفايا وبواطن الأمور - الله الذي يستوي عنده السر والعلن، أو الظاهر والمستور، فإنه يوم القيامة يخبركم بما كنتم تقارفون من الأعمال فيجازيكم بها الجزاء الذي تستحقون.

٩٥ - (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله: {سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم} هؤلاء المنافقون الذين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم سيحلفون للمؤمنين إذا رجعوا إليهم من تبوك لكي يصدقوهم فيعرضوا عن مؤاخذتهم وتأنيبهم، ويصحفوا عنهم - قوله: {فأعرضوا عنهم} أي دعوا تأنيبهم وخلوا بينهم وبين ما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق.

قوله: {إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون} الرجس معناه النجس والخبث؛ أي أن قلوبهم وأعمالهم واعتقاداتهم خبيثة نجسة؛ فهم بذلك مأواهم ومنزلهم {جهنم جزاء بما كانوا يكسبون} فمصيرهم إلى النار؛ فهي مسكنهم وقرارهم الدائم الذي يأوون إليه في الآخرة جزاء لهم في مقابل ما عملوه من المعاصي، أو اكتسبوه من الغش والكذب وخيانة القلوب.

٩٦ - (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين} هؤلاء المنافقون الذين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون للمؤمنين بالباطل والزور اعتذارا عن تخلفهم عن الخروج إلى تبوك لكي يرضى عنهم المؤمنون ويصفحوا عنهم - ويحذر الله المؤمنين من قبول معاذيرهم أو الرضى عنهم - ولئن رضوا عنهم -لعدم علمهم بما تخفيه صدورهم من الخبث والكيد- فإن الله لا يرضى عنهم؛ فهم خارجون عن دين الله وطاعته ١٧٤.

٩٧ - (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {الأعراب أشد كفروا ونفاقا وأجدر ألا تعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم} {الأعراب} جمع أعربي، وهو البدوي الذي يطلب مساقط الغيث والكلأ سواء كان من العرب أو من مواليهم - ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب وهم سكان البادية ١٧٥، والأعرابي إذا قيل له: يا عربي، فرح، لكن العربي إذا قيل له: يا أعربي، غضب له - فمن استوطن القرى العربية فهم عرب - ومن نزل البادية فهم أعراب.

وقيل: إنما سمي العرب بهذا الاسم؛ لأن أولاد إسماعيل نشأوا بعربة وهي من تهامة، فنسوا إلى بلدهم، وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم؛ لأنهم إنما تولدوا من أولاد إسماعيل - وقيل: سموا بالعرب؛ لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم - واللسان العربي مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد في سائر الألسنة ١٧٦.

والمعنى المقصود هنا: أن الأعراب أشد جحودا وعصيانا لله وأعظم نفاقا من أهل الحضر في القرى والأمصار، وقد وصفهم الله بذلك؛ لشدة جفائهم، وقسوة قلوبهم، ولقلة ما يستمعون إلى أهل العلم؛ فهم أبعد الناس عن معرفة السنن وسماع التنزيل؛ فهم بذلك أقل علما ودراية بحقوق الله {وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله} و {حدود ما انزل الله}، أي شرعه وأحكام دينه - والأعراب اخلق وأحق من غيرهم أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والفرائض - قوله: {والله عليم حكيم} عليم بحقائق الخلق وبما تكنه الصدور من نوايا - وهو كذلك حكيم في تقديره وتعريفه لشؤون الخلق والعباد ١٧٧.

٩٨ - (وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ٩٨ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم} نزلت في الأعراب كانوا يعدون ما يؤخذ منهم من الصادقات أو الزكاة أو غير ذلك من نفقه في سبيل الله -مغرما - وهو الغرم أي الحسارة - وكذلك كانوا يعتقدون أن ما ينفقونه في الجهاد أو غيره من وجوه الخير خسرا أو غرامة وهي ما يلزم أداؤه، أو كل نفقة لا تهواها النفس، أو هي إلزام ما لا يلزم ١٧٨.

هذه هي حقيقية المنافقين من الأعراب الجفاة، إذ ينفقون أموالهم وهم يعدون أنها جزية أو خسرا يؤدونه قسرا، فلا ينفقونها إلا رياء وتقية.

قوله: {ويتربص بكم الدوائر} أي ينتظرون بالمؤمنين البلايا والمصائب التي يرجون أن تحل بهم وبدارهم - ليتخلصوا بذلك من ظل الإسلام ومن أداء الزكاة، ثم يركنون بعد ذلك للشرك والباطل.

قوله: {عليهم دائرة السوء} ذلك دعاء عليهم بما تربصوا بالمسلمين لتحيق بهم هم البلايا والمصائب.

قوله: {والله سميع عليم} سميع بما قالوه من كلمات السوء عند الإنفاق أو التربص - وهو سبحانه عليم بما تنثني عليه صدورهم من خبيث النوايا.

٩٩ - (وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول} وفي مقابل المنافقين من الأعراب ثمة فريق آخر منهم مخالف لهم، وهم المؤمنون منهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح المأمور به في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم {ويتخذ ما ينفق قربات عند الله} قربات، جمع قربة، وهي ما يتقرب به المؤمن إلى الله - وقربات مفعول به ثان للفعل يتخذ - والمعنى: أن هذا الفريق من الأعراب مؤمنون صادقون يتخذون ما ينفقون سببا للتقرب إلى الله ونيل مرضاته {وصلوات الرسول} معطوف على قربات؛ أي يعدون ما ينفقون من أموالهم سببا لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو الذين يتصدقون بالخير والبركة ويستغفر لهم - لا جرم أن الدعاء الزكي الكريم من خير الأنام رسول الله صلى الله عليه وسلم بغية كل مؤمن صادق مخلص يهفو قلبه لمثل هذا الدعاء المبارك عسى أن يحظى بالاستجابة من الله - والله جل وعلا يتقبل الدعاء من عبده الطائع المخبت إذا ما دعاه متضرعا إليه متوسلا، فيكف بالداعي إن كان خير البرية، وأكرمها على الله في العالمين صلى الله عليه وسلم؟ ومن أجل ذلك فإنه يسن لآخذ الصدقة أن يدعو بالخير للمتصدق عند أخذها.

قوله: {ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته} {ألا}، حرف تنبيه - والضمير في {إنها} عائد إلى النفقة في الراجح - وهذه هنا شهادة من الله للمتصدقين بصحة ما اعتقدوه من أن ما أنفقوه قربات عند الله وصلوات - إنها شهادة لهم من جلال الله بصحة ما اعتقدوه وتصديق لما رجوه.

قوله: {سيدخلهم الله في رحمته} وذلك وعد حق من الله بإدخالهم في رحمته، ومن أدخله الله في رحمته كان من الآمنين الناجين من كل ما يصيب المخلوقات من مكروه، فضلا عما ينعم به المرحومون من الله بالخيرات والبركات والخلد في الجنات حيث البهجة والحبور وانشراح الصدور - جعلنا الله من عباده المرحومين.

قوله: {إن الله غفور رحيم} الله غفار الذنوب والخطايا، ومتجاوز عن السيئات والمعاصي - وهو سبحانه وتعالى يرحم عباده المؤمنين والتائبين والمستغفرين الذين يرجون منه الرحمة والفضل والغفران ١٧٩.

١٠٠ - (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

وله تعالى: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه أوعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم} هذا بيان لفضل أشرف المسلمين وهم الأوائل - والمراد بهم موضع خلاف، فقد قيل: المراد بهم الذين صلوا إلى القبلتين - وقيل: هم أهل بدر - وقيل: هم أهل بيعة الرضوان وكانت الحديبية - وقيل: هم الذين أسلموا قبل الهجرة - وقيل: المراد بالسابقين جميع المهاجرين والأنصار - وهم سابقون لكونهم الأولين بالنسبة لسائر المسلمين - وبهذا تبين فضل الصحابة جميعا؛ فقد غفر الله لجميهم، وكتب لهم الجنة والرضوان، والقرار في الجنان بفضله ذي الرحمة والغفران - سواء في ذلك محسنهم ومسيئهم؛ فهم جميعا مكرمون لشرف الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يقتضي تعظيمهم كلهم وعدم الطعن أو التجريح أو الإساءة إلى أحدهم.

قوله: {رضي الله عنهم ورضوا عنه} يتجلى رضوان الله على المرء في قبول ما قدمه من الصالحات والطاعات - ولئن تقبل الله العمل من عباده فذلكم الفوز العظيم، والنجاة البالغة الكبرى - وهم إذ يسعدون بقبول أعمالهم وطاعاتهم لا جرم أن ذلك في حقهم خير الأماني؛

بل إنه أقصى ما يأملونه أو يرتجون أن يبلغوه.
قوله: {وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا} لقد أعد الله لهؤلاء السابقين المكرمين دار سلام فيها خير مقام حيث الخيرات والبركات والرحمات من الله، مما لا تتصوره الأخيلة والأذهان ولا تبلغ مداه إدراكات البشر لفرط ما حوته الجنات من عطاء غير ممون، ونعيم ثابت مستديم - إن ذلكم لمثله يعمل العاملون، أولو الألباب والبصائر من عباد الله الراشدين - عن ذلكم لهو {الفوز العظيم}.

١٠١ - (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

قوله تعالى: {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم} ذلك إخبار من الله ينبئ فيه رسوله والمؤمنين أن هناك منافقين حولكم من الأعراب - والمراد بحولكم، أي حول بلدتكم المدينة {ومن أهل المدينة} معطوف على {وممن حولكم} والمعنى: أن المنافقين من قوم حولكم ومن أهل المدينة - قوله: {مردوا على النفاق} أي مرنوا واستمروا عليه - ومردوا من المردود وأصله الملاسة - ومنه صرح ممرد - مرد مرودا ومردوة ومرادة فهو مارد ومريد متمرد، أي عات ١٨٠ والمراد هنا الاعتياد والتدرب في الأمر حتى بلوغ المهارة فيه والافتنان: كذلك كان شأن المنافقين في المدينة وما حولها؛ لقد كان هؤلاء المنافقون أهل براعة ومرونة وتمرس في الخداع والكذب حتى بات عزيزا على المرء أن يعرفهم أو يطلع على حقيقتهم.
قوله: {لا تعلمهم نحن نعلمهم} الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم المنافقين على التعيين وذلك لبراعتهم ورسوخهم في النفاق - ولعراقتهم في اصطناع التقية بما يكسوهم غشاء ممهدا أملس من الظاهر الصبوح الخادع - إنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم المنافقين؛ لأن النفاق مستكن في قلوبهم وهب من الخفي المستور الذي لا يقف عليه إلا علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية - ولذلك قال: {نحن نعلمهم} الله جل وعلا يعلم المنافقين علما كاملا؛ فهو سبحانه خلق الإنسان والكائنات، وخلق القلوب وما فيها من الأسرار والنوايا فلا تخفى عليه ما تستسره قلوب المنافقين.
قوله: {سنعذبهم مرتين} {مرتين}، منصوب من وجهتين: إما على المصدر، وإما على الظرف الزمان ١٨١ - والمراد بتعذيبهم مرتين موضع خلاف؛ فقد قيل: المراد التكثير وليس التثنية؛ فيكون المعنى: سنعذبهم مرة بعد مرة - وقيل: المراد التثنية؛ فيكون المراد بالمرة الثانية عذاب القبر، أما المرة الأولى فالمراد بها فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، فقد أخرج الطبري في الأوسط وغيره عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة خطيبا فقال: (قم يا فلان فاخرج فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرجهم بأسمائهم، ففضحهم ولم يك عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا واختبأوا هم منه، وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل المسجد فإذا لم ينصرفوا - فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله تعالى المنافقين اليوم؛ فهذا هو العذاب الأول، والعذاب الثاني هو عذاب القبر.
قوله: ثم يردون إلى عذاب عظيم} وذلك يوم القيامة؛ إذ يصير المنافقون الذين آمنت ألسنتهم، ولم يفض الإيمان إلى قلوبهم؛ بل أفضى إليها الغش والكيد وسوء النية –يصيرون إلى النار ١٨٢.

١٠٢ - (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخرون سيئا عيسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم} {آخرون} معطوف على {منافقون} وقيل: مبتدأ، وخبره جملة {خلطوا} ١٨٣.
وهذه طائفة من المسلمين، من ضعاف العزائم والهمم في أمر دينهم - إذ لم يكونوا منافقين تماما كالذين تخلفوا عن الجهاد تكذيبا؛ لشرع الله وشكا في الدين ورغبة عن رسول الله - ليس هؤلاء كأولئك؛ بل إن هؤلاء تخلفوا كسلا ورغبة في الدعة والاسترخاء والراحة مع إيمانهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق - وأن ما جاءهم به لهو من عند الله وأنه حق - وهؤلاء قد أقروا بذنوبهم التي اكتسبوها

وكان لهم في مقابلتها أعمال أخرى حسنة فاختلطت حسناتهم وسيئاتهم - وأمثال هؤلاء مردهم إلى رحمة الله وعفوه.
وقيل: المراد بهم أناس معينون تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الغش والنفاق، بل على سبيل الضعف وتعثر الهمة فقط، فقد تخلف هؤلاء عن الذهاب إلى تبوك، ثم غشيتهم بعد ذلك غاشية من التوبة الصادقة والندم الأسيف حتى أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم - فلما رآهم قال: (من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟) قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وقد أقسموا أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأنا أقسم بالله تعالى لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم) - فأنزل الله تعالى الآية - فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهم فأطلقهم وعذرهم ١٨٤ وفي رواية أخرى أنهم كانوا ثلاثة - وأخرى أنهم ثمانية - وهذه الآية وإن كانت في أناس معينين لكنها تعم بفحواها كل المذنبين المقصرين الذين قعدوا عن أداء الواجب كسلا وتهاونا واسترخاء، وخلطوا أعمالا حسنة بأخرى سيئة.
قوله: {عسى الله أن يتوب عليهم} عسى من الله واجب كما قال ابن عباس - والصحيح أنها لفظة {للإطماع والإشفاق، فيظل المذنب على وجل من الله وهو يغمره الخوف والرجاء والأمل في عفو الله وغفرانه.
قوله: {إن الله غفور رحيم} وهذه تفيد تحقيق التوبة والمغفرة من الله، فهو سبحانه قابل التوب، عظيم المغفرة، بالغ الرحمة بالعباد، يتجاوز عن سيئات المذنبين التائبين ١٨٥.
١٠٣ - (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم ١٠٣ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم}.
اختلف العلماء في هذه الصدقة التي أمر الله بها في الآية - فقد قيل: المراد بها صدقة الفرض (الزكاة) وهو قول ابن عباس وجماعة - وقيل: إنها مخصوصة بهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم، الذين خلطوا عملا صالحا وآخر شيئا وهم أبو لبابة وأصحابه حين أطقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله هذه أمولنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا - فقال لهم: (ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا) فأنزل الله {خذ من أموالهم صدقة} الآية - والصحيح أن هذا النص عام فهو يفيد بعمومه وجوب الصدقة في أموال المسلمين - ولا ينبغي لأحد أن يحتج بان هذا النص إنما كان خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم فهو وحده المخاطب به - وقد ورد عليهم الصدقة وسائر الصحابة هذا التأويل الفاسد فقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة مثلما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك قال الصديق (رضي الله عنه): والله لو منعوني عناقا ١٨٦ -وفي رواية: عقالا- كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقتلنهم على منعه.
على أن الأمر بأخذ الصدقة في هذه الآية نطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ ولا المأخوذ منه - ولا هو مقيد ببيان مقدار المأخوذ منه، فإن بيان ذلك كله في السنة المطهرة وإجماع العلماء - وذلكم هو بيان وجيز ومقتضب لمسائل الزكاة.
وأول الكلام في ذلك أن الزكاة إنما تجب على كل مسلم حر مالك للنصاب ملكا تاما - واختلفوا في وجوبها على الصغير والمجنون، فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى وجوبها عليهما، وهو قول علي ابن عمر وجابر وعائشة من الصحابة - وقالت به المالكية والشافعية والحنبلية، وقال به الثوري وإسحق وأبو ثور وغيرهم - وذهب آخرون إلى عدم وجوبها عليهم، وهو قول النخعي والحسن وسعيد بن جبير من التابعين.
وسبب اختلافهم في إيجاب الزكاة على الصغار والمجانين أو عدن إيجابها: هو اختلافهم في مفهوم الزكاة الشرعية، هل هي عبادة كالصلاة والصيام، أم هي حق واجب للفقراء على الأغنياء - فمن قال: إنها عبادة، اشترط فيها العقل والبلوغ - ومن قال إنها حق واجب للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء، لم يشترط العقل والبلوغ.

وثمة شرط آخر لوجوب الزكاة وهو حولان الحول فيما بلغ النصاب من الأموال باستثناء ما تنبته الأرض، فإنه تؤدي زكاته عند حصاده إذا بلغ النصاب، على الخلاف في ذلك - وذلك للخبر الذي أخرجه الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول).

أما ما تجب فيه الزكاة من الأموال فهي خمسة أصناف وهي: النقدان (الذهب والفضة) ثم الزروع والثمار مما تنبته الأرض، ثم السوائم من الأنعام، ثم عروض التجارة، ثم المعدن والركاز.

أما الذهب: فتجب فيه الزكاة إذا بلغ نصابا وهو عشرون مثقالا، ففيه نصف دينار، وكذلك الفضة فيها الزكاة إذا بلغت نصابا وهو مائتا درهم، ففيه خمسة دراهم.

وتختلفوا في الحلي من الذهب إذا أريد للزينة واللباس فقط، فليس فيه زكاة في قول المالكية والشافعية، وهو قو الليث وآخرين، وذلك لما رواه جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس في الحلي زكاة)، ولأنه معد لاستعمال مباح فلم تجب فيه الزكاة كالعوامل من الإبل والبقر ١٨٧ وذلك بخلاف الحنفية، إذ قالوا بوجوب الزكاة في الحلي - واحتجوا بما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأت أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مسك من ذهب، فقال: (أتؤدين زكاة هذا؟) قالت: لا - قال: (أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوراين من نار؟) - نخلعتهما وألقتهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم - وقالت: هما لله ولرسوله.

أما ما تخرجه الأرض من الزروع والتمر: ففيه الزكاة، ويشترط لوجوبها فيه: أن يكون مما يقتات به وقابلا للادخار - وهو قول المالكية والشافعية، إذ اشترط الاقتيات والادخار - وكذلك يشترط النصاب لوجوب الزكاة في الزروع والثمرات، ونصابها خمسة أوسق - وذلك لما رواه أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس فيما دون خمسة أوسق من تمر ولا حب صدقة) - أما الحنفية فقالوا: ليس فيما تخرجه الأرض نصاب - بل تجب الزكاة في كل ما أخرجته ارض ما قل منه أو أكثر، باستثناء الحطب والحشيش - واحتجوا بعموم قوله عليه الصلاة والسلام: (فيما سقت السماء العشر، وفيما سقي بالنضح نصف العشر) وعلى هذا فإنه في قول الحنفية تجب الزكاة في كل ما أنبتته الأرض من غير تفريق بين مقتات وغيره، وسواء كان الخارج قليلا أو كثيرا، استنادا إلى عموم الحديث.

أما المقدار الذي يجب أداؤه زكاة للزروع: فإنها يتحدد تبعا لكيفية السقاية، فإن سقي الزروع بماء المطر أو من ينابيع الأرض، ففيه العشر - وإن سقي بالنضح من الآبار ونحوهما مما يكلف مؤونة وجهدا، ففيه نصف العشر.

أما سوائم الأنعام: فهي الإبل والبقر والغنم - أما الإبل: فنصابها خمس، وفيها شاة - فإذا بلغت خمسا وعشرين، ففيها ابنة مخاض إلى خمسون وثلاثين - فإذا بلغت ستا وثلاثين، ففيها بنت لبون إلى خمس وأربعين - فإذا بلغت سنا وأربيعن، ففيها حقة إلى ستين - فإذا كانت واحدا وستين، ففيهما جذعة إلى خمس وسبعين، فإذا بلغت ستا وسبعين، ففيها ابنتا لبون إلى تسعين - فإذا بلغت واحدا وتسعين، ففيها حقتان إلى عشرين ومائة - وأصل ذلك كتاب الصدقة الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به بعده أبو بكر وعمر.

أما البقر: فنصابها ثلاثون، وفيها تبيع، فإذا بلغت أربعين، ففيها مسنة، فإذا بلغت ستين، ففيها تبيعان، إلى سبعين، ففيها مسنة وتبيع - فإذا بلغت ثمانين، ففيها مسنتان - فإذا بلغت تسعين، ففيها ثلاثة أتبعة - فإذا بلغت مائة، ففيها تبيعان ومسنة وهكذا.

أما الغنم: فنصابها أربعون شاة - فإذا بلغت أربعين، ففيها شاة/ حتى تبلغ مائة وعشرين، فإن زادت على المائة والعشرين، ففيها شاتان إلى مائتان - فإن زادت على المائتين، ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة - فإن زادت على الثلاثمائة، ففي كل مائة شاة شاة - وهذا هو قول الجمهور.

أنا عروض التجارة: فنصابها هو النصاب في الأعيان ١٨٨ وعي الذهب والفضة وذلك عند الذين قالوا بوجوب الزكاة في العروض - ويشترط في أموال التجارة لتجب فيها الزكاة ما يشترط في الذهب والفضة من بلوغ النصاب وحولان الحول.

أما المعدن والركاز: فالمعدن في اللغة موضع الإقامة واللزوم - يقال: عدن بالمكان إذا لزمه فلم يبرح - ومنه: جنات عدن، أي جنات إقامة - وهو موضع استخراج الجوهر من ذهب ونحوه ١٨٩.

أما زكاة المعدن: ففيها خلاف من حيث التفضيل - فإذا استخرج مسلم حر من معدن في أرض موات أو في رض يملكها، نصابا من

الذهب أو الفضة، فقد وجب عليه الزكاة - ودليل ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع بلال من الحارث المزني المعادن القبلية، وأخذ منه الزكاة - أما إن وجده في أرض مملوكة لغيره؛ فهو لصاحب الأرض، ويجب دفعه إليه فإذا أخذه مالكه وجب عليه زكاته - وإن وجد دون النصاب لم تلزمه الزكاة؛ لأن المعدن من أموال الزكاة؛ فلا تجب في غير النصاب؛ ولأنه حق يتعلق بالمستفاد من الأرض فاعتبر فيه النصاب كالعشر - وهو قول الشافعية والمالكية وآخرين.
أما الحول في زكاة المعدن، فغير معتبر عند المالكية، وكذا الشافعية في أظهر القولين لهم؛ لأن الحول يراد لتكامل النماء - وبوجود المعدن يحصل النماء فلم يعتبر فيه الحول كالشعر - وذهب آخرون إلى اعتبار الحور؛ لأنه زكاة في مال تكرر فيه الزكاة فاعتبر فيها الحول كسائر الزكوات.
أما الركاز: فهو دفين أهل الجاهلية - كأنه ركز في الأرض ركزا - ركز الرمح: أي غرزه في الأرض ١٩٠.
ويجب في الركاز الخمس - وذلك لما روي أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وفي الركاز الخمس)؛ ولأنه يصل إليه من غير تعب ولا مؤنة فاحتمل الخمس، ولا يجب ذلك إلا على من تجب عليه الزكاة؛ لأنه مال زكوي - ولا تجب إلا فيما وجده في موات أو مملوك لا يعرف مالكه؛ لأن الموت لا مالك له، وما لا يعرف مالكه بمنزلة ما لا مالك له - أما إذا وجده في أرض يعرفها مالكها، فإن كان ذلك لحربي؛ فهو غنيمة - وإن كان لمسلم أو لمعاهد؛ فهو لمالك الأرض ١٩١.
أما التفصيل بأكثر من ذلك في مسألة الزكاة؛ فهو في مظانة من كتب الفقه.
قوله: {تطهرهم وتزكيهم بها} جملتان فعليتان في موضع نصب على الحال ١٩٢، أي خذها مطهرا لهم ومزكيا بها لهم؛ فهي تطهرهم من دنس الذنوب، وتسمو بهم على خسائس أحوال المنافقين ومنازلهم، إلى درجات الأتقياء والمقربين.
قوله: {وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم} أي ادع لهم بالمغفرة واستغفر لهم من الذنوب والآثام فدعاؤك واستغفارك رحمة لهم ووقار، وفيه ما يطمئنهم بان ذنوبهم مغفورة وأنهم معفو عنهم - وذلك لما في اليقين بأن الدعاء من الرسول صلى الله عليه وسلم لهو أكره ما تنبس به شفاه الداعين من المؤمنين والذاكرين والأبرار طرا - فدعاؤه صلى الله عليه وسلم مفعم بالبركة وكامل الصدق} فهو خليق بالقبول - قوله: {والله سميع عليم} اله سميع الدعاء فيستجيب للمؤمنين المخلصين - لا جرم أن الدعاء من الرسول صلى الله عليه وسلم أخلق بالقبول والاستجابة، والله سبحانه عليم بما في النوايا والقلوب.
١٠٤ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)
قوله: {ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات} الضمير في {يعلموا} عائد إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم - والمعنى: ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا وربطوا أنفسهم بالسواري أن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردها فلا يقبلها - - وأنه هو الذي يقبل الصدقة ممن تصدق منهم أو يردها عليه؟ ألم يعلموا أن ذلك منوط بجلال الله وعظمته - فما عليهم إلا أن يتوجهوا بتوبتهم وصدقتهم وسائر طاعاتهم إلى لله وحده، فيقصدوا بذلك كله وجهه الكريم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غيره - فليس النبي صلى الله عليه وسلم إلا واسطة - وفي ذلك أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكا كما يربي أحدكا مهره، حتى إن التمرة لتكون مثل أحد).
قوله: {وأن الله هو التواب الرحيم} الله جلت قدرته عظيم التؤب، ورحمته وسعت كل شيء؛ فهو يقبل التوبة عن التائبين، ويسع برحمته سائر عباده لنادمين الراجعين إلى جنابه الكريم ١٩٣.
١٠٥ - (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله تعالى: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنين وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} أي اعلموا بطاعة الله وبما يرضيه من الأعمال الصالحة مخلصين له وحده - ثم توعد الله العصاة الذين يخالفون أوامر الله ويعملون السيئات أن أعماهم هذه ستعرض على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة؛ أي سيراها ويطلع عليها الرسول والمؤمنون وهم في

البرزخ، فقد روي الإمام أحمد عن أبي سعيد مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركن في قبورهم، فإن كان خيرا استبشروا به، وإنا كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك).

وروي الإمام أحمد أيضا عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا).

قوله: }وستردون إلى علم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون{ }الغيب الشهادة{، يعني الخفي المستور، والظاهر المنظور - قال ابن عباس: الغيب: ما يسرونه - والشهادة: ما يظهرونه، أي سوف تصيرون يوم القيامة إلى الله الذي يستوي عنده الباطن والظاهر، فهو الذي يعلم سركم وجهركم، وهو الذي لا يخفي عليه خوافيكم وبواطن أموركم، فيخبركم بكل ما جرحتموه من الأفعال، وحينئذ يمحص الله ما كان من ذلك رياء، وما كان منه طاعة وإخلاصا لوجه الكريم فيجازيكم على ذلك كله ما تستحقونه من الجزاء ١٩٤.

١٠٦ - (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبهم وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: }وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم الله و إما يتوب عليهم والله عليم حكيم{ نزلت هذه الآية الكريمة في الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، فقد قعد هؤلاء عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والراحة والظل وجني الثمار، وليس شكا منهم أو نفاقا، فكانت طائفة منهم ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة، فنزلت توبة أولئك، وأرجئت توبة هؤلاء حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: }وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت{ الآية ١٩٥.

قوله: }إما يعذبهم وإما يتوب عليهم{ هؤلاء الثلاثة مرجون لأمر الله، أي مرجئون لأمره، من أرجأته أي أخرته، فهم بذلك نحن عفو الله ورحمته، فإن شاء وفقهم للتوبة فتابوا ليغفر الله لهم، وإن شاء لم يجعل لهم من لدنه توفيقا فلم يتوبوا - وفي كل الأحوال من تزاحم الذنوب والتوبة أو تزاحم الخطايا والاستغفار، فإن رحمة الله تغلب غضبه وعذابه - والله سبحانه عليم بما يصير إليه العباد من حسن التوبة، أو المقام على الذنب - وهو جل وعلا حكيم في تدبيره للعالمين من غير خلل في ذلك ولا زلل - فقال سبحانه: }والله عليم حكيم{ ١٩٦.

١٠٧ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله تعالى: }والذين اتخذوا مسجدا ضرار وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ١٠٧ لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين{.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام مكانة عالية وذكر عظيم وقد أظهرهم الله يوم بدر، اغتاظ أبو عامر وبارز رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة، ثم خرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان ما حصل للمسلمين من ابتلاء قد امتحنهم الله به - وكان هذا الفاسق اللعين، أبو عامر الراهب، قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه

صلوات الله وسلامه عليه - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبي أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدا طريدا، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده - وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب بعدهم ويمينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده هما هو فيه - وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته - وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فقال: (إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة ١٩٧.

قوله: {ضرارا} في إعرابه ثلاثة أوجه - الأول: أنه مفعول لأجله - أي مضارة لإخوانهم.

الثاني: أنه مفعول به ثان لقوله: {اتخذوا}.

الثالث: أنه مصدر في موضع الحال من فاعل {اتخذوا} أي تخذوا مضارين لإخوانهم - وقيل: منصوب على المصدرية، أي يضرون بذلك غيرهم ضرارا ١٩٨ والضرر معناه طلب الضرر والعمل على إيقاعه وحصوله.

قوله: {وكفرا} أي يكفروا فيه، فقد اتخذوا هذا المسجد ذريعة لهم ليغطوا بع كفرهم ونفاقهم، وليتمكنوا من خلاله من الإضرار بالمسلمين، وليفسدوا عليهم حالهم وشأنهم، فيكون ذلك طريقا للقضاء على دين الله - لا جرم أن قصدهم هذا يصممهم بالكفر.

قوله: {وتفريقا بين المؤمنين} وهم أهل قباء، فقد أراد أبو عامر الراهب ومعه زمرة النفاق والباطل أن يحل بالمؤمنين الشقاق والاختلاف، وأن يأتي عليهم الفرقة فينفلتوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - والمنافقين في ذلك إنما يؤزهم الحسد والحقد وخسة الطبع الآسن، وأولئك هم المناقون في كل زمان، يتربصون بالإسلام والمسلمين دوائر الشر والسوء، ويبتغون لهم الإفساد والتدمير والهلكة.

قوله: {وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل} فقد أعد المنافقون هذا المسجد كيما يكون لهم موضعا يتربصون فيه بالمسلمين وينطلقون منه للإفساد والتخريب، وليثيروا بين المسلمين الفرقة والشك والاختلاف، وليكون لهم ذريعة للاجتماع والتلاقي بين المنافقين والحاقدين الذين حاربوا الله ورسوله {من قبل} أي من قبل أن يتخذ هذا المسجد.

قوله: {وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون} ليحلفن، جواب قسم مقدر، أي: والله ليحلفن - وقوله: {إن أردنا} جواب لقوله: {وليحلفن}.

وقوله: {إن} أداة نفي - ولذلك وقع بعدها {إلا} و {الحسنى}، صفة لموصوف محذوف، أي الخصلة الحسنى، أو إلا لإرادة الحسنى، وهي الصلاة ١٩٩.

هؤلاء المنافقون يحلفون، كاذبين أنهم ما قصدوا من بناء هذا المسجد إلا الحسنى وهي الصلاة والتوسعة على أنفسهم وعلى الضعفاء والعجزة من الناس الذين يعجزون عن المسير إلى مسجد قباء لضعفهم وشدة المشقة عليهم في ذلك.

هكذا يحلف المنافقون، وهم يعلمون أنهم كاذبون، يحلفون أن قصدهم الخير والتوسعة لكن الله جل وجلاله، هو علام الغيوب، كاشف الأسرار والخبايا، الخبير بما في القلوب من الخفايا {يشهد إنهم لكاذبون} وكفى بهذه الشهادة الكبرى من رب العالمين الشهادة التي تتضاءل دونها كل الشهادات، شهادة ربانية مجلجلة تهتف بأن هؤلاء المنافقين كاذبون، فهم في الحقيقة إنما يبتغون من بناء مسجدهم هذا إشاعة الظنون والاختلاف والفوضى بين المسلمين ليميتوا عليهم دينهم وليبددوه تبديدا - وهذا هو دأب المنافقين وديدنهم في كل

زمان، سواء في زمت التوبة المباركة والأزمنة المتعاقبة بعدها، فالنفاق هو النفاق، والمنافقون على حالهم وطبيعتهم من فساد الضمائر وخبث القلوب والمقاصد، واشتداد الحسد والكراهية للإسلام والمسلمين.

والمنافقون وأعوانهم يلتئمون في كل زمان ليدبروا للمسلمين شر المكايد بكل الأساليب حتى وإن بلغ بهم سوء الكيد والتخطيط أن يصطنعوا للمسلمين مسجدا يستترون - فيخفون مكرهم ونفاقهم، وليسلكوا من خلاله سبيل التربص بالمسلمين والطعن في دينهم.

١٠٨ - (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

قوله: {لا تقم فيه أبدا} أي لا تصل فيه أبدا - والقيام يراد به هنا الصلاة، فقد نهي نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد المريب الذي بناه المنافقون لإضعاف المسلمين والطعن في دينهم وإيقاع الخلاف بينهم - وفي مقابل ذلك يحض الله ورسوله والمؤمنين على الصلاة في مسجد قباء أو كل مسجد بني طاعة الله وإخلاصا لدينه العظيم فقال سبحانه: {لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم في} اللام، لام الابتداء - وقيل: للقسم، أي: والله {لمسجد أسس} الآية - وعلى الوجهين فمسجد مبتدأ، والجملة بعده صفته.

والخبر، الجملة بعده {أحق أن تقوم فيه} و {أحق} ليس للتفضيل بل بمعنى حقيق، فإنه لا مفاصلة بين المسجدين، وهما مسجد النفاق ومسجد التقوى ٢٠٠، وهذا أحق أن يصلي فيه الرسول والمسلمين لتأسيسه من أول يوم على الطاعة والإخلاص والتقوى.

قوله: {فيه رجال يحبون أن تطهروا} نزلت هذه الآية في أهل قباء، فقد كانوا حرصاء على التطهر وما يقتضيه ذلك من حصول النظافة، إذ كانوا يستنجون بالماء - لا جرم أن الإسلام يدعو إلى النظافة ليكون المسلمون نظفاء في أبدانهم وكل أجسادهم، فضلا عن نظافة قلوبهم وسلامة مقاصدهم وما يكنونه للناس من خير ورحمة، وما يبتغونه للبشرية في كل زمان ومكان من بر وأمن وهداية - أما الثناء على أهل قباء من أجل حرصهم على النظافة والتطهير، ففيه روي الطبراني عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية {فيه رجال يحبون أن يتطهروا} بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هويم بن ساعدة فقال: (ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم) فقال: يا رسول الله ما خرج من رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال: مقعدته - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وهو هذا) وفي رواية لعويم بن ساعدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: (م هذا الذي أثنى الله عليكم) قالوا يا رسول الله إنا نغسل الأدبار بالماء.

قوله: {والله يحب المطهرين} المطهرون يحظون بمحبة الله لهم - ومن مقتضيات محبة الله للذين يحبهم أن يرضى عنهم ويعظم ثوابهم ٢٠١.

١٠٩ - (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ١٠٩ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم}.

الهمز للاستفهام الإنكاري - والفاء للعطف - وأسس، أي وضع الأساس، وهو أصل البناء وقاعدته التي يقوم عليها - أو هو أصل كل شيء ٢٠٢ - والبنيان، مصدر كالغفران، فالله عز وعلا يبين في هذه الآية التفريق بين المسجدين وانتفاء المساواة بينهما - وعلى هذا لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله {ورضوان} أي طاعته سبحانه، ومن بنى مسجدا ضرارا يريد به أن يفرق بين المسلمين فيثير فيهم الفتنة والفرقة والفوضى - إن هذين لا يستويان، فأولهما سبيله الهداية والحق، وكلاهما يفضي إلى الجنة - وأما الآخر: فسبيله الضلال والباطل، وكلاهما يفضي إلى جهنم والعياذ بالله، فأي الفريقين خير؟ هل هو المؤمن التقي الطائع لربه، أم هذا المنافق المتربص الخبيث؟ هذا الذي أسس بنيانه وهو مسجد الضرار {على شفا جرف هار} - أما قوله: {خير} فلا يفيد الشركة بين لاالمسجدين ولا بين مؤسس هذا وذاك في خير إلا على معتقد باني مسجد الضرار - فيحسب ذلك المعتقد صح التفضيل ٢٠٣.

قوله: {على شفا جرف هار} الشفا، الطرف - والجرف بضمتين، معناه البئر، أو الهوة وما يجرفه السيل من الأدوية لجرف الماء له ٢٠٤ - وهار، أي متصدع مشرف على السقوط - وأصله هاير وهارر ٢٠٥.

فالحق او التقوى والإخلاص قد أسس على قاعدة قوية محكمة بالغة الثبات والتماسك - وفي مقابلة ذلك، الباطل والنفاق فقد أسس على أوهى القواعد وأضعفها وأقلها ثابتا وتماسكا لأن الباطل مثله مثل الجرف الواهن المتداعي الآيل للسقوط والانهيار - وهو على أية حال صائر لا محالة إلى الانهيار بصاحبه المنافق في نار جهنم - وهذا هو مصير أهل الباطل والنفاق الذين يسعون في الأرض فسادا، والذين يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر، يبتغون لهم الشرور والمصائب ويمكرون بهم مع الماكرين - لا جرم أن مردهم إلى سوء العذاب، إذ ينهار بهم بنيانهم المضطرب ليلج بهم في جهنم بنارها المستعرة وعذابها المفظع البئيس.

{والله لا يهدي القوم الظالمين} وهم المشركون الذين يفخرون بالحرم، ويستكبرون فيه لأنهم أهله وعماره، فهم بشركهم وضلالهم لا ينفعهم قيامهم على سقاية الحاج ولا عمارتهم للمسجد الحرام، إنهم تجديهم أفعال الخير ماداموا سادين في غيهم وإشراكهم بالله.

١١٠ - (لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله: {لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم} أي لا يزال ما صنعوه من نفاق وباطل مبعث ريبة لهم فتظل تراودهم بغير مباحة - والريبة تعم جملة معان ليصيب كل منافق منها بحسب نفاقه من حيث نوعه ومستواه وقدره - ومن معاني الريبة: كل من الشك والاضطراب والحزازة والحسرة والقلق والخوف من سوء المصير، وذلك على طريقة القرآن في ألفاظه الكبيرة، إذ تتزاحم فيها المعاني تزاحما ليضم الواحد منها جملة معان - لا جرم أن ذلك وجه من وجوه الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم.

قوله: {ألا تقطع قلوبهم} أي لا يزال ما صنعوه من النفاق وابتغاء الشر بالمسلمين مبعث ريبة لهم في كل الأوقات والأحوال، فلا تبرحهم ما داموا أحياء {إلا أن تقطع قلوبهم} وذلك أن يموتوا، إذ تتفرق أبدانهم وجسومهم، وقيل: إلا أن يغالوا في الندامة فتتفتت قلوبهم كناية أو مجاز عن شدة الأسف والحسرة.

قوله: {والله عليم حكيم} عليم بما صنعه هؤلاء المنافقون المفسدون وما قصدوه من المكر والأذية للمسلمين - وهو سبحانه حكيم، فيما أعده لهم من الجزاء في هذه الدنيا حيث الشك والقلق واضطراب النفس والخوف - وكذلك في الآخرة حيث النار ٢٠٦.

١١١ - (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم}.

روي في سبب نزول هذه الآية عن عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه) أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة: اشتراط لربك ولنفسك ما شئت - فقال: (أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ فقال (الجنة) قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت {إن الله اشترى من المؤمنين} الآية ٢٠٧ لتحمل للمسلمين على مر الزمن وتوالي العصور والأدهار هذا الإخبار الرباني المجلجل - إخبار كريم ومؤثر وفياض فيه ترغيب للمسلمين وتحضيض على الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال - وذلك لدفع الأشرار والمعتدين المتربصين، وليدرأوا عن أنفسهم المفاسد والأضرار والفتن.

ولقد جاء التحضيض هذه المرة على صورة عقد كريم متين - العاقد فيه رب العالمين جل وجلاله، والثمن فيه هي الجنة - وعي عطاء من الله كريم وعظيم ودائم، وفيه من الخير والنعمة والبهجة ما لا تقوى على تصوره طبائع البشر - والمعقود عليه في هذا العقد هو القتل أو القتال، فالقتال يصيب المجاهد ليحظى بالجنة - والقتال بمجرد مفض إلى نفس العاقبة من الحسنى.

وهذا المعنى الكبير يتجلى في أحسن ما تكون عليه العبارة، وأورع ما يأتي عليه الكلم من رصانة الألفاظ، وتمام الإيجاز وكمال الإعجاز، وبالغ التأثير.

وذلك كله في كلمات قليلة معدودة توحي بعظم الشأن للمجاهدين بأموالهم ولأنفسهم في سيبل الله، لا يبغون بذلك غير مرضاته سبحانه،

ولا يزجي بهم إلى أرض المعركة سوى الحب لله والغيرة على الإسلام والمسلمين.
ويستوي في نيل هذا الثمن الكريم الهائل {الجنة} كل من قاتل وقتل - فكلاهما محظوظ بالفوز بالجنة ليرتع في نعيمها وما حلفت به من عطايا عظام وخيرات حسان.
قوله: {وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن} {وعدا}، منصوب على المصدر المؤكد لمضون الجملة - {حقا} لتقديمه عليه ٢٠٨ - وهذا الوعد الق من الله مثبت ومذكور في الكتب السماوية الثلاثة وهي التوراة والإنجيل والقرآن - و {في} تأكيد للمؤمنين المجاهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن مآلهم إلى خير عاقبة وأكرم مصير وهو رضوان الله والفوز بالجنة.
قوله: {ومن أوفى بعهده من الله} استفهام على سبيل التقرير، أي ليس من أحد أوفى بعهده من الله جل جلاله - وقد أظهر الوعد هنا في صورة العهد، لأن هذا آكد وأوثق من الوعد، إذ الوعد في حق المخاليق جائز إخلافه عند الحاجة - لكن العهد لا يجوز إلا الوفاء به، إذ هو آكد من الوعد.
قوله: {فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به} ليس السنين هنا للطلب بل بمعنى افعل - وذلك كفعل الأمر: استوقد، أي أوقد - فيكون المعنى: اغتبطوا وابتهجوا وأظهروا السرور بما حظيتم به من فوزكم العظيم في بيعكم مع الله الذي أفضى بكم إلى الجنة - لا جرم أنه {الفوز العظيم} الذي يتضاءل دونه أيما فوز ٢٠٩.
وقفة وتنبيه
قبل أن نبرح الكلام عن تحضيض الإسلام على الجهاد، نريد أن نستبق الظالمين والمبغضين والمتعصبين من أولى العقائد والملل والتصورات الضالة - أولئك الذين يستمرئون الطعن في الإسلام، والذين تعتصر قلوبهم وأعصابهم تغيظا وكراهية للإسلام وأهله - وأولئك هم الحاقدون المتربصون الجهلة الذيسن لا يعرفون عن الإسلام إلا بعض اللمامات من بسيط الكفار - ومع ذلك فغنهم يتزاحمون في الكيد للإسلام بتوجيه سهام الطعون له من أجل تشويه والإساءة إلى سمعته المباركة وقدره العظيم، فقد احتجوا بمثل هذه الآية ونظائرها من آيات الجهاد على أن الإسلام قد بني على الحرب والقتال والدم والعنف!!
إن ذلكم لغط فاجر كذوب تردده أقلام المفكرين المضلين من استعماريين والصليبيين ووثنيين وملحدين وصهيونيين وماسونيين وأتباعهم من العملاء والتابعين الناعقين.
إن الذي يتخذلق به هؤلاء الخصوم عن تشريع الجهاد في الإسلام، لهو افتراء غاشم، وتخريص جهول يتقوله الشياطين وأهل الباطل على الإسلام.
ولقد بينا في فقرات سابقة أن الإسلام ما بني على العنف والقسوة، ولا قام على الحرب والقتال، بل إن الإسلام أساسه المودة والرحمة تفيض بهما قلوب المسلمين على الدنيا وعلى سائر شعوب الأرض بعيدا عن كل ظواهر التعنيف والترهيب.
الإسلام إنما بني على الحق والترشيد واحترام الإنسان والحدب عليه، فهو إذا شاع في الدنيا وعمت كلمته وعقيدته ونظامه الآفاق والعالمين، إنما كان ذلك بفضل أساليبه الفكرية والوجدانية البالغة في التأثير، فقد شق الإسلام طريقه إلى أذهان الناس وقلوبهم، فشاع وذاع بالحجة والبرهان، ودعوة البشرية إليه بالتي هي أحسن، وأصدق دليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} ومن أدل الدلائل على هذه الحقيقة، هذا الإقبال الطوعي السريع من الشعوب المختلفة التي بادرت للدخول في دين الإسلام - وكان ذلك طواعية ورغبة وود، إذ لم يحملهم على ذلك قسر أو إكراه أو وعيد.
والشعوب على اختلافها إذا ما أتيح لها أن تتعرف على الإسلام وما حواه من ظواهر الخير والتعارف والمودة والرحمة والخلق الكريم، سوف لا تردد في الإقبال عليه واعتناقه والتزام عقيدته وشرائعه في مودة وتشوف - ولو حيل بين الإسلام وسائر المعوقات والفتن التي يضعها الشياطين في الطريق، لعم الإسلام سائر أنحاء الدنيا، ولأصبح جل البشرية إخوانا في دين الله، دين الاسلام!
إن الإسلام لم يوجب الجهاد إلا ليكون آخر وسيلة من وسائله بعد أن يستنفد كل أسباب المنطق والاحتجاج بالبراهين والأدلة الظاهرة، فلا مناص بعد ذلك كله من تشريع الجهاد دفعا لصولة الطغاة من المعتدين الظالمين، وكسرا لشوكة أهل الباطل الذين يكرهون الإسلام والمسلمين، فما فتئوا يكيدون لهم كل المكائد والمؤامرات.

لا يجد الإسلام مندوحة عن دعوة المسلمين وتحريضهم على قتال أهل الباطل والعدوان من شرار البشر الذين لو سلطوا على رقاب المسلمين لا يرعون فيهم إلا ولا ذمة - والذين إذا جاسوا خلال ديار المسلمين أبادوهم إبادة واصطلموهم شر اصطلام، وأذاقوهم الويل والثبور وعظائم الأمور، ما بين تقتيل وتشريد وتدمير وتدنيس للكرامات والقيم وهتك للأعراض والأستار - ومن اجل ذلك شرع الإسلام الجهاد.

١١٢ - (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} {التائبون}، مبتدأ، وخبره {العابدون} وما بعده أوصاف أو أخبار متعددة.

وقيل: إن الخبر قوله: {الأمرون} وقيل: الخبر محذوف - والتقدير: التائبون الموصوفون بهذه الصفات من أهل الجنة - وهذا عند من يرى أن هذه الآية منقطعة مما قبلها، فهي ليست شرطا في المجاهدة - وأما ما زعم أنها شرط في المجاهدة فيكون إعراب التائبين خبر مبتدأ محذوف، أي هم التائبون، فتكون هذه الأوصاف عند هؤلاء من صفات المؤمنين في قوله تعالى: {اشترى من المؤمنين} ٢١٠، وقد ذهب إلى هذا المعنى بعض المفسرين وفيهم ابن عباس، إذ قال: الشهيد من كان فيه هذه الخصال التسع وتلا هذه الآية - وبذلك فإن هذه أوصاف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، فهم بذلك المجاهدون على النحو الأتم والمطلوب - لكن لا يخفى ما في هذا التأويل من حرج، فإنه بناء عليه لا يفوز بالجنة من المجاهدين إلا القلة ممن اتصف بهذه الأوصاف - ولسوف يخرج إذن من هذه الحظوة المباركة كثير من المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الله ولم يتصفوا بهذه الصفات.

وعلى هذا فالراجح من إعراب {التائبون} أنها مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا - وذلك قوله تعالى: {وكلا وعد الله الحسنى} فإن كلا، يفيد العموم - والحسنى بمعنى الجنة - وعلى هذا يكون معنى الآية منفصلا من معنى الآية التي سبقتها - ويؤيد ذلك ما صح من حديث مسلم أن (من قتل في سبيل الله وهو صابر محتسب مقبل غير مدبر، كفرت خطاياه إلا الدين) وذلك ظاهر في أن المجاهد لا يشترط كونه متصفا بجميع الصفات التي في الآية - بل هي تبشير لمطلق المجاهدين - وهو المفهوم من ظواهر الأخبار التي تدل على أن الفضل الوارد في حق المجاهدين مختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

أما {التائبون}، فالمراد بهم الذين تابوا عن الشرك والنفاق - أو عن الشرك وسائر المعاصي والذنوب وهو الأصوب، لأن كلمة التائبين من ألفاظ العموم فهي تتناوب كل تائب.

وأما {العابدون} فقيل: هم الذين يعبدون الله بالصلاة وهو قول ابن عباس، وفي رواية عنه أخرى أنهم المطيعون بالعبادة - وقيل: هم الذين يعبدون الله في السراء والضراء.

وأما {الحامدون} من الحمد، وهو الثناء، أو الوصف بالجميل: فالحامدون الذين يحمدون الله على كل حال، وقيل: هم الذين يشكرون الله على أنعمه - على أن الحمد أولى من الشكر، فقد روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أول ما يدعي إلى الجنة الحامدون الذين يحمدون على السراء والضراء) - وعن السيدة عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات) وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: (الحمد لله على كل حال).

وأما {السائحون} فهم الصائمون، وهو قول كثير من جلة الصحابة والتابعين، وقد روي عن عائشة قولها: سياحة هذه الأمة الصيام - وذلك من باب الاستعارة لأن الصوم يعوق عن الشهوات كما تمنع السياحة منها في الغالب - وقيل: المراد بهم المسافرون لطلب العلم - وقيل: هم الذين يجولون بأفكارهم وعقولهم في ملكوت الله وفي خلقه.

أما {الراكعون الساجدون} فالمراد بهم المصلون - فالركوع والسجود على معناهما الحقيقي، وهما أعظم الأركان في الصلاة.

وأما {الأمرون بالمعروف} فهم الذين يدعون الناس إلى الإيمان وعمل الطاعات، وهم {الناهون عن المنكر} ينهون الناس عن الشرك

بالله على اختلاف صوره وضروبه، ويدعونه إلى مجانبة عصيان الله ومخالفة أوامره.
قوله: {والحافظون لحدود الله} أي المطيعون لله فيرعون ما بينه الله من أحكام وشرائع فيلتزمون ما ينبغي فعله وما يجب تركه - وقيل: المراد بحفظ الحدود وإقامة الحدود من العقوبات وإيقاع القصاص على المستحقين لذلك.
قوله: {وبشر المؤمنين} وهم الموصوفون بتلك الصفات العظيمة يبشرهم ربهم بأنهم مستحقون درجة الإيمان الكامل حيث السعادة التامة والفوز كل الفوز ٢١١.
قوله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ١١٣ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم} أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي وآخرون عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما خضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: (أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فنزلت {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} قال: ونزلت فيه {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ٢١٢ - ويستفاد من ذلك: أمه ما ينبغي للمسلم أن يستغفر لكافر من الكافرين أو يدعو له بالتوبة والغفران، سواء كان من الأصدقاء أو الأقرباء أو الأباعد، ما دام قد مات على الشرك - وذلك تقرير رباني ثابت لا رجاء فيه بالمغفرة للمشركين الذين ماتوا وهم كافرون - أولئك لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم كل خلائق الأرض والسماء - وفي ذلك قوله سبحانه {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء}.
١١٣ - (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)
قوله: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} أي ما صح ولا استقام في حكم الله للنبي والمؤمنين أن يطلبوا المغفرة من الله للمشركين الذين ماتوا على الشرك {ولو كانوا أوى قربى} الجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة - وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه ٢١٣ - والمعنى: ولو كانوا -المشركين- ذوي القرابة للمؤمنين المستغفرين.
قوله: {من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} أي من بعد بعد ما ظهر جليا واضحا للنبي والمؤمنين أن هؤلاء المشركين قد ماتوا على الكفر وأن مصيرهم المحتوم إلى الجحيم - ويستدل من ذلك أيضا جواز الاستغفار وطلب التوبة والهداية والتوفيق للكافرين الأحياء.
١١٤ - (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)
قوله: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه} أي ليس لكم أيها المؤمنون أن تستغفروا لأهليكم وأقربائكم ومن تحبونهم بعد أن تبين لكم أنهم ماتوا كافرين - وما ينبغي لكم أن تحتجوا باستغفار إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لأبيه آزر، فلما استغفاره له إلا عن موعدة وعدها إبراهيم أباه بقوله له: {لأستغفرن لك} وقوله له أيضا: {سأستغفر لك ربي} فالوعد كان من إبراهيم عليه السلام - وإنما كان ذلك قبل أن يتبين له أنه معدوم الإيمان، مصر على الكفر - {فلم تبين له} أي لإبراهيم أن أباه آزر {عدوا لله} فقد أعلمه الله أنه عدو لله بإصراره على الكفر وأنه يموت كافرا - وعندئذ انقطع رجاؤه منه وجانب أيما استغفار له كل مجانبة - وقطع أيما صلة بينه وبينه - وذلك هو شأن المؤمن الوفي المخلص لدينه وعقيدته، فإنه منوط قلبه بالعقيدة تماما، حتى إن استشعاره الكامل للعقيدة يستحوذ على قلبه ووجدانه وأعصابه وكيانه النفسي كله - فما ينظر للحياة والأحياء وعامة القضايا في التعامل والسلوك والأواصر الاجتماعية والشخصية وغيرها من الأواصر والصلات إلا بمنظار العقيدة كيلا يكون هواه بعد ذلك إلا مسخرا لعقيدة الحق والصدق، عقيدة الإسلام - فإنما يجب بعد ذلك لله - ولا يبغض بوحي من هوى ضيق أو من مصالح ومنافع خاصة، ولكن يبغض في سبيل الله، وأيما انتقاض من هذه الحقيقة الأساسية فإنما هو انتقاص من درجة الإيمان في قلب صاحبه.
قوله: {إن إبراهيم لأواه حليم} الأواه: الكثير التأوه، وهو من يقول: أواه - أو يقول: أوه - بمعنى أتوجع ٢١٤، وقيل: الأواه معناه

المتضرع - وقيل: المؤمن - وقيل: المؤمن التواب - وقيل: كناية عن بالغ الرأفة ورقة القلب - والأولى أن المراد به المتضرع الكثير الدعاء؛ فقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (الأواه الدعاء) وعن عبد الله بن شداد قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: (المتضرع).

أما الحليم، فهو شديد الصبر على الأذى، عظيم الصفح عن الجناة ٢١٥.

١١٥ - (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {وما كان لله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم ١١٥ إن الله له ملك السموات والأرض يحي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير}.

جاء في سبب نزول الآية أن قوما كانوا على الأمر الأول من استقبال بيت المقدس قبل التحول إلى الكعبة - وعلى شرب الخمر قبل تحريهما، فسأل قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نسخ ذلك فنزلت الآية.

وقيل: أسلم قوم من الأعراب فعملوا بما شاهدوا الرسول يفعله من الصلاة إلى بيت المقدس وصيام الأيام البيض، ثم قدموا عليه فوجوده يصلي إلى الكعبة ويصوم رمضان - فقالوا: يا رسول اله دنا بعدك بالضلال؛ إنك على أمر، وإنا على غيره - فنزت الآية.

وقيل: خاف بعض المؤمنين من الاستغفار للمشركين دون إذن من الله، فنزلت الآية مؤنسة - وقال الزمخشري: يعني ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهي عنه، ويبين أنه محظور ولا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يمسهم ضلالا ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمه بأنه واجب الاتقاء والاجتناب - وأما قبل العلم والبيان: فلا سبيل عليهم؛ كما لا يؤاخذون بشرب الخمر، ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم.

فالآية تفيد أنه ليس من لطف الله أن يذم المؤمنين أو يؤاخذهم باستغفارهم للمشركين قبل أن يبين لهم أن ذلك غير جائز - ولكن الله جل وعلا إنما يذم من استغفر للمشركين بعد التبيين.

قوله: {حتى يبين لهم ما يتقون} أي يبين لهم بالوحي ما يجب اتقاؤه من المناهي والمحظورات.

قوله: {إن الله بكل شيء عليم} الله عليم بجميع الأشياء، ومن جملة ذلك حاجة المؤمنين إلى البيان؛ فيبين الله لهم - وهو كذلك عليم بصلاح قلوب المؤمنين المستغفرين للمشركين قبل نزول النهي عن ذلك.

١١٦ - (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

والله عز وعلا له القدرة المطلقة البالغة وهو ذو القوة والجبروت والملكوت، مالك كل شيء - وهو قوله: {له ملك السموات والأرض}.

قوله {يحي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} الله جل جلاله من أعظم تصرفاته الإحياء والإماتة؛ فهو سبحانه موجد الأحياء بعد موات ثم هو سبحانه مميتهم لدى انتهاء آجالهم - وقيل: هذا إشارة إلى أنه يجب على المؤمنين أن لا يجزعوا من عدوهم وإن كان كثيرا، وأن لا يهابوا أحدا - فما الموت المخوف ولا الحياة المقدورة إلا بيد الله؛ فليس للمؤمنين أن يرجوا لأنفسهم الولاية أو النصر من المخاليق - وإنما يرجون ذلك من الله وحده فهو خير ولي وأعظم نصير ٢١٦.

١١٧ - (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم}.

قيل في هذه الآية إنها نزلت في غزوة تبوك؛ وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، وذلك في سنة مجدية، وحر شديد، وعسر من الزاد والماء - قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، حتى لقد ذكر لنا إن الرجلين كانا يشقان

الثمرة بينهما، وكان النفر يتداولون الثمرة بينهم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها.

وذكر عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بت الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر ابن الخطاب: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إذا كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه - فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا - فقال: (تحب ذلك؟) قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر ٢١٧.

قوله: {لقد تاب الله النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة} التوبة من الله على رسوله من أجل الذنب - وهو بالنسبة إلى رسول الله من باب خلاف الأولى - وفسره ابن عباس بالإذن للمنافقين في التخلف - أما الذنب بالنسبة إلى الصحابة: فيمكن أن يكون حقيقيا؛ إذ لا عصمة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وقيل: كان ذنبهم من باب خلاف الأولى كالميل إلى القعود عن عزوة تبوك إذ وقعت في فترة شديدة وعسيرة - وهي قوله: {في الساعة العسرة} والعسرة خلاف المسيرة - ويوم عسير، أي شديد، وتعسر الأمر واستعسر، أي اشتد والتوى - وأعسر: افتقر - وجيش العسرة معناه جيش تبوك؛ لأنهم ندبوا إليها في حمارة القيظ فعسر عليهم ٢١٨.

قوله: {من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم} كاد من أفعال القرب وفيه ضمير الشأن - وضمير الشأن اسم كاد - وقلوب فاعل يزيغ - والجملة في محل نصب خبر كاد ٢١٩، والآية تبين مدى الشدة البالغة التي حاقت بالمسلمين في تبوك حتى كاد يميل بعضهم إلى التخلف عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو يميل عن الثبات على الإيمان لحمله ذلك على مجرد الهم والوسوسة والارتياب في رسوله الله صلى الله عليه وسلم وفي دينه لفرط ما أصابهم من الشدة والكرب - وقيل: كان الميل من ضعافهم ومن حديثي العهد بالإسلام.

قوله: {ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم} ذلك تكرير للتأكيد على التوبة على المؤمنين لما ذكر أن فريقا منهم كادت تزيغ قلوبهم؛ إذ ساورهم الشك وساء ظنهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بانصراف عنه - لكن الله جلت قدرته قد تجاوز لهم عن كل ذلك؛ إذ تاب عليهم، وسبب التوبة هي الرأفة من الله بهم ورحمته التي وسعت كل شيء ٢٢٠.

١١٨ - (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

قوله تعالى: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ١١٨ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}.

الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك هم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية؛ فقد خلفوا عن ركب المجاهدين بقتادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قصد تبوك لقتال الروم - ولم يكن تخلف هؤلاء الثلاثة عن عجز او افتقار أو مرض؛ بل كانوا أقوياء أصحاء، ولم يثنهم عن المضي للجهاد في تبوك إلا ما أصابهم من نوبة الضعف وفتور العزيمة وفتور العزيمة في هذه المناسبة العظيمة التي اشتد فيها سعير الحر اللاهب - واستعر فيها هجير المفاوز والفيافي من أيام الصيف الحرور، واستقبل فيها الناس عدوا كبيرا مدججا بالعدة والسلاح مما لم يشهدوا له من قبل نظيرا، وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الغزوة حين طابت الثمار وحان جنيها وقطافها؛ كل ذلك قد حمل فريقا من الناس على التثاقل، فانثنوا عن الذهاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في المتخلفين منافقون لا يترددون في الهروب والتخلص من فريضة الجهاد بكل أسلوب من أساليب الكذب والمراوغة والنفاق - ومن جملة الذين تخلفوا، هؤلاء الثلاثة الذين لم يساور قلوبهم شك في دين الله ولا في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقعدهم عن ذلك إلا ما طرأ لهم في هذه الفترة العصيبة العسيرة من نوبة الضعف العارض.

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك طفق المتخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى - أما الثلاثة –وكانوا من المؤمنين الصالحين- فقد وجدوا في أنفسهم أشد موجدة وأصابهم من فرط الكآبة الممضة ما بات يقض مضاجعهم قضا ويؤز قلوبهم وأعصابهم وأزا طيلة خمسين يوما - وفي ذلك يقول كعب بن مالك: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنا فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة - فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهم يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم؛ فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد - حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائك أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام - قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي الشام قد دفع إلي كتابا من ملك غسان وفيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هوان - ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك - فقلت حين قرأته: وهذا أيضا من الابتلاء - قال: فتيممت به التنور فسجرته به فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كرمنا - قال: ثم صليت الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا - فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخا على بجل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك - قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر - وأنزل الله تعالى الآية - ومنها قوله: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت} {وعلى الثلاثة}، معطوف على {النبي} أي وتاب على الثلاثة {الذين خلفوا} أي تخلفوا عن غزوة تبوك {حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت} أي باتت الأرض برحبها وسعتها ضيقة في نظرهم وتصورهم فسدت عليهم المسالك والطرق فلا يعتدون سبيلا، ولا يدرون ما يصنعون - وذلك لإعراض الناس عنهم وهجرهم لهم خمسين ليلة بأيامها {وضاقت علليهم أنفسهم} وذلك كناية عن تراكم الهم والحزن على قلوبهم فلا تحتمل غير الكآبة والاغتمام - فكان ضيقهم بذلك على نحوين، وهما ضيق المحل وضيق النفس والحال.

قوله: {وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه} أي علموا وأيقنوا أنه ليس لهم من سبيل ولا ملجأ يأوون إليه من سخط الله إلا أن يثوبوا إليه وحده، فيبرءوا له بالتوبة والاستغفار وهو سبحانه خير ملاذ للمكروبين والمغلوبين والتائبين.

إن الله جلت قدرته خير من تجأر إليه قلوب الداعين والمستغفرين والتائبين الحزانى عسى أن يتوب عليهم ويفيض على قلوبهم بخواطر الرضى والبهجة والانشراح.

قوله: {ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم} أي قبل توبتهم من تخلفهم عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم {ليتوبوا} أي ليرجعوا إلى حالهم الأول من مخالطة المؤمنين فتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم مع الساكنين والمطمئنين، أو ليتوبوا مم يفرط منهم في المستقبل من خطايا وذنوب - فإن الله تعالى قابل التوب عن عباده المؤمنين ولو عادوا إلى الذنب في اليوم مائة مرة - فذلك هو شأن الله في عظيم توبته ولطفه بالعباد وفي مبلغ رحمته بهم - رحمته الواسعة المديدة التي لا تعرف الحدود.

١١٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

قوله: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} بعد ذكر الثلاثة الذين صدقوا الله فنفعهم صدقهم وثباتهم على دينهم وإيمانهم –يأتي هذه الجملة معترضة لتنبيه على درجة الصدق في ميزان الله - لا جرم أنها درجة رفيعة وعظيمة يجلها الله إجلال ويكرم بها الصادقين من المؤمنين.

وبذلك يأمر الله في الآية عباده المؤمنين أن يكونوا كهؤلاء الثلاثة في صدقهم وثباتهم وخلوص نياتهم، وقيل: أن يكونوا كالذين صدقوا

في دين الله قولا وعملا ٢٢١.

١٢٠ - (مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ١٢٠ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون} نزلت فيمن تخلف من أهل المدينة عن عزوة تبوك وفيمن تخلف ممن حولهم من الأعراب من مزينة وجهينة وأسلم وغفار.

والله سبحانه يعاتب هؤلاء لتخلفهم عن شرف الجهاد في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله: {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله} أي ما ينبغي وما يستقيم لهؤلاء التخلف عن الخروج للجهاد بعد أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبهم في ذلك {ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه} أي ما كان ينبغي لهم وما يستقيم أن يؤثروا أنفسهم دون رسول الله فيدعوه وحده أو يخذلوه وضنوا بأنفسهم على النزول في الأخطار ومواجهة الملمات؛ بل عليهم أن يبذلوا كل ما يستطيعون وأن يوردوا أنفسهم كل المكاره فيركبوا الأهوال والشدائد، ويكابدوا الصعاب والمشاق في همة ونشاك واغتباط وهم في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتقدمهم على خوض الأهوال ومخاطر القتال.

قوله: {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله} الإشارة عائدة إلى ما تبين من وجوب الخروج للقاء المشركين وبذل النفس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم التخلف عنه وعن المؤمنين المجاهدين معه {بأنهم لا يصيبهم ظمأ} أي بسبب أنهم لا يصيبهم شيء من عطش {ولا نصب} أي تعب {ولا مخمصة} أي مجاعة {في سبيل الله} أي في لقاء أعداء الله من المشركين والظالمين.

قوله: {ولا يطئون موطأ يغيظ الكفار} {يطئون} من الوطء وهو الدروس بالأقدام ونحوها كحوافر الخيل وأخفاف الإبل - والموطئ، اسم مكان - وهو هنا مطلق ليعم كل موضع أو مكان يغيظ وطؤه الكفار.

قوله: {ولا ينالوا من عدو نيلا} النيل، مصدر - فعله، نال ينول نيلا؛ أي ولا يأخذون من عدو شيئا - وقد أطلق النيل ليعم كل وجوه الأخذ مما يغيظهم ويسوءهم كالقتل والأسر والإثخان وسومهم الهزيمة.

قوله: {إلا كتاب لهم به عمل صالح} الجملة في محل نصب على الحال من {ظمأ} ٢٢٢ أي كتب لهم بالمذكور وهو جميع ما تقدم {عمل صالح} أي ثواب ذلك - والإشارة عائدة إلى إصابة الظمأ والنصب والمخمصة والوطء والنيل من العدو.

قوله: {إن الله لا يضيع أجر المحسنين} وهذه حقيقة راسخة ومركوزة بأن أجر المحسنين محفوظ لهم فلا يفوت ولا ينسى.

١٢١ - (وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة} وذلك ترغيب في بذل المال في سبيل الله - والباذل لماله يبتغي به وجه ربه مجزي به خيرا مهما كان قدر ما بذل - فأيما نفقة في سبيل الله وهو الجهاد، قلت النفقة أو كثرت، فإن أجرها غير فائت ولا مضيع.

قوله: {ولا يقطعون واديا} أي ولا يتجاوز في سيرهم من أجل الجهاد واديا، وهو المنفرج من الجبال والآكام التي يسيل فيها الماء، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض - {إلا كتب لهم} أي أثبت لهم في صحائف أعمالهم - وهو يعم ما سبق ذكره من الظمأ والنصب والمخمصة والوطء لإغاظة الكفار، والنيل منهم أيما نيل - وكذا النفقة، والسير وقطع المسافات للقاء العدو، فإن ذلك كله مكتوب لأصحابه المجاهدين في سبيل الله {ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون} أي ليثبتهم الله أحسن جزاء على أعمالهم - وذلك

يقتضي أن يكون لأعمالهم جزاء حسنا وآخر أحسن، وقد اختار الله لهم ما هم أحسن ٢٢٣.

١٢٢ - (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

قوله تعالى: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}.

ذكر أن هذه الآية بيان من الله لمراده من النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك؛ فقد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهذا مقتضى قوله: {انفروا خفافا وثقالا} فنسخ ذلك بهذه الآية {وما كان المؤمنون لينفروا كافة}.

وقيل: المراد انه ما كان المؤمنون لينفروا ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة} يعني عصبة أو سرايا - فإذا رجعت السرايا وقد انزل الله بعدهم قرآنا تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم من بعدهم ويبعث سرايا أخرى وهو معنى قوله: {ليتفقهوا في الدين} أي ليتعلموا ما انزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم؛ فالآية هذه في البعوث والسرايا إذا لم يخرج الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه - فإذا لم يخرج وجب أن لا ينفر الناس كافة فيبقى النبي وحده - وإنما ينبغي أن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الطائفة في الدين وتنذر النافرون إذا رجعوا إليهم ٢٢٤.

على أن المستفاد من عموم هذه الآية أن لا ينفر المسلمون جميعا للقاء العدو ولا لطلب العلم؛ فكلا الغرضين هام وعظيم ومفروض، فلقاء العدو في نفير زاحف مستعد غاية الاستعداد لتدمير الظلم والظالمين، وصد الأشرار والمتربصين ودفع أذاهم عن المسلمين –لا محالة واجب - وإلا بات المسلمون عرضة للتدمير والاصطلام من عدوهم المتربص الماكر - ومن جهة الأخرى: فإن الخروج للتعلم والتزود بزاد العلم واجب كذلك إلى غير ذلك من جوه الأعمال والمشاغل والمصالح التي يحتاجا المسلمون - كالاضطلاع بوجائب الزراعة والصحة والتعمير - وبذلك يقتسم المسلمون أعمالهم وواجباتهم ليناط بكل واحد منهم من العمل ما يناسبه فيؤديه أتم أداء.

قوله: {فلولا نفر} لولا تحضيضه، والمراد به الأمر.

قوله: {لعلهم يحذرون} لكي يحذروا الله تعالى فيخشوا عقابه، ويعلموا لمرضاته، ويجتنبوا نواهيه ومخالفة أمره ٢٢٥.

١٢٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين} يأمر الله عباده المؤمنين في هذه الآية بقتال من يلي من عدوهم - وذلك لتعذر قتال كل المشركين دفعة واحدة؛ فتجب البداءة بقتال من يلي من المشركين على قتال من بعد منهم؛ أي أن المسلمين يقاتلون الكافرين الأقرب فالأقرب إليهم قربانا مكانيا؛ فيما ينبغي لهم أن يتجاوزا من يلونهم من الكافرين فيفجأهم الأقربون الذين يلونهم فيقضون عليهم ليقتلوا السناء والأطفال والمستضعفين، وليعيثوا في البلاد فسادا وخرابا.

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فزغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن وخيبر وغير ذلك من الأقاليم في جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله أفوجا، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذي هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة - وفي السنة العاشرة عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه، فقام بالأمر بعده خليفته الصديق (رضي الله عنه) فأركز قواعد الدين وثبته تثبيتا بعد أن كاد يجفل ٢٢٦ بمخازي المرتدين والمنافقين - وبعد أن رحل إلى الرفيق الأعلى وتولى من بعده الفاروق العظيم أبو حفص عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قاتل المشركين الذين يلون المسلمون أولا بأول، الأقرب فالأقرب - وكذا صنع خلفه من بعده عثمان (رضي الله عنه) فقد كان شأنهم جميعا في قتال المشركين أن يقاتلوا الأقرب قبل الأبعد عملا بقوله تعالى: {قاتلوا الذين يلونكم من الكفار}.

قوله: {وليجدوا فيكم غلظة} أي شدة - وهذه كلمة جامعة يراد منها جملة معان: الجراءة، والعنف، والإثخان في القتل والصبر عليه، لما في ذلك من تخويف للظالمين المعتدين وإثارة الذعر في قلوبهم كيما يتضعضعوا ويولوا الأدبار.

قوله: {وعلموا ان الله مع المتقين} يراد بالمتقين الذين يخشون الله فيبادرون بالطاعة له والإخبات، ولم يقصدوا من جهادهم وقتالهم مالا ولا شهرة ولا غنيمة، ولم يبتغوا من ذلك فخرا أو ظهورا وإنما يبتغون بذلك وجه الله ومرضاته، وإعلاء شأن الإسلام.

١٢٤ - (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

قوله تعالى: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ١٢٤ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون} إذا ما أنزل الله على رسوله وعلى المؤمنين سورة من القرآن قال المنافقون في اجتراء لئيم ووقح، وفي استكبار غاشم جحود: {أيكم زادته هذه إيمانا} {أيكم}، مرفوع على الابتداء - وما بعده خبره - وقد قال المنافقون ذلك على سبيل الإنكار والاستهزاء والاستخفاف بالكتاب الحكيم وآياته الكريمة الباهرة - ولقد قال المنافقون ذلك بعضهم لبعض، وهم يريدون بذلك تثبيت النفاق والكفر في قلوبهم، وقالوه كذلك لضعفة المسلمين وهم يبتغون بذلك إشاعة الشك والارتياب في قلوبهم وعقولهم لينفتلوا عن دين الله.

قوله: {فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا} هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص - وهذا مذهب أكثر السلف والخلفاء من العلماء.

قوله: {وهم يستبشرون} يستشعرون بقولهم حلاوة البشرى والاغتباط بما ينزل من السماء من قرآن.

١٢٥ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

قوله: {وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم} المرض يراد به هنا النفاق، أو الشك - والرجس معناه: القذر، والعذاب، والإثم - والمقصود: أن المنافقين كلما أنزلت من عند الله سورة كفروا بها، وإذا كفروا بسورة زاد كفرهم فزاد به عذابهم؛ أي أنه يزدادون كفرا على كفر؛ فيزداد بذلك ضلالهم وعقابهم - ثم يصيرون إلى أسوأ عاقبة وهي أن يموتوا كافرين ٢٢٧.

١٢٦ - (أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

قوله تعالى: {أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ١٢٦ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون} الهمزة للإنكار والتوبيخ - والفتنة بمعنى العذاب - أو الاختبار - فمعنى الآية: أفلا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون بالشدة والجوع مرة أو مرتين في كل عام {ثم لا يتوبون} عما هم فيه من خبيث النوايا وشنيع الأفعال {ولا هم يذكرون} أي لا يعتبرون ولا يتعظون.

وقيل: الاختبار يراد به كشف أسرارهم، وفضح نواياهم، وإظهار نفاقهم، وهو الأولى بالاعتبار؛ فيكون المعنى: أفلا يزدجر هؤلاء المنافقون الذين يفضح الله نواياهم وسرائرهم مرة أو مرتين في كل عام ليعلموا أن ذلك من الله فيتوبوا إليه وتستقيم نواياهم وأعمالهم.

١٢٧ - (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

قوله: {وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد} لا يطيق المنافقون سماع القرآن وذلك لفرط كراهيتهم لدين الله وما جاءهم به من الحق هؤلاء المنافقون كانت تفيض قلوبهم بالحقد والاضطغان والنفور من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دينه - وأشد ما كانت تتنغص منه نفوسهم المريضة أن يسمعوا كلام الله - فإذا ما أنزلت سورة من القرآن أخذوا يتغامزون بعيونهم ويشاورون فيما بينهم ليتدبر الخروج والانسلال لواذا من موضعهم الذي هم فيه ليتفرقوا شاردين نافرين - وهذه طبائع كزة عجاف ٢٢٨ لا تصيخ للحق او اليقين، ولا تشدها المعجزات المجلجلة البواهر، ولا تثنيها الحجج والبراهين السواطع عن اقتراف الفضائح وخسائس الأعمال، ولا يصدها عن الكيد والخدع منطق او ضمير - أولئك فريق من البشر الخبيث يتقمصون في ظواهرهم وقسمات وجوههم الهشات ثياب الطهر والعفة، وهم في الحقيقة أنجاس يكنون في أعماقهم وخفاياهم كل معاني اللؤم والجحود والخسة، وأولئك هم المنافقون!

قوله: {هل يراكم من أحد} {هل يراكم}، في محل نصب بقول مضمر، أي يقولون: هل يراكم - وجملة القول في محل نصب على الحال - و {من أحد}، فاعل ٢٢٩ - إذا تغامز المنافقون بأعينهم استنكارا وسخرية من كلام الله فهموا بالخروج كيلا يستمعوا القرآن فيغتاظوا وتشمئز قلوبهم تساءلوا فيما بينهم: هل من أحد يراكم؟ وذلك ليتمكنوا من الانصراف.

قوله: {ثم انصرفوا} بعد أن وقف المنافقون على عدم رؤية أحد إياهم انصرفوا متلصصين خزايا يسترقون الخطوات استراق الخائنين، لقد انصرفوا من مجلسهم الذي كانوا فيه لدى نزول القرآن بسبب تغيظهم من سماعه، فهم لا يتحملون سماعه لشدة ما تكنه نفوسهم من كراهية وخشية من افتضاحهم وانكشاف وهم يتغامزون ويضحكون.

قوله: {صرف الله قلوبهم} وهذا دعاء على المنافقين بصرف قلوبهم عما في قلوب المؤمنين - وذلك وعيد لهم بلحوق العذاب بهم - وقيل: الصيغة للخبر بحسب الظاهر، فقد بين الله صرف قلوبهم عن الإيمان جزاء لهم على نفاقهم وسوء مقاصدهم.

قوله: بأنهم قوم لا يفقهون} الباء للسببية، أي بسبب حماقتهم وسوء فهمهم وغفلتهم وعدم تدبرهم لكلام الله، صرفهم الله، أو أنهم انصرفوا عن مجلسهم، لأنهم حمقى لا يتدبرون القرآن ٢٣٠.

١٢٨ - (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ١٢٨ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو توكلت وهو رب العرش العظيم}.

يخاطب الله في الآية العرب ممتنا عليهم بإرساله إليهم رسوله العظيم محمدا صلى الله عليه وسلم، فهو من أنفسهم، أي من جنسهم ومن نسبهم - وهو عربي مثلهم بل هو من خيرهم نسبا وأشرفهم محتدا ٢٣١ - وفي ذلك أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه) - وأخرج مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عن الله تعالى اصطفى من واد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من لود إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم).

قوله: {عزيز عليه ما عنتم} {عزيز}، صفة لرسول {ما} مصدرية، أو بمعنى الذي، وعلى كلا التقديرين فهي فاعل بعزيز - والتقدير: يعز عليه عنتكم، أو الذي عنتموه، أي: عنتهم يسيئه ٢٣٢ - وعلى هذا فمعنى الآية: أنه صعب عليه وشاق عنتكم، أو ما يلحقكم من عنت وهو المكروه والعذاب والضيق الذي تجدون منه العناء والشقاء في حياتكم.

قوله: {حريص عليكم} أي حريص على إيمانكم وهداكم وصلاح حالكم في الدنيا والآخرة.

قوله: {بالمؤمنين رؤوف رحيم} أي ان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الرحمة والشفقة عليكم، وهو عظيم الرأفة بكم، يحرص على إيصال الخير والتوفيق والإحسان إليكم، لتكونوا كرماء سعداء في دينكم ودنياكم.

١٢٩ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

قوله: {فإن تولوا فقل حسبي الله} فإن أعرضوا عن الإيمان بعد الذي جاءهم من الحق والهدى وأبوا إلا الكفر والضلال فقل لهم: {حسبي الله لا إلاه إلا هو} أي أن الله كافي، فهو سبحانه يكفيني من كل شيء - يكفيني معرة المشركين الظالمين ويمنعني من أذاهم مكرهم، ويدرأ عني شرهم وكيدهم، ذلكم الله وحده، الإله القدر الحفيظ {عليه توكلت} أي فوضت أمري إلى الله وحده دون أحد سواه، فهو الإله الحكيم الأعظم، القادر المستعان {رب العرش العظيم} أعظم المخلوقات كافة - ومن أجل ذلك خصه بالذكر - وفي ذلك ما يشير إلى عظيم قدرة الله، وبالغ شأنه، ومطلق سلطانه وجبروته، فهو سبحانه خير الحافظين، وخير من يستجير به المظلومون والمستضعفون من أهل الحق ٢٣٣.

١٠ سورة يونس:

سورة يونس:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات فمدنية - وقد تضمنت السورة صورا شتى من المعاني والحجج والمشاهد التي تثير النفس لتحملها على الانفعال وبالغ التأثر - والتي تستنفر العقل للخروج من إطار الواقع الضيق إلى آفاق الملكوت الرحب.
وفي السورة تنديد بالغ ومستفيض بالشرك والمشركين الذين أشربت نفوسهم حب الأصنام فانحنوا أمامها تقديسا وتعظيما، وهم في ذلك لا يستندون إلى ذرة من تفكير - إلا تفكير السادرين في الضلالة والسفاهة وهوان العقول.
والله جل جلاله يتحدى العرب أولي البلاغة والفصاحة واللسن أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سورة القرآن الحكيم - لا جرم أن ذلك برهان قاطع أبلج على كون هذا الكتاب معجز وأنه منزل من عند الله.
والحديث من الساعة بأهوالها وويلاتها وفظائعها يحتل في هذه السورة مساحة غير قليلة؛ وذلك هو شأن القرآن من أوله إلى آخره في بالغ تركيزه على هذه اليقينية الكونية الكبرى، ألا وهي خبر القيامة ودعوة الناس للإيمان باليوم الآخر.
وتتضمن السورة قصة الطاغية الأثيم فرعون الذي طغى وعتا وتجبر فأهلكه الله وجنوده في البحر، وأنجى الله بني إسرائيل بقيادة نبي الله وكليمه موسى عليه السلام - إلى غير ذلك من الأخبار والمعاني والقصص والأمثال.
١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
قوله تعالى: {الر تلك آيات الكتاب الحكيم ١ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}.
أما قوله: {الر} ففي تأويله عدة أقوال، لعل أجدرها بالاعتبار أنها أسماء للأحرف المعلومة من حروف التهجي أتى بها هنا على سبيل التحدي، وبذلك يكون اسم الإشارة {تلك} عائدا إليها، فيكون تقدير الكلام: هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته أو الإتيان بشيء من مثله إنما تتألف كلماته من جنس هذه الحروف.
قوله: {آيات الكتاب الحكيم} {الكتاب}، يراد به جميع القرآن باعتبار تحققه في اللوح المحفوظ، أو باعتبار نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وإما جميع ما نزل من القرآن حينئذ - و {الحكيم}، أي ذو الحكمة؛ سمي بذلك لاشتماله على الحكمة - و {الحكيم} صفة للكتاب.
٢ - (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)
قوله: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم} الهمزة للاستفهام الإنكاري - والمصدر من {أن أوحينا} اسم كان - وخبرها {عجبا}
١ والمراد بالناس: الكافرون من العرب؛ فقد ذكر عن ابن عباس قوله في ذلك: لما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد؛ فأنزل الله الآية.
وقوله: {إلى رجل منهم} أي بشر من جنسهم ومن مشاهيرهم يعرفونه حق المعرفة في صدقه وشرفه وعظيم خلقه - والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الضالين جعلوا من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أعجوبة يتعجبون منها ويجعلونه لهم موضع استنكار واستسخار - لا جرم أنهم هم موضع الزراية والسفاهة - فهل في بعث رجل كريم من جنسهم ومشاهيرهم لإرشادهم وهدايتهم ما يثير مثل هذا الإنكار والتعجيب لولا أنهم هم الجاهلون والضالون والحمقى؟!
قوله: {أنا أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم} {أن}، تفسيرية، أو مصدرية؛ أي إنذار الناس - أي أخبر

الناس بما يخوفهم عواقب الإدبار والنكول عن الإيمان - {وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم} أطلقت القدم على السبق على سبيل المجاز - والمراد به الشرف والتقدم نحو الرفيع من المنازل.

وقيل: المراد بقدم الصدق: شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم - وقيل: السعادة السابقة للمؤمنين من هذه الأمة في اللوح المحفوظ.

قوله: {قال الكافرون إن هذا لساحر مبين} لما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وبشرهم بادر المشركون من العرب بالقول {إن هذا لساحر مبين} والإشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو في زعمهم المريض ووهمهم الباطل ساحر ظاهر، قد فرق شملهم وجال بين القريب منهم وقريبه - وهذا إشعار بعجز العرب عن مضاهاة القرآن أو معارضته أو اصطناع شيء مثله - فما وجدوا بعد ذلك سبيلا يسلكونه أو ذريعة يستمسكون بها للنيل من القرآن والطعن فيه إلا أن قالوا: إن محمدا لساحر وأن ما جاءهم به سحر - لا جرم أن ذلك دليل أبلج على صدق هذا الكتاب الحكيم - وأنه معجز خارج عن طوق البشر بل إنه منزل من خالق الكائنات والقدر - وما دون ذلك من لغط ليس إلا الهذيان المتلجلج، والإسفاف التافه المهين الذي ينحدر إليه الضالون المضلون من أعداء الإسلام في كل مكان وزمان ٢.

٣ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذالكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون} ما كان ينبغي للمشركين المكذبين أن يعجبوا من إرسال رجل منهم منذرا لهم ومبشرا، فالله جلت قدرته رؤوف بعباده، يريد لهم الخير والهداية والرشاد، وهو قادر على ذلك، بل إنه قادر على كل شيء، فهو مالك كل ما حواه الكون من مخاليق وأشياء، وهو {الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام} واختلفوا في حقيقة المراد بهذه الأيام - فقيل: إن تلك الأيام من أيام الآخرة التي يعدل اليوم الواحد منها ألف سنة مما يعده الناس - وقيل: مقدار ستة أيام من أيام الدنيا - وهو الظاهر، لأنه المعروف لنا.

قوله: {ثم استوى على العرش} هذا القول وأمثاله من متشابه القرآن - وللعلماء في تأويله مذاهب شتى، فقد قيل: الاستواء بمعنى الاستيلاء - وقيل: الاستواء على العرش كناية عن الملك والسلطان - وذلك بيان لجلال ملك الله، وعظيم شأنه، وبالغ قدرته، إذ خلق هاتيك الأجرام العظيمة كافة.

قوله: {يدبر الأمر} في محل نصب على الحال - وقيل: في محل رفع خبر ثان إن - وقيل: مستأنف لا محل له من الإعراب ٣.

قوله: {يدبر الأمر} {يدبر}، من التدبير ومعناه في اللغة: النظر في عاقبة الأمر ٤.

والمراد به هنا: التقدير على أكمل وجه أتمه، فالله سبحانه يقضي أمور الكائنات كلها على الوجه الفائق والأكمل حسبما تستدعيه حكمة الله البالغة.

قوله: {ما من شفيع إلا من بعد إذنه} الشفيع من الشفاعة، ومنها الشفع، وهو يخالف الوتر ٥، فالله وحده أوجد العالم وحده ليس له في ذلك شريك يعنيه أو شفيع له - ولا يجترئ أحد على الشفاعة عنده يوم القيامة إلا بإذنه، إذا كان الشفيع أهلا للاستشفاع، وكان المشفوع له ممن يستحق التشفيع - وقيل: كان ذلك ردا على زعم المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله.

قوله: {ذالكم الله ربكم فاعبدوه} الإشارة في محل رفع مبتدأ - واسم الجلالة وربكم، خبران لذلكم - ويجوز أن يكون اسم الجلالة نعتا لاسم الإشارة - و {ربكم} خبر لذلكم - أو اسم الجلالة خبر للإشارة ذلكم - و {ربكم} بدل منه.

والمعنى المقصود: أن الله الموجد المدبر ذو الجلال والكبرياء لهو المستحق أن تعبدوه وحده دون غيره من الشركاء والأنداد.

قوله: {أفلا تذكرون} ذلك تحضيض بالغ على التذكير والتدبر والادكار بما يحمل العقل والقلب على التصديق والاستيقان والإذعان والانصياع لأمر الله وحده ٦.

٤ - (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ

مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

قوله تعالى: {إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون} الجار والمجرور في محل رفع خبر مقدم - {مرجعكم} مبتدأ مؤخر - {جميعا} منصوب على الحال - وذلك تذكير من الله لعباده بأن مرجعهم ومدرهم جميعا إليه - وقد أكد هذا الإخبار تأكيدا بقوله: {وعد الله حقا} وعدا منصوب على المصدر المؤكد - والتقدير: وعد الله وعدا - وحقا، مصدر آخر مؤكد لهذا المعنى، أي حق ذلك حقا ٧.

قوله: {إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده} بدء الخلق يراد به النشأة الأولى، وإعادته يراد بها البعث من القبور - وقيل: البدء من التراب ثم إعادته إلى التراب، ثم يعيده إلى البعث من التراب - وقيل غير ذلك.

قوله: {ليجزي الذين آمنوا وعلموا الصالحات بالقسط} أي ليثيب المؤمنين بالعدل والنصفة فيبلغ كل منهم جزاءه وأجره بحسب ما قدم من الأعمال الصالحة فلا يلحقهم في ذلك جور ولا حيف.

قوله: {والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم ما كانوا يكفرون} وفي مقابل الجزاء الحسن للمؤمنين يجازي الله الكافرين أشد الجزاء؛ وهو أن يسقوا شرابا من ماء بالغ الحرارة تتقطع منه أحشاؤهم وقلوبهم، وأن يذيقهم العذاب الأليم، وذلك جزاء كفرهم وشرودهم عن الحق وعتوهم عن دين الله.

٥ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ٥ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون} ذلك تنبيه من الله على عظيم قدرته وبالغ علمه وحكمته، ويتجلى ذلك فيما بينه الله من الدلائل القاطعة من آثار صنعه في الكون على أنه الخالق المبدع الحق - ومن جملة خلقه وإبداعه أنه جعل الشمس ضياء - و {ضياء}، إما مفعول ثان على أن الجعل بمعنى التصيير - وإما حال على أنه بمعنى الإنشاء ٨.

والضياء والضوء: ما ينير الأشياء - والضوء أقوى من النور وأسطع؛ فهو الشعاع الصادر عن جرم الشمس بقدرة الله وحكمته - أما النور: فهو الشعاع الصدر عن القمر - والفرق بين الجرمين عظيم وهائل، وذلك من حيث المساحة والحجم، ومن حيث النوع والجوهر؛ فجرم الشمس أكبر من جرم الأرض بمليون ونيف من المرات - لكن القمر أصغر من حجر الأرض بكثير - أما من حيث النوع والجوهر؛ فإنه الشمس عبارة عن كتلة هائلة لاهبة من النار تبلغ حرارتها آلاف الدرجات؛ فهي بذلك تشع من لهيبها المضطرم الضياء والحرارة والإشراق - لكن المقر بمثابة العاكس لضياء الشمس؛ إذ يعكسه على الوجه المقابل له من الأرض ليشع فيه النور الساطع،

قوله: {وقدره منازل} أي جعله ذا منازل، فأول ما يبدوا دقيقا ثم يطرد في الكبر والتزايد حتى يتسق ويصيرا بدرا - وهو كلما ازداد جرمه المنظور، ازداد نوره المنبعث المنساب نحو الأرض لينشر فيها الإشعاع الساكن المتلألئ.

قوله: {لتعلموا عدد السنين والحساب} أي حساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي؛ فإنه بسير القمر تعرف الشهور، وهي في شريعة الإسلام مبينة على رؤية الأهلية - والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية.

قوله: {ما خلق الله ذالك إلا بالحق} خلق الله هذا النظام الكوني المتسق المطرد الرتيب وفقا للحكمة والصواب وإظهارا لقدرته وعظيم صنعه.

قوله: {يفصل الآيات لقوم يعلمون} أي نبين الحجج والدلائل للمتفكرين أولي العقول النيرة الذين ينتفعون بهذه الدلائل والبينات الواضحات التي تكشف عن حكمة الله البالغة وعظيم صنعه وتقديره.

٦ - (إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

قوله: {إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون} اختلاف الليل والنهار يعني تعاقبهما -

فإذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا من غير تأخير في ذلك ولا تخلف {وما خلق الله في السموات والأرض} فقد خلق الله فيهما أجراما وخلائق وأشياء كثيرة لا يمكن استقصاؤها أو عدها؛ فهي كثيرة بالغة الكثرة كأعداد النجوم والكواكب وغير ذلك من مختلف العناصر والأجرام الكونية المبثوثة في هذا الوجود، فضلا عن عجائب كونية أخرى تدير الرأس وتستثير الذهن وتسيطر الجنان والوجدان - وذلك كظواهر الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج والرياح والصواعق والزلازل وغير ذلك من ظواهر مكشوفة، أو تتكشف على مر الزمن - لا جرم أن ذلك الدلائل الساطعة على ربوبية الله ووحدانيته وأنه جل وعلا خالق الأشياء كلها ليس له في ذلك شريك ولا نديد - وهذه حقيقة يستيقنها الذين يتقون الله فيخافون بطشه عذابه ويحذرون سخطه وعقابه، ليتدبروا ويتعظوا ويبادروا بفعل الخيرات واجتناب المناهي ٩.

٧ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

قوله تعالى: {إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ٧ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون} يرجون يعني يخافون، أو يطمعون - فالذين لا يرجون لقاء الله هم الذين لا يخافون عقابه ولا يرجون ثوابه؛ لأنهم غير مؤمنين بالآخرة {ورضوا بالحياة الدنيا} أي رضوا بها عوضا عن الآخرة - وهو ما يشير إلى استغراقهم في طلب اللذات واتباع الغرائز والشهوات.

قوله: {واطمأنوا بها} أي ركنوا إلى الحياة الدنيا ووجدوا فيها سكينتهم ومستقرهم - لا جرم أن هذه صفة الأشقياء الخاسرين من الناس الذين يستشعرون السعادة الكاملة بما تحصل لهم من طيبات الدنيا وزينتها وهم لاهون في الشهوات والسفاسف، ساهون عن الدار الآخرة سهو الخاسرين الشاردين الذين ألهتهم منافعهم وشهواتهم عن طاعة الله وعن التفكر في آياته في الخلق، وما بث من دلائل واضحة وبينات ظاهرة بلجة.

٨ - (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله: {أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون} وألئك مرهم إلى النار؛ فهي مستقرهم ومثواهم وفيها يقيمون لابثين أبدا - وذلك بما قدموه لأنفسهم من الكفر والجحود وما اجترحوه من السيئات والمعاصي ١٠.

٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ٩ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم إن الحمد لله رب العالمين} هؤلاء هم الفائزون الذين صدقوا بقلوبهم، وأيقنوا أن الله حق، وأنه موجد الخلائق والعالمين، وآمنوا بالمرسلين وما أنزل إليهم، ثم قرنوا التصديق بالعمل الصالح.

أولئك {يهديهم ربهم بإيمانهم} أي بسبب إيمانهم في الدنيا سيرشدهم الله يوم القيامة إلى الجنة بعد أن يجوزوا الصراط ليخلصوا بعد ذلك إلى النجاة الأبدية والفوز المستديم السرمد.

قوله: {تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم} في محل نصب على الحال، والمعنى: أن أهل الجنة في الجنة يكونون جالسين أو متكئين على سرر مرفوعة، والأنهار تجري من بين أيديهم ومن تحتهم.

١٠ - (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام} {دعواهم} أي دعاؤهم؛ فدعاؤهم في الجنة أن يقولوا دون سأم ولا ملالة {سبحانك اللهم} أي إبراء لله عن السوء، وتنزيه عن النقائض والعيوب {وتحيتهم فيها سلام} أي يحيي بعضهم بعضا في الجنة بالسلام وهو قول الواحد للآخر: سلمت وأمنت مما صار إليه أهل النار، أو إن ذلك تحية من الله للمؤمنين في الجنة، أو من الملائكة لهم.

قوله: {وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} أي آخر دعاء أهل الجنة أو خاتمته بعد بدئه بالتسبيح هو قولهم: {الحمد لله رب العالمين} وهو الثناء على الله بما هو أهله، لعظيم إفضاله وجليل امتنانه عليهم ١١.

١١ - (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قوله تعالى: {ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم ويعمهون}.
{استعجالهم}، منصوب على المصدر، وتقديره: استعجالا مثل استعجالهم فحذف المصدر وصفته وأقام مقامه ما أضيفت إليه الصفة ١٢.
وهذا إخبار من الله عن عظيم رحمته ولطفه بالعباد، فهو جلت قدرته لا يستجيب لهم إذا ما دعوا على أنفسهم أو أولادهم أو أموالهم حال غضبهم الشديد - وهو سبحانه يعلم أنهم في مثل هذه الحال من التضجر والغضب لا يقصدون بالشر إرادته لأنفسهم أو أولادهم أو أموالهم - ومن أجل ذلك لا يستجيب الله لهم مثل هذا الدعاء كما يستجيب لهم إذا ما دعوا لأنفسهم ولأولادهم وأموالهم بالخير - لا جرم أن الله لطيف رؤوف بالعباد، وهو سبحانه أعلم بأنفسهم من أنفسهم، فهم لضعفهم وقلة اصطبارهم وهوان عزائمهم ويستعجلون الشر لأنفسهم وأولادهم، بالدعاء في ساعة الكرب والشدة إذا ما غشيتهم غاشية من غضب أو سخط أو تضجر، ولهذا تفضل الله بجزيل امتنانه، وكامل رحمته وتلطفه بالعباد، إذ لم يقبل منهم الدعاء إلا ما كان منه في الخير والبركة والنماء، وهو قوله تعالى: {ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم} أي لو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر فيما فيه سوء عليهم في أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوا الله به، لهلكوا، ولعجل الله لهم الموت والفناء.
على أن الإفراط في دعاء المرء على نفسه وولده وماله يوشك أن يفضي إلى الهلكة والمحذور، فينبغي مجانبة الدعاء على النفس والمال والولد في كل الأحوال، وأن يصون المرء لسانه عن التعثر بمثل هذا الدعاء ما استطاع إلى ذلك سبيلا - وفي التحذير من مثل هذا الدعاء روي الإمام مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، ولا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم).
قوله: {فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون} الطغيان، مجاوزة الحد في العصيان ١٣ - و {يعمهون}، من العمه، وهو التحير والتردد ١٤، والفاء في قوله: {فنذر} للعطف على مقدر دل عليه الكلام - والتقدير: فنتركهم ونمهلهم، أي ولا نعجل الشر للمشركين ولا يقضي إليهم أجلهم بالهلكة والإفناء، ولكن نتركهم حائرين في إجرامهم وعصيانهم بعد أن نفيض عليهم بالنعمة فتلزمهم الحجة ويبوءوا بالخسران وسوء المصير ١٥.
١٢ - (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
قوله تعالى: {وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون}.
ذلك وصف من الله للبشر، فإنهم ضعاف العزائم والهمم لا يملكون من قوة الاحتمال والصبر إلا أهون مقدار، فهم قلقون جزعون ضجرون بمس الشر لهم - يستوي في ذلك المشركون والفاسقون والعصاة من الناس، أو غيرهم من ضعفة المسلمين أولي القلوب الخاوية والإيمان الضئيل - إن هؤلاء جميعا إذا أصابتهم الشدة أو نتابهم الجهد دعوا الله مستغيثين به ليكشف عنهم ما أصابهم - يدعونه حال كونهم مضطجعين على جنوبهم أو قاعدين أو قائمين - فلما فرج الله عنهم ما أصابهم من الجهد والبلاء استمروا على طريقتهم الأولى من قبل أن يصيبهم الضر ونسوا ما حل بهم من الكرب والشدة أو تناسوه فلم يشكروا لله الذي فرج عنهم ذلك، بل عادوا للشرك والعصيان والباطل.
وذلك هو ديدن الإنسان المضطرب ذي العزيمة الخائرة والهمة الراقدة الفاترة من ضعفة القلوب والعقيدة - وأولئك الذين يطغي عليهم الهلع ويستحوذ عليهم الذعر والجزع، فيستسلموا للخور والهوان والإياس إذا ما حل بهم البلاء - لكن المؤمنين الصابرين أولي الإيمان المتوطد الراسخ، والعقيدة المستكنة الثابتة لا يتزعزعون ولا يخرون ولا يستسلمون للهوان أو الشيطان، بل إنهم يمضون على حالهم من الاعتصام بحبل الله المتين يرجونه التمكين والتثبيت والتوفيق.
قوله: {كذالك زين للمسرفين ما كانوا يعملون} اسم الإشارة في قوله: {كذالك} عائد إلى مصدر الفعل المذكور بعده، أي مثل ذلك

التزيين {زين للمسرفين} وهو من الإسراف، ومعناه التبذير ومجاوزة الحد، أو ما أنفق في غير طاعة الله ١٦.

١٣ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

قوله تعالى: {ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذالك نجزي القوم المجرمين ١٣ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون} أي لقد أهلك الله الأمم الماضية {من قبلكم} أيها المشركون من أهل مكة - وذلك {لما ظلموا} أي لما كفروا وأشركوا بعد أن جاءتهم رسلهم بالمعجزات والدلائل والحجج.

قوله: {وما كانوا ليؤمنوا} معطوف على قومه: {ظلموا} واللام لتأكيد النفي، أي أن الله يعلم أن هؤلاء لا يؤمنون - والله سبحانه يخوف بذلك كفار مكة مما حل بالسابقين من العذاب ليبادروا بالتصديق والطاعة ويجتنبوا الإشراك والعصيان.

قوله: {كذالك نجزي القوم المجرمين} أي مثل ذلك الجزاء -وهو الإهلاك بسبب الكفر والتكذيب نجزي كل مجرم من المجرمين - وهذا وعيد من الله للكافرين في زمن النبوة، ولكفار مكة على الخصوص.

١٤ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

قوله: {ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم} مفعولان للفعل جعلنا - و {خلائف} جمع خليفة - مثل كرائم ومفردها كريمة وكل من جاء من بعد من مضى فهو خليفة، أي جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة - فالمعنى: استخلفاكم في الأرض بعد القرون (الأمم) الذين أهلكناهم لنختبركم فننظر أتعلمون خيرا أو شرا فنعاملكم على مقتضى أعمالكم - وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فغن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء) ١٧.

١٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قوله تعالى: {وإذ تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقائي نفسي إن اتبع إلا ما يوحي إلي أني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ١٥ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ١٦ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون}.

نزلت في مشركي مكة، وهم خمسة نفر: عبد الله بن أبي أمية المخزومي، والوليد ابن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر - قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى - وقيل: نزلت في المستهزئين، إذ قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألك ١٨.

والمعنى: أنه إذا قرئ المشركون آيات الكتاب الحكيم الذي أنزله الله إليك يا محمد بينات واضحات {قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله} أي قال الذين لا يقنون بوحدانية الله، ولا يصدقون بيوم المعاد ولا بالعبث من القبور {إئت بقرآن غير هذا أو بدله} أي رد هذا القرآن الذي جئتنا به، وجئنا بغيره من نوع آخر أو بدله إلى موضع آخر - والمراد بالتبديل الذي سألوه إياه هو أن يحول الوعد وعيدا، والوعيد وعدا، والحلال حراما، والحرام حلالا - وقيل: أن يسقط من القرآن ما فيه تسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم.

قوله: {قل ما يكون لي أن أبدله من تلقائي نفسي} أي ليس هذا إلي وإنما هو من شأن الله - وما أنا إلا العبد المأمور والرسول المتبع المكلف بالتبليغ قوله: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي} أي ما أتبع في كل ما جئتكم به من أمر ونهي، ومن وعد ووعيد، ومن تحليل وتحريم، إلا ما جاءني به الوحي من عند الله - فلا أتقول عليكم شيئا من عند نفسي.

قوله: {إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} أي قل لهم يا محمد: إني أخشى من الله إن عصيت بمخالفة أمره أو بتغيير أحكام كتابه، أو بدلت شيئا من آياته -عذاب يوم القيامة حيث الأهوال والبلايا وعظائم الأمور.

١٦ - (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله: {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به} أي لو شاء الله وما أرسلني إليكم فتلوت عليكم هذا القرآن، فهو إنما أنزل إليكم وتلوته عليكم بمشيئة الله وإرادته، ولو شاء سبحانه ما {أدراكم به} أي ما أعلمكم به على لساني - و {أدراكم}، من أدراه يدريه، أي أعلمه يعلمه. قوله: {فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} أي لقد مكثت فيكم مدة من الزمن وهي أربعون سنة - وذلك من قبل أن أتلوا عليكم هذا القرآن ومن قبل أن يوحي إلي ربي - وكنتم خلال هذه المدة تعرفونني تمام المعرفة - تعرفونني بالصدق والأمانة، وأنني موصوف بأنني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بهذا الكلام الفذ الذي عجزتم عن معارضته {أفلا تعقلون} أي فيكم عقول تميزون بها بين الحق والباطل فتدركون وتوقنون أن هذا القرآن لا يقدر على انتحاله بشر وإنما هو من عند الله.

١٧ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

قوله: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون} أي ليس من أحد أشد ظلما وعتوا وإجراما ممن يتقول على الله فيزعم أن الله أرسله وهو ليس كذلك، فاختلق الكذب على الله أو افترى عليه باطلا أو كذب بشيء من آياته {إنه لا يفلح المجرمون} وهم الذين أجرموا بتلبسهم بالكفر والجحود واجتراحهم المعاصي، فهم لا ينجحون يوم القيامة، وليس لهم عند الله فلاح ولا نجاه.

ومن أظهر الأدلة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه مرسل من ربه وأن ما تلاه على الناس لهو الحق المنزل من رب العالمين، وما تحمله الروايات العجاب عن هذيان مسيلمة الكذاب، وما كان يندلق من فمه المتعثر الملتات من سقط الكلام وحشوه، ومن خرافات سقيمة مصطنعة لا يهرفها غير الصبية والجاهلين والسفهاء في مجالس اللهو والعبث - لا جرم أن الفرق بين القرآن وما تقوله مسيلمة وافتراه كالفر ما بين الحق والباطل، أو بين الصدق الناصع والزور الملفق المقبوح، أو ما بين الضياء الأبلج في وضح النهار المتجلي والصريم الأسود في حنادس ١٩ الليل المظلم - فقد قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل ٢٠ الناس فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أنه وجهه ليس بوجه رجل كذاب - قال: فكان أول ما سمعته يقول: (يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام).

أما مسيلمة فراح يهذي هذيان الأبله المتطفل وهو يفتري على الله الباطل ويتقول من الكلام الأخرق المهين ما يسخر منه السفهاء والبهاء من الناس - فكيف إذا ما قورن كلامه المتهافت الممجوج بكلمات الله العجيبة من قرآنه الفذ؟! لا جرم أن القرآن تفوح من أحرفه الرفيقة العذاب ريح الإعجاز المذهل - وتتدفق من أسلوبه ونداوة أجراسه ونغمة كل ألوان الجمال والجلال والطلاوة بما يروع السامعين من أولي العقول والنباهة - ويستبين ذلك كله ونحن نستمع ونتدبر بعضا من آيات الكتاب الحكيم وهي تفيض من جرس الحروف وحلاوة النغم الرخي المستطاب ما يشيع في جو التلاوة ظلالا من الانفعال الغامر، والبهر الجياش الهامر - وما ينشر في صدروه السامعين والمتدبرين أصداء نوراية يعز على الكلمات أن تكشف عن حقيقتها.

ومثال ذلك قوله تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة ١ ولا أقسم بالنفس اللوامة ٢ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ٣ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ٤ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ٥ يسئل أينا يوم القيامة ٦ فإذا برق البصر ٧ وخسف القمر ٨ وجمع الشمس والقمر ٩ يقول الإنسان يومئذ أين المفر} وغير ذلك من الأمثلة على روعة النظم القرآني وعلى عجيب أسلوبه المميز الباهر - فأين هذا الكلام المعجز الخارق من لاكم شائه ممتهن انتحله مسيلمة الكذاب، فإذا هو غية السقم والانحدار، وغاية السقوط في الدركات - ومن جملة ذلك قول مسيملة: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين.

وقوله: لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نسمة، تسعى من بين صفاق وحشا.

وقوله أيضا: الفيل، وما أدراك ما الفيل، له خرطوم طويل.

وقوله أيضا: والعاجنات عجنا - والخابزات خبزا - واللاقمات لقما - إهالة وسمنا - إن قريشا قوم يعتدون.

وذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة، وكان صديقا له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد - فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ماذا

أنزل على صاحبكم -يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم- في هذه المدة؟ فقال عمرو: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة - فقال: وما هي؟ فقال: {والعصر ١ إن الإنسان لفي سخر} إلى آخر السورة - ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأنا قد أنزل علي مثله - فقال: وما هو فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر - وسائرك حفر نقر - كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

فإن هذا الكلام الملفق المصطنع لم يخف على عمرو بن العاص وهو مشرك خصيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ سخر منه واستقبحه واستهجنه غاية الاستهجان؛ لفرط ركاكته في مبناه، وبالغ تفاهته في معناه ٢١.

١٨ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ١٨ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون}.

يبين الله حال المشركون السفهاء؛ إذ كانوا يعبدون الأوثان وهي أجسام مركومة عمياء لا تعي ولا تعقل - أو هي أشباح مصنوعة بلهاء لا تسمع ولا تنطق ولا تدري عن نفسها وعميق حولها شيئا - كانوا يعبدونها وهي لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، ويظنون واهمين أنها تشفع لهم عند الله.

قوله: {قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض} أي قل لهم يا محمد: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما؟! فذلك باطل ليس له حقيقة أو وجود - بل إن الله يعلم أن ذلك خلاف ما تزعمون وأن هذه الأصنام التي تعبدونها لا تملك الشفاعة لأحد، بل لا تنفع أحدا ولا تضره - وفي ذلك من التهكم بالمشركين والاستخفاف بعقولهم ما لا يخفى.

قوله: {سبحانه وتعالى عما يشركون} ينزه الله نفسه العظيمة عما ينسبه إليه هؤلاء السفهاء من شرك؛ فهو أعظم من أن يكون له شريك أو نديد.

١٩ - (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

قوله: {وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا} الأمة هنا بمعنى الطريقة والدين، وفي الآية {كنتم خير أمة} أي كنتم خير أهل دين ٢٢.

واختلفوا في تأويل هذه الآية فقيل: كان الناس أهل دين واحد وملة واحدة وهي ملة الإيمان والتوحيد - فكانوا جميعا على الدين الحق، دين الفطرة وهو الإسلام - واختلف القائلون بهذا أنهم متى كانوا كذلك - فقال ابن عباس: كانوا على دين الإسلام في عهد آدم وفي عهد ولده إلى أن قتل أحد ابنيه أخاه.

وقيل: بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح حيث الطوفان وكانوا عشرة قرون، ثم اختلفوا على عهد نوح؛ فبعث الله لهم نوحا.

وقال بعض المفسرين في المراد بأنهم كانوا أمة واحدة: إنهم خلقوا على فطرة الإسلام، ثم اختلفوا في الأديان وهو ما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويشركانه) وقيل غير ذلك.

قوله: {ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون} أي لولا ما سبق في حكم الله إنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه قبل يوم القيامة لقضي بينهم في الدنيا فيما اختلفوا فيه، لكنه سبحانه لم يفعل، وذلك من أجل كلمته التي سبقت والتي لا تتخلف ٢٣.

٢٠ - (وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

قوله تعالى: {ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين} المقصود أهل مكة؛ إذ قالوا: هلا أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم {آية} أي معجزة - وذلك كأن يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيل عنهم جبال مكة ليجعل مكانها

بساتين، أو يكون له بيت من زخرف، أو يحيي لهم من مات من آبائهم، أو نحو ذلك مما سألوه النبي صلى الله عليه وسلم إياه - وليس ذلك إلا من باب التكذيب والجحود والمعاندة واستمراء الباطل - ولو كان هؤلاء المشركون الضالون أسوياء كراما، أو كانوا أولي قلوب مبرأة غير غلف، أو أولي بصائر سليمة ومستقيمة، لاكتفوا بمعجزة القرآن؛ فهي المعجزة الخالدة التالدة التي تفوق كل صور المعجزات، ولئن كان ما طلبوه إنما يدور في فلك الحسن المنظور أو المادة الملموسة مما يزول أو يفني بمرور الزمن الذي وقت فيه كالذي أوتيه النبيون السابقون، فإن معجزة القرآن باقية بقاء الدهر والزمان - بل إن الدهر والزمان يفنيان أو ينقضيان، ومعجزة القرآن لا تفنى ولا تنقضي؛ لأنها بنيت على الجوهر بما يعنيه ذلك من حقائق كونية وعلوم الدين والدنيا - لا جرم أن أسس وقواعد ثوابت لا تزول ولا تتبدد.

قوله: {فقل إنما الغيب لله} أي إنزال مثل هذه الآيات غيب والله وحده هو الذي يختص بعلم الغيب؛ فهو أعلم بالصارف عن إنزال ما سألوه من الآيات وما في ذلك من حكمة هو أعلم بها {فانتظروا إني معكم من المنتظرين} أي انتظروا أيها المشركون المعاندون ما سيقضيه الله بيننا وبينكم وهو تعجيل العقاب للمبطل منا وإظهار المحق.

٢١ - (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

قوله تعالى: {وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما يمكرون} إذا الأولى شرطية، والثانية فجائية - والمعنى: أن الله إذا رزق هؤلاء المشركين فرحا بعد كرب، أو رخاء بعد شدة، أو مطرا بعد قحط وجدب {إذا لهم مكر في آياتنا} أي استهزاء وتكذيب؛ فلم يشكروا نعمة ربهم بل نسبوها إلى أصنامهم أو إلى أنواء الكواكب، كأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا من الكواكب ٢٤.

قوله: {قل الله أسرع مكرا} المكر في اللغة بمعنى الخديعة - والمكر من الله معناه الاستدراج، أو الجزاء على المكر - مكر الله بالعاصي؛ أي جازاه على مكره - أو أمهله ومكنه في الدنيا - وفي الآية: {ومكروا ومكر الله} ٢٥ والمعنى: أن الله أسرع عقابا لكم وتنكيلا بكم؛ إذ دبر لكم العقاب قبل أن تدبروا أنتم كيدكم.

قوله: {إن رسلنا يكتبون ما تمكرون} المراد برسل الله هنا: الحفظة الذين يكتبون أفعال العباد فيحصونها عليهم سواء فيها الكبير والحقير والنقير - فما من شيء إلا ويجده العبد يوم القيامة مكتوبا - والمعنى: أن الله يرسل إليكم الملائكة الحفظة ليكتبوا ما تمكرون في آيات الله من تكذيب واستهزاء وكيد وسوء فعال ونية ٢٦.

٢٢ - (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

قوله تعالى: {هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون}.

ذلك تعديد من الله لنعمه على العباد - ونعم الله كثيرة لا يحصرها العد - وهي نعم مبثوثة في كل الأحوال والآفاق والأزمان، وقد أسبغها الله على الإنسان ليجد فيها عيشه المريح؛ فلا يتعسر، ولا يستضنك أو يشقى.

ومن جملة هاتيك النعم الكثيرة: امتطاء الدواب التي ذللها الله للركوب في البر سواء في ذلك الدواب من الأنعام فيما مضى، أو الحوامل المصنوعة التي تسير بقوة الآلة أو البخار أو النار في الزمن الراهن - سواء منها المراكب التي تسير في البراري والصحاري أو التي تجوب أجواز الفضاء بسرعتها الفائقة المذهلة - أو التي تمخر عباب البحار الهوادر من السفائن ونحوها.

وذلك كله مقتضى قوله تعالى: {هو الذي يسيركم في البر والبحر} أي يحملكم راكبين على ظهور الحوامل في البر، أو على الفلك (السفن) في البحر بعد أن ذلل الله لعملية الركوب السبب في ذلك وهو خاصية الطفو على سطح الماء لتسير عليه السفن المشحونة فلا تغرق - وهي خاصية جعلها الله في الماء وحده دون غيره من المائعات، تذليلا لعملية الركوب، وتمكينا للإنسان من العيش بأمن وراحة

وكلاءة.
قوله: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءتهم الموج من كل مكان} {حتى} لانتهاء الغاية - و {الفلك} يعني السفينة - يستوي في ذلك الواحد والجمع، وهو يقع على المذكر والمؤنث {وجرين بهم} رجع من الخطاب إلى الغيبة للمبالغة - والمعنى: أن السفينة تجري بالراكبين عليها {بريح طيبة} أي لينة الهبوب، فهي ليست شديدة ولا بطيئة {وفرحوا بها} أي فرح الراكبون على ظهر الفلك وهي تسير بهم في رفق ولين - ثم بعد ذلك {جاءتها ريح عاصف} أي تلت الريح اللينة ريح أخرى شديدة تعصف بالسفينة فتثير الخوف لفرط هبوبها الشديد {وجاءهم الموج من كل مكان} الموج ما ارتفع من الماء فوق سطح البحر؛ أي جاء الموج السفينة هادرا متلاطما وهو يرطمها بغلظة واشتداد {وظنوا أنهم أحيط بهم} أي أيقنوا أنهم هالكون لا محالة، وأنهم صائرون على الغرق والموت - وذلك بعد أن أخذ منهم الخوف واليأس كل مأخذ - وفي مثل هذه الساعة المخوفة العجفاء تحيط بمن في السفينة أسباب الرعب واليأس والزلزلة، فلم يلبثوا، إذا ذاك إلا أن يجأروا إلى الله مسغيثين به مستمدين منه النجاة والخلاص وهو قوله: {دعوا الله مخلصين له الدين} دعوا الله وحده وتركوا ما كانوا يعبدون من أصنام وأوثان فلم يدعوها ولم يرجوها - وذلك لما شافوا على الهلاك وأيقنوا أنهم مغرقون؛ فلم يجدوا عن الرجوع إلى الله وحده مناصا، ويستفاد من ذلك أن الإنسان مجبول على الرجوع إلى الله كلما أحاطت به الشدائد أو أحدقت به الأهوال - وفي مثل هذه الساعة التي تروعه فيها المخاطر يتحرر من ربقة العبودية لغير الله، فيستسلم لله وحده، ويتوجه إليه بالدعاء الخالص طلبا للسلامة والنجاة - ويستفاد كذلك أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله وحده دون سواه من الشركاء والأنداد - هكذا خلق الإنسان، فقد جيء به ليكون على فطرة التوحيد الخالص والإيمان بالله وحده دون غيره من الآلهة المختلقة والمصطنعة - وما كان الإنسان إلا ليظل على هذا السمت من صدق الإيمان وسلامة الفطرة وتمام التوجه إلى الله وحده لولا الشياطين الماكرة الخبيثة التي تكيد للإنسان كيدا والتي تمكر به في الليل والنهار وفي غاية الخداع والتضليل والخيانة والغش لتجتاله عن دين الحق إلى ملل الضلال والكفر والخطيئة على اختلاف ضروبها وألوانها - وقد اجتالته فعلا!!
قوله: {لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين} للام موطئة للقسم، والإشارة في قوله: {هذه} عائدة إلى الورطة التي وقعوا فيها، وهي مشارفة الهلاك في البحر بعد أن عصفت بهم الأمواج حتى كادت السفينة تتبدد؛ ليكونوا من الغارقين - فأقسموا لله في هذه الحال المرعبة المؤسة: لئن أنجاهم مما هم فيه من مشارفة الموت {لنكونن من الشاكرين} للام جواب القسم؛ أي لنكونن ممن يشكر نعمة الله فلا ننساها البتة.
٢٣ - (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله: {فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق} {إذا}، الفجائية - و {يبغون} من البغي وهو العدوان ومجاوزة الحد والسعي بالفساد ٢٧، أي لما استجاب الله دعاءهم فأنقذهم مما هم فيه من البلاء المحدق إذا هم يسعون في الأرض بالفساد، فيعودون إلى الشرك وتقديس الأصنام وفعل المعاصي والسيئات {بغير الحق} مبالغة في إظهار فسقهم وعتوهم وعنادهم.
قوله: {يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم} {بغيكم}، مبتدأ - و {على أنفسكم} خبره ٢٨، أي أن اعتداءكم وفسادكم في الأرض إنما وباله عائد عليكم وحائق بكم.
قوله: {متاع الحياة الدنيا} {متاع}، منصوب من وجهين، أحدهما: أن يكون منصوبا بفعل مقدر، وتقديره: يبتغون متاع الحياة الدنيا.
وثانيهما: أن يكون منصوبا على المصدر بفعل مقدر - وتقديره: تمتعوا متاع الحياة الدنيا.
ويجوز فيه الرفع، من وجهين كذلك، أحدهما: أن يكون خبرا بعد خبر لقوله: {بغيكم}.
وثانيهما: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هو متاع الحياة الدنيا ٢٩ - وقيل غير ذلك.
قوله: {ثم إلينا مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون} ثم معادكم بعد هذا المتاع إلى الله؛ إذ تصيرون إليه لتناقشوا الحساب والمساءلة عما أفضتم فيه من تفريط ونسيان - وحينئذ يخبركم الله بكل ما قدمتموه من المعاصي في دنياكم فيجازيكم عليها - وفي ذلك وعيد شديد وتهديد

مفزع ينذر به الله الجاحدين المفرطين الذين يتبعون الشهوات في حياتهم الدنيا، ويتيهون ساردين في الضلال والغفلة ٣٠.
٢٤ - (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلنها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ٢٤ والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} أي أن هذه الحياة الدنيا التي تباهون وتفاخرون بها وبزينتها وما فيها من أموال ومتاع، وما حوته من تنغيص ونصب وكروب، وما تضمنته من انختام الزوال والفناء، إنما مثلها كمثل المطر النازل من السماء إلى الأرض ليختلط بترابها اختلاطا حيث ينبت به الثمار والزرع وما سواه مما يأكل الناس، أو تأكله الأنعام كالكلأ والمراعي.

وهذه هي الدنيا: زينة وأموال وبهجة، ومفاخرات بالبنين والمراكز والوجاهات، فضلا عما يتخللها من ألوان الهموم والكروب والأحزان، ثم لا تبث بعد أمد قصير خاطف أن تصير إلى النهاية القطيعة - أو الحتمية التي لا مفر منها ولا مندوحة عنها - وتلك هي حتمية الموت والفراق - فراق الأهل والمال والصحب - فراق البيوت والعشيرة والأوطان - فراق الذكريات والأوطان - فراق الذكريات والأحباب والخلان.

قوله: {حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا} الزخرف، معناه الذهب، ثم يشبه به كل مموه - والمزخرف، المزين ٣١؛ أي أخذت الأرض لونها الحسن المزين؛ إذ ازدانت بمختلف أنواع النبات كالحبوب والثمار والأزهار وغير ذلك من وجوه الغلة والثمار والزرع مما تتزين به الأرض فتزداد نضارة وبهاء، وأيقن أهلها أنهم قادرون على جنيها وحصادها والانتفاع بها، عندئذ جاءها أمر الله بهلاكها وإتلافها، إما ليلا أو نهارا.

قوله: {فجعلنها حصيدا كأن لم تعن بالأمس} الحصيد، معناه المستأصل ٣٢ - أي جعل الله زرعها مقطوعا مقلوعا من أصوله {كأن لم تغن بالأمس} أي كأن لم تكن هذه الزروع والثمرات نابتة على ظهر الأرض بالأمس - وقوله: {لم تغن} من غني بالمكان؛ إذا أقام به - والمعاني في اللغة بمعنى المنازل، أو المواضع التي كان بها أهلوها ٣٣.

قوله: {كذالك نفصل الآيات لقوم يتفكرون} أي مثل هذا التفضيل عن حقيقة الدنيا وأنها زينة عاجلة وزخرف مموه عابر فما تلبث أن تزول، نبين لكم الآيات لكي تتدبروا وتعتبروا - أو نبين ونوضح الدلائل والحجج لأولي النهى والأبصار الذين يتفكرون ويتدبرون في خلق الله وفي عجائب قدرته.

٢٥ - (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: {والله يدعو إلى دار السلام} بعد أن بين الله هوان الدنيا وزينتها وأنها دار فناء وفتن، فحذر من الاغترار بزخرفها أو الركون إليها والرضى بها -بعد ذلك رغب الناس في دار السلام وهي الجنة التي أعدها الله لبعاده المتقين الصالحين؛ فهي دار أمن ونجاة ورحمة وخلود - من دخلها أمن الموت أو الزوال، وسلم من الهموم والأحزان - لوم يأت عليه المصائب والمكدرات - تلك الدار التي يدعوا الله عباده للحرص على الفوز بها، وطريق ذلك الإيمان الصحيح، والطاعة المخلصة لله وحده، والتزام دينه ومنهجه، قوله: {ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} أي يوفق الله من يشاء إلى الاسلام وهو الصراط المستقيم؛ فالدعوة إلى دار السلام عامة، والهداية خاصة بمن شاء أن يهديه ٣٤.

٢٦ - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا ترهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}.

الذين أحسنوا، وهم المحسنون الذين قاموا بما أوجبه الله عليهم خير قيام، وكفوا عما نهاهم عنه من المعاصي والآثام - و {الحسنى} معناها هنا الجنة.
والزيادة، يراد بها النظر إلى وجه الله الكريم - وهو قول كثير من السلف والخلف منهم: أبو بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وصهيب وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصري وقتادة والسدي ومجتهد وعطاء والضحاك - وقد ورد في هذا جملة أخبار منها: ما رواه مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولن: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفي رواية: ثم تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}.
وأخرج الترمذي عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين في كتاب الله في قوله: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (النظر إلى وجه الرحمن) وعن قوله: {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون} قال: (عشرون ألفا).
وروي الإمام أحمد عن صهيب (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} وقال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ونادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند اله موعدا يريد أن ينجزكموه) فيوقون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: (فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).
وقيل: الزيادة: هي أن تضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك - وذلك كله من جملة ما امتن الله به على المحسنين من الخيرات والبركات والرضوان في الجنان - وفوق ذلك كله وأفضله النظر إلى وجهه الكريم - وهذه هي الزيادة - وهي أعظم من كل ما أعطوه في الجنة - بل إن النظر إلى وجه الله الكريم يوم القيامة يفوق كل عطاء وإحسان؛ بل إنه خير من كل خير - فمامن خير ولا بر ولا فضل ولا جزاء إلا كان دون النظر إلى وجه الله في الجنة - والنظر إلى نور وجهه وإشراقه الساطع - لا جرم ينير القلوب، ويثير فيها الحبور والبهجة، وينشر فيها التحنان والاستئناس والرضى والإحساس بكامل السعادة العلوية - لا جرم أن هذه الزيادة خير ما استكن في العالمين من خيرات - وخير ما يطرأ على قلب البشر من وجوه السعادة والبركة والسرور - جعلنا الله من أهل الحسنى والزيادة.
قوله: {ولا يزهق وجوههم قتر ولا ذلة} هؤلاء المؤمنون الذين أعد الله لهم الجنة وزيادة ينجون من كل بلية أو مهانة أو كرب يوم القيامة مما يصيب الظالمين في المحشر؛ فهم لا يغشى وجوههم ما يغشى وجوه الكافرين والعصاة من قتام وسواد في عرصات المحشر حيث الاغتمام والهوان والشدة لفرط ما يصيبهم في هذا اليوم العصيب من رعب وتحسر وإياس، وكذلك لا تغشى وجوههم {ذلة} وهي المذلة والهوان والصغار.
قوله: {أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} هؤلاء المحسنون الذين سبق وصفهم هم أهل الجنة اللابثون فيها أبدا، الماكثون يتنعمون في خيرات لا يتحولون عنها ولا هم عنها مبعدون ٣٥.
٢٧ - (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
قوله تعالى: {والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما هم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} بعد أن بين حال المؤمنين المحسنين وما أعده لهم من الحسنى زيادة، فإنه يبين في مقابلة ذلك حال المشركين والعصاة الذين اجترحوا السيئات وعملوا المعاصي والموبقات ووقعوا في الضلال والشرك؛ فهؤلاء {جزاء سيئة بمثلها} {جزاء} مرفوع بالابتداء - {بمثلها} خبر المبتدأ - والباء زائدة - والتقدير: وجزاء سيئة سيئ مثلها ٣٦.
والمراد بالمثلية هنا: أن جزاء المشركين والعصاة من العذاب مماثل لما قدموه من الذنوب والمعاصي دون زيادة؛ فهم بذلك غير مظلومين - وذلك هو العدل المطلق من الله في مجازاته للعصاة بمثل ما يستحقونه من العذاب - وفضله البالغ في مجازاة المؤمنين المحسنين زيادة

مما يستحقون.
قوله: {وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم} أي تغشى وجوههم علائم الخزي والهوان والافتضاح؛ إذ ليس لهم حينئذ من حافظ يمنعهم من العذاب، ولا واق يقيهم مما هو واقع بهم يوم القيامة.
قوله: {كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما} {قطعا}، بفتح الطاء: فهي جمع قطعة، و {مظلما} منصوب على الحال من الليل، فيكون التقدير: أغشيت وجوههم قطعا من الليل في حال ظلمته - وهذه قراءة عامة قراء الأمصار - وقرئ {قطعا} بإسكان الطاء فتكون {مظلما} صفة لقوله: {قطعا} ٣٧ وهذا إخبار عما يغشى وجوه الكافرين والقيامة من السواد والقتر والكلوح كأنما ألبست قطعا من سواد الليل المظلم.
قوله: {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} هؤلاء الذين سبقت صفتهم من الشرك - وفعل المعاصي هم أهل النار - فهم ماكثون فيها غير مبعدين عنها ولا مبارحين ٣٨.
٢٨ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ)
قوله تعالى: {ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاءهم ما كنتم إيانا تعبدون ٢٨ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلون ٢٩ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون} {نحشرهم} أي نجمعهم، من الحشو وهو الجمع {جميعا} حال؛ أي يحشر الله جميع أهل الأرض من جن وإنس ومؤمن وكافر، أو بر وفاجر - فكلهم مجموعون لهذا الميقات الموعود من يوم القيامة في أرض المحشر - وحينئذ يقول الله للمشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى فعبدوهم {مكانكم أنتم وشركاء كم} {مكانكم} اسم فعل أمر بمعنى الزموا واثبتوا مكانكم - و {انتم}، توكيد للمضمر في {مكانكم} و {وشركاؤكم} معطوف عليه كقوله: {اسكن أنت وزوجك الجنة} ٣٩ والمراد بالشركاء هنا كل معبود للمشركين كيفما كان - سواء كان الأصنام أو الشياطين أو الملائكة أو عزيرا أو المسيح ابن مريم - قوله: {فزيلنا بينهم} {فزيلنا}، أي فرقنا، ومنه {تزيلوا} أي تباينوا وتفرقوا - وزيله، فرقه - والمزايلة: المفارقة - والتنزيل، معناه التباين ٤٠ والمعنى: فرقنا وقطعنا ما كان بين المشركين وما كانوا يعبدون من الشركاء - أو قطعنا ما كان بين الفريقين من التوصل، وباعدنا بينهم بعد ما كان بينهم من الجمع في الموقف في الدنيا.
قوله: {وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون} ينطلق الله شركاءهم من الأصنام أو ما كانوا يعبدون ليقولوا لهم موبخين مبكتين موئسين: ما كنا نشعر بأنكم تعبدوننا، وما أمرناكم بعبادتنا؛ أي أن الشركاء سواء كانوا من الأوثان أو الشياطين أو غيرهم قد أنكروا عبادة المشركين إياهم وتبرءوا منهم، كقوله: {سيكفرون بعبادتهم ويكونوا عليهم ضدا} وذلك لما ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم أو الأصنام التي عبدوها أنهم هم الذين أمروهم بعبادتهم، فردوا مقالتهم، بأنا ما أمرناكم بذلك، وما كنا مشعر بعبادتكم هذه؛ ولكنكم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم.
٢٩ - (فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)
قوله: {فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم} {شهيدا}، تمييز ٤١ أي تقول الأصنام للمشركين يوم القيامة مكذبة لهم: كفى الله شهيدا بيننا وبينكم أيها المشركون {إن كنا عن عبادتكم لغافلين} {إن} مخففة من المثقلة؛ أي حسبنا الله شاهدا بيننا وبينكم؛ فهو يعلم أنا ما علمنا بعبادتكم لنا ولا أمرناكم بها وأنا كنا عنها غافلين - وقيل: {إن} بمعنى ما النافية؛ أي ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين لا نبصرها ولا نسمع بها ولا نعقلها؛ إذ كنا جمادا.
٣٠ - (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)
قوله: {هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت} {تبلوا} بمعنى تعلم؛ فإنه في ذلك الموقف من عرصات يوم القيامة وأهوالها تعلم كل نفس جزاء عملها الذي قدمته في الدنيا - وقيل: تبلو بمعنى تتلو؛ أي تتبع - فكل نفس تتبع ما قدمته في الدنيا لهذا اليوم - وقيل: تبلو بمعنى تقرأ؛ أي أن كل إنسان يقرأ كتاب أعماله من الحسنات والسيئات يوم القيامة.
قوله: {وردوا إلى الله مولاهم الحق} أي راجع هؤلاء المشركون إلى الله الحق - وهو إلههم وخالقهم ومالكهم الذي لا ريب فيه

{وضل عنهم ما كانوا يفترون} أي بطل افتراؤهم وما كانوا يتخرصون من الباطل والكذب على الله، إذ كانوا يزعمون أن هذه الأوثان شركاء لله وأنها تقربهم من الله زلفى ٤٢.

٣١ - (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)

قوله تعالى: {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ٣١ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ٣٢ كذالك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون}.

في هذه الآيات يرد الله على المشركين ليقرر الحجة عليهم: سواء منهم المعترف بوحدانية الله وربوبيته ثم سادر في اتخاذ الأنداد مع الله وعبادة غير الله من مختلف الآيلة، أو غير المعترف بوحدانيته سبحانه ولا بربوبيته، فقد سيقت من أجلهم البينات والدلائل التي يحتج الله بها عليهم، وفيها ما يكفي من أدلة البداهة والحس والمنطق على أن الله حق، وأنه موجود الوجود - ولذلك قال: {قل من يرزقكم من السماء والأرض} وذلك برهان ظاهر على وجود الله وعلى قدرته المطلقة - وذلك يستبين من عملية الزرع برمتها بدءا وبنزول المطر من السماء ليختلط بثرى الأرض فينبث به الزرع والشجر، إذ ينمو رويدا رويدا حتى الإزهار والإثمار ليأكل منه الناس ويستمتعوا بع استمتاعا.

فما كان لمثل هذا الحدث الكوني المدهش أن يقع على هذا النحو المتكامل العجيب لولا الله الذي برأ عملية الإنبات كلها وقدرها تقديرا.

قوله: {أمن يملك السمع والأبصار} وهاتان حاستان عظيمتان ومقدورتان للإنسان جيء بهما على هذه الكيفية الدقيقة المقدورة، وعلى هذه الصورة التي تليق بالإنسان فتكسبه جمالا وحسنا في الهيئة والمنظر سواء في ذلك السمع وأداته الأذان، وكذلك البصر وأداته العين الباصرة، فأنى لهاتين الأداتين وما تفضيان إليه من طاقة السمع والبصر أن تكونا على هذه الصورة البديعة العجيبة لولا الخالق المقتدر الحكيم؟

قوله: {ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي} وكيفية ذلك موضع تفصيل واختلاف بيناهما سابقا - وجملة ذلك: أن المراد هو إخراج النبات الحي من الأرض الميتة - وقيل: إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن؛ فالإيمان حياة تنبض بالخير والبركة والعطاء - وفي مقابله الكفر فإنه موات لا يفضي إلا للشر والفساد والرذيلة.

وقيل: إخراج العالم من الجاهل، والجاهل من العالم - ووجه ذلك: أن العلم حياة؛ فهو يفضي إلى الهدى والرضى والاستقامة - أما الجهل فيفضي إلى العماية والتعثر والزلل - إن الذي أوجد هذا وهذا لهو الله سبحانه - وهل من إله غير الله يقدر أن يخلق من البعاد أناسي ينطقون ويسمعون ويبصرون ويسعون في الأرض، فضلا عن كونهم صنفين كل واحد منهما جيء به من الصنف الآخر؟!

قوله: {ومن يدبر الأمر} أي من يلي تدبير أمر السماء والأرض وما فيهن، ويدبر أمر العالم من إنس وجن وغيرهما من الخلائق؟ قوله: {فسيقولون الله} أي سيكون جوابهم أن الذي يفعل كل ذلك هو الله؛ لأنهم يعلمون أن الله هو الحق، وهم يعترفون بهذه الحقيقة لكنهم معاندون مكابدون.

قوله: {فقل أفلا تتقون} ما دمتم تقرون وتعترفون أن الله حق، وأنه خالق كل شيء ثم أنتم تعبدون من دونه آلهة أخرى، أفلا تخشون عقاب الله وتحذرون على أنفسكم بطشه وانتقامه؟.

٣٢ - (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

قوله: {فذالكم الله ربكم الحق} هذا الذي يفعل ما بيناه فهو الرزاق من السماء والأرض، وواهب السمع والبصر، ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ومدبر المر كله في العالمين، لهو الله ربكم الحق الذي لا شك فيه، والذي لا إله غيره - وما من إله مزعوم غيره إلا الافتراء والباطل - لذلك قال: {فماذا بعد الحق إلا الضلال} فأي شيء سوى الحق إلا الضلال؟ وهل من شيء غير الحق إلا

الباطل؟.
قال الرازي في هذا الصدد: إذ ثبت أن هذا هو الحق، وجب أن يكون ما سواه ضلالا؛ لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين - فإذا كانا أحدهما حقا، وجب أن يكون ما سواه باطلا ٤٣.
قوله: {فأنى تصرفون} أي كيف تصرفون عن عبادة الله الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، إلى عبادة أوثان جامدة لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنكم شيئا؟
٣٣ - (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: {كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون} أي كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، أو كما أنهم مصرفون عن الحق {حقت كلمت ربك} وكلمته، تعني حكمه أو قضاءه؛ فقد حاق على الذين خرجوا عن صراط الله وأبوا إلا العتو والكفر {أنهم لا يؤمنون} وهذه الجملة في محل رفع بدل من {كلمت ربك} أي حق عليهم انتفاء الإيمان - وقيل - في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر عدم إيمانهم - وقال الزمخشري: أراد بالكلمة: العدة بالعذاب وقوله: {أنهم لا يؤمنون} تعليل؛ أي: لأنهم ٤٤.
٣٤ - (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)
قوله تعالى: {قل هل من شركاء كم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيدوه فأنى يؤفكون ٣٤ قل هل شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ٣٥ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما تفعلون}.
بعد أن أنكر على المشركين صرفهم عن الحق وعبادة الله احتج على حقية التوحيد وبطلان الشرك، وعلى أن هذه الآلهة المختلفة لا تضر ولا تنفع، ولا تملك أن تفعل شيئا - والاستفهام هنا يراد به التبكيت والتقريع - وهو يتضمن التأكيد الجازم على أن هذه الأصنام ليس بمستطاع لها أن تبدأ الخلق في نشأته الأولى ثم تعيده بعد الموت والفناء مرة أخرى - بل إن الله لهو القادر على أن يبدأ الخلق ثم يبعثه من جديد يوم القيامة.
قوله: {قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده} وهذه الجملة جواب لقوله: {هل من شركاء كم من يبدؤا الخلق} ٤٥ - وهو جواب صريح واضح وفيه التأكيد الجازم على أن عملية الخلق والإعادة إنما هي منوطة بقدرة الله وعظيم جلاله وسلطانه - ولا تملك الآلهة والأرباب المزعومة والمصطنعة أن تفعل شيئا من ذلك.
قوله: {فأنى تؤفكون} من الأفك -بفتح الهمز- أفكه يأفكه أفكا؛ أي صرفه وقلبه، أو قلب رأيه قلبا ٤٦؛ أي كيف تصرفون وتقلبون عن اتباع الحق لتركنوا إلى الضلال بعبادة الآلهة المزعومة والمفتراة؟
٣٥ - (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
قوله: {قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق} وهذا احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الشرك، وعلى أن هذه الأصنام الجوامد الصم لا تملك أن تهدي أحدا، ولا تدري عن أمر الهداية والرسالات والكتب المنزلة شيئا - وهذه من صفات الإله وأعظم دلائل الألوهية - لا جرم أن الأصنام والأوثان وغير ذلك من الأرباب المزعومة أعظم ما تكون بعدا عن هذه الصفات.
قوله: قل الله يهدي للحق} هداية الناس للحق وتوفيقهم إلى الصواب من شأن الله وحده وليس من شأن الأصنام والأنداد المزعومة، بل الله سبحانه إنما يهدي الحائرين والغافلين إلى صراطه المستقيم.
قوله: {أفمن يهدي إلى الحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي} الاستفهام للتقرير وإلزامه الحجة - والفاء للترتيب الاستفهام على ما سبق - والمعنى: من أحلق بالاتباع، من يهدي غيره للحق، أم الذي {لا يهدي} ويهدي، بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال - وأصله: يهتدي - وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين ٤٧ أي الذي لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره.
وثمة قراءات أخرى للكلمة منها: يهدي، بفتح الهاء وتشديد الدال، ومنها: يهدي، بسكون الهاء وتشديد الدال.

ومنها: يهدي، بكسر الهاء والياء وتشديد الدال - وقرئت بغير ذلك.
قال الزمخشري في تأويل هذه الآية: إن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما لطف بهم ووفقهم وأولهمهم وأخطر ببالهم وقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتهم أندادا لله أحد من أشرافهم كالملائكة والمسيح وعزيز يهدي إلى الحق مثل هداية الله؟ ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي؛ أي لا يهدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله ٤٨؟.
قوله: {فما لكم كيف تحكمون} {فما لكم}، استفهام للإنكار والتعجيب - و {كيف تحكمون}، استفهام آخر؛ أي كيف تتخذون هؤلاء الصم العمي البكم شركاء تعبدونهم من دون الله وأنتم تعلمون أنهم لا يملكون هداية أنفسهم فضلا عن عدم هداية غيرهم؛ فكيف تحكمون بالباطل؟!
٣٦ - (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)
قوله: وما يتبع أكثرهم إلا ظنا} أي لا يتبع أكثر هؤلاء المشركين في إقرارهم بألوهية الأصنام وأن هذه الأصنام شفعاء عند الله غلا الظن، وهو الشك والريبة والتخريص - وقيل: أكثرهم يعني جميعهم.
قوله: {إن الظن لا يغني من الحق شيئا} أي الشك والحدس والتخمين لا يغني شيئا من اليقين ولا يقوم مقامه في شيء.
قوله: {إن الله عليم بما تفعلون} الله يعلم ما يصدر عن هؤلاء الضالين الواهمين الخراصين من إشراك ومفاسد وأفعال ذميمة.
٣٧ - (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٣٧ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}.
أي ما كان ينبغي لهذا القرآن يتخرصه أو ينتحله أحد من المخاليق، سواء فيهم الجن والإنس أو الملائكة؛ فهذا القرآن لا يقوي على معارضته والإتيان بمثله أحد، لأنه معجز تمام الإعجاز بكل ما تعنيه كلمة الإعجاز من معنى؛ فهو في روعة أسلوبه وسمو مستواه معجز - وهو في حلاوة نغمة وجمال إيقاعه وجرسه معجز - وهو في بالغ إيجازه واتساق مبناه وعظيم معناه معجز - لا جرم أن القرآن في كل أوصافه هذه معجز، مثلما هو معجز في عجيب مضامينه وما حواه من مختلف المعاني والأخبار والأحكام والدلائل والمشاهد والقصص - كل ذلك في كتاب دون الوسط في حجمه وسعته - وذلكم العجاب الباهر الذي يستوقف الحس والبصر ويثير الغرابة والنظر! كتاب دون الوسط في حجمه وسعته قد حوى أخبار الدنيا والآخرة وأخبار الأولين والآخرين - وشمل عموم العلوم والفنون والمعارف في مختلف قضايا العقيدة والتشريع والأخلاق والتاريخ والحكمة والسلوك والبلاغة، وغير ذلك من علوم الطبيعة والأحياء والفلك.
فأنى لكتاب دون الوسط في حجمه وسعته أن يتسع لكل هاتيك القضايا العلمية والفقهية والتربوية والفكرية والكونية لولا أنه معجز وأنه من عند الله؟!
إن ما حواه القرآن من علوم في الحياة وفي الدين والدنيا ولا تتسع لاحتوائه ملايين المجلدات والكتب - لكن القرآن بإيجازه الفذ قد اتسع لعامة العلوم على اختلاف فنونها ومناحيها - وذلك بأسلوبه الباهر الخلاب، الذي يروع الفؤاد والجنان، ويستثير الحس والذهن والوجدان؛ ذلكم هو الكلام الرباني المعجز، ذلكم هو القرآن.
قوله: {وما كان القرآن أن يفترى من دون الله} أي ما ينبغي لهذا القرآن المعجز أن يتخرصه أو يختلقه كائن أو مخلوق - وإنما أنزل هذا القرآن من عند الله، أنزله على عبده ورسوله النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم - قوله: {ولاكن تصديق الذي بين يديه} {تصديق} منصوب؛ لأنه خبر كان المقدرة - والتقدير: ولكن كان هو تصديق الذي بين يديه ٤٩؛ أي أنزل الله القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على أنبياء الله كالتوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من كتب الله - فقد بشرت هذه الكتب السابقة بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكان مجيئه وما أنزل عليه من كتاب الله الحكيم تصديقا لتلك الكتب في هذه البشارة - وهو كذلك تصديق لها فيما تضمنته من الدعوة للتوحيد والإيمان بيوم القيامة.

قوله: {وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} تفصيل، معناه تبيين - والكتاب اسم جنس، وهو يراد به الكتب السماوية المتقدمة؛ أي جاء هذا القرآن تبيينا لما في الكتب المتقدمة مما حوته من فروض وشرائع - وقيل: تبيين ما كتب أو فرض من الأحكام والشرائع مما في القرآن نفسه - فيكون المراد بالكتاب القرآن.

قوله: {لا ريب فيه من رب العالمين} الهاء عائدة على القرآن؛ أي ريب ولا مرية في أن هذا القرآن منزل من عند الله رب العالمين.

٣٨ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {أم يقولون افتراه} أم للاستفهام الإنكاري - وقيل: أم المنقطعة بمعنى بل والهمزة؛ أي بل أيقولون افتراه واختلقه - وقيل: أم بمعنى الواو - والتقدير: ويقولون افتراه - وقيل: الميم زائدة، والتقدير: أيقولون افتراه - والاستفهام والتوبيخ ٥٠.

قوله: {قل فاتوا بسورة مثله} وهذه المرحلة الثالثة من مراحل التحدي للعرب، وهم الفصحاء والبلغاء والعظماء، وفيهم مصاقع الخطابة ونوابغ البيان واللسن، أولئك الذين كان جل مفاخراتهم في جودة النظم وبراعة الكلام، وفي قرظ الشعر على اختلاف ضروبه وأجناسه - وكذا الإبداع في فن الخطابة والسجع - لقد تحداهم وهم على هذه الحال من أصالة اللغة وبراعة البيان أن يأتوا بمثل سورة واحدة من سور القرآن، وذلك بعد أن تحداهم أن يأتوا بمثله كله، ثم تحداهم بعد ذلك أن يأتوا بمثل عشر سور من سوره إن استطاعوا - ولما لم يقدروا على ذلك وأعلنوا أنهم عاجزين ناكصون، تحداهم سبحانه أن يأتوا بمثل سورة واحدة أيا ما تكون السورة؛ سواء كانت من طوال السور، أو أقصر قصارها كسورة الكوثر.

قوله: {وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} أي استعينوا بجميع من تستطيعون دعاءه لكي يظاهروكم ويعينوكم سواء من قبائل العرب أو من آلهتكم التي اتخذتموها شركاء لله، أو من الجن إن استطعتم أن تخاطبوهم وتستعينوا بهم - وهو قوله: {من دون الله} أي ادعوا كل من سوى الله ليعينوكم على الإتيان بسورة من مثل سورة القرآن {إن كنتم صادقين} أي في زعمكم أن هذا القرآن قد افتراه محمد ٥١.

٣٩ - (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله كذالك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} {بل}، حرف إضراب؛ فقد أضرب عن الكلام الأول وانتقل إلى بيان مسارعتهم في تكذيب القرآن قبل أن يعوه ويتدبروه ويدركوا حقائقه وأحكامه ومعانيه؛ أي أنهم كذبوا بالقرآن وهم يجهلون تفسيره ومعانيه.

قوله: {ولما يأتيهم تأويله} معطوف على قوله: {لم يحيطوا بعلمه} أو أن هذه الجملة في محل نصب على الحال؛ أي كذبوا بالقرآن حال كونهم لم يعرفوا عاقبة تكذيبهم من نزول العذاب بهم - وعلى هذا فمعنى {ولما يأتيهم تأوليه} أي لم يأتيهم بعدما يؤول إليه ذلك الوعيد من الله الذي توعدهم به في هذا القرآن.

قوله: {كذالك كذب الذين من قبلهم} الكاف صفة لمصدر محذوف - تقديره: مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة - لقد كذبوا بوعيد الله لهم على تكذيبهم وجحودهم وتمردهم {فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} أي انظر ما حل بهم من سوء العواقب؛ إذ أهلك الله بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وبعضهم بالمسخ، وبعضهم بالتدمير والإمطار بالحجارة - والمقصود تخويفهم وتحذيرهم من أن يحل بهم من عذاب الدنيا وخزيها ما حل بأولئك السابقين في الكرف والعصيان ٥٢.

٤٠ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: {ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين} {يؤمن}، فعل يصلح للحال والمستقبل - والمراد به هنا المستقبل؛ أي أن من هؤلاء المشركين من يصدق بهذا القرآن في المستقبل؛ وذلك بأن يتوب عن كفره ليدخل في حومة الإيمان واليقين - ومنهم من يبقى مصرا على كفره وجحوده حتى يموت كأبي طلب وأبي لهب وغيرهما من أئمة الشرك.

وقيل: إن ذلك عام في جميع الكافرين؛ فإن الله تعالى يعلم في الأزل أن في الكافرين من سيفيء إلى دين الله وإلى عقيدة التوحيد ليحشر

يوم القيامة في زمرة المؤمنين والمتقين - ويعلم أن فيهم من يظل ساردا في ضلاله وعصيانه ليفضي بعد ذلك إلى الموت وهو كافر خاسر.
قوله: {وربك أعلم بالمفسدين} ذلك تهديد من الله للمشركين الضالين، إذ يبين لهم الله أنه عليم بالمعاندين المصرين على الكفر والجحود، فسوف يجازيهم بأعمالهم وفسادهم.
٤١ - (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)
قوله تعالى: {وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون ٤١ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ٤٢ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا يبصرون ٤٣ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون}.
يخاطب الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أنه عن كان كذبك هؤلاء المشركون وجحدوا رسالتك وما أنزل غليك من ربك فقل لهم: لي جزاء عملي بما بلغت وأنذرت، ولكم أنتم جزاء عملكم بما جنيتم على أنفسكم من إتيان الشرك والمعاصي {أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون} أي أنتم غير مؤاخذين بما أعمل، وأنا غير مؤاخذ بجزائر ما تعملون، فما من أحد منا مؤاخذ بذنب الآخر.
وقيل: هذه الآية منسوخة بآيات الجهاد، فقد أمر الله بقتال المشركين الضالين الذين لم تجد معهم كلمة الحق أو لغة المنطق - أولئك الذين لم تفض البينات والدلائل والحجج إلى قلوبهم الصم وعقولهم الغلف، فأبوا إلا العتو والتمرد والضلال - فما تجدي مع هؤلاء الغلاظ العتاة وسائل الرأفة واللين والمنطق - وإنما -يجدي معهم التلبس بالشدة والردع الغليظ.
٤٢ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ)
قوله: {ومنهم من يستمع إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ٤٢ ومنهم من ينظر إليك فأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون} جمع الضمير في {يستمعون} حملا على المعنى، لأن معناها الجمع، وأفرده في {ينظر} حملا على اللفظ، لأن لفظها مفرد ٥٣ والاستفهام للنفي، والفاء في الموضعين للعطف، وهذا فريق من المشركين الضالين قد ختم الله سمعه وقلبه وبصره فبات كالأبله الأصم الذي لا يسمع ولا يعي - وكالأعمى الضال الذي لا يبصره ولا يهتدي، هؤلاء لفرط تمردهم وعتوهم وفظاعة جحودهم وحقدهم باتت طبائعهم ونفوسهم لا تستسيغ الحق ولا تلين لكلام الله، فهم يشبهون في ظواهرهم الصم والعمى، إذ هم يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن وتنسكب من فيه الطاهر أروع الحكمة والكلم - لكن جهاز الاستقبال المركوز في أعماقهم معطل مشلول، فهم بذلك لا تلين قلوبهم لسماع القرآن، ولا يستجيبون لندائه البليغ المؤثر كأنما هم صم لا يسمعون شيئا، أو عمي لا يرون شيئا - ويدل ذلك على أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيق الله وهدايته وترشيده - وهذا رد على القدرية قولهم: إن الإنسان قادر على فعل ما يريد - سواء في ذلك سلوكه سبيل الهداية أو سبيل الضلال.
٤٣ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٢]
قوله: {ومنهم من يستمع إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ٤٢ ومنهم من ينظر إليك فأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون} جمع الضمير في {يستمعون} حملا على المعنى، لأن معناها الجمع، وأفرده في {ينظر} حملا على اللفظ، لأن لفظها مفرد ٥٤ والاستفهام للنفي، والفاء في الموضعين للعطف، وهذا فريق من المشركين الضالين قد ختم الله سمعه وقلبه وبصره فبات كالأبله الأصم الذي لا يسمع ولا يعي - وكالأعمى الضال الذي لا يبصره ولا يهتدي، هؤلاء لفرط تمردهم وعتوهم وفظاعة جحودهم وحقدهم باتت طبائعهم ونفوسهم لا تستسيغ الحق ولا تلين لكلام الله، فهم يشبهون في ظواهرهم الصم والعمى، إذ هم يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن وتنسكب من فيه الطاهر أروع الحكمة والكلم - لكن جهاز الاستقبال المركوز في أعماقهم معطل مشلول، فهم بذلك لا تلين قلوبهم لسماع القرآن، ولا يستجيبون لندائه البليغ المؤثر كأنما هم صم لا يسمعون شيئا، أو عمي لا يرون شيئا -

ويدل ذلك على أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيق الله وهدايته وترشيده - وهذا رد على القدرية قولهم: إن الإنسان قادر على فعل ما يريد - سواء في ذلك سلوكه سبيل الهداية أو سبيل الضلال.
٤٤ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
قوله: }إن الله لا يظم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون{ هؤلاء الذين لم ينفعهم سمعهم؛ إذ لم يستمعوا، ولم ينفعهم بصرهم؛ إذ لم يبصروا - إنما ظلموا هم أنفسهم ولكن الله ليظلمهم؛ فقد لزمتهم الحجة من الله الذي وهبهم السمع والبصر لكي يستمعوا بآذانهم، ويشاهدوا بأبصارهم دعوة الحق المجلجل - الحق - الذي تنطق به كلمات الله في قرآنه المجيد؛ فالله سبحانه لا يفعل بخلقه مالا يستحقون منه، ولا يعاقبهم إلا بما أسلفوا من الكفر والمعاصي، بعد أن لزمتهم الحجة - وفي الحديث مما رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما؛ فلا تظلموا) إلى قوله ك (يا عبدي غنما هي أعمالكم أحصيها لكم قم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه) ٥٥.
٤٥ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)
قوله تعالى: }ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كفروا بلقاء الله وما كانوا مهتدين{ }يوم{، منصوب من وجهين - أحدهما: أن يكون منصوبا بتقدير أذكر.
ثانيهما: أن يكون منصوبا على الظرف - والكاف في قوله: }كأن{ في موضع نصب على الحال من الضمير }هم{ في قوله: }يحشرهم{ وتقديره: يوم يحشرهم متشابهين.
وقيل: صفة لمصدر محذوف - وتقديره: يحشرهم حشرا مشابها لحشر يوم لم يلبثوا قبله ٥٦.
وذلك تذكير من الله الموعود، اليوم الذي تنتهي فيه الحياة الدنيا لتقوم بعدها القيامة بأهوالها وويلات وفظائعها، ويومئذ تتزلزل القلوب والأبدان، وتتبدد العزائم والهمم والإرادات، وتذوي المقامات والوجاهات والزعامات، وتخنس الأصوات وكل النداءات؛ فلا يسمع منها إلا همس المهلوع الخائر، أو المستيئس الوجل.
وفي هذا اليوم المشهود المرعب يخرج الناس من أجداثهم سراعا كأنهم جراد منتشر، ينطلقون مشدوهين مذعورين مهطعين صوب أرض المحشر حيث التلاقي والاحتشاد - وإذ ذاك تستصغر الخلائق الحياة الدنيا، ويوقنون أن الدنيا بالغة الحقارة والهوان؛ إذ يتقالون مدتها فيشعرون أنها ليست غير شيء يسير من الزمن العابر - وهو قوله عز وعلا: }ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار{ وذلك عقب خروجهم من القبور إلى المحشر؛ إذ يجمعهم الله؛ ليواجهوا الحساب، وليروا من عرصات ٥٧ يوم القيامة ما يشيب لهوله الوالدان وتخور لفظاعته القلوب والنواصي، فيوقن المشركون عندئذ أنهم لم يلبثوا في دنياهم أو خلال مكثهم في قبورهم غير ساعة من نهار؛ وذلكم كقوله: }ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة{.
وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبين للخاشعين وأولي الأبصار والنهي أن الدنيا سراب؛ إذ تفضي بعد عمرانها وزخرفها إلى يباب؛ فلا يدري بها المرء إلا وقد مرت مرور الظل والسحاب؛ فقد روي أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما لي وللدنيا - ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).
وهذه هي الدنيا بزخرفها وزينتها ومباهجها ولذائذها وبكل ما حوته من صخب وصراعات وضجيج؛ ما تلبث أن تزول فتمضي مضي الغمام المتدافع أو السراب المتوج الخادع، حتى إذا انتهض الإنسان من قبره ليقف مبهوتا أمام الميزان والحساب؛ فيجد من بلايا القيامة وكوارثها وخطوبها والقواصم ما يجعله مستديم الدهش إلى أن يجد سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار -فإنه في هذا الموقف المخوف يستيقن المرء تفاهة الدنيا ودنو زوالها، وبساطة مقامه فيها كأنما هي ساعة من النهار.
قوله: }يتعارفون بينهم{ الجملة في موضع نصب على الحال من الضمير في قوله: }لم يلبثوا{ ويجوز أن تكون في موضع رفع، خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: وهم يتعارفون ٥٨؛ أي يعرف بعضهم بعضا إذا خرجوا من قبورهم؛ فيعرف الأبناء الآباء، ويعرف الأقارب أهليهم

وأقاربهم - وكذا الأصدقاء والخلان يتعارفون فيما بينهم؛ فيعرف بعضهم بعضا، وذلك في يوم التلاقي والزحام، وفي ساحة التعارف بعد الخروج من الأجداث إلى الحشر، لكن كل واحد منهم مشغول بنفسه - وله من شأنه العصيب ما يشغله ويغنيه عن الاهتمام بمن سواه - وقيل: هذا التعارف توبيخ وافتضاح؛ إذ يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر.
وهذا في حق أهل الفتنة - سواء فيهم المفتونون المخدوعون أو الفاتنون المضلون الذين فتنوهم عن دينهم وأضلوهم ضلالا - لكن بقية الناس من غير أهل الفتنة والافتتان لا جرم أن يتعارفوا فيما بينهم؛ فيذكروا أيامهم وأحولهم في الدنيا، ثم يمضي كل واحد منهم في سبيله؛ لأن كل واحد منهم مشغول بهمه، ومشدود بما يجده ويبصره من أهوال فظيعة يعز على اليراعة ٥٩ أن تخط وصفها - وهذا هو قول سبحانه {يوم يفر المرء من أخيه ٣٤ وأمه وأبيه ٣٥ وصاحبته وبنيه ٣٦ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} وذلك أن المواقف يوم القيامة تختلف؛ فقد يكون في بعض المواقف ما ليس في مواقف أخرى.
قوله: {قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله} أي هلك الذين كذبوا لبقاء الله وجحدوا ثوابه وعقابه فخسروا حظهم من الخير والفلاح {وما كانوا مهتدين} أي لم يحظوا بالتوفيق من الله مما أسلفوا من تكذيب بيوم الحساب؛ فكانوا الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ٦٠.
٤٦ - (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)
قوله تعالى: {وإما نرنك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعكم ثم الله شهيد على ما يفعلون ٤٦ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون} إما، إن، أداة شرط - وما زائدة، وجملة الشرط {نرينك بعض الذي نعدهم} أي ننتقم من المشركين الذين جحدوك وكذبوك وآذوك وكادوا لك أشد الكيد - ننتقم لك بقتل صناديدهم وأسر رؤوسهم، ونظهر دينك في حياتك - وذلك هو بعض الذي وعدهم الله - {أو نتوفينك} معطوف على {نرينك} يعني أو لا نزينك ذلك في حياتك بل نتوفينك قبل ذلك {فإلينا مرجعهم} جواب الشرط؛ أي إلينا مصيرهم ومنقلبهم ليروا عذابهم الذي أعددناه لهم {ثم الله شهيد على ما يفعلون} كفى بالله شهيدا على ما يفعله الظالمون المجرمون من جحود لأنبياء الله وتكذيب لكتبه ورسالاته، ومحاربة دينه بالمكر والكيد والصد - وغير ذلك من وجوه التنكيل بالمسلمين والتفنن في تعذيبهم وتقتيلهم - لا جرم أن الله المنتقم الجبار شهيد على ما يفعله هؤلاء المجرمون الأشرار - شهيد على فظائعهم وجرائمهم وجرائرهم وطغيانهم؛ فلسوف ينتقم الله منهم بالغ انتقامه، ويذيقهم الخزي والصغار في هذه الدنيا، فضلا عما يفضون إليه من سوء المصير في الآخرة.
٤٧ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)
قوله: {ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط} أي جعل الله لكل أمة خلت من الأمم رسولا يدعو قومه إلى ملة التوحيد ودين الحق، ويحذرهم من مطاوعة الشيطان وجنده من الإنس والجن، مثلما بعث الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالمين مبلغا ومبشرا ونذيرا {فإذا جاء رسولهم} وذلك في يوم القيامة {قضي بينهم بالقسط} قضى الله بين أمة كل رسول بالعدل، فينجي الله المصدقين المتقين، ويهلك المكذبين الجاحدين.
وبذلك تعرض كل أمة على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر - وهذه الأمة العظيمة الخيرة المباركة، وإن كانت آخر الأمم زمانا؛ إلا أنها يقضي الله بينهما قبل الأمم يوم القيامة - وفي الخبر مما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق).
قوله: {وهم لا يظلمون} أي لا يقع على أمة من الأمم يوم القيامة حيف ولا جور فيما يقضيه الله فيها؛ فلا يؤاخذ أحد بغير ذنب، وإنما يجازي المحسن بإحسانه - والمسيئ إن كان مسلما غير كافر؛ فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له - أما المسيئ من الكافرين الجاحدين؛ فلا جرم أنه في النار مع الخالدين ٦١.
٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ٤٨ قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون} هذا الاستفهام من المشركين للإنكار والاستبعاد والطعن في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بل الطعن في حقيقة الدين كله - وبيان ذلك أن المشركين يستعجلون العذاب الذي أعده الله بسبب نكولهم عن الإيمان، إذ يقولون: متى القيامة التي يخوفنا بها محمد، ومتى العقاب الذي يتوعدنا به؟ يقولون ذلك على سبيل الاستهانة والاستخفاف بالحقيقة كونية قائمة لا محالة - وهي الساعة وبعث الناس من قبوهم - والمشركون يسألون مثل هذا السؤال الجاحد الفاجر لفرط إنكارهم وعتوهم.

٤٩ - (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

قوله: {قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ماش إلا الله} أي لا أقدر على دفع الضر عن نفسي، ولا أن أجلب لها النفع إلا ما شاء الله أن يفعله من ذلك - فغن كنت عاجزا عن ذلك فإني لأشد عجزا عن الوقوف على خبر الساعة أو متى تقوم.

قوله: {لكل أمة اجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون} كتب الله أن لكل قوم من الأقوام أو قرن من القرون ميقاتا لانقضاء أجلهم، فإذا جاء هذا الميقات الذي يؤذن بفنائهم وانتهاء أعمارهم؛ فإنهم حينئذ لا ملهون ساعة من زمان، ولا يتقدمون ميقاتهم مثلها ٦٢.

٥٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

قوله تعالى: {قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون ٥٠ أثم إذا ما وقع آمنتم به لآن وقد كنتم به تستعجلون ٥١ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون} أي قل لهؤلاء المشركين الجاحدين السفهاء: أخبروني عن أتاكم عذاب الله الذي تستعجلون نزوله بكم -ليلا حال بياتكم ونومكم وغفلتكم، أو نهارا وأنتم مستيقظون، فقامت القيامة وأحاط بكم الهلاك {ماذا يستعجل منه المجرمون} الاستفهام لإنكار استعجالهم العذاب والضمير في {منه} يعود على العذاب.

والمعنى: أن ما استعجلتموه من العذاب لهو فظيع ومروع تضطرب لهوله الأبدان والقلوب، فأي شيء تستعجلون منه، فإنه ليس منه شيء يقتضي الاستعجال.

٥١ - (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)

قوله: {أثم إذا ما وقع آمنتم به} الاستفهام للتوبيخ والتقريع ولإنكار إيمانهم حيث لا ينفع مثل هذا الإيمان بعد أن حل بهم العذاب.

والمعنى: أبعد ما وقع عليكم العذاب وحل بكم انتقام الله صدقتم به -أي العذاب- حيث لا ينفعكم الإيمان والتصديق.

قوله: {لآن وقد كنتم به تستعجلون} الاستفهام للتوبيخ، أي عند إيمانهم بعد وقوع العذاب الذي استعجلوه يقال لهم: الآن تؤمنون وتظنون أن إيمانكم ينفعكم مع أنكم كنتم قبل وقوعه (العذاب) تستعجلونه على سبيل السخرية والاستهزاء.

٥٢ - (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

قوله: {ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد} أي ذووا العذاب الأليم الواصب - والمراد من ذلك التقريع والتنكيل - والقائل لهم هذه المقالة هم الملائكة من خزنة جهنم، يقولون لهم ذلك على سبيل الإهانة وزيادة التنكيل.

قوله: {هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون} أي ولا تجوزن جزاءكم هذا إلا بسبب ما أسلفتموه في حياتكم الدنيا من الكفر والعصيان ٦٣.

٥٣ - (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

قوله تعالى: {ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين} يستنبئونك بمعنى يستخبرونك، فيتعدى إلى مفعولين - المفعول الأول الكاف - وقوله: {أحق} جملة اسمية في موضع المفعول الثاني {قل إي وربي} {إي}، حرف يكون مع القسم بمعنى نعم - ومنه قولهم: إيها الله - بمعنى إي والله - وجواب القسم {إنه لحق} ٦٤، وذلك أن المشركين يستخبرون النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة وحصول العذاب، على سبيل الإنكار والسخرية {أحق هو} {أحق} مبتدأ - خبره هم - أي أحق ما تعدنا به يا محمد من قيام

الساعة وحصول العذاب - ثم جاء الجواب من الله مجلجلا مدويا يحمل القطع والتأكيد على أن الساعة قائمة وأن عذاب الله حائق بالمكذبين والجاحدين والمجرمين {قل إي وربي إنه لحق} يعني: نعم وربي إنه لحق - وذلك أمر من الله ولرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم هذا القسم الصادق الحق على أن ما وعدكم به الله لهو حق، وهو واقع لا محالة - ونظير ذلك من القسم قوله عز من قائل: {وقال الذين كفروا لا تأتنا الساعة قل بلى وربي لتأتيكم} وقوله سبحانه: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن}.

قوله: {وما أنتم بمعجزين} أي ليس في مستطاعكم أن تفوتوا عذاب الله بالهرب أو الامتناع أو التحيل - ولكنكم حينئذ كائنون في قبضة الله وفي سلطانه وجبروته؛ فلا مفر لكم ولا مناص ٦٥.

٥٤ - (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله تعالى: {ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون} أي ولو أن لكل نفس كفرت بالله أو أشركت به غيره من الآلهة والأنداد، ما في الأرض من المال والملك والنفائس والذخائر {لافتدت به} أي لجعلته فدية لها من العذاب فتنجو بنفسها مما حل بها - ومثل هذه الأمنية ليس إلا ضربا من الحلم الشاطح يراود المجرمين الخاسرين يوم القيامة وهم تحيط بهم كل ظواهر اليأس والذعر والوجل وانخلاع القلوب؛ فلا يغنيهم من عذاب الله حينئذ مال ولا سلطان ولا غير ذلك من مفاخر الدنيا.

قوله: {وأسروا الندامة لما رأوا العذاب} أي أخفى رؤساء المشركين والخاسرين ندامتهم عن أتباعهم من الوضعاء والسفلة والرعاع إحساسا بالخزي والافتضاح والمعرة أمامهم، وكيلا يوبخهم؛ لأنهم أضلوها - وهذا إذا أيقنوا أن عذاب الله واقع وقبل أن يكبكبوا في النار؛ فهم قبل الكبكبة والاصطلاء والتحريق قد بقي فيهم بقية من القدرة على التصنع والمكابرة يكشف عنها استسرارهم الندامة في أنفسهم وإخفاؤها عن أتباعهم الرعاع - حتى إذا سقطوا في النار جميعا ذهب التصنع والمكابرة وغاروا في الإياس والندامة وخواء القلوب.

قوله: {وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون} أي قضي الله بين هؤلاء الرؤساء من الكافرين وأتباعهم بالعدل {وهم لا يظلمون} الجملة في محل نصب حال، فالله لا يظلم أحدا مثقال ذرة - فما جوزوا به من العذاب كان سببه ما كسبوه من الكفر والمعاصي ٦٦.

٥٥ - (أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {ألا إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ٥٥ هو يحي ويميت وإليه ترجعون} {ألا}، أداة تنبيه - وهذه الكلمة تذكير للغافلين وإيقاظ للنائمين؛ أي انتبهوا لقول الله: {إن لله ما في السموات والأرض} فما من شيء في هذا الوجود إلا هو مملوك لله؛ فهو الرب المالك الخالق.

قوله: {ألا إن وعد الله حق} وذلك تأكيد على أن وعد الله كائن لا محالة - ووعده عام يندرج فيه وعده بالثواب للطائعين، ووعيده بالعذاب للعصاة والخاسرين.

قوله: {ولكن أكثرهم لا يعلمون} المشركون والكافرون ضالون سفهاء لا يعلمون غير ظاهر من الحياة الدنيا، لكنهم يجهلون ما فيه صلاحهم وما ينفعهم، وما تقوم عليه حياتهم في هذه الدنيا أحسن قيام؛ فهم بذلك سادرون في الغي والباطل ويكابدون الشقاء والقلق والتعس والهموم والمشكلات النفسية والاجتماعية والشخصية - وسبب ذلك كله: أنهم مجانبون لمنهج الله الحكيم وصراطه المستقيم - ومن أجل جهلهم المطبق بحقيقة ما ينفعهم في دنياهم - ومن خلف ذلك كله شياطين البشر يحولون بين هؤلاء الضالين وبين منهج الله - والشياطين من البشر بارعون في التضليل والتغرير والفتنة - ضالعون في الخطيئة والتخريب والرجس؛ فهم بما أوتوه من براعة في الإغواء بمختلف الأساليب الفكرية والفنية والإعلامية والدعائية والنفسية والمادية على اختلاف صورها، قد صدوا معظم البشرية عن إدراك الصواب أو بلوغ الحق الذي به يصلح حالهم - فلا جرم أن {أكثرهم لا يعلمون} وذلك يشير إلى أن القليل في الناس يعلمون الحقيقة - لكنهم لقتلهم وخفوت أصواتهم ونداءاتهم وضعف حيلتهم يظلون مغمورين طي الإغفال والإهمال كيلا يدري بهم إلا قليل،

ولكي تذهب أصواتهم ونداءاتهم أدراج الرياح - وقد تكون هذه القلة من الناس ساكتة عن قول الحقيقة لخبث في المقاصد والنوايا؛ فهم ماكرون أشقياء يبتغون للبشرية السوء والفساد والتدمير.

٥٦ - (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {هو يحي ويميت وغليه ترجعون} مصدر الحياة بيد الله؛ فهو يصب الروح لمن يشاء من الخلق لتدب فيهم الحياة والحركة - وإذا أراد إماتتهم سلبهم أرواحهم فانقلبوا ميتين - حتى إذا قامت الساعة؛ فإنهم يصيرون إلى الله جميعا.

٥٧ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ٥٧ قل بفضل الله ورحمته فبذالك فليفرحوا هو خير مما يجمعون} الموعظة، من الوعظ وهو النصح والتذكير بالعواقب ٦٧ - وهذا نداء كريم رحيم ينادي به الله عباده ليؤمنوا ويستقيموا على طريقه - طريق الحق والهدى والنور الكاشف المبين - نداء رباني أجل، يدعو فيه الله الناس أن يتعظوا ويهتدوا كيلا يضلوا ويخسروا - وهو قوله: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور} أي جاءكم من الله نصح وتذكير وهو القرآن، يذكركم عذاب ربكم ويحذركم غضبه وبطشه وعقابه {وشفاء لما في الصدور} وأمراض الصدور كثيرة ومختلفة - فنها النفاق والقلق والهم والكآبة والشك والحسد والضغينة، وغير ذلك من ألوان المرض الذي ينتاب القلب فيؤزه شديد الأز بما ينعكس على الجهاز النفسي كله بالاغتنام والاكتئاب والإحساس بالشقاء والتغيظ والإفراط في الأنانية والكراهية والجنوح للشر والأذى والعدوان - والكلام عن أمراض النفس ومشكلاتها وأعراضها وظواهرها وانعكاساتها على الإنسان طويل - وهي مما لا سبيل للنجاة منها غلا بالتزام ما دعانا الله إليه في كتابه الحكيم.

قوله {وشفاء لما في الصدور} والمراد به القرآن، فهو الدواء الشافي مما يصيب القلوب من ألوان المرض؛ بل إن القرآن بما حواه من عقيدة ووعظ وذكرى ومنهج كامل للحياة برمتها يحول بين القلوب والأمراض - فلا يستكين القرآن بروعته وجماله وعظيم معناه في قلب الإنسان إلا حال بينه وبين التلوث بأمراض النفس.

قوله: {وهدى ورحمة للمؤمنين} القرآن مبعث الحق ومصدر الخير كله؛ فهو ينبثق عنه الرشد والهداية ومجانبة الضلال - وهو كذلك منطلق للرحمة، فتفيض على المؤمنين ليكونوا في حياتهم آمنين سالمين مطمئنين.

٥٨ - (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

قوله: {قل بفضل الله ورحمته فبذالك فليفرحوا هو خير مما يجمعون} فضل الله، يعني القرآن - ورحمته، يراد بها هنا الإسلام - وقيل غير ذلك من المعاني المتقاربة.

قوله: {فبذالك فليفرحوا} إشارة إلى الفضل والرحمة، وهما القرآن والإسلام - {فليفرحوا}، من الفرح، وهو السرور والابتهاج ٦٨.

وأصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا بذلك فليفرحوا - والتكرير يراد منه التأكيد وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة وهما القرآن والإسلام، بالفرح دون غيرهما من المنافع الدنيا ومتاعها - فما ينبغي للمؤمن البصير أن يعبأ بمنافع الدنيا وما فيها من وجوه الزينة والمتاع أكثر مما تستحق من اهتمام - وإنما يبتهج المؤمن الحريص ويغمره الفرح والحبور بالتزامه أحكام الإسلام والانتهال من معين القرآن حيث الإيمان والخلق والمواعظ وروائع الأحكام والمعاني - لا جرم أن الركون إلى منهج الله وهو الإسلام، وإلى كتابه المعجز الحكيم؛ يفضي بالضرورة إلى تحقيق النجاة المثلى وتحصيل السعادة التامة في الدارين، دار الدنيا ودار الآخرة.

أن الركون إلى الإسلام والقرآن سبيل كل خير، ومطردة لكل أنواع الشر، وهو طريق الخلاص من أدران الوقع وأوضار الحياة لكلها.

قوله: {هو خير مما يجمعون} الضمير راجع إلى الفضل والرحمة وهما الإسلام والقرآن، وذلك خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا وما فيها من أموال وكنوز وذخائر مادية ٦٩.

٥٩ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

قوله تعالى: {قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ٥٩ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون} أي قل لهؤلاء المشركين: أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق، أي خلقه لكم لتتخذوا منه الغذاء والطعام {فجعلتم منه حراما وحلالا} أي فشرعتم فيه لأنفسكم مال ينزل الله به سلطانا، إذ جعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا، تشريعا مزعوما من عند أنفسكم لا حجة لكم به، وليس لكم فيه من الله سلطان إلا التشهي المجرد والهوى الجانح - وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرمونه من الحروث (الزروع) التي كانوا يجعلونها للأوثان - وهو ما وصفهم الله به في قوله: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا هو لله بزعمهم وهذا لشركائنا} وكذلك الأنعام، إذ كانوا يحرمونها منها البحائر والسوائب والوصائل والحوامي.

قوله: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون} أي أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه أم أنكم تكذبون على الله فيما تنسبونه إليه افتراء وبهتانا - وقيل: الهمزة للإنكار، وأم، منقطعة، بمعنى بل، أي: بل تفترون على الله أنه أمركم بهذا.

٦٠ - (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ)

قوله: {وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة} أي ما ظن هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فينسبون إليه تحريم ما لم يحرمه عليهم من الأرزاق والأقوات والأنعام التي جعلها الله لهم حلالا أن الله فاعل بهم يوم القيامة بما كذبوه وافتروه على الله؟! أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم بذلك فيصف عنهم؟! كلا، بل إن الله مؤاخذهم بافترائهم وتخريصهم فمعذبهم عذابا أليما.

قوله: {إن الله لذو فضل على الناس} فضل الله على الناس كبير، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا - بل أمهلهم إلى يوم القيامة، فعسى أن يتوبوا ويفيئوا إلى الحق قبل مماتهم فيلقوا الله على ملة التوحيد - وقيل: المراد بفضل الله على الناس، ما خلقه لهم من المنافع، وأحله لهم من الطيبات، ولم يحرم عليهم غير الخبائث وما هو ضار بهم - {ولكن أكثرهم لا يشكرون} أي، يجحدون نعم الله فلا يشكرونها ولا يذكرونها، بل يصطنعون من تشريع التحليل والتحريم ما ليس لهم به من الله برهان إلا الظن والهوى ٧٠.

٦١ - (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: {وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعلمون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} ما أداة نفي، والشأن معناه الأمر أو الحال، وجمعه الشؤون ٧١ والخطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، أي ما تكون في أمر أو عمل من الأعمال كعبادة أو غيرها {وما تتلوا منه من قرآن} الضمير في (منه) يعود على كتاب الله، أي: وما تتلو من كتاب الله من قرآن - أو أنه يعود على الشأن - والتقدير: وما تتلو من اجل الشأن من قرأن، أي حديث لك شأن فتتلو القرآن من أجله - أو من أجل أن تعلم حكم هذا الشأن ٧٢ {ولا تعلمون من عمل} أيما عمل تعملونه سواء كان خيرا أو شرا {إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} الله شهيد على أعمالكم، إذ تأخذون فيها - والهاء في قوله: {فيه} عائدة على العمل، أي الله شهيد عليكم، إذ تأخذون في ذلك العمل، وهو سبحانه مبصر وعليم بما تفعلون.

قوله: {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذالك ولا أكبر إلا في كتاب مبين}.

{يعزب}، أي يغرب أو يخفى ٧٣ - والذرة، جمعها الذر - وهي صغار النمل ٧٤.

والمعنى: أنه عالم بالأشياء والكائنات جميعا، فما من شيء أو كائن في الأرض أو في السماء إلا وخبره مندرج في علم الله الذي لا تخفى عليه الخوافي ولا تحجب عنه العلوم والأخبار، فهو سبحانه محيط علمه بكل ما في الوجود من أشياء مهما تناهى الواحد منها في الصغر - حتى وإن كان دون الذرة وهي أصغر النمل - وقد عبر بالأرض والسماء، لأن الناس لا يرون أو يعون ما في سواهما - فكل شيء في الوجود علمه {في كتاب مبين} وهو اللوح المحفوظ، وفيه علم الأولين والآخرين إلى يوم الدين - وهو في سعته البالغة ومداه الذي يفوق

التصور لا يدركه أو يقف على حقيقته سوى الله ٧٥.

٦٢ - (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٢ الذين آمنوا وكانوا يتقون ٦٣ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكمات الله ذالك هو الفوز العظيم} {ألا}، أداة استفتاح - والأولياء جمع ومفرده الولي - وهو في اللغة بمعنى النصير والمحب والصديق والجار والتابع والمعتق والحليف ٧٦.

والمراد به هنا: المؤمن المخلص المستقيم - فأولياء الله: هم أنصاره الذين عبدوه مخلصين له الدين وأطاعوه مبادرين مخبتين - وهو مفسر بقوله في الآية الأخرى: {الذين آمنوا وكانوا يتقون} فهؤلاء هم أولياء الله، إنهم آمنوا إيمانا صحيحا لا زيغ فيه ولا تردد ولا نقص، إنه الإيمان الحقيق المستبين على ملة الإسلام دون غيره من الملل المصطنعة أو المزعومة أو المفتراة أو المحرفة - وهم كذلك يتقون الله، أي يخافون الله فيبادرون بطاعته ومجانبة عصيانه، أولئك هم أولياء الله {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} {أولياء الله} هم أنصاره {لا خوف عليهم} في الآخرة من عقاب الله، فلا يخشون مما يستقبلونه من أهوال القيامة وعرصات المحشر - وهم أيضا لا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، وقوله: {الذين آمنوا} في محل نصب صفة لاسم إن، أو للبدل منه وذلك في قوله: {ألا إن أولياء الله} ويجوز الرفع، لأنه مبتدأ - و {لهم البشرى} خبره ٧٧.

٦٣ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

قوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٢ الذين آمنوا وكانوا يتقون ٦٣ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكمات الله ذالك هو الفوز العظيم} {ألا}، أداة استفتاح - والأولياء جمع ومفرده الولي - وهو في اللغة بمعنى النصير والمحب والصديق والجار والتابع والمعتق والحليف ٧٨.

والمراد به هنا: المؤمن المخلص المستقيم - فأولياء الله: هم أنصاره الذين عبدوه مخلصين له الدين وأطاعوه مبادرين مخبتين - وهو مفسر بقوله في الآية الأخرى: {الذين آمنوا وكانوا يتقون} فهؤلاء هم أولياء الله، إنهم آمنوا إيمانا صحيحا لا زيغ فيه ولا تردد ولا نقص، إنه الإيمان الحقيق المستبين على ملة الإسلام دون غيره من الملل المصطنعة أو المزعومة أو المفتراة أو المحرفة - وهم كذلك يتقون الله، أي يخافون الله فيبادرون بطاعته ومجانبة عصيانه، أولئك هم أولياء الله {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} {أولياء الله} هم أنصاره {لا خوف عليهم} في الآخرة من عقاب الله، فلا يخشون مما يستقبلونه من أهوال القيامة وعرصات المحشر - وهم أيضا لا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، وقوله: {الذين آمنوا} في محل نصب صفة لاسم إن، أو للبدل منه وذلك في قوله: {ألا إن أولياء الله} ويجوز الرفع، لأنه مبتدأ - و {لهم البشرى} خبره ٧٩.

٦٤ - (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله: {لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} المراد بالبشرى في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو يراها له غيره - وهو قول كثير من المفسرين - واحتجوا لذلك من الأخبار بما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: {لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} قال: (الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له).

وقيل: البشرى في الحياة الدنيا يراد بها الثناء من الناس على المؤمن، فقد روي الإمام أحمد في ذلك عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تلك عاجل بشرى المؤمن).

وروي الإمام أحمد أيضا عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: {لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} قال: (الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك، فغنما هو

من الشيطان ليحزنه، فلينفث عن يساره ثلاثا، وليكبر ولا يخبر بها أحدا) ٨٠.
قوله: {وتبديل لكلمات الله} أي لا خلف لوعد الله، فوعد الله لا يبدل ولا يحلو وإنما هو ثابت متقرر ولا محالة كائن.
قوله: {ذالك هو الفوز العظيم} ما يعطاه المؤمن من البشرى المبهجة يراها في منامه، أو ترى له، أو ما يحظى به من ثناء المؤمنين، إذ يطردونه ويذكرونه بالخير وجميل الدعاء، وما يصير إليه في الآخرة من النجاة - لا جرم أن ذلك كله لهو الفوز العظيم.
٦٥ - (وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
قوله تعالى: {ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم} أي لا يحزنك قول هؤلاء المشركين لمقاولات الكفر والإشراك؛ فالله وحده لهو المتفرد بالعز - وهي القوة الكبرى والغلبة المطلقة، فهو القوي المتكبر الذي تخر لجبروته الجباه، وهو الغالب المتجبر الذي تذوي أما عظمته وقدرته خلائق الكون والملكوت، فهو سبحانه ناصرك ومؤيدك ومانعك من كيد هؤلاء الظالمين وشرهم {هو السميع العليم} السميع لما يفتريه الظالمون من الكذب والتخريص والباطل - والعليم بما تمكنه صدورهم من طوايا الخبث والسوء - وما يعلنونه من تربص بالمسلمين وأئتمار بهم ليقهروهم ويذلوهم ويصدوهم عن دنيهم.
٦٦ - (أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)
قوله تعالى: {ألا إن لله من في السموات والأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون} كل شيء في هذا الوجود مملوك لله، فما من حجر ولا مدر ولا بشر ولا صنم ولا وثن إلا هو في ملك الله يتصرف فيه كيف يشاء، فكيف يليق بذي عقل أن يعبد شيئا من هذه الكائنات وهي مملوكة لبارئها سبحانه؟! وفي ذلك تنديد بالذين يعبدون غير الله من المخاليق على اختلاف أسمائها وأنواعها - تنديد بالسفهاء والمضللين الذين يذرون عبادة الرب ويذعنون للمربوب - ساء ما يفعلون.
قوله: {وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء} ما: أداة نفي - والمعنى: أن هؤلاء المشركين لا يعبدون آلهة على الحقيقة وإن كانوا يسمونها آلهة، ولكنهم يعبدون أوهاما يظنون حقيقة - وهو قوله: {إن يتبعون إلا الظن} فهم سادرون في وهمهم وضلالتهم.
وقيل: ما، للاستفهام - يعني: وأي شيء يتبع هؤلاء المشركون الضالون؟ وذلك على سبيل التوبيخ لهم والرازية - ثم أجاب {إن يتبعون إلا الظن وإن هم يخرصون} أي ما يتبع هؤلاء يقينا بل يظنون ظنا واهما - وما هم إلا يخبطون في التخريص وهو الحدس والتخمين والكذب ٨١.
٦٧ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)
قوله تعالى: {هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون} يبين الله جل جلاه أنه وحده الذي يستوجب العبادة على العباد؛ فهو الرب الخالق الموجد {الذي جعل لكم اليل لتسكنوا فيه} وذلك من السكينة، وهي الطمأنينة والاستقرار والرزانة والوقار ٨٢.
والمراد من ذلك: أنكم تستريحون في الليل من كد النهار وطول النصب فيه، فتقضون ليلكم مع أولادكم وأهليكم ساكنين هاجعين {والنهار مبصرا} أي جعل النهار مضيئا ليبصر فيه الناس حوائجهم ومطالبهم، وليجدوا فيه معايشهم ومكاسبهم.
قوله: {إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون} ما صنعه الله في كونه هذا من بديع النظام والخلق، ما بين ليل وديع ساكن، يستأنس فيه البشر، ونهار يتجلى بالإضاءة والنور، حافل بالحركة والنشاط والجد، يبصر فيه الناس حاجاتهم وشئونهم - وغير ذلك من مخلوقات – كل أولئك دلائل وعلامات لمن يسمع الحجج والبينات سماع تدبر وادكار، عظيمة الخالق وعلى قدرته البالغة في إيجاد الوجود.
أما غير الله ممن يعبدهم المشركون فهم أشباح موهومة لا يساوون في ميزان الحق مثقال قطمير أو أقل من ذلك بكثير ٨٣.
٦٨ - (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ٦٨ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ٦٩ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعكم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون}.

قال المشركون: اتخذ الله ولدا - وذلك زعمهم أن الملائكة بنات الله - ثم نزه الله نفسه عما قالوه من الكذب والافتراء فقال عن نفسه: {سبحانه} أي تنزه عن الشرك والشركاء والأنداد {هو الغني} الله مستغن عن خلقه جميعا، فليس له حاجة إلى ولد أو نديد أو معين، فهو القوي وهم الضعفاء، وهو الغني وهم المحاويج والفقراء، وهو الباقي وهم الداثرون - ودليل غناه سبحانه أنه يملك ما في السموات وما في الأرض من ملائكة وجن وأناسي وخلائق، قوله: {إن عندكم من سلطان بهذا} أي ليس عندكم برهان على ما تدعون وتتقولون غلا التخريص والافتراء.

قوله: {أتقولون على الله ما لا تعلمون} والاستفهام للإنكار والتوبيخ - وفيه من الوعيد الشديد ما يتهدد هؤلاء الظالمين الفجرة بأفظع العذاب - والمعنى: أتفترون على الله شيئا لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا يليق أن يضاف إلى جلاله.

على أن هذه الآية تستوقف النظر والتفكير، لعجيب نظمها، وروعة انسجامها، وشدة التحامها، وتماسك عبارتها المتعددة المختلفة - مع أنها تتكون من عدة جمل ما بين اسمية وفعلية يضمها إطار الآية الواحدة - وما كان في مقدور بشر أن يصنع مثل هذا - ولئن تكلف أحد أن يصطنع عدة جمل مختلفة متنوعة في إطار آية واحدة لجاء كلامه غاية في التصنيع المستهجن والتكلف الثقيل - لكن هذه الجمل الأربع أو الخمس في ترابطها وائتلافها واتساقها في إطار هذه الآية، تزجي بالحجة الساطعة على أن القرآن معجز، وأنه كلام الله.

٦٩ - (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)

قوله: {قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} هذا وعيد مخوف من الله للذين يختلقون الكذب على الله بزعمهم أن الله اتخذ ولدا فأضافوا إليه الشركاء والأنداد، وهو سبحانه منزه عن ذلك كله -يتوعدهم بأنهم {لا يفلحون} لن يفوز هؤلاء لا في الدنيا ولا في الآخرة - أما في الدنيا فيبتليهم الله بالعاهات النفسية والشخصية والاجتماعية وغير ذلك من ألوان العاهات والكروب والأزمات ليكابدوا في حياتهم القلق والرهق واضطراب الأعصاب - وما الدنيا في حق هؤلاء الظالمين الذين خسروا أنفسهم إلا المتاع العاجل الزائل الذي ما يلبث أن ينقشع كما تنقشع السحابة، إذ تلوح في أفق السماء مدة عابرة من الزمان ثم تختفي - وأما في الآخرة: فيصيرون إلى النار حيث العذاب الحارق الواصب الذي لا يفني ولا يزول - وهذا مقتضى قوله سبحانه: {متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعكم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون}.

٧٠ - (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

قوله: {قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} هذا وعيد مخوف من الله للذين يختلقون الكذب على الله بزعمهم أن الله اتخذ ولدا فأضافوا إليه الشركاء والأنداد، وهو سبحانه منزه عن ذلك كله -يتوعدهم بأنهم {لا يفلحون} لن يفوز هؤلاء لا في الدنيا ولا في الآخرة - أما في الدنيا فيبتليهم الله بالعاهات النفسية والشخصية والاجتماعية وغير ذلك من ألوان العاهات والكروب والأزمات ليكابدوا في حياتهم القلق والرهق واضطراب الأعصاب - وما الدنيا في حق هؤلاء الظالمين الذين خسروا أنفسهم إلا المتاع العاجل الزائل الذي ما يلبث أن ينقشع كما تنقشع السحابة، إذ تلوح في أفق السماء مدة عابرة من الزمان ثم تختفي - وأما في الآخرة: فيصيرون إلى النار حيث العذاب الحارق الواصب الذي لا يفني ولا يزول - وهذا مقتضى قوله سبحانه: {متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعكم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون}.

٧١ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ)

قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم ثم

لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظروا}.
أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقصص القصص على قومه المشركين فيذكرهم بما حل بقوم نوح من إهلاكهم بالغرق ليكون في ذلك ما يزجرهم ويخوفهم ويردعهم عن التلبس بالشرك وعبادة الأوثان - وهو قوله: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال قومه يا قوم عن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله} أي إن كان قد ثقل عليكم مقامي وهو مكثي وإقامتي بين أظهركم {وتذكيري بآيات الله} أي شق وكبر عليكم وعظي وما أذكركم به من البراهين والدلائل {فعلى الله توكلت} أي فإني لا أعبأ ولا أبالي بكيدكم وصدكم، لأني قد توكلت على الله، وفوضت أمري إليه، واعتمدت في شأني كله عليه {فأجمعوا أمركم وشركاءكم} أي اجتمعوا أنتم وشركاؤكم من الأوثان والآلهة المزيفة الموهومة، وأعدوا أمركم واعزموا على ما أنتم مقدمون عليه من الكيد لي والمكر بي والنيل مني - وإنما قال ذلك لقلة مبالاته بهم وثقته بما وعده ربه من الكلاءة والعصمة، وأنهم لن ينفروا إليه ولن يجدوا إليه سبيلا.
قوله: {ثم لا يكن أمركم عليكم غمة} الغمة من الاغتمام - وهو التغطية والاستتار، والمعنى: لا يكن أمركم عليكم ملتبسا مبهما - أو لا يكن قصدكن إلى إهلاكي مستورا بل مكشوفا تجاهرونني به.
قوله: {ثم اقضوا إلى ولا تنظرون} أي أمضوا إلى ما تحدثكم به أنفسكم من كيدي والإيقاع بي - أو قضوا إلي ما كنتم قاضين ثم لا تؤخرون ولا تمهلون بل عجلوا أمركم واصنعوا بي ما بدا لكم - وفي هذا تعزية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتقوية من الله لقلبه كيلا يعبأ بكيد المشركين وأذاهم، فالله معه لا يذره وحيدا ولا يسلمه للمتربصين والماكرين ٨٤.
٧٢ - (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)
قوله تعالى: {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ٧٢ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فنظر كيف كان عاقبة المنذرين} يبين الله قيل نبيه نوح عليه السلام لقومه وهو: إن أعرضتم عما جئتكم به من الحق ودعوة التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، فسببه تفريطكم وعصيانكم أنتم وليس بسبب مني، فإني لم أسألكم في مقابلة ما دعوتكم غليه أجرا ولا عوضا أعتاضه منكم {إن أجرى إلا على الله} أي ما جزائي وثواب عملي إلا على ربي وليس عليكم ولا على غيركم، فغني لا أبتغ من أحد في العالمين على تبليغ رسالة الله جزاء ولا شكورا، إنما أجري أجده عند الله وافيا كريما عظيما.
قوله: {وأمرت أن أكون من المسلمين} أمرني ربي أن أكون من الموحدين له، المستسلمين لأمره، المذللين لجلاله وسلطانه فاخلص له العبودية والطاعة.
٧٣ - (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)
قوله: {فكذبوه فنجاهم ومن معه في الفلك} فكذب نوحا قومه المشركون فيما دعاهم إليه واخبرهم به من رسالة الإيمان والتوحيد - فنجاه الله والذين آمنوا معه في السفينة.
قوله: {وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا} أي جعلنا الذين نجينا مع نوح في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذبوا فأغرقناهم جزاء تكذيبهم، أي يخلفون الهالكين الغرقى.
قوله: {فانظر كيف كان عاقبة المنذرين} أي انظر يا محمد عاقبة حال المعرضين عن دين الله، إذ كذبوا وحيه وأنبياءه –انظر ماذا أعقبهم بجحودهم وعصيانهم، لقد أعقبهم الهلاك والتدمير والخسران - وهذا تنذير من الله وتهديد لقوم رسوله الله صلى الله عليه وسلم، لئن عصوا واستكبروا ليحيقن بهم من البلاء ما حاق بغيرهم من الجاحدين السابقين - فليحذروا وليبادروا بالإيمان والطاعة ٨٥.
٧٤ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)
قوله تعالى: {ثم بعثنا من بعده رسلا على قلوبهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين} ثم بعثنا من بعد نوح رسلا آخرين إلى قومهم فجاءهم بالبينات وهي الدلائل والمعجزات على صدق رسالاتهم وأنهم أوحي

إليهم من ربهم ليكونوا للناس مبلغين ومنذرين.
قوله: {فما كانوا ليؤمنوا بما كانوا به من قبل} الضمير في {كذبوا} يعود على قوم نوح؛ أي فما كان قوم الأنبياء الذين أرسلوا بعد نوح ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح بل كذبوا كتكذيب قوم نوح ٨٦.
قوله: {كذالك نطبع على قلوب المعتدين} أي كما طبع الله على قلوب أولئك فلم يؤمنوا، فإنه يطبع على قلوب من شابههم في العناد والتكذيب.
والتقدير: نختم على قلوب هؤلاء الذين غالوا في الجحود وجاوزوا الحد في التكذيب.
٧٥ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)
قوله تعالى: {ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملايه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ٧٥ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ٧٦ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ٧٧ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آبائنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين} بعد أن خلت الأمم السابقة والذين أرسلوا إليهم، أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى طاغية فرعون {وملايه} وهم أشراف قومه من سادة مصر وكبرائها؛ لقد أرسلهما الله بآياته وهي حججه وأدلته على صدق رسالتهما لكي يجيبوا داعي الله أو تلين قلوبهم للحق فيذعنوا منيبين إلى الله - لكنهم استكبروا وعتوا عتوا كبيرا وأبوا إلا التمرد والعصيان والاستكبار - وهو قوله سبحانه: {فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين} لا جرم أن فرعون كان من أشد الطغاة في تاريخ البشرية، بل هو رأس من رؤوس الجبابرة العتاة الذين أسرفوا في العدوان والطغيان والغرور بما يعز أن يكون له في المجرمين نظير يضاهيه في شدة العتو وفظاعة الاستكبار.
٧٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)
قوله: {فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين} لما رأى فرعون وقومه وضوح الأدلة والبينات على صدق ما جاءهم به موسى وهارون أبوا واستكبروا وقالوا: {إن هذا لسحر مبين} حملوا المعجزات الظاهرة ظهور القمر الساطع على السحر - وشتان شتان بينهما! فالسحر توهيم وتمويه وتحيل، على الخلاف في ذلك - ولكن المعجزة الربانية برهان ناطق مشهود على صدق النبوة ويقينها وأنها حق جاء به الوحي من السماء.
٧٧ - (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)
قوله: {قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا} أنكر عليهم موسى مقالتهم الظالمة، إذ قالوا إن ما جاءهم به سحر! واختلفوا في سبب دخول همزة الاستفهام في قوله: {أسحر هذا} فقيل: دخلت فيه على الحكاية لقولهم، لأنهم قالوا: أسحر هذا - فأجابهم موسى: أتقولون أحسر هذا؟ وقيل: الاستفهام هنا جاء على التعجب منهم - والتقدير: أسحر هذا ما أعظمه! وقيل: في الكلام محذوف وهو المقول - ويكون قوله: {أسحر هذا} من قيل موسى منكرا على فرعون وملائه قولهم للحق لما جاءهم: إنه سحر - فيكون تقدير الكلام حينئذ: قال موسى لهم: أتقولون للحق لما جاءكم -يريد بذلك المعجزات- سحر؟ أسحر هذا الذي ترونه؟ - فحذف السحر الأول اكتفاء بالثاني.
قوله: {ولا يفلح الساحرون} لا فلاح للسحرة؛ إن عملهم داحض، وما جاءوا به بائر خاسر لا بتنائه على الضلال والباطل.
٧٨ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)
قوله: {قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آبائنا} {لتلفتنا}، من اللفت، بالفتح وهو اللي - لفت وجهه عنه؛ أي صرفه - لفته عن رأيه؛ أي صرفه عنه - لفت الشيء لفتا؛ يعني لواه على غير وجهه وصرفه إلى ذات اليمين وذات الشمال ٨٧ - ذلك جواب فرعون وملائه الظالمين المستكبرين إذ قالوا لموسى وأخيه: أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأوثان {وتكون لكما الكبرياء في الأرض} أي لتكون لكما العظمة والرياسة والسلطان في الأرض وتؤول لكما العزة والأخذ بزمام الملك وقيادة الأمة {وما نحن لكما بمؤمنين} أي لسنا بمصدقين بما جئتنا به، فنحن غير مقرين بنبوتكما، أو أنكما أرسلتما إلينا ٨٨.
٧٩ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

قوله تعالى: {وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ٧٩ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ٨٠ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ٨١ ويحق الله الحق بكلمته ولو كره المجرمون} طلب فرعون من ملائه وأعوانه أن يجمعوا له السحرة كلهم، ظنا منه أن ما جاءهم به موسى سحر.

٨٠ - (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

فلما اجتمع له السحرة تحداهم موسى وهو واثق من توفيق الله له وأن الله مؤيد وناصره في معركته الفاصلة مع هؤلاء الأشقياء الدجاجلة، فقال لهم: {اتقوا ما أنتم ملقون} أي من حبالهم وعصيهم التي كان يخيل للناظرين عند إلقائها أنها تسعى - .

٨١ - (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

قوله: {فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر} {ما}، يحتمل أن تكون اسما موصولا، بمعنى الذي، ويحتمل أن يكون استفهاما - فإذا كانت اسما موصولا، كانت مع صلة في موضع رفع بالابتداء - و {السحر} خبره.

وإذا كانت استفهاما، كانت أيضا في موضع رفع بالابتداء - و {جئتم به}، الخبر - و {السحر} خبر مبتدأ مقدر - وتقديره: هو السحر - وقيل غير ذلك ٨٩ - والراجح القول الأول وهو أنها اسم موصول بمعنى الذي وخبره السحر: أي الذي جئتم به هو السحر وليس الذي سماه فرعون وقومه من آيات الله سحرا.

قوله: {عن الله سيبطله} أي يمحقه ويظهر بطلانه.

قوله: {إن الله لا يصلح عمل المفسدين} لا يصلح الله عمل الذين يسعون في الأرض فسادا وعصيانا - إن الله لا يديم عمل المفسدين ولا يبقيه بل يسلط عليه ما يمحقه ويبدده تبديدا.

٨٢ - (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

قوله: {ويحق الله الحق بكلمته ولو كره المجرمون} أي يرسخ الله الحق ويثبته وهو ما جئتكم به من عند الله فيظهره على باطلكم وشلالكم {بكلمته} أي بأمره أو بحجته ودلائله {ولو كره المجرمون} وهم أهل المعاصي والآثام وفي طليعتهم آل فرعون ٩٠.

٨٣ - (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

قوله تعالى: {فما آمن بموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملايهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين} الضمير في {قومه} عائد على موسى؛ أي ما آمن له أول الأمر إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل - وهم أولاد من أولاد قومه - وذلك أن موسى دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون - ومع طول الزمان مات الآباء وبقي الأبناء فآمنوا، فقيل لهم ذرية؛ لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسلهم إليهم موسى.

وقيل: الضمير عائد على قوم فرعون؛ يعني: ما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون، منهم: مؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة فرعون، وامرأة خازنه - وقيل: الذرية بمعنى القيل - وهو قول ابن عباس.

وقوله: {على الخوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم} جمع الضمير في {وملائهم} لعدة أوجه منها: أن فرعون إذا ذكر علم أن معه غيره فعاد الضمير إليه وإلى من معه - ومنها: أنه إخبار عن جبار، والجبار مخبر عن نفسه بلفظ الجمع فيقول: نحن فعلنا كذا وكذا - وقيل: في الكلام حذف مضاف وتقديره: على خوف من آل فرعون - فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ٩١ - والمعنى: أن هؤلاء آمنوا مع الخوف من فرعون أن يعذبهم فيصرفهم عن دينهم.

قوله: {وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين} أي عات متجبر مستكبر - وهو كذلك من الغلاة في الطغيان والظلم، المجاوزين الحد في الكفران - لقد بلغ فرعون من فظاعة الجحود والعتو أن ادعى الربوبية والألوهية لنفسه - لا جرم أن هذا عدوان فادح صارخ؛ بل إنه ذروة المغالاة في الاستكبار والاغترار الذي لا سبيل له في الدنيا إلا البوار؛ ليفضي بعد ذلك إلا الاستعار في النار ٩٢.

٨٤ - (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

قوله تعالى: {وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ٨٤ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ٨٥ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين} قال موسى لقومه بنيس إسرائيل: إن كنتم صدقتم بوحدانية الله وأقررتم بربوبيته ففوضوا أمركم إليه ليكون عليه اعتمادكم والتكلان، فإن الله لن يخذل أولياءه المتوكلين عليه {إن كنتم مسلمين} أي إن كنتم مستسلمين لأمره، خاضعين لشرعه، مذعنين له بكامل الطاعة والامتثال.

٨٥ - (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله: {فقالوا على الله توكلنا} أي اعتمدنا عليه، وفوضنا أمرنا إليه، ووقنا من نصره ثقة مصدرها اليقين والإيمان.

قوله: {ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين} أي لا تخذلنا بنصر المشركين قوم فرعون علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن ديننا، أو لا تمتحنا بتعذيبنا على أيداهم فيروا أنهم خير منا ويزدادوا طغيانا - وقيل: لا تسلطهم علينا فيضلونا ويفتنونا عن ديننا.

٨٦ - (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قوله: {ونجنا برحمتك من القوم الكافرين} يعني: خلصنا من أيدي الطغاة الظالمين، فرعون وملائه المتجبرين المجرمين، فقد كانوا يستبعدون بني إسرائيل ويستلمونهم في الأعمال الصعبة والمهينة كإزالة القاذورات، والقيام بخدمتهم، وكل أنواع الأعمال الشاقة.

٨٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين} أوحي الله إلى نبييه موسى وهارون {أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا} أي اتخذا بيوتا - تبوأ المكان بمعنى اتخذاه مبوأ - كقوله: توطنه يعني اتخذاه موطنا - والمبوأ يعني المنزل - بوأه منزلا، أي هيأه ومكن له فيه ٩٣.

والمعنى: اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون إليه للعبادة والصلاة.

قوله: {واجعلوا بيوتكم قبلة} أي اجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها، فقد ذكر أن بني إسرائيل كانوا لا يصلون إلا في بيعهم وكنائسهم وكانت ظاهرة يراها جنود فرعون، وكانوا لا يصلون إلا وهم خائفون، فأمروا أن يتخذوا بيوتهم مساجد يصلون فيها - وقيل: اجعلوا بيوتكم قبلة، يعني الكعبة.

قوله: {وأقيموا الصلاة} أي أدوا صلاتكم في بيوتكم بحدودها وفرائضها على وجهها الصحيح الأكمل.

قوله: {وبشر المؤمنين} أي بشر بني إسرائيل أن الله سيظهرهم على فرعون وملائه الظالمين الخاسرين - وقيل: الخطاب لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين الصابرين الطائعين بالمغفرة والرحمة وجزيل الثواب ٩٤.

٨٨ - (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)

قوله تعالى: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} قال موسى داعيا ربه ومناجيا: يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم من الطغاة والأشرار {زينة وأموال في الحياة الدنيا} أي متاع الدنيا وفاخر أثاثها وأعطيتهم أموالا كثيرة من أعيان ومختلف الجواهر والمعادن الثمينة {ليضلوا عن سبيلك} قيل في اللام إنها لام العاقبة والصيرورة - كقوله تعالى: {فالتقطاه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا} وكما جاء في الخبر: (إن الله تعالى ملكا ينادي كل يوم ولدا للموت، وابنوا للخراب) - والمعنى: أنه لما كان عاقبة أمرهم إلا الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا.

قوله: {ربنا اطمس على أموالهم} هذا دعاء من موسى على فرعون وقومه المجرمين - لقد دعا الله عليهم أن يطمس على أموالهم، أي يهلكها - من الطموس وهو الإمحاء والدروس - طمسته طمسا، أي محوته - طمست الشيء، إذا استأصلت أثره - وتطمس، يعني امحى واندرس ٩٥.

قوله المفسرون في تأويل قوله: {اطمس على أموالهم} أي أهلكهم وأموالهم ودمر عليهم تدميرا - وقيل: صارت أموالهم كلها حجارة لا تنفع.

قوله: {واشدد على قلوبهم} أي، اطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ليذوقوا بذلك وبال أمرهم، وليستوجبوا العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

قوله: {فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} جواب للدعاء {واشدد على قلوبهم} إلى أن يروا العذاب الأليم - وقد كان ذلك؛ فإنهم لم يؤمنوا حتى اجتاحهم البحر فهلكوا غرقا، فآمنوا وهم يصارعون الموت إيمان يأس - وقيل: كان الدعاء عليهم بلفظ النهي - والتقدير: اللهم فلا يؤمنوا.

قال ابن كثير (رحمه الله) في هذا الدعاء: إنه كان من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملائه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح على قومه {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا} ٩٦.

٨٩ - (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعا سبيل الذين لا يعلمون} هذا إخبار حكيم من الله عن إجابته لموسى وهارون دعاءهما على فرعون وقومه وجنوده الظالمين - وقد نسبت الإجابة إلى اثنين مع أن الدعاء كان من واحد وهو موسى؛ لأن هارون كان مؤمن - وهو أن يقول: آمين، عقب موسى؛ أي دعا موسى وأمن هارون، والمؤمن داع.

قوله: {فاستقيما} أمرهم الله بالاستقامة والثبات على أمرهما في عدوة فرعون وملائه إلى الإيمان والتوحيد حتى يأتيهم تأويل الإجابة، وهو عقاب هؤلاء المجرمين الخاسرين - وقيل: مكث فرعون بعد هده الدعوة أربعين سنة ثم أهلكهم، وقيل: فاستقيما، يعني: استقيما في الدعاء - والاستقامة في الدعاء تعني الاستعجال في حصول الإجابة.

قوله: {ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون} أي لا تسلكا طريق الجاهلين الذين لا يعلمون حقيقة الوعد من الله فتستعجلا القضاء، فإن وعد الله لا خلف له - وكذلك وعيده نازل بفرعون وقومه لا محالة ٩٧.

٩٠ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قوله تعالى: {وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ٩٠ ألن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ٩١ فاليوم نجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن أكثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون}.

هذا إخبار من رب العالمين عازم الطغاة والمتجبرين، وذل المسرفين والمفسدين، ومزلزل عروش العتاة والمستكبرين - إخبار منه جل جلاله عن تغريق فرعون وملائه وحاشيته صلفا أجمعين؛ فقد خرجوا من مصر في حشود عظيمة وهم تنتفخ أوداجهم صلفا وغرروا، يريدون اللحاق بموسى والذين معه من بني إسرائيل ليعذبونهم تعذيبا، وليذيقوهم مرارة الذلة والهوان - فأدركوهم وقت الشروق حتى تراءى الجمعان؛ فأيقن بنوا إسرائيل أنهم مدركون، ففزعوا إلى موسى يسألونه الخلاص مما هو واقع بهم، لكن موسى عليه السلام لم يفزع ولم يغرق ولم يستحوذ عليه شيء من هلع أو اضطراب بل قال لهم: {كلا إن معي ربي سيهدين} فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه {فاتلف فكان كل فرق كالطود العظيم} أي كالجبل العظيم - وهذا مقتضى قوله: {وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده} أي قطعنا ببني إسرائيل الحبر فتبهم فرعون وجنوده {بغيا وعدوا} أي ظلما وعدوانا - لكن قدر الله كان لهؤلاء الأشرار بالمرصاد؛ فما أن دخل موسى والذين معه البحر سالمين آمنين بإذن الله حتى جاوزوا إلى الساحل الآخر - فدخله فرعون وجنوده حتى إذا كانوا في وسطه ارتطم عليهم البحر فغرقوا جميعا ولم ينج منهم أحد، ولما غشيت فرعون سكرات الموت ووجد من فظاعة الرعب والكرب واليأس ما وجد، هتف مصطرخا مستيئا {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} وأني لهذا الشقي المقبوح أن تقبل توبته؟! أنى له قد أتى الشنائع من فظائع الشرك والظلم والعصيان وإفساد البلاد والعباد؟!

أنى لهذا الطاغوت العتل أن تقبل توبته وقد اجتر اجتراءه الشنيع باصطناع الربوبية لنفسه؟!
لقد كان فرعون بغيضا غاية البغض لدى كل المؤمنين في الثقلين، فقد أبغضته الملائكة واستطابت أن يتبوأ مقامه الفظيع في النار جزاء ما قدم من بغي وإفساد وطغيان، فقد روي الترمذي عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة) وحال البحر، معناه: الطين الأسود الذي يكون في أرضه.
٩١ - (ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)
قوله: {آلان وقد عصيت} أي، أتؤمن الآن في قوت الاضطراب والإياس حين أدركك الغرق، وأيقنت أنك هالك فأيست من نفسك ولم يبق لك اختيار وقد عصيت قبل ذلك طيلة عمرك وكنت من المفسدين في الأرض - وجملة {ألان وقد عصيت قبل} في محل نصب على الحال - والمراد التوبيخ والتقريع.
٩٢ - (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)
قوله: {فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية} لما أعلك الله فرعون بالغرق كذبت بنو إسرائيل مهلكه ولم يطيقوا التصديق بأنه مات غرقا، فأراهم الله جسده ملقى على الأرض وقد رمي به البحر على الساحل لينظروا إليه رأي العين، فأيقنوا أنه فارق الدنيا.
قوله: {لتكون لمن خلفك آية} أي تكون لمن يأتي بعدك من القرون عبرة يعتبرون بها فلا يجترئون مثلما اجترأت عليه من العتو والكبرياء والطغيان.
ومن أعجب الظواهر المستفاد من تنجية بدون فرعون ليكون عبرة للمعتبرين أن جسده محفوظ في أرض مصر حتى الساعة ينظر إليه الزائرون والقاصدون من كل بقاع الأرض ليروا جسده المسجى كله، ولعل ذلك من جملة التنجية لبدن فرعون فيكون آية جلية تتحدث بها جيلا بعد جيل.
قوله: {وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون} أي معرضون ساهون عن التفكير في آيات الله وعما بينه في الخلق من دلائل وبراهين وحجج ٩٨.
٩٣ - (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
قوله تعالى: {ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} ذلك إخبار من الله عما أنعمه على بني إسرائيل من خيرات الدنيا وبركاتها وهو قوله: {بوأنا بن إسرائيل مبوأ صدق} أي أسكاهم مكانا كريما محمودا، إذ أنزلهم الله منزلا صالحا فيه من الأمن والرضى والاستقرار - وهو مصر والشام، فقد أهلك الله فرعون ودمر عليه وقومه تدميرا - وأورث بني إسرائيل ديارهم وأموالهم وما تركوه من جنات وخيرات وكنوز ومذخورات لا حصر لها فعاشوا في نعيم وبحبوحة ليس لهما نظير.
قوله: {فما اختلفوا حتى جاءهم العلم} يعني: ما اختلفوا وتفرقت قلوبهم وأهواؤهم وتشبهت آراؤهم وفرقهم حتى جاءهم كتاب الله وهو التوراة، فاختلفوا فيها اختلافا كثيرا.
وقيل: المراد أن بني إسرائيل ما تختلفوا حتى جاءهم ما كانوا يعلمون ويقرأون خبره في كتابهم، وهو بعث رسول الله إلى الناس كافة، فقد كانوا قبل أن يبعث عليه الصلاة والسلام مجمعين على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والإقرار بصدق رسالته، ووجوب الإيمان به وتأييده من غير خلاف بينهم في هذه الحقيقة - فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وجحدوا وكذبوه وصدوا الناس عن دينه صدودا بمختلف الأساليب والأسباب.
قوله: {إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} الله يفصل بين هؤلاء المختلفين الذين اختلفوا في دينهم وما أنزل إليهم من ربهم، وما اختلفوا فيه من أمر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، إذ صدقه قلة منهم وكذبه الأكثرون - يفصل بينهم يوم القيامة فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ٩٩.

٩٤ - (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)
قوله تعالى: {فإن كنت في شك مما أنزل إليك فسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ٩٤ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ٩٥ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ٩٦ ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} يخاطب الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم مبينا له: أنك إن كنت في شك مما أخبرناك وأنزلنا إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في صدق رسالتك وحقيقة نبوتك قبل أن تبعث إلى الناس، وأن خبرك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فاسأل المؤمنين من أهل العلم فيهم كعبد الله بن سلام وأمثاله دون الكاذبين الجاحدين الذين كذبوا نبوتك.
علة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم تخالطه ذرة من ارتياب فيما جاءه من ربه عن بني إسرائيل؛ فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا أشك ولا أسأل).
قوله: {لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين} أي لقد جاءك الخبر اليقين أنك مرسل من ربك، وأن أهل الكتاب يعلمون صدق هذه الحقيقة في كتبهم: {فلا تكونن من الممترين} أي الشاكرين المرتابين، من الامتراء وهو الشك وكذا المرية والتماري بمعنى الشك ١٠٠.
٩٥ - (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
قوله: {ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين} ذلك تحذير من الله لرسوله أن يكون من المكذبين بآيات الله فيكون من الذين خسروا رحمة الله ورضاه - والظاهر أن مثل هذا التحذير ضرب من التعرض الذي يلوح منه الزجر الشديد والتنديد بالغ بأولئك الضالين المضلين الذين جحدوا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فإن كان النبي عليه السلام يحذره الله من الامتراء فيما نزل من الحق وهو أصدق المصدقين، وأجدر أن يكون أتقى المتقين، وأشرف المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، فيكيف بالذين كذبوا دعوة الله في اجتراء صريح لئيم وأنكروا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق مع أنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل؟!
٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: {إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون} {حقت} أي وجبت، ومنه استحق؛ أي تستوجب ١٠١ - والمراد بقوله: {كلمت ربك}: ما كتبه الله في اللوح المحفوظ أن هؤلاء مصرون على الكفر وأنهم يموتون كفارا - قال الزمخشري في تأويل هذه الآية: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا فلا يكون غيره - وتلك كتابه معلوم مقدر ومراد، تعالى الله عن ذلك ١٠٢ - وهو في ذلك يعبر عن تصور المعتزلة في مثل هذه المسألة.
٩٧ - (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)
قوله: {ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} هؤلاء الذين حقت عليهم كلمة الله بدوام الكفران والنكول عن عقيدة التوحيد لا يؤمنون ولو جاءتهم الحجج والبينات كاثرة تترى - وهم كذلك ماضون في عصيانهم وتكذيبهم حتى يعاينوا العذاب الوجيع عند الموت، ويؤمنوا أنهم ساقطون في الخسران، وإذ ذالك لا ينفعهم إيمانهم ولا توبتهم كما لم ينفه فرعون إيمانه لما أدركم الغرق ١٠٣.
٩٨ - (فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)
قوله تعالى: {فلولا كانت قرية آمنت فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين} لولا أداة تحضيض - {قوم يونس}، منصوب من وجهين - أحدهما: استثناء منقطع - والثاني: أن يكون منصوبا على الاستثناء غر المنقطع بأن يقدر في الكلام حذف مضاف، تقدير: فلولا كان أهل القرية آمنوا إلا قوم يونس - ورفعه بعضهم على البدل ١٠٤ والمعنى: هلا كانت قرية من الأمم السابقة آمنت بكاملها! بل إنه ما أرسلنا من رسول في السابقين إلا كذبه قومه أو أكثرهم - ويدل على ذلك قوله سبحانه {يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون} وقوله عز وعلا: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم

من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} والمقصود: انه ليس ثمة قرية من الأمم السابقة آمن بكاملها إلا قوم يونس، فقد نفعهم إيمانهم بعد نزول العقاب بهم - فاستثناهم الله من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد أن نزل العذاب بساحتهم - وهو قوله: {إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين} فقد أرسل الله إليهم يونس بن متي عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد وطاعة الله وحده دون ما يعبدونه من أوثان فأبوا، وذلك في نينوي من أرض الموصل، فذهب عنهم مغاضبا، فلما فقدوه خافوا أن يزول بهم العذاب، فلبسوا المسوح وعجوا ١٠٥ أربعين ليلة - وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربون ليلة - فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك - فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحن بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرعوا فرحمهم الله وكشف عنهم عذاب الذل والهوان، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

وبذلك لم يعاجلهم الله بالعقاب؛ بل تركهم يتمتعون في حياتهم الدنيا إلى حين مماتهم وانقضاء أعمارهم ١٠٦.

٩٩ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ٩٩ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يؤمنون} {كلهم}، توكيد - {جميعا} حال منصوب - والمعنى: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص أشد الحرص على أن يؤمن جميع الناس فيتابعوه على الهدى والإسلام، فأخبره الله أنه يؤمن من الناس إلا من سبقا له السعادة في الذكر الأول - ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول.

وقيل: شاء الله أن يؤمن به من علم منه في الأزل أنه مختار للإيمان به - وكذلك شاء الله أن يكفر به من علم منه في الأزل أنه مختار للكفر.

وقالت المعتزلة: المراد بالمشيئة: مشيئة القسر والإلجاء؛ أي لو خلق فيهم الإيمان جبرا لآمنوا؛ لكنه شاء أن يؤمنوا اختيارا فلم يؤمنوا.

قوله: {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} الاستفهام للنفي؛ أي لا تملك أنت يا محمد أن تكره الناس على الإيمان؛ لأن ذلك إنما يكون بالتصديق والإقرار، ولا يمكن الإكراه على التصديق؛ أفأنت لست إلا مبلغا، وما عليك بعد ذلك إلا أن تصدع بما يؤمر وأن تعرض عن المشركين.

١٠٠ - (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ)

قوله: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله} أي ما ينبغي لنفس أن تؤمن إلا بتوفيق الله وتيسيره، أو بمشيئته وعمله - فلا يقع شيء من إيمان أو كفران خارج علم الله، أو خارج مشيئته وقضائه.

قوله: {ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون} {الرجس}، بمعنى العقاب والغضب - وهو مضارع لقوله: الرجز ١٠٧؛ أي يجعل الله عذابه وغضبه على المفرطين الذين لم يتدبروا آيات الله وما فيها من تذكير وموعظة، وما جملته من تحريض على خلع الشركاء والأنداد ١٠٨.

١٠١ - (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ١٠١ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ١٠٢ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذالك حقا علينا ننج المؤمنين}.

يأمر اله الكافرين أن يعتبروا وينظروا في ملكوت السموات والأرض وما فيهن من دلائل وبينات وتكشف عن عظمة الخالق المدبر الحكيم - فما في الكون من مخلوقات ومعلومات وظواهر إلا كان ذلك كله شواهد على جلال الصانع القادر الذي اوجد الوجود وأتقن كل ما فيه من موجود - فما من مطر ينهمر، أو رعد يقصف، أو برق يسطع، أو بحر يهدر، أو طير يخفف بجناحيه، أو ريح شديد تعصف، أو نسمة رفيقة تمس الوجود والأعصاب في لين وحنان، أو نهر سائح ينساب، أو غير ذلك من وجوه العجائب والشواهد

والآيات المنثورة إلا يدل على قدرة الإله الديان.
ومع ذلك كله فإن الإنسان ظلوم موغل في التفريط، سادر في طلب اللذات واتباع الهوى والشهوات - وهو قوله سبحانه: {وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} ما، استفهامية وقيل: نافية - والمعنى: ما تنفع الحجج والبينات {والنذر} أي الرسل، قوما سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون - إن هؤلاء المفرطين الخاسرين لا يصدقون بعقيدة التوحيد، ولا يلتزمون منهج الله، ولا ينزجرون عن عبادة الهواء والشهوات وغير ذلك من وجوه الأوثان، ولو جاءتهم كل الدلائل والحجج؛ فهم أولو قلوب غلف مغاليق، وطبائع صلدة صم لا تملى الحق والتوحيد، ولا تجنح لمنهج الله القويم، ولا تستمرئ العيش في ضلال الرحمن.
١٠٢ - (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)
قوله: {فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم} {خلوا}، بمعنى مضوا ١٠٩، وذلك تحذير للمشركين من أن يحل بهم انتقام الله كالذي حل بنظرائهم من المشركين السابقين - فهل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا أياما مثل أيام أسلافهم الذين أخذهم الله بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.
والمراد بأيام الذين خلوا: وقائع الله في الأمم السابقة؛ وهو ما حل بهم من وجوه العذاب ما بين طوفان وتغريق وتدمير ونحو ذلك - قوله: {فانتظروا إني معكم من المنتظرين} وذلك تهديد من الله ووعيد؛ إذ يخوف المشركين بإنزال العذاب بهم مثلما أنزله بالظالمين السابقين من قبلهم {فانتظروا} أي تربصوا الوعيد من الله وإني متربص معكم
١٠٣ - (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)
{ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا} إذا نزل العذاب بالأمم الظالمة نجى الله رسله والمؤمنين الذين صدقوهم واتبعوا دينهم.
قوله: {وكذلك حقا علينا ننج المؤمنين} الكاف في {كذلك}، صفة مصدر محذوف - وتقديره: ينجي رسلنا، والذين آمنوا ننجيهم مثل ذلك.
والمعنى: كما فعلنا بالسابقين من رسلنا، إذ أنجيناهم والمؤمنين معهم وأهلكنا أممهم الظالمين، كذلك نفعل بك يا محمد وبمن معك من المؤمنين فننجيك وننجي المؤمنين معك حقا علينا.
وقال صاحب الكشاف في تأويل ذلك: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين - و {حقا علينا} اعتراض، يعني: حق ذلك علينا حقا ١١٠.
١٠٤ - (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين ١٠٤ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ١٠٥ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ١٠٦ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم} يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب أن يقول لهؤلاء المشركين من قومه: إن كنتم ترتابون فيما جئتكم به من دين يدعوكم إلى التوحيد وعبادة الله وحده، ويحذركم من الشرك واتخاذ الأنداد من دون الله؛ فإني أبين لكم صراحة أنني لا أعبد ما تعبدون من آلهة مصطنعة موهومة بلهاء لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ولا تعقل ولا تغني عن أحد شيئا - وفي ذلك من التنبيه إلى سفاهة المشركين وبساطه أحلامهم ما لا يخفى.
قوله: {ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين} أعبد من يستحق العبادة وهو لله ذو القدرة والجبروت، ومالك الأشياء والحياة والملكوت وهو الذي بيده مقاليد الوجود كله وبيده حياتكم ومماتكم وإليه تبصرون جميعا بعد أن ينتزع أرواحكم فتفضون إلى الموت - ذلكم الله القادر الخالق الذي أذعن له حده بالطاعة والعبادة وأصدق مستيقنا ما جاءني من عنده.
١٠٥ - (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: {وأن أقم وجهك للذين حنيفا ولا تكونن من المشركين} {وأن أقم}، معطوف على {أن أكون} أي كن من المؤمنين وأقم وجهك للدين حنيفا.

والله يأمر رسوله الكريم بقوله: أقم نفسك على دين الإسلام {حنيفا} أي مستقيما عليه غر مائل عنه إلى دين من الأديان - والحنيف، معناه: الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه - والدين الحنيف: المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو الاسلام - والحنيفية: هي ملة الإسلام - تحنف، أي اعتزل عبادة الأصنام ١١١.

قوله: {ولا تكونن من المشركين} أي لا تكونن ممن يشرك في عبادة الله شيئا من الآهة وأنداد فتفضي إلى الهلاك والخسران.

١٠٦ - (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ)

قوله: {ولا تدع مع الله ما لا ينفعك ولا يضرك} أي لا تعبد من دون الله أحدا من المخاليق؛ فإنهم لا يملكون لك نفعل ولا ضرا إذا دعوتهم أو رجوتهم {فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين} لئن فعلت شيئا من ذلك فأنت في عداد المشركين الذين ظلموا أنفسهم بإيقاعها في الخسران، وفي ذلك تعريض بغير رسول الله صلى الله عليه وسلم من العباد - والرسول عليه السلام أبعد الخليفة عن دعاء غير الله، وهو أشد البرية مجانبة للشرك.

١٠٧ - (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

قوله: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو} الضر، بالضم، وهو الفقر والفاقة - وقيل: كل ما كان سوء حال وفقر وشدة ١١٢.

والمعنى: أن ما يصيب الإنسان من شدة أو ضيق أو غير ذلك من ضروب الكروب؛ فإنه ليس له من دافع يدفع إلا الله؛ فهو سبحانه يتولى كشف السوء والبلاء عن المكروب بما شاء وكيف شاء - أما هذه الأصنام الجامدة البلهاء التي لا تريم ١١٣ فأنى لها أن تكشف عن أحد سوءا أو مكروها - حتى الأنداد والمتجبرون من البشر كالظالمين والمستكبرين والطغاة لا يملكون كشف السوء أو البلاء عن أحد إلا أن يشاء الله ذلك؛ فهو سبحانه يكشف البلاء والأرزاء عن عباده بما يقدره وييسره من الأسباب والوسائل.

قوله: {وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده} إذا أردا الله بأحد خيرا من نعمة أو رخاء أو عافية أو ابتهاج أو انفراج؛ فليس من أحد يستطيع أن يحول بين العبد المنعم عليه وما كتب الله له من نعمة أو خير - ليس من أحد كائنا من كان يقدر أن يحجب الخير المقدور عن احد من العباد - وإنما السراء والضراء بيد الله وحده يصيب بذلك {من يشاء من عباده} فلا راد لقضائه ولا مانع لفضله إلا هو.

قوله: {وهو الغفور الرحيم} الله الذي يغفر الذنوب للتائبن المنيبين إليه - وهو سبحانه رحيم بعباده المؤمنين المخبتين الذين يعجون إليه في كل آن بالإنابة والاستغفار ١١٤.

١٠٨ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

قوله تعالى: {قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ١٠٨ واتبع ما يوحي إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين}.

يأمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يعلم للناس جميعا عن مجيء الحق لهم وهو القرآن؛ فإن فيه خير البشرية وسعادتها ونجاتها في الدنيا والآخرة - وفيه من روعة العقيدة وبساطتها ويسرها، ومن جمال القيم والسلوك وكمال التشريع ما تصلح عليه أحوال الناس كافة في سائر الأزمنة والبلدان - فمن استقام على منهج هذا الكتاب الحكيم؛ فقد نفع نفسه بخلاصها ونجاتها - أما من أبي وزاغ عن طريق الله وارتضى بالكفر والضلال سبيلا؛ فإنما يجني على نفسه فيوردها المهاوي والخسران.

قوله: {وما أنا عليكم بوكيل} أي لست عليهم يا محمد بحافظ ولا مسلط إنما أنت مبلغ ونذير، يناط بك أن تبلغهم وتدعوهم إلى الإسلام - ثم مردهم بعد ذلك إلى الله وهو يتولى حسابهم وعقابهم.

١٠٩ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

قوله: {واتبع ما يوحي إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين} يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلتزم ما أنزله اله من الآيات فيعمل بها ويبلها للناس - ويأمره كذلك أن يصبر على ما يصيبه من ظلم المشركين وعدوان المعتدين، وعلى ما يناله في الطريق من الأذى والمكاره.
قوله: {حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين} أي حتى يفتح الله بينك وبينهم فيقضي لك بالنصر والغلبة - وهو سبحانه خير الفاتحين والفاصلين ١١٥.

١١ سورة هود:

سورة هود:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية - وهي حافلة بأخبار الأولين من الرسل الذين بعثهم الله إلى أممهم فما آمن منهم إلا قليل - وأبي أكثرهم إلا الضلال والعصيان والتكذيب - فأذوا رسالات الله، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر - لقد أخذهم بشديد الوبال، والعقاب الوجيع البئيس، ما بين طوفان جارف غامر اصطلم المشركين جميعا فامحت أعيانهم البتة - أو ريح صرصر عاتية تدمر كل شيء، أو صيحة قارعة رعيبة تتقطع منها القلوب، وتتبد منها الأجساد تبديدا، إلى غير ذلك من ضروب العقاب الذي أنزله بساحة العصاة والمجرمين الذين شاقوا الله ورسوله وحالوا بين منهج الله والناس.
إن هذه الأخبار في ذاتها مخوفة مؤثرة وغاية التأثير، فلا يمر بها القارئ أو السامع المتدبر حتى تفجأه أحداثها ووقائعها وما آلت إليه من وخيم العواقب، فيكف إذا كانت هاتيك الأخبار التي والوقائع قد تحدث بها القرآن بسوره العظيمة وآياته المؤثرة العجاب، وعباراته التي تتزاحم فيها المعاني تزاحما؟! وكذلك كلماته ذات الإيقاع المفزع، والنعم الباهر الخلاب؟! فلا جرم أن تكون هذه السورة في مبلغ تأثيرها وعجيب إيقاعها وزاخر معانيها المختلفة وشدة روعتها المفزعة التي تأخذ القلوب - باللغة الشأن، مهيبة القدر والجلال.
تلك هي سورة هود التي وقعت في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل موقع حتى شاب منها شعره - وفي هذا أخرج الترمذي بإسناده عن ان عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت - قال: (شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذ الشمس كورت) وفي رواية: (هود وأخواتها).
روي الطبري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت).
١ - (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

بسم الله الرحمن الرحيم
{الر كتاب أحكم آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ١ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ٢ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ٣ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير}.
{الر}، مبتدأ - خبره {كتاب} وقوله: {أحكم آياته} صفة للكتاب ١ والمعنى: أنها نظمت مظما رصيفا ٢ ليس فيه نقص ولا ضعف ولا خلل - وقال ابن عباس: أي لم ينسخها كتاب بخلاف التوراة الإنجيل - وعلى هذا الوجه لا يكون كل كتاب محكما؛ لأنه قد حصل فيه آيات منسوخة، لكنه لما كان الغالب محكما غير منسوخ صح إطلاق هذا الوصف (الإحكام) عليه؛ لأن الحكم الثابت فيما هو غالب يجري مجرى الثابت في الكل.
قوله: {ثم فصلت من لدن حكيم خبير} {فصلت} بمعنى فسرت؛ أي بين حلالها وحرامها، وأمرها ونهيها، ووعدها ووعيدها، وثوابها وعقابها - وذلك كله {من لدن حكيم خبير} حكيم في تدبيره وتقديره وأقواله وأفعاله، خبير بعواقب الأمور وبما ينفع الناس أو يضرهم.

٢ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)
{ألا تعبدوا إلا الله} أي جاء هذا القرآن محكما مفصلا بأن تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له وتخلعوا كل ما عداه من آلهة وأنداد {إنني لكم منه نذير وبشير} إنني مكلف من ربي بأن أنذركم وأحذركم شديد عقابه على الجحود والعصيان، وبأن أبشر المؤمنين الطائعين منكم بالجنة والرضوان وجزيل الثواب.
٣ - (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)
قوله: {وأن استغفروا ربكم} معطوف على {ألا تعبدوا} أي اطلبوا المغفرة مما سبق من الشرك والذنوب، واخلعوا حب الأصنام من قلوبكم، وأقلعوا عن فعل المعاصي والسيئات {ثم توبوا إليه} أي ارجعوا له بالطاعة والعبادة وعمل الصالحات.
قوله: {يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى} أي إذا فعلتم ما ذكر من استغفار وتوبة أمتعكم الله بسعة الرزق وراغد العيش وطيب الزينة والمعاش إلى وقت مقدر لكم في هذه الدنيا وهو حلول الموت.
{يمتعكم}، مجزوم؛ لأنه جواب الأمر {وأن استغفروا} وجواب الأمر وجب أن يكون مجزوما؛ لأنه جواب لشرط مقدر ٣.
قوله: {ويؤت كل ذي فضل فضله} الفضل معناه: الإحسان ابتداء بلا علة، وما بقي من الشيء ٤ والمعنى: أن الله يجزي كل من عمل خيرا جزاءه في الآخرة - وقيل: في الدنيا والآخرة جميعا.
قوله: {وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير} {تولوا}، أصله تولوا، فحذفت إحدى التاءين؛ لأنه اجتمع حرفان متحركان من جنس وحد فاستثقلوا اجتماعهما فحذفوا إحداهما تخفيفا ٥؛ أي إن أعرضوا عن دين الله وأبوا إلا الضلال والباطل وعبادة الأوثان فقل لهم: إني {أخاف عليكم عذاب يوم كبير} كبير بالأهوال والشدائد، كبير بفظاعة الوي وعظائم الأمور؛ ذلكم يوم مخوف مذهل لا ينفع فيه المال ولا البنون ولا الشفاعة ولا الفداء - يوم يغيب فيه عن المشركين كل الشركاء والأنداد والخلان.
٤ - (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله: {إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير} إن مصيركم إلى الله؛ إذ تموتمون ثم تبعثون من قبروكم، ثم تحشرون لتناقشوا الحساب - وليس شيء من ذلك بعزيز على الله؛ فهو سبحانه قادر على إحيائكم بعد الموت لعاقبكم في أخرا كم ٦.
٥ - (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
قوله تعالى: {ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسيرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور}.
نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلا حلو الكلام، حلو المنظر يقلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ويطوي بقلبه ما يكره - وقيل: كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم يظهر له أمرا يسره ويضمر في قلبه خلاف ما يظهر - فأنزل الله: {ألا إنهم يثنون صدورهم} أي يكمنون ما في صدورهم من العداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ٧.
وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مر بالنبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه، لكيلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان.
وقيل: قال منافقون: إذا غلقنا أبوابنا، واستغشينا ثيابنا، وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية ٨.
قوله: {ألا إنهم يثنون صدورهم ليسخفوا منه} ثنى صدره عن الشيء إذا ازور ٩ عنه وانحرف، ويثنون صدورهم؛ أي يزورون عن الحق وينحرفون عنه - وذلك كناية عن الإعراض عن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم {ليسخفوا منه} أي ليتواروا عن الله أو عن رسوله.
وقيل: {يثنون صدورهم} يعني يطوونها على عداوة المسلمين - قال ابن عباس: يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة ويظهرون خلافه.

قوله: }ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون{ ألا حين يغطون رؤوسهم بثيابهم في ظلمة الليل وهم في أجواف بيوتهم لا جرم انه يعلم في تلك الساعة ما يسونه في قلوبهم وما يعلنونه بأفواههم - يستوي ذلك كله عند الله }إنه عليم بذات الصور{ وذلك تسفيه للمنافقين الضالين الماكرين الذين يطنون أنهم مستخفون عن الله بما يستسرونه في قلوبهم من الحقد والكيد والكراهية للإسلام ورسوله؛ فالله علم بأسرارهم وما تخفيه قلوبهم، وهو سبحانه مطلع على أعمالهم وخباياهم ر يخفى عليه من ذلك شيء ١٠.

٦ - (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: }وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين{ ما نافية - }من{ حرف جز زائد، والدابة، من دب يدب؛ أي مشى يمشي؛ فهو داب وهي دابة - والدابة كل ماش على الأرض، وقد غلب على ما يركب من الحيوان سواء في ذلك المذكر والمؤنث، والجمع دواب ١١.

والمعنى: ما من دابة تمشي على الأرض إلا ويأتيها رزقها من الله؛ فهو سبحانه متكفل بما به عيشها من قوت وغذاء وشراب - وهو سبحانه خالق الأحياء لا جرم أنه متفضل بما فيه قوام حياتها حتى تموت - سواء في ذلك الطير السابح في الجو الفضاء، أو البهائم الراتعة على متن الأرض، أو الحيتان الضاربة في أغوار البحر، أو الإنسان البصر، ذو العقل والإرادة والتفكير، كل أولئك رزقهم على الله.

قوله: }ويعلم مستقرها ومستودعها{ }مستقرها{، مكانها الذي تأوي إليه وتستقر فيه، }ومستودعها{، المكان الذي تموت فيه - وقيل: المستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة.

قوله: }كل في كتاب مبين{ كل واحد من الدواب ورزقه وموضع استقراره أو موته، علم ذلك جميعا مكتوب في اللوح المحفوظ.

٧ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: }وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ٧ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون{.

خلق الله السموات والأرض في ستة أيام }وكان عرشه على الماء{ أي فوقه، وذلك يدل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض - وما ينبغي أن نمضي في الحديث عن هذه المسألة أكثر من ذلك، فإن الوقوف على حقيقة هذه الأحداث الكونية المذهلة وكيفية خلق السموات والأرض في ستة أيام وتصوره عرش الله فوق الماء، إنما يعلمه الله حق العلم - وما ينبغي للإنسان ذي الإدراك المحدود إلا أن يقف عند ظاهر النص الحكيم مصدقا مستيقنا، ممسكا عن البحث في الكيفية أو الخوض فيما لا طاقة له به.

قوله: }ليبلوكم أيكم أحسن عملا{ }ليبلوكم{ من البلاء والابتلاء؛ أي الاختبار - والمعنى: أن الله خلق ذلك كله ليختبركم بالاستدلال على كمال قدرته، وأنه هو صانع المقتدر الحكيم، أو ليختبركم أيكم أعمل بطاعة الله وأبعد عن محارمه.

قوله: }ولئن قلت إنكم مبعوثين من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين{ لئن بينت لهؤلاء المشركين الضالين أنهم مبعوثين من قبورهم يوم القيامة، وأنهم موقوفون على ربهم ليلاقوا الحساب والجزاء؛ فلسوف يكذبونك ويجحدون ما جئتهم به من خبر البعث ويقولون منكرين مستكبرين: }إن هذا إلا سحر مبين{ }إن{، نافيه بمعنى ما، والإشارة إلى القرآن الكريم؛ فهو الحاكم بحصول البعث، فطعنوا فيه بكونه سحرا ليدحضوا القول بالبعث.

وقيل: المراد بالإشارة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد تقولوا عليه بأنه ساحر وليس الساحر إلا كاذبا؛ فهم بذلك يقصدون تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

٨ - (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

قوله: ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة لقولن ما يحسبه} اللام في {لئن} للقسم - وجوابه {ليقولن ما يحسبه} والأمة تعني الحين أو الأجل المعلوم، أو المدة من الزمن - والمعنى: لئن أمسكنا العذاب عن هؤلاء المشركين فلم نعجله لهم، وأنسأنا لهم في آجالهم إلى الحين معلوم؛ فلسوف يقول هؤلاء المشركون: {ما يحسبه} يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والاستعجال، وتكذيبا للمتوعد.

{ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم} أي يوم يأتيهم العذاب من الله، فليس من أحد يدفعه عنهم أو يصرفه {وحاق لهم ما كانوا به يستهزئون} أي نزل بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه ١٢.

٩ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)

قوله تعالى: {ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناه منه إنه ليئوس كفور ٩ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ١٠ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة واجر كبير} اللام في {ولئن} موطئة لقسم مقدر، وليست جوابا للقسم - وإنما جوابه قوله: {إنه ليئوس كفور} وأغنى جواب القسم عن جواب الشرط ١٣ - والمعنى: لئن مننا على الإنسان برحمتنا فبسطنا عليه من رخاء العيش وسعة الرزق ثم سلبنا ذلك كله منه بما اجتاحه من المصائب {إنه ليئوس كفور} ينقلب يائسا قنوطا شديد الكفران، يجحد نعمة ربه فلا يشكرها - وذلك هو ديدن المشركين والمنافقين والخائرين من ضعفه المسلمين الذين يعبدون الله على حرف فإن أصابتهم نعمة طاروا بها فرحا، وإن أصابهم بلاء استيأسوا من رحمة الله وجحدوا -مبادرين- نعمته وفضله، ونسوا ما من الله به عليهم قبل ذلك من الخير.

١٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

قوله: {ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولون ذهب السيئات عني} لئن من الله على الإنسان بالنعمة من بسطه العيش والرزق بعد ما أصابه العسر والشدة وضيق العيش، فلسوف يقول -مباهيا مسرورا- ذهب عني الضيق والعسر، وزالت عني الشدائد والمكاره {إنه لفرح فخور} فرح وفخور، كلاهما مبالغة في الفرح والفخر، وذلك هو ديدن المشركين والمنافقين والخائرين من ضعقة المسلمين، إذا أصابهم الرخاء بعد الشدة، أو الغنى بعد الفقر، أو العسر بعد اليسر؛ فإنهم إذ ذالك يغمرهم السرور البالغ، وتستحوذ عليهم البهجة العاصفة، فيهتفون هتاف المفاخر الجذلان بشدة فرحهم وسرورهم.

لكن المسلمين الصادقين المخبتين أجدر أن يكونوا في كل أحوالهم وسلوكهم من أهل الجد والوقار والرزانة؛ فلا تستخفهم بهجة الفرح المغالي، ولا تستحوذ عليهم زهرة الدنيا بمتاعها الداثر وزينتها الفانية.

١١ - (إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

ولذلك قال سبحانه: {إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير} استثنى الله الإنسان الذي وصفه بهاتين الصفتين وهما الصبر وعمل الصالحات - فالمؤمنين الصابرون العاملون الصالحات لا جرم أنهم جادون وقورون في كل الأحوال، سواء في اليسر أو العسر، في المنشط أو المكره - وهم إن غشيتهم شدة أو بأساء صبروا واحتلموا ولم يعطفهم ذلك عن طاعة الله والاعتصام بحبله المتين - وإن أصابهم الرخاء والنعمة شكروا الله على ما من به عليهم، غير ذاهلين ولا مفرطين، وأولئك يغفر الله لهم ذنوبهم فيمحوها بفضله ورحمته، ولهم منه جزيل الجر والمثوبة ١٤.

١٢ - (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

قوله تعالى: {فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ١٢ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ١٣ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون} روي عن ابن عباس أن رؤساء مكة المشركين قالوا: يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا - وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك، قال لهم: لا أقدر على ذلك فنزلت

الآية ١٥، وفيها يثبت الله رسوله بالقول الثابت ويسري ١٦ عنه ما يناله من الأسف والهم، مما يراه من إعراض المشركين وتكذيبهم وهو قوله سبحانه: {فلعلك تارك بعض ما يوحى غليك} أي لعلك يا محمد لعظيم ما تجده من تكذيب المشركين وفرط كراهتهم وجحودهم وتنعتهم تارك بعض ما انزله الله عليك من الآيات مما أمرك الله بتلاوته عليهم وتبليغهم إياه مما فيه تسفيه لآلهتهم ودعوتهم للإيمان بالله وحده، وخلع ما يعبدونه من دونه من أوثان وأنداد - وقيل: إن هذا خارج مخرج الاستفهام؛ أي هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما طلبوا منك؟.

وقيل: إن ذلك في معنى النفي والاستبعاد؛ أي ليس ذلك كائنا منك بل إنك تبلغهم كل ما أنزل إليك من ربك سواء شاء المشركون أم أبوا، رضوا أم سخطوا - وذلك أن المشركين سألوه أن يأتيهم بكتاب ليس فيه سب آلهتهم فيتبعوه، فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سب آلهتهم فنزلت الآية.

قوله: {وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك} {وضائق} معطوف على {تارك} و {صدرك} فاعل لاسم الفاعل {وضائق} ولم يقل ضيق صدرك؛ لأن (ضيق) صفة مشبهة فيها معنى اللزوم.

والمعنى: لعلك ضائق صدرك بما أوحاه الله إليك من الكتاب فلا تبلغه إياهم {أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز} أي لئلا يقولوا هلا أنزل عليه كنز - والكنز هو المال المدفون ١٧ {أو جاء معه ملك} مصدق له فيما جاء به.

قوله: {إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل} أي بلغهم ما أوحي إليك، فما عليك إلا أن تنذرهم فتخوفهم عقاب الله وتحذرهم من بطشه الشديد، وليس أن تأتيهم بما يسألونه من مقترحات {والله على كل شيء وكيل} الله بيده تدبير كل شيء وهو حفيظ لما يقولونه ويفعلونه.

١٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {أم يقولون افتراه} {أم} منقطعة بمعنى بل والهمزة - والمعنى: أيقولون افتراه؟ أي اختلقه وتقوله، والاستفهام للتوبيخ والتقريع - قوله: {قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات} يعني إن كان ما أنبأكم به من هذا القرآن مختلفا؛ فإني أتحداكم أن تأتوا بعشر سور مختلفات -في زعمكم- من مثل هذا القرآن - وهذه مرحلة ثانية من مراحل التحدي للعرب؛ فقد تحداهم الله أول مرة أن يأتوا بمثل القرآن إن استطاعوا - وهم أعجز أن يأتوا ببضع آيات من مثله - والآن يأمر الله نبيه أن يتحداهم بالإتيان بعشر سور من مثل سوره - وهم في كل مرة لا يخفون عجزهم المطبق عن معارضة هذا الكتاب الحكيم، مع أنهم الفصحاء والبلغاء، وفيهم جهابذة البيان وأقطاب اللسن، وهم أقدر الناس على إدراك فنون اللغة، ما بيت منثور ومسجوع وشعر أو خطابه تتدفق ألفاظها من أفواه النابغين المصاقع؛ لكنهم مع عراقتهم وبراعتهم في ذلك كله قد انتكسوا مخذولين دون أن يقتدروا على مضاهاة القرآن الكريم في روعة نظمه وأسلوبه، وجمال رصفه ومبناه، وكمال مضمونه وما حواه من عظيم المعاني والعلوم - كل ذلك لا جرم يزجي بقاطع الدلالة على أن هذا الكتاب معجز، وأنه من كلام الله.

قوله: {وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} أي ادعوا من استطعتم أن تدعوهم من العوان والأنداد سواء كانوا من البشر أو ممن تعبدون من الأوثان لافتراء ذلك واختلافه {إن كنتم صادقين} أن هذا القرآن مفترى، أو أنه قد اختلقه محمد بزعمكم.

١٤ - (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

قوله: {فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله} فإن لم يستجب لكم أعوانكم من الأنداد والشركاء الذين تعبدونهم، للإتيان بعشر سور مثل هذا القرآن مختلفات ولم تطيقوا أنتم وإياهم الإتيان بذلك؛ فاعلموا واستيقنوا أن هذا القرآن أنزله الله، وأنه معجز، وأن محمدا لم يختلقه ولا يقدر على اختلاقه.

واعلموا أيضا أن منزل هذا القرآن المعجز لهو الله وليس من إله غيره؛ فهو وحده الإله المعبود، فاعبدوه وأطيعوه، واخلعوا الأنداد والشركاء المصطنعين؛ لتتوجهوا بقلوبكم ونواصيكم إلى الله وحده دون احد سواه {فهل أنتم مسلمون} الاستفهام للأمر - وفيه استثارة

لأذهان المشركين ومشاعرهم كيما يستجيبوا للحق.
والمعنى: {هل أنتم مذعنون لله بالإيمان والطاعة وإخلاص العبادة بعد الذين تبين لكم من بالغ الحجة وقاطع البرهان؟! ١٨
١٥ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)
قوله تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا وزنتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ١٥ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون} {من كان}، جملة شرط في محل جزم وجوابه {نوف إليهم} واختلف المفسرون في تأويل هذه الآية.
فقد قيل: نزلت في الكافرين، فهم لا ينوون بأعمالهم إلا الدنيا وزينتها، وقيل: نزلت في المنافقين وأهل الرياء، وقيل غير ذلك - والصواب أن هذه الآية عامة في كل ما يبتغي بعمله غير الله، سواء كان كافرا أو منافقا أو مرائيا، فأيما امرئ قصد بعمله غير الله فلا يجزي مقابله الثواب في الآخرة - وإنما يجزي في الدنيا حظه من زينة الحياة وطيب العيش فيها وحسن الصحة وجزيل الثناء من الناس، لكنه في الآخرة محروم خاسر، وذلك كالشرك الذي يصل الأرحام ويعطي السائلين ويرحم المضطرين والمكروبين ويغيث الملهوفين والمحتاجين وغير ذلك من صالح الأعمال، فإن الله يعجل له ثواب عمله في الدنيا، إذ يوسع عليه في الرزق، ويقر عينه بما أعطاه، ويدفع عنه من المكاره ما يعدل ما بذله من خير ومعروف، وهو في الآخرة ما له من نصيب - وكذلك المنافقون والمراؤون الذين لا يبتغون بأعمالهم إلا الدنيا وزينتها وزخرفها وحسن الثناء فيها والإطراء، فإنهم يعطون من زينة الدنيا ما يتمتعون به وينعمون - {وهم فيها لا يبخسون} أي لا ينقصون من نعيمها ومتاعها شيئا.
١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
قوله: {أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار} هؤلاء الذين تبين ذكرهم يوفون أجور أعمالهم في الدنيا وليس لهم في الآخرة إلا النار يصلونها.
قوله: {وحبط ما صنعوا فيها} حبط حبطا وحبوطا، أي بطل، حبطت الداية حبطا، بالتحريك: انتفخ بطنها من كثرة الأكل، أو من أكل ما لا يوافقها - والحباط: وجع البطن من الانتفاخ لكثرة الأكل أو الأكل مالا يوافق ١٩ - والمعنى: أن ما كان يعمله هؤلاء المشركون والمنافقون والمراؤون من صنعي في الدنيا ليس لهم فيه ثواب، ولكنه ذاهب هدرا بغير قيمة أو حساب، لأنهم ما كانوا يريدون به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا وزينتها وزخرفها.
قوله: {وباطل ما كانوا يعملون} باطل، مرفوع، لأنه مبتدأ - و {ما كانوا يعلمون}، خبر ٢٠، أي ما كان يعمله هؤلاء غير معتمد به ولا معتبر، بل هو باطل، لأنهم كانوا يعلمون بغير الله، فأبطل الله وأعمالهم ٢١.
١٧ - (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله تعالى: {أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن كفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون} الهمزة للاستفهام الأنكاري - وقوله: {أفمن كان على بينة} مبتدأن والخبر محذوف - والمراد بالبينة البراهان، وتقديره الخبر: كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ والمعنى: أفمن كان على برهان، من الله يدل على الحق والصواب كمن كان يريد الحياة الدنيا؟ وهذا الحكم عام فيشمل كل مؤمن مخلص - وقيل: المراد به الرسول صلى الله عليه وسلم، والمراد بالبرهان دليل الفطرة والعقل.
قوله: {ويتلوه شاهد منه} يراد بالشاهد القرآن - والضمير في {منه} إلى الله، أي ويتبع ذلك البرهان شاهد من الله وهو القرآن، فإنه في بلاغته وروعة نظمه وعظيم معانيه يشهد للرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة والصدق فيما جاء به - ومن قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام يتبع القرآن في تصديق الرسول الكريم والشهادة له بأنه جاء بالحق.
قوله: {إماما ورحمة} منصوبان على الحال - والإمام الذي يؤتم به في الدين ويقتدى - والرحمة ما حواه هذا الكتاب (التوراة) من نعمه

الهداية وصدق العقيدة والتشريع - و {كتاب موسى} مرفوع؛ لأنه معطوف على قوله: {شاهد} ٢٢.

قوله: {أولئك يؤمنون به} الإشارة إلى الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم في صحة هذا الدين؛ فإنهم يؤمنون بالقرآن.

قوله {ومن كفر به من الأحزاب فالنار موعده} أي من يكفر بهذا القرآن فيجحد نزوله من عند الله، من الأحزاب وهم المتحازبون على الكفر وتكذيب الإسلام من أهل الملل والأديان المختلفة؛ فإنهم لا جرم صائرون إلى النار بسبب كفرهم وتكذيبهم - وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار).

قوله: {فلا تك في مرية منه} أي لا تك في شك من هذا القرآن - وقيل: لا تك في شك من أن موعده المكذبين بالقرآن النار {إنه الحق من ربك} أي أن القرآن أو الموعد بمصير المكذبين إلى النار هو الحق من الله فلا مدخل للشك في ذلك البتة {ولاكن أكثر الناس لا يؤمنون} أكثر الناس في مختلف القرون والأمم غافلون مفرطون، سادرون في الضلالة لا يتبعون في حياتهم وعامة سلوكهم غير الهوى؛ فهم أكثرهم بذلك غير مؤمنين ٢٣.

١٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ١٨ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هو الكافرون ١٩ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ٢٠ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ٢١ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون}.

الاستفهام للإنكاري المفيد للنفي؛ أي ليس من أحد أشد ظلما لنفسه من الذي يفتري على الله الكذب، بزعمه أن لله شريطا، أو زعم أن الأصنام شفعاء له عند الله، أو قال: الملائكة بنات الله، أو كذب كلام الله وهو القرآن فأضافه إلى نفسه.

قوله: {أولئك يعرضون على ربهم} أي تعرض أعمالهم على ربهم فيسألهم عنها {ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم} الأشهاد يراد بهم الملائكة - وقيل: الأنبياء المرسلون - وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء - وقيل: جميع الخلائق أشهاد على الظالمين المفترين يوم القيامة؛ فهم يشهدون على افترائهم على بهم في الدنيا ويقولون: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم} أي كذبوا عليه بما نسبوه إليه افتراء عليه. وهذا مشهد من أشد المشاهد التي يمر بها المجرمون الظالمون هولا وفظاعة يوم القيامة، يوم تتفاقم فيه الأهوال والبلايا والفضائح؛ ليجد الظالمون الخاسرون أنفسهم في غاية الإياس وكمال الإحساس بالخزي على مرأى ومسمع من الخلائق كافة - فيا لها من ساعة قارعة رهيبة، ويا له من مشهد رعيب مزلزل!

وفي هذا الصدد روي الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذا بيد ابن عمر، إذ عرض عليه رجل قال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: (إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ٢٤ ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذ قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك - قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم - ثم يعطي كتاب حسناته - وأما الكفار والمنافقون فيقول: {ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين}.

١٩ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

قوله: {الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هو الكافرون} هذا وصف لهؤلاء الظالمين الذين كذبوا على ربهم؛ فهم {يصدون عن سبيل الله} وسبيل الله هو دنيه المستقيم؛ أي يمنعون الناس أن يؤمنوا بالله إيمانا صحيحا؛ إذ يصدوهم بمختلف الأسباب مما يفتنهم عن عقيدة التوحيد الخالص لله، وعن الأخذ بمنهج الله للعباد وهو الإسلام {ويبغونها عوجا} والضمير عائد إلى سبيل الله

وهو الإسلام، فالكافرون والظالمون الذين يكرهون الإسلام ويحادون الله ورسوله {ويبغونها عوجا} أي يلتمسون أن تكون هذه السبيل زيغا وميلا عن الحق - يردون أن يكون دين الإسلام موافقا لأهوائهم في الضلالة والباطل فلا يكونون مسلمين حقا بل يريدونهم أشباه مسلمين لكي يستضعفوهم ويستذلوهم ويستحوذوا عليهم - وذلك هو ديدن الكافرين والظالمين من أعداء الإسلام في كل زمان ومكان - إنهم يحرصون على حمل المسلمين على التحلل من عري الإسلام ومبادئه الوافية الراسخة المتكاملة ثم يأخذون بهذا الدين وقد أسقطت منه مبادئ أساسية شتى كالجهاد والحدود ونظام المواريث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجانبة المحظورات والرذائل الخلقية والاجتماعية، إلى غير ذلك من قضايا الحلال والحرام، فلا يبقى بعد ذلك من الإسلام إلا بقية من أشتات الديانة الممزقة الباهتة، أو أشتات الأحكام في العبادات والأحوال الشخصية - وهي هذه لا تنجو من كيد التلاعب والانتقاص والتطور المزعوم وهم في ذلك كله يتذرعون بذرائع سقيمة كاذبة مثل الحرية الشخصية ونحوها - وهذا هو أسلوب الماكرين والخبيثين من شياطين البشر الذين يريدون أن ينسفوا الإسلام نسفا ليصير بعد ذلك إلى دين مضطرب ضعيف مسلوب لا روح فيه ولا قوة - وليصير المسلمون جموعا من المستضعفين، وقد خسروا أعظم مقوماتهم النفسية والفكرية والشخصية والحضارية: مقوماتهم المتماسكة المتكاملة الرصينة التي جاء بها الإسلام ليصنع بها الأمة الواحدة العظيمة المهيبة.

قوله: {وهم بالآخرة هم كافرون} الواو، واو الحال - هم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة - أي أنهم يصدون عن دين الله ويلتمسون أن يكون هذا الدين زائغا معوجا ويبغون للمسلمين الارتداد، والحال أنهم يجحدون البعث ويكفرون به.

٢٠ - (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)

قوله: {أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض} أي هؤلاء المجرمين الذين يبتغون سبيل الله عوجا ويبتغون للمسلمين أن يفارقوا دينهم فيسدروا في الضلال والكفر، ليسوا بفائتين من عذاب الله، ولا يعجزون الله هربا إذا أردا أن ينتقم منهم أو يعذبهم تعذيبا.

قوله: {وما كان لهم من دون الله من أولياء} أي ليس لهم من دون الله أنصار ينصرونهم فيدفعون عنهم بأس الله وانتقامه منهم وعقابه النازل بهم، وإذا وقع بهم عذاب الله لا مناص لهم حينئذ ولا مفر، فما تغنيهم خلة الأخلاء ولا تغنيهم شفاعة الشافعين.

قوله: {يضاعف لهم العذاب} فهم بإضلالهم الناس عن دينهم وبسبب جحودهم وتكذيبهم بالبعث فإن جزاءهم مضاعف، أي يزاد في عذابهم ليكون عذاب الاثنين للواحد منهم، أو أن عذابهم يضاعف على قدر كفرهم ومعاصيهم ويضاعف من التضعيف، وهو أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر - كذلك الإضعاف والمضاعفة - ويقال: ضعف الشيء تضعيفا - وضعف الشيء إذا مثله، وضعفاه أي مثلاه، وأضعفاه أمثاله ٢٥.

قوله: {ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون} هذا وصف لهؤلاء المشركين الجاحدين، بأنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع متعظ معتبر، ولا يبصرونه إبصار متدبر مدكر، لأنهم كانوا بكفرهم الذي تلبسوا به وبعصيانهم وصدهم عن سبيل الله.

٢١ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: {أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون} هؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم فأفضوا بأنفسهم إلى الخسران حيث العذاب في النار الموقدة الحامية، وقد ذهب عنهم شركاؤهم من الأنداد المفتراة، إذ تخلوا عنهم ولم يغنوا عنهم شيئا.

٢٢ - (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ)

قوله: {لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون} {لا جرم}، هذه كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد، ولا محالة، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة: حقا - فلذلك يجاب عنها اللام كما يجاب بها عن القسم - فهم يقولون: لا جرم لآتينك ٢٦ ومعنى الآية: أن هؤلاء الجاحدين الضالين، حقا إنهم خسروا أنفسهم في الآخر، بل إنهم أخسر الناس جميعا يومئذ، لأنهم استبدلوا الدركات بالدرجات، واشتروا العذاب بالجنة والمغفرة والرضوان، وباعوا أنفسهم للطاغوت، فباءوا بغضب الله ومقته وعذابه

٠٢٧
٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ٢٣ *مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون} {إن الذين آمنوا}: من الإيمان وهو التصديق - - - فالمعنى: أن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا في دنياهم بطاعة الله {وأخبتوا إلى ربهم} {أخبتوا}، من الإخبات وهو الخشوع والإنابة، أخبت لله تعالى إخباتا؛ أي خضع وخشع قلبه ٢٨ {أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} هؤلاء المصدقون المطيعون لله، الذين أنابوا لله خاشعين سينالون الجنة ويبقون فيها ماكثين لا يحولون عنها ولا هم مخرجون منها.

٢٤ - (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

قوله: {مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع} ثمة فريقان وهما: فريق الشقاء، وفريق السعادة، ففريق الشقاء مثله كالأعمى الذي لا يبصر النور، والأصم الذي لا يسمع الموعظة وحسن الكلام - وأما فريق السعادة فمثله كالبصير الذي يرى الحق والهداية النور، والسميع الذي يسمع النصح والإرشاد والصواب - فالكافر ضال سادر في الكفر والباطل، كأنهما هو أعمى لا يرى حقا ولا صوابا، وكأنما هو أصم فلا يسمع من معاني الخير والهداية شيئا - أما المؤمن: فإنه بصير يرى الهداية والنور، وهو كذلك سميع، يسمع كلام الله فيخشع قلبه ويخبت إلى الله خاضعا منيبا.

قوله: {هل يستويان مثلا أفلا تذكرون} أي هل يستوي الفريقان {مثلا} منصوب على التميز ومثلا يعني تشبيها أو صفة أو حالا {أفلا تذكرون} الاستفهام لإنكار عدم التذكر - يعني: أفلا تتفكرون وتعتبرون بضرب هذه الأمثال والتأمل فيها لتستيقنوا مبلغ الاختلاف بين الفريقين المتباينين فتتعظوا وتزدجروا؟! ٢٩

٢٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ٢٥ أن لا تبعدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ٢٦ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نرك إلا بشرا مثلنا وما نرك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} ذلك إخبار من الله يقص فيه عن نبأ نوح عليه السلام وقومه، إذ أرسله الله أول نبي للمشركين من أهل الأرض، فقد كان الذين من قلبه على فطرة الإيمان والتوحيد إلى أن داخلهم الشرك فأرسل الله إليهم نوحا متلبسا بقوله لهم: {إني لكم نذير مبين} أي ظاهر النذارة لكم، إذ أنذركم بأس الله على كفركم وتكذيبكم.

ونذير ومنذر والجمع نذر، بضمتين - أنذرته كذا إنذارا، أي أبلغته - وأكثر ما يستعمل في التخويف - كقوله سبحانه: {وأنذرهم يوم الأزفة} أي خوفهم عذابه ٣٠.

٢٦ - (أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

قوله: {أن لا تبعدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم} جملة: {أن لا تبعدوا إلا الله} بدل من قوله: {إني لكم نذير مبين} أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله - يعني: اتركوا الأصنام فلا تعبدوها وأطيعوا الله وحده دون أحد غيره - وقيل: {أن} مفسرة متعلقة ب {أرسلنا} أو ب {نذير}.

قوله: {إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم} جملة تعليلة - والمعنى: نهيتكم عن عبادة غير الله، لأني أخاف عليكم - واليوم الأليم هو يوم القيامة.

٢٧ - (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

قوله: {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نرك إلا بشرا مثلنا} الملأ الذين كفروا من قومه، هم الكبراء والأشراف من قوم نوح الذين

جحدوا نبوته وصدوا الناس عن الإيمان بدينه، فقد قالوا: {وما نراك إلا بشرا مثلنا} أي لست إلا آدميا تشبه في خلقك وصورتك، فقد كانوا ينكرون أن رسول الله للناس رسولا من البشر، بل ظنوا أن الله لا يرسل إلا ملكا من الملائكة.
قوله: {وما نرك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي} أي ما نراك اتبعك إلا الذين هم أخساؤنا وسلفتنا من الناس الفقراء والمغلوبين، ليس الكبراء والأشراف والأغنياء - {بادي الرأي} {بادي}، تقرا بالهمز وغير الهمز - فبادئ بالهمز اسم فاعل من بدأ يبدأ، أي أول الرأي.
وبادي بغير همز، اسم فاعل من بدا يبدوا إذا ظهر، أي ظاهر الرأي - وبادي منصوب على الظرف، وأصله: وقت حدوث ظاهر رأيهم، أو أول رأيهم ٣١.
والمعنى المقصود من قولهم لنوح عليه السلام: أن اتباعهم لك أمر قد عن لهم من غير رواية ولا تثبيت ولا نظر - ولو أنهم تفكروا ما اتبعوك - ذلك هو قول الجاحدين العتاة من الظالمين والمجرمين، أولئك الذين مردوا على العناد والمكابرة والعصيان، فلا تصيخ قلوبهم للحق الواضح المستبين، ولا تستجيب أذهانهم للحجة الجلية المكشوفة التي جاء بها النبيون والمرسلون، لقد جاءوا بالحجة الساطعة سطوع الشمس في وضح النهار المتجلي، ومع ذلك فلا يستجيب الجاحدون الأشقياء، ويأبون إلا العتو والاستنكاف والإدبار في خسة ولؤم، أولئك هم الشاردون شرود الشياطين، إذا ما ذكر الله.
أما المؤمنون المبرأون من معايب النفس المريضة، الأسوياء في فطرهم وطبائعهم، فإنهم ما لبثوا أن يبادروا بالإيمان والاستجابة والطاعة في غير ما التواء ولا إبطاء ولا تمحل - أولئك هم الأسوياء الكرام من البشر الذين سمت نفوسهم وطبائعهم فوق الأمراض والعقد والشذوذ فأوجفوا ٣٢ بأنفسهم سراعا لا ستلهام المعاني الخيرة العظيمة التي حملها غليهم النبيون والمرسلون.
قوله: {وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} يخاطب المشركون الظالمون نبيهم نوحا والذين آمنوا معه ليقولون لهم في استكبار فاجر: ليس لكم علينا من فضل أو شرف تتميزون به علينا، بل إنكم كاذبون فيما جئتمونا به - وهذا تكذيب منهم ظاهر لنبوة نوح وما جاءهم به من دين وتوحيد ٣٣.
٢٨ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)
قوله تعالى: {قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ٢٨ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ٢٩ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتم أفلا تذكرون ٣٠ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين}.
ذلك إخبار عن قيل نوح لقومه لما كذبوه وردوا عليه دعوته لهم، فقد خاطبهم في لين ورفق وتودد بقوله: {يا قوم} وفي هذا التعبير من رقة الخطاب المحبب إلى القلوب ما لا يخفى - ثم قال لهم: أرأيتم إن كنت على علم ويقين من الله مما جئتكم به وأنه الحق والصواب {وآتاني رحمة من عنده} أي أعطاني ربي منه رحمة كريمة عظيمة وهي النبوة والرسالة والحكمة فصدقتها كامل التصديق، وأيقنت أنها الحق، والتزمت موجبها طاعة وإخباتا لله {فعملت عليكم} بضم العين وتشديد الميم المكسورة، أي فعماها الله عليكم {أنلزمكموها وأنتم لها كارهون} الاستفهام للإنكار - نلزم، يتعدى على مفعولين، المفعول الأول: الكاف والميم - والمفعول الثاني: الهاء والألف - {وأنتم لها كارهون} جملة اسمية في موضع نصب على الحال ٣٤، والهاء ترجع إلى الرحمة، وهي العلم أو الرسالة أو التوحيد، أي: أنضطركم أن تقبلوا هذه الرحمة وأنتم تكرهونها؟ فغنه لا يصح قبولكم لها مع كراهتكم إياها.
٢٩ - (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)
قوله: {ويا قوم لا أسألكم عليه مالا} أي لا أطلب منكم أجرا من المال في مقالب تبليغكم رسالة الله والإيمان به توحيده - فما من شيء يدعوكم للتثاقل، فإن ثوابي في تبليغ ما أمرت بتبليغه لهو على ربي، فهو يجزيني الأجر عليه، فلست بذلك محلا لظنكم واتهامكم - وهو قوله

سبحانه: {إن أجري إلا على الله} أي ما ثواب نصحي لكم وتبليغي ما أدعوكم إليه إلا على الله، فغنه المجازي والمثيب.
قوله: {وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم} ذكر أن المشركين سألوا نوحا أن يطرد المؤمنين فيستبعدهم من مجلسه، لأنهم أراذل، أي عالة ضعفاء - فكانوا يستكبرون أن يخاطبوهم أو يجلسوا معهم، لكن نوحا عليه السلام قد رد مطلبهم الجهول بقوله لهم: لا أقصي ولا أستبعد المؤمنين الذين أقروا بوحدانية الله وخلعوا الأوثان وتبرأوا من أوضار الشرك والمعصية {غنهم ملقوا ربهم} هؤلاء المؤمنون الذين تسألونني طردهم لكونهم أرذال في نظركم، سيلاقون الله يوم القيامة، فهو يتولى سؤالهم عما عملوه في الدنيا فيجازيهم بإيمانهم وطاعتهم، ولا وزن يومئذ للشرف أو الحسب الذي تعتبرونه كل الاعتبار.
لقد قال نوح على وجه التكريم لهؤلاء المؤمنين - وقيل: قال ذلك خشية أن يشكوه إلى الله يوم القيامة إذا طردهم فيجازيه على طردهم.
قوله: {ولكني أراكم قوما تجهلون} لا تعلمون الحق - ومن الحق أن لا أطرد الذين تعدونهم أرزال وهم في ميزان الله وأبرار كرام، فأنتم بذلك مجانبون للحق، مناهضون للصواب، وتجهلون ما ينبغي أن يكون وأن يعلم.
٣٠ - (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)
قوله: {ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتم أفلا تذكرون} هذا التعبير {ويا قوم} يتندى على السامعين بالرفق واللين، فيتودد به نبي الله نوح إلى قومه لرقق قلوبهم فتنجح للإخبات والتصديق، إذ يقول لهم في استثارة وود {من ينصرني من الله إن طردتم} من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردت هؤلاء المؤمنين الطائعين الخاشعين لله بسبب ضعفهم وفقرهم؟! {أفلا تذكرون} أفلا تتعظون وتتفكرون فيما تقولون وتقترحون لتعلموا أنكم خاطئون فتنتهوا؟!
٣١ - (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)
قوله: {ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك} لا أزعم بكم أني أملك خزائن رزق الله فأدعي فضلا عليكم في السعة والمال حتى تجحدوا فضلي بقولكم: {وما نرى لكم علينا من فضل} ولا أزعم أين عالم بما خفي أو استسر من الغيب لتغتروا بي، فذلك لا يعلمه أحد سوى الله، ولا أزعم أيضا أنني ملك من الملائكة فتقولوا: {ما أنت إلا بشر مثلنا} فغني لست إلا من جنس البشر أوحى إلي ربي وكلفني بوجيبة التبليغ للناس.
قوله: {ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا} لا احكم على من استرذلتم من المؤمنين بان الله لن يؤتيهم خيرا في الدنيا والآخرة، لأنهم في نظركم الضال وتقديركم الظالم، أراذل أو أضعاف وعالة، فذلكم حكمكم المتعجرف الجهول، الحكم الذي بني على الظلم والباطل والذي يقيس الأمور بمقياس الجور والهوى.
قوله: {الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين} لا أحكم على ما في قلوب هؤلاء الذين تسترذلونهم - الله عليم بما في قلوبهم من صدق الاعتقاد - فما أعول إلا على ظاهرهم من حسن الطاعة وتمام الإقرار، ولئن قلت شيئا غير ذلك مما تسألونني أن أفعله في حقهم كطردهم وإبعادهم من مجلسي {إذا لمن الظالمين} ٣٥.
٣٢ - (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
قوله تعالى: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدلنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٣٢ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ٣٣ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون}.
{جادلتنا} من الجدل بالفتح ومعناه: شدة الخصومة ٣٦ - قال له قومه الضالون المعاندون: لقد حاججتنا يا نوح وأكثرت حجاجنا، وخاصمتنا وأكثرت خصامنا، ونحن لسنا بمؤمنين لك ولا متبعين ما جئتنا به {فأتنا بما تعدنا} من النقمة والعذاب {إن كنت من الصادقين} أي إن كنت تصدق فيما تعدنا به من عذاب ربك.

٣٣ - (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)
قوله: {قال إنما يأتيكم به الله إن شاء} ليس بمستطاعي أن أعذبكم، فليس ذلك إلي ولا هو من شأني، ولكن الله هو الذي يأتيكم بالعذاب، فهو إن أردا أن يهلكهم فلا راد لقضائه أو أمره {وما أنتم بمعجزين} لستم بفائتين ولا هاربين من عذاب الله ولا من سلطان.
٣٤ - (وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
قوله {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} النصح، معناه الإخلاص والصدق، والنصيحة: كل قول فيه الدعاء إلى الصلاح والنهي عن الفساد، نصحه، أرشده إلى ما فيه صلاحه ٣٧ - والمعنى: إنني إن أردت أن أبين لكم الحق والصواب وأدعوكم إلى ما فيه نجاتكم وفلاحكم، فلا ينفعكم ما أبذله لكم من ترشيد إلى الحق والهداية ونهي عن الباطل والضلالة {إن كان الله يريد أن يغويكم} {يغويكم}: من الإغواء وهو الإضلال، أغواه: أضله وأغراه، غوى غيا وغواية، أي أمعن في الضلال - وغاو، أي ضال ٣٨ - قال الزمخشري في تأويل قوله: {إن كان الله يريد أن يغويكم}: إذا عرف الله من الكافر الإصرار نخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك إغواء وإضلالا، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به، سمي إرشادا وهداية.
وفي قوله: {أن يغويكم} قال الزمخشري: معناه أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التيس لا تنفعكم نصائح الله وموعظة وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ وفي هذا القول من تكلف المعتزلة في تأويل مثل هذه الآية ما لا يخفى - والصواب في هذا الصدد أن نقول: إن الله هو الهادي وهو المضل - ويقوي هذا التأويل بعد ذلك: {هو ربكم وإليه ترجعون} فالله مالك كل شيء، ومالك الناس جميعا، فإليه الهداية، والناس صائرون أخيرا إليه ٣٩.
٣٥ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)
قوله تعالى: {أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنا برئ مما تجرمون} {أم}، بمعنى بل والهمزة و {افتراه} من الافتراء وهو الاختلاق ٤٠ و {إجرامي}، من الإجرام وهي الجناية، أجرم: ارتكب جرما، وجرم جرما أي ذنب، واجترم الذنب: أي كسبه أو ارتكبه.
واختلف المفسرون في المراد بهذه الآية، فقد قيل: إنها حكاية عن تكذيب المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قالوا إن هذا القرآن قد افتراه محمد! فأنكر الله مقالتهم بقوله: {أم يقولون افتراه}.
وقيل: الآية تحكي خبر المحاججة بين نوح وقومه، إذ قالوا، إن ما جاءهم به نوح مفترى - قال ابن عباس في ذلك: هو من محاورة نوح لقومه وهذا أظهر القولين، لأنه ليس قبل ذلك ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه، فالخطاب منهم ولهم - ثم أمر الله نوحا أن يرد مقالتهم {قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا برئ مما تجرمون} أي قل لهم: إن كان ما أقوله لكم اختلافا مني وتخريصا، فعلي إثمي فيما أفتريه على ربي، ولا تؤاخذون أنتم بذنبي ولا إثمي، ولست أنا مؤاخذا بذنبكم، بل أنا برئ مما تذنبون وتأثمون ٤١.
٣٦ - (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)
قوله تعالى: {وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ٣٦ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ٣٧ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ٣٨ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم} {نوح}، اسم منصوف، لأنه خفيف، وإن كان فيه العجمية والتعريف، وقيل: منصرف لأنه عربي من ناح ينوح - و {من}: في موضع رفع، لأنه فاعل يؤمن ٤٢ بعد أن استيأس نوح من قومه لفرط ما وجده من شدة كيدهم وعتوهم وتماديهم في الجحود والباطل خلال قرون طوال، وأيقن أن هؤلاء قوم بور فلا خير فيهم البتة، دعا عليهم بالهلاك والتدمير حتى لا يبقى منهم ساكن ولا ديار، فحق القول عليهم من الله بالانتقام والاستئصال، وأوحي الله إلى نبيه نوح أنه لن يؤمن من وقومه أحد غير الذين آمنوا وصدقوا {فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} {تبتئس}، أي تحزن، والمبتئس: الكاره الحزين، والبأساء بمعنى الشدة ٤٣ أي لا تحزن يا نوح ولا تشتك مما فعله قومك من تكذيبك وشدة إيذائهم لك، فقد حان وقت

فنائهم والانتقام منهم أشد انتقام.

٣٧ - (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

قوله: {واصنع الفلك بأعيننا ووحينا} أوحي الله إلى نوح أن يصنع الفلك وهي السفينة {بأعيننا} أي بحفظنا وكلاءتنا وبمرأى منا {ووحينا} أي نلهمك كيف تصنع السفينة - قال ابن عباس (رضي الله عنهما) ك لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحي الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطير.

وبذلك قد بصر الله نوحا بكيفية صنع السفينة لتطفوا على وجه الماء وهي تسير بعون الله ورعايته فينجو من على ظهرها من المؤمنين وغيرهم من بقية الأجناس.

قوله: {ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون} أي لا تطلب العفو مني عن هؤلاء الظالمين المكذبين، أو لا تطلب إمهالهم، فقد حق عليهم القول من الله بإغراقهم.

٣٨ - (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

قوله: {ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه} أي طفق نوح يصنع السفينة كما أمره الله وعرفه بكيفية صنعها، وكان كلما مر عليه جماعة من قومه المجرمين الجاحدين وهو يصنع السفينة استهزءوا به ومن عمله في صنع السفينة التي لم يشاهدوا قبلها سفينة أخرى، فعجبوا ساخرين مما سمعوه عن هذا المصنوع الذي سوف يطفوا على سطح الماء - فكانوا بذلك يتضاحكون ويستسخرون لما رأوه ويقولون لنوح: أتحولت نجارا بعد أن كنت نبيا؟ وكان نوح يرد عليهم وهو ثابت العزم، مطمئن القلب، واثق من أمر ربه ومن نصره الذي يصير إليه المؤمنون المخلصون الصابرون {إن تخسروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون} أي إن تهزءوا بنا من أجل بناء السفينة، فلسوف نهزأ بكم مستقبلا وأنتم يأتي عليكم الطوفان والغرق.

٣٩ - (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

قوله: {فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يجزيه ويحل عليه عذاب مقيم} ذلك تهديد لهؤلاء المشركين الخاسرين، ووعيد لهم بأنهم سوف يعلمون الذي يأتيه العذاب الأليم في الدنيا وهو الطوفان - ويجوز أن تكون {من} استفهامية، أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب الأليم في الدنيا وهو الغرق، وينزل به عذاب {مقيم} أي مستديم ولا ينقطع - وذلك عذاب النار يوم القيامة ٤٤.

٤٠ - (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ)

قوله تعالى: {حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل} {حتى}، للغاية التي يبدأ بعدها الكلام - يعني: فكان يصنع الفلك إلى أن جاء الوعد بالتغريق ٤٥، أي حتى إذا جاء وعد الله بالعذاب {وفار التنور} وقد اختلفوا في تأويل التنور على عدة أقوال منها: أنه وجه الأرض والعرب تسمي وجه الأرض تنورا - وهو قول علي كرم الله وجهه ٤٦.

ومنها: أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة منها.

ومنها: أنه تنور الخبز، فقد صارت الأرض عيونا تتدفق منها المياه حتى صارت التنانير التي هي مكان النار تفور ماء - وذلك لفظاعة الطوفان الدافق الجارف الذي أتى على الحياة والأحياء جميعا فلم يستبق غير الذين على ظهر السفينة، لقد أتى الماء على كل شيء وأغرق كل مكان حتى التنانير التي تتأرجج فيها النار وتضطرم فارت ماء.

قوله: {قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك} {اثنين} في محل نصب مفعول للفعل {احمل}، و {أهلك} معطوف عليه ٤٧.

والزوج كل واحد معه أخر من جنسه، فالسماء زوج، والأرض زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والنهار زوج، والليل زوج، ونقول للمرأة هي زوج، وهو زوجها - لقوله تعالى: {وخلق منها زوجها} يعني المرأة - وقوله: {وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى} فثبت

بذلك أن الواحد قد يقال له: زوج - ويقال للاثنين أيضا: هما زوجان وهما زوج - وقد يكون معنى الزوجين الضربين أو الصنفين - وكل ضرب يسمى زوجا.
والمراد هنا: أن يحمل معه في السفينة {من كل زوجين} ذكرا وأنثى - قال الرازي في ذلك: الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى - والتقدير: كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين - واحد ذكر والآخر أنثى - وذلك لكي يبقى أصل الأنواع بعد الطوفان.
قوله: {وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن} {وأهلك}، معطوف على {اثنين} - و {من سبق}، في موضع نصب مستثنى من {وأهلك} ٤٨ أي واحمل في السفينة أهلك {إلا من سبق عليه القول} يعني إلا من سبق فيه علم الله أنه يختار الكفر بإرادة الله وتقديره فيكون من الهالكين.
قوله: {ومن آمن} معطوف على {أهلك} - أي واحمل في السفينة من آمن من قومك.
قوله: {وما آمن معه إلا قليل} وقد اختلفوا في عدتهم فقيل: كانوا سبعة، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين - وقيل: كانوا ثمانين إنسانا، منهم ثلاثة من بنيه وهم سام، وحام، ويافث، وزوجاتهم - وقيل غير ذلك ٤٩.
٤١ - (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله تعالى: {وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ٤١ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن من الكافرين ٤٢ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين}.
{مجراها}، في موضع رفع مبتدأ، وخبره: {بسم الله} - والتقدير ك باسم الله إجراؤها وإرساؤها - وقيل غير ذلك ٥٠.
وهذا إخبار من الله عن نبيه نوح عليه السلام، إذ قال للذين آمنوا معه، يأمرهم بالركوب في السفينة {اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها}، {مجراها} أي جريها على سطح الماء، و {مرساها} بمعنى رسوها - رست رسوا ومرسى - ورسا الشيء: ثبت - والرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ، واحدتها راسية ٥١ - والمراد بمرساها: أنها بلغت منتهى سيرها وهو رسوها.
قوله: {إن ربي لغفور رحيم} الله غفار للذنوب، يتجاوز عن خطايا المسيئين والعاصين، وهو أيضا رحيم بعباده المؤمنين الطائعين - ومن رحمته أن نجى هؤلاء الذين في السفينة، فهم ما بين مؤمن مقر لله بالوحدانية، أو بهيمة عجماء لا ذنب لها وما عليها من حساب، ويريد الله ألا ينقطع أصلها من الدنيا.
٤٢ - (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)
قوله: {وهي تجري بهم في موج كالجبال} الموج: ما علا من سطح الماء وتتابع، وجمعه أمواج، وواحد الموج: الموجة ٥٢، وقد شبه الموج بالجبال لعظمتها وتراكمها وارتفاعها عن سطح الماء، فقد ركب نوح والذين معه السفينة مسمين باسم الله وهي تجري بهم فوق المياه المائجة الزاجرة التي تضطرب فيها الأمواج وتتداح ٥٣ - فقد مضوا متمثلين أمر الله ومستسلمين لجلاله وهم تحف بهم من الله الكلاءة والرعاية والرحمة، حتى تحقق في العالمين ما كتبه الله للخليقة في الأزل من المقادير.
قوله: {ونادى نوح ابنه وكان في معزل} كان ابن نوح كافرا، وبذلك سوف يصير إلى الغرق مع الهالكين، فحملت نوحا شفقة الأبوة على مناداته ليركب في السفينة فينجو بنفسه من الغرق {وكان في معزل} أي في منحى - انعزل عن الناس إذا تنحى عنهم جانبا - وفلان بمعزل عن الحق، أي مجانب ٥٤ له أي كان عند نداء أبيه قد عزل نفسه عن وقومه فتنحى عنهم جانبا فناداه أبوه {يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين} دعا نوح ابنه -وقيل اسمه كنعان- أن يؤمن برسالة التوحيد مع المؤمنين في السفينة فينجو بنفسه من الغرق المنتظر الذي سيأتي على الكافرين جميعا - لكن ابنه كان ظالما لنفسه فأبي إلا الهلاك والخسران
٤٣ - (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

{قال سآوي على جبل يعصمني من الماء} سألجأ إلى جبل يمنعني من الماء فلا أغرق، ظنا منه أن الطوفان لا يبلغ رؤوس الجبال، فإذا تعلق جبل نجا، وهو في ذلك واهم جهول، فما علم أن الطوفان غامر وهادر وسيأتي على الخليقة جميعا.

وذلكم هو تقدير الله الذي يجازي المجرمين والجاحدين والمتكبرين سوء التنكيل في هذه الدنيا قبل يوم الحساب {قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم} لا مانع اليوم من الطوفان الذي سلطه الله على الظالمين - أما من وحمه الله، فإنه يمنعه من هذا العقاب المغرق.

قوله: {وحال بينهما الموج فكان من المغرقين} حال الموج الجارف المنداح بين نوح عليه السلام وابنه الظالم لنفسه، فهلك مع الهالكين بالتغريق ٥٥.

٤٤ - (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين}.

هذه الآية تكشف عن عظيم قدرة الله في هذا الوجود الهائل الكبير، بأجرامه الزاخرة العظام وأجوازه النائية الممتدة وما فيه من خلائق كاثرة لا يحصي أنواعها وأجناسها وأفرادها غير الله جلت قدرته يسخر كل ما في الكون من أجرام لفعل ما يشاء أو يقضي، فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا يسأل عما يفعل - وليس أدل على ذلك من ابتداء هذه الآية بالفعل الماضي للمجهول {وقيل} فذلكم أمر إلهي قاطع ما له من تعقيب ولا دافع.

ويضاف إلى ذلك هذه الكلمات المعدودة المصطفاة التي حوتها هذه الآية على هذا النحو من متانة الرصف، وجزالة الكلمات، وروعة التناسق والإحكام، وحلاوة الإيقاع المؤثر، فضلا عما تحمله هذه الكلمات القليلة من كبريات المعاني الكونية الجسام، كل ذلك في آية وجيزة سريعة يضمها سطر أو يزيد قليلا - إن هذا لعجاب ما له في النظم من نظير، فهو من نظم العالم الديان الخبير.

قوله: {يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي} {ابلعي}: اشربي من الابتلاع وهو الشرب أو الازدراد - و {أقلعي} أي أمسكي، فقد أمر الله الأرض بالابتلاع والسماء بالإقلاع، فالأرض مأمورة بنشف الماء، أي شربه - والسماء كذلك مأمورة بالإمساك عن إدراك الماء - وقد تحقق ذلك بأمر الله دون إبطاء - فنشفت ٥٦ الأرض ما عليها من الماء، وكفت السماء عن الانهمار {وغيض الماء} أي نقص وما بقي منه شيء {وقضي الأمر} أي أنجز وتحقق وعد الله لنوح بإهلاك قومه الظالمين، وبنجاته هو والذين معه من المؤمنين {واستوت على الجودي} أي استقرت السفينة على ظهر الجودي، وهو جبل بناحية الموصل.

قوله: {وقيل بعدا للقوم الظالمين} أ هلاكا وسحقا لهم على ظلمهم وطغيانهم وإجرامهم ٥٧.

هكذا يقضي الله قضاءه في الكون والكائنات، فهو القادر القاهر ذو الملكوت، يجازي المجرمين المتجبرين الذين يحادون الله ورسله ويسعون في الأرض خرابا وفسادا كقوم نوح، أولئك الظالمون العتاة الذين أسرفوا في الإجرام والطغيان، والذين آذوا نبيهم نوحا، وهذا النبي العظيم الصابر الذي لقي من عنت قومه وكيدهم وظلمهم وإيذائهم ما يعلو ففوق طاقات البشر، لكن نوحا عليه السلام قد اصطبر عليهم بالغ الصبر، واحتمل من ألوان البلاء والطغيان والتكذيب والتنكيل، ما استحقوا به من الله أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فاستأصلهم استئصالا فلم تبق منهم بقية.

٤٥ - (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

قوله تعالى: {ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ٤٥ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ٤٦ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} بعد أن أتى الطوفان على القوم الظالمين دعا نوح ربه متضرعا إليه {رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق} أي ابني من أهلي الذين وعدتني بإنجائهم من الغرق ووعدك الصدق الذي لا يخلف فيكف غرق {وأنت أحكم الحاكمين} أي أعلم العالمين وأعدل العادلين - وقد سأل نوح ذلك مستندا إلى قول الله: {وأهلك}

٤٦ - (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

فأجابه الله {يا نوح إنه ليس من أهلك} أي ليس من اهلك الذين وعدتهم بالنجاة، وإنما وعد الله أن ينجي المؤمنين من أهله وليس الكافرين كابنه وزوجته - وهذا ما يدل عليه قوله: {وأهلك إلا من سبق عليه القول} فكان ابن نوح ممن سبق عليه القول بالهلاك لكفره - وهو قول أكثر المفسرين، إذ قالوا: المعنى: انه ليس من أهل دينك - وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في دين الله الحق أقوى من حكم النسب.

قوله: {إنه عمل غير صالح} {عمل}، بالرفع والتنوين - وفي معناه وجهان:

أولهما: أن الضمير في قوله: {إنه} عائد إلى سؤال نوح تنجية ابنه المخالف لدينه الموالي أهل الشرك، فهذا السؤال غير صالح، لأن طلب النجاة للكافر يعد أن سبق الحكم بعدم تنجية واحد من الظالمين الكافرين سؤال باطل.

ثانيهما: أن الضمير عائد إلى لابن، فيكون المعنى أن ابنه ذو عمل باطل، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه، وقيل غير ذلك.

قوله: {فلا تسألن ما ليس لك به علم} {فلا تسألن}، الأصل تسألني وحذفت الياء للتخفيف واجترأ بالكسرة عنها ٥٨، أي لا تسألن عما أخفيت علمه عنك من أسباب أفعالي مما لا تعلمه أنت - أو لا تسألن عما لا تعلم أنه صواب أو غير صواب {إني أعظك أن تكون من الجاهلين} أي أنهاك عن مثل هذا السؤال، لئلا تكون من الجاهلين - قال ابن العربي في هذا الصدد: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العارفين.

٤٧ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله: {قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم} أحس نوح بزلته من مسألته التي سألها ربه في ابنه، فأناب إلى ربه وقال: إني أستجير بك وألجأ إليك من أن أتكلف من السؤال ما ليس لي به علم مما استأثرت أنت بعلمه فأخفيت علمه عن العباد - فاغفر لي يا رب زلتي التي زلت، وإن لم تغفرها لي وتشملني برحمتك لأكونن من الذين خسروا أنفسهم فهلكوا ٥٩.

٤٨ - (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وقوله تعالى: {قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم} قال الله عز وعلا لنبيه نوح عليه السلام: أن اهبط من السفينة إلى الأرض بعد أن ابتلعت الأرض الماء وحفت {بسلام منا} أي يأمن وسلامة من الغرق - أو اهبط بتحية منا {وبركات عليك وعلى أمم ممن معك} والبركات تعني الخيرات النامية وهي في حق نوح كثرة ذريته، فقد دخل في هذا كل مؤمن من ذرية نوح إلى يوم القيامة {وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم} {أمم} خبر مبتدأ محذوف - والتقدير - ومنهم أمم - وقيل: وتكون أمم - والمراد بذلك من صار كافرا من ذرية نوح إلى يوم القيامة.

وذلك إخبار من الله عما هو فاعل بأهل الشقاء من ذرية نوح، وذلك أن قرونا وأجيالا من ذريته سيمتعهم الله في الدنيا بما يتمتعون به من عيش عاجل حتى إذا قضوا، أذاقهم الله العذاب الأليم في الآخرة بما قدموه في حياتهم الدنيا من الخطايا والمعاصي.

٤٩ - (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين} {تلك} في موضع رفع مبتدأ - وخبره: {من أنباء الغيب} - و {نوحيها}: خبر بعد خبر - ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال ٦٠.

يبين الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن ما أخبره به عن قصة نوح وقومه الظالمين الجاحدين وما حاق بهم من عذاب الطوفان المغرق، كل ذلك من أخبار الغيب التي لم يشهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان ليعلمها هو ولا غيره من الناس لولا أن الله أوحي له بخبرها فعلمها.

وذلك من جملة الأدلة البلجة على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم، فهو العربي الأمي الذي ما عرف القراءة ولا الكتابة، وما تلقى العلم عن أحد، ولا درس التاريخ ولا غيره من العلوم - بل كان أميا ينتمي إلى أمة أمية غير قارئة ولا كاتبة - فمن أين له أن يقف على مثل هذه الأنباء القديمة لولا الوحي الذي يأتيه من السماء فيوقفه على أنباء الأولين؟

قوله: {فاصبر إن العاقبة للمتقين} أي اصبر على أمر الله بتبليغ رسالته للناس، واحتمل ما يصيبك من ظلم قومك وإيذائهم كما صبر نوح من قبلك؛ إذ مكث فيهم صابرا محتملا ألف سنة إلا خمسين عاما وهم يذيقونه ألوان العذاب والتنكيل فما استيأس ولا تردد - {إن العاقبة للمتقين} لسوف تكون العاقبة الخيرة المحمودة بالظفر والغلبة وحسن الثناء للذين يتقون ربهم في هذه الدنيا، ثم يصيرون إلى الفوز بالنعيم والنجاة من العذاب الأليم في الآخرة ٦١.

٥٠ - (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ)

قوله تعالى: {وإلى عاد أخدهم هود قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ٥٠ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ٥١ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزيدكم قوة إلى وقوتكم ولا تتولوا مجرمين} {أخدهم}، منصوب بفعل مقدر، وتقديره: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا ٦٢؛ أي أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، فهو أخوهم؛ لأنه منهم، وقد كانوا عبدة أوثان فقال لهم: {قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} أي اعبدوا الله وحده لا شريك له وأفردوه بالإلهية دون أحد سواه ودون هذه الآلهة المفتراة المختلفة من الأوثان التي تعبدونها - وهو قوله: {إن أنتم إلا مفترون} يعني ما أنتم إلا أهل فرية تختلفون الباطل وتصطنعون الكذب والأنداد الموهومة من دون الله.

٥١ - (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله: {يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني} قال هود: لا أسألكم على ما أدعوكم غليه من إفراد الله بالإلهية وإخلاص العبادة له وحده، والتبرؤ كليا من رجس الأوثان –لا أسألكم على ذلك كله جزاء أو ثوابا، وإنما جزائي في ذلك على الله الذي خلقني؛ فهو يجزيني من فضله الخير والمثوبة - {أفلا تعقلون} أفلا تستعملون عقولكم لتقفوا على الحقيقة والصواب، وتعلموا المحق من المبطل، وتوقنوا أن ما تعبدونه من أوثان ليس إلا الرجس والباطل والاختلاق.

٥٢ - (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

قوله: {يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا} ذلك إنباء من الله عن قيل هود لقومه عاد وقد كانوا يقيمون بين الشام واليمن وكانوا أهل عمارة وبساتين وزروع، قال لهم نبيهم هود: {استغفروا ربكم} آمنوا به دون غيره من المخاليق المفتراة، واخلعوا الأوثان من قلوبكم وأحلامكم، وتبرؤوا منها كامل التبرؤ {ثم توبوا إليه} أي توبوا إلى الله من ذنوبكم ومعاصيكم وشركم {يرسل السماء عليكم مدرارا} {مدرارا}، منصوب على الحال من السماء ٦٣، والمدرار، كثير الدار أو الدرور، وهو الصب أو السيلان - وعين مدرارة؛ أي كثيرة الدمع - والمراد بالمدرار هنا: كثير السح ٦٤؛ أي يرسل عليكم المطر دالحا غزيرا، يتبع بعضه بعضا؛ فيعم فيكم الخير والنماء والخصب {ويزيدكم قوة إلى وقوتكم} أي يزيدكم شدة مضافة إلى شدتكم - أو يزيدكم الله عزا إلى عزكم، أو قوة في المال والنسل.

قوله: {ولا تتولوا مجرمين} أي لا تولوا مدبرين عما أدعوكم غليه من توحيد الله والتطهير كاملا من رجس الوثنية والأصنام.

وقوله: {مجرمين} من الإجرام، وهو اكتساب الآثام والذنوب، ومنه الجريمة وهي الجناية وجمعها جرائم ٦٥؛ أي لا تعرضوا عن دعوة الله مصرين على إجرامكم وذنوبكم ٦٦.

٥٣ - (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ٥٣ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريئ مما تشركون ٥٤ من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ٥٥ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها أن ربي على صراط مستقيم}.

قال قوم هود لنبيهم هود: ما أتيتنا ببرهان واضح ولا حجة ظاهرة على صدق ما تقول، وهذا هو ديدن الظالمين المتجبرين الذين أسرفوا في اللجاجة والباطل وفرط العناد من غير أن يسعفهم في ذلك منطق ولا برهان إلا المكابرة والجحود وهوان الأحلام والسفه - ويكشف عن ذلك أيضا قولهم: {وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك} يعني لسنا تاركي آلهتنا من أجل قولك الذي جئتنا به {وما نحن لك بمؤمنين}

أي وما نحن بمصدقين ما تدعيه من نبوة ورسالة من الله.
٥٤ - (إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهِ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)
قوله: {إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} {إن}، حرف نفي بمعنى ما؛ أي ما نقول إلا أن بعض آلهتنا من الأصنام قد أصابك {بسوء} بجنون أو خبل؛ لأنك تسبها وتعيبها وتسفه عقولنا لعبادتها، ومن اجل ذلك أصابك ما أصابك في عقلك من المس.
هكذا يفتري الجاحدون والجاهلون والسفهاء الذين لا يعبأون إذا ما غلوا في الكذب والمكابرة ومقالة السوء؛ فها هم فوق حماقتهم وسفههم في عبادة أحجار صم يفترون مثل هذا الضرب من هوان التفكير المخبول ٦٧ ليقولوا ما قالوه لنبيهم هود عليه السلام.
قوله: {قال إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون} هذا جواب هود لقومه وهو أنني أشهد الله على نفسي وأشهدكم أنتم على براءتي من شركم ومما تعبدون من دون الله من أوثان {فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون} أي فامكروا بي أنتم وأصنامكم جميعا واعلموا ما شئتم لضري وإيذائي ولا تؤخروا ذلك، فانظروا بعد ذلك هل تنالون مني انتم وأصنامكم سوءا؟!
ومثل هذه المقالة من هود لقومه العتاة المستكبرين يكشف عن مبلغ الثقة الكبرى بنصر الله وتأييده وتوفيقه، وأن الله جل وعلا مع المتقين المخلصين الصابرين في كل الأحوال، وعلى الخصوص في أحوال الخوف والتنكيل واشتداد البأس وتمالئ الكافرين على المؤمنين المستضعفين.
٥٥ - (مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]
قوله: {إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} {إن}، حرف نفي بمعنى ما؛ أي ما نقول إلا أن بعض آلهتنا من الأصنام قد أصابك {بسوء} بجنون أو خبل؛ لأنك تسبها وتعيبها وتسفه عقولنا لعبادتها، ومن اجل ذلك أصابك ما أصابك في عقلك من المس.
هكذا يفتري الجاحدون والجاهلون والسفهاء الذين لا يعبأون إذا ما غلوا في الكذب والمكابرة ومقالة السوء؛ فها هم فوق حماقتهم وسفههم في عبادة أحجار صم يفترون مثل هذا الضرب من هوان التفكير المخبول ٦٨ ليقولوا ما قالوه لنبيهم هود عليه السلام.
قوله: {قال إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون} هذا جواب هود لقومه وهو أنني أشهد الله على نفسي وأشهدكم أنتم على براءتي من شركم ومما تعبدون من دون الله من أوثان {فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون} أي فامكروا بي أنتم وأصنامكم جميعا واعلموا ما شئتم لضري وإيذائي ولا تؤخروا ذلك، فانظروا بعد ذلك هل تنالون مني انتم وأصنامكم سوءا؟!
ومثل هذه المقالة من هود لقومه العتاة المستكبرين يكشف عن مبلغ الثقة الكبرى بنصر الله وتأييده وتوفيقه، وأن الله جل وعلا مع المتقين المخلصين الصابرين في كل الأحوال، وعلى الخصوص في أحوال الخوف والتنكيل واشتداد البأس وتمالئ الكافرين على المؤمنين المستضعفين.
٥٦ - (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
قوله: {إني توكلت على الله ربي وربكم} {توكلت}، من التوكل وهو إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم: التكلان، اتكل على الله توكيل عليه؛ أي استسلم إليه ٦٩؛ أي فوضت أمري إلى الله، واستسلمت لجلاله فهو مالكي ومالككم وهو يكلأني من شركم وإيذائكم - ويدرأ عني مكركم وسوءكم.
قوله {ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها} الناصية، مقدم الرأس، أو شعر مقدم الرأس إذا طال، وجمعه: النواصي، والناصيات.
ويقال: أذل فلان ناصية فلان: أهانه وحط من قدره، وفلان ناصية قومه: شريفهم - قال الرازي في هذا الصدد - اعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع، قالوا: ما ناصية فلان غلا بيد فلان؛ أي أنه مطيع له؛ لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته - وكانوا إذا أسروا الأسير فأردوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره - فخوطبوا في القرآن بما يعرفون - فقوله: {وما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها} أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ٧٠.

قوله: {أن ربي على صراط مستقيم} صراط الله، طرقه ومنهجه، الذي يدعو الناس لاتباعه دون مجانية أو تفريط؛ فهو المنهج الحق الذي يقضي بين العباد بالعدل والاستقامة ٧١.

٥٧ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

قوله تعالى: {فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ ٥٧ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ} ذلك إخبار من الله عن قيل هود لقومه إن أعرضوا عن دينه ودعوته {فإن تولوا} فغن أدبروا معرضين عما تدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأوثان فقل لهم: لقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم من دعوة لتوحيد الله وإفراده وحده بالألوهية والاستبراء من الشركاء والأنداد المفتراة {ويستخلف ربي قوما غيركم ولا يضرونه شيئا} أي يذهب لكم ربي ويأتي بآخرين خير منكم، يؤمنون به ويخلصون له العبادة ولا يقدرون على أن تضروه شيئا إذا قضى أن يهلككم {إن ربي على كل شيء حفيظ} الله رقيب على كل شيء ومهيمن عليه؛ فهو يحفظني من أذاكم وسوئكم، ولا يعبأ بكم إن أراد أن يهلككم.

٥٨ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

قوله: {ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا} أمر الله، يعني عذابه فغنه لما حان وقت الهلاك لقوم عاد نجى الله نبيه هودا عليه السلام والذين معه من المؤمنين برحمته؛ أي بفضل منه ونعمة، فما ينجوا العبد ويفوز بفضل الله ونعمته وتوفيق وذلك كله رحمة من الله يمن بها على عباده الصالحين - وفي صحيح مسلم والبخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لن ينجي أحدا منكم عمله) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا يتغمدني الله برحمة منه).

قوله: {ونجيناهم من عذاب غليظ} أي نجاهم الله من عذاب يوم القيامة.

٥٩ - (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

قوله تعالى: {وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ٥٩ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود} الإشارة {تلك} في موضع رفع مبتدأ - {عاد}، خبره - والمعنى: أن هؤلاء قوم عاد الذين نزل بهم الانتقام من الله قد كذبوا بآيات الله وهي حججه ودلائله ومعجزاته {وعصوا رسله} كذبوا رسولهم هودا - ومن كذب واحدا من رسل الله فقد كذب بجميع الرسل.

قوله: {واتبعوا أمر كل جبار عنيد} الجبار: المرتفع المتمرد المستكبر - والعنيد، أو العاند والمعاند، معناه المنازع المعارض الذي يأبى الحق ولا يذعن له - والمعنى: أن قوم هود قد ضلوا واتبعوا رؤساءهم من المستكبرين والطغاة والمعاندين الذين لا يذعنون للحق ولا يميلون إلا للضلال والباطل.

٦٠ - (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

قوله: {وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة} أي ألحقوا لعنة في دنياهم، وذلك بإبعادهم من الخير والرحمة - ويوم القيامة أتبعوا مثل ذلك أيضا.

وبذلك قد لزمتهم اللعنة في الدارين.

قوله: {ألا إن عادا كفروا ربهم} أي جحدوا نعمة ربهم - ونعمته عليهم عظيمة وكبرى وهي دعوة الحق والهدى؛ ففيها صلاحهم ونجاتهم من كل البلايا في الدنيا والآخرة - وقد كرر ذلك على سبيل التوكيد والتهويل لأمرهم بقوله: {ألا بعدا لعاد قوم هود} والعبد معناه هنا الهلاك - وذلك دعاء عليهم بالهلاك والثبور والبعد عن رحمة الله.

وفي هذا العبير القرآني المميز ما يغني عن كل شرح أو بيان يتفنن به البشر؛ فأيما كلام أو بيان أو إسهاب في القول عن خسران عاد وهلاكهم لا يزجي من روعة الأسلوب وفظاعة التهويل المذهل، وكمال المعنى المقصود، ومعشار ما يزجي به قوله سبحانه: {ألا بعدا لعاد

قوم هود} ٧٢.
٦١ - (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

قوله تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب} أي أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم صالحا - وهو أخوهم في النسب، فدعاهم في تودد ورفق بقوله {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} أي اعبدوا الله وحده دون غيره من الشركاء والأنداد، فغنه الإله الخالق الحق، وليس لكم من إله خالق ورازق ومدبر سواه {هو أنشأكم من الأرض} وذلك بخلق آدم أبي البشر من التراب {واستعمركم فيها} أي جعلكم عمارها ٧٣، أو أعاشكم فيها، أو أمركم بعمارة الأرض ليكون فيها مستقركم وسكنكم؛ ففيها تبنون وتزرعون وتعيشون آمنين مستقرين مدة أعماركم المحدودة وأنتم تقضون فترة الابتلاء في هذه الدنيا حتى تحين آجالهم بالإفضاء إلى أخراكم حيث الحساب والجزاء.

قوله {فاستغفروه ثم توبوا إليه} اطلبوا منه المغفرة من إشراككم ومعاصيكم ثم ارجعوا إليه بحسن العبادة وتمام الطاعة {إن ربي قريب مجيب} الله قريب من عباده المؤمنين المخبتين المخلصين، مجيب لهم إذا دعوه ضارعين منيبين ٧٤.

٦٢ - (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

قوله تعالى: {قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ٦٢ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير} قالت ثمود الطاغية لنبيهم الكريم صالح عليه السلام: كنا نرجو أن تكون فينا سيدا قبل أن تقلو لنا هذا القول، إذ تأمرنا أن نعبد إلها واحدا ونذر ما كان يعبد آباؤنا من قبل {أتنهانا أن نعبد آباؤنا} الاستفهام للإنكاري؛ فهم يستنكرون أن ينهاهم نبيهم صالح عن عبادة أوثان صماء لا تشر ولا تنفع، وقد كان آباؤهم يعبدونها من قبل، فهم على آثار آبائهم الضالين مهتدون - وهم بذلك سادرون في ضلالهم لا يثنيهم عن ذلك حق ولا منطق ولا حجة.

قوله: {وإننا لفي شك مما تدعوانا إليه مريب} متشككون فيما جاءهم به صالح من دعوة لتوحيد الله وإفراده بالإلهة والإقرار له وحده بالعبودية دون أحد غيره {مريب} من الريبة، وهي التهمة والشك، ومنه: أربته فأنا أربيه إرابة؛ إذ فعلت به فعلا يوجب له الريبة.

فالمريب: الموجب للشك والتهمة، أو الموقع في الريبة وهي قلق النفس وعدم الطمأنينة ٧٥.

٦٣ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

قوله: {قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته} يبين الله لنا قول نبيه صالح لقومه الظالمين: أرأيتم إن كنت على برهان وبيان من الله وأنا موقن بصدقه وحقيته، وكذلك أعطتني ربي رحمة منه وهي النبوة الكريمة الميمونة من جليل الحكمة وخالص التوحيد، فمن ذا الذي يمنعني من عقابه الأليم أن أنا عصيت ربي واستنكفت عن طاعته وتبليغ رسالته {فما تزيدونني غير تخسير} أي ما تزودنني بأتباعكم في باطلكم غير الخسران والتضليل فأكون من الهالكين - وقيل: ما تزدادون أنتم إلا خسارا ٧٦.

٦٤ - (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

قوله تعالى: {ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ٦٤ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ٦٥ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ٦٦ وأخذ الذين ظلموا الصحية فأصبحوا في ديارهم جاثمين ٦٧ كأن لم يغنوا فيها ألا أن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود} يخبر الله من قيل صالح لقومه المشركين من ثمود –وقد سألوه أن يأتيهم بآية تشهد له بصدق ما جاءهم به- {هذه ناقة الله لكم آية} أي حجة وبرهان على صدق رسالتي إليكم وحقيقة ما ادعوكم إليه - - {آية}، منصوب على الحال - أي هذه ناقة الله لكم آية بينة

ظاهرة - وقيل: منصوب على التمييز ٧٧.
قوله: }فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء{ أي اتركوها تأكل في أرض الله فليس عليكم رزقها أو مؤونتها }ولا تمسوها بسوء{ أي عقر أو نحر - والعقر، معناه: الجرح - عقر البعير بالسيف عقرا، أي ضرب قوائمه به - ولا يطلق العقر في غير القوائم ٧٨.
قوله: }فيأخذكم عذاب قريب{ حذرهم نبيهم صالح عليه السلام عاقبة عقر الناقة أو مسها بالسوء، فإنهم إن فعلوا ذلك سيصيرون إلى عذاب عاجل قريب من عقرها، لا يتراخى عن مسها منهم إلا ثلاثة أيام.
٦٥ - (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)
قوله: }فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام{ كذبت ثمود صالحا وجحدوا دعوته جحودا شديدا، ثم غالوا في العتو والاستكبار بعقرهم ناقة الله التي جعلها لهم آية وبرهانا، إذا اعتدوا عليها بالقتل أو النحر، فاستحقوا بذلك من الله الجزاء المهين في الدنيا فقال: }تمتعوا في داركم ثلاثة أيام{ أي استمتعوا بحياتكم الدنيا مدة أيام ثلاثة، ثم أخذتهم الصحية في يومهم الرابع فهلكوا ليصيروا بعد هذا الأدنى إلى العذاب البئيس الأشد في الآخرة }ذلك وعد غير مكذوب{ أي غير مكذبو فيه - أو غير كذب ٧٩.
٦٦ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)
قوله: }فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ{ لما جاء ثمود عذاب الله نجى نبيه صالحا ومن معه من المؤمنين - لقد نجاهم الله جميعا بنعمة منه وفضل - وكذلك نجاهم مما أصاب الظالمين المعتدين من هوان وخزي في ذلك اليوم العصيب.
قوله }إن ربك هو القوي العزيز{ الله القوي القادر على تنجية المؤمنين من عباده الذين بغي عليهم الظالمون الجاحدون - وهو كذلك الغالب القاهر فوق العباد، القادر على الانتقام من الظالمين المجرمين أعداء الحق والدين.
٦٧ - (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)
قوله: }وأخذ الذين ظلموا الصحية{ هؤلاء الآثمون العصاة الذين جحدوا رسولهم صالحا صم عقروا ناقة الله أخذتهم الصيحة عقابا لهم - وهي صيحة جبريل المفزعة، إذ صاح فيهم صيحة هائلة مرعبة أطارت قلوبهم فهلكوا جميعا - وقيل: المراد بالصيحة الصاعقة }فأصبحوا في ديارهم جاثمين{ أي ميتين - نقول: جثم الحيوان والإنسان جثوما، أي لزم مكانه فلم يبرح، أو لصق بالأرض فهو جاثم، والمقصود: أنهم صيح بهم صيحة رعيبة أهلكتهم
٦٨ - (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ)
}كأن لم يغنوا فيها{ أي كأنهم لم يقيموا فيها - غني بالمكان: أقام به - وغني أيضا، عاش ٨٠ - والمعنى: أنهم أتت عليهم الصيحة الهائلة فسقطوا جميعا موتى فكأنهم لم يكونوا من قبل.
قوله: }ألا أن ثمودا كفروا ربهم{ اختلف القراء في صرف ثمود وعدم صرفه - فمن صرفه جعله اسم الحي - ومن لم يصرفه جعله اسم القبيلة معروفة فلم ينصرف للتعريف والتأنيث ٨١ وذلك تعليل لما حل بقوم ثمود من الانتقام الشديد، إذ أخذتهم الصيحة المهلكة - وذلك بكفرهم وفرط عتوهم وجحودهم }ألا بعدا لثمود{ وهذا دعاء عليهم بالهلاك والإبعاد من الرحمة، أي: ألا بعدا الله ثمود لنزول العذاب بهم ٨٢.
٦٩ - (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)
قوله تعالى: }ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ٦٩ فلما رءا أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخلق إنا أرسلنا إلى قوم لوط ٧٠ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ٧١ قالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ٧٢ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد{.
هذا إخبار من الله عن قصة نبيه لوط عليه السلام وهو ابن عم خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام - وقد كانت قرى لوط بنواحي

الشام، وكان إبراهيم يقيم بفلسطين - فلما أمر الله ملائكته أن ينزلوا بإهلاك قوم لوط والتدمير عليهم من أجل فاحشتهم الشنيعة، ومروا ولهم في طريقهم إلى مدائن لوط، بإبراهيم ونزلوا عنده وقد ظنهم أضيافا وهو دأبه إكرام الضيف، فأحسن استقبالهم وإكرامهم - وقد قيل: كانوا تسعة - وقيل: كانوا اثني عشر ملكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، إذ كانوا أولي وضاءة وصحابة - وذلك تأويل قوله: {ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى} وقد اختلف العلماء في المراد بالبشرى على وجهين - الأول: أن المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله: فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب}.

الثاني: أن المراد منه تبشير إبراهيم عليه السلام بسلامة لوط وبإهلاك قومه.

قوله: {قالوا سلاما قال سلام} نصب سلاما الأول لوجهين:

أولهما: كونه منصوبا بقالوا - كما يقال: قلت خيرا - قلت شعرا.

ثانيهما: كونه منصوبا على المصدر.

ورفع {سلام} الثاني، لأنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: أمرنا سلام، أو هو سلام - وقيل: مرفوع، لأنه مبتدأ محذوف الخبر، وتقديره: وعليكم سلام ٨٣.

والمقصود: أن الملائكة حيوا نبي الله إبراهيم بالسلام، أي: سلمنا عليك سلاما - أو سلمت فحياهم إبراهيم بمثلها وهو قول: عليكم السلام - والسلام يأتي على عدة معان - منها أنه اسم من أسماء الله تعالى - وهو التحية عند المسلمين - ويأتي بمعنى الأمان - والصلح والبراءة من العيوب ٨٤.

قوله: {فما لبث أن جاء بعجل حنيذ} أي فما لبث حتى جاء بعجل حنيذ - أو فما لبث في المجيء به بل عجل فيه - والحنيذ، هو المشوي النضيج - حنيذ الشاة أي شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ - وهو من فعل أهل البادية - والمقصود: أن إبراهيم قد خف سريعا فأتاهم بالضيافة وهو عجل من صغار البقر، محنوذ، أي مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة ٨٥.

٧٠ - (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)

قوله: {فلما رءا أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة} لم تتقدم الملائكة نحو الطعام بل قبضوا أيداهم ولم يأكلوا، فنكرهم إبراهيم، أي أنركهم، أو استنكر إحجامهم عن الطعام {وأوجس منهم خفية} أوجس، من الوجس والإيجاس والتوجس، ومعناه الإدراك أو الإضمار ٨٦، أي أضمر إبراهيم في نفسه الخوف والفزع منهم، فقد كانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا، فقالت الملائكة: {لا تخلق إنا أرسلنا إلى قوم لوط} لما ادع إبراهيم أمر ضيفانه وأوجس في نفسه منهم خفية، قالوا له: لا تفزع ولا توجل وكن آمنا، فإنا ملائكة الله أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم.

٧١ - (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

قوله: {وامرأته قائمة فضحكت} قيل: اسم امرأته سارة وهي بنت عمه كانت {قائمة} تخدم الرسل وإبراهيم - أو كانت رواء الستر تسمع تحاورهم {فضحكت} سرورا بهلاك قوم لوط الذين كانوا يعملوا الخبائث، أو أنها ضحكت سرورا بزوال الخوف - وقيل: ضحكت ضحك التعجب - ثم جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس وهو قوله: {فبشرناها بإسحاق} أي بشرناها بولد، لأنها لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل.

{ومن وراء إسحاق يعقوب} يقرأ يعقوب بضم الباء وفتحها - أما الضم: فهو لكون يعقوب مرفوعا، لأنه مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبره - أما الفتح: فلكونه في موضع نصب، بتقدير فعل دل عليه قوله: {فبشرناه}، وتقديره: بشرناها بإسحق ووهبنا له يعقوب من رواء إسحق - أو أن يكون معطوفا على موضع قوله: بإسحق، وموضعه النصب - كقولهم: مررت بزيد وعمرا ٨٧.

والمعنى: بشرناها بإسحق ووهبنا لها من بعد إسحق يعقوب - وبذلك بشرت سارة بولد يكون نبيا ويلد نبيا - فكانت هذه بشارة لها بأن ترى ولد ولدها، ومن هذه الآية استدل العلماءعلى أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحق، لأن البشارة وقعت به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق ليس فيه

خلف، فلا يمكن والحالة هذه أن يؤمر إبراهيم بذبح إسحق؟ فتعين أن يكون الذبيح هو إسماعيل.
٧٢ - (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)
قوله: {قالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا} الأصل يا ويلتي - وأبدلت الألف من ياء الإضافة لكونها أخف من الياء والكسرة، وهي بذلك لا تبتغي الدعاء على نفسها بالويل، ولكن هذه الكلمة تخف على أفواه النساء إذا عرض لهن ما يثير فيهن العجب؛ فقد عجبت سارة من ولادتها في هذه السن الكبيرة ومن كون زوجها شيخا كبيرا وذلك خارج عن العادة والمألوف فكان مستغربا مستنكرا.
وهذا تأويل قوله: {أألد وأنا عجوز} استفهام في معنى التعجب - والعجوز، هي المرأة الكبيرة أو المسنة - والجمع عجائز ٨٨.
قوله: {هذا بعلي شيخا} البعل، الزوج، وجمعه: البعولة - ويقال للمرأة أيضا: بعل وبعلة، كزوج وزوجة ٨٩، وأما الشيخ، فهو فرق الكهل - وجمعه شيوخ وشيخان - والشيخوخة مصدر: شاخ يشيخ، وامرأة شيخة - والمشيخة اسم جمع للشيخ، وجمعها: مشايخ ٩٠ - وشيخا، منصوب على الحال، لما في قوله: {هذا} من معنى الإشارة أو التنبيه؛ فكأن المعنى: أشير إليه شيخا، أو أنبه عليه شيخا ٩١ والمعنى: أنى يكون لي ولد وأنا كبيرة مسنة، وهذا زوجي {شيخا} قيل: كانت سنة فوق المائة عام - ومألوف في هذه السن الكبيرة ترك غشيان النساء.
٧٣ - (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)
قوله: {قالوا أتعجبين من أمر الله} أنكرت الملائكة عليها أن تعجب من أمر الله، إذ قضى أن يهبها الولد وهي كبيرة طاعنة - فلا مدعاة للتعجب والاستغراب ما دام ذلك كائنا بقدرة الله ومشيئته وهي من جهتها كانت ناشئة في بيت النبوة حيث الآيات والخوارق ومهبط المعجزات، فليست كغيرها من النساء، فما ينبغي لها أن تعجب أو تذهل مما نقلته إليها الملائكة من بشارة معتبرة من خوارق العادات حقا.
قوله: {رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت} {أهل}، منصوب على المدح أو الاختصاص - وهذا خبر من الله، ومفاده حصول الرحمة والبركة لأهل البيت، وهو بيت إبراهيم - والرحمة تشمل كل أوجه السعادة والنعمة والخير والنجاة - والبركات، مفردها البركة، وهي النماء والزيادة ٩٢ ومن جملة هذه البركات: أن يكون النبيون والمرسلون في ولد إبراهيم وسارة؛ فقد خص الله بيت إبراهيم بجزيل العطاء والنعم من خيرات ومعجزات وكرامات ونبوة {إنه حميد مجيد} إن الله محمود في جميع أفعاله وفيما تفضل به عليكم من النعم والبركات - وهو كذلك ممجد في ذاته وصفاته ٩٣.
٧٤ - (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)
قوله تعالى: {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ٧٤ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ٧٥ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه جاء أمر ربك وإنهم آتاهم عذاب غير مردود} لما، ظرف زمان، وهو يقتضي الجواب، وجوابه محذوف، وتقديره: أقبل يجادلنا و {يجادلنا} جملة فعلية في موضع نصب على الحال من مضير إبراهيم ٩٤.
{الروع}: الفزع، راعه فارتاع، أي أفزعه ففزع - votes وروعه ترويعا - وقولهم: لا ترع، أي لا تخف ٩٥.
والمعنى: أن إبراهيم عليه السلام لما اطمأن قلبه من الخوف الذي أصابه وامتلأ سرورا بسبب البشرى بإهلاك قوم لوط، أو بالولد، طفق بعد ذلك يجادل الملائكة وهم رسل الله - ومجادلته إياهم أنهم قالوا: {إنا مهلكوا أهل هذه القرية} فقال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا - قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا - قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا؟ قالوا: لا - قال: ثلاثون؟ قالوا:.، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا - قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك {إن فيها لوطا قولوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته} فسكت عنهم واطمأنت نفسه.
٧٥ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)
قوله: {إن إبراهيم لحليم أواه منيب} الحليم، عظيم الصفح والستر، من الحلم بكسر الحاء، وهو الأناة والصفح وضبط النفس ٩٦ -

والأواه: القانت، كثير التأوه من خوف الله - والمنيب: الرجاع إلى الله - ومثل هذه الصفات يكشف عن صفات إبراهيم في رقة قلبه وعظيم رأفته ورحمته.

٧٦ - (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

قوله: {يا إبراهيم أعرض عن هذا} يخبر الله عن قيل الملائكة لإبراهيم حين جادلهم في قوم لوط فقالوا له: دع عنك الجدال في أمر هؤلاء المؤتفكين الفاسقين، فقد جاءهم حكم الله بالعذاب ومضى فيهم قضاؤه بالإهلاك والتدمير - وهو قوله: {إنه قد جاء أمر ربك} أي عذابه - وقوله: {وإنهم آتاهم عذاب غير مردود} {عذاب}، فاعل لاسم الفاعل الذي هو {آتاهم} ٩٧ إن هؤلاء المؤتفكين الفاسقين القذرين نازل من الله عذاب أليم ومذل {غير مردود} غير مصروف عنهم ولا مدفوع ٩٨.

٧٧ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

قوله تعالى: {ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا و قال هذا يوم عصيب ٧٧ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ٧٨ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد} بعد أن خرجت الملائكة من عند إبراهيم انطلقوا صوب لوط عليه السلام، إذ وردوا عليه في أجمل وجه وأحسن صورة - وذلك ابتلاء من الله لقوم لوط، ولله في ابتلائهم بجمال هؤلاء الشبان الحكمة البالغة والحجة القاطعة - فما أن علم لوط بقدومهم حتى شيء بهم، أي ساءه مجيئهم {وضاق بهم ذرعا} {ذرعا}، منصوب على التمييز، أي كره مجيئهم أو ضاق صدره بمجيأتهم - وذلك لما من جمال وجوههم وحسن صورتهم وهو يعلم ما عليه قومه من الفسق والجنوح للرجس والقذر - {وقال هذا يوم عصيب} أي شديد البلاء - وذلك أن لوطا يعلم أنه سيدافع عن هؤلاء الشبان لكن ذلك يشق عليه.

٧٨ - (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

قوله: {وجاءه قومه يهرعون إليه} {يهرعون إليه}، في موضع نصب على الحال و {يهرعون} أي يسرعون، من الإهراع وهو الإسراع - والمراد: أن هؤلاء المقبوحين المناكيد من قوم لوط جاءوا يستحثون إلى لوط كأنهم يحث بعضهم بعضا ٩٩، وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجالس قومها فقالت لهم: إن لوطا قد أضاف الليلة فتنة ما رؤي مثلهم جمالا، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه - ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا في حرث له - وقيل: وجدوا ابنته تسقي ماء من نهر سدوم، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط - وقالت لهم: مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته فخرج إليهم، فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة - فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله غنهم لشر قوم في الأرض ١٠٠.

قوله: {ومن قبل كانوا يعلمون السيئات} يعني قبل أن يأتوا مسرعين إلى لوط كانوا يفعلون فاحشة اللواط - أو أنهم من قبل مجيئهم إليه كان دأبهم اللواط حتى مرنوا على هذه الفاحشة فلم يستقبحوها - من أجل ذلك جاءوا إليه يهرعون مجاهرين وقحين لا يصدهم عن هذه الرذيلة النكراء مروءة ولا حياء.

قوله: {قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم} {هؤلاء}، في موضع رفع مبتدأ - و {بناتي}، عطف بيان - {هن}، ضمير فصل - و {أطهر}، مرفوع، لأنه خبر للمبتدأ ١٠١ والمقصود بقوله: {أطهر لكم} أنهن أحل - وهو يعني بذلك نساء أمته، أو جملة النساء، فكل نبي أب لأمته، فهو بذلك قد دعاهم إلى النكاح وليس السفاح، أي أن النكاح أطهر لكم مما تبتغونه من الفاحشة المرذولة بإتيانكم الرجال في أدبارهم - وقيل: أراد لوط في هذا اليوم العصيب أن يفدي أضيافه ببناته فيزوجهم إياهن وكان تزويج المسلمات من الكفار في ذلك الوقت جائزا كما حصل في ابتداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب،

وأبي العاص بن الربيع وهما كافران - وكان ذلك قبل الوحي - وقيل: كان للقوم الذين جاءوا سيدان مطاعان فأراد لوط أن يزوجهما ابنته طمعا في انصرافهم ودفع أذاهم عن الضيفان.

قوله: {فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي} أي خافوا الله واحذروا عقابه مما تبتغون من مرذول الفاحشة، ولا تهينوني وتفضحوني من الخزي في ضيفي - والضيف: واحد وجمع - وقد يجمع على الأضياف والضيوف والضيفان - والمرأة ضيف، وضيفه ١٠٢.

قوله: {أليس منكم رجل رشيد} {رشيد} بمعنى مرشد - والمعنى: اليس فيكم رجل مرشد يقول الحق وينهي عن الفساد، ويرد هؤلاء المتوحّين الأوباش فيدفعهم عن أضيافي؟!

٧٩ - (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

قوله: {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق} أي ليس لنا حاجة ولا شهوة في بناتك، فنحن بغيتنا إتيان الذكور وليس الإناث {وإنك لتعلم ما نريد} أنت عليم بمرادنا ومبتغانا وهو إتيان الذكور - فما نريده هو ما تنهانا عنه ١٠٣.

٨٠ - (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

قوله تعالى: {قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ٨٠ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب} لما عجز لوط عن رفع هؤلاء الأشرار والأوباش واستيأس من ردهم دون ضيفه، وهم قد أبوا إلا المضي إلى داخل بيته طالبين الفاحشة، قال لهم على سبيل الحسرة والتفجع: {لو أن لي بكم قوة} {لو}، حرف امتناع لامتناع، أي يمتنع له الشيء لامتناع غيره، وجوابه محذوف وتقديره: لدفعتكم ١٠٤ والمعنى: أو أن لي ما أتقوى به عليكم من أعوان وأنصار أو غير ذلك من موجبات القوة {أو آوي إلى ركن شديد} الركن الشديد، هو الموضع الحصين المنيع، كعشيرة ذات قوة ومنعة أتقوى بها وأستند إليها، لأتمكن من صدكم والحيلولة بينكم وبين ما جئتم تريدونه من فحش وقذر.

٨١ - (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

قوله: {قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا} ويروى في هذا الصدد أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنح عن الباب فتنحى وانفتح الباب، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء النجاء، وهو تأويل قوله تعالى: {ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم} وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسرو الجدار - فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما ذكر آنفا ١٠٥.

والمراد: أن الملائكة لما رأت تفجع لوط وما أصابه من الحزن والاضطراب والحرج بعد أن ضعف عن مدافعة قومه المستقذرين، عرفوه بأنفسهم ليطمئن ويسكن {يا لوط غنا رسل ربك لن يصلوا إليك} لن يصلوا إليك أو إلى ضيفك بسوء أو مكروه، فهون عليك ولا تبتئس.

قوله: {فأسر بأهلك بقطع من الليل} {فأسر}، بالهمزة الموصولة والمقطوعة من سرى يسري ومسرى - وأسرى: أي سار ليلا، والسرى معناه السير في الليل ١٠٦.

وقوله: {بقطع من اليل} أي طائفة منه - وهو قول ابن عباس - وقيل: ببقية من الليل - وقيل: بعد جنح من الليل - وقيل: بعد هدء من الليل - وقيل: بعد هزيع من الليل، وهو الطائفة منه - وقيل: النصف - وقيل: ساعة ١٠٧ - فقد أمر الله نبيه لوطا أن يخرج هو وأهله من بين اظهر هؤلاء الفاسدين بجزء من الليل على أن لا يلتفت واحد منهم إلى الوراء {ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك} والالتفات، معناه نظر الإنسان إلى ما رواءه، فقد قيل: كانت للمؤمنين في البلدة أموال وكان لهم فيها أصدقاء - من أجل ذلك أمرتهم

الملائكة بالخروج تاركين وراءهم أشياءهم غير ملتفتين إليها البتة قطعا لتوجههم وهواهم عن كل شيء عدا توجههم إلى الله بارئ الأشياء جميعا - واستثنى من الملتفتين امرأة لوط، فقد كانت عجوز سوء، إذ أخبرت قومها عن ضيف لوط فكانت من الخائنين.
وقوله: {امرأتك} منصوب على الاستثناء من قوله: {فأسر بأهلك - - - إلا امرأتك} ١٠٨.
قوله: {إنه مصيبها ما أصابهم} أي مصيبها من العذاب ما يصيب الظالمين المسرفين ١٠٩.
قوله: {إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب} كتب الله على هؤلاء المجرمين الفساق أن ينزل بهم العذاب الأليم صبحا، إذ يكونون في هذا الوقت مجتمعين راقدين هاجعين العذاب المباغت زيادة في الترويع والترعيب - والهمزة هنا في {أليس} للاستفهام التقريري، فالصبح قريب طلوعه غاية القرب - وليس ادل على قربه البالغ من هذه الكلمات الربانية المؤثرة المصورة في هذه الصيغة من الاستفهام التقريري الذي يوحي بحقيقة القرب لجيئه الصبح فيحين وقت العذاب الفظيع لهؤلاء الغوغاء من أسافل الناس وسقاطهم.
٨٢ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ)
قوله تعالى: {فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ٨٢ مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد}.
جاء أمر الله، وهو عذابه، ليأتي على قوم لوط فيستأصلهم استئصالا، وليدمر عليهم تدميرا، فيذر قراهم وبيوتهم خاوية، ويجعلها أثرا بعد عين، وكان ذلك عند طلوع الشمس، إذ صبحهم العذاب بكرة بعد أن استفاقوا من هجعة الكرى ليكون ذلك أبلغ في التنكيل والبطش بهؤلاء الأشقياء الشذاذ - وقيل كان قوم يقيمون في أربع قرى، وكان أكبرها سدوم وفي كل قرية مائة ألف من الناس - وقيل غير ذلك - وقد قال الله في تدميرهم: {جعلنا عاليها سافلها} يعني جعل الله عالي قراهم سافلها، إذ قبلهم قلبا.
قوله: {وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود} أي طين في حجارة - وقيل: طين تشوي كما يشوي الآجر - وقيل: هي حجارة من طين صلب.
والمنضود الذي يتبع بعضه بعضا في نزوله على الظالمين - وقيل: ينضد بعضها فوق بعض - نضد متاعه: وضع بعضه على بعض - منضود بمعنى مصفوف - وهذه المعاني جميعها متقاربة.
٨٣ - (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)
قوله: {مسومة عند ربك} أي معلمة، من السيما وهي العلامة - وقد ذكر أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضيهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضما في جناحه فحواها وطواها في جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب - وكانوا أربعة آلاف ألف - ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل ١١٠.
قوله: {وما هي من الظالمين ببعيد} يعني ما الحجارة والتدمير من الظالمين في هذه الأمة ببعيد - وذلك ترهيب للذين يقارفون هذه الفاحشة الكريهة - فما تنزلق نفوس الشذاذ من الفساق إلى هذا المستنقع من الرجس حتى يوشك أن يحيق بهم ما حاق بقوم لوط - وقيل: الضمير {هي} للقرى التي أتى عليها التدمير والقلب وهي المؤتفكات أو قرى قوم لوط - فلم تكن هذه القرى ببعيد من كفار مكة، إذ كانت في الشام وكان كفار مكة يمرون بها في أسفارهم.
وقد ذكر خبراء الآثار أن قرى وآثارا لسكان وأناسي غائرة في عمق البحر الميت، وهي بحيرة لوط، تسمية باسم القوم الذين انكفأت بهم الأرض، فصار عاليهم سافلهم - وذلك ما تشهد به دراسة الآثار في بحيرة لوط عن هذه المسألة.
حد اللواط
يثبت حد اللواط بما ثبت به حد الزنا - وذلك بالإقرار أو البينة، وهي أن يشهد أربعة من العدول على حصول تمام الزنا.
على أن عقوبة اللواط موضع خلاف بين الفقهاء، فقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه ليس من حد في اللواط بل فيه التعزير على كل من الفاعل والمفعول به - واستدل على ذلك بالمعقول والنظر، وهو أن اللواط ليس زنا لاختلاف الصحابة في عقوبته، فقد روي عن أبي بكر الصديق أن عقوبته الإحراق بالنار - وهو قول علي - وقيل: عقوبته التنكيس من مكان مرتفع وإلحاقه بالحجارة زيادة في التنكيل - وقيل غير ذلك في عقوبته.

وقال أيضا إن اللواط ليس في معنى الزنا؛ لأنه ليس سببا لإضاعة الولد واشتباه النساب كالحال في الزنا - ومن جهة أخرى فإن حصول اللواط نادر؛ لأن النفوس تنفر منه وتشمئز - لكنه مع ذلك يجب فيه التعزير ١١١.

وذهب جمهور الشافعية والمالكية والحنبلية وصاحبا أبي حنيفة إلى وجوب الحد في اللواط إن تحقق فيه شرط من عقل وبلوغ - فإن كان أحدهما صغيرا أو مجنونا وجب الحد على العاقل أو البالغ منهما - وفي ذلك أخرج البيهقي بإسناده عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أتى الرجل الرجل، فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان،) وهذا يدل على أن اللواط ضرب من الزنا فيجب فيه من الحد ما يجب على الزنا - وهذا الصحيح الذي ينبغي اعتباره والأخذ به - وما ينبغي أن يعارض هذا باحتجاج أبي حنيفة المبني على النظر.

أما ماهية حد اللواط وكيفيته فثمة قولان في ذلك:

القول الأول: وهو أن حد اللواط كحد الزنا في المرأة من غير فرق؛ فيجب فيه الجلد على البكر، والرجم على المحصن، وهو قول الشافعية في المعتمد من مذهبهم، وكذلك الحنبلية في إحدى الروايتين عنهم - وقال بذلك صاحبا أبي حنيفة - واستدلوا على ذلك بالخبر: (إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان}.

القول الثاني: وهو وجوب قتل الفاعل والمفعول به سواء كانا بكرين أو ثيبين وهو قول المالكية والشافعية في قولهم الثاني - وهي الرواية الثانية للحنبلية وذلك لخبر: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) أخرج أبو داود عن ابن عباس - وكذلك ما أخرجه البيهقي بإسناده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من وقع على الرجل فاقتلوه) وسئل ابن عباس: ما حد اللواطي؟ قال: (ينظر أعلى البناء في القرية فيرمى به منكسا ثم يتبع الحجارة).

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: (السنة أن يرجم اللواطي أحصن أو لم يحصن).

أما لو كان الملتبسان غير مكلفين، كأن يكونا صغيرين، فإنه لا حد عليهما، ولكنهما يؤدبان بمختلف وجوه التأديب مما يكون لهما زاجرا ورادعا - ولو كان أحد مكلفا دون الأخر، فإن كان المكلف هو الفاعل فقد وجب حده رجما أما لو كان المفعول به مكلفا دون الفاعل فلا رجم عليه (المفعول به) بل يؤدب الصغير غير المكلف ويعزز الكبير البالغ ١١٢.

٨٤ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

قوله تعالى: {وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلاه غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط}.

مدين هم قوم شعيب، وسموا بذلك؛ لأنهم بنو مدين بن إبراهيم - وقيل: إن هذا اسم مدينتهم فنسبوا إليها - وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحاجز والشام قريبا من معان - وهي بلاد تعرف بهم يقال لها: مدين.

فقد أرسل الله إليهم نبيه شعيبا عليه السلام، وكان من أشرفهم نسبا، فقال لهم: {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلاه غيره} أي أقروا الله وحده بالعبودية دون غيره من الأنداد، وأفردوه وحده بالإلهية دون غيره من الشركاء، وأذعنوا له بالطاعة والانقياد.

قوله: {ولا تنقصوا المكيال والميزان} {المكيال}، ما يكال به، وجمعه: مكاييل ١١٣ - و {الميزان}: الآلة التي توزن بها الأشياء ١١٤؛ أي تنقصوا الناس حقوقهم في مكيالكم وميزانكم؛ فقد كان أهل مدين فرق إشراكهم وكفرهم وعبادتهم للأوثان، أهل بخس وتطفيف في المكيال والميزان - فكانوا إذا باعوا أعطوا دون ما يستحقه المشتري - وإذا اشتروا قبضوا أكثر من حقهم، فهم في الحالين مستزيدون أكثر مما يستحقون - وذلكم ظلم وخيانة وغش - فنهاهم الله عن هذا الخلق الذميم الذي يجر لهم السحت ثم يجرجر في بطونهم النار يوم القيامة - قوله: {إني أراكم بخير} يعني أراكم تنعمون في البحبوحة والسعة وكثرة النعم فلا حاجة لكم إلى البخس في الكيال والميزان.

قوله: {وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط} أي مهلك - وهو من قوله تعالى: {وأحيط بثمره} أي أهلك، وأصله من إحاطة العدو - والمراد: أن شعيبا خشي على قومه من عذاب الاستئصال في الدنيا، أو العذاب البئيس في الآخرة ١١٥.

٨٥ - (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: {ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ٨٥ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ} أمر شعيب قومه بإيفاء الناس حقوقهم مما يكال أو يوزن بعد أن حذرهم البخس والتطفيف في الكيل أو الوزن، وذلكم هو القسط، أي العدل - ثم نهاهم كذلك عن بخس الناس أشياءهم سواء في ذلك مما يكال أو يوزن أو غير ذلك من مختلف الحقوق - والبخس معناه النقص.

قوله: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} {تعثوا}، أي تفسدوا - عثا عثوا وعثيا: أفسد أشد الإفساد - وعثي عثوا وعثيا وعثيانا: أفسد كذلك ١١٦، فقد نهاهم شعيب عن الإفساد في الأرض، وهو يدل على أن التطفيف أو البخس في المكيال والميزان خيانة وإفساد شديد في الأرض.

٨٦ - (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

قوله: {بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين} ما بقي لكم من الحلال بعد إيفاء الناس حقوقهم وبعد الاستبراء من المال الحرام خير لنفسكم، مما تكسبونه من فضل التطفيف والبخس، فلا جرم أن يكون الحلال خيرا؛ فهو أنفع وأدوم وأعظم بركة - وذلك {إن كنتم مؤمنين} إن كنتم على الإيمان بالله والتصديق باليوم الآخر حيث العذاب والخزي والمطففين والخائنين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

قوله: {وما أنا عليكم بحفيظ} أي لست أنا رقيبا عليكم فأرى كيلكم ووزنكم، وإنما الله هو الرقيب عليكم - وقيل: لا أقدر أن أحفظكم من زوال النعمة عنكم بسبب معاصيكم، فاحفظوا نعم الله عليكم بخشيته ومجانبة عصيانه بالبخس والتطفيف ١١٧.

٨٧ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

قوله تعالى: {قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد} كان شعيب كثير الصلوات سواء منها الفريضة أو النافلة، وكان قومه يعيرونه بكثرة صلاته ويقولون له: ماذا تستفيد بهذه الصلاة، فكان يجيبهم: إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر وعن قبائح الأعمال والإفساد في الأرض، فقالوا له في اجتراء عنيد، وجحود متوقح: أصلواتك تأمرنا بترك ما كان آباؤنا يعبدونه من الأوثان {أو أن نفعل في أموالنا ما نشاؤا} من بخس في الكيل والوزن، وقد تعودنا على ذلك وهو مما نفعله بالتراضي {إنك لأنت الحليم الرشيد} قالوا ذلك، على سبيل التهكم والاستهزاء - وذلك هو ديدن المجرمين اللئام الذين يحادون الله ورسوله ويؤذون النبيين والمرسلين بالخسيس من الكلام اللاذع المقبوح سخرية واستخفافا لهم - قبح الله المجرمين الجاحدين الطغاة وخزاهم شر خزي في الدنيا والآخرة ١١٨.

٨٨ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

قوله تعالى: {قال يا قوم أرأيتم عن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخلفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استعطت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب} يخبر الله عن قول نبيه شعيب لقومه: أرأيتم إن كنت على برهان من الله فيما أدعوكم إليه من توحيد الله والتبرؤ من التلبس برجس الأوثان، وفيما أنهاكم عنه من الإفساد في الأرض بالبخس والتطفيف، وقد رزقني ربي المال الطيب الحلال، أو رزقني النبوة والرسالة - وجواب {أرأيتم} محذوف - وتقديره: أفلا أمركم بترك الأوثان والكف عن المعاصي والفساد في الأرض، فإن الأنبياء لم يبعثوا إلا لمثل هذه الوجائب.

قوله: {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه} أي لا أنهاكم عن شيء وآتيه أو أرتكبه؛ فاني لا أفعل إلا ما آمركم به - ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه.

قوله: {إن أريد إلا الإصلاح ما استعطت} {إن}، نافية بمعنى ما؛ أي ما أريد إلا أن أصلحكم بما أعظكم به وأنصحكم، فتكونوا من

الصالحين في دنياكم وأخراكم بعبادة الله وطاعته - وما، مصدرية واقعة موقع الظرف، أي ما أريد إلا الإصلاح ما دمت أستطيعه ولا آلو.

قوله: {وما توفيقي إلا بالله} التوفيق، معناه السداد والرشاد، أي ما كوني موفقا إلى الحق والسداد والرشاد فيما أفعله وأنتهي عنه إلا بتقدير الله وتأييده {عليه توكلت وإليه أنيب} لقد اعتمدت على الله وفوضت أمري إليه - وإليه وحده أبوء وأتضرع وأشكو مما ينزل بي من النوازل والنوائب - أو أرجع إلى الله في الآخرة ١١٩.

٨٩ - (وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

قوله تعالى: {ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ٨٩ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه أن ربي رحيم ودود}.

{لا يجرمنكم}، أي لا يكسبنكم، أو لا يحملنكم - ومنه، جرم بمعنى كسب وكذا اجترم ١٢٠ - وذلك إخبار من الله عن قيل شعيب لقومه وهو يحاورهم ناصحا واعظا ومحذرا، فيقول: لا يحملنكم {شقاقي} أي خلافكم لي وعاداتكم إياي على ترك الإيمان بالله وطاعته فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الطوفان والتغريق - أو قوم هود أو قوم هود من التدمير بالريح، أو ما أصاب قوم صالح من الرجفة المزلزلة {وما قوم لوط منكم ببعيد} فهم أقرب الهالكين منكم في الزمان وفي المكان - فمنازلهم قريبة منكم، إذ تمرون عليها في أسفاركم، فاتعظوا واعتبروا واحذروا أن يحل بكم ما حل بهؤلاء، فإن عذاب الله محيط بالطغاة والمستكبرين المجرمين - وإنه إذا جاء لا يرد بأسه عن القوم الهالكين الخاسرين.

٩٠ - (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

{واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه} أي اطلبوا من الله أن يغفر لكم ما سلف من شركم وذنوبكم وما أنتم عليه الآن مقيمون من الجحود والعصيان وبخس الناس حقوقهم - ثم ارجعوا على رحاب الله بالطاعة والإنابة والامتثال لأمره وشرعه {أن ربي رحيم ودود} {رحيم} بمن تاب غليه وأناب وهو كذلك {ودود} ذو مودة لعباده المؤمنين المخبتين المخلصين ١٢١.

٩١ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

قوله تعالى: {قالوا يا شعيب ما نفقه كثير مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ٩١ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعلمون محيط} قال قوم شعيب لنبيهم شعيب لما نصحهم ووعظهم: لا نفهم حقيقة كثير مما تقوله لنا وتخبرنا به - وقيل: قالوا ذلك على سبيل الإعراض والمعاندة، واحتقار لكلامه عليه السلام.

قوله: {وإنا لنراك فينا ضعيفا} {ضعيفا}، منصوب على الحال من الكاف، لأنه من رؤية العين - ولو كان من رؤية القلب لكان مفعولا ثانيا ١٢٢ - استضعف المشركون شعيبا، وسبب ضعفه كونه ضريرا لا يبصر - أو كان ضعيف البصر.

قوله: {ولولا رهطك لرجمناك} الرهط: ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امراة - ورهط الرجال: قومه وقبيلته - وليس للرهط واحد من لفظه والجمع أرهط أرهاط وأراهط ١٢٣.

والمعنى: أنه لولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، فقد كانت عشيرته من أهل ملتهم، من اجل ذلك لم يرجموه.

قوله: {وما أنت علينا بعزيز} أي لست أنت علينا ممتنعا ولا ممن يعظم علينا إذلاله أو يصعب علينا هوانه، وغنما يعز علينا رهطك، فهم من أهل ديننا.

٩٢ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

قوله: {قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله} قال لهم شعيب: أعشيرتي وأهلي وأعظم في قلوبكم، وأجل في نفوسكم من الله وهو مالكي ومالكلم، أو تتركونني من أجل أهلي وعشيرتي ولا تتركونني تعظيما لجلال الله {واتخذتموه وراءكم ظهريا} الظهري: المنسوب إلى الظهر، أي ونبذتم دينه خلفكم فلا تطيعونه ولا تعظمونه ولا تؤمنون به وحده، بل تجحدونه وتبعدون معه آلهة أخرى.

قوله: }إن ربي بما تعلمون محيط{ الله محيط علمه بعلمكم فلا يخفي منه على الله شيء، وهو مجازيكم عن كل أعمالكم ما ظهر منها وما بطن ١٢٤.

٩٣ - (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

قوله تعالى: }ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ٩٣ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ٩٤ كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود{.

يئس شعيب من هداية قومه لفرط بجحودهم وعتوهم، وشدة إعراضهم عن دين الله وجموحهم للشرك والعصيان بعد كل الذي بذله فيهم من الموعظة والنصح والتحذير ولم يأت في ذلك جهدا - بعد ذلك كله أزفت ساعة الجزاء الأليم في الدنيا، فقال لهم عليه السلام مهددا متوعدا: }اعملوا على مكانتكم إني عامل{ اعملوا على طريقتكم وبكل ما في وسعكم وطاقتكم من العصيان وفعل المنكر، فإني عامل على طريقتي مما هداني إليه ربي وبكل ما أعطاني إياه من الاقتدار والتمكن.

قوله: }سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب{ }ومن يأتيه{، }من{ اسم موصول بمعنى الذي في محل نصب للفعل تعلمون - وقيل: }من{ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ - وخبره }ويأتيه عذاب{ ١٢٥ وذلك تهديد ووعيد، أي سوف تعلمون أينا آتيه من الله عذاب يفضحه ويذله وأينا هو الكاذب، أي ستعلمون من منا الشقي المفضوح بالعذاب، ومن منا الكذاب في قيله وطريقته }وارتقبوا إني معكم رقيب{ أي انتظروا عاقبة ما أحذركم منه وإني معكم منتظر.

٩٤ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

قوله: }ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا{ لما حان الحل وهو قضاء الله في قوم شعيب بالعذاب والإفناء دمر الله عليهم بالصيحة فأخذتهم أخذا شديدا، ونجي الله رسوله شعيبا ومن معه من المؤمنين بفضله ورحمته ولطفه، فإنه جل وعلا ينجي المؤمنين المخلصين الصابرين }وأخذت الذين ظلموا الصيحة{ وهي صيحة جبريل، إذ صاح فيهم فهلكوا }فأصبحوا في ديارهم جاثمين{ أي هامدين ليس فيهم حراك - والجاثم، الملازم مكانه فلا يريم.

٩٥ - (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

قوله: }كأن لم يغنوا فيها{ أي كأن لم يكونوا أحياء في ديارهم ولم يعيشوا، فقد أتت عليهم الصيحة فأزهقتهم إزهاقا وبددتهم شر تبديد فصاروا أثرا بعد عين - وذلك شان الظالمين من الأمم الضالة الجاحدة الذين يخالفون منهج الله ويحاربون الله ورسوله، ويؤذون المؤمنون الصادقين من عباد الله - لا جرم أن الله آتاهم بالعذاب في هذه الدنيا قبل عذاب الاخرة.

قوله: }ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود{ }ألا{، للتنبيه - والبعد، هنا بمعنى الهلاك أو اللعن والإبعاد من الخير والرحمة، أي هلك قوم مدين كما هلكت ثمود، أو ألا أبعد الله مدين من رحمته كما بعدت ثمود بما حل بهم من النقمة والعذاب ١٢٦.

٩٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: }ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ٩٦ إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ٩٧ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ٩٨ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود{.

أرسل الله نبيه وكليمه موسى عليه السلام بآياته وهي التوراة، وقيل: المعجزات الظاهرة }وسلطان مبين{ أي دليل ظاهرة وحجة قاطعة وهي العصا التي صيرها الله حية هائلة تسعى ثم تلقف كل ما كان يفتريه السحرة من أشياء - أرسل الله نبيه موسى بذلك للطاغية المتجبر فرعون وملئه، وهم الزمرة الفاسدة من المنافقين والأشرار، الذين جحدوا رسالة ربهم وآذوا نبي الله موسى واتبعوا }أمر فرعون{ أي أمره لهم بالكفر والتكذيب بنبوة موسى ومعجزاته - وقيل: المراد من أمره: طريقه وشانه }وما أمر فرعون برشيد{ }برشيد{، أي بذي رشد - والرشد معناه السداد والاستقامة، أي ليس أمره سديدا ولا مستقيما ولا هو بمرشد إلى هداية أو خير.

٩٧ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٦]
قوله تعالى: }ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ٩٦ إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ٩٧ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ٩٨ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود{.
أرسل الله نبيه وكليمه موسى عليه السلام بآياته وهي التوراة، وقيل: المعجزات الظاهرة }وسلطان مبين{ أي دليل ظاهرة وحجة قاطعة وهي العصا التي صيرها الله حية هائلة تسعى ثم تلقف كل ما كان يفتريه السحرة من أشياء - أرسل الله نبيه موسى بذلك للطاغية المتجبر فرعون وملئه، وهم الزمرة الفاسدة من المنافقين والأشرار، الذين جحدوا رسالة ربهم وآذوا نبي الله موسى واتبعوا }أمر فرعون{ أي أمره لهم بالكفر والتكذيب بنبوة موسى ومعجزاته - وقيل: المراد من أمره: طريقه وشانه }وما أمر فرعون برشيد{ }برشيد{، أي بذي رشد - والرشد معناه السداد والاستقامة، أي ليس أمره سديدا ولا مستقيما ولا هو بمرشد إلى هداية أو خير.
٩٨ - (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)
قوله: }يقدم قومه يوم القيامة{ أي يتقدمون على النار، فهو كبيرهم وحاكمهم في الدنيا، إذ كان يسوسهم بالظلم والعجرفة والاغترار - وكان يتعبد الناس تعبيدا ليكونوا له عبيدا، فاستخفهم لذلك أشد استخفاف - فأطاعوه صاغرين خزايا - من أجل ذلك كان جزاؤه يوم القيامة فظيعا أليما، إذ يقودهم إلى النار فيهوي بهم فيها.
قوله }وبئس الورد المورود{ أي بئس المدخل المدخول - وقيل: المورود معناه الماء الذي يورد عليه، فقد شبه الله تعالى فرعون بالذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة - فبئس هذا الورد الذي يردونه وهي النار.
٩٩ - (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)
قوله: }وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة{ أتبعهم الله في هذه الدنيا لعنة وهي إبعادهم من الخير والرحمة، فهم مدحورون معبدون من رحمة الله، إذ تلعنهم البرية طيلة الدهر - وكذلك يلعنون يوم القيامة }بئس الرفد المرفود{ }الرفد{ معناه العطاء - ورفده أعطاه أو أعانه - والإرفاد: الإعطاء والإعانة ١٢٧، أي بئس العطاء المعطي، أو بئس العون المعان - والمراد من ذلك: أن الله لعنهم في الدنيا ولنعهم كذلك في الآخرة، فهم قد زيدوا لعنة يوم القيامة فوق لعنتهم في الدنيا ١٢٨.
١٠٠ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)
قوله تعالى: }ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ١٠٠ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب{ }ذلك{، في محل رفع مبتدأ - وخبره }من أنباء القرى{ أي ما تقدم ذكره من أخبار النبيين المرسلين وأممهم، ومهلك الكافرين الخاسرين منهم، وتنجية الله لعباده المؤمنين }نقصه عليك{ فنخبرك به }منها قائم وحصيد{ من هذه القرى بنيانه عامر قائم، ومنها بنيانه دارس قد تعفى أثره - وقيل: القائم ما كان خاويا على عروشه - والحصيد المستأصل الذي ليس له أثر البتة.
١٠١ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)
قوله: }وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم{ الظلم معناه وضع الشيء في غير موضعه - ويقال: من أشبه أباه فما ظلم - وفي المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم ١٢٩ - والمعنى: أن الله لم يعاقب هؤلاء الجاحدين من أهل القرى الذين قص علينا من أنبائهم بغير حق يكون عقابهم قد وضع في غير موضعه الصحيح - بل كان ذلك جزاء لهم على ظلمهم أنفسهم، غذ جحدوا واستكبروا وأسرفوا في فعل المعاصي والمنكرات.
قوله: }فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك{ أي ما دفعت عنهم آلهتهم المزعومة التي كانوا

يعبدونها من دون الله ويتخذونها لأنفسهم أربابا -ما دفعت عنهم شيئا من عذاب الله لما حل بهم - قوله: {وما زادوهم غير تتبيب} التتبيب، معناه التخسير، من التباب وهو الخسران والهلاك - تبت يده تتب، خسرت، كناية عن الهلاك - وتبا له، أي هلاكا - أو ألزمه الله هلاكا وخسرانا ١٣٠ - والمعنى: لم تزدهم آلهتهم المفتراة التي عبدوها - وأربابهم المصطنعة التي دانوا لها بالخضوع والعبادة، إلا الخسران والهلاك.

١٠٢ - (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

قوله تعالى: {وكذالك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} الكاف في محل رفع على أنه مبتدأ، أي مثل ذلك - وخبره {أخذ ربك} وقرئ: (أخذ ربك)، بالفعل - وعلى هذا يكون محل الكاف النصب على المصدر، أي: وكما أخذ الله أهل القرى الظالمة بالعذاب والتدمير بالإبادة من أجل تكذيبهم وجحودهم، فإنه يأخذ جميع الظالمين المتربصين الذين يحادون الله ورسوله والداعين إليه بحق {إن أخذه أليم شديد} عقاب الله فظيع موجع لا لين فيه ولا رحمة غلا التنكيل والهوان والاستئصال - وذلك تحذير قائم لكل الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويمكرون بدين الله ليصدوه وليحولوا دون بلوغه الأذهان والقلوب، وليمنعوا من شيوعه في الآفاق - لا جرم أن الله محيط بهؤلاء الأشرار المعتدين، وهو لهم بالمرصاد - وقد جاء في الصحيحين عن أبي موسى (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يقتله) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وكذالك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة} ١٣١.

١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

قوله تعالى: {إن في ذالك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذالك يوم مشهود ١٠٣ وما نؤخره إلا لأجل معدود ١٠٤ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد} أي فيما قص الله من قصص الهالكين السابقين، لعبرة وعظة لمن خشي الله وخاف عذابه يوم القيامة فيكون له ذلك زاجرا عن فعل المعاصي {ذالك يوم مجموع له الناس} الإشارة إلى يوم الآخرة - وفي هذا اليوم الحافل العصيب يجمع الله فيه الناس كافة فلم يغادر منهم أحدا {وذالك يوم مشهود} تشهده الخلائق كافة فلا يتخلف منهم احد - وإذ ذاك يشتد الكرب والهوان وتتزلزل القلوب والأبدان لهول الموقف وفظاعة المشهد الرعيب، ثم ينتقم الله من الظالمين الذين عصوا أمر ربهم وكذبوا دينه ورسله وسعوا في الأرض فسادا.

١٠٤ - (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ)

قوله: {وما نؤخره إلا لجل معدود} أي ما نؤخر عنكم يوم القيامة أن يجيئكم إلا لأنه لا يأتي إلا لأجله، فلا يتقدم مجيئه قبل ذلك الأجل ولا يتأخر - أو لا يجيئكم إلا لانتهاء مدة معدودة ضربناها لبقاء هذه الدنيا، فإن انتهت فقد جاءكم يوم القيامة.

١٠٥ - (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

قوله: {يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه} {يأت}، فيه ضمير يعود على قوله {وذلك يوم مشهود} و {لا تلكم}، فيه وجهان - أحدهما: أنه صفة ليوم، والتقدير: يوم يأتي لا تلكم نفس فيه - وثانيهما: أن يكون حالا من الضمير في {يأت} أي يوم يأتي اليوم المشهود غير متكلم فيه نفس ١٣٢ - وتكلم، أصلها تتكلم، حذفت إحدى التاءين للتخفيف - والمعنى: أن هؤلاء الأشقياء الموقوفين على ربهم داخرين أذلة لا ينبسون حينئذ بكلمة إلا بإذن الله.

قوله: {فمنهم شقي وسعيد} أي شقي من الناس من شقي بالعذاب، وسعيد منهم من سعد بالنجاة - والشقي الذي كتبت له الشقاوة، والسعيد الذي كتبت له السعادة - قال الحافظ أبو يعلي في مسنده عن عمر قال: لما نزلت {فمنهم شقي وسعيد} سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله: علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: (على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له) ١٣٣.

١٠٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

قوله تعالى: {فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ١٠٦ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد} أولئك هم الذين سبقت لهم الشقاوة والخسران، فتعسا مما آلوا غليه من عذاب الحريق - وذلك في نار لهم فيها حينئذ زفير وشهيق - وقيل: الزفير هو أول الصوت الحمار، والشهيق أخره؛ لأن الزفير إدخال النفس، والشهيق إخراجه ١٣٤ - وقيل: الزفير من شدة الأنين، والشهيق من الأنين المرتفع جدا - والمقصود: هو تبيان حال الكافرين الخاسرين وهم في النار - فلا جرم أن حالهم غاية ما تتصوره العقول من فظاعة الكرب والهوان، واشتداد الضيق والإيلام.

١٠٧ - (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

قوله: {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك} {خالدين}، منصوب على حال - وذلك إخبار من الله عن حال الأشقياء الخاسرين أنهم خالدون في النار خلود السموات والأرض - والمراد بذلك السموات الآخرة وأرضها؛ فهي باقية بقاء لا يعرف الزوال أو الفناء - ومما يدل على أن للآخرة سماوات وأرضا غير ما في الدنيا قوله سبحانه {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات} وقيل: إنما المراد بذلك التأييد وعدم الانقطاع؛ فقد أجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأييده؛ فإن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدا قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبدا {إلا ما شاء ربك} الاستثناء للعصاة من المؤمنين، إذ يخرجهم الله من النار بعد مدة - وقيل: المعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السموات والأرض في الدنيا - وقيل غير ذلك.

قوله: {إن ربك فعال لما يريد} يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مبينا له أنه سبحانه لا يمنعه شيء من فعل ما يريد أن يفعله بالعصاة والمخالفين عن أمره فينتقم منهم ويعذبهم تعذيبا ١٣٥.

١٠٨ - (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

قوله تعالى: {وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ} {سعدوا} أي أرزقوا السعادة - فالذين رزقهم الله السعادة والفلاح جزاؤهم الجنة ماكثين فيها لا يخرجون {ما دامت السموات والأرض} {ما} ظرفية زمانية مصدرية في محل نصب - والتقدير: مدة داوم السموات والأرض ١٣٦ - والمراد بذلك سماوات الآخرة وأرضها وذلك مما لا يفنى ولا يزول - أو أن مثل هذه الصيغة يراد منها البقاء والديمومة جريا على كلام العرب - وهو ما بيناه آنفا {إلا ما شاء الله} {ما} في محل نصب لأنه استثناء منقطع ١٣٧؛ أي إلا ما شاء ربك من الزيادة على مدة دوام السموات والأرض وذلكم الخلود أبدا - وقيل غير ذلك.

قوله: {عطاء غير مجذوذ} {عطاء}، منصوب على المصدر؛ أي أعطوا عطاء - والمجذوذ معناه المقطوع؛ أي أعطاهم الله عطاء دائما غير مقطوع.

١٠٩ - (فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إلا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

قوله تعالى: {فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ١٠٩ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب ١١٠ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما تعلمون خبير} لاتك، حذفت النون لكثرة الاستعمال؛ أي لا تكن في شك من بطلان وضلال ما يعبد هؤلاء المشركين؛ إنهم لا يعبدون إلا الأباطيل، وهي الأوثان البلهاء الصم، جريا وراء آبائهم المشركين عبدة الحجارة والطين واقتفاء آثارهم في العبادة الفاسدة {وإنا لموفوهم نصيبهم} ذلك تأكيد من الله أنه موفيهم حظهم من العذاب كما وفي آباءهم أنصباءهم من العذاب {غير منقوص} {غير} منصوب على الحال، أي يوفيهم الله حظهم كاملا من العذاب.

١١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

قوله: {ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه} يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مسريا عنه كيلا يبتئس أو يحزن: لقد آتينا من قبلك موسى التوراة فاختلف فيها قومه، إذ كذب به بعضهم وصدقها آخرون، كالذي فعله قومك بالقرآن، فهم ما بين مصدق مطيع، ومكذب جاحد - فلك أسوة إذن بمن سبقك من النبيين، فلا يغيظنك تكذيب المشركين، ولا تك في ضيق من بجحودهم ومما يمكرون.

قوله: {ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم} المراد بالكلمة: أن الله قضى أن يؤخرهم إلى يوم القيامة فلا يعالجهم بالعذاب في هذه الدنيا، فغنه لولا ذلك لقضي بين المكذبين منهم بالعذاب أو الاستئصال، وبين المصدقين بالإنجاء وخير الجزاء {وإنهم لفي شك منه مريب} أي أن هؤلاء المشركين لفي شك من حقيقة الكتاب أنه منزل عليهم من عند الله {مريب} أي موقعهم في الريبة وهي قلق النفس.

١١١ - (وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

قوله: {وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم} قرئت إن بالتشديد وهو الأصل، مع تخفيف {لما} فتكون ما زائدة جيء بها للفصل بين اللام التي في خبر إن، ولا القسم في ليوفينهم - وقرئت {لما} مشددة مع تشديد إن - ووجه ذلك: أن يكون لما مصدر لم يلم بالتشديد - كقوله: {أكلا لما}.

وقيل: إن الأصل فيها (لمن لم) ثم أدغم النون في الميم فاجتمع بذلك ثلاث ميمات فحذفت الميم المكسورة - والتقدير: وإن كلا لمن خلق ليوفيهم - وقيل غير ذلك ١٣٨.

والمعنى: أن كل هؤلاء الذين قصصنا عليك أخبارهم لمن ليوفينهم ربك بالصالح من أعمالهم، بالجزيل من الثواب، وبالطالح منها، بشديد العقاب، أي إن الله سيجمع الأولين والآخرين من الأمم فيجزيهم بأعمالهم سواء منها الصالحة فيثيبهم عليها الثواب الكريم، أو الطالحة فيجازيهم عليها بعقابه الأليم {إنه بما تعلمون خبير} الله خبير بما يفعله هؤلاء المشركون، وهو سبحانه مطلع على أعمال المشركين الخاسرين سواء منها الخافي والمعلن، فهو محيط بذلك كله لا يغب عن عمله منه شيء ١٣٩.

١١٢ - (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: {فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعلمون بصير ١١٢ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون} استقم، من الاستقامة وهي الاعتدال ١٤٠، فالله يأمر نبيه صلى الله عليه وسل أن يسلك السبيل المعتدل المستقيم، وذلك بفعل ما تعبده بفعله وترك ما نهاه عن فعله - ولأمته فيه أسوة حسنة، إذ يقتدون به في سائر أفعاله وأقواله - وهو قوله: {ومن تاب معك} {من} في محل رفع معطوف على الضمير في {فاستقم} وقيل: في محل نصب، لأنه مفعول معه ١٤١ - والمعنى: فاستقم أنت ومن تاب معك، أي ممن خلع الكفر والأنداد فرجع إلى ربه مسلما قانتا، استقم أنت وهم على منهج الله وطريقه الثابت القويم.

قوله: {ولا تطغوا} من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فهو مخالفة أوامر الله وعصيانه وذلكم الطغيان {إنه بما تعلمون بصير} الله يعلم ما يقوم به العباد وما يفعلونه، فما يغيب عن عمله من أفعالهم وأقوالهم وخفاياهم شيء، بل إن عمله محيط بكل شيء.

١١٣ - (وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ)

قوله: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار} تركنوا، من الركون وهو الميل والسكون ١٤٢، والمراد به هنا: الاعتماد والاستناد إلى الشيء عن رضى - أما الذين ظلموا فهم المشركون والظالمون وأئمة الضلال والفسق والعصيان - أولئك جميعا قد نهى الله عباده المؤمنين عن طاعتهم أو الاستناد غليهم أو الاعتماد عليهم أو الميل إلى جانبهم - ونهى أيضا عن مداهنتهم أو مصانعتهم والرضا بكفرهم وضلالهم وظلمهم - فالمعنى: لا تميلوا إلى الكافرين والعصاة، ولا توادوهم أو تجنحوا إليهم في مذلة وهوان خور.

قوله: {فتمسكم النار} أي تحرقكم النار بسبب الركون إلى الظالمين، فإن الميل إلى الطغاة والمستبدين والمشركين، والسكون إليهم بما يتمضن التأييد لهم والرضا بأفعالهم وسلوكهم، ليس إلا ضربا من التملق الخسيس، والخلق المهين المبتذل الذي يكشف عن حقيقة فريق من

الناس قد ركبت طبائعهم ظواهر النفاق والخور حتى خسروا أنفسهم فكانوا في الأذلين - أولئك هم المنافقون الخائرون الذين باءوا بالخسران والبوار وسوء المصير.
أما إن كان الميل للظالمين أو مداهنتهم على سبيل التقية، وخوفا منهم، أو لدفع ضرر عام من المسلمين، أو جلب مصلحة كبيرة لهم؛ فليس الميل للظالمين حينئذ واقعا في النهي -شريطة ألا يقترن الركون إلى هؤلاء الظالمين بالمحبة ورضى القلب؛ أي أن مخالطتهم والدخول عليهم لتحقيق مصلحة للمسلمين؛ أو دفع مفسدة عنهم مع كراهية ما هم عليه من الفساد والظلم وعدم جنوح النفس غليهم ومجبتها لهم وعدم طاعتهم في معصية الله، فذلك لا يتناوله النهي - والأصل في ذلك أن الأعمال إنما تكون بالنيات، والله وحده عليهم بالنوايا والخفايا - والله سبحانه وتعالى أعلم.
قوله: {وما لكم من دون الله من أولياء} الجملة في محل نصب على الحال - والمعنى: أنكم تبوءون بالتحريق والعذاب، ولا تجدون إذ ذاك من أعوانكم وخلانكم من ينتقدكن أو يدفع عنكم ما حاق بكم من الويل والعذاب {ثم لا تنصرون} أي ليس لكم من نصير ولا شفيع ولا معين، فلا الله بكاف عنكم العذاب حينئذ، ولا الخلائق كلها قادرة على أن تزحزح عنكم النار ١٤٣.
١١٤ - (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)
قوله تعالى: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذالك ذكرى للذاكرين} المراد بالصلاة هنا المفروضة، والتذكير بالصلاة في كثير من آيات الكتاب الحكيم لأهميتها البالغة ولكونها الركن الثاني من أركان هذا الدين العظيم - والمراد بطرفي النهار، هما الصبح أولا، ثم بعده الظهر والعصر وهما الطرف الثاني - وقيل: الصبح والمغرب - وقيل غير ذلك، لكن المقصود في الراجح الصلاة في وقت النهار بطرفيه وهما أوله وآخره {وزلفا من اليل} الزلف، والزلفات، جمع زلفة؛ وهي الطائفة من أول الليل ١٤٤ - فالمراد بالزلف من الليل: صلاة العتمة وهي المغرب والعشاء.
قوله: {إن الحسنات يذهبن السيئات} المراد بالحسنات هنا الصلوات الخمس - وهو قول أكثر المفسرين وأهل العلم - وقيل: الطاعات؛ فإن ذلك يذهب الآثام والذنوب ما اجتنبت الكبائر - وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقي من درنه شيئا؟) قالوا: لا يا رسول الله - قال: (كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا) - وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر).
وأخرجه البخاري عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأنزل الله {وأقم الصلاة طرفي الليل وزلفا من اليل إن الحسنات يذهبن السيئات} فقال الرجل: يا رسول الله: ألي بهذا؟ قال: (لجميع أمتي كلهم).
وروي مسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها، قبلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت - فلم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه - فأتبعه رسول الله بصره ثم قال: (ردوه علي) فرده عليه، فقرأ عليه: {وأقم الصلاة طرفي الليل وزلفا من اليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذالك ذكرى للذاكرين}.
وروي الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى سلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائق) ١٤٥ قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: (غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه، فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده على النار، إن الله لا محو السيء ولكن يمحو السيء بالحسن؛ إن الخبيث لا يمحو الخبيث).
وروي الإمام أحمد أيضا عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: (يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق

حسن).
وقال الإمام أحمد كذلك عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أوصني - قال: (إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحوها) قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: (هي أفضل الحسنات).
قوله: {ذالك ذكرى للذاكرين} الإشارة عائدة على القرآن، فهو كلام الله الحكيم - وهو عظة وتذكير للتائبين المتعظين.
١١٥ - (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
قوله تعالى: {واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} يدعو الله نبيهم صلى الله عليه وسلم والذين معه من المؤمنين أن يصبروا على ما يلقونه من أذى المشركين وما يصيبهم في دعوتهم من المكاره والشرور فضلا عن اصطبارهم على طاعة الله وفعل الخيرات {فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} لا تضييع لما يستحقه العاملون المخلصون من حسن الثواب والجزاء - والله جل جلاله لا يضيع أجر من أحسن عملا ١٤٦.
١١٦ - (فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)
قوله تعالى: {فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ١١٦ وما كان ربك ليهلك القرى ظلم وأهلها مصلحون}.
لولا، أداة تحضيض بمعنى هلا - و {القرون} بمعنى الأجيال والأمم - والبقية، يراد بها الفضل والعقل والخير - قال الزمخشري في الكشاف: سمي الفضل والجودة بقية، لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا في الجودة والفضل ويقال: فلان من بقية القوم: أي من خيارهم ١٤٧.
والمعنى: هلا كان من الأمم التي سبقتكم ذوو بقية من الفهم والصلاح والعقل فيتعظوا ويتدبروا آيات الله ودلائله ويعلموا الحق من الباطل والإيمان من الجحود لكي ينبهوا أهل الضلال والمعاصي فيكفوا عن غيهم وظلمهم وفسادهم في الأرض {إلا قليلا ممن أنجينا منهم} {إلا}، استثناء منقطع - {قليلا} منصوب على الاستثناء المنقطع مما قبله، أي إلا قليلا منهم، والمراد بالقليل: هم الذين صدقوا رسلهم واتبعوهم، فقد كان هؤلاء على قتلهم ينهون عن الكفر والفساد فنجاهم الله مما حقا بالكافرين الذين ضلوا عن سبيل الله ضلالا بعيدا فكذبوا ملة التوحيد وجحدوا رسالات الله وآذوا أنبياءهم أشد إيذاء وهؤلاء هم الأكثرون الذين عصوا وأبوا إلا الكفر والعصيان فضلوا سادرين في شهواتهم وملذاتهم - وهو قوله: {واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين} أي ابتع المشركون العصاة ما أنعموا فيه من الشهوات والملذات واهتموا بتحصيل الدنيا وما فيها من أموال ومتاع وبهجة ولم يعبأوا بما وراء ذلك {وكانوا محرمين} معطوف على {أترفوا} - والمعنى: أن هؤلاء أهل آثام وإجرام لاتباعهم الشهوات وانشغالهم في الحطام والخيرات وإعراضهم عن آيات الله.
١١٧ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)
قوله: {وما كان ربك ليهلك القرى ظلم وأهلها مصلحون} المراد من الظلم هنا، الشرك، أي أن الله لا يهلك الناس بسبب شركهم إذا كانوا فيما بينهم مصلحين غير مفسدين ولا متظالمين، بل يتعاطون الحق فيما بينهم، بل يتعاطون الحق فيما بينهم، ويعامل بعضهم بعضا على الصلاح والخير والسداد وإن كانوا مشركين - قال الرازي في هذا المعنى: غنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم - والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساءوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم - ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ١٤٨.
وقيل: المعنى أن الله لا يهلك القرى ظلما منه وأهلها مصلحون غير مسيئين، بل يهلكهم لطغيانهم وإسرافهم في تكذيب المرسلين وفعلهم السيئات والمعاصي ١٤٩.

١١٨ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)
قوله تعالى: {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ١١٨ إلا من رحم ربك ولذالك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} لو شاء الله لجعل الناس كلهم على ملة واحدة أو دين واحد وهو دين التوحيد؛ أي الإسلام - وقيل: جعلهم أهل دين واحد سواء كان ذالك الضلال أو الهدى، الكفران أو الإيمان.
قوله: {ولا يزالون مختلفين} أي متفرقين على أديان شتى وملل كثيرة ومختلفة؛ فهم ما بين يهود ونصارى ومجوس ودهريين وبوذيين ووثنيين وملحدين وغيرهم من مختلف الملل والنحل الضالة السادرة في الغي.
١١٩ - (إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)
قوله: {إلا من رحم ربك} وهم أصحاب الحنيفية القائمة على التوحيد الخالص لله المجانبين لكل ألوان الوثنية والشرك - أولئك قد رحمهم الله بالإيمان والهدى؛ فهو غير مختلفين ولا مقترفين أديانا شتى؛ بل هم على دين حقيقي واحد بني على عقيدة الإيمان بالله الواحد الكبير القهار، وما دون ذلك من ملل ومذاهب فليس إلا الشرك والضلال.
قوله: {ولذالك خلقهم} الإشارة للاختلاف؛ أي خلقهم الله ليصيروا إلى ما سيصيرون إليه من اختلاف في الملة أو اتفاق - وقيل: خلقهم لرحمة.
قوله: {وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} تمام كلمة الله يعني ثباتها واستقرارها فلا تقبل التغيير والتبديل - وذلك إخبار من الله أنه قد سبق في علمه الأزلي وحكمته النافذة أن من عباده من يستحق الجنة فهو ميسر لها، ومنهم من يستحق النار فهو مسير لها كذلك - فكلتا الجنة والنار ممتلئة بالثقلين من الجن والأنس، ولله في ذلك الحجة البالغة والحكمة النافذة العليا.
١٢٠ - (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)
قوله تعالى: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} كلا، مفعول للفعل {نقص} و {أنباء الرسل}، أي سيرتهم وأخبارهم واصطبارهم على أذى أقوامهم - والمعنى: أن كل ما نقصه عليك من أخبار الرسل السابقين مع أممهم الذين شاقوهم شر مشاقة ووقفوا في طريق دعوتهم إلى الله، وأذاقوهم ألوان الأذى والعذاب {ما نثبت به فؤادك} أي هذا القصص من الله عن أخبار المرسلين المتقدمين هو تثبين لقلبك وتقوية لك على التحمل والتمكن من تبليغ رسالة الله، فلا تبتئس أو تجزع من تكذيب المشركين وإيذائهم لك.
قوله: {وجاءك في هذه الحق وموعظة} {هذه}، يعني السورة - وهو قول كثير من المفسرين وأهل العلم - وقد خص السورة لما فيها من أخبار المرسلين وما لاقوه من أذى المشركين الخاسرين فما آمن لهم إلا القليل - لكن أكثر من في الأرض لجوا في طغيانهم وأبوا إلا العتو والجحود والاستكبار فنجى الله الفئة القليلة المؤمنة، واهلك الكثرة الكاثرة من الناس وهم الضالون الظالمون، إذ أخذهم أخا عزيز مقتدر - فلا جرم أن تجيء هذه السورة حافلة بأخبار الحق والموعظة والذكرى التي يزدجر منها أولو الألباب والنهي، أو يعتبرون مما حاق بالسالفين الأولين من سوء المصير.
١٢١ - (وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)
قوله تعالى: {وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ١٢١ وانتظروا إنا منتظرون} أي قل لهؤلاء المكذبين الجاحدين اعملوا ما أنتم عاملون على طريقكم وجهتكم التي أنتم عليها، وإنا ماضون على منهجنا وطريقتنا التي بينها الله لنا
١٢٢ - (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)
{وانتظروا إنا منتظرون} أي انتظروا ما سوف يحيق بكم من سوء الدوائر والبلايا كما حاق بالمجرمين الذين سبقوكم في الكفر والعصيان - ونحن معكم منتظرون فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن هو في خسران وبوار - وذلك تهديد ظاهر ووعيد مخوف.
١٢٣ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعلمون}.
ذلك حسن الختام لهذه السورة العظيمة - وذلك هو شأن القرآن في روعة الختام لكل سورة من سوره - فما تتتابع الآيات في السورة الواحدة تتابعا لينا ومثيرا ومرغوبا حتى يفضي إلى الختام في يسر وسلاسة وجمال، وفي غاية من الترابط المحكم الوثيق الذي يقرع الذهن لكمال فحواه ومعناه، ويثير الوجدان لحلاوة رصفه ومبناه - وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم - وذلكم هو جمال التعبير وروعة التعقيب المؤثر المنسجم في الآيات الخواتيم لكل السور - ويشهد لذلك ما نجده في هذه الآية المباركة التي تضم جملة حقائق مختلفة كبريات تفيض منها النداوة والطلاوة وبالغ التأثير، وما يقوي على اختلاف مثل ذلك بشر - تلكم أربعة معان عظيمات منسجمة تتلاحم فيما بينهما خير تلاحم - وذك في بضع عبارات مترابطة ومتسقة في آية الختام.
وأول هذه الحقائق {ولله غيب السموات والأرض} الله وحده عليم بالمغيبات من الأشياء والحقائق في هذا الكون المعمور؛ فما من شيء ولا نبأ ولا خبر ولا مستور ولا منظور، صغيرا أم كبيرا إلا يعلمه الله.
والحقيقية الثانية: {وإليه يرجع الأمر كله} إلى الله المعاد والمصير، فإليه مرجع كل المحدثات والكائنات من ملائكة وإنس وجن، مؤمنين وكافرين، فكل شيء صائر إليه يوم القيامة حيث الحشر والتلاقي والحساب.
والحقيقة الثالثة: {فاعبده وتوكل عليه} يأمر الله نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه أن يعبدوه وحده لا شريك له فيمتثلوا لأحكامه ويطيعوه فيما أمر، وأن يعتمدوا عليه ويركنوا إليه جنابة تمام الركون؛ فإنه خير نصير ومعوان للطائعين المتوكلين عليه المستندين على جلاله.
والحقيقة الرابعة {وما ربك بغافل عما تعلمون} ذلك تهديد من الله للمشركين الضالين الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة؛ فالله ليس بساه عن أفعال المشركين المنكرة من جحودهم للنبوة وتكذيب لرسالات الله وصد عن سبيله وإيذاء للمسلمين وافتعال الأسباب التي تفتنهم عن دينهم، ليس الله غافلا عن هؤلاء الخاسرين الظالمين ولكن الله لهم بالمرصاد - وهو معذبهم بما يشاء من العذاب في هذه الدنيا، ويوم القيامة يصيرون إلى جهنم وبئس المصير.

١٢ سورة يوسف:

سورة يوسف:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وقيل: إلا أربع آيات - والسورة عظيمة في دلالاتها ومقاصدها وما حوته من دروس وأخبار وعبر - وهي قصص من قصص الله؛ بل هي أحسن القصص الذي قصه الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليوقفه على أخبار السابقين من النبيين والأمم - وفي طليعة هذه الأخبار جميعا تأتي قصة نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته الذين كادوا له أشد الكيد وحسدوه بالغ الحسد لما وجدوه من فيض التحنان يتقاطر على قلب أبيهم يعقوب عليه السلام نحو ولده هذا الصغير الصبيح المبارك يوسف عليه السلام؛ فقد رأى هذه الكريم المبارك -على براءته المطلقة في سن الطفولة- رؤيا أثارت قلب أبيه الفطن يعقوب فأوجس من إخوته خفية أن يأكل قلوبهم الحسد الأسود فيؤذوه أيما إيذاء - وكل الذي خشيه يعقوب وتوجس منه الخفية قد كان! فلقد ائتمر الإخوة بأخيهم الطيب الصبيح المبارك ليلقوه في إحدى المهالك، حتى استقر قراراهم اللئيم المنكر، بإلقائه في الجب ليتخلصوا منه تمام فتهدأ نفوسهم الماكرة الشريرة التي استحوذت عليها لطخة الحسد البغيض، واستشرت في أعماقها براثن الحقد الظلوم، لا الشيء، إلا لفرط البراءة التي تتجلى في طليعة هذا الصبي المشرق المبارك - ولما أحسوه من الحدب الحاني يتندى من قلب أبيهم يعقوب شغفا بأخيهم هذا الطفل المبرأ المعصوم - لا جرم أن قصة يوسف مع إخوته الحاسدين تظل على مر الزمن درسا مكتملا يتفهم منه الإنسان فيظل على يقين أن خصبة الحسد واحدة من خصال أساسية شتى قد جبل عليها ابن آدم، فما يكاد ينجو منها بشر على وجه الأرض إلا أن يكون معصوما بوحي، أو صديقا رفاقا من الصديقين الأبرار وقيل ما هم! لكن جل البشرية لا ينجو من الحسد بدءا بابن آدم؛ إذ طوعت له

نفسه قتل أخيه حسدا من نفسه، ومرورا بإخوة يوسف الذين تمالؤا على إلقاء أخيهم في مهاوي الموت - وما فتئت المجتمعات والأفراد والأجيال تتوالى وتمضي وهي يأخذ منها الحسد كل مأخذ - فما يكاد ينجو منها ذكر أو أنثى، عالم أو جاهل، عظيم أو حقير، مؤمن أو فاسق إلا أن يتغمده الله بفيض من الهداية والخشوع والتقوى.

ومن هنا نجزم في يقين أن الإنسان لا ينجو من لوثة الحسد؛ بل إن هذا الداء الوبيل المستحكم يتدسس في أغوار النفس من الإنسان ليسومه خسيسة الغيرة والأثرة والإفراط في حب الذات والامتعاض من الآخرين أن يصبيهم من الله خير أو فضل! ومع ذلك كله فإن السعيد من اتعظ واتقى وخشي الرحمن في نفسه فصانها بعقيدة التوحيد وحسن الصلة بالله من لوثة الحسد البغيض.

وفي سبب نزول السورة أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما انتهى إليه فنزلت.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن حبرا من اليهود دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف فقال: يا محمد، من علمكها؟ قال: (الله علمنيها)، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود فقال لهم: والله إن محمدا ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه؛ فجعلوا يستمعون إلى قراءة سورة يوسف فتعجبوا وأسلموا عند ذلك.

١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {الر}، قد تقدم الكلام في مثل هذه الحروف من أوائل السور - والإشارة {تلك} إلى قوله: {الر} وغيرها من حروف العربية التي تركبت منها آيات القرآن فكان الكتاب الفذ المميز الذي لا يضاهيه في البيان أيما بيان - فهو بذلك معجز يسمو على طاقة البشر - ومما يعزز هذا التأويل قوله بعد الإشارة: {آيات الكتاب المبين} والمراد به القرآن؛ فهو مستبين في نفسه، ظاهر إعجازه للعرب فلم يقدروا أن يعارضوه - أو هو ظاهر في معانيه ومقاصده وأحكامه وأخباره.

٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

قوله: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا} {قرآنا}، منصوب على أنه بدل من مضير {أنزلناه} أو منصوب على الحال - وقيل: مفعول به - وعربيا نعت للقرآن - وهو منسوب إلى العرب، والعرب جمع عربي ١ - والمعنى: أن الله جل وعلا كان من تقديره في الأزل أن ينزل القرآن على البشرية بلغة العرب، هذا البيان الندي المحبب، لبساطة تركيبه وجمال أسلوبه وسطوع كلماته ذات الإيقاع البليغ الشجي، والإيقاع المستعذب الغامر الذي ينفذ إلى صميم الفطرة وعميق الوجدان - لا جرم أن العرب خير أجناس البيان ولا فخر - وذلك بعجيب سكبها ومتانة رصفها وبهاء نظمها المميز؛ النظم الذي يخاطب الكيان البشري كله فيهزه من الأعماق هزا - وذلك بما حواه هذا الكيان من جنان ووجدان وذهن وعاطفة وحس - كل أولئك لا جرم أن يستفيق وينتهض بالنظم القرآني النافذ الغلاب؛ فليس في سائر الكلام كله ما يخاطب في الإنسان إلا جزءا أو اثنين من تركيبه المتلاحم المعقد فما يكون تأثيره فيه محدودا يسيرا - لكن القرآن يقرع الجهاز النفسي والروحي والعقلي للإنسان مجتمعا، وهذه ظاهرة جلية عجيبة تشهد على كون القرآن معجزا لا يعارضه في العالمين أحد، وهو إنما يتجلى فيه هذه الحقيقة؛ لكونه من جنس هذه اللغة الكريمة المباركة، اللغة البالغة في جمالها وحسنها، وروعة جرسها وإيقاعها، وحلاوة أنغامها الندية الشجية، وذلك كله يقتضي أن يحض الرسول صلى الله عليه وسلم على حب العربية والعرب؛ فقد أخرج الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحبوا العرب لثلاث: أني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي).

قوله: {لعلكم تعقلون} لعل بمعنى التعليل؛ أي لكي تفهموا ما تضمنه هذا القرآن من المعاني والبلاغة والإعجاز، ولكي تحيطوا بما حواه من علوم وحقائق وبدائع فتوقنوا بعد ذلك أن هذا الكلام ليس في مقدور احد بل هو مما لا يطيقه بشر ٢.

٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

قوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} قص الخبر، أي اعلمه وبينه - {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} - أي نبين لك أحسن البيان ٣ وقوله: {أحسن} منصوب على أنه مفعول به - وقيل: منصوب على أنه مصدر ٤.

وهذا البيان جاء به الوحي من عند الله لهو أحسن القصص؛ لأنه من نظم الإله الخالق البديع، فهو متقن على أتم ما يكون عليه الإتقان، وأحسن ما يكون عليه الأسلوب، وأكمل ما تكون عليه المعاني والعلوم والأخبار، وأروع ما تأتي عليه الصورة والعبارة والكلمات، وهي تحمل للبشرية أجزل المعاني وأنفعها - وذلك في مختلف المواقف والمشاهد والأحوال والملابسات، وفي سائر الأخبار والأحكام والمواعظ - وذلك كله في غاية مثلى من رصانة التعبير، وجرس الحروف، وكمال النظم الباهر المميز.

قوله: {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} الباء سببية وما مصدرية، أي بسبب إيحائنا ٥ - والمنى: أن الله يقص على عباده تحسن القصص بسبب إيحائه هذا القرآن - وهو الكتاب الحكيم الموحي به من عند الله، فهو بذلك خير كلام، وأحسنه وأكمل ما عرفت الدنيا من نظم وبيان.

قوله: {وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} أن، المخففة - والمضير في {قبله} يعود على الإيحاء، أي لم يكن لك علم بهذه القصة ولا طرق سمعك شيء منها.

٤ - (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} {إِذْ}، في موضع نصب بإضمار الفعل (اذكر) وهي تفيد الظرفية الزمانية - و {يُوسُفُ} اسم عبراني وهو ليس عربيا، فهو ممنوع من الصرف، فقد رأى يوسف عليه السلام في منامه {أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} وقد تكلم المفسرون على تأويل هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلا سواه - و {الشمس والقمر} عبارة عن أمه وأبيه - وقيل: تفسير ما رآه يوسف في منامه بعد أربعين سنة - وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره، وإخوته بين يديه - وتخصيص الشمس والقمر بالذكر وعدم إدراجها في عموم الكواكب؛ لا ختصاصهما بالشرف - وتقدم ذكر الشمس على القمر لما جرت عليه عادة القرآن في جمع الشمس والقمر، وذلك لكون الشمس أعظم جرما من القمر واسطع نورا وأبعد منه مكانا، والله اعلم.

قوله: {رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} هذه الجملة {رأيتهم} مكررة لتأكيد وذلك لما طال الفصل بالمفاعيل، فهي تأكيد لما تقدم من تحقيق المنام - و {ساجدين} حال منصوب - وقيل: مفعول ثان للفعل {رأيتهم} ٦ والمراد بالسجود هنا: ما كان للكرامة، كما سجدت الملائكة لآدم - وقيل: كان السجود في ذلك الوقت سجود تحية بعضهم لبعض.

٥ - (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

قوله: {قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا} بني، مصغر للشفقة والتحبب - ورؤيا بمعنى الرؤية، إلا أنها مختصة بما كان في النوم دون اليقظة - {فيكيدوا}، منصوب بإضمار أن على جواب النهي، وعدي الفعل {فيكيدوا} باللام، مع أنه مما يتعدى بنفسه - والتقدير: فيحتالوا لك بالكيد - وقيل: اللام للعلة - أي فيكيدوا من أجلك - و {كيدا} منصوب على أنه مصدر مؤكد - وقيل: مفعول به، أي فيصنعوا لك كيدا ٧.

وأما الكيد، فمعناه المكر والخبث والحيلة ٨، فقد خشي يعقوب أن يحدث يوسف برؤياه أحدا من إخوته مما يثير في نفوسهم الحسد والكراهية فيسول لهم الشيطان أن يزلقوه في غائلة من الغوائل أو الشرور - من اجل ذلك نهاه يعقوب عليه السلام أن يقص رؤيا على إخوته كيلا يحتالوا له حيلة أو مكيدة أو خديعة تمسه فتؤذيه - وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (استعينوا على

قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود).

قوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} الشيطان خبيث وماكر ومخادع، وهو أشد ما يكون كراهية للإنسان، إذ يكيد له أبلغ الكيد في كل آن، ويتحيل له طيلة الزمان أعتى الحيل والمكائد ليهوي بسببها في الهلكة والخسران سواء في الدنيا أو الآخرة، فهو بذلك ظاهر العداوة لان آدم، وهو من اجل ذلك لا يألو جهدا في إثارة الحسد لدى إخوة يوسف مما يسول لهم إيقاعه في النوائب أو في مهلكة من المهالك - مع أنهم من سلالة رسل عظام، وقد نشأوا في بيت النبوة الطاهر - ولكنهم مع ذلك كان يمكن للشيطان أن يتدسس إلى نفوسهم الضعيفة فيسول لها ذميمة الحسد ويغويها بفعل المعاصي - وذلك يدل بما لا ريب فيه على أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما يزعم بعض القائلين بذلك - وذهب إلى عدم كونهم من النبيين أكثر العلماء من السلف والخلف، فإنه لم ينقل عن الصحابة أو التابعين أنهم أنبياء - قال شيخ الإسلام بن تيمية في هذه المسألة: الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا عن أحد من الصحابة (رضي الله عنهم) خبر بأن الله تعالى نبأهم - وغنما احتج من قال بأنهم نبئوا بقوله تعالى في آيتي البقة والنساء: {والأسباط} وفسر ذلك بأولاد يعقوب - والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته، كما يقال لهم: نبو إسرائيل - وكما يقال لسائر الناس: بنو آدم ٩.

ولو كان إخوة يوسف أنبياء كأخيهم لذكرهم لله بالثناء كما ذكر أخاهم - وكذلك فإن النبيين لهم من المكاره والمحامد ما يناسب منزلة النبوة - وقد أثنى رسولنا صلى الله عليه وسلم على نبي الله يوسف فقال: (أكرم الناس يوسف بن يعقوب بم إسحق بن إبراهيم نبي ابن نبي) فلو كان إخوته أنبياء لشاركوه في هذا الثناء والكرم.

على أن النبوة لا يليق بها البتة كبريات المعاصي والآثام وكالذب، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وقتل النفس المؤمنة ظلما وعدوانا، وإرقاق المسلم وبيعه إلى الكافرين في دار الكفر! فأنى لنبيين يجيئهم الوحي من السماء أن يقترفوا هذه الفظائع من المنكرات؟! لا جرم أن ذلك يدل أيما دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء - فالنبيون معصومون عن صدور مثل هذه القبائح والمنكرات قبل النبوة وبعدها ١٠.

٦ - (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الكاف في {وَكَذَلِكَ} في موضع نصب على الحال من ضمير المصدر المقدر، أو على النعت لمصدر محذوف والتقدير: مثل ذلك الاجتباء العظيم يجتبيك - وقيل: في موضع الرفع على خبر مبتدأ مضمر أي الأمر كذلك ١١ و {يَجْتَبِيكَ}، أي يصطفيك ويختارك من الاجتباء وهو الاختيار ١٢ لرؤية الكواكب والشمس والقمر ساجدين لك، فإن الله يختارك للنبوة والملك - وقيل: للسجود لك تحية وإكراما - أو لأمور عظام تشمل ذلك وغيره من كبرايات الوجائب والأغراض التي تقتضيها النبوة.

قوله: {وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} وتأويل الأحاديث يعني التعبير عن الرؤيا أو غرائب الرؤيا - وقيل: عواقب الأمور - وقيل: عموم ذلك وغيره من المغيبات - وقال الزمخشري: الأحاديث بمعنى الرؤى - وتأويلها يعني تفسيرها أو عبارتها - فكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصلحهم عبارة - وقيل: المراد بتأويل الأحاديث معناي كتب الله وسير الأنبياء وما غمض أو اشتبه على الناس من المقاصد ووجوه الحكمة.

قوله: {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ} إتمامه النعمة عليك يعني بالإيحاء إليك وبعثك نبيا - وقيل: بإيجائك من كل مكروه - أو بإعلاء شأنك وتحقيق رؤياك - وآل يعقوب، يعني أولاده وذريتهم - والمراد: أن الله قد أتم نعمته عليك بالنبوة والنجاة من الشدائد والمكاره كما أتم نعمته على آل يعقوب وهم نسله، بالخلاص من المكروه - ولا يقتضي ذلك أن يكون الإنعام على يوسف وإخوته من نوع واحد، فقد أنعم الله على يوسف بنعمة النوبة وغيرها من النعم مما بيناه آنفا - وكذلك أنعم على أخوته بوجوه أخرى من النعم

كالخلاص من المكاره وغيرها.
قوله: {كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ} أتم الله نعمته على أبيه إبراهيم بالنبوة والخلة؛ إذ اتخذه خليلا، ثم تنجيته من النار - وكذلك قد أتم نعمته على أبيه إسحق بالنبوة.
قوله: {إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {عليم} بمن يستحق الاجتباء والنعمة، {حكيم} في تدبير خلقه وفي جعل الأشياء في مواضعها ١٣.
٧ - (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)
قوله تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ٨ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} {آيَاتٌ}، بمعنى عبرة ومواعظ، للذين سألوا عن ذلك، وهم المستخبرون عن حقيقة يوسف وقصته، فقد سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام اخرج ابنه من مصر فبكى عليه حتى عمي - ولم يكن بمكة حينئذ أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وغنما أشار اليهود من المدينة إلى مشركي مكة ليسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا، فأنزل الله جز وجل سورة يوسف جملة واحدة، فيها كل ما في التوراة من خبر وأكثر، فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم تنطق بصدق رسالته وأنه أوحي إليه بذلك من السماء.
وقد أنزل الله هذه السورة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يعلمه فيها ما لقي يوسف من إخوته، إذ آذوه بالحسد والكيد والقطيعة على قتله مع تكريم الله له بالتنحية والتشريف وعلو المنزلة، فضلا عما كتب الله له من عظيم الأجر على اصطباره على مكرهم وحسدهم وأذاهم، ويراد من ذلك أيضا التخفيف مما يجده نبينا صلى الله عليه وسلم من موجدة وأسى لما يلقاه من أذى قريش وصدهم.
٨ - (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
قوله: {إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} اللام في يوسف للتوكيد - ويوسف مرفوع على الابتداء - {وأخوة} معطوف عليه - {أحب} خبر المبتدأ، أي قال إخوة يوسف لبعضهم مؤكدين: إن يوسف وأخاه، وهو بنيامين وكان شقيقه وأصغر منه {أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة} أي ونحن جماعة، إذ كانوا أحد عشر رجلا - قالوا ذلك بعد أن بلغهم خبر الرؤيا، فتغيظوا بالغ التغيظ وأترعت قلبوهم بالحسد الخبيث، فراحوا يكيدون لأخيهم الكريم كيدا.
قوله: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} أي لفي خطأ، أو غلط، إذ أثر هذين الأخوين علينا ونحن كثيرون مع استوائنا جميعا في الانتساب إليه.
٩ - (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)
قوله: {اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} قال إخوة يوسف بعضهم لبعض، أو قال أحدهم للآخرين {اقتلوا يوسف} وذلك لتهدا نفوسهم منن سورة الحسد المركوم الذي يلسع قلوبهم ويقض أعصابهم {أو اطرحوه أرضا} {أرضا}، منصوب على أنه ظرف مكان ١٤، أي ألقوه بعيدا في أرض منكورة مجهولة {يخل لكم وجه أبيكم} أي خلص لكم وجه أبيكم، فيقبل عليكم بكليته، فلا ينشغل عنكم بغيركم.
قوله: {وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} أي تكونوا من بعد مغيب يوسف عنكم بالقتال أو الإلقاء بعيدا {قوما صالحين} أي تائبين إلى الله من جنابة القتل - وقيل: يصلح حالكم عند أبيكم فلا يؤثر عليكم أحدا غيركم.
١٠ - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)
قوله: {قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} قائل ذلك غير معلوم، فهو في الآية منكر، فالله أعلم بمن هو - وأيما كلام

في حقيقة اسمه إن هو إلا ضرب من الظن - والمقصود: أن أحدهم وهو أقصدهم في رأيه قال: لا تقتلوا يوسف} فقد نهاهم عن قتله لما رآه أن القتل عظيم بل دعاهم إلى إلقائه {في غيابة الجب} والجب معناه البئر - و {غيابة الجب} يعني قعر البئر ١٥، فقد دعاهم إلى إلقاء أخيهم يوسف في قعر البئر لكي يغيب خبره ويضيع نهائيا.

قوله: {يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} السيارة تعني القافلة ١٦ - والمراد: أن يأخذه بعض مارة الطريق من المسافرين {إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} أي إن كنتم جادين فتفعلون ما أقول لكم - وقد ذكر أنه أخذه ناس من الأعراب المسافرين.

وذلك كله يدل على أن إخوة يوسف ليسوا أنبياء وهذه حقيقة ما ينبغي لأحد من الناس أن يماري فيها - وما المرء فيها إلا الإسراف في الثرثرة أو التقول الفارغ الممجوج غير القائم على شيء من الحجة أو المعقول - ذلك أن الأنبياء يستحيل في حقهم أن يدبروا لقتل مسلم - وهم فوق ذلك معصومون عن ارتكاب الكبيرة، فكيف إذا كان ذلك جملة كبائر من بينها عقوق الوالد النبي، وقتل الأخ المؤمن المعصوم ظلما وعدوانا - لا جرم أن هذه فاقرة من الفوقر التي تزلزل الفرائص وتضطرب لهولها الأرض، والتي لا يقع فيها المؤمنون من سواء الناس وعامتهم، فيكيف إن كانوا النبيين؟!

إن أصدق ما ينبغي أن يقال في هذا الصدد أن إخوة يوسف كانوا مسلمين فارتكبوا معصية ثم تابوا ١٧.

١١ - (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

قوله تعالى: {قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} لما اتفق إخوة يوسف على القول الثاني وهو إلقاؤه في قعر البئر ليهلك أو يضيع عادوا إلى أبيهم يعقوب متحيلين متواطئين على خداعه ليأذن همن في إرساله يوسف معهم فيتمموا فيه كيدهم ومكرهم، فقالوا له مخادعين: {يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} أي ما بالك لا تأمنا عليه فتبعثه معنا إذا خرجنا إلى الصحراء ونحن مؤتمنون عليه وناصحون في حفظه وكلاءته، نحوطه ونرعاه ونرده إليك

١٢ - (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

{أرسله معنا إذا يرتع ويلعب} أي ابعثه معنا إذا فينعم وينشط ويلهو معنا في الصحراء {وإنا له لحافظون} أي نحفظه ونحوطه من أي شيء يكرهه أو يؤذيه.

١٣ - (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ} اللام، لام الابتداء، أي ليحزنني ويشق علي مفارقة يوسف مدة ذهابكم به إلى الصحراء إلى أن يعود - وذلك لشدة حبه له وتعلق قلبه به، فقد توسم فيه علائم الخير وشمائل النبوة، فوق ما لاحظه من كمال الخلق والخلق - ومن أجل ذلك كله ازداد قلبه تشبثا به وحبا له، فما كان يحتمل طول غيابه عنه.

وكذلك خشي يعقوب عليه السلام على والده يوسف أن ينشغلوا عنه فيغفلوا عنه ثم يأكله الذئب وهم لا يشعرون.

ولعل إخوة يوسف قد استمسكوا بكلمة الذئب أسوأ استمساك ليتخذوا من مسألة الذئب ذريعة يبررون بها كيدهم وما فعلوه بأخيهم يوسف من سوء الفعال.

١٤ - (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)

قوله: {قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ} أي لئن عدا الذئب على يوسف فأكله من بيننا ونحن جماعة كثيرون قادرون على رده فإنا إذا لهالكون عجزة.

١٥ - (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} أي لما أخذوه من أبيهم يعقوب وعزموا بعد ذلك على إلقائه في البئر، وجواب لما محذوف، وتقديره: فعلوا ما فعلوه من الأذى؛ فقد روي أنهم لما برزوا

به إلى البرية وغاب يعقوب عن أبصارهم أظهروا له العداوة وشرعوا يؤذونه بالفعل من ضرب وطعن ونحوهما - وكذلك يؤذونه بالقول من شتم وإهانة ونحوهما، وهو يستعطفهم عليه ويذكرهم الرحم ووصية أبيه لهم بالرفق به، لكنهم ظلوا سادرين في إيذائه والنيل منه حتى جاءوا به إلى الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره فصعد إلى صخرة تكون في وسطه فقام فوقها.
قوله: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} وهذا يدل على نبوته في ذلك الوقت - وبذلك أعطى الله يوسف النورة وهو في الجب على حجر مرتفع عن الماء وكان ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل: تسع سنين - وقيل غير ذلك؛ فقد أوحي الله إلى يوسف وهو في تلك الحال من الضيق والخوف والوحشة تطيبا لقلبه وتثبيتا كيلا يحزن ولا يبتئس مما أصابه ومما هو فيه من كيد إخوته الظالمين الآثمين الذين تفجر الحسد في قلوبهم فاستحوذ عليها أيما استحواذ ففعلوا ما فعلوا - فهان عليهم إيمانهم وغاضت في نفوسهم علائم الرحمة والإشفاق.
لقد أوحي الله إليه وهو في حاله هذه أنه جاعل له فرجا ومخرجا، وأنه كاشف عنه السوء والبأساء، وسيكتب الله له النصر والعزة وعلو الشأن، ولسوف يحدث إخوته بكل ما فعلوه به من وجوه المكر والإيذاء، {وهم لا يشعرون} أيلا يشعرون بما يخبرك به الوحي، أو لا يشعرون بأنك يوسف وذلك لدى دخلوهم عليه وهو في مصر؛ إذ يعرفهم وهم له منكرون - لقد أوحي الله إلى جبريل عليه السلام أن أدرك عبدي، فأسرع غليه جبريل حتى أقعده على الصخرة سالما - وكان ذلك الجب مأوى الهوام من الحشرات السامة والحيات - وفي هذا الموقف الكئيب الموحش يلجأ يوسف إلى ربه يسأله الخلاص والفرج ويشكو إليه ما فعله به المعتسفون الحاسدون، ويدعوه بهذا الدعاء الذي علمه إياه جبريل: الله يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف، ويا كشاف كل كربة، وعالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملأ، يا حي يا قيوم، أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجا ومخرجا - إنك على كل شيء قدير - فقالت الملائكة - إلهنا، نسمع صوتا ودعاء، الصوت صوت صبي، والدعاء دعاء نبي! ١٨.
١٦ - (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)
قوله تعالى: {وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ١٦ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ١٧ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}.
بعد أن فعل إخوة يوسف فعلتهم المنكرة بأخيهم يوسف رجعوا إلى أبيهم ليلا يبكون - فلما سمع أبوهم بكاءهم فزع وقال: ما بكم يا بني، هل أصلبكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا - قال: فما فعل يوسف؟
قالوا: {يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} فبكي الشيخ وصاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فجاءوا بالقميص عليه دم كاذب؛ أي مكذوب أو مفترى، فأخذ القميص فطرحه على وجهه ثم بكي حتى تخضب وجهه من دم القميص - وقيل: لما قالوا أكله الذئب خر مغشيا عليه، فأفضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب، فقال لهم يهوذا –وكان أرفقهم-: ويل لنا من ديان يوم الدين! ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا! فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر.
١٧ - (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يوسف عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)
قوله: {قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} {نستبق}، أي نتسابق في الرمي، أو على الفرس - أو في الجري على الأقدام - والمسابقة خصلة جيدة ومشروعة، وهي جائزة بالسنة والإجماع؛ فقد سابق النبي صلى الله عليه وسلم عائشة فسبقته - فلما حملت اللحم سابقته فسبقها فقال: (هذه بتلك) وهو ما رواه - أو داود وكذلك أجمع المسلمون على جواز المسابقة في الجملة.
والمسابقة تكون بالنصل والحافر والخف وغير ذلك من أنواع الحافلات كالسفن ونحوها - والمراد بالنصل هنا السهم ذو النصل، وبالحافر الفرس، وبالخف البعير.

والمسابقة على ضربين: مسابقة بغير عوض، وأخرى بعوض - أما التي بغير عوض: فهي جائزة مطلقا من غير تقييد بشيء معين كالمسابقة على الأقدام والخيل والسفن وغير ذلك من الحافلات النارية الحديثة على اختلاف أنواعها؛ فقد سابق النبي صلى الله عليه وسلم عائشة فسبقته ثم سبقها في الثانية.

أما المسابقة بعوض في هذه الأنصاف الثلاثة فلت تجوز؛ وهو قول المالكية وأحدا القولين للشافعية - أما الحنفية: فتجوز عندهم المسابقة بعوض إن كانت على الأقدام أو مصارعة؛ لورود الأثر بهما؛ فقد سابق النبي عائشة وصارع ركانة.

وهو القول الثاني للشافعية، وجملته: جواز المسابقة بعوض بكل ما له نصل، وفي السيف والرمح والدواب وجهان.

وإذا كانت المسابقة بين اثنين أو فريقين، فإن كان العوض من غيرهما؛ جاز سواء كان ذلك من الحاكم يؤديه من بيت المال، أو كان من غير الإمام؛ وهو قول الحنفية والشافعية والحنبلية - وقالت المالكية: لا يجوز بذل العوض من غير الإمام.

على أن السبق بالفتح معناه في اللغة: الخطر الذي يوضع بين أهل السباق ١٩ - وهو في الشرع: الجعل الذي يسابق عليه - ويسمى الخطر والندب والقرع والرهن - وجمعه أسباق - وهي ثلاثة أضرب:

أولها: سبق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوعا فيجعله لمن سابق - فمن سبق أخذه، فهو جائز.

والثاني: سبق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه فغن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه؛ فهو كذلك جائز.

والثالث: أن يخرج كل منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيما سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه؛ فإنه لا يجوز وكان قمارا ٢٠ - وتفصيل هذه المسألة في مظانها من كتب الفقه.

قوله: {وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب} أي تركناه يحرس ثيابنا وأمتعتنا فأكله الذئب - وهذا الذي كان يتوجس منه يعقوب خفية والذي جزع منه وحذرهم منه عندما أرادوا أن يأخذوه.

قوله: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} يعني أنك لا تصدقنا فيما نقول وإن كنا صادقين وغير مهتمين، وذلك لسوء ظنك بنا واتهامك إيانا.

١٨ - (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

قوله: {وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} أي مكذوب مفترى، أو وصف الدم بالمصدر على سبيل المبالغة كأن هذا الدم نفس الكذب كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته؛ فقد كذبوا على أبيهم يعقوب بعد أن تمالأوا على أخيهم يوسف، فأرادوا به كيدا فكانوا هم المكيدين بافتضاح أمرهم وهتك نواياهم الشريرة؛ لقد كذبوا على أبيهم؛ إذ جاءوه بدم سخلة لطخوا به قميص يوسف ثم زعموا أن هذا هو دمه.

قال: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا} {بل}، حرف إضراب - {سولت} أي زينت ٢١، فقد قال لهم يعقوب مكذبا زعمهم وافتراءهم: ليس الأمر كما تقولون بل زينت لكم أنفسكم أمرا في يوسف وحسنته لكم تحسينا مريبا ففعلتموه {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} صبر، مرفوع على انه مبتدأ، وخبره محذوف وتقديره: فصبر جميل خير من غيره - وغنما جاز الابتداء بالمنكر لكونه موصوفا - وقيل: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: فصبري صبر جميل ٢٢.

والمعنى: أنني سأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه بتمالؤكم على يوسف حتى يكشف الله عني هذا البلاء بلطفه وفضله ورحمته {وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} أي أستعين بالله على ما اتفقتم عليه من الشر والمكر، أو ما جئتموني به من كذب ٢٣.

١٩ - (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٩ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} السيارة يراد بها رفقة مارة من المسافرين يسيرون من الشام إلى مصر، فأخطأوا الطريق حتى نزلوا قريبا من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران {فأرسلوا واردهم} والوارد الذي يرد الماء يستسقي للقوم {فأدلى

دلوه} أي أرسل دلوه ليملأها الماء فتعلق يوسف بالحبل فما خرج الحبل إذا غلام في غاية الحسن والبهاء، فلما رآه صاحب الدلو صاح {يا بشرى هذا غلام} وذلك تبشير من المدلي دلوه، إذ بشر أصاحبه أنه أصاب عبدا - فهم بذلك قد تباشروا به حين أخرجوه من البئر - وقيل: كانت البئر في أرض ببيت المقدس.

قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} المراد بواو الجماعة، الوارد وأصحابه - وقيل: إخوة يوسف - وقيل: التجار الذين اشتروه - و {بضاعة}، منصوب على الحال من يوسف، ومعناه مبضوعا ٢٤ - والمعنى: أن الواردين من بقية السيارة قد أروه ليخفوه عنهم وقالوا: اشتريناه وتبضعنا به من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا عملوا خبره - {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} الله عليم بما يعلمه إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع - وذلك وعيد من الله لمن تسبب فيما وقع فيه يوسف من وجوه البلاء والمحنة، وما صار إليه من قسوة الاسترقاق ليكون بذلك موضع مساومة للبيع والشراء.

٢٠ - (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

قوله: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} {دراهم} في محل جر على البدل من {بثمن} وشروه بمعنى باعوه - والمراد بهم المدلي دلوه والذين معه من بقية السيارة - أولئك قد باعوا يوسف بثمن منقوص دون القليل {دراهم معدودة} أي قليلة تعد عدا - وقيل: المراد بالذين باعوه إخوته {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} أي الذين يرغبون عما في أيديهم فيبيعونه بالثمن الطفيف - وهؤلاء الذين التقطوه ما كانوا يعبأون به ولا يدرون شيئا عن حقيقة شانه عليه السلام ومنزلته.

من اجل ذلك باعوه بثمن بخس، أي ناقص قليل ٢٥.

٢١ - (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} الذي اشتراه من مصر هو العزيز الذي كان على خزائن مصر، فقد تفرس في يوسف الخير والصلاح فأوصى به امرأته قائلا: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} أي اجعلي مقامه مقام تكريم ورضى وذلك بطيب العيش وحسن المعاملة والاهتمام - ذلك ما وصى به العزيز امرأته - وقيل: اسمه زليخا.

قوله: {عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} أي يكفينا بعض ما نحتاج إليه أو نستظهر به على ما نواجهه من مشكلات وأمور - أو أن نتبناه فنجعله لنا ولدا وكان التبني في ذلك الزمان مشروعا.

قوله: {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ} الكاف في اسمن الإشارة في محل نصب على أنه مصدر محذوف، أي مثل ذلك التمكن وهو إنقاذه من الجب ومن كيد إخوته، مكنا له في أرض مصر حتى تمكن فيها من الأمر والنهي.

والإشارة عائدة إلى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجب - قال الطبري في جملة ذلك: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله، وأخرجناه من الجب بعد أن ألقي فيه فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر، كذلك مكنا له في الأرض فجعلناه على خزائنها.

قوله: {وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} التأويل، هو تفسير ما يئول إليه الشيء - وقد أول الكلام تأويلا وتأويله، أي دبره وقدره وفسره - والتأويل أيضا عبارة الرؤيا ٢٦.

والمعنى: نجينا يوسف من الجب ومن كيد إخوته، وكتبنا له هذا التمكين في مصر من أجل أن نوحي إليه بكلام منا فنعلمه تأويله وتفسيره، وكذلك نعلمه تأويل الرؤيا.

قوله: {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} الله فعال لما يشاء فلا يغلب غالب، بل هو الغالب القاهر الذي لا يرد قضاءه

أو كيده أو تدبيره شيء - وهو سبحانه قد نجى يوسف من براثن ٢٧ الموت بعد أن كاد له حاسدوه ابلغ كيد {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} لا يعلمون أن الأمر مله بيد الله - فما يند عن إحاطته وتقديره خبر ولا شأن، وما يقع في الخلق من حدث صغيرا أو عظيما إلا كان الله به عليما - وهذه حقيقة لا يعيها إلا النابهون المتفكرون من المؤمنين - لكن جل البشرية السادرة في الضلال والتي لا تروم غير الاستمتاع بالشهوات لا تتصور مثل هذه الحقيقة ولا تعبأ بها.

٢٢ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} الأشد استكمال القوة والخلق في فترة الشباب - الأشد معناه ثلاثون من العمر، وقيل: ثلاث وثلاثون - وقيل: أربعون، وقيل غير ذلك - وحينئذ آتاه الله السلطان والتمكن في الأرض وكذلك آتاه العلم والفهم.

قوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي كما جزينا يوسف فآتيناه الحكم والعلم ومكناه في الأرض، ونجيناه من كيد إخوته الذين راموا قتله، كذلك نجزي من اهتدى وأحسن فأطاع الله واتقاه والتزم دينه ومنهجه ٢٨.

٢٣ - (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} التي راودته هي امرأة العزيز، إذ كان يوسف في بيتها؛ فقد بهرها بحسنه وسمته الكريم حتى شغفها حبا، فراودته عن نفسه؛ أي طلبت منه في تلطف ولين - والمراودة تعني التلطف في الطلب وفيها معنى المخادعة ٢٩، فهي بذلك حاولته على نفسه ودعته إليها لما وجدت في قبلها من بالغ المحبة له والتشبث به - فما استطاعت أن تضبط رغبتها وتصطبر؛ بل بادرت إلى مصارحته بما تريد - ولذلك غلقت الأبواب - {وغلقت}، بالتشديد، للتكثير؛ لأن الأبواب كانت كثيرة فأغلقتها جميعا {وقالت هيت لك} {هيت}، اسم فعل أمر بمعنى هلم، أو أقبل، أو تعال ٣٠، وبذلك دعته في صراحة إلى المواقعة لكنه عليه السلام والسلام أعظم من أن ينزلق إلى هذا المنزلق من الشهوة الراحم - وهو منزل لا يخدر إليه عباد الله الأبرار، فكيف برسول كريم عظيم سليل النبوة والطهر والرسالات، يوسف عليه السلام؟! وبذلك {قال معاذ} {معاذ}، منصوب على المصدر - يقال: عاذ يعوذ معاذا وعوذا وعياذا ٣١؛ أي لما دعته امرأة العزيز للمواقعة قال لها: أعصتم بالله وأستجير به مما تدعونني إليه {إنه ربي أحسن مثواى} يعني إنه سيدي أحسن منزلتي وأكرمني؛ إذ أوصاك أن تكرمي مثواي فلا أخونه في أهل وبيته - {إنه لا يفلح الظالمون} الظالمون الذين يستبدلون الخبيث بالطيب، والفاحشة بالطهر، والفساد بالصلاح، وكل ذلك ظلم - وما تدعونني غليه خيانة وفحش؛ فهو ظلم ولا يفلح من يقع فيه.

٢٤ - (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} {هيت} من الهم وهو العزيمة - هم يهم؛ أي عزم يعزم ٣٢ - هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه - والمراد بالهم من يوسف: ما كان في دخيلته من خطوات القلب أو حديث النفس مع الامتناع - فما كان منه غير حديث نفس من غير فعل - ولا يؤاخذ العبد على ما يخطر بباله أو يحدث به نفسه - لكن امرأة العزيز عزمت على المواقعة وابتغتها لنفسها من يوسف؛ فهي بذلك قد همت بالمعصية وكانت مصرة على فعلها - وهم يوسف بميل الطبع ومنازعة الشهوة ولم يقصد الفعل؛ لأنه الله قد أراه برهانا فامتنع عن العزم أو الفعل، وهذا تأويل قوله: {لولا أن رءا برهان ربه} {لولا} أداة امتناع لوجود - والمصدر من {أن رءا} في موضع رفع مبتدأ - وخبر المبتدأ وهو هنا جواب لولا: محذوف، والتقدير: لولا رؤية برهان ربه لخالطها، أو لفعل ما هم به - وذلك كقوله: هممت بقتله لولا أني خفت الله - أو لولا أني خفت الله لقتله ٣٣.

وعلى هذا خلاف في أن الهم من امرأة العزيز كان فعل المعصية - أما الهم من يوسف فهو موضع خلاف بين العلماء - والظاهر أنه هم بها لكنه لما رأى البرهان من الله لم يهم؛ وذلك لوجوب العصمة في حق الأنبياء - وبذلك يكون في الكلام تقديم وتأخير - والتقدير:

لولا أن رأى يوسف برهان ربه لكان قد هم بها - فهمت هي بالمعصية أما هو فقد هم ولم يواقع ما هم به بسبب البرهان الذي رآه.
قوله: {كذالك لنصرف عنه السوء والفحشاء} الكاف في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، والتقدير: أريناه البرهان رؤية مثل ذلك - وقيل: في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف - والتقدير: الأمر مثل ذلك - والمراد بالسوء: خيانة زوجها العزيز، وهو الذي أكرمه وأحسن إليه {والفحشاء} معناه الزنا - والمعنى: كما رأيناه البرهان الذي صرفه عما هم به من الفاحشة، كذلك نقيه السوء والفحشاء - أو نقيض له ما يزجره عن إتيان المعاصي {غنه من عبادنا المخلصين} بفتح اللام؛ أي من الذين استخلصهم الله لدينه وتبليغ رسالته ٣٤.

٢٥ - (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٥ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ٢٦ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ}.

{اسُتَبَقَا} من الاستباق، وهو طلب السبق ومنه السباق - واستبقا الباب؛ أي تسابقا كلاهما نحو الباب؛ وذلك أن يوسف لما رأى برهان ربه هرب منها فلحقت به لترده إلى نفسها فأدركته عند باب البيت، فأمسكت بقميصه لتمنعه من الخروج فقدته من دبر؛ أي شقته من وراء وليس من قدام؛ لأن يوسف كان الهارب، وكانت هي الطالبة {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ} أي وجدا زوجها وهو العزيز عند الباب - فلما رأته عمدت إلى إلصاق التهمة بيوسف دفعا لها عن نفسها فرمته بما هو منه برئ، وبادرت القول في ظلم وكذب وتحيل {قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي ما جزاء من يبتغي من زوجتك الفاحشة إلا أن يكون عقابه الحبس أو يضرب الضرب الوجيع بالسياط.

٢٦ - (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

فبادر يوسف لدفع التهمة الظالمة عن نفسه فيؤكد له انه برئ أمين إذ قال: {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي} أي هي التي ابتغتني طالبة مني الفاحشة - وما قال يوسف ذلك إلا ليدفع عن نفسه التهمة ويرد عن شخصه الطهور مقالة السوء - ولو لم تقذفه هي ظلما وبهتانا لستر يوسف ما ظهر منها من سوء الصنيع.

قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ} اختلفوا في هذا الشاهد إن كان صغيرا أو كبيرا أو كان في المهد، لكن الظاهر أنه كان ذا قرابة من امرأة العزيز لتكون شهادته أوجب للحجة وأوثق لبراءة يوسف، فحكم قريبها على أن قميص يوسف إن كان مشقوقا أو متخرقا من قدام فذلك يدل على صدق قولها؛ لأنه إذا كان مقبلا عليها وهي تدفعه عن نفسها فتخرق قميصه من قدام، أما إن كان قميصه مشقوقا من خلف؛ فهو يعني انه هارب منها وهي لاحقة به وممسكة بقميصه من وراء فتخرق، مما يدل على صدقه وهو أنها هي كاذبة - وهذا قوله {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ}.

٢٧ - (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

فبادر يوسف لدفع التهمة الظالمة عن نفسه فيؤكد له انه برئ أمين إذ قال: {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي} أي هي التي ابتغتني طالبة مني الفاحشة - وما قال يوسف ذلك إلا ليدفع عن نفسه التهمة ويرد عن شخصه الطهور مقالة السوء - ولو لم تقذفه هي ظلما وبهتانا لستر يوسف ما ظهر منها من سوء الصنيع.

قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ} اختلفوا في هذا الشاهد إن كان صغيرا أو كبيرا

أو كان في المهد، لكن الظاهر أنه كان ذا قرابة من امرأة العزيز لتكون شهادته أوجب للحجة وأوثق لبراءة يوسف، فحكم قريبها على أن قميص يوسف إن كان مشقوقا أو متخرقا من قدام فذلك يدل على صدق قولها؛ لأنه إذا كان مقبلا عليها وهي تدفعه عن نفسها فتخرق قميصه من قدام، أما إن كان قميصه مشقوقا من خلف؛ فهو يعني انه هارب منها وهي لاحقة به وممسكة بقميصه من وراء فتخرق، مما يدل على صدقه وهو أنها هي كاذبة - وهذا قوله {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ}.

٢٨ - (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} لما رأى العزيز أن قميص يوسف قد شق وانخرق من وراء، استيقن أن يوسف بريء مما اتهمته به زليخا وأنها هي الكاذبة الماكرة وقال لها: {إنه مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} الكيد ومعناه: المكر والخادع ٣٥.

أي أن دلك من صنيعكن وتحليكم مما حاق بكن من مظنة الفاحشة ولو كان في ذلك معرة تلحق بالأبرياء الأطهار كيوسف عليه السلام - وأنتن في التحيل وإثارة الفتنة أولات براعة عظيمة واقتدار غلاب يستحوذ على همم الرجال وعزائمهم.

٢٩ - (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

قوله: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} القائل المنادي هو العزيز - {يوسف} منادي؛ أي: يا يوسف اضرب صفحا عن هذا الأمر فلا تحدث به ولا تذكره لأحد - ثم قال لامرأته: استغفري لما وقع لك من ذنب وهو ابتغاؤك السوء لهذا الشاب المبرأ الذي أوقعت فيه القذف بالزور والباطل وهو مصون بريء؛ فقد {كنت} أنت {من الخاطئين}، أي المذنبين - من الخطء بمعنى الذنب وهو مصدر خطيء بالكسر، والاسم الخطيئة - والجمع خطايا - والخاطيء، من تعمد ما لا ينبغي ٣٦ وكانت زليخا من المذنبين في مراودة يوسف عن نفسه، ولذلك أمرها العزيز بالاستغفار من هذه الخطيئة - وقيل: القائل هو الشاهد الذي من أهلها.

٣٠ - (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ} شاع خبر هذه القصة في أهل مصر فتحدثت بها النساء حتى قيل: {امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} ٣٧ والفتى الشاب من الناس ٣٨، فقد رواته امرأة العزيز عن نفسها، أي طلبت منه أن يأتيها في تلطف مخادع تحقيقا لشهوتها الفائرة - وليس أكمل ولا أصدق ولا أروع من التعبير القرآني في هذا الصدد {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا} أي بلغ حب يوسف شغفا قلبها، فغلب عليه واستحوذ عليه أيما استحواذ - وشغاف القلب يعني غلافه، أو هو الجلد الذي يحيط به كالحجاب ٣٩ أي حب يوسف تحت الشغاف من قبل هذه المرأة.

قوله: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي إنا لترى امرأة العزيز في صنيعها المستقبح هذا من حبها لفتاها وهو مملوكها وخادمها، ومراودتها إياه عن نفسه كيما يفعل بها الفاحشة {ضلال مبين} أي في خطأ ظاهر كبير، وجور مجانب للصواب.

٣١ - (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

قوله: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً} لما سمعت زليخا بحديث النساء عنها ما أشنعه في حقها بين الناس في مصر وقولهن ما يشينها وهو أن امرأة العزيز عشقت عبدها وقد راودته عن نفسه {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً} أي أرسلت إلى النسوة

اللاتي تحدثن في أمرها بشأن يوسف لتضيفهن وتصنع لهن الطعام في بيتها {وأعتدت لهن متكأ} من العتاد وهو العدة، أي أعدت وهيأت لهن مجلسا يتناولن فيه الطعام والشراب ويتكئن فيه على الفرش والنمارق {وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا} وذلك ليقطعن به الطعام {وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ} أمرته امرأة العزيز أن يخرج على النساء اللاتي في ضيافتها ليرين حسنه وجمال وجهه وهن في هذه الحال من تقطيع الطعام بالسكاكين - وهذه مكيدة من امرأة العزيز، لتمكن هؤلاء النساء من رؤية يوسف فيبهرهن حسنه وجماله فيذهلن عنه ذهولا يحملهن على تقطيع أيديهن بدلا من تقطيع الطعام - {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} أي أعظمنه وأجللنه وبهتن لحسنه وجماله - وجعلن من فرط إعجابهن به يقطعن أصابع أنفسهن بالسكاكين بعد أن غلبهن الذهول والدهش - ولا نرغب في التهويل والمبالغة في وصف دهشهن وانبهارهن بيوسف أكثر مما ذكرناه - أما الزعم بأنهن جاءهن المحيض من شدة ارتياعهن لعظم جماله، وأن بعضا منهم قد أتت عليهن صعقة الموت لروعة ما رأين من حسن يوسف، فما نحسب مثل هذا القول إلا إغراقا في المغالاة المستفادة من تهويش الإسرائيليات.

قوله: {وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} {حاش}، أصلها حاشا، حذفت الألف للتخفيف، أي معاذ الله، فهي كلمة تفيد التنزيه في باب الاستثناء، نقول: أساء القوم حاشا زيد - وهي حرف من حروف الجر وضعت موضع التنزيه والبراءة ٤٠، أي تنزيها لله من صفات العجز، وتعجبا من قدرته على خلق مثله {ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم} نفت النسوة عن يوسف –لما رأينه- كونه بشرا من البشر لغرابة جماله وعظيم حسنه وبهائه، وقلن: ما هكذا يكون البشر، وما هو إلا ملك من الملائكة الأطهار الكرام - وذلك إقرار كامل منهن أن يوسف مبرأ من مظنة الاتهام بالفاحشة فمثله في البراءة والتنزه وجمال الخلق والخلق مثل الملائكة الأبرار الأطهار الذين لا يقربون الفحش أو الدنس.

٣٢ - (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

قوله: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} أي هذا هو الذي لمتني في حبي إياه وافتتاني به، وهو الذي شغفكن الآن حبا حتى شغل قلوبكن فقطعن أيديكن لفرط ما أصابكن من إعجاب وافتتان {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ} راودته امرأة العزيز، أي طلبت منه أن يفعل بها الفاحشة، لكنه عليه السلام استعصم، أي طلب العصمة، فإنها تمنع من ارتكاب المعصية، فهو بذلك قد استعصى وامتنع ٤١ - وذلك إقرار كامل من امرأة العزيز ببراءة يوسف عليه السلام وأنه منزه مما قذفته به في أول الأمر وأن افتراءها عليه كان محض ظلم وبهتان.

قوله: {وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ} ذلك وعيد فاضح من امرأة العزيز بعد أن خلعت عن نفسها شيمة الحياء والاحتشام وهاجت في قلبها ووجدانها سورة الحب المتأجج الأعمى فراحت تهدد يوسف قائلة: لئن لم يفعل ما آمره به من الفاحشة، فلسوف يكون جزاؤه السجن حيث الصغار والمذلة، فيكون فيه مع الأذلة من السارقين والآبقين ٤٢.

٣٣ - (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ٣٣ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

لما تبين ليوسف أن امرأة العزيز ما فتئت تراوده عن نفسه، وتتوعده الحبس في السجن إذا لم يطعها، لجأ إلى الله، فهو خير مستعان وعليه الاعتماد والتكلان - لقد راح يستعين بالله على ما نزل به من بلاء وفتنة لا يقوى على احتمالها إلا المعصومون والصديقون والأبرار وقليل ما هم - لقد جأر يوسف إلى ربه بالدعاء في خشوع وتذلل، رب السجن أهون عل من إتيان الفاحشة وفعل ما تكره، وإن لم تدفع عني يا رب هذه الفتنة النازلة بي وهذه المراودة التي تحيط بنفسي وأعصابي {أصب إليهن} صبا يصبو صبوة، أي مال إلى الجهل والفتوة ٤٣ - والمعنى: إنني أصبو إلى النساء فيما يردنه مني من سوء ومعصية، وبذلك أكون من السفهاء الذين يعملون عمل الجاهلين.

٣٤ - (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله: {فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن} استجاب الله ليوسف دعاءه وعصمه من الوقوع في الفاحشة، ودفع عنه كيد النساء أي مكرهن وفتنتهن.

والسعيد من عصمة الله ونجاه من الموبقات ودفع عنه المفاسد والفتن على اختلافها وتعدد صورها؛ فغن الفتن إذا طوقت قلب الإنسان كادت تودي به في الغالب إلى الخسران والمهالك سواء في ذلك فتنة المال، أو فتنة النساء، أو فتنة المناصب - لا جرم أن هذه فتن شديدة وعاصفة وغلابة - وهي بذلك تعصف بإرادة الإنسان لتذره أسير الشهوات والملذات والأهواء فلا يملك أمامها إلا الخنوع والاستسلام ما لم يتداركه الله بلطفه ورحمته فينجو من السقوط في الخسران.

قوله: {إنه هو السميع العليم} الله سميع لدعاء من يلتجيء إليه من عبادة المؤمنين الذين تنزل بهم البلايا أو تصبيهم المحن فيجأرون إله بالدعاء والتضرع وهو سبحانه عليم بمقاصد الناس ومطالبهم وحاجاتهم وما يصلح لهم ٤٤.

٣٥ - (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} {بدا}، يبدوا، أي ظهر - وفاعل {بدا} مصدر مقدر دل عليه الفعل {بدا} - وتقديره: ثم بدا لهم بداء - أي ظهر للعزيز وحاشيته في يوسف بداء أو رأي - وذلك من بعد ا رأوه من علامات ودلالات تبين براءة يوسف كقد القميص من دبر، وشهادة الشاهد وتقطيع الأيدي بالسكاكين وغير ذلك من البينات التي تكشف عن براءة يوسف - والبداء أو الرأي الذي ظهر لهم هو أن يسجنوا يوسف لإرخاء الستر على هذه القصة التي أخذت تشيع في الناس وليكتموا منها ما أمكن كتمانه {حتى حين} أي يسجن إلى مدة يمكن فيها نسيان الخير - أو إلى الوقت الذي يرون فيه رأيهم في يوسف ٤٥.

٣٦ - (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} دخل يوسف السجن عقب تحريض عليه من امرأة العزيز، إذ قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني وأنا أريد أن تسجنه فسجنه، فكان يعزي في السجن الحزين، ويعود فيه المريض، واشتهر فيه بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت، أي الهيئة، وكثرة العبادة ومعرفة التعبير، والإحسان إلى من معه في السحن، فاستأنس به أهل السجن وأحبوه بالغ الحب لفرط ما ألفوه فيه من حسن الخلق وجميل التواضع وروعة السمت والحديث ٤٦ - وقد دخل السجن مع يوسف فتيان وهما عبدان كانا عند الملك، أحدهما كان ساقين، وآخر كان خبازه، فاستأنسا به وأحباه حبا جما - ثم رأى كل وحاد منهما رؤيا أثارته فاتبعني لها التعبير، فسألا يوسف عن تأويل ما رأيا {قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ} رأى الساقي ف منامه أنه يعصر عنبا - سمي الخمر به؛ لأن العنب يصير إلى الخمر بعد العصر - وأم الآخر وهو الخباز فقد رأى في منامه أنه يحمل على رأسه خبزا تأكل منه الطير {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي اخبرنا بتفسير ما رأيناه في منامنا {إنا نراك من المحسنين} أي إلى أهل السجن، وذلك بتكريمهم والحدب عليهم والإحسان إليهم ٤٧.

٣٧ - (قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

قوله تعالى: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} هذا إخبار من يوسف عليه السلام للفتيين السائلين اللذين استعبراه الرؤيا، إذ اخبرهما أنهما لا يأتيهما في منامهما طعام يرزقانه في النوم غلا نبأهما بتفسيره في اليقظة - وبين لهما أن هذا الذي أذكره لكما من تعبير الرؤيا إنما هو مم

علمني إياه ربي فعلمته من فضل الله علي، فقد اجتنبت ملة الكافرين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فلا يقرون بمعاد ولا بعث ولا جزاء، واتبعت ملة آبائي من المرسلين الصادقين إبراهيم وإسحق ويعقوب، فقد سلكوا سبيل الحق وهم على الصراط المستقيم، وأنا على ملتهم ملة التوحيد والإقرار لله وحده دون غيره من الشركاء بالعبودية {مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ} أي ما صح لنا معشر الأنبياء ولا استقام أن نجعل لله شريكا في عبادته وطاعته، بل الذي علينا أن نفرد الله وحده بالألوهية والعبادة دون غيره من الأنداد والآلهة {ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ} الإشارة عائدة على عبادتنا لله وإقرارنا له وحده بالواحدنية وأننا على دينه القويم وصراطه اللاحب ٤٨ المستقيم دون زيغ أو انحرف - لا جرم إن ذلك كله من فضل الله علينا، إذ وفقنا له وهدانا إليه وأوحي لنا به - وهو كذلك من فضله على الناس، إذ أرسل إليهم من يهديهم سبيل الرشاد وينقذهم من الضلال والخسران ٤٩.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} أكثر الناس يجحدون نعمة الله عليهم فلا يشكونه، ولا يذكرون أن ما بهم من خير ونعمة فمن الله، وذلك كتمام الصحة والعافية وانسجام الخلق وحسن الصورة، وما سخر لهم من متاع الدنيا ونعيمها مما يحقق لهم الراحة والاستمتاع والتلذذ، فضلا عن هدايتهم إلى الحق وإلى ملة التوحيد التي حملها غليهم المرسلون - كل أولئك من فضل الله على الناس، ولكن أكثرهم مع ذلك كله لا يشكون ولا يذكرون بل يكفرون ويتكبرون ويتجبرون ويلجون في الأرض بغاة مفسدين، يشيعون الأذى واشر والمنكر بن العباد.

٣٨ - (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

قوله تعالى: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} هذا إخبار من يوسف عليه السلام للفتيين السائلين اللذين استعبراه الرؤيا، إذ اخبرهما أنهما لا يأتيهما في منامهما طعام يرزقانه في النوم غلا نبأهما بتفسيره في اليقظة - وبين لهما أن هذا الذي أذكره لكما من تعبير الرؤيا إنما هو مم علمني إياه ربي فعلمته من فضل الله علي، فقد اجتنبت ملة الكافرين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فلا يقرون بمعاد ولا بعث ولا جزاء، واتبعت ملة آبائي من المرسلين الصادقين إبراهيم وإسحق ويعقوب، فقد سلكوا سبيل الحق وهم على الصراط المستقيم، وأنا على ملتهم ملة التوحيد والإقرار لله وحده دون غيره من الشركاء بالعبودية {مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ} أي ما صح لنا معشر الأنبياء ولا استقام أن نجعل لله شريكا في عبادته وطاعته، بل الذي علينا أن نفرد الله وحده بالألوهية والعبادة دون غيره من الأنداد والآلهة {ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ} الإشارة عائدة على عبادتنا لله وإقرارنا له وحده بالواحدنية وأننا على دينه القويم وصراطه اللاحب ٥٠ المستقيم دون زيغ أو انحرف - لا جرم إن ذلك كله من فضل الله علينا، إذ وفقنا له وهدانا إليه وأوحي لنا به - وهو كذلك من فضله على الناس، إذ أرسل إليهم من يهديهم سبيل الرشاد وينقذهم من الضلال والخسران ٥١.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} أكثر الناس يجحدون نعمة الله عليهم فلا يشكونه، ولا يذكرون أن ما بهم من خير ونعمة فمن الله، وذلك كتمام الصحة والعافية وانسجام الخلق وحسن الصورة، وما سخر لهم من متاع الدنيا ونعيمها مما يحقق لهم الراحة والاستمتاع والتلذذ، فضلا عن هدايتهم إلى الحق وإلى ملة التوحيد التي حملها غليهم المرسلون - كل أولئك من فضل الله على الناس، ولكن أكثرهم مع ذلك كله لا يشكون ولا يذكرون بل يكفرون ويتكبرون ويتجبرون ويلجون في الأرض بغاة مفسدين، يشيعون الأذى واشر والمنكر بن العباد.

٣٩ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قوله تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}

نادى يوسف الفتيين بصاحبي السجن، يعني يا من تسكنان السجن، ثم دعاهما إلى عقيدة التوحيد ومجانبة الإشراك بالله قبل أن يبين لهما تأويل ما رأياه في منامهما - ويوسف عليه السلام نبي كريم ومرسل من عند الله يدعو من يجده من الناس إلى التوحيد وعبادة الواحد الديان دون غيره من الكائنات - ويستفاد من دعوته لهما: أنهما كانا من المشركين الذين يعبدون الأصنام نخاطبهم في استفهام تعجيبي لكي ينتهوا للحقيقة ويفيئوا إلى الصواب مجانبين الشرك، فغنه بطل وضلال {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} أعبادة أرباب متفرقين شتى وآلهة كثيرة مصطنعة لا تضر ولا تنفع، خير أن عبادة إله قادر قاهر واحد لا شريك له؟! ونظير ذلك قوله سبحانه: {ءالله خير أم يشركون}.

والمشركون السفهاء يعبدون آلهة مختلفة شتى - آلهة متفاوتة الأحجام والأشكال والمسميات مما يدل على أنها جميعها مفتراة ومصطنعة، وأنها من مبتدعات العقول الضالة والأهواء السقيمة - فما ينبغي بعد هذا لذي بصيرة أو مسكة من عقل أن يدين لمثل هذه الآلهة المكذوبة المختلقة بل الله الواحد القاهر لكل شيء لهو حقيق أن يعبده الناس فيدينوا له بكامل لطاعة وتمام الإحساس بالعبودية.

٤٠ - (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمّ} يعني أنتما والذين على شاكلتكما من المشركين ما تعبدون من دون الله إلا هذه التي تسمونها آلهة اختلاقا وزورا؛ فهي أصنام جوامد لا تريم ولا تنفع - وقد سميتموها آلهة أنتم وآبائكم المشركون الضالون - والفعل سمي، يتعدى إلى مفعولين - أولهما (ها) في {سميتموها} والثاني: محذوف، وتقديره: سميتموها آلهة - و {انتم}، تأكيد للتاء في {سميتموها} ٥٢.

قوله: {مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} أي سميتم هذه الأصنام آلهة، زورا وكذبا وذلك من عند أنفسكم - وهي أسماء ليس لكم فيها من الله برهان أو حجة؛ بل هي افتراء منكم واختلاق {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} أي ما حكم في أمر العبادة والدين إلا الله سبحانه؛ فهو وحده القادر الديان المشرع الذي يبين لعباده حقيقة ما ينبغي أن تكون عليه عبادتهم وسلوكهم - وبيان ذلك: أن الله أمركم أن لا تعبدوا أحدا سواه؛ فهو له الألوهية، لتتوجه إليه القلوب والمشاعر والنواصي بالإخبات والاستسلام - وهو كذلك له الحاكمية؛ إذ شرع للناس منهج الحق ليستضيئوا بنوره في حياتهم الدنيا فلا يزيغوا عنه إلى ما سواه من شرائع ونظم.

قوله: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} ما دعوتكما إليه لهو الدين الحق؛ فهو الدين القويم الذي بني على التوحيد الخالص، والمجانب لكل أشكال الشرك والوثنية التي تلبس بها الضالون التائهون طيلة الدهر - إن دين الله لهو الحق الذي لا شك فيه ولا زيغ ولا عوج {وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أكثر الناس سادرون في الغي والباطل؛ لأنهم معرضون عن منهج الله، متبعون أهواءهم الضالة الفاسدة؛ فهم بذلك تائهون عن الحقيقة، زائغون عن الصواب ٥٣.

٤١ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

قوله تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}

هذا تأويل رؤيا كل واحد منهما، قد بينه يوسف عليه السلام - أما الأول وهو الساقي الذي رأى أنه يعصر الخمر: فغنه يرد إلى عمله الذي كان عليه وهو سقي الملك - وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا: فإنه صائر إلى القتل ثم تأكل الطير من رأسه وهو مصلوب {قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} أعلمهما يوسف عقب هذا التفسير أنه فرغ من تأويل رؤياهما، وأن ذلك واقع لا محالة؛ لأن (الرؤيا على رجل طائر ٥٤ ما لم تعبر ٥٥، فإذا عبرت وقعت) وهذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد عن

معاوية بن حيدة - وفي مسند أبي يعلي عن أنس مرفوعا (الرؤيا لأول عابر) ٥٦.

٤٢ - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} قال يوسف عليه السلام للفتى الذي أيقن (يوسف) أنه ناج وأنه سيسقي سيده الملك خمرا: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} أي اذكر رأيته هنا وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أني مظلوم وأن ما اتهمتموني به افتراء وباطل - {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} أي أنسى الشيطان الناجي وهو الساقي أن يذكر يوسف لربه وهو سيده الملك، وقيل: الضمير في {فأنساه} عائد إلى يوسف، أي أنساه الشيطان ذكر ربه، وهو أن يشكو إلى الله وحده ويتغبث به دون غيره، ويطلب منه العون والفرج، لكنه بدلا من ذلك استغاث بمخلوق، ومن أجل زلته هذه عوقب بالبث في السجن بضع سنين - قال ابن عباس في ذلك: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} ولو ذكر يوسف ربه لخلصه.

والراجح القول الأول، وهو عود الضمير على الناجي؛ فهو الذي نسي أن يذكر للملك قصة يوسف - ويدل على صوب هذا القول: أن يوسف لا يستحق العقاب باللبث في السجن من أجل النسيان، فغن الناسي غير مؤاخذ - ويستدل أيضا بقوله تعالى: {وقال الذي نج منهما وادكر بعد أمة} وهذا يدل على أن الناسي هو الساقي وليس يوسف - والله تعالى أعلم.

قوله: {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} {بضع}، في العدد، بكسر الباء، هو ما بين الثلاث إلى التسع - تقول: بضع سنين، وبعضة عشر رجلا، وبعض عشرة امرأة، فإذا جاوزت لفظ العشر ذهب البعض، فلا تقول: بضع وعشرون ٥٧.

٤٣ - (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ٤٣ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ}.

هذه الرؤيا أريها ملك مصر فكانت سببا قدره الله لخروج يوسف من السجن مكللا بالتعزيز والإكرام، فقد رأى الملك رؤيا هالته وذهل منها، فجمع من حوله كبار الدولة من الأمراء وأشرف القوم والعرافين والسحرة وغيرهم من أهل النظر - فذكر لهما ما رآه في منامه ليجدوا لذلك تأويلا.

ورؤياه أن {سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ} {عجاف} جمع ومفرده عجفاء، ومذكره أعجف - وهو من العجف بالفتح يعني الهزال ٥٨؛ فقد رأى الملك ان سبع بقرات مهازيل يأكلن بقرات سمانا سبعا - وكذلك رأى {سَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ} وقد قص الملك على ما حوله هذه الرؤيا وقال لهم: {إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} عبر الرؤيا عبرا وعبارة، وعبرها؛ أي فسرها وأخبر بآخر ما يؤول إليه أمرها.

واستعبره إياها؛ أي أرسله عبرها ٥٩ - فالمقصود من قوله: {تعبرون}: إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا؛ أي تفسيرها - واللام في {للرؤيا} زائدة.

٤٤ - (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ)

{قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ} {أضغاث} جمع ضغث وهو في الأصل قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها - أو هو ملء الكف من قضبان أو حشيش أو شماريخ - و {أضغاث أحلام} يعني أخلاط منامات، واحدها ضغث حلم ٦٠؛ أي لسنا عالمين بتأويل الأحلام المختلطة، أو أنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير - وقيل: نفوا عن أنفسهم علم ملا تأويل له ٦١.

٤٥ - (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} الذي نجا من الفتيين هو ساقي الملك - فقد {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} {ادكر} أصلها اذتكر، فأبدلت الذال دالا، والتاء دالا، وأدغمت الأولى في الثانية لتقارب الحرفين، فصارت ادكر، بالتشديد؛ أي تذكر الناجي قصته مع يوسف في السجن وبراعته في تأويل الأحلام، وذلك بعد نسيان استمر مدة طويلة - ولما تذكر قال للملك وللملأ من حوله: {أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} أي أنا أخبركم بتفسيره فابعثوني إلى يوسف الصديق السجن.

٤٦ - (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

فبعثوه إليه فناداه {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ} أي الكثير الصادق {أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ} الآية إلى قوله: {يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} أي أرجع إلى الملك وأتباعه ورجال دولته {لعلهم يعلمون} أي يعلمون قدرك وعلمك وما أنت عليه من الصدق والفضل فيكون ذلك سببا في خروجك من السجن.

وينبغي التذكير هنا بأهمية الأحلام؛ فإن شطرا منها قابل للتأويل أو الإخبار عن أنباء المستقبل مما هو طي الغيب المستور - وما جاء في هذه السورة وغيرها لهو قاطع على أن كثيرا من الأحلام يفضي إلى حقائق واقعة مفسرة يجدها الناس ف سلوكهم وواقعهم الواعي، فما تلبث الأحلام التي تراود الذهن والخيال النائمين أن تنبئ بغيب خفي ربما حصل، أو تحقيق، أو هو في طريقه إلى الظهور والتحقق بعد أمد قريب أو بعيد.

وهذه الحقيقة مشهودة ومحسوسة قد تفجرت من خلال أحلام كثيرة راودت أذهان كثير من النائمين وخيالاتهم - ومن جملة ذلك هذا النبي الكريم ابن الكريم يعقوب عليه السلام - ومن قبله جده، جد النبيين خليل الرحمن الذي رأى في منامه أنه يذبح ولد إسماعيل - ومن بعد ذلك نبينا العظيم الخاتم صلى الله عليه وسلم؛ فلقد رأى كثيرا من الرؤى التي كانت ما تلبث أن تحقق وتظهر مثل فلق الصبح لشدة وضوحها وبلوغ تبيانها الكاشف - وغيرهم كثير من الناس يرون في مناماتهم الأحداث والأخبار التي تنبئ وتنذر بالوقوع حتى ما تلبث أن تقع فعلا - وهذه حقيقة لا يملك حد أن يجحدها أو يستخف بها - وما يجترئ على الاستخفاف بتفسير الأحلام على هذا الأساس إلا متحذلق جهول قد ركب متن الشطط والإيغال في المادية الجاحدة العمياء كأمثال فريق من أدعياء المعرفة في علم النفس - أولئك الذين يزعمون أن الأحلام ضرب من التنفيس عن رغبات مضغوطة مكبوتة لم تجد متنفسها في عالم الواقع (الشعور) فراحت تتنفس الصعداء في عالم الأحلام (اللاشعوري) - ولئن كان هذا التعليل يصيب كثيرا من الحالمين، إلا أنه لا يصدق على عامة الأحلام - وما ينبغي أن نتصور أن سائر الأحلام ضرب من التنفيس عن النفس المكبوتة؛ فإن شطرا عظيما من الأحلام يجد تأويله في الواقع؛ إذ يتكشف ويستبين - أما الزعم بأن الأحلام كلها مجرد كبت وتنفيس عن طريق اللاشعوري من جهاز النفس؛ فذلك افتراء وباطل ولغط وركون إلى المادية الثقيلة بعيدا عن إشراقات الروح الساطعة السامية التي تعلو على المادة وظلها المتبلد المركوم؛ فنجرم بعد هذا أن الأحلام أصناف، فمنها الأضغاث المختلطة التي يجدعا النائم في رؤياه نتيجة لما يواجهه في الواقع من مشكلات عسيرة ومضنية تضطرب لها نفسه وأعصابه - ومنها الصادق في الإنباء عما جرى أو يجري فيما بعد - وذلك من جملة المبشرات التي تخبر عما يستكن في بطون الغيب مما هو حاصل في الواقع.

٤٧ - (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

قوله تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}.

قال يوسف للذي سأله وهو ساقي الملك: يأتيكم المطر والغيث والخصب {سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا} أي متوالية متتابعة - و {دأبا}، منصوب على المصدر - يقال: دأب يدأب دأبا ودأبا ٦٢.

قوله: {فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ} أي ماحصدتموه من الغلة في هذه السنن السبع المخصبة ادخروه في سنبلة كيلا يأكله السوس، وليكون أدوم له وأحفظ، باستثناء القليل وهو ما تحتاجون إليه للغذاء.

٤٨ - (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ)

ثم يعقب سني الخصب هذه سنوات سبع أخر {شداد} أي سنوات جدب وقحط سيأكلون فيها ما جمعتموه من الغلال في سني الخصب فلا يبقى منها إلا القليل {مم تحصنون} أي تدخرون - ويستفاد من ذلك: جواز احتكار الطعام لوقت الحاجة، أو تحسبا للقحط والضيق، خلافا للاحتكار الذي يراد منه إخفاء الطعام عن المسلمين إلى حين ارتفاع الأسعار.

٤٩ - (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

ثم بشرهم يوسف عليه السلام أنه {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} أي يأتيهم بعد سني الجدب هذه عام آخر {فيه يغاث الناس} من الغوث وهو العون - أو الغث وهو المطر، أي تنزل الله عليكم السماء مدرارا فيعم الخير والخصب في هذا العام {وفيه يعصرون} أي يعصون الزيتون والأعناب وذلك دلل السعة والخير والبحبوحة ٦٣.

٥٠ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} هذا إخبار من الله عن ملك مصر لما رجعوا إليه بتعبير ما رآه فأعجبه، وأثاره ما سمعه عن فطانة يوسف وصدق تأوليه وكمال خلقه فقال: {ائْتُونِي بِهِ} أي خرجوه من السجن ليجيء إلي هنا - {فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ} فأبي يوسف أن يخرج إليه حتى يعلم الملك أنه بريء مما اتهموه به، ومنزه عما نسبوه إليه من الفحش، وأن سجنه ما كان إلا ظلما وعدوانا، وأن ما قالوه في حقه عن امرأة العزيز ليس إلا افتراء وباطلا.

قوله: {مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} أي ما شأن النساء اللاتي قطعن أيديهم بالسكاكين، والمرأة التي سجنت أنا من أجلها {إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} إن الله عليم بمكرهن وما فعلنه ب من تحل ومكايدة.

٥١ - (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

فأرسل الملك إلى النسوة وإلى المرأة العزيز، وكان العزيز قد مات، فدعاهن الملك ثم {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ} {خطبكن} يعني شأنكن - و {راودتن} من المراودة وهي الطلب في تلطف ومخادعة، أي ما خطبكن وما شأنكن {أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} يوم الضيافة؟! {قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ} أي معاذ الله ما علمنا على يوسف من ذنب أو فاحشة.

قوله: {قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} {حصحص} أي بان وظهر ٦٤ - فبعد اعتراف النسوة ببراءة يوسف وطهره بادرت امرأة العزيز لتقر مثلهن فقالت: الآن ظهر الحق وانكشف {أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} وإنه لصادق فما قاله.

٥٢ - (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

قوله تعالى: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ٥٢ *وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا

رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} اختلف المفسرون فيمن قال ذلك - فقد قيل: قالته امرأة العزيز؛ لأنه متصل بقولها {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُ} أي أنني أقررت بالصدق فأدنت نفسي بالذنب والمراودة ليعلم يوسف أنني {لم أخنه بالغيب} أي لم أكذب عليه حال غيابه ولم تهمه بالباطل وفعل الفاحشة {وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} لا يسدد مكرهم وخداعهم ولا يوفقهم في صنيعهم.

وقال أكثر المفسرون: إن هذا قول يوسف عليه السلام - وهو أن ما فعلته من رد الرسول الذي أرسله الملك إلي وعدم إجابته أو الخروج معه إلا أن يسأل الملك النسوة عن تقطيع أيديهم -إنما كان ذلك كله ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته حال غيابه، فإن الله لا يسدد عمل الخائنين الذين يخونون الأمانات.

٥٣ - (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ} إن كانت القائلة ذلك امرأة العزيز، فقد أقرت بالذنب واعترفت بمراودتها يوسف والاختلاق عليه، معللة ذلك بأن من شأن النفس في حالات ضعفها وجنوحها أن تميل لفعل السوء إلا أن يعصمها الله برحمته وفضله.

أما إن كان القائل هو يوسف، فمعناه: أنني لا أبرئ نفسي من الخطأ والزلل فأزكيها؛ فإن النفس الإنسانية تأمر صاحبها بما تشتهيه أو تهواه وإن كان ذلك في غير ما رضي الله {إلا ما رحم ربي} إلا من يرحمه الله فينجيه من براثن الهوى والشهوات المستنفرة التي تؤز صاحبها فعل المحظورات {إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الله جل وعلا يستر الذنوب والمعاصي، ويصفح عن الزلات وما يقترفه العبد من الخطايا في حالات ضعفه وجنوحه، إذا تاب وأناب ٦٥.

٥٤ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} لما استبان للملك براءة يوسف وطهره وأمانته، وتحقق من كونه عالما صابرا مفضالا قال: {ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} أي أجعله خالصا لنفسي فأفوض له سياسة الرعية وشؤون الدولة {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ} لما كلم الملك يوسف عليه السلام وأحس منه رجاحة العقل وسمو الطبع وفائق العلم وحسن الخلق والخلق قال له: {إنك اليوم لدينا مكين أمين} {مكين}، أي ذو مكانة رفيعة - أو متمكن نافذ القول - و {أمين} أي مؤتمن على كل شيء من أمور الدولة والرعية.

٥٥ - (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

قوله: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ} أي ولني على حفظ خزائن الأرض - أو ولني أمر البلاد وهي مصر - قال ابن كثير في معنى ذلك: سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له.

قوله: {إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} أي أحفظ ما وليت حفظه، أو ما تستحفظني إياه - و {عليم} بوجود التصرف السديد النافع.

وثمة مسألة ينبغي توضيحها وهي: هل يجوز للمسلم أن يطلب تقليده ولاية أو عملا من أعمال الدولة وسياسة الرعية إن كان السلطان الأعظم غير مسلم أو كان يحكم بغير شريعة الإسلام؟ ثمة قولان في هذه المسألة:

القول الأول: إن كان الذي يطلب تقليده ولاية أو عملا من أعمال الدولة يعلم من نفسه أنه أهل لتقليده، جاز له ذلك إن كان يعلم أنه ليس في البلاد من يقدر على الاضطلاع بمثل هذا العمل أو هذه الوجيبة - وهو ما يستدل من هذه الآية؛ فقد طلب يوسف الولاية؛ لأنه يعلم أنه ليس من أحد يقوم مقامه في العدل والاستقامة والإصلاح وإيصال الحقوق إلى أهلها من الفقراء والمحتاجين؛ من أجل ذلك رأى يوسف أن توليه الولاية في مثل هذا الظرف متعين في حقه؛ إذ لم يكن حينئذ غيره من هو أهل لذلك - فامتدح يوسف نفسه بما هو أهله {إني حفيظ عليم} ومثل هذا الحكم -لا جرم- ينسحب على المسلمين في أي زمان إذا علم المتولي أنه ليس من أحد

سواه من يضطلع بأمانة التولي على الوجه الأتم والصحيح - حتى إذا امتنع هو، تولى مكانه غير الصالحين من الناس وذلك يفضي في الغالب إلى الإفساد في المجتمع والإضرار بالمسلمين.

وعلى هذا لو علم المرء من نفسه القدرة والصلاح باحتماله وجيبة القضاء أو الولاية أو نحو ذلك من ضروب السلطة في البلاد، وهو يعلم أنه ليس من أحد في الناس مكافئا له في حمل هذه الوجيبة بات احتمالها في حقه لازما كيلا يتضرر المسلمون أو يصيبهم الفساد بتولية الجاهلين أو المفسدين أو المسرفين من الناس.

أما إن كان يعلم أن في المسلمين خيارا صالحين سواه يقتدرون أن يتولوا بعض المناحي من أمر الرعية، فلا يجوز لأحد إذ ذاك أن يتقدم في اجتراء مريب ليطلب تقليده مركزا من المراكز، أو شيئا من إمارة المسلمين.

القول الثاني: عدم جواز تولي المناصب العليا في الدولة التي لا تحكم بشريعة الله، واحتجوا لذلك بما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها - وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها) وكذلك ما رواه مسلم عن أبي موسى قال: أقبلت على النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعريين: أحدهما عن يميني والآخر عن يساري فكلاهما سأل العمل، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك - فقال: (ما تقول يا أبا موسى) قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما - وما شعرت أنهما يطلبان العمل - فقال: (لن -أو لا- نستعمل على عملنا من أراده).

وتأويل النهي عن سؤال العمل أو المركز ما بيناه في الفقرة السابقة أنه فيمن يطلب الإمارة وفي الناس من هو خير منه أو مثله في الصلوح لهذا العمل - لكنه إذا لم يكن في المسلمين أكفاء لتولي مثل هذه الولاية أو هذا العمل بات التولي في حق المسلم الكفء لازما ومتعينا.

على أنه يشترط لجواز هذا التولي فوق ما بيناه من شرط، أن يكون المتولي مفوضا في عمله دون معارضة من الحاكم أو مخالفة - وذلك ليستطيع المتولي المسلم الأمين من إصلاح ما أمكن إصلاحه في واقع المسلمين - أما إن كان المتولي لا يعمل برأيه ولا بما ينفع المسلمين بل هوة مقيد تماما بما يفرضه عليه الحاكم من أوامر جائرة مخالفة لشرع الله وتفضي إلى الإضرار بالمسلمين؛ فلا يجوز لمسلم -والحالة هذه- أن يرضى لنفسه مثل هذا العمل في ظل هذا النظام الجائر المفسد ٦٦.

٥٦ - (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} الكاف في اسم الإشارة نعت لمصدر محذوف؛ أي ومثل هذا التمكين من إنجائه من السجن وإبرائه من كيد النسوة واستخلاص الملك له، مكنا له في أرض مصر {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} أي يتخذ من أرض مصر منزلا حيث يشاء - وذلك بعد لبثه في السجن بعض سنين حيث الضيق والكرب والحشر.

قوله: {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء} كما أصبنا يوسف، إذ وطأنا له في الأرض فصار قويا مكينا، وذلك بعد هوان الجب، والصبر على الظلم والكيد، وبعد إسار العبودية والسجن -بعد ذلك كله أعقبناه الفرج والنصر والإعزاز والتمكين {وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} لا يبطل الله جزاء من عمل صالحا فأطاع ربه وصبر على بلائه واتقاه.

٥٧ - (وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

قوله: {وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} مع كل هذا النصر والتمكين والإعزاز الذي خول الله يوسف إياه، فإن جزاء الآخرة لهو خير وأعظم وأكرم وأدوم للمؤمنين المتقين الذين يخشون الله فيطيعونه فيما أمر ونهى ٦٧.

٥٨ - (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

قوله تعالى: {وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ

تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} بعد أن عم القحط بلاد مصر ووصل إلى بلاد كنعان حيث يقيم يعقوب عليه السلام وبنوه أخذ الناس من كل مكان يردون مصر طلبا للميرة - وكان يوسف عليه السلام قد احتاط للناس في غلاتهم فجمعها أحسن جمع، فكان عليه السلام رحمة من الله على مصر بما أوتيه من سعة العقل والعلم، وجمال السلوك والخلق، وتمام السمت والمظهر، وكمال التواضع والأمانة؛ فأحبه الناس حبا عظيما، وشاع ذكره في الآفاق لحسن خلقه، وعظيم تدبيره وأمانته وإخلاصه - وكان في جملة من ورد مصر للميرة إخوة يوسف؛ إذ أمرهم أبوهم بذلك - لا جرم أن كل شيء من الله بتقديره وتدبيره - فما تسير الأمور أو تمضي عجلة الزمان إلا بمشيئة الله وحكمته وعظيم تدبيره.

ومن جملة قصة يوسف بدءا بإلقائه في الجب حتى صار في قمة العلياء والكرامة والإعزاز وما تخلل ذلك من كيد وأحزان ودموع وبلاء، كل ذلك بتقدير الله وحكمته ومشيئته.

أخذ إخوة يوسف معهم بضاعة ليعتاضوا بها طعاما وكانوا عشرة نفر - واستبقى أبوهم يعقوب أخاهم الصغير عنده، وهو بنيامين شقيق يوسف، وكان أحبهم إلى أبيه بعد يوسف {فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} أي عرفهم يوسف بنباهته وعظيم فطانته من حيث لا يعرفونه هم - ولا عجب في ذلك فقد فارقهم يوسف وهو طفل في الثانية عشرة على الراجح، واستمر غيابه عنهم أربعين سنة - وعقب هذه المدة الطويلة تتغير في الشخص ملامحه الظاهرة - فبعد أن يكون أمرد الوجه يصير ذا شعر ولحية، وبعد سواد الشعر في رأسه ووجهه يصبح بعد هذه السنين ذا كبر وشيبة - لا جرم أن ينكره من غاب عنه مثل هذه المدة الطويلة.

٥٩ - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

قوله: {وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ} {جهزهم}، أي هيأ لهم أهبة السفر ٦٨ - والمراد بالجهاز هنا: الطعام الذي امتاروه من عنده - وقد أوقر يوسف لإخوته أباعهم من الطعام فأوقر لكل واحد منهم بعيره وقال لهم: {ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ} وذلك لكي أوقر لكم بعيرا آخر فتزدادوا به حمل بعير آخر.

وقد ذكر عن ابن عباس قوله: إن يوسف قال لترجمان: قل لهم: لغتكم مخالفة للغتنا وزيكم مخالف لزينا فلعلكم جواسيس - فقالوا: والله ما نحن بجواسيس بل نحن بنو أب واحد فهو شيخ صديق - قال: فكم عدتكم؟ قالوا: كنا اثني عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها - قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا - قال: فمن يعلم صدقكم؟ قالوا: لا يعرفنا هاهنا أحد، وقد عرفناك أنسابنا فبأي شيء تسكن نفسك إلينا؟ فقال يوسف: {ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ} إن كنتم تصدقون فيما تقولون.

قوله: {أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} أي أتمم الكيل ولا أبخس الناس منه شيئا - وأنا أنزلكم خير منزل وأستضيفكم خير ضيافة - وهو بذلك يرغبهم في الرجوع إليه

٦٠ - (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ)

{فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ} إذا لم تأتوا بأخيكم من أبيكم -وهو شقيقه بنيامين- فليس لكم عندي طعام أكيله لكم - وليس لكم أيضا أن تقربوا بلادي بعد هذه المرة.

٦١ - (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

قوله: {قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} أي سنحتال ونجتهد ما استطعنا لكي ننزعه من أبينا ونجيئك به {و إنا لفاعلون} أي سنفعل ذلك دون تقصير أو إبطاء - أو لنجتهدن في المجيء به ما وسعنا ذلك.

٦٢ - (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله: {وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ} أمر يوسف فتيانه وهم غلمانه أن يجعلوا أثمان الطعام التي أخذوها منهم في رحالهم - والرحال جمع ومفرده رحل - وهو كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع، ومركب للبعير، وحلس ورسن ٦٩ - والمراد بالرحال هنا: الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام - فقد أمرهم يوسف بجعل الأثمان التي دفعوها -في أوعية إخوته {لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ} أي لكي يعملوا برد البضاعة إليهم عند تفريغ أوعيتهم إلى أهلهم - وهم قبل ذلك لا يعرفون بردها إليهم، وذلك ليستعنيوا بهذه الأثمان على الرجوع مرة أخرى من أجل الميرة - وهو قوله: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ٧٠.

٦٣ - (فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} لما رجع إخوة يوسف بالطعام إلى أبيهم في ارض كنعان من بلاد الشم قالوا له: يا أبانا لقد قدمنا على خير رجل فأنزلنا خير منزل وأكرمنا أحسن إكرام، وضيفنا فأحسن ضيافتنا، وكال لنا ولم يبخسنا، ثم أمرنا أن نأتيه باخ لنا من أبينا، وأنذرنا إذا لم نأته به فلن يكيل لنا وقال لنا: لا تقربون ولا تدخلوا بلدي، فأرسله معنا يا أبانا وسنكون له من الحافظين.

٦٤ - (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

قوله: {قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ}

{هل آمنكم} على أخيكم هذا فأعطوه إياه {إلا كما أمنتكم على أخيه} يوسف من قبله ففرطتم فيه؟ أو هل أنتم صانعون هذا إلا كما صنعتم بأخيه من قبله فخنتموني وضيعتموني وحلتم بيني وبينه

{فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} {حفظا}، منصوب على التمييز - والمعنى: أن حفظ الله له خير من حفظكم أنتم له - أو هو سبحانه خيركم حفظا - وهو أحرم راحم بخلقه، فهو يرحمني ويرحم ضعفي ووجدي بولدي فيحفظه ولا يضيعه ٧١.

٦٥ - (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

قوله تعالى: {وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} لما فتح إخوة يوسف أوعيتهم التي جاءوا بها من مصر وجدوا بضاعتهم وهي أثمان الطعام الذي اكتالوه من يوسف قد ردت إليهم - وذلك أنهم وجدوها في أوعيتهم كما أمر يوسف فتيانه أن يفعلوا - عندئذ قالوا لأبيهم: {يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا} {ما}، استفهامية في موضع نصب مفعول به للفعل {نبغي} وتقديره: أي شيء نبغي ٧٢، أو أي شيء نطلبه بعد هذا - أو ماذا نريد، فهذه بضاعتنا التي بذلناها أثمانا للطعام قد ردت إلينا وقد أوفينا الكيل {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} أب نشتري لهم الميرة وهي الطعام {وَنَحْفَظُ أَخَانَا} أي نحفظه من المخاوف إن أرسلته معنا {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} وهو حمل بعير لأخينا بنيامين بسبب إرساله معنا {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا - فأرادوا فوق ما يكال لأخيهم - أو أن ذلك الكيل شيء قليل في نظر الملك وهو يجيبنا عليه فلا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه - وقيل: {ما}، نافية - أي لا تبتغي منك بضاعة أو أثمانا أخرى، فهذه بضاعتنا قد ردت إلينا وهي تكفينا.

٦٦ - (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

قوله: {قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ} قال لهم يعقوب: لن أرسل أخاكم معكم إلى ملك

مصر حتى تعطوني ميثاقا، وهو ما يوثق به من يمين أو عهد {ليأتيني به} جواب اليمين، أي حتى تحلفوا بالله لتأتنني به {إلا أن يحاط بكم} إلا أن تهلكوا جميعا، أو أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به {فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} يعني لما أعطوه عهودهم ومواثيقهم قال يعقوب حينئذ: الله رقيب أ شهيد علينا بما طلبته منكم وما حلفتم أنتم عليه ٧٣.

٦٧ - (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

وقوله تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ٦٨ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.

لما أراد بنو يعقوب الخروج إلى مصر ليتماروا الطعام قال لهم أبوهم يعقوب: لا تدخلوا مصر من طريق واحد بل ادخلوا من طرق مختلفة، ذلك أنهم كانوا أحد عشر رجلا لرجل واحد - وكانوا أولي جمال وهيبة وبسطة، نخشي يعقوب عليهم العين إذا دخلوا جميعا من طريق واحد.

ويستدل من ذلك أن يتحرر المسلم على نفسه وولده وماله من العين، فإنها حق - وفي الخبر: (إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ من العين: (أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة) إلى غير ذلك من الأدلة على أن العين حق، هو قول علماء الأمة ومذهب أهل السنة - يضاف إلى ذلك الاستشهاد على حقيقة العين بما يقع من ذلك وما نشاهده في الوجود، فكم من رجل ذي هيبة وهيئة وبهاء، أو ذي مال وفضل ونعمة، أزلقته العين إزلاقا، فهلك في نفسه أو ولده، أو أحيط بماله وما يملك - وكم من امرأة ذات حسن وجمال وكمال نشبت فيها عيون الحاسدين التي تنظر وترمق في حسد لئيم قاتل، فأودت بها إلى الموت أو دونه من العلل والأسقام، إنه حقيق بكل مسلم يتقي الله ويخشاه أن يحب إخوته المسلمين جميعا، فيجب لهم الخير والهناء والسعادة، ويكره لهم الشر والضرر والمكاره، وأن يدعو لهم دائما بالخير والبركة إذا رأى فيهم وجها من وجوه النعمة من مال أو جمال أو هيبة أو مكانة أو عافية أو غير ذلك من وجوه النعمة، فلا يرى المسلم شيئا من ذلك حتى يبادر دون وناء أو إبطاء بالدعاء: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه).

قوله: {وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ} أي لا أستطيع دفع شيء عنكم من قضاء الله المكتوب، فقضاء الله نافذ في خلقه، ولا ترده قوى الكون مجتمعة - ومما هو معلوم في هذا الصدد أنه لا يغني حذر من قدر.

قوله: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي ليس الأمر والقضاء إلا بيد الله دون أحد سواه، فقد توكلت عليه، وفوضت أمري كله إليه، ووثقت به في حفظكم ورعايتكم وردكم سالمين معافين {وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} فليتوكل المؤمنون على ربهم وليفوضوا أمرهم كله إليه، وليثقوا بتوفيقه وحفظه، فغنه يكتب السلامة والنجاة لبعاده المؤمنين المخلصين المتوكلين.

٦٨ - (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا} دخل بنو يعقوب من أبواب متفرقة شتى كما أمرهم أبوهم - وما كان دخولهم متفرقين كما أمرهم ليغني عنهم من قضاء الله الذي قضاه فيهم من شيء إن أدراه الله لهم {إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا} استثناء منقطع، لأنه ليس من جنس المستثنى منه، أي ليس دخولهم مصر متفرقين كما أمرهم أبوهم إلا حاجة كانت في نفس يعقوب وهي شفقته عليهم وخوفه عليهم من العين.

قوله: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ} إن يعقوب لذو علم مما علمناه {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أي لا يعلمون ما يعلمه يعقوب.

٦٩ - (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ} لما دخل بنو يعقوب على يوسف ضم إليه أخاه شقيقه بنيامين، إذا اختلى به فأخبره بحقيقة ما جرى، وعرفه أنه أخوه {قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي لا تأسف ولا تحزن مما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم وأن لا يطلعهم على مر عرفه به ٧٤.

٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ}

{جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}، أي هيأ لهم أهبة السفر وما يحتاجون إليه في قطع المسافة؛ إذ وفاهم الكيل وأوقر عيرهم بالطعام - بعد ذلك {جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ} و {السقاية} هي الصواع، والمراد بذلك: الإناء الذي كان يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام وهو من فضة أو من ذهب، فقد جعله يوسف في متاع شقيقه بنيامين من حيث لا يشعر بذلك أحد، ليكون له بذلك ذريعة لاستبقائه عنده.

قوله: {ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} أي نادى مناد: أيتها القافلة التي فيها الأحمال {إنكما لسارقون} وربما قيل: كيف ينسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برءاء من ذلك؟ ويجاب عن ذلك أن إخوته كانوا قد سرقوه من أبيهم فألقوه في الجب ظلما وحسدا، فصدق بذلك إطلاق السرقة عليهم.

٧١ - (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

قوله: {قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ} أقبلوا على المنادي بحضرة القوم وقالوا لهم: ما الذي تفقدونه؟

٧٢ - (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

{قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ} والصواع، هو إناء يشرب فيه الملك أو يكال فيه الطعام.

قوله: {وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ} أي لمن جاء بالصواع وقر بعير من الطعام - وهذا يدل على جواز أخذ الجعل - فلو قال رجل: من فعل كذا فله كذا وكذا جاز {وأنا به زعيم} أي أنا كفيل بذلك والزعيم في كلام العرب: هو القائم بأمر القوم - ولذلك قيل: رئيس القوم زعيمهم ومدبرهم - وكذلك زعيم القوم سيدهم ٧٥.

٧٣ - (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

قوله تعالى: {قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}.

بعد اتهام إخوة يوسف بالسرقة عجبوا من رميهم بهذا الأمر الذي لم يكن من سجاياهم ولا من عادتهم؛ فهم أولو نعمة وفضل وسيرة حسنة - من اجل ذلك قالوا لفتيان يوسف الذين نادوهم واتهموهم بالسرقة {تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ} التاء حرف قسم - وقيل: بدل من واو القسم؛ فهي لا تدخل إلا على لفظ الجلالة أو الرب مضافا للكعبة، أو الرحمن في قول ضعيف ٧٦ وبذلك أقسم إخوة يوسف للفتيان متعجبين على أنكم قد علمتم أننا لسنا مفسدين في الأرض ولا من شأننا أو أخلاقنا أن نتلبس بسرقة؛ فقد شاهدتم منا حسن السيرة والخلق.

٧٤ - (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

قوله: {قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ} قال الفتيان لإخوة يوسف: فما هو عقاب السارق فيكم إن ظهر أنكم كاذبون وكان سارق الصواع منكم؟

٧٥ - (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

{{قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} أي عقابه أن يؤخذ من وجد الصواع في رحله - والمراد بأخذه: اسرقاقه - وهذه شريعة إبراهيم عليه السلام، إذ كانت تقضي بأن السارق يدفع على المسروق منه، وهذا ما أراده يوسف ليكون ذلك سبيلا لاستبقاء أخيه عنده {كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} الكاف في محل نصب صفة للمصدر - والتقدير: مثل ذلك الجزاء وهو الاسترقاق ٧٧ {نَجْزِي الظَّالِمِينَ} أي الذين سرقوا، وهذه سنتنا في السارقين - ولقد بدأ بأوعيتهم يبحث فيها عن صواع الملك قبل وعاء أخيه، وذلك على سبيل التوراة وحسن التدبير، لتمكن الحيلة، وكيلا يرتابوا

٧٦ - (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

{فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ} أي استخراج السقاية وهي صواع الملك من وعاء أخيه بنيامين.

قوله: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} الكاف في اسم الإشارة في محل نصب صفة لمصدر محذوف - و {كدنا} من الكيد وهو المكر والحيلة ٧٨، أي مثل ذلك الكيد {كِدْنَا لِيُوسُفَ} يعني علمناه إياه (الكيد) وأوحينا به إليه ليكون له سبيلا لأخذ أخيه منهم.

قوله: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ} {دين الملك} أي حكمه وقضاؤه - والمعنى: أن يوسف ما كان ليستطيع أن يأخذ أخاه بنيامين في شريعة ملك مصر، إذ كان في شريعته أن السارق يغرم ضعفي ما سرق {إلا أن يشاء الله} استثناء منقطع - يعني: لكن أخذه بمشيئة الله في دين غير الملك وهو دين آل يعقوب، أن السارق جزاؤه الاسترقاق ٧٩.

{نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء} أي يرفع الله درجات من يشاء رفع درجاته {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} {ذي علم}، أل عالم - والمعنى: أن كل عالم فوقه من هو أرفع منه درجة في العلم - قال الحسن البصري: ليس من عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل - وعن ابن عباس قال في ذلك: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم - وقال قتادة: {وفوق كل ذي علم عليم}، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ وتعلمت العلماء وإليه يعود ٨٠.

٧٧ - (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

قوله تعالى: {قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} إن كان أخونا هذا قد سرق فهو يتأسى بمن سرق قبله، فقد سرق أخ له من قبله - وهم يقصدون بذلك يوسف عليه السلام، فقد ذكر أن يوسف كان قد سرق صنما لجده فكسره، فكأنهم بذلك يقولون ليسوف وهم لا يعرفونه: إن كان إخوة يوسف من قلبه قد سرق فليس بدعا من أخيه هذا أن يسرق، فهم بذلك ينسبون السرقة إلى الأخوين الشقيقين كليهما إزالة للمعرة عنهم.

قوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ} الضمير في {فأسرها} مفسر بسياق الكلام ٨١، أي أسر في نفسه الحزازة والتألم والمضاضة من سوء ما سمعه من إخوته الذين كادوا له من قبل، وما فتئوا حتى الساعة يفترون عليه الباطل، فقد أخفى يوسف ذلك كله في نفسه ولم يظهره لهم ثم قال لهم: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} ذلك قول يوسف موبخا إياهم بعد أن كره مقالتهم التي حزت في نفسه، لأنها مقالة ظلم واتهام بالباطل - و {مكانا}، تمييز منصوب، أي أنتم شر منزلة من غيركم، فقد سرقتم أخاكم من أبيكم وألقيتموه في المهلكة ورحتم تفترون الكذب والباطل على أبيكم {والله أعلم بما تصفون} أي أعلم بما تذكرون وتتقولون ٨٢.

٧٨ - (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ}

لما تحقق أخذ بنيامين، فتقرر استبقاؤه عند يوسف شرع إخوته يترفقون له ويستعطفونه استعطافا ويذكرونه بأبيهم الشيخ الكبير عسى أن يرفق بهم فيسرح أخاهم إذ قالوا: {يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا} في السن والقدر وكانوا قد أعلموا يوسف أن أباهم كان له ابن من قبل وقد هلك -يعنون بذلك يوسف- وهذا شقيقه يستأنس به أبوه - وخاطبوه بالعزيز؛ لأن العزيز قد مات فعينه الملك مكانه فقالوا ليسوف مستعطفين مسترفقين {فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ} {مكانة} منصوب؛ لأنه ظرف مكان - وقيل: مفعول ثان ٨٣؛ أي خذ أحدنا بدلا عنه، ولك على جهة الاسترهان أو الاسترقاق - ويحتمل أن يكون قولهم على سبيل المجاز؛ فهم يعلمون أنه لا يصح أن يؤخذ حر بسارق لما في ذلك من مخالفة لشريعتهم - وإنما قالوا له ذلك مبالغة في الاستعطاف {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي من أهل الإحسان الذين أحسنوا إلينا وأسدوا إلينا الخير والمعروف.

٧٩ - (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ)

قوله: {قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ} أعوذ بالله أن أظلم؛ لأنني لو أخذت بريئا غيره بدلا عنه لفعلت ظلما وأنتم تعلمون أن هذا ظلم في شريعتكم - فما ينبغي لي أن آخذ غير من وجدنا في وعائه الصواع - ولئن فعلت ذلك {إنا إذا لظالمون} إذا جواب وجزاء؛ أي إن أخذته بدله فقد ظلمت ٨٤.

٨٠ - (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ٨٠ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ٨١ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} {اسْتَيْأَسُواْ} ويئسوا بمعنى واحد - والسين والتاء زيادتا للمبالغة - والمعنى: أنهم بعد أن أيسوا من استرداد أخيهم من يوسف {خَلَصُواْ نَجِيًّا} {نجيا}، منصوب على الحال؛ أي اعتزلوا وانفردوا دون غيرهم، لكي يناجي بعضهم بعضا - والنجي من التناجي والنجوى، وهي المسارة؛ فقد جلسوا معتزلين يتسارون فيما بينهم، ينظرون ماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم بنيامين وما دهاهم فيه من الخطب الجلل.

قوله: {قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ} كبيرهم في السن أو العقل أو التدبير، وما، زائدة فيكون المعنى: أن أخاهم قال لهم: ألم تقطعوا على أنفسكم العهد واليمين من قبل هذا لتردن على أبيكم أخاكم بنيامين ومن قبل هذا فرطتم في يوسف أي قصرتم في حقه وشأنه ٨٥.

قوله: {فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي} {أبرح} هنا تامة بمعنى أفارق، و {الأرض} مفعول به ٨٦؛ يعني: لن أفارق مصر بل إني ماكث فيها حتى يأذن لي أبي بالرجوع أو يمكنني من أخذ أخي {وهو خير الحاكمين} الله خير من يحكم - وذلك لكمال علمه وعدله، وعظيم رحمته وفضله.

٨١ - (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

قوله: {ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا} أمرهم أخوهم أن يذهبوا إلى أبيهم فيقصوا عليه الخبر، ويعلموه بما حصل - وذلك أن يقولوا له: إن ابنك بنيامين قد سرق؛ إذ وجدوا في رحله صواع الملك {وما شهدنا إلا بما علمنا} وهو وجود الصواع في رحله {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} لم نكن نعلم من الغيب أنه سيسرق فيستحق الاسترقاق - أو ما علمنا أن ابنك قد سرق بل وقع عليه شيء من التدليس والاتهام بغير حق.

٨٢ - (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

قوله: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا} أي مصر، أي أرسل إلى أهل مصر واسألهم عن حقيقة ما حصل لتعلم أننا أبرياء صادقون - وكذلك اسأل القافلة التي رافقناها فسينبئونك بصدقنا وأمانتنا وأننا لم نفرط في أخينا بل نحن صادقون فيما نقول لك ٨٧.

٨٣ - (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

قوله تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي ليس الأمر في حقيقته كما تقولون بل زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه وتمالأتم عليه فيما بينكم، وهو في ذلك مرتاب فيهم، إذ كانت لهم في ذلك سابقة في أخيهم يوسف، إذ ألقوه في المهلكة ثم اصطنعوا على أبيهم الكذب لما جاءوه بدم مكذبو، فلا عجب أن يظن يعقوب سوءا، لأن شأنهم مريب بما تلبسوا به من الافتراء والتدليس ومصنوع الحديث.

قوله: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا} التزم يعقوب الصبر في هذه المرة كما اصطبر على حبيبه وقرة عينه يوسف في المرة الأولى - وهو مع بالغ أساه وعميق حزنه يساوره الرجاء العظيم في الله أن يرد إليه أبناءه الثلاثة وهم يوسف، وأخوه الذي وجدوا في رحله الصواع - ثم أخوهم الكبير الذي ذكرهم بموثقهم الذي قطعوه لأبيهم، والذي أبى إلا المكث في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله بشيء آخر.

هكذا كان جواب يعقوب لأبنائه مع ما يساوره من بالغ الرجاء من الله بإرجاع بنيه الثلاثة إليه - وهو في ذلك كله تشده الثقة الكاملة بحقيقة رؤياه وحقيقة ما تصير إليه من ظهور يوسف وسجود إخوته له تعظيما.

قوله: {إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} قال يعقوب وهو يبث حزنه إلى ربه: إن الله عليم بحالي وهمي وحزني، حكيم في تدبيره وأفعاله.

٨٤ - (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

قوله: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} الألف في أسفا منقلبة عن ياء المتكلم - وقيل: ألف الندبة وحذفت هاء السكت ٨٨. والمعنى: أن يعقوب أعرض عنهم كارها ما جاءوه به من خبر أخيهم حتى ساء ظنه بهم أكثر ولم يصدقهم، بل إنه أخذ في التفجع والأسى والاستزادة من ذكرى حبيبه يوسف فعاوده الحزن البالغ والبكاء الحرور حتى ابيضاض العينين وهو العمى {مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} فقد ابيضت عيناه من فرط الحزن والبكاء {فهو كظيم} أي شديد الكظم - والكظيم، الذي يكتم حزنه في نفسه ويمسك همه في صدره فلا يرسله بالشكوى والغضب والضجر - وقيل: كظيم بمعنى مكروب ومكمود وهو الذي تغير لونه ٨٩.

٨٥ - (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)

قوله: {قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ} {تفتأ}، جواب القسم {تالله} وهو على حرف لا، أي لا تفتأ - و {تفتأ} فعل ناقص بمعنى لا تزال، فيرفع الاسم وهو الضمير، وينصب الخبر وهو الجملة من قوله {تذكر} أي لا تزال ذاكرا ٩٠.

والمعنى: أنك لا تزال تذكر يوسف {حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا} أي إلى حال القرب من الهلاك - والحرض هو الإشفاء على الموت، أو الفساد في البدن وفي العقل - أو هو الرجل الفاسد المريض - يقال: حرض الرجل يحرض حرضا بفتح الراء - ويستوي فيه المفرد والمثنى والمذكر والمؤنث ٩١.

٨٦ - (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ} البث، هو أشد الحزن، كأنه لفرط شدته لا يطاق ولا يحتمل - والمعنى: أنني لا أشكو همومي وأحزاني إلى أحد سوى الله - بل إنني أشكو همي البالغ وحزني العميق إلى الله وحده {وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي أرجوا من الله

كل خير، فغني لأظن أن رؤيا يوسف لن تمضي عبثا بل سيكون لها عظيم التأويل وكبير الشأن عندما يضار إلى استبانة معناها فتتجلى لنا الرحمة من الله الذي لا يقنط منه غير الخاسرين ٩٢.

٨٧ - (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

قوله تعالى: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ}.

تحسسوا، أي استقصوا الخبر، فقد استنهض يعقوب بنيه أن يضربوا في الأرض ساعين ميممين شطر مصر ليعرفوا خبر أخويهم يوسف وبنيامين - وأمرهم أيضا ألا تيأسوا من فرج الله وهو قوله: {وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ} و {روح الله} بفتح الراء: يعني رحمته وفرجه ٩٣، فقد أمرهم ألا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يبتغونه ويسعون لتحصيله {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} أي لا يقطع الرجاء من الله أو يقنط من رحمته وفضله إلا الكافرون، فهم يجحدون رحمة الله وينكرون نعمته وفضله على العباد - وذلك من دأب الجاحدين الكافرين الذين لا يركنون إلا إلى الدنيا وما هي عليه من أوضاع وقوانين ونظم وتصورات وحطام.

٨٨ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

قوله: {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرّ} دخل بنو يعقوب على يوسف وشكوا إليه ما حل ببلادهم من قحط وجدب وجهد وحاجة وقالوا له أيضا: {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} المراد بالبضاعة ثمن الطعام الذي جاءوا ليمتروه - و {مزجاة} أي مدفوعة يدفعها كل واحد عنه لزهادته فيها، ومنه قوله: {ألم تر أن الله يزجي سحابا} أي يسوقه بالريح ٩٤، أي جئناك ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي التمسوا منه إيفاءهم الكيل فقالوا به: أتم لنا الكيل {وتصدق علينا} أي بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة - أو زدنا على حقنا - {إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} يجزيهم الثواب والخير عن تصدقهم ٩٥.

٨٩ - (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

قوله تعالى: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ٨٩ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ٩١ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

بعد ما أفاض إخوة يوسف في بيان سوء حالهم مما أصابهم في بلادهم من الجدب والقحط والجهد، وما اعترى أباهم الشيخ الكبير من شدة الحزن وبالغ الكظم والمرارة لفراق ولديه يوسف وبنيامين وصيرورته من أجل ذلك ضريرا -بعد هذا الإخبار المثير من إخوة يوسف ليوسف تذكر الأخير عليه السلام أباه وما ألم به من عظيم الحزن فأخذته رقة ورحمة، وغمره الإشفاق والحزن على أبيه - وذكر أنه ابتدره البكاء حتى صارحهم {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} والاستفهام للتقريع ٩٦ ويراد به تعظيم الحدث، أي ما أعظم ما اقترفتم في حق يوسف وأبيه منن افترائكم على أبيكم باختلاق الأقاويل كاصطناع الدم الكذب، ثم تمالؤكم على أخيكم، إذ ألقيتموه في المهلكة واتهمتموه بالسرقة، كل ذلك وأنتم {جاهلون} أي حملكم على فعل ما فعلتموه كونكم جاهلين أي أولي جهالة - وهي جهالة الصبا والغرور والطيش - وقيل: كل من عصا الله فهو جاهل.

٩٠ - (قَالُوا أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

وبعد هذا الذي ذكره يوسف لإخوته عملوا أن هذا الذي يخاطبهم لهو يوسف أخوهم، فهتفوا مبادرين متعجبين مستفهمين {أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ} الهمزة للاستفهام - واللام في {لأنت} لام الابتداء، أنت مبتدأ، و {يوسف} خبره - والجملة خبر إن ٩٧.

قوله: {قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا} كشف يوسف لإخوته عن أمره مبينا أنه هو يوسف، وأن هذا -مشيرا إلى أخيه

بنيامين- أخوه {قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا} تفضل الله علينا بان جمعنا بعد فراق وآنستا بعد وحشة فأعقبنا الله فضلا وبركة وخيرا، فإن الله يمن بالخير والفضل والنعمة على عباده المتقين الصابرين، وهو قوله سبحانه: {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يتق، بحذف الياء، لأنه فعل شرط مجزوم - {ويصبر} معطوف عليه - والمعنى: أن من يتق الله فيخشاه باجتناب نواهيه، وبطاعته فيما أمر {ويصبر} عن فعل المعاصي وعلى أداء الطاعات {فإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يندرج في المحسنين من وصف بالتقوى والصبر، فأولئك يجدون أجرهم عند ربهم غير مضيع ولا مبخوس.

٩١ - (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

قوله: {قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} أسقم إخوة يوسف مخاطبين أخاهم يوسف أن الله قد فضله عليهم بما آتاه من خصائص، منها: إيتاؤه الملك بعد الذي لحقه من الأذى والكيد - ومنها: الصبر على البلاء، فقد ألقي في مجاهل الجب حيث الأخطار التي توشك أن تفضي إلى الهلاك، ثم بيعه رقيقا ليكابد من كيد النسوة وامرأة العزيز - ومنها: العلم، فقد أوتي الحكمة والفطانة والمعرفة في العلوم الإلهية - ومنها: التقوى.

لا جرم أن يوسف يأتي في الأوج من الدرجات العلى، درجات الأبرار والأطهار من المتقين، فهو رسول كريم قد أوتي النبوة وجاءه الوحي من السماء، ولقد نجا من براثن الكيد العظيم الذي تتداعى تحت إغوائه همم الصناديد من الرجال - لكن يوسف عليه الصلاة والسلام لم تتزعزع إرادته، وما اضطربت أعصابه، ولا لانت همته أمام الفتنة الطاغية المغوية من امرأة العزيز ذات المنصب الرفيع وجمال الفاتن.

قوله: {وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ} {إن}، مخففة ٩٨ يعني: إنا كنا لخاطئين، أي آثمين - وهو من الخطيئة، وهي الذنب - أو ما تعمده الإنسان قاصدا الإثم - وهو غير الخطأ - فهو (الخطأ) ما لم يتعمد - وفاعل الخطأ الذي يقصد الصواب ولم يوفق له ٩٩ - أما إخوة يوسف فقد أقروا بذنبهم وأنهم كانوا خاطئين، أي مذنبين آثمين فيما فعلوه - لكن يوسف كان في غاية الرأفة واللين والشفقة.

٩٢ - (قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

وكان عليه السلام بالغا في تسامحه وإحسانه، فقد عفا عنهم وصفح، إذ خاطبهم {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ} {تثريب} اسم لا النافية للجنس - و {عليكم} خبرها - والتثريب: اللوم والعتب والتأنيب، أو التعبير بالذنب ١٠٠ - والمقصود: أن يوسف عليه السلام أجابهم بسجيته الكريمة وطبعه المتسامح والودود، وخلقه العظيم المفضال: إنه لا لوم عليكم ولا تعبير ولا عقوبة، فلا أقربكم اليوم ولا في غيره من الأيام بتعبير أو عتب {يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ} دعا الله لهم بالمغفرة والستر لما فرط منهم من خطيئة أو ذنب {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} بعد أن دعا الله لهم بالمغفرة والإحسان أثنى على الله بما هو أهله، إذ اخبر عن صفة من صفات الله وهي أنه تعالى أحرم الرحمين، فهو سبحانه بفيض رحمته وجميل فضله وإحسانه يتجاوز عن المسيئين والمذنبين والخاطئين ١٠١.

٩٣ - (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله تعالى: {اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} القميص: الذي يلبس، جمعه قمصان وأقمصة ١٠٢، والقميص هنا من ملبوس يوسف - والباء فيه للحال، أي اذهبوا مصحوبين له أو ملتبسين به - وقيل: الباء للتعدية، أي أذهبوا قميصي بمعنى احملوا قميصي - والمراد: أن يوسف أمر إخوته أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه يعقوب، وكان قد عمي من فرط البكاء.

قوله: {يَأْتِ بَصِيرًا} سيصير بإلقاء القميص على وجهه بصيرا بعد ما عمي - {بصيرا}، منصوب على الحال ١٠٣، فقد صار يعقوب بصيرا بتقدير الله وإرادته - لا جرم أن هذه واحدة من جملة معجزات حسية يؤتاها نبي عظيم كيعقوب عليه السلام - وما يعز على الله أن يفعل ذلك أو أعظم منه، فهو سبحانه بيده مقاليد الكون كله وما فيه من قوانين ونواميس وأشياء ومقادير.

قوله: {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} {أجمعين}، تأكيد - ويجوز أن تكون حالا ١٠٤، فقد أمرهم يوسف أن يبرحوا موطنهم في بلاد الشام

ليأتوا غليه في مصر - والمراد بأهلهم هنا: بنو يعقوب جميعا وذريتهم - وقيل: كانوا سبعين وقيل: كانوا ثمانين، وقيل غير ذلك، فقد حلوا بمصر في كنف النبي الكريم ابن الكريم ابن الكريم فنموا وتناسلوا حتى خرج من ذريتهم من موسى عليه السلام ستمائة ألف - أولئك الذين أنجاهم الله من ظلم فرعون، وفلق لهم البحر فمضوا فيه طريقا يبسا سالمين آمنين.

٩٤ - (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

قوله: {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} {فصلت} بمعنى خرجت - فصل من البلد فصولا، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه - والمعنى: أنه لما خرجت قافلة بني يعقوب من عند يوسف ميممة شطر ديار الشام حيث يقيم يعقوب، فغنه في هذا الأوان من فصول العير وخروجها من مصر قال يعقوب وهو ينظر بنور الله، أو أنه جيء إليه الإخبار من السماء {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} يعني أشم ريحه - قال ابن عباس في تأويل ذلك: هاجت ريح فجاءت بريح قميص يوسف إلى أبيه يعقوب فقال: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} من الفند، بفتحتين، وهو الكذب - وهو أيضا ضعيف الرأي من الهرم - والفعل أفند - والتفنيد معناه اللوم، وتضعيف الرأي ١٠٥ قال ابن عباس في قوله: {لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} لولا تسفهون، والفند هو السفه - وقيل: لولا تكذبون، والفند الكذب - وقد أفند إفنادا أي كذب - وقيل: التنفيد نسبة إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل من هرم.

٩٥ - (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ)

فقال له أسباطه: {تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} أي إنك لفي ذهابك القديم عن الصواب في إفراط محبتك ليوسف أو في خطئك القديم من حب يوسف ١٠٦.

٩٦ - (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {أَن}، زائدة - والبشير هو يهوذا بن يعقوب الأكبر - فقد قال: أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حي فأفرحه كما أحزنته فكان هو البشير ف {أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا} أي ألقى قميص على عيني أبيه يعقوب فرجع وعاد مبصرا بعينيه بعد ما أصابه العمى - ويستفاد من الآية: جواز بذل الهبات أو العطايا عند البشائر السارة المبهجة - ويجوز بذلك إظهار الفرج عقب زوال الترح والاغتمام.

قوله: {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} قال يعقوب لمن كان بحضرته من بنيه: ألم أخبركم عن عملي بأن الله سيرد علي يوسف تأويلا لرؤياه الصادقة، وأنني موقن بقضاء الله وكا من قضائه أن نخر جميعا له ساجدين - وكنتم أنتم لا تعلمون ما أعلمه.

٩٧ - (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

قوله: {قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} قال ولد يعقوب الذين فعلوا فعلتهم الأليمة بإلقاء يوسف في الجب: يا أبانا سل الله لنا المغفرة ليعفو عنا ويستر علينا ما قارفناه من ذنب وتفريط في حقك وحق ابنك يوسف كيلا يؤاخذنا الله بها يوم القيامة {إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} أي آثمين مذنبين - فأجابهم يعقوب لما سألوه ووعدهم أن يستغفر لهم الله - وقيل: أخر يعقوب الدعاء لهم إلى وقت السحر، فإن الدعاء فيه مستجاب - وذلك قوله سبحانه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ١٠٧

٩٨ - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٧]

قوله: {قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} قال ولد يعقوب الذين فعلوا فعلتهم الأليمة بإلقاء يوسف في الجب: يا أبانا سل الله لنا المغفرة ليعفو عنا ويستر علينا ما قارفناه من ذنب وتفريط في حقك وحق ابنك يوسف كيلا يؤاخذنا الله بها يوم القيامة {إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} أي

آثمين مذنبين - فأجابهم يعقوب لما سألوه ووعدهم أن يستغفر لهم الله - وقيل: أخر يعقوب الدعاء لهم إلى وقت السحر، فإن الدعاء فيه مستجاب - وذلك قوله سبحانه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ١٠٨

٩٩ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}.

لما دخل يعقوب وولده وأهلوهم على يوسف {آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} يعني ضمهما إليه واعتنقهما وقال لهم يوسف: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} أي آمنين من ظلم ملوكهم، أو آمنين من الجدب والقحط - وروي أنه لما لقيه قال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان - وقال له يوسف: يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك؟ ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك - وقيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجا ونساء، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلهم ستمائة ألف ونيف.

١٠٠ - (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

قوله: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا} {العرش}، سرير الملك، أي أجلس يوسف أبويه معه مكرمين معززين على السرير الذي يجلس عليه الملوك في العادة، ثم خر الأبوان والإخوة سجدا ليوسف وكان ذلك في شريعتهم نازلا منزلة التحية، فهو بذلك جائز - وقيل: كان سجودهم كالسجود المعهود عندنا اليوم وهو كان تحيتهم وهذا الراجح، استنادا إلى الظاهر من معنى السجود - وقيل: كان انحناء كالركوع وليس خرورا على الأرض - وكذلك سلامهم بالتكفي والانحناء - والتكفي معناه التمايل إلى قدام كما تتكفأ السفينة في جريها - وفي الخبر عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا مشى تكفى تكفيا - وروي أنه مهموز وغير مهموز - وقيل: الأصل الهمز: تكفأ تكفؤا - والهمز حرف صحيح ١٠٩.

وكل هذه الضروب في التحية منسوخ في شريعة الإسلام - وإنما المشروع وحده للتحية ما كان بالكلام بدلا عن السجود أو الانحناء أو الإيماء أو التكفؤ، فليس لمسلم بعد ذلك أن يحيي أخاه بشيء من ذلك، فإنه كله صور من صور الشرك الذي ينافي عقيدة التوحيد في دين الإسلام.

قوله: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} قال يوسف لأبيه: هذا السجود الذي سجدتموه لي أنت وأمي وإخوتي لهو مآل رؤياي التي كنت رأيتها من قبل ما فعل بي إخوتي ما فعلوه، وقد جعل ربي هذه الرؤيا {حقا} أي صادقة محققة - واختلفوا في قدر المدة التي كانت بين رؤيا يوسف وتأويلها - فقد قيل: كانت أربعين سنة، وهو قول أكثر العلماء والمفسرين.

قوله: {وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ} أحسن الله إلي بإخراجي من السجن حيث كنت محبوسا، وفي مجيئكم من البدو إلى هنا، فقد ذكر أن مسكن يعقوب وولده كان ببادية فلسطين - وقيل: في عربة من أرض فلسطين بغور الشام، فقد كان آل يعقوب أهل بآدية وشاء وإبل ينتقلون في المياه والمناجع - و {البدو} مصدر - بدا فلان يبدو بدوا، إذا صار بالبادية - والبدوة تعني الإقامة في البادية وهي ضد الحضارة ١١٠، أي ما حصل بني وبين إخوتي سببه نزغ الشيطان، فقد نزع بني وبينهم، أي أفسد بيني وبينهم - وقد أسند خطيئة إخوته إلى الشيطان تلطفا منه وتواضعا - وقيل: أوقع الشيطان بيني وبينهم بإثارة الحسد في قلوبهم - {إن ربي لطيف لما شاء إنه هو العليم الحكيم} الله رفقي بعباده، فهو يرحمهم برحمته ويكف عنهم البأساء واللأواء، ويكون لهم خير حافظ ومعين إذا أحدقت بهم الشدائد والكروب، فقد رحم عبده الصابر الطهور يوسف فاذهب عنه البلاء والشدة وكرمه

خير تكريم {إنه هو العليم الحكيم} الله العليم بمصالح العباد - فليس من عليم بما ينفعهم أو يضرهم على الحقيقة سوى الله - وهو سبحانه الحكيم في تصرفه وتدبيره ١١١.

١٠١ - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

قوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} بعد ما جمع الله ليوسف أبويه وإخوته وأهليهم وبسط عليه من الدنيا كل وجوه الكرامة والإعزاز والتمكين في الأرض وآتاه الله السعة في الملك والنعيم قال: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ} أي ملك مصر حيث السلطان وعلو المنزلة {وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} أي تعبير الرؤيا - وهذا من جملة العلوم التي يؤتاها أولو البصائر النيرة من المؤمنين الأخيار {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} {فاطر} منصوب على النداء، أي يا خالق السموات والأرض {أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ} أنت عوني ونصيري، إذ تتولى أمري كله في الدنيا والآخرة.

على أنه ما ينبغي لأحد في شريعة أن يتمنى الموت وإن اشتدت به الخطوب وتكاثرت من حوله النوائب والمحن - فما ينبغي لمسلم في مثل هذه الأحوال من الشدة والكرب إلا أن يلجأ إلى الله بالدعاء، لكي يفيض على قلبه بالرحمة والسكينة، وأن ييسر له الطاقة على الاحتمال والصبر، فيكتب عند الله في عداد الصابرين العابدين المخبتين.

وفي هذا الصدد روي الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان ولابد متمنيا الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي) ١١٢.

١٠٢ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من أمر يوسف وأبيه يعقوب وإخوته لهو من أخبار الغيب الذي لم تشاهده أنت ولم تعاينه بل أنبأناك به بوحي منا إليك - قوله: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ} ما كنت حاضرا يا محمد عند إخوة يوسف، إذ اتفقوا جميعهم على الكيد ليسوف بإلقائه في مجاهل البئر حيث الهلاك والخطر المحدق {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} لقد مكروا بأخيهم يوسف، إذ تمالئوا عليه ليلقوه في ظلمة الجب فيخلو لهو وجه أبيهم - وكذلك مكروا بأبيهم يعقوب، إذ تمالئوا عليه بالكذب فجاءوه بالقميص الملطخ بالدم المكذوب.

هذه الأخبار العجيبة المثيرة ما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم –وهو العربي الأمي الذي لم يعفر القراءة ولا الكتابة ولا التاريخ من أنباء الغابرين- يعلم منها شيئا لكن الله أطلعه عليها بوحي من عنده - لا جرم أن ذلك يزجي بقاطع الدلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

١٠٣ - (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} هذا إخبار من الله عن حقيقة مقدورة كبرى ما ينبغي أن تبرح أذهان العلماء والدارسين المسلمين أو الذين يدعون الناس على منهج الله فيتبعوا تعاليم هذا الدين الكامل الحنيف، ما ينبغي لهؤلاء جميعا أن تغيب عن أذهانهم حقيقة أساسية مركوزة دلت عليها كلمات الله هنا، وهي مما يوقف عليه بالاستقراء المشهود - وذلك أن أكثر الناس غير مؤمنين ولا مصدقين ولا مهتدين، وإن حرص النبي صلى الله عليه وسلم أو حرص الدعاة إلى الله من بعده على هداية العباد فبذلوا من الجهد غايته في تبليغ الرسالة والتحضيض على الإيمان بالله وبما أنزله للناس من هداية وتعاليم.

أما السبب الذي يكمن خلف هذه الحقيقة أن الإنسان مشحون بفيض من الشهوات والاستعدادات والغرائز التي تتزاحم فيها الرغبات والأهواء المتعارضة ما بين مستنفر صوب النور وفعل الخيرات والصالحات، أو مضطرب لجوج تستخفه وتستهويه اللذائذ المرغوبة المشتهاة - وليت شعري لو أن التزاحم بين الشقين يجري في معزل عن عوامل أسباب أخرى مريبة ومصطنعة تميل إلى جانب الشهوات والغرائز فتؤزها أزا.

إن الشهوات والغرائز في الإنسان تذكيها أفاعيل الشياطين من الجن والناس، فتزيد من تأججها واستعارها على حساب الظواهر والاستعدادات الراقية الأخرى في الإنسان، وذلك هو التأثير الخطير البالغ الذي تفضي إليه الثقافات الضالة المريبة في إضعاف الإنسان وتدميره من الداخل بإفساد فطرته السليمة وما يتجلى فيها من خصائص ومعان ومركبات، حتى يتبدل الإنسان بذلك غير الإنسان السوي، أو تتبدل البشرية غير البشرية الكريمة العظيمة فتنقلب إلى أناسي ضالين غير أسوياء وقد دنست فيهم الفطرة أيما تدنيس.

من أجل ذلك كله سيكون الإقبال من الناس على منهج الله ضئيلا، ويكون أكثر الناس- ولو حرص الدعاة والمجاهدون- غير مصدقين ولا مهتدين ولا راشدين - كل ذلك بفعل المفسدين والمضلين والمغوين من الشياطين، وفي طليعتهم شياطين البشر الذين اجتالوا الناس عن سوء الفطرة، وعن منهج الله، بما برعوا فيه من فنون التدمير والغواية والتخريب.

وبالرغم من ذلك كله يدأب الداعون إلى الله على تبليغ رسالة الإسلام للناس بكل ما أوتوه من طاقة واقتدار دون تفريط أو تقصير - وليس عليهم بعد ذلك من بأس إذا لم يستجب من الناس إلا القليل، فما ينبغي لهم أن ييتئسوا إذا ما كان إقبال الناس على دين الله أقل مما تأملوا أو حسبوا، فتلك هي رسالة المسلمين الداعين إلى منهج الله.

وهي أن يمضوا في اهتمام ودراية وعزم لدعوة البشرية إلى دين الإسلام غير مترددين ولا متخاذلين ولا متثاقلين - والله جل وعلا يجزيهم أجورهم ويكتب لهم التوفيق والهداية والرضوان في الدنيا والآخرة.

١٠٤ - (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

قوله: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} أي ما تسأل هؤلاء المكذبين الذين ينكرون الوحي، ويجحدون الرسالة، ويكذبون ما جاءهم من الحق –ما تسألهم على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، والتزام شرعه ومنهجه {من أجر} أي من جزاء منهم يؤدونه إليك فيمنون به عليك {إن هو إلا ذكر للعالمين} يعني ما هذا الدين أو القرآن الذي جئتم به من عند الله إلا موعظة وتذكير للعالمين - وما ثوابك وجزاؤك على تبليغه إلا من الله.

١٠٥ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعرِضُونَ)

قوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ١٠٧ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

ذلك إخبار من الله تفريط الناس وأن أكثرهم غافلون عن التفكير في آيات الله وفي ملكوته مما حوته السموات والأرض من دلائل ظاهرات سواطع تكشف عن قدرة الله ذي الجلال - فلا يمر أكثرهم بما في الكون من علامات وظواهر مثيرة عجاب إلا مرور اللاهين الغافلين، أو المعرضين السادرين في غياهب الحطام واللهو - وهو قوله سبحانه: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} أي وكم من علامة أو برهان أو دليل ظاهر في خلائق الله من السموات والأرض بدءا بالخلية البسيطة ذات المركبات المتكاملة المنسجمة، وانتهاء بما حواه الكون الهائل من أجرام ضخام، نواميس عظام، وخلائق وعجائب تشده القلب والبال (كل أولئك تمر به البشرية معاينين أو شاهدين أو دارسين، لكنهم مع ذلك كله ليسوا إلا غافلين معرضين.

١٠٦ - (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

قوله: {مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} نزلت في المشركين الذين أقروا بأن الله خالقهم وخالق كل شيء لكنهم مع إيمانهم هذا يعبدون مع الله آلهة أخرى كالأوثان ونحوها - هكذا قال أكثر المفسرين - وهذا ضرب من الإيمان المضلل المرفوض - الإيمان الذي يخالطه الإشراك بالله، أو تتخذ معه الأنداد والآلهة المصطنعة لتكون شركاء لله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.
ذلك أن الإيمان الصحيح لا يحتمل أيما صورة من صور الإشراك أو الازدواجية في الخضوع أو الخشوع أو الامتثال الذليل - فما من صورة من صور التوجه أو الاستسلام لغير الله مع الله إلا كان ذلك ضربا من ضروب الإشراك الذي لا يقام معه للإيمان وزن أو قيمة.
ويأتي في جملة الذين يؤمنون وهم مشركون، أهل الكتاب الذين يجحدون رساله الإسلام أشد جحود ويكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم أيما تكذيب، فضلا عن إشراكهم مع الله آلهة أخرى كعزيز والمسيح.
وكذلك المشركون الوثنيون الذين لا يجحدون الإيمان بالله البتة، إلا أنهم مع إيمانهم هذا يعبدون مع الله آلهة أخرى كالذين يعبدون الصنم أو النار أو البقر أو غير ذلك من الطواغيت والجبابرة من الملوك، أولئك جميعا مشركون لا يقيم الله لإيمانهم وزنا.
وكذلك المنافقون الذين يراءون الناس، فإنهم يندرجون في الذين يؤمنون بالله وهم مشركون، فليس لإيمانهم أو أعمالهم أيما اعتبار - روي الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة- إذ جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا عل تجدون عندهم جزاء؟).
وعن أبي موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: (يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل) فقال له من شاء الله: فكيف نتقه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: (قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه).
١٠٧ - (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)
قوله: {أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} الاستفهام للإنكاري - والغاشية، هي ما يغشى الناس من العذاب كالصواعق أو القوارع أو غير ذلك من بلايا يرسلها الله على العصاة والمشركين والغاوين {أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} {بغتة}، حال منصوب، أي كيف يأمن هؤلاء المشركون والمنافقون والخاسرون أن تفجأهم الساعة بطامتها المروعة المذهلة، وصخيخها الذي يخلع القلوب؟ كيف يأمن هؤلاء الغافلون الضالون كل هذه الأهواء الكونية المزلزلة التي يصيرون فيها إلى النار؟ نجانا الله برحمته وفضله وإحسانه في الدارين من ك هذه البلايا والغواشي والأهوال.
١٠٨ - (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
قوله: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الناس أن هذه الدعوة التي أدعوكم إليها والمنهاج الذي استنهضكم لالتزامه والعمل بمقتضاه، والملة التي أحرضكم على اعتقادها وتصديقها لهي {سبيلي} أي طريقي ومنهجي أو ديني الذي أنا عليه وأدعو الناس أن يأخذوا به ويلتزموه وأن يستظلوا بظله الندي الوارف ويستضيئوا بنوره المضيء الكاشف، أدعو الناس إلى عقيدة التوحيد الخالص المجانب لكل ألوان الرياء والشرك - أدعوهم إلى الشريعة الربانية الكاملة المبرأة من كل النقائض والعيوب - والشريعة التي تصلح عليها البشرية في هذه الدنيا لتقوم في حياتها آمنة راضية راغدة.
وذلك كله: {عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} {بصيرة} بمعنى حق ويقين واستبصار - يعني: أدعو إلى دين الله على يقين وبرهان واستبصار أنا والمؤمنون معي، الذين أمنوا برسالتي واتبعوا ديانتي وما جئتهم به من عند الله {وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أي وفي ذلك كله فإني أنزه الله وأقدسه عن الشريك أو النظير أو النديد - وإني على منهج الحق والتوحيد الكامل بعيدا عن ضلال المشركين الذين

يتخذون مع الله آلهة أندادا ١١٣.

١٠٩ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ١٠٩ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}.

ذلك إخبار من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وللناس أنه سبحانه لم يرسل أحدا من قبلك من غير الرجال - فإنما أرسل رسله من جنس الرجال ليكونوا مبشرين ومنذرين وليكونوا مبلغين دعوة الله للبعاد - وعلى هذا لم يرسل الله نبيا من النساء بل اختص الله الرجال لهذه الوجيبة الكبرى - الوجيبة التي تنوء بحملها الراسيات الشوامخ - لا جرم أن الرجل لهو أعظم اقتدارا على حمل هذه الأمانة الكؤود، فضلا عن مزايا الأنوثة التي تتجلى فيها الرقة والاستحياء واللين والخور والوجل مما يثني المرأة عن احتمال مثل هذه الوجيبة التي يخور لحملها الصناديد من الناس.

وثمة قول إن الله أوحى إلى أم موسى وكذا مريم أم المسيح، فكلتاهما بذلك نبية، وهو قول ضعيف - والصحيح: أنه ليس في النساء نبيات بل فيهن صديقات - وهو قول أكثر أهل العلم وعليه أهل السنة والجماعة - وفي هذا يقول عز من قائل: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام}.

قوله: {نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى} فقد أوحي الله إلى النبين من أهل القرى وهي المدائن والأمصار؛ فهم أرق طباعا، وأعظم أحلاما، وأسلس عريكة ١١٤ - ولم يبعث الله أنبيائه من أهل البوادي وهم الأعراب وذلك لشدة جفائهم وقسوة طباعهم وقلة عملهم.

قوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} الاستفهام للإنكاري - والمراد هؤلاء الجاحدون المكذبون - أفلم يسيروا في البلاد وهم يضربون في الأرض مسافرين فينظروا مصارع الهالكين الغابرين المكذبين، الذين دمر الله عليهم؟ أفر يعتبرون مما حاق بالأمم الخالية فينزعوا عن كفرهم وجحدوهم؟

قوله: {وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ} هذا إضافة إلى الصفة بعد حذف الموصوف وتقديره: ولدار الساعة الآخرة ١١٥، وقيل: الجنة؛ فإنها خير للذين يتقون ربهم بطاعته ومجانبة نواهيه - قوله: {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أفلا تتدبرون أو تستعملون عقولكم فتعرفوا أن الدار الآخرة خير وأبقى.

١١٠ - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} أي يئسوا من إيمان الكافرين لفرط عنادهم وشدة جحودهم وعتوهم وبعد ما حاق بهم -بالرسل- الضيق والبلاء {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} {كذبوا} بالتشديد؛ أي أيقن الرسل أن المشركين المعاندين قد جحدوهم وكذبوا ما جاروهم به من رسالة ودين - وبالتخفيف يكون المعنى: أم الذين أرسل إليهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا أو أخلقوا، وبعبارة أخرى: ظن قومهم أن رسلهم قد كذبوهم، عندئذ يجيئهم نصر الله.

وفي تعزيز هذا التأويل روي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عز وجل: {حتى إذا استيأس الرسل} قال: قلت: أكذبوا أم كذبوا؟ قالت عائشة: كذبوا -بالتشديد- قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن - قالت: أجل! لعمري! لقد استيقنوا بذلك - فقلت لها: {وظنوا أنهم قد كذبوا} قالت: معاذ الله - لم تكن الرسل تظن ذلك بربها - قلت فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأجر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك.

قوله: {جَاءهُمْ نَصْرُنَا} إذا يئس الرسل من إيمان قومهم بهم وظن وقومهم المشركون أن الرسل قد كذبوهم -بالتخفيف- في أنهم ينصرون عليهم، حينئذ يجيء الرسل والمؤمنين نصر الله.

قوله: {فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء} {فنجي}، بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء وهو فعل ماض مبين للمفعول - {من}، في محل رفع نائب فاعل، أي نجي الله رسله والذين آمنوا معهم وأهلك بعذابه المكذبين المستنكفين - قوله: {وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} إذا وقع من الله فإنه لا راد لهذا العذاب عنهم ١١٦.

١١١ - (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} هذه الآية خير ختام وتعقيب تفضي إليهما هذه السورة الجليلة، وهي آية مميزة في روعة مبناها وعجيب ألفاظها المصطفاة، فضلا عما يتزاحم فيها من معان عظام مبدوءة بالإخبار، ثم بالنفي، ثم بالاستدراك، ثم العطف.

وذلك كله في إحكام مترابط منسجم موصول يضم خلاله أكرم المعاني والعبر - وذلك في آية واحدة قصيرة لا يتلوها قارئ متدبر حتى تبادره حلاوة الألفاظ والمعاني، ويسري في شغافه وخياله جمال الأسلوب المحبوب، وسحر الإيقاع النافذ إلى عميق النفس - وهذه الخصيصة في روعة الختام والتعقيب إنما تتجلى في القرآن الكريم وحده من بين سائر الكلم! أما تأويل الآية فهو أنه كان في أخبار النبيين والمرسلين وأممهم، وكذلك ما حوته قصة يوسف من حقائق وأنباء تذهل -في ذلك كله {عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} أي ذكرى وموعظة لأولى النهي والأفهام من الناس.

إن ما حواه القرآن من أخبار الأولين وقصصهم وما لقيه النبيون والمرسلون من صنوف البلاء والتعذيب من أممهم الفاسق أكثرها لهم خير تذكير وعظة للمتدبرين أولي الأبصار.

وفي جملة ذلك كله قصة يوسف وما حوته من وقائع وأحداث تثير الحيرة والدهش وتستنفر الألم والأسى وتعتصر القلوب لتفيض مضاضة وحزنا! ويأتي في مقدمة هذه الوقائع المذهلة مثلبة الحسد البغيض الذي يستولي على المرء شر استيلاء ليسول له قتل أخيه، لا في الدين فحسب بل في الذين والنسب - لا جرم أن الحسد يسري في دم ابن آدم سريان الماء في عروق الأرض، وأنه يطغى على القلب والأعصاب والجهاز النفسي كله في الغالب فينجح بصاحبه لفعل الفظائع من المنكرات إلا أن يتذكر المرء مخافة الله في قلبه فيرعوى ليفيء إلى الصواب كلما ذكر الله في نفسه فاتقاه وازدجر.

قوله: {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} ما كان هذا القرآن حديثا مختلقا اختلاقا كما زعم الجاهدون السفهاء {وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} {تصديق}، منصوب، لأنه خبر كان - وتقديره: ولكن كان ذلك تصديق الذي بين يديه ١١٧، أي كان هذا القرآن تصديقا لما قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله - فالقرآن مصدق لما في الكتب المنزلة من السماء، فهو يصدق الصحيح منها، وينفي ما وقع فيها من تغيير وتبديل {وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ} آيات القرآن جاءت لتفصل ما يحتاج إليه الناس من أحكام الحلال والحرام بما في ذلك من بيان للواجبات والمستحبات والمحرمات والمكروهات - وكذلك الإخبار عن أسماء الله وصفاته وما يليق بجنابه وما لا يليق مما هو عنه منزه - وكذلك أنباء الأولين من الغابرين والدارسين مما فيه موعظة وذكرى للمتدبرين المتقين {وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {وَهُدًى وَرَحْمَةً}، منصوبان على العطف على قوله: {تصديق}، أي إن القرآن نور تستضيء به البشرية لتهتدي في طريقها وحياتها فلا تضل أو تتعثر، وهو كذلك بما تضمنه من أحكام وشرائع ومبادئ وقيم، رحمة مهداة من الله للناس كيما يسعدوا بع في حياتهم هذه، ويوم القيامة يكونون من الآمنين الناجين في مقعد صدق وعليين - جعلنا الله في زمرة السعداء الآمنين الناجين في الدنيا والآخرة.

١٣ سورة الرعد:

سورة الرعد:
بيان إجمالي للسورة

اختلف المفسرون في كون سورة الرعد مكية أو مدنية؛ فقد قيل: إنها مكية، وقيل: إنها مدنية - وقيل: مدنية باستثناء آيتين نزلتا في مكة وهو الراجح.

١ - (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)
وذلكم البيان المفصل لتفسير السورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

{المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}.

{المر}، مبتدأ وخبره ما بعده - والتقدير: أن هذه الحروف التي تأتي فواتح لبعض السورة، هي التي تتكون منها آيات هذا القرآن، الذي عجزتم عن مضاهاته أو معارضته - وقيل: {المر}، في محل رفع مبتدأ محذوف والتقدير: هذه السورة اسمها {المر} - والإشارة عائدة إلى {آيَاتُ الْكِتَابِ} ١.

قوله: {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} {الذي} في محل رفع على الابتداء، وخبره {الحق} وهذه الجملة جاءت لتبين أن هذا المنزل هو الحق؛ فهي بذلك مستأنفة.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} أكثر الناس لا يؤمنون بهذا الحق وهو القرآن المنزل من عند الله - أكثر الناس في غالب الأحوال والأزمان والأرضين قد خسروا أنفسهم وضلوا عن سواء السبيل لما م يؤمنوا بهذا القرآن - هذا الحدث الكوني لهائل الذي جاء مشتملا على كل الخير والعدل والرحمة لكل الناس.

ولو قدر للبشرية أن تعي هذه الحقيقة الكبرى؛ لأيقنت أن ملاذها في الخير والعدل والأمن والسعادة، إنما يمكن في القرآن بما حواه من عقيدة سامية راقية سمحة محببة، وتشريع عظيم ومسير وملائم - لكن البشرية قد خسرت أفظع خسران بحرمانها هذا القرآن لما حيل بينها وبين فهمه وإدراك معانيه - ولقد لعب الشياطين من دهاقنة الشبر بكيدهم من أجل أن يرسخوا هذه الحيلولة التي باعدت بين البشرية وهذا القرآن العظيم، وذلك بمختلف الأساليب من الخداع والتشويه والتضليل والتجهيل وإشاعة الأكاذيب والافتراءات عن هذا الكتاب الحكيم، تنفرا للبشرية المضللة المستغفلة.

٢ - (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

قوله تعالى: {اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} ذلك بيان من الله عن عظيم شأنه وقدرته؛ فقد خلق السموات العلى على غاية ما يكون عليه الاتساع والامتداد والضخامة، وعلى أكمل ما يكون عليه الاتساق والتوازن والانتظام - خلائق كبيرة وكثيرة، وأجرام هائلة ومبثوثة في أجواز الفضاء يضمها نظام دقيق ومنضبط لا يعرف الخلل أو العشوائية أو الفوضى - تلك عي السموات الشامخات الكبريات قد رفع الله بناءها، وجعلها منسجمة رفيعة لا تستند إلى ما يمسكن من الأعماد المنظورة، ولكن الله قدر لها من النظام الكوني الوثيق ما يكفل لها تمام الدوران والحركة والاستمرار والعلو إلى أن يقضي الله بالفناء والنهاية.

قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} {استوى}، أي علا - ومن صفات الله استواؤه على العرش - والمعنى: أن الله استوى عليه بالاقتدار والتدبير وعظيم السلطان وبالغ الهيمنة.

قوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى} الشمس والقمر آيتان من آيات الله جعلهما الله برهانا على بالغ قدرته وعظيم

صنعه، وذللهما لمنافع عباده؛ فبهما تعرف الحسابات والمواقيت، وبهما تستنير الكائنات بالإشراق والضياء، وبسببهما تزدهر الحياة والأحياء؛ فنعم الحركة والنشاط والعطاء في هذه الدنيا - وذلك كله {لأجل مسمى} وهو قيام الساعة - وحينئذ تكور الشمس ويذهب ليبهما وضوؤها، ويخسف القمر ويمحي نوره الساطع ثم يصير الكون والعاملون إلى واقع آخر، وخلق آخر - ذلك هو الفناء وقيام الساعة.

قوله: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ} {الأمر} يعني ملكوت السموات والأرض؛ فإن الله وحده يصرف ذلك كله كيفما يشاء.

قوله: {يُفَصِّلُ الآيَاتِ}، هي آيات الكتاب الحكيم؛ فإن الله بينها لعباده؛ ليقفوا على ما فيها من البينات والدلائل، والحجج {لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} أي لتهتدوا بما في آيات الله من البينات والدلائل، فتوقنوا بيوم القيامة حيث المعاد والحساب، ثم تزدجروا وتخشوا ربكم فتبادروا إلى التصديق والطاعة ٢.

٣ - (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {مَدَّ الأَرْضَ}، أي بسطها طولا وعرضا وجعلها مديدة رحيبة الإرساء، الثبوت - ورسا، أي ثبت ٣، فقد جعل الله في الأرض الرواسي؛ أي أثبت فيها الجبال الشامخات الرواسخ كالأوتاد فلا تميد أو تضطرب، وجعل فيها الأنهار العذاب التي تنساب في الأرض انسيابا رفيقا مقدورا لينتفع بها الخلق.

قوله: {وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} أي جعل الله في الأرض زوجين اثنين من كل نوع الثمرات - والمراد بالزوج هنا الصنف - والمعنى: أنه الله جعل من كل نوع من أنواع الثمرات في هذه الدنيا صنفين مختلفين؛ ففي كل نوع منها حلو وحامض، أو أبي وأسود، أو صغير وكبير، أو رطب ويابس - ونحو ذلك - قوله: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} {يغشي}، من الغشاء وهو الغطاء ٤؛ أي يجلل الله الليل النهار فيلبسه بظلامه، ويجلل النهار الليل فينيره بضيائه.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} الإشارة إلى ما سبق بيانه ووصفه من عجائب خلق الله وأثر قدرته في الكائنات؛ فإن في ذلك كله {لآيات} أي دلالات ظاهرة، وبينات بالغة تكشف عن عظمة الله وقدرته على الخلق والصنع والتكوين {لقوم يتفكرون} أي يتدبرون فيتعظون ويوقنون أن ذلك من صنع الله العليم الحكيم.

٤ - (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ} وهذا كلام مستأنف يحمل دليلا آخر على قدرة الله وعظيم صنعه - والمعنى: أن في الأرض قطعا متقاربات متدانيات يقرب بعضها من بعض بالجوار، لكن هذه التقطع من الأرض تختلف بالتفاضل؛ فمنها قطعة سبخة لا تنبت، وفي جوارها قطعة خصبة تنبت، أو هذه حمراء وبجوارها بيضاء، أو سوداء، أو هذه رملية وبجوارها طينية، وهكذا، لكن القطع جميعا متجاورات وهي مع تجاوزها وتدانيها فيما بينها ولصوق بيعها ببعض فإنها جميعا تتفاوت في المذاق والطعوم؛ فهذه ثمرها جيد، والأخرى ثمرها رديء، وهذه ثمرها أسود، وذلك كله بتقدير الله وصنعه؛ فهو المدبر للخلق، القائم على تصريف الحياة والأحياء كيف يشاء.

قوله: {وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} {جنات} مرفوع لعطفه على {قطع} {رزوع} معطوف على {جنات} - والتقدير: وفي الأرض فقطع متجاورات وجنات وزرع ونخيل {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} الصنوان، جمع صنو، مثل قنوان جمع قنو - وكذلك الاثنان صنوان - والصنو أن يكون الأصل واحدا وتنبت فيه النخلتان والثلاث فأكثر، فكل واحدة صنو.

وقيل: الصنو: المثل - وفي الحديث: (ألا إن عم الرجل صنو أبيه) أي مثله ٥، وعلى هذا فالصنون بمعنى النخلات يجمعهن أصل واحد

- وغير الصنوان المتفرقات.
قوله: {يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ} {الأكل}: الثمر - وقيل: ثمر النخل والشجر - وكل مأكول أكل ٦ - والمعنى: أن الأرض واحدة، والماء الساقي واحد ومتشابه - ثم تأتي طعوم الثمار متفاوتة مختلفة، فيكون فيها الحلو والحامض والمر، والجيد والرديء - و {الأكل} معناه الطعم {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} فيما تبين من صفات والظواهر في الخلق والطبيعة لهو دلالات لأولي الفهوم والنهي كيما يعتبروا ويتدبروا ٧.

٥ - (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله تعالى: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ} يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنك إن تعجب يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين وجحودهم فأعجب من قولهم: {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} الهمز للاستفهام، يعني إذا صارت أجسادنا ترابا وأتى عليها الدثور والبلى أنبعث من جديد؟ على أن الله لا يتعجب، لأن التعجب لون من ألوان الأفعال النفسي، فهو من صنع البشر، والله سبحانه منزه عن طبائع البشر - وهذا الذكر لصيغة العجب يراد منه إثارة التعجيب في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن متدبر.

قوله: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ} الله تعالى يصم الذين يكذبون بالعبث من القبور ويجحدون قيام الساعة بأنهم كافرون بالله - ذلك أن الساعة والبعث والحساب والجزاء من تقدير الله وصنعه، فمن جحد ذلك كان مكذبا لله ذي الجلال والشأن.

قوله: {وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ} {الأغلال} جمع ومفرده الغل بالضم ٨ - في رقبته غل من حديد، أي قيد - فالأغلال تعني القيود توضع في أعناق الكافرين والضالين والفاسقين وهم يساقون إلى النار ليكونوا من أهلها وساكنيها الخالدين الماكثين أبدا ٩.

٦ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ٦ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} السيئة يراد بها هنا نزول العذاب في الدنيا - كما قال الله عن مقالة المشركين: {فأمكر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم} فقد طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وسلم إنزال العذاب عليهم - وذلك لشدة جحودهم وفرط عنادهم، فهم يستعجلون نزول العقاب {قَبْلَ الْحَسَنَةِ} أي الرخاء والعافية {وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ} {المثلاث} تعني العقوبات - وعي جمع ومفرده المثلة بضم الثاء ١٠، أي يطلب المشركون إنزال العقاب والبلاء بهم وهم يعلمون ما حل بالأمم السابقة من وجوه البلاء - فمن أمة قبلت أرضها قلبا، إلى أمة أتت عليها الرجفة فدمرتها تدميرا، إلى أمة أتى عليها التغريق، إلى أمة قد مسخت قردة وخنازير، إلى غير ذلك من وجوه المثلاث أو العقوبات التي يصيب الله بها الظالمون والفاسقين عن دينه.

قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ} الله غافر للذنوب والخطايا، وهو سبحانه يستر على ذنوب التائبين، فإن كانوا مشركين ثم آمنوا، تاب الله عليهم وغفر لهم ما اقترفوه من الشرك - وإن كانوا مؤمنين قد خالفوا او أساءوا ثم ثابوا وأنابوا إلى ربهم، فإن الله يتجاوز عن سيئاتهم وما فعلوه من المعاصي - لا حرم أن الله لذو فضل على الناس في عظيم رحمته التي وسعت كل شيء، والتي بفيضها تمحي كل الخطيئات والسيئات وإن ملأت ما بين الخافقين ١١ والآفاق - {وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} وذلك لمن هلك مشركا أو مصرا على المعاصي والخطايا فأدركه الموت وقد فاتته التوبة فما استغفر ولا أناب، فذلك صائر إلى عذاب الله، وعذابه وجيع شديد.

٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

قوله: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} يقول الكافرون هلا انزل الله على محمد {آية} يعني حجة أو برهانا له على صدق نبوته؟! كما لو أنزل عليه من السماء كنز، أو جاء معه ملك يؤيده ويعززه فيما يقوله، أو غير ذلك من البينات التي يتحذلق بها المشركون في سفاهة وعمه والتي يريدون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنزل عليه من ربه كيما يصدقوا - وفي الحقيقة فإن مطلبهم سقيم مثير للسخرية - أفلا من الحجة والبرهان نزول هذا القرآن؟! هذا الكتاب الحكيم الذي بهرهم واستنفرهم وخلب ألبابهم خلبا لفرط روعته وعجيب أسلوبه الذي أذعنوا له واجمين خانعين حيارى! ألا يكفيهم هذا برهانا ومعجزة تدل يقينا على صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! أم إنه الجحود والاستكبار والاغترار وجنوح النفس اللئيمة للعتو واللجاجة!!

قوله: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} {أنت} مبتدأ - وخبره {منذر} - و {هاد} مبتدأ أيضا، وخبره {ولكل قوم} ١٢ و {منذر}، من الإنذار وهو الإبلاغ - والله يرد مقالة المشركين المعاندين مبينا لرسول محمد صلى الله عليه وسلم بما يسري عنه ويثبت فؤاده: إنما أنت يا محمد مبلغ رسالة الله لقومك فلا تبتئس ولا تعبأ بما يقولون - {ولكل قوم} من الناس {هاد} أي نبي يهديهم ويعرفهم بمنهج الحق ويدعوهم إلى دين الله المستقيم ١٣.

٨ - (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

قوله تعالى: {اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} {ما}، في هذه المواضع من هذه الآية اسم موصول بمعنى الذي - وهي في موضع نصب مفعول به ١٤.

وهذه الجملة مستأنفة تزجي بالحقيقة الراسخة على أن الله وحده العالم بما تحمله الإناث في بطونها من ذكر وإناث، أو طيبين أو خبيثين، أو مليحين وقبيحين، أو سعداء أو أشقياء، أو أذكياء أو أغبياء وغير ذلك من الصفات الخلقية والخلقية - فذلك كله من علم الله وحده - وهو علم محيط بكل شيء، فما يكون من خطرة ولا خلجة ولا خفقة ولا نبسة ولا همسة ولا خبر مستور ومستكن في السموات أو الأرضين إلا يعلمه الله قبل أن يكون.

وتعرض ثمة مسألة عن إمكانية الوقوف على حقيقة الجنين من حيث كونه ذكرا أو أنثى أو كونه توأمين أو أكثر - وذلك عن طريق المتخصصين من أهل الطب أو تصوير الأجنة - فما ينبغي أن تلفتنا هذه المعرفة الحديثة أيما لفت عن حقيقية الآية - وهي تفيد بعمومها أن الله لهو وحده العالم بما تكنه الأرحام من حقائق الأجنة وأخبارها - وعلم الله في ذلك يتناول كل ما يندرج في عالم الجنين المستور من ظواهر وأخبار عما يفضي إليه هذا الجنين من الصفات الكثيرة - ومن جملتها كونه ذكرا أو أنثى - لكن جل الصفات وهي الأكثر والأهم –لا جرم تظل مكنونة مجهولة لا يعيها أو يدري أحد في العالمين بها إلا عقب الاندلاق إلى الدنيا ثم اكتمال الشخصية من كل جوانبها الجسدية والنفسية والعقلية، وما يتخرج عن ذلك من صفات - أما قبل ذلك كله فأنى للمخاليق وأهل الخبرة أن يطلعوا عليه في المخلوق وهو جنين في بطن أمه، سواء كان بويضة ملقحة، أو علقة، أو مضغة، أو أكثر من ذلك؟!.

قوله: {وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ} {تغيض}، من الغيض وهو النقصان سواء كان لازما أو متعديا - يقال: غاض الماء، وغضته أنا.

أما تأويل الغيض والازدياد فموضع خلاف، والراجح أن ذلك متعلق بمدة الولادة، فقد قيل: غيض الأرحام أن تكون مدة الولادة دون تسعة أشهر، أما ازدياد الأرحام، فهو أن تكون مدة الولادة أكثر من تسعة أشهر إلى عشرة أو أزيد عليها إلى سنتين عند الإمام أبي حنيفة - وإلى أربع سنين عند الإمام الشافعي، وإلى خمس عند الإمام مالك.

وقيل: غيض الأرحام معناه السقط - وما يزداد، أي بولادته تماما، وقيل غير ذلك.

قوله: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} كل شيء من حدث أو واقعة أو نحوهما، إنما يكون بقدر واحد لا يكون دونه ولا يجاوزه، فهو مقدور لا يحتمل النقص أو الزيادة ولا التغيير أو التبديل إلا أن يشاء الله - سواء في ذلك ما يمكثه الولد في بطن أمه إلى خروجه، وما كتب

الله له من الرزق والأجل، كل ذلك بقدر.

٩ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

قوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} الله يعلم ما غاب عن خلقه وما شهدوه - وذلك تنبيه من الله على انفراده بعلم ما استتر أو خفي عن الناس - وهو سبحانه وتعالى محيط ببواطن الأمور مما لا يعلمه أحد سواه - وهو سبحانه {الكبير} الذي ما من شيء إلا هو دونه - والمراد بالكبر في حق الله ما كان في قدرته البالغة وعلمه المحيط الكامل وإرادته المطلقة التي لا تمنع منها حدث أو فعل - وهو سبحانه {المتعال} أو المتعالي في الأصل - وقد حذفت الياء للتخفيف - وهو من العلو - ومعناه المستعلي على كل شيء والمنزه عن صفات المخلوقين ١٥.

١٠ - (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

قوله تعالى: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ١٠ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} {مَّنْ}، في محل رفع مبتدأ - {سواء} خبر مقدم، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل - أي مستو ١٦ - و {أَسَرَّ الْقَوْلَ} من الإسرار وهو حديث المرء نفسه - وأما الجهر به فهو التحدث به وإظهار - والمراد: أن الله يستوي عنده الذي يستسر لنفسه فلا يظهر عليه أحدا من الناس، أو الذي يجهر به فيراه أو يشهده الناس - ولذلك فإن السر والعلانية عند الله سواء، إذ لا فرق بينهما في حق الله، فهو سبحانه عالم بالأسرار وما خفي أو استكن في الضمائر وخلف الأستار.

قوله: {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} المستخفي يعني المتواري المستتر في ظلمة الليل - والسارب في النهار، ومعناه الظاهر بالنهار في طريقه، أو الذهب على وجهه في الأرض - سرب في الأرض سروبا، إذ ذهب - وسرب الماء سروبا، إذا جرى فهو سارب - وسرب تسمية بالمصدر - والسرب أيضا الجماعة من النساء والبقر والشاء والوحش، والجمع أسراب - والسرب بمعنى النفس - يقال: فلان آمن في سربه، أي في نفسه - والسرب، بفتحتين: بيت في الأرض ١٧ - والمعنى المراد: أنه يستوي عند الله ما لو كان الإنسان مستخفيا في الظلمات أو كان ظاهرا ماشيا في الطرقات، فالله جلت قدرته محيط عمله بكل شيء سواء فيه الظاهر والخفي - قال ابن عباس في تأويل ذلك - سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة.

١١ - (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

قوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} {له}، أي لمن أسر ومن جهر، ومن استخفى ومن سرب - والمعقبات، هم الملائكة الحفظة - سموا بالمعقبات، لأن الملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس - والمعنى: أن للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، فريق يحرسونه بالليل وآخرون يحرسونه بالنهار {مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} أي من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار، ومن روائه، ومن كل ما حوله، فقد أحط به هؤلاء المعقبات ليحصلوا عليه كل أعماله وأقواله على التمام، من غير أن يفرطوا في حفظ شيء منها - وقيل: المراد أنهم يحرسونه من جميع المهالك.

قوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} {من}، بمعنى الباء، أي يحفظونه بأمر الله أو بإذنه - وقريب من ذلك كون {من}، بمعنى عن، أي يحفظونه عن أمر الله - وقيل: يحفظونه من اجل أمر الله، أي من أجل أن الله أمرهم بحفظه من بأسه ونقمته بدعائهم له - وقيل: ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الأسواء ١٨، والنائبات، فالملائكة موكلة بالعبد لحفظه من الوحوش والهوام والأخطار كأن تقع عليه حائط، أو يهوي في بئر، أو يأكله سبع، أو ينتابه غرق أو حرق، فغذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر.

وذكر أن هذه الآية: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ١٠ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ

وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} نزلت في حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلاءة الله له من الأشرار والخائنين، فقد روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عامر: ما تجعل لي إن أنا اتبعك؟ قال: (أنت فارس، أعطيك أعنة الخيل) - قال: لا - قال: (فما تبغي؟) قال: لي الشرق ولك الغرب - قال: (لا) قال: فلي الوبر ولك المدر - قال: (لا) قال: لأملأنها عليك إذا خيلا ورجالا - قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يمنعك الله ذاك وأبناء قيلة) يريد الأوس والخزرج - نخرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تشاورا فيما بينهما - فقال عامر: ارجع وأنا أشغله عنك بالمجادلة وكن وراءه فاضربه بالسيف ضربة واحدة - فكانا كذلك، واحد وراء النبي صلى الله عليه وسلم والآخر قال: اقصص علينا قصصك، ما يقول قرآنك، فجعل يجادله ويستبطئه وهو يرجو أن يضرب أربد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف - ثم قال له عامر: مالك، أجشمت ١٩؟ قال: وضعت يدي على قائم سيفي فيبست فما قدرت على أن أحركها! ثم خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال عامر: اخرج أنت يا أربد إلى ناحية عذبة، وأخرج أنا إلى نجد فنجمع الرجال فنلتقي عليه - نخرج أربد حتى إذا كان بالرقم بعث الله سحابة من الصف فيها صاعقة فاحرقته - وخرج عامر حتى إذا كان بواد يقال له الجرير أرسل الله عليه الطاعون فجعل يصيح: يا آل عامر أعدة ٢٠ كغدة البكر تقتلني! يا آل عامر أغدة البكر تقتلني! فذلك هو قول الله: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ} حتى قوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} ٢١.

قوله: {إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} ذلك إخبار من الله عن فضله على الناس وعن عدله فيهم، وإن ما بهم من نعمة أو خير فما يزول إلا بعصيانهم وضلالهم وفسقهم عن أمر ربهم؛ فالله جل وعلا لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيلهما عنهم ويهلكهم حتى يقع منهم تغيير، وذلك بظلم بعضهم بعضا، واعتداء بعضهم على بعض؛ فتحل بهم حينئذ من الله العقوبة والتغيير - أي أن زوال النعم وتغيير الحال من العافية والسلامة والعزة سببه المعاصي والحيدة عن منهج الله إلى ما يخالفه.

قوله: {وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} إذا أراد أن يصيب أحدا أو قوما أو أمة من الأمم بعذاب أو بلاء، من أمراض أو أسقام أو كروب أو نحو ذلك من ألوان البلاء، ساقهم ليختاروا ما فيه بلائهم - وهم بذلك يمضون إلى ما فيه هلاكهم من حيث لا يدرون، وربما يساق المرء مختارا إلى حتفه وهو لا يدري أو يسعى جادا ليظفر بما يبتغيه ثم يجد ثمة مهلكته وهو لا يعلم - ولو كان بعلم لامتنع من الفعل وأحجم؛ فهذا هو تقدير الله على عباده، ولا يملك أن يرد ما أراده الله بعباده من سوء وغيره {وما لهم من دونه من وال} أي ليس لهم غير الله من ناصر يلي أمرهم فيدرأ عنهم البلاء، أو ملجأ يأوون إليه فيحول بينهم وبين ما يريده الله لهم من السوء ٢٢.

١٢ - (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

هذه جملة من ظواهر الكونية التي تقع ضمن الطبيعة، وهي من صنع الله الذي أتقن كل خلق خلقه، وأحسن كل شيء إحكاما وصنعا - وتلكم هي ظواهر البرق والسحاب والرعد والصواعق - وغير ذلك من ظواهر في الطبيعة والحياة والكائنات؛ فإن ذلك كله من صنع الله ومن تقديره، كيفما تكون الكيفية التي تتم بها هذه الظواهر سواء كان ذلك بالتماس الكهربي بين الشحنات المختلفة، أو عملية التمدد في طبقات الهواء بما يفضي إلى الاندفاع السريع نتيجة للحرارة الناشئة عن البرق، أو التجاذب الشديد الخاطف بين أجزاء من الفضاء وأخرى في الأرض عقب التوافق في أنواع الشحنات، أو التقاطر في حبات الماء المنهمر من السحاب عقب ملامسته للطبقات الباردة من الجو، أو غير ذلك من الكلام والتحليل والتعليل؛ فإن المهم بيانه هنا أن ما في هذا الكون من ظواهر وخلائق وأجرام مبثوثة في أجواز الفضاء، إنما ذلك كله بوجوده وصفاته وحقيقته لهو من أمر الله وصنعه.

قوله: {يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} {خوفا وطمعا} منصوبان على الحال، أي خائفين وطامعين - والخوف، هو من وقوع الصواعق إذا لمع البرق، أما الطمع، فهو في حصول الغيث والخصب.

١٣ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

قوله: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} أي أن الرعد نفسه يسبح بحمد الله وهو قوله: سبحان الله والحمد لله، فهو بذلك متلبس نفسه بالتسبيح - ولا عجب في ذلك فكل شيء في الكون يسبح بحمد الله، لقوله سبحانه: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده} وكذلك الملائكة تسبح بحمد الله خوفا من جلاله وعظيم جبروته - وكذلك يندب للمؤمنين في الأرض أن يسبحوا بحمد ربهم لدى سماعهم الرعد، فقد روي أبان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تأخذ الصاعقة ذكرا لله عز وجل).

وقال أبو هريرة (رضي الله عنه): كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول: (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير) - فقال أو هريرة: فغن أصابته صاعقة فعلي ديته.

وروي الطبري عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصب ذاكرا).

وروي الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال: (اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك).

قوله: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ} أي يعذب الله بهذه الصواعق من شاء تعذيبه من الجاحدين المعاندين الذين يحادون الله ورسوله، ويجاهرون بالكفر والضلال في قواحة خبيثة ولؤم صارخ، وقد قيل في سبب نزول هذه الآية أن أربد أخا لبيد ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين قتله: قال أربد: وهو يجادله بالباطل: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد؟ فرمى الله عامرا بغدة البعير وموت في بيت سلولي - وأرسل على أربد صاعقة فقتلته ٢٣.

قوله: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ} الواو للاستئناف - والمراد بالمجادلين: هم الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يجادلون في الله فينكرون قدرته على البعث وإحياء الخلائق من جديد ويكذبون الوحدانية باتخاذ الأنداد والشركاء، على غير ذلك من وجوه الجدال بالباطل - وقيل: الواو للحال، أي يصيب بالصواعق من يشاء في حال جدالهم بالباطل والمقصود أربد وعامر.

وقيل: نزلت في يهودي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ من لؤلؤ أو من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأخذته، فانزل الله {ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون}.

قوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} من المحل، بسكون الحاء، أي المكر والكيد - والمماحلة: شدة المماكرة والمكايدة - وتمحل بمعنى احتال فهو محتمل ٢٤ - والمعنى المراد هنا: أن الله شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون - وقيل: شديد القوة، وقيل: شديد العقوبة، وقيل: شديد النقمة، وقيل: شديد المغالبة ٢٥.

١٤ - (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ)

قوله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} اختلفوا في المراد بدعوة الحق، فقد قيل: الحق هو الله، وكل دعاء إليه فهو دعوة الحق - والله جل وعلا يسمع الدعاء من عباده المخلصين فيستجيب دعاءهم - وقيل: دعوة الحق يعني: شهادة أن لا إله إلا الله - وقيل غير ذلك - والمراد: أن الدعاء إنما يكون لله من عباده في كل الأحوال والظروف والأزمان، إذ يدعونه ويسألونه خاشعين مخلصين موقنين أنه وحده مجيب الدعوات، ولا يدعون أحدا غيره من المخاليق كالأوثان أو الأوهام أو الملوك أو غير ذلك من الأنداد.

قوله: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ} أي الذين يعبدون آلهة من دون الله كالأوثان والأصنام والأوهام والملوك،

فيتوجهون إلى هذه الأنداد المفتراة بالدعاء {لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ} أي لا يستجيبون دعاءهم ولا يسمعون نداءهم - وإن كانوا من البشر، استخفوهم وسخروا منهم واتخذوهم لهم عبيدا أقزاما أذلة ليسهموا في تمكينهم وتسليطهم على رقاب العباد.

قوله: {إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} ذلك تيئيس من دعاء الكافرين الذين يتوجهون بالدعاء إلى آلهتهم المفتراة، فإن هؤلاء واهمون بدعائهم، مسرفون في السفاهة والجهالة - وقد ضرب الله لذلك مثلا بالغ الدلالة يكشف عن فداحة الوهم الذي يسدر فيه المشركون الذين يعبدون غير الله من الأنداد ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء لهم وهم في ذلك كالظمآن الذي كفيه إلى الماء ليقبضه بهما - وأنى للكف المبسوط، ذي الأصابع المنشورة أن يتناول الماء أو يتماسك فيه شيء من الماء؟!

وأشد من ذلك بعدا وإياسا أن يصل الماء إلى الفم الظامئ الحرور فضلا عن عدم تماسكه في الكف - إن ذلكم مثال مؤثر ومستبين يثير في الخيال صورة منظورة يتملاها الحسن تماما، ويعي من خلالها الذهن تمام المقصود - وهو الإياس المطبق من استجابة الأنداء والشركاء دعاء المشركين الضالين الذين يعبدونهم من دون الله ويدعونهم في جهالة وغرور وعمه {وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} يعني ما عبادة هؤلاء المشركين الظالمين أو دعاؤهم إلا في ضياع؛ فهو ليس إلا ضربا من التصرف العابث الذي لا يجدي ولا ينفع ٢٦.

١٥ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)

قوله تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} {طوعا وكرها}، منصوبان على الحال - وقيل: على المصدر - أما معنى الآية هذه: فما ينبغي الاعتماد على تأويل السجود على معناه الحقيقي وهو وضع الجبهة والكفين على الأرض، فغن هذا التأويل سيفضي إلى افتراض السجود على أهل الكتاب إكراها، وهم قبل ذلك غير مكرهين على التزام الإسلام، إذ لا إكراه في الدين.

أما التأويل الحق أن يفسر السجود بالانقياد، فغن جميع العباد -مؤمنين وكافرين- منقادون لفعل ما أراده الله فيهم، شاءوا أو أبوا، فهم وإن لم يسجدوا لله سجودا حقيقيا لكنهم منقادون لأمره فيهم بالصحة والمرض، والحياة والموت، والفقر والغنى - ومثل هذه الحقائق والظواهر والصفات يشترك فيها المؤمنين والكافرين - قوله: {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} الغدو، ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس - والغداة بمعنى الضحوة، وتحمل على أول النهار - والجمع غدوات ٢٧ - {والآصال}، جمع ومفرده الأصيل، وهو العشي - وهو ما بعد صلاة العصر إلى الغروب ٢٨ {وَظِلالُهُم} معطوف الاسم الموصول {من} والمراد: أن ظل كل شيء يسجد لله في هذين الوقتين وهما أول النهار وآخره، ووجه ذلك: أن الضلال إنما تتبع أصحابها من الناس في الحركة والامتداد والتقليص؛ فهي بذلك منقادة معهم لله وذلك هو سجودها ٢٩.

١٦ - (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}.

المشركون مقرون بوجود الله سبحانه، وأنه الخالق، فإذا سألهم النبي صلى الله عليه وسلم {مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} فما لهم بد من أن يقولوا {الله} وإذا لم يقولوها، بادرهم النبي صلى الله عليه وسلم الجواب {الله} تنفيذا لأمر الله له {قل الله} أي إذا لم يجيبوا فلقنهم يا محمد الجواب، فإنه لا جواب غيره.

لقد كانت مشكلة الكافرين الكبرى قبل ظهور الإسلام ولدى ظهوره أنهم كانوا مولعين بحب الأصنام وتقديسها - لقد كانت هذه الحجارة الصماء، وهذه الآلهة المصطنعة البلهاء مستحوذة على قلوبهم ومشاعرهم أيما استحواذ، لكنهم مع ذلك ما كانوا ينكرون وجود

الله الخالق البارئ - ما كانت لوثة الإلحاد الأسود لتطغى على فطرتهم وأذهانهم كما طغت على أمم ضالة جاءت حديثا وعقب الجاهلين الغابرين - هذه الأمم التي استشرت فيها نزغات الشياطين العتاة فأفسدت فيها الفطرة شر إفساد، ومسخت طبائعها الآدمية وخصائصها الذهنية والنفسية والروحية أفظع مسخ - وألئك الذين انقلبوا على أعقابهم مرتكسين جاحدين بعد أن أغواهم دهاقنة الفكر الشيطاني الظلوم من أمثال ماركس وسارتر وفرود ونظائرهم من الشياطين الذين عاثوا في الدنيا تخريبا وإفسادا، والذين قلبوا المعايير الفطرية رأسا على عقب فمضوا بالبشرية إلى حيث البهيمية الوضعية، فانتكسوا بها إلى الهاوية من الدركات في أسفل سافلين، وعندها تمحي منها كل ظواهر الإنسان المميز الراقي.

قوله: {قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا} بهذا على أن المشركون حينئذ كانوا معترفين بأن اله حق وإنه الخالق، أي ما دمتم قد اعترفتم بأن الله حق فلم تعبدون غيره من الأنداد والشركاء الذين لا ينفعون ولا يضرون ولا يردون عن أحد كيدا ولا ينصرون؟! - فهم ليسوا غير أشباح موهومة تصطف اصطفاف الحجارة الصامتة الخرساء.

قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} هذه واحدة من البدهيات المقررة المحققة وهي أن الأعمى والبصير لا يستويان - وذلك مثل ضربه الله للمؤمن والكافر فإنهما لا يستويان، لأن الأول مهتد مستنير، والثاني ضال مضطرب متلجلج - المؤمن قد اهتدى للمحجة المستقيمة البيضاء، لكن الثاني سادر في الظلام، يمضي ثائها مضللا متعثرا.

قوله: {أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} وهذا مثال آخر في الظلام البهيم، والنور المشرق الوضاء - ومثل ذلك شأن الكفر بما يقتضيه من معاندة ومكابرة وجحود، وبما يزجي غليه من هوى فاسد جامح لجوج - إن هذا الكفر بكل ضروبه وأشكاله ليس إلا الظلام الذي يتيه فيه العصاة والعتاة والمتمردون، الذين يحادون الله ويكذبون أنبياءه ورسالاته ويجحدون دينه ومنهجه الذي ارتضاه لأهل الأرض. وفي مقابل ذلك، النور، ويراد به الإيمان، أو عقيدة الحق، عقيدة الإسلام العظيم، العقيدة السمحة الراسخة الودود التي تنبثق عنها خير شريعة عرفتها البشرية، الشريعة الميسرة المعتدلة، الوسط، التي تتجلى فيها كل خصائص الصلاح والسعادة للإنسان.

قوله: {أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ} {أم}، المنقطعة بمعنى بل والهمزة - والاستفهام للإنكاري، أي بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه - وقيل: معناه: أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق فالتبس عليهم خلق الله وخلق الشركاء؟ وليس الأمر مثل ذلك من الاشتباه عليهم والالتباس، بل إن الأمر بالغ الوضوح والاستبانة، كامل اليقين والظهور، فإن ما يعبده هؤلاء الضالون السفهاء لا يعي ولا يعقل ولا يريم أو يتبصر، بل إن ما يعبدونهم ليسوا غير حطام مركوم من الأصنام الجوامد الصم - ولئن عبدوا فريقا من جبابرة الحكام أو طواغيت البشر، فإن هؤلاء الطغاة المعبودين لا ينفعونهم بل يضرونهم ويستخفون أيما استخفاف ويستخسرون منهم استسخارا فيتخذون منهم الخدم والخول والعبيد والأراذل.

قوله: {قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} هذه يقينية كونية كبرى تتجلى في حقيقة الألوهية العظيمة، بل إنها واحدة من صفات الله الواحد البارئ، وهي الخلق - فما من موجود في هذا الوجود إلا هو مخلوق لله - ويستوي في المخاليق كل الأشياء، ما كان منها غيبيا غير مشهود كالجن والملائكة والأرواح - أو كان حسيا مشهودا متناولا لكل الخلائق من بحار وأشجار وأنجم وأصنام وساسة وملوك، كل أولئك قد خلقهم الله وحده - وليس له في هذه الخصيصة كفيء ٣٠ أو نديد {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} أي الله هو الفرد الذي ليس معه ثان، بل هو المتفرد بالألوهية - وهو القهار الذي يغلب ما سواه - فما من شيء سواه إلا هو مربوب له ومقهور ٣١.

١٧ - (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

قوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ}. يضرب الله في هذه الآية مثلا للحق والباطل، فالحق: هو الإيمان والتزام شرع الله - والباطل: هو الكفر والتكذيب والاستكبار عن

منهج الله - أما الكفر: فهو طائش مستخف، ما لبث أن ينقشع ويتبدد؛ لأنه غير راسخ ولا مكين ولا مركوز في عميق النفس بل إنه طارئ وعارض ومصطنع، فما تلبث الفطرة الإنسانية السليمة أن تنفر منه نفورا شديدا لتستقبحه أيما استقباح - فشبهه الله في هذه الآية بالزبد المنتفش الذي يطيش على سطح الماء ثم يضمحل ويزول سريعا؛ فهو لا مكث له ولا دوام - لكن الإيمان لهو المعتبر والموزون والثابت.

وهو شبيه هنا بالماء الصافي الذي يرتوي منه العطاش، وتنتفع به الأرض فيثير فيها النماء والخصيب والبركة.

قوله: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} هذا مثل يضربه الله للحق والباطل أو الإيمان والكفر، وهو ما بينا جملته في الفقرات السابقة؛ فقد أنزل الله المطر من السماء إلى الأرض فاحتملته الأدوية {بقدرها} أي بملئها - يعني كل واحد من الأدوية أخذ من الماء بحسبه من الكبر والصغر، فهذا كبير اتسع لكثير من الماء، وهذا صغير اتسع لم هو أقل من الماء بما يساوي حجمه من السعة {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} هذا السيل المكون من ماء المطر النازل من السماء احتمل فوق سطحه {زبدا} وهو الرغوة ٣٢ الطائشة فوق سطح الماء - فهذا المثل الأول الذي ضربه الله للحق والباطل - وبيانه: أن الحق هو الماء الثقيل الراسخ النافع الذي يبقى في الأرض ليثير فيها الخصب والخير والبركة.

أما الباطل، فهو الزبد الذي يطيش على وجه الماء، وهو بطشه وخفته غير نافع ولا باق.

وأما المثل الثاني: فهو قوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} {في النار}، جار ومجرور، في محل نصب على الحال - وتقديره: ومما يرقدون عليه كائنا أو مستقرا في النار - {ابتغاء الحلية}، منصوب على المصدر في موضع الحال ٣٣؛ هذا مثل آخر للحق والباطل، وهو ما يوقد الناس عليه في النار من الجوهر كالذهب والفضة لكي يذوب فتزايله الأوشاب والتراب طلبا للحلية التي يتزين بها الناس، أو للمتاع وهو ما يتمتع به الناس من الأواني والآلات المصنوعة من الحديد والنحاس والرصاص.

قوله: {زَبَدٌ مِّثْلُهُ} {زبد} مرفوع على الابتداء - {مثله}، صفة له وخبره {ومما يوقدون} ٣٤ والضمير في {مثله}، يعود على الزبد - والمراد بالزبد: الخبث الذي يعلو وجه المذاب من تلك المعادن مثلما يعلو الزبد على سطح الماء.

والمعنى: أن هذا الخبث الذي يخرج من المعدن المذاب بعد الإيقاد عليه في النار لهو زبد كزبد السيل؛ فكلاهما غير ذي نفع ولا جدوى - إنما الذي ينفع ويجدي ما رسخ من المعدن بعد الإيقاد عليه في النار - وهذا مثل للحق الثابت المكين كما يرسخ بعد الإيقاد عليه في النار لينتفع به الناس - وما علاه من خبث أو زبد إنما هو الباطل الذي يتلاشى ويضمحل فما يغني وما يجدي وما يدوم.

قوله: { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} الكاف في موضع نصب على المصدر؛ أي مثل ذلك الضرب يضرب الله مثل الحق والباطل - وبيان ذلك في قوله تعالى: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} {جفاء} منصوب على الحال - والجفاء معناه، الرمي والاطراح - أو ما يقذفه القدر والسيل من الزبد والغثاء ونحوهما - يقال: جفا الوادي غثاءه، يجفوه جفاء إذا قذفه ورماه ٣٥.

والمعنى المقصود: أن الزبد أو الخبث يعلو وجه الماء أو المعدن الموقد عليه في النار لينتفخ وينتفش ويطيش على السطح - لكنه أخيرا ما يلبث أن يتطاير ويتناثر ويتبدد فلا يبقى منه شيء - بخلاف الماء النافع الصافي أو الجوهر الراسخ المكين الذي يستقر مركوزا وراسخا لينتفع به الناس فكذلك بالباطل بكل صوره وضروبه ومسمياته؛ فغنه خفيف كالزبد، أو هو شنيع وضار ومرذول؛ فهو يفضي إلى شر العواقب من تدمير للأفراد والأسر والبيوت والمجتمعات.

ذلك هو الباطل في الملل والعقائد والفلسفات والتصورات والمناهج التي ابتدعها أهواء البشر؛ فإنها لا جرم تؤول إلى واقع مادي منكود وظالم، واقع سامته الأهواء وأفاعيل الشياطين من الناس، فظيع الولايات والبلايا النفسية والشخصية والاجتماعية والإنسانية - وذلكم هو الباطل الذي تتجرع منه البشرية على مر الزمن كل ألوان الهوان والشر والمحن.

لكن الحقيقة الراسخة التي تشهد لها آيات الله بالصدق والقين، أن الباطل -كيفما كانت تسميته أو صفته- لا محالة زائل داثر، وأنه صائر إلى التلاشي والفناء والانهيار كما انهارت كل قوى الباطل والظلام والطاغوت بعد أن استطار في الدنيا سلطانه وعزه وطغيانه؛

ذلك أن الباطل بالرغم من ظاهره المنفوش وهيلمانه المنتفخ، فإنه تستتيم في أحشائه جرثومة الفناء العاجل المحتوم، لأنته (الباطل) قائم على الكذب والخداع والتضليل والهوى - والذي شانه هكذا، لا جرم أنه صائر إلى التداعي والتمزق والسقوط.
أما الحق فإنه واضح وثابت ومكشوف - وهو شديد الرسوخ والقرار في الأرض، لأنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن كل شيء صنعا - الحق المراد ما كان من صنع الله، فهو منهاجه القويم ودينه الحكيم الذي يناسب -دون غيره- طبيعة الإنسان، والذي جعله الله للناس خير ملاذ وأكمل شرعة يستظلون بظلها فيكونون في هذه الدنيا سالمين مطمئنين سعداء.
قوله: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ} أي مثل ذلك الضرب الظاهر يضرب الله لكم الأمثال لتتدبروا وتعتبروا ٣٦.
١٨ - (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)
قوله تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} الذين عصوا ربهم وخالفوه فيما أمر وكذبوا أنبياءه ورسله وأبوا إلا الإشراك والجحود واتباع الشهوات، فغن هؤلاء لو كانوا يملكون أموال الدنيا ويملكون معها مثلها، واستطاعوا أن يفتدوا بذلك أنفسهم تنجية لهم من العذاب يوم القيامة، لفعلوا.
قوله: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} الإشارة إلى الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله وأبوا إلا الجحود والكفر، فجزائهم يوم القيامة أن لهم سوء الحساب - وهو أن يأخذهم الله بكل ذنوبهم وبكل ما قارفوه من السيئات والمعاصي، صغيرها وكبيره، فلا يغفر الله لهم منها شيئا، ومن نوقش الحساب عذب - وهؤلاء مصيرهم إلى جهنم وبئس الفراش والمستقر الذي يمكثون فيه دائمين ٣٧.
١٩ - (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)
قوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} الاستفهام للإنكاري - والمعنى المراد بيانه: أنه لا يستوي من آمن بالله وبما أنزل على رسوله فصدقه وأطاعه واتبع النور الذي أنزل معه -لا يستوي هذا ومن جحد واستكبر وصد الناس عن دعوة الحق وأبي غلا العتو والكفران - إنهما لا يستويان البتة! أنى للماء الطهور الصافي، والزبد الطائش المنتفش أن يستويا؟! وأنى للجوهر الصافي المستصفي الثمين والخبث المنتفخ الفاسد أن يستويا؟!
أنى للعالم البصير ذي الفكر السديد والفطرة السوية السليمة، أن يستوي ومن هو ضال أعمى، دو قلب موصد وطبع كز، وفطرة سقيمة ملتوية؟! إنهما لا يستويان - وقيل: نزلت في حمزة وأبي جهل - وهذان صنفان من الناس مختلفان اختلاف الحق والباطل - فأولهما ودود وطيب وسجيح، والآخر فاسد وكز ولئيم.
قوله: {إنما يتذكر أولوا الألباب} إنه لا يتدبر هذه الآيات المؤثرة الكريمة فيزدجر ويعتبر، أو يتعظ ويذكر فيبادر التصديق والانقياد لأمر الله وشرعه إلا أولو العقول السلمية ٣٨.
٢٠ - (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)
قوله تعالى: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ٢٠ و الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ٢١ والَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} {الَّذِينَ} بدل من {أولوا} أو صفة له - وبين الله في هذه الآيات صفات المؤمنين الذين يطيعون ربهم ويلتزمون وأوامره وأحكام شرعه بأن {لهم عقبى الدار} وهذا خبر - والمبتدأ قوله: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ} المراد عموم العهد، ليتناول جميع العهود التي يناط بالمسلم أن يفي بها وفاء كاملا من غير تفريط ولا مداهنة.

ويدخل في ذلك ما فرضه الله على عباده من أوامر وأحكام، وما نهاهم عنه من المعاصي والأحكام - وكذلك ما يقطعه المسلم على نفسه من العهود للآخرين سواء كانوا من المسلمين أو الكافرين.

قوله: {وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ} جملة توكيد للجملة التي قبلها؛ فالعهد معناه الميثاق، ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقيضه - والمراد التذكير بصفات المسلمين الصادقين، فإن من صفاتهم وفاءهم بالعهد وعدم نقضه؛ فإن نقض العهد ليس من سجايا المسلمين الصادقين - وما ينقض عهده مع الله أو الناس إلا المنافقون والخائنون.

٢١ - (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

قوله: {والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} وهذه صفة ثانية للمؤمنين الصادقين الأوفياء - وهي الصلة - وفي المراد بها تفصيل وخلاف - والظاهر أن المراد بالصلة ما يتناول كل وجوه المعروف والإحسان للناس؛ كصلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين، وصلة الإخوان في الدين، وتكريمهم والعطف عليهم ومواساتهم وبذل العون لهم، ومراعاة حق الجيران والأصحاب؛ فقد أمر الله بتوثيق الصلة بين المسلمين وهؤلاء فما من مسلم إلا وهو منوط به مراعاة أولي الحقوق جميعا، من أولي قربى أو جوار أو صحبة أو حاجة.

قوله: {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} وهذه صفة ثالثة للمؤمنين الصادقين، وهي أنهم يخشون الله فيتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه، ويراقبونه في كل الأحوال، ليعبدوه تمام العبادة، ولا يشركون به شيئا من الأنداد - وهم كذلك خائفون من حساب الله يوم الحساب - يوم تتكشف الأوراق والصحائف، وتظهر المخبوءات والأسرار ليجازي الله عباده بما فعلوه.

٢٢ - (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

قوله تعالى: {والَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} هذه صفة رابعة للمؤمنين الصادقين؛ وهي صبرهم على فعل الطاعات، وعن المحارم والمآثم والمعاصي - المؤمنون الصادقون ملتزمون بفعل الصالحات وممسكون عن المحرمات والمحظورات والمناهي، كل ذلك {ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} {ابتغاء}، مفعول له منصوب - أي طلبا لمرضاة الله وجزل ثوابه.

قوله: {وأَقَامُواْ الصَّلاَةَ} هذه صفة خامسة للمؤمنين، إذ يقيمون الصلاة خاشعين مخبتين.

قوله: {وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً} هذه صفة سادسة للمؤمنين؛ إذ ينفقون أموالهم في وجوه البر والطاعة مما هو مفروض ومندوب/ كبذل المال زكاة في وجوهها المعروف، أو إنفاقه على أولي القربى على سبيل الوجوب، أو ما كان غير ذلك من الإنفاق المندوب في وجوه الخير، كإعطاء المعوزين والمحاويج والجيران وغريهم - سواء كان ذلك في السر خفية، أو الظاهر المنظور علانية.

قوله: {وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} {يدرؤون}، يعني يدفعون ٣٩، وهذه صفة سابعة للمؤمنين؛ فهم يدفعون السيئة على اختلاف معانيها وصورها، بالحسنة على تعدد ضروبها وأشكالها - لا جرم أن هذه خصيصة مثلى تتجلى في عباد الله المؤمنين الطائعين المخلصين؛ فهم إذا أساء إليهم الناس بمختلف وجوه الإساءة قابلوا ذلك بالحسنة - فقابلوا الشر بالخير، والقبيح بالحسن، والشح بالسخاء - وهم إذا ظلموا عفوا، وإذا حرموا أعطوا، وإذا قطعوا وصلوا من قطعهم - إن هذه شيم المؤمنين الطيبين الأخيار الذين يجزل الله لهم الثواب، ويكتب لهم الرحمة والرضوان.

وقيل: إذا أذنبوا تابوا، وإذا عملوا السيئات بادروا فعل الخيرات والحسنات فيتجاوز الله لهم عما اقترفوه.

قوله: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} أي عاقبة الدنيا - والمراد بها الجنة التي أعدها الله جزاء لأولئك المؤمنين الذين اتصفوا بما بينته الآية من الصفات ٤٠.

٢٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} - {جَنَّاتُ}، بدل من عقبى الدار} - و {عَدْنٍ} يعني الإقامة والدوام الذي لا ينقطع - والمراد جنات

الإقامة الأبدية والخلود الدائم الذي يمكث فيه المؤمنون يوم القيامة، والذي جعله الله جزاء للمؤمنين أولي الصفات العظيمة المبينة في الآية، ومعهم الصالحون

{مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} أولئك يجمعهم الله بالمؤمنين أولي الصفات المذكورة كيما يحبروا ٤١ وتقر بهم عيونهم - لا جرم أن المؤمن يجد في نفسه كامل الراحة والسكينة والحبور، وهو يرى أهله وأحبابه الأقربين من حوله وهم آمنون مطمئنون سعداء في الجنة جعلنا الله منهم - على أن رباط النسب أو القربى وحده لا يغني شيئا إن كان في معزل عن دين الله، أو كان أولو القربى غير أولي دين، أو كانوا من المشركين الفاسقين - وإنما يعول على الصلاح في الدين والعقيدة ليتسنى لهؤلاء أن لدخلوا الجنة في صحبة المؤمنين وزمرتهم.

قوله: {وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} تدخل الملائكة الأطهار على المؤمنين السعداء الذين فازوا بالجنة فيهنئونهم بنجاتهم وفوزهم - يدخلون عليهم من أبواب الجنة محيين ومباركين ليكون في ذلك زيادة لهم في النعيم والتكريم.

٢٤ - (سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

قوله: {سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} {سلام} مرفوع على الابتداء، والخبر {عليكم} والتقدير: يقولون سلام عليكم - وبهذا القول تحيي الملائكة أهل الجنة، وذلك في رفق وتكريم ورحمة بدل صبرهم على الشدائد في الدنيا وهو قوله {بما صبرتم} والباء بمعنى بدل.

قوله: {فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} نعم: فعل مدح، والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: فنعم عقبى الدار الجنة - والدار تحتم الدنيا وتحتمل الآخرة ٤٢.

٢٥ - (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}.

بعد أن ذكر حال السعداء من أهل الإيمان والصلاح وما أعد لهم من جزيل الثواب وخير العطاء في الجنات، شرع في بيان حال الأشقياء وما صاروا إليه من شنيع العاقبة وسوء الدار - فالأولون كانوا موفين بعهودهم ولم ينقضوا منها شيئا، وكانوا من أهل الوصل والتقوى وفعل الطاعات والعبادات - أما هؤلاء الخاسرون؛ فإنهم خائنون عصاة بنقضهم ما عاهدوا الله عليه - وقطعهم ما أمر الله بوصله من الأرحام وفعل الخيرات والطاعات - وكذلك كانوا مفسدين في الأرض بإشاعة المنكر والباطل بكل صوره وأشكاله {أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} هؤلاء الأشقياء الظالمون الذين خسروا أنفسهم فأوردوها شر مورد من النار وبئس القرار {لهم اللعنة} الإبعاد من الخير والرحمة ليكونوا مع الخاسرين والتعساء {لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} أي يصيرون إلى سوء العاقبة وهي النار ٤٣.

٢٦ - (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ)

قوله تعالى: {اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ}} {يَبْسُطُ الرِّزْقَ} أي يوسعه ٤٤.

الله هو الرزاق الذي يوسع على عباده فيعطيهم من رزقه ما يشاء سواء فيهم المؤمنون والكافرون {وَيَقَدِرُ} أي يقتر - وذلك في مقابل بسطه الرزق للناس - وذلك يفضي إلى التفاوت في أرزاق الناس، فيكون فيهم الأغنياء والفقراء، تحقيقا لمزية التكامل بين الأفراد في المجتمع الإسلامي.

قوله: {وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الضمير عائد على الظالمين الذين ينقضون العهود والمواثيق، فقد فرحوا بطرا بما أتوه من بسطة في المال والرزق فلم يشكروا الله على ما أنعم عليهم وآتاهم من فضله بل كانوا لاهين غافلين عن الله وعن دينه وما شرعه لهم، وقد استحوذ على قلوبهم حب الدنيا وما فيها من زخرف ومال، فألهاهم ذلك عن الموعظة والاعتبار وذكر اليوم الآخر حتى أحاطت بهم المعاصي.

قوله: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} أي ليست الدنيا هذه بنعيمها وزخرفها وبهجتها في جنب النعيم الأخروي إلا النزر اليسير، فما يتمتع به الناس في حياتهم الدنيا من مال وخيرات وشهوات ليس إلا القليل الزائل؛ فهو قليل حقير بالغ الهوان - وهو كذلك ذاهب داثر ما يلبث أن يزول ويفني - وفي الحديث مما رواه مسلم وأحمد عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع).

٢٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَاب ٢٧ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ٢٨ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} يقول المشركون في سفاهة وضلال: هلا أنزل الله على محمد آية؟ أي معجزة حسية يشاهدونها أو يلمسونها كإنزال العذاب من السماء كسفا، أو إطباق الأخشبين عليهم، أو تحويل الأرض القفر جنات وأنهارا - أو غير ذلك من الآيات المقترحة، فرد الله عليهم بأن نزول مثل هذه الآيات لا يقتضي إيمانهم وهداهم بالضرورة والحتم، فإن من سبقهم من الأمم قد أوتوا كثيرا من المعجزات الحسية فلم يؤمنوا، بل نكصوا على أعقابهم وأبوا إلا الجحود والعصيان - وهذه الأمة كغيرها من الأمم سوف لا يفضي المعجزات الحسية إلى إيمانهم وهدايتهم على التحقيق - وخير دليل على ذلك: أن هذا القرآن أعظم معجزة يعيها البشر ويستمعون إليها - لا جرم أن القرآن في كمال أسلوبه ومبناه، وعظيم مضمونه ومعناه، ليس له في كلام العالمين نظير، فهو بذلك معجزة قائمة للعيان - ولو تدبرها تمام التدبر كل ذي قلب وبصر، وما لبث أن يهتدي أو يعتبر - لكنه بالرغم من ذلك كله، فإن الناس ضالعون في الانتكاس والانثناء عن الإيمان الحق - ومن أجل ذلك يقول الله: {قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} لا يهدي الله إلى الحق والهدى من كان جانح الطبع، فاسد الفطرة، وإنما يهدي الله من كان سليم الطبع والفطرة، نقي الجوهر والضمير، مبرأ من مثالب النفس وأمراضها - فما يهتدي إلى منهج الله وينيب راجعا نائبا إلى ربه إلا كل ذي قلب سوي سليم - ومن دون ذلك من مرضى القلوب والفطر، فإنهم لا محالة نافرون من دين الله وصائرون إلى الضلال والجحود.

٢٨ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

قوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ} {الذين} بدل من قوله: {من أناب} وتطمئن قلوبهم}، أي تسكن وتركن إلى جناب الله وعند ذكره، إذ تتذكر جلاله ورحمته ومغفرته وعظيم سلطانه فتستشعر في أعماقها الراحة والإحساس بالأمن والسكينة - وقيل: المراد بذكره القرآن، فهو النظم العجيب المعجز الذي تتجلى فيه روائع شتى من كريم المعاني وحلاوة الإيقاع والنعم، ونفاذ السحر الباهر الذي يفضي إلى أعماق القلوب ليكسب فيها الشرح والحبور.

قوله: {أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} الله حقيق بأن تطيب لفضله القلوب، وتسكن لذكره وحده دون غيره من الشركاء والأنداد - الله حقيق أن تأنس بجلاله وبتلاوة قرآنه القلوب المستوحشة إذا غاب عنها المؤنسون من الخلان والأحباب - لا جرم أن الله وحده خير مؤنس للمرء في حالات العزلة والاحتباس، إذ تحيط به لواعج الكآبة والتلهف - فإذا ما ذكر العبد المحزون ربه وحيدا وجد في نفسه وأعماقه ما يسري عنه الهم والحزن، أو يكفكف عنه الإحساس بالضيق أو الوجل.

٢٩ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

قوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} {طوبي}، اسم مصدر مفرد، مثل بشرى وعقبى ورجعي - واختلفوا في المراد بها - فقد قيل: طيب العيش لهم - وقيل: غبطة لهم - وقيل: شجرة في الجنة اسمها طوبي - وقيل: قرة عين - وهو قول ابن عباس - {وحسن المآب} أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم حسن المرجع، إذ يصيرون إلى النعيم الواصب في جنات الخلد.

٣٠ - (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

قوله تعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} الكاف في اسم الإشارة صفة لمصدر محذوف - والتقدير: مثل ذلك الإرسال أرسلناك - والمعنى: أنه مثل ذلك الإرسال إلى الأمم السابقة أرسلناك يا محمد إلى هذه الأمة {لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} أي لتقرأ الكتاب الذي نزلناه عليك - وبذلك فإن علة الإرسال هي إبلاغهم دين الله ودعوتهم لتوحيده سبحانه والإقرار له بالألوهية {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} الجملة حالية؛ أي أرسلناك إلى هؤلاء وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن؛ فقد روي أن المشركين لما رأوا كتاب صلح الحديبية وقد كتب فيه {بسم الله الرحمات الرحيم} أنفوا وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم - فقد كانوا يكفرون باسم الرحمن ولا يقرون به ولا يعترفون بوصف الله بالرحمن الرحيم.

قوله: {قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} أي هذا الذي تجحدونه وتكذبون أنه رحمن، فإني مؤمن به، ومقر له كامل الإقرار بالألوهية؛ فإنه ربي وليس من إله غيره {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} فوضت إليه أمري، واعتمدت عليه كامل الاعتماد في شأني كله - {وَإِلَيْهِ مَتَابِ} أي إليه المرجع والإنابة.

٣١ - (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض فجعلت لنا قطعا غراسا، أو أحييت لنا آباءنا وأجدادنا، فنزلت هذه الآية لتبين أنهم لا يؤمنون ولا تحقق ما طلبوه جميعا - وفي هذا المقام فإن الله يثني على قرآنه الحكيم مبينا لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه لو كان ثمة كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض فتصبح قطعا قطعا، أو تكلم به الموتى فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن - لكونه معجزا؛ فهو في غاية التذكير والتنذير، وغاية في صدق الحديث والبيان - وهذا هو جواب لو في الآية ٤٥ أي لو أن كتابا يتحقق به ما سألتهم لكان هذا القرآن؛ وذلك لعظيم معناه وعجيب نظمه مبناه؛ فهو المعجزة الخالدة الباقية التي لا تفنى بفناء الناس، ولا تمضي بمضي الزمان، كما فنيت معجزات النبيين السابقين؛ إذ ذهبت بذهاب النبيين والأمم - لكن معجزة القرآن باقية قائمة مشهودة إلى قيام الساعة.

وقد جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا الله إلي، فأرجو أن أكون إكثرهم تابعا يوم القيامة).

قوله: {بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا} أي لو شاء الله أن يؤمن الناس لآمنوا، وإذا م يشأ لهم الإيمان لم ينفعهم ما اقترحوه أو سألوه كتسيير الجبال، أو تقطيع الأرض، أو إحياء الموتى؛ فالله قادر على كل شيء، وهو قادر أن يأتيهم بما طلبوه من الآيات؛ لكنه يعلم أن ذلك لا ينفعهم.

قوله: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} ييأس بمعنى يعلم أو يتبين - وهو قول ابن عباس وآخرين؛ أي أفلم يعلم المؤمنون ويتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا ما سألوه من الآيات.

قوله: {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ} القارعة: الشديدة من شدائد الدهر وعي الداهية - والجمع قوارع ٤٦؛ أي لا

يزال هؤلاء الكافرون من قومك يا محمد تصيبهم بسبب ما فعلوه من الكفر والتكذيب والجحود والظلم {تصيبهم قارعة} أي ما يقرعهم من البلاء والنكبات كالقحط والأسقام والهزائم والقتل في الحروب وغير ذلك من ألون البلايا والنقم ٤٧.

قوله: {أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ} التاء في {تحل} للتأنيث، والتقدير: أو تحل قارعة بالقرب منهم، أي قريبا من ساحتهم وقراهم - وقيل: التاء لخطاب - فيكون التقدير: أو تحل أنت يا محمد قريبا من دراهم {حتى يأتي وعد الله} وعد الله معناه الغلبة والظهور عليهم - وقيل: فتح مكة - وقيل: يوم القيامة {إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} اللم منجز رسوله والمؤمنين ما وعدهم من الظهور على الكافرين، لأن الله جلت قدرته لا يخلف وعده، فهو أصدق الصادقين، وأوفى الأوفياء ٤٨.

٣٢ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

قوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} الله تعالى يسري عن نبيه صلى الله عليه وسلم مما يصيبه من الأسف بسبب بجحود قومه وعنادهم وشدة عتوهم فيقول له: إن يستهزئ بك هؤلاء المشركون الضالون فاصبر على أذاهم واستهزائهم، فإن لك أسوة في المرسلين من قبلك، إذ استهزأ بهم المشركون وسخروا منهم فاصبروا على أذاهم وعتوهم ثم أخذتهم - وهو قوله: {فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} الإملاء بمعنى الإمهال، أي أطلت لهم في الإنظار والإمهال، وممدت لهم في الأجل {ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} يعني أهلكتهم بالعقاب الوجيع الشديد - لا جرم أن ذلك وعيد شديد من الله لكل المجرمين الناكبين عن صراط الله المستقيم، الساخرين من منهجه العظيم، الجاحدون للإسلام، وذلك بطعنه وإلحاق أيما نقيصة من النقائص به - وفي الصحيحين ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفتله) ثم قرأ {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}.

قوله: {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} الاستفهام للتقريع والتهديد، أي فكيف ما أحللته من البلاء والنقم والقوارع بهؤلاء الجاحدين الساخرين من دين الله؟!

٣٣ - (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} الاستفهام للتوبيخ والتقريع، على سبيل الاحتجاج على المشركين الضالين والإزراء عليهم والتسفيه لأحلامهم - وهو قوله: {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} القائم هنا بمعنى المتولي والمدبر - فيكون معنى الآية: أفمن هو عالم بأحوال العباد وما يكسبونه من الأعمال وهو رقيب على قلوبهم وسلوكهم فلا يعزب عن عمله شيء؟ والجواب محذوف وتقديره: كمن هو هالك بائد لا يحفظ ولا يعلم ولا ينفع.

قوله: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء} الجملة حالية - والشركاء، الأصنام، والتقدير: والحال أنهم جعلوا له شركاء، فالله هو القائم بأرزاق هؤلاء المشركون، المدبر أمورهم، الرقيب على أفعالهم وقلوبهم وما يضمرون، وقد جعلوا له شركاء مما خلق من الحجارة والأوثان.

قوله: {قُلْ سَمُّوهُمْ} يأمرهم بذكر أسماء أصنامهم التي يعبدونها وذلك على سبيل التهديد، أو على سبيل التحقير والازدراء، أي سموا هؤلاء الذين أشركتموهم في العبادة.

قوله: {أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ} {أم}، المنقطعة، بمعنى بل وهمزة الاستفهام - أي بل أتنبئون الله بشركاء له في الأرض لا يعلمهم، وهو العليم بما في السموات والأرض؟ {أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ} بل أتسمونهم شركاء لله بباطل من القول وكذب، أو تسمونهم شركاء بظاهر من القول المسموع وهو في الحقيقة باطل لا صحة له.

قوله: {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ} أي ليس ما يفتريه المشركون من اصطناع الأوثان إلا الكذب والظلم والباطل، فإنه ليس لله شريك البتة - بل زين لهؤلاء الضالين {مكرهم} وهو كفرهم وإشراكهم، فقد زين لهم الشيطان ذلك - سواء في ذلك شيطان الجن أو البشر، فكلهم شياطين يزينون للناس الكفر ويحسنون لأذهانهم ونفوسهم فعل المنكرات والمعاصي، وينفرونهم من عقيدة التوحيد وعبادة الله وطاعته والإذعان أوامره أشد تنفير.

قوله: {وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ} صدوا بضم الصاد، على البناء للمفعول، أي صدهم الله لفساد قلوبهم وسوء فطرتهم التي تنفر من الحق نفورا - تلك في الفطرة السقيمة التي لا تستجيب لنداء الرحمن ولا تملى دعوة الحق والنور - أو صدهم الشيطان بمختلف أساليبه ووسائله وأسبابه - وتقرأ بالفتح على البناء للمعلوم، أي أن المشركين الضالين المضلين قد صدوا الناس عن دين الله وحالوا بينهم وبين عقيدة التوحيد ومنهج الله بأساليب شتى من الإغراء والإغواء والتضليل، أو الترهيب والإكراه والقسر.

قوله: {وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} يعني من أضله الله عن إصابة الحق بخذلانه إياه، فليس من أحد بعده يهديه لإصابة الحق - قال الزمخشري في تأويل ذلك: من يخذله الله لعلمه أنه لا يهتدي فماله من احد يقدر على هدايته ٤٩.

٣٤ - (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

قوله تعالى: {لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ} أي هؤلاء المشركون المضلون الذين يصدون الناس عن دين الحق قد أعد الله لهم عذابا في حياتهم الدنيا هذه - وذلك بمختلف وجوه العذاب والبلاء كالمصائب والأسقام والهزائم وغير ذلك من الآفات والبلايا - ثم يصيرون بعد ذلك إلى ما هو أشد وأنكى وأفظع - وذلك في الآخرة، حيث النار اللاهبة التي تتسجر فيها أبدان الضالين المضلين تسجيرا، وحيث الإذلال والهوان والعذاب البئيس، وحينئذ ليس لهم من أحد يدرأ عنهم شيئا مما حاق بهم من العذاب الوجيع.

٣٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

قوله تعالى: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} {مثل}، مرفوع على الابتداء - وخبره محذوف وتقديره: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، وهو قول سيبويه - وقيل: خبره {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} والأول أقوى ٥٠.

فبعد أن بين الله ما أعده للكافرين الظالمين من عذاب الدنيا والآخرة، ذكر ما أعده لبعاده المؤمنين، فقد أعد لهم الجنة ووصفها بأنها تنساح خلالها وفي أرجائها الأنهار - ووصفها أيضا بأنها: {أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا} أي ما فيها من ثمار ومأكل ومشارب وغير ذلك من مطعوم، فإنه دائم لا ينقطع - وكذلك ظلها الرخي الظليل مستديم لا يزول.

قوله: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ} الإشارة عائدة إلى الجنة التي وصفها الله - والإشارة في محل رفع مبتدأ - وخبره {عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ} أي الجنة هي عاقبة المؤمنين الذين يخشون الله ويتقون معاصيه - وفي مقابل ذلك جعل الله النار عاقبة للكافرين {وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}.

٣٦ - (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ)

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} المراد مؤمنو أهل الكتاب، وهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعوه - وهؤلاء يفرحون بنزول القرآن، لأنهم مصدقون مطمئنون بالإيمان وقد لامس برد اليقين قلوبهم الطيبة فاستشعروا حلاوة القرآن - وقيل: المراد أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم.

قوله: {وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} {ومن الأحزاب}، أي من أهل الملل المختلفة المتحزبين ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والذين يصدون عن دين الله وهم أهل أديان ونحل وفلسفات كافرة شتى؛ فإنهم ينكرون بعض ما في القرآن؛ لأنه بعضهم ممن يؤمن بالله خالق السموات والأرض ويؤمن ببعض النبيين، لكنهم مع ذلك يجحدون ما في القرآن من حقائق وأحكام وأخبار.

قوله: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ} {أشرك} منصوب لعطفه على {أعبد} أي قل لهم يا محمد إنما أمرت بعبادة الله وحده دون سواه من الشركاء والأنداد - وكذلك فإني مقرر لله بكامل الوحدانية ومخلص له الدين طائعا مخبتا {إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} أي أدعوا الناس إلى عبادته وحده ومرجعي ومصيري.

٣٧ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ)

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ} الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف؛ أي ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأمورا فيه بعبادة الله وحده والدعوة إلى دينه وما فيه من الأحكام والشرائع - وقيل: وكما أنزلنا الكتب السابقة على من سبقك من المرسلين وكذلك أنزلنا عليك القرآن {حُكْمًا عَرَبِيًّا} والمراد بالحكم هنا ما فيه من الأحكام - وقيل: القرآن كله أنزله الله عليك محكما بلسان العرب - اللسان الفصيح الجلي المبين.

قوله: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ} أي لئن اتبعت المشركين على دينهم من الافتراءات والأباطيل وعبادة غير الله من الأنداد المصطنعة، وتابعت رضاهم ومحبتهم بعد ثبوت العلم الذي جاءك من عند الله معززا بالحجة والبرهان، فإن الله يخذلك، وليس لك بعد الله من ناصر أو حافظ يرعاك بكلاءته ويدرأ عنك الكيد والأذي.

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه من التحذير لأمة الإسلام على مر الأجيال والزمن ما لا يخفى، تحذير للمسلمين في كل مكان وزمان من اتباع سنن الكافرين في عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم وأهوائهم وتصوراتهم، يحذر الله المسلمين طيلة الدهر من الاغترار بسلوك الكافرين وعاداتهم ليمضوا وراءهم تابعين ناعقين مقلدين - وتلك هي القاصمة الفادحة التي تقصم قلوب المسلمين ونواصيهم إذ تودي بهم إلى الذلة والانمياع والهوان، وتفضي بهم إلى الانمساخ والتمزق والخور - وما على المسلمين في كل مكان وزمان إلا أن يستمسكوا بعرى الإسلام جميعا عقيدة وسلوكا ومنهج حياة؛ ليظلوا على الدوام أمة واحدة متماسكة قوية مستقلة، ذات شأن ظاهر كبير ومميز.

٣٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٣٨ يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}.

جاء في سبب نزول هذه الآية أن اليهود عيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: ما ترى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح - ولو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء فأنزل الله الآية ٥١.

والمعنى: لقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلا إلى الأمم التي خلت من قبل هذه الأمة وقد جعلناهم بشرا مثلك يأكلون ويرقدون يتزوجون ولهم الأولاد والذرية، فما كانوا من الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون؛ بل أرسلهم الله بشرا مثلك يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

ومن سنن الإسلام التحضيض على النكاح والنهي عن التبتل وهو ترك الزواج؛ فإن الزواج مدعاة للسكينة، وصوان النفس عن الجنوح للفاحشة فضلا عما يفضي إليه الزواج من تحصيل للذرية الذين تقر بهم العين وتحقق بمجموعهم عمارة الأرض فتصلح الحياة ويقوم المجتمع.

وفي الترغيب في الزواج يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم).

وروي البخاري في صحيحه عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم - فلما أخبروا كأنهم تقالوها - فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا؟ وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج.
فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني) - وروي مسلم أيضا سنده عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يبتل، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم، ولو أجاز له ذلك لاختصينا.
وهذه هي طبيعة الإسلام القائم على الاعتدال والوسط، والمجانب لكل صور المغالاة او التفريط او التنطع - وهو ما ينسجم والفطرة البشرية خير انسجام - ومن الحق الذي لا مراء فيه أن الإسلام وحده لهو الدين المميز الأمثال الذي يراعي طبائع البشر وما جلبوا عليه من شهوات واستعدادات ورغبات أساسية مركوزة بعيدا عن المكابرة أو التطرف أو الغلو، أو الحرمان أو الكبت - وهذه واحدة من الخصائص الكبرى التي تكفل للإسلام دون غيره أن يصلح عليه الناس ويسعد به الأفراد والمجتمعات في كل الأزمان والأحوال.
قوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ} ما يستطيع أحد من الناس ولا رسول من الرسل أن يأتي أمته بمعجزة أو خارقة من الخوارق كتسيير الجبال، أو إحياء الموتى، أو نحو ذلك من الآيات إلا بأمر الله - وذلك رد على الكافرين؛ إذ اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه من الآيات الخرقة وهو ما بيناه سابقا - وجملته - أن ذلك كله بأمر الله وحده - وما يسأل هؤلاء الجاحدون إلا من باب المكابرة والمعاندة والاستسخار - مع أنهم قد جاءهم القرآن وهو خير معجزة مشهودة تتنزل على الأرض فتعيها العقول وتملاها القلوب - معجزة باقية خالدة لا تبلى ولا تفنى ولا تبيد، لكن الناس عنها غافلون لاهون بعد أن اجتالتهم عن إدراكها ووعيها الشياطين!
قوله: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} أي لكل أمر قضاه الله كتاب عنده يكتبه على عباده ويحكم به فيهم - وقيل: في الكلام تقديم وتأخير - والمعنى: لكل كتاب أجل؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت ووقت معلوم - و نظير ذلك قوله تعالى: {لكل نبأ مستقر} والمراد: أن الأمر كله تابع لمشيئة الله واختياره وليس حسب إدارة الكافرين وما يقدمونه من اقتراحات.
٣٩ - (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)
قوله: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} اختلفوا في تأويل هذه الآية؛ فقد قيل: يمحو الله ما يشاء من أمور العباد فيغيره؛ إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت؛ إلا أشياء: الخلق والخلق والأجل والرزق، والسعادة والشقاء.
وفي رواية عن ابن عباس: يبدل الله ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله {وعنده أم الكتاب} أي جملة ذلك عنده في أم الكتاب وهو الناسخ والمنسوخ ما يبدل - وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنبا فامحه؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.
وقيل: إن الله ينسخ من الأقدار ما يشاء ويثبت منها ما يشاء.
ويعزز هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر) وثبت في الصحيح أن: (صلة الرحم تزيد في العمر).
قوله: {وعنده أم الكتاب} أي اللوح المحفوظ - وهو كل كائن مكتوب فيه، فهو جملة الكتاب وأصله؛ لأن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أصل المثبت منه والممحو؛ وجملة ذلك كله في كتاب عند الله ٥٢.
٤٠ - (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)
قوله تعالى: {وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ٤٠ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا

مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {ما}، في قوله: {وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ} زائدة - والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب.

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بأنه: إما نريمك يا محمد في حياتك بعض ما نعد هؤلاء المشركين من العقاب على كفرهم وجحودهم، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك العقاب، فإنما عليك تبليغ الرسالة فسحب، وما عليك من حسابهم بعد ذلك من شيء؛ إنما حسابهم وهو جزاؤهم على الله فيجازيهم بأعمالهم من خير أو شر، فلا تستعجل لهم العذاب، ولا تعبأ بجحودهم وكيدهم.

٤١ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أو لم ير هؤلاء المشركون المعاندون المستكبرون من أهل مكة الذين يسألون الخوارق والمعجزات، أن الله يقصد البلاد فيفتحها للإسلام أرضا بعد أرض، وبذلك تضيق رقعة الكفر بالكافرين شيئا فشيئا لتزداد ساحة المسلمين بما يكتبه الله من الغلبة والنصر لدينه العظيم، أفلا يعتبر هؤلاء الضالون الظالمون فيخافوا أن تفتتح أرضهم ليعمهم الإسلام بنوره وضيائه وظهور المسلمين عليهم؟!

قوله: {وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} حكم الله نافذ لا راده شيء، ولا يرده بالرد أو منازع وهو كذلك {لا معقب لحكمه} والمعقب، هو الذي يعقب الشيء بالرد والإبطال - والمعنى: أنه ليس من أحد يتعقب حكم الله ينقص ولا تغيير {وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} أي سريع الانتقام من الظالمين الذي يجحدون دعوة الله ويصدون الناس عن منهج الحكيم، ويعتدون على المؤمنين العاملين بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا جرم أن الله منتقم من هؤلاء الظالمين المجرمين فمجازيهم الجزاء السريع في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ٥٣.

٤٢ - (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

قوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} المكر معناه الخداع أو الخديعة؛ ماكره: أي خادعه - وتماكروا: احتال بعضهم على بعض ٥٤ والمعنى: ان الكافرين من الأمم السابقة قد مكروا برسلهم وأنبيائهم؛ إذ كادوا لهم كيدا، وتملأوا عليهم بالخداع والغدو والصد والأذى، كمكر نمرود بإبراهيم، ومكر فرعون بموسى، وكما كادت يهود لعيسى المسيح.

قوله: {فلله المكر جميعا} أي أن جميع مكر الماكرين غنما يحصل بتخليق الله وإرادته؛ لأن الله خالق للعباد وأعمالهم جميعا.

على أن مكر الماكرين لا يضر أحدا من الممكور بهم إلا أن يشاء الله و يؤثر فه إلا بتقديره سبحانه - وفي ذلك تسلية من الله للنبي صلى الله عليه وسلم كيلا يعبأ أو يكترث ما دام حصول المكر من تخليق الله، وتأثيره في المكور به لا يقع خارجا عن إرادة الله، فوجب بذلك أن لا يكون الخوف إلا من الله وحده، وأن لا يكون الرجاء إلا من الله دون غيره من المخاليق.

قوله: {يعلم ما تكسب كل نفس} أي أن الله عليم بما يفعله المشركون الظالمون من كيد للرسول والمؤمنين - وهو مجازيهم عما فعلوه {وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار} يعني سيعلم الكافرون من تكون له العاقبة المحمودة في دار الدنيا هذه، أو في الدار الآخرة، أو في كلتا الدارين جميعا ٥٥.

٤٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} قال المشركون الجاحدون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لست مرسلا من الله بل أنت متقول - هذه مقالة الجاحدين السفهاء الذين كذبوا رسولهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وكل الشواهد الظاهرة تدل في يقين قاطع أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي صدوق وأنه قد أوحي إليه من ربه، بل إن العرب المشركون أنفسهم مستيقنون في عميق نفوسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه وهو فيهم الصادق الأمين.

ومن جملة ذلك مقالة الخصية العتيد أبي جهل: والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا.
قوله: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي قل لهم: حسبي الله شاهدا بصدقي وبكذبكم - كفى بالله خير شاهد على صدقي وحقيقة ما أقول لكم وعلى أنني لست متقولا؛ بل إنني مبعوث من رب العالمين - والله جل وعلا خير الشاهدين.
قوله: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} المراد بهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يجدون صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم السماوية وهي التوراة والإنجيل، كقوله في آية أخرى: {أو لم يكن لهم أن يعلمه علماء بني إسرائيل} فقد كان العلماء من بني إسرائيل يتلون في كتبهم المقدسة عن ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو اسمه، وانه مبعوث للناس ليكون خاتم النبين والمرسلين ٥٦.

١٤ سورة إبراهيم:

سورة إبراهيم:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وقيل: مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة - ويتزاحم في هذه السورة فيض من المعاني الجليلة المؤثرة، وذلك في ألوان شتى من العبر والمواعظ والمشاهد، وفي طليعة ذلك: التخويف من يوم القيامة حيث الفظائع والأهوال والبلايا، وما يتجرعه المشركون والظالمون في النار من سوء الشراب وبشاعة التحريق - ولعل أبرز أخبار السورة وما حوته من مضامين، الحديث عن خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ إذ دعا ربه وهو في مكة أن يجعل هذا البلد (مكة) آمنا، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، ثم تضرعه إلى ربه أن يجعل قلوبا من عباده المؤمنين تحن إلى هذا البلد الطاهر فترغب على الدوام في زيارته ومشاهدته بالرغم من جدبه وجفافه وشحة الزرع والثمار فيه - إلى غير ذلك من الأخبار والمواعظ.
١ - (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ألم كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد (١) الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد (٢) الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد}.
(الر) في موضع رفع على أنه مبتدأ، وخبره (كتاب) - وقد تقدم نظير ذلك من حيث الخلاف في تأويله - وقيل: (كتاب) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هذا كتاب - و (أنزلناه)، جملة فعلية في موضع رفع صفة لكتاب ١، والمراد بالكتاب، القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - - وهو سبحانه يخاطبه فيه بقوله: (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) (الظلمات) جمع ظلمة وهي سواد الجو المانع من الرؤية - أو هي ذهاب الضياء بما يستره - و (النور) معناه الضياء، أو البياض الشعاعي الذي تصح معه الرؤية ويمنع معه الظلام - والمقصود بالظلمات هنا الكفر بكل صوره وضروبه ومسمياته، يستوي في ذلك كفر الوثنيين أو الملحدين أو الوجودين أو أهل الكتاب - ومن أجل ذلك حيث المسميات الكثيرة للكفر جيء بالظلمات على الجمع، وأفرد النور، والمراد به الإسلام؛ فهو الحق الواحد الراسخ الذي لا حق غيره وليس من شيء بعده إلا الضلال - لا جرم أن الإسلام وحده دين الهداية والكمال والعدل المطلق - الدين الذي تستقيم عليه أوضاع البشرية؛ لأنه دين معتدل ومنسجم ورحيم ووسيط، يراعي فطرة الإنسان وطبيعة البشر أكمل مراعاة بعيدا عن التخبط أو الإفراط أو التفريط، أو المغالاة التي اتسمت بها الملل والعقائد والشرائع الأخرى التي سيمت خلالها الإنسانية البلايا والفشل والأمراض وسوء العاقبة.
لقد بعث الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - هاديا للناس ومرشدا ونذيرا - وفي ذلك ما يخرج الناس من كابوس الكفر الذي يترعرع فيه الشر والباطل، وتتجرع خلاله البشرية مرارة الظلم والفساد والضلال - يخرجهم من هذه الحمأة الآسنة المنكودة حيث العفن والضيم

والمضاضة إلى نور الإسلام بضيائه الساطع المشعشع الذي تتندى خلاله وفي ظلاله نسائم الأمن والراحة والأخوة والرحمة.
قوله: (بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) ذلك الإخراج من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام إنما هو بإذن الله؛ أي بتسهيله وتيسيره وتوفيقه (إلى صراط) بدل من قوله: (إلى النور) والمراد بالصراط هنا: طريق الله المودي إلى الحق في هذه الدنيا والمفْضي إلى النجاة والفوز في الآخرة، وقد أضيف الصراط إلى العزيز الحميد؛ لأن الله جل جلاله هو صاحبه، المبين له، وكفى بذلك دليلا قاطعا على أن هذا الطريق حق وصدق ومستقيم - و (العزيز) معناه القوي الغالب القادر على كل شيء و (الحميد) معناه المحمود في أفعاله وفيما أنعمه على مخلوقاته وعباده من النعم ومنها نعمة الإسلام - هذا الدين الذي تنجو به الإنسانية في هذه الدار ويوم تقوم الساعة.
٢ - (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)
وقوله: {الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد} - (الله)، يقرأ بالجر والرفع - فالجر على أنه بدل من قوله: (العزيز الحميد) والرفع على أنه مبتدأ وما بعده خبر - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هو الله الذي له ما في السماوات ٢ - والمعنى: أن الله له ملكوت السماوات والأرض وما فيهن - ذلكم الله العظيم في جلاله وملكوته وسلطانه؛ حقيق بالإقرار له بالألوهية مستوجب للعبادة والطاعة والامتثال له وحده دون أحد سواه (وويل للكافرين من عذاب شديد) ذلك وعيد من الله للمكذبين الذين يجحدون كتابه الحكيم، ويجانبون صراطه القويم، ويأبون إلا الضلال واتباع الشهوات والهوى، أولئك لهم الويل - وهو مصدر غير مشتق ومعناه الهلاك - وقد يستعمل للتحسّر - وقيل: واد في جهنم يهوي فيه الجاحدون والمكذبون المضلون - ويل لهؤلاء (من عذاب شديد) وهو عذاب الآخرة حيث النار وبئس القرار - وقيل: المراد عذاب الدنيا والآخرة؛ فالله معذب الكافرين المضلين في الدنيا بمختلف أنواع العذاب من أهوال وأسقام ومخاوف وحروب، ثم يصيرون بعد ذلك إلى عذاب البرزخ (القبر) الذي يفضي فيما بعد إلى عذاب الآخرة بفظائعها وشدائدها العظام ٣.
٣ - (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ)
قوله: (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) الاستحباب هو طلب محبة الشيء - والمعنى: أن الكافرين يختارون الحياة الدنيا بزينتها ومتاعها وزخرفها على الآخرة - أو أنهم يستبدلون الدنيا من الآخرة - وهؤلاء هم الأخسرون الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة فباءوا بالعذاب والخزي.
قوله: (ويصدون عن سبيل الله) الكافرون الظالمون مجانبون بأنفسهم عن دين الله - وهم لا يكتفون بمجانبتهم ونأيهم عن منهج الله؛ بل يبادرون في هوس مريض، ونشاط ماكر، وخبث فظيع، وضغينة عاتية مركوزة؛ لصد الناس عن دين الله والحيلولة بين البشرية وهذا الدين العظيم الحكيم - وأنكى من ذلك كله أنهم كما وصفهم الله بقوله: (ويبغونها عوجا) (عوجا)، منصوب على المصدر في موضع الحال - وقيل: مفعول ثان للفعل يبغون ٤؛ يعني يطلبون لسبيل الله وهو دينه، الزيغ والاعوجاج؛ أي يبتغون أن يروا في دين الله الزيغ عن الاستقامة والتنكب عن الحق والصواب - وذلك هو شأن الكافرين الحاقدين المضلين وديدنهم في كل زمان؛ فإنهم يريدون للإسلام التشويه والزيغ؛ ليصير دينا مقلوبا آخر، دينا محرفا مبدلا وقد أتت عليه ظواهر التغيير والتشويه والتمسيخ؛ كيلا يكون بعد ذلك الدين الحقيقي الذي أراده الله للعالمين.
هكذا يريد الظالمون في عصرنا الراهن من استعماريين ووثنيين وصليبيين وملحدين وصهيونيين وعملاء!! يريدون للإسلام التشويه والزيغ والاعوجاج؛ لينقلب إلى دين يرضون هم عنه، دين غير دين الله، دين تغشاه ظواهر شتى من السلبية والانطوائية والانمياع والترقيع والضعف.
وذلكم هو العوج الفادح الوبيل الذي يندد الله به وبالذين يتنادون لإظهاره وتثبيته متذرعين بذرائع في غاية الزور والتهافت والافتراء والخداع.
قوله: (أولئك في ضلال بعيد) ذلك إخبار من الله عن هؤلاء الذين اختاروا الحياة الدنيا؛ إذ آثروها على الآخرة، والذين يصدون الناس عن دين الله الحق ويبتغون له الزيغ والاعوجاج وذلك بتغييره أو تبديله وتشويهه؛ فإنهم بعيدون عن الحق بعدا عظيما وسادرون في

الظلام والغي حتى يلاقوا مصيرهم الأليم ٥.
٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
قوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم (٤) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيّام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٥)}.
لم يرسل الله من رسول في الأمم السابقة إلا بلغة الذين أرسل إليهم وهو منهم ومبعوث فيهم (ليبين لهم) أي دينهم الذي جاءهم به من عند الله؛ فيتلقوه منه في سرعة ويسر من غير حاجة إلى ترجمان، وهذه حجة لله على العباد إذ بعث فيهم النبيين من أنفسهم، كل نبي بلغة قومه؛ تسهيلا لهم وتيسيرا عليهم؛ فيتسنى لهم بذلك فهم دينهم والوقوف على حقيقته ومعناه.
قوله: (فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) (فيضل)، مرفوع على الاستئناف ٦.
والمعنى: ليس على الرسول إلا القيام بتبليغ الناس، وما عليه هداية أحد؛ فإنما الهادي هو الله وحده دون أحد من خلقه، وما على النبي كذلك إضلال أحد، وإنما يضل الله الناس إن كانوا لا يستحقون الهداية؛ لفساد فطرتهم وسوء اختيارهم، وذلك بخلاف المهتدين الذين يكتب الله لهم الهداية؛ لاستقامة طبعهم وسلامة فطرتهم وحسن اختيارهم؛ إذ سلكوا طريق الهداية حيث الفوز بالجنة والرضوان.
قوله: (وهو العزيز الحكيم) (العزيز) يعني القوي القادر على كل شيء والذي لا يغلبه شيء - و (الحكيم)، الواضع للأشياء على ما اقتضته حكمته المطلقة وتقديره الكامل من غير نقص في ذلك ولا عيب ولا خلل.
٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)
قوله: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أرسل الله نبيه الكليم موسى عليه السلام إلى القوم المجرمين وهم فرعون وقومه الذين طغوا في البلاد وأكثروا في الأرض الفساد - أرسله إليهم بآياته البينات وهي الحجج والبراهين.
وقيل: المراد بها الآيات التسع التي أجراها الله على يد موسى - وقيل: المراد آيات التوراة.
قوله (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) (أنْ)، تحتمل وجهين: أحدهما: كونها مصدرية - وثانيهما: كونها تفسيرية؛ أي مفسرة بمعنى أي ٧ - والمراد بقومه؛ بنو إسرائيل؛ إذ أرسله الله إليهم ليخرجهم من ظلمات العبودية والذل والقهر إلى نور العزة والسلطان - وقيل: المراد بقومه القبط؛ فيكون المعنى: أخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان وعبادة الله وحده.
قوله: (وذكرهم بأيام الله) يعني ذكرهم بنعم الله وبلائه - فنعم الله عليهم كثيرة؛ فقد أعطوا من النعم والخيرات والمنن الكبيرة والكثيرة ما لم يُعط مثله أحد في العالمين سواهم - وذلك كالمن والسلوى، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وانبجاس الماء الثجاج من الصخر - وأما بلاؤه: فبقهر فرعون لهم واستعباده إياهم وتقتيل أبنائهم وإذلالهم.
قوله: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) الإشارة عادة إلى أيام الله؛ أي التذكير بأيام الله من النعماء، والبلاء فيه علامات كبيرة تكشف عن جلال الله وعظيم قدرته وحكمته (لكل صبار شكور) الصبار، الكثير الصبر على البلاء في سبيل الله - وكذلك الشكور، الكثير الشكر لأنعم الله - وذلك هو أمر المؤمن؛ فإنه يصطبر على البلاء بكل صوره، يبتغي بذلك رضوان الله، ثم يشكره على ما منّ به عليه من خير ونعمة - لا جرم أن نعم الله على الإنسان كثيرة لا تحصى - منها نعمة العقل والسمع والبصر والإرادة وكل ظواهر الحس، وغير ذلك من وجوه الخيرات المادية والمعنوية التي أسبغها الله على عباده ٨.
٦ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)
قوله تعالى: {وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نسائكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}.

(إذ)، منصوب على المفعولية بمضمر، أي اذكر لهم يا محمد وقت قول موسى لقومه (اذكروا نعمة الله عليكم) التي أنعمها عليكم وهي كبيرة وكثيرة - وذلك (إذ أنجاكم من آل فرعون) متعلق بقوله، (اذكروا) - أي اذكروا حين أنجاكم الله من فرعون وقومه الظالمين، أو اذكروا إنعام الله عليكم وقت إنجائكم من فرعون وملإه الطغاة المجرمين الذين كانوا (يسومونكم) من السوم أو السوام، وهو الذهاب في طلب الشيء - سام الإنسان ذُلًا أو خسفا أو هوانا، أي أولاه إياه وأراده عليه ٩ (سوء العذاب) مفعول ثان ليسومونكم، أي يذيقونكم شديد العذاب - والعذاب جنس العذاب المؤلم السيئ كاستعبادهم وإذلالهم وتسخيرهم للأعمال الشاقة في امتهان وتحقير (ويذبحون أبناءكم) معطوف على

(يسومونكم) - والمراد بالتذبيح هنا، قتل الأولاد الذكور ظلما وعدوانا، واستبقاء النساء - وهو قوله: (ويستحيون نسائكم) أي يبقونهن في الحياة مع الذل - لا جرم أن ذلك بلاء فظيع، لأن إبقاء النساء دون البنين مهانة وإذلال ومبعث اللوعات والأحزان في نفوسهن - وهو قوله: (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أي فيما تبين من فظيع الأفعال البشعة المذكورة ابتلاء من الله تعالى لتصبروا فتؤجروا ثم يكشف الله عنكم بعد ذلك ما حاق بكم من البلاء والمحن، وقيل: البلاء هنا بمعنى النعمة، أي في ذلكم نعم من ربكم عظيمة، إذ أنجاكم من فرعون وقومه الطغاة الظالمين، فالمشار إليه الإنجاء من ذلك - والبلاء يراد به الابتلاء بالنعمة، فإنه يكون بها كما يكون بالمحنة، وفي مثل ذلك يقول سبحانه: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ١٠.

٧ - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

قوله تعالى: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (٧) وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد (٨)} - جملة (تأذن ربكم) معطوفة على (نعمة الله عليكم)، والتقدير: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم، أي أعلمكم - ومنه الآذان لأنه إعلام (لئن شكرتم لأزيدنكم) الشكر، معناه الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف - وشكره يشكره شكرا وشكرانا - والشكران ضد الكفران ١١ - والمراد بشكر الله: الاعتراف بنعمته على الإنسان وعدم صرفها في معصيته - والمعنى: لئن ذكرتم نعمتي عليكم واعترفتم بما خولتكم من نعمة الإنجاء من الإهلاك وغير ذلك من وجوه البلاء والفتنة، فقابلتم ذلك بالإيمان والإخلاص والطاعة وصالح الأعمال (لأزيدنكم) أي لأزيدنكم من فضلي وإنعامي عليكم في الدنيا والآخرة.

قوله: (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) اللام موطئة للقسم، أي لئن جحدتم نعمتي عليكم وسترتموها فلم تظهروها ولم تشكروا الله عليها (إن عذابي لشديد) جواب الشرط والقسم، أي أعذبكم العذاب الشديد بسلب النعم عنكم وبعقابكم على الجحود وكفران النعم - وفي الحديث: " إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ".

٨ - (وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

قوله: {وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد} ذلك إعلان ظاهر ومجلجل ١٢ بأن كفران قوم موسى والناس جميعا لا يعبأ به الله ولا يدركه به أيما نقص، فإن الله بكماله وعظيم سلطانه وجليل ملكوته وجبروته مستغن عن الخلائق كافة - ويستوي في ذلك ما إذا حمل الكفر في هذه الآية على مقابل الشكر وجحود النعمة، أو على مقابل الإيمان من الشرك والعصيان، فالله جل جلاله في كل الأحوال غني عن العالمين، وهو سبحانه المحمود المتعالي في جلاله وكبريائه ١٣.

٩ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

قوله تعالى: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب} - هذا خطاب مستأنف من الله لهذه الأمة - ويحتمل أنه من كلام الله سبحانه خطابا لقوم موسى وتذكيرا لهم بالأمم الماضية من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم، وما

حل بهم من التدمير عقب تكذيبهم وعصيانهم - وفي ذلك من التحذير لهم من عاقبة المكذبين ما لا يخفى.
قوله: (لا يعلمهم إلا الله) أي أن الأمم السابقة من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم ولا يعلم مبلغهم إلا الله - قال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون.
قوله: (جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) يعني جاءت هؤلاء الأمم رسلهم الذين أرسلوا إليهم ليدعوهم إلى دين الله الحق- بالحجج والدلالات الظاهرة على صدق دعوتهم لكنهم جحدوهم وصدوهم (فردوا أيديهم في أفواههم) وثمة خلاف في تأويل ذلك - فقد قيل: لما سمعوا كلام الله عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم - وقيل: ردوا أيديهم في أفواه الأنبياء يشيرون إليهم بالسكوت - أو وضعوها على أفواههم يسكنونهم ولا يذرونهم يتكلمون.
وقيل: وضعوا أيديهم في أفواههم ضحكا واستهزاء كمن يغلبه الضحك فيضع يده على فيه - وقيل: عضوا أصابعهم تغيظا عليهم من أجل دعوتهم التي جاءوهم بها - كقوله: (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهو تأويل قوي.
وقيل: ردوا عليهم قولهم وكذبوهم وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به وهو قولهم: (إنا كفرنا بما أرسلتم به) وهو قوي كذلك؛ أي كذبنا ما جئتم به وما تزعمون أنكم أرسلتم به (وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) أي إننا في مِرْية مما جئتمونا به من توحيد الله وإفراده بالعبادة (مريب) أي موقع في الريبة والتهمة؛ فهذا الشك الذي يقلقنا ويخالط أذهاننا أوجب لنا التهمة والارتياب وعدم الثقة بكم ١٤.

١٠ - (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
قوله تعالى: }قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين{ أي يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات، ويؤخركم إلى وقت مسمى عنده وهو الموت فلا يعذبكم في العاجل.
قوله: (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) قالت الأمم السابقة لأنبيائهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة؛ فها أنتم تأكلون كما يأكل البشر وتشربون كما يشرب البشر - فما تريدون مما جئتمونا به إلا أن تصرفونا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام (فأتونا بسلطان مبين) فأتونا ببرهان يبين صحة قولكم وحقيقة ما تدعوننا إليه لنعلم أنكم محقون.
كذلك كان منطق الأمم الغابرة الضالة، المنطق الفاسد السقيم، منطق الجهالة والتقليد المضلل الأعمى واتباع ما كان يصنعه الآباء السابقون كيفما تكن حاله من السخف والسفه والضلالة - وذلك هو شأن الجاهلين المضللين في كل زمان، ممن يألفون صنع الآباء وإن كان باطلا، ويأنفون مما يدعوهم إليه المهتدون الصادقون وإن كان صوابا.

١١ - (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
قوله تعالى: }قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١١) وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (١٢){.
قالت الرسل لأممهم الجاحدين: ما نحن من حيث الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم كما تقولون (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) أي يتفضل الله على من يشاء من الناس بالرسالة والنبوة والحكمة والتوفيق - فما أوتي المرسلون من نبوة ورسالة فذلكم فضل من الله عظيم يمن به على المصطفين الأخيار من عباده.
قوله: (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) المصدر من (أن نأتيكم) في موضع رفع اسم كان - وخبر كان (إلا بإذن الله)

وقيل: خبرها (لنا) ١٥.
والمعنى: ليس في مستطاعنا أو قدرتنا أن نأتيكم بسلطان، أي برهان أو حجة - وإنما يتم ذلك بمشيئة لله وإرادته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يأمر النبيون المؤمنين من الناس أن يركنوا إلى ربهم ويتوكلوا عليه حق التكلان في أحوالهم وأمور حياتهم، وعلى الخصوص إذا طوقتهم المخاطر أو حدقت بهم خطط الأعداء الظالمين.
١٢ - (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)
قوله: (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) (ما)، استفهامية في موضع رفع مبتدأ، وخبره (لنا ألا نتوكل على الله)، في موضع نصب على الحال ١٦ وتقديره: وأي عذر لنا في عدم التوكل على الله (وقد هدانا سبلنا) أي وهو الذي هدانا سبل التوفيق والسداد، وأرشدنا إلى ملة الحق والصواب.
قوله: (ولنصبرن على ما آذيتمونا) ذلك قسم من النبيين الكرام على أنهم سيصبرون على ما يمسهم من الأذية والمكاره من الكافرين الظالمين، الذين يصدونهم عن دعوة الحق بكل الأسباب من التنكيل والتكذيب والإهانة والقتل (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) هذا تكرار للأمر بالتوكل على الله على سبيل التأكيد لهذه القضية العظيمة المستندة إلى رسوخ الإيمان في قلوب المسلمين - لا جرم أن المسلمين الثابتين الواثقين من ربهم وأنه يهديهم سبل التوفيق والسداد بما يفضي بهم إلى النصر، متوكلون على الله وحده، واثقون من كلاءته لهم وتأييده إياهم - وليس على المؤمنين الداعين إلى الله في كل الأحوال إلا أن يمضوا على طريق الله ثابتين مطمئنين واثقين من نصر الله وأنهم على الحق، ومتوكلين على الله تمام التوكل ولن يضيعهم الله أو يترهم أعمالهم ١٧.
١٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: }وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين (١٣) ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (١٤)} قال الكافرون الظالمون للنبيين الذين أرسلوا إليهم حين دعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالألوهية والعبادة ومجانبة الشرك والأصنام: (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) اللام لام القسم؛ أي والله لنطردنكم من بلادنا إلا أن تعودوا في ديننا وملتنا، ملة الوثنية والشرك وعبادة الأصنام.
قوله: (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) قال الله للرسل: (لنهلكن الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب والصد عن دين الله، فاستحقوا من الله العقاب والتدمير.
١٤ - (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)
(ولنسكننكم الأرض من بعدهم) هذا وعد من الله لعباده المؤمنين الثابتين على الطريق، الصابرين على الحق- بنصرهم على الظالمين المجرمين وإسكانهم آمنين مطمئنين ظافرين أرض الظالمين وديارهم عقب هلكتهم وزوال شوكتهم - ذلك وعد من الله غير مكذوب ولا مريب - ووعد الله يقين وحق بأنه ناصر المؤمنين المخلصين في الدنيا والآخرة.
قوله: (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) الإشارة إلى إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم - وذلك كله حق (لمن خاف مقامي) أي خاف جلالي وسلطاني يوم القيامة (وخاف وعيد) أي خاف عذابي الذي يُسامُهُ الظالمون المجرمون جزاء تكذيبهم وظلمهم وعدوانهم على المؤمنين بالإيذاء والصد عن دين الله - ١٨
١٥ - (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)
قوله تعالى: }واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (١٥) من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد (١٦) يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ (١٧)} استفتح المرسلون على قومهم الظالمين؛ أي استنصروا الله عليهم؛ فقد أذن الله لرسله أن يستفتحوا على قومهم والدعاء عليهم بالإهلاك كما استنصر نوح على قومه الظالمين المجرمين بعد أن استيأس منهم فدعا الله أن يهلكهم ويستأصلهم (وخاب كل جبار عنيد) أي خسر كل متكبر على طاعة الله وعبادته - والعنيد، هو المجانب للحق

من العنود ومعناه الانحراف عن الحق والصدق.
١٦ - (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)
قوله: (من ورائه جهنم) (ورائه)، بمعنى أمام، أي من أمام كل جبار جنهم يهوي فيها - وقيل: وراء بمعنى بعد، أي من بعد هلاكه جهنم - وقيل: الوراء من الأضداد - فهو يقع على الخلف والقدام - والمقصود: أن ثمة جهنم من أمام الطغاة الجبابرة المعاندين، الناكبين عن منهج الله والذين طغوا في الأرض وصدوا الناس عن دين الله وساموا المؤمنين البلاء والتنكيل والقهر - لا جرم أن هؤلاء جبارون مستكبرون معاندون سيصيرون إلى جهنم وبئس المصير.
قوله: (ويسقى من ماء صديد) (صديد)، عطف بيان - والتقدير: أنه لما قال (ويسقى من ماء) بين ذلك الماء فقال: (صديد) والصديد: الدم المختلط بالقيح، أو هو القيح والدم مما يسيل من جلود أهل النار ١٩.
١٧ - (يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)
قوله: (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) (يتجرعه)، يعني يتحسَّاه تغصصا أو يشربه قهرا وقسرا جرعة جرعة وليس مرة واحدة وذلك لشدة حرارته ومرارته (ولا يكاد يسيغه) ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته - وهو يسيغه بعد إبطاء وذلك من شدة العطش - والعرب تقول: ما كدت أقوم، أي قمت بعد إبطاء.
قوله: (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) يعني تأتيه أسباب الموت من كل مكان أو جهة، إذ تأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن كل موضع في جسده وهو ليس بميت، لأنه لا تزهق نفسه فيستريح، ولا هو بحي، لأن نفسه تحشرج وتضطرب في الحناجر فلا ترجع إلى مكانها - وذلك تفظيع لما يصيبه من الآلام الشديدة التي يكفي الواحد منها لإزهاق نفسه.
قوله: (ومن ورائه عذاب غليظ) الضمير في (ورائه) يحتمل عودة وجهين - أحدهما: أنه عائد على الكافر - ثانيهما: أنه عائد على العذاب، فيكون المعنى: إن رواء هذا العذاب عذاب غليظ ٢٠، وذلك تفظيع لحال الأشقياء المعذبين في جهنم، فإن العذاب الشديد يحيط بهم من أمامهم ومن خلفهم ليذوقوا الهوان البالغ والإيلام الفظيع ٢١.
١٨ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ)
قوله تعالى: {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد} في إعراب (مثل) عدة وجوه، أهمها اثنان هما: الأول: أن (مثل) مبتدأ أول - و (أعمالهم) مبتدأ ثان - (كرماد)، خبر المبتدأ الثاني - والمبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول.
الثاني: أن (مثل) مبتدأ - (أعمالهم) بدل منه - و (كرماد) خبره ٢٢ - هذا مثل لأعمال الكافرين في الدنيا، فإنها يمحقها الله في الآخرة، إذ يأتي عليها الحبوط فلا تجديهم أيما نفع - مثل ضربه الله لأعمال الكافرين الجاحدين الذين يحادون الله ورسله ويستنكفون عن دعوة الله ومنهجه الحكيم - فبين الله في هذا المثل أن أعمال هؤلاء الجاحدين الخاسرين التي كانوا يعملونها في حياتهم كصلة الأرحام وإنفاق المال في الخير والإعمار وغير ذلك من وجوه الإصلاح والبر - كل ذلك مآله الحبوط لصدوره عن كافرين بالله ورسوله وكتابه أو لابتغائهم بذلك غير وجه الله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا).
قوله: (أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) (يوم عاصف)، أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية - والعصف معناه شدة الريح - عصفت الريح عصفا وعصوفا: اشتد هبوبها فهي عاصف وعاصفة ٢٣، أي أن أعمال الكافرين باطلة كلها، فهي مثل رماد عصفت (اشتدت) الريح عليه في يوم ريح عاصف فنسفته وذهبت به - فكذلك أعمال الكافرين يوم القيامة، لا تنفعهم عند الله ولا تنجيهم.
قوله: (لا يقدرون مما كسبوا على شيء) أي لا يقدرون على الانتفاع بشيء من الثواب يوم القيامة على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، كعدم قدرتهم على الإمساك بالرماد إذا عصفت به الريح عصفا في يوم شديد الهبوب - قوله: (ذلك هو الضلال البعيد) أي الخسران الكبير - أو الإشارة إلى التيه البعيد عن الحق والصواب والجزاء الحسن ٢٤.

١٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)
قوله تعالى: {ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٩) وما ذلك على الله بعزيز (٢٠)} الخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، والمقصود كل أحد من الناس - والرؤية هنا يراد بها رؤية القلب - والمعنى: ألم ير الإنسان بعين قلبه فيعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحق؛ أي بالحكمة والوجه الصحيح؛ فقد خلق ذلك كله منفردا، من غير ظهير له في ذلك ولا معين، ليجد الناس فيما خلقه الله من الدلالات والبراهين الظاهرة المستفيضة ما يشهد في يقين قاطع بأنه المنشئ الموجد، وأنه الخالق الغالب، القادر على إفناء هؤلاء الناس وإذهابهم، ثم يأتي بدلا منهم بآخرين جدد أفضل منهم؛ بل إن ذلك على الله هين ويسير؛ لخلق السماوات والأرض لا جرم أصعب وأعظم من خلق الناس - وما الناس في الكون والكائنات إلا جنسا واحدا من أجناس وأصناف وخلائق لا يعلم عدَّها وكثرة أنواعها وأجناسها إلا الله.

وللمرء أن يتصور فداحة البون الهائل المذهل بين خلق الإنسان من جهة، وخلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من جهة ثانية؛ إذ تصور بساطة الكوكب الأرضي الذي يحمل الإنسان، إذا ما قورن بجرم الشمس الحارق المستعر الذي هو أكبر من حجم الأرض بمليون ضعف ونيف - وما الشمس كلها في مقابلة الكون بأجرامه الهائلة المديدة المذهلة إلا كحجم الخردلة الملقاة في فلاة.

٢٠ - (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)
قوله: {وما ذلك على الله بعزيز} ليس مثل هذا الخلق بممتنع ولا متعذر على الله، فالله جلت قدرته يفعل ما يريد.

٢١ - (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)
قوله تعالى: {وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كان لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١) وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم (٢٢)} (وبرزوا)، من البروز وهو الخروج والظهور ٢٥؛ أي برزت الخلائق كلها يوم القيامة ظاهرة مكشوفة لا يسترها شيء لتلاقي الحساب والجزاء - وإذ ذاك تقع المناظرة الكلامية بين التابعين الغاوين، والمتبوعين المغوين المضلين وهم سادتهم وكبراؤهم الذين أضلوهم في الدنيا.

الأتباع الذين كانوا في الدنيا خائرين مستضعفين للسادة المجرمين يحدثون سادتهم يوم القيامة في توبيخ وعتاب لا يفضي إلا إلى التحسر والندامة والالتياع - ثم يرد عليهم المستكبرون المضلون في استيئاس مطبق وإحساس مفرط بالهوان والخسران - وفي ذلك يقول الله سبحانه: (فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) التبع جمع تابع - فقد قال التابعون المستضعفون للمتبوعين المستكبرين: إنا كنا أتباعكم في الدنيا نأتمر بأمركم ونسير على خطاكم فنعبد الأوثان ونثني عن عبادة الله وحده وعن تصديق المرسلين (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أي فهل أنتم دافعون عنا بعض عذاب الله في هذا اليوم؟ (قالوا لو هدانا الله لهديناكم) قال المتبوعون المستكبرون للتابعين الضعفاء: لو كنا مهديين في الدنيا لجعلناكم مثلنا في الهداية.

قوله: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) الهمزة وأم، للتسوية - ونظير ذلك قوله: (فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) والجزع، ضد الصبر ٢٦ والمحيص، بمعنى المنجى والمهرب - والمعنى: أن أهل النار بعد أن يجزعوا جزعا بالغا فيفنى صبرهم ويستيئسوا أشد استيئاس يقول بعضهم لبعض في يأس مطبق وحسرة غامرة مريرة: مستو علينا الجزع والصبر؛ فنحن في كل الأحوال لابثون ماكثون في النار ليس لنا منها مفر ولا ملاذ.

٢٢ - (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ

فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) هذه مناظرة أخرى بين الشيطان الرجيم وأتباعه من الغاوين عقب المناظرة بين التابعين والمتبوعين - ويستفاد من هذه الآية أنه (لما قضى الأمر) أي استقر قرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، يقوم الشيطان خطيبا في جهنم ليقول للخاسرين من الفريقين، التابعين والمتبوعين كما قال الله عنه: (إن الله وعدكم وعد الحق) أي إن الله وعدكم بالبعث والحساب والجزاء فصدقكم وعده

وهاهي النار جزاء الجاحدين والمسيئين والعصاة - أما أنا فقد وعدتكم أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء (فأخلفتكم) أي كذبتكم.

قوله: (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) أي ما كان لي أيما حجة أو برهان على صدق ما وعدتكم به كذبا، إلا أنني أغويتكم فاتبعتموني أنتم طائعين مريدين من غي قسر في ذلك ولا إكراه إلا الوسوسة منا والتزيين، والاستجابة منكم مختارين.

قوله: (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) أي لا تلوموني على استجابتكم لي بل لوموا أنفسكم على استجابتكم مختارين غير مكرهين - يقال لهم هذا القول من اللعين الخبيث إبليس زيادة لهم في التيئيس والإحساس بالحسرة وعظيم الندم ولات حين مندم.

قوله: (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) المصرخ، معناه المغيث، والمستصرخ: المستغيث ٢٧، أي ما أنا بمغيثكم ولا منقذكم مما أنتم فيه من عذاب النار - وما أنتم بقادرين على إغاثتي أو إنقاذي مما أنا فيه كذلك - فكل الكافرين والطاغين والمجرمين مكبكبون في النار، سواء فيهم إبليس وجنوده من الجن أو البشر.

قوله: (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) أشركتموني تقرأ بالياء، على القراءة البصرية - وما، مصدرية - يعني: إني جحدت اليوم بإشراككم إياي مع الله في الدنيا - وبذلك يتبرأ إبليس من إشراكهم له في العبادة والطاعة، ويستنكر كل ذلك منهم يوم القيامة.

قوله: (إن الظالمين لهم عذاب أليم) وهذا من كلام الله في الأظهر وقيل: إنه من بقية كلام إبليس - ومعناه: أن المشركين الجاحدين من التابعين الخاسرين والمتبوعين الأشقياء قد باءوا الآن جميعا بالعذاب الوجيع ٢٨.

٢٣ - (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ)

قوله تعالى: {وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام} (تجري)، جملة فعلية في موضع نصب صفة (جنات) - (خالدين)، منصوب على الحال من (الذين) - و (تحيتهم فيها سلام)، جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الذين - وقيل: في موضع نصب على الوصف لجنات ٢٩ - المصدقون بالله ورسوله، المقرون لله بالوحدانية الكاملة، الطائعون لله ورسوله، والمنتهون عما نهى الله عنه ورسوله، أولئك يدخلهم الله (جنات تجري من تحتها الأنهار) فإنه من خير نعيم يوم القيامة، الجنات، بما حوته من خيرات وثمرات، وما يتفجر خلالها ومن حولها من الأنهار الجارية المنساحة.

قوله: (خالدين فيها بإذن ربهم) أي لابثين في الجنة دائمين، غير مبارحين ولا متحولين (بإذن ربهم) أي بأمر ربهم - وقيل: بمشيئته وتيسيره.

قوله: (تحيتهم فيما سلام) تحية أهل الجنة في الجنة السلام، إذ يحيي بعضهم بعضا - وكذلك تحييهم الملائكة بهذه التحية المباركة الكريمة الفضلى - وتلكم هي تحية السلام، ويعني الأمان والصلح والمودة والبراءة من العيوب وهو اسم من أسماء الله تعالى.

٢٤ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

قوله تعالى: {ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار}. (مثلا) منصوب، لأنه مفعول (ضرب) - (كلمة)، بدل منه - وقيل: عطف بيان له - والمثل في هذه الآية بيان بوصف الإيمان والمؤمنين وما ينبثق عنهما من حياة بشرية مثلى، حافلة بالخير والرحمة وكريم الخلال والخصال.

لقد ضرب الله لذلك مثلا (كلمة طيبة) والكلمة الطيبة، شهادة أن لا إله إلا الله - وهو قول ابن عباس - وقيل: الإيمان بالله جل ثناؤه، فإن الإيمان به (كشجرة طيبة) وهي النخلة الدائمة الإثمار، ذات الأصول الراسخة الضاربة في أغوار الأرض (وفرعها في السماء) أي أعلى الشجرة شامخ مرتفع في الفضاء - والمراد: أن إيمان المؤمنين كالشجرة التي لا ينقطع ثمرها؛ فهي مثمرة خير الثمار في كل الأوقات فيستطيب ثمارها الآكلون - وإيمان المؤمنين إنما ينبثق عنه حميد الخصال وعظيم الصفات والطاعات لله رب العالمين - إنه لا ينبثق عن إيمان المؤمنين إلا الصالحات والحسنات، تتقاطر على الأفراد والأسر والمجتمعات وسائر أوساط البشر ليشيع فيهم الأمن والخير والبركة والود والسعادة - لا جرم أن الإسلام دين الله القويم، ومنهجه الحكيم المكين الراسخ في أعماق الكينونة البشرية والذي تتجلى ملامحه وخصائصه ومزاياه وأحكامه وتصوراته على الدنيا؛ لتفيض فيها إشعاعات غامرة شتى من ظواهر الأخوة الرصينة الصادقة، والتعاون الحقيقي الوثيق والمودة الصاخبة الكريمة، فتغيب بذلك عن وجه المجتمع علائم السوء والباطل من نفاق ورياء وأثرة وجشع وإيذاء وظلم وخسة ولؤم - ذلك هو شأن الإيمان في نفوس المؤمنين، أو شأن الإسلام كله؛ فإنه إذا استقر في واقع البشر صنع منه المجتمع المتماسك المترابط المنسجم - المجتمع الذي يستظل بظل الخير والأمان والمودة والتعاون؛ ليفيض بعد ذلك على الدنيا خير السمات والقيم والمزايا الكريمة.

٢٥ - (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

وهو في ذلك كالشجرة الطيبة التي (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) أي أن ثمار هذه الشجرة دائمة لا تنقطع؛ فهي حاضرة في كل وقت، ويأكل منها الآكلون في كل الفصول والأحايين - وذلك هو شأن المؤمن الصادق؛ فإنه يشيع من خصاله الطيبة وسلوكه الحميد ظواهر سامية في الخير والبر للفرد والجماعة - وهو كذلك شأن الإسلام الذي يفيض على الحياة بجليل القيم ورفيع المعاني، ويفجر في النفس الإنسانية كوامن الخير وحسن العطاء فتزدان الدنيا بكل مزايا الخير والإحسان والجمال؛ ليعيش الناس كراما آمنين سعداء.

قوله: (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) يضرب الله هذه الأمثال إفهاما للناس وتذكيرا لهم - وضرب الأمثال لون من ألوان التصوير الحامل للمعاني الذي ينشر الإثارة والاهتمام في الأذهان والنفوس.

٢٦ - (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

قوله: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) الكلمة الخبيثة يراد بها الكفر - وقيل: المراد الكافر نفسه، والشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل - وهو قول أكثر المفسرين.

والأظهر تأويل الكلمة الخبيثة بالكفر؛ لما يفهم من السياق بعد ذلك، وهو قوله تعالى: (كشجرة خبيثة) ذلك أن الكفر جُماع الشر والفساد والضلال والزلل؛ لأن الإعراض عن منهج الله، والاستكبار على الحق وعلى رسالات النبيين، ليس ذلك كله إلا غاية العتو والتمرد والخطيئة، وإنه لا يعصي أمر ربه إلا ضال تائه فاجر، أو ظلوم مغرور خاسر، وهو في السوء والخطيئة والظلام سادر.

إن الكفر بكل صوره ومعانيه وضروبه وأبعاده، ومن حيث الإدبار عن شريعة الله والنكول عن منهجه الحكيم، لا جرم يفضي بالضرورة إلى الهوان والخسران وفساد الأفراد والمجتمعات في هذه الدنيا - وهذه حقيقة مكشوفة ومشهودة نجدها ونحسها في المستنكفين عن منهج الله في كل زمان ومكان.

ذلك هو الكفر بفساده وظلامه وشروره أشبه بالشجرة الخبيثة، شجرة الحنظل مما هو كريه وممجوج لشدة سوءه ومرارته.

قوله: (اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) أي أن الشجرة الخبيثة الكريهة الممجوجة ليس لها أصل مكين في الأرض فيسهل استئصالها واجتثاثها حتى لا يبقى منها باقية - وهي في مرارتها وضعفها وسوء مذاقها كالكفر ليس له أصل يضرب في عميق الإنسان بل إنه ما له من قرار مكين ثابت.

ذلكم هو الكفر بكل صوره وأشكاله ومسمياته مضطرب وهزيل وخائر فما يلبث أن يفنى ويتبدد حتى لا يبقى منه إلا الأثر أو الخبر .٣٠

٢٧ - (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

قوله تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} (يثبت)، بالتشديد

يعني التمكين عند الشدة ٣١.

والمعنى: أن المؤمنين العاملين المخلصين يثبت الله قلوبهم بتمكينها عند الأهوال وفي ساعات الشدة سواء في الدنيا أو الآخرة.

والإنسان من جهته، لا مناص له من مواجهة الأهوال والبلايا في كلتا الدارين؛ فالذين كفروا من الضالين والمضلين الذين زاغوا عن ملة الحق وتنكبوا عن منهج الله؛ لا جرم أنهم الأخسرون في هذه الدنيا، حيث الفتن والمفاسد والأسقام النفسية والشخصية والاجتماعية وغير ذلك من الأمراض التي تسري في الجاحدين الشاردين عن سبيل الله - وفي الآخرة هم الأذلون التعساء الذين يواجهون الخزي والويل والنار - أما عباد الله الطائعون الثابتون على الحق الماضون على دين الله ومنهجه، لا جرم أنهم الثابتون الذين يمكنهم الله في الدارين تمكينا، فلا تثنيهم الشدائد والفتن عن الاستمساك بالحق، ولا يزيغون عن منهج الله مهما كانت الظروف، أو عصفت بهم رياح الظالمين والمتآمرين والخائنين الذين يتمالأون على الإسلام والمسلمين في كل حين.

قوله: (بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قيل: القول الثابت في الحياة الدنيا يراد به شهادة أن لا إلا الله وأن محمدا رسول الله - وقيل: ما كان راسخا في قلوب المؤمنين وعقولهم من صدق العقيدة والإيمان بالله ورسوله، ومن المعاني والقناعات التي كانت تغذو أذهانهم وقلوبهم في الحياة الدنيا - وذلك هو القول الثابت الذي يثبت الله به عباده المؤمنين المخلصين في الدنيا.

قوله: (وفي الآخرة) أي عذاب القبر، وذلك حين يسألون عما كانوا عليه من التوحيد والإيمان بالله وبرسوله (ص) فالمؤمنون المخلصون يثبتهم الله، إذ يمكنهم تمكينا فيجيبون الملائكة ثابتين مطمئنين - لكن المجرمون الجاحدون، يسقطون في ظلمة التخسير والهوان واليأس وحينئذ تقرع المجرمين في قبورهم غاشية فظيعة من الرعب والوجل، فيستحوذ عليهم التلعثم والدهش، ويتملكهم الاضطراب والانغلاق والزعزعة، فلا يستطيعون الإجابة أو الحديث إلا في تأتأة وتلعثم وعسر بالغ - نجانا الله من كل هاتيك الكروب والأهوال وكتب لنا في الدارين السلامة والأمن والنجاة.

قوله: (ويضل الله الظالمين) أي هؤلاء الجاحدون الخاسرون لا يوفقهم الله في حياتهم الدنيا، ولا يثبتهم على القول الثابت في مواطن الفتن والشدائد، لاختيارهم الكفر والباطل - وكذلك يضلهم عن حجتهم في قبورهم كما ضلوا في الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق، فإذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري - فيقول: لا دريت ولا تليت، وعند ذلك يضرب بالمقامع ٣٢ وقد ثبت مثل ذلك في الأخبار.

قوله: (ويفعل الله ما يشاء) وذلك في تثبيت الذين آمنوا وإضلال الظالمين الذين خسروا أنفسهم - فلا اعتراض على الله في ذلك ولا تعقيب ٣٣.

٢٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار (٢٨) جهنم يصلونها وبئس القرار (٢٩) وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (٣٠)} نزلت الآية في مشركي قريش - وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر.

والصحيح أنها عامة في جميع المشركين (الذين بدلوا نعمة الله كفرا) أي أتتهم نعمة الله وهي الإيمان والإسلام بما تضمنه ذلك من توحيد الله وطاعته وفعل الخيرات والصالحات، والسير على طريق الله اللاحب المستقيم، لكنهم بدلوا ذلك كفرا؛ أي كفروا نعمة الله عليهم وهي الإيمان بالله ورسوله وما أنزل إليهم من دين كريم - لقد جحدوا ذلك كله واستعاضوا عنه بالإشراك واختاروا الضلال والباطل بكل صوره ومسمياته الفاسدة.

قوله: (وأحلوا قومهم دار البوار) (قومهم) مفعول أول - و (دار البوار)، مفعول ثان - (البوار)، معناه الهلاك - والبور، الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه - وامرأة بور كذلك - وقوم بور؛ أي هلكى وهو جمع بائر - بار بوارا؛ أي هلك - وأباره الله: أهلكه - والأرض البور، قبل أن تصلح للزرع ٣٤ - والمراد بدار البوار في الآية، جهنم.

إذ تبين ذلك بقوله في الآية التالية (جهنم يصلونها وبئس القرار) (جهنم)، منصوب على البدل من (دار البوار) وهو غير منصرف

للتعريف والتأنيث - (يصلونها)، جملة فعلية في موضع نصب على الحال ٣٤.
والمعنى: أن المشركون المضلين قد أنزلوا أتباعهم من قومهم الضالين السفهاء (دار البوار) وهي جهنم التي يدخلونها جميعا فتصطلي بلظاها الحارق جسومهم وجلودهم (وبئس القرار) أي بئس المستقر جهنم.
٢٩ - (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]
قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار (٢٨) جهنم يصلونها وبئس القرار (٢٩) وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (٣٠)} نزلت الآية في مشركي قريش - وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر.
والصحيح أنها عامة في جميع المشركين (الذين بدلوا نعمة الله كفرا) أي أتتهم نعمة الله وهي الإيمان والإسلام بما تضمنه ذلك من توحيد الله وطاعته وفعل الخيرات والصالحات، والسير على طريق الله اللاحب المستقيم، لكنهم بدلوا ذلك كفرا؛ أي كفروا نعمة الله عليهم وهي الإيمان بالله ورسوله وما أنزل إليهم من دين كريم - لقد جحدوا ذلك كله واستعاضوا عنه بالإشراك واختاروا الضلال والباطل بكل صوره ومسمياته الفاسدة.
قوله: (وأحلوا قومهم دار البوار) (قومهم) مفعول أول - و (دار البوار)، مفعول ثان - (البوار)، معناه الهلاك - والبور، الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه - وامرأة بور كذلك - وقوم بور؛ أي هلكى وهو جمع بائر - بار بوارا؛ أي هلك - وأباره الله: أهلكه - والأرض البور، قبل أن تصلح للزرع ٣٥ - والمراد بدار البوار في الآية، جهنم.
إذ تبين ذلك بقوله في الآية التالية (جهنم يصلونها وبئس القرار) (جهنم)، منصوب على البدل من (دار البوار) وهو غير منصرف للتعريف والتأنيث - (يصلونها)، جملة فعلية في موضع نصب على الحال ٣٥.
والمعنى: أن المشركون المضلين قد أنزلوا أتباعهم من قومهم الضالين السفهاء (دار البوار) وهي جهنم التي يدخلونها جميعا فتصطلي بلظاها الحارق جسومهم وجلودهم (وبئس القرار) أي بئس المستقر جهنم.
٣٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)
قوله: (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله) (أندادا) يعني شركاء - ومفرده نديد - وهو النظير - ونقول: ندّ البعير يند، ندادا وندودا؛ إذ نفر وذهب على وجهه شاردا - ومنه قوله: (يوم التناد) ٣٦ أي اتخذوا مع الله آلهة شركاء في العبادة والخضوع والتوجه ليضلوا الناس بذلك عن دين الله الحق، دين التوحيد الخالص والتوجه الكامل صوب إله أحد خالق قادر.
قوله: (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) الأمر بالتمتع إشارة إلى الاستخفاف بملاذ الحياة الدنيا والتقليل من شأنها؛ فإنها متاع - فضلا عما تتضمنه الآية من التوبيخ والتهديد والوعيد للمشركين - يبين ذلك قوله: (فإن مصيركم إلى النار) إنكم مردودون وصائرون إلى عذاب النار - ٣٧
٣١ - (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ)
قوله تعالى: {قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال} بعد أن ذكر الكافرين وتلبسهم بالشرك والجحود يأمر الله عقب ذلك عباده المؤمنين بالتزام الطاعة خالصة لوجهه - ويأتي في طليعة الطاعات لله جميعا هذان العمودان الأساسيان لدين الإسلام وهما: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة - وكذلك بذل المال في وجوه الخير والبر على سبيل الوجوب كإنفاقه على الأولاد والزوجات وأولي القربى من المعوزين والمحاويج - وعلى المؤمنين أن يحرصوا على ذلك من غير تفريط ولا تقصير من قبل أن تقوم الساعة - وحينئذ لا مكان للعمل وفعل الطاعات، بل إن الوقت حينئذ وقت مساءلات وحساب وعقاب.
قوله: (يقيموا الصلاة) (يقيموا) مجزوم؛ لأنه جواب الطلب (قل) وقيل: جواب للأمر وهو (أقيموا) وتقديره: قل لهم أقيموا يقيموا

- وقيل: مجزوم بلام مقدرة وتقديره: ليقيموا، ثم حذف لام الأمر لتقدم لفظ الأمر ٣٨ - وكذلك قوله: (وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) المراد بالسر ما خفي - وبالعلانية ما ظهر.

وقيل: السر يراد به التطوع والعلانية يراد بها الفرض - والأظهر الأمر بإنفاق المال سرا في صدقة التطوع، وإنفاقه جهرا في الزكاة المفروضة والنفقات مما لا يحتمل غير الإظهار والإعلان - فما كان من نفقة واجبة أو زكاة مفروضة لا سبيل إلى كتمها أو إخفائها - يضاف إلى ذلك قصد التحضيض للآخرين على أداء زكواتهم والإنفاق على من يعولون.

قوله: (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال) أي أدركوا أنفسكم بفعل الطاعات، وبادروا لعمل الحسنات والصالحات قبل أن تدهمكم قارعة الفزع الأكبر حين تقوم القيامة - وحينئذ لا بيع ولا شراء ولا غير ذلك مما اعتاد الناس فعله في دنياهم؛ بل إن الساعة إذ ذاك ساعة مندم وأهوال وحسرات - وقيل: بيع بمعنى فدية؛ أي لا لأحد أن يفتدي نفسه بالمال يوم القيامة لينجو بنفسه مما يواجهه من سوء الحساب - قوله: (ولا خلال) أي مخالَّة - وهو مصدر خاللته - وقيل: جمع خليل، كأخلاء وأخلة والمقصود هنا نفي أن يكون ثمة خليل ينتفع به فيشفع له أو يدفع عنه البلاء المنتظر ٣٩.

٣٢ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ)

قوله تعالى: {الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار (٣٢) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣٣) وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار (٣٤)} شرع جل وعلا في الكلام عن عزيز ملكوته وسلطانه وعظيم شأنه وجلاله وأنه الخالق البارئ المنعم المتفضل؛ ليستيقن العباد وجوب الشكر عليهم لله الواحد المدبر المنعم فيبادروا إلى الطاعة والإذعان والامتثال - فقال سبحانه: (الله الذي خلق السماوات والأرض) خلق السماوات طباقا وما فيهن وما بينهن من كائنات ومخلوقات وأجرام غاية في الانتظار والكثرة والدقة والاتساع والامتداد - وكذلك الأرض وما فيها من مركبات مختلطة متماسكة متكاملة، ما بين تراب ورمل وملح وصخر وماء ومعدن، وغير ذلك مما حوته الأرض من أصناف الأتربة والسوائل والمعادن.

قوله: (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أنزل الله المطر من السماء غيثا نافعا مغيثا - والسماء يراد به كل ما علا، فكل ما علاك فهو سماء - والمطر يتنزل من طبقات الجو العالية ليخرج الله به (من الثمرات رزقا لكم) (من)، للتبعيض - و (رزقا) مفعول أخرج - و (الثمرات) تعم كل ما تنبته الأرض - وبعض ذلك ينتفع به الآدميون وهو ما جعله الله رزقا لهم لكي يأكلوه ويقتاتوا منه ويعيشوا به.

قوله: (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) (الفلك) يعني السفينة - وهو واحد وجمع يذكر ويؤنث ٤٠ - على أن السفن من الجواري التي تسير فوق سطح الماء بإرادة الله وتقديره وأمره - وذلك بأن بث الله في كل من الماء والمواد الصلبة من الصفات والميزات الذاتية ما تتم به عملية الطفو على وجه الماء دون غرق - وأيما كائن تتحقق فيه خاصية الطفو على سطح الماء سواء كان الماء بحرا أو نهرا أو غيرهما من الماء العميق المركوم لسوف يحصل الطفو - وفي النظرية العلمية الحديثة أن يكون معدل كثافة الجسم دون معدل كثافة الماء، سبب لحصول الطفو كيلا يغرق الجسم.

والمهم في ذلك أن مثل هذه الخاصية في الأجسام والمياه التي يحصل بسببها الطفو لهو من الله - فالله هو الذي بث في الأشياء والأجسام والمخلوقات ميزاتها وصفاتها - وهو الذي جعل فيها قوانينها ونواميسها التي تتم بموجبها الظواهر المشهودة في الطبيعة - وكل ذلك من فضل الله على الإنسان، إذ يسر له سبل الحياة والعيش في البر أو البحر ليعيش سالما مرتاحا فلا يعتريه عسر ولا حرج.

قوله: (وسخر لكم الأنهار) (سخر) من التسخير وهو التذليل ٤١؛ أي ذلل الله للناس الأنهار لتجري على ظهرها المراكب فتقل الناس من مكان إلى مكان - وليأخذوا منها ما حوته من خيرات مطعومة كالأسماك بأجناسها الكثيرة العجيبة - إلى غير ذلك من وجوه الاستفادة من مياه الأنهار العذبة في الشرب وسقي الزروع والنباتات والمواشي.

٣٣ - (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

قوله: (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) (دائبين)، منصوب على الحال من الشمس والقمر - وذلك تغليبا للقمر على الشمس؛ لأن القمر مذكر، والشمس مؤنثة، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلّب جانب المذكر على جانب المؤنث ٤٢ - وقوله: (دائبين) يعني دائمين في الحركة والجريان لا يفتران، من الدؤوب، بضم الدال، والدأب معناه العادة والشأن ٤٣؛ أي ذلل الله هذين الجرمين الهائلين لمنافع الناس وتحقيق معاشهم وجعلها دائمين في الحركة لا يفتران حتى نزول هذه الدنيا.

قوله: (وسخر لكم الليل والنهار) أي جعلهما يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم - في الليل يهجع الناس ويرقدون؛ فتستريح أبدانهم وأعصابهم وأذهانهم بعد عناء النهار وما فيه من مكابدة ونصب.

وفي النهار يفيقون من هجعتهم؛ ليبادروا الكد والكدح والبذل والسعي وهم يبتغون من فضل الله، وليؤدوا ما عليهم من واجبات كعبادة الله وطاعته وأداء حقوق الناس التي في ذممهم كالإنفاق والزكاة وبر الوالدين وصلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، والاضطلاع بوجائب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوة البشرية إلى دين الله وترغيبهم في منهج الله الحق وهو الإسلام.

٣٤ - (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

قوله: (وآتاكم من كل ما سألتموه) (من)، للتبعيض - فيكون المعنى: أن الله أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئة الله وحكمته البالغة - وعلى هذا فإن الإنسان قد يسأل الله العافية فيعافيه، ويسأله النجاة فينجيه، ويسأله الغنى فيغنيه، ويسأله الولد فيعطيه، ويسأله أن ييسر أمره ويشرح صدره ويدرأ الأذى والشر والضرّ عنه فيجيبه لما سأله إياه - لا جرم أن نعم الله لا يحصرها العد - والله سبحانه العاطي المنان المتفضل على عباده، يجزل من العطاء للناس ليسبغ عليهم من نعمه الكاثرة ما يستوجب من العباد دوام الثناء والشكران لله.

قوله: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) نعمة الله اسم جنس بمعنى المنعم به - وهو لا يراد به الواحد من النعم بل يراد به الجمع - كأنه قيل: وإن تعدوا نعم الله (لا تحصوها) أصل الإحصاء العد بالحصى؛ فقد كان العرب يعتمدونه في العد - ثم استعمل لمطلق العد من كثرة الاستعمال - والمعنى: أن نعم الله بالغة الكثرة فلا تطيقون حصرها أو عدها - ونعم الله عديدة ومتنوعة ومختلفة - وهي مبثوثة في السماء وفي الأرض وفي سائر أنحاء الطبيعة والحياة مما ينتفع به الإنسان من المطعوم أو المشروب أو الملبوس أو ما فيه رخاء وجمال وسعادة مما تبتهج به النفوس والقلوب والأذهان، أو تنتشي به وتزهو زهوا يثير في جوها البسطة والحبور.

قوله: (إن الإنسان لظلوم كفار) المراد بالإنسان هنا من تقدم وصفه بالكفر وكثرة الظلم والعصيان - وذلك إخبار من الله أن الإنسان الذي توجد فيه خلال الظلم والكفر (لظلوم) أي شديد الظلم، فيظلم النعمة بإغفال شكرها، وقيل: كثير الظلم لنفسه ولغيره - وهو أيضا (كفار) أي شديد الكفران للنعمة بجحدها وعدم شكرانها.

وربما قيل: إن الإنسان في الغالب ظلوم، من الظلم وهو الشرك، فيجنح الإنسان للشرك على اختلاف صوره وألوانه - وهو في ذلك ينشد إرضاء من يروم رضاه من الآلهة المصطنعة المفتراة كالآلهة من الجن، أو الأرواح الموهومة، أو الأصنام الجامدة البلهاء، أو من السادة الكبراء من مجرمي البشر - وهو كذلك في الغالب يجنح للكفر بإغفال الشكر لله على أنعمه الكبيرة والكثيرة التي لا تحصيها الأقلام أو الألسن أو القراطيس؛ ذلكم هو الإنسان في الغالب جانح للظلم والكفران والعصيان إلا من رحم الله من عباده المؤمنين الأبرار المخبتين إليه، الذين يحذرون السقوط في الشرك وظلم الآخرين أو كفران النعم وجحودها - لا جرم أن الزمان طيلة دورانه وجريانه لم يخل من عباد لله صالحين كرام يؤمنون إيمانا صادقا راسخا ويطيعونه مخلصين منيبين إليه، لا يصدهم عن ذلك إغراء ولا فتنة، ولا يحول بينهم وبين الاعتصام بحبل الإسلام إغواء ولا ابتلاء - ٤٤

٣٥ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)

قوله تعالى: }وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (٣٥) رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن

تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم (٣٦)} يخاطب الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن اذكر حين قال إبراهيم (رب اجعل هذا البلد آمنا) فقد دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه جل وعلا أن يجعل هذا البلد، أي مكة (آمنا) أي ذا أمن، وهو أن يأمن فيه الناس على نفوسهم وأموالهم - والمراد بالأمن السكون، وهو نقيض الخوف - ومثله الطمأنينة إلى الأمر - وهذه بركة من بركات الدعاء المفضال الذي تضرع به إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب ربه سبحانه ليكتب لمكة الأمن والطمأنينة والسلام والرخاء بما يليق بالمكانة السامقة المرموقة التي نيطت بمكة ذات الشرف القدسي الرفيع.

قوله: (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) (واجنبني) من التجنب، أي أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره، ثم استعمل بمعنى البعد - وجانبه وتجانبه واجتنبه كله بمعنى - وجنبه الشيء تجنيبا أي نحّاه عنه ٤٥.

والمقصود من الدعاء مجانبة الأصنام والبعد عن عبادتها، أي ثبتنا يا ربنا على التوحيد الخالص لك والتزام ملة الإسلام، واصرفني وبني عن عبادة الأصنام.

وربما قيل: ما الفائدة من دعاء إبراهيم أن يجنّبه الله وبنيه- وهم أولاده من صلبه- عبادة الأصنام مع أن النبيين معصومون عن الكفر وعن عبادة غير الله؟ ولعل الجواب الصحيح عن ذلك: أن إبراهيم دعا بمثل هذا الدعاء على سبيل التورع والتخشع وزيادة الخوف من الله، ومبالغة في إظهار الحاجة والفاقة إلى فضل الله وعونه ورحمته في كل آن.

٣٦ - (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) أي تسببت الأصنام في إضلال كثير من الناس - والمعنى: المراد أن الناس ضلوا بعبادة الأصنام - على أن إسناد الإضلال إلى الأصنام مجازي، لأن الأصنام جوامد لا تعقل.

قوله: (فمن تبعني فإنه مني) أي من سار على منهجي، منهج التوحيد الخالص لله وما أنا عليه من ملة صادقة كريمة (فإنه مني) من، اتصالية، أي فإنه متصل بي غير منفك عني في ملتي، ملة الإيمان بالله وحده لا شريك له.

قوله: (ومن عصاني فإنك غفور رحيم) أي من لم يتبع ملتي وما أنا عليه من منهج الحق والتوحيد، فإنك يا ربنا تستر الذنوب والمعاصي على عبادك وترحمهم بفيض رحمتك الواسعة - وقيل: إن الله يغفر لهم ويرحمهم إن آمنوا وتابوا وأقلعوا عن الكفر والعصيان ٤٦.

٣٧ - (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرام ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣٧) ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء (٣٨)} مفعول (أسكنت) محذوف وتقديره: أسكنت ناسا من ذريتي بواد ٤٧ - كرر إبراهيم النداء الخاشع المتذلل إلى ربه رغبة في الاستجابة وميلا للالتجاء إلى جناب الله العظيم فقال: (إني أسكنت من ذريتي) من السكنى، ويعنى اتخاذ المأوى للإقامة فيه (من ذريتي) أي بعض ذريتي - والمراد بهم هنا إسماعيل وأمه هاجر، فقد أسكنهم إبراهيم (بواد غير ذي زرع) وهو وادي مكة، إذ لم يكن فيه عندئذ زرع ولا نبات لانعدام الماء (عند بيتك المحرم) أضاف البيت إلى نفسه سبحانه، لأنه مالكه وليس من مالك له غيره - ووصفه بالمحرم، لأنه مُنع منه الطوفان إذ حرم عليه، وقيل: لأنه لم يزل عزيزا منيعا تهابه الجبابرة فلا يمسونه بسوء - وقيل: لأنه حُرم فيه ما لم يحرم في غيره من البيوت كالجماع والصيد والقتل - وسماه بيتا باعتبار ما كان، فإنه كان مبنيا من قبل - وقيل: باعتبار ما سيكون، لأنه كان من المعلوم أنه سوف يبنيه.

قوله: (ربنا ليقيموا الصلاة) أي أسكنتهم بهذا الوادي البلقع القفر الذي يخلوا من أسباب الرزق والمعاش (ليقيموا الصلاة) وذلك عند بيتك المحرم البيت المبارك الذي شرفه الله تشريفا وفضله على سائر البيوت في الأرض - وقد ذكر جنس الصلاة من بين العبادات والطاعات تعظيما لشأن الصلاة خاصة، وإظهارا لأهميتها المميزة البالغة التي تعلو على كل الشعائر والطاعات، وتفوق سائر العبادات

جلالة وأهمية - وفي قوله: (ليقيموا) بضمير الجمع، ما يدل على أن الله قد أعلم إبراهيم بأن ولده إسماعيل سيكون له هنالك عقب ونسل يقيمون الصلاة في هذا المكان المبارك المقدس.

قوله: (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) الأفئدة القلوب، جمع فؤاد - وهو من التفوّد بوزن التفعل؛ أي التوقد والتحرق - فأدتُ اللحم أي شويته - وافتأدوا أي أوقدوا نارا - ولحم مفتئد أي مشوي ٤٨ وقوله: (من) للتبعيض؛ أي اجعل أفئدة من أفئدة الناس تحنّ وتهفو إليهم وتسرع شوقا ووددا إليهم.

كذلك كان تقدير الله، وهو أن يدعو إبراهيم ربه أن يجعل فريقا من الناس- وليس كل الناس- تهفو قلوبهم وتميل شوقا لمكة - وقيل: لو قال عليه السلام: أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم والناس جميعا سواء فيهم اليهود والنصارى - قوله: (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وهذه مسألة أخرى من إبراهيم يتضرع بها إلى ربه أن يرزق ذريته في مكة من خيرات البلاد، وأرزاق يسوقها الناس والعباد، كأن تستجلب إليهم هذه الثمرات من أقطار الأرض الواسعة المترامية - وقد تحقق ذلك بعون الله وتقديره؛ إذ استجاب دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فأسبغ على مكة، البد البلقع القفر من صنوف الطعام والثمرات والخيرات ما لم يكن في الحسبان لولا فضل العاطي الموافق المنان.

قوله: (لعلهم يشكرون) أي لعلهم يشكرونك على ما أسبغت عليهم من جزيل النعم.

٣٨ - (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ)

قوله: {ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء} ذلك تضرع وخشوع من خليل الله إبراهيم وهو يدعو ربه ذاكرا شاكرا، سائلا لولده الهداية والسلام والتوفيق، ولمكة الخير والرخاء والبركة - ويعلن في دعائه هذا أننا يا ربنا ما قصدنا بدعائنا ومسألتنا إلا رضوانك والإخلاص لك في كل ما أردناه وابتغيناه؛ فأنت عليم بسرنا وجهرنا، وليس من شيء خفي أو مخبوء أو مستور في السماوات أو الأرض إلا هو ظاهر بين يديك ٤٩.

٣٩ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

قوله تعالى: {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء (٣٩) رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء (٤٠) ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (٤١)} ذلك إقرار خاشع يهتف به قلب إبراهيم عليه السلام - القلب النقي الزكي النابض بالإيمان والحب لله والخشية منه- وهو أن الله يستجيب الدعاء لعبده المؤمن المخبت الخاشع.

٤٠ - (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)

قوله: (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) يعني يا رب اجعلني مؤديا ما كلفتني به من فريضة الصلاة التي فرضتها علي، وكذلك اجعل بعض ذريتي مقيمي الصلاة؛ فقد خص بعض ذريته بالدعاء لهم أن يكونوا مقيمي الصلاة دون بعضهم الآخر؛ لأن الله أعلمه أن من ذريته كفارا.

قوله: (ربنا وتقبل دعاء) أي استجب دعائي - وقال ابن عباس: يريد عبادتي - وهو نظير الخبر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " الدعاء هو العبادة ".

٤١ - (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

قوله: (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) هذا دعاء من خليل الله إبراهيم يتضرع فيه إلى ربه أن يغفر له ولوالديه، وذلك من قبل أن يتبرأ إبراهيم من أبيه لما تبين له أن أباه عدو لله، وكذلك دعا إبراهيم لجميع المؤمنين أن يستر الله ذنوبهم يوم الجزاء؛ إذ يحاسب الناس بأعمالهم ٥٠.

٤٢ - (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

قوله تعالى: {ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٤٢) مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد

إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (٤٣)} ذلك خطاب من الله لرسوله (ص) في الظاهر، وهو في الحقيقة خطاب للمسلمين في كل زمان - خطاب فيه تهديد رعيب للظالمين المجرمين، وفيه وعيد مجلجل من الله يتوعد به الجاحدين المجرمين الذين عتوا عن أمر الله وتنكبوا عن منهجه العظيم وجنحوا للشرك والمعاصي وفعل المنكرات والمفاسد وإضلال العباد.

أولئك يتوعدهم الله الوعيد المخوف المرجف، الوعيد الذي يثير في القلوب الرعب والوجل، وينشر في الأذهان الذهول والهول - وذلك من خلال هذه الكلمات الربانية المعدودة المزلزلة - بضع كلمات تحمل من الترويع والنذر ما يُرجف المشاعر والأبدان - وذلك في قوله: (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) أي تظنن أن الله ساه عما يعمله الجاحدون المشركون من المعاصي والآثام، بل إنه عالم بهم وبأعمالهم التي يحصيها عليهم ليجزيهم الجزاء الذي يستحقونه في يوم الجزاء.

قوله: (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) من الشخوص، وهو الارتفاع - وشخص البصر إذا ارتفع - وشخص بصره فهو شاخص؛ إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف ٥١.

والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين الظالمين ليس الله بغافل عنهم ولكن الله يؤخر لهم العذاب الأليم الواصب إلى اليوم القارع القاصم - اليوم الذي تغشاهم فيه غاشية القيامة بأهوالها العظام ودواهيها الرعيبة الجسام - وحينئذ تشخص أبصار هؤلاء الخاسرين الهلكى وهي مفتوحة لا تطرف لفرط ما أصابهم من الخوف الفظيع الداهم ولشدة ما ينتابهم حينئذ من الدهش والانهيار.

٤٣ - (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

قوله: (معطعين مقنعي رؤوسهم) مهطعين مقنعي رؤوسهم، منصوبان على الحال من الضمير في (يؤخرهم) والتقدير: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار في هاتين الحالتين ٥٢ و (مهطعين) أي مسرعين - من الإهطاع والهطع والهطوع وهو الإسراع - يقال: أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع - وأهطع الرجل إذا مد عنقه وصوّب رأسه وأسرع مقبلا خائفا - أو أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ٥٣ - ومقنعين؛ أي رافعين رؤوسهم وناظرين في ذل وخوف ٥٤.

وهذه هي حال الظالمين المجرمين الذين يأتون يوم القيامة وقد أثقلتهم الخطايا والمعاصي وأهلكهم الكفران والشرك والإفساد في الأرض - يأتون مسرعين رافعين رؤوسهم، مادين أعناقهم، شاخصة أبصارهم فلا تطرف - وذلك كله لهول الموقف العصيب، ولشدة ما يغشاهم من الهوان والوجل - نسأل الله العفو والستر والنجاة والأمان.

قوله: (لا يرتد إليهم طرفهم) الطرف، معناه تحريك الجفن، والمراد: أن الظالمين لا تطرف أبصارهم؛ فهم دائمو الشخوص في ذل ووجل.

قوله: (وأفئدتهم هواء) الهواء معناه الخلاء أو الأجوف الذي لم يشغله شيء، ثم جعل ذلك وصفا للقلب المضطرب الخاوي الذي لا خير فيه ولا قوة - وهذه حال الكافرين الخاسرين يوم القيامة؛ إذ تكون قلوبهم خالية من كل أمل أو رجاء أو خاطر لانشغالها بما تجده حينئذ من الهم والاضطراب والوجل.

هذه حال الظالمين الخاسرين يوم القيامة من التعس والخسران والذل واشتداد الوجل لهول ما يواجههم من الدواهي العظام والويلات المريعة الجسام - نجانا الله من كل ذلك برحمته نجاة تفضي بنا إلى السلامة والأمان.

وما ينبغي الظن أن عقاب الظالمين محصور في الآخرة دون الدنيا؛ فإن الله المنتقم الجبار لا يخفى عليه ما يصنعه الطغاة المجرمون في هذه الدنيا من وجوه الظلم والباطل، وما يكيده هؤلاء التعساء المجرمون لدينه وقرآنه والمسلمين من بالغ الكيد والعدوان والاضطهاد - والله جل جلاله يستمهل هؤلاء المضلين العصاة استمهالا، حتى إذا جاء وعده بالانتقام دمّر عليهم أفظع تدمير وأخذهم أخذ عزيز مقتدر في هذه الدنيا قبل الآخرة ٥٥.

٤٤ - (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

قوله تعالى: {وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا

أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (٤٤) وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال (٤٥) وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (٤٦)}.

يخاطب الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن (أنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) (يوم) مفعول ثان للفعل (أنذر)، وليس ظرفا؛ لأن جعله ظرفا يؤدي إلى أن يكون الإنذار يوم القيامة، وليس من إنذار في يوم القيامة، بل إن يوم القيامة دار حساب وجزاء ٥٦ - والمعنى: خوّفهم هذا اليوم العصيب وما ينزل بهم فيه من شديد العذاب وما تكون عليه حالهم من خواء القلوب وهم مهطعون رافعون رؤوسهم، وأبصارهم شاخصة باهتة لا تطرف - خوفهم ذلك وغيره من ألوان العذاب في جهنم.

قوله: (فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) يقول هؤلاء الخاسرون الذين ظلموا أنفسهم: يا ربنا أخرنا إلى أجل قريب كيما نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع دينك ومنهجك وتصديق النبيين الذين أرسلتهم إلينا معلمين مبلغين هداة؛ أي طلبوا الرجوع إلى الدنيا فترة صغيرة من الزمن كيما يتلافوا ما فرطوا فيه وما تلبسوا به من بشاعة الجحود والتكذيب في الدنيا - لكن طلبهم لا يغني عنهم من عذاب الله المحقق شيئا - فما يطلبون ولا يرجون إلا وهم تحيط بهم من كل جانب أسباب اليأس والهوان والذلة والتخسير ليفضوا بعد ذلك لا محالة إلى النار وبئس القرار.

قوله: (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) يقال لهم هذا الجواب على سبيل التوبيخ والتقريع؛ أي أو لم تحلفوا من قبل -في الدنيا- أنكم لا زوال لكم عن هذه الحياة إلى حياة أخرى؛ فقد كانوا ينكرون أن يزولوا عن هذه الدنيا ليتحولوا عنها إلى الدار الآخرة؛ فإنهم كانوا مكذبين بالبعث.

٤٥ - (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)

قوله: (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) أي تبوأتم منازل المشركين المكذبين الذين كانوا مستقرين مطمئنين من قبلكم - أولئك الجاحدين الخاسرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والجحود، كقوم عاد وثمود وأصحاب مدين وغيرهم من المكذبين الذين عتوا عن أمر ربهم وتمادوا في الضلال والطغيان (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) تبين فعل، وفاعله مقدر، وتقديره: تبين لكم فعلنا بهم - ولا يجوز أن تكون (كيف) فاعلا للفعل تبين؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله - وكيف هنا منصوبة بقوله: فعلنا ٥٧؛ أي ظهر لكم بالحس ومشاهدة الآثار ما فعلنا بهم من العذاب الشديد في الدنيا عقوبة بما فعلوه من المعاصي والذنوب (وضربنا لكم الأمثال) أي مثلنا لكم ما كان عليه الكافرون من قبلكم من الظلم والمعاصي وما فعلنا بهم من البلاء والعقاب لنبين لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب فتعتبروا وتزدجروا، وليس من معتبر ولا مزدجر.

٤٦ - (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

قوله: (وقد مكروا مكرهم) لقد مكر هؤلاء الظالمون الجاحدون مكرهم الفظيع الذي استفرغوا فيه كل ما لديهم من جهود وطاقات وقدرات مالية وثقافية وفنية وإعلامية وسياسية ونفسية وعسكرية وغير ذلك من أساليب الخداع والشر والافتراء والكذب والترويع والإغراء والتضليل- كل ذلك للصد عن سبيل الله وهو دينه وشرعه، ولإشاعة الكفر والضلال والفساد في الأرض ولتدمير الإسلام والمسلمين في العالم كيلا يبقى لمنهج الإسلام سلطان ولا عزة ولا شوكة - ولكي يتبدد المسلمون فينقلبوا إلى أشتات من الجماعات المبعثرة الممزقة المستضعفة، وذلك أقصى ما يبتغيه الظالمون والطغاة والمجرمون من غايات في هذا العالم.

قوله: (وعند الله مكرهم) أي مكتوب عند الله مكرهم؛ فهو مجازيهم عليه بمكر أعظم من مكرهم - أو عند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يستحقونه فيأتيهم من حيث لا يحتسبون - قوله: (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) يقرأ (لتزول) على قراءتين الأولى: فتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى، فتكون اللام للتأكيد، دخلت للفرق بين إن المخففة وبين إن النافية بمعنى ما، فيكون المعنى: وإنه كان مكرهم لتزولُ منه الجبال - وذلك على سبيل التعظيم والتهويل.

الثانية: كسر اللام الأولى وفتح الأخرى - فتكون اللام لام الجحود، وإن، في الآية بمعنى ما، النافية - فيكون المعنى: وما كان مكرهم

لِتزولَ منه الجبال - وذلك على سبيل التصغير والتحقير لمكرهم ٥٨ - و (كان)، ههنا تامة بمعنى وقع - والمراد بالجبال، آيات الله البينات ودينه القويم الحكيم؛ فإنه في رسوخه واستقراره وعظيم شأنه كالجبال الرواسي الشم التي لا تميد ولا تتزعزع ٥٩.

٤٧ - (فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

قوله تعالى: }فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام (٤٧) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار (٤٨)} (مخلف)، مفعول ثان للفعل (تحسبن)، و (رسله) مفعول للمصدر (وعده) والتقدير: مخلف رسله وعده - والمراد بالوعد هنا ما وعد رسله بالنصر والظهور وهو قوله: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) وقوله: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي).

والله جل وعلا أوفى الأوفياء، فلا يخلف ما وعد، فكيف لا يفي رسله المصطفين ما وعدهم به من النصر وتحقيق الغلبة لهم على الظالمين.

قوله: (إن الله عزيز ذو انتقام) الله قوي غالب، لا يغلبه شيء - وهو منتقم من الظالمين الذين يصدون عن دينه ويعتدون على أوليائه المقربين من نبيين وصالحين مخلصين يدعون إلى الله على بصيرة.

٤٨ - (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

قوله: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) (يوم)، منصوب على الظرف بالمصدر قبله وهو قوله: (ذو انتقام) أو منصوب على البدل من قوله: (يوم يأتيهم العذاب) ٦٠ وقيل: منصوب بفعل مقدر - أي واذكر يوم تبدل الأرض.

والمراد بالتبديل الذي يأتي على الأرض والسماوات يحتمل وجهين:

الوجه الأول: أن يكون ذلك في الذات، أي تبدل الأرض التي عليها الناس في هذه الدنيا، فتصير أرضا بيضاء نقية كالفضة، وكذلك السماوات الحالية المعروفة تبدل سموات أخرى مختلفة اختلافا ذاتيا.

الوجه الثاني: المراد بالتبديل ما كان في الصفة وليس في الذات - قال ابن عباس في هذا المعنى: هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوّى، فلا يُرى فيه عوج ولا أمت ٦١.

قوله: (والسماوات) أي تبدل السموات غير السموات - وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام: " لا يقتل مؤمن كافر ولا ذو عهد في عهده " والمعنى: ولا ذو عهد في عهده بكافر - أما تبديل السماوات، فهو بانفطارها وانتثار كواكبها وانكدار نجومها وتكوير شمسها وخسوف قمرها وتسجير بحارها - فلا جرم أن ذلك انقلاب كوني هائل مزلزل، انقلاب يأتي على الكون كله وما حواه من خلائق وأشياء سواء في ذلك الأحياء على اختلاف أنواعها وأجناسها، أو الكواكب والنجوم ومختلف الأجرام السابحة في أجواز الفضاء الرحيب، أو ما حوته الأرض من بحار وأنهار ومعادن وبشر - كل أولئك سيأتي عليهم التبديل الكوني المذهل الذي تتغير فيه الصورة والصفات للأشياء جميعا ليصير الوجود إلى عوالم أخرى مختلفة وقد تبدل فيها الحال غير الحال؛ بل تبدل فيها كل شيء تبديلا.

تلك هي القيامة بفظائعها وقواصمها ودواهيها الجسام - وحينئذ يؤتى بالبشرية جميعها لتناقش الحساب - وهو قوله: (وبرزوا لله الواحد القهار) أي في ذلك الزمان العصيب من أهوال القيامة حيث القوارع والشدائد والبلايا يظهر بنو آدم فردا فردا بين يدي الله (الواحد القهار) أي الغلاب الذي لا يغالب، القهار الذي لا يقهر؛ بل إنه هو الذي يقهر الخلق بما شاء وكيف شاء.

وإنهم يظهرون جميعا أمام الله مكشوفين صاغرين عرايا وقد غشيهم من اليأس والرعب ما تخوى منه القلوب، وتنهار به الأبدان والأعصاب ٦٢، يظهرون جميعا ليناقشوا الحساب فلا استتار حينئذ ولا مناص ولا غياب، إلا الوقوف بين يدي القاهر الدّيّان.

٤٩ - (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ)

قوله تعالى: }وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد (٤٩) سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار (٥٠) ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب (٥١)} (مقرنين)، أي قرن بعضهم مع بعض من قرن الشيء بالشيء أي وصله به، والأصفاد تعني القيود، واحدها صفد، بالتحريك - وصَفَده؛ أي شده واوثقه - والصِّفاد ما يوثق به الأسير من قيل وغل ٦٣.

وذلك كائن في يوم القيامة حيث الحساب والجزاء واشتداد الهول والجزع، وحيث التبدل المذهل الذي يغشى الأرض والسماوات، فإنه يؤتى بالمجرمين وهم الطغاة والخاسرون الذين عتوا عن أمر الله عتوا كبيرا وصدوا الناس عن دين الله، وأشاعوا في الدنيا الكفر والضلال والفساد بكل صوره وألوانه - يؤتى بهم يوم القيامة (مقرنين في الأصفاد) أي يوثق بعضهم ببعض؛ فهم لكونهم متجانسين متشابهين في الكفر والعصيان، فإنهم يُضم بعضهم إلى بعض مقرنين في القيود والأغلال - وقيل: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والقيود أو الوثاق والسلاسل.

٥٠ - (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ)

قوله: (سرابيلهم من قطران) السرابيل، جمع سربال، وهو القميص - والقطران، ما يتحلب من شجر الأبهل فيطبخ ويطلى به الإبل وغيرها من الجرب فيحرق الجرب بحرارته، وهو شديد الاشتعال، أسود اللون، منتن الريح، يطلى به جلود أهل النار - وقيل: القطران، معناه النحاس المذاب يطلى به جلود الظالمين في النار ٦٤.

هذه حال من أحوال أهل النار ووصف من أوصاف العذاب الذي يجزونه وهم يتقاحمون في جهنم؛ فإن لباسهم، إذ ذاك من نحاس مذاب بالغ الحرارة أو ما يشبهه من الحميم الآن الذين تكتوي به جلود هؤلاء الخاسرين الهلكى.

قوله: (وتغشى وجوههم النار) أي تلفح وجوههم النار المستعرة فتحرقها بضرامها الملتهب.

٥١ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

قوله: (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) أي فعل الله بهم ذلك العذاب الأليم الحارق جزاء لهم بما صنعوا في الدنيا من المعاصي والآثام والكفر، فقد كانوا في حياتهم الدنيا ضالين مضلين يثيرون في الأرض الشر والفساد والكفر، ويصدون الناس عن الحق وهو الإسلام - أولئك جزاؤهم التحريق والاصطلاء في النار اللاهبة الحامية.

قوله: (إن الله سريع الحساب) لقد أحاط الله علما بأعمال العباد جميعا فلا يعزب عنه منها شيء - وهو يحاسب الناس كافة في أسرع وقت بل فيما دون لمح البصر وذلك على الله يسير - وما الخلق بالنسبة إلى سلطانه العظيم وقدرته المطلقة إلا كالفرد الواحد.

٥٢ - (هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)

قوله تعالى: {هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب} أي هذا القرآن بلاغ لجميع الخلق كيما يتعظوا به ويستدلوا بما فيه من الدلالات والحجج على أنه ليس من إله غير الله، فهو الله الفرد الأحد له كامل الألوهية ومطلق الربوبية، وهو المدبر للكون والعالمين، ليس له في ذلك معين ولا مجير ولا نديد (وليذكر أولوا الألباب) أي وليذكر ويتعظ أهل الاعتبار والازدجار من أولي العقول المستنيرة، والفطانة الكبيرة دون غيرهم من الصّم العمي الذين لا يستوقفهم منطق سليم، ولا يستجيبون لحق أو يقين ٦٥.

١٥ سورة الحجر:

سورة الحجر:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها - وفيها من المعاني والآيات والعبر ما فيه بالغ الموعظة والمزدجر، فقد تضمنت السورة الحديث عن خلق آدم من طين، وعن سجود الملائكة تكريما له وإذعانا لرب العالمين - وفيها من الحديث عن حال المؤمنين الذين فازوا بدخول الجنة، وحال الظالمين الذين هووا في النار، ما يستوجب دوام الرجاء والدعاء أن يكتب الله السلامة والنجاة من العقاب، والفوز بالرضوان والجنة.

وفي السورة قصص عن بعض النبيين وأقوامهم المشركين كقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم صالح وهم أصحاب الحجر - أولئك كانوا من الخاسرين الذين دمر الله عليهم في الدنيا أشد تدمير ثم أفضوا بعد ذلك إلى بئس المصير - وغير ذلك من المعاني والمواقف والحقائق والعبر التي تضمنها السورة مما فيه عظيم البلاغ والاعتبار.

١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٢) ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٣)} تقدم الحديث عن مثل هذه الحروف من فواتح بعض السور.
وأما الإشارة (تلك) فهي إلى ما تضمنته السورة من الآيات؛ أي أن هذه الآيات هي آيات الكتاب، وآيات قرأن مبين - وبعبارة أخرى: فالمعنى هو أن هذه الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل وهو القرآن الواضح المستبين لكل متدبر معتبر.
٢ - (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)
قوله: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين} قرئ قوله: (ربما) بالتشديد والتخفيف - فالتشديد على الأصل - والتخفيف لكثرة الاستعمال - وما، كافة عن العمل فخرجت بها عن كونها حرفا؛ لأن رب، حرف جر، وحرف الجر يلزم للأسماء - فلما دخلت " ما " عليها جاز أن يقع بعدها الفعل فخرجت عن كونها حرفا وصارت بمنزلة (ما) في طالما وقلما - فإن (طال وقل) فعلان ماضيان، دخلت عليهما (ما) فخرجا عن مذهب الفعل - ولا يدخل بعد (ربما) إلا الفعل الماضي - وإنما جاء ههنا المضارع بعدها على سبيل الحكاية ١.
والآية إخبار عن المشركين الظالمين الذين خسروا أنفسهم فصاروا إلى أسوأ المصير؛ فغشيهم بذلك ندم شديد، ثم تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين لينجوا مما حاق بهم من شديد العقاب - وقيل: نزلت في كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين - وقيل: إن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا.
وهذه واحدة من أهوال كاثرة جسام تغشى المجرمين الخاسرين ليذوقوا الوبال الشديد - سواء في الدنيا عند الاحتضار ومفارقة هذه الحياة، أو في الآخرة حيث البلايا والقوارع وكبريات النوازل مما لا يتصوره بشر - نجانا الله من هول ذلك كله نجاة تفضي بنا إلى الأمان والرضوان.
٣ - (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)
قوله: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) ذلك أمر إهانة وتحقير للمشركين الظالمين؛ أي دع الطمع في إيمان هؤلاء الكافرين أو في ازدجارهم، وخلهم يأكلوا ما شاءوا أن يأكلوه من طعام، ويستمتعوا بما حوته هذه الدنيا من لذائذ (ويلههم الأمل) أي تشغلهم آمالهم وأمانيهم عن تدبر الحق والمبادرة إلى طاعة الله والتزام دينه وشرعه (فسوف يعلمون) سوف يعلمون حين يقبلون على الله ويعاينون العقاب الموعود أنهم كانوا في الدنيا لاهين غافلين، فصاروا إلى خسارة وتباب - وأيقنوا بعد ندامتهم الشديدة أن آمالهم في تحصيل المال والمتاع في الدنيا لم تجرجر لهم سوى الحسرات والتخسير.
٤ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)
قوله تعالى: {وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم (٤) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون (٥)} ذلك تخويف وتهديد لمشركي مكة الذين آذوا رسول الله وناصبوه الحرب والعداء، فإن الله يبين لهم مهددا أنه ما من قرية من القرى أو أمة من الأمم التي أهلكناها فيما مضى (إلا ولها كتاب معلوم) أي إلا ولها أجل مؤقت أو مدة معلومة، فلا نهلكهم إلا أن يبلغوها فإذا بلغوا مدَّتهم أهلكناهم ودمرنا عليهم - وهكذا المشركون الظالمون من أهل مكة لا نهلكهم إلا أن يبلغوا أجلهم الموعود المسطور في اللوح المحفوظ.
قوله: (وما تسبق من أمة أجلها وما يستئخرون) (من)، زائدة مؤكدة، والمعنى: أنه لا يتقدم هلاك أمة قبل أن يحين أجلها الذي جعله الله موعدا لهلاكها - ولا يتأخر هلاكها عن الأجل الذي جعله الله لها ٢.
٦ - (وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)
قوله تعالى: {وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (٦) لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين (٧) ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين (٨) إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩)}.
قال الكافرون من أهل مكة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الاستهزاء والتهكم: (يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون)

أي مجنون في دعائك إيانا أن نذر آلهتنا وما وجدنا عليه آباءنا من عبادة للأصنام ثم نتبعك فيما جئتنا به من ملة التوحيد.
٧ - (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
قوله: {لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين} (لو ما)، أداة تحضيض بمعنى هلا - وهي مركبة من (لو) وهي تعني امتناع الشيء لامتناع غيره، وما، المغيرة - أي غيرت معنى لو من معنى امتناع الشيء لامتناع غيره إلى معنى (هلا) ٣ - والمعنى: هلا جئتنا بالملائكة شاهدة على صدق ما تقوله لنا إن كنت تَصْدق في قولك إن الله بعثك إلينا رسولا.
٨ - (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ)
قوله: (ما ننزل الملائكة إلا بالحق) أي لا تتنزل الملائكة إلى الأرض إلا بالرسالة إلى النبيين المرسلين، أو بالعذاب لمن أراد الله أن يعذبه من الظالمين الطاغين.
قوله: (وما كانوا إذا منظرين) يعني لو أرسلنا ملائكتنا إلى هؤلاء المشركين ليكون في إرسالهم لهم آية، فكفروا، سوف لا يمهلون فيؤخر عنهم العذاب؛ بل سيعاجلهم الله العذاب دون إمهال أو إبطاء وذلك شأن الكافرين من قبلهم الذين سألوا الآيات والمعجزات ولما أوتوا ما سألوه من الآيات وكفروا بادرناهم بالعذاب الأليم.
٩ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)
قوله: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} (نحن)، في موضع نصب؛ لأنه تأكيد للضمير الذي هو اسم إن - ويجوز أن يكون نحن في موضع رفع مبتدأ - وخبره (نزلنا) والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع؛ لأنه خبر إن ٤.
الله الذي نزل قرآنه المجيد ليكون للبشرية هاديا ومنيرا، قد وعد أن يحفظ هذا الكتاب المبارك الحكيم من أي انتقاص من آياته وكلماته، أو أن يزاد فيه باطل.
ذلك وعد من الله ثابت وقائم - ووعد الله صدق ويقين - وهو سبحانه لا يخلف وعده بحفظ قرآنه العظيم من تمالؤ المتآمرين أو الخائنين أو المتلصّصين الذين ما فتئوا يتدسسون في الليل والنهار للدخول على القرآن ليبدلوه تبديلا - أو يغيروا فيه بعض آياته أو كلماته إفسادا لمعانيه وإذهابا لحقيقة المقصود منه.
ما فتئ المتربصون المكذبون والحاقدون الذين يكرهون الإسلام والمسلمين يكيدون للقرآن العظيم أفظع كيد، وذلك بمختلف الحيل والأساليب للنيل من هذا الكتاب المنزل؛ وذلك بالزيادة فيه أو حذف ما يروق لهم أن يحذفوه منه أويحرفوا فيه تحريفا - وذلك كآيات الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لإعلاء كلمة الإسلام وإشاعته في العالمين، وكذلك آيات الأسرة والقوامة والعقوبات، وآيات التوحيد والتنديد بالشرك وعبادة البشر كاتخاذ بعض النبيين آلهة مع الله.
ويضاف إلى ذلك كله الدعوة الراهنة المريبة لنشر اللغة العامية بدلا من العربية الفصحى متذرعين بسهولة العامية وصعوبة الفصحى.
وليس في ذلك إلا التمالؤ الخبيث على اللسان العربي الفصيح والسليقة العربية السليمة المميزة من أجل إضعافهما تماما - وذلك سبب يقود حتما إلى انعدام التذوق للقرآن أو ادكاره واستعذابه بضعف المذاق العربي عموما - لا جرم أن هذه سبيل فظيعة تفضي إلى إغفال القرآن ومحوه من الذاكرة العربية ليصبح على مر الزمان ضربا من الكلام العسير الثقيل - أو ضربا من رموز معميات أو النظم الغامض الذي يخالطه اللبس والإبهام فلا يدري به أو يعلمه إلا القلة النادرة من أهل التخصص في تحليل الحروف والخطوط كالذي جرى للكتب المتقدمة؛ إذ باتت خليطا من الكلام المتضارب الملفق لكثرة ما تلاعب فيه المحرفون الخاطئون - لا جرم أن ذلك من مكر الماكرين من شياطين البشر الذي يصلون الليل بالنهار وهم يتآمرون على قرآن الله لمحوه من أذهان المسلمين بتحريفه أو تغييره أو تبديله - لكن وعد الله قائم قيام هذا الكون الراسخ المستقر الذي لا يتزعزع - فالله قد وعد بصون قرآنه ليظل على الدوام محفوظا من كل اعتبار أو تحل أو تلاعب.
١٠ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ)
قوله تعالى: {ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين (١٠) وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (١١) كذلك نسلكه في قلوب

المجرمين (١٢) لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين (١٣) ولو فتحنا عليهما بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (١٤) لقالوا إنما سكرت أبصرنا بل نحن قوم مسحورون (١٥)} الشيع بمعنى الفرق - ومفرده شيعة وهي الفرقة أو الأتباع والأنصار - وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ٥ - ويبين الله في الآية لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - مسريا عنه ومسليا له أنه أرسل رسله في الأمم السابقة لهدايتهم وإرشادهم فما آمنوا وما اهتدوا، بل كفروا وكذبوا.

١١ - (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وما كان يأتيهم من عند الله من رسول إلا كانوا يسخرون منه ويصدون عنه صدودا - وهو قوله: (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون).

١٢ - (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {كذلك نسلكه في قلوب المجرمين} الكاف في اسم الإشارة صفة لمصدر محذوف ونسلكه، من السلك بفتح السين بمعنى إدخال الشيء في الشيء مصدر سلك فانسلك، أي أدخله فيه فدخل ٦ أي مثل ذلك الذي سلكناه وهو الكفر والضلال والاستهزاء في قلوب من تقدم من المشركين، نسلكه- أي ندخله، في قلوب المجرمين من أمتك ممن اختار الضلال والشرك والباطل.

١٣ - (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ)

قوله: (لا يؤمنون به) الجملة في محل نصب على الحال من ضمير (نسلكه) أي سلك الله الضلال والاستهزاء في قلوب هؤلاء المجرمين الذين اختاروا الباطل، وهم لا يؤمنون بالله وحده لا شريك له ولا يؤمنون بكتابه المنزل الحكيم - (وقد خلت سنة الأولين) أي مضت سنة الله بإهلاك المكذبين المجرمين بسبب جحودهم وتكذيبهم - وهو تهديد لهؤلاء المكذبين إن ظلوا سادرين في غيهم واستكبارهم، فإنهم آتيهم ما أتى الذين سبقوهم من الإهلاك والتدمير - وقيل: قد مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم - وهو قريب من السياق.

١٤ - (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

قوله: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون} (يعرجون)، أي يصعدون - من عرج يعرج أي يصعد، والمعارج معناها المصاعد - وواحد المعارج، المعرج وهو المصعد أو المرقى ٧ وذلك إخبار من الله عن معاندة هؤلاء المشركين الضالين ومبلغ استكبارهم عن الحق الذي جاءهم من عند الله - والمعنى المراد - أنه لفرط عنادهم وعتوهم وتكذيبهم، سادرون في الغواية والضلالة حتى لو فتح الله عليهم في السماء معارج يصعدون فيها فيرون الملائكة والملكوت وينظرون إلى عجائب خلق الله وبالغ قدرته وسلطانه لارتابوا فلم يصدقوا.

١٥ - (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

بل قالوا: {إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} (سكرت أبصارنا)، أي سُدت وحبست عن النظر.

وقيل: غطيت وغشيت ٨، أي قالوا لما عاينوا الأعاجيب في السماء عقب صعودهم إليها: إنما سدت أبصارنا، أو سُحرت ومنعت من النظر - أو أُخذت أبصارنا أو شُبّه علينا، ونحو ذلك من اصطناع المعاذير الواهية المفتراة، على جهة العناد والمبالغة في العتو والتكذيب والتمرد على الله في دينه وقرآنه.

وذلك هو ديدن الضالين الخاسرين في كل زمان، إذ يفتقدون أيما حجة في مواجهة الحق الذي جاءهم به الإسلام - وإنما يفرّون من روعة الإسلام وبهجته فرار الجبناء والأنذال والخائرين الذين ينقلبون على وجوههم انقلاب المفلسين الخاسرين كلما ظهر الحق وحصحص، وشعشع نوره وضياؤه، وتضاءل الباطل وذوى واضمحل حتى بات لحقارته وهوانه قزما تنظر منه العقول والضمائر نظرة السخرية والاستخفاف، فلم يجد أتباعه وأنصاره المفلسون الحيارى غير سبيل المكابرة والعناد واللؤم في خسة وخداع ومكايدة ٩.

١٦ - (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

قوله تعالى: {ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين (١٦) وحفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) إلا من استرق السمع

فأتبعه شهاب مبين (١٨) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠)} ذلك برهان من الله على عظيم قدرته وعزيز سلطانه ومقامه إذ خلق هذا الكون الفسيح المتسق الموزون.

هذا الكون الهائل المنتظم الذي يشهد بأن الله خالق كل شي وأنه موجد الوجود - فقال سبحانه: (ولقد جعلنا في السماء بروجا) البروج تعني منازل الشمس والقمر - وهي اثنا عشر برجا - وهذه هي أسماؤها: الحمل، الثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

وقيل: البروج بمعنى النجوم - سميت بذلك لظهورها وارتفاعها - وقيل: البروج تعني الكواكب العظام وهي السبع السيارة وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل.

قوله: (وزيناها للناظرين) أي زينا السماء بالأجرام العظيمة المختلفة كالشمس والقمر والكواكب والنجوم، وذلك للمعتبرين المتدبرين الذين يستدلون بهذه العجائب على عظيم قدرة الله وعلى وحدانيته المطلقة في الوجود وأنه ليس من إله خالق صانع مدبر سواه.

١٧ - (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

قوله: (وحفظناها من كل شيطان رجيم) الرجيم، من الرجم وهو القتل، وأصله في اللغة الرمي بالحجارة - والرجم بضم الراء، والرجام، حجارة ضخام دون الرضام - ١٠ والرجم أيضا معناه السب والشتم؛ لأنه رمي بالقول القبيح، ومنه قوله: (لأرجُمنك) أي لأسبنك - والرجم اسم لكل ما يرمى به - ومنه قوله: (وجعلناها رجوما للشياطين) أي مرامي لهم - والرجم القول بالظن وهو أيضا اللعن والطرد - وقوله: الشيطان الرجيم قد فسر بكل هذه الوجوه ١١.

قال ابن عباس في تأويل الآية: كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلث سموات - فلما ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منعوا من السماوات كلها - فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمي بشهاب.

١٨ - (إلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

قوله: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} (من)، في موضع نصب على الاستثناء ١٢؛ أي السماء محفوظة من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره إلا من استرق السمع (فاتبعه شهاب مبين) أي أدركه ولحقه شهاب وهو شعلة نار ساطعة - و (مبين) أي ظاهر للمبصرين، أو يبين أثره في الشيطان إما بإفساده أو بإحراقه.

١٩ - (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

قوله: (والأرض مددناها) مد الله الأرض مدا، إذ جعلها صالحة للحياة والمعاش - وهي تبدو في حسن الناظرين وأبصارهم أنها ممدودة ومبسوطة - ولا ينفي ذلك ما ذكر في علم الطبيعة والفلك من أن الأرض في شكل الكرة.

قال الإمام الرازي في هذا الصدد: فإن قيل: هل يدل قوله: (والأرض مددناها) على أنها بسيطة؟ ١٣ قلنا: نعم؛ لأن الأرض بتقدير كونها كرة؛ فهي كرة في غاية العظمة - والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها إذا نظرنا إليها، فإنها تُرى كالسطح المستوي - وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال - والدليل عليه قوله تعالى: (والجبال أوتادا) سماها أوتادا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا ههنا ١٤.

قوله: (وألقينا فيها رواسي) الرواسي: الجبال الثوابت الرواسخ واحدتها راسية ١٥؛ أي ألقى الله في الأرض الجبال الراسخة المكينة الثقال كيلا تضطرب (الأرض) أو تتحرك بأهلها - كقوله: (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) أي لئلا تتحرك أو تمايل.

قوله: (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) أي أنبتنا في الأرض من صنوف الزروع والثمرات والنبات بقدر مقدر ومعلوم - قال الزمخشري في تأويل (موزون): وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة أو نقصان.

٢٠ - (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

قوله: (وجعلنا لكم فيها معايش) المعايش جمع، ومفرده: المعيشة - وهي المطعم والمشرب الذي يعاش به، فقد ذلل الله الأرض للإنسان وجعلها صالحة لمعاشه فيجني منها في سهولة ويسر ما يحتاجه من طعام وشراب ولباس ومأوى - ذلك من نعم الله على الإنسان، إذ خلقه على هذا الكوكب وذلّل فيه من أسباب العيش السليم ما يجد فيه راحته وأمنه في هذه الدنيا إلى أن تحين ساعة الفراق بالموت والرحيل إلى دار البقاء.

قوله: (ومن لستم له برازقين) (من)، يجوز أن تكون في موضع نصب ورفع - فالنصب بالعطف على قوله: (معايش) وقيل: منصوب بتقدير فعل وتقديره: جعلنا لكم فيها معايش وأعشنا من لستم له برازقين.

أما الرفع: فهو الابتداء، وخبره محذوف ١٦ - والمراد بمن لستم له برازقين: الدواب والأنعام والأولاد - ولفظ (مَن)، يتناول من يعقل وما لا يعقل إذا اجتمعوا - والمعنى: أن الله جعل للناس في هذه الأرض معايش ولمن ليسوا له برازقين من العيال والدواب والأنعام والخدم وغيرهم ممن لا يرزقهم سوى الله ١٧.

٢١ - (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

قوله: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١) وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (٢٢) وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون (٢٣) ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستئخرين (٢٤) وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم (٢٥)}.

(إن)، أداة نفي بمعنى ما - (من)، زائدة للتأكيد - أي وما من شيء من أرزاق الخلق إلا عندنا خزائنه - والخزائن جمع ومفرده الخزانة، وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ - ويقال: خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في حزائنه - وعامة المفسرين على أن المراد بالخزائن ههنا المطر؛ لأنه هو السبب للأرزاق والمعايش لبني آدم وغيرهم من الدواب والأنعام والطيور - والله سبحانه إنما ينزله حسبما يشاء، وبقدر ما يكفي الخلق.

وقيل: إن ذكر الخزائن من باب التمثيل، وعلى هذا يكون المعنى: ما من شيء ينتفع به العباد والدواب إلا ونحن قادرون على إيجاده وتخليقه، وما نعطيه إلا بمقدار نعلم أنه مصلحة لهم - وبذلك قد ضرب الله الخزائن مثلا لإرادته المطلقة وحكمته البالغة واقتداره على صنع ما يشاء، وذلك هو تأويل قوله: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم).

٢٢ - (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

قوله: (وأرسلنا الرياح لواقح) اللواقح جمع لاقح بمعنى حامل - نقول: ناقة لاقح، أي حامل، فقد شبهت الريح التي تحمل السحاب الماطر بالناقة الحامل؛ لأنها " الريح " حاملة لذلك السحاب أو للماء الذي فيه.

ويجوز أن تكون لواقح بمعنى ملاقح، جمع ملقحة - وهو من ألقح الفحل الناقة إذا ألقى ماءه فيها لتحمل - أو من ألقحت الريح الشجر - والمراد ملقحات للسحاب أو للشجر؛ أي أن اللواقح، التي تلقح السحاب حتى يحمل الماء، وهي أيضا التي تلقح الشجر حتى يثمر - لا جرم أن هذا شاهد مبين ينطق بأن هذا الكلام رباني وأنه معجز - فمن أين لمحمد - صلى الله عليه وسلم -، وهو العربي الأمي في بيئته البدائية الأمية أن يعي وحده مثل هذه الحقيقة العلمية في تلقيح النبات لولا أنه يوحى إليه بذلك من ربه؟! وما كانت البشرية في ذلك الزمان لتعلم أن عملية الإثمار في الشجر يسبقها عملية التلقيح لإيناع الشجر وتحصيل الثمر، وذلك على نمط ما يجري في بقية الكائنات الحية.

قوله: (فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) بعد إنشاء السحاب الماطر عن طريق الريح الملقحة أنزلنا عليكم المطر المدرار لتستقوا منه ماء عذبا سائغا، ولتستقي منه مزارعكم ومواشيكم - وذلك من نعم الله الكبيرة على الناس - النعم التي تقتضي دوام الشكر لله الباسط العاطي الذي لا تنقضي آلاؤه ولا تحصي نعماؤه.

قوله: (وما أنتم له بخازنين) أي لستم قادرين أن تمنعوا نزول الماء من السماء - وقيل: لستم بقادرين على إيجاد الماء وخزنه في السحاب وإنزاله مطرا سائغا عذبا إلى الأرض؛ بل نحن القادرون على منع ذلك.

٢٣ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

قوله: {وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون} هاتان صفتان من صفات الله، وهما الإحياء والإماتة، فالله جل جلاله ينشر الحياة في الكائن ليصير ذا حركة وإحساس، وما يقتضيه ذلك من ظواهر تدل على الحياة، كالسمع والبصر والإدراك وغير ذلك من ظواهر الحس - وهو سبحانه الذي ينزع هذه الظاهرة- ظاهرة الحياة- من الكائن ليصير ميتا لا حراك فيه ولا حس ولا إدراك - وكل ذلك بمشيئة الله وقدرته.

وتلك هي طبيعة الحياة والكائنات طيلة الزمان في هذه الدنيا حتى يحين الوعد المحتوم الذي تنتهي فيه الحياة الدنيا وتبدل فيه الأرض غير الأرض والسماوات - وحينئذ يرث الله وحده الملكوت كله بعد أن يعم الفناء كل شيء فلا يبقى أحد سوى الله - وهو قوله: (ونحن الوارثون) أي الباقون بعد هلاك الخلائق كافة.

٢٤ - (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

قوله: {ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستئخرين} جاء في تأويل المستقدمين والمستأخرين عدة أقوال - منها: أن (المستقدمين)، الذين ماتوا - و (المستئخرين)، الذين مازالوا أحياء لم يموتوا - ومنها: أن (المستقدمين) هم الذين خُلقوا وأن (المستئخرين)، الذين لم يخلقوا بعد.

وقيل: إن (المستقدمين) في صفوف الصلاة، و (المستئخرين) فيها - ولعل الصواب، الحمل على العموم؛ أي أن الله يعلم المتصفين بالتقدم والتأخر في كل الأحوال والمناحي - سواء في الولادة أو الموت أو الإسلام أو في صفوف الصلاة أو غير ذلك من الأحوال والملابسات.

٢٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

قوله: (وإن ربك هو يحشرهم) يخاطب الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - ليبين له أنه هو جامع الخلائق يوم القيامة؛ إذ يحشرهم في يوم الحشر الموعود، حيث التلاقي والارتياع والزحام والثبور، حتى إذا حشر الله الناس جميعا فلم يتخلف منهم أحد نوقشوا الحساب ليصار بهم بعد ذلك إلى الجزاء المنتظر، ففريق إلى الجنة، وفريق إلى السعير.

قوله: (إنه حكيم عليم) (حكيم)، من الحكمة وهي العلم بحقائق الأشياء والإتيان بالأفعال على أحسن صورة وعلى الوجه الأمثل الأكمل - والله جلت قدرته بالغ الحكمة، عالم بالأشياء، خبير بحقائق الأمور - وإنما يصدر فعله عن تدبير قويم وإتقان كامل سليم، وعلم واسع محيط ١٨.

٢٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون (٢٦) والجان خلقناه من قبل من نار السموم (٢٧)}.

المراد بالإنسان ههنا آدم عليه السلام - والصلصال، معناه الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة - وقيل: الصلصال، الطين الحمراء إذا خلط بالرمل ١٩، وقيل: إن الله خلق آدم على صورة الإنسان من طين، ثم ترك حتى جف فكانت الريح إذا مرت به يسمع له صلصلة.

قوله: (من حمإ مسنون) الحمأ، جمع حمأة، وهو الطين المتغير إلى السواد، والمسنون معناه المنتن المتغير من قولهم: أسن الماء؛ إذا تغير، وهو قول ابن عباس.

هكذا خلق الله الإنسان - خلقه من تراب قد جبل بالماء فتحول طينا أسود منتنا ثم جف ويبس فصار كالفخار يُسمع له صلصلة إذا نقر - حتى إذا نفخ الله فيه من روحه صار خلقا آخر بسريان الروح فيه - وذلكم الإنسان بصفاته وخصائصه التي تميز بها من كل الأحياء - وذلك بما أوتي من عقل مفكر مدكر، وضمير وازع حافز، وجسد وأعصاب وحواس وأعضاء كثيرة ومختلفة يكمل بعضها بعضا ليتحقق الإنسان المتكامل المنسجم المميز - لا جرم أن خلق الإنسان شاهد عظيم على قدرة الصانع الجليل الذي خلق كل شيء وأحاط علمه بكل شيء.

٢٧ - (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

قوله: {والجان خلقناه من قبل من نار السموم} المراد بالجان إبليس، وقيل: المراد أبو الجن - فآدم أبو الإنس، والجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين - قال ابن عباس: الجان أبو الجن وليسوا شياطين؛ بل إن الشيطان ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس لكن الجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر.

على أن الجان خلقه الله من قبل أن يخلق آدم - وقد خلق الله الجان (من نار السموم) أي من الريح الحارة التي تقتل - وسميت سموما؛ لأنها بلطفها تنفذ في مسام البدن - ومنه السم القاتل - وقيل: نار السموم تعني لهب النار - وقيل غير ذلك مما جملته السموم وهو البالغ الحرارة الذي خلق الله منه الجان من قبل أن يخلق الإنسان ٢٠.

٢٨ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

قوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصل من حمإ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٣٠) إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١)} (إذ) تدل على ما مضى من الزمان - وهي ظرف في موضع النصب بفعل تقديره، اذكر؛ أي واذكر يا محمد وقت قوله تعالى للملائكة: (إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون) ذلك تقدير رباني لا يتخلف ولا معقب له - وهو أنه سبحانه خالق بشرا وهو الإنسان، ذكرا أو أنثى، واحدا أو جمعا - وقد يثنى، ويجمع أبشارا، وسمي بذلك؛ لأنه ظاهر الجلد ٢١ (من صلصال من حمإ مسنون) تقدم تفسيره.

٢٩ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

قوله: (فإذا سويته) أي فعلت فيه ما يصير به مستويا معتدلا، أو منسجما متكاملا متسقا لا عوج في خلقته ولا شذوذ.

قوله: (ونفخت فيه من روحي) النفخ معناه إجراء الريح من الفم ٢٢ - والمراد هنا: إفاضة ما به الحياة في البدن ليصير إنسانا حيا واعيا مدركا - وأضاف الله روح آدم إلى نفسه إكراما له، قال الطوسي في التبيان عن هذا المعنى: الروح جسم رقيق روحاني فيها الحياة التي بها يجيء الحي فإذا خرجت الروح من البدن كان ميتا في الحكم - فإذا انتفت الحياة من الروح فهو ميت في الحقيقة ٢٣.

قوله: (فقعوا له ساجدين) ذلك أمر الله للملائكة الأطهار أن يسجدوا لآدم عليه السلام - وذلك على سبيل التحية والتعظيم لآدم.

وقيل: إنه سجود بالمعنى المتبادر من قوله: (فقعوا له ساجدين) والوقوع معناه، السقوط على الأرض.

٣٠ - (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

قوله: {فسجد الملائكة كلهم أجمعون} (كلهم أجمعون)، توكيد بعد توكيد ٢٤؛ فقد استجاب الملائكة لأمر الله؛ إذ أطاعوه مذعنين مستسلمين، لم يتخلف منهم أحد - وهو ما يؤكده قوله: (كلهم أجمعون) فخروا جميعا ساجدين ممتثلين أمر ربهم مبادرين للطاعة دون وناء.

٣١ - (إِلا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

قوله: {إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين} إبليس مشتق من الإبلاس وهو اليأس ٢٥، المراد: أن إبليس أيس من رحمة الله، فلا أمل ولا رجاء له في خير أو رحمة البتة.

أما الاستثناء فقد قيل: إنه متصل، والمعنى: أن إبليس كان من الملائكة فلذلك استثناه - وقيل كان إبليس من جملة المأمورين بالسجود لآدم فلذلك استثناه من جملتهم - وقيل: الاستثناء هنا منقطع، ومعناه لكن - وبذلك ليس إبليس من الملائكة بل كان من الجن وقد خلقه الله من نار، وهو دائم الفسق والعصيان لله - أما الملائكة فهم خيار أبرار خلقهم الله من نور وهم لا يعصون الله ما أمرهم.

قوله: (أبى أن يكون مع الساجدين) الإباء معناه الامتناع - والسجود، معناه وضعه الجبهة على الأرض - وأصله الانخفاض والانحناء وطأطأة الرأس ٢٦ - والمعنى المراد: أن إبليس امتنع من السجود لآدم كما أمره ربه غرورا واستكبارا أن يسجد مع الملائكة - فعصى إبليس بذلك عصيانه الشنيع، وفسق عن أمر ربه؛ فكان أشد الخليقة عتوا وتمردا واستكبارا ٢٧.

٣٢ - (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

قوله تعالى: {قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين (٣٢) قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون (٣٣)}

(ما)، في موضع رفع مبتدأ - وخبره - (لك) - والتقدير: أي شيء كائن لك ألا تكون، أي في ألا تكون - وقيل: أن، زائدة - ويكون (ألا تكون) في موضع نصب على الحال ٢٨.

خاطب الله إبليس بهذا القول على لسان بعض رسله - وقيل: خاطبه الله جل جلاله على سبيل الإنكار والتحقير والإهانة - كقوله يوم القيامة مخاطبا أهل النار في النار (اخسئوا فيها ولا تكلمون) والمعنى: لمَ لمْ تسجد يا إبليس مع الساجدين؟ وهو في خطابه الكريم هذا يحقر إبليس اللعين غاية التحقير، ويندد به أبلغ تنديد، ويكشف للعالمين بشاعة الطبع المقبوح الذي يستقر في حقيقة هذا الكائن الشقي المتمرد بعصيانه أمر رب العالمين الذي سجدت له السموات والأرض وما فيهن.

٣٣ - (قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

قوله: {قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون} اللام في (لأسجد)، لتأكيد النفي، أي لا يستقيم مني ولا يليق بي أن أسجد لبشر مخلوق من طين أسود منتن - وإبليس اللعين يعني بذلك أن آدم ذو أصل خسيس وضيع وهو الصلصال، فكأنه يقول: كيف يسجد من هو في مثلي عظيم الأصل - والخلقة لمن أصله الطين المنتن المهين؟

هكذا كان تصور إبليس للمسألة - وهو أن الخلائق إنما تقاس بأصولها وأحسابها، أو تقاس بأشكالها وظواهرها المكشوفة - لا جرم أن نظرة كهذه للأمور والحياة جد خاطئة، بل إن المعيار الصحيح لقيم المخاليق ومقاديرها لهو جمال الفطرة الأصيلة وسلامة الطبع السوي، وما يفضي إليه ذلك كله من مقتضيات ومآلات عظيمة، غاية في الخير والبراءة والسمو والرحمة - فما يغني المخلوق هيئته وصورته أو حقيقة أصله مادام أثيم الفعل، منكود الطبع، قبيح الخصال - وإنما ينبغي التعويل كله على روعة الجوهر واستقامة السلوك وحسن الفعال ٢٩.

٣٤ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

قوله تعالى: {قال فاخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين (٣٥) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم (٣٧)} الضمير في قوله: (منها) يعود إلى السماء - وقيل: إلى الجنة، فقد أمره الله بالخروج منها - فمثله من الخبث والعصيان وسوء الطبع، ما لا يضاهيه في ذلك كائن، فهو غير خليق بالمكث في الجنة أو السماء حيث العلّيون، مقام الأبرار والأطهار من خلق الله - وذلك أول الإبعاد والدحر العاتي المتمرد، إذ دحره الله وأخرجه من دار فضله ورحمته بقوله: (فاخرج منها فإنك رجيم) أي مطرود من كل خير وفضل ورحمة - أو مرجوم بالذم والشتم.

٣٥ - (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

قوله: {وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين} ومع طرده من مقامات عليين حيث الأخيار والمصطفون الأكارم، فقد لعنه الله بلعنته إلى يوم الدين - وهو يوم القيامة حيث الجزاء والتعذيب في النار - واللعن، معناه الإبعاد من الرحمة والخير مقرونا بالشتم والدعاء عليه من كل المؤمنين إلى يوم القيامة وذلك على سبيل السخط أو التنكيل بهذا الشقي الأثيم الذي رأى من آيات الله في السموات ما يذهل العقل ويزلزل الكيان كله - لكنه مع كل ذلك أبى واستكبر، وعتا عتوا يتجاوز كل تصور - لا جرم أن إبليس لذو طبع خبيث شرير، تجتمع فيه كل سمات الشر والشقوة والتعس والباطل - فما بات بعد ذلك غير الكائن الأثيم المشؤوم الذي لا رجاء البتة في استقامته أو عوده إلى حظيرة الخير والصلاح.

٣٦ - (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

قوله: {قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون} الإنظار معناه الإمهال أو التأخير، فقد سأل إبليس رب العالمين أن يمهله فلا يميته حتى يبعث الناس يوم القيامة - وأراد إبليس من إمهاله حيا إلى يوم القيامة أن يكون له متسع وفسحة لإغواء الناس وإضلالهم وإشفاء لغليله المتعطش للانتقام والأخذ بالثأر - فأجاب الله سؤاله، لحكمة بالغة هو وحده يعلم حقيقة معانيها وكامل أبعادها ومراميها.

٣٧ - (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

فقال: }فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم{ أي إنك من جملة الممهلين.
٣٨ - (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)
}إلى يوم الوقت المعلوم{ وهو وقت النفخة الأولى، إذ يصعق الخلق أجمعون إيذانا بفناء الحياة والعالمين وقيام الساعة ٣٠.
٣٩ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)
قوله تعالى: }قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠) قال هذا صراط علي مستقيم (٤١) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين (٤٢) وإن جهنم لموعدهم أجمعين (٤٣) لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (٤٤)} ما، في قوله: (بما) مصدرية، أي بسبب إغوائك إياي، وقيل: الباء للقسم، أي أقسم بإغوائك إياي (لأزينن لهم في الأرض) فقد أقسم إبليس على أن يزين المعاصي لذرية آدم في الدنيا بما يجعلها تروق لهم فيستحسنونها ويجدون فيها ما يثير فيهم القبول والاستمتاع فيقبلون عليها إقبالا جامحا ومغاليا - وهم بذلك يركضون لاهثين جامحين، إذ تستنفرهم الغرائز المشبوبة وتؤزهم الشهوات المستشرية في العميق من طبائعهم - والمراد بالأرض، الدنيا، فهي محل متاعها ودارها - بل هي دار غرور يفتتن الناس بطيباتها ولذائذها وزخرفها، فهي بذلك مستقر للتزيين والإغواء والإضلال.
قوله: (ولأغوينهم أجمعين) إغواء الشيطان يعني تزيينه الباطل في أعين الناس وحسهم لكي يفعلوه - ولأغوينهم، أي لأضلنهم عن الهدى وأرغبنهم في الباطل وصنع كل محظور - ثم استثنى إبليس من جملة ذرية آدم عباد الله المخلصين وهو قوله: (إلا عبادك منهم المخلصين) بفتح اللام، أي الذين أخلصتهم لطاعتك والتزام شرعك ومنهاجك بأن وفقتهم لذلك - فأولئك ليس لي عليهم سلطان، ولا اقتدار على إضلالهم - وقرأ آخرون اللام بالكسر في المخلصين، أي إلا عبادك الذين أخلصوا لك العبادة والطاعة ولم يشركوا معك في ذلك أحدا سواك فكانوا مبرأين من كل شرك أو رياء.
٤١ - (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)
قوله: }قال هذا صراط على مستقيم{ الإشارة إلى عدم إغواء إبليس المخلصين من عباد الله - و (صراط) بمعنى حق، أي هذا حق علي مراعاته.
وقيل: يراد بالصراط - الدين المستقيم، فالله يبينه ويوفق المهتدين لاتباعه - وكلمة (على) تفيد الوجوب في قول المعتزلة، إذ يقولون بوجوب الأصلح على الله تعالى - وما ينبغي أن يقال مثل ذلك في حق الله، بل الصواب القول: إن ذلك تفضل من الله وامتنان - وقد شبه بالحق الواجب هنا، لتأكد ثبوته وتحقق وقوعه بمقتضى وعده سبحانه - و (مستقيم) أي لا انحراف فيه، فلا يُمال عنه إلى غيره.
٤٢ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)
قوله: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) المراد بالعباد العموم - والاستثناء متصل - وذلك إخبار من الله تعالى أنه ليس للشيطان تسلط على عباده إلا الذين أغواهم الشيطان فأطاعوه واتبعوا مسالكه المعروفة بالاعوجاج - وقيل: الاستثناء منقطع، والإضافة في عباده للعهد - وهو إخبار من الله بأن عباده الذين يطيعونه ويخلصون له العبادة، ويمضون على صراطه المستقيم، ليس للشيطان عليهم سلطان - أي تسلط أو اقتدار أن يغويهم إلا الذين اتبعوا إبليس على إغوائه فاستجابوا لوسوساته وإيحاءاته الخبيثة، وانقادوا له مخدوعين مضللين، فهم من أجل طاعتهم للشيطان وإذعانهم لأمره ووسوسته بات له سلطان عليهم.
٤٣ - (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)
قوله: }وإن جهنم لموعدهم أجمعين{ (جهنم) اسم غير منصرف من أجل التعريف والتأنيث - وهي في اللغة تعني البعيدة الغور ٣١ - والمراد بها: المكان الذي تستعر فيه النار ليعذب بها المجرمون والمكذبون والعصاة.
فقد جعلها الله موعدا للغاوين الذين عتوا عن أمر الله وزاغوا عن دينه ومنهجه.

أولئك جميعا موعدهم جهنم بما حوته من فظائع العذاب والتحريق - نجانا الله من كل ذلك، وجعلنا في زمرة الناجين الآمنين.
٤٤ - (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)
قوله: {لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} أي لجهنم سبعة طباق بعضها فوق بعض يهوي فيها المجرمون الخاسرون الذين استزلهم إبليس وجنوده فغلبت عليهم شقوتهم وأهواؤهم الشريرة - فإذا هووا في طبقات جهنم كانوا فيها بحسب مراتبهم ودركاتهم من حيث مستوى العصيان والغواية - وقد روى البيهقي وأحمد عن علي كرم . الله وجهه أنه قال: " أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تملأ كلها " - وروي عن ابن عباس قوله في أسماء الأبواب السبعة على أنها هي: جهنم والسعير ولظى والحطمة وسقر والجحيم والهاوية، وهي أسفلها.
قوله: (لكل باب منهم جزء مقسوم) أي لكل باب من أبواب النار من الغاوين والخاسرين (جزء مقسوم) يعني فريق معين مفروز، وذلك على قدر استحقاقهم من العذاب من حيث القلة والكثرة، بحسب معاصيهم - فباب للموحدين العصاة، وباب لليهود، وباب النصارى وباب للصائبين، وباب للمجوس، وباب للمشركين، وباب للمنافقين ٣٢.
٤٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)
قوله تعالى: {إن المتقين في جنات وعيون (٤٥) ادخلوها بسلام آمنين (٤٦) ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين (٤٧) لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (٤٨) نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم (٤٩) وأن عذابي هو العذاب الأليم (٥٠)}
المراد بالمتقين الذين يخشون الله فيجتنبون الشرك وكبائر الإثم والفواحش وقيل: المراد بهم الذين اتقوا الشرك بالله والكفر به، أولئك مقامهم يوم القيامة جنات وعيون؛ يعني بساتين وأنهار حيث النعيم والخير والبهجة والسرور.
٤٦ - (ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ)
قوله: {ادخلوها بسلام آمنين} أي يقال لهؤلاء المؤمنين المتقين: ادخلوا الجنة سالمين من كل مكروه وآفة وأذى، أو يقال ذلك لهم على سبيل التحية (آمنين) من كل ما تكرهونه من فناء وزوال وبلاء وموت.
٤٧ - (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)
قوله: (ونزعنا ما في صدورهم من غل) النزع، معناه القلع؛ أي قلع الله من قلوب المؤمنين يوم القيامة في الجنة ما كان يستكن فيها من حقد على غيرهم من المؤمنين وهم في الدنيا - فإن كان لأحدهم غل (حقد) في الدنيا على آخر؛ نزع الله ذلك من قلبه في الجنة؛ لتكون بذلك نفوس المؤمنين جميعا طيبة لا يشوبها غل أو حسد، ولا يعمرها غير المحبة والود.
ذلك هو شأن الناس في الدنيا، سواء فيهم المؤمنون والعصاة - فما تخلوا قلوبهم في كثير من الأحيان من أوضار الحقد أو الحسد مما يقع بينهم من خلافات وزلات تفضي في الغالب إلى شحن القلوب بالغل والاضطغان - وذلك هو ديدن الإنسانية ذات المركبات المفترقة والمتكاملة - ومن بين ذلك قابلية الإنسان للكراهية واحتمال الضغن على أخيه المسلم لما يلقاه منه من إساءات ينفر منها طبعه فيحمل له من أجل ذلك الغيظ والحقد - وهذه حقيقة تنسحب على الناس جميعا إلا الرفافين المخبتين الأبرار الذين أوتوا من جمال الطبع ونصوع الفطرة وبساطة العريكة ورقتها ما يجعلهم في غاية التسامح والصبر.
أما المؤمنون في الجنة يوم القيامة لا جرم تتبدل طبائعهم وأخلاقهم وسجاياهم غير ما هي عليه؛ ليتحولوا بذلك إلى أناسي من صنف مبرأ طاهر جديد، سالم عن عيوب النفس وأدران الطبيعة التي كانوا عليها في الدنيا - وبذلك ينزع الله من قلوبهم الغل نزعا كيلا يبقى بعد ذلك غير المودة والتآلف والانسجام الكامل - قال علي كرم الله وجهه في هذا الصدد: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم؛ أي ممن تعنيهم الآية.
قوله: (إخوانا على سرر متقابلين) (إخوانا)، منصوب على الحال من (المتقين) أي يكونون في الجنة على أحسن هيئة وخير حال من التآخي والتواد فيما بينهم وهم قاعدون على الأسرة (متقابلين) يقابل بعضهم بعضا يتشاطرون فيما بينهم الحديث الكريم الودود في غاية

من الأنس والرضا.
٤٨ - (لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)
قوله: (لا يمسهم فيها نصب) أي لا ينالهم في الجنة إعياء ولا تعب - قوله: (وما هم منها بمخرجين) أي أنهم خالدون في الجنة لا يتحولون وهم فيها ماكثون لا يموتون ولا يزولون.
٤٩ - (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
قوله: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم} روي في سبب نزول هذه الآية عن رجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: طلع علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الباب الذي دخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال: " لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: " إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد يقول الله تعالى عز وجل: لم تُقَنِّط عبادي؟ (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم) ٣٣ " والله جل وعلا يخاطب نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم -: أن أخبر عبادي يا محمد أني أنا الرحيم بهم فأستر على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا إلى ربهم، فلا أفضحهم ولا أكشف عن معايبهم وجرائرهم وآثامهم.
٥٠ - (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ)
وأخبرهم أيضا أن عذابي أليم ووجيع أصيب به الذين يفعلون المعاصي والخطايا، ويصرون عليها غير تائبين ولا منيبين ولا نادمين - وهو قوله: (وإن عذابي هو العذاب الأليم).
إن ذلكم هو العدل المطلق والفضل الأمثل الكامل؛ فإن من عدل الله أن يعذب المسيئين الخاطئين الذين يأتون الذنوب مصرّين غير راجعين ولا متورعين ومن فضله السامي ورحمته البالغة أن يعفو عن التائبين النادمين المستغفرين ٣٤.
٥١ - (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)
قوله تعالى: {ونبئهم عن ضيف إبراهيم (٥١) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون (٥٢) قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم (٥٣) قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون (٥٤) قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين (٥٥) قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون (٥٦)}.
يخاطب الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن أخبر عبادي (عن ضيف إبراهيم) والضيف واحد ويجمع - وقد يجمع على أضياف ضيوف وضيفان - وأضاف الرجل وضيّفه تضييفا؛ أي أنزله به ضيفا، وضافه ضيافة؛ إذا نزل عليه ضيفا ٣٥.
وضيف إبراهيم الملائكة.
٥٢ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)
إذ دخلوا عليه لما أرسلهم ربهم إلى قوم لوط لتدميرهم من أجل فعلهم الخبائث (فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون) قالت الملائكة لخليل الله إبراهيم (سلاما) أي نسلم عليك سلاما، ففزع إبراهيم منهم وهو قوله: (إنا منكم وجلون) من الوجل وهو الخوف.
٥٣ - (قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)
(قالوا لا توجل) أي لا تخف، فقد جئناك لنبشرك بغلام ذي علم؛ أي بصير كذلك، وهو إسحاق عليه السلام.
٥٤ - (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)
قوله: {أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون} (أن)، مصدرية؛ أي أبشرتموني مع مس الكبر إياي وزوجتي بأن يولد لي غلام عالم (فبم تبشرون) استفهام تعجب؛ أي فبأي شيء بشرتموني؟!.
٥٥ - (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ)
قوله: (قالوا بشرناك بالحق) أي بشرناك باليقين الذي لا ريب فيه وهو أن الله قد وهب لك غلاما عليما (فلا تكن من القانطين) أي

لا تكن من الآيسين الذي ييأسون من فضل الله - وكان إبراهيم قد يئس من الولد لكبر سنه.
٥٦ - (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ)
{قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} أي من ييأس من رحمة الله إلا المكذبون أو الذين أخطأوا سبيل الصواب، فإبراهيم عليه السلام ما أيس من رحمة الله ولكنه استبعد الولد لكبر سنه ٣٦.
٥٧ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)
قوله تعالى: {قال فما خطبكم أيها المرسلون (٥٧) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين (٥٩) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين (٦٠)} لما أيقن إبراهيم عليه السلام أن أضيافه من الملائكة سألهم: ما شأنكم أيها المرسلون، أو ما أمركم الذي أرسلتم به؟
٥٨ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)
فأجابوه: {إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين} أي أرسلنا الله لنهلك قوما ضالين فاسقين عن أمر الله.
٥٩ - (إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)
{إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين} (آل لوط)، منصوب، لأنه استثناء منقطع، لأن قوم لوط ليسوا من القوم المجرمين ٣٧.
وآل لوط، هم أتباعه الذين هم على دينه وهي ملة التوحيد، فهؤلاء لن نهلكهم بل (إنا لمنجوهم أجمعين) باستثناء امرأته، فقد كانت من القوم الضالين، وكانت من المفسدين الخائنين.
٦٠ - (إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)
وقوله: {إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين} (امرأته) منصوب على الاستثناء من آل لوط - و (قدرنا) أي قضى الله وكتب (إنها لمن الغابرين) أي الباقين - غبر الشيء أي بقي - فقد أخبرت الملائكة إبراهيم أن امرأة لوط من الظالمين المجرمين، وقد قضى الله أنها من (الغابرين) يعني الباقين في العذاب ٣٨.
٦١ - (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ)
قوله تعالى: {فلما جاء آل لوط المرسلون (٦١) قال إنكم قوم منكرون (٦٢) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون (٦٣) وأتيناك بالحق وإنا لصادقون (٦٤) فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون (٦٥) وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (٦٦)} لما جاءت الملائكة لوطا في صورة شباب حسان نكرهم فلم يعرفهم - وهو قوله: (إنكم قوم منكرون)
٦٢ - (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)
(إنكم قوم منكرون) أي لا نعرفكم.
٦٣ - (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)
فقالت له الملائكة: (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) (يمترون) من الامتراء، والاسم المرية وهي الشك ٣٩، أي جئناك يا لوط بخبر العذاب النازل بساحة هؤلاء المجرمين الفسقة - العذاب الذي كانوا يشكون في حصوله ويكذبونه، فهو نازل بهم ولا مندوحة لهم عنه ولا مناص.
٦٤ - (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)
قوله: {وأتيناك بالحق وإنا لصادقون} أي جئناك بخبر اليقين عن عذابهم النازل بساحتهم (وإنا لصادقون) فيما نخبرك به عن هلاكهم وتدميرهم.
٦٥ - (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

قوله: (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أسر، وسرى أسرى يسْري سُرىً، أي سار ليلا ٤٠ - أمرت الملائكة لوطا أن يسير بأهله (بقطع من الليل) أي ببقية من الليل - أو بآخره.
قوله: (واتبع أدبارهم ولا يتلفت منكم أحد) أي امض خلف أهلك الذين تسري بهم فكن من ورائهم وهم أمامك (ولا يلتفت منكم أحد) أي لا تلتفتوا إلى الذين وراءكم ممن حاق بهم العذاب - وذلك كيلا يتخلف منكم أحد فيصيبه من العذاب ما أصاب قوم لوط - أو كيلا يرى ما نزل بالقوم المجرمين من العذاب والنكال.
قوله: (وامضوا حيث تؤمرون) أي حيث أمركم الله بالمضي إليه - قال ابن عباس: يعني الشام - وقيل: إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال اليقين - وإنما سمي اليقين، لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم - فقال لجبريل: من أين يُخسف بهم؟ قال: " من هاهنا " وحدّ له حدّا - وذهب جبريل - فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم: أيقنتُ بالله، فسمي اليقين.
٦٦ - (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)
قوله: {وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين} أي أوحينا إليه (ذلك الأمر) وفسر الأمر بقوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) (أن)، في موضع نصب على البدل من (ذلك) (مصبحين)، حال من هؤلاء ٤١ والمعنى: أن الله أوحى إلى نبيه لوط عليه السلام أن دابر قومه، أي أولهم وآخرهم مستأصل حين يصبحون، أو عند طلوع الصبح - ودابرهم، معناه آخرهم، فهم مجذوذون عن آخرهم كيلا يبقى منهم أحد ٤٢.
٦٧ - (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)
قوله تعالى: {وجاء أهل المدينة يستبشرون (٦٧) قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) واتقوا الله ولا تخزون (٦٩) قالوا أو لم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين (٧١) لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون (٧٢)} يقول الله مبينا قصة لوط عليه السلام مع قومه الأشرار أهل الفاحشة والأقذار: إن أهل مدينة سدوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن أضيافا قد ضافوا لوطا جاءوا (يستبشرون) أي جاءوا لوطا وأضيافه مستبشرين فرحين بنزول هؤلاء الشباب أولي الوضاءة والوجوه الصبيحة الحسان طامعين في مقارفة الفاحشة.
٦٨ - (قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ)
قوله: {قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون} قال لوط لقومه واعظا مترفقا عسى أن يرجعوا إلى أنفسهم فينقلبوا منصرفين قافلين: إن هؤلاء الذين تبتغون منهم الفحش والمنكر أضيافي (فلا تفضحون) من الفضيحة وهي العيب والجمع فضائح - فضحه فضحا: كشف معايبه، فهو فاضح - افتضح الرجل، أي انكشفت معايبه - وفي الدعاء: لا تفضحنا بين خلقك، أي استر عيوبنا ولا تكشفها ٤٣ - والمعنى المقصود: أن الضيف يجب إكرامه - فإذا جئتم تبتغون ما قصدتموه من المنكر والفحش فتلك إهانة لي وخزي.
٦٩ - (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ)
ثم قال: {واتقوا الله ولا تخزون} أي خافوا ربكم أن ينتقم منكم فيحل عقابه بكم (ولا تخزون) أي ولا تحملوني في ذلك هوانا وذلا، أو حياء وخجلا.
٧٠ - (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ)
قوله: {قالوا أو لم ننهك عن العالمين} قال قوم لوط لنبيهم في توقح وفحش: ألم ننهك أن تضيف أحدا من الناس؟ فأنت تعلم أننا نقصده بالفاحشة - أو أننا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.
٧١ - (قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)
قوله: {قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين} المراد بناته اللواتي من صلبه، وقيل: المراد نساء قومه، لأن نبي الأمة كالأب لهم - وذلك

كقوله عز وعلا: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم).
والمعنى: أن لوطا عليه السلام في ساعاته الحرجة هذه التي أصابه فيها من الكرب والحراجة والضيق ما أصابه قد استحث قومه مرغبا لهم في النكاح الحلال وهو يريد بذلك دفع أذاهم وفسادهم عن أضيافه الأطهار.
قوله: (إن كنتم فاعلين) أي إن كنتم تحبون الحلال من الشهوة دون ما حرم الله من الشهوات المستقذرة - أو إن كنتم تفعلون ما آمركم به من فعل الحلال وترك الحرام.
٧٢ - (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)
قوله: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون} العمر والعمر، أي بفتح العين وضمها - وهما بمعنى واحد وهو الحياة - عمر الرجل عمرا، أي عاشا زمانا طويلا - ولم يستعمل في القسم إلا المفتوح منهما - فنقول: لعمر الله - فاللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف تقديره: لعمر الله قسمي - أو لعمر الله ما أقسم به ٤٤، والله تعالى بقول لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -: وحياتك يا محمد إن قومك من قريش (لفي سكرتهم يعمهون) أي في حيرتهم وغوايتهم يتيهون ويترددون.
وبذلك أقسم الله بحياة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - - لاجرم أن هذا تشريف عظيم وتقدير بالغ من الله لرسوله، إذ كرمه خير تكريم بأن أقسم حياته الكريمة الفضلى - قال ابن عباس في ذلك: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد - صلى الله عليه وسلم - - وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلا بحياة محمد - صلى الله عليه وسلم - قال: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) - وقد أجمع المفسرون على أن الله تعالى قد أقسم ههنا بحياة محمد - صلى الله عليه وسلم - تشريفا له أن قومه من قريش في (سكرتهم يعمهون) أي في حيرتهم يترددون.
ويستفاد من الآية كراهة الحلف بغير الله - كأن يحلف المرء بنفسه أو بعمره أو حياته، فإن ذلك منهي عنه أو محظور - وفي الخبر: " من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله " ٤٥.
٧٣ - (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)
قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين (٧٣) فجعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (٧٤) إن في ذلك لآيات للمتوسمين (٧٥) وإنها لبسبيل مقيم (٧٦) إن في ذلك لآيات للمؤمنين (٧٧)} (الصيحة)، هي صيحة جبريل عليه السلام - و (مشرقين) منصوب على الحال، أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس أو شروقها، فإنه في وقت الشروق أخذت قوم لوط صاعقة العذاب، إذ صاح فيهم جبريل صيحة التدمير فأبيدوا عن آخرهم.
٧٤ - (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)
قوله: (فجعلنا عليها سافلها) أي جعل الله عالي أرضهم سافلها - وذلك أن جبريل الأمين عليه السلام قد رفع أرض قوم لوط- القوم الذين كانوا متفحشين في المنكر ويعملون الخبائث- إلى السماء، ثم قلبها قلبا فصار العالي منها سافلا، والسافل عاليا.
قوله: (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) السجيل: حجارة من طين طبخت بنار جهنم ٤٦، فإنه فوق ما جاءهم به جبريل من الصوت القاصف المدمر فقد أمطرهم الله بحجارة من طين زيادة في تعذيبهم والتنكيل بهم.
٧٥ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)
قوله: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين} يعني إن ما حل بقوم لوط من الهلاك والتدمير لهي علامات ودلالات (للمتوسمين) أي المعتبرين والمتبصرين والمتفكرين - وقيل: للمتفرسين - والتوسم من الوسم وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب - يقال: توسمت في فلان خيرا، أي رأيت فيه أثرا منه وتفرسته فيه ٤٧، ويعزز هذا التأويل ما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " اتقوا فراسة المؤمن، إنه ينظر بنورا الله " ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين).
قال الحسن البصري في معنى المتوسمين: المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك

الكفار.
٧٦ - (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ)
قوله: {وإنها لبسبيل مقيم} الضمير عائد إلى قرى قوم لوط، والسبيل المقيم معناه الطريق الثابت الذي لم يندرس؛ أي أن هذه القرى التي أتى عليها التدمير والإهلاك لهي بطريق واضح ثابت لم يخف ولم يدرس بعد - وهي طريق يمر بها هؤلاء المشركون كلما ضربوا في الأرض من الحجاز إلى الشام من أجل التجارة؛ فهم إذا مروا بقرى قوم لوط شاهدوا آثار التدمير والعذاب الذي حل بهم بما جنوه من شنيع المنكرات والفواحش.
٧٧ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {إن في ذلك لآية للمؤمنين} الإشارة عائدة إلى ما صنع الله بقوم لوط من شديد النوازل وعظيم التنكيل؛ فإنه فيما حل بهم من هذا العذاب الوبيل علامة واضحة للمؤمنين يستدلون بها على أن الله ينتقم للنبيين والمؤمنين من الطغاة الظالمين الذين يثيرون في الأرض الفساد والباطل ويكيدون لدين الله المكائد ٤٨.
٧٨ - (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)
قوله تعالى: {وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين (٧٨) فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين (٧٩)} إن، المخففة من إن الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف - والتقدير: وإن الشأن كان أصحاب الأيكة - وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب - والأيكة بمعنى الغيضة وهي الشجر الكثير المتلف، وجمعها الأيك ٤٩ - فقوم شعيب كانوا أصحاب موضع ذي شجر وآجام - وكانوا سادرين في الشرك والظلم وقطع الطريق ونقص المكيال والميزان.
٧٩ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)
ومن أجل ذلك انتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظّلّة، إذ اشتد الحر فيهم أياما لا يظلمهم من اضطرامه أو يقيهم من حره شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فراحوا يستظلون بظلها يلتمسون تحتها النجاة من لظى الهجير المتأجج، فبعث الله عليهم نارا فاحترقوا - وذلك هو عذاب يوم الظّلّة.
قوله: (وإنهما لبإمام مبين) المراد بالضمير في قوله: (وإنهما) قرى قوم لوط، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب.
قوله: (لبإمام مبين) اللام للتوكيد، والإمام، ما يؤتم به - والمراد به الطريق الواضح وإنما جعل الطريق إمام؛ لأنه يؤم ويتبع - والمبين، الظاهر في نفسه - إذ يهتدي به المسافرون ٥٠.
٨٠ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)
قوله تعالى: {ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين (٨٠) وآتيناهم آيتنا فكانوا عنها معرضين (٨١) وكانوا يحتون من الجبال بيوتا آمنين (٨٢) فأخذتهم الصيحة مصبحين (٨٣) فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٤)} المراد بالحجر هنا ديار ثمود قوم صالح عليه السلام - وهي ما بين مكة وتبوك: أو الوادي الذي كانت تسكنه ثمود؛ فلقد كذب هؤلاء المرسلين - إذ جحدوا نبيهم صالحا وكذبوا نبوته وآذوه أيما إيذاء - والذي يكذب نبيا من النبيين فكأنما كذب سائر النبيين؛ لأنهم جميعا على ملة واحدة وهي ملة التوحيد الخالص لله، فما يجوز التفريق بينهم بل يجب الإيمان بهم جميعا.
٨١ - (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
قوله: {وآتيناهم آيتنا فكانوا عنها معرضين} أي آتيناهم علاماتنا وأدلتنا الظاهرة على صدق نبيهم صالح وأنه مرسل من ربه - والمراد بآياته، الناقة الهائلة التي أخرجها الله من الصخرة الصماء فكانت في ضخامتها ليس لها في النوق نظير - وكانت تسرح في بلاد القوم؛ إذ كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم - لكنهم مع ذلك قد عَتَوا عُتُوا فاجرا لئيما، إذ عقروها (فكانوا عنها معرضين) لقد أعرضوا عما آتاهم الله من الآيات والدلالات مما فيه اعتبار وازدجار لكنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا.

٨٢ - (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)
قوله: {وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين} (ينحتون) أي ينجرون من النجر - نحت نحتا ونحيتا، أي قشر وبرى ونجر - والنحاتة، البراية ٥١، أي كان أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح ينقبون في الجبال بيوتا، أو يبنون من حجارتها بيوتا (آمنين) أي من عذاب الله، أو من الخراب والهدم - وقيل: آمنين من الموت، فهم يتوهمون أن بيوتهم المكينة التي نحتوها من حجر الجبال سوف تحول دون كل احتمالات العذاب أو الخراب أو الموت - وذلك محض وهم وضلال يتيه فيهما الجاهلون والغافلون والسفهاء في كل زمان.
٨٣ - (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)
قوله: {فأخذتهم الصيحة مصبحين} أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا في يومهم الرابع من اليوم الذي توعدهم الله فيه العذاب بعد تمتعهم في دارهم ثلاثة أيام.
٨٤ - (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
قوله: {فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} يعني ما دفع عنهم البلاء والعذاب النازل بهم ما كان لهم من أموال وحصون وما أتوه من قوة الأجسام ٥٢.
٨٥ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)
قوله تعالى: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل (٨٥) إن ربك هو الخلاق العليم (٨٦)} ما خلق الله هذه الخلائق الكاثرة المبثوثة كالسموات والأرض وما فيهن وما بينهن من كائنات وأجرام عجاب (إلا بالحق) أي إلا بالعدل وما يقتضيه ذلك من فوائد ومنافع وحكمة - ولم يخلق ذلك بالباطل أو العبث - والله جل جلاله من صفاته العدل، فإنه لم يظلم أحدا البتة وما يقضي في حكمه إلا بالحق والإنصاف وليس بالباطل والجور - وكذلك فإنه خلق السماوات والأرض وما حوته من أشياء بالعدل.
قوله: (وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل) القيامة جائية لا محالة، بل إن القيامة لهي الخبر اليقين المقطوع الذي يدهم الكون بهوله وفظائعه، وحينئذ ينتقم الله من الظالمين الخاسرين الذين كذبوك يا محمد وأعرضوا عنك إعراضا - وما عليك إلا أن تعرض عنهم بإحسان، وتعفو عنهم العفو الرفيق الحسن - وقيل: إن ذلك منسوخ بآيات القتال.
٨٦ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ)
قوله: {إن ربك هو الخلاق العليم} الله الذي خلق الخلق جميعا وهو أعلم بالصالحين منهم والطالحين، وأعلم بما يأتيه العباد من أفعال وتدبير.
٨٧ - (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ)
قوله تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (٨٧) لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨)}.
جاء في سبب نزول هذه الآية أن سبع قوافل جاءت من بصرى وأذرعات إلى يهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز (الثياب) وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر - فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها فأنفقناها في سبيل الله - فأنزل الله تعالى هذه الآية - وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات خير لكم من هذه السبع القوافل ٥٣.
والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - فيمتن عليه وعلى المؤمنين أن آتاهم (سبعا من المثاني والقرآن العظيم) وليت شعري أي عطاء ومنة وفضل خير وأكبر مما أعطاه الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين، فقد أعطاهم السبع المثاني وأعطاهم قرآنه الكريم - وأعظم به من عطاء هائل مبارك - لا جرم أن ذلك خير البركات التي تتنزل على الأرض.
والمثاني والقرآن العظيم بما فيهما من الخيرات والبركات والأحكام والدلالات والمواعظ والمشاهد والأخبار وغير ذلك من المعاني العظام

خير ما تؤتاه أمة من ربها.
أما المثاني: فقد اختلف المفسرون في المراد بها - وثمة قولان في تأويل ذلك.
القول الأول: إن المراد بالسبع المثاني، السور السبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس؛ ففيهن الفرائض والحدود والقصاص والأحكام والأمثال والأخبار والعبر - وهو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك وآخرين.
القول الثاني: إنها الفاتحة - وهي سبع آيات، والبسملة الآية السابعة، وقد روي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس وآخرين - وقد سميت بالمثاني، لأنها تثنى في كل صلاة أي تقرآ في كل ركعة - فهي من التثنية ومعناها التكرير، لأن الفاتحة مما يتكرر في كل صلاة سواء منها الفريضة أو التطوع - وقيل: من الثناء، لأنها تشتمل على الثناء على الله - وقيل: سميت بالمثاني، لأنها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ومرة بالمدينة - وقيل غير ذلك - وواحدة المثاني، مثناة، أو مثنية صفة للآية.
والصواب من هذه الأقوال الثاني وهو المراد بالسبع المثاني سورة الفتاحة وهي أم الكتاب لما يعزز ذلك من أخبار - منها ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته فقال: " ما منعك أن تأتيني؟ " فقلت: كنت أصلي - فقال: " ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم)؟ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد " فذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - ليخرج فذكرت فقال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ".
وكذلك أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم ".
على أن ذلك لا ينافي وصف غير الفاتحة من السور الطوال بالمثاني كما لا ينافي وصف القرآن كله بهذا الوصف؛ فقد قال جل وعلا: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني) وسيأتي تأويل هذه الآية في موضعها من هذا التفسير إن شاء الله.
٨٨ - (لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم} أي لا تمنين ما فضلنا به أحدا من الظالمين من متاع الدنيا وزينتها - ومد العينين إلى الشيء، بدوام النظر إليه وهو ما يدل على استحسانه وتمنيه - والأزواج يراد بهم الأصناف - وهم هنا أصناف الكافرين الذين لا تنشغل قلوبهم وعقولهم إلا في المتاع والمال وكيفية تحصيل ذلك وتكثيره، فما ينبغي للمؤمنين أن يتمنوا ما فضل الله به غيرهم من المشركين والضالين الخاسرين - ولئن أعطى الله هؤلاء الظالمين من مختلف النعم والخيرات والمال ما يغترون به اغترارا، فقد أعطى الله المسلمين خيرا من ذلك وأعظم وأدوم لقد أعطاهم خير الدنيا والآخرة، وذلكم المثاني والقرآن العظيم - وهما تقيض منهما على العالمين الرحمات والبركات حيث التشريع الأمثل الكامل والعقيدة الراسخة السمحة والمعاني الزاخرة الكاثرة الودود - لا جرم أن القرآن خير ما حفلت به السماوات والأرض من ظواهر عجاب، لما حواه هذا الكتاب المعجز من بالغ الحكمة وكريم الملة وكامل التشريع - التشريع الذي بني على الرحمة والمودة والأمان للبشرية كافة.
ذلكم هو القرآن الذي انبثقت منه ملة الإسلام لتكون خير هداية للإنسان وهو يمضي مكافحا عاملا على متن هذا الكوكب - ملة الإسلام قد جيء بها للعالمين كيما تكون مشكاة يتلألأ منها الإشعاع والنور وتستضيء بإشراقها البشرية على مر الزمن لتمضي في الحياة آمنة سالمة مطمئنة وهي يحفها الأمان والسلام وتتفجر من خلالها الرحمة والإخاء والعدل - إن ذلكم خير مما تمتد إليه أبصار الناس من الضالين الغافلين من متاع الدنيا الفانية الغرور.
قوله: (ولا تحزن عليهم) أي لا تبتئس بإعراضهم عن دين الله - وقيل: لا تحزن على إمتاعهم في الدنيا بزينتها وزخرفها، فما أوتيته أنت من قرآن حكيم خير مما أوتوه من مال وزينة.
قوله: (واخفض جناحك للمؤمنين) الخفض نقيض الرفع - والجناح معناه اليد - وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع،

والله جل وعلا يأمر رسوله الكريم (ص) بجميل التواضع واللين لمن آمن بدعوته واتبع هداه، وأن لا يلتفت إلى المشركين وما كسبوه من ثراء ومتاع ٥٤.
٨٩ - (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)
قوله تعالى: {وقل إني أنا النذير المبين (٨٩) كما أنزلنا على المقتسمين (٩٠) الذين جعلوا القرآن عضين (٩١) فوربك لنسألنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)}
يأمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يقول للناس: إنني نذير مظهر لكم العذاب الأليم أن يحل بكم كما حل بمن قبلكم من المقتسمين الظالمين الخاسرين.
٩٠ - (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)
وبذلك فإن الكاف في قوله: (كما) تتعلق بقوله: (أنا النذير المبين) أي أنذركم من العذاب كما أنزلنا على المقتسمين من العذاب - وقيل: الكاف تتعلق بقوله: " آتيناك سبعا من المثاني كما أنزلنا على المقتسمين " ٥٥ اختلفوا في المراد بالمقتسمين - وفي ذلك عدة أقوال.
منها: أنهم الذين اقتسموا طرق مكة ليصدوا الناس عن الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلم - - ويقرب عددهم من أربعين - وقيل: كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها: لا تغتروا بالخارج منها والمدعي للنبوة فإنه مجنون - وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم الخزي والمهانة فماتوا شر ميتة - والمعنى: أنني أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين - وذلك قول ابن عباس.
ومنها: أن المقتسمين هم اليهود والنصارى - وسموا مقتسمين؛ لأنهم جعلوا القرآن عضين، آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي - وقيل: لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به - فقال بعضهم: سورة كذا لي: وقال بعضهم: سورة كذا لي - وقال بعضهم: القرآن سحر - وقال آخرون: إنه شعر - وقال آخرون: أساطير الأولين - وتلك رواية عن ابن عباس.
ومنها: أنهم قوم صالح قد تقاسموا لنبيتنه وأهله؛ فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم - فعلى هذا، الاقتسام من القسم وهو الحلف وليس من القسمة.
٩١ - (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)
قوله: {الذين جعلوا القرآن عضين} أي جعلوه أعضاء حين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، و (عضين) جمع عضة - كقلين جمع قلة - وعزين جمع عزة، وثبين جمع ثُبة ٥٦، وأصل العضة، العضوة، من عضيت الشيء، إذا فرقته - وكل قطعة عضة - والتعضية بمعنى التجزئة والتفريق؛ يقال: عضيت الجزور والشاة تعضية؛ إذ جعلتها أعضاء وقسمتها - فقوله: (جعلوا القرآن عضين) أي جزءوه أجزاء فقالوا: سحر وشعر ومفترى وأساطير الأولين - قال ابن عباس في تأويل الآية: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء؛ فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه.
٩٢ - (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)
قوله: {فوربك لنسألنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)} الضمير في (لنسألنهم) عائد إلى (المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين) فإن الله عز وعلا يقسم بذاته أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي - وبهذا يمكن جعل القول من عمل اللسان - فما قالوه في الاقتسام مندرج فيما كانوا يعملونه.
وقيل: الضمير عائد إلى جميع المكلفين - وبذلك فإن الآية تدل بعمومها على أن الله سائل الناس ومحاسبهم جميعا سواء فيهم الكافرون والمؤمنون إلا من دخل الجنة بغير حساب - فلسوف يسأل الله الناس جميعا عما عملوه، ولا يسألهم سؤال استخبار واستعلام: هل عملتم كذا وكذا - فإن الله عليم بكل شيء، ولكنه يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، وهو قول ابن عباس ٥٧.
٩٣ - (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٢]
قوله: {فوربك لنسألنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)} الضمير في (لنسألنهم) عائد إلى (المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين)

فإن الله عز وعلا يقسم بذاته أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي - وبهذا يمكن جعل القول من عمل اللسان - فما قالوه في الاقتسام مندرج فيما كانوا يعملونه.

وقيل: الضمير عائد إلى جميع المكلفين - وبذلك فإن الآية تدل بعمومها على أن الله سائل الناس ومحاسبهم جميعا سواء فيهم الكافرون والمؤمنون إلا من دخل الجنة بغير حساب - فلسوف يسأل الله الناس جميعا عما عملوه، ولا يسألهم سؤال استخبار واستعلام: هل عملتم كذا وكذا - فإن الله عليم بكل شيء، ولكنه يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، وهو قول ابن عباس ٥٨.

٩٤ - (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين (٩٤) إنا كفيناك المستهزئين (٩٥) الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون (٩٦)} (فاصدع)، من الصدع وهو الشق - وتصدع القوم: إذ انشقوا أو تفرقوا، وصدع بالحق: تكلم به جهارا، والمراد هنا: أظهر دينك، أو فرق بين الحق والباطل بإظهار ما تؤمر به - وما، في قوله: (بما) تحتمل وجهين - احدهما: أن تكون ما، اسما موصولا بمعنى الذي - والتقدير: فاصدع بالذي تؤمر به - وثانيهما: أن تكون ما، مصدرية - والتقدير: فاصدع بالأمر ٥٩.

وذلك أمر من الله لنبيه (ص) بتبليغ رسالته للناس جهارا دون استخفاء، فقد قالوا: ما زال النبي - صلى الله عليه وسلم - مستخفيا حتى نزلت هذه الآية التي يأمر الله فيها بإبلاغ ما بعثه الله به والصدع به مجاهرة وظهورا - ويقتضي ذلك مواجهة المشركين علانية بالقرآن وما فيه للناس من رسالة التوحيد وإخلاص العبودية لله دون سواه، وما حمله أيضا من شرائع وأحكام تسوق البشرية إلى النجاة والسلامة والخير في الدنيا والآخرة.

قوله: (واعرض عن المشركين) أي بلغ قومك ما أرسلت به إليهم، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يصدون عن دين الله، واكفف عن قتالهم وحربهم - ثم نسخ ذلك بآيات القتال كقوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم).

٩٥ - (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

قوله: {فإن كفيناك المستهزئين} أي لا تعبأ بالمشركين ولا تخش أذاهم وكيدهم فإن الله كافيك الذين يستهزئون بك من المشركين، الذين يناصبونك العداء والصد والأذى.

وقيل: نزلت هذه في خمسة نفر كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي الاستهزاء به فأهلكهم الله انتقاما لدينه ولرسوله (ص)، وهؤلاء هم الوليد بن المغيرة؛ فقد مرّ بنبّال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات - والعاص بن وائل دخل في أخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات - والأسود بن عبد المطلب عمي - والأسود بن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات - والحارث بن قيس امتخط قيحا ومات.

٩٦ - (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

قوله: (الذين يجعلون مع الله إلها آخر) هذا وصف للمستهزئين الذين أهلكهم الله؛ فقد وصفهم الله بالشرك؛ إذ عبدوا مع الله آلهة أخرى فما كان ذنبهم الاستهزاء وحده؛ بل كان لهم ذنب شنيع آخر لا يقل عن الإشراك فظاعة ونكرا، وهو الاستهزاء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - - فما يستهزئ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا كل فاجر خاسر أو عتلّ متوحّخ ظلوم قد سخر من خير من حملت الغبراء وأظلت السماء وذلكم هو خير البرية والأنام: محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - - وما الاستسخار بنبي الله إلا الاستسخار بالرسالة المنزلة من عند الله للعالمين، الرسالة التي جاءت تحمل للبشرية ملة التوحيد وسبيل الهداية والحق، وتسوق الناس طيلة الزمان إلى الحق والخير والنجاء - وليس الاستسخار من ذلك إلا محض الكفران والعصيان والتمرد.

قوله: (فسوف يعلمون) ذلك تهديد من الله ووعيد لهؤلاء الخاسرين المستهزئين الذين يسخرون من نبي الله (ص) وهو المبعوث إليهم هداية ورحمة؛ فقد توعدهم الله بالعذاب؛ وهو ما يلاقونه من شديد البلاء والويل عند مصيرهم إلى ربهم يوم القيامة ٦٠.

٩٧ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

قوله تعالى: }ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون{ الله يعلم أن رسوله الكريم يضيق صدره مما يسفهه قومه عليه - والنبي - صلى الله عليه وسلم - بشر من البشر؛ فهو في جبلته البشرية وطبيعته الإنسانية لا جرم يألم مما يتقوله الظالمون الكافرون عليه وعلى دينه من طعون وإساءات - وفي هذه الكلمات القرآنية الحانية ما يسرّي عن قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن قلوب المؤمنين الغيورين على دين الله مما ينتابهم من حين لآخر من شديد الاغتمام والابتئاس والمضاضة، وذلك لما يسمعونه من فاسد التقول الظالم ومن خبيث الطعون والشبهات والأكاذيب التي يرسلها المنافقون والمشركون الحاقدون على اختلاف مللهم وعقائدهم وثقافاتهم.

الله يعلم ما يصيب قلوب المؤمنين الغيورين من عباده على دينه من لاذع القول المهين، مما تزدرده حناجر الأفاكين والخراصين الدجاجلة في كل حين وزمان، وهي تفتري على الإسلام وعقيدته وشرعه وأحكامه وقيمه وتعاليمه - تفتري عليه باصطناع الأباطيل الملفقة من سقط الفكر التافه مما يثير في أذهان الناس والمسلمين جملة من الشكوك والظنون والأوهام التي تحملهم على الافتتان عن دين الله، والارتياب في روعة هذا الدين الكامل المميز وصلاحه.

الله يعلم الضيق الشديد الذي يمس باحترارِه شغاف القلوب المؤمنة الغيورة على الإسلام مما يتقاطر من أكاذيب وطعون ملفقة تفيض بها أقلام الحاقدين من أعداء الإسلام الذي يكيدون في كل آن للإسلام بمختلف أساليب التخريص والباطل من أجل تشويه الأذهان وتلويث الثقافات والمعارف الإنسانية - وهم في ذلك إنما يفترون على الله ورسوله ودينه افتراءات ظالمة شتى - سواء في ذلك الطعن في شخصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو الطعن في نظام الإسلام بسوء التحليل والتأويل، ومختلف الأساليب في التزييف والتزوير والتضليل وذلك هو ديدن الظالمين من خصوم الإسلام في كل زمان، بدءا بمجيئة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الدنيا حتى زماننا الراهن هذا.

هذا هو ديدنهم في التضليل والتشويه واختلاف الطعون والشبهات لتنفير الناس والمسلمين من دين الله الكامل الشامل - دين الإسلام. ومع فظاعة الكيد للإسلام والإفراط في الخيانة والتآمر عليه من المتمالئين والكائدين والمتخرصين الأفاكين؛ مع ذلك كله فقد كتب الله النصر والغلبة لدينه وللمؤمنين بالرغم مما يصيبهم في كثير من الأحيان من شديد الانتكاس والتقهقر بسبب تقصيرهم وتفريطهم (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

٩٨ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

قوله تعالى: }فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين (٩٨) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٩٩)} إذا ضاق صدرك من قول المشركين الظالمين وهم يفترون عليك وعلى دينك بالباطل، فأصابك من ذلك ابتئاس ومضاضة؛ ففزع إلى رحاب الله بالصلاة والتسبيح والذكر والدعاء يكفك الله ما أهمك من الضيق والأسى.

٩٩ - (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

وكذلك اعبد الله حتى يأتيك الموت وهو تأويل اليقين - وسمي الموت باليقين؛ لأنه أمر متيقن وهو قول ابن عباس ٦١.

١٦ سورة النحل:

سورة النحل:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية - وقيل: مكية باستثناء آيات ثلاث - وتسمى سورة النعم؛ لما عدد الله فيها من نعمه على العباد، كخلق الأنعام للناس ليكون لهم فيها دفء ومنافع وطعام - ولهم فيها جمال إذا راحوا أو سرحوا - ومن نعمه إنزال الماء من السماء ليكون لهم منه شراب وسوم ومختلف الزروع والثمرات - ومن نعمه عليهم أيضا تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والجبال - وفي ذلك من أصناف النعم والمنافع ما لا يحصى - إلى غير ذلك من ضروب القصص والأخبار والحقائق في الطبيعة والأحياء والمجتمع -

ومن جملة ذلك: التنديد بما كانت تتلطخ به تصورات الجاهليين من إحساس مستقبح عن الأنثى؛ إذ كانوا يتوارون من بعضهم لفرط امتعاضهم وضيقهم من ولادة الأنثى - هذا الشعور الظالم البغيض قد ندد به الإسلام واستفظعه استفظاعا.

١ - (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون} (أتى)، بمعنى يأتي - فقد أقام الماضي مقام المستقبل، لتحقيق إثبات الأمر وصدقه - يعني عبّر بصيغة الماضي ليدل على التحقيق والوقوع لا محالة ١ - والمراد بأمر الله: قيام الساعة، وذلك وعيد من الله للمشركين الظالمين بأن الساعة قد اقتربت وأن عذابهم قد دنا أجله - وذلك رد على استسخارهم الحقير؛ فقد كانوا لجهالتهم وسفاهتهم يستعجلون قيام الساعة ونزول العذاب بهم - وذلك على سبيل الاستهزاء والتكذيب - والمعنى: أنه قرب قيام الساعة وما فيها من بالغ العقاب لكم فلا تطلبوا مجيء الساعة والعذاب قبل وقتهما المكتوب.

قوله: (سبحانه وتعالى عما يشركون) ينزه الله نفسه عن الشرك والشركاء والأنداد - وما، في قوله: (عما) تحتمل كونها مصدرية - والتقدير: سبحانه وتعالى عن إشراكهم - وتحتمل كونها موصولة بمعنى الذي - والتقدير: سبحانه وتعالى عن الشركاء والأضداد والأنداد؛ فهو خالق كل شيء، وله ملكوت كل شيء ليس له في ذلك نديد ٢.

٢ - (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ)

قوله تعالى: {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} (الملائكة)، منصوب، على أنه مفعول للفعل (ينزّل) أي ينزل الله الملائكة بالروح؛ فالله هو المنزل ملائكته بوحيه إلى رسله، وبذلك فإن المراد بالروح الوحي وهو جبريل عليه السلام - والباء في قوله: (بالروح) بمعنى مع فيكون المعنى: ينزل الملائكة مع الروح جبريل - وقيل الروح بمعنى القرآن - ونظير ذلك قوله تعالى: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) أي القرآن - وهو كلام الله النوراني، فإن فيه حياة للبشر بما ينشر فيهم من العلم والوضاءة والبهجة والرحمة - لا جرم أن القرآن حياة للقلوب يستحيي فيها الوازع الرهيف والرحمة الفياضة - وهو كذلك حياة للأذهان ينشر فيها الاستقامة والاعتدال، وسلامة التصور من الشطط، وبراءة العقول من مثالب الزلل والخطل والاعوجاج.

قوله: (من أمره) أي هذا التنزيل لا يكون إلا بأمر الله.

قوله: (على من يشاء من عباده) أي على النبيين الذين اصطفاهم الله لرسالته وتبليغ دينه للناس.

قوله: (أن أنذروا انه لا إله إلا أنا فاتقون) (أن أنذروا)، فيه وجهان:

أحدهما: البدل على قوله: (بالروح) والمعنى: ينزل الملائكة بأنهم أنذروا أي أعلموا الناس أو بلغوهم أنه لا إله إلا أنا - والإنذار معناه الإعلام مع التخويف.

ثانيهما: أن تكون (أن) مفسرة؛ لأن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ٣.

والمعنى: أن الله ينزل الملائكة بالروح بأمره على الذين يختارهم ليكونوا أنبياء من بين عباده بأن أنذروا الناس وحذروهم عقابي وانتقامي بسبب كفرهم وعصيانهم؛ فإنه ليس من إله خالق ما تنبغي لغيره الألوهية سواي (فاتقون) أي خافوني بإفرادي بالعبادة وإخلاص الربوبية لي دون أحد من خلقي ٤.

٣ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله تعالى: {خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون (٣) خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٤)} هذه واحدة من الدلالات التي يحتج الله بها على العباد في وحدانيته وأنه ليس من إله غيره؛ بل لا تصلح الإلهية لأحد سواه؛ فهو خالق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من الخلائق والأشياء مما لا يقدر على فعله سوى الله؛ فقد خلق كل ذلك (بالحق) أي بالعدل - وقيل: ليدل بذلك على وحدانيته وبالغ قدرته.

قوله: (تعالى عما يشركون) أي عز الله وعلا عن شرك المشركين فالله منزّه عما يفتريه المبطلون ويصطنعونه من الآلهة المزعومة الموهومة.

٤ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

قوله: {خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين} نزلت هذه الآية في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمَّ ٥ - النطفة في اللغة بمعنى الماء الصافي قل أو كثر - وبمعنى القطرة - والمني وهو ماء الرجل، والجمع أنطاف ٦ والخصيم، شديد الخصومة والمجادلة.

والمعنى المراد: أن الله يمتن على الإنسان أن خلقه من نطفة قذرة من الماء المستقذر المهين ليمر في مراحل وأطوار مقدورة شتى، ما بين نطفة وعلقة ومضغة في داخل الرحم حتى إذا اندلق إلى الدنيا طفلا رضيعا تقلب في مراحل نشوئه من طور إلى طور، ما بين الرضاعة وطفولة وفتوة وشباب واكتهال وكبر ثم ارتداد إلى أرذل العمر - وما ينهض الإنسان قويا مكتملا في قدراته واستعدادته وتطوره حتى ينقلب إلى مخاصم لله في قدرته وعظمته - فيجترئ على ربه بالخصومة الشديدة في توقح ظاهر وكفران شديد مستبين بعد أن خلقه من ماء مستقذر بالغ المهانة ٧.

٥ - (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

قوله تعالى: {والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم (٧)} (الأنعام) جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم - قيل: سميت بالأنعام لنعومة مشيها بخلاف ذات الحافر - ولا يقال أنعام إلا إذا كان فيها إبل - ونصبت الأنعام على المفعولية لفعل مضمر يفسره قوله: (خلقها).

والأنعام من أصناف ما أنعم الله به على عباده لما فيها من عظيم المنافع والفوائد - وذلك ما يبينه قوله: (لكم فيها دفء) فيها خبر مقدم، ودفء مبتدأ مؤخر - والمراد بالدفء ما يُستدفأ به من أوبارها وأشعارها وأصوافها - وفسره ابن عباس بالثياب والعموم أولى استنادا إلى الظاهر.

قوله: (منافع) ما ينتفع به من الركوب والحراثة ونضح الماء، والدر والنسل - وغير ذلك من وجوه المنافع المستفادة من الأنعام.

قوله: (ومنها تأكلون) أي مما يؤكل من الأنعام كلحومها وشحومها وألبانها وعلى هذا تكون (من) للتبعيض.

٦ - (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

قوله: (ولكم فيها جمال) فوق المنافع المستفادة من الأنعام من أكل وشرب ودفء ولبس؛ فإن فيها جمالا، وهو الزينة في أعين الناس - فلقد كانت الأنعام في نظر العرب موضع زينة وابتهاج - وهي عندهم مظهر من مظاهر الحُسن والكمال والجمال، فضلا عن استعمالها في استجلاب المصالح ودفع المفاسد في كل الأزمنة، حتى زماننا الراهن هذا؛ إذ تقع الحاجة في كثير من الأحوال لاستعمال الخيل في مطاردة اللصوص وأمثالهم من المفسدين في الأرض، إذا اختبأوا في منعطفات الأزقة والدهاليز التي يعز على الحافلات المصنوعة الحديثة أن تبلغها، فضلا عن استعمال الخيل في فن المسابقة وهو من الفنون المرغوبة في كل زمان.

قوله: (حين تريحون وحين تسرحون) (تريحون) من الإراحة، وهو رجوعها من المراعي عشيا إلى حظائرها - و (تسرحون) من السرح والسروح، وهو إخراجها في الغدو من مبيتها إلى مسارحها وهي مراعيها.

٧ - (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله: {وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس} الأثقال جمع ثقل وهو المتاع الذي يثقل حمله - وهذه واحدة من الفوائد الكبيرة التي يجنيها العباد من الأنعام، إذ تحمل أحمالهم الثقيلة (إلى بلد) أي بلد بعيد، كاليمن أو الشام أو مصر بالنسبة لسكان الحجاز - وهذه المسافة في حسابات الأعراف الماضية كانت كبيرة فلا يقطعها المسافرون إلا بعد جهد بالغ ونصب شديد وهو قوله: (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) بكسر الشين؛ أي لا تصلون ما تبتغون من بلد بعيد إلا بمشقة الأنفس وإعيائها وتكليفها الجهد المضني.

قوله: (إن ربكم لرؤوف رحيم) رؤوف من الرأفة وهي أشد الرحمة ٨ - والله جل وعلا عظيم الرحمة بعباده، ومما يكشف عن بالغ رحمته هذه: ما ذرأه لهم من صنوف المخلوقات مما جعله مذللا ميسرا لتحصيل المنافع للناس، ومن بين ذلك الأنعام ٩.

٨ - (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩)} هذه الأسماء: (والخيل والبغال والحمير) منصوبة؛ لأنها معطوفة على قوله: (والأنعام خلقها لكم) والتقدير: وخلق الخيل والبغال والحمير - (وزينة)، منصوب بفعل مقدر وتقديره: وجعلها زينة - وقيل: منصوب؛ لأنه مفعول له؛ أي للزينة ١٠ (والخيل)، اسم جنس للفرس وليس له مفرد من لفظه - وذلك كالإبل.
قوله: (والبغال والحمير) البغال جمع بغل وهو معروف - وكذا الحمير، جمع حمار - فقد خلق الله هذه البهائم مضافة إلى الأنعام؛ ليكون سائر ذلك مذللا للناس كيما ينتفعوا به ويستفيدوا منه على اختلاف وجوه المنافع والفوائد.
ومن جملة المنافع المستفادة من هذه البهائم والدواب: ركوبها، وحمل الأثقال على ظهورها، والتزين بها.
والتزين المستفاد من بهيمة البغال والحمير كان ظاهرة معروفة ومألوفة لدى الأمم السابقة سواء الأمة التي تنزل عليها القرآن، أو من تبعها من الأمم والأجيال - لقد كانت ظاهرة التزين بهذا الصنف من البهائم مستطابة ومرغوبة لحاجة الناس إذ ذاك إليها - وبعد تقلص الحاجة إلى الانتفاع ببهائم الخيل والبغال والحمير؛ فإنه لا ينبغي التقليل من أهمية هذه البهائم من حيث الصورة والمنظر - لا جرم أن بهيمة الخيل والبغال والحمير تثير في ذهن المتدبر البصير التفكر في عظمة الخالق الذي برأ الخلائق على اختلاف أشكالها وأجسامها وهيئاتها وصورها؛ فما ينظر المرء إلى أي صنف من أصناف الدواب والبهائم، ومنها الخيل والبغال والحمير إلا ويستثار فيه الإعجاب والرغبة في إطالة النظر وروعة التملي لجمال الصور التي جاءت عليها هاتيك الأحياء العجاب.
قوله: (ويخلق ما لا تعلمون) يخلق الله غير ما ذكر من أصناف النعم والبهائم سواء كان ذلك في سمائه مما لا نعلم عن عجيب خلقه الكثير الباهر - أو في الأرض من مختلف الخلائق والكائنات مما نعلم ومما لا نعلم - الله قادر على إيجاد ما يشاء من خلق مما ليس له مثال أو نظير؛ فهو سبحانه الظاهر القاهر القادر على صنع ما يشاء في الطبيعة أو الأحياء أو الكائنات على اختلاف أنواعها وأشكالها.
ولدى الحديث عما لا نعلم؛ فإنه يلزم التدبر في قوله عز وعلا: (علم الإنسان ما لم يعلم) لقد رزق الله الإنسان عقله، فكان سببا فيما وصلت إليه البشرية في عصرها الراهن من عجيب المخترعات والصناعات العلمية، ما بين حافلة نارية تقطع القفار والأمصار والبراري في سهولة ولين ويسر - أو سفينة تمخر عباب البحر لتحمل على متنها الأحمال الهائلة الثقال - أو طائر تجوب أجواز الفضاء في سرعة مذهلة تفوق سرعة الصوت إلى غير ذلك من ضروب المخترعات العلمية الحديثة؛ فإن ذلك وغيره في زماننا هذا أو بعده لهو من إفرازات القدرة العقلية العظيمة التي امتن الله بها على الإنسان؛ فالله جل وعلا لهو المتفضل المنان الذي أودع في الإنسان عقله ليكون سبيلا لتحقيق هذه المنجزات العلمية المثيرة مما نعلم ومما لا نعلم.
٩ - (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)
قوله: (وعلى الله قصد السبيل) القصد، مصدر قصد يقصد - وهو الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه - أو هو استقامة الطريق، أو الرشد ١١ وأل، في (السبيل) للعهد، وهي سبيل الشرع وليست للجنس - والمعنى: وعلى الله تبيين طريق الهدى وذلك بنصب الأدلة وبعث المرسلين هداة للعالمين - وقال ابن عباس: معناه بيان قصد السبيل؛ أي بيان الهدى من الضلال.
قوله: (ومنها جائر) الضمير عائد على السبيل؛ أي ومن السبيل جائر، يعني عادل من المحجة، منحرف عن الحق - وقيل: المراد بذلك فرق الضلال من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ فإنه جائر عن قصد السبيل.
قوله: (ولو شاء لهداكم أجمعين) أي لهداكم قسرا وإلجاء؛ فالله قادر على فعل ما يشاء من هداية أو إضلال - وهو سبحانه لا يهدي أو يضل إلا لحكمة لا يعلمها إلا هو ١٢.
١٠ - (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)
قوله تعالى: {هو الذي أنزل من السماء ماء لكن منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١)} وهذا صنف آخر من أنعم الله امتنّ بها سبحانه على عباده وهو

الماء بكل فوائده ومنافعه - والمعنى: أن الله هو الذي أنزل من السماء ماء المطر، ليكون غيثا يُغاث به الناس فمنه شرابهم واستقاؤهم - وبسببه ينبت الشجر - وهو مطلق النبات على اختلاف أنواعه (فيه تسيمون) من السوم وهو الرعي - سامت الماشية أي رعت - والسائمة التي ترعى بنفسها حيث شاءت - وأسامها صاحبها، أي أخرجها إلى المرعى ١٣ - و (تسيمون)، أي ترعون أنعامكم فتستفيدون منها اللحم والدر والنسل وغير ذلك من المنافع.

١١ - (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله: (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وهذه أصناف أخرى مضافة يبينها الله في آياته يمتن بها على عباده، فهو سبحانه ينبت للناس- بما أنزله من مطر- الزرع على اختلاف أنواعه - وقد بدأ به (الزرع)، لأنه عماد الأقوات للناس - وهو يستفاد منه الكلأ لتتغذى به الأنعام والدواب - ثم ذكر الزيتون، هذه الشجرة المباركة التي تؤتي الزيت - وهو نعم الغذاء ونعم الدواء، إذ تستشفي به الأبدان من كثير من العلل والأسقام - ثم النخيل وهو ذو ثمر لذيذ مستطاب - وهو كثيرا ما يقتات به بعض الناس - وكذلك الأعناب، فإنها فاكهة طيبة ومطعوم مستلذ تشتهيه كل الأنفس - قوله: (ومن كل الثمرات) (من) للتبعيض أي وينبت لكم بعض كل الثمرات - لأن كل الثمرات لا يكون إلا في الجنة - أما في الدنيا: فقد أنبت الله فيها بعضا من أنعمه الكثيرة التي لا يعلم عدد أصنافها وأنواعها إلا هو سبحانه.

قوله: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أي فيما بينه الله من وجوه النعم والخيرات التي خلقها للعباد لأكبر دليل على تفرد الله تعالى بالإلهية، وعلى حقيقة الكمال في جلاله العظيم وهو ما تجلى في قدرته البالغة وعلمه المطلق وحكمته العليا (لقوم يتفكرون) أي للمتبصرين المدّكرين الذين يتدبرون الآيات ويتفكرون في خلق الله - أما اللاهية قلوبهم وعقولهم عن التبصرة والذكرى، فلا تتفهم مثل هذه الآيات الواضحات البينات ١٤.

١٢ - (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (١٣)}.

الليل والنهار آيتان من آيات الله، جعلهما متعاقبين خلفه، إذ يخلف أحدهما الآخر - وقد ذللهما الله لبني آدم أيما تذليل لكي يستفيدوا من طبيعتهما وتعاقبهما، فقد جعل الله الليل فيه منام للعباد، إذ يرقدون فيه ويهجعون - وجعل النهار من أجل السعي والكد والبذل في نشاط وجد - ففيه تتحقق المصالح، وتندرئ المضار، ويتعهد الناس أسباب المعاش والمكاسب من تجارة وصناعة وزراعة وغير ذلك.

قوله: (والشمس والقمر) وهذان كذلك آيتان عظيمتان من آيات الله الكبريات الباهرات مما يستديم العجب من هذين الجرمين في عظيم خلقتهما وعجيب منظرهما، ففي الشمس دفء وحرارة وحياة للآدميين وكل الخلائق - وفي القمر نور وضياء تبتهج به النفس أشد ابتهاج وتجد من حلاوة الصورة والمنظر ما يستنفر في النفس الخيال ويهيج فيها الحس، فيظل الناظر متمليا محبورا، فضلا عما يناط بالقمر من مزية التوازن مع الأرض بفعل الجاذبية المشتركة بينهما، وبفعل الدوران المنتظم للقمر من حول الشمس - ولولا وجود القمر في مكانه المناسب المقدور لاضطراب وجه الأرض وماد.

قوله: (والنجوم مسخرات بأمره) الواو للاستئناف - والنجوم، مبتدأ، وخبره (مسخرات)، أي أن سائر النجوم في حركاتها وسطوعها ودورانها في أفلاكها وكل أحوالها مسخرات لما خلقها الله له - وذلك بقدرته وتدبيره وحكمته سبحانه.

قوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) الإشارة عائدة إلى تسخير ما بينه الله من الخلائق المسخرة، فإن في هذا التسخير لدلالات كبيرة على أن الله هو الخالق الصانع، وأنه المقدر الحكيم - قوله: (لقوم يعقلون) أي للمتفكرين أولي النهي والأبصار الذين يتدبرون ما خلق الله من عجيب مخلوقاته.

١٣ - (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

قوله: (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه) ما، في موضع جر، لأنه معطوف على (ذلك) وتقديره: إن في ذلك وما ذرأ لكم - وقيل: ما، في موضع نصب - والتقدير: وسخر ما ذرأ لكم في الأرض ١٥، أو وخلق لكم ما ذرأ لكم في الأرض من حيوان ونبات ومعادن - و (ذرأ) أي فطر وأنشأ - والذرء إظهار الشيء بإيجاده.

قوله: (مختلفا ألوانه) أي أصنافه - وهو قول كثير من المفسرين، فإنه يعبر بالألوان عن الأجناس والأنواع - وقيل: المراد المعنى الحقيقي، أي مختلفا ألوانه من البياض والسواد وغيرهما من الألوان - والأظهر العموم، فقد جعل الله ما في الأرض مختلف الأصناف والألوان ليتحقق للعباد ما يبتغونه من ضروب المنافع والمصالح.

قوله: (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) (يذكرون)، أصلها يتذكرون فأدغمت التاء في الذال - والمعنى: أنه فيما ذرأه الله على هذه الحال من اختلاف الألوان والأصناف (لآية لقوم يذكرون) أي لهو علامة ظاهرة ودلالة مكشوفة يعيها المتعظون المعتبرون ١٦.

١٤ - (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٤) وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهار وسبلا لعلكم تهتدون (١٥) وعلامات وبالنجم هم يهتدون (١٦)} ذلك شروع في ذكر نوع آخر من النعم التي أسبغها الله على عباده - وهي من نعم البحار، فقد سخر الله البحر بتذليله وتسهيله للإنسان ليجني منه منافع كثيرة في حياته - فقال سبحانه مبينا ذلك (لتأكلوا منه لحما طريا) وهو السمك - وقد عبّر عنه باللحم إشارة إلى قلة عظامه، فهو ميسور الأكل كبير الفائدة.

قوله: (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) ومن نعم الله على الناس ما ذلله لهم من مذخور البحر وما فيه من حلية ثمينة كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما من ذخائر البحر (تلبسونها) وهذه من ملبوسات النساء جعلها الله لهن ليتزيّن لها فتعم الفائدة كلا الطرفين - الرجال والنساء، فالنساء بلباس الحلي يستشعرون الحلاوة والبهجة - وكذلك الرجال يُسرون ويتلذذون برؤية زوجاتهم وهن يرفلن بألبسة الزينة الجميلة، فهم جميعا يجدون في حلية البحر المستخرجة ما ينشر في حياتهم الجمال والبهجة والسرور، وتلك نعمة من نعم الله على العباد.

قوله: (وترى الفلك مواخر فيه) المواخر يعني الجواري، جميع ماخرة، أي جارية - والمخر معناه الشق - نقول: مخر السابحُ، أي شق الماء بيديه - وسميت الفلك وهي السفن مواخر، لأنها تشق الماء بجئاجئها، جمع جؤجؤ، وهو مقدمة السفينة ١٧.

قوله: (ولتبتغوا من فضله) معطوف على قوله: (وتستخرجوا) و (من فضله) أي من واسع رزقه، فالناس بركوبهم السفن الجواري وهي تمخر عباب البحار، يرومون الرزق والكسب بالتجارة وغيرها - وهذا كله من فضل الله، أي من جزيل عطائه وامتنانه وواسع بره ورحمته.

قوله: (ولعلكم تشكرون) أي تذكرون ما منّ الله به عليكم من خير، وما أسبغه عليكم من وافر العطاء والنعمة مما تجدونه من خيرات البر والبحر فتبادرون إلى طاعته وعبادته.

١٥ - (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قوله: (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) الرواسي، جمع راسية، وهي الجبل العالي الثابت.

قوله: (أن تميد بكم) (أن تميد) في موضع نصب على المفعول له، أي كراهة أن تميد بكم - وكراهة منصوب على أنه مفعول له - أو لئلا تميد بكم ١٨، أي لئلا تضطرب بكم - و (تميد)، من الميد وهو الميل يمينا وشمالا وهو الاضطراب - ماد يميد ميدا وهو مائد - ماء الشيء أي تحرك - ومادت الأغصان، أي تمايلت ١٩.

والمعنى: أن الله عز وعلا قد رسّخ الجبال الشامخات الثقال في الأرض لتستقر بثقلها فلا تتحرك أو تتمايل وتضطرب.

قوله: (وأنهار وسبلا لعلكم تهتدون) عطف (أنهارا) على (رواسي) وعطف (سبلا) على (أنهار) أي جعل الله في الأرض أنهارا - وذلك دليل يضاف إلى الأدلة الكثيرة على قدرة الصانع العظيم - وكذلك جعل (سبلا) أي طرقا تسلكونها (لعلكم تهتدون) أي

تهتدون بهذه السبل إلى مقاصدكم وانتقالكم من أجل أغراضكم وحاجاتكم.
١٦ - (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)
قوله: (وعلامات) منصوب - بالعطف على قوله: (سخّر) أي سخر الليل والنهار وعلامات - أو منصوب بتقدير خلق، أي وخلق لكم علامات ٢٠ - والعلامات هي معالم الطرق مما يستدل به المسافرون كنحو جبل أو سهل أو نهر أو غير ذلك من المعالم.
قوله: (وبالنجم هم يهتدون) النجم، اسم جنس، فيشمل عامة النجوم التي يهتدى بها في معرفة القبلة، أو في الأسفار ليلا سواء في البر أو البحر ٢١.
١٧ - (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)
قوله تعالى: {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (١٧) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم (١٨)} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمراد التذكير بالتباين غير المحدود بين من يخلق وهو البارئ عز وعلا، وبين من لا يخلق وذلك لمختلف الأنداد المزعومة والآلهة المصطنعة المفتراة من دون الله - وذكر في المعبودين مختلف الأصنام التي لا تعقل وغيرها ممن يعقل كالملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، أو غيرهم من الطغاة الجبابرة من البشر الذين ادعوا الإلهية واستعبدوا الناس استعبادا.
وفي الآية هذه تكبيت بليغ للمشركين الواهمين الذين يعبدون آلهة مصطنعة مفتراة من دون الله - لا جرم أن التباين عظيم بين الذي يخلق ما تقدم ذكره من سماء وأرض وجبال وأنهار وبحار، وفلك ونجوم، وهو الله جل وعلا، وبين المخاليق من مختلف الموجودات - وما المخاليق إلا الكائنات من أجناس شتى سواء فيها الأصنام الجوامد التي لا تعي ولا تنطق ولا تضر ولا تنفع، أو غير الأصنام من الأحياء كعزير والمسيح أو الجن والملائكة أو غيرهم ممن عبدتهم الأمم الضالة سفها وجهالة كنمروذ وفرعون - وأولئك جميعا ليسوا غير أصناف مختلفة من المخاليق أولي الطبائع الضعيفة والهيئات القاصرة المحدودة - فما ينبغي لذي عقل أن يعبد شيئا من هذه الكائنات ثم يعرض عن عبادة الله الخالق البارئ القادر - وهذا ما يقتضيه قوله سبحانه: (أفلا تذكرون) استفهام إنكار وتوبيخ، أي أفلا تتدبرون وتتفكرون فتعتبروا وتتعظوا وتوقنوا مبلغ ما أنتم عليه من الباطل والضلال والغفلة؟!
١٨ - (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أي نعم الله عليكم كثيرة لا تقدرون أن تعدوها أو تحصوها، فهي لكثرتها وانتفاء القدرة على عدّها لا تستطيعون القيام بحق هذه النعم من الشكر.
قوله: (إن الله لغفور رحيم) الله جل وعلا يستر ذنوب المقصرين ويتجاوز عن خطايا المذنبين المفرطين الذين لم يشكروا الله حق شكره (رحيم) يفيض برحمته على عباده مع بالغ تفريطهم في حق الله وشديد تقصيرهم في شكره واستحقاقهم من أجل ذلك الحرمان من النعم ٢٢.
١٩ - (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)
قوله تعالى: {والله يعلم ما تسرون وما تعلنون (١٩) والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون (٢٠) أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون (٢١)} ذلك إخبار من الله أنه عليم بأسراركم وما تخفونه من مكنون النوايا - وفي هذا إيماء إلى نفس هذه الصفة عن الآلهة المصنوعة التي لا تعي ولا تفهم ولا تنفع ولا تضر.
وفي ذلك من الوعيد للكافرين الظالمين ما لا يخفى - وكذلك فإن الله يعلم (ما تعلنون) أي ما أظهرتموه من العقائد والأعمال، فكل ذلك عند الله سواء - وهو سبحانه يعلم السر والجهر، بل إنهما بالنسبة إلى جلال الله سواء - وهذه خصيصة ليست لغير الله الذي يستوي عنده الظاهر المشهود، والغائب المستور.
٢٠ - (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)
قوله: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون} أي ما يعبده هؤلاء المشركون الضالون من الأصنام والأنداد والآلهة

الموهومة والمصطنعة (لا يخلقون شيئا) ليسوا غير مخاليق تترسخ في طبائعهم وأعماقهم ظواهر الضعف والقصور والمحدودية، فأنى لهم بذلك أن يخلقوا شيئا من الأشياء ولو كان في حجم النملة أو الذبابة (وهم يخلقون) إنهم هم أنفسهم المخلوقون - ومن كان مخلوقا لا جرم أنه لا يخلُق وليت شعري هل يعقل أن يكون المخلوق خالقا؟! أي تناقض أعظم من ذلك، بل أية جهالة وسفاهة أفظع من هذا الإسفاف في تفكير المشركين وتصورهم؟!.

٢١ - (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

قوله: (أموات غير أحياء) (أموات) خبر ثان للمبتدأ (وهم) وخبره الأول (يخلقون) ٢٣ - والمعنى: أن الأصنام التي يعبدها الجاهلون السفهاء ليست غير أموات جامدة لا تعي ولا تتحرك (غير أحياء) لا روح فيها ولا حياة - ويجوز أن يكون المراد من المخبر عنه ما يتناول جميع المعبودات ممن يعقل أو لا يعقل - فيكون المراد بقوله: (أموات) عموم المجاز ليشمل ما كان له حياة ثم مات كعزير، أو سيموت فيما بعد كالمسيح عيسى.

وكذلك الملائكة عليهم الصلاة والسلام - وكذلك ما ليس من شأنه الحياة أصلا كالأصنام الجامدة الميتة التي لا تريم.

قوله: (وما يشعرون أيان يبعثون) (أيان)، استفهام عن الزمان بمعنى متى - و (أيان) مبني لتضمنه معنى الحرف وهو همزة الاستفهام ٢٤ - والمعنى: أن هذه المعبودات المصطنعة أموات لا حياة فيها ولا حركة، فأنى لهم العلم بوقت البعث - ومن كان هذا شأنه في الجهل والقصور كيف يليق بذي عقل من البشر أن يتخذ منه إلها؟! ٢٥.

٢٢ - (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

قوله تعالى: {إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون (٢٢) لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين (٢٣)} بعد أن بين الله تبينا قاطعا أن تصور المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى، لهو بالغ الضلالة والفساد والسفه، شرع في التذكير بأن الإلهية إنما تكون لله وحده وليست لأحد سواه؛ فهو الإله الخالق المعبود الذي تتجلى فيه كل صفات الإله القادر الحكيم - فقال سبحانه: (إلهكم إله واحد).

قوله: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) هذا وصف للضالين الخاسرين الذين يكذبون بيوم الدين ويجحدون حقيقة القيامة واليوم الموعود؛ فهم صنف من البشر التائه الزائغ الذي لا يقبل الوعظ ولا يؤثر فيهم التذكير أو النصح لفرط غيّهم وتماديهم وكزازة طبائعهم؛ إنهم أناس ضالون مضلون قد ارتابت قلوبهم، وفسدت فطرتهم؛ فكانوا أولي قلوب جاحدة (منكرة) أي تستنكر كل يقين مما هو ظاهر وجلي ومستبين بأن الله خالق كل شيء، وله ملكوت كل شيء؛ فيجب إفراده وحده بالإلهية والربوبية والحاكمية كيلا يكون من إله أو رب أو مشرع سواه.

قوله: (وهم مستكبرون) هذا وصف للجاحدين الظالمين الذين أبوا إلا العتو والتكذيب، جريا وراء أهوائهم الزائغة الفاسدة (وهم مستكبرون) أي متكبرون عن الإقرار لله بالوحدانية وإفراده وحده بالإلهية والربوبية والحاكمية؛ بل إنهم طوّعت لهم أنفسهم المعوجة التي تستمرئ الباطل أن يعبدوا مع الله آلهة أخرى، أو يتخذوا من دونه أربابا شتى ليصطنعوا لهم من التشريع غير ما أنزله الله للعباد.

٢٣ - (لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

قوله: (لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) (لا جرم) أي لابد، ولا محالة - وقيل: معناه حقا - والعرب تقول: لا جرم لآتينك - لا جرم لقد أحسنت؛ فتراها بمنزلة اليمين - وقيل: لا جرم كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا - فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم كقولهم: لا جرم لآتينك - وهو قول الفراء ٢٦.

وفي الآية تأكيد جازم على أن الله يعلم ما يخفيه هؤلاء المشركون الظالمون في قلوبهم من مكنونات السوء والكيد، وما يضمرونه للإسلام والمسلمين من نوايا الخبث والمكر - وهو كذلك يعلم ما يعلنون للبشرية من مجاهرة بالضلال والكفر وما يشيعونه على الملأ من أقاويل الظلم والباطل ليثيروا من حول الإسلام الشبهات والافتراءات فيثنوا المسلمين عن دينهم ويثبطونهم تثبيطا.

قوله: (إنه لا يحب المستكبرين) ليس من ذنب ولا خطيئة أشد شناعة وأفدح فظاعة بعد الإشراك بالله من الكبر؛ لأن الكبر داء يستحوذ على القلب فيسوّل له الإدبار عن دين الله ويزين له التمرد على الله في شرعه للناس - ولا يحمل المرء في نفسه شيئا من استكبار إلا ويوشك أن يبوء بالشقوة والخسران إلا أن يبادر إلى التوبة والخشوع؛ فإن من يستكبر يسلس قياده من قبل الشيطان ليجد طريقه ممهدا إلى النار - وهؤلاء المستكبرون لا يحبهم الله ولا يثني عليهم؛ بل يجزيهم ما يستحقونه من أليم الجزاء.

٢٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: }وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين (٢٤) ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون (٢٥){ (ماذا)، ما استفهامية في موضع رفع مبتدأ - وذا، بمعنى الذي هو خبره - و (أنزل ربكم) صلة الموصول ٢٧ - قيل: نزلت في النضر بن الحارث، فكان قد خرج إلى الحيرة فاشترى أحاديث كليلة ودمنة، فكان يقرأ على قريش ويقول: ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين، أي ليس القرآن من تنزيل الله - وقيل: المؤمنون هم القائلون لهم ذلك على سبيل الاختيار فأجابوهم قائلين (أساطير الأولين) - (أساطير)، خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو أساطير الأولين ٢٨ - والمراد بأساطير الأولين: أحاديث الأولين وأباطيلهم - وذلك ليقولوا إن هذا القرآن معجز ولا هو من كلام الله - وذلك من صور التمادي في الباطل الذي تلبس به الجاهليون الخاسرون وهم يتمردون في استكبار ومعاندة - وهم موقنون في قرارة أنفسهم أن القرآن حق وأنه من كلام الله؛ لكنه الجحود واللجوج في معاندة واستكبار يغشى بصائر الظالمين الأشقياء في كل زمان ليصمهم ويعمي أبصارهم.

٢٥ - (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

قوله: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) اللام، لام العاقبة؛ لأنه لما وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، استحقوا هذه العاقبة الوخيمة - ونظير ذلك قوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) فقد أودى بهم جحودهم وتكذيبهم إلى أن يبوءوا بسوء مصيرهم يوم القيامة، وأن يحملوا أوزارهم، وهي ذنوبهم (كاملة) غير مخففة ولا منقوصة.

قوله: (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الأوزار، جمع وزر بالكسر والتسكين، ومعناه الإثم والثقل والحمل الثقيل ٢٩ (ومن)، للجنس وليست للتبعيض؛ فالذين يدعون إلى الضلال والباطل عليهم من الذنوب فوق ذنوبهم أنفسهم مثل ذنوب الذين أضلوا وأغووهم - قال ابن كثير في هذا المعنى: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتداء أولئك بهم كما جاء في الحديث: " من دعا إلى هدى؛ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا - ومن دعا إلى ضلالة؛ كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ".

قوله: (بغير علم) أي أن هؤلاء التابعين قد سقطوا في الضلالة والغواية وهم لا يعلمون أنهم ضالون.

وقيل: إن هؤلاء السادة والكبراء الذين يضلون أتباعهم من الناس إنما يضلونهم جهلا منهم بما يستحقونه من شديد العقاب عما جنوه من إضلال غيرهم (ألا ساء ما ساء ما يزرون) ألا ساء إثمهم الذي يأثمون والثقل الذي يحملون - أو بئس ما يحملونه من وزر ثقيل - والمقصود من ذلك، المبالغة في الزجر والتخويف ٣٠.

٢٦ - (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)

قوله تعالى: }قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٦) ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين (٢٧){ المراد بالماكرين الذين من قبلهم هو النمرود بن كنعان الذي بنى صرحا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ورام منه أن يصعد إلى السماء ليقاتل أهلها - وبذلك فإن المراد بالمكر هنا: بناء الصرح لقتال أهل السماء.

وقيل: إن هذا عام في سائر أهل الظلم والباطل الذين يشيعون الكفر والفساد في الأرض والذين يضلون الناس بغير علم ليبعدوهم عن ملة الحق والتوحيد ويهدوهم إلى طريق جهنم طريق الكفر والعصيان والتمرد على منهج الله.

قوله: (فأتى الله بنيانهم من القواعد) القواعد جمع قاعدة وهي الأساس - أي هدم الله بنيانهم باجتثاثه من أصوله فماتوا تحته.
قوله: (فخر عليهم السقف من فوقهم) أي تهدم عليهم البنيان وكانوا هم تحته فهلكوا.
قوله: (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أي بعث الله عليهم عذابا من عنده بعد أن ظنوا أنهم آمنون، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر - وقيل: إن ذلك كله من باب التمثيل - والمقصود: أن هؤلاء الضالين المبطلين الذين يصدون عن دين الله ويحادون الله ورسوله والمؤمنين، مصيرهم الهلاك والتدمير وسوء المصير في الدنيا.
٢٧ - (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)
قوله: (ثم يوم القيامة يخزيهم) فوق العذاب الذي يحل بالظالمين الخاسرين في الدنيا، أعد الله لهم يوم القيامة من سوء العذاب والنكال ما هو أشد وأخزى.
قوله: (ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم) يسأل الله المشركين الضالين يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع: أين الآلهة التي كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي والذين كنتم (تشاقون فيهم) أي تعادون المؤمنين وتخاصمونهم من أجلهم – أي أجل الشركاء - والمشاقة هي أن يكون أحد الخصمين في شق، والآخر في الشق الآخر - فما لهؤلاء الشركاء لا يحضرون اليوم ولا يدفعون عنكم شيئا من العذاب والخزي.
قوله: (قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين) المراد بالذين أوتوا العلم، العلماء الذين كانوا يدعون الناس إلى دين الله؛ فهم يقولون للخاسرين الذين باءوا بالعذاب والخزي يوم القيامة: إن الذل والهوان والويل اليوم على الذين كفروا بربهم وشاقوا الله ورسله والمؤمنين - لا جرم أن إظهار الشماتة بالخاسرين يوم القيامة يزيد في إيلامهم والتنكيل بهم ٣١.
٢٨ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله تعالى: {الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون (٢٨) فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩)} (الذين)، اسم موصول في محل جر نعت للكافرين - وقيل: بدل منه - وقيل: في محل رفع على أنه مبتدأ - و (ظالمي)، منصوب على الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم - وذلك إخبار من الله عن حال الكافرين الخاسرين الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها موارد الخسران والهلكة؛ فهم إذا جاءهم الموت وحضرتهم الملائكة لانتزاع أرواحهم (ظالمي أنفسهم فألقوا السلم) - أي استسلموا وأخبتوا لله خاشعين مسلمين وأيقنوا للملائكة أن الله حق، وأظهروا خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والشقاق - وقالوا: (ما كنا نعمل من سوء) أي جحدوا أنهم كانوا مشركين في الدنيا أو أنهم كانوا يشاقون الله ورسوله والمؤمنين - فردت عليهم الملائكة (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) وقيل: قائل هذا القول هو الله جل جلاله، مكذبا لهم فيما زعموه - والمعنى: أن الله عليم بما صنعتم وما كنتم عليه في الدنيا من المعاصي والكفران.
٢٩ - (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)
قوله: {فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين} أي يقال لهؤلاء الخاسرين الذين ظلموا أنفسهم: ادخلوا طبقات جهنم ماكثين فيها أبدا.
قوله: (فلبئس مثوى المتكبرين) أي ساء مقام هؤلاء المتكبرين الذين استكبروا على الله فعصوه وجحدوا وحدانيته ولم يقروا بربوبيته - ومقامهم النار وبئس المثوى والقرار ٣٢.
٣٠ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)
قوله تعالى: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون (٣٢)} بعد أن أخبر عن حال الأشقياء، شرع في الإخبار عن حال السعداء من أهل

الجنة، الذين كانوا متقين، فإنهم يقال لهم يوم القيامة: (ماذا أنزل ربكم) ثم يبين الله أنهم (قالوا خيرا) أي أنزل الله الخير والهداية والرحمة والمراد بذلك القرآن - وذلك في مقابلة الجواب الظالم الذي كان يجيب به المشركون الجاحدون، وهو قولهم عن القرآن (أساطير الأولين) وقوله: (خيرا) منصوب بتقدير فعل محذوف، أي أنزل خيرا.

قوله: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) ذلك من قول الله عن الذين آمنوا به في الدنيا فأطاعوه والتزموا دينه وشرعه فقد وعدهم الله في هذه الدنيا حسنة أي الثواب الجزيل والجزاء الحسن - أو وعدهم النصر والغلبة والظهور على الأعداء.

قوله: (ولدار الآخرة خير) ذلك تأكيد من الله على أن ما أعده للمتقين الصالحين من عظيم الجزاء والمثوبة لهو خير وأعظم مما حوته الدنيا من الخيرات والمباهج والنعم، فهذه الدار صائرة إلى الفناء والاندثار لكن الدار الآخرة باقية خالدة لا يعتريها زوال.

قوله: (ولنعم دار المتقين) المراد بدار المتقين الدار الآخرة حيث الجنة والنعيم المقيم - والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ذكره.

٣١ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

قوله: (جنات عدن يدخلونها) (جنات) مرفوعة على أنها بدل من الدار، وقيل: خبر لمبتدأ تقديره هي، فهي بذلك مبينة لدار المتقين - (يدخلونها) في محل نصب على الحال - وقيل: صفة لجنات، أي مدخولة.

قول: (تجري من تحتها الأنهار) تنساب المياه خلال الجنة ومن حولها ومن تحت أشجارها الوارفة الظليلة، وذلك على الهيئة البديعة والصورة العجيبة التي لا نعي حقيقتها وماهيتها إلا بقدر ما نتصوره من خلال هذه الكلمات الربانية.

قوله: (لهم فيها ما يشاءون) وذلك هو النعيم بكماله المطلق الذي لا يعتريه عيب ولا نقيصة - كمال النعيم في الجنة التي يجد فيها المتقون الفائزون من الخيرات والمسرات والمباهج ما لا تتصوره عقول أهل هذه الدنيا.

قوله: (كذلك يجزي الله المتقين) الكاف صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك الجزاء يجزي الله أهل التقوى ٣٣.

٣٢ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) (طيبين) منصوب على الحال من الهاء في (تتوفاهم) ٣٤ والمعنى: أن الملائكة تتوفى المتقين وهم طيبون، أي طاهرون من دنس الحياة الدنيا ولوثاتها من الذنوب والهموم والآفات - وهم كذلك آمنون مطمئنون لما يلقونه من جزيل الثواب وعظيم الرضوان.

قوله: (يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) السلام معناه الأمان، وهذه بشارة من الملائكة لعباد الله المتقين بأنهم ناجون آمنون، صائرون إلى جنات النعيم بما قدموه في حياتهم الدنيا من الصالحات والطاعات.

٣٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣٣) فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون (٣٤)} ذلك تخويف للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها في الشرك والمعاصي وتكذيب الرسول.

والمعنى: ماذا ينتظر هؤلاء الضالون المكذبون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فيفضوا بعد ذلك إلى النار (أو يأتي أمر ربك) وهو التدمير، والاستئصال - أو يحشرهم يوم القيامة ليساقوا إلى جهنم زمرا.

قوله: (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي هكذا تمادى السابقون الظالمون في غيهم وضلالهم حتى أذاقهم الله عذاب الذل والهوان - وذلك تخويف من الله لهؤلاء المستكبرين الغازين الذين كذبوا كلام لله وجحدوا نبوة رسوله (ص).

قوله: (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ما ظلم الله هؤلاء المشركين المكذبين بما حل بهم من السخط والذل والهوان، فقد أعذر الله إليهم كامل الإعذار، وأقام عليه الحجة البالغة بما أرسله إليهم من النبيين - لكن المشركين المكذبين هم الذين ظلموا أنفسهم بتلبسهم بالكفر والعصيان والجحود، فاستحقوا ما حل بهم من العذاب المهين.

٣٤ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

قوله: (فأصابهم سيئات ما عملوا) أي أصاب الأمم الظالمة السالفة النقم والعقاب لما فعلوه من المعاصي والكفران (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) أي نزل بهم جزاء تكذيبهم وجحودهم واستهزائهم برسل الله ٣٥.

٣٥ - (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

قوله تعالى: }وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين (٣٥)}.

قال المشركون في اغترار وضلال: إننا لم نعبد هذه الأصنام ولم نشرك بالله ونحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب والوصال والحوامي إلا لأن الله شاء لنا أن نفعل ذلك وقد رضيه لنا - وكذلك فعل الآباء والأجداد من عبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، ولو لم يقبل الله منا ومن آبائنا ذلك أو كرهه لنا ولهم لعاقبنا وإياهم على فعله، أو لهدانا وإياهم إلى غيره.

هكذا قال المشركون الضالعون في الخطيئة والإشراك - وما قالوا ذلك إلا وهم تستحوذ على قلوبهم وعقولهم أغشية كثاف من الوهم والغرور والسفه - ثم جاء الرد القاطع من الله على مقالة هؤلاء الضالين الواهمين السفهاء (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) ليس الشأن كما زعم هؤلاء المشركون الضالون؛ بل إن الله قد أنكر على الكافرين كفرهم وضلالهم - ونهاهم عن كل وجوه الإشراك أشد نهي - وبعث فيهم النبيين والمرسلين ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ويحذروهم من الإشراك به ومن عصيانه ومخالفة أمره - والنبيون المرسلون إنما تناط بهم أمانة التبليغ للناس وكفى - وما عليهم بعد ذلك شيء من زور المكذبين الجاحدين أو الناكلين المستهزئين ٣٦.

٣٦ - (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

قوله تعالى: }ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٣٦) إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين (٣٧)}.

لله الحجة البالغة على الناس جميعا؛ فإنه ما من أمة من الأمم على وجه هذه الأرض إلا أرسل الله فيهم نذيرا منهم ليدعوهم إلى عبادة الله وحده وليقلعوا عن الشرك بكل صوره وأشكاله وأن يبتعدوا عن (الطاغوت) ويحذروه أشد تحذير.

و (الطاغوت)، معناه: الطاغي المعتدي، أو كثير الطغيان، والمراد به هنا كل رأس في الضلال يصرف عن طريق الخير - وهو الشيطان والكاهن والساحر وكل معبود من دون الله من الجن والإنس والأصنام ٣٧.

وينبغي التذكير بحقيقة الطاغوت في مفهومه المستجد ليكون المسلمون على بينة من أمرهم، وأن يأخذوا لأنفسهم بالغ الحيطة والحذر مما يدور من حولهم من افتراءات ومؤامرات وخيانات ومكائد - وذلك بالنظر لتطور الأساليب في الإطغاء والإضلال، وبالنظر للتغيير في وجوه الكفر مع أنها في حقيقتها وماهيتها ليست إلا الجحود والنكول عن منهج الله والإعراض عن دينه، دين التوحيد والرحمة والعدل والمساواة.

وأساليب الإطغاء والإضلال كثيرة وفظيعة - وهي في هذا الزمان قد اتخذت منحى في غاية الفضاعة والباطل والنكر، وغاية التأثير الماحق الذي يأتي على القلوب والضمائر فيبدد فيها معالم الصلة بالله، ويأتي على الفطرة الإنسانية الأساسية فيسومها الإفساد والتمييع والانحراف، وهو كذلك يأتي على العقول ليصب فيها الثقافات الضالة الجاحدة التي تزين للإنسان إعلان الحرب على منهج الله وعلى دينه الحق، دين التوحيد والاستقامة والفضيلة كل ذلك بفعل الشياطين من طواغيت البشر الذين يصدون الناس عن منهج الله - منهج الإسلام - وذلك بمختلف الأسباب والوسائل في الخداع والتضليل والتشويه والافتراء، واصطناع الشبهات والحملات الثقافية المكذوبة على الإسلام في عقيدته وتشريعه وتاريخه ومجتمعه.

إن ذلكم كله من فعل الطاغوت الذي حذرنا الله منه وحرضنا على اجتنابه كيلا نقع في شراكه، شراك الكفر والظلم والضلال.
قوله: (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي من هذه الأمم التي بعث الله فيهم النبيين من أرشده الله إلى دينه الحق القويم فآمن وصدق واستقام - ومنهم من ثبتت عليه الضلالة والزيغ عن الحق لعناده وإصراره على الكفر والباطل.
وهذه من الوسائل الدقيقة التي خاض فيها العلماء من أهل السنة والمعتزلة.
وخلاصة القول في هذه المسألة عند أهل السنة: أن الله سبحانه هدى البعض وأضل البعض - فالهدى والضلال بيد الله سبحانه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فقد أمر الله الرسل بالتبليغ - وهذا التبليغ واجب عليهم والله تعالى يهدي من يشاء بإحسانه ويضل من يشاء بخذلانه.
وقال المعتزلة: إن الله لم يمنع أحدا من الإيمان ولم يوقعه في الكفر - والرسل ليس عليهم إلا التبليغ، فما بلغوا ما كلفوا بتبليغه، كان الإنسان بعد ذلك مختارا ما يريده من الحق أو الضلال.
قوله: (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي إن كنتم تكذبون ما نذكره لكم عن حال الأمم السابقة وما حل بهم من البأس والتدمير بسبب جحودهم وعصيانهم فسيروا أنتم في الأرض التي كانت مقامهم، والبلاد التي عمروها وبنوا فيها الحضارة وشيدوا فيها المباني والعمران، ثم انظروا إلى آثار عذاب الله فيهم، وكيف أعقبهم تكذيبهم وعصيانهم ما حاق بهم من الهلاك والسوء - وسوف تعلمون إذ ذاك صدق ما نقوله لكم لكي تعتبروا وتتعظوا وتتزجروا عن الشرك والضلال.
٣٧ - (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)
قوله: (إن تحرص على هداهم فإن لله لا يهدي من يضل) أي إن تطلب بجهدك وبالغ اهتمامك هداية هؤلاء الضالين المشركين، فإن الله لا يهدي ولا يرشد من أضله - ونظير ذلك قوله تعالى: (من يضلل الله فلا هادي له) وهذا إخبار من الله لرسوله (ص) بأن حرصه الشديد على هداية قومه المشركين لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم، فمن أضله الله فإنه ليس من أحد يهديه.
قوله: (وما لهم من ناصرين) الناصر والنصير بمعنى المعين، أي ليس من أحد غير الله من يعين هؤلاء الضالين الظالمين، أو ينقذهم من عقاب الله إن أراد الله أن يعذبهم ٣٨.
٣٨ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٨) ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين (٣٩) إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (٤٠)}.
ذكر في سبب نزول هذه الآية: أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت - فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت، فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله هذه الآية ٣٩
وفيها إخبار من الله عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله (جهد أيمانهم) أي اجتهدوا في الحلف وبالغوا في تغليظ اليمين على أن الله لا يبعث من يموت - وهذا تكذيب فاجر فاضح بيوم القيامة - هذا الركن الركين في عقيدة هذا الدين! فإنه لا يجترئ على التكذيب بالبعث أو بقيام الساعة إلا خاسر هالك تاعس، مردود في زمرة الأشقياء الأذلين، أو هو في عداد الكافرين الضالين الذين سقطوا في براثن الجحود والتكذيب المتوقح لرب العالمين.
قوله: (بلى) وهذا إثبات لما بعد النفي، أي بلى ليبعثنهم يوم القيامة ليناقشوا الحساب ثم يلاقوا ما يستحقونه من جزاء.
قوله: (وعدا عليه حقا) (وعدا)، مصدر مؤكد - و (حقا) صفة للوعد، أي وَعَدَ العبث وعدا حقا - والبعث حقيقة كونية هائلة تصدقها الأذهان في بساطة، وتركن إليها القلوب والفطر السليمة في راحة ورضى، إذ تحس من أعماق أعماقها حقيقة هذا الحدث الكوني الأكبر، الحدث المزلزل الجلل الذي يأتي على الحياة والكائنات والوجود كله ليصير إلى الفناء الكامل، والانهيار المريع - وذلكم وعد من الله كتبه في الأزل - ووعد الله حق وصدق - وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.
قوله: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أكثر الناس لا يصدقون قيام الساعة، وأن يبعث في القبور ليساقوا بعد ذلك مهطعين مذعورين إلى

الحشر - أكثر الناس ذاهلون غافلون عن هذه الحقيقة الآتية الكبرى - وذلك لفرط جهالتهم وضلالهم وإغراقهم في شهواتهم وملذاتهم وأهوائهم، ولان الشياطين من الجن والإنس جهدوا جهدا بالغا في إضلال الناس وإثارة الشكوك والظنون في تصوراتهم فسدروا خلف الشياطين والطواغيت منقادين خائرين.

٣٩ - (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

قوله: (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) التبيين متعلق بما دل عليه قوله: (بلى) أي ليبعثن الله الموتى جميعا (ليبين لهم الذين يختلفون فيه) أي ليظهر لهم ما اختلفوا فيه من الحق، أو من أمر البعث، فيعلم الجاحدون صحة وعد الله بقيام الساعة وأنهم كانوا في قيلهم عن إنكارها كاذبين وهو قوله: (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين).

٤٠ - (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

قوله: }إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون{ هذا إعلان رباني مجلجل يبين الله فيه لعباده أنه هو المبدئ وهو المعيد وأنه لا يعز عليه فعل شيء في هذا الكون أو إحداثه، فهو يقول: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلسنا عاجزين عن فعل ذلك، فما علينا من نصب ولا تعب في صنع ما نريده من إحياء أو إماتة أو غير ذلك، فما علينا من نصب ولا تعب في صنع ما نريده من إحياء أو إماتة أو غير ذلك من أمور الكون كله، لأنا إذا أردنا أن نخلق شيئا أو نفعله أو نحدثه، فليس علينا إلا (أن نقول له كن فيكون) فلا جرم أن من صفات الله القدرة البالغة التي لا تعرف القيود أو الحدود - إن قدرة الله مطلقة، وعلمه كامل ومحيط، وإرادته غالبة على كل شيء، وهو سبحانه الفعال لما يريد ٤٠.

٤١ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: }والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٤١) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٤٢){ هذه الآية نزلت في أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة بلال وصهيب وخباب وعامر وجندل بن صهيب، إذ أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وآذوهم، فبوأهم الله تعالى بعد ذلك المدينة - وقيل: ذلك إخبار عن جزاء الله لكل الذين هاجروا في سبيله ابتغاء مرضاته، فقد فارقوا الأوطان والأهل والخلان راجين الثواب وحسن الجزاء من الله - وقيل: سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة الله في حرية وأمان - وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وجعفر بن أبي طالب وغيرهما في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة رضي الله عنهم أجمعين ٤١ - والمعنى: أن المؤمنين الذين تركوا أوطانهم وأهليهم وقراباتهم وكل ما لديهم من أموال وممتلكات وصداقات وذكريات (في الله) أي لله أو لوجهه وابتغاء مرضاته وثوابه ورحمته، ورغبة في نصرة دينه، وليعبدوا الله آمنين أحرارا (من بعد ما ظلموا) أي من بعد ما عذبهم الكافرون ليفتنوهم عن دينهم، وليصدوهم عن دعوة الله إن استطاعوا، لكنهم مضوا ثابتين صابرين لا تثنيهم الشدائد ولا توهنهم الملمات والفتن والنوائب عن عقيدتهم (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) (لنبوئنهم) لنسكننهم - بوأه منزلة، أسكنه أو أنزله فيه - والمباءة المنزل ٤٢، و (حسنة)، صفة للمصدر، أي تبوئة حسنة أو مباءة أو منزلة حسنة - والمراد بها: الحلول بالمدينة ليجدوا فيها أمنهم وسكينتهم واستقرارهم - وليكون لهم فيها السلطان والغلبة والظهور.

وقيل: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على أهل مكة حيث الشرك والظلم وحيث يقيم الضالون الذين عذبوهم واضطروهم للخروج والهجرة، بل الغلبة على سائر البلاد.

قوله: (ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) ذلك تأكيد من الله على أن ثواب المؤمنين المهاجرين في سبيل الله أكبر مما أوتوه في الدنيا من حسنة، فإن ثوابهم في الآخرة الجنة وهي النعيم المقيم الذي لا يزول ولا يبيد.

قوله: (لو كانوا يعلمون) الضمير عائد إلى المؤمنين، أي لو رأوا مبلغ ثوابهم في الآخرة وما أعده الله لهم من عظيم الجزاء، لزادوا في اجتهادهم وصبرهم - وقيل: الضمير عائد إلى الكافرين، أي لو علم الكافرون ما أعده الله لعباده المؤمنين يوم القيامة من النعيم لآمنوا

ورغبوا في دين الله، دين الإسلام.
٤٢ - (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)
قوله: {الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون} (الذين)، يجوز فيه الرفع والنصب، فالرفع على البدل من (والذين هاجروا) والنصب، من وجهين - أحدهما: أن يكون في موضع نصب على البدل من الهاء والميم في قوله: (لنبوئنهم) - وثانيهما: أن يكون منصوبا بتقدير الفعل: أعني ٤٣ - والمعنى المراد، إطراء المؤمنين الصابرين الذين يحتملون الأذى والمكاره، وما نزل بهم من ظلم الكافرين وعدوانهم، ومن هجرة الديار والأوطان والصّحاب (وعلى ربهم يتوكلون) أي يفوضون كل أمورهم إلى ربهم معتمدين عليه راضين بقضائه وقدره مطمئنين بحكمه وحكمته ٤٤.
٤٣ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٤٢) بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون (٤٣)} نزلت في مشركي مكة؛ إذ أنكروا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فهلا بعث إلينا ملكا ٤٥!
والإنسان بطبيعته مجبول على استعدادات منسجمة متسقة من طاقات النفس والروح والعقل - ويأتي في الطليعة من البشر هذه الفئة الممتازة الفضلى من الناس وهم النبيون المرسلون؛ فإنهم صنف من الخليقة مفضال ومميز بما جبل عليه من هائل القدرات الروحية وبالغ الكفاءات النفسية والعقلية والفكرية بما لا يضاهيه في الكائنات نظير - فلا جرم أن يصلح النبيون أكمل صلوح لحمل رسالة السماء، وتبليغ الناس إياها - أما ما يظنه الجاهليون في هذا الصدد؛ فليس إلا الوهم والتخريص والتقول بغير علم - ومن أجل ذلك رد الله مقالة العرب الجاهليين ووهمهم وتخريصهم بقوله: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) يعني ما أرسلنا من قبلك يا محمد في أمة من الأمم لدعوة الناس إلى دين الله وطاعته والإقرار بوحدانيته والتزام شرعه ومنهاجه إلا رجالا من جنسهم من البشر نوحي إليهم على ألسنة الملائكة.
قوله: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) إن كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة وهي إرسال الرسل إلى الناس من جنسهم من بني آدم فاسألوا أهل الذكر - وهم العالمون بالكتب السماوية من قبلكم كالتوراة والإنجيل؛ ففيهما ما ينبئكم أن المرسلين السابقين من قبلكم ما كانوا إلا من بني آدم.
وقيل: المراد بأهل الذكر: الذين أسلموا من أهل الكتاب، فعندهم العلم بهذه الحقيقة مما وعوه من التوراة والإنجيل.
٤٤ - (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)
قوله: (بالبينات والزبر) البينات متعلق بقوله: (أرسلنا) وكذا (الزبر) - أي أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر رجالا نوحي إليهم - والمراد بالبينات الأدلة والبراهين والمعجزات التي أوتيها النبيون لتكون شاهدة لهم بصدق دعوتهم وصدق ما جاءوا به من رسالة ودين - وأما (الزبر) فهي الكتب، وهي جمع زبور.
تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته - والزبور، الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام ٤٦.
قوله: (وأنزلنا إليك الذكر لنبين للناس ما نزل إليهم) المراد بالذكر هنا القرآن؛ فقد أنيط برسول الله - صلى الله عليه وسلم - تبيان هذا الكتاب الحكيم للناس؛ إذ يبين لهم ما أجمله الله فيه من الأحكام في العبادات والمعاملات والجنايات وغير ذلك من المسائل والقضايا مما ورد في كتاب الله على نحو من الإجمال أو الإشكال أو العموم، فتفصيل ذلك وتبيينه وتوضيحه منوط برسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فهو أعلم الناس بما حواه القرآن من أصول الأحكام والمعاني.
قوله: (لعلهم يتفكرون) أي يتدبرون ما جاء به الكتاب الكريم من جليل الآيات والعظات والمعاني فيعتبرون ويهتدون ٤٧.
٤٥ - (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)
قوله تعالى: {أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (٤٥) أو يأخذهم في

تقلبهم فما هم بمعجزين (٤٦) أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم (٤٧)}.
الاستفهام للإنكار - والمراد المشركون الظالمون الذين يعتدون على المسلمين بالصد والأذية والفتنة - فيقول الله لهم في توعد وتهديد: أفأمن هؤلاء الظالمون (الذين مكروا السيئات) (السيئات) صفة لمحذوف، أي الذين مكروا المكرات السيئات - والمراد بمكرهم هنا سعيهم في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفتنة المسلمين وتعذيبهم؛ لإغوائهم واجتيالهم عن دينهم - من أجل كيدهم وتمالئهم ومكرهم بالنبي والذين معه من المؤمنين، فقد توعدهم الله بجملة نزاول أولها: (أن يخسف الله بهم الأرض) وخسف المكان معناه الذهاب به في الأرض، وخسف الله بهم الأرض أي غاب بهم فيها كما خسف بقارون، إذ خسف الله به وبداره الأرض ٤٨.
وثانيهما: (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) المراد أن يأخذهم عذاب الله بغتة فيهلكهم من حيث لم يحتسبوا، كما فعل بقوم لوط وغيرهم ممن أتاهم أمر الله بالعذاب فجأة.
٤٦ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)
وثالثها: {أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين} والتقلب معناه السفر - أي يأخذهم الله بالإهلاك في أسفارهم وتصرفهم حال كونهم آمنين مطمئنين (فما هم بمعجزين) أي لا يعجزون الله أن يفعل بهم ذلك إن أراج أن يأخذهم.
٤٧ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)
ورابعها: (أو يأخذهم على تخوف) التخوف من الخوف - وكيفية ذلك: أن لا يأخذهم الله بالعذاب مرة واحدة - بل يخفيهم أولا، ثم يأخذهم بالعذاب - وذلك أن يأخذ طائفة فتخاف التي تليها، ثم تظل زمانا طويلا في الخوف والوحشة تنتظر الهلاك.
وقيل: التخوف معناه التنقص - تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته - والمراد به هنا: ما يقع في أطراف بلادهم من النقص في الأموال والأنفس والثمرات - ويأخذهم على تخوف أي على تنقص من أنفسهم وأموالهم وأرضهم - كقوله تعالى: (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) أي أن الله لا يعاجلهم بالعذاب، بل ينقص من أطراف بلادهم إلى القرى التي تجاورهم حتى يخلص الأمر إليهم فحينئذ يهلكهم ٤٩.
قوله: (فإن ربكم لرؤوف رحيم) ويدل على رحمة الله ورأفته بالعباد: إمهاله إياهم، إذ لا يعاجلهم بالعذاب فيبعث فيهم النبيين هداة مبلغين ليعظوهم ويحذروهم ويبينوا لهم سبيل الهداية والحق.
٤٨ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)
قوله تعالى: {أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيّؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون (٤٨) ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (٤٩) يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (٥٠)} الاستفهام للإنكار - وما، اسم موصول مبهم، فسره قوله: (من شيء يتفيؤا ظلاله) والضمير في (يروا) عائد إلى الذين مكروا السيئات، لأن الإخبار عنهم، فهو يستنكر عليهم ترك النظر في أدلته والاستفادة منها والاعتبار بها - والمراد بالشيء ما له ظل من جبل أو شجر أو بناء أو جسم قائم - و (يتفيؤا ظلاله)، من الفيء، يقال: فاء الظل يفيء فيئا: إذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس - وأصل الفيء الرجوع. ويتفيأ ظلال، أي يميل من جانب إلى جانب، فيكون أول النهار على حال ويتقلص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى.
والمراد إنكار الغفلة التي تحيط بعقول هؤلاء الظالمين الذين يمكرون بالنبي والذين معه من المؤمنين، إذ لم يتدبروا آيات الله وحججه ودلائله في الكون والطبيعة - ومنها، أنه ما من جسم قائم كشجر أو جبل أو بناء أو غير ذلك إلا (يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل) أي يرجع من موضع إلى موضع - والمقصود باليمين أول النهار، وأما الشمائل فآخر النهار، وقد أفرد اليمين وجمع الشمائل، لأن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع، عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد، وعن الثاني بلفظ الجمع، كقوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) وقيل غير ذلك من التأويل.

على أن ظاهرة الظل وحدها عجيبة من العجائب التي صنعها الله في هذا العالم - وتلك واحدة من ظواهر الطبيعة الكاثرة التي تستوقف النظر وتستثير الحس - وما أكثر الظواهر المثيرة في هذا الوجود والتي تستحق بالغ التدبر والتفكر والذكرى، وتقطع في الدلالة على أن الله حق، وأنه في بالغ قدرته وكمال علمه وسلطانه موجود الوجود.

قوله: (سجدا لله وهم داخرون) (سجدا) حال من الظلال، أي حال كون الظلال سجدا - واختلف المفسرون في تأويل قوله: (سجدا لله) والأظهر أن الموصوف بالسجود في هذه الآية هي ظلال الأشياء، فإنما يسجد ظلالها دون التي لها الظلال - وهو اختيار الإمام الطبري إذ قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر في هذه الآية ظلال الأشياء هي التي تسجد وسجودها ميلانها ودورانها من جانب إلى جانب وناحية إلى ناحية (وهم داخرون) أي صاغرون، يقال: دخر يدْخر دخورا، أي صغر يصغر صغارا، أو ذل وهان ٥٠ - والمراد: أن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره سواء في ذلك سكونها أو دورانها أو ميلانها - والجملة (وهم داخرون) حال كذلك من الظلال.

٤٩ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)

قوله: (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة) المراد بالدابة كل ما دب على الأرض من الكائنات الحية سواء فيها العاقل وهم بنو آدم، أو غير العاقل من العجماوات - فما من كائن إلا ويسجد لله - على أن سجود المؤمنين الصادقين من بني آدم معروف - لكن سجود غيرهم من الكافرين والذين لا يعقلون يقع على هيئة يعلمها الله.

وقد أطلعنا القرآن على أن ظلال الأشياء والأجسام جميعا تسجد لله - وقيل في هذا الصدد: ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك الشيء ساجدا أم لا.

قوله: (والملائكة) معطوف على ما قبله مما ذكر - وقد عطف للتعظيم كعطف جبريل على الملائكة - والمراد ملائكة السماء والأرض - والمعنى: أن الله يسجد له ما في السموات وما في الأرض من الدواب والملائكة (وهم لا يستكبرون) عن التذلل له والخشوع، والجاحدون المستكبرون قلوبهم منكرة لكن ظلالهم تسجد لله بميلانها ودورانها وحركتها.

٥٠ - (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

قوله: {يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون} المراد بالخائفين الملائكة، فإنهم (يخافون ربهم من فوقهم) أي يخافون عذاب ربهم أن ينزل عليهم من فوقهم - وقيل: المراد مخافة الإجلال والتعظيم لله سبحانه - كقوله: (وهو القاهر فوق عباده) قال الرازي: هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة - فظاهر الآية يدل على كونهم أفضل المخلوقات - قوله: (ويفعلون ما يؤمرون) يؤدون حقوق الله وينتهون عن نواهيه غير مفرطين ولا مقصرين ٥١.

٥١ - (وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

قوله تعالى: {وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون (٥١) وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون (٥٢) وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٥٣) ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون (٥٤) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (٥٥)}.

ينهى الله عباده عن الإشراك به أو عبادة غيره من الخلائق - فيقول: (ولا تتخذوا إلهين اثنين) (اثنين) توكيد، فهو يؤكد على تفظيع الشرك، ناهيا العباد عن اتخاذ إله ثان مع الله - فما ينبغي لذي عقل يجد أمامه ومِنْ حوله من الدلائل والبراهين المستفيضة على وحدانية الله ما يملأ العالمين- ما ينبغي له أن يعبد أحدا غير الله - وإنما الإلهية محصورة في إله مقتدر واحد وهو الله جل جلاله، خالق الكائنات وبديع الأرض والسماوات.

قوله: (فإياي فارهبون) أي خافون واتقوا عقابي بطاعتكم لي واجتنابكم زواجري.

٥٢ - (وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

قوله: (وله ما في السماوات والأرض) الله عز وعلا له ملكوت كل شيء، فهو مالك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، ليس له في شيء من ذلك ند أو شريك - (وله الدين واصبا) (واصبا)، منصوب على الحال ٥٢، والواصب معناه الدائم - وصب يصب وصوبا، أي دام وثبت ٥٣، والدين ههنا بمعنى: الطاعة والإخلاص - وهما واجب ثابت ودائم لله على الإنسان.

قوله: (أفغير الله تتقون) الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: إذا كان الإخلاص والطاعة واجبين لله على الدوام، فكيف ينبغي لكم أن تخشوا أحدا غير الله؟

٥٣ - (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

قوله: (وما بكم من نعمة فمن الله) " ما "، شرطية، أو موصولة متضمنة معنى الشرط - والمعنى: وأي شيء اتصل بكم من نعمه فهو من الله - سواء في النعمة غنى المال والخصب وعافية البدن وغير ذلك من وجوه الخير؛ فهو كله من نعمة الله.

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) إذا أصابكم الضر، وهو الفاقة والحاجة والأسقام، أو هو كل ما كان من سوء الحال والفقر والشدة والمرض، إذا أصابكم شيء من ذلك ترفعون أصواتكم بالاستغاثة، وتتضرعون إليه بالدعاء، ٥٤ وذلك هو الجأر أو الجؤار وهو الصوت الشديد كخوار البقر ٥٥.

والمعنى: أن النعم كلها من الله يمتن بها على من يشاء من عباده - وإذا أصاب العبد من البلاء ما زالت به عنه نعمة من النعم؛ فإنه يبادر إلى الجأر إلى الله داعيا متضرعا مستغيثا، حتى إذا استجاب الله دعاءه فكشف عنه البلاء، وما أصابه من الضراء والآفات، انقلب في الغالب على وجهه ناسيا فضل الله عليه، جاحدا ما خوله إياه من النعم - وهو قوله تعالى: {ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون}

٥٤ - (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

قوله تعالى: {ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون} يعني: إذا أزال الله عنكم ما أصابكم، من آفة المرض أو الفقر أو الشدة أو الخوف، وكشف عنكم الهم والبلاء، إذا جماعة منكم يجعلون لله الأنداد، فيعبدونهم من دون الله، أو يعبدونهم مع الله، تعالى الله عن الشركاء والنظراء علوا كبيرا.

٥٥ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

قوله: (ليكفروا بما آتيناهم) اللام لام كي؛ أي أشركوا بالله غيره من الآلهة المصطنعة، وذلك في كشف ما أصابهم من ضر - وغرضهم من هذا الإشراك: أن يجحدوا كون ذلك الإنعام من الله تعالى - كالذي يشتد وجعه فيتضرع إلى الله لإزالة ما أصابه من وجع، فإذا زال وجعه، أحال زواله على الدواء الفلاني أو العلاج الفلاني - وفي الحقيقة أن المزيل لوجعه هو الله - وقيل: اللام لام العاقبة - والمعنى: أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفر.

قوله: (فتمتعوا فسوف تعلمون): أمر وعيد وتهديد؛ أي تمتعوا في حياتكم ما شئتم، فإنكم صائرون لا محالة إلى الموت، وسوف تعلمون عاقبة ذلك مما ينزل بكم من العذاب ٥٦.

٥٦ - (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

قوله تعالى: {ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون (٥٦) ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون (٥٧) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٥٨) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون (٥٩) للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم (٦٠)} الضمير في قوله: (لما يعلمون)، يعود إلى الأصنام؛ التي لا تعلم شيئا عما يفعله من يعبدها - والمعنى: أن المشركين جعلوا لآلهتهم- أي: الأصنام، -التي لا تعلم شيئا- نصيبا من الحرث والأنعام - وذلك ضرب من سفاهة الجاهلين وضلالاتهم؛ إذ يجعلون لما لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل، جزاء من أموالهم ويقولون هذا لشركائنا - فأقسم الله بجلاله العظيم أنهم مسؤولون عما افتروه من الكذب والباطل - وهو قوله: (تالله

لتسألن عما كنتم تفترون)، وذلك تهديد شديد من الله لهؤلاء الضالين الأفاكين - وهو سؤال توبيخ وتهديد يكون عند الموت - وقيل: عند عذاب القبر - وقيل: في الآخرة، فيكون التقريع والتوبيخ أشد وأنكى.

٥٧ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

قوله: }ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون{ (سبحانه)، اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه - وما، في موضع رفع على الابتداء، وخبره (لهم) مقدم ٥٧.

لقد كانت بعض قبائل العرب تقول: الملائكة بنات الله - لا جرم أن هذه المقالة غاية الضلال والباطل - ولذلك قال: (سبحانه)، وهذا تعجيب من جهلهم القبيح الفاضح، وهو وصفهم الملائكة المقربين بالأنوثة، فضلا عن تنزيه الله لذاته عن نسبة الولد إليه - وهو عز وعلا المنزه عن نقائص المخلوقين وضعفهم.

قوله: (ولهم ما يشتهون)، وهم البنون، فقد كان العرب تفيض نفوسهم رغبة في الذكور، وفي مقابل ذلك تفيض عيافة للإناث - لقد كانوا يعافون البنات ويكرهون ولادتهن ومقدمهن - كانوا لفرط سفههم وضلال عقولهم وشدة ظلمهم يبتئسون أشد الابتئاس، ويستشعرون في أنفسهم بالغ الجراحة إذا ما رزقوا البنات.

هكذا كان الجاهليون العرب يتصورون - وهو تصور خاطئ وظالم وأثيم، يراود أذهانا خالطها الفساد والمرض في مجتمع جاهلي ظلوم.

أما ميزان الإسلام فيما توزن به اعتبارات الناس ومقاديرهم، فإنها هي العقيدة الكريمة السمحة - العقيدة التي بنيت على الإيمان بالله وإفراده بالإلهية دون غيره من المخاليق - يضاف إلى ذلك مزية العلم؛ فإنه في ميزان الإسلام عظيم القدر، بالغ الأهمية، ويعزز هذه الحقيقة من اعتبار الإيمان والعلم قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

وعلى هذين الاعتبارين، وهما الإيمان والعلم، تعرف مقادير الناس، لتتحقق لهم الكرامات والاعتبارات - فأيما إنسان أتقى وأعلم؛ فهو في ميزان الإسلام خير وأفضل - يستوي في ذلك الذكر والأنثى - ولا يغني الإنسان كونه ذكرا إذا أبطأ به عمله، فكان غير ذي علم ولا تُقى - ماذا تغنيه ذكورته إذا جاء ربه يوم القيامة خاليا من الهداية والطاعة والعلم - لا جرم إذ ذاك أن يُقذف به ليكون في زمرة الخاسرين الأشقياء الذين يساقون إلى جهنم - لكن المرأة الكريمة الفضلى ذات العقيدة والخلق، فإنها تستوجب التكريم والاحترام في هذه الدنيا - وهي يوم القيامة في زمرة الآمنين الفائزين، وهي من أهل النجاء والجنة.

٥٨ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

قوله: }وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم{، التبشير في اللغة يعني الإخبار الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه - وكلا السرور والحزن، يؤثر في تغير بشرة الوجه - فوجب بذلك أن يكون لفظ التبشير، حقيقة في كلا السرور والحزن - وسواد الوجه كناية عن الاغتمام والحزن - والإنسان إذا أصاب قلبه من الداخل كمد وغم، تسرّب ذلك من الداخل إلى الأطراف ولا سيما الوجه، لما بينه وبين القلب من صلة كبيرة - وبذلك يربدّ ٥٨ الوجه ويسفر ويسودّ، ويظهر فيه أثر الحزن أو الهم أو الغم أو الكمد، أو غير ذلك من مختلف الإحساسات والمشاعر - ولقد كانت العرب تكره البنات، وتستاء من جيئتهن أبلغ استياء - وكان أحدهم إذا أخبر بولادة الأنثى، حزن بالغ الحزن، واغتم أشد الاغتمام، فظهر أثر ذلك على وجهه؛ إذ يصير مسودّا، أي: متغيرا - والاسوداد كناية عن الغم والكآبة، والتبرم بولادة البنت - وقيل: المراد سواد اللون من فرط الخجل والتسخط - (وهو كظيم)، أي: ممتلئ غظيا.

٥٩ - (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

قوله: (يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به)، كهذا الذي جاءه الإخبار بولادة الأنثى، (يتوارى من القوم)، أي: يختفي منهم ويستتر، (من سوء ما بشر به)، أي: من شديد ما أصابه، من الغم والغيظ والإحساس بالعار من ولادة الأنثى.

قوله: (أيمسكه على هون)، يمسكه من الإمساك، وهو الحبس - والهون، معناه الهوان أو المهانة - تهاون به، أي: استحقره ٥٩، والضمير في (أيمسكه)، يرجع إلى البنت؛ أي: أيمسك هذه المولودة، على رغم أنفه وإحساسه بهوان نفسه؟! (أم يدسه في التراب)، والدس

معناه الإخفاء والدفن ٦٠؛ فالمولود له متردد بين إمساك الأنثى المولودة على إحساس منه بالمهانة والعار في نفسه بسبب ولادتها - أو دفنها حية في التراب - وذلك هو الوأد - وهو الفعلة المشؤومة النكراء، الفعلة الشنيعة الفظيعة، التي كانت العرب تفعلها في جاهليتهم الأولى - الجاهلية السخيفة العمياء، التي تسوّل للإنسان عبادة الأحجار الصم، ووأد ابنته حية في الثرى، وذلك في غاية القسوة والفظاعة وكزازة القلب والطبع.

فإنه يروى أن العرب كانوا يحفرون حفيرة، ويجعلونها فيها حتى تموت.

وروي عن قيس بن عاصم أنه قال: يا رسول الله إني واريت ثماني بنات في الجاهلية، فقال عليه السلام: " أعتق عن كل واحدة منهم رقبة " - وروي أن رجلا قال: يا رسول الله ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة، فأمرت امرأتي أن تزينها، فأخرجتها إلي، فانتهيت بها إلى واد بعيد القعر فألقيتها فيه - فقالت: يا أبت قتلتني - فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء - فقال عليه الصلاة والسلام: " ما كان في الجاهلية فقد هدمه الإسلام - وما كان في الإسلام يهدمه الاستغفار ".

على أن العرب كانوا يقتلون البنات على صور مختلفة؛ فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها - وقد كانوا يفعلون ذلك، تارة للغيرة والحمية، وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة ٦١ - لا جرم أن أسبابا ومعاذير كهذه، لهي غاية في الباطل والنكر، وغاية في الطغيان والجور وكزازة القلب - إن هذا الاجتراء المتفحش الأثيم على قتل البنات لكونهن إناثا، قد ندد به الإسلام غاية التنديد، وشدّد عليه التفظيع والنكير؛ بل إن الإسلام قد أوجب للأنثى من ظواهر التكريم والكلاءة والصون، ما ليس له في شرائع الأرض نظير.

لقد فرض الإسلام للأنثى من بالغ العناية والرعاية والاهتمام ما أحاطها بظلال من التقدير والرحمة - وأيما إهانة للأنثى أو انتقاص لها أو حيف يصيبها من الرجل؛ فهو في دين الإسلام إثم غليظ ومخالفة عن أمر الله - ولقد حرض الإسلام على تكريم الإناث في كل مناحي الحياة، لتكون على الدوام آمنة مبجلة مطمئنة - ومن جملة ذلك: ما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن؛ فله الجنة " - وكذلك أخرج أبو داود عن ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من كانت له أنثى، فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها؛ أدخله الله الجنة " - وأخرج الشيخان أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيرا ".

وعن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه، كانت له سترا أو حجابا من النار ".

والنساء شق البشرية الآخر، المكمل للشق الأول وهو شق الرجال - وكلا الشقين يكمل أحدهما الآخر، ليكونا مؤتلفين منسجمين في حياتهما الدنيا - وفي هذا يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي: " إنما النساء شقائق الرجال ".

وخير شاهد على حقيقة المساواة في التكريم بين المؤمنين والمؤمنات قوله تعالى: (إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما).

قوله: (ألا ساء ما يحكمون)، أي: بئس ما قالوا وما فعلوا، وساء ما ظنوا وما صنعوا، من فظائع الوأد ونسبة الإناث إلى الله، وهم أنفسهم يكرهون البنات وينفرون منهم، وينسبون الذكور لأنفسهم - وكذلك اغتمامهم واكتئابهم، واسوداد وجوههم عند التبشير بالأنثى، ساء ذلك كله.

٦٠ - (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء)، (مثل السوء)، معناه: صفة السوء، من الجهل والسفه والضلال - وذلك كله مثل ضربه الله للجاحدين المكذبين بيوم القيامة، فلهم (مثل السوء)، أي: صفة السوء، بكراهيتهم الإناث، ونسبتهن إلى الله، ووأدهن خشية الفقر والعار، وغير ذلك من صفات السوء، مما تلبس به الجاهلون السفهاء.

قوله: (ولله المثل الأعلى)، أي: الصفة العليا، والكمال المطلق؛ فهو الواحد الخالق المقتدر، المنزه عن صفات العباد، الغني عن العالمين، (وهو العزيز الحكيم)، (العزيز)، القوي، القادر على تنفيذ ما يريد، فلا يعز عليه صنع شيء - و (الحكيم)، الذي يفعل ما يشاء، بمقتضى حكمته البالغة ٦٢.

٦١ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

قوله تعالى: }ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون (٦١) ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون (٦٢)}.

بعد أن بين الله حال المشركين الذين كفروا به، وجحدوا نبوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقتلوا البنات ظلما، وزعموا أن الملائكة بنات الله- بعد ذلك كله، يبين الله أن هؤلاء الظالمين يستحقون العذاب العاجل، لولا فضل الله بإمهالهم إلى يوم القيامة - وهو قوله: (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) (يؤاخذ)، من الأخذ ومعناه: التناول، والعقوبة؛ أي: لو يعاقب الله الناس بسبب شركهم، وما جنوه من المعاصي والخطايا، (ما ترك عليها من دابة)، أي: لأهلك من يدب على ظهر الأرض من الأحياء - وذلك يدل على فظاعة ما يفعله الظالمون، من عتو وجحود وعصيان - لكن الله بفضله ومنّه ورحمته، قد أمهل الظالمين إلى اليوم الموعود - وفي هذا الصدد، روي عن عبد الله بن مسعود قوله: " كاد الجعل ٦٣ أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم ".

قوله: (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى)، أي: لا يؤاخذهم الله بما كسبوا في الدنيا من الآثام والمعاصي؛ إذ لو آخذهم الله بذنوبهم لما بقي منهم أحد، بل إن الله يؤخر عنهم العذاب إلى اليوم الموعود؛ ليلاقوا الجزاء البئيس والعذاب الذي لا يزول.

قوله: (فإذا جاء أجلهم لا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون)، المراد بأجلهم، موتهم أو قيام الساعة - فإذا جاء هذا الموعد المحتوم؛ فإن الظالمين لا يتأخرون عن موعدهم هذا أقل مدة من الزمن وهي ساعة، وكذلك فإنهم لا يسبقون هذا الأجل المحتوم مثل هذه المدة القصيرة.

٦٢ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

وقوله: (ويجعلون لله ما يكرهون)، (ما)، لمن يعقل - والمراد به النوع، كقوله سبحانه: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)، و (ما) تعم العقلاء وغيرهم - والمعنى: أن المشركين ينسبون لله ما يكرهونه لأنفسهم، من البنات ومن الشركاء، وهم أنفسهم يأنفون أن يكون عندهم الشركاء في أموالهم ورئاستهم.

قوله: (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى)، (الكذب)، مفعول به - (أن لهم الحسنى)، بدل منه، بدل كل من كل ٦٤؛ أي: مع كل ظلمهم وعصيانهم، فإنهم يكذبون بقولهم: (أن لهم الحسنى)، أي: الجنة - وهذا غاية الكذب والتقول الظالم؛ إذ يهذون بأن لهم من الله الجنة.

قوله: (لا جرم أن لهم النار)، (لا جرم)، أي: حقا، لا بد منه، أن لهؤلاء الظالمين النار بدلا مما زعموه من الحسنى، وهي: الجنة، (وأنهم مفرطون)، بفتح الراء؛ أي: مضيعون في النار منسيون فيها أبدا، أو مقدمون معجل بهم إليهم - وذلك من أفرطته إلى كذا، أي: قدمته - ومنه قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أنا فرطكم على الحوض "، أي: متقدمكم عليه - وكثيرا ما يقال للمتقدم إلى الماء لإصلاح شيء: فارط وفرط - ومفرطون بالتشديد؛ أي: مقصرون، من فرط في كذا، أي: قصر ٦٥.

٦٣ - (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: }تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم (٦٣) وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦٤) والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون (٦٥)}.

ذلك قسم من الله يؤكد فيه إرسال النبيين إلى الأمم السابقة لهدايتهم وإرشادهم، لكنهم ضلوا وجحدوا وانقلبوا خاسرين - وفي ذلك الإخبار والقصص ما يسرّي عن قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما كان يناله من جهالات المشركين وسفاهاتهم؛ إذ كذبوه وآذوه، وتقولوا عليه الأقاويل والافتراءات، مثل الذي فعلوه في النبيين السابقين من العصيان والأذى.

قوله: (فزين لهم الشيطان أعمالهم)، أغواهم الشيطان بعد أن أضلهم عن دين الله، واجتالهم عن الحق الذي جاءهم به النبيون المرسلون، فزين لهم الباطل بكل صوره، من الشرك والظلم وقبيح الأعمال.

قوله: (فهو وليهم اليوم)، أي: قرينهم في هذه الدنيا، إذ تولى (الشيطان) إضلالهم بتغريرهم وفتنتهم بكل وجوه الفتنة وضروبها - ولئن أغواهم شيطان الجن بإيحائه ووسوسته، فإن شيطان الإنس والبشر لا جرم أن لا يقل اقتدارا على الإضلال والإغواء والتغرير والفتنة. إن شيطان الإنس من البشر يملك من أساليب الغواية والبراعة في الفتنة ما أضل به الناس طيلة الزمان - وما فتئ الناس يترددون في الغي والضلال والتنكب عن رسالة السماء ودين الله الحق؛ فهم بذلك سادرون في الفسق والمعاصي، جاهرون بارتكاب الخطايا والآثام، مخالفين بذلك كله عن منهج الله الحق؛ منهج الإسلام - وكل ذلك بفعل الشياطين من الداخل والخارج؛ أي من داخل النفس البشرية ومن خارجها؛ فمن الداخل بفتنة الوسواس الخناس من إبليس وجنوده من الجن، الذين يزينون للمرء فعل القبائح والمعاصي والمنكرات، فضلا عن السقوط في الكفران والجحود - أما من الخارج فبما تصطنعه الشياطين البشرية من أساليب كاثرة شتى في التضليل والخداع والغواية، ما بين ترغيب وإغراء بالمال والمنصب وغيرهما من صنوف الشهوات، أو إغواء وترهيب وتخويف وتهديد بالتعذيب، أو الحرمان أو التهجير أو القتل.

قال صاحب الدر المصون في قوله: (فهو وليهم اليوم)، يجوز أن تكون هذه الجملة حكاية حال ماضية؛ أي فهو ناصرهم - أو آتية - ويراد باليوم يوم القيامة - وهذا إذا عاد الضمير على (أمم)، وهو الظاهر - وجوز الزمخشري أن يعود على قريش، فيكون حكاية حال في الحال، لا ماضية ولا آتية - وجوّز أن يكون عائدا على (أمم)، ولكن على حذف مضاف تقديره: فهو ولي أمثالهم اليوم ٦٦.

قوله: (ولهم عذاب أليم)، أي: لهم عذاب النار يوم القيامة.

٦٤ - (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) المراد بالكتاب القرآن - واللام في (لتبين) للتعليل؛ أي: إنما أنزلنا إليك هذا القرآن لتفصل به بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ويختلفون، من الشرك والتوحيد وإثبات البعث والنشور ونفيهما، والجبر، وهو كون الإنسان مجبرا أو مكرها على صنع أفعاله - أو القدر، بسكون الدال، وهو خلاف الجبر - ومقتضاه أن الإنسان قادر على صنع أفعاله حرا ومختارا - وغير ذلك من الأحكام التي ابتدعوها، كتحريم البحائر والسوائب، وتحليل أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، وغير ذلك من الأحكام - والقرآن في ذلك كله يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل - السبيل الواضح المستقيم الذي لا عوج فيه ولا خلل، ولا غلو ولا تفريط.

قوله: (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (هدى ورحمة)، منصوبان على أن كل واحد منهما مفعول لأجله - والناصب قوله: (أنزلنا) ٦٧ - والمعنى: أن القرآن أنزل هداية للناس، وإخراجا لهم من ظلمات الباطل والضلال والجور، إلى نور الحق واليقين والعدل والسداد - وهو كذلك رحمة للناس بكل ما يحتمله لفظ الرحمة من معاني فضلى في الخير والبر والمودة والإيثار، وغير ذلك من معان يرسخها الإسلام في واقع المسلمين - وخص المؤمنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم بتصديقهم ويقينهم والتزامهم منهج الإسلام يكونون هم المنتفعين بمزايا الهدى والرحمة ومقتضياتهما أكثر من غيرهما.

٦٥ - (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

قوله: (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها)، وهذه من الدلائل على عظمة الخالق الذي أوجد كل شيء وأتقنه إتقانا؛ فقد أنزل الله بقدرته وإرادته المطر من السماء غيثا مغيثا طبقا؛ ليثير في الأرض النماء والبركة، وتنبعث في الناس ظواهر الخير والاستمتاع، وراغد الحياة وطيب العيش - وذلك هو مقتضى قوله: (فأحيا به الأرض بعد موتها)، وموت الأرض كناية عن جفافها

ويبسها، فهي حال كونها يبسا غير ذات نبات ولا اخضرار كأنما هي ميتة، حتى إذا أصابها ماء السماء انقلبت حية عامرة يعمها الخصب والنضرة والاخضرار - وذلك في ذاته حدث كوني كبير، لا يتحقق إلا بإرادة الله الخالق القادر - وهو دليل واضح (لقوم يسمعون)، أي: يسمعون سماع استبصار وتدبر، ليجدوا في إحياء الأرض الميتة بالمطر دليلا واضحا ومثيرا على أن الله حق - أما الذين يسمعون سماع الذاهلين الغافلين، أو سماع الماكرين المخادعين المتربصين، فإنهم سادرون في الضلال والعمى والجحد، فلا ينفعهم سماعهم، ولا يغنيهم ما يجدونه من مختلف الأدلة والبراهين ٦٨.

٦٦ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

قوله تعالى: {وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين (٦٦) ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون (٦٧)} - العبرة بكسر العين، تعني في اللغة: العجب - اعتبر منه، أي: تعجب ٦٩ - ويراد بها ههنا الآية والدلالة على جلال الخالق في عظيم قدرته وبالغ حكمته، إذ خلق الأنعام حيث النسل والدر - هذا الغذاء السائغ النافع المصفى الذي يتخلق في أحشاء الأنعام من أبقارها ونوقها وشائها، وذلك هو قوله في كلماته القليلة الجزلة المصطفاة: (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا)، الضمير في (بطونه) يعود إلى الأنعام - وهذا اللفظ ذكره سيبويه في الأسماء المفردة، على لغة بعض العرب، والفرث معناه: السرجين في الكرش - والسرجين أو السرقين بكسر السين المشددة معناه: الزبل معربا ٧٠، وهذا برهان ظاهر باهر بأمر على عظيم قدرة الله، وآية ساطعة جليلة تثير العجب والاعتبار لمن يعتبر - وذلك أن الله يخلق اللبن وسيطا بين الفرث والدم، وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله - فإذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثا، وأوسطه لبنا، وأعلاه دما - والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر ٧١.

قوله: (خالصا سائغا للشاربين) (خالصا)، أي: مصفى عما يشوبه من لون دم أو رائحة فرث أو غير ذلك من الأوشاب - والسائغ، سهل المرور في الحلق - ساغ الشراب سوغا، أي: سهل مدخله ٧٢ - وجاء في الخبر: " ما شرب أحد لبنا فشرق، إن الله تعالى يقول: (لبنا خالصا سائغا للشاربين) وهذه آية عظيمة من آيات الله الكثيرة الدالة على أنه سبحانه حق، وأنه موجد كل شيء - إن هذه العملية العجيبة في تخليق اللبن وتحصيله من وسط الأحشاء، حيث الدم والروث والبول والدهن والأوشاب، ليجيء غذاء سهلا طيبا مستلذا، تستنفر الحس والذهن، وتقطع في يقين جازم على عظمة الخالق الصانع.

٦٧ - (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزق حسنا)، جاء في قوله: (ومن ثمرات النخيل) عدة أوجه، أظهرها: أنه متعلق بمحذوف، وتقديره: " ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب "، أي: نسقيكم من عصيرها - و (تتخذون)، بيان وكشف عن كيفية الإسقاء - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ومن ثمرات النخيل ما تتخذون ٧٣ - والسكر، بفتحتين، وفي معناه أقوال، منها: " أنه اسم للخل، وهو قول ابن عباس - ومنها: أنه اسم للعصير مادام حلوا، فكأنه سمي بذلك لما يؤول إليه لو ترك - ومنها: أنه اسم للطعم - ومنها: أنه من أسماء الخمر - وهو قول الجمهور من أهل العلم - وقال به ابن مسعود وابن عمر وابن جبير وأبو ثور والحسن وابن أبي ليلى وآخرون - وهذه الآية مكية، وقد نزلت قبل تحريم الخمر، ثم حرمت بالمدينة، فهي بذلك منسوخة، أي أن الخمر كانت لدى نزول هذه الآية بمكة حلالا يشربها كل الناس - وإنما كان تحريمها في المدينة بغير خلاف - وقد حرمها قوله: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)، فالآية الأولى منسوخة بهذه.

وإلى عدم النسخ ذهب الإمام أبو حنيفة وأصحابه - ووجه قولهم: أن المراد بالسكر ما لا يسكر من الأنبذة - واستدلوا على ذلك بأن الله قد امتنّ على عباده بما خلق لهم من ذلك - ولا يقع الامتنان إلا بالحلال، وذلك يدل على جواز شرب ما دون السكر من النبيذ - فإذا انتهى إلى السكر صار حراما - وعضدوا هذا القول من السنة بما رواه الدارقطني عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " حرم الله تعالى الخمر بعينها، القليل منها والكثير، والسكر من كل شراب " ويستفاد من ذلك: أنه يحل شرب النبيذ ما لم يصل إلى الإسكار

- وذهب إلى ذلك أيضا إبراهيم النخعي والطحاوي وسفيان الثوري.
والصواب أن هذه الآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر؛ فهي دالة على كراهيتها وليس إباحتها، ووجه الدلالة على الكراهية بأن الخمر في هذه الآية وقع ذكرها في مقابلة الحسن، وهذا يقتضي قبحها - والقبيح لا يخلو عن الكراهة وإن خلا عن الحرمة - قال صاحب الكشاف بعد أن فسر السكر بما ذكره: وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة - والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة - وقال: إن القول بكونها منسوخة أولى الأقاويل - ثم قال: وفي الآية دليل على قبح تناولها تعريضا من تقييد المقابل بالحسن - وهذا وجه من ذهب إلى أنه جمع بين العتاب والمنة - وعلى الأول (العتاب) يكون إشارة إلى السكر وإن كان مباحا؛ فهو مما يحسن اجتنابه ٧٤.
قوله: (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون)، أي: فيما تبين من حقائق لهو دلائل ظاهرة يتدبرها أولو الأبصار والاعتبار.
٦٨ - (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)
قوله: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)} (وأوحى)، من الوحي: وهو الإلهام؛ فقد ألهم الله النحل وعلمه بوجه لا يعلمه إلا هو سبحانه - وبذلك يصدر منها أفعال مثيرة، وفي غاية الجمال والعجب؛ كأن يكون منها رئيس يأتمرون جميعا بأوامره، وهم جميعا في خدمته - وكذلك بناؤها البيوت المشكلة بأشكال مختلفة، كالمسدسات والمخمسات والمربعات والمثلثات، وغير ذلك من الأشكال مما لا يمكن للعقلاء أن يفعلوا مثله إلا بآلات هندسية.
قوله: (أن اتخذي من الجبال بيوتا)، (أنِ)، تفسيرية - وقيل: مصدرية، أي: باتخاذ ٧٥ - والمعنى: أن الله ألهم النحل بأن تتخذ من الجبال أوكارا تأوي إليها، (ومن الشجر ومما يعرشون)، أي: مما يعرشه الناس: وهو ما يرفعونه من الكروم أو السقوف.
٦٩ - (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
قوله: (ثم كلي من كل الثمرات) (ثم)، تفيد التراخي بين اتخاذ البيوت، والأكل الذي تدخر منه العسل - والثمرات جمع الثمرة، وهي الشجرة ٧٦؛ أي: كلي مما في الأشجار من أوراق وأزهار وثمار.
قوله: (فاسلكي سبل ربك ذللا)، الفاء للعطف؛ أي: إذا أكلت فاسلكي سبل ربك، وهي: الطرق أو المسالك في العود إلى بيوتها، (ذللا)، جمع ذلول - منصوب على الحال من السبل؛ أي: ذللها الله وسهلها لها.
قوله: (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه)، ذلك من عجيب صنع الله، أن صنع من الشجر والزهور والثمر في أحشاء النحل عسلا، يخرج من (بطونها)، يعني: أفواهها، وهو قول أكثر المفسرين - وقيل: يخرج العسل من أدبارها.
وكيفما يكون الإخراج، أو من حيثما كان؛ فإن غاية العجب تكمن في ماهية صنع ذلك في جوف النحل ليصير عسلا، وهو الشراب الشهي المستطاب، وهذه الظاهرة العجيبة لا تحصل في غير النحل من الأحياء - لاجرم أن ذلك، هو: دليل ظاهر بالغ على عظيم قدرة الله.
على أن العسل مختلف الألوان بالبياض والصفرة والحمرة والسواد، وسبب ذلك: اختلاف طباع النحل، واختلاف المراعي - وقيل: الأبيض تلقيه شباب النحل، والأصفر تلقيه كهولها، والأحمر تلقيه مسنها، وذلك بحسب أسنان النحل.
وقيل: إن ذلك لمحض إرادة الصانع الحكيم جل جلاله.
قوله: (فيه شفاء للناس)، الضمير في قوله: (فيه)، يعود إلى العسل، وهو شفاء من جملة الأشفية والأدوية النافعة، و (شفاء) نكرة، للتعظيم؛ أي: فيه شفاء، أي: شفاء، أو لدلالته على مطلق الشفاء؛ أي: فيه بعض الشفاء، وليس كله - وليس المراد بالناس هنا العموم؛ فإن كثيرا من الأمراض لا يدخل في دوائها العسل، وإنما المراد بالناس الذين ينجع العسل في أمراضهم.
قوله: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)، فيما تبين من ذكر النحل: من حيث ثواؤه في بيوت يصنعها على أشكال مختلفة عجيبة، ومن حيث غذاؤه من أوراق الشجر وأزهاره، وما يعقب ذلك من صنع العسل، هذا الشراب الذي يستشفي به كثير من الناس، وذلك

بطريقة يعلم ماهيتها الله، والراسخون في العلم- إن ذلك كله (لآية لقوم يتفكرون)، أي: دليل ظاهر وبرهان ساطع يتدبره أولوا الأبصار والنهى، فيستيقنون أن الله حق، وأنه على مل شيء قدير ٧٧.

٧٠ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير (٧٠)}، بهذه الآية القصيرة في كلماتها المؤثرة المعدودة يبين الله حال الإنسان بدءا بنشأته، وانتهاءً بموته ورحيله إلى الدار الآخرة، وما بين البداية والنهاية من مختلف المراحل المتطورة من حال إلى حال - فأول ذلك الاجتنان في الأرحام - ثم الرضاع في مطلع الحياة للإنسان، ثم الفتوة والمراهقة، ثم الشباب واكتمال القوة في الأجساد، ثم الاكتهال والشيخوخة، ثم الهرم والسن الطاعنة والازدلاف من الموت - وذلك كله في قوله تعالى: (والله خلقكم ثم يتوفاكم)، وما بين الخلق والوفاة تتفاوت الأعمار والآجال والأقدار بين الناس؛ فمنهم من يتوفاه الله صغيرا، ومنهم من يتوفاه شابا، ومنهم من يمتد به العمر إلى أخسه - وفي ذلك يقول سبحانه: (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)، أي: آخر العمر الذي تفسد فيه الحواس، ويضعف العقل، ويأتي عليه الخرف والخلل - وكذا البدن بمختلف أعضائه وأجزائه يصيبه الضعف والتلف والهرم مما ينذر بدنو الأجل.

قوله: (لكي لا يعلم بعد علم شيئا)، اللام في (لكي لا): لام التعليل، وكي مصدرية، وهي ناصبة للفعل بعدها - والمصدر المؤول من كي والفعل مجرور باللام، وقيل: اللام لام كي، وكي للتأكيد - وفي هذا نظر - وثمة وجه على أن اللام لام الصيرورة والعاقبة - و (شيئا)، منصوب المصدر (علم)، وقيل: منصوب بالفعل (يعلم) ٧٨؛ أي: يؤول أمره من حال العلم بالأشياء إلى أن لا يعلم شيئا - والمراد بذلك: قلة علمه وشدة نسيانه، فإذا علم شيئا لم يلبث أن ينساه سريعا.

قوله: (إن الله عليم قدير)، الله يعلم كل شيء مما يجري أو يدور في الكون من أشياء وحوادث - ومن جملة ذلك: الخلق والإماتة، سواء في الصغر أو الشباب أو الكبر، أو الرد إلى أخسّ العمر حيث الهرم والخرف والتلف والاهتراء، ثم إماتة الصغير قبل الكبير، أو العظيم قبل الحقير، أو العالم قبل الجاهل، أو المؤمن التقي قبل الفاسق الموغل في العصيان؛ فكل ذلك بعلم الله وحكمته البالغة التي لا نعلم منها إلا ما علمنا إياه - وهو كذلك قدير على الخلق والتغيير والتحويل من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، لا معقب لحكمه وتقديره ٧٩.

٧١ - (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

قوله تعالى: {والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون (٧١)} ذلك توبيخ للمشركين وتقريع؛ لاتخاذهم مع الله آلهة من المخلوقات - والمعنى: أنتم أيها المشركون لا ترضون بشركة مماليككم في شيء من أموالكم وهم أمثالكم في البشرية والمخلوقية لله، فكيف بكم تشركون بالله في الألوهية والمعبودية بعض مخلوقاته؟! وبعبارة أخرى: فأنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف ترضون لله أن يساويه عبيده في الإلهية والمعبودية والتعظيم؟! وعلى هذا قوله: (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء)، أي: جعلكم الله متفاوتين في الرزق مما أعطاكم؛ إذ جعلكم أكثر رزقا من مماليككم الذين ربما كانوا أعظم منكم في العلم والورع - لكن الذين فضلهم الله في هذا الرزق، وهم الملاك، غير رادين ما أعطاهم من الرزق على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية ليكونوا جميعا فيه (سواء)، أي: متساوين لا تفاضل بينهم - فما دمتم لا ترضون لعبيدكم أن يكونوا شركاءكم فيما تملكون، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شركاء من عبيده؟! وقوله: (فهم فيه سواء)، هذه الجملة اسمية، في موضع نصب؛ لأنها وقعت جوابا للنفي، وقامت هذه الجملة الاسمية مقام جملة فعلية - وتقديره: فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا ٨٠، وهذا مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء، فقال لهم: أنتم لا تُسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم،

فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟! ٨١.

قوله: (أفبنعمة الله يجحدون)، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء للعطف على مقدر، وذلك استفهام عن جحود هؤلاء المشركين نعمة ربهم، استفهام توبيخ وإنكار؛ فقد تفضل الله عليهم بالنعم الكثيرة التي لا تحصى، لكنهم جحدوا ذلك كله، وعبدوا معه آلهة مزعومة أخرى ٨٢.

٧٢ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

قوله تعالى: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون (٧٢)} يمتن الله على عباده بهذه المنة العظمى، وهي منة الأزواج والأولاد والحفدة - فقال عز وعلا: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)، أي: خلق لكم من جنسكم ونوعكم أزواجا، ولو جعل الأزواج من جنس أو نوع آخر، لما حصلت المودة والرحمة بين الجنسين - فمن فضل الله ورحمته بالعباد أن خلق من بني آدم كلا الصنفين: الذكور والإناث؛ لتكون الإناث أزواجا للذكور، فيتم الائتلاف والانسجام، وتتحقق المودة والرحمة بينهم - ويستدل بهذا على عدم صحة الزواج من الجن - وقيل: المراد بذلك خلق حواء من نفس آدم - وفيه نظر.

قوله: (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة)، أي: جعل الله لكل واحد منكم من زوجه لا من زوج غيره (بنين): جمع ابن - وذلك عن طريق التوالد.

قوله: (وحفدة)، معطوف على (بنين)، لكونه من الأزواج - وفُسر بأنه أولاد الأولاد - وقيل: إنه من عطف الصفات لشيء واحد؛ أي: جعل لكم بنين خدما - والحفدة: الخدم - والحفدة: جمع حافد، كخادم وخدم - وهو من قولهم: حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا؛ أي: أسرع في الطاعة - وفي الحديث: " وإليك نسعى ونحفد "، أي: نسرع في طاعتك - وحفد، أي: خف في العمل وأسرع - والحفد، بالسكون معناه: المشي دون الخبب - وسيف محتفد، أي: سريع القطع - وأحفده، حمله على الإسراع - ورجل محفود، أي مخدوم ٨٣.

قوله: (ورزقكم من الطيبات)، (من)؛ للتبعيض، أي: رزقكم بعض الطيبات في هذه الدنيا وليس كلها؛ لأن كل الطيبات إنما يكون في الجنة - والمراد بالطيبات المستلذات - وهو عام في كل الخيرات من الثمرات والزروع والحيوان بأنواعه، وكذا الأشربة بأصنافها - كل ذلك من الطيبات التي تفضل الله بها على عباده.

قوله: (أفبالباطل يؤمنون)، الاستفهام؛ للإنكار والتوبيخ - والباطل: هو ما يعتقدونه من جدوى الأصنام وبركتها وشفاعتها - أو الشيطان؛ إذ يسوّل لهم التلبس بالشرك وفعل الحرام، مما لم ينزل الله به سلطانا، كتحريم البحائر والسوائب وغير ذلك من نعم الله؛ فهم إنما يؤمنون بذلك الباطل.

قوله: (وبنعمة الله هم يكفرون)، نعمة الله هي الإسلام، بما حواه هذا الدين العظيم من عقيدة وشريعة وأحكام تتناول كل مشكلات الحياة البشرية، وفي ذلك من هداية البشر وإرشادهم ما يفضي إلى السلامة والنجاة في الدارين - لكن المشركين الضالين السادرين في الغي والباطل يجحدون ذلك وينكرونه أشد إنكار؛ لسقم عقولهم وضلال تفكيرهم - وقيل: نعمة الله: ما منّ الله به على العباد من وجوه الخيرات والمنافع الدنيوية التي لا تحصى ٨٤.

٧٣ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

قوله تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون (٧٣) فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون (٧٤)}، ذلك تبيين لقوله: (أفبالباطل يؤمنون) - وقيل: معطوف على قوله: (يكفرون)، وهو داخل تحت الإنكار التوبيخي - والمعنى: أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا)، أي: يعبدون من الآلهة المصطنعة المزيفة ما لا يقدر أن يرزقهم أيما رزق، لا من السماوات حيث المطر الغيث، ولا من الأرض حيث النبات

والزرع، (شيئا) منصوب على المفعولية لاسم المصدر ٨٥ (رزقا)، واسم المصدر يعمل عمل المصدر - وقيل: بدل من قوله: (رزقا)، أي: أنهم يعبدون من دون الله من الآلهة المزعومة المزيفة ما لا يملك لهم أن يرزق من السماوات والأرض شيئا.

قوله: (ولا يستطيعون)، الضمير عائد على الآلهة المصطنعة، فإنها لا تملك الرزق ولا يمكنها أن تملكه.

٧٤ - (فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قوله: (فلا تضربوا لله الأمثال)، (الأمثال): جمع مثل، وهو الند، أو الشريك أو النظير، أي: لا تجعلوا لله شركاء أو أندادا أو أشباها، فإنه ليس لله شريك ولا نديد ولا شبيه.

قوله: (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)، الله يعلم فظاعة ما أنتم متلبسون به من الإشراك وتشبيهه بالخلق، (وأنتم لا تعلمون)، لا تعلمون فظاعة فعلكم الشنيع، وهو الإشراك، وفظاعة ما أعده لكم في مقابل ذلك من شديد العقاب ٨٦.

٧٥ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٧٥)}، (عبدا)، بدل من قوله: (مثلا)، بعد أن بين الله ضلال المشركين في إشراكهم بالله غيره ممن لا يملك نفعا ولا ضرا لنفسه ولا لعابده، ضرب الله هذا المثل في اثنين:

أحدهما: عبد مملوك عاجز عن التصرف، فلا يقدر أن يفعل شيئا لعجزه وعبوديته.

وثانيهما: حر غني قادر على التصرف في ماله، فينفق منه سرا وعلانية - لا جرم أن الرجلين لا يستويان عندكم مع أنهما من جنس واحد، وهي الإنسانية - فكيف إذن تشركون وتسوّون بالله- وهو الخالق القادر-، من هو مخلوق من المخاليق كالأصنام والأوثان؟!.

قوله: (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) (الحمد)، معناه الشكر والثناء ٨٧ - فالله سبحانه هو المستحق لكامل الثناء والشكر دون غيره من الخلائق والعباد مما يعبد الناس وممن يجزلون لهم الإطراء والثناء - واستحقاق الله وحده لكامل الحمد والشكر، حقيقة لا يعلمها أكثر الناس، لأنهم غافلون، سادرون في الضلالة تائهون خلف الأهواء والشهوات، بعيدون عن منهج الله كل البعد.

٧٦ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله تعالى: {وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم (٧٦)} هذا مثل ثان ضربه الله زيادة في البيان - ويتجلى المثل في رجلين - أحدهما: أبكم، وهو الأخرس الأصم بالخلقة في الأصل، فهو بذلك لا يفهم لعدم سمعه، ولا يستطيع أن يُفهم غيره لكونه غير ناطق، وهو كذلك (لا يقدر على شيء)، لا يقدر على التصرف، أو أن يفعل شيئا لعجزه وسوء فهمه وانعدام إدراكه - (وهو كل على مولاه)، الكل: أي: الثقيل لا خير فيه - والجمع كلول، سمي بذلك لثقله على كاهل مولاه الذي يلي أمره ٨٨، فهو بذلك ثقيل على مولاه - وهو من يعوله ويلي أمره - (أينما يوجهه لا يأت بخير)، أي: حيثما يرسله مولاه أو يصرفه في مطلب من المطالب أو حاجة من الحاجات لم ينفع ولم يفلح.

أما الثاني: فهو مِنْطيق سليم الحواس، ذو رأي ورشد ينفع الناس، ويؤدي لهم حاجاتهم ومهماتهم، ويأمرهم بالعدل والخير - (وهو على صراط مستقيم)، أي: هو في نفسه على سيرة صالحة ودين قويم - لا جرم أن الاثنين لا يستويان ٨٩.

٧٧ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير (٧٧)} ذلك إخبار من الله عن استئثاره بعلم الغيب - وهو غيب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن - فما من خبر ولا أمر ولا همس ولا نبس

إلا هو به عليم - وهو سبحانه بجلاله وعظيم قدرته وسلطانه قادر على: الإتيان بالساعة، وبعث الناس من قبورهم إلى الحشر، بجلاله وعظيم قدرته وسلطانه قادر على الإتيان بالساعة وبعث الناس من قبورهم إلى الحشر، وذلك كله في طرفة عين أو أقرب - (إن الله على كل شيء قدير)، الله عليم بالغيب المستور - وهو المقتدر على الإتيان بالساعة - لا جرم أن هاتين صفتان كبريان لا يتأتى شيء منهما لأحد غير الله - ومن كان موصوفا بهاتين الصفتين العظيمتين وغيرهما من الصفات الكبريات فإنه: (على كل شيء قدير)، قادر أن يفعل ما يشاء، لا يمنع من ذلك مانع، ولا يحول دون فعله حائل.

٧٨ - (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨) ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٧٩)}، يمنّ الله على عباده أن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا؛ فهم مخلوقون من غير إدراك ولا وعي ولا حس، فما من مولود يأتي إلى هذه الدنيا، إلا وهو إذ يجاء به لا يعلم شيئا، وذلك لبساطة خلقته وبالغ ضعفه؛ إذ ذاك - لكن الله قد تفضل عليه، فرزقه رويدا رويدا حواسه الأساسية، وهي السمع والأبصار والأفئدة؛ ليصير بذلك ذا وعي وفهم وإدراك فقال: (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)، أفرد السمع على أنه في الأرض مصدر؛ فقد جعل الله هذه الأشياء آلات ووسائل أساسية؛ ليتحصل بها الإنسان العلم والمعرفة والإدراك - والمعنى: أن الله جعل لكم السمع لتسمعوا به ما يجري من مسموعات وأحداث - ومن أعظم ما تسمعون لهي آيات الكتاب الحكيم وما حوته من عجائب المعاني والمشاهد والمواعظ والأخبار - وكذلك جعل الأبصار لتبصروا بها عجائب ما خلق الله في هذا الكون مما حوته الأرض والسماء - وكذلك جعل الله الأفئدة: وهي العقول، أداة التدبر والتفكر، ووسيلة الفهم والاستبصار؛ لتستدلوا بذلك كله على وحدانية الله، وأنه الخالق الموجد البديع - (لعلكم تشكرون)، أي: خلق الله فيكم هذه المركبات طورا عقب طور؛ لتستيقنوا مبلغ فضل الله عليكم فتشكروه.

٧٩ - (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله)، الاستفهام للتنبيه - وذلك تنبيه من الله للناس والغافلين إلى ظاهرة الطيران في جو السماء، وهو: الهواء المتباعد من الأرض في سمت ٩٠ العلو - وظاهرة الطيران تثير الانتباه، وتوجب إطالة النظر حقا - وهي واحدة من الظواهر الكاثرة المبثوثة في هذه الطبيعة، مما يدل على بديع صنع الخالق القادر - وهذا هو قوله سبحانه: (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء)، أفلا يتدبر الناس ويتفكرون في الطير على اختلاف أنواعهن وأجناسهن، وعجيب أشكالهن وألوانهن، وهن يجبن عنان السماء طائرات مرفرفات محلقات - لا جرم أن الطير برفيفهن السابح في أجواز السماء (مسخرات)، أي: مذللات للطيران بما أوتين من أسباب خلقية وقدرات ذاتية، كل ذلك يزجي بالدليل الساطع على عظمة الصانع.

قوله: (ما يمسكهن إلا الله)، أي: جعل الله فيهن خاصية الطيران؛ فهن في قبضهن وبسطهن أجنحتهن: سابحات في الهواء، لا يمنعهن من السقوط إلا الله.

قال الرازي في ذلك: المعنى: أن جسد الطير جسم ثقيل، والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاّقة فوقه، فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى.

قوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)، فيما تقدم من ظاهرة الطيران، وما بث الله في الطير من خصوصية عجيبة ليطير في جو السماء سابحا، لهو دليل ظاهر أبلج على أن الله حق - وذلك (لقوم يؤمنون)، فقد خص المؤمنين بهذه الدلائل؛ لأنهم هم المنتفعون بها - وذلك بما أوتوه من استقامة الطبع والفطرة وسلامة النفس من أمراض الشك والتردد والاغترار والاستكبار ٩١.

٨٠ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

قوله تعالى: {والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين (٨٠) والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (٨١) فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين (٨٢) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (٨٣)} يعدد الله نعمه على عباده وهي نعم كثيرة وجليلة لا تحصى قد امتن الله بها على الناس ليعيشوا آمنين مطمئنين - فقال: (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا)، البيوت للناس سكن لهم؛ إذ يأوون إليها ويستترون بها، وتمسك فيها جوارحهم عن الحركة والنصب، وتهدأ فيها نفوسهم وأعصابهم، فتجد فيها الراحة والأمن والاستقرار.

قوله: (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا)، أي: تتخذون من الأدم المستفاد من جلود الأنعام بيوتا كالخيام والقباب والفساطيط.

قوله: (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)، (ظعنكم)، من الظعن، وهو: الارتحال - ويقال للمرأة: ظعينة - ويقال: الظعينة بمعنى الهودج، سواء كان فيه امرأة أم لا - والجمع ظعائن وظعن، بضمتين ٩٢ - وهذا النوع من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى آخر، في خفة وسرعة ويسر ودون عناء وجهد كبيرين سواء في الترحل أو الحل - وهو قوله: (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)، أي: يخف عليكم حمل هذه البيوت في سفركم منتجعين تطلبون الكلأ والماء، ومتحولين من مكان إلى مكان - وكذلك: (ويوم إقامتكم)، أي: يوم قراركم في منازلكم - والمراد: أن هذه البيوت خفيفة عليكم في أوقات الحضر مثل خفتها في أوقات السفر.

قوله: (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين)، الضمير عائد إلى الأنعام - والأصواف للضأن - والأوبار للإبل، والأشعار للمعز؛ فقد جعل الله لعباده من الأصواف والأوبار والأشعار (أثاثا ومتاعا)، الأثاث: متاع البيت من الفرش والبسط والأكسية والثياب ونحو ذلك مما يُتمتع به - والمتاع: الزينة، أو ما يتمتعون به، (إلى حين)، أي: حين البلا - وقيل: إلى حين الموت.

٨١ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

قوله: (والله جعل لكم مما خلق ظلالا)، الظلال، جمع ظل: وهو كل ما يستظل به من شجرة ونحوها - وقد يستظل كذلك بالغمام أو السحاب ٩٣.

والظل الرخي الرطيب بفيئة الوارف المرغوب يحتاجه المسافرون والراحلون من مكان إلى آخر في ساعات الهجير حيث استعار الشمس والحرور، فيدركون عندئذ أن الظل نعمة أيما نعمة - على أن خلق الظل في ذاته لا جرم دليل على قدرة الصانع، الذي أوجد في مركبات الطبيعة خواصها، فجعل فيها الحرارة والبرودة والظل الظليل.

قوله: (وجعل لكم من الجبال أكنانا)، الأكنان، والأكنة، جمع ومفرده كنان بالكسر - وهو وقاء كل شيء وستره - واستكن، استتر - كن الشيء، أي: ستره وصانه من الشمس - وأكنه في نفسه؛ أي: أسرّه - والكن بالضم، بمعنى: الستر - والأكنة: الأغطية ٩٤ - والله يمن على عباده أن جعل لهم من الجبال أماكن يسكنون بها ويستترون، وذلك كالغيران والكهوف والبيوت المنحوتة - جعلها الله عدة للناس عند الحاجة، فيأوون إليها ويتحصنون بها من الرياح والمطر والحر، ويعتزلون بداخلها عن الناس - وها هو رسول رب العالمين، سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قد أوى إلى كهف في حراء للتحنث ٩٥، ثم من بعده في ثور في طريقه مهاجرا إلى مكة.

قوله: (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر)، السرابيل، جمع ومفرده السربال، وهو القميص المتخذ من القطن أو الكتان أو الصوف - وقد اكتفى بذكر الحر في الآية؛ لأن العلم بأحد الضدين وهو الحر، يستلزم العلم بالضد الآخر وهو البرد.

قوله: (وسرابيل تقيكم بأسكم)، البأس معناه الشدة - والمراد بها ههنا: شدة الطعن والضرب والرمي - والسرابيل التي تدرأ أذى المعتدين عمن يلبسها، يراد بها: الدروع من الحديد - وهذا يدل على اتخاذ العدة للجهاد للاستعانة بها على قتال الأعداء - ولا مساغ للمسلم أن يستسلم للهوان والطعن والضرب من غير أن يحتاط لنفسه تمام الحيطة، وأن يتخذ لذلك عدته من لبس لأمة ٩٦ الحرب.

قوله: (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون)، الكاف في اسم الإشارة، صفة لمصدر محذوف؛ أي مثل ذلك الإتمام يتم الله نعمته

عليكم - فمثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم؛ فإنه يتم عليكم نعمة الدنيا والدين، (لعلكم تسلمون) بضم التاء، وهو قول أكثر المفسرين، أي: تخلصون لله الربوبية، وتستسلمون لأمره، وتبادرون لطاعته شكرا لنعمه عليكم.

٨٢ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

قوله: {فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين}، إن أعرضوا عن دعوة الله بعد ما تبين لهم أنها الحق، وأبوا إلا اللجوج في الشرك، ومتابعة الآباء والأجداد في كفرهم وعصيانهم ونكولهم عن عقيدة التوحيد، وبعد الذي بيناه لهم من الدلائل والبراهين، فما عليك بعد ذلك من بأس - إن عليك إلا التبليغ، وعلى الله الحساب.

٨٣ - (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)

قوله: (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها)، اختلف المفسرون في المراد بنعمة الله - فقد قيل: جميع ما ذكر الله في الآيات المتقدمة من أنواع النعم؛ فهم يعرفونها ويقرون بجزيل منافعها، وهم مع ذلك ينكرونها؛ إذ يقولون: إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم - وقيل: يعرفون نعمة الله بتمتعهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها - وقيل: يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم - وقيل: يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم.

قوله: (وأكثرهم الكافرون)، عبّر بالأكثر عن الكل؛ فكلهم جاحدون لنعم الله، أو كافرون به - وقيل: أراد بالأكثر العقلاء، وهم المكلفون دون الأطفال والمجانين ٩٧.

٨٤ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

قوله تعالى: {ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون (٨٤) وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون (٨٥) وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون (٨٦) وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٨٧) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٨٨)} بعد أن ذكر نعمه الكثيرة على العباد، شرع سبحانه في التهديد بأحداث يوم القيامة وما يقع فيها من نوازل وبلايا جسام يزدجر بها كل ذي قلب سليم وفطرة كريمة مستقيمة - أما التائهون الجاحدون من أولي القلوب الغُلْف والطبائع البُور؛ فإنهم سادرون في الغي والعمى فلا يعتبرون ولا يرشدون.

وفي هذه المعاني الربانية الحافلة بالوعيد المرعب يقول سبحانه: (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا)، يوم منصوب بفعل محذوف - وتقديره: واذكر يوم نبعث ٩٨ - المراد بالشهيد النبي؛ فإنه يوم القيامة يُجاء في كل أمة بنبيها ليشهد عليهم بالإنكار والجحود - والنبي في ذلك صدوق ومؤتمن لا يشهد إلا بالحق، فيشهد عليهم أنهم كانوا كافرون.

قوله: (ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون)، أي: لا يؤذن للكافرين يوم القيامة في الاعتذار والكلام أو الرجوع إلى الدنيا حيث التوبة والتكليف، بل إنهم جميعا ساكتون وجلون خزايا، (ولا هم يستعتبون)، الاستعتاب: طلب العتاب، أو العتب وهو الموجدة - والاسم العتبى - استعتبه فاعتبه؛ أي: استرضاه فأرضاه (ولا هم يستعتبون)، أي: لا يطلب منهم العتبى - ومعناه الطاعة أو الرجوع إلى ما يرضي الله ٩٩.

٨٥ - (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

قوله: {وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون}، إذا عاين المشركون النار ودخلوا فيها ذاقوا حرارة جهنم، الحرارة الدائمة اللاهبة التي لا تنطفئ ولا تخفف، (ولا هم ينظرون)، أي: ليسوا بممهلين؛ إذ لا إنظار حينئذ ولا إمهال، بل عذاب حارق واصب لا يخفف ولا يُفترّ ولا ينقطع.

٨٦ - (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله: (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك)، يؤتى يوم القيامة بالمعبودين من أصنام

وأوثان وطواغيت ومعهم أتباعهم الذين عبدوهم من دون الله، فيقول الأتباع لربهم: هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، عبدناهم من دونك - يقولون ذلك في ذلة ووجل يوم القيامة؛ ليكبكبوا بعد ذلك في النار؛ وإذ ذاك لا تغنيهم الآلهة المصطنعة من أصنام وأوثان وطواغيت على اختلاف أشكالها ومسمياتها، لا يغنيهم شيء من ذلك البتة - وليس بعد ذلك إلا السقوط في دركات الجحيم.

قوله: (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون)، ينطق الله حينئذ الأصنام والأوثان التي لا تنطق لتكذب عبدتها من المشركين؛ إذ يقولون: إنكم أيها المشركون لكاذبون ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا - وذلك زيادة في هوان المشركين يوم القيامة وافتضاحهم.

٨٧ - (وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: (وألقوا إلى الله يومئذ السلم)، أي: استسلم المشركون لحكم الله فيهم بالعذاب، وأقروا بالألوهية والربوبية، ولم تغن عنهم آلهتهم المصطنعة من الأصنام والطواغيت، بل تتبرأ منهم وتتخلى عنهم - (وضل عنهم ما كانوا يفترون)، أي: ذهب عنهم ما كان الشيطان يزينه لهم من اتخاذ الشركاء مع الله، وما كانوا يؤمّلون من شفاعتهم لهم.

٨٨ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

قوله: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون}، الكفر في ذاته فظيع وشنيع - وإذا ضُم على الكفر الصد عن سبيل الله، فذلكم أفظع وأشنع - والصد عن سبيله يتناول كل وجوه الفتنة والإضلال عن دعوة الله - سواء كان ذلك بالمال أو النساء أو تقلد المناصب، أو كان ذلك بالترهيب والتخويف، أو التلويح باستعمال القوة والتعذيب من أجل الصد عن دين الله، والحيلولة دون التشبث بالإسلام - وغير ذلك من مختلف الوسائل والأساليب التي برع فيها المجرمون والمتربصون وهم يصدون الناس عن عقيدة الإسلام وتعاليمه - لا جرم أن هذه بمفردها جريمة فظيعة نكراء تضاف إلى جريمة الكفر - وأولئك الصادون عن دين الله قد زادهم الله عذابا فوق العذاب من النار - وفي معنى هذه الزيادة قال ابن مسعود: عقارب لها أنياب كالنخل الطوال، وحيات أمثال البُخْت تأخذ بشفاههم إلى أقدامهم، فيستغيثون منها إلى النار فيقولون: النار النار - وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار - وقيل غير ذلك - (بما كانوا يفسدون)، أي: زادهم الله عذابا فوق العذاب بسبب عصيانهم، وبأمرهم غيرهم أن يعصوا الله ويجتنبوا دينه وشرعه ١٠٠.

٨٩ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

قوله: {ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٨٩)}، أي: واذكر يا محمد يوم نبعث في كل أمة من الأمم شهيدا عليهم من جنسهم، وهو نبيهم الذي أرسل إليهم ليشهد عليهم بالجحود والتكذيب، أو يشهد لهم بالإيمان والتصديق - (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء)، أي: جئنا بك يا محمد شاهدا على أمتك الذين أرسلت إليهم، بماذا أجابوك، وفي ذلك من التخويف والتحذير والتنذير ما لا يخفى.

قوله: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)، أي: نزلنا عليك القرآن بيانا لكل ما يحتاج إليه الناس من معرفة أمور دينهم ودنياهم من الحلال والحرام، أو الحق والباطل، أو الخير والشر - على أن القرآن فيه البيان لكثير من الأحكام والأخبار، وما بقي فهو مما يناط بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بيانه في سنته، وما كان غير ذلك من أحوال الشريعة كالقياس والإجماع، وأقوال الصحابة، فمرده جميعا إلى القرآن؛ فهو بذلك التبيان لكل شيء (هدى ورحمة)، فهو هداية لمن اتبعه من الضلال - فمن اتبع كتاب الله لا يضل ولا يغوى ولا يشقى - وهو كذلك رحمة لمن أيقن أنه حق فالتزم شرعه وأحكامه - (وبشرى للمسلمين)، القرآن بشرى من الله لكل من آمن به وصدقه واتبع هداه، بأنه له خير الجزاء في الآخرة.

٩٠ - (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون (٩٠)}.

روي عن عثمان بن مظعون أنه قال: لما نزلت هذه الآية، قرأتها على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فتعجب فقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فو الله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق.

وفي حديث: إن أبا طالب لما قيل له: إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)، قال: اتبعوا ابن أخي، فو الله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق - وقيل: قرأ النبي - صلى الله عليه وسلم - على الوليد بن المغيرة: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)، إلى آخر الآية - فقال: يا ابن أخي أعد! فأعاد عليه فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر!.

وقال عثمان بن مظعون: ما أسلمت ابتداء إلا حياء من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده، فاستقر الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي أعد، فأعدت فقال: والله إن له لحلاوة - - - ١٠١.

فهذه آية من الآيات التي يتدفق منها الإعجاز، وتفوح منها ريح الجمال والعذوبة، فضلا عن تزاحم المعاني ما بين أمر ونهي ووعظ وتعقيب - وذلك في غاية التماسك الوثيق، والترابط المحكم المتسق فيما بين الكلمة وما قبلها وما بعدها - وذلك هو الإعجاز؛ فالله تعالى يأمر في كتابه الحكيم بالعدل - وقيل: العدل معناه: أن تشهد أن لا إله إلا الله - أما الإحسان فمعناه: الصبر على طاعة الله فيما أمر ونهى، سواء في الشدة والرخاء، أو في المكره والمنشط، فتؤدى بذلك فرائضه.

وقيل: المراد بالعدل: القسط، وهو التسوية في الحقوق فيما بين الناس، وإيصال كل ذي حق إلى حقه بعيدا عن الجور والاعتساف، والحكم بالظلم والباطل - أما الإحسان، فهو التفضل وفعل كل مندوب إليه - وتلك هي شريعة العدل والفضل، وهما عنصران يكمل أحدهما الآخر، بما يميز شريعة الإسلام عن سائر الشرائع التي عرفتها البشرية، وذلك هو التوازن المطلق الذي يجتمع فيه العدل بتحصيل الحقوق، والفضل وهو العفو والتسامح في بر ومودة وسخاء - لاجرم أن ذلك خلق المسلمين الأفاضل الذين ترقى طبائعهم فوق حظوظ أنفسهم لتسمو إلى الدرجات من المعالي، فيكونون في عداد الأطهار الأبرار من الناس.

وتستبين صورة التوازن بين العدل والفضل في شريعة الإسلام بمثل قوله عز وعلا: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)، وقوله: (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله: (والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له)، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على شريعة العدل والفضل في هذا الدين الكامل.

قوله: (وإيتاء ذي القربى)، ذلك أمر من الله بإعطاء ذوي القرابة ما أوجب الله لهم من الحقوق والصلة.

قوله: (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي)، (الفحشاء)، يعني: الزنا، وما يشتد قبحه من الذنوب، وكل ما نهى الله عنه ١٠٢ - وأما (المنكر): فهو ما أنكره الشرع بالنهي عنه - فهو بذلك يعم سائر المعاصي والمناهي على اختلاف أنواعها - وأما (البغي)، فهو في الأصل بمعنى التعدي، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء ١٠٣، ومعناه ههنا: الكبر والظلم والعدوان على الناس - وفي الحديث: " ما من ذنب أجدر أن يُعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم ".

قوله: (يعظكم لعلكم تذكرون)، أي: يذكركم الله لتتعظوا بمواعظه، وتنيبوا إليه مخبتين مذعنين ١٠٤.

٩١ - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

قوله تعالى: {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون (٩١) ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون (٩٢)}، هذا أمر من الله للمؤمنين بالوفاء بالعهود والعقود والمواثيق والأيمان مما عقد باللسان أو خطه القلم - فما كان من ذلك فقد وجب التزامه دون نقض أو تفريط - فقال سبحانه: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)، والعهد، معناه في الأصل: الأمان واليمين، والموثق والذمة، والحفاظ والوصية ١٠٥.

فكل ذلك قد أوجب الإسلام الوفاء به تماما - وأيما تقصير في ذلك أو مماحلة أو تفريط، فليس إلا الخيانة والغدر - وهذا واحد من معاني الإسلام وقيمه العليا في ترسيخ مكارم الأخلاق؛ ليكون الناس بذلك أوفياء مؤتمنين حق الائتمان، فلا يخونون ولا يغشون ولا يخادعون مهما تكن الظروف.

فما يزيغ المسلم عن شيمة الوفاء بالعهد - فلا يخادع ولا ينقض الميثاق أو العهد الذي بينه وبين غيره من المؤمنين والكافرين - لا يزيغ - كما علمه الإسلام- عن قاعدة الإخلاص والصدق والوفاء، كما يزيغ غير المسلمين من الذين يبررون الوسائل كيفما كانت للوصول إلى غاياتهم ومقاصدهم؛ فهم بذلك يكذبون وينافقون ويخادعون ويتلصصون لبلوغ مآربهم وأهوائهم - فما تتاح لهم فرصة حتى يقلبوا لمواثيقهم وعهودهم ظهر المجن فينقضوها نقضا - أما المسلمون: فإنهم صادقون أوفياء ثابتون على عهودهم مع الناس؛ لأنهم توطنت أنفسهم على قيم الإسلام ومعانيه الفضلى في الوفاء والبر ونبذ المراوغة والكذب.

وقد قيل: نزلت هذه الآية في بيعة النبي - صلى الله عليه وسلم - على الإسلام - وقيل: نزلت في التزام الحِلْف الذي كان في الجاهلية، وجاء الإسلام بالوفاء به، فقد روي في الصحيح: " وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة " - والمراد بالشدة: ما كان في نصرة الحق ومواساة المكروبين - ونظير ذلك حلف الفضول؛ إذ اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه ونسبه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، أي: حلف الفضائل - وفيه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حُمْر النّعم، لو أدعى به في الإسلام لأجبت ".

على أن الحلف الذي كان في الجاهلية قد شدّه الإسلام وحضّ على الوفاء به، وخصه النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه أحمد عن جبير بن مطعم: " لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة - " وذلك يعني أنه لا يُحتاج في الإسلام إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه؛ فقد جاء الشرع بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه، ودفع المظالم عن المظلومين - وفي الصحيح: " انصر أخاك ظالما أو مظلوما - " قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: " تأخذ على يديه - " وفي رواية: " تمنعه من الظلم؛ فإن ذلك نصره - " وفي الخبر: " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ".

قوله: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)، (تنقضوا): من النقض وهو ضد الإبرام ١٠٦ - و (الأيمان): جمع يمين: وهو القسم، فقد كانوا يتماسحون بأيمانهم فيتحالفون - وجمعه أيضا أيمن؛ وايمُ الله وايمنُ الله؛ أي: ايمن الله قسمي ١٠٧ (توكيدها)، التوكيد مصدر وكد يؤكد، بالواو والتشديد ١٠٨.

والمعنى: لا تخالفوا ما تعاقدتم عليه الأيمان بعد توثيقها وتأكيدها - والمراد أيمان البيعة على الإسلام، أو مطلق الأيمان - (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)، في محل نصب على الحال من فاعل (تنقضوا)، أي: لا تبطلوا أيمانكم بعد ما جعلتم الله شاهدا ورقيبا على ما تعاقدتم عليه.

قوله: (إن الله يعلم ما تفعلون)، ذلك تحذير للمسلمين وتخويف من مغبة الغدر ونقض الأيمان بعد توثيقها؛ فإنه عز وعلا يعلم ما يفعلونه في أيمانهم ومواثيقهم من صدق أو كذب - ومن وفاء أو خيانة - وهو مُسائلهم عن كل ذلك ومجازيهم.

٩٢ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

قوله: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)، (أنكاثا)، حال من (غزلها)، وقيل: مفعول ثان للفعل (نقضت) أي صيرت غزلها أنقاضا - والأنكاث جمع نكث بكسر النون؛ أي: منكوث، بمعنى: منقوض ١٠٩؛ والمعنى: أن الله ينهى عباده المؤمنين عن نقض الأيمان بعد توكيدها - فنقضها حرام؛ لأنه غدر وخيانة وسوء في الخلق يتلبس به الناقضون للعهود والأيمان - والله جل وعلا

يحذر المؤمنين من نقض عهودهم وأيمانهم بعد إبرامها وتوثيقها، كيلا يكونوا في ذلك نظراء لامرأة ضالة حمقاء تنقض غزلها بعد إبرامه وإحكامه - ولا يجترئ على نكث العهد أو العقد أو اليمين إلا السفيه الأحمق.

وقيل: إن التي كانت تفعل ذلك امرأة حمقاء خرقاء معروفة بمكة، كانت تنقض غزلها عقب إبرامه، فكلما عقدته نكثته.

والصواب: أن الآية تفيد عموم التحذير والنهي عن نكث العهود والمواثيق - وإنما هذا مثل ضربه الله لناقض العهد أو اليمين؛ إذ شبهه بامرأة تنقض غزلها بعد إحكامه وتقويته، لغير مصلحة ولا جدوى إلا الحماقة والسفه.

قوله: (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم)، الجملة في محل نصب حال من: (أنكاثا)، (دخلا)، مفعول ثان لقوله: (تتخذون)، وقيل: مفعول لأجله - والدخل، بالتحريك، ما داخلك من فساد في عقل أو جسم، ويعني أيضا: الغدر والمكر والخديعة ١١٠ - والمراد: أنكم تجعلون أيمانكم التي حلفتم بها لمن عاقدتموهم من الناس (دخلا بينكم)، أي: خديعة وغرورا، لكي يطمئنوا إليكم، وأنتم تخفون لهم في أنفسكم الغدر وعدم الوفاء لهم بالعهد، والانتقال إلى قوم آخرين لكونهم أكثر عددا منهم - وهو قوله: (أن تكون أمة هي أربى من أمة)، أي: بسبب أن تكون، أو مخافة أن تكون جماعة أزيد عددا من جماعة، أو ناس أكثر من ناس - وقد قيل: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون غيرهم أكثر منهم مالا وأعز نفرا وأزيد عددا، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء لقوتهم وكثرتهم - وذلك خلق الأرذال والخائنين والخائرين من الناس الذين لا تمسكهم عقيدة ولا يشدهم عهد أو ميثاق، لكنهم سجيتهم الغدر والخداع ونقض العهود كلما سنحت الظروف ليجنحوا إلى حلفاء أقوياء جدد - أولئك هم الأرذلون المنافقون الذين يلهثون خلف الأهواء والمفاسد من خسائس الأغراض والمنافع - لكن المسلمين شيمتهم الثبات على العقيدة والمبدأ ودوام التلبس بخلق الإسلام في رعي العهود وصون الأيمان والمواثيق، والثبات على الحق والفضيلة في كل الأحوال والأزمات دون زيغ أو انحراف أو اضطراب مهما تكن الظروف من الشدة واحتدام البأس والكروب - وقوله: (تكون)، فعل تام، و (أمة)، فاعله - أو فعل ناقص، و (أمة)، اسمها - وخبرها (أربى) ١١١.

قوله: (إنما يبلوكم الله به)، الضمير في قوله: (به)، يعود على المصدر من (أن تكون)، والتقدير: إنما يبلوكم الله بكون أمة؛ أي: يختبركم الله بكونهم أربى منكم، لينظر أتصبرون على الثبات على الحق والوفاء بعهد الله وما وكدتم من الأيمان، أم أنكم تغترون بكثرة المشركين وقلة المسلمين وفقرهم، فتميلون إلى عدو الله وعدوكم وهم المشركون.

قوله: (وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون)، لسوف يبين الله للناس إذا جيء بهم يوم القيامة ما كانوا يختلفون فيه في الدنيا؛ إذ كان المؤمنون يقرون بوحدانية الله ويصدقون المرسلين وخاتمهم محمد بن عبد الله عليه وعليهم صلوات الله وسلامه، وكان المشركون والظالمون يجحدون الرسالات جميعا أو بعضها؛ فقد جحدت يهود بعض النبيين، من بينهم: محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام - وجحدت النصارى نبوة الرسول الأعظم خاتم النبيين والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - لكن المسلمون صدقوا النبيين أجمعين وأيقنوا أنهم جميعا على الحق وأنهم قد أوحي إليهم - وكذلك كان اختلاف الناس في الدنيا - ويوم القيامة يلاقون الجزاء ليجد كل فريق منهم سبيله إما إلى النعيم، وإما إلى الجحيم ١١٢.

٩٣ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون (٩٣)}، لو أراد الله أن يجعل الناس على ملة واحدة أو دين واحد، وهو الإسلام، لجعلهم، لكن الله يضل من علم منه اختيار الضلالة، ويهدي من علم منه اختيار الهداية - قوله: (ولتسألن عما كنتم تعملون)، ذلك تأكيد من الله على أنه سائل الناس جميعا يوم القيامة، فمحاسبهم على أعمالهم، ليجزي المؤمنين الطائعين حسن الجزاء، ويجزي الجاحدين والفاسقين والمسيئين العذاب.

٩٤ - (وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: {ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم (٩٤) ولا تشتروا بعهد لله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون (٩٥) ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون (٩٦)}، كرر النهي عن اتخاذ الأيمان من أجل الخديعة وعلى سبيل المكر، لفظاعة هذه الخطيئة وشدة نكرها، إذ تخفون في أنفسكم قصد الخيانة والغدر ونقض العهد مع الآخرين، (فتزل قدم بعد ثبوتها)، (فتزل): منصوب بإضمار أن على جواب النهي ١١٣، أي: فتضلوا وتزيغوا عن محجة الإسلام بعد ثبوتكم عليها - وقد وحّد القدم ونكرها كما قال الزمخشري: لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟!.

قوله: (وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله)، أي: يذيقكم الله العذاب الذي يعذب به العصاة في الدنيا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، (بما صددتم عن سبيل الله)، ما، مصدرية - وصددتم من الصدود، أي: بسبب صدودكم عن محجة الله وخروجكم عن دينه - أو من الصد، ومفعوله محذوف، أي: بسبب صدكم غيركم عن ملة الإسلام ١١٤، فهم بنقضهم أيمان البيعة على الإسلام وارتدادهم يفتنون الناس ويغرونهم بمجانبة الإسلام والصدود عنه.

قوله: (ولكم عذاب عظيم)، وهو عذاب النار يوم القيامة - ويستفاد من مفهوم هذه الآية أن المراد بذلك الذين بايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الإسلام ونهوا عن مفارقة الإسلام لقلة أهله وكثرة المشركين.

٩٥ - (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله: (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا)، أي: لا تنقضوا عهودكم وعقودكم التي عاقدتم عليها لتبتغوا بنقضها عرضا قليلا من أعراض الدنيا بسفاسفها الخسيسة، وحطامها الحقير الداثر، ولعاعاتها المهينة الفانية - لا جرم أن الدنيا بأموالها وزخارفها ومباهجها ومظاهرها وزينتها اللامعة ليست إلا المتاع القليل، وكفى دليلا على قلة الدنيا وهوانها أن المرء فيها ما يلبث أن يأتي عليه الردى والمنون ليمضي إلى ظلمة القبر راغما مقهورا.

قوله: (إنما عند الله هو خير لكم)، ما أعده الله لكم من حسن الجزاء وعظيم الثواب على الوفاء بما عاهدتم الله عليه لهو أنفع لكم وأدوم - فجزاء الأوفياء الصادقين الجنة، وهي نعيمها كريم ودائم لا ينقطع - (إن كنتم تعلمون)، أي: تعلمون البون الهائل الشاسع بين العوضين - العوض الذي أعده الله للأوفياء الصادقين الذين يرعون العهود والمواثيق - فجزاؤهم بذلك الرضوان من الله والجنة - والعوض المهين، أو الثمن القليل الذي يتلقاه الغادرون المخادعون في مقابلة نقضهم لما عاهدوا الله عليه وانحيازهم إلى صفوف المشركين الظالمين.

٩٦ - (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)، (ما عندكم)، مبتدأ، وخبره (ينفد) - والنفاد معناه الذهاب والفناء - ونفد، بالكسر، ينفد، بالفتح، نفادا ونفودا ١١٥ - وذلك إعلان رباني داو يثير الأذهان ويبعث على طول التدبر والاعتبار - وجملة ذلك: أن ما عندكم أيها الناس من مال وزخرف وزينة على اختلاف صورها وأشكالها وضروبها، فإنه داثر زائل - والأصل في ذلك أن هذه الدنيا بكليتها وبما حوته من أموال وخيرات تشتهيها الأنفس ليست إلا الحطام الذي سيفضي لا محالة إلى الفناء - لكن ما عند الله من جزاء أعده لعباده المؤمنين الصادقين الأوفياء لهو الدائم الباقي.

قوله: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)، أي: ليثيبن الله الذين صبروا على الفاقة وأذى الكافرين، وعلى طاعة ربهم والتزام شرعه وأحكامه يوم القيامة بجزاء أحسن من أعمالهم - أو بأحسن ما كانوا يعملون من الأعمال دون أسوئها ١١٦.

٩٧ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٧)}، ذلك إعلان كذلك يبين الله فيه للعالمين أن من يعمل من الناس- ذكرا أو أنثى-، عملا صالحا فيه الطاعة لله، (وهو مؤمن)، الجملة في موضع نصب على الحال ١١٧، أي: حال كونه مؤمنا بالله وكتبه ورسله وملائكته، مصدقا بقضاء الله وقدره واليوم الآخر - وهذا دليل أبلج على شرط القبول للأعمال، وهو الإيمان المستقيم الصحيح - وعلى هذا لا وزن ولا قيمة للعمل المقترن بالكفر أو النفاق أو الرياء، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان منها خالصا لله.

قوله: (فلنحيينه حياة طيبة)، لسوف يحيي الله المؤمن المخلص حياة طيبة - وقد اختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة - فقد قيل: الرزق الطيب الحلال، وقيل: السعادة - وقيل: الجنة - وقيل: القناعة - والصواب من ذلك: أن الله جل وعلا يمتن على عبادة العاملين المخلصين بفيض الإحساس بالرضى والبهجة والاطمئنان - وهكذا يكون المؤمن العامل المخلص، إذ يجد في نفسه من برْد الراحة والقناعة والطمأنينة، ما يجعله مستديم الشعور بالأمن والسكينة والحبور، سواء كان ذا يسار أو إعسار - وثمة حقيقة تضمنتها هذه الآية - وهي استواء الذكر والأنثى في تحصيل الحياة الطيبة، وحسن الجزاء من الله إذ تحقق شرط القبول للأعمال، وهو الإيمان الصحيح المستقيم - فأيما ذكر أو أنثى حسن عمله وهو مؤمن؛ فإنه في زمرة السعداء والفائزين في الدارين، بغض النظر في ذلك عن اعتبارات الذكورة والأنوثة، أو اختلاف الأجناس والألوان.

قوله: (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)، ذلك يوم القيامة، فهم إذا صاروا إلى ربهم جزاهم الله الأجر بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعة.

وقيل: إن هذه الآية نزلت بسبب قوم من أهل ملل شتى، تفاخروا فقال أهل كل ملة منها: نحن أفضل، فبيّن الله لهم أفضل أهل الملل - وقيل: جلس ناس من أهل الأوثان وأهل التوراة وأهل الإنجيل - فقال هؤلاء: نحن أفضل - وقال هؤلاء: نحن أفضل، فأنزل الله تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الآية ١١٨.

٩٨ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

قوله تعالى: }فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠٠){، يعني: إذا أردت أن تقرأ القرآن (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)، وهو المخلوق الجني المتمرد اللعين، المطرود من الرحمة ومن كل خير - والفاء للتعقيب - واستعذ، اطلب اللجوء، أو التجئ، من العوذ، وهو الالتجاء، كالعياذ والمعاذ والتعوذ والاستعاذة - ومعاذ الله؛ أي أعوذ بالله معاذا ١١٩.

ويستفاد من هذه الآية: الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن - وإنما الأمر للندب والاستحباب وليس للزوم - وهو قول الجمهور من أهل العلم؛ إذ قالوا: إن من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ، لم يكن مفرطا في فرض أو واجب.

٩٩ - (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

قوله: }إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون{، (سلطانا) في اللغة، بمعنى: حجة أو قدرة - والمراد به ههنا: التسلط والولاية؛ أي: ليس للشيطان تسلط أو اقتدار أو ولاية أو حجة على المؤمنين المتوكلين على ربهم؛ إذ يعتمدون عليه ويفوضون أمرهم إليه في كل الأحوال والأمور والملمات - فينجون بذلك من الوقوع في البلايا والموبقات.

والسبب في أنه ليس الشيطان حجة أو تسلط على المؤمنين المتوكلين، فلا يقدر أن يفتنهم أو يغويهم: هو الاستعاذة بالله من وسوسات الشيطان وإيحاءاته، وما يفضي إليه ذلك من إغراء وإغواء وفتنة.

والمؤمن المتوكل على الله يلجأ إلى ربه في كل الملمات والنائبات؛ بل في كل الأحوال والأمور؛ فيطلب منه العون والتثبيت، ويسأله السلامة والعافية وأن يدرأ عنه كيد الشيطان، ويصونه من وسوساته وإغراءاته.

١٠٠ - (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

قوله: (إنما سلطانه على الذين يتولونه)، أي: إنما حجته وتسلطه على الذين يعبدونه أو يطيعونه، ويتخذونه وليا ونصيرا، فيتبعونه في إغوائه، وفي وسوساته.

قوله: (والذين هم به مشركون)، الضمير في قوله: (به) يعود على ربهم؛ أي: إنما حجة الشيطان على الذين يتبعونه ويطيعونه، والذين هم بالله مشركون - وقيل: الضمير يعود على الشيطان؛ أي: والذين هم مشركون بسبب الشيطان ١٢٠.

١٠١ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: }وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون (١٠١) قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢)} هذه الآية في النسخ، وفيما تقوله المشركون الجاهلون في حقيقته، إذ قالوا: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مفتر على الله في جعل حكم بدل آخر - والنسخ في اللغة بمعنى الإزالة، والإبطال وإقامة الشيء مقام غيره ١٢١ - والنسخ في الاصطلاح: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر ١٢٢، وقد بينا في سورة البقرة حقيقة النسخ في شيء من التفصيل.

أما معنى الآية ههنا فهو: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى، (والله أعلم بما ينزل)، جملة اعتراضية بين الشرط وجوابه؛ أي الله أعلم بالذي هو أصلح لعباده فيما يبدل ويغير من الأحكام.

قوله: (قالوا إنما أنت مفتر)، جواب إذا - والقائلون هم المشركون الجاحدون يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - عقب نسخ حكم من الأحكام: (إنما أنت مفتر)، فقد نسبوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - الافتراء بأنواع من المبالغات، وهي: الحصر والخطاب، واسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ١٢٣؛ أي إنما أنت يا محمد متقوِّل تخرص باختلاق الكلام والأحكام من عندك، (بل أكثرهم لا يعلمون)، مفعول (يعلمون) محذوف؛ أي: بل أكثر هؤلاء القائلين إنك مفتر جهلة سفهاء، لا يعلمون الحكمة البالغة من نسخ الأحكام.

١٠٢ - (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

قوله: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)، (روح القدس): جبريل عليه السلام، وقد أضافه إلى القدس وهو الطهر؛ إظهارا لكرامته وطهره.

أي: قل لهؤلاء الجاحدين المكذبين يا محمد: إن هذا القرآن قد نزل به جبريل الأمين من عند الله (بالحق)، يعني: متلبسا بالحكمة والهداية والنور.

قوله: (ليثبت الذين آمنوا)، أي: نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه من ربك تثبيتا للمؤمنين على الإيمان والتصديق بأن هذا القرآن كلام الله، وأنهم إذا سمعوه أيقنوا أنه حق، (هدى وبشرى للمسلمين)، (هدى وبشرى)، معطوفان على محل (ليثبت)، فينصبان، أي: تثبيتا وهداية وبشارة ١٢٤؛ فهو هداية للمؤمنين من الضلال، (وبشرى للمسلمين) الذين استسلموا لأمر الله وأذعنوا له خاضعين طائعين ١٢٥.

١٠٣ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

قوله تعالى: }ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (١٠٣) إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم (١٠٤) إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون (١٠٥)}، زعم المشركون – سفها وغلوا في الجاهلية- أنه يعلم محمدا - صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن أحد الناس، فقد قيل: كان اسمه بلعام، وهو عبد نصراني، كان بمكة وكان أعجمي اللسان - وقيل: كان اسمه عائش، أو يعيش، وكان غلاما لحويطب، قد أسلم وحسن إسلامه - وقيل: اسمه جبر، وهو غلام رومي لعامل بن الحضرمي، زعم المشركون أنه يعلم النبي القرآن، ومثل هذا الزعم باطل وظالم وهراء - وهو تقول فاسد وسقيم لا يهرف به إلا جحود مفلس، أو ضال موغل في الجهالة والسفه - فكيف يتلقى النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن العربي المميز الفذ بكلامه وآياته وعباراته التي خلبت العقول والألباب، وبهرت الأذهان والنفوس، واستحوذت على نوابغ البيان واللسان أيما استحواذ، - كيف يتلقى النبي هذا الكلام العجيب من أعجمي جهول لا ينطق العربية إلا بتكلف؟!

وذلك هو قوله تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)، اللسان، معناه: اللغة، وهو مبتدأ، وخبره (أعجمي) - والأعجمي: من لم يتكلم بالعربية، وهو المنسوب إلى العجم - والأعجم: من في لسانه عجمة، عربيا كان أو غير عربي، أو هو من لا يفصح كالأعجمي والأخرس - والعجمي، من جنسه العجم وإن أفصح، وجمعه عجم - وقيل للبهيمة: عجماء: من حيث إنها لا تبين ١٢٦ - و (الذي يلحدون)، أي: يميلون إليه - لحد، وألحد، بمعنى: مال وعدل، وماري وجادل وظلم

١٢٧.
والمعنى: أن لغة الذي يميلون إليه بأنه يعلم محمدا القرآن، لسانه أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربي في غاية البيان والفصاحة - وبذلك فإن زعمهم هذا لا يستقيم ولا يساوي في ميزان الحقيقة والمنطق شيئا، ولا يدل على غير اليأس والإفلاس، وبالغ الجحود والسفه.
١٠٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
قوله: {إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم}، ذلك وعيد من الله غليظ للذين لا يصدقون بآيات الله وهو القرآن، ويجحدون أنه من كلام الله، وأنه ليس له في سمو البيان نظير - (لا يهديهم الله)، لا يوفقهم الله للحق أو الهداية، وسوف يردون يوم القيامة إلى العذاب الوجيع الأليم جزاء تكذيبهم وعنادهم وعتوهم.
١٠٥ - (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)
قوله: {إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون}، إنه لا يفترى الكذب ولا يتخرص الباطل إلا الذين لا يصدقون بآيات الله وحججه الساطعة - فأولئك هم الأفاكون الخراصون الدجاجلة، الذين يكذبون القرآن، وهو الكلام الباهر المعجز الحق الذي لا يأتيه أيما باطل من بين يديه ولا من خلفه - وهم مع ذلك كله يستنكفون عن التصديق بكتاب الله، وينفتلون عنه مدبرين مكابرين عتاة - أولئك هم أهل الفرية والتخريص والباطل - وأولئك هم الكذابون المضلون وهم يتيهون منتشرين في كل مكان وزمان، لا يبرحون الجحود والافتراء، والكيد للقرآن والمؤمنين به ١٢٨.
١٠٦ - (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)
قوله تعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم (١٠٦) ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين (١٠٧) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون (١٠٨) لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون (١٠٩)} - (من كفر بالله)، بدل من (الذين لا يؤمنون)، وما بينهما اعتراض - أو بدل من الإشارة: (أولئك)، أو من قوله: (الكاذبون)، أو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله: (فعليهم غضب)، وقيل: منصوب على الذم، وهو قول الزمخشري ١٢٩ - وروي في سبب نزول هذه الآية أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين وجيء بحربة في قُبُلها، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتلوا ياسرا، وهما أول قتيلين في الإسلام، أما عمار فأعطاهم بلسانه ما أرادوا مكرها - فقيل: يا رسول الله إن عمارا كفر فقال: " كلا، إن عمارا ملئ إيمانا من فوقه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه - " فأتى عمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح عينيه فقال:: مالك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " - وهو يدل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل اجتنابه؛ إعزازا لدين الله، وإظهارا للحق كما فعله أبواه ياسر وسمية؛ فقد روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله - قال: فماذا تقول فيّ؟ فقال: أنت أيضا، فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد - قال: رسول الله - قال: فما تقول فيّ قال: أنا أصم - فأعاد عليه ثلاثا، فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " أما الأول فقد أخذ برخصة الله - وأما الثاني فقد صدع بالحق، فهنيئا له " ١٣٠.
قوله: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)، أي: من كفر فتكلم بالكفر بلسانه، وقلبه مؤمن بالإيمان لينجو من بلاء خطير حل به؛ فلا حرج عليه في ذلك؛ لأن الله يؤاخذ العباد بما تعمدت قلوبهم، ويعفو لهم عن الظاهر المخالف لما يكنه القلب - لاجرم أن ذلك فضل من الله عظيم، ورحمة منه بالغة وواسعة يفيض بها على المكروبين والمقهورين والمكرهين، فينجون من المساءلة والحساب.
قوله: (ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) لكن - استدراك ١٣١؛ أي: من أتى الكفر مختارا

راغبا وقد طاب به نفسا، غير مكره ولا مستحسر، فأولئك عليهم من الله غضب، وهم صائرون يوم القيامة إلى العذاب العظيم وهي النار.

١٠٧ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

قوله: }ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين{ الإشارة، إلى ما ذكر من الغضب والعذاب، أي: حل بهؤلاء الجاحدين المكذبين من غضب الله ووجب لهم العذاب العظيم بسبب اختيارهم زينة الحياة الدنيا وحطامها الداثر على ما أعده الله للمؤمنين المتقين من نعيم مقيم في الآخرة، ولأن الله يجعل التوفيق للذين يجحدون آياته معاندين مستكبرين.

١٠٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

قولهم: (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم)، هؤلاء المشركون الذين بيّن الله صفتهم في هذه الآيات هم الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، أي: ختم عليها، فصاروا لا يعتبرون ولا يتدبرون ولا يسمعون المواعظ ولا يبصرون الحقائق والآيات، فكأنما هم غُلف وصُم وعُمي، (وأولئك هم الغافلون) الساهون عن الحق، اللاهون عن الاتعاظ والاعتبار، السادرون في الغيّ والضلال.

١٠٩ - (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله: }لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون{، هؤلاء الجاحدون الغافلون، صائرون يوم القيامة إلى الخسران لا محالة ١٣٢.

١١٠ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: }ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٠) يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١١١){ خبر (إن) قوله: (لغفور رحيم)، وقيل: الخبر هو نفس الجار والمجرور بعدها - كما تقول: إن زيدا لك، أي: هو لك لا عليك، بمعنى هو ناصرهم لا خاذلهم ١٣٣.

ومعنى الآية: إن ربك يا محمد للذين تركوا ديارهم ومساكنهم وعشيرتهم ورحلوا عن كل ذلك إلى ديار الإسلام وولاية المسلمين في المدينة من بعد ما فتنهم المشركون في مكة قبل هجرتهم، إذ عذبوهم وآذوهم وفتنوهم عن دينهم بقول اللسان لا بالقلب، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك وصبروا على جهادهم، وتبرأوا من مقالتهم، إذ نطقوا كلمة الكفر مكرهين، (إن ربك من بعدها لغفور رحيم)، لقد غفر الله لهم ما كان منهم من نطق للكفر باللسان دون القلب مكرهين وهم يضمرون في أعماقهم الإيمان، والله سبحانه رحيم بهم أيضا، إذ لا يعاقبهم على ذلك ولا يؤاخذهم به.

وقيل: نزلت الآية في قوم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا قد تخلفوا بمكة بعد هجرة النبي (ص،) فاشتد المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم فأيسوا من التوبة، فأنزل الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولحقوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وقيل: ناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة أن هاجروا فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم وكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية.

١١١ - (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله: (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) (يوم) منصوب برحيم، ولا يلزم من ذلك تقييد رحمته بالظرف، لأن الله يرحم في هذا اليوم وفي كل الأيام - وقيل: منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر ١٣٤ يوم تأتي كل نفس تخاصم عن نفسها وتحاجّ عنها، وتسعى جاهدة في خلاصها - وحينئذ لا يعبأ كل إنسان إلا بنفسه فلا يهمه غيره البتة، ولا يبرح حينئذ القول: نفسي نفسي (وتوفى كل نفس ما عملت)، أي: يوفى كل امرئ ما أسلف في دنياه من طاعة ومعصية، أو من خير وشر، فلا يجزي إلا ما يستحقه من الجزاء، (وهم لا يظلمون) لا يحيق بهم أيما ظلم، ولا يبخس المحسنون من أجورهم شيئا ١٣٥.

١١٢ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

قوله تعالى: {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢) ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون (١١٣)}، جعل الله من حال أهل مكة المشركين العتاة مثل لكل متعظ معتبر - فهذه مكة كان أهلها ينعمون بالأمن والطمأنينة، لما كانت العرب من حولهم في الأمصار والبوادي يقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا - لقد كان أهل مكة لا يعتدي عليهم أحد، ولا يحتاجون إلى النجع وهو الخروج طلبا للماء والكلأ كما يفعل غيرهم من العرب؛ فقد كان أهل مكة يأتيهم رزقهم (رغدا من كل مكان)، أي: تأتيهم المعايش والأرزاق واسعة كثيرة من كل فج من الفجاج ومن كل ناحية من النواحي - فكان أهل مكة على هذه الحال من الأمن والاستقرار والبحبوحة وراغد العيش، لكنهم تلبسوا بالكفر والظلم والصد عن دين الله وفتنة المسلمين للفتهم عن دينهم إلى ملة الشرك - وذلك قوله: (فكفرت بأنعم الله)، فقد جحد أهل مكة كل هذه النعم التي أنعم الله عليهم، فبدلا من شكرهم هذه النعمة طغوا وبغوا وانثنوا عن ملة التوحيد وراحوا يعذبون المسلمين المستضعفين.

قوله: (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)، أي: أذاق الله أهل مكة لباس الجوع والخوف - والإذاقة جارية عند العرب مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد - فإذا مس الناس شيء من ذلك قالوا: مس هؤلاء البؤس والضر - وأذاقهم العذاب - وأما اللباس فقد شبه به الجوع الذي يخالط أذاؤه أجسام المشركين - وهو منزلة اللباس لها؛ فقد سلط الله على مشركي مكة الجوع عدة سنين بدعاء رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وأما خوفهم فكان من سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن صولة الإسلام وغلبته - وذلك كله بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والصد عن دين الله.

١١٣ - (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

قوله: (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه)، الذي جاءهم هو محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فقد جاء أهل مكة وهم يعرفون نسبه وخلقه- ليدعوهم إلى عبادة الله وحده والتحرر من أوضار الشرك ومفاسد الجاهلية.

فجحدوه وكذبوا ما جاءهم به من رسالة ودين، (فأخذهم العذاب)، أهلكهم الله؛ إذ أذاقهم لباس الجوف والخوف والقتل بدلا مما كانوا فيه من الأمن والاستقرار والبحبوحة.

قوله: (وهم ظالمون)، أي: أذاقهم الله الجوع والخوف بعد أن نزع عنهم الأمن والطمأنينة والسعة حال كونهم متلبسين بالظلم، وهو الإشراك بالله والصد عن سبيل الله ١٣٦.

١١٤ - (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

قوله تعالى: {فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون (١١٤) إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم (١١٥)}.

ذلك خطاب للمشركين يأمرهم فيه أن يأكلوا من لحوم الأنعام التي جعلها الله لهم حلالا طيبا - وأما ما كان المشركون يحرمونه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي وغير ذلك مما حرموه على أنفسهم سفها وظلما؛ فلا وجه له ولا معنى - وإنما كان ذلك مما سوّل لهم الشيطان وزينه في قلوبهم بغير حق - وهو في الحقيقة من رزق الله؛ فليشكروا الله على ما أنعم به عليهم - وذلك إن كانوا يعبدون الله فيمتثلون لشرعه ويطيعونه فيما أمر.

١١٥ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به)، إنما للحصر، أي: لم يحرم الله عليكم سوى الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على الأنصاب أو الأوثان - فإذا قصد الذابح بذبيحته غير وجه الله، أو ذكر عليها اسما غير اسم الله فلا تحل ذبيحته.

قوله: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم)، أي: من نزلت به ضرورة لأكل شيء من هذه المحرمات فلا بأس في ذلك (غير باغ ولا عاد)، (غير باغ)، أي: غير متجاوز للحد الذي تندفع به الحاجة - و (عاد)، أن يجد بديلا عن هذه المحرمات - وقيل: الباغي والعادي يعم مدلولهما كل قاطع للسبيل أو مفارق للجماعة خارج على الإمام، أو كان خارجا من بيته في معصية - وأمثال هؤلاء لا يستحقون رخصة الأكل أو الشرب مما حرمه الله.

١١٦ - (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون (١١٦) متاع قليل ولهم عذاب أليم (١١٧)}، ما، مصدرية؛ فهي مع الفعل بعدها في تأويل المصدر؛ أي: لوصف - و (الكذب)، منصوب على أنه مفعول للفعل (تصف)، ١٣٧ والخطاب للمشركين الذين حرموا البحائر والسوائب، وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كانت ميتة، وذلك مما سوله الشيطان لهم وزيّنه في قلوبهم - والمعنى: لا تقولوا لوصف ألسنتكم فيما رزقكم الله من المطعوم: هذا حلال وهذا حرام لكي تفتروا على الله بهذا الكذب؛ فإن ذلك ليس مما حرمه الله أو أحله كما تخرصون وتفترون.

وقوله: (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون)، ذلك وعيد من الله لهؤلاء الظالمين الذين يحرمون ويحلون سفها بغير علم، ويفترون بذلك على الله كذبا؛ فهؤلاء لا فلاح لهم ولا نجاة فهم خاسرون في الدنيا والآخرة - وهو قوله: {متاع قليل ولهم عذاب أليم}،

١١٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{متاع قليل ولهم عذاب أليم}، (متاع)، خبر لمبتدأ محذوف - والتقدير - متاعهم، أو منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية متاع قليل؛ أي: لا بقاء لهم في هذه الدنيا؛ بل هم زائلون مفارقون.

فليست الدنيا وما فيها من متاح وزخرف إلا الحطام الذي ما يلبث أن يفنى ويزول، ثم يصيرون بعد ذلك إلى عذاب الله الأليم، وهو عذاب النار، بما اقترفوه على الله من كذب وتخريص ١٣٨.

١١٨ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

قوله تعالى: {وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، (الذين هادوا) هم اليهود؛ فقد حرم الله عليهم ما أنبأ الله به نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - من قبل في سورة الأنعام؛ إذ حرم عليهم (كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم).

قوله: (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)، لم يظلمهم الله بهذا التضييق عليهم، بل كان ذلك على سبيل العقوبة لهم بسبب ظلمهم ومعاصيهم.

١١٩ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم}، إن ربك يا محمد للذين عصوا الله وعملوا من السيئات والخطيئات ما عملوا (بجهالة)، في موضع نصب على الحال؛ أي: عملوا ذلك جاهلين، وليس مرادهم عصيان المولى، ولكن غلبت عليهم شهوتهن - وقيل: كل من عمل السوء فإنما يعمله بالجهالة، فإذا أناب هؤلاء إلى ربهم طائعين نادمين مستغفرين وأصلحوا بفعل الطاعات والحسنات؛ فإن الله من بعد توبتهم وإصلاحهم (لغفور رحيم)، أي: يغفر لهم ما قد سلف من الخطايا والذنوب ١٣٩.

١٢٠ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله تعالى: }إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين (١٢٠) شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم (١٢١) وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٢٢) ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٢٣)} الأمة، الذي يؤتم به - ويؤيد ذلك قوله عز وعلا: (إني جاعلك للناس إمام)، أي: قدوة يقتدي به المهتدون ويأتمون - وقال ابن مسعود: أتدرون ما الأمة؟ الذي يعلم الناس الخير - وكان عليه السلام (قانتا لله)، أي: مطيعا - من القنوت وهو الطاعة ١٤٠، وكان كذلك (حنيفا)، والحنيف، المائل إلى ملة الإسلام، المستقيم على التوحيد، (ولم يكن من المشركين)، كان عليه السلام من الموحدين فلم يتلبس طيلة حياته بشرك لا في صغر ولا كبر - وهذا إخبار من الله للمشركين أن إبراهيم بريء منهم وهم منه براء؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام على الحنيفية المستقيمة التي بنيت على التوحيد الكامل، والمبرأة من كل أدران الشرك - أما العرب في جاهليتهم فكانوا متلبسين بالشرك، ضالعين فيه ضلوع الضالين المفرطين.

١٢١ - (شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: (شاكرا لأنعمه)، الأنعم، جمع قلة - والمراد: أن إبراهيم عليه السلام كان يشكر الله على النعم القليلة، فلا جرم أن يشكره على الكثير بالأولى - وهو عليه السلام لكامل حنيفيته وبالغ قنوته، كان لا يفتر عن بذل الشكر لله على ما منّ به وأعطى.

قوله: (اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم)، (اجتباه)، أي: اصطفاه للرسالة الميمونة العظيمة، وهداه إلى ملة الإسلام، وهو صراط الله المستقيم الذي لا يزيغ عنه إلا هالك خاسر، ولا يقتفيه إلا مهتد ناج.

١٢٢ - (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: (وآتيناه في الدنيا حسنة)، هذا النبي العظيم المفضال قد أوتي في هذه الدنيا حسنة تميزه عن غيره من الناس والنبيين - وفي حقيقة هذه الحسنة تفضيل، وجملته: أنها الذكر الحسن والثناء الجميل على مر الأيام والأزمان، فأكثر الخلق يقرون بنبوته - وتحقيق الكلام في ذلك أن الله أجاب دعوته: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين)، وقيل: آتاه الله الولد الطيب الصالح ففي ذريته النبوة والرسالة - وقيل: يراد بها الصلاة عليه؛ فقد جعلت مقرونة بالصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وذلك قول المصلي المسلم: " كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم " وقيل: غير ذلك من عظيم الخصال - قوله: (وإنه في الآخرة لمن الصالحين)، إن إبراهيم يوم القيامة مع الصالحين أولي الدرجات العُلا والمنازل الرفيعة في الجنة - وفي ذلك تنبيه على دعائه المستجاب: (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين)، فجعله الله من الصالحين.

١٢٣ - (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: }ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين{، (حنيفا)، منصوب على الحال من الضمير المرفوع في قوله: (اتبع) ١٤١ وقد أمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - باتباع الحنيفية المسلمة التي كان عليها إبراهيم؛ فقد كان إبراهيم حنيفا، أي: مائلا إلى الإسلام مبرأ من الشرك وهو قوله: (وما كان من المشركين) ١٤٢.

١٢٤ - (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

قوله تعالى: }إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون{، لم يفرض الله تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه؛ إذ قال بعضهم، وهو اليهود: إنه أعظم الأيام - وقال آخرون وهم النصارى: بل أعظم الأيام يوم الأحد - فاختاروه وتركوا تعظيم يوم الجمعة.

على أن المراد بقوله: (على الذين اختلفوا فيه)، على نبيهم موسى؛ إذ أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت - فاختلافهم في السبت كان اختلافا على نبيهم في ذلك اليوم - وليس المراد أن اليهود اختلفوا فيه، فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به - وقيل: المراد باختلافهم في

يوم السبت: أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة أخرى، فشدد الله عليهم.
قوله: (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)، سوف يحكم الله بين هؤلاء المختلفين في السبت عندما يصيرون إلى الله يوم القيامة، وحينئذ يقضي الله للفئة المؤمنة المستقيمة منهم بحسن الجزاء، ولأهل الباطل- وهم الأكثرون - بسوء المصير.
١٢٥ - (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)
قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}، هذا الخطاب من الله لرسوله (ص) وهو يدعو العرب المشركين إلى دين الله، إذ يأمره ربه أن يدعو الناس إلى الإسلام (بالحكمة)، أي: بالقول السديد المحكم وفي تلطف ولين، بعيدا عن المخاشنة والتعنيف وأن يدعوهم كذلك بالموعظة الحسنة وهي الكلام المؤثر النافذ إلى القلوب - الكلام الذي يختلط فيه الترغيب بالترهيب، والإنذار بالبشرى؛ ليكون ذلك سبيلا إلى ترقيق القلوب وشحنها بالود والرغبة في دين الله.
قوله: (وجادلهم بالتي هي أحسن)، أي: خاصمهم مخاصمة رحيمة ودود، وذلك بالأسلوب الذي هو أحسن من غيره من الأساليب، وذلك بالرفق واللين دون أسلوب الفظاعة التي تنفر منها الطبائع؛ بل بما يوقظ القلوب إيقاظا، ويجلو العقول مما تلبس بها من الشبهات والظنون وفاسد الأخبار والمعلومات.
لا جرم أن الطبائع البشرية إنما ترق وتجنح في الغالب للرقيق من القول واللطيف من الكلمات والعبارات - وهي أشد ما تنفر وتألم من قسوة الأساليب التي تثير في النفوس المضاضة، وتهيج في القلوب الحزن والامتعاض؛ فالذين يدعون إلى دين الله يناط بهم أن يدعوا الناس إلى هذا الدين بما يرغبهم فيه ترغيبا - وذلك بالكلمات الرفيقة الحانية، والطريقة الرحيمة النافذة.
على أن هذه الآية العظيمة محكمة - وهي في حق الذين يدعون إلى رسالة الإسلام بيان لهم على مرّ الزمان، يمضون في ضوئه وهم يدعون الناس على بصيرة - يدعونهم بالأسلوب الرحيم - الأسلوب السديد، النافذ إلى قلوبهم عسى أن يرققها ترقيقا، أو يفضي إلى تعرفهم على الإسلام فيرغبهم فيه - وإذا لم تؤثر هذه الوسيلة الرفيقة من حسن الموعظة والجدال ولم تجد سبيلها إلى القلوب والعقول، وأيقن المسلمون أن مخالفيهم معاندون جاحدون وأنهم متربصون ماكرون، نظروا بعد ذلك فيما هو أجدى وأنفع من الوسائل والأساليب صونا لعقيدتهم من التشويه والضياع، ولأوطانهم وكراماتهم من الإبادة.
قوله: (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)، أي: ليس عليك إلا التبليغ، فتدعو الناس إلى توحيد وعبادة الله وطاعته وحده، وذلك بالموعظة الحسنة والكلام الرفيق السديد - والناس مختلفون في استعداداتهم وفطرهم - ولكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة، فمن بنيت فطرته على الجنوح للدين والتشبث بحبل الله، فقد اهتدى - ومن كانت فطرته متلبسة بالجحود والقسوة والنفور من الحق؛ فإنه لا محالة صائر إلى الضلال، ولن تجدي معه بعد ذلك المواعظ والدروس والنذر - والله جل وعلا هو أعلم بنفوس البشر جميعا، فيعلم المهتدي منهم والضال.
١٢٦ - (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)
قوله تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (١٢٨)} ١٤٣
روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: أنه لما انصرف المشركون عن قتلى أحد وانصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فرأى منظرا ساءه، ورأى حمزة قد شُق بطنه واصطلم أنفه وجدعت أذناه - فقال: " لولا أن يحزن النساء أو يكون سنة بعدي، لتركته حتى يبعثه الله تعالى من بطون السباع والطير - لأقتلنّ مكانه سبعين رجلا منهم "، ثم دعا ببردة فغطى بها وجهه، فخرجت رجلاه، فجعل على رجليه شيئا من الإذخر، ثم قدمه وكبر عليه عشرا، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة

- وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية - فصبر ولم يمثل بأحد.
وروي عن أبي هريرة قال: أشرف النبي - صلى الله عليه وسلم - على حمزة فرآه صريعا - فلم ير شيئا كان أوجع لقلبه منه - وقال: " والله لأقتلن بك سبعين منهم - فنزلت: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهم خير للصابرين).
قال المفسرون: إن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون وقطع المذاكير والمثلة السيئة، قالوا حين رأوا ذلك: لئن ظفرنا الله سبحانه وتعالى عليهم لنزيدن على صنيعهم، ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، ولنفعلن ولنفعلن - ووقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على عمه حمزة وقد جدعوا أنفه، وقطعوا مذاكيره، وبقروا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطتها ١٤٤ لتأكلها، فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها، فبلغ ذلك نبي الله (ص) فقال: " أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبدا - حمزة أكرم على الله من أن يُدخل شيئا من جسده النار - فلما نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء كان أوجع لقلبه منه - فقال: " رحمة الله عليك إنك ما علمت؛ كنت وصولا للرحم، فعالا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أجواف شتى، أما والله لئن أظفرني الله تعالى بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك "، فأنزل الله تعالى: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) الآية فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - " بل نصبر "، وأمسك عما أراد، وكفّر عن يمينه.
والذي قتل حمزة وحشي؛ إذ كان هذا في صفوف المشركين في أحد، ولما سئل عن كيفية قتله حمزة أجاب: كنت غلاما لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير ابن مطعم: إن قتلت حمزة عم محمد عليه الصلاة والسلام بعمي طعيمة فأنت عتيق، قال: فخرجت، وكنت حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة رحمة الله عليه حتى رأيته في عرض الجيش مثل الجمل الأورق يهدّ الناس بسيفه هدّاً ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له وأستتر منه بحجر أو شجر ليدنو مني؛ إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة رحمة الله عليه قال: ها يا ابن مقطّعة البُظُور - قال: ثم ضربه والله ما أخطأ رأسه - وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في ثنّته حتى خرجت من بين رجليه فذهب لينالخني فغلب فتركته حتى مات رضي الله عنه - ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى الناس فقعدت في العسكر ولم يكن لي بغيره حاجة إنما قتلته لأعتق - فلما قدمت مكة عتقت، فأقمت بها حتى نشأ فيها الإسلام ثم خرجت إلى الطائف فأرسلوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجالا، وقيل لي: إن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يهيج الرسل - فقال: فخرجت معهم حتى قدمت على النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما رآني قال: " أنت وحشي؟ " قلت: نعم - قال: " أنت قتلت حمزة؟ " قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك - قال: " فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟ " - قال: فلما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرج الناس إلى مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة الكذاب لعلي أقتله فأكافئ به حمزة - فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان ١٤٥.
والآية محكمة في قول أكثر العلماء؛ فهي بذلك غير منسوخة، وفيها يبين الله للمسلمين أنه إذا وقع عليهم أذى أو ضرر من الكافرين فلهم أن يقتصوا لأنفسهم فيعاقبوا من عاقبهم من الكافرين بمثل العقوبة التي أصابتهم منهم - وللمسلم كذلك أن يقتص ممن أصابه بجرح أو قتل؛ ففي الجرح يقتص المجروح من الجارح، وفي القتل يقتص أولياء القتيل عن القاتل إلا أن يعفو المجروح أو الأولياء.
على أن المثلة في شريعة الإسلام حرام؛ فقد روى الطبراني في الكبير عن ابن المغيرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - " نهى عن المثلة "، فالمشروع العقوبة بالمثل - وهو قوله: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)، أي: إن أردتم معاقبة من اعتدى عليكم فعاقبوه بمثل ما فعل بكم ولا تجاوزوا ذلك - قال الطبري في ذلك: من ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه - وقال القرطبي في ذلك أيضا: في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص - فمن قتل بحديدة قُتل بها - ومن قتل بحجر قُتل به - ولا يتعدى قدر الواجب.

١٢٧ - (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)

قوله: (واصبر وما صبرك إلا بالله)، أي: اصبر يا محمد على ما أصابك من أذى المشركين الظالمين في الله - وليس صبرك إلا بتثبيت الله لك وتوفيقه إياك - فالله عز وعلا ينشر في نفسك القدرة على الصبر واحتمال المكاره، (ولا تحزن عليهم)، أي: لا تحزن على الكافرين بسبب إعراضهم عنك وتكذيبهم لك ولما نالوه منك ومن المسلمين من الأذى في أحد، إذ مثلوا بقتلاكم تمثيلا، فقد أفضى شهداؤكم إلى مصيرهم الكريم المبارك وهو النعيم المقيم في جوار الرب العظيم.

قوله: (ولا تك في ضيق مما يمكرون)، الضيق، بالفتح المصدر، وبالكسر، الاسم، أي: لا يضيقنّ صدرك من مكرهم، وهو خداعهم وتضليلهم وصدهم الناس عن دين الله واختلاقهم الأكاذيب على الإسلام ورسوله (ص) والمسلمين.

١٢٨ - (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

قوله: }إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون{، يبين الله لعباده أنه مع المؤمنين الذين يجتنبون كبائر الذنوب والفواحش، (والذين هم محسنون)، أي: الملتزمون طاعة ربهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه - إن الله مع هؤلاء جميعا فيجعل لهم العون والنصر والتأييد ١٤٦.

١٧ سورة الإسراء:

سورة الإسراء:
بيان إجمالي للسورة:

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات - وآياتها مائة وإحدى عشرة آية - وهذه السورة حافلة بالأخبار والغيبيات والمشاهد - ويأتي في طليعة ذلك كله ما بُدئت به السورة، وهو الحديث عن الإسراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى بيت المقدس ليلا، وذلك في قوله سبحانه: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) - إن هذا الحديث كريم ومبارك، وهو هائل وجلل في مدلوله ومعناه - ذلك يتجلى في الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: وهي التكريم البالغ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، هذا النبي الأمي المفضال، سيد الأولين والآخرين، وإمام البشرية في هذه الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين - وليس أدل على ذلك من اجتماع الأنبياء في بيت المقدس في هذه الليلة ليؤدوا الصلاة مجتمعين من خلف إمامهم محمد - صلى الله عليه وسلم - - لا جرم أن هذه مكرمة قدسية رفافة، أوتيها نبينا (ص)، فكان بها في الذروة السامقة من سلم الأطهار الأعاظم، والنبيين الأكارم.

الملاحظة الثانية: أن هذا الحديث الجلل لهو وثيق الصلة بصلب العقيدة الإسلامية نفسها، وهو من مقتضيات الإيمان في دين الإسلام، فهو بذلك حقيقة لا تحتمل التحذلق أو مثقال ذرة من شك أو ريبة، بل ذلك حدث قطعي لا شك فيه، ولا ينكره أو يرتاب فيه أو يتأوله على غير محمله الصحيح الثابت إلا جاحد زنديق، ليس له في حساب التقييم إلا أن يكون في عداد المرتدين المارقين.

الملاحظة الثالثة: في هذا الحدث العجيب الأكبر تتجلى مكانة القدس، قبلة المسلمين الأولى، ومهبط الوحي للعروج من ثم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السموات العلا، ليرى هنالك من آيات الله الكبرى.

وعلى هذا فإن للقدس منزلة عليا في قلوب المسلمين في كل بقاع الدنيا، في هذا الزمان وفي كل زمان - وهي منزلة كريمة مميزة، ليست لغيرها من المدن إلا ما كان لمكة أو المدينة المنورة.

ولئن كانت الأوطان في تصور الإسلام تحتل أبلغ الاهتمام والتقدير، وتستوجب الجهاد واستعمال القوة دون أي بلد من بلدان الإسلام مهما كلف الثمن، فإن مدينة القدس لهي أسمى وأعظم قداسة من سائر البلدان؛ فما من عدوان يطرأ عليها متربص دخيل إلا كان عدوانا على عقيدة المسلمين في سائر أوطانهم وديارهم، وفوق ذلك كله: فإن مدينة القدس تحفّ بها البركة والطهر، ولا يسكنها أو يرغب في الإقامة فيها من المسلمين إلا كتب له الأجر العظيم من ربه، وكان في زمرة المرابطين المصابرين.

الملاحظة الرابعة: أن مدينة القدس قد شهدت ألوانا من حملات الطغيان والاعتداءات عليها، سواء بالاحتلال البغيض، أو التقتيل، أو الترهيب، أو تغيير المعالم وكلِّ أوجه الحضارة فيها - وهي حملات واعتداءات ظالمة، أفرزتها طبائع المجرمين الظالمين، الذين ما فتئوا يتآمرون على هذه المدينة الإسلامية، لسلخها من جسم الإسلام والمسلمين.

مؤامرة وخيانات عاتية وتترى، قد اجتمعت عليها قوى الشر، وأساطين الطغيان والكفر، من عتاة البشرية وطواغيتها، ما بين صليبيين، واستعماريين، وماسونيين، وصهيونيين، كل أولئك قد تمالأوا على الإسلام والمسلمين، لاغتصاب فلسطين المسلمة من أهلها، وفي طليعتها القدس.

ولئن أفلح هؤلاء الخصوم العتاة اللّد في اغتصاب فلسطين والقدس، فإن طوفان الإسلام الهادر آت لا محالة، ليطحطح عن هذه الأرض المباركة كابوس الفساد والشر، ولينسف قواعد الكفر والإباحية والعدوان نسفا - وحينئذ تعود البلاد المغتصبة لحظيرة الإسلام والمسلمين، حيث الوضع السليم الذي كتبه الله في قرآنه لفلسطين والقدس.

١ - (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنيره من آياتنا إنه هو السميع البصير}

(سبحان)، اسم علم للتسبيح - سبحت الله تسبيحا وسبحانا، فالتسبيح هو المصدر - و (سبحان) اسم علم للتسبيح - وسبحان الله، معناه تنزيه الله تعالى من كل سوء ١.

قوله: (أسرى بعبده ليلا) سرى وأسرى، من الإسراء وهو السير ليلا.

والمراد بعبده محمد - صلى الله عليه وسلم -، فقد أسرى الله به ليلا، بلفظ التنكير، لقلة المدة التي وقع فيها الحدث القدسي الهائل، إذ أسرى الله برسوله الكريم (ص) في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، في عرف السابقين من ذلك الزمان وكان ذلك قبل الهجرة بعدة أعوام - وسمي بالأقصى لبعد المسافة بين المسجدين، ولأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد.

وهل وقع الإسراء بالروح وحده، أو بالروح والجسد معا؟ فقد ذهب معظم العلماء من السلف والخلف من المسلمين إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أسري بروحه وجسده معا، وأنه ركب البراق بمكة ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه، ثم عرج بجسده من ثم إلى السموات - ويدل على ذلك: أن الحدث في ذاته معجزة هائلة - وهي دليل الوقوع بالروح والجسد مجتمعين - ولو كان الإسراء بالروح دون الجسد كالرؤيا في المنام لما كان في ذلك آية ولا معجزة ولما كان مدعاة للدهش والعجب، ولا معنى للبدء بتنزيه الله نفسه بقوله: (سبحان) لا جرم أن البداية بهذا التعبير يكشف عن خبر مذهل وجلل قد تحقق في عملية الإسراء - ولا يكون ذلك بمجرد الروح.

وهو أمر غير عجيب ولا مثير، بل إن ما حصل كان معجزة ضخمة لا تعني غير الإسراء بالروح والجسد مجتمعين - ويعزز ذلك ويؤيده ما ورد في هذه المسألة من أخبار كثيرة، منها ما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة فظعت ٢ وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلا حزينا فمرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " نعم " قال: وما هو؟ قال: " إني أسري بي الليلة " قال إلى أين؟ قال: " إلى بيت المقدس " قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: " نعم " فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه - فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " نعم " فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي - قال: فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما - قال: حدث قومك بما حدثني - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إني أسري بي الليلة " فقالوا: إلى أين؟ قال: " إلى بيت المقدس " قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ - قال: " نعم " قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا - قالوا: ونستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ - وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد- فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه " فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه.

ويستفاد من شدة تكذيب القوم واستنكارهم أن هذا الحدث العظيم ما كان ليحصل إلا بالروح والجسد، فإنه ما كان لمثل هذا الدهش الذي طغى على المشركين ليكون لو أن حدث الإسراء حصل بالروح دون الجسد، فرؤيا المنام لا مدعاة فيها لعجب أو إثارة، لكن القوم قد أخذهم الذهول أخذا لإدراكهم أن المراد من الإسراء هو تحققه بالروح والجسد معا.

قوله: (الذي باركنا حوله) والمراد بركات الدين والدنيا - أما الدين: فبيت المقدس متعبد الأنبياء ومهبط الوحي، وقد دفن حوله من الأنبياء والصالحين كثيرون - أما الدنيا: فقد جعل الله البركة لساكنيه في معايشهم وأرزاقهم وحروثهم وثمراتهم.

قوله: (لنريه من آياتنا) لقد أراه الله في طريقه إلى بيت المقدس وبعد مصيره إليه وصعوده في السماوات من العجائب والمشاهد والعبر ما لا يطيق رؤيته غير أولي العزم من النبيين كرسول الله - صلى الله عليه وسلم - - لقد أراه الله البيت المعمور وسدرة المنتهى، ولقي في صعوده بعض النبيين المرسلين وبعض الملائكة العظام.

قوله: (إنه هو السميع البصير) الله سميع لما يقوله المشركون والمرتابون والمكذبون من تخريص عن الإسراء - وهو كذلك بصير بأعمالهم وما " يجنونه من منكرات الأفعال كصدهم عن دين الإسلام وإثارتهم من حوله الشبهات والأباطيل.

٢ - (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

قوله: {وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٢) ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا (٣)} ٣.

عطف بإيتاء موسى الكتاب على الإسراء بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ليلا - وذلك من باب الإخبار عن الغائب ثم الرجوع إلى الخطاب، فيكون معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب وهو التوراة (وجعلناه هدى لبني إسرائيل) أي جعلنا التوراة بيانا لبني إسرائيل فيه هداهم ودليلهم الذي يستضيئون به فيمضون على المحجة الصحيحة وفيها من الأحكام والأوامر والعبر ما يحقق لهم السعادة والنجاة ما لم يضلوا أو يزيغوا أو يبتغوا غير سبيل الهداية والاستقامة.

قوله: (ألا تتخذوا من دوني وكيلا) قيل: أنْ، زائدة، أي: لا تتخذوا من دوني وكيلا: وقيل أنْ، بمعنى أي - فيكون التقدير - أي لا تتخذوا وهو تفسير لقوله: (هدى) - وقيل: لئلا تتخذوا (من دوني وكيلا) ٤ أي شريكا أو كفيلا بأمورهم - أو وليا ونصيرا من دوني.

٣ - (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

قوله: (ذرية من حملنا مع نوح) (ذرية)، منصوب على البدل من قوله: (وكيلا) وقيل: منصوب على النداء - وقيل: منصوب بتقدير الفعل أعني ٥ - والمراد بالذرية: جميع أجناس الأمم من عرب وعجم وغيرهم - وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم هم من ذرية من حملهم الله مع نوح في السفينة.

والمقصود: تهييج بني إسرائيل وتذكيرهم بنعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم.

قوله: (إنه كان عبدا شكورا) كان نوح دائم الشكر لله - فكان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله - ومن أجل ذلك سمي عبدا شكورا - روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن الله ليرضى على العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها " ٦.

٤ - (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

قوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا (٤) فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا (٥) ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا (٦) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا (٧) عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا (٨)} (وقضينا) بمعنى أعلمنا وأخبرنا - أو حكمنا - وذلك بيان من الله لبني إسرائيل أنه أخبرهم وأعلمهم في كتابهم التوراة أنهم سيعيثون في الأرض فسادا مرتين - وذلك

بمخالفة أحكام التوراة، فضلا عن تزييف أحكامها ونصوصها بالتغيير والتبديل جريا وراء أهوائهم وطبائعهم السقيمة - إلى غير ذلك من وجوه الإفساد في البلاد كقتل الأنبياء والمصلحين من الناس، وإشاعة الفوضى والقلاقل والحروب بين الأمم، وكذلك تدمير الأديان والقيم والفضائل بما يفضي إلى شيوع الرذائل والإباحية والإلحاد.

قوله: (ولتعلن علوا كبيرا) لسوف تطغون وتتجبرون وتفجرون على الناس بظلمكم وطغيانكم وتسلطكم، وتثيرون بين الناس الشر والإرهاب.

٥ - (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا)

قوله: (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) أي إذا جاء أولى المرتين من

إفسادكم (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) أي سلط ربكم عليكم جندا أشداء اولي قوة شديدة وهم أهل بابل بقيادة الملك الطاغية بختنصر - فبسبب طغيان بني إسرائيل وفسادهم هذه المرة، سلك الله عليهم جيش بابل العتاة بقيادة المتجبر العاتي بختنصر، فاستباحوا بيضتهم، وأذلوهم شر إذلال، وقهروهم أفظع قهر، وكذلك أحرقوا التوراة وخرجوا المسجد، وقتلوا أكثرهم وسبوا من بقي منهم - وذلك هو قوله: (فجاسوا خلال الديار) أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخباري أي يطلبها - جاس، جوساً وجوساناً: تردد - جاس الشيء: طلبه بالاستقصاء، ووطئه وداسه - وجاسوا خلال الديار: ترددوا بينها بالإفساد وطلبوا ما فيها ٧ - والمراد ههنا: أنهم طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين جائين.

قوله: (وكان وعدا مفعولا) أي كان هذا العقاب من الل قضء كائنا لا محالة.

٦ - (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

قوله: (ثم رددنا لكم الكرّة عليهم) أي بعد أن تبتم إلى ربكم وأطعمتموه رددنا لكم الدولة والقوة والرجعة، فأهلكنا أعداءكم، وتحقق لكم ذلك بقتل داود جالوت، أو بقتل بختنصر (وأمددناكم بأموال وبنين) أي بعد قتل رجالكم وسبي ذراريكم ونسائكم ونهب اموالكم عاد لكم شأنكم من الكثرة والمنعة؛ إذ أمدكم الله بالمال والبنين وجعلكم أكثر عددا ونفيرا من عدوكم - والنفير معناه العدد من الرجال؛ أي أنهم بعد الإفسادة الأولى وما حاق بهم بسببها من عذاب القهر والقتل والسبي صاروا أصلح حالا وأكثر طاعة لربهم.

٧ - (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

قوله: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أي إن أحسنتم بطاعة ربكم وإصلاحكم أمركم والتزامكم ما شرعه الله لكم؛ فإن خير ذلك عائد إليكم في الدنيا والآخرة - أما في الدنيا: فإن الله يدرأ عنكم الشرور والبلايا ويفتح عليكم أبواب الخيرات والبركات - وفي الآخرة: يكتب الله لكم النجاة والفوز بالجنات (وإن أسأتم فلها) إن عصيتم ربكم وأبيتم إلا العتو والضلال والتخريب والفساد في الأرض فما تسيئون بذلك إلا لأنفسكم؛ لأن في ذلك إغضابا لربكم فيعاقبكم بتسليط أعدائكم عليكم ليقتلوكم ويذلوكم جزاء من ربكم وفاقا.

قوله: (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة) إذا جاء وعد المرة الثانية من إفساد بني إسرائيل في الأرض، ليسوء عبادنا أولو البأس وجوههم؛ إذ يجعلون آثار المساءلة والكآبة والسواد بادية على وجوههم لما يحيق بهم من معاودة السبي والقتل والإذلال على أيدي عبادنا الذين نبعثهم في عقابهم (وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة) أي ليدخلوا بيت المقدس مثل دخولهم فيه المرة الأولى (وليتبروا ما علوا تتبيرا) (ما)، مصدرية ظرفية زمانية - والتقدير: وليتبروا مدة علوهم ٨ - تبر الشيء تبرا، إذا هلك - وتبره، أي أهلكه - وكل شيء جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته - والتبار، بالفتح معناه الهلاك - وتبّره تتبيرا، أي كسّره وأهلكه ٩ - والمعنى: أنهم يدخلون المسجد ليدمروه ويخربوه أيما تدمير وتخريب، ما ظهروا عليه، أو مدة علوهم وعتوهم وظهورهم بقيادة قيصر ملك الروم، وقيل: بقيادة ملك بابل.

٨ - (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

قوله: (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) أي لعل الله أن يرحمكم بعد ما انتقم منكم بالذين بعثهم عليكم ليسوءوا وجوهكم بتقتيلكم

وتدميركم وسبيكم ودخولهم المسجد ثانية مثلما دخلوه أول مرة ليعيثوا فيه الفساد والتخريب - لعله سبحانه يستنفذكم من هذا الكابوس الفظيع، وينتشلكم مما حل بكم من الذل والهوان - وقد تحقق لهم ذلك؛ إذ رفع عنهم الخساسة والذل، وجعل منهم الأنبياء والملوك وكثّر عددهم تكثيرا.

قوله: (وإن عدتم عدنا) ذلك وعيد من الله قائم يتهدد به بني إسرائيل على مرّ الزمن - وجملة ذلك: إن عدتم يا بني إسرائيل إلى المعاصي والفساد والتخريب ومخالفة أوامر ربكم واتبعتم الشيطان وما تسوّله لكم أهواؤكم العاتية (عدنا) أي عدنا عليكم بتسليط من يجتاحكم ويجوس خلال دياركم فيبادركم القتل وإحلال الذل والصغار - ولقد عادوا فعاد الله عليهم بما توعدهم به من العقاب الأليم؛ إذ بعث عليهم في كل إفسادة من إفساداتهم الكثيرة، من يسومهم سوء العذاب بقتلهم وإذلالهم وتهجيرهم واستعبادهم.

قال ابن عباس في تأويل قوله: (وإن عدتم عدنا): عادوا فعاد، ثم عادوا فعاد، ثم عادوا فعاد.

وقال الرازي في هذا الصدد: يعني إن بعثنا عليكم من بعثنا ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة؛ لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية، عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى ١٠.

على أن المراد بعذابهم في الآية، ما كان في الدنيا - أما عذاب الآخرة: فهو شأن آخر؛ فهم كلما أفسدوا في الأرض وعاثوا في الدنيا تخريبا وتتبيرا ولما؛ عجل الله لهم العذاب؛ إذ بعث عليهم من يروم إهلاكهم وقتلهم بالجملة كالذي حصل لهم من تقتيل وإبادة على أيدي الجبابرة من طغاة العالم عبر التاريخ كبختنصر وسحاريب وطاغية مصر، فرعون - وملوك الروم، ثم أقطاب التسلط في العصور الوسطى الذين ساموا اليهود العذاب والهوان والتقتيل، سواء في أوربا أو في غيرها من بلدان العالم - وذلك كله يكشف عن وعيد الله الذي لا يبرح بني إسرائيل - وهو وعيد قائم وماثل، ما فتئ يتهدد يهود بالهلاك والتدمير كلما عادوا للإفساد في الأرض - وأصدق دليل على ذلك قوله سبحانه: (وإن تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) وقد بينا ذلك في سورة الأعراف.

قوله: (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي سجنا يحبسون فيه من الحصر وهو الحبس - وبذلك فإن جهنم محيطة بالكافرين من كل الجهات ولا رجاء لهم في التفلت أو الخلاص - وقيل: الحصر، بمعنى الفراش أو البساط؛ فقد جعل الله جهنم للكافرين فراشا ومهادا - ١١

وبعد هذا البيان المفصل عن إفسادتي بني إسرائيل في الأرض - وتسليط الله الظالمين عليهم؛ ما ينبغي لأحد أن يستدل من هذه الآيات على ان العقوبة الأخرى جزاء إفسادتهم الثانية لم تقع بعد - والصواب أن الإفسادتين الاثنتين قد وقعتا وقد أحل الله فيهم بسببها سخطه وغضبه فعذبهم بالتقتيل والإهلاك والسبي مرتين على أيدي العتاة المتجبرين من الأمم السابقة - أما الظن بأن العقاب الثاني كائن على أيدي المسلمين: فما نرى هذا إلا زعما خاطئا - ووجه الخطأ فيه: أن الذين توعد الله ببعثهم وهم أولوا البأس الشديد، عتاة ظالمون سيجوسون خلال الديار إهلاكا وتدميرا، فضلا عن دخول المسجد ليعيثوا فيه إفسادا وتخريبا - ويتجلى مثل هذه المعاني في قوله سبحانه: (وليتبروا ما علو تتبيرا) أي ليدمروا وليخربوا ما غلبوا عليه - ومما هو معلوم من أحكام الحرب في شريعة الإسلام أن المسلمين في قتالهم الكافرين ليسوا أهل تخريب أو إفساد ولا هم كغيرهم من الظالمين الذين يعيثون في البلاد ظلما وإهلاكا بغير حق - وما شأن المسلمين في حرب أعدائهم الكافرين إلا أنهم دعاة خير وسلام وعمران ومرحمة - لا جرم أن المسلمين في كل الأحوال ليسوا إلا أصحاب رسالة سماوية عليا يرومون نشرها في الآفاق بالمودة والحجة والحكمة والصدق - فالمسلمون في ذلك كله أشد الخليقة رحمة بالخليقة - وأعظم الناس تحنانا ورأفة بالعباد.

وما ينبغي التنبيه إليه هنا أن الوعيد من الله الذي يتهدد به يهود، قائم ماثل أبد الدهر؛ فهو وعيد غير قابل للنسخ أو الزوال، يتجلى في قوله سبحانه: (وإن عدتم عدنا) أي إن عدتم إلى الفساد والخراب والظلم عدنا لتعذيبكم وكسر شوكتكم وإذلالكم - وكذلك قوله تعالى: (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) فالله يبعث على بني إسرائيل كلما ظلموا وأفسدوا من يسومهم العذاب من متلف الشعوب والأمم ولئن بعث الله عليهم المسلمين ليعذبوا وليظهروا عليهم فما يكون المسلمون مخربين أو مفسدين أو ظالمين عتاة - وما كان شأنهم أن يظلموا الناس فيقتلوا الأطفال والأبرياء من الشيوخ والنساء والضعفاء - أو يعيثوا في البلاد هدما وتحريقا

وهتكا - فما مثل هاتيك الفعال المرذولة والمظالم البشعة إلا ديدن الطغاة والمستكبرين والمتجبرين من طواغيت البشرية من أمثال بختنصر وسناريب وهولاكو وجنكيز خان وهتلر وستالين وغيرهم من عتاة الوثنيين والاستعماريين والصليبيين.
٩ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)
قوله تعالى: {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا (٩) وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما (١٠)} هذه شهادة عليا من الله جل جلاله تفوق كل الشهادات يؤكد فيها سبحانه أن قرآنه الحكيم يدل البشرية (للتي هي أقوم) أي للصواب والحق - أو لأقوم الحالات وأسدها، أو لخير الطرق والملل والشرائع - والمراد بذلك دين الإسلام، القائم على الاعتدال والتوازن والوسط الذي يلائم الطبيعة البشرية، ويناسب كل ما بني عليه الإنسان من استعدادات فطرية ومركبات نفسية وروحية وجسدية - فما من ملة ولا شريعة ولا عقيدة ولا نظام يناسب فطرة الإنسان وكل ميوله واستعداداته على خير شاكلة من التكامل والاعتدال سوى الإسلام - هذا الدين القائم على الحق والعدل والسداد، بعيدا عن الشطط، ومجانبا للإفراط والتفريط.
قوله: (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجر كبيرا) يحمل القرآن البشرى للمؤمنين الموقنين بعقيدة الإسلام والذين يأتمرون بأوامر الله، وينتهون عن نواهيه وزواجره ويلتزمون شرعه وأحكامه أن لهم من الله الجنة - وهي خير ما تدركه الأبصار أو تتصوره الأذهان من جزاء - وذلك لما فيه من بالغ النعيم والهناءة والسعادة والسكينة والراحة.
١٠ - (وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)
قوله: {وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما} وفي قبالة البشرى للمؤمنين، يبشر الله الظالمين الذين يكذبون بيوم الدين وهو المعاد إلى اللهب ما أعد لهم من العذاب الأليم وهي جهنم - وقد ذكر الآخرة بالذات تنبيها على أهمية هذا الركن في عقيدة الإسلام - وهو الركن الذي طالما تعثرت عنده مدارك الكثير من البشر - وطالما ارتاب فيه المخالفون والمكابرون والمستكبرون، إذ عتوا في وجوه النبيين والمرسلين عتواً وصمهم بالتمرد والجحود.
لا جرم أن الإيمان باليوم الآخر يتفق والفطرة البشرية أكمل اتفاق وينسجم مع قواعد الفكر السليم أوثق انسجام.
١١ - (وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولا)
قوله تعالى: {ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا} القياس إثبات الواو في قوله: (ويدع) إلا أنه حذف في المصحف من الكتابة، لأنه لا يظهر في اللفظ - والتقدير: ويدعو الإنسان بالشر دعاءً مثل دعائه بالخير ١٢ وذلك إخبار من الله عن الإنسان في حقيقة طبعه المتعجل والذي لا يصطبر على اللأواء ولا يحتمل الشدائد والملمات إلا قليلا - ذلكم هو الإنسان في ضيق صدره وهوان عزمه الذي يتضاءل في وجه الصعاب والبلايا إلا أن يثبته الله فيمده بالهمة والعزيمة والاقتدار - وهذه الحقيقة يكشف عنها مبادرة الإنسان للدعاء على نفسه وماله وولده بالشر، أي بالموت أو الهلاك أو اللعن أو نحو ذلك من وجوه الدعاء الظالم كلما ألمت به مصيبة أو اجتاحه همّ - لكن الله بواسع رحمته وعظيم منه وفضله لا يستجيب لمثل هذا الدعاء، إذ لو استجاب له لأهلكه بدعائه - وذلك هو قوله سبحانه: (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) أي يدعو الإنسان عند غضبه وضجره: اللهم أهلكه، اللهم ألعنه - وهو يريد الدعاء بذلك على نفسه - وهو كدعائه (بالخير) أي كما لو دعا ربه أن يهبه الرزق والسلامة والعافيه في نفسه وماله وولده - فلو استجيب له في دعائه بالشر كما يستجاب لهم في الخير لهلك - قال ابن عباس في تأويل الآية: يعني قول الإنسان: اللهم العنه واغضب عليه - فلو يعجّل له ذلك كما يعجل له الخير لهلك - على أن الدعاء على النفس بالشر حرام - والمسلم مدعو في كل الأحوال من المساءات والمسرات أن يسأل الله لنفسه وأهله وماله والمسلمين الخير والرحمة والعافية والستر والمغفرة.
وفي الحديث: " لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها " ١٣.
١٢ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا)

قوله تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا} الليل والنهار آيتان من آيات الله، أي علامتان تدلان على وجوده ووحدانيته وكمال قدرته وبالغ حكمته - والآيات التي تنطق بوجود الله كثيرة تعز على الوصف والعد - لا جرم أن هذا الوجود الهائل المخوف بكل ما فيه من دقائق وحقائق وخفايا وأشياء يشهد على أن الله حق، وأنه الخالق المقتدر، بديع السماوات والأرض.

قوله: (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) محونا، بمعنى طمسنا، أي جعلنا القمر وهو علامة الليل مظلما ليسكن الناس فيه فيجدوا من نعمة الراحة والسبات ما يكفكف عن نفوسهم وأجسادهم شدة الإعياء والنَّصَب - وكذلك جعلنا الشمس وهي علامة النهار (مبصرة) أي مضيئة ليستطيع الناس الإبصار فيها، وليسعوا في مناكب الأرض جاهدين منتشرين مبتغين من الله الخير والرزق وليجتهدوا في إعمار الحياة لتفيض بالصلاح والعمران والتعارف والبركة والاستقرار - وهو قوله سبحانه: (لتبتغوا فضلا من ربكم) والفضل يراد به الرزق وتحصيل المعاش.

قوله: (ولتعلموا عدد السنين والحساب) فإنه لا يتحقق للناس العلم بالمواقيت كلها إلا باختلاف الجديدين وهما الليل والنهار، فهما باختلافهما تستبين للناس الأوقات والآجال والمواعيد، وتتم لهم بذلك مصالحهم في التجارات والإجارات والمداينات وأوقات الصيام والصلوات وغير ذلك من حساب الآجال ومواسم الأعمال - وبغير الوقوف على كل هذه المواقيت والأحايين، تصير الحياة للناس بالغة العسر، بل ينقلب الواقع البشري بكل جوانبه ومناحيه ركاما من التعثر والتخبط والعشوائية والفوضى.

وبذلك تتعطل المصالح وتبيت الحياة غير ممكنة ولا محتملة.

قوله: (وكل شيء فصلناه تفصيلا) أي ما من شيء يحتاج إليه العباد في مصالحهم الدينية والدنيوية من الأحكام والأخبار والتعاليم والمواعظ إلا بينه الله تبيينا ظاهرا لا لبس فيه ١٤ - .

١٣ - (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا)

قوله تعالى: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٤)} المراد بطائره، عمله، وما كتب له من خير ومن شر؛ فذلك كله ملازم له لا يبرحه حتى يحاسبه وهو (في عنقه) أي لا زم له لزوم القلادة أو الغُل ١٥ للعنق.

قوله: (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) يخرج الله يوم القيامة لكل إنسان كتاب أعماله فيجده أمامه (منشورا) أي مفتوحا غير مطوي ليقرأه ويقف على ما حواه من أعماله كلها - وهو يعطاه إما بيمينه إن كان من أهل السعادة والأمان، أو يعطاه بشماله إن كان من أهل الشقاوة والخسران.

١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

قوله: (اقرأ كتابك) ما من إنسان إلا يبعث يوم القيامة قارئا ليقرأ ما حواه كتابه من أعمال (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أي يقال له: اقرأ كتاب أعمالك التي أحصيناها عليك في الدنيا فلم نغادر منها شيئا - حسبك اليوم نفسك حاسبا عليك يحصي عليك أعمالك، إذ ليس من شاهد عليك غير نفسك - وإنما يقال له ذلك في أفظع ما يتصوره الخيال من ذعر وإياس وحراجة، إذ يقرأ كتاب نفسه بنفسه، وهو وحده شهيد على ما يلقاه في كتابه المنشور - وفي هذه الساعة المكروبة الرهيبة من التربص والوجل، يبصر المرء كتاب أعماله ليستيقن بعد ذلك أنه من أهل النجاء فينجو ويسعد، أو من أهل الخسران والشقاء ليهوي بعده في النار وبئس القرار - نسأل الله الخلاص من كل كرب ومحنة، والنجاة من كل الأهوال والبلايا ١٦.

١٥ - (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا)

قوله تعالى: {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ول تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١٥)} من استقام على طريق الهداية والتزم أوامر الله ولم يخالف شرعه ودينه فلا يجازى باستقامته وهدايته غير نفسه أما من زاغ عن سبيل الحق وضل عن منهج الله وقصد غيره من مناهج الضلال والكفر فكذب بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، أو ارتاب في

شيء من شريعة الإسلام (فإنما يضل عليها) أي لا يضر بضلاله وفسقه وزيغه عن الحق غير نفسه.
وجملة القول في ذلك: أنه ما من أحد إلا يحاسب عن نفسه لا عن غيره - فالمهتدي يجزيه الله ثواب اهتدائه، والضال صائر وحده إلى العقاب جزاء ضلاله وفسقه عن أمر الله.
قوله: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الوزر معناه الإثم والثقل؛ أي لا تحمل حاملة حمل أخرى ١٧ - قال الرازي في تأويل هذه الآية: إن المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره - وأيضا غيره لا يؤاخذ بذنبه بل كل أحد مختص بذنب نفسه.
قال القرطبي في ذلك: الهاء في قوله: (وازرة) كناية عن النفس،: أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى حتى أن الوالدة تلقى ولدها يوم القيامة فتقول: يا بني! ألم يكن حجري لك وطاءً؟ ألم يكن ثديي لك سقاء؟ ألم يكن بطني لك وعاء؟! فيقول: بلى يا أمهْ! فتقول: يا بني، فإن ذنوبي أثقلتني فاحمل عني منها ذنبا واحدا! فيقول: إليك عني يا أمّهْ! فإني بذنبي عنك اليوم مشغول!
ويستفاد من هذه الآية بعض الأحكام منها: أن الميت لا يعذب ببكاء أهله وهو قول السيدة عائشة (رضي الله عنها) وقال به آخرون من أهل العلم - ودليلهم قوله سبحانه: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.
وذهب إلى خلاف ذلك ابن عمر وهو تعذيب الميت ببكاء أهله - واستند في ذلك إلى الخبر: " إن الميت ليعذب ببكاء أهله " والصواب أنه لا معارضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محملة على ما إذا كان البكاء والنوح من وصية الميت كما كان في الجاهلية - أما إذا لم يوص بشيء من ذلك فلا إثم عليه من بكائهم عليه.
ومنها: الأطفال يموتون صغارا، فإن كان آباؤهم مسلمين؛ فإنه لا خلاف في أنهم في الجنة - أما إن كان آباؤهم كفارا ففي شأنهم خلاف بين العلماء - وفي ذلك أقوال ثلاثة.
القول الأول: إنهم في الجنة - ودليل ما رواه أحمد عن خنساء عن عمها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " والمولود في الجنة ".
وكذلك ما رواه البخاري عن سمرة بن جندب أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال في جملة ذلك المقام حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين - قالوا: يا رسول الله: وأولاد المشركين؟ قال: " نعم وأولاد المشركين ".
القول الثاني: إنهم مع آبائهم في النار - ودليل ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الله بن أبي قيس أنه سأل السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن ذراري الكفار فقال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " هم تبع لآبائهم " فقلت: يا رسول الله: بلا أعمال؟ فقال: " الله أعلم بما كانوا عاملين ".
القول الثالث: التوقف في ذلك، استنادا إلى قوله (ص): " الله أعلم بما كانوا عاملين " وهو في الصحيحين عن ابن عباس.
وقيل: إنهم من أصحاب الأعراف وهذا القول مندرج في كونهم من أهل الجنة؛ لأن أصحاب الأعراف صائرون إلى الجنة.
قوله: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ذلك من عدل الله المطلق ورحمته الواسعة بعباده؛ فإنه لا يعذب أحدا إلا بعد أن يقيم عليه الحجة بإرسال الرسول فيبلغه دعوة الله - وهذه المسألة كانت موضع تفصيل وخلاف بين العلماء وهي المسماة بأهل الفترة، وهذه المسألة كانت موضع تفصيل وخلاف بين العلماء وهي المسماة بأهل الفترة، وهي المدة تقع بين زمنين أو نبيين ١٨ فالذين ماتوا في هذه المدة ولم تبلغهم دعوة رسول لا يسألون ولا يؤاخذون في الدنيا ولا في الآخرة - وهو قول طائفة من العلماء - ويعزز هذا القول، قوله سبحانه: (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير) وبمثل ذلك تقول المعتزلة - وهم يذهبون إلى أن الفعل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحر - وقيل: إن هذا في حكم الدنيا، وهو أن الله لا يعاقب أمه بعذاب إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل وإقامة الحجة عليهم بالدلائل والبينات وهو قول الجمهور - أما في الآخرة: فإن الله ممتحنهم بسؤاله لهم أن يدخلوا النار، فإن أطاعوه ودخلوا نجوا، وإن عصوه؛ كان جزاؤهم النار، فكانت لهم مع الكافرين القرار - وفي هذا أخرج الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - قال: " أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما " وفي رواية: " فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لم يدخلها يسحب إليها " ١٩

١٦ - (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

قوله تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا} (مترفيها)، من الترفه وهي النعمة، والمترف المنعّم ٢٠ والمراد بمترفيها: المنعمون الذين بطروا النعمة والعيش الراغد - وقيل: غير ذلك.

والمعنى: إذا أراد الله إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم، أو حان وقت إهلاكهم؛ أمرهم بطاعته واتباع شرعه واجتناب معصيته، وقيل: أمرنا الجبابرة المتسلطين من الحكام والساسة (ففسقوا فيها) أي أبوا إلا أن يفعلوا المعاصي والفواحش والخروج عن دين الله ومنهجه وشرعه، والاستعاضة عن ذلك بشرائع الكفر والباطل (فحق عليها القول) أي وجب عليها الوعيد بالعذاب (فدمّرناها تدميرا) فأهلكناها إهلاكا.

١٧ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

قوله تعالى: {وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا} كم، في موضع نصب مفعول للفعل (أهلكنا) أي كثيرا أهلكنا منهم - وذلك وعيد من الله تعالى يتهدد به المشركين من العرب الذين كذبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإخبار منه سبحانه لهم بأنهم إذا لم ينتهوا عن تكذيبهم وعتوهم وباطلهم الذي هم فيه؛ فإن الله منزل بهم من العقاب ما أنزله بالأمم السابقة كقوم عاد وثمود وغيرهم، أولئك الذين استكبروا وفسقوا عن دين الله وأبوا إلا التمرد والعصيان؛ فقد أهلك الله أمما كثيرة من بعد نوح حتى زمانكم بسبب جحودكم وتكذيبهم، وأنتم أيها المشركون العرب نظراؤهم في الكفر والضلال، ولستم خيرا منهم - فليس من شيء يحول دون تعذيبكم وإهلاككم كما عذبوا وأهلكوا.

قوله: (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصير) الله يعلم ما يفعله العباد من ذنوب، وهو يبصر ما يصدر عنهم من أفعاله؛ فهو سبحانه عليم بالخوافي والأسرار ٢١.

١٨ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

قوله تعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (١٩)}.

في (العاجلة)، عبّر بالنعت عن المنعوت، والمراد الدار العاجلة؛ أي دار الدنيا، وهي دار الفناء - والمعنى: من كان يبتغي الدنيا العاجلة الفانية وحدها ولا يسعى ويشقى إلا من أجلها والاستزادة من متاعها وزينتها (عجلنا له فيها ما نشاء) أي نعجل له في العطاء منها ما نشاء لا ما يشاء المتعجل (لمن نريد) بدل، من قوله: (له) ٢٢ أي من كانت بغيته الدنيا وحدها أعطى الله منها ما شاء أن يعطيه لمن شاء أن يعطيه من هؤلاء الذين لا يبتغون غير الدنيا وزينتها - وبذلك فإن المعجل قد قُيد بقيدين - القيد الأول: قوله: (ما نشاء) أي ما يشاء الله تعجيله منها للمريد، لا ما يشاؤه المريد نفسه.

وبذلك فإن كثيرا ممن يريدون الدنيا وحدها لا ينالون منها ما يريدون ويتمنون؛ لأن الله يعطي الدنيا لمن يشاء من عباده؛ فالمعطي هو الله - .

القيد الثاني: قوله: (لمن نريد) أي لمن يريد الله أن يعجل له العطاء من هؤلاء الذين يريدون الدنيا - وهو ما تقتضيه مشيئته وحكمته.

وهذه حقيقة ما ينبغي أن تغيب عن أولي الاعتبار والنباهة وهي أن المرء مهما غالى في الحرص والسعي والاجتهاد في طلب الدنيا؛ فإنه

لا يعطى منها إلا ما أعطاه الله إياه - وهو بإقباله على الدنيا وإدباره عن الآخرة لا يزيد من حظه في الدنيا إلا ما أعطاه ربه فما يحصد من إدباره عن الآخرة وتشبثه المطلق بالدنيا غير الهوان والخسران.

قوله: (ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا) (يصلاها): يدخلها - أصلاه النار وصلاه إياها وفيها وعليها؛ أي أدخله إياها وأثواه فيها ٢٣، فبسبب عصيانه وإقباله على الدنيا، مدبرا عن الآخرة؛ فإنه صائر إلى جهنم (يصلاها مذموما) أي يدخلها مخزيا ذليلا - والمذموم، إشارة إلى الإهانة والتحقير (مدحورا) أي مبعدا من رحمة الله وفضله، موغلا في الخسران والهوان.

١٩ - (وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

قوله: {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا} من قصد الدار الآخرة فكانت هي طلبته ومبتغاه، وقدم لها من الطاعات والصالحات ما هو لها كفاء (وهو مؤمن) أي مصدق بأركان العقيدة، موقن بوحدانية الله - فالإيمان شرط عظيم في كون الأعمال صحيحة ومقبولة، وإذا لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط وهذا قوله: (كان سعيهم مشكورا) أي مقبولا غير مردود؛ فيجزيهم الله بذلك من الحسنات أضعافا كثيرة، وفي هذا الصدد قال بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب ٢٤.

٢٠ - (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

قوله تعالى: {كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا (٢٠) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١) لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما (٢٢)} (كلا)، منصوب على أنه مفعول (نمد) (هؤلاء)، بدل من " كل " ومعناه: إنا نرزق المؤمنين والكافرين ٢٥ وبيان ذلك أن الله يمد كلا من الفريقين، وهم الذين اتبعوا الحياة الدنيا، والذين ابتغوا الآخرة (من عطاء ربك) أي من رزق الله، فالله جل وعلا يرزق من فضله المؤمنين والكافرين في هذه الحياة الدنيا حتى إذا صاروا إلى الممات افترقوا بعد ذلك، فكل فريق يفضي إلى ما قدم - فمريدوا العاجلة يساقون إلى جهنم - ومريدوا الآخرة يساقون إلى النجاة والنعيم (وما كان عطاء ربك محظورا) أي ليس رزق الله محبوسا عمن بسطه الله عليه؛ فإنه لا يمنعه أحد ولا يرده راد.

٢١ - (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا)

قوله: (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) كيف في موضع نصب بالفعل (فضلنا) ٢٦ فضل الله بعض الناس على بعض في الرزق، وفي غيره من مركبات الحياة الدنيا كالقوة والضعف، والصحة والسقم، وطول العمر وقصره؛ فالناس في ذلك كله متفاوتون مثلما تقتضيه مشيئة الله وحكمته - أما أرزاق العباد؛ فإنها تتفاوت بينهم بالنظر للتفاوت في القدرات والطاقات - وإنما تحصل الأرزاق بفعل الجهود والنشاطات المبذولة - وهذه بين الناس متفاوتة تفاوتا ظاهرا؛ فهم ما بين باذل كادح نشيط، إلى قاعد متخاذل متثاقل - ومن ذكي فطن نبيه إلى غبي بليد أحمق - ومن محترٍّ متحفز غيور، إلى فاتر باهت معزول - وباختلاف هاتيك القدرات والاستعدادات يختلف التحصيل لدى الناس، وكذلك تختلف الأرزاق ليكون الناس بين مقلّ ومُكثر، أو مفتقر وموسر - قال ابن كثير رحمه الله في كيفية التفضيل في الرزق بين العباد في الدنيا: فمنهم الغني والفقير وبين ذلك - والحسن والقبيح وبين ذلك - ومن يموت صغيرا ومن يعمر حتى يبقى شيخا كبيرا، وبين ذلك.

قوله: (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) (درجات)، منصوب على التمييز - وكذلك تفضيلا ٢٧، وذلك تأكيد على أن التفاوت في الآخرة بين العباد أكبر مما في الدنيا - فمن الناس يوم القيامة من يكون في عليين - ومنهم من يكون أسفل سافلين - حتى أهل الدرجات في الجنة يتفاوتون في منازلهم، فمنهم الأعلون في الفردوس، ومنهم دون ذلك، وإن كانوا جميعا في درجات النعيم - وكذلك أهل الدركات في النار تتفاوت أحوالهم في العذاب بين شديد حارق، أو أشد احترارا وتحريقا - فكلا الفريقين متفاوتون.

٢٢ - (لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولا)

قوله: {لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا} المخاطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، والمراد بذلك أمته؛ أي لا تتخذ أيها المكلف مع الله معبودا آخر فيكون شريكا مع الله (فتقعد مذموما) أي فتصير موضعا للذم والتحقير والإهانة (مخذولا) أي ليس لك

ناصر ولا معين - وبذلك يكلك الله إلى الذين عبدتهم مع الله أو من دونه من الآلهة المصطنعة كالأصنام أو الملوك أو الساسة وغيرهم من مختلف الآلهة ٢٨.

٢٣ - (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا)

قوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (٢٣) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا (٢٤)}.

(وقضى) بمعنى أوجب وألزم، وذلك أمر من الله لعباده المؤمنين بألا يعبدوا سواه، وأن يحسنوا بالوالدين إحسانا.

ووجوه الإحسان للوالدين كثيرة - فمنها: التقدير والتكريم والتعظيم وبالغ التواضع لهما، والاحترام - وفي اقتران الأمر بالإحسان للوالدين بعبادة الله وحده تظهر الأهمية الكبرى لطاعة الوالدين في تصور الإسلام - لا جرم أن تكريمهما وطاعتهما في نظر الإسلام أمر بالغ الدرجة، عظيم الأهمية بما ليس له في الشرائع والملل والأديان نظير - إنه ليس من ديانة ولا نظام ولا فلسفة ولا عقيدة كالإسلام في مبلغ التكريم المميز الذي قرره هذا الدين للوالدين، والأم خصوصا - وعلى هذا فإن عقوق الوالدين أو أحدهما من أفظع المعاصي والكبائر التي تورد العاقين جهنم - وهذه حقيقة تكشف عنها الأخبار المروية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتكشف عن مدى الاهتمام الأكبر الذي فرضه الإسلام لكلا الأبوين؛ فقد روى البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي - صلى الله عليه وسلم -: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: " الصلاة على وقتها " قال: ثم أي؟ قال: " بر الوالدين " قال: ثم أي؟ قال: " الجهاد في سبيل الله " وبذلك فإن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم الأعمال في دين الإسلام.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة ".

وروى أحمد أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة ".

وروى أحمد كذلك عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: فبينما أنا جالس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي علي من برّ أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: " نعم؛ خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما؛ فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما ".

وروى البزار في مسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها، فسأله النبي - صلى الله عليه وسلم - هل أديتُ حقها؟ قال: " لا، ولا بزفرة واحدة ".

ومن البر بالوالدين وعدم عقوقهما ألا يكون الولد سببا يفضي إلى سبهما أو شتمهما - وذلك من جملة التفريط بهما والإساءة الكبيرة لهما؛ فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن من الكبائر شتم الرجل والديه " قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: " نعم يسبُّ الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسبُ أمه فيسب أمه ".

ومن الإحسان إلى الوالدين والبر بهما: ألا ينبغي الجهاد في حق الولد إلا بإذن والديه ما لم يكن الجهاد فرض عين، فإن كان وجوبه على التعيين لزم الخروج للجهاد جميع المسلمين - أما في الوجوب على الكفاية؛ فإنه يلزم استئذان الوالدين للخروج؛ فإن لم يأذنا لم يخرج الولد؛ فطاعتهما واجبة على التعيين - وذلك في مقابلة الجهاد إن كان مفروضا على الكفاية؛ فقد روي في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يستأذنه في الجهاد فقال: " أحيٌّ والداك؟ " قال: نعم - قال: " ففيهما فجاهد " - وفي غير صحيح مسلم قال: نعم، وتركتهما يبكيان - قال: " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما ".

ومن عقوق الوالدين: مخالفتهما فيما يرغبانه، فإن من البر موافقتهما في ذلك ما لم يكن معصية - أما ما كان غير معصية فطاعتهما فيه واجبة، وإن كان المأمور به من المباح أو المندوب، فقد روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلقها فأبيت - فذكرت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: " يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك " حديث حسن صحيح.
وما ينبغي تخصيص البر بالوالدين بكونهما مسلمين، بل إن كانا غير مسلمين فإنه يجب الإحسان إليهما وبرهما وطاعتهما في غير معصية الله - ودليل ذلك قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم، إذ عاهدوا النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أبيها فاستفتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: " نعم صلي أمك " والمراد بقولها: وهي راغبة، أي راغبة في برها وصلتها أو راغبة عن الإسلام ٢٩.
على أن الظاهر من الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجحان الاهتمام بالأم على الأب، فقد أوصى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأم أعظم مما أوصى بالأب - وذلك لبالغ الجهد والعناء والنصب الذي يواجه الأم في تربية الأولاد - لا جرم أن عناءها لهو أشد من عناء الأب في ذلك، ومن أجل ذلك أوصى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأمهات كثيرا.
وذلك هو شأن الإسلام مع المرأة الأم، إذ جعل لها من هائل التكريم وكامل الطاعة والرعاية والبر ما يفوق كل تصورات البشر من مشرعين أو متفلسفين أو مصلحين على اختلاف مسمياتهم، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي ٣٠، قال: " أمك " قال: ثم من؟ قال: " ثم أمك " قال: ثم من؟ قال: " ثم أمك " قال: ثمن من؟ قال: " ثم أبوك " ويدل هذا الحديث على أن الشفقة على الأم والاهتمام بها ينبغي أن يكون ثلاثة أمثال الشفقة والاهتمام بالأب لذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط - وقد روي عن الإمام مالك أن رجلا قال له: إن أبي في بلد السودان وقد كتب إلي أن أقدم عليه، وأمي تمنعني من ذلك، فقال له: أطع أباك ولا تعص أمك - وقد سئل الليث بن سعد عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم وزعم ان لها ثلثي البر - وحديث أبي هريرة يدل على أن للأم ثلاثة أرباع البر - وقيل: إنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع.
على أن الأجداد فيما سبق من تفصيل كالآباء - وكذلك الجدات فإنهن أمهات - فلا يغزوا الأولاد بإذنهم - وليس ذلك لأحد من الأقارب سوى الأصول وهم الآباء والأمهات وإن علوا ٣١.
قوله: (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) (إما)، هي، إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها - ولذا دخلت نون التوكيد في الفعل، ولو أفردت إن الشرطية لم يصح دخولها (أحدهما) فاعل (يبلغن) - (كلاهما)، معطوف على (أحدهما).
وقد ذكر الكبر لما يصيب الآباء والأمهات في هذه السن من ضعف في الجسم وفي العقل بل في البنية الشخصية كلها - وفي هذه الحال من الضعف والهرم يكون المرء محتاجا لغيره كيما يعينه ويسعفه ويرأف به فيمد له يد المساعدة - ومن المعلوم بداهة أن الآباء والأمهات كانوا أحرص الخلق على ولدهم في صغره - فما كانت تقضهم أو تثنيهم أوساخه وأقذاره وعبثه عن الاهتمام به والحدب عليه ليظل نظيفا معافى سليما من الأدران أو العبث أو السفه - فإذا ما كبر الآباء والأمهات وانقلبت به الحال من القوة إلى هوان الجسد والأعصاب، لزم الولد أن يبر بهما، ويسعى جاهدا حريصا لخدمتهما والسهر عليهما، ودفع الأذى والمكاره عنهما دون تخاذل في ذلك أو تثاقل أو استكبار - وأيما تخلف دون خدمتهما وطاعتهما، فهو سقوط في العصيان الفظيع المفضي إلى جهنم.
قوله: (فلا تقل لهما أف) (أف)، اسم من أسماء الأفعال، فهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين ٣٢.
والأف معناه الضجر - وقيل: معناه النتن، أي لا تتقذرهما كما أنهما لم يتقذراك حين كنت تتغوط وتبول - والصواب النهي عن إسماع الوالدين أيما إساءة وإن تكن في بساطتها أن يقول الولد لهما أو لأحدهما (أف) وهذه أهون مراتب التضجر أو التبرم، فإن ذلك حرام - وهذا يدل على تحريم سائر أنواع الإيذاء استنادا إلى القياس الجلي وهو إذا نصّ الشارع على حكم صورة وسكت عن حكم صورة

أخرى، وكان ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت أظهر من ثبوته في محل الذكر؛ فإن محل السكوت عندئذ أولى بالحكم كالضرب أو التعنيف والشتم أولى بالتحريم من التأفيف؛ أي أن المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى ٣٣.

قوله: (ولا تنهرهما) نهره وانتهره، بمعنى زجره ٣٤؛ أي لا تزجرهما بما يسيء إليهما في تنغيص أو إغضاب أو تنفير (وقل لهما قولا كريما) وهو أن يكلمهما في لين وسهولة وأدب بما يشير إلى تعظيمهما واحترامهما، وألا يخاطبهما بصوت مرتفع من غير حاجة.

٢٤ - (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

قوله: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أما (الذل) فالمراد به ههنا السهولة وفرط اللين؛ أي ابسط لهما جناحك الذليل من فرط رحمتك بهما وعطفك عليهما - والمقصود من ذلك كله المبالغة في التواضع للوالدين، والشفقة عليهما، والترفق بهما.

قوله: (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) لم يقتصر على إيجاب البر بالوالدين والإحسان إليهما والنهي عن الإساءة إليهما بأدنى مراتب الإساءة كالتأفيف؛ بل أمر الوالد أن يدعو لهما في الحياة وفي الممات بالرحمة - وهو قوله: (ارحمهما) ولفظ الرحمة جامع لكل أصناف الخير والفضيلة؛ فالولد مأمور أن يترحم على أبويه وأن يدعو لهما بالخير والغفران والرحمة في حياتها وبعد موتهما - وذلك جزاء ترحمهما وترفقهما به وحدبهما عليه وهو صغير؛ إذ ربياه في صغره، وكابدا من صنوف التعب والنصب والإرهاق ما يبدد العافية والأعصاب تبديدا، وذلك من أجله كيما يكبر ويترعرع فيصير في عداد الأقوياء والنشطاء والمعافين ٣٥.

٢٥ - (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

قوله تعالى: {ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا} الله عليم بما في ضمائركم من قصد الإحسان إلى والديكم والنية في البر بهما وبذل الخدمة والطاعة لهما.

قوله: (إن تكونوا صالحين) أي صادقين في قصد البر بهم ثم فرطت منكم في حال من التعجل والغضب بادرة أو فلتة فيها إيذاء لهما، ثم رجعتم إلى الله تائبين نادمين (فإنه كان للأوابين غفورا) - المراد بالأوابين: الرجاعون إلى الله - من الإياب والأوب والمآب وهو الرجوع ٣٦ والأواب: هو الذي إذا تلبس بذنب أو خطيئة بادر التوبة دون وناء؛ فهو من شأنه وديدنه الرجوع إلى ربه تائبا نادما على ما بدر منه من إثم أو خطيئة - وروي عن سعيد بن المسيب قال: الأواب الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب ٣٧ - وهكذا لا يبرح المؤمن الأوبة إلى ربه في كل حال ليبادر التوبة كلما تعثرت فيه جارحة من جوارحه بإثم صغيرا أو كبيرا - والله جل شأنه غفار للتائبين النادمين الآيبين - وفي الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا رجع من سفر قال: " آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ".

٢٦ - (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)

قوله تعالى: {وآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا (٢٦) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (٢٧) وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا (٢٨)} بعد الأمر ببر الوالدين وطاعتهما عطف بذكر الإحسان إلى أولي القربى والمساكين وأبناء السبيل - والظاهر أن الخطاب لعامة المسلمين ليضطلعوا بما يناط بهم من واجب الإنفاق على من تجب لهم النفقة فقال: (وآت ذا القربى حقه) فتجب النفقة على المقتدر لمحارمه الأقارب إن كانوا محتاجين - فما تبرأ ذمة المكلف من واجب الإنفاق على المحاويج من أقاربه المحارم حتى يؤدي لهم النفقة - وفي ذلك من سدّ خلتهم ومواساة لهم وتأليف لقلوبهم واستدرار مودتهم ما لا يخفى.

وكذلك المسكين - وقد تقدم الكلام في معناه سابقا - وجملة ذلك: أن المسكين من لا شيء له يكفي عياله - وقيل: الفقير القاعد في بيته لا يسأل الناس، والمسكين الذي يسأل - وقيل: الفقير الذي له بعض ما يقيمه، والمسكين أسوأ حالا من الفقير - وهو قول الجمهور من العلماء ٣٨؛ فإنه يدفع إليه ما يفي بقوته وقوت عياله.

وكذلك ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع به، وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به ٣٩، وهذا يستوجب أن يعطى من المال ما يعنته على سفره حتى يبلغ مقصده.

قوله: (ولا تبذر تبذيرا) التبذير معناه الإنفاق في غير الحق وهو الإسراف - وقيل: النفقة في معصية الله وفي غير الحق وفي الفساد - أما من أنفق في الشهوات، هل هو مبذر؟ فيجاب عن ذلك بأن من أنفق ماله في الشهوات زائدا على الحاجات وعرّضه بذلك للنفاذ فهو مبذر - وإذا لم يعرضه للنفاد فليس بمبذر - ومن أنفق درهما في حرام فهو مبذر يحجر عليه، ولا يحجر عليه ببذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد.

٢٧ - (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

قوله: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) المراد بهم الذين ينفقون أموالهم في معصية الله أو في غير حق؛ فهؤلاء هم (إخوان الشياطين) أي في حكمهم؛ فهم موافقون للشياطين في الصفة والفعل؛ إذ المبذر ينفق ماله في الفساد والحرام.

قوله: (وكان الشيطان لربه كفروا) الشيطان خبيث وعات ومتمرد وهو شديد الجحود لربه فاحذروا التشبه به في الفساد وفعل الحرام.

٢٨ - (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا)

قوله: {وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا} إما، اسم مركب من، إن الشرطية وما الإبهامية (ابتغاء)، منصوب؛ لأنه مصدر في موضع الحال - وتقديره: وإما تعرضنّ عنهم مبتغيا رحمة من ربك ترجوها - وترجوها، جملة فعلية في موضع نصب الحال ٤٠ - والمعنى: إن أعرضت عن ذي القربى والمساكين وابن السبيل حياءً من ردهم وأنت ترجو من الله الرزق والخير فتعطيهم منه (فقل لهم قولا ميسورا) أي سهلا لينا - وذلك أن تدعو الله لهم بالخير والتيسير وسعة الرزق - وذلك في رفق وسهولة ورحمة - وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال: " يرزقنا الله وإياكم من فضله ".

قال الرازي في ذلك: والمعنى: أن عند حصول الفقر و القلة لا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن؛ بل تعهدهم بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال - أو تقول لهم: اله يسهل.

٢٩ - (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

قوله تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (٢٩) إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا (٣٠)} بعد أن أمر الله بالإنفاق على أولي القربى والمساكين وابن السبيل، بيّن كيفية الإنفاق - وجملة ذلك: مجانبة الإفراط والتفريط، أو التقتير والتبذير - وكلا الأمرين في تصور الإسلام بغيض ومحظور - فهما مما نهى الله عنهما ورسوله - لا جرم أن الإسلام دين الاعتدال والتوازن والوسط؛ فهو يندد بالتقتير تنديده بالتبذير - وكذلك يندد بالإفراط كتنديده بالتفريط - وتلك هي المحجة المستقيمة التي رسخها الإسلام بعيدا عن كل ظواهر الزيغ والاعوجاج - ويكشف عن هذه الحقيقة قوله في سورة الفرقان: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال سبحانه ههنا: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) هذا من باب المجاز، عبّر به عن البخيل الممتنع من الإنفاق والذي لا يعطي من ماله شيئا؛ فهو كالذي تشد يده إلى عنقه فلا يقدر على التصرف بها لا أخذا ولا إعطاء - والمراد النهي عن الإمساك والشح؛ فإن الشح بغيض إلى الله بغيض إلى عباده.

قوله: (ولا تبسطها كل البسط) (كل)، منصوب على المصدر لإضافته إليه - وهذا مثل آخر ضربه في المبذر المسرف - ذلك أن قبض اليد يحبس ما فيها، وهو كناية عن البخل - أما بسطها: فإنه يُذهب ما فيها وهو كناية عن التبذير، وكلا النقيضين، البخل: والتبذير، محظور.

قوله: (فتقعد ملوما محسورا) (ملوما)، أي يلوم نفسه على ما فاته من ماله؛ فقد ضيّع ماله بالكلية ولم يُبق لنفسه وأهله وولده منه شيئا - وكذلك يلومه الناس لعدم إعطائهم منه شيئا - و (محسورا)، أي نادما على ما فرط منه، أو منقطعا به لا شيء عنده - والمقصود: تشبيه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره ٤١.

٣٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

قوله: (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الله هو الرازق الباسط، وهو القابض المانع؛ وهو يغني من يشاء ويضيّق على من يشاء لحكمة لا يعلمها إلا هو - ذلك أن الناس في تفاوت جبلاتهم واختلاف طبائعهم ليسوا على نسق واحد في مدى التأثر بالمال وسعة

الرزق، فمنهم من لا يزداد بكثرة ذلك إلا تعسفا وبطرا ليتيه بعد ذلك على وجهه اختيالا واستكبارا وقد أعماه البطر والغرور عن شكر النعمة - ومنهم من يبادر الشكر لله فينفق جل ماله في وجوه البر والخير، فالله سبحانه يعلم من يصلحه الغنى والسعة، ومن يفسده ذلك - وهو قوله سبحانه: (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) ٤٢.

٣١ - (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا)

قوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا} كان العرب يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب ولقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والغارة - وكانوا أيضا يخشون إنكاح البنات من غير الأكفاء إن كن معسرات - وذلك في تصورهم عار شديد، ومن أجل ذلك يحذر الله عباده أعظم تحذير، ويخوفهم بالغ التخويف من فظاعة الإقدام على قتل البنات بسبب الفقر أو الإحساس السقيم بالعار بسببهن فقال: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أي خشية فقر (نحن نرزقكم وإياكم) فإن الله لهو رازق الجميع، فما رزق الأولاد إلا على ربهم وهو سبحانه ضمين بذلك.

قوله: (إن قتلهم كان خطأ كبيرا) أي إثما كبيرا - نقول: خطأ يخطأ بالكسر - مثل: أثم يأثم إثما فالخِطء بالكسر مصدر ومعناه الذنب - والاسم الخطيئة - والجمع: الخطايا - والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي - أما أخطأ يخطئ خطأك إذا أتى بما لا ينبغي من غير قصد - والاسم الخطأ بالفتح ٤٣.

وجملة ذلك: التنديد البالغ بقتل الأولاد خشية الفقر بسبب الإنفاق عليهن - ولا يجترئ على هذا المنكر الفظيع إلا ظلوم أثيم، فإن قراءة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية، فهي بذلك من أعظم البواعث للمحبة والشفقة - فمن ذا الخاطئ الكنود الذي يفعل مثل هذه الفعلة النكراء إلا من أفرغ قلبه من كل معالم الرحمة والشفقة - وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت: يا رسول الله، أي ذنب أعظم؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك " قلت: " ثم أي؟ قال: " أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك " قلت: ثم أي؟ قال: " أن تزني بحليلة جارك ".

٣٢ - (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا)

قوله تعالى: {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا} الزنا، ذميمة مستقذرة ومشينة، بل هو قاذورة من القاذورات التي تتدنس بها أشخاص الزناة والزواني.

ولقد شدد الإسلام النكير على الزنا، لأنه خلق الفاسدين والآسنين من الناس الذين يرتعون في مستنقع الفحش والقذر - والذين لا يستمرئون النكاح الطاهر المشروع بل يروق لهم الغوص في وحل الرذيلة ودهاليز الخنا لينتكسوا بذلك إلى حظيرة البهائم العجماوات التي لا يحكمها عرف ولا نظام - على أن الزنا رذيلة بالغة الفحش لأنه سبب لخلط المياه وتزييف النسل والأنساب، فهو بذلك سبيل يفضي إلى الفحش والخيانة في الذرية والأولاد - وذلك هو ديدن الحضارة المادية في هذا الزمان، الحضارة التي تسخر من القيم والفضائل وتستند في أساسها إلى الشهوات والأهواء والغرائز، أو ما تميل إليه النفوس من حق أو باطل، فما تعبأ الحضارة المادية في هذا الزمان بغير مقتضيات الغريزة، بغض النظر عن مبادئ الدين أو ظواهر الخلق والفضيلة - ولعل ظاهرة الزنا الفاحش المستشري، أكثر شيوعا في المجتمعات المادية الجاحدة التي سوّل لها شياطين الإنس فعل المنكرات والمعاصي التي اتفقت على تحريمها الأديان السماوية ومن أظهرها الزنا - لقد سولت الشياطين البشرية أن ذلك معقول ولا ضير في فعله أو الإغراق فيه ما لم يكن غصبا - هكذا سوّل المضلون الأشقياء من أمثال فرويد وداروِن ودوركايم وأتباعه ومريديهم من الضالين والمخدوعين في كل مكان، لقد سولوا للبشرية المخدوعة المضللة أن الزنا ممارسة جنسية لا غبار عليها وهو كغيره من المطالب الفطرية التي يستوي فيها الأحياء من بشر وبهائم، فليس من عيب أو بأس أو مخالفة في فعله - فاستجابت البشرية المضللة لمثل هذه الأصوات الشيطانية حتى غاصت في وحل القاذورات وانتكست إلى حمأة الدنس انتكاس السادرين التائهين الحيارى.

لكن الإسلام الذي يقيم الحياة على لاطهر والصفاء والنظافة، ويبني مجتمعه على الصراحة والاستقامة والوضوح، بعيدا عن فوضى البهائم الصُّم، وعن مفاسد العهر الفاضح- قد حرم الزنا أشد تحريم بقدر تحضيضه وتحريضه على النكاح الطاهر المبارك - النكاح المبرأ

السليم، القائم على المودة المستديمة والانسجام المترابط الوثيق - فقال سبحانه: (ولا تقربوا الزنى) نهى عن مجرد القرب من الزنا - وهو يدل على تحريم كل أسباب الزان ودواعيه وبواعثه التي تفضي إليه كالتقبيل والخلوة والنظرات المكرورة المريبة، والاختلاط الفاجر المغالي؛ لما في ذلك من مدعاة يخشى معها الوقوع في الفاحشة.

ثم علل النهي عن الزنا والدنو منه بقوله: (إنه كان فاحشة) أي معصية مجاوزة لحد الشرع والعقول - فكل شيء جاوز حده فهو فاحش ٤٤.

قوله: (وساء سبيلا) أي وساء طريق الزنا طريقا؛ لأنه طريق الخراب والفحش والرذيلة وفساد الأفراد والمجتمعات ٤٥.

٣٣ - (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)

قوله تعالى: {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا}.

ذلك نهي غليظ عن معصية فظيعة كبرى وهي قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق - وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان أو تقتل قودا بنفس، وفي ذلك ورد في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة ".

والأصل في قتل النفس التحريم - وإزهاق النفس بغير حق جريمة فظيعة لا يفوقها في البشاعة والنكر غير الإشراك بالله - وفي الحديث: " لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم " والنفس المؤمنة ذات شأن وقدر عظيمين في ميزان الله - والله جل وعلا يجب أن يُعبد في الأرض حق العبادة - ومن عبدته المؤمنون من البشر الذين يؤمنون به إيمانا ويسبحون بحمده في كل آن، ويذكرونه قياما وقعودا وفي كل الأحوال.

ذلكم هو الإنسان المؤمن الذي كتب الله أن يصان دمه فلا يُعتدى عليه أيما اعتداء - وما الاعتداء على المسلم بالقتل إلا ذروة العدوان الصارخ وقمة المعاصي والموبقات التي تودي بالمجرمين القتلة إلى جهنم وبئس المصير.

قوله: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) (قتل مظلوما) - أي قتل دون حق - وذلك بغير ما تبين من أسباب وهي القتل والزنا والردة - والولي من الولْي، بسكون اللام، ومعناه القرب - والمقصود ههنا: النسب الذي هو البعضية؛ فكل من ينتسب إليه بنوع من أنواع البعضية فهو ولي.

واختلف العلماء في المراد بالولي؛ فقد قيل: يراد به الوارث مطلقا؛ فكل من ورث القتيل فهو وليه - واختلفوا في دخول النساء في الدم؛ فقد قيل بدخولهن لعموم الآية - وقيل: بعدم دخولهن.

قوله: (سلطانا) معناه حجة، يجوز له بمقتضاها قتل القاتل؛ فهو بذلك إن شاء قتل، وإن شاء عفا على الدية، وإن شاء عفا مطلقا؛ أي من غير دية؛ وذلك لما صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوم فتح مكة: " ألا ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: بين أن يقتل، أو يأخذ الدية " على أن تشريع السلطنة لولي القتيل المظلوم على هذه الكيفية لهو أنف وأصلح للناس انسجاما مع فلسفة الإسلام المراعية للفطرة البشرية المختلفة لدى الناس - وهم ما بين راغب في انتقام لنفسه من الجاني، أو راغب في ماله يأخذه دية عن قتيله وكفى، أو راغب في عفو مطلقا - لكن التوراة لم تقرر غير القتل تشريعا لجناية القتل العمد - وعلى النقيض منها الإنجيل؛ إذ لم يقرر القصاص ولا الدية - وإنما أوجب العفو مطلقا - فكل من الكتابين إنما يراعي صنفا من البشر دون الأصناف الأخرى - لكن شريعة الإسلام قد راعت كل أصناف البشر على اختلاف رغباتهم وطبائعهم وأهوائهم.

قوله: (فلا يسرف في القتل) أي لا يقتل غير قاتله؛ فقد كان أهل الجاهلية إذ قتل رجل رجلا، عمد ولي القتيل إلى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بوليه وترك القاتل؛ فنهى الله عن ذلك؛ لأنه إسراف في القتل - وقيل: لا يقتل بدل وليه اثنين، كما كانت العرب تفعله.

وقيل: لا يمثل بالقاتل - وقيل: كل ذلك إسراف منهي عنه.

قوله: (إنه كان منصورا) الهاء، عائدة على القتل - وقيل: على الولي - وقيل: على المقتول - ٤٦ والراجح أنها عائدة على الولي؛ لأنه أقرب مذكور، ولأنه ولي دم المقتول، وقد سلطه الله على القاتل الظالم، فليكتف بهذا القدر فإنه يكون فيه منصورا ولا ينبغي أن يطمع

فيما هو أكثر ٤٧.
٣٤ - (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا)

قوله تعالى: }ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا (٣٤) وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا (٣٥)} قضى الله أن لا يقرب الناس مال اليتيم بغير حق أو على سبيل الطمع، كأكله إسرافا وبدارا قبل أن يبلغوا الرشد، بل أمرهم أن يقربوه بالتي هي أحسن - وذلك أن يتصرفوا فيه بقصد الإصلاح والتثمير - وقيل: لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكانوا لا يخالطونهم في طعام أو أكل ولا غيره، فأنزل الله تعالى: (وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) فكانت هذه لهم فيها رخصة.

قوله: (حتى يبلغ أشده) الأشد، بمعنى القوى في البدن والعقل والتجربة، وصلاح حاله في دينه وسلوكه - وعندئذ تزول عن اليتيم ولاية غيره.

قوله: (وأوفوا بالعهد) العهد يشمل كل عقد من العقود فيما بين الناس، سواء في البيوع أو الإجارات أو الشركات أو الأيمان النذور أو عقود الصلح والأنكحة أو ما يجري من تعاقد بين المسلمين وأهل الحرب كالصلح ونحوه؛ فكل ذلك عهد يجب الوفاء به.

قوله: (إن العهد كان مسؤولا) الله سائلكم عن نقض العهود فلا تنقضوها؛ فإنه لا ينقض العهود والمواثيق أو يخفرها إلا الغادرون الخائنون - لا جرم أن المسلمين أصدق الناس حديثا وأوفاهم عهدا وأبعدهم عن مواطن الخداع والخيانة والدغل ٤٨.

٣٥ - (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا)

قوله: (وأوفوا الكيل إذا كلتم) أي أتموا الكيل ولا تبخسوا الناس من حقوقهم شيئا (وزنوا بالقسطاس المستقيم) القسطاس بمعنى الميزان - وهو مأخوذ من القسط ومعناه المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الجانبين ٤٩؛ أي إذا وزنتم الناس فزنوهم بالميزان المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا ميل ولا غش - كقوله سبحانه: (ألا تطغوا في الميزان) أي لا تجاوزوا الحد لا بزيادة ولا بنقصان.

قوله: (ذلك خير وأحسن تأويلا) الإشارة عائدة إلى الوفاء في الكيل، والوزن بالعدل - وذلك كله خير لكم؛ إذ تنتزعون من الناس محبتهم وثقتهم وكمال إقبالهم عليكم بيعا وشراء فتكسبون وترزقون - وهو كذلك أحسن تأويلا؛ أي أحسن عاقبة لكم وذلك في الآخرة إذ يكتب الله لكم حسن المثوبة والجزاء ٥٠.

٣٦ - (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا)

قوله تعالى: }ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا} (تقف)، تتبع - قفا أثره؛ أي اتبعه، واقتفى أثره وتقفاه بمعنى تبعه - وقافية كل شيء آخره - ومنه اسم النبي - صلى الله عليه وسلم - المقفّى؛ لأنه جاء آخر الأنبياء - ومنه القائف الذي يتبع أثر الشبه ٥١ - والمعنى: لا تقل ما ليس لك به علم، أو لا تقل رأيت ولم تر - وسمعت ولم تسمع - وعلمت ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن كل ذلك، وبذلك نهى الله عن القول بالظن أو بغير علم - وفي الحديث: " اجتنبوا الظن؛ فإن الظن أكذب الحديث " ومن شأن المؤمن أن لا يفلت للسانه العنان فيتحدث بكل ما يظن أو يهوى وهو لا يحفزه إلى كثرة الحديث المظنون إلا رغبة سقيمة في الثرثرة واللغط وهو ما يفضي في الغالب إلى التعثر والوقوع في الزلات والتلبس بالخطل.

قوله: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) الله جل وعلا يسأل جوارح الإنسان يوم القيامة فتنطق بما أحست أو شاهدت، فيسأل السمع عما سمع، والبصر عما رأى، والفؤاد عما اعتقد؛ فكل عضو من هذه الأعضاء مسؤول أمام الله عن الإنسان ليلقى ما يستوجبه من الجزاء.

٣٧ - (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا)

قوله تعالى: }ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا (٣٧) كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها (٣٨)} ذلك نهي من الله لعباده عن المشي مرحا - و (مرحا)، منصوب على الحال - والمرح معناه التكبر والبطر وشدة الخيلاء

والتبختر في المشية ٥٢، وكل هذه الأوصاف لا ينبغي أن يتلبس بها خلق المسلم لكونها ذميمة يبغضها الله - وما يحب الله لعبده إلا أن يتسم بشيمة التواضع في مشيه وحديثه وسلوكه كله، ليكون عند الله مرضيا مكرما - وفي الحديث: " من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير - ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير " - والاستكبار والخيلاء والبطر من أسوأ الأوضار الشخصية التي تشين الإنسان وتجعله في عداد المبغوضين والمقبوحين الذين تطوقهم اللعنة ويشتد عليهم من الله الغضب - لا جرم أن المستكبرين المتبخترين البطريين صائرون إلى أوخم العواقب من التعس والمقت في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا تحيط بهم الكراهية والاستخفاف من الناس، وفي الآخرة يصيرون إلى مثواهم المنتظر في جهنم.

وفي التنديد بالمتكبر المختال يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل ٥٣ فيها إلى يوم القيامة ".

قوله: (إنك لن تخرق الأرض) لن تستطيع أن تنقب الأرض أو تجعل فيها خرقا بدوسك لها ووطئك عليها (ولن تبلغ الجبال طولا) (طولا)، منصوب على المصدر في موضع الحال، أي لن تساوي الجبال بطولك وقدرتك، وأنت تتيه في مشيتك بطرا وخيلاء - ولكنك في حقيقتك عبد ضعيف تحيط بك ظواهر الضعف من كل جانب - فما ينبغي لإنسان هذا شأنه أن يستكبر أو يختال في الأرض مرحا وغرورا.

٣٨ - (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

قوله: {كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها} (سيئة)، سيئ مضاف، والضمير مضاف إليه (كل ذلك)، مبتدأ - و (ذلك) إشارة إلى المذكور المتقدم من قوله: (وقضى ربك) إلى هذا الموضع - و (سيئة) مرفوع بكان - و (مكروها) خبر كان، منصوب - والمعنى: كل هذا الذي ذكره الله مما نهى عنه وحذر منه تحذيرا مثل عقوق الوالدين وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس ظلما واتباع ما ليس للإنسان به علم والمشي في الأرض تكبرا ومرحا، كل أولئك مقبوح وهو عند الله بغيض ومكروه ٥٤.

٣٩ - (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)

قوله تعالى: {ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا} الإشارة، إلى ما تقدم ذكره من الآيات بداء بقوله: (ولا تجعل مع الله إلها آخر) حتى هنا - وقد سمى ذلك حكمة، لأنه كلام كريم ومحكم لا مدخل فيه للفساد أو النقص بحال - وهي في جملتها تنهى عن الشرك وتدعو إلى التوحيد الخالص لله وما يقتضيه هذا الأصل من مختلف الطاعات والعبادات.

قوله: (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) الخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - - والمراد به كل الناس، إذ يحذرهم من فظاعة الشرك - لا جرم أن الشرك ظلم عظيم، فهو يودي بالمشركين في جهنم ملومين مدحورين، أي تلومون أنفسكم ويلومكم الخلق فيحيط بكم التعس والحسرة والندامة من كل جانب فلا يغني عنكم ذلك من العذاب شيئا - والمدحور، معناه المبعد من كل خير ورحمة.

٤٠ - (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا)

قوله تعالى: {أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما} ذلك تنديد غليظ من الله جل وعلا بالمشركين السفهاء الذين قالوا: الملائكة بنات الله - وهذه المقالة وحدها بالغة الفظاعة والنكر، فهم بذلك متلبسون بالشرك غاية التلبس مع أنهم لا يرضون البنات لأنفسهم، إذ كانوا ينتغصون من ولادتهن ويتحجرون من جيئتهن تحرجهم المخزي، بل كانوا لا يتورعون عن وأدهن في الثرى - فقال الله لهم موبخا: (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) الهمزة للاستفهام الإنكاري، إذ يقول لهم الله مستنكرا: أتجعلون لأنفسكم ما تحبون، ولله ما تبغضون؟ أفترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم؟!

إنكم بقيلكم الظالم هذا إنما تفترون على الله أفظع افتراء، وتكذبون عليه أشد الكذب.

٤١ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا نُفُورًا)
قوله تعالى: {ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا} التصريف في اللغة معناه صرف الشيء من جهة إلى جهة؛ كتصريف الرياح، وتصريف الأمور - ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين؛ لأن من يبتغي أن يبيّن كلامه ويوضحه، فإنه يصرفه من نوع إلى نوع آخر، ومن مثال إلى مثال آخر؛ كأن يجعله وعدا ووعيدا، وأمرا ونهيا، وأخبارا وأمثالا، ومواعظ وحكما - وذلك ليكتمل الإيضاح والبيان، ويظهر فيه الحجة والبرهان على أتم ما يكون عليه التبيان - وقيل: (في) زائدة كقوله: (وأصلح لي في ذريتي) أي أصلح لي ذريتي.
قوله: (ليذكروا) أي ليعتبروا ويتدبروا ما بيناه من الأدلة والحجج، فيبينوا إلى ربهم طائعين مذعنين (وما يزيدهم إلا نفورا) أي لا يزيد المشركين ما بيناه لهم من المواعظ والدلائل والعبر إلا إدبارا عن الحق وإمعانا في الضلال والباطل - وذلك هو ديدن الظالمين التائهين، أولي القلوب الغُلْف، والطبائع السقيمة؛ فإنهم لا يزيدهم التذكير والتحذير والزجر إلا عتوا واستكبارا ٥٥.
٤٢ - (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا)
قوله تعالى: {قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا (٤٢) سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (٤٣)} أي قل لهؤلاء المشركين الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى كالأصنام: لو كان مع الله آلهة- كما تفترون وتصطنعون- لكانت هذه الآلهة المزعومة قد التمست التقرب من الله بعبادته والإذعان له؛ فعليكم بعد ذلك أن تتبينوا وتوقنوا أن أصنامكم هذه التي تزعمون أنها تقربكم إلى الله ليست غير آلهة موهومة مصطنعة.
٤٣ - (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)
قوله: {سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا} ينزه الله نفسه عما لا يليق به وعما وصفه به المشركون، إذ جعلوا معه آلهة غيره وقالوا: إن الملائكة بنات الله تعالى الله عن كل ما يتقوله هؤلاء الضالون ويفترونه تعاليا كبيرا.
٤٤ - (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)
قوله تعالى: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا} ذلك بين من الله جل جلاله على أن السماوات السبع على سعتهن وعظمتهن التي تفوق تصور البشر وخيالهم، وكذا الأرض، (ومن فيهن)، من الملائكة والإنس والجن من المؤمنين؛ كل أولئك ينزهون الله عما وصفه به المشركون إجلالا له وتعظيما - ثم انتقل من التخصيص إلى التعميم فقال: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي وما من شيء من المخلوقات في السماوات أو في الأرض إلا يسبح بحمد الله فيقول: سبحان الله وبحمده (ولكن لا تفقهون تسبيحهم)؛ لأن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا؛ فهي تسبح بخلاف لغات البشر - وإنما تسبح بلغتها التي لا يعلمها إلا هو سبحانه - روى الإمام أحمد عن أنس (رضي الله عنه) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم رواحل فقال لهم: " اركبوها سالمة، ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق؛ فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه ".
وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل الضفدع وقال: " نقيقها تسبيح ".
واختلفوا في تخصيص العموم في قوله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) فقيل: ليس مخصوصا - والمراد به تسبيح الدلالة؛ أي أن كل محدث يشهد على نفسه بأن الله هو الخالق القادر - وقيل: هذا التسبيح على حقيقته - فما من شيء في الكون إلا ويسبح الله تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهونه - وقيل: المراد به الخصوص في كل حي؛ فالشجرة حال إثمارها واخضرارها، تسبح بحمد الله - وإذا أصبحت خوانا، فإنها لا تسبح - والخوان، بكسر الخاء؛ أي الذي يؤكل عليه - وهو معرب ٥٦.
والمراد بالخوان، المائدة من الخشب - ويستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرّ بقبرين فقال: " إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما: فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة " ثم أخذ جريدة رطبة

فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال: " لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا ".
ويستفاد من ذلك أيضا أن قراءة القرآن تخفف من عذاب أهل القبور - قال القرطبي في ذلك: وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن.
والذي أجده أصوب القول بالعموم - فما من شيء، حيا كان أو جمادا، أخضر أو يابسا، إلا يسبح بحمد الله، إذ يقول: سبحان الله وبحمده - ويدل على ذلك من الأخبار ما رواه ابن ماجه في سننه ومالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي قال: " لايسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة ".
٤٥ - (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)
قوله تعالى: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أدبارهم نفورا (٤٦) نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٤٧) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٤٨)}.
أي إذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين جعلنا بينك وبينهم (حجابا مستورا) أي مانعا يحول دون رؤيتهم إياك أو وصولهم إليك - و (مستورا) بمعنى ساتر - وفي ذلك قال الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله تعالى عنها) قالت: لما نزلت سورة (تبت يدا أبي لهب وتب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر ٥٧ وهي تقول:
مذمّما عصينا - - - وأمره أبينا - - - ودينه قلينا
والنبي - صلى الله عليه وسلم - قاعد في المسجد، ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) - فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إنها لن تراني " وقرأ قرآنا فاعتصم به منها - وقرأ: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) فوقفت على أبي بكر (رضي الله عنه) ولم تر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا أبا بكر أُخبِرْت أن صاحبك هجاني - فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك - قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.
ويزاد إلى هذه الآية أول سورة " يس "، فإن ذلك يعصم قارئ هذه الآيات من كيد الظالمين وشرهم - فقد جاء في السيرة عن هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومُقَام علي (رضي الله عنه) في فراشه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ لدى خروجه حفنة من تراب في يده، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم) إلى قوله: (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) حتى فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا - ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ٥٨.
٤٦ - (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)
قوله: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) (أكنة)، جمع كنان وهو ما يستر الشيء، فقد جعل الله على قلوب الظالمين الجاحدين أغشية كنافا لئلا يفهموا القرآن أو يدركوه ويعوا ما فيه من عظيم المعاني (وفي آذانهم وقرا) جعل الله في آذانهم صمما وثقلا كيلا تسمع هذا القرآن سماعا يفضي إلى هدايتهم، فهم بفطرهم الزائغة وقلوبهم الغُلف لا يطيقون سماع هذا الكلام العجيب وما حواه من كريم المعاني والأفكار.
قوله: (إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أدبارهم نفورا) (وحده)، مصدر سد مسد الحال - وأصله وحد يحد وحدا - ووحده بمعنى واحدا - والمعنى: أن المشركين لفرط حقدهم وكراهيتهم للإسلام لا يطيقون سماع الحق الماثل في شهادة لا إله إلا الله - فإذا قلت وأنت تتلو القرآن: لا إله إلا الله (ولو على أدبارهم نفورا) أدبروا نافرين نفورا، أي خرجوا مبغضين قالين ٥٩.

٤٧ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا)

قوله: (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك) (به)، في موضع الحال، أي نحن أعلم يا محمد بالحال أو الطريقة التي يستمعون بها القرآن وهي السخرية والتهكم والتكذيب (إذ يسمعون إليك) في موضع نصب بأعلم، أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون إليك.

قوله: (وإذ هم نجوى) وأعلم بما يتناجون به في أمرك، إذ قالوا فيما بهم إنه ساحر - وإنه مجنون - وإنه كاهن - وإنه شاعر - وغير ذلك من أباطيل المشركين.

قوله: (إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) وهو قول الكبراء والسادة من المشركين، إذ قالوا للناس: إنكم لا تتبعون إلا رجلا قد خبله السحر فاختلط عليه عقله - وذلك ليشيعوا من حوله الشكوك والأباطيل فينفر عنه الناس نفورا.

٤٨ - (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا)

قوله: (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) الأمر للتعجب، إذ يعجّب الله نبيه (ص) من سلوك المشركين الخبيث ومن فساد صنعهم وفرط كراهيتهم لهذا الدين المبارك، فقد افتروا الكذب والأباطيل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، إذ قالوا عنه: كاهن وساحر وشاعر ومجنون (فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أي زاغوا عن المحجة المستقيمة البيضاء، محجة الإسلام المشرق الوضاء سادرين تائهين حيارى لا يهتدون إلى حق ولا صواب ٦٠.

٤٩ - (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

قوله تعالى: }وقالوا أإذا كنا عظاما ورزقنا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا (٤٩) قل كونوا حجارة أو حديدا (٥٠) أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (٥١) يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (٥٢){ الاستفهام للإنكار، فقد قال الكافرون في تكذيب وجحود (أإنا كنا عظاما ورزقنا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) (خلقا)، منصوب على الحال، أي مخلوقين مجددا - والمعنى: أإذا كنا في القبور عظاما وحطاما وقد أتى علينا البلى، هل نبعث من جديد يوم القيامة - وذلك إنكار منهم للبعث والمعاد، ولا يحفزهم للنطق بهذه المقالة إلا هو أن أحلامهم وفرط كراهيتهم للإسلام ورسوله الأمين.

٥٠ - (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

قوله: }قل كونوا حجارة أو حديدا{ وهذا أمر تعجيز، إذ يأمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالقول للمشركين (كونوا حجارة أو حديدا) فهما أشد امتناعا وأعظم صلابة من العظام والرفات وهو الحطام.

٥١ - (أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)

(أو خلقا مما يكبر في صدوركم) أي السماوات والأرض والجبال، فهي خلائق عظيمة في نفوسهم يهابونها أشد المهابة - والمراد: أنكم تستعبدون وتكذبون أن يجدد الله خلقكم فيردكم إلى حال الحياة بعد ما أصبحتم عظاما نخرة، فكونوا ما شئتم إن استطعتم، فإن الله محييكم وباعثكم خلقا جديدا يوم القيامة - قوله: (فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) سيقول المشركون المكذبون: من ذا الذي يعيدنا خلقا جديدا بعد أن كنا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدورنا؟ فقل لهم يا محمد: يعيدكم الذي فطركم أول مرة، إذ لم تكونوا شيئا، فالله الخالق القادر لا يعز عليه أن يصنع ما يشاء.

قوله: (فسينغضون إليك رؤوسهم) أي يحركون رؤوسهم استهزاء مما سمعوه منك - أنغض رأسه، أي حركه كالمتعجب من الشيء ٦١ - أنغض رأسه ينغضه إنغاضا - والإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل - وذلك هو ديدن المرتابين الغواة في كل زمان - فدأبهم وديدنهم التكذيب مبادرين من غير روية ولا استبصار ولا إمعان - فما يلبثون أن يسمعوا كلمة الحق تصدر عن دعوة الإسلام حتى يبادروا التكذيب والصد وهم ينغضون رؤوسهم تهكما واستهزاءً - أولئك هم الضالون المضلون في كل زمان الذين

أبوا إلا السقوط في الشقوة والتعس والعمه ليصيروا في الآخرة إلى جهنم.

قوله: (ويقولون متى هو) يسأل المشركون، مرتابين مستبعدين قيام الساعة: متى البعث والمعاد (قل عسى أن يكون قريبا) أي يوم الساعة آت لا محالة - وكل ما هو آت قريب.

٥٢ - (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا)

قوله: (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) (يوم)، منصوب بفعل مقدر، والتقدير: اذكروا يوم يدعوكم - وقيل: منصوب على أنه ظرف - والتقدير: نعيدكم يوم يدعوكم ٦٢.

والمعنى على التقدير الأول: اذكروا أيها الناس يوم يدعوكم ربكم إلى الخروج من قبوركم يوم القيامة حيث الحساب والجزاء فتستجيبون لله بأمره وندائه لكم إلى المحشر وأنتم تقولون: سبحانك اللهم وبحمدك - (وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أي يوم تقومون من قبوركم تحسبون أنكم لم تمكثوا في الدنيا إلا زمانا قليلا - أو لم تمكثوا في القبر إلا قليلا - وذلك بعد معاينة القيامة بأهوالها الجسام وقوارعها المزلزلة العظام - وإذ ذاك يستصغر الظالمون الحياة الدنيا ويعلمون أنها قصيرة ومهينة ٦٣.

٥٣ - (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا)

قوله تعالى: {وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا} يأمر الله عباده المؤمنين بحسن المحاورة والخطاب فيما بينهم - وخليق بالمؤمنين في محادثاتهم ومجادلاتهم أن يتخاطبوا بالكلمة الطيبة، وأن يتجلى فيهم الأسلوب الأحسن - فما ينبغي أن يحدث بعضهم بعضا بالغليظ من الكلام والبذيّ من اللسان لما في ذلك من تنفير للقلوب وشحنها بالكراهية والاضطغان بدلا من الوئام والمودة والتحنان.

والإنسان بطبعه تؤزّه فظاظة الحديث وبذاءة اللسان - فما يتلقى الإنسان من خصمه فاحش القول حتى يستشيط كراهية ونفورا وامتعضا - وذلك يفضي في الغالب إلى اشتداد الخصام والشقاق بين المسلمين، وتدمير الأخوة والعلائق الودية فيما بينهم - وهذا ما يبتغيه الشيطان للعباد - وهو قوله سبحانه: (إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) (ينزغ) بمعنى يفسد ٦٤؛ فالشيطان كائن شرير، قد جبل على الشقاوة والشر، وهو عدو لآدم وذريته - وهو بطبعه يركم في أعماقه الحقد والضغينة والرغبة المستديمة في الانتقام من البشر بإيرادهم موارد الشر والمكاره والخسران - فما من فرصة أو فسحة إلا ويتدسس من خلالها الشيطان من أجل الوقيعة بين الناس؛ فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار ".

٥٤ - (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلا)

قوله تعالى: {ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا (٥٤) وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض وآتينا داود زبورا (٥٥)} الله عليم بمن يستحق التوفيق والرحمة من عباده فيهديه لدينه - وهو أيضا عليم بمن يستحق الخذلان فيضله ويعذبه - فما يكون من رحمة ولا عذاب إلا بمشيئة الله - وأنه لا يندّ عن مشيئته وإرادته شيء - قوله: (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أي ما أرسلناك للناس لتكون عليهم رقيبا، وإنما أرسلناك إليهم لتبلغهم دعوة الله وتحذرهم الوقوع في الشرك والعصيان.

٥٥ - (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

قوله: (وربك أعلم بمن في السماوات والأرض) الله عليم بخلقه الذين حفلت بهم السماوات والأرض؛ فهم في كفرة أعدادهم واختلاف أنواعهم وأجناسهم وألوانهم وطبائعهم لا يعلمهم إلا الله - وقد خلق الله عباده مختلفين متفاوتين فيما بينهم في القدرات والطاعات والفطر - والله عليم بمن يستحق الرحمة والتوفيق والهداية ليكون من أهل الفلاح والنجاء، وهو سبحانه عليم أيضا بمن يستحق الخذلان ليكون من أهل التعس والشقاء.

قوله: (ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض) هذه سنة الله في عباده أن جعلهم مختلفين في أقدارهم ومنازلهم، متفاوتين في درجاتهم ومراتبهم - وهذه الحقيقة في المفاضلة تنسحب على عموم النبيين والمرسلين ولا خلاف أن المرسلين أفضل من النبيين غير المرسلين - وكذلك فإن أولي العزم من الرسل أفضل من بقيتهم - وأولوا العزم من الرسل خمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام - ويستفاد من ذلك قوله: (وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) ومن الثابت أن محمد أفضل النبيين والمرسلين، ومن بعده إبراهيم الخليل، ثم موسى، ثم عيسى - وذلك هو تقدير الله في الخلق لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

قوله: (وآتينا داود زبورا) ذلك تنبهي على فضل هذا النبي الكريم؛ فقد آتاه الله الزبور - وهو كتاب سماوي مقدس يتكون من مجموعة من الخطب والدعاء كان داود يخاطب بذلك ربه كلما دخل بيت العبادة - وبذلك فإن الزبور ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود - وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد - وقد روي عن أنس قوله في ذلك: " الزبور ثناء على الله، ودعاء وتسبيح " ٦٥.

٥٦ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلا)

قوله تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا (٥٦) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا (٥٧)} (أولئك)، مبتدأ - و (الذين)، صفته - و (يدعون) صلة الموصول - و (الذين) وصلته في موضع رفع صفة للمبتدأ - و (يبتغون)، خبر المبتدأ - و (أيهم) مبتدأ، (أقرب)، خبره ٦٦ والمعنى: أن الله يأمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالقول للمشركين الذين يعبدون من دونه الأصنام والأنداد: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وتزعمون أنهم آلهة - ادعوهم أن يكشفوا عنكم ما يحيق بكم من الضر والبلاء، ثم انظروا ليستبين لكم أنهم لا يستطيعون دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم - وإنما القادر على دفع الضر والبلاء عنكم أو تحويله إلى غيركم لهو الله وحده دون أحد من خلقه.

لا جرم أن يكون في ذلك درس للمسلمين في كل زمان ليعوه ويتدبروه فيستيقنوا أن كاشف الضر عنهم إنما هو الله وحده - فما ينبغي لهم بحال أن يعتمدوا على العباد كالرؤساء والكبراء والعظماء من الناس - ما ينبغي للمسلمين في كل الأحوال أن يركنوا إلى المخاليق في كشف ما يحيق بهم من النوائب والملمات - وإنما يركنوا إلى الله وحده بعد أن يتخذوا لذلك ما استطاعوا من الاستعداد والأسباب.

٥٧ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

قوله: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) سبق إعرابه، وقد ذكر أن نفرا من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون - والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم فنزلت هذه الآية - والمعنى: أن أولئك الذين تعبدونهم (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي يطلبون من الله الزلفة والقربة وهم يتضرعون إلى الله بالعبادة والطاعة (أيهم أقرب) (أيهم)، بدل من واو و (يبتغون) - أي يبتغي من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أي يرومون من الله الرحمة بعبادتهم إياه وطاعتهم له - ويخافون عذابه كما يخاف غيرهم من عباد الله، فكيف تزعمون أنهم آلهة.

قوله: (إن عذاب ربك كان محذورا) عذاب الله وجيع وواصب - وهو لا تطيقه الكائنات حتى الرواسي الشامخات لو وضعت فيه لانماعت، وذلك لفظاعة لهيبه وشدة احترارة، فهو بذلك حقيق أن يحذره كل أحد ٦٧.

٥٨ - (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

قوله تعالى: {وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا (٥٨) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا (٥٩)}.

(وإن)، حرف نفي بمعنى ما - و (من)، تفيد الاستغراق - وهذا إخبار من الله سبحانه بأنه ما من أهل قرية من قرى الكافرين الضالين

إلا سيهلكهم الله إما بموت، وإما بعذابهم استئصالا، وذلك بمختلف وجوه العذاب والبلاء - وقيل: المراد سائر الأمم من مؤمنين ومجرمين؛ فالمؤمنون يهلكهم الله بالموت وهو ما لا مندوحة عنه - وأما المجرمون فيهلكهم بالعذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة - ذلك أن ينتقم من المجرمين الأشرار ومن سائر الطغاة والعصاة بما يصيبهم من البلاء بتعدد أشكاله وصوره كالأسقام والزلازل والقحط والحروب والويلات الاجتماعية والعلل الشخصية، الفردية والجماعية - كل ذلك يصيب الله به عباده التائهين والناكبين عن دينه وصراطه المستقيم في هذه الدنيا (قبل يوم القيامة) وفي هذا اليوم الحافل الموعود يشتد الهول والبلاء، وتحيط بالمجرمين النار فلا يجدون عنها ملاذا ولا موئلا (كان ذلك في الكتاب مسطورا) (الكتاب)، اللوح المحفوظ، وفيه علم الأولين والآخرين - وما من شيء من أخبار الدنيا والآخرة إلا هو مسطور فيه أي مكتوب - من السطر، بسكون الطاء، وهو الخط والكتابة وجمعه أسطر وسطور - واستطر؛ أي كتب ٦٨ - والمعنى: أن هذا الإهلاك أو التعذيب بالاستئصال مكتوب في اللوح المحفوظ.

٥٩ - (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا)

قوله: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) في سبب نزول هذه الآية روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي - صلى الله عليه وسلم -: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك قال: " وتفعلون؟ " قالوا: نعم - قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة، والرحمة فقال: " بل باب التوبة، والرحمة " وروي غير ذلك مما يشبهه ٦٩.

و (أن)، الأولى في موضع النصب مفعول ثان للفعل (منعنا) و (أن) الثانية في موضع الرفع لأنها فاعل (منعنا) والتقدير: وما منعنا الإرسال بالآيات إلا تكذيب الأولين بمثلها ٧٠.

والمعنى: أن تكذيب الأولين كان سببا لهلاكهم، فلو أرسلنا بالآيات إلى قريش فكذبوها لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين المكذبين.

قوله: (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) لما سألت ثمود نبيهم صالحا أن يخرج لهم ناقة من صخرة عينوها لتكون لهم آية على نبوته، دعا صالح ربه أن يخرج لهم ما سألوه فأخرجها الله لهم مثلما سألوا - وهو قوله: (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي أخرجناها لتكون لهم آية بينة مضيئة تشهد بصدق صالح عليه السلام (فظلموا بها) أي كفروا بها؛ إذ قتلوها وعقروها فكان ظلمهم بقتلها وعقرها، أو أنهم ظلموا بتكذيب هذه المعجزة.

قوله: (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) المراد بالآيات مختلف الدلائل والعبر والمعجزات وأصناف البلايا والانتقام - كل ذلك يرسله الله للعباد على سبيل التخويف لهم؛ فهو سبحانه يتهدد الناس بمثل هذه الآيات لكي ينثنوا عن فعل المعاصي وينيبوا إلى ربهم طائعين مخبتين ٧١.

٦٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا)

قوله تعالى: {وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا} هذا تخصيص من الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - على تبليغ رسالة الإسلام فيمضي بها إلى الأمام قدما غير هيّاب في ذلك ولا متردد - وفي الآية أيضا إعلام من الله أنه سيمنعه من الناس فلا ينفذون إليه بأذى أو مكروه؛ لأنه عاصمه من كل سوء وهو سبحانه قد (أحاط بالناس) أي أحاطت قدرته بهم فهم في قبضته وسيطرته ولا يستطيعون الخروج من مشيئته وإحاطته - فلا تعبأ بهم يا محمد ولا يثنوك عما أمرك الله به من تبليغ دعوة الإسلام للناس.

قوله: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن) المراد بالرؤيا، ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسري به إلى بيت المقدس (والشجرة الملعونة) هي شجرة الزقوم؛ فقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - عقب إيابه من المعراج أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم - فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل: هاتوا لنا تمرا وزبدا وجعل يأكل من هذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا.

وفي الآية تقديم وتأخير؛ أي ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس - والفتنة ارتداد بعض المسلمين ضعفة الإيمان حين سمعوا بإسراء النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ إذ لم تتصور عقولهم ذلك فأنكروا - وكذلك الشجرة الملعونة - وفتنتها أنهم لما خوفهم الله بكونها طعاما للجاحدين المكذبين قال أبو جهل كلمته الظالمة اللئيمة استهزاء وتهكما: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد - صلى الله عليه وسلم -؟ قالوا: لا - قال: الثريد بالزبد - أما والله لئن أمكننا منها لنتزقمنها تزقما ٧٢ - والشجرة في ذاتها لا تقع عليها اللعنة؛ بل لعن الله الكافرين الذين يأكلون منها في النار - والمعنى: والشجرة الملعون آكلوها في القرآن.

قوله: (ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أي يخوف الله الناس بمخاوف الدنيا مما حوته من الآلام والأرزاء والنوائب، وكذلك يخوفهم بقواصم الآخرة وما فيها من البلايا وعظائم الأمور - فما يزيدهم كل هذا التخويف إلا تماديا في البطل وإغراقا في الفساد والطغيان ٧٣.

٦١ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)

قوله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (٦١) قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٦٢)} هذا إخبار آخر عن قصة إبليس في عتوه واستكباره وإيغاله في الطغيان والتمرد، إذ أمر الله ملائكته بالسجود تكريما لآدم فأخبتوا لله مذعنين (إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) والاستفهام للإنكار، فقد أجاب إبليس ربه في غاية الاجتراء المتوقع وأقصى ما يكون عليه العتوّ واللؤم والاستكبار.

واللعين يرى في تصوره الخاطئ السقيم أن جوهره من النار أشرف من جوهر الطين الذي خلق منه آدم - لاجرم أن هذا إيغال في الوهم وإغراق في الشذوذ وسقم التفكير - وإنما يفضل الخلق بعضهم بعضا بسلامة الطبع والفطرة وصفاء النية والمقصود وحسن التوجه إلى الله الواحد وكفى - وقوله: (طينا) منصوب على أنه تمييز أو حال ٧٤.

٦٢ - (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا)

قوله: (قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي) الكاف للخطاب، وهذا في موضع نصب مفعول به - والمعنى: أخبرني عن هذا الذي فضلته علي لم فضلته وأنا خير منه؛ فقد خلقتني من نار وخلقته من طين - وهذا لون آخر من ألوان التمرد الفاجر يجترئ به إبليس على ربه وهو يسأله هذا السؤال الظالم.

قوله: (لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) يتوعد إبليس ذرية آدم بالإضلال والإغواء وهو يقول لربه في اجتراء لئيم: لئن أخّرت إهلاكي إلى يوم القيامة لأستولينّ على ذرية آدم فلأضلنهم ولأطغينهم فيزيغوا عن ملة التوحيد ويجنحوا للشرك والمعاصي (إلا قليلا) وهم المعصومون من الفتنة الناجون من الضلال، الذين يستقيمون على المحجة الصحيحة وهي الإسلام - جعلنا الله من زمرتهم ٧٥.

٦٣ - (قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا)

قوله تعالى: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (٦٥)} يأمر الله إبليس أمر إهانة وتحقير بقوله له (اذهب) أي امض لما اخترته من شر وعصيان وإفساد، فقد أخرنا إهلاكك إلى يوم القيامة (فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) أي فمن أطاعك من ذرية آدم وسار على طريقك في الكفر والمعصية، فإن جهنم لهي مآلكم الذي تصيرون إليه (جزاؤكم موفورا) جزاء منصوب على المصدر؛ أي جزاء وافرا مكثورا.

٦٤ - (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا)

قوله: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) استفز؛ أي استخف - أفزه الخوف واستفزه؛ أي أزعجه واستخفه ٧٦ - والمراد بصوت

إبليس: الغناء والمزامير واللهو - وقيل: وسوسته - وقيل: دعاؤه إلى معصية الله - والصواب عموم ذلك، فإن إبليس يجهد بالغ جهده لإضلال البشرية بكل الأساليب والأسباب المستطاعة من أجل الإطغاء والإغواء والإلهاء عن دين الله.

وفي هذه الآية يأمر الله إبليس أمر إهانة وتهديد بقوله: استزل واستخف من استطعت أن تستخفه بوسوستك ودعائك إياهم إلى الفسق والعصيان (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) (وأجلب) من الجلب والجلبة، أي الأصوات - وقيل: الجمع - أي اجمع عليهم كل ما تقدر عليه (بخيلك ورجلك) الباء زائدة، ورجل جمع راجل، أي كل راكب وماش - والمعنى: احمل عليهم بجنودك من مشاة وخيّالة - .

قوله: (وشاركهم في الأموال والأولاد) م مشاركتهم في الأموال: يعني إنفاق أموالهم في المعاصي - وقيل: ما كانوا يحرّمونه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي - وقيل: ما كانوا يذبحونه لآلهتهم - وقيل: المراد عموم ذلك.

أما مشاركتهم في الأولاد: فالمراد بذلك أولاد الزنا - وقيل: تمجيس الأولاد وتهويدهم وتنصيرهم - وقيل: المراد عموم ذلك هو الأظهر - قوله: (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) أي عدهم بالأماني الكاذبة كشفاعة الآلهة لهم وأنه ليس من بعث ولا حساب (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) أي ما يعدهم الشيطان أو يمينهم به إلا الباطل والتغرير.

٦٥ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا)

قوله: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) عباد الله الصالحون ليس للشيطان عليهم حجة ولا طاقة له في إضلالهم وإغوائهم (وكفى بربك وكيلا) أي كفى بالله حفيظا ونصيرا، يثبت المؤمنين المخلصين على الحق وينجيهم من كيد الشيطان ومن مكره ووساوسه ٧٧.

٦٦ - (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

قوله تعالى: }ربكم الذي يزجى لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما (٦٦) وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا (٦٧)}.

(يزجى)، أي يدفع بلين أو يسوق سوقا ٧٨ - ويبين الله ههنا واحدة من آلائه على العباد وهي جريان الفلك (السفن) على سطح الماء، فإن الله يزجي هذه في البحر، أي تدفعها الريح بلين فتسوقها سوقا من مكان إلى آخر.

على أن عملية الدفع اللين بالريح، والسوق من موضع إلى آخر إنما يتم ذلك كله بتقدير الله وصنعه، إذ جعل في الطبيعة والأشياء خواصها وقوانينها لتستقيم الحياة والأحياء - ومن جملة ذلك: جريان السفن فوق الماء وهي تنقل على متونها الراكبين والأغراض والمعايش الخفاف والثقال (لتبتغوا من فضله) أي لتطلبوا الرزق والمكاسب عن طريق التجارة - وذلك من فضل الله عليكم ورحمته بكم.

٦٧ - (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا)

قوله: (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) المراد بالضر هنا الخوف من البحر، فإن الله يبين للناس أنهم إذا ركبوا متن البحر وساروا فيه بفلكهم آمنين، ثم أصابهم شيء من الخوف أو الشدة لسبب من الأسباب كتعاظم الأمواج في بحر هائج مضطرب، أو اشتداد الرياح العاصفة، أحس الراكبون ببالغ الوجل والذعر تخوت فيهم القلوب، وغشيتهم موجة من الإياس والخواء - حينئذ (ضل من تدعون إلا إياه) أي غاب عنكم أولياؤكم وأعوانكم من المخاليق وتبددت في نفوسكم الآمال في الآلهة الموهومة المزعومة من أصنام وأنداد وكبراء كنتم تستندون إليهم وترمون منهم كل نُصرة ومدد - لكنكم في مثل هذه الساعات من الحرج البالغ والإياس الشديد، توقنون أنه لا منجاة لكم إلا من عند الله، فقد ذهب عنكم الشركاء والأنداد من المعبودين المكذوبين وليس لكم من أحد ترجونه وتجأرون إليه بالدعاء لينصركم ويدرأ عنكم الخطر النازل سوى الله - وقد اتفق مثل ذلك لعكرمة ابن أبي جهل لما ذهب فارا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فتح مكة فذهب هاربا فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصفة فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده - فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبنّ فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفا رحيما - فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه.
قوله: (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) بعد أن دعوتم الله فأذهب عنكم الضر وكشف عنكم هذا البأس الداهم ونجاكم من هول ما أصابكم من ذعر (أعرضتم) عن الإخلاص لله وعن الإلحاح في الجأر إلى الله بالدعاء - لقد أعرضتم عن كامل الالتجاء إليه سبحانه بعد أن أنجاكم وأذهب عنكم الخطر المحدق الداهم - ذلكم هو شأن الإنسان في الغالب؛ فإنه فخور يؤوس كفور؛ فهو إن أصابته شدة أو ناله بأس وهوان أو أحاطت به الكروب والصعاب؛ لجّ إلى ربه بالدعاء والاستقامة حتى إذا كشف عنه ما أصابه، انقلب كفورا جاحدا للنعمة، ناسيا ما لله عليه من عظيم الأيادي - وهو قوله: (وكان الإنسان كفورا).
٦٨ - (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا)
قوله تعالى: {أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا (٦٨) أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا (٦٩)} الهمزة في (أفأمنتم) للاستفهام الإنكاري، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم ثم أعرضتم - وذلك بلاغ إنكاري من الله لأولئك الذين يخشون ربهم في البحر كلما دهمهم خوف من الغرق فيلجون بالدعاء إلى الله لينجيهم - حتى إذا نجاهم إلى البر وبلغوا السلامة والأمان نسوا خوفهم ودعاءهم وزهدوا في التذلل والتضرع إلى الله، فيبين الله لهؤلاء مستنكرا وهو قوله: أفتحسبون بعد خروجكم إلى البر حيث السلامة والنجاة أنكم آمنون من عذاب الله (أن يخسف بكم جانب البر) الخسف والخسوف هو دخول الشيء في الشيء - خسف المكان خسفا أو خسوفا؛ أي غار في الأرض - خسفت عين الماء؛ غارت ٧٩ - ويخسف بكم جانب البر؛ أي يغيبكم في جانب البر وهو الأرض؛ فالله قادر على تغييبكم في البحر - وهو كذلك قادر على تغييبكم في البر - فالغرق تغييب تحت الماء، وكذا الخسف تغييب تحت التراب.
والمراد أنكم إن أمنتم من هول البحر فما ينبغي أن تأمنوا من هول البر؛ فالله لا يعز عليه أن يسلط عليكم البلاء والتدمير حيثما كنتم فلا مناص لكم من قدر الله ولا ملجأ.
قوله: (أو يرسل عليكم حاصبا) الحاصب هي الريح التي ترمي الحصباء، وهي صغار الحصى - فإذا لم يخسف الله بكم الأرض يرسل عليكم ريحا شديدة ترميكم بالحصباء فتبددكم وتستأصلكم كما فعل بقوم لوط؛ إذ أمطرهم الله بحجارة أهلكتهم إهلاكا - وليس لكم حينئذ من دون الله أيما نصير أو مجير يرد عنكم بأس الله - وهو قوله عز من قائل: (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) أي ناصرا وحافظا.
٦٩ - (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)
قوله: (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) أم أمنتم بعد ما جأرتم إلينا بالدعاء فأنجيناكم من الغرق ثم أعرضتم ونسيتم، أن يعيدكم الله إلى البحر مرة ثانية فتعاينوا الهول من جديد؛ إذ يرسل عليكم هذه المرة (قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم) القاصف من الريح، التي لها قصيف وهو الصوت الشديد، أو هو الكاسر؛ قصفت الريح السفينة؛ أي كسرتها لشدتها - وريح قاصف؛ أي شديد.
والمراد هنا الريح الشديدة التي تكسر الفلك فتغرقها بمن فيها وهو مقتضى قوله: (فيغرقكم بما كفرتم) أي فيغرقكم بسبب جحودكم وكفرانكم النعم من ربكم (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) تبيع، بمعنى تابع؛ أي لا تجدون بعد إغراقكم وإهلاككم من يثأر لكم أو يطالب بالانتقام لكم ٨٠.
٧٠ - (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا)
قوله تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} الإنسان كائن مفضل مكرم؛ فقد كرمه الله تكريما - كرّمه بمختلف وجوه التشريف والاحترام، ومن جملة وجوه التكريم الكاثرة: حسن الهيئة والصورة؛ إذ جعله الله منتصب القامة، مستوي الخلقة والمظهر - وأظهر دليل على ذلك مشيه على رجلين بما يفوق المشي لدى عامة الخلائق حسنا وجمالا - يضاف إلى ذلك جمال الأعضاء والأجزاء والأطراف التي يكمل بعضها بعضا.

ومن أعظم ظواهر التكريم والتفضيل للإنسان خصوصيته النطق والكلام - لا جرم أن هذه سمة عجيبة بارزة تتجلى في الإنسان لتجعل منه الكائن المميز المفضال - وهي سمة خص الله بها بني آدم دون غيرهم من كائنات الدنيا.

ويأتي فوق ذلك كله تلكم الخصيصة الفضلى التي تفوق كل الخصائص، وهي العقل - لا جرم أن العقل مزية هائلة وكبرى، امتنّ الله بها على الإنسان ليكون سيد الكائنات، ولتتسخر له كل الكائنات في الأرض والسماوات.

فالإنسان بطبيعته مفكر، وهو بفطرته قد داخلته الإشراقات الروحية العليا أجمل مداخلة فصار بذلك، الإنسان العابد الذي يهفو في شغف حرور لعبادة الله إذا ما أتيحت له أسباب التربية السليمة الصحيحة كيلا تتناوشه شياطين البشر فتصده عن ملة الحق والتوحيد صدا - وفي ذلك روى مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ".

وإذا اجتمع العقل والروح معا في كيان الإنسان، جاء الإنسان على خير مثال من نداوة الطبع والفطرة وجمال السلوك والخلق بما يفيض على الواقع خير الخصال والخلال.

قوله: (وحملناهم في البر والبحر) سخر الله لبني آدم المراكب في البر والبحر، ففي البر مختلف الوسائل والأسباب لحمل الإنسان فتنقله من موضع إلى آخر - كالدواب بمختلف أنواعها وأجناسها - ولئن كانت الأنعام ومختلف المواشي وسائل البشرية طيلة الزمان الفائت، فإن الوسائل المتطورة في العصر الراهن والمسخرة لركوب الإنسان لهي من نعمة الله على الناس، إذ مكنهم من صنع ذلك بما آتاهم من قدرة على الاختراع والتدبير.

وكذلك في البحر قد سخر الله لنبي آدم الركوب في الفلك التي تطفو على سطح الماء فلا تغرق - وذلك بما جعله الله من خاصية في الطبيعة والكائنات لتتحقق ظاهرة الطفو فوق الماء إذا كانت كثافة المحمول دون كثافة الحامل وهو الماء.

قوله: (ورزقناهم من الطيبات) رزق الله الإنسان صنوف الثمرات والزروع وأنواع المطعومات والمشروبات مما لذّ له وطاب - ورزقه مختلف الأشكال والألوان من الملبوسات الحسنة التي يزدان بها ليكون على خير صورة ومظهر.

قوله: (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فضل الله بني آدم على سائر الكائنات والأحياء بمزايا العقل والإرادة وحسن الصورة والمظهر وغير ذلك من جميل المزايا - أما تفضيل المؤمنين على الملائكة أو العكس فهو موضع اختلاف؛ فقد ذهب كثير من أهل العلم وفيهم المعتزلة إلى أن الملائكة أو العكس فهو موضع من الإنسان المؤمن - ومما استندوا إليه، ظاهر هذه الآية؛ فقد فضل الله بني آدم على كثير من الخلق - فالمستثنى من المفضولين إذن هم الملائكة؛ فهم أفضل من الناس - وقيل: إن النبيين من البشر أفضل من الملائكة وهو قول المتكلمين استنادا إلى أن الكثير في هذه الآية يعني الجميع ٨١.

٧١ - (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا)

قوله تعالى: }يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١) ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢){ (يوم)، منصوب على الظرف - والباء في قوله: (بإمامهم) للحال - وتقدير ذلك، يوم ندعو كل أناس مختلطين بإمامهم ٨٢ يوم القيامة حيث الحساب؛ إذ الناس واقفون وجلون ينتظرون مصائرهم، إما إلى الجنة وإما إلى النار، هنالك ينادي كل إنسان بإمامه - وفي تأويل الإمام خلاف - فقد قيل: المراد به نبيه ومن كان يقتدي به في الدنيا ويأتم - إذ يقال: هاتوا متبعي إبراهيم - هاتوا متبعي موسى - هاتوا متبعي عيسى - هاتوا متبعي الشيطان - هاتوا متبعي الأصنام - هاتوا متبعي الطغاة والخاسرين من الساسة والملوك.

وقيل: المراد به كتاب أعمالهم - ويعزز ذلك قوله تعالى: (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين).

قوله: (فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أي فمن أعطي كتاب أعماله بيمينه فإنه يقرأ كتابه ليقف على ما فيه (ولا يظلمون فتيلا) أي لا ينقصون من أجورهم مقدار فتيل - والفتيل ما يكون في شق بطن النواة - وقيل: هوما يفتل بين الإصبعين من الوسخ ٨٣.

٧٢ - (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا)
قوله: {ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا} (هذه)، أي الدنيا - فمن كان في دنياه أعمى عما عاين من الحجج والأدلة وما أبصره من البراهين والعجائب من خلق الله والآيات التي تكشف عن قدرته وبالغ عظمته وإحاطته، فلم يهتد للحق بل ظل سادرا في كفره وضلاله، فهو في أمر الآخرة التي لم يعانيها ولم يرها أعمى (وضل سبيلا) أي أكبر ضلالا مما كان عليه في الدنيا ٨٤.
٧٣ - (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا)
قوله تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥) وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا (٧٦) سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا (٧٧)}.
قال ابن عباس في سبب نزوله قوله: (وإن كادوا ليفتنونك) قال: نزلت في وفد ثقيف أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسألوا شططا وقالوا: متعنا باللات سنة وحرّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يجبهم فأقبلوا يكثرون مسألتهم وقالوا إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فهمّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعطيهم ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وقال سعيد بن جبير: قال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم -: لا نكف عنك إلا بأن تلمّ بآلهتنا ولو بطرف أصابعك - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " ما عليّ لو فعلت والله يعلم أني بار " فأنزل الله (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) ٨٥ (إن)، مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف واللام، للتأكيد، وهي فارقة بين إن المخففة، وإنْ النافية - يعني: إنْ الشأن أنهم قاربوا أن يفتنوك، أي يخدعوك فاتنين من الفتنة - وهي في الأصل بمعنى الاختبار ثم استعمل في كل ما أزل الشيء عن حده وجهته فقوله: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) أي يزيلونك ويصرفونك عن الذي أوحيناه إليك وهو القرآن - والمراد عما فيه من أوامر وزواجر وأحكام ومواعظ (لتفترى علينا غيره) أي لتتقول علينا غير الذي قلناه لك - أي تختلق لهم ما اقترحوه وما سألوه من افتراء على الله.
قوله: (وإذا لاتخذوك خليلا) (إذا)، حرف جواب وجزاء ٨٦.
والخليل، الصديق، وجمعه أخلاء، من الخلة بالضم وهي الصداقة ٨٧، أي لو فعلت ما سألوه من فتنتك عن الحق لاتخذوك لهم صديقا وأظهروا للناس أنك موال لهم وراض بشركهم وضلالهم.
٧٤ - (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا)
قوله: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) أي لولا تثبيتنا لك وعصمتنا إياك من كيدهم وفتنتهم لقاربت أن تنجح إلى كيدهم وفتنتهم ركونا قليلا - ولما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ".
٧٥ - (إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)
قوله: (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) الضعف: أن يضم الشيء إلى مثله - وضعف الشيء، مثله مرتين - والتضعيف: أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر - وقد يكون الضعف بمعنى النصيب أو المثل ٨٨ - والمعنى: لو ركنت إلى المشركين واتبعت مُرامهم وما سألوه لأذقناك مثلي عذاب الدنيا ومثل عذاب الآخرة وذلك غاية التوعد المخوف من الله لنبيه (ص) - والسبب في مضاعفة العذاب هنا هو علو الدرجة - فكلما عظمت درجات الناس تضاعفت مؤاخذتهم وكبرت مسؤولياتهم والنبي - صلى الله عليه وسلم - عظيم المنزلة والشرف، فكانت مؤاخذته بالذنب أعظم.
قوله: (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) إذ أذقناك العذاب المضاعف فلن تجد لك من دوننا من يعينك أو ينقذك من عقابنا.

٧٦ - (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا)

قوله: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) نزلت هذه الآية في كفار قريش، إذ هموا بإخراج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية - وهو أنهم لو أخرجوه من مكة لما لبثوا بعده فيها إلا يسيرا - وذلك الذي وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد اشتداد أذاهم له إلا سنة ونصف سنة حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد فأمكنه الله منهم ونصره عليهم، فقتل أشرافهم، وكسر شوكتهم، وأعادهم إلى مكة منتكسين مقهورين ٨٩ - و (يستفزونك)، يعني يستخفونك ويخرجونك - وذلك من الاستفزاز وهو الإزعاج ٩٠ فقد همّ المشركون بإخراج النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة ولو أخرجوه لما أمهلوا - لكن الله أمره بالهجرة فخرج، أي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما خرج بسبب إخراج المشركين إياه، بل خرج بأمر من الله.

قوله: (وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا) أي لو أخرجوك فسوف لا يمكثون بعد إخراجك إلا زمنا يسيرا - وقد كان ذلك، فإنهم لم يلبثوا بعد خروج النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلا مدة يسيرة، إذ أخرجهم الله ليلاقوا مصارعهم يوم بدر.

٧٧ - (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا)

قوله: (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) (سنة)، منصوب على المصدر المؤكد لما قبله - والتقدير: أهلكناهم إهلاكا مثل سنة من قد أرسلنا قبلك - فحذف المصدر وصفته وأقيم ما أضيف إليه الصفة مقامه ٩١ - أو سننا ذلك سنة فيمن قد

أرسلنا قبلك - والمراد: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ظلما وعدوانا فسنة الله أن يهلكهم.

قوله: (ولا تجد لسنتنا تحويلا) ذلك هو شأن الله في عقاب المجرمين الذين يخرجون أنبياء الله من أوطانهم ظلما - وشأن الله في ذلك لا يتغير ولا يتبدل ٩٢.

٧٨ - (أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

قوله تعالى: {أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨) ومن الليل فتجهد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (٧٩)} ذلك بيان من الله لأشرف الطاعات وأرفعها قدرا وأجلها تعظيما وهي الصلاة، فقد أمر الله المسلمين أن يقيموا هذه الفريضة العظيمة على خير وجه من الصحة وتمام الأداء، وأن يحافظوا عليها في كل الأحوال، وأن لا يفرطوا فيها أيما تفريط - وقد بيّن الله أوقات الصلوات المفروضة جميعها في هذه الآية، وبهذا الأسلوب الجامع العجيب في كلمات معدودة مصطفاة على أكمل ما يكون عليه الترابط والانسجام بما ينطق بروعة هذا القرآن وإعجازه فقال: (أقم الصلاة لدلوك الشمس) اختلف العلماء في معنى الدلوك هنا على قولين: أحدهما: أنه غروب الشمس - وهو قول ابن مسعود وأبي بن كعب وهو رواية عن ابن عباس.

ثانيهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء - وهو قول أكثر أهل العلم - وقال به عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس والشعبي وعطاء وقتادة وآخرون غيرهم - وهو القول الراجح، فقد قال أهل اللغة: معنى الدلوك في كلام العرب الزوال، وبذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أفلت: دالكة، لأنها في الحالتين زائلة - قال الأزهري: والقول عندي أن دلوك الشمس زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس - والمعنى، والله أعلم: أقم الصلاة يا محمد، أي أدمها من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل، فيدخل فيها الأولى والعصر، وصلاتا غسق الليل هما العشاءان، فهذه أربع صلوات، والخامسة قوله: (وقرآن الفجر) - والمعنى: وأقم صلاة الفجر، فهذه خمس صلوات فرضها الله تعالى على نبيه (ص) وعلى أمته ٩٣.

قوله: (إلى غسق الليل) وغسق الليل: اجتماع ظلمته، أو هو ظلمة أول الليل - وأغسق الليل: اشتدت ظلمته - والغسوق والإغساق بمعنى الإظلام - والغاسق: القمر أو الليل إذا غاب الشفق ٩٤ - والمراد به هنا وقت صلاة العشاء الآخرة، لأن غسق الليل معناه إقبال الليل وظلامه، ولا يكون ذلك إلا بعد مغيب الشفق وذلك عند تراكم الظلمة واشتدادها، فإذا حملنا الغسق على هذا المعنى، دخلت الصلوات الأربع فيه وهي: الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

قوله: (وقرآن الفجر) (قرآن)، منصوب لكونه معطوفا على الصلاة، وتقديره: أقم الصلاة وقرآن الفجر - وقيل: منصوب بفعل مقدر، وتقديره: واقرأوا قرآن الفجر ٩٥ وذلك على سبيل الإغراء والتحضيض - والمراد: صلاة الفجر، وعبر عنها بالقرآن دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن أعظم ما فيها، وقراءة القرآن فيها طويلة ومجهورة؛ فإنه يستحب إطالة القراءة في صلاة الصبح على أن لا يضر القارئ بمن خلفه - ويلي هذه في الإطالة صلاة كل من الظهر والعصر، وتخفيف القراءة في المغرب، وتوسطها في العصر والعشاء؛ فلا ينبغي التطويل فيهما؛ فقد ورد في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليخفف؛ فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة " - على أن قراءة الفاتحة واجبة في كل ركعة للإمام والفذ - وهو قول الجمهور، واستدلوا بالخبر: " لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب " - وكذلك قوله (ص): " من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج " وروي عن مالك قوله: إن قرأها في ركعتين من الرباعية أجزأته - وقيل: إنها تجزي في ركعة واحدة - وهو قول الحسن البصري وآخرين - وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن فاتحة الكتاب غير واجبة في الصلاة؛ بل الواجب مطلق القراءة - فأيما آية قرأها فإنها تجزي - وحدّ أصحابه في ذلك ثلاث آيات قصار أو آية طويلة مثل آية الدين - ودليل الحنفية في ذلك ظاهر قوله تعالى: (فاقرءوا ما تيسر منه) وقوله (ص): " ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن " ٩٦.

قوله: (إن قرآن الفجر كان مشهودا) أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، ويؤيد ذلك ما رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله: (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) قال: " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ".

٧٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

قوله: (ومن الليل فتجهد به نافلة لك) (من) للتبعيض - والضمير في: قوله: (به) يعود على القرآن؛ أي بالقرآن - والتهجد من الهجود وهو من الأضداد ومعناه النوم والسهر - والتهجد، القيام إلى الصلاة بعد رقود؛ أي بعد نوم - والمعنى: قم بعض الليل (فتهجد به نافلة لك) النفل معناه الزيادة؛ فهي زيادة على فرض النبي خاصة دون أمته وهي في حق أمته مستحبة.

قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) عسى من الله واجبة، ووجه الوجوب: أن الله تعاهد ذلك فلزمه - و (مقاما)، منصوب على الظرف - أما المراد بالمقام المحمود: ففيه أقوال أصحها أنه الشفاعة للناس يوم القيامة - وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثا (جماعات) كل أمة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعات إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - - فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) سئل عنها قال: " هي الشفاعة " ٩٧.

٨٠ - (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

قوله تعالى: }وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا (٨٠) وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا (٨١){.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطان نصيرا) وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليتلوه أو يطردوه أو يوثقوه فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة؛ فهو الذي قال الله عز وجل: (وقل رب أدخلني مدخل صدق) الآية - والمدخل والمخرج، بضم الميم، بمعنى الإدخال والإخراج، كقوله: (أنزلني منزلا مباركا) أي إنزالا مباركا ليس فيه مكروه - وكذلك أخرجني إخراجا مباركا ليس فيه مكروه - وعلى هذا، قوله: (أدخلني مدخل صدق) يعني المدينة (وأخرجني مخرج صدق) يعني مكة - وقيل: أدخلني مدخل صدق، يعني الموت - وأخرجني مخرج صدق، يعني الحياة بعد الموت - وقيل: الآية عامة في كل الأمور، من أعمال وأسفار وغير ذلك من التصرفات فالمراد بذلك، الدعاء - وهو يعني:

أصلح لي شأني كله حيثما دخلت أو خرجت.
قوله: (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) قال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعزّ فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم - وإن نبي الله (ص) علم أنه لا طاقة بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله، لحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهُر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، وقتل بعضهم بعضا - قال ابن جرير الطبري عن هذا: إنه الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه - وفي الخبر: " إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد والتهديد والتخويف والتحذير.
٨١ - (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)
قوله: (وقل جاء الحق وزهق الباطل) المراد بالحق، الإسلام، بكل ما فيه من الخير والرحمة والنعمة للبشر، وما حواه من هائل الأحكام والمعاني في كل مناحي الحياة، وهو منهج الله القويم أنزله للناس ليستضيئوا بنوره الساطع، وليهتدوا به في دنياهم؛ فيحيوا حياتهم هذه آمنين سعداء، وقد أظلتهم أفياء المودة والأخوة والأمان.
ذلك هو الحق الذي هتف به الرسول الأمين (ص) لما أمره ربه أن يتلو على الناس (وقل جاء الحق وزهق الباطل) (زهق)، بمعنى اضمحل وبطل؛ أي ظهر الإسلام - واضمحل وزال ماعداه، فما عداه باطل (إن الباطل كان زهوقا) والباطل يتناول كل وجوه الكفر على اختلاف صوره ومسمياته - ومن طبيعة ذلك كله الزهوق وهو البطلان والزوال لا محالة - فأيما باطل فإنه زاهق؛ إذ هو في ذاته باطل؛ لأنه بني على الفساد والأثرة والهوى والإدبار الكامل عن منهج الله - فهو لا محالة صائر إلى الزهوق، وهو البطلان المحقق والانهيار الشامل الكامل - وهذه حقيقة لا ينكرها إلا تائه مخدوع أو سقيم النفس، سادر في الجهالة والوهم - وبذلك أيما محجة أو طريقة أو أسلوب مغاير لمنهج الله وهو الإسلام، فإن مصيره التدمير والزوال والخسران في هذه الدنيا، قبل الخسران الأكبر يوم القيامة.
وفي هذا الصدد أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب - وفي رواية: صنم، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) ٩٨.
٨٢ - (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا)
قوله تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا} (من)، ليست للتبعيض بل هي للجنس؛ أي وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء؛ فجميع القرآن شفاء للمؤمنين.
والقرآن شفاء للبشرية بما حواه من المعاني والأحكام والتصورات والعبر؛ فكل ذلك مزيل للشبهات والشكوك والعلل التي تنتاب العقول فتشينها شينا وتسكب فيها ألوانا من ضلالات الفكر الباطل، والمعارف الكاذبة المفتراة التي تعلن الحرب على منهج الله في اجتراء لئيم ووقح، فلا يروق لها بذلك إلا أن تكيد لدين الله كيدا.
إن القرآن شفاء لهذه العقول من كل ضلالات ومفاسدها وانحرافاتها، والقرآن شفاء للبشرية من كل الأدران والأوضار التي تأتي على النفس فتسومها المرض والعطب وكل ألوان الزيغ والشذوذ، وتلكم أمراض بغيضة وممضة ومختلفة تصيب النفس البشرية فتثير فيها ألوانا شتى من الأسقام كالقلق والكمد والاغتمام والهلع والإحساس المستديم بالضيق والكآبة - إلى غير ذلك من صور الأمراض النفسية التي تكابدها البشرية في كل العصور.
لكن القرآن بعقيدته الراسخة السمحة، ومعانيه الكريمة الشفيفة وتشريعه الشامل المتكامل، يبدد كل ألوان المرض بكل صوره وأشكاله، سواء في ذلك ما أصاب الذهن أو الجهاز النفسي والروحي للإنسان - إن القرآن بمعانيه المعجزة الفذة شفاء للإنسان من كل هاتيك الأسقام والعلل التي تقضّ الأفراد والمجتمعات قضّاً والتي تسوم الإنسان الأوجاع والآلام.
وكذلك فإن القرآن رحمة للمؤمنين؛ لأنهم يتبعون أحكامه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويهتدون بنوره الساطع المشعشع، ويستلهمون

من عقيدته ومعانيه الإيمان والهداية والتوفيق، فيتجلى في طبائعهم وسماتهم وسلوكهم كل معالم الخير من حميد الخصال وعظيم الخلال وحسن الأعمال والأفعال - وبذلك تستقيم أحوال الفرد والجماعة فتنعم البشرية بنعيم الأمن والاستقرار والمودة والتعارف - وتترسخ في الدنيا ظواهر العدل والرحمة والتعاون والفضيلة.

قوله: (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لا يزداد الكافرون بسماع القرآن إلا هلاكا فوق هلاكهم؛ لأنهم كلما سمعوا بشيء منه جديد كذبوا وجحدوا فازدادوا بذلك إيغالا في الخسران، والتعس والرجس ٩٩.

٨٣ - (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

قوله تعالى: }وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا (٨٣) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا (٨٤)} ذلك هو الجاحد من الناس، الذي لم يلج الإيمان قلبه ولم تستمرئ دخائله الوجدانية والروحية حلاوة العقيدة والتقوى، فلم يعبأ بغير أهوائه وحاجاته الدنيوية؛ فإنه إذا أفاض الله عليه بجزيل من نعم المال والعافية والتمكين والسلامة، وإذهاب الضّر والشر (أعرض) أي أدبر عن شكر الله والإلحاح في الدعاء لله والرجاء منه، في أحوال الشدة (ونأى بجانبه) نأى ينأى نأيا؛ أي بعد - وتناءوا؛ تباعدوا - والنأي؛ البعد ١٠٠ - والنأي بالجانب؛ أي يلوي النائي عطفه ويولي ظهره على سبيل الاستكبار - ونأى بجانبه؛ يعني ابتعد عن الله وولى مستكبرا.

قوله: (وإذا مسه الشر كان يؤوسا) يعني إذا أصابه البلاء والشدة كالفقر والمرض والبؤس، انقلب قانطا مستيئسا من فضل الله ورحمته.

٨٤ - (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا)

قوله: (قل كل يعمل على شاكلته) الشاكلة، بمعنى الناحية والنية والطريقة والمذهب - وهي من الشكل ومعناه المثل، وجمعه أشكال - يقال: هذا أشكل بكذا، أي أشبه ١٠١ - والمعنى: أن كل إنسان يعمل على طريقته التي سار عليها وارتضاها لنفسه محجة ومنهاجا (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) الله أعلم بكم وبما أنتم عليه من صواب وخطل، أو حق وباطل - الله يعلم المؤمن المهتدي من الجاحد الضال.

٨٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

قوله تعالى: }ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا{.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال: بينا أنا أمشي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في حرث وهو متوكئ على عسيب؛ إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح - فقالوا: ما رابكم إليه؟ - أي ما الذي دعاكم إلى مثل هذا السؤال؟ فقد يجيبكم بما يسوء كم- فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح - فأمسك النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد عليهم شيئا - فعلمت انه يوحى إليه - فلما نزل الوحي قال: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ويفهم من ذلك أن هذه الآية مدنية؛ فإن اليهود قد سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية - والجواب عن هذا: أن هذه الآية ربما نزلت على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة مرة ثانية - كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ١٠٢ وقد اختلف العلماء في المراد بالروح المسؤول عنه؛ فقد قيل: إنه جبريل عليه السلام - وهو الوحي الأمين، والملك الهائل العظيم - وقيل: هو عيسى، المسيح ابن مريم، نفخة من روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول - وقيل: إنه القرآن؛ فهو كلام الله العجيب الذي ليس له في الكلام نظير - وهو روح يسري في كيان الإنسان فيؤزه إلى الإيمان وعمل الصالحات والطاعات أزّاً - وقيل: المراد بالروح هنا: ما به حياة الإنسان - وهو الراجح والمختار؛ فقد سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ماهية الروح التي تعمر الإنسان وتنتشر في كيانه كله - والروح بهذا المعنى هو قول أكثر العلماء - فالروح سر الحياة وسببها الذي يعز على الذهن الوقوف على حقيقته وجوهره ولا ندري عن حقيقة الروح شيئا إلا ما نحسه من آثار وظواهر تدل على وجود هذا الكائن المبهم - ولذلك قال سبحانه: (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الأمر، هنا معناه الفعل؛ أي قل لهم: إن الروح من فعل الله، وهي واقعة حادثة وبتخليق الله وتكوينه، وهي من الأمر الذي لا يعلمه

إلا هو سبحانه دونكم؛ فأنتم لا تعلمون ذلك.

قوله: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) المراد جميع الخلق وليس طائفة خاصة من البشر؛ فالناس جميعا لم يؤتوا من العلم إلا قليلا من كثير مما في علم الله - فعلمه واسع وشامل وقديم لا يدركه أو يحيط به من المخاليق أحد - وإنما يعلم الله وحده ١٠٣.

٨٦ - (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلا)

قوله تعالى: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا (٨٦) إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا (٨٧)} اللام الأولى في قوله: (ولئن) موطئة للقسم - وجوابه (لنذهبن) وهو ناب مناب جواب الشرط - والمراد بالذي أوحينا إليك، القرآن - وقد عبر عنه بالاسم الموصول على سبيل التفخيم والتعظيم لشأنه - والمراد بالذهاب به: محوه وإزالته من القلوب والمصاحف - ثم لا تجد بعد ذلك متعهدا يلتزم استرداده بعد زواله كما يلتزم الوكيل فيما وكل به.

٨٧ - (إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

قوله: (إلا رحمة من ربك) (رحمة)، استثناء منقطع - وهي تتقدر بلكن الاستدراكية - أو بل - وقيل: استثناء متصل، لاندراجها في قوله: (وكيلا).

قوله: (إن فضله كان عليك كبيرا) وهذه حقيقة ماثلة للعيان والذهن - حقيقة ساطعة كبرى تحكى فضل الله العظيم على رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ فقد اصطفاه الله للنبوة والرسالة - وكان كل رسول من قبله يبعث في أمة من الأمم - لكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث للعالمين كافة وطوال الزمان - ثم أنزل الله عليه قرآنه الحكيم، الكتاب الحافل المعجز - ثم آتاه الله المقام المحمود يوم القيامة، وهي الشفاعة الكبرى - وهذه خصائص كبريات ما أوتيها نبي مقرّب ولا رسول عظيم من قبل ١٠٤.

٨٨ - (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

قوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} ذلك إعلان من الله قاطع على أن القرآن معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - - والمراد بمعجزته ما أعجز به الخصم عن التحدي - والهاء للمبالغة ١٠٥، والإعجاز معناه الخروج عن المألوف مع الاقتران بالتحدي وعدم المعارضة من أحد - وذلك هو شأن القرآن الذي جيء به من عند الله بلاغا للناس، وإنقاذا للعالمين من الضلال في هذه الدنيا وتنجية لهم من الخسران والعذاب في الآخرة.

ولقد جيء بالقرآن على صفته البالغة من الإعجاز ليتحدى الله به العالمين أن يأتوا بمثله - وكان ذلك في زمان كان العرب فيه في أوج نبوغهم من فصاحة الكلم وبراعة اللسان فما استطاعوا أن يأتوا بمثله.

ولقد بينا فيما مضى أن القرآن الكريم تجلى فيه خصائص شتى من عجيب الصفات، سواء في اللفظ والعبارة، أو المعنى والمضمون - والقرآن في ذلك كله يأتي في غاية الكمال والجمال بما ليس له في النظم نظير - وهو في آياته وألفاظه ومقاطعه وعباراته معجز، لفرط بلاغته الراقية، وأسلوبه العجيب المميز، وإيقاعه المؤثر الشجي، وروعته التي تأخذ بالقلوب والألباب، وتبهر النفس والوجدان أيما بهر. وهو كذلك في معانيه ومضامينه معجز - وذلك بما حواه من هائل المعاني والأخبار والمواعظ، وجليل المشاهد والحكم والقصص، ومختلف الأوامر والزواجر والأحكام من حلال وحرام وتحذير وتنذير إلى غير ذلك من الحجج والدلائل والبراهين الساطعة في الحياة والطبيعة والإنسان.

ومن أعجب العجب أن يأتي ذلك كله في كتاب ذي حجم متوسط - ولو تكلف البشر أن يأتوا بكل هذه المعاني والمضامين لاستنفد ذلك منهم آلاف الكتب - ولو جهدوا أن يجعلوا كل ذلك في كتاب واحد ذي حجم متوسط كحجم القرآن؛ لجاء كلامهم في غاية التكلف المصنوع والتنافر الثقيل المستقبح - لكن القرآن بتعدد ضروبه في المعاني، وهائل علومه الكريمة العظام، وواسع شموله الذي غشي الأولين والآخرين، وشمل الدنيا والآخرة، قد جاء في حجمه على غاية الإيجاز لكنه مع ذلك كان في الذروة السامقة من الإعجاز. فالقرآن بخصائصه العجيبة هذه ومزاياه غير ذات النظير، قائم يتحدى العالمين ان يأتوا بمثله؛ إذ لم يستطيعوا - وهو قوله سبحانه: (قل

لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) يأمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بإبلاغ الناس على وجه التأكيد أنه لو اتفقت الإنس والجن- متعاونين فيما بينهم- على الإتيان بمثل القرآن المعجز (لا يأتون بمثله) (لا يأتون)، جواب للقسم الموطأ له باللام - وقيل: جواب للشرط ١٠٦.

والمعنى، أنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا الكتاب الحكيم؛ إذ لا يستطيعون مضاهاته البتة - ولو علموا من أنفسهم الاقتدار على الإتيان بمثله أو شيء منه لبادروا دون إبطاء أو وناء مبتغين بذلك إحراج النبي - صلى الله عليه وسلم - والتشكيك في قرآن الله، بدلا من الاستعداد لهذه المهمة بالحرب كي يواجهوا الإسلام والمسلمين فتزهق بذلك أرواح رجالهم وتفنى أموالهم - وذلك يكشف عن عجزهم الكامل عن محاكاة القرآن أو معارضته، فضلا عن الإتيان بمثله - (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) والظهير، معناه المعين ١٠٧؛ أي لو تكلفوا كل الأسباب والجهود من أجل الإتيان بمثل القرآن- وهم يعين بعضهم بعضا- لعجزوا بالغ العجز، ولصاروا إلى الخذلان والخسران.

ومن أظهر الأدلة على ذلك، تلك المحاولات التاعسة المخزية التي انزلق فيها نفر من الأشقياء والمغرورين والمخدوعين من أمثال الكذاب مسيلمة؛ ذلك الجهول الغاشم الذي تولى كِبْره في الأرض، سادرا في حماقته، واغتراره، وهو يزدرد من الكلمات ما هو فاضح وسقيم ومكذوب - فما كان هذا الدجال المأفون إلا مفتريا على الله الباطل من الكلام المضطرب المهين زاعما أنه من عند الله افتراء عليه، حتى استطار زيفه وشاعت في الآفاق حماقته وبات على الدوام مدعاة للعن اللاعنين وسخرية المستسخرين ١٠٨.

٨٩ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلا كُفُورًا)

قوله تعالى: {ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا} (صرفنا)، مفعوله محذوف - و (من) في قوله: (من كل مثل) زائدة، وهو المفعول به و (صرفنا)، أي أجرينا ورددنا - صرف الحديث بسكون الراء؛ أي أن يزاد فيه ويحسن - والمعنى: أن الله جل وعلا أجرى القرآن على أساليب مختلفة تقتضي زيادة في البرهنة والتدليل لأهل مكة (في هذا القرآن من كل مثل) أي ردد للناس في كتابه الحكيم من مختلف المعاني والمشاهد والعبر، ما يبيّن لهم وللبشرية كافة أن هذا الكلام معجز، وأنه منزل من لدن حكيم حميد ١٠٩.

ومن الظواهر المتجلية في القرآن أنه تتزاحم فيه المعاني المختلفة بتعدد مجالاتها وضروبها وأساليبها ليتذكر السامعون وتستيقن قلوبهم، وليعلموا أن ما جاءهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهو الحق والصدق.

قوله: (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) (كفورا)، مفعول به للفعل أبى، وهو استثناء مفرغ؛ أي لم يفعلوا إلا الكفور، بضم الكاف - والمراد بأكثر الناس، الكافرون في زمن النبوة من المشركين وأهل الكتاب؛ فقد أبوا إلا أن يجحدوا الحق وهو القرآن إذ كذبوا به واستيقنته أنفسهم من الداخل.

٩٠ - (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا)

قوله تعالى: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا (٩٢) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (٩٣)}.

كذب المشركون بالقرآن وهو الكلام الرباني المعجز، وما جحدوه إلا لفرط عنادهم وشدة مكابرتهم واستكبارهم - وبالرغم من روعة القرآن في عجيب نظمه وبديع أسلوبه وكمال معناه؛ إلا أنهم غاروا في الكفران والحماقة، ولجوا في التحدي السقيم وهم يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم - جملة من الأسئلة غير المعقولة، والتي لا تلبس بها إلا الفارغون الأشرون، أو الضالون الموغلون في الجهاد والعناد - ويكشف عن بالغ ضلالهم وغيّهم فيما سألوه، قوله عز من قائل: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) (الينبوع)، معناه العين تفور من الأرض ولا ينضب ماؤها؛ فقد سأل المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - - لكي يصدقوه- أن يفجر لهم من الأرض عينا يتدفق منها الماء فيشربون ويزرعون؛ وذلك أن مكة بلد قفر ممحل لا ماء فيه - فناسب أن يسألوه مثل هذا السؤال.

٩١ - (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا)

قوله: {أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا} وهذا مطلب ثان سأله المشركون وهو أن تكون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - جنة، أي بستان فيه نخيل وعنب بثماره المستطابة وظلها المتفيء، وأن تتفجر الأنهار في كل مكان من أرض هذه الجنة.

٩٢ - (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا)

قوله: (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) وهذا مطلب ثالث سأله المشركون - وهو أنك يا محمد تزعم أنك نبي، وأن الله يسقط على المكذبين كسفا من السماء فأسقطها علينا - وكسفا أي قطعا، جمع كسفة وهي القطعة.

قوله: (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) وهذا مطلب رابع سأله المشركون ليبلغوا بذلك غاية الجهالة والضلال - فقد سألوا أن يروا الله والملائكة معاينة - وقيل: قبيلا أي جماعة، فهي بذلك حال من الملائكة ١١٠.

فالمعنى بذلك: أن تأتينا يا محمد بالملائكة فوجا بعد فوج - وهو قول ابن عباس.

٩٣ - (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا)

قوله: (أو يكون لك بيت من زخرف) وهذا مطلب خامس سأله المشركون على سبيل المكابرة والمعاندة والتحدي، فقد سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون له بيت من ذهب فيؤمنوا.

قوله: (أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه) (ترقى)، فعل مضارع منصوب تقديرا، لكونه معطوفا على (فتفجر) والرقي، معناه الصعود ١١١ وهذا مطلب سادس تلغط به أفواه المشركين المكذبين وهم يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يصعد في معارج السماء - ومع ذلك لم يؤمنوا من أجل صعوده وحده إلا أن ينزل عليهم كتابا يقرأونه بلغتهم فيشهد له بالصدق.

قولهم (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) يأمر الله نبيه (ص) أن يقول لهؤلاء المكذبين تعجيبا من فرط جهالتهم وعتوهم (سبحان ربي) ذلك تنزيه لله عما لا يليق به من مثل هذه الاقتراحات - ويضاف إلى ذلك التنديد بمطالبهم الفاسدة السقيمة، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير قادر أن يأتيهم ما سألوه، فهو ليس إلا بشرا أرسله الله للناس شاهدا ومبلغا ونذيرا ١١٢.

٩٤ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا)

قوله تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا (٩٤) قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٩٥) قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا (٩٦)} (أن يؤمنوا)، مفعول ثان للفعل (منع) أي: ما منعهم إيمانهم أو من إيمانهم - والفاعل (أن قالوا) أي قولهم - (إذ)، ظرف للفعل منع - والتقدير: وما منع الناس من الإيمان وقت مجيء الهدى إياهم إلا قولهم: أبعث الله ١١٣.

والمعنى: أن هؤلاء المشركين الذين ظهرت أباطيلهم والذين لجوا في العتو والاستكبار والحسد، ما منعهم من الإيمان بدين الله وكتابه الحكيم، وقت نزول الوحي بالمعجزة الكبرى وهي القرآن حيث الهداية والخير والنور (إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) وهو استفهام إنكار وجحود، فقد كذبوا أن يبعث الله إليهم رسولا من جنس البشر - وهذا التصور خاطئ وضال، فإن من الحق والمنطق السليم أن يبعث الله بالرسل لعباده من جنسهم، لأن الجنس إلى الجنس أميل - ولو بعثهم الله من غير جنس المبعوث إليهم لوقع بينهم التنافر، لاختلاف الخلقة والطبائع - وإنما يستأنس المخلوق بنظيره من المخاليق من بني جنسه وليس من جنس مغاير مختلف، وبذلك فإن قولهم إن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة، ليس إلا محض تحكم يؤز إليه الهوى المجرد - وهذا هو مقتضى قوله: (أبعث الله بشرا رسولا).

٩٥ - (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا)

قوله: {قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} (كان)، هنا تامة، أي وجد وحصل (يمشون)، صفة الملائكة، (مطمئنين)، حال من فاعل (يمشون) - ويجوز أن تكون ناقصة ١١٤.

وفي هذه الآية يأمر الله نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهؤلاء المكذبين الناكفين: لو وجد في الأرض بدل البشر ملائكة طبائعهم كطبائع البشر فيمشون مثلهم (مطمئنين) أي ساكنين - ومنه الطمن، بالفتح والسكون، أي الساكن ١١٥، يعني يمشون ساكنين مستقرين (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وذلك ليمكنه الاجتماع بهم فيستطيعوا التعلم والتلقي منه، لأنه من جنسهم - أما البشر فلا يتيسر لهم ذلك لما بين الجنسين من كبير البون نظرا لاختلاف الأصل والخلقة فيما بينهم، فلا يعقل إذن أن يبعث الله رسله للناس من الملائكة - ولكن يبعثهم إلى من يصطفيهم من المرسلين الأخيار، لأن هؤلاء أولو نفوس زكية مصطفاة وهم على الغاية القصوى من مراتب السمو الروحي فيستطيعون بذلك أن يتلقوا من الملائكة لما بين جنس النبيين والملائكة من عظيم الطابع الروحي وبالغ الشفافية والطهر.

٩٦ - (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

قوله: (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) بعد أن ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - للمشركين وجه الاحتجاج عليهم بما بينه لهم من دليل، أمره الله أن يقول لهم: (كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) الله خير شهيدا على كوني صادقا فيما بينته لكم وفيما دعوتكم إليه وما احتججت لكم به، ومن يكن الله له شهيدا فلا جرم أنه على الحق واليقين - و (شهيدا)، منصوب على الحال، أو التمييز.

قوله: (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) الله جل وعل محيط علمه بكل شيء فما تخفى عليه في الكون خافية - وهو سبحانه عليم بظواهر القوم وبواطنهم، ويعلم ما يخفونه في نفوسهم من الاستكبار والحسد فلم يؤمنوا - وفي ذلك من التهديد والوعيد لهم، والتسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لا يخفى ١١٦.

٩٧ - (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)

قوله تعالى: {ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا} ذلك كلام مبتدأ من الله وفيه تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - - والمعنى: أن المهتدي من أوتي سلامة الفطرة وحُسْن الاستعداد، فإنه يهتدي بتوفيق الله للحق - وأما الضال: فهو ذو استعداد قبيح وطبيعة سيئة متلبسة بالزيغ والعوج، فما يختار هذا إلا الكفر والعصيان والإدبار عن منهج الله وطاعته.

وهؤلاء الضالون الزائغون عن الحق ليس لهم من أحد يهديهم وهو قوله سبحانه: (فلن تجد لهم أولياء من دونه) أي لن يكون لهؤلاء الجاحدين أنصارا أو أعوانا ينقذونهم من الضلالة والخسران إن كان الله قد علم أنهم لا يبتغون إلا الضلال، فأضلهم.

قوله: (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) (على وجوههم)، في موضع نصب على الحال من المفعول، أي كائنين مسحوبين على وجوههم - و (عميا)، حال ثانية ١١٧، والبكم، من البكم بالتحريك بمعنى الخرس - والبكم جمع أبكم وهو الأخرس، أو الذي يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر ١١٨ - يتوعد الله هؤلاء المشركين الجاحدين ويتهددهم بأهوال يوم القيامة حيث الدواهي والشدائد بدءا بعذاب القبر - ومرورا بالذعر والإياس والزحام والاصطلاء الشديد تحت الشمس - وفي وصف ذلك يقول سبحانه: (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) أي يساقون بعد قيامهم من قبورهم إلى المحشر، إذ يزحفون على وجوههم زحفا، وهم عمي لا يرون، وخرس لا ينطقون، وصم لا يسمعون - فياله من منظر فظيع، وصورة مريعة بئيسة تستبين من خلالها حال المجرمين الخاسرين يوم القيامة.

وفي حال الكافرين الخاسرين يوم القيامة وما يحيط بهم حينئذ من عظائم الأمور أخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم

" قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ".
وأخرج أحمد والنسائي والترمذي عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إنكم تحشرون رجالا وركبانا وتجرون على وجوهكم " - وأخرج أحمد والنسائي والحاكم عن أبي ذر قال: حدثني الصادق المصدوق (ص): " إن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج، فوج طاعمين كاسين راكبين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم ".
قوله: (مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) خبت النار تخبو، أي سكن لهيبها أو طفئ - ١١٩ والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين الناكبين عن منهج الله مستقرهم جهنم، بلهيبها المتأجج المستعر - وهي (كلما خبت زدناهم سعيرا) أي كلما سكن لهيبها بأن فنيت جلودهم وأبدانهم من الحريق ولم يبق منها ما تحرقه النار، أعادهم الله على ما كانوا عليه، لتتوقد بهم النار وتستعر ١٢٠.
٩٨ - (ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)
قوله تعالى: }ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا (٩٨) أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا (٩٩) قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا (١٠٠)}.
(ذلك جزاؤهم)، مبتدأ وخبره - (بأنهم)، متعلق بالجزاء، أي ذلك العذاب المتقدم جزاؤهم بسبب أنهم كفروا ١٢١ - والمعنى: أن هذا العذاب الذي جازيناهم به من بعثهم عميا وبكما وصما، جزاء تكذيبهم وكفرهم.
قوله: (وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا) جحد المشركون البعث عقب الممات بعد أن يستحيلوا إلى عظام وحطام، فقد أنكروا ذلك أيما إنكار - وهو ما يكشف عن بالغ ضلالهم وإدبارهم عن الحق، إذ قالوا مستسخرين (أإنا لمبعوثون خلقا جديدا) الاستفهام للإنكار (خلقا) اسم مصدر أو حال، أي مخلوقين - فبسبب كفرهم وتكذيبهم بالمعاد بعد الموت جعل الله جهنم مأواهم.
٩٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلا لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلا كُفُورًا)
قوله: (أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) ذلك احتجاج بالغ عليهم، إذ حجهم الله بخلق السماوات والأرض، فإن خلْقهما عظيم يدل على بالغ قدرة الله - أفلا يعلم هؤلاء المشركون الجاحدون أن الذي خلق ذلك لقادر على ما هو أدون وهو بعثهم من قبورهم من جديد.
قوله: (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) المراد بالأجل، الموت، أو يوم القيامة، فهو آتيهم لا محالة ليلاقوا بعد ذلك سوء الحساب.
قوله: (فأبى الظالمون إلا كفورا) أبى المشركون الخاسرون إلا الجحود بكل الدلائل والبينات والعبر.
١٠٠ - (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا)
قوله: (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق) (أنتم)، مرفوع بفعل مقدر يفسره (تملكون) والتقدير: لو تملكون - و (خشية)، منصوب على أنه مفعول له ١٢٢ والمراد بخزائن رحمة ربي، الأموال والأرزاق وسائر نعم الله، أي قل لهؤلاء المشركين الجاحدين لو أنكم أيها الناس تملكون خزائن النعم والأرزاق (إذا لأمسكتم خشية الإنفاق) أي لبخلتم بهذه الأموال فلم تعطوا منها أحدا شيئا خشية الفقر والفاقة، أو لبخلتم خشية أن يفني الإنفاق أموالكم، وذلك لفرط ما يركب طبع البشر من ذميمة الشح والإمساك، والضن بالبذل والسخاء - لذلك قال: (وكان الإنسان قتورا) أي بخيلا - يقال قتر يقتر قترا وأقتر إقتارا وقتر، بالتشديد، تقتيرا - والمراد أن الإنسان بني على التقتير وهو الشح والإمساك خشية على المال أن يفنى ١٢٣.
١٠١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا)
قوله تعالى: }ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا (١٠١) قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا (١٠٢) فأراد أن يستفزهم من

الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا (١٠٣) وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا لكم لفيفا (١٠٤)} أرسل الله رسوله موسى إلى فرعون ومثله بتسع آيات؛ أي تسع دلائل أو حجج ظاهرة تشهد بصدقه وأنه مرسل من رب العالمين - والآيات التسع: هي العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم - وهذه علامات تسع تحمل أولي الطبائع السوية والعقول السليمة على التصديق والاستيقان (فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم) وهو سؤال استشهاد؛ أي سلهم حين جاءهم موسى بالبينات ليظهر لهم أنك صادق فيما جئتهم به فيطمئنوا ويزدادوا يقينا - على أن نبي الله موسى قد أوتي آيات أخريات غير التسع، وذلك كضرب البحر بالعصا لينبجس منه الماء، وتظليل بني إسرائيل بالغمام، وإنزال المن والسلوى، ووقوف الماء كالطود العظيم من جانبي كل طريق مرّ به بنو إسرائيل في البحر - وغير ذلك من الآيات المعجزة - أما هذه الآيات التسع؛ فهي التي شهدها فرعون وملؤه من أهل مصر.

قوله: (فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) دعا موسى فرعون إلى توحيد الله، والكف عما أحاط به نفسه من الكبرياء والغرور وبالغ الكفران - وقد أراه الله جملة من آيات الله لعله يتذكر أو يخشى - لكن هذا الطاغوت قد كذّب وجحد واستكبر فقال قولته لنبي الله موسى (وإني لأظنك يا موسى مسحورا) أي ما جئتنا به فهو مما أصابك من السحر حتى صرت مسحورا فتخبط عقلك - وقيل: مسحورا؛ أي ساحرا بعجيب ما جئتنا به.

١٠٢ - (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

قوله: (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر) خاطب موسى فرعون له: لقد علمت يا فرعون أن هذه الآيات التسع التي احتججت بها لهي بصائر؛ أي دلائل وبينات قد أوجدها الله؛ فهي شاهدة لي على صدق رسالتي وصحة ما أقوله لكم.

وقد قرأ بعضهم (علمتُ) بضم التاء - والصحيح فتحها؛ أي ان فرعون قد علم أن موسى مرسل من ربه وأن ما جاءهم به حق فهو موقن بذلك في قلبه تمام اليقين لكنه مكذب معاند في الظاهر، كقوله سبحانه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا).

قوله: (وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) من الثبور وهو الهلاك والخسران ١٢٤.

والمعنى: إنني متحقق من أنك يا فرعون هالك وأنك صائر إلى الخسران.

١٠٣ - (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)

قوله: (فأراد أن يستفزهم من الأرض) أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر، أو أن يقتلهم ظلما وعدوان - لكن الله انتقم منه أشد انتقاما فحال بينه وبين ما أراد، وهو قوله: (فأغرقناه ومن معه جميعا) لقد سبق فرعون وجنوده إلى البحر ولما وجد فرعون فيه طريق يبسا أمرهم أن يلحقوا ببني إسرائيل، فلما دخلوا البحر أطبق عليهم إطباقا فكانوا من المغرقين، فأهلكهم الله بذلك وقطع دابرهم، وردّ مكرهم وكيدهم عن بني إسرائيل.

١٠٤ - (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

قوله: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) المراد بالأرض هي مصر التي أراد فرعون أن يخرجهم منها قسرا وظلما، فأورثهم الله بلاد فرعون وما فيها من أموال وخيرات وكنوز وثمرات (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) اللفيف، ما اجتمع من الناس من قبائل شتى (فإذا جاء وعد الآخرة) أي القيامة جئنا بكم مجتمعين - مختلطين ١٢٥.

١٠٥ - (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

قوله تعالى: {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا (١٠٥) وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١٠٦)} أنزل الله قرآنه بكل معاني الحق، كالعدل والرحمة والصدق والتعاون والبر وكل وجوه الخير والمعروف، والنهي عن الشر والمنكر وكل ضروب الباطل (وبالحق نزل) وهذا تأكيد على إنزال القرآن بالحق.

قوله: (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) لقد أرسل الله رسوله للبشرية يدعوها للحق والصواب، وليبشر الذين يطيعونه ويتبعون النور الذي أنزل معه بخير الجزاء وحسن المصير - ولينذر الذين يعصون الله ويخالفون عن أمره بسوء المصير في الدنيا والآخرة.

١٠٦ - (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا)

قوله: (وقرآنا فرقناه) (قرآنا)، منصوب بفعل مقدر، يفسره (فرقناه) ١٢٦ و (فرقناه)، بتخفيف الراء، أي فصلناه وبيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل - وقيل: بتشديد الراء، فيكون المعنى: أنزلنا شيئا بعد شيء وآية بعد آية، لا جملة واحدة، أي أن الله أنزل القرآن آية آية وسورة سورة - قال ابن عباس: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة - وقيل أكثر - ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقا منجما على الوقائع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ثلاث وعشرين سنة.

قوله: (لتقرأه على الناس على مكث) أي على مَهَلٍ وترسّل وتؤدة - قوله: (ونزلناه تنزيلا) أي أنزلناه مفرقا منجما.

١٠٧ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا)

قوله تعالى: {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا (١٠٧) ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا (١٠٨) ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (١٠٩)} يأمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهؤلاء المشركين المكذبين على سبيل التقريع والتهديد: سواء آمنتم بالقرآن أم لم تؤمنوا، فإن القرآن في ذاته حق لا شك فيه وقد ذكره الله في كتبه المنزلة على الأمم السابقة فقال: (إن الذين أوتوا العلم من قبله) المراد بهم المؤمنون من أهل الكتاب (إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا) إذا يتلى عليهم القرآن يقعون على أذقانهم ساجدين - والأذقان جمع ذقن - وذقن الإنسان مجمع لحييه - ١٢٧ وقد ذكر الأذقان، لأنها أول ما يحاذي الأرض عند السجود - والمعنى: أنهم يبادرون السقوط على وجوههم ساجدين

١٠٨ - (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا)

(ويقولون سبحان ربنا) أي يعظمون الله في سجودهم وينزهونه عن كل عيب ونقيصه (إن كان وعد ربنا لمفعولا) (إن)، المخففة من الثقيلة، وهي بمعنى إنه، وهي للتأكيد، أي إنه كان وعد ربنا حقا ويقينا وذلك بإنزال القرآن وبعث محمد - صلى الله عليه وسلم -.

١٠٩ - (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

قوله: {ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} إذا تلي القرآن على مؤمني أهل الكتاب، فإنهم يستحوذ عليهم الاعتبار فيجهشون في البكاء من شدة التأثر ويزيدهم ما في القرآن من عظيم المواعظ والمعاني خشوعا.

١١٠ - (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)

قوله تعالى: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا (١١٠) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا (١١١)} ذكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية (قل ادعوا الله) تهجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: يا رحمن، يا رحيم - فقال المشركون: كان محمد يدعو إلها واحدا فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله والرحمن - ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ١٢٨ - وفيها بيان بأن الله والرحمن اسمان لمسمى واحد فلا فرق بين دعائكم أيها الناس باسم الله أو باسم الرحمن، فإن الله ذو الأسماء الحسنى، ومن جملتها الله والرحمن.

وذلك قوله: (أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (أيا)، منصوب بالفعل (تدعو) - و (مّا) زائدة للتأكيد - و (تدعوا)، مجزوم بأي الشرطية - والفاء في قوله فله، جواب الشرط ١٢٩.

قوله: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله

- صلى الله عليه وسلم - متوار بمكة (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به - فقال الله تعالى لنبيه (ص): (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك.
وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقا منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع، ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته (ص) لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئا فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فيتفرقوا عنك (ولا تخافت بها) فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم، فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ١٣٠.
قوله: (وابتغ بين ذلك سبيلا) أي ابتغ سبيلا وسطا بين الجهر والمخافتة - والمخافتة معناها السكون وخفض الصوت.
١١١ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)
قوله: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) يأمر الله نبيه (ص) أن يفيض لسانه على الدوام بهذه الكلمات العظيمات التي تتضمن كريم الدعاء والإنابة والإخبات لله رب العالمين - وهي قوله: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) الثناء والتمجيد لله الذي لم تكن له صاحبة ولم يتخذ ولدا، لأنه منزه عن نقائض الآدميين وعيوبهم؛ فالله سبحانه واحد لا شريك له ول ولد وليس له كفوا أحد.
قوله: (ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل) ليس لله في ملكه شريك، وإن من شيء إلا هو مملوك له سبحانه - وليس له من أحد ينصره أو يجيره من الذل؛ بل الله الناصر العزيز المجير المتكبر.
قوله: (وكبره تكبيرا) أي عظّمه أبغ تعظيم، وأجلّه أكمل إجلال، ونزّهه عما يفتريه الظالمون والمشركون ١٣١.

١٨ سورة الكهف:

سورة الكهف:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وهي فيها من أخبار السابقين ما يثير الخيال ويدهش اللب؛ فهي أخبار تكشف عن مجاهيل مضت مع الغابرين الأولين مما لا علم لبشر أمي كرسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - بذلك إلا أن يتلقى تلك الأخبار من ربه.
ومن جهة أخرى: فإن هاتيك الأخبار في ذاتها وكيفية وقوعها، إن هي إلا ضرب من ضروب الإعجاز الحسي الذي يخرج عن دائرة الكون في قوانينه ونواميسه.
على أن الخبر الأظهر والأكبر في هذه السورة ما سميت السورة كلها به وهو الكهف، وأصحابه الفتية المؤمنون الأبرار الذين هاجروا ديارهم وأهليهم هربا من الكفر والبغيض - الكفر الذي تنفر منه الطبائع السليمة، وتشمئز من المكث في سلطانه فطرة الطيبين الصالحين من الناس كأصحاب الكهف - ثم نستيقن بعد ذلك أن عقيدة التوحيد الخالص، لهي الحافز المحقق الذي يزجي بالمرء إلى ابتغاء الحق والصواب ونشدان الخير مهما تكن الظروف - وأنها الإحساس المؤثر العظيم الذي يكمن في أغوار الإنسان ليسير في الأرض مهتديا مستبصرا دون تعثر أو تخبط أو اضطراب - إن عقيدة التوحيد لهي التي تؤلف بين العباد أعظم تأليف كيما يكون الناس جميعا إخوة مؤتلفين متحدين - لاجرم أن قصة الفتية الأبرار من أصحاب الكهف لهي أسطع صورة تكشف للعقول على مر الزمن عن سداد العقيدة الصحيحة السليمة، وعن مدى تأثيرها البالغ في التأليف بين قلوب العباد، ولترسيخ المودة والرحمة والتعارف بينهم - وأن العقيدة وحدها مطردة لكل أسباب الشقاء والبغضاء والقلق وغير ذلك من ظواهر الشر والسوء التي تسود البشرية الضالة عن منهج الله.
وبغير العقيدة الصحيحة السليمة، عقيدة التوحيد الخالص؛ لسوف تظل البشرية تائهة في الظلام، سادرة في البلاء بكل صوره وأشكاله

حتى تفيء إلى دين الله ومنهجه المستقيم - منهج الحق والرحمة والنجاة.
وفي فضل سورة الكهف وقراءتها، أخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من قرأ العشر الأوائل من سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال ".
١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{الحمد لله الذي أنزل وعلى عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا (١) قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (٥)} ذكر ابن إسحاق سبب نزول هذه السورة المباركة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا - فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم - سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب - وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه - وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم، فإنه رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم - فجاءوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا محمد أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به - فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أخبركم غدا عما سألتم عنه " ولم يستثن - فانصرفوا عنه ومكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكث الوحي وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة - ثم جاء جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح ١.
قوله: (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) هذا ثناء من الله على نفسه المجيدة، فهو سبحانه المحمود في كل الأحوال وقد حمد نفسه، إذ أنزل كتابه المبارك على رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - ليكون للناس خير هاد وأعظم دليل (ولم يجعل له عوجا) الواو، للعطف وعوجا، حال - والتقدير: أنزل الكتاب على عبده غير مجعول له عوجا قيما ٢ - والمعنى: أن الله أنزل القرآن على العالمين ولم يجعل فيه أيما اعوجاج أو زيغ ولم يحتمل شيئا من ضعف أو نقص، بل جعله الله مستقيما معتدلا شاملا لكل وجوه الخير والحق، مجانبا لكل احتمالات الشر والباطل وبذلك يصلح عليه حال البشرية، فيصيروا إلى السعادة والنجاة في الدارين - وهو قوله سبحانه: (قيما)
٢ - (قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)
(قيما) أي مستقيما - وهو منصوب بمضمر وتقديره: جعله قيما.
قوله: (لينذر بأسا شديدا من لدنه) (بأسا)، مفعول ثان للفعل ينذر والمفعول الأول محذوف وتقديره: لينذركم بأسا شديدا من لدنه ٣، أي لينذر من خالفه وكذب به شديد العقاب في الدنيا والآخرة (من لدنه) أي من عند الله المنتقم الجبار الذي يؤاخذ العصاة والمجرمين بما كسبوا فيذيقهم عذابه العاجل، فضلا عما يؤخره لهم من أليم العقاب في الآخرة (من لدنه) أي من عند الله المنتقم الجبار الذي يؤاخذ العصاة والمجرمين بما كسبوا فيذيقهم عذابه العاجل، فضلا عما يؤخره لهم من أليم العقاب في الآخرة (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا) جاء هذا القرآن الحكيم المبارك ليحمل البشرى للمؤمنين الذين يتبعون ما أنزل الله في كتابه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه (أن لهم أجرا حسنا) أعد الله للمؤمنين العاملين الصالحات خير الجزاء وهو الجنة

٣ - (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)
(ماكثين فيه أبدا) (ماكثين)، منصوب على الحال من الضمير في (ولهم) أي هؤلاء المؤمنون الأتقياء لابثون في الجنة أبدا فلا يزولون عنها ولا يتحولون.
٤ - (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)
قوله: (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) المراد مشركو العرب؛ إذ قالوا: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله - وكذلك النصارى؛ إذ قالوا: إن المسيح ابن الله وكذلك اليهود، قالوا: عزير ابن الله - تعالى الله عن قولهم جميعا علوا كبيرا.
٥ - (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا)
وما قولهم هذا إلا الضلال والباطل - ولم يصدر هذا القول المقبوح عن علم منهم ولا من أسلافهم - وإنما قالوه جهلا وضلالا - وهو قوله: (ما لهم به من علم ولا لآبائهم) فقد جاء القرآن نذيرا لهؤلاء المكذبين، جزاء مقالتهم الظالمة - ولذلك قال: (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) (كلمة)، منصوب على التمييز: والتقدير، كبرت الكلمة كلمة - و (تخرج)، جملة فعلية في موضع نصب، صفة لقوله: (كلمة) ٤ - والمعنى: عظمت الكلمة التي قالوها، كلمة، أو كبرت مقالتهم كلمة - والمراد بهذه الكلمة قولهم: (اتخذ الله ولدا) وقد وصفها بأنها (تخرج من أفواههم) وذلك استعظام لاجترائهم المستهجن على النطق بهذه المقالة وإخراجها من أفواههم؛ فإن كثيرا من الناس يكظمون في نفوسهم المنكر ولا يبلغون مبلغ النطق بها، لكن هؤلاء غالوا في الكفر فقالوا مثل هذه الكلمة النكراء (إن يقولون إلا كذبا) أي ما يقول هؤلاء الظالمون الخاسرون إلا الكذب والافتراء على الله، فبئس ما افتروا وبئس ما قالوا ٥.
٦ - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)
قوله تعالى: }فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (٦) إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (٨){ (باخع)، مهلك - بخع نفسه بخعا؛ أي قتلها من وجْدٍ أو غيظ ٦ - وهذه تعزية من الله لرسوله (ص) وتسلية له مما كان يصيب قبله من الحزن بسبب إعراضهم عن دين الله وعن كتابه الحكيم - وهو قوله: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) يعني لعلك يا محمد مهلك نفسك أو قاتلها (على آثارهم) أي على فراقهم وعقب توليهم وإدبارهم عنك (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) المراد بالحديث القرآن - و (أسفا)، منصوب على المصدر في موضع الحال - وقيل: مفعول له؛ أي لا تهلك نفسك بفرط حزنك عليهم؛ إذ كفروا وكذبوا كلام ربهم، فما عليك إلا التبليغ والتبيين - فمن اهتدى بعد ذلك فلنفسه، ومن ضل فإنما يحيق به وحده الخسران.
٧ - (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)
قوله: }إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا{ (زينة)، منصوب؛ لأنه مفعول ثان ٧، والمعنى: أن الله خلق الأرض وما عليها من زينة على اختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها، ما بين زروع وثمرات وأنعام ومعادن وحافلات - وغير ذلك من وجوه الزينة التي تعمر الأرض - لقد خلق الله كل ذلك ليبتلي به الإنسان، فيظهر فيهم من هو أطوع لأوامر الله وأكثر انزجارا عن نواهيه وأشد التزاما لشرعه وأحكامه.
والمراد من ذلك: التذكير بأن الدنيا دار اختبار ومرور، وأنها العاجلة الفانية الغرور، الصائرة إلى الزوال المحتوم عما قريب - فلا تبئس بما يفعله الظالمون من جحود وتمرد - ومما هو خليق ذكره هنا ان ابتئاس المسلم واشتداد حزنه وغضبه مما يفعله الظالمون من فرط الجحود والعصيان، لهو سمة ظاهرة تكشف عن إخلاص النية لله، وعن مبلغ التشبث بعقيدة الإسلام التي يستمسك بها المسلمون الغيورون في كل الأحوال - إن اغتمام المسلم مما يجده في نفسه من بالغ الحزن والأسى مما يقترفه الظالمون المجرمون في حق الإسلام والمسلمين من تشويه وكيد وإبادة واستئصال؛ لهو دليل على صدق القلب الموصول بالله، المحب لدينه وشرعه - وما ينبغي لمسلم أن يواجه الجرائم والفظائع التي ينزلها الظالمون الطغاة في ساحة الإسلام والمسلمين بفتور وتبلد - فمن ذا الذي لا يعبأ بأرزاء المسلمين وويلاتهم إلا من تخبو في صدره جذوة العقيدة، ويموت في نفسه الإحساس بالإيمان.

وشأن المسلم المخلص الغيور أن يغضب ويأسى ويبئس مما يفعله الطغاة والمجرمون في حق الإسلام والمسلمين على أن لا يفْضي الإفراط في الحزن والغضب إلى الهلكة وذهاب النفس حسرات.
٨ - (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)
قوله: {وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا} الصعيد، التراب، أو وجه الأرض - والجرز، الأرض التي لا نبات فيها - وذلك كائن يوم القيامة، إذ يجعل الأرض مستوية قفرا لا نبات فيها ولا زرع ولا عمران، فكل ما عليها زائل وفان ثم صائر إلى الله الخالق المعيد - وفي ذلك مواساة للرسول - صلى الله عليه وسلم - كيلا يبخع نفسه فيهلكها حزنا مما يسمع ويرى.
٩ - (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)
قوله تعالى: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا (٩) إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا (١٠) فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا (١١) ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا (١٢)}.
معنى (أم)، ههنا، الاستفهام على الإنكار، أي أحسبتَ يا محمد أن واقعة أهل الكهف كانت عجيبة؟ فلا تحسب ذلك، فإن تلك الواقعة في جانب ما خلقناه ليست عجيبة - أو لا يعظم ذلك عندك بتعظيم السائلين الكافرين له - فما خلق الله من سموات وأرض وما فيهما وما بينهما أعظم من قصة أهل الكهف - وذلك أن مشركين سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن فتية قد فقدوا، وعن ذي القرنين، وعن الروح، ثم نزلت الآية في شأن ذلك، إذ قال الله لنبيه: أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا؟ إنهم ليسوا بعجب من آياتنا، فما خلقناه في الكون من آيات عظام أشد عجبا مما حسبوه.
أما الكهف: فهو البيت المنقور في الجبل وجمعه كهوف ٨، أو هو الغار في الجبل، وهو الذي أوى إليه هؤلاء الفتية المؤمنون الذين فروا بدينهم إلى خارج البلد والأهل خشية الفتنة - وأما الرقيم، فهو اسم الوادي الذي فيه الكهف - وقيل: الجبل الذي فيه الكهف - وقيل: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف.
١٠ - (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)
قوله: (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي واذكر حين لجأ هؤلاء الفتية المؤمنون إلى الكهف هاربين من قومهم المشركين وملكهم الظالم الذي استخف شعبه فحملهم على التلبس بالوثنية - وقيل: إن هؤلاء الفتية مؤمنون من قوم عيسى عليه السلام وقد أبوا أن يطيعوا ملكهم، إذ أمر الناس بعبادة الأصنام - وقيل: كانوا من قوم مشركين من قبل المسيح لكنهم آمنوا بالله وحده ولم يشركوا بعبادته أحدا من دونه - فقد تشاوروا فيما بينهم بحثا عن سبيل النجاة بدينهم، والخلاص من الفتنة - فاهتدوا إلى الخروج من بلدهم ومن بين أهلهم مختفين مستسرّين، كيلا يعلم بهم أحد فيخبر عنهم الملك الظالم فيفتنهم عن دينهم.
أما الكلب الذي كان معهم: فقد روي أنه كان كلب صيد لهم - وقيل: إنهم وجدوا في طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم والقول الأول أشبه بالصحيح.
ويستفاد من هذه الآية: جواز الفرار بالدين وهجر الأهل والأوطان، ومغادرة الديار والصحب والخلان خشية الفتنة - وذلك أن تحيق بالمسلمين ظواهر شتى من الفتنة فيوشك معها أن يفتن المسلم عن دينه فيسقط في مهاوي الضلال والفساد، أو الزيغ عن العقيدة - ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذلك خير أسوة، إذا خرج بدينه ومعه الفئة المؤمنون المهجرة، لما حاقت بهم المحن والشدائد التي تحول بين المرء والقيام بعبادة ربه وطاعته، فقد هجروا الأوطان والأهل والأولاد، طلبا للنجاة بدينهم وخشية من فتنة الكافرين لهم - فالهجرة في مثل هذه الحال جائزة إن كان في الأرض متسع يتحقق فيه الأمن والطمأنينة وتغيب فيه بوادر الخوف والمحنة والفتنة - أما إذا عمت الفتنة فغشيت عموم البلاد ولم يكن في الأرض من موضع إلا وتعشش فيه الفتنة وتلُوح في أجوائه المحن فما على المؤمنين بعد ذلك إلا الاصطبار والاحتمال، راكنين في كل أمورهم إلى الله وحده مستمدين منه العون والتثبيت والتأييد، فهو سبحانه ضمين

أن يعينهم ويقويهم وأن يجعلهم من الثابتين على دينه - جعلنا الله من الثابتين المخلصين الصابرين على دينه إلى يوم نلقاه.
على أن أحوالا من الفتن تعرض للمسلمين في كثير من الأحيان عبر تاريخهم الطويل مع الكفر والكافرين - وهي فتن تسلك منحى آخر أشد خطرا وكيدا للإسلام والمسلمين - وهي فتنة التشويه والتشكيك في هذا الدين، وحملات السوء والكذب التي يشيعها الحاقدون والمتربصون على الإسلام ليحملوا البشرية والمسلمين خصوصا على الارتياب في هذا الدين، مما يفضي إلى إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس أصحابها المسلمين - كزماننا هذا الذي طغت فيه الأكاذيب والدسائس وكل ظواهر التشويه والتشكيك في الإسلام مما يكيده له خصومه المتربصون المنتشرون في سائر أنحاء الأرض، من وثنيين وملحدين وصليبيين واستعماريين وصهيونيين وماسون - كل أولئك بارعون في التدسس وهم يتحسسون بحثا عن ثغرات في بعض تعاليم الإسلام وأحكامه؛ ليجدوا فيها مواطن ينفذون منها للطعن في هذا الدين العظيم.
وفي مثل هذه الأحوال من حملات الطغاة والمفسدين والأشرار على الإسلام، وجب على الفئة المؤمنة الواعية في المسلمين أن ينبروا للرد على ما يفتريه المربيون والخراصون على الإسلام - وجب عليهم أن لا ينثنوا ولا يترددوا في الدفاع عن تعاليم الإسلام - وذلك في ثبات ودراية وشجاعة - واجب المسلمين في مثل هذه الأحوال العصيبة التي تلمّ بالإسلام أن لا يفروا ولا ينعزلوا عن ساحة المواجهة التي يحتدم فيها الصراع بين الإسلام وخصومه الذين يكيدون له بالكذب والتشويه والتخريص، وإشاعة الأباطيل - ومثل هذه الواقع لا يحتمل الإبطاء أو الفرار أو الاعتزال في خور وتبلّد؛ فإنه لا ينثني عن مواجهة الخراصين المتربصين بالرد المنطقي المفحم إلا كل متخاذل خائر.
قوله: (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) سألوا الله أن تغشاهم رحمته بما يسبغه عليهم من نعمة الرعاية والكلاءة والرزق والأمن من الأعداء.
قوله: (وهيئ لنا من أمرنا رشدا) سألوا الله أن يهبهم في حالهم العصيبة هذه (رشدا) أي سدادا وتوفيقا ليكونوا مهديين راشدين سالمين من السوء والفتنة.
١١ - (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)
قوله: {فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا} (فضربنا على آذانهم)، أي أنمناهم، وهذا من جميل الاستعارة وأبلغها - و (سنين)، منصوب على الظرف - و (عددا)، صفة لسنين - وقيل: منصوب على المصدر ٩؛ فقد ألقى الله على هؤلاء الفتية النوم فرقدوا هاجعين سنين كثيرة.
١٢ - (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)
قوله: {ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا} (أي) مرفوع؛ لأنه مبتدأ - (أحصى)، فعل ماض، خبر المبتدأ - و (أمدا)، منصوب على الظرفية الزمانة ١٠ - والمراد بالحزبين: الفريقان اللذان اختلفا في المدة التي لبثها أصحاب الكهف - والأمد، يراد به القدر من السنين التي مكثوها في كهفهم - والمعنى: أن الله أيقظهم من نومهم الطويل ليستبين للناس أي الفريقين المختلفين أضبط وأصول لقدر مكثهم نائمين في الكهف ١١.
١٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)
قوله تعالى: {نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى (١٣) وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا (١٤) هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا (١٥) وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا (١٦)} شرع الآن في بسط القصة وتبيينها على التفصيل - فذكر الله عز وعلا أن أصحاب الكهف فتية؛ فهم بذلك شباب وأحداث قد آمنوا بربهم من غير واسطة - فلا جرم أن الشباب ألين طبعا وأرق عاطفة وقلبا، وأسلس في الانقياد للحق - الشباب أشد إقبالا على منهج الله الذي ترتضيه فطرتهم الغضّة، السليمة من التلويث وأعظم استجابة للصواب والسداد إذا هتفت بهم

هواتف اليقين، فهم بذلك أهدى لسبيل الله المستقيم من الشيوخ الذين يستعصون على الطاعة وسماع الحق في الغالب - وذلك لما ران على فطرتهم من شوائب الدنيا وزينتها الفاتنة، وبما رسخ في أعماقهم من الأهواء وحب الشهوات، من المال والجاه وغيرهما - لذلك كان أكثر الناس إقبالا على الإسلام الشباب، وكان أكثر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شبابا - قوله: (وزدناهم هدى) أي زدناهم إيمانا مع إيمانهم، ويقينا إلى يقينهم، فصبروا على هجران الأهل والوطن، والرضى بخشونة العيش في الكهف بعد الذي كانوا فيه من رغد الحياة ولين العيش والنعمة - ويستدل بهذه الآية على زيادة الإيمان ولأنه يزيد وينقص - وهو قول فريق من أهل العلم - يعزز هذا المذهب قوله تعالى: (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله: (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم)

١٤ - (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)

قوله: (وربطنا على قلوبهم) أي ثبتناهم وقويناهم بالصبر على مخالفة قومهم المشركين ومفارقة ما كانوا فيه من النعمة والسعة والعيش الرغيد فرارا بدينهم وخشية الفتنة.

قوله: (إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها) ذكر بعض المفسرين أن هؤلاء الفتية كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه - فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم، والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض - فجعل كل منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية - حتى اجتمعوا كلهم على قدر تحت ظل شجرة - وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان - وقد جاء في حديث البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف " ١٢ - ولما عرف بهم قومهم وشوا بأمرهم إلى الملك فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق، وأمرهم باتباع دينه وتوعدهم على رفض ذلك بالقتل فقالوا له في عزم وثبات ما قاله الله: (ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا) (شططا)، منصوب على أنه صفقة لمصدر محذوف، وتقديره: قولا شططا - وقيل: منصوب بالفعل (قلنا) ١٣ والشطط، في اللغة، مجاوزة القدر في كل شيء ١٤ وهو الجور والظلم - والشطوط، معناه البعد - واشتط، أي أبعد - والمراد به هنا: الإفراط في الظلم والافتراء، والإبعاد في الجور والكذب.

١٥ - (هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

قوله: (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) هذا قول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار والاستهجان - وهو أن قومنا عبدوا الأصنام من دون الله (لولا يأتون عليهم بسلطان بين) لولا، أداة تحضيض، بمعنى هلا أي يأتون على دعواهم بأن هذه الأصنام آلهة (بسلطان بين) أي بحجة ظاهرة - والمراد بذلك استهجان القوم المشركين وما كانوا عليه من عبادة لأصنام جوامد لا تضر ولا تنفع.

قوله: (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) من أشد ظلما ممن اختلق الكذب على الله فأشرك معه آلهة مصطنعة أخرى.

١٦ - (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)

قوله: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف) (إذ)، تتعلق بفعل مقدر وتقديره: واذكروا إذا اعتزلتموهم - وذلك خطاب من بعض الفتية لبعض حين عزموا على الفرار بدينهم، وما، فيها ثلاثة أوجه: الوجه الأول: أنها مصدرية - فيكون التقدير: وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم إلا عبادة الله - وكان الاستثناء من الجنس.

الوجه الثاني: أن تكون اسما موصولا، فيكون التقدير: وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم الذي يعبدونه - وهو استثناء من غير الجنس.

الوجه الثالث: أن تكون نافية - فيكون التقدير: وإذا اعتزلتموهم غير عابدين إلا الله، فتكون الواو واو الحال ١٥، أي أن هذا كلام

معترض فيه إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) أي إذا فارقتم قومكم المشركين وجانبتم عبادتهم وشركهم فاذهبوا إلى الكهف واجعلوه مثوى لكم (ينشر لكم ربكم من رحمته) يبسط الله عليكم من واسع رحمته ما يصونكم ويحفظكم ويدرأ عنكم شر قومكم الظالمين (ويهيء لكم من أمركم مرفقا) أي ييسر الله لكم مما أنتم فيه من الكرب والضيق وخوف الفتنة (مرفقا) المرفق، كل ما يرتفق به وينتفع ويستعان ١٦.

١٧ - (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)

قوله تعالى: {وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا}.

(تزاور)، بالتخفيف، جملة فعلية في محل نصب على الحال من الشمس ١٧، و (تزاور)، يعني تميل - وهو من الازورار، والتزاور، والزور، بفتح الزاي، وهو الميل والانحراف - ومنه الزور، بضم الزاي، أي الميل عن الصدق ١٨ - و (تقرضهم)، من القرض وهو القطع أو الترك - والمعنى: أن أصحاب الكهف كانوا راقدين في كهفهم الذي هيأه الله لهم ويسر لهم أن يأووا إليه، فكانوا داخله في كلاءة من الأذى والبلى والضرر - ذلك أن الكهف كان على الهيئة التي يستكن فيها هؤلاء الفتية فلا تمسهم الشمس - وهو قوله: (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين) أي أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم ذات اليمين، أي يمين الكهف (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) تقرضهم من القرض وهو القطع، أي إذا غربت الشمس فإنها عند غروبها تتركهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال، أي شمال الكهف - وبعبارة أخرى: فإنها تخلّفهم شمالا وتجاوزهم وتقطعهم وتتركهم عن شمالها ١٩، فهي بذلك لا تصيبهم عند طلوع الشمس وهو أول النهار، ولا عند غروبها وهو آخر النهار.

وبذلك قد حفظ الله أصحابه الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس - ولو وقع عليهم أو أصابهم لفسدت أجسامهم وأتى عليها البلى والتلف (وهم في فجوة) أي وهم راقدون في متسع من الكهف لا تصيبهم الشمس فتؤذيهم بلظاها الحارق - وهذه آية من آيات الله تتجلى في مثل هذه الكرامة الربانية التي منّ الله بها على هؤلاء الفتية الأبرار، بما يكشف عن قدرته سبحانه، فهو الحفيظ لعباده المؤمنين به، المتوكلين عليه، اللاجئين إلى جنابه، الهاربين من الفتنة وظلم الأشرار إلى رحابه - وهو جل وعلا (خير حافظا وهو أرحم الراحمين).

قوله: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) يهدي الله من آمن به وأذعن لأمره وجاهد في سبيله طلبا لرضاه، يهديه إلى سبيل الرشاد كأصحاب الكهف - أما ذو الطبع الزائغ المعوج الذي يجنح للجحود وفعل المعاصي فلن يكن له من نصير يهديه أو يرشده ٢٠.

١٨ - (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

قوله تعالى: {وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا} الأيقاظ جمع يقظ ويقظان وهو المتنبه - و (رقود)، يعني نيام، جمع راقد والمخاطب بهذه الآية كل أحد، أي أن الناظر إلى هؤلاء الفتية يحسب أنهم يقظون غير نيام، لأن عيونهم غير منطبقة بل مفتوحة لكي يمسها الهواء فلا تبلى، وهم في الحقيقة نيام، إذ يقلّبهم الله مرة للجنب الأيمن، ومرة للجنب الأيسر، لأنهم إذا لم يقلبوا تقليبا مستمرا لسوف تأكلهم الأرض أو يأتي عليهم البلى.

قوله: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) (ذراعيه)، منصوب، لأنه مفعول لاسم الفاعل (باسط) - والوصيد، معناه الفناء ٢١، فقد كان كلبهم يربض بفناء الكهف باسطا ذراعيه كعادة الكلاب راقدا مثلهم طيلة هذه السنين - على أن هذا المذكور في الآية كلب على الحقيقة، وليس المجاز - وقد صحبهم في الخروج والمسير حتى بلغوا الكهف، وهو مستأنس بهم، متودد إليهم، فنالته البركة بفضل

هذه الصحبة الكريمة لأناس أطهار كرام - حتى بات يُذكر على ألسنة المؤمنين على مر الزمان - وحسبه تكريما وبركة أن يأتي ذكره في القرآن في معرض الثناء والاحترام.

أما الكلاب عموما فقد نهى الشرع عن اقتنائها لما فيها من نجاسة، وبسبب إيذائها للناس بنباحها وعقرها - على أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة أو جنب - ويستثنى من الكلاب ما كان للصيد أو الحراسة فلا بأس في اقتنائه.

قوله: (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) (فرارا)، منصوب على المصدر - و (رعبا)، منصوب على التمييز، أو على أنه مفعول ثان، فقد ألقى الله المهابة على أصحاب الكهف وهم رقود - مفتحة عيونهم - فلو نظر إليهم أحد لأدبر هاربا مذعورا ولا متلأ قلبه فزعا، ولغشيه من الخوف ما يغشى المذعورين الوجلين لهول المنظر الرعيب - وقد ألبسهم الله هذه المهابة كيلا يدنوا منهم أحد ولا تلمسهم يد لامس، فهم على حالهم هذه حتى يقضي الله فيهم ما يشاء، ليكون للناس فيهم آية وعبرة، وليعلموا أن الله قادر على فعل ما يشاء، سواء في ذلك ما انسجم مع الطبيعة في قوانينها الأساسية، أو ما كان خارقا لقوانين الطبيعة ونواميسها كالذي حصل لأصحاب الكهف الذين ظلوا رقودا سنين طوالا ٢٢.

١٩ - (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

قوله تعالى: }وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كل لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرون بكم أحدا (١٩) إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا (٢٠)} أي وكما أنمناهم تلك النومة وأبقيناهم أحياء بعثناهم، أي أحييناهم من تلك النومة الطويلة بعد ثلاثمائة وتسع من السنين، ولم يمسهم أذى أو بلى - وهي آية من آيات الله في خلقه تؤز العقل لكي يتدبر ويتفكر في قدرة الله البالغة وإرادته التي لا تعرف القيود.

قوله: (ليتساءلوا بينهم قال قائل منكم كم لبثتم) (كم)، هنا ظرفية في موضع نصب للفعل لبثتم - وتقديره: كم يوما لبثتم ٢٣ اللام في (ليتساءلوا) لام الصيرورة وهي العاقبة - وقيل: للتعليل - والمعنى: ليسأل بعضهم بعضا عن المدة التي لبثوها رقودا في كهفهم - ولذلك (قال قائل منهم كم لبثتم) كم مدة لبثكم؟ فأجاب الآخرون: (لبثنا يوما أو بعض يوم) ظنوا هذه المدة وهي يوم أو بعضه، لأن دخولهم إلى الكهف كان في أول النهار، واستيقاظهم كان آخره - لكنهم قد حصل لهم شيء من تردد في المدة الصحيحة فسلموا العلم بذلك إلى الله فهو علام الغيوب، إذ قالوا (ربكم أعلم بما لبثتم) كأنهم ظنوا أن مدة نومهم كانت طويلة ولا يدري بحقيقتها إلا الله.

قوله: (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) اللام في (المدينة)، للعهد والمراد مدينتهم التي خرجوا منها هرابا - وقد ذكر أن اسمها أفسوس - والورق بكسر الراء، دراهم من فضة مضروبة أو غير مضروبة، جاءوا بها لدى خروجهم من المدينة.

قوله: (فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه) ذكر أنهم قاموا من رقادهم جياعا فبادروا يطلبون الطعام: فسألوا مبعوثهم أن يشتري لهم (أزكى طعاما فليأتكم برزق منه) أي أطيب طعاما وأحله فليأتكم منه بقوت يقتاتون منه (وليتلطف ولا يشعرون بكم أحدا) وليتلطف من اللطف وهو الرفق - والتلطف في الأمر، أي الترفق به - والمراد: ذهابه إلى المدينة وإيابه منها في ترفق وحذر (ولا يشعرن بكم أحدا) أي لا يعلمنّ بأمره أحدا.

٢٠ - (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)

قوله: }إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا{ المراد بالرحم: قتلهم بالحجارة وهو أفظع ضروب القتل - وقيل: سبهم وشتمهم - والأول أظهر، أي أنهم إن اطلعوا عليكم وعلموا بمكانكم رجموكم بالحجارة، وهذه أخبث قتلة (أو يعيدوكم في ملتهم) أي لا يزالون يعذبونكم حتى يفتنوكم عن دينكم فتنقلبوا إلى دينهم دين الشرك (ولن تفلحوا إذا أبدا) أي إذا انقلبتم مشركين بتحولكم إلى دينهم، فلا فلاح لكم ولا نجاة في الدنيا والآخرة وكنتم من الخاسرين ٢٤.

٢١ - (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)

قوله تعالى: }وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا (٢١)}.

أي كما أنمنا أصحاب الكهف وبعثناهم من رقدتهم، أطلعنا عليهم الناس (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) فقد كان الناس حينئذ في شك من أمر الساعة، فهم بين مصدق وجاحد - وقال بعضهم: تبعث الأرواح دون الأجساد - وقال آخرون: تبعث الأرواح والأجساد مجتمعة، فبعث الله أهل الكهف دلالة وآية على حقيقة البعث - وقد ذكر أن الذي ذهب إلى المدينة ليشتري لهم الطعام قد أذهلته الحيرة وغشيه العجب مما رأى، إذ رأى أن الناس جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة قد تغيروا، وتغيرت كذلك معالم البلاد - فلم يعرف شيئا مما يعرفه من معالم البلد، ولم يعرف أحدا من الناس - ثم عمد إلى بائع طعام فدفع إليه ما معه من دراهم ليبيعه بها طعاما - فلما رآها البائع أنكرها ثم دفعها إلى جاره، فجعلوا يتداولونها بينهم فسألوه عن أمره، فلما حدثهم بخبره قاموا معه إلى الكهف ومعهم الملك وكان مسلما، فلما دخل عليهم فرحوا به وسلموا عليه ثم عادوا إلى مضاجعهم فأماتهم الله.

لقد كان خبرهم آية ظاهرة تشهد بأن وعد الله حق، وهو أن يبعث الناس من قبورهم وأن الساعة آتية لا ريب فيها - وهو قوله: (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) (إذ) ظرف متعلق بالفعل (أعثرنا) أي أعثرنا أو علمنا هؤلاء المختلفين في حقيقة البعث وقيام الساعة فقد تنازعوا في أمرها فمن مثبت لها ومن مكذب - فجعل الله خبر أهل الكهف حجة ساطعة للمصدقين بقيام ساعة وخبر البعث - وقيل: تنازعوا فيما يفعلونه بهم بعد الاطلاع عليهم - وهو قوله: (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم) قالوا حين توفاهم الله: (ابنوا عليهم بنيانا) يسدّ به باب كهفهم فلا يتطرق إليهم الناس.

قوله: (ربهم أعلم بهم) ذلك من قول المتنازعين في أمرهم؛ إذ قالوا: الله أعلم بحقيقة هؤلاء الفتية من حيث أنسابهم وعددهم ومدة مكثهم.

قوله: (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) المراد بهم المسلمون ومعهم الملك؛ إذ كان مسلما - فهم بذلك الغالبون على أمر من عداهم من الناس - وأولئك قد استقر رأيهم أن يبنوا مسجدا على باب الكهف فيصلي فيه المسلمون ٢٥.

على أن بناء المساجد على القبور والصلاة فيها مما حرمه الشرع؛ فإن اتخاذ المسجد فوق القبر مدعاة لتعظيم القبر وصاحبه - أو هو سبب يسوق المشاعر والأذهان إلى تقديس القبور رويدا رويدا - فما تمرّ الأيام والسنون حتى يصير صاحب القبر مثار تعظيم بالغ كالذي حصل للأصنام؛ إذ عُبدت من دون الله بعد أن كانت حجارة - فمثل هذا البناء حرام سدا للذريعة - وفي النهي عن البناء على القبور أخرج النسائي عن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " وأخرج النسائي كذلك عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ".

ويكره تجصيص القبور - وتجصيصها يعني تبيضها بالجص وهو الجبس، أو الجير - ويكره أن يكتب اسم الميت على القبر - وهو قول أكثر أهل العلم - بخلاف أهل الظاهر؛ إذ قالوا: لو نقش اسمه في حجر لم يكره ٢٦ - ودليل الكراهة ما أخرجه مسلم عن جابر قال: " نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه " وزاد سليمان بن موسى: " أو يكتب عليه " ولأن ذلك من باب الزينة ولا حاجة بالميت إليها.

ولا يجوز رفع القبر فوق الأرض إلا قدر شبر واحد ليعلم الناس أنه قبر فيترحموا عليه ولا يمشوا فوقه - وفي ذلك أخرج أبو داود ومسلم عن أبي هياج الأسدي قال: بعثني علي قال لي: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أن لا أدع قبرا مشرفا إلا سويته، ولا تمثالا إلا طمسته ".

على أن تسنيم القبر أفضل من تسطيحه، أي تربيعه - وهو قول الجمهور - ودليل ذلك ما رواه البيهقي عن سفيان بن التمار قال: " رأيت

قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - مسنما " وذهب الشافعية إلى أن التسطيح أفضل، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - سطّح قبر ابنه إبراهيم ووضع عليه حصباء من حصباء العرصة ٢٧.
٢٢ - (سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)
قوله تعالى: }سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ول تستفت فيهم منهم أحد{ - (ثلاثة)، مرفوع، لأنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هم ثلاثة - (رابعهم كلبهم)، جملة اسمية في موضع رفع، لأنها صفة ثلاثة - وكذلك التقدير في قوله: (خمسة سادسهم كلبهم) ٢٨.
ذلك إخبار من الله تعالى عن اختلاف الناس في عدة أهل الكهف - وهو قوله: (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) والضمير في (سيقولون) يراد به من خاض في هذه المسألة زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - - فقد قيل: المراد بهم اليهود، فهم الذين أشاروا على المشركين من قريش أن يسألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أهل الكهف - وقيل: المراد بهم النصارى، إذ اختلفوا فيما بينهم في عدتهم.
وسواء كان المراد اليهود أو النصارى أو المسلمين فإنه لا حاجة تدعو إلى الخوض في مثل هذه المسألة، إذ لا جدوى كبيرة ترتجى من الوقوف على عدد أصحاب الكهف.
على أن القرآن الكريم قد ذكر لنا أقوالا ثلاثة في عدة أصحاب الكهف مما يدل على أنه لا قائل برابع - ويستدل أيضا من ظاهر الآية في هذه المسألة على أن القولين الأولين ضعيفان، لأنه قال عقيب ذكرهما (رجما بالغيب) والرجم معناه التكلم بالظن - والرجم بالغيب هو القول ظنا من غير دليل ولا برهان ٢٩، وبذلك فإن القول: إنهم ثلاثة أو خمسة، لا يتجاوز دائرة التخمين أو التكلم بلا علم ولا تدبّر وهو الرجم بالغيب - لكنه قد حكى القول الثالث وسكت عليه وهو قوله: (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فقد أخرج هذا القول من دائرة الرجم بالغيب، وهو الظن الذي لا يسعفه برهان أو حجة - فدل على أن القول بأنهم سبعة أقرب إلى الصواب، أو أنه هو الواقع.
وخير ما ينبغي أن يقال ههنا: إن الله أعلم بالصحيح، فهو سبحانه أعلم بعدتهم وهو قوله: (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) أي لا يعلم حقيقة عدتهم إلا قليل من الناس.
قوله: (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) (تمار): تجادل - وهو من المراء، والممارة بمعنى المناظرة والجدل - تمارى القوم، أي تجادلوا ٣٠ - والمقصود بالمراء الظاهر: لين الحديث، فلا يغلظ عليهم في الاحتجاج، ولا يكذبهم في تعيين ذلك العدد، بل يجادلهم في سهولة ورفق.
قوله: (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) (تستفت)، من الفتيا أو الفتوى - أفتى في المسألة: أبان الحكم فيها - واستفتاه، أي سأله رأيه في مسألة ٣١ - والمعنى: لا تسأل أحدا منهم عن قصة أهل الكهف، فإنه لا علم لهم بذلك - وهم لا يقولون في ذلك إلا ما كان رجما بالغيب - وقد جاءك في ذلك الحق الذي لا شك، فيه فلا حاجة لمساءلتهم.
٢٣ - (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا)
قوله تعالى: }ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا (٢٣) إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا (٢٤)} بينا في أول السورة سبب نزول هذه الآية - وفيها تأديب من الله لرسوله (ص).
٢٤ - (إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)
وفيها تأديب من الله لرسوله (ص) - إذ أمره أن يعلق كل شيء بمشيئة الله، فإن من الحقائق المسلمة في دين الله الاعتقاد بأن: ما يشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن - فإذا عزم المسلم على شيء ليفعله في المستقبل عليه أن يرد ذلك لمشيئة الله بقوله: إن شاء الله.
قوله: (واذكر ربك إذا نسيت) إذا نسيت كلمة الاستثناء وهي: إن شاء الله، أو بمشيئة الله، ثم ذكرتها فتداركها بالذكر وهو أن تقولها عقب زوال النسيان.

وروي عن ابن عباس قوله في الرجل يحلف: له أن يستثني ولو إلى سنة، استنادا إلى إطلاق هذه الآية - لكن قول ابن عباس هذا قد حمل على تدارك التبرك بالاستثناء، فإن من السنة أن يقول المرء إن شاء الله ولو بعد سنة ليكون آتيا بسنة الاستثناء حتى لو كان بعد الحنث - وليس المقصود أن يكون الاستثناء رافعا لحنث اليمين ومسقطا للكفارة، أي أن الاستثناء الذي يتغير به الحكم من حنث وكفارة فلا يصح إلا متصلا، فإن من شروط صحة الاستثناء في اليمين الاتصال - وهو كون الاستثناء متصلا باليمين فلا يفصل بينهما كلام من غير صيغة الحلف، ولا أن يفصل بينهما سكون لغير ضرورة - فإن أقسم الحالف بالله ليفعلن كذا أو لا يفعل كذا ثم صمت صمتا طويلا يمكن الكلام فيه وكان ذلك لغير ضرورة أو حاجة، أو تكلم عقب الحلف كلاما من غير جنس اليمين ثم قال بعد ذلك: إن شاء الله، فمثل هذا الاستثناء غير متصل باليمين بل هو منفصل فلا يؤثر في الحلف.

أما السكوت بعد اليمين لضرورة: فإنه لا يؤثر في صحة الاستثناء، ولا يكون الحالف بذلك حانثا - وذلك كما لو انقطع نفس الحالف عقيب الحلف، أو انقطع صوته لعيّ أو عارض من عطش، أو سكت سكتة خفيفة من أجل التذكر - وهو قول الجمهور من العلماء ٣٢.

وثمة مسألة وهي: هل الاستثناء الذي يرفع اليمين المنعقدة بالله تعالى، رخصة من الله في اليمين خاصة لا نتعداه إلى غير ذلك من الأيمان؟

ثمة قولان للعلماء في ذلك:

القول الأول: إن الاستثناء نافع في كل يمين كالطلاق والعتاق، لأنها يمين تنعقد مطلقة، فإذا قرن بها ذكر الله على طريق الاستثناء كان ذاك مانعا من انعقادها كاليمين بالله - وهو قول الحنفية والشافعية - وقال به مالك وآخرون - ودليلهم في ذلك قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من حلف فقال: إن شاء الله لم يحنث " ومثل هذه الأقسام يندرج في مفهوم اليمين - فلو قال الرجل: أنت طالق بمشيئة الله، أو إلا أن يشاء الله، أو ما شاء الله، أو بإرادة الله، أو بقضاء الله أو بقدرة الله، فهذه كلها أيمان ويحلها الاستثناء.

القول الثاني: إن الاستثناء في الحلف بغير الله لا يؤثر ولا يفيد.

ودليل ذلك قوله تعالى: (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) ولا يدخل في هذه الأيمان سوى اليمين الشرعية وهي الحلف بالله وأسمائه وصفاته فقط - فالاستثناء الذي يرفع اليمين المنعقدة بالله تعالى إنما هو رخصة وردت في اليمين خاصة، ولا تنسحب على غيره من الأيمان كالطلاق والعتاق، وذهب إلى ذلك بعض المالكية - وقال به الحسن البصري وقتادة وسعيد بن المسيب وآخرون ٣٣.

قوله: (وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) وهذا دعاء يقوله للناس بعد الذكر، وجملته: عسى ربي أن يهديني لغير ما نسيته مما هو أقرب رشدا وأقرب خيرا ونفعا.

٢٥ - (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)

قوله تعالى: {ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا (٢٥) قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا (٢٦)}.

هذا إخبار من الله تعالى عن المدة التي لبثها أصحاب الكهف في كهفهم منذ رقودهم حتى يقظتهم فأعثر الله عليهم أهل ذلك الزمان - وهذه المدة ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين أخرى وذلك بالسنين الهلالية، ونظيرها من الشمسية ثلاثمائة سنة - أي ان التفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين - وذلك قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا تسعا).

٢٦ - (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

قوله: (قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض) أبلغهم أن الله أعلم من هؤلاء المتنازعين الذين اختلفوا في مدة لبثهم - والحق إنما هو فيما أخبر الله به عن هذه المدة، فهو العالم بكل شيء - وما من مستور ولا مخبوء ولا مكنون في مجاهيل السماوات والأرض إلا هو معلوم لله.

قوله: (أبصر به وأسمع) أي ما أسمعه وأبصره.

وتقديره: أسمع به - وقد حذف اكتفاء بالأول عنه ٣٤ - والمعنى: ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه لكل مسموع، فليس من أحد

أبصر من الله ولا أسمع، فهو لا يخفى عليه من ذلك شيء.
قوله: (ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا) الضمير في قوله: (لهم) يعود على أهل السماوات والأرض - فما للعباد الذين خلقهم الله من نصير يتولى أمرهم ويدبّر شؤونهم، بل الله وحده القاهر لعباده القادر على كل شيء - (ولا يشرك في حكمه أحدا) ليس لله في قضائه شريك، بل الله وحده يحكم كيف يشاء دون معقب ولا معين ٣٥.
٢٧ - (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)
قوله تعالى: {واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا (٢٧) واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (٢٨)} يأمر الله نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو على الناس كلام الله وهو القرآن فيأمرهم بأوامره ويحذرهم مناهيه وزواجره (لا مبدل لكلماته) لا يقدر أحد أن يبدل كلام الله أو يغيره، بل الله وحده يفعل ذلك (ولن تجد من دونه ملتحدا) أي إذا لم تتل القرآن على الناس وتبلغهم ما فيه من أوامر وزواجر، فليس لك بعد ذلك من دون الله ملجأ تلجأ إليه أو موئل تئل إليه.
٢٨ - (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)
قوله: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) في سبب نزول هذه الآية روي عن سلمان الفارسي قوله: جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا: يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله الآية فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال: " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات " ٣٦.
هذه قاعدة من قواعد الإسلام الثابتة التي لا تتبدل ولا يأتي عليها الزمان، وهي تكريم الإنسان المؤمن أيما تكريم، بغض النظر عن سائر أوصافه وأحواله من الفقر أو القلة أو الذلة - فما يعبأ الإسلام بتصورات البشر الدنيوية واعتباراتهم الاجتماعية، إذ يعظمون الأغنياء والرؤساء والكبراء وأولي المكانة والجاه، ويحقرون الفقراء والعالة والصعاليك، ويمتهنون المغلوبين والمقهورين من الخول والعبيد والملونين وإن كانوا من المؤمنين الطيبين!
لا يعبأ الإسلام بهذا التصور البشري القاصر المستهجن - إنما ينظر الإسلام للإنسان نظرة تقدير وتكريم لكونه إنسانا (ولقد كرمنا بني آدم) ثم يزيد الإسلام من تعظيم الإنسان إذ تحقق فيه سببان وهما الإيمان والعلم - فأكثر الناس إيمانا وأزيدهم علما لهو في ميزان الله مكرم مفضال، سواء كان في واقعه الاجتماعي خادما أو مملوكا أو صعلوكا أو عائلا مفتقرا أو دميما ملهوفا رثَّ مبتذل اللباس.
هذه حقيقة يرسخها الإسلام في واقع المسلمين لتكون قاعدة أساسية لا محيد عنها - لذلك يأمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر نفسه مع الفقراء والمغلوبين والعالة من المؤمنين فلا يبرحهم أو يزدريهم، كما سأله فريق من وجهاء قريش وهم يؤزهم إلى سؤالهم هذا تصورهم الجاهلي السقيم الذي يميزون فيه بين العباد تبعا للمال أو الجاه أو السلطان - وهو قوله: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) (اصبر)، من الصبر، وهو الحبس، أي احبس نفسك وثبتها مع المؤمنين الطائعين الذين يعبدون ربهم (بالغداة والعشي) أول النهار وآخره - والمراد جلوسه (ص) مع الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويتذللون له بالدعاء بكرة وعشيا سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أو ضعفاء، أو أقوياء، كبلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وسلمان، وابن مسعود وغيرهم من المؤمنين المستضعفين في تصور الجاهليين.
قوله: (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) (ولا تعد)، أي لا تجاوز - عداه يعدوه أي جاوزه - والتعدي معناه مجاوزة الشيء إلى غيره - عدّاه تعدية فتعدى أي تجاوز - وعدّ عما ترى أي اصرف بصرك عنه ٣٧ والمراد: لا تعل عيناك عنهم، أو لا تتجاوز عيناك

إلى غيرهم من أهل الدنيا (تريد زينة الحياة الدنيا) في موضع نصب للحال - أي لا تصرف بصرك عنهم مبتغيا غيرهم من ذوي الهيئات والزينة وأولي الرياش وحسن المظهر.
قوله: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه قال: نزلت في أمية بن خلف الجمحي - وذلك انه دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة، فأنزل الله الآية ٣٨ -
والمعنى: لا تكن مطيعا لمن ختمنا على قلبه فبات غافلا عن الإيمان وعن ذكر ربه، كأمية بن خلف وأمثاله من أولي القلوب الغُلْف التي طبع عليها فلا تستجيب لذكرى ولا تتعظ من عبرة - وهو مع ذلك لا يتبع غير هواه؛ إذ يؤثره على التوحيد وعلى الحق، فاختار الشرط والباطل - (وكان أمره فرطا) فرط، بضمتين؛ أي مجاوز للحد - والمراد: أنه سادر في الباطل، مجاوز عن الحق، نابذ له وراء ظهره ٣٩.
٢٩ - (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)
قوله تعالى: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا} يأمر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يقول للناس ناصحا ومبلغا بأن الحق إنما هو من عند الله وحده.
والمراد ههنا القرآن، أو الإسلام؛ فإنه الحق؛ فهو الدين الرباني المتكامل الذي لا يعتريه خلل ولا ضعف ولا تشويه شائبة من عيوب البشر ونقائصهم - والذي ينطوي في مضمونه ومعناه على كل أسباب الخير والسعادة والنجاة للبشرية، سواء فيه العقيدة الراسخة المكينة السمحة، أو التشريع الكبير الواسع الذي يفضّ كل النزاعات ويتناول كل القضايا والمشكلات، ويقرر في واقع البشر كل ظواهر الأخوة والمودة والرحمة ليعيش الناس في كل زمان إخوانا متحابين متعاونين.
قوله: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) والمراد من ذلك الوعيد والتهديد؛ أي قد أبلغتكم دعوة ربكم وهو الحق الذي لا ريب فيه - فإن آمنتم فلسوف يُصار بكم إلى النجاة - وإن كفرتم وأدبرتم فما مصيركم إلا إلى الجحيم والهوان.
قوله: (إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق، معناه السور من نار - وذلك تهديد رعيب من الله للمشركين الخاسرين الذين يجحدون بآيات الله أو يصدون عن دينه صدا - أولئك (اعتدنا) أي أعددنا لهم النار وقد أحاط بهم سورها؛ فهم غائرون في العذاب البئيس؛ إذ تغشاهم النار فتلفح وجوههم وأبدانهم ويحيط بهم سورها الحارق المطبق من كل مكان، فلا يجد حينئذ مناصا ولا موئلا - وذلك لون من ألوان التعذيب الفظيع الذي يغشى المجرمين يوم القيامة.
(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه) المهل، معناه النحاس المذاب - وقيل: دردي الزيت ٤٠ - وقيل: ماء أسود منتن غليظ بالغ الحرارة - والمعنى: أن هؤلاء المعذبين في النار لفرط ما يصيبهم من العطاش الشديد يطلبون الماء ليشربوا، فيسقون ماء شديد الحرارة كالمهل وهو ماء النار، وماؤها أسود غليظ فظيع الحرارة، كلما أدنوه من أفواههم ليشربوا سقطت جلدة وجوههم.
وهذا لون ثان من ألوان التعذيب الحارق الذي يشقى فيه الظالمون الخاسرون يوم القيامة (بئس الشراب وساءت مرتفقا) أي بئس هذا الشراب الذي يغاث به هؤلاء الظالمون في جهنم - (وساءت) هذه النار (مرتفقا) أي ساءت متكأ ومنزلا ومقيلا ٤١ نسأل الله العافية والسلامة والنجاة.
٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا)
قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (٣٠) أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا (٣١)} الاسم الموصول (الذين) وصلته في موضع نصب اسم (إن) - وخبره (إنا لا نضيع) وقيل: (أولئك لهم جنات) ٤٢.
بعد أن ذكر ما أعده للمشركين والجاحدين الأشقياء من العذاب المهين، ثنى بذكر المؤمنين السعداء الذين صدقوا الرسل واستجابوا لأوامر

الله وعملوا الصالحات، فإنه لا يضيع أجر من أحسن منهم عملا - وقيل: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) كلام معترض فيكون الخبر
٣١ - (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)
(أولئك لهم جنات عدن) وهو ما بيناه في الإعراب آنفا.
والمعنى: أن المؤمنين الصالحين، جزاؤهم عند الله محفوظ غير مضيع، فقد أعد الله لهم جنات عدن - والعدن بمعنى الإقامة، فهي دار إقامة لا تفنى ولا تتبدد ولا تزول - ويجد فيها المؤمنون الصالحون من السعادة وحسن الجزاء ما لا يطرأ على قلب بشر ولا تخيله الأذهان - وهم أيضا (يحلون فيها من أساور من ذهب) وهذا صنف من أصناف النعمة والسعادة التي يتلذذ فيها المؤمنون في الجنة، وهي التحلية بأساور من ذهب - ولئن كان لباس الذهب والحرير في الدنيا محرما على الرجال، فإنه يصير في الجنة متاحا للمؤمنين ليكون لهم أجمل حلية يتحلون بها - وهم كذلك يلبسون الثياب الخضر من السندس وهو الديباج الرقيق - وكذا الاستبرق وهو ما غلظ من الديباج - والديباج، كلمة فارسية - وهو ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير - ٤٣
قوله: (متكئين فيها على الأرائك) (الأرائك)، جمع أريكة، وهي سرير منجّد مزين في قبو أو بيت، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة ٤٤، والحجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس ٤٥ - والمعنى: أن المؤمنين يتنغمون في الجنة باتكائهم على الأسرة ليجدوا وهم جلوس فوقها كامل الإحساس بالراحة والسعادة (نعم الثواب وحسنت مرتفقا) أي نعمت هذه الجنات التي أعدها الله للمؤمنين الصالحين وحسنت منزلا لهم ومقاما ٤٦.
٣٢ - (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)
قوله تعالى: }واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا (٣٢) كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا (٣٣) وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا (٣٤) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا (٣٥) وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا (٣٦)}.
هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين ليكون عظة وذكرى لمن يدّكر أو يعتبر، فقد مثّل الله حال الفريقين بحال رجلين جعل لأحدهما جنتين، أي بساتين من أعناب وقد حفت بهما أشجار النخل الباسقة من كل الجهات زيادة في الجمال وحسن المنظر - وهو قوله: (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) (وحففناهما)، أي أطفنا بهما من جوانبهما - حف القوم بفلان وحفوا به، أي أطافوا به واستداروا كقوله سبحانه: (وترى الملائكة حافين من حول العرش) حفّه بالشيء كما يحف الهودج بالثياب ٤٧ - والمعنى: رزقنا أحدهما بساتين من كروم وجعلنا النخل حافا بهما، أي محيطا بكهما من كل الجوانب (وجعلنا بينهما زرعا) أي جعلنا وسط الأعناب في البساتين زروعا لتكتمل الجنتان في حسنهما ووافر عطائهما.
٣٣ - (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا)
قوله: (كلتا الجنتين آتت أكلها) كل واحدة من الجنتين أعطت ثمارها غير منقوص وهو قوله: (ولم تظلم منه شيئا) أي لم تنقص منه شيئا - قوله: (وفجرنا
خلالهما نهارا) (وفجرنا) من التفجير وهو الانبجاس، فجر الماء فانفجر، أب بجسه فانبجس ٤٨ أي جعلنا الأنهار تنبجس في كل مكان وسط البساتين.
٣٤ - (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا)
قوله: (وكان له ثمر) الضمير يعود على صاحب الجنتين - والمراد بالثمر المال، أي كان أنواع من المال كالذهب والفضة ونحوهما (فقال لصاحبه وهو يحاوره) يحاوره: يجاوبه ويجادله، من الحوار وهو حديث يجري بين شخصين أو أكثر ٤٩، أي قال صاحب البساتين لصاحبه المؤمن الذي لا مال له- قال له وهو يجادله ويخاصمه مفاخرا مغترا بماله وبساتينه وثماره (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) هذا

المغرور يفاخر صاحبه المؤمن غير ذي المال بأنه أكثر منه مالا وأقوى رهطا وعشيرة وأكثر أولادا.
٣٥ - (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)
قوله: (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) دخل هذا المغرور الجاحد جنته (وهو ظالم لنفسه) الجملة في محل نصب على الحال - وظلمه لنفسه بسبب غروره وغفلته وإنكاره المعاد - ثم قال لدى دخوله جنته مغترا جاحدا (ما أظن أن تبيد هذه أبدا) وذلك لما رآه من حسن الجنتين وكمالهما وما فيهما من الثمار والزرع والأنهار فاغترّ بذلك اغترارا ظن أن هذه الجنة دائمة لا تفنى وأن الساعة لا تقوم - وهو قوله: (وما أظن الساعة قائمة)
٣٦ - (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)
(وما أظن الساعة قائمة) أي ما أحسب القيامة التي وعد بها المؤمنون كائنة.
قوله: (ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) أي لئن رجعت إلى ربي يوم القيامة- وهو غير موقن بقيامها في الأصل- ليكونن لي عند ربي ما هو خير من جنتي هاتين - وهو في ذلك يوهم نفسه أنه لم يُعط هاتين الجنتين في هذه الدنيا إلا لكرامته على الله، ولكونه مفضلا مقربا من ربه، فلسوف يجد عنده بعد المعاد (خيرا منها منقلبا) (منقلبا) منصوب على التمييز - وهو المرجع والمرد ٥٠.
٣٧ - (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا)
قوله تعالى: }قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (٣٧) لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا (٣٨) ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا (٣٩) فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا (٤٠) أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا (٤١){
المراد بصاحبه ههنا، المؤمن غير ذي المال من بساتين وثمار وأنهار ونخل وغير ذلك؛ فقد ردّ مقالة الأول المغرور وهو يجادله واعظا ومحتجا (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) خطابه مستنكرا كفرانه بالله خالق كل شيء، وخالقه هو من تراب؛ فهو من نسل آدم أبي البشر خلقه الله من طين (ثم من نطفة) خلق الله الإنسان من قطرة من الماء المهين، ثم انتقل في مراحله المتطورة المتعاقبة طورا بعد طور حتى جعله على أكمل هيئة وأحسن صورة، وهو الإنسان السوي المتكامل - أفبعد ذلك كله مما منّ الله به عليك من تمام التكوين وجمال المنظر والمظهر تجحد فضل الله ونعمته عليك وتكذب بالساعة التي وعد بها العباد؟!
٣٨ - (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)
قوله: (لكنا هو الله ربي) (لكنا)، أصله: لكن أنا - حذفت الهمزة طلبا للخفة من كثرة الاستعمال، وألقيت حركتها على نون (لكن) فاجتمعت النونان فأدغمت نون لكن في النون التي بعدها ٥١ والمعنى: لكن أنا أقول: (هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا) لا أقول بقولك الظالم؛ بل أقر لله بالوحدانية والربوبية.
٣٩ - (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا)
قوله: (ولولا إذ دخلت جناتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) هذا تحضيض من الصاحب المؤمن لصاحبه المكذب المغرور؛ إذ قال له واعظا محذرا: هلا حين دخلت جنتك فأعجبك حسنها وما فيها من ثمار وزروع ونهر، حمدت الله على ما منّ به عليك وأعطاك من المال والولد وقلت عقب ذلك (ما شاء الله) (ما)، اسم موصول، و (شاء) صلته، وهو في موضع رفع؛ لأنه مبتدأ وخبره محذوف - وتقديره: الذي شاءه الله كائن، وحذف الهاء تخفيفا - وقيل: (ما) شرطية في موضع نصب بالفعل (شاء) - وجوابها محذوف، تقديره: ما شاء الله كان ٥٢.
قوله: (لا قوة إلا بالله) أي ما تيسر لك من عمارة هذه الجنة إنما هو بقوة الله وقدرته لا بقوتك وقدرتك - فإنه ما اجتمع للإنسان من مال أو خير أو نعمة فإنما ذلك كله كائن بمشيئة الله وعونه وتوفيقه؛ فهو الخالق لكل شيء، الفعال لما يريد.
وفي فضل هذه العبارة وعظيم قدرها جاء في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له: " ألا أدلك على

كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله " - وروى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من قال- يعني إذا خرج من بيته- باسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله؛ يقال: كفيت ووقيت، وتنحّي عنه الشيطان ".

وزاد أبو داود فيه: فقال له: " هديت وكفيت ووقيت " وقال أنس بن مالك: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " من رأى شيئا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضرّه عين ".

قوله: (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) (إن)، شرطية، (ترن) مجزوم بالشرط،

٤٠ - (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

وجوابه (فعسى ربي) في الآية التي بعدها وتقدير - ترني أقل منك مالا - و (أنا)، ضمير فصل لا محل له من الإعراب - وقيل: توكيد للنون والياء ٥٣ - والمعنى: إن كنت تراني (أقل منك مالا وولدا) في هذه الدنيا الفانية فلعل الله يعطيني من فضله في الدنيا أو في الآخرة خيرا مما أعطاك - ولعله سبحانه أن يرسل على جنتك هذه (حسبانا من السماء) أي عذابا من السماء - وقيل: الحسبان الصواعق - واحدتها حسبانة،

وقيل: الحسبانة السحابة - والمراد: أن يرسل الله من السماء عذابا يأتي على جنتك بالتدمير والتخريب (فتصبح صعيدا زلقا) الصعيد، التراب، أو وجه الأرض ٥٤، و (زلقا) أي ملساء لا يثبت عليهم قدم ٥٥؛ أي تصبح جنتك أرضا ملساء لا نبات فيها، ولا يثبت عليها قدم لملامستها.

٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)

قوله: {أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا} (غورا)، من الغور، وهو قعر كل شيء - والغور: المنخفض من الأرض - غار الماء غورا، ذهب في الأرض فهو غائر - وغارت العين غئورا؛ أي انخسفت ٥٦؛ أي يصبح ماء جنتك غائرا ذاهبا في أسفل الأرض فلن تستطيع رده بعد ذلك فيأتي على جنتك الجفاف واليُبس ٥٧.

٤٢ - (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)

قوله تعالى: {وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا (٤٢) ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا (٤٣) هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا (٤٤)}.

معنى (وأحيط بثمره): أهلك كل ماله؛ فقد تحقق بذلك ما أنذره به صاحبه المؤمن - وأصل العبارة من الإحاطة - نقول: أحاط به العدو؛ أي استولى عليه وتمكن منه فأهلكه إهلاكا - وهنا قد أحاط بجنته الإهلاك والتدمير فتبددت وأتى عليها الخراب (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) أصبح المكذب المغرور يضرب إحدى كفيه على الأخرى لشدة ما أصابه من الندم والتحسر - وتقليب الكفين حين الخسران والمصاب الجلل كناية عن الندم البالغ؛ فإن من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى - وإنما يفعل ذلك ندامة على ما أنفق في عمارة جنته ثم صار كل ذلك إلى الخراب.

قوله: (وهي خاوية على عروشها) أي ساقطة على عروشها وخاوية بمعنى خالية - وقيل: ساقطة؛ أي فهي ساقطة على عروشها ٥٨ - ويمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكروم؛ فهذه العروش قد سقطت ثم سقطت الجدران عليها - ويمكن أن يراد من العروش: السقوف وهي قد سقطت على الجدران.

قوله: (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) ليتني أيقنت أن الله حق وأنه وحده الخالق المعبود فلم أتخذ معه إلها آخر - وذلك بعد أن تذكر ما وعظه به صاحبه المؤمن فأدرك أن الله أهلك جنته وابتلاه هذا البلاء بسبب جحوده وغروره وعصيانه؛ فقد ندم مثل هذا الندم الشديد حين لم تنفعه الحسرة ولم يجده التمني والندم.

٤٣ - (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا)

قوله: (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) الفئة، يراد بها الجماعة من عشيرة أو أهل أو أنصار - فهذا المكذب المغرور بعد أن نزلت

بجنتيه نازلة الهلاك والتدمير من السماء وغشيه من الغم والندم وما غشيه، وجد نفسه حسيرا مخذولا، فلم تكن له حينئذ جماعة من الناس أو أعوان يمنعونه من عقاب الله (وما كان منتصرا) ما كان هذا المكذب المغرور الخاسر ممتنعا بقوته عن انتقام الله إذا أراد أن يعذبه.

٤٤ - (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

قوله: (هنالك الولاية لله الحق) (الحق) صفة لله - و (الولاية)، بفتح اللام من الموالاة يعني النصرة والتولي - فيكون المعنى: في ذلك المقام إنما تكون الموالاة أو النصرة لله وحده فلا يملكها ولا يستطيعها أحد سواه - وبالكسر، تعني السلطان والملك والقدرة والإمارة؛ أي لله الحكم والسلطان يوم القيامة.

قوله: (هو خير ثوابا وخير عقابا) الله خير جزاء في الدنيا والآخرة لمن آمن به والتجأ إليه منيبا مخبتا وهو كذلك خير عاقبة ٥٩.

٤٥ - (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

قوله تعالى: {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا (٤٥) المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا (٤٦)}.

هذا مثل كاشف يضربه الله للناس فيصف فيه حقيقة الدنيا في سرعة زوالها وانقضائها وأنها حطام دائر ما يلبث أن يفنى ويتبدد ليكون بعد ذلك أثرا بعد عين.

مثل يضربه الله للناس وفيهم المغرورون والغافلون والتائهون السادرون في الضلال والتفريط والغفلة، الغائرون في الشهوات والملذات بكل صورها وضروبها.

والحياة برمتها- في الحقيقة- أشبه بماء المطر النازل من السماء إلى الأرض ليختلط به نباتها المختلف - فينمو ويزهو ويستوي على سوقه ويكون في غاية النضارة والحسْن، ثم يأخذ بعد ذلك في الذبول والانحناء والتكسر ويأتي عليه الجفاف واليُبس ليصبح بعد ذلك (هشيما تذروه الرياح) من الهشم وهو كسر الشيء اليابس - والهشيم معناه النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء ٦٠.

قوله: (تذروه الرياح) أي تسفّه وتفرقه ليتطاير في الفضاء وفي أجواء السماء (وكان الله على كل شيء مقتدرا) الله قادر على كل شيء - سواء في ذلك إنشاء الخلق أو إفناؤه أو أحياؤه من جديد.

هذه هي الدنيا حقيقتها؛ فإنما هي مركبات من الأموال والأهواء والملذات والزخرف - أو هي أصناف مختلفة من الزينة والشهوات والتفاخر بالوجاهات والأموال وغير ذلك من المستلذات مما تشتهيه نفوس البشر - ثم قال ذلك كله إلى الفناء والزوال - وهكذا الإنسان يكون لا هيا سادرا في الشهوات والمستلذات وهو يمتد به العمر ليدنو به رويدا رويدا من الهرم وخرف الكبر - فما يلبث بعد ذلك أن يصير إلى الموت المحتوم - وحينئذ تفنى الأهواء والشهوات وتنقضي الحياة برمتها، ليحين بعد ذلك وقت الحساب والمساءلات بدءا بالقبر حيث الظلمة وهول العذاب فيه، ومرورا بالحشر وما فيه من فظائع الزحام والعطاش والذعر والكرب الشديد، وانتهاء بالحساب الفاصل، فإما إلى النجاة والجنة، وإما إلى الهوان والنار.

٤٦ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

قوله: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) المال زينة للإنسان؛ لأنه يتحصل له به المنافع والشهوات - وبالمال يبلغ الإنسان كثيرا من مآربه الشخصية والدنيوية مما تشتهيه نفسه وتطمح إليه - وبالمال يجد الأغنياء أنفسهم موضع اعتبار لدى الناس؛ إذ ينظرون إليهم بمنظار التعظيم والتبجيل.

ومن أجل ذلك حُبب للناس التفاخر في كثرة المال - وكذلك البنون؛ فهم محبوبون بالفطرة، ثم إنهم سبب يتقوى به الآباء؛ إذ يطمحون في الظهور والاستعلاء، ويرغبون أن يكونوا من أولي المكانات والدرجات في المجتمعات التي لا ترعى غير المقاييس الشكلية الزائفة - ومن أجل ذلك كان المال والبنون زينة للناس يتفاخرون بها في حياتهم الدنيا - وهي زينة ما لها من مُكث ولا ديمومة - وإنما هي

صائرة كلها إلى النهاية المنتظرة المحتومة وهي الفناء وموت الغافلين والمغرورين من أولي الطول والمفاخرة - وليس من باق بعد ذلك إلا الأعمال الصالحة التي تظل رفيقة المؤمنين العاملين فلا تبرحهم ثم تشهد لهم يوم القيامة بالخير والصلاح ليكونوا من الناجين والفائزين وهو قوله: (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) واختلفوا في المراد بالباقيات الصالحات - فقيل: هي الصلوات الخمس، وهو قول ابن عباس وآخرين - وقيل: هي الكلمات المأثورة: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - وفي ذلك أخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " عليك بسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يحطن الخطايا كما تحط الشجرة ورقتها ".

وقيل: (والباقيات الصالحات) يراد بهن البنات الصالحات، فهن عند الله لآبائهن خير ثوابا وخير أملا في الآخرة لمن أحسن إليهن - وفي هذا الصدد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " لقد رأيت رجلا من أمتي أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن: رب إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن ".

وفي رواية عن ابن عباس أنا كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة - فالدنيا زينتها المال والبنون، ومقتضيات ذلك من أنواع اللذائذ والمفاخرات مما يفنى لا محالة، وينقضي بانقضاء الدنيا - وما بعد ذلك من الأعمال الصالحات ما بين صلوات وذكوات وصيام ومختلف وجوه العبادات، أو أمر بمعروف ونهي عن منكر، أو جهاد في سبيل الله، أو بر وإحسان، ومختلف ألوان الطاعات، فكل ذلك من الباقيات الصالحات التي تبقى راسخة في الميزان ليجدها المؤمنون الصادقون بين أيديهم يوم الحساب.

قوله: (وخير أملا) ما تقدم ذكره من الصالحات خير ما يأمله الإنسان، فهو المأمول النافع الباقي - أما غيره من آمال الدنيا، فإنه غمام منقشع يصير إلى الزوال عما قريب ٦١.

٤٧ - (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

قوله تعالى: {ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٤٧) وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا (٤٨) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا (٤٩)} (يوم)، منصوب بفعل مقدر، وتقديره: اذكر يوم ٦٢.

وتسير الجبال، يعني إذهابها وإزالتها عن وجه الأرض بأن تصبح هباء مبثوثا متطايرا في أرجاء الفضاء الواسع.

قوله: (وترى الأرض بارزة) أي ظاهرة ماثلة لا يسترها شيء من جبال أو أشجار أو عمران، تمشيا مع حدث القيامة الجلل، الحدث المزلزل الفظيع الذي يتغير فيه وجه الكون وتتبدل فيه صورة السماوات والأرض مما يزيد من هول المنظر المرعب في هذا اليوم العصيب حيث الخوف والندم والإياس والاستحسار.

قوله: (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (نغادر)، نترك، ومنه الغدير؛ فهو القطعة من الماء يغادرها السيل - وأغدره بمعنى تركه ٦٣، فالله جل وعلا يجمع الناس يوم القيامة في أرض المحشر ليلاقوا الحساب، دون أن يترك منهم أحدا؛ بل الله جامعهم جميعا سواء فيهم الكبراء والأمراء والزعماء وأولوا الجاه والطول، أو المرؤوسون والعالة والأراذل والمستضعفون، كل أولئك مجموعون يوم القيامة للحشر الذي تغيب فيه الجاهات والزعامات والاعتبارات الزائفة الكاذبة والموهومة.

٤٨ - (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا)

قوله: (وعرضوا على ربك صفا) يعرض العباد على ربهم يوم القيامة (صفا) أي صفوفا ليكونوا صفا بعد صف كالصفوف في الصلاة - وقيل غير ذلك في صفة الصف - وكيفما تكن هيئة الاصطفاف في الآخرة فإن موضع الإثارة في ذلك الحين ما يذْهم الخلائق من شدة الوجل، وبالغ الذعر والإياس وهم يصطفون مذعورين ذاهلين - ثم يقال لهم حينئذ: (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي جئتمونا كما خلقناكم حفاة عراة غرلا، لا مال معكم ولا أنصار لكم - وفي صحيح مسلم عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا " قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر

بعضهم إلى بعض؟ قال: " يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض " وغرلا، أي مختونين.
قوله: (بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا) يقال ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع والتعنيف لمنكري البعث الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة فتاهوا في الغي والباطل - أولئك ما كان ظنهم أن الساعة قائمة وأن الحساب ملاقيهم.
٤٩ - (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)
قوله: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) (الكتاب)، هو كتاب أعمال العباد جميعا سواء فيها الكبير والصغير أو الجليل والحقير وحينئذ ينظر المجرمون المستيئسون إلى كتاب أعمالهم وجلين مذعورين بسبب تفريطهم ومما حواه كتابهم من المعاصي والمنكرات.
قوله: (ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) هؤلاء المجرمون الخاطئون ينادون يوم القيامة بالويل والندامة بسبب تفريطهم وخسرانهم، فيقولون: يا ويلنا ويا حسرتنا (مال هذا الكتاب) أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك ولا يبقي ذنبا صغيرا ولا كبيرا من ذنوبنا إلا حفظه - وصغائر الذنوب محقراتها وهي اللمم كالمسيس (المسّ) والقُبل - أما الكبيرة فهي الزنا - على أن المؤمن المتعظ يحرص أن لا تطوقه الصغائر ومحقرات الذنوب؛ فإنها تجتمع على المرء فتهلكه.
قوله: (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحد) كل ما عمله العباد في دنياهم يجدونه يوم القيامة في كتاب أعمالهم محفوظا؛ فالله جل وعلا أعدل العادلين؛ فهو لا يجوز في حكمه، ولا يجازي أحدا إلا بما يستحق ٦٤.
٥٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا)
قوله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا} ذلك تنبيه من الله تعالى لبني آدم على كيد إبليس وعداوته وكراهيته لهم؛ فإبليس عدو بني آدم الألد - وهو طيلة الزمان لا يبرح الكيد وسوء التدبير للبشر ليضلهم بأساليبه من الوسوسة والإغواء عن سبيل الله، وليوقع في الدنيا الخراب والفساد فيشيع الكفر والضلال ويعم الظلم والباطل؛ فتتيه البشرية في العمه والعصيان لتصير في الآخرة إلى الهلاك والخسران - فقال سبحانه منبها مذكرا بحقيقة إبليس: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه).
أي واذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم - وهو سجود تحية وتكريم وتشريف لا سجود إذعان وعبادة، فاستجابوا لما أمرهم الله به من السجود له، طائعين الله منيبين إليه (إلا إبليس كان من الجن) استثناء منقطع؛ فإبليس ليس من جنس الملائكة في الأرجح؛ فهم من نور، وأصل إبليس من نار - فالأصلان مختلفان تمام الاختلاف، متباينان كامل التباين - وشتان بين النور المضيء الساطع المشعشع، والنار اللاهبة اللافحة الحارقة - وقد قيل: كان إبليس من قبيلة يقال لها الجن - وقيل غير ذلك من الآثار التي جُلّها من الإسرائيليات مما لا ينبغي الركون إليه أو الاعتداد به.
والصواب أن إبليس من الجن استنادا إلى ظاهر الآية في قوله مبينا حقيقة إبليس (كان من الجن) وهذه جملة مستأنفة، تبين سبب فسق إبليس وهو كونه من الجن وليس من الملائكة - قال الحسن البصري في ذلك: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر: قوله: (فسق عن أمر ربه) فسق من الفسق، بالكسر وهو الترك لأمر الله تعالى، والعصيان والخروج عن طريق الحق - أو الفجور - وسميت الفأرة بالفويسقة؛ لخروجها من جحرها على الناس ٦٥ ذلك هو إبليس؛ فإنه بطبعه الخبيث نزّاع لإضلال العباد، حريص بالغ الحرص على إغوائهم وإفسادهم ليسلكوا سبيل الكفر والباطل فيكونوا شركاءه في جهنم.
قوله: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوا) الهمزة، للإنكار والتعجب؛ أي، أبعد هذا الإضلال والإغواء والإفساد والكيد من إبليس لكم، تتخذونه وذريته أعوانا بدلا عني؛ إذ تطيعونه وتعصونني، وتسلكون سبيله في الشر والغي عوضا عن سبيل الله

وهديه (وهم لكم عدو) في موضع نصب على الحال، أي أتطيعون إبليس مع عداوته القديمة لكم وهو ما يزال يكيد لكم أشد الكيد حتى يطغيكم ويغويكم - أما المراد بذرية إبليس، فقيل: إنهم يتوالدون كما تتوالد بنو آدم - لكن لا نعلم كيفية التوالد وحصول الذرية - وقيل: المراد بذرية إبليس جنوده وأعوانه من الشياطين.

قوله: (بئس للظالمين بدلا) فاعل (بئس) مضمر - وتقديره: بئس البدل بدلا للظالمين ذرية إبليس - و (بدلا)، منصوب على التمييز ٦٦ - والمعنى: بئسما استبدلوا بعبادة الله إذا أطاعوا إبليس بدل طاعة الله ٦٧.

٥١ - (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

قوله تعالى: {ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا} الضمير في (أشهدتهم) يعود على الشركاء وهم الآلهة المزيفة والأنداد المصطنعة التي عبدها هؤلاء المشركون من دون الله.

والمعنى: أن هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم ليسوا إلا خلقا أمثالكم فلم أشركهم في الإلهية - ولو أشركتهم فيها لكانوا شركاء في خلق السماوات والأرض وكانوا مشاهدين خلق ذلك - لكنهم لم يشاهدوا خلق ذلك ولم يشاهدوا خلق أنفسهم، فكيف تعبدونهم.

قوله: (وما كنت متخذ المضلين عضدا) العضد، من المعاضدة وهي المعاونة والمناصرة - اعتضد به أي استعان ٦٨.

أي لست مستعينا بالمخلوقين، وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ - والمعنى: ما استعنت بشركائكم المضلين على خلق السماوات والأرض وما كنت متخذا لي منهم أعوانا؛ فإني أنا الخالق القادر المنزه عن الشركاء والأعوان والأقران.

٥٢ - (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا)

قوله تعالى: {ويوم يقول نادوا شركائي الذي زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (٥٢) ورءا المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا (٥٣)} يوم، منصوب بفعل محذوف وتقديره: واذكروا يوم يقول نادوا شركائي - وهذه صورة من صور الهوان والخسران الذي يحيط بالمجرمين من مشركين وجاحدين ومضلين يوم القيامة؛ إذ يناديهم الله على رؤوس الخلائق والأشهاد زيادة في التوبيخ والتقريع والإهانة؛ إذ يقول لهم: أين الذين أشركتموهم بي فليمنعوكم من عذابي وليردوا عنكم ما حاق بكم الآن من هول وبلاء (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أي فعلوا ما أمرهم الله من مناداتهم الأصنام وما كانوا يعبدون (فلم يستجيبوا لهم) لم يستجيبوا لندائهم ولم يدفعوا عنهم عذابا ولم يكفوا عنهم شيئا.

قوله: (وجعلنا بينهم موبقا) الموبق، المهلك، من الوبوق - وبق يبق وبوقا؛ أي هلك - أوبقه بمعنى أهلكه ٦٩ - والمراد به ههنا: حاجز بين المشركين، وما كانوا يعبدون أصنام - فقد قيل: كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق - وقيل: الموبق واد في جهنم بين المؤمنين والكافرين.

٥٣ - (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)

قوله: (وراء المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) (المجرمون) من مشركين وجاحدين ومضلين سيلاقون من الكروب والأهوال يوم القيامة ما تتقطع منه القلوب وتتزلزل لفظاعته الأبدان - ومن جملة ذلك: أن يعاينوا النار، فإذا عاينوها أيقنوا وتحققوا أنهم واقعون فيها لا محالة (ولم يجدوا عنها مصرفا) ليس لهم من دون النار مهرب يفرون إليه.

٥٤ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا)

قوله تعالى: {ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا} (صرفنا)، من التصريف وهو التبيين والتوضيح، وتصريف الآيات أي تبيينها ٧٠؛ فقد بيّن الله للناس آياته تبيينا وذلك بمختلف الوجوه من الأمثال والمواعظ والحجج لكي يتذكروا ويعتبروا ويزدجروا عما هم فيه من شرك وعصيان - لكن الإنسان شديد المراء والخصومة، شديد الجنوح للنسيان والغفلة ٧١.

٥٥ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا)

قوله تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا (٥٥) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا (٥٦)} أي ما

منع المشركين عن الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، حين جاءهم الهدى، وهو الإسلام، إلا طلبهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي معاينتهم العذاب أو مشاهدتهم إياه عيانا - كقولهم: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فهم لا يؤمنون إلا إذا نزل بهم العذاب.

قوله: (أو يأتيهم العذاب قبلا) (قبلا) - بضم القاف، منصوب على الحال؛ أي عيانا - وقيل: فجأة - وقيل: جمع قبيل - وتقديره: أو يأتيهم العذاب قبيلا قبيلا، يتلو بعضه بعضا ٧٢ وعندئذ يصدقون ويستغفرون.

٥٦ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا)

قوله: (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) الله يرسل رسله لعباده ليبشروا أهل الإيمان والصلاح فيهم برحمة منه تغشاهم في الدنيا والآخرة، وينذروا المكذبين والعصاة ما سيبوءون به من الهلاك والخسار وسوء المصير.

قوله: (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) (الحق)، يراد به ههنا الإسلام أو النبوة - ويدحضوا، من الإدحاض وهو الإزلاق - دحضت حجته؛ أي بطلت ٧٣.

والمعنى، أن المشركين والمكذبين يخاصمون خصامهم العنيد الفاجر، وهم إنما يحاجّون بالباطل؛ إذ يصطنعون الحجج الفاسدة والأقاويل الضالة على سبيل المكابرة والمعاندة والتحدي، كقولهم للنبيين: (ما أنتم إلا بشر مثلنا) - أو سؤالهم عن فتية ذهبوا في أول الدهر ولم يظهر أمرهم، وعن الروح، ونحو ذلك من الأسئلة التي يصطنعها الجاحدون في معرض التكلف والمشاقة والحذلقة - ذلك كله (ليدحضوا به الحق) أي ليبطلوا هذا الدين بمجادلاتهم وخصاماتهم ويذهبوا به إذهابا.

وذلك هو ديدن المكذبين والجاحدين في كل زمان؛ إذ يصطنعون المجادلات والخصامات والشبهات المكذوبة لينفروا البشرية من تعاليم الإسلام، وليثيروا في الأرض الشكوك والكراهية لهذا الدين العظيم.

قوله: (واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) ما، مصدرية، وهي في موضع نصب لأنها معطوفة على (آياتي) - وتقديره: واتخذوا آياتي وإنذاري إياهم هزوا - فهزوا، منصوب لأنه المفعول الثاني لقوله: (واتخذوا) ٧٤ أي اتخذوا آيات الله وهي القرآن وما أنذروا به من الوعيد بالعذاب يوم القيامة (هزوا) أي موضع سخرية واستهزاء.

وكذلك يفعل المكذبون والمجرمون والجاحدون في كل زمان؛ إذ يسخرون من آيات الله وحججه وأحكامه ومواعظه بعد أن يثيروا من حولها الأباطيل والأقاويل الظالمة المفتراة ليزهد الناس في دين الله وليرتد المسلمون عن دينهم الحق شر ارتداد ٧٥.

وكيفما تمالأت قوى الشر والطغيان على الإسلام أو ائتمر به المجرمون والطواغيت ليكيدوا له أشنع كيد بمختلف الأسباب والأساليب؛ فإن دين الإسلام لا جرم ظاهر على الدين كله، وأنه لا محالة منصور بعون الله القادر القاهر (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

٥٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

قوله تعالى: {ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا (٥٧) وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا (٥٨) وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا (٥٩)} أي هل في الناس أحد أشد كفرا وظلما لنفسه ممن وُعظ بآيات الله البينات وما فيها من حجج ساطعة وإعجاز ظاهر بليغ (فأعرض عنها) أي أدبر عنها ولم يعبأ بها أيما إعباء، ولم يبال بها أية مبالاة؛ بل استهان بها ولم يتدبرها (ونسي ما قدمت يداه) أي انشغل عما فعله من المعاصي والخطايا، وأخذته في ذلك الغفلة، وسدر تائها في غيه وشهواته فلم يتب ولم يتدبر أو يزدجر.

قوله: (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) أي أغشينا قلوبهم بأغطية وذلك بالختم عليها فهم من الذين طبع الله على

قلوبهم (أن يفقهوه) أي لئلا يفهموا هذا القرآن (وفي آذانهم وقرا) أي جعلنا في آذانهم ثقلا وهو الصمم المعنوي عن الهداية والحق وذلك بسبب نسيانهم وإعراضهم عن آيات الله وعن انشغالهم في الملذات والحطام الزائل - قوله: (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أي إن تدع هؤلاء العصاة المعاندين الذي أعرضوا عن آيات الله وعن دينه- إلى الإنابة إلى ربهم وإلى الاستقامة على محجة الإسلام العظيم، فلن يستجيبوا لما دعوتهم إليه، بل هم جامحون في الضلالة والمعصية، سادرون في اللجاجة والتمرد، لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم وجحودهم.

٥٨ - (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا)

قوله: (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) الله غفار للذنوب، ساتر للخطايا والآثام لمن تاب وأناب - وهو سبحانه ذو رحمة واسعة فلم يعاجل الظالمين بالعقوبة بسبب ما كسبوا من المعاصي (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) لقد جعل الله للظالمين والعصاة غير التائبين موعدا مقدرا لعذابهم لن يتجاوزوه - وقيل: المراد به عذاب الآخرة - وقيل: عذاب الدنيا، وهو الظاهر من السياق - قوله: (لن يجدوا من دونه موئلا) أي إذا جاء أجلهم بالعذاب لن يجدوا لأنفسهم من دونه ملجأ يلجأون إليه أو مفرا يولون نحوه هاربين.

٥٩ - (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

قوله: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) (وتلك) مبتدأ، و (القرى) صفته.

و (أهلكناهم) في موضع رفع خبر المبتدأ ٧٦ والمعنى: أن تلك القرى التي قصّ الله خبرها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كقرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط وقوم فرعون، أولئك قد أهلكهم الله إهلاكا ودمّر عليهم تدميرا بسبب تكذيبهم وعصيانهم وإعراضهم عن عقيدة التوحيد (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي جعل الله لمهلكهم ميقاتا معلوما لم يتجاوزوه.

ومثل هذا الحكم لا جرم ينسحب على كل أمة تستنكف عن دعوة الحق، وتعرض عن رسالة التوحيد، وتأبى إلا العتو والإعراض عن منهج الله ٧٧.

٦٠ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

قوله تعالى: {وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا (٦٠) فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢) قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا (٦٣) قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا (٦٤) فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥)}.

فتى موسى هو يوشع بن نون - وكان فتاه، لأنه كان يخدمه ويأخذ عنه العلم - وسبب قول موسى لفتاه هذا القول: أنه ذكر له أن هناك عبدا مؤمنا من عباد الله بمجمع البحرين لديه من العلم ما ليس عندك - فأراد موسى أن يرحل إليه ويتلقى منه العلم - وفي هذا الصدد روى البخاري عن أبي بن كعب (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسأل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا - فعتب الله عليه، إذ لم يُرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك - قال موسى: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل- زنبيل- فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ" فأخذ حوته فجعله بمكتل، ثم انطلق ومعه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر (فاتخذ سبيله في البحر سربا) - ونأتي على بقية القصة في تفسير الآيات التي تتعلق بها - وهذا قوله تعالى في ذلك: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا) (موسى)، هو ابن عمران، كليم الله ورسوله إلى بني إسرائيل، وفتاه، يوشع بن نون - فقد قال موسى: (لا أبرح)، أي لا أزال أسير حتى أبلغ ملتقى البحرين وهما بحر فارس والروم (أو أمضي حقبا) يعني أسير دهرا من الزمن وجمعه أحقاب ٧٨.

٦١ - (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)
قوله: {فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا} أي لما بلغ موسى وفتاه ملتقى البحرين (نسيا حوتهما) إذ كانا قد أخذا معهما حوتا في زنبيل وكان فقدانه أمارة لهما على وجود المطلوب وهو الخضر عليه السلام، فقد قيل للفتى من قبل، متى فقدت الحوت، فالمطلوب ثمة - فلما بلغا ساحل البحر وضع الفتى المكتل وفيه الحوت فتحرك واضطرب وسقط في الماء فنسي فتاه أن يخبره عن فقده حتى مضى الحوت في سبيله في البحر - وهو قوله: (فاتخذ سبيله في البحر سربا) (سربا)، منصوب على أنه مفعول ثان للفعل اتخذ - ومفعوله الأول: (سبيله) ٧٩ وقيل: منصوب على المصدر - أي سربَ فيه سربا - والسرب، بفتحتين، هو بيت في الأرض، أو نفق ٨٠، فقد قيل: أمسك الله الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالكوة المحفورة في الأرض.
وذلك أن الموضع الذي سلكه الحوت في الماء بقي فارغا وهو الذي مشى عليه موسى متبعا للحوت حتى أفضى به الطريق إلى الموضع الذي كان فيه الخضر.
٦٢ - (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)
قوله: {فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا} أي لما جاوزا المكان الذي نسيا فيه الحوت وهو مجمع البحرين وقد ذهبا عنه بمرحلة، طلب موسى من فتاه أن يأتيهما بالطعام وهو الحوت الذي حملاه معهما للاستطعام منه؛ فقد لقيا من هذا السفر تعبا وإعياء.
٦٣ - (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)
قوله: (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت) الاستفهام للتعجب - والصخرة كانت عند مجمع البحرين وهو موعد الوجدان؛ أي لما طلب موسى من فتاه أن يأتيهما بالطعام قال له فتاه متعجبا: أرأيت حين نزلنا عند الصخرة فقد نسيت هنالك الحوت (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) المصدر من، (أن) والفعل بعده في موضع نصب على البدل من الهاء في قوله: (أنسانيه) وتقديره: وما أنساني ذكره إلا الشيطان ٨١، والشيطان يُنسي العبد بما يلقيه في قلبه من خواطر، وفي نفسه من وساوس.
قوله: (واتخذ سبيله في البحر عجبا) (عجبا)، مفعول ثان للفعل - (واتخذ) - أو منصوب على المصدر؛ أي مضى الحوت في البحر مضيا يثير التعجب بسبب السرب الذي مشى فيه؛ فقد وثب في البحر وبقي أثر جريه في الماء.
٦٤ - (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)
قوله: {قال ذلك ما كنا نبغ فارتد على آثارهما قصصا} (قصصا)، منصوب على المصدر بفعل مقدر دل عليه قوله: (فارتدا) وتقديره: يقصان الأثر قصصا ٨٢ والقصص اتباع الأثر - قص أثره؛ أي تتبعه ٨٣ والإشارة عائدة على فقد الحوت؛ أي ذلك الذي كنا نطلب؛ لأن فقدان الحوت كان أمارة على لقاء الخضر عليه السلام - ولذلك رجعا في طريقهما الذي جاء فيه، يتبعان آثار مشيهما اتباعا كيلا يضلا الطريق.
٦٥ - (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)
قوله: {فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما} المراد بالعبد ههنا، الخضر عليه السلام - وهو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وهو قول الجمهور - وهو عندهم نبي - وقيل: هو عبد صالح غير نبي، والأظهر كونه نبيا؛ استنادا إلى الأخبار الثابتة في ذلك؛ ولأن عظيم أفعاله لا تكون إلا بوحي - وقد آتاه الله رحمة من عنده - والمراد بالرحمة النبوة.
وقيل غير ذلك مما أنعم الله به عليه - وآتاه الله ايضا العلم وهو الإخبار بالغيب مما استأثر الله بعلمه - وقيل: ما حصل له بطريق الإلهام ٨٤.
٦٦ - (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)
قوله تعالى: {قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معي صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠)} يبين الله للناس ما قاله موسى عليه السلام للخضر، هذا الرجل العالم الصالح، الذي خصه الله بعلم لم يعلمه موسى

- وكذلك أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر - فقد سأله موسى سؤال تلطف وتأدب وتواضع كشأن المتعلم، إذ يسأل العالم شيئا من أمور العلم، فقال له: (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) (رشدا)، مفعول ثان للفعل تعلمني، أي هل تستصحبني شريطة أن تعلمني شيئا مما علمك الله، لكي أسترشد به في أمري وديني.

٦٧ - (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

قوله: {قال إنك لن تستطيع معي صبرا} أي لا تستطيع أن تصاحبني لما سوف تراه من الأفعال مما لا تطيق الصبر عن إنكاره.

٦٨ - (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

{وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا} (خبرا)، منصوب على المصدر وتقديره: ما لم تخبره خبرا - ٨٥ وقيل: منصوب على التمييز - وما لم تحط به خبرا، أي ما لم تخبر به - والمعنى: أنك سوف ترى مناكير، والرجل المفضال في مثلك لا يقدر إلا أن يجزع ويستنكر ما هو معذور فيه.

٦٩ - (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

قوله: {قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا} أي سوف أصبر بمشيئة الله عن الإنكار وقد التزمت طاعتك فلا أخالفك في أمر.

٧٠ - (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

قوله: {قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا} إن اتبعتني ورأيت ما تنكره فلا تسألني عنه حتى أفسّره لك أو أبدأك بالجواب قبل أن تسألني - لكن موسى لم يصبر عن الاعتراض لما رأى أنه نكر، فتعين بذلك الفراق والإعراض ٨٦.

٧١ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

قوله تعالى: {فانطلقنا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال الم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (٧٣)} جاء في الصحيحين أن موسى والخضر قد انطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة فعرف أهلها الخضر فحملوهما بغير أجرة تكرمة للخضر - فلما استقلت بهم السفينة في البحر قام الخضر فخرقها، إذ استخرج لوحا من ألواحها بالقدوم فلم يملك موسى نفسه أن قال مستنكرا ما فعله الخضر (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا) اللام، لام العاقبة وليس للتعليل، أي أعمدت إلى السفينة فخرقتها لتودي بأهلها إلى الهلاك (لقد جئت شيئا إمرا) أي عجبا - وقيل: منكرا.

٧٢ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

فقال له الخضر بعد ذلك مذكرا بالشرط الذي التزمه موسى وهو أن لا يستنكر شيئا لا يعجبه وهو قوله: {ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا} لقد فعلت أنا ما فعلته قصدا مما هو في حقيقة الحال مصلحة لا تعلمها أنت، لأنك لم تحط بها خُبرا - وقد نسي موسى شرطه مع الخضر هذه المرة،

٧٣ - (قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

فاعتذر له عن سؤاله وإنكاره ما فعل وهو قوله: {لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا} (لا ترهقني) لا تغشني - ورهقه، غشيه - وأرهقه، أغشاه ٨٧ - والمعنى: لا تغشني عسرا ولا تضيق علي في متابعتك.

٧٤ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)

قوله تعالى: {فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس جئت شيئا نكرا (٧٤) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا (٧٦)} خرج موسى والخضر من السفينة، وبينما هما يمشيان على الساحل وجدا غلمانا يلعبون في قرية من القرى، فعمد الخضر إلى واحد منهم فقتله - قيل: قتله ذبحا بالسكين، وقيل: رضخ رأسه بحجر فقتله - فلما شاهد موسى هذا جزع واستكبر ما رآه فقال له: (أقتلت نفسا زكية بغير نفس) الاستفهام للإنكار

- و (زكية)، أو زاكية، في قراءة، بمعنى طاهرة من الذنوب لكون القتيل غلاما فهو صغير لم يبلغ الحنث ٨٨، ومن أجل ذلك استنكر موسى قتلها (بغير نفس) فإنما يباح قتل النفس حدا، أو قصاصا، وكلا الأمرين منتف في هذا الغلام، لأنه صغير.

قوله: (لقد جئت شيئا نكرا) أي منكرا، أو ظاهر النكارة.

٧٥ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

قوله: {ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا} عاود التذكير مرة أخرى بعدم الاستنكار - وزاد فيه هنا قوله: (لك) قصد التأكيد، ولأن سبب العتاب أكبر - ثم رجع موسى إلى نفسه وتذكر استعجاله في السؤال مرة أخرى،

٧٦ - (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)

فقال له معتذرا: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) أي إن سألتك بعد هذه المسألة فلا تتخذني لك صاحبا (قد بلغت من لدني عذرا) أي بلغت ما تعذر به في ترك صحبتي - أو وجدت عذرا من قبلي لما خالفتك مرارا ٨٩.

٧٧ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)

قوله تعالى: {فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجرا (٧٧) قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨)} خرج موسى والخضر بعد المرتين الأوليين حتى أتيا أهل قرية، أشحّة لئام، فطافا في مجالسهم طالبين منهم الطعام والضيافة (فأبوا أن يضيفوهما) وذلك لفرط لؤمهم وشدة بخلهم - ولم يذكر في الآية اسم القرية - فاختلفت في ذلك أقوال العلماء على عدة أقوال ولا حاجة لتبيان ما ذكر في ذلك من أسماء مظنونة - والمهم هنا مضمون القصة عن أهل هذه القرية اللئام وعن تشريع الضيافة وحق الضيافة في التكريم.

وفي ذلك روى الشيخان عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ".

وروى الشيخان كذلك عن أبي شريح الخزاعي (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته " قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال " يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة " ويستفاد من ذلك وجوب إتحاف ٩٠ الضيف وذلك بإطعامه وإيوائه مدته المستحقة وهي يوم وليلة - وما بعد ذلك من أيام فإنه يكرم فيها استحبابا.

قوله: (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) (ينقض) من الانقضاض وهو السقوط ٩١ - وقد أسند الإرادة إلى الجدار من باب الاستعارة، فقد كان الجدار مائلا يوشك أن يقسط (فأقامه) أي بناه فأعاده قائما - وقيل: هدمه ثم أخذ يبنيه من جديد ليرده قويا مستقيما، وقيل: مسحه بيده وأقامه فقام - وهذا وجه الكرامات الخارقة للعادة التي يجريها الله على أيدي أنبيائه أو أوليائه - ثم لم يصبر موسى عن الاعتراض على إقامة هذا الجدار الآيل للسقوط فقال له: (لو شئت لتخذت عليه أجرا) أي ما كان ينبغي أن تعمل مجانا لهؤلاء البخلاء الأشحة فتبني لهم الجدار الآيل للسقوط، بل كان أجدر أن تطلب الجعل منهم في مقابلة عملك لكي نرد عن أنفسنا الضرورة.

٧٨ - (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

فقال الخضر: (هذا فراق بيني وبينك) الإشارة عائدة إلى الاعتراض الثالث فهو سبب الفراق بين موسى والخضر - أو هذا الوقت هو وقت الفراق بيننا (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) التأويل معناه التفسير - آل إليه إيالا وأيلولة ومآلا، أي رجع وصار ٩٢.

٧٩ - (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

قوله تعالى: {أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما

الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٨٢)}.

أول هذه المسائل الثلاث مسألة السفينة، فقد كانت لقوم ضعفاء يستحقون الشفقة عليهم - وقيل: كانوا أيتاما يعملون في البحر.

قوله: (فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أي كنت قد خرقت السفينة لأجعلها ذات عيب، فقد كان أمامهم ملك ظالم يغتصب كل سفينة صالحة فكونها معيبة بالخرق يحول دون أخذها.

٨٠ - (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)

قوله: {وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا} هذا تأويل المسألة الثانية وهي مسألة الغلام الذي قتله الخضر - وقد جاء في الحديث الصحيح في حق الغلام: " أنه طبع يوم طبع كافرا " لكن أبويه كانا مؤمنين فخفنا- وهو من قول الخضر- أن يغشيهما حبهما له وتعلقهما به الافتتان به ومتابعته على الكفر - وإنما خاف الخضر منه ذلك على الأبوين، لأن الله أعلمه بذلك - وهو من جملة الكرامات التي يؤتاها النبيون والأولياء الصالحون.

٨١ - (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

قوله: {فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما} أي أردنا أن يرزقهما ربهما بدله ولدا أطهر منه وأحسن دينا وصلاحا. (وأقرب رحما) (رحما)، معطوف على (زكاة) أي أعظم رحمة به.

٨٢ - (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

قوله: (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما) هذا تأويل المسألة الثالثة، وهي إقامة الجدار الآيل للسقوط، فقد كان الجدار لغلامين صغيرين في المدينة، ودليل صغرهما وصفهما باليتم، إذ لا يتم مع البلوغ - وكان تحت الجدار مال مدفون لهما وكان أبو الغلامين صالحا - ويستدل من ذلك على أن الرجل الصالح يحفظ الله بصلاحه ذريته ثم تشملهم بركته في الدنيا، وكذا في الآخرة بشفاعته فيهم ورفعهم ببركته إلى الدرجات العلا في الجنة.

قوله: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجها كنزهما) أسند الإرادة في بلوغ الحلم واستخراج الكنز إلى الله، لأن بلوغ الحلم لا يكون إلا بقدرة الله، ولأن الله قد حفظ لهما كنزهما تحت الجدار، إذ لم ينقضّ ولو انقضّ لخرج الكنز من تحته (رحمة من ربك) أي فعلت ما فعلته من بناء الجدار رحمة من الله باليتيمين (وما فعلته عن أمري) أي ما فعلت الذي فعلته من تلقاء نفسي واجتهادي وإنما فعلته بأمر الله.

قوله: (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) حذف التاء في تسطع للتخفيف - والمعنى: هذا تفسير ما أنكرته وضقت به ذرعا فلم تصبر حتى أخبرك بتأويله ٩٣.

٨٣ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

قوله تعالى: {ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا (٨٣) إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨) ثم أتبع سببا (٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا (٩١)} (ذي القرنين)، كان أول أمره غلاما من الروم - وقيل: من اليونان، واسمه الإسكندر الأول - وأما الإسكندر الأول بنى مدينة الإسكندرية فنسبت إليه - سمي بذي القرنين، لأنه بلغ المغرب والمشرق، فكأنه

حاز قرني الدنيا - وقد سئل علي (رضي الله عنه) عن ذي القرنين فقال: كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجوه على قرنه، ثم دعاهم فشجوه على قرنه الآخر، فسمي ذا القرنين.
أما من حيث زمانه فقيل: كان في زمن إبراهيم وإسماعيل - وروي أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام - وكان وزيره الخضر - وقد ذكر أن ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران - فالمؤمنان سليمان بن داود وإسكندر - والكافران، نمرود وبختنصر، وسيملك الدنيا من هذه الأمة خامس وهو المهدي، لقوله تعالى: (ليظهره على الدين كله).
وقد سأل المشركون واليهود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن رجل طواف في الأرض من جملة أشياء بيناها سابقا، فنزل البيان في ذلك.
٨٤ - (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)
(إنا مكنا له في الأرض) أي خولناه الملك العظيم وسعة السلطان حتى دانت له البلاد وخضعت له ملوك الدنيا فملك المشارق والمغارب.
قوله: (وآتيناه من كل شيء سببا) السبب معناه الطريق الموصل إلى الأغراض والمقاصد، فقد يسر الله لذي القرنين كل ما يحتاج إليه من الوسائل والطرق، ففتح البلاد، وهزم الأعداء والظالمين، وأذل الشرك والمشركين.
٨٥ - (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)
{فأتبع سببا} أي أتبع سببا من الأسباب التي خوّله الله إياها من علم أو قوة أو غير ذلك من وجوه القدرة ليبلغ مرامه في فتح البلاد وإخضاع العباد.
٨٦ - (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)
قوله: (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) (مغرب الشمس) يراد به منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع - أما مغيبها في العين الحمئة فإن ذلك في إحساس العين، تغرب في عين حمئة - وهي الطين الأسود ٩٤ - وهكذا الناظر إلى أفق المغرب يرى الشمس كأنما تغيب في البحر - وقد ذكر القرطبي قول القفال عن بعض العلماء قالوا: ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسّها، لأنها تدور مع السماء حول الأرض ٩٥ من غير أن تلتصق بالأرض - وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض.
وقال الرازي في هذا الصدد من تأويل هذه الآية: إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك - وأيضا قال: (ووجد عندها قوما) ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود - وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض - إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله: (تغرب في عين حمئة) من وجوه:
الوجه الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر.
الوجه الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط بها البحر، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار - ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة، فهي حامية، وهي أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء - فقوله: (تغرب في عين حمئة) إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة ٩٦.
قوله: (ووجد عندها قوما) أي وجد عند العين الحمئة أمة من الأمم وكانوا كافرين فخيره الله في قتلهم أو الرفق بهم.
قوله: (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) المصدر من قوله: (أن تعذب) في موضع نصب بفعل مقدر - وقيل: في موضع رفع على تقدير مبتدأ وخبره محذوف ٩٧.

ذلك من تمكين الله لذي القرنين، إذ أظفره الله على البلاد وخيّره في هؤلاء القوم بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على كفرهم، وبين أن يحسن إليهم بالإكرام والرفق والمنّ - وقد قيل ذلك على سبيل الإلهام - لكن ذا القرنين اختار أن يعاملهم بالحق والعدل - وهو قوله: {أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا}

٨٧ - (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا)

{أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا} أما من أعرض عن دين الحق وعقيدة التوحيد وأبى إلا البقاء في الظلم الأكبر وهو الشرك، فذاك الذي نعذبه بالقتل، وسوف يصير بعد ذلك إلى عذاب الله الغليظ في الآخرة - وهو العذاب النكر، أي الوجيع الفظيع.

٨٨ - (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

قوله: (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) (جزاء)، بالنصب مع التنوين، منصوب على المصدر في موضع الحال - وقيل: جزاء منصوب على التمييز ٩٨ - والمعنى: أن من استجاب لدعوة الله فآمن واستقام وعمل بما يقتضيه الإيمان من عمل الصالحات، فله الحسنى جزاء - وذلك في الدار الآخرة، إذ يجزيهم الله الجزاء الحسن (وسنقول له من أمرنا يسرا) أي سنأمره الأمر السهل الميسور غير الشاق، من زكاة وخراج وغيرهما.

٨٩ - (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

قوله: {ثم أتبع سببا} أي سلك طريقا.

٩٠ - (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا)

{حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا} (مطلع الشمس)، يراد به موضع طلوعها - والمعنى: أنه بعد أن بلغ ذو القرنين أقرب الأماكن من مغرب الشمس شرع في سلوك طريق آخر، قاصدا مطلع الشمس من الأرض - والمقصود أقرب الأماكن من مطلع الشمس حتى إذا بلغ ذلك وجد أن الشمس تطلع على أمة من الناس ليس لهم أيما ستر من دون الشمس - فليس هناك من شجر ولا جبل ولا بناء يمنعهم من شعاع الشمس الحارقة - وقيل: المراد أنهم كانوا لا ثياب لهم فهم عراة كسائر الحيوانات.

٩١ - (كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

قوله: {كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا} أي كذلك أمر ذي القرنين كما وصفناه في عظيم المكانة وسعة الملك وهيبة السلطان - ونحن نحيط علما بكل أحواله وأفعاله وما لديه من أسباب القوة وعظيم الملك ٩٩.

٩٢ - (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

قوله تعالى: {ثم أتبع سببا (٩٢) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا (٩٣) قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا (٩٤) قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما (٩٥) آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا (٩٦) فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا (٩٧) قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا (٩٨)} سلك ذو القرنين طريقا آخر من مشارق الأرض

٩٣ - (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)

(حتى إذا بلغ بين السدين) وهما جبلان من جهة أرمينيا وأذربيجان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيهم فسادا وخرابا، إذ يهلكون الحرث والنسل.

قوله: (وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) أي وجد من وراء السدين أمة من الناس لا يفقهون الحديث إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها، لأن لغتهم غريبة ومجهولة، فهم بذلك لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهم غيرهم عنهم.

هؤلاء القوم المستعجمون قد فهم ذو القرنين مرادهم بالرغم من استعجام كلامهم، بما آتاه الله من أسباب في القدرة والفطانة والإلهام.
٩٤ - (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)
(قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) (يأجوج ومأجوج) اسمان أعجميان بدليل عدم صرفهما، فقد كانوا يعيثون في البلاد الخراب والدمار فيقتلون الناس ولا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا أخذوه.
قوله: (فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) الخرج في اللغة أو الخراج بمعنى الإتاوة - وجمع الخرج أخراج ١٠٠ - والمراد به الجعل أو النول أو النوال بمعنى العطاء، فقد قالوا له في أدب وتواضع: هل نجمع لك من أموالنا جعلا أو مالا فنبذله لك لتقيم بيننا وبين يأجوج ومأجوج سدا أي ردما - والردم هو وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحو ذلك ليقوم بذلك جدار منيع أو حاجز حصين يحول دون نفاذ المفسدين إلى بلاد القوم.
٩٥ - (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)
قوله: (قال ما مكني فيه ربي خير) قال لهم ذو القرنين في عفة وهمة: ما خولني إياه ربي من التمكين واليسار وما بسطه لي من القدرة والملك خير لي مما تجمعونه من أموالكم، إذ لا حاجة لي بذلك - ولكن ساعدوني بقوة رجالكم والعمل منكم بأبدانكم وآلاتكم - وهو قوله: (فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) أي أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج المفسدين، حاجزا منيعا فينكف به شرهم وإفسادهم عنكم.
٩٦ - (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)
قوله: (آتوني زبر الحديد) (زبر) جمع زبرة وهي القطعة من الحديد ١٠١، أي ناولني قطع الحديد لأجعل بينكم وبينهم حاجزا كثيفا حصينا لا يقدرون أن يظهروا عليه (حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا) (بين الصدفين) أي بين جانبي الجبلين وسميا بالصدفين، لأنهما يتصادفان، أي يتقابلان - فقد وضع قطع الحديد بعضها على بعض حتى إذا حاذى بين رؤوس الجبلين (قال انفخوا) أمرهم أن ينفخوا على قطع الحديد بالأكيار، وهو أن يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى وتتأجج عليه النار وهو قوله: (حتى إذا جعله نارا) ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على قطع الحديد وهو قوله: (آتوني افرغ عليه قطرا) والقطر، بالكسر معناه النحاس الذائب ١٠٢.
وجملة ذلك: إيقاد النار على الحديد والحجارة حتى تحمى، ثم يُصب عليها النحاس المذاب فتستمسك هذه المركبات وتتلاحم فيما بينها أشد التلاحم فتكون في غاية المناعة والصلابة ليعز اقتحامه أو الظهور عليه - وهو قوله: {فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا}
٩٧ - (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)
{فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا} حذفت التاء فصارت (اسطاعوا) للخفة، لأن التاء قريبة المخرج من الطاء - وقيل: جيء باللفظ ليناسب المعنى وهو الظهور على السد، فهو أسهل من نقبه فناسبه (اسطاعوا) أما نقب السد والنفاذ منه فقد ناسبه قوله: (وما استطاعوا) والمعنى: أنهم عجزوا عن الصعود فوق السد لارتفاعه وملاسته، وهم أشد عجزا عن نقبه لصلابته وكثافته.
٩٨ - (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)
قوله: (قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء) قال: (هذا) ولم يقل: هذه، لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي - والتأنيث إذا كان غير حقيقي جاز فيه التذكير، ولأن الرحمة بمعنى الغفران، فذكره حملا على المعنى ١٠٣.
والمعنى: هذا السد الذي حال بين القوم والمفسدين، رحمة من الله بعباده، إذ خولني هذا الإقدار والتمكين من تسويته فإذا جاء يوم القيامة جعل الله هذا السد (دكاء) أي مدكوكا مبسوطا مسوّى بالأرض (وكان وعد ربي حقا) وعد الله بقيام الساعة حقيقة لا ريب فيها - وهو كائن لا محالة - وهذا آخر كلام ذي القرنين ١٠٤.
٩٩ - (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)
قوله تعالى: {وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا (٩٩) وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا (١٠٠)

الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا (١٠١) أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا (١٠٢)} ذلك إخبار من الله عما هو كائن قبل يوم القيامة - والضمير في بعضهم يعود على يأجوج ومأجوج - وذلك حين يخرجون مزدحمين من وراء السد وهم هائجون مضطربون - وروي أنهم لا يعثرون بدواب أو شجر إلا أكلوه، ولا يرون ماء إلا شربوه، ولا يظفرون ببشر إلا أبادوه ثم يهلكهم الله بعذاب من عنده وذلك بعد عيثهم في الدنيا الخراب والفساد - وقيل: يختلط الخلق بعضهم ببعضهم، إنسهم وجهنم وهم جميعا حيارى وذلك كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال - ثم يأذن الله ببعثهم في اليوم الموعود، وهو يوم مجموع له الناس ليلاقوا الحساب والعقاب - وذلك في قوله: (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا) أي عقب النفخ في الصور يجمع الله الخلائق إنسهم وجهنم ليجدوا مصيرهم المحتوم.

١٠٠ - (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

قوله: {وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا} يعرض الله على الكافرين جهنم بنكالها وويلاتها وفظائعها - وذلك مبالغة في التعذيب والتخويف الذي يمس المجرمين يوم القيامة.

١٠١ - (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

قوله: {الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا} هؤلاء الجاحدون المجرمون كانوا في دنياهم لا يبصرون الحجج الساطعة، والدلائل القاطعة التي تجلي عظمة الله في ملكوته وبالغ سلطانه في الكون، أو كانوا يغمضون عيونهم عن القرآن وما فيه من معاني الخير والرحمة والاستقامة - وكانوا أيضا عن سماع الحق واليقين صما كأنما في آذانهم صمم؛ إذ لا يطيقون سماع الحق أو منهج الله في إسلامه وقرآنه.

١٠٢ - (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا)

قوله: (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) (الذين كفروا) في موضع رفع فاعل، حسب (أن يتخذوا) في موضع نصب سد مسدّ مفعول حسب و (عبادي) في موضع نصب مفعول أول للفعل (يتخذوا).

و (أولياء) منصوب؛ لأنه مفعول ثان ١٠٥ - والمعنى: أفظن الكافرون أن اتخاذهم أعوانا وأنصارا ومعبودين من دون الله كالملائكة وعيسى ابن مريم والعزير وغيرهم من العظماء والمتسلطين، بنافعهم أو منجيهم؟ بئس ما ظنوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم ولا يغنيهم من العذاب والخسران شيئا - وهو قوله: (إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا) قد أعد الله لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة جهنم؛ فهي شر منزل لهم وشر مقام ١٠٦.

١٠٣ - (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا)

قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا (١٠٣) الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١٠٤) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (١٠٥) ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا (١٠٦)}.

الاستفهام للتوبيخ؛ أي هل أخبركم من هم أشد الناس خسرانا يوم القيامة؛ إنهم الذين عملوا أعمالا مصيرها الحبوط والبطلان، فضاعت بذلك هباء منثورا؛ لقيامها على غير عقيدة صحيحة من الله ولا شريعة سليمة مرضية ومقبولة؛ بل كانوا يتشبثون بعقائد الكفر والضلال. عقائد قامت على الافتراء والأوهام والهوى، والكفران بخاتم النبيين وإمام المتقين والمجاهدين، وسيد الأنبياء والمرسلين، المتشفع وحده في الخلائق يوم الدين، محمد - صلى الله عليه وسلم - - فكيف يستحق أن يوصف بالإيمان من كفر بدعوة الإسلام وكذب بنبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام؟ يستوي في ذلك الكافرون جميعا من الملحدين والوثنيين والمرتدين وأهل الكتاب - أولئك الذين كفروا بالإسلام وجحدوا بنبوة سيد الأنام، فهم لا يقيم الله أيما اعتبار أو وزن لأعمالهم وإن كانت تعدل الجبال - وإنما أساس القبول للأعمال أن تكون مشروعة منسجمة مع عقيدة التوحيد، غير مخالفة لمنهج الله ودينه القويم الإسلام - وثمة أساس ثان لقبول الأعمال وهو أن

لا يبتغي العامل بعمله غير وجه الله أو مرضاته بعيدا كل البعد عن الرياء - وأيما رياء وإن صغر، فلا جرم أن يأتي على الأعمال كلها بالحبوط، وإن كانت هائلة.

١٠٤ - (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

قوله: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) يظن هؤلاء الواهمون الجاهلون أنهم على حق، وأن ما عملوه من أعمال لهي صحيحة ومقبولة.

١٠٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

قوله: (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم) جملة مستأنفة سيقت لبيان الخسران والهوان اللذين يحيطان بالجاحدين المكذبين، الذين كفروا بلقاء الله واتخذوا آياته هزوا - (أولئك حبطت أعمالهم) (حبطت) أي بطلت وضاع ثوابها - من الحبط، بفتحتين وهو انتفاخ بطن الدابة من فرط الأكل ثم موتها - وحبط حبطا وحبوطا؛ أي بطل - أحبطه الله، أبطله ١٠٧ حبط عمله؛ أي بطل ثوابه.

قوله: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أي ليس لهم لهؤلاء الجاحدين المكذبين يوم القيامة أيما قدر أو اعتبار؛ فهم لا يعبأ الله بهم ولا ينظر إليهم؛ إذ هم منحدرون في دركات الخسران والنسيان والخساسة.

١٠٦ - (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا)

قوله: {ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا} (ذلك) إشارة عائدة إلى ما ذكر من الوعيد؛ فهو جزاء هؤلاء المكذبين - و (جهنم) عطف بيان لقوله: (جزاؤهم) - أو (جزاؤهم جهنم) مبتدأ وخبر، والجملة كلها خبر لاسم الإشارة، ذلك والباء في قوله: (بما كفروا) للسببية، أي إنما جازاهم الله بهذا الجزاء العسير بسبب كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم بآيات الله ١٠٨.

١٠٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا (١٠٧) خالدين فيها لا يبغون عنها حولا (١٠٨) قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا (١٠٩) قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (١١٠)} ذلك إخبار من الله ذي الفضل والرحموت عما أعده لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وذان شرطان أساسيان يكمل أحدهما الآخر، وهما الإيمان وفعل الصالحات؛ فالإيمان الصحيح أساس القبول، وبه تتم الصالحات - ثم فعل الصالحات شرط ثان مكمل للإيمان - وهما باجتماعهما واتساقهما معا تحقق الاستقامة ويرتجى القبول وحسن الجزاء في الدار الآخرة - أولئك المؤمنون الذين يعملون الصالحات جازاهم الله خير الجزاء، وأعطاهم من عظيم الأجر ما لا تخيله أذهان البشر - وتلك هي جنات الفردوس جعلها الله نزلا لعباده المؤمنين الصالحين والنزل بمعنى الضيافة والمستقر والفردوس لهو ذروة المراتب من درجات الجنة - وهو ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها - وفي الصحيحين، " إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومن تفجر أنهار الجنة ".

١٠٨ - (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

قوله: {خالدين فيها لا يبغون عنها حولا} (خالدين) حال - و (حولا) منصوب على التمييز - وقيل: على أنه مصدر ١٠٩؛ أي أن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جزاؤهم أنهم ماكثون دائمون في الفردوس، ولا يبطلون أن يتحولوا عنها إلى غيرها؛ فالفردوس مقامهم الخالد السرمدي الذي لا يختارون عنه متحولا ولا ظعنا - جعلنا الله برحمته ولطفه منهم.

١٠٩ - (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

قوله: (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) قال ابن عباس: قالت اليهود، لما قال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم -: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا فنزلت (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) الآية - وقيل: قالت اليهود: إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا -

فرد عليهم بأنه: وإن أوتيت القرآن وأتيتم التوراة، فهي بالنسبة لكلمات الله تعالى قليلة ١١٠ - والمراد بكلمات الله: حكمته البالغة وعلمه الذي لا ينتهي - والمداد، ما يكتب به من الحبر.

والمعنى: أنه لو كان ماء البحار كلها مدادا لتكتب به كلمات علم الله لفني ماء البحار وزال، وإن جيء إليها بأضعاف أخرى مضاعفة، وبقيت كلمات علم الله قائمة لا تنتهي ولا تفنى؛ أي أن البحار كيفما تكن من الاتساع والعظمة ومعها أضعافها فإنها متناهية ولا تفنى؛ أي أن البحار كيفما تكن من الاتساع والعظمة ومعها أضعافها فإنها متناهية لكن معلومات الله غير متناهية - والمتناهي لا يفي بغير المتناهي؛ ذلك أن علم الله صفة ظاهرة من صفاته العظيمة - وهو سبحانه بكماله المطلق منزه عن النقائص والعيوب - وما ينبغي لكماله أن يتناهى علمه أو تحيط به القيود والحدود؛ بل الله عليم بما جرى وما هو جار من أخبار وأحوال وعلوم وأسرار وأقدار وحقائق لا يعلمها إلا هو؛ فعلمه المطلق لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأكوان والكائنات؛ فهو بذلك لا يحصيه المداد ولو كان في سعة الأمواج والمحيطات.

١١٠ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

قوله: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) لست أنا إلا بشرا مثلكم ولا علم لي بالغيب، وما أخبركم إلا بما أعلمني به الله - وقد أخبرتكم عن علوم في الأولين الغابرين كأصحاب الكهف وذي القرنين وما في ذلك من دقائق الأخبار وخفاياها العجيبة - ومثل ذلك لا يعلمه إلا الله أو يوحيه الله لعبد من عباده؛ فقد أوحى إلي بذلك وأنا مبلغكم أن الله واحد لا شريك له، فلا تعبدوا معه أحدا غيره بل اعبدوه وأطيعوه وأنيبوا إليه.

قوله: (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ذكر عن طاووس في سبب نزول هذه الآية أن رجلا قال: يا نبي الله إني أحب الجهاد في سبيل الله وأحب أن يُرى مكاني، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله سبحانه وتعالى فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يقل شيئا، فأنزل الله الآية ١١١.

ويستدل من ذلك على فظاعة الإشراك في القصد عند فعل الأفعال فأيما فعل قُصد فيه مع الله أحد غيره فمآله الحبوط والإسقاط، وهو لا يغني صاحبه شيئا - وإنما شرط القبول للأعمال أن تكون خالصة لوجه الله ولا يبتغي بها فاعلون إلا مرضاة ربهم - أما أن يبتغي بها صاحبها إرضاء ربه وكسب السمعة أو الثناء من الناس؛ فذلك ضرب من ضروب الرياء وهو إشراك في النية أو القصد.

وفي فظاعة الرياء ونكره روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - يرويه عن الله عز وجل أنه قال: " أنا خير الشركاء فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا بريء منه وهو للذي أشرك " وروى الإمام أحمد أيضا عن محمد بن لبيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال " الرياء - يقول الله يوم القيامة إذا جزء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء " - ١١٢

١٩ سورة مريم:

سورة مريم:

بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وآياتها ثمان وتسعون آية - ويأتي جلها في تبيان الأخبار عن خير نساء الدنيا، المرأة الطاهرة الفضلى، العذراء البتول مريم ابنة عمران عليها السلام - هذه المرأة المميزة بشرفها وطهرها وتبتلها وإخلاصها؛ لهي ذات قصة مثيرة تنتزع العجب وتستنفر اليقين بعظيم قدرة الله وبالغ مشيئته وسلطانه؛ إذ أوحى إليها روحه مبشرا إياها بغلام تلده دون نكاح أو مسيس - فكان الحدثُ الهائل الأجلُ في ولادة النبي المكرم المفضال، عيسى المسيح، نفخة من روح الله وكلمته ألقاها إلى أمه مريم.

لقد كانت هذه واحدة من كبرى المعجزات الكونية الهائلة التي أجراها الله في خلقه لتكون على الدوام دليلا على طهر البتول وعلى صدق ولدها المعظم، إذ بعثه الله نبيا هاديا لبني إسرائيل.
قال القرطبي في هذا الصدد: لما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار، قال كفار قريش: إن ثأركم بأرض الحبشة، فاهدوا إلى النجاشي، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يعطيكم من عنده من قريش فتقتلوهم بمن قتل منكم ببدر - فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ببعثهما، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرو ابن أمية الضمري وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم - وقاموا تفيض أعينهم من الدمع - فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) - وفي السيرة: قال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء - فقرأ جعفر (كهيعص) فبكى النجاشي حتى أحضل ١ لحيته وبكت أساقفهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم، فقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ٢.
١ - (كهيعص)
بسم الله الرحمن الرحيم
{كهيعص (١) ذكر رحمة ربك عبده زكريا (٢) إذ نادى ربه نداء خفيا (٣) قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا (٤) وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا (٥) يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا (٦) يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا (٧)}.
تقدم الكلام عن مثل هذه الحروف من فواتح بعض السور.
٢ - (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)
قوله: {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} (ذكر) مرفوع على أنه مبتدأ وخبره محذوف، وتقديره: فيما يتلى عليكم ذكر رحمة ربك - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هذا ذكر رحمة ربك - وقيل: المبتدأ (كهيعص) و (ذكر) خبره - و (عبده) منصوب بالمصدر المضاف (رحمة ربك عبده) و (زكريا) منصوب على البدل من (عبده) ٣.
والصواب - كما اختاره الإمام الطبري - أن يكون الذكر مرفوعا بمضمر محذوف وهو هذا - فتأويل الكلام: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا.
٣ - (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)
قوله: {إذ نادى ربه نداء خفيا} (إذ) في موضع نصب على الظرف لتعلقه بقوله: (ذكر) و (نادى) من النداء وهو هنا الدعاء في خشوع وتذلل - والنداء الخفي معناه الدعاء في خفية واستسرار، فقد ناجى زكريا ربه في محرابه مناجاة العبد المطيع المتخشع الراغب في الذرية - وكان دعاؤه في خفية وسر كيلا يلام على طلب الولد في أوان الكبر فيسخر منه الساخرون.
وقيل: أخفاه، لأنه أبعد عن الرياء وأحب للرحمن، فإن الله يحب من عبده أن يناجيه خفية فيدعوه ويرتجيه.
٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)
قوله: (قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا) (وهن)، أي ضعف، من الوهن، بسكون الهاء، وهو الضعف ٤.
فقد بثّ زكريا عليه السلام شكواه إلى ربه بأن عظمه قد أتى عليه الضعف وخص العظم، لأنه عماد الجسد وعليه يقوم بناؤه فإذا عف العظم خار الجسد كله (واشتعل الرأس شيبا) (شيبا) منصوب على التمييز - وقيل: على المصدر، أي شاب يشيب شيبا ٥ - وهذا التعبير باشتعال الرأس شيبا من أحسن الاستعارات في كلام العرب، فقد شبه انتشار الشيب في الرأس بانتشار شواظ النار الملتهبة - فقد فشى الشيب في رأسه حتى عمه كله بسبب الكبر، إذ نيف إذ ذاك على الثمانين عاما، فهو بذلك يذكر ضعفه وشيبه إلى ربه

فيستعطفه ويسترحمه عسى أن يستجيب منه الدعاء، ولذلك قال: (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أي لم أكن بدعائي إياك (شقيا) فقد تعودت منك الإجابة قبل اليوم وما كنت تخيب دعائي، فاستجب اللهم وحقق لي رجائي.

٥ - (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)

قوله: (وإني خفت المولى من وراءي وكانت امرأتي عاقرا) (المولى) هم العصبات من الإخوة وبني العم الذين يلونه في النسب، فقد كان أقارب زكريا العصبات من شرار الناس، فخشي منهم أن يفرطوا في دين الله من بعده، فطلب من الله أن يرزقه العقب الصالح من صلبه ليرثوا من بعده العلم والدين فيكونوا في الناس مهداة صلحاء، داعين إلى الله؛ أي أن زكريا عليه السلام إنما أراد وراثة العلم والنبوة والدين لا وراثة المال كما زعم بعض المفسرين - ومعلوم أن النبيين أزهد الناس في الدنيا وحطامها، فأنى لهم أن يكونوا من ذوي المال - ثم إن النبيين لا يورثون؛ فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا نورث، ما تركنا صدقة " وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث " وبذلك تكون الوراثة في الآية مستعارة والمراد بها ما كان في النبوة والحكمة والعلم، وهو الأليق بنبي الله زكريا - لذلك دعا ربه أن يهبه الذرية الصالحة ليرثوا من بعده الدين؛ فقد بلغ هو من العمر الكبر، وكانت امرأته عاقرا؛ أي انقطع حملها فلا تلد ٦.

قوله: (فهب لي من لدنك وليا) أي ارزقني من عندك ولدا.

٦ - (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

يرث مني العلم والحكمة (ويرث من آل يعقوب) أي يرث منهم النبوة - وذلك أن يكون ذا صلاح وهداية فيصلح أن يوحى إليه - أما يعقوب فهو إسرائيل - وقد كان زكريا زوجا لأخت مريم بنت عمران وهذه يرجع نسبها إلى يعقوب؛ لأنها من ولد سليمان ابن داواد وهو من ولد يهوذا بن يعقوب - وزكريا من ولد هارون أخي موسى - وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحاق.

قوله: (واجعله رب رضيا) وهو أن يكون صالحا فترضاه دينا وخلقا.

ويستدل من هذه الآية على جواز الدعاء إلى الله برزق الولد الصالح الذي ينشأ على الإيمان والدين والتقوى فيكون من أهل الفضل والصلاح ويكون من الداعين إلى الله فينشر القيم والأخلاق وشرع الله بين العباد، ويكون لأبويه قرّة عين ومبعث استئناس وطمأنينة داعيا لهما بالخير والمغفرة في الحياة وفي الممات.

٧ - (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)

قوله: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) استجاب الله لزكريا دعاءه - وهذه كرامة من الله لهذا النبي العظيم؛ إذ رزق الولد في فترة من العمر يعز على مثله فيها أن يولد له بسبب الكبر؛ لقد رزقه الله غلاما كريما صالحا سماه يحيى ولم يسمّ أحد قبله بهذا الاسم، وقد سماه الله بنفسه بهذا الاسم تشريفا له - وقيل: (سميا) بمعنى نظير ومثيل؛ أي ليس له في الناس مثيل أو شبيه - وذلك في كونه مولودا من شيخ فان وعجوز عقيم، والاسم يحيى بمعنى عبد أحياه الله للإيمان والعلم والحكمة ٧.

٨ - (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا)

قوله تعالى: }قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٩) قال رب اجعل لي آية قال آياتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا (١٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١) يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا (١٢) وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا (١٣) وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا (١٤) وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا (١٥)}.

الاستفهام على سبيل التعجب من قدرة الله أن يخرج ولدا من شيخ فان وعجوز عقيم (وقد بلغت من الكبر عتيا) أي بلغت من العمر النهاية في الكبر.

٩ - (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)

قوله: (قال كذلك قال ربك هو علي هين) الكاف في موضع رفع؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف - وتقديره: قال الأمر كذلك ٨ أي قال له الملك مجيبا عما تعجب منه: (كذلك قال ربك هو علي هين) أي يقول ربك: إن إيجاد الولد منكما بعد، إذ كبرتما سهل علي ويسير وقد خلقتك أنت من قبل يحيي ولم تكن شيئا يذكر، فلست بعاجز عن أن أخلق يحيى منكما وأنتما في هذه السن.

١٠ - (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

قوله: (قال رب اجعل لي آية) طلب زكريا من ربه علامة أو دليلا على وجود ما بشرته به الملائكة وهو حمل زوجته العاقر بيحيى، ليطمئن بذلك قلبه (قال آياتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) (سويا) منصوب على الحال من المضمر في قوله: (تكلم) ٩ والمعنى: أن الله أخبره أن علامة ذلك أن يحتبس لسانه أو يعتقل فيمتنع من الكلام من غير مرض ولا علة؛ بل هو سوي سليم الجوارح وما به من خرس ولا بكم، وذلك مدة ثلاثة أيام بلياليهن.

١١ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

قوله: {فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا} لقد أشرف زكريا على قومه من المحراب، وهو موضع صلاته ولم يستطع الكلام (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أشار إليهم إشارة خفيفة وسريعة، وذلك بأصبعه، أو أومأ إليهم إيماء، أو كتب لهم على الأرض أن سبحوا الله أول النهار وآخره، أو صلوا الفجر والعصر.

١٢ - (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)

قوله: (يا يحيي خذ الكتاب بقوة) المراد بالكتاب: التوراة التي أنزلت على موسى؛ فقد أمر الله يحيي أن يأخذ التوراة بقوة - والباء في موضع نصب على الحال؛ أي خذ هذا الكتاب (التوراة) بجد واجتهاد وحرص ١٠، واعمل بمقتضاها تماما فالتزم ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه.

قوله: (وآتيناه الحكم صبيا) (الحكم)، مفعول ثان للفعل (آتيناه) - و (صبيا) منصوب على حال من المفعول الأول وهي الهاء في قوله، (وآتيناه) - أي آتينا يحيي الحكم وهو العلم والفقه والحكمة، حال كونه صغيرا.

١٣ - (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا)

قوله: {وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا} آتاه الله من فضله العظيم حنانا أي شفقة ورحمة بأبويه وغيره من الناس - لقد كان قلبه منذ الصغر حافلا بالرأفة والحنان، عطاء من الله - وكذلك آتاه الله زكاة أي طهارة وصلاحا وبركة (وكان تقيا) كان خاشع القلب لله، مطيعا لأمره كامل الطاعة، مجتنبا نواهيه تمام المجانبة.

١٤ - (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)

قوله: {وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا} كان يحيي عظيم البر بوالديه شديد الرفق بهما والإحسان إليهما ولم يكن متكبرا ولا عاصيا لربه، بل كان خاشعا متواضعا منيبا إلى ربه.

١٥ - (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

قوله: {وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا} المراد بالسلام هنا، الأمان؛ فقد جعل الله الأمان لنبيه يحيي في هذه الأحوال الثلاثة - وقيل: السلام هنا تحية من الله لهذا النبي المعصوم؛ فقد سلم الله عليه وحياه في ثلاثة مواطن يكون فيها الإنسان في غاية الضعف والحاجة إلى العون.

فقد قيل: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم - ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم - فأكرم الله فيها يحيي فخصه بالسلام عليه ١١.

١٦ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)

قوله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا

سويا (١٧) قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨) قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا (٢٠) قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا (٢١) فحملته فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣)}.

بعد أن بين قصة زكريا وولده يحيى عطف بيان قصة مريم البتول وولدها الزكي - والمخاطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، إذ يأمره ربه أن يبين للناس هذه القصة ليقفوا على كمال قدرة الله الذي لا تستعصي عليه النواميس الكونية أو طبائع الأشياء والخليقة ولا يعز عليه أن يصنع ما يريد مما فيه خرق لقوانين الوجود، فقال: واذكر لهم يا محمد في هذا القرآن قصة مريم حين تنحت واعتزلت أهلها (مكانا شرقيا) (مكانا)، منصوب على أنه ظرف مكان، وقيل: مفعول به لفعل مقدر - وتقديره: وقصدت مكانا قصيا.

و (شرقيا)، صفة له ١٢، أي أنها تنحت عن أهلها في مكان شرقي بيت المقدس معتزلة عن الناس حتى تطهر من الحيض - وقيل: لتحبس نفسها للعبادة وهذا أظهر، فقد جُعلت مريم وقفا على سدانة بيت الله وخدمته، فهي تحرص على الانقطاع للتبتل وعبادة الله، معتزلة الناس من أجل هذه الوجيبة الفضلى.

١٧ - (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)

قوله: (فاتخذت من دونهم حجابا) أي استترت مريم من أهلها وتوارت عنهم (فأرسلنا إليه روحنا فتمثل لها بشرا سويا) أرسل الله إليك الملك جبريل عليه السلام على صورة إنسان سوي الخلقة وضيء الوجه، صبيح المنظر، لأنها لا تطيق رؤية جبريل في صورته الحقيقية الهائلة.

١٨ - (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)

فقالت له: {إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} لما كانت مريم منفردة متنحية عن أهلها وبيتها وبينهم حجاب، وقد ظهر لها الملك في صورة آدمي، خافته وارتابت وخشيت منه على نفسها، ناشدته أن يجتنبها وأن لا يبغي منها السوء فاستعاذت بالرحمن منه إن كان ممن يتقي الله ويخشاه، أي إنني ألجأ إلى ربي واحتمي بجلاله العظيم، فإن كنت تخشاه فابتعد عني ولا تبغني بسوء.

وهذا هو المشروع في مثل هذه الحالة من الاعتداء على أعراض المسلمين أو أموالهم أو أنفسهم، فإنه ينبغي على المعتدى عليه مناشدة المعتدي باللطف واللين وتذكيره بقدرة رب العالمين عسى أن يكف عن عدوانه فيمسك أو ينتهي.

١٩ - (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا)

قوله: {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} أجابها جبريل في رفق ورحمة لتأمن على نفسها ويطمئن قلبها فأخبرها أنه مرسل من ربه ليهب لها بإذن الله غلاما، أو ليكون سببا بالنفخ في هبة هذا الغلام الزكي، أي الطاهر من الذنوب والذي تحف به كل ظواهر الخبر والبركة والحكمة.

٢٠ - (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

قوله: {قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا} أجابته باستفهام متعجب: كيف يكون لي ابن وأنا غير ذات زوج ولست (بغيا) والبغي بمعنى الزانية، أي لست من ذوات الفجور والفاحشة، فكيف يتحصل لي هذا الغلام وأنا في هذه الصفة من التبتل واعتزال الرجال؟

٢١ - (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)

قوله: (قال كذلك قال ربك هو علي هين) أجابها الملك بأن الأمر كما قلت وكما تصفين بأنه لم يمسسني بشر في نكاح ولا في فاحشة ولكن ربك قال لك: خلق هذا الغلام الذي وهبته لك هين علي، أن يسير لا يتعذر علي فعله.

قوله: (ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) هذا تعليل رباني كريم يحمل الناس على القناعة والتصديق بأن الله قادر على كل شيء - وأن الله لا يمنعه مانع من فعل ما يشاء أو تقدير ما يريد (ورحمة منا) أي ولنجعل عيسى المسيح نبيا ورسولا للناس فيدعوهم إلى النور والهداية، ويخرجهم من وهدة الباطل وظلام الضلالة، والشرك إلى نور العدل والطهر والتوحيد (وكان أمرا مقضيا) أي كان

ذلك مقدرا في علم الله، مسطورا في لوحه المحفوظ فلا مندوحة عن تحقيقه ١٣.
٢٢ - (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)
قوله: {فحملته فانتبذت به مكانا قصيا} حملت مريم بعيسى المسيح من غير نكاح ولا مسيس فتنحّت بنفسها وبالحمل إلى مكان بعيد لتعتزل الناس فرارا من ظنهم ومساءلتهم وتعييرهم لها بهذا الحمل العجيب، أما مدة الحمل فكانت موضع خلاف - فقد قيل: كانت ساعة واحدة ثم وضعت أي كما حملته نبذته - وقيل: سبعة أشهر - وقيل غير ذلك.
٢٣ - (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)
قوله: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) الهمزة للتعدية؛ أي اضطرها وألجأها (المخاض إلى جذع النخلة) والمخاض معناه الطلق أو وجع الولادة ١٤ - و (جذع النخلة)، أي ساق النخلة اليابسة - وكان ذلك شرقي محرابها الذي تصلي فيه بيت المقدس - وقيل: كان ذلك في قرية بيت لحم، على عدة أميال من بيت المقدس.
قوله: (قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) لقد أصابها جزع شديد من شأنها هذا الذي يضيق به المرء ذرعا والذي يستشعر فيه بالغ الكرب والحراجة - وخصوصا في ذلك امرأة طاهرة عابدة فضلى، خير نساء العالمين؛ فقد أحست ببالغ الحزن والحرج فتمنت من أجل ذلك لو ماتت قبل هذا الحدث وكانت (نسيا منسيا) (نسيا)، بكسر النون وسكون السين - والنسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها - أو هو ما سقط من منازل المرتحلين من محقرات أمتعتهم ١٥.
٢٤ - (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)
قوله تعالى: {فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا (٢٤) وهزي إليك بجذع النخلة تقساط عليك رطبا جنيا (٢٥) فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمان صوما فلن أكلم اليوم إنسيا (٢٦)} الذي ناداها: جبريل عليه السلام - و (من تحتها) من، حرف جر؛ أي من أسفل منها أو من أسفل الوادي - وأن في قوله (ألا) تفسيرية بمعنى أن؛ أي لا تحزني بولادتك (قد جعل ربك تحتك سريا) والسري معناه النهر الصغير أو الجدول، فقد أجراه الله قريبا من مريم لتشرب منه، ولتجد من قدرة الله ما ينشرح به فؤادها ويطمئن.
٢٥ - (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)
قوله: {وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا} الباء، زائدة، وهي للتأكيد؛ فقد أمرها بهز الجذع ذي اليبس ليكون ذلك آية لها على عظيم قدرة الله وأن الله يفعل ما يريد فلا تضيق ولا تحزن - (تساقط عليك رطبا جنيا) (تساقط) ١٦ بضم التاء وكسر السين المخففة، فيكون (رطبا) منصوبا على أنه مفعول (تساقط) والرطب، ثمر النخل إذا أدرك ونضج ١٧، والجني، يعني الطري الطيب.
ويستفاد من الآية وجوب السعي طلبا للرزق سواء كان السعي المبذول كبيرا أم هينا؛ فهذه مريم عليها السلام بذلت من الجهد البسيط في هز النخلة ما يتساقط به الثمر عليها لتأكل وتقيم نفسها؛ فإن المقصود بذل الجهد من أجل الكسب والارتزاق، قل الجهد أو كثر - ولا يقدح ذلك في ضرورة التوكل على الله، وهو ما ينبغي اقترانه بالسعي وطلب الرزق.
أما مجرد التوكل من غير سعي ولا عمل؛ فتلك مخالفة صريحة لمنهج الله وشرعه الحكيم.
٢٦ - (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)
قوله: (فكلي واشربي وقرّي عينا) أي كلي من الثمر الجني المستطاب ففيه غذاء نافع، ثم اشربي من السري وهو الجدول ذو الماء العذب الصافي تستقيه هنيئا مريئا - وفي هذين الصنفين من الطعام والشراب ما يتقوى بهما بدن الإنسان ويستقيم وتلك نعمة عظيمة أنعمها الباري جل جلاله على العذراء البتول في هذا المكان المنفرد المعزول الذي لا ماء فيه ولا غذاء ولا عباد - قوله: (وقري عينا) (عينا) منصوب على التمييز؛ أي طيبي نفسا بعيسى المسيح واسكني.
قوله: {فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمان صوما فلن اكلم اليوم إنسيا} إما، أصلها إن ما - فضمت إن الشرطية إلى ما

وأدغمت فيها - والمعنى: إن رأيت أحدا من الناس يكلمك أو يسائلك عن أمرك وأمر ولادتك فأخبرته أنك نذرت لله صوما، أي صمتا أو إمساكا عن الكلام فلن تكلمي أحدا من الناس - وقد أمرت أن تقول ذلك بالألفاظ ثم بعد ذلك تصمت؛ أي سوّغ لها هذا القدر بالنطق - وقيل: أمرت أن تقول ذلك بالإشارة لا بالكلام ١٨.

٢٧ - (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)

قوله تعالى: {فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا (٢٧) يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا (٢٨) فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣٣)} استسلمت مريم لقضاء الله وركنت إلى جنابه بعد ما خولها من نعمة الأمان والطعام والشراب والإمساك عن الكلام، ثم أخذت ولدها - وأتت به قومها تحمله من المكان القصي، فقالوا لها متعجبين مستنكرين، وكانوا أهل بيت نبوة وشرف: (يا مريم لقد جئت شيئا فريا) جئت أمرا مختلفا عظيما عجيبا.

٢٨ - (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)

قوله: (يا أخت هارون) يعني يا من كنا نظنها شبيهة هارون في العبادة - كما يقال للتميمي يا أخا تميم - وللعربي يا أخا العرب؛ أي أتأتين بهذا الافتراء والفحش وقد كنت في نظرنا من الصلحاء أمثال هارون - وقيل: كان لها أخ من أبيها اسمه هارون - قوله: (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أي ما كان أبوك عمران يأتي الفواحش، وما كانت أمك زانية، فكيف بك تفعلين الفاحشة وأنت من بيت صبغته الصلاح والفضيلة؟

٢٩ - (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)

قوله: {فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا} ظلت مريم ملتزمة بالوفاء بصيامها عن الكلام، فأشارت إلى ولدها عيسى أن يكلمهم فغضبوا واستنكروا ذلك منها ظانين أنها تسخر منهم وتزدريهم، فقالوا لها متهكمين مستشاطين (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) (كان) بمعنى حدث أو وقع فيكون (صبيا) منصوبا على الحال.

وقيل: بمعنى صار فيكون (صبيا) منصوبا على أنه خبر صار، ولا يجوز أن تكون (كان) هنا الناقصة؛ لأنه ليس من اختصاص لعيسى في ذلك؛ فإنه ما من أحد إلا كان صبيا في المهد يوما من الأيام - وإنما العجب ممن يتكلم وهو في المهد صبي ١٩ - والمعنى: كيف نكلم من هو في مهده في حال صباه وهو لا يتكلم؟

٣٠ - (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)

فأجابهم عيسى وهو في مهده ناطقا بالحكمة والكلام الحافل الكريم: {إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا} أول ما نطق به عيسى في المهد الاعتراف بربوبية الله والإقرار بعبوديته له سبحانه؛ فقد نزّه الله بذلك عن الشرك والولد، وأخبر أن الله آتاه الكتاب وهو الإنجيل، وأنه أوتي النبوة، فهو بذلك نبي من المهد، ومعجزته كلامه - وقيل: سبق في علم الله بعثه نبيا.

٣١ - (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

قوله: (وجعلني مباركا أين ما كنت) أي جعلني نفّاعا للناس وذا بركات فأعلّم الناس الخير، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأنصر مظلومهم، وأغيث المضطر فيهم والملهوف.

قوله: (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) (ما)، مصدرية ظرفية زمانية، والتقدير: مدة دوامي حيا - و (حيا) منصوب، خبر (ما دمت) ٢٠ أي أوصاني بأداء هاتين الفريضتين العظيمتين دوام حياتي.

٣٢ - (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

قوله: (وبرا بوالدتي) أمرني ربي أن أبرّ بوالدتي مريم، فأحسن إليها تمام الإحسان وأبذل لها من كريم الطاعة والتواضع والرحمة ما هي

خليقة به.
قوله: (ولم يجعلني جبارا شقيا) لم يجعلني ربي مستكبرا عن عبادته وعن خلق الصالحين - وكذلك لم يجعلني (شقيا) أي غليظا عاصيا لله فأشقى.
٣٣ - (وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)
قوله: }والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا{ أي علي من الله الأمان في هذه الأحوال الثلاثة وهي يوم الولادة، إذ أبعد الله عني الشيطان - وعند الموت، إذ كتب الله لي الأمان والنجاة من هول ما يستقبله الميت في قبره - ويوم البعث مما في القيامة من شدائد وبلايا - وفي ذلك إخبار صريح ومقطوع من عيسى لقومه أنه ليس له أب، وأنه صائر إلى الموت بعد نزوله إلى الدنيا ليبعث بعد ذلك حيا مع العالمين يوم القيامة ٢١.
٣٤ - (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)
قوله تعالى: }ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون (٣٤) ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٣٥) وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٣٦) فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم (٣٧) أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين (٣٨) وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون (٣٩) إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون (٤٠){.
الإشارة، (ذلك)، في موضع رفع مبتدأ - (عيسى) خبره - (ابن مريم) صفته - والمعنى: أن هذا الذي قصصت عليكم من خبره والذي حملته مريم من غير أب وكلم الناس في المهد هو عيسى ابن مريم، فقولوا فيه مثلما أخبرتكم عنه لا ما قالت عنه اليهود، إذ افتروا على مريم البهتان والباطل في ولادتها عيسى من غير أب، ولا ما قالت النصارى، إذ غالوا فيه مغالاة فقالوا: إنه إله أو ابن إله تعالى الله عن هذا الباطل علوا عظيما.
قوله: (قول الحق) قرئ (قول) بالرفع والنصب - فمن قرأ بالرفع كان مرفوعا، لأنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: ذلك قول الحق - أو هذا قول الحق - ومن قرأه بالنصب، كان منصوبا على المصدر، وتقديره: أقول قول الحق ٢٢ فهذا هو القول الحق في عيسى ابن مريم (الذي فيه يمترون) أي يختصمون ويختلفون، ويفترون قول الأباطيل، إذ قالت اليهود إنه ساحر كذاب - وزعمت النصارى أنه ابن الله، وأنه ثالث ثلاثة - وذلك كله مراء بالكذب والباطل.
٣٥ - (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)
قوله: (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) أي ما ينبغي لله ولا يليق بجلاله العظيم أن يتخذ لنفسه ولدا، وإنما يتخذ الأولاد من صفتهم الضعف والحاجة للعون والنصرة، والله منزه عن ذلك.
قوله: (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) إذا قضى الله أن ينشئ شيئا أو يخلقه من العدم، كخلق آدم من تراب، وخلق عيسى من غير أب (فإنما يقول له كن فيكون) أي يأمر الله بإحداثه فيصير كما يشاء.
٣٦ - (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
قوله: (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه) ذلك من كلام عيسى عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه داعيا إياهم إلى توحيد الله وعبادته ومجانبة الإشراك به: إن الله خلقني وإياكم وهو مالك كل شيء فاعبدوه وحده دون أحد من خلقه (هذا صراط مستقيم) أي هذا الذي جئتكم به من عند الله لهو الدين الحق والطريق المستقيم الذي لا زيغ فيه.
٣٧ - (فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
قوله: (فاختلف الأحزاب من بينهم) (الأحزاب)، الفرق والطوائف من أهل الكتاب، فقد اختلفوا ما بينهم - قالت فرقة من النصارى وهم النسطورية: إنه ابن الله - وقالت فرقة أخرى وهم الملكانية: إنه ثالث ثلاثة - وقالت فرقة ثالثة وهم اليعقوبية: إنه هو الله - أما

اليهود فقد قدحوا فيه قدحا، إذ افتروا عليه وعلى أمه بالباطل - وبذلك أفرطت النصارى إفراطا، وفرطت اليهود تفريطا.
قوله: (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) ذلك تهديد رعيب وتوعّد مخوف من الله لهؤلاء الغلاة والمفرطين والجاحدين، فلهم الويل من شهودهم يوم القيامة، أو من حضورهم هذا المشهد المزلزل الذي يشيب منه الولدان وتخور فيه القوى والأجساد لهول ما فيه من شديد القواصم والأرزاء.
٣٨ - (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
قوله: (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) يعني ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة - والجار والمجرور (بهم) في موضع رفع فاعل أسمع - كقوله أكرم بزيد - ومعناه كرم زيد جدا - والمراد أن إسماعهم وإبصارهم جدير بأن يتعجب منهما؛ إذ لا أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر.
قوله: (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) أي لكنهم في الدنيا في زيغ عن الحق - زيغ عميت فيه أبصارهم وصمت آذانهم، فأشركوا بالله أشد الإشراك، وزعموا له الولد، سبحانه، وهو المنزه عن اتخاذ الصاحبة والولد.
٣٩ - (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر) أي خوفهم يوم القيامة وما يقع فيها من أهوال وشدائد، وحينئذ تغشى الخاسرين غواشي من اليأس والحسرة والندم على تقصيرهم وتفريطهم في دنياهم؛ فلا تجديهم عندئذ الحسرة ولا ينفعهم الندم ولا ينجيهم ابتغاء التوبة أو الإنابة بعد أن فات الأوان - وهو قوله: (إذ قضي الأمر) أي فرغ من الحساب فيصار إلى الجزاء والعقاب ثم يساق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار - فيكونون جميعا خالدين فيما هم فيه بلا موت.
قوله: (وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) كلتا الجملتين في موضع نصب على الحال؛ أي أنهم غافلون ساهون عن هذا المقام العصيب الذي أنذروا به وما يصيبهم فيه من ندامة وإياس (وهم لا يؤمنون) أي لا يصدقون بيوم القيامة وما هو نازل بهم يومئذ من الويل وسوء المصير.
٤٠ - (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)
قوله: {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون} سوف يأتي على الخلائق الفناء والموت؛ فكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه؛ فهو وحده المتفرد بالملك والبقاء ثم يصير الناس إلى ربهم ليلاقوا جزاءهم المنتظر ٢٣.
٤١ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)
قوله تعالى: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا (٤١) إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا (٤٢) يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا (٤٣) يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا (٤٤) يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا (٤٥) قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا (٤٦) قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا (٤٧) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا (٤٨) فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا (٤٩) ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٥٠)}.
الصديق، بالتشديد، صيغة مبالغة - والمراد فرط الصدق؛ أي اقصص يا محمد ما جاءك في القرآن من خبر خليل الرحمن إبراهيم وخبر أبيه المشرك آزر - وإن إبراهيم (كان صديقا نبيا) كان إبراهيم عظيم الصدق في أقواله وأفعاله، مستقيما في كل أحواله، مصدقا بكل أنباء الغيب من كتب الله ورسله وآياته - وكان نبيا مرسلا من ربه إلى قومه ليدعوهم إلى دين الله الحق ومجانبة الشرك والباطل.
٤٢ - (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)
قوله: {إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} الإنكار للتوبيخ، أي اذكر إبراهيم حين قال لأبيه آزر مستنكرا: يا أبت كيف تعبد هذه الأصنام التي لا تسمع ولا ترى ولا تدفع عنك أيما ضر أو شر، ولا تؤدي لك أي نفع فإنما تعبد

أجسادا خرسا عميا لا تريم - إنما ينبغي أن تعبد الذي خلق هذه الأصنام وخلق كل شيء، فهو حقيق بالعبادة والطاعة.
٤٣ - (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)
قوله: {يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتيك فاتبعني أهدك صراطا سويا} بكسر التاء في، أبت - والتاء عوض عن الياء، أي قال إبراهيم لأبيه: لقد جاءني من المعرفة وأخبار اليقين وما يكون من أخبار القيامة ما لم تعلمه أنت، فاتبعني في ملتي وفيما أدعوك إليه من ديانة مستقيمة، أدلك إلى طريق الله المستقيم وما فيه لك من خير ونجاة وأمان.
٤٤ - (يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)
قوله: {يا آبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا} أي لا تطع الشيطان فيما يأمرك به من الشرك والمعاصي - وطاعة الشيطان تعني عبادته فإنما يُعبد الشيطان بمعصية الله ومخالفة دينه وأمره، والشيطان من جهته شديد العصيان لله.
٤٥ - (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)
قوله: {يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا} يحذر إبراهيم أباه الضال ناصحا له ومشفقا عليه: لئن متّ على الكفر فلسوف يمسك من الله عذاب أليم (فتكون للشيطان وليا) أي تكون بكفرك وعصيانك لله، مواليا للشيطان وقريبا له في النار.
٤٦ - (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)
قوله: (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) الاستفهام للإنكار والتوبيخ - (راغب) مرفوع بالابتداء، و (أنت) مرفوع براغب، ارتفاع الفاعل بفعله - والفاعل ههنا سد مسد خبر المبتدأ - كأن نقول: أذاهب أخوك - فيكون ذاهب، مرفوعا بالابتداء، وأخوك سد مسدّ الخبر ٢٤.
والمعنى: أترغب يا إبراهيم عن عبادة آلهتي الأصنام إلى عبادة غيرها (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا) لئن لم تمسك عن شتم الأصنام وذكرها بالسوء لأرجمنك بالشتم والسب، أو القول القبيح، أو بالضرب بالحجارة - (واهجرني مليا) (مليا) ظرف زمان منصوب، أي اعتزلني زمانا طويلا.
٤٧ - (قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)
قوله: (قال سلام عليك سأستغفر لك ربي) (سلام) مرفوع على أنه مبتدأ - والجار والمجرور في موضع رفع خبر - لقد قابل إبراهيم أباه بالرفق والملاطفة بقوله: (سلام عليك) - وذلك سلام المتاركة والتوديع وليس التحية.
أما السلام على الكفار ففيه خلاف وتفصيل، خلاصته أن في ذلك قولين: أحدهما: عدم بدء الكافر بالسلام - وذلك للخبر: " لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام " وهو حديث صحيح.
والقول الثاني: جواز بدئه بالسلام - لما روي في الصحيحين عن أسامة بن زيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول - وفي المجلس عبد الله بن رواحة فسلم عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - " - فالحديث الأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء - والثاني يجوّزه - وما يمكن الخروج به في مثل هذا التعارض أن المشركين إذا استبانت مودتهم وظهر فيهم اللين وحسن الأدب وطيب التعامل، وكان في ملاطفتهم وتكريمهم والرفق بهم ما يرغبهم في المسلمين وفي دينهم، فلا بأس على المار بهم أن يبدأهم بالسلام، أما إن كانوا من العتاة الغلاظ كالمنافقين والماكرين والمتربصين الذين بدت البغضاء من أفواههم، فما يغني التسليم عليهم ولا حاجة للمسلمين في مثل هذا التسليم الخائر المتهافت.
قوله: (سأستغفر لك ربي) سأعود الله لك بالمغفرة والستر والإحسان عسى أن تفيء إلى الحق والصواب (إنه كان بي حفيا) من الحفاوة وهي المبالغة في الإكرام والإلطاف ٢٥، أي أن الله لطيف بي يجيب دعوتي.
٤٨ - (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)

قوله: (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي) أعتزلكم، من الاعتزال وهو التنحي والمجانبة بعيدا؛ أي أفارقكم وأجتنبكم وما تعبدون من أصنام وصور لا تغني ولا تنفع - وأعبد ربي وحده لا شريك له، عسى ألا أشقى بدعائه سبحانه، بل الله يعطيني ما سألته.

٤٩ - (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

قوله: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا} (وكلا)، مفعول أول لجعلنا - و (نبيا)، مفعول ثان؛ أي بعد أن تنحى إبراهيم عن المشركين وابتعد عنهم وعن أصنامهم وشركهم جزيناه خير ما يجزاه المؤمن من عطايا الدنيا وهو الولد الصالح - فكيف بالولد إذ كان نبينا؟ إن هذا لهو خير الجزاء والعطاء؛ فقد وهب الله لإبراهيم ولده إسحاق؛ ثم من بعده يعقوب نافلة، لتقرّ بهما عينه ويجد فيهما أنسه وسكينته (وكلا جعلنا نبيا) كلاهما نبي مرسل من ربه - لا جرم أن هذا خير إكرام يمتن الله به على رسوله وخليله إبراهيم؛ إذ وهبه ولدين كريمين، في ذريتهما النبوة الميمونة والرسل الكرام.

٥٠ - (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

قوله: {ووهبنا له من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا} وهبهم الله من رحمته النبوة والصلاح والذرية الكريمة وأورثهم الذكر الطيب والثناء الحسن، لجميع أهل الأديان السماوية يثنون عليهم ويمتدحونهم امتداحا ٢٦.

٥١ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا)

قوله تعالى: {واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا (٥١) وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا (٥٢) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا (٥٣)} أي قُصَّ عليهم يا محمد من القرآن خبر موسى كليم الله (إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا) (مخلصا) بفتح اللام؛ أي كان موسى مختارا، اختاره الله واصطفاه ليكون رسولا نبيا؛ إذ كان من المرسلين العظام أولي العزم الذين اصطفاهم الله على سائر الخلق والنبيين.

٥٢ - (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)

قوله: (وناديناه من جانب الطور الأيمن) (الطور)، جبل بين مدين ومصر - و (الأيمن) يعني اليمين؛ أي يمين موسى - وكان ذلك لدى إقباله من مدين إلى مصر حين ذهب يبغي جذوة من نار رآها مشتعلة - وحينئذ كلمه ربه تكليما وهذه مناداته له.

قوله: (وقربناه نجيا) (نجيا)؟ حال منصوب - والنجي معناه المناجي، من المناجاة والاستسرار ٢٧؛ أي جعلناه قريب المنزلة والمكانة - وهو تقريب تشريف وتكريم.

٥٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)

قوله: {ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا} لقد استجاب الله دعاء كليمه موسى؛ إذ سأله متضرعا (واجعل لي وزيرا من أهلي) فأكرمه الله خير إكرام ومنّ عليه من رحمته وفضله أن وهب له نبوة أخيه هارون، يستأنس به ويكون له عونا وسندا.

٥٤ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا)

قوله: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا (٥٤) وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا (٥٥) واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا (٥٦) ورفعناه مكانا عليا (٥٧)} أي قص عليهم يا محمد من القرآن خبر النبي الكريم والرسول العظيم إسماعيل عليه السلام، وهو الذبيح، أبو العرب ابن إبراهيم الخليل؛ فقد ذكره الله ههنا ثناء عليه وإكراما له لما كان يتجلى فيه من حميد الخصال والأخلاق - ومن أظهرها صدق الوعد؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام بارا صادقا وفيا بوعده - وهذه واحدة من شيم المؤمنين الكرام؛ إذ يوفون بعهودهم ووعودهم فيصدقون ولا ينثنون عن الوفاء؛ فإنه لا يخلف الناس ما وعدهم به إلا الفاسقون والكذابون والمنافقون - وخُلف الوعد آفة خلقية ذميمة ومرض شخصي قبيح يتلبس به كل ضعيف خائر، بل إنه علامة من علامات النفاق والمنافقين - علامة مشينة تتجافى عنها طبائع المؤمنين الذين يظلون دوام حياتهم صادقين أوفياء لا يكذبون ولا يخونون ولا يراءون - وكان عليه الصلاة والسلام (رسولا نبيا) فقد أرسله الله إلى جرهم مبلغا وهاديا ونذيرا.

٥٥ - (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)
قوله: {وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا} المراد بأهله ههنا أمته - وقيل: جرهم أو عشيرته، والأول أظهر؛ فقد كان عليه السلام يدعو الناس إلى دين التوحيد ويأمرهم بالصلاة والزكاة - وقد ذكرهما هنا لأهميتهما البالغة - فهما عماد كل دين - وكان عليه السلام عند ربه رضيا صالحا بما تجلى فيه من الخلال الحسنة وتمام الطاعة لله.
٥٦ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)
قوله: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا} أي قص عليهم خبر رسول الله إدريس - وهو أول نبي في ذرية آدم؛ فقد أثنى الله عليه في الآية لبالغ صدقه.
٥٧ - (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)
وقد رفعه الله مكانا عليا، بما أعطاه من شرف النبوة وعالي الدرجة في الجنة ٢٨.
٥٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)
قوله تعالى: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيئين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا} الإشارة (أولئك) تعود إلى النبيين المذكورين في هذه السورة من زكريا إلى إدريس - وقوله: (من ذرية آدم) المراد به إدريس وحده - وقوله: (وممن حملنا مع نوح) يراد به إبراهيم وحده - وقوله: (ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل) يراد به موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم؛ لأن مريم من ذرية يعقوب.
وبذلك كان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم.
قوله: (وممن هدينا واجتبينا) أي ومن جملة من هديناه إلى الحق واخترناه للنبوة (وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) (سجدا وبكيا) منصوبان على الحال - و (بكيا)، جمع باكٍ ٢٩.
هؤلاء المصطفون الأخيار، والصالحون الأبرار كانوا أهل خشوع وورع وإنابة وهم لفرط خشيتهم لله وتعلق قلوبهم بجلاله العظيم، إذ تتلى عليهم آيات من كتاب الله يسقطون ساجدين باكين مستذكرين عظمة الرحمن في نفوسهم، وخاشعين مما يجدونه في آيات الله من ساطع الأدلة وظاهر البراهين.
وإذا ذكر الخشوع بسبب التلاوة لآيات الله ذكرنا آيات القرآن المجيد - هذا الكتاب المتفرد في طابعه وأسلوبه وطريقة نظمه للعبارات والكلمات وما يجلله من روعة الإيقاع وحلاوة النغم، لا جرم أنه في غاية الجمال والجلال؛ إذ ينفذ إلى القلوب والأذهان ليفيض عليها من شآبيب النداوة والحلاوة ما يثير فيها مزيجا عجيبا من الإحساس بالحبور والورع والبهر والذعر ٣٠.
٥٩ - (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)
قوله تعالى: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا (٥٩) إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا (٦٠) جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا (٦١) لا يسمعون فيها لغوا ولا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا (٦٢) تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا (٦٣)} بعد أن ذكر الأبرار من نبيين وصديقين وصالحين، شرع في ذكر صنف آخر من الناس جاءوا عقب أولئك الأولين الأبرار - لكن هؤلاء صنف مغاير من الأشقياء والخاسرين الذين باءوا بالهلاك وسوء المصير في الآخرة - وهم المراد بهم في قوله (فخلف من بعدهم خلف) والخلف بسكون اللام وهم القرن بعد القرن - يقال: هؤلاء خلف سوء ٣١ فقد (أضاعوا الصلاة) واختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة في الآية - فقد قيل: المراد إضاعة أوقاتها وعدم القيام بحقوقها من تمام الأداء والخشوع - وقيل: المراد بإضاعتها، تركها بالكلية - وهذا أنسب للسياق؛ فإن

الآية تتضمن تعريضا بصنف فاسق مغاير للمؤمنين السابقين فهم جيل التفريط من الأمم الغافلة على مرّ الزمن، والتي أدبرت عن طاعة الله وجمحت في ابتغاء الشهوات جموح الخاسرين الشاردين عن الهدى والرشاد - ولا يضيّع الصلاة ويبتغي الشهوات بكل سبب أو وسيلة محظورة أو مشروعة إلا الخاسرون الهلكى الذين آثروا الدنيا على الآخرة واستعاضوا عن الطاعات بالشهوات على اختلاف صورها وضروبها.

قوله: (فسوف يلقون غيا) الغي معناه الخيبة والخسران - وقيل: واد في جهنم يصير إليه الغاوون الخاسرون الذين ضيعوا الصلاة واتبعوا الشهوات - وهذا تعزيز للقول بأن المراد بتضييع الصلاة هو تركها كليا.

٦٠ - (إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)

قوله: (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) استثنى التائبين عن تضييع الصلاة واتباع الشهوات؛ فإنهم إن آمنوا وصدقوا وتابوا إلى ربهم وعملوا الصالحات، فهؤلاء صائرون إلى الجنة (ولا يظلمون شيئا) أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا بل يضاعف لهم الجزاء أضعافا.

٦١ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)

قوله: (جنات عدنٍ التي وعد الرحمن عباده بالغيب) (جنات)، منصوب على البدل من الجنة في قوله: (يدخلون الجنة) ٣٢ والعدن، بمعنى الإقامة؛ فهي دار خلود وديمومة لا تحويل عنها ولا مبارحة، قد وعدها الله عباده المؤمنين التائبين (بالغيب) أي وعدهم بها وهي غائبة عنهم؛ إذ آمنوا بها ولم يروها، وهذه آية الإخلاص والتصديق المبادر بعيدا عن اللجاجة والجدل والالتواء - فاستحقوا بذلك جنات عدن لتكون لهم خير جزاء ومقام.

قوله: (إنه كان وعده مأتيا) ذلك تأكيد من الله بأن ما وعد به المؤمنين التائبين آت إليهم لا محالة، أو أنهم هم صائرون إليه فمجازون به.

٦٢ - (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

قوله: (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما) اللغو، ما لا يعتد به من الكلام ولا يحصل منه على فائدة - أو هو الفحش والباطل والكذب وفضول الكلام - قال ابن عباس: اللغو ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى فلا يسمع أهل الجنة شيئا من ذلك - إنما يسمعون السلام وهو قوله: (إلا سلاما) استثناء منقطع - والمراد سلام بعض المؤمنين على بعض أو سلام الملائكة على أهل الجنة - أو يراد به الكلام السالم من العيب والنقص - قوله: (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ليس في الجنة بكرة وعشي؛ لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار - وإنما ورد النص ههنا على عادة أهل التنعم في هذه الدنيا - والمراد دوام الرزق والنعمة.

٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)

قوله: }تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا{ اسم الإشارة، (تلك)، مبتدأ، وخبره (الجنة) - وفي هذه الآية يعظم الله شأن الجنة التي يجعلها عاقبة لأعمال المتقين من عباد الله ٣٣.

٦٤ - (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

قوله تعالى: }وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا (٦٤) رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا (٦٥){.

في سبب نزول الآية روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجبريل: " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ " فنزلت الآية: (وما نتنزل إلا بأمر ربك) و (نتنزل)، بالتشديد، وهو يقتضي العمل في مهلة - وقيل: لا تقتضيها - قال الزمخشري في ذلك: التنزل على معنيين: النزول على مهل، والنزول على الإطلاق؛ أي بمعنى أنزل، فلا يقتضي المهل أو التدريج، والراجح الأول وهو النزول على مهل - وهذا خبر من الله عن جبريل عليه السلام، أو حكاية قوله وهو أننا ننزل في الأحايين وقتا غِبّ ٣٤ وقت، ولا ننزل إلا بأمر الله في الأوقات التي يقدرها تبعا لحكمته ومشيئته - ووقتا غب وقت؛ أي ينزل في وقت ويغيب عنه في آخر - قوله: (له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) وهذا حكاية عن قول جبريل أيضا، وهو أن الله محيط بالزمان كله، فله ما أمامنا من الزمان

المستقبل، وما وراءنا من الزمان الماضي، وله ما بين الزمانين جميعا - فلا ننزل في زمان من الأزمنة إلا بأمر الله وتقديره وحكمته.

قوله: (وما كان ربك نسيا) النسي، في اللغة، الكثير النسيان بكسر النون - أو هو النسيان بفتح النون ٣٥، والمراد به هنا: أن الله سبحانه وتعالى لا يجوز عليه النسيان والغفلة؛ فلا يدع أنبياءه، أو يتخلى عنهم.

٦٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

قوله: (رب السماوات والأرض وما بينهما) (رب)، بدل من (ربك) وقيل: خبر لمبتدأ - والتقدير: هو رب السماوات والأرض ٣٦؛ أي أن الله خالق ذلك كله - وهو سبحانه المتصرف في الكون بلا معقب ولا ولي ولا نديد - فما ينبغي لجلاله العظيم وقدرته البالغة أن يغفل أو ينسى أو يترك أولياءه وأنبياءه المقربين.

قوله: (فاعبده واصطبر لعبادته) الفاء لترتيب ما بعدها من مقتضى العبادة والصبر على ما قبلها من كون الله رب كل شيء في السماوات والأرض وما بينهما، أو من كونه غير تارك ولا ناس أولياءه المقربين، فمن أجل ذلك كله أعبد الله بتمام طاعته والخضوع لجلاله والإذعان لجنابه - واصبر على مشاق عبادته ولا تعبأ مما يقوله الكافرون من إبطاء الوحي عليك؛ فإن الله لطيف بك وهو يرعاك ويكتب لك الأمان والسلامة والتوفيق.

قوله: (هل تعلم له سميا) الاستفهام يفيد النفي - والسمي، بمعنى المضاهي والمثيل - وقيل: الشريك في اسم الله العظيم - والمراد: نفي العلم بأن يسمى أحد باسم الله، غير الله سبحانه؛ فهؤلاء المشركون بالرغم من غلوهم وإسرافهم في تقديس الأصنام وتعظيمها؛ فإنهم لا يسمون الصنم باسم الله أو فيما يختص بالله تعالى، كالاسم الجليل وهو الله أو الرحمن ٣٧.

٦٦ - (وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

قوله تعالى: {ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أخرج حيا (٦٦) أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا (٦٧) فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا (٦٨) ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا (٦٩) ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا (٧٠)} ذكر أنها نزلت في أبي بن خلف - وقيل: في الوليد بن المغيرة - وقيل: في أبي جهل - والظاهر أنها في الكافرين المكذبين بالبعث؛ فإنهم مرتابون في قيام الساعة؛ فالإنسان ههنا في الآية يراد به جنس الكافرين الجاحدين من الناس كأمثال أبيّ والوليد وأبي جهل وغيرهم من كبراء المشركين يكذبون بقيام الساعة ويعجبون من القول ببعث الإنسان بعد الموت وهو قوله: (أإذا مت لسوف أخرج حيا) الهمزة، للإنكار، واللام للابتداء والتوكيد وإذا، ظرفية (أخرج)، حال مؤكدة ٣٨، والمراد من الإخراج، ما كان من الأرض أو من حال الفناء - هكذا يقول الكافرون المكذبون، وهم يجحدون في استعباد وسخرية- بعثهم من الموت والفناء إلى الدار الآخرة للحساب والجزاء.

٦٧ - (أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)

قوله: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} الهمزة للإنكار والتوبيخ، مؤخرة عن حرف العطف تقديرا وهو قول أكثر المفسرين وبذلك توسطت الهمزة ههنا بين المعطوف وحرف العطف ٣٩ - والمعنى: أيقول الإنسان قوله من جحود البعث ولا يتذكر أو يتدبر حال النشأة الأولى؛ إذ لم يكن موجودا - وبعبارة أخرى: فقد خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئا، أفلا يخلقه الله بعد أن كان شيئا - فلئن خلقه من عدم نخلْقه من رفات وهو شيء، أهون وأسهل.

٦٨ - (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

قوله: {فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} هذا القسم من الله بإضافة المقسم به وهو الله إلى رسوله تتضمن تعظيما له (ص) - والواو العاطفة بمعنى مع؛ أي يقسم الله بجلاله العظيم أن الكافرين المكذبين بيوم القيامة محشورون مع الشياطين الذين أضلوهم وأغووهم؛ فما من شقي جاحد من البشر إلا ويجاء به يوم القيامة مقرونا مع شيطان بسلسلة (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) (جثيا)، منصوب على الحال - جمع جاث؛ أي بارك على الرُكب - يقال: جثا يجثو جُثوّا وجثيا؛ وهم الجالسون على ركبهم

٤٠، وعن ابن عباس، بمعنى: جماعات جماعات، جمع جثوة وهو المجوع من التراب والحجارة.
والمقصود أن الكافرين مع الشياطين يساقون يوم القيامة إلى جهنم جاثين؛ أي باركين حول جهنم، زيادة في التعذيب والتنكيل والإيلام من هول المنظر - فيا لله لهذا الحال البئيس المرعب الذي تتوقد فيه النار، والكافرون والشياطين باركون على ركبهم وهم مقيدون مقرونون في السلاسل من حول جهنم في تأججها الرهيب واستعارها المضطرم! ٤١
هكذا يمكث هؤلاء الأخسرون في هذا التعس من المنظر الفظيع جثيا وقتا من الزمان- الله أعلم كم يستمر- قبل أن يكبكبوا في النار! نسأل الله العافية والستر والنجاة.
٦٩ - (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)
قوله: {ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا} شيعة بمعنى جماعة تشايعت على الضلال والباطل - أو تبعت الغواة وأهل الباطل وشايعتهم في كفرهم؛ أي لنخرجن من هؤلاء المذكورين (أيهم أشد على الرحمن عتيا) أيهم مبتدأ، وخبره أشد - وقيل في إعراب ذلك وجوه أخرى، و (عتيا) منصوب على التمييز - والتقدير: أيهم هو عتوه أشد - والعتو، معناه الاستكبار ومجاوزة الحد ٤٢ - والمراد: أن يخرج الله من كل طائفة أو جماعة أشدهم نبوًا عن طاعة الله واجتراء على عصيانه؛ أي أن الله يفرز يوم القيامة من بين الغاوين والضالين من أمم الكفر أعصاهم فأعصاهم حتى إذا اجتمعوا جميعا طرحهم في النار، فيقدم أولاهم بالعذاب فأَوْلاهم.
٧٠ - (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا)
قوله: {ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا} المراد بالذين هم أولى بالصلي، المنتزعون، باعتبار الترتيب؛ فالله تعالى أعلم بمن هو أحق من هؤلاء بدخول النار ٤٣.
٧١ - (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا)
قوله تعالى: {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا (٧١) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا (٧٢)} الواو في قوله: (وإن منكم) عاطفة لهذه الجملة على ما قبلها - (وإن)، نافية بمعنى ما - والمخاطب في الآية عموم الناس؛ أي وما منكم من أحد إلا هو داخل النار - وبذلك لسوف يدخل النار سائر العباد سواء فيهم المؤمن والكافر - أما المؤمن: فإن النار لا تضره بل الله منجيه - وفي هذا أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم " ومما يذكر في هذا المعنى: أن الخلق جميعهم يمرون على الصراط على جهنم، وهو مثل حد السيف - وإنهم يمرون بسرعة تتفاوت بتفاوت أعمالهم؛ فأكثرهم خشية لله أصلحهم أعمالا؛ إذ يمرون كالبرق الخاطف - ومن دونهم في الإيمان وصالح الأعمال يمرون على نحو أبطأ، والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم.
أما الجاحدون والخاسرون والمتمردون على الله والمنافقون؛ فإنهم يهوون من فوق الصراط إلى وسط جهنم ليبوؤا بالويل والعذاب الشديد.
وله: (كان على ربك حتما مقضيا) الحتم، أي القضاء والوجوب - حتم بمعنى أوجب - و (مقضيا)، أي قضى بوقوعه دون تخلف - وقيل: كان قسما واجبا.
٧٢ - (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)
قوله: {م ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} (ثم)، عاطفة (ننجي)، بالتشديد من التنجية؛ أي ينجي الله المؤمنين الذين اتقوا الشرك والعصيان؛ فينقذهم من النار بجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم الصالحة التي فعلوها في الدنيا - ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود من المشركين والخاسرين - وهذا هو قوله: (ونذر الظالمين فيها جثيا) (جثيا) مفعول ثان للفعل (نذر) - وقيل: حال، إن كانت " نذر " بمعنى نخليهم - و (جثيا) جمع جاث - والمراد بهم أنهم قاعدون في النار على ركبهم، أو باركون عليها بروكا زيادة في التنكيل والإيلام ٤٤.
٧٣ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

قوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (٧٣) وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا (٧٤)} إذا تليت على المشركين المكذبين آيات من الله تنعى عليهم إجرامهم وظلمهم وتحذرهم عاقبة تكذيبهم وما ينتظرهم من سوء المصير؛ إذ الهوان والتنكيل والخزي والإياس (بينات) منصوب على الحال - يعني آيات ظاهرات الإعجاز والكمال لهبط دونهن كل نظم أو كلام، وفيهن من قوة البرهان والحجة وسطوع اليقين ما يدحض كل باطل أو ظلم يفتريه هؤلاء المكذبون الخاسرون (قال الذين كفروا للذين آمنوا) أي قال الكافرون للمؤمنين في تمرد وعتو واستكبار، مستنكفين عن آيات الله وما فيها من تنديد بشركهم وضلالهم (أي الفريقين) يريدون فريق المؤمنين وفريق الكافرين (خير مقاما) بفتح الميم؛ أي مكانا ومنزلا - وهم بذلك يفتخرون بمنازلهم العالية ومساكنهم الجميلة المهيبة ذات الأثاث الفاخر والرياش الوثير - يفاخرون بمثل هذا الحطام الفاني على المؤمنين في بيوتهم الصغيرة والبسيطة لقلة حيلتهم وضعف قدرتهم (وأحسن نديا) أي مجلسا يجتمع فيه القوم للمشاورة، وكذلك يفاخرون هنا بسعة مجالسهم التي يجتمع فيها رؤوس القوم للتداول والتشاور - بما يشير إلى كثرة أتباعهم وأعوانهم، وأنهم أكثر أنصارا ومريدين من المؤمنين؛ إذ كانوا قلة ومستضعفين لا يشايعهم في دينهم وعقيدتهم غير قلة من الصابرين الثابتين على الحق، وسط الظلام وفي وجه الطغاة والمجرمين - بمثل ذلك كان المشركون السفهاء يفاخرون ويتباهون بحسن منازلهم ومساكنهم المزينة بأصناف الأثاث والفُرُش، وبمجالسهم التي يتلاقى فيها الكبراء والقادة من رؤوس الكفر وصناديد الباطل - يفاخرون ويتباهون بمثل هاتيك المظاهر السخيفة التي لا تعدل في ميزان الحقيقة والمنطق مثقال ذرة، ولا تساوي في ميزان الله وقسطاسه المستقيم وزن قطمير - فماذا تغني هذه المظاهر والمفاخر والزينات ما دامت صائرة إلى الزوال المحتوم والفناء القريب؟ إنما تغني الباقيات الصالحات من عقيدة صحيحة سليمة وخشوع لله وازع، وعمل حسن نافع.

٧٤ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا)

قوله: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا} (كم)، الخبرية مفعول مقدم للفعل (أهلكنا) ٤٥ - والرئي، معناه المنظر - والقرن، أهل كل زمان - و (أثاثا) أي أثاث البيت من الفرش ونحوها.

وهذا بيان من الله لمن يتعظ أو يتدبر كيلا تغره الحياة الدنيا ولا تفتنه المباهج والزينة والمتاع الزائل.

الله يبين لعباده أنه ما أكثر الأمم الغابرة، والسابقين من الأجيال والأقوام الذين استغرقوا في الشهوات والزينة وأخذوا من خيرات الدنيا بحظوظ كثيرة؛ فكانوا خيرا من هؤلاء المشركين في فاخر أثاثهم وحسن بيوتهم ومساكنهم وجمال هيئاتهم ومناظرهم؛ لقد كانوا أحسن من هؤلاء المشركين فيما استمتعوا به من زينة الحياة الدنيا وما فيها من وجوه النعم الزائلة، ثم صاروا بعد ذلك كله إلى الهلاك والفناء فأصبحت ديارهم خاوية، وباتوا جميعا أثرا بعد عين - فماذا تغني الزينة والأموال والمفاخر المادية والشهوات بعد المصير المحقق المنتظر الذي يؤول إليه كل حي، وهو الموت والفناء ٤٦.

٧٥ - (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)

قوله تعالى: (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا (٧٥) ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا (٧٦)}.

يقول الله جل وعلا لهؤلاء الضالين السفهاء الذين يفاخرون بزينة الدنيا وحظوظها من الأموال والأثاث وحسن المظهر (فليمدد له الرحمن مدا) جواب للشرط (قل من كان في الضلالة) والمدّ، والإمداد بمعنى الإمهال والبسط ٤٧.

والطلب أو الأمر بالمد هنا، في معنى الخبر؛ أي من كفر بالله وضل عن سبيله وغفل عن الآخرة وتلهى بمتاع الحياة الدنيا، مد الله له وأمهله بطول العمر واستدرجه بالعطاء من الخيرات والزينة (حتى إذا رأوا ما يوعدون) أي لا يزالون غافلين عن الحق، لاهين في التفاخر بالحظوظ الدنيوية إلى أن يعاينوا الموعود رأي العين وهو (إما العذاب وإما الساعة) (إما)، حرف عطف ومن معانيها التفصيل - وكلا (العذاب) و (الساعة) منصوب على أنه بدل من قوله: (ما يوعدون) المنصوبة بقوله: (رأوا) وتفصيل للموعود ٤٨، والمراد

بالعذاب، ما كان في الدنيا من قهرهم واستيلاء المؤمنين عليهم - والمراد بالساعة، أن تغشاهم غاشية القيامة بما فيها من نكال وأهوال.
قوله: (فسيعملون من هو شر مكانا) (فسيعملون) جواب للشرط - والمعنى: أن هؤلاء المكذبين الغافلين إذا عاينوا ما يوعدون من عذاب الدنيا والآخرة، عندئذ سيعلمون من مِن الفريقين أسوأ حظا وشر مصيرا وعاقبة (وأضعف جندا) فقد كان المشركون التائهون اللاهون يتفاخرون بكثرة العشيرة والأنصار والرؤساء والوجهاء، فإذا عاينوا الموت ثم سيقوا بعد ذلك إلى الحشر والحساب أيقنوا أنهم الأخسرون وأنهم لن تنفعهم زينتهم وأموالهم وأعوانهم من الرؤساء والزعماء - وأيقنوا أيضا أن هذه الفئة المؤمنة التي كانت في الدنيا موضع استسخارهم وتحقيرهم، هم الآن الأعلون وهم الفائزون الآمنون.
٧٦ - (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)
قوله: (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) جملة مستأنفة سيقت للإخبار بذلك، وهو بيان حال المهتدين عقب بيان حال الضالين - وقيل: عطف على (فليمدد) وضعّف كثيرون كونه عطفا ٤٩ - المعنى: أنه يزيد المؤمنين المهتدين يقينا وثباتا على الاهتداء بما يبينه لهم من الآيات والحجج.
قوله: (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) (والباقيات الصالحات) تتناول كل وجوه العمل الصالح مما فيه طاعة لله وخشوع لجلاله العظيم، ما بين صلوات وزكوات وصيام ونُسُك وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وبر بالوالدين، وإحسان لعباد الله، فذلك كله خير مما يتفاخر به الغافلون (وخير مردا) أي خير عاقبة؛ لأن عمل الخير وفعل الطاعات يصير بالعاملين المؤمنين إلى النجاة والفوز بالرضوان والجنة ٥٠.
٧٧ - (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا)
قوله تعالى: }أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا (٧٧) أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا (٧٨) كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا (٧٩) ونرثه ما يقول ويأتينا فردا (٨٠)}.
في سبب نزول هذه الآية روى الإمام أحمد بسنده عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلا قينا وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه منه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد - فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حتى تموت ثم تبعث - قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك - فأنزل الله الآية ٥١.
الهمزة في قوله: (أفرأيت) للتعجب من قول هذا الكافر العاتي، والفاء عطف يفيد التعقيب؛ أي أنظرت فرأيت كفران هذا الجاحد بآياتنا وما فيها من بينات ودلائل، ثم قال على سبيل التهكم الوقح والاستكبار الفاجر: (لأوتين مالا وولدا) جواب قسم؛ أي والله لأوتين إذا بعثت مالا وولدا - سبحانك اللهم هذا اجتراء شنيع يتقوله هذا المغالي في الجحود والكفر؛ إذ يقسم أنه سيؤتي المال والولد في الآخرة.
٧٨ - (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)
قوله: (أطلع الغيب) الهمزة للاستفهام، والغيب مفعول به ٥٢؛ أي أنَظَر في علم الله الذي استأثر به، والمكنون في اللوح المحفوظ حتى زعم أنه يؤتيه الله في الآخرة مالا وولدا - وهذا رد لزعم هذا الفاجر الكذاب - قوله: (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) أي أعلم الغيب أم أنه أوتي من الله عهدا وموثقا بأن ذلك كائن.
٧٩ - (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا)
قوله: (كلا سنكتب ما يقول) (كلا)، حرف ردع وزجر لهذا المستكبر العاتي عما زعمه من بالغ الظلم والافتراء - وهو تنبيه على ضلاله وتصوره الخاطئ - وسنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله: (ونمد له من العذاب مدا) أي نزيد له في العذاب ونضاعفه له مضاعفة، جزاء مقالته الشنيعة (ونرثه ما يقول) أي نسلبه بموته ما عنده من المال والولد أخذ الوارث ما يرثه عقب الموت.
قوله: (ويأتينا فردا) (فردا) حال منصوب؛ أي يأتي يوم القيامة بغير مال ولا ولد؛ بل يأتي حسيرا ذليلا فردا لا يصحبه إلا ما قدم من شنيع الأعمال والأقوال ٥٣.
٨٠ - (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

قوله تعالى: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢) ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا (٨٤)}.

اتخذ الكافرون آلهة مختلفة من دون الله ليتعززوا ويتقووا بهم فيكونوا لهم أنصارا وأعوانا وشفعاء - وهكذا يتصور المشركون الضالون في كل زمان، إذ يعبدون آلهة مختلفة مصطنعة - سواء في ذلك الأصنام أو الطغاة والمتجبرون من طواغيت البشر الذين يعبدهم المغفلون الخائرون من الناس يبتغون عندهم العزة والعون.

٨١ - (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)

قوله: (كلا سيكفرون بعبادتهم) (كلا)، ردع وزجر لهم عن هذا التصور السفيه الضال، وإنكار لما طمعوا به أو حسبوا أنه حاصل لهم - فلسوف تحاجهم هذه الآلهة المزعومة يوم القيامة ويكذبونهم تكذيبا ويجحدون أنهم عبدوهم - أو أن المشركين هم الذين ينكرون أن يكونوا قد عبدوا هذه الآلهة المفتراة.

قوله: (ويكونوا عليهم ضدا) الضد يطلق للواحد والجمع - وقيل للواحد فقط - والضد على الجمع معناه الخصماء الأشداء في الخصام - أو المخالفون، وقيل: قرباء يلعن بعضهم بعضا - والمراد ضد العز، وهو الذل والهوان؛ أي يكونون عليهم يوم القيامة ذلا لا عزا لهم.

٨٢ - (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

قوله: {ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا} أي قيضنا الشياطين للمشركين والعصاة فسلطناهم عليهم ليؤزوهم أزا، والأز، والأزيز والهز والاستفزاز بمعنى التهييج وشدة الإزعاج ٥٤؛ أي خلينا بين الشياطين والمشركين ليغروهم ويهيجوهم على المعاصي وذلك بأنواع الوساوس وضروب الإغواء والإضلال - والمراد تعجيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أقاويل الكافرين وتماديهم في الفسق والباطل، بعد جلاء الحق وظهور اليقين.

وكذلك يؤز الشياطين على اختلاف أسمائهم سواء فيهم شياطين الجن أو شياطين الإنس من طواغيت البشر ورؤوس الكفر فيهم -إن هؤلاء جميعا يؤزون الناس أو يغرونهم ويهيجونهم بصنع المعاصي بكل صورها وألوانها بدءا بالكفر الفاضح الصراح وما دون ذلك من مختلف الآثام والذنوب.

٨٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)

قوله: {فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا} يخاطب الله نبيه (ص) أن لا يعجل على هؤلاء المشركين بالهلاك لكي تستريحوا من شرورهم، وحتى نتطهر الأرض من فسادهم وأدناسهم؛ فإنهم لم يبق لهم من حياتهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة وكل ما هو آت قريب ٥٥.

٨٤ - (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)

قوله تعالى: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا (٨٥) ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا (٨٦) لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا (٨٧)} (يوم)، منصوب بمضمر وهو اذكر، أو احذر - و (وفدا) منصوب على الحال - وكذا (وردا) - والوفد، معناه الجماعة الوافدون - يقال: وفد يفد وفدا ووفادة - أي قدم على سبيل التكريم له، والورد، اسم للجماعة العطاش الواردين للماء ٥٦.

وذلك كائن يوم القيامة، إذ تشتد فيه الخطوب والبلايا فيخرج المؤمنون المتقون من قبورهم ليواجهوا الحساب فيساقون إلى الرحمن وفدا - والوفادة مشعرة بالإكرام والتبجيل حيث شبهوا في سوقهم معززين محترمين، بوفود الملوك، إذ يقدمون عليهم وهم تحفّهم ظواهر التكريم والتقدير.

٨٥ - (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا)

قوله: {ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا} أي يساق الظالمون والجاحدون والعصاة إلى النار عطاشا زيادة في التنكيل بهم.

٨٦ - (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا)

قوله: {لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا} جملة (لا يملكون) في محل نصب على الحال - وقيل مستأنفة سيقت

للإخبار بذلك ٥٧ - وضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين، أي سائر العباد - وقيل: للمتقين - وقيل للمجرمين من أهل الإيمان وأهل الكفر - والمعنى: أن العباد لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم إلا من كان منهم مستأهلا أن يشفع، وهذا هو المراد بالعهد - وفسره ابن عباس بشهادة لا إله إلا الله مع الإذعان لله بالخضوع والطاعة والاستسلام لأمره سبحانه - وقيل: المراد بالعهد الأمر والإذن - وعلى هذا لا يشفع إلا من كان مأمورا بالشفاعة مأذونا فيها ٥٨.

٨٧ - (لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

قوله تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا (٨٨) لقد جئتم شيئا إذا (٨٩) تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا (٩٠) أن دعوا للرحمان ولدا (٩١) وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولدا (٩٢) إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا (٩٣) لقد أحصاهم وعدهم عدا (٩٤) وكلهم آتيه يوم القيامة فردا (٩٥)} تحكي هذه الآية مقالة المشركين الذين افتروا على الله الكذب فزعموا أن له ولدا، فهي بذلك تعم سائر المشركين الذين تلبسوا بهذا الذنب الفظيع، كالقائلين إن عزيرا ابن الله، أو عيسى ابن مريم ابن الله، أو الذين قالوا إن الملائكة بنات الله تعالى - فتعالى الله وتنزه عن هذا البهتان الشنيع.

٨٨ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا)

قوله: {لقد جئتم شيئا إدّا} الإد، بكسر الهمزة في قراءة الأكثرين - وقيل بفتحها - والإد معناه الأمر العظيم النكير الذي يثير التعجب - يقال: أده الأمر، وأدني يؤدني إدا - أي أثقلني ٥٩ - وذلك تنديد بالغ بهذه المقالة الظالمة النكراء - تنديد مريع ومخوف يدل عليه أحرف هذه الكلمة المصطفاة ذات الإيقاع المؤثر الذي يصخ الآذان والأذهان والأعصاب صخا - وهو إشعار بفظاعة المنكر الذي قارفه فريق من البشر التائه وهم يفترون على الله الكذب، إذ يقولون: (اتخذ الله ولدا).

٨٩ - (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)

قوله: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} (يتفطرن)، من التفطر وهو التشقق - والفطر، بفتح الفاء وهو الشق وجمعه فطور ٦٠ - على أن هذه الجملة مستأنفة لتبين فظاعة الإشراك على هذه الصورة حتى لتكاد السماوات تتشقق فرقا من عظمة الله - وكذا الأرض تكاد تنشق، أي تتصدع أو يأتي عليها الخسف غضبا من هول هذه الكلمة وفظاعة نكرها - وكذا الجبال تكاد تخرّ فتسقط وتتهدم لهول هذا الإفراط في الظلم - وهدا، مصدر في موضع الحال - أي مهدودة وقيل: مفعول من أجله أي؛ لأنها تهد ٦١.

٩٠ - (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)

قوله: {أن دعوا للرحمن ولدا} (دعوا) بمعنى سموا - ومصدر (أن دعوا) في محل نصب مفعول لأجله - والتقدير: تخرّ أو تهد لدعائهم - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الموجب لذلك دعاؤهم ٦٢.

٩١ - (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)

قوله: {وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولدا} (ينبغي)، مضارع انبغى، وبغى بمعنى طلب - ومصدر (أن يتخذ) فاعله ٦٣ والمعنى: أنه لا يتأتى ولا يليق به سبحانه اتخاذ الولد، ولاستحالة ذلك في نفسه، لأنه يقتضي الجزئية وتدعو إليه الحاجة والله سبحانه منزه عن ذلك.

٩٢ - (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا)

قوله: {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} أي ما من أحد من الثقلين أو الملائكة إلا يأتي ربه (عبدا) حال منصوب، يعني يأتيه يوم القيامة خاضعا ذليلا منقادا، ومقرا بالعبودية الكاملة لله - وذلك إشعار بسقم القول الظالم باتخاذ الله الولد - فسائر الخلق سواء فيهم عزير، أو عيسى، أو الملائكة، أو غيرهم، لابد آتون يوم القيامة بين يدي الله خائفين وجلين مستسلمين.

٩٣ - (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا)

قوله: {لقد أحصاهم وعدهم عدا} لقد حصرهم بعلمه وأحاط بهم فلا يخرج أحد منهم من قبضة علمه وقدرته (وعدهم عدا) أي

حصرهم بالعدد، فعدّ أنفاسهم وأعمالهم فما يفوت أحد منهم يومئذ.
٩٤ - (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)
قوله: {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} (فردا) منصوب على الحال، أي كل واحد من هؤلاء يأتي ربه يوم القيامة منفردا ليس معه مال ولا نصير ولا مجير - وإنما تبعث الخلائق إلى الحشر وعرصات الساعة وهم يحفهم الذل والذعر والاضطراب واليأس - ويغيب، إذ ذاك كل الشفعاء والرؤساء والمزعومين جميعا ٦٤.
٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)
وقوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (٩٦) فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا (٩٧) وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (٩٨)} هذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتقين الذين عملوا بطاعة ربهم فعبدوه والتزموا شرعه وأحكام دينه - لقد وعد الله هؤلاء أن يحدث لهم محبة في قلوب الناس في هذه الدنيا.
وهذه حقيقة تدرك بإمعان النظر وهي أن المؤمنين الصادقين العاملين بشريعة الله والذين يتجلى فيهم خلق القرآن وتحقق فيهم خصال الإسلام، لا جرم أنهم محبوبون في الناس.
والإنسان السوي في فطرته وطبعه إنما يجد نفسه محبا للصالحين بما يتجلى فيهم من حميد الخلال - فلا يكره المؤمنين الصادقين أو يبغضهم إلا الماكرون الأشقياء أو المناكيد التاعسون من أولي الطبائع السقيمة والقلوب الغلف.
٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)
قوله: (فإنما يسرناه بلسانك) أي أنزلنا عليك القرآن سهلا ميسرا (بلسانك) أي بلغتك، اللسان العربي المبين (وتنذر به قوما لدا) واللد، جمع ألد - وهو الشديد في الخصومة بالباطل - أي تخوّف بالقرآن كل لدود خصيم مكابر يجادل في دين الله بغير حق.
٩٧ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)
قوله: (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) هذا إنذار من الله يخوف به الجاحدين المعاندين بالإهلاك مثلما أهلك كثيرا من الأمم السابقة الضالة جزاء عصيانهم وتمردهم - ثم قال عقب إنذارهم وتخويفهم بالعذاب: (هل تحس منهم من أحد) الاستفهام في معنى النفي، أي لا تشعر بأحد منهم (أو تسمع لهم ركزا) الركز، الصوت الخفي ٦٥، أي بعد أن أتى عليهم الهلاك لم يبق منهم أحد، ولم يسمع لهم أيما صوت - فذهبوا وذهبت آثارهم وصاروا نسيا منسيا ٦٦.

٢٠ سورة طه:

سورة طه:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية - وفيها من جليل المواعظ والأخبار والعبر ما فيه مزدجر - هذه هي سورة طه - السورة العجيبة بألفاظها وأنغامها وأجراسها وحروفها ذات الإيقاع الثاقب والرنين المجلجل، الذي يثير الوجدان ويشْدَهُ الحس والمشاعر شدْها - فلا عجب أن يتلوها عربي بليغ كعمر بن الخطاب حتى تلج في الصميم من جنانه المرهف فتهزه هزا، وتميط عن فطرته السليمة الكريمة أغشية صفاقا من الغفلة والنسيان فيبادر الإعلان عن إسلامه والتحرر من كابوس الجاهلية وأوهامها وطغيانها - لقد أسلم عمر لما مست شغاف قلبه وعميق وجدانه أسرار هذا النظم الباهر، بكلماته الفريدة المصطفاة، ونفحاته الندية الخفية، وإشراقه الساطع المؤنس، وأسلوبه المميز العذب، الذي يزجي بكامل الدليل على أن هذا القرآن معجز، وأنه من لدن خالق العالمين.
ونجزم في يقين أنه لو خُلِّي بين البشرية وهذا الكتاب الحكيم لاستحوذ عليها هذا أيما استحواذ، ولملك عليها القلوب والمشاعر والألباب، ولسيق الناس جميعا إلى منهج الله، منهج الإسلام - لكن البشرية قد تنكب عن هذا القرآن لما حيل بينها وبينه من أغشية كثاف من

المعوقات المصطنعة والحملات الخبيثة التي برعت في ترسيخها خطط الحاقدين والمتربصين من شياطين البشر أعداء القرآن.
ونمضي في تفسير هذه السورة لنبين أنها تقص علينا قصة نبي الله موسى وقيادته لبني إسرائيل ببسط وتفصيل - فتقص علينا الآيات ولادة هذا النبي الكريم وتنجيته وقومه من ظلم فرعون وجنوده في قتل الأطفال من بني إسرائيل، ثم رحلته إلى مدين هاربا من كيد فرعون، فلبث بضع سنين ثم كرّ راجعا إلى مصر مارا بالواد المقدس طوى حيث أنزل الله عليه الوحي وأمره وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون لدعوته إلى عبادة الله وحده وإرسال بني إسرائيل من ظلمه وبطشه - لكن فرعون عصى وتولى مستكبرا.
وتقص السورة أيضا باقتضاب خبر آدم عليه السلام وتكريمه بسجود الملائكة له باستثناء إبليس - هذا الكائن اللعين الشرير الذي أضل من ذرية آدم خلْقا عظيما.
إلى غير ذلك من الأخبار والقصص والمشاهد - وذلك كله في أسلوب رباني عجيب ومؤثر ليس له في النظم كله نظير.
١ - (طه)
بسم الله الرحمن الرحيم
{طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى (٤) الرحمن على العرش استوى (٥) له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (٦) وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى (٧) الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى (٨)}.
(طه)، من الحروف المقطعة التي مرّ ذكرها في كثير من السور، مثل: (الم) (المص)، (الر) - وقيل: (طه)، يعني يا رجل
٢ - (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى)
{ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى} فقد ذُكر أن فريقا من رؤساء المشركين كأبي جهل والنضر بن الحارث وغيرهما قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنك لتشقى بترك ديننا، فنزلت الآية - والمعنى: ليس الأمر كما زعم هؤلاء المشركون المبطلون - فما يكون القرآن سببا لتعب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشقائه؛ بل أنزله الله إليه ليطمئن به قلبه وتسعد به روحه سعادة لا يدركها الجاهلون والغافلون والمفرطون - فما يعبأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن يبلغ الناس رسالة ربه ولا يبخعُ نفسه من فرط التأسف على كفرهم أو شدة التحسر من إعراضهم وعتوهم.
٣ - (إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)
فما أنزل الله إليه القرآن {إلا تذكرة لمن يخشى} (تذكرة) منصوب على الاستثناء المنقطع؛ أي ما أنزلنا القرآن لشقائك لكن تذكيرا لمن يخشى الله فيتأثر بالموعظة ويستجيب لنداء الحق، وينصت مدّكرا لكلام الله النافذ إلى القلوب.
٤ - (تَنْزِيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى)
قوله: {تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى} (تنزيلا) مصدر لفعل محذوف وتقديره: نزل تنزيلا ممن خلق - وقيل: (تنزيلا)، بدل من تذكرة إذا جعل حالا؛ وقيل غير ذلك؛ فقد أنزل القرآن (ممن خلق الأرض والسماوات العلى) وذكر هذه الصفة من الخلق يراد به تعظيم القرآن وتفخيم شأنه؛ إذ هو منسوب لله الكبير المتعال الذي خلق كل شيء - وفي ذلك تنبيه للعقول لكي تتفكر، وزجر للنفوس عن التشبث بالباطل بكل صوره وأشكاله.
٥ - (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)
قوله: {الرحمن على العرش استوى} (الرحمن)، خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو الرحمن - والعرش بناء كوني هائل ورفيع تحمله الملائكة، ولا يدري بحقيقته ومدى اتساعه وامتداده سوى الله؛ فقد استوى سبحانه على هذا الخلق العظيم، أي استولى - ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات في هذا الكون، دلالة على عظمة الخالق في بالغ قدرته ومطلق إحاطته - وقيل: العرض معناه الملك والسلطان؛ فالله له ملكوت كل شيء - وما من شيء من ملكوته إلا هو في قبضة قدرته وإحاطته.

٦ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)
قوله: }له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى{ الله جل جلاله مالك كل شيء - فما من شيء، عظيم أو صغير في هذا الوجود، الواسع إلا هو مملوك لله سبحانه - وما من شيء حوته السموات والأرض وما بينهما من الخلائق إلا هو مندرج في ملكوت - وكذلك ما (تحت الثرى) توكيد لقوله: (وما في الأرض) أي ما هو في باطن الأرض.
٧ - (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)
قوله: }وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى{ (السر)، ما يسرّه المرء إلى غيره، أو ما حدّث به الإنسان غيره في خفاء - هكذا عرفه ابن عباس - (وأخفى)، منه ما حدث به المرء نفسه ولم يعلمه - وقيل: ما أضمره الإنسان في نفسه مما لم يحدث به غيره - وقيل غير ذلك - فذلك كله في علم الله سواء، أي يستوي عند الله في إحاطته بكل شيء، كل من الجهر وهو الظاهر من منظور أو مسموع، أو السر، أو ما كان أخفى منه.
٨ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)
قوله: }الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى{ ليس لله شريك بل الله وحده الخالق، وإن اختلفت أسماؤه، وذلك ردّ لقول المشركين: إن محمدا ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن - والمراد: اعبدوا الله وحده دون ما سواه من الآلهة، ولله الأسماء الحسنى - والحسنى تأنيث الحسن ١.
٩ - (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)
قوله تعالى: }وهل أتاك حديث موسى (٩) إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى (١٠) فلما أتاها نودي يا موسى (١١) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى (١٤) إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى (١٦){.
الاستفهام في قوله: (وهل أتاك) استفهام إثبات وإيجاب، المقصود منه تقرير الجواب في قلبه، والمعنى: أليس قد أتاك - وقيل: معناه وقد أتاك، وهو قول ابن عباس.
شرع الرحمن جل وعلا في بيان قصة موسى عليه السلام لما ابتدأه الوحي بعد ما قضى الأجل الذي كان بينه وبين صهره شعيب ثم سار بأهله ميمما شطر مصر عقب غياب استمر عشر سنوات، فضل وزوجته الطريق وكان ذلك في ليلة مظلمة شاتية حتى رأى من جانب الجبل نارا فاستأنس بها وذلك هو قوله سبحانه:
١٠ - (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)
(إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا) إذ، ظرف - أي حين رأى نارا قال لأهله: أقيموا في مكانكم فقد (آنست نارا) من الإيناس، والاستئناس وهو رؤية شيء يستأنس به في مثل هذا الظرف الموحش حيث الظلمة والانقطاع والشتاء المنهمر - فقد استأنس موسى بوجدان هذه النار - فرجا أن يأتي أهله بجذوة منها - وهو قوله: (لعلي آتاكم منها بقبس) القبس، شعلة من نار، فقد بنى موسى الأمر على الرجاء وليس القطع، فقد رجا أن يأتي أهله بشعلة من نار (أو أجد على النار هدى) وقد رجا كذلك أن يجد هاديا أو قوما يهدونه الطريق.
١١ - (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى)
قوله: }فلما أتاها نودي يا موسى (١١) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى (١٢){ لما أتى موسى النار ووجدها تتوقد في شجرة ولم يجد عندها أحد، حينئذ ناداه ربه من جهة الشجرة المتوقدة المضيئة - وما نريد هنا أن نطيل في الحديث عن ماهية النداء الذي سمعه موسى أو حقيقته وكيفية حصوله - فإن الطمع في مثل هذه المعلومات غير ذي جدوى - لكن المهم في مثل هذه المسألة أن موسى قد سمع الصوت الرباني الكريم المذهل - الصوت الذي يفيض جلالا ومهابة ورحمة.

١٢ - (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)
إذ يناديه ربه ليبين له أنه الله وليخلع نعليه في هذه البقعة المباركة الطهور - وهو قوله: {فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى} أي الواد المطهر - و (طوى)، اسم علم للوادي وهو بدل منه ٢؛ أي انزعهما فإنك في بقعة مباركة طاهرة، فما ينبغي أن تطأها بنعلين فانزعهما - أو أمره بنزعهما على سبيل التواضع لله والمبالغة في الخضوع له والإحساس بالذل أمام عظمته وجبروته.
١٣ - (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)
قوله: {وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى} بمعنى اصطفيتك للرسالة وتبليغ الناس دعوة الحق، فاستمع لما أوحيه إليك - ومن مقتضى الاستماع سكون الجوارح وحسن الإصغاء بالسمع في اهتمام ووعي وحضور للقلب والعزم على الطاعة والعمل.
١٤ - (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)
قوله: (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) وهذا بيان من الله لكليمه موسى عليه السلام عن أعظم حقيقة يجب عليه أن يقف عليها ويعمل بمقتضاها وهي أن الله واحد لا شريك له، وأنه لا إله غيره، فعليه أن يعبده وحده، وذلك بالخضوع لجلاله والاستسلام لأمره.
قوله: (وأقم الصلاة لذكرى) أي صل لكي تذكرني؛ فإن الصلاة تشمل على الأذكار - أو لأجل أن أذكر بالثناء، وقيل: إذا نسيت الصلاة فتذكرت، صل، وهذا الراجح، لما روي في الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا لك " وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها " والأمر هنا للوجوب - وهذا دليل على وجوب القضاء على كل من النائم أو الساهي، والغافل، سواء كانت الصلاة الفائتة كثيرة أو قليلة - وقد ذهب إلى ذلك عامة العلماء - وحكي خلاف ذلك مما هو شاذ لا يُعتد به؛ فقد ذكر أن ما زاد على خمس صلوات لا يجب أن يقضى - وهو قول بغير دليل فلا ينظر إليه.
وعلى هذا لو فاتته صلاة يجب أن يقضيها - وقيل: يقضيها على الترتيب فلو ترك الترتيب في قضائها جاز عند الإمام الشافعي - ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة؛ فإن كان ثمة سعة في الوقت استحب أن يبدأ بالصلاة الفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز، أما إن ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة؛ فإنه يفوته الوقت، وجب أن يبدأ بصلاة الوقت كيلا تفوت - ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع في صلاة الوقت؛ أتمها ثم قضى الفائتة، ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها من غير وجوب - هذا جمله مذهب الشافعية في المسألة ٣.
أما المالكية: فجملة مذهبهم أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى؛ فإنه يبدأ بالتي نسيها إذا كان خمس صلوات فأدنى - وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها - ويشبه هذا مذهب الحنفية والثوري والليث، إلا الحنفية قالوا: الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت فإن خشي فوات الوقت بدأ بها - أما إن زاد على صلاة يوم وليلة؛ لم يجب الترتيب.
واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: (وأقم الصلاة لذكرى) أي لتذكرها - واللام بمعنى عند - فيكون المعنى: أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها - وذلك يقتضي رعاية الترتيب - واستدلوا كذلك بالخبر: " من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها " والفاء للترتيب، واستدلوا من الأثر بما رواه جابر بن عبد الله قال: " جاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " وأنا والله ما صليتها بعد " قال: فنزل إلى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس، ثم صلى المغرب بعدها - وهذا يدل على لزوم البداءة بالفائتة قبل الحاضرة.
أما ترك الصلاة عمدا، فيجب فيه القضاء على التارك وإن كان عاصيا وعليه التوبة والاستغفار عند كل قضاء وهو قول الجمهور.
والفرق بين المتعمد والناسي والنائم، وهو حطّ الإثم عن الأخيرين، أما الأول وهو المتعمد فهو آثم فلزمه الاستغفار - لكن الجميع يلزمهم القضاء لقوله تعالى: (وأقيموا الصلاة) وذلك من غير فرق بين أن يكون ذلك في وقتها أو بعدها - ولئن ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي وكان ذلك في حقهما واجبا مع أنهما غير آثمين؛ فإن العامد أولى بوجوب القضاء - ٤

١٥ - (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)
قوله: {إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى} أي أن الساعة جائية أو قائمة لا محالة (أكاد أخفيها) أي لا أظهر عليها أحدا غيري، فقد أخفاه الله من الملائكة الأطهار والنبيين المقربين - وقيل: أخفيها، من الأضداد، أي أظهرها أو أسترها عن العباد لما في تعمية وقتها عنهم من الحكمة - فعند المجهول يشيع الوجل ويزداد السعي من أجل النجاة - وذلك (لتجزى كل نفس بما تسعى) أي لتثاب كل نفس بما قدمته من خير وشر أو طاعة ومعصية.
١٦ - (فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)
قوله: (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه) أي لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة من يكذب بها واتبع هوى نفسه وخالف أمر ربه (فتردى) في موضع نصب على أنه جواب النهي بالفاء - أي فتهلك ٥.
١٧ - (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)
قوله تعالى: {وما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (١٨)} ما، في موضع رفع، مبتدأ - و (تلك)، خبره - (بيمينك)، في موضع نصب على الحال ٦ والسؤال، للتنبيه على وقع المعجزة أو لتوطين نفسه كيلا يتزعزع من هول المنظر لدى انقلاب العصا حية.
١٨ - (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)
فأجاب موسى عليه السلام في أدب بالغ وخضوع جم (هي عصاي أتوكؤا عليها) أي أعتمد عليها، وأتحامل عليها في المشي والوقوف، ومنه الاتكاء ٧.
قوله: (وأهش بها على غنمي) أهش بها أي أخبط الورق بالعصا ليتحات ٨ والمراد " أن موسى عليه السلام كان يضرب بعصاه أغصان الشجر ليسقط منها الورق فتأكله الغنم.
قوله: (ولى فيها مآرب أخرى) (مآرب)، جمع ومفرده مأربة وهي الحاجة، أي كانت لموسى في عصاه منافع وحوائج أخرى غير الاعتماد عليها - ومن منافعه وحوائجه المستفادة من العصا: أن يصلها بالرشا فيخرج بها الماء من البئر - وإذا أصابته شمس غرزها في الأرض وألقى عليها شيئا فاستظل به - وكذلك فإنه يقتل بها ما يجده من هوام الأرض، أو يقاتل بها السباع عن الغنم وغير ذلك من الحاجات والفوائد التي أجملها القول الرباني العذب بإيقاعه المستلذ ونغمه الذي تشتهيه النفس وهو قوله: (ولي فيها مآرب أخرى).
١٩ - (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى)
قوله تعالى: {قال ألقها يا موسى (١٩) فألقاها فإذا هي حية تسعى (٢٠) قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (٢١) واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى (٢٣) اذهب إلى فرعون إنه طغى (٢٤) قال رب اشرح لي صدري (٢٥) ويسر لي أمري (٢٦) واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي (٢٨) واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥)}.
قال الله لكليمه موسى: (ألقها) أي اطرحها، والمراد العصا.
٢٠ - (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)
{فإذا هي حية تسعى} انقلبت العصا في الحال حية عظيمة تمشي بسرعة وتضطرب كالجان - قال ابن عباس: انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه موسى يبتلع كل شيء خافه وولى منه مدبرا - ثم نودي موسى بعد ذلك ليأخذها فلا تؤذيه بأمر الله - وهو قوله: {خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى}
٢١ - (قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى)
{خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} شرح الله صدر موسى عليه السلام وأذهب عنه ما أصابه من خوف لرؤية الحية العظيمة،

فلما أمسكها بيده تنفيذا لأمر الله له بذلك، أعادها الله عصا كما كانت من قبل - وقيل: بلغ موسى من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيتها وهو قوله سبحانه: (سنعيدها سيرتها الأولى) (سيرتها) منصوب بالفعل (سنعيدها) بتقدير حذف حرف جر - وتقديره: سنعيدها إلى سيرتها الأولى، لحذف حرف الجر فاتصل الفعل به فنصبه.
و (سيرتها)، من السيرة وهي الحالة التي يكون عليها الإنسان، سواء كانت فطرية أو مكتسبة - وهي في الأصل كما قال الزمخشري من السير كالركبة من الركوب - يقال: سار فلان سيرة حسنة - ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة - والمعنى: سوف نردها عصا كما كانت - وقيل: أراه الله ذلك عند المخاطبة توطينا لنفسه كيلا يفزع منها إذا انقلبت حية عند فرعون - وهذه معجزة عظيمة أوتيها موسى تثبيتا لقلبه وتنبيها لفرعون لعله يخشى أو يتدبر أو يزدجر.
٢٢ - (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)
ثم أتاه الله معجزة أخرى وذلك في قوله: {واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى} (إلى جناحك) يعني إلى جنبك، أي تحت عضدك - وجناحا الإنسان جنباه - والأصل المستعار منه، جناحا الطائر وقد سميا جناحين، لأنه يجنحهما، أي يمليهما عند الطيران - والمعنى - ضم يدك أو أدخلها تحت عضدك (تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى) أي تخرج يدك ولها شعاع كشعاع الشمس من غير مرض كبرص ونحوه - و (بيضاء)، منصوب على الحال من ضمير تخرج - و (آية)، منصوب على الحال بدلا من (بيضاء) ٩ فهذه معجزة ثانية أوتيها موسى غير معجزة العصا، زيادة في تثبيت فؤاده وتصديقه أمام الطاغية فرعون.
٢٣ - (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)
قوله: {لنريك من آياتنا الكبرى} ذلك تعليل لما أوتيه موسى من الآيات الكبرى كانفلاق العصا وإخراج اليد من الجنب أو من تحت العضد لتصبح كأنما هي مصباح يضيء - والمعنى: فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى.
٢٤ - (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)
قوله: {اذهب إلى فرعون إنه طغى} أمره ربه أن يذهب إلى فرعون مبلغا وناصحا وهاديا، فقد طغى، أي أفرط في العصيان والاستكبار ومجاوزة الحد، إذ خرج عن حد العبودية إلى دعوى الربوبية - وهذه مغالاة فظيعة وإفراط بالغ في النكر لا يبلغه إلا الأخسرون من رؤوس الشياطين في هذه الدنيا من أمثال الطاغية فرعون.
عندئذ أحس موسى بثقل الوجيبة الهائلة التي أنيطت به - وهي أمانة التبليغ لدعوة الله وإيصالها لهذا الشقي الكنود، المغالي في الجحود والكفران - فدعا ربه أن يشرح له صدره، أي يجعله واسعا فيحتمل المشاق ورديء الأخلاق من هذا الظالم المتجبر - ودعا ربه أيضا أن يفتح ما بلسانه من عجمة أو رتة في الكلام كانت فيه من الجمرة التي وضعها على لسانه في صباه - وذلك لما أخذ موسى لحية فرعون ولطمه بشدة وهو صغير، فأراد فرعون أن يقتله، فقالت له امرأته الصالحة الفضلى آسيا: إنه صغير لا يعقل فأتت بطستين، في أحدهما جمر، وفي الآخر جوهر - فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة منها فوضعها في فيه على لسانه فكانت هذه الرتة ١٠
٢٥ - (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)
وذلك كله مقتضى قوله سبحانه: {قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي} أي يفهموا ما أقوله لهم - فلا تبقى لهم بعد ذلك أيما معذرة أو احتجاج - وقد استجاب الله دعاء موسى - إذ شرح صدره لدعوة الحق والنور.
٢٦ - (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)
وجعلها له سهلة وميسورة، ومكنه من السعي والعمل في يسر لتبليغها دون تردد أو تثاقل.
٢٧ - (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي)
وأزال الرتة التي أصابت لسانه - وقيل: أزيلت الرتة كلها من لسان لقوله تعالى: (قد أوتيت سؤلك) وقيل: لم تزل العقدة كلها بل بقي في لسانه شيء من الاستمساك بدليل قوله تعالى حكاية عن فرعون (ولا يكاد يبين).
٢٩ - (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي)

قوله: }واجعل لي وزيرا من أهلي{ الوزير، أو الموازر من الوزر، أي الثقل - سمي بذلك، لأنه يحمل عن السلطان وزره، أي ثقله - أو من الموازرة وهي المعاونة ١١، فقد سأل موسى ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءا (معينا) ويتكلم عنه بما لا يفصح به لسانه وهو قوله لربه:
٣٠ - (هَارُونَ أَخِي)
}هارون أخي{ (هارون) منصوب على البدل من قوله: (وزيرا) وهو اسم غير منصرف للعجمة والتعريف، و (أخي)، عطف بيان - أو بدل ١٢ وقيل: نبئ هارون ساعتئذ - وهو قول ابن عباس - وقيل: أنفع أخ لأخيه في الدنيا، موسى حين سأل لأخيه هارون النبوة فاستجاب له ربه.
وخير ما يؤتاه السلطان في حياته الوزير الصالح، يكون له خير معوان في الملمات والنائبات، فينصح له ويشير عليه بما هو أنفع وأصلح - وفي ذلك أخرج البخاري بسنده أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما بعث من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصمه الله ".
٣١ - (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)
قوله: }اشدد به أزري{ الأزر، القوة، وآزره، أي عاونه - فقد دعا ربه أن يشدّ بأخيه هارون أزره، أي ظهره - وقد كان هارون أكبر من موسى بسنة وقيل أكثر - وكان أفصح منه لسانا وقد مات قبله بثلاث سنين.
٣٢ - (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)
قوله: }وأشركه في أمري{ أي اجعله شريكي في أمر النبوة والرسالة، فيكون معي مبلغا لدعوتك ومبشرا بدينك.
٣٣ - (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)
}كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا{ (كثيرا)، منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف - وتقديره نسبحك تسبيحا كثيرا ١٣ والمعنى: لكي نعظمك بالتسبيح كثيرا - أو ننزهك عما لا يليق به.
٣٤ - (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)
وكذلك نذكرك باللسان وفي القلب ذكرا كثيرا.
٣٥ - (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)
}إنك كنت بنا بصيرا{ إنك يا ربنا عليم بخفايا الأمور، وأنت عليم بنا وبأحوالنا، فأعنا على حمل هذه الرسالة، ويسر لنا سبيل الدعوة لها ١٤.
٣٦ - (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)
قوله تعالى: }قال قد أوتيت سؤلك يا موسى (٣٦) ولقد مننا عليك مرة خرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه
أخرى (٣٧) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (٣٩) إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى (٤٠) واصطنعتك لنفسي (٤١) اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى (٤٢){.
أجابه ربه (أوتيت سؤلك يا موسى) السؤال، أو السول بغير همز، ما يسأله الإنسان - أو هو الطلبة، بكسر الطاء، أي أعطيت ما سألته وهو شرح الصدر وتيسير الأمر وغير ذلك مما سأله ربه.
٣٧ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)
قوله: }ولقد مننا عليك مرة أخرى{ أي أنعمنا وتفضلنا عليك يا موسى كرة أخرى قبل هذه - وكان الله قد حفظه من شر الأعداء، إذ كانوا يذبحون البنين من بني إسرائيل.

٣٨ - (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)
ثم شرع يبين منته عليه وذلك في قوله: {إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى} إذ ظرف للفعل مننا - والمراد بالوحي هنا الإلهام؛ أي ألهمها الله إلهاما حين ولدت موسى.
٣٩ - (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)
ثم فسر إلهامه لها بقوله: (أن اقذفيه في التابوت) أي ألقيه في التابوت (فاقذفيه في اليم) أي اطرحيه في البحر، والمراد به هنا نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) الساحل، المنطقة من اليابس التي تجاور بحرا أو مسطحا مائيا كبيرا ١٥ - وهذا جزاء أخرج مخرج الأمر كأن اليمّ هو المأمور - ففعلت أم موسى ذلك؛ إذ طرحته في النهر، فساقه الله في ذلك النهر إلى دار فرعون - فبينما هو جالس مع زوجته آسية؛ إذ بالتابوت، فأمر به فأخرج فإذا صبي صبيح الوجه، مليح الناس وأعظمهم ملاحة فأحبه حبا شديدا وذلك هو قوله: (وألقيت عليك محبة مني) لقد أسبغ الله على موسى وهو رضيع فيضا من الجمال وحسن المنظر - فما كان من أحد يراه إلا أحبه - قوله: (ولتصنع على عيني) أي لتربى على مرأى مني فإني حافظك وراعيك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به.
٤٠ - (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)
قوله: (إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله) (إذ يمشي)، بدل من قوله: (إذ أوحينا) وأخته اسمها مريم؛ فقد خرجت تتعرف خبر أخيها موسى، وكان موسى في رعاية فرعون وقد طلبت له آسية المراضع لكنه أبى كل مرضعة حتى أشارت عليهم أخته أن ثمة امرأة ترضعه وهي ذات لبن، تريد بذلك أمها - فلما جاءته قبل ثديها فارتضع منها - وذلك من فضل الله وتوفيقه ومنته على موسى؛ إذ أعاده إلى أمه وهم لا يدرون بحقيقة الأمر - وهو قوله سبحانه: (فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) رد الله على أم موسى ولدها لتقر عينها بلقائه ولا تحزن على فراقه - وكان من لطف الله أيضا أن تنتفع أم موسى ومعها ولدها بطيب العيش في دار فرعون مع الأمن من القتل الذي كان يخشى منه على عامة الصغار البنين من بني إسرائيل، فكانا كلاهما كأنهما من أهل بيت فرعون من حيث الأمان والراحة والسعة ورغد العيش.
قوله: (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم) وهذه منة أخرى من منن الله على عبده موسى؛ إذ قتل قبطيا كافرا من آل فرعون وكان قتله خطأ، فنجاه الله من الغم وهو القتل قصاصا، وأذهب عنه الخوف من طغيان فرعون أن يظفر به فمكنه الله من الخروج فرارا بنفسه إلى مدين.
قوله: (وفتناك فتونا) أي بلوناك وامتحناك بأشياء قبل أن تبعث في الناس - ومنها ولادته في زمن كان فرعون يذبح فيه الأطفال، ثم إلقاؤه في اليم، ثم تناوله الجمرة ليضعها فوق لسانه، ثم قتله القبطي من آل فرعون، ثم خروجه إلى مدين خائفا يترقب - قوله: (فلبثت سنين في أهل مدين) مدين: هي بلدة شعيب عليه السلام، إلى الشمال من مصر على عدة مراحل؛ فقد لبث عنده موسى عشر سنين وهي أتم الأجلين وقيل: لبث عنده ثماني وعشرين سنة، منها عشر مهر امرأته - والبقية أقامها عند شعيب حتى ولد له أولاد.
قوله: (ثم جئت على قدر يا موسى) أي جئت على موعد قدرنا لك أن تجيء فيه - أو جئت في الوقت الذي أردنا أن نرسلك فيه.
٤١ - (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)
قوله: {واصطنعتك لنفسي} أي اصطفيتك لوحيي ورسالتي، وهو قول ابن عباس.
٤٢ - (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)
قوله: (اذهب أنت وأخوك بآياتي) أمره الله وأخاه هارون أن يبادرا إلى الذهاب بآيات الله، وهي معجزاته التي أنزلها على موسى، وحذرهما من الإبطاء والتقصير وهو قوله: (ولا تنيا في ذكري) تنيا من الونى وهو الضعف والفتور والكلال والإعياء نقول: توانى في حاجته؛ فهو وان؛ أي مقصر ١٦، فقد نهاهما الله عن الضعف والفتور في حمل الرسالة وتبليغها للقوم ١٧.

٤٣ - (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)
قوله تعالى: {اذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤)} كرر الأمر بالذهاب للتأكيد - على أن الأمر الأول مطلق فهو يقتضي الذهاب إلى الناس عامة - وأما الثاني فهو مقيد، إذ يقتضي الذهاب إلى فرعون خاصة، لأنه (طغى) أي جاوز الحد، إذ عتا وتجبر وغالى في العصيان والكفران بادعائه الإلهية - ولهذا أمرهما الله أن يذهبا إلى هذا الظالم المتجبر.
٤٤ - (فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)
فيقولا: (له قولا لينا) أي يخاطباه بالرفق واللين - ومن مقتضى القول اللين: حسن الخطاب، ولطف الحديث والأسلوب - وذلك في رفق وتواضع ورحمة عسى أن يجد من قلب المخاطب رقة وميلا للحق وخشية من ذلك - خصوصا إن كان المخاطب ذا مكانة أو وجاهة وشرف في قومه - لا جرم أن فظاظة القول وفحش الخطاب يثير في نفس المخاطب النفور والغضب وركوب الحماقة والعناد.
٤٥ - (قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)
قوله تعالى: {قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٤٥) قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى (٤٦) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى (٤٧) إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى (٤٨)} سأل موسى وهارون ربهما أن يربط على قلبيهما وأن يحوطهما بكلاءته وتوفيقه في وجه هذا الطاغوت المتجبر لما يعلمان فيه من فداحة العتو والطغيان، فخاطبا ربهما شاكيين إليه مستعينين به (ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (يفرط علينا)، أي يعجل في عقوبتنا (أو أن يطغى) أي يجاوز الحد في العدوان علينا أو الإساءة إلينا.
لكن الله جل جلاله، نصير المستضعفين، ومجير المظلومين، ومجيب المكروبين والمضطرين من عباده العاملين المخلصين؛ فهو يدفع عنهم الشر والضر، وهو يُبطل كيد المجرمين المتربصين من الحاقدين والماكرين.
٤٦ - (قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)
قال لهما قوله الرباني الودود الذي يملأ عليهما القلب شرحا وراحة وطمأنينة ويثير فيهما بالغ الحماسة والنشاط ورباطة الجأش {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} لقد أذهب الله عنهما عادية من عوادي الأذى والتثبيط وهي عادية الخوف والجزع فاطمأنا وسكنا ثم أخبرهما ربهما أنه معهما فهو أقرب إليهما من أنفسهما إنه أقرب إليهما من حبل الوريد - فهو بذلك ناصرهما و مؤيدهما و مثبتهما - وهو كذلك يسمع كلام المتخاطبين من الفريقين، فريق الهدى، موسى وأخيه، وفريق الضلال، فرعون وجنوده - وهو سبحانه يرى ما يجري ويدور بينهما.
٤٧ - (فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)
وفي ذلك من تسليتهما وتثبيتهما ما لا يخفى قوله: {فآتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل} أمرهما ربهما أن يأتيا فرعون فيبلغاه أنهما مرسلان إليه من الله، وأن يقولا له: {فأرسل معنا بني إسرائيل ولا نعذبهم} أي خل عنهم وأطلقهم من الأسر والإستعباد {ولا نعذبهم} فقد كان فرعون يسوم بني إسرائيل العذاب، إذ كان يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم و يستعملهم للسخرة والشقاء، ويكلفهم من العمل في الطين و بناء المدائن ما لا يطاق.
قوله: {قد جئناك بآية من ربك} أي جئناك بدلالة أو برهان على صدق ما نقوله و ندعوك إليه - ولما سألهم فرعون عن هذه الدلالة أراهم موسى العصا و اليد، إذ صارت العصا حية عظيمة تسعى - وخرجت يده من جيبه بيضاء تتلألأ لسطوع شعاعها وضوئها.
قوله: {والسلام على من اتبع الهدى} أي من اتبع هدى الله وسار على طريقه المستقيم سلم من عذاب الله في الدارين - دار الدنيا حيث البلاء والهلاك جزاء المعصية والجحد - ثم دار الآخرة حيث العذاب الواصب الذي لا ينقطع، إذ الخلود في النار وبئس القرار.
٤٨ - (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)
قوله: {إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى} ذلك إخبار من الله يخوف به فرعون لعله يخشع أو يتذكر أو يزدجر، وهو أن عذابه في الدنيا والآخرة لاحق بمن كذب برسله، وأعرض عن الإيمان بدينه، وما جاء به النبيون المبعوثون من رب العالمين ١.

٤٩ - (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)
قوله تعالى: {قال فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠) قال فما بال القرون الأولى (٥١) قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى (٥٢)}.
قال فرعون مخاطبا موسى خطاب الجاحد المستنكر، إذ {قال فمن ربكما يا موسى} يعني من هو ربكما الذي تدعواني إليه؟ فإني لا أعرفه - وهو فوق جحوده هذا يزعم لنفسه الإلهية –والعياذ بالله- فأجابه الله حكاية عن نبيه موسى و هارون.
٥٠ - (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)
{قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} أي الله الذي خص كل مخلوق بهيئته و صورته، فأعطاه شكله الذي يناسب ما أنيط به من منفعة، فقد أعطى العين الهيئة التي تناسب الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذا الأنف و اليد والرجل ما يناسب كل واحد من هذه الأعضاء من الهيئة أو الشكل ليطابق المنفعة المنوطة به {ثم هدى} أي أعطى كل شيء صورته و صلاحه و هداه لما يصلحه.
٥١ - (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى)
قوله: {قال فما بال القرون الأولى} سأل فرعون موسى وأخاه هارون عن الأمم الخالية و الأجيال الغابرة الذين مضوا ولم يؤمنوا برسالات النبيين فما حالهم وما مصيرهم.
٥٢ - (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى)
فأجابه موسى: {علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى} {علمها}، مرفوع، لأنه مبتدأ - وخبره: {في كتاب} - وعند ربي ظرف متعلق بالخبر - وقيل: {عند ربي}، في موضع نصب على الحال - والمعنى: أن أعمال الأمم السابقة محفوظة عند الله مضبوطة عليهم، و علمها في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ - فالله لا ينسى و لا يغفل ولا يفوته من علم الكون شيء، صغيرا أو كبيرا.
٥٣ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)
قوله تعالى: {الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣) كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤) منها خلقناكم و فيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥)} {الذي}، صفة لقوله: {ربي} أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الذي - أو منصوب بمضمر تقديره: أعني - والمهد، ما يبسط و يفرش، أي جعل لكم الأرض مفترشا و قرارا تستقرون عليها، وجعل لكم فيها طرقا تسلكونها فتقضون حوائجكم وأشياءكم في سهولة ويسر، وأنزل عليكم من السماء مطرا فيه غيثكم ورزقكم، إذ يخرج الله لكم به أصنافا مختلفة من أنواع النبات - و {شتى}، فعله: شت شتا، أي تفرق - والاسم الشتات - وشيء شتيت، أي متفرق، وقوم شتى، أي متفرقون - وشتان بينهما، أي بعد.
٥٤ - (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى)
قوله: {كلوا وارعوا أنعامكم} أمر إباحة - أي سخر الله لكم نعمة الأرض والماء والحرث لتأكلوا من النبات والزرع، ولترعى أنعامكم الكلأ - وذلكم فضل من ربكم امتنّ به عليكم لتكونوا في حياتكم راغدين مستقرين.
قوله: (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) أي أصحاب العقول والنهى، جمع نهية، بضم النون - وسميت النهى، لأنها تنهى عن فعل القبائح. والمعنى: أنه فيما ذكر من النعم والمنن لَأعظَم الحجج والبراهين التي يستند إليها أولو العقول النيرة للوقوف على قدرة الله الخالق الصانع.
٥٥ - (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)
قوله: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} ذلك تقدير رباني عظيم كتبه الله على آدم وذريته من بعده، وهو خلْقهم من تراب - والمراد هنا آدم أبو البشر (وفيها نعيدكم) أي إذا متم تدفنون في الأرض، وهذه عودتهم إليهم (ومنها نخرجكم) أي نخرجكم من قبوركم التي في الأرض للبعث والحساب (تارة أخرى) مرة أخرى - يعني: أخرجناكم من الأرض ونخرجكم منها بعد الموت مرة

ثانية.
وفي هذه الحقيقة المريعة، من بالغ العظة ما يديم التذكر في نفس الإنسان - التذكر الذي لا ينقطع والذي يظل يخالج النفس والذهن؛ ليظل الإنسان مشدود اليقظة والتنبه، مستديم الحرص والازدجار، وهو يذكر أنه صائر لا محالة إلى نهايته المحتومة المنتظرة في التراب حيث الرقدة الطويلة إلى يوم البعث.
٥٦ - (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)
قوله تعالى: {ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧) فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨) قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى (٥٩) فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى (٦٠) قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى (٦١)} لقد عاين فرعون الحجج والآيات كلها وهي تسع، هي: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل.
لقد رأى ذلك كله فرعون معاينة لا إخبار - ومع ذلك جحد الآيات وأعرض مستكبرا معاندا - وذلك هو ديدن الطغاة المتجبرين من طواغيت البشر وأشرارهم؛ فإنهم لا يؤمنون البتة، ولو رأوا كل آية أو برهان - وذلك لفرط عنادهم وعتوهم، وشدة استمساكهم وتشبثهم بمنافع الدنيا من جاه وسلطان ومال.
٥٧ - (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)
ثم قال فرعون لموسى جاحدا مكابرا - {أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى} وبذلك يزعم فرعون أن ما جاء به موسى من الآيات سحر - الهمزة للإنكار؛ أي جئتنا لتوهم الناس أنك نبي مرسل، وأنك آتيهم بمعجزات لكي يؤمنوا ويتبعوك فتكاثرنا بهم وتنقلب علينا فتخرجنا من مملكتنا وأرضنا.
٥٨ - (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى)
قوله: (فلنأتينك بسحر مثله) أي فلنعارضنك بسحر مثل سحر؛ لنبين للناس أنك ساحر، وأن ما أتيتهم به ليس من عند الله (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي وعدا - أو يوما نجتمع فيه (لا نخلفه نحن ولا أنت) أي لا نخلف ذلك الوعد أو الوقت (مكانا سوى) (مكانا)، منصوب على أنه بدل من قوله: (موعدا) و (سوى)، بضم السين وكسرها صفة لمكان ١٨ وهو من الاستواء؛ أي وسطا عدلا بيننا وبينك، أو مكانا مستويا يتبين للناس فيه ما نبينه لهم.
٥٩ - (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)
قوله: (قال موعدكم يوم الزينة) (موعدكم) مبتدأ - وخبره (يوم الزينة) - وهو يوم عيد لهم كانوا فيه يتزينون ويتنزهون ويفرحون - وقيل: يوم النيروز (وأن يحشر الناس ضحى) معطوف على (يوم الزينة) - والتقدير: موعدكم وقت يوم الزينة - وموعدكم وقت حشر الناس (ضحى) أي وقت الضحوة - وضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى، وهي حين تشرق الشمس ١٩ وفي هذا الميعاد يجتمع الناس ليقفوا على الحقيقة بعد أن يحصحص الحق ويزهق الباطل.
٦٠ - (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى)
قوله: {فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى} انصرف فرعون مدبرا من هذا المقام ليجمع كيده وهو مكره وحيله وسحره ثم أتى للميعاد - والمراد أن فرعون جمع السحرة من أهل مصر ليعارضوا الحق الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام - واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون - والناس في ذلك بين مقلّ ومُكثر - فقد قيل: كانوا اثنين وسبعين - وقيل: أربعمائه - وقيل: أربعة عشر ألفا - وقيل: كانوا ثمانين ألفا، وقيل: كانوا أكثر من ذلك، مما لا يخلو من الإسرائيليات - والمقصود أن فرعون جمع سائر السحرة في مصر وكانوا كثرا، ليكيدوا لموسى وما جاءهم به من الآيات والمعجزات.
٦١ - (قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى)
ولما جيء بهم (قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) دعا عليهم موسى بالويل فخاطبهم محذرا: لا تختلقوا الكذب على الله، ولا

تقولوا لما جئت به من المعجزات إنها سحر (فيسحتكم بعذاب) أي يهلككم الله بعذاب من عنده وهو الاستئصال.
قوله: (وقد خاب من افترى) أي هلك وباء بالخيبة والخسران وسوء العاقبة من كذب على الله واختلق من الباطل ما لم يأذن به الله ٢٠.
٦٢ - (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)
قوله تعالى: {فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى (٦٢) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٦٣) فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى (٦٤)} لقد تشاور السحرة فيما بينهم وتجاذبوا أطراف الكلام ليروا رأيهم في أمر موسى وأخيه - وهذه هي النجوى، إذ قالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه.وقيل: النجوى هي قولهم: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما)
٦٣ - (قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)
(إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) (إن)، مخففة من الثقيلة فهي غير عاملة - وقيل: إن، المشددة - وهي بمعنى نعم - وتقدير الآية: نعم هذان لساحران ٢١ - والمعنى: أن السحرة تناجوا فيما بينهم قائلين: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه، أي موسى وهارون، ساحران خبيران بصناعة السحر - وهما إنما يريدان بسحرهما أن يغلباكم في هذا اليوم ليستوليا على البلاد ويخرجاكم من مصر (ويذهبا بطريقتكم المثلى) (المثلى)، مؤنث الأمثل - مثل الفضلى والأفضل ٢٢ والمراد (بطريقتكم المثلى)، سنتكم وشريعتكم الصحيحة المستقيمة - يريدون بذلك صنعة السحر، فقد كانت هذه سببا لتعظيمهم وظهورهم لدى الناس، وكذا جمع المال ليكونوا أهل شرف وكبرياء - فإن ظهر موسى وأخوه عليهم ذهب كيانهم وعزهم وزالت مكانتهم وسطوتهم ببطلان سحرهم.
٦٤ - (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)
قوله: (فأجمعوا كيدكم) أي اجعلوا كيدكم أو مكركم مجمعا عليه، واعزموا على إتيانه ولا تختلفوا (ثم ائتوا صفا) (صفا)، مصدر في موضع الحال ٢٣، أي ائتوا ما جاءكم به موسى مصطفين، لأن ذلك أهيب في أعين الناظرين وقد فاز اليوم من غلب ٢٤.
٦٥ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى)
قوله تعالى: {قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن تكون أول من ألقى (٦٥) قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى (٦٦) فأوجس في نفسه خيفة موسى (٦٧) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (٦٨) وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (٦٩) فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى (٧٠) قال آمنتم له قبل أن آذان لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (٧١)}.
قال السحرة لموسى: إما أن تلقي عصاك قبلنا، أو نحن نلقي ما معنا قبلك وإن، وما بعدها في محل نصب بفعل مضمر، أي اختر إلقاءك أولا أو إلقاءنا - أو في محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا
٦٦ - (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)
فأجابهم موسى (بل ألقوا) أمرهم أن يلقوا ما معهم أولا، حتى يظهر للناس زيفهم وينكشف افتراؤهم وباطلهم وسوء ما يأفكون وأن ما جاءوا به كيد سحرة أشرار (فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ذكر أن السحرة لطخوا حبالهم وعصيهم بالزئبق - وهذه المادة شديدة التمدد بارتفاع الحرارة - فلما ألقيت الحبال والعصي في وهج الشمس الحارقة، إذ الحرارة عالية، تمدد الزئبق تمددا ظاهرا، فاضطربت بتمدده الحبال والعصي وتحركت واهتزت حتى خُيل إلى موسى أن الأرض حيات تسعى على بطونها مسرعة - فكل يخيل للناظرين، إذ ذاك أن هذه حيات تسعى باختيارها وما كان ذلك إلا زيف ساحرين، وحيلة اصطنعها دجاجلة أفاكون ليخدعوا بها الناس طمعا في الحظوة عند فرعون.
٦٧ - (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

قوله: (فاوجس في نفسه خيفة موسى) (أوجس)، من الوجس وهو الصوت الخفي - والواجس معناه الهاجس (وأوجس) أي أضمر ٢٥ و (موسى)، في موضع رفع على أنه فاعل أوجس - و (خيفة)، منصوب؛ لأنه مفعول للفعل أوجس ٢٦.
لقد أحس موسى في نفسه الخوف مما رآه من الحيات المتخيلة والحية واحدة من كبرى الهوام المؤذية التي تضر الإنسان بلدغها المسموم - والإنسان بفطرته البشرية قد جبل على التهيب من هذا الكائن المؤذي - وعلى هذا يحتمل أن موسى قد خشي هذه الحيات على نفسه - أو أنه خاف أن يفتتن الناس بهذا المنظر العجيب فيذهلوا عما جاءهم به من الحق.
٦٨ - (قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى)
فأوحى الله إليه بما يطمئنه ويذهب عنه الخوف {لا تخف إنك أنت الأعلى} أي لا تخش كيد هؤلاء السحرة وما صنعوه من مكر وحيلة؛ فأنت الغالب المؤيد بتوفيق الله ورعايته وكلاءته وهم المهزومون المخذولون.
٦٩ - (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)
(وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا) أي اطرح عصاك لتبلع ما صنعوه من حيلة هزيلة محتقرة - وهي اصطناع الحبال والعصي (إنما صنعوا كيد ساحر) الكيد معناه المكر والخدعة - والمعنى: أن الحبال والعصي التي خُيِّل للناظرين سعْيها، إنما ذلك مكر ساحر وخداعه مما يصطنعه للناس ليضلهم عن دين الله وعن منهجه الحق.
قوله: (ولا يفلح الساحر حيث أتى) المراد بالساحر جنس السحرة؛ فإنهم لا يفوزون في صنعهم وما فعلوه ولا يظفرون به بما راموه حيثما كانوا - ولا يأتون بخير البتة؛ فهم فريق مهزوم ومخادع من الناس يعيش على التوهيم والغش والاحتيال وبذلك فإن السحر جرم عظيم وإفك مبين؛ فهو والشرك صنوان، وما جزاء الساحر بعد ذلك إلا ضرب عنقه بالسيف، للخبر: " حد الساحر ضربة بالسيف ".
٧٠ - (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)
قوله: (فألقى السحرة سجدا) بعد ما طرح موسى عصاه فانقلبت حية هائلة وابتلعت كل حبالهم وعصيهم أذهلهم ذلك وغشيهم ما غشيهم من العجب والدهش لما رأوا من المعجزة الكبرى فخروا لله ساجدين غير مترددين ولا متوانين (قالوا آمنا برب هارون وموسى)
لقد آمن السحرة إيمانا صادقا مخلصا، لما رأوا من صدق المعجزة اليقينية المذهلة - وذلك هو ديدن الأسوياء من عباد الله، أولي الفطر السليمة غير المعوجة ولا المعطوبة ولا السقيمة؛ فإنهم إذا عاينوا البراهين والدلائل بادروا في الحال، إلى التصديق والإيمان - ولا يتردد أو يخاصم بعد ذلك إلا المبطلون من مرضى الفطرة والنفوس.
٧١ - (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)
قوله: (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم) الاستفهام للإنكار التوبيخي؛ أي كيف آمنتم له أو به- أي بموسى دون إذن مني لكم (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) أي إن موسى لعظيمكم ورئيسكم في صناعة السحر؛ فهو الذي علمكم ذلك - وفرعون موقن في قرارة نفسه انه مفتر وأنه ظالم، وأنهم لم يتعلموا السحر من موسى وما كان موسى إلا صدوقا - وإنما يبتغي فرعون بذلك توهيم الناس والتلبيس عليهم ليرتابوا فيما جاءهم به موسى فلا يؤمنوا به ولا يصدقوه - ثم شرع بعد ذلك في التوعد والتهديد بإنزال العقاب الأليم بهم وهو التقطيع من خلاف والتصليب على جذوع النخل - وهو قوله: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي يجعلهم مصلوبين على جذوع النخل بعد تقطيعهم من خلاف زيادة في تعذيبهم والتمثيل بهم حتى يموتوا (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) أي لتعلمن هل أنا أشد عذابا لكم أم موسى - وذلك على سبيل التهكم والسخرية والاستعلاء - وأبقى، يعني أدوم.
لقد فعل فرعون الأثيم فعلته البشعة النكراء؛ إذ قتل هؤلاء المؤمنين وهم ألوف - قتلهم ظلما وعدوانا؛ فواجهوا ربهم شهداء، وأفضوا إلى الفوز بالخلود في الجنة.

وهكذا يفعل الطغاة المتجبرون والعتاة المتسلطون الذين يتحكمون في رقاب العباد، إذ يعوزهم المنطق الظاهر والحجة السليمة، فإنهم حينئذ لا يجدون غير البطش والتنكيل بخصومهم سبيلا ٢٧.

٧٢ - (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

قوله تعالى: {قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٧٣) إنه من يأتي ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى (٧٤) ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى (٧٥) جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى (٧٦)} أجاب السحرة عقب إيمانهم برسالة موسى قائلين لهذا الظالم المتجبر فرعون: لن نختارك على ما جاءنا من الحق واليقين، أو من الحجج والبراهين القاطعة على صدق موسى (والذي فطرنا) (الذي) مجرور بالعطف على (ما جاءنا) وقيل: مجرور على القسم ٢٨.

قوله: (فاقض ما أنت قاض) أي فاصنع ما أنت صانع - أو افعل ما شئت أن تفعله من القتل والصلب (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) هذه في موضع نصب على الظرف، أي إنما تحكم فينا مدة حياتنا، أو وقت هذه الحياة الدنيا - والحياة الدنيا، صفة لهذه ٢٩.

٧٣ - (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

قوله: (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) هذا تأكيد من السحرة لفرعون بأنهم آمنوا بموسى وصدقوه فيما جاءهم به من الحق ليغفر لهم الله ما تلبّسوا به من الكفر وخطيئة السحر قبل إيمانهم.

قوله: (وما أكرهتنا عليه من السحر) ما، في موضع نصب بالعطف على، (خطايانا) ٣٠، أي آمنا بالله ليغفر لنا ما كنا فيه من الشرك، ويغفر لنا الذي أكرهتنا عليه من عمل السحر لتعارض به موسى (والله خير وأبقى) الله خير لنا منك، وجزاؤه أدوم.

٧٤ - (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى)

قوله: {إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى} الضمير في (إنه) يرجع إلى الأمر والشأن - وهذا من تمام ما قاله السحرة لفرعون، يحذرونه من عذاب الله وانتقامه فإن أخذه أليم شديد - والمعنى: أن من يليق ربه يوم القيامة على الكفر، فلسوف يبوء بالويل والخسران وأن مصيره إلى العذاب البئيس في جهنم - وهو، إذ يتعذب فيها محترقا (لا يموت فيها ولا يحيى) أي لا يأتي عليه الموت في النار فيستريح ولا يحيى حياة ينتفع بها.

٧٥ - (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى)

قوله: {ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى} أي، والذي يلقى الله يوم القيامة على الإيمان والطاعة وقد عمل ما أمر الله به وانتهى عما نهى عنه (فأولئك لهم الدرجات العلى) (العلى) جمع العليا، أي أولئك المؤمنون الصالحون يجزون المنازل الرفيعة في الجنة.

٧٦ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)

(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) (جنات)، مرفوع على البدل من الدرجات ٣١ وهذا هو جزاء المؤمنين الصالحين، إنهم يجزون الإقامة في جنات الخلد، وهي نعيمها دائم لا ينقطع (خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) (خالدين) - منصوب على الحال - وهذا من قول السحرة لما آمنوا، فقد ألهمهم الله هذا القول إلهاما فأنطقهم به - وهو أن المؤمنين الصالحين المتطهرين من الشرك ودنس المعاصي، جزاؤهم الجنات، لابثين ماكثين في نعيمها لا يأتي عليهم فناء ولا زوال ٣٢.

٧٧ - (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى)

قوله تعالى: {ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (٧٧) فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم (٧٨) وأضل فرعون قومه وما هدى (٧٩)}.

هذه آيات قصار وقلائل يتدفق من خلالها الإعجاز الظاهر المستعذب - إعجاز ندي وكريم يستشرفه القارئ بفطرته السليمة ليجد فيه من حلاوة النغم وعذوبة الإيقاع ما يثير الوجدان والخاطر، ويملأ القلب والخيال بهجة وسكينة، لفرْط ما يتجلى في هذا النظم العجيب من جمال الكلم، بألفاظه المميزة المصطفاة، وحروفه الشجية الندية التي تفيض على الجو والخيال ظلالا من النسائم الروحية العطرة - فلكأن القارئ الذي يعشق مثل هذا النظم الباهر يستشعر في أعماقه بنُقلة روحية ونفسية وذهنية يتملاها الخيال ويعشقها الحس - فيا لله لهذا الكلام الرباني العجيب.

أما المعنى للآية: فإنه لما قضى الله أن يهلك فرعون وجنوده الظالمين أمر رسوله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلا فيأخذ بهم طريق البحر - ولما وصل موسى وبنو إسرائيل البحر، وفرعون يتبع أثرهم بجنوده حتى إذا تراءى الجمعان، أصاب بني إسرائيل الهلع والذعر؛ إذ ظنوا حينئذ انه لا منجاة لهم ولا ملجأ، يفرون إليه، فالبحر من أمامهم، وفرعون وجنوده من ورائهم، لكن الله نصير المؤمنين الصابرين ومغيث المكروبين المظلومين، ومعز رسله الأبرار الطاهرين، قد أمر نبيه وكليمه موسى أن يضرب للبحر بعصاه - وهو قوله: (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا) يبسا منصوب على أنه صفة لقوله: (طريقا) وهو مصدر - نقول: يبس يبسا ويُبسا أي لا ماء فيه ولا طين.

لقد ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق منه اثنا عشر طريقا يابسا لا ماء فيه ولا طين وبين كل طريقين ماء قائم كالجبال وهو قوله في آية ثانية (فكان كل فرق كالطود العظيم) أي الجبل الكبير - فأخذ كل سبط من بني إسرائيل طريقا يمشي فيه آمنا سالما من كل مكروه، لا جرم أن هذا من أعظم المعجزات التي امتنّ الله بها على بني إسرائيل.

قوله: (لا تخاف دركا) الجملة الفعلية في موضع نصب على الحال - والتقدير: فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا؛ أي غير خائف إدراك فرعون ٣٣ والدرك والإدراك بمعنى اللحاق.

قوله: (ولا تخشى) أي لا تخشى من البحر أن يغشاكم - فلا فرعون يدرككم ولا البحر مغرقكم أو مطبق عليكم - ولكنكم آمنون سالمون وستمضون وسط البحر فوق اليبس في منجاة من كل سوء أو مكروه.

٧٨ - (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)

قوله: (فأتبعهم فرعون بجنوده) أي اتبعهم، أو خرج خلفهم فرعون ومعه جنوده (فغشيهم من اليم ما غشيهم) لفظة ما، تفيد الإبهام - وفي ذلك ما يشير إلى تعظيم الشأن وهول ما حصل - فيكون ذلك أبلغ في التخويف والتهديد - أي أصاب فرعون وجنوده من هول البحر وهوان التغريق ما لا يعلم فداحته وفظاعته - أي أصاب فرعون وجنوده من هول البحر وهوان التغريق ما لا يعلم فداحته وفظاعته إلا الله ٣٤.

٧٩ - (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

قوله: {وأضل فرعون قومه وما هدى} لقد أضل فرعون قومه بطغيانه وكبريائه وفرط غروره وحماقته - أضلهم؛ إذا استخفهم وساقهم إلى الهلاك والخسران بعد أن خدعهم وكذب عليهم وأثار في خيالاتهم الواهمة السقيمة أنه مجيرهم فيرد عنهم كل المكاره والعوادي، وأنه صائر بهم إلى النجاة والرشاد؛ فقد أضلهم هذا الطاغوت الشقي بسوقهم إلى سوء المصير في الدنيا حيث التغريق، وفي الآخرة حيث التحريق - فما أرشدهم إلى سداد ولا صواب - وذلك هو شان الطغاة والظلمة من الساسة والحاكمين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، والذين يستكثرون من حولهم المنافقين والمستغفلين والخائرين حتى إذا جاء أمر الله، سيق الظالم المتجبر وأعوانه المنافقون والمستخفون والخائنون إلى حيث الخزي والافتضاح وانكشاف السوءات في هذه الدنيا، ثم يوم القيامة يردون إلى جهنم وبئس المصير.

٨٠ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

قوله تعالى: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى (٨٠) كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى (٨١) وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٨٢)} يذكر الله بني إسرائيل بما منّ عليهم من نعم عظام؛ إذ أنجاهم من عدوهم العاتي فرعون وأقرّ أعينهم منه لما رأوه وجنوده

يغرقون جميعا في البحر - يذكرهم بنعمه وفضله عليهم ليشكروه ويطيعوه وينيبوا إليه.
قوله: (ووعدناكم جانب الطور الأيمن) (جانب الطور)، منصوب على أنه مفعول ثان للفعل و (وواعدناكم) التقدير: وعدناكم إتيان جانب الطور الأيمن، ثم حذف المضاف ٣٥ و (الأيمن) منصوب؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال بل كان الجبل على يمين موسى إذا أتاه - وذلك أن الله وعد موسى أن يأتي هذا المكان، ويختار من قومه سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة - وإنما نسب المواعدة إليهم؛ لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم، فرجعت منافعها إليهم.
قوله: (ونزلنا عليكم المن والسلوى) (المن) حلوى كانت تنزل على بني إسرائيل من السماء - و (السلوى) طائر يسقط عليهم فيأخذون منه بقدر حاجتهم، رحمة من الله بهم وتفضلا منه عليهم؛ إذ رزقهم ذلك وهم في التيه حيث الحر والعُطاش وانقطاع الماء والغذاء.
٨١ - (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)
فقال لهم: (كلوا من طيبات ما رزقناكم) رزقهم الله في التيه هذا الرزق المستطاب الحلال ليأكلوا منه هانئين مستمرئين (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي) (تطغوا) من الطغيان وهو تجاوز الحد - أو المجاوزة إلى ما لا يجوز - والمراد أن لا تتعدوا حدود الله فيما رزقكم بأن تجحدوا نعمته فلا تشكروها وتنفقوها في المعاصي والإسراف؛ فإنكم إن فعلتم ذلك نزل بكم غضبي (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أي من نزل به غضب الله فقد صار على الهاوية من قعر جهنم.
٨٢ - (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)
قوله: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٣٦ (صالحا) صفة لموصوف؛ أي عمل عملا صالحا ٣٧ هذا بلاغ كريم من الله لعباده عن عظيم مغفرته لهم وإحسانه إليهم؛ فهو سبحانه يتجاوز عن خطايا التائبين عن الشرك هو أفدح الخطايا - وهو قوله عز وعلا: (وإني لغفار لمن تاب) أي تاب عن الشرك وآمن بالله وحده وصدّقه فيما أنزله من رسالة ودين (وعمل صالحا) أي أطاع الله فعمل بمقتضى دينه وشرعه ولم يخالفه فيما أمر (ثم اهتدى) أي استقام وثبت على دين الله ومنهجه الحق دوام حياته حتى لقي الله وهو على ذلك ٣٨.
٨٣ - (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)
قوله تعالى: (وما أعجلك عن قومك يا موسى (٨٣) قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى (٨٤) قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي (٨٨) أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا (٨٩)).
ما، في محل رفع بالابتداء - والخبر (أعجلك) يعني أي شيء أعجلك؟ ٣٩ والاستفهام للإنكار - وبيان ذلك: أن موسى قد استجاب لأمر ربه فسارع مبادرا إلى الطور من أجل المناجاة وتلقي التوراة عن رب العالمين، وقد استخلف أخاه هارون لقيادة بني إسرائيل حال غيابه عنهم - ولهذا قال سبحانه: (وما أعجلك عن قومك يا موسى) يعني أي شيء عجّل بك وحملك على أن تسبق السبعين الذين اخترتهم لميقات الله على الطور - وذلك أن موسى مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم مسرعا لفرط شوقه للقاء ربه والاستماع لكلامه - وقد أمرهم أن يتبعوه.
٨٤ - (قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)
(قال هم أولاء على أثري) أي ها هم خلفي لاحقون بي وليس بيني وبينهم غير مسافة قصيرة - ثم بين ما دعاة إلى هذا الاستعجال وهو قوله: (وعجلت إليك رب لترضى) أي جئت مسرعا إلى الموعد لتزداد عني رضا.
٨٥ - (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

قوله: {قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري} أي ابتلينا قومك من بعدك واختبرناهم وأوقعناهم في محنة بعد انطلاقك من بينهم (وأضلهم السامري) (السامري) نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة في بلاد الشام، فقد دعاهم هذا إلى عبادة العجل فأجابوه.

٨٦ - (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي)

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) الأسف: أشد الحزن - وأسف عليه، أي غضب ٤٠.

قوله: (قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) (وعدا) منصوب على المصدر - وقيل: منصوب على أنه مفعول ثان للفعل (يعدكم) ٤١. والمعنى: أما وعدكم الله خير الدنيا والآخرة، إذ نصركم الله وأظهركم على عدوكم بإهلاكه في البحر غرقا، ومنّ عليكم بأياديه الكثيرة في التيه، من المن والسلوى والغمام وإنزال التوراة عليكم وما فيها من نور وحكمة ومما يصير بكم إلى الفوز بالجنة (أفطال عليكم العهد) الاستفهام للتوبيخ، أي أفنسيتم لطول العهد - والعهد هنا الزمان - والمراد مفارقته إياهم لدى ذهابه إلى الطور للمناجاة وتلقي التوراة، أو طالت مدة انتظارهم لما وعدهم الله فنسوا.

قوله: (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) الغضب، معناه السخط وإرادة الانتقام ٤٢ والمعنى: أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سببا لنزول الغضب من الله بكم (فأخلفتم موعدي) فقد وعدوه أن يقيموا على طاعة الله حتى عودته من الميثاق وألا يفرطوا في غيابه لكنهم أخلفوه ما وعدوه باتخاذهم العجل.

٨٧ - (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

قوله: (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) بكسر الميم، وهو مصدر ملك يملك ملكا، أي ما اخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا - ولو ملكنا أمرنا لما أخلفنا موعدك، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده لنا - أو ما أخلفنا موعدك عن قدرتنا واختيارنا (ولكن حملنا أوزارا من زينة القوم) أي حملنا أثقالا من حلي القبط، كانوا قد استعاروها منهم ليلة الخروج من مصر محتجين بأن لهم غدا عيدا - وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل - وسموها أوزارا، لأنها كانت آثاما - إذ لم يحل لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم.

قوله: (فقذفنها فكذلك ألقى السامري) لما ثقل عليهم حمل هذه الحلي قذفوها في النار التي أوقدها السامري في الحفرة، إذ أمرهم هو بطرحها فيها - وقد قيل: إن السامري قال لهم حين استبطأوا موسى: إنما احتبس عليكم موسى بسبب ما عندكم من الحلي، فجمعوه ودفعوه إلى السامري فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلا ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول جبريل عليه السلام فصار عجلا جسدا له خوار - وهذا قوله سبحانه: (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار)

٨٨ - (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

قوله سبحانه: (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) الخوار صوت البقر - وقيل: كان خواره بالريح، لأنه كان قد عمل فيه خروقا فإذا دخلت في جوفه الريح خار ولم يكن فيه حياة.

قوله: (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي) القائلون ذلك، هم السامري ومن تبعه من المشركين الميالين للتشبيه - ونسي، بمعنى ترك، وفاعل نسي السامري، أي ترك السامري ما أمره به موسى من الإيمان بالله وحده ومجانبة عصيانه والإشراك به.

٨٩ - (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

قوله: {أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا} المقصود العجل - والمعنى: أفلا يرى هؤلاء الضالون أن ما عبدوه- وهو العجل- لا يجيبهم ولا يكلمهم، وهو أعجز عن أن ينفعهم أو يضرهم - فكيف يكون إلها؟ وكيف يتخذونه معبدوا ٤٣؟.

٩٠ - (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

قوله تعالى: {ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري (٩٠) قالوا لن نبرح عليه

عاكفين حتى يرجع إلينا موسى (٩١) قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا (٩٢) ألا تتبعن أفعصيت أمري (٩٣) قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي (٩٤)}.

قال هارون لبني إسرائيل قبل رجوع موسى إليهم من الميقات: إنما فتنتم بالعجل إذ أضلكم به السامري، وإنما الله هو ربكم ومعبودكم فاتبعوني في عبادته وأطيعوني فيما آمركم به من عبادة الله وحده لا شريك له.

٩١ - (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)

قوله: {قالوا لن نبرح عليك عاكفين حتى يرجع إلينا موسى} أي لن نزال مقيمين على عبادة العجل (حتى يرجع إلينا موسى) فننظر هل يعبده كما عبدناه، وهل يصدق السامري كما صدقناه.

٩٢ - (قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا)

قوله: {قال يا هارون ما منعك إذا رأيتهم ضلوا} لما رجع موسى إلى قومه، هاله ما رآه من عبادتهم العجل، فاستشاط بذلك غضبا، وألقى ما كان في يده من الألواح الربانية وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يجره إليه لفرط ما غشيه من الأسف والغضب ثم قال له: ما منعك حين رأيت القوم قد تاهوا وزاغوا إلى الشرك والعصيان.

٩٣ - (أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

(ألا تتبعن)، لا زائدة أي مامنعك، إذ ذاك أن تلحق بي فتخبرني عن زيغهم وتفريطهم وضلالهم بعبادة العجل (أفعصيت أمري) الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي هل خالفت ما أمرتك به من دوام على طاعة الله وثبات على دينه وذب عن شرعه؟.

٩٤ - (قَالَ يَابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)

قوله: {قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي} أخذ موسى برأس هارون في يد، وبلحيته في يده الأخرى، وأخذ يجره إليه لشدة ما غشيه من الغيرة والأسف، فخاطبه هارون وهو شقيقه لأبويه- خاطبه في رفق وتودد (يبنؤم) لقد ترقق له بذكر الأم على سبيل الاستعطاف والترفق؛ لأن ذكر الأم أبلغ في إثارة الرأفة والحنو (إني خشيت أن تقول فرقت بين إسرائيل) خشيت إن فعلت بهم ما تريده من زجرهم ومقاتلة بعضهم الذين ضلوا، أو الخروج عنهم واتباعك فيتبعني فريق منهم ويتبع آخرون السامري- أن تقول: إني فرقت بين القوم (ولم ترقب قولي) أي خشيت كذلك أن تقول لي: إنك لم تراع ما أمرتك به وهو أن تخلفني في القوم حال غيابي - ٤٤

٩٥ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

قوله تعالى: {قال فما خطبك يا سامري (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي (٩٦) قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا (٩٧) إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما (٩٨)} أقبل موسى على السامري يوبخه توبيخا - وهو قوله: (فما خطبك يا سامري) أي ما شأنك وما الذي حملك على ما فعلت؛ إذ فتنت بني إسرائيل وأغويتهم فعبدوا العجل - وقيل: إن السامري كان منافقا في بني إسرائيل وليس منهم بل من قبيلة يقال لها سامرة - وكان يعلم أن بني إسرائيل يميلون إلى عبادة العجل فاتخذه لهم وأغواهم بعبادته.

٩٦ - (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

فأجاب السامري {بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها} أي علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل؛ فقد رأيت جبريل على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثر فرسه قبضة، وهي ملء الكف (فنبذتها) أي طرحتها في الحلي المذاب، والمسكوب على هيئة العجل و (كذلك سولت لي نفسي) الكاف، صفة لمصدر محذوف؛ أي ومثل ذلك التسويل (سولت لي نفسي) أي زينت لي نفسي أن أفعل ذلك اتباعا لما هويته - وهذا اعتراف منه بالخطأ.

٩٧ - (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ

ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)

قوله: (قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس) قال موسى للسامري: اذهب من بيننا طريدا (فإن لك في الحياة) أي ما حييت (أن تقول لا مساس) أي تقول لمن أراد مخالطتك " لا يمسسني أحد ولا أمسّه طول الحياة - فنفاه موسى عن قومه وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له - وقال الحسن البصري: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له، ولما كان منه إلى يوم القيامة - وقيل: كان يهيم في البرية يصيح: لا مساس

(وإن لك موعدا لن تخلفه) بفتح اللام، وضمير المخاطب في محل رفع نائب فاعل - والهاء في (تخلفه) في محل نصب مفعول ثان ٤٥

يعني: إن لك وعدا من الله بعذاب يجزه لك يوم القيامة، ولن يخلفك الله وعده، جزاء فعلتك التي فعلتها وهي فتنة الناس وإغواؤهم بعبادة العجل.

قوله: (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا) (ظلت) أصلها ظللت، حذف اللام الأولى للتخفيف؛ أي انظر إلى معبودك العجل الذي أقمت على عبادته ملازما (لنحرقنه) بتشديد الراء، نقول: حرّقه يحرّقه بتشديد الراء للإكثار من الحرق بالنار (ثم لننسفنه) من النسف، وهو الاقتلاع والتفريق والتذرية ٤٦ أي لنذرينه أو لنطيرنه لتذروه الرياح في البحر.

٩٨ - (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)

قوله: (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو) ليس من إله إلا الله، وكل ما سوى الله من آلهة مزعومة ومصطنعة، محض افتراء وباطل؛ بل الله وحده الخالق المعبود (وسع كل شيء علما) علما تمييز منصوب؛ أي وسع علمه كل شيء ٤٧.

٩٩ - (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)

قوله تعالى: {كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا (٩٩) من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا (١٠٠) خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا (١٠١) يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا (١٠٢) يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا (١٠٣) نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما (١٠٤)} الكاف في قوله: (كذلك) في محل نصب صفة لمصدر محذوف؛ أي مثل ما قصصنا عليك خبر موسى وفرعون (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) أي نقص عليك من أخبار النبيين والأمم من السابقين لما في هذا القصص من تسلية وتثبيت لفؤادك وشهادة لك بأنك نبي صادق (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) أي أعطيناك من عندنا ذكرا وهو القرآن - وهو خير ما يعطاه أحد من العالمين؛ فهو كلام الله الحق الذي جمع كل ظواهر الكمال وحسن المزايا في الحق والعدل والسداد والصلاح - وفيه من المعاني والأخبار والأحكام والمواعظ ما ليس له في كتب العالمين والنبيين نظير.

١٠٠ - (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا)

قوله: {من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا} من تولى مدبرا عن هذا القرآن فجحده ولم يؤمن به ونأى عنه بقلبه وفكره وهواه، أو لم يعبأ بما فيه من أوامر وأحكام فلم يعمل بها؛ فلسوف يجازى يوم القيامة (وزرا) أي عقابا ثقيلا يحمله قسرا ولا يطيقه لفظاعته وشدة هوله.

١٠١ - (خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا)

(خالدين فيه) أي ماكثين لابثين في هذا الجزاء المرير، لا يتحولون عنه ولا يبرحونه (وساء لهم يوم القيامة حملا) أي بئس الحمل الذي حملوه يوم القيامة.

١٠٢ - (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

قوله: {يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا} (يوم) بدل من (يوم القيامة) أي حينئذ ينفخ في الصور لبعث الخليقة من قبورهم ورفاتهم ثم جمعهم للحشر (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) (المجرمين) أي الضالين المكذبين الذين أعرضوا عن الذكر الحكيم وهو القرآن و (زرقا) حال منصوب؛ أي عميا - وقيل: عطاشا قد أزرقت عيونهم من شدة العطش - وقيل: الزرقة، شخوص البصر من شدة الخوف.

١٠٣ - (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا)

قوله: (يتخافتون بينهم) من الخفت وهو الإسرار في المنطق، أو خفض الكلام ٤٨ - والمعنى أنهم يبعثون يوم القيامة يتسارون فيما بينهم، إذ يقول بعضهم لبعض في كتمان واستسرار (إن لبثتم إلا عشرا) أي ما لبثتم في الدنيا، أو في القبور أمواتا سوى عشر ليال، فهم بذلك يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا لهول ما يجدونه من شدائد يوم القيامة.

١٠٤ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا)

قوله: (نحن أعلم بما يقولون) الله عليم بما يتناجون فيه، وهو سبحانه عليم بالمدة التي مكثوها.

قوله: (إذ يقول أمثالهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) حينئذ يقول أعدلهم قولا وأوسطهم رأيا وأكملهم عقلا: ما لبثتم في الدنيا إلا يوما واحدا، وذلك لإحساسه البالغ بهوان الدنيا الفانية واستقصار مدتها يوم القيامة ٤٩.

١٠٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

قوله تعالى: {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (١٠٥) فيذرها قاعا صفصفا (١٠٦) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (١٠٧) يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا (١٠٨) يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قول (١٠٩) ا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما (١١٠) وعنت الوجوه للحي لقيوم وقد خاب من حمل ظلما (١١١) ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما (١١٢)}.

هذه صورة شاخصة مثيرة تتجلى فيها أحداث القيامة الجسام وأهوالها الفظيعة العظام - القيامة بفظائعها وقواصمها ودواهيها المريعة تتبدى للذهن والخيال من خلال هذه الكلمات الربانية المذهلة، على طريقة القرآن في أسلوبه العجيب المصور وعباراته وألفاظه الندية النفاذة، وحروفه المميزة العذاب ذات الإيقاع الموحي والجرس الشجي بما يثير في نفس المتدبر البصير مزيجا من إحساسات فياضة شتى من البهجة والارتياع والوجوم والذعر في آن - كل ذلك تثيره هذه الآيات الحافلة العجاب في خيال القارئ المذكّر وهو يرددها مرات ومرات فلا يعتريه مَلال ولا سآمة - وليس أدل من ذلك على أن القرآن يفوح منه سرّ مستعذب يدركه القارئ الخبير فيستيقن أنه معجز وأنه من لدن إله حكيم - قوله: (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا) سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن حال الجبال، يوم القيامة وما يُصنع بها، وقيل: إن سألوك عن الجبال - فقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم الله (ينسفها ربي نسفا) النسف، معناه القلع من الأصل - ونسف الجبال، أي دكها دكا وذرّاها ٥٠ - والمراد: أن الجبال يقلعها الله يوم القيامة من أصولها ثم يصيّرها رملا تذروه الرياح ثم تصير بعد ذلك كالعهن المنفوش وهو الصوف فتطيره الرياح في كل جهة ومكان.

١٠٦ - (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

قوله: {فيذرها قاعا صفصفا} القاع، المستوي من الأرض، والجمع أقوع وأقواع وقيعان ٥١ وكذا الصفصف، معناه المستوي من الأرض ٥٢ - فالمعنى واحد في القاع والصفصف - وقيل: الصفصف ما كان مستويا أملس، أي يترك أماكن الجبال أو مواضعها التي كانت فيها أرضا مستوية ملساء لا نبات فيها ولا بناء.

١٠٧ - (لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا)

قوله: {لا ترى فيها عوجا ولا أمتا} العوج: الانخفاض - والأمت: المكان المرتفع - وقيل: التلال الصغار - والمعنى: أن الأرض من مواضع الجبال تكون يوم القيامة مستوية فلا انخفاض فيها ولا ارتفاع، ولا وادي ولا رابية.

١٠٨ - (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا)

قوله: (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له) يوم القيامة يتبعون صوت المنادي وهو الملك العظيم إسرافيل، إذ ينادي الخليقة إلى المحشر (لا عوج له) أي لا يزيغون عن ندائه بل يبادرون مسرعين إليه وجلين غير ناكصين ولا هاربين.

قوله: (وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا) أي سكنت الأصوات حينئذ للرحمن لعظيم مهابته وجلاله (فلا تسمع إلا همسا) الهمس، الصوت الخفي، أو هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر فلا يُسمع للناس نطق ولا كلام إلا الصوت

الخفي الهامس - وذلك مما يغشاهم من أهوال الساعة وقوارعها الرهيبة.
إن هذه الكلمات الربانية بهذه الحروف الهامسة الندية وأنغامها النفاذة الحسان تثير في الخيال ظلالا من العجب والذهول والرهبة.
وهذه المزية القرآنية لا تتيسر ولا تتجلى بمثل هذا القدر في غير القرآن - إنها ألفاظ وحروف قرآنية تنشر في الذهن والخيال صورة جلية محسّة عما يقع من فظائع في يوم القيامة - وما يكاد المرء يقرأ هذه الكلمات والحروف حتى تراوده صورة البعث الهائل، والحشر الحاشد، والقيامة بمشاهدها المرعبة الجسام.

١٠٩ - (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا)

قوله: {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} أي في هذا اليوم الحافل تغيب الشفاعات والمقامات والجاهات التي كانت معتبرة لدى الناس في الدنيا فلا تجدي حينئذ شفاعة الشافعين إلا الشفاعة ممن أذن له الله وكان من المؤمنين الصالحين، وكانت شفاعتهم مما يرضى عنها الرحمن.

١١٠ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)

قوله: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما} أي أن الله يعلم ما يصير إليه الناس من أمر الساعة حيث الثواب والعقاب ويعلم ما خلفهم، وهو ما تركوه وراءهم في الدنيا.

١١١ - (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)

قوله: {وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما} (وعنت) أي خضعت وذلت - والعاني الأسير - يقال: عنا فلان فيهم أسيرا؛ أي أقام على إساره فهو عان، وقوم عُناة - ونسوة عوان ٥٣ و (القيوم) الدائم بتدبير الخلق؛ وذلك كائن يوم القيامة، حين يأتي الناس خاشعين مستسلمين أذلة، وقد غمرتهم داهية الساعة بعظمائها المذهلة، وغشيت قلوبهم ووجوههم غواش كثاف من الذل والذعر والاستسحار؛ فهم حينئذ خاضعون واجمون حيارى من هول المعاينة ومما يجدونه من جلل الخطوب والمشاهد - كل هاتيك المعاني من الرعب واليأس والاستسلام والخشوع يتجلى في هذه العبارة القرآنية الفذة - العبارة القصيرة الوجيزة ذات الكلمات الموحية المؤثرة، والتي تَشْدَهُ الحس والخاطر، وتنفذ إلى الصميم من الوجدان والمشاعر - فما يتلى القارئ هذه الآية حتى يقفز به الخيال في نقلة عجيبة مذهلة إلى واقع مميز جديد، واقع القيامة بغواشيها وعظائمها وعرصاتها - وذلك دليل ظاهر من أدلة كاثرة على أن هذا الكلام من نظم الإله القادر (وقد خاب من حمل ظلما) أي خسر ويئس من أتى ربه يوم القيامة بظلم وهو الشرك - وفي الصحيح: " إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك؛ فإن الله تعالى يقول: (إن الشرك لظلم عظيم).

١١٢ - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا)

قوله: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما} لا قيمة للطاعات وفعل الصالحات بغير إيمان - وإنما الإيمان شرط ظاهر يتحقق بموجبه قبول الطاعات؛ فالمؤمن الطائع لربه، العامل للصالحات (لا يخاف ظلما ولا هضما) لا يخاف ظلما، أي نقصانا من ثوابه ولا زيادة في سيئاته (ولا هضما) من الهضم وهو الانتقاص من الحق ٥٤ هضمه حقه؛ أي نقصه ٥٥.

١١٣ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)

قوله تعالى: {وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا (١١٣) فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما (١١٤)} (وكذلك أنزلناه) معطوف على قوله: (كذلك نقص عليك) أي مثل ذلك الإنزال أنزلناه - والمراد به القرآن؛ فقد أنزله الله عربيا؛ أي بلسان عربي ليفهموه ويتدبروه (وصرفنا فيه من الوعيد) أي بينا فيه من ضروب الوعيد كالتخويف والتهديد، لعلهم يخشون ربهم فيجتنبون نواهيه من شرك وآثام (أو يحدث لهم ذكرا) أي عظة - وذلك أن يتذكروا ما توعدهم الله به من الانتقام فيخافوا ويزدجروا - وقيل: الذكر بمعنى الشرف.

١١٤ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

قوله: (فتعالى الله الملك الحق) أي تنزه الله عن كل النقائص والعيوب التي يتلبس بها البشر (الملك) الله مالك العالمين وله ملكوت كل شيء وهو سبحانه ملك الملوك وهو عز وعلا (الحق) الثابت في ذاته وصفاته.

قوله: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ذلك تعليم من الله لنبيه الكريم كيف يتلقى القرآن عن الوحي، فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي، حرصا منه على الحفظ، وخشية على القرآن من النسيان، فنهاه الله عن ذلك وهو قول ابن عباس - قال الزمخشري في تأويل الآية: لما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليه ريثما يُسمعك ويُفهمك - ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك - ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته ونحوه قوله تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وقيل معناه: لا تُبلغ ما كان منه مجملا حتى يأتيك البيان (وقل رب زدني علما) يعلم الله نبيه حسن التواضع والتأديب وهو أن يسأله الزيادة من العلم - لا جرم أن الاستزادة من اعلم خير ما يرجوه المؤمن ويدعو ربه أن يمكنه من الظفر به ٥٦.

١١٥ - (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

وقوله تعالى: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما (١١٥) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى (١١٦) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى (١١٩) فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى (١٢١) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (١٢٢)} أوحى الله إلى آدم من قبل وجود ذريته، أو من قبل أن يأكل من الشجرة لكنه خالف أمره إلى ما نهى عنه - والذي عهد إلى آدم هو أن لا يأكل من الشجرة (فنسي) أي نسي العهد أو الأمر، إذ تركه - وقيل: إنما سمي الإنسان، لأنه عهد إليه فنسي وهو قول ابن عباس.

قوله: (ولم نجد له عزما) العزم معناه التصميم والتصلب، والمراد: لم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة - على أن هذه الآية ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله - وقيل: وجه تعلقه بما قبله: أنه لما عُهد إلى محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا يعجل بالقرآن فقد مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي وهو آدم.

١١٦ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ)

قوله: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى} أي واذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود تكريما لآدم فأذعنوا جميعا باستثناء إبليس، فإنه لم يسجد بل استكبر - وذكرنا سابقا أقوال العلماء في حقيقة إبليس، وبينا أن القول الراجح في ذلك كونه من غير جنس الملائكة الأطهار، بل كان من أصل الجن وقد خلقوا من لسان من نار.

١١٧ - (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ)

قوله: (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) إبليس مجبول على الخبيث والشر وسوء الطوية، فهو بذلك لا يبغي لبني آدم غير الإضلال والتخسير وسوء المصير - على أن إبليس يكن بالغ العداوة قبل كل شيء لأبي الخلق آدم وزوجه، إذ كان آدم سببا فيما لحقه من اللعن، فيريد من أجل ذلك أن يخرجهما من الجنة بعصيانهما أمر ربهما في الشجرة، ليفرغ بعد ذلك لإضلال ذريتهما من بعدهما.

قوله: (فتشقى) أي يحل عليكما وعلى ذريتكما الشقاء في الدنيا - والمراد بذلك: شقاء البدن في السعي الكديد لطلب الرزق أو القوت - إلى غير ذلك من وجوه الشقاء والعناء ومقارعة المشكلات والأزمات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي يجد منها الإنسان الهموم ويكابد بسببها الشدائد.

١١٨ - (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ)

قوله: {إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى} (ألا تجوع) الجملة في موضع نصب اسم إن ٥٧ - يحبّب الله آدم بالمكث في الجنة، فهو إن حفظ الوصية والتزم العهد بطاعة الله لبث في الجنة فلا يجد فيها جوعا ولا عُريا.

١١٩ - (وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى)
ولا عطشا (ولا تضحى) أي لا يصيبك حر الشمس؛ إذ ليس في الجنة شمس ولا حر - وإنما أهلها آمنوا راغدون في عيش هانئ محمود وظل كريم ممدود.
١٢٠ - (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)
قوله: (فوسوس إليه الشيطان) أي ألقى إليه الشيطان وحدثه أو أسر إليه - وهو قوله: (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) هل أدلك على شجرة إن أكلت منها كنت من الخالدين فلا يأتي عليك موت (وملك لا يبلى) أي مُلّكت ملكا لا يفنى.
١٢١ - (فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)
(فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما) أكل آدم وزوجه حواء من الشجرة المنهي عن الأكل منها، فانكشفت لهما عوراتهما وكانت مستورة عن أعينهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) طفق بمعنى جعل ٥٨ - و (يخصفان) من الخصف وهو الخرْز والإلزاق ٥٩ - أي جعلا يزلقان بعض الورق ببعض ليسترا به عورتهما - وقيل: الورق من روق التين.
قوله: (وعصى آدم ربه فغوى) العصيان معناه وقوع الفعل على خلاف ما أمر الله ونهى - وقد يكون عمدا فيكون ذنبا وقد لا يكون عمدا فيكون زلة - وما وقع لآدم كان على جهة الخطأ والنسيان ولا يخل ذلك من قدره وجليل نبوته (فغوى) أي خالف أمر ربه فتعدى إلى ما ليس له أن يتعدى إليه وهو الأكل من الشجرة - وقيل: غوى بمعنى فسد عليه عيشه بالنزول إلى الدنيا حيث العناء والشقاء والمكابدة.
١٢٢ - (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)
قوله: (ثم اجتباه ربه) أي اصطفاه وقربه إليه (فتاب عليه) أي قبل توبته عقب أكله من الشجرة وإحساسه بالندم فاستغفر الله وسأله التوبة والرحمة (وهدى) هداه ربه إلى الثبات على العصمة - وقيل: هداه إلى الاعتذار والاستغفار ٦٠.
١٢٣ - (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)
قوله تعالى: }قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوا فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (١٢٣) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (١٢٧){
أراد بقوله: (اهبطا منها جميعا) ذرية آدم وحواء وإبليس؛ فقد أهبط الله هذه الأصول الثلاثة من الجنة إلى الأرض ليكون بعضهم لبعض عدوا والمراد ذرية كل منهم - وقيل: المراد آدم وزوجه حواء؛ إذ أهبطهما الله من الجنة إلى الأرض لتكون ذريتهما بعضهم لبعض عدو، ذلك بالمباغضات والتحاسد والاختلاف في الدين والمصالح والأهواء مما يفضي إلى النزاع والخصام والاقتتال.
قوله: (فإما يأتينكم مني هدى) أي بيان من الله ورشد (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) من اتبع منهج الله وهداه وسار على محجته المستقيمة؛ فإنه لا يزيغ ولا يتعثر في حياته الدنيا بل يرشد ويستقيم حاله وشأنه ويأمن البوائق والشرور بعون الله وتوفيقه (ولا يشقى) أي لا يخسر الآخرة بل يكون من أهل النجاة والسعادة.
١٢٤ - (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)
قوله: (ومن أعرض عن ذكري) أي أعرض عن القرآن وما فيه من عظيم الأحكام وجليل الفضائل فأدبر عن منهج الله واتبع ما يهواه من ملل الضلال والباطل (فإن له معيشة ضنكا) الضنك والضناكة والضنوكة بمعنى الضيق من كل شيء - وأصل ذلك في اللغة الضيق والشدة ويستوي فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع ٦١، وهذا نذير للناس يتوعد الله به المخالفين عن أمره، المعرضين عن دينه ومنهجه، المقبلين على الهوى والكفر والضلال- يتوعدهم بالمنكود من العيش المتكدّر الذي يُسام فيه الفاسقون الشاردون عن شريعة الله سوء العيش وكَدر الحياة ليجدوا فيهما من ضروب الكروب والاغتمام والتنغيص والجشع ما يؤرق فيهم الأعصاب والمشاعر ويذيقهم القلق والرهق والشقاء.

وهذه هي حال الناكبين عن منهج الله، التاركين لدينه القومي؛ فإن الله مبتليهم في حياتهم الدنيا قبل الآخرة بألوان البلاء والأسقام والعلل النفسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من وجوه البلاء والمضانكة فلا تتيه البشرية في الضلال والعصيان والتفريط عن منهج الله الحق لتستعيض عنه بنظم وضعية كافرة حيث الآثام والمعاصي والفواحش والرذائل والإباحية، حتى يبتليهم الله بويلات الدنيا وتعسها وأخطارها قبل أن يرحلوا إلى دار القرار الأخرى ليلاقوا هنالك ما هو أشد وأنكى - وهو قوله: (ونحشره يوم القيامة أعمى) أي أعمى البصر، زيادة في التنكيل بهؤلاء المعرضين عن ذكر الله وهو قرآنه المجيد ومنهجه الحق، الإسلام وقيل: أعمى عن الحجة.

١٢٥ - (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

قوله: {قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا} أي كنت في الدنيا ذا بصر؛ فهو يسأل ربه هذا السؤال واهما أنه عوقب من غير جرم فعله.

١٢٦ - (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(قال كذلك) أي مثل ذلك فعلت أنت - ثم فسره بقوله: (أتتك آياتنا فنسيتها) أي أتتك منا الدلائل الواضحة فلم تتدبرها، ولم تعتبر بها؛ بل تركتها وأعرضت عنها (فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أي مثل ذلك النسيان منك في الدنيا تنسى اليوم؛ أي تترك فيما أحاط بك من العمى والعذاب.

١٢٧ - (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

قوله: (وكذلك نجزي من أسرف) (أسرف) من الإسراف، وهو تجاوز الحد؛ أي مثل ذلك الجزاء نجزي من أعرض عن الذكر وهو القرآن، وعن التفكر في آيات الله ودلائله، وجاوز الحد في المعصية.

قوله: (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ذلك تأكيد من الله بأن العذاب في الآخرة أفظع وأنكى وأدوم مما يلاقيه العصاة في الدنيا من ضناكة العيش؛ فإن شدة العيش وضيقه في الدنيا يمر ويزول لكن عذاب الله في الآخرة لا يزول ولا يحول ٦٢.

١٢٨ - (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

قوله تعالى: {أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (١٢٨) ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى (١٢٩) فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آنائي الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى (١٣٠)}.

فاعل (يهد) هو المصدر - وتقديره: أو لم يهد لهم الهدى أو الأمر - و (كم)، في موضع نصب مفعول مقدم للفعل - (أهلكنا) وتقديره: كم قرية أهلكنا ٦٣.

والمراد في الآية أهل مكة - والمعنى: أفلم يتبين لهؤلاء المشركين خبر الذين أهلكهم الله من الأمم السابقة الخاوية كقوم عاد وثمود وقوم لوط؛ فهم يمشون في مساكنهم حال سفرهم وترحالهم فيعاينون آثار هلاكهم وتدميرهم - أفلا يخشون أن يحل بهم من العذاب والهلاك ما حل بأولئك الغابرين.

قوله: (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) (النهى)، جمع ومفرده النّهية وهي العقل؛ لأنها تنهى عن القبيح ٦٤ يعني: فيما حصل لأولئك الغابرين الهلكى أوضح الدلائل والعبر لأولي العقول، إذا تدبروا واعتبروا وعلموا أن سبب استئصال أولئك الهلكى هو كفرهم وعصيانهم - وذلك كيما يتعظوا ويزدجروا.

١٢٩ - (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

قوله: {ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى} (أجل) معطوف على قوله: (كلمة) وتقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لزاما؛ أي لازما لهم ٦٥ - والمعنى: لولا الكلمة التي سبقت من الله بتأخير العذاب عن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأجل مسمى وهو القيامة؛ لكان العذاب لازما لهم فلا يتأخر عنهم.

١٣٠ - (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

قوله: (فاصبر على ما يقولون) ذلك تكليف من الله لرسوله المصطفى (ص)، إذ ابتلاه بهؤلاء المشركين المعاندين، بأن يصبر على أذاهم وما يقولونه فيه من زور مكذوب وافتراء مستهجن، إذ قالوا عنه، إنه ساحر، إنه كاهن، إنه مجنون - وغير ذلك من الأقاويل الظالمة المفتراة التي كان المشركون يهذون بها على خير الأنام، ومبدد الكابوس والطغيان وديجور الظلام وحامل لواء الهداية والنور والإسلام - لقد أمره الله أن يصبر على هؤلاء العتاة السفهاء وما يجترونه من سقط الكلام اجترارا.

قوله: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آنائي الليل فسبح وأطراف النهار) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بهذه الآية الصلوات الخمس - فقبل طلوع الشمس، إشارة إلى صلاة الفجر - وقبل غروبها، إشارة إلى صلاة الظهر والعصر - ومن آناء، إشارة إلى صلاة العشاء الآخرة - والآناء جمع ومفرده إني بكسر الهمزة وقصر الألف، وهي الساعة، والآناء الساعات.

وقوله: (فسبح) أي صل (وأطراف النار) إشارة إلى صلاة المغرب وقيل غير ذلك.

قوله: (لعلك ترضى) أي لعلك تجزى على ذلك بما ترضى به ٦٦.

١٣١ - (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

قوله تعالى: }ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى (١٣١) وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى (١٣٢)}.

روي عن أبي رافع مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاما، يقول لك محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذي نصلحه، فبعني كذا وكذا من الدقيق أو سلفني إلى هلال رجب - فقال اليهودي: لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن - قال: فرجعت إليه فأخبرته - قال: والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، ولو أسلفني وباعني لأديت إليه، احمل إليه درعي الحديد - ونزلت هذه الآية تعزية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ٦٧.

قوله: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أزواجا مفعول لقوله: (متعنا) ويعني أصنافا من الكفرة المترفين الغافلين.

أي لا تنظر إلى هؤلاء الفاسقين الذين أترفناهم في الحياة الدنيا وزينا لهم فيها من ضروب الترف والبذخ ما رضوه واطمأنوا به، فغرهم ذلك وأذهلهم عن طاعة الله والتزام منهجه القويم.

قوله: (زهرة الحياة الدنيا) (زهرة)، منصوب بفعل مضمر وهو جعلنا؛ أي وجعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا - وقيل: منصوب على الحال - وقيل: منصوب على البدل من الهاء في قوله: (به) ٦٨.

والمراد بزهرة الحياة الدنيا، زينتها وبهجتها (لنفتنهم فيه) أي لنبتليهم بها حتى يستحقوا العذاب بسبب كفرهم وإعراضهم.

والمعنى: لا تعبأ بزينة الحياة الدنيا وما ينعم به هؤلاء اللاهون الغافلون؛ فليس ذلك كله إلا حطاما داثرا ما يلبث أن يمضي ويزول.

قوله: (ورزق ربك خير وأبقى) رزق ربك: عطاؤه من نعمة الإسلام وما ادخره لعباده الصالحين من حسن الجزاء في الآخرة؛ فهو أفضل وأنفع وأدوم.

١٣٢ - (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

قوله: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) يأمر الله نبيه الكريم (ص) بأمر أمته عامة، وأهل بيته على التخصيص بأداء الصلاة؛ فإنها عماد الدين كله، ولا قوام لهذا الدين من دون الصلاة - ويأمره كذلك أن يصطبر على أداء هذه الفريضة العظمى بامتثالها والمحافظة عليها معهم.

قوله: (لا نسألك رزقا نحن نرزقك) لا نسألك أن ترزق نفسك وأهلك فلا تعبأ بأمر الرزق فإنه مكفول لك ولهم ولكل المؤمنين المتوكلين - وفي هذا روى ابن ماجه بسنده عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " من كانت الدنيا همه: فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له - ومن كانت الآخرة نيته: جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة ".

قوله: (والعاقبة للتقوى) المراد بالعاقبة ههنا الجنة؛ أي العاقبة المحمودة لأهل التقوى ٦٩.

١٣٣ - (وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

قوله تعالى: (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى (١٣٣) ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى (١٣٤) قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى (١٣٥)}.

قال المشركون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: هلا تأتينا يا محمد بآية ظاهرة نحسها ونلمسها كمعجزة الناقة والعصا وغير ذلك من المعجزات الحسية التي أوتيها النبيون السابقون.

قوله: (أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) المراد بالصحف الأولى: الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل - وذلك جواب من الله يرد به ما سأله المشركون المعاندون - والمعنى: أو لم تأتكم آيات الكتب السابقة وفيها من المعجزات ما يحمل على التصديق والتيقن والاستقامة.

وقيل: أو لم تأتكم الآيات في الكتب السابقة وفيها البشرى بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه مرسل من ربه إلى الناس - لكنكم مع ذلك كله كذبتم وجحدتم وأبيتم إلا الإعراض والعصيان.

١٣٤ - (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

قوله: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) أي لو أننا أهلكنا هؤلاء المكذبين المتعنتين قبل أن نرسل إليهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - أو قبل أن ننزل عليهم القرآن العظيم لكانوا قد قالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن تهلكنا (فنتبع آياتك) نتبع، منصوب على جواب الاستفهام بالفاء؛ أي نتبع ما أنزلته إلينا من الآيات (من قبل أن نذل ونخزى) أي نسأم الذل والخزي بالعذاب ودخول النار والافتضاح على رؤوس الأشهاد يوم المعاد.

١٣٥ - (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)

قوله: (قل كل متربص فتربصوا) التربص، الانتظار ٧٠؛ أي كل واحد منا ومنكم منتظر لمن سيؤول الأمر والعاقبة فانتظروا (فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) (من)، استفهامية في موضع رفع؛ لأنها مبتدأ - و (أصحاب الصراط)، خبر المبتدأ - والجملة في محل نصب مفعول لقوله: (فستعلمون) ٧١ سوف تعلمون من هم أصحاب الطريق المستقيم والمنهج الحكيم الذي لا زيغ فيه ولا عوج، ومن هو منا المهتدي إلى الحق والصواب ٧٢.

٢١ سورة الأنبياء:

سورة الأنبياء:

بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية - وفيها من جليل المعاني والعبر والمقاصد ما يستوقف الذهن ويسترعي الحس - وفيها من أخبار النبيين والغابرين وأهوال القيامة وجسيم المواعظ وفيض المشاهد ما فيه مزدجر لكل خبير مدكر - كل ذلك تعرض له هذه السورة بأسلوب القرآن المميز المعروف، حيث الترويع والترهيب والتنذير وروعة النظم العجب الأخّاذ - وليس أدل على ذلك مما تصدرت به السورة عن اقتراب الحساب للناس وهم سادرون في لهوهم وغفلتهم - وذلك في سمت بياني فذ ليس له في الكلام المنظوم نظير.

١ - (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون (٢) لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون (٣) قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو

السميع العليم (٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآيات كما أرسل الأولون (٥) ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون (٦)}.

أراد بالناس، المشركين - وقيل: عموم الناس وهو الأظهر - وحساب الناس، ما ينتظرهم من شدة المحاسبة وعسير الجزاء - واقتراب ذلك للناس يعني دنوه منهم؛ فهو آت لا محالة - وكل ما هو آت قريب - فما تمر السنون والأيام والساعات إلا والناس يقتربون من مغبة الحساب وفداحة الجزاء رويدا رويدا - حتى إذا وقع، كانت الطامة العاتية - وكان الإياس المخوف والمزلزل وكان الفزع الداهم الأكبر الذي يدك الفرائض والقلوب دكا.

كل هاتيك الأهوال والفظائع والمخاوف آتية دانية والناس (في غفلة معرضون) إنهم في غفلة عما ينتظرهم من الحساب العسير، لا هو في الدنيا بزينتها ومتاعها ولعاعاتها الزائفة، معرضون عن التأهب والاستعداد لهذا اليوم العصيب الموعود - يوم الحساب.

٢ - (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

قوله: (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) المراد بالذكر القرآن، و (محدث)، أي حديث النزول والإتيان من رب العالمين - وما ينبغي أن يفهم من ذلك أن القرآن مخلوق كما ظن المخطئون؛ فإن القرآن قديم بقدم باعثه ومنزله عز وعلا - وإنما المراد حداثة العهد بالتلاوة والاستماع؛ فقد كان القرآن ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سورة سورة، أو آية آية، أو جملة من الآيات عقب جملة أخرى، وهكذا حتى استتم الكتاب الحكيم كاملا.

والمعنى: أنه ما كانت تنزل الآيات تلو الآيات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا استمعه الناس من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو من غيره (وهم يلعبون) الجملة حالية؛ أي استمعوا ما نزل من القرآن وهم سادرون في اللعب والغفلة والاستهزاء.

٣ - (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

(لاهية قلوبهم) أي يستمعون وقلوبهم ذاهلة عنه، مشغولة بزينة الحياة الدنيا وزهرتها الفانية الغرورة.

هكذا البشرية في غالبها، لاهية تمام اللهو عن تدبر هذا الكتاب المعجز الحكيم - غافلة تمام الغفلة عن وعيه وإدراك ما حواه من جليل القيم والمبادئ وقواعد الحق والعدل، وحميد الخصال والخلال - والقرآن بسوره المختلفة، وآياته المثيرة، وأسلوبه المذهب، وروعته التي ملكت القلوب والألباب - هذا القرآن بكل ظواهره من الكمال والجمال، يتلى في غالب الآناء ومختلف المجالات والأحوال، لكن الناس يستمعون إليهم وهم غافلون لاهون، مشدودون للدنيا وما حوته من إغراءات وشهوات وفتن.

قوله: (وأسروا النجوى الذين ظلموا) (الذين)، في موضع رفع على البدل من واو الجماعة في قوله: (وأسروا) وقيل: خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هم الذين ظلموا - وقيل: فاعل أسروا - وذلك على لغة من قال: أكلوني البراغيث: وقيل: في موضع جر على أنه نعت للناس ١ والمعنى: أن الذين ظلموا وهم المشركون- تناجوا فيما بينهم بالتكذيب قائلين خفية: (هل هذا إلا بشر مثلكم) يعنون بهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ أي هل هذا الذي يدعوكم إلى دينه ورسالته التي جاء بها إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء - فهو يفعل ما تفعلون، إذا يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق.

قوله: (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) قالوا على سبيل الإنكار التوبيخي: أتجيئون إلى محمد وتتبعونه وأنتم تعلمون أن ما جاء به سحر، أو تتبعونه وأنتم تعلمون أنه إنسان مثلكم ٢.

٤ - (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم (٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون (٥) ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون (٦)}.

قال لهم الله مجيبا عما تناجوا به من الباطل: إن الله لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض؛ فهو عالم بما تناجيتم به من قول مفترى، وظلم مقبوح خفي، ويعلم ما تخفيه صدورهم من مكنون.

٥ - (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ)

قوله: (بل قالوا أضغاث أحلام) (أضغاث) جمع ضغث ومعناه القبضة من الحشيش المختلط رطبه بيابسه - وأضغاث الأحلام، يعني الرؤيا التي لا يصح تأويلها لاختلاطها ٣ - لقد قال المشركون عما يأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وحي: إنه أخلاط كالأحلام المختلطة - ثم أضربوا عن قولهم إنه تخاليط أحلام رآها في نومه، إلى قولهم: (بل افتراه) أي ما جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - إن هو إلا كلام مفترى - ثم أضربوا عن قولهم هذا إلى قوله: (بل هو شاعر) هكذا كان المشركون الظالمون - كانوا متلجلجين حيارى في أقوالهم - مترددين في افتراءاتهم وأباطيلهم الظالمة عن حقيقة هذا النبي الكريم.

فما كان يأتي النبي - صلى الله عليه وسلم - غير الوحي الصادق الأمين المنزل من السماء، إذ كان يأتيه بالسورة أو الآيات - فما كان جبريل يبرحه إلى السماء حتى ترسخ في قلبه آيات الرحمن رسوخ الرواسي ليتلوها بعد ذلك على الناس، فإذا هي منظوم رباني فذ ليس له في كلام العالمين شبيه ولا مثيل، فأين ذلك من أهاويل الرؤية المختلطة في المنام؟!

ولئن قالوا افتراه أو اختلقه من عنده، فما بين القرآن وحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سعة البون وهائل المباينة والاختلاف مثل الذي بين السماء والأرض أو أكبر، فإن الحديث والقرآن، من حيث روعة النظم وعجيب الأسلوب، لمختلفان بالغ الاختلاف، فأنى بعد ذلك لغاشم جهول أن يزعم أن القرآن من صنع محمد - صلى الله عليه وسلم -؟!

أما قولهم: إن محمدا شاعر فلا جرم أن ذلك أبعد في الجهل وأرسخ في الحماقة وتعْس الافتراء والتقوّل - فما كان القرآن إلا قرآنا - هكذا سماه الله، فهو ليس على ضرب من ضروب الكلام في أساليب العرب، كالشعر أو النثر أو السجع أو الخطابة، بل إنه قرآن وكفى.

قوله: (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) سألوا أن يأتيهم رسول الله مثل ما أوتي موسى العصا، ومثل ما أوتي صالح الناقة - مع أنهم يعلمون أكثر من غيرهم من سائر الأمم أن القرآن فيه من كمال الإعجاز ما يغنيهم عن سائر المعجزات الملموسة والمنظورة - لكنه العناد والجحود والاستكبار، وفرط النفور من الإذعان للحق والصواب.

٦ - (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

قوله: (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها) أي ما أتينا أهل قرية من القرى السابقة من آية على يدي رسولها فأمنوا بها بل إنهم كذبوا بها فأهلكناهم بسبب تكذيبهم كقوم صالح وفرعون، إذ آتيناهم آياتنا فجحدوا بها فاستؤصلوا (أفهم يؤمنون) أفهؤلاء المشركون يؤمنون بالآيات لو رأوها - كلا إنهم لا يؤمنون، بل إنهم إذا رأوا ما سألوه من الآيات لسوف ينكثون كذلك.

٧ - (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: }وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٧) وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين (٨) ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين (٩)}.

هذه تسلية وتأنيس من الله لرسوله (ص)، في مقابلة ما قاله المشركون: إن محمدا بشرا مثلكم - والمعنى: أن الله لم يرسل قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا رجالا أوحي إليهم (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) أي إن كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة أو لا تصدقونها فاسألوا أهل العلم بالتوراة والإنجيل، فإنهم يعلمون أن الله لم يرسل أنبياءه من غير البشر.

٨ - (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

قوله: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) لم يجعل الله المرسلين خارجين عن طبائع البشر، غير طامعين، بل كانوا كغيرهم من الناس يأكلون ويشربون (وما كانوا خالدين) لم يكتب لبشر الخلد في هذه الدنيا - وهذه حقيقة يستوي فيها النبيون وغير النبيين - وإنما يصير الجميع إلى الموت لا محالة.

٩ - (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

قوله: (ثم صدقناهم الوعد) صدق الله أنبياءه وعده بإنجائهم من كيد الظالمين المجرمين، وإظهارهم عليهم بقدرته وتوفيقه (ومن نشاء) أي من المؤمنين الصادقين الذين اتبعوا المرسلين وعزروهم ونصروهم (وأهلكنا المسرفين) أهلكنا المكذبين المجاوزين للحدود بالكفر والمعاصي ٤.

١٠ - (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون (١٠) وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين (١١) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون (١٢) لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون (١٣) قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين (١٤) فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا حامدين (١٥)} (ذكرهم)، مرفوع على أنه مبتدأ - وفيه خبره - والجملة (فيه ذكركم) في موضع نصب صفة لكتاب ٥.

وذلك تنبيه من الله على عظيم شرف القرآن وقدره وعلى تكريم هذه الأمة؛ إذ كتب لها هذا الشرف وبما يتجلى فيها من سماحة العقيدة وكمال التشريع ومحاسن الأخلاق؛ فهذه الأمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، حاملة للواء التوحيد والفضيلة والرحمة للبشرية كافة.

قوله: (أفلا تعقلون) الاستفهام للتوبيخ والتقريع؛ أي أفلا تعقلون ما أنعم الله به عليكم من التشريف بالقرآن وما تحلون به من المكارم والشمائل والمزايا.

١١ - (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)

قوله: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) (كم)، في محل نصب بالفعل (قصمنا) - و (قصمنا) من القصم وهو الكسر ٦ - والمراد به هنا الإهلاك؛ أي أهلك الله كثيرا من أهل القرى كانوا مشركين جاحدين ثم خلق الله بعد إهلاكهم (قوما آخرين) سكنوا في مساكنهم.

١٢ - (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ)

قوله: {فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون} لما عاين هؤلاء الذين أهلكناهم ما أنزلنا بهم من العذاب (إذا هم منها يركضون) (إذا) الفجائية؛ أي بادروا للهروب والفرار مسرعين خائفين.

١٣ - (لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)

قوله: (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) نادتهم الملائكة على سبيل التهكم والاستهزاء قائلين: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعمة والبطر (لعلكم تسألون) أي ارجعوا إلى كل ذلك لعلكم تسألون شيئا من دنياكم - وذلك على وجه السخرية.

١٤ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

قوله: {قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين} عندما أحس الظالمون بأس الله نازلا بهم صاحوا يائسين مذعورين: يا هلاكنا لقد ظلمنا أنفسنا بكفرنا - وذلك اعتراف منهم في حين لا يجدي معه الندم.

١٥ - (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ)

قوله: {فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين} عندما أتاهم عذاب الله لم تزل هذه دعواهم وهي قولهم (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) حتى جعلهم الله (حصيدا) أي حتى قتلهم الله فحصدهم بالسيف كما يحصد الزرع ويستأصل (خامدين) أي ميتين - من الخمود وهو الهمود ٧.

١٦ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

قوله تعالى: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون} ذلك بيان من الله للناس بأنه لم يخلق هذا الكون على سبيل العبث واللهو الذي ليس منه جدوى وإنما خلق الله ذلك ليستدل به على قدرته المطلقة وأنه المدبر لأمور الخلق والعالمين، وللتنبيه على امتثال أوامره والإذعان لجلاله وما شرعه للناس من ملة ومنهاج.

١٧ - (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)
قوله: (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا) المراد باللهو هنا الولد أو المرأة - وهو رد على قول المتقولين الذين زعموا أن عيسى ابن الله وأن مريم صاحبته - تعالى الله عن ذلك علوا عظيما؛ فالله يبين لهؤلاء الخراصين المفترين أنه لو أراد أن يتخذ شيئا مما يزعمه هؤلاء لاتخذه ممن عنده من الولدان أو الحور - لكن الله نزّه نفسه عن الشركاء وعن نقائص البشر كاتخاذ الأولاد والصاحبة.
قوله: (إن كنا فاعلين) (إن) أداة نفي؛ أي ما كنا فاعلين شيئا من ذلك وهو اتخاذ الولد أو الزوجة.
١٨ - (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)
قوله: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (بل)، حرف إضراب - و (نقذف)، من القذف وهو الرمي ٨؛ أي ليس من شأننا أن نخلق شيئا عبثا ولا أن نتخذ الولد أو الصاحبة، بل من شأننا أن نسلط الحق على الباطل (فيدمغه) دمغه؛ أي شجّه حتى بلغت الشجة الدماغ بعد أن كسرت عظم دماغه - واسم الشجة هنا الدامغة وهي التي تخسف الدماغ ولا حياة معها - وهي عاشرة الشجاج المعروفة في الجروح من باب الجنايات ٩.
والمعنى: يدحضه ويبطله، أو يقهره ويأتي عليه - والمراد أن الله يسلط الحق على الباطل ليقضي عليه ويبدده تبديدا أو يمحقه محقا - والحق هو القرآن أو الإسلام بما حواه من بالغ الحجج وعظيم الأحكام في كل القضايا البشرية وبما يحمله للناس من تصورات وأساليب مميزة في التربية والأخلاق والسلوك - كل ذلك يجعل من الإسلام خير عقيدة سمحة عرفتها الدنيا، وخير نظام كامل شامل تجد البشرية في ظلاله الأمن والسعادة والاستقرار والنجاة من كل الأدران والمتاعب - وفي مقابل ذلك كله يجثم الباطل على صدر البشرية في غالب الأحوال والأحايين - وذلك هو الباطل بكل صوره وأشكاله ومسمياته التي لقيت البشرية تحت كابوسها ألوانا من الشقاء والتعس والويل - ويلا الحروب والإذلال والاستعباد والخوف - كل ذلك في ظل الباطل التائه العارم المتنفش - الباطل الذي ما يفتأ، بين الحين والآخر، يصول ويتيه عربدة وغرورا وهو يجرجر للبشرية كل ضروب الخراب والفساد والظلم.
ولا يتردد الباطل في كل مكان وزمان عن نفث الشرور والبلايا والويلات للناس، والمسلمين خصوصا - لا يتردد الباطل المتمرد المنتفش العاتي في العدوان على البشرية، والمسلمين خاصة، حتى يقذف الله عليه بالحق وهو الإسلام فيسلطه عليه تسلطيا ويقهره قهرا كيما يتطحطح ويتلاشى - أو ينفى وينهزم.
قوله: (ولكم الويل مما تصفون) ذلك وعيد من الله لهؤلاء المشركين الكاذبين الذين يتقولون على الله الكذب فيزعمون أن له ولدا أو صاحبة - والويل، معناه الهلاك - أو هو واد في جهنم يهوي فيه الجاحدون والمضلون والمجرمون.
١٩ - (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ)
قوله تعالى: {وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢٠) أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون (٢١) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون (٢٢) لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (٢٣) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون (٢٤) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢٥)}.
ذلك إخبار من الله عن عبادة الكون له وخشيته منه وتسبيحه بحمده - فما من شيء في الوجود إلا يسبح بحمد الله - وما من كائن أمام جبروت الله وسلطانه إلا هو بالغ الهوان والذلة - فقال سبحانه: (وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) والمراد بمن عنده: الملائكة المقربون؛ فهم عباد مكرمون أطهار لا ينثنون عن عبادة ربهم بالذكر والتسبيح والخشوع وكمال الطاعة في كل آناء الزمان من غير كلل ولا كسل ولا عجز كعجز الآدميين - وهو قوله: (ولا يستحسرون) أي لا يعيون ولا يتبعون - نقول: حسر البصر حسورا؛ أي كل وانقطع ١٠.
٢٠ - (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)
وذلك هو ديدن الملائكة؛ فهم يعبدون الله ويعكفون على ذكره والثناء عليه، دوام الزمان لا يكلون ولا يملون (يسبحون الليل والنهار لا

يفترون) الملائكة بطبيعتهم المميزة المطهرة منقطعون لعبادة الله وطاعته - وهم شأنهم الدعاء والتسبيح دائمين، لا يجدون في ذلك أيما فتور أو تثاقل أو عنت.

٢١ - (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

قوله: {أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون} (أم) بمعنى بل والهمزة ففيها إضراب - والاستفهام ههنا معناه التعجب والإنكار - يعني اتخذ هؤلاء المشركون الضالون أصناما من جوامد الأرض آلهة لهم - فهل يحيي هؤلاء الموتى فيبعثونهم من الأرض؟! إنهم لا يعبدون شيئا وإنما يعبدون آلهة مصطنعة صما وعميا لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا يملكون أن ينشروا من الموات نملة ولا بعوضة ولا أدنى من ذلك.

٢٢ - (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) الضمير عائد على السماء والأرض - وهما كناية عن العالم كله - و (إلا الله) يعني غير الله.

والمعنى: لو كان يتولى تدبير أمور الكون آلهة شتى غير الله الواحد الذي فطرهما (لفسدتا) أي لأتى عليهما الخراب وساء تدبيرهما وحالهما؛ لما يحدث بين الآلهة المتعددة من التناكر والتنافر والاختلاف - لكن السموات والأرض وما فيهن وما بينهن يطّرد فيهن النظام والتماسك والتكامل وقوة البناء، فضلا عما تقوم عليه السماوات والأرض من روعة الناموس الكوني المفطور، والقوانين الذاتية الراسخة التي تسير عليها عجلة الحياة في أرجاء الوجود - كل ذلك يدل على عظمة الخالق القادر، وأنه واحد لا شريك له (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) وصف نفسه برب العرش لكون هذا خلقا هائلا يفوق في اتساعه وعظمته سائر المخلوقات في هذا الكون - فلئن كان هذا العرض هائلا ومتسعا وعجيبا وهو مخلوق فلا جرم أن الله الخالق أعظم من كل عظيم.

وقد نزّه الله نفسه (عما يصفون) أي عما يفترون على الله من الولد والزوجة.

٢٣ - (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

قوله: {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} الله المتصرف في تدبير الخلْق وإرادته في الكون مطلقة وبالغة - وكل شيء عنده حاصل بقدر - فما من أحد يعترض على مشيئة الله أو يعقب لحكمه؛ بل إن العباد هم المسؤولون في الدنيا عن أعمالهم، وهم المسؤول يوم القيامة سؤال الحساب والجزاء.

٢٤ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

قوله: (أم اتخذوا من دونه آلهة) كرر الإنكار والتوبيخ استفظاعا لكفرهم واستبشاعهم لما زعموه واصطنعوه من الآلهة المفتراه.

قوله: (قل هاتوا برهانكم) وذلك على سبيل التسفيه لهم والاستخفاف بعقولهم؛ فإنه لا حجة لهم ولا دليل من جهة النقل ولا من جهة العقل على أن لله شريكا - إنما الله واحد لا شريك له - وهذه حقيقة تشهد بها الكتب السماوية وهو قوله: (هذا ذكر من معي وذكر من قبلي) يشهد هذا القرآن بأن الله وحده ليس له شريك، وأنه عظة لهذه الأمة وكذلك تشهد الكتب السماوية السابقة بذلك، وهي عظة لأمم النبيين من قبل محمد - صلى الله عليه وسلم -.

قوله: (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) (بل)، حرف إضراب، وذلك بعد أن بيّن أنهم جاحدون غير ممتنعين عن الكفر - فإن أكثر هؤلاء الضالين المكذبين إنما سبب كفرهم وضلالهم هو الجهل بقدر الله وعظيم شأنه - وكذلك جهلهم بحقيقة هذا الدين الكريم الذي جاء يحمل لهم الخير والسلامة والسعادة - وهذه معضلة البشرية الضالة في كل زمان، وزماننا هذا على وجه التخصيص - إنها معضلة البشرية الجامحة في الإعراض عن منهج الله الذي كتبه للعالمين ليكون لهم نجاة وأمنا في الدنيا والآخرة - لكن البشرية في جُلها مدبرة عن هذا الدين في شرود جامح لجوج بسبب الجهل المطبق الذي يحول بينها وبين تعاليم الإسلام.

وما ينبغي أن ننسى هنا ما تعرضت له البشرية في كل زمان وفي هذا الزمان خاصة- من حملات التشويه والتشكيك والتخريص والافتراء على الإسلام بمختلف الأساليب الفكرية والثقافية والإعلامية التي استند إليها خصوم الإسلام في الغرب والشرق لغسل أذهان الناس والمجتمعات لحملها على كراهية هذا الدين العظيم - فسبب البون العريض بين الإسلام وأذهان البشرية: هو الجهل بحقيقة الإسلام

في روعة عقيدته وكمال تشريعه وما يرسخه في الدنيا من قواعد الحق والعدل والرحمة (فهم معرضون) بسبب الجهل الذي يركب أدمغة البشر، أدبر الناس عن دين الله وجمحوا في الإعراض عنه جموح الأحمق السفيه الذي يتخبط تائها ذاهلا في الديجور وهو يمضي في طريق الشياطين من طواغيت الإنس والجن.

٢٥ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

قوله: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (رسول) عام لفظا ومعنى؛ أي ما من رسول بعثه الله من قبل هذا النبي إلا أوحي إليه أن الله واحد لا شريك له - وهذه هي عقيدة التوحيد الخالص التي لم يختلف فيها النبيون والمرسلون - وذلك يقتضي أن يذعن الناس لله بالخضوع والاستسلام، وأن يسلموا له القياد والطاعة ١١.

٢٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

قوله تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٨) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين (٢٩)} نزلت في قبيلة من العرب وهي خزاعة؛ إذ قالوا الملائكة بنات الله، فقد نزه الله نفسه عن هذه النقيصة التي لا يتلبس بها إلا المحتاجون للعون والمساعدة، وتعالى الله عن ضعف الحاجة لغير وأنى لله أن يتخذ من الملائكة وغيرهم الولد أو الصاحبة وهو خالق كل شيء، وبيده مقاليد السماوات والأرض - أما الملائكة فإنما هم عباد لله طائعون مُخبتون مخلصون، وهم قد زادهم تشريفا وقرّبهم إليه تقريبا.

٢٧ - (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

قوله: (لا يسبقونه بالقول) إنما يتبعون قول الله فلا يقولون شيئا حتى يقول الله (وهم بأمره يعملون) الملائكة متوغلون في الإذعان لله بكامل الطاعة والخضوع؛ فهم لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به.

٢٨ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

قوله: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) الله يعلم ما تقدم من أعمالهم وما تأخر؛ فإن الله محيط علمه بكل شيء.

قوله: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ليس لأحد منهم أن يتشفع لغيره من العباد إلا أن يكون الله راضيا عنه، وهو أن يكون مسلما سبقت منه الكلمة العظمى، كلمة الحق وهي شهادة: لا إله إلا الله، فلا شفاعة البتة لجاحد أو مشرك أو منافق (وهم من خشيته مشفقون) الملائكة خلق مكرم مبارك متوغل في العبادة والطهر والإخبات؛ فهم دائمو الخشية من الله - ولا يكون المؤمنون إلا مستديمي الخوف من الله فكيف بهم إن كانوا ملائكة مقربين.

٢٩ - (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

قوله: (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) وهذا وعيد شديد وتنذير رعيب من الله بالإصلاء في جهنم لمن ادعى منهم أنه إله يُعبد - وهذا على سبيل الفرض والتمثيل؛ فإن الملائكة عباد مكرمون معصومون عن الإثم أو المخالفة عن أمر الله.

قوله: (كذلك نجزي الظالمين) من الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه ١٢ والمراد بهم الكافرون الذي يضعون الإلهية في غير موضعها ١٣.

٣٠ - (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (٣٠) وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون (٣١) وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون (٣٢) وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (٣٣)}.

ذلك تنبيه من الله عظيم قدرته المطلقة، وسلطانه البالغ، وعلمه المحيط؛ ليعلم الناس أنه ليس من إله عظيم معبود سوى الله الخالق العليم

- فقد بيّن لنا هنا في قرآنه الحكيم، حقيقة علمية ظاهرة، سبق القرآن بها العلوم والعقول والنظريات في الطبيعة والفلك، إذ يقول: (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) (أولم)، الواو للعطف - و (السماوات)، جمع أريد به الواحد - فالسماوات والأرض جنسان كانا (رتقا) أي مرتوقين - بمعنى مضمومين ملتحمين فكانا شيئا واحدا متصلا بعضه ببعض.
قوله: (ففتقناهما) من الفتق وهو الشق وهو ضد الرتق ١٤؛ أي شققناهما وفصلنا بينهما، لنجعل السماوات سبعا طباقا - ولنجعل الأرضين سبعا كذلك - وفي خلال الجنسين وبينهما من عظيم الخلائق وعجائب الأشياء والكائنات ما لا يعلم عدته ومداه إلا الله.

لقد كانت السماوات والأرض متلاصقتين، إذ كان الجميع متلاصقا متراكما يتصل بعضه ببعض حتى شاء الله أن يفصل بين الصنفين لتكون السماوات بأفلاكها ونظامها المنسجم وما فيها من الكواكب والنجوم والأجرام ومختلف الكائنات ما يدير الرأس عجبا - وكذا الأرض جعلها الله على هيئتها الراهنة من الكيفية والصلوح للحياة والقرار على متنها إلى أن يأذن الله بالفناء والنهاية.
وذلك الذي قد توصل إليه علم الطبيعة والفلك في هذه المسألة الكونية - وجملة ذلك: أن هذا الكون الهائل لم يكن في زمانه الموغل في القدم على هيئته الراهنة من الانفصال والتكامل والاتساق - وإنما كان الكون كله سديما واحدا متصلا وملتحما بعضه ببعض - فلا جرم أن تكون هذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز في القرآن - قوله: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي خلق الله كل ذي حياة من الماء - ولفظ شيء بإضافته للماء، من العام المخصوص؛ فقد خرج بذلك منه الملائكة والجن وكل ذي غير حياة نامية.
قوله: (أفلا يؤمنون) استفهام إنكار يفيد التعجب من فرط الهوان الذي يغشى عقول السفهاء والضالين من الناس، المعرضين عن الدلائل والآيات والنذُر، والذين لا يتدبرون آيات الله في الكون والطبيعة الدالة على جلال الله، وعلى أن هذا القرآن حق وصدق - والمعنى المراد: أفلا يزدجر هؤلاء المشركون والعصاة الضالون عن الكفر والجحود فيفيئوا إلى التصديق والطاعة والإيمان بما أنزل الله.
٣١ - (وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)
قوله: (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم) الرواسي، الجبال الراسية - رسا، رسوّا أي ثبت ١٥ - أي جعل الله في الأرض جبالا ثقالا ثوابت لئلا تضطرب الأرض أو تتحرك بمن عليها - وهذه ظاهرة عجيبة تثير الانتباه والتدبر في هذه الآية من الكتاب الحكيم - وذلك أن الأرض جرم من أجرام كونية كثيرة في هذا الوجود.
لكن هذا الجرم بالقياس إلى غيره من الأجرام الهائلة؛ فإنه بالغ الصغر والبساطة حتى ليوشك أن يضطرب ويهتز، ويتحرك إذا لم يترسخ بأجسام هائلة جسام تثقله وتثبته فكانت الجبال الراسيات.
قوله: (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) الفجاج، جمع ومفرده الفج، وهو الطريق الواسع بين جبلين ١٦؛ أي جعلنا في الأرض مسالك واسعة يسلكونها ليبلغوا ما يريدون - وقد قدّم (فجاجا) وهو وصف لسبل؛ ليصير حالا فيدل ذلك على أن الله حين خلقها قد خلقها كذلك.
قوله: (لعلهم يهتدون) أي ليهتدوا بهذه السبل إلى ما يقصدونه من البلاد والأقاليم.
٣٢ - (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)
قوله: (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) ما رفع على شيء فهو سقف - وهذه السماء قد جعلها الله بناء كونيا رفيعا، في غاية القوة والتماسك والاتساق، وقد حفظه الله من السقوط والتداعي، أو من البلى والتغير من طول الزمان (وهم عن آياتها معرضون) هؤلاء الضالون والجاحدون والفاسقون، معرضون عن تدبر ما في السماء من الآيات الظاهرة، والعجائب الباهرة - معرضون عن التفكير في هذه الخلائق العظام؛ إذ هم عنها ساهون ذاهلون، لا يعبأون ولا يتفكرون إلا في شهواتهم وأهوائهم الوضيعة الخسيسة.
٣٣ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)
قوله: (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر) هذه آيات كبريات تعرض لقدرة الله وبالغ عظمته؛ فهو الخالق المقتدر العليم، الذي ذرأ الكون وما فيه من خلائق وأجرام وظواهر - ومن جملة ذلك: هذه الظواهر الأربع العجاب التي ذكرتها الآية ههنا - وهي

الليل، إذا تغيب الشمس عن شطر عظيم من الأرض فيرخي الظلام سدوله على هذا الشطر، ليستنيم الناس ويجدوا في ذلك هجعتهم وسكونهم.
ثم النهار بضيائه وإيناسه، وما يتجلى فيه من مظاهر الحركة والنشاط والجد وكل وجوه السعي والكد والجهاد.
ثم الشمس - هذا الجرم الكوني العجيب الذي يعدل مئات الملايين من المرات مساحة الأرض - وهو كتلة متأججة مستعرة من اللهب المتوقد المضطرم - والشمس، إذ تفيض على الدنيا بالإشراق والضياء والدفء، فإنها تنشر فيها الحياة والنماء والحرارة وكل أسباب العطاء والقرار.
ثم القمر، هذا الجرم الساطع اللامع المتلألئ المحبوب، الذي يثير في الدنيا الجمال والسرور وينشر في النفس البهجة والسكينة والحبور - لا جرم أن هذه الآيات الكبريات لأعظم شاهد على قدرة الخالق المبدع الدّيّان.
قوله: (كل في فلك يسبحون) الفَلَك بالتحريك، مدار النجوم وجمعه أفلاك - والفلك من كل شيء مستداره ومعظمه ١٧ هذا في اللغة - والمرد به هنا أنه المتسع من السماء الذي تجري فيه الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب - ولكل واحد منها فلك يخصه ويدور فيه.
وقوله: (يسبحون) أي يسيرون ويدورون - والضمير، للشمس والقمر - والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة وهي متكاثرة - وقيل: ثمة معطوف وهو، والنجوم، أي أن كل واحد من هذه النجوم والأجرام سواء الشمس والقمر وغيرهما إنما يدور في فلكه وهو متسعه ومستداره الذي يدور فيه ١٨.
٣٤ - (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)
قوله تعالى: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون (٣٤) كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥)} ذكر أن بعض المسلمين قال: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لن يموت إنما هو مخلد - فأنكر ذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية - وقيل: طعن كفار مكة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه بشر يأكل الطعام ويموت فكيف يصح إرساله - وقال الزمخشري: كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته - فنفى لله عنه الشماتة بقوله: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون) أي لم يجعل الله لأحد بقاء دائما في هذه الدنيا، وإنما كل بشر لا محالة صائر إلى الموت - وهذه سنة كتبها الله على آدم وذريته، لا تبديل لسنة الله.
قوله: (أفإين مت فهم الخالدون) الهمزة للاستفهام - والفاء للعطف - وإن، شرطية - والجملة بعدها جواب الشرط - وذلك دفع للشماتة التي تخفيها قلوب الماكرين والحاسدين والمتربصين الذين يتربصون برسول الله - صلى الله عليه وسلم - دائرة الموت، وهم أنفسهم صائرون إليه.
وهذا ديدن الحاقدين السخفاء في كل زمان، إذ يتربصون بالمسلمين الدوائر فيؤملون أن تنزل بهم النائبات والبلايا، ومنها داهية الموت - فلا جرم أن ذلك ضرب من السفه والحماقة تتلبس بهما عقول السخفاء والماكرين من الناس وهم يشمتون بخصومهم إذا أتى عليهم داهم الموت الذي لا ينجو منه أحد - وهو قوله: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة)
٣٥ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)
(كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة) الله يمتحن عباده بمختلف وجوه الفتن سواء في ذلك الشر أو الخير، حتى يتبين الصابر من الفاجر، أو يتبين الشاكر من الكافر (جاحد النعمة) فهو سبحانه يمتحن الناس بالغنى والفقر، أو بالصحة والسقم، أو بالشدة والرخاء - وهذه الوجوه المتباينة من ضروب البلاء تكشف عن عزيمة الإنسان المبتلى، ومدى اقتداره على الثبات والاحتمال عند مداهمة الفتن سواء في الخير كنعمة المال والصحة والسلطان والشباب، أو الشر كالفقر والمرض والذل والهرم - ثم يؤول الجميع بعد ذلك إلى ربهم ليلاقوا الجزاء - وهو قوله: (وإلينا ترجعون).
٣٦ - (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)
قوله تعالى: {وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون (٣٦) خلق الإنسان

من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون (٣٧)} نزلت في أبي جهل؛ إذ مر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فضحك مستهزئا وقال: هذا نبي بني عبد مناف - وهذا ديدن المجرمين من كبراء المشركين والمضلين الذين كانوا يلمزون النبي ١٩ (ص) ويسخرون منه سفها وجهلا - وذلك في مقابلة التنديد بشركهم وسفاهتهم؛ إذ يعبدون أصنامهم الصماء وآلهتهم الموهومة المصطنعة - فقال الله فيهم: (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا) إن، أداة نفي - وهزوا مفعول ثان للفعل (يتخذونك) - أي ما يتخذك هؤلاء المشركون الضالون (إلا هزوا) أي يستهزءون بك وينتقصون من شانك - قوله: (أهذا الذي يذكر آلهتكم) الاستفهام للإنكار - والذكر يكون بالخير وبالشر - والقرينة تدل على أنه بالشر؛ لأن الذاكر غير صديق للمشركين - يعني: أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفّه أحلامكم (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) الجملة في موضع للحال؛ أي أن حالهم هي أصل السخرية والاستهزاء وهو كفرهم بالله ورسوله وكتابه - والمعنى: أنهم ينكرون عليك يا محمد ذكر آلهتهم الفاسدة بالتنديد، وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن وما أنزله على رسوله؛ فهم أحق أن يستهزأ بهم؛ لأنهم مبطلون - ورسول الله محق.

٣٧ - (خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ)

قوله: (خلق الإنسان من عجل) العجل والعجلة مصدران، بمعنى تقديم الشيء على وقته - وقيل: نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل وقوع العذاب وهو يقول ذلك مستهزئا؛ فبين الله لهم أنه آتيهم الهلاك المعجل في الدنيا، والعذاب في الآخرة - وهو قوله: (سأوريكم آياتي فلا تستعجلون) أي سترون نقماتي فلا تستعجلوا الإتيان بها.

وقيل: المراد بالإنسان هنا اسم الجنس؛ فقد ذكر خلقه من عجل، على سبيل المبالغة؛ لكثرة استعجاله - أو لأنه مطبوع على الاستعجال. هكذا الإنسان منذ أن خلق الله آدم أبا البشر ثم ذريته من بعده؛ فإنهم مفطورون على العجلة والاستعجال، فلا يصبرون أو يتمهلون أو يتأنون إلا قليلا - وقد ذكر عن آدم عليه السلام أنه خلق بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس - وروي عن أبي هريرة قال، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منه، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي- وقبض أصابعه يقللها- فسأل الله خيرا، إلا أعطاه إياه " قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة وهي التي خلق الله فيها آدم.

قال ابن كثير: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا: أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول – صلوات الله وسلامه عليه- وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى: (خلق الإنسان من عجل) لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ٢٠.

٣٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون (٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون (٤٠)} يقول المشركون ساخرين مستهزئين (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أي متى الساعة أو العذاب الذي تخوفوننا به.

٣٩ - (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

فرد الله عليهم: {لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون} جواب لو، محذوف وتقديره: لما استعجلوه - وقيل: لعلموا صحة الموعود وسارعوا إلى الإيمان؛ أي لو يعلم هؤلاء المستهزءون، الوقت الذي يستعجلونه، وهو وقت عصيب وبئيس؛ إذ تحيط بهم النار من كل جانب، وحيئنذ (لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) تطبق عليهم النار إطباقا، فتلفح وجوههم وظهورهم وسائر أبدانهم (ولا هم ينصرون) أي ليس لهم نصير يدفع عنهم العذاب، أو يرد عنهم فظاعة التحريق بالنار وهي تكوي جلودهم وأجسادهم.

٤٠ - (بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

قوله: (بل تأتيهم بغتة) تفجأهم الساعة، أو النار (فتبهتهم) أي تحيرهم وتغلبهم فيستسلمون مذعورين وجلين (فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) لا يقدرون على دفع النار عن أنفسهم ولا هم يُمهلون، أو لا يؤخر عنهم العذاب البتة ٢١.

٤١ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

قوله تعالى: }ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون (٤١) قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون (٤٢) أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون (٤٣){ هذه تسلية من الله لرسوله مما أصابه من أذى المشركين وصدهم عنه وتكذيبهم له، فالله جل وعلا يبين لرسوله (ص) كيلا يبتئس مما أصابه أن ما سبقك من النبيين والمرسلين قد أصابهم مثل ما أصابك من الأذى؛ فقد استهزأ بهم المشركون المكذبون (فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) فقد كان المشركون يستهزئون بالعذاب فضلا عن تكذيبه؛ أي نزل بالذين كانوا يسخرون من رسلهم العذاب الذي كانوا يستبعدون نزوله ويسخرون منه.

٤٢ - (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

قوله: (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) استفهام تقريع وتوبيخ؛ أي من الذي يحفظكم من بأس الله في كل أوقاتكم؛ إنه ليس من كالئ لكم يحفظكم من عذاب الله ليلا أو نهارا غيره سبحانه (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أي لا يصلح المشركون الظالمون لكلاءة الله ورعايته بسبب إعراضهم عن دين الله أو قرآنه.

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

قوله: (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) (أم)، بمعنى بل والهمزة؛ أي بل ألهم آلهة من دوننا تمنعهم من عذابنا - وقال ابن عباس: في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم من عذابنا؟ أي أم لهم مانع من سوانا يدرأ عنهم عذابنا - ثم استأنف الإخبار عن آلهتهم فبين أن ما لا يستطيع أن ينصر نفسه أو يمنعها، ولا هو بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يستطيع أن يمنع غيره أو ينصره.

٤٤ - (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

قوله تعالى: }بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون (٤٤) قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون (٤٥) ولئن مسهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين (٤٦) ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين (٤٧){ - أشار بقوله: (هؤلاء) إلى المخاطبين وهم كفار قريش ومن عبد من دون الله آلهة أخرى - فقد بين الله أنه متّع هؤلاء المشركين ومتّع آباءهم من قبلهم بما آتاهم من زينة الحياة الدنيا (حتى طال عليهم العمر) أي طالت أعمارهم في الخير والنعمة، وطال عليهم الأمد في الرخاء، فقست قلوبهم وظنوا أنهم دائمون في حالهم هذا - وهم في ذلك واهمون سادرون في الضلالة بإمهالهم إلى الوقت الذي يأخذهم الله فيه بالعذاب.

قوله: (أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) المراد بنقص أطراف الأرض هو نقص أرض الكفر والكافرين وذلك بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وجعلها دار إسلام - وذلك تبشير من الله للمسلمين حينئذ بما يفتح الله عليهم من نصر وغلبة - ويؤيد هذا التأويل قوله: (أفهم الغالبون) الاستفهام للتقريع والتوبيخ؛ إذ لم يزدجروا ولم يعتبروا بما يجري عليهم من انحسار وخذلان وهزيمة؛ فهم المغلوبون الأخسرون الأذلون.

٤٥ - (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)

قوله: (قل إنما أنذركم بالوحي) أي إنما أخوفكم من العذاب بالقرآن لا من تلقاء نفسي - وما كان من عند الله فهو الحق والصدق، ثم

أخبر الله عز وعلا أنه مع إنذار المشركين وتحذيرهم وتخويفهم من العذاب، فإنهم معرضون عما أنذروا به - وهو قوله: (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) اللام في (الصم) للعهد وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين، أي أنهم لا يسمعون الإنذار، لأنهم صم عن سماعه فلا جدوى من إنذارهم أو تحذيرهم.

٤٦ - (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

قوله: {ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين} النفحة، من الريح بمعنى الدفعة - و من العذاب بمعنى القطعة ٢٢ - والمعنى: أنه لئن مسّ هؤلاء المشركين أقل قطعة أو دفعه يسيرة من عذاب الله فلسوف يذعنون ويدعون على أنفسهم بالهلاك معترفين بأنهم كانوا خاطئين، وأنهم ظلموا أنفسهم بالوقوع في الخطيئة فاستحقوا العذاب.

٤٧ - (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

قوله: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) (الموازين) - جمع ميزان - وهو ما لا ندري بتصورنا الدنيوي المحدود ماهيته وحقيقته - ولكنه الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة وكفى - وفي الأظهر أن المراد بالموازين، الميزان الواحد - وقد جمع هنا باعتبار تعدد الأعمال التي توزن فيه - وقد وضعت الموازين بالقسط وهو العدل على سبيل المبالغة فيه- أي في العدل - وهي كأنها في نفسها قسط (ليوم القيامة) أي لأهل يوم القيامة - وقيل: اللام بمعنى في، أي في يوم القيامة.

قوله: (فلا تظلم نفس شيئا) (شيئا) مفعول به ثان، أي لا يمس أحدا ظلم - وإنما يوفى كل إنسان بما عمل (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) أي وإن كان الشيء أو العمل مثقال حبة من خردل) الخردل، حبّ شجر، يعالج بطلائه النقرس والنسا والبرص، ودخانه يطرد الحيات - وهو ملين هاضم ٢٣

قوله: (أتينا بها) من الإتيان، أي أحضرناها لنجازي بها (وكفى بنا حاسبين) أي عالمين حافظين، لأنه لا يغيب عنا شيء من أعمال العباد - وفي ذلك من الوعيد ما لا يخفى ٢٤.

٤٨ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى: {ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين (٤٨) الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون (٤٩) وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون (٥٠)} المراد بالفرقان، التوراة - وهو الضياء والذكر، أي آتيناهما كتابا هو فرقانا وضياء وذكر - أما الفرقان: فلكونه فارقا بين الحق والباطل - وضياء، لأنه يستضاء به في ظلمات الجهالة والضلال، ولأنه يفضي بالضرورة إلى النجاة في الدارين - وذكر لأنه للتذكرة والموعظة والتنبيه أو بمعنى الشرف - وذلك كله (للمتقين) الذين يخافون الله ويذعنون له بالخضوع والامتثال.

٤٩ - (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

وقد وصفهم الله بقوله: (الذين يخشون ربهم بالغيب) أي يخافون الله ولم يروه - أو يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس.

قوله: (وهم من الساعة مشفقون) أي خائفون من دواهي القيامة وما فيها من الأهوال والبلايا - وذلك هو شأن المؤمنين الأتقياء، فإنه لا يغيب عن أذهانهم ذكر الساعة وما فيها من هول الحساب.

٥٠ - (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

قوله: (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) الإشارة إلى القرآن، فإنه حافل بالخير والرحمة وجزيل المنافع، أنزلناه على محمد ليكون هداية للعالمين.

قوله: (أفأنتم له منكرون) استفهام إنكار وتوبيخ، يخاطب الله به المشركين الجاحدين - والمعنى: أفتنكرون هذا القرآن وهو في غاية الوضوح والإعجاز والصدق والجمال.

٥١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

قوله تعالى: {ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين (٥١) إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون (٥٢) قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين (٥٣) قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين (٥٤) قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين (٥٥) قال بل

ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين (٥٦)} يبين الله في هذه الآية وما بعدها من الآيات في هذه السورة حال كثير من النبيين من حيث ما أصابهم من البلاء بسبب عدوان الظالمين عليهم - وذلك على سبيل التسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكيما يتأسى بهم فيما حصل له من قومه من الأذى - ويأتي في طليعة هؤلاء النبيين المبتلين بأممهم الضالة العاتية، خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام - فقد آتاه الله الهدى وألهمه الحق والحجة على قومه، وسلك في قلبه وفطرته الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا حال كونه صغيرا - وذلك من قبل موسى وهارون.

قوله: (وكنا به عالمين) الله عليم بما آتى إبراهيم من الرشد والحكمة والنبوة وكمال البصيرة وأنه أهل لما آتاه الله من ذلك.

٥٢ - (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

قوله: {إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون} (إذ قال)، يعني اذكر حين قوله لأبيه وقومه: (ما هذه التماثيل) يراد بها الأصنام المصورة على هيئة السباع والطيور والإنسان - والاستفهام للتحقير والتصغير والاستهانة؛ فقد ندد إبراهيم بأصنام قومه تنديدا بليغا، واستنكر عبادتهم أيما استنكار، مستصغرا بذلك سوء صنيعهم، وسفاهة أحلامهم، وفرط جهالتهم بعبادة هذه الآلهة المصطنعة الموهومة التي هم على عبادتها (عاكفون) أي مقيمون ملازمون.

٥٣ - (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)

قوله: {قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين} لم يأتوا بحجة ولا برهان، إلا التقليد الأصم والمحاكاة الضالة العمياء من غير نظر ولا تفكير - وذلك هو التقليد السقيم الذي يتعطل به العقل، وتمتهن فيه الفطرة والفكرة.

كذلك كان السابقون من قوم إبراهيم عليه السلام، إذ ألفوا ما كان يعبد آباؤهم من تماثيل الخشب والحجر فلجوا في عبادتهم لجوجا.

٥٤ - (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

فرد عليهم إبراهيم كما علمه ربه {لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين} أي أنتم المقلّدون، وآباؤكم المقلّدون موغلون مستقرون في الضلال الظاهر والجهالة التي لا تخفى على ذي مسكة عقل.

٥٥ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبِينَ)

قوله: {قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين} استعظموا إنكاره عليهم واستبعدوا كونهم على ضلال، من أجل ذلك جوزوا أن ما قاله إبراهيم مزاح وهزل - فسألوه: أجئتنا بالجد أم بالهزل، أي أجاد أنت فيما تقول أم لاعب - فأخبرهم أن ما قاله حق وأنه جد لا هزل، وهو قوله: (بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن)

٥٦ - (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

(بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن) وذلك إضراب عن كونه لاعبا، إذ أخبر أنه جاد، وأن الذي يستحق العبادة لهو رب العالمين، وهو رب السماوات والأرض، ورب كل شيء (الذي فطرهن) أي فطر الأصنام التي تعبدونها، فهو خالقها وخالقكم وخالق كل شيء - لا جرم أنه أحق أن تعبدوه وتذعنوا لطاعته (وأنا على ذلكم من الشاهدين) الإرادة عائدة إلى المذكور من توحيد الله وإفراده بالربوبية دون غيره - وهذه حقيقة لا ريب فيها وأنا عليها (من الشاهدين) أي من الذين يشهدون على هذه الحقيقة وهم كثيرون - وهي حقيقة جلية بلجة لا يجحدها إلا كل مأفون جهول متعنت ٢٥.

٥٧ - (وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)

قوله تعالى: {وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧) فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين (٥٩) قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (٦٠) قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون (٦١) قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون (٦٣)}.

أقسم إبراهيم الخليل عليه السلام ليكيدن أصنام هؤلاء الضالين السفهاء بتكسيرها وتحطيمها بعد أن يبرحوا مغادرين - وهذا صنع هائل قام به النبي الأكرم إبراهيم بشجاعته الفذة المعروفة وجرأته البالغة في مواجهة الباطل على نحو ليس له في الرجال نظير - ذلك بالرغم مما كان يحف به من المخاطر العصيبة، خصوصا إذا علمنا مبلغ جهالة القوم ومدى تشبثهم بالأصنام وحبهم لها، وعلى رأسهم الطاغوت العاتي نمروذ - لكن إبراهيم بقلبه الكبير الحافل بالإيمان واليقين والثقة بالله أجدر أن لا يخشى أحدا سوى الله - وأجدر أن يكون أهلا لما صنعه بأصنام القوم من تقطيع وتهشيم، دون أن يثنيه عن ذلك ضعف أو خشية من سطوة الظالمين وعدوانهم وهو قوله: (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) التاء، من حروف القسم - والمراد بالكيد الاجتهاد في تكسير الأصنام مع ما يخالط ذلك من لطيف الحيلة في الإخبار عن نفسه بأنه سقيم وأن الذي قام بالتكسير كبيرهم من الأصنام نفسها - لذلك أقسم قائلا: تالله لأجتهدن في تحطيم هذه الأصنام معقب خروج القوم إلى عيد لهم.

٥٨ - (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

قوله: (فجعلهم جذاذا) أي حطاما أو قطعا - من الجذ بالفتح وهو القطع ٢٦.

هكذا فعل إبراهيم بالأصنام، إذ كسّرها بفأسه تكسيرا حتى صيرها حطاما باستثناء الصنم الكبير منها، فقد تركه ثم علق فأسه في عنقه- أي عنق الصنم.

قوله: (لعلهم إليه يرجعون) أي فعل إبراهيم ما فعله بأصنامهم ترجيا منه أن يرجعوا إلى الله بالتوبة والندامة والاستغفار ومجانبة الشرك والضلال، أو يرجعوا إلى الصنم الكبير وقد علق إبراهيم الفأس في عنقه فيسألوه عمن فعل هذا بالأصنام فلا يجيبهم - وفي ذلك ما يحملهم على مراجعتهم أنفسهم أو تبكيتها ثم الإدراك بأن هذا الصنم أصم لا يعي ولا ينطق - وما الأصنام المكسرة إلا أحجار من الحجارة المصفوفة الخرساء، فأجدر ألا تكون آلهة مربوبة، مما ينبههم إلى أنهم غائرون في السفاهة والباطل، فعسى أن يزدرجوا عن ظلمهم ويفيئوا إلى الحق بعبادة الله وحده.

وعندما رجع القوم من عيدهم وأقبلوا على أصنامهم فألفوها على حالها من التحطيم أسقط في أيديهم واستشاطوا غضبا ورغبة في الثأر والانتقام لما حل بآلهتهم المصطنعة من تكسير وتهشيم.

٥٩ - (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

{قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين} أي من فعل هذا بأصنامنا من التحطيم والإهانة والتحقير لهو شديد الظلم، لجراءته على توريط نفسه في الهلاك وفي إغضاب الأصنام.

٦٠ - (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ)

قوله: {قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} قيل: سمعه بعض الناس من عبدة الأصنام - وقيل: سمعه واحد منهم - والمرد بالفتى الشاب - قال ابن عباس في هذا الصدد: ما بعث الله نبيا إلا شابا.

فقد سمعه (يذكرهم) أي يعيبهم ويحلف أنه ليكيدنهم ويقال له إبراهيم.

٦١ - (قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

قوله: {قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون} قال المشركون وفي طليعتهم نمروذ: أحضروا إبراهيم معاينا مشاهدا على رؤوس الأشهاد وفي حضرة الناس جميعا ليشهدوا عليه بما قاله عن أصنامهم وما صدر عنه من تكسير لها - أو يشهدون ما يحل به من عقابهم جزاء ما فعله في أصنامهم.

٦٢ - (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)

قوله: {قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} سألوه مستنكرين مستعظمين صنعه: أأنت الذي فعلت ما فعلته من تكسير الأصنام وتهشيمها؟

٦٣ - (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)
قوله: (قال بل فعله كبيرهم هذا) أسند الفعل وهو التهشيم إلى كبيرهم، وما كان قصد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصده تقرير ذلك لنفسه على أسلوب تعريضي مستهزئ يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة مع ما يصاحب ذلك من تقريع لهم وتبكيت - حتى إذا تفكروا مليا علموا أن كبيرهم لهو عاجز عن فعل شيء، فهو لا يصلح إلها وإنما الله هو الإله الواحد الحق، وليس من إله معبود سواه - وذلك كان مراد إبراهيم عليه السلام - أما ما نسب إلى إبراهيم من كذبة حسبت عليه، فالصواب في ذلك أن ما قاله إبراهيم ههنا كان من باب المعاريض المباحة وليس الكذب الممحض.
قوله: (فسألوهم إن كانوا ينطقون) دعاهم إبراهيم أن يسألوا الأصنام عن حالهم ليبادروا من أنفسهم فيوقنوا أنها لا تنطق مؤملا عقب ذلك تحررهم من ضلالهم وإشراكهم وإيغالهم في عبادة الأصنام.
٦٤ - (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)
قوله تعالى: {فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم (٦٦) أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧) قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين (٧٠)}.
بعد أن أقام إبراهيم الحجة على القوم المشركين رجعوا إلى عقولهم وأطرقوا متفكرين (فقالوا إنكم أنتم الظالمون) وذلك حين سألتم إبراهيم ولم تسألوا الأصنام، أو حين أبهتم إبراهيم، والفأس في عنق الصنم الكبير - فمن لا يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن نفسه وعن عابديه البأس؟ أو لأنكم نسبتم إبراهيم إلى الظلم في قولكم: (إنه لمن الظالمين) فهذه الأصنام مستحقة لما فعله إبراهيم بها من تحطيم ٢٧.
٦٥ - (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ)
قوله: (ثم نكسوا على رءوسهم) أي انقلبوا إلى المجادلة والخصام بالباطل - نكسه، أي قلبه على رأسه - والمنكوس، المقلوب، أي جعل أعلاه أسفله ٢٨.
والمعنى: أن الله أجرى على لسانهم في القول الأول، ثم انقلبوا منكوسين مرتطمين في غيهم - فردوا بذلك إلى الشقاوة والكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم - ثم قالوا في لجاجة وعناد: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)، يعني إنك لتعلم يا إبراهيم أن هذه الأصنام عاجزة عن النطق، فكيف تأمرنا بسؤالها ومخاطبتها؟! وهذا غاية في جلاء البرهان على أنهم ظالمون مبطلون، وهو أبلغ في الكشف عن إيغالهم في السفه والسخف وهوان الأحلام.
٦٦ - (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ)
قوله: {قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم} استفهام توبيخ وتقريع، بعد أن اعترفوا أن هذه الأصنام جامدة صماء لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، وما هي إلا تماثيل بلهاء خرساء، لا تنطق ولا تعي - ومع ذلك كله فإنهم يعبدونها من دون الله.
٦٧ - (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
قوله: (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) (أف) كلمة تضجر وتكرّه، بتشديد الراء - وتأفف من كرب أو ضجر ٢٩، فقد شجر إبراهيم من هؤلاء المشركين ومن عبادتهم الفاسدة - وقال في صوت المتضجر " قبحا لكم ولأصنامكم التي تعبدونها (أفلا تعقلون) أفلا تفهمون أن هذه تماثيل جامدة صماء لا تعي ولا تدرك - ومن كانت هذه صفته فيما يليق بذي عقل أن يعبده.
٦٨ - (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)
ولما قامت الحجة عليهم ورأوا وضوح الدلائل والبينات وأيقنوا أنهم ماضون في الباطل، لجوا في المعاندة والاستكبار وتمادوا في العتو والجحود فقالوا: (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) بعد أن استبان زيف دعواهم وفساد مزعمهم وأن حجتهم داحضة وليس لهم

أمام الحق من دليل ولا برهان إلا التلبس بالحماقة وأوهام التماثيل والأصنام، عدلوا كعادة المكابرين والمعاندين المفلسين- إلى الطغيان والتسلط والقوة - فقال بعضهم لبعض: (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) أي انصروها بالانتقام من إبراهيم بما فعله فيها من تهشيم إن كنتم تنتصرون لآلهتكم - من أجل ذلك راموا تحريقه في النار مبالغة في الانتقام والتنكيل - والتحريق بالنار أفظع ضروب النكال الذي يعذب به كائن - وهم لاشتداد غضبهم وفرط تشبثهم بالأصنام وحبهم لها مع ما يخالط عقولهم من الضلال والسفه والظلم- فقد اختاروا النار لتعذيب إبراهيم بها ثم قتله جزاء ما يدعوهم من عبادة الله وحده - وما ينبغي هنا الإسهاب في بيان مسائل جانبية مما لا يخلو من إفراط الإسرائيليات، كعدة حبسه عليه السلام، ومدة جمع الحطب، ومدة سنه إذ ذاك، ومدة إقامته في النار وغير ذلك من المسائل الجانبية التي كثرت فيها الأقوال - والأهم من ذلك كله جوهر المسألة هنا وهو تمالؤ القوم المجرمين وعلى رأسهم الطاغية الأكبر نمروذ - تمالؤهم على تحريق إبراهيم في النار، وذلك أفظع ما تتصوره العقول عن مواجهة الطغاة لداعي الحق، وهو ما يبتغي لهم غير الهداية والرشاد والكف عن ضلال الشرك والوثنية.

إن ذلك أشد ما تبلغه القلوب الظالمة من قسوة وحقد وتحجر وهي تؤز الظالمين المجرمين لمثل هذا التعذيب الشنيع - ومع ذلك كله فرسول الله إبراهيم مستسلم لله، مذعن لجلاله، راض بقدره - فما تردد أو اضطرب أو تزعزع، وما مال أو لانَ أو استكان أو انثنى، بل إنه كان في هذه الساعة الرهيبة العصيبة لأشد بأسا من أولي البأس جميعا، وأعظم رسوخا واستقرارا من الجبال الشم الراسيات على وجه البسيطة مع أنه كان موثوقا بالقيود والأغلال، وكان صابرا مذعنا راضيا بما كتبه الله له من بلاء - وقيل: إن المجرمين وضعوا إبراهيم في كفة منجنيق ليقذفوه في النار من بُعد - وذلك لهول ما أعدوه من نار حامية مستعرة شارك سائرهم في إيقادها وجمع الحطب لها - فلما القوه فيها قال عليه الصلاة والسلام قولته الكريمة العظيمة: حسبي الله ونعم الوكيل - وهو ما رواه البخاري عن ابن عباس أن إبراهيم قالها حين ألقي في النار وقالها محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قالوا: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وذكر أن جبريل عرض إبراهيم وهو في الهواء عقيب إلقائه بالمنجنيق فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا وأما من الله فبلى؛ فاستحق إبراهيم من الله العون والمدد والكرامة، وفرج الله وعونه لعباده المظلومين الصابرين دان قريب.

٦٩ - (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

قد صير الله النار بردا وسلاما بعد أن نزع ما فيها من خصوصية الإحراق وهو قوله سبحانه: (يا نار كوني بردا وسلما على إبراهيم) جعل الله النار على إبراهيم ذات برد وسلام، إذ لم يجعلها باردة وكفى - ولو كانت كذلك لما احتملها إبراهيم لشدة برودتها لكن الله أذهب شدة بردها بجعلها سلاما آمنا لا يمس إبراهيم منها حر ولا أذية - وهذه معجزة ربانية عظمى أتمها الله تنجية لنبيه إبراهيم وبرهانا للعالمين كما تظل الدنيا دوام الزمن تذكر هذا الحدث الهائل الجلل الذي يحمل الأذهان على التصديق والاستيقان، ويؤكد أن نواميس الكون وقوانين الطبيعة والحياة كلها بيد الله، فإن شاء نزعها أو أوقف جريانها ليصنع ما يشاء من الخوارق والمعجزات.

٧٠ - (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ)

قوله: {وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين} أراد المجرمون أن يكيدوا لإبراهيم أعظم كيد وذلك بإلقائه في النار - لكن الله ردهم إلى الخزي والخسران، إذ جعل كيدهم في نحورهم فأبطل ما راموه لإبراهيم من سوء الكيد - وقيل: سلّط الله عليهم ما هو أحقر خلقه وأضعفه وهو البعوض، بأكل لحومهم وشحومهم وشرب دمائهم، وسلّط الله على نمروذ بعوضة قد دخلت من منخره إلى دماغه فجعلت تضطرب فيه وتنهشه وهو يصطرخ من شدة الألم اصطراخا، وقد ظل على حاله كهذه مدة طويلة من الوقت حتى مات ٣٠.

٧١ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين (٧١) ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين (٧٢) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين (٧٣) ولوطا آتيناه حكما وعلما

ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين (٧٤) وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين (٧٥)}.
بعد أن نجى الله نبيه إبراهيم من كيد المجرمين في العراق أخرجه مهاجرا إلى الشام وهي الأرض التي بارك الله فيها بما جعله فيها من الخصب والخيرات وكثرة المبعوثين من النبيين الذين أرسلهم الله من هذه الديار ليشيعوا الإيمان والحق والتوحيد في البلاد - وذكر أن إبراهيم نزل بفلسطين ومعه زوجته الصالحة المؤمنة سارة وهي ابنة عمه.
وأما لوط فهو ابن أخيه وقد آمن به واتبع ملته وهاجر معه إلى ديار الشام ثم نزل بالمؤتفكة.
هكذا كتب الله على عباده الصالحين المقربين أن يهاجروا فرارا بدينهم إلى حيث الأمن وزوال الفتنة - وفي الحديث: " إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم ".
٧٢ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ)
قوله: (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلَة) النافلة بمعنى العطَيَة - والنفل بالتحريك يعني الهبة ٣١؛ فهي بذلك مصدر - وقيل: النافلة ولد الولد؛ فقد أعطاه إسحاق ثمرة دعائه، وأعطاه يعقوب نافلة؛ أي زيادة؛ فهي حال من يعقوب.
قوله: (وكلا جعلنا صالحين) (كلا) مفعول أول للفعل (جعلنا) - والمفعول الثاني، (صالحين) - فقد جعل الله إبراهيم ولوطا وإسحاق ويعقوب أهل تقي وخير وصلاح
٧٣ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)
(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أي جعلناهم أئمة هداة يقتدى بهم في الدين والصلاح؛ إذ يرشدون الناس بوحي الله وأمره إلى دينه وشرعه - قوله: (وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أوحى الله إلى هؤلاء النبيين الأطهار أن يفعلوا جميع الأعمال الصالحة - وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة - وذلك من باب عطف الخاص العام - قوله: (وكانوا لنا عابدين) أي مذعنين مستسلمين لله، مخلصين له في الطاعة والعبادة.
٧٤ - (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)
قوله: (ولوطا آتيناه حكما وعلما) لوطا، منصوب على الاشتغال، أي بفعل يفسره قوله: (آتيناه حكما) أي النبوة - وقيل: الحكمة هي ما يجب فعله من العمل - أو حسن الفصل بين الخصوم في القضاء - والمراد بالعلم هنا الفقه أو ما ينبغي علمه للأنبياء.
قوله: (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) القرية، هي سدوم وقيل: كانت قراهم سبعا وقد عبّر عنها بالواحدة؛ لاتفاق أهلها على الفاحشة، وكانت في فلسطين من الشرق إلى حد نجد بالحجاز - وقد قلب الله منها ستا وأبقى ما كان يقيم فيها لوطا وأهله ومن آمن به - والمراد بالخبائث اللواطة (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) أي خارجين عن طاعة الله، فهم مشركون طغاة وفوق ذلك، فعلتهم المستقذرة النكراء وهي اللواط - فقد نجى الله لوطا من ظلم هؤلاء الفاسقين وفسادهم.
٧٥ - (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)
قوله: {وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين} أي جعلناه في أهل رحمتنا، أو في الجنة؛ فقد كان من أهل الصلاح وقد سبقت له منا الحسنى ٣٢.
٧٦ - (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)
قوله تعالى: {ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين (٧٧)} (نوحا)، منصوب بفعل محذوف، والتقدير: واذكر نوحا حين دعا على قومه بالهلاك من قبل هؤلاء المذكورين؛ فقد دعا نوح ربه مستعينا به مستجيرا وهو قوله: (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) وقال أيضا (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديار).
قوله: (فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) استجاب الله لنوح دعاءه على قومه المجرمين ونجاه وأهله الذين آمنوا معه (من

الكرب العظيم) أي من الطوفان وهو التغريق ومما كابده فيهم من شدة الأذية والتنكيل والتكذيب، فقد لبث فيهم ألف عام إلا خمسين عاما يدعو إلى الله الواحد الحق ولم يجد منهم إلا الجحود والإعراض والنكال.

٧٧ - (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي نجيناهم من أذى هؤلاء المجرمين الأشرار وكيدهم وسوء صنيعهم (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أي أغرقهم الطوفان فأتى عليهم جميعا سواء فيهم الذكور والإناث والصغار والكبار.

٧٨ - (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

قوله تعالى: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين (٧٨) ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين (٧٩) وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون (٨٠) ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين (٨١) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٨٢)}.

كان داود ملكا نبيا- يحكم بين الناس فوقعت هذه النازلة - وكان ابنه، إذ ذاك قد كبر وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم - فتخاصم إلى داود رجل له حرث أي زرع، وقيل: كرم - وقد دخلت زرعه أو كرمه غنم رجل فأفسدت عليه، فحكم داود في ذلك بدفع الغنم إلى صاحب الزرع أو الكرم، وقد استوت قيمتاهما؛ أي قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث - فجاء سليمان فقال: يا نبي الله إني أرى ما هو أرفق بالجميع: أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان - ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل - فإذا عاد الحرث إلى حاله صرف كل مال صاحبه إليه فرجعت الغنم إلى ربها والحرث إلى ربه - فقال داود: وفقت يا بني - وقضى بينهما بذلك - والظاهر أن كلا من داود وسليمان حكم بما ظهر له؛ فهو عنده متوجه، وهو قول الجمهور - وقيل: حكم كل واحد منهما بوحي من الله وقد نسخ حكم داود بحكم سليمان.

أما في شريعتنا: فإنه لا ضمان على صاحب الغنم سواء أتلفت الحرث نهارا أو ليلا إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد يقودها - وهو قول الحنفية - وقد استدلوا بالخبر: " جرح العجماء جُبار " وعند الشافعية، وجوب ضمان المتلف بالليل لا بالنهار؛ إذ المعتاد ضبط الدواب ليلا - وقد قضى النبي - صلى الله عليه وسلم - في حائط أفسدته ناقة البراء بمثل ذلك - وبين أنه على أهال الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل.

ذلك هو مجمل القصة - ثم نأخذ في تفسير الآيات وهي قوله: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) أي واذكر قصة داود وسليمان (إذ يحكمان في الحرث)، بدل منهما - والحرث معناه الزرع أو الكرم، والأول أظهر - (إذ نفشت فيه غنم القوم) (إذ)، ظرف للفعل (يحكمان) و (نفشت)، من النفش وهو تشعيث الشيء بالأصابع حتى ينتشر، والتنفيش هو أن ترعى الغنم أو الإبل ليلا بلا راع ٣٣ فأكلته وأفسدته (وكنا لحكمهم شاهدين) أي كنا للحكم الذي صدر في هذه القضية عالمين فلا يخفى علينا منه شيء - والضمير في حكمهم عائد على الحاكمين والمحكوم لهما وعليهما.

٧٩ - (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

قوله: (ففهمناها سليمان) أي فهمنا سليمان الفتوى أو الحكومة ٣٤ في القضية، وفي هذا دليل على أن الصواب كان في حكم سليمان عليه السلام - والقصة ما بيناه آنفا.

قوله: (وكلا آتينا حكما وعلما) آتى الله كلا من داود وسليمان (حكما)، أي النبوة، و (وعلما)، أي معرفة بالقضاء في الخصومات والقضايا - وهذا دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه، وأن كل مجتهد مصيب.

قوله: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) التسخير، معناه التذليل (يسبحن)، جملة فعلية في موضع نصب على الحال، بمعنى مسبحات (والطير)، معطوف على الجبال - والمعنى: ذللنا مع داود الجبال مسبحات - وذلك لطيب صوته عليه السلام بتلاوة الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويبا - وقد قدمت الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أشد

عجبا وأظهر في الإعجاز، لأنها جماد - وقد روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما مر على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت حسن ومستطاب، وقف واستمع لقراءته وقال: " لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود " فقال يا رسول الله: " لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيرا " أي جعلته ذا نغمة حسنة - ومنه الحبور وهو السرور - وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه - والمراد بتسبيح الجبال والطير وقوع ذلك منهن بالنطق، وهو قولهن: سبحان الله.

ومن هنا ندرك حكمة النهي عن الملاهي، وهي الأدوات الموسيقية على اختلاف أنواعها باستثناء الدف، لما في هذه الأدوات من تطريب سيفضي في الغالب إلى الاستغناء عن التطريب بالقرآن - هذا الكلام المعجز المستعذب الذي يتلوه أولو المواهب مرتّمين ٣٥ محبرين، لتأتي تلاوتهم على أحسن ما تكون عليه الأصوات من نداوة وحلاوة - فما ينبغي للمسلمين أن يستغنوا عن التطريب بالقرآن، بغيره من الملاهي المصطنعة من الأدوات الموسيقية - لا جرم أن التهلي بسماع الموسيقى سيطفئ في القلوب والوجدان رويدا رويدا جذوة الترنم بالقرآن - فما يوغل المرء في استماع الموسيقى حتى يفتر في حسه مذاق الابتهاج بسماع هذا الكتاب الرباني الكريم.

ونجزم في يقين أن الاستماع إلى أصوات ندية حسنة تردد آيات القرآن سوف يُغني عن التلذذ بأدوات الطرب من الملاهي المصنوعة - وفي المسلمين في كل زمان طائفة من أولي الأصوات الشجية الندية ما يستجيش الوجدان ويستحوذ بالغ الاستحواذ على الفكر والبال والجنان، ويُجهش في القلوب والأرواح إحساسا مستفيضا من الحبور والتملّي وإشاعة البهجة والجمال وبالغ العظة والادكار.

قوله: (وكنا فاعلين) أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال، وتسبيحهن والطير، وليس ذلك بدعا من الله وإن كان عندكم عجيبا.

٨٠ - (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)

قوله: (وعلمناه صنعة لبوس لكم) اللبوس والملبوس، ما يلبس - والمراد به هنا الدرع - وقيل: اللبوس كل آلة السلاح من سيف ورمح ودرع وغير ذلك من أصناف السلاح - فقد علّم الله نبيه داود كيف يصنع الدروع أو أنواع السلاح من صفائح الحديد وذلك (لتحصنكم من بأسكم) أي تقيكم من حرب عدوكم (فهل أنتم شاكرون) استفهام بمعنى الأمر - أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم.

٨١ - (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)

قوله: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) أي سخرنا لسليمان الريح عاصفة، يعني شديدة الهبوب - و (عاصفة) منصوب على الحال - ووصفت الريح في موضع آخر بالرخاء، أي اللين - وذلك لأن الريح كانت تجري باختيار سليمان نظرا للوقت الذي يريد فيه سليمان أحد الوصفين وهو الهبوب العاصف، أو اللين الطيب - وقيل: كان الرخاء في البداية، والعصف بعد ذلك - وذلك على عادة المسافر يبدأ مبطئا، ثم يأخذ في الإسراع - والمراد بالأرض التي بارك فيها، بلاد الشام، لكثرة ثمارها وخيراتها ومياهها - وقد ذكر المفسرون أنه كان لسليمان بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض - ذلك مما سخره الله لهذا النبي الكريم ومما امتن به على بني إسرائيل من المزايا والنعم.

قوله: (وكنا بكل شيء عالمين) أي أن الله محيط علمه بالأشياء يجريها على ما يقتضيه علمه.

٨٢ - (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)

قوله: (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك) الغوص معناه النزول تحت الماء - والغواص من يغوص في البحر على اللؤلؤ ٣٦.

والمعنى: أن الله سخر من الشياطين من يغوصون في البحر بأمر سليمان ليستخرجوا منه الجواهر واللآلئ ويعملوا له أشياء أخرى غير الغوص كبناء المحاريب والقصور والتماثيل وغير ذلك (وكنا لهم حافظون) كيلا يزيغوا عن أمر سليمان، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، فهم في قبضة الله وتحت قهره ولا يجترئ منهم أحد على الإساءة إلى سليمان بل هو يحكم فيهم كما يريد ٣٧.

٨٣ - (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)
قوله تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين (٨٣) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرب وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين (٨٤)}.
نبي الله أيوب، ذكر أنه رومي من نسل إسحاق بن إبراهيم - وهو ذو قصة عجيبة مثيرة تتردد على ألسنة البشرية طوال الدهر بما كرّمه الله به من حسن الثناء والذكر لفرط ما كان عليه من بالغ الصبر والعزيمة؛ فقد لقي هذا النبي العظيم من كبير البلاء ما يعزّ على البشر أن يحتملوه - فواجه ذلك بالاصطبار والثبات دون زعزعة أو خور أو تبرم إلا الدعاء والتضرع إلى الله.
وهو قوله: (وأيوب إذ نادى ربه) أي اذكر أيوب حين دعا ربه في خشوع وتوسل ورضى بما صنع فيه - وجملة ذلك: أن الله بعثه للناس نبيا ورسولا، وبسط عليه من الدنيا الخير الكثير؛ فكان كثير الأهل والمال والولد - وقد ابتلاه الله أشد ابتلاء؛ إذ أمات كل ولده وأذهب عنه ماله جميعا، وابتلاه بالمرض في بدنه سنين طويلة، قيل: سبع سنين، وقيل أكثر - وقيل: ابتلاه الله بمرض الجذام أصاب سائر بدنه، فنفر منه الناس وعافوه وزهدوا في الدنو منه أو مجالسته باستثناء زوجته الصالحة؛ فقد كانت تقوم بأمره، وتصلح شأنه ما استطاعت - وقيل: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله.
وفي هذه الحال العصيبة من شدة البأساء والضراء، وموت الأهل والولد، وانقطاع الصحب والخلان يتوجه هذا النبي العظيم الصابر إلى الله متضرعا متوسلا يدعوه في غاية الخضوع والصبر والطاعة بقوله: (أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) الألف واللام في الضر للجنس لتعم الضر في الأهل والمال والبدن وقيل: الضر بالضم خاص بما في النفس من مرض وهزال - وبالفتح، ما كان شائعا في كل ضرر.
قوله: (وأنت أرحم الراحمين) لم يصرح بل اكتفى بذكر ما حل به من بلاء، وما يتجلى في ربه من صفة الرحمة البالغة - وهو يرتجي بذلك أن يكشف الله عنه ما أصابه - وهذا غاية في كمال الطاعة والتأدب مع الله في حسن الطلب.
٨٤ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)
قوله: (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) استجاب الله دعاء أيوب؛ إذ تضرع إليه متذللا متوسلا؛ فكشف عنه ما أصابه من بلاء وهو قوله: (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) يفيد ظاهر الآية أن لله رد على أيوب ما كان له من أهل؛ إذ أحياهم له بأعيانهم وآتاه كذلك مثل أهله مع أهله من الأولاد والأتباع (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) (رحمة) منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي كشفنا عنه ضُره وآتيناه؛ ما آتيناه لرحمتنا، إياه وليكون ذلك موعظة لغيره من العابدين فيصبروا مثل صبره ويؤجروا مثل أجره.
٨٥ - (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ)
قوله: {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين (٨٥) وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين (٨٦)} أي واذكر هؤلاء البررة الصابرين من النبيين - وهم إسماعيل بن إبراهيم، وهو النبي الذبيح الذي كرّمه الله بطهر الذكرى، وعظّمه بفضيلة المعجزة؛ إذ اختاره لواحدة من كبرى المعجزات الربانية بصحبة أبيه خليل الرحمن - ثم افتداه ربه بذبح عظيم لتنجيته من الذبح جزاء ثباته واصطباره ورسوخه في اليقين والاستسلام لله رب العالمين.
وأما إدريس فهو شيث بن آدم عليه السلام - وأما ذو الكفل، أي ذو الحظ من الله - والكفل معناه الحظ والنصيب ٣٨ وهو نبي، في قول أكثر المفسرين - فقيل: هو إلياس - وقيل: زكريا - وقيل: يوشع بن نون - وقيل: كان عبدا صالحا ولم يكن نبيا.
قوله: (كل من الصابرين) أي هؤلاء الذين ذكرنا، كلهم موصوفون بالصبر - وهذا ثناء من الله عليهم؛ إذ يذكر لهم هذه السجية العظيمة وهي الصبر.
٨٦ - (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ)
قوله: {وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين} هذه الفئة المختارة من كرام البشر، قد حفّت بهم رحمة الله الواسعة؛ إذ اصطفاهم

الله لرسالته ونشر دينه وكتب لهم الفوز والنعيم في الآخرة - وهم من أهل الخير والفضل والصلاح.
٨٧ - (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: }وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (٨٧) فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجي المؤمنين (٨٨)} (النون)، معناه الحوت - (وذا النون) أي صاحب الحوت وهو يونس ابن متّى؛ فقد بعثه الله إلى أهل نينوى بالعراق فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا واستكبروا، فغضب منهم لله شديد الغضب - وهو قوله: (إذ ذهب مغاضبا) (مغاضبا)، منصوب على الحال - أي مراغما لقومه - ومعنى مغاضبته لهم: إنه أغضبهم بمفارقته لهم؛ إذ خافوا أن يحل بهم عقاب من الله - وقد ذكر إنه تبرّم بهم لطول ما دعاهم إلى عبادة الله وذكَّرهم تذكيرا فلم يتعظوا؛ بل أقاموا على كفرهم معاندين - فراغمهم يونس إغضابا لهم ظنا منه جواز ذلك، مع أنه لم يفعله إلا غضبا وبغضا للكفر والكافرين؛ فقد كان عليه أن يحتمل ويصبر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم - من أجل ذلك ابتلاه ربه ببطن الحوت - وهو قوله: (فظن أن لن نقدر عليه) أي نضيق عليه - وقد ذكر أنه عليه السلام حال مغاضبته لهم، ذهب صوب البحر فركب مع قوم في سفينة فاضطربت بهم وخافوا الغرق، فاقترعوا على رجل من بينهم يلقونه في البحر يتخففون منه، فوقعت القرعة عليه ثلاث مرات؛ إذ كانوا يأبون أن يلقوه لما لمسوه فيه من صلاح وتقوى - فما لبث يونس بعد ذلك أن ألقى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) جمع الظلمات لشدة تكاثفها فكأنها ظُلمة فوق ظلمة - وقيل: الظلمات هي: ظلمة بطن الحوت - وظلمة البحر - وظلمة الليل.
وفي هذه الساعات العصيبة التي تذهب فيها النفس ويغيب فيها كل نصير ومعوان، وينقطع فيها الرجاء من كل أسباب المدد أو النجاة، يلوذ المؤمن المبتلى المكروب برب العالمين؛ ليجد في رحابه الأمن والسكينة والرضى وعسى أن يكشف عنه الغم ويدرأ عنه ما أحاط به من بلاء وهو يدعو ربه ضارعا إليه متذللا (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) أي ظلمت نفسي بخروجي من قومي قبل أن تأذن لي في الخروج - وقد روى الترمذي والنسائي بسنده عن سعد قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من دعا بدعاء يونس استجيب له " وروى الإمام أحمد بسنده عن عثمان بن عفان من حديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فيه: " نعم دعوة ذي النون، إذ هو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له ".
٨٨ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) (الغم)، معناه الحزن والكرب ٣٩؛ فقد استجاب الله ليونس بن متى دعاءه؛ إذ قذفه الحوت إلى الساحل بعد ما لبث في بطنه مدة من الزمان، فكشف عنه ما أصابه من الاغتمام حين التقمه الحوت، ومدة لبثه في بطنه حيث الظلام والإيحاش والكرب الشديد - (وكذلك نجي المؤمنين) أي مثل تلك التنجية تنجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا متضرعين مستعينين ٤٠.
٨٩ - (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)
قوله تعالى: }وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين (٨٩) فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين (٩٠) والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين (٩١)} يعني واذكر زكريا حين دعا ربه أن يهبه الولد ليرثه ولا يتركه وحيدا من غير وارث - ثم رد أ مره إلى ربه خاضعا مذعنا (وأنت خير الوارثين) إن لم ترزقني وارثا فتلك مشيئتك وأنت خير باق وخير من يرث.
٩٠ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)
فاستجاب الله له الدعاء ووهبه الولد الصالح يحيى عليه السلام وهو قوله: (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أي جعل الله زوجته صالحة للولادة بعد أن كانت عاقرا لا تلد.

قوله: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا) الضمير في قوله: (إنهم) يعود على الأنبياء المذكورين - فقد كانوا أبرارا أتقياء وكانوا مستجابي الدعاء، لانهم كانوا يبادرون أبواب الطاعات وفعل الصالحات، وكانوا يعبدون الله (رغبا ورهبا) مصدران في موضع الحال - أو مفعول لأجله، أي كانوا يعبدون الله ويدعونه رغبة في جزائه الكريم ورضوانه العظيم، وخوفا من عذابه الأليم.

قوله: (وكانوا لنا خاشعين) أي خائفين وجلين متورعين.

٩١ - (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

قوله: (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) أي واذكر مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها من الحلال والحرام (فنفخنا فيها من روحنا) أي أمرنا جبريل بالنفخ في جيب درعها فأحدثنا في بطنها بهذا النفخ ولدها عيسى - وأضاف الروح إلى نفسه تشريفا لعيسى عليه السلام.

قوله: (وجعلناها وابنها آية للعالمين) (آية) مفعول ثان للفعل جعلنا - وأفرد (آية) إذ لم يقل آيتين، لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير زواج ولا مَسيس لقد جعل الله من هذا الحدث الهائل الخارق عبرة لمن اعتبر وادّكر في العالمين إنسهم وجنهم.

٩٢ - (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

قوله تعالى: }إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٩٢) وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون (٩٣) فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون (٩٤)} الأمة، بمعنى الملة - والإشارة في الآية إلى ملة الإسلام وهي ملة جميع النبيين والمرسلين - و (أمة واحدة) منصوب على الحال - و (واحدة) صفة لها - وقيل: (أمة)، بدل من هذه.

والمعنى: أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا جميعا عليها دون انحراف أو زيغ عنها، ملة واحدة غير مختلفة؛ فهي ملة التوحيد الخالص لله بعيدا عن كل ظواهر الشرك والزيف والتكلف والتحريف.

٩٣ - (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

قوله: (وتقطعوا أمرهم بينهم) الضمير في قوله (وتقطعوا)، عائد على ضمير الخطاب في قوله (أمتكم) - أي وتقطعتم - ثم عدل عن الخطاب إلى لفظ الغيبة التفاتا، للنعي على الذين تفرقوا في الدين - وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم قائلا: انظروا إلى فعلة هؤلاء في إفساد دين الله، إذ جعلوه بينهم قطعا وصاروا فرقا وأحزابا - ثم توعدهم الله لافتراقهم بأنهم جميعا راجعون إليه فمجازيهم عما فعلوه.

٩٤ - (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

قوله: (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) الذي يأتي يوم القيامة بالصالحات من الأعمال (وهو مؤمن) الجملة في موضع نصب على الحال، أي وحاله التصديق بما يجب التصديق به من أركان العقيدة وما تقتضيه من ضروب الإيمان (فلا كفران لسعيه) أي لا تضييع لما قدمه من الطاعات وفعل الصالحات (وإنا له كاتبون) أي مثبتون ذلك في صحيفة عمله ٤١.

٩٥ - (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ)

قوله تعالى: }وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون (٩٥) حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون (٩٦) واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين (٩٧)} (وحرام)، هنا بمعنى ممتنع؛ أي وممتنع على أهل قرية قدرنا عليهم الإهلاك بكفرهم، رجوعهم إلى الدنيا إلى أن تقوم القيامة - وقال ابن عباس في تأويل الآية: وجب أو قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة.

٩٦ - (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)

ويستمر الإهلاك وعدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها - ومن جملة أماراتها: فتح سدّ يأجوج ومأجوج، وهم من نسل نوح عليه السلام وقد تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين؛ فهم يطلعون من كل ثنية ومرتفع ليملأوا الأرض فسادا وتخريبا بكثرتهم

وفساد طبائعهم - وهو قوله: (وهم من كل حدب ينسلون) الحدب المرتفع من الأرض ٤٢ و (ينسلون)، أي يسرعون ٤٣ وفي هذا الصدد أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " إنكم تقولون لا عدو لكم وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوا حتى يأجوج ومأجوج عراضَ الوجوه، صغار العيون، صهب الشعاف ٤٤، من حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة ".

٩٧ - (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

قوله: (واقترب الوعد الحق) أي اقترب الوعد ببعث الخلائق وقيام الساعة - وهو وعد حق لا ريب فيه (فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) (شاخصة)، من الشخوص وهو إحداد النظر دون أن تطرف، وذلك لهول ما يجدونه من الفظائع والشدائد في يوم القيامة، فهم ينادون مذهولين مذعورين (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) يقولون في هذا الحال من الذعر والإياس: يا للهلاك والخسران، ما كنا نعلم أن هذا حق - ثم أضربوا عن قولهم هذا ليعلنوا معرضين بأنهم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الإيمان والنذر.

٩٨ - (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

قوله تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (٩٨) لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون (٩٩) لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون (١٠٠) إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (١٠١) لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون (١٠٢) لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون (١٠٣)} يخاطب الله المشركين الذين يعبدون من دون الله آلهة أخرى بأنهم وما يعبدونه من الأصنام والشياطين على اختلاف أجناسهم (حصب جهنم) والحصب بمعنى الحجارة والحطب وما يرمى به في النار ٤٥، أو هو وقودها الذي تسجر به وتستعر - أي العابدون والمعبودون وقود النار وهم جميعا (لها واردون) أي فيها داخلون.

٩٩ - (لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله: (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) هذه المعبودات المفتراة والآلهة المصطنعة التي عبدوها من دون الله، لو كانت آلهة حقا لما كانت وقودا للنار، بل إن تسجيرها في النار شاهد بأنها مخلوقات من خلائق الله، فما يعبدها إلا كل جهول كفور (وكل فيها خالدون) أي العابدون والمعبودون جميعا ماكثون في النار لا يخرجون - وهذا نذير للذين يعبدون غير الله - سواء كان المعبود صنما، أو شيطانا من الجن أو الإنس، كمن يعبدون الطواغيت والجبابرة من البشر - لا جرم أن هؤلاء جميعا مكبكبون في النار وبئس المستقر والمصير.

١٠٠ - (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ)

قوله: {لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون} الزفير، صوت النفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو في النار - وهذه حال المشركين الظالمين في النار ويضاف إلى ذلك كونهم في النار صما لا يسمعون شيئا، زيادة في التنكيل المفظع.

١٠١ - (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

قوله: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} قال محمد بن إسحاق في كتاب السيرة في سبب نزول هذه الآية: وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المسجد غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل عبد الله بن الزبعرى حتى جلس معهم فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا ولا قعد - وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا كهذه حصب جهنم - فقال عبد الله الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا: كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد

المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم - فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته " فنزلت الآية - وقيل: لما اعترض ابن الزبعرى قيل لهم: ألستم قوما عربا، أو ما تعلمون أن (من) لمن يعقل - و (ما) لما لا يعقل؟ فبطل اعتراضه.

و (الحسنى)، تأنيث الأحسن - والمراد بها السعادة والنجاة والفوز بالجنة، وأولئك مبعدون عن النار وما فيها من عذاب.

١٠٢ - (لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

قوله: (لا يسمعون حسيسها) الحسيس، معناه الصوت، وحسه، أي أحرقه ٤٦، أي هؤلاء الذي سبق لهم في علم الله الفوز والنجاة لا يسمعون صوت النار الملتهبة المتأججة، مبالغة في الابتعاد عنها.

قوله: (وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون) (اشتهت)، من الشهوة - وهي طلب النفس اللذة - وهؤلاء الذين كتب الله لهم الحسنى يقيمون في النعيم الدائم ليجدوا فيه ما تشتهيه أنفسهم من الخيرات واللذات.

١٠٣ - (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

قوله: (لا يحزنهم الفزع الأكبر) (الفزع الأكبر)، يراد به القيامة وما فيها من اهوال، فإن ذلك لا يحزن المؤمنين الأبرار الذين كتب الله لهم النجاة، ولا يخفيهم، بل إنهم يومئذ آمنون سالمون.

قوله: (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أي تستقبلهم الملائكة بالسلام والإكرام عند خروجهم من قبورهم - وقيل: عند دخولهم الجنة، إذ يهنئونهم بالفوز قائلين لهم: هذا وقت جزائكم الذي وعدكم الله - وهو الثواب والنعيم وحسن المقام في الجنة ٤٧.

١٠٤ - (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

قوله تعالى: {يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين} (يوم)، منصوب بمقدر، أي اذكر يوم نطوي - أو ظرف (لا يحزنهم) أو (وتتلقاهم) - والمراد بطي السماء، محوها - كما نقول: اطو عنا هذا الحديث - أو تكوير نجومها - أو ضد نشرها - و (السجل) معناه الصحيفة - والكتب، بمعنى المكتوب، أي اذكر يوم نطوي السماء كطي الصحيفة على المكتوب - وحينئذ تتبدل الأشياء جميعا وتتبدد في الكون قوانينه ونظمه، إذ تتكور الشمس وتتكدر النجوم انكدارا، وتنثر الكواكب أيما انتثار - ذلك في عملية انقلابية فظيعة تأتي على الوجود كله.

قوله: (كما بدأنا أول خلق معيده) الكاف، حرف جر - وما بعدها مصدرية، أي نعيد أول خلْق إعادة مثل بدأتنا له، أي كما أظهرناه من العدم نعيده من العدم يوم البعث والنشور - (وعدا علينا) (وعدا)، منصوب على أنه مصدر مؤكد، لقوله (نعيده) - أي أن هذا كائن لا محالة، فهو وعد من الله ولن يخلف الله وعده - وهو سبحانه القادر على فعل ما يشاء (إنا كنا فاعلين) أي محققين هذا الوعد الذي لا تبدلا له ولا محيد عنه ٤٨.

١٠٥ - (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

قوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون (١٠٥) إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين (١٠٦) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١٠٧)} (الزبور)، هو الكتابُ الذي أنزل على داود - والمراد بالذكر ههنا التوراة - وقيل: الزبور يعم الكتب السماوية المنزلة - والذكر معناه اللوح المحفوظ - والمراد بالأرض: أرض الشام أو الأرض المقدسة، فهي إنما يستحق أن يرثها عباد الله الصالحون من أمة النبي الخاتم، محمد - صلى الله عليه وسلم - - وهذا ما كتبه الله لعباده المؤمنين من أمة الإسلام.

١٠٦ - (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

قوله: {إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين} يعني إن في هذه السورة أو في هذا القرآن من الأخبار والمواعظ والوعيد ما فيه بلاغ، أي كفاية، أو ما تبلغ به البغية (لقوم عابدين) أي مؤمنين موحدين، مخلصين لله في طاعتهم وعبادتهم وما نحسب أن هذه الصفة من الإخلاص

وحسن الطاعة لله والإخبات له متحققة في غير هذه الأمة، أمة الإسلام، بما تجلى في دينها وقرآنها من الثبات والصدق والاستقرار والسلامة من كل ظواهر التزييف والتحريق والتغيير والتبديل.

١٠٧ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

قوله: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (رحمة)، منصوب على الحال - وقيل على أنه مفعول لأجله - وهذا إخبار من الله، يخاطب به رسوله إلى الناس كافة، محمدا - صلى الله عليه وسلم -، معلنا فيه أنه رحمة للعالمين - والرحمة في اللغة بمعنى الرأفة والمغفرة والتعطف ٤٩، وهذه المعاني أو الصفات تأتي في ذروة الدرجات من الخصال الحسان في هذه الحياة - فلا عجب أن تكون الرحمة مسبارا تقاس به طبائع البشر - بل تقاس به المبادئ والشرائع ومختلف الثقافات، والتصورات؛ للكشف عن حقيقتها ومدى صلوحها للعباد - فمن كانت سجيته القسوة والغلظة والفظاظة؛ فإنه أبعد الخلق عن الخير والصلوح لهداية الناس - لقد كان محمد - صلى الله عليه وسلم - مثالا كاملا وفريدا فيما تجلى فيه من جمال الطبع، وروعة الخلق وكامل السجايا والأوصاف النفسية والعقلية والروحية فكان بذلك خليقا أن يكون رحمة للناس، وأهلا لدعوة العالمين إلى الهداية والخير.

وكذلك الإسلام فإنه بكمال تشريعه وجمال عقيدته وما اشتمل عليه من عظيم المزايا والخصائص، وفي طليعتها الرحمة، فإنه بذلك كله للعالمين رحمة من الله.

وما ينبغي ذكره دائما أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد بعث رحمة للعالمين - بما جبل عليه من كامل الصفات الخَلقية والخُلقية، وجمال الفطرة الناصعة الفضلى - جاء عليه الصلاة والسلام بآيات الله البينات هاديا للناس ومبشرا ونذيرا - وذلكم الكمال العجيب المثير - كمال النبي الطهور المفضال، الذي يعجز عن بلوغ معشاره النوابغ العظماء من عباقرة الإنس والجن - وكمال الكتاب الحكيم، القرآن الرباني المبارك الذي يحمل للعالمين كل أطراف الحق والخير والسلامة والسداد مما يحقق لهم بالضرورة السعادة في هذه الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين - فلا جرم أن يكون محمد - صلى الله عليه وسلم - - بما أوتيه من عجائب الطبع وآيات الكتاب العظيم رحمة للعالمين - وليس أدل على ذلك مما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين - قال: " إني لم أبعث لعانا وإنما بعثتُ رحمة " وفي رواية أخرى لمسلم: " إنما أنا رحمة مهداة " ٥٠.

١٠٨ - (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

قوله تعالى: {قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون (١٠٨) فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون (١٠٩) إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون (١١٠) وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين (١١١) قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون (١١٢)} يأمر الله رسوله الكريم أن يقول للمشركين: إنما معبودكم الله وحده ليس لكم من إله سواه (فهل أنتم مسلمون) أي أسلموا، وانقادوا مذعنين لله مستسلمين.

١٠٩ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ)

قوله: (فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) فإن أعرضوا عن الإيمان، وعن عبادة الله وحده فأعلمهم يا محمد أنك وإياهم على علم من أن بعضكم لبعض حرب؛ فلا صلح بينك وبينهم ولا سلم - بل إنك بريء منهم، وهم برآء منك.

قوله: (وإن أدري أقريب أن بعيد ما توعدون) (إن)، أداة نفي؛ أي ما أدري متى يحل بكم عقاب الله وانتقامه الذي وعدكم، أقريب نزوله بكم أم بعيد.

١١٠ - (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

قوله: {إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون} الله عز وعلا عليم بالأخبار والأسرار والأستار - فما يغيب عن علمه شيء في الكائنات؛ بل إن الله يستوي عنده الظاهر والباطن - فالظواهر والضمائر والبواطن كلها معلومة لله ولا يحجبها عن علمه ساتر ولا حجاب.

١١١ - (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

قوله: }وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين{ أي ما أدري سبب إمهال عقابكم مع أنكم موعودون به - فلعل هذا التأخير عنكم اختبار من الله لكم واستدراج لينظر كيف تعملون (ومتاع إلى حين) أي تمتعون إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئة الله.
١١٢ - (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)
قوله: (قال رب احكم بالحق) يأمر الله نبيه بالتضرع إليه سائلا: أن يقضي بينه وبين المشركين بالحق والعدل، فيظهر الإسلام وأهله، ويذل الكفر وجنوده - قوله: (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) إلهنا ومعبودنا الله ذو الرحمة البالغة المطلقة، يرأف بخلقه ليفيض عليهم من واسع رحمته - وهو سبحانه نستعينه على ما يفتريه الكافرون على الله من الأباطيل والكذب ٥١.

٢٢ سورة الحج:

سورة الحج:
بيان إجمالي للسورة
اختلفت العلماء في كون هذه السورة مكية أو مدنية - فقد قيل: إنها مكية إلا ثلاث آيات - وقيل: بل مدنية باستثناء أربع آيات - والصحيح أن السورة مختلطة منها مكي ومنها مدني، لاقتضاء الآيات ذلك.
وكيفما يكن ذلك فإن سورة الحج عظيمة في معانيها وأخبارها وما تضمنته من الأدلة والأحكام والعظات - ومن جملة ذلك: التركيز على الإيمان بيوم القيامة والتنديد بالمعاندين الجاحدين الذين يركبون الهوى والضلال ويتبعون الغاوين والشياطين والمضلين.
وفي السورة تعظيم للحج وشعائره، وذكر لمنافعه الدنيوية والأخروية - ثم الإذن من الله للمسلمين بقتال الكافرين بعد اصطبارهم الشديد على أذاهم وعدوانهم - إلى غير ذلك مما تضمنته هذه السورة من أهوال القيامة، وما يجده الظالمون والمجرمون يومئذ من النكال الشديد - ويأتي في طليعة ذلك كله ما ابتدأت به السورة من الإخبار عن الحدث الداهم الجلل وهو قيام الساعة وما فيها من عصيب البلايا وشديد القواصم.
١ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم (١) يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (٢){.
يدعو الله عباده أن يخافوه ويحذروا عقابه وانتقامه فيأتمروا بأوامره وينتهوا زواجره - وعلّل ذلك بأن (زلزلة الساعة شيء عظيم) والزلزلة هي شدة حركة الشيء - وقال الزمخشري في الكشاف: هي شدة التحريك والإزعاج - والزلازل بمعنى الشدائد ١.
واختلف المفسرون في وقت هذه الزلزلة؛ فقد قيل: إنها كائنة يوم القيامة - وقيل: عند طلوع الشمس من مغربها؛ فهي شرط من أشراط الساعة، وهي بذلك كائنة قبل يوم القيامة.
وأيا كانت وقت هذه الزلزلة فإن المقصود هولها وفظاعتها التي تضطرب منها الدنيا وتميد بها الأرض بمن عليها من أناس؛ لتأتي على البشرية حينئذ غاشية من الرعب والحيرة والذهول مما لا يعلم شدته ومداه إلا الله - ومثل هذه المعاني المجلجلة الجسام تكشف عنها كلمات الكتاب الحكيم في هذا الصدد ليجد القارئ المتدبر في ذلك صورة مثيرة ومرعبة عن حقيقة الساعة ودواهيها العظام - وذلك؛ لأن (زلزلة الساعة شيء عظيم) أي أمر هائل وجلل ومُخُوف.
٢ - (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)
قوله: (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) (يوم)، ظرف منصوب - بما بعده (تذهل) أي تذهل في ذلك اليوم، و (تذهل)

من الذهول وهو النسيان والغفلة ٢، أو هو الذهاب عن الأمر في دهشة - والمعنى: أن كل والدة ذات رضيع تنسى وتترك ولدها التي ألقمته ثديها - وقيل: ما، مصدرية، أي تذهل عن الإرضاع لفظاعة الزلزلة وشدة اندكاك الأرض من هولها - وكذلك تضع المرأة الحامل جنينها ليندلق ساقطا على الأرض من فداحة الخطب المريع وجلل الزلزلة التي تغشى القلوب والعقول والأبدان.

قوله: (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) أي ترى الناس يا محمد من عظيم ما نزل بهم من الكرب سكارى - وذلك من فرط ما غشيهم من الذعر والفزع - وهم ليسوا سكارى من شرب الخمر (ولكن عذاب الله شديد) وهذا تعليل لما سبق ذكره من ظواهر رهيبة تقع بين يدي الساعة، ومنها ذهول النساء المرضعات عن أولادهن الرضع فيغفلن عنهم لانشداه عقولهن وقلوبهن - وكذلك الحوامل يضعن ما في بطونهن من فرط الخوف وشدة الصدمة، والناس، إذ ذاك مذعورون واجمون حائرون سكارى - وهم في الحقيقة ليسوا سكارى من الشراب بل من فظاعة ما يجدونه من الشدائد وهول ما ينزل بالبشرية من القوارع والبلايا - ٣

٣ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

قوله تعالى: }ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (٤)}.

نزلت في النضر بن الحارث، إذ كان يزعم في اجتراء ظالم وجحود أن الله غير قادر على إحياء الموتى بعد أن أتى عليهم البلى وصاروا ترابا - قوله: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) أي يقول مقالته النكراء هذه، من غير علم ولا حجة، إلا الجهل والسفه والتعنت (ويتبع كل شيطان مريد) أي يتبع في قوله هذا كل شيطان عات متمرد - والمراد إبليس وجنوده من الجن والإنس - لاجرم أن الشياطين من الجن والبشر يؤزون الناس إلى الكفر والعصيان والتمرد على منهج الله.

٤ - (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

قوله: (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله) (أنه من تولاه)، في محل رفع نائب فاعل - والمعنى: كتب على الشيطان أن من اتخذه من الناس نصيرا لنفسه ومعينا من دون الله، فإنه- أي الشيطان- يغويه - لأن من شأن الشيطان إغواء الناس (ويهديه إلى عذاب السعير) أي يحمله ويؤزه للفسق عن أمر الله ولفعل المعاصي التي تفضي به إلى السعير، حيث النار المستعرة اللاهبة.

٥ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

قوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٥) ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور (٧)}.

هذا برهان من الله لعباده يحتج به على المكابرين المعاندين الذين ينكرون بعث الأموات من قبورهم - وهو برهان ظاهر ومعقول يخاطب به الله الناس على اختلاف مراتبهم في العلم والمعرفة - لا جرم أنه برهان يتميز بالسمو والشمول في الاحتجاج المقنع فيدركه العالمون وغير العالمين - وهو قوله: (إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) يخاطب الله بذلك المنكرين للبعث والمعاد، الجاحدين ليوم القيامة بقوله لهم: إن كنتم في شك من المعاد وبعث الناس من قبورهم، فها نحن قد خلقناكم من قبل ولم تكونوا شيئا، إذ أنشأناكم من تراب - والمراد أبو البشر آدم، خلقه الله من طين لازب.

قوله: (ثم من نطفة) وهي الماء، قل أو كثر - ويراد به ههنا المني ٤ أي جعل الله سلالة آدم من ماء وهو المني يقذف في الأرحام

ليستحيل ويصير علقة وهو قوله: (ثم من علقة) وهي المني ينتقل بعد طوره فيصير دما غليظا متجمدا، ثم ينتقل طورا آخر فيصير لحما وهو المضغة - وقد سميت بذلك، لأنها مقدار ما يمضغ ٥.

قوله: (مخلقة وغير مخلقة) المخلقة، يعني المصورة خلقا تاما فظهر فيها الرأس واليدان والرجلان - وغير المخلقة، بأن تلقيه الأم مضغة غير مصورة فلم يخلق فيها شيء ولا روح فيها.

على أن المولود إذا استهل صارخا ثم مات، فإنه يصلى عليه، وهو إجماع أهل العلم - وإن لم يستهل صارخا، فإنه لا يصلى عليه بل يكتفي بلفه في خرقة ثم دفنه - وهو قول الجمهور من الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

قوله: (لنبين لكم) أي نبين لكم قدرتنا على ما نشاء من تصريف خلقكم طورا بعد طور (ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) الواو للاستئناف - والتقدير: ونحن نقر - وليس معطوفا على قوله (لنبين) ٦.

أي نقر الولد في رحم أمه إلى أجل مسمى وهو وقت الوضع، أو أن يسقط قبل ذلك - فمن كتب الله له البقاء والحياة إلى أجله أقرّه في بطن أمه إلى وقته المقدور له فلا تسقطه - فإذا بلغ وقت خروجه من بطنها خرج بإذن الله وتقديره.

قوله: (ثم نخرجكم طفلا) (طفلا) اسم جنس، أي أطفالا، وهو منصوب على التمييز - ويسمى المولود طفلا من بدء انفصاله إلى البلوغ - ويطلق الطفل على المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع - فيقال: طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال وطفلات ٧.

قوله: (ثم لتبلغوا أشدكم) الأشد، معناه كمال القوة والعقل والتمييز، وهو مرحلة الشباب من عمر الإنسان حيث اكتمال القوى وحسن المنظر - وخلاله هذه المرحلة من الشباب، منهم من ينتهي أجله، إذ يتوفاه الله - ومنهم من يمتد به العمر إلى أرذله - وهذه هي سن الشيخوخة والهرم وضعف القوى وتناقض القدرات البدنية والعقلية، وانخرام العزيمة والإرادة وطغيان الضعف والخرف وذلك هو

قوله: (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) (أرذل العمر)، أدونه وأخسُّه، إذ يعود في همته وفهمه وقدرته العقلية إلى هيئته الأولى من سن الطفولة وذلك بما يغشاه من هوان العقل (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) فينسى ما كان قد علمه وينكر ما كان قد عرفه - لا جرم أن ذلك برهان ظاهرة على قدرة الله وعظمته في الخلق والإنشاء من العدم، إذ أبدع الإنسان وخلقه أطوارا بدءا بالتراب والنطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم الطفولة فالأشد فالشيخوخة والهرم الذي يؤول إلى الموت والتراب.

إن الله الذي صنع هذا لقادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم يوم الحساب.

قوله: (وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) وهذا برهان ثان على حقيقة البعث وإحياء الموتى - والأرض الهامدة: التي لا نبات فيها ولا حياة ولا مطر - والهمود، معناه الموت - والهامد، معناه اليابس من النبات ٨.

قوله: (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) (اهتزت)، أي تحركت بالنبات، من الاهتزاز، هز الشيء فاهتز، أي حرّكه فتحرك ٩، فإن الأرض بنزول المطر فيها يخرج منها النبات فتهتز بانفصال بعضها عن بعض (وربت) أي انتفخت - أو ارتفعت وازدادت، ربا الشيء ربو، أي زاد - ومنه الربوة.

قوله: (وأنبتت من كل زوج بهيج) أي من كل صنف حسن المنظر والشكل والرائحة بما تبتهج به النفس وتستروح - وذلك من أصناف الزروع والثمار على اختلاف ألوانها وطعومها وأشكالها وروائحها.

٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: (ذلك بأن الله هو الحق وانه يحي الموتى) (ذلك)، إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان أطوارا ومراحل مختلفة ومتكاملة، وإلى إحياء الأرض بعد موتها - وهو مبتدأ - وخبره (بأن الله هو الحق) أي بسبب أنه الثابت في نفسه وهو الموجود المطلق، وأن كل ذي وجود موجود عن وجوب وجوده (وأنه يحي الموتى) فهو قادر على إحيائها كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها ما أنبته من مختلف الأصناف والأجناس قوله: (وأنه على كل شيء قدير) الله يفعل ذلك كله بسبب أنه مقتدر لا يعز عليه صنع ما يشاء وهو فعال لما يريد.

٧ - (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

قوله: }وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور{ معطوف على قوله: (بأن الله هو الحق) - والمعنى: وليعلموا أن الساعة قائمة لا شك فيها، وان الله يبعث الموتى من قبورهم ليلاقوا الحساب والجزاء ١٠.

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

قوله تعالى: }ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (٨) ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق (٩) ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد (١٠){ نزلت كذلك في النضر بن الحارث - وقد كرر مقالته للمبالغة في الذم، فقد كان النضر شريرا مؤذيا حديد الكلام، سليط اللسان بما يفتعله من الحديث المصنوع المفترى ليضل الناس عن دين الله - وهو قوله سبحانه: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أي يجادل بالباطل، عن جهل وسفاهة، إذ لا سند له في قوله من علم، ولا هداية من الله، ولا كتاب مستبين الحجة، أي لا يُشفعه في قول عقل سليم ولا دليل من وحي، بل مجرد الرأي والهوى.

٩ - (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

قوله: (ثاني عطفه) (ثاني)، منصوب على الحال ١١، أي لاوي عطفه وعطف الشيء، جانبه ١٢، أو لاوي رقبته - وهو كناية عن الإعراض الاستكبار (ليضل عن سبيل الله) اللام، لام العاقبة - أي يجادل بالباطل فيضل الناس عن دينه ويغويهم، وقيل: لام التعليل - فإضلال الناس عن دينهم علة للجدال من غير علم ولا هداية ولا وحي.

قوله: (له في لدنيا خزي) أي هوان وذلة بما يُسام من قبيح السيرة ومن سوء الذكر على ألسنة المسلمين دوام الدهر - ولسوف يُسام يوم القيامة شديد العاب بما يجده من فظاعة التحريق وهو قوله سبحانه: (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق).

١٠ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)

قوله: (ذلك بما قدمت يداك) أي ما أحاط بك من العذاب سببه ما قدمته أو اقترفته من الكفر والعصيان - و (ذلك) تقريع وتوبيخ لكل أفاك مفتر ظلوم.

قوله: (وأن الله ليس بظلام للعبيد) هذه حقيقة ساطعة بلجة لا يماري فيها إلا فاجر خصيم - وهي أن الله لا يظلم أحدا مثقال ذرة، بل الله يجازي الناس بما قدموه من خير وشر ١٣.

١١ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

قوله تعالى: }ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (١١) يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد (١٢) يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير (١٣){ في سبب نزول هذه الآيات أخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح - وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء - وعن ابن عباس كلك قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به - وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله على نبيه (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية ١٤ وحرف كل شيء، طرفه وشفيره وحده ١٥ أي يعبد الله على شك واضطراب - أو على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه فلا ثبات له فيه، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظفر ثبت واستقر، وإلا تولى نافرا وأدبر.

قوله: (فإن أصابه خير اطمأن به) ذلك تبيين لعبادة الله على حرف - فشأن الذي يعبد الله على حرف، أنه إن أصابته نعمة ورخاء وبسطة في العيش، رضي واطمأن بدينه وقرّ عليه (وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) أي إن أصابه بلاء من

فساد الصحة، وذهاب المال أو الولد أو غير ذلك من وجوه المصائب؛ فإنه ينتكس مرتدا ليعود في الكفر فيحبط عمله ويبوء بالخسران الأكبر وهو خُسران الدنيا بتعس الحظ وسوء الذكر وقبيح السيرة، وخسران الآخرة حيث العقاب الأليم.

١٢ - (يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ)

قوله: (يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) أي هذا الذي يعبد الله على حرف، والذي أصابته فتنة فارتد عن دين الله، يعبد من دون الله أصناما لا تضره ولا تنفعه بدلا من عبادة الله وحده خالق الأصنام ورب الأرباب جميعا (ذلك هو الضلال البعيد) ذلك هو الاعوجاج في القصد والمذهب، والزيغ عن منهج الله زيغا موغلا في العمه والتيه.

١٣ - (يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)

قوله: (يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه) من، في موضع نصب مفعول (يدعوا) واللام في غير موضعها - وتقديره: يدعو من لضره أقرب من نفعه - (ضره)، مبتدأ و (أقرب من نفعه) من نفعه خبر - وقيل: مفعول (يدعوا) محذوف، واللام في موضعها - وتقديره: يدعو إليها لمن ضره أقرب من نفعه - مَنْ، مبتدأ - وخبره (أقرب من نفعه) ١٦ والمعنى: أن هذا الخاسر المنقلب على وجهه يعبد آلهة مصنوعة، ضرها أقرب من نفعها وذلك في الدنيا والآخرة، فعادتها في الدنيا تفضي إلى التخبط والضلال والفساد في القصد والمسعى وإلى اضطراب السلوك والعيش التاعس المنكود - ثم تؤول في الآخرة إلى الخسران والسقوط في جهنم.

قوله: (لبئس المولى ولبئس العشير) أي لبئس هذا الصنم الذي عُبد من دون الله، وليا وناصرا (ولبئس العشير) أي الصاحب والمعاشر - والمراد ذم المشركين الواهمين الذين يبتغون العون والنصرة من معبوديهم من الطواغيت ومن رؤساء الضلال والكفر ١٧.

١٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

قوله تعالى: }إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد (١٤)} بعد أن ذكر حال المشركين- الذين توغلوا في حب الأصنام وعبادتها، والذين أسرفوا في حب الطواغيت والأنداد على اختلاف أجناسها ومسمياتها- ذكر حال المؤمنين الذين كتب الله لهم النجاة والسعادة في الآخرة جزاء إيمانهم وعملهم الصالحات، أولئك لهم الدرجات السامقات العاليات.

قوله: (إن الله يفعل ما يريد) إذ؛ يجازي المؤمنين حسن الثواب، والمشركين والمنافقين أشد العقاب.

١٥ - (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

قوله تعالى: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ (١٥) وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد (١٦)) الضمير في (ينصره) عائد على محمد - صلى الله عليه وسلم - - والسبب، معناه الحبل أو ما يتوصل به إلى الشيء - والمعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فليبتغ حيلة تدفع عنه النصر - وهي أن يمد إلى السماء حبلا فيتشبث به، ثم ليقطع حبله فيرى هل تذهبن حيلته هذه ما يعتور قلبه من التغيظ من نصر الله رسوله (ص)، والمراد: أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بفعل ما يقطع النصر عن النبي فإنه لا يبلغ إلى قطع النصر عنه؛ لأن الله ناصره لا محالة - ولا يخفى ما في ذلك من بالغ التهكم اللاذع بالمجرمين الحاقدين الذين تتغيظ قلوبهم حسدا وحقدا بنصر الله لرسول الأمين - وبعبارة أخرى: من كان يظن أن الله غير ناصر رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - وكتابه ودينه؛ فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك يغيظه؛ فإن الله ناصره لا محالة - وقال ابن عباس في تأويل الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب؛ أي بحبل إلى سماء بيته (ثم ليقطع) أي ثم ليختنق به.

وقال صاحب الكشاف: والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة - فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ويغيظه أن يظفر بمطلوبه؛ فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه بان يفعل ما يفعل من بلغ من الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه - وسمي

فعله كيدا؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره - أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكد محسوده إنما كاد به نفسه - والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه.

١٦ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

قوله: {وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد} الكاف صفة لمصدر محذوف، تقديره الإنزال؛ أي ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله (آيات بينات).

أي واضحات مفصلات - وكذلك؛ لأن الله يهدي بهذا القرآن الذين يعلم الله أنهم يؤمنون ١٨

١٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قوله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد (١٨)} خبر (إن) الأولى، محذوف - وقيل: الخبر قوله: (إن الله يفصل بينهم) ١٩ والمعنى: (إن الذين آمنوا)، وهم المؤمنون بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما أنزل عليه من كتاب وهو القرآن - (والذين هادوا)، أي اليهود وهم المنتسبون لملة موسى عليه السلام - و (الصائبين) - هم قوم يعبدون الملائكة وقيل: يعبدون النجوم - و (النصارى)، وهم المنتسبون لملة عيسى عليه السلام - و (والمجوس)، وهم الذين يعبدون الشمس والقمر والنار (والذين أشركوا)، يراد بهم عبدة الأوثان - قوله: (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) أي يقضي الله بين هؤلاء جميعا يوم القيامة، فيجازي الكافرين الأخسرين بضلالهم وفسقهم عن منهج الله الحق - ويجازي المؤمنين المصدقين المذعنين لله بالطاعة والامتثال، ما أعده لهم من عظيم الجزاء وحسن الثواب.

قوله: (إن الله على كل شيء شهيد) الله شهيد على أفعال عباده من خير أو شر - وهو سبحانه لا يعزب عن علمه شيء مما يفعله العباد سواء فيهم المؤمنون والجاحدون.

١٨ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

قوله تعالى: {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء (١٨)} المراد بالرؤية، ما كان بالقلب؛ أي ألم تر يا محمد بقلبك وعقلك فتعلم أن الله يسجد له من في السموات من الملائكة، ومن في الأرض من الجن - وكذا الشمس والقمر والنجوم، كل ذلك يسجد لله وسجوده امتثاله الكامل لله - وهيئة ذلك إنما يعلم حقيقتها الله - وأما الجبال والشجر والدواب، فسجود ذلك ظلاله حين تطلع عليه الشمس وحين تزول - فتحول الظل للشيء هو سجوده.

قوله: (وكثير من الناس) (كثير)، مرفوع بالعطف على (من) في قوله: (يسجد له من في السماوات) - وقيل: مرفوع على الابتداء - وما بعده خبره - وقيل: خبره محذوف وتقديره: وكثير من الناس ثبت له الثواب ٢٠.

والمعنى: ويسجد كثير من بني آدم لله وهم المؤمنون الطائعون العابدون.

قوله: (وكثير حق عليه العذاب) معطوف على كثير الأول؛ أي كثير من بني آدم امتنع وأبى واستكبر فحق عليه العذاب.

قوله: (ومن يهن الله فما له من مكرم) أي من كتب الله له الشقاوة والمهانة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه وضلاله؛ فليس له من مكرم يكرمه بالسعادة (إن الله يفعل ما يشاء) أي يفعل في خلقه ما يقدره من الإهانة والإكرام وهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون - ٢١

١٩ - (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)

قوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم (١٩) يصهر

به ما في بطونهم والجلود (٢٠) ولهم مقامع من حديد (٢١) كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (٢٢)}.

ذكر في سبب نزول هذه الآية أنه اختصم المسلمون وأهل الكتاب - فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم؛ فنحن أولى بالله منكم - وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها - ونبينا خاتم الأنبياء؛ فنحن أولى بالله منكم، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه ٢٢ - وأفلجه، بمعنى أظهره ٢٣.

الله جل وعلا يتوعد الطغاة والعصاة والفاسقين عن أمره وشرعه بعقابه الفظيع الوجيع - ويشار إلى هذه الفظاعة في التنكيل بهذه الكلمات الربانية المثيرة ذات الدلالة الظاهرة على اشتداد العذاب الموعود - العذاب الواصب البئيس الذي أعده الله للمجرمين المستكبرين وهو قوله سبحانه: (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) أي أحاطت بأجسادهم النار كالثياب تغشى الأبدان (يصب من فوق رؤوسهم الحميم) أي يصب على رؤوسهم الماء هو في غاية الغليان والحرارة.

٢٠ - (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)

فيذيب جلودهم وما في بطونهم من الأحشاء والأمعاء وهو قوله: {يصهر به ما في بطونهم والجلود} (ما)، في محل رفع نائب فاعل.

٢١ - (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)

قوله: {ولهم مقامع من حديد} المقامع، جمع مقمع وهو من حديد، كالمحجن يضرب به على رأسه الفيل ٢٤ والمراد بالمقامع ههنا: سياط من نار - وقيل: مطارق يضرب بها المجرمون على رؤوسهم وأبدانهم ضربا تتزلزل منه الجبال وتضطرب - وقد أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض ".

٢٢ - (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

قوله: (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) (من غم)، في موضع نصب، بدل من الهاء في قوله: (منها) والتقدير: كلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيها ٢٥ - والمعنى: أن المجرمين يحاولون أن يخرجوا من النار حين تضطرب بهم النار وتفور، فيرفعهم اللهب إلى أعلى، فتضربهم الملائكة الشداد بمقامع الحديد ضربا غليظا وجيعا لا رحمة فيه فيهوون في النار، ليجدوا من ويلها وفظاعة حريقها ما لا تخيله الأذهان في هذه الدنيا.

قوله: (وذوقوا عذاب الحريق) أي تقول لهم الملائكة: ذوقوا النار البالغة في الإحراق - والحريق الاسم من الاحتراق - والمراد: إدراك الألم بذوق النار وهو مسها ٢٦.

٢٣ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

قوله تعالى: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير (٢٣) وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد (٢٤)) بعد أن ذكر حال المعذبين في النار وما يجدونه فيها من شدة اللهب وفظاعة التحريق والنكال والأغلال، شرع يذكر حال السعداء من أهل الجنة، إذ ينعمون فيها بالخير الدائم والقرار الآمن الكريم - وذلك في الجنة وما فيها من أنهار جارية مناسبة تنساح في أكنافها وخلالها - وهم كذلك (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) لؤلؤا، منصوب بفعل مقدر - أي يُعطون لؤلؤاً.

قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة (ولباسهم فيها حرير) أي أكسيتهم في الجنة مما يلبسونه من فُرشهم ولباسهم وستورهم، من حرير؛ فقد أباح الله لأهل الجنة التحلي بالذهب والاكتساء بالحرير، وقد كان ذلك في الدنيا حراما على الرجال دون النساء - لكن المؤمنين أعطوا من أصناف النعيم والزينة في الجنة ما يحقق لهم كامل السعادة الأبدية

والرخاء المستديم.
٢٤ - (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)
قوله: (وهدوا إلى الطيب من القول) هدى الله المؤمنين في الدنيا إلى الكلام الطيب وهو قولهم: لا إله إلا الله - وقيل: القرآن - وكذلك هداهم (إلى صراط الحميد) أي طريقه المحمود وهو دين الإسلام؛ ففيه صلاحهم ونجاتهم وسعادتهم - وقيل: ألهمهم قول الطيب من القول في الجنة وهو قولهم: (الحمد لله الذي هدانا لهذا) (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) - ونحو هذا من شكر الله والتسبيح بحمده. وكذلك هداهم الله يوم القيامة إلى صراطه المحمود وهو الجنة - وهذا الذي يدل عليه سياق الآية.
٢٥ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)
قوله تعالى: {إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم (٢٥)} روي أنها نزلت حين خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة الحديبية عام ست، فصدّه المشركون عن دخول البيت ومنعوه فقاضاهم على العام المستقبل، وقضى عمرته في مكانه ونحر هديه وحلق رأسه ورجع إلى المدينة ٢٧.
وفي المراد بالمسجد الحرام قولان - أحدهما: أنه المسجد نفسه دون الحرم كله وهو ظاهر القرآن؛ لأنه لم يذكر غيره - وثانيهما: أنه الحرم كله؛ لأن المشركين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه عنه عام الحديبية فنزل خارجا عنه في الحل وقد عيّرهم الله بذلك في قوله: (وصدوكم عن المسجد الحرام).
قوله: (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) واو (ويصدون) للعطف - والتقدير: إن الكافرين والصادين - وقيل: الواو واو الحال؛ أي إن الذين كفروا صادين عن سبيل الله - وخبر (إن) مقدر - وتقديره: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله معذبون ٢٨ و (العاكف)، معناه المقيم المواظب ٢٩ (والباد) يعني أهل البادية ومن يقدم عليهم؛ أي يستوي في تعظيم حرمة المسجد الحرام وفي قضاء النسك فيه، الحاضر، أو لذي يأتيه من البلاد الأخرى - فليس أحدهما بأحق فيه من الآخر.
وفي المراد بالتسوية قولان: أحدهما: التسوية في دور المسجد الحرام وفي منازله؛ إذ ليس المقيم فيها بأولى من الطارئ عليها.
ثانيهما: أنهما سواء في حق الحرمة والنسك - والظاهر عموم التسوية في ذلك كله وهو قول ابن عباس وعمر بن الخطاب وآخرين - وهو مذهب مالك؛ فقد روي أن عمر كان يأمر في الموسم بقلع أبواب دور مكة حتى يدخلها الذي يقدم عليها فينزل حيث شاء - وقد روي عنه أيضا أنه نهى أن تغلق مكة زمن الحاج، وأن الناس كانوا ينزلون منها حيث وجدوا فارغا، حتى كانوا يضربون الفساطيط في جوف الدور.
وجملة ذلك: أن القادم له النزول حيث وجد فراغا، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أو أبى.
وهذا الخلاف أصله أن دور مكة في ملك لأربابها أم هي للناس جميعا - وهذا الأصل مبني على أن مكة هل فتحت عنوة أو صلحا؛ فقد قيل: إنها فتحت عنوة فتكون بذلك مغنومة - لكن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يقسمها؛ بل منّ على أهلها في أنفسهم فسموا الطلقاء - ومنّ عليهم في أموالهم وتركهم في منازلهم على أحوال من غير تغيير عليهم - وبذلك أقرّها لأهلها ولمن جاء بعدهم؛ فهي بذلك لا تباع ولا تكرى، ومن سبق إلى موضع كان أولى به - وهذا قول الإمامين مالك وأبي حنيفة وقال به الأوزاعي - واحتجوا لذلك بما رواه عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر وما تُدعى رباع ٣٠ مكة إلا السوائب، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن - وروي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها - وروي عن عمر بن الخطاب أنه كان ينهى عن تبويب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها - فكان أول من بوّب داره سهيل بن عمرو فأرسل إليه عمر ابن الخطاب في ذلك فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجرا فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري - قال: فلك ذلك إذا.
وذهب الإمام أحمد إلى الوسط من ذلك فقال: تملك الدور بمكة وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة.

قوله: (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) الإلحاد في اللغة، بمعنى الطعن والميل عن طريق القصد - والحد، جار وظلم - وألحد في الحرم، أي استحل حرمته وانتهكها ٣١ - والباء حرف جر زائد - وتقديره: ومن يرد إلحادا بظلم - والباء هذه للسببية - والمعنى: ومن يرد فيه إلحادا بسبب الظلم - والظلم، هو وضع الشيء في غير موضعه؛ أي من يبتغ أن يفعل في الحرم من المعاصي والآثام عامدا، قاصدا أنه ظلم، كالشرك والقتل العمد وظلم الناس والإساءة الفاحشة إليهم، إلى غير ذلك من وجوه المعاصي والخطايا (نذقه من عذاب أليم) جواب الشرط؛ أي من فعل ما ذكر من وجوه الإلحاد في المسجد الحرام؛ فقد وجب له العذاب الأليم.

على أن الجنايات تعظم على قدر عظم الزمان، كالأشهر الحرم، وعلى قدر عظم المكان، كالبلد الحرام، فتكون المعصية معصيتين: إحداهما، بنفس الفعل المحظور - والثانية بإسقاط فضيلة الشهر الحرام أو البلد الحرام ٣٢.

٢٦ - (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

قوله تعالى: {وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود (٢٦) وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (٢٧)} ثمة تقريع وتوبيخ للمشركين الذين عبدوا آلهة من دون الله - وذلك في البقعة المباركة التي أسست من أول يوم على عبادة الله وحده، وتوحيده دون غيره من الأنداد والشركاء - لكن المشركين اتبعوا الضلال والغي، ومضوا في ظلام الشرك والوثنية يعبدون مع الله آلهة أخرى بعد أن أسس إبراهيم البيت العتيق ليكون مثابة لتوحيد الله سبحانه - وهذا هو قوله: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) أي واذكر حين عيّنا أو وطأنا لإبراهيم مكان البيت الحرام وذلك بعد انطماسه القديم - والمراد بالبيت الكعبة.

قوله: (أن لا تشرك بي شيئا) (أن)، مخففة من الثقيلة، والتقدير: أنه لا تشرك بي شيئا - وقيل: مفسرة بمعنى أي - والتقدير: أي لا تشرك بي شيئا - وقيل: (أن)، زائدة ٣٣ والمخاطب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ أمره ربه ببناء الكعبة لعبادة الله وحده دون شريك غيره.

قوله: (وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) أي طهر الكعبة من الشرك والأوثان والأنجاس والأقذار لمن يطوف بها ويصلي فيها.

٢٧ - (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

قوله: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر) (وأذن)، بالتشديد يعني ناد - - وقد ذكر أن إبراهيم لما فرغ من بناء البيت قيل له: (وأذن في الناس بالحج) أي ناد في الناس داعيا لهم إلى الحج لهذا البيت (يأتوك رجالا وعلى كل ضامر) (رجالا)، حال من واوا (يأتوك) - (وعلى كل ضامر)، في موضع نصب على الحال وتقديره: يأتوك رجالا وركبانا ٣٤ - ورجالا، جمع راجل؛ أي مشاة - و (ضامر) بمعنى ضوامر - والضامر معناه البعير المهزول الذي أتعبه السفر.

قوله: (يأتين من كل فج عميق) (يأتين)، صفة لضامر؛ لأنه في معنى الجمع - فهو يعني ضوامر؛ أي كل ضوامر يأتين - وقرأ بعضهم (يأتون) على أنه صفة لقوله: (رجالا) والفج العميق؛ أي الطريق الواسع البعيد - والجمع فجاج ٣٥.

٢٨ - (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

قوله تعالى: {ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق (٢٩)} أي ناد في الناس بالحج يأتوك مشاة وركبانا ليحضروا (منافع لهم) ووجوه المنافع التي يحضرونها كثيرة: منها أداء المناسك كعرفات والمشعر الحرام حيث الذكر والتسبيح والتهليل والدعاء في تضرع وتذلل إلى الله عسى أن يستجيب ويكفّر الخطايا والذنوب، وغير ذلك من وجوه المنفعة كالتجارات والزيارات وقضاء المصالح والحوائج المختلفة مما فيه إرضاء لله، وتحصيل منافع الدنيا والآخرة.

قوله: (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) ويراد بالذكر هنا، التسمية عند الذبح أو النحر لكل من الهدي أو الأضحية - وهو أن يقول

الذابح أو الناحر: باسم الله والله أكبر - أو قوله: (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) الآية - وفي ذلك تنبيه على أن الغرض فيما يتقرب به إلى الله هو ذكر اسمه تعالى وما يقتضيه ذلك من مخالفة المشركين في مثل هذه المسألة؛ إذ كانوا يذبحون أو يحرون الأنعام للنصب والأوثان.

أما الأيام المعلومات: فالمراد بها العشر من ذي الحجة - وهو قول أكثر أهل العلم - وقال به ابن عباس واختاره الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة - وفي فضل هذه الأيام العشر روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد "

وقيل: المراد بالأيام المعلومات: ثلاثة أيام - وهي يوم النحر، ويومان بعده - وهو مذهب مالك - وقيل: يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده، وهي رواية عن ابن عباس.

قوله: (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) أي يذكرون اسم الله وحده على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم.

قوله: (فكلوا منها) أي كلوا مما ذكرتم اسم الله عليه من بهيمة الأنعام - والأمر هنا يفيد الندب وليس الوجوب - وهو قول الجمهور - وبذلك يستحب للمرء أن يأكل من هديه أو ضحيته، وأن يتصدق بمعظمها ويجوز التصدق بالكل - وقيل: يجب الأكل منها استنادا إلى ظاهر الآية (فكلوا) والصواب القول بالندب.

وذهب كثير من أهل العلم وفيهم الحنفية إلى أن المضحي يستحب له التصدق بالثلث، وأن يطعم الثلث، ويأكل هو وأهله الثلث - أما عند الشافعية فيأكل النصف - ويتصدق بالنصف الآخر، لقوله: (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) فذكر شخصين - وفي قول لهم ثان: يأكل هو وأهله ثلثا - ويتصدق بثلث، ويطعم ثلثا.

على أن المسافر مخاطب بالأضحية كالمقيم لعموم الخطاب وخالف الإمام أبو حنيفة في ذلك - واستثنى الإمام مالك من المسافرين الحاج بمنى؛ إذ لم ير عليه أضحية - وروي هذا عن أبي بكر وعمر وجماعة من السلف رضي الله عنهم؛ لأن الحاج إنما هو مخاطب في الأصل بالهدي - فإذا أراد أن يضحي جعله هديا.

أما حكم الادخار، ففيه عدة أقوال - أولها: عدم الادخار بعد ثلاثة أيام - وهو مروي عن علي وابن عمر؛ وذلك لأخبار النهي عن الادخار.

ثانيها: أن النهي عن الادخار منسوخ - وبذلك يذخر إلى أي وقت أحب - وقال به أبو سعيد الخذري.

ثالثها: جواز الأكل من الأضاحي مطلقا.

رابعها: إن كانت بالناس حاجة إلى لحوم الأضاحي فلا يدخر؛ لأن النهي إنما كانت لعلة وهي قوله (ص): " إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت " والدافة، قوم قدموا المدينة عند الأضحى فنهاهن عن ادخار لحوم الأضاحي ليتصدقوا بها فينتفع بها هؤلاء.

قوله: (وأطعموا البائس الفقير) (البائس) من البؤس وهو الشدة، والحاجة ٣٦، والبائس من أصابه بؤس أي شدة - أو هو الذي أصابه ضرّ الحاجة والجوع - و (الفقير)، هو الذي لا شيء له - وقيل: المتعفف.

٢٩ - (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

قوله: (ثم ليقضوا تفثهم) التفث في المناسك، ما كان في نحو قص الأظفار والشارب وحلق الرأس والعانة ورمي الجمار وأشباه ذلك ٣٧ وقيل في معنى التفث عدة أقوال: منها: أن التفث حلق الشعر ولبس الثياب وما أتبع ذلك مما يُحل به المحرم - وهو قول مالك.

ومنها: أنه مناسك الحجر - رواه ابن عمر وابن عباس.

ومنها: حلق الرأس - وهو قول قتادة.

ومنها: رمي الجمار - وهو قول مجاهد.

ومنها: إزالة قشف الإحرام من تقليم أظفار، وأخذ شعر، وغسل، واستعمال طيب - وقال به الحسن البصري.

قال صاحب الكشاف: قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط، والاستحداد، والتفث الوسخ - فالمراد قضاء إزالة التفث.

قوله: (وليوفوا نذورهم) النذر، كل ما لزم الإنسان أو التزمه - والمراد به هنا: ما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج - وقيل: كل نذر إلى أجل - وقال صاحب الكشاف: مواجب حجهم أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم - والمقصود: أنهم أمروا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان معصية لقوله عليه الصلاة والسلام: " لا وفاء لنذر في معصية الله " وقوله (ص): " من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه ".

قوله: (وليطوفوا بالبيت العتيق) المراد به عند جمهور العلماء طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة - وهو ركن الحج من غير خلاف - وبه يتم الحج وهو نهاية أركانه - وهكذا صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات - ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت.

وقيل: المراد به طواف الصدر وهو طواف الوداع - والصواب الأول - وهو طواف الإفاضة، لأن الأمر في الآية على الوجوب حتى تقوم دلالة الندب.

أما طواف الوداع وكذا القدوم فليس بواجب.

وأما العتيق، فمعناه القديم - سمي بذلك، لأنه أول بيت وضع للناس.

وقيل: لأن الله أعتقه من تسلّط الجبابرة - فكم من جبار سار إليه ليصيب به منه شرا أو خرابا فمنعه الله أو قصمه قصما - وقد روى الترمذي عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إنما سمي البيت العتيق، لأنه لم يظهر عليه جبار " ٣٨

٣٠ - (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

قوله تعالى: }ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور (٣٠) حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق (٣١){.

اسم الإشارة (ذلك) - في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر ذلك - وقيل: في محل جر، صفة للبيت العتيق ٣٩ والأظهر الأول، وهو الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري: كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم أراد الخوض في معنى آخر، قال: هذا وقد كان كذا.

وقال ابن جرير الطبري: إن هذا الذي أمر الله به من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت هو الفرض الواجب عليكم.

و (حرمات الله)، امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه - والحرمات، جمع حرمة وهي ما لا يحل هتكه - ويحتمل ان يكون ذلك عاما في جميع التكاليف، ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج - وعن زيد بن أسلم قال: الحرمات خمس: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمُحرم حتى يحل - والمراد: أن يجتنب المحرم ما أمر الله باجتنابه في حال إحرامه، تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها - وذلك خير له عند ربه فيما أعده له من حسن الجزاء يوم لقائه.

قوله: (وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أحل الله لكم الأكل من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، واستثنى ما يتلى عليكم في كتابه الحكيم من المحرمات وهي الواردة في سورة المائدة كالميتة والدم ولحم الخنزير، أي أن الله أحل لكم سائر الأنعام إلا ما استثناه في كتابه الكريم.

قوله: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) (الرجس)، بمعنى القذر أو النجس ٤٠.

(من)، لتبيين الجنس ٤١ أي فاجتنبوا القذر الذي هو الأوثان كما تُجتنب الأنجاس - وهذه غاية المبالغة في النهي عن تعظيم الأوثان والتنفير من عبادتها.

قوله: (واجتنبوا قول الزور) قرن الشرك بقول الزور تنبيها على عظيم جرم هذه المعصية - وفي التنديد بهذه الجريمة الكبرى أخرج في الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ " قلنا: بلى يا رسول الله - قال " الإشراك

بالله، وعقوق الوالدين " وكان متكئا فجلس فقال: " ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور " - فما زال يكرره حتى قلنا ليته سكت.
أما الزور، فمعناه الكذب وشهادة الباطل - والازورار، معناه العدل والانحراف عن الحق والاستقامة ٤٢.
٣١ - (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

قوله: (حنفاء لله غير مشركين به) (حنفاء)، منصوب على الحال، من الضمير في اجتنبوا - وكذلك، (غير)، منصوب على الحال ٤٣ و (حنفاء)، جمع حنيف وهو المسلم المائل إلى الدين المستقيم ٤٤ فالمراد بالحنفاء، المسلمون المائلون إلى الحق، المستقيمون على الحنيفية السمحة وهي ملة التوحيد.

قوله: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) هذا مثل فيه من روعة المفردات وعجيب التناسق بين الكلمات المنسجمة ما يرسم للخيال صورة مثيرة تكشف عن فداحة الخسران لهذا التاعس الخاسر - مثل، يضربه الله لحال الشرك في ضلال مسعاه وفساد قصده، إذ يتيه ضالا متخبطا وهو يعبد من دون الله آلهة مصطنعة موهومة، فمثله كمن انحط ساقطا من أعالي الدرجات إلى الأسافل، فتظفر به الطير ثم تقطعه تقطيعا أو تعصف به الريح فتهوي به في المهاوي الموغلة في البعد.
وذلك هو شأن الذي يتخبط ساقطا من معالي الإيمان والهداية إلى حضيض الضلال والغواية ٤٥.
٣٢ - (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

قوله تعالى: {ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب (٣٢) لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق (٣٣)}.

اسم الإشارة (ذلك) في موضع رفع مبتدأ، أي ذلك أمر الله - وقيل: في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف - والشعائر، في الأصل بمعنى العلامات أو المعالم التي تعرف بها الأشياء، وواحدتها شعيرة، وهي العلامة التي تشعر بما جعلت له - وإشعار البدن هو أن تعلّم بما يشعر أنها هدي.

والمراد بالشعائر هنا على أقوال: منها: أنها مناسك الحج كعرفة والمزدلفة والصفا والمروة ورمي الجمار.

ومنها: أنها أوامر الله وهي اتباع طاعته واجتناب معصيته.

ومنها: أنها البدن، أو الهدايا التي يسوقها الحاج للحرم؛ لأنها من معالم الحج - وتعظيمها، معناه استحسانها واستسمانها؛ إذ يختارها صاحبها عظام الأجرام حسانا سمانا غالية الأثمان؛ ليكثر الانتفاع بها - وقيل: المراد بشعائر الله هذه الوجوه كلها - وعلى الخصوص، الهدايا أو البدن.

قوله: (فإنها من تقوى القلوب) الضمير عائد على الشعائر؛ أي أن تعظيم هذه الشعائر من التقوى الذي تفيض به القلوب - ذلك أن القلوب مستقر التقوى وهو الخوف والخشية من الله - وفي الحديث الصحيح: " التقوى ههنا " وأشار إلى صدره.
٣٣ - (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

قوله: (لكم فيها منافع) أي في الشعائر على عموم المراد بها، وعلى الخصوص، البدن، فإن فيها للناس منافع كالتجارة والركوب والدر والنسل والأكل وغير ذلك.

قوله: (إلى اجل مسمى) وهو أن تسمى هديا بعد أن كنتم تملكونها - أي تنتفعون من ركوبها ودرها ونسلها وصوفها ولحمها ما لم تبعثوها هديا - فإن بعثتموها هديا ذهب ذلك كله، وذلك الأجل المسمى - وقيل: الأجل المسمى معناه نحرها - فينتفع بها ما لم تنحر، ونحرها أجلها.

قوله: (ثم محلها إلى البيت العتيق) المراد بالبيت العتيق الحرم كله - وقيل: الكعبة - والضمير في (محلها) يعود إلى (شعائر الله) - وتأويل الآية يختلف باختلاف تأويل الشعائر - فالقائلون إن المراد بالشعائر هنا البدن، قالوا: محلها أن تبلغ البيت العتيق وهو الحرم.
والقائلون: المراد بالشعائر مناسك الحج من عرفة ومزدلفة وطواف وسعي ورمي قالوا: محلكم من مناسك حجكم، على الكعبة، فتطوفون بها يوم النحر طواف الإفاضة بعد قضاء ما عليكم من واجبات.
وقيل: محل منافع أيام الحج البيت العتيق بانقضاء تلك الأيام ٤٦.

٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

قوله تعالى: {ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣٥)} المراد بالأمة هنا، القوم المجتمعون على دين سماوي واحد، فقد جعل الله لكل أمة ذات دين ورسالة سماوية (منسكا) والمنسك، بالفتح الذبح وإراقة الدم - وسميت الذبيحة نسيكة، وجمعها نسك ونسائك - وقيل: المنسك الموضع الذي تذبح فيه النسك ٤٧، وقيل: النسك معناه العيد.

والقول الأول أظهر وهو الذبح وإراقة الدم؛ لدلالة السياق عليه وهو قوله سبحانه: (ليذكروا اسم الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام) أي يذكروا اسم الله دون غيره من الأسماء على ما رزقهم من الذبح - سواء في ذلك الهدي أو الأضحية - وبذلك إنما ينبغي في الذبيحة أن تكون خالصة لله سبحانه.

قوله: (فإلهكم إله واحد) أي معبودكم واحد لا شريك له - ودينكم أصله التوحيد الخالص لله، المبرأ من كل وجوه الشرك والوثنية وإن تنوعت شرائعكم ونسخ بعضها بعضا لكنكم جميعا تدعون إلى عبادة الله الواحد (فله أسلموا) أي استسلموا لأمره وجلاله، وانقادوا لشرعه خاضعين مذعنين مخلصين (وبشر المخبتين) أي الخاشعين الطائعين المتواضعين - ومن الخبت والإخبات - وهو الخشوع والتواضع ٤٨ أي بشرهم بأحسن الجزاء أو أجزل الثواب.

٣٥ - (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

قوله: (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الموصول في محل نصب صفة للمخبتين - فهم الذين إذا ذكروا ربهم خشعت قلوبهم ورقّت مشاعرهم نخافوا عقاب الله وتذكروا عذابه والوقوف بين يديه يوم القيامة - وأعدوا لذلك عدته من الخشوع والخضوع والخوف والطاعة لرب العالمين.

قوله: (والصابرين على ما أصابهم) من المصائب والفتن وضروب الشدة في سبيل الله وما نالهم من المساءات والمكاره بسبب ثباتهم على الحق واعتصامهم بدين الله القويم.

قوله: (والمقيمي الصلاة) حذفت النون للتخفيف - و (الصلاة) مضاف إليه؛ أي الذين يؤدون فريضة الصلاة دون تفريط - فهي الفريضة الكبرى والأهم.

قوله: (ومما رزقناهم ينفقون) هذا وصف آخر للمؤمنين المخبتين - وهو أنهم يبذلون مما آتاهم الله من رزق لعباد الله من الفقراء والمحاويج والمكروبين وأولي القربى ٤٩.

٣٦ - (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٣٦)}.

(البدن)، منصوب بفعل مقدر - وتقديره: وجعلنا البدن جعلناها لكم فيها خير ٥٠.

(والبدن)، جمع بدنة، وهي الواحدة من الإبل - سميت بذلك من البدانة وهي السّمن - بدن الرجل بضم الدال، إذا سمن - وهي في اللغة بمعنى الناقة أو البقرة تنحر بمكة - وسميت بذلك؛ لأنهم كانوا يسمنونها ٥١ وهي اسم يختص بالبعير عند الشافعية - وتطلق على غير الإبل من البقر عند الحنفية والمالكية - ووجه قولهم هذا: أن البقرة لما صارت في حكم البدنة قامت مقامها - وقد جعلها النبي - صلى الله عليه وسلم - عن سبعة والبقرة عن سبعة فصار البقر في حكم البدن.

قوله: (جعلناها لكم من شعائر الله) أي من أعلام دينه التي شرعها لكم في مناسك حجكم إذا قلدتموها وأشعرتموها ليعلم الرائي أنها من الهدي.

قوله: (لكم فيها خير) أي خير الدنيا والآخرة - فخير الدنيا بالانتقام بها من ركوب وأكل ونحو ذلك - وخير الآخرة، من حسن الأجل وجزيل الثواب.

قوله: (فاذكروا اسم الله عليها صواف) (صواف)، جمع منصوب على الحال، من الضمير في، (عليها) - وهو لا ينصرف؛ لأنه جمع بعد ألفه حرفان؛ أي مصطفه ٥٢.

والمعنى: انحروها ذاكرين اسم الله عليها - وهو قوله: باسم الله والله أكبر.

و (صواف)، أي صفت قوائمها فتكون بذلك قياما على ثلاث قوائم، ويدها اليسرى معقولة - وعلى هذا فإن البعير إذا أرادوا نحره فإنه تعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم - وفي هذا أخرج أبو داود بسنده عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه " كانوا يحرون البدن معقولة اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها " وروى أحمد وأبو داود والترمذي عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال: " بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي ".

قوله: (فإذا وجبت جنوبها) أي سقطت على الأرض ميتة عقب نحرها ٥٣.

قوله: (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) الأمر للندب والاستحباب فيندب لصاحب الذبيحة أن يأكل منها - أما (القانع) فهو المتعفف، و (المعتر) معناه السائل - وقيل: (القانع) الذي يقنع بما يؤتاه، و (المعتر) معناه الذي يعترض فيسأل - وقيل: (القانع) الذي يسأل، (والمعتر) الذي يتعرض ولا يسأل.

ويُستدل بهذه الآية على أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء، أو ثلاثة أثلاث، فثلث لصاحبها وعياله - وثلث يهديه لأصحابه - وثلث يتصدق به على الفقراء وهو قول الحنفية - وذلك لقوله تعالى: (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) وفي الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال للناس: " إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث؛ فكلوا وادخروا ما بدا لكم " وفي رواية: " فكلوا وادخروا وتصدقوا " وفي رواية: " فكلوا وأطعموا وتصدقوا ".

وعند الشافعية، أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف - وذلك لقوله تعالى: (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير).

قوله: (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) أي مثل ذلك التسخير ذلل الله لكم هذه الأنعام لتكون منقادة لكم إلى حيث تريدون وما تبتغون من منفعة لكي تشكروا الله على ما خوّلكم من نعمة فتطيعوه وتعبدوه ٥٤.

٣٧ - (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)

قوله تعالى: {لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين (٣٧)}.

شرع الله لعباده ذبح هذه الأنعام لينتفعوا بها منافع كثيرة فيذكروه ويشكروه على هدايته لهم وما خوّلهم إياه من خير ونعمة - والله جل وعلا لا يناله شيء من هذه الأضاحي أو الهدايا، لا من دمائها ولا من لحومها؛ فهو سبحانه غني عن كل شيء، وغني عن العالمين.

وقد كان المشركون في جاهليتهم إذا ذبحوا شيئا من النعم لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم فنضحوا عليها من دمائها فنزل قوله: (لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم) أي يصله منكم تقوى قلوبكم وهو خشيتكم لله وإخلاصكم وطاعتكم له سبحانه فيجازيكم على ذلك خير الجزاء.

قوله: (كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم) أي سخر لكم هذه البدن لتعظموا ربكم وتخلصوا له الطاعة والعبادة مثلما هداكم لدينه وشرعه (وبشر المحسنين) أي بشر المؤمنين المذعنين للهب الخضوع والطاعة، بحسن الجزاء.

على أن الأضحية واجبة على من ملك نصابا - وهو قول الحنفية والمالكية وزاد الإمام أبو حنيفة اشتراط الإقامة من أجل الوجوب - ودليل الوجوب ما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا: " من وجد سعة فلم يضح فلا يقربنّ مصلانا " وهي مستحبة عند الشافعية والحنبلية وليست واجبة - وذلك للخبر: " ليس في المال حق سوى الزكاة " والراجح القول بعدم الوجوب - ويعزز ذلك أن

النبي - صلى الله عليه وسلم - ضحّى عن أمته فأسقط وجوب ذلك عنهم - وقيل: الأضحية سنة على الكفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقط وجوبها عن الباقين.

أما سن الأضحية: فقد ذهب جمهور العلماء إلى عدم الإجزاء إلا بالمسنّة - وبذلك إنما يجزي الثني من الإبل والبقر والمعز، أو الجذع من الضأن ٥٥ - أما الثني من الإبل: فهو الذي له خمس سنوات ودخل في السادسة - أما البقر فما له سنتان ودخل في الثالثة - وأما المعز فما له سنتان - وأما الجذع من الضأن فما له سنة - وقيل: ما له عشرة أشهر - وقيل: ثمانية أشهر - وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سنه ٥٦.

٣٨ - (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

قوله تعالى: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور (٣٨)} ذلك إخبار من الله بأنه يدفع عن عباده المؤمنين المتوكلين كيد الأشرار، وغوائل الظالمين الفجار - الله جل وعلا يحفظ المؤمنين المخلصين المعتدى عليهم، ويكلؤهم بعنايته ويكتب لهم التوفيق والصون والكلاءة ويصدّ عنهم شر المتربصين والمتمالئين والخائنين من الكافرين - وذلك كقوله سبحانه: (أليس الله بكاف عبده) وقد علل الله ذلك بأن أعداء المؤمنين خونة، مغالون في الخيانة والكفر - وهو قوله: (إن الله لا يحب كل خوان كفور) لا يحب من اتصف بالخيانة والكفران وجحد النعمة وخان الله ورسوله بالصد عن الحق وإنزال الأذى والمكاره بالمسلمين.

وقيل: نزلت بسبب المؤمنين في مكة؛ إذ آذاهم المشركون أشد الإيذاء، فأراد بعضهم أن يقتل من أمكنه من الكفار غيلة واحتيالا، فنزلت الآية للنهي عن الخيانة والغدر، والوعد بالمدافعة عن المؤمنين الصابرين المتوكلين ٥٧.

وروي أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - استأذنوه في قتل بعض الكفار غيلة فنزلت (إن الله لا يحب كل خوان كفور) فلما هاجر إلى المدينة أطلق قتلاهم - وهذا إن كان صحيحا فقد نسخه الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ " فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قل " نعم " فقتله مع أصحابه غيلة - وكذلك بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - رهطا إلى أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق فقتلوه غيلة ٥٨.

٣٩ - (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

قوله تعالى: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠)} قال ابن عباس: هذه أول آية نزلت في القتال - وهو ما رواه الترمذي والنسائي - فقد روي عنه قوله: لما أخرج النبي من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن - فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون) الآية - فقال أبو بكر: لقد علمت أنه سيكون قتال - وذلك لما بغى المشركون على المسلمين وأخرجوا النبي من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة.

فلما اجتمعوا بالمدينة وصارت لهم شوكة ومنعة ودار إسلام ومعقل يأوون إليه، شرع الله الجهاد لقتال الظالمين الذين يعتدون على المسلمين ويصدون عن دين الله صدودا - وذلك قوله: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) فقد أباح الله لهم أن يقاتلوا عدوهم بعد أن أمرهم بالاصطبار، واحتمال الأذى والمكاره - وذلك (بأنهم ظلموا) الباء للسببية؛ أي بسبب أنهم ظلموا - وهم المؤمنون، إذ كانوا يأتون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: " اصبروا فإني لم أومر بالقتال " حتى هاجر فنزلت الآية هذه بالقتال.

قوله: (وإن الله على نصرهم لقدير) الله مقتدر على أن يجعل النصر للمؤمنين من غير قتال؛ لأن الأقدار والآجال والمصائر كلها بيد الله سبحانه، فهو القادر أن يجعل النصر لما شاء من عباه؛ لكنه كتب على عباده المؤمنين أن يجتهدوا في طاعته وأن يبذلوا من الأعمال والطاعات في هذه الدنيا لينالوا رضوان الله - وما الدنيا هذه إلا دار امتحان واختبار للعباد، ثم تفضي بعد ذلك إلى الحساب والجزاء.

٤٠ - (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

قوله: (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) (الذين) في موضع جر صفة (للذين يقاتلون) ٥٩ - لقد ظلموا بإخراجهم من ديارهم ووطنهم مكة ظلما وعدوانا - وإنما كان سبب إخراجهم أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له - فهم مؤمنون موحدون لا يعنون بطاعة أو خضوع إلا لله رب العالمين - وهو قوله: (إلا أن يقولوا ربنا الله) الجملة في موضع نصب؛ لأنه استثناء منقطع ٦٠ أي: لكن لقولهم: ربنا الله - وكان هذا عند المشركين السفهاء أعظم ذنب - لا جرم أن ذلك ديدن المجرمين من الكفرة والمتربصين في كل زمان ومكان - فهم يكيدون للإسلام والمسلمين أبلغ الكيد بسبب عقيدتهم المستقيمة واستمساكهم بمنهج الحق، وهو منهج الإسلام - والمشركون يغيظهم بالغ الغيظ أن يروا المسلمين مستمسكين بدينهم أو أنهم يتبعون شريعة الإسلام دون غيرها من الشرائع - ذلك هو ديدن المجرمين الكافرين ودأبهم في كراهيتهم للحق وعداوتهم للإسلام - ون أجل ذلك فإنه لا مندوحة عن تشريع الجهاد لردع المجرمين وصدهم ودفع أذاهم عن المسلمين وإبطال مخططاتهم في العدوان على المسلمين.

إن هؤلاء الأشرار والأشقياء من الكفرة المناكيد لا تجدي معهم الحجة ولا يؤثر فيهم المنطق والبرهان - إنما تدفعهم الصرامة وشدة البأس والقوة من أجل أن تخمد شرورهم ونيرانهم ومفاسدهم.

قوله: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) كان من تقدير الله وحكمته البالغة أن يدفع بقوم عن قوم - ويصدّ شر أناس عن آخرين وذلك بمختلف الأسباب في القوة والبأس - ولولا أن الله سبحانه وتعالى شرع الجهاد للنبيين والمؤمنين ليقاتلوا المشركين والظالمين في كل زمان لطغى المشركون طغيانا فاستولوا على المسلمين ولكان قد عمّ في الأرض الفساد والشر، ولكان الظالمون قد تسلطوا على المؤمنين من أهل الملل المختلفة في أزمنتهم فاستحوذوا عليهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى كنائس ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد.

أو لتسلّط المشركون من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين وعلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين هم في ذمة المسلمين، فهدموا بطغيانهم وعدوانهم بيوت العبادة للفريقين وهم المسلمون وأهل الكتاب - ذلك أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى إنما يؤتمن عليهم المسلمون عندما تكون لهؤلاء دولة تحكم بشريعة الإسلام وتسوس البشرية على منهج الله - وحينئذ يناط بدولة الإسلام أن تصون بيوت العبادة لأهل الكتاب سواء في ذلك الصوامع والكنائس والبيع والصلوات وهي كنائس اليهود - وأيما اعتداء عليها فإنما هو اعتداء على المسلمين أنفسهم.

وقد قدّم في الذكر أماكن عبادة اليهود والنصارى على مساجد المسلمين؛ لأنها أقدم بناء - أو لأهمية التذكير بالأمانة التي يناط بالمسلمين صونها وكلاءتها وهي شؤون أهل الذمة بما في ذلك بيوت عبادتهم من صوامع وكنائس وغير ذلك من مسميات أهل الكتاب - فذلك كله من جملة الأمانات التي يتوجب على المسلمين صونها دون تقصير أو تفريط.

أما الصوامع؛ فهي جمع صومعة - وهي مختصة برهبان النصارى - وكذا البيع، جمع بيعة وهي كنيسة النصارى - وأما الصلوات، فهي كنائس لليهود - وأما المساجد، فإنها للمسلمين يذكرون فيها اسم الله ويذعنون له فيها بالخضوع والعبادة وهو قوله: (يذكر فيها اسم الله كثيرا) الضمير عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات؛ ولأن مساجد المسلمين أكثر عمارا وأكثر روادا وفيها تؤدى العبادة على وجهها الصحيح وقصدها المستقيم.

قوله: (ولينصرن الله من ينصره) ذلك وعد رباني كريم من الله لمن ينصر دينه الإسلام فيدرأ عنه الشرور والعوادي، ويبذل غاية مجهوده لتقويته وإعلاء شأنه وإشاعته في الدنيا بكل ما أوتي من قدرة وإمكان، بأن يجعل الله له التوفيق والسداد والنصر ويكتب له الغلبة والاستعلاء على الكافرين المعتدين.

وإذا فرّط المسلمون في دينهم ونكصوا دون الإعداد لنصرته والذب عنه، فانفتلوا عنه مدبرين مبعثرين أشتاتا لا تربطهم عقيدته ولا

يجمعهم منهجه العظيم، فما ينتظرون بعد ذلك إلا الهزيمة والتقهقر، والانحطاط وتسلط الكافرين الظالمين عليهم.
(إن الله لقوي عزيز) الله قوي مقتدر في علاه - جليل منيع لا يرام جانبه، فلا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ٦١.
٤١ - (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)
قوله تعالى: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (٤١)}
(الذين)، صفة للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق - وقيل: في موضع نصب على البدل من قوله: (من ينصره) ٦٢ وهذا إخبار من الله تعالى، بأنه إن مكّن لعباده المؤمنين في الأرض فجعل لهم الغلبة والسلطان، لم يفرطوا في دينهم وما عليهم من واجبات مفروضة - بل إنهم ظلوا على طريق الله ومنهجه المستقيم فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر - وهكذا يكون المؤمنون الصادقون الأوفياء، المؤمنون المخلصون الأتقياء، الذين لا تفتنهم الحياة الدنيا بزهرتها وزينتها ولا يغرهم بالله الغرور - فهم إن خوّلهم الله العزة والسلطنة والتمكين؛ فإنهم لا يذهلون عن دينهم ولا ينفتلون عن شريعة ربهم ليتيهوا في مباهج الدنيا وحطامها الزائل - بل إنهم لا يبرحون الإذعان لله وحده، والانقياد لأحكامه وأوامره، ودوام الانزجار عن مناهيه وزواجره (ولله عاقبة الأمور) إلى الله تؤول المصائر كلها فيجزي المؤمنين ثواب ما صنعوا ٦٣.
٤٢ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ)
قوله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود (٤٢) وقوم إبراهيم وقوم لوط (٤٣) وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد (٤٥) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦)}.
هذه تسلية من الله لرسوله (ص) مما كان يجده من المشركين من الإعراض وسوء الفعال - فالله بين له معزيا أن من سبقه من النبيين قد أوذوا في الله أو كذبتهم أممهم أشد تكذيب وأساءوا لهم شر إساءة من تعذيب وصد وقهر واستهزاء - وهؤلاء هم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم ولوط

وأصحاب مدين، وقوم موسى؛ لقد كان هؤلاء غُلاة في التكذيب والمعاندة والإعراض عن دين الله، عتاة غلاظا في تعذيب المؤمنين وإذلالهم - لكن الله المنتقم الجبار لا يغفل عما يفعله الظالمون المجرمون من فظائع الكفر والجحود والتنكيل بالمؤمنين؛ بل إن الله يملي لهم حتى إذا جاء الأجل أخذهم أخذ عزيز مقتدر - وفي الخبر: " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " وهو قوله سبحانه: (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم) أي أنظرتهم وأخرت عنهم العقاب (ثم أخذتهم) بالإهلاك والتدمير (فكيف كان نكير) استفهام تقريري؛ أي كيف كان إنكاري عليهم بتغيير الحياة هلاكا، والعمارة خرابا، والنعمة نقمة ومحنة.
٤٣ - (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٢]
قوله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود (٤٢) وقوم إبراهيم وقوم لوط (٤٣) وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد (٤٥) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦)}.
هذه تسلية من الله لرسوله (ص) مما كان يجده من المشركين من الإعراض وسوء الفعال - فالله بين له معزيا أن من سبقه من النبيين قد أوذوا في الله أو كذبتهم أممهم أشد تكذيب وأساءوا لهم شر إساءة من تعذيب وصد وقهر واستهزاء - وهؤلاء هم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم ولوط

وأصحاب مدين، وقوم موسى؛ لقد كان هؤلاء غُلاة في التكذيب والمعاندة والإعراض عن دين الله، عتاة غلاظا في تعذيب المؤمنين وإذلالهم - لكن الله المنتقم الجبار لا يغفل عما يفعله الظالمون المجرمون من فظائع الكفر والجحود والتنكيل بالمؤمنين؛ بل إن الله يملي لهم حتى إذا جاء الأجل أخذهم أخذ عزيز مقتدر - وفي الخبر: " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " وهو قوله سبحانه: (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم) أي أنظرتهم وأخرت عنهم العقاب (ثم أخذتهم) بالإهلاك والتدمير (فكيف كان نكير) استفهام تقريري؛ أي كيف كان إنكاري عليهم بتغيير الحياة هلاكا، والعمارة خرابا، والنعمة نقمة ومحنة.

٤٤ - (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٢]

قوله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود (٤٢) وقوم إبراهيم وقوم لوط (٤٣) وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد (٤٥) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦)}.

هذه تسلية من الله لرسوله (ص) مما كان يجده من المشركين من الإعراض وسوء الفعال - فالله بين له معزيا أن من سبقه من النبيين قد أوذوا في الله أو كذبتهم أممهم أشد تكذيب وأساءوا لهم شر إساءة من تعذيب وصد وقهر واستهزاء - وهؤلاء هم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم ولوط

وأصحاب مدين، وقوم موسى؛ لقد كان هؤلاء غُلاة في التكذيب والمعاندة والإعراض عن دين الله، عتاة غلاظا في تعذيب المؤمنين وإذلالهم - لكن الله المنتقم الجبار لا يغفل عما يفعله الظالمون المجرمون من فظائع الكفر والجحود والتنكيل بالمؤمنين؛ بل إن الله يملي لهم حتى إذا جاء الأجل أخذهم أخذ عزيز مقتدر - وفي الخبر: " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " وهو قوله سبحانه: (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم) أي أنظرتهم وأخرت عنهم العقاب (ثم أخذتهم) بالإهلاك والتدمير (فكيف كان نكير) استفهام تقريري؛ أي كيف كان إنكاري عليهم بتغيير الحياة هلاكا، والعمارة خرابا، والنعمة نقمة ومحنة.

٤٥ - (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

قوله: (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة) أي كم من قرية أهلكناها وهي متلبسة بالظلم وهو الكفر أو الشرك (فهي خاوية على عروشها) (خاوية) بمعنى ساقطة؛ أي خرت سقوفها على الأرض وتهدمت حيطانها بالكلية، أو أنها أصبحت خالية من الأهل والسكان، إذا فسرت خاوية بالخالية.

قوله: (وبئر معطلة) أي متروكة فلا يستقى منها لهلاك أهلها - أو خالية من أهلها لهلاكهم - (وقصر مشيد) محكم ومجصص بالشيد، فصار خاليا من الأهل والسكان - وقد جعل الله ذلك عبرة لمن يعتبر والمراد أن هذه الديار كانت عامرة بأهلها حيث الساكنون، والمباني، والعمارة، والحركة لكن أهلها بكفرهم وظلمهم وتكذيبهم المرسلين أخذهم الله فدمر عليهم تدمير، فلم يبق بعدهم غير آثارهم التي دلت عليهم.

٤٦ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

قوله: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها (٤٦)} الخطاب عن المشركين من أهل مكة - والاستفهام للإنكار؛ لأنهم كانوا يرحلون في تجاراتهم وأسفارهم فيمرون بهذه القرى الدارسة الهالكة فلم يتعظوا أو يعتبروا، فأنكر الله عليهم عدم اعتبارهم أو اتعاظهم، أو أن المراد حثهم على السفر ليروا مصارع الأمم الدارسة فيذّكروا ويعتبروا.

قوله: (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) أي يعقلون بقلوبهم ما يجب أن يعقل من توحيد الله وقدرته وأنه خالق كل شيء - والآية تدل

على محل العلم هو القلب - وبذلك فإن القلب آلة لهذا التعقل (أو آذان يسمعون بها) أي يسمعون بآذانهم ما يجب أن يُسمع من التذكير والعبرة مما يشاهدونه من آثار الأمم الخالية الدارسة.

قوله: (فإنها لا تعمى الأبصار) أي لا تعمى أبصار العيون، فإنها قائمة تبصر وترى (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي أن القلوب عمي عن درك الحق والذكر - ومعلوم أن القلوب محلها الصدور - وفائدة ذكرها في الصدور، الزيادة في البيان - والمقصود: أن الخلل ليس في عيون هؤلاء المشركين المعرضين، فعيونهم ناظرة مبصرة؛ بل إن الخلل في قلوبهم بما أصابهم من التواء وتبلّد ومرض، فباتت لا تتدبر أو تتعظ، ولا ترق أو تلين ٦٤.

٤٧ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

قوله تعالى: {ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (٤٧) وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير (٤٨) هؤلاء المكذبون الجاحدون، يستعجلون وقوع العذاب بهم - وإنما استعجلوه على سبيل التكذيب والاستهزاء (ولن يخلف الله وعده) الله، الحق - ووعده الصدق - ولن يخلف الله ما وعد الكافرين به من إنزال العقاب بهم والانتقام منهم في الدنيا والآخرة.

قوله: (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) المراد: يوم من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض؛ فإنه كألف سنة من سني الناس في هذه الدنيا - وهو قول ابن عباس - وقيل: المراد يوم من أيام الآخرة؛ فإنه مثل ألف سنة من سني الناس في حياتهم هذه - وقيل: إن يوما في الخوف والشدة وفظاعة العذاب في الآخرة كألف سنة فيها خوف وشدة من سني هذه الدنيا.

والمقصود: أن الله لا يعجل؛ بل إنه يمهل ولا يغفل، ولكل أجل كتاب والبطيء عند العباد قريب عند الله.

٤٨ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)

قوله: (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها) أي وكم من أهل قرية كانوا ظالمين عتاة، أمهلهم الله حينا من الزمن ثم أخذهم بالهلاك.

قوله: (وإلي المصير) أي مرجع الناس جميعا إلى الله وهو سبحانه يقضي بينهم يوم القيامة فيجازيهم بما صنعوا - ٦٥

٤٩ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين (٤٩) فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم (٥٠) والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم (٥١)} (نذير)، من الإنذار وهو الإبلاغ ولا يكون إلا في التخويف - والنذير، المنذر ٦٦ - والمعنى: أبلغ الناس يا محمد أنك منذر لهم تخوفهم عذاب الله وتحذرهم شديد انتقامه (مبين) أي أبين لكم ما أنذركم به - أو ما تحتاجونه من أمر دينكم.

٥٠ - (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

قوله: {فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم} هذه بشرى للمؤمنين الذين أطاعوا ربهم وعملوا الصالحات بأن الله يغفر لهم ما سلف من سيئاتهم وأن جزاءهم الرزق الكريم وهي الجنة.

٥١ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

قوله: (والذين سعوا في آياتنا معاجزين) الذين سعوا في إبطال آيات وردها وهم المشركون المعاندون الذين يحادون الله ورسوله (معاجزين) أي مشاقّين معاندين مثبطين الناس عن الإسلام (أولئك أصحاب الجحيم) أولئك هم أهل النار، يجدون فيها من الأهوال والتحريق ما هو جزاء لهم على ظلمهم وتكذيبهم وصدهم عن دين الله.

٥٢ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (٥٢) ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد (٥٣) وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم (٥٤)}.

قوله: (من رسول ولا نبي) الواو تفيد المغايرة في المعنى بين المعطوف والمعطوف عليه؛ فيستبين لنا أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، وهذا يدل على الفرق بين حقيقة الرسول والنبي - فقد قيل: الرسول: الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانا ومخاطبته له شفاها - أما النبي: فهو الذي يأتيه الوحي إلهاما أو في المنام - وقيل: الرسول: من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه - أما النبي: فهو المأمور أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله ولم ينزل عليه كتاب - وهما كلاهما لابد لهما من المعجزة.

قوله: (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) (تمنى) أي اشتهى ورغب فيما يهواه - وقال المفسرون: (تمنى) بمعنى تلا - و (أمنيته) يعني تلاوته.

وذكر أكثر المفسرين سببا لنزول هذه الآية - لكنه في الحقيقة سبب مريب لا ينبغي قبوله أو الاطمئنان - وهذه قصة معروفة هنا بقصة الغرانيق ٦٧ وهي قصة غريبة تقتضي التكذيب وعدم التصديق البتة وذلك لما نحسب أنها من وضع الزنادقة والماكرين من خصوم هذا الدين.

وجماع القول في سبب نزول هذه الآية ما روي عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة سورة النجم فلما بلغ قوله: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال: فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتجى - قالوا: ما ذكر آلهتنا قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) الآية.

وفي رواية أخرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جلس في ناد من أندية قومه، كثير أهله - فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه يومئذ فأنزل الله (والنجم إذا هوى) فقرأ حتى إذا بلغ إلى قوله (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرانيق العلا - وإن شفاعتهن لترتجى - ثم مضى بقراءة السورة كلها ثم سجد في آخر السورة وسجد القوم جميعا معه - فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال: ما جئتك بهاتين - أو قال له: تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله - فحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخاف خوفا شديدا فأنزل الله هذه الآية ٦٨ - إلى غير ذلك من مثل هذه الروايات في قصة الغرانيق المصطنعة التي ابتدعها فريق من المارقين المغرضين أولي الهوى مبتغين بذلك إشاعة الشبهة والارتياب في نبوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي صدق كلامه الذي لا يصدر عن هوى وإنما هو وحي يوحى - إن قصة الغرانيق لا نظنها غير ضرب من ضروب الإفك المفترى على عصمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - - وذلك بما يشوب عامة الروايات في القصة من شوائب الضعف والاضطراب - وقد طعن فيها كثير من أئمة العلم - فقال الشوكاني: لم يصح شيء منها، ولا ثبت بوجه من الوجوه - ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه - قال الله (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقوله: (وما ينطق عن الهوى) وقوله: (ولولا ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) فنفى المقاربة للكون فضلا عن الركون نفسه.

وقال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بإسناد متصل.

وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل - ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم - وقال الإمام ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة - وقال القاضي عياض: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصدا ولا سهوا ولا غلطا.

وقال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنا منهم

أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح - وقال البغوي في تفسيره عن هذه القصة: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه - ثم حكى أجوبة عن ذلك من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن (ص) ٦٩.

ويضاف إلى ذلك كله: أن ذكر الغرانيق في هذا الموضع المزعوم من سورة النجم لا يستقيم ولا يتفق، فإذ ذكرها هنا يخالف مقتضى الآيات عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى - فهذه أسماء لأصنام جيء بها في السورة بقصد الذم والتنديد بسفاهة المشركين الذين يعبدون هذه الأصنام الصماء والتي قال الله عنها موبخا مبكتا (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى).

قوله: (إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي إذا تلا وقرأ كتاب الله أوقع الشيطان في مسامع المشركين مثل قصة الغرانيق من دون أن يتكلم بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا جرى على لسانه البتة - وبذلك فإن هذه الآية جيء بها على سبيل التسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - - أي لا يحزنك يا محمد، فقد أصاب من قبلك من النبيين والمرسلين مثل هذا من الشيطان ليفتن به الناس عن دينهم وليُشيع في نفوسهم الشك.

قوله: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) النسخ معناه الإزالة والإبطال ٧٠.

أي أن الله يبطل ما يوقعه الشيطان في مسامع الناس (ثم يحكم الله آياته) أي يثبتها ويرسخها في قلوب العباد (والله عليم حكيم) الله يعلم ما يجري في العالمين وما يدور في بواطن العباد من إنس وجن وملك - وهو كذلك حكيم في تقديره وتدبيره وتصرفه في الكائنات.

٥٣ - (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

قوله: (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) وذلك تعليل لما يُلقيه الشيطان - وهو أن ذلك الإلقاء من الشيطان فتنة يفتتن بها الذين في قلوبهم شك وزيغ ونفاق - وكذلك القاسية قلوبهم - وهم المشركون المعاندون - فإن قلوبهم صلدة كزّة لا تلين للصواب، وطبائعهم بور لا تستمرئ الهداية والحق - إنما تستمرئ الضلال والاعوجاج والباطل.

قوله: (وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) أي أن المشركين المعاندين سادرون في الضلال والغي وهم بعيدون كل البعد عن صراط الله المستقيم ومنهجه الحكيم.

٥٤ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به) أي ليعلم أهل العلم من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه أن ما أوحي إليك من ربك لهو الحق، لا ريب فيه، فيبادروا الإيمان به، والتصديق بما فيه دون إبطاء.

قوله: (فتخبت له قلوبهم) أي تخضع وتخضع له قلوبهم، وتلين لعجيب نظمه وعظيم معناه.

قوله: (وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) أي يثبت الله بفضله وتوفيقه المؤمنين فيرشدهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وما يفضي بهم إلى النجاة والفوز بالجنة والرضوان ٧١.

٥٥ - (وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

قوله تعالى: {ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم} ذلك إخبار من الله عن حقيقة المشركين المعاندين، فإنهم ما يزالون في شك من كلام الله وهو القرآن فهم على حالهم من الضلال والغي والإغراق في الغواية والعمه والغفلة حتى تفجأهم الساعة بقيامها المباغت الرعيب (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أي عذاب يوم القيامة.

وقد سمي عقيما؛ لأنه لا يوم بعده ٧٢ والمراد: أن هذا اليوم عصيب لا رأفة فيه بالمجرمين، ولا رحمة لهم من الله ولا تنفعهم يومئذ

شفاعة.
٥٦ - (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)
قوله تعالى: (الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم (٥٦) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين (٥٧)) يوم القيامة يفصل الله بين العباد فيقضي بينهم بالحق ليساق الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى جنات النعيم، ففيها يطيب عيشهم وفيها يُحبرون.
٥٧ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)
وأما المجرمون المكذبون الذين ارتابت قلوبهم وزاغوا عن منهج الله فإنهم يوم القيامة جزاؤهم النار، وبئس العذاب المهين ٧٣.
٥٨ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)
قوله تعالى: }والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين (٥٨) ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم (٥٩) ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور (٦٠){ سبب نزول هذه الآية أنها لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة ابن عبد الأسد، قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه - فنزلت هذه الآية مسوية بينهم وأن الله يرزقهم جميعا رزقا حسنا ٧٤.
وتفيد الآية أن من خرج من بيته مهاجرا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، فترك الأوطان والأهل والخلان، وفارق الصحب والبلاد والأحباب، حبا في الله ونصرة دينه، مبتغيا بذلك إعلاء شأن الإسلام ثم أماته الله بعد ذلك؛ فقد حصل من الله على حسن الثناء وعظيم الجزاء، سواء مات قتلا أو حتف أنفه - وإنما يعوّل هنا على النية - فمن خرج مهاجرا مفارقا أهله ووطنه لا يبتغي بذلك غير إعزاز كلمة الله ورفع راية القرآن ومبشرا بدعوة الإسلام ثم أدركه الموت عقب ذلك فلا جرم أن يكون شهيدا - وذلك كقوله: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وقيل: للمقتول في سبيل الله مزية لما أصابه من مصيبة القتل.
٥٩ - (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)
قوله: (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) (مدخلا) بضم الميم، اسم مكان، منصوب على أنه مفعول ثان - أو مصدر ميمي مؤكد للفعل - والمراد بالمدخل هنا الجنة التي وعد الله عباده المؤمنين المهاجرين في سبيله.
قوله: (وإن الله لعليم حليم) (عليم) بما تخفيه الصدور من نوايا (حليم) يعفو عن سيئات المسيئين.
٦٠ - (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)
قوله: (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله) الإشارة (ذلك)، في موضع رفع على أنه مبتدأ، وخبره الأمر - وقيل: خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر - أي الأمر ذلك - أو الأمر ما قصصناه عليك - (ومن) في موضع رفع على الابتداء، وخبره (لينصرنه) ولا تكون من، هنا شرطية ٧٥.
وقد نزلت هذه الآية في سرية من الصحابة لقوا جمعا من المشركين في الشهر الحرام فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وذلك بغيهم عليهم - فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين، وحصل في نفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء، فنزلت الآية (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه) أي بدئ بالقتال وهو كاره له فهو مبغي عليه (لينصرنه الله) أي لينصرن الله الفئة المؤمنة الصابرة على الحق (إن الله لعفو غفور) قد عفا الله عن المؤمنين ما فعلوه من قتال المشركين في الشهر الحرام مبدوئين بالقتال من المشركين بغيا منهم عليهم ٧٦.
٦١ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)
قوله تعالى: }ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير (٦١) ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون

من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير (٦٢)} اسم الإشارة، الأول عائد إلى ما قصّه الله من نصر المظلوم - والمعنى: أن الله الذي ينصر جنده المؤمنين المتقين الصابرين لقادر على ذلك؛ فهو الخالق المتصرف في الخلق بما يشاء - وهو سبحانه الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل - ومعنى إيلاجه هنا إدخاله من هذا في هذا - ومن هذا في هذا - وبذلك يطول الليل ويقصر النهار - ثم يقصر الليل ويطول النهار - سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تحويلا - (وأن الله سميع بصير) الله يسمع ما يقوله العباد وما يهمسون به همسا - وهو مطلع على ما تفعله جوارحهم إذ لا يفوته من ذلك شيء.

٦٢ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

قوله: (ذلك بأن الله هو الحق) الإشارة عائدة إلى ما ذكر من مطلق التصرف وكمال القدرة والعلم، فإنه سبحانه الحق، أي الثابت في نفسه - الواجب الوجود لذاته - وذلك يقتضي أن يكون سبحانه مبدئا لكل موجود، ولا يصلح لمثل هذه الصفات غيره؛ فهو وحده حقيق بالعبادة والطاعة (وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) ما يعبد المشركون من دون الله إلا أصناما صما وعميانا - فما من معبود سوى الله من الأوثان والأنداد والشركاء إلا محض باطل - وما عبادة هذه الأوهام المصطنعة إلا محض سفه وجهالة وضلال، بل الله هو المعبود الحق، فهو الخالق القادر المتعالي على الخلائق كافة (الكبير) ذو الكبرياء بكمال ذاته وتفرده بالإلهية.

٦٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير (٦٣) له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد (٦٤) ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم (٦٥) وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور (٦٦)}.

قوله: (ألم تر) استفهام تقرير، والفاء للعطف على قوله: (أنزل) أي أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا - وذلك دليل على كمال قدرة الله وعظيم سلطانه، إذ ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد أن كانت فقرا يبسا لا نبات فيها ولا حياة، فتصبح عقب ذلك ذات حياة ونماء وبهجة - ويدل على ذلك اخضرارها بالزرع والنبات والثمر - لا جرم أن القادر على ذلك لهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

قوله: (إن الله لطيف خبير) الله عليم بما يستكن في أرجاء الكون من أخبار، وما في العالمين من أشياء، وهو سبحانه خبير بحاجات العباد وما يصلح عليه حالهم في الدنيا والآخرة.

٦٤ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

قوله: (له ما في السماوات وما في الأرض) كل شيء في الوجود مملوك لله، فهو سبحانه مالك الأحياء والأشياء في الدنيا والآخرة.

قوله: (وإن الله لهو الغني الحميد) ذلك تأكيد على أن الله مستغن عن العالمين؛ بل إن الخلق كلهم محتاجون إلى رزقه وفضله ورحمته - وهو سبحانه المحمود في كل الأحوال - حقيق بالثناء والعبادة والانقياد لأمره.

٦٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله: (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض) وهذه نعمة أخرى خوّل الله عباده إياها - إذ ذلّل لهم في الأرض من زروع وثمار ومعادن ومياه وغير ذلك من أصناف النعم الظاهرة والباطنة.

قوله: (والفلك تجري في البحر بأمره) (الفلك) منصوب بالعطف على (ما) وقيل: مرفوع على الابتداء - وما بعده خبر - وهذه كذلك نعمة مخوّلة أخرى للعباد - وهي الفلك؛ أي السفن التي تجري فوق سطح الماء جريانا سهلا ميسرا - وذلك بما بثه الله في طبيعة الماء من خصيصة مميزة تطفو بموجبها الأشياء الثقيلة على سطح الماء دون أن تغرق.

قوله: (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) الله بقدرته العظيمة وسلطانه المطلق أمسك السماء، بأن جعلها على هيئتها من

الثبات والصلابة ورصانة الحبك وتماسك البنيان (أن تقع على الأرض) أي كراهية أن تقع - أو كيلا تقع على الأرض، فإنه لولا رعاية الله وكلاءته ورحمته لتداعي الكون كله، وانهار الوجود برمته، وباتت الحياة والأشياء جميعها ركاما من الحطام والفوضى لا يعلم فظاعتهما إلا الله.

قوله: (إلا بإذنه) أي بإرادته وتخليته - أو مشيئته يوم القيامة؛ إذ يتزلزل الكون ويتداعى نظام الوجود كله.

قوله: (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) الله جل وعلا عظيم الرأفة والرحمة بعباده مع ظلمهم وشدة عصيانهم - ودليل ذلك ما خولهم إياه من نعم الدنيا، وما سخره لهم من أشياء في الأرض وفي السماء.

٦٦ - (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

قوله: (وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) الله الذي جعلكم أحياء في أحسن ما تكون عليه الصورة والهيئة بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر؛ إذ كنتم نطفا من الماء المستقذر المهين، حتى إذا انقضت آجالكم في الدنيا أماتكم (ثم يحييكم) وذلك يوم القيامة حيث الحساب والجزاء.

قوله: (إن الإنسان لكفور) أي شديد الجحود لنعم الله الكثيرة، أو أنه جحود للآيات الظاهرة الدالة على عظمة الله ووحدانيته - على أن المراد بصيغة العموم هنا المبالغة في حقيقة الجحود من الإنسان، فإن الغالب في الإنسان جُحود النعم التي امتن الله بها عليه - أو بجحود الدلائل والبراهين والشواهد التي تقتضي الإذعان لله بالطاعة والامتثال ٧٧.

٦٧ - (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

قوله تعالى: {لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم (٦٧) وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون (٦٨) الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون (٦٩)} المنسك يراد به الشريعة - وقيل: المكان الذي تؤدى فيه الطاعات والعبادات، والمعنى الأول أظهر - والمعنى: أن الله قد وضع لكل أمة من الأمم شرعا يلائم حياتهم وتصلح عليهم أحوالهم (هم ناسكوه) أي عاملون به - وذلك كجعل التوراة منسكا لأمة موسى - وجعل الإنجيل منسكا لأمة عيسى حتى بعثه رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - - وجعل القرآن منسكا لهذه الأمة ليكون للعالمين منهاجا دوام الدهر حتى تقوم الساعة؛ فإن شريعة القرآن يترسخ فيها من المزايا والحقائق والخصائص ما يجعلها صالحة للبشرية في كل زمان ومكان.

قوله: (فلا ينازعنك في الأمر) أي ليس لهم أن يخالفوك فيما شرع الله لك من دين ومنهاج؛ فقد استقر الآمر الآن على شرعك وهو الإسلام، وعلى أنه ناسخ لما عداه من شرع إلا ما يحتمل النسخ مما تلاقت عليه الأديان واتفقت عليه كلمة النبيين جميعا.

قوله: (وادع إلى ربك) أي ادع الناس إلى دين الله - دين الحق والهداية والتوحيد.

قوله: (إنك لعلى هدى مستقيم) أي على طريق مستقيم لا عوج فيه.

٦٨ - (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله: {وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون} أي إن خاصمك المشركون بعد ظهور الحق ولزوم الحجة فقل لهم: إن الله يعلم تكذيبكم وجحودكم، ويعلم ما تريدون بهذه المنازعة وهذا الخصام - وذلك على سبيل التهديد لهم والوعيد.

٦٩ - (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

قوله: {الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون} الله يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر هذا الدين - وحينئذ يعلمون المحق من المبطل.

٧٠ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

قوله تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير (٧٠)} إنك تعلم يا محمد وتوقن أن

الله عنده علم كل شيء، وأنه يعلم أخبار السماوات والأرض وما فيهن، وأن كل هذه الأخبار والأسرار والعلوم مسطور (في كتاب) وهو اللوح المحفوظ قوله: (إن ذلك على الله يسير) أي العلم بهذه الأخبار والعلوم هين ويسير على الله ٧٨.

٧١ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

قوله تعالى: }ويعبدون من دون لله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٧١) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير (٧٢)} ذلك تنديد من الله بالمشركين السفهاء الذين يعبدون مع الله آلهة أخرى مصطنعة لا تسمع ولا تعقل ولا تبصر، وهي أصنام موهومة لم ينزل الله بها من دليل ولا برهان.

قوله: (وما للظالمين من نصير) ذلك وعيد من الله لهؤلاء المشركين السفهاء بأنهم إذا ما نزل بهم عقابه ليس لهم حينئذ من احد ينصرهم أو يشفع لهم أو يدرأ عنهم العذاب.

٧٢ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) إذا سمع المشركون السفهاء آيات القرآن تتلى عليهم (بينات) منصوب على الحال؛ أي ظاهرات الدلائل، واضحات الحجج على أن الله حق وأنه سبحانه حقيق وحده بكامل العبادة والإفراد بالإلهية، وأن ما جاءهم به الإسلام لهو الصواب والرشاد (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) تغشى وجوه المشركين السفهاء علائم المنكر وهو الغضب والعبوس والإنكار لفرط نكيرهم وضيقهم بهذا الحق - وهذه صفة المجرمين الحاقدين من أعداء الإسلام في كل زمان أولئك الذين يكيدون للإسلام ويبالغون في كراهيته والنفور منه، لفساد قلوبهم وسوء فطرتهم التي أتى عليها التشويه والتلويث والمرض - أولئك لفرط كراهيتهم للإسلام، إذ سمعوا آياته تتلى عليهم تقطعت قلوبهم غيظا وحنقا، فاستبان ذلك على وجوههم التي غشيها التجهم، والتعبس والكلوح.

قوله: (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) (يسطون)، من السطو - وهو القهر بالبطش ٧٩؛ أي يهمون بالبطش والتنكيل بالذين تلوا عليهم آيات الله، تعظيما لإنكار ما خوطبوا به.

قوله: (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار) أمر الله نبيه أن يقابلهم بالوعيد من القول الذي فيه ترعيب لهم وتنكيل بنفوسهم التي طغى عليها الجحود واللؤم ومحض البوار، وهو قوله لهم: أفأنبئكم أيها المشركون بما هو أعظم كراهية لكم من هؤلاء الذين تغتاظون من قراءتهم القرآن عليكم (النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) (النار)، مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي النار - أو مبتدأ، والجملة الفعلية (وعدها الله) خبر المبتدأ ٨٠؛ أي أن النار شر مما كرهوه وتغيظوا من سماعه؛ فقد وعدها الله هؤلاء المكذبين العتاة؛ فهي مردهم ومأواهم وبئس ما يصيرون إليه ٨١.

٧٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

قوله تعالى: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز (٧٤)) المراد بالمثل الشبيه - والمقصود به هنا الأصنام التي كانت مصفوفة من حول الكعبة والتي عبدها المشركون من دون الله - وهذا خطاب من الله للناس منبها على حقارة الأصنام، ومنددا بسفاهة أحلام الجاهلين وسخفها؛ أي جعل لي المشركون السفهاء شبيها في عبادتي؛ أي أصناما عبدوها من دوني - قوله: (فاستمعوا له) أي جعل المشركون لي شبيها في عبادتي فاستمعوا حال هذا الشبيه وتدبروه لتعلموا مبلغ الحماقة المسفة التي

انحدرت إلى حضيضها عقول الجاهلين السفهاء - وذلك قوله: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) الذباب، اسم واحد للذكر والأنثى، وجمعه في الكثرة ذُبان - وفي القلة: أذبة - والواحدة ذبابة ٨٢ - والمعنى: أن الأصنام التي عبدتموها من دون الله ليست سوى أحجار صُم لا تعي ولا تدرك - ولا تملك أن تخلق ذبابا وهو أبسط أنواع الحشرات وأشدها هوانا وضعفا؛ بل إن الذباب من الحشرات التي تستقذرها النفوس وتتقزز منها الطبائع البشرية لحقارتها وقذرها - هذه الحشرة البسيطة المستقذرة لا تملك الأصنام البلهاء الصم- وإن اجتمعت جميعا- أن تخلق شيئا منها.

قوله: (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) الاستنقاذ، معناه التخليص - وقد ذكر أن المشركين كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران - وقيل: بالطعام فيقع عليه الذباب ليأكل منه - والمعنى: إذ وقع الذباب على هذه الأصنام فأخذ مما عليها شيئا، لا تستطيع الأصنام أن تستخلص شيئا مما أخذه الذباب منها - والمراد إخبار الناس أن هذه الأصنام عاجزة عن خلق ذباب وهو المستقذر المهين؛ بل إنها عاجزة عن استنقاذ شيء مما يسلبه الذباب منها.

قوله: (ضعف الطالب والمطلوب) (الطالب) معناه الأصنام المتخذة آلهة - (والمطلوب)، الذباب؛ أي عجز الطالب وهي الأصنام المعبودة من دون الله أن تستنقذ ما سلبه الذباب منها - وذلك غاية في التنديد بالمشركين الضالين الذين يذعنون بالخشوع والتقديس لهذه الأصنام البلهاء الصم التي لا تصنع حشرة مهينة قذرة كالذباب - وأعجز عن استرداد ما يسلبه الذباب منها.

٧٤ - (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

قوله: (ما قدروا الله حق قدره) ذلك نعي على المشركين الضالين عدم تعظيمهم ربهم الذي خلقهم وخلق أصنامهم - فما عظموه حق التعظيم، وما أجلوه ما هو حقيق به من كامل الإجلال؛ بل اتخذوا من دونه آلهة مكذوبة مفتراة، فعبدوها سفها وجهالة.

قوله: (إن الله لقوي عزيز) الله بقوته المطلقة قادر على خلق ما يشاء - وهو كذلك عزيز؛ أي منيع قاهر لا يغلبه غالب ٨٣.

٧٥ - (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير (٧٥) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور (٧٦)} قيل: إن هذه الآية نزلت لما قال المشركون (أأنزل عليه الذكر من بيننا) فقال الله لهم: إنه يختار من الملائكة رسلا كجبريل وميكائيل اللذين كانا يرسلهما ربهما إلى النبيين في الأرض وإلى من يشاء من عباه - وكذلك اختار من الناس رسلا لهداية الناس ويأتي في طليعتهم وأشرفهم محمد - صلى الله عليه وسلم -، المبعوث هداية ورحمة للعالمين.

قوله: (إن الله سميع بصير) الله سميع لما يقوله المشركون في رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ بل سميع لكل ما ينطق به البشر من أقوال - وهو كذلك بصير بمن يصطفيهم رسلا للناس.

٧٦ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

قوله: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أي يعلم ما بين أيديهم من أمر الآخرة، وما خلفهم من أمر الدنيا ٨٤.

٧٧ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨)} فضلت هذه السورة بسجدتين وهذه هي السجدة الثانية من سورة الحج - وهي مشروعة في مذهب الشافعي خلافا لأبي حنيفة ومالك.

والمراد بقوله: (اركعوا واسجدوا) إقامة الصلاة المفروضة - وقد خص الركوع والسجود؛ لعظيم قدرهما وشرفهما في الصلاة؛ بل إنهما ركنان أساسيان في الصلاة فلا تصح من دونهما أو أحدهما.

قوله: (واعبدوا ربكم) أي أذعنوا له بالخضوع والطاعة فأتمروا بما أمر وانتهوا عما زجر.
قوله: (وافعلوا الخير) ندب إلى فعل المندوبات من أفعال الخير وهي كثيرة ومنتشرة في كل جوانب السلوك والتصرف.
٧٨ - (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)
قوله: (وجاهدوا في الله حق جهاده) أي جاهدوا المشركين والمنافقين طلبا لمرضاة الله - وذلك لدفع أذاهم وكف شرورهم عن المسلمين - وقيل: المراد بالجهاد هنا عموم الامتثال لأوامر الله جميعها، والانتهاء عن كل نواهيه؛ يعني جاهدوا أنفسكم بتوطينها على فعل الطاعات ومجانبة المعاصي والخطيئات - قوله: (هو اجتباكم) الله اختاركم لأشرف رسالة - وهي رسالة الإسلام - وما تضمنه من كامل الشريعة المباركة التي يصلح عليها الناس في حياتهم ومعادهم - قوله: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) الحرج معناه الضيق ٨٥ - وهذه الآية شاهد عظيم على صلوح الشريعة الإسلامية للإنسان في كل مكان وزمان - لا جرم أن هذه الشريعة بنيت على التيسير والتسهيل والرحمة؛ فهي بذلك مغايرة للتشديد والتضييق والإعنات - وهذه واحدة من كبريات المزايا التي تتجلى في شريعة هذا الدين العظيم - وهي مزايا أساسية وثابتة تكشف عن طبيعة هذا الدين المميز المرغوب - طبيعته الكريمة الميسورة التي تنسجم تماما مع فطرة البشر.
على أن هذه الآية العظيمة تدخل في كثير من أحكام الشريعة الإسلامية بما يحقق فيها اليسر والتوسعة ويزيل منها التشديد أو الحرج الذي لا يطاق - ومن الأمثلة على هذه الحقيقة، الصلاة - وهي عماد الدين؛ بل هي الركيزة الثانية الكبرى في هذا الدين كله بعد شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها قد شرع فيها التيسير والترخيص مما يجعلها سهلة تطاق، فهي تجب في الحضر أربعا وفي السفر تقصر إلى ركعتين اثنتين، فضلا عن جمع الصلاة بوجهيه في التقديم والتأخير - وتصلى رجالا وركبانا في حالات الأعذار ويسقط فيها وجوب القيام للمريض فيؤديها جالسا، فإن لم يستطع؛ فعلى الجنب، فإن لم يستطع؛ فمستلقيا - فإن لم يستطع فيومئ إيماء - وكذلك فريضة الصيام شرع فيها الترخيص في الإفطار عند الحاجة - إلى غير ذلك من الأحكام الكثيرة المنتشرة في كل مناحي الشريعة؛ فقد شرع فيها التخفيف والتوسعة والرخص؛ دفعا للمشقة والحرج وإذهابا للعنت عن الناس وجلبا للتسهيل عليهم.
ومن جملة ذلك: تشريع الكفارات؛ فقد شرعها الله لمحو كثير من الزلات والمخالفات - وكذلك الاستغفار والتوبة؛ فهما بابان عظيمان لتكفير الذنوب والصفح عن الخطايا والعيوب التي يتعثر بها الإنسان أو يقع فيها استجابة لضعفه - لكنه إذ يبادر الاستغفار والندامة تائبا؛ فإن الله تواب رحيم - وذلك يبين يُسر هذا الدين وسهولة الأخذ به - وفي الحديث: " بعثت بالحنيفية السمحة ".
قوله: (ملة أبيكم إبراهيم) (ملة)، منصوب بفعل مقدر - وتقديره: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم ٨٦.
قوله: (هو سماكم المسلمين) الذين سماهم المسلمين هو الله عز وجل؛ فقد سماهم بذلك من قبل في الكتب المتقدمة (وفي هذا) يعني القرآن.
قوله: (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أي يشهد عليكم يوم القيامة أنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم (وتكونوا شهداء على الناس) أي لتشهدوا على الناس يوم القيامة أنهم قد بلغوا من رسلهم دعوة ربهم - فلا جرم أن هذه نعمة عظمى قد امتن الله بها على هذه الأمة؛ إذ جعلها خير الأمم لتشهد يوم القيامة على سائر الأمم بحقيقة التبليغ - وهي نعمة من الله جديرة أن تقابل ببالغ الشكران لله - وذلك بصدق التوجه إلى جنابه وحسن الإخبات له، مطيعين عابدين خاشعين - وهو قوله: (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) أي ثقوا به كامل الثقة في كل أموركم، واعتضدوا به تمام الاعتضاد، وتوكلوا عليه بالغ التوكل، واطلبوا منه وحده العون والنصر والتأييد (هو مولاكم) أي ناصركم ومؤيدكم ومظهركم على عدوكم (فنعم المولى ونعم النصير) نعم الولي ونعم الناصر ٨٧.

٢٣ سورة المؤمنون:

سورة المؤمنون:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وهي فيها من تزاحم المعاني الكثيرة المختلفة، وتعدد المواعظ والمشاهد ما يستديم اليقظة في النفس، والرهافة في المشاعر والحس - هذه السورة تعرض لسمات المؤمنين المفلحين الذين يفوزون بالنجاة ثم يصارون إلى نعيم الفردوس - جعلنا الله في زمرتهم.
وفي السورة بيان مجمل لمراحل الحياة الإنسانية وتطورها المنتظم العجيب بدءا بالنطفة من ماء مهين حتى الاكتساء بالحم، والإنشاء خلقا آخر بإشاعة الروح في الجنين ثم خروجه إلى الدنيا إلى أجل مسمى، ثم عودته إلى الممات ومخالطة التراب ليبعث يوم القيامة من جديد.
وفي السورة ذكر مقتضب لفريق من النبيين المرسلين وما لاقوه من معاندة الكافرين وطغيانهم وهم نوح وهود وصالح وموسى وهارون - أولئك المقربون الأطهار الذين أوذوا في الله من أممهم الضالة المتمردة فانتقم الله منهم في هذه الدنيا توطئة للعذاب البئيس المستديم في الآخرة.
وفي السورة من أهوال الموت وفظائع القيامة ما يقرع الحس والوجدان، ويستنفر في القلب دوام الخشية والوجل - إلى غير ذلك من العبر المختلفة وعظائم الأخبار عن أحوال البشرية في الدنيا والآخرة.
بسم الله الرحمن الرحيم
١ - (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)
}قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون (٣) والذين هم للزكاة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٧) والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٨) والذين هم على صلواتهم يحافظون (٩) أولئك هم الوارثون (١٠) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (١١){.
روى الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال: إذا نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوحي يُسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: " اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا " ثم قال: " لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة " ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر ١ - لقد فاز المؤمنون وسعدوا بما أعده الله لهم من حسن الجزاء في الدار الآخرة، إذ النعيم المقيم والقرار الكريم المستديم.
والمؤمنون متصفون بصفات شتى جديرة بالاهتمام والبيان - وهي أوصاف مستفيضة ذكرتها الآيات هنا.
٢ - (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)
وذلك قوله: }الذين هم في صلاتهم خاشعون{ أي خائفون ساكنون مطمئنون، والخشوع محله القلب - فشأن المؤمن أن يكون موصول القلب بالله، وأن يكون واثقا مستيقنا من جلال الله وعظيم سلطانه وجبروته - لا جرم أن قلب المؤمن دائم الخوف من الله لتخشع بذلك جوارحه فلا تدنسها المعاصي والآثام، بل تجنح للطاعات والعبادات وفعل الصالحات.
والخشوع في الصلاة إنما يتحصل للمؤمن باجتهاده في استجماع قلبه كيما ينشغل بالصلاة عما سواها من مشكلات الحياة الدنيا - والصلاة في الحقيقة لهي وقت للاسترواح النفسي والروحي للمؤمن المذكر، وهو يجد فيها لنفسه قرة عين، وفي ذلك روى الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " حبّب إلي الطيبُ والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة " - وروى أحمد أيضا بسنده عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " يا بلال، أرحنا بالصلاة " - ومن أوجه الخشوع في الصلاة: السكون فيها والتذلل، وترك الالتفات والحركة، والخوف من الله - ومن الخشوع في الصلاة أيضا: أن يضع المصلي بصره في موضع سجوده، فإنه أحضر لقلبه وأجمع لفكره - وهو قول الشافعي - وقال مالك: إنما ينظر أمامه ولا يرفع بصره إلى

السماء في الصلاة.
٣ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)
قوله: {والذين هم عن اللغو معرضون} اللغو معناه السقط وما لا يُعتد به من كلام وغيره ٢، أو هو الفعل الذي لا فائدة فيه - قال صاحب الكشاف: اللغو، ما لا يعنيك من قول أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه واطّراحه.
وما كان هذا وصفه من القول أو الفعل فهو محظور - وقال ابن عباس: اللغو معناه الباطل.
وعلى هذا فإن مجانبة اللغو من صفات المؤمنين؛ فهم أهل جد واهتمام وعمل نافع صالح؛ فهم منشغلون بواجباتهم عن الهزل والتلهي بسقط الأعمال أو الأقوال الفارغة التي لا تغني ولا فائدة فيها.
٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)
قوله: {والذين هم للزكاة فاعلون} والمراد بالزكاة: الحق الواجب في الأقوال.
ومع أن هذه الآية مكية فإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنين من الهجرة - والظاهر أن ما فرض بالمدينة هي الزكاة ذات النصب وما يجب فيها من مقادير مستحقة - ومع ذلك فقد كان أصل الزكاة واجبا بمكة؛ لقوله في سورة الأنعام (وآتوا حقه يوم حصاده).
والمراد: أن المؤمنين متصفون بهذه الصفة الكريمة وهي أداؤهم لفريضة الزكاة لتصرف في وجوهها المشروعة.
٥ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)
قوله: (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) هذا خطاب للرجال خاصة دون النساء - بدليل قوله تعالى: (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) فإنه لا إباحة بين النساء وملك اليمين في الفرج.
٦ - (إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)
هذا خطاب للرجال خاصة دون النساء - بدليل قوله تعالى: (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) فإنه لا إباحة بين النساء وملك اليمين في الفرج.
وإنما عرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخرى - وهذه صفة من صفات المؤمنين وهي أنهم حافظون لفروجهم باستثناء أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، وهن الإماء - وهذا إخبار عن إباحة وطء الزوجة والأمة فقد دون غيرهما من النساء؛ فإن ما دون هذين الصنفين من الزوجات والإماء محظور البتة - وبذلك يحرم الزنا واللواط على الخصوص - وكذلك نكاح المتعة؛ فإنه ليس نكاحا شرعيا صحيحا - والنكاح الصحيح ما كان مبنيا على الديمومة وتحصيل النسل بخلاف المؤقت.
وكذلك الاستمناء فإنه حرام بدليل هذه الآية؛ فقد خرج بالزوجة والأمة كل سبيل آخر من سبل التلذذ وإفراز الشهوة؛ وهو قول عامة العلماء؛ إذ ذهبوا إلى تحريم الاستمناء - وهو الصحيح - وخالفهم في ذلك الإمام أحمد بن حنبل؛ إذ جوزه واحتج بأن الاستمناء - إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة - وأصل ذلك عنده الفصد والحجامة - وهذا القول في غاية الضعف - والصحيح تحريم الاستمناء وهو نكاح اليد، للآية التي يحصر فيها جواز الاستمتاع الجنسي في النكاح الدائم الصحيح والتسري فقط - وأيما وسيلة أخرى غير هاتين الوسيلتين حرام.
قوله: (فإنهم غير ملومين) أي مؤاخذين.
٧ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)
قوله: {فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون} (العادون)، المعتدون المجاوزون الحد، الواقعون في الحرام.
٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)
{والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون} الأمانات جمع أمانة، وهي كل ما يحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا - أو هي ما يؤتمن عليه من جهة الحق والخلق؛ فهي تشتمل على سائر العبادات وغيرها من المأمورات؛ فإن المرء مؤتمن على كل ذلك - وتتناول الأمانة أيضا

كل ما كان تركه داخلا في الخيانة لقوله تعالى: (لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانتكم).
وعلى العموم فإن الأمانة ما يلتزمه المرء من قول، أو فعل فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بهما.
أما العهد: فهو في اللغة بمعنى الأمانة واليمين والموثق والذمة والحفاظ والوصية ٣.
والمراد بالعهد: ما عقده المرء على نفسه فيما يقربه إلى ربه - وهو يدخل فيه العقود والأيمان والنذور - على أن الأمانة أعم من العهد - فكل عهد أمانة فيما تقدم من قول أو فعل، فهو بذلك أخص من الأمانة، والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا، وإن كان العهد أخص من الأمانة.
وجدير ذكره هنا أن هذه صفة خاصة للمؤمنين وهي أنهم يرعون أماناتهم وعهودهم - فلا يخونون الأمانات، ولا ينقضون العهود والمواثيق، ولا يفرطون في شيء التزموه قولا أو فعلا - وذلك أن المؤمن وفي وصادق ومؤتمن؛ فهو لا يغش أو يمكر - ولا يحتال أو يخادع - وإنما هو صريح ومستقيم وأمين، ولا يختلف فيه الظاهر عما يخفيه الباطن من مكنون - وهذه هي سجية المؤمنين في الصدق والاستقامة والوضوح؛ فهم ليسوا كأولئك الذين لا تستوي فيهم الظواهر والبواطن، وإنما يظهرون بألسنتهم وهيئات سلوكهم حلاوة المظهر وجمال الصورة والسمت، وهم في الحقيقة يكنون في طبائعهم الغش والباطل كأدعياء الحضارة المادية الكاذبة التي بنيت على الخداع والتدسس والنفاق والمراوغة والميكافيلية.
إن المؤمن صادق مؤتمن لا يخادع ولا يخون، بل يؤدي إلى من ائتمنه ولا يخون من خانه، ولا ينقض عهد من نقض عهده، ولا يغدر بمن غدر به.
٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)
قوله: }والذين هم على صلواتهم يحافظون{ المحافظة على الصلاة تحقق في أدائها على وجهها الصحيح المشروع، والمبادرة إليها في أوائل أوقاتها دون إمهال أو تثاقل أو عجز.
والصلاة فريضة الإسلام الكبرى وركنه الأساسي الأعظم - فحقيق بالمؤمن أن يؤديها خير أداء من حيث ركوعها وسجودها وقراءتها وما يجلّيها من خشوع - وهذه صفة سادسة للمؤمنين وهي أداؤهم الصلاة محافظين عليها باعتبارها أعظم أعمال الإسلام؛ فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: " الصلاة على وقتها " قلت: ثم أي؟ قال: " بر الوالدين " قلت: ثم أي؟ قال: " الجهاد في سبيل الله ".
١٠ - (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)
قوله: }أولئك هم الوارثون{ المؤمنون الذين اجتمع فيهم ما تبين من صفات (هم الوارثون) الذين يستحقون أن يُسموا وارثين دون غيرهم من الناس - أما السبب في تسمية ما يجده المؤمنون من حسن الجزاء، بالميراث؛ فقد قيل: إن الجنة كانت مسكن أبي البشر آدم عليه السلام فإذا انقلبت إلى أولاده المؤمنين صار ذلك شبيها بالميراث - وقيل: بل إن هؤلاء المؤمنين المتصفين بتلك الصفات يرثون منازل أهل النار من الجنة - وفي الخبر من رواية ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار؛ ورث أهل الجنة منزله ".
١١ - (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
قوله: }الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون{ (الفردوس) بمعنى البستان - واللفظة أعجمية عُربت - وقيل: عربية بمعنى الكرم - والجمع فراديس - والمراد به هنا خير منزلة في الجنة - وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوق عرش الرحمن " - .
هذه الدرجة الرفيعة في الجنة قد خول الله المؤمنين أولي الصفات المتقدمة إياها، ماكثين فيها أبدا لا يبرحونها ولا يتحولون عنها ٤.
١٢ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ)
قوله تعالى: }ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة

مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤) ثم إنكم بعد ذلك لميتون (١٥) ثم إنكم يوم القيامة تبعثون (١٦)} السلالة، من السل، بالفتح، وهو الأخذ والاستخراج، والسليل، الولد، والأنثى سليلة ٥.

والمراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام، فقد استلّ من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون وذلك مخلوق من التراب - وفي هذا أخرج الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء فيهم الأحمر والأبيض والأسود بين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك ".

١٣ - (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)

قوله: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} الضمير عائدة على جنس الإنسان، فهو مخلوق من ماء قليل مهين جعله الله في مستقر حصين مصون وهو الرحم

١٤ - (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(ثم خلقناه النطفة علقة فخلقنا العقلة) النطفة والعلقة، منصوبان، لأنهما مفعولان للفعل (خلقنا) - و (خلقنا) ههنا يتعدى إلى مفعولين، لأنه بمعنى صيرنا - ولو كان بمعنى أحدثنا لتعدى إلى مفعول واحد ٦ والمعنى: حولنا النطفة إلى علقة، أو صيرنا علقة، وهي الدم الجامد (فخلقنا العلقة مضغة) يعني جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة، أي قطعة لحم - وقد سميت مضغة، لأنها مقدار ما يمضغ.

قوله: (فخلقنا المضغة عظاما) أي صيرنا قطعة اللحم هذه متصلبة عظاما يقوم عليه جسد الإنسان (فكسونا العظام لحما) أي جعلنا على العظام ما يسترها ويشدها من اللحم.

قوله: (ثم أنشأناه خلقا آخر) أي جعلناه خلقا مباينا للخلق الأول وذلك بنفخ الروح فيه لتنتشر فيه الحياة.

قوله: (فتبارك الله أحسن الخالقين) أي تعالى الله وتعظم شأنه وجلاله فقد استحق التعظيم والثناء - و (أحسن) مرفوع على أنه بدل من (الله).

وقيل: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف - وتقديره: هو أحسن الخالقين ٧.

١٥ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)

قوله: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون} بعد خلقكم أطوارا في بطون أمهاتكم، ثم خروجكم إلى الدنيا لتحيوا فيها إلى أجل يعلمه الله، ثم تصيرون إلى الموت لتمكثوا في قبوركم حينا مقدورا من الدهر،

١٦ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)

ثم تبعثون بعد ذلك يوم القيامة لتلاقوا الحساب والجزاء وهو قوله: (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون).

لا جرم أن هذا الإخبار عن كيفية الخلْق والتكوين يأتي في الغاية من حقيقة الإعجاز لهذا الكتاب المنزل الحكيم - ويتجلى ذلك تماما، ونحن نتخيل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أميا وهو مبعوث في أمة أمية لا تدري ما القراءة ولا الكتابة - فأحرى ألا تدري عن حقائق العلوم الكونية شيئا.

لكن هذه الآية وهي تعرض لهذا الترتيب المتسلسل في الخلق مما لم تدركه عقول البشر إلا في عصرهم الراهن- تزجي بالدليل الأبلج على أن القرآن معجز وأنه من صنع الله العليم القدير.

١٧ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

قوله تعالى: {ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين} (سبع طرائق)، أي سبع سموات - سميت طرائق لتطارقها، أي كون بعضها فوق بعض - يقال: طرق الليل عليه، أي ركب بعضه بعضا ٨.

قوله: (وما كنا عن الخلق غافلين) ليس الله غافلا عن خلقه بل إن الله حفيظ لهم من أن تسقط عليهم السماوات فتهلكهم - وهذا دليل قدرة الله المطلقة وجبروته المذهل الذي ليس له حدود.

١٨ - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

قوله تعالى: }وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون (١٨) فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون (١٩) وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين (٢٠) وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون (٢١) وعليها وعلى الفلك تحملون (٢٢)} هذا إخبار من الله عن إنعامه على عباده - وهو إنعام كثير ومنبسط ومستفيض لا يعد ولا يحصى - ويأتي في طليعة ما أنعم الله به على الناس إنزاله القطر من السماء (بقدر) أي بحسب الحاجة للعباد فلا يكون كثيرا كثرة تفسد الأرض والحرث والعمران - ولا يكون قليلا قلة يظمأ بها الناس والأنعام وتفسد الحروث والنبات - لا جرم أن هذا دليل على حقيقة الصانع القادر الذي خلق كل شيء بقدر - فلا فوضى ولا خبط ولا عشوائية وإنما خلق دقيق ومقدور وموزون من غير زيادة ولا نقصان - كل ذلك يدل على عظمة اللطيف الخبير.

قوله: (فأسكناه في الأرض) أي جعلنا الماء النازل من السماء يستقر في الأرض فيمتلئ به جوفها، ومن ثم تتفجر الأنهار والآبار والينابيع والعيون لتكون ثجّاجة يفيض منها الماء العذب الصافي فيضا فتستقي منه الأراضي وما فيها مغروسات ومزروعات ويستقي منه العباد والدواب.

قوله: (وإنا على ذهاب به لقادرون) من فضل الله ونعمته على الخلق أن سلك الماء في ثنايا الأرض فجعله مخزونا قريبا من سطحها، ليسهل أخذه والانتفاع به - والله جل وعلا قادر على إذهاب الماء بمختلف وجوه الإذهاب والصرف - وذلك كجعله يغور في أعماق الأرض إلى المدى الذي لا يوصل فلا ينتفع به أحد، فيتضرر الناس وسائر الأحياء.

١٩ - (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

قوله: (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) أي خلقنا لكم وأحدثنا بهذا الماء بساتين من نخيل وأعناب - وقد خصّ هذين الصنفين من الثمار دون غيرهما من ثمار الأرض؛ لأنهما كانا أعظم ثمار الحجاز - فذكرهم بما يعرفونه من نعم الله عليهم.

قوله: (لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) أي خلق لكم من هذه البساتين العامرة النضرة أصنافا شتى من الفواكه تتفكهون بها وهي ذات ألوان وطعوم كثيرة ومختلفة - والفاكهة معروفة، وأجناسها الفواكه - وقد اختلفوا فيها - فقال بعض العلماء: كل شيء قد سُمي من الثمار في القرآن نحو العنب والرمان فإنه لا يسمى فاكهة - وعلى هذا لو حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل عنبا ورمانا لم يحنث ولم يكن حانثا - وقال آخرون: كل الثمار فاكهة - وإنما كرر في القرآن في قوله تعالى: (فيها فاكهة ونخل ورمان) لتفضيل النخل والرمان على سائر الفواكه دونهما - ومثله قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) فكرر هؤلاء للتفضيل على النبيين ولم يخرجوا منهم - قال الأزهري من علماء اللغة: ما علمت أحدا من العرب قال: إن النخيل والكروم ثمارها ليست من الفاكهة ٩.

٢٠ - (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ)

قوله: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن) (شجرة)، منصوب بالعطف على (جنات) - - والتقدير: فأنشأنا لكم به جنات وشجرة تخرج من طور سيناء - و (سيناء)، بفتح السين بمنزلة حمراء - فلم يُصرف للتأنيث - وتنبت بالدهن - بفتح التاء، والباء للتعدية - وقيل: الباء زائدة؛ لأن الفعل متعد بالهمزة - والتقدير: تنبت الدهن - كقوله: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أي لا تلقوا أيديكم ١٠ - وقيل: الباء للحال؛ أي تنبت ومعها الدهن وهو الزيت.

والمراد بالشجرة هنا: شجرة الزيتون - و (طور سيناء)، أي طور سنين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام - قوله: (وصبغ للآكلين) الصبغ، معناه الأدم، ينتفع به الناس للأكل والادّهان - وفي هذا روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كلوا الزيت وادّهنوا به، فإنه من شجرة مباركة ".

٢١ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

قوله: (وإن لكم في الأنعام لعبرة) (الأنعام) جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، فإن فيها عبرة لمن يعتبر، أي فيها ما تعتبرون بحالها، إذ يخرج منها اللبن من بين الفرث والدم، وهو مستطاب طعمه وسائغ شرابه، إن ذلك مما ينبغي أن تستدلوا به على قدرة الله وعظيم صنعه وهو قوله: (نسقيكم مما في بطونها).

قوله: (ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون) منافع الأنعام كثيرة، بالاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها التي تستعمل في صنع الألبسة والأغطية والفرش على اختلاف أصنافها وأشكالها بما يستر جلودكم وأبدانكم ويقيكم ضرر الحر والقرّ (ومنها تأكلون) سخرها الله لمنافع بني آدم ومن أعظم ما ينتفعون به من الأنعام أكلها، فضلا عن وجوه المنافع الكثيرة الأخرى.

٢٢ - (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

قوله: (وعليها وعلى الفلك تحملون) فقد قرنها الله بالفلك، إذ كانت الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر - لقد كانت الإبل في سائر الأزمنة الفائتة من الدهر كله سبيل البشرية للمسير في الصحراء أو لقطع المسافاة البعيدة والنفاذ إلى بلاد أخرى - ولولا أن الله عز وجل ذلّل الإبل للحمل والركوب قطع القفار لبلوغ مختلف الأمصار لعزّ على الناس أن يسافروا أو يقضوا أغراضهم وحاجاتهم ١١.

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

قوله تعالى: }ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (٢٣) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين (٢٤) إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين (٢٥){ هذا تذكير من الله للعباد بقصة أبي البشر الثاني نوح عليه السلام، إذ أرسله الله لقومه المشركين الطغاة الذين غلوا في الكفر والعصيان وعتوا عن أمر الله عتوا كبيرا، فكذبوا نبيهم نوحا وآذوه إيذاءا شديدا طيلة قرون مديدة من الزمان، وهو فيها يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويحذرهم بطشه ويخوفهم عذابه الشديد - وهو قوله: (فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ليس لكم من معبود سوى الله، فهو خالقكم ورازقكم وهاديكم إلى سواء السبيل، فاعبدوه وحده وانبذوا ما تعبدون من دونه من الآلهة المزعومة المفتراة (أفلا تتقون) أفلا تخشون أن ينزل بكم عذاب الله إن عصيتم أمره وكذبتم رسوله.

٢٤ - (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)

قوله: (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم) المراد بالملأ، سادة القوم وكبراؤهم، فهم طليعة المكذبين المجرمين، قالوا لقومهم الضالين السفهاء عن نبيهم نوح: ليس هذا إلا واحدا من البشر يتصرف كما يتصرف البشر، فهو مساويهم في البشرية (يريد أن يتفضل عليكم) أي يبتغي بما جاءكم به أن يكون له الفضل والكبرياء والرئاسة عليكم (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أي لو شاء الله أن يرسل إلينا رسولا لأنزل من الملائكة من يضطلع بهذه الوجيبة - والأعجب من سفاهة هؤلاء التاعسين الضالين أنهم رضوا بألوهية الحجر وكذبوا بنبوة البشر - إن ذلكم لهو السفه المطبق والعمه المبين.

قوله: (ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) أي ما سمعنا ببعث رسول من البشر في آبائنا وأجدادنا السالفين - وهذا افتراء منهم وبهتان، فقد سبقت نبوة إدريس وآدم عليهما الصلاة والسلام ولم تكن المدة بينهم وبين نبوتهما متطاولة لينسوا - ولكنه الجنوح إلى الضلال والضلوع في الظلم والباطل.

٢٥ - (إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)

قوله: }إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين{ أي ما هذا الذي جاءكم بما يزعم إلا رجلا أصابه جنون فانتظروا حتى يتجلي أمره ويتضح خبره وعاقبة أمره فتروا ما أنتم فاعلون به ١٢.

٢٦ - (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

قوله تعالى: (قال رب انصرني بما كذبون (٢٦) فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها

من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٢٧) فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين (٢٨) وقل ربي أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (٢٩) إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين (٣٠)}.

عندما أيس نوح من قومه الظالمين دعا ربه بأن ينصره عليهم ويظفره بهم بسبب تكذيبهم له - وهو قوله: (انصرني بما كذبون) أي أبدلني من غم تكذيبهم وجحودهم سلوى النصر عليهم - كما نقول: أبدلني هذا بهذا - أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب؛ لأن في أهلاكهم نصرا له.

٢٧ - (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

قوله: (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) استجاب الله دعاء نوح فأوحى إليه أن يصنع الفلك بحفظ الله وكلاءته، وأن يكون واثقا من أمر الله ومن نصره وتأييده (ووحينا) أي بتعليمنا إياه صنعة الفلك؛ فقد علمه الله كيفية ذلك فمكث في صنعه فترة من الزمن، والمجرمون السفهاء يسخرون منه وهم غافلون عما هو آتيهم من عذاب التغريق.

قوله: (فإذا جاء أمرنا وفار التنور) إذا جاء أمر الله بنزول العذاب، وفار الماء من تنور الخبز، أي أن الإيذان بالغرق كان خروج الماء من التنور وهو موضع الحرق ليكون أبلغ في الإنذار والزجر (فاسلك فيها من كل زوجين اثنين) أي أدخل في السفينة من كل نوع من الأحياء صنفين، أحدهما ذكر والآخر أنثى (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أي واحمل فيها أهل بيتك من المؤمنين إلا من سبق فيهم على الله أنهم كافرون وأنهم من الهالكين، كامرأته وابنه.

قوله: (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) إذا رأيت نزول المطر، وتدفق الماء من الأرض فعاينت نزول العذاب بهم فلا تأخذك بهم شفقة أو رأفة، ولا تدع لهم بالنجاة؛ فإنهم هالكون بالتغريق لا محالة.

٢٨ - (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله: (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) (استويت)، فعله، استوى؛ أي اعتدل ١٣ والمعنى: إذا تمكنتم على متن السفينة راكبين مطمئنين (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) خاطبه الله بمفرده وأمره وحده أن يشكر ربه؛ لأنه نبيهم وإمامهم وقدوتهم؛ فهو بذلك يقوم مقامهم في الشكران لله والثناء عليه؛ فقد أمره الله أن يشكره ويثني في مقابل إهلاك المجرمين الظالمين وإنجاء المؤمنين المستضعفين حتى خرجوا آمنين معافين من الطوفان بفضل ورحمة من رب العالمين.

٢٩ - (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

{وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين} أمره ربه بركوب السفينة أو بالخروج منها، وأن يدعو ربه بأن ينزله منزلا مباركا- بضم الميم وفتح الزاي- أي إنزالا مباركا أو موضع إنزال مبارك - والمبارك من البركة وهي ما في السفينة من الأمان والنجاة والخروج سالمين مطمئنين (وأنت خير المنزلين) ذلك ثناء منه على الله مبالغة في شكره والتوسل إليه بالإجابة.

٣٠ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

قوله: {إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين} يعني بالإشارة: الصنيع الذي فعله الله بنوح والذين معه من إنجائهم وإهلاك الكافرين، فإن في ذلك لدلالات وعلامات ظاهرات على صدق رسل الله وما جاءوا به من الحق (وإن كنا لمبتلين) أي وإن كنا لمختبرين عبادنا المؤمنين بعظيم البلاء ١٤.

٣١ - (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

قوله تعالى: {ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٣١) فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (٣٢) وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب

مما تشربون (٣٣) ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون (٣٤) أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون (٣٥) هيهات هيهات لما توعدون (٣٦) إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين (٣٧) إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين (٣٨) قال رب انصرني بما كذبون (٣٩) قال عما قليل ليصبحن نادمين (٤٠) فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين (٤١)}

خلق الله من بعد قوم نوح أمة أخرى هي قوم عاد،

٣٢ - (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

إذ أرسل فيهم رسولا من جنسهم وهو هود عليه السلام، فقد دعاهم إلى عبادة الله، وحده ونهاهم عن الشرك وحذرهم مغبة التلبس بالوثنية وما يؤول إليه ذلك من ويل وخسران (أفلا تتقون) يعني أفلا تخشون أن ينزل بكم من الله العذاب الأليم في الدنيا والآخرة؟ وقيل: المراد ثمود، قوم صالح.

٣٣ - (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

قوله: (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا) المراد بالملأ، كبراء القوم الكافرين ورؤساؤهم - و (الذين كفروا)، نعت للملأ، أو لقومه - والمعنى: أن هؤلاء المجرمين الذين كفروا بدعوة الله وجحدوا نبوة رسولهم هود وكذبوا بيوم الدين والحساب (وأترفناهم في الحياة الدنيا) معطوف على (الذين) - أو جملة حالية؛ أي وقد أترفناهم، وكان ينبغي أن لا يكفروا بل يشكروا ما أترفناهم فيه في حياتهم الدنيا من بسط الرزق وغير ذلك من وجوه النعمة- قالوا: (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أي ما هذا الذي يزعم أنه نبي إلا مثلكم في البشرية؛ فهو يأكل كما تأكلون ويشرب كما تشربون - فأنى له أن يكون نبيا وهو مثلكم.

٣٤ - (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)

{ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون} أي لئن أطعتم واحدا مثلكم في البشرية واتبعتم ما جاءكم به من دين فأنتم إذا خاسرون باتباعه ونبْذَ ما وجدتم عليه آباءكم من العبادة - وليس أدل على ضلال هؤلاء السفهاء وتعسهم، وفرط شقاوتهم من استنكافهم عما يقوله رجل مثلهم وهم متلبسون بعبادة أصنام جامدة صماء لا تعي ولا تنطق ولا تسمع ولا تبصر.

٣٥ - (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)

قوله: {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون} يقول هؤلاء المجرمون الجاحدون، سائلين مستنكرين: أيعدكم بعد أن تصيروا ترابا وعظاما نخرة (أنكم مخرجون) أي مبعوثون من قبوركم أحياء - و (أنكم) الثانية كررت للتأكيد؛ لأنه لما طال الكلام حسن التكرار - و (مخرجون) خبر (أنكم) الأولى - وقيل، (أنكم) الثانية بدل من الأولى وفيها معنى التأكيد - وخبر (أنكم) الأولى محذوف لدلالة خبر الثانية عليه ١٥.

٣٦ - (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

قوله: {هيهات هيهات لما توعدون} (هيهات) اسم فعل ماض بمعنى بعد، والفاعل تقديره الإخراج أو التصديق؛ أي بعد التصديق - أو بعد ما توعدون - واللام للبيان كقوله: هيت لك - وهيهات الثانية للتوكيد ١٦.

٣٧ - (إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

قوله: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) (إن)، أداة نفي؛ أي لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها وهي الدنيا (نموت ونحيا) أي يموت أناس ويولد أناس آخرون - ينقرض جيل ويأتي عقبه جيل آخر وهكذا دوام الدهر (وما نحن بمبعوثين) أي ليس من بعث بعد الموت ولا من حياة ثانية غير هذه الحياة.

٣٨ - (إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)

قوله: (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) (إن)، أداة نفي - أي ما هذا إلا رجل مفتر على الله فيما زعمه أو ادعاه من الاستنباء، وفيما يعدنا به من بعث وحياة بعد الممات (وما نحن له بمؤمنين) أي لا نصدقه فيما زعم وفيما جاءنا به.
٣٩ - (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)
قوله: {قال رب انصرني بما كذبون} لما يئس هود أو صالح من إيمان قومه لفرط عنادهم وعتوهم واستكبارهم، دعا الله عليهم بالإهلاك والتدمير بسبب تكذيبهم.
٤٠ - (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)
فاستجاب الله دعاءه وهو قوله: {قال عما قليل ليصبحن نادمين} ما: زائدة، أو لتأكيد معنى العلة ١٧؛ أي عن زمان قليل (ليصبحن نادمين) إذا عاينوا العذاب النازل بهم.
٤١ - (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)
قوله: (فأخذتهم الصيحة بالحق) صاح عليهم الملك الهائل جبريل فدمرهم (بالحق) أي بالعدل من الله - فما يفعله الله أو يقدره، عدل - وما أنزله فيهم من كتدمير وإهلاك ليس إلا العدل، لأنهم يستحقونه عقابا لهم.
قوله: (فجعلناهم غثاء) الغثاء، معناه الزبد والبالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل ١٨، فقد شبههم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من ورق الشجر وغيره من الزبد - وذلك لفرط ما حل بهم من فظاعة التدمير والاصطلام.
قوله: (فبعدا للقوم الظالمين) (بعدا)، مصدر لفعل محذوف تقديره: بعدوا، بعدا أي هلكوا (للقوم الظالمين) بيان للهلكى الذين كفروا بربهم وكذبوا رسله وغالوا في المعاندة والاستكبار ١٩.
٤٢ - (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ)
قوله تعالى: {ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين (٤٢) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون (٤٣) ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون (٤٤)} يعني، من بعد إهلاك عاد أو ثمود أحدثنا أمما آخرين كقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم من الأمم
٤٣ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)
{ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون} (من)، زائدة للاستغراق، أي ما تسبق أمة من الأمم، الوقت المؤقت لهلاكها ولا تتأخر عنه، بل لكل أمة في الهلاك أجل مؤقت معلوم لا تتجاوزه ولا تتقدمه.
٤٤ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: (ثم أرسلنا رسلنا تترا) (تترا) - في موضع نصب على الحال، من الرسل، أي أرسلنا رسلنا متواترين - وأصل الكلمة، وترى، من الموترة وهي التتابع بغير مهلة - أو من الوتر، وقد أبدل حرف الواو تاء، فصارت تترى بغير تنوين عند أكثر أهل اللغة وهي غير منصرفة للتأنيث - والمعنى: أرسلنا رسلنا، تتواتر، أي يتبع بعضها بعضا - أو بعضها في إثر بعض - أو متواترين، أي واحدا بعد واحد، من الوتر ٢٠.
قوله: (كل ما جاء أمة رسولها كذبوه) كلما جاء أمة من الأمم التي أحدثناها بعد عاد أو ثمود رسولها لإرشادهم وهدايتهم للحق، بادروا تكذيبه وإيذاءه (فاتبعنا بعضهم بعضا) أي بالهلاك، فأهلكناهم بعضهم في إثر بعض (وجعلناهم أحاديث) أي جعلناهم أخبارا يتحدث بها الناس بعد أن أتى عليهم الهلاك والتدمير، فصاروا أثرا بعد عين - وقيل: جعلهم الله أحاديث يتحدث بها الناس على سبيل التلهي والتعجب.
قوله: (فبعدا لقوم لا يؤمنون) أي هلاكا لقوم لا يصدقون بما جاءهم من عند الله - وذلك على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ٢١.
٤٥ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
قوله تعالى: {ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين (٤٥) إلى فرعون وملإيه فاستكبروا وكانوا قوما عالين (٤٦) فقالوا

أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩) وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (٥٠)}.

أرسل الله بعد الرسل السابقين المذكورين، موسى وهارون إلى فرعون وملئه وهم أشراف قومه من القبط- أرسلهما إليهم بآياته وهي الأدلة والبينات الواضحات على صدقه وصدق رسالته - وقال ابن عباس: هي الآيات التسع، وهي: العصا واليد والجراد والقمّل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون والنقص من الثمرات والسلطان المبين، يعني البرهان الظاهر - وقيل: يراد به هنا العصا - فقد أفردها لأنها أول المعجزات وأعظمها.

٤٦ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ)

فاستكبروا وأعرضوا عنادا وجحودا (وكانوا قوما عالين) أي علوا على رسول الله، معاندة واستكبارا عما جاءهم به من الحق، قاهرين لعباد الله ظلما.

٤٧ - (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

قالوا: {فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} الاستفهام للإنكار، إذ قال فرعون وملؤها من سادة المجرمين الظالمين: كيف نصدق من هم مثلنا في البشرية وقد كان قومهما من بني إسرائيل خاضعين لنا مستذلين منقادين لأمرنا؟.

٤٨ - (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

قوله: {فكذبوهما فكانوا من المهلكين} كذبوا موسى و هارون فيما جاءا به من عند الله، وأعرضوا عنهما جاحدين مستكبرين فأهلكهم الله بالغرق، إذ غشيهم من فظاعة التغريق ما غشيهم.

٤٩ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

قوله: {ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون} الضمير في قوله (لعلهم)، يعود إلى بني إسرائيل وليس إلى فرعون وملئه، لأن هؤلاء قد هلكوا بالغرق، فقد أرسل الله موسى هاديا ومعلما إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة لكي يعملوا بما فيها فيهتدوا ويرشدوا.

٥٠ - (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

قوله: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أي جعلنا عيسى وأمه مريم برهانا ودليلا على قدرتنا البالغة، على الإنشاء والخلق من غير أصل كما خلقنا عيسى من غير أب - لقد كان في قصة عيسى عليه السلام وخلقه من غير أب آية بينة ساطعة على أن الله لهو الخالق البديع المقتدر، الذي لا يعز عليه صنع شيء.

قوله: (وآويناهما إلى ربوة) أي صيرناهما إلى مكانا مرتفع من الأرض - وقيل: المراد به الرملة من فلسطين - وقيل: بيت المقدس، وقيل: دمشق ٢٢.

قوله: (ذات قرار ومعين) القرار، المكان المستوي - والمعين، يعني الماء الظاهر.

٥١ - (يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥١) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (٥٢) فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون (٥٣) فذرهم في غمرتهم حتى حين (٥٤) أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين (٥٥) نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون (٥٦)}

خوطب كل نبي بهذه المقالة - فهذه هي طريقة النبيين التي ينبغي أن يكونوا عليها من أكل الطيبات، والمراد بها الحلال الذي طيبه الله وأن يجتهدوا ما استطاعوا لعمل الصالحات - فإن الله مطلع على أخبارهم وأفعالهم، رقيب على ما يعملون - وعلى المؤمنين أن يجتنبوا أكل الحرام، فإن مرتعه وخيم ولا يصير بصاحبه إلا إلى جهنم ليكون زاده من النار.

فقد ثبت في صحيح مسلم والترمذي ومسند أحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا

إني بما تعملون عليم) وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، فأنى يستجاب لذلك ".

٥٢ - (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

قوله: (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) إن، بالكسر على الابتداء والاستئناف وتقرأ أيضا بالفتح على أنها منصوبة بفعل مقدر وتقديره: واعلموا أن هذه أمتكم - و (أمة واحدة)، منصوب على الحال؛ أي هذه أمتكم مجتمعة - وتقرأ بالرفع على أنها بدل من (أمتكم) التي هي خبر إن - أو أنها خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هي أمة واحدة ٢٣.

والمراد بالأمة هنا، الملة أو الدين - أي أنكم جميعا، ملتكم واحدة ودينكم واحد وهو التوحيد الخالص لله، ووجوب الإذعان لجلاله بالانقياد والامتثال؛ فهو سبحانه وحده المعبود، ليس له شريك ولا نديد ولا نظير.

قوله: (وأنا ربكم فاتقون) الفاء لترتيب الأمر بالتقوى على كون الله مختصا بالربوبية؛ أي لا تفعلوا ما يقتضي عقابكم بمخالفتكم أمري؛ بل خافوا عقابي والتزموا أحكامي وشرعي.

٥٣ - (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

قوله: (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) أي أن أمم الأنبياء قد افترقوا؛ إذ جعلوا دينهم الواحد أديانا، وملتهم الواحدة مللا، بدلا من اجتماعهم مؤتلفين على الدين الحق الواحد، وملة التوحيد الخالص لله.

و (زبرا) يعني كتبا، جمع زبور وهو الكتاب؛ فقد تفرقت الأمم كتبا كثيرة شتى أحدثوها واصطنعوها من عند أنفسهم - اصطنعها الأفاكون والخراصون من دجاجلة كل ملة زاغت عن التوحيد، وضلت طريق الله، فأضلوا الناس بضلالهم وانحرافهم؛ إذ حسب كل فريق مضلل من تلك الأمم التائهة أنه مصيب وأنه متلبس دون غيره بالحق - والله يشهد، والراسخون في العلم والحكمة يشهدون أنهم مبطلون واهمون زائغون عن سواء السبيل - وذلك مما سوله لهم شياطين البشر من مبتدعي الضلالات واختلاف الكتب الزائفة، الحافلة بالكذب والافتراء على الله.

قوله: (كل حزب بما لديهم فرحون) كل فريق من هذه الأمم الواهمة المضللة معجب برأيه أو بكتابه المزيف - كتابه الذي اصطنعه رجال أشقياء ممن حرفوا كلام الله عن مواضعه فصاغوا واصطنعوا من الضلالات والأباطيل ما جاءت به أهواؤهم الشريرة وقلوبهم الكزة العمياء التي تنضح بالاضطغان والكراهية للبشرية، وتفيض بالتعصب والانطوائية ومقت الآخرين - وذلك كله بفعل الأفاكين الخراصين الذين افتروا على الله الكذب بابتداع الكتب المكذوبة المزيفة التي تفسد العقول والقلوب والضمائر، وتثير فيها الغرور والكراهية والجنوح للشر والتخريب والتدسس في الظلام، كالذي فعلته طوائف من بني إسرئيل، بما اصطنعوه من زيف الكتب والديانة المحرفة ما ملأ قلوبهم وقلوب ذراريهم وأحفادهم بالاغترار البالغ والتعصب الظالم الأعمى والكراهية المقيتة للآخرين.

لكن دين الله الحق وهو الإسلام مبرأ من هاتيك العيوب والضلالات - بعيد كل البعد من مواطن التلاعب والتزييف والتحريف - فلم تمسه أصابع أفاك أثيم، ولا نالت منه أقلام المضللين والمشعوذين، أو ضلالات أولي الأهواء المبطلين - لا جرم أن الإسلام وحده حقيق بأن تلتزم البشرية عقيدته الفاضلة السمحة، وأن تتبع أحكامه وشرائعه القائمة على العدل والمساواة والرحمة والإخاء.

٥٤ - (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ)

قوله: {فذرهم في غمرتهم حتى حين} أي دع هؤلاء الجاحدين المضللين في (غمرتهم) والغمرة بمعنى الشدة، والانهماك في الباطل، والانغمار في الماء - أي دعهم في غفلتهم وحيرتهم وغيهم سادرين (حتى حين) وهو الموت أو العذاب - فما ينبغي أن يضيق صدرك من عصيانهم وإعراضهم عن دين الحق فإن العذاب آتيهم لا محالة - وفي ذلك من التوعد والتهديد للقوم الظالمين ما لا يخفى.

٥٥ - (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ)

قوله: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات) الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمعنى: أيحسب هؤلاء الضالون

الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا مختلفة تائهة واهمة، أن الذي أمدهم الله به في عاجل هذه الدنيا من مال وبنين نبادر فيه تكريما لهم وإسراعا لهم في الخير - ليس كذلك؛ بل كان ذلك استدراجا لهم وإملاء - ولهذا قال: (بل لا يشعرون) أي لا يعلمون أن إمداد الله لهم بما أمدهم به من مال وبنين إنما كان استدراجا لهم وإمهالا.

٥٦ - (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

قوله: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات) الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمعنى: أيحسب هؤلاء الضالون الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا مختلفة تائهة واهمة، أن الذي أمدهم الله به في عاجل هذه الدنيا من مال وبنين نبادر فيه تكريما لهم وإسراعا لهم في الخير - ليس كذلك؛ بل كان ذلك استدراجا لهم وإملاء - ولهذا قال: (بل لا يشعرون) أي لا يعلمون أن إمداد الله لهم بما أمدهم به من مال وبنين إنما كان استدراجا لهم وإمهالا.

(بل لا يشعرون) أي لا يعلمون أن إمداد الله لهم بما أمدهم به من مال وبنين إنما كان استدراجا لهم وإمهالا - إن إمداد الناس بالمال لا يدل على فضلهم عند ربهم أو أنهم مرضي عنهم من الله - فلا يصلح المال أو الولد أو الجاه أو السلطان، سببا لكرامة الإنسان عند الله أو أن ذلك مشعر بتقواه وصلاحه وحسن مصيره - وإنما الصلاح أو حسن المصير مرهون بالتقوى وعمل الصالحات - والله جل وعلا إنما يرزق المؤمنين وغير المؤمنين - فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الدين فقد أحبه - والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه " قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: " غشمه ٢٤ وظلمه - ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار - إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث " ٢٥.

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

قوله تعالى: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لا يشركون (٥٩) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون (٦٠) أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٦١)}.

بعد ذكر الكافرين وإعراضهم عن دين الله ومجازاتهم بالهلاك والاستئصال، شرع في ذكر المؤمنين المتقين الذين يبادرون الطاعات وفعل الخيرات، مسارعين غير مبطئين فقال: (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) من الإشفاق وهو الخوف - وهذه صفة ظاهرة من صفات المؤمنين وخصائصهم، وهي أنهم على الدوام خائفون من عذاب الله - وخبر إن في قوله: (أولئك يسارعون في الخيرات) ٢٦.

٥٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {والذين هم بآيات ربهم يؤمنون} وهذه صفة ثانية للمؤمنين، وهي إيمانهم الكامل بآيات الله جميعا سواء في ذلك آياته من كتابه المنزل الحكيم أو آياته في الكون الدالة على وجوده وعظيم قدرته، وبالغ سلطانه وجبروته.

٥٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ)

قوله: {والذين هم بربهم لا يشركون} وهذه صفة ثالثة للمؤمنين - وهي إخلاصهم العبادة لله وحده؛ فإن المؤمنين المخبتين الصادقين لا يشركون مع الله أيما إله أو معبود آخر يبتغون عنده العزة أو الحظوة أو السعد - المؤمن التقي الصادق بريء من كل صور الوثنية أو الإشراك - وإنما يتوجه بقلبه طائعا متواضعا متذللا لله وحده.

٦٠ - (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

قوله: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} وهذه صفة رابعة لهم، وهي أنهم يعطون ما يعطون، أو يعملون

ما عملوا من أعمال البر وهم خائفون أن لا يتقبل الله منهم ما عملوا، فقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: يا رسول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: " لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل " وهكذا رواه الترمذي من حديث مالك ابن مغول بنحوه وقال: " لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم ".

٦١ - (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

قوله: (أولئك يسارعون في الخيرات) (أولئك) في موضع رفع مبتدأ، والجملة الفعلية من (يسارعون) في موضع رفع خبر المبتدأ - والمبتدأ وخبره، في موضع رفع خبر (إن) ٢٧ واسم الإشارة (أولئك) عائد على أصحاب الصفات المذكورة، فهم يبادرون في فعل الصالحات دون وناء، ويسعون جادين مبادرين لطاعة الله ونيل رضوانه.

قوله: (وهم لها سابقون) أي يسبقون إلى فعل الطاعات والصالحات في أول وقتها، لا يتأخرون - وقال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة، فلذلك سارعوا في الخيرات ٢٨.

٦٢ - (وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله تعالى: {ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون (٦٢) بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون (٦٣) حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون (٦٤) لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون (٦٥) قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون (٦٦) مستكبرين به سامرا تهجرون (٦٧)} ذلك إخبار كريم عن عدل الله العظيم - العدل الرباني المطلق الذي لا يضاهيه في هذا الوجود عدل - ولا عجب فإن العدل صفة من صفات الله - وهي لا جرم تتسم بالكمال، لكمال ذاته سبحانه - ومن مقتضيات عدل الله المطلق أن لا يكلف العباد ما لا يطيقونه من أحكام - فأيما أمر أو تكليف يتجاوز الطاقة للإنسان فلا يحتمل، فإنه مرفوع - وعلى هذا فإن هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من تكليف ما لا يطاق أو لا يحتمل - وذلكم العدل الرباني المميز - وهذه واحدة من خصائص الإسلام التي تجلي فيه الصلوح لكل زمان ومكان - وهو انتفاء الحرج من هذا الدين كله - لتكون أحكامه وتعاليمه ومثله كلها في حدود الميسور والمقدور مما يحتمله الإنسان ويطيق العمل به في غير مشقة ولا عسر ولا حرج.

وفي هذه الحقيقة من رفع الحرج والتكليف بما لا يطاق تنسحب على سائر الأحكام في هذا الدين الرحيب الميسور.

قوله: (ولدينا كتاب ينطق بالحق) والمراد به كتاب أعمال العباد، ففيه جميع ما أسلفوا من الأقوال والأفعال، لا يغيب منها شيء - وذلك كله مسطور في كتاب يشهد عليه بالحق - وقيل: المراد اللوح المحفوظ، فقد أثبت الله فيه كل شيء (وهم لا يظلمون) أي لا يزاد على سيئاتهم ما لم يعملوه ولا ينقص من حسناتهم مما عملوه - وإنما يجزون ما عملوا من خير أو شر.

٦٣ - (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

قوله: (بل قلوبهم في غمرة من هذا) الغمرة، ما غمر قلوبهم فغطاها حتى لا تدرك الحق، أي هؤلاء المشركين الضالين في غفلة وضلالة وعماية عن فهم هذا القرآن وعما أودعه الله من عظيم المعاني وبليغ الدلالات والعبر.

قوله: (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أي لهؤلاء المشركين الضالين من سيئات الأعمال والمعاصي، غير إشراكهم بالله وعمايتهم عن قرآن الله الحكيم - (هم لها عاملون) أي سيعملونها قبل موتهم لا محالة - فهم في علم الله من أهل الشقاء.

٦٤ - (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

قوله: {حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون} (مترفيهم) من الترف وهي النعمة - و (يجأرون) من الجؤار وهو الصياح - جأر الثور يجأر جؤرا، أي صاح - وجأر إلى الله، تضرع بالدعاء ٢٩ - والمعنى: أنه إذا جاء هؤلاء المنعمين البطرين بأس الله وانتقامه منهم بسبب كفرهم وعصيانهم، إذا هم يصرخون ويستغيثون لفرط ما أصابهم من الجزع والذعر.

٦٥ - (لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ)
قوله: {لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون} أي اصطراخكم واستغاثتكم وضجيجكم غير نافعكم شيئا ولا هو بدافع عنكم شيئا من عذاب الله النازل بكم؛ فإنه لن يجيركم أو ينفعكم اليوم أحد.
٦٦ - (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ)
قوله: {قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون} يقول الله لهؤلاء المشركين، زيادة في التنكيل والتيئيس والتوبيخ: قد كانت تتلى عليكم آيات الكتاب الحكيم، وكنتم تُدعون لتصديقها والاتعاظ بها والاستفادة من معانيها؛ فكنتم تكذبونها وتولون عنها مدبرين مستكبرين كراهية سماعها - وذلك تأويل قوله: (فكنتم على أعقابكم تنكصون).
٦٧ - (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ)
قوله: {مستكبرين به سامرا تهجرون} (مستكبرين) و (سامرا) منصوبان على الحال ٣٠ - و (مستكبرين به) أي مكذبين به - و (سامرا) اسم جنس، يعني سُمارا - من السمر والمسامرة وهي الحديث بالليل - والمسامر أو السُّمار، هم القوم يسمرون بالليل ٣١؛ فقد كانت قريش تسمر مجالس في كفرها وأباطيلها حول الكعبة - وهم يهجرون؛ أي يخوضون في الباطل ويتكلمون بالفحش والمنكر والسيء من القول في القرآن وفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.
والضمير في قوله (به) فيه ثلاثة أقوال:
القول الأول: إن المراد به الحرام، أي مكة؛ فقد ذم الله المشركين؛ لأنهم كانوا يسمرون في الحرم بالهجر من الكلام الفاحش، والمنكر من القول.
القول الثاني: إن المراد به القرآن؛ فقد كانوا يسمرون ويذكرون القرآن الكريم بالهجر من الكلام الباطل - فيقول: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة - - - إلى غير هذه الافتراءات والأباطيل التي كان المشركون يأتفكونها ائتفاكا.
القول الثالث: إن المراد به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فقد كان المشركون يذكرونه في سمرهم بفاحش الكلام والسوء من القول، فيقولون: إنه شاعر، إنه كاهن، إنه ساحر - إنه مجنون، إنه كذاب.
والأظهر من هذه الأقوال، أولها - وهو قول الجمهور - وهو أن الضمير عائد على الحرم؛ فقد كان المشركون يفتخرون بأنهم أولياء الحرم - وكانوا يقولون: نحن أهل حرم الله ونحن أولى الناس به فلا نخاف - وهم في الحقيقة ليسوا غير ظالمين مشركين سفهاء، لا يدينون دين الحق، ولا يذهبون غير مذهب الضلالة والباطل والسخف ٣٢.
٦٨ - (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)
قوله تعالى: {أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين (٦٨) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون (٦٩) أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون (٧٠) ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون (٧١) أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين (٧٢) وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم (٧٣) وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون (٧٤) ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون (٧٥)}.
ينكر الله على المشركين ضلالهم وعدم تفهمهم الآيات البينات - آيات القرآن الحكيم وما فيه من العبر والدلائل - فقال: (أفلم يدبروا القول) الاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ يعني أفلم يتدبر هؤلاء المشركون كتاب الله؛ فقد جاءهم من عند الله لهدايتهم وإخراجهم من ظلام الباطل إلى نور الحق واليقين، وهم في قرارة أنفسهم موقنون أنه الحق، وأنهم لا قبل لهم بمثله، وأنه يعلو على كل كلام؛ فهو عجيب باهر معجز.
قوله: (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) (أم) بمعنى بل والهمزة؛ أي بل أجاءهم من الكلام ما لا عهد لآبائهم به فلذلك أنكروه واستبدعوه أي ظنوه من بدع الكلام - وذلك توبيخ لهم ثان.

٦٩ - (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)
قوله: {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون} وهذا توبيخ ثالث؛ يعني بل ألم يعرفوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - وما تجلى في صفاته وأخلاقه من صدق وأمانة وغير ذلك من كريم الخصال مما ليس له نظير - أفيقدرون على إنكار ذاك والمباهتة فيه - والعرب لا ينكرون حقيقة أخلاق رسولهم محمد - صلى الله عليه وسلم - مما عرفوه فيه من حميد الخلال حتى إنهم سموه الصادق الأمين - فما أعرضوا عن رسالته ولا أدبروا عن دينه إلا بغيا وحسدا من عند أنفسهم ورغبة في تقليد الآباء.
٧٠ - (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)
قوله: (أم يقولون به جنة) وهذا توبيخ رابع - والمعنى: بل أيقولون به جنة؛ فإنهم يعلمون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أرجح الناس عقلا، وأسدّهم رأيا، وأعظمهم محتدا وخلقا - فليس من عاقل في العرب يصدق أن في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أثارة من جنون - وليت شعري هل أقلّت الغبراء رجلا أحكم وأقوم وأصدق وأحذق وأنبه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟! إن صفاته الفذة العليا يشهد بها الظالمون المنصفون من كل الملل، سواء فيهم المسلمون وغير المسلمين - ولا ينكر ذلك إلا متعنت مكابر حسود أو حاقد جاحد كنود.
قوله: (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهو الحق المبين وهو القرآن الحكيم - لكن أكثر المشركين الضالين يكرهون هذا الحق لفرط تلبسهم بالوثنية والباطل، ولما يركم في نفوسهم من كراهية وحسد وجنوح للهوى.
٧١ - (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّموَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)
قوله: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) المراد بالحق، الله جل جلاله؛ أي لو عمل صاحب الحق وهو الله بما يهواه هؤلاء المشركون؛ لأفضى ذلك إلى إفساد الكون كله وما فيه من أحياء؛ فإن كل شيء مخلوق بقدر وجيء به على نظام موزون، واتساق محكم منسجم لا زيغ فيه ولا عوج، لكن هؤلاء الضالين المكذبين لا يهوون غير الضلالة ولا يبتغون غير الظلم والهوى، جريا وراء غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم - وعلى هذا لو قام الحق على ما يريدون ويهوون؛ لاضطرب نظام الحياة والأحياء، فأتى عليها الفساد والفوضى.
وقيل: المراد بالحق، الإسلام الذي جيء به من عند الله - فلو جاء الإسلام كما تبتغيه أهواء الضالين الظالمين من ضلال وشرك وظلم لانقلب هذا الدين شر الانقلاب، فصار وبالا على الناس بقيامه حينئذ على الوثنية والأهواء والضلالات وسوء التدبير.
قوله: (بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) المراد بذكرهم، القرآن؛ فإن فيه شرفهم وعزهم، وفيه من الهداية وكمال النظام ما تستقيم به حياتهم، وحياة الناس جميعا، لكنهم أعرضوا عنه وكفروا به.
٧٢ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)
قوله: (أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير) الخرج والخراج، بمعنى الإتاوة، أو ما يحصل من غلة الأرض ٣٣؛ والمراد به هنا الأجر على أداء الرسالة وتبليغهم إياها والسؤال على سبيل التوبيخ للمشركين - والمعنى: أم يزعمون أنك تسألهم أجرا على تبليغهم دعوة الله فأعرضوا عنك وأبو أن يؤمنوا بك (فخراج ربك خير) أي فرزق ربك من جزيل الثواب وحسن العاقبة على ابتغاء رضوانه خير لك مما عند هؤلاء الضالين الجاهلين قوله: (وهو خير الرازقين) الله جل وعلا خير من يعطي الرزق والأجر على العمل - فلا يقدر أحد أن يعطي مثل عطائه، أو يؤجر مثل أجره، أو ينعم كإنعامه.
٧٣ - (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
قوله: {وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم} الصراط في اللغة بمعنى الطريق ٣٤ والمراد به ههنا دين الإسلام - والمعنى: إنك يا محمد لتدعو الناس إلى دينه القويم - دين الإسلام المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمْت ولا ضلال.
٧٤ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

قوله: }إن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون{ ناكبون، من النكب والنكوب، أي العدل والميل - نكب عن الطريق نكوبا، أي عدل ومال ٣٥.

أي أن المشركين الجاحدين زائغون عن محجة الحق وقصد السبيل، وذلكم هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله للبشرية، إنهم ضالون مائلون عن سبيل الحق، سادرون في الباطل على اختلاف صوره ومسمياته.

٧٥ - (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قوله: }ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون{ أي لو رحمنا هؤلاء المجرمين الذين بلوناهم بالعذاب فرفعنا عنهم ما أصابهم من عذاب الدنيا أو الآخرة (للجوا في طغيانهم يعمهون) لجوا، من اللجاج، واللجاجة والملاجّة، أي التمادي في الخصومة.

والتلجلج معناه التردد في الكلام ٣٦، والمراد أنهم تمادوا في غيهم وضلالهم، فهم يترددون ويخبطون ويتيهون في الكفر والباطل مثلما كانوا من قبل ٣٧.

٧٦ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

قوله تعالى: }ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (٧٦) حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون (٧٧) وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠) بل قالوا مثل ما قال الأولون (٨١) قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون (٨٢) لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨٣){ لما أخذ الله قريشا بسني الجدب والقحط فأصابهم من الفقر والجوع ما أصابهم حتى أكلوا العلهز – يعني الوبر بالدم- عندئذ جاء أبو سفيان إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: أنشدك الله والرحم، إنك تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، قال: " بلى "، فقالت: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله تعالى هذه الآية - وهو قوله سبحانه وتعالى: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) ٣٨.

بلونا هؤلاء المشركين المعاندين ليعتبروا ويزدجروا وينتهوا عن طغيانهم وعتوهم - بلوناهم بالفقر والحاجة والجوع (فما استكانوا لربهم) أي فما خضعوا لربهم وما خشعوا ولا ذلوا لجنابه العظيم (وما يتضرعون) أي لم يتذللوا لله بالتوبة والاستغفار والدعاء، بل ازدادوا عتوا وطغيانا ولجوا في ضلالهم وكفرهم.

٧٧ - (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

قوله: (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) يعني إذا جاءتهم الساعة بغتة وأتاهم من العذاب ما لم يحتسبوا (إذا هم فيه مبلسون) أي آيسون، أبلس الرجل – يعني أيس من الخير- وإبليس، قيل: غير منصرف للعجمة والعلمية - وقيل: عربي مشتق من الإبلاس وهو اليأس ٣٩.

والمقصود: أن هؤلاء المشركين المعاندين قد أيسوا عند وقوع العذاب يوم القيامة من كل خير، ومن كل نصير أو مجير، وانقطع فيهم الرجاء وتبددت فيهم الآمال وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة.

٧٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

قوله: (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) ذكر الله نعمه الكثيرة على عباده ومنها نعمة السمع الذي يسمعون به، ونعمة الأبصار التي يرون بها، وكذلك الأفئدة وهي العقول التي يفهمون بها الحقائق والعلوم والآيات والدلالات المبثوثة في أرجاء الطبيعة والحياة بما يفضي إلى الاستدلال على عظمة الله، وأنه الخالق الموجد - لقد كانت هذه النعم من الله تقتضي منكم أن تشكروا الله وتديموا الثناء على جلاله العظيم - لكنكم (قليلا ما تشكرون) أي أنكم تشكرون الله أقل الشكر على ما منّ به عليكم من جزيل النعم، أو أنكم لا تشكرون الله البتة.

٧٩ - (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قوله: {وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون} أي خلقكم الله في هذه الأرض لتكونوا أجناسا وأقواما وشعوبا شتى - فأنتم مبثوثون في أرجاء الأرض، مختلفون في أجناسكم وألوانكم ولغاتكم - ثم يوم القيامة يجمعكم جميعا لتلاقوا الحساب والجزاء - إن ذلك خليق بوعظكم وتذكير بعظمة الله، لتؤمنوا به وتثوبوا إلى جنابه مخبتين طائعين خاشعين.

٨٠ - (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله: (وهو الذي يحيي ويميت) الله الذي أحيى الخلق بعد موتهم الأولى - إذا كانوا ماء فأنشأهم أطوارا بدءا بالنطفة المستقذرة المهينة حتى الإنسان السميع العاقل البصير، ثم يصيرون بعد ذلك إلى الموت مرة أخرى حيث الرفات والرميم.

قوله: (وله اختلاف الليل والنهار) أي جعلها مختلفين متعاقبين يطلب كل منهما الآخر حثيثا، لا يفتران إلى يوم القيامة - وذلك مما من الله به على عباده فعرّفهم نعمه وعجائب خلقه.

قوله: (أفلا تعقلون) أفلا تتدبرون كل هذه الآيات والدلائل لتوقنوا أن الله هو الحق، وأنه هو خالقكم ورازقكم وباعثكم يوم القيامة بعد الممات.

٨١ - (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ)

قوله: {بل قالوا مثل ما قال الأولون} كان جوابهم مثل جواب الذين سبقوهم في الكفر من الأمم الغابرة.

٨٢ - (قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

إذ قالوا: أنى نُبعث من قبورنا مرة أخرى بعد أن صرنا ترابا ورفاتا وقد أتى علينا البِلى.

٨٣ - (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

قوله: (لقد وعدنا نحن آباؤنا هذا من قبل) أي لقد وعدنا مثل هذا الوعد يا محمد، وهو قيامنا من القبور للحساب، وكذلك وُعد آباؤنا من قبلنا - وعدهم قوم ذكروا أنهم مرسلون من قبلك، فلم نر لذلك حقيقة.

قوله: (إن هذا إلا أساطير الأولين) أي ما هذا الذي تعدنا به من بعث عقب الموت إلا أخبار الأولين من أكاذيب وخرافات سطروها في كتبهم ٤٠ - والأساطير، جمع أسطورة وإسطارة، وهي الأكاذيب ٤١.

٨٤ - (قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون (٨٤) سيقولون لله قل أفلا تذكرون (٨٥) قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم (٨٦) سيقولون لله قل أفلا تتقون (٨٧) قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون (٨٨) سيقولون لله قل فأنى تسحرون (٨٩) بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون (٩٠)} يخبر الله عن ربوبيته ووحدانيته وعظيم ملكوته وتصرفه المطلق في الخلق، فيسأل هؤلاء المكذبين على لسان رسول (ص): (لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون) من الذي يملك الأرض ومن فيها من كائنات ومخلوقات إن كنتم تعلمون الذي يملك ذلك؟

٨٥ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

(سيقولون لله) يقرون معترفين دون مكابرة أن ذلك كله مملوك لله - وأن الله وحده له ملكوت كل شيء.

قوله: (قل أفلا تذكرون) أفلا تتعظون وتتدبرون فتعلموا أن خالق ذلك كله؟ ومن بيده ملكوت كل شيء، لهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

٨٦ - (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

قوله: {قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم} يسألهم الله على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن مالك السماوات السبع وكذا العرش العظيم، هذا الخلق الهائل المحيط الذي لا يدرك سعته وامتداده ومدى إحاطته غير الله الخالق.

٨٧ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)

فلسوف يجيبون بأن ذلك كله مملوك لله - وهو قوله سبحانه: (سيقولون لله) فإن كانوا يؤمنون بهذه الحقيقة وأن الله مالك كل شيء، أفلا يؤمنون بالله وحده فيدينوا له بالعبودية ويقروا له بكامل الربوبية؛ ليذعنوا له وحده بالطاعة والامتثال وهو قوله عز من قائل: (أفلا تتقون).

٨٨ - (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله: (قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه) الملكوت من صفات المبالغة، وهو الملك، أي أن الله جل وعلا مالك كل شيء، وهو سبحانه (يجير ولا يجار عليه) (يجير) ينقذ ٤٢؛ أجرت فلانا على فلان، إذا أعنته ومنعته منه - والمعنى: أن الله يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد من الله أحدا.

٨٩ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)

قوله: (فأنى تسحرون) أي فكيف تخدعون ثم تصرفون عن الإيمان بآيات الله والإقرار بما جاءكم به رسول الله مما فيه خبر بعثكم يوم القيامة بعد مماتكم وأنتم مقرّون بأن الله هو الخالق، وأنه القادر والمالك.

٩٠ - (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله: {بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون} أي أتيناهم باليقين وهو دين التوحيد - دين الحق والعدل والرحمة - دين الإسلام، وأن الله وحده حقيق أن لا تعبدوا أحدا سواه، وأنهم هم الكاذبون فيما يصطنعونه من آلهة مزعومة، وملل مفتراة شتى ٤٣.

٩١ - (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

قوله تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١) عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون (٩٢)} ذلك تنزيه من الله لجلاله العظيم عن الولد أو الشريك؛ فما من إله إلا الله - وهو وحده الخالق البادئ المعيد - وذلك هو قوله: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) ليس من إله نديد لله شريك له في الملك والتصرف والعبادة.

قوله: (إذا لذهب كل إله بما خلق) أي لو كان ثمة آلهة أخرى متعددة؛ لانفرد كل واحد منهم بشطره في الملك، ولاختلف الآلهة فيما بينهم فاختلّ بذلك نظام الكون، وأتى عليه الخلل والاضطراب والفوضى - لكن الكون الهائل الشاسع المنبسط بعظيم اتساقه وكامل انتظامه الدقيق، إنما يدل أوضح دلالة على وحدانية الله، وأنه متفرّد بالإلهية والربوبية.

قوله: (ولعلا بعضهم على بعض) أي غلب القوي الضعيف، وابتغى كل واحد منهم قهر الآخر ليطغى عليه ويسلبه ملكه - كديدن الملوك والرؤساء من بني آدم في الأرض - وذلك مما لا يعقل أو يتصور.

فإذا تبين ذلك، تجلى لنا اليقين بأن الله وحده لا شريك له - وأنه منزه عما يفتريه الظالمون والسفهاء من نسبة الولد أو الصاحبة أو الندية إلى الله - وهو قوله: (سبحان الله عما يصفون).

٩٢ - (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون} الله يعلم ما يغيب علمه عن الخلق - فما يعلم الخلق من حقائق هذا الكون إلا النزر القليل - وجل الأشياء والأخبار والعلوم قد خفي عنهم، فما يعلمه إلا الله وهو يعلم ما هو مستور أو ظاهر معلن - فتنزه الله عما يفتريه الظالمون على الله من كذب وباطل.

٩٣ - (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

قوله تعالى: {قل رب إما تريني ما يوعدون (٩٣) رب فلا تجعلني في القوم الظالمين (٩٤) وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون (٩٥) ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون (٩٦) وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين (٩٧) وأعوذ بك رب أن يحضرون (٩٨)} يعلّمُ الله نبيه (ص) كيفية الدعاء والضراعة لتنجيته من البلاء عند حلول الفتن فقال: (قل رب إما تريني ما

يوعدون) ما الأولى، زائدة، وإن، شرطية - يعني: إن تريني في هؤلاء الظالمين الضالين ما تعدهم من العذاب

٩٤ - (رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

فلا تهلكني معهم ونجني من عذابك وانتقامك.

٩٥ - (وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

قوله: {وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون} أي أن الله قادر على أن يريك يا محمد تعذيب هؤلاء الظالمين لكنه يؤخره عنهم حتى يبلغ الكتاب أجله، وذلك لحكمة يعلمها هو.

٩٦ - (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

قوله: (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) هذه قاعدة أخلاقية عظيمة من قواعد السلوك وكيفية التعامل في هذا الدين المتين - قاعدة تنسجم مع فطرة الإنسان السوي في جنوحه للرأفة والرقة والاستحياء - ذلك هو الإنسان السوي، يلين للكلمة الطيبة ويستجيب للأسلوب الودود الحاني - خلافا للغلظة وفظاظة الخطاب، فإنها تثير فيه النفور والانثناء والكراهية.

والإسلام إنما يرسخ قواعده وتعاليمه ومثله التي تناسب الأسوياء من البشر أولي الفطر السليمة والطبائع المستقيمة خير مراعاة - وعلى هذا يأمر الله تعالى أن تدفع السيئة بالحسنة، أي تدفع الإساءة بالعفو والصفح الجميل، لما في ذلك من تنشيط للاستجابة الكريمة ومراجعة النفس من المسيء نفسه فترقد فيه سورة الانفعال، ثم يبادر الندم والرجوع - وذلك هو شأن المسلمين فيما بينهم، يعفو احدهم عن أخيه ليدفع مساءته بالإحسان والعفو - أما ما كان من صفح عن إساءة الكافرين الظالمين المعتدين، فهو منسوخ بوجوب القتال.

قوله: (نحن أعلم بما يصفون) الله أعلم - بما يفتريه الظالمون على الله من الأكاذيب وبما يقولونه في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من سوء القول وباطله - وفي ذلك مواساة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كيلا يبتئس بما يسمعه منهم أو يقولونه فيه.

٩٧ - (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

قوله: {وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين} (همزات الشياطين) أي خطراته التي يُخطرها بقلب الإنسان ٤٤، والهمز معناه الغمز والدفع والضغط والنخس والضرب ٤٥ والمراد بهمزات الشياطين: كيدهم بالوسوسة في صدور بني آدم، إذ يسوّلون لهم فعل الشر وينفرونهم أو يخوفونهم من فعل الخير - فقد أمر الله نبيه (ص) والمؤمنين جميعا أن يتعوذوا من همزات الشيطان بما يهمسه أو يوسوس به في نفوسهم فيثير فيها سورات الغضب الذي لا يملك الإنسان فيه نفسه، فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه " وروى أبو داود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: " اللهم إني أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ".

٩٨ - (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)

قوله: {وأعوذ بك ربك أن يحضرون} أي أعوذ بك ان يكونوا معي في أي أمر من أموري أو حال من أحوالي، فإنه لا يحضر الشيطان حالا من أحوال ابن آدم إلا بادره الوسوسة وسوّل له النزوع للسوء وفعل الشر، وفي هذا أخرج الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم في الفزع: " بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ".

٩٩ - (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

قوله تعالى: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون (٩٩) لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون (١٠٠)} ذلك حال الكافر الذي أعرض عن دين الله وأبى إلا الجحود والعصيان حتى إذا دهمه الموت فعاين الحق والملائكة وأيقن أنه خاسر هالك، تمنى الرجوع إلى الدنيا ليصلح ما أفسده في حياته وهو قوله: (قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت).

١٠٠ - (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٩]
قوله تعالى: }حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون (٩٩) لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون (١٠٠)} ذلك حال الكافر الذي أعرض عن دين الله وأبى إلا الجحود والعصيان حتى إذا دهمه الموت فعاين الحق والملائكة وأيقن أنه خاسر هالك، تمنى الرجوع إلى الدنيا ليصلح ما أفسده في حياته وهو قوله: (قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت).

قوله: (قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت) أي فيما ضيعت وفرطت في حق الله وطاعته - لكنه لا محالة خاسر وهو من الهالكين - وحينئذ لا تنفعه الندامة، ولا تغني عنه التوبة شيئا من عذاب الله - وهو قوله: (كلا إنها كلمة هو قائلها) (كلا) حرف ردع وزجر؛ أي لا يجاب له طلب بالرجوع إلى الدنيا - وليس ما يتمناه من الرجوع إلا كلاما غير ذي اعتبار يقوله اليائس عند موته ولا يجديه نفعا.

قوله: (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) البرزخ، معناه الحاجز بين الدنيا والآخرة، أو بين الموت والرجوع إلى الدنيا - وقيل: البرزخ، حجاب يحول دون الرجوع إلى الحياة الدنيا ونحو ذلك من الأقوال المتقاربة.

وجملة ذلك يعني الاستيئاس من رجوع الظالم إلى الحياة بعد معاينة ملائكة الموت وعذاب القبر؛ فهو على حاله هذه من مصارعة التنكيل والتعذيب في القبر إلى يوم القيامة ٤٦.

١٠١ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)
قوله تعالى: }فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (١٠١) فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (١٠٢) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون (١٠٣) تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون (١٠٤)} ذلك إخبار من الله عن جانب من أهوال يوم القيامة - وهو النفخ في الصور - فإذا نفخ فيه النفخة الثانية؛ بُعث الناس من قبورهم أحياء ليلاقوا الحساب، وحينئذ تغشى الناس غاشية من الذعر والقلق واضطراب القلوب، فلا تنفعهم الندامة والحسرات، ولا تجديهم الخلة والصحبة والقرابات - ومثل هذه المعاني من الابتئاس والرعب واشتداد البلايا والإياس في الموقف العصيب، تُحدثنا الآيات الكريمة بأسلوبها القرآني المميز، وكلماتها الربانية المصطفاة ذات الإيقاع النفاذ والتأثير الذي يلج في أعماق المشاعر والقلوب - وهو قوله سبحانه وتعالى: (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).

إذا نفخت النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور من القبور، فإنه لا قيمة ولا وزن يومئذ للأنساب - وإنما الأنساب كانت موضع اعتبار وفخار بين الناس في الدنيا حيث النسب والصهرية وغيرهما من العلائق الدنيوية - لكن ذلك في الآخرة غير ذي اعتبار أو أهمية؛ إذ لا يذكر الناس الأنساب ولا يتفاخرون بها - وذلك لفرط ما يصيبهم من الحيرة والدهشة والترويع (ولا يتساءلون) أي لا يسأل بعضهم بعضا - فكل واحد من الناس يوم القيامة مشغول بهمه الشاغل - ولا يعنيه غير النجاة مما يحيط به من الويلات والكروب.

١٠٢ - (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
قوله: }فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون} الموازين، الحسنات؛ أي توزن أعمال الإنسان يوم القيامة وهو يناقش الحساب، فإن كانت طاعاته وأعماله الصالحة أثقل من سيئاته فقد نجا من العذاب وكان من الفائزين بحسن الجزاء

١٠٣ - (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)
(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أي الذين طغت معاصيهم وسيئاتهم فكانت أكبر مما عملوه من الصالحات والطاعات؛ فأولئك قد ضيعوا أنفسهم بإيرادها الهلاك والخسران (في جهنم خالدون) بدل من صلة الموصول وهي (الذين خسروا أنفسهم) فإنهم ماكثون دائمون في جهنم لا يظعنون ولا يتحولون.

١٠٤ - (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

قوله: (تلفح وجوههم النار) أي تحرقها بلظاها الحرور (وهم فيها كالحون) (كالحون) من الكلوح، وهو التكشر في عبوس ٤٧؛ أي تغشى وجوههم وجلودهم النار فتشويها شويا، وتبدلها شر تبديل ٤٨.

١٠٥ - (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

قوله تعالى: {ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون (١٠٥) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين (١٠٦) ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٠٧) قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (١٠٨)} الاستفهام للتوبيخ والتقريع - والمعنى: ألم أرسل إليكم رسولي يتلو عليكم آيات القرآن فكذبتم وأعرضتم وكنتم من الظالمين.

١٠٦ - (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)

(قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) الشقوة، من الشقاء وهو ضد السعادة ٤٩ والمراد به هنا: سوء المصير الذي يؤول إليه الخاسرون الظالمون - والمعنى: قامت علينا الحجة - بما ظهر لنا في الدنيا من الدلائل الواضحة لكن غلب علينا ما سبق لنا في علمك القديم، وما كتب علينا في أم الكتاب من سوء المآل - وقيل: المراد بالشقوة اللذات والأهواء - فقد غلبت هذه علينا فأودت بنا إلى التعس وسوء المصير.

قوله: (وكنا قوما ضالين) كنا من التائهين السادرين في الضلالة والغي - وذلك إقرارهم بضلالهم عن الهدى.

١٠٧ - (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)

قوله: (ربنا أخرجنا منها) يسألون ربهم وهم يتقاحمون في النار، أن يخرجهم منها؛ ليعودوا إلى طاعته وعبادته وحده لا يشركون به شيئا.

قوله: (فإن عدنا فإنا ظالمون) أي إن عدنا إلى الضلال والمعصية فقد ظلمنا أنفسنا باستحقاقنا العذاب.

١٠٨ - (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

قوله: {قال اخسئوا فيها ولا تكلمون} خسأ وانخسأ، أي خضع - خسأ الكلب - أي طرده ٥٠ (اخسئوا فيها) أي انزجروا وامكثوا في الذل والمهانة (ولا تكلمون) لا تكلمون في رفع العذاب عنكم؛ فإنه لا يرفع ولا يخفف عنكم - وذلك زيادة في التعنيف والتنكيل.

١٠٩ - (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

قوله تعالى: {إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين (١٠٩) فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون (١١٠) إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون (١١١)} يذكر الله المجرمين بما فعلوه من الذنوب والمعاصي في الدنيا، ومن جملة جرائمهم ومعاصيهم في حياتهم الدنيا استهزاؤهم بالمؤمنين المستضعفين كبلال وعمار وخباب وصهيب، وغيرهم من ضعفة المسلمين الذين آمنوا بربهم فكانوا من المخبتين المتضرعين لله بطلب المغفرة والرحمة.

١١٠ - (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

قوله: (فاتخذتموهم سخريا) بكسر السين - وقرئ بضمها وهما لغتان بمعنى واحد - من سخر يسخر من الهزء واللعب ٥١ - أي سخرتم منهم واستهزأتم بهم لكونهم مؤمنين لا يعبدون غير الله من الأنداد والشركاء (حتى أنسوكم ذكري) أي شغلكم الاستسخار بهم وبعبادتهم عن ذكركم لي (وكنتم منهم تضحكون) وهذا هو ديدن المجرمين من كل أمة، يضحكون من الفئة المؤمنة الثابتة على الحق، وعلى صراط الله المستقيم، فلا يزيغون ولا يتحولون – يضحكون منهم استهزاء وسخرية - إنه ديدن التاعسين التافهين من الظالمين في كل زمان، فإنهم يتجلجلون في الضلالة والجهالة والرجس، وهم يحسبون أنهم على شيء، وهم في الحقيقة واهمون مخدوعون مضللون، إذ سوّلت لهم الشياطين من الجن والإنس أن يسخروا من المؤمنين المستضعفين ويضحكوا منهم على سبيل التهكم والاستخفاف - والله يشهد والراسخون في إدراك الحقيقة يعلمون أن هؤلاء المستسخرين جهلة، وأنهم منحدرون في دركات العماية والسفاهة وصفاقة الأذهان والضمائر.

١١١ - (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

قوله: {إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ما، مصدرية، و (أنهم) في موضع نصب بقوله: (جزيتهم) لأنه مفعول ثان - و (هم) ضمير فصل ٥٢ والمعنى: جزيت هؤلاء المستضعفين اليوم خير الجزاء وهي الجنة وما فيها من سعادة وهناءة ونعيم - وذلك بسبب

صبرهم على طاعتي وعلى أذاكم واستهزائكم بهم وسخريتكم منهم في الدنيا ٥٣.
١١٢ - (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)
قوله تعالى: {قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين (١١٢) قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (١١٣) قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون (١١٤) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم (١١٦)} (كم) في موضع نصب للفعل - (لبثتم) وعدد منصوب على التمييز - و (سنين) جمع سنة - وأصل سنة سنهة أو سنوة - حذفت الواو وجمعت جمع سالم، وأدخل فيها ضرب من التكسير فصارت سنين ٥٤ - في عرصات القيامة يسأل الله الذين ظلموا أنفسهم فكانوا من الخاسرين (كم لبثتم في الأرض) أي موتى في قبوركم من السنين - أو كم كانت مدة إقامتكم في الدنيا
١١٣ - (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)
(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لقد أذهلتهم الساعة بأهوالها وأخبارها ودواهيها فظنوا أنهم لم يمكثوا في قبورهم أو في حياتهم الدنيا غير يوم أو بعض يوم - أو أنهم استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور - فقد رأوا ذلك نزرا يسيرا بالنسبة لما هو فيه من البلاء وفرط الخوف والشدة.
قوله: (فاسأل العادين) أي اسأل الحاسبين الذين يعدون ما لبثناه من زمان، فقد نسينا كم مكثنا - أو اسأل الملائكة، فقد كانوا يعدون ذلك.
١١٤ - (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
فأجابهم الله (إن لبثتم إلا قليلا) أي لم تلبثوا في الأرض إلا زمنا يسيرا.
فإن ما يمكثه الناس في الدنيا وما يلبثونه في قبورهم موتى لا يعدل شيئا أمام ما يجدونه من فظاعة التعذيب الماكث الدائم يوم القيامة (لو أنكم كنتم تعلمون) أي لو كنتم تعلمون هذه الحقائق عن أهوال القيامة وهوان مكثكم في الدنيا، وطول بقائكم في العذاب يوم القيامة.
١١٥ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)
قوله: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) يخاطب الله هؤلاء الأشقياء التاعسين، الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة معنفا موبخا: هل حسبتم أنما خلقناكم للعب أو اللهو - أو لنجعلكم هملا كالبهائم خُلقت لغير حساب أو جزاء - لم نخلقكم لغير فائدة، بل خلقناكم لنكلفكم ولتناط بكم المسؤوليات والأوامر والواجبات ثم تناقشون الحساب على أعمالكم يوم القيامة.
ذلك هو الإنسان ما جيء به إلى هذه الدنيا للهو والعبث، أو ليكون لُقى ٥٥ مهملا بغير حساب وإنما خلقه الله لعبادته، ولينيط به من المسؤوليات على اختلافها وتعددها ما يناسب فطرته وقدرته على احتمال التكليف - وأساس ذلك قوله سبحانه وتعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ثم يرد يوم القيامة إلى ربه فهو محاسبه ومجازيه على ما فعله من صالح وطالح.
١١٦ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)
قوله: (فتعالى الله الملك الحق) تقدس الله وتعظم أن يخلق شيئا عبثا وسدىً، فإنه الإله الملك الحق المنزه عن العبث والباطل - أو تنزه وتعالى عما يصفه به المشركون بأن له شركاء وأندادا (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ما من إله سوى الله وحده - وما من معبود تنبغي له العبادة والطاعة والامتثال غيره سبحانه - فهو الإله الواحد، مالك الخلق الهائل، وهو العرش، ووصف العرش بالكريم؛ لاستواء الله عليه - أو لما يتنزل منه من خير ورحمة ٥٦.
١١٧ - (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)
قوله تعالى: {ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون (١١٧) وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين (١١٨)} ذلك وعيد من الله لمن يعبد معه إلها آخر (لا برهان له به) جملة معترضة؛ أي ليس له في ذلك دليل ولا حجة إلا ركوب الهوى، وتقليد الآباء والأجداد في سفاهتهم وجهالتهم (فإنما حسابه عند ربه) جواب الشرط؛ أي يحاسبه الله على كفره

ويجازيه من أليم الجزاء ما هو كفاء.
قوله: (إنه لا يفلح الكافرون) الهاء ضمير الشأن أي أن المشركين الذين اتخذوا أندادا من دون الله، والذين جحدوا رسالة ربهم فإن مصيرهم إلى التعس وخسران الدار الآخرة.
١١٨ - (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)
قوله: {وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين} ذلك ترشيد من الله لنبيه والمؤمنين أن يدعوه بهذا الدعاء الكريم - وهو أن يغفر لهم الذنوب وذلك بسترها عليهم وبعفوه لهم عنها - وأن يرحمهم برحمته فيكتب لهم التوفيق والسداد والسلامة والغفران - فإنه سبحانه خير من يرحم العباد ويرأف بهم ويتجاوز عن ضعفهم وسيئاتهم ٥٧.

٢٤ سورة النور:

سورة النور:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية، وآياتها أربع وستون آية - وهي تتضمن جوانب كثيرة ومختلفة من الأحكام والعبر والحِكَم وأدب السلوك - ويأتي في مقدمة ذلك كله تشريع الحد في حق الزاني والزانية - فقد شدد الإسلام نكيره البالغ على فاحشة الزنا لما في ذلك من تزييف للنسل وإفساد للأنساب، وتدمير للضمائر والقيمَ، وإشاعة للظنون والفوضى.
وتتضمن السورة الإخبار عن حديث الإفك وما فيه من إساءة مستقبحة ومشينة على الجناب الطاهر المصون لأم المؤمنين، بنت الصديق رضي الله عنهما.
وفي السورة تشريع العقوبة للقاذف الذي يطعن شرف المسلمين بمقالته الكريهة فيهم؛ إذ يُشيع بينهم السوء وفحش القول بغير بينة - إلى غير ذلك من الأحكام والمعاني كالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم من الرجال - وكذلك أدب الدخول على المسلمين ووجوب الاستئذان بذلك - ثم الوعد الصادق من الله للمسلمين الصابرين المخلصين باستخلافهم في الأرض وتمكينهم فيها وجعل الغلبة والسلطان لهم.
١ - (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)
بسم الله الرحمن الرحيم
قوله تعالى: {سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون (١) الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢)} (سورة) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف (أنزلناها) صفة لسورة - وتقديره: هذه سورة منزلة ١ أو هذه سورة أنزلناها - وفي ذلك ما لا يخفى من التنبيه على الاعتناء بهذه السورة لما فيها من أحكام في العفة والستر ودفع الفواحش عن المسلمين وصونهم في سمعتهم وشرفهم وكرامتهم (وفرضناها) أي فرضنا ما فيها من الأحكام عليكم وعلى الذين يأتون من بعدكم.
٢ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) بدأ بذكر الزانية قبل الزاني لإيجاب الحد إذا تحققت شروطه - أما البداية بذكر الزانية قبل الزاني؛ فإنها تزجي بالسؤال عن سبب ذلك - ولعل الجواب عن ذلك أن فاحشة الزنا إنما تؤتى في الغالب من قبل المرأة - وذلك يعني أن المرأة أقدر من الرجل على صون نفسها بالاصطبار والاستعصام وطول الاحتمال دون السقوط في الزنا، فضلا عن خصلة الاحتجاز والأنفة اللذين فطرت عليهما المرأة، فإنها بطبعها تجنح للتماسك والاحتجاز والأنفة عن المراودة أو التحرش من قبل

الرجال الذين يندفعون في الغالب صوب النساء لقضاء أوطارهم منهن - وليس أدل على هذه الحقيقة من أن المرأة في الغالب لا تأتي بل إنها تؤتى - فالرجل يتقدم نحوها مبتغيا راغبا - والمرأة من جهتها تستقبل دون أن تبرح مكانها ولا تريم.
ولئن كانت المرأة قد فطرت على الاحتجاز والانثناء والأنفة، فإن الرجل أضعف في احتباس نفسه دون التقدم والاندفاع جهة الجنس الآخر - لا جرم أن هذه خصلة من خصال الضعف المحسوبة على الرجال في مقابلة النساء.
وعلى هذا فإن المرأة من جهتها تمسك بصمام الأمان للحيلولة دون وقع الفاحشة - فإن هي استرخت أو أذنت للرجل الدنو منها أو مسها كان الرجل شديد الاندفاع في عجل لقضاء الشهوة المشبوبة - وحينئذ تقع الفاحشة ويتوجب العقاب الصارم - وهذه حقيقة مستفادة من قوله في تحذير النساء من اللين ورقة الخطاب أمام الرجال: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) أي لا تخاطبن الرجال إلا في جد واستقامة بعيدا عن بواعث الريبة والفتنة والإغراء الذي يثيره لين القول ورقة الخطاب المتكلف.
وبذلك لا يُتصور وقوع الزنا بغير إذن من المرأة وقبولها - فإن هي استعصمت مجتنبة ظواهر الإغراء وتكلف الخطاب، فما يستطيع الرجل بعد ذلك أن يفعل شيئا إلا أن يجترئ في وقاحة شرسة فينقض انقضاض الكاسر المجنون.
حد الزنا
الزنا خسيسة من خسائس المجتمعات البشرية - وهو رذيلة من الرذائل التي تدنّس الفرد والجماعة بما تفضي إليه هذه الفاحشة المستقذرة النكراء من خلط المياه وتزييف النسل والأنساب وإشاعة الفوضى والظنون في المجتمع، وتبديد الثقة بين الأزواج والزوجات، وإضعاف التلاحم وعرى المودة بين الناس - والإكثار من نسبة الطلاق والأولاد غير الشرعيين، من أجل ذلك ندد الإسلام تنديدا بهذه الفاحشة المستقبحة وأعدّ من أجلها العقاب الرادع سواء في ذلك الزاني المحصن أو غير المحصن.
على أن الزنا الموجب للحد يعني الوطء من البالغ العاقل في قُبُل أو دُبر ممن لا عصمة بينهما ولا شبهة وهو قول الجمهور - بخلاف الحنفية، فإن الزنا الموجب للحد عندهم ما كان في القبل دون الدبر.
وثمة شروط لوجوب حد الزنا وهي:
الشرط الأول: التكليف، فإنه لا يقام الحد على الصغير والمجنون والمعتوه، ولا على النائم أو المكره، وذلك لما أخرجه أبو داود بسنده عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل ".
الشرط الثاني: الاختيار - وذلك أن يكون كل من الزناة أو الزواني مختارا غير مكره - فأيما إكراه في وقوع الزنا يندرئ به الحد - وذلك في حق المرأة معلوم لا خلاف فيه - أما الرجل المكره على الزنا ففي حده خلاف، فقد ذهبت الحنبلية والمالكية في الراجح من مذهبهم إلى حده - خلافا للشافعي وآخرين، إذ قالوا بعدم وجوب الحد على الزاني المكره استنادا إلى عموم الخبر: " رفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه ".
أما الحنفية: فإن الإكراه الذي يندرئ به الحد عندهم ما كان بفعل السلطان - أما الإكراه من غير السلطان فلا يمنع من وقوع الحد على الزاني المكره ٢.
الشرط الثالث: العلم بالتحريم، فإنه يُعذر من جهل التحريم - كما لو كان الزاني حديث عهد بالإسلام، أو ناشئا ببادية بعيدة عن المسلمين - وتفصيل ذلك في مواضعه من كتب الفقه.
الشرط الرابع: انتفاء الشبهة، فإن الشبهة في الزنا تدرأ منه الحد، لأن الحدود مبنية على الدرء والإسقاط بالشبهات - وفي ذلك أخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا ".
وروى الترمذي أيضا عن عائشة قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ادرؤا الحدود عن المسلمين ما استطعتم - فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة ".
وضروب الشبهات في هذا الصدد كثيرة - كالوطء في نكاح مختلف في صحته - مثل النكاح بغير ولي، أو بغير شهود، أو في نكاح المتعة، أو نكاح الشغار - وكذلك نكاح الأخت في عدة أختها - ونكاح الخامسة في عدة الزوجة الرابعة المطلقة طلاقا بائنا - وتفصيل ذلك في

مظانه.
الشرط الخامس: ثبوت الزنا في حضرة الحاكم، لأن الحاكم منوط به وحده إيقاع الحد على الزاني - فإن ثبت الزنا أمام غير الحاكم، لم يجب الحد، وينسحب ذلك على سائر الحدود والقصاص والتعزير.
ثبوت الزنا
يثبت الزنا بأحد شيئين:
أحدهما: الإقرار - وهو اعتراف الزاني أو الزانية بوقوع الزنا صراحة وفي وضوح لا لبس فيه ولا تردد - وصورة ذلك: أن يقر الزاني أو الزانية بوقوع الزنا أربعة أقارير، على أن يكون الإقرار طوعا من غيره إكراه - فأيما إكراه على الإقرار يخرم معه الشرط فلا يجب الحد.
ثانيهما: البينة - وهي الشهادة من أربعة شهود عدول على حصول الزنا، على أن تتفق شهادات الشهود جميعا فيصفوا الزنا وصفا حقيقيا متطابقا - وأيما اختلاف بين شهادات الشهود، فإنه يندرئ به الحد - وتفصيل ذلك في مظانه من كتب الفقه ٣.
عدم ثبوت الزنا بالحمل
لا يثبت حد الزنا بالحمل، فلو أن امرأة غير مزوجة حملت لا يقام عليها حد ما لم تعترف بالزنا أو يثبت ذلك بالشهادة كما بيناه سابقا - وهو قول الجمهور من الفقهاء - ووجه ذلك: أن الحمل لا يتجاوز في الإثبات مستوى القرينة من القرائن - أو هو ليس غير احتمال من الاحتمالات التي لا تثبت بها الفاحشة - وذلك في ذاته شبهة يندرئ بها الحد.
حد المحصن وغير المحصن
المحصن من الحصن وهو الموضع المنيع المصون - ومنه الإحصان بمعنى الصون والحماية ٤ والمحصن في الشرع معناه المتزوج - سمي بذلك لتحصنه بالزواج من الفتنة والوقوع في الفاحشة.
أما المحصن إذا زنا، سواء كان ذكرا أو أنثى، فقد وجب في حقه حد الرجم بالحجارة حتى الموت - وقد ثبت حد الرجم عن طريق السنة - بما لا يحتمل الشك.
ومن جملة ذلك ما أخرجه أبو داود وآخرون من أصحاب السنن عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا: الثيب بالثيب، جلد مئة ورمي بالحجارة - والبكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة " - وكذلك أخرج أبو داود عن ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لماعز بن مالك: " لعلك قبّلت أو غمزت أو نظرت " قال: لا - قال " أفنكتها؟ " قال: نعم - قال: عند ذلك أمر برجمه، وكذلك أخرج أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: " رجم نبي الله (ص) رجلا من اليهود وامرأة زنيا " وغير ذلك من الأخبار في رجم المحصن كثير - وقال ابن المنذر في هذا الصدد: أجمع أهل العلم على أن المرجوم يدام عليه الرجم حتى يموت - وبذلك يثبت وجوب الرجم على الزاني المحصن.
على أن الرجم لا يجتمع مع الجلد - فإذا ثبت الزنا من المحصن وجب في حقه الرجم فقط - وهو قول أكثر أهل العلم وفيهم الحنفية والشافعية والمالكية، وكذا الحنبلية في إحدى الروايتين لهم - وقد روي ذلك عن عبد الله بن مسعود - وقال به النخعي والزهري والأوزاعي وأبو ثور - واحتجوا لذلك بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - رجم كلا من ماعز والغامدية ولم يجلدهما.
وقيل: يجتمع الجلد والرجم - فإذا زنا المحصن وجب جلده ثم رجمه - وهو قول الحسن البصري وإسحاق وداود بن علي الظاهري - وهي الرواية الثانية للحنبلية.
واستدلوا لذلك بقوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فقالوا: هذا النص يفيد العموم لكن السنة جاءت بالرجم في حق الثيب، والجلد في حق البكر - ٥
حد غير المحصن
غير المحصن: وهو البكر إذا زنا، فإنه يحد مائة جلدة ثم يغرب سنة خارج بلده - وسنعرض لمسألة التغريب إن شاء الله.
وقد ثبت حد الزنى للبكر بالكتاب الحكيم أي في هذه الآية (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وكذلك في السنة مما أخرجه أئمة الحديث عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة - والثيب بالثيب، جلدة مائة والرجم ".
وروى البخاري وأحمد عن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - " قضى فيمن زنا ولم يحصن بنفي عام، وإقامة الحد عليه ".

وهل يجب التغريب، وهو النفي، مع الجلد في حق البكر إذ زنا؟ ثمة قولان في ذلك: القول الأول: وجوب التغريب مدة سنة سواء كان ذلك قبل الجلد أو عقبه - وهو قول الجمهور من الشافعية والمالكية والحنبلية وأهل الظاهر - وقد روي ذلك عن الخلفاء الراشدين - وبه قال ابن مسعود وابن عمر - وهو مذهب عطاء وطاووس والثوري وابن أبي ليلى وإسحاق وأبي ثور - ودليل ذلك ما رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا، الثيب بالثيب؛ جلدة مائة ورمي بالحجارة، و البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة ".

القول الثاني: عدم وجوب التغريب في حد البكر - وإنما حده الجلد فقط - وهو قول الحنفية - واستدلوا بقوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فقد أمر بالجلد ولم يذكر التغريب، فمن أوجبه فقد زاد على كتاب الله عز وجل والزيادة عليه نسخ، ولا ينسخ نص الكتاب بخبر الواحد ٦.

إلى غير ذلك من الأحكام المتعلقة بالزنا وحده مما لا يتسع لذكره المجال أكثر مما ذكرنا - وتفصيل ذلك في مظانه من كتب الفقه.

قوله: (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) أي لا يمنعكم عن طاعة الله فيما أمركم به من إقامة الحد على الزناة والزواني، رحمة بهم أو شفقة عليهم - وذلك بترك الحد أو تخفيف الضرب كيلا يوجع؛ بل تجب إقامة الحد بالضرب الوجيع في غير تبريح ولا مبالغة جزاء للزاني على ما اقترف، وردعا لغيره من الناس ممن تسوّل له نفسه الوقوع في الفحش.

قوله: (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) يعني أقيموا حدود الله كجلد الزاني والزانية إن كنتم مصدقين بالله واليوم الآخر - والمراد التحريض على إقامة الحد من غير تردد أو إبطاء.

قوله: (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أي ليحضر حد الزانيين طائفة من المؤمنين - واختلفوا في المراد بالطائفة - فقد قيل: الواحد فما زاد طائفة - وقيل: الطائفة ثلاثة نفر فصاعدا - وقيل: أربعة نفر فصاعدا طائفة.

والمراد من حضور الطائفة: توبيخهما وتعنيفهما وزيادة التنكيل بهما، وافتضاح أمرهما؛ فيكون ذلك أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما فضلا عما في ذلك من ازدجار للناس - فإن من شهد الحد يتعظ به ويشيع حديثه فيعتبر به غيره ٧.

٣ - (الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (٣)} قال المفسرون: قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين - فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن - فاستأذنوا النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك.

وقيل: نزلت الآية في نساء بغايا بمكة والمدينة وكن كثيرات ومنهن تسع صواحب رايات - وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير، لا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زان - فأراد ناس من المسلمين نكاحهن ليتخذوهن مأكلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية - ونهى المؤمنين عن ذلك وحرمه عليهم.

وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة - قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله - قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط، فلما انتهت إلي عرفتني فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد - فقالت: مرحبا وأهلا - هلم فبتْ عندنا الليلة - فقلت: يا عناق، إن الله حرم الزنا - فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله - أنكحُ عناقا، فأمسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد شيئا حتى نزلت (الزاني لا ينكح إلا زانية) الآية ٨ - وينكح هنا بمعنى يطأ - وهذا إخبار من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أي لا تجيبه إلى بغيته وهو الجماع إلا زانية من الزواني لا تعبأ بفعل المعصية، أو مشركة من المشركات لا تجد الزنا حراما - وكذلك المرأة الزانية لا يطأها أو يجامعها إلا رجل زان عاص لله، أو مشرك لا يرى أن الزنا حرام - فالمراد بالنكاح ههنا الوطء أو الجماع - فلا يزني

بالزانية أو الكافرة إلا من هو مثلها في الزنا أو الكفر - وجملة ذلك أن الزاني لا يزني إلا بزانية - وكذا الزانية لا تزني إلا بزان - وهو قول ابن عباس.

قوله: (وحرم ذلك على المؤمنين) الإشارة عائدة إلى معصية الزنا؛ فإنه حرام على المؤمنين - ويستفاد من ذلك تحريم الزواج من البغايا، أو تزويج العفائف من الرجال الفجار - وقد ذهب الإمام أحمد على أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي (الزانية) مادامت موصوفة بالزنا حتى تستتاب، فإن تابت صح زواجها - وكذلك لا يصح تزويج الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب، فإن تاب جاز زواجه منها.

وقيل: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) فقد دخلت الزانية في أيامي المسلمين، وهو قول أكثر العلماء - وبذلك من زنا بامرأة فله أن يتزوجها، ولغيره كذلك أن يتزوجها - ويستفاد من كون الآية منسوخة أن التزوج بالزانية صحيح - وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد عقد الزواج بينهما - وإذا زنا الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته ٩.

٤ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قوله تعالى: {الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون (٤) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (٥)} هذه الآية في حكم القذف الذي يعتدي به النساء العفيفات بالإذاية من القول الفاحش مما فيه طعن لشرفهن ومس بسمعتهن - وذلك بالتهمة الظالمة المفترية التي لا يسعفها دليل ولا بينة.

وقوله: (يرمون) أي يشتمون - و (المحصنات) يعني العفائف من النساء - والمراد: رميهن بضد العفاف وهو الزنا - من أجل ذلك أعد الله للمعتدين على سمعة النساء العفائف بقذفهن بفاحش الزنا- عقوبة الحد وهو الضرب ثمانين جلدة ثم رد شهادتهم وتفسيقهم.

قوله: (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) أوجب الله لإثبات الزنا خاصة دون غيره من الحقوق، أربعة شهداء - وتلك رحمة من الله بالعباد؛ إذ يريد لهم الستر والصون والرعاية من كل أذى.

وتشريع الشهادة بأربعة شهود عدول يصون الفرد والجماعة من طمع المرتابين المتعجلين الذين يبادرون لابتغاء الهلكة للمقذوفين فضلا عن تشنيع سمعتهم وإثارة الريبة من حولهم - وبذلك فإن تشريع العقوبة للقاذف بحده ثمانين جلدة يكف عن الناس ألسنة السوء، ويدرأ عنهم بذاءة القول الفاحش صونا لسمعتهم وكرامتهم، وتنبيها للمرتابين الظانين بالناس سوءا أنهم محدودون بالضرب على ظهورهم إذا ما اندلقت من ألسنتهم مقالة الشتم والطعن في أعراض الأبرياء من غير حجة أو برهان.

حد القذف

القذف في الشرع، معناه الرمي بالزنا صراحة أو دلالة - كأن يقول لإنسان: يا زان - أو يا لوطي - ونحو ذلك من الألفاظ الصريحة الدالة على القذف بالزنا - أو كان الرمي كناية - كقوله لإنسانة: يا قحبة أو يا فاجرة ١٠.

شروط حد القذف

هذه شروط خمسة لوجوب الحد على القاذف وهي:

الشرط الأول: أن يكون القاذف مكلفا - وهو كونه عاقلا بالغا غير مكره - فلا يقام الحد على القاذف المجنون أو الصبي أو المكره على القذف - وذلك للخبر: " رفع القلم عن ثلاثة، عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم " وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: " رفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه ".

الشرط الثاني: أن يكون المقذوف محصنا - وذلك للآية هنا: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) وبذلك لا يجلد من قذف غير المحصنات أو المحصنين - والمحصنة أو المحصن هو المسلم الحر العاقل البالغ العفيف - وعلى هذا فإن المحصنين - والمحصنة أو المحصن هو المسلم الحر العاقل البالغ العفيف - وعلى هذا فإن صفات المقذوف خمسة وهي: العقل والبلوغ والحرية والإسلام والعفة - فلا يجب الجلد على قاذف المجنون أو الصبي أو العبد أو الكافر أو غير المتعفف وذلك لضعف شعورهم بالمعرّة - وغير المتعفف يراد به المتهتك المريب الذي يرد مواطن الفحش والخنا.

والجمهور من أهل العلم، على أنه لا حد على قاذف الكافر لانعدام غيرته على عرضه أو ضعف إحساسه بالعار إذ قذف - وقيل: يحد قاذف المرأة الكتابية المزوجة من مسلم أو كان لها ولد مسلم.

أما لفظ المحصنات فهو على أربع معان هي: العفائف، ثم ذوات الأزواج، ثم الحرائر، ثم المسلمات - لقوله تعالى: (فإذا أحصن) أي أسلمن.

الشرط الثالث: أن لا يكون القاذف والدا للمقذوف - ويندرج في الولد، الأصل أو من علاه - فلو قذف والد ولده أو حفيده فإنه لا يحد - ووجه ذلك: أن عقوبة القذف تجب لحق آدمي - فلا تجب للولد على والده كالقصاص - أما إذا قذف الولد أباه أو أمه فقد وجب عليه الحد وهو قول الجمهور من الفقهاء ١١.

الشرط الرابع: القذف بالزنا - وهو نوعان بيناهما سابقا - وجملة ذلك: أنه صريح وكناية - فالصريح: هو القول الظاهر الذي لا يحتمل غير مفهوم الزنا، كقوله: يا زاني أو أنت زنيت - أو فرجك زنا، فذلك قذف صريح يجب به الحد على القاذف - وأما الكناية: فهي التكلم بكلام يحتمل القذف بالزنا وغيره - كقوله لها: يا فاجرة - أو يا خبيثة أو يا قحبة - أو قال لرجل: يا مخنث أو يا فاجر ونحو ذلك من الكلام الذي يحتمل أكثر من معنى - ومثل هذا القذف المحتمل لا يجب به الحد - وهو قول الحنيفية، والحنبلية في الراجح من مذهبهم - وثمة قول في المذهب بوجوب الحد - وكذلك الشافعية لا يجب الحد عندهم في قذف الكناية أو التعريض في القول إلا إذا نوى القاذف ذلك - وبذلك لا يجب الحد في قذف الكناية لاستتار النية، فإن محلها القلب - أما المالكية فإنهم يوجبون الحد في القذف الصريح والكناية - حتى لو عرّض القاذف تعريضا بالمقذوف وجب عليه الحد ١٢.

الشرط الخامس: عدم إثبات القذف بأربعة شهداء - فإذا لم يكن مع القاذف غير نفسه أو كان معه غيره ولم تكتمل بهم عدة الأربعة من الشهود العدول لم تقبل شهادتهم بل كانوا جميعا قذفة ليجب في حقهم الحد ١٣.

وللمستزيد من أحكام القذف أكثر مما بيناه هنا أن يراجع ذلك في مظانه من كتب الفقه.

قوله: (فاجلدوهم ثمانين جلدة) الجلد، معناه الضرب ١٤ والمخاطب، الإمام، أو ولي الأمر الذي يسوس المسلمين بشرع الله فهو منوط به تنفيذ الحدود - وثمانين، منصوب على المصدر - وجلدة، منصوب على التمييز ١٥.

واختلفوا في حد القذف، هل هو حق من حقوق الله كحد الزنا؟ فهو من حقوق الله عند الإمام أبي حنيفة وأتباعه - وعند المالكية والشافعية أنه حق من حقوق المقذوف - وهو الراجح، لأنه يتوقف على مطالبة المقذوف، ويصح له الرجوع عنه - وهو لا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف - وهو قول الجمهور.

قوله: (ولا تقبلوا لهم شهداء أبدا) معطوف على وجوب جلدهم، أي عاقبوهم بالجلد وعدم قبول شهادتهم، فقد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة - وذلك مدة حياتهم - وهو تأويل قوله: (أبدا).

قوله: (وأولئك هم الفاسقون) أي الخارجون عن طاعة الله بكذبهم وافترائهم على المقذوفين بالباطل.

٥ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: }إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم{ ذلك استثناء للتائبين من بعد القذف - فإن هم ندموا على فعلهم واستغفروا ربهم وأنابوا إليه، وتركوا العود إلى مثل ما فعلوه من القذف فإن الله يستر عليهم ما فعلوه من ذنب.

على أن الاستثناء غير عامل في جلد القاذف بالإجماع - فإذا طلب المقذوف حقه في الحد من القاذف أجابه الحاكم لا محالة.

أما عمل الاستثناء في رد الشهادة من القاذف فهو مختلف فيه - فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن الشهادة من القاذف لا تقبل - فهي بذلك مردودة وإن تاب وإنما يزول فسقه فقط - وهو قول الحنفية وآخرين - وقال أكثر أهل العلم إن الاستثناء عامل في رد الشهادة فإذا تاب القاذف قبلت شهادته، وزال فسقه - والأصل في هذه المسألة اختلافهم في الاستثناء إذا جاء عقيب جمل معطوفة هل يعود إلى جميعها أم إلى الجملة الأخيرة فقط ١٦.

ثمة أقوال ثلاثة للعلماء في ذلك:

القول الأول: إن الاستثناء يعود إلى جميع الجمل المتعاقبة بالواو - وهو قول الشافعية والمالكية والحنبلية وأهل الظاهر - وقال به أبو الحسن البصري من المعتزلة - فقد ذهب هؤلاء جميعا إلى أن الاستثناء المتصل بجمل من الكلام معطوف بعضها على بعض يجب رجوعه إلى جميع الجمل - فالآية هنا، قد وقع الاستثناء فيها بعد ثلاث جمل - وهي: الأمر بالجلد - ثم النهي عن قبول الشهادة - ثم الإخبار

بفسقهم - والاستثناء عائد إلى الجميع - وبذلك يرتفع رد الشهادة كما يرتفع التفسيق - ولا يرتفع الجلد فإنه حد.
وقد ورد التنصيص على وجوبه في الأخبار الصحيحة - واحتج هؤلاء بعدة أدلة منها، القياس على الشرط، فإن الشرط إذا تعقب جملا، فإنه يعود على الكل فكذا الاستثناء - وقالوا أيضا: الجمل المعطوف بعضها على بعض بمنزلة الجملة الواحدة وبذلك يؤثر الاستثناء في الجميع.
القول الثاني: إن الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة فقط - وهو قول الحنفية وقال به الرازي - وبذلك فإن الاستثناء يختص بالجملة الأخيرة من الجمل المتعاقبة بالواو - واحتجوا بأن رجوع الاستثناء إلى الجملة الأخيرة مستيقن - أما رجوعه إلى ما قبلها من الجمل فهو محتمل مشكوك فيه فلا يثبت بالشك والاحتمال.
القول الثالث: التوقف - وهو مذهب الأشعري واختاره الآمدي والغزالي والباقلاني - فقد توقفوا لعدم العلم بمدلوله لغة ١٧.
٦ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)
قوله تعالى: {والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين (٦) والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين (٧) ويدرأوا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين (٨) ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم (٩)}.
ورد في سبب نزول هذه الآية عدة روايات نقتضب منها ما رواه البخاري عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي - صلى الله عليه وسلم - بشريك بن سحماء - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " البينة وإلا حد في ظهرك " فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: " البينة وإلا حد في ظهرك " فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه (والذين يرمون أزواجهم) فقرأ حتى بلغ (إن كان من الصادقين) فانصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: " إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت - فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة - قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع - ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء " فجاءت به كذلك - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن ".
على أن هذه الآية فيها فرج ومخرج للأزواج الذين يرون في أهلهم السوء بأعينهم فيتعسر عليهم أن يأتوا بأربعة شهداء، فلهم أن يلاعنوهن وذلك من الملاعنة أو اللعان، وصورته ما بيناه في سبب نزول الآية، وهي قوله: (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين) أنفسهم، مرفوع على البدل من (شهداء) فشهادة مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، وتقديره: فعليهم شهادة أحدهم - أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فالحكم شهادة أحدكم أربع شهادات ١٨.
وبيان الملاعنة أو اللعان أن يقذف الرجل زوجته بالزنا، كأن يقول لها: زنيت أو يا زانية - أو قال لها: هذا الولد ليس مني - وجملة ذلك: أن يتهمها بالزنا أو ينفي حملا أو ولدا منها دون أن تكون له على ذلك بينة - فله بذلك أن يلاعنها كما أمره الله جل وعلا - وذلك أن يحضر وإياها إلى الحاكم فيدعي عليها ما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين - أي يقول: أشهد بالله أنه لصادق فيما رماها به من الزنا - وذلك في مقابلة أربعة شهداء يشهدون على صدقه
٧ - (وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)
{والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين} فإن قال هذه الخامسة فقد بانت منه زوجته بنفس هذا اللعان وحرمت عليه أبدا، ويؤدي لها حقها من المهر - وهذه الصيغة من اللعان توجب عليها حد الزنا إلا أن تدرأ عن نفسها العذاب وهو الحد بالرجم - وذلك أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا

٨ - (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]
}والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين{ فإن قال هذه الخامسة فقد بانت منه زوجته بنفس هذا اللعان وحرمت عليه أبدا، ويؤدي لها حقها من المهر - وهذه الصيغة من اللعان توجب عليها حد الزنا إلا أن تدرأ عن نفسها العذاب وهو الحد بالرجم - وذلك أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا
٩ - (وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
}والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين{ فقد خصه هو باللعن، وخصها هي بالغضب؛ لأن نكرها كان أشد، بسبب ما تحمله في بطنها من طريق السفاح فتدخل على زوجها من ليس من مائه ثم ينسب إليه افتراء وبهتانا، ويضطلع الزوج بالإنفاق عليه من غير حق ثم يرث أحدهما الآخر بالباطل - ويضاف إلى ذلك ما يستكن في طبيعة الأنثى من أنفة تمكنها من رفض الزنا، والاستعلاء على إغواء الزناة وتحرشهم.
وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان البتة ولا يتوارثان ولا يحل له أن يراجعها أبدا - وهو قول المالكية - وقال به الليث وزفر والأوزاعي - وعند الحنفية: لا تقع الفرقة بينهما بعد فراغهما من اللعان إلا بتفريق الحاكم بينهما - وعند الشافعية: إذا أكمل الزوج شهاداته الأربع وتم التعانه، فقد زال الفراش بينها وبينه، سواء وقع منها الالتعان أو لم يقع - فإنما التعانها لدرء الحد عنها فقط.
على أن المتلاعنين لا يتناكحان أبدا - فإن أكذب الزوج نفسه، فقد وجب في حقه الحد ولحق به الولد ولم ترجع إليه زوجته أبدا - وهو قول الجمهور.
وإذا قلنا بوقوع الفرقة بسبب اللعان وهو قول الجمهور، فقد اختلفوا في صفة هذه الفرقة، فقد قيل: إنها فسخ، وهو قول المالكية والشافعية وذلك لتأبيد التحريم باللعان، فأشبه ذات المحرم - وقيل: إنها طلاق بائن - وهو قول الحنفية قياسا على فرقة العنين ١٩.
١٠ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)
قوله: }ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم{ لم يذكر جواب لولا، إيجازا واختصارا لدلالة الكلام عليه - وتقديره: لولا فضل الله عليكم ورحمته لعاجلكم بالعقوبة أو يفضحكم بما ترتكبون من الفاحشة ٢٠.
والمعنى: لولا فضل الله ورحمته بعباده لنالهم من رمي زوجاتهم عقاب شديد، وحرج بالغ لكن الله شرع لهم اللعان فرجا ومخرجا ودفعا للحرج (وأن الله تواب حكيم) الله شديد التوب، فهو يقبل التوبة عن عباده التائبين إليه، الراجعين عن معاصيهم - وهو سبحانه حكيم فيما شرعه لهم من اللعان.
١١ - (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)
قوله تعالى: }إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١){.
هذه الآية وما بعدها من الآيات التسع نزلت كلها في شأن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) وذلك لما رماها الأفاكون الكذابون بالفرية والبهتان - رماها المنافقون الماكرون الذين يتدسسون كعادتهم، خلف كل أمة من كل زمان - إنهم يستخفون من أنظار الناس ليجيدوا في الظلام صنعة الخيانة والغدر والكيد للمسلمين ودينهم.
ذلك هو ديدن المنافقين الأنذال وهم يتلصصون مثل خفافيش الظلام ليجدوا من بين المسلمين فرجة ينفذون منها ليثيروا في أوساط المسلمين القلاقل والظنون والخلخلة والأوهام والفوضى، وهم خلف الصفوف راقدون مستخفون يتسمعون- نتيجة لكيدهم وعذرهم- ما سوف يحيق بالمسلمين من الأرزاء والبلايا.
وذلكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، نبراس البشرية في الهدى والتقى والصلاح، وحامل لواء الهداية والفضيلة والنور للعالمين،

وشفيع الخلائق في يوم الزحام، يوم الفزع الأكبر- لم ينج (ص) من قالة الكذب والباطل، يندلق من أفواه المنافقين الرعاديد وهم يفترون على زوجته الطاهرة المصون - الزوجة الكريمة المبرأة الفضلى، إحدى خير نساء العالمين، بكمال دينها وتقواها، ورجاحة عقلها المميز الكبير، وطهر محتدها الأصيل المفضال في كنف الأبوة الصديقة، والنبوة الميمونة.

لقد افترى الظالمون والمنافقون والأغرار على أم المؤمنين بفاحش القول مما يثير في المؤمنين المتقين بالغ الغيرة والغضب، وشديد الابتئاس والاشمئزاز كلما فطنوا القصة أو تلوها - وما يزيدهم مثل هذا الإفك والباطل إلا ثقة برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ويقينا بحقيقة الإسلام وصدق رسالته، وأنه الدين الحق الذي جيء به من عند الله ليكون رحمة للناس - ومن أجل ذلك كرهه المبطلون الأشرار من الكافرين والملحدين والمنافقين.

قوله: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) (عصبة) مرفوع على أنه خبر (إن) ٢١ والعصبة من الرجال نحو العشرة - وقيل: من العشرة إلى الأربعين - والعصابة بالكسر: الجماعة من الناس ٢٢ والإفك: معناه الكذب - والأفاك، الكذاب ٢٣ والمراد بالإفك هنا: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء - وهو القلب، أي الحديث المقلوب، فقد افترى الأفاكون على السيدة عائشة كذبا وقلبا للحقيقة - والمعروف من حال السيدة عائشة، هذه المرأة الزكية المصون، خلاف ما زعموه واصطنعوه من الباطل، فهي زوجة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وهو معصوم من كل سوء أو خطيئة أو دنس - والمراد بالعصبة، الجماعة من القاذفين المبطلين وكانوا من المنافقين وأتباعهم - وكان طليعة هؤلاء في النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول - فقد كان رأسا من رؤوس النفاق في زمن النبوة وقد ركب رأسه وتولى كبره وهو يعيث بين الناس تشويشا وتوهيما وإشاعة للفتنة والريبة.

قوله: (لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) الضمير في (تحسبوه) عائد على من ساءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر وعائشة وصفوان ابن المعطل (رضي الله عنهم) والمراد بكون ذلك خيرا لا شرا أنهم اكتسبوا بما أصابهم ثوابا عظيما وذكرا حميدا إلى يوم الدين، فقد أصابهم بلاء كبير ومحنة ظاهرة مما لمزهم به المنافقون من بهتان وفحش الكلام - فأنزل الله في شأنهم هذه القصة وفيها عدة آيات، كل واحدة منها مستقلة بما فيه تعظيم لشأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتكريم له ولزوجه أم المؤمنين رضوان الله عليها وتنزيه لها مما رماها به المنافقون وأتباعهم من الدنس - إلى غير ذلك من تهويل لمن تكلم في هذه القصة أو سمع بها فلم يألم ولم يغضب ولم تثره فيه ثائرة الحماسة والغيرة على أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وزوجته الفاضلة الطهور - ثم صفوان بن المعطل الصحابي التقي الجليل الذي نالته ألسنة المتقولين بالسوء - وقد كان صفوان صاحب ساقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزواته لشجاعته - وكان من خيار الصحابة (رضي الله عنه) وقد قتل شهيدا في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر - وخلاصة القصة في أمر صفوان أنه لما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعائشة معه في غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، وقفل ودنا من المدينة قافلا، آذن ليلة بالرحيل فقامت عائشة حين أذنوا بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فإذا عقد من خرز قد انقطع فرجعت تلتمسه فحبسها ابتغاؤه، فوجدته ثم انصرفت فلم تجد أحدا - فلما لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاء أن تُفتقد فيرجع إليه فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون - وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة - فنزل عن ناقته وتنّحى عنها حتى ركبت عائشة وأخذ يقودها حتى بلغ الجيش في نحر الظهيرة - فوقع أهل الإفك فيما افتروه من باطل وبهتان - وكان أشدهم في ذلك وأنكاهم عبد الله بن أبي ابن سلول، كبير المنافقين في المدينة - فهو الذي رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال فريته الظالمة: والله ما نجت منه ولا نجا منها - وكان من قالة السوء في قصة عائشة حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

فيا ويح هؤلاء أنى لهم أن يتقوّلوا على أقدس بيت في العالمين بالسوء من فُحْش القول الأثيم، وقد علموا رسولهم الأكرم عصمته وصونه في كرامته المثلى وشرفه المبجل الأجل - وليت شعري هل أظلت السماء كريما رفيعا بالغا في طهر السيرة وشرف البيت والحمى مثل رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم -.

قوله: (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) لكل واحد من هؤلاء المفترين على عائشة من الجزاء بقدر ما خاض فيه أو اجترم.
قوله: (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) (كبره) بكسر الكاف، ومعناه معظم الإثم والإفك - والمراد بذلك موضع خلاف - فقد قيل: إنه حسان بن ثابت ولعل العذاب العظيم الذي توعده الله به ذهاب بصره - وقيل: المراد عبد الله بن أبي سلول، فهو الذي ابتدأ الإفك، وكان يجمع القائلين بهذه الفرية في بيته ويحدثهم بمقالة الإفك - فقد أوعده الله جزاء إفكه عذابا عظيما وهي النار.
وقد اختلفوا هل حد النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحاب الإفك؟ ثمة قولان في ذلك - أحدهما: أنه لم يحدّ أحدا من أصحاب الإفك - وثانيهما: أنه حد أهل الإفك عبد الله بن أبي ومسطح حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش - والمشهور أن الذي حُدّ، حسان ومسطح وحمنة - أما عبد الله فلم يحد ليلقى جزاءه في النار في مقابلة ما اجترم من الإفك - أما الذين حدهم فيكما يكون حدهم كفارة لهم عما اقترفوه من الإفك ٢٤.
١٢ - (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)
قوله تعالى: {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين (١٢) لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون (١٣)} ذلك تأديب وعتاب من الله للمؤمنين حين أفاض الناس في قصة الإفك بما لا ينبغي أن يصدر عنهم وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأيقنوا بعصمة نبيهم (ص) وما يقتضيه ذلك من طهر بيته المصون - ما كان ينبغي لهم- وهم المؤمنون المصدقون- أن يستمعوا مجرد استماع لمثل هذا الافتراء الظالم دون أن يفنّدوه ويدحضوه دحضا ويستنكروه أيما استنكار - فقال سبحانه: (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) أي هلا، حين سمعتم مقالة الإفك وفداحة الكذب والافتراء على أم المؤمنين – أن تقيسوا ذلك على أنفسكم، فإن كان ذلك لا يليق بكم ولا يصدر عنكم ولا يُتصور حصوله منكم فلا جرم أن يكون حصوله عن الحرم المصون أشد بعدا - وقد ذكر في ذلك أن أبا أيوب الأنصاري دخل يوما على امرأته فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟! فقال: نعم! وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟! قالت: لا والله: قال: فعائشة والله أفضل منكِ - قالت أم أيوب: نعم.
ذلك الذي ينبغي أن يتجلى في خلق المسلمين وسلوكهم ليكونوا أبعد الناس عن طيش التفكير وثرثرة اللسان في خفة ورعونة - المسلمون الحقيقيون أجد أن لا تستخفهم فئة مندسّة من المارقين والمنافقين الماكرين فيرددوا مقالات فحشهم في حماقة وعجل - والأهم من ذلك كله أن يثق المسلم بشرف إخوانه وصدقهم وبراءتهم مما ينسب إليهم من بذاءات الكلام الخسيس - فما يسمع المسلم عن إخوانه كلمة الفحش أو السوء حتى يبادر في عجل لدفعها وتكذيبها والذبّ عن إخوانه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.
وكيف إذا كان المفترى عليه حمى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبيته المشرّف الميمون، خير بيت حملته الأرض أو سمعت به الأمم والأجيال؟! إنه لجدير بكل مسلم أن يُجهش في الغيرة والغضب إذا ما اجترأ خبيث أو مارق أو حاقد أو سفيه مسف على الإساءة إلى شرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو سمعته - كالذي نقرأه أو نسمعه من مقولات الكذب والافتراء والسوء تخطها أقلام الكذابين الأفاكين من خصوم الإسلام في الغرب والشرق، حيث الاستعماريون والصليبيون والصهيونيون والوثنيون وأتباعهم من الناعقين والعملاء في كل مكان - فأولئك جميعا يتمالأون على الإسلام تارة، وعلى نبي الإسلام تارة أخرى، وذلك بإثارة الشبهات والأباطيل مما ينشر الظن والريبة والقلق في نفوس المسلمين فيرتابون في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ينثنون عن دينهم أو يزهدون فيه.
وما على المسلمين أمام هاتيك الحملات المشوبة على الإسلام ودينه إلا أن يحذروا ويتنبهوا ويبادروا في همة رفيعة وحماسة مشبوبة للتصدي والرد على هذه الأكاذيب المصطنعة لتفنيدها ودفعها وكشف زيفها وسخفها كيما يعلم الناس والغافلون أن الذين يفترون على الإسلام ونبيه ليسوا غير شراذم من مرضى النفوس والعقول - أولئك المضلون الموغلون في العماية وسقم التفكير.
قوله: (وقالوا هذا إفك مبين) أي قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا كذب وإثم وبهتان.

١٣ - (لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

قوله: (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) وهذا توبيخ وتقريع لأهل الإفك الذين افتروا كذبا على حمى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فهلا جاءوا ببينة وهي أربعة شهداء على ما زعموه وافتروه.

قوله: (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أي فحين لم يقيموا بينة على ما زعموه فأولئك في حكم الله هم الكاذبون - وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة على ما يدعيه وهو في علم الله صادق في قذفه لكنه في حكم الشرع المبني على الظاهر كاذب ٢٥.

١٤ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: }ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم (١٤) إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١٥)} لولا، أداة امتناع لوجود - أي لولا ما امتنّ الله به عليكم من الفضل والرحمة، إذ حفظكم من العقوبة في الدنيا ومن العذاب في الآخرة لمسكم فيما خضتم فيه من قول الإفك عن أم المؤمنين (عذاب عظيم) أي عذاب الحد بالجلد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، لكن الله يستر على عباده المؤمنين عيوبهم وعثراتهم وما يقعون فيه - وهذا إنما ينطبق على المؤمنين الذين سيقوا لخاضوا مع الخائضين، كمسطح، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش وغيرهم ممن تعجّل من المؤمنين في الحديث المكذوب المفترى على عائشة (رضي الله عنها) - أما المنافقون فلا ينالهم من الله فضل أو رحمة وهم ليسوا ممن يغفر الله لهم، لأنهم من أهل النفاق لا الإيمان، فهم لا متسع للإيمان في قلوبهم، بل إنهم فريق من البشر المخادع، يكن في قلبه الكفر ويظهر للناس أنه من المسلمين، كأمثال عبد الله بن أبي وأتباعه ونظرائه.

١٥ - (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

قوله: (إذ تلقونه بألسنتكم) بتشديد القاف، أي تأخذون الإفك الذي زعمته العصبة المؤتفكة فيرويه بعضكم عن بعض، يقول الواحد: سمعت هذا الكلام عن فلان.

وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ (تلقونه) بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف من الولق والألق وهو الكذب.

قوله: (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أي تقولون ما لا تعلمون - فأنتم تتحدثون بالإفك بألسنتكم دون أن تعلموا حقيقة ذلك ولا صحته (وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) أي تحسبون ما تقولونه من الإفك أمرا يسيرا وسهلا وهو في الحقيقة عظيم الخطيئة والمأخذ - على أن خطيئة الإفك والتحدث بالبهتان فيما بينكم، أمر عظيم الذنب - فكيف إن كان الافتراء والائتفاك على بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهله - لا جرم أن يكون ذلك أشد فداحة ونكرا، وأعظم خطيئة ووزرا - وفي الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض ".

١٦ - (وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: }ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (١٦) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين (١٧) ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (١٨) إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١٩)}.

ذلك تأديب آخر من الله لعباده المؤمنين، إذ يعاتبهم فيه مبينا لهم أنه ما كان ينبغي لكم أن تفيضوا فيما خضتم فيه من الإفك والبهتان - بل كان خليقا بكم أنه إذا ذكر مثل هذا الكلام القبيح المفحش أن لا تظنوا بالمؤمنين والمؤمنات إلا خيرا وبراءة وطهرا - فكيف إذا كان المفترى عليه أم المؤمنين؟! لقد كان ينبغي أن تبادروا في غيره وهمة ومضاضة لتقولوا (سبحانك هذا بهتان عظيم) أي تنزّه الله عن أن يقع مثل هذا من زوج رسوله الأمين (ص) - وما هذا إلا محض بهتان - والبهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه وذلك

أشد من الغيبة فهي، أن يقال في الإنسان ما فيه.
١٧ - (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا) ينهاكم الله لئلا تعودوا لمثل ما وقعتم فيه من الإفك والبهتان في أمر أم المؤمنين مما ليس لكم به علم (أبدا) أي فيما يستقبل من الزمان (إن كنتم مؤمنين) إن كنتم تخشون الله وتتعظون بعظاته، وتتدبرون آياته؛ فتأتمرون بأمره، وتنتهون عما نهى عنه.
١٨ - (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله: (ويبين الله لكم الآيات) أي يفصل الله لكم دلائله وحججه لتكون واضحة مستبينة (والله عليم حليم) الله يعلم أحوالكم وحقيقة أموركم وما يصدر عنكم من أفعال وأقوال مما قل منه أو كثر - وهو سبحانه محاسبكم ومجازيكم - وهو عز وعلا (حكيم) فيما شرعه لكم وقدره عليكم.

١٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قوله: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) (تشيع)، الشيوع والشيعوعة؛ أي تذيع وتظهر - أشاع الخبر أي أذاعه ٢٦ - و (الفاحشة)، من الفحش وهو القول السيء - وكل شيء جاوز الحد فهو فاحش ٢٧ - ونزلت هذه الآية في قذف السيدة عائشة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - فوجب بذلك إجراؤها على ظاهرها في العموم؛ فهي بذلك تطول كل من كان موصوفا بهذه الصفة من القذف والإرجاف وإشاعة الظنون والريب بين الناس - وعلى هذا، فمعنى الآية: إن الذين يحبون أن تفشوا الفاحشة وهي الزنا أو مقالة السوء لتذيع وتنتشر بين المسلمين (لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) وذلك تهديد للقذفة الذين يثيرون الأراجيف ومقالات السوء والفحش بين الناس، بأن لهم العذاب في الدنيا بالحد، وفي الآخرة يصيرون إلى عذاب النار.

قوله: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) الله يعلم كذب الأفاكين الذين يفترون الباطل على المؤمنين والمؤمنات، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ما يخفى عليكم مما هو مستور في بطن الغيب - وإنما عليكم أن تردوا علم ذلك كله إلى الله؛ فهو علام الغيوب.

وفي النهي عن تتبع عورات المسلمين والنبش عن أخبارهم وأستارهم، أخرج الإمام أحمد عن ثوبان عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ولا تطلبوا عوراتهم؛ فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته " ٢٨.
٢٠ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: }ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم (٢٠) يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم (٢١)}.

لولا أن الله قد منّ عليكم بعفوه وغفرانه، وأسبغ عليكم من هاطل فضله ورحمته ما يتجاوز به عما وقعتم فيه من سوء القول وفحش الكلام، لعاجلكم بعقاب من عنده فهلكتم.

٢١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) يحذّر الله عباده المؤمنين سلوك سبيل الشيطان أو السير في مسالكه وطرائقه - وهي كثيرة ومعوجة، قد بُنيت كلها على الشر والباطل والفتنة - ومن مسالك الشيطان وطرائقه: إشاعة الفاحشة والبهتان بين المسلمين ليضطربوا في حياتهم ويكونوا متجلجلين مبتئسين متخاصمين.

قوله: (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) الفحشاء، والفاحشة، ما أفرط قبحه - والمنكر، ما أنكره الشرع؛ أي

من تبع مسالك الشيطان ومشى في صراطه ودروبه وقع في الباطل والخسران وارتكب الفحشاء والمنكر؛ لان الشيطان لا يني ولا يفتر دون إغواء البشر وإضلالهم وسوْقهم إلى مهاوي الويل والثبور.

قوله: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) لولا ما امتنّ الله به على عباده من الفضل والرحمة، ما تطهر منهم أحد من ذنوبه وعيوبه ومعاصيه الكثيرة، ولما نجا من سوء المصير - لكن الله برحمته ورأفته بالخلق ينجي فيهم من يشاء ممن يستحق الهداية والنجاة - وهذا معنى قوله: (ولكن الله يزكي من يشاء).

قوله: (والله سميع عليم) الله يسمع ما تقولونه بأفواهكم من خير أو شر فاحذروا التلبس بالبهتان وقول الفاحشة، وهو سبحانه يعلم كل أموركم وأحوالكم - وما يصدر عنكم من أقوال وأفعال لا يخفى على الله منها شيء.

٢٢ - (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: }ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (٢٢){ بينا سابقا أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة (رضي الله عنه) ومسطح بن أثاثة وذلك أنه كان ابن بنت خالته - وكان من المهاجرين البدريين المساكين - وهو مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف - وكان أبو بكر (رضي الله عنه) ينفق عليه لمسكنته وقرابته - فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا - فجاء مسطح فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول - فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم، والأول أصح وهو المشهور - على أن الجدير ذكره أن الآية تتناول الأمة كلها إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة، فيحلف ألا ينفع مؤمنا أبد الدهر؛ لكونه آذاه بشيء من الإذاية أو الإساءة - وقد روي في الصحيح أنه لما نزل قوله جل وعلا: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) إلى آخر العشر آيات قال أبو بكر- وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره-: والله لا أنفق عليه شيئا أبد بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وعلا (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة) إلى قوله: (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله إني لأحب أن يغفر الله لي - فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه - وقال لا أنزعها منه أبدا - وعلى هذا، من حلف على شيء لا يفعله فرأى أن فعله أولى من تركه أتاه وكفّر عن يمينه - أو كفر عن يمينه وأتاه - وقد مضى تفصيل ذلك في الأيمان.

قوله: (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة) لا يأتل؛ أي لا يحلف - يقال: ألى يؤلي؛ أي حلف يحلف - والإيلاء معناه الحلف - والأليّة بمعنى اليمين، وجمعها ألايا ٢٩ والمعنى: لا يحلف أصحاب التفصل والصدقة والإحسان (والسعة) أي الجدة والخير منكم، أن لا يصلوا قراباتهم من الفقراء والمهاجرين، وأن لا يعطوهم من مالهم - وقيل: يأتل بمعنى يقصر - والقول الأول، الصحيح وهو المشهور بدليل سبب نزول الآية - ومقتضى هذا: أن لا يحلفوا على أن الصحيح وهو المشهور بدليل سبب نزول الآية - ومقتضى هذا: أن لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المؤمنين الفقراء المستحقين للإحسان والعون بالرغم من إساءتهم لهم.

قوله: (وليعفوا وليصفحوا) أي ليعفوا عن مساءاتهم التي اجترحوها بحقهم وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانهم مما كانوا يؤتونهم قبل ذلك - بل ينبغي أن يعودوا إليهم بالإحسان والإفضال.

قوله: (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) ذلك تحضيض رباني كريم فيه من بالغ الترغيب في العفو والإحسان للمؤمنين الضعفاء ما فيه.

والمعنى: مثلما تحبون أن يغفر الله لكم الذنوب والآثام فاعفوا أنتم واصفحوا عن مساءات إخوانكم المؤمنين الضعفاء - فكما تحبون العفو والمغفرة من الله، اعفوا واصفحوا عن المسيئين - وعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا - ثم رجع إلى مسطح

ما كان يصله من النفقة وقال: والله لا أنزعها منه أبدا - وذلك في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدا - فذلكم هو الصديق، موصوف باسمه الصدّيق - وهو ما يدل على عظيم فضله وحسن سريرته وبالغ تقاة وإخلاصه لله رب العالمين - عليه وعلى ابنته أم المؤمنين رحمة من الله وضوان ٣٠.

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢٣) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (٢٥)}.

والمراد بالمحصنات ههنا، العفيفات - وقد وقع الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال مثل حكم المحصنات من النساء في حد القذف - فيستوي في الحكم قذف المؤمن والمؤمنة.

وفي الآية وعيد من الله للقذفة الذين يرمون المؤمنات العفيفات (الغافلات) أي غافلات عن الفواحش وعما قذفن به، اللواتي لا يخطر ببالهن فعل الفاحشة البتة - وذلك لعفتهن وطهارة قلوبهن.

قوله: (لعنوا في الدنيا والآخرة) أي سيموا من الله اللعن وهو الإبعاد من رحمته، وضربوا الحد، وهجرهم المؤمنون وانتفت فيهم صفة العدالة، فضلا عن تعذيبهم العذاب العظيم في الآخرة إن لم يتوبوا - فإن تابوا إلى الله واستغفروه وأنابوا إليه فإن الله قابل التوْب، رحيم بالمؤمنين.

أما المراد بهذه الآية فهو موضع خلاف - فقد قيل: رماة عائشة (رضي الله عنها) خاصة - وهو قول سعيد بن جبير - وقد أجمع العلماء على أن من رمى عائشة بالسوء من القول بعد الذي نزل بشأنها من القرآن فقد كفر؛ لأنه معاند لصريح النص من الكتاب الحكيم - وقال ابن عباس: المراد رماة عائشة وسائر زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - دون غيرهن من المؤمنين والمؤمنات.

وعلى هذا، من قذف واحدة من زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو من أهل هذه الآية؛ إذ تمسه اللعنة ويحيق به العذاب العظيم في الآخرة فوق ضربه الحد في الدنيا - وهو بذلك لا توبة له - أما من قذف غيرهن فقد جعل الله له التوبة.

وقيل: هذه من قذف واحدة من زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو من أهل هذه الآية؛ إذ تمسه اللعنة ويحيق به العذاب العظيم في الآخرة فوق ضربه الحد في الدنيا - وهو بذلك لا توبة له - أما من قذف غيرهن فقد جعل الله له التوبة.

وقيل: هذه تفيد العموم لتشمل كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين - وهو الراجح، لما تقرر في علم الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومما يعضد القول بالعموم ما أخرجه الصحيحان من حديث سليمان بن بلال أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " اجتنبوا السبع الموبقات " قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: " الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ".

٢٤ - (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} هذه الجملة مبينة لوقت حلول العذاب بالقذفة يوم القيامة - فالمعنى: ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم - وذلك يوم القيامة حين يجحد القذفة الآثمون ما اكتسبوه في الدنيا من الذنوب فتشهد عليهم جوارحهم وهي ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم؛ إذ ينطقها الله فتتحدث بما كانوا يجترمونه في حياتهم الدنيوية من المنكرات والمعاصي.

٢٥ - (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)

قوله: (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) دينهم أي جزاءهم - يعني يوفيهم الله يوم القيامة حسابهم وجزاءهم الحق الذي لا شك فيه ولا جور.

قوله: (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) يعلم المجرمون يوم القيامة حين يرون العذاب أن الله هو الحق؛ إذ تبين لهم ما كان الله يتوعدهم به في الدنيا من العذاب في الآخرة - فها هو العذاب الموعود قد رأوه وهم ينظرون ٣١.

٢٦ - (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
قوله تعالى: {الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم (٢٦)} اختلف المفسرون في المراد بالطيبين والطيبات والخبيثين والخبيثات - فقد قيل: يعني الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء - والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء - أي كل مختص بما هو له - فالخبيثات من النساء مختصات بالخبيثين من الرجال وهكذا - أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا وهي طيبة، فهو عليه الصلاة والسلام أطيب الطيبين جميعا ولو كانت خبيثة ما صلحت له.
وقيل: بل المراد، الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال - والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول - والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول - وقد روي ذلك عن ابن عباس - وقال به أكثر المفسرين - ووجه ذلك: أن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس - والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس - فما نسبه المنافقون إلى عائشة من فاحش القول هم أولى به.
وهي أولى بالبراءة والنزاهة والطهر - ويعضد هذا المعنى قوله عز من قائل: (أولئك مبرءون مما يقولون) أي عائشة وصفوان بن المعطل الذي رميت به - وعلى هذا القول كان الجمع بأولئك والمراد ذانك - كقوله تعالى: (كان له إخوة) والمراد أخوان - و (مبرءون)، أي منزهون مما رموا به من الفاحشة ٣٢.
٢٧ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)
قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (٢٧) فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم (٢٨) ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (٢٩)}.
جاء في سبب نزول الآية ما رواه الطبري وغيره عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل علي - وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت هذه الآية - وقال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه): يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) ٣٣.
ذلك بيان وجيز عن أدب السلوك الذي يتجلى في خلق المسلمين وهم يدخل بعضهم بيوت بعض - فما ينبغي لأحد أن يدخل بيتا غير بيته حتى يستأنس أي يستأذن - يقال: استأنس، أي ذهب توحشه - واستأنس، استأذن وتبصّر ٣٤ - وعلى هذا ينبغي أن يستأذن الداخل بيت غيره ثلاث مرات، فإن أذن له، وإلا رجع أو انصرف، وقد ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب - فلما جاء بعد ذلك، قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " إن استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف " فقال عمر: لتأتيني على هذا بينة وإلا أوجعتك ضربا - فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر - فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا - فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك - فقال: ألهاني عنه الصفق ٣٥ بالأسواق.
ذلك من أدب الإسلام الذي يناط بالمسلمين أن يتعلموه ويعملوا بموجبه فيما بينهم - والمسلمون في ذلك يتعاملون فيما بينهم بخلق الإسلام الرفيع - الخلق المبني على حسن السريرة وطهارة القلب وبراءته من الزيغ والمرض والسوء - فليس من سجايا المسلمين الختل والمخادعة والتلصص بالبصر - فإنه لا يمكر أحد بأخيه إلا كان في عداد المراوغين والمنافقين والخائنين - والمسلمون الحقيقيون مبرأون من مثالب الخداع والتحيّل واستراق الأبصار - وعلى هذا فما يدخل المسلم بيت غيره إلا عقب استئذان صريح وواضح لكي يتهيأ صاحب البيت فيصلح شأن نفسه لاستقبال المستأذن فلا يقع بصره على المحارم والعورات أو على ما لا ينبغي النظر إليه - وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " من اطّلع في بيت قوم من غير إذنهم حل لهم أن يفقئوا عينه " وقد اختلفوا في

تأويل هذا الخبر - فقال بعض العلماء: ليس هذا على ظاهره، فإن فقأ عينه لزمه الضمان، وهذا الخبر منسوخ - وقد قيل: خرج هذا الخبر على وجه الوعيد لا على وجه الحتم - والخبر إذا كان مخالفا للكتاب الحكيم لا يُعمل به - فما ينبغي العمل بظاهر هذا الخبر بل يجب تأويله على وجه لا يخالف كتاب الله، ونظير ذلك ما جاء في الخبر أن عباس بن مرداس لما مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لبلال: " قم فاقطع لسانه " وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئا، ولم يرد به القطع على الحقيقة.

وقيل: المراد بالفقء ههنا على الحقيقة وليس المجاز - وعلى هذا لا ضمان ولا قصاص على الذي يفقأ من يطلع على عورة البيت ولم يستأذن - ويعضد هذا القول ما رواه الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلا اطلع في جُحْر في باب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مدْرىً ٣٦ يرجّل به رأسه - فقال له رسول لله (ص): " لو أعلمُ أنك تنظر لطعنت به في عينك، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر " وكذلك روي عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ٣٧ ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح ".

قوله: (وتسلموا على أهلها) والتسليم أن يقول: السلام عليكم - أأدخل؟ ثلاث مرات - فإن أذن له، وإلا رجع - وذلك للخبر: " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ".

وإنما خُص الاستئذان بثلاث، لأن الغالب من الكلام إذا كُرر ثلاثا سُمع وفُهم - فإذا لم يأذن له صاحب البيت بعد ثلاث تبين أنه لا يريد الإذن له، لعذرٍ عنده لا يعلمه المستأذن - فينبغي له أن ينصرف.

ومن صور الاستئذان: الدق على الباب على أن يكون ذلك خفيفا مسموعا، في غير عنف ولا إزعاج - ومن صوره في عصرنا الراهن الضغط على جرس موصول بالباب، موصل للصوت داخل البيت.

أما المرء يأتي بيته وفيه أهله من زوجة ومحارم كالأم والبنت والأخت ونحو هؤلاء، فلا يجب أن يستأذن عليهم - لكنه إذا دخل فإنه يسلم على أهل بيته - وإن دخل بيته وليس فيه أحد قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - وقيل: إن الملائكة ترد عليه - وقيل: لا داعي للتسليم، إذ لم يكن في البيت أحد.

قوله: (ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) الإشارة عائدة إلى الأمر بالاستئناس والتسليم، فإن ذلك خير لكم من الدخول بغتة.

قوله: (لعلكم تذكرون) أي لكي تتذكروا هذا الأمر من الله في أدب السلوك والاستئذان فتتمسكوا به وتطيعوه.

٢٨ - (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

قوله: (فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) إذا لم يكن في البيوت أحد يأذن لكم بالدخول فلا تدخلوها حتى يأتي من أهلها من يأذن لكم (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أي إن قال لكم أهل البيت ارجعوا فارجعوا، ولا ينبغي لكم بعد ذلك أن تلحوا عليهم في الاستئذان - بل إن رجوعكم خير من انتظاركم أو معاودتكم الاستئذان مرة أخرى.

قوله: (هو أزكى لكم) أي أطهر لنفوسكم من التّشاح على الدخول، لما في ذلك من استعلاء على الدناءة والخسة، وترفع عن مواطن الريبة.

قوله: (والله بما تعملون عليم) الله أعلم بما تخفيه قلوبكم من طوايا ومقاصد فاحذروا الاطلاع على سوءات الناس وتتبع عوراتهم واستراق البصر لما يجري داخل بيوتهم - وذلك توعد من الله للذين يتجسسون على الناس في بيوتهم فيدخلون عليهم في غفلة لينالوا منهم ما لا يحل لهم.

٢٩ - (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

قوله: (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم) أي لا إثم عليكم ولا حرج في دخول بيوت لا ساكن فيها - واختلفوا في المراد بهذه البيوت - فقد قيل: المراد بذلك الفنادق في طرق السابلة - وقيل: حوانيت البياعين - وقيل: الحمامات - وقيل: دور العلم - وقيل: الأسواق يأتيها الناس من كل مكان للشراء والاتجار - وقيل: بيوت الخلاء يقضي فيها الحاقن حاجته - والصحيح

دخول الجميع في مفهوم هذه الآية فتحمل على الكل، فهي كلها مأذون بدخولها من جهة العرف - ولا حاجة للاستئذان بدخولها، فهي مرافق عامة للناس مهيأة لدخولها من غير إذن.

قوله: (فيها متاع لكم) المتاع في اللغة بمعنى السلعة - وهو أيضا المنفعة وما تمتعت به - وقد متع به أي انتفع ٣٨ والمراد به هنا كل وجوه الانتفاع.

قوله: (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) ذلك وعيد من الله للذين يدخلون الأماكن الخالية والمواضع المريبة من أهل الريبة والسوء - فإن الله عليم بحالهم سواء فيهم الظاهر والباطن - فهو سبحانه مجازيهم عما كسبته أيديهم من المحظورات والفواحش ٣٩.

٣٠ - (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

قوله تعالى: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنين لعلكم تفلحون (٣١)}.

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بأن يكفوا أبصارهم عما حُرم النظر إليه فلا ينظروا إلا إلى ما أبيح النظر إليه.

ومن الحقائق البديهية أن البصر لهو أعظم سبيل يفضي إلى تحريك النفس من الداخل - فما تفتأ النفس ساكنة راقدة هادئة غير مفتونة حتى تؤزها فتنة الجسد المنظور - وطريق ذلك وسببه البصر - فإنه ينقل بوساطة الأعصاب الموصولة بالداخل، حقيقة المنظر المؤثر لتفتتن به النفس وتميد - فلا جرم أن يكون الكف من البصر عن النظر إلى المحرمات سببا عظيما في انتفاء الفتنة أو التخفيف من شدتها وغلوائها.

ومن هنا يأتي تحريم النظر إلى النساء الأجنبيات لمجرد التلذذ والشهوة - وفي ذلك جاء في الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إياكم والجلوس على الطرقات " قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه " قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: " غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " - فقد أمر بغض البصر من غير لزوم ولا حاجة تدعو للنظر إلا التلذذ والتشهي - فإن مثل هذا النظر مدعاة لتحريك الشهوة والافتتان من الداخل مع ما يصحب ذلك من تلهف القلب وشدة انشغاله، ومن اضطراب الأعصاب وبالغ احترارها، وفي هذه الغمرة من الفتنة تغيب عن النفس نعمة الراحة والسكون فتظل مفتتنة مشبوبة، فضلا عما يفضي إليه ذلك من الرغبة الملحاحة في قضاء الوطر الأخير وهو الزنا.

وفي الصحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كتب على بن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى - والنفس تمنى وتشتهي - والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ".

ولقد كان كثير من علماء السلف ينهون عن إدامة النظر إلى الأمرد لاحتمال الفتنة والغواية - فما ينبغي للمؤمن أن يديم النظر لوجه الأمرد دون حاجة، دفعا للشيطان أن ينفخ في عروق الناظر فيحرك فيه كوامن الغريزة المستنيمة.

على أنه من خصائص الإسلام المميزة حرصه على الوقاية قبل العلاج، فإن الوقاية لهي الأهم، لأنها تحول دون التلبس بالفواحش والمنكرات - وعلى هذا فإن الإسلام، إذ يهيمن بعقيدته وتشريعه على أمة، يبادر في تبديد بواعث الفتنة والغواية والفساد من بين الناس - فما من سبب يفضي إلى المعصية أو الفاحشة إلا منعه الإسلام وحرمه تحريما قبل أن تقع المعصية أو الفاحشة نفسها - وفاحشة الزنا لا تقع بغتة إلا عقب أسباب ومقدمات وبواعث تؤول إلى الزنا نفسه - فكان من مسلمات المنطق حظر هذه الأسباب والمقدمات كيلا يقع الزنا نفسه - على أن الأسباب والمؤديات إلى الزنا كثيرة: أولها وأهونها وأيسرها النظر، فهو السبب البسيط الأول الذي يطرق

المشاعر والأعصاب لتأخذ الشهوة بعد ذلك في التحرك والاضطراب والتملل - ومن هنا جاء الأمر بغض البصر عن المحارم.
على أن النظر إلى النساء، إن كان لغرض لا فتنة فيه فهو جائز ووجوه ذلك كثير، منها: إذا أراد النكاح فله أن ينظر إلى وجه المرأة وكفيها - وذلك للخبر: " إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها إذا كان إنما ينظر إليها للخطبة " وقال المغيرة بن شعبة: خطبت امرأة فقال عليه السلام: " نظرت إليها؟ " فقلت: لا - قال " فانظر فإنها أحرى أن يؤدم بينكما ".
ومنها: النظر إليها عند تحمل الشهادة - ولا ينظر حينئذ إلى غير الوجه لحصول المعرفة به.
ومنها: نظر الطبيب الأمين إليها من أجل المعالجة كما يجوز للختان أن ينظر إلى فرج المختون.
ومنها: لو وقعت المرأة في غرق أو حرق، فله أن ينظر إلى بدنها كي يخلصها.
قوله: (من أبصارهم) من، لتبيين الجنس - والمقصود بها التبعيض وهو قول أكثر أهل العلم - وقيل: زائدة - وهو قول ضعيف ٤٠.
قوله: (ويحفظوا فروجهم) وذلك بصونها من التهتك وسترها لئلا يراها من لا يحل له النظر إليها - والمراد حفظ الفروج عن سائر ما حرم الله، من الزنا والمس والنظر - أما الوطء فهو أغلظ في النهي والتحريم.
قوله: (ذلك أزكى لهم) الإشارة عائدة إلى غض البصر وحفظ الفروج، فإن ذلك أطهر للقلوب، وأبعد من التدنس بالآثام أو الوقوع في الريبة.
قوله: (إن الله خبير بما يصنعون) ذلك تهديد من الله ووعيد للذين يقعون في المحظورات، المخالفين عن أمر الله، والمتلبسين فيما نهى عنه من النظر إلى الأجنبيات أو الاعتداء على أعراض المسلمين بمختلف الوجوه المحرمة - فإن الله عليم بذلك كله، خبير بما يصنعون الآثمون والعصاة.
٣١ - (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
قوله: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) هذا تخصيص من الله للمؤمنات إشعارا بأهمية الإناث في دفع الفتنة أن تقع - فإن النساء إذا اجتهدن في صد أسباب الفتنة والفاحشة، وأبين للرجال أن يسترخوا أمامهن أو يصبوا إليهن أو يجنحوا نحوهن بغض أبصارهن عنهم وعدم خضوعهن بالقول كيلا يطمع الذي في قلبه مرض، وارتدين فوق ذلك جلباب الستر والاحتشام، فلا جرم حينئذ أن يُسهمن أعظم إسهام في صد الفتنة وإيصاد منافذ الفاحشة ودفع بواعث الزنا.
وعلى هذا وجب على المؤمنات أن يغضضن أبصارهن عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن - وبذلك لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجال بشهوة أو بغير شهوة، كيلا يطمع فيها أولو الضعف والريبة - ويعضد ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وميمونة - قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " احتجبا منه " فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أوعمياوان أنتما؟! أو لستما تبصرانه؟! ".
وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرها إلى الرجل الأجنبي بغير شهوة وذلك لما ثبت في الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت.
والجمع بين الدليلين المتعارضين، القول بجواز النظر منهن للرجال من غير شهوة إذا أمنت الفتنة - فإذا لم يكن ثمة فتنة في نظرهن للرجال جاز ذلك - كاللواتي يحضرن مجالس العلم فينظرون إلى المعلم وهو يلقي عليهن دروسا في العلم، فهن مادمن كثيرات ولا يقال أمامهن إلا الجد كالعلم والنصح والتحذير والنهي عن الباطل والمنكر ونحو ذلك فقد أمنت الفتنة ولا جناح عليهن حينئذ في ذلك.

أما إن كانت الفتنة ترخي بظلها المريب حين النظر، كما لو كانت تنظر إليه في خلوة، فإن ذلك حرام، حتى وإن كانت تنظر إلى من يعلمها أو يرشدها إلى قواعد الأدب والسلوك.

قوله: (ويحفظن فروجهن) أي يحفظنها عما لا يحل من لمس أو نظر أو زنا أو غير ذلك من أسباب الفاحشة.

قوله: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) نهى عن إظهار الزينة للأجانب إلا ما ظهر منها - أما الزينة فهي قسمان: زينة خِلقية، وزينة مكتسبة - أما الخلقية، فالمراد بها وجه المرأة - فهو أصل الزينة وجمال الإنسان لما فيه من أسباب المنافع التي جيء بها في الوجه على أحسن هيئة وأحسن ترتيب وذلك كالسمع والبصر والشم والذوق.

وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة لتحسين خلقتها بالتصنع كالثياب والحلي والكحل والخضاب ونحو ذلك من وجوه الزينة للنساء.

قوله: (إلا ما ظهر منها) استثنى الله من التحريم ما ظهر منها.

والمراد بما ظهر منها موضع خلاف - فقد قيل: الثياب - يعني أنها يظهر منها ثيابها خاصة - وقيل: المراد به الكحل والخاتم والخلخال والقرط والقلادة - وقيل: المراد بما ظهر منها، والوجه والكفان.

وهو قول الجمهور - وهذا هو المشهور - ويعضد القول بذلك ما رواه أبو داود في سننه عن عائشة (رضي الله عنها) أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: " يا أسماء إن المرأة، إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا " وأشار إلى وجهه وكفيه.

قوله: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) الخمر، المقانع جمع مقنعة - وواحد الخمر، الخمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها - ومنه اختمرت المرأة أي أسدلت الغطاء على رأسها فغطته.

والجيوب، جمع جيب، وهو الطوق، ومعناه النحر والصدر - فقد كان نساء الجاهلية يضربن؛ أي يشددن خمرهن من خلف رؤوسهن فكانت تنكشف جيوبهن وهي نحورهن وقلائدهن - فأمر الله نساء المؤمنين أن يشددن مقانعهن على الجيوب ليغطين بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط بذلك من شعر وزينة كالحلي في الأذن والنحر - وقد روى البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله (وليضربن بخرمهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها.

ويسأل بعض الناس عن الحكمة في تشريع اللباس الساتر للنساء - اللباس الشرعي الفضفاض الذي يغطي جسد المرأة كله بدءا - بمفرق الشعر في الرأس حتى نهاية الأخمصين من القدمين كيلا يظهر من جسدها غير الوجه والكفين - وفي نفس الوقت لم يؤمر الرجال بستر أجسادهم جميعها إلا ما بين السرة والركبة - وقد يتصور بعض الظانين بالله ظن السوء أن تشريع اللباس للناس في صفته المشروعة يتضمن حرجا لهن أو تضييقا عليهن فضلا عما في ذلك من تمييز للرجال ومحاباة لهم.

فليس الأمر كما يتصوره هؤلاء الظانون الخاطئون - إنه ليس من تمييز للرجال ولا محاباة لهم على حساب النساء البتة - بل إنما التفضيل بين الناس جميعا، أساسه التقوى دون غيره من الاعتبارات والمعايير - وعلى هذا فإن أتقى الناس وأخشاهم لله وأسرعهم لطاعته لهو الأفضل في ميزان الله سواء كان المفضل من الذكور أو الإناث (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وإنما الحكمة التي تكمن في تشريع اللباس لهن ما يعلمه الله من حقيقة البشر وحقيقة فطرتهم وطبائعهم المختلفة (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الله يعلم ما بين الذكور والإناث من تفاوت في مدى الإثارة الجنسية ومدى الاستجابة للإغراء والفتنة - والله كذلك يعلم سرعة الهيجان في الغريزة لدى الرجال - فغريزتهم الحيوانية هذه لشد ما تشيط وتهيج وتشب إذا ما استنفرتها ظواهر الإغراء في مفاتن النساء - فإنه في الوقت الذي تنفر فيه المرأة وتشمئز أو تتقزز من رؤية الرجال العراة، فإن الرجل على عكس ذلك تماما؛ فإنه يتفجر فيه بركان الغريزة ويضطرب لرؤية النساء الكاسيات العاريات - وبذلك فإن الرجال ينفعلون ويتململون ويهيجون بقدر ما يجدونه من فتنة النساء وإغرائهن - ويتضح ذلك في الكشف عن أجسادهن ومواطن الزينة في أبدانهن بما تثور بسببه بواعث الغريزة عند الرجال - فبات من الضرورة حجب هذه المفاتن والمحاسن المغرية عن أنظار الرجال - فكان تشريع اللباس الساتر للنساء.

قوله: (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) الآية.

بعد أن نهى عن إظهار الزينة للرجال الأجانب استثنى من ذلك اثني عشر صنفا لا يحرم عليهم النظر إلى النساء وهم:
الصنف الأول: البعولة - لقوله تعالى: (إلا لبعولتهن) والبعولة جمع ومفرده البعل، وهو الزوج ٤١.
الصنف الثاني: الآباء - لقوله تعالى: (أو آبائهن) ويشمل ذلك الآباء وإن علوا، من جهة الذكران والإناث - كآباء الآباء وآباء الأمهات.
الصنف الثالث: آباء البعولة - لقوله تعالى: (أو آباء بعولتهن).
الصنف الرابع: الأبناء - لقوله تعالى: (أو أبنائهن) الابن والأب أحق الأقارب من جهة المحرمية بالاطلاع على الزينة الباطنة - وذلك من أجل البغضية القائمة بين المرأة وكل من أبيها وابنها.
الصنف الخامس: أبناء البعولة - لقوله تعالى: (أو أبناء بعولتهن) ويدخل في ذلك أولاد الأولاد وإن سفلوا من الذكران والإناث كبني البنين وبني البنات - وأبناء البعولة ينزلون منزلة الأبناء في المحرمية - فجاز لهم رؤية الزينة الباطنة - ويدخل في هؤلاء كذلك أولاد الأولاد، وإن سفلوا من الذكران والإناث.
الصنف السادس: الإخوة - لقوله تعالى: (أو إخوانهن) سواء كان الإخوة من الأب أو من الأم أو منهما معا.
الصنف السابع: أبناء الإخوة وإن سفلوا، من ذكران كانوا أو من إناث - لقوله تعالى: (أو بني إخوانهن).
الصنف الثامن: أبناء الأخوات، وإن سفلوا من ذكران كانوا أو إناث كبني بني الأخوات، وبني بنات الأخوات؛ لقوله تعالى: (أو بني أخواتهن) ويلحق بهؤلاء المحارم كل من العم والخال - فهم كسائر المحارم في جواز النظر وهو قول أكثر العلماء - أما الرضاع فحكمه كالنسب.
الصنف التاسع: النساء - لقوله تعالى: (أو نسائهن) يعني المسلمات فيخرج بذلك نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم؛ فإنه لا يحل لمسلمة أن تظهر شيئا من بدنها لامرأة مشركة - قال ابن عباس: لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية لئلا تصفها لزوجها.
وقيل: المراد جميع النساء، سواء فيهن المسلمات والكوافر.
الصنف العاشر: العبيد والإماء سواء فيهم المسلمون وغير المسلمين، لقوله تعالى: (أو ما ملكت أيمانهن) فهو يشمل الجميع.
الصنف الحادي عشر: التابعون الذين بغير إربة - وذلك لقوله تعالى: (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) (الإربة)، بالجر، على أنه صفة للتابعين - وبالنصب على أنه مستثنى أو حال ٤٢ و (الإربة)، بمعنى الحاجة ٤٣ وغير الإربة من الرجال؛ أي الرجال الضعفاء الذي يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم في النساء.
وفي المراد بهم عدة أقوال: منها: أنه الصغير الذي ليس له شهوة - ومنها: أنه العنّين الذي لا يرغب في النساء - ومنها: أنه الأبله المعتوه الذي لا يدري من أمر النساء شيئا.
ومنها: الهرم لعجز إربه أو حاجته للنساء - ومنها: أنه الأحمق الذي لا يشتهي النساء ولا يغار عليه الرجال - ومنها: أنه خادم القوم للمعاش.
الصنف الثاني عشر: الأطفال الصغار - لقوله تعالى: (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) الطفل اسم جنس - ويعني الجمع؛ أي الأطفال - وذلك لنعته بالذين - ويسمى الطفل بهذا الاسم ما لم يراهق الحلم ٤٤.
والمعنى: أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هي لصغرهم وقيل: الذين لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النساء لصغرهم، وعلى هذا فإن الصغير الذي لم يتنبه لصغره، على عورات النساء فلا عورة للنساء معه - أما إن تنبّه لصغره ولمراهقته لزم أن تستر عنه المرأة ما بين سرتها وركبتها - وفي ستر ما سوى ذلك قولان: أحدهما: عدم لزوم الستر لعدم جريان القلم عليه - وثانيهما: لزوم الستر؛ لأن المرأة قد تشتهيه وقد يشتهيها هو.
هؤلاء المذكورون يشتركون في جواز رؤية الزينة الباطنة من النساء - أما مدى ما تجوز رؤيته لهم من المرأة، فهم في ذلك ثلاثة أقسام كما قال الحسن البصري.
القسم الأول: الزوج وله حرمة ليست لغيره من الناس؛ إذ يحل له من امرأته كل شيء.
القسم الثاني: الابن والأب والأخ والجد وأبو الزوج وكل ذي محرم - والرضاع كالنسب، فهؤلاء يحل لهم أن ينظروا إلى الشعر والصدر

والساقين والذراع وأشباه ذلك - أي إن كانت المرأة ذات محرم للرجل بنسب أو رضاع أو صهرية فعورتها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل.
القسم الثالث: التابعون غير أولي الإربة من الرجال - وكذا مملوك المرأة، فإنه يحل للمرأة أن تقوم بين يدي هؤلاء في درع ٤٥ وخمار صفيق بغير ملحفة ٤٦ - ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعرا ولا بشرا - والستر في ذلك كله أفضل - ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدي الغريب حتى تلبس الجلباب.
أقسام العورات
العورات أربعة أقسام نبينها في التفصيل التالي:
القسم الأول: عورة الرجل مع الرجل، فإنه يجوز له أن ينظر إلى جميع بدن الرجل إلا عورته - وعورته ما بين السرة والركبة - والسرة والركبة ليستا بعورة - وعند أبي حنيفة- رحمه الله- الركبة عورة - وقال الإمام مالك: الفخذ ليست بعورة - والدليل على كونها عورة ما روي عن حذيفة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مر به في المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه الصلاة والسلام: " غط فخذك فإنها من العورة ".
وإن كان في نظره إلى وجهه فتنة كما لو كان أمرد، فلا يحل له أن ينظر إليه.
القسم الثاني: عورة المرأة مع المرأة وهذه كعورة الرجل مع الرجل، فإنه يحل لها أن تنظر إلى جميع بدنها باستثناء مابين السرة والركبة.
القسم الثالث: عورة المرأة مع الرجل - فالمرأة إما أن تكون أجنبية، أو ذات رحم محرم - فإن كانت أجنبية وهي حرة، فجميع بدنها عورة، ولا يجوز له النظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين، لأنها تحتاج إلى إبراز الوجه في التعامل كالبيع والشراء فتخرج كفها للأخذ والعطاء - والمراد بالكف ظهرها وبطنها حتى الكوعين أي الرسغين - على أن جواز النظر إلى وجهها وكفيها إنما يكون لحاجة وفي غير فتنة وهو ما بيناه سابقا - أما إن كان في النظر إلى وجهها وكفيها فتنة وكان ذلك لغير حاجة أو غرض فلا يجوز للرجل أن يتعمد النظر إلى وجه الأجنبية - حتى لو وقع بصره على وجهها فجأة فإن عليه أن يغض بصره.
القسم الرابع: عورة الرجل مع المرأة - فإن كان الرجل أجنبيا من المرأة فعورته معها ما بين السرة والركبة - وقيل: جميع بدنه، باستثناء الوجه والكفين كشأنها معه - وإن كان محرما لها فعورته معها ما بين السرة والركبة - وإن كان زوجها فلها أن تنظر إلى جميع بدنه غير أنه يكره النظر إلى الفرج كشأنه معها - وقيل: لا يكره - ويكره للرجل أن يجلس عاريا في بيت خال - وذلك للحديث: " إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله " وروي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل عن ذلك فقال: " الله أحق أن يستحيي منه " ٤٧.
قوله: (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن).
روي عن ابن عباس قوله: كانت المرأة الجاهلية تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال ويكون في رجليها خلاخل: فنهى الله عن ذلك، لأنه فتنة - نهى النساء أن يجعلن في أرجلهن من الحلي كالخلاخل ونحوها، ما إذا مشين تحركت الخلاخل فعلم الناس من حولهن ما يخفين من ذلك - وفي ذلك من الفتنة ما لا يخفى - وقد حذرت الشريعة من كل وجوه الفتنة التي يضل بها الرجال ويغوون تحت وطأة الإغراء والإغواء - ووجوه الفتنة في هذا الصدد كثيرة، كاستعطار النساء ليجد الرجال من ريحهن المرغوبة، وهن يمشين في الطريق ما تستشيط به غرائزهم ٤٨ - وفي ذلك روى الترمذي عن أبي موسى (رضي الله عنه) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا " يعني زانية.
قوله: (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أي أقبلوا على الله بالتوبة والإنابة والطاعة فيما أمركم به من غض البصر، وحفظ الفروج والاستئذان والتسليم على أهل البيوت في وضوح وصراحة، بعيدا عن الخيانة والتلصص واستراق البصر.
وكذلك اتركوا أعراف الجاهلية ورذائلهم لكي تنجو وتفوزوا برضوانه وجناته ٤٩.
٣٢ - (وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: }وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم (٣٢) وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم (٣٣) ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين (٣٤){.

يخاطب الله الأولياء - وقيل: الأزواج - والصحيح الأول - ويدل ذلك على أن المرأة لا تزوج نفسها بنفسها، أي من دون ولي - وهو قول أكثر العلماء، خلافا للإمام أبي حنيفة، إذ قال: إذا تزوجت الثيب أو البكر البالغ نفسها كفؤا بغير ولي، جاز لها ذلك - والمراد بالأيامى: الذين لا أزواج لهم سواء كانوا من الرجال أو النساء - ومفرده أيم.

قوله: (وأنكحوا) بصيغة الأمر، موضع خلاف بين العلماء في حكم النكاح من حيث وجوبه أو ندبه أو إباحته - فقد ذهبت المالكية إلى اختلاف حكمه باختلاف حال المرء نفسه من حيث خوفه الوقوع في العنت وهو الزنا - فإنه إذا لم يصبر وخشي الوقوع في العنت كان النكاح في حقه واجبا - وإذا لم يخش الوقوع في العنت فإن النكاح حينئذ يكون في حقه مباحا وهو قول الشافعية - وعند الحنفية والمالكية، مستحب.

وذهب طائفة من العلماء إلى وجوب الزواج على كل من قدر عليه سواء خشي العنت أو لم يخش - واحتجوا بظاهر الخبر مما روي في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء " والوجاء معناه رضّ عروق البيضتين حتى تنفضخ فيكون شبيها بالخصاء ٥٠.

وجاء في السنن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " تزوجوا الولود وتناسلوا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة ".

قوله: (والصالحين من عبادكم وإمائكم) المراد بالصلاح، الإيمان - والمعنى: أنكحوا العبيد والإماء الصالحين بعضهم من بعض.

قوله: (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ذلك ترغيب في التزويج، ووعد من الله بالغنى - أي لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل أو المرأة، فإنه من يبتغ الرضى من الله والاعتصام من المعاصي بالزواج يسّره الله عليه ورزقه من فضله، فقد أخرج ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ثلاثة كلهم حق على الله عونه: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريده الأداء، والناكح يريد التعفف ".

قوله: (والله واسع عليم) الله ذو سعة لا حدود لها، فلا تنفد نعمه - وهو عليم بما يصلح عليه الناس من غنى وفقر.

وما ينبغي للمسلمين أن يزهدوا في تزويج الفقير المؤمن إذا ما رغب في الزواج من ابنتهم - فإن المؤمنين الكرام أولي العقيدة والخلق والتقوى، خليق بهم أن يستقبلوه خير استقبال ثم يزوجوه دون تردد - أما أن يرغبوا عن إنكاح المؤمنين لفقرهم فتلك علامة الضلال والسقوط في براثن الجاهلية بأوضارها وحماقاتها واعتباراتها الفاسدة.

وكذلك المرأة المؤمنة الصالحة، يبادر المؤمنون بالتزويج منها ومن نظيرها ولا يصدنهم عنهن كونهن فقيرات - وإنما الصالحون والصالحات أحرى أن يزوجوا ويرغب المؤمنون في زواجهم وتزويجهم.

٣٣ - (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) هذا الخطاب من الله لمن يملك أمر نفسه وليس لمن زمامه بيد غيره - ويستعفف أي يطلب العفة - والله جل وعلا يأمر كل من تعذر عليه النكاح لعدم المال أن يتعفف عن الحرام وهو قوله: (لا يجدون نكاحا) أي لا يجدون طولا يقدرون به أن يتزوجوا (حتى يغنيهم الله من فضله) أي بالقدرة على النكاح - أما من تاقت نفسه

للزواج وهو يملك القدرة على ذلك فإنه يستحب له أن يتزوج إلا أن يخشى الوقوع في العنت وهو الزنا - فإن خشي ذلك صار الزواج في حقه واجبا - أما إذا لم يجد طولا، وهو القدرة المالية على الزواج فعليه حينئذ بالاستعفاف ويستعين على مصابرة نفسه بالصوم فهو له وجاء.

قوله: (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) الذين في موضع رفع مبتدأ - وخبره محذوف، وتقديره: فيما يتلى عليكم الذين يبتغون الكتاب ٥١ والذين ملكت أيمانكم يعني العبيد - فإن طلبوا منكم المكاتبة فإن المستحب أن تكاتبوهم - وقد نزلت الآية في غلام لحويطب بن عبد العزى واسمه صبح - طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى فأنزل الله الآية، فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأداها، وقتل بحنين في الحرب ٥٢.

والمقصود أن الله أمر المؤمنين كافة أن يكاتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك منه الكتابة وعلم منه سيده خيرا - والمكاتبة معناها في الشرع أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما (مفرقا) عليه فإذا أداه صار حرا.

واختلفوا في حكم الأمر بالمكاتبة - فقد قيل: الأمر للإرشاد والاستحباب لا للإيجاب والحتم - وقيل: للوجوب - فعلى السيد أن يكاتبه إن طلب منه المكاتبة.

قوله: (إن علمتم فيهم خيرا) اختلفوا في المراد بالخير - فقد قيل: المراد به الأمانة - وقيل: الصدق - وقيل: الحرفة - وقيل: القدرة على الكسب كيلا يصبحوا عالة يتكففون الناس.

ومثل هذا التشريع لمسألة الرق والرقيق، كان واحدا من جملة الأحكام التي قررها الإسلام لتحرير العبيد وإنهاء هذا النظام برمته، ومن أساسه.

ولقد قرر الإسلام كثيرا من الأحكام في المسألة ليصير الناس كلهم أحرارا - وذلك بمختلف الأسباب والأساليب الشرعية المعروفة في هذا الدين - منها: إيجاب العتق والتحرير على سبيل التكفير عن بعض الخطايا والمخالفات الشرعية - ومنها: التحريض على العتق والترغيب فيه بشدة طلبا للأجر من الله وابتغاء لرضوانه - ومنها: سدّ المؤديات والأسباب التي تفضي إلى الاسترقاق كبيع الأحرار رغبة في المال - وكذلك الدين فإن عجز المدين استرقه الدائن - لكن ذلك بات في الإسلام محظورا، ومستهجنا - فما يباع الأحرار ولا ينقلبون إلى عبيد البتة.

وكذا الدين فإنه لا مساغ للدائن أن يشتري بدينه حرية المدين، فيسترقّه استرقاقا بسبب عجزه عن أداء دينه - وإنما يلزمه إمهاله حتى يتيسر له الأداء - وهو قوله تعالى: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة).

فلا مجال بعد ذلك لمغرض متربص دساس أن يغمز بالإسلام على أنه لم يحرم الرق - وقد علم كل ذي علم أن الأديان والشرائع والفلسفات والأعراف كافة والتي سبقت الإسلام قد قررت نظام الرقيق واستبقته على حاله ليظل مستمرا مطردا - لكن الإسلام وحده من بين الأديان والعقائد والقوانين جميعا، قد شرع تحرير العبيد بأسلوبه المتكامل الحكيم.

وذلك من ثلاثة أبواب - وهي: باب الترغيب والتحضيض، وباب الإلزام والإيجاب - وباب الصد وإغلاق الأسباب والمنافذ.

قوله: (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) يأمر الله أصحاب العبيد أن يعينوهم في مال الكتابة ليتمكنوا من عتق أنفسهم - وفي حقيقة المخاطبين في هذه الآية خلاف - وثمة أقوال ثلاثة في ذلك:

القول الأول: إنهم السادة وعليهم أن يحطوا عن المكاتبين شيئا من مال الكتابة - وقد قيل: يحطون عنهم ربع الكتابة - وقيل: ثلثها - وقيل: عشرها - ويجبر السيد على هذا الإيتاء، ويحكم به الحاكم على الورثة إذا مات السيد - وهو قول الشافعي ودليل ذلك مطلق الأمر في قوله: (وآتوهم) وقيل: هذا الأمر على الندب وليس الوجوب وهو قول الإمام مالك.

القول الثاني: المخاطب في الآية سائر الناس فهم مكلفون بالتصدق على المكاتبين وأن يعينوهم في فكاك رقابهم.

القول الثالث: الخطاب للولاة فهم مكلفون بإعطاء المكاتبين نصيبهم من مال الصدقة - وهو المراد بقوله تعالى في آية الصدقات: (وفي الرقاب).

قوله: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني طلبا للمال يأخذه منها - ولما جاء الإسلام نهى المؤمنين عن ذلك فإنه فاحشة وقذر وفسق - فضلا عن موات الهمة وخواء المروءة

والضمير جريا وراء المال بأقذر الأساليب.
وذكر في سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن أبي ابن سلول، وهو رأس المنافقين، كان له إماء وكان يكرههن على البغاء، أي الزنا طلبا لخراجهن ورغبة في أولادهن وفي صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مُسيكة وأخرى يقال لها أميمة - فكان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله عز وجل (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء).
قوله: (إن أردن تحصنا) أي أن الفتاة إذا أرادت التحصن فحينئذ يمكن أن يكون السيد مكرها لها أو أن إكراهه لها متصور مادامت هي ممتنعة، وبذلك نهى الله عن هذا الإكراه - أما إذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يُطلب من السيد عدم إكراهها - أي إذا كانت راغبة في الزنا لم يتصور الإكراه.
قال ابن كثير في تأويل قوله: (إن أردن تحصنا): هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له - لأن الغالب من عرف الجاهليين إكراه فتياتهم على الزنا طلبا للمال - فلا يعتبر مفهوم المخالفة هنا - وبذلك لا يصح التعلق بشيء من دليل الخطاب أو مفهوم المخالفة ليقال بجواز الإكراه على البغاء إذا لم يردن التحصن ٥٣.
قوله: (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أي من يقهرهن على الزنا طلبا للكسب فإن الله يغفر لهن - وإنما إثمهن على من أكرههن، وألجأهن لفعل الفاحشة.
٣٤ - (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)
قوله: (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) المراد بذلك القرآن، وما فيه من الآيات الواضحات، بما فيهن من الأخبار والأحكام والمعاني البليغة المستفيضة.
قوله: (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) المراد بالمثل الخبر أو القصة من قصص الأولين كقصة يوسف وقصة عائشة - أو ما حل بالأولين من المثلات، أي العقوبات لإعراضهم عن دين الله.
قوله: (وموعظة للمتقين) أي جعل الله هذه الأخبار والقصص موعظة لمن خشي الله وخاف عقابه واجتنب نواهيه ٥٤.
٣٥ - (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
قوله تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٣٥)}.
النور في اللغة، بمعنى الضياء والإسفار ٥٥ قال الرازي: النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما.
وإنما استعمل الكلمة (نور) على سبيل المجاز - فيقال: كلام الله نور، ومنه الكتاب المنير - وبذلك يقال لله تعالى: نور، على سبيل المدح والثناء على جلاله العظيم؛ فهو موجد الأشياء، ومصدر النور لكل الأشياء - قال ابن عباس: نور السماوات والأرض، أي هادي السماوات والأرض - والله بنوره أضاءت السموات والأرض - وفي الحديث المروي في سيرة ابن إسحاق عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله ".
وفي الآية إخبار من الله عن نفسه بأنه نور - وذلك لعظيم جلاله، وكمال عدله وفضله وسمو أحكامه وتمام دينه، وما بثه في الحياة والأحياء والكائنات جميعا من خصال التكامل وروعة البنيان والانسجام والرحمة، من غير نشاز في ذلك ولا خلل ولا فوضى - فهو سبحانه بذلك كله نور السماوات والأرض.

قوله: (مثل نوره كمشكاة) نور الله هداه في قلب المؤمن - وهو كمشكاة - وهي الكوّة في الحائط لا منفذ لها - (فيها مصباح) أي سراج ثاقب - وكونه في المشكاة أكثر إنارة وأجمع للضوء.

وقيل: المشكاة موضع الفتيلة من القنديل - وهذا أظهر؛ لقوله بعد ذلك (فيها مصباح) وهو النور الذي في الذبالة.

قوله: (المصباح في زجاجة) أي في قنديل من زجاج شفاف.

قوله: (لزجاجة كأنها كوكب دري) أي هذا القنديل في صفائه وإسفاره وبريقه كأنه كوكب من در - وذلك لشدة إشراقه وإضاءته - وقد نُسب إلى الدر لفرط بياضه وسطوعه.

قوله: (يوقد من شجرة مباركة) أي هذا المصباح المضيء الثاقب يُسرح من شجرة مباركة وهي الزيتونة، حيث زيتها النافع فهو غذاء ودواء ودهان ووقود.

قوله: (زيتونة) بدل من شجرة (لا شرقية ولا غربية) الجملة صفة لزيتونة والمعنى: أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وذلك أجود زيتها - فهي بذلك ليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا خالصة للغرب فتسمى غربية بل هي شرقية وغربية.

قال ابن كثير في هذا الصدد: ليست في شرق بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربها فيقلّص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره؛ فيجيء زيتها صافيا معتدلا مشرقا.

قوله: (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) هذا وصف آخر للزيتونة، وهو أنها (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) أي ان هذا الزيت يكاد في صفائه المنير، وسطوعه المتلألئ يكون مضيئا دون أن تمسه نار.

قوله: (نور على نور) (نور) خبر لمبتدأ محذوف؛ أي هو نور - والمعنى: هو نور على نور، والمراد نور الزيت المشرق المضيء، ونور النار الساطع الوهاج - فهما نوران مجتمعان تزداد بهما الإضاءة وينتشر الإشراق.

قوله: (يهدي الله لنوره من يشاء) المراد بالنور هنا الحق الذي جعله الله للناس هاديا ومنيرا، وهو دينه الحق - فإن الله يوفق لإصابة هذا الدين من يشاء من عباده أولي الفطرة السليمة، والنظر السديد - أولئك صالحون أسوياء يتدبرون آيات الله وما فيها من البراهين والدلائل فيبادرون التصديق والثقة واليقين - ومن لم يتدبر آيات الله، وأعرض عن دينه، فهو سادر في العماية والتخبط ليظل دوام حياته خاسرا تائها متعثرا.

قوله: (ويضرب الله الأمثال للناس) أي يبين الله لكم الأشياء بما يضربه من الأشباه والنظائر لتتدبروا وتعوا.

قوله: (والله بكل شيء عليم) الله عليم بالأشياء لا يخفى عليه علم شيء منها وهو سبحانه يعلم ما ينفع الناس وما يضرهم.

٣٦ - (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)

قوله تعالى: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (٣٧) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٨)}.

قوله: (في بيوت أذن الله أن ترفع) الجملة في موضع نصب، حال للمصباح والزجاجة والكوكب - والتقدير، أن هذه المذكورات توقد في بيوت، والمراد بها المساجد؛ فقد أمر الله أن تبنى وتعظم وتطهر من الأدناس والأرجاس.

قوله: (ويذكر فيها اسمه) وهذا يعم كل ضروب الذكر سواء في ذلك التسبيح والتهليل والتكبير والدعاء ووعظ الناس وتحريضهم على الطاعة والتزام شرع الله وأحكام دينه.

قوله: (يسبح له فيها بالغدو والآصال) (الغدو)، أو النهار - (والآصال)، جمع أصل وهو العشي.

٣٧ - (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)

و (رجال)، فاعل يسبح - والمراد بالتسبيح الصلاة المفروضة - أي يؤدون الصلاة المفروضة في الصباح وهي صلاة الفجر - وصلاة الآصال وهي صلاة الظهر والعصر والعشاءين وهما المغرب والعشاء الآخرة - وقيل: المراد بالتسبيح: تعظيم الله وتنزيهه في ذاته وصفاته

عما لا يليق.
قوله: (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) هذه الجملة في موضع رفع صفة لرجال؛ أي هؤلاء المؤمنون الأتقياء الذين يسبحون الله بالغدو والآصال سوء كان ذلك بالصلوات المفروضة أو الذكر أو التنزيه عما لا يليق- لا تشغلهم التجارة والبيع وغير ذلك من المنافع الدنيوية عن الذكر والتسبيح - وخص التجارة بالذكر، لشديد تأثيرها في إلهاء الذهن والقلب وإشغالهما - فلا جرم أن تكون التجارة ملهاة دنيوية تستحوذ على القلب والتفكير، فيلهو بها المرء عن واجباته مما فرض عليه ربه كذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - وهذه فرائض عظيمة تستحق من المسلم عظيم اهتمامه وبالغ حرصه فيقوم بها خير قيام؛ وإلا طغى عليه حب التجارة حيث المال والكراع واللهو والشهوات، وفي الآخرة هوان وخسران.
قوله: (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) (يوما)، مفعول للفعل (يخافون) والجملة (تتقلب فيه القلوب والأبصار) في موضع نصب صفة لقوله: (يوما) وذلك بيان لحال العباد يوم القيامة؛ إذ تضطرب فيه القلوب من شدة الفزع وما يجدونه من البلايا - وكذلك تتقلب الأبصار، أي تشخص فلا تطرف - أو يصيرون عميانا ٥٦.
٣٨ - (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)
قوله: (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) أي يخافون الله فيسبحونه ويذكرونه ويفعلون ما يفعلون من الطاعات ليجزيهم الله على ذلك ثوابا مضاعفا؛ إذ وعدهم بمضاعفة ذلك إلى عشرة أمثاله وأكثر (ويزيدهم من فضله) أي يزيدهم تفضلا فوق الجزاء الموعود المضاعف.
قوله: (والله يرزق من يشاء بغير حساب) الله يعطي عباده المستحقين من عطائه الجزيل - وعطاء الله ليس له نهاية.
٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)
قوله تعالى: }والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب (٣٩) أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٤٠)}.
قوله: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) (كسراب)، جار ومجرور، في موضع رفع، خبر المبتدأ (أعمالهم) و (بقيعة)، في موضع جر صفة لسراب وتقديره: كسراب كائن بقيعة - والمراد بأعمال الكافرين ههنا، والتي هي من أعمال الخير، كالصدقات وصلة الأرحام وعمارة البيت وسقاية الحاج - والسراب، ما يرى في الفلاة في ضوء الشمس وقت الظهر عند اشتداد الحر على هيئة الماء حتى إذا رآه الناظر ظنه ماء - ويسمى سرابا؛ لأنه يسرب على وجه الأرض في الأفق؛ أي يجري كالماء - والقيعة، بمعنى القاع، وهو المنبسط المستوي من الأرض الذي يستقر فيه الماء - ويجمع على قيعان وأقوع واقواع ٥٧.
وهذا مثل يضربه الله لأعمال الكافرين الذين يقدمون الأعمال الكثيرة الصالحة مما ينفع الناس - فقد شبه الله هذه الأعمال بالسراب اللامع الخادع الذي يجري كالماء في الأرض المستوية من أفق المفاوز كلما اشتد الحر.
قوله: (يحسبه الظمآن ماء) جملة فعلية في موضع جر صفة لسراب أيضا ٥٨ - أي يحسب العطشانُ المتلهفُ للماء هذا السراب ماء لفرط ما يجده من عُطاش - وكذلك الكافر الخاسر الذي عمل في دنياه من الصالحات وهو على غير الإيمان الصحيح - والإيمان الحقيقي الأكمل إنما هو ما تبين في قرآن الله الحكيم وسنة رسوله (ص) - ففيهما تتجلى حقيقة الإيمان السليم المتكامل بمعانيه المحددة الظاهرة، وأركانه المعلومة من غير ما نقصان ولا زيادة - فأيما نقصان أو زيادة في الإيمان وأركانه لا جرم أن يفضي ذلك إلى الكفر وحبوط الأعمال بالكلية - وهذه حال الكافرين والمنافقين من الناس الذين يقدمون الأعمال الصالحة ظانين أنها تنفعهم عند ربهم، أو تنجيهم من حسابه وعذابه - لكنهم واهمون مخذلون حين لا تنفعهم أعمالهم يوم القيامة - ومثلهم في ذلك كالعطشان يجد السراب أمامه ساربا متموجا فيظنه ماء.
قوله: (حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده) (شيئا)، منصوب على المصدر ٥٩؛ أي حتى إذا جاء إلى ما قدمه من عمل لم

يجد ما كان يرجوه - بل لم يجد منه شيئا ووجد الله له بالمرصاد (فوفاه حسابه) وفاه الله جزاء عمله؛ إذ تعتله زبانية العذاب إلى جهنم حيث الحميم والغساق واللظى (والله سريع الحساب)؛ لأنه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب - وقيل: لا يشغله حساب واحد عن حساب واحد غيره.

٤٠ - (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

قوله: (أو كظلمات في بحر لجي) اللجي، الماء العميق الكثير - وهو منسوب إلى اللج واللّجة؛ أي معظم الماء والجمع لجج ٦٠، والمراد به هنا معظم ماء البحر - وذلك مثل آخر ضربه الله لأعمال الكافرين التي يجعلها الله يوم القيامة هباء منثورا - فمثلها كمثل ظلمات في بحر زاخر مضطرب لا يُدرك مداه لعمقه واتساعه - ثم وصفه بقوله: (يغشاه موج من فوقه موج) هذا البحر هادر متلاطم مائج؛ فهو يعلوه موج، يتبع بعضه بعضا - ومن فوق الموج سحاب مرتفع كثيف - وذلك مشهد يكشف عن شدة الخوف تغشى القلوب الساربين وسط هذا البحر المخوف وهم تحيط بهم أهوال البحر بظلماته المتكاثفة المترادفة يعلو بعضها بعضا، وهو معنى قوله سبحانه: (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) وفاعل (أخرج) تقديره: الحاضر السارب في هذه الظلمات، فإنه إذا أخرج يده فيها لم يرها إلا بعد جهد، أو لم يقارب رؤيتها مما يسترها من كثيف الظلام المترادف المركوم - وهذه هي الحقيقة التي يقدمها الكافرون على اختلاف مللهم ومشاربهم وأهوائهم - الكافرون الذين جحدوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وكذبوا بما أنزل الله عليه من كتابه الحكيم، أو كذبوا بعضا منه أو بعضا من أركان الإيمان المعروفة، أو الذين ارتابت قلوبهم في حقيقة الإسلام فأنكروا شيئا من حقائقه ومعانيه القاطعة؛ فإنه لا يجحد شيئا من عقيدة الإسلام أو أركانه أو أحكامه أو تعاليمه الثابتة إلا جاحد كفور أو ظالم مرتد - إن هؤلاء الكافرين جميعا لن يجعل الله يوم القيامة لأعمالهم وزنا أو قيمة أو اعتبارا - فما يقدمه هؤلاء المشركون المرتكسون في الكفر أو الردة ليس إلا الهباء المنثور الذي لا يغنيهم من عذاب الله شيئا.

قوله: (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) المراد بالنور، الهداية - فإنما الهداية بالإسلام - هذا الدين الرباني الكامل الذي جيء به هداية للعالمين؛ إذ يدفع عنهم الأذى والشر وكل وجوه الفساد والباطل - ويقرر في حياتهم الخير والسعادة وكل وجوه الحق والتوفيق - فمن لم يهتد بالإسلام فلن يحظى بهداية أو سعادة وإنما يتيه في حياته ضالا تاعسا متعثرا، ويوم القيامة يرد إلى عذاب الله الشديد ٦١.

٤١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

قوله تعالى: {ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون (٤١) ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير (٤٢) ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار (٤٣) يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار (٤٤)} الخطاب من الله لرسوله (ص) - والاستفهام للتقرير - والمعنى: قد علمت يا محمد بالحس والمشاهدة والنظر (أن الله يسبح له من في السماوات والأرض) أي ينزهونه عما لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله - والمراد بمن في السماوات والأرض، كل كائن سواء في ذلك العقلاء من الإنس والجن والملائكة، أو غير العقلاء كالكواكب والبحار والأشجار والجبال - أما العقلاء: فيخشى الله منهم المؤمنون الذين يعبدونه ويسبحونه - أما غير المؤمنين: فإنما يعبدون الله بصفاتهم وهيئاتهم الخِلْقية التي جُبلوا عليها - أي أن آثار الصنعة الإلهية في غير المؤمنين تنطق بأن الله حق، وأنه الخالق الموجد المتصف بصفات الكمال - وكذلك غير العقلاء من خلق الله كالطير والبهيمة، فإن ما يسمع من أصواتها وما يشاهد فيها من آثار الصنعة الإلهية من توالد وتكاثر وتذليل وغير ذلك من وجوه الحركة فيها، فإن ذلك كله تسبيح لله؛ أي تنزيه له عن كل عيب أو نقيصة.

وأما الجمادات: فإنها على الدوام تسبح بحمده وذكره فلا تفتر ولا تكلّ، وهيئة تسبيحها وذكرها لا يعلمها غير الذي ذرأها وكوّنها - وفي ذلك من التوبيخ للكافرين الضالين ما لا يخفى؛ فقد ضل هؤلاء الغافلون العصاة عن أمر الله وزاغوا عن منهجه الحق وصراطه المستقيم،

وانفتلوا يعبدون الأوثان على اختلافها من الأحجار والتماثيل وغير ذلك من طواغيت الجن والإنس الذين أضلوهم وزينوا لهم الفساد والشر، وحملوهم على التلبس بالباطل حملا، مخلفين وراءهم منهج الله القائم على الحق والعدل والتوحيد.

قوله: (والطير صافات) الطير، معطوف على الموصول (من) و (صافات) منصوب على الحال - أي يصففن أجنحتهن في الهواء طائرات محلقات، وقد خصهن الله بالذكر لما يتجلى فيهن من بديع الصنعة وعجيب الهيئة والمنظر المثير مما نجده في الطير وهو يجوب الفضاء خافقا بجناحيه في صورته الجميلة وطيرانه العجيب ورفيفه المذهل الخلاب مما يستوقف العقل أيما استيقاف كيما يتدبر ويتفكر وإنه لا يدّكر بعد ذلك من البشر إلا كل عتّل جاحد أثيم.

قوله: (كل قد علم صلاته وتسبيحه) الضمير في (علم)، يعود إلى ما سبق ذكره من المسبحات؛ أي كل واحد مما ذكر قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه - والصلاة هنا بمعنى الدعاء - والمراد من الإخبار بأن كل واحد من المذكورات قد علم دعاء نفسه وتسبيحه: أن ذلك كله صادر عن علم الله الذي ألهمها ذلك وعلّمها إياه - وذلك دليل على عظيم شأن الله وبالغ قدرته.

٤٢ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

قوله: (ولله ملك السماوات والأرض) الله له ملكوت كل شيء ولا يندّ عن سلطانه وملكوته شيء (وإلى الله المصير) لله العاقبة والمرجع؛ فكل شيء في السماوات والأرض صائر إلى الله لا محالة - والناس والأحياء مجموعون بين يديه يوم القيامة.

٤٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ)

قوله: (ألم تر أن الله يزجي سحابا) (يزجي)، أي يسوق، من الإزجاء وهو السّوق - زجّى الشيء تزجية، دفعه برفق - وأزجى الإبل، ساقها ٦٢.

والمعنى: أن الله يسوق السحاب سوقا رفيقا (ثم يؤلف بينه) أي يضم بعضه إلى بعض بعد أن كان قزعا ٦٣ أو أجزاء متفرقة.

قوله: (ثم يجعله ركاما) الركام، المتراكم بعضه فوق بعض، ركم الشيء يركمه ركما أي جمعه وجعل بعضه على بعضه - وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع.

قوله: (فترى الودق يخرج من خلاله) (الودق) معناه المطر ٦٤؛ أي ترى المطر يخرج من فتوق السحاب المؤلف المركوم - وفتوقه يعني مخارج القطر فيه - وهذه من جملة الآيات الحكيمة التي تحكي أخبار الطبيعة، كظاهرة المطر ونحوه من ظواهر هذا الكون مما يقطع في الدلالة على أن هذا الكلام رباني معجز.

قوله: (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) وهذا دليل مضاف إلى أدلة كثيرة على عظمة الله الخالق - و (السماء) بمعنى العالي، من العلو - و (من جبال) يعني من قطع عظيمة تشبه الجبال في أحجامها العظام - و (فيها)، في محل نصب على الحال - و (من برد)، (من) للتبعيض، وهو مفعول ينزل - وقيل: (من) زائدة - أي ينزل من السماء من جبال فيها برد ٦٥ (فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) والمراد بضمير يُصيب، جلال الله عز وعلا؛ فهو سبحانه يصيب بالبرد النازل من السماء من يشاء إصابته من العباد - وهو كذلك يصرف البرد عمن لا يريد إصابتهم به من الناس - وذلك من كمال صنع الله وعظيم تقديره؛ إذ ينزل من السماء المطر والبرد على نحو مقدور وموزون - سواء في ذلك مقاديره المنزلة بأحجامها وكمياتها المعلومة، أو البقاع والأناسي الذين يصيبهم ما يتنزل من بركان السماء.

قوله: (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) السّنا، معناه الضوء؛ أي يكاد ضوء البرق المكون في السحاب يخطف الأبصار من شدة بريقه وسطوعه، وفرط لمعانه وضوئه.

٤٤ - (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ)

قوله: (يقلب الله الليل والنهار) بعد أن ذكر جملة من الظواهر والحقائق الكونية كتسبيح الأشياء كلها لله، وخلق الطير الخافقات بأجنحتها الرفافة في السماء، وحقيقة الملكوت لله الواحد القهار، وأنه ما من شيء إلا هو صائر على الله بعد الممات والفناء، وأن الله

يدفع بقدرته السحاب لينزل من بين مخارجه المطر وما يتبع ذلك من برق ثاقب ساطع يخطف الأبصار- بعد ذلك كله يبين الله جملة من الدلائل الحسية المشهودة من ثنايا الطبيعة وأجزاء الحياة والكون مما يكشف عن قدرة الله المطلقة وعلمه البالغ، وأنه الواحد البارئ المقتدر الذي ليس له في ذاته وصفاته وعظيم أفعاله نظير، فقال سبحانه: (يقلب الله الليل والنهار) وقد جاء في تأويل ذلك عدة أقوال - منها: أن الله جعل الليل والنهار متعاقبين - أي يعقب كل واحد منهما الآخر - ومنها، أنه يزيد في أحدهما وينقص من الآخر، كقوله: (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل).

قوله: (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) الإشارة عائدة إلى ما تقدم ذكره من الدلائل والحقائق في الطبيعة والكون؛ فإن ذلك كله لهو موعظة ودلالة لأولي العقول النيرة السليمة الذين يبصرون البينات الواضحات، والبراهين القاطعة المستفيضة ليبادروا التصديق والادّكار والطاعة ٦٦.

٤٥ - (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير (٤٥) لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٤٦)} المراد بالدابة كل ما دبّ على الأرض من الحيوان - دبّ يدبّ فهو داب والهاء للمبالغة - فكل ماش على الأرض دابة ٦٧.

والمراد بالماء، النطفة من المني، تنزيلا للغالب منزلة الكل؛ لأن في الحيوانات ما يتولد من غير نطفة - ويخرج عن هذا العموم ملائكة الرحمن؛ فهم مخلوقون من نور - وكذا الجان فقد خلقوا من نار - والمعنى: أن الله خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة - ثم فصل الله سبحانه أحوال كل دابة من هذه الدواب المخلوقة من النطفة ليبين أن منها (من يمشي على بطنه) وهي الهوام كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك (ومنهم من يمشي على رجلين) وذلكم الإنسان يمشي قائما على رجليه - وكذا الطير (ومنهم من يمشي على أربع) وهي سائر الحيوانات العجماوات التي لا تعي ولا تنطق.

وثمة صنف من البهائم يمشي على أكثر من أربع لم يذكر في الآية لقلته، وذلك كالسرطان والعناكب.

قوله: (يخلق الله ما يشاء) ما من شيء إلا هو مخلوق من مخلوقات الله؛ فهو سبحانه قد خلق ما ذكره هنا وما لم يذكره من بقية الخلائق كالجمادات على اختلاف أجناسها وصورها ومنافعها.

قوله: (إن الله على كل شيء قدير) لا يعز على الله أن يخلق شيئا؛ فهو سبحانه القادر على خلق ما يشاء، ولا يتعذر عليه فعل ما يريد.

٤٦ - (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: (لقد أنزلنا آيات مبينات) المراد بالآيات المبينات، آيات الكتاب الحكيم - هذه الآيات الواضحات التي تحكي لنا أخبار الأولين والآخرين، والتي تفيض من خلالها أنباء الدنيا والآخرة وما يسبق ذلك من فيض الدلائل والبراهين التي نبّه إليها القرآن وهو يلفت الأنظار والعقول للتفكر في ملكوت الله وما فيه من بديع الخلائق وعجيب الكائنات.

قوله: (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) صراط الله المستقيم هو دينه القويم، ومنهجه الحق المبين الذي جعله للناس تبصرة ونورا فيهدي إليه من عباده من يستحق الهداية.

٤٧ - (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين (٤٧) وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون (٤٨) وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين (٤٩) أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون (٥٠) إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون (٥١) ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون (٥٢)}.

نزلت هذه الآية في بشر المنافق وخصمهه اليهودي حين اختصما في أرض فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول: إن محمدا يحيف ٦٨ علينا ٦٩ فالآية فيها إخبار من الله عن المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون في أنفسهم الجحود والكفر، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم - يقولون: (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) أي صدقنا بالله وبرسوله وأطعنا الله ورسوله وهم في الحقيقة كاذبون (ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك) أي يدْبر المنافقون بالامتناع عن قبول حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الذي قالوه من ظاهر الإسلام وهم فيما تخفيه أنفسهم كاذبون - وهو قوله سبحانه: (وما أولئك بالمؤمنين) والإشارة عائدة إلى الذين قالوا هذه المقالة يريدون أن يخادعوا بها النبي والذين آمنوا - وهذا إعلام من الله بأن جميع من آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، كافرون - وأن الذين لا يرضون بحكم الله ورسوله ويستعيضون عن ذلك بحكم الكافرين ليسوا بمؤمنين - فما يؤمن حقا إلا من يرضى بشرع الله دون غيره من شرائع الكفر، فإنه لا يتحاكم إلى شرائع الظالمين في شأن من شؤون حياته التربوية والسلوكية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من قضايا الحياة ومشكلاتها إلا الذين ظلموا أنفسهم بزيغهم عن منهج الله الواضح المستقيم - وإذا كان منهج الله، وهو الإسلام، كفاء لكل قضايا البشرية ومشكلاتها على تعددها وكثرتها واختلافها، فما يجوز بعد ذلك البتة، الاحتكام إلى ما يخالف الإسلام من الشرائع والملل - وهذه حقيقة لا يغفل أو يتعاضى عنها إلا مغرور خاسر أو مفرط هالك.

٤٨ - (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)

قوله: }وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون{ إذا طلبوا إلى اتباع ما أنزل الله على رسوله من حكم ليقضي به بينهم فيما اختصموا فيه أعرضوا عنه واستكبروا - وقد بينا أن الآية هذه نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر وقد رفض الاحتكام إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في خصومة له مع يهودي.

٤٩ - (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)

قوله: }وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين{ أي إن علم المنافقون أنه سيحكم لهم فإنهم يأتون إليه مبادرين منقادين.

وذلك هو ديدن المنافقين الذين في قلوبهم مرض والذين يعبدون الله على حرف من ضعاف الإيمان، فإنهم لا يستجيبون للحق حبا في جلال الله أو طمعا في مغفرته ورضوانه، بل إنهم طامعون في قضاء حوائجهم ومنافعهم - فحيثما كانت منافعهم ومصالحهم وحاجاتهم الخاصة بهم توجهوا مذعنين منقادين - وإن علموا أن الحكومة ٧٠ ليست لهم تولوا معرضين مستكبرين - وليس هذا شأن المؤمنين المتقين أولئك الذين يرتضون بحكم الله في المنشط والمكره، وينقادون لأوامره في كل الأحوال راضين طائعين مخبتين.

٥٠ - (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قوله: (أفي قلوبهم مرض) الاستفهام للتوبيخ والتقريع - والمرض هنا بمعنى النفاق، أي هل في قلوب هؤلاء المستنكفين المعرضين عن حكم الله نفاق؟.

قوله: (أم ارتابوا) أم أصابهم الشك فزال يقينهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبنبوته (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) وذلك استفهام آخر يتضمن توبيخا شديدا لهؤلاء المستنكفين المنافقين، أي هل يخشون أن يجور النبي - صلى الله عليه وسلم - أو يظلم في قضائه وحكمه؟ فإنما يقضي النبي - صلى الله عليه وسلم - بين الناس بما أوحي إليه من ربه وذلكم العدل المطلق، والحق الأبلج المستبين.

قوله: (بل أولئك هم الظالمون) (بل) إضراب عن تعلتهم الكاذبة بخوفهم أن يحيف الله عليهم ورسوله، فإن الله لا يظلم أحدا مثقال ذرة - ولكنهم هم أهل ظلم لأنفسهم - فهم متلبسون بالشرك والضلالة والباطل، ضالعون في الخطيئة والمنكر واتباع الشهوات.

ويستفاد من هذه الآية وجوب إجابة الدعوى إلى الحاكم المؤمن، لأن الله تعالى ذم من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فلم يجب- بأقبح الذم، ومن المعلوم في أصول الفقه أن حد الواجب ما ذم تاركه شرعا.

قال بن خويز منداد – من علماء المالكية-: واجب على كل من دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو عداوة بين المدعي والمدعى عليه.

٥١ - (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) (قول)، خبر (كان) منصوب، واسمها مصدر (أن يقولوا) - وهذا ذكر لحال المؤمنين الطائعين، بعد التنديد بالمنافقين المدبرين عن دين الله، المعرضين عن شرعه وحكمه في خصوماتهم - فالمؤمنون الصالحون المصدقون إذا دعوا إلى حكم الله وإلى حكم رسوله ليقضي بينهم وبين خصومهم في خصوماتهم إنما يبادرون بالقول: سمعنا ما قيل لنا، وأطعنا ما أمرنا به، وإن كان ذلك فيما يكرهونه أو يضرهم.

قوله: (وأولئك هم المفلحون) ذلك إطراء لهؤلاء المؤمنين المصدقين المبادرين بالطاعة؛ فإنهم الفائزون في هذه الدنيا بالخير والأمن والسعادة، الناجون في الآخرة من التعس وسوء المصير.

٥٢ - (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

قوله: }ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون{ الذين يطيعون الله ورسوله فيما أمراهم به، وينتهون عما نهاهم عنه من المعاصي والمخالفات وكانوا يخشون الله في السر والعلن ويتقونه باجتناب زواجره ومناهيه ويتبعون شرعه وأحكامه (فأولئك هم الفائزون) الناجون الذين يظفرون بخير الدنيا والآخرة ٧١.

٥٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: }وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون (٥٣) قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين (٥٤){ يبين الله كيد المنافقين وكذبهم على الله ورسوله؛ إذ يحلفون بالله جهد أيمانهم، و (جهد) منصوب على المصدر المؤكد لفعل محذوف - والتقدير: أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهدا - فحذف الفعل وقدم المصدر - والمعنى: أقسموا أغلظ أيمانهم وأشدها، أو طاقة ما قدروا أن يحلفوا.

قوله: (لئن أمرتهم ليخرجن) يحلف المنافقون كاذبين: لئن أمرتنا يا محمد بالخروج للجهاد لخرجنا جهادا في سبيل الله تاركين وراءنا ديارنا وأموالنا وأهلينا - والله يعلم أنهم منافقون كاذبون فيما قالوا أو حلفوا - فأمر الله نبيه أن يقول لهم: (لا تقسموا طاعة معروفة) (طاعة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمرنا طاعة معروفة - وقيل: مبتدأ وخبره محذوف وتقديره طاعة معروفة أمثل من غيرها ٧٢ يعني لا تقسموا، طاعتكم طاعة معروفة - أي تبينت طاعتكم فأنتم كاذبون منافقون.

قوله: (إن الله خبير بما تعملون) الله عليم بحقيقة ما انتم عليه وبما تخفيه صدوركم من الكيد والنفاق - وهو سبحانه لا تخفى عليه خوافيكم وأسراركم وما يستكن في ضمائركم من الكراهية وسوء القصد - وهو سبحانه مجازيكم بكل ذلك.

٥٤ - (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

قوله: (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أي قل لهؤلاء الذين يحلفون بالله جهد أيمانهم ولغيرهم من قومك أن أخلصوا الطاعة والأعمال لله واحذروا الكذب والنفاق وفساد القلوب والعصيان، وأطيعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - باتباع سنته والرضى بما يحكم فيه بينكم.

قوله: (فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) يعني إن تُعرضوا عن منهج الله وتدبروا عما أنزل إليكم من الحق، وتأبوا الإذعان لحكم الله وشرعه؛ فإنما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك ما أمر بفعله من تبليغ الرسالة إليكم (وعليكم ما حملتم) أي عليكم أنتم فعل ما ألزمكم الله بفعله مما أوجبه عليكم من طاعة الله ورسوله.

قوله: (وإن تطيعوا تهتدوا) يعني إن تطيعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتأتمروا بأمره وتنتهوا عما نهاكم عنه، ترشدوا وتصيبوا

الحق في أموركم، فإن من أطاع رسول الله فقد أطاع الله سبحانه.
قوله: (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أي ليس على محمد رسول الله إلا أن يؤدي رسالة التبليغ، وهي رسالة ربه إليكم - وما عليه بعد ذلك من شيء.
٥٥ - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
قوله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ويبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٥٥)} روي في سبب نزول هذه الآية أن بعض أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - شكا إليه ما هم فيه من العدو، وتضييقه عليهم، وشدة الخوف وما يلقون من الأذى، فنزلت هذه الآية بالوعد الجميل لهم فأنجزه الله وملكهم ما وعدهم وأظهرهم على عدوهم.
وروى أبو العالية قال: مكث النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين خائفا يدعو إلى الله سرا وجهرا ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها وأصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون - فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟! فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: معناها: لا تعبرون (لا تلبثون) إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس بيده حديدة ٧٣.
وهذه الآية من الله قول صدق ووعد حق، وعد به رسوله (ص) بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ليكونوا أئمة الناس - فلا جرم أن تصلح بهم الدنيا ويستقيم الناس بشرعهم وملتهم ليعيشوا سالمين آمنين كراما في حياتهم الدنيا - وقد أنجز الله لرسوله الكريم (ص) ما وعده، فإنه لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن - ولقد هاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر المقوقس - وكذلك النجاشي ملك الحبشة - ولما مات (ص) وقام بالأمر بعده خليفتاه أبو بكر ثم عمر بن الخطاب اللذان جمعا شمل المسلمين من حول عقيدة الإسلام وبعثا جيوش المسلمين إلى فتح البلاد في فارس بقيادة أبطال صناديد من قادة المسلمين وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله، خالد بن الوليد - وبعثا جيشا يقوده نفر من عظماء الإسلام الأشاوش وفي طليعتهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح - ففتحوا الديار والأمصار، وأشاعوا فيها رسالة الإسلام، وعمت البلاد الهداية والخير والبركة.
ثم تولى من بعدهما عثمان بن عفان، هذا الصحابي المفضال المبجّل، الذي قتل مظلوما في نفسه رحمه الله - ثم جاء من بعده علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصهره - هذا الصحابي النابغ المصور، الذي تجلى فيه خصائص فذة من العلم والنبوغ والبلاغة والورع والشجاعة والفطانة - هذا الصحابي الذي انبرى لنشر الإسلام في الآفاق حتى غلبه القدر المحتوم يوم أن تمالأ عليه الحاقدون الخائنون الذين كادوا له بليل فدفعوا إليه من يقتله غيلة وغدرا نخرّ شهيدا مكرّما، عليه من الله الرحمة والرضوان.
وفي فضل الأربعة هؤلاء أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سفينة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رسول الله قال: " الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا عضوضا ".
ومن الحق الذي لا مراء فيه أن خلافة الراشدين الأربعة كانت خير فترة من الزمان سجلها تاريخ الإنسانية ومرت بها الأجيال من البشر، بما تجلى فيها من بالغ العدل والتُّقى والرحمة، وكامل الفضل والطهر والاستقامة والأمان، فضلا عما تحقق في أشخاص ذلك الجيل الفريد من عجائب القيم والمثاليات المثيرة المذهلة - والحديث عن طهر الخلفاء الأربعة الراشدين وعن زهدهم وبالغ إخلاصهم وتجردهم من حظوظ الدنيا يطول - وكفى شاهدا على ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " خير القرون قرني ".
أما الخلفاء والولاة من بعد الراشدين الأربعة فقد أبلوا عظيم البلاء في نشر الإسلام وترسيخ قواعده وأركانه وتثبيت حضارته وبنيانه الشامخ في أنحاء الدنيا، بالرغم مما قيل في حقهم من بعض القوادح المنسوبة إليهم.
فهم كغيرهم من البشر لا ينجون من الزلل أو القوادح أو الخطل؛ لأنهم أناس من جنس البشر لا تصدهم عن الأخطاء والزلات

عِصْمة - ومع ذلك فإن زلاتهم بالغة الهوان بالنظر إلى ما نثيره حول أشخاصهم وعن سيرتهم أقلام الحاقدين والمتربصين الذين يكرهون الإسلام - أولئك الأفاكون الخراصون الذين زيفوا التاريخ من حول الإسلام وأشاعوا عنه وعن رجاله من الحكام والولاة والخلفاء ما هم منه برآء - كالذي قيل افتراء وزورا عن الخليفة العظيم هارون الرشيد وغيره من ساسة المسلمين.

وكيفما يكن الأمر فإن هؤلاء الساسة الميامين قد نشروا الإسلام في الأرض وحملوا لواء الحق والعدل والعلم في ربوع العالمين، وأشاعوا بين العباد كل ظواهر الأمن والرخاء والاستقرار، وأحلوا شعوبهم وأممهم دار الكرامة والمجد والإحساس بالعزة والاستعلاء والثقة، فكانوا سادة الدنيا وكانوا أقوياء أشداء يهابهم الظالمون من حولهم، وترتعد من بأسهم وسلطانهم وعظيم شوكتهم فرائص المجرمين الماكرين الذين يكرهون الإسلام والمسلمين.

إن ما حُسب على الخلفاء من بني أمية والعباس والذين جاءوا من بعدهم، من الأخطاء والزلات، ما ينبغي إلا أن تمحي من الذاكرة كليا كلما ذكرنا صنائع هؤلاء الولاة الأعاظم من الفتوحات وبناء الحضارات الهائلة التي تفيض بالعلم والاستقرار والبحبوحة والاستقرار والعزة والمهابة لأمة الإسلام.

على أن هذا الوعد من الله بالنصر والتمكين والتأييد إنما هو لجميع المسلمين في كل زمان؛ لأن الآية عامة لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، غير مخصوصة؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بالخبر الصحيح - ومن الأصل التمسك بالعموم ما لم يرد ما يخصصه.

وعلى هذا فإن وعد الله قائم لا يُخلف؛ فقد وعد عباده المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض ليكونوا آمنين سالمين سعداء إذا ما آمنوا وعملوا الصالحات وقاموا بفعل الطاعات، وبمجانبة المعاصي، والتزموا دين الإسلام بكل أحكامه وشرائعه ونظمه وما يقتضيه ذلك من جمع الكلمة ووحدة القلوب؛ ليكون المسلمون جميعا متعاونين متراحمين متوادين فيما بينهم - وحينئذ يجعل الله لهم العزة والمنعة والسلطان - وهو قوله: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) (كما)، الكاف في محل نصب على المصدر؛ أي استخلافا كما استخلف الذين - والمراد كل من استخلفهم الله في الأرض من الأمم السابقة وجعل لهم المنعة والعزة.

قوله: (وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) المراد بدينهم هنا، الإسلام - وهو دين الحق الذي ارتضاه الله للبشرية لتهتدي بهديه، وليكون لها نورا ينير لها الطريق، ويبدد من أمامها الظلمات؛ فلسوف يجعل الله الإسلام مكينا منيعا ظاهرا على كل الشرائع والملل.

قوله: (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) أي يجعلهم الله آمنين مطمئنين بعد أن كانوا خائفين وجلين من أعداء الله المجرمين - كذلك كانت حال المسلمين قبل هجرتهم من مكة وبعدها بقليل - كانت تحيط بهم أسباب الخوف والذعر - وكان الأعداء الظالمون يحيطون بهم من كل جانب حتى منّ الله عليهم عقب ذلك بالنصر والأمن والتمكين في الأرض، فجعلهم آمنين سالمين لا يخشون أحدا إلا الله - بعد أن أذل الله المشركين والظالمين والمتربصين، وساقهم الهوان والخزي - وهو مصير المجرمين من أعداء الله والدين، أعداء المسلمين في كل زمان ومكان - لسوف يسومهم الله الوبال والمهانة والقهر جزاء أفاعليهم النكراء وجرائمهم البشعة في حق المسلمين - وذلك بعد أن يفيق المسلمون من غفلتهم وينهضوا من كبوتهم فيعاودوا الاستمساك بعقيدة الإسلام والالتفاف من حول هذا الدين الكريم ليجعل الله لهم النصر والمنعة والاستعلاء - وحينئذ تكون لهم الريادة والسيادة على العالمين فينطلقون في أرجاء الأرض مبشرين بدين الله الحق، حاملين ألوية الهداية والرحمة للبشرية.

قوله: (يعبدونني لا يشركون بي شيئا) (يعبدونني)، جملة فعلية في محل نصب على الحال ٧٤؛ أي يذعنون لي بالطاعة والخضوع ويستسلمون لما أمرتهم به، ولا يعبدون أحدا من دوني يتخذونهم شركاء كالأرباب المزيفة المصطنعة.

قوله: (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (كفر) هنا من الكفران وهو جحود النعمة؛ أي من جحد ما أنعمه الله عليه فهو من العصاة الجاحدين لنعم الله - ومن عظائم نعم الله: تمكين المسلمين في الأرض ليكونوا أقوياء أولي مهابة وشوكة وسلطان.

والمسلمون باقون على حالهم من القوة والبأس وظهور الشوكة ماداموا معتصمين بحبل الله، ساربين في طريق الحق والعدل، سائرين على

منهج الله - المنهج الكامل الشامل السديد وهو الإسلام - حتى إذا ضل المسلمون عن دينهم أو زاغوا عن منهج الله واستعاضوا عنه بشرائع الكفر والكافرين وانفتلوا عن صراط ربهم انفتالا أفضى بهم من الفسق والعصيان واتباع الأهواء والشهوات والملذات وركنوا إلى الدنيا بزينتها ومتاعها وزخرفها، حينئذ ينساهم الله ويدعهم وشأنهم، فما يصيرون بعد ذلك إلا إلى التخلخل والخور والانهيار لتتقطع أوصالهم، وتنتقض عرى الوحدة والأخوة فيهم، فيبيتون عرضة لتكالب المشركين والظالمين عليهم؛ إذ ينقضون عليهم انقضاضا من كل جانب ليقتلوهم تقتيلا ويمزقوهم شر تمزيق وليقطعوهم شذر مذر، وليستبيحوا كل حرماتهم، فيجوسوا خلال ديارهم فلا يراعوا فيهم إلا ولا ذمة - كالذي حل بالمسلمين في كثير من بقاع الأرض مثل: الأندلس وفلسطين وكشمير وبلاد البوسنة وغير ذلك من بلاد المسلمين التي عاث فيها المجرمون الظالمون تقتيلا وتدميرا وتخريبا.

ومع كل هذه المآسي والويلات والعظائم المريعة التي نزلت بساحة المسلمين، فما زالت طائفة من المسلمين تعمل في جد ويقظة وحرص، لإظهار شأن الإسلام وإعادة مجده وعزه وسلطانه، لا يصدها عن هذا المسعى بأس عدو ولا فتنة ظالم متربص - وهم ماضون لأمر الله في ثبات وعزم ويقين بالرغم من كل المؤامرات والمكائد التي يخطط لها الظالمون من الصليبيين والوثنيين والملحدين والاستعماريين والصهيونيين، حتى يحكم الله لأوليائه الثابتين الصابرين بالنصر والغلبة - وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة " ٧٥.

٥٦ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

قوله تعالى: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (٥٦) لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير (٥٧)} يأمر الله المؤمنين بأداء الصلاة على وجهها الأتم؛ فهي عماد الدين وأعظم عبادة يؤديها المسلمون وهم يتوجهون إلى ربهم طائعين منقادين متذللين لا يتوجهون إلى أحد سواه ولا يرومون التأييد والمنعة والثبات من غيره - وكذلك الزكاة فإنها فريضة جليلة كبرى أوجبها الله على المقتدرين من المسلمين حقا للمعوزين والمحاويج وغيرهم من مستحقي الزكاة.

ويدعو الله عباده المؤمنين أن يطيعوا رسولهم فيما أمرهم به وأن ينتهوا ويحذروا ما نهاهم عنه - فإن من أطاع الرسول فقد أطاع الله - وما ينطق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى).

٥٧ - (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله: (لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض) أي لا تظنن أن هؤلاء الكافرين الذين يحادون الله ورسوله ويكيدون للإسلام والمسلمين كيدا (معجزين في الأرض) أي لا يعجزون الله إن أراد أن يهلكهم؛ بل إن الله قادر على إهلاكهم وإفنائهم (ومأواهم النار ولبئس المصير) مردهم إلى النار لتكون لهم شر منزل ومقام يأوون إليه فبئس العاقبة والمرجع.

٥٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (٥٨) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (٥٩) والقواعد من النساء التي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠)}.

روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: وجّه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن

عمرو إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقت الظهيرة ليدعوه - فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عليها - فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان.
فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وقيل: نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلاما كبير فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها - فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ٧٦.
هذه الآية خاصة وما قبلها عامة - فما تقدم في أول السورة يتضمن استئذان الأجانب بعضهم على بعض - أما هذه الآية فهي في استئذان الأقارب بعضهم على بعض، فقد أمر الله المؤمنين أن يستأذنهم من عندهم من المملوكين والخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم - فما ينبغي لهؤلاء أن يدخلوا على المؤمنين إلا بعد استئذانهم - وذلك في حالات ثلاث تقتضي عادة الناس التكشف فيها والتعري - وهي:
الحالة الأولى: قبل صلاة الغداة، إذ الناس نيام في فُرشهم - والدخول عليهم من غير إذن منهم فيه مضايقة شديدة وحرج كبير - وفي ذلك يقول الله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر).
الحالة الثانية: وقت القيلولة، إذ يضع الناس ثيابهم طلبا للراحة والنوم - والدخول عليهم في مثل هذه الحالة يفضي إلى كشف أستارهم والاطلاع على عوراتهم - وفي ذلك من الحرج ما لا يخفى - وفي ذلك يقول عز وعلا: (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة).
الحالة الثالثة: وقت النوم، إذ يئوي المرء إلى فراشه طلبا للهجعة والدعة وربما أفضى الرجل إلى أهله وهو مطمئن بأن أحدا من الناس لا يراه وزوجه - ومن أجل ذلك لزم أن لا يهجم الخدم والصغار على أهل البيت من غير إذن.
قوله: (ثلاث عورات لكم) (ثلاث عورات)، مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هذه ثلاثة عورات، أي ثلاث أوقات عورات ٧٧.
قوله: (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي ليس عليكم ولا عليهم إثم ولا حرج في الدخول من غير استئذان بعد هذه العورات الثلاث - والهاء والنون في (بعدهن) عائدتان على الثلاث من قوله: (ثلاث عورات لكم).
قوله: (طوافون عليكم بعضكم على بعض) (طوافون)، خبر لمبتدأ محذوف - وتقديره هم طوافون، أي أنتم طوافون - و (بعضكم)، مرفوع على أنه بدل من المضمر في (طوافون) والتقدير: يطوف بعضكم على بعض ٧٨ والمعنى: أن هؤلاء الصغار والمماليك طوافون عليكم أيها الناس - بمعنى أنهم يدخلون ويخرجون عليكم في منازلكم في الغداة والعشي من غير إذن (بعضكم على بعض) أي يطوفون عليكم وتطوفون عليهم - أو يطوف بعضكم على بعض.
قوله: (كذلك يبين الله لكم الآيات) الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام مثل ذلك التبيين.
قوله: (والله عليم حكيم) الله يعلم ما يصلح عليه العباد من الأحكام - وهو سبحانه حكيم في شرعه وفي تدبيره أمور العباد.
٥٩ - (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٨]
قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (٥٨) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (٥٩) والقواعد من النساء التي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠)}.
روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: وجّه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن

عمرو إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقت الظهيرة ليدعوه - فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عليها - فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان.
فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وقيل: نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلاما كبير فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها - فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ٧٩.
هذه الآية خاصة وما قبلها عامة - فما تقدم في أول السورة يتضمن استئذان الأجانب بعضهم على بعض - أما هذه الآية فهي في استئذان الأقارب بعضهم على بعض، فقد أمر الله المؤمنين أن يستأذنهم من عندهم من المملوكين والخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم - فما ينبغي لهؤلاء أن يدخلوا على المؤمنين إلا بعد استئذانهم - وذلك في حالات ثلاث تقتضي عادة الناس التكشف فيها والتعري - وهي:
الحالة الأولى: قبل صلاة الغداة، إذ الناس نيام في فُرشهم - والدخول عليهم من غير إذن منهم فيه مضايقة شديدة وحرج كبير - وفي ذلك يقول الله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر).
الحالة الثانية: وقت القيلولة، إذ يضع الناس ثيابهم طلبا للراحة والنوم - والدخول عليهم في مثل هذه الحالة يفضي إلى كشف أستارهم والاطلاع على عوراتهم - وفي ذلك من الحرج ما لا يخفى - وفي ذلك يقول عز وعلا: (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة).
الحالة الثالثة: وقت النوم، إذ يثوي المرء إلى فراشه طلبا للهجعة والدعة وربما أفضى الرجل إلى أهله وهو مطمئن بأن أحدا من الناس لا يراه وزوجه - ومن أجل ذلك لزم أن لا يهجم الخدم والصغار على أهل البيت من غير إذن.
قوله: (ثلاث عورات لكم) (ثلاث عورات)، مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هذه ثلاثة عورات، أي ثلاث أوقات عورات ٨٠.
قوله: (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي ليس عليكم ولا عليهم إثم ولا حرج في الدخول من غير استئذان بعد هذه العورات الثلاث - والهاء والنون في (بعدهن) عائدتان على الثلاث من قوله: (ثلاث عورات لكم).
قوله: (طوافون عليكم بعضكم على بعض) (طوافون)، خبر لمبتدأ محذوف - وتقديره هم طوافون، أي أنتم طوافون - و (بعضكم)، مرفوع على أنه بدل من المضمر في (طوافون) والتقدير: يطوف بعضكم على بعض ٨١ والمعنى: أن هؤلاء الصغار والمماليك طوافون عليكم أيها الناس - بمعنى أنهم يدخلون ويخرجون عليكم في منازلكم في الغداة والعشي من غير إذن (بعضكم على بعض) أي يطوفون عليكم وتطوفون عليهم - أو يطوف بعضكم على بعض.
قوله: (كذلك يبين الله لكم الآيات) الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام مثل ذلك التبيين.
قوله: (والله عليم حكيم) الله يعلم ما يصلح عليه العباد من الأحكام - وهو سبحانه حكيم في شرعه وفي تدبيره أمور العباد.
٦٠ - (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
قوله: (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا) القواعد، جمع قاعد - وهي التي قعدت عن النكاح للكبر - أو التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها - وحذفت منها الهاء، ليدل حذفها على أنه قعود الكبر - والمعنى: أن النساء اللاتي يئسن من البعولة فلا يطمعن في الأزواج (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أي ليس عليهن حرج ولا إثم في وضع جلابيبهن وهي القناع الذي يكون فوق الخمار والرداء - لا إثم على المرأة الكبيرة التي لا تتشوّف للبعل أو النكاح أن تجلس في بيتها بدرع وخمار وتضع عنها الجلباب عند المحارم من الرجال وغير المحارم من الغرباء، لأنها في مثل هذا السن تغيب من حولها الفتنة لزهدها في النكاح من أجل كبرها، ولانتفاء الرغبة فيها لدى الرجال.

قوله: (غير متبرجات بزينة) (غير)، منصوب على الحال - و (متبرجات)، من التبرج وهو إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ٨٢ والمعنى: لا يبتغين بوضع الجلباب إظهار الزينة لينظر إليهن - وهذا كله في حق القواعد من النساء وهن في البيوت - أما إذا خرجن فلا يحل لهن وضع الجلابيب.

وفي كل الأحوال فإن الأفضل استعفافهن عن وضع الثياب وهي الجلابيب، والتزامهن من اللباس ما يلزم غير القواعد من كامل الثياب - فإن ذلك أكرم لهن وأفضل، وهو قوله: (وأن يستعففن خير لهن) أي عدم وضعهن الجلابيب -وإن كان ذلك جائزا- خير لهن وأفضل؛ لكونه أبعد من التهمة وأقطع لقالة السوء أن يتعرضوا لهن بقبيح القول أو الإشارة (والله سميع عليم) الله يسمع ما يجري من حديث وما تنطق به الألسن من قول مريب - وهو سبحانه عليم بمقاصد النساء من وضع الجلابيب - عليم بما تخفيه القلوب من أسرار.

على أنه من ظواهر التبرج أن تلبس المرأة ثوبا رقيقا يصفها أو يكشف عما بداخله من جلدها أو شعرها، وذلكم حرام، بل إن ذلك من المحظورات التي شدد عليها الإسلام النكير - لما في ذلك من فتنة تغوي الرجال وتستهويهم للاسترخاء والسقوط - وفي ذلك روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخْت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " وقد جعلهن كاسيات؛ لأن الثياب عليهن - ووصفن بالعاريات؛ لأن الثوب إذ رقّ فإنه يصفهن ويبدي محاسنهن، وذلك حرام - وهو قول ابن العربي.

فكيف إذا خرجت النساء على الملأ من الأجانب والغرباء وهن حاسرات الثياب وقد بدت فيهن بعض أجسادهن للعيان، كالأذرع والسيقان والشعور وغير ذلك مما يحرم ظهوره البتة - أما قوله: " كأسنمة البخت " أسنمة، جمع سنام، والبخت، نوع من الإبل - والواحد بختي، ويجمع أيضا على البخاتي ٨٣؛ فقد شبه رؤوس النساء الكاسيات العاريات بأسنمة الإبل لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن - وهو ما نجده اليوم في كثير من النساء، ومنهن بعض المسلمات أو كثير منهن اللواتي غفلن عن أحكام دينهن؛ إذا أذهلتهن الحضارة المادية الحديثة - الحضارة التي بنيت على الهوى والغريزة وعبادة الشهوات ٨٤.

٦١ - (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض عرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون (٦١)}.

اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وفي السبب الذي رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض - وثمة أقوال أربعة في ذلك:

القول الأول: على أن هذه الآية نزلت في الجهاد، أي أن هؤلاء المذكورين وهم الأعمى، والمريض، لا إثم عليهم في ترك الجهاد، لضعفهم وعجزهم عن الاضطلاع بهذه الفريضة الشاقة.

القول الثاني: إنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات - فربما سبقه إليه غيره فأكل منه - وكذلك يتحرجون من الأكل مع الأعرج؛ لأنه لا يستطيع الجلوس فيُفتات عليه في الطعام ممن معه من الجلساء - وكذلك يتحرجون من الأكل مع المريض؛ لأنه لا يأكل من الطعام مثل غيره من الأصحاء - فكرهوا أن يؤاكلوهم كيلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية.

القول الثالث: كانوا يتحرجون من الأكل مع هؤلاء المرضى والزمنى تعززا وتقذرا، فأنزل الله هذه الآية.

القول الرابع: على أنها نزلت ترخيصا للمرضى والزمنى في الأكل من بيوت من سمى الله تعالى في هذه الآية - وذلك أن قوما من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله تعالى في هذه الآية - وكان أهل الزمانة يتحرجون من أن يُطعموا ذلك الطعام؛ لأنه أطعمهم غير مالكيه - ويقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية ٨٥.

قوله: (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) ذكر هذا مع كونه معلوما؛ ليعطف عليه ما بعده، وليساويه في الحكم - ولم يذكر بيوت الأبناء؛ لدخولها في قوله: (من بيوتكم)؛ لأن بيت ابن الرجل بيته - وفي الخبر: " أنت ومالك لأبيك ".

قوله: (أو ما ملكتم مفاتحه) كالخادم، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف - وروي عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله (أو ما ملكتم مفاتحه).

قوله: (أو صديقكم) الصديق، الذي يصدق صاحبه في المودة - والصديق يطلق على الواحد والجمع والمؤنث ٨٦ والمعنى: أو بيوت أصدقائكم.

أي لا جناح عليكم في الأكل من بيوت أصدقائكم إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليه وأنهم لا يكرهون ذلك.

قوله: (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) - (جميعا أو أشتاتا)، منصوبان على الحال من الواو في قوله: (تأكلوا) ٨٧.

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في حي من كنانة يقال لهم بنو ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده - فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح تحرجا من أن يأكل وحده فإذا أمسى ولم يجد أحد أكل - فأنزل الله تعالى هذه الآية - وقيل: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا جميعا متحلقين أو أشتاتا متفرقين - فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده مع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأعظم بركة - وفي ذلك روى أبو داود وابن ماجه عن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " كلوا جميعا ولا تفرقوا؛ فإن البركة مع الجماعة " ٨٨.

قوله: (فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) في المراد بالبيوت قولان: أحدهما: أنها المساجد - وهو قول النخعي والحسن؛ أي سلموا على من فيها، أو ليسلم بعضكم على بعض؛ فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد بذلك الملائكة - ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

القول الثاني: المراد بالبيوت، البيوت المسكونة - وهو قول ابن عباس وآخرين - ويدخل في ذلك، البيوت غير المسكونة - وهذا الراجح لعموم النص ولا دليل على التخصيص - وعلى هذا إذا دخل المرء المسجد قال: السلام على رسول الله - وإذا دخل على أهله سلم عليهم - وإذا دخل بيتا ليس فيه أحد قال: بسم الله الحمد لله، السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - وقد روى البزار عن أنس قال: أوصاني النبي - صلى الله عليه وسلم - بخمس خصال قال: " يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك - وإذا دخلت- يعني بيتك- فسلّم على أهلك يكثر خير بيتك - وصل الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير؛ تكن من رفقائي يوم القيامة ".

قوله: (تحية من عند الله مباركة طيبة) (تحية)، منصوب على المصدر؛ لأن (فسلموا) معناه: فحيوا ٨٩ يعني فحيوا تحية (من عند الله) أي أن الله حياكم بها - أو أن الله أمركم أن تفعلوها - ثم وصف هذه التحية؛ بقوله: (مباركة) أي كثيرة البركة والخير لما فيها من الدعاء وتحضيض المسلم على مودته لأخيه الذي بدأه بالسلام - ووضعها كذلك بقوله: (طيبة) أي تستطيبها نفس السامع للتحية.

قوله: (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) الكاف صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام لتفهموا معانيها وتتدبروها ٩٠.

٦٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شانهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم (٦٢)}.

هذا وصف لحقيقة المؤمنين حق الإيمان، فهم الذين صدّقوا الله ورسوله (ص) كامل التصديق: (وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) الأمر الجامع يراد به ما يجتمعون له جميعا، كحرب حضرت فتشاوروا فيها، أو في أمر مخوف نزل بهم، أو نحو ذلك من الأمور الهامة، فإن المسلمين يجتمعون جميعا للتشاور فيما حل أو نزل، وليس لهم حينئذ أن ينصرفوا من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى يستأذنوه - فمن انصرف مستأذنا كان من المؤمنين - وذلك قوله: (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وعلى هذا إذا حزب المسلمين خطب من الخطوب، اجتمع المسلمون من أهل البصيرة والنظر ليكونوا من حول إمام المسلمين وهو من جهته يشاورهم في الأمر أو فيما حل - وما ينبغي لأحد من المجتمعين في مثل هذا الظرف أن ينصرف حتى يستأذن الإمام - وما يستأذنه إلا المؤمنون الصادقون.

قوله: (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - بالخيار، إن شاء أذن لمن أراد الانصراف - وإن شاء لم يأذن له.

قوله: (واستغفر لهم إن الله غفور رحيم) أي ادع الله لهم بالعفو والمغفرة والرحمة، فإن الله غفّار لعباده المؤمنين الصادقين العابدين.

٦٣ - (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله تعالى: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٦٣)} ذكر عن ابن عباس في تأويل هذه الآية أنهم كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، يسمونه باسمه وهو ما لا يليق بمقامه الشريف، وقدره المعظم (ص) - فنهاهم الله عن ذلك تعظيما لنبيه (ص) وتكريما، وأمرهم أن يقولوا يا نبي الله - يا رسول الله - على التعظيم له والتبجيل - وذلك من باب الأدب في مخاطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أو الكلام عنده أو معه.

وقيل: نهى المؤمنين أن يتعرضوا لدعاء الرسول عليهم - فعليهم أن يتقوا دعاءه عليهم، فإن دعاءه مستجاب - وهو ليس كدعائهم.

قوله: (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) التسلل يعني الخروج خفية - واللواذ والملاوذة، أن يلوذ هذا بذاك، وذاك بهذا، أي يتسللون عن الجماعة على سبيل الاستخفاء واستتار بعضهم ببعض - وذلك في المنافقين، فقد كانوا تثقل عليهم خطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان.

وقيل: يتسللون خفية من الصف في الجهاد.

قوله: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) (أمره)، معناه سبيله ومنهاجه وشرعه، فقد حذر الله من مخالفة أمر رسوله بالخروج عن شريعته ومنهاجه - وقد توعّد المخالفين (أن تصيبهم فتنة) والفتنة يراد بها الكفر والانثناء عن سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - - وقيل: الزلازل والأهوال - وقيل: يبتليهم الله بسلطان جائر يُسلّط عليهم لفسقهم ومخالفتهم عن أمر الله وأمر رسوله (أو يصيبهم عذاب أليم) أي في الدنيا بالقتل أو الحد.

٦٤ - (أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: }ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم (٦٤){

كل شيء في الوجود مملوك لله - فأيما خلق من المخاليق في هذا الكون، الله مالكه - وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، لا يندّ عن علمه وملكوته شيء ولا خبر.

قوله: (قد يعلم ما أنتم عليه) (قد)، للتحقيق كسابقتها في قوله: (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) أي ان الله عالم بحالكم مطلع على أخباركم وأستاركم لا يخفى عليه شيء من أسراركم (ويوم يرجعون إليه) معطوفة على الجملة الفعلية السابقة (قد يعلم ما أنتم عليه) والمعنى: أن الله يعلم أخباركم، ويعلم اليوم الذي ترجع فيه الخلائق إليه فيجازيهم بأعمالهم.

قوله: (والله بكل شيء عليم) الله محيط علمه بالخلائق والكائنات، ويعلم أيان تقوم الساعة ومصائر العباد فيها - إنه عليم بحقائق الكون كله في الدنيا والآخرة ٩١.

٢٥ سورة الفرقان:

سورة الفرقان:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها في قول الجمهور - وقيل: باستثناء ثلاث آيات فهي مدنية - والسورة مبدوءة بهذه الآية العظيمة الذي يحمدُ الله فيها نفسه، إذ أنزل هذا الفرقان على رسوله لينذر به العالمين.

وفي السورة تنديد شديد بالجاهلين السفهاء الذين يذعنون بالعبادة لآلهة موهومة بلهاء لا تضر ولا تنفع - والذين جحدوا نبوة رسولهم الصادق الأمين وافتروا على كتاب الله الحكيم بالزور والباطل، فقالوا معاندين مكابرين: إنه أساطير الأولين - وأولئك الضالون السفهاء يعجبون أن يكون الرسول مبعوثا من جنس البشر فهم يستهجنون أن يتصرف الرسول كما يتصرف البشر، إذ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ظنا منهم أن الله لا يبعث رسله من غير الملائكة - ذلك ظن الجاحدين الراسخين في الضلالة والباطل، فهو بذلك ليس لهم من جزاء إلا السعير يُلقون فيها مقرّنين وهم يَدعون هنالك ثبورا - ثم يُرد عليهم بما يزيدهم تنكيلا وإياسا وحسرة (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا).

وفي السورة وعيد من الله للمشركين الظالمين بأن مصيرهم إلى النار والخسران، وأنهم نادمون بالغ الندامة على تفريطهم في دينهم وزيغهم عن صراط الله من غير أن تجديهم الندامة شيئا.

وفي السورة ذكر لعباد الرحمن وما يتجلى في أشخاصهم من جميل الخصال والسجايا مثل: التواضع والخشوع والاعتدال وإخلاص العبادة لله ودوام الدعاء لله بالنجاة والسلامة من عذاب النار - إلى غير ذلك من أخبار القيامة وما فيها من نوازل وأهوال.

١ - (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: }تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (١) الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذوا ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا (٢){ (تبارك)، يعني تمجد وتعظم وتقدس، وهو من البركة، أي التزايد في الخير - فالمعنى: تزايد خيره وعطاؤه وكثر - وهي كلمة يعظم الله فيها نفسه، فهو (الذي نزل الفرقان) (الفرقان) مصدر فرّق بين الشيئين إذا فصل بينهما - وسمي القرآن بالفرقان، لأنه يفصل بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام - وقيل: لأنه لم ينزل جملة واحدة بل نزل مفرقا على نجوم، مفصولا بين بعضه وبعض في الإنزال كقوله: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا).

قوله: (على عبده) أي نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - - وهذه صفة مدح وثناء من الله على رسوله عليه الصلاة والسلام - وذلك

بإضافته إلى العبودية لله - لا جرم أن أشرف أوصاف المرء كونه مذعنا لله بالعبودية وهي الخضوع لأمره والاستسلام لجلاله العظيم - ويشهد بهذه الحقيقة ثناء الله على رسوله في أكرم حالاته وأقدس ساعاته المباركات لما أسري به إلى السماء، وهو قول تكريما له وتبجيلا (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) وغير ذلك من مثله من الآيات كثير.

قوله: (ليكون للعالمين نذيرا) الضمير في (ليكون) عائد على (عبده) - وقيل على (الفرقان) - والأول أظهر لاستناد الفعل إليه؛ فهو (ص) نذير للعالمين؛ أي منذر لهم أو مخوف يبلغهم رسالة ربه ويدعوهم إلى عبادته وحده، ويخوفهم بطشه وانتقامه، ويتلو عليهم آيات الله البينات ذات الدلالات الواضحات والإعجاز المستبين - والمراد بالعالمين عموم الإنس والجن؛ فإن محمدا - صلى الله عليه وسلم - مرسل من ربه إلى الثقلين كافة - وهذه إحدى خصائصه عليه الصلاة والسلام.

٢ - (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)

قوله: (الذي له ملك السماوات والأرض) (الذي) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الذي - أو على أنه بدل من قوله: (الذي نزل) وذلك بيان من الله لا ريب فيه بأن كل شيء في الكون مملوك لله سبحانه؛ فهو وحده مالك كل شيء - وهو المنزه عن اتخاذ الولد أو الصاحبة؛ فليس له في ملكه شريك ولا نديد وهو قوله: (ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك).

قوله: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) الله خالق كل شيء ومحدثه: فما من شيء سوى الله إلا هو مخلوق لله ومربوب له (فقدره تقديرا) أي هيأه لما يصلح له دون خلل فيه أو اضطراب، كخلق الإنسان على هيئته هذه التي نراها - هيئته الوافية المنسجمة المتكاملة لتناط به التكاليف والمصالح في الدين والدنيا ١.

٣ - (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا)

قوله تعالى: {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا} ذلك تسفيه لأحلام المشركين الظالمين الذين ضلوا الطريق المستقيم - طريق الله الواحد، المتفرد بالألوهية والذي لا تنبغي العبادة لأحد غيره.

لكن هؤلاء التاعسين السفهاء قد عبدوا من دون الله آلهة مزعومة مصطنعة نحتوها من الحجارة فجعلوها تماثيل ظنوا أنها أرباب - وهي ليست غير أشباح وتماثيل (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) هذه التماثيل المزعومة، خلقها الله فأنى لها أن تخلق شيئا - فما من شيء يكون خالقا ومخلوقا البتة.

قوله: (ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا) ما يعبد الظالمون المشركون إلا تماثيل مصنوعة من الأحجار والأخشاب أو غير ذلك من المواد المحدثة؛ فهي كائنات جوامد لا تستطيع دفع الضر عن نفسها أو استجلاب النفع لها، فهي عاجزة جامدة خرساء.

قوله: (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) المراد بالموت هنا الإحياء، وبالحياة الإحياء، وبالنشور، البعث من القبور إلى حيث الحساب.

أي هذه الأصنام المعبودة من دون الله لا تملك أن تميت حيا أو تحيي موتا؛ لأنها من جملة المخاليق الموتى التي أحدثها الله؛ فهي بالغة العجز عن فعل شيء.

٤ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)

قوله تعالى: {وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا (٤) وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٥) قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما (٦)} المراد بالذين كفروا النضر بن الحارث - هذا الشقي الكفور الذي كان يتصدى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقرآنه المجيد، بما كان يثيره من الأقاويل والأباطيل والافتراءات - فقد كان النضر بن الحارث وأتباعه من المعاندين يختلقون الأكاذيب عن نبي الله ليثنوا عنه العرب، وليثيروا في نفوسهم الريبة فيما أنزل الله إليه من الآيات - فكانوا يقولون (إن هذا إلا إفك افتراه) والإفك، أسوأ الكذب؛ أي ما هذا القرآن إلا أكاذيب اختلقها محمد من عنده!!

قوله: (وأعانه عليه قوم آخرون) أي استعان محمد - صلى الله عليه وسلم - على الإتيان بهذا القرآن بقوم آخرين من اليهود علموه أخبار

السابقين - وقيل: المراد بقوم آخرين بعض الموالي والمستضعفين من غير العرب مثل عدّاس، مولى حويطب بن عبد العزى وغيره من الكتابيين الذين كانوا يقرأون التوراة ثم أسلموا.

قوله: (فقد جاءوا ظلما وزورا) الضمير يرجع إلى الذين كفروا، هؤلاء الطغاة المعاندون الأشقياء الذين يهرفون بالباطل والكذب مما ليس لهم فيه أدنى برهان، إنه افتراء واختلاق وزور تتقيؤه حناجر المجرمين التاعسين الضالعين في التعس والرجس، كالنضر وأمثاله من الشياطين في كل زمان - وهم يعلمون أنهم مبطلون كاذبون - فقال سبحانه في دفع مقالتهم: (فقد جاءوا ظلما وزورا) ذلك تنديد من الله بالغ بمقالة هؤلاء الأفاكين، ودفع لما قالوه وافتروه بأنه ظلم وزور - أما الظلم: فهو وضع الشيء في غير موضعه، فقد جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاما فذا بالغ الفصاحة، نكص دونه العلماء والعظماء من العرب، فأنى للأعاجم أن يصنعوا مثله؟.

وأما الزور: فقد بهتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما ليس فيه وهم يعلمون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان في غاية الصدق والأمانة والبراءة والرحمة والبر، فقد لبث فيهم أربعين سنة قبل بعثه حتى سموه لفرط صدقه وبره واستقامته: الأمين.

٥ - (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

قوله: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) (أساطير) جمع أسطار وأسطورة - والأساطير، أحاديث المتقدمين وما كانوا يسطرونه من القصص والخرافات.

قوله: (اكتتبها) يعني كتبها لنفسه - أو استكتبها، أي كتبها له كاتب، لأنه كان أميا (فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) أي تقرأ عليه أول النهار وآخره ليحفظها - وذلك من جملة ما كان يهذي به المشركون عنادا ومكابرة - وهم في قرارة أنفسهم وفيما بينهم موقنون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - صادق، وأنه مرسل من لدن إله حكيم، وأن ما جاءهم به لا نظير له في الكلام، وأنهم لا قبل لهم أن يصطنعوا شيئا مثله.

٦ - (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله: (قل أنزله الله يعلم السر في السماوات والأرض) أي قل لهم: إن الذي أنزل القرآن لهو علام الغيوب، الذي يعلم ما خفي من أسرار في العالمين ويعلم كل خبئ مستكن في السماوات أو الأرض - والقرآن قد تضمن من عجيب المعاني والأخبار والأسرار ما لم يكن يعلمه محمد - صلى الله عليه وسلم -، فلا جرم أنه تنزيل من رب العالمين.

قوله: (إنه كان غفورا رحيما) ذلك من لطف الله بالعباد، إذ يبين للظالمين المعاندين أنه ممهلهم فلا يعاجلهم العقوبة ليزدجروا ويتوبوا إلى ربهم فيغفر لهم ما أظهروه من الكفر والعصيان - وذلك من فضل الله على عباده ورحمته بهم، فإنه لا يعجل لهم العذاب بل يمهلهم ليتوبوا فإن تابوا وأنابوا نجوا، وإن لم يتوبوا باءوا الخسران وسوء المصير ٢.

٧ - (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)

قوله تعالى: (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا (٧) أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٨) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيل (٩) ا تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا (١٠) بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب الساعة سعيرا (١١) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٢) وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا (١٣) لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا (١٤)) الضمير في (وقالوا) عائد إلى المشركين من أهل مكة فقد سألوا- على سبيل الاستهزاء والتهكم- (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) (ما)، استفهامية في محل رفع مبتدأ - والجار والمجرور بعدها في محل رفع خبر المبتدأ - و (يأكل)، جملة فعلية حالية - وقد كتبت لام الجر مفصولة من مجرورها، وهو خارج عن قياس الخط ٣ - على أن استفهام المشركين مستهجن يهذي به الظالمون السفهاء، وهم يحفزهم إلى ذلك عتادهم وضلالتهم وهوان أحلامهم، إذ قالوا لرسول الله: ما لك وأنت مرسل من ربك تأكل الطعام وتقف بالأسواق متجرا ملتمسا المعاش والرزق؟ وتسميتهم له بالرسول ليس عن تصديق، بل على سبيل التهكم والسخرية - فقد قالوا: إن كان حقا نبيا، فما له يأكل الطعام كما نأكله نحن، ويتردد

في الأسواق من أجل العمل والاتجار كما نعمل ونتّجر؛ أي لزم أن يكون ملكا من الملائكة، ليكون مستغنيا عن السعي وطلب الرزق وتحصيل المعاش - وهذا هو مقتضى قوله: (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) رجعوا عن اقتراحهم بكونه ملكا إلى كونه إنسانا معه ملك يعزه في الإنذار والتبليغ والتخويف.

٨ - (أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا)

ثم رجعوا عن هذا الاقتراح كذلك إلى كونه مستغنيا بالمال يرفده به ربه، وهو قوله: (أو يلقى إليه كنز) أي يلقى إليه من السماء كنز يستغني به فلا يحتاج إلى التردد في الأسواق طلبا للرزق والمعاش - ثم رجعوا عن ذلك إلى كونه رجلا له بستان يأكل منه ويستغني به عن العمل والسعي، وهو قوله: (أو تكون له جنة يأكل منها).

قوله: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) المسحور، الذي غلب عقله السحر فجُنّ - والمراد بالقائلين، النضر بن الحارث وأتباعه من أكابر المجرمين الظالمين - فقد قالوا للناس: إنكم لا تتبعون إلا رجلا قد غلبه السحر - وهم يبتغون بمقالتهم المنكرة هذه أن يثبطوا الناس عن دين الله تثبيطا، ولينثنوا عن اتباع رسول لله فيشاقوه فيما جاءه به فينقلبوا مدبرين مستكبرين.

٩ - (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا)

قوله: (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) الأمثال يعني الأشباه.

أي قالوا فيك الأقوال واخترقوا لك الصفات الظالمة المكذوبة؛ إذ رموك بالسحر والكهانة والشعر والكذب (فضلوا) أي تاهوا عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) أي ليس لهم طريق إلى الحق، فحيثما سلكوا أو ساروا فإنهم تائهون عن الحق فلا يمضون إلا مترددين حائرين، يخبطون في الظلام والتيه خبطا.

١٠ - (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا)

قوله: (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) فقد روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خيّر: إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها، وإن شئت جمعناه لك في الآخرة فقال: يجمع لي ذلك في الآخرة - فنزل قوله: (تبارك الذي إن شاء) الآية - أي تكاثر وتزايد خيرا الذي إن شاء جعل لك خيرا مما قالوه واقترحوه - وهو أن يجعل الله لك من الجنات والقصور ما ليس لمثله نظير - ولكن يؤخره لك إلى يوم القيامة؛ لأنه خير وأنفع لك وأدوم.

والإشارة في قوله: (ذلك) عائدة إلى ما ذكره المشركون من الجنة والكنز في الدنيا.

قوله: (جنات تجري من تحتها الأنهار) (جنات)، بدل من قوله: (خيرا) أو منصوب بإضمار الفعل أعني، وجملة (تجري من تحتها الأنهار) صفة ٤.

قوله: (ويجعل لك قصورا) بإدغام لام (ويجعل) في لام (لك) وهو معطوف على محل الجزاء - والتقدير: إن يشأ يجعل.

١١ - (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا)

قوله: (بل كذبوا بالساعة) أي لم يمنعهم من تصديقك والإيمان بدعوتك كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، بل منعهم تكذيبهم بقيام الساعة.

وذلك هو السبب الرئيسي في عداوة المشركين وكيدهم للمسلمين - وهو أنهم جاحدون مكذبون بيوم الدين فلا يجدون بعد كفرانهم هذا أيما غضاضة في التمالؤ على المسلمين والكيد لهم وإيذائهم أشد الإيذاء - وبذلك فإن انتفاء الإيمان من قلوب المجرمين جعلهم يرغبون في الكيد للمسلمين ليسوموهم البلاء والتنكيل كلما استطاعوا.

قوله: (واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) ذلك وعيد شديد من الله للمجرمين المكذبين بالساعة، بما أعده وهيأه لهم من عذاب السعير - وهي النار الحارقة المضطرمة، شديدة الاستعار

١٢ - (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا)

{إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا} يعني إذا كانت النار من المجرمين بمرأى الناظرين في البعد؛ أي كانت من البعد

بقدر ما يرى الرائي سمعوا صوت تغيظها وزفيرها - والمراد صوت غليانها - وقيل: إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا لفرط غضبهم عليهم - وذلك يكشف عن فظاعة الهول الذي ينتظر المجرمين يوم القيامة، إذ يواجهون النار ليكبكبوا فيها.

١٣ - (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا)

قوله: (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) (مكانا)، منصوب على الظرف و (منها)، في محل نصب على الحال - و (مقرنين)، منصوب على الحال أيضا ٥.

والمعنى: إذا ألقوا من النار في مكان ضيق، لزيادة تعذيبهم، فإن الكرب مع الضيق، كما أن الراحة مع السعة، فالمجرمون تضيق عليهم النار ليزدادوا نكالا وفوق ذلك فإنهم يكونون (مقرنين) أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل فيا لهول المنظر الرعيب الذي ترتعد منه الفرائص، ونحن نتخيل حال المجرمين الفظيعة وهم في الأصفاد والسلاسل مقيدون ليقذفوا في النار.

قوله: (دعوا هنالك ثبورا) (ثبورا)، مفعول به - أي يقولون: يا ثبوراه ٦ أي تعال يا ثبور فهذا أوانك - والثبور معناه الهلاك - وقيل: الويل - والصحيح أن الثبور يجمع الهلاك والويل والعذاب والخسار - فهم يصطرخون في النار وينادون مذعورين آيسين: الهلاك والويل والخسران - وذلك في حالة من اشتداد الكرب واليأس والتنكيل مما لا تتصوره العقول ونسأل الله النجاة والسلامة.

١٤ - (لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا)

ثم يقال لهم في تقريع وتعنيف: {لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} أي وقعتم فيما هو ليس ثبورا واحدا بل إنه ثبور كثير - أو لا تقتصروا على حزن واحد بل احزنوا حزنا كثيرا - وذلك لديمومة العذاب، فهو مستديم ومتجدد ٧.

١٥ - (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا)

قوله تعالى: {قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا (١٥) لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسؤولا (١٦)} الاستفهام على سبيل التقريع والتوبيخ والتهكم.

والإشارة بقوله: (أذالك) عائد إلى صفة النار والعذاب الفظيع الذي تبين في الفقرات السابقة، أي هل ذلك خير أم جنة الخلد التي وعدها الله عباده المؤمنين المتقين إذ جعلها لهم جزاء وعاقبة، أي عاقبة لنجاة وحسن الثواب بما قدموه من طاعة لله.

١٦ - (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا)

قوله: (لهم فيها ما يشاءون خالدين) أعد الله للمؤمنين المتقين كل ما يبتغونه من أنواع النعيم وهم يهنأون في الجنة ماكثين خالدين، لا يظعنون ولا يتحولون.

قوله: (كان على ربك وعدا مسؤولا) اسم كان هو ضمير ما يشاءون - وقيل: يعود على الوعد المستفاد من قوله: (وعد المتقون) ٨ و (مسؤولا)، أي يسأله الناس في دعائهم، إذ كانوا يقولون (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) أو الملائكة يدعون الله للمؤمنين بدخول الجنة والنجاة من النار ٩.

١٧ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)

قوله تعالى: {ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧) قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (١٨) فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا (١٩)} أي واذكر حين يجمع الله ليوم الحشر الظالمين الذين عبدوا آلهة من دون الله، ويحشر معهم معبوديهم في الدنيا وهم الملائكة وعزير والمسيح - وقيل: يحشر جميع المعبودين من العقلاء وغير العقلاء كالأصنام، إذ ينطقها الله يوم القيامة - والمعنى الأول أظهر.

قوله: (فيقول أأنتم أظللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) (هؤلاء) نعت لعبادي - أو بدل ١٠ - أي يسأل الله المعبودين من الملائكة والإنس على سبيل التبكيت للعبدة المشركين، وزيادة لهم في التحسر: أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال حتى زاغوا عن صراطي

بما فتنتموهم به من أسباب الغواية والتضليل والفتنة، أم أنهم ضلوا عن صراطي من تلقاء أنفسهم؟
١٨ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا)
قوله: (قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء) (سبحانك)، ننزهك عن الأنداد والشركاء - ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نحمل أحدا على عبادتنا دونك بل أنت المعبود دون سواك، ونحن لك عابدون مستسلمون - وذلك إعلان منهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة أنهم مبرأون من إضلال المشركين، مستعيذين بالله أن يكونوا من المضلين.
قوله: (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) لكن، حرف استدراك - فقد ذكروا سبب ضلال هؤلاء المشركين، هو أنك يا ربنا متعتهم وآباءهم بالأموال والأولاد وأعطيتهم ما راموا من نعم الحياة الدنيا حتى أوغلوا في الشهوات والملذات فانشغلوا بذلك عن ذكر الله وعن منهجه ودينه (وكانوا قوما بورا) (بورا) - جمع بائر - وقيل: مصدر في الأصل، فيستوي فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث - وهو من البوار ومعناه الهلاك - وقيل: من الفساد - وقال الحسن البصري: هو من قولهم: أرض بور؛ أي لا نبات بها - وهو يرجع إلى معنى الهلاك والفساد وهذه حقيقة المجرمين أولي الطبائع الملتوية، الذين فسدت فيهم الفطرة أيما فساد فباتوا لا يتقبلون الحق أو الصواب ولا يروق؛ لأنفسهم منهج الله المستقيم وإنما تروق لهم مناهج الباطل والضلال - مناهج الكفر والظلم والزيغ عن سواء السبيل - وأولئك هم الضالون الذين أعطيت فيهم النفس والفطرة فانقلبوا منكوبين بورا لا خير فيهم ولا يرتجى لهم الصلاح والسداد.
١٩ - (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)
قوله: (فقد كذبوكم بما تقولون) وهذا من قول الله للمشركين موبخا لهم ومقرّعا؛ أي كذبكم الذين عبدتموهم من دون الله بقولكم إنهم أولياؤكم من دون الله، وإنهم يقربونكم إلى الله زلفى.
قوله: (ما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أي فما تستطيعون بعد ذلك صرف العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم.
قوله: (ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) الظلم معناه الشرك - وذلك وعيد من الله لمن يتلبس بشرك وهو أن يجعل المخلوق شريكا للخالق في العبادة - ومن فعل ذلك فقد باء بالعذاب الوجيع وهو الخلود في النار ١١.
٢٠ - (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)
قوله تعالى: (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا (٢٠)}.
جملة (إلا أنهم ليأكلون) في محل نصب صفة لمفعول محذوف تقديره: وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين - وقيل: الجملة في محل نصب على الحال - والتقدير: إلا وإنهم - فقدرت معها الواو بيانا للحالية.
وقد كسرت إن، لوجود اللم في خبرها ١٢.
وذلك احتجاج على المشركين الخاطئين بزعمهم أن الرسول لا يأكل كما يأكلون ولا يمشي في الأسواق متكسبا متجرا كما يمشون - وهو كذلك تسلية من الله لرسوله (ص)؛ إذ يخبره أن النبيين الذين أرسلهم من قبله لهداية الناس ما كانوا إلا بشرا يأكلون الطعام كما يأكل الناس، ويمشون في الأسواق طلبا للرزق والمعاش كما يفعل الناس - فليس في ذلك ما يثير التعجب أو الاستهجان - فالنبيون من جنس البشر يأكلون كما يأكلون وينامون كما ينامون، ويموتون كما يموتون - لكنهم مع صفاتهم الآدمية هذه؛ فإنهم أناس أفذاذ مصطفون مميزون بخصائص جليلة فيها من عظيم السمات النفسية والروحية والخلقية ما لا يبلغ دون معشاره البشر.
إن النبيين والمرسلين قد أوتوا من حظوظ الكمال الخلقي والخلقي، والجمال الروحي والفطري ما يسمو بهم فوق مستويات الناس كافة؛ فهم بذلك أخيار وأبرار وأطهار قد اصطفاهم الله على العالمين - بما بث في كينونتهم وفطرتهم من رسوخ الإيمان والتقوى، وجلال الطبع الرهيف الرفاف، بما ينبغي القطع في يقين أن هؤلاء نخبة مختارة مصطفاة للوحي والرسالة.

قوله: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) الفتنة، البلاء والمحنة - وهذا تصبير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما قاله المشركون واستهجنوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد أن احتج الله عليهم بسائر المرسلين؛ إذا كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وهم مرسلون من ربهم لهداية الناس.

على أن الحقيقة الراسخة هنا هي جعل الله الناس بعضهم لبعض فتنة - فقد ابتلى بعضهم ببعض - كما ابتلى أو امتحن الفقراء بالأغنياء، والمرضى بالأصحاء، والأغنياء بأولي الفطانة الأذكياء، ابتلى العلماء بالجهلاء، مثلما ابتلى النبيين المرسلين الذين بعثهم الله لهداية الناس، ولإخراجهم من ظلام الباطل والضلال إلى نور الحق واليقين والفضيلة -ابتلاهم الله بالذين أرسلوا إليهم من الأمم الضالة الفاسقة الذين اسكتبروا وأعرضوا عن دين الله فناصبوا رسلهم العداء وآذوهم شر إيذاء، ووضعوا في طريقهم الأشواك والمعوقات - لا جرم أن ذلك ابتلاء من الله امتحن به عباده الأبرار من النبيين والمرسلين.

وكذلك الذين يدعون إلى الله مخلصين على بصيرة؛ فإنهم يصطدمون غالبا في طريقهم بالمثبطين المعوقين من الناس الذي يروق لهم العيش في الفسق والفحش والرذيلة، والذين لا يرغبون لمنهج الله أن يشيع أو يذيع - أولئك شرار الناس الذين مردت نفوسهم على الهوى والباطل والتلبس بالكفر والعصيان، وقد ابتلى الله بهم المصلحين من المسلمين الذين يأمرون الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر - وبذلك فإن الناس، بعضهم لبعض فتنة، فما من أحد في الغالب إلا هو فتنة لغيره - القوي فتنة للضعيف، والطيب فتنة للخبيث، والنشيط فتنة للعاجز المتثاقل، والمحسود فتنة للحسود - فكل مفتون بغيره - والمفلح من نجاه الله من الفتنة ودفع عنه أذى الأشرار وجعله من الصابرين الأخيار - جعلنا الله بفضله ورحمته منهم.

قوله: (أتصبرون) الاستفهام بمعنى الأمر؛ أي اصبروا - أو أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا أم لا تصبرون فتزدادوا اغتماما؟ على أن هذه الجملة الاستفهامية ذات الإيقاع الخاص المؤثر، تتضمن من التحريض على الصبر ما يكشف عن الأهمية البالغة لهذه الخصلة الفضلى وهي الصبر - ويكشف عن درجة التكريم التي يحتلها الصابرون على البلاء والمحن من أذى الأشرار، وسفه الجاهلين، وحسد الحاسدين، ونحو ذلك من ضروب المحن.

قوله: (وكان ربك بصيرا) الله عليم بأحوال الناس وبما يستكن في قلوبهم من مختلف الطوايا والمقاصد - وعليم بالذين يصبرون على البلايا والمحن مما يكيده لهم الظالمون على اختلاف صفاتهم، ويعلم الذين لا يصبرون فيجزعون عند مواجهة الفتن.

٢١ - (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)

قوله تعالى: {وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (٢١) يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا (٢٢) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٢٣) أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (٢٤)} يقول الكافرون الذين لا يرجون لقاء الله؛ أي لا يأملون لقاءه بالخير بسبب كفرهم بالبعث وإنكارهم يوم القيامة (لولا أنزل علينا الملائكة) أي هلا أنزل علينا الملائكة فيكونوا رسلا إلينا من دون البشر فنراهم عيانا - أو أنهم يشهدون بصدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه مرسل حقا من ربه (أو نرى ربنا) اشترطوا لإيمانهم بنبوة رسول الله، أن يروا الله جهرة فيخبرهم بصدق رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم -، ويأمرهم باتباعه - لا جرم أن ذلك طغيان فادح وشنيع لا يهوي إلى منزلقه إلا العتاة المتجبرون من أكابر العصاة والمجرمين - فقال الله في حقهم: (لقد استكبروا في أنفسهم) لقد أضمروا في أنفسهم من الاستكبار ما بلغوا به غاية الكفران والمعاندة (وعتوا عتوا كبيرا) (عتو)، مصدر - والعتو، شدة الطغيان ومجاوزة الحد في الظلم؛ أي أنهم كفروا وأفحشوا في الجحود والتمرد - وغالوا في الظلم والعصيان ما تجاوزوا به كل تصور من تصورات الضلال والباطل.

٢٢ - (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا)

قوله: (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) (يوم) منصوب بفعل تقديره: اذكر - والمراد باليوم هنا ساعة الاحتضار وهو الموت - وقيل: حين تقوم القيامة (لا بشرى يومئذ للمجرمين) أي لا يرى المجرمون الملائكة في يوم خير لهم - بل يرونهم عندما يبشرونهم

بالنار والويل وسوء المصير.
والمعنى: اذكر حين يرى المكذبون ملائكة الموت أو العذاب يوم القيامة فلا بشرى حينئذ لهم، أي يمنعون التبشير بالفوز أو النجاة.
قوله: (ويقولون حجرا محجورا) والحجر، مصدر وهو المنع - ويأتي الحجر بمعنى العقل؛ لأنه يمنع صاحبه - و (محجورا)، تأكيد المعنى الحجر ١٣؛ أي تقول لهم الملائكة: حراما محرما عليكم البشرى بالخير أو الفلاح - وإنما البشرى للمؤمنين؛ إذ تستقبلهم الملائكة بما يسرهم ويبهجهم من البشائر الحسنة.
٢٣ - (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)
قوله: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} (قدمنا) من القدوم - والقدوم الحقيقي لا يجوز في حق الله - وإنما المراد به هنا إنفاذ أمره وحكمه في أعمال الكافرين التي عملوها حال كفرهم، من صلة رحم وإغاثة ملهوف وإتحاف ضيف وعون مضطرب وغير ذلك من وجوه المكارم وأفعال الخير، فإنها جميعا لا تنفعهم عند الله وليس لهم في مقابلتها من أجر ولا مثوبة - وهو قوله: (فجعلناه هباء منثورا) الهباء معناه التراب الدقيق وهو مثل الغبار الداخل في الكوّة يتراءى مع ضوء الشمس - والمنثور معناه المفرّق - نثرت الشيء أي فرّقته - وقال ابن عباس: الهباء المنثور: ما تُسفي به الرياح وتبثه.
وحاصل ذلك: التنبيه على المقصود من الآية وهو أن الكافرين والمنافقين والمرائين يعملون الأعمال النافعة في الدنيا وهم يعتقدون أنهم على شيء - لكن أعمالهم في ميزان الله لا تساوي شيئا بالكلية، فقد شبّهت بذرات التراب أو الرماد المفرّق المبعثر في الهواء، والذي لا يقدر صاحبه منه على شيء لفرط حقارته وهوانه.
والأصل في ذلك كله: أن قبول الأعمال مرهون بشرطين أساسيين:
أحدهما: الإخلاص لله فيها، وهو أن يبتغي صاحب العمل بعمله مرضاة الله - فإن ابتغى غير ذلك كان رياء فهو بذلك متدرج في دائرة الحبوط والبطلان.
وأما الشرط الثاني: فهو موافقة الشرع، فأيما عمل مخالف للشرع كان مردودا - وذلك للخبر: " كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد " وأعمال الكافرين لا تخلو من انعدام أحد الشرطين أو كليهما - وأعتى من ذلك وأنكى، كفرانهم برسالة الإسلام وتكذيبهم نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فأنى لهم أن يتقبّل الله لهم عملا؟!.
٢٤ - (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا)
قوله: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} (مستقرا) و (مقيلا)، كل منهما تمييز منصوب - والمستقر مكان الاستقرار في أكثر الأوقات من أجل المجالسة والحديث.
وأما المقيل: فهو المكان الذي يأوي فيه المؤمنون للاسترواح إلى الأزواج - وهذه حال المؤمنين في الجنة، إذ يصيرون إلى الدرجات العاليات من الجنة حيث النعيم والراحة وطيب المقام - بخلاف الكافرين الذين يصيرون إلى الخسار حيث النكال والنار، ساءت مستقرا ومقاما ١٤.
٢٥ - (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا)
قوله تعالى: {ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (٢٥) الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوما على الكافرين عسيرا (٢٦) ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيل (٢٧) ا يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليل (٢٨) ا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا (٢٩)}.
ذلك إخبار من الله عن بعض أهوال القيامة - وهي أهوال مثيرة تعانيها البشرية إيذانا بفناء الحياة الدنيا وقيام الساعة - وذلك ما تكشف عنه هذه الآيات البينات (ويوم تشقق السماء بالغمام) الغمام، معناه السحاب - والباء يراد بها السببية، أي بسبب الغمام - يعني بسبب طلوعه - وقيل: للحال، أي متلبسة بالغمام ١٥.
والمعنى: اذكر يوم تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها، أو حال كونها متغيمة (ونزل الملائكة تنزيلا) أي ينزلون إلى الأرض وفي أيديهم صحائف أعمال العباد - أو لوقوع الحساب والجزاء.

٢٦ - (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)
قوله: (الملك يومئذ الحق للرحمان) قيل في إعراب ذلك عدة وجوه أظهرها: (الملك) مبتدأ - (يومئذ) ظرف - (الحق) نعت للملك - (للرحمان)، خبر ١٦ - و (الحق)، معناه الثابت - ذلك أن كل ملك لغير الله يزول - وإنما المالك يومئذ هو الله وحده، والناس محشورون شاخصون واجمون لا يملكون شيئا إلا الهوان وطول التربص والتحسر واشتداد الخوف من هول الموقف - وهو قوله: (وكان يوما على الكافرين عسيرا) والمراد باليوم - وقفة المحشر انتظارا للحساب ومعاينة الموازين، وما يتخلل ذلك من فظاعة الكرب واشتداد الضيق والبلاء.
ويُفهم من تعسير هذا اليوم على الكافرين، تيسيره على المؤمنين؛ إذ يهوّنه الله عليهم تهوينا.
٢٧ - (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا)
قوله: (ويوم يعض الظالم على يديه) (يعض) بفتح العين، وهو مضارع عضّ، من العض - وهو كناية عن شدة الغيظ والحسرة ١٧ وقيل: مجاز، عبّر به عن التحير والاغتمام والندم والتفجع من شدة ما يجده من الأهوال - واللام في الظالم للعهد، والمراد به عقبة بن أبي مُعيط - هذا التاعس الظلوم الذي آذى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد إيذاء فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: " لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف " فقتل يوم بدر صبرا؛ إذ أمر عليا فضرب عنقه.
وقيل: اللام للجنس، ليشمل اللفظ عموما الظالم - فأيما مشرك زاغ عن طريق الله واستنكف عن منهجه الحكيم العدل فقد ظلم نفسه وهو من الظالمين - وكذلك الذي يوشك أن يهتدي ويجنح إلى الإسلام ثم يفتنه غيره من المجرمين المضلين ليغويه ويضله عن الحق؛ فإنه في زمرة النادمين يوم القيامة الذين يعضون على أيدهم من فرط ما يجدونه من شديد الحسرة والحزن والندم والخسران.
قوله: (يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) الجملة في موضع الحال؛ أي قائلا يا ليتني - والمعنى: أن الظالم الذي خسر نفسه يوم القيامة وأيقن أنه من أهل النار، يتمنى حينئذ لو سلك طريق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو الإسلام فيكون مع المفلحين الآمنين الذين يصيرون إلى السلامة والنجاة - وهذه هي حال الأشقياء الخاسرين يوم القيامة الذين غرتهم الحياة الدنيا بلذائذها وزخارفها، وغرهم الشيطان من الجن والإنسان؛ إذ سوّل لهم الكفران والعصيان وفعل المنكرات.
٢٨ - (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا)
قوله: {يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا} وقرئ (يا ويلتي)، بالياء وهو الأصل - وذلك أن الرجل ينادي: ياويلته - وهي هلكته، يقول لها: تعالي فهذا أوانك (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) وسواء كانت أل للعهد أو للجنس، فالمراد الذي صرف هذا الخاسر النادم عن دين الله ففتنه فتنة ساقته إلى الضلالة والمعصية ثم أودت به إلى النار وسوء المصير - وحينئذ تجتاحه الحسرة والندامة، متمنيا- دون جدوى- أن لو لم يتخذ هذا المضل الذي أضله وأغواه (خليلا) أي جليسا وصديقا.
٢٩ - (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا)
قوله: (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) يقول في ندامة وتحسر وإياس: لقد أغواني المضلون من شياطين الجن والإنس؛ إذ أعموني عن الذكر وهو القرآن أو الإسلام بعقيدته السمحة وتشريعه الكامل ومُثُله وقيمه وتعاليمه الجليلة في الأخلاق والسلوك - أعماني الشيطان من الجن والإنس عن حقيقة الإسلام بعد أن جاءني من الله، وذلك بما سوّله لي من مناهج الكفر والباطل فأضلني إضلالا موبقا.
قوله: (وكان الشيطان للإنسان خذولا) من الخذلان وهو التخلي عن الخاسر في المهالك بعد إضلاله - وذلك هو ديدن الشيطان من الجن والإنس؛ فإنه يفتن الإنسان المغرور المضلل بمختلف الأساليب حتى إذا أغواه وأودى به في الخسران والمهالك تركه وحيدا يلاقي مصيره التاعس المظلم ١٨.
٣٠ - (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا)
قوله تعالى: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا (٣٠) وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا (٣١) يخبر الله تعالى عن شكاية رسوله (ص) في الدنيا وعن بثّه إليه مما لقيه من قومه من شديد الهجر والصد والاستنكاف

- فقد كان المشركون لا يُصغون للقرآن ولا يستمعونه - بل كانوا إذا تليت عليهم آياته ألغوا فيه؛ أي أكثروا اللّغط والكلام الصاخب المختلط لدى تلاوته كيلا يُسمع ولا يُفهم - وهو قوله: (إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا)
(مهجورا)، مفعول ثان - أو حال - وهو من الهجر؛ أي الترك والبُعد - وذلك بمختلف الأساليب التي تفضي إلى هجران القرآن - ويشمل ذلك كل وجوه الترك والابتعاد، كترك العمل به، وعدم امتثال أوامره والعدول إلى غيره من الملل والشرائع والنظم التي بنيت على الأهواء والشهوات والماديات - وفي ذلك إقصاء للقرآن وتعاليمه ونظمه وروائعه عن حياة البشر ليستعاض عنه بغيره من ضروب الكفر وهي كثيرة ومختلفة وفاسدة.
ذلك هو شأن الضالين المخدوعين من أبناء المسلمين الذين غرتهم المادية الحديثة ببريقها اللامع وسرابها الساطع المخادع - المادية الحديثة الضالة التي أغرقت البشرية في أوحال الرجس والدنس والظلم - وأطفأت فيها كل أثر لنسمة الروح المشعة في الإنسان، ومسخت فيها براءة الفطرة الأصيلة حتى تحولت الإنسانية بذلك إلى أشتات من الأسر المضطربة والبيوت المتداعية الخاوية، والطبائع التي طغت عليها الغرائز واستحوذت عليها الأنانيات وعبادة الذات والشهوات.
تلك هي البشرية المضطربة المترنحة الضالة التي هجرت منهج القرآن إلى مناهج الضلال والباطل - وهي لا تفتأ تضطرب وتضل حتى تسقط في الهاوية أو تفيء إلى القرآن بعقيدته وتعاليمه وروائعه - وثمة الأمن والاستقرار والنجاة.
٣١ - (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

قوله: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) ذلك إيناس من الله وتسلية لرسوله الكريم (ص)، إذ كان مبتلى بقومه المعاندين - والله جل وعلا يواسيه ويؤنسه بإخباره أن كل نبي من قبلك كان مبتلى بعداوة المجرمين الذين يفتنون الناس ليضلوهم عن صراط الله المستقيم ويبعدوهم عن دينه الحق القويم - فليس على المؤمنين الداعين إلى الله إذا ألمت بهم الشدائد وعداوة المجرمين المضلين إلا أن يتضرعوا إلى ربهم مبتغين منه النصر والتأييد والتثبيت على الحق (وكفى بربك هاديا ونصيرا)، منصوبان على الحال أو التمييز ١٩؛ أي يكفيك أن يكون الله هاديا لك إلى طريق الحق وناصرك على القوم المجرمين وقاهر الذين يحادونك ليكونوا في الأذلين الخاسرين ٢٠.
٣٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)
قوله تعالى: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣) الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا (٣٤)}.
هذه الآية جاءت ردا لمقالة المشركين من قريش واليهود إذا اعترضوا قائلين (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) (جملة)، منصوب على الحال من القرآن، أي مجتمعا - يعني هلا أنزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة وفي وقت واحد كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب السماوية، فلم ينزل منجما على التفاريق - لا جرم أن هذا اعترضا جهول وتعنت بالغ الإسفاف، فضلا عن كونه ضربا من الاعتراض الفضولي الفارغ، الذي لا طائل تحته وليس من ورائه أيما فائدة معتبرة.
ويُحتج على هؤلاء المعاندين الجهلة بأن الإعجاز في القرآن لا يختلف بنزوله جملة واحدة - فيستوي في كونه معجزا أن ينزل مفرقا على نجوم، أو أن ينزل دفعة واحدة - بل إن نزوله مفرقا على نجوم أظهر في الإعجاز وأبلغ في الدلالة على كونه من عند الله - ووجه ذلك: أنهم كانوا مطالبين بمعارضة سورة واحدة من القرآن أيا كانت هذه السورة - فلو نزل جملة واحدة وطُولبوا بمعارضته لكانوا أشد عجزا منهم حين طولبوا بمعارضة سورة واحدة فعجزوا.
قوله: (كذلك لنثبت به فؤادك) الكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف - والإشارة عائدة إلى التفريق - وقيل: الكاف في محل نصب على الحال؛ أي أنزل مثل ذلك التفريق (لنثبت به فؤادك) اللام للتعليل - أي لنقوي بتفريقه فؤادك لكي تعيه وتحفظه - فالمتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء وجزءا عقيب جزء - ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه - ومن أجل ذلك نزل عليه منجما في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين - فكان ينزل عليه حسب الحوادث وأجوبة للسائلين.
قوله: (ورتلناه ترتيلا) الترتيل: التفريق ومجيء الكلمة بعد الأخرى بسكون يسير دون قطع النفس - أو التبيين والتفسير في ترسل

وثبت.
٣٣ - (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)
قوله: {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} أي لا يأتونك بشبهة أو سؤال أو حجة، ولا يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أتيناك بالجواب الحق ثم هو أوضح بيانا وتفصيلا.
٣٤ - (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلا)
قوله: {الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا} (الذين)، خبر لمبتدأ محذوف - أي هم الذين - ويجوز نصبه على الذم.
ويجوز أن يرتفع بالابتداء، وخبره الجملة من قوله: (أولئك شر مكانا) ٢١ وذلك إخبار من الله عن حال المجرمين وتعسهم وسوء مصيرهم يوم القيامة بما كذبوا الله وجحدوا قرآنه واعترضوا عليه بسخيف الاعتراضات، كقولهم: هلا أنزل دفعة واحد - فأولئك يلاقون سوء العذاب، والتنكيل الفظيع وهو قوله: (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم) وحشرهم على وجوههم أن يسحبوا على وجوههم سحبا وهم يساقون إلى جهنم زيادة في التنكيل الفظيع.
قوله: (أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) هؤلاء المجرمون المكذبون والمعترضون الذين يظنون خاطئين أنهم راشدون وأنهم على طريق مستقيم- هم شر مسكنا ومنزلا وأخطأ طريقا؛ فهم بذلك يسحبون على وجوههم إلى النار ٢٢.
٣٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)
قوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا (٣٥) فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا (٣٦) وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذابا أليما (٣٧) وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا (٣٨) وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا (٣٩) ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا (٤٠)}.
ذلك وعيد من الله للمشركين المكذبين الذين جحدوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، واعترضوا على كيفية نزول القرآن بالاعتراض الفاسد، غير ذي الأهمية أو المعنى يتوعد الله هؤلاء الضالين المضلين ويحذرهم من عقابه الأليم في الدنيا قبل الآخرة، كالذي حل بالأمم الضالة من السابقين الأولين، كقوم موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وآخرين غيرهم من الأمم الماضية التي فسقت عن أمر الله - وهو قوله سبحانه: (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة لتكون للناس هداية ونورا (وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) (هارون) بدل أو عطف بيان.
(وزيرا)، مفعول ثان ٢٣ والوزير من الوزر وهو الملجأ والثقل؛ فقد جعل الله مع موسى أخاه هارون ليكون نبيا موازرا ومؤيدا وناصرا؛ أي يوازره في الدعوة إلى الله.
٣٦ - (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)
قوله: (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) أمرهما ربهما أن يذهبا إلى فرعون وقومه من القبط لتبليغهم رسالة الحق، ولتحذير فرعون من سوء صنيعه في قومه؛ إذ أذلهم إذلالا، وعبّد بني إسرائيل شر تعبيد فذبّح أبناءهم واستحيي نساءهم - وأعتى من ذلك وأفظع دعواه الألوهية لنفسه - وذلك طغيان شنيع ليس بعده طغيان.
أما موسى وأخوه هارون فقد بادروا الذهاب إلى فرعون وملئه دون تردد أو إبطاء فأبلغاهم دعوة الله ناصحين محذرين - لكن القوم كذبوا واستكبروا وعتا فرعون عتوا كبيرا فأخذهم الله بالعذاب المهين وهو قوله: (فدمرناهم تدميرا) أي أهلكهم الله شر إهلاك؛ إذ أغرقهم في البحر إغراقا.
٣٧ - (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله: (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم) (وقوم) منصوب بمضمر تقديره اذكر - فقد بعث الله نوحا إلى قومه المشركين الظالمين فلبث يدعوهم إلى الله وحده ألف سنة إلا خمسين عاما - وقد لقي خلال هذه المدة الطويلة من ألوان الصد والقهر والإيذاء ما لا يحتمله غير المصطفين الأخيار من البشر، كنوح عليه الصلاة والسلام، فضلا عن تكذيبهم وإعراضهم عن دين الله الحق - وهو قوله: (لما كذبوا الرسل) وتكذيبهم واحدا من المرسلين يعني تكذيبهم لسائر النبيين - ووجه ذلك هو وجوب الإيمان بالنبيين أجمعين.

وتكذيب أحدهم إنما هو تكذيب بالجميع - ولما كذبوا أغرقهم الله في الطوفان؛ إذ الماء من السماء نازل منهمر، ومن الأرض دافق متفجر؛ فصارت الأرض بحرا هادرا هائجا تتلاطم فيه الأمواج العاتية الهائلة فغرّقهم الله أشنع تغريق.

قوله: (وجعلناهم للناس آية) أي جعل الله من قوم نوح ومهلكهم عبرة تتذكرها الأمم فتعتبر وتزدجر.

قوله: (واعتدنا للظالمين عذابا أليما) أي أعددنا وهيأنا للظالمين وهم قوم نوح (عذابا أليما) وهي النار؛ فهم بذلك مُعاينون العذاب في كلتا الدارين - دار الدنيا حيث الطوفان والتغريق والخزي - ثم الدار الآخرة حيث النار اللاهبة المستعرة.

٣٨ - (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)

قوله: (وعادا وثمودا وأصحاب الرس) (عادا) معطوف على قوم نوح - وقيل: معطوف على الضمير، هم، مفعول (وجعلناهم) - وأصحاب الرس، قوم ثمود؛ لأن الرس، البئر التي لم تطو - وقيل: إنهم أناس عبدة أصنام قتلوا نبيهم ورسوه في بئر - أي دسوه فيه ٢٤ وقيل غير ذلك في حقيقة أهل الرس.

وخلاصة القول فيهم أنهم ظالمون كذبوا نبيهم ثم قتلوه فأهلكهم الله ودمّر عليهم شرّ تدمير.

قوله: (وقرونا بين ذلك كثيرا) (ذلك)، إشارة إلى الذين تقدم ذكرهم من الأمم؛ أي ثمة أمم كثيرة بين هؤلاء المذكورين قد كذبوا وعتوا فأهلكهم الله بكفرهم وعصيانهم.

٣٩ - (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا)

قوله: {وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا} (كلا)، منصوب بفعل يفسره ما بعده؛ أي وحذرنا كلا أو ذكّرنا كلا - (كلا) الثانية مفعول به مقدم للفعل (تبرنا) أي بينا لكل أمة من هذه الأمم القصص العجيبة من قصص الأولين ووصفنا لهم عاقبة تكذيبهم أنبياءهم ليتدبروا أو يتعظوا ويهتدوا من ضرب الأمثال لكنهم لم يعتبروا ولم يزدجروا فأهلكناهم إهلاكا.

٤٠ - (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا)

قوله: (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) (مطر)، مفعول ثان - وقيل: مصدر محذوف الزوائد؛ أي إمطار السوء - وقيل: صفة لمصدر محذوف؛ أي مطرت إمطارا مثل مطر السوء ٢٥ ويخبر الله بذلك عن قريش أنهم كانوا يمرون على سدوم من قرى قوم لوط في سفرهم متاجرين إلى الشام - وكانت قراهم خمسا - أعظمها سدوم - وقد أهلك الله منها أربعا وبقيت واحدة لم يكن أهلها يعملون الخبائث وهو قول ابن عباس - و (مطر السوء) يعني الحجارة التي أمطرت عليهم من السماء فهلكوا.

قوله: (أفلم يكونوا يرونها) استفهام تعجيب؛ أي فلم ينظروا إلى آثار هؤلاء الهلكة الذين دمّر الله عليهم، فيتعظوا ويعتبروا (بل كانوا لا يرجون نشورا) بل كانوا كفرة مجرمين لا يؤمنون بالبعث ولا يصدقون بيوم الدين فلم ينظروا ولم يتفكروا أو يتدبروا ٢٦.

٤١ - (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا)

قوله تعالى: {وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا (٤١) إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٤٢) أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤)} (إن)، حرف نفي - و (هزوا)، مفعول به ثان ٢٧ - والله جل وعلا يخبر عن المشركين الضالين أنهم كانوا إذا رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سخروا منه وعابوه انتقاصا لقدره وازدراء بمقامه

الكريم - مع أنهم موقنون في أعماق قلوبهم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - صادق وأنه كريم قد ميزه الله بخصائص جليلة لا نظير لها في الرجال - وهذه حقيقة قد استيقنتها أنفسهم ولكن كذبتها ألسنتهم التي يندلق منها بذاءة القول وسوء الحديث - وليس أدل على ثقتهم به وإدراكهم لحقيقة أمره، من تسميتهم له قبل بعثه، بالأمين - وفي ذلك يقص الله علينا خبر هؤلاء المكابرين المعاندين (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا) الاستفهام للإنكار والتهكم - (رسولا) منصوب على الحال ٢٨ والإشارة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الاستصغار له والازدراء - فهم يقولون ذلك وهو على غاية الجحود والاستكبار والسخرية قبحهم الله.

٤٢ - (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا)

قوله: (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) (إن) مخففة من الثقيلة واللام فارقة؛ أي كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا اصطبارهم عليها - ويفهم من ذلك ما بذله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بالغ الجهد في دعوة هؤلاء المشركين إلى دين الله؛ إذ بذل في هذه الوجيبة قصارى وسعه وطاقته مع ما حمله إليهم من الدلائل الواضحات والمعجزات الظاهرات حتى أوشكوا بزعمهم أن يتركوا دينهم ليدخلوا في دين الإسلام لولا فرط معاندتهم وشدة جحودهم ولجاجهم، فاستمسكوا بعبادة أصنامهم؛ أي لم يصدهم عن دين الله الحق إلا إفراطهم في محبة الأصنام وجنوحهم للأهواء.

قوله: (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) ذلك وعيد من الله وتهديد لهؤلاء المعاندين الضالين بما ينتظرهم من العذاب، فإنهم لا مندوحة لهم من لحاق العذاب بهم؛ لأنه وعيد من الله فلا يغرنهم التأخير وسوف يظهر لهم يومئذ من هو الضال.

٤٣ - (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا)

قوله: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) الاستفهام للإنكار (إلهه)، مفعول أول للفعل (اتخذ) - و (هواه) مفعول ثان ٢٩ - والمعنى: أن هذا الضال الظالم لنفسه إنما يعبد هوى نفسه، فهو ليس على جادة الحق في عبادته؛ بل إنه يعبد ما تشتهيه نفسه، ويميل إليه قلبه وهواه؛ فهو بذلك متقلب في عبادته بتقلب مزاجه وهواه، فكلما أحب شيئا استدار بقلبه ومشاعره وأعصابه ليحبه ويرغب فيه دون غيره - سواء كان المحبوب أمرا أو شخصا أو صنما من الأصنام - هكذا كان شأن الجاهليين - وفي ذلك قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول.

وهو كذلك شأن الإنسان المتقلب المتأرجح في كل زمان سواء في الجاهلية أو فيما يعقبها من الأدهار والأزمان - ذلك هو الإنسان الذي أفرغ قلبه من العقيدة الثابتة الصحيحة أو الإيمان الراسخ السليم؛ فهو مضطرب ومتلجلج ومتأرجح، لا يسير إلا تبعا لهواه أو ما يميل إليه قلبه وما تشتهيه نفسه - فحيثما مال قلبه وهواه، مضى بشخصه فتصرف واتبع؛ فهو بذلك مستديم التقلب تبعا لتقلب هواه وما تميل إليه نفسه مما يروق لها أو يشغفها رغبة وحبا.

قوله: (أفأنت تكون عليه وكيلا) الاستفهام للإنكار - والوكيل بمعنى الحفيظ؛ أي هل تستطيع أن تحفظه من عبادة ما يهواه، أو تصرفه عن الهوى إلى الإسلام والهدى - فمثل هذا الإنسان الذي يميل إلى ما يهواه ولا يعبد إلا هواه – لا تستطيع الكلمة الطيبة السديدة أن تلج إلى قلبه فتغيره تغييرا أو تحوّله عن اتباع الهوى إلى اتباع الحق - لا يملك الداعون إلى الله بحديثهم الجيد وخطابهم السديد النافذ أن يكفكفوا لوثة الهوى الجامح عن قلوب الحائرين من أهل الشهوات وعبّاد الهوى الذين لا يعبأون بغير منافعهم وملذاتهم وأهوائهم.

٤٤ - (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا)

قوله: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) (أم)، المنقطعة بمعنى بل والهمزة؛ أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون الحق أو يعقلون البينات والحجج فيرشدون ويهتدون - وذلك أشده مذمة من المذمة التي تقدمت حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ فهم بذلك كالأنعام في عدم الاستفادة من السمع والعقل، بل إنهم أشد ضلالة من الأنعام؛ لأن هذه تنقاد لمن يتعهدها وتدرك بغريزتها وطبيعتها من يحسن إليها، ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، فضلا عن أنها تسبح ربها

- أم هؤلاء الضالون الذين يعبدون أهواءهم، فإنهم جاحدون لأنعم الله عليهم، منكرون لفضله وإحسانه إليهم، وإنما يركضون جامحين خلف الشيطان من الإنس والجن يبتغون إرضاءه ويسلكون وراءه مسالك الضلال والباطل.
وبذلك كان المجرمون من المشركين والضالين والظالمين أشد من الأنعام ضلالا - وهو قوله: (بل هم أضل سبيلا) ٣٠.
٤٥ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا)
قوله تعالى: {ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (٤٧)} هذه جملة من الدلائل الواضحة التي تكشف عن قدرة الصانع وعن بالغ حكمته وتدبيره للكون والكائنات - فقال سبحانه: (ألم تر إلى ربك) يعني ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته (كيف مد الظل)
المراد بالظل في قول الجمهور: ما كان من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس - وفي هذه الفترة الوادعة من الزمان يبسط الله الظل على الأرض ليثير فيها من نداوة الرحمة وطيب الأجواء الرخية الغامرة ما ينشر في الحياة السعادة، ويثير في القلوب البهجة والاستئناس - وهو يشبه ظل الجنة، فهو ظل ممدود لا شمس فيه ولا ظلام.
قوله: (ولو شاء لجعله ساكنا) أي لجعل الظل دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس كما قال ابن عباس - أو لا تصيبه الشمس ولا يزول، أو لتركه ظلا كما هو على الدوام - وهي أقوال متقاربة تبين قدرة الصانع الحكيم في الخلق.
قوله: (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) أي جعل الله الشمس دليلا على الظل، فإن الظل إنما يُعرف بالشمس ولولا الشمس لما عرف الظل - وذلك أن الأشياء تعرف بأضدادها - فإذا طلعت الشمس دلت على زوال الظل الذي يأخذ في النقصان بطلوع الشمس.
٤٦ - (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)
قوله: {ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا} القبض، الامتناع والإمساك وهو ضد البسط - قبضه بيده أي أمسكه ٣١ - والمعنى: أزلنا الظل بإيقاع شعاع الشمس موضعه - فعبر عن إحداث الظل بالمد، وهي يعني البسيط - كما عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه وهو يعني الكف، فقد قبضه قبضا يسيرا، أي كفه قليلا قليلا، حسب ارتفاع الشمس، لتنتظم بذلك حركة الكون وتحصل به منافع الأحياء في الحياة الدنيا باستقرار الأوقات من الزمان، وهو يمر على الحياة والأحياء منسجما منتظما رتيبا لا عوج فيه ولا خلل - كل ذلك يدل على عظمة الصانع المقتدر الحكيم.
٤٧ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)
قوله: (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) شبه ظلام الليل باللباس الساتر، فهو يرخي سدوله على العباد ليناموا فترتاح أبدانهم وهو قوله: (والنوم سباتا) والسبات، من السبت وهو القطع والراحة - والسبات، النوم - والمسبت الذي لا يتحرك - والمسبوت، الميت ٣٢.
وقوله: (وجعل النهار نشورا) النشور، الانبعاث من النوم للحركة والجد والعمل طلبا للمعاش وذلك عقب الاسترخاء والركون للراحة والانقطاع والدعة خلال الليل وما يتخلله من سبات وتفكر وتلاوة ودعاء وعبادة - وذلك شبيه ببعث الموتى ونشورهم لملاقاة الحساب والمساءلة - فهاتان ظاهرتان متتامتان، تكمل إحداهما الأخرى - ظاهرة الليل حيث الدعة والاستقرار وراحة الأبدان وسكينة الأعصاب - ثم ظاهرة النهار حيث النشور والنشاط والحركة والمعاش ٣٣.
٤٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)
قوله تعالى: {وهو الذي أرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (٤٨) لنحيي بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا (٤٩) ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٥٠)} - الرياح في القرآن إيذان بنزول الرحمة، وهي هنا بمعنى المطر، بخلاف الريح بالإفراد، فقد وردت الريح في القرآن بمعنى العذاب - والمعنى: أن الله جل وعلا يرسل الرياح قدام المطر مبشرات بنزوله.
قوله: (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) أنزل الله برحمته وفضله على العباد مطرا من السماء منهمرا طهورا - وهو مبالغة في الطهور والطهارة.
وقد جمع الله في الماء اللطافة وخصوصية التطهير، لتتم به الطهورية، ويتحقق باستعماله الاسترواح والابتهاج - وهو من جهته مزيل

للأوساخ والقاذورات والنجاسات على اختلاف أنواعها - فيكون المرء به نظيفا طاهرا نقيا من الأوضار والأدران - لاجرم أن هذه نعمة كبيرة أنعم الله به على الإنسان - وهي دليل قدرته وعظمته - وذلك برهان يضاف إلى براهين كثيرة تشهد على عظمة الصانع القهار، جاعل الليل والنهار، وخالق الأحقاب والفصول والأدهار.

٤٩ - (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا)

قوله: (لنحيي به بلدة ميتا) أي أنزل الله المطر من السماء على الأرض ليجعلها عامرة بالنبات، وذلك هو إحياؤها بعد أن كانت هامدة قفرا مواتا لا حياة فيها ولا نبات - وقد ذكر ميتا على معنى البلد - فالبلدة بمعنى البلدة أو المكان.

قوله: (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) أي يسقي الله الماء الأنعام والناس - وأناسي، جمع إنسان - والأصل: إنسان وأناسين، فأبدلت النون ياء وأدغم فيها الياء قبلها - وهو قول سيبويه - وقيل: جمع إنسي - وفيه نظر ٣٤ وقد نكرت الأنعام والأناسي؛ لأن عِلية الناس وجلّهم منيخون بالأودية والأنهار فيهم غنية عن سقي الماء - أما أعقابهم- وهم كثير منهم- إنما يعيشون بما ينزل الله من السماء من مطر - وهو قول الزمخشري وذلك من فضل الله على الناس ورحمته بالخلق؛ إذ أنزل عليهم القطر من السماء ليستقوا ولتنبت لهم الأرض من خيراتها مما أنعم الله به وقدّره تقديرا.

٥٠ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا)

قوله: (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) الهاء، على الماء؛ أي صرفناه بين العباد في مختلف البلدان والأزمان، وعلى اختلاف الكيفيات والصفات المتفاوتة من وابل زاخر هاطل، وطل خفيف نازل، أو رذاذ غامر منتشر - وغير ذلك من وجوه الإمطار.

قال ابن كثير رحمه الله في هذا المعنى: أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقا والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء.

وقيل: الهاء عائدة على القرآن - والقول الأول أظهر، لما يدل عليه السياق.

قوله: (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أكثر الناس لم يتعظوا ولم ينتفعوا بهذه الظواهر الكونية العجيبة التي تشهد على قدرة الصانع الحكيم؛ بل جحدوا ذلك وعتوا ولجوا في غفلتهم وضلالهم منتكسين ظالمين خاسرين ٣٥.

٥١ - (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا)

قوله تعالى: {ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا (٥١) فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا (٥٢) وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا (٥٣) وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا (٥٤)} يتجلى في هذا الخطاب الرباني الكريم التسلية والمواساة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما كابده من أذى قومه، وبما لقيه في تبليغهم دعوة الله من ألوان الصد والقهر.

فقال عز من قائل: (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) أي لو أراد الله لبعث في كل قرية نبيا ينذرهم ويدعوهم إلى الحق، ليخفف عنك الأمر وليهون عليك وجيبة التبليغ - ولكن الله إنما أراد أن يُعظم لك الأجر والإجلال والتشريف فتكون معظما مكرما ولك من جليل القدر وعلو المكانة ما لم يبلغه أحد في العالمين؛ إذ جعلك الله منذرا للناس كافة ورسولا للعالمين أجمعين - وفي الصحيحين: " بعثت إلى الحمر والأسود " وفيها أيضا: " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة ".

٥٢ - (فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

قوله: {فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا} يحذر الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - من طاعة المشركين فيما يدعونه إليه من موافقتهم ومداهنتهم؛ فإنهم كانوا قد استمعوا إليه ورغبوا منه في أن يرجع إلى دين الآباء والأجداد وله في مقابلة ذلك أن يملكوه عليهم، وأن يجمعوا له المال فيكون أعظمهم مالا - فنهاه الله تعالى عن طاعتهم وحذره الجنوح إلى قولهم؛ فإنه على الحق المبين، واليقين الناصع المستقيم - أما هم فإنهم على الباطل والضلالة والتخمين - ثم أمره ربه أن يجاهدهم به جهادا كبيرا؛ أي يجاهدهم بالقرآن وما

حواه من ظواهر شتى في الإعجاز على تعدد صوره وضروبه، أو يجاهدهم بالإسلام فيبين لهم صلوح هذا الدين الكامل الشامل - الدين الذي تترسخ فيه قواعد الخير والعدل والرحمة للبشرية لتمضي في حياتها سالمة آمنة مطمئنة تفيض فيها الرحمة والمودة والإخاء، وتجللها المهابة ووحدة الكلمة والصف والأوطان - وهذه مجاهدة عظيمة يكبر حملها والاضطلاع بها لما يجده المجاهدون في سبيل الله ومن أجل دعوة الإسلام وإعلاء راية القرآن، من المعوقات والمصاعب على الطريق - المصاعب التي يزرعها خصوم الحق وأعداء الإسلام، وهم كثيرون منتشرون في كل بقاع الدنيا.

٥٣ - (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

قوله: (وهو الذي مرج البحرين) (مرج البحرين)، أي خلاهما لا يلتبس أحدهما بالآخر ٣٦ أو خلاهما متجاورين متلاصقين - وقد سمي الماءين الكثيرين الواسعين بحرين (هذا عذاب فرات وهذا ملح زجاج) أي خلق الماءين وهما الحلو والملح - فالحلو كالأنهار والآبار والعيون - وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات - فقد جعله نعمة للخلق والعباد ليشكروه ولا يكفروه؛ فهم محتاجون إلى هذا الماء؛ إذ يستقون منه شرابا عذبا زلالا ويسقون منه الحرث والأنعام - فلولاه لكانت الأرض يبسا قفرا لا حياة فيها ولا نبات ولا نماء، و (فرات) صفة لقوله: (عذب) أي شديد العذوبة.

أما الملح الأجاج، فهو المالح المر لشدة ملوحته ٣٧ وذلك كالبحار المعروفة في مشارق الأرض ومغاربها - ومنها المسماة بالمحيطة كبحر الأطلسي والهادي وغيرهما من المحيطات والبحار الكبيرة: كبحر الروم وبحر الخزر والبحر الأحمر وما شاكلها من البحار الملحة - وهي ساكنة راكدة لا تجري لكنها تضطرب وتتلاطم فيها الأمواج، وخصوصا في الشتاء وعند اشتداد الرياح - ومن عجيب صنع الله وبالغ حكمته التي يتدبرها أولو النهى والحجا، أن خلق الله هذه البحار الساكنة ملحة كيلا يأتي عليها التعفن والنتن فتفسد بفسادها الدنيا.

ومعلوم أن نسبة البحار الملحة في الدنيا تعدل ثلثي الأرض - فكيف إذا خالطت العفونة والنتن هذا الشطر الأكبر من مساحة العالم - لكنها بكونها ملحة، فإنها تظل سليمة من الفساد والنتن، ويظل ماؤها طيبا طهورا؛ فقد روى كثير من الأئمة وأهل السنن عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في البحر: " هو الطهور ماؤه، الحل ميتته ".

وفي مقابل ذلك جعل الله المياه الجارية عذبة؛ لأنها بجريانها وحركتها وتبدلها لا يأتي عليها التعفن أو الفساد - فلا جرم أن تكون هذه حكمة الصانع العليم، مما يشير إلى عظيم قدرته وتدبيره في خلقه - أفلا يدل ذلك كله على وجود الإله الصانع المقتدر؟!.

قوله: (وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) البرزخ والحجر، بمعنى الحاجز من الأرض والسد يحجز بينهما - وقيل: البرزخ، بمعنى البلاد والقفار، فلا يختلطان إلا بزوال الحاجز يوم القيامة - وقال أكثر المفسرين: المراد بالحاجز، المانع أو الحائل من قدرة الله يفصل بينهما ويمنعهما من التمازج - فهما في الظاهر مختلطان وفي الحقيقة منفصلان، أي منفصلان بقدرة الله.

ويعضد هذا القول ما أثبتته النظريات العلمية الحديثة في الجاذبية المتوازنة بين الأرض والشمس أو غيرهما من الكواكب - أو في عملية المد والجزر التي تنعكس على البحار في الأرض بسبب الجاذبية بينها وبين القمر - وبذلك تدور الحركة الكونية في انسجام متسق، وفي انتظام موزون لا يتعثر ولا يضطرب ولا يعرف الخلل أو الفوضى - وذلك كله بقدرة الله ومن صنعه وحكمته البالغة.

٥٤ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)

قوله: (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا) البشر، عموم بني آدم - فقد خلق الله الإنسان من نطفة مهينة مستقذرة؛ إذ جعلها تمر في مراحل متعاقبة، طورا بعد طور - بدءا بالجنين، وانتهاء بالإنسان المكتمل ذي السمع والبصر والحس والعقل والإرادة.

قوله: (فجعله نسبا وصهرا) النسب والصهر يعمان كل قربى بين آدميين - وذلك قسمان: ذوو نسب ٣٨ أي ذكور، يُنسب إليهم - وذوو صهر - أي إناث يصاهر بهن.

قال ابن كثير في هذا المعنى: هو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان ٣٩ وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين.

قوله: (وكان ربك قديرا) ودليل قدرته ما ذكره من عجيب صنعه؛ إذ جعل من النطفة المهينة المستقذرة بشرا بنوعيه: الذكر والأنثى،

فكانت الحياة بأطوارها ومراحلها، وصوره من الأمن والاستقرار والبحبوحة والرحمة - أو خلاف ذلك من الخوف والاضطراب والشظف والظلم - وكذلك كان الناس بشعوبهم وقبائلهم وأفرادهم ومجتمعاتهم - وكل ذلك يدل على قدرة الصانع الحكيم ٤٠.

٥٥ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا)

قوله تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا (٥٥) وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا (٥٦) قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا (٥٧) وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨) الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا (٥٩) وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)}.

ذلك تعجيب من ضلال المشركين وفساد قلوبهم وعقولهم؛ إذ يعبدون آلهة فارغة مصطنعة من دون الله، لا تضر ولا تنفع - ولئن كانت آلهتهم من شياطين الجن والإنس فإنها تضر ولا تنفع، وذلك بإغوائها وإغرائها وإضلالها ووساوسها، فهي بذلك تودي بالعابدين السخفاء إلى التعس والشقاء في الدنيا والآخرة - وهم إنما يعبدون آلهة من دون الله سفها وجهالة؛ إذ لا برهان لهم بذلك ولا حجة إلا التشهي واتباع الهوى والجنوح للزيغ والباطل - وذلك هو شأن الإنسان التاعس الذي يمضي في طريق الكفر والباطل ويظاهر المجرمين وأعوان الشياطين على أولياء الله من المؤمنين والمتقين، وهو قوله: (وكان الكافر على ربه ظهيرا) والظهير والمظاهر بمعنى المعين أو المعاون - والمراد أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك والإفساد - ومظاهرة الإنسان للشيطان طاعته في معصية الله.

والمراد بالكافر، الجنس - فالكافرون بعضهم من بعض، وهم بعضهم أولياء بعض، فإنهم يوالون الشيطان من الإنس والجن لمعاداة أولياء الله، فيحادونهم أشد محادّة، ويحاربون أعنف حرب.

٥٦ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

قوله: {وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا} أي ما أرسلناك حفيظا عليهم، وإنما أرسلناك لتبشر الطائعين بالنجاة والسعادة والفوز بالجنة، وتنذر العصاة والمجرمين بالعذاب الشديد.

٥٧ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا)

قوله: (قل ما أسألكم عليه من أجر) أي لم أطلب منكم أجرة على تبليغكم دعوة الله (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) استثناء منقطع؛ أي لكن من يشاء منكم أن يتخذ إلى الله طريقا يسلكه بإنفاقه من ماله في سبيل الله وتقربا إليه فليفعل.

٥٨ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)

قوله: (وتوكل على الحي الذي لا يموت) التوكل على الله، إظهار العجز أمام جلاله وعظيم سلطانه، والاعتماد عليه والاستسلام إليه - والاسم التكلان ٤١ وهو اعتماد القلب على الله في كل الأمور - وما الأسباب بعد ذلك إلا وسائط ومقدمات أمر الله بها دون الاعتماد عليها.

كذلك يكون المسلم؛ فإنه يعتمد على الله في شأنه كله - لكن الله قد تعبّده باتخاذ الأسباب والمقدمات من أعمال واستعداد ومجاهدة ونحو ذلك - وهو سبحانه يقضي بما يشاء؛ فهو الكبير الفعال لما يريد، وهو المقتدر الذي له الحياة الدائمة، المنزّه عن نقيصة الموت.

قوله: (وسبح بحمده) التسبيح معناه التنزيه؛ أي نزّه الله عما يصفه به المشركون والمفترون مما لا يليق بجلاله العظيم - واذكره في نفسك توسلا وخشية واشكره على ما منّ به عليك من جزيل النّعم.

قوله: (وكفى به بذنوب عباده خيرا) (وكفى به)، أي كفاك - فحذف المفعول به وهو الكاف، والباء زائدة - و (خبيرا)، منصوب على التمييز، أو الحال ٤٢؛ أي حسبك بمن صفته الكمال هو الحي الذي لا يموت، عليما بذنوب العباد؛ فإنه لا يخفى عليه منها شيء، وهو مطلع عليها ومحصيها عليهم جميعا ليجازيهم بها يوم القيامة - وفي ذلك من مخاطبة القلوب ما يثير فيها الخشية من الله وينشر فيها المزيد من اليقظة ودوام الترقب والحذر من معاصي الله الذي يعلم السر ولا تغيب عنه الأخبار والخوافي.

٥٩ - (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

قوله: (الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في سنة أيام) (الذي)، في محل جر صفة للحي - وقال عن السماوات والأرض (بينهما) ولم يقل بينهن؛ لأنه أراد الصنفين والشيئين، وذلك ذكر لصفة الله العظمى في الخلق؛ فهو سبحانه خالق السماوات والأرض وهما خلقان هائلان في امتدادهما، وسعتهما، وبينهما من الخلائق الكاثرة والمختلفة من نجوم وكواكب وبحار وأطيار وجبال وأحياء ومختلف الأجرام، ما لا يعلم حقيقته وكثرته ومداه وتعدد أصنافه وأنواعه وألوانه إلا الله - لقد خلق الله ذلك كله في ستة أيام - وهو سبحانه أعلم بحقيقة هذه الأيام، إن كانت من أيامنا في دنيانا هذه المعهودة، أم هي أيام محسوبة بحساب الله وميزانه الذي يعلمه هو.

قوله: (ثم استوى على العرش) أي خلقه ورفعه - وبينا القول في معنى العرش فيما سبق من الآيات.

قوله: (الرحمن فاسأل به خبيرا) (الرحمن) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي هو الرحمن - وقيل: مبتدأ، وخبره (فاسأل به) وقيل: بدل من المضمر في قوله: (استوى) ٤٣.

٦٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)

قوله: (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمن) إذا دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعبادة الله وحده وان يخلعوا عن قلوبهم وأذهانهم حب الأوثان والآلهة المزيفة ليعبدوا الرحمن وحده دون غيره (قالوا وما الرحمن) والاستفهام للإنكار والتعجب؛ أي ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يريدون بذلك مسيلمة الكذاب، قبحهم الله.

قوله: (أنسجد لما تأمرنا) الاستفهام للإنكار كذلك؛ أي أنسجد لما تأمرنا أنت بالسجود له (وزادهم نفورا) زادهم الأمر بالسجود للرحمان وعبادته وحده دون غيره من الأنداد والشركاء نفورا وبعدا عن الحق وعن صراط الله المستقيم ٤٤.

٦١ - (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)

قوله تعالى: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سرجا وقمرا منيرا (٦١) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا (٦٢)} يعظم الله نفسه، ويمجد ذاته الكريمة؛ إذ (جعل في السماء بروجا) أي كواكب عظاما لا يعلم عظمتها واتساعها إلا هو سبحانه.

قوله: (وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) المراد بالسراج الشمس - يقال: أسرجت السراج أي أوقدته ٤٥، والشمس كتلة هائلة من النار المستعرة المتوقدة خلقها الله في حجمها العظيم المذهل وجعلها في مكان مناسب موزون - فليست أدنى من موضعها الراهن فتحترق الخلائق وتزول الحياة على الأرض - ولا هي أبعد من موضعها فيأتي على الأحياء البرودة والجمد، فضلا عن اضطرابات كونية تقع لو لم ما تكن الشمس في مكانها الملائم المقدور - والشمس للخليقة والأحياء مبعث للضوء والدفء والحرارة ليشيع في الأرض النشاط والجد والعمل.

قوله: (وقمرا منيرا) أي يضيء الأرض بنوره الوضاء وينشر في الدنيا البهجة والاسترواح، ويثير في النفس الحبور والإحساس بجمال الطبيعة التي صنعها الله - لا جرم أن هذا الجرم المشرق الجميل آية من آيات الله الدالة على عظيم صنعه وقدرته.

٦٢ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

قوله: (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) أي جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه، إذ يتعاقبان لا يفتران - فإذا ذهب هذا جاء هذا - وإذا جاء هذا ذهب هذا.

وقيل: جعل كل واحد منهما خلفا من الآخر في أن ما فات في أحدهما من عمل يُعمل فيه لله، أدرك قضاءه في الآخر - والمعنى الأول أظهر، استنادا إلى ظاهر اللفظ؛ إذ كل واحد منهما يخلف الآخر ويأتي عقيبه - ومنه خلفة النبات - وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف.

قوله: (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أي يتذكر عجيب صنع الله وما ذرأه من عجائب المخلوقات الكثيرة والمبثوثة في أرجاء الكون، فينيب إلى ربه عابدا مستسلما (أو أراد شكورا) أي يشكر نعمة ربه التي أنعمها عليه وهي نعم كثيرة ومختلفة ومبسوطة لا تحصى ٤٦.

٦٣ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا)

قوله تعالى: }وعباد الرحمن الذين يشمون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما (٦٥) إنها ساءت مستقرا ومقاما (٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٦٧)}.

(وعباد الرحمن)، مرفوع لأنه مبتدأ - و (الذين يمشون) خبره ٤٧.

وهذه جملة من خصال المؤمنين وصفاتهم الحميدة التي تميزهم من غيرهم من الفاسقين والمنافقين والسفهاء - وقد سماهم الله بعباد الرحمن؛ لأن تسميتهم بالعباد ووصفهم بالعبودية، أقصى مراتب التكريم في حق الإنسان؛ فهم عابدون للرحمان منيبون إليه مخلصون في طاعته، وأول هذه السجايا التي تتجلى في عباد الرحمن هي في قوله: (الذين يمشون على الأرض هونا) الهون معناه الرفق واللين - ومنه الحديث: " أحبب حبيبك هونا ما " وكذلك الحديث: " المؤمن هيّن ليّن ".

والمعنى: أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع؛ فهم لا يتبخترون خيلاء، ولا يمشون مشية المستكبرين المرحين البطرين، وإنما مشية القصد والاتئاد - وهذه الصفات من أخلاق النبوة - ويجلي هيئة المشي المشروع ما ذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سكينة الذاهب إلى الصلاة، إذ قال: " إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وائتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم منها فصلوا، وما فاتكم فأتموا ".

وما ينبغي أن يُفهم من ذلك أن عباد الرحمن يمشون متضعفين كالمرضى، أو متكلفين مرائين - فما هذه مشية المؤمنين المتقين، وإنما مشيتهم ما بيناه آنفا - وأصدق ما ورد في هذا الصدد، ما كان من سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كيفية مشيته؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا مشى كأنما يحط من صبب ٤٨ وكأنما الأرض تطوى له.

على أن المشي في تصنع وتضعف مكروه - وفي ذلك روي عن عمر أنه رأى شابا يمشي رويدا فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة.

قوله: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (سلاما)، منصوب على المصدر، أي تسليما - فسلام في موضع تسليم ٤٩ والمعنى: إذا سفه الجاهلون على المؤمنين بسيء القول وقبحه، رد عليهم المؤمنون بالسداد من القول، وهو معنى قوله: (سلاما) أي قالوا لهم كلاما يدفعونهم به برفق وتوءدة - وذلك هو خلق المسلمين المتقين؛ إذ يقابلون الإساءة بالإحسان والصفح، يوردون بالتي هي أحسن السيئة؛ ليكونوا من أهل العفو والفضل والحلم - وليس ذلك عن إحساس بضعف أو خور ولا بهزيمة للنفس من داخلها - ولا بغية التزلف أو تحصيل منفعة من المنافع - ليس العفو من المؤمنين عن الفاسقين والعاصين والسفهاء مبعثه الذل والنفاق والجبن، بل مردهم من ذلك الاستعلاء على حظ النفس التي تجنح للانتقام - وكل ذلك ابتغاء مرضاة الله.

٦٤ - (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)

قوله: }والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما} ذلك وصف لسيرة المؤمنين في الليل بعد أن وصف خلقهم مع الناس في النهار - فهم في الليل (يبيتون لربهم سجدا وقياما) بات الرجل يبيت ويبات بيتوتة؛ إذا أدركه الليل سواء نام أم لم ينم - كما يقال: بات فلان قلقا - وبات يفعل كذا؛ إذا فعله ليلا ٥٠.

واختلفوا في معنى المبيت سجدا وقياما - فقال بعضهم: من قرأ شيئا من القرآن في صلاة وإن قلّ؛ فقد بات ساجدا وقائما - وقيل: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما، وهو قول ابن عباس - وقيل: من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء؛ فقد بات ساجدا وقائما - والظاهر- كما قال الزمخشري: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره.

٦٥ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

قوله: (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) المؤمنون دائمو الإشفاق والخوف من عذاب الله؛ فهم من طاعتهم وامتثالهم

واستسلامهم لا يبرح قلوبهم القلق والوجل من العذاب أن يصيبهم يوم القيامة.
وبذلك فإن المؤمنين يتضرعون إلى ربهم في كل آن كي يدفع عنهم عذاب جهنم (وإن عذابها كان غراما) والغرام، معناه الشر الدائم، والعذاب اللازم أو الهلاك المستديم.
٦٦ - (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)
قوله: }إنها ساءت مستقرا ومقاما{ (مستقرا ومقاما)، حال أو تمييز والمؤمنون يسألون ربهم أن يدفع عنهم عذاب جهنم لأمرين - أولهما: أن عذابها غرام؛ أي شديد وداهم وملازم - وثانيهما: أنها ساءت مستقرا ومقاما؛ أي بئس المستقر وبئس المقام - ويمكن أن يكون ذلك من كلام الله - ويمكن أن يكون حكاية لقولهم.
٦٧ - (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)
قوله: }والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما{ (لم يسرفوا)، من الإسراف وهو مجاوزة الحد في النفقة - ولم يقتروا من القتر والإقتار والتقتير - وهو التضييق الذي هو نقيض الإسراف ٥١.
وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية أو في المراد بالإسراف والتقتير وثمة قولان أساسيان في ذلك.
القول الأول: وهو لابن عباس وآخرين وهو أن الإسراف يعني الإنفاق في معصية الله تعالى - والإقتار منع حق الله تعالى - فلو أنفق أحدهم مثل جبل ذهبا في طاعة الله تعالى لم يكن ذلك سرفا - ولو أنفق صاعا في معصية الله تعالى كان سرفا.
على أنه يُعترض على هذا التفسير، بأن الإنفاق في معصية الله معلوم أنه حرام وقد حظرت الشريعة قليله وكثيره - وإنما المراد في هذه الآية التأديب في نفقة الطاعات في المباحات - وهو ما يبينه.
القول الثاني: وهو أن المراد بالسرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وإن كان من حلال - فإن ذلك مكروه؛ لأنه يفضي إلى الخيلاء - أما الإقتار فهو التضييق.
فالإفراط في الأكل فوق الشبع بحيث يمنع من القدرة على العبادة سرف - وإن أكل بقدر ما دون الحاجة أو أفرط في الشح على عياله حتى أجاعهم فهو إقتار.
قوله: (وكان بين ذلك قواما) اسم كان مضمر - و (قواما) خبر كان - والتقدير: كان الإنفاق ذا قوام بين الإسراف والإقتار ٥٢ أو كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواما - والقوم، معناه العدل والاستقامة ٥٣ والمراد بذلك: النفقة بالعدل والمعروف دون مجاوزة عن حد الله ولا تقصير عما فرضه الله.
وفي جملة ذلك كله قال الطبري رحمه الله - إذا أكل آكل من الطعام فوق الشبع ما يضعف بدنه وينهك قواه ويشغله عن طاعة ربه وأداء فرائضه؛ فذلك من السرف - وأن يترك الأكل وله إليه سبيل حتى يضعف ذلك جسمه وينهك قواه ويضعفه عن أداء فرائض ربه؛ فذلك من الإقتار، وبين ذلك القوام - فأما اتخاذ الثوب للجمال يلبسه عند اجتماعه مع الناس وحضوره المحافل والجمع والأعياد دون ثوب مهنته، أو أكله من الطعام ما قوّاه على عبادة ربه مما ارتفع عما قد يسد الجوع مما هو دونه من الأغذية؛ فذلك خارج عن معنى الإسراف بل ذلك من القوام؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أمر ببعض ذلك وحض على بعضه كقوله: " ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين، ثوبا لمهنته، وثوبا لجمعته وعيده " وكقوله: " إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى أثره عليه " وما أشبه ذلك من الأخبار ٥٤.
٦٨ - (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)
قوله تعالى: }والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا (٧١){ روي في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا عليه الصلاة والسلام فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن - لو

تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) إلى قوله: (غفورا رحيما) ٥٥.
وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الذنب أكبر؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تزاني حليلة جارك " قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآيات ٥٦ - على أن كبرى الصفات المميزة لعباد الله المؤمنين: أنهم يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئا - ذلك أن الشرك ظلم فادح ومريع ومهلك؛ إذ يفضي بالمشرك الظلوم إلى جهنم ليجد مقامه فيها خالدا مع الخالدين - ومن صفاتهم أيضا أنهم (لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) فقتل النفس المؤمنة البريئة ظلما يأتي في غاية البشاعة والنكر من الموبقات؛ فإنه لا يجترئ على قتل المؤمنين الأبرياء إلا المجرمون وأكابر العصاة الفاسقين الذين تحل بهم اللعائن من الله وملائكته قبل أن يُصار بهم إلى جهنم وبئس المصير.
ثم استثنى من التحريم ما كان بالحق؛ أي بما يحق أن يقتل به النفوس، من قود، أو كفر بعد إيمان وهو الارتداد عن ملة الإسلام، أو زنا بعد إحصان - وفي ذلك روى البيهقي وأبو داود عن عبد الله قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا أحد ثلاثة نفر: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة ".
قوله: (ولا يزنون) من صفات المؤمنين مجانبتهم للزنا؛ فهم لا يستحلون الفروج بغير نكاح مثلما كان يفعل الجاهليون؛ إذ كانوا لا يعبأون بكيفية الوطء وإنما يعبأون بفعله سواء كان من نكاح أو من سفاح - لكن الإسلام نهى عن هذه المعصية النكراء وشدد عليها التنديد والنكير بأنها فاحشة، وأنها صورة مقبوحة من السلوك القذر الذي يفضي إلى تدمير البيوت والأسر وإفساد المياه والأنساب، وإشاعة الظنون والفوضى بين الناس - ولهذا ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصنا، والجلد مائة جلدة لمن كان غير محصن.
قوله: (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) جاء في تأويل الأثام عدة أقوال - فقد قيل: الأثام، جزاء الإثم - وقيل: الأثام والإثم بمعنى واحد - أي جزاء الأثام - وقيل: الأثام اسم من أسماء جهنم، أو واد في جهنم.
٦٩ - (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا)
قوله: (يضاعف له العذاب) (يضاعف)، بالجزم، على البدل، من قوله: (يلق) ٥٧ وهو تفسير للأثام أو الجزاء الذي يلقاه من يفعل ذلك؛ أي يكرر عليه العذاب ويغلظ.
قوله: (ويخلد فيه مهانا) أي يخلد في العذاب المضاعف إلى ما لا نهاية، وهو مهين ذليل خاسئ.
٧٠ - (إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)
قوله: (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) الاستثناء منقطع؛ أي لكن من تاب وآمن - والاستثناء عام في الكافر والزاني، فالتائب منهما، توبته صحيحة وذلك ما لا خلاف فيه - أما القاتل ففي توبته خلاف - والراجح صحة التوبة من المسلم القاتل استنادا إلى هذه الآية (إلا من تاب وآمن).
على أنه لا تعارض بين هذه الآية وآية النساء (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) فهذه مطلقة فتحمل على من لم يتب - أنا الآية هنا فهي مقيدة بالتوبة - ويعزز القول بصحة التوبة من القاتل قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وعلى هذا، من تاب وأناب وأطاع الله وترك ما نهى الله عنه، وآمن وصدق بما أنزل على رسوله (ص) وأتْبع إيمانه وتصديقه بالعمل الصالح (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) واختلفوا في المراد بهذه الآية على وجوه:
الوجه الأول: أن التبديل إنما يكون في الدنيا، فيبدّل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين - وبالزنا عفة وإحصانا؛ أي أن الله يبشر التائبين بأنهم موقفهم لصالح الأعمال ليستوجبوا بها الثواب - وهو قول ابن عباس وآخرين.
الوجه الثاني: أن السيئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة.

الوجه الثالث: أن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة، استنادا إلى هذه الآية واحتجاجا بما ورد في ذلك من الأخبار والآثار - وهو المعنى الراجح - ويعززه قوله سبحانه: (وكان الله غفورا رحيما) الله غفار للذنوب والخطايا، تواب رحيم بعباده المؤمنين؛ إذ يحوطهم ببالغ فضله ورحمته.

٧١ - (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا)

قوله: {ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا} (متابا) منصوب على المصدر - وهو مصدر مؤكد - وأصل متاب، متوب، قلبت الواو ألفا فصارت متابا ٥٨ وتاب متابا؛ أي تاب حق التوبة وهي التوبة النصوح - ومتابا مصدر معناه التأكيد - أي فإنه يتوب إلى الله حقا - كقوله: (وكلم الله موسى تكليما) وذلك وعد من الله للتائبين المنيبين إلى ربهم والذين يتبعون إيمانهم وتصديقهم بالطاعات وفعل الصالحات؛ فإنهم تائبون حق التوبة - وهي التوبة الصادقة المتقبلة ٥٩.

٧٢ - (وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)

قوله تعالى: {والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢) والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا (٧٣) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما (٧٤)} هذه بضع من الصفات الجليلة لعباد الرحمن - فهم (لا يشهدون الزور) والزور في اللغة بمعنى الكذب - ازورّ عن الشيء ازورارا؛ أي عدل عنه وانحرف ٦٠ وجاء في تأويل الزور في الآية عدة أقوال منها: أنه الشرك - وقيل: أعياد أهل الذمة - وقيل: الغناء - وأظهرها أنه الكذب - والمعنى: أن المؤمنين لا يحضرون مجالس الكذب والباطل - ويحتمل أن يكون معنى الزور إقامة الشهادة الباطلة - فيكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور.

قوله: (وإذا مروا باللغو مروا كراما) منصوب على الحال من واو (مروا) ٦١ اللغو، كل كلام أو فعل باطل أو سقط لا أصل له ولا حقيقة - فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما يستقبح من القول - ويدخل فيه كذلك سفه المشركين، وأذاهم المؤمنين - وكذلك ذكر النساء بالسفه من القول - فإذا مر المؤمنين بشيء من ذلك فسمعوه أو رأوه (مروا كراما) أي أعرضوا عنه منكرين، لا يرضونه ولا يجالسون أهله - بل يكرمون أنفسهم بالترفع عن مجالسة أهل اللغو من فارغ القول وسقط الكلام.

٧٣ - (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)

قوله: {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا} وهذه صفة أخرى من صفات المؤمنين الذين هم عباد الرحمن؛ فإنهم إذا سمعوا التذكرة من المواعظ والحجج والأدلة، أو سمعوا آيات الله تتلى عليهم، فإنهم لا يتغافلون عنها ولا يعرضون عن الاتعاظ بها - ولكنهم يتذكرون ويعتبرون وتغمرهم العظة والخشية من الله؛ فهم ليسوا كالكافرين والفاسقين أولي القلوب الغُلْف والآذان الصم الذين لا يتعظون ولا يزدجرون - وهو قوله سبحانه: (لم يخروا عليها صما وعميانا) أي لا يتغافلون عنها كأنهم صم لا يسمعون الموعظة أو السداد من القول، أو عمي لا يبصرون الحق والهدى؛ فإنهم إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فوقعوا ساجدين بُكاة ولم يقعوا صمّا وعميا.

٧٤ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)

قوله: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) فإن من صفات المؤمنين: الدعاء إلى الله والتضرع في تذلل وخشوع - لا جرم أن مزية الدعاء كبرى المزايا التي تتجلى في المؤمنين الصادقين المنيبين - وهؤلاء هم عباد الرحمن الذين يسألون الله جل وعلا أن يهبهم الأزواج الصلحاء والذرية المؤمنة الطائعة ذات الإيمان الراسخ والخلق الحميد ليكونوا لهم (قرة أعين) و (قرة) في الآية منصوب على المفعولية - وذلك من القرار، وهو بحصول السكينة والسرور والرضى.

والمؤمنون يتمنون بالغ التمني ويبتغون أشد الابتغاء من الله أن يهبهم الزوجات الصالحات الفضليات والأولاد والأحفاد من الذكران والإناث الصالحين ليكونوا لهم قرة أعين؛ أي مبعث سكينة وطمأنينة وحبور لهم في هذه الدنيا - ويوم القيامة يكونون بجوارهم في جنات الخلد - وهنالك تتحقق السعادة الكبرى، ويكتمل الابتهاج الغامر - وهبنا الله من الأزواج والذريات ما تقرّ به أعيننا فنسعد ونبتهج ونستقر في دنيانا وأخرانا.

قوله: (واجعلنا للمتقين إماما) (إماما)، واحد أريد به الجمع، أي أئمة كثيرا - واكتفى بالواحد عن الجمع للعلم به ٦٢ والمعنى: اجعلنا أئمة يقتدي بنا الناس من بعدنا في الخير والطاعات - أو اجعلنا للمتقين الذين يتقون معاصيك ويجتنبون نواهيك ويخشون عقابك، أئمة هداة دعاة إلى الخير فيأتمون بنا في الخيرات وعمل الصالحات.

٧٥ - (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا)

قوله تعالى: {أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما (٧٥) خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما (٧٦) قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (٧٧)} الإشارة (أولئك) في موضع رفع خبر لقوله: (وعباد الرحمن) وما تخلل بين المبتدأ وخبره، أوصاف عباد الرحمن - وقد ذكر القرطبي رحمة وهي إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنا والقتل، وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله ٦٣.

قوله: (يجزون الغرفة) أي الجنة - وقيل: الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها.

قوله: (بما صبروا) أي بسبب صبرهم على أوامر الله، إذا أطاعوا فيما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه صابرين على ذلك محتسبين - وكذلك صبرهم على مواجهة الصعاب والكروب في حياتهم الدنيا، من فقر وفاقة وأسقام وهموم وغير ذلك من شدائد الدنيا.

قوله: (ويلقون فيها تحية وسلاما) أي تبتدرهم الملائكة في الجنة بالتحية والسلام والإكرام والاحترام، ليكونوا فيها سعداء آمنين محبورين.

٧٦ - (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

قوله: {خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما} (خالدين) منصوب على الحال - أي مقيمين في الجنة لا يبرحونها ولا يظعنون عنها ولا يبغون عنها حولا أو بدلا.

٧٧ - (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)

قوله: (قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم) (يبعؤا)، يبالي - ما عبأ به، أي ما بالى به - وهو من العبء وهو الثقل ٦٤، و (ما)، نافية - أي لا يبالي الله ولا يكترث بكم لولا عبادتكم إياه - فهم بذلك لولا عبادتهم لله، لم يعتدّ بهم الله البتة، ولم يساووا عنده شيئا - والدعاء، بمعنى العبادة - وقيل: (ما)، للاستفهام - فيكون المعنى: أي وزن يكون لكم عند ربكم لولا عبادتكم إياه - فأنتم لا تستأهلون شيئا من التكريم لولا عبادتكم.

قوله: (فقد كذبت فسوف يكون لزاما) الخطاب لمشركي قريش، أي كذبتم رسولكم الذي جاءكم بالحق وخالفتم ما أمركم به الله على لسان رسوله الأمين وفي آياته البينات - فسوف يكون تكذيبكم هذا هلاكا ملازما لكم في الدنيا والآخرة ٦٥.

٢٦ سورة الشعراء:

سورة الشعراء:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية - وفيها من مختلف المعاني والقصص والأخبار والأفكار ما يزجي بأوضح دلالة على حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم - هذا الكتاب الحكيم الذي تضمن في خلاله كل علوم الدين والدنيا، ما بين القصص وتبشير وتنذير وأمر وزجر ونهي وترغيب وترهيب وتشريع ووعد ووعيد، وتذكير بالساعة وأخبارها وأهوالها - كل ذلك في كتاب جامع ظاهر باهر، ما كان ليحيط بكل ذلك لو لم يكن من عند الله.

والسورة مبدوءة بالتأنيس من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم كيلا يهلك نفسه حزنا ألا يؤمن قومه إذ كذبوا واستكبروا.

وفي السورة إخبار عن كليم الله موسى، والطاغية فرعون، الذي شهد بنفسه المعجزات الحسية معاينة فعصى واستكبر - ثم لحاقه ببني إسرائيل عقب خروجهم فرارا من ظلمه وطغيانه، يبتغي قتلهم وإذلالهم - وهناك تتجلى المعجزة الكبرى في إنفلاق البحر لما ضربه

موسى بعصاه فانحسر عن اثني عشر طريقا يبسا سار فيها بنو إسرائيل سالمين آمنين، ومياه البحر من حولهم وعلى جانبي كل سبط منهم شاهقة واقفة كالجبال.
إلى غير ذلك من تخاصم المجرمين فيما بينهم يوم القيامة قبل أن يكبكبوا جميعا في النار - ثم الإخبار عن قوم نوح وعاد وثمود وقم لوط وشعيب - ثم التذكير بالشعر والشعراء الذين يتبعهم الغواة وهم أهل الضلال من الإنس والجن، والذين يهيمون في كل فنون الريبة وأودية الفحش، كالهجاء والتزلف والنفاق والمبالغة في المديح والإطراء والغزل المبتذل - ويستثنى منهم، الشعراء المؤمنون المتقون الذين يسخّرون شعرهم في طاعة الله وفي نشر دعوة الإسلام والذب عنه - وبهم سميت السورة.
١ - (طسم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}
مضى الكلام عن مثل هذه الحروف من فواتح السور - كقوله هنا {طسم} وقد ذكر في تأويل هذه الحروف الفواتح عدة أقوال، وهي لا نجد لها مستندا من دليل ظاهر - والذي نميل إليه أن هذه الحروف دليل يساق للاحتجاج على كون القرآن معجزا - وتقدير الكلام أن هذه الآيات التي عجزتم عن معارضتها مكونة من حروف كهذه الحروف - وعلى هذا فإن {طسم} مبتدأ، وخبره {تلك آيات الكتاب المبين} والمراد بالكتاب هنا القرآن - أي هذه آيات القرآن الظاهرة التي أنزلها الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لتكون للناس نورا وهداية ومنهاجا يهتدون به وتصلح عليه أحوالهم في المعاش والمعاد.
٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)
{طسم} مبتدأ، وخبره {تلك آيات الكتاب المبين} والمراد بالكتاب هنا القرآن - أي هذه آيات القرآن الظاهرة التي أنزلها الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لتكون للناس نورا وهداية ومنهاجا يهتدون به وتصلح عليه أحوالهم في المعاش والمعاد.
٣ - (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)
قوله: {لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين} باخع بمعنى مهلك، بخع نفسه أي قتلها غما ١ والمعنى: لعلك يا محمد مهلك إن لم يؤمن قومك بما جئتهم به من دين وتوحيد - وهذا تأنيس من الله لنبيه الكريم وتسلية له بما يُسري عنه ويخفف عنه الهم والاغتمام.
٤ - (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)
قوله: {إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين} يعني إن يشأ الله ينزل على هؤلاء المشركين المكذبين معجزة أو بلية من السماء تلجئهم إلى الإيمان إلجاء أو تضطرهم إليه قهرا - لكن الله قضى أن تكون الدلائل نظرية لتعيها قلوبهم وليدركوها بعقولهم إدراكا.
قوله: {فظلت أعناقهم لها خاضعين} وذلك إخبار عن ذل الرقاب فهي إن ذلت ذل أصحابها - وقيل: المراد من أعناقهم، كبراؤهم ورؤساؤهم؛ أي لو شاء الله لأنزل من السماء آية ظاهرة فذلوا وخضعوا وانقادوا للإيمان مقهورين.
٥ - (وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)
قوله: {وما يأتيهم من ذكر الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين} ما يأتي هؤلاء العصاة المستكبرين من موعظة أو طائفة مجددة من آيات القرآن لتعظهم وتذكّرهم إلا أعرضوا عنها واستكبروا ولجوا في نفورهم وضلالهم.

٦ - (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
قوله: {فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون} أي كذّب هؤلاء الظالمون السفهاء بما جاءهم من الحق الظاهر والدلائل الواضحة المستبينة - فتوعدهم الله بسوء العاقبة وتعْس المصير من أجل إعراضهم وتكذيبهم وسوف يرون نبأ ذلك بعد حين - وهو قوله {فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون} أي سوف يرون عاقبة ما سخروا منه عندما ينزل بساحتهم الانتقام من الله في الدنيا وعذابه الوجيع في الآخرة.
٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)
قوله: {أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم} الاستفهام للتوبيخ، والواو للعطف - وذلك تنبيه من الله على عظيم صنعه وبالغ قدرته، إذ أنبت من الأرض بعد أن كانت قفرا يابسا، أصنافا شتى من النبات الحسن - أفلا يتدبر هؤلاء المكذبون المستهزئون ما جاءهم من الحق الظاهر والدلائل الواضحة المستبينة؟ ولو تدبروا وتفكروا لآمنوا وأيقنوا لكنهم موغلون في العمه، سادرون خلف الأهواء والشهوات.
٨ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
قوله: {إن في ذلك لآية} الإشارة عائدة على ما ذكر من إنبات الأصناف المختلفة من الأرض بعد أن كانت هامدة ميتة - وفي ذلك دلالة ظاهرة على عظمة الله المقتدر - ومع كل ذلك فما آمن من الناس إلا قليل وأكثرهم سادرون في العماية والعصيان ٢
٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
قوله: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} الله منيع جبار، ينتقم من أعدائه، أعداء الحق والعقيدة والدين - وهو سبحانه رحيم بعباده المؤمنين المنيبين، يشملهم برحمته وفضله وإحسانه ٣
١٠ - (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}
{إذ}، في محل نصب ظرف متعلق بفعل مقدر - وتقديره: واتل عليهم إذ نادى ربك ٤ يعني، واذكر يا محمد حين نادى ربك كليمه موسى بن عمران من جانب الطور الأيمن فكلمه وناجاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه من القبط، الظالمين الفجرة، الذين استخفهم فرعون فأطاعوه في الباطل والعتو عن أمر الله - وهو قوله: {أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون} أي ألا يخشون عقاب الله وانتقامه بسبب كفرهم وعصيانهم ثم ذكر موسى ما لديه من أعذار عسى الله أن يكشفها عنه - وذلك قوله: {رب أني أخاف أن يكذبون (١٢) ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون}
١١ - (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ)
{أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون} أي ألا يخشون عقاب الله وانتقامه بسبب كفرهم وعصيانهم ثم ذكر موسى ما لديه من أعذار عسى الله أن يكشفها عنه - وذلك قوله: {رب أني أخاف أن يكذبون (١٢) ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون}
١٢ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

}رب أني أخاف أن يكذبون (١٢) ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون{ خشي موسى من تكذيبهم له لشدة جحودهم وفرط عنادهم - وخشي أيضا أن يضيق صدره ويغتم حزنا بتكذيبهم له فيحتبس لسانه عن الكلام - فاستجاب الله له ما طلب وآتاه سُؤله وأزال عنه ما كان به من اغتمام وضيق صدر وأذهب عنه الحبْسة التي كانت في لسانه أو بقيت منها بقية يسيرة، وأوحى إلى أخيه هارون ليكون معه نبيا ورسولا وظهيرا - فذهبا معا إلى فرعون وبلغاه دعوة الله - دعوة الإيمان والحق والتوحيد.

١٣ - (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

}رب أني أخاف أن يكذبون (١٢) ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون{ خشي موسى من تكذيبهم له لشدة جحودهم وفرط عنادهم - وخشي أيضا أن يضيق صدره ويغتم حزنا بتكذيبهم له فيحتبس لسانه عن الكلام - فاستجاب الله له ما طلب وآتاه سُؤله وأزال عنه ما كان به من اغتمام وضيق صدر وأذهب عنه الحبْسة التي كانت في لسانه أو بقيت منها بقية يسيرة، وأوحى إلى أخيه هارون ليكون معه نبيا ورسولا وظهيرا - فذهبا معا إلى فرعون وبلغاه دعوة الله - دعوة الإيمان والحق والتوحيد.

١٤ - (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

قوله: }ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون{ المراد بالذنب هنا قتل القبطي الذي كان موسى قد وكزه فقضى عليه - وذلك لما استغاث به رجل من قومه عليه - فقد خشي موسى أن يقتله فرعون به.

١٥ - (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

قوله: }قال كلا فاذهبا بآياتنا{ }كلا{، ردع وزجر، أي لن يقتلوك - بل أنتم الغالبون بحول الله، وهم المغلوبون والخزايا - }فاذهبا بآياتنا{ أي اذهب أنت وأخوك بما أنزلنا عليك من الحجج والبينات إلى فرعون لعله يتدبر أو يعتبر.

قوله: }إنا معكم مستمعون{ أي اسمع ما يقوله لكم فرعون وما يجيبكم به - وذلك تأنيس من الله لموسى وأخيه وتقوية لهما وشد لأزرهما يزداد يقينهما وثقتهما بالله - فهو نعم المولى ونعم النصير.

١٦ - (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: }فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين{ وإنما قال: }رسول بالإفراد، لوجهين - أحدهما: أن المراد هنا الجنس، فوحد - ولو أراد به العدد لثنى - وثانيهما: أي يكون الرسول هنا بمعنى الرسالة - والتقدير: إنا ذوا رسالة رب العالمين ٥.

١٧ - (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

قوله: }أن أرسل معنا بني إسرائيل{ المراد من الإرسال، التخلية والإطلاق، أي أطلقهم وخلّ سبيلهم يذهبوا معنا ويتخلصوا من قهرك لهم ومن استعبادك إياهم - وقيل: كان فرعون قد استذل بني إسرائيل واستعبدهم أربعمائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا - فلما طلب موسى من فرعون تخلية بني إسرائيل وإطلاقهم من إساره وقهره، أعرض وأبى واستكبر وراح يمنّ عليه في سخرية وتهكم وهو قوله " }ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين{.

١٨ - (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

}ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين{ يعني ألست أنت الذي ربيناك صغيرا في بيتنا وعلى فراشنا فعشت بيننا في نعمة ورخاء مدة من السنين ثم قابلت ذلك بالجحود، إذ فعلت فعلتك وهي قتل رجل من رجالنا - وهو قوله بعد ذلك }وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين{.

١٩ - (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

}وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين{ فعلة، بالفتح اسم مرة - وبالكسرة اسم هيئة - وهي هنا بالفتح، أي فعلت ما فعلت من قتل القبطي -وذلك لما وكزه موسى فقضى عليه }وأنت من الكافرين{ الواو للحال أي قتلت القبطي وأنت بذلك من الجاحدين لنعمتنا

عليك - وقيل: وأنت ممن عادته كفران النعم أي بجودها - وقيل: وأنت من الكافرين بفرعون وإلهيته - أو من الذين يكفرون بدين فرعون وقومه، إذ كانت لهم آلهة يعبدونها.

٢٠ - (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

قوله: {قال فعلتها إذا وأنا من الظالمين} أي فعلت تلك الفعلة – وهي قتل القبطي- وأنا حينئذ من الجاهلين، أي يجهلون أن الوكزة سوف تودي به، لأنه وكزه على سبيل الزجر والتأديب - وقيل: من الضالين، يعني الناسين.

٢١ - (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

قوله: {ففررت منكم لما خفتكم} يخاطب موسى فرعون وملأه من أتباعه وأعوانه، أنني فررت منكم إلى مدين لما خشيت أن تقتلوني بقتلي القبطي {فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين} المراد بالحكم هنا النبوة، أي أنعم الله علي بالنبوة وأرسلني إليكم لأبلغكم رسالة ربي.

٢٢ - (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

قوله: {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} جملة {أن عبدت} في موضع رفع بدل من نعمة ٦ و {عبدت}، بتشديد الباء يعني استعبدت - وتعبدتهم، أي اتخذتهم عبيدا - يقال: عبّدته، بتشديد الباء، وأعبدته، أي اتخذته عبدا ٧ - قال له موسى ذلك على سبيل الإنكار - والمعنى: أتمن علي بأن ربيتني وليدا وقد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم - فكيف تذكر إحسانك إلي وأنت تستذلهم وتستعبدهم استعبادا - وقيل: هذا من موسى لفرعون على سبيل الاستفهام - فالمعنى: أتمنّ علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا - والمقصود أنك ما أحسنت إلي إذ ربيتني وأنعمت علي مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، بقهرهم وقتلهم وإذلالهم وجعلهم لك عبيدا - فما ذكرته من نعمة لا يساوي شيئا في مقابلة ما فعلت ببني إسرائيل ٨.

٢٣ - (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأولين (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} قال فرعون جاحدا مستكبرا {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين سواي؟ فقد كان فرعون في طغيانه وعتوه وفظاعة إجرامه يزعم أنه من دون الله وكان يحمل قومه على اعتقاد إلهيته لكي يعبدوه فاستخفهم بذلك أيما استخفاف - فرد موسى مقالته ومضى يبين له حقيقة وحدانية الله، وأن الله خالق كل شيء وهو قوله: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا}.

٢٤ - (قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

{قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا} من خلائق وأشياء - فليس من شيء أو أحد من أناسيّ وغيرهم في السماوات أو الأرض إلا هو مملوك لله وحده {إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ} أي إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره واستبانته.

٢٥ - (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ)

قوله: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} قال فرعون لمن حوله من قومه وبطانته المشركين: ألا تستمعون لما يقوله موسى - وإنما قال فرعون ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، فقد كانت عقيدة قومه أن فرعون إلههم ومعبودهم.

٢٦ - (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ)

قوله: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأولين} أي إلهكم الذي أدعوكم لعبادته هو خالقكم وخالق آباءكم الذين من قبلكم - وليس فرعون إلا مربوبا لا ربا كما يفتري ويهذي.

٢٧ - (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

قوله: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} قال فرعون ذلك؛ لأن كلام موسى كان غير مفهوم ولا معقول لدى قومه من الظالمين الذين استخفهم فأطاعوه، إذ كانوا يعتقدون أن الإله هو فرعون فقط - فلما ذكر لهم موسى أن الله خالق كل شيء لم يعقلوا معنى كلامه، فسوّل لهم فرعون أن موسى مجنون.

وقيل: إن موسى لم يجب فرعون عما سأله بل كان ماضيا في تذكيرهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده - ومن أجل هذا قال فرعون لقومه: إن موسى لمجنون - ومع ذلك لم يلتفت موسى إلى مقالة فرعون وما كان يتيه فيه من باطل القول وظلم الافتراء - بل صدع بالحق المبين غير عابئ ولا متهيب بطش القوم وطغيانهم فقال: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}.

٢٨ - (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} هذه مجاهرة صريحة من موسى للقوم الظالمين يبين لهم فيها أن الله وحده رب كل شيء وهو خالقه ومالكه - وما من شيء إلا هو مربوب لله {إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} إن كانت لكم أفهام تعقلون بها وتدركون ما أقوله لكم وتميزون بها ما بين الحق والباطل.

٢٩ - (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

قوله تعالى: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) ٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}

قامت الحجة على الظالم المتجبّر، حتى انقطع في باب الدليل والبرهان، فجنح بظلمه وطغيانه إلى أسلوب البطش والتنكيل كالحبس أو القتل أو التعذيب - وهذا هو ديدن الطغاة والمستبدين في كل زمان - أولئك الذين يسوسون الناس بالظلم والتسلط الغاشم، وهم ليس لهم في سلطانهم وحكمهم أيما حجة من منطق أو برهان إلا التعسف والعدوان؛ إنهم حينئذ لا يواجهون خصومهم بالاحتجاج أو الدليل إنما يواجهونهم بالشدة والتنكيل والتقتيل - وفي طليعة هؤلاء جميعا ذلكم الطاغية الكنود، فرعون؛ فقد غابت عن ذهنه وخياله كل ظواهر المنطق والاحتجاج فبادر إلى العسف والتهديد - فقد توعد موسى لئن اتخذ إلها آخر غيره لسوف يسجننه - فأجابه موسى عليه السلام في ثقة بالله ويقين، وفي عزيمة شامخة راسخة لا تتزعزع {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ}.

٣٠ - (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

{أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ} أي ببرهان قاطع مكشوف

٣١ - (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} طلب فرعون على سبيل المكابرة والمعاندة والتحدي أن يأتيه ببرهان

٣٢ - (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} والثعبان، ضرب من الحيات طوال، وجمعه ثعابين - يقال: ثعبْتُ الماء أي فجرته - والثعب، مسيل الماء في الوادي وجمعه ثعبان ٩ والمراد بالثعبان هنا الحية الهائلة المخوفة التي لا يراها بشر إلا هالته وراعته بمنظرها.

٣٣ - (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

قوله: {وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} أي نزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء تتلألأ كأنها قطعة مضيئة من القمر - ولم يتردد فرعون

دون المكابرة والعناد حتى بادر إلى التكذيب والجحود والاستكبار - وذلك هو خلق المجرمين من الأشقياء العتاة الذين لا تأخذهم الحجة ولا يثنيهم الدليل الظاهر عن المكابرة والاستكبار - ومن أجل ذلك قال {قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)}

٣٤ - (قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

{قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} قال فرعون لقومه الذين استخفهم فأطاعوه: إن موسى ساحر خبير بارع - وإنما يريد بسحره هذا أن يستهوي الناس ليجتمعوا من حوله فيتقوّى بهم على التغلب عليكم وإخراجكم من أرضكم مصر - وفرعون في ذلك يريد أن يهيّج قومه ويحرّضهم على مواجهة موسى بالاستنكار والاستنكاف والتصدي - وقد تحصّل له ذلك، إذ تمكن من قذف الوهم في قلوبهم بعد أن طلب منهم أن يشيروا عليه بما يصنعه.

فأشاروا عليه بمقارعته وقهره عن طريق السحرة البارعين ليغلبوه - وهو قوله: {قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}

٣٥ - (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]

{قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} قال فرعون لقومه الذين استخفهم فأطاعوه: إن موسى ساحر خبير بارع - وإنما يريد بسحره هذا أن يستهوي الناس ليجتمعوا من حوله فيتقوّى بهم على التغلب عليكم وإخراجكم من أرضكم مصر - وفرعون في ذلك يريد أن يهيّج قومه ويحرّضهم على مواجهة موسى بالاستنكار والاستنكاف والتصدي - وقد تحصّل له ذلك، إذ تمكن من قذف الوهم في قلوبهم بعد أن طلب منهم أن يشيروا عليه بما يصنعه.

فأشاروا عليه بمقارعته وقهره عن طريق السحرة البارعين ليغلبوه - وهو قوله: {قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}

٣٦ - (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

{قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} {أرجه}، قُرئ أرجئه بالهمز وبغير الهمز - وهما لغتان - يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته - والمعنى: أخره وأخاه لوقت اجتماع السحرة من مدائن الدولة وأقاليم البلاد ليقابلوه ويأتوا بنظير ما جاءهم به فتكون لك الغلبة والنصرة عليه.

٣٧ - (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} {أرجه}، قُرئ أرجئه بالهمز وبغير الهمز - وهما لغتان - يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته - والمعنى: أخره وأخاه لوقت اجتماع السحرة من مدائن الدولة وأقاليم البلاد ليقابلوه ويأتوا بنظير ما جاءهم به فتكون لك الغلبة والنصرة عليه.

٣٨ - (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

قوله: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

(٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} احتشد الناس من أهل مصر في يوم ظاهر معلوم، وقد تمالأت فيه فئات الكفر والضلال والنفاق من أجل أن يطفئوا نور الله وليصدوا دعوة التوحيد صدا فتكون لهم الكبرياء والغلبة على الناس - وذلك هو من شأن المضلين والمجرمين من مشركين وحاقدين ومنافقين؛ فإنهم جميعا لا يبرحون الكيد للحق كيما يستأصلوه من الدنيا استئصالا.

٣٩ - (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

قوله: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} بعث فرعون جنوده وأعوانه في المدائن لترغيب الناس وتحضيضهم على الاجتماع والتلاقي في يوم الزينة، يوم المناظرة الكبرى بين الحق الذي يدعو إليه موسى وأخوه وحيدين، ليس لهما من ظهير ولا نصير سوى الله ذي الملكوت والجبروت، وبين الباطل الهائج المنتفش ومن ورائه الطاغية المغرور فرعون ومن ورائه أتباعه وأشياعه من الأعوان والمنافقين والرعاع - وقد تنادى هؤلاء فيما بينهم قائلين: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}

٤٠ - (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)

{لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} أي لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى - وإنما غرضهم الكلي أن لا يتبعوا موسى وقد كان السحرة حينئذ جمعا غفيرا من الخلق؛ إذ بلغوا بضعة آلاف - واختلفت الأقوال في حقيقة عدتهم لعدم الدليل على ذلك.

٤١ - (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

قوله: {فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} سألوه إن كان لهم حظ من الأجر أو الجزاء في مقابل انتصارهم على موسى {قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}

٤٢ - (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

{قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} وافقهم فرعون على ما سألوه وابتغوه من الجزاء، وزيادة - وهي أن يكونوا عنده من المقربين فيكونوا من ذوي المكانة والجاه والحظوة.

٤٣ - (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

قوله: {قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ} أي ألقوا ما عندكم من حبال وعصي

٤٤ - (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)

{فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} أي ألقَوْا ما عندهم من الحبال والعصي وأقسموا لدى إلقائها -بقوة فرعون وسلطانه إنهم هم الغالبون.

٤٥ - (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

قوله: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} ألقى موسى عصاه فانقلبت حية هائلة مَخوفَة تبتلع كل ما ألقاه السحرة من إفك، وهو السحر المفترى الذي لا حقيقة له إلا التوهيم والتخييل والخداع والبراعة في التمويه والحركة.

٤٦ - (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

قوله: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} لما حصحص الحق واستبانت الحجة ساطعة جلية وأيقنوا أن ما جاء به موسى لهو من عند الله، خروا لوجوههم ساجدين لله، مذعنين له بالطاعة والخضوع والامتثال - معلنين في مجاهرة واضحة أنهم آمنوا بالله خالق كل شيء وأنه إله العالمين وهو رب موسى وهارون ١٠.

٤٧ - (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
قوله: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} لما حصحص الحق واستبانت الحجة ساطعة جلية وأيقنوا أن ما جاء به موسى لهو من عند الله، خروا لوجوههم ساجدين لله، مذعنين له بالطاعة والخضوع والامتثال - معلنين في مجاهرة واضحة أنهم آمنوا بالله خالق كل شيء وأنه إله العالمين وهو رب موسى وهارون ١١.
٤٨ - (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
قوله: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} لما حصحص الحق واستبانت الحجة ساطعة جلية وأيقنوا أن ما جاء به موسى لهو من عند الله، خروا لوجوههم ساجدين لله، مذعنين له بالطاعة والخضوع والامتثال - معلنين في مجاهرة واضحة أنهم آمنوا بالله خالق كل شيء وأنه إله العالمين وهو رب موسى وهارون ١٢.
٤٩ - (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)
قوله تعالى: {قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}
استنكر فرعون إيمان السحرة وخرورهم ساجدين لله مؤمنين منيبين، فغشيه بسبب ذلك من التغيظ والغضب ما غشيه حتى أخذ يقرّعهم تقريع الأحمق المأفون، الذي يهذي من غير حجة ولا منطق، لأنهم آمنوا من غير أن يستأذنوه - وهو قوله: {آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} كان هذا الشقي المتجبر يفيض طبعه فظاظة وشقاوة وكبرا - وكان لفرط اغتراره واستكباره وخيلائه يعجب أن يؤمن أحد من قومه دون الرجوع إليه، فهو يعجب في لجوج وغرور من إيمان القوم قبل أن يأذن لهم لذلك - فراح بذلك يزجرهم ويقرعهم {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} أي إنما فعلتم ذلك عن مواطأة بينكم وبين موسى وهو رئيسكم في السحر وهو الذي علّمكم صنعة السحر - ثم راح يتهددهم متوعدا أن ينزل بهم العقاب الأليم - وهو قوله: {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} والقطع من خلاف، معناه قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى - أما الصلب فهو مصدر صلب يصلب صلبا، وأصله من الصليب وهو الودك، أي دسم اللحم - والصلب هو قتلة معروفة، مشتق من ذلك، لأن ودك الثقيل المصلوب وصديده يسيل ١٣.
٥٠ - (قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)
قوله {قَالُوا لا ضَيْرَ}، الضير معناه الضر أو الضرر، أي لا ضرر علينا، أو لا يضرنا الذي تتوعدنا به من عقاب وتنكيل فإنا لا نجزع بذلك ولا نبالي به {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} أي إنا إلى الله راجعون فهو مجازينا بما صبرنا على ضُرك وعقابك.
٥١ - (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} نرجو من الله أن يمحو عنا ما قارفناه من الذنوب والخطايا {أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} {أَن كُنَّا}، يعني لأنْ كنا - أو بسبب أنا كنا أول المبادرين للإيمان من القبط، أو من الذين حضروا هذا الموقف.
لكن فرعون لم يتورع عن فعل الخطيئة البشعة النكراء، إذ قتلهم جميعا – وهم ألو فمن المؤمنين- وذلك بتقطيعهم من خلاف وتصليبهم في جذوع النخل كما توعدهم بذلك قبحه الله - والله جل وعلا، هو المنتقم الجبار قاصم الطغاة والعتاة والفجار، وهو لا يغفل عما يفعل الظالمون من فظاعة وبشاعة وإجرام - إن الله لفرعون وأمثاله من الطغاة المناكيد في كل زمان ومكان بالمرصاد - حتى إذا جاء الوعد بالانتقام من الظالمين في الدنيا قصمهم قصم عزيز مقتدر، قبل أن يُصار بهم إلى جهنم - وفي الخبر " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه

لم يفلته ".

٥٢ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)

قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}

بعد أن قامت الحجة على فرعون وملئه من المشركين الظالمين، خشي هذا اللعين أن يشيع دين موسى في البلاد بما لديه من قوة الأدلة والبراهين - ومن أجل ذلك أزمع فرعون على التصدي لموسى والذين معه بالقتل والإبادة - فأوحى الله إلى كليمه موسى بالخروج وقومه من البلاد تنجية لهم من كيد فرعون، نخرج ببني إسرائيل من مصر ليلا ومضى بهم إلى حيث أمره الله وهم يحملون معهم ما استعاروه من القبط من الحلي ليتزينوا به في عيدهم - وهو قوله: {أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ} أي يتبعكم فرعون وجنوده ليردوكم إلى القهر والاستعباد.

٥٣ - (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

قوله: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} أي بعث فرعون إلى الأقاليم في البلاد من يجمع جنوده وعساكره ليمضوا في أثر بني إسرائيل - وقد نادى فيهم {إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ}

٥٤ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

{إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} الشرذمة، الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء ١٤ فقد وصفهم بالقلة والذلة - وذلك على سبيل الاستهجان والاستخفاف والاستضعاف - وقد احتشد من حوله أتباعه من العساكر والجنود والرعاع فكانوا جمعا عظيما من الخلق - ولقد لحقوا بموسى ومن معه من بني إسرائيل لكي يردوهم إلى حكمهم حيث القهر والإذلال والتسلط الظالم.

٥٥ - (وَإِنَّهُم لَنَا لَغَائِظُونَ)

قوله: {وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} اللام للتأكيد - وغائطون من الغيظ وهو الغضب - يعني يفعلون ما يغيظنا - وهو خروجهم سرا من غير أن نأذن لهم بذلك، فضلا عن تمردهم على أمرنا وحكمنا، وخروجهم عن العبودية لنا ليستقلوا بأنفسهم عنا.

٥٦ - (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ)

قوله: {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} {حَاذِرُونَ} جمع حاذر، وهو المستعد - أو حذر وهو المتيقظ المنتبه - والمعنى: أننا مجتمعون وقد أخذنا حذرنا واستعدادنا للقضاء على بني إسرائيل واستئصال شأفتهم.

٥٧ - (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

قوله: {فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} أخرج الله فرعون وجنوده وأتباعه وأعوانه من أرض مصر حيث البساتين والزروع والثمرات والأنهار والأموال والجاه والسلطان {وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}

٥٨ - (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

{وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} الكنوز، يراد بها الخزائن - وقيل: الدفائن من الذهب والفضة - والمقام الكريم، يراد به المساكن الفاخرة العظام والمجالس البهية الحسان التي كانت لفرعون وجنده وملئه يتنعمون فيها وهم تحيط بهم ظواهر العزة والمجد.

٥٩ - (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

قوله: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف - أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم - أو في

موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف - والتقدير: الأمر مثل ذلك.
قوله: {وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} والمراد أن جميع ما ذكر من الجنات والعيون والأنهار والكنوز والمنازل الحسنة أورثه الله بني إسرائيل؛ إذ رجعوا إلى مصر -بعد مهلك فرعون وجنده- سالمين آمنين غانمين ١٥.
٦٠ - (فَأَتبعوهم مُشْرِقِينَ)
قوله تعالى: {فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}
لحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل {مُّشْرِقِينَ} أي حين وقت الشروق - وهو من أشرقت الشمس شروقا إذا طلعت.
٦١ - (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)
قوله: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} {تَرَاءَى الْجَمْعَانِ}، أي تقابلا وجها لوجه - وهو فريق المؤمنين من قوم موسى، وفريق الطغاة والمجرمين الكافرين من فرعون وملأه وأشياعه وأتباعه من الرعاع والمنافقين - حينئذ خاف بنو إسرائيل وأصابهم من الذعر والوجل ما أصابهم وقالوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} أي ملحقون - وذلك لما انتهى بهم السير إلى ساحل البحر الأحمر فرأى كل من الفريقين صاحبه - وإذ ذاك ساءت بهم الظنون وكاد اليأس أو الرعب يطغى عليهم وهم يرون أن فرعون قد لحق بهم وربما تمكن من رقابهم - لكن موسى كان قلبه مطمئنا بالإيمان، وكان واثقا بنصر الله وتأييده، موقنا أن الله مع المؤمنين الصابرين ولن يخلف الله وعده الذي وعدهم - لذلك رد عليهم موسى قولهم زاجرا ومذكرا بوعد الله {كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}
٦٢ - (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)
{كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} أي، الله بقوته وتأييده وجلاله معي وسيهديني، أي سيدلني على طريق النجاة والخلاص مما ترون من الأخطار - فإذا أهلك الله فرعون وجنده الأشرار، فلا جرم أن يكون ذلك نصرا ظاهرا من الله.
٦٣ - (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)
قوله: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ} وهذه بداية النصر والتأييد من الله بإهلاك الظالمين المجرمين، فرعون وجنوده أجمعين - فقد أمر الله كليمه موسى أن يضرب البحر بعصاه فانفلق؛ أي صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بني إسرائيل؛ ليمضي كل سبط منهم في طريق - وكل ذلك بقدرة الله المطلقة ومشيئته التي لا تعرف الحدود - نوقن بذلك تمام اليقين ونحن نتصور العصا، هذا الجرم الصغير المهين، وهو يُضرب به البحر؛ فإنه في معيار الطبيعة وقوانينها لا يساوي شيئا ولا يؤثر في البحر أهون تأثير - لكن الله العزيز المقتدر خالق الأشياء والكائنات، والذي أودع فيها ما أودع من القوانين والخصائص قادر أن يفعل ما يريد من المعجزات الحسية التي تتعطل عندها قوانين الطبيعة ونواميسها - وهذه واحدة من المعجزات الكبرى التي تحققت لبني إسرائيل بقيادة النبي العظيم موسى عليه الصلاة والسلام - وهي انفراق البحر اثني عشر طريقا يبسا ممهدا يسيرون فيه في أمن ويسر.
قوله: {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} الفرق، القطعة أو الجزء المنفرق من البحر - والطود، معناه الجبل العظيم ١٦ والمعنى: قام الماء عن يمين كل طريق من هذه الطرق وعن يساره كالجبل الشاهق العظيم - وهذه معجزة كبيرة مثيرة توجج العجب وتدير الرأس - وللمرء أن يتخيل الماء وهو يقف شاهقا مركوما على جانبي كل طريق من هذه الطرق - ومجرد قيامه عاليا متراكما لا يسقط ولا يسيل، ينبئ بمعجزة ظاهرة ثانية.
وذكر كثير من المفسرين أنه قد جُعلت لهم كوى أو منافذ في الجدران المائية التي تفصل بين الأسباط الاثني عشر ليرى بنو إسرائيل بعضهم بعضا - وهذه معجزة ثالثة من معجزات حسية قد أوتيها بنو إسرائيل ليشكروا الله على ما آتاهم من فضله من عظيم العطايا مما

لم يعط مثله أحد غيرهم في العالمين - لكنهم في الحقيقة لم يشكروا ولم يتذكروا، ولم يقابلوا عطايا الله بالخشوع والتواضع والرحمة بالبشرية بل إنهم وذراريهم من بعدهم قد جحدوا واستكبروا بعد أن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم - فهم أولوا طبائع غريبة - بما خالطها من انحراف وعوج وبما تجلى في نفوسهم وسلوكهم وطريقة تفكيرهم من زيغ واعوجاج وجنوح للتخريب وبما مردوا عليه خلال تاريخهم الطويل من رغبة ملحة في التدسس خلف المجتمعات لإضعافها والسيطرة عليها.

٦٤ - (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ)

قوله: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ} {وَأَزْلَفْنَا} يعني قرّبنا وأدنينا - و {ثم}، يعني هناك، والمراد البحر - والمراد بالآخرين، فرعون وجنوده، أي قربناهم من البحر تمهيدا لدخولهم فيه وتغريقهم فلا يجو منهم أحد.

٦٥ - (وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ)

قوله: {وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ} أنجا الله كليمه موسى ومعه بنو إسرائيل، إذ سلك كل سبط منهم في البحر طريقا يبسا آمنا.

٦٦ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ)

قوله: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين} توهم فرعون وغلبه الاغترار والصلف وجنون العظمة والاستكبار، إذ رأى البحر منفلقا فاختال في نفسه تيها وكبرا وغرورا - فحمل قومه على الدخول في البحر معه ليلاقوا مصيرهم البئيس فدخلوا ثم أطبق عليهم البحر إطباقا فغرقوا شر تغريق ولم ينج منهم أحد.

٦٧ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} إن في هذه القصة وما انطوت عليه من أحداث عجاب ومعجزات مثيرة مذهلة، دلالة ظاهرة على قدرة الله، فهو الفعال لما يريد - وهو الذي ينصر أولياءه الصالحين المغلوبين كلما أحاطت بهم الأهوال والشدائد {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي لم يؤمن من قوم فرعون إلا قليل منهم آسية امرأة فرعون - ورجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه.

٦٨ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} إن الله لهو القوي الجبار المنتقم ممن كفر به وكذب رسله وآذى أولياءه المؤمنين الصابرين - وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين فينجيهم من كل المهالك والكروب ويكتب الثواب وحسن الجزاء في الآخرة ١٧.

٦٩ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} ذلك إخبار من الله عن النبي الأوّاه الحليم، خليل الله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام - فقد كان مثالا يحتذى به في قوة الصبر وعظيم الاحتمال والثبات على العقيدة، والجرأة البالغة في قول الحق مهما تكن النتائج أو أطبقت المحن والأهوال، أو أحاطت بالنفس مكائد الكافرين المجرمين.

٧٠ - (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

والله جل وعلا يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقصص على أمته خبر هذا النبي الفذ، إبراهيم عليه السلام - وهو قوله: {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} سأل إبراهيم قومه في صراحة وجرأة، غير مداهن ولا متردد، ولا متوجس أيما خيفة، عن الذي يعبدونه وهو يعلم أنهم يعبدون أصناما صما - لكنه إنما يبتغي بذلك أن يلزمهم الحجة ليعلموا أنهم لا يعبدون شيئا - فهم بذلك ليسوا غير تائهين في الجهالة والضلالة.

٧١ - (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)
قوله: {قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} من الاعتكاف، وهو الاحتباس ١٨ أي نظل مقيمين على عبادتها.
٧٢ - (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)
قوله: {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} الاستفهام للتقرير، لكي تقوم عليهم الحجة بعبادتهم أجساما لا تجدي ولا تغني - وهي كذلك لا تضر ولا تنفع - والمعنى: هل يسمعون دعاءكم وأنتم تدعونهم أو تعبدونهم - وهم موقنون أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل - لكن الحماقة والضلالة والسفه وفساد التقليد، كل أولئك قد ركب عقولهم وقلوبهم فباتوا لا يحسنون الاعتبار والتفكير - وهو قوله: {قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}
٧٣ - (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٢]
قوله: {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} الاستفهام للتقرير، لكي تقوم عليهم الحجة بعبادتهم أجساما لا تجدي ولا تغني - وهي كذلك لا تضر ولا تنفع - والمعنى: هل يسمعون دعاءكم وأنتم تدعونهم أو تعبدونهم - وهم موقنون أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل - لكن الحماقة والضلالة والسفه وفساد التقليد، كل أولئك قد ركب عقولهم وقلوبهم فباتوا لا يحسنون الاعتبار والتفكير - وهو قوله: {قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}
٧٤ - (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)
{قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} هؤلاء الضالون السفهاء سادرون في ظلام التقليد الأعمى للآباء والأجداد، جانحون للسير على خطاهم دون أن يعبئوا في ذلك بزيغ أو عوج، ولم يسعفهم فيه أثارة من حجة أو دليل إلا التقليد الأصم.
وهذه خطيئة كبرى وسفه غليظ يتلبس به في مختلف الأزمان كثير من الناس أفرادا وجماعات؛ إذ يجنحون في كثير من سلوكهم وتصرفاتهم وأهوائهم وعباداتهم إلى ما كان يصنعه الآباء والأجداد؛ فهم يتلقون عنهم كل ذلك دون تمحيص أو إعمال لنظر، ولا يبالون في ذلك أن يكون المأخوذ عن الغابرين زيفا أو هراء أو ضلالا.
٧٥ - (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)
قوله: {قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} كان إبراهيم يخاطب قومه المشركين الضالين في شجاعة بالغة وجرأة ليس لها نظير - جرأة لم يخالطها أيما مداهنة أو لين، إلا الصدق في القول الصريح المستبين؛ لأن القوم لفرط زيغهم وضلالهم واستغراقهم في العمه والضلال والباطل لا تجدي معهم غير المفاصلة في القول، والوضوح من الخطاب الصريح لكي يتدبروا ويزدجروا - فقد قال لهم إبراهيم: أرأيتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأولون من قبلكم {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ}
٧٦ - (أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
قوله: {قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} كان إبراهيم يخاطب قومه المشركين الضالين في شجاعة بالغة وجرأة ليس لها نظير - جرأة لم يخالطها أيما مداهنة أو لين، إلا الصدق في القول الصريح المستبين؛ لأن القوم لفرط زيغهم وضلالهم واستغراقهم في العمه والضلال والباطل لا تجدي معهم غير المفاصلة في القول، والوضوح من الخطاب الصريح لكي يتدبروا ويزدجروا - فقد قال لهم إبراهيم: أرأيتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأولون من قبلكم {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ}

٧٧ - (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

{فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} أي ما اتخذتم من الأصنام آلهة، عدو لي يوم القيامة، لو أني عبدتهم في الدنيا - كقوله: {كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} والعدو، هنا بمعنى الجمع - وقد وحده لخروجه مخرج المصدر، مثل القعود والجلوس - ورب العالمين، منصوب على الاستثناء المنقطع - فيكون المعنى: أفرأيتم ما عبدتموه أنتم وآباؤكم فهو عدو لي، لكن رب العالمين ليس كذلك.

٧٨ - (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

قوله: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} وصف إبراهيم ربه بما هو أهله، إذ قال: الله الذي خلقني ولم أكن شيئا وهو يهديني للصواب والسداد من القول والفعل {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}

٧٩ - (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} الله سبحانه الذي أنزل من بركات السماء ماء فأخرج به من خيرات الأرض طعاما نأكله وشرابا نشربه.

٨٠ - (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

قوله: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} إذا اعتل بدني وسقم جسمي فإن الله هو الذي يقدر لي الشفاء بما يهديني إليه من دواء.

٨١ - (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

قوله: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} الله المبدئ المعيد - وهو بقدرته المطلقة يبعث الخلائق بعد الموت ليلاقوا الجزاء والحساب.

٨٢ - (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

قوله: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} الله الذي أرجو أن يتجاوز لي عن خطاياي {يَوْمَ الدِّينِ} أي يوم الجزاء - فإبراهيم وإن كان يعلم أنه معصوم من الذنوب وأنه مغفور له، فقد قال ذلك على سبيل الإقرار المطلق بكامل العبودية وبتمام الخضوع والتذلل لله رب العالمين ١٩.

٨٣ - (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

قوله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) ولا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

دعا إبراهيم ربه دعاء المنيب المتذلل - ودعاؤه جامع شامل يفيض بالإخلاص والزهد وطهر النفس - إذ قال: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} سأل إبراهيم ربه أن يهبه الحكم وهو العلم والحكمة - وقيل: المعرفة بحدود الله وأحكامه - وأن يلحقه في علو الدرجة والمنزلة بالنبيين من قبله - قوله: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ}

٨٤ - (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ)

{وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ} {لِسَانَ صِدْقٍ}، أي ثناء حسنا.

فقد سأل إبراهيم ربه الثناء وخلد المكان - وقد أجاب الله دعاءه فكل أمة من أهل الديانات السماوية تعظمه وتجله إجلالا، وهي مشدودة إليه بحسن المودة وجليل الرباط - وعلى هذا لا بأس أن يحب المرء الثناء عليه بصالح الذكر إذا قصد بذلك وجه الله تعالى، وليس مجرد الثناء والذكر أو حبا في الشهرة والظهور.

قال ابن العربي في أحكام القرآن: قال المحققون من شيوخ الزهد: في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يُكسب الثناء

الحسن - وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم علمه، أو ولد صالح يدعو له ".
وقيل: سأل ربه أن يجعل من ولده من يقوم بالحق من بعده إلى يوم الدين فقُبلت الدعوة ولم تزل النبوة فيهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين والمرسلين.
٨٥ - (وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)
قوله: {وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} سأل الله أن يمن عليه بالسعادة في الآخرة وهي الجنة - وفي ذلك رد لمقالة من يدعو: لا أسأل جنة ولا نارا - بل ندعو الله إلحاحا ونحن نسأله جل جلاله النجاة من النار، والفوز بجنة النعيم في زمرة المؤمنين العاملين المتقين.
٨٦ - (وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)
قوله: {وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} سأل إبراهيم ربه أن يصفح لأبيه، إذ كان ضالا مشركا - وكان إبراهيم قد وعده أبوه أن يؤمن برسالته ودينه فاستغفر له - فلما استبان لإبراهيم أن أباه عدو لله وأنه لم يؤمن تبرأ منه.
٨٧ - (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)
قوله: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} أي تذليني ولا تفضحني أمام الخلائق يوم القيامة - وأجرني من الخزي والعقاب يومئذ {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}
٨٨ - (يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ)
{يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} {يَوْمَ}، بدل من {يَوْمَ} الأول وفي هذا اليوم تشتد الأهوال والكروب، وتدلهم القوارع والخطوب، وتغشى الناس أحداث مزلزلة مذهلة تطير منها العقول، وتنقطع لفظاعتها القلوب - وحينئذ لا تجدي الشفاعات والجاهات والوساطات - ولا تغني الأموال ولا البنون ولا ينفع حميم حميما {إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}
٨٩ - (إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)
{إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} أي مبرأ من الشرك والنفاق والمرض على اختلاف صوره وأنواعه - عامر باليقين والخوف من الله - وذلكم الذي يجدي وينفع ليكون حائلا دون التردي في العذاب والخسران ٢٠.
٩٠ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)
قوله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.
ذلك إخبار من الله للعباد عن أحداث مخوفة تجري يوم القيامة - أحداث هائلة ومذهلة تثير الرعب وتبلغ منها القلوب الحناجر وتنشر في قلوب المجرمين والظالمين الفزع والإياس الكامل - وقد بدأ ذلك كله بذكر المتقين وإزلاف الجنة لهم وهو قوله: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} أي أدنيت وقرّبت ليتمكنوا من دخولها سالمين آمنين مطمئنين - وهو ما يزيد الإياس والحسرة لدى المجرمين الأشقياء.
٩١ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

قوله: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} أي أُظهرت الجحيم بنارها اللاهبة المستعرة للذين غووا وضلوا عن دين الله وجانبوا صراطه المستقيم ليزدادوا بذلك ترويعا وتحسرا.

٩٢ - (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

قوله: {وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} ينادى المجرمون الغاوون يوم القيامة زيادة في التعنيف لهم والتنكيل بهم: أين الشركاء والأنداد من الأصنام والأوثان والآلهة المصطنعة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من دون الله، هل ينفعونكم اليوم بدرء العذاب عنكم أو يملكون أن يدرؤوا عن أنفسهم النار؟!.

٩٣ - (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٢]

قوله: {وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} ينادى المجرمون الغاوون يوم القيامة زيادة في التعنيف لهم والتنكيل بهم: أين الشركاء والأنداد من الأصنام والأوثان والآلهة المصطنعة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من دون الله، هل ينفعونكم اليوم بدرء العذاب عنكم أو يملكون أن يدرؤوا عن أنفسهم النار؟!.

٩٤ - (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)

قوله: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} نقول: كبكبه، أي كبّه، بمعنى قلبه على وجهه ٢١ وكُبكبوا، من الكبكبة وهي تكرار للكب - جعل التكرار في اللفظ دليلا على التكرار في المعنى كأنهم إذا ألقوا في جهنم يكبون مرة بعد أخرى حتى يستقروا في قعر النار، فهم يقلبون على رؤوسهم قلبا ويلقى بعضهم على بعض حين يهوى بهم في النار - والمراد بهم الأصنام والأنداد وسائر الآلهة المصطنعة والذين عبدوها من البشر الغواة {وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}

٩٥ - (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} أي أتباع إبليس من الجن والإنس، فقد كبكبوا جميعا مع الأصنام وعبدتها الغاوين في النار.

وفي هذا اللفظ القرآني البديع ما يكشف عن مدى المهانة والتقريع والتنكيل الذي يغشى المجرمين وهم يلقى بعضهم فوق بعض في النار مقلوبين منكوسين على رؤوسهم ووجوههم، زيادة لهم في التعذيب والهوان - وذلك من جملة التصوير الذي يتجلى في القرآن وهو يرسم لنا صورة جلية عن الحدث - صورة يتخيلها الذهن ويستشعرها الحس وتتملاها النفس وهي تتصور حال الطغاة والغواة المجرمين وهم يكبّون على رؤوسهم في النار كبا.

٩٦ - (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

قوله: {قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ} الضمير يعود على جميع المكبكبين من الأصنام والأنداد والغاوين الذين عبدوهم - وكذا جنود إبليس من الجن والإنس.

أولئك جميعا يختصمون وهم في النار - فيا لهول المنظر الرعيب المخوف! منظر الطاغين والمجرمين من عبدة الشياطين من الجن والإنس ومعبوديهم من الأصنام والأنداد، يتجادلون في اختصام شديد مضطرع وهم يتقاحمون في النار، إذ يحلفون قائلين {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}

٩٧ - (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {إن}، المخففة من الثقيلة - واللام بعدها فارقة بينها وبين النفي - والمعنى: قالوا تالله إنا كنا في حيرة وخسران ظاهر، إذ كنا نعدلكم برب العالمين فنشركم معه في العبادة.

٩٨ - (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٧]
{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {إن}، المخففة من الثقيلة - واللام بعدها فارقة بينها وبين النفي - والمعنى: قالوا تالله إنا كنا في حيرة وخسران ظاهر، إذ كنا نعدلكم برب العالمين فنشركم معه في العبادة.
٩٩ - (وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ)
قوله: {وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ} قال المكبكبون في النار: ما أبعدنا عن طريق الله وأسلمنا إلى الخسران والضلال إلا الشياطين الذين سوّلوا لنا عبادة الأصنام والزيغ عن دين الله الحق {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ}
١٠٠ - (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)
{فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} أي ليس لنا من الملائكة أو النبيين أو المؤمنين من يشفع لنا فننجو من العذاب - وليس لنا كذلك من صديق ذي قرابة ومودة ينفعنا اليوم ويشفق علينا فيدفع عنا ما حاق بنا من الهوان والخزي.
١٠١ - (وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٠]
{فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} أي ليس لنا من الملائكة أو النبيين أو المؤمنين من يشفع لنا فننجو من العذاب - وليس لنا كذلك من صديق ذي قرابة ومودة ينفعنا اليوم ويشفق علينا فيدفع عنا ما حاق بنا من الهوان والخزي.
١٠٢ - (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فتحت {أَنَّ} لوقوعها بعد لو - والتقدير: لو وقع لنا كرة (نكون)، منصوب على جواب التمني بالفاء ٢٢ والكرة بمعنى الرجعة ٢٣ عندما ييأس المجرمون من عبدة الأصنام والشياطين وتغمرهم الحسرة والندامة، يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا فيتداركوا ما فاتهم من إيمان بالله وطاعته - والمعنى: ليت لنا رجعة إلى الدنيا فنعمل بعمل أهل الجنة وننجو مما نحن فيه من البلاء - وتلك هي أمنيات النادمين الخاسرين يوم القيامة - وحينئذ لا ينفعهم ندم ولا توبة ولا تحسّر.
١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي فيما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من الحجج الظاهرة، وفيما تبين من قصته معهم وجميل صبره عليهم وحرصه على هدايتهم، لعظة وعبرة لمن أراد أن يتذكر أو يعتبر - ومع ذلك، ما كان أكثر قومه في سابق علم الله مؤمنين.
١٠٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} ذلك تأكيد من الله أنه قوي شديد المحال وأنه منتقم من الظالمين الذين شاقوا الله ورسله وسلكوا في حياتهم الدنيا مسالك الشياطين ٢٤.
١٠٥ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)
قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ

الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

ذلك إخبار من الله عن عبد عظيم من عباده المصطفين أولي العزم من الرسل وهو نوح عليه السلام، إذ بعثه الله إلى أهل الأرض داعيا لهم على عبادة الله وحده ونبذ الأصنام وعدم الاغترار بها فإنها جامدة هامدة بلهاء - لكن قومه الضالين كذبوه وخالفوه وتصدوا له بالإيذاء والتنكيل وهو قوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} أي كذبت جماعة قوم نوح المرسلين - وذكر المرسلين بالجمع مع أن المراد رسول الله نوح، لان من كذب رسولا فقد كذب سائر الرسل - فالإيمان وحدة متكاملة لا تتجزأ وإنما يناط بالمؤمنين من كل الأمم والشعوب أن يؤمنوا بالنبيين والمرسلين كافة دون تفريق بين أحد منهم.

١٠٦ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ)

قوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ} {أَخُوهُمْ نُوحٌ}، يراد بذلك أُخوّة النسب وليس الدين والعقيدة، فقد دعاهم نوح ونصح لهم وحذرهم من عبادة الأصنام وهو قوله لهم: {أَلا تَتَّقُونَ} أي ألا تخشون ربكم في عبادة الأنداد من دونه {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}

١٠٧ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} إني أصدقكم الحديث فيما أقوله لكم، وأنا أمين لكم فيما جئتكم به من عند الله من رسالة {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}

١٠٨ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي خافوا الله واستتروا من عقابه بطاعتكم له وعبادتكم إياه وحده وأطيعوني في نُصحي لكم، وفيما آمركم به.

١٠٩ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي ما أطلب منكم على نصحي لكم وتبليغكم دعوة الله أيّما أجر أو جزاء فإنما أبتغي التواب والجزاء من الله رب العالمين {فاتقوا الله وأطيعون}

١١٠ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

{فاتقوا الله وأطيعون} خافوا الله واخشوا عذابه وانتقامه وأطيعوني فيما أبلغتكم وما جئتكم به من دين.

١١١ - (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)

قوله: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} الاستفهام للإنكار أي أنصدقك في قولك ونتبعك فيما جئتنا به وما تدعونا إليه وما اتبعك إلا الأرذلون - الأرذلون أو الأراذل بالتكسير جمع ومفرده الأرذل، وهو الدون والخسيس ٢٥ - فكيف نتبعك ولم يؤمن بك إلا الدون من الناس، أو الأخسّ من قومنا - كذلك كان تصور المشركين السفهاء في الأزمنة الغابرة وما عقبها من أزمان، إذ توزن المقادير والاعتبارات للبشر بالنظر لمكانتهم في تصور المجتمعات الجاهلية الضالة وأعرافها.

وإنما المعيار الثابت والاعتبار المستقيم في تصور الإسلام وفي ميزانه لهو الإيمان والتقوى والعلم الصحيح النافع كقوله سبحانه: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}.

١١٢ - (قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي ما علمي بأعمالهم، فإنما أعتبر فيهم الظاهر وليس الباطن أو السرائر - فمن أظهر حسنا ظننت به حسنا ومن أظهر سوءا ظننت به غير الخير - وكأنما قال له المشركون: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا في الحظوة من الاعتزاز والمال.

١١٣ - (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)

قوله: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ} أي ما حسابهم على بواطن أمورهم وما خفي من أعمالهم وأقوالهم إلا على ربي فهو محاسبهم على ذلك كله، لو كنتم تفهمون أو تعقلون.

١١٤ - (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} أي لست ممن يطرد المؤمنين لرذالتهم وهي خستهم واتضاع أحوالهم ومقاماتهم - ويفهم من ذلك أنهم طلبوا من نوح أن يطرد الفقراء من مجلسه.

١١٥ - (إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله: {إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي ما أنا إلا نذير لكم أبلغكم رسالة ربكم وأنصح لكم وأحذركم بطش الله وانتقامه.

١١٦ - (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)

قوله: {قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} لئن لم تنته عما تقوله لنا وتدعونا إليه {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} أي بالحجارة. وقيل: مشتومين بالسب - وقيل: بالقتل - وهذا عُدول منهم عن المحاورة والجدال إلى التهديد والوعيد بالإيذاء والتنكيل.

١١٧ - (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ)

قوله: {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ} قال ذلك نوح بعد أن يئس من قومه وأيقن أنهم غلف وصم لا يذّكرون ولا يزدجرون بل هم سادرون في الضلال والغي والطغيان.

١١٨ - (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فقد دعا ربه خاشعا متذللا رب إن قومي كذبوني فيما جئتهم به من دين ورسالة فاحكم بيني وبينهم حكما تهلك به الكافرين الظالمين وتنجي منه المؤمنين الذين صدقوا رسولك وآمنوا بما أنزلته إليهم.

١١٩ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

قوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أنجى الله رسوله نوحا والذين معه في السفينة المشحونة، أي المملوءة بالناس والدواب {ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ}

١٢٠ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ} أي أغرقنا المشركين الظالمين فأخذهم الطوفان أخذا وبيلا بعد أن نجينا نوحا والذين آمنوا معه.

١٢١ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي فيما فعل الله بقوم نوح من إهلاكهم بالطوفان، وتنجية المؤمنين مع نوح، عبرة وعظة لمن يتعظ ويعتبر - وهذه هي سنة الله في المجرمين الذين يحادون الله ورسوله ويتيهون في الأرض كفرا وضلالا، أن يصار بهم إلى الهلاك والتدمير ثم الخسران في الآخرة وسوء المصير {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} لم يؤمن مع نوح إلا نفر قليل، فكان أكثرهم كافرين {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}

١٢٢ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الله القوي الجبار، ينتقم من عباده الظالمين الفجار، ويرأف بعباده المؤمنين التائبين والأبرار ٢٦.

١٢٣ - (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ

أَمْ لَمْ تكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأولين (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

ذلك إخبار من الله عن قوم عاد، إذ كانوا يسكنون الأحقاف قريبا من حضرموت، وكانوا عتاة ظالمين - فقد دعاهم رسول الله هود عليه السلام، وهو أخوهم في القرابة والنسب، لا في الدين، إذ قال لهم: {أَلا تَتَّقُونَ} وذلك خطاب كريم، في غاية التذكير واللين عسى أن يزدجروا ويهتدوا.

١٢٤ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ)

{أَلا تَتَّقُونَ} وذلك خطاب كريم، في غاية التذكير واللين عسى أن يزدجروا ويهتدوا.

والمعنى: ألا تخشون عذاب الله، فتطيعوه وتعبدوه وتجتنبوا عصيانه والإشراك به {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}.

١٢٥ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} إني مرسل من عند الله إليكم أبلغكم دعوة ربكم، وأنا أمين فيما بعثني الله به إليكم {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}

١٢٦ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} اتقوه بعبادته وحده ومجانبة عصيانه، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من إيمان بالله وحده لا شريك له.

١٢٧ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} لا أطلب منكم أيما جزاء أو ثواب في مقابلة ما أدعوكم إليه من إيمان وتوحيد وإنما أرجو من الله وحده المثوبة والجزاء.

١٢٨ - (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

قوله: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} الاستفهام للإنكار - والريع، بكسر الراء، يعني المرتفع من الأرض - وقيل: الجبل ٢٧ والآية بمعنى العلم - والمراد به هنا البناء المرتفع - والمعنى: أتتخذون المباني في الأماكن المرتفعة لتتفاخروا بها - وإنما كانوا يفعلون ذلك على سبيل اللهو واللعب والعبث لا للاحتياج - ومن أجل ذلك أنكر عليهم نبيهم هود عبثهم هذا لما فيه من تضييع للوقت وإفناء للأبدان وهم لا يريدون بذلك إلا التفاخر بالقوة وزينة الحياة الدنيا والإشراف على المسافرين والمارة فيسخرون منهم.

١٢٩ - (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} المصانع، الحصون أو القصور المشيدة ٢٨ - أي تبنون القصور المشيدة الضخمة لكي تخلدوا - أو كأنكم خالدون باقون - فحالكم حال من يخلد فلا يتفكر في الموت.

١٣٠ - (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

قوله: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} البطش معناه الأخذ بعنف ٢٩ {جَبَّارِينَ} جمع جبار، وهو القتال ظلما بغير حق - وقيل: المتسلط العاصي - فقد وصف قومه بأنهم أشداء ظلمة، وأنهم قساة عتاة يضربون الناس في طغيان وجبروت لا يثنيهم عن ذلك رأفة ولا رحمة.

١٣١ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

قوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي خافوا الله بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه وأطيعوني فيما جئتكم به.

١٣٢ - (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ)

قوله: {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ} أي خافوه واعبدوه وحده، فهو الذي أعطاكم ما تعلمونه من الخيرات والثمرات والأموال وغير ذلك من صنوف النعم - ثم فصّل ذلك تفصيلا بقوله: {أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ}

١٣٣ - (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)

{أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} أي رزقكم المواشي بأصنافها المختلفة فمنها تأكلون وتلبسون - وكذلك رزقكم البنين الذين تحبونهم وتفاخرون بهم وتعتزون {وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}

١٣٤ - (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

{وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} أي رزقكم البساتين حيث الزروع والثمرات وما يتفجر منها من ينابيع ثجاجة.

١٣٥ - (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قوله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} حذرهم من عاقبة كفرانهم وتكذيبهم، إذ النار الحامية والعذاب البئيس يتهاوى فيه الجاحدون المكذبون.

١٣٦ - (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)

قوله: {قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ} لم يعبئوا بموعظة نبيهم هود، ولم يكترثوا بتحذيره إياهم وتخويفه لهم من سوء المصير وما ينتظرهم من العذاب المهين - فقالوا له: يستوي عندنا وعظك إيانا وعدمه - أي وعظك وعدم وعظك لنا سيان - فلسنا بمؤمنين لك ولا مصدقين بما جئتنا به {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأولين}

١٣٧ - (إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ)

{إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأولين} أي ما هذا الذي نحن عليه من العبادة والدين إلا عادة الأولين ودينهم ونحن بهم مقتدون، وعلى آثارهم ماضون.

١٣٨ - (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

قوله: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} وهذا إنكار منهم للبعث والمعاد - أي نعيش كما عاش الأولون ونموت كما ماتوا - وإن هي إلا موتة واحدة لا رجوع بعدها فلا حساب ولا عذاب.

١٣٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} يعني كذبت عاد رسولهم هودا فأخذهم الله بتكذيبهم، ودمر عليهم تدميرا وذلك بما أرسله عليهم من ريح عاتية صرصر - ولقد كان في إهلاكهم وتدميرهم عبرة لمن يعتبر {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي وما كان أكثر المهلكين مؤمنين في علم الله القديم، فما آمن منهم إلا قليل.

١٤٠ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الله ذو القوة المتين، ينتقم من الظالمين والعتاة الذين عتوا عن أمر الله فضلوا ضلالا كبيرا - وهو سبحانه يرأف بالذين آمنوا ومضوا على صراطه المستقيم ٣٠.

١٤١ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

ذلك إخبار من الله عز وجل عن قوم آخرين كفروا بربهم وكذبوا نبيهم وظلوا سادرين في عتوهم حتى أخذهم الله بالعذاب فأُهلكوا - وهؤلاء هم ثمود، قوم نبي الله صالح عليه السلام - وكانوا عربا يسكنون الحجر جنوب الشام.

١٤٢ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ)

لقد دعاهم نبيهم صالح ليتقوا الله ويعبدوه وحده وأن يكفوا عن الشرك والباطل وفعل المعاصي وأن يطيعوه ويصدقوه فيما جاءهم به من ربه وأنه لا يبتغي بذلك منهم حمدا ولا شكورا، ولا أجرا أو جزاء إنما أجره وجزاؤه عند ربه - لكنهم أبوا وعتوا - وقد فصلنا القول في معنى الآيات الخمس هذه فيما مضى.

١٤٣ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

/١٤٢

١٤٤ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٢]

لقد دعاهم نبيهم صالح ليتقوا الله ويعبدوه وحده وأن يكفوا عن الشرك والباطل وفعل المعاصي وأن يطيعوه ويصدقوه فيما جاءهم به من ربه وأنه لا يبتغي بذلك منهم حمدا ولا شكورا، ولا أجرا أو جزاء إنما أجره وجزاؤه عند ربه - لكنهم أبوا وعتوا - وقد فصلنا القول في معنى الآيات الخمس هذه فيما مضى.

١٤٥ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٢]

لقد دعاهم نبيهم صالح ليتقوا الله ويعبدوه وحده وأن يكفوا عن الشرك والباطل وفعل المعاصي وأن يطيعوه ويصدقوه فيما جاءهم به من ربه وأنه لا يبتغي بذلك منهم حمدا ولا شكورا، ولا أجرا أو جزاء إنما أجره وجزاؤه عند ربه - لكنهم أبوا وعتوا - وقد فصلنا القول في معنى الآيات الخمس هذه فيما مضى.

١٤٦ - (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ)

قوله: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ} الاستفهام للإنكار، أي أتظنون أنكم متروكون هنا فيما أنتم فيه من النعم التي أسبغها الله عليكم وأنكم ناجون من الموت والانتقام؟ وقد فصّل الله أنواع النعم التي منّ بها عليهم، وظنوا أنهم ماكثون فيها لا يموتون فقال: {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}

١٤٧ - (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٦]

قوله: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ} الاستفهام للإنكار، أي أتظنون أنكم متروكون هنا فيما أنتم فيه من النعم التي أسبغها الله عليكم وأنكم ناجون من الموت والانتقام؟ وقد فصّل الله أنواع النعم التي منّ بها عليهم، وظنوا أنهم ماكثون فيها لا يموتون فقال: {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}

١٤٨ - (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٦]

قوله: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ} الاستفهام للإنكار، أي أتظنون أنكم متروكون هنا فيما أنتم فيه من النعم التي أسبغها الله عليكم وأنكم

ناجون من الموت والانتقام؟ وقد فصّل الله أنواع النعم التي منّ بها عليهم، وظنوا أنهم ماكثون فيها لا يموتون فقال: {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}

{فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} الطلع، ما يطلع من النخلة ثم يصير ثمرا إن كان النخلة أنثى ٣١.

والهضيم، معناه اللطيف - وقيل: اللين النضيج - والمراد بذلك، النخل النضيج الذي أرطب ثمره.

١٤٩ - (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)

قوله: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} {فَارِهِينَ} منصوب على الحال من واو تنحون ٣٢ و {فَارِهِينَ}، من الفراهة، وهي النشاط والحذق والكيس.

وقيل: الأشْر والبطر - والمعنى: أنهم كانوا يتخذون البيوت المنحوتة في الجبال عبثا وبطرا ولهوا، من غير حاجة لهم في ذلك إلى السكنى إلا البطر، والمفاخرة والتجبّر - وقد كانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها - وقد كان ذلك مشاهدا للناظرين الذين يمرون على آثارهم ومنازلهم في أسفارهم إلى بلاد الشام.

١٥٠ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

وبسبب ضلالهم وتجبرهم وما كانوا مستغرقين فيه من البطر والاستعلاء والجنوح للدنيا بلذاتها وزخرفها، دعاهم نبيهم صالح أن يتقوا الله بتوحيده وعبادته، وأن يطيعوه فيما أمرهم به، وأن يحذروا المسرفين الذين يضلونهم ضلالا - وهو قوله: {وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ}

١٥١ - (وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)

{وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأرض ولا يُصْلِحُونَ} المراد بالمسرفين، الذين كانوا يجترئون على الباطل والفساد وهم الرهط التسعة - وقيل: الذين عقروا الناقة: وقيل: المراد رؤساؤهم وكبراؤهم في الضلال والظلم والذين يدعون الناس إلى الشرك والمعاصي ويفسدون في الأرض.

١٥٢ - (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥١]

{وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأرض ولا يُصْلِحُونَ} المراد بالمسرفين، الذين كانوا يجترئون على الباطل والفساد وهم الرهط التسعة - وقيل: الذين عقروا الناقة: وقيل: المراد رؤساؤهم وكبراؤهم في الضلال والظلم والذين يدعون الناس إلى الشرك والمعاصي ويفسدون في الأرض.

١٥٣ - (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

قوله: {قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي إنك لمن المسحورين الذين لا عقل لهم {مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}

١٥٤ - (مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} أي أنت لست إلا بشرا مثلنا تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، فأنى لك أن تكون نبيا ورسولا - فإن كنت كما تزعم فأتنا بآية تدل على صدق ما تقول - وقد طلبوا منه أن يخرج لهم من الصخرة ناقة.

١٥٥ - (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

قوله: {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} أتاهم صالح بناقة أخرجها الله لهم من صخرة - وقال لهم: هذه ناقة الله لكم آية تدل على صدق رسالتي وما جئتكم به، على أن لها حظا من الماء يوما ولكم حظ يوم آخر منه - فكانت الناقة إذ كان يوم شربها شربت الماء كله أول النهار وتستقيهم اللبن آخر النهار - وإن كان شربهم أي حظ يومهم كان الماء كله لهم ولمواشيهم وحرثهم، وبذلك ليس

لهم في يوم ورودها أن يشربوا منه شيئا ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئا.

١٥٦ - (وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

ثم حذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء وهو قوله: {وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي لا تمسوها بأذى أو عقر أو غير ذلك فينتقم الله منكم {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ}

١٥٧ - (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} خالفوا أمر نبيهم صالح عليه السلام فعقروها قتلا فغشيهم من الندم ما لا ينفعهم ولا يجزيهم شيئا من العقاب، لأنهم ندموا لما عاينوا العذاب أو أيقنوا أن نقمة الله نازلة بهم {فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ}

١٥٨ - (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

{فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ} دمر الله عليهم بالزلازل والصيحة - فقد زلزلت بهم الأرض أفظع زلزال وأخذتهم الصيحة المريعة التي أطارت فيهم القلوب فأصبحوا في ديارهم جاثمين موتى.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} إن فيما وقع بقوم ثمود من تدمير وإهلاك بسبب تكذيبهم وعصيانهم أمر ربهم وقتلهم الناقة عتوا وظلما، لعبرة للذين يعتبرون ويذكرون من الناس فيبادرون التصديق والامتثال لأمر الله - {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي أكثر قومه قد كفروا، وما آمن منهم إلا قليل.

١٥٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الله ذو بأس وقوة وانتقام، يعجل للمجرمين العقوبة ويسبغ على المؤمنين فيضا من رحمته ٣٣.

١٦٠ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُم قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

ذلك إخبار من الله عن نبيه ورسوله لوط عليه السلام - وهو ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد بعثه الله إلى أمة كبيرة في حياة إبراهيم وقد كانوا يسكنون سدوم وما حولها من القرى التي دمر الله عليها أشد تدمير، وهي مشهورة ببلاد الغور حيث البحر الملح الأجاج، المسمى بالبحر الميت، لأنه لا تعيش فيه الأحياء بسبب فرط ملوحته - وهو إلى الشرق الجنوبي من بيت المقدس - وهو قوله سبحانه: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} كذبوا نبيهم لوطا، فكأنما كذبوا المرسلين جميعا {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ}

١٦١ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ)

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ليس لوط أخاهم في العقيدة والدين، بل هو أخوهم في النسب والقربى، فقد دعاهم إلى تقوى الله بعبادته وحده ومجانبة الإشراك والدنس.

وقد بين لهم أنه مرسل من ربه وأنه صادق فيما يقوله لهم، مؤتمن في تبليغهم دعوة ربهم - فعليهم بذلك أن يتقوا الله بالخوف منه

ومبادرة الخضوع لجلاله الكريم والامتثال لأمره العظيم.
١٦٢ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦١]
{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ليس لوط أخاهم في العقيدة والدين؛ بل هو أخوهم في النسب والقربى؛ فقد دعاهم إلى تقوى الله بعبادته وحده ومجانبة الإشراك والدنس.
وقد بين لهم أنه مرسل من ربه وأنه صادق فيما يقوله لهم، مؤتمن في تبليغهم دعوة ربهم - فعليهم بذلك أن يتقوا الله بالخوف منه ومبادرة الخضوع لجلاله الكريم والامتثال لأمره العظيم.
١٦٣ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦١]
{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ليس لوط أخاهم في العقيدة والدين؛ بل هو أخوهم في النسب والقربى؛ فقد دعاهم إلى تقوى الله بعبادته وحده ومجانبة الإشراك والدنس.
وقد بين لهم أنه مرسل من ربه وأنه صادق فيما يقوله لهم، مؤتمن في تبليغهم دعوة ربهم - فعليهم بذلك أن يتقوا الله بالخوف منه ومبادرة الخضوع لجلاله الكريم والامتثال لأمره العظيم.
١٦٤ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} لا أطلب منكم جزاء أو مثوبة على ما أدعوكم إليه - وإنما أبتغي الجزاء والمثوبة من الله رب العالمين.
١٦٥ - (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)
قوله: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقبيح - والذكران جمع ذكر ٣٤ أي لقد كانوا يأتون هذه الفعلة المستقذرة النكراء، وهي نكاح الذكور في أدبارهم - لا جرم أن هذا إسفاف مذهل وهبوط بالنفس السقيمة إلى الحضيض من دركات القذر والرجس - لقد كانوا يفعلون ذلك وقد خلق الله لهم من أنفسهم أزواجا يقضون منهن أوطارهم.
١٦٦ - (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٥]
قوله: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقبيح - والذكران جمع ذكر ٣٥ أي لقد كانوا يأتون هذه الفعلة المستقذرة النكراء، وهي نكاح الذكور في أدبارهم - لا جرم أن هذا إسفاف مذهل وهبوط بالنفس السقيمة إلى الحضيض من دركات القذر والرجس - لقد كانوا يفعلون ذلك وقد خلق الله لهم من أنفسهم أزواجا يقضون منهن أوطارهم.
قوله: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} أي متجاوزون لحدود الله، فأنتم تلهثون وراء الدنس مما تهواه النفس السقيمة في أسوأ حالات الهبوط والانحدار، التي تحيط بها في كثير من الأحيان.
١٦٧ - (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)
قوله: {قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} ذلك تهديد من القوم المجرمين الفاسدين، قوم لوط، يتوعدون به نبيهم لوطا بالإخراج من بلدهم إذا لم يكف عن دعوتهم إلى الاستقامة والطهر والفضيلة، وينهم عن الفحشاء والقاذورات في أخص صورها.

١٦٨ - (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)
قوله: {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ} {الْقَالِينَ}، أي المبغضين، من القلى، وهو البغض - قلاه يقليه قلى وقلاء، أي أبغضه بغضا ٣٦ - والمعنى: إنني لما تعملونه من إتيان الذكران دون الإناث، من المبغضين المستنكرين.
١٦٩ - (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)
قوله: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} لما توعد لوطا قومه بالإخراج من قراهم استغاث بالله متضرعا لكي ينجيه وأهله من العقاب الذي ينتظر القوم المجرمين.
١٧٠ - (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)
فاستجاب الله دعاءه، إذ نجاه وأهله الذين آمنوا وهم قلة.
١٧١ - (إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)
باستثناء امرأة في الغابرين، وهي امرأته - والمراد بالغابرين، الباقون في العذاب وذلك لطول مرور السنين عليها فصارت هرمة - فلقد أهلكها مع القوم لفساد خلقها وخيانتها وسوء نيتها؛ إذ نكّس الله بهم الأرض والبنيان والبيوت، وجعل عاليها سافلها
١٧٢ - (ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]
باستثناء امرأة في الغابرين، وهي امرأته - والمراد بالغابرين، الباقون في العذاب وذلك لطول مرور السنين عليها فصارت هرمة - فلقد أهلكها مع القوم لفساد خلقها وخيانتها وسوء نيتها؛ إذ نكّس الله بهم الأرض والبنيان والبيوت، وجعل عاليها سافلها
١٧٣ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)
{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا} أرسل الله عليهم من السماء حجارة من سجيل {فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} المخصوص بالدم محذوف، وتقديره المطر - أي فبئس ذلك المطر الذي أمطر به هؤلاء الذين أنذرهم نبيهم لوط فكذبوه.
١٧٤ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} أي فيما ذكره الله من إهلاك لقوم لوط بالتدمير والخسف والحجارة لعبرة وموعظة لمن يعتبر ويتعظ {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي لم يؤمن منهم إلا قليل وهم آل بيت لوط باستثناء امرأته؛ إذ كانت مع الهلكى.
١٧٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الله القوي ذو الجبروت ينتقم من الظالمين المجرمين، ويرحم عباده المؤمنين التائبين ٣٧.
١٧٦ - (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)
قوله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأولين (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تعملون (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآية وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.
المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين، على الصحيح - ونبيهم شعيب وهو من أنفسهم - وجمع الأيكة الأيك، وهو الشجر الكثير الملتف -

فمن قرأ الأيكة بالألف واللام، عرّفه بالألف واللام وجره بالإضافة - والأيكة هنا بمعنى الغيضة التي تنبت السدر والأراك ونحوهما - ومن قرأ، ليكة، بلام مفرده أصيلة لم يصرفه بسبب التعريف والتأنيث - وليكة، اسم قرية - وهما مثل بكّة ومكة ٣٨.

وسواء في ذلك، وهي مجمع الشجر الملتف، أو ليكة وهي اسم القرية، فإن أهلها هم أهل مدين - وقد بعث الله إليهم شعيبا رسولا يبلغهم دعوة ربه فكذبوا المرسلين؛ لان تكذيبهم واحدا من رسل الله كأنه تكذيب بسائر المرسلين.

١٧٧ - (إِذْ قَالَ لَهُم شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ)

قوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} دعا شعيب قومه إلى الإيمان بالله وحده ونبذ الشرك والأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله، وحذرهم سوء المصير في الدنيا والآخرة إذا لم يصدقوه فيما جاءهم به من عند الله ولم يطيعوه فيما دعاهم إليه.

١٧٨ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧٧]

قوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} دعا شعيب قومه إلى الإيمان بالله وحده ونبذ الشرك والأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله، وحذرهم سوء المصير في الدنيا والآخرة إذا لم يصدقوه فيما جاءهم به من عند الله ولم يطيعوه فيما دعاهم إليه.

١٧٩ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧٧]

قوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} دعا شعيب قومه إلى الإيمان بالله وحده ونبذ الشرك والأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله، وحذرهم سوء المصير في الدنيا والآخرة إذا لم يصدقوه فيما جاءهم به من عند الله ولم يطيعوه فيما دعاهم إليه.

١٨٠ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وهو لا يسألهم على تبليغهم رسالة ربهم أيما جزاء أو عطاء أو أجر، وإنما يرتجي من الله وحده جزاءه؛ فهو سبحانه الرب المالك المقتدر الذي يجازي عباده المؤمنين الصابرين تمام الثواب وحسن الجزاء.

١٨١ - (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)

قوله: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ} أي أوفوا الناس حقوقهم من الكيل ولا تكونوا ممن ينقصون الناس حقوقهم إذا كالوهم أو وزنوهم.

١٨٢ - (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

قوله: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} القسطاس، معناه الميزان ٣٩؛ أي زنوا بالميزان المستقيم الذي لا بخس فيه ولا جور {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}

١٨٣ - (وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

{وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} {تَبْخَسُوا} من البخس وهو الناقص - بخسه حقه، إذا نقصه - يقال للبيع الصحيح السليم من عيب الوزن والكيل: لا بخس فيه ولا شطط ٤٠ - والمعنى: لا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن.

قوله: {وَلا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ} عثا، بمعنى أفسد، فهو عاث أي مفسد والمعنى: لا تسعوا في الأرض فسادا.

١٨٤ - (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ)
قوله: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأولين} الجبلّة، بمعنى الطبيعة والخليقة - والجمع الجبلات ٤١ والمراد بالجبلة هنا الخلق الكثير من الناس - والمعنى: اتقوا الله بطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، واحذروا عقابه الوبيل، فهو سبحانه الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم من الأولين السابقين.
١٨٥ - (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)
قوله: {قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي لست أنت إلا مسحورا من المسحورين {وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ}
١٨٦ - (وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)
{وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} أي لست إلا بشرا مثلنا تأكل الطعام كما نأكل، وتشرب الشراب كما نشرب - وبذلك ما نظنك إلا كاذبا من الكاذبين.
١٨٧ - (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
قوله: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} {كِسَفًا} جمع كسفة بكسر الكاف، القطعة من الشيء ٤٢ - والمعنى: إن كنت يا شعيب صادقا فيما تقول بأنك مرسل من الله فأسقط علينا جانبا أو قطعا من السماء عذابا لنا.
١٨٨ - (قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)
قوله: {قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} قال لهم شعيب: إن ربي عليم بما تصنعونه من الأعمال - وهو سبحانه محيط بها لا تخفى عليه منها خافية، وهو مجازيكم بها، وما علي إلا أن أبلغكم ما أمرت به.
١٨٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
قوله: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} كذبوا قول نبيهم شعيب ولم يصدقوه فيما جاءهم به من عند الله فعاقبهم الله عقابا ليس له في صنوف العذاب في هذه الدنيا نظير - وذلك هو عذاب الظلة - وهي سحابة أظلتهم حتى إذا تتاموا واجتمعوا تحتها التهبت عليهم نارا فاحترقوا.
قال ابن عباس في معنى الظلة: أصابهم حر شديد فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا ليستظلوا بها فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا - وقيل: بعث الله سموما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم نارا فاحترقوا فكان ذلك عذابا أليما أصاب الله به قوم شعيب فنكّل بهم تنكيلا في يوم عظيم مشهود من أيام الدنيا.
١٩٠ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} إن فيما وقع لقوم شعيب من بلاء وما نزل بهم من شديد العذاب في يوم عظيم، لعبرة لمن يتدبر أو يتفكر - وأنه لم يؤمن من قوم شعيب إلا قليل فكان أكثرهم ظالمين معرضين.
١٩١ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} أي إن ربك يا محمد لقوي منتقم من الظالمين الطاغين الذين يشاقون الله ورسله ويتنكبون عن صراط الله المستقيم ليعتاضوا عنه بمسالك الشياطين من الضلالات وألوان الباطل - وهو سبحانه رحيم بعباده المؤمنين الذين يصدقون الله ورسله أجمعين ويمضون في طريق الهداية والسداد ٤٣.
١٩٢ - (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِين (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ}.

الضمير، في قوله: {وَإِنَّهُ} إلى الذكر الذي في قوله: {وما يأتيهم من ذكر الرحمن محدث} والمراد به القرآن، فإنه تنزيل رب العالمين {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمين}

١٩٣ - (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ)

{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمين} وهو جبريل عليه السلام، الملك العظيم الكريم الذي ائتمنه الله على خير الأمانات في العالمين، وهي أمانة الرسالة الربانية المباركة التي تحمل الخير والطهر والرحمة للبشرية.

١٩٤ - (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

أنزله الله بالقرآن المبين على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ تلاه عليه فوعاه بقلبه كامل الوعي وهو قوله: {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} أي لتكون من المرسلين الذين ينذرون الناس ويبلغونهم ما جاءهم من عند الله {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}

١٩٥ - (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} أي لينذر الناس بلسان عربي ظاهر فصيح، كيلا يكون لقومه من العرب حجة بأنهم لا يفهمونه.

١٩٦ - (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ)

قوله: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين} الزبر جمع زبور وهو الكتاب، أي أن هذا القرآن مذكور خبره فيما أنزله الله من الكتب على رسله - وقيل: المراد ذكر محمد صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في كتب الأولين، كقوله: {يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} وسواء كان المراد القرآن أو محمدا صلى الله عليه وسلم، فإن ذلكم دليل قاطع ومكشوف على صدق هذا الكتاب الحكيم وأنه منزل حقا من عند الله خالق السماوات والأرض - أو على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه مرسل من ربه أرسله للعالمين بشيرا ونذيرا - وهذه حقيقة ظاهرة بلجة لا يجحدها إلا المكابرون والمعاندون والأشرار من أولي القلوب الجاحدة البور، التي لا خير فيها ولا لين إلا الغلظة والكزازة والموت.

١٩٧ - (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

قوله: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ} أفلا يكفيهم من الشهادة الجلية على صدق هذا الكتاب الكريم، أو صدق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن العلماء من بني إسرائيل يشهدون بصدقه وأنه حق وصادق فيما يقول.

قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن هذا لزمانه وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته - وعلى هذا فإن لفظ العلماء يرجع إلى كل من كان له علم بكتب أهل الكتاب، سواء أسلم أو لم يسلم - فشهادة أهل الكتاب كانت حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون في كثير من أمور الدين إلى أهل الكتاب - وقيل: المراد بعلماء بني إسرائيل الذين أسلموا كعبد الله وغيره ممن أسلم منهم.

١٩٨ - (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ)

قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} {الأَعْجَمِينَ} جمع أعجمي - وأصله الأعجميين ٤٤ أي لو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعاجم ليس بعربي اللسان لما آمنوا به - محتجين بأنه أعجمي فلا يفقهون ما يقول.

١٩٩ - (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩٨]

قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} {الأَعْجَمِينَ} جمع أعجمي - وأصله الأعجميين ٤٥ أي لو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعاجم ليس بعربي اللسان لما آمنوا به - محتجين بأنه أعجمي فلا يفقهون ما يقول.

٢٠٠ - (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} الضمير في {سَلَكْنَاهُ} يعود على الكفر أو على التكذيب بالقرآن - أي ندخل التكذيب بالقرآن أو الكفر به في قلوب المجرمين - فقلوبهم غلف لا تعي ولا تذّكر، فهم بذلك {لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}

٢٠١ - (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)

{لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} هؤلاء الضالون المجرمون أولوا طبائع كزة، وقلوب موصدة بور - وهم بذلك لا يلج الإيمان قلوبهم حتى يعاينوا العذاب معاينة ترتعد منها الأبدان والفرائص أيما ارتعاد.

٢٠٢ - (فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

قوله: {فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} يأتيهم العذاب يوم القيامة فجأة وهم لا يعلمون من قبله بمجيئه، حتى إذا نزل بهم وعاينوه غشيهم من الرعب والإياس ما غشيهم {فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ}

٢٠٣ - (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠٢]

قوله: {فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} يأتيهم العذاب يوم القيامة فجأة وهم لا يعلمون من قبله بمجيئه، حتى إذا نزل بهم وعاينوه غشيهم من الرعب والإياس ما غشيهم {فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ}

{فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ} أي ممهلون، من الإنظار وهو التأخير والإمهال، أي يتمنى المجرمون اليائسون يوم القيامة عند معاينة العذاب لو يرجعون إلى الدنيا فيعملون غير ما كانوا يعملون، فهم يتمنون ويأسون وييأسون من غير أن يجديهم ذلك شيئا - وليس لهم حينئذ إلا النار وبئس القرار ٤٦.

٢٠٤ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

قوله تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} الاستفهام للإنكار، فقد كان المشركون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل التكذيب والاستبعاد: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به فنزلت الآية.

٢٠٥ - (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

فأنكر الله عليهم سؤلهم وتكذيبهم مهددا متوعدا ثم قال: {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف - والمعنى: لو أمهلناهم وطولنا لهم الأعمار حينا من الدهر، ثم جاءهم الموت والعذاب.

٢٠٦ - (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠٥]

فأنكر الله عليهم سؤلهم وتكذيبهم مهددا متوعدا ثم قال: {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف - والمعنى: لو أمهلناهم وطولنا لهم الأعمار حينا من الدهر، ثم جاءهم

الموت والعذاب.
٢٠٧ - (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)
{مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} {مَا}، الأولى استفهامية - و {مَّا} الثانية، اسم موصول، أو مصدرية.
يعني: أي شيء يغني عنهم ما كانوا فيه من التمتع والنعيم - أو ما أغنى عنهم العمر الذي كانوا يمتعون فيه، هل نفعهم ذلك شيئا إلا التخسيس وسوء المصير.
٢٠٨ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ)
قوله: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنذِرُونَ} أي ما أخذنا قرية من القرى بالهلاك والتدمير إلا أرسلنا فيها رسلنا منذرين ينذرونهم بأسنا.
٢٠٩ - (ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)
قوله: {ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} ذكرى، فيه قولان: أحدهما: النصب على المصدر؛ أي ذكرنا ذكرى - وقيل: على الحال - وثانيهما: الرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: إنذارنا ذكرى ٤٧ والمعنى: أرسلنا إليهم رسلنا ينذرونهم تذكرة لهم وتنبيها على ما فيه نجاتهم من العذاب {وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} لا يظلم الله أحدا من خلقه - وهو ليس بظلام للعبيد؛ بل أقام على عباده الحجة وأعذر إليهم إعذارا ٤٨.
٢١٠ - (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)
قوله تعالى: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} ذلك إخبار من الله عن قرآنه المجيد بأنه منزل من لدن مقتدر حكيم فلم يخلص إليه زيف أو باطل من بين يديه ولا من خلفه بل هو محفوظ مكنون، مصون من عبث العابثين إلى يوم الدين.
قوله: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ} أي ما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كما زعم المشركون الجاهلون - وإنما نزل به الروح الأمين جبريل.
٢١١ - (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)
قوله: {وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} أي ما يصلح للشياطين أن يتنزلوا بهذا القرآن، فهذا القرآن كلام رباني مبارك وكريم - وهو في غاية الطهر والرحمة والكمال والجمال والسمو والبركة - فأنى للشياطين أن يحملوه وهم أولو طبائع حافلة بالرجس، وسجايا، غاية في الشقاوة والكنود والعتو، فضلا عما جُبلوا عليه من فرط الحقد والخبث والقسوة والجنوح للكيد والإفساد؛ فهم بذلك لا يستطيعون أن ينزلوا بمثل هذا القرآن من أجل الطبائع الخبيثة التي جبلوا عليها - وهو قوله: {وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}
٢١٢ - (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)
{إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} أي لا تقدر الشياطين أن تتنزل بالقرآن على الأرض؛ لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى مكانه الذي هو فيه فيستمعونه - أو هم معزولون عن بلوغ مكانه وعن سماعه - ولو تدانوا من مكان نزوله في العلا لأحرقتهم الشهب.
٢١٣ - (فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)
قوله: {فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} أي لا تعبد مع الله إلها غيره فينزل بك العذاب - والمخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولكن المقصود غيره من الناس - فرسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من الخطايا والمخالفات وإنما يحذر الله عباده من الشرك واتخاذ الأنداد مع الله أو من دونه، وذلكم ظلم عظيم يفضي بالمتلبسين به إلى سوء المصير ٤٩
٢١٤ - (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)
قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ} المراد بعشيرته الأقربين، قريش - وقيل: بنو عبد مناف، فقد أمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن ينذرهم ويحذرهم عذاب ربهم وبأسه فإنه أليم شديد - ولا يعرض عن دين الله أو يستنكف عن شرعه ومنهجه للعالمين إلا جهول ظلوم أودى بنفسه في الهوان والخسران - وفي صحيح مسلم: " والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار ".

وثمة أخبار في نزول هذه الآية، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما أنزل الله {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى " يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ " قالوا: نعم: قال: " فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا - وأنزل الله عقب ذلك {تبت يدا أبي لهب وتب}.

وكذلك روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم ".

وكذلك ما رواه أحمد عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعم وخص وقال: " يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا "

٢١٥ - (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} خفض الجناح، تليينه ليكون به المرء هينا رقيق الجانب، رفيق الحديث والخطاب - والمعنى: ألن جانبك وكلامك للذين آمنوا معك.

٢١٦ - (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

قوله: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} أي إن عصاك الذين أنذرتهم وحذرتهم ونصحت لهم وأبوا إلا الإشراك والضلال وعبادة الأصنام فقل لهم: إني أبرأ إلى الله من عصيانكم وضلالكم وما تفعلونه من الآثام والمنكرات.

٢١٧ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

قوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي فوض أمرك إلى الله، فإنه القوي ذو الجبروت الذي لا يغلبه غالب، وهو الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين المتوكلين عليه، فلا يدعهم ولا يخذلهم - وهو سبحانه {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}

٢١٨ - (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} الله يراك وأنت تقوم إلى الصلاة من جوف الليل، أو تقوم للصلاة بالناس جماعة، أما تقلبه في الساجدين فهو أن الله يراه فيما بينهم قائما وراكعا وساجدا، إذ كان إماما لهم.

٢١٩ - (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١٨]

{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} الله يراك وأنت تقوم إلى الصلاة من جوف الليل، أو تقوم للصلاة بالناس جماعة، أما تقلبه في الساجدين فهو أن الله يراه فيما بينهم قائما وراكعا وساجدا، إذ كان إماما لهم.

٢٢٠ - (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الله يسمع ما تقوله في صلاتك من تلاوة وذكر - وهو سبحانه يعلم ما تنويه أو تفعله فأنت بمرأى من الله ومسمع.

٢٢١ - (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ)

قوله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}.

ذلك رد لمقالة الكافرين وزعمهم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم قد افتعله من تلقاء نفسه - أو أنه أتاه به شيطان من الجن - لقد نزه الله عز وجل رسوله الأمين عما افتروه واصطنعوه من كذب بما يبين أنه {عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الأفاك، الكذاب - والأثيم، كثير الإثم - والمعنى: أن الشياطين إنما تنزل على كل كذوب شرير كثير الإثم من الناس الأشقياء كالكهنة الذين تأتيهم كفرة الجن - بما يسترقونه من أخبار السماء - لا جرم أن الكهنة من شرار البشر الذين ضلوا ضلالا مبينا وأضلوا كثيرا من الناس بضلالهم ودجلهم وفساد قلوبهم وعقولهم - فأولئك هم الأفاكون الآثمون الذين تنزل عليهم الشياطين والذين {يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة، ويزيدون عليها أضعافا مضاعفة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من أشقياء البشر ليحدثوا الناس بها فيصدقوهم في كل ما قالوه جهلا وسفها - ولذلك فإن أكثر هؤلاء الكهان كاذبون فيما يقولونه أو يحدثون به الرعاع والجهلة والسفهاء من الناس - وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي الصدوق الأمين، أن يضله جني أو شيطان أو يدنو منه أيما دنو.

وأنى لهذا الكلام الرباني العاطر الفذ، الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على البشر أن يكون من اصطناع الجن، وهو أحسن الحديث، وخير ما سمعت به الخلائق والثقلان، بما يتجلى من مزايا السمو والكمال والجمال، سواء في الألفاظ والمباني، أو في الأحكام والأخبار والمعاني - إن ذلكم لهو الإعجاز الذي لا يدانيه إعجاز.

٢٢٢ - (تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢١]

قوله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}.

ذلك رد لمقالة الكافرين وزعمهم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم قد افتعله من تلقاء نفسه - أو أنه أتاه به شيطان من الجن - لقد نزه الله عز وجل رسوله الأمين عما افتروه واصطنعوه من كذب بما يبين أنه {عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الأفاك، الكذاب - والأثيم، كثير الإثم - والمعنى: أن الشياطين إنما تنزل على كل كذوب شرير كثير الإثم من الناس الأشقياء كالكهنة الذين تأتيهم كفرة الجن - بما يسترقونه من أخبار السماء - لا جرم أن الكهنة من شرار البشر الذين ضلوا ضلالا مبينا وأضلوا كثيرا من الناس بضلالهم ودجلهم وفساد قلوبهم وعقولهم - فأولئك هم الأفاكون الآثمون الذين تنزل عليهم الشياطين والذين {يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة، ويزيدون عليها أضعافا مضاعفة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من أشقياء البشر ليحدثوا الناس بها فيصدقوهم في كل ما قالوه جهلا وسفها - ولذلك فإن أكثر هؤلاء الكهان كاذبون فيما يقولونه أو يحدثون به الرعاع والجهلة والسفهاء من الناس - وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي الصدوق الأمين، أن يضله جني أو شيطان أو يدنو منه أيما دنو.

وأنى لهذا الكلام الرباني العاطر الفذ، الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على البشر أن يكون من اصطناع الجن، وهو أحسن الحديث، وخير ما سمعت به الخلائق والثقلان، بما يتجلى من مزايا السمو والكمال والجمال، سواء في الألفاظ والمباني، أو في الأحكام والأخبار والمعاني - إن ذلكم لهو الإعجاز الذي لا يدانيه إعجاز.

{تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الأفاك، الكذاب - والأثيم، كثير الإثم - والمعنى: أن الشياطين إنما تنزل على كل كذوب شرير كثير الإثم من الناس الأشقياء كالكهنة الذين تأتيهم كفرة الجن - بما يسترقونه من أخبار السماء - لا جرم أن الكهنة من شرار البشر الذين ضلوا ضلالا مبينا وأضلوا كثيرا من الناس بضلالهم ودجلهم وفساد قلوبهم وعقولهم - فأولئك هم الأفاكون الآثمون الذين تنزل عليهم الشياطين

٢٢٣ - (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢١]

قوله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}.

ذلك رد لمقالة الكافرين وزعمهم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم قد افتعله من تلقاء نفسه - أو أنه أتاه به شيطان من الجن - لقد نزه الله عز وجل رسوله الأمين عما افتروه واصطنعوه من كذب بما يبين أنه {عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الأفاك، الكذاب - والأثيم، كثير الإثم - والمعنى: أن الشياطين إنما تنزل على كل كذوب شرير كثير الإثم من الناس الأشقياء كالكهنة الذين تأتيهم كفرة الجن - بما يسترقونه من أخبار السماء - لا جرم أن الكهنة من شرار البشر الذين ضلوا ضلالا مبينا وأضلوا كثيرا من الناس بضلالهم ودجلهم وفساد قلوبهم وعقولهم - فأولئك هم الأفاكون الآثمون الذين تنزل عليهم الشياطين والذين {يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة، ويزيدون عليها أضعافا مضاعفة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من أشقياء البشر ليحدثوا الناس بها فيصدقوهم في كل ما قالوه جهلا وسفها - ولذلك فإن أكثر هؤلاء الكهان كاذبون فيما يقولونه أو يحدثون به الرعاع والجهلة والسفهاء من الناس - وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي الصدوق الأمين، أن يضله جني أو شيطان أو يدنو منه أيما دنو.

وأنى لهذا الكلام الرباني العاطر الفذ، الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على البشر أن يكون من اصطناع الجن، وهو أحسن الحديث، وخير ما سمعت به الخلائق والثقلان، بما يتجلى من مزايا السمو والكمال والجمال، سواء في الألفاظ والمباني، أو في الأحكام والأخبار والمعاني - إن ذلكم لهو الإعجاز الذي لا يدانيه إعجاز.

والذين {يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة، ويزيدون عليها أضعافا مضاعفة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من أشقياء البشر ليحدثوا الناس بها فيصدقوهم في كل ما قالوه جهلا وسفها - ولذلك فإن أكثر هؤلاء الكهان كاذبون فيما يقولونه أو يحدثون به الرعاع والجهلة والسفهاء من الناس - وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي الصدوق الأمين، أن يضله جني أو شيطان أو يدنو منه أيما دنو.

وأنى لهذا الكلام الرباني العاطر الفذ، الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على البشر أن يكون من اصطناع الجن، وهو أحسن الحديث، وخير ما سمعت به الخلائق والثقلان، بما يتجلى من مزايا السمو والكمال والجمال، سواء في الألفاظ والمباني، أو في الأحكام والأخبار والمعاني - إن ذلكم لهو الإعجاز الذي لا يدانيه إعجاز.

٢٢٤ - (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

قوله: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} الشعراء جمع شاعر، وهو الذي يقرض الشعر - وهو الكلام الموزون المقفى ٥٠ - والغاوون، جمع ومفرده الغاوي وهو من الغي بمعنى الضلال والخيبة ٥١ والمراد بالغاوين، الضالون عن الحق من الإنس والجن؛ أي أن الشعراء يتبعهم أهل الغي لا أهل الحق والهداية - واختلفوا في المراد بالغاوين في الآية، فقد قيل: يراد بهم الشياطين، وقيل: عصاة الجن، وقيل: المشركون - وقيل: السفهاء - وقال الطبري: إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس ومردة الشياطين وعصاة الجن.

ولعل الصواب فيما قيل في الشعر والشعراء الذين يتبعهم الغاوون أنهم الذين يسخرون شعرهم في الفساد والباطل وفي مجانبة البر والفضيلة والخلق الكريم - كالثناء على المفسدين والظالمين وأهل الباطل - أو هجاء الصالحين وأهل الفضيلة والاستقامة من الناس - أو الخوض في أعراض المسلمين وتتبع عوراتهم والنيل من شرفهم وسمعتهم وقدرهم، بالقبيح من الكلام المستهجن المسف - أو ما كان إطراء للساسة والأمراء والأغنياء على سبيل التزلف والنفاق؛ ابتغاء للمال وطلبا للحظوة من شهرة ومكانة أو نحو ذلك من وجوه الباطل - وهي وجوه كثيرة ومختلفة سخر فيها شعراء الضلال والباطل قصائدهم؛ طمعا في كسب حرام أو رغبة في نفاق مجرد لا يحفز إليه غير الخور والخسة والهوى.

قال الزمخشري في الكشاف في الشعراء الذين يتبعهم الغاوون: إنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنسب بالحرم ٥٢ والغزل ومدح من لا يستحق المدح - ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون والسفهاء والشطار ٥٣.

وقال القرطبي في ذلك: وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه، وصاحبه ملوم فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقي، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول.

فهذا هو حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه - فإنه لا يحل سماعه أو إنشاده لما فيه من إشاعة للباطل والرذائل ونشر للفساد والفحش وإيذاء العباد.

وهو هنا كمنثور الكلام القبيح - وقد روي في الخبر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام ".

وفي التحذير من قرض الشعر المذموم لمجونه أو فساده، وفي التنديد به وبقائله روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه ٥٤ خير من أن يمتلئ شعرا " وأحسن ما قيل في تأويل هذا الحديث: أنه الذي غلب على شعره ما كان في الباطل والمجون وما نهى الله عنه كالإكثار من اللغط والغيبة وقبيح القول - أو ما كان في وصف الخمر والزنا وهتك الحرمات - ونحو ذلك من وجوه الفسق والفحش والأذى.

أما الشعر الحسن فهو ما كان في الخير والفضيلة فإنه مستحب ومرغوب فيه.

وذلك كالذي يتضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه، أو ما كان فيه إطراء الإسلام والذب عنه وعن المسلمين وعن رسولهم الأمين - فذلكم مندوب إليه كشعر حسان ابن ثابت في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه، ودفع أذى المشركين وقدحهم وافتراءاتهم.

قال الإمام الشافعي في هذا الصدد: الشعر نوع من الكلام، حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه - وبذلك فإن الشعر لا يكره لذاته وإنما يكره لما تضمنه من المعاني المذمومة.

٢٢٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ} {يَهِيمُونَ}، أي يخرجون على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون ٥٥ والمراد بهم هنا الخائضون في وجوه اللغو والباطل.

قال الرازي في ذلك: المراد منه الطرق المختلفة؛ لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه بالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق لا الصدق.

٢٢٦ - (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)

قوله: {وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ} أي يقولون شعرهم في الكذب والباطل والتفاخر والغزل وهجاء المؤمنين والمظلومين ونحو ذلك من صنعة القول وتكلف الحديث والمعاني بغير حق.

٢٢٧ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

قوله: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} روي أن عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل {وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} وقالوا: هلكنا يا رسول الله فأنزل الله {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} يعني ذكروا الله كثيرا في كلامهم وانتصروا في رد المشركين عن هجائهم - وقد روى الترمذي وصححه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله - - - اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله - - - ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول الشعر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " خل عنه يا عمر فإنه أسرع فيهم من نضح النبل ".

فقد استثنى الله من الشعراء، شعراء المؤمنين الذين وصفهم بعمل الصالحات وأنهم يذكرون الله كثيرا في كل أحوالهم {وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} أي انتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلما بشعرهم وهجائهم إياهم وإجابتهم عما هجوهم به.

قوله: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} {أَيَّ}، منصوب بقوله يَنقَلِبُونَ} وتقديره أي انقلاب ينقلبون - فأَيَّ، منصوب على المصدر ٥٦ والمنقلب معناه المصير والمرجع - وذلك تهديد مخوف ومروع يتوعد الله به الظالمين الذين يحادون الله ورسوله، والذين يؤذون المؤمنين وينكلون بهم - فأولئك يتوعدهم الله بقوله: أي مصير بئيس يصير إليه هؤلاء المجرمون، وأي معاد يعودون إليه بعد موتهم - لا جرم أنهم صائرون إلى نار لا ينطفئ سعيرها ولا يسكن لهيبها ٥٧.

٢٧ سورة النمل:

سورة النمل:

بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها - وهي تتضمن فيضا من قصص الأولين وأخبارهم، وأحداثهم، في معاندتهم ومخاصمتهم لأنبيائهم بغير حق.

ويأتي في طليعة ذلك، الإخبار عن كليم الله موسى عليه السلام، إذ رجع إلى مصر مع أهله حتى إذا رأى في طريقه نارا أتاها ليأخذ جذوة يصطلي وزوجه بها، فسمع صوتا قاصفا مخوفا يناديه {يا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ثم آتاه الله جملة من المعجزات الكبيرة المثيرة لتكون له معاونا يزدجر به فرعون عسى أن يتذكر أو يخشى لكنه كفر وعتا عتوا كبيرا، فأخذه الله وجنوده وأتباعه بالتغريق أخذ عزيز مقتدر.

وفي السورة إخبار عن نبي الله سليمان عليه السلام، إذ أوتي بعضا من المعجزات الحسية العظيمة التي تنشر في النفس اليقين بصدق رسالته وأنه مبعوث من رب العالمين - فقد علمه الله منطق الطير - وكذا النمل الذي يدب على الأرض دبيبا صامتا لينا، ويتخاطب أفراده فيما بينهم بما أودعهم الله أن يتخاطبوا به فيفهموه - وهي لغة لا يقف عليها أو يفهمها إلا من أوتي القدرة الخارقة على ذلك - وهذه معجزة ظاهرة من معجزات النبوة.

وكذلك قصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ التي جاءت إليه نتعرف شأنه وخبره وحقيقة أمره فوجدت عرشها منصوبا بين يديه فأثارها ذلك وراعها روعا ثم أسلمت مع سليمان لله رب العالمين

إلى غير ذلك من الأخبار والحكم والترهيب من يوم القيامة بأفزاعها وخطوبها وفظائعها - وذلك كله في أسلوب قرآني عجيب يثير الدهش ويستنفر الخيال أيما استنفار.

١ - (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}

مضى الكلام عن الحروف المتقطعة في فواتح السور - وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ} أي هذه آيات القرآن التي أنزلها على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - أو هذه السورة آيات القرآن {وَكِتَابٍ مُّبِينٍ} معطوف على القرآن - يعني: وآيات كتاب ظاهر لمن تدبره ووعاه وتفكر في معانيه وأحكامه ليستيقن أنه من عند الله - فهو لم يتقوله أنت ولا أحد سواك من البشر أو الجن.

٢ - (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} {هُدًى} مرفوع على أنه خبر لمبتدأ، أي هو هدى - وقيل: منصوب على الحال، من الكتاب، أي تلك آيات الكتاب هاديا.

{وَبُشْرَى} معطوف عليه، أي ومبشرا ١.

والمعنى: أن هذه الآيات القرآنية بما حملته في مضمونها من جليل الأحكام والمواعظ والمعاني قد جيء بها لتكون هداية للمؤمنين، يستنيرون بها في حياتهم فتكتب لهم النجاة والسعادة في هذه الدنيا وفي المعاد - وهي كذلك بشارة من الله لمن آمن به وصدق بما أنزل من عنده وأيقن أنه حق.

٣ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

قوله: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} هذه صفات للمؤمنين الصادقين - أولها: أنهم يقيمون الصلاة ويحافظون عليها كامل المحافظة من غير تفريط في ذلك ولا تقصير - وثانيها: أنهم يؤدون الزكاة المفروضة، دون تردد أو تثاقل أو شح - بل يبادرون ببذلها، لتؤدى في وجوهها المعروفة - وثالثها: أنهم موقنون بالمعاد بعد الممات - فلا يتسرب إلى نفوسهم في هذه اليقينية الكبرى أيما شك أو ارتياب.

٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} أي هؤلاء المكذبون بيوم القيامة والذين يجحدون الساعة والمعاد قد سوّلت لهم قبائح أعمالهم وحبّب إليهم فساد سلوكهم وتصرفاتهم فظنوا أنهم يحسنون صنعا - وهم في الحقيقة ضالون تائهون سادرون في الغي والباطل.

وهو قوله: {فَهُمْ يَعْمَهُونَ} من العمه وهو التحير والتردد ٢ أي سادرون في ضلالهم مترددين حيارى - ٥

٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ)

قوله: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ} أي هؤلاء الذين يكذبون بيوم القيامة {لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ} وذلك في الدنيا حيث المخازي والمفاسد والشقاء والضلال وفي الآخرة حيث الويل والعذاب المستديم {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} هؤلاء المكذبون بالساعة هم أشد الناس يوم القيامة خسرانا وأعظمهم هوانا وخيبة.

٦ - (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

قوله: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} أي أنك تؤتى القرآن من لدن إله حكيم بتدبير الخلق، حكيم في أوامره ونواهيه وسائر أحكامه، وهو كذلك عليم بأحوال العباد ومصالحهم مما ينفعهم أو يضرهم، وعليم بما هو كائن من أمورهم سواء فيما مضى أو ما هم آت، فإن الله عليم بذلك كله ٣

٧ - (إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

ذلك إخبار من الله عن نبيه وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام، إذ كان عائدا من مدين إلى مصر ومعه أهله فلقيا من شديد البرد والنصب ما لقيا - ثم وقع له من عظيم المعجزات الحسية ما يدل على عظيم الشأن لهذا النبي الكريم - وهو ما نعرض له في تفسير هذه الآيات البينات - وهو قوله: {إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} أي اذكر يا محمد حين سار موسى بأهله لدى عودته من مدين إلى مصر فضل الطريق لشدة الظلام وابتغاء الدليل، فقال لأهله: إني أبصرت نارا فامكثوا مكانكم سآتيكم منها بما نستدل به على الطريق {أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} الشهاب، الشعلة من نار ساطعة ٤ والقبس، بدل من شهاب أو صفة له بمعنى مقبوس - أي آتيكم من النار بشعلة مأخوذة منها {لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي تستدفئون من البرد - من الاصطلاء - اصطلى يصطلي إذا استدفأ.

٨ - (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} {أَن} مخففة من الثقيلة - وتقديره: أنه بورك ٥ أي لما جاء موسى النار التي أبصرها، وكان يظن أنها نارا كالنار المعروفة، وقف بجانبها مشدوها مبهورا وهو ينظر إلى عظمتها وشدة اضطرامها وعجيب اشتعالها وتوقدها، ثم ناداه الله بأنه بورك أي تقدس وتعظم {مَن فِي النَّارِ} أي موسى نفسه {وَمَنْ حَوْلَهَا} أي الملائكة - والمعنى: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين من حول النار - وهذه تحية من الله سبحانه لموسى وتكريم له - وقيل: المراد بمن في النار، الله جل جلاله، فقد عنى بنفسه، أي تقدس من في النار وهو الله - وعلى هذا يكون المراد بالنار نور الله.

قوله: {وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ذلك تقديس لله وتنزيه له عن النقائص والعيوب، فهو سبحانه الرب المتعالي ذو الملكوت والجبروت.

٩ - (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الهاء في قوله: {إِنَّهُ} ضمير الأمر والشأن - أي أن الأمر والشأن أنا الله العزيز، بمعنى الغالب لا يقهره شيء ولا يعز عليه صنع شيء - و {الْحَكِيمُ}، الذي يدبر أمور الخلائق في غاية الحكمة وحسن التدبير.

١٠ - (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)

قوله: {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} وهذه آية كبرى من الآيات التي سخرها الله لكليمه موسى تأييدا له في دعوته، وتصديقا لنبوته ورسالته، إذ أمره ربه أن يلقي عصاه التي كانت في يده فلما ألقاها صارت حية هائلة مخوفة تضطرب وتسعى مسرعة كأنما هي جان - فتولى موسى هاربا لفرط الخوف منها، كشأن البشر، إذ يخافون من الأفاعي والحيات بالطبع الخلقي {وَلَمْ يُعَقِّبْ} يعني لم يرجع ولم يلتفت من شدة ما أصابه من الرعب والجزع، فناداه ربه لكي يأمن ويطمئن {يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي

لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} أي لا تخش الحية فإنها لا تضرك ولا تصيبك بسوء ولا أذى فإنك في رعايتي وحفظي فأنت في مأمن من كل سوء، فإني قد اصطفيتك لحمل رسالتي - والمرسلون ينبغي أن لا يخافوا - لأنهم في كنفي وصوني.

١١ - (إلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {إلا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ} استثناء منقطع، أي ولكن من ظلم نفسه منهم، إذ فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء كالذي فرط من آدم ويونس وسليمان ومن موسى بوكزه القبطي {ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي من تاب وأناب بعد سوء الذنب فإني متجاوز له عن سيئته.

١٢ - (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

قوله: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} الجيب، ما ينفتح على النحر، والجمع جيوب وأجياب ٦ - وأمر الله موسى أن يدخل كفه في جيب قميصه حتى إذا أخرجها صارت {بَيْضَاء} ساطعة تتلألأ كالبرق {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي من غير مرض كبرص ونحوه - وبيضاء منصوب على الحال.

قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} فهاتان آيتان من تسع وهما العصا واليد - وأما الآيات الباقيات فهي: الجراد والقمل والضفادع والطوفان والدم والجدب والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} أي أن فرعون وقومه من القبط كانوا كافرين بالله، خارجين عن طاعته.

١٣ - (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قوله: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} {مُبْصِرَةً}، منصوب على الحال من الآيات، أي مبينة ٧ أي لما جاءت آيات الله – وهي معجزاته- فرعون وقومه من القبط {مُبْصِرَةً} أي واضحة جلية يراها الناظرون ويستيقنون حقيقتها، كذبوا وجحدوا عنادا واستكبارا - وليس لهم على جحودهم وتكذيبهم أيما حجة إلا أن {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} وهذا هو ديدن الجاحدين المفلسين الذين لا تسعفهم حجة ولا منطق ولا برهان إلا أن يقولوا في مكابرة وافتراء واحتجاج مصطنع: إن هذا سحر ظاهر وإن موسى ساحر بارع غلب السحرة بسحره.

١٤ - (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

قوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} الباء، زائدة، أي جحدوها - والمعنى: كذبوا بالآيات التسع وجحدوا كونها من عند الله وأيقنت قلوبهم أنها حق وأنها من عند الله - لكنهم أبوا واستكبروا وجحدوا {ظُلْمًا وَعُلُوًّا} كلاهما صفة لمصدر محذوف - أي جحدوا بها جحودا ظلما وعلوا.

قوله: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} أي انظر وتدبر ما حل بآل فرعون وقومه الظالمين من وخيم العواقب وسوء المصير من تغريق وتدمير ٨.

١٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.

هذا إخبار من الله عن نبيين كريمين وهما داود وابنه سليمان، وما آتاهما من تفضيل وتكريم - لقد آتاهما من العطايا والخصائص في هذه الدنيا ما لم يعط أحدا من البشر مثله - فقد آتاهما النبوة والملك، وعلمهما منطق الطير والدواب وخول سليمان قيادة جنوده من

الجن والإنس والطير.
قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا} أتاهما الله فهما في الدين والأحكام والأحوال - أو علمهما منطق الطير والدواب بفهم ما تخاطب به هذه الخلائق من لغات.
قوله: {وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} أي الحمد لله على ما خصنا به من العلم الذي أوتيناه دون غيرنا من الناس ففضلنا بذلك على كثير من عباده المؤمنين - ويستفاد من ذلك ما قررته ديانة السماء من شرف المنزلة ورفيع الدرجة للعلم والعلماء - لا جرم أن العلم أجل النعم على الإنسان - وهو لا يعلوه إلا التقوى {يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات}.
١٦ - (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)
قوله: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ} ورث سليمان عن أبيه النبوة والملك دون سائر إخوته - فقد خصه الله بذلك من بينهم تكريما له وتشريفا - ثم أعلن على الملأ أن الله علمه منطق الطير - أي أفهمه لغتهم فكان يدرك ما تخاطب به الطيور والدواب من لغات فيما بينها.
والمراد بإتيانه من كل شيء، كثرة ما آتاه الله من جزيل النعم والخيرات.
قوله: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} أي الفضل الكبير الظاهر الذي لا يخفى على أحد.
١٧ - (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يوزَعُونَ)
قوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ} أي جمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير وهو راكب فيهم في أبهة وشرف، فكان يليه الإنس، ومن بعدهم الجن، ومن فوق رأسه الطير تظله بأجنحتها من حر الشمس.
قوله: {فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا - أو يمنعون ويدفعون ويرد أولهم على آخرهم - وهو من الوازع، أي الكاف أو المانع - ويقال للذين يدفعون الناس عن الولاة والأمراء وزعة، لكفهم إياهم عنهم - والوزعة جمع وازع - والوازع، الذي يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر جمعه - قال الحسن البصري: لا بد للناس من وازع؛ أي من سلطان يكفهم ٩ وروي عن عثمان قوله: ما يزع الناس السلطان أكثر مما يزعهم القرآن؛ أي يكفهم.
١٨ - (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)
قوله: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ} لما أتى سليمان وجنوده على واد النمل، قيل: بأرض الشام، وقيل: بالطائف {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} {لا}، ناهية ١٠ أي لا يكسرنكم سليمان وجنوده بوطئهم عليكم {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} أي لا يعلمون بكم - أو لا يعلمون أنهم يحطمونكم.
وهذه واحدة من المعجزات التي أوتيها نبي من أنبياء بني إسرائيل - معجزة ظاهرة مثيرة تتجلى في كلام تنطق به نملة من النمل فيفهمه سليمان - وذلك من تقدير الله الذي يختار من عباده من يشاء ليميزهم بالنبوة الطاهرة وما تقتضيه من الظواهر العجيبة الخارقة لنواميس الحياة وقوانين الطبيعة.
من أجل ذلك كان للنمل تكريم - فقد قال ابن عباس: " نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب، الهدهد والصرد ١١ والنملة والنحلة " وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة - وثبت في الصحيح عند مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قرصت ١٢ نبيا من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟ " ويستدل من هذا أيضا على جواز قتل ما يؤذي أو يضر من النمل؛ فقد أبيح للمؤمن أن يدفع عن نفسه الأذى والضرر إن كان من إنسان، فكيف بالهوام والدواب التي سخرها الله للإنسان وسلطه عليها؟ وعلى هذا إذا تأذى الإنسان من النمل جاز له قتل المؤذي منه - فإن قوله: " فهلا نملة واحدة؟ " دليل على أن الذي يؤدي، يؤذى ويقتل - وكلما كان القتل لنفع أو لدفع ضرر فلا بأس به عند العلماء.

١٩ - (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

قوله " {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا} {ضَاحِكًا}، منصوب على الحال - وتقديره تبسم مقدار الضحك، لأن التبسم غير الضحك وهو دونه ١٣ والمعنى أن سليمان تبسم ضاحكا عجبا مما سمعه من قول النملة، فقد ألهمه الله القدرة على سماع النملة وهي تنطق، وخوله من نورانية النبوة وإشراقها ما يستطيع به أن يفهم ما تتخاطب به النمل فيما بينها.

قوله: {وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} أوزعني، أي ألهمني - و {أن}، مصدرية، فقد دعا سليمان ربه خاشعا متذللا: رب ألهمني شكر نعمتك، أو اجعلني أشكر نعمتك التي مننت بها علي إذ علمتني منطق الطير والدواب، وما مننت به على والدي بالهداية والإيمان بك {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} وألهمني أو اجعلني أعمل الطاعات والصالحات لترضى عني {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} أي ألحقني بالصالحين من عبادك وأدخلني في جملتهم الجنة ١٤.

٢٠ - (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

قوله: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) *قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}.

ذكر عن ابن عباس وغيره أن الهدهد كان يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض ليعرف كم مسافة بُعْده من وجه الأرض - فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره - فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره - وهو قوله سبحانه: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} يعني ما لي لا أرى الهدهد هل أخطأ بصري فلا أراه، وقد حضر {أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} {أم} منقطعة، بمعنى بل والهمزة، أي بل أهو غائب مع الغائبين فلم يحضر.

٢١ - (لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

قوله: {لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} {عَذَابًا}، منصوب على المصدر ١٥ وتعذيبه بنتف ريشه وإلقائه في الشمس - {أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ} يعني لأقتلنه {أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} أي حجة ظاهرة تكون عذرا له في غيبته.

٢٢ - (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)

قوله: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} {غَيْرَ}، منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، وتقديره فمكث مكثا غير بعيد - وقيل: منصوب على أنه صفة لظرف محذوف - وتقديره: فمكث وقتا غير بعيد ١٦ أي مكث الهدهد غير طويل من الوقت، إذ غاب زمانا يسيرا ثم جاء ليقول لسليمان: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} أي علمت من الأخبار ما لم تعلمه أنت ولا جنودك {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} {سَبَإٍ}، اسم مدينة تعرف بمآرب اليمن بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام، وكانت فيها بلقيس - والمعنى: جئتك من سبأ بخبر حق ويقين لا شك فيه.

٢٣ - (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

قوله: {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} المراد بالمرأة هنا بلقيس، فقد وجدتها تملك أهل سبأ، إذ كانت ملكة عليهم، وكان أهلها وقومها مجوسا يعبدون الشمس {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} أي أعطيت من متاع الدنيا وزينتها ما يحتاجه الملوك {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} أي سرير، إذ كان عظيما في هيئته ومزخرفا بأنواع الجواهر، وكانت تجلس عليه.

٢٤ - (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)

قوله: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ} كانت ملكة سبأ وقومها ممن يعبدون الشمس، إذ كانوا مجوسا، فكانوا بذلك وثنيين يعبدون غير الله.

قوله: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} أي سوّل لهم الشيطان عبادة الشمس وكل وجوه الكفر، وزين ذلك في قلوبهم {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} أزلّهم الشيطان عن طريق الحق، إذ أضلهم وأغواهم فهم بإغواء الشيطان لهم ضلوا ولم يسلكوا طريق الحق والهداية.

٢٥ - (أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} {أَلَّا}، بالتشديد، وأصلها: أن لا - وأن في موضع نصب متعلق بقوله: {يَهْتَدُونَ} ولا، زائدة - وقيل: إن منصوب على البدل من الأعمال - ولا غير زائدة - وقرئ (ألا)، بالتخفيف، فتكون ألا، للتنبيه - ويا حرف نداء - والمنادى محذوف - والتقدير: ألا يا هؤلاء اسجدوا ١٧ {لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} {الْخَبْءَ}، ما خبئ - وخبء السماء القطر، وخبء الأرض النبات ١٨ والمعنى: أن الله يخرج المخبوء أو المستور في السماوات والأرض من غيث في السماء أو نبات وكنوز في الأرض ونحو ذلك - أو أن الله يعلم كل مخبوء ومستور في السماوات والأرض {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} وهذه صفة من صفات الله تعالى، وهو علمه بالغيب، فهو عليم بكل شيء، سواء في ذلك ما كان خفيا مستورا أو ظاهرا معلوما.

٢٦ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

قوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} الله الواحد، ليس من معبود إلا هو، ولا تصلح العبادة لأحد سواه، وهو ذو الملكوت ورب كل شيء ورب العرش العظيم - وقد خص العرش هنا بالذكر، لأنه أعظم المخلوقات في هذا الوجود.

٢٧ - (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

قوله: {قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} قال سليمان للهدهد: سننظر أو نتأمل في مقالتك وما اعتذرت به أو تذرعت به من الحجة، أصدقت أم كذبت.

٢٨ - (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)

قوله: {اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} كتب سليمان كتابا إلى ملكة سبأ وهي بلقيس، ثم دفعه إلى الهدهد ليحمله إليها وقومها فلما جاءها ألقاه إليها ثم تولى منصرفا كما أمره سليمان ١٩.

٢٩ - (قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ)

قوله تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} ذهب الهدهد فألقى كتاب سليمان إلى بلقيس، فقالت لأشراف قومها وهم الملأ: {يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} وصفت كتاب سليمان بالكرم، لأن صاحبه سليمان كريم، فعظمته بذلك وأجلته إجلالا - وقيل: وصفته بأنه كريم لما تضمنه كتابه من لين القول والموعظة في الدعاء إلى دين الله وإلى صراطه المستقيم.

فقد جاء كتابه لها مستعطفا مستلطفا دون فظاظة من القول، كالسب أو الشتم أو اللعن بل كان حديثا حسنا وفي غاية التأديب والاستلطاف وذلك هو شأن الدعاة إلى الله، إذ يدعون في لين وهوادة - كما قال سبحانه: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} وقال سبحانه عن موسى وهارون: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى}.

٣٠ - (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

أما الكتاب الذي القي إليها، كان مبدوءا بالبسملة وهي {بسم الله الرحمن الرحيم} وهذه بداية مباركة لكل قول أو فعل - فما يخلو منها أو خطاب أو كتاب أو عمل حتى تنتزع منه البركة - وفي الخبر: " كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم "

٣١ - (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

وقد تضمن كتاب سليمان {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ} أن، في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر - أي بألا تعلو - وقيل: أن، في موضع رفع على البدل من {كِتَابٌ} وتقديره: إني ألقي إلي كتاب ألا تعلو، وقيل: أن، مفسرة بمعنى أي ٢٠.

قوله: {وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} يعني أقبلوا إلي مؤمنين مذعنين لله بالوحدانية والطاعة والامتثال لأمره وحكمه ٢١.

٣٢ - (قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)

قوله تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}.

قالت بلقيس – هذه المرأة الحازمة الفطنة- للملأ وهو أشراف قومها: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي} أي أشيروا علي في أمري من شأن هذا الكتاب الذي ألقي إلي وهو مرسل من سليمان {مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} أي لم أكن لأقضي أمرا في شأن ذي أهمية كهذا حتى تحضروا إلي فأشاوركم فيه.

وهذا دليل حزمها ورجاحة عقلها؛ إذ تعبأ بالمشورة لتخلص إلى الرأي السديد - وما يطلب المشورة من أهل النهى والنظر إلى العقلاء الحازمون من الناس، الذين يبتغون لأنفسهم وأمتهم السلامة والخير - ولا يستكبر على قومه وأهل النظر فيهم فينفر من مشاورتهم إلا الجاهلون والسفهاء والمستكبرون.

٣٣ - (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

قوله: {قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ} كان جواب قومهم وأشرافهم: نحن أقوياء وأشداء ومقتدرون على القتال ومواجهة من تريدين {وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} يعني الأمر في كل الأحوال راجع إليك وما تقولينه من أمر وقرار، فانظري من الرأي ما ترينه صواب ثم مرينا به لنأتمر بأمرك ولا ننِي.

٣٤ - (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

قوله: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} قالت بلقيس لمن حولها من الحاشية والأشراف عقب عرضهم أنفسهم عليها لقتال سليمان: إن الملوك إذا دخلوا بلدا أو مدينة عنوة وقهرا {أَفْسَدُوهَا} بالقتل والتخريب والإذلال - وهو قوله: {وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} أي أهانوا أشرافها وكبراءها فجعلوهم أذلة مقهورين {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} هذا من قول بلقيس، تأكيدا لما قالته عن إفساد الملوك لما يحتلونه ويقهرونه من البلاد والعباد.

وقيل: هذا من قول الله، إذ يبين لنبيه صلى الله عليه وسلم وأمته ما يفعله الملوك إذ غلبوا أهل القرية ودخلوها عنوة، وإنما يفعل ذلك من الملوك الذين يحكمون بشرائع الضلال والجاهلية، الشرائع القائمة على الظلم والشر والباطل، والتي تسوّل للساسة والأمراء والملوك

الطغاة أن يفعلوا الآثام والمنكرات والمعاصي - أولئك هم ملوك الضلال والباطل الذين يشاقون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فسادا، ويسوسون الناس بغير ما أنزل الله بل يسوسونهم بالكفر وأنظمة الجاهلية، ويقودونهم بالبطش والتنكيل - أما الملوك الذين يخشون ربهم يحكمون الناس بشريعة الله، شريعة العدل والفضل والرحمة والاستقامة - فأولئك لا يفسدون البلاد ولا يسعون في خرابها وتدميرها بل ينشرون فيها الخير والفضيلة والهداية - ويرسخون فيها العدل والرحمة والاستقرار.

٣٥ - (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)

قوله: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} - جنحت بلقيس في هذا إلى المصانعة والمراوغة والمسالمة؛ لترى ماذا تكون عليه النتيجة لو أرسلت بهدية إلى سليمان - ويدل ذلك على ما تتسم به هذه المرأة من فطانة وبراعة وثاقب نظر.

وهو قوله: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} أرادت من إرسال الهداية إليه أن تختبره بها فتعرف أنه ملك أو نبي - فإن كان ملكا قبلها - وإن كان نبيا ردها ولم يقبلها فتستيقن بذلك أنه لا قبل لها ولجنودها بسليمان وجنوده ٢٢.

٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

لما جاء الرسول سليمان بالهدية قال: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ} الاستفهام للإنكار - استنكر سلميان إمدادهم له بالمال مصانعة منهم له وموادعة لكي يتركوهم على حالهم من الكفر والملك والمتاع.

قوله: {فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ} أي ما أعطانيه ربي من الملك والجاه والسلطان والنبوة والإسلام والمال خير مما أعطاكم {بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} أنتم الذين تفرحون بالهدايا، لأنكم أهل مكاثرة ومفاخرة بالأموال والهدايا وصنوف المتاع من زينة الحياة الدنيا.

٣٧ - (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)

قوله: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا} قال سليمان لرسول بلقيس: ارجع إليهم بهديتهم فلنأتينهم بجنود من الإنس والجن لا طاقة لهم بقتالهم {وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا} اللام للقسم، أو التوكيد - أي لنخرجنهم من أرضهم {أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي مهانون ذليلون خزايا.

٣٨ - (قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

قوله: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} قال سليمان هذه المقالة بعد ما رجع رسول بلقيس إليها فتجهزت هي وقومها للقدوم إلى سليمان طائعين مذعنين - وهو قوله: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} وعرشها، سريرها العظيم بهيأته وزخرفته وحبكه بالجوهر فقد أراد سليمان إحضار عرشها لترى ما خوله الله من قدرة فائقة تشهد بصدق نبوته وانه مرسل من ربه - وذلك من قبل أن يأتوه مسلمين - أي طائعين منقادين - على أن بلقيس لم تأت سليمان مسلمة على دينه من التوحيد، بل إنها أسلمت بعد مقدمها عليه وما جرى بينهما من تحاور وجدال، فرأت صدق حديثه وصحة ما يقول؛ فأيقنت أنه نبي مرسل؛ فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

٣٩ - (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

قوله: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ} العفريت هو رئيس مارد قوي من رؤساء الجن - فقد قال لسليمان: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مجلسك الذي جلست فيه لتقضي بين الناس {وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} أي قوي قادر على حمله، وأمين على ما فيه من الجواهر فلا أفرط فيه ولا أخونه.

٤٠ - (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

قوله: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} الذي عنده علم الكتاب رجل صالح من بني إسرائيل كان وزيرا لسليمان وكان تقيا صديقا وذا علم بالكتاب المنزل من عند الله - فقد قال سليمان {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} يعني آتيك بعرش بلقيس في مقدار ما تفتح فيه عينك ثم تطرفها، أي في لحظة عين - والطرف: تحريك الأجفان عند النظر - ولا عجب فهذه معجزة من الله تشهد بصدق نبوة سليمان وأنه رسول رب العالمين، أما في حق الرجل الصالح الذي جاء بعرشها في طرفة عين، فهذه كرامة من الكرامات يؤتيها الله أولياءه الصالحين من عباده المؤمنين.

قوله: {فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي} لما رأى سليمان عرش بلقيس ثابتا بين يديه هتف شاكرا محبورا من أمر الله وفضله عليه وهو قوله: {هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي} أي هذا العطاء والتوفيق والتمكين مما أنعم به ربي علي {لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ} أي ليمتحنني ربي أأشكر نعمته علي أم أجحدها.

قوله: {وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} أي من شكر الله على ما تفضل به وأنعم فذكر ذلك لله مقرا معترفا بمنه وكرمه فإنما ينفع بهذا الشكران نفسه، والله جل وعلا يزيد الشاكرين خيرا منه وفضلا.

قوله: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} الله غني عن العالمين فلا يعبأ بهم وبكفرهم، وهو سبحانه كريم في نفسه سواء شكره العباد أو كفروه ٢٣.

٤١ - (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ)

قوله تعالى: {قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

لما جيء بعرش بلقيس إلى سليمان وجاءت هي إليه قال لجنوده: {نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا} أي غيروه لها - وتغييره بجعل أعلاه أسفله، أو أسفله أعلاه - أو أن يزاد فيه وينقص منه.

قوله: {نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ} {نَنظُرْ}، جواب الأمر؛ أي ننظر أتعرف عرشها أو لا تعرفه.

٤٢ - (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

قوله: {فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ} لما جاءت بلقيس سليمان أظهر لها عرشها ثم {قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ} {أَهَكَذَا}، ثلاث كلمات: حرف التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة - والمعنى: أمثل هذا عرشك؟ فشكت وشبهته به وقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} وذلك من رجاحة عقلها ونباهتها.

قوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} هذا من قول سليمان - والمعنى: أوتينا العلم بإسلام ملكة سبأ ومجيئها إلينا طائعة {مِن قَبْلِهَا} أي من قبل مجيئها - أو أوتينا العلم بالله وبقدرته المطلقة على فعل ما يشاء من قبل هذه المرأة {وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} أي مسلمين لله من قبلها. وقيل: من قول بلقيس - فالمعنى: أوتينا العلم بصدق سليمان وحقيقة نبوته من قبل هذه الآية في العرش {وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} أي طائعين

منقادين لأمره - أو أوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوة سليمان قبل هذه المعجزة، وكنا على دينه ومنقادين لحكمه.

٤٣ - (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

قوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} هذا من قول سليمان - والمعنى: أوتينا العلم بإسلام ملكة سبأ ومجيئها إلينا طائعة {مِن قَبْلِهَا} أي من قبل مجيئها - أو أوتينا العلم بالله وبقدرته المطلقة على فعل ما يشاء من قبل هذه المرأة {وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} أي مسلمين لله من قبلها. وقيل: من قول بلقيس - فالمعنى: أوتينا العلم بصدق سليمان وحقيقة نبوته من قبل هذه الآية في العرش {وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} أي طائعين منقادين لأمره - أو أوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوة سليمان قبل هذه المعجزة، وكنا على دينه ومنقادين لحكمه.

٤٤ - (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً} {الصَّرْحَ}، معناه القصر، وكل بناء عال - وجمعه صروح ٢٤ واللجة هي معظم الماء ٢٥ - والصرح، وهو القصر الذي أمرت بلقيس بدخوله كان من قوارير، أي زجاج، وقيل: كان من تحته ماء جعله سليمان كذلك لتستعظم بلقيس أمر سليمان فتستيقن أنه نبي مرسل - ولما طلب منها أن تدخل القصر ظنته ماء فكشفت عن ساقيها كيلا يبتل ثوبها. وما ينبغي لنا أن نشطح فوق ذلك فننجح في ذكر الروايات الغريبة الشاذة عن وصف بلقيس في هيئة قدميها وساقيها وما عليها من شعر كما جنح كثير من المفسرين اغترارا بما في ذكر هذه المسألة من الإسرائيليات - وهي روايات كثيرة ومريبة، وغالبا ما يخالطها الشك والمبالغة والنقل المضطرب الموهوم الذي لا يسعفه التثبت ولا الرويّة ولا اليقين.

وأقصى ما يراد بالقصة من بناء القصر الممرد على هيئته العظيمة والشامخة المنيفة، ما كان يبتغيه سليمان من الإظهار لملكة سبأ أنه مؤيد من الله، وأن سلطانه وتمكينه في الأرض إنما كان بقدرة الله؛ لتستيقن أنه مرسل من ربه فتبادر للإيمان معه.

ولما كشفت عن ساقيها لتلج القصر وهي تظن أنه ماء قيل لها: {إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ} أي قصر أملس من زجاج - عندئذ أيقنت ملكة سبأ أن سليمان مرسل من ربه وأنه نبي زمانه، لما رأت من عجائب الخلق الباهر - سواء في ذلك، هذا القصر الهائل المثير، أو حمل عرشها العظيم في لمح البصر لتجده بين يدي سليمان في قصره، وهي معجزة ظاهرة لا تدع مجالا للشك أو الارتياب - إنها لما رأت ذلك كله أعلنت إسلامها في مجاهرة صريحة وإقرار ظاهر - بما كانت عليه من كفر وضلال، قبل أن تتوب إلى الله فتفيء إليه مسلمة أمام سليمان - وهو قولها: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي ظلمت نفسي بما سلف من الكفر والإشراك بالله وعبادة الشمس، وأسلمت الآن متابعة لسليمان في دينه وعبادته لله الواحد ٢٦.

٤٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}

أرسل الله نبيه صالحا إلى قومه ثمود ليدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده دون غيره من الأنداد {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} من الخصومة، وهي الجدال ٢٧.

والمعنى: أرسل الله إلى قوم ثمود نبيهم صالحا فصاروا فيما دعاهم إليه فريقين يتجادلون - ففريق مصدق ومؤمن بما جاء به صالح، وفريق جاحد ومكذب بما جاءهم به، فقال لهم نبيهم صالح ناصحا لهم وواعظا قال {يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}

٤٦ - (قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} أي لماذا تستعجلون العذاب قبل الرحمة فتؤخروا الإيمان بربكم وبما جئتكم به من عنده وتبادروا بالكفر الذي يفضي بكم إلى العذاب.

وذلك أن المشركين من قومه كانوا لفرط إنكارهم وشدة جحودهم يقولون له على سبيل المعاندة والتهكم: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به.
قوله: {لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أي هلا تتوبون إلى الله مما أنتم عليه من الكفر فيتوب الله عليكم ويغفر لكم ذنوبكم ويرحمكم برحمته الواسعة.

٤٧ - (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)

قوله: {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ} التطير، معناه التشاؤم - والطيرة هي ما يتشاءم به من الفأل الرديء - و {اطَّيَّرْنَا}، أصله تطيرنا ٢٨، أي قال المشركون من ثمود لنبيهم صالح: تشاءمنا بك وبمن معك، فما رأينا على وجهك ووجوه الذين اتبعوك خيرا - فقد كانوا لحماقاتهم وجهالاتهم، لا يصيب أحدا منهم سوء إلا قال هذا من صالح وأصحابه افتراء منهم وتخريصا - فرد صالح مقالتهم وما كانوا يظنونه من الوهم والسفه فقال: {طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ} أي مصائبكم عند الله - أو السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم {عِندَ اللَّهِ}، وهو قضاؤه وقدره - فإن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم وهو قول الرازي - وقال لهم صالح أيضا: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي تمتحنون، إذ يختبركم الله بإرسالي إليكم ليميز المطيع منكم من العاصي، أو المهتدي من الضال، فيجازي الأول خيرا وحسنا، ويعذب الثاني بكفره وعصيانه - ويحتمل أن يكون المراد، أن الشيطان يفتنهم بوسوسته فيزين لهم الكفر وفعل المعاصي ٢٩.

٤٨ - (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)

قوله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

كان في مدينة صالح وهي الحجر، من أرض الشام {تِسْعَةُ رَهْطٍ} أي تسعة نفر - والرهط، ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة - والجمع أرهط وأرهاط وأراهط - ورهط الرجل قومه وقبيلته ٣٠ - والمعنى: أن تسعة رجال من أشراف ثمود وهم من كبراء القوم وسادتهم وقادتهم إلى الضلال والكفر كانوا يفسدون في الأرض بالتحريض على تكذيب صالح والتصدي له بالأذى والجحود وغير ذلك من وجوه الإفساد، كتتبع عورات النساء وإشاعة الرذيلة بين الناس - وهم الذين سعوا في قتل الناقة - وفق ذلك كله تعاون هؤلاء الأشرار الأشقياء فيما بينهم على قتل صالح فتحالفوا على الإتيان بهذه الفعلة الفظيعة النكراء - وهو قوله: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}.

٤٩ - (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

{قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} قال بعضهم لبعض مستسرين فيما بينهم: تحالفوا بالله، أي ليحلف بعضكم لبعض على أن نقتل صالحا وأهله ليلا {ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ} المراد بوليه، رهط صالح الذين لهم ولاية الدم - أي لنقولن لقبيلة صالح ما حضرنا قتل صالح وأهله أو إهلاكهم ولا نعلم من قتلهم {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} أي فيما نقول، وفي إنكارنا لقتله.

لقد تمالأ المجرمون الأشرار على قتل رسول الله الذي أرسله إلى الناس بالهدى والصلاح والفضيلة؛ فأي اجتراء غشوم أثيم على الإتيان بهذه الفعلة الخبيثة - وأي جناية عظمى يتلبس بها هؤلاء الخبثاء الأشقياء وهم يتواطئون على إزهاق إنسان ليس كغيره من الأناسي، ولكنه رسول رب العالمين.

٥٠ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

لكن الله المنتقم الجبار كان لهؤلاء المتواطئين المجرمين بالمرصاد ليرد كيدهم في نحورهم، ويدفع عن نبيه الكريم شرهم ومكرهم - وهو قوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} - المكر، يعني الاحتيال والخديعة - فهو ماكر ومكار - ومكر الله معناه مجازاته على المكر؛ فهو يجازي السيئة بالعقاب - وذلك مكره ٣١ فقد أخذهم الله بالعذاب ودمّر عليهم تدميرا {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} أي استدرجهم

الله استدراجا ثم أخذهم على غره وهم لا يعلمون بمكر الله بهم - وذلك جزاء تمالئهم على نبيه وائتمارهم به ليقتلوه ليلا - قال ابن عباس: أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة فامتلأت بهم دار صالح - فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فقتلهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها - وقيل: اختفوا في غار قريب من دار صالح، فانحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعا - فهذا ما كان من مكرهم، ومكر الله مجازاتهم على ذلك.

٥١ - (فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} أنّ بالفتح بدل من العاقبة ٣٢، أي انظر يا محمد ما آلت إليه حال هؤلاء الظالمين الماكرين، وما صاروا إليه من الهلاك والإبادة فقد دمّر الله عليهم وقومهم تدميرا، إذ أخذ الله التسعة المفسدين وهم الرهط الذين ائتمروا بصالح ليقتلوه ليلا - وكذلك أهلك الباقين من ثمود بالصيحة العاتية فدمدم عليهم {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا}

٥٢ - (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} {خَاوِيَةً}، منصوب على الحال من بيوتهم ٣٣ و {خَاوِيَةً}، خالية من أهلها - من الخواء ٣٤.

والمعنى: أن مساكن هؤلاء الظالمين خالية منهم فليس فيها منهم أحد، إذ أهلكهم الله إهلاكا بسبب ظلمهم، أي إشراكهم وتكذيبهم وصدهم عن الحق.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي فيما فعله الله بثمود من التدمير والإهلاك والإبادة لعبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتذكر فيخشى ويزدجر.

٥٣ - (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

قوله: {وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} لقد نجّى الله الفئة المؤمنة من عباده الذين اتبعوا صالحا فصدقوه وآمنوا بدعوته، فقد خرج بهم صالح إلى أرض الشام، وقيل إلى حضرموت حيث كتب الله لهم السلامة والنجاة بسبب إيمانهم وتقواهم والله ينجي عباده الصالحين ٣٥

٥٤ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُم تُبْصِرُونَ)

قوله تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ}

{وَلُوطًا}، منصوب بفعل مقدر - وتقديره: واذكر لوطا، أو أرسلنا لوطا ٣٦ وهذا إخبار من الله عن نبيه لوط، إذ ابتلاه ربه بقوم فاسقين قذرين يعملون الخبائث ويقترفون أشد الموبقات بشاعة وشناعة، فحذرهم لوط عليه السلام وأنكر عليهم هذا الرجس المقيت الذي انحدرت فيه نفوسهم إلى الحضيض من دركات الإسفاف والقذر - فقال سبحانه: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - فقد أنكر عليهم إتيانهم فاحشة اللواط وهي إتيان الذكران، وهم يعلمون أن هذه فاحشة نكراء مستقذرة - وقيل: يأتي بعضهم بعضا وهم ينظرون إلى إتيان القذر فكانوا لا يستترون مبالغة في الإسراف والإسفاف.

٥٥ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

قوله: {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء} أعاد الاستنكار والتوبيخ للفاحشة لفرط قبحها ونكارتها - و {شَهْوَةً}، منصوب على التعليل أي يأتون هذه الفاحشة للشهوة - وقيل: صفة لمصدر محذوف، أي إتيانا شهوة - أو على الحال - أي تأتون مشتهين هذه الفاحشة، متجاوزين النساء اللواتي أباحهن الله لذلك.

قوله: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} أي تفعلون هذه الفعلة المستقذرة سفاهة منكم وجهلا بفظاعة هذه الفاحشة.

٥٦ - (فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

قوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} جواب، خبر كان - واسمها {إِلَّا أَن قَالُوا} أي إلا قولهم - والمعنى: لم يكن لدى قوم لوط من جواب لما نهاهم عنه لوط من فعل الخبائث وهو إتيان الذكران، إلا أن قال بعضهم لبعض: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} لقد حرض بعضهم بعضا على إخراج آل لوط من قريتهم محتجين بأنهم أناس أطهار يتنزهون عن الفحش والقذر وهو إتيان الذكور - قالوا ذلك استهزاء وتهكما - وذلك هو خلق الفاسقين الفجار، إذ يعيبون الصالحين الأبرار من أولي الطبائع السليمة؛ لكونهم أولي طهر وعفة واستبراء، فبات الطهر والفضيلة والحياء في تصور هؤلاء المسفين عيبا ونكرا - لا جرم أن قوم لوط أشقياء مقبوحون وهم أولوا طبائع سقيمة، خالطها الإسفاف والالتواء والشذوذ فكانوا مثار استهجان واستقذار كلما ذكرتهم الأجيال والأمم عبر تاريخهم المتعاقب الطويل.

٥٧ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)

قوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} أي أنجينا لوطا وأهله الذين آمنوا معه واتبعوه باستثناء امرأته قضينا أنها من الهالكين مع قومها - فقد كانت عونا لهم على كفرهم وشنيع فعالهم وكانت تدلهم على ضيفان لوط ليأتي قومها إليهم.

٥٨ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)

قوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} أمطرهم الله بالحجارة تهوي عليهم من السماء فتشدخهم وتحطمهم حتى هلكوا، فساء ذلك المطر، مطر الذين أنذرهم الله عقابه فلم يقبلوا الإنذار ولم يزدجروا.

٥٩ - (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} المخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد الحمد لله على ما أنعم به علينا من الإيمان والهداية والتوفيق، وما منّ به علينا من الأمن من عقابه الذي أصاب به قوم لوط وقوم صالح وغيرهم من العصاة والفاسقين الذين أتى عليهم الهلاك والتدمير والإبادة {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} أمره الله أن يستفتح بحمده وبالسلام على الأنبياء والمرسلين المصطفين من عباده - وهذا من أدب النبوة الكريمة؛ إذ علم الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أدب الاستفتاح في مطلع كل حديث أو خطاب يعظ به الناس أو يذكرهم، لتحقق البركة ويثبت الأجر ويستجاب الدعاء.

قوله: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} الاستفهام للإنكار والتهكم والتبكيت للمشركين لما أنهم آثروا عبادة الشركاء والأنداد على عبادة الله - والمراد التنبيه على غاية الضلال التي وصلها المشركون السفهاء في مجانبتهم للحق وتلبسهم بالباطل.

والمعنى: قل لهم يا محمد آللَّهُ الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم من النعم ما لا يعد ولا يحصى خير، أم ما يشركون به من الأصنام والشركاء.

٦٠ - (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

قوله: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} يعني أعبادة الأصنام والأوثان بمختلف أشكالها ومسمياتها خير أم عبادة الله خالق السماوات والأرض وما فيها من أصناف الخلائق والعجائب والأشياء {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} من عجيب صنع الله وبالغ قدرته إنزال المطر من السماء لإحياء الأرض بعد موتها فتنبت به البساتين المخضرة ذات المنظر البهيج والجمال المثير الجذاب.

قوله: {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا} أي ما يستطيع البشر إنبات الشجر من الأرض بعد مواتها وهمودها وإنما الله يصنع ذلك وهو

القادر على إنزال الماء من السماء لإحياء الأرض بالنبات - ذلكم هو الله الخالق القادر الرازق المتفرد بالخلق دون سواه من الشركاء والأنداد المزعومة.

قوله: و {أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ} الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع - أي هل من إله يستحق العبادة مع الله الذي خلق الأرباب المصطنعة جميعا والذي ثبتت صفاته من الخلق والرزق والقدرة وغير ذلك من صفات الكمال.

قوله: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} {بل}، إضراب - فقد أضرب عن توبيخهم وتقريعهم ليبين سوء حالهم من الكفر والطغيان وهو أنهم {قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي يعدلون بالله غيره.

أو يعدلون عن الحق إلى الباطل، وعن الهداية إلى الضلالة جائرين متعمدين ٣٧.

٦١ - (أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

جعل الله قرارا، أي مستقرا - فكانت ساكنة ثابتة لا تحرك بمن عليها أو تضطرب ليطيب عليها العيش وتستقيم الحياة - وقد زيّن الله الأرض بأنواع مختلفة من ظواهر الزينة لتزداد صلوحا وجمالا - إذ جعل الأنهار العذبة تتفجر من خلالها فيشرب منها العباد وتستقي الدواب والحرث.

قوله: {وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} رواسي أو راسيات، أي جبال ثابتة راسخة والمفرد راسي أو راسية ٣٨ - والمعنى: أن الله أرسى في الأرض جبالا ضخاما شواهق لتثبت بها وتستقر فلا تميد أو تحرك أو تضطرب - ذلك أن الأرض إذا ما قيست بغيرها من الأجرام الكونية الهائلة فإنها بالغة الصغر والبساطة - وهي بذلك هينة خفيفة توشك أن تميد وتضطرب أو تتطاير في أجواز الفضاء لدى دورانها حول الشمس - لكن الجبال الهائلة الثقال أرست الأرض وثبتتها تثبيتا لتكون راسخة مستقرة متماسكة وهي تدور دورتها الرتيبة المنتظمة.

قوله: {وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} أي جعل الله بين المياه العذبة من أنهار وعيون وغيرها، وبين البحار الملحة حاجزا وهو المانع من الأرض اليابسة والجبال الراسيات الشم ليحول دون اختلاط الماء من الصنفين.

ولا يقتصر المانع على الحواجز من الأرض والجبال، بل يحتمل أن تكون الأسباب الكونية وظواهر الطبيعة كعوامل الجاذبية أو المد والجزر ضربا من ضروب الحاجز الذي يحول دون الاختلاط بين الماءين - وكيفما يكون الحاجز أو المانع فإن ذلك كله من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

قوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ} إذا تبين ذلك كله وثبت أن الله أتقن كل شيء وأودع في الطبيعة والكائنات نواميسها وقوانينها المنسجمة المؤتلفة المتكاملة، فهل بعد ذلك من إله يستحق العبادة غير الله؟

قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أكثر الناس لا يقدرون الله حق قدره، ولا يدركون بالغ قدرة الله وعظيم جلاله وسلطانه.

٦٢ - (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.

الله الذي يسمع دعاء المكروبين والملهوفين والمظلومين من عباده - فما يجأر العبد إلى ربه بالدعاء في تضرع إليه وتذلل إلا كان الله في عونه؛ إذ يستجيب له الدعاء.

وهو قوله: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} و {الْمُضْطَرَّ}، من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشيء، واضطره إليه، أحوجه وألجأه، فاضطر، بضم الطاء، والاسم الضرورة وهي الحاجة ٣٩ وعلى هذا فإن المضطر هو ذو الحاجة الملهوف الذي نزلت به نازلة كمرض أو

فقر أو ظلم أو غير ذلك من وجوه النوازل التي تحيق بالمرء، فتلجئه إلى التوجه لربه داعيا منكسرا لعله يكشف عنه البلاء - والله جلت قدرته خير راحم ومجيب يكفكف بقدرته ورحمته الضر والكرب عن المضرورين والمكروبين.

على أن الدعاء من العباد يأتي في الطليعة من ضروب العبادة والإنابة - والله سبحانه يحب من عبده أن يلح عليه في الدعاء راجيا متوسلا، وهو سبحانه حقيق بالاستجابة والقبول - وثمة دعوات مستجابات لا ترد بل يستجيب الله لأصحابها الداعين بها فيكشف عنهم الكرب والسوء والهم ويحقق لهم الراحة والسلامة والسكينة - وفي الحديث الصحيح: " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده ".

والمظلوم له في الدعاء شأن خاص ومميز ليكون دعاؤه مستجابا - ويستوي في ذلك كونه مؤمنا أو فاسقا أو كافرا، فإن دعاءه مستجاب؛ لكونه مظلوما قد حاق به ضرب من ضروب الظلم - ومن صفات الله، العدل المطلق والرحمة الكاملة - وهو سبحانه لكامل عدله ورحمته ورأفته بالعباد، يكره الظالمين الذين يجورون ويظلمون الناس، وقد حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما - وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ لما وجهه إلى اليمن: " واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب ".

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين ".

ومن حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر ".

قوله: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} أي يخلف بعضكم بعضا فيهلك قوما ويأتي بآخرين.

قوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} استفهام إنكار وتوبيخ - أي هل من أحد سوى الله قادر على فعل ذلك من إنعام النعم وخلق الخلائق وإجابة الدعوات من المضطرين والمظلومين.

قوله: {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} {مَا}، اسم موصول - {قَلِيلًا}، منصوب على أنه صفة لمصدر مقدر، وتقديره: تذكرا قليلا يذكرون ٤٠ أي قليلا ما يتذكرون نعم الله.

٦٣ - (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي، هل آلهتكم المصطنعة الموهومة التي لا تضر ولا تنفع -بل هي مصفوفة جامدة بلهاء- خير أم الله الذي يرشدكم في ظلمات البر إذا سافرتم إلى البلاد الواسعة البعيدة، بما جعل فيها من العلامات والأمارات التي تكشف لكم مجاهل الطريق سواء في البر أو في البحر بظلامه الحالك وهديره المخُوف، إنه لا يدلكم على سواء السبيل إلا الله الذي خول لكم من الأسباب والدلائل من الكواكب والنجوم والرياح وغير ذلك ما تهتدون به كيلا تضلوا.

قوله: {وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} وهو الذي يرسل الرياح مبشرات قدام الغيث ليستدل بها العباد على ورود المطر من السماء، فتعم البهجة والسرور بمقدم الخير والرزق والسعة.

قوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} بعد هذا الذي تبين عن عظيم قدرة الله وبالغ سلطانه في الحياة والكون، هل يعقل أن يكون مع الله أحد من هذه الأنداد المفتراة فتعبدوه؟

قوله: {تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي تنزه وتقدس عن الشركاء والأنداد.

٦٤ - (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي الله الذي أنشأ الخلائق بعد موات وعدم وهو الذي يحييها مرة أخرى ليبعثها إلى الحشر يوم تقوم الساعة.

قوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} هذا الذي بيده مقاليد الكون كله، وهو المحيي والمميت الذي يبعث الخلق يوم القيامة، هل من إله مع الله قادر على أن يفعل مثل ذلك؟

قوله: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} ذلك تقريع من الله، وتوبيخ لهؤلاء السفهاء المضللين الواهمين الذين يزعمون أن مع الله آلهة أخرى - والمعنى: إن كنتم تعتقدون مثل هذا الاعتقاد الفاسد المكذوب، فقدموا على ذلك حجة - وليس لهم في ذلك أيما حجة أو دليل إلا الضلال والهوى والتقليد الأعمى ٤١

٦٥ - (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

قوله: {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ} لفظ الجلالة {اللَّهُ} مرفوع على البدل من الموصول {مَن} ٤٢ يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يعلن لكافة للناس أنه ليس من أحد سوى الله من يعلم الغيب المستور ومن جملة ذلك قيام الساعة.

فلا أحد في الخلق يدري بخبرها - إنما الله وحده عليم بذلك {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} لا يدري أهل السماوات والأرض متى الساعة ليبعثوا للحساب.

٦٦ - (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ)

قوله: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ} {ادَّارَكَ}، أصلها تدارك - أدغمت التاء في الدال - والمعنى: تناهى علمهم وعجز عن معرفة الساعة، وذلك حين لا ينفعهم العلم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين.

قوله: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا} أي شاكون في وجودها وهم في الدنيا - ثم أضرب عن ذلك ليبين ما هو أسوأ حالا وهو العمى {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ} {عمون}، جمع عمو، أو عمي، والمراد عمى القلوب؛ إذ أعماها الضلال والشك والجهالة.

٦٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}.

يبين الله ما يقوله المكذبون بيوم القيامة، الذين يعجبون من بعثهم من مرقدهم إلى النشر ليناقشوا الحساب، وهو قوله: {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ} أي بعد صيرورتنا رفاتا وعظاما نخرة نحن وآباؤنا السابقون، هل نبعث أحياء من قبورنا - وهو استفهام يراد به الجحود والتكذيب.

٦٨ - (لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

قوله: {لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ} أي قيل لنا مثل هذا الكلام كما قيل لآبائنا من قبل، لكنه لم يتبين لذلك صحة أو حقيقة.

قوله: {إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} أي ما هذا القول بالبعث من القبور إلا ما سطره السابقون في كتبهم من الأكاذيب فتحدثوا به حديث الأساطير والخرافات.

٦٩ - (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} أي قل لهؤلاء المكذبين بيوم القيامة أن يسيروا في البلاد؛ ليروا ديار الذين سبقوهم من الأمم الجاحدة، ويشاهدوا ما حل بمساكنهم من الخراب والدمار جزاء كفرهم وتكذيبهم؛ وذلك ليحذروا سوء العاقبة وما يوشك أن يحل بهم نتيجة تكذيبهم كما كذب الأولون - فإن ما نزل بساحة المكذبين الأولين يوشك أن ينزل بساحتكم أنتم بسبب تكذيبكم وإعراضكم فاحذروا.

٧٠ - (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)

قوله: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} هذه مواساة من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يعزي بها نبيه الكريم، ويسري بها عن نفسه، كيلا يألم ويحزن بسبب إعراضهم عنه وإدبارهم عن الحق.

قوله: {وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} أي لا تكن في حرج من كيد المشركين ومكرهم وإعراضهم فإن الله مؤيدك وناصرك وقاهر

أعدائك المكذبين ٤٣.

٧١ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} يستعجل الكافرون وقوع العذاب - وذلك على سبيل التكذيب والسخرية - وهو قولهم: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي متى العذاب الذي تعدنا به يا محمد إن أعرضنا وكذبنا.

٧٢ - (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)

فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بما فيه تهديد لهم ووعيد وهو قوله: {قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} {رَدِفَ}، تبع ولحق، من الترادف أي التتابع - ترادف القوم أي تتابعوا ٤٤ والمعنى: عسى أن يكون قد اقترب لكم، ودنا منكم ولحق بكم بعض ما تستعجلونه من العذاب.

٧٣ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ)

قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} الفضل والفضيلة بمعنى الخير، وهو ضد النقص والنقيصة - والإفضال معناه الإحسان - ورجال مفضال، وامرأة مفضالة على قومها ٤٥ والمعنى أن الله متفضل على العباد بما أسبغ عليهم من جزيل الإحسان والنعم، لا جرم أن فضله عليهم عظيم وأن آلاءه وخيراته وبركاته لا تحصى ولا تعد، سواء في ذلك ما منّ به عليهم من مركبات الجسد: كنعمة العقل والسمع والبصر والحس، ونعمة الفطرة بمختلف أجزائها ومعانيها الخلقية، من حياء ورحمة ورأفة وإيثار ونخوة ومودة ووازع ورهافة - وفوق ذلك كله يتفضل الله على الناس بواسع غفرانه لهم، وبتجاوزه عن مساءاتهم وآثامهم وذنوبهم - لا جرم أن الله لذو فضل على الناس {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} أكثر الناس يجحدون نعمة الله عليهم، وينسون ما من به عليهم من عظيم النعم وجزيلها - وهم إنما ينثنون عن عبادة تالله وحده، وعن بذل الشكر له والثناء عليه، وتذكر ما أفاض به عليهم من صنوف الخير لينغمسوا في الباطل والشهوات لاهين غافلين.

٧٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} الله عليم بالأستار وما خفي على العباد من أخبار - فما يطويه العباد من أسرار في قلوبهم، أو يظهرونه من أقوال وأفعال تبديه جوارحهم إلا يعلمه الله - وهو سبحانه يستوي عنده الظاهر والباطن.

٧٥ - (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وما من شيء في الوجود إلا هو مكشوف له ومستبين - فلا يخفى عليه صغير ولا كبير، ولا ظاهر أو مستور وهو قوله: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} الغائبة، ما خفي عن علم الناس وعن أبصارهم من خبر أو سر، سواء في السماء بأطوائها وطباقها وأجوازها، أو في الأرض بغياهبها ومجاهلها إلا هو مسطور في {كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي اللوح المحفوظ ٤٦

٧٦ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}.

نزل القرآن على نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم هداية للناس ورحمة وهو {يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فقد اختلف بنو إسرائيل من اليهود والنصارى في أشياء كثيرة من قضايا العقيدة وغيرها من الأحكام مما حرّفوه في كتبهم فاحش التحريف، كالقول في عيسى ابن مريم، إذ فرّطت يهود تفريطا فكذبوه أد تكذيب وتمالئوا عليه أشنع تمالؤ - وأفرطت النصارى إفراطا فألهوه وعبدوه - إلى غير ذلك من مختلف الأحكام في مسائل الحياة والمعاش.

لقد جاء القرآن ليحمل للناس كافة قواعد ثوابت في الخير والحق والعدل والفضل والرحمة لتستقر بهم الحياة ويستقيم فيهم السلوك فيعيشوا أسوياء كرماء سعداء آمنين في هذه الدنيا - ويوم القيامة يسعدون بالجنة والرضوان.

٧٧ - (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} القرآن هداية للمؤمنين، ينير لهم الطريق ويكشف لهم الحق والصواب - وهو كذلك رحمة لهم يسعدون بأحكامه ومواعظه وتصوراته - وقد خصّ المؤمنين بذلك؛ لأنهم وحدهم الذين ينتفعون بالقرآن الحكيم بسبب يقينهم وثقتهم الكاملة بصلوحه وصدقه - أما الجاحدون المكذبون فهم بعيدون عن الخير والرحمة التي جاء بها القرآن للعالمين.

٧٨ - (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ} الله يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل بقضائه فيهم ليجازي المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه.

٧٩ - (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

قوله: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} ذلك تثبيت من الله لقلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ يأمره أن يثق بجلال قدره وعظيم سلطانه، وأن يفوض كل أمره إليه ويعتمد عليه كامل الاعتماد فهو سبحانه ناصره ومؤيده.

قوله: {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} ذلك تعليل للأمر بالتوكل على الله وحده دون غيره؛ لأن المتوكل مهتد وهو سائر في طريق الحق الظاهر الأبلج الذي لا شك فيه ولا غبش.

٨٠ - (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

قوله: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} المراد بالموتى، الكفرة من الجاحدين والمرتابين والمكذبين والزائغين عن منهج الله وعن طريق الحق - أولئك جميعا كالموتى لا يفهمون ولا يعون ولا ينطقون؛ فهو بذلك لا يجدي فيهم التذكير والموعظة.

قوله: {وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} وكذلك شبههم بالصم الذين لا يسمعون - وتلك هي حقيقة الكافرين على اختلافهم في ملل الكفر وصوره ومسمياته؛ فإنهم لا تنفعهم النصيحة، ولا تنفذ إلى قلوبهم وعقولهم العبرة والعظة إذا تولوا جامحين معرضين عن دين الله وقرآنه الحكيم، فهم قساة غلاظ، قد استغلق عليهم التدبر والتفكر والاعتبار.

٨١ - (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

قوله: {وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ} أي ليس في مستطاعك يا محمد أن تهدي أولي الطبائع السقيمة والفطر التي أتى عليها الزيغ والخلل والاعوجاج، فأولئك سادرون في مجاهل الضلالة والغي، ولا يملك الإنسان كيفما كان شأنه أن يقوم اعوجاجهم فيثنيهم عن الجنوح على الباطل والعصيان - وقد شبههم بالعميان الذين لا يبصرون شيئا - فأنى للأعمى بالخلقة أن يرتد بصيرا.

قوله: {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} أي لا تسمع الحق والموعظة إلا المؤمنين بآيات الله الحكيم - أولئك المصدقون الموقنون الذين هدوا إلى الصواب واليقين من أولي الفطر السليمة والطبائع السوية المستقيمة التي لا عوج فيها ولا أمت، أولئك هم المستسلمون لله الممتثلون لأمره، الخاضعون لجلاله وسلطانه ٤٧.

٨٢ - (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ)

قوله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

إذا وجب القول على الكافرين بالعذاب عند فساد الناس آخر الزمان، فأعرضوا عن دين الله ولجّوا في المعاصي والذنوب، أخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل من مكة {تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} أي تخاطبهم الدابة بالعربية بلسان ذلق ٤٨، قائلة لهم: إن الناس كانوا غير موقنين بآيات الله - والمراد بآيات الله قرآنه وما تضمنه من الدلائل والبينات والأخبار والحقائق.

وقد ورد في حقيقة الدابة جملة أخبار منها ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق – أو تحشر- الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا ".

وكذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بادروا بالأعمال ستة، طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة ".

وما نبتغي بالإسهاب في وصف الدابة مما لا يرقى في حقيقته إلى اليقين.

٨٣ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

قوله: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} هذا إخبار عن بعض الأحداث المخوفة في يوم القيامة، إذ يحشر الله الظالمين من الناس، وهم المكذبون بآياته، المعرضون عن دينه، يحشرهم جميعا مهانين، معذبين {خزايا فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي يساقون ويدفعون إلى موضع الحساب دفعا - أو يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا جميعا فيكبكبوا في النار.

٨٤ - (حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبتم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا} يعني إذا جاء من كل أمة فوج من الجاحدين الذين كذبوا بآيات الله فسيقوا جميعا إلى الرحمن، سألهم سبحانه {أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي} استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع؛ أي أكذبتم بحججي وأدلتي التي أنزلتها إليكم من غير أن تعرفوها حق المعرفة، وأنتم لا تعلمون ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذبتم بها جاهلين غير ناظرين فيها.

قوله: {أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي ما الذي كنتم تعملونه حتى شغلتم عن النظر والتفكير في آيات الله وبيناته؟

٨٥ - (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ)

قوله: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا} أي وجب عليهم العذاب بسبب شركهم وإعراضهم عن دين الله {فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} أي لا ينطقون بعذر ولا حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما حاق بهم من العذاب - وقيل: نختم على أفواههم فلا ينطقون.

٨٦ - (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} ألم ير هؤلاء المكذبون بآيات الله كيف يصرف الله الليل والنهار؛ إذ جعل الليل سكنا لهم يهجعون فيه ويسكنون هادئين مرتاحين، وجعل لهم {النَّهَارَ مُبْصِرًا} أي يبصرون فيه الأشياء ليسعوا في الأرض طالبين الرزق وأسباب العيش.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} الإشارة عائدة إلى تصيير الليل للسكون والراحة، وجعل النهار للعمى والسعي والاسترزاق، أي فيما بين الله لعباده من ذلك لدلالة ظاهرة للناس على إلهية الله سبحانه وعلى بالغ قدرته لكي يصدقوا ويستيقنوا - وقد خصّ المؤمنين

هنا بالذكر، لأنهم أكثر الناس انتفاعا بالآيات البينات والدلائل الظاهرات لمبادرتهم التصديق والثقة والاستيقان ٤٩.
٨٧ - (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)
قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.
ذلك إخبار مذهل عن أحداث القيامة وما فيها من أهوال وبلايا - وبين يدي ذلك كله نفخة الفزع المروع الأكبر - الذي ترتجف بفظاعته القلوب وتوجل من شدته الخلائق في السماوات والأرض، وهو قوله: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ} يوم، منصوب بفعل مقدر، وتقديره: اذكر يوم ينفح في الصور ٥٠، و {الصُّورِ}، هو القرن على هيئة البوق وهو من نور ينفخ فيه إسرافيل بأمر من الله.
وهذه هي نفحة الفزع الأكبر - وذلك في آخر أيام الدنيا حتى تقوم الساعة - والصور ينفخ فيها ثلاث نفخات، هي نفخة الفزع، ونفخة الصعق أي الموت، ثم نفخة البعث والقيام لرب العالمين - وقيل: هما نفختان اثنتان، لا ثلاث نفخات - وهما نفخة الصعق ثم نفخة البعث، ليجتمع الخلق في أرض الجزاء وهو يوم النشور.
ويندرج في هذه، نفخة الفزع - أي يحيون فزعين مذعورين، لهول ما يجدونه أمامهم من شدائد - وقيل: تندرج في نفخة الصعق - أي فزعوا فزعا رعيبا ماتوا بسببه.
قوله: {إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ} اختلفوا في تعيين المستثنين - فقيل: المراد بهم الشهداء والأنبياء - وقيل: الملائكة - وقيل: المؤمنون جميعا.
قوله: {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} {دَاخِرِينَ}، منصوب على الحال - وهو جمع داخر، أي الصاغر الذليل - دخر الشخص دخورا، أي ذل وهان ٥١ وهذا وصف لحال العباد وهم يقومون مذعورين وجلين أذلة، إذ يساقون إلى المحشر - وحينئذ تغشى البشرية من غواشي الخوف والفزع ما لا تتصوره العقول إلا بالمعاينة والنظر - ونسأل الله النجاة والسلامة.
٨٨ - (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)
قوله: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} أي ترى الجبال يا محمد، تحسب أنها قائمة ساكنة وهي تسير سيرا حثيثا، أي مسرعا - وهكذا كل ناظر للجبال، فإنه يراها ثابتة لا تتحرك، وهي في حقيقتها تسير كما يسير السحاب، إذ تسوقه الرياح - وقيل: وهذا كائن يوم القيامة، تسير الجبال سيرا - وإذا رآها الناظرون حسبوا أنها مستقرة ثابتة، لأن الأجسام الكبيرة إذا تحركت حركة سريعة وكانت على سمت، واحد وكيفية واحدة ظن من يراها أنها واقفة - مع أنها تمر مرا حثيثا.
قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} {صُنْعَ}، منصوب على المصدر المؤكد وتقديره: صنع صنعا ٥٢ وأتقن من الإتقان وهو الإحكام.
والمعنى: أن ما سبق ذكره من النفخ في الصور وما يعقب ذلك من إفزاع للخلائق، ومن مرور الجبال كما يمر السحاب، وهي يحسبها الرائي قائمة ثابتة.
كل ذلك صنع الله الذي أحكم كل شيء وأوثق خلقه.
قوله: {إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} الله يعلم ما يفعله العباد من خير أو شر ومن طاعة أو معصية فيجازي كل امرئ بما عمل.
٨٩ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)
قوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} {مَن}، اسم شرط في موضع رفع بالابتداء - {فَلَهُ}، جواب الشرط، في موضع رفع خبر المبتدأ ٥٣ والألف واللام في الحسنة للجنس، فالمراد: من جاء بجنس الحسنة وهو يفيد عموم الطاعات سواء في ذلك الإيمان والتوحيد وفعل الصالحات، من صلاة وزكاة وجهاد وبر، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وغير ذلك، من وجوه الفرائض والحسنات.

قوله: {فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} أي يجزيه الله أكثر من حسنته أضعافا كثيرة - فما عند الله خير وأعظم مما يقدمه العبد من الطاعات - وقيل: {خَيْرٌ مِّنْهَا} يعني وصل إليه الخير منها - أو له الجزاء الجميل وهي الجنة، وليس {خَيْرٌ} للتفضيل - وعلى هذا فالمراد بالحسنة: لا إله إلا الله، فقد روى البيهقي عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصني - قال: " اتق الله، وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها " قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: " من أفضل الحسنات " وفي رواية قال: " نعم هي أحسن الحسنات " وقيل: المراد بالحسنة الإخلاص والتوحيد.

وقيل: أداء الفرائض كلها - والمعنى الأول أولى؛ لعموم اللفظ ولدلالة أل التعريف، على جنس الحسنة بكل أنواعها ومعانيها.

قوله: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} يوم، مجرور بالإضافة لفزع، فهم بذلك آمنون من خوف يوم القيامة، إذ الأهوال والمخاوف والأفزاع وكل أسباب الرعب ماثلة بارزة لتعاينها الأبصار والقلوب فيغشاها من الذعر والفزع ما يغشاها.

٩٠ - (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} المراد بالسيئة هنا الشرك وهو قول أكثر المفسرين من السلف - فالذين أشركوا، إذ جحدوا وحدانية الله وعبدوا معه آلهة أخرى، فإنهم يكبون على وجوههم في النار، أي يلقون فيها منكوسين على وجوههم، وذلك زيادة في التنكيل.

ويستدل من ذلك أن المراد بهؤلاء، المشركون، لأن مثل هذا الجزاء الوبيل لا يكون إلا في مقابلة الكفر والإشراك بالله.

قوله: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} تقول خزنة النار من الملائكة لهؤلاء المشركين المكبكبين في النار زيادة في التعذيب والتنكيل {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} والاستفهام من باب التوبيخ والتهكم والتقريع، أي ما تجزون هذا الجزاء الأليم من الكبكبة في النار على وجوهكم إلا جزاء كفركم وإشراككم ٥٤.

٩١ - (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قوله تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

المراد بهذه البلدة مكة، و {الذي}، في موضع نصب، صفة لرب - وحرمها أي عظم حرمتها، وجعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يصاد فيها صيد، ولا يقطع فيها شجر أو يظلم فيها أحد - والله يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس: إنما أمرت بعبادة ربي وحده، رب هذه البلدة المباركة، الذي جعلها بلدا حراما آمنا، وذلك على سبيل التشريف لمكة والاهتمام بها أكثر من غيرها من البلدان.

قوله: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} وهذا وصف لله الذي أمرت بعبادته وحده؛ فهو مالك كل شيء، الذي تجب له العبادة وحده دون غيره من المخاليق.

قوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أمرني ربي بالاستسلام لأمره فأكون من المسلمين الحنفاء، المنقادين لجلال وجهه الكريم، الخاضعين لسلطانه العظيم.

٩٢ - (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

قوله: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} أي وأمرت أيضا أن أقرأ القرآن على الناس، فمن آمن وصدّق واتبع ما جئت به فقد اهتدى - أي سلك سبيل الحق والرشاد، أو سبيل الهداية والصواب فيكون من الآمنين الناجين من عذاب الله في الآخرة.

قوله: {وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} أي من زاغ عن الهدى وجار عن سبيل الحق بتكذيبه ما جئت به فقد جنى على نفسه، وأركسها في الأذلين الخاسرين، وما أنا إلا نذير لكم أحذركم عذاب ربكم وسخطه وغضبه إن كذبتم وأعرضتم.

٩٣ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
قوله: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} أي قل لهؤلاء المشركين: الحمد لله على ما أنعم به علينا من جزيل النعم، وفي مقدمة نعم الله وآلائه، توفيقه إيانا للإسلام، دين الهداية، والاستقامة والصواب، وما تضمنه من منهج شامل متكامل تناول سائر المشكلات والقضايا التي تعرض للبشرية كما تعيش في أمن ومودة واستقرار وسعادة في هذه الدنيا، ويوم القيامة يصيرون إلى السعادة الباقية المستديمة.
قوله: {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} ذلك تهديد من الله للكافرين المكذبين بما سيريهم من الآيات، وهي دلائل قدرته ووحدانيته، سيريهم ذلك في الآخرة أو عند حضور الموت، وحينئذ لا تجديهم المعرفة ولا ينفعهم الإيمان، لفوات الأوان.
قوله: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} ذلك تخويف قائم يظل يتهدد الله به المجرمين والغافلين واللاهين عن دين الله، الذين شغلتهم الحياة الدنيا بعروضها وطيباتها وزينتها فضلوا ضلالا - أولئك الساهون السادرون في الغي والظلام ليس الله غافلا عنهم، بل إنه سبحانه لهم بالمرصاد، وهو مملي لهم ومستدرجهم حتى إذا جاء أجلهم في العذاب وسوء الحساب لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ٥٥.

٢٨ سورة القصص:

سورة القصص:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وقيل: مكية باستثناء آية واحدة فمدنية.
والسورة مثل كثير من السور وغيرها، في الحديث عن أخبار النبيين المرسلين الذين بعثهم الله في أمم شتى، يدعونهم إلى توحيد الله وإفراده بالألوهية والربوبية، وإلى نبذ الأوثان والأنداد الموهومة المفتراة ظلما وسفاهة، وفي طليعة ذلك كله تأتي قصة موسى عليه السلام لتحتل بها مساحة كبيرة من التبيين والتفصيل بدءا بولادة موسى والتقاط آل فرعون له، ثم استبقاؤه حيا ليكون قرة عين لفرعون وامرأته المؤمنة - لكنه كان مقدورا في علم الله المكنون أن يكون هذا المولود من بني إسرائيل سببا في هلاك فرعون وقومه المجرمين والظالمين، وذلك بعد أن خرج إلى مدين هاربا من فرعون وجنوده حتى استقر به المقام لدى شعيب الذي استأجره ثماني حجج أو أكثر لينكحه إحدى ابنتيه - وبعد إتمام المدة التي اتفقا عليها، كرّ موسى راجعا بأهله إلى مصر - وفي طريقهما ألفيا نارا متأججة، فحسب موسى أن يجد عندها من يهديه وزوجه السبيل، إذ ضلا الطريق، فضلا عن أخذ جذوة من النار للاصطلاء، لكنه بوغت بالصوت المذهل يهتف به مدويا {يا موسى إني أنا الله رب العالمين} فأمره ربه عقب ذلك أن يبادر الذهاب إلى فرعون، لتبليغه رسالة ربه دون خوف أو تردد - لكن فرعون طغى وعتا واستكبر، فأخذه الله وجنوده في البحر أخذ عزيز مقتدر - إلى غير ذلك من المواعظ والحقائق والأخبار والعبر مما نبينه في حينه تفصيلا بمشيئة الله وتوفيقه.
١ - (طسم)
سبق الحديث عن فواتح السور من الحروف المقطعة.
٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)
واسم الإشارة تلك، في محل رفع مبتدأ، وخبره ما بعده - أو خبر لمبتدأ محذوف، و {آيَاتُ} بدل من الإشارة - و {الْمُبِينِ}، الذي يبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وغير ذلك من وجوه المعاني والحكم والمواعظ والمشاهد وقصص النبيين والمرسلين وأخبار الأمم من الماضين السابقين.
٣ - (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
قوله: {نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أوحى الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من خبر كليمه موسى عليه الصلاة والسلام وخبر فرعون وجنوده الطغاة الظالمين {بِالْحَقِّ} بالصدق واليقين الذي لا ريب فيه - وخصّ المؤمنين بالذكر، لأنهم

موقنون بصدق ما جاء به القرآن من علوم وأخبار، فهم أجدر أن ينتفعوا به تمام الانتفاع - أما غيرهم من الجاحدين المعرضين فإنهم مكذبون مرتابون.

٤ - (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} {أَهْلَهَا}، و {شِيَعًا} منصوبان، لأنهما مفعولان للفعل جعل، وهو بمعنى صيّر ١ وذلك بيان لحقيقة فرعون، هذا الأثيم الشقي المتجبر، الذي طغى وبغى وتجبّر في أرض مصر، والذي ظلم واستكبر وقهر شعبه قهرا حتى أقروا له بالربوبية؛ فعبدوه من دون الله - والشيع، جمع شيعة: وهي كل قوم أمرهم واحد، يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع - ٢ والمراد بالشيع هنا؛ الفرق المتفرقة من الناس؛ أي جعل فرعون أهل مصر فرقا يخدمونه ويطيعونه فيما يريد، ولا يملك أحد منهم أن يخالفه - وقيل: جعلهم فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا أطوع له، ولئلا يتحدوا ويتفقوا عليه.

قوله: {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} المراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل، فقد كان فرعون بطغيانه وظلمه يقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل ويستبقي إناثهم - وفي سبب ذبح الأبناء وجوه وأقوال ذكرها كثير من أهل العلم - ونحسب أن معظم هذه الوجوه والأقوال لا ترقى إلى القبول وقناعة العقول.

ولعل الأولى بالتصديق ما ذكره، أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى قد بشّروا بمجيئه - وقد سمع فرعون ذلك؛ فمن أجل هذا أخذ يذبّح أبناء بني إسرائيل دون نسائهم.

قوله: {إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} لقد كان فرعون من الذين يفسدون في الأرض وذلك بما جناه من الفظائع وكبريات الخطايا، كدعوى الألوهية وتقتيل الأبرياء ظلما وعدوانا، وجعل الناس فرقا وأحزابا وطوائف ليثير فيهم العداوات والمباغضات.

٥ - (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

قوله: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ} يريد الله أن يتفضّل على المستضعفين من عباده كبني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون فأذلهم وقهرهم أشد القهر.

قوله: {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً} الضمير في {وَنَجْعَلَهُمْ}، و {أَئِمَّةً}، مفعولان للفعل نجعل؛ لأن جعل بمعنى صيّر ٣ أي: يريد الله أن يجعل هؤلاء المستضعفين المقهورين ولاة وملوكا وسادة بعد أن كانوا أذلة صاغرين.

قوله: {وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} أي يرثون مصر بعد مهلك فرعون وجنوده.

٦ - (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

قوله: {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} أي نوطئ له في أرض مصر فتكون لهم فيها الهيمنة والسلطنة بعد أن يرثوا القبط أموالهم وديارهم.

قوله: {وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} أي: يريد الله أن يري فرعون وردْأه هامان وهو وزيره وشريكه في الظلم والفساد، وجنودهما {منهم} أي من بني إسرائيل ما كانوا يخافونه منهم: وهو هلاكه على يد واحد منهم ٤.

٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

قوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

ذكر أن فرعون كان له ناس وقوابل يدرون على النساء حتى إذا رأوا إحداهن قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كانت ولادتها لا يقوم بتوليدها إلا نساء قوابل من نساء القبط فإن ولدت جارية تركنها، وإن ولدت غلاما دخل عليها الذباحون وبأيديهم الشفار فذبحوه مضوا.

وقد ذكر أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألفا من مواليد بني إسرائيل الذكور - وقيل: تسعون ألفا - ولما حملت أم موسى به لم تظهر عليها علائم الحمل كغيرها من النساء - فلما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعا، وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا عظيما، وكان موسى -عليه السلام- لا يراه أحد إلا أحبه حبا شديدا، وما كان يحبه إلا سعيد، فقد قال سبحانه: {وألقيت عليك محبة مني} ولما ضاقت أم موسى به ذرعا وغشيها من الخوف عليه ما غشيها، ألهمها الله ونفث في روعها أن ترضعه ثم تلقيه في اليم إن خافت عليه من جنود فرعون - وهو قوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} الوحي من الله إلى أم موسى ليس وحي نبوة؛ فقد أجمعوا على أن أم موسى لم تكن نبية - بل كان ذلك إلهاما من الله لها؛ فقد قذف في قلبها أو ألقى في خلدها ٥ ونفث في روعها ٦ ما ذكره في الآية؛ فقد أمرها الله إلهاما أو نفثا في الروع بأن توضع ولدها موسى وأن تلقيه في بحر النيل إن خشيت عليه من جنود فرعون عقب الولادة، وأمرها أيضا أن لا تخاف عليه من الغرق في الماء أو الضيعة.

٨ - (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

قوله: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ} اللام في قوله: {ليكون} لام العاقبة؛ أي: كان عاقبة التقاطهم العداوة والحزن - أو لام الصيرورة؛ أي: صار لهم عدوا وحزنا ٧.

والتقطه: يعني أخذه - والمراد بالالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب ٨.

فقد أصاب آل فرعون موسى وأخذوه من غير طلب له ولا إرادة - والمراد بآل فرعون - جواري امرأته آسية، فقد وجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية فلما فتحته ونظرت فيه إلى وجه موسى أحبته بالغ المحبة لما رأت فيه من جمال السمت وإشراق الطلعة وبهاء الوجه.

لقد قيّض الله تعالى آل فرعون لأخذ موسى ليجعلوه عدوا لهم وحزنا - سنة الله في الظالمين العتاة الذين يظلمون الناس ويسعون في الأرض فسادا، إذ يسفكون الدماء ويزهقون الأرواح البريئة بغير حق - فأولئك يملي لهم الله حتى إذا حانت ساعة العقاب الأليم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} كانوا عصاة آثمين، غلاة في الإجرام والطغيان.

٩ - (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

قوله: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ} {قُرَّتُ}، مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو قرة عين - وقيل: مرفوع على أنه مبتدأ، وخبره: لا تقتلوه ٩ وقرة عين، يقال: لما يرضي ويسر - يقال: فلان في قرة من العيش، أي في رغد وطيب ١٠، فقد أخذت امرأة فرعون تخاصم عن موسى وتحببه إلى فرعون، ابتغاء كونه قرة عين لهما؛ إذ يسعدان برؤيته ويسران من النظر إلى وجهه الوضيء المشرق لتحمله بذلك على التغاضي عن قتله، وهو قولها لهم: {لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا} أي نصيب منه خيرا؛ وذلك لما رأت فيه من سمات البركة وبشائر الخير والنفع لأهله - أو لعلها توسمت في سيماه النجابة والوضاءة وكريم الطبع {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} فقد كانت امرأة فرعون لا تلد، فاستوهبت منه موسى لتتبناه فوهبه لها.

قوله: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أي: لا يدرون أن هلاكهم وتدميرهم، بسببه وعلى يديه ١١.

١٠ - (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

عندما سمعت أم موسى أن ولدها موسى وقع في يد فرعون غشيها من الغم والجزع والدهش ما غشيها - فأصبح بذلك قلبها فارغا، أي خاليا من ذكر كل شيء من أشياء الدنيا إلا من ذكر ولدها موسى.

قوله: {إن كادت لَتبدي به} {إن} المخففة من الثقيلة، أي أنها كادت لتظهر خبره، وذلك من شدة وجدها وحزنها - أو كادت تصيح قائلة: هذا ابني، لفرط ما نابها من الدهش والخوف عليه.

قوله: {لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} وذلك بإلهامها الصبر فيطمئن قلبها ويهدأ - كما يربط على الشيء المنفلت ليستقر ويثبت {لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} أي لتكون من الواثقين بنصر الله وتأييده، المصدقين بوعده، إذ قال لها {إنا رادوه إليك}.

١١ - (وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

قوله: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} قالت أم موسى لأخته: ابتغي أثره وانظري أين ذهب وإلى من صار {فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ} أي أبصرته عن بعد - أو جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده.

قوله: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أي لا يدرون بحالها وغرضها، أو أنها أخته.

١٢ - (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

قوله: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ} {الْمَرَاضِعَ} جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع، والمعنى: أننا منعناه من الارتضاع من قبل أن تجيء أخته - أو من قبل أن ترده على أمه - وهذا تحريم منع وليس تحريم شرع، فقد أحدث الله في نفس موسى وفي طبعه نفارا عن لبن سائر النساء، فلذلك لم يرضع من واحدة منهن، وكان ذلك كله بتقدير الله وتدبيره وتصريفه للأمور كما يشاء وفقا لحكمته البالغة وإرادته المطلقة؛ بل إن ما جرى لموسى من أول سيرته حتى آخرها كان مقدورا ومسطورا في علم الله، سواء في ذلك نجاته من فرعون، وكون فرعون عقيما لا يلد، وكون زوجته مؤمنة، لتحب موسى وتحنو عليه، - ثم نفاره من الرضاع من سائر النساء وإرضاعه بإنفاق ورعاية من فرعون نفسهن ثم قتله القبطي وفراره إلى مدين، ثم رجوعه إلى مصر لتبليغ رسالة الله للناس كل هذه الأحداث كانت متوافقة مترابطة ومقدوره حتى تتم إرادة الله وينفذ حكمه.

قوله: {فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ} أرادت أخت موسى أن تدل آل فرعون على آل بيت يضمنون رضاعه والقيام بما يصلحه تماما {وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} أي لا يخونونه ولا يفرّطون فيه، بل يبذلون له كامل النصح والرعاية وإخلاص العمل.

فلما قالت أخت موسى ذلك سألوها أن تدلهم عليه، فذهبت بهم إلى منزل أهلها ومعهم موسى - ولما دخلوا به على أمه فأعطته ثديها التقمه ففرحوا بذلك فرحا كبيرا - فاستدعتها امرأة فرعون ثم سألتها أن تمكث عندها فترضعه، فاعتذرت لها بأن لها بعلا وأولادا فلا تقدر أن تبرحهم لتقيم عندها بجانب فرعون، فقبلت منها أن تعود بموسى إلى بيتها لتمكث فيه وتقوم بإرضاعه ورعايته وإصلاح شأنه، وفي مقابل ذلك أجرت عليها امرأة فرعون النفقة والعطاء وجزيل الإحسان - وبذلك قد أنجز الله وعده له برده إليها وهو قوله: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ}

١٣ - (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

{فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} لقد رد الله إليها ولدها لكي تسرّ وتهدأ وتطمئن ولتكفكف عن نفسها الأسى والحزن {وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي: لتتحقق برد موسى إليها أن الله منجز وعده، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أي أن أكثر المشركين لا يعلمون أن وعد الله حق؛ فهم أولوا طبائع سقيمة وبصائر غلف قد ران عليها الجحود والهوى فلا ينفذ إليها الإيمان ولا اليقين.

١٤ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} {بَلَغَ أَشُدَّهُ}، أي بلغ الحلم - {وَاسْتَوَى}، أي اكتمل شبابه وهو بلوغه أربعين سنة -

وحينئذ آتاه الله {حكما} أي حكمة وفقها في الدين {وعلما} أي فهما - وقيل: علما بما في دينه ودين آبائه من شرائع وحدود.

قوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي كما جزينا موسى وأمه على طاعتنا والصبر على قضائنا والاستسلام لأمرنا، كذلك نجزي كل من أحسن فأطاع وصبر والتزم شرع الله ١٢.

١٥ - (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}.

دخل موسى مدينة فرعون {عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا} عند القائلة، نصف النهار - وكان قد دخلها مستخفيا من فرعون وقومه، لأنه كان مخالفا لهم في دينهم وعبادتهم، ومن أجل قتله القبطي بالوكزة التي قضى بها عليه - وهنالك وجد {رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ} أي يتضاربان ويتنازعان، وكان أحدهما من شيعة موسى، أي من أهل دينه من بني إسرائيل، والآخر {مِنْ عَدُوِّهِ} أي من أعدائه، قوم فرعون وهم القبط.

قوله: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} أي طلب المؤمن الإسرائيلي النصرة والعون من موسى {عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} أي من أعدائه القبط {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ} (وكزه)، أي، ضربه بجمع كفه - نقول: فلان لكاز، وكاز ١٣ والمقصود: أن موسى – وقد كان شديد البطش- استشاط غضبا فدفع القبطي في صدره فقتله، وهو ما كان يبتغي قتله بل كان يريد زجره ودفعه عن الإسرائيلي المؤمن.

قوله: {قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} أي هذا الذي عمله وهو قتل القبطي، كان من إغواء الشيطان وإضلاله، لأنه لم يكن، إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار.

قوله: {إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} الشيطان كائن خبيث، وهو ظاهر العداوة للإنسان، يسعى على الدوام جاهدا ناصبا من أجل إضلاله وإفساده.

١٦ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

قوله: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ} ندم موسى على ما كان من قتله القبطي فأقرّ لله بذنبه وأنه قد ظلم نفسه بقتله، إذ لم يؤمر بهذه الفعلة، فاستغفر ربه وسأله أن يعفو عنه ويستر عليه ما قد فعل، فغفر الله له ذلك {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الله هو الساتر لذنوب التائبين المنيبين، وهو رحيم بعباده المخلصين النادمين على ما أساؤوا.

١٧ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)

قوله: {رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ} قال موسى مخاطبا ربه في تذلل وتوسل وخضوع: رب بما جعلت لي من نعمة الإيمان والعلم والحكمة، فلن أكون معينا للكافرين الذين يعصون أمرك.

١٨ - (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

قوله: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} خشي موسى على نفسه من جنود فرعون لقتله رجلا من القبط، فدخل المدينة في الصباح على خوف من أهلها أن يقتلوه وهو يترقب، أي يتلفت إلى ما حوله، ويتسمع ما يقوله عنه الناس - إلى غير ذلك مما تقتضيه هذه

العبارة القرآنية القصيرة بكلماتها المؤثرة المعدودة - فما يتلو القارئ هذه الكلمات: {فأصبح}، {خائفا}، {يترقب}، حتى تأخذه غمرة من الرهبة والارتياع - وفوق ذلك ما يتراءى للذهن من صورة شاخصة ماثلة تساور الخيال وتلمس الحس - صورة مثيرة ومذهلة تكشف عن حقيقة الحال من الخوف والتلفت في حذر وانتظار استعدادا لكل طارئ - نقول هذا لنجزم في يقين أنه ليس كالقرآن في كمال التصوير، وجمال الكلم وروعة الألفاظ المؤثرة النافذة إلى أعماق القلوب والأذهان.

قوله: {إِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ} أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس على القبطي يقاتل قبطيا آخر ويستصرخه، أي يستغيثه، من الصراخ وهو صوت المستغيث، وصوت الغيث إذا صرخ بقومه للإغاثة ١٤

قوله: {قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} غوي، أي مغو - وقيل: الغوي بمعنى الغاوي - والمراد أنك ظاهر الغواية، كثير الشر، فعزم موسى على البطش بالقبطي، فتوهم الإسرائيلي بما جبل عليه من ذلة وضعف وخور أن موسى إنما يريد قتله وهو قوله: {فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}

١٩ - (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

{فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ} ولما سمع القبطي هذا الكلام ذهب مبادرا لإفشائه، فعلم فرعون بذلك فاشتد غضبه واجتهد في طلبه للانتقام منه.

قوله: {إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} قال الإسرائيلي لموسى: {إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} والجبار، الذي يقتل ظلما، أو المتعظم الذي لا يتواضع.

قوله: {وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ} أي ما تريد أن تكون من الذين يصلحون في الأرض - أو ما هكذا يكون الإصلاح ١٥.

٢٠ - (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

قوله تعالى {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ}

المراد بالرجل الذي جاء يسعى، مؤمن من آل فرعون، فقد جاء هذا من أقصى مدينة فرعون، أي من آخرها وأبعدها {يسعى} أي يمشي مسرعا ليقول لموسى ناصحا ومشفقا ومحذرا {يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} {يَأْتَمِرُونَ}: من الائتمار وهو التشاور، نقول تآمر القوم وأتمروا مثل تشاوروا واشتوروا ١٦

والمعنى: يتشاورون فيما بينهم بسببك، فقد قال المؤمن لموسى: إن أشراف قوم فرعون ورؤساؤهم يتآمرون بالانتقام منك ويتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس {فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} أي أخرج من هذه المدينة التي يتشاور أهلها لقتلك، فإني لك ناصح مشفق أمين.

٢١ - (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} خرج موسى من مدينة فرعون خائفا {يَتَرَقَّبُ} أي يترقب التعرض له في الطريق أو اللحاق به لأخذه بالقبطي الذي قتله - والجملة بكلماتها المميزة المصطفاة ذات الإيقاع الأخاذ تثير في أطواء النفس فيضا من الإحساس بالرهبة والفزع - وما يردد القارئ هذه الكلمات القليلة العجيبة باستمرار مكرور لا ينقطع حتى تراود خياله صورة ماثلة عن الحدث وما يحمله من أخطار وأفزاع تروع النفس وتنشر فيها بالغ اليقظة والتوجس من احتمالات الطريق.

قوله: {قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} سأل موسى ربه النجاة من هؤلاء الظالمين الذين أرسلوا في طلبه ليقتلوه أو يعذبوه - وهذه ساعة من ساعات الكرب البالغ الذي يشتد فيه الهول والفزع، وتحيط فيها المخاوف بالمؤمنين الداعين إلى دين الله فلا يجدون حينئذ

مناص ولا ملاذ يلجئون إليه سوى الله فيدعونه لكشف الضر عنهم وتنجيتهم من ظلم الظالمين وشرورهم ومكائدهم.

٢٢ - (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

قوله: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ} خرج موسى من مصر بنفسه ودينه فرارا من القوم الظالمين، ومتوجها نحو مدين وهو لا يملك من متاع الدنيا شيئا - فليس معه زاد ولا راحلة ولا حذاء ولا درهم ولا رغيف؛ بل خرج وحيدا فريدا خائفا يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، مترقبا ما قد يحصل له من المكاره في الطريق التي لا يعرفها وهو يتضرع إلى الله قائلا {عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ} فقد فوّض أمره إلى الله وتوكل عليه مؤملا أن يدله على السبيل المؤدية إلى مدين - وقد ذكر أن الله بعث إليه ملكا راكبا فرسا وقال له: اتبعني، فاتبعه موسى، فهداه إلى الطريق - وذلك فضل من الله ورحمة يمنّ بهما على عباده المؤمنين المخلصين الصابرين إذا أحاطت بهم الأهوال والخطوب، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وأطبقت عليهم مكائد المجرمين الظالمين ومؤامراتهم؛ فإن الله لا يخذل عباده المؤمنين الأوفياء، بل ينجيهم ويثبتهم ويكتب لهم السلامة والأمان ويذيقهم من لدنه حلاوة السكينة والرضى وبرد اليقين ١٧.

٢٣ - (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}.

سار موسى في طريقه فرارا من ظلم فرعون حتى بلغ ماء مدين - وهي بئر يردها رعاء الشاء، فوجد عندها جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم {وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ} أي وجد امرأتين تحبسان غنمها وتمنعانها من ورد الماء والاستسقاء فتختلط بغنم الناس لئلا تتأذيا بالمزاحمة - وكأنهما رغبتا في الانتظار ريثما يفرغ الناس من سقي مواشيهم وتخلو لهم البئر - فلما رآهما موسى رقّ لهما وكان من طبعه الغيرة والحماسة وسرعة التأثر والنخوة فسألهما {مَا خَطْبُكُمَا} أي ما شأنكما معتزلين لا تسقيان مع الناس، فأجابتاه في خلق رفيع وأدب بالغ جم {قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} {يُصْدِرَ} أي يرجع ١٨ و {الرِّعَاء}، أو الرعاة والرعيان جمع راع - والمعنى: أننا نظل معتزلتين عن مزاحمة الرجال خشية التأذي حتى يفرغ هؤلاء الرعاة من سقي مواشيهم فيتركوا الماء ليقفلوا راجعين وبعد ذلك نسقي غنمنا {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} لا يقوى أبونا على سقي الغنم لكبره وضعفه.

٢٤ - (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

قوله: {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} قام موسى يرفع الحجر عن رأس البئر، وكان ضخما ثقيلا لا يرفعه إلا بضعة رجال لكن موسى كان ذا قوة فرفعه وحده ثم انصرف إلى شجرة فاستظل بظلها ثم دعا ربه في توسل وضراعة {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} المراد بالخير هنا الطعام أو المال؛ فقد أصاب موسى جوع شديد؛ إذ سار من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، كما قال ابن عباس - ولما أوى إلى ظل الشجرة دعا ربه أن يرزقه الطعام فهو فقير إلى رزقه وعطائه.

٢٥ - (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قوله: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} {تَمْشِي}، جملة فعلية في محل نصب على الحال - و {عَلَى اسْتِحْيَاءٍ}، في محل نصب على الحال كذلك ١٩ ويستدل من ظاهر هذه العبارة أن البنتين ذهبتا إلى أبيهما فقصتا عليه ما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، أو الصغرى منهما أن ترجع إليه لتدعوه إلى أبيها، فذهبت إليه تمشي مشي العفاف الفضليات، فقالت له في حياء جم: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} {ما}، مصدرية، أي أجر سقيك لنا ٢٠ يعني ليكافئك جزاء سقيك - فأجابها موسى وذهب معها لمشاهدة أبيها، ولعله إنما أجابها من أجل التبرك برؤية أبيها الشيخ الكريم - وما ينبغي أن يتصور النهي عن سيره مع أنثى في الطريق؛ فإنه معصوم عن فعل المحرمات، وهو بعصمته مبرأ من احتمالات الفتنة التي تراود غير المعصومين من الناس.

قوله: {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} لما جاء موسى أباها وقص عليه خبره وما جرى له من آل فرعون، أجابه الشيخ -وهو شعيب على الراجح- {لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي لا تخش من فرعون، فإنه ليس له على مدين سلطان.

٢٦ - (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ)

قوله: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} قالت إحدى المرأتين لأبيها حين أتاه موسى {اسْتَأْجِرْهُ} لرعي الغنم {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} أما قوته: فإنه قد رفع الصخرة التي على البئر وكان لا يكشفها دون سبعة نفر - وأما أمانته: فإني لما جئت أدعوه طلب مني أن أكون خلف ظهره كيلا يراني فأيقنت أنه أمين.

٢٧ - (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ} قال أبو المرأتين – وهو شعيب في قول أكثر المفسرين- لموسى: إني مزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن تكافئي من تزويجها رعي ماشيتي ثماني حجج، جمع حجة، بكسر الحاء وهي السنة ٢١ و {ثَمَانِيَ}، منصوب على الظرف ٢٢ ويستفاد من هذه الآية جملة أحكام منها: أن الولي يعرض وليته على الزواج، وهذه سنة قائمة - فقد عرض صالح مدين -وهو شعيب في قول أكثر المفسرين- ابنته على موسى وهو صالح بني إسرائيل - وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان (رضي الله عنهما) - وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعّد النظر فيها وصوّبه ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها - فقال: " هل عندك من شيء؟ " فقال: لا والله يا رسول الله - فقال: " اذهب إلى أهلك فانظر لعلك تجد شيئا "، فذهب ورجع فقال: لا والله ما وجدت شيئا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " انظر ولو خاتما من حديد " فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولو خاتما من حديد - فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم موليا، فأمر به فدعي، فلما جاء قال: " ما معك من القرآن؟ " قال: معي سورة كذا وكذا - لسور عددها - قال: " تقرؤهن عن ظهر قلبك؟ " قال: نعم - قال: " اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن "، وفي رواية " زوجتكها "، وفي رواية أخرى: " أنكحتكها " وفي رواية: " أمكناكها ".

ويستدل من قوله: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ} على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح - وهو قول الشافعية، خلافا للمالكية؛ إذ قالوا: ينعقد النكاح بكل لفظ - وعند الإمام أبي حنيفة، ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد ٢٣.

واختلفوا في النكاح بالإجازة، فهو جائز عند الشافعية، واصبغ وسحنون من المالكية - والمشهور عند مالك الكراهة - ومنعه أبو حنيفة

وبعض المالكية - وسبب اختلافهم في ذلك: الاختلاف في المسألة الأصولية: هل شرع من قبلنا شرع لنا فمن قال: إنه شرع لنا أجاز كون الإجارة مهرا لقوله تعالى: {عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ} ومن قال: ليس شرعا لنا قال: لا يجوز النكاح بالإجارة ٢٤.

قوله: {إِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ} يعني إن أتممت من الرعي عشر سنين فذلك تفضل منك وليس إلزاما لك، فقد جعل الزيادة على الثمانية إلى العشرة موكولا إلى مروءته، أي إن تبرعت بزيادة سنتين ترعى فيهما غنمي فذلك إليك {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ} أي ما أبتغي لك المشقة بإلزامك إتمام عشر حجج {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} أي ستجدني إن شاء الله من أهل الوفاء والصلاح في حسن المعاملة ولين الجانب.

٢٨ - (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

قوله: {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ} {ذَلِكَ} في محل رفع مبتدأ - وخبره {بَيْنِي وَبَيْنَكَ} والإشارة عائدة إلى ما عاهده عليه شعيب، أي ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا لا نخرج كلانا عنه - أو هذا الذي قلته من التزامك تزويجي إحدى ابنتيك على أن آجرك ثماني حجج واجب بيني وبينك وكلانا ملوم بالوفاء لصاحبه.

قوله: {أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى} أيّ، منصوب بالفعل {قَضَيْتُ} وما، زائدة - والأجلين مجرور بالإضافة وتقديره: أيَّ الأجلين قضيت - وقضيت في موضع جزم، جملة شرط بأيما - والفاء وما بعدها في موضع جزم جواب الشرط ٢٥.

والمعنى: أن موسى قال لصاحبه شعيب: أي الأجلين من الثماني حجج والعشر {قَضَيْتُ} أي أتممت وأوفيت في رعي الغنم {فلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيّ} العدوان معناه الظلم الصراح - ومنه التعدي، وهو التجاوز، أو مجاوزة الشيء إلى غيره ٢٦ - والمعنى: أن لا تعتدي علي فتطالبني بأكثر مما قضيت.

قوله: {وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} الوكيل بمعنى الشاهد والحفيظ، وذلك إشهاد بالله على ما اتفقا عليه ٢٧.

٢٩ - (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} المراد بالأجل: خير الأجلين اللذين ذكرهما شعيب لموسى عليهما الصلاة السلام، ويدل على ذلك: ما أخرجه عن ابن عباس: أنه سئل أي الأجلين قضى موسى عليه السلام؟

قال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل.

ولما أتم موسى ذلك الأجل سافر بزوجته نحو مصر - وسواء ذهب لزيارة الأهل وأولي القربى أو غير ذلك من الحاجات والمقاصد؛ فإن موسى قد سيق على مصر بمشيئته وتقديره لتنجيز ما كان مسطورا في علم الله من المعجزات والأحداث الهائلة - وفي طريقه {آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} أي أبصر نارا من الجهة التي تلي الطور، وعندئذ {قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا} أي أقيموا مكانكم {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ} أي أجد عند النار من يخبرني عن السبيل؛ لأنه ضل الطريق - وقيل: كان معه زوجه وولدان، وقيل: ولد واحد {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} الجذوة، العود الغليظ، سواء كان في رأسه نار أو لم يكن، وقيل: للجذوة عود من حطب فيه النار {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي تستدفئون، وذلك لما أصابهم من برد الطريق.

٣٠ - (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {فلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ} لما أتى موسى النار التي أبصرها نودي من الجانب

الذي عن يمينه؛ أي عن يمين موسى لدى مسيره، وقيل: الأيمن، من اليمين وهو البركة، ضد الأشأم.
والشاطئ صفة الوادي والنهر، أي حافته، وكذلك الشط والساحل بمعنى ٢٨ - لقد جاء النداء من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمين موسى {فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ} أي في القطعة من الأرض التي خصت بالبركة، لما جعل الله فيا من الآيات.
قوله: {مِنَ الشَّجَرَةِ} {الشَّجَرَةِ}، بدل اشتمال من شاطئ - فالشاطئ كان مشتملا على الشجرة؛ لأنها كانت نابتة فيه.
قوله: {أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} {أن}، مخففة من الثقيلة - والأصل بأنه يا موسى - وقيل: {أن} تفسيرية، فقد ناداه الله النداء الكريم المبارك المجلجل {إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي اعلم أني مالك كل شيء، وبيدي مقاليد السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن - لقد سمع موسى ذلك من الله مباشرة من غير توسيط ملك أو غيره - فصار بذلك كليما؛ إذ كلمه ربه تكليما، تكريما له وتعظيما، ولا حاجة بعد ذلك إلى التكلف في تأويل المراد بالكلام أو النداء الذي سمعه موسى - وما ينبغي في مثل ذلك إلا الركون إلا ظاهر العبارة القرآنية وكفى ٢٩.
٣١ - (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ)
قوله تعالى: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.
هاتان معجزتان أخريان أوتيهما موسى عليه السلام تصديقا له وشهادة بصدق نبوته وما جاء به من رسالة وبلاغ للناس - وهو قوله: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} معطوف على قوله: {أَن يَا مُوسَى} أمره ربه أن يلقي عصاه فألقاها {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ} الفاء فصيحة، أي مفصحة عن جمل حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها؛ أي فألقاها فصارت حية فاهتزت {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ} أي تتحرك وتضطرب {كَأَنَّهَا جَانٌّ} شبّهها بالجان لسرعة حركتها وخفتها؛ فقد كانت حية عظيمة الخلقة، مخُوفة الشكل والهيئة - فلما رآها موسى على هذه الحالة من الترويع والإفراع {وَلَّى مُدْبِرًا} أي ولى هاربا مذعورا {وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي لم يرجع ولم يلتفت لفرط ما أصابه من الذعر والفزع - وحينئذ تولته عناية الله بالكلاءة وإشاعة الأمن في قلبه، إذ ناداه ربه {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} أي ارجع إلينا ولا تخيفنك الحية؛ فأنت لدينا من الآمنين، ولن يمسك من هذه الحية مكروه.
٣٢ - (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
قوله: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} {اسْلُكْ}، يعني أدخل، وجيب القميص، أي طوقه ٣٠ والمعنى: ادخل يدك في جيب قميصك تخرج ساطعة مشعة تتلألأ كأنها قطعة من القمر، من غير مرض كبرص ونحوه.
قوله: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} المراد بالجناح، اليد، فإن اليدين بمنزلة جناحي الطائر - و {الرَّهْبِ} معناه الخوف والفزع، فقد أمر الله نبيه موسى أن يضم عضده وذراعه، وهو الجناح، إلى صدره ليهون بذلك فزعه من الحية أو غيرها - وذلك هو شأن المسلم إذا أصابه خوف أو فزع أن يضع يده على صدره ليسكن ويهدأ ويخف ذعره - وعن ابن عباس قال: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه.
قوله: {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} (ذلك)، إشارة إلى العصا واليد، وهما مثنى ذاك - فهما {بُرْهَانَانِ} أي حجتان ظاهرتان نيرتان من الله إلى فرعون وقومه الظالمين المشركين - وإحدى الحجتين: انقلاب العصا حية مفزعة مخوفة، وصيرورة اليد مشعة تتلألأ.
قوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} أي عصاة مستكبرين خارجين عن طاعة الله، مخالفين لأمره ٣١.

٣٣ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}.

أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون فيدعوه أن يعبد الله خالقه وخالق كل شيء، وأن يكف عن طغيانه وتجبره وظلمه، وأن يرعوي عما انحدر إليه من بالغ الكفران باصطناعه لنفسه الألوهية الموهومة، لكن موسى كان يعلم حقيقة فرعون من حيث غلظته وعناده وقسوة قلبه وأنه جحود وغشوم ومستكبر - وقد خشي موسى على نفسه من فرعون أن يَفرُط عليه فيقتله - وهو قوله: {رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ} خشي موسى أن يقتله فرعون وجنوده الظالمين في مقابلة القبطي الذي قتل موسى من قبل.

٣٤ - (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

قوله: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} {أَفْصَحُ}، من الفصاحة - وهي لغة: تعني الخلوص - ومنه فصح اللبن فهو يفصح وفصح، أي خلص من الرغوة - وأما في اصطلاح أهل البيان: فهو خلوص الكلمة من تنافر الحروف وخلوص الكلام من ضعف التأليف ومن التعقيد - و {لِسَانًا}: تمييز منصوب ٣٢، فقد سأل موسى ربه أن يرسل معه أخاه هارون، لكونه أفصح منه لسانا، إذ كان في لسانه لثغة بسبب ما كان من الجمرة التي وضعها موسى في فمه فكان لا يحسن الكلام، أما أخوه هارون كان أوضح نطقا وأفصح لسانا.

قوله: {فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} {رِدْءًا}، منصوب على الحال - والردء معناه العون، ردأته على عدوه: أي أعنته عليه - ردأت الحائط: أي دعمته بخشبة كيلا يسقط ٣٣.

لقد سأل موسى ربه أن يرسل معه أخاه هارون معينا ومعززا يتقوّى به على إبلاغ القوى دعوة الله، فيؤيده ويصدقه فيما يقوله لهم - وكان موسى يخشى أن يكذبه فرعون وقومه، لضعف نطقه الذي لا يطاوعه عند الحاجة.

٣٥ - (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)

قوله: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} استجاب الله لموسى سؤله فحقق له ما طلب، إذ أرسل معه أخاه هارون - والمعنى: سنقويك بأخيك وشد العضد، كناية عن تقويته، لأن اليد تزداد اشتدادا وقوة بشدة العضد وهو ما بين المرفق إلى الكتف.

قوله: {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا} أي نجعل لكما تسلطا وغلبة ومهابة في قلوب أعدائكم {فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا} يعني لا سبيل لهم على الوصول إليكما بإيذاء أو إساءة بسبب آيات الله - أو تمتنعون من أعدائكم بآياتنا، فتكون لكم العاقبة وحسن المصير في الدنيا والآخرة {أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} وهذا إخبار من الله بأن المؤمنين صائرون إلى الفوز والغلبة، وأن الظالمين مهزومون خاسرون لا محالة ٣٤.

٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}.

جاء موسى فرعون وقومه الظالمين بما خوله ربه من المعجزات الظاهرة، كانقلاب العصا واليد، شهادة له بصدق نبوته وأنه مرسل من عند الله - لكن الظالمين قابلوه بالتكذيب والعناد غير عابئين بحجة أو برهان وقالوا له: {مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى} أي ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر تصنعه أنت وتفتريه على الله - والافتراء معناه الاختلاق، وقيل: التمويه - وعلى هذا فالسحر ضرب من ضروب التمويه لا حقيقة له.

قوله: {وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} أي ما سمعنا بمثل هذا الدين أو بمثل هذه النبوة من قبل - وقيل: ما سمعنا من قبل بمثل هذا السحر الذي جاء به موسى.

٣٧ - (وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

قوله: {وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ} يريد موسى بالاسم الموصول نفسه، أي الله أعلم منكم بالذي خوله الهدى والحق وجعله نبيا ورسولا إليكم، وهو أعلم أيضا بالذي تكون له العاقبة المحمودة في الدار، وهي دار الدنيا - وعقبى الدار أو عاقبتها: إن يختم فيها للعبد بالرحمة والرضوان وما يفضي به إلى الفوز بالجنة ٣٥.

٣٨ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ}.

هذه مقالة سوء تندلق من فم هذا المتجبر العُتُّل، فرعون، وهو يصرخ في قومه المأفونين المضللين المستَخفين أنه ليس ثم إله!!

لقد أسرف هذا الشقي المقبوح إسرافا أفضى به إلى الانحدار في الأذلين ليكون أسفل سافلين، وليكون يوم القيامة على رأس المجرمين والمنبوذين من شياطين الإنس بعد أن تفيض عليه أفواه المؤمنين في مختلف العصور والأجيال باللعائن وسوء الذكر - وكذلك الذين هم على شاكلة فرعون من طواغيت البشرية على مرّ الزمن - الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويدوسون الناس بالظلم والقهر والإذلال.

ولئن نفى فرعون وجود الله وأنكره صراحة مجاهرا بذلك على الملأ؛ فإن بقية الطغاة وأكابر المجرمين من الساسة والحكام العتاة المتجبرين لا يجترئون على إنكار الله علانية وبمثل ذلكما الصلف والحماقة اللذين تلبس بهما فرعون - ولكنهم يتلبسون بظواهر شتى من أشكال الكفر والجحود والاستكبار/ وهم يسوسون الأمم والشعوب بشرائع الضلال والباطل وينبذون شرائع الله ومنهجه أشد نبذ؛ بل ينظرون إلى منهج الله ودينه بمنظار التهكم والاستهتار والسخرية ويعلنون عليه الحرب الضروس بمختلف الأسباب والأساليب من التشويه والتشكيك واختلاق الأكاذيب والافتراءات والشبهات التي تسيء إلى دين الله ونثير في أذهان الناس –ومنهم الدارسون والمثقفون خاصة- النفور والاشمئزاز، فضلا عن مخططات الكيد والخيانة والتآمر على الإسلام والمسلمين؛ لإضعافهم وإذلالهم والتنكيل بهم أو إبادتهم أو تقتيل الدعاة إلى الله على هوى وبصيرة منهم، أولئك جميعا وفرعون صنوان في المنبت والهوى؛ فهم منبتهم الضلال والتكذيب والعماية وانغلاق القلوب والبصائر، وهواهم الشهوات والملذات ومتاع الحياة الدنيا - أولئك جميعا جزاؤهم في الآخرة جهنم وبئس المصير، وجزاؤهم في الدنيا أن تنفزز منهم الأجيال وتتعوذ من سوء صنيعهم وما فعلوه في البشرية وقيمها ومقوماتها من تدمير وتخريب وإفساد.

قوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} فقد نفى فرعون علمه بإله غيره، ولم ينف وجود إله، إذ لم يجزم فرعون بالعدم كليا - فيكون المعنى: أن إلها غيري غير معلوم عندي - وذلك ظاهر اللفظ في الآية - وقيل: قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده - أما ما لكم من إله غيري.

قوله: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ} أمر فرعون وزيره هامان بالإيقاد على الطين ليطبخ له الآجر.

قوله: {فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} أي ابن لي بالآجرُ قصرا شامخا منيفا، لعلي أصعد إلى السماء فأجد إله موسى - وذلك منه استكبار ومعاندة وإفراط في الجحود والضلالة والاغترار، وهو كذلك إيهان لنفسه وخداع لقومه الذين استخفهم؛ إذ كانوا جميعا يتصورون إله موسى جسما موجودا في السماء - وذلك ظن الواهمين المضللين السخفاء.

قوله: {وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} يجزم فرعون في مكابرة وعناد أن موسى كاذب في دعواه أن له إلها وأنه أرسله للناس رسولا وهاديا ومبلغا.

٣٩ - (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ)

قوله: {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أعرض فرعون وقومه مدبرين عن الحق ومستكبرين، فهم لفرط جحودهم وغرورهم وفساد عقولهم وقلوبهم قد لجوا معاندين في أرض مصر، وقد أخذهم جميعا الإعزاز بالإثم والاستكبار والإعراض عن دعوة الله - وذلك كله {بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي بالباطل - وإنما الاستكبار بالحق لله وحده دون أحد سواه، وما يستكبر أحد سوى الله إلا الظالمون المبطلون.

قوله: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ} ظن هؤلاء المجرمون الطغاة -واهمين مضللين- أنهم لا يُردون إلى الله يوم القيامة فهم مكذبون بالبعث والمعاد.

٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

قوله: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ} أهلك الله فرعون وملأه من الكبراء والرؤساء المجرمين، إذ طرحهم جميعا في البحر فأغرقهم إغراقا ليكونوا من المنبوذين المحقّرين الهلكى.

قوله: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} أي انظر يا محمد كيف تكون عاقبة الكافرين والعصاة المفرطين، من الهلاك والهوان والتحقير - وحذر قومك، ليعتبروا ويتعظوا كيلا يحيق بهم ما حاق بالمجرمين السابقين.

٤١ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ)

قوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} جعل الله هؤلاء المجرمين قادة لمن يقتدى بهم من الضالين والواهمين والمخدوعين، فهم بذلك قدوة في الضلال والشر يفتتن الناس بمكرهم وكيدهم وخداعهم، ليسيروا من ورائهم في طريق الضلال والباطل، فهم بذلك {يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} وذلك بتزيينهم للناس فعل المنكرات والمعاصي، وإبعادهم إياهم عن طريق الهداية والصواب - لا جرم أن هؤلاء غاوون مضلون، وأنهم أئمة يقودون البشرية إلى الكفر بكل صوره وأشكاله، وإلى الشر والمعاصي بكل ضروبها وأنواعها، ليكون مصيرهم إلى الكبكبة في النار وبئس القرار، ويومئذ يحيط بهم العذاب فلا يجدون لهم من ينصرهم أويزحزحهم عن النار وهو قوله: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ}.

٤٢ - (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

قوله: {وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً} أي ألزمناهم إبعادا من الخير وطردا من رحمة الله وفضله، أو لعنا من اللاعنين، إذ يلعنهم المؤمنون والملائكة طوال الدهر - فما نتذكرهم البشرية المؤمنة في كل آن إلا بادرتهم باللعن والتقبيح والتحقير.

قوله: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} أي من المطرودين المبعدين من الرحمة، أو من المشوهين في الخلقة بسواد الوجوه مما يمسهم من النار ٣٦

٤٣ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} المراد بالكتاب التوراة، فقد أنزلها الله على نبيه وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام - فكانت التوراة أول كتاب فُصّلت فيه الأحكام من بعد إهلاك الأمم السابقة وهم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم الصلاة والسلام - ولقد أنزل الله التوراة {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} {بَصَائِرَ}، مفعول لأجله - أو حال ٣٧ و {بصائر} جمع بصيرة، وهي نور القلب الذي يُبصَر به الهدى والحق، كما أن البصر نور العين الذي يُبصَرُ به الأجسام.

والمعنى: أن الله أتى نبيه موسى التوراة لتكون أنوارا للقلوب، إذ كانت عُميا لا تبصر ولا تميز بين حق وباطل - بل كانت تائهة في ظلمة الباطل، سادرة في الغي والضلال - وكذلك أنزلها الله عليه {هدى ورحمة} فهي تهدي الناس إلى الصواب وتسلكهم سبيل الهداية والرشاد.

وهي كذلك رحمة لمن التزمها واستمسك بها وعمل بأحكامها، فإنه يحظى بالرحمة من الله، والفوز بالسعادة في الدارين {لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}

أي لكي يتعظوا ويعتبروا.
٤٤ - (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)
قوله تعالى: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.
ذلك برهان من الله يشهد بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصدق رسالته، إذ أخبر قومه بالأحداث الماضية مما هو مستور في بطن الغيب - لقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بغيوب سلفت قبل زمانه بدهر طويل، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وقد بُعث في أمة لا تقرأ ولا تكتب وهو عليه الصلاة والسلام لم يعلمه إنس ولا جان، ولم يتلق أيما درس في التاريخ وأخبار السابقين الأولين، بل تلقى ذلك كله من ربه - لقد تلقى منه الخبر الصادق اليقين الذي أذهل العقول ونبّه إلى حقيقة هذا الرجل الصدوق، على أنه مرسل من ربه، وأنه لا ينطق عن الهوى - وذلك كإخباره في القرآن الحكيم عن أخبار السابقين والغابرين، كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وقوم شعيب، وقصة موسى مع الطاغية فرعون، ومولد عيسى المسيح من أمه مريم البتول وغير ذلك من أخبار النبيين والمرسلين - وهي أخبار دقيقة ومستفيضة ومفصلة جاءت على أكمل ما يكون عليه القَصَص من الصدق والبيان - وفي ذلكم دليل قاطع على نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.
وهنا يبين الله في خطابه لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، أنك لم تشهد قصة موسى وهو يكلمه ربه عند الطور بل أخبرك ربك بذلك وحيا، حتى تبينه للناس وهو قوله: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} أي ما كنت يا محمد حاضرا بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات لموسى، إذ أعطاه الله فيه ألواح التوراة {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ} أي علمناه وعهدنا إليه واحكمنا أمر نبوته بالوحي وإنزال التوراة عليه {وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} أي لم تكن، إذ ذاك من الحاضرين نزول الوحي إليه حتى تعاين بالمشاهدة ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتخبر به الناس - ولكن الله عز وعلا قد أوحى إليك ليكون لك حجة وبرهانا تواجه بهما الناس.
٤٥ - (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)
قوله: {وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} أي خلقنا بين زمانك وزمان موسى أمما كثيرة طال عليها العهد فنسوا آيات الله ودلائله، وعميت عليهم الأخبار بعد أن اندرست الأنباء الصحيحة فعم فيها الخلط والتخريص وشاعت فيهم الأكاذيب والأساطير، فاقتضت حكمة الله ومشيئته أن تؤتى البشرية المنهج الجديد، يكون فيه الخبر الصادق اليقين، ويعيد البشرية إلى المحجة البيضاء، ويحمل لها قواعد الخير والحق والعدل.
قوله: {وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} {ثَاوِيًا}، مقيما - والمثوى، معناه المنزل وجمعه المثاوي - ثوي المكان يثوي به ثواء، أي أطال الإقامة فيه ٣٨ والمعنى: ما كنت يا محمد مقيما في {أَهْلِ مَدْيَنَ} وهم قوم شعيب عليه السلام، والمؤمنون معه تقرأ عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قصه على قومه وما كان من ردهم عليه {وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} لكنا نحن أرسلناك وقصصنا عليك من أخبارهم وحيا.
٤٦ - (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
قوله: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} أي لم تكن يا محمد بجانب الطور وقت ندائنا موسى {إني أنا الله رب العالمين} أو وقت إنزال التوراة عليه وإرساله للناس رسولا.

قوله: {وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} {رحمة}، منصوب على المصدر، أي ولكن رحمناك رحمة - وقيل: منصوب على أنه خبر كان مقدرة - وتقديره: ولكن كان رحمة من ربك - وقيل: منصوب على أنه مفعول لأجله - وتقديره: ولكن فعل ذلك لأجل الرحمة ٣٩ والمعنى: ولكن أرسلناك يا محمد بالقرآن وفيه إخبار لقومك عن أنباء النبيين السابقين وقصص الأمم الغابرة، رحمة من الله بك وبالعباد، إذ تنذرهم بالقرآن وتعلمهم ما لم يكونوا يعلمون من قبل أن تأتيهم؛ إذ لم يأتهم قبلك من نذير وذلك في زمان الفترة بينك وبين المسيح وهي خمسمائة وخمسون سنة.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي يعتبرون ويتعظون بإنذارك لهم وبما تتلوه عليهم من الآيات البينات.

٤٧ - (وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} {لولا}، الأولى امتناعية - أي امتناع لوجود - و {أن} وما بعدها في موضع رفع بالابتداء، أي {ولولا} إصابتهم المصيبة - فيقولوا: معطوف على {تُصِيبَهُم} ولولا الثانية، تحضيض {فَنَتَّبِعَ}: جواب التحضيض ومنصوب بإضمار أن - والفاء في جواب الأمر ٤٠ والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم، ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين لما أرسلناك إليهم - وإنما أرسلناك إليهم قطعا لمعاذيرهم وإلزاما للحجة عليهم ٤١.

٤٨ - (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

يخبر الله عن ظلم المشركين وشدة عنادهم وجحودهم عقب نزول القرآن هدية لهم وإخراجا لهم من الظلمات إلى النور، فلجوا في التعنت والخصام والتكذيب وقالوا: {لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} أي هلا أوتي محمد من الآيات مثل ما أوتي موسى، وهم يعنون بذلك: المعجزات التي آتيها موسى عليه السلام كالعصا، واليد، والطوفان، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الدلائل الظاهرة التي جعلها الله لنبيه وكليمه موسى؛ ليُحاج بها فرعون وملأه من الظالمين - فرد الله عليهم مشعرا بأن ما قالوه ليس إلا التعنت المجرد والخصومة الفاجرة {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى} يعني: أو لم يكفر أبناء جنسهم في الملة والمذهب، وهم الذين كفروا من قبلهم في زمن موسى، فكان مذهبهم كمذهبهم في التكذيب والعناد - فهؤلاء وأولئك جميعا بعضهم من بعض في الكفر وفي الإعراض عن دين الله - فقد قال الذين من قبلهم {سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} يعنون موسى وهارون أو التوراة والقرآن {تظاهرا} أي تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وتأييده - وقد ذكر أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى رؤساء اليهود فسألوهم عن شأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته - فلما رجع الرهط وأخبروا قريشا بقول اليهود، قالوا ذلك، وهو أن ما أوتيه محمد وما أوتيه موسى قد تعاونا في توافقهما ليصدق كل منهما الآخر {إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} أي كفرنا بالاثنين أو بكل واحد من الكتابين.

٤٩ - (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ} أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتحدي المشركين المعاندين أن يأتوا بخير من التوراة المنزلة على موسى ومن القرآن المنزل عليه {أَتَّبِعْهُ} جواب الأمر، {فأتوا} وهذا دليل ظاهر على عجز القوم أمام هذا

التحدي القائم، وأنهم لا يملكون أيما برهان أو حجة إلا العناد والشطط والاستكبار.
قوله: {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي فيما تزعمون أن التوراة والقرآن سحران.
٥٠ - (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
قوله: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ} أي إن لم يقم المشركون بفعل ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن، أو إذا لم يستجيبوا دعاءك إياهم إلى الإيمان بالدين الحق بعد الذي رأوه من المعجزات والدلائل الواضحات؛ فاعلم حينئذ أنهم لا يتبعون غير أهوائهم الضالة الزائغة التي تُسوّل لهم الباطل والشر وتنفرهم من الحق والهدى.
قوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} الاستفهام للإنكار بمعنى النفي، أي ليس أحد أضل ممن اتبع هواه الزائغ عن طريق الله، والمجانب لهداه ومنهجه المستقيم.
قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} لم يكن الله ليهدي الذين ظلموا أنفسهم باتباعهم الشهوات وسلوكهم مسالك الضلال والباطل، والذين أعرضوا عن دين الله عنادا واستكبارا فأبوا إلا اتباع الشياطين على اختلاف مسمياتهم.
٥١ - (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
قوله: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} {وصلنا} من التوصيل وهو تكثير الوصل وتكريره - والمعنى: أن القرآن أتاهم متواصلا، يتبع بعضه بعضا في الإنزال حسبما تقتضيه الحكمة - أو أتاهم متتابعا وعدا ووعيدا وقَصَصا وعبرا ومواعظ ونصائح لي يتعظوا ويتدبروا .٤٢
٥٢ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)
قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}.
نزلت هذه الآية في قوم من بني إسرائيل آمنوا برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، منهم: عبد الله بن سلام - وكذلك أسلم آخرون من علماء النصارى؛ فقد قيل: قدم أربعون رجلا منهم مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة مسلمين - وقيل: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي؛ فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم {يس (١) والقرآن الحكيم} حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية - وكذلك نزلت فيهم هذه الآية الأخرى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ} أي أن فريقا من الذين أوتوا الكتاب وهو التوراة أو الإنجيل {مِن قَبْلِهِ} أي من قبل القرآن، قد آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذي أنزله الله عليه.
٥٣ - (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)
قوله: {وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا} إذ تلي القرآن عليهم لانت له قلوبهم فاستجابوا وبادروا الإيمان به والتصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم معلنين أن القرآن هو الحق المنزل من عند الله.
قوله: {إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} أي كنا من قبل نزول هذا القرآن، أو من قبل البعثة المحمدية مصدقين بأن الله سيبعث محمدا صلى الله عليه وسلم، لما كنا نعلمه من ذكره في التوراة والإنجيل، من التبشير به وبعثه آخر الزمان لهداية الناس واستنقاذهم من الضلال والباطل.
٥٤ - (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)
قوله: {أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} أي هؤلاء الذين آمنوا بالكتاب الأول وهو التوراة والإنجيل ثم بالكتاب الثاني وهو القرآن، يجزيهم الله من الأجر مرتين {بِمَا صَبَرُوا} أي بسبب صبرهم على الإيمان بالكتاب الأول والثاني، وما يجدونه في إيمانهم من أذى الظالمين

وعنتهم.

قوله: {وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أي يدفعون بالصبر وبالكلمة الطيبة وطول الاحتمال، كل ما يجدونه في طريقهم من أذى الجاهلين وسفاهاتهم - وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ: " وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " ومن الخلق الحسن: دفع المكروه والأذى بالصبر والحلم والأناة والصفح عن المسيئين.

قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} أثنى الله عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في طاعة الله، كالجهاد في سبيله أو الصدقة على المعوزين والمحاويج، أو في صلة الأرحام.

٥٥ - (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

قوله: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} هؤلاء القوم الذين آمنوا بالكتاب ثم آمنوا بالقرآن من بعده، إذا سمعوا اللغو، وهو الباطل من القول أو ما يقوله لهم المشركون من الأذى والشتم، أعرضوا عنه ولم ينشغلوا به {وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} أي لنا أعمالنا قد رضينا بها، ولكم أعمالكم أنتم بها راضون، وذلك من باب الملاينة والقول الحسن.

قوله: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} وذلك في قوم من أهل الكتاب.

وقيل: من المشركين، أسلموا فكان المشركون يؤذونهم فكانوا يصفحون عنهم ويقولون: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أي لكم منا أمنة فإنا لا نُسابّكم ولا نشاتمكم ولا نبتغي محاورة أهل الجهل - وذلك هو خلق المؤمنين الصابرين في كل زمان: " إذا خاطبهم أهل السفه والجهالة والفسق ترفعوا عن مسابتهم أو الرد عليهم بالمثل - بل قالوا لهم: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} " ٤٣.

٥٦ - (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

قوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}: هذه الآية نزلت في أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم - وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف، أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا - فقال عليه السلام: " يا عم، تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك! " - قال: " فما تريد يا ابن أخي؟ " قال: " أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا: أن تقول لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله تعالى " - قال: يا ابن أخي، قد علمت أنك صادق، ولكني أكره أن يقال: جزع عند الموت - ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق، لما رأى من شدة وجدك ونصحك - ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ: عبد المطلب، وهاشم، وعبد مناف.

وفي رواية أنه لما مات ولم يؤمن اشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما تنفع قرابة أبي طالب منك - فقال: " بلى، والذي نفسي بيده إنه الساعة لفي ضحضاح من النار، عليه نعلان من نار تغلي منهما أم رأسه - وما من أهل النار من إنسان هو أهون عذابا منه " - والمراد بالآية: أنك يا محمد لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ولكن الله يهدي من يشاء أن يهديه من خلقه بتوفيقه للإيمان - {وهو أعلم بالمهتدين} أي الله أعلم بمن سبق له في علمه أنه مهتد للحق والصواب ٤٤

٥٧ - (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}.

نزلت هذه الآية في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: " إنا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا ".

والتخطف معناه الانتزاع بسرعة - والمعنى: إن نتبع ما جئتنا به من الحق ونتبرأ من الأنداد والشركاء يتخطفنا العرب من أرضنا، مكة؛ لأنهم مجتمعون على خلافنا وحربنا، فرد الله زعمهم وما احتجوا به، إذ قال: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا} أي ألم نعطكم مسكنا لا خوف عليكم فيه - وذلك أن العرب كانوا يحترمون الحرم بالغ الاحترام فما كانوا يعرضون لسكانه البتة - وقد كانوا بغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضا، وأهل مكة آمنون، إذ كانوا بحرمة الحرم فلا يمسهم أحد - بسوء أو أذى، فهم بذلك آمنون يذهبون حيث شاءوا فلا يتعرض لهم أحد.

قوله: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} يجبى من الجباية وهي الجمع ٤٥ أي يجمع إلى الحرم ثمرات كل بلد - والمراد بالكلية هنا الكثرة.

قوله: {رِزْقًا مِن لَّدُنَّا} رزقا، منصوب على المصدر - لأن معنى تجبى، ترزق - وقيل: مفعول لأجله لفعل محذوف - أي نسوقه إليهم رزقا من لدنا - وقيل: منصوب على الحال، أي رازقين - والمعنى: رزقناهم رزقا من عندنا {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ولا يفطنون له - ولو علموا أنه من عند الله؛ لعلموا أن الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا بالله وخلعوا أنداده، وهو قول الزمخشري.

٥٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

قوله: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} أي كم من قرية أهلكناها أبطرتها معيشتها فأشرت ٤٦ وطغت وجحدت ما أنعم الله لهم من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن والنعمة وطيب العيش لكنهم غمطوا النعمة وقابلوها بالبطر، والجحود فدمر الله عليهم وأهلكهم.

قوله: {فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلا} أي تلك بيوت القوم الذين أهلكناهم بكفرهم وذنوبهم، لم تُسكن من بعدهم إلا قليلا - فقد خربت من بعدهم ولم يُعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب، وعلى هذا فالاستثناء يرجع إلى المساكن؛ أي بعض مساكن الهالكين يسكن وأكثرها خراب.

وقيل: الاستثناء يرجع إلى السكان، فالمعنى: فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون أو مارّ الطريق يوما أو ساعة - أي لم تسكن من بعدهم إلا سكونا قليلا - وهو قول ابن عباس.

قوله: {وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} أي لم يكن لمساكنهم وبيوتهم التي أتى عليها الخراب والدمار وارث، بل عادت وليس لها من مالك سوى الله الذي له ميراث كل شيء ٤٧.

٥٩ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}.

ذلك إخبار من الله لعباده عن عدله المطلق في العقاب، فإنه سبحانه منزه عن الظلم وهو لا يظلم من عباده أحدا إلا عقب قيام الحجة عليه - ولذلك قال هنا: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً} أي ما كان ربك يا محمد مهلك أهل القرى التي حول مكة حتى يبعث في أعظمها رسولا يبلغ الناس الحق وينذرهم شديد بأسه وعقابه - والمراد بأمها أو أعظمها: مكة؛ فهي أعظم القرى من حولها أو أصلها وقصبتها - فقد بعث الله في مكة رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} بعثه الله بقرآنه الحكيم هداية للناس واستنقاذا للبشرية من وهدة الباطل والشر.

قوله: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} وذلك إعلان من الله للبشرية عن كامل عدله الذي لا يبلغه عدل - وهو أنه لا يأخذ أهل القرى من الكافرين بهلاك حتى يلزمهم الحجة بإرسال رسوله إليهم؛ فهو لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم وعصيانهم،

أي لا يهلكهم بكونهم ظالمين إلا بعد أن نتأكد الحجة والإلزام ببعث المرسلين فإن أبوا وأعرضوا فقد استحقوا العقاب.

٦٠ - (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ)

قوله: {وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا} أي ما أُعطيتموه أيها الناس من شيء من الأموال والأولاد والجاهات والمنازل في هذه الحياة إنما هو متاع - والمتاع، معناه المنفعة أو ما تمتعت به ٤٨ فما خولكم الله من نعم على اختلاف صورها وأجناسها إنما هي متاع الدنيا الذي تمتعون به وهو من زينتها التي تتزينون بها، وذلك كله لا محالة زائل؛ إذ لا بقاء له ولا ديمومة وإنما هو عارض دائر، مثله كالسحاب أو الغمام ما يلبث أن ينقشع ويتبدد - أما الباقي المستديم فما أعده الله للمؤمنين في الآخرة من خير وجزاء لا يفنى ولا يزول وهو قوله: {وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ} أي ما عند الله من الجزاء أحسن وأدوم، والمراد به الجنة في الدار الآخرة - لا جرم أن الجنة بخيراتها ولذائذها وطيباتها أنفع وأطيب وأشهى - وفوق ذلك فإنها باقية مستديمة لا تحول ولا تتبدل ولا يأتي عليها الفناء أو البِلى، لكن الطيبات واللذات في الحياة الدنيا هينة ومحدودة ومستصغرة فضلا عن قصرها وصيرورتها إلى النهاية المحققة والفناء المحتوم.

قوله: {أفلا تعقلون} أليست لكم عقول تميزون بها بين الحق والباطل، أو بين الحقير الفاني والعظيم الباقي؟.

٦١ - (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

قوله: {أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الاستفهام للإنكار، أي فمن وعدناه خير وعد وأحسنه وهو الجنة، فهو مدركه لا محالة؛ لامتناع الخلف في وعد الله، كمن متعناه في حياته الدنيا فأعطي منها بعض ما أراد {ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} أي من المعذبين في النار - وشتان بين مؤمن صابر مطيع لله فهو صائر إلى الجنة، وبين ظالم لنفسه فصائر إلى النار بما قدمت يداه في الدنيا من شرك وذنوب ٤٩

٦٢ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} ذلك كائن يوم القيامة؛ إذ ينادي الله المشركين الذين اتخذوا من دونه أندادا ليعبدوهم {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} أي الذين أشركتموهم في العبادة واتخذتموهم من دوني أولياء ومعبودين في زعمكم

٦٣ - (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} أي المشركون الذين وجب عليهم غضب الله وعذابه، وهم الرؤساء والكبراء الذين كانوا يفتنون الناس عن دينهم، وكانوا يزينون لهم فعل المعاصي - وقيل: المراد بهم الشياطين الذين كانوا يغوون الناس، فإن هؤلاء المجرمين الفاسقين يقولون وهم موقوفون على ربهم يوم القيامة {رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا} هؤلاء، في موضع رفع بالابتداء والذين أغوينا، في موضع رفع خبر لمبتدأ آخر - وتقديره: هؤلاء هم الذين أغوينا ٥٠ والمعنى: أن هؤلاء الأتباع الذين دعوناهم إلى الغواية والضلال، أضللناهم كما كنا ضالين.

قوله: {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ} أي تبرأ بعضهم من بعض، وصار بعضهم لبعض عدو - فالشياطين ورؤساء الضلال والغواية قد تبرئوا ممن أطاعهم من الأتباع، والرعاع والمضللين والمستخفين، وقالوا: {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} {ما}: فيها وجهان: أحدهما: أن تكون نافية - وثانيهما: أن تكون مصدرية، والتقدير: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا - والأول أوجه ٥١ - والمعنى: أنهم ما كانوا يعبدوننا، بل كانوا يعبدون أهواءهم.

٦٤ - (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

قوله: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ} أي يقال للمشركين الضالين والأتباع من المنافقين والمقلدين والحائرين - استعينوا بآلهتكم الذين كنتم تعبدونهم من الأنداد والشركاء؛ لتعينكم وتدفع عنكم العذاب والهوان، فاستغاثوا بهم فلم يستجيبوا لندائهم واستغاثتهم ولم ينتفعوا بهم {وَرَأَوُا الْعَذَابَ} أي وعاينوا العذاب {لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} أي فودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين.

٦٥ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

قوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} يوم ينادي الله المشركين الضالين فيقول لهم: ماذا أجبتم رسلنا فيما أرسلناهم به إليكم، إذ دعوكم إلى إفرادنا بالألوهية والعبادة والتبرؤ من الأصنام والأنداد؟.

٦٦ - (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

قوله: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ} المراد بالأنباء هنا الحجج - أي خفيت عليهم الحجج فقد أعذر الله إليهم في الدنيا بما جاءهم من البينات؛ فليس لهم يوم القيامة أيما عذر أو برهان إلا التعتعة في الجواب والعجز عن الكلام.

قوله: {فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ} أي لا يسأل بعضهم بعضا، ولا يدرون ما يجيبون به لفرط الدهش ومن هول ما يرون ويعاينون في هذا اليوم الرهيب - وقيل: لا يتساءلون بالأنساب والقرابة.

٦٧ - (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

قوله: {فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} من تاب من المشركين وأناب إلى ربه، وخلع نفسه من الشرك والضلال، وأخلص لله الألوهية والعبادة وآمن برسوله صلى الله عليه وسلم وعمل الصالحات {فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} أي من الفائزين بالجنة، الناجين من العذاب ٥٢.

٦٨ - (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

ذلك جواب لما قاله الوليد بن المغيرة {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} يريد نفسه، ثم عروة بن مسعود الثقفي من الطائف - والمعنى: أن الله يخلق ما يشاء من خلقه، ويختار من يشاء لنبوته، فالله المالك المطلق، وله أن يخص من شاء بما شاء دون اعتراض عليه البتة.

قوله: {ما كان لهم الخيرة} {ما}: نافية، و {الخيرة}: اسم من الاختيار قام مقام المصدر - و {الخيرة} أيضا اسم للمختار - يقال: محمد خيرة الله في خلقه - والمعنى: أن الله يخلق من يشاء من خلقه ويختار منهم من يريد فليس لهم الخيرة؛ إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل ما يبتغون.

قوله: {سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي تنزه الله عن النقائص والعيوب، وتعالى علوا كبيرا عما أضافه إليه المشركون من الأنداد والشركاء، وما تخرصوه عليه من الكذب والباطل.

٦٩ - (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

قوله: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} الله عليم بالسر والعلن - فما تخفيه القلوب والنوايا، أو تظهره الألسن والجوارح؛ فإن الله به عليم لا يخفى عليه من ذلك شيء.

٧٠ - (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ} الله المتفرد بالإلهية والوحدانية، وهو وحده المعبود دون غيره من المخاليق.

قوله: {لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ} الله الذي يستحق الحمد والثناء في الدنيا بما خوّل عباده من نعمة الحياة وما فيها من صنوف العطاء والنعم - وهو سبحانه يستحق الحمد والثناء في الآخرة بما أسبغه على عباده المؤمنين من رحمته وإحسانه وغفرانه، وبما أنزله بالظالمين من عقاب، جزاء ظلمهم وتفريطهم وما فعلوه في حياتهم من الآثام والشرور.

قوله: {وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} لا حكم إلا لله، فهو يقضي بين عباده وهم جميعا صائرون إليه لا محالة ٥٣.

٧١ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ)

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يبين الله امتنانه على عباده، إذ سخر لهم الليل والنهار، وهما نعمتان متعاقبتان لا قوام للخلائق من دونهما - والمعنى: قل لهؤلاء المشركين الضالين: أرأيتم لو جعل الله عليكم الليل سرمدا، أي دائما ٥٤ لا يتحول ولا يزول يوم القيامة، فمن من أحد غير الله الواحد المعبود يستطيع أن يأتيكم بنهار تستضيئون به وتقضون فيه حوائجكم من مختلف ضروب المعايش؟.

قوله: {أَفَلا تَسْمَعُونَ} أي سماع تدبر وتفكر واستبصار فتتعظوا وتوقنوا أن الله هو الحق، وأنه الخالق القادر وحده دون سواه.

٧٢ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ)

قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ} وكذلك لهؤلاء المشركين المعرضين: أرأيتم لو جعل الله عليكم النهار سرمدا، أي دائما، لا يتحول ولا يتبدل إلى يوم القيامة فمن من أحد غير الله يأتيكم بليل ترقدون فيه وتهجعون وتستريحون من نصب الدنيا ومتاعبها؟.

قوله: {أَفَلا تُبْصِرُونَ} أفلا ترون بأبصاركم ما في تعاقب الليل والنهار من النعم عليكم والرحمة بكم، لتستيقنوا أن الله وحده الخالق المدبر المنان، الجدير وحده بالعبادة والإفراد بالوحدانية.

٧٣ - (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله: {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} أي من رحمة الله بالعباد أنه خلق لهم الليل والنهار متعاقبين، يكمل أحدهما الآخر، إذ جعلهما مختلفين في الصورة والمعنى - فجعل لهم النهار ضياء، لتحصيل أسباب الحياة والرزق والمعاش - وجعل لهم الليل ليهدءوا فيه ويهجعوا، وليجدوا خلاله الراحة والدعة والسكون، فترتاح فيه أبدانهم من نصب الحياة وما فيها من عناء وكدح.

قوله: {ولعلكم تشكرون} أي لتشكروا الله على ما من به عليكم من أصناف النعم، فتفردوه بالعبادة دون غيره من الأصنام والأنداد.

٧٤ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي واذكر يا محمد يوم ينادي الله المشركين الظالمين ويقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أين ما كنتم تزعمون من الأنداد والشركاء الذين عبدتموهم في حياتكم الدنيا.

٧٥ - (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: {وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} أي وأحضرنا يوم القيامة من كل جماعة نبيها ليشهد عليها بما عملته في الدنيا {فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} يقول الله يوم القيامة لكل أمة مشركة ضالة أعرضت عن رسالة نبيها: هاتوا حجتكم على كفركم وإشراككم بالله.

قوله: {فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ} أيقن الظالمون الخاسرون يوم القيامة صدق ما جاءهم به النبيون المرسلون، وأن الحجة البالغة لله عليهم، وأنهم محجوجون خاسرون هلكى.

قوله: {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي ذهب عنهم وزال ما كانوا يتخرّصونه من الكذب على الله، وما كانوا يفترونه من الآلهة الموهومة المصطنعة، فأيقنوا أن الله وحده لهو الحق، وأن ما دونه من الأرباب المفتراة محض باطل ٥٥.

٧٦ - (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}.

{قارون} كان ابن عم موسى - وقيل: كان عم موسى بن عمران - والراجح أنه ابن عمه وهو قول أكثر أهل العلم - وقد كان يقرأ التوراة، وكان حسن الصوت فيها لكنه نافق السامري فأهلكه الطغيان والبطر والاغترار بمتاع الحياة الدنيا {فبغى عليهم} من البغي، وهو التعدي وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي - وأهل البغي، يعني أهل الفساد ٥٦.

والمعنى: أن قارون بطغيانه وفساده قد بغى على قوم موسى، أي جاوز الحد في الكبر والتجبر والتفاخر بكثرة ماله.

قوله: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} {مآ}: اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب بالفعل، آتيناه ٥٧ - وتنوء، تنهض - تنوء بالحمل، تنهض به مثقلا - وناء به الحمل، أي أثقله ٥٨ ومفاتح: جمع مفتح، وهو ما يفتح به الباب فالمراد به المفاتيح.

والمعنى: وآتينا قارون من كنوز الأموال ما إن مفاتيح صناديقه أو خزائنه {لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} أي يثقلهم حمل المفاتح، أو تميله المفاتح بثقلها - أو ينهضون بها متثاقلين - والعصبة: الجماعة من الناس.

قوله: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} قال له قومه ناصحين مذكرين: لا تبطر ولا تهلك الدنيا بزينتها عن الآخرة، فإن الله لا يحب الأشرين البطرين - أو لا يحب المتبذخين السادرين في اللهو، والذين لا يشكرون الله على ما آتاهم من فضله.

٧٧ - (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

قوله: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ} أي التمس بما أعطاك الله من خير ومال كثير الدار الآخرة وهي الجنة - وذلك هو خلق المسلم التقي الفطن، إن كان ذا مال أو جاه أو قوة، فإنه يسخر كل ما أوتيه من عطاء وفضل في طاعة الله، وفي تحصيل مرضاته ليظفر بالجنة وينجو من النار.

قوله: {وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} أي لا تترك أن تطلب حظك في الدنيا من الرزق - أو لا تترك ما أحل الله لك منها فإن فيه لك غنى وكفاية - والمراد به: طلب الحلال، وعدم تضييع الحظ من الدنيا في التمتع بالحلال منها - وفي ذلك من الرفق بالإنسان لتحصيل ما يشتهيه بالمعروف والاعتدال ما لا يخفى - وفي جملة ذلك قال ابن عمر: " احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ".

قوله: {وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} أي أحسن في الدنيا بالشكر لله وجميل الطاعة لجلاله العظيم كما تفضل عليك بجزيل النعم.

قوله: {وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ} أي لا تطلب ما حرمه الله عليك من المعاصي والبغي والعدوان وكل وجوه الفساد {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} الله لا يحب أهل البغي والتجبر والكبر، الذين يشيعون في الأرض المعاصي والفتن ويسعون في الأرض فسادا ٥٩.

٧٨ - (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} ذلك إخبار من الله عن مقالة قارون لقومه حين نصحوه ووعظوه كيلا يكون من البطرين، وأن يلتمس الدار الآخرة بنا أوتيه من المال والخير فقال لهم: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} أي أوتيت هذا المال على استحقاق لما عندي من العلم الذي فضلت به على الناس، إذ كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة، أي أوتيته على علم بالتوراة، فقد روي أنه كان من أعلم الناس بالتوراة ومن أقرئهم لها، وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات - وقيل: أوتيت هذا المال لعلم الله بأني أستحقه ولمحبته لي، ولأن الله يعلم أنني أهل لهذا المال.

قوله: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا} وذلك رد من الله لاحتجاج قارون، إذ يزعم فيه أنه أوتي هذا المال بفضل علمه، ولأنه يستحقه، فبين الله سبحانه أنه أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشا وأكثر أموالا، ولو أن المال يدل على فضل صاحبه وأنه مرضيّ عند ربه لما أهلك الله السابقين من أولي الأموال.

قوله: {وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ} المراد بالسؤال هنا: ما كان للتقريع والتبكيت وليس للاستعتاب، أي لا يُسأل المجرمون سؤال استعتاب، كما قال سبحانه: {ولا هم يستعتبون} فهم يعذبونه بغتة دون معاتبة، ولا يُسألون سؤال استفهام فإن الله مطلع على قلوبهم وأعمالهم ٦٠.

٧٩ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}.

خرج هذا المغرور يوما على قومه من بني إسرائيل في زينته من متاع الحياة الدنيا وزخرفها، وهو متجمل بالحلي وفاخر الديباج والمعصفرات من أصناف الملابس، ومن حوله الخدم والحشم ومختلف صور الزينة مما يثير في الضعفاء والخائرين حب الدنيا ولذائد الحياة - حينئذ {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} هكذا يتمنى الفارغون من وازع العقيدة الرادع، الجانحون للحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، والذين تستهويهم الطيبات واللذات في هذه الحياة فيركنون إليها في الغالب وهم يهوون أن يأخذوا منها بحظ كبير، خلافا لأهل العقيدة الراسخة المكينة وأهل العزيمة والتقوى من المؤمنين، فإنهم لا تستخفهم الأهواء ولا الشهوات ولا خيرات الدنيا وما حوته من مباهج وملذات - وإنما يميل المؤمنون الصادقون لإعلاء كلمة الله ورفع شأن الإسلام، ويسعون على الدوام لإعزاز دين الله ونشره وإشاعته في الآفاق حبا في هذا الدين الكريم العظيم وطمعا في رضوان الله أولا وأخيرا.

لقد تمنى أولوا الشهوات من بني إسرائيل-سواء فيهم المؤمنون أو الذين كفروا- لو أنهم أوتوا مثل ما أوتي قارون من الأموال وقالوا: {إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} وصفوه بأنه رجل حفيظ أو محظوظ، أي لذو نصيب وافر من زينة الحياة الدنيا وزخرفها.

٨٠ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ)

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ} قال لهم أهل الدين والصلاح من علماء بني إسرائيل {ويلكم} أصل ويل: الدعاء بالهلاك - ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يُرتضى، وهو قول الزمخشري.

قوله: {ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً} ثواب الله، وهو الجنة وما أعده الله فيها من صنوف الطيبات والنعم، فذلك خير للذين

يعملون الصالحات من المؤمنين.
قوله: {وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} أي لا يلقى الجنة وما فيها من خيرات حسان ونعيم مقيم إلا الصابرون، القائمون على منهج الله فلا يتحولون ولا يتغيرون، والذين يحبسون أنفسهم عن المعاصي والمنكرات والفتن ٦١.
٨١ - (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)
قوله تعالى: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} {فَخَسَفْنَا}، من الخسف وهو الذهاب في الأرض - وخسف الله به الأرض: أي غاب به فيها: وخسفت الأرض وانخسفت: أي ساخت بما فيها ٦٢ والفاء للعليّة - والمعنى: أن الله خسف الأرض بقارون وبداره، أي غيّبه الله وغيّب داره في الأرض، جزاء بطره وعتوه واستكباره، فقد طغى قارون وبغى واغترّ اغترارا كبيرا، وصال تيها وخيلاء لفرط غروره وافتتانه بالدنيا وزينتها.
وهذا جزاء المتكبرين العتاة الذين يسرفون في البغي والعتو والباطل، لا جرم أن الله لهؤلاء بالمرصاد، فهو يملي لهم حتى إذا حان أجل الانتقام أخذهم أخذ عزيز مقتدر.
قوله: {فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ} ليس له حين خسف الله به الأرض من معين ولا مجير غير الله، من يبذل له العون أو يدرأ عنه ما حاق به من الهلاك {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} أي ليست له منَعة يمتنع بها من نقمة الله.
٨٢ - (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)
قوله: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ} {وَيْكَأَنَّ}: وي منفصلة من كأن، وهي اسم سمي به الفعل وهو أعجب - وهي كلمة يقولها المتندم إذا أظهر ندامته ٦٣ - وعلى هذا فإن وي، كلمة تندم أو تعجّب - وهي مفصولة عن كأن وهي تستعمل عند التنبه للخطأ وإظهار التندم - قال سيبويه: سألت الخليل عن هذا الحرف فقال: إن وي مفصولة من كأن، وأن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم: وي - والمعنى: أن القوم الذين تمنوا ما كان لقارون من عظيم الشأن في الزينة والمتاع لما شاهدوا ما نزل بقارون من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن الرغبة في احتلال مكانه من الزينة الباهرة، فندموا وخافوا وقالوا: {وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ} أي أن الله يبسط رزقه لمن شاء من عباده فيوسع عليه فيه ليس لفضل منزلته عنده أو كرامته عليه {وَيَقْدِرُ} أي ويضيق على من شاء من عباده ويقتر عليه ليس لهوانه عليه؛ بل لله في ذلك الحكمة البالغة لا يعلمها إلا هو سبحانه - وفي الحديث المرفوع عن ابن مسعود: " إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب ".
قوله: {لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا} يعني لولا أن الله قد تفضل علينا برحمته ولطفه فصرف عنا ما كنا نتمناه من مكان الفاسق الباغي قارون لحاق بنا من الخسف والدمار ما حاق به.
قوله: {وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} أي ألم تر أن الكافرين لا فوز لهم ولا منجاة وأنهم صائرون إلى التّعس والخسران ٦٤.
٨٣ - (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)
قوله: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.
اسم الإشارة {تلك} تعظيم للدار الآخرة وتفخيم لشأنها، والمراد بها الجنة، حيث النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، فقد جعل الله ذلك كله لعباده المؤمنين المتواضعين {لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ} أي لا يبتغون أن يترفعوا استكبارا على عباد الله وتعاظما عليهم

وتجبرا بهم - ولا يبتغون الإفساد في الأرض بفعل المعاصي والسيئات وكل وجوه المنكر من ظلم وقتل وأخذ لأموال الناس بالباطل.

قوله: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} المراد بالعاقبة الجنة، فقد جعلها الله للمتقين وهم: الذين اجتنبوا المعاصي، وأدوا فرائض ربهم، وخافوا الله في السر والعلن.

٨٤ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} أي من فعل الحسنة في الدنيا فله من حسن الجزاء يوم القيامة ما يفوق عمله الذي قدمه، إذ يجازيه ربه بحسنته عشر أمثالها وأكثر، وهذا من فضل الله وبالغ منه على عباده المؤمنين ورحمته بهم {وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي لا يجزي المسيئون وأصحاب المعاصي إلا مثل ما كانوا يعملون - وذلك عدل من الله مطلق ٦٥.

٨٥ - (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد وأوجب عليك تبليغه للناس {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} أي لمُصَيّرك إلى الجنة - وقيل: رادك على يوم القيامة، أو يجيء بك يوم القيامة - وقيل: رادك إلى الموت - وقيل: رادك إلى الموضع الذي خرجت منه وهو مكة - أي رادك إلى مكة ظاهرا على قومك الذين أخرجوك، منتصرا عليهم، وهو قول كثير من المفسرين.

قوله: {قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} {مَن}، في موضع نصب بفعل مقدر دل على قوله: {أعلم} وتقديره: يعلم من جاء بالهدى ٦٦ والمعنى: قل لهؤلاء المشركين الضالين: ربي أعلم منكم بالذي جاء بالهدى، وهو نفسه صلى الله عليه وسلم، وأعلم من هو سادر في الغي، جائر عن سواء السبيل.

٨٦ - (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ)

قوله: {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} أي ما كنت يا محمد تظن أو تعلم قبل نزول القرآن إليك أن الله باعثك للناس بشيرا ونذيرا، وأنه منزل القرآن عليك تنزيلا {إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} استثناء منقطع بمعنى لكن، أي لكن كان إنزاله عليك رحمة من ربك {فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ} أي لا تكن عونا لهم ولا تركن إلى قولهم المضل المغوي.

٨٧ - (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: {وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ} أي احذر المشركين أن يصرفوك عن تبليغ ما أنزل إليك من ربك، وذلك بما يصطنعونه في وجهك من العراقيل والمعوّقات، وما يفتعلونه من الإغراء والإغواء للصد عن دين الله.

قوله: {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ} ادع الناس إلى دين الله وسلوك طريقه المستقيم واتباع منهجه الحكيم وما تضمنه من هداية للناس وترشيد.

قوله: {وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} يحذره ربه إغراء المشركين وإغواءهم؛ إذ كانوا يدعونه إلى تعظيم أوثانهم في مقابل توليته عليهم أو جعله أكثرهم مالا.

٨٨ - (وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} يحذره ربه أن يعبد أحدا غيره، فإنه ليس من أحد جدير بالعبادة سواه.

قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، منصوب على الاستثناء ٦٧

والمعنى: أن كل شيء في الوجود صائر إلى الفناء والهلاك لا محالة، باستثناء وجه الله الكريم - وقد عبّر عن الذات بالوجه؛ فهو سبحانه الدائم الباقي الذي لا يفنى ولا يزول، وما دونه من الخلائق كافة صائر إلى الموت المحتوم.

قوله: {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} الله يقضي في الخلق بما يشاء وكيف يشاء، ثم مردهم إلى جميعا إليه يوم القيامة ليلاقوا جزاءهم الموعود ٦٨.

٢٩ سورة العنكبوت:

سورة العنكبوت:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها - وهي فيها من القصص وأخبار السابقين من المرسلين والأمم ما فيه موعظة ومزدجر لكل ذي بال وعقل - فما يتفكر البصير في مضمونات هذه السور العظيمة حتى يغشاه الإعجاب والدهش والرهبة لعظيم ما يجد من فظائع الظالمين، وما نزل بهم من هلاك وويلات وتدمير؛ كقوم نوح ولوط وشعيب وقوم عاد وثمود - وكذلك قارون وفرعون وهامان، أولئك العتاة الأشرار الذين دمّر الله عليهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر بما شاء من صور البلاء والتدمير جزاء طغيانهم وفسادهم وصدهم عن دين الله ومنهجه القويم للناس.

وفي السورة تنديد بالغ وتهجين شديد لأولئك المشركين الخاسرين الواهمين، الذين يَلون الطغاة المتجبرين من الساسة الكفرة والولاة الغاشمين المتسلطين على رقاب المسلمين، يبتغون عندهم الحظوة في الجاه أو المكانة أو الرعاية والحماية - أولئك هم الأرذال والحائرون المستخَفون من أولي القلوب الخاوية والعزائم المنهارة، الذين يلهثون خلف الساسة المجرمين والحاكمين العتاة؛ ليجدوا في ظلمهم وتحت سطوتهم بعض ما يبتغون من الحوائج الدنيوية المبتذلة - وأولئك في صنيعهم المهين هذا إنما مثلهم مثل الذي يثوي إلى بيت العنكبوت ليجد بين خيوطه وتحت نسيجه الواهي الحماية والرعاية - لا جرم أن {أوهن البيوت لبيت العنكبوت}.

إلى غير ذلك من القضايا؛ كالتوصية بالفريضة الكبرى للصلاة، ومجادلة أهل الكتّاب من اليهود والنصارى بالرفق واللين وحسن الحديث.

على أن السورة كلها جاءت مبدوءة بالاستفهام الإنكاري {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} وذلك ليتبين للمسلمين والدعاة إلى الله أنهم مبتلون في حياتهم الدنيا بمختلف ضروب البلاء، كيما يستبين الصادقون من الكاذبين، والمخلصون من المنافقين، والأقوياء من الخائرين - جعلنا الله من الثابتين الصابرين المخلصين إلى يوم الدين.

١ - (الم)

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ}.

مضى الكلام عن الحروف المقطعة من فواتح السور.

٢ - (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)

والاستفهام هنا في قوله: {أحسب الناس} للتوبيخ - و {أَن} والفعل، في موضع نصب للفعل {أَحَسِبَ} وقد سدت أن والفعل مسدّ مفعولي حسب - وأن يقولوا: في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: بأن يقولوا - وقيل: بدل من الأولى ١؛ فالله يبين لعباده المؤمنين أنه لا بد من ابتلاءهم في حياتهم الدنيا بحسب ما آتوه من درجات الإيمان، فكل مبتلى بدرجة إيمانه وعزيمته - وبذلك فإن المؤمنين المخلصين الأبرار مبتلون في أنفسهم وأموالهم ومصالحهم بل هم أشد الناس ابتلاء ومواجهة للفتن على اختلافها وتعدد صورها وأشكالها - وفي الحديث الصحيح: " أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل - يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء " جعلنا الله من المخلصين الصابرين الثابتين على الحق.

على أن المراد بالناس في الآية: قوم من المؤمنين كانوا بمكة وكان المشركون يؤذونهم بالغ الأذى ويعذبونهم أشد تعذيب بسبب إسلامهم، كعمار وأبيه ياسر وأمه سمية وغيرهم من المسلمين المستضعفين الذين جار عليهم الظالمون فنكلوا بهم تنكيلا لاستمساكهم بعقيدة الإسلام ورفضهم عقائد الكفر وملل الضلال والباطل - فنزلت هذه الآية لتواسيهم ولكي تُسرّي عنهم وتكفكف عن نفوسهم وقلوبهم ما كان يعتريها من الألم والمضاضة والاغتمام.

على أن هذه الآية، وإن نزلت بهذا السبب وما في معناه، لكنها باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم لينسحب معناها ومقتضاها على المسلمين في كل زمان؛ ذلك أن الفتنة ما فتئت تصيب المسلمين في سائر الأزمان والبلدان؛ تصيبهم في أبدانهم وأموالهم وأرزاقهم وكراماتهم وأوطانهم مما يبتليهم به الله من مختلف البلايا، أو ما يحيف به الظالمون والطغاة عليهم - أولئك العتاة الغلاظ من مجرمي البشر وشياطين الإنسانية الذين يبطشون بالمسلمين ويتفاخرون بتعذيبهم والتنكيل بهم كلما سنحت لهم الأحوال والظروف، ليستذلوهم مرة، أو ليقتلوهم مرة أخرى، أو يخرجوهم من ديارهم ويستأصلوهم استئصالا في كثير من الأحيان العصيبة التي ألمت بالمسلمين وحاقت بهم ليُشردوا ويُهجّروا أو يُقتلوا تقتيلا - وقد حصل للمسلمين مثل ذلك في مختلف الأزمان والأوطان، كالأندلس، وفلسطين، وكشمير، والبوسنة والهرسك وغير ذلك من الأوطان التي ذُبح فيها المسلمون بالكلية أو شردوا وهجروا من ديارهم تهجيرا.

٣ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

قوله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} {فتنا} من الفتنة وهي الاختبار والامتحان ٢، أي ابتلينا السابقين من المؤمنين وامتحناهم بمختلف الوجوه من البلاء، كإبراهيم الخليل، إذ ألقاه الظالمون في النار.

وكذلك غيره من المؤمنين الذين نُشّروا بالمناشير وقطعت أطرافهم وأعضاؤهم تقطيعا وما صدهم ذلك كله عن دينهم - وقد روى البخاري عن خباب بن الأرث قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد لحمهُ وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه - والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون ".

قوله: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ}: أي ليرين اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم وليرين الكاذبين - وقيل: ليُظهرن الله الذين صدقوا وليُظهرن الكاذبين - وقيل: ليُميزنّ الله الصادقين من الكاذبين - والمقصود: أن الله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان، وقبل أن يخلق الصادق أو الكاذب نفسه.

وإنما المراد إظهار الصادق والكاذب في قولهما والتمييز بينهما بما يصيبهما من بلاء.

٤ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

قوله: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا} أم حسب المشركون والظالمون الذين يتلبسون بالكفر والمعاصي أن يفوتونا ويعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم ومؤاخذتهم بذنوبهم وما فعلوه - والمراد بهم الظالمون الذين يحادّون الله ورسوله، المدبرون عن دين الله إدبارا جامحا - ويأتي في طليعة هؤلاء الجبابرة، الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وأبو لهب، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم من عتاة البشرية وشياطين الإنس في كل زمان.

قوله: {سَاء مَا يَحْكُمُون} أي بئس الحكم حكمهم، أو ساء حكمهم الذي يحكمون بأن هؤلاء العصاة الفاسقين يسبقوننا بأنفسهم ٣.

٥ - (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

المراد بالرجاء في الآية: الخوف، أي من كان يخاف لقاء الله وهو الموت.
وقيل: الرجاء معناه الطمع - أي من كان يطمع في حسن الثواب والجزاء بلقاء الله {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ} أي أجله لبعث الخلائق آت قريبا - فكل ما هو آت آت - وكل آت قريب لا محالة - وحينئذ يجازي الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات خير الجزاء.
قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الله سميع لما يقوله العباد من دعاء ورجاء وذكر وتسبيح وتحميد - وهو سبحانه عليم بما يخفونه في صدروهم وما تصنعه جوارحهم من الأفعال.
٦ - (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)
قوله: {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} أي من جاهد في الله بمختلف وجوه الجهاد، كأن يصبر على الطاعات يتجنب المعاصي والموبقات ويفعل الخيرات، ويجاهد الكفار والمنافقين، فعاقبة ذلك كله من الأجر وحسن الثواب إنما يعود عليه نفسه، ولا يعود على الله من ذلك شيء - فليس لله بذلك من حاجة، لأن الله جل وعلا غني عن جميع الخلائق، فهو مالك كل شيء وبيده الأمر كله - وهو قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}.
٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)
قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} أي الذين آمنوا بالله وحده وأفردوه بالوحدانية والألوهية دون سواه - وآمنوا برسوله نبيا صادقا وهاديا ومبلغا للناس دعوة ربه، وأدوا الفرائض والطاعات، وعملوا الحسنات والصالحات، فلسوف يثيبهم الله على ما فعلوه من الصالحات أحسن الثواب وخير الجزاء، وهو أن يكفر عنهم أسوأ ما عملوه ويجزيهم من الأجر بأحسن ما كانوا يعملون ٤.
٨ - (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}.
قال المفسرون: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة: يا سعد، بلغني أنك صبوت، فو الله لا يظلني سقف بيت من الضّح ٥ والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وترجع إلى ما كنت عليه، وكان أحب ولدها إليها، فأبى سعد، فصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل حتى غُشيَ عليها، فأتى سعد النبي صلى الله عليه وسلم وشكا ذلك إليه - فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وروي عن سعد أنه قال: كنت بارّا بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيّرُ بي ويقال: يا قاتل أمه - وبقيت يوما ويوما فقلت: يا أماه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا - فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي - فلما رأت ذلك أكلت - ونزلت {وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي} الآية ٦.
وهذه جملة من آيات يأمر الله فيها ببر الوالدين والإحسان إليهما وإسداء الخير والمعروف لهما وطاعتهما تمام الطاعة ما لم يكن في ذلك إثم أو معصية - ولا عجب فإن فضل الوالدين على الإنسان عظيم، بل إن فضلهما عليه يفوق كل فضل ولا ما كان من فضل الله، فإنه يدنو دونه كل فضل.
ويأتي في طليعة الفضل للوالدين على الإنسان: أن الإنسان بعض والديه أو جزؤهما - فهما السبب في وجوده على هذه الأرض - إلى غير ذلك من المشقة والهم والتعب، من أجل ذلك أعظمَ الله الإيصاء بالوالدين ووجوب طاعتهما والبر بهما، وأن لا يؤذيا بأدنى مراتب الإيذاء وهو النبس بأفّ - فقال: سبحانه: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً} {حُسْناً}: منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، أي وصيناه إيصاء حسنا - وقيل: مفعول لفعل مقدر، وتقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا.

قوله: {وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} أي إن بذلا جهدهما في الطلب منك أن تشرك بالله أحدا لا تعلم أنه إله فلا تطعهما في ذلك؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق - والمراد بنفي علمه: نفي الشريك لله بالكلية، فإن ما لا يُعلم أنه إله لا يجوز أن يعبد أو يتبع - ويُلحق بالنهي عن مطاوعة الوالدين في الإشراك: مطاوعتهما في كل المعاصي؛ فإنهما لا يطاعان البتة فيما فيه معصية لله سبحانه.

قوله: {إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} إلى الله معاد الناس، فهم لا محالة صائرون إلى ربهم يوم القيامة، وحينئذ يخبرهم الله بما عملوه من طاعات وسيئات ثم يجازيهم على الحسنة بالإحسان، وعلى السيئة بالعقاب.

٩ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} أي الذين آمنوا بالله ورسوله واتبعوا النور الذي أنزل معه وهو القرآن وما فيه من أوامر ونواه ومواعظ وأحكام، وعمل الطاعات والصالحات، وازدجر عن النواهي والآثام والموبقات، أولئك يجعلهم الله من أهل الطاعات والصلاح وفي زمرة المؤمنين الصالحين ليكون جزاؤهم الجنة.

١٠ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} ذلك إخبار من الله عن فريق من الناس آمنوا بألسنتهم ولم يُفض الإيمان إلى قلوبهم - فهم إذا أصابهم في الله بلاء أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا عن دينهم وولوا شاردين مرتدين عن دين الله، وجعلوا فتنتهم في الدنيا كعذاب الله في الآخرة - وقيل: نزلت في ناس من المنافقين كانوا يتصنعون الإيمان، فإذا أصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر مخافة الأذى وخشية من تعذيب الكافرين والظالمين، وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة.

والصحيح أن ذلك في سائر الذين تتزعزع قلوبهم وعزائمهم وتضطرب هممهم وأبدانهم من ضَعَفة الإيمان أو الذين في قلوبهم مرض أو المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام والإيمان تكلفا، فإنهم عند وقوع المحنة والبلاء من الكافرين والظالمين يبادرون بخلع أنفسهم من الإسلام ليرتكسوا في الشرك والباطل ترضية للكفرة الذين أخافوهم وأفزعوهم.

قوله: {وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} إذا جاء المسلمين نصر من الله فأظهرهم الله على الكافرين قال لهم هؤلاء الخائرون والمنافقون الذين ارتدوا عن دين الإسلام مخافة العذاب والمحنة: {إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أي كنا نعتقد ما تعتقدون ونحن لكم عون - وهم في الحقيقة كاذبون - وإنما قالوا ذلك بعد ما أظفر الله المسلمين بأعدائهم وغنموا منهم كثير الغنائم.

قوله: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} استفهام توبيخ؛ فإن الله جل وعلا أعلم من الناس بما يستكنُّ في قلوبهم من خير أو شر - فما زعموه من إيمان متكلَّف؛ إن هو إلا كذب مكشوف لا يخفى على الله علام الغيوب.

١١ - (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

قوله: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} أي ليميزنَّ الله المؤمنين من الكافرين، والمخلصين من المنافقين، بما يبتليهم به من المحن والفتن ليستبين بذلك الحق من الباطل، وينكشف الأبرار من الدجاجلة.

وفي الامتحان بضروب البلايا والمحن يتثاقل المريبون والذين في قلوبهم زيغ، ويتداعى الكاذبون والمنافقون لينتكسوا إلى حمأة الردة والباطل.

وأما المؤمنون الراسخون في عقيدة الحق والتقوى فإنهم لا جرم ثابتون ظاهرون على منهج الإسلام حتى يلقوا ربهم وهم على دينه ٠٧.

١٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

هذا إخبار من الله عن فريق من المشركين السخفاء الذين غلبت عليهم الشقوة وأعماهم الضلال والسفه فراحوا يتصدون للمؤمنين بما يغويهم مما اصطنعوه من سقيم الحجة ومكذوب النطق قائلين لهم في عماية وسفاهة واستخفاف {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم} أي اتبعوا ديننا واجتنبوا دينكم، دين التوحيد، وكونوا على مثل ما نحن عليه من إنكار البعث بعد الممات {ولنحمل خطاياكم} وتقديره: ولنحمل خطاياكم عنكم ٨ أي إن اتبعتم ديننا فإننا نتحمل ما عليكم من آثام وخطايا - أو إن كانت لكم آثام وذنوب في ترك دينكم فهي علينا وفي رقابنا.

قوله: {وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون} لقد كانوا في قيلهم ذلك للمؤمنين - فإنهم خير حاملين من آثامهم شيئا؛ فإن أحدا لا يحمل وزر أحد، وإنما هم كاذبون فيما قالوه لهم وما وعدوهم به من حمل الخطايا.

١٣ - (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: {وليَحملُنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم} ذلك وعيد من الله مخُوف لدعاة الكفر والباطل، الذين يضلون الناس ويفتنونهم عن دينهم بإغوائهم وإيرادهم موارد الفساد والردة، بأن مصيرهم إلى النار، وأنهم ملاقوا عقابهم الشديد المضاعف؛ فهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ويحملون أوزارا أخرى بسبب إضلالهم وفَتنهم عن دينهم.

وذلك هو مصير الأشقياء والمجرمين من أكابر الشياطين البشرية، أولئك الفتانون المضلون الدجاجلة الذين أغووا الناس وفتنوهم عن جادة الحق والصواب، ليزلقوهم إلى الفساد والكفر والباطل، ويحرفوهم عن منهج الإسلام بما زينوه لهم من الأساليب المموهة والمخططات الخبيثة المخادعة، التي انطلت على كثير من أبناء المسلمين فانسلخوا عن عقيدة الإسلام أيما انسلاخ مما أسقطهم في براثن الضلالات والثقافات والملل الكافرة الغربية

أولئك المضلون الفتانون الذين أضلوا الناس بالإغواء بمعسول الكلام، يجيئون يوم القيامة وهم يجرجرون ذنوبهم وآثامهم الثقيلة فوق ما يحملونه من الخطايا الأخرى الثقال جزاء إفسادهم غيرهم من الناس - وفي الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا - ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا ".

قوله: {وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} الله سائل هؤلاء المفترين يوم القيامة عن كذبهم على الناس وعن إضلالهم وعن إزلاقهم إياهم ليرتدوا عن دينهم ارتدادا، وهو مجازيهم ما يستحقونه من أليم العذاب ٩.

١٤ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} {أَلْفَ سَنَةٍ} منصوب على الظرف - و {خَمْسِينَ عَامًا} منصوب على الاستثناء، وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول - وقيل: إنه مفعول محض كقولك: استثنيت زيدا ١٠.

هذه قصة نوح عليه الصلاة والسلام يذكرها الله تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم كيلا يغتم أو يجزع مما أصابه من قومه من شديد الإعراض والأذى - فلقد لقي نوح من قومه من المكاره والآلام والألوان الصدّ ما يعزّ على الوصف وما لا يطيقه غير أولى العزائم من النبيين الميامين - لقد دعا قومه إلى دين الله ونبذ الشرك ألف سنة إلا خمسين وهو يحاورهم خلال هذه المدة الطويلة، في الليل والنهار، في السر والعلن - فما كان يزيدهم ذلك إلا عتوا وكفرانا، حتى دعا عليهم دعاءه المعروف فاستجاب الله دعاءه {فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} أهلكهم الله بالتغريق المدمر الجارف، إذ انفتحت عليهم السماء بماءها المنهمر، وتفجّرت الأرض عيونا دافقة

غامرة حتى طمت المياه وجه الأرض فصارت بحرا هادرا لُجيًّا تتلاطم فيه الأمواج الجارفة الثقال، فغرق القوم {وَهُمْ ظَالِمُونَ} الجملة في موضع نصب على الحال: أي هلكوا بالطوفان وقد ظلموا أنفسهم بكفرهم.

١٥ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

قوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} أنجى الله نبيه نوحا والذين آمنوا معه وغيرهم من الدواب من كل زوجين اثنين، ثم أغرق الباقين وهم القوم الكافرون الذين عتوا عن أمر الله فباءوا بخُسران الدنيا والآخرة.

قوله: {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} أي جعلنا السفينة عبرة ظاهرة تتذكرها البشرية وتتعظ بها طول الدهر - وقيل: الضمير عائد على النجاة أو إلى العقوبة؛ ليتذكر الناس ويعتبروا ويخشوا عذاب ربهم وسخطه؛ فإن أخذه أليم شديد ١١.

١٦ - (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}
إبراهيم: منصوب من ثلاثة أوجه - الأول: أن يكون معطوفا على نوح في قوله: {أرسلنا نوحا} والتقدير: وأرسلنا إبراهيم.

الثاني: أن يكون منصوبا بالعطف على الهاء في أنجيناه.

الثالث: أن يكون منصوبا بتقدير فعل، وتقديره: واذكر إبراهيم ١٢ وذلك تذكير بنبي كريم ورسول مفضال عظيم، إمام الحنفاء والصديقين والميامين - وذلكم هو خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حين دعا قومه إلى الوحدانية وإفراد الله وحده بالعبادة، ونبذ الأصنام الجامدة الخرساء التي لا تنطق ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع - وهو قوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} أفردوا الله وحده بالعبادة والتوحيد؛ فإنه المعبود الحق دون سواه - وما غيره إلا المخاليق أو أمم أمثالكم {وَاتَّقُوهُ} أي خافوه واتقوا عذابه بطاعته واجتناب معاصيه.

قوله: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} عبادة الله وحده لا شريك له خير لكم من عبادة الأوثان على اختلاف أشكالها ومسمياتها؛ فإنها فارغة وموهومة وجوفاء لا تجدي ولا تنفع، إن منتم تعلمون الخير من الشر، أو النافع من الضار.

١٧ - (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} الإفك معناه الكذب - ورجل أفاك أي كذاب ١٣ والمعنى: أنكم ما تعبدون إلا أصناما، اصطنعتموها أنتم وأوجدتموها فهي مخلوقة ومكذوبة، وقد سميتموها بأسمائها اختلاقا وإفكا من عند أنفسكم.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ} يعني أن آلهتكم المزعومة الموهومة التي تعبدونها من دون الله ليست غير أصنام جامدة خرساء لا تملك لكم شيئا، فلا تقدر أن ترزقكم بل الله هو رازقكم فالتمسوا عنده الرزق {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي أذعنوا له بالخضوع والطاعة واشكروه على ما رزقكم من مختلف أصناف الرزق، وعلى ما منَّ به عليكم من وجوه النعم، وأنكم لا محالة صائرون إلى الله بعد مماتكم ليسألكم عما فعلتموه في حياتكم الدنيا من طاعة أو عصيان.

١٨ - (وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

قوله: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ} قيل: هذا من قول إبراهيم لقومه - وقيل: بل الله يبين للناس أنهم إن كذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فيما دعاهم إليه من توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة والاستسلام لشرعه ومنهجه الحكيم القويم، فقد كذّب أقوام آخرين من قبلهم؛ إذ جحدوا رسلهم وكذبوا بالحق المنزل من عند الله فحاق بهم غضبه وعقابه الأليم - فإذا لم يزدجر عن غيهم

وضلالهم فسبيلهم كسبيل السابقين المهلكين.
قوله: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} أي ليس على رسولنا محمد إلا تبليغكم دعوة الحق الواضح الأبلج، ورسالة التوحيد الساطع المستبين.
١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)
قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمعنى: ألم ير هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الممات كيف بدأ الله خلق الإنسان من نطفة، ثم أخرجه طفلا صغيرا، ثم جعله غلاما يافعا، ثم رجلا مكتمل البنية والقوة، ثم جعله كهلا ثم يتوفاه بعد ذلك؟ وكذلك سائر الحيوانات والنباتات - فإذا تبين لكم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإنشاء، أفليس ذلك برهانا على قدرته على الإعادة من جديد بعد الفناء؟ فالذي خلقه وأوجده أول مرة خلقا بعد خلق، لا يتعذر عليه أن يعيده مرة أخرى بعد الموت وذلك عليه هيّن وغير عزيز - وهو قوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ١٤.
٢٠ - (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ}.
يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المكذبين الذين ينكرون البعث بعد الموت والفناء: {سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} أي سيروا في البلاد وتفكروا واعتبروا مما ترونه من كثرة الخلائق واختلاف أجناسه وألوانهم وألسنتهم وطبائعهم، وانظروا كيف خلق الله ذلك كله ابتداء لتستيقنوا أن الله قادر على خلقهم مرة أخرى؛ فإن الذي يبدأ النشأة الأولى لا يعزّ عليه أن ينشئ النشأة الأخرى {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وهذا هو التعليل الحقيقي لقضية الخلق، وهو أن الله قادر على فعل كل شيء، فإنه سبحانه لا يعز عليه أن يفعل ما يريد أو يصنع في الخلق ما يشاء - وما الكون والكائنات أو الحياة والأحياء جميعا إلا بيده مقاليدها جميعا - فلا يعجبنَّ بعد ذلك مكابر أو جاهل أو مغرور، من إعادة الخلق بعد الموت والبِلى.
٢١ - (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)
قوله: {يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء} إذا جمع الله الناس ليوم القيامة فإنه يعذب من يستحق منهم التعذيب جزاء عصيانه وتفريطه - وذلك عدل من الله لا ظلم فيه ولا جور - أما الذين آمنوا واتقوا وعملوا الصالحات وثبتوا على الحق فإن الله يرحمهم برحمته فضلا منه ومنّة.
قوله: {وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} أي ترجعون إليه وتردون.
٢٢ - (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)
قوله: {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء} أي أن الله القوي المالك القاهر لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء، بل إنه الظاهر فوق عباده فلا يندُّ عن سلطانه وجبروته كائن.
قوله: {وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} الولي ضد العدو - وكل من ولي أمر واحد فهو وليه ١٥ أي ليس لكم من ولي يلي أمركم ولا نصير ينصركم من الله فيدفع عنكم عذابه إن حل بكم.

٢٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي} الذين ينكرون ما أنزل الله من حجج وأدلة وكذبوا بما أنزل الله على رسوله وجحدوا لقاء الله وكذبوا بالساعة {أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي} أي عند معاينة العذاب يوم القيامة وما يجحده الجاحدون من أهوال وبلايا؛ فإنهم حينئذ ييأسون من رحمة الله ليوقنوا أنهم واردون جهنم فذائقون فيها العذاب الأليم.

٢٤ - (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} ما كان لقوم إبراهيم المشركين من حجة أو برهان على صدق عبادتهم إلا السفه والحماقة والتعصب - إنهم لا يملكون أيما دليل يقولونه لإبراهيم؛ إذ دعاهم إلى عبادة الله وحده وأراد تبصيرهم بحقيقة هذه الأصنام التي يعبدونها على أنها حجارة صماء لا تضر ولا تنفع، ولا تعقل ولا تسمع - لم يكن جوابهم إلا أن قال بعضهم لبعض: {اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} وذلك جواب المستكبرين العتاة الذين أُفرغت أذهانهم من كل منطق أو حجة فما يملكون إلا الخطاب في اغترار وصلف وعجرفة - وذلك هو ديدن الطغاة والمتسلطين المفلسين من الناس، الذين يستضعفون المؤمنين ويستذلونهم أيما استذلال - وهم إذا خاطبهم أمين رشيد يروم هدايتهم واستقامتهم؛ انتفخت أوداجهم غضبا واستكبارا وراحوا يتهددون ويتوعدون - وهكذا كان قوم إبراهيم؛ إذ قالوا فيما بينهم متشاورين متمالئين {اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} مبالغة في التحريق - فقد ألقوه في نار متأججة مستعرة تأتي على ما يلج فيها؛ ليصير إلى رماد لولا أن الله أنجاه بفضله ورحمته {فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} لم يتأذَّ إبراهيم من النار؛ إذ جعلها الله عليه بردا وسلاما - فقد كان في تنجيته من النار دلالات ظاهرة على قدرة الله البالغة، وعبرة لكل ذي عقل وبصر - وهي عبرة قائمة، وعظة مكشوفة يتدبرها المؤمنون المصدقون في كل زمان.

٢٥ - (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

قوله: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ما، في قوله: {إِنَّمَا} تحتمل وجهين - أحدهما: أن تكون اسما موصولا بمعنى الذي، في موضع نصب اسم إن - والتقدير: إن الذين اتخذتموهم من دون الله أوثانا.

وثانيهما: أن تكون ما، كافة عن العمل، فيكون أوثانا منصوبا على أنه مفعول للفعل اتخذتم - ومودة منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي إنما اتخذتم الأوثان للمودة فيما بينكم ١٦.

وعلى هذا يكون المعنى: إن إبراهيم قال لقومه المشركين موبخا لهم توبيخا: إنما اتخذتم هذه الأصنام معبودة لكم من دون الله لأجل التودد، والتواصل فيما بينكم ولاجتماعكم على عبادتها، أو جعلتم الأوثان تحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا} أي تنقلب الخلة يوم القيامة عداوة على أصحابها فيفترق الأخلاء يومئذ ويتباغضون، ويتبرأ الصّحاب المتوادون على الأصنام، بعضهم من بعض يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضا بعد أن كانوا في الدنيا متواصلين مجتمعين على الباطل.

وهذه هي حال المجرمين الظالمين الذين يجمعهم الباطل وتشدهم عُرى الفساد والضلال على اختلاف ضروبه ومسمياته في الدنيا، ليكونوا يدا واحدة على الحق وأهله، أو على الإسلام والمسلمين - لكنهم إذا سيقوا يوم القيامة إلى ربهم غشيهم الذل والمهانة وأرهقهم الذعر والخزي والعار فانقلبوا بين يدي الله خزايا متفرقين، وقد كفر بعضهم ببعض ولعن بعضهم بعضا - ثم مصيرهم جميعا إلى النار وبئس المأوى والقرار - وهو قوله: {وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} ليس لهم حينئذ من مجير ولا نصير يكشف عنهم البلاء أو يدرأ عنهم شيئا من العذاب وإنما هم مجتمعون في النار يتقاحمون فيها كما تتقاحم القردة بلعن بعضهم بعضا، ويكيل بعضهم لبعض التّسابّ والتشاتم واللعائن ١٧.

٢٦ - (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}.

صدَّق لوط خليل الله إبراهيم، وهو ابن أخيه {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} الضمير عائد إلى لوط؛ لأنه أقرب مذكور - وقيل: عاد إلى إبراهيم، ويدل على هذا ما بعده من كلام - وذلك إخبار من الله عن إبراهيم أنه اختار المهاجرة من أظهرهم لشدة ضلالهم ومعاندتهم، ولفرط استكبارهم وعتوهم، وإنما هاجر إلى فلسطين مبتغيا بذلك إظهار دين الله وأن يعبد الله وحده آمنا مطمئنا.

قوله: {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي إن ربي لهو القوي القهار الذي لا يُغلب، وأنه هو الحكيم في تدبيره وتصريفه أمور خلقه.

٢٧ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} امتنَّ الله على إبراهيم بولده إسحق ثم بيعقوب ولد إسحق - فإن ولد الولد بمنزلة الولد - وقد وهبه إسحق من بعد إسماعيل ولده الأكبر.

قوله: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} لم يبعث الله نبيا من بعد إبراهيم إلا كان من سلالته عليه الصلاة والسلام - لا جرم أن هذا تكريم رباني هائل أسبغه الله على خليله إبراهيم - وعلى هذا فإن جميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - حتى آخرهم عيسى بن مريم؛ إذ قام في قومه مبشرا بالنبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم المرسلين وهو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام - وليس من نبي من سلالة إسماعيل سوى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الكتاب، فهو بمعنى الجمع ويراد به الكتب - والمقصود به التوراة والإنجيل والقرآن.

قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} أعطاه الله الثناء الحسن وهو أن كل أهل ملة يتولونه ويعتبرونه ويقولون: هو منا.

قوله: {وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} علاوة على كونه في الدنيا محبوبا لدى أهل الملل السماوية جميعها؛ فإنه في الآخرة من المقربين الأبرار ١٨.

٢٨ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

لوطا: منصوب من ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون منصوبا بالعطف على الهاء في قوله: {فأنجيناه}.

الثاني: أن يكون على قوله: {نوحاً} أي وأرسلنا لوطا.

الثالث: أن يكون منصوبا بفعل مقدر، وتقديره: اذكر لوطا ١٩.

وعلى هذا يكون المعنى: واذكر لوطا حين قال لقومه موبخا ومحذرا: {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ}.

٢٩ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} أي إنكم تأتون الذكران، وهذه فاحشة منكرة مستقذرة ما سبقكم بهذه الفعلة النكراء أحد من قبلكم من العالمين - وقيل: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان كقوم لوط.

قوله: {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ} قال لوط لقومه مستقذرا مقبحا: أئنكم لتأتون الذكران في أدبارهم {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ} كانوا قطاع طريق - وقيل: كانوا يقطعون المسافرين عليهم بفعلهم الخبائث، فقد كانوا يفعلون هذا بمن مرّ عليهم من المسافرين أو بمن ورد بلادهم من الغرباء - ولقد أسرفوا في هذه الفعلة البشعة حتى إنهم استغنوا عن النساء بالرجال.

قوله: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ} النادي معناه المجلس - واختلفوا في المراد بالمنكر الذي كانوا يأتونه في مجالسهم - فقد قيل: كانوا يتضارطون في مجالسهم - فالمراد بالمنكر هنا الضراط - وهذا يكشف عن وقاحتهم وإسفافهم وانحطاط نفوسهم - وقيل: كانوا يحذفون من يمرّ بهم بالحصى ويسخرون منهم، وذلك إتيانهم المنكر في ناديهم.

قوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} أي لم يكن جواب هؤلاء المتفحشين الشذاذ ٢٠ لنبيهم لوط، إذ نهاهم وحذرهم سوء فحشهم وقذرهم: ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا إن كنت تصدق فيما تقول وتنجز ما تعد - قالوا ذلك على سبيل الإنكار والاستخسار والتكذيب.

٣٠ - (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

قوله: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} لما استيأس لوط من إيمان قومه المجرمين وهدايتهم، وأيقن أنهم ماكثون في إيغالهم في المنكر دعا الله أن يظهره عليهم وأن يعذبهم تعذيبا.

٣١ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

قوله: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} المراد برسل الله الملائكة، فهم لما جاءوا إبراهيم بالبشرى من الله بإسحق ومن بعد إسحق يعقوب قالوا له: إنا آتون لإهلاك أهل هذه القرية –وهي سدوم- حيث يقيم قوم لوط- إذ كانوا عصاة مجرمين، ظلموا أنفسهم في الكفر والرذيلة وسوء الفعال.

٣٢ - (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

قوله: {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا} قال إبراهيم لرسل الله من الملائكة عقب قولهم، إنهم آتون لإهلاك قوم لوط: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا} وهو من الأبرار الأطهار الصالحين {قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا} نحن أعلم منك بالذين هم فيها من الظالمين من قومك، ونعلم أن لوطا ليس من الظالمين بل من أولياء الله الصالحين {لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} أي لننجين لوطا وأهله الذين آمنوا معه من الهلاك النازل بالقوم المجرمين {إِلَّا امْرَأَتَهُ} استثنوا امرأة لوط، فقد {كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} أي من الهالكين، أو من الباقين في الهلاك.

٣٣ - (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

قوله: {وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ} لما جاءت رسل الله من الملائكة نبي الله لوطا ساءه مجيئهم إليه لسوء ظنه بقومه الخبثاء الأشقياء {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} أي ضاق صدره بهم مخافة عليهم مما يعلمه من خبث قومه وسوء فعلهم.

قوله: {وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ} قالت رسل الله لنبي الله لوط لما رأوا حزنه وضيقه وابتئاسه من جيئتهم: لا تخف علينا ولا تحزن من وصول قومك إلينا {إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ} الكاف في قوله: {مُنَجُّوكَ} في موضع جر بالإضافة - و {أَهْلَكَ}: منصوب بفعل مقدر، وتقديره: وننجي أهلك ٢١، أي أننا منجوك يا لوط من الهلاك النازل بقومك ومنجو أهلك الذين آمنوا معك {إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} أي من الباقين الذين يأتي عليهم الهلاك، لأنها كانت تدل قومها المجرمين على ضيوفه لوط فيقصدونه - فبالدلالة صارت واحدة منهم.

٣٤ - (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

قوله: {إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ} والرجز في اللغة معناه العذاب ٢٢، واختلفوا في ماهيته، فقيل: حجارة منزلة عليهم من السماء - وقيل: نار تحرقهم حرقا - وقيل: خسف - فقد قالت الرسل للوط أنهم منزلون على أهل هذه القرية -وهي سدوم- عذابا من السماء لإهلاكهم وتدميرهم {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} أي بفعلهم المعاصي وإتيانهم الفاحشة النكراء.

٣٥ - (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله: {وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أبقى الله من قرى قوم لوط آثار منازلهم الخربة - وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض ما بين القدس والكرك - فتكون عبرة وعظة يتذكرها المتفكرون من الناس طيلة الزمان ٢٣.

٣٦ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} أي أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا وهو أخوهم في النسب، إذ هو من جنسهم - أرسله الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده والإذعان له بالخضوع والطاعة {وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ} أي خافوا اليوم الآخر لما فيه من سوء الحساب والجزاء.

قوله: {وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} عثا عثوا: أي أفسد ٢٤، أي لا تفسدوا في الأرض بفعل المعاصي، بل توبوا إلى الله واستقيموا واعملوا الصالحات {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}.

٣٧ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} كذب أهل مدين نبيهم شعيبا فيما جاءهم به، ودعاهم إليه فأخذهم الله بالرجفة - وهي في اللغة تعني الاضطراب ٢٥ والمراد بها هنا الزلزلة الهائلة.

قوله: {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} أي ميتين بعضهم فوق بعض.

٣٨ - (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

قوله تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}.

{عَادًا وَثَمُودَا}، منصوب من ثلاثة أوجه - الأول: أن يكون معطوفا على الهاء والميم في قوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}.

الثاني: أن يكون منصوبا بالعطف على {الذين} في قوله: {ولقد فتناّ الذين من قبلهم}.

الثالث: أن يكون منصوبا بفعل مقدر، وتقديره: وأهلكنا عادا وثمود ٢٦ وقيل: بفعل تقديره اذكر - فيكون المعنى: واذكروا قوم عاد وقوم ثمود، إذ أرسلنا إليهم هودا وصالحا فكذبوهما فأهلكنا عادا بالريح، وأهلكنا ثمود بالصيحة {وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ} أي تبين لكم من خراب مساكنهم وخوائها منهم، ما أنزلناه بساحتهم من الهلاك.

قوله: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} أي سوّل لهم الشيطان بوساوسه الخفية الشريرة كفرهم بالله وتكذيبهم لرسله {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} أي أضلهم وردهم عن طريق الله ومنهجه القويم الحكيم، بتزيينه لهم الكفر والباطل.

قوله: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} أي كانوا عقلاء متمكنين من النظر والتفكير - أو كانوا يعرفون الحق من الباطل لوقوفهم على الأدلة والبراهين لكنهم لجوا في الضلالة والتمرد ٢٧.

٣٩ - (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

قوله تعالى: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن

كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.
قارون وفرعون وهامان: أسماء منصوبة بالعطف على {وعاداً} ولا تنصرف للعجمة والتعريف ٢٨.
والمعنى: واذكر يا محمد، قارون وفرعون وهامان، هؤلاء الطغاة العتاة المستكبرين - فقارون صاحب الأموال الكثيرة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر، ووزيره هامان، وهما قبطيان كفرا بالله وبرسوله موسى عليه السلام، إذ جاءهم بالآيات الواضحات وضوح الشمس، والدالة على صدق نبوته ورسالته، وهي معجزاته المعروفة {فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ} استكبروا عن التصديق والإيمان بالله ورسوله فلجوا في عتوهم كافرين معاندين.
قوله: {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} أي لم يفوتونا بأنفسهم ولم يعجزونا، بل كنا مقتدرين عليهم فهم في قبضتنا ولذلك أهلكناهم {فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً}.
٤٠ - (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
{فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً} وهم قوم لوط، إذ أرسلنا عليهم حاصبا من السماء، أي حجارة تدمرهم - والحاصب الريح الشديدة تثير الحصباء وهي الحصى الصغار ٢٩.
قوله: {وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} المراد بهم ثمود قوم صالح، وكذلك أهل مدين، قوم شعيب - فكلا الأمتين قد أخذتهم الصيحة فأتت عليهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين.
قوله: {وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ} يعني قارون، فقد خسف الله به وبداره الأرض فانساخ فيها فكان من الهالكين.
قوله: {وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا} يعني بذلك قوم نوح وقوم فرعون وملأه فقد عتوا عن أمر ربهم وجحدوا النبوة وكذبوا الرسل فأخذهم الله بالطوفان والتغريق.
قوله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} لا يظلم الله أحدا من خلقه، وما الله بظلام للعبيد - فلم يأخذ هؤلاء المجرمين ظلما بل أهلكهم بسبب طغيانهم وكفرهم وشدة جحودهم آلاءه وأياديه عليهم، وبذلك ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب ٣٠.
٤١ - (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}.
مثل وما بعده، مبتدأ، وخبره الكاف في قوله: {كمثل} ٣١ والأولياء: جمع ومفرده الولي - ومعناه المحب والصديق والنصير - ومنه المولى وهو الحليف والرب والناصر والمنعم ٣٢.
وهذا مثل ضربه الله المشركين من الناس الذين يتخذون لهم من دون الله أنصارا وأعوانا ومتبوعين يتولونهم ويركنون إليهم ويحبونهم كحب الله أو أشد، فيتوجهون إليهم بالعبادة والخضوع والامتثال أو الإذعان الوجداني بالإحساس والمشاعر - وهم في ذلك يبتغون عندهم النصرة والعون والتأييد ويرجون منهم تحصيل ما يشتهون من منافع وحاجات دنيوية، كالجاهات والدرجات والعزة ووافر الأموال.
على أن الأولياء المقصودين أصناف متعددة ومختلفة، منها: الأصنام والأوثان - ومنها: الثراء الفاحش والأموال الطائلة، ومنها: حب الشهرة والاستعلاء والظهور، ومنها: الساسة الطغاة والمتجبرون من الحكام وأولي السطوة والسلطان - وغير ذلك من وجوه الأنداد والمعبودين الذين يتخذهم الضعفاء والحائرون والغافلون آلهة من دون الله يلجئون إليهم، ويثوون إلى جانبهم تمام الثواء ويركنون إلى سلطانهم وجاههم تمام الركون، ويحومون من حول حماهم وحصونهم حوم الذباب على الفتات المتساقط، هؤلاء هم المشركون السفهاء والمغفلون والواهمون يتزاحمون من حول متبوعيهم ومعبوديهم على اختلاف أسمائهم ومسمياتهم، إذ يخاطبونهم في هوان وضَعَة وخَوَر ويتحدثون إليهم أحاديث المرذولين الخانعين - أولئك جميعا مثلهم {كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً} والعنكبوت في ذاته من الحشرات

الصغيرة الضعيفة، يصنع لنفسه بيتا رقيقا مهلهلا وفي غاية البساطة والهوان - وهو نسيج من خيوط واهية متشابكة هشة لا تصون ثاويا، ولا تحمي مستكنا، ولا ترد عما بداخله أيما أذى أو ضُر - وهو بيت هزيل ومضطرب وفي غاية الهشاشة لا يدفع عن صاحبه حر الشمس اللافحة، ولا يصد عنه قرَّ البرد القارس اللاسع - وهو قوله: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ} من الوهن وهو الضعف - لا جرم أن بيت العنكبوت بخيوطه الرقيقة الواهية لهو غاية البساطة والضعف - وهو في هذا الحال من الهوان والبساطة لا يقي العنكبوت بداخله من الأذى ولا يحميه من عبث العابثين ولا يصد عنه أيما اختراق من ماء أو ريح أو شمس - فهو بداخله غير مصون ولا مكين.

وتلك هي حال الأتباع من المشركين الواهمين الذين يلهثون وراء معبوديهم من الأصنام والأنداد على اختلاف أجناسهم وأسمائهم؛ إنهم لا يجدون في كنفهم وحماهم غير الفشل والخذلان والخسران، وسوف لا يبوءون من وراء استجدائهم غير الذلة والابتئاس.

قوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} لو كان هؤلاء المشركون الذين اتخذوا من دون الله أندادا آلهة يعلمون أن عبادتهم لا قيمة لها، وأن الذين ركنوا إليهم من المعبودين أشبه ببيت العنكبوت الواهن الهزيل، لما اتخذوا من دون الله أولياء.

٤٢ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} {ما}: فيها وجهان: أحدهما: أن تكون ما بمعنى الذي، وهو في موضع نصب للفعل يعلم - وتقديره: إن الله يعلم الذين يدعونه من دونه من شيء، والمراد: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه.

ثانيهما: أن تكون {ما} استفهامية في موضع نصب للفعل {يدعون} - وتقديره: أي شيء تدعون من دونه ٣٣ وقيل: {ما} نافية - فيكون المعنى: إن الله يعلم أنكم تدعون من دونه من شيء؛ أي ما تعبدون ليس بشيء.

قوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الله القوي القهار، ينتقم من المجرمين والظالمين الذين يضلون عن سبيل الله ويتخذون من دونه أولياء يركنون إليهم - وهو سبحانه حكيم في تصريف الأمور للخلق، فهو مهلك الطغاة والمشركين، وممتحن الصابرين وراحمهم بفضله وإحسانه.

٤٣ - (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ)

قوله: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} يعني هذا المثل وأشباهه ونظائره يضربها الله للناس تقريبا لأذهانهم، وهي لا يعيها ويدرك فائدتها ومغزاها إلا المتفكرون من أهل النظر والبصيرة ٣٤.

٤٤ - (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}.

خلق الله السماوات والأرض بالعدل والقسط الذي لا عوج فيه ولا بعث - والسماوات والأرض في عظيم بنائها، وروعة نظامها واتساق أجزائها ومركباتها وأجرامها، وانسجام قوانينها ونواميسها المطردة؛ لأكبر دلالة على عظيم قدرة الله وتفرده بالألوهية - وقد خص المؤمنين بكونها آية لهم؛ لأنهم أكثر الناس اعتبارا واتعاظا وتدبرا لما يخلقه الله - وذلك لمبادرتهم الإيمان والتصديق - ولما هم عليه من طبائع وسلامة الفطرة.

٤٥ - (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

قوله: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} أي اقرأ على الناس القرآن الذي أوصاه الله إليك لتبلغه إليهم وتدعوهم إلى العمل بمقتضاه والتزام ما جاء به من الأحكام والمعاني.

قوله: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ} {الْفَحْشَاءِ}: ما قبح من الأعمال، {وَالْمُنكَرِ}: معاصي الله؛ فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأداء الصلاة المفروضة بحدودها وتمام أركانها وشروطها، فإن في الصلاة منتهى ومزدجرا عن معاصي الله - ذلك أن الصلاة مشغلة للقلب بحب الله ودعائه والخشوع بين يديه - وهي بذلك ترتدع بها نفس المصلي عن فعل الآثام والمعاصي فينتهي بها

المرء عما نهى عنه الله وزجر.
وفي الحديث من رواية ابن عباس مرفوعا - " من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده صلاته إلا بعدا " وعن عمران بن الحصين قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} قال: " من لم تنهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ".

قوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي أن ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه، أو ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم - وهو قول ابن عباس وابن مسعود وأبي الدرداء وغيرهم - وروي مرفوعا عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ذلك: " ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ".

قوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} الله عليم بسائر أفعالكم من صلاة وذكر وتسبيح وغير ذلك من وجوه الطاعة، وهو مجازيكم على ما تفعلونه من خير أو معصية ٣٥.

٤٦ - (وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

قوله تعالى: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} تجادلوا: من الجدل، والجدال بمعنى الخصومة ٣٦ وهذا أمر من الله لعباده المؤمنين بمجادلة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي باللين والملاطفة وبالجميل من القول - وهو الدعاء إلى دين الإسلام بإظهار آياته وحججه والتنبيه على جماله وكماله وصلوحه للبشرية - وهذه هي سبيل المسلمين وطريقتهم في دعوة الناس إلى دين الله، وذلك بحسن الحديث وجميل الخطاب، وبالمودة والرفق، في غير ما غلطة ولا فظاظة ولا مخاشنة.

هذا سبيل المسلمين، إذ يدعون الناس إلى منهج الإسلام يدعونهم بالحجة الظاهرة والمنطق والود ويظهرون لهم حقيقة الإسلام وما بني عليه من سماحة العقيدة وإشراقها وموافقتها للفطرة الإنسانية، وما تضمنه من قواعد وأركان تتفق وطبيعة الإنسان وتنسجم مع مكوناته النفسية والروحية والعقلية والبدنية، وتدعو في جملتها إلى الرحمة والخير والعدل والمساواة بين بني البشر.

قوله: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} المراد بالذين ظلموا: الذين نصبوا للمسلمين الحرب وجاهروا بالعداوة والتصدي لمنهج الله بالعدوان والمكايدة، وأبوا إلا أن يتمالئوا على الإسلام بالتشويه والتشكيك والتنفير والافتراء، وعلى المسلمين بالعدوان ليقتلوهم أو يستذلوهم ويضعفوهم - وهؤلاء ظالمون معتدون، فما ينبغي للمسلمين أن يعاملوه بالحسنى، أو يركنوا إلى مجادلتهم بالرفق، إذ لا يجدي معهم غير سبيل القوة والتخويف دفعا لأذاهم وشرورهم عن الإسلام والمسلمين.

قوله: {وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ} يأمر الله المؤمنين -إذ حدثهم أهل الكتاب عما حوته كتبهم مما يمكن أن يكونوا فيه صادقين أو يكونوا فيه كاذبين- أن يقولوا لهم: {آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} أي صدقنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم في التوراة والإنجيل، ومعبودنا ومعبودكم واحد لا شريك له، ونحن له مستسلمون مذعنون بالطاعة والخضوع.

وبذلك إذا أُخبر المسلمون بما لا علم لهم به من التوراة والإنجيل مما لا يحتمل الحق والصدق أو التحريف والباطل فإنهم لا يبادرون إلى تصديقه أو تكذيبه، لأنه قد يكون حقا وقد يكون باطلا، بل إنهم يعلنون عن إيمانهم بهما إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو كونه منزل من عند الله، غير مبدَّل ولا محرَّف - وفي هذا روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم،

وقولوا: {آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

٤٧ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ)

قوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} الكاف في اسم الإشارة صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك الإنزال أنزلنا إليك الكتاب - وقيل: كما أنزلنا الكتاب على النبيين من قبلك أنزلنا عليك القرآن.

قوله: {فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار بني إسرائيل الذين قرءوا القرآن وآمنوا به واتبعوه.

قوله: {وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ} المراد بهؤلاء أهل مكة، فإن منهم من سمع القرآن فآمن واهتدى - وقيل: المراد بهؤلاء الذين بين ظهرانيك اليوم من بني إسرائيل ممن آمن بالقرآن ٣٧.

٤٨ - (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}.

هذا برهان ساطع على صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أن القرآن منزل من رب العالمين - دليل جليّ مستبين لكل ذي طبع سوي وذي نباهة وفطانة يمحص بها الحق من الباطل - أما الذين أشربت قلوبهم الضغينة والحقد والكراهية للإسلام، أو الذين زاغت عقولهم وأبصارهم فلا يرون ولا يركنون إلى الزيف والاعوجاج والباطل، فإنهم في معزل عن إدراك هذا القرآن أو التصديق بإعجاز نظمه وأسلوبه الفذ.

هذا دليل للبشرية كافة يقرع فيها القلوب والأذهان لكي تستيقن أن هذا القرآن من لدن حكيم حميد - وهو قوله: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} أي ما كنت تقرأ يا محمد من قبل القرآن كتابا، إذ لم تكن قارئا - وكذلك ما كنت تكتبه، إذ لم تكن كاتبا، بل كنت أميا فلم تقرأ ولم تكتب - وقد وصفه الله في التوراة والإنجيل بأنه النبي الأمي المبعوث للعالمين - وهو ما يعلمه بنو إسرائيل من قبل أن يحرفوا التوراة والإنجيل ومن قبل أن يغيروهما تغييرا - لا جرم أن هذه علامة نبوة واضحة بلجة تكشف عن صدق هذا النبي الكريم الذي أرسله الله رحمة للعالمين - آية ظاهرة لا لَبس فيها لا إبهام، ولا تقبل المرء أو التأويل - آية لو انفردت وحدها من بين الدلائل والحجج على صدق النبي وعلى حقيقة القرآن لكان فيها ما يكفى - نقول ذلك ونحن نذكر أن هذا الكتاب الحكيم المعجز الذي لا نظير له في السابقين، بل في تاريخ الكتابة والكتب كافة - كتاب قد تضمن من وجوه البينات والمعجزات والأحكام والأخبار والمعاني بأنه حق وأنه ليس من صنع بشر، بل هو من لدن إله مدبر مقتدر - نقول ذلك ونحن نذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة - وما تلقى من أحد من الناس علما ولا خالط أحدا من أهل العلم أو الحكمة، لا في مدرسة ولا في بيت من بيوت التدريس أو المعرفة - لقد نشأ عليه الصلاة والسلام أميا وعاش طيلة حياته أميا، فتلقى القرآن على هيئته من كمال المضمون والمعنى، وعجيب الأسلوب والمبنى - المبنى المميز الباهر الخلاب، الذي لا قِبل للعرب طُرًّا –وهم أهل البيان واللسن ومصاقع ٣٨ الكلام والخطابة- أن يعارضوه أو يأتوا بمثله.

إن ذلكم برهان أكبر على أن هذا القرآن من كلام الله وأنه معجز وفذ.

قوله: {إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} لو كان محمدا صلى الله عليه وسلم قارئا أو كاتبا لارتاب أهل الباطل من أهل الكتاب - وسبب ارتيابهم: أنهم كانوا يجدون في كتبهم أن صفته الأمية، فهو لا يقرأ ولا يكتب - ولو كان على خلاف ذلك لارتابوا وشكُّوا.

وكذلك فإن كونه أميا يشهد له بصدق النبوة وأنه رسول مبعوث من رب العالمين - وأي شهادة أكبر من هذه الشهادة إذا ما تذكرنا أن هذا القرآن حافل بعجائب الأخبار والأسرار والأحكام والمواعظ وأنباء السابقين الغابرين - وغير ذلك من المعاني والمشاهد والعبر التي

تزجي بالدليل القاطع على أن القرآن لا يطيق مضاهاته أو الإتيان بمثله بشر وإنما هو من كلام العليم الخبير.

٤٩ - (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ)

قوله: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} المراد بذلك القرآن، فإنه آيات واضحات راسخات في قلوب المؤمنين من أهل العلم من هذه الأمة المباركة الفضلى؛ فقد يَسَّر الله عليهم تلاوة القرآن وحفظه وتدبره - فهو بذلك محفوظ إلى يوم القيامة من كل عبث، ومصون من أي تلاعب أو تحريف.

قوله: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} أي ما يكذب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويجحد نزول القرآن عليه وينكر أنه من عند الله إلا الذين ظلموا أنفسهم فباءوا بالهلاك والتخسير.

٥٠ - (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، معاندين مكابرين: هلا أُنزل على محمد آيات كآيات النبيين من قبله - وذلك كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى {قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ} يعني إنما أمر الآيات والمعجزات إلى الله فلا يقدر أحد أن يأتي بشيء من ذلك سواه - وهو سبحانه لو كان يعلم أنكم تهتدون بمعاينة الآيات لجاءكم بها وهو عليه هين ويسير - لكن الله عليم بكفركم وجحودكم - ويعلم أنكم ما قصدتم غير التعنت والعبث والعناد {وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي إنما بعثت إليكم لأبلغكم رسالة ربكم وأنذركم عقابه على كفركم وإعراضكم عن دينه.

٥١ - (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} أو لم يكف هؤلاء المشركين المعاندين الذين يسألون الآيات والمعجزات ما أنزلناه عليك من آيات بينات باهرات، وهو القرآن الكريم - هذا الكتاب المعجز الباهر الذي حوى من الأنباء والأحكام والعلوم والمشاهد والقَصَص وأخبار الدنيا والآخرة ما يدهش اللب ويشدَهُ الحس ويثير العجب في البال والخيال.

أو لم يكفهم هذا الكتاب المجيد الذي جاء حافلا بظواهر شتى من وجوه الإعجاز مما لم يأت على مثله أو هيئته في تاريخ العالمين كتاب.

لا جرم أن معجزة القرآن تفوق كل المعجزات، وفيها من الأدلة القواطع على نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى صدق هذا الكتاب وأنه منزل من عند الله.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} المراد باسم الإشارة: القرآن، فإنه فيه رحمة للبشرية في الدنيا؛ إذ يخرجهم من ظلمات الشر والباطل والمرض بكل صوره وأسمائه إلى نور الحق والعدل والمودة والمساواة - وهو كذلك رحمة لهم في الآخرة؛ فإنه منجاة لهم من ويلات يوم القيامة وأهوالها وشدائدها - وكذلك فإن القرآن ذكرى {لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي تذكرة لهم، باقية على مرّ الزمن فيتعظون بها ويتدبرون ما فيها من جليل المعاني والأحكام والعبر.

٥٢ - (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي قل لهؤلاء المكذبين يا محمد: كفى بالله شاهدا يشهد لي بالصدق فيما جئتكم به من عنده - كفى بالله أن يكون مؤيدا ومعوانا ومصدقا لي على حقيقة ما أقوله لكم - وهو سبحانه عليم بأخبار

السماوات والأرض لا يخفى عليه منها شيء.
قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ذلك تنديد بالمشركين الذين ظلموا أنفسهم، إذ آمنوا بالباطل وهو الكفر أو الشرك أو الضلال بكل معانيه ومسمياته {وكفروا بالله} أي جحدوا الله وكذبوا برسله وكتبه واليوم الآخر، أولئك الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة فكانوا في الأذلين الأخسرين ٣٩.
٥٣ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)
قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ}.
المشركون السفهاء استعجلوا عذاب بالله - وما كان استعجالهم إلا لفرط إنكارهم وتكذيبهم بيوم القيامة، فقد كانوا على سبيل التهكم والجحود {ربنا عجل لنا قِطَّنا} أي عقابنا - وإنما يأتيهم العذاب بتقدير الله ومشيئته، وليس تبعا لهواهم.
وإذا جاءهم العذاب المحقق من عند الله لا يرده عنهم شيء.
قوله: {لَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ} المراد بالأجل المسمى: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم وهو يوم القيامة - وقيل: مدة أعمارهم في الدنيا - وقيل: غير ذلك - فلولا أن الله كتب تأخير العذاب عن المجرمين إلى يوم القيامة لأنزله بهم في الحال دون إمهال كما استعجلوه.
قوله: {وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} ليأتينهم عذاب الله المحقق الموعود فجأة وهم لا يشعرون به قبل مجيئه - لسوف يفجأهم العذاب الوجيع الواصب فيدهمهم وهم لاهون غافلون، فيجدون فيه من هول الصدمة وفظاعة الذعر ما يجدون.
٥٥ - (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} وذلك تبيين لإحاطة جهنم بالكافرين - فهم محاطون بالنار، موغلون في أغوارها وقرارها، لتغشاهم النار من فوقهم ومن تحتهم ثم يقال لهم زيادة في التنكيل {ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من المعاصي ٤٠.
٥٦ - (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)
قوله: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.
يأمر الله عباده المؤمنين أن يهاجروا من البلد الذي يفتنون فيه عن دينهم فلا يقدرون بذلك أن يعبدوا الله أحرارا، أو أن يجاهروا بعبادة ربهم على الملأ خشية أن يميل الكافرون الظالمون فينكلوا بهم تنكيلا أو يستأصلوهم استئصالا أو يلقوا بهم في مهالك السجون والزنازين حيث الموت والتنكيل والإبادة - هؤلاء يأمرهم ربهم أن يغادروا بلدهم هذا الذي يجدون فيه الهوان والفتنة ليخرجوا إلى بلاد الله الواسعة كما يعبدوا الله أحرارا طلقاء، فإذا أحاطت بالمؤمن الفتنة، والمعاصي في بلد وهو غير قادر على تغيير ذلك، أو كان بقاؤه في هذا البلد سببا في سقوطه في الضلال والانغماس في الرذيلة والمعصية بات خروجه واجبا، صونا لدينه أن يضيع - فقال سبحانه في ذلك: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} وفي ذلك روى الإمام أحمد، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم ".
ولهذا لما ضاق المقام على المسلمين المستضعفين بمكة خرجوا منها مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم فيها فوجدوا فيها خير مقام

في كنف المسلم العادل أصحمة النجاشي ملك الحبشة - وبعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه سلم وأصحابه إلى يثرب -المدينة المنورة- فوجدوا فيها الأمن والاستقرار وحسن المقام لدى إخوان كرام أبرار وهم الأنصار.
٥٧ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)
قوله: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} وهذا تزهيد في الحياة الدنيا، فإنها صائرة إلى الزوال المحتوم - فما ينبغي أن يعبأ المؤمن بهجران بلده أو هجران المكث فيه إن كان يعلم أنه مفتون فيه عن دينه وأنه مفرط في طاعة ربه ما دام مقيما تحت سطوة الظالمين - فلا يخافنّ بأسا أو فقرا أو حاجة بسبب الهجران، فالمقادير والمصائر كلها بيد الله، وإنما الناس صائرون إلى الله حتما - وما من نفس إلا مبتليها الله بالموت، فهي ذائقة مرارته وفظاعته، والناس كافة يصيرون إلى ربهم يوم القيامة.
٥٨ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)
قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} ذلك وعد من الله للمؤمنين الذين أطاعوه في حياتهم الدنيا وصبروا على أذى الكافرين وظلمهم وثبتوا على الحق في ساعات الشدائد والفتن، بأن لهم من الله المنازل الكريمة في الجنة جزاء طاعتهم وصبرهم - وهو قوله في المؤمنين العاملين الصالحات: {لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} {غُرَفًا: منصوب على أنه مفعول ثان للفعل نبوءنهم، لأنه يتعدى إلى مفعولين ٤١ والمراد بالغرف: العلالي، وهي المنازل الرفيعة المشرفة التي تحف بها البساتين الوارفة التي تتفجر منها الأنهار المنسابة العذبة مما يزيد في استمتاع المحظوظين بالجنة وابتهاجهم - وهم فيها ماكثون دائمون لا يحيدون عنها، ولا يجدون عنها حولا {نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} نعمت هذه المساكن العالية جزاء لهم على أعمالهم في الدنيا.
٥٩ - (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)
قوله: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أ ي صبروا على أذى المشركين وما كانوا يلقونه منهم من عذاب ونكال بسبب عبادتهم لله والتزامهم شريعته ومنهجه، واستعصموا عن مطاوعتهم في فسادهم أو الافتتان بسلوكهم وعاداتهم وتصوراتهم - وهم دائما متوكلون على ربهم في السراء والضراء، وفي كل أمورهم وأحوالهم، كطلب الرزق ومجاهدة الأعداء والظالمين والمتربصين، واثقون بأن الله ناصرهم ومؤيدهم وموهن كيد الكافرين ومذلهم ومخزيهم.
٦٠ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
قوله: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} كأين في موضع رفع مبتدأ بمنزلة (كم) - و {مِن دَابَّةٍ} تبيين له - و {لا تَحْمِلُ} في موضع جر صفة لدابة - {اللَّهُ}: مبتدأ، وخبره الجملة، {يَرْزُقُهَا} - والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر كأين ٤٢ والدابة، والدبيب: كل ماش على الأرض ٤٣، وقال ابن عباس: الدواب كل ما دب من الحيوان، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر.
وفي الآية يدعو الله جل وعلا المؤمنين به وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا على حيث العبادة والطاعة والتزام شرع الله في أمن وطمأنينة، مجانبين الفتنة والضلال، ويدعوهم أيضا أن يجاهدوا الكافرين الذين يحادون الله ورسوله ويكيدون للإسلام والمسلمين كيدا، وأن لا يخشوا افتقارا أو قلة، فإنما رزقهم على الله، يرزق من يشاء بغير حساب - وهو سبحانه الخالق الرازق لا ينسى من فضله أحدا من خلقه، فكم من دابة محتاجة إلى غذاء وشراب {لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي لا تحمل معها غذاءها فتخزنه لغدها، فإنها عاجزة عن فعل ذلك {اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} يتساوى المرزوقون في تحصيل الرزق، الحريصون منهم أو المتوكلون، والراغبون أو القانعون، والجادون أو العاجزون، فكل مرزوق بفضل الله وتقديره - وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لو أنكم توكّلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا ".

قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الله يسمع قولكم: نخشى بالهجرة ومفارقة الأوطان أن نفتقر ويمسنا البؤس والحاجة - وهو يعلم ما تخفونه في قلوبكم وما أنتم صائرون إليه ٤٤.

٦١ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ}.

يبين الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم حال المشركين من السفاهة وهوان الأحلام وصفاقتها وما هم عليه من ذميم التعصب - وليس أدل جهالتهم وحماقتهم وتعصبهم الممقوت من عبادتهم أحجارا صماء لا تنطق ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع - وهم مع ذلك مقرون إقرارا بأن الله خالق السماوات والأرض وما فيهما من خلائق وأجرام - وفي ذلك يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم منكرا على هؤلاء الضالين إشراكهم وكفرهم {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} أي لسوف يعترفون بأن خالق ذلك كله هو الله لذلك قال لهم الله {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} والاستفهام للإنكار، أي فكيف يُصرفون عن الإقرار لله بالوحدانية وتفرده بالألوهية فيعدلوا عن إخلاص العبادة له وحده.

٦٢ - (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} {يَبْسُطُ} يعني: يوسع، و {وَيَقْدِرُ}: يضيق ويقتر، أي يوسع الله من رزقه لمن يشاء من عباده ويُقتر لمن يشاء منهم - وإنما أرزاق العباد كلها بيد الله يقسمها بينهم كيف يشاء.

فما ينبغي لمؤمن -بعد استقرار هذه الحقيقة وجلائها- أن يتخلف عن مجاهدة الأعداء ومقارعة الباطل والمبطلين خشية الفقر والقلة.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} الله عليم بمصالحكم وما يُصلحكم من توسيع أو تقتير.

٦٣ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

قوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} أي لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين المعاندين: من نزّل المطر من السحاب الذي في السماء فأحيا بالماء الأرض، إذ أنبت فيها النبات بعد أن كانت هامدة مجدبة {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} أي لسوف يقولن معترفين مُقرين بأن الله فعل ذلك فهو منزل المطر من السماء إلى الأرض من أجل إحيائها بعد قحوطها؛ فهم واثقون في قرارة أنفسهم وفي صميم ضمائرهم أن الله هو الخالق والمحيي والمميت، وأنه منزل الغيث من السماء، وأنه القادر على كل شيء - لكنهم مع يقينهم هذا فإنهم يصطنعون الإشراك بالله اصطناعا، جنوحا منهم إلى التقليد الفاسد الأعمى، وجَريا وراء ما ورثوه عن الآباء والأجداد الغابرين في سفاهاتهم وضلالاتهم.

قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} الشكر لله وحده، والثناء عليه جل جلاله على ما أفاض به من الأدلة والبراهين على ظهور الحق و على بالغ قدرته ومشيئته - {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} أكثر هؤلاء المشركين لا يتدبرون الحجج والدلائل، ويحسبون -وهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى- أنهم على شيء، وهم في الحقيقة لا يفهمون أنهم موغلون في الجهالة والضلالة وأنهم صائرون إلى النار ٤٥.

٦٤ - (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

ذلك إخبار من الله تعالى عن هوان الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها، وأنها ليست إلا الحطام الفاني الذي لا بقاء له ولا ديمومة، وهو ما

يلبث أن يتبدد ويذهب - والحياة الدنيا في خفة شأنها وبساطة اعتبارها أشبه بسحابة تتراءى للناظرين ثم تزول وتنقشع - وأعظم ما توصف به الدنيا هو قول الله فيها {إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ} فهي للتلهي الذي ينشغل به القلب والذهن - وللعب الذي يغتر به اللاهون والواهمون والغافلون من الناس.

قوله: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} المراد بالحيوان الحياة - والمعنى: أن الدار الآخرة حيث الجنة ذات النعيم المقيم لهي دار الحياة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي لو كان المشركون يعلمون أن الأمر كذلك لما أشركوا مع الله في عبادتهم أحدا ولما تلبسوا بالمعاصي والخطيئات - لكنهم لا يعلمون أن الأمر كذلك فهم موغلون في جهالاتهم وسفاهاتهم.

٦٥ - (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

قوله: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} ذلك وصف حقيقي كامل لخلق المشركين وحقيقة حالهم وهم راكبون السفن وسط البحر الهادر المتلاطم حتى إذا أخذت السفن تتأرجح بهم وتضطرب فتوشك أن تهوي أو تغرق أخذتهم غاشية داهمة مفرطة من الفزع والإياس والذهول، وحينئذ يتجردون من شركهم المفترى؛ ويتبرءون من أصنامهم ووثنيتهم الضالة العمياء، ويجأرون إلى الله بالدعاء؛ أن ينقذهم من الموت المحدق، موقنين أن أصنامهم لا تجديهم نفعا ولا تملك لهم نجاة ولا خلاصا، وإنما ينجيهم الله وحده، خالق كل شيء، فهم في هذه الساعة العصيبة الرهيبة التي يوشك فيها أن يحاط بهم فيهلكوا، أخلصوا لله الدعاء وأفردوه بالوحدانية وأذعنوا له بالعبودية والاستسلام والاستغاثة دون آلتهم المصطنعة المزيفة.

وقد ذكر في هذا الصدد عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فارّا منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا ينجي ههنا إلا هو - فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره؛ فإنه لا ينجي في البر أيضا غيره - اللهم لك عليّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما - فكان كذلك.

قوله: {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} لما كتب الله لهم السلامة وأنجاهم من الموت المحدق، نخلصوا إلى البر آمنين سالمين بعون الله وفضله ورحمته بادروا الإشراك بالله ونسيان ما مَنّ الله به عليهم من التنجية والتسليم - وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم: لولا الله والرئيس أو الملك أو الملاح الفلاني لغرقنا أو أهلكنا - فهم بذلك يجعلون ما كتب الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين عباده - وإنما الله وحده هو المنجي وهو المنان الذي سبقت قدرته وإرادته كل أفعال المخاليق.

٦٦ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

قوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} اللام في الفعلين، لو كي؛ أي لقد نجّى الله هؤلاء المشركين إلى البر مما كانوا فيه من هول البحر واحتمال الغرق والهلاك لكي يجحدوا ما منَّ الله به عليهم في أنفسهم، ولكي يتمتعوا بنعمة الله - وقيل: اللام في الفعلين لام الأمر، وفيه معنى التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نعمة ربهم بعد أن سألوه النجاة والخلاص وأذعنوا له بالاستسلام؛ أي اكفروا بما خوّلناكم من نعمة النجاة وتمتعوا فإنكم صائرون إلى العذاب ٤٦.

٦٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} يمُنُّ الله على قريش؛ إذ أحلَّهم الحرم الذي جعله الله للناس مثابة وأمنا وهو مكان مكين وملاذ أمين ومن دخله كان آمنا - فهم من حول الحرم آمنون سالمون ممن حولهم من الأعراب وغيرهم؛ فقد كان الناس يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا لا يصدهم عن ذلك رادع من دين أو حمية أو وازع - وهو قوله: {وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} يتخطف، من الخطف وهو الأخذ

بسرعة، فقد كان العرب في جاهليتهم خارج الحرم يتخاطفون، إذ يسبي بعضهم بعضا ويسطو كل فريق على الآخر، فكانوا يعمهم الخوف والفوضى لفرط جاهليتهم وسوء ما يعتقدون - لكن قريشا كانوا في مأمن من كل عدوان بفضل الله الذي جعل لهم حرم مكة مستقرا آمنا من كل شر وسوء - وهم مع هذه النعمة يشركون بالله ويجحدون نعمته وفضله عليهم باتخاذهم الشركاء معه والأنداد وهو قوله: {أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} الاستفهام للإنكار، يعني: أيصدقون بالباطل وهو الشرك أو الأصنام أو إبليس أو غير ذلك من طواغيت الإنس والجن ليبادرها المحبة والطاعة والخضوع، وليجحدوا ما أنعم الله به عليهم من نعمة الإيمان والإسلام وما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى والحق.

٦٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ} أي ليس أحد أشد ظلما ممن افترى على الله الكذب باتخاذه مع الله شريكا - أو قال: أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء - أو فعل فاحشة أو معصية، ثم قال: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها.

قوله: {أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ} أي كذب بالقرآن أو برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فجحد بنبوته ولم يصدقه فيما جاء به من عند الله.

قوله: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} استفهام تقرير، أي ليس في النار مستقر يثوي إليه الظالمون الذين أنكروا وحدانية الله وكذبوا رسوله؟.

٦٩ - (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} المراد بالجهاد هنا عموم المجاهدة لإعلاء كلمة الإسلام وظهوره في الآفاق - سواء كان ذلك بالكلمة المؤثرة الطيبة النفَّاذة، والأسلوب اللين الرحيم الكريم - أو كان ذلك بالقلم ليُخَطَّ به العلم والدعوة إلى دين الإسلام عن طريق الكتب والمنشورات والصحائف المكتوبة التي تبين للناس حقيقة الإسلام وتكشف للعالمين عن روعة هذا الدين العظيم وما حواه من قواعد وأركان ومفاهيم تفيض بالخير والعدل والرحمة، وتندد بالظلم والشر والباطل على اختلاف صوره وأحواله وأشكاله - أو كانت المجاهدة في الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالتصدي للمبطلين فيما يفترونه على الإسلام والمسلمين من الأباطيل والأكاذيب لدحضها وكشف زيفها والتنديد بها - أو كانت المجاهدة في الله ببذل المال في وجوهه النافعة كطلب العلم وإشاعة الفضيلة بين الناس، أو كانت المجاهدة سبيلها القوة وامتشاق السلاح عندما لا تجدي كل الأساليب الحسنة لدفع الأذى والشر والعدوان - إنه لا مناص في كثير من الأحيان من التلويح بالقوة التي تصد الظلم والظالمين وتردع الباطلين والمبطلين أن يعيثوا في الأرض تخريبا وإفسادا.

على أن المجاهدة الصحيحة والمقبولة ما كان منها في سبيل الله - وهو قوله: {فيناَ} أي ابتغاء مرضاتنا - أما ما كان من ذلك في غير سبيل الله، بل طمعا في مكسب أو مغنم أو مكانة مرموقة، فإن المجاهدة حينئذ لا أجر فيها ولا قيمة لها في ميزان الله.

قوله: {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} أي لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة - ففي الدنيا: يوفقهم الله للصواب والسداد من القول والفعل، والسلوك النافع السوي الذي قرره الإسلام - وفي الآخرة: يوفقهم الله ويهديهم إلى طريق الجنة.

قوله: {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} اللام للتوكيد - والمراد بالمحسنين: المصدقون المستيقنون الذين يعملون بما يعلمون، ويجاهدون في الله مخلصين غير مرائين، أولئك الله معهم بالعون والنصرة والتأييد ٤٧.

٣٠ سورة الروم:

سورة الروم:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها - وهي مبدوءة بالإخبار عن الروم بأنهم غالبون في بضع سنين - وذلك نبأ من أنباء الغيب يخبر الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

والسورة في جمالها وجلالها وبالغ إيقاعها وتأثيرها، تفيض بمختلف المعاني والعبر، والعديد من المشاهد والصور - إلى غير ذلك من المواعظ والحكم والتذكير باليوم الآخر.

وفي السورة من الدلائل والبينات والآيات في الكون والطبيعة ما يحمل العقل على التدبر وإطالة التفكير - وفيها من وصف أحوال الكافرين يوم القيامة مما يغشاهم من الإياس والفزع الداهم ما يثير في النفس الذُعر وينشر في التصور والذهن دوام الذهول - وذلك كشأن الآيات من الكتاب الحكيم التي تصف أحوال الكون والكائنات إذا قامت الساعة.

١ - (الم)

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}

نزلت هذه الآيات حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقلَ ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما كانت من قبل - وفي هذا الصدد روى الإمام أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} قال: غُلبت وغَلَبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان - وكان المسلمون يحبون أن تظهر الرم على فارس؛ لأنهم أهل الكتاب - فذكر ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما أنهم سيغلبون " فذكره أبو بكر لهم - فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ألا جعلتها إلى دون - أراه قال: لعشر " والبضع ما دون العشر - ثم ظهرت الروم بعد - فذلك قوله: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} ١ - غَلَب، مصدر مضاف إلى المفعول - وتقديره: وهم من بعد أن غُلبوا سيغلبون ٢

وفي هذا الإخبار دليل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الروم غلبتها فارس فأخبر الله نبيه أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين وسوف يفرح المؤمنون حينئذ بنصر الله للروم لأنهم أهل كتاب - وهذا من علم الغيب الذي أخبر الله به مما لم يعلمه الناس وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يراه المشركين على ذلك، وأن يزيد في الرهان ثم حرّم الرهان بعد ذلك ونسخ بتحريم القمار.

٢ - (غُلِبَتِ الرُّومُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}

نزلت هذه الآيات حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقلَ ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية

وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما كانت من قبل - وفي هذا الصدد روى الإمام أحمد عن ابن عباس – رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} قال: غُلبت وغَلَبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان - وكان المسلمون يحبون أن تظهر الرم على فارس؛ لأنهم أهل الكتاب - فذكر ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما أنهم سيغلبون " فذكره أبو بكر لهم - فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ألا جعلتها إلى دون – أراه قال: لعشر " والبضع ما دون العشر - ثم ظهرت الروم بعد - فذلك قوله: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} ٣ - غَلَب، مصدر مضاف إلى المفعول - وتقديره: وهم من بعد أن غُلبوا سيغلبون ٤

وفي هذا الإخبار دليل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الروم غلبتها فارس فأخبر الله نبيه أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين وسوف يفرح المؤمنون حينئذ بنصر الله للروم لأنهم أهل كتاب - وهذا من علم الغيب الذي أخبر الله به مما لم يعلمه الناس وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يراه المشركين على ذلك، وأن يزيد في الرهان ثم حرّم الرهان بعد ذلك ونسخ بتحريم القمار.

٣ - (فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

نزلت هذه الآيات حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقلَ ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما كانت من قبل - وفي هذا الصدد روى الإمام أحمد عن ابن عباس – رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} قال: غُلبت وغَلَبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان - وكان المسلمون يحبون أن تظهر الرم على فارس؛ لأنهم أهل الكتاب - فذكر ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما أنهم سيغلبون " فذكره أبو بكر لهم - فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ألا جعلتها إلى دون – أراه قال: لعشر " والبضع ما دون العشر - ثم ظهرت الروم بعد - فذلك قوله: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} ٥ - غَلَب، مصدر مضاف إلى المفعول - وتقديره: وهم من بعد أن غُلبوا سيغلبون ٦

وفي هذا الإخبار دليل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الروم غلبتها فارس فأخبر الله نبيه أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين وسوف يفرح المؤمنون حينئذ بنصر الله للروم لأنهم أهل كتاب - وهذا من علم الغيب الذي أخبر الله به مما لم يعلمه الناس وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يراه المشركين على ذلك، وأن يزيد في الرهان ثم حرّم الرهان بعد ذلك ونسخ بتحريم القمار.

٤ - (فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

قوله {في بضع سنين} البضع: بكسر الباء، وهو ما بين الثلاث إلى التسع، نقول: بضع سنين، وبضعة عشر رجلا، وبضع عشرة امرأة - فإذا جاوزت لفظ العشر ذهب البضع، فلا نقول: بضع وعشرون - ٧

قوله: {لله الأمر من قبل ومن بعد} يخبر الله عن تفرده بمطلق الإرادة والقدرة، فهو سبحانه المدبر لشئون الكون وأحوال العالمين، وهو العالم بما يجري في ذلك من أخبار وأحداث، وما من شيء أو حدث أو غلبة إلا منه وبقدرته {من قبل ومن بعد} مبنيان على الضم لاقتطاعهما عن الإضافة، أي من قبل هذا الغلب، ومن بعده، أو من قبل كل شيء ومن بعده ٨.

قوله: {ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله} أي يفرح المؤمنون بنصر الله للروم أصحاب قيصر، على فارس أصحاب كسرى وهم

مجوس، فهؤلاء وثنيون بعيدون عن ديانة السماء، أما أولئك وهم الروم فهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب.

٥ - (بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

قوله: {ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله} أي يفرح المؤمنون بنصر الله للروم أصحاب قيصر، على فارس أصحاب كسرى وهم مجوس، فهؤلاء وثنيون بعيدون عن ديانة السماء، أما أولئك وهم الروم فهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب.

قوله: {يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} يكتب الله النصر لمن يشاء من عباده - وهو سبحانه الغالب الذي لا يقهر، المنتقم من عباده الظالمين، أعدائه أعداء الدين، وهو الرحيم بعباده المؤمنين، إذ يكتب النصر والتأييد والتمكين.

٦ - (وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ} وعد الله، منصوب على المصدر المؤكد لما قبله ٩ ووعدُ الله أن الروم ستغلب فارس من بعد غلبة فارس لهم - وقد وعد الله المؤمنين بذلك وعدا لا يُخلف؛ لأن الله يفي بوعده وليس في مواعيده إخلاف.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أي أكثر قريش لا يعلمون أن وعد الله حق، وأنه لا يجوز في وعده إخلاف - وقيل: المراد بأكثر الناس، الكافرون، وهم الأكثرون، فإنهم لا يعلمون الحق ولا يعبأون به، وإنما يجنحون للشهوات والباطل.

٧ - (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

قوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أكثر الناس لا يعبأون بأمر الآخرة وما يصيرون إليه إذا سيقوا إلى ربهم للحساب، وإنما يعلمون أمور الدنيا وما فيها من وجوه المعايش عن طريق التجارة والزراعة والصناعة وغير ذلك من وجوه الكسب وتحصيل الثروة والمال، فهم في أمور الحياة الدنيا حاذقون بارعون أذكياء - وفي أمور الدين جاهلون، وعن أمور الساعة خاملون غافلون، وفي السعي لها بفعل الصالحات والطاعات مفرّطون.

قال ابن عباس عن قوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}: يعني معايشهم متى يحصدون؟ ومتى يغرسون؟ وكيف يبنون؟ وقال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يُحسن أن يصلي.

قوله: {وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} أي هم في غفلة عن لقاء ربهم وعن العمل بما فيه مرضاة لله ومنجاة لهم يوم القيامة ١٠.

٨ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون}.

ينبه الله على التفكر فيما خلَقَه من عجيب الخلائق الكثيرة والمختلفة - وهي بكثرتها وعجيب صنعها وكامل اتساقها وانسجامها وتكاملها، تدل قطعا على عظمة الخالق الصانع المدبّر وعلى أنه وحده متفرد بالخلق والإبداع، وليس له في ذلك شريك ولا نديد - وهو قوله: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} {مّا}: نافية - والمراد بالتفكر؛ النظر والتدبر والتأمل في الكائنات وفيما خلق الله من أشياء كثيرة في السماوات بطباقها الواسعة المديدة، وفي الأرض وما حوته من مياه ومعادن وأناسي ونبات مختلف ألوانه وأجناسه - وما بين ذلك كله وما في خلاله من أجرام ومُركّبات وكائنات إحياء وغير أحياء - أو لم يتفكر الناس في كل هذه المخلوقات العجائب؛ ليعلموا أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا ولا سدى - بل خلقت بالحق؛ أي بالعدل، أو أن خلقها هو الحق، أو أن الله خلقها للحق.

قوله: {وَأَجَلٍ مُّسَمًّى} أي خلق الله السماوات والأرض إلى أجل مسمى ينتهيان إليه وهو يوم القيامة - فيومئذ تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

قوله: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} اللام للتوكيد - والمعنى: أن كثيرا من الخلق جاحدون مكذوبون بالبعث والدين، منكرون للمعاد بعد الموت - لا جرم أن هؤلاء هالكون خاسرون.

٩ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

قوله: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} الاستفهام للتقريع والتوبيخ لهؤلاء المشركين الجاحدين الذين يكذبون بيوم الدين وينكرون نبوة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، فلقد سار هؤلاء المكذبون الضالون في طريقهم إلى البلاد الأخرى تجارا، ورأوا ما حل بالأمم من قبلهم من خراب ودمار - أفلم يتدبروا ما رأوه فيخشوا ويزدجروا عن كفرهم وعصيانهم؟ - أفلا يخافون أن يحيق بهم ما حاق بالسابقين من تدمير وهلاك بسبب عصيانهم وتكذيبهم أنبياءهم الذين أرسلوا إليهم هداة مرشدين؟.

قوله: {كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} فقد كانوا أكثر من هؤلاء أموالا وأولادا، وأشد منهم بُنية وأجساما، وأطول أعمارا.

قوله: {وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} إعمار الأرض تهيئتها للحرث والزراعة، فقد عمر السابقون الأرض، أي حرثوها لمزاولة الزراعة فيها أكثر مما عمرها هؤلاء وهم مشركوا مكة؛ إذ لم يكونوا أهل حرث أو زراعة.

قوله: {وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ} جاءهم المرسلون بالآيات الواضحة والدلائل الظاهرة على صدق ما جاءوهم به من عند الله لكنهم كذبوهم وجحدوا رسالتهم وأنكروا حججهم وبيناتهم فأنزل الله فيهم عذابه - فما أغنى عنهم بأسهم ولا قوتهم ولا أموالهم؛ بل أخذهم الله بالتدمير والإبادة {فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} لم يعذبهم الله من غير ذنب فعلوه - ولكن يعذبهم بكفرهم وتكذيبهم وكبير معاصيهم.

١٠ - (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)

قوله: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} {عَاقِبَةَ} مرفوع على أنه اسم كان، و {السُّوأَى} من السوء، تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن - وجملة {أَن كَذَّبُوا} في موضع نصب مفعول له - وتقديره: لأن كذبوا - ويجوز أن تكون بدلا من السوأى ١١.

والمعنى: أن هؤلاء الكافرين المكذبين، مصيرهم {السُّوأَى} سواء في الدنيا حيث الشقاء والبوار والندامة، أو في الآخرة حيث النار وبئس القرار - وقيل: السوأى اسم جهنم كما أن الحسنى اسم الجنة - وذلك جزاء المجرمين الخاسرين يوم القيامة؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكتبه ورسله وكانوا يسخرون من آيات الله ويستهزئون بها ١٢.

١١ - (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}.

الله المنشئ للخلق كله - وهو سبحانه متفرد بإنشائه من غير شريك له في ذلك ولا ظهير - وهو سبحانه المعيد لهذا الخلق يوم القيامة بعد إفنائه، فيجمعهم الله جميعا في المحشر ثم يصارون بعد الحساب إما إلى الجنة وإما إلى النار، حيث الثبور والبوار.

١٢ - (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)

قوله: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} {يُبْلِسُ} ييأس في حيرة، من الإبلاس وهو اليأس المحيّر - أبلس من رحمة الله أي يئس - ومنه سمي إبليس - ويأتي الإبلاس بمعنى الانكسار والحزن - أبلس إذا سكت غما ١٣.

والمعنى: يوم تقوم القيامة، ويُبعثُ الناس من قبورهم أحياء فينتشرون ويساقون إلى الحشر للحساب، ييأس المجرمون الذين كذبوا بلقاء الله وجحدوا ما أنزله على رسله من الآيات والبينات، واكتسبوا في دنياهم المعاصي والمنكرات، أو يغشاهم اليأس وتطغى عليهم الندامة والحيرة والاكتئاب فلا يملكون حيلة ولا حجة يحتجون بها، وليس لهم حينئذ إلا النار.

١٣ - (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)

قوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ} أي ليس لهؤلاء المجرمين اليائسين في هذا اليوم العصيب الموئس {مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ} أي ليس لهم حينئذ مما عبدوه من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من مختلف الأنداد، من شفعاء فيشفعوا لهم عند ربهم، ويستنقذوهم من العذاب.

قوله: {وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} أي تبرأ الجاحدون التابعون من المتبوعين من آلهتهم المزعومة - وهي آلهة كثيرة ومختلفة، ما بين أحجار صماء تُعبد، أو أوثان متعددة الأشكال والأجناس يلين أمامها الواهمون السفهاء ويلاطفونها - أو مخاليق من طواغيت البشر يُذعن لهم الخاسرون الضعفاء من المنافقين والمرائين والخوّارين والمنتفعين أولي الأهواء والأغراض المسفّة - أ أولئك جميعا يكفرون يوم القيامة بآلهتهم الموهومة المصطنعة ويتبرأون منهم تبرأ كاملا.

١٤ - (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)

قوله: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} عندما تقوم القيامة يتفرق الناس بعضهم عن بعض، إذ يتفرَّق المؤمنون من الكافرين - أو يتفرق الآمنون الناجون من الخاسرين الهالكين، فيذهب كل فريق من الفريقين في سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار - وهو قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ}.

١٥ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} الروضة: البستان الحسن، أو الأرض ذات الخضرة ١٤ و {يُحْبَرُونَ}، من الحبور وهو السرور ١٥.

يعني: الذين آمنوا بربهم وأفردوه بالتوحيد والألوهية وأطاعوه فيما أمر ولم يشركوا به أحدا من الأنداد أو الشركاء فأولئك في جنة الله يكرمون وينعمون ويسرون {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}.

١٦ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي الذين كفروا بالله وجحدوا البعث بعد الممات وكذبوا بالرسل فأولئك مجموعون في النار - أو نازلون فيها ليذوقوا الويل والعذاب الأليم ١٦.

١٧ - (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

سبحان: من التسبيح وهو تنزيه الله من السوء، والثناء عليه بالخير في كل الأوقات - وهذا تسبيح من الله لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده كي يسبحوه وينزهوه عن النقائص والعيوب، ويحمدوه حمدا كثيرا دائما لا ينقطع.

وقيل: المراد بالتسبيح ههنا، الصلاة - فقد سئل ابن عباس-رضي الله عنهما-: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم - وتلا هذه الآية - فتمسون: يراد صلاتا المغرب والعشاء - و {تُصْبِحُونَ}: يراد صلاة الفجر {وَعَشِيًّا} يراد صلاة العصر - و {تُظْهِرُونَ}: يراد

صلاة الظهر - والمساء معناه إقبال الليل بظلامه - والصباح هو إسفار النهار بضيائه.
١٨ - (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)
قوله: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وهذا كلام معترض بالتحميد، وهو يناسب التسبيح؛ أي أن الله المحمود على نعمه وآلائه في السماوات والأرض - ثم قال بعد ذلك: {وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} العشي والعشاء معناه اشتداد الظلام - و {تُظْهِرُونَ} من الإظهار وهو الضياء.
١٩ - (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)
قوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} خلق الله الأشياء وأضدادها ليدل بذلك على كمال قدرته وأنه الخالق العظيم - وذلك كإخراج النبات ذي الحياة من الأرض الهامدة الميتة - وإخراج العالم من الجاهل؛ كأن العلم حياة بما يفضي إليه من الخير والحق والاستقامة - وعكس ذلك إخراج الجاهل من العالم - وكأن الجهل موات بما يفضي إليه من التعثر والتخبط والإيغال في ضروب الباطل - وكذلك المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن - والكفر كأنما هو الموت، والإيمان فإنه حياة - {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} أي كذلك يحيي الله الخلق ببعثهم من قبورهم يوم القيامة - فالقادر على خلق الأحياء من الأموات، والأموات من الأحياء، لا جرم قادر على إحياء الأموات وبعثهم من قبورهم حين تقوم الساعة ١٧.
٢٠ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)
قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.
المصدر من {أن} والفعل في موضع رفع مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبر - والتقدير: وخلقُكم من تراب من آياته ١٨.
يعني: ومن آيات الله ودلالاته على ربوبيته ووحدانيته وكمال قدرته وعظمته {أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ} أي خلق أصلكم وهو أبوكم آدم {مِّن تُرَابٍ} وأنتم فرع آدم، والفرع كالأصل {ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} وذلك بعد أن مررتم في جملة مراحل وأطوار، واحدا عقب الآخر، بدءا بالنطف في الأرحام، ثم المُضَغ، ثم العلق، ثم العظام واكتساؤه باللحم، ثم النفخ لبعث الروح، ثم الخروج إلى الدنيا أطوار، بدءا بالرضاع، ثم الفطام، ثم اليفاع، ثم الشباب فالشيخوخة والاكتهال - ويتخلل ذلك سعي وكدّ ونشاط وتعامل ونَصَب وصراع مع الباطل وأهله.
ذلك هو الإنسان المفكر والساعي والمنتشر؛ فهو أوله نطفة مهينة مستقذرة، ثم تقلّب في مراحل شتى من التطور المتعاقب حتى صار إنسانا سويا قويا مكتمل البنية والإرادة والفهم - وصار ذا بصر وتفكير وتدبير ودهاء وحيلة، فيقطع الأمصار ويجوب البحار والفضاء مسافرا طمعا في كسب أو تحصيل - وبات يعقد المعاهدات والمؤامرات في وضح النهار أو بهيمة الظلمات - أفلا يدل ذلك على قدرة الخالق العليم.
والأعجب من ذلك أن تندرج كل هذه المعاني الكبيرة والكثيرة والمختلفة في هذه الآية القصيرة ذات الكلمات المعدودة {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} آية وجيزة تعرض لحال الإنسان كله بدءا بكونه نطفة في رحم أمه وانتهاء بكونه بشرا ذا قوة وإرادة وصورة حسنة، يسعى جادا منتشرا في الأرض - وهذا واحد من الأدلة الظاهرة على إعجاز القرآن وعلى أنه حق وأنه الخالق المُوجد القادر.
٢١ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} وهذا دليل كبير على عظيم صنع الله وبالغ قدرته وحكمته - وهو أنه {خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} أي خلق لكم نساء من جنسكم؛ فالنساء مخلوقات من نُطف الرجال - وقيل:

المراد حواء زوجة آدم خلقها الله من ضلعه - والمراد: أن الإناث قد خلقهن الله من جنس الرجال ليسكن إليهن الرجال، أي يميلوا إليهن ويستأنسوا بهن - وذلك من السكينة وهي الدعة والهدوء والوقار ١٩ - وذلك أن الجنس الواحد لا يسكن لجنسه ولا يستأنس به كما يستأنس بالجنس الآخر - وهذه خصلة أساسية ومفطورة قد جُبل عليها البشر، إذ يميل كل صنف إلى الصنف الآخر المخالف - الذكر يميل للأنثى وهي تميل للذكر.

قوله: {وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} أي تعطف قلوب بعضهم على بعض فكل منهما يحب الآخر ويحنو عليه ويجنح إليه جنوحا فطريا - وذلك بعصمة الزواج الذي تنشأ عنه الختونة والصهرية والنسب - وبذلك تتسع دائرة التعارف والتواد والتراحم بين الناس فتعمهم الألفة والمودة والوئام.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} يعني فيما تبين من عجيب قدرة الله على خلق الناس من تراب ليصيروا بشرا منتشرا، ثم خلق الإناث من جنس الذكور لتشيع بينهم المودة والرحمة ووشائج الصهرية والقربى {لَآيَاتٍ} أ ي لدلائل عظيمة تكشف عن قدرة الله وعلى حقيقة البعث يوم القيامة {لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} يعني لأولي النباهة والفطانة من أولي العقول النيرة الذين يتدبرون ويتعظون ٢٠.

٢٢ - (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)

قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}.

هذه جملة علامات توقظ الأذهان لتتدبر وتتفكر وتستيقن أن الله حق، وأنه بالغ القدرة، مطلق الإرادة والسلطان - وأول ذلك قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وهذه علامة هائلة وكبرى تدل على عظيم قدرة الله الذي خلق السماوات باتساعها واتساقها وامتداد طباقها وروعة نظامها وما تزدان به من زهارة الكواكب والنجوم وغير ذلك من الأجرام على كثرتها وضخامتها واختلاف أنواعها وأجناسها - وكذلك خلق الأرض على هيئتها المثيرة المذهلة من جمال النظام ومتانة الإحكام واختلاف الأجناس والمركبات.

قوله: {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} وهذه علامة أخرى تكشف عن حكمة الله البالغة في خلق الناس على لغات مختلفة كثيرة - فمنهم الناطقون بالعربية أو اللاتينية أو الفارسية أو البنغالية أو التركية أو الهندية أو غير ذلك من لغات الأمم المختلفة كالأوروبيين والأفريقيين وغيرهم.

وكذلك اختلاف الألوان لبني الإنسان ليكون فيهم الأبيض والأسود والأسمر والأصفر والأحمر والأشقر - فما من أحد من البشر يشبه الآخر، بل إنهم جميعا مختلفون متفاوتون في الهيئة والسمت والكلام والمشية والصوت واللون {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} أي فيما تبين من علامات وحجج لعبرة ظاهرة تكشف عن قدرة الله وحكمته لأولي العقول والمتفكرين.

٢٣ - (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ} وهذه علامة من علامات ظاهرة تدل على وحدانية الله وأنه الخالق القادر المبدع، إذ جعل في الناس صفة النوم في الليل أو النهار - والإنسان بطبيعته يميل للاستراحة والاسترخاء كلما أصابه تعب أو كلال فيجنح للنوم سواء في الليل أو النهار - وهذه خصيصة خَلقية من خصائص الإنسان الأساسية قد أنعم الله بها على عباده ليهجعوا ويسكنوا راقدين وادعين - وفي النهار يسعى الناس ناشطين مجتهدين لتحصيل الرزق والمعاش.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي فيما تبين من دليل لهو علامة ينتبه إليها الذين يسمعون سماع تدبر وتفكر، لا سماع الغافلين المُفرّطين.

٢٤ - (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} ومن الدلائل على عظيم قدرة الله هذه الظاهرة الساطعة المنظورة التي تبهر القلوب والعقول، وتخطف بالأبصار والأنظار، وهي ظاهرة البرق الذي يريه الله عباده {خَوْفًا وَطَمَعًا} أي خوفا من احتمالات الصواعق المهلكة، وطمعا في المطر النازل من السماء فيحيي به الله الزرع فيعم الخير والخصب - وهو قوله: {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} ظاهرة البرق تسبق الرعد، وهاتان علامتان تبشران بنزول الغيث المغيث من السماء إلى الأرض لإحياء النبات على اختلاف أصنافه فيها بعد موات وهمود ويبس.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} إن في هذه الظواهر العجيبة الباهرة من البرق والمطر وإحياء الأرض بعد موات لدلالة مكشوفة بلجة يتدبرها أولوا الأفهام والنُّهى من الناس.

٢٥ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)

قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} أي من حجج الله على أنه قادر على ما يشاء، قيام السماء والأرض مكينة متماسكة من غير عمد، وذلك بقدرة الله الواحد وبتدبيره وحكمته وعظيم سلطانه، إذ جعلهما على هيئتهما الهائلة العظمى، وفي غاية الإحكام والدقة والترابط والانسجام، فالسماء بعجائبها وخلائقها ونجومها الثوابت السواطع، أو كواكبها المتحركة اللوامع أو غير ذلك من الشموس والأجرام والمعالم الكونية المذهلة العجاب، ثم الأرض هذا الجرم الكوني الدائر العجيب وما في جوفه أو على متنه من مختلف المخلوقات والأجناس والعناصر، كل أولئك قائم ومتكامل ومتسق بأمر الله، أي بقدرته وإرادته وتدبيره - لا جرم أن الذي صنع ذلك كله لقادر على بعث الخلائق يوم القيامة لتواجه الحساب والجزاء وهو قوله: {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ} أي إذا دعاكم الداعي للخروج من باطن الأرض خرجتم من قبوركم مبادرين مسرعين إلى الحشر حيث الحساب، من غير توقف ولا تلبُّث ولا تردد.

٢٦ - (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

قوله: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} الله له ملكوت كل شيء وإليه تصير الأمور جميعا وبيده مقاليد الأشياء كافة - وكل شيء في الكون قانت له، أي مطيع له طاعة انقياد وخضوع - أو مُقر له بالعبودية إقرار مقالة أو دلالة ٢١

٢٧ - (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الله الذي تجلت قدرته فيما بيناه من الآيات والدلالات والحجج لهو الذي يبدأ الخلق من العدم ثم يعيده يوم البعث للحساب {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} أي بعثُ الخلق يوم القيامة هين على الله فهو سبحانه المبدئ والمعيد - وهو لا يعز عليه أن يعيد الحياة إلى الخلائق يوم القيامة - وقيل: أهون على ما يقوله بعضكم لبعض؛ لأنه لا شيء أهون على الله من شيء بل كل شيء على الله هين ويسير.

قوله: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {الْمَثَلُ الْأَعْلَى} شهادة أن لا إله إلا الله - وقيل: المثل الأعلى يعني وصفه الأعلى؛ فالله سبحانه له الوصف بالوحدانية في السماوات والأرض؛ فهو خالقهما ومبدعهما من غير شريك له في ذلك ولا نديد.

قوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الله جل جلاله القوي الذي لا يغالَب، الجبار الذي لا يقهر - وهو سبحانه الحكيم في أقواله وأفعاله، وفي خلقه وتدبيره وتصريفه للأمور.

٢٨ - (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ

أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}.

يمثل الله للمشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء وأشركوا معه في العبادة آلهة أخرى، مثلا من أنفسهم، عبدا مملوكا - وهو قوله: {هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ} أي هل لكم من مماليككم الذين اتخذتموهم لكم عبيدا، من شركاء فيما رزقناكم من مال {فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء} - أو هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكا له في ماله ليكون هو ومملوكه في هذا المال سواء؟.

قوله: {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} أي تخافون هؤلاء الشركاء من مماليككم العبيد أن يقاسموكم أموالكم كما تخافون أن يقاسم بعضكم بعضا - فإن كنتم أنتم تأنفون من مشاركة عبيدكم إياكم فيما تملكونه من المال، فكيف ترضون وتصدقون أن يكون لله أنداد من خلقه يشاركونه في الملك؟ - أو كيف يُتصور أن تنزهوا أنفسكم أيها الناس عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا أنتم عبيد الله شركاءه في خلقه؟! لا جرم أن حكمكم هذا باطل؛ بل أنه تصور فاسد ومستهجن لا يصدر إلا عن مأفونين موغلين في الضلالة والجهالة والعناد.

قوله: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} الكاف في الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف - أي مثل ذلك التفصيل نبين لكم الحجج والدلائل الواضحات لأولي العقول النيرة والأفهام التي تتفكر وتتدبر وهؤلاء مخصوصون بتفصيل الآيات؛ لأنهم أجدر أن يبادروا للانتفاع بآيات الله وحججه وعلاماته الدالة على قدرته على الخلق والبعث ليوم الحساب.

٢٩ - (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

قوله: {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي ما أشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله آلهة وأندادا أخرى إلا لظلمهم أنفسهم واتباعهم أهواءهم - فهم لا يعقلوا الآيات ولم يتدبروا الحجج والبرهان ولم يتفكروا تمام التفكر وإنما اتبعوا في ذلك أهواءهم الضالة العمياء.

قوله: {فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ} من ذا الذي يسدّد للرشاد ويوفق للإسلام ويهدي للحق والصواب، من أضله الله فليس له من هاد سوى الله {وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} أي ليس لمن أضله الله من ناصر ينصره فيستنقذه من الخسران وسوء المصير - ٢٢

٣٠ - (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}.

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته بعبادة الله وحده وأن يفردوه بالوحدانية والإلهية وأن لا يشركوا به شيئا من المخاليق.

وهو قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} خص الوجه بالذكر لما يجتمع فيه من حواس الإنسان، ولأنه أشرفه - والمراد التوجه بالنية والقول والعمل إلى الله وحده، وأن يقام ذلك للدين المستقيم، دين الإخلاص والتوحيد، دين الإسلام.

قوله: {حَنِيفًا} منصوب على الحال - و {حَنِيفًا} أي مائلا إلى دين الله المستقيم غير ملتفت إلى غيره من الأديان والملل الضالة الباطلة - تقول: تحنّف إلى الشيء إذا مال إليه - ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج هو حنيف، وله دين حنيف، وتحنّف فلان إذا أسلم ٢٣.

والمقصود هو تسديد الوجه على التوحيد والإقامة على الدين الذي شرعه الله لعباده من الحنيفية وهي ملة إبراهيم، ملة الحق والتوحيد.

قوله: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} {فِطْرَت}، منصوب بتقدير فعل، وتقديره: اتبع فطرة الله - وقيل: منصوب على المصدر - والتقدير: فطر الله الناس على ذلك فطرة ٢٤.

والمراد بالفطرة الإسلام - وهو قول الجمهور من السلف - ويستدل من ذلك على أن الله خلق عباده على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره.

وعلى هذا فإن الطفل قد خلق سليما من الكفر أو الزيغ أو الضلال - بل خلق حنيفا مبرأ من الإشراك والإلحاد والزيغ عن جادة الحق والصواب - ولو نجا الإنسان منذ صغره حتى الكبر من أسباب الإضلال والإغواء والفتنة ولم تعترضه في حياته مكائد الشياطين على اختلاف أجناسهم ومسمياتهم لما زاغ هذا الإنسان عن عقيدة التوحيد ولما أعرض عن منهج الله القويم.

لقد أعرض الإنسان عن دين الله ومنهجه الحكيم القويم الذي شرعه للناس، بفعل الشياطين من الإنس والجن، أولئك الذين نصبوا المكائد والفتن، واصطنعوا الأساليب والمخططات والبرامج والحيل لإغواء الإنسان وإضلاله عن عقيدة التوحيد - عقيدة الإسلام - لقد بُذلت من أجل هذه الوجيبة الفظيعة المريعة جهود هائلة من التخطيط وفي غاية البراعة لاستدراج الإنسان كيما يسقط في حمأة الكفر والرذيلة والفساد، لا جرم أن ما بذله الشياطين من استعماريين وصليبيين ووثنيين وملحدين وماسونيين وصهيونيين، وعملاء ناعقين من جهود وخطط وأساليب فكرية وثقافية وإعلامية واقتصادية ونفسية قد أسهم إسهاما أكبر في تدنيس الفطرة البشرية وفي إفسادها وإبعادها عن صراط الحق لتسام الكفر والانحراف والاعوجاج والارتداد إلى الدركات المسفة من الهبوط والباطل.

ولقد جاء في الحديث الصحيح مما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمةُ بهيمة جمعاء ٢٥ هل تحسون فيها من جدعاء " ٢٦.

وروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوت معه فأصبت ظفرا، فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟ " فقال رجل: يا رسول الله أما هم أبناء المشركين؟ فقال: " لا إنما خياركم أبناء المشركين " ثم قال: " لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية ".

وقال عليه الصلاة والسلام: " كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها ".

وروى الإمام أحمد عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته: " إن ربي عز جل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل ما نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ".

قوله: {لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} أي لا تغيير لدين الله، أو لا تبديل لهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي الإسلام، أو عقيدة التوحيد أو الإيمان بالله وحده لا شريك له.

قوله: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} الإشارة، تعود إلى إقامة الوجه للدين حنيفا غير مبدّل ولا محرّف - الدين القائم على الحنيفية الكاملة والتوحيد الخالص لله - وذلك هو {الدِّينُ الْقَيِّمُ} أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا ضلال، وهو دين الإسلام - لا جرم أن دين الإسلام بني على التوحيد، بعيدا عن كل ظواهر الإشراك أو الضلالة أو الباطل - الإسلام قد جيء به ملائما لطبائع البشر التي جُبلوا عليها وملائما لفطرة الإنسان السليمة من الخلل والشذوذ؛ فهو وحده الذي يراعي حقيقة الإنسان بكل مركباته النفسية والعقلية والروحية والجسدية - وما من ملة أو عقيدة أو مذهب دون الإسلام إلا بني على أحد الخطأين أو كليهما وهما الإفراط والتفريط - لكن الإسلام جاء منافيا كل المنافاة هذين الخطأين؛ فلا هو يرتضي لأهله الإفراط، وكذلك لا يقبل لهم التفريط - وإنما هو المنهج المعتدل المستقيم الوسط الذي تصلح عليه البشرية طوال الزمن لو سلمت من أفاعيل الشياطين الذين يقطعون الليل والنهار وهم يأتمرون بالبشرية لتدميرها وإفسادها وإشاعة الكفر والضلال والرذيلة فيها.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أكثر الناس لا يعلمون الحق ولا يدرون حقيقة الصواب، وهم غير موقنين أنهم مبطلون أو أنهم سائرون سادرون في العمه والعوج والباطل.

إن جُل البشرية مجانب لمنهج، بعيد عنه بعدا كبيرا - والبشرية في جفوتها الكبيرة هذه قد ركنت إلى الشياطين الذين يسولون لهم الشر والرذيلة وفعل المعاصي، وينفرونهم أشد تنفير من عقيدة التوحيد، ومنهج الحق والفضيلة - وذلك بما برعوا فيه من تخطيط للإضلال والإغواء، فهم جادون ناشطون في أساليب التحيل على البشرية بمختلف الأساليب والوسائل الإعلامية والثقافية والفكرية، لإفساد

عقيدتها وتدمير قيمها ونسف حضارتها الناصعة الخيّرة نسفا.
٣١ - (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قوله: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} {مُنِيبِينَ}، منصوب على الحال من ضمير {فأقم} - وقد جمع حملا على المعنى؛ لأن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته ٢٧، أي تائبين إلى الله، راجعين إليه، مقبلين عليه بالطاعة.

قوله: {وَاتَّقُوهُ} أي خافوه بالتزام أوامره واجتناب مناهيه وزواجره.

قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} خص الصلاة بالذكر من بين العبادات المفروضة بسبب أهميتها وجليل قدرها وعظيم شأنها؛ فهي عماد الدين كله، ولا يتردد الناس في أداء الصلوات أو يثنون عنها إلا بكلال عزائمهم وهممهم، وفتور العقيدة والتقوى في قلوبهم.

قوله: {وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وذلك بالفسق عن أمر الله ومخالفة دينه، والركون إلى ملل الكفر والباطل.

٣٢ - (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

قوله: {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} أي لا تكونوا من المشركين الذين بدلوا دينهم أو خالفوه ففارقوه {وَكَانُوا شِيَعًا} أي أديانا أو فرقا شتى، كل فرقة تشايع إمامها الذي أضلها، وهم في الحقيقة جميعا ضالون بعيدون عن السداد وجادة الصواب.

قوله: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} الحزب بمعنى الطائفة ٢٨ أي كل فرقة من هذه الفرق أو طائفة من هذه الطوائف، مسرورون بما هم عليه من ضلال وعوج، معجبون بما تلبسوا به من ملل الباطل وضلالات الشيطان والهوى - وتلك هي صفة الضالين التائهين من الناس، السادرين في ظلام الكفر والزيغ عن منهج الله؛ فإنهم معجبون بما هم عليه من ضلالات؛ إذ يحسبون أنهم على كل شيء، وهم في الحقيقة موغلون في السقوط والانحراف عن دين الله إلى ملل الظلام والكفر ٢٩.

٣٣ - (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

ذلك تعجيب من حال المشركين أولي الهلع والجزع، الذين يلوذون بالأصنام والآلهة المزيفة المصطنعة فيذعنون لها بالولاء والخضوع والمودة حتى إذا أصابهم البأس أو الشدة من قحط أو مرض أو خوف أو نحو ذلك من وجوه البلاء والكرب، أنابوا إلى الله خاشعين متضرعين أن يكشف عنهم ما نزل بهم من الضُّر - تلك هي صفة المشركين المكذبين، أو المرتابين أولي الخور الذين يعبدون الله على حرف؛ فإنهم لا يتعرَّفون على الله إلا في الشدة وحين اشتداد البأس - لكنهم إذا أضلهم الرخاء والنعيم والسعة نسوا الله وأعرضوا عن دينه وجنحوا للأهواء والشهوات ومالوا إلى الدنيا بملذاتها وحطامها الدارس الداثر؛ وهو قوله: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ} إذا أصاب هؤلاء المشركين الضُّر أو الشدة، كالقحوط أو الجدوب جأروا إلى الله بالدعاء {مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ} مطيعين له، مقبلين عليه بقلوبهم، تائبين راجعين من شركهم إلى إفراده بالعبادة والتوحيد وهم يستغيثونه ويتضرعون إليه ليكشف عنهم الضر النازل بهم {ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً} أي إذا كشف الله عنهم هذا البلاء وأزال عنهم ما أصابهم من الكرب فأبدلهم به رخاء ونعمة وسعة {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {إذا} الفجائية؛ أي إذا كشف الله عنهم الضر بادر الذين دعوا الله، إلى الإشراك به وإلى اتخاذ الأنداد معه والشركاء.

٣٤ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

قوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} لام كي أو التعليل - وقيل: لام الأمر والمراد به الوعيد والتهديد لهؤلاء المشركين الذين إذا أصابهم البلاء من ربهم دعوه تائبين مخلصين حتى إذا خوَّلهم منه نعمة وفضلا بادروا بالإشراك ومعاودة الضلال والعصيان والكفران.

قوله: {فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وهذا الوعيد والتهديد؛ أي تمتعوا أيها الجاحدون الضالون بما أوتيتم من نعمة فسوف ترون ما يعقب هذا الرخاء الزائل من العذاب المهين.

٣٥ - (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ)

قوله: {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} {أم} للاستفهام الإنكاري - والسلطان بمعنى الحجة أو البرهان - والمراد: أن الله لم ينزل بما يتقوّلونه ويفترونه من دعوة الشرك وعبادة الآلهة مع الله {سُلْطَانًا} أي حجة أو برهانا من كتاب أو رسول ينطق بصدق إشراكهم وكفرهم.

٣٦ - (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

قوله {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا} تلك هي حال أكثر الناس سواء فيهم المشركون أو ضَعَفَة الإيمان من المسلمين، الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبهم رسوخا، فأولئك إذا أصابهم الله برحمته كالخصب والرخاء والسعة والأمن والعافية في الأبدان والأولاد وغير ذلك من وجوه النعم {فَرِحُوا بِهَا} أي فرحوا بهذه النعم.

قوله: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} إن، شرطية، وجوابها {إذا} بمنزلة الفاء ٣٠ أي إذا أصابهم بلاء أو شدة كالجدب أو القحط أو المرض أو غير ذلك من ضروب المرض بسبب عصيانهم وذنوبهم {إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} أي يأسون من الفرج وانكشاف البلاء والكروب.

٣٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ} أو لم ير هؤلاء الذين يفرحون بالنعم والخيرات، وييأسون من حصول الفرج وانكشاف البلاء، أن الله بيده كل شيء؛ فهو الذي يوسع على من يشاء من عباده أو يضيّق على من يشاء منهم؛ لما يعلمه الله في ذلك من الحكمة - فما ينبغي أن يستيئس المسلمون المبتلون بالشدائد والمحن من رحمة الله.

وما ينبغي للإياس أن يجد إلى نفوسهم سبيلا - وإنما الإياس والقنوط شأن الكافرين والمنافقين والخائرين من ضَعَفَة الإيمان.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} اسم الإشارة {ذلك} يعود على بسط الرزق على من بسط الله عليه، وتضييقه وتقتيره على من أراد التقتير عليه.

وفي هذا لدلالة على بالغ الحكمة لله في كل ما يريد ويفعل ٣١.

٣٨ - (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله تعالى: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والمسلمين بإيتاء أولي القربى من الأهل وذوي الأرحام من البر والإحسان والصلة؛ فهؤلاء يجب البر بهم ببذل المال لهم إن كان ذلك مستطاعا - أما صلتهم فإنها واجبة في كل حال إلا لعذر من مرض أو خوف أو فتنة؛ فإنه لا يقطع صلة الأرحام متعمدا إلا كل خاسر أثيم.

وقد أوجب الله كذلك إعطاء المسكين من مال الله - والمسكين، الذي لا يجد شيئا يقتاته أو ينفقه على نفسه وعياله أو كان يملك القليل النزر الذي لا يكفيه ولا يسد خلته، وكذلك أوجب إعطاء ابن السبيل: وهو المسافر المنقطع عن أهله ووطنه وقد أعوزته البُلغة

من العيش أو ما ينفقه على نفسه
قوله: {ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ} الإشارة إلى الإحسان والبر بذي القربى والمسكين والمسافر، فإن ذلك خير للذين يقصدون وجه الله ويبتغون الفوز والنجاة في الآخرة.
قوله: {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي الفائزون بخير العاقبة وحسن المصير في الدنيا والآخرة.
٣٩ - (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)
قوله: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ} المراد بذلك: ما يعطيه الناس بعضهم لبعض غير مبتغين بذلك وجه الله، وإنما يبتغون أن يُعطوا أكثر مما قدموا - ومثال ذلك: الهدية يغدقها المرء على غيره وهو يريد أن يُعطى هدية أكبر منها فلذلك لا إثم فيه على المعطي ولكن لا أجر له - وعلى هذا فإن الربا، قسمان: ربا حلال، وربا حرام - فأما الحلال: فهو الذي يُهدي يلتمس به المُهدي ما هو أفضل منه - وليس في ذلك أجر ولا وزر - وأما الربا الحرام فهو ما كان من ربا في البيع.
قوله: {وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} أي ما أعطيتم من صدقة، واجبة كانت أو تطوعا، تبتغون بها وجه الله ورضاه {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} أي ذلك الذي يقبله الله عز وعلا ويضاعف من أجله الأجر والحسنات أضعافا كثيرة.
٤٠ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)
قوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} ذلك احتجاج من الله على المشركين السفهاء الذين عبدوا الأصنام واتخذوا الأنداد والشركاء من دون الله، إذ يُذكّرهم أنه الذي خلقهم وأنشأهم وصوَّرهم في أحسن صورة، وأنه هو رازقهم من خيره وفضله بأصناف الرزق، ثم هو مميتهم عقب ذلك - فمحييهم حين تقوم الساعة ليعاينوا الحساب والجزاء - لا جرم أن هذه صنائع كبريات لا يستطيع القيام بها وتحقيقها من أحد سوى الله المقتدر - ولذلك خاطبهم الله على جهة الاستفهام والتقريع {هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ} هل تستطيع آلهتكم المزعومة المفتراة أن تفعل شيئا مما ذكر؟ - لا ريب أنها عاجزة بالغ العجز أن تفعل شيئا من الخلق أو الرزق أو الإماتة أو الإحياء والبعث.
قوله: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} يقدس الله ذاته وينزّه جلاله الكريم عن كل ما يفتريه عليه المبطلون الظالمون من الأنداد والشركاء أو الأولاد والصاحبة ٣٢.
٤١ - (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ}.
المراد بالفساد ههنا القحط ونقص الزروع والثمرات وذهاب البركة - والمراد بالبر: الفيافي والفلوات أي المفاوز - أما البحر: فمعناه هنا الأمصار والأرياف والقرى، والمعنى: استبان النقص في الزروع والخيرات والثمرات بسبب ما يقترفه الناس من الذنوب والمعاصي والظلم - فإن زوال النعمة والبركة عن العباد سببه المعاصي والخطايا - وهو قوله: {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} أي ليعاقبهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات والأسقام وغير ذلك من وجوه المحن بسبب بعض ذنوبهم ومعاصيهم {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي لكي يبوءوا بآثامهم ويرجعوا إلى الله مبادرين بالتوبة ومجانبة المعاصي.
٤٢ - (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ)
قوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ} أي قل لقومك يا محمد: سيروا في البلاد فانظروا مساكن الكافرين والفاسقين من قبلكم، الذين أشركوا بربهم وكذبوا بما جاءهم من عند الله، وانظر كيف كان عاقبة كفرهم وتكذيبهم أنا

أهلكناهم ودمرنا عليهم - وهذه عاقبة الذين يعرضون عن دين الله ويأبون إلا الكفر والتكذيب والعصيان.
قوله: {كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ} أي أهلكنا السابقين وأخذناهم بالعذاب والتدمير، لأن أكثرهم كانوا مكذبين مشركين مثل هؤلاء.
٤٣ - (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)
قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} الخطاب من الله ولرسوله، وأمته - والمعنى: وجِّه وجهك نحو الدين المستقيم، دين الإسلام الذي لا عوج فيه ولا زيغ، فهو المنزّل عليك من رب العالمين ليكون للناس هداية ونورا {مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} وذلك أمر من الله لعباده بالمبادرة إلى التوجه نحو الإسلام، الدين الحق المستقيم من قبل أن يأتي يوم القيامة، فإنه إذا جاء لا يرده الله عنهم ولا يقدر أحد أن يدفعه عنهم.
قوله: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} من الصدع، وهو الشق - وتصدع القوم، أي تفرقوا ٣٣ وفي هذا اليوم العصيب الذي تتزلزل فيه القلوب والأبدان يتصدع الناس، أي يتفرقون فرقتين، واحدة تساق إلى الجنة، والأخرى يُصار بها إلى النار.
٤٤ - (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)
قوله: {مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} لا يُجزى الكافر الخاسر إلا سوء عمله فعليه ما حُمّل من الوزر يوم يلقاه الحساب {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} {يَمْهَدُونَ} من المهد، وهو المضجع أو الفراش - مهَّد الأمر أي وطَّأه وسواه ٣٤ والمعنى: أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات يوطئون لأنفسهم يوم القيامة خير مستقر وخير مسكن.
٤٥ - (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
قوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ} أي ليجزي الله من فضله وإحسانه أولئك المؤمنين الذين يوطئون لأنفسهم قرارا في الآخرة، أو الذين يصَّدَّعون فيتفرقون - وحينئذ يتميز المؤمن من الكافر، فيجزي الله المؤمنين بإيمانهم {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} الكفر بغيض إلى الله وهو سبحانه يبغض الذين استكبروا عن الإذعان لجلاله وأعرضوا عن دينه وما جاءهم به المرسلون ٣٥.
٤٦ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}.
يبين الله بعضا من أدلته على وحدانيته، وجلال شأنه وعظيم اقتداره - ومن جملة هذه الأدلة والعلامات إرساله الرياح {مُبَشِّرَاتٍ} أي تبشر بنزول الغيث والرحمة {وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ} أي ينعم عليكم بالرحمة وهي الخصب والسعة - وهذه رحمة من الله يمنُّ بها الله على العباد فيعمهم الخير والبحبوحة {وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ} أي تجري السفن في البحر بهبوب الرياح الدافعة لها بأمر الله.
على أن الرياح تظل سببا في حركة الوسائط النقلية جميعا سواء في الزمن الماضي؛ إذ كانت السفائن على ظهر الماء تندفع جارية بفعل الريح الدافعة - وهي في الزمن الراهن تؤثر في كل وسائل النقل البخارية والميكانيكية والكهربية - وذلك بما يتضمنه الهواء من مختلف المركبات والعناصر، ومن بينها العنصر الأهم وهو الأوكسجين.
فإنه العامل الأساسي في استخراج الطاقة الحرارية وبقائها - وكل ذلك بأمر الله وتقديره وكماله سلطانه.
قوله: {وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} أي تلتمسوا الأرزاق والمعايش بالتجارات وأنتم تجوبون البحار لتصلوا البلاد والأمصار.
قوله: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم فتفردونه بالعبادة والطاعة والإذعان.
٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ} هذه تسلية من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يذكره بالمرسلين من قبله فقد أوذوا في سبيله واحتملوا في دعوتهم إلى الله، الشدائد والمكاره من أقوامهم الضالين المكذبين - وذلك كيلا يبتئس مما يجده من المشركين من أنواع البلاء والأذى.

قوله: {فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا} جاءوهم بالحجج الظاهرة البلجة، كالمعجزات ونحوها التي تشهد بصدق ما جاءوا به، فكذبوهم قومهم كما كذبك قومك فانتقم الله منهم بإجرامهم وتكذيبهم؛ إذ أخذهم بالهلاك على اختلاف صوره.

قوله: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} {حَقًّا}، خبر كان - واسمها، {نَصْرُ} أي أن نصر المؤمنين على الكافرين حق أوجبه الله على نفسه - وهذا وعد من الله لا يختلف وحقيقة راسخة مستقرة ومسطورة لا تقبل المراء أو الشك - وهي أن الله ناصر عباده المؤمنين الموحدين الذين استقاموا على صراطه الحق والتزموا شرعه ومنهجه للحياة فأطاعوه وأذعنوا لجلاله بالخضوع والاستسلام ولم يرتضوا عن دين الإسلام أيما بديل - أولئك هم المؤمنون الثابتون على الحق، السائرون في ضياء الإسلام المشرق، المتوكلون على الله حق التوكل بعد أن جهدوا ما استطاعوا في اتخاذ الأسباب المادية والمعنوية إعدادا لكل معركة يجاهدون فيها أعداء الله - لا جرم أن أولئك المؤمنين الصادقين المخلصين سيكتب الله لهم النصر والتأييد والإعزاز ٣٦.

٤٨ - (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ}.

هذا إخبار من الله عن بالغ قدرته على خَلق ما يشاء؛ فهو جل وعلا خالق كل شيء وهو مدبر الأمور في الكون كله - ومن جملة ذلك إنزال المطر من السماء عقب مراحل متتالية في الطبيعة يأتي بعضها إثر بعض وذلك بدءا بتصاعد البخار من ماء الأرض وظهوره في السماء ليلامس في الفضاء طبقات باردة مما يفضي إلى تكثفه ونزوله على الأرض ثانية مطرا - لا جرم أن الآية الكريمة ههنا؛ إذ تنبئ قبل أدهار طويلة عن ظاهرة المطر وكيفية نزوله، لهي دليل ظاهر ساطع على أن هذا القرآن يسمو على مستوى البشر وهو من صنع إله قادر حكيم، إذ خاطب البشرية بهذه الحقيقة قبل أحقاب غابرة، حينما كانت معارف الناس عن الطبيعة وأحداثها في غاية البساطة والبدائية - وذلك هو قوله: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا} إرسال الرياح إنما يقع بقدرة الله ومشيئته - فما من شيء في الطبيعة والكون إلا وتُسيره إرادة الله الخالق المدبّر - والرياح من شأنها أن تثير السحاب؛ أي تهيجه وتنشره في طبقات السماء ٣٧ على أبعاد مختلفة متفاوتة - والسحاب والسحب والسحائب، جمع ومفرده سحابة وهي الغيم ٣٨.

قوله: {فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء} البسط، معناه النشر ٣٩ فالله عز وجلا يسخر الرياح لتحمل في خلالها الغيم، وهو المكون من ذرات الماء، فتنشره في السماء متفرقا ممتدا تبعا لما تقتضيه مشيئة الله، فإن شاء جعله قريبا أو بعيدا، وإن شاء جعله كثيرا أو قليلا.

قوله: {وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا} أي يجعل الغيم في السماء قطعا متفرقة.

قوله: {فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} {الْوَدْقَ}، معناه المطر ٤٠ أي يخرج المطر من خلال السحاب وهو الغيم فينزل على الأرض {فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} أي إذا صرف الله هذا المطر إلى أرض أو بلد من البلاد استبشر أهله بذلك، وعمتهم الفرحة والبشرى.

٤٩ - (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)

قوله: {وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} في تكرير {قَبْلِ} وجهان - أحدهما: أن يكون التكرير للتأكيد.
والثاني: أن يكون التقدير: وإن كانوا من قبل أن ينزل الغيث عليهم من قبل السحاب لمبلسين - والضمير يعود إلى السحاب.
في قوله سبحانه: {فَتُثِيرُ سَحَابًا} ٤١ أي إن هؤلاء الذين استبشروا وفرحوا بنزول المطر عليهم كانوا قبل نزوله مكتئبين باحتباسه عنهم - أو كانوا مستيئسين قانطين - ٥٠
٥٠ - (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} يخاطب الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته أن تفكروا في نزول المطر، كيف يحيي به الله الأرض، إذ ينبت فيها الزرع بعد مواتها وهمودها - أفلا يقدر من بعث الحياة في الأرض بالزرع والخصب والنماء، أن يحيي الموتى من العباد فيبعثهم من قبورهم - لا جرم أن الله يبعث من في القبور فيحشرهم جميعا ليلاقوا الحساب والجزاء - وذلك قوله: {إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.
٥١ - (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)
قوله: {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا} الهاء في قوله: {فَرَأَوْهُ} تعود إلى الزرع وقيل: إلى السحاب ٤٢ - و {مُصْفَرًّا} من الاصفرار وهو اليبس بعد الاخضرار، أي لو أرسلنا ريحا فيها ضررا -كأن تكون حارة أو باردة- على زرعهم الذي زرعوه ونما واخضرّ واستوى على سوقه ثم اصفر وفسد بفعل الريح الضارة {لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} لسوف يظلون من بعد فرحهم وإعجازهم يجحدون نعمة الله - وذلكم هو الإنسان، فإنه بطبعه عجول، فهو يبتهج بالنعمة ويهش لها غاية الهشاشة ويغشاه بسببها الفرح والحبور، حتى إذا نزعها الله منه لحكمة من الحكم بادر إلى القنوط وكفران النعمة، إلا أن يؤتيه الله قوة في العزم ويخوله الصبر والثبات ٤٣.
٥٢ - (فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)
قوله تعالى: {فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}.
يصف الله حال الكافرين المعاندين بالموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون، لأنهم هامدون خامدون، لا حياة فيهم ولا حراك - وكذلك الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم فهم أولو طبائع كزّة لا تلين لموعظة ولا تستجيب لحجة أو برهان - أولئك هم الجاحدون المعاندون الذين لا تسددهم النصيحة ولا يعطفُ قلوبهم الوعظ الكريم الحسن - وهم كذلك يشبهون الصُّمَ الذين لا يسمعون النداء - والأصم إذا ولى مدبرا لا يرده أيُّما نداء رفيع ولا هتاف صارخ، لأنه سادر في صممه لا يسمع - وكذلك الجاحد المعاند ذو الفطرة البور والنفس الفاسدة الكنود، فإنه لا يتعظ بالنصح وحسن الحديث ولا يزدجر بالتحذير ولا التنذير.
٥٣ - (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)
قوله: {وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ} أي لا تستطيع أن تسدد إلى صواب المحجة من أعماه الله فضل عن سبيله وسلك سبيل الباطل - وهذه حقيقة الكافرين الذين يجحدون الحق ويحادّون الله ورسوله ويكذبون بمنهج الإسلام ويتصدون له بالمكائد والدسائس والمؤامرات والتشكيك أولئك المجرمون بور قد عموا عن رؤية الحق رؤية استبصار وتدبر، وصَموا عنه صمم الشاردين المستكبرين الموغلين في اللجاجة والعناد - أولئك جميعا لا يستطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهديهم إلى الحق، فيهتدوا، أو يرشدهم إلى محجة الإسلام فيرشدوا - وكذلك لا يستطيع الداعون إلى منهج الإسلام في كل زمان ومكان أن يحملوا المكابرين والمعاندين من الجاحدين على القناعة والتصديق، لأن هؤلاء أولوا أذهان وإرادات وهمم مسلوبة، فما يجنحون بعد ذلك إلا للهوى والفسق والباطل.
وعلى هذا، فإنه حقيق بالمؤمنين الداعين إلى منهج الإسلام في كل زمان أن يجتهدوا في دعوة الطيبين من الناس، أولي الفطر السوية

والطبائع السليمة، أولئك المبرأون من الخلل والعيوب النفسية والفطرية، لا جرم أن هؤلاء المبرأين من عيوب النفس وأمراضها مهيأون وحدهم لاستقبال العقيدة الإسلامية، وتدبر التعاليم والمعاني التي جاء بها هذا الدين الحنيف.

قوله: {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} أي لا تُسمع يا محمد سماع تصديق وتدبُّر إلا الذين آمنوا بآياتنا، فهؤلاء مصدقون موقنون أن الذي جئتهم به حق، فهم يبادرون السماع والانتفاع بخير ما يسمعون، لأنهم مستسلمون لأمر الله، مذعنون له بالخضوع والطاعة.

أما غلاظ الطبائع، قساة القلوب من المعاندين العتاة فإنهم لا يستجيبون لدعوتك لهم، ولا يصيخون لندائك إياهم بأنهم أشرار قد فسدت فيهم الفطرة وجنحت فيهم الطبائع والعقول.

٥٤ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}.

هذا برهان ظاهر على أن الله حق وأنه الخالق القادر المبدع، وأنه بيده المقاليد وبيده ملكوت كل شيء - إن هذا دليل ساطع مجلجل يتدبره كل ذي نباهة وعقل من أولي الطبائع السليمة من الخلل والعيوب - وذلكم هو خَلق الإنسان أطوارا - وذلك خلال مراحل متتالية من يعقب بعضها بعضا، بدءا بكونه نطفة في بطن أمه ثم يصير بعد تلقيحه البويضة علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم تكسى العظام باللحم، ثم ينفخ فيه الروح وذلكم سرّ أودعه الله في كنه بني آدم ولا تقوى الكائنات على اصطناع مثله - وعقب ذلك كله مرحلة الفصام والخروج، إذ يندلق الجنين مولودا من بطن أمه إلى آفاق الحياة الدنيا ليتقلّب في مراحله العديدة المتعاقبة بدءا بكونه رضيعا ثم يصير طفلا صغيرا ثم فتى يافعا ثم شاباً مكتمل القوة ومتانة الجسم - ثم يعقب ذلك ضعف ومشيب - وهو قوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} {وَشَيْبَةً}، مصدر، أي بعد القوة في الجسد والهمة والإرادة والهيئة، يأخذ الإنسان في الكبر والمشيب ليتخلله الضعف كضعف الجسد والعزيمة والقدرة والفهم وكذلك ضعف الحواس كضعف السمع والبصر - وحينئذ يأخذ الإنسان في التداعي والهزال والهرم شيئا فشيئا حتى يفضي إلى المصير المحتوم وهو الموت - إلا أن يأتيه الموت من قبل ذلك.

قوله: {يَخْلُقُ مَا يَشَاء} الله يفعل ما يريد ويصنع في الخلق ما يشاء - فهو الذي يخلق الصغر والكبر - والقوة والضعف، والشباب والمشيب.

قوله: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} الله عليم بشؤون خلقه، قدير على فعل ما يشاء، لا يعز عليه شيء ٤٤.

٥٥ - (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}.

ذلك إخبار عن هول من أهوال القيامة إذا قامت، فحينئذ {يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} {الْمُجْرِمُونَ} هم الذين فرطوا في دينهم وزاغوا عن منهج الله الحكيم وآثروا الاعوجاج على الاستقامة والهدى، أولئك ينالهم من الرعب والذعر واليأس ما ينالهم، وهم إذا عاينوا شدائد القيامة ولمسوا فظائعها وفوادحها الثقال راحوا يحلفون-وهم واهمون- على أنهم {مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} أي يحلفون أنهم لم يلبثوا في قبورهم غير ساعة قصيرة عابرة من نهار، أو أنهم لم يلبثوا في الدنيا غير ساعة - وذلك لسرعة انقطاعها وزوالها، وقيل: يحلفون كاذبون - وهذه حالهم في الكذب في الدنيا، وكذلك يكذبون في الآخرة.

وهو قوله: {كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}، يصرفون - أفكه عن رأيه: أي صرفه، ورجل أفاك: أي كذاب ٤٥ والمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يُصرفون عن الحق أو الصدق في الدنيا - أي كانوا يكذبون ويصدون عن دين الله وهو الحق.

٥٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ} يرد عليهم العلماء من المؤمنين قائلين لهم: لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث {فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ} أي هذا هو اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من قبورهم للحساب والذي كنتم تكذبون به - والمراد بكتاب الله، علمه المثبت في اللوح المحفوظ.

قوله: {وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ} أي ما كنتم تعلمون أن هذا اليوم حق، بل كنتم تستعجلونه تهكما واستخسارا - هكذا يقال للمجرمين يوم القيامة على سبيل التوبيخ والتبكيت، زيادة لهم في التنكيل - وحينئذ يصيبهم من شدائد الندم والقنوط ما يصيبهم، من غير أن يجديهم ذلك نفعا.

٥٧ - (فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

قوله: {فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ} إذا قام الناس من قبورهم وأقسم المجرمون أنهم لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور غير ساعة واصطنعوا لأنفسهم المعاذير في هذا الموقف العصيب فإن ذلك لا ينفعهم ولا يغنيهم ولا يرد عنهم ما حاق بهم من عذاب محتوم واصب.

قوله: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} أي لا يطلب منهم العتبى وهي الطاعة أو الرجوع إلى ما يرضي الله - يقال: استعتبني فأعتبته: أي استرضاني فأرضيته ٤٦ والمعنى: أن المجرمين الخاسرين يوم القيامة، لا يطلب منهم الإعتاب وهو الرجوع إلى الدنيا للطاعة والتوبة عما فعلوه من المعاصي ٤٧.

٥٨ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}.

المراد بالأمثال: الصفات والقصص والحجج التي تدل على وحدانية الله وأنه المعبود الحق، المتفرد بالإلهية والربوبية - وهو قوله: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ} أي مثّلنا بمختلف الأمثال والدلائل التي تبين وحدانية الله وتكشف عن صدق ما جاء به المرسلون.

قوله: {وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ} يعني لئن جئت هؤلاء المشركين المعاندين بآية، أي معجزة أو دلالة على صدق ما جئتهم به، ليجيبنّك هؤلاء الضالون الجاحدون قائلين: {إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ} يعني ما أنتم أيها المصدقون محمدا فيما جاءكم به من نبوة وكتاب إلا أصحاب أباطيل تتبعون السحر والباطل.

٥٩ - (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} الكاف في الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الذين لا يتفكرون ولا يتدبرون ما يأتيهم من الأدلة والبينات.

٦٠ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)

قوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي اصبر على أذى المشركين وما تلقاه منهم من المكاره وسوء الفعال، فإن الله ناصرك ومؤيدك ومظهر لك عن المشركين، ومنجز لك ما وعدك، فإن وعده حق وواقع لا يتخلف.

قوله: {وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ} {يَسْتَخِفَّنَّكَ}، من الاستخفاف استخف فلان فلانا أي استجهله واستفزّه، استخف قومه: أي حملهم على الخفة والجهل؛ أي لا يحملنك قومك الضالون على الخفة فيستفزوك عن دينك ويثبطوك عن أمر الله - والذين لا يوقنون، أي لا يصدقون بالبعث ولا بالنبوة - وهو من اليقين، أي العلم وزوال الشك، ومنه أيقنت واستيقنت وتيقنت ٤٨.

٣١ سورة لقمان:

سورة لقمان:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية باستثناء آيتين - وقيل: ثلاث آيات - وهي تتضمن فيضا من جليل المعاني وعظيم المضامين - منها التذكير بآيات الكتاب الحكيم التي أنزلت هداية ورحمة للمحسنين.

وفي السورة تنفير شديد من التلبس بلهو الحديث على الخلاف في المراد بذلك؛ لأنه مُضل عن سبيل الله ومشغل للذهن والقلب عن الخضوع لله وعن الإذعان له بالطاعة والخشوع.

وتتضمن السورة حقيقة لقمان، فهل كان نبيا أو صِديقا أو غير نبي؟ وفيها تفصيل لما أوصى به لقمان ابنه من جليل الوصايا.

وفي السورة جملة من الحجج والبينات التي تدل على وحدانية الله وأنه الخالق الحق المتفرد بالربوبية وصفات الكمال دون غيره من الأنداد المزعومة المصطنعة.

وفي السورة أيضا، الحديث عن مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، ثم الحديث عن هذه المسألة تفصيلا - إلى غير ذلك من البينات والحكم والمعاني.

١ - (الم)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: {الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

مضى الكلام عن الحروف المقطعة من فواتح السور.

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

{تِلْكَ}، في موضع رفع مبتدأ، وخبره {آيَاتُ الْكِتَابِ} و {هُدًى وَرَحْمَةً}، منصوبان على الحال، من {آيَاتُ}.

وقيل: مرفوعان، على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو هدى.

وقيل: مرفوعان على أنهما خبر لتلك - و {آيَاتُ} بدل من {تلك} ١.

والمعنى: هذه آيات الكتاب ذي الحكمة والسداد والحديث الباهر الفذ.

ذلكم كتاب الله الذي أنزله للناس، ليكون للمؤمنين الطائعين بيانا يهتدون به فلا يضلون أو يتعثرون أو يخبطون؛ بل يمضون في ظل الإسلام آمنين، وهم تحيط بهم عناية الله وتوفيقه - وهو كذلك رحمة يرحم الله به من اتبعه، والتزم منهجه، وعمل بموجبه، ولم يرض عنه أيما بديل من بدائل الكفر والضلالات - أولئك يمنّ الله عليهم بفضله وإحسانه، ويدرأ عنهم برحمته الشرور والعوادي.

٣ - (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢]

{تِلْكَ}، في موضع رفع مبتدأ، وخبره {آيَاتُ الْكِتَابِ} و {هُدًى وَرَحْمَةً}، منصوبان على الحال، من {آيَاتُ}.

وقيل: مرفوعان، على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو هدى.

وقيل: مرفوعان على أنهما خبر لتلك - و {آيَاتُ} بدل من {تلك} ٢.

والمعنى: هذه آيات الكتاب ذي الحكمة والسداد والحديث الباهر الفذ.

ذلكم كتاب الله الذي أنزله للناس، ليكون للمؤمنين الطائعين بيانا يهتدون به فلا يضلون أو يتعثرون أو يخبطون؛ بل يمضون في ظل الإسلام آمنين، وهم تحيط بهم عناية الله وتوفيقه - وهو كذلك رحمة يرحم الله به من اتبعه، والتزم منهجه، وعمل بموجبه، ولم يرض عنه أيما بديل من بدائل الكفر والضلالات - أولئك يمنّ الله عليهم بفضله وإحسانه، ويدرأ عنهم برحمته الشرور والعوادي.

٤ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)
ومن صفات المؤمنين المحسنين الظاهرة إقامة الصلاة؛ فهي أم العبادات وأشدها جلالا وتعظيما، ثم إيتاء الزكاة، ببذلها للمستحقين من المعوزين والمحاويج والعالة - ثم الإيمان بيوم القيامة - وهو يوم يجمع الله فيه الخلائق لتواجه الحساب، وهو يوم آت لا محالة، يتميز فيه المؤمنون من الجاحدين، والمحقون من المبطلين، والعاملون الأبرار من العصاة والخاطئين والفجار.
ويوم القيامة حقيقة كونية هائلة لا تقبل الجدال أو الخصام - وهي حقيقة لا ينكرها أو يرتاب فيها مبطل خاسر، لكن المؤمنين المصدقين يوقنون أن الساعة حق، وأنها قائمة لا ريب فيها.
٥ - (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
قوله: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} أولئك الذين تبينت صفاتهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة وعمل الصالحات والطاعات، قد كتب الله لهم الهداية في الدنيا؛ إذ يستظلون بشرع الله ومنهجه الشامل الحكيم ليحيوا كرماء متعاونين متراحمين - وكذلك كتب لهم الهداية في الآخرة ليظفروا برحمة الله وثوابه ورضوانه.
قوله: {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي الفائزون الذين ظفروا بالنجاة والسعادة التي لا تنقطع ٣.
٦ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)
قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}.
ثمة قولان في سبب نزول هذه الآية - أحدهما: أنها نزلت في النضر بن الحارث وذلك أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها، ويحدث بها قريشا ويقول لهم: إن محمدا عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن - فنزلت فيه هذه الآية.
القول الثاني: إنها نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية فشُغل الناس بلهوها عن استماع النبي صلى الله عليه وسلم ٤.
أما المراد بلهو الحديث وشرائه فهو موضع تفصيل نعرض له في هذا البيان فنقول: لهو الحديث يشمل بعمومه كل ما يلهي عن طاعة الله وفعل الخيرات والقربات - وذلك كالغناء والملاهي والأحاديث المفتراة والمصطنعة التي تنشغل بها القلوب والأذهان عن دين الله وطاعته.
وقيل: المراد بلهو الحديث، الكفر والشرك - وهو قول الحسن البصري، وروي عنه قول: إنه الغناء والمعازف.
وقيل: المراد من يشتري ذا لهو، أو ذات لهو - فيكون التقدير: من يشتري أهل لهو الحديث وهم المغنّون والمغنيات والقينات - كقوله تعالى: {واسأل القرية} يعني واسأل أهل القرية.
وقيل: المراد به الغناء - وقد قال بذلك أكثر السلف من الصحابة والتابعين وقد حلف على ذلك عبد الله بن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أنه الغناء - وكان يقول: الغناء ينبت النفاق في القلب - وعن ابن عمر أنه الغناء - وقال الإمام الطبري: أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه - ويؤيد هذا القول ما ورد في ذلك من أخبار - منها ما رواه الترمذي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما: صوت مزمار، ورنة شيطان عند نغمة ومرح، ورنة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ".
وروى الترمذي أيضا من حديث علي (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء " فذكر منها: " إذا اتخذت القينات والمعازف " وفيما رواه أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من جلس إلى قينة يسمع منها صُبَّ في أذنه الآنُك ٥ يوم القيامة ".
على أن الغناء المنهي عنه هو المعتاد عند المشتهرين به، والذي يحرك النفوس فيستميلها للذة والطرب، ويجنح بها للهوى والغزل والمجون بعد سكون الشهوة ورقادها - إلى غير ذلك من الشعر الذي يُشَبَّب فيه بالنساء ووصف محاسنهن والافتتان بهن ووصف الخمور والمحرمات،

فإن ذلك حرام قطعا - أما ما كان من غناء يخلو من ذلك فيجوز منه القليل في بعض الأحوال والظروف كالأعراس والأعياد حيث السرور والبهجة تغمر قلوب الناس في مثل هذه المناسبات - وكذلك عند التنشيط على الأعمال الشاقة مما يروح النفس ترويحا ويكفكف عنها غبار الكد والنصَب.

وذلك كما كان في حفر الخندق وحدو أنجشه، وهو أسود كان يسوق الإبل بنساء النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحدائه - وفي ذلك روى الديلمي عن أنس مرفوعا: " روحوا القلوب ساعة فساعة ".

أما ما ابتدعته الصوفية من سماع المغاني وقد اختلطت بالمعازف وآلات الطرب كالشبابات والمزامير والأوتار فذلكم حرام.

أما الضرب على الدف لإظهار النكاح فباح - وقال القرطبي في هذا الصدد: إن الطبل في النكاح كالدف، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رفث.

أما الاشتغال بالغناء على الدوام فهو سفه - تُرد به الشهادة وقد ذهب الإمام مالك إلى أن الغناء حرام - ولما سئل عن ذلك قال: إنما يفعله عندنا الفساق - وذهبت الحنيفية والشافعية، وكذا الحنبلية في رواية لهم إلى أن الغناء مكروه، وأن سماعه من الذنوب، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.

والذي نميل إليه أن الآية تتناول بعمومها سائر الأقوال والأحاديث التي تلهي عن طاعة الله والتي تشغل البال والقلب عن الخشوع والورع والتذكر، وسماع المواعظ ودروس العلم - سواء في ذلك الغناء أو قص الأساطير الموهومة بقصد الإلهاء عن سماع الإسلام بأفكاره ومعانيه، وكذلك اللغو من الكلام الذي يلهي الناس عن سماع القرآن ويضلهم عن الحق ليتيهوا في الباطل - وهو قوله: {ليضل عن سبيل الله} المضل يراد به صاحب اللهو على اختلاف وجوهه فهو بتلهيته يضل الناس عن دين الله فيحول بينهم وبين سماع القرآن والاتعاظ بكلماته وإيقاعاته المؤثرة - أو يلهيهم عن الاستفادة من علوم الإسلام؛ إذ لا يستبقي لهم من الفراغ أو الوقت ما يقرأون فيه أو يسمعون القرآن وروائع الإسلام، فضلا عن تلهيتهم عن أداء الواجبات والطاعات المفروضة والمندوبة.

وهذا هو دأب الحكام والساسة الذين يقودون المسلمين في عصرهم الراهن؛ إذ يسوسونهم بغير شريعة الإسلام؛ يسوسونهم بشرائع الكفر وملل الضلال والباطل مما ابتدعوه من نظم الحضارة المادية الظالمة - أولئك يصطنعون كل أسباب التلهية من مختلف وجوه اللهو الفارغ الذي تُسخّر لنشره وإشاعته كل الوسائل والأسباب وبخاصة وسائل الإعلام المختلفة؛ وذلك من أجل أن تلتهي الأمة عن الاهتمام بدينها وقيمها ومقوماتها الثقافية والمعنوية والسلوكية؛ وكيما تغض الطرف عن تعاليم الإسلام ولا تعبأ بسماع القرآن، فضلا عما يبتغيه الساسة الظالمون من إفساد النفس لدى الأفراد وتشويه العقول والتصورات فتزهد في الإقبال على الإسلام كل الزهد أو تنفر منه نفورا.

قوله: {وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} الضمير في {وَيَتَّخِذَهَا} عائد إلى {سبيل الله} والمراد بسبيل الله منهج الحق وصراط الله المستقيم ودينه الحنيف القويم - والمعنى: أن المضل عن سبيل الله بلهوه وضلاله إنما يسخر من دين الله وشرعه، ويهزأ بالإسلام وما فيه من أحكام وقيم وتصورات - وذلك هو دأب الغاوين الذين يغوون الناس بفسقهم وفجورهم ويضلونهم عن دين الله بما ابتدعوه واصطنعوه من فتن الملاهي والمعازف والغناء الفاجر المستهجن.

قوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} هؤلاء المضلون الفسّاق الذين يلهون الناس عن دينهم ويضلونهم عن فعل الطاعات والواجبات بما ابتدعوه من لهو فاسد ماجن -صائرون إلى عذاب الخزي والهوان في النار ٦.

٧ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}.

المراد بالمتولي المستكبر هو الذي يشتري لهو الحديث لإضلال الناس به عن دين الله وعن صراطه القويم؛ فهو إذا تليت عليه آيات الكتاب الحكيم وما تضمنه من معاني التذكير أو التحذير أو الترهيب {وَلَّى مُسْتَكْبِرًا} أي تولى عنها مدبرا إدبارا، وأعرض عن سماعها مستكبرا

استكبارا - أولئك هم المضلون من أهل الملاهي والمعازف والغناء المبتذل الفاجر، فقد استغلقت قلوبهم أيما استغلاق، واستعصت طبائعهم الكزّة على الاستجابة لكلمات الله، أو الحنين لسماع الآيات الباهرة من آيات الذكر الحكيم - فهم بإيغالهم في اللهو الفاسد المحرم قد فسدت فيهم القلوب حتى حيل بينها وبين التأثر بكلمات القرآن، فأدبروا منقلبين مستكبرين كأنهم لم يسمعوا شيئا - وهو قوله: {كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً}

الوقر، بالفتح، معناه الثقل في الأذن - وبالكسر، الحمل ٧ أي كأن هذا المعرض المستكبر لم يسمع آيات الله كأن في أذنيه ثقلا وصمما فلا يستطيع السمع.

قوله: {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي بشر هذا المعرض المستكبر الذي تولى مدبرا نافرا من سماع القرآن، بالعذاب المهين يوم القيامة وهو عذاب النار.

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

ذلك وعد من الله لعباده المؤمنين الذين صدقوا رسوله واتبعوا النور الذي أنزل معه والتزموا منهج الله دون غيره من مناهج الأرض -بأن يجزيهم في الآخرة خير الجزاء وهي الجنة حيث النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول {خَالِدِينَ فِيهَا}.

٩ - (خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{خَالِدِينَ فِيهَا} {خَالِدِينَ}، منصوب على الحال من الضمير في قوله: {لَهُمْ} ٨.

قوله: {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا} {وعد}، مصدر مؤكد لنفسه؛ أي وعد الله وعدا، و {حَقًّا}، مصدر مؤكد لغيره؛ أي حق ذلك حقا - والمعنى: أن وعد الله آت لا محالة، ولن يخلف الله وعده.

قوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {الْعَزِيزُ}، أي القوي القاهر الذي لا يغلبه غالب - وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتدبيره شؤون الخلق ٩.

١٠ - (خَلَقَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}.

يبين الله في ذلك بالغ قدرته وعظيم سلطانه؛ فهو سبحانه الخالق المهيمن المقتدر الذي ذرأ الكون الهائل المتسع ومنه السماوات السبع وما فيهن وما بينهن - وقد قيل: إن السماوات مبسوطة مستوية - وقيل: إنها مستديرة ويعزز هذا قوله: {كل في فلك يسبحون} والفلك اسم لشيء مستدير - وفلكة المغزل، سميت بذلك لاستدارتها - ويقال: تركته كأنه يدور في فلك ١٠.

قوله: {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} {عَمَدٍ}، جمع ومفرده عماد وعمود - ترونها جملة فعلية، في موضع نصب على الحال من {السماوات} - فلا يكون ثمة عمد البتة - وقيل: في موضع جر، صفة لعمد، فيكون هناك عمد لكنها لا ترى.

وكيفما تكن حال السماوات أو حقيقتها من حيث الكيفية والهيئة والسعة وكثرة الخلائق والأشياء والأجرام فإن ذلك كله من خلق الله - وتلكم آية بالغة على أن الله حق، وأنه الخالق القادر البديع.

قوله: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ} الرواسي، الجبال الثوابت؛ فقد جعلها الله في الأرض؛ لتستقر هذه وتثبت فلا تتحرك أو تضطرب؛ ذلك أن الجبال هائلة وثقال، وهي بعظيم ثقلها تصير الأرض بها ثقيلة فترسخ وتسكن، وإلا زالت عن موضعها أو تطايرت - وهو قوله: {أَن تَمِيدَ بِكُمْ} أي كراهية أن تميد بكم - أو لئلا تميد بكم، ماد الشيء، تحرك - ومادت الأغصان، تمايلت - وغصن مائد، أي مائل، وماد الرجل، يعني تبختر ١١.

قوله: {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ} الدابة اسم لكل ما دب على الأرض.
والمعنى: أن الله خلق في الأرض من أصناف الحيوانات ما لا يعلم أجناسها وأعدادها وأشكالها وألوانها إلا هو سبحانه.
قوله: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} أنزل الله المطر من السماء فأنبت به في الأرض من كل نوع من أنواع النبات {كَرِيمٍ} أي حسن المنظر واللون.
١١ - (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
قوله: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ} أي هذا الذي بينته لكم مما تشاهدونه وتعاينونه، هو مخلوق الله - فالله خالق ذلك كله من غير شريك له في ذلك ولا ظهير.
قوله: {فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ} الياء في قوله: {فَأَرُونِي} مفعول أول - وجملة {مَاذَا خَلَقَ}، في موضع نصب مفعول ثان للفعل أروني - ما استفهام في موضع رفع مبتدأ - وخبره ذا - وذا يعني الذي ١٢.
والمعنى: أروني أي شيء خلقه شركاؤكم الذين اتخذتموهم أندادا لله - والاستفهام للتوبيخ والتقريع.
قوله: {بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} {بل}، إضراب عن تقريع المشركين وتبكيتهم على الحكم عليهم بالضلال الظاهر وأنهم ظالمون، لأنفسهم خاسرون ١٣.
١٢ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)
قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} {لقمان}، اسم غير منصوف؛ للتعريف، وللألف والنون الزائدتين، كعثمان ولقمان، مفعول أول للفعل {آتينا} - و {الحكمة} مفعول ثان.
وقد ذهب أكثر العلماء من السلف إلى أن لقمان لم يكن نبيا بل كان حكيما فقد أوتي الحكمة والفهم وحسن الخطاب - وقيل: كان عبدا حبشيا نجارا - وقيل: كان خياطا - وهو قول ابن عباس - وقد أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة، وكان قاضيا في بني إسرائيل.
قوله: {أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} {أن}، بمعنى أي، المفسرة - يعني: قلنا له اشكر لله؛ فقد أمره الله بشكره على ما آتاه من نعم العقل والفهم والحكمة، فشكره لقمان - وشكر الله إنما يكون بطاعته، والتزام شرعه، والمضي على صراطه المستقيم.
قوله: {وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ} من يشكر الله على ما أنعم به عليه من مختلف أنواع الخير والفضل والنعمة والإحسان فلا يجحده ولا ينكر ما منّ به عليه بل يفيض على لسانه ذكر الله وشكره والثناء عليه على الدوام.
قوله: {وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} من يشكر الله بطاعته والإذعان لجلاله، وذكر نعمه وآلائه فإن الله يجزل له الثواب ويدرأ عنه المكاره والآلام ويصونه من عواقب الفتن.
قوله: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} من جحد نعم الله، وأنكر ما منّ به عليه من الخيرات والآلاء {فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ} عن عبادة الخلق وعن شكرهم إياه لا حاجة به سبحانه إلى شكر العباد فشكرهم إياه لا يزيد في سلطانه شيئا، وكفرانهم نعمه لا ينقص من ملكه أيما شيء ولو مثقال ذرة أو أصغر - وهو سبحانه {حَمِيدٌ} أي محمود في خلقه - أو مستحق للحمد من عباده على ما أنعم به عليهم من الآلاء ١٤.
١٣ - (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)
قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} إذ، ظرف يتعلق بفعل مقدر - وتقديره: اذكر، إذ قال لقمان، أي حين قال لقمان ١٥.
ذلك إخبار من الله عن قول لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه خير موعظة، إذ ينهاه عن التلبس بالشرك فإنه من رأس الخطايا وأفظع الموبقات، وهو مفض بصاحبه لا محالة إلى النار - فقد وعظه ناصحا ومشفقا ومحذرا ومبتغيا له الخير والسداد {يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ

الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} الشرك أعظم الظلم، والظلم معناه وضع الشيء في غير موضعه ١٦.
وبذلك فإن الشرك – وهو اتخاذ الأنداد مع الله والشركاء- وضع للعبادة في غير موضعها - وذلك أمر عظيم النكر والاعوجاج ١٧.
١٤ - (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْه أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)
قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.
يوصي الله بالوالدين في هذه الآية الحكيمة كغيرها من آيات أُخر فيهن توصية للأولاد ببر الوالدين والإحسان إليهما، وحسن طاعتهما في غير معصية لله.
وذلك هو شأن الإسلام في إكرام الوالدين، والاهتمام بهما، وفعل ما يرضيهما ودفع الأذى والمكروه عنهما، والحرص على كسب رضاهما، طلبا لمرضاة الله - لا جرم أن رضى الله مقرون برضى الوالدين - فلا يرضى الله عن ولد عاق لوالديه أو أحدهما.
إن هذه الحقيقة الساطعة البلجة تكشف عن جمال الإسلام، وإشراق منهجه للبشرية، وهو يرسخ قواعد الرحمة والمحبة والود في المجتمع.
ويأتي في طليعة ذلك كله طاعة الوالدين على أمثل وأكرم ما تكون عليه الطاعة من تواضع أوفى، وأدب رفيع جم، وحياء غامر ودود، وإجلال مستفيض يتقاطر من خصال الولد وهو يكرم والديه ويمد لهما كامل العون والإحسان.
على أن الترجيح لجانب الأم في كمال الطاعة لها ظاهر، جزءا مكافئا، لما بذلته من فرط العناء والحدب والنصب، وهي ترعى ولدها وتدفع عنه الأذى والسوء - ولشدة ما لقيت في اضطلاعها بهذه الوجيبة من بالغ الحرص والجد والإشفاق عليه بدءا بكونه جنينا مستورا في أحشائها، وانتهاء باندلاقه إلى الدنيا حيث الإرضاع والعناية والمكابدة المضنية كيما ينمو ولدها ويكبر ويترعرع ومن أجل ذلك فرض الإسلام للأم من عظيم التكريم وبالغ الطاعة والبر ما لم يفرضه لأحد سواها، ولقد فرض لها ذلك كله مما ليس له نظير في تاريخ الشرائع والعقائد والديانات والملل كافة - ويدل على هذه الحقيقة من الأخبار ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحقُّ الناس بحُسن صحابتي؟ قال " أمك " قال: ثم من؟ قال: " أمك " قال: ثم من؟ قال: " أمك " قال: ثم من؟ قال: " أبوك ".
وفي رواية، قال: يا رسول الله من أحق بحسن الصحبة؟ قال " أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك، ثم أباك ".
ومن جملة الاهتمام البالغ بالوالدين، وجوب طاعتهما في المباحات، ويستحسن ذلك في ترك المندوبات، والطاعات على غير الأعيان، مثل الجهاد على الكفاية، والاستجابة لنداء الأم في الصلاة المسنونة مما يبيح قطع الصلاة ".
قوله: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} {وَهْنًا}، منصوب على المصدر.
وقيل: منصوب على أنه مفعول ثان بتقدير حذف حرف الجر - أي حملته أمه بضعف على ضعف ١٨ والمعنى المراد: أنه أمه حملته في بطنها ضعفا على ضعف وشدة على شدة - فكانت بذلك تزداد كل يوم ضعفا ومشقة وجهدا على جهد.
قوله: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} المراد بالفصال، الفطام، وقد عبّر عنه بغايته ونهايته وهو الفصال - والمعنى: أن إرضاعه بعد وضعه يستغرق عامين وهي المدة المثلى والأتم للرضاعة - كما قال تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة}.
قوله: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} {أنِ}، في موضع نصب على حذف حرف الجر، وتقديره: بأن اشكر لي ولوالديك - وقيل: مفسرة بمعنى أي فيكون المعنى: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك ١٩ وذلك بما منَّت به عليك من النعم الكثيرة، وأولها نعمة الإيمان بالله إلها واحدا مقتدرا متفردا بالإلهية والربوبية - أما الشكر للوالدين فبما أفاضا على الولد من نعمة التربية والتنشئة والرعاية والحرص، ويكون الشكر لهما بمختلف وجوه البر والحدب والإحسان والطاعة في غير معصية لله، وبالدعاء والاستغفار لهما في حياتهما وعقب الممات - وفي

ذلك روى أبو داود والبيهقي أن رجلا من بني سلمة قال: يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما بعد موتهما؟ قال " نعم: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما ".

قوله: {إلي المصير} الرجوع إلى الله يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.

١٥ - (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} يعني إن حرص عليك الوالدان كل الحرص، وبذلا فيك الجهد لحملك على متابعتهما في دينهما فتشرك بي في العبادة غيري مما لا تعلم أن شريك لي، فلا تقبل منهما ذلك ولا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي - وذلك هو شأن المؤمن الواثق بربه المستيقن بحقيقة دينه؛ فإنه لا يلين لأحد من الناس كالوالدين أو غيرهما إذا أرادوا حمله على الإشراك بالله أو التنازل عن جزء من عقيدة الإسلام أو فروضه وواجباته - إنه ما ينبغي لمسلم مستعصم مستمسك بعقيدته الصلبة المكينة أن يتزعزع أمام الحملات المختلفة من أساليب الإغراء والإغواء والإضلال، بل يظل المسلم في وجه كل الأعاصير راسخ العقيدة شامخ الهمة والإرادة، صابرا.

قوله: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} {مَعْرُوفًا}، صفة لمصدر محذوف؛ أي وصاحبهما صحابا معروفا؛ أي صاحبهما في الدنيا بالمعروف والإحسان، وأطعهما في ما ليس فيه معصية لله - ويستدل من الآية على صلة الأبوين الكافرين بالمستطاع من المال إن كانا فقيرين، وأن يعاملهما الولد باللين والرحمة والرفق عسى أن يهتديا - ولا يحل بذلك للولد أن يقسو على أبويه الكافرين فيعاملهما بالغلظة، أو يخاطبهما بسوء الكلام مما فيه إيذاء لهما أو إهانة - وأي شيء من الإهانة وسوء الخطاب لأبويه أو لأحدهما فإنه خطيئة فادحة، وكبيرة من الكبائر.

قوله: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} أي اتبع سبيل المؤمنين المنيبين إلى الله بعبادته وحده، والتزام شرعه ومنهاجه {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} أي أنتم مبعوثون من بعد الموت وصائرون إلى الله يوم القيامة {فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} عقب معادكم ومصيركم إلى الله فإنه مطلعكم على جميع ما أسلفتم في دنياكم من الأعمال من خير أو شر فمجازيكم على ذلك كله ٢٠.

١٦ - (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}.

هذه جملة وصايا جيدة وسديدة أخبر الله بها عن لقمان؛ إذ أوصى بها ابنه؛ لتكون تذكرة وعبرة للناس - لا جرم أنها وصايا نافعة وجليلة ومؤثرة، حقيقة بدوام التفكر والتدبر.

والضمير في قوله: {إنها} يراد المعصية والخطيئة - يعني إن تكن المعصية في بساطتها في وزن الحبة من الخردل وهي غاية الصغر {فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ} يعني إن تكن هذه الخطيئة الصغيرة التي في وزن الخردلة مخبوءة في جوف صخرة لا يدري بها أحد من الخلق، أو تكن مستورة في أطواء السماء أو في طباق الأرض أو مجاهل الفضاء {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} أي يظهرها الله يوم القيامة حينما يضع الموازين القسط، فيجازي كلا من عباده بما عمل إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} الله لطيف لا تخفى عليه الخوافي، مهما دقت وصغرت - نقول: لطف الشيء أي صغر فهو لطيف ٢١ و {خَبِيرٌ} أي عليم بكل شيء.

١٧ - (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)

قوله: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ} أمر لقمان ابنه أن يقيم الصلاة بتمام حدودها وفروضها دون تفريط أو تقصير {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ} أمره أن يأمر الناس بطاعة الله وعبادته وحده، واتباع شرعه، وأن ينهاهم عن المنكر وهي المعاصي والخطايا بكل صورها وضروبها.

قوله: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ} أمره بالصبر على أذى الناس؛ فإنه لا يدعو الناس أحد إلى عبادة الله وحده أو يحذرهم معصية ربهم ومجانبة أمره إلا أصابه منهم البلاء والأذى بمختلف صوره وأشكاله، وليس على العبد المؤمن الخاشع الذي التزم شرع الله وسار على صراطه القويم إلا أن يصبر على طاعة الله والثبات على دينه وشرعه، وأن يحتمل في ذلك كل وجوه المكاره والإساءات، والله جل وعلا يجزيه أجر الصابرين المحتسبين.

قوله: {إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} إن العمل بما ذكر، والثبات عليه والتزام الصبر على المكاره والأذى من أجل ذلك لهو {مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} أي مما عزمه الله وأمر به - أو هو من عزائم أهل الحزم الثابتين على الحق، الراسخين في الإيمان.

١٨ - (وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

قوله: {وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} تصعر من الصَّعر، وهو ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشدقين - أي أماله عن الناس إعراضا وتكبرا ٢٢ أي لا تُمل خدك للناس إعجابا بنفسك واستكبارا عليهم واحتقارا لهم - بل أقبل عليهم في تواضع ورحمة وخلق حسن في غير ما كبْر ولا عُجب ولا خيلاء.

قوله: {وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} {مرحا}، مصدر منصوب على الحال ٢٣ أي لا تمش مختالا متكبرا وقد استحوذ عليك الغرور والإعجاب بالنفس {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} لا يحب الله المختال، وهو من الاختيال أي المبالغة في المرح - والفخور، المعجب بنفسه، والذي يفتخر على الناس بما أوتيه من حظوظ الدنيا.

١٩ - (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

قوله: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} القصد في اللغة، بين الإسراف والتقتير - {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} أي أربْع على نفسك ٢٤ والمراد بالقصد في المشي التوسط فيه؛ ليكون ما بين الإسراع والبطء - وذلك من مكارم الأخلاق ومن صفات المؤمنين المتواضعين؛ إذ يمشون في الأرض مشية الوقار والاعتدال بعيدا عن رعونة السرعة واختيال البطء.

قوله: {وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ} غض الصوت خفضه ٢٥ والمراد عدم المبالغة في رفع الصوت والجهر به وإنما يجهر بصوته مقدار ما يحتاجه السامع.

قوله: {إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} ذلك مثل في ذم الأصوات العالية من غير حاجة أو فائدة؛ فقد شبّه حديث المتصايحين الذين يتخاطبون بأعلى الأصوات بصوت الحمير؛ وذلك لقبح صوت الحمير وبشاعته وهو نهيقه أو نُهاقُه - لا جرم أن نهيق الحمير قبيح ومنفر - وفي ذلك روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه ومسلم قال: " إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنها رأت شيطانا " ٢٦.

٢٠ - (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}.

يمنّ الله في هذه الآية على عباده بما في ذلك من استفهام على سبيل التقريع للمشركين المكذبين الذين يجحدون نعم الله الكثيرة، فقد سخر الله لهم ما في السماوات والأرض من النعم - أي يسَّرها وذللها لهم لينتفعوا بها، سخر لهم ما حوته السماوات والأرض من شمس مضيئة مشرقة، وقمر ساطع منير، وكواكب لوامع ونجوم هائلة ثوابت، وأجرام كثيرة ومختلفة ومبثوثة في أرجاء الكون الفسيح، تجمع بينها قوانين مستقرة، في غاية الدقة والإحكام فلا خبط ولا عِثار ولا فوضى - وكذلك سخر لهم ما في الأرض - هذا الكوكب المتقن الدائر العجيب بما حواه من بحار وأنهار وأشجار فيها من كل الثمرات - وكذلك الهواء الذي يملأ الأرض بمركباته الدقيقة، ومن أهمها عنصر الأكسجين الذي تتنفسه الأحياء فلا تموت - إلى غير ذلك من وجوه المنافع المستفادة من طبقات الأرض ومركباته كالمعادن والمياه والأسماك والطقوس والبيئات والأحوال المختلفة المتكاملة - كل ذلك بفعل الله وتقديره فهو سبحانه الخالق القادر المنّان.

قوله: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} أسبغ أي أفاض وأتم - أسبغت الوضوء أي أتممته ٢٧ والمعنى: أن الله أتم نعمه عليكم وأكملها لكم {ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} واختلفوا في المراد بنعم الله الظاهرة والباطنة - فقد قيل: المراد بالظاهرة الإسلام، إذ أتمه الله على عباده ليسعدوا به وينجوا، والباطنة، ما ستر الله على عبده من سوء العمل؛ فقد روي أن ابن عباس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال: " الظاهرة الإسلام وما حسن من خلْقك - والباطنة ما ستر عليك من سيئ عملك - وقيل: الظاهرة: تمام الصحة وكمال الخلْق من السمع والبصر واللسان وسائر الجوارح الظاهرة - والباطنة: المعرفة والعقل والقلب - وقيل: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم الآخرة - وقيل: الظاهرة ما تشهد به الأبصار من مال وجاه وجمال في الحياة والطبيعة - أو ما يدرك بالعقل والحس والمشاهدة - وأما الباطنة فهي ما يخفى على الناس ولا يدركونه من النعم.

قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ} من الناس معاندون فجّار يخاصمون في شأن الله من حيث وجوده أو وحدانيته أو إفراده دون غيره بالعبادة والطاعة وكامل الإذعان، وذلك على سبيل المكابرة والمعاندة والعتو {بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي ليس لهم فيما يتقولونه ويتخرصونه من حجة أو دليل من عقل ولا نقل {وَلاَ هُدًى} أي ولا بيان يهدي إلى الصواب ويميز بين الحق والباطل {وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ} أي ليس له فيما يزعمه برهان من تنزيل من الله كاشف ونير يعزز حقيقة دعواه، ويشهد بصدق خصامه - إنه ليس لهؤلاء المكذبين في خصامهم من دليل أو حجة إلا العناد والتمرد والاستكبار.

٢١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} إذا قيل لهؤلاء المخاصمين المعاندين: اتبعوا الحق الذي أنزله الله على رسوله وهو كتابه الحكيم والنور الكاشف المبين؛ ليكون بشيرا ونذيرا للعالمين، وهاديا للبشرية إلى سواء السبيل، قالوا في جهالة وعمه وتقليد فاسد مستهجَن {بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} أبوا إلا التقليد الأعمى باتباع الآباء في عبادتهم السخيفة؛ إذ كانوا يعبدون أصناما جوفاء صمّا لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

قوله: {أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} يعني أيتبعون آباءهم في عبادتهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم إلى الضلال والشرك وما يفضي بهم إلى النار المستعرة الحامية - والاستفهام للتوبيخ والتبكيت - فما ينبغي لذي عقل أن يقلد السابقين الغابرين؛ لكونهم آباء وأجدادا إن كانوا أولي ضلال وكفر - وإنما يقلد النبيه الحريص أهلَ الهدى والتقى من المؤمنين الذين استقاموا على منهج الله، منهج الإسلام ٢٨.

٢٢ - (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)

قوله تعالى: {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}.

خص الوجه؛ لأنه أشرف الأعضاء في الجسد من حيث الهيئة والصورة، وفيه جماع الحواس - والمراد إسلام النفس كلها إلى الله

بحسن التوجه إلى جنابه العظيم، وتمام الخضوع والإذعان لجلاله الكريم، والإقرار الكامل له بالإلهية، والتجرد كليا من عبادة غيره من الأنداد والشركاء.

قوله: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} مطيع لله فيما أمر، ومُنته عما حذر منه أو زجر.

قوله: {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} عروة الثوب، أي مدخل زره، وعروة القميص أو الكوز ونحوهما: مقبضه - وجمعها عرى ٢٩ وتستعار العروة لما يوثَق به ويُعول عليه - و {الوثقى} القوية الثابتة - والوثيق أي الثابت المحكم - والموثق والميثاق بمعنى العهد ٣٠ والمعنى: أنه استعصم وتمسك بالحبل المتين المأمون انقطاعه - أو لا يخشى من تمسك به أن ينقطع.

وذلك هو شأن المؤمن الذي أخلص النية لله وأسلم وجهه إليه مُخبتا ومذعنا له بالامتثال والاستسلام - لا جرم أنه بذلك مستعصم بما لا ينقطع البتة؛ لأنه رصين ومكين ومنيع.

قوله: {وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} إلى الله تصير الخلائق والأعمال يوم القيامة.

٢٣ - (وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله: {وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ} هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين الذين يدعون الناس إلى دين الله، تسلية لهم ومواساة لئلا يحزنوا أو تذهب نفوسهم حسرات وابتئاسا من معاندة الكافرين وتكذيبهم، وفرط جحودهم وضلالهم.

قوله: {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا} ذلك وعيد للمجرمين المكذبين فإنهم صائرون إلى الله يوم القيامة، وحينئذ يبين الله لهم ما فعلوه من الكفر والعصيان، فيجازيهم بذلك كله، وليس لهم إذ ذاك من مفر ولا مناص.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} الله يعلم ما تخفيه قلوب هؤلاء المكذبين الجاحدين من الكفر وسوء المقاصد.

٢٤ - (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)

قوله: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً} أي نمهلهم في هذه الدنيا الزائلة مدة قليلة يمتعون فيها بالمتاع السريع الفاني {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} أي نُلجئهم، ونسوقهم يوم القيامة إلى عذاب النار.

٢٥ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}.

هؤلاء المشركون الضالون مكابرون معاندون في كفرهم وإشراكهم، وهم موقنون في قرار أنفسهم بأن الله حق، وأنه خالق كل شيء، وأنه إله العالمين، ولو سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم {مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} يقرون في أعماق قلوبهم أن الله خلق السماوات والأرض - وهم مع ذلك يعبدون معه آلهة أخرى مصنوعة لا تضر ولا تنفع ولا تغني ولا تشفع.

قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} الله المحمود في خلقه، وله الشكر والثناء على ما أنعم به على عباده وتفضل، وليس لما تتخذونه من آلهة مصنوعة ومزعومة.

قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أكثر الكافرين لا يعلمون الحق، ولا يتدبرون الصواب فهم ساهون غافلون موغلون في الضلالة والجهالة والباطل جريا وراء الهوى والشهوات.

٢٦ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

قوله: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الله مالك كل شيء، وبيده مقاليد السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} الله غني عن العالمين وعن عبادة الخلق له - وهو سبحانه {الْحَمِيدُ} أي المحمود في العالمين على ما أنعم به على عباده ٣١.

٢٧ - (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}.

سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شيء؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " التوراة قليل من كثير" والآية مدنية ٣٢.

والمعنى: لو أن جميع الأشجار جُعلت أقلاما ثم جُعل البحر مدادا، وأمدّه معه سبعة أبحر، فكتبت بها كلمات الله لتكسرت الأقلام ونفذت مياه البحار ولو جيء بأمثالها مدادا - والمراد بكلمات الله علمه بحقائق الكون والأشياء - وقيل: أسماؤه الحسنى وصفاته العظمى وكلماته التامة - والأول أظهر {والبحر} يقرأ بالرفع والنصب - أما الرفع على أن تكون الواو، واو الحال - والبحر مبتدأ، وخبره {يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ} والجملة في موضع نصب على الحال، وأما النصب فبالعطف على {مَّا} وقيل: منصوب بتقدير فعل - وتقديره: يمد البحر يمده ٣٣.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الله قوي قاهر لا يغلبه غالب، وهو منتقم من الظالمين المعرضين عن دينه، السادرين في الغي والكفر - وهو سبحانه حكيم في أفعاله وأقواله وتدبيره شؤون خلقه.

٢٨ - (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

قوله: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} لا يعز على الله أن يفعل ما يشاء ولا يتعذر عليه صنع ما يريد؛ فهو خالق الخلق وباعثهم يوم القيامة، وذلك عليه هين ويسير؛ و {مَّا} ابتداء الخلق جميعا إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثهم من الممات يوم تقوم الساعة إلا كبعث نفس واحدة.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} الله يسمع ما يقوله العباد وما يفتريه المشركون من الكفر والضلالات، وهو كذلك بصير بما يعملونه. وهو مجازيهم على ذلك كله ما يستحقونه من الجزاء ٣٤.

٢٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

يصلح الخطاب ههنا لكل أحد من الناس، والاستفهام يستفاد منه التنبيه والتذكير على حقيقة كونية من صنع الله تدل على أن الله حق، وأنه الغالب المقتدر؛ فهو سبحانه {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أي يدخل كل واحد منهما في الآخر، وذلك أن الله جلت قدرته يزيد من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار - وهو قوله: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ} وكذلك يزيد من نقصان ساعات النهار في ساعات الليل وهو قوله: {وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}.

{وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} أي ذللهما لمنافع العباد، ومن أجل أن تستقر الحياة وتستقيم على وجه الأرض - والشمس قد وضعها الله في مكان مناسب ومقدور فلا هي أبعد مما هي عليه الآن، ولا أدنى، بل هي في موضع مقدور موزون، صنع الله الذي أتقن كل شيء - وكذلك القمر، جعله الله في مكانه المناسب المقدور انسجاما مع قانون الطبيعة ونجومها وكواكبها المتسقة، ومراعاة لقانون الجاذبية المتبادلة بين الأرض والقمر.

وأيما خلل في مسافة كل من الشمس والقمر عن الأرض سيفضي بالضرورة إلى خلل في مسافة كل من الشمس والقمر عن الأرض

سيفضي بالضرورة إلى خلل فظيع واضطراب هائل ومريع في الحياة ومصير الأحياء على ظهر الأرض، فضلا عن منافع الشمس بدفئها وحرارتها وإشراقها، وكذا القمر بنوره المشع، وسطوعه المتلألئ الذي ينشر في الدنيا البهجة والجمال.

قوله: {كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} الشمس والقمر، كلاهما يجري طيلة هذه الحياة الدنيا، ثم يسكنان ويسكّان عن الحركة والجريان يوم القيامة.

قوله: {وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} الله مطلع على الأستار والأخبار، وهو يعلم ما يصدر عن الخلق من أعمال وأقوال فمجازيهم بها يوم القيامة.

٣٠ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} ما تبين من الحجج على عظيم صنع الله، وبالغ قدرته يدل على أن الله هو الموجود الحق، وأنه لا تصلح الإلهية إلا له سبحانه - أما ما يعبده هؤلاء المشركون فإنه الباطل والضلال.

قوله: {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} الله المتعالي على كل شيء - وما من شيء إلا هو متذلل لجلاله، منقاد لكبريائه، وهو سبحانه الكبير في هيمنته وسلطانه، وكل شيء دونه خاضع له، ومتصاغر أمام جبروته ٣٥.

٣١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}.

ذلك تنبيه من الله على ما منَّ به على عباده من الآلاء وهي كثيرة ومختلفة لا تحصى لكثرتها - ومن جملة ذلك: تسخير السفن {تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ} أي بلطفه وتسخيره كيلا يغرقوا - وذلك بما أودع الله الأجسام من خصوصية الطفو فوق سطح الماء - فما من جسم ذي كثافة أقل من كثافة الماء إلا يطفو على الماء فلا يغرق - لا جرم أن الذي بث هذه الخصوصية لهو الله الخالق المقتدر - وهو قوله: {لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ} {من}، للتبعيض، أي ليريكم بعض علاماته، وحججه الدالة على قدرته وعظيم مشيئته.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي فيما ذكر من الحجج الباهرة البلجة وبينات يتدبرها ويتعظ بها كل صبار شكور أي شديد الصبر على طاعة الله، والتزام شرعه وأوامره، ومجانبة نواهيه وزواجره، وكثير الشكر على أنعمه الجليلة كنعمة الإسلام خاصة.

٣٢ - (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

قوله: {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} الموج أعم من الموجة - وجمع موج، أمواج - ماج البحر ويموج إذا اشتد هياجه واضطرابه - وماج الناس إذا اختلفت أمورهم واضطربت ٣٦.

والمراد بالظلل، الجبال - وذلك وصف لحال العباد إذا ركبوا الفلك فهاج بهم البحر، وتعاظمت من حولهم الأمواج الهادرة، فغشيهم الفزع والإياس حينئذ يجأرون إلى الله بالدعاء - وهو قوله: {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي دعوا ربهم وحده موقنين أنه الملاذ لخلاصهم واستنقاذهم من الهلاك دون غيره من الشركاء والأنداد - لكن نشأتهم الضالة وشدة جنوحهم للتقليد الأعمى والتعصب المذموم قد طغى عليهم وأنساهم ذكر ربهم؛ فهم إذا انكشفت عنهم الكروب، وانجلت الشدائد والأهوال عاودوا الإشراك والعصيان، وهو قوله: {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ} المقتصد، الموفي بما عاهد عليه الله وهو في البحر، أي أوفى في البر بما عاهد عليه الله وهو في البحر - وقيل: المقتصد، معناه المتوسط في العمل، وهو بعد أن عاين الآيات الظاهرة وهو في البحر كان ينبغي أن يقابل ذلك ببالغ الطاعة والشكران لله، وأن يبادر العبادة والخشوع.

قوله: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} الختار، معناه الغدار، من الختر وهو الغدر والخديعة، أو أقبح الغدر وأسوأه ٣٧ أي: لا

ينكر الآيات الواضحات والدلائل المستبينات الناطقة بقدرة الله وعظيم سلطانه إلا كل خوّان شديد الغدر، {كَفُورٍ} - أي جحود للنعمة، سريع الكفران لما منّ الله به عليه من الاستنقاذ والتنجية والخلاص - وذلك دأب الجاحد الغادر الذي يتناسى فضل الله عليه وما منّ به عليه من بالغ النعم فيتولى مدبرا منكرا سادرا في عصيانه وجحوده.

٣٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}.

ذلك تحريض من الله لعباده من أجل أن يخشوه، ويبادروا لطاعته وإفراده وحده بالإلهية قبل أن تقوم الساعة فيحيط بهم العذاب، ويغشاهم من الإياس والفزع ما يغشاهم - وهو قوله: {اتقوا ربكم}

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}.

ذلك تحريض من الله لعباده من أجل أن يخشوه، ويبادروا لطاعته وإفراده وحده بالإلهية قبل أن تقوم الساعة فيحيط بهم العذاب، ويغشاهم من الإياس والفزع ما يغشاهم - وهو قوله: {اتقوا ربكم} أي خافوه وأطيعوه واجتنبوا نواهيه {وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا} أي لا يغني والد عن ولده ولا مولود هو مغن عن والده شيئا - أو لا يحمل والد ذنب ولده، ولا يحمل مولود ذنب والده فلا يؤاخذ أحدهما عن الآخر.

وقد ذكر الله ههنا صنفين من القرابات وهما الوالد والولد لما بينهما من بالغ الشفقة وفرط الرحمة والتحنان - وهما يوم القيامة لا يغني أحدهما عن الآخر من المسائلة والعذاب شيئا - إنما ينجو الواحد منهما بما أسلف في دنياه من عمل، وفوق ذلك كله رحمة الله يصيب بها من يشاء من عباده.

قوله: {إن وعد الله حق} ذلك إعلان رباني جازم بأن الساعة آتية لا ريب فيها - وهذا وعد من الله ولن يخلف الله وعده.

قوله: {فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي لا تلهينكم، ولا تخدعنكم الدنيا بزينتها ومتاعها وملذاتها فتجنحوا إليها وتنسوا الآخرة {وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} أي لا يلهينكم ولا يغوينكم عن دين الله وطاعته {الْغَرُورُ} وهو الشيطان المخادع - ويستوي في الشيطان ما كان من الجن ذي الوسوسة في الصدور والتي تسول للإنسان الكفر وفعل المعاصي، أو كان من الإنس الذين يغوون الناس ويضلونهم عن دينهم بمختلف الأساليب والحيل التي تثير في الإنسان بواعث الشر والفتنة وتفضي به إلى الإيغال في الجحود والفساد والمعاصي ٣٨.

٣٤ - (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.

هذا إخبار من الله عن مفاتيح الغيب التي استأثر بعلمها لنفسه فلا يعلمها أحد من خلقه إلا أن يُعلمه الله بها وهي:

علم الساعة فإن خبرها مستور قد خفي على العالمين فلا يدري به أحد إلا الله.

ثم إنزال المطر من السماء إلى الأرض - فإن أحدا سوى الله لا يعلم بذلك قبل نزوله إلا أن يُعلمه الله الوسيلة لمعرفة ذلك - كأهل الخبرة والدراية بعلوم الطبيعة الذين يقفون على أحوال الطقس تبعا لدرجات الحرارة التي تقاس بمقاييسها المعروفة، مما يشير إلى احتمال

نزول الغيث قبل يوم أو يومين من نزوله - ولا يندرج ذلك في عمل الكهان أو القائلين بالأنواء ٣٩.
ثم قوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} الله يعلم حقيقة ما في الأرحام إن كانوا صلحاء أو طلحاء، مؤمنين أو كافرين، طيبين أو خبيثين، سعداء أو أشقياء، طائعين أبرارا، أو عصاة فجارا - كل هذه المعاني المستكنة في كينونة الجنين بدءا بكونه نطفة أو علقة أو مضغة وما بعد ذلك من المراحل البدائية، لا يعلمها أحد سوى الله - أما ما وقف عليه أهل الخبرة من ذوي الاختصاص في التحليل أو الطب من إمكان الكشف عن الجنين ليُعلم أذكرا هو أم أنثى، فإن ذلك لا ينافي حقيقة المفهوم للآية الكريمة وهو قوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} و {ما}، تستعمل لغير العاقل وفيها عموم - فهي تشمل كل ما يجتمع في الجنين من المركبات أو الخصال أو الخصائص، أو الصفات الخَلقية والخُلقية والنفسية والعقلية الكائنة مستقبلا.
ثم قوله: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا} أي لا يدري أحد من الناس ماذا هو عامل في غده من خير أو شر.
ثم قوله: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} لا يدري أحد متى هو ميت وأين هو موضع مماته - لا يدري أحد أن موته كائن غدا أو بعد غد، وهل هو في البر أو في البحر، أو السهل، أو الجبل، أو في الفضاء - لا يدري أحد بذلك سوى الله {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} خبر بعد خبر - وقيل: خبير صفة لعليم - والمعنى: أن الله عليم بكل شيء وهو سبحانه علاّم الغيوب على الأسرار والأستار جميعا، وخبير بعلوم الكون كله في الدنيا والآخرة - وفي ذلك كله روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: {إن الله عنده علم الساعة وينزل ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي لأرض تموت إن الله عليم خبير} ٤٠.

٣٢ سورة السجدة:

سورة السجدة:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وهي ثلاثون آية، مبدوءة بالتأكيد على أن هذا الكتاب منزل من رب العالمين.
وتتضمن السورة أخبارا عن كثير من الحقائق التي تدل على أن الله حق، وأنه البارئ المقتدر، موجد السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام قبل أن يخلق عرشه الهائل المديد.
وفي السورة بيان مقتضب عن أحوال الخاسرين يوم القيامة وما يغشاهم يومئذ من الذل والخزي والعذاب.
وفي السورة تنديد ووعيد للفاسقين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة فكان عاقبتهم أنهم في النار - إلى غير ذلك من الدلائل والبينات وصور الوعيد والتذكير.
١ - (الم)
قوله تعالى: {الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.
{الم}، في وموضع رفع، مبتدأ، وخبره {تَنزِيلُ} - أو {تَنزِيلُ}، خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو - و {الكتاب}، يراد به القرآن العظيم، فهو منزل من رب العالمين - وهذه حقيقة قاطعة لا ريب فيها، يدل عليها أن هذا الكتاب معجز، وأنه لا يضاهيه في العالمين أيما كلام - وقد بينا سابقا كثيرا من وجوه الإعجاز في القرآن مما يدل دلالة جازمة لا ريب فيها على أن القرآن كلام الله وأنه يعلو على آفاق البشر.
٢ - (تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
{الم}، في وموضع رفع، مبتدأ، وخبره {تَنزِيلُ} - أو {تَنزِيلُ}، خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو - و {الكتاب}، يراد به القرآن العظيم، فهو منزل من رب العالمين - وهذه حقيقة قاطعة لا ريب فيها، يدل عليها أن هذا الكتاب معجز، وأنه لا يضاهيه في العالمين أيما كلام -

وقد بينا سابقا كثيرا من وجوه الإعجاز في القرآن مما يدل دلالة جازمة لا ريب فيها على أن القرآن كلام الله وأنه يعلو على آفاق البشر.

٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

قوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} {أم}، المنقطعة، بمعنى بل والهمزة للاستفهام؛ أي بل أيقولون افتراه - وذلك على سبيل الإنكار لزعمهم، والتعجيب من جحودهم وتكذيبهم، وهم موقنون في قرارة نفوسهم أن هذا القرآن فذ وأنه متميز في نظمه وأسلوبه ومستواه، وأنه ليس له في الكلام نظير، وقد تحداهم أن يأتوا ببعض من مثله فما استطاعوا.

قوله: {بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} أضرب عن إنكارهم وزعمهم الفاسد، إلى الإعلان الجازم بأنه الحق المنزل من عند الله، فهو ليس من لدن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ولا في مقدور بشر أن يضاهيه أو يصطنع مثله.

قوله: {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} {نَّذِيرٍ}، من الإنذار وهو التحذير والتخويف في الإبلاغ ١.

يعني أنزل الله إليك هذا القرآن لتبلغ هؤلاء الذين لم يأتهم قبل ذلك أحد من الرسل، وهم أهل الفترة، فتحذرهم بأس الله وتخوفهم من عذابه الأليم.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} أي يثوبون إلى ربهم فيعبدونه وحده، ويحجمون عن عبادة غيره من الأصنام ومختلف الأنداد - والمراد بقوله: {لَعَلَّهُمْ} الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهو يرجو راغبا بشدة أن يهتدي قومه إلى سواء السبيل ٢.

٤ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ}.

يخبر الله عن بالغ قدرته وعظيم سلطانه ومشيئته؛ إذ خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من الكائنات والأجرام وما يربط ذلك كله من قوانين كونية في غاية الدقة والإحكام - وذلكم هو خلق الله الواسع الهائل المديد الذي تعجز الأذهان عن تصور مداه؛ لفرط عظمته وسعته، وكثرة ما فيه من عجائب وأحداث وأشياء.

لقد خلق الله ذلك كله في ستة أيام {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} {اسْتَوَى} بمعنى قصد: وقيل: استولى ٣ أي استولى على العرش بإحداثه.

قوله: {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ} ينذر الله عباده، إذ يحذرهم عصيانه ومخالفة أمره؛ فهم إن كذبوا رسوله ونكلوا عن عبادة الله وحده وعن اتباع منهجه الحكيم فلن يجدوا من دونه {ولي} أي ناصرا ينصرهم من دونه {وَلا شَفِيعٍ} من الشفع، بمعنى الضم ٤ أي ليس من أحد يضم جاهه ومكانته إليكم لينفعكم أو يدفع عنكم البلاء والشدة وأنتم مجموعون ليوم القيامة - وإنما الله وحده الخالق المدبر المقتدر، وهو الناصر والقاهر والمعز، وليس من أحد يشفع عنده يوم القيامة إلا بإذنه.

قوله: {أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} أفلا تتدبرون ما أنزل الله إليكم من الحجج والبينات فتتعظوا وتزدجروا عن الإشراك بالله واتخاذ الآلهة المصطنعة من دونه.

٥ - (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

قوله: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ} أي يدبر أمر خلقه من السماء إلى الأرض - وقيل: الأمر ما أمر به من الأعمال فإنه ينزل ذلك مدبرا من السماء إلى الأرض، أو ينزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى الأرض {ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ

مِّمَّا تَعُدُّونَ} أي أن نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد مقداره ألف سنة مما يعده الناس، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام مما تعدون من أيام الدنيا.

٦ - (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

قوله: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الإشارة عائدة إلى الموصوف بما ذكر وهو الخلق والتدبير للأمر - فالله الخالق المدبر يعلم ما يخفى على العباد وما ظهر لهم فشاهدوه أو عاينوه، وهو سبحانه الغالب في أمره، القوي الذي لا يقهر، وهو الرءوف بالعباد، اللطيف بهم بما شرعه لهم من ميسور الأحكام من غير تعسير ولا تضييق.

٧ - (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

قوله: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} يصف الله نفسه بأنه أحسنَ خَلق كل شيء بإتقانه وإحكامه وجعله على أفضل هيئة اقتضتها حكمته سبحانه.

قوله: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ} بعد أن خلق الله السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من خلائق وأحداث، وبثّ فيهما قوانين كونية مطردة ثابتة لا تفنى قبل يوم القيامة، {يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات} بعد ذلك كله بدأ الله خلق الإنسان من طين {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ}.

٨ - (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ} المراد بنسله ذريته الذين ينسلون منه؛ فقد خلقهم الله من ماء ممتهن مستهجن {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ}.

٩ - (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ} أي عقب خلقه من طين جعله سويا مستقيما على ما ينبغي من حسن الهيئة والصورة ثم نفخ فيه بعد ذلك من روحه تشريفا له، وتعريفا بقدره، وإشعارا بأنه مخلوق عجيب مميز ومفضل على كثير من الخلائق.

قوله: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} {وَالْأَفْئِدَةَ}، بمعنى القلوب، فالله يمنّ على عباده بما أنعم به عليهم من عجيب النعم وهي كثيرة - ومن جملتها السمع؛ فهو يعي بسمعه المواعظ والعبر، وينتفع بما يطرقه من كلمات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويلين قلبه وحسه وجوارحه إذا تدبر القرآن وهو يتلى على مسمعه بنظمه الخارق الباهر، وإيقاعه المثير المذهل.

وكذلك الأبصار ليرى بعينيه ما خلق الله من عجائب المشاهد ة المنظورة في الطبيعة من سهول ووهاد وبحار وأنهار، وأشجار وأزهار - كذلك الأفئدة، وهي العقول، قد جعلها الله للإنسان، ليتفكر بها ويميز بها الحق من الباطل، والصواب من الاعوجاج.

قوله: {قليلا ما تشكرون} أي تشكرون شكرا قليلا، بدلا من دوام الشكر منكم لله على ما منّ به عليكم من جزيل النعم ٥.

١٠ - (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

قوله تعالى: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}.

يتساءل المشركون الضالون، على سبيل التكذيب والاستبعاد قائلين: أئذا متنا، وتمزقت أجسادنا، وصرنا ترابا، واختلطت أعضاؤنا وأجزاؤنا بتراب الأرض فغبنا فيها متفرقين {أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} يعني أنبعث خلقا جديدا بعد أن تبعثرت أجسادنا وصرنا ترابا؟! وهذه مقالة المشركين المرتابين يرددونها في كل زمان، سواء في الزمن الغابر، إذ الجهالة والضلالة والسفه يغشى عقول الجاحدين ويضلهم ضلالا - أو في الأزمنة المتعاقبة الأخرى؛ إذ اللهو والغرور والانغماس في الشهوات والملذات والانشداد اللهوي الذي أفسد الفطرة، واستحوذ على القلوب والعقول جميعا - أولئك جميعا ينظرون إلى الساعة بمنظار الريبة والإهمال ليبوءوا أخيرا بالويل والخسران في

الدارين، دار الدنيا ودار الآخرة.
قوله: {بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} أضرب عن ذكر كفرهم بالبعث إلى ما هو أفظع وأشد وهو كفرهم بكل أحداث العاقبة وليس البعث وحده.
١١ - (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)
قوله: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} {يَتَوَفَّاكُم}، من التوفي وهو استيفاء النفس وهي الروح، أي يتولى ملك الموت قبض أرواحكم جميعا فلا يستبقي منكم أحدا - وملك الموت، واحد من أعاظم الملائكة - وهو هائل ومُخُوف، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل - وقيل: له أعوان من الملائكة ينتزعون الأرواح من أجساد البشر إذا حضرهم الموت، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قام ملك الموت بتناولها فهو موكل بقبض أرواح بني آدم جميعا.
قوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}.
أي تردون إلى الله يوم القيامة، إذ تقومون من قبوركم منتشرين لتلاقوا الحساب والجزاء ٦.
١٢ - (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)
قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}
المخاطب بقوله: {وَلَوْ تَرَى} رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أحد من الناس - ولو أداة امتناع لامتناع - والجواب محذوف وتقديره: لرأيت أمرا عظيما، وذلك حين ترى المجرمين ناكسي رؤوسهم ذليلين خزايا بين يدي ربهم، لفرط ما يجدون في أنفسهم من العار والحياء واليأس، وحينئذ يبادرون القول {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} يقرون بإبصار ما وعدهم الله وما توعدهم به من العذاب، وبأنهم الآن يسمعون قوله ويطيعون أمره بعد أن كانوا من قبل صُمّا وعميانا {فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} أي أعِدْنا إلى الدنيا نجيب دعوتك ونطع أمرك ونصدق الرسل، فقد صدقنا بالبعث والحساب وأيقنا أن وعدك حق وأن ما جاء به المرسلون حق وصدق.
١٣ - (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)
قوله: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} أي لو شاء الله لأعطى كل نفس ما تهتدي به إلى الإيمان وصالح الأعمال بالتوفيق لذلك، ولكنهم لم يُعطوا ذلك لما يعلمه الله منهم أنهم جاحدون ولا يختارون غير الباطل ولا يؤثرون إلا الكفر على الحق والإيمان - ولذلك قال: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} أي ثبت الحكم أو القضاء من الله في قديم علمه، أن يملأ جهنم من الجنة والناس، فكلا الصنفين من الجنة والناس يملأ النار والعياذ بالله - وهو سبحانه المستعان المستجار - نسأله النجاة والسلامة في هذه العاجلة ويوم يقوم الأشهاد لرب العالمين.
١٤ - (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} يقال لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع زيادة في التنكيل - أي ذوقوا العذاب في النار بسبب غفلتكم عن يوم الوعيد ونسيانكم لقاء هذا اليوم الموعود {إِنَّا نَسِينَاكُمْ} أي قابلناكم بالنسيان والإهمال لتبوءوا بالعذاب الأليم فلا يصلنكم بعد ذلك منا رحمة أو تخفيف من العذاب.
قوله: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} كرر الأمر بذوق العذاب زيادة لهم في التنكيل والإيلام، إذ يصلون النار الحامية خالدين لا يبرحون وذلك بسبب تكذيبهم وجحودهم وبما كانوا يعملون من الخطايا والذنوب ٧
١٥ - (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

ذلك إطراء من الله لعباده الصالحين، أولي الطبائع السليمة والفِطَر المستقيمة الذين يصدقون بآيات ربهم، وإذا وُعظوا بها لانت قلوبهم لذكر الله وآياته، وأجهشوا في الخشوع والانفعال، وبادروا الخرور ساجدين لله، ونزهوه سبحانه عما لا يليق به من النقائص ومعيب الصفات، وأثنوا عليه حامدين له {وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} أي عن الإيمان بالله وعن طاعته والتزام شرعه وأوامره، بل إنهم يستجيبون لله طائعين مخبتين، لا يثنون ولا يترددون.

١٦ - (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

قوله: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} التجافي، عدم لزوم المكان ٨ وذلك وصف من الله للمؤمنين العابدين فإنهم تترفع جنوبهم وتتنحى عن الفرش ومضاجع النوم حيث الدعة والاسترخاء والدفء، مبادرين القيام في همة من أجل الصلاة - فهم بذلك يؤثرون الصلاة والعبادة والدعاء على الفراش والركون للنوم والراحة - والمراد بذلك قيام الليل - وقيل الصلاة ما بين العشاءين، أي المغرب والعشاء الآخرة.

قوله: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} أي يعبدون الله في الليل قياما ودعاء وتسبيحا خوفا من عقاب الله الوبيل وطمعا منهم في جزيل ثوابه ورضوانه.

قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} وهذه صفة أخرى يصف الله بها عباده المؤمنين الصالحين وهي إنفاقهم مما رزقهم الله من المال في وجوه البر والخير والطاعة - وفي هذا الصدد روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفره فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار - قال: " لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت " ثم قال: " ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل " ثم قرأ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} حتى بلغ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ثم قال: " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ " فقلت: بلى يا رسول الله فقال: " رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله " ثم قال: " ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ " فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: " كف عليك هذا " فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: " ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكبُّ النَاسَ في النار على وجوههم – أو قال على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم؟! " قال الترمذي عنه: حسن صحيح.

١٧ - (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} أي لا يعلم أحد من الخلق، من نبي مرسل أو ملك مقرّب ما أعده الله لهؤلاء المؤمنين الطائعين مما تقرّ به عيونهم من كريم العطاء وعظيم الجزاء {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {جَزَاءً}، منصوب على المصدر - أي جوزوا جزاء يعني جزاهم ربهم أحسن الجزاء في الآخرة بسبب ما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال والطاعات والقربات - لقد أعد الله لهم من عظيم الجزاء ما لا يتصوره الذهن والخيال، ولم تتوقعه الظنون والآمال - وفي هذا روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله تعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " ٩.

١٨ - (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ

عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)}.
ذلك إخبار من الله، يصف فيه عدله المطلق في قضائه بين العباد؛ فإنه سبحانه لا يساوي في حكمه يوم القيامة مَن آمن به وصدق بآياته وأيقن بأحقيّة ما أنزله من منهج حكيم قويم، بمن كان في دنياه فاسقا أي خارجا عن طاعته عاصيا لأمره؛ مكذبا بما أنزل على رسوله - وهو قوله: {لاَ يَسْتَوُونَ} لا يستوي المؤمن والفاسق في الجزاء والشرف والمصير.
وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الصحابي الأجلِّ، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارث الشرف والعلم والتُّقى، علي بن أبي طالب، وفي عدو الله، الشقي الخصيم، والعاتي اللئيم، عقبة بن أبي معيط - لا جرم أنها لا يستويان - فأولهما مؤمن صدوق كريم، وثانيهما خبيث وعتلٌّ وأثيم.
على أن الآية تنسحب في معناها ومقتضاها على الصنفين من الناس في كل زمان، وهما صنفان متباينان مفترقان؛ فصنف مؤمن موقن بحقيقة ما أنزل الله على النبيين، والآخر فاسق عن أمر الله، منقلب على وجهه انقلاب التاعسين الخاسرين الهلكى.
١٩ - (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُم جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
قوله: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى} أعدَّ الله للمؤمنين الطائعين خير المنازل في الجنات يوم القيامة - وهي مأواهم الأبدي الدائم الذي لا يظعنون عنه ولا يرتضون بغيره بديلا عنه {نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} النُّزُل، العطاء، أو ما يُعد للضيف من حسن الضيافة وبالغ التكريم - وذلك بسبب ما عملوه في حياتهم الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات.
٢٠ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)
قوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ} أي الذين خرجوا عن طاعة الله وعصوا أمره ولجوا في جحودهم وعصيانهم، فأولئك صائرون إلى مأواهم وهو مكان إقامتهم المستديمة في النار.
قوله: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا} يجهد المجرمون وهم في النار يحترقون – بالغ الجهد ليخرجوا من النار لشدة ما يجدونه من فظاعة العذاب والتحريق حيث النار الحامية المتسعِّرة التي تحرق فيهم الأبدان والجسوم جميعا.
لكنهم يعادون إلى النار مزجورين مدفوعين بغلظة - وهو قوله: {أُعِيدُوا فِيهَا}؛ إذ تضربهم الملائكة بالمقامع لتعيدهم إلى النار مكبوتين مقهورين {وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} تقول لهم خزنة جهنم هذا الكلام على سبيل التقريع والتوبيخ، وزيادة لهم في التنكيل والإيلام بسبب تكذيبهم بهذا اليوم الموعود وما فيه من شديد الحساب والجزاء.
٢١ - (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
قوله: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} العذاب الأدنى يراد به مصائب الدنيا، وأسقامها، وآفاتها، وما يحل بأهلها من وجوه البلاء على اختلاف أشكاله مما يبتلي الله به عباده - وهو قول ابن عباس - وقيل: المراد به عذاب القبر - والمعنى الأول أظهر - أما العذاب الأكبر فهو الخلود في النار يوم القيامة حيث التحريق والتنكيل والويل الدائم الذي لا يزول - وقوله: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي لعل المعذبين بالعذاب الأدنى من الأسقام والهموم ومختلف الآلام في هذه الدنيا {يَرْجِعُونَ} أي يتوبون إلى ربهم فيبادرون التصديق والطاعة ومجانبة الشرك والباطل.
٢٢ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)
قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} أي ليس أحد أشد تلبسا بالظلم ممن وُعظ بآيات القرآن الكريم وما فيه من البينات والدلالات الواضحات التي تشهد بأن هذا الكتاب حق، وأنه منزل من عند الله، وأن فيه خير الدنيا والآخرة {ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} بالرغم مما في آيات الله من وضوح البينات، ومن قاطع الحجج والبراهين، فقد أعرض هذا الخاسر عن آيات الله فلم يؤمن.

قوله: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} الله منتقم من هؤلاء المجرمين المعرضين عن دين الله، الذين لم يتعظوا، ولم يؤثر فيهم التذكير بل لجوا مجرمين معاندين ١٠.

٢٣ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}

أخبر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أنه أتى نبيه وكليمه موسى عليه السلام {الْكِتَابَ} وهو التوراة، ليكون ذلك هداية لبني إسرائيل - ثم قال سبحانه مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} نهاه عن الشك في لقاء موسى التوراة، أو من لقائك موسى ليلة المعراج، فقد روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أرأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن النار والدجال " وهي آيات من آيات الله أراهن الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم - وقيل: المراد لقاؤه يوم القيامة.

قوله: {وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} الهاء في {وَجَعَلْنَاهُ} راجع إلى {الكتاب} وهي التوراة، فقد أنزلها الله على كليمه موسى هداية لقومه بني إسرائيل - وذلك بما تضمنته من آيات وبصائر لاستنقاذهم من الضلال والتخبط إلى نور الهداية والاستقامة.

٢٤ - (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

قوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} أي لما صبر المؤمنون من بني إسرائيل على أوامر الله والابتعاد عن زواجره ونواهيه، وصدّقوا رسله، واتبعوهم فيما جاءوهم به من عند ربهم، وكانوا موقنين بآيات الله على أنها حق وصدق، جعل الله منهم أئمة في العلم والتقوى، يهدون الناس إلى الحق بأمر الله ويدعونهم إلى ما تضمنته التوراة من البينات والشرائع والحكمة فيدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر - لكنهم لما بدلوا وزيفوا ما أنزل إلهم وحرفوه تحريفا، سلبهم الله مقام الإمامة للناس، وحيل بينهم وبين صلوحهم أن يُقتدى بهم؛ فهم أجدر أن لا يُقتدى بهم بعد التحريف وأن لا يكونوا موضع ثقة وائتمان في إمامة ولا ريادة ولا قيادة لأمة من الأمم - وذلك لفرط ما تلبسوا به من تحريف وتزييف لآيات الله، وتلاعب في كتابهم التوراة.

٢٥ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} هو ضمير فصل، لأن (يفصل) فعل مضارع ١١ والمعنى: أن الله يقضي بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من الاعتقادات والأفعال في دنياهم، فيميز الحق من الباطل، وحينئذ يجازي كلاًّ منهم بما يستحق ١٢.

٢٦ - (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ)

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ} الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو للعطف - {يَهْدِ}، بالياء، والفاعل مقدر وهو المصدر - وتقديره: أو لم يهدِ الهُدى لهم - وقيل: الفاعل هو الله تعالى - والتقدير: أو لم يهدِ اللهُ لهم ١٣.

والمعنى: أو لم نبين لهؤلاء المكذبين كثرة إهلاكنا الذين من قبلهم بسبب كفرهم وظلمهم، إذ دمّر الله عليهم ولم يبق منهم باقية.

قوله: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} أي يمشي هؤلاء المشركون المكذبون في مساكن السابقين من الأمم التي جحدت دين الحق وكذبت رسل الله، فهم يرون ما حل بهم من الإبادة والإفناء، لكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ} الإشارة عائدة إلى ما حل بالأمم الغابرة من هلاك بسبب كفرهم وتكذيبهم - والمعنى: أن فيما حاق بالسابقين من دمار وإبادة لمواعظ وعبرا يزدجر بها المعتبرون المتدبرون.

قوله: {أَفَلا يَسْمَعُونَ} استفهام يراد به التوبيخ لهؤلاء المكذبين يعني أفلا يسمعون آيات الله وعظاته، فينتهوا عن ضلالهم وباطلهم ويبادروا إلى التصديق والتيقن؟

٢٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ)

قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ} {الأَرْضِ الْجُرُزِ} التي لا نبات فيها - أو المفازة الجدبة ١٤ - والمعنى: أو لم ير هؤلاء الضالون المكذبون الذي ينكرون البعث والمعاد بعد الممات أن الله يحيي الأرض بعد أن كانت يابسة ميتة، إذ يسوق الماء بقدرته وإرادته إلى الأرض {الْجُرُزِ} وهي المجدبة القفر التي لا نبات فيها {فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ} أي نخرج بسبب الماء الذي نسوقه إلى هذه الأرض اليابسة، زرعا تأكل منه المواشي ويتغذون هم مما تنبته الأرض من الثمار والفاكهة.

قوله: {أَفَلا يُبْصِرُونَ} أفلا يرون بذلك أن الله القادر على إحياء الأرض بعد موتها لقادر على إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم، وأن ذلك ليس على الله بمتعذر ولا عزيز ١٥.

٢٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} {هذا}، في موضع رفع على أنه مبتدأ، و {الفتح} صفته.

و {متى}، خبره ١٦ والمراد بالفتح القضاء، وذلك يوم القيامة - فقد ذكر أن المؤمنين قالوا: للمشركين: سيحكم الله بيننا وبينكم يوم القيامة فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فقال لهم المشركون ساخرين مستهزئين: {مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي متى هذا القضاء أو الحكم الذي تزعمون أنه آت إن كنتم تصدُقون فيما تقولون - وقيل: المراد بالفتح الغلبة والنصر للمسلمين على الكافرين في الدنيا فقد استعجلهم الكافرون على سبيل السخرية والصواب القول الأول وقد دل عليه قوله سبحانه: {يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}

٢٩ - (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

{يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}

المراد بالفتح القضاء، وذلك يوم القيامة - فقد ذكر أن المؤمنين قالوا: للمشركين: سيحكم الله بيننا وبينكم يوم القيامة فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فقال لهم المشركون ساخرين مستهزئين: {مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي متى هذا القضاء أو الحكم الذي تزعمون أنه آت إن كنتم تصدُقون فيما تقولون - وقيل: المراد بالفتح الغلبة والنصر للمسلمين على الكافرين في الدنيا فقد استعجلهم الكافرون على سبيل السخرية والصواب القول الأول وقد دل عليه قوله سبحانه: {يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ} يعني إذا قامت الساعة وسيق المكذبون للحساب لا ينفعهم حينئذ إيمان ولا توبة، إذ لا قيمة للتوبة والندم يوم القيامة.

قوله: {وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ} أي لا يؤخَّرون أو يُمهلون لكي يتوبوا وإنما يساقون للحساب ليلاقوا نصيبهم من سوء الجزاء.

٣٠ - (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)

قوله: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} أي انتظر يا محمد ما الله صانع بهؤلاء المشركين المكذبين، وهم منتظرون ما نعدهم من العذاب أو مجيء الساعة ١٧ وحينئذ يستيئس الظالمون المجرمون وقد عاينوا العذاب وأهوال الساعة، ووجدوا أنهم ما تلبَّثوا في الدنيا إلا قليلا.

٣٣ سورة الأحزاب:

سورة الأحزاب:

بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية كلها - وقد كانت تعدل سورة البقرة؛ إذ كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه، أو نسخ لفظه دون حكمه، كآية الرجم " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم " وقد استدل العلماء بذلك على أن الله تعالى رفع من سورة الأحزاب ما يزيد عل ما في أيدينا.
وقد روي عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتي مرة - فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن - على أن سورة الأحزاب حافلة بالأحكام والمواعظ والعبر وغير ذلك من ألوان التذكير والتنبيه والتحذير والتنديد والوعيد - ويحتل الحديث عن المنافقين شطرا كبيرا من السورة - فقد آذى المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يلمزون المسلمين في سلوكهم وأخلاقهم فشدد الله عليهم النكير وتوعدهم ببالغ عذابه في الدنيا والآخرة.
وفي السورة تنديد بالظهار والذين يظاهرون من نسائهم - وخصلة الظهار ابتدعها الجاهليون نكاية بالمرأة وعدوانا عليها، فمن تلبَّس بذلك فقد احتمل زورا وعليه بذلك التوبة والكفارة.
وفي السورة ترسيخ لأحقية أولي الأرحام بالصلة والبر والعطاء - وفيها بيان بحال المسلمين في غزوة الأحزاب وقد أحاط بهم المشركون بعد أن اجتمعوا عليهم من كل مكان، فضلا عن ممالأة أهل الكتاب للمشركين، ونقضهم العهد مع المسلمين - إلى غير ذلك من مختلف المعاني والأحكام.
١ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}
يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتقواه وهو الخوف من جلاله العظيم وما يقتضيه ذلك من طاعة الله والتزام شرعه وأوامره ومجانبة نواهيه - وقد نهاه الله أيضا عن طاعة الكافرين والمنافقين وحذره خداعهم ومكرهم، وما يبتغونه له من تخذيل وتثبيط ومداهنة - وقد ذكر أن هذه الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور عمرو بن سفيان، إذ نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين بعد أحد وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللات والعُزّى ومناة، وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق على النبي صلى الله عليه وسلم ما قالوا: فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي في قتلهم - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني قد أعطيتهم الأمان " - فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه - فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة فنزلت الآية ١.
قوله: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} إن الله لذو علم بما تكنه صدور هؤلاء الماكرين المخادعين، وهو يعلم كذلك ما يبتغونه لك من إظهار النصيحة - وهو كذلك حكيم في تدبيره أمرك وأمر عبادك جميعا، فاحذر هؤلاء المكذبين أن يفتنوك عن دين الله فتطريَ أصنامهم وآلهتهم المصطنعة، وتطرد المؤمنين الضعفاء من عندك طمعا في مجالستهم لك.
٢ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)
قوله: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} المراد، الكتاب الحكيم المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله وحيا - فعليه اتباعه والتزام ما تضمنه من الأحكام دون غيره من أقوال المخالفين المكذبين.
قوله: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} ذلك تأكيد من الله بأنه يعلم ما يفعله العباد أو يقولونه من خير أو شر - فما يصدر عن بني آدم

في السر والعلن لهو ظاهر لله وغير خاف عليه - وهو سبحانه مجازيهم على كل ذلك.
٣ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)
قوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أي اعتمد على الله في شأنك كله، وفوض إليه كل أمرك؛ فهو سبحانه يحفظك من السوء، ويدرأ عنك كيد الماكرين الخائنين.
قوله: {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} أي حسبك الله حفيظا، يحفظك من السوء والمكاره، ويدفع عنك أذى المشركين المتربصين ٢.
٤ - (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)
قوله تعالى: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}
نزلت في جميل بن معمر الفهري، وكان رجلا حافظا لما سمع فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان - وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما من عقل محمد صلى الله عليه وسلم - فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله - فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا - قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجلي، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده ٣.
وقيل: هذه الآية نزلت مثلا ضربه الله للذي يظاهر من أمه - فكما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه فيكون له أمان.
وكذلك لا يكون الدعي ابنا لرجلين - وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله في قلب واحد، كما لا يجتمع قلبان في جوف واحد - ولذلك لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب رجل واحد - فما يحتمل القلب في المرء إلا صنفا واحدا، فإما الإيمان أو الكفر - وإما الهدى أو الضلال - والأظهر أن الآية تعم ذلك كله.
قوله: {وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ} {تُظَاهِرُونَ} من الظهار، وهو قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي - والمعنى: ما جعل الله نساءكم اللائي تقولون لهن إن أمهاتكم كأمهاتكم في التحريم؛ بل إن هذا القول منكم لأزواجكم كذب ومنكر وزور؛ فيلزمكم بسببه كفارة عقوبة لكم.
قوله: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام قد تبنّاه قبل النبوة فكان يقال له: زيد بن محمد - فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} أدعياء جمع دعي وهو الذي يُدعى إلى غير أبيه أو يدعيه غير أبيه، من الدِّعوة بكسر الدال، أي ادعاء الولد الدعيّ غير أبيه ٤.
قال ابن العربي في ذلك: كان الرجل يدعو الرجل ابنا إذا ربَّاه كأنه تبناه أي يقيمه مقام الابن - فردّ الله قولهم؛ لأنهم تعدَّوا به إلى أن قالوا: المسيح ابن الله، وإلى أن يقولوا: زيد بن محمد - فمسخ الله هذه الذريعة، وبت حبلها، وقطع وصلها بما أخبر من إبطال ذلك ٥
قوله: {ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ} يعني هذا القول، وهو قول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي وادعاؤه من ليس بابنه أنه ابنه، إنما هو مجرد قول بأفواهكم ولا حقيقة له؛ فإنه لا يثبت بهذه الدعوى نسب ولا تصير الزوجة أمّا، بقول الرجل لها: أنت عليّ كظهر أمي.
قوله: {وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ} ما يقوله الله في ذلك عدل وصدق - وهو جدير بالاعتبار دون غيره من أقوال الجاهلين الباطلة.
قوله: {وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} الله يبين للناس طريق الحق، ويهديهم سبيل الرشاد ٦.
٥ - (ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ

مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}

نزلت هذه الآية في زيد بن حارثة كما بيناه آنفا - وفي ذلك كان ابن عمر يقول: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد - وهذا يدل على أن التبني كان معمولا به في الجاهلية وبعض من الوقت في الإسلام - وكانوا يتوارثون به ويتناصرون حتى نسخ الله ذلك بقوله: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}

أي انسبوا هؤلاء الأدعياء الذين ألحقتم أنسابهم بكم – لآبائهم - فوجب بذلك أن يُنسب زيد لأبيه حارثة، فلا يدعي: زيد بن محمد - وذلك عند الله أعدل وأصوب وأصدق من دعائكم إياهم لغير آبائهم.

قوله: {فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} يعني إذا لم تعلموا من هم أدعيائكم لتنسبوهم إليهم فهم إخوانكم في الدين، أي ينادي أحدكم الدعي بقوله: يا أخي - والمقصود أخوة العقيدة والدين لا أخوة النسب - {وَمَوَالِيكُمْ} أي أولياؤكم في الدين - فليقل أحدكم: هذا أخي وهذا مولاي - ويا أخي ويا مولاي، يريد بذلك الأخوة في الدين والولاية فيه.

قوله: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ} أي لا بأس عليكم، ولا إثم فيما وقعتم فيه من الخطأ بنسبة بعض الأدعياء إلى آبائهم وأنتم تحسبون أنهم أبناؤهم وهم في الحقيقة أبناء لغيرهم - فلو دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه فلا بأس عليك في ذلك.

قوله: {وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} {مَا}، في موضع رفع على الابتداء - وتقديره: ولكن ما تعمدت قلوبكم يؤاخذكم به - وقيل: في موضع جر بالعطف على {مَا} في قوله تعالى: {فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ} ٧

والمعنى: ولكن الإثم والحرج عليكم فيما نسبتموه إلى غير أبيه، وأنتم تعلمون أنه ابن لغير ما تنتسبونه إليه.

قوله: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} الله يستر الذنب على من ظاهر زوجته فقال الباطل والزور من القول، وكذلك يستره على من ادعى ولد غيره ابنا له، إذا تابا وأنابا وانتهيا عن قول المنكر والزور من الكلام - الله جل وعلا يتجاوز بفضله عن سيئاتهما ويرحمهما برحمته فلا يعاقبهما على ما بدر منهما بعد توبتهما ٨.

٦ - (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

قوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}

يبين الله م كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من بالغ الشفقة والرحمة بأمته وما كان عليه من شديد الحرص عليهم والنصح لهم - لا جرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد العالمين حدبا ورأفة واهتماما بالمسلمين، بل بالبشرية كافة - وهو عليه الصلاة والسلام حريص على هداية الناس وإيمانهم؛ لكي يستقيموا وتصلح حالهم، فتكتب لهم النجاة والسلامة والصلاح في الدنيا والآخرة؛ فهو بذلك أولى بالمؤمنين من أنفسهم فضلا عن كونه أولى بهم من غيرهم، فوجب على المسلمين بذلك أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم؛ وأن يقدموه فيما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم إليه أنفسهم، وأن يحبوه أعظم الحب أكثر من حبهم أنفسهم - وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين " وكذلك جاء في الصحيح أن عمر (رضي الله عنه) قال: يا رسول الله والله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال صلى الله عليه وسلم: " لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك " فقال: يا رسول الله لأنت أحبُّ إلي من كل شيء حتى من نفسي - فقال صلى الله عليه وسلم: " الآن يا عمر ".

وروى البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة - اقرؤوا إن شئتم {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا - وإن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه ".

وأخرج الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: " أنا أولى مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك دينا فإليّ، ومن ترك مالا فهو لورثته ".

قوله: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} ذلك تشريف من الله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، إذ جعلهن أمهات المؤمنين - وذلك في وجوب التوقير والاحترام والإعظام وحرمة النكاح على الرجال - لكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، بل إن هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة النبي.

قوله: {وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ} المراد بكتاب الله، القرآن أو هو حكم الله - والمعنى: أن أولي القرابات أولى بالتوارث في حكم الله، من المهاجرين والأنصار وهذا نسخ للتوارث بالهجرة، فقد كانوا من قبل يتوارثون بالحِلف، والمؤاخاة في الدين، التي كانت بينهم - قال ابن عباس في ذلك: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرابته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكذا قال آخرون من السلف والخلف - فقد روي عن الزبير بن العوام (رضي الله عنه) قال: أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار {وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ} وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم ووارثناهم - فآخى أبو بكر (رضي الله عنه) خارجة بنت زيد، وآخى عمر (رضي الله عنه) فلانا، وآخى عثمان (رضي الله عنه) رجلا من بني زريق، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا.

قوله: {إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا} يعني، إلا أن توصوا لذوي قراباتكم من غير أهل الإيمان والهجرة - فقد ذهب الميراث، وبقي البر والإحسان والصلة والوصية - وقيل: نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني - أي يُفعل هذا مع الولي القريب وإن كان كافرا - فالمشرك وليّ في النسب لا في الدين فيوصى له بوصية.

قوله: {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} المراد بالكتاب اللوح المحفوظ - وقيل: القرآن - و {مَسْطُورًا} يعني مكتوب - سطرت الكتاب سطرا أي كتبته - ويجمع السطر على أسطر وسطور ٩.

والمعنى: أن هذا الحكم وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض مكتوب ومُثبت من الله في كتابه الأزلي الذي فيه علم الأولين والآخرين، فهو لا يأتي عليه التغيير أو التبديل ١٠

وتخصيص أولي الأرحام والقرابات بالميراث، مراعاة حقيقة وكبرى لفطرة الإنسان الذي جُبل على حب ذويه أولي القربى والميل إليهم بشدة واحترار - والإنسان قد جُعلت في أعماقه مودة مطبوعة، لأقربائه من البنين والبنات والآباء والأمهات والأجداد والجدات والأعمام والعمات والأخوال والخالات - أولئك يميل الطبع البشري إليهم، ليفيض عليهم بالرأفة والرقة والحدْب والتحنان - فلا جرم أن هذه مزية أصلية ومفطورة من مزايا الإسلام العظيم، وهي خِصّيصة من خصائص الإسلام تشهد له بالصلوح للبشرية في كل زمان.

٧ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}

الميثاق: معناه العهد والوصية ١١ فقد كان مسطورا في كتاب الله أخْذُه من النبيين عهدهم على إقامة الدين وإبلاغ رسالته للناس،

وأن يتعاونوا ويتناصروا فيما بينهم، وأن يصدق بعضهم بعضا - وذلك إخبار من الله عن العهد الذي أخذه على أولي العزم من الرسل وبقية النبيين المرسلين، وقد نصّ من بينهم على الخمسة أولي العزم من باب العطف الخاص على العام.

قوله: {وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} الميثاق ههنا تأكيد للميثاق الأول - والميثاق العهد، وقيل: اليمين - فقد أخذ الله على النبيين عهدا وثيقا على الوفاء بما التزموه من تبليغ الرسالة وأن يصدق بعضهم بعضا.

٨ - (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ} يعني أخذ الله من هؤلاء النبيين العهد الغليظ على الوفاء بما حُمّلوا لكي يسألهم الله يوم القيامة عما أجابتهم به أممهم، وما فعلوه بعد أن بلّغوا رسالة ربهم - وقيل: ليسألهم عن تبليغهم رسالة ربهم إلى قومهم.

قوله: {وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} ذلك تخويف من الله ووعيد منه للكافرين الذين كذبوا الرسل، وأبوا إلا الجحود بأن لهم عذابا أليما وهي النار وبئس المهاد والقرار ١٢.

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}

المراد بذلك غزوة الخندق والأحزاب - وفي الآية هذه إخبار من الله عما أنعم به على عباده المؤمنين؛ إذ أعقبهم نصرا من عنده ونجاة وتوفيقا بعد ما نزل بهم من بالغ الحرج وشديد الكرب والخوف - فقد تألب عليهم الكافرون وتحزّبوا عام الخندق - وذلك في شوال عام خمسة من الهجرة وهو المشهور - وكان سبب قدوم الأحزاب أ فرا من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلوا من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألّبوهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم، ووعدوهم أن يناصروهم ويعينوهم، وظلوا يحرضونهم على ذلك حتى أجابوهم فخرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم كذلك - وخرجت قريش في أحابيشها وأتباعها بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب - وكانوا جميعا عشرة آلاف رجل - فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرتهم إليه أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة من سلمان الفارسي (رضي الله عنه) فعمل فيه المسلمون جادين مجتهدين، ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفر - ثم جاء المشركون ونزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة - وهو قوله سبحانه وتعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف رجل وقيل: سبعمائة - وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ولهم عهد من النبي صلى الله عليه وسلم وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري فلم يَزَلْ بهم حتى نقضوا العهد ومالأوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فعظم الخطبُ على المسلمين واشتد الأمر وضاق بهم الحال ضيقا عظيما وأحاط بهم من لكروب والأهوال ما أحاط - ويدل على ذلك قوله سبحانه: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا}.

وفي مثل هذه الأحوال من اشتداد الكروب والأهوال تتجلى همم الرجال وعزائم الأبطال - فهم الصحابة الغُرُّ الأشاوس التفوا من حول رسول لله صلى الله عليه وسلم ثابتين صابرين، وهم يتحدّون المخاطر وكيد الظالمين والمتربصين والخائنين - وحينئذ يستبين الحائرون الخاسرون وهم المنافقون الذي تنثني صدورهم على الغش والخيانة للإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم - فقد نكص هؤلاء المنافقون على أعقابهم وجعلوا يتسللون لواذا - ولقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون محاصرين في المدينة قريبا من شهر دون أن يصلهم المشركون، ولم يقع بينهم قتال إلا أن عمرو بن عبد وَدّ العامري، وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، قد ركب

ومعه فوارس فاقتحموا الخندق ونفذوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل المسلمين إليه - ويقال إنه لم يبرز إليه أحد - فأمر عليّا (رضي الله عنه) فخرج إليه فتجاولا ساعة فقتله علي (رضي الله عنه) وكان ذلك علامة النصر.

ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة عاصفة فلم يبق لهم خيمة ولا شيئا إلا قلبته أو أكفأته - وبذلك لم يستقر لهم قرار فبادروا للرحيل خائبين خاسرين - وفي ذلك يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} والمراد بالجنود غير المرئية، الملائكة فقد بعثها الله على هؤلاء الظالمين لتمزيق صنعهم وتبديد شملهم فقلعوا أوتاد بيوتهم وقطعوا فساطيطهم، وأطفئوا قدورهم، وجالت الخيل بعضها في بعض، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وتعالت في المعسكرات صيحات الملائكة وهي تردد، الله أكبر - حتى كان سيد كل خباء ١٣ يقول: يا بني فلان هلم إلي - فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء ١٤ - وذلك بما بعث الله عليهم من الرعب.

قوله: {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} الله عليهم بأعمال المسلمين لما تمالأت عليهم أحزاب الكفر والباطل - والمراد بأعمالهم صبرهم على كيد المعتدين وعلى ما كانوا فيه من الجهد والشدة، وما كانوا عليه من الثبات وفرط الشجاعة واشتداد العزم في وجه أعدائهم الظالمين - الله تعالى بصير بذلك كله ولا تخفى عليه منه خافية.

١٠ - (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

قوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} {إِذْ}، في موضع نصب على البدل من {إِذْ} في قوله: {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ} ١٥ أي واذكر حين جاءتكم جنود الأحزاب من فوق الوادي وهو أعلاه من قِبل المشرق {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} يعني من بطن الوادي من قبَل المغرب، جاء منه أبو سفيان على أهل مكة، وجاء أبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق.

قوله: {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ} أي شخصت من شدة الخوف، وفرط الهول والحيرة والفزع {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}، جمع حنجرة وهي جوف الحلق؛ أي زالت القلوب عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهي الحلاقيم؛ والمراد أن قلوبهم قد اضطربت اضطرابا شديدا من هول ما أصابهم من الذعر - وهو مَثَل مضروب في شدة الخوف.

قوله: {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} أي تظنون الظنون المختلفة؛ فقد ظن المنافقون أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون الصادقون أن ما وعد الله رسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون ١٦

١١ - (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا)

قوله تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا}

{هُنَالِكَ} للبعيد، وهنا للقريب - وهنا للوسط - أي عند ذلك امتُحن المؤمنون أصعب امتحان ليستبين فيهم المخلصون من المنافقين والذين في قلوبهم مرض - لقد ابتُلوا بالضيق والكرب والجوع والفزع والحصار والقتال {وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا} أي اضطربت نفوسهم أيَّما اضطراب، وأصابهم من الشدة والبأس والهول ما أصابهم.

١٢ - (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا)

قوله: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} إذْ، في موضع نصب بفعل مقدر، وتقديره: اذكر إذ يقول ١٧؛ أي حينئذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم شك في الإيمان أو شبهة أو ضعف: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} إلا باطلا

من القول - وذلك أن طعمة بن أبيرق، وعتب بن قشير، وجماعة من حو سبعي رجلا، قالوا يوم الخندق - وقد هزمهم هول الموقف واضطربت نفوسهم أشد اضطراب: كيف يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز.

١٣ - (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بيوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا)

قوله: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} {يَثْرِبَ} اسم أرض، والمدينة ناحية منها وقد سماها النبي صلى الله عليه وسلم طيْبة وطابة - و {مُقَامَ}، بضم الميم، مصدر أقام يقيم، أي لا إقامة لكم - ومقام، بالفتح اسم مكان، أي لا موضع لكم تقيمون فيه بهذه المقالة نادى المنافقون والضعفاء الذين في قلوبهم شبهة أو زيغ - لقد نادوا في أهل المدينة محرّضين على الهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين لهم أن لا إقامة لكم هنا، {فَارْجِعُوا} أي عودوا إلى منازلكم.

قوله: {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ} أي يستأذنوه في الرجوع إلى بيوتهم في المدينة وهم يصطنعون لأنفسهم العذر في ذلك وهو قوله: {يقُولُونَ إِنَّ بيوتَنَا عَوْرَةٌ} أي فيها خلل لا يأمن صاحبُها السارق على متاعه - أو سائبة وغير حصينة - أو معوّرة وذات عورة إذا كان يسهل دخولها ١٨

قوله: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ} ذلك تكذيب لهم من الله وردّ منه لما تذرعوا به مما ذكروه من عورة بيوتهم، وإنما يبتغون الفرار من وجه المشركين لما استحوذ عليهم الشيطان فأفزعهم أيما إفزاع - وهو قوله: {إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا} أي ما يريد هؤلاء الخائرون المرجفون إلا الهرب من مواجهة المشركين ١٩.

١٤ - (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا)

قوله تعالى: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا}

يبين الله مدى الخور الذي استحوذ على نفوس هؤلاء الذين في قلوبهم نفاق أو شك، القائلين إن بيوتنا عورة - والأقطار جمع قطر بضم القاف ويعني الجانب أو الناحية ٢٠ والمعنى: لو أن هؤلاء الخائرين الجبناء دُخلت عليهم المدينة من كل جانب من جوانبها أو ناحية من نواحيها {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} أي سُئلوا الرجوع إلى الكفر أو الشرك {لَآتَوْهَا} أي لفعلوا ما سُئلوا فرجعوا عن الإسلام إلى الكفر {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا} أي ما احتسبوا عن استجابتهم للكفر إلا قليلا - فبادروا الرجوع للشرك مسرعين وذلك لما يكمن في نفوسهم من النفاق.

١٥ - (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا)

قوله: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ} يذكّرهم الله بأنهم كانوا من قبل ذلك قد عاهدوا الله أن لا يفروا من الزحف - {عَاهَدُوا اللَّهَ}، بمنزلة القسم - و {لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ}، جوابه ٢١.

قوله: {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً} الله سائلهم يوم القيامة عن عهدهم الذي التزموه وهو ثباتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه وعدم فرارهم عند لقاء العدو.

١٦ - (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا)

قوله: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ} أي قل لهؤلاء المتذرعين بعورة بيوتهم كذبا ويستأذنون للرجوع فرارا من الموت: لن ينفعكم فراركم فإن من حضره أجله مات أو قتل لا محالة - فالفرار لا يؤخر الآجال ولا يطيل الأعمار.

قوله: {وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} أي بعد فراركم لا تُمتعون في دنياكم إلا مدة قصيرة وهي أن تجيء آجالكم، وإنما الدنيا كلها قليل.

١٧ - (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)

قوله: {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} أي قل لهؤلاء المستأذنين المتسللين هربا وفرارا من الموت، مَنْ ذا الذي يمنعكم من الله إن أراد الله أن يهلككم أو أراد بكم غير ذلك من العافية والسلامة والنصر.

قوله: {وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً} إذا أراد الله بهؤلاء المنافقين والمرتابين الهاربين من وجه العدو، إهلاكا، فلن يجدوا لهم من دون الله قريبا ينفعهم أو ناصر ينصرهم ٢٢.

١٨ - (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلا)

قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً}

ذلك إخبار من الله عن إحاطة علمه بالمعوِّقين الذين يصدون الناس عن دين الله ويصرفونهم عن شهود القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نقول: عاقه عوقا وعوَّقه، أي منعه ٢٣ فهؤلاء منافقون مثبّطون كانوا يصدون الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ويكرِّهون إليهم متابعته في قتال المشركين، ويخذّلونهم عن الإسلام وأهله تخذيلا.

قوله: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} {هَلُمَّ}، بمعنى أقبل - وها، للتنبيه، ضُمت إليها لَمَّ، ثم حذفت الألف استخفافا وبنيت على الفتح؛ أي تعالوا إلينا وفارقوا محمدا ودعوه وشأنه ولا تشهدوا نعه قتالا أو حربا فإنا نخشى عليكم الهلاك بهلاكه.

قوله: {وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً} أي لا يشهدون الحرب أو القتال إلا تعذيرا أو رياء وسمعة.

على أن الذين قالوا لإخوانهم {هَلُمَّ إِلَيْنَا} هم المنافقون، إذ قالوا للمسلمين – على سبيل التخذيل والتثبيط – ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس – أي قلة يشبعهم رأس واحد فهو والذين معه هلكى، فهلم إلينا - وقيل: قائل ذلك يهود بني قريظة - فقد قالوا لإخوانهم المنافقين – على سبيل الترويع – هلم إلينا - أي أقبلوا إلينا ودعوا محمد وأصحابه فإنهم هالكون، ولئن ظفر بهم أبو سفيان فلن يبقي منهم أحدا.

وقيل: هذا يوم الأحزاب إذ انصرف رجل مؤمن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه شواء ونبيذ، فقال له: أنت ههنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف - فقال: هلم إلى هذا فقد بلغ بك وبصاحبك – أي قد أحيط بك وبصاحبك - فقال له أخوه: كذبت أما والله لأخبرن النبي صلى الله عليه وسلم أمرك - وذهب إليه ليخبره فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} الآية.

١٩ - (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

قوله: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} {أَشِحَّةً} منصوب على الحال - والشحّ معناه البخل - وهؤلاء المنافقون أشحة على المسلمين، أي بخلاء عليهم، فهم يضِنّون عليهم بكل شيء - فهم بخلاء عليهم في مشاركتهم في حفر الخندق، وفي قتال المشركين، وفي النفقة على الفقراء والمحاويج وغير ذلك من وجوه الخير.

قوله: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} وهذا وصف كامل وحكيم لهؤلاء الجبناء الخائرين، فإنهم إذ وقع القتال وحصل بسببه الخوف {رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} جملة فعلية في موضع نصب على الحال {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ} جملة فعلية، حال بعد حال ٢٤ - أي لفرط خوف هؤلاء المنافقين وما غشيهم من شديد الفزع تدور أعينهم يمينا وشمالا كأنما سُلبت عقولهم

فهم {كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} أي تدور أعينهم دورانا كدوران عين الذي يُغشى عليه الموت - لحال هؤلاء الرعاديد، إذا حضر القتال ووقع الخوف كحال الذي يغشاه الموت فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف.

قوله: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} {سَلَقُوكُمْ}، أي خاطبوكم بما تكرهون ٢٥ فإذا وقف القتال وانقطعت الحرب واطمأن المنافقون والذين في قلوبهم مرض عضوكم بألسنة ذَرِبة فأسمعوكم من الكلام ما يؤذيكم، أو بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم - وقيل: بسطوا ألسنتهم فيكم عند قسمة الغنيمة قائلين: أعطنا، أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم - فعند الغنيمة أشح قوما وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم.

قوله: {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} {أَشِحَّةً}، منصوب على الحال من الواو في {سلقوكم} ٢٦ أي أنهم أشحة على الغنيمة، فهم يشاحون المسلمون عند القسمة - وقيل: أشحة على المال أن ينفقوه في سبيل الله - أو هم بخلاء في بذل الخير على اختلاف وجوهه.

قوله: {أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ} أي هؤلاء الذين تبينت صفاتهم من الشح والجبن والخور وفساد القلب وتثبيط المسلمين {لَمْ يُؤْمِنُوا} أي لم تؤمن قلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان بما تنطقه أفواههم، فهم بذلك كافرون {أَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ} أي لم يجزهم الله عليها خيرا، ولم يؤجروا عليها، لأنهم منافقون لا يقصدون وجه الله.

قوله: {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} يعني إحباط أعمالهم التي عملوها هين على الله ٢٧.

٢٠ - (يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلا)

قوله تعالى: {يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً}

هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض – لفرط جبنهم – أن الأحزاب، وهم قريش وغطفان وغيرهم من الكافرين {لَمْ يَذْهَبُوا} أي لم ينصرفوا، وكانوا قد انصرفوا.

قوله: {وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ} أي إن يأتِ المشركون لقتال المسلمين فإن المنافقين يتمنون {لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ} {بَادُونَ} أي خارجون في البادية ٢٨ - بدا فلان يبدو إذا صار في البدو فهو باد.

وأما الأعراب فهم جمع أعرابي - وأما العرب فهم جمع عربي - وإنما قيل أعراب لأهل البدو فرقا بين أهل البوادي والأمصار - فالأعراب أهل البادية والعرب أهل المصر.

قوله: {يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ} هؤلاء المنافقون الجبناء يستخبرون الناس عن أخباركم وعما جرى لكم وهم في البادية، فيتحدثون: هل هلك محمد وأصحابه - فهم يتمنون سماع الأخبار بهلاككم وهم بعيدو عنكم.

قوله: {وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً} أي لو كانوا هؤلاء المنافقون فيكم وخلال صفكم ما نفعوكم بشيء وما قاتلوا المشركين إلا تعذيرا كأنْ يرموا بالحجارة أو النبل على سبيل الرياء.

٢١ - (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}

الأسوة، بكسر الهمزة وضمها وتعني القدوة - وتأسيت به أي اقتديت ٢٩ وفي هذا عتاب من الله للذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عسكره بالمدينة - وإنما ينبغي أن يتأسى المؤمنون برسولهم الكريم فلا يخذلوه، ولا يتخلوا عن شيء من سننه وشمائله،

وأن يمضوا على نهجه وخلقه في المصابرة والمرابطة والمجاهدة والحلم وكمال الإقبال على الله.
والمعنى: كان لكم أيها الناس قدوة حسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتأسوا به وتقتفوا آثاره فيما يقول أو يفعل، وتكونوا معه حيث كان مهتدين بهديه، سالكين سبيله الحق - وفي ذلك هداية لكم ومنجاة في حياتكم هذه ويوم معادكم - وذلك كله {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} أي يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم تمام التأسي، ويقتدي به حق الاقتداء - من كان يبتغي وجه الله فيرجوا ثوابه ورحمته في الآخرة ويذكره ذكرا كثيرا في كل الأحوال، من الأمن والخوف، أو الضيق والرخاء.
٢٢ - (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)
قوله: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} لما عاين المؤمنون الأحزابَ يوم الخندق لم ييأسوا ولم يهنوا مستسلمين خائرين كما يخور الجبناء والمنافقون، بل ثبتوا على الحق متوكلين على الله معتصمين بحبله الذي لا ينقطع - وفي هذا الحال من ساعات الحرج والخوف والعُسرة {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} الإشارة {هذا}، عائدة إلى جيوش الأحزاب وإلى البلاء الذي نزل بهم وما صحب ذلك من شديد الكرب وبالغ الشدة - وقد قال المؤمنون فيلهم هذا استبشارا بالنصر الذي وُعدوا به من قبل - فلقد وعدم الله ورسوله بالنصر عقب ابتلائهم بالمحن وتمالؤ المشركين عليهم - وهذا الذي حل بهم من الأحزاب يوم الخندق إيذان من الله بالنصر {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} أي لم تزدهم المحن ومعاينة الأحزاب من المشركين المعتدين إلا إيمانا بالله وثقة بوعده وتسليما لقضائه وقدره ٣٠.
٢٣ - (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)
قوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)}
في سبب نزول هذه الآية روى الإمام أحمد عن أنس (رضي الله عنه) أن عمه أنس بن النضر (رضي الله عنه) لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فشقّ عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه لئن أراني الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرينَّ الله عز وجل ما أصنع، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله عز وجل ما أصنع، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ (رضي الله عنه) فقال أنس (رضي الله عنه): يا أبا عمرو أين؟ واهًا لريح الجنة إني أجده دون أُحد، فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه - قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية - فقالت أخته عمتي الرُّبَيِّع ابنة النضر، فما عرفت أخي إلا ببنانه، فنزلت الآية ٣١.
وفي رواية أخرى عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر – وبه سميت أنسا – عن قتال بدر، فشقَّ لما قدم وقال: غبت عن أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم - والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالا ليَرَيَنّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم إني أبرأ مما جاء به هؤلاء المشركون، وأعتذرُ إليك فيما صنع هؤلاء – يعني المسلمين – ثم مشى بسيفه فلقيه بن معاذ فقال: أي سعد والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد - فقاتلهم حتى قتل - قال أنس: فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم، وقد مثلوا به - وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه.
فنزل قوله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} ٣٢ {ما}، مصدرية، وهي في موضع نصب بقوله: {صَدَقُوا} وتقديره: صدقوا الله في العهد ٣٣.
والمعنى: أن من المؤمنين المخلصين رجالا صَدَقوا العهد مع الله، وأوفوا ما عاهدوا الله عليه من الثبات على الحق والقتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه انتصارا لدين الله ودفعا للفتنة والعدوان أن يصبيا المسلمين {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} أي مات أو قتل

في سبيل الله - وأصل النحب الوفاء بالنذر ٣٤ - فقد ذكر أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وغيرهم رضي الله عنهم - فمن هؤلاء من أوفى بنذره فمات شهيدا في أحد كحمزة ومصعب وأنس بن النضر {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} أي ينتظر قضاء نحبه وهو حضور الأجل - يعني عثمان وطلحة والزبير وأمثالهم من المؤمنين المخلصين الأبرار.
قوله: {وما بدلوا تبديلا} أي ما غيَّروا عهدهم الذي عاهدوا الله عليه من الثبات على الحق، والمضي على دينه القويم، وعدم الزيغ عن صراط الله ومنهجه المستقيم - ذلك هو شأن المؤمنين المخلصين الذين احْتَفَّتْ ٣٥ قلوبهم بالحب لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين والذين يخشون أشد الخشية أن يحيق بالإسلام عدوان من معتدين فجار، أو ينزل بالمسلمين فتنة من الفتن التي تجتالهم عن دينهم بفعل الأشقياء الأشرار من شياطين البشر الذين يتمالأون على الإسلام والمسلمين في كل الآناء والأنحاء - أولئك هم المؤمنون المخلصون الأبرار الثابتون على الحق، الماضون على صراط الله، الذين لم يترددوا في دينهم ولم يستبدلوا به غيره، ولم يغيروا من اهتماماتهم أو سلوكهم أو مساعيهم في سبيل الله، ولم يبدلوا من قناعاتهم وتصوراتهم الراسخة النيّرة - بل هم ثابتون مستمرون في طريق الله حتى يلقوا ربهم مرضيين، غير مفتونين ولا مُبدّلين ولا مستيئسين - جعلنا الله منهم.
٢٤ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)
قوله: {ليجزي الله الصادقين بصدقهم} أي يثيب أهل الصدق بصدقهم مع الله ما عاهدوه عليه فما زاغوا وما ترددوا وما فرطوا.
قوله: {ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم} أي يعذبهم إن شاء بسبب كفرهم ونفاقهم إن لم يتوبوا، أو يتوب عليهم من كفرهم ونفاقهم بهدايتهم للإيمان والتوبة قبل أن يموتوا {إنّ الله كان غفورا رحيما} الله يستر على ذنوب عباده التائبين، وهو رحيم بهم أن يعاقبهم بعد أن يتوبوا.
٢٥ - (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)
قوله تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} رد الله قريشا وغطفان وغيرهم من الكافرين الذين تألّبوا على النبي والمؤمنين لاستئصالهم، ردهم {بغيظهم} أي بكيدهم وغضبهم وحنقهم؛ إذ عادوا خائبين خاسرين فلم يظفروا بما كانوا يطمعون فيه من الغلبة والنصر على المؤمنين.
قوله: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} كفهم الله القتال بجنود الملائكة وبالريح العاصف الذي أعمى أبصارهم وبدد شملهم، والمسلمون حينئذ آمنون سالمون: إذ لم يحتاجوا إلى منازلتهم أو قتالهم لإخراجهم من وطنهم بل كفاهم الله ذلك فردهم مذعورين متفرقين خزايًا - وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى (رضي الله عنه) قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال: " اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم ".
وبعد غزوة الخندق لم يقم المشركون بغزو المسلمين بل غزاهم المسلمون في بلادهم - وفي هذا روى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: " الآن نغزوهم ولا يغزونا "
قوله: {وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} الله قوي قادر على فعل ما يشاء وعلى نصر جنده المؤمنين، والله عزيز لا يغلبه غالب، ينتقم لدينه وعباده المؤمنين من الظالمين المجرمين ٣٦
٢٦ - (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)
قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}.
لما قدمت جنود الأحزاب إلى المدينة لقتال المسلمين نقض بنو قريظة ما كان من عهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان

ذلك بتحريض من حُيَيْ بن أخطب النضري، إذ دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وكان قد قال له: ويحك قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه - فقال له كعب: بل والله أتيتني بدل الهر، ويحك يا حيي إنك مشئوم فدعنا منك فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابه كعب واشترط له حيي، إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء إن يدخل معهم في الحصن، فيكو لهم أسوتهم - فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ساءه ذلك وشقَّ عليه وعلى المسلمين - فلما رد الله المشركين خائبين خاسرين، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ظاهرا منصورا ووضع الناس السلاح، تبدّى جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أوضَعْتَ السلاح - فقال عليه الصلاة والسلام " نعم " قال جبريل: لكن الملائكة لم تضع أسلحته - ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة - وفي رواية قال: إن الله أمرني أن أزلزل عليهم - فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يصلين أحد منك العصر إلا في بني قريظة ". فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنِّف واحدا من الفريقين، وتبعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم (رضي الله عنه) وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) - ثم نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلنا طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس (رضي الله عنه) لأنهم كانوا حلفاء في الجاهلية واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك كما فعل عبد الله ابن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل أبيّ في أولئك - لكن سعدا (رضي الله عنه) كان قد أصابه سهم في أكحله ٣٧ أيام الخندق فكواه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب - وكتب الله على بني قريظة أن ينزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم - وعند ذلك استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ليحكم فيهم - فلما أقبل وهو راكب على حمار جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويُعطّفونه وهو ساكت لا يرد عليهم - فلما أكثروا عليه قال (رضي الله عنه): لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما جلس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن هؤلاء – وأشار إليهم – قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت " فقال (رضي الله عنه): وحكمي نافذ عليهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: " نعم " فقال (رضي الله عنه): إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتُسبي ذريتهم وأموالهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة " ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد تُخَدَّت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ٣٨ ولهذا قال تعالى {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ} يعني أنزل الذين عاونوا الأحزاب من أهل الكتاب وهم بنو قريظة {مِنْ صَيَاصِيهِمْ} أي من قلاعهم أو حصونهم جمع صيصة وهي ما يُتحصّنُ به.

قوله: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} قذف الله في قلوب يهود الخوف والذعر فاستسلموا للقتل والسبي - وهو قوله سبحانه وتعالى: {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} أي تقتلون الرجال وتأسرون النساء والذرية - وكان عدد المأسورين ما بين سبعمائة وتسعمائة.

٢٧ - (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

قوله: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} أورث المسلمين عقار بني قريظة وما فيه من زرع ونخيل، وكذلك أورثهم منازلهم وحصونهم المنيعة وما كانوا يملكون من أموال.

قوله: {وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا} اختلفوا في المراد بذلك - فقد قيل: أراد فارس والروم وقيل: خيبر - وقيل: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة.

قوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} الله قادر على فعل ما يشاء - فقد جعل لكم النصر، إذ أظهركم على عدوكم، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وهو سبحانه لا يعزّ عليه أن يفعل ما يريد ٣٩.

٢٨ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)

قوله تعالى: {أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا}

ذكر أنن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد تأذى ببعض الزوجات، إذ سألنه شيئا من عرض الدنيا - وقيل: زيادة في النفقة، فأُمر النبي صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهنّ وتخييرهن بين الدنيا والآخرة.

فقد روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتًا، فقال: والله لأقولن شيئا أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لو رأيتُ بنتَ خارجة سألتني النفقةَ فقمتُ إليها فوجأتُ ٤٠ عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " " هن حولي كما ترى يسألنني النفقة " فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها - كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده! فقلن: والله لا نسأل الآن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين يوما، ثم نزلت هذه الآية {أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ} حتى بلغ {لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} قال: فبدأ بعائشة فقال: " يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك " قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت - قال: " لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولك بعثني معلما مُيَسرا " - ٤١

قوله: {قل لأزواجك} فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم زوجات قد دخل بهن، وأولهن: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب - وكانت قبله زوجة لأبي هالة وولدت منه هند بن أبي هالة - وكانت قبل أبي هالة زوجة لعتيق بن عائذ - ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة، وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة، وهي أول امرأة آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع أولاده منها غير إبراهيم.

ثم سودة بنت زمعة العامرية أسلمت قديما وبايعت، وكانت زوجة لابن عمها واسمه السكران بن عمرو وكلاهما هاجرًا إلى الحبشة فلما قدما مكة مات زوجها - وقيل: مات بالحبشة ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر بها.

ثم عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها رسول الله بمكة قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث سنين وبقيت عنده تسع سنوات ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بنت ثمان عشرة سنة ولم يتزوج بكرا غيرها.

ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلقها فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، فراجعها، توفيت في خلافة عثمان وهي ابنة ستين سنة.

ثم أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أربع من الهجرة وكان ابنها عمر صغير - وقد قُبرت بالبقيع وهي ابنة أربع وثمانين سنة.

ثم أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان، كانت زوجة لعبيد الله بن جحش الذي مات بأرض الحبشة على النصرانية فزوجها النجاشي النبي صلى الله عليه وسلم وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة.

ثم زينب بنت جحش الأسدية، وكان اسمها بَرَّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، تزوجها النبي بالمدينة سنة خمس من الهجرة، وتوفيت سنة عشرين وهي بنت ثلاث وخمسين.
ثم زينب بنت خذيمة بن الحارث الهلالية، وكانت تسمى في الجاهلية أم المساكين؛ لإطعامها إياهم - مكثت عند النبي ثمانية أشهر وتوفيت في حياته ودفنت بالبقيع.
ثم جويرية بنت الحارث المصطلقية أصابها في غزوة بني المصطلق فوقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوجها، توفيت سنة ست وخمسين وهي ابنة خمس وستين.
ثم صفية بنت حيي بن أخطب أصابها النبي يوم خيبر واصطفاها لنفسه وأسلمت وأعتقها - وماتت سنة خمسين ودفنت بالبقيع.
ثم ريحانه بنت زيد بن عمرو من بني النَّضير أعتقها النبي وتزوجها في سنة ستٍّ وماتت وهو راجع من حجة الوداع فدفنها بالبقيع.
ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَرِف على عشرة أميال من مكة سنة سبع من الهجرة، وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٢
قوله: {إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ} المراد بالحياة الدنيا وزينتها، ما فيها من السعة والنضارة ووجوه النعمة. وذلك أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخيِّر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن تحصل لهن عندهم البحبوحة والسعة، وبين الصبر على ما عنده من ضيق العيش ورقة الحال ولهن عند الله في مقابل ذلك خير الجزاء - فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة - وبذلك اجتمع لهن في كنفِ رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا من حسن الذكر وطيب الثناء يوم القيامة، وفي الآخرة ما أعده لهن من عظيم المنزلة في عليين بجوار خير زوج في العالمين - {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ} أي أَقبِلن إليّ أعطكن متعة الطلاق - وهي واجبة للتي لم يُدخَل بها ولم يُفرض لها حين العقد صداق - أما سائر المطلقات فمتعتهن مستحبة - والمتعة للمرأة تقدر بدرع ٤٣ وخمار ٤٤ وملحفة ٤٥ وذلك على حسب السعة والإقتار، وقد مضى تفصيل المتعة في سورة البقرة.
قوله: {وأسرّحكنّ} أي أطلقكن - وتسريح المرأة، تطليقها - والاسم السراح، بالفتح ٤٦
قوله: {سراحا جميلا} أي طلاقا للسُّنة من غير ضِرار ولا منع لها من واجب - وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه - وثمة قولان في ذلك - أحدهما: أنه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترنَ البقاء وهو قول عائشة وآخرين.
ثانيها: أنه خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن لتكون لهن المنزلة العليا، ولكم يخيرهن في الطلاق - وهو قول الحسن وقتادة، وهو مروي عن علي (رضي الله عنه) والقول الأول الراجح؛ لما روته عائشة من خبر ثابت في الصحيحين قالت: " خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعدّه طلاقا " ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير المأمور به بين البقاء والطلاق.
واختلف العلماء أيضا في المخيرة إذا اختارت زوجها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة أو لا يلزم بذلك شيء؟ فقد ذهب جمهور العلماء من السلف وغيرهم أنه لا يلزمه طلاق، لا طلقة واحدة ولا أكثر - وقيل: إن اختارت زوجها فواحدة بائنة - وهو قول الحسن البصري والليث - وروي مثله عن مالك - واحتجوا بأن قوله لها: اختاري، كناية عن إيقاع الطلاق فإذا ما أضافه إليها وقعت طلقة - والراجح القول الأول؛ لما أخرجه الصحيحان عن عائشة قالت: " خيرنا رسول الله صلى اله عليه وسلم، فاخترناه، فلم يعد علينا طلاقا "
قال ابن المنذر: وحديث عائشة يدل على أن المخيرة إذا اختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا.
واختلفوا في المخيرة إذا اختارت نفسها فهل ذلك طلقة رجعية أو بائنة؟ فقد قيل: طلقة رجعية يملك زوجها رجعتها - وقد روي عن عمر وابن مسعود وابن عباس - وهو قول ابن أبي ليلى والثوري والشافعي.
وقيل: إذا اختارت نفسها فتلك طلقة واحدة بائنة - وهو قول الحنفية - وهي رواية عن مالك ٤٧.
٢٩ - (وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

قوله " {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} أي إن كنتن تؤثرن حب الله ورسوله، وتؤثرن الجنة ونعيمها على الدنيا وما فيها، فقد أعدّ الله للمحسنات منكم اللاتي عملن الصالحات {أَجْرًا عَظِيمًا} وهو الجزاء العظيم الذي لا يعْدله جزاء.

٣٠ - (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا}.

(الفاحشة) من الفحش وهو كل شيء جاوز الحد - وفحش الشيء فُحْشا أي قَبُح قُبحا - وجمعها فواحش ٤٨ والمراد بالفاحشة هنا، الكبيرة من الكبائر - وهي السيئة البليغة في القبح، فإنه لما اختار نساء النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله واستقرّ أمرهن زوجات لشخصه الكريم، أخبرهن الله بشأنهن المميز وبما لهن من خصيصة التكريم والإجلال أكثر من غيرهن من النساء المسلمات - فناسب بذلك إبلاغهن حكمهن بأن من يأت منهن فاحشة {بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} أي معصية ظاهرة، كالنشوز والإساءة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يشق عليه أو يحزنه أو غير ذلك من وجوه المساءات والمعاصي {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} أي يعذبهن الله مثليْ عذاب غيرهن من النساء - وذلك لشرفهن وعظيم منزلتهن وفضلهن على سائر النساء.

قال القرطبي في هذا الصدد: إنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضوعف حَدُّ الحرّ على العبد، والثيب على البكر - وقيل: لما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قوي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن فضوعف لهن الأجر والعذاب - وقيل: إنما ذلك لعِظَم الضرر في جرائمهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

على أنه أراد بالضعفين المثلين أو المرتين - والضعف في كلام العرب المثل.

وضعف الشيء مثله - وضعفاه مثلاه - وأضعافه أمثاله ٤٩

وهذا التضعيف في العذاب إنما يكون في الآخرة - وقيل: في الدنيا والآخرة.

قوله: {وكان ذلك على الله يسيرا} أي مضاعفة العذاب على التي تعصي الله من نساء النبي أمر يسير على الله - أو لا يعزّ على الله أن يضاعف العذاب للمسيئة منهن.

٣١ - (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

قوله: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} {يقنت} من القنوت وهو الطاعة ٥٠ أي من يطع الله ورسوله منكن {وتعمل صالحا} أي تعمل بأوامر الله خاشعة مذعنة {نؤتها أجرها مرتين} أي نجزها من الجزاء ضعفي ثواب غيرها من النساء.

قوله: {وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} أي أعدّ الله لها يوم القيامة طيب العيش وهانئ المقام في الجنة - ٥١

٣٢ - (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا)

قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}.

نساء النبي صلى الله عليه وسلم مكرمات لشرفهن، وعلو منزلتهن، فهن لسن كأحد من النساء في الفضل والشرف - وذلك مشروط بالتقوى منهن، وهو قوله: {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} وذلك بخشية الله وطاعته والتزام أوامره، فإنهن بذلك لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن

في الفضيلة وعلو الدرجة - أي إن اتقين الله انفردتنّ بخصائص من جملة النساء ٥٢ ونساء النبي، وإنْ كُن من الآدميات، فهن لسن كإحداهن - وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه وإن كان من البشر من حيث الجبلّة، فهو ليس منهم من حيث الفضيلة وعلو المنزلة - فلئن كانت نَساء النبي بهذه المكانة من شرف المنزلة وهن ممن يُقتدى بهن؛ فإنه جدير بهن أن تعلو أفعالهن فوق الأفعال، وأن تربو صفاتهن على سائر الصفات.

أما قوله: {كأحد} وليس كواحدة فوجهه أن أحدا ينفي المذكر والمؤنث والواحد والجماعة.

قوله: {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} الخضوع بالقول منهن يراد به لين الحديث، وترقيق الكلام إذا خاطب الأجانب من الرجال - لا جرم أن ترخيم الخطاب من المرأة؛ إذ تخاطب الأجانب يفضي إلى الفتنة التي تجنح بضعاف العزائم إلى الميل والاسترخاء والهوى - ولذلك قال: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} المرض معناه هنا الدغل وهو الفساد ٥٣، وذلك يعم كل وجوه الفسق، والتشوُّف للفجور - فما تترفق المرأة في حديثها الرخيم اللين أمام الرجال إلا كان ذلك مدعاة لانفتال القلوب الضعيفة، فتميل في الغالب للفتنة والاحترار والانشغال - وجدير بالنساء المسلمات الفضليات اللواتي يتقين الله، ويطعن أوامره أن يخاطبن الأجانب من الرجال في جِدٍّ وخشونة بعيدا عن الترخيم والترقيق والريبة.

قال ابن العربي في تأويل قوله تعالى: {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}: أمرهن الله تعالى أن يكون قولُهن جزلا، وكلامُهن فصلا، ولا يكون على وجه يحدث في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين المُطمع للسامع.

قوله: {وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا} أي قولا حسنا بعيدا من طمع المريب - وقيل: المراد بالمعروف الذي تدعو إليه الحاجة.

٣٣ - (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

قوله: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} {قَرْنَ}، من القرار - والأصل، اقْرَرْنَ بفتح الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفا ونقلت حركتها إلى القاف وحذفت الألف لتحرك القاف فصارت قَرْنَ.

والخطاب، وإنْ كان لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فإن حكمه يعم النساء جميعا - والمعنى: الْزَمْنَ القرار في بيوتكن ولا تخرجن إلا لحاجة - ومن الحوائج المشروعة التي تجوز الخروج للنساء، خروجهن للصلاة في المسجد - وفي الخبر: " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله " وفي رواية: " وبيوتهن خير لهن ".

ومن جملة الحوائج، خروجها في طلب العلم - فإن طلب العلم فريضة على المسلمين ولا مناص لها من الخروج إذا أرادت أن تشهد مجالس العلم أو تنهل من مناهله؛ إذ تلقاه من أهله.

ومنها: خروجها لمشاهدة أولي القربى والأرحام كالآباء والأمهات والأبناء والبنات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وغيرهم من أولي القربى.

ومنها: خروجهن لتطبيب أنفسهن أو مداواة أولادهن أو قضاء حوائج أبنائهن وبناتهن، التي لا يُحسِن القيام بها غيرهن.

ومنها: خروجهن في طلب الرزق إذا لم يكن لهن من يضطلع بالإنفاق عليهن نفقة كافية تحقق لها البحبوحة والسعة.

قوله: {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى} التبرج، إظهار الزينة والمحاسن للرجال ٥٤ واختلفوا في المراد بالجاهلية الأولى - والأظهر أنها جاهلية الكفر قبل الإسلام - وأن الجاهلية الأخرى هي جاهلية الفسوق والفجور والضلال والبعد عن منهج الله عقب غياب الإسلام.

وصور الجاهلية من الضلال والكفر والجحود كثيرة ومغالية ومفْرِطة - إنها كثيرة وفادحة ومفحشة فحشا فاق كل تصور - لقد برعت الجاهلية في الزمان الراهن في ابتداع الضلال والفسق واصطناع الأساليب والظواهر المختلفة من الفساد والغواية التي تهوي بالأفراد والمجتمعات في مستنقع الرجس والدنس، وتنزلق بهم إلى كحمأة الرذيلة والفواحش والخنا - ويأتي في طليعة ذلك كله ظاهرة التبرج

في أخش صوره في المغالاة والإسفاف والابتذال مما يفضي بالضرورة إلى الفتنة والسقوط في الدركات من القَذَر والانحطاط، ولقد أسهم في إشاعة هذه الخسيسة الذميمة من التبرج، تلك الأسباب المسخرة من وسائل الإعلام - وهي وسائل الإعلام - وهي وسائل كثيرة ومختلفة ولها من بالغ التأثير في سلوك المجتمعات ما أثار فيها الفتة وألْهَبَ فيها الشهوات والغرائز أيما إلْهاب.

لقد أسهمت أسباب الإعلام الكثيرة والمختلفة بلغ الإسهام في إذكاء الغريزة والفسق، وإشاعة الفجور والتهتك، وإثارة الهوى والشهوة لتظل على الدوام متأججة ومضطربة ومشوبة.

وهذه هي الحضارة المادية الحديثة بجحودها وتحللها وعتوها وتمردها على منهج الله، تُحرّض على التبرج الفاحش والزراية المُسفّة، والابتذال المُستقذر - كتبرج العاريات في الشوارع والمنازل والأندية، وفي بيوت العلم ودوائر الدولة، وسائر المحافل الرسمية والشعبية - ثم التبرج على المسارح وفي دور الملاهي حيث الانفلات الكامل من ربقة القيم والعفة، وحيث العري والتهتك والسقوط، والتحلل المذهل من كل الضوابط التي قررتها شرائع السماء، ونطقت به فطرة الإنسان السوي - تلك هي الجاهلية المظلمة التي طغت على البشرية عقب غياب الإسلام - جاهلية المادية الثقيلة الصماء حيث الشهوات والأهواء وحيث الأنانيات والغرائز المحمومة وظلم الإنسان للإنسان.

قوله: {وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ} أمرهن بإقامة أعظم فريضة وهي الصلاة المفروضة، وأن يؤدين الزكاة الواجبة في أموالهن.

قوله: {وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أمرهن بالعام بعد الخاص - فقد أمرهن ههنا بسائر الطاعات.

قوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} إنما يريد الله مما نهاكنّ وأمركنّ ووعظكنّ أن يذهب عنكن الإثم والفحشاء {أَهْلَ الْبَيْتِ} {أهل} منصوب على المدح، أو على النداء ٥٥ أي يا أهل بيت محمد، وأن يطهركم من السوء والدنس تطهيرا.

واختلفوا في المراد بأهل البيت - فقيل: محمد صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمرّ بباب فاطمة (رضي الله عنها) ستة أشهر إذْ خرج إلى صلاة الفجر يقول: " الصلاة يا أهل البيت {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} ".

وقيل: إن المراد بأهل البيت نساء النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الآية نزلت فيهن خاصة - والصحيح أن المراد نساء النبي صلى الله عليه وسلم وأهله الذين هم أهل بيته - فنساء النبي سبب في نزول الآية، وسبب النزول داخل فيه مع غيره - فيكون المراد عموم زوجات الرسول وأهله.

٣٤ - (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)

قوله: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} ذلك تذكير من الله لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأن بيوتهن مهابط للوحي حيث تتلى فيها آيات الله وهي القرآن - وكذلك الحكمة وهي هنا السنة - وهذان جماع العلم والتقوى - بل هما جماع الحق والصدق والصلاح كله - وهما مبعث الفضيلة والاستقامة والرشاد، وموئل الرحمة والنجاة والسلامة من كل كرب وأذى - ومنهما ينبثق الإسلام ليفيض بندواته على البشرية فتعيش في أمن وسعادة ومرحمة.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} الله لطيف بكُنَّ، إذ علم ما ينفعكن ويصلحكن فنجعلكن في بيت النبوة حيث الطهر والفضيلة والنور - وهو كذلك خبير إذ اختاركن لرسوله أزواجا ٥٦

٣٥ - (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ

لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.

في سبب نزول هذه الآية روى النسائي وغيره من أصحاب السنن عن أم سلمة (رضي الله عنها) أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله مالي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن، والنساء لا يُذكرن؟ فأنزل الله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ - - .} الآية - وكل هذه الأسماء منصوب بالعطف على {إنّ} وخبرها قوله: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً} ٥٧

وقد بدأ في هذه الآية بذكر الإسلام، وهو الدخول في دين الله والتزام شرعه وأحكامه - ثم الإيمان، وهو التصديق بأركان العقيدة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، تصديقا قاطعا لا ريب فيه - ويستدل من ذلك على أن الإسلام علانية وأنه عام - فهو يعمّ الإيمان المستكن في القلب وكذا عمل الجوارح - وقد ذكر الإيمان على سبيل التخصيص له.

قوله: {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} من القنوت وهو الطاعة - والمراد أنهم العابدون لله المطيعون له فيما أمر.

قوله: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} من الصدق - وهذه شيمة كبرى من شيم المسلمين وهي أنهم يصْدُقون الحديث إن تكلموا أو خاطبوا غيرهم؛ لأن قلوبهم وجلة من الله، صادقة معه بعد أن استقر فيها الإيمان به سبحانه - أما الكذب فإنه ذميمة مقبوحة شدّد عليها الإسلام النكير ووصم الذين يتلبسون بالكذب بأنهم على شعبة من النفاق.

قوله: {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ} هم الذين يصبرون على الطاعات، وعن المعاصي على اختلافها - ويصبرون على المصائب والمحن التي يلاقونها في حياتهم الدنيا - وهم في ذلك ثابتون لا يتزعزعون ولا يترددون.

قوله: {وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ} من الخشوع وهو الخضوع لله والانقياد لأمره وسلطانه والخوف من حسابه وعقابه - وتلك هي حال المؤمنين والمؤمنات فإنهم يخشون الله في السر والعلن فيبادرون الطاعة لله والإذعان له والاستسلام.

قوله: {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ} الذين يبذلون للفقراء والمحاويج صدقات أموالهم سواء منها المفروضة أو المندوبة - أولئك طيبون رحماء، يرحمهم الله ويصلح حالهم.

قوله: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} سواء في الصوم ما كان مفروضا أو كان مندوبا - وذلك خلق المؤمنين الصادقين فإنهم يمسكون عن الطعام والشراب والشهوة، يبتغون بذلك مرضاة الله ربهم وحُسن جزائه.

قوله: {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} أي عما لا يحل من السفاح - وإنما يأتون من الوطء أو الوقاع ما كان حلالا.

قوله: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} أي يذكرون الله بقلوبهم وألسنتهم غدوًّا وعشيًّا وفي أدبار الصلوات وفي المضاجع وعند اليقظة من النوم - وقيل: قراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر.

قوله: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} أي غفر الله لهؤلاء المذكورين من الرجال والنساء فستر عليهم ذنوبهم وسيئاتهم وأثابهم منه خير الجزاء في الجنة حيث النعيم المقيم ٥٨

٣٦ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا)

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا}.

روي في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش – وكانت بنت عمته – فظنت أنه خطبها لنفسه - فلما تبين أنه يريدها لزيد، أبت وامتنعت - فنزلت الآية فأذعنت زينب حينئذ ورضيت أن تتزوج من زيد.

وتقضي الآية بأنه ليس لمؤمن بالله ورسوله، أو مؤمنة إذا حكم رسول الله في أنفسهم بحكم أن يختاروا غير ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعصوه ويخالفوا أمره - فإن عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم عصيان لله سبحانه - فقد أمر الله عباده المؤمنين

بطاعة رسوله الأمين {من يطع الرسول فقد أطاع الله} ٥٩.

قوله: {أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} {الْخِيَرَةُ}، مصدر بمعنى الاختيار أي ليس لهم أن يختاروا خلاف ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن الآية عامة في كل الأمور، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء فليس لأحد من بعده أن يخالفه فيما أمر أو يختار غير ما قضى به.

فما يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا محالة ملزم إلزاما؛ لأنه وحي من الوحي - وفي ذلك يقول سبحانه: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} وبذلك لا يتحقق لأحد إيمان حتى يرضى بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل الأمور والقضايا - وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ".

قوله: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا} ذلك تحذير مخوف من الله، يتهدد به الذين يخالفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمر ويعرضون عما جاءهم به من عند الله فيرتضون بغيره من الشرائع بديلا فأولئك قد أوغلوا في الضلال والزيغ عن الحق.

٣٧ - (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا)

قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً}.

ذلك إخبار من الله عما قاله رسوله صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة (رضي الله عنه)، الذي أنعم الله عليه أن هداه للإسلام وأنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أعتقه من الرق فصار سيدا عظيم الشأن، جليل القدر، حبيبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان يقال له، الحبُّ - ويقال لابنه أسامة الحبُّ ابن الحبِّ - وقد روى الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمَّره عليهم - ولو عاش بعده لاستخلفه.

قوله: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ} كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوَّج مولاه زيدا بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية (رضي الله عنها) وقد أصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وخمسين مدّا من طعام وعشرة أمداد من تمر - فمكثت عنده قريبا من سنة أو أكثر ثم وقع بينهما شقاق ونفور فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ} أي أمسك عليك زوجك زينب واتق الله في أمرها ولا تعجل بطلاقها.

قوله: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} ذُكر في تأويل هذه الآية جملة أقوال وآثار عن بعض السلف ينبغي أن يُضرَبَ عنها صفحا لكونها مريبة، بعيدة عن اليقين فهي منافية للعصمة التي تتجلى في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي طبيعته المثلى وجبلَّته الناصعة العليا - والأمر يسير وفي غاية اليسر على من يسَّرهُ الله عليه - وجملة ذلك ما ذكره الحسن بن علي (رضي الله عنهما) في قوله تعالى: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} إذ قال: إن الله تعالى قد أعلم نبيه أن زينب بنت جحش ستكون من أزوجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد (رضي الله عنه) يشكوها إليه قال له: " اتق الله وأمسك عليك زوجك " أي أخبرتك أني مزوجك إياها وتخفي في نفسك ما الله مظهره.

وروي كذلك عن علي بن الحسين (رضي الله عنهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلّقُ زينب

وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها - فلما اشتكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الوصية والنُّصْح: " اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك " وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها وهذا هو الذي أخفاه في نفسه ولم يرد أن يأمره بالطلاق لِما علم أنه سيتزوجها - وقد خشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أمره بطلاقها - فعاتبه الله تعالى على أن خشي في شيء قد أباحه الله له وهو قوله لزيد {أمسك} مع علمه بأنه يطلِّق - وأخبره الله أيضا أنه أحق بالخشية في كل الأحوال.

وعلى هذا فالمراد بقوله: {وتخشى الناس} إرجاف ٦٠ المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج هو بزوجة ابنه - أي زيد -.

أما ما روي في ذلك من أقوال تشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع في نفسه استحسان لزينب بنت جحش وهي في عصمة زيد مولاه وكان حريصا على أن يطلقها زيد ليتزوجها هو فإن ذلك مما لا يركن إليه العقل ولا تطمئن به النفس لمنافاته ما يتصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عصمة كاملة تحول بينه وبين تمنيه ما لا يملكه أو تدرأ عنه خصلة التشهي لما هو عند الآخرين - لا جرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوتيه من فطرة فُضلى، وطبع نوراني ساطع لهو أسمى من أن يقع من نفسه استحباب لحظ من حظوظ الدنيا - ومثل هذه المقالة برغبته صلى الله عليه وسلم ما عند الآخرين تفضي إلى ما يبتغيه الدساسون والمتربصون في كل زمان من اصطناع ما يجدونه مطعنا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي شخصه ودينه - ونسمع أو نقرأ في زماننا الراهن حول هذه المسألة كثيرا من تلفيقات المرْجِفين أولي الهوى والنفاق أو الذين يجيدون الثرثرة والغَط ويرومون الإساءة إلى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المتبرَّأ بعصمته من كل الخطايا والذنوب ظاهرة وباطنة، بل من مجرد التشهي لما لدى الناس من حظوظ الدنيا وزينتها.

قال الترمذي مسندا إلى علي بن الحسين قوله: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرا من الجواهر ودُرّا من الدرر أنه إنما عتب عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك فكيف قال بعد ذلك لزيد: " أمسك عليك زوجك " وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه.

قوله: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا} الوطر معناه الحاجة، جمعه أوطار ٦١ أي لما قضى زيد إربه من زينب ففرغ منها وفارقها {زَوَّجْنَاكَهَا} فكان لذي تولى نكاحها هو الله جل وعلا - إذ أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من الناس - وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلى الله عليه وسلم - فقد روى النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم تقول: إن الله عز وجل أنكحني من السماء - وفيها نزلت أية الحجاب، وكذلك أخرج الإمام أحمد عن أنس (رضي الله عنه) قال: فلما انقضت عدة زينب (رضي الله عنها) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: " اذهب فاذكرها علي " أي اخطبها لي - فانطلق حتى أتاها وهي تخمِّر عجينها - فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك - قالت ما أنا بصانعة بشيء حتى أوامَرَ ٦٢ ربي عز وجل فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن.

قوله: {لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً} أي أبحنا لك الزواج من زينب كيلا يجد المسلمون ضيقا أو مشقة في الزواج من أزواج أدعيائهم الذين كانوا يجعلونهم أبناءهم كما كانت تفعل العرب؛ إذ كانوا يتبنون الأولاد الأدعياء حتى نزل النهي عن ذلك.

قوله: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً} أي كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتما مقضيّا - أو هو كائن لا

محالة.
٣٨ - (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)
قوله تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} أي ما كان على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من إثم فيما أحله ل من نكاح امرأة دعيه زيد بن حارثة بعد فراقه إياها {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} {سُنَّةَ} منصوب على المصدر، أي سنّ الله له سنة واسعة ٦٣ والمعنى: هذا حكم الله فيمن سبق من النبيين قبل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن عليهم من حرج فيما جعله الله لهم من واسع التوسعة في النكاح.
قوله: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} أي ما يكتبه الله من الأقدار كائن لا محالة - وواقع لا محيد عنه ولا ريب فيه.
٣٩ - (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)
قوله: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ} ذلك إطراء من الله لرسله الذين خلوا من قبل وهم الذين يضطلعون بأكرم وجيبة وأشرفها وهي تبليغ رسالات الله إلى الناس فينصحون لهم ويأمرونهم بالحق وينهونهم عن الباطل وينذرونهم لقاء الله في الآخرة - وهم في ذلك إنما يخافون الله وحده ولا يخافون أحدا سواه - فلا تصدنهم سطوة الظالمين والمعرضين عن تبليغ ما أوكل الله إليهم من أمانة التبليغ {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} أي كفى بالله حافظا لأعمال العباد ومحاسبا عليها، صغيرة أو كبيرة - أو كفى به ناصرا ومعينا وكافيا للمخاوف ٦٤ فهو سبحانه أحق أن يخشاه العباد - والمرسلون في ذلك عنوان الشجاعة والصبر والتجرد لدين الله - وهم المثال المحتذى في الصدق وعلو الهمة والدعوة إلى الله مخلصين ثابتين غير خائفين ولا وجلين - ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم سيد البشرية كافة وإمام المرسلين أجمعين في هذا المعنى - فقد أدى ما عليه من أمانة التبليغ كامل الأداء، فلم تثنه الصعاب والمكاره والمكائد حتى لقي الله راضيا مرضيّا وقد شاع دينه فملأ شطرا من الأرض - ثم قام بإشاعته وتبليغه من بعده غرٌّ ميامين من صحابة وتابعين وتابعيهم ومن بعدهم من الأبرار الذين حملوا رسالة الإسلام إلى الخافقين.
٤٠ - (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)
قوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} ذلك إخبار من الله جل جلاله أنه لم يكن أبا لزيد بن حارثة ولا لأحد من الرجال المعاصرين.
وإنه صلى الله عليه وسلم له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فقد ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة (رضي الله عنها) فماتوا صغارا وولد لهم إبراهيم من مارية القبطية فمات كذلك رضيعا - وكان له من خديجة أربع بنات، هن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين.
قوله: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} {رَسُولَ}، منصوب على أنه خبر كان مقدرة، وتقديره: ولكن كان محمد رسول الله - ومن قرأه بالرفع جعله خبرا لمبتدأ محذوف وتقديره، هو رسول الله ٦٥ وهذه الآية تدل بالقطع على أنه لا نبي بعد رسول الله محمد الله صلى الله عليه وسلم فهو خاتم النبيين والمرسلين - وفي ذلك أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي " فشق ذلك على الناس فقال: " ولكن المبشرات " قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال " رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة " وغير ذلك من الأخبار كثير في نفي النبوة بعد النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.
قوله: {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} أحاط الله بكل شيء علما - ومن جملة ذلك هذه الأخبار والأحكام التي بينها لعباده.
٤١ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا}.

أمر الله عباده المؤمنين أن يكثروا من ذكره وشكره، فيديموا ذكر الله بقلوبهم فتظل خاشعة وجلة من عظيم سلطانه وجلاله، وبألسنتهم التي لا تبرح النطق بذكره سبحانه - وكذلك يؤدون الشكر المستديم لله على ما هداهم إلى نعمة الإسلام وما خوّلهم من نعم الحياة الدنيا، وهي كثيرة وجزيلة لا تحصى - وفي هذا الصدد من ذكر الله روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون ".

٤٢ - (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

قوله: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} يأمر الله عباده المؤمنين بدوام تسبيحه في الصباح وفي المساء - كقوله تعالى: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون}.

ودأْبُ المؤمنين ألا يغفلوا عن ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم في كل الأحوال، وأن يكثروا من التسبيح والتحميد والتهليل في طرفي النهار وهما العشي والإبكار.

٤٣ - (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

قوله: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ} الصلاة من الله على عباده المؤمنين تعني رحمته لهم وبركته التي يفيض بها عليهم - أما الصلاة من الملائكة على المؤمنين فهي استغفارهم لهم والدعاء لهم بالخير والرحمة والنجاة - وتلكم من مِنَن الله التي امتن بها على عباده المؤمنين؛ إذ رحمهم برحمته الواسعة، وهيأ لهم ملائكته الأبرار ليستغفروا لهم ويدعوا لهم بالهداية وبالتوفيق والسلامة.

قوله: {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي يخرجكم من ظلمات الضلال والباطل إلى نور الهداية والحق، ومن فساد الجاهلية وتعْسها وشرورها إلى نور الإسلام بعقيدته الصلبة السمحة، ونظامه الوارف الظليل.

قول: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} الله رحيم بعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة - ففي الدنيا بعث الله فيهم رسله يبلغونهم دعوة الحق ويدعونهم إلى الهداية والصواب فدخلوا في دين الله بفضله وتوفيقه - وأما رحمته بهم في الآخرة، بأن نجاهم من العذاب وكتب لهم السلامة وحسن المآب، وأسكنهم الجنة بنعيمها الكريم المقيم.

٤٤ - (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

قوله: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ} أي تحية المؤمنين يوم يلقون الله {سلام} أي يبشرهم الله بالنجاة والسلامة من كل الأهوال والمخاوف - وقيل: يُسلِّمُ الله عليهم تكريما لهم وزيادة في الرحمة بهم، كقوله سبحانه: {سلام قولا من رب رحيم} وقيل: هذه تحية المؤمنين يوم القيامة إذ يحيي بعضهم بعضا وهم آمنون مستبشرون وقد كتب الله لهم الفوز والنجاة.

قوله: {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} أعدَّ الله للمؤمنين في الجنة من صنوف الطيبات والملاذ والخيرات ما لا يتصور كماله ومداه بشر ٦٦

٤٥ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

قول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}.

هذا تأنيس من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وتكريم له ولأمته من بعده - فرسول الله صلى الله عليه وسلم حامل لواء الهداية للبشرية كافة - وقد بعثه الله لهداية العالمين أجمعين إلى يوم البعث والدين - وأمته من بعده قد أُنيط بها أن تدعو الناس جميعا في سائر الأمكنة والأدهار وفي كل الأحوال والأعصار، إلى عقيدة التوحيد والإذعان لله وحده بالخضوع والامتثال دون غيره من الآلهة

المصطنعة، والطواغيث العتاة، وتدعوهم إلى منهج الله الذي تضمن من قواعد الحق والعدل والفضيلة والرحمة ما تستقيم به حياة العباد فيكونوا إخوانا متعاونين غير متباغضين ولا متصارعين - وهذه حقيقة ينطق بها المنصفون، ويعترف بها الصادقون من أولي النباهة والألباب الذي يوقنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم حق فقد شهد له القرآن بصدق نبوته، وشهدت له سيرته المميزة الفضلى التي لا تتجلى بمثل هذا الكمال من مكارم الصفات وحسن الخلال إلا في نبي مرسل مكرم كمحمد صلى الله عليه وسلم - وشهدت له بذلك أيضا الكتب السماوية المتقدمة من قبل أن يأتي عليها التحريف والتزييف من أولي الأهواء والأباطيل من بني إسرائيل - فقد روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال: أجلّ والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} وحرزا للأمين، فأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صُمّا وقلوبا غُلْفا.

وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: لما نزلت {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} وقد كان أمر عليّا ومعاذا (رضي الله عنهما) أ يسيرا إلى اليمن فقال: " انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا " إنه قد أنزل عليّ {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} هذه الأسماء: شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا وسراجا، كلها منصوبات على الحال ٦٧ أنا صائنعة بشيء

قوله: {شاهدا} أي شاهدا لله بالوحدانية وأنه الحق الذي لا إله غيره - أو تشهد على الناس بأعمالهم يوم القيامة.

قوله: {ومبشرا} أي تبشّر المؤمنين برحمة الله بهم وبما أعده لهم من حسن الجزاء {ونذيرا} من الإنذار وهو التبليغ ولا يكون إلا في التخويف ٦٨ أي تنذر الكافرين والعصاة الذين لجّوا مستكبرين فتُخوفهم من وبيل العقاب في النار.

٤٦ - (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)

قوله: {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ} أي تبلغ الناس دعوة الحق وتحرضهم على الإيمان بالله وحده لا شريك له، وتحذرهم الكفر والعصيان {بإذنه} أي تدعوهم لكل ذلك بأمر الله إياك.

قول: {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} السراج معناه المضيء الزاهر - ومن المجاز: سَرَج الله وجهه أي حسَّنه وبهَّجه - والشمس سراج النهار والهدى سراج المؤمنين، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، السراج الوهاج ٦٩ - والمراد: أن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للعالمين هاديا لهم ليهتدوا بدينه المشرق المنير ويستضيئون بنوره الذي جاء به من عند الله وهو الإسلام الذي كتبه الله للبشرية استنقاذا لهم من الضلالة إلى الهداية، ومن الظلم والباطل إلى الحق والعدل - ذلكم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهو كالمصباح المضيء ينير للبشرية طريقها إلى النجاة بما يحمله للعالمين من عقيدة راسخة بنيت على الطهر والتوحيد والفضيلة.

٤٧ - (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا)

قوله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا} أي بَشّر أهل الإيمان بما أعدّ الله لهم من جزيل الثواب وحسن الجزاء بطاعتهم لله وإذعانهم لأمره.

٤٨ - (وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

قوله: {وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} أي لا تستمع لما يعرضه عليك أهل الكفر والنفاق من إغراء بالمداهنة أو اللين والتساهل في دين الله - وفي ذلك تعريض من الله للمسلمين في كل زمان لكي يحذروا إغراءات الكافرين والمنافقين الذين يخادعون المسلمين ويراوغوهم ليضلوهم عن دين الإسلام - بمختلف الأسباب والوسائل من الخداع والتحيُّل والمخاتلة.

قوله: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} أي لا تؤذهم مجازاة لهم على إذايتهم لك بل اصفح عن زلاتهم وتجاوز عمن مساءاتهم - وقيل: اصبر على أذاهم ولا تشغل نفسك بما يؤذونك به من سوء الأقوال والفعال - ٧٠

٤٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا}.

يستفاد من هذه الآية جملة أحكام منها: أن النكاح يطلق على العقد وحده، وهو ما يفهم من ظاهر الآية {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}.

وقد اختلف العلماء في حد النكاح، هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما معا، على ثلاثة أقوال - فهو عند الحنفية، وكذا الشافعية في قول لهم حقيقة في الوطء، مجاز في العقد - وعند المالكية والشافعية في الأصح من مذهبيهما، حقيقة في العقد، مجاز في الوطء - وقيل: إنه حقيقة في العقد والوطء بالاشتراك، كالعين، فهي اسم مشترك بين أكثر من معنى ٧١.

ومنها: إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، ولا فرق في هذا الحكم بين المؤمنات والكافرات - وإنما ذكر هنا {المؤمنات} لخروجهن مخرج الغالب.

ومنها: أن الطلاق لا يقع من غير أن يسبقه نكاح، لقوله تعالى: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ} فذكر الطلاق عقب النكاح مما يدل على أن الطلاق لا يقع ولا يصح قبل النكاح - وقد ذهب إلى ذلك أكثر أهل العلم - وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصري وآخرين - وهو مذهب الشافعي وأحمد - وقال به آخرون من السلف والخلف، خلافا لمالك وأبي حنيفة؛ إذ قالا بصحة الطلاق قبل النكاح - فلو قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فقد ذهبا إلى أنها تطلق بمجرد زواجه منها - والراجح عدم وقوع الطلاق قبل النكاح، لظاهر الآية - ولما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا طلاق لابن آدم فيما يملك " وكذلك ما رواه ابن ماجة عن علي والمسور بن مخرمة (رضي الله عنهما) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا طلاق قبل النكاح ".

قوله: {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا} إذا طُلقت المرأة قبل الدخول بها فإنه لا عدة عليها ولها أن تتزوج من تشاء من فورها - ولا يُستثنى من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد عدة الوفاة وهي أربعة أشهر ولو لم يكن دخل بها - وذلك كله بالإجماع.

قوله: {فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا} إن طلقها قبل الدخول وكان قد سمى لها صداقا فلها نصف ما سمى من الصداق - وإن لم يكن سمى لها صداقا أعطاها المتعة على قدر يسره وعسره دون حرج في ذلك ولا حيف، وذلك هو السراح الجميل في قوله: {وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا} {وَسَرِّحُوهُنَّ} أي طلقوهن - والسراح أو التسريح كناية عن الطلاق عند أبي حنيفة، وهو عند الشافعي طلاق صريح ٧٢.

٥٠ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

لما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه حرّم الله عليه التزوج بغيرهن أو الاستبدال بهن مكافأة لهن على فعلهن بحسن

الاختيار - ويؤيد ذلك قوله تعالى: {لا يحل لك النساء من بعد} وفي الآية يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن أجورهن أي مهورهن - وهو قوله: {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ} والمراد بأزواجه في الآية، زوجاته الكائنات عنده، لأنهن قد اخترنه، إذ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة - وهو قول الجمهور من العلماء - ويعزز هذا التأويل ما قاله ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج من أي النساء شاء - وكان ذلك يشق على نسائه - فلما نزلت هذه الآية وحُرّم عليه النساء إلا ما سُمّي، سُرَّ نساؤه بذلك.

وقيل: المراد أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها فالآية بذلك تبيح له جميع النساء باستثناء ذوات المحارم.

قوله: {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ} أي أباح لك التسري مما أخذت من الغنائم - فقد أخذ صفية وجويرية فأعتقهما ثم تزوجهما - وكذلك مارية القبطية أم إبراهيم ابنه.

قوله: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} أحلَّ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من الأزواج من بنات عمه وعماته وخاله وخالاته اللواتي هاجرن معه منهن دون من لم يهاجر منهن معه - فقد روي عن أم هانئ ابنة عمه صلى الله عليه وسلم قالت: خطبني النبي صلى الله عليه وسلم فاعتذرت له بعذري ثم أنزل الله عليه {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} الآية - قل أحل له، لأني لم أهاجر معه، إذ كنت من الطلقاء.

وقد خصَّ بنات عمه وعماته وخاله وخالاته بالذكر تشريفا لهن - وقيل: إن ذلك ترسيخ لقاعدة العدل والوسط بين الإفراط والتفريط، بين النصارى واليهود - فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت شريعة الإسلام بطهرها وكمالها لتهدم إفراط النصارى فأباحت بنت العم والعمة وبنت الخال والخالة، ولتحرم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت - لا جرم أن هذه شناعة مقبوحة.

أما ذكر العم فردا والعمات جمعا، وذا الخال والخالات، فلأن كلا من العم والخال إذا أطلق فهو اسم جنس بخلاف العمة والخالة.

قوله: {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا} {امرأة}، منصوب على العطف على قوله: {أزواجك} ٧٣ فقد أحل الله في هذه الآية لرسوله صلى الله عليه وسلم زواج المرأة المؤمنة من غير مهر إن وهبت نفسها له، وشاء هو الزواج منها - فثمة شرطان لذلك وهما: أن تهب المؤمنة نفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يشاء هو أن يتزوجها - على أنه ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا صداق إلا للنبي كانت له خالصة من دون الناس - وفي ذلك روى الإمام أحمد بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني وهبت نفسي لك فقام قياما طويلا فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئا " فقال: لا أجد شيئا " فقال: " التمس ولو خاتما من حديد " فالتمس فلم يجد شيئا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " هل معك من القرآن شيء؟ " قال: نعم - سور كذا وسورة كذا – لسور يسميها – فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " زوجتكها بما معك من القرآن ".

وقد روى عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين - فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد - وقيل: كانت عنده موهوبة - فقد روى البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وهذا يدل على أنهن كن أكثر من واحدة - والله تعالى أعلم.

قوله: {خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} أي لا تحل الموهوبة لغيرك - فهبةُ أنفسهن، خالصة وخصوصية من خصوصيات الرسول صلى الله عليه وسلم، لا تجوز لغيره من الناس - فليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل - بل إن الهبة لا يتم بها نكاح إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه.

قوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} أي أوجب الله على المؤمنين في زواجهم ألا يتزوجوا أكثر من أربع نسوة، كل واحدة منهن بمهر وولي وشاهدي عدل، ثم ما شاءوا بعد ذلك من الإماء {لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ} أي أحللنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها لئلا يكون عليك ضيق أو إثم في نكاحهن {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} الله رحيم بالمؤمنين؛ إذ يستر عليهم ذنوبهم ويجزيهم من فضله الجزاء الحسن ٠٧٤.

٥١ - (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

قوله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا}.

في سبب نزول هذه الآية روى الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل سبحانه {مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} فقالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك - و {تُرْجِي}، بمعنى تؤخر - {وَتُؤْوِي} أي تضم - أي تؤخر من تشاء وتضم من تشاء - يقال: أرجأته إذا أخرته وآويت فلانا إذا ضممته - فيكون المعنى: تُطلّق من شئت وتمسك من شئت - وهو قول ابن عباس - وقيل: تترك من شئت وتنكح من شئت - وقيل: تَقْسِم لمن شئت وتترك قَسْم من شئت - أي لا حرج عليك أن تترك القَسْم لزوجاتك فتقدم من شئت منهن، وتؤخر من شئت - ومع ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لزوجاته من قِبل نفسه دو أن يُفرض عليه القَسْم.

قوله: {وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ} {ابْتَغَيْتَ}، من الابتغاء وهو الطلب - وعزلت، من العزلة وهي الإزالة - والمراد إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن رددتهن فأنت بالخيار في ذلك أيضا.

فإن شئت عدت إليها فأويتها بعد أن رددتها {فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ} لا إثم عليك في ذلك كله.

قوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} اسم الإشارة {ذلك} عائد إلى التفويض إلى مشيئتك أي هذا الذي جعلت لك يا محمد من التخيير في صحبتهن أو تنحيتهن، فتؤخر من تشاء منهن وتضم من تشاء، وترد من تشاء ردها - ووضع الحرج عنك في ذلك كله {أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ} أي ذلك أدنى إلى رضاهن إذا علمن أن ذلك كله من أمرنا.

فهن إذا علمن أن ذلك من الله قرَّت أعينهم به ورضين فلا يحزنَّ والمرء إذا علم أنه غير محق في شيء فإنه لا يبتئس بحرمانه منه وإنْ علم أنه له حقّا في أخذته الغيرة وهيَّجه الغضب - قال الزمخشري في ذلك: إذا سوى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء وارتفع التفاضل ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى وعلمن أن هذا التفويض من عند الله وبوحيه اطمأنت نفوسهن وذهب التنافس والتغاير وحصل الرضا وقرت العيون وسلت القلوب.

قوله: {وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} {كُلُّهُنَّ} مرفوع؛ لأنه تأكيد للضمير في قوله: {وَيَرْضَيْنَ} ٧٥ أي يرضين كلهن بتفضيل من فضلت من قبل من قسم فترضى كل واحدة بما أوتيت من قليل أو كثير لعلمها بأن ذلك فضل من الله تفضل به عليها.

قوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} الله يعلم ما يستكن في قلوبكم من الميل إلى بعض النساء دون بعض مما لا يمكن دفعه - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: " اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " والمراد به القلب.

قوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} الله عليم بما يفعله الناس، بل إن علمه محيط بكل شيء وهو سبحانه ذو حلم ولطف بعباده فلا يعامل المذنبين بالعقوبة ولكنه رحيم بهم وهو ممهلهم ليتوبوا ٠٧٦.

٥٢ - (لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

قوله تعالى: {لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا}

اختلفوا في تأويل هذه الآية - فقد قيل: نزلت هذه الآية لتبين رضا الله عز وجل عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على حُسْن صنيعهن؛ إذْ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكان جزاؤهن أن حظر الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الزواج بغيرهن - وهو قول كثير من علماء السلف منهم ابن عباس.

وقيل: نسخ هذا الحظر وأبيح له التزويج ممن شاء لكنه لم يقع منه بعد ذلك أي زواج بغير نسائه - قال الإمام أحمد: عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء.

وقيل: معنى قوله: {لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} أي من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن، وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات، والواهبة نفسها لك - وأما ما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك.

واختار الطبري قول من قال: معنى ذلك، لا يحل لك النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك بقولي: {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ} إلى قوله:
{وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}.

قوله: {وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ} اختلفوا في المراد بذلك على عدة أقوال - منها: أنه لا يحل لك أن تبدَّل بالمسلمات غيرهن من الكوافر من النصارى واليهود والمشركين ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك منهن.
ومنها: أنه لا يحل لك أن تبدل بأزواجك اللواتي في عصمتك أزواجا غيرهن بأن تطلقهن وتنكح غيرهن ولو أعجبك فيهن الحسن.
ومنها: أنه لا يحل لك أن تبادل من أزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته، وهو ما كانت تفعله العرب في جاهليتها؛ فقد روي عن أبي هريرة قال: " كان البدل في الجاهلية، أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتي - أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله {وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ} قال الإمام الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ولا أن تطلق فتستبدل بهن غيرهن أزواجا.
أما ما ملكت يمينه من الإماء فإنما يحل للنبي منهن المؤمنات لما في ذلك من تنزيه لقدره عليه الصلاة والسلام عن معاشرة الأمة الكافرة - ويعزز ذلك قول سبحانه: {ولا تمسكوا بعِصَمِ الكوافر}.

وقيل: يحل له من الإماء الكافرة لعموم قوله: {إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} وهو الأظهر.
ويستفاد من هذه الآية أيضا استحباب النظر إلى المخطوبة قبل زواجها كيلا يأخذه الندم بعد الزواج إن لم ينظر إليها، وحرصا من الشريعة الكريمة على ترسيخ المودة بين الزوجين؛ فقد روى أبو داود عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل " وقد ذكر أن المغيرة بن شعبة أراد زواج امرأة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " انظر إليها فإنه أحب أن يؤدَمَ ٧٧ بينكما " يعني أن تكون بينكما المحبة والاتفاق.

قوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} الله حفيظ على كل شيء فلا يعزب عن جلاله علم شيء، صغيرا أو كبيرا - سواء في ذلك ما أحله الله لكم أو حرمه عليكم - أو غير ذلك من أخبار الكون كله، فاحذروه سبحانه ٧٨.

٥٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بيوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ

فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}.

قال أكثر المفسرين: سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش أَوْلَم عليها بتمر وسويق وذبح شاة - قال أنس: فأمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أدعو أصحابه إلى الطعام فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون - فقلت: يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه فقال: " ارفعوا طعامكم "، فرفعوا، وخرج القوم، وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت فأطالوا المكث فتأذى منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبينه سترا.

وقال ابن عباس: نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون ٧٩

هذه بعض آداب الإسلام في الدخول إلى بيوت الناس، فإنه لا يحل لامرئ أن يدخل بيت أحد من الناس إلا أن يستأذن - فإن أذن له دخل - وذلك لما للبيوت من حرمات لا يجوز هتكها أو المساس بها إلا أن يؤذِنَ الداخلُ أهلَ البيت أنه آت، فإن أذنوا له وإلا عاد ومضى في سبيله - أما بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي أشدُّ حرمة وأعظمُ قداسة وطهرا وأجدر أن تحاط بالتكريم والإجلال والمهابة أكثر من غيرها من البيوت - وهذا هو قوله سبحانه وتعالى مخاطبا المؤمنين: {لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ} {غير}، منصوب على الحال من واو الجماعة في قوله {تَدْخُلُوا} ٨٠ و {إِنَاهُ}، يعني وقت نضجه وإدراكه - وفعله أنى يأني، بوزن رمى يرمي، نقول: انتظرنا إنى الطعام أي إدراكه - ويقال: أنى الطعام أنىً وإني - وأنى الحميم أي انتهى حره، ومنه قوله: {حميم آن} ٨١

والمعنى: لا تدخلوا بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يأذن لكم في الدخول أو يطعمكم طعاما حاضرا لا تنتظرون نضجه ولا ترتقبون حضوره فيطول بذلك مقامكم في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى منكم.

قوله: {فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا} إذا نالوا حظهم من الطعام وجب عليهم الانتشار وهو الخروج من المنزل والتفرق - فإنه إذا تحقق المقصود وهو الإطعام لم يبق بعد ذلك أيما سبب للبقاء أو المكث وبذلك لزم الخروج والتفرق.

قوله: {وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ} معطوف على قوله: {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} أي لا تمكثوا في البيت مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وليمة زينب.

قوله: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ} المكث في البيت أو طول البقاء فيه من غير حاجة فيه إذاية لصاحب البيت - والإذاية أو الأذيّة كل ما تكرهه النفس مما فيه إساءة أو ضيق أو حرج - وذلك محرم على المسلمين فيما بينهم - فلا جرم أن تكون الإذاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغ في التحريم.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء - فطبعه وجبلَّتهُ الحياء وهو يتأذى من طول مكثكم من غير حاجة إذا كان يستحيي أن يبين لكم ما به من ضيق.

قوله: {وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} أي لا يمتنع الله من بيان الحق وإظهاره.

قوله: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} روي عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأزل الله تعالى آية الحجاب ٨٢، وهي قوله: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} اختلفوا في المراد بالمتاع هنا، فقيل: العارية من العواري - وقيل: الحاجة من الحاجات وقيل: الفتوى من الفتاوى - وقيل غير ذلك: والصواب أن المتاع عام في جميع ما يطلبه الناس من المواعين وسائر المرافق.

وذلك لأمر من الله للمسلمين إذا سألوا نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من الأشياء أو حاجة من الحاجات كفتوى أو استفسار عن مسألة، أن لا يخاطبوهن أو يسألوهن إلا من وراء ستار بينهم وبينهن - وكذلك نساء المسلمين فإنه لا مساغَ للمسلمين أن يسألوهن أو يخاطبوهن إلا من وراء ستار وأن لا يدخلوا عليهن بيوتهن.

قوله: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} أطهر من الخواطر التي تعرض للرجال من أمر النساء، وللنساء من أمر الرجال وكيلا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل - وسرعان ما ينفذ الشيطان اللعين إلى نفس الناظر والمنظور كليهما - وذلك لدى التخاطب بينهما في البيوت أو الخلوات - ومن أجل ذلك قطعت الشريعة الإسلامية كل سبيل للشيطان وكل احتمالات الوساوس والخواطر المريبة التي تؤزّ النفس وتثير فيها الانفعال والتململ بعد السكينة والرقاد.

ويستدل من هذه الآية الكريمة أنه ما ينبغي لأحد من الناس أن يثق بنفسه في الخلوة بامرأة أجنبية - فإن مجانبة الخلوة بالأجنبية أحصن للنفس، وأنفى للريبة، وأبعد للتهمة، وهذه حقيقة ظاهرة للعيان فلا يجهلها إلا الجاهلون، ولا يجحده إلا الأفاكون السادرون في الخطيئة والغواية والفسق - حقيقة الحيلولة دون الخلوة المريبة بين الذكر والأنثى - فهما ما يلبثان أن يختليا مرات مكرورة حتى يختلج في نفسيهما طارق الفتنة المنبعثة، ووخز الغريزة المشبوبة الحرّى.

إنها حقيقة نبَّه إليها الإسلام أشدَّ تنبيه، صرفا للفتنة، وصونا للهمم أن تلين، ودرءا للفحات الشهوة أن تستفحل وتستعر - حقيقة قد غفل عنها صانعو الحضارة المادية الحديثة الذين غرروا بالمجتمعات أشنع تغرير فانتكسوا بها إلى الحضيض من التهتك والتفكك والإباحية.

قوله: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا} ذلك تكرار للنهي عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بمختلف وجوه الإذاية - ثم نهى سبحانه عن نكاح أزواجه من بعده، فزوجاته صلى الله عليه وسلم أمهات للمسلمين في حياته وبعد مماته - وهذه من خصوصياته صلى الله عليه وسلم - فقد خصَّه الله بجملة أحكام لم يشاركه فيها أحد، تنبيها لرشفه المميز، وعلو منزلته الفضلى - وليت شعري هل لامرئ فيه مسكة من عقل أو بقية من طبع سليم يجترئ على مجرد الرغبة في واحدة من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهن الأمهات الفضليات لسائر المؤمنين في الدنيا والآخرة؟!

قوله: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} الإشارة إلى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذلك بأي وجه من وجوه الإيذاء من القول أو الفعل - وكذلك نكاح أزواجه من بعده فإن ذلك جُرم عظيم وهو من أكبر الكبائر.

٥٤ - (إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

قوله: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} ذلك وعيد من الله لمن يقترف الخطايا في السر والعلن ولمن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: لأتزوجن زوجته بعد مماته - وهي مقالة سوء لا يجترئ على النطق بها إلا ظلوم جهول - والله عليم بذلك كله لا يخفى عليه منه شيء ويستوي عنده الظاهر والباطن ٨٣

٥٥ - (لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)
قوله تعالى: {لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}.
لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية - أي لا إثم ولا حرج على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم في المذكورين في الآية وهم الآباء والأبناء وأبناؤهم والنساء المؤمنات وما ملكت أيمانهن.
واختلف العلماء في الذي نفى عنه الجناح - فقد قيل: الجلابيب أي لا حرج على الناس أن يضعن جلابيبهن عند هؤلاء المذكورين في الآية.
وقيل: الاحتجاب، فقد رخَّص لهن أن لا يحتجبن، وهذا هو الأولى بالصواب، لأن هذه الآية عقيب آية الحجاب، فيكون المعنى لا إثم على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين في إذنهن للمذكورين في الآية وترك الحجاب عندهم.
أما لِمَ لَمْ يذكر في الآية العم والخال، فسببه أنهما يقومان مقام الأبوين وقد جاءت تسمية العم أبا، إذْ قال الله سبحانه: {وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق} وعلوم أن إسماعيل عم يعقوب - وقيل: كره الاحتجاب عنهما، لأنهما يصفانها لأبنائهما، وأبناؤهما غير محارم.
قوله: {وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} بعد أن رخّص الله للنساء في رفع الحجاب عند الرجال المحارم أمرهن بالتقوى ليخفن الله فلا يتجاوزن ما حدّه لهن، ولا يتركن الاحتجاب عن الأجانب من الرجال، وعليهن أن يطعن الله، ويلتزمن أوامره وشرعه، فإنه سبحانه رقيب شهيد مطلع على السر والعلن ولا تخفى عليه الخوافي ٨٤
٥٦ - (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)
قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.
يُشرّف اللهُ في هذه الآية رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ويجعل له من بالغ التكريم والتعظيم ما لم يجعل لأحد سواه في العالمين، إذْ يصلي عليه الرب بما يفيض عليه من واسع رحمته - وكذلك الملائكة يصلون عليه بدوام الدعاء - وهذه غاية التشريف من الله لعبده المصطفى صلى الله عليه وسلم.
أما سبب نزول الآية فقد ذكر أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: قد عرفنا السلام عليك مكيف الصلاة عليك فنزلت: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} الآية ٨٥
والصلاة من الله على رسوله، هي ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه معناها الدعاء له وقيل: صلاة الله عليه معناها الرحمة، وصلاة الملائكة، الاستغفار - على أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض في العمر بغير خلاف.
أما الصلاة عليه في الصلاة فقد قال الشافعي: إنها فرض، فمن تركها لم تصح صلاته، وقال أكثر العلماء: إنها في الصلاة سنة - وقيل: تجب الصلاة على رسول الله كلما ذكر اسمه في مجلس - وبذلك يتكرر وجوب الصلاة عليه بتكرر ذكره صلى الله عليه وسلم - كما في آية السجدة، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره - والأولى بالصواب أن يُصلى عليه عند كل ذكر على سبيل الاحتياط.
وقد وردت أخبار كثيرة في كيفية الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم - منها ما رواه البخاري عن كعب بن عجرة قال: قيل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة؟ قال: " قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد - اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ".
وفي فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج الإمام احمد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال: " من صلى عليّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي " وأخرج الإمام أحمد أيضا عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحطَّ عنه عشر خطيئات ".

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رغمَ أنفُ رجل ذكرتُ عنده فلن يصل عليّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهرُ رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة ".

وروى رزين بن معاوية في كتابه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الدعاء موقوف بسن السماء والأرض لا يصعد حتى يُصلى عليّ " ثم قال: " صلوا علي أول الدعاء وآخره ووسطه ".

ويستحب الإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وليلة الجمعة - فقد روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أفضل أيامكم يوم الجمعة في خلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي " قالوا: يا رسول الله وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ قال: " إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ".

ولا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة - وهو قول الجمهور من العلماء؛ لأن ذلك شعارا للأنبياء كلما ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم - فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه وسلم، وقال علي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا يصلى على غير الأنبياء إلا أهل الأهواء والبدع فلا يقتدى بهم.

وقال الإمام النووي: إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقول: صلى الله عليه فقط - ولا عليه السلام فقط - وهذا مستفاد من قوله تعالى في الآية: {صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} - ٨٦

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا}.

ذلك تهديد من الله ووعيد للمجرمين من الناس الذين يؤذون الله بالكفر به ووصفه بما لا يليق به، كنسبة الشريك أو الولد أو الصاحبة إليه.

ومن إيذائه سبحانه، مخالفة أوامره وارتكاب زواجره ونواهيه، ومجانبة شرعه ومنهجه للبشرية - فإن مجانبة شرع الله والإصرار الغاشم على مخالفة الإسلام واجتناب تعاليمه وأحكامه وتصوراته واستبدال ذلك كله بغيره من ملل الكفر والجحود والإباحية والإلحاد – كل ذلك إيذاء لله سبحانه وإعلان صريح للحرب عليه - وهذه غاية الاجتراء الكنود والتوقّح البشع الذي يتلبس به عصاة البشرية وفسّاقها، وهم يولون جامحين مدبرين عن دين الإسلام ثم يكيدون له بالغ الكيد، ويمكرون به وبأهله في الليل والنهار غاية المكر.

وكذلك يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل وجوه الأذية من القول أو الفعل - فقد أذوه بالفعل، إذ كسروا رباعيته وشجعوا وجهه في أحد، وفي مكة ألقوا سلى الناقة على ظهره وهو ساجد.

وأما الطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقوال فذلك كثير ومذهل وشنيع والحديث عنه تفصيلا يطول - فلقد مَرَدَ الظالمون في بدايتهم الأولى على التقوّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، زورا بأنه: ساحر، كاهن، كذاب، وأنه مجنون - وهي افتراءات سقيمة ومكشوفة لفرط سذاجتها ووضوح كذبها فهي بذلك لا تستعصي على استخفاف المستخفين واستسخارهم.

لكن الظالمين في الأزمنة المتعاقبة قد انتحوا مناحي أشد براعة في الخداع والتخريص، إذ غالوا في الطعن في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سيرته العطرة الفضلى - فقد افتروا عليه بمختلف المطاعن المكذوبة والأباطيل المقبوحة ما يكشف عن مدى الكراهية المركومة التي تستقرّ في قلوب الظالمين في كل زمان.

لقد افترى الأفاكون والدجاجلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واصطنعوا من الأكاذيب والشبهات والترهات ما يشير إلى أنهم موغلون في الضلالة والجهالة - وأنهم مستغرقون في الاضطغان وهوان العقول - وهم ما فتئوا سادرين في ضلالهم وغيهم طيلة حياتهم

حتى يموتوا بغيظهم من غير أن ينالوا من شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سمو منزلته أي منال - ولا تزداد ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرط الكيد من الظالمين الحاقدين وافترائهم عليه إلا رسوخا في أعماق الزمن، واستقرارا في قلوب المسلمين حيثما كانوا.

وهؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله قد {لعنهم الله في الدنيا والآخرة} اللعن، معناه الطرد والإبعاد من الخير ٨٧ - لقد أبعد الله هؤلاء الظالمين الخاسرين من رحمته، وحجب عنهم كل ظواهر الخير والفضل ليكونوا مع التاعسين الأشقياء في الدنيا والآخرة.

قوله: {وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} إنهم صائرون إلى ما أعده الله لهم من العذاب الوجيع في النار وبئس القرار ٨٨.

٥٨ - (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}.

ذلك تنديد بالغ بالذين يرمون السوء والأذية للمسلمين لينتقصوا من أقدارهم وليلحقوا بهم العيوب والنقائص ويبهتونهم بالأكاذيب، ويفتروا عليهم من الأقوال ما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم وسمعتهم أو ينسبوا إليهم ما هم منه برئاء مما لم يفعلوه.

وشِرارُ البرية من هذا الصنف كثيرون موجودون في كل زمان ومكان - أولئك الذين يعيبون على المسلمين بمقالة السوء ليثيروا فيهم الفتنة وليستفزوهم أيما استفزاز وليقضوهم قضّا - وأعتى الفساق من هذا الصنف من الناس، أولئك الذي ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بمحقرات الصفات ويفترون عليهم من باطل الأقوال ما يصِمُ هؤلاء المفترين بالفسق والضلال - فإنه لا يفتري على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطعن في أقدارهم ومقاماتهم الكريمة بالتجريح والهراء من القول إلا كذب أشر، أو مفتر أثيم وهو قوله: {فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} أي احتملوا زورا وكذبا وافتراء شنيعا، وسقطوا في الإثم الظاهر الذي يصير بهم إلى الخزي وسوء المصير.

٥٩ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً}

قيل في سبب نزول الآية أن المدينة كانت ضيقة المنازل وكان النساء إذا كان الليل خرجوا لقضاء الحاجة وكان فُسّاق من فُسّاق المدينة يخرجون فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا هذه حرة فتركوها، وإذا رأوا المرأة بغير قناع قالوا هذه أمة، فكانوا يراودونها - فنزلت هذه الآية ٨٩ وفيها يأمر الله نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ونساء المؤمنين إذا خرجن لقضاء الحاجة أن {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ} والجلابيب جمع جلباب وهو الثوب الكبير الساتر الذي تغطي به المرأة بدنها بدءا بأعلى خمار الرأس حتى أسفل الكعبين فلا يبدو منها غير عينيها وبعض وجهها - وذلك كيلا يتحرَّش بهن الفساق في الطريق فيسمعن منهم فاحش الكلام - وهو قوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ} والإشارة عائدة إلى إدناء الجلابيب - وهو مبتدأ، وخبره {أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ} يعني أقرب أن يعرفن أنهن حرائر فيتميزن عن الإماء {فَلا يُؤْذَيْنَ} أي لا يؤذيهن الفساق والمنافقون وأهل الريبة - فقد كانت الأمة إذا مرت تناولها المنافقون بالإذاية والفاحش من الكلام - فنهى الحرائر أن يشتبهن بالإماء كيلا يتعرضن لمثل تلك الإذاية من الفساق والمريبين.

قوله: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} ذلك عَفْوٌ من الله عنهن ورحمة منه بهن لما سلف منهن؛ إذْ كُنّ لا يدنين على أنفسهن الجلابيب - على أن النساء المسلمات في أحوالهن المعتادة وهن خارج البيت أو أمام الأجانب مأمورات بإدناء الجلابيب عليهن ليسترن بذلك كل أجسادهن باستثناء الوجه والكفين استدلالا بقوله تعالى: {ولا يُبدين زينتهن إلا ما ظهر منها} والمراد بالمستثنى {إلا ما ظهر منها} الوجه والكفان، وهو قول أكثر العلماء.

٦٠ - (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا)

قوله: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} ذلك تهديد ووعيد لفريق من شرار الناس الذين يشيعون الفتنة والفوضى ويعيثون في الأرض الفساد وهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويخفون في أنفسهم الكراهية للإسلام ويتربصون بالمسلمين الدوائر - ثم الذين في قلوبهم مرض - فقد قيل: إنهم أنفسهم المنافقون - ومرضُ القلوب خسيسة ذميمة من النفاق تستقر في أطواء الخاسرين الذين يستسرون الكفر ويظهرون للناس الإيمان وحسن الحديث.

وقيل: هم أهل الفواحش والزنا، والذين في قلوبهم حب الفجور - ثم المرجفون - من الإرجاف وهو التماسُ الفتنة أو إشاعة الكذب والباطل ليغتم به الناس ويستيئسوا - والمراد بالمرجفين، قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يغمهم ويسوؤهم من عدوهم فيقولون إذا خرجت سرايا المسلمين للجهاد: إنهم قد قتلوا جميعا - أو يقولون للمسلمين: قد أتاكم العدو - وغير ذلك من الأخبار الكاذبة - وذلك هو الإرجاف فهو حرام لما فيه من إيذاء للمسلمين وإثارة للفتنة والاضطراب والفزع بينهم - وبذلك فإن المرجفين فريق مريب مفسد من أهل النفاق والخور، يرمون إضعاف المسلمين وتداعي صفهم وانهيار مجتمعهم بإثارة البلبلة والهلع والارتباك بينهم - فقد ندد الله بهذا الصنف من الناس وتوعدهم بالعقوبة في الدنيا والآخرة - وهو قوله: {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} أي لنسلطنّك عليهم ولنحرشنّك بهم فتقتلهم {ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً} {قليلا}، صفة لمصدر محذوف، أي لا يسكنون معك في المدينة إلا مدة يسيرة حتى تخرجهم منها: {مّلعونين}

٦١ - (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا)

{مّلعونين} منصوب على الحال من واو {لا يُجَاوِرُونَكَ} ٩٠ يعن مطرودين منفيين.

قوله: {مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً} أي حيثما وجدوا من الأرض أو أدركوا أُخذوا وقتلوا تقتيلا بكفرهم وإيذائهم المسلمين - وقيل: هذا دعاء عليهم وهو أن يؤخذوا ويُقتلوا تقتيلا.

٦٢ - (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا)

قوله: {سُنّة الله في الذين خلوا من قبل} {سنة} منصوب على المصدر - أي سنَّ الله ذلك في المرجفين من الأمم السابقة، الذين ظهر كيدهم للنبيين والمؤمنين، أن يؤاخذوا ويُقتلوا.

قوله: {ولَن تجد لسنّة الله تبديلا} أي لا مُبدل لسنة الله في هؤلاء المرجفين والمنافقين إذا أصروا على إرجافهم وكيدهم وخيانتهم لله ورسوله والمؤمنين - وسنة الله فيهم تسليطه المؤمنين عليهم ليقهروهم ويذلوهم ٩١.

٦٣ - (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)

قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}.

يخبر الله عما يقوله المرجفون والمرتابون وأهل النفاق الذي في قلوبهم مرض، إذْ يسألون عن قيام الساعة، على سبيل الاستبعاد والتكذيب موهمين أنها لا تقوم {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} أي لا يعلم الساعة وقيامها وأخبارها إلا الله - فهو سبحانه وحده عنده علم الساعة، فإليه وحده يرد علمها.

قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} يعني وما أشعرك يا محمد أن الساعة قد دنا وقت مجيئها - وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار إلى السبابة والوسطى.

٦٤ - (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ} الكافرون بالحق، الجاحدون لنعمه ممقوتون، وقد حاق بهم اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمته وفضله {وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} فهم صائرون لا محالة إلى العذاب الوجيع وهو السعير بمعنى النار المتوقدة المتسعرة التي تصطلي بها جلود المجرمين المكذبين.

٦٥ - (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)

قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي ماكثين في النار المستعرة المتأججة غير مبارحين ولا مفارقين بل لابثين باقين {لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا} أي ليس من قريب ولا مغيث ولا معين يستنقذهم من النار.

٦٦ - (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا)

قوله: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} {يوم} منصوب على الظرفية.

وقيل: منصوب بفعل مقدر وهو اذكر - والتقليب يراد به هنا تغيير ألوان الخاسرين الذين يَردون النار فيصلونها إصلاءً، فإن ألوانهم تتغير بلفح النار لتسودّ مرة وتخضر مرة أخرى - وقيل: المراد تقلبها تارة على جهة وتارة على جهة أخرى - وهذا ضرب من ضروب العذاب المرير والتنكيل الفظيع الذي يذوقه المجرمون الخاسرون وهم في السعير - وحينئذ يقولون وهم في هذه الحالة من الشدة والهوان والاستيئاس {يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا} يتمنون لو أطاعوا الله فيما أمرهم به من إيمان برسوله، وأطاعوا رسول الله فيما جاءهم به من عند الله لينجوا كما نجا المؤمنون.

٦٧ - (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا)

قوله: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا} يراد بالسادة والكبراء، والرؤساء في الكفر، والقادة في الضلال والباطل، أولئك الذين كانوا أئمة للمجرمين الخاسرين، إذ يقتدون بهم في الشرك والعصيان - وهو قوله: {فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا} أي اقتدينا بهم فأطعناهم فيما أمرونا به فأضلونا عن السبيل الحق وهو صراط الله المستقيم ودينه القويم، يقولون ذلك معتذرين وقد أتى عليهم اليأس المطبق، وأحاط بهم العذاب من كل مكان.

٦٨ - (رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

قوله: {رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} يدعون الله أن يعذب قادة الكفر والضلال مِثْلَيْ تعذيبهم - فالمِثْل الأول في مقابل ضلالهم أنفسهم، والمثل الثاني في مقابل إضلالهم لنا وإغوائهم إيانا.

قوله: {وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} أي العنهم أشد اللعن وأعظمه بسبب إغوائهم إيانا وبما اجتالونا عن محجتك المستقيمة البيضاء ٩٢.

ذلك بعض حال الكافرين الذين خسروا أنفسهم فباءوا بالارتكاس في جهنم ليذوقوا الوبال والهوان وليعضهم الندم الشديد، وتغشى قلوبهم الحسرة فيجأرون بالأنين والشكوى وهم في النار يصطرخون وينادون وليس لهم من شفيع ولا مجيب.

٦٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}

يحذِّر المؤمنين من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل يكرهه منهم كيلا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى عليه السلام، إذْ رموه بالعيب كذبا وزورا فبرأه الله من مقالتهم الكاذبة وافترائهم الظالم.

وفي ذلك روى البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، وكان موسى عليه السلام يتستَّر كثيرا ويخفي بدنه فقال قوم: هو آدر ٩٣ وأبرص أو به آفة فانطلق ذات يوم يغتسل في عين بأرض الشام وجعل ثيابه على صخرة ففرَّ الحجر بثيابه وأتبعه موسى عريانا يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر - يعني يا حجر - حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فنظروا إليه وهو من أحسنهم خلْقا وأعْدلهم صورة وليس به الذي قالوا، فهو قوله تبارك وتعالى {فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}.

قوله: {وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} أي ذا وجاهة ومنزلة عند الله فدفع عنه التهم والأباطيل كيلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة ٩٤.

٧٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} يأمر الله المؤمنين بتقواه وهو الخوف من بطشه وعظيم سلطانه، وما تقتضيه الخشية منه من طاعته والإذعان له بكامل الانقياد والاستسلام، وأن يقولوا: {قَوْلاً سَدِيدًا} من السداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل - والتسديد معناه التوفيق - واستد الشيء أي استقام ٩٥ فيأمر الله المؤمنين أن يقولوا من الكلام ما هو حق ونافع ومستقيم لا اعوجاج فيه ولا زيغ عن الحق - فإنهم إن فعلوا ذلك أصلح الله لهم حالهم وهو قوله: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}.

٧١ - (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} أي يهديكم للصلاح والاستقامة والتوفيق {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أي يستر الله عليكم ما اقترفتموه من السيئات والخطيئات.

قوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} أي من أطاع الله فيما أمر، وانتهى عما نهى عنه وزجر وأطاع رسوله الصادق الأمين فيما جاء به من ربه فقد ظفر بالنعيم المقيم ونجا من سوء العاقبة ومن المصير المهين.

٧٢ - (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

قوله: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

اختلف أهل التأويل في المراد بالأمانة على عدة أقوال، منها: أن الأمانة هي الفرائض التي افترضها الله على العباد - وقيل: المراد بذلك أمانات الناس - وقيل: المراد بذلك الأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع - وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن الأمانة يراد بها جميع معاني الأمانات في الدين والدنيا - سواء في ذلك الطاعات والعبادات وسائر الفرائض الدينية والأحكام الشرعية من صلاة، وزكاة، وصيام وحج، وجهاد إلى غير ذلك من أمور الدين والعبادة، وكل ما أنيط بالمسلم من واجبات وحقوق للآخرين كالديون والودائع وصلة الأرحام والبر بأولي الجوار والقربى - إلى غير ذلك من وجوه الأمانات التي يناط بالمسلم رعيها وصونها، كحفظ الأوطان ودرء الشر والأذى عن المسلمين في أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وكراماتهم.

ومن جملة الأمانات حفظ الضروريات الخمس أولها: العقل - وهو لدى صاحبه أمانة - فما ينبغي أن يفرط فيه بتجهيل أو تغرير أو تخدير بمسكر.

وثانيها: النسل، أو الذرية - وهم أمانات عظام يناط بالوالدين رعيهم وتنشئتهم على الحق والدين وحسن الخلق.

وثالثهما: النفس - وهي أمانة أساسية عظمى تنشر في الإنسان الحياة والحركة وبغيرها يصير الإنسان خامدا مع الخامدين - فما ينبغي الاعتداء على النفس - بإزهاق أو إضرار - قال سبحانه: {ولا تقتلوا أنفسكم}.

ورابعها: المال - وهو أمانة في عنق المرء ليس له أن يُفرّط فيه بل يُنمّيه بالأسباب الحلال ثم يصرفه وينفقه في وجوهه المشروعة، وإلا كان مفرِّطا ظلوما.

وخامسها: الدين - وهو جماع كل الخير، ويناط بالمسلم أن يرعاه ويحافظ عليه وأن يدرأ عنه كل ظواهر التشويه والتحريف والفتنة وما يُفترى عليه من الأباطيل.

وقوله: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ} أي عرض الله الأمانة - على اختلاف صورها ومعانيها وبالغ شأنها وجليل قدرها - على السماوات والأرض، فإن أدوها أثابهم الله جزيل الثواب وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك مشفقين ألا يقوموا بها قياما كاملا.

وقيل: إن الله عرض طاعته وفرائضه على السماوات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت خيرا - وإن ضيعت عوقبت - فأبت حملها إشفاقا ألا تقوم بما يجب عليها، ثم حملها الإنسان إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بربه.
٧٣ - (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)
قوله: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}.
أي حمل الإنسان الأمانة وكان مقتضى حمله لها أن يكون الناس صنفين - فصنف المنافقين والمنافقات الذين يستسرون الكفر ويظهرون الإيمان، ثم المشركون والمشركات الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى فكفروا بالله وكذبوا رسله وأولئك يصار بهم إلى العذاب الذي أعده الله لهم جزاءً وفاقا.
ثم صنف المؤمنين والمؤمنات الذين أيقنوا أن الله حق فأطاعوه وأذعنوا له إذعانا وأولئك يتوب الله عليهم {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} الله غفار للذنوب، إذ يسترها على المذنبين والمسيئين الذين يتوبون إليه متابا - وهو سبحانه رحيم بهم، إذ يكتب لهم النجاة من العذاب والفوز بالجنة ٩٦.

٣٤ سورة سبأ:

سورة سبأ:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها، باستثناء آية واحدة اختلفوا في كونها مكية أو مدنية وهي {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} والسورة مبدوءة بحمد الله، مالك السماوات والأرض، فهو سبحانه يحمده الحامدون في الدنيا والآخرة، يحمده المؤمنون من الخلائق أحياء وغير أحياء، ويحمده المؤمنون من الإنس والجن والملائكة، وتحمده السماوات والأرض بما حوته من أجرام هائلة وكثيرة ومختلفة.
وفي السورة تأكيد بالغ على قيام الساعة - وهذه حقيقة كونية هائلة وقد أمر الله نبيه الكريم أن يقسم بجلاب الله على وقوعها وأنها كائنة إذا جاء ميعادها، وهو قوله سبحانه: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}.
وفي السورة إخبار عن بعض النبيين السابقين وعن ضلالات الأمم الغابرة - وذلكم نبي الله دود آتاه الله من لدنه فضلا إذ سخّر له الجبال والطير مُسبّحة معه ومؤوِّبة تأويبا، وكذلك الحديد قد ألانه الله له ليصنع منه الدروع - وكذلك سليمان عليه الصلاة والسلام وهو نبي عظيم من أنبياء إسرائيل، سخر الله الريح لتحمل بساطه وعلى متنه الراكبون والأمتعة الثقال.
وفي السورة بيان بقصة سبأ، وهم ملوك اليمن وأهلها ومنهم التابعة فقد آتاهم الله سعة في الرزق وطيبا في العيش حتى إذا عصوا وجحدوا فضل ربهم أرسل الله عليهم سيلا جارفا فتفرقوا في البلاد شذَر مذَر.
وفي السورة بيان بأحوال المجرمين الخاسرين وهم في العرصات يوم القيامة، إذ يتلاومون فيما بينهم فيوبخ بعضهم بعضا، وقد أنحى كل فريق باللوائم على الفريق الآخر بما ينسبهُ إليه من تسبب في الهلكة والخسران - إلى غير ذلك من معاني التذكير والتنذير والترهيب.
١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}.
الله المحمود في الكون كله وله الثناء الكامل، والشكر المطلق - فهو المنعم بأنعمه وآلائه المستفيضة، وهو مالك السماوات والأرض

وما فيهن وما بينهن وله ملكوت كل شيء، وهو سبحانه المحمود في الآخرة مثلما هو محمود في الدنيا {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} الله حكيم في أقواله وأفعاله وهو الحكيم في تدبير أمور خلقه {الخبير} بما يقولون أو يفعلون - العليم بما يُظهرون وما يُسرّون - وهو سبحانه أعلم بما يصلح شأنهم وبما تصلُح عليه أحوالهم في هذه الدنيا ليسعدوا في حياتهم ثم يُصار بهم إلى النجاة في الآخرة.

٢ - (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

قوله: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ} يعلم الله ما يدخل في الأرض من أمطار وأرزاق وصواعق وغير ذلك من دفائن الأرض كالمعادن، فقد جعل الله الأرض كفاتا للأشياء من الأحياء والأموات.

قوله: {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} أي يعلم الله ما يخرج من الأرض من نبات وما يتفجر منها من براكين.

قوله: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} أي يعلم الله ما يصعد في السماء من الملائكة وأعمال العباد، فالله عليم بذلك كله ولا يغيب عن علمه من ذلك شيء.

قوله: {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} الله رحيم بعباده المؤمنين غفور لذنوب التائبين، إذ يستر عليها بواسع فضله وإحسانه.

٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}.

جحد المشركون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا بما جاءهم به من خبر الساعة فتولوا مدبرين مكابرين، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يؤكد لهم حالفا يمينه الغليظ بالله أن الساعة آتية لا ريب فيها وهو قوله سبحانه: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} وهذا قسم كريم من رسول صدوق كريم، سيد الأولين والآخرين، وإمام المتقين في الدنيا والآخرة، وفي ذلك التأكيد الجازم ما يحمل الذهن والقلب على التصديق والاستيقان دون تردد.

قوله: {عَالِمِ الْغَيْبِ} {عالم}، صفة لربي أو بدل منه ١ أي أن الإخبار عن حقيقة الساعة وأنها آتية لا محالة، جاء من عند الله علام الغيوب وهو سبحانه {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ} الله محيط علمه بكل شيء وهو سبحانه لا يغيب عن علمه زنة نملة صغيرة تسبح في السماوات أو تدب في الأرض.

قوله: {وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ} أي لا يغيب عن علم الله ما كانت زنته النملة الصغيرة أو دونها أو أكبر منها {إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} أيما شيء مهما صغرت زنته إلا هو مسطور علمه في اللوح المحفوظ.

٤ - (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

قوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي لتأتينكم ليثيب الله الذين آمنوا به وبرسوله والتزموا شرعه ودينه وعملوا بما أمر وانتهوا عما زجر {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} أي جزاؤهم من الله الستر على ذنوبهم وسيئاتهم وأن يرزقهم السعادة والهناءة وطيب العيش في الجنة.

٥ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

قوله: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} في مقابلة الجزاء الكريم للذين آمنوا وعملوا الصالحات لسوف يبوء الظالمون الخاسرون الذين سعوا

في الصد عن دين الله وتكذيب رسوله وآياته {مُعَاجِزِينَ} ضانين أن الله ليس بقادر عليهم - لسوف يبوء هؤلاء بالعذاب الأليم وهو قوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} والرجز معناه العذاب - ويأتي بمعنى، الشرك وعبادة الأوثان والقَذَر ٢

٦ - (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

قوله: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق} الذي، مفعوله به أول - و {الحق} مفعول به ثان - والمراد بالذين أوتوا العلم في الآية مَسْلَمَة أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله - وقيل: المراد بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي ويعلم هؤلاء أن الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق - والمراد به القرآن، فإنه الحق وهو منزل من عند الله الحق {وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} يوقن هؤلاء أن القرآن يهدي من يتبعه إلى طريق الصواب وهو طريق الله، العزيز أي القوي الذي لا يغلبه غالب، والمحمود في خلقه - بما خولهم من الأيادي وجزيل النعم ٣.

٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ}.

هذا إخبار عن مقالة الكافرين الذين كذبوا بالساعة، إذ قالوا {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} يقولون على سبيل التهكم والاستسخار والهزء: إذا تقطعتم وتفرقتم في الأرض كل تفريق {إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي مبعوثون أحياء من بعد الموت وقد أتى عليكم البلى وصرتم ترابا.

٨ - (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ)

قوله: {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ} يتساءل الكافرون في سخرية وتكذيب: هذا الذي يعدنا بالبعث بعد الموت والتقطع في الأرض والبلى، افترى هذا القول من عنده فاختلق على الله الكذب أم أنه مجنون فيتكلم - بما لا يعلم - هكذا يقول الكافرون الخاسرون وهم موقنون في قرارة أنفسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كذب البتة بل كان اسمه فيهم الصادق الأمين، وذلكم عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشد، والمبغض الألدّ لدين الله، أبو جهل؛ إذ أنطقته سجية العرب فقال لأحد المشركين: ويحك والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا.

قوله: {بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ} ذلك ردٌّ لمقالة المكذبين الخاسرين ودحض لما ذهبوا إليه من تكذيب بالساعة واستسخار برسول الله صلى الله عليه وسلم - فيبين الله للناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ورشيد ومؤتمن وأن المكذبين بالآخرة {فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ} أي صائرون إلى العذاب في جهنم وهم اليوم تائهون عن الحق سادرون في الجهالة والغي والبعد عن الصواب ٤

٩ - (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}.

ذلك توبيخ من الله للمكذبين بيوم القيامة الذين يسخرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الله فيهم مبكتا مُقرّعا: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} يعني أفلا ينظر هؤلاء الجاحدون إلى ما حولهم من السماوات والأرض، فكل ذلك

مملوك لله، وهم حيثما كانوا فإن ملكوت الله محيط بهم من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وإنْ يشأ الله {نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ} الخسف الذهاب في الأرض ٥ أي يعذبهم بالخسف ليغوروا في الأرض {أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ} أي إن يشأ الله يعذبهم بإسقاط السماء عليهم قطعا فيدمرهم تدميرا.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} الإشارة عائدة إلى إسقاط السماوات والأرض عليهم وقدرة الله على إهلاكهم بالذهاب في الأرض وإسقاط السماء عليهم قطعا، فإن ذلك كله لدلالة ظاهرة لكل عبد مؤمن راجع إلى الله بقلبه وجوارحه - وقد خصَّ العبد المنيب؛ لأنه أجدر أن ينتفع بالذكرى.

١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

لقد منَّ الله على نبيه داود عليه الصلاة والسلام بفضل منه - واختلفوا في المراد بهذا الفضل على عدة أقوال، منها: أن المراد به النبوة - وقيل: الملك والتمكين في الأرض - وقيل: تسخير الجبال والناس - وقيل: إلانة الحديد - وقيل: حُسن الصوت - فكان إذا سبَّح سبَّحَتْ معه الجبال الرواسي - وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال صلى الله عليه وسلم: " لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود ".

قوله: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} {أَوِّبِي}، بتشديد الواو، من التأويب وهو التسبيح والترجيع؛ أي قال الله للجبال: رجِّعي معه مسبِّحة.

قوله: {وَالطَّيْرَ} معطوف على {فَضْلاً} أي آتيناه فضلا وتسبيح الطير - وقيل: منصوب بفعل مضمر - أي وسخرنا له الطير.

قوله: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} أي جعل الله له الحديد ليِّنا طريًّا حتى كان في يده كالطين فيصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة.

١١ - (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ} {أَنِ} مفسرة بمعنى أي و {سَابِغَاتٍ} جمع سابغة وهي الدرع الواسعة ٦.

والمعنى: اعمل دروعا من الحديد اللين {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} {السَّرْدِ}، معناه الثقب، والمسرودة المثقوبة ٧ والمعنى في قول المفسرين: لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير منها.

قوله: {وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} المخاطب داود وأهله - والمعنى: اعملوا بطاعة الله فإن الله رقيب عليكم، خبير بأعمالكم ٨.

١٢ - (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}.

تقرأ سليمان بالنصب والرفع - فبالنصب، بفعل مقدر وتقديره: وسخرنا لسليمان الريح - وتقرأ بالرفع على الابتداء - والمعنى: له تسخيرُ الريح ٩ وعامة القراء على نصب سليمان - فهذه الآية يعطف الله فيها بذكر سليمان وما أوتي من معجزة وتكريم على ما أوتي أبوه داود عليهما الصلاة والسلام وهو قوله: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ} أي وسخرنا الريح لسليمان تحمل بساطه {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} أي تغدو الريح مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر - قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق إلى اصطخر ويذهب رائحا من اصطخر فيبيت بكابل وبين دمشق واصطخر مسيرة شهر كامل للمسرع، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع - وبساط سليمان عبارة عن مَرْكب

من خشب تركب فيه الجن والإنس، وترفعه الشياطين المسخرة لسليمان - فإذا ارتفع المركب أتت الريح الرخاء فسارت به وساروا معه إلى حيث يريد.

قوله: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} {الْقِطْرِ} معناه النحاس المذاب ١٠ أي أسأل الله له النحاس كما ألان الحديد لأبيه داود فكان كما ينبع الماء من العين - ولذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه، وذلك كقوله: {إني أراني أعصر خمرا} والمعنى: أذبنا له عين النحاس وأخرجناها له.

قوله: {وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ} يعني من الجن من سخرنا لسليمان فيطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون لنهيه ويعملون بين يديه بأمر الله وتسخيره – ما يشاء من البنايات وغيرها.

قوله: {وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} أي من يعْدِلْ من الجن {عَنْ أَمْرِنَا} أي عن طاعة سليمان نصله النار المستعرة والحريق المتوقد اللاهب وذلك في الآخرة وهو قول أكثر المفسرين - وقيل: المراد بذلك عذاب الدنيا.

١٣ - (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

قوله: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ} سخر الله الجن لسليمان فكان يأمرهم أن يصنعوا له ما يشاء من محاريب، جمع محراب - والمراد بالمحاريب بنيان دون القصور - وقيل: المساجد - وقيل: المساكن العالية المشرفة - وأما التماثيل فهي الصور من النحاس والزجاج وغيرهما.

ولا ينبغي الاستدلال بهذه الآية على إباحة التصوير - ولئن كان ذلك مباحا في ذلك الزمان فقد نسخ بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم - وقد صح النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم عن التصوير وعن اتخاذ الصور، وتوعد من عمل ذلك أو اتخذه بعقاب الله - فقد لعن صلى الله عليه وسلم - المصورين بقوله: " إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم " وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون " وذلك يدل على تحريم الصور واتخاذ الصور.

ويستثنى من ذلك لعب الصغار وما كان من الصور للامتهان - أو ما يصنع من الحلاوة والعجين مما لا بقاء له فقد رُخّص في ذلك.

وأما الجفان، فهي جمع جفنة، وهي كالقصعة ١١ أي ينحتون لسليمان ما يشاء من الأحواض كالجواب، وهي جمع جابية - والجابية تعني الحوض الذي يُجبى فيه الماء للإبل ١٢

قوله: {وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} أي ينحتون له من الجبال قدورا ثابتات في أماكنها لا تتحرك لضخامتها - وقيل: مصنوعة من النحاس.

قوله: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} {شُكْرًا}، منصوب على أنه مفعول له ١٣ والشكر معناه الاعتراف بالنعمة للمنعم واستعمالها (النعمة) في طاعة المنعم - وعكس ذلك الكفران وهو استعمال النعمة في معصية المنعم - والله جل جلاله أجدر أن يشكره العباد بقلوبهم وألسنتهم وأفعالهم فهو سبحانه المتفضّل المنّان ذو النعم الجليلة والجزيلة - وقد أمر الله نبيه داود وآله أن يشكروا الله على ما أنعم عليهم في الدين والدنيا من جزيل الأيادي والنعم.

قوله: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} ذلك إخبار من الله بأن قليلا من عباده مخلصون له في الطاعة وفي توحيده وعبادته - وقليل منهم الشاكرون لأنعُمه وما امتنَّ به عليهم من جزيل الأيادي - قليل من الناس يُقرّون لله بكامل الألوهية والربوبية والحاكمية فيمتثلون لأوامره وزواجره ويذعنون له بتمام الخضوع والطاعة ١٤

١٤ - (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}.

لما حكم الله بالموت على نبيه سليما وأنفذه فيه لم تعلم الجن بموته بل ظلوا مسخرين في الأعمال الشاقة كالبنايات وغيرها - ولما أدركوا أنه قد مات كفّوا عن العمل.

قوله: {مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ} أي ما دلّ الجن على موت سليمان إلا دابة الأرض وهي الأَرَضَة، بفتح الهمزة والراء - والمراد بها دويبة تأكل الخشب ونحوه وتسمى أيضا سوسة الخشب.

قوله: {تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ} {تَأْكُلُ}، جملة فعلية من موضع نصب على الحال أو مستأنفة ١٥ والمنسأة، العصا، اسم آلة - من نسأت البعير إذا طردته؛ لأنها يطرد بها - أي لم يُعلمهم بموت سليمان غير الأرضية؛ إذ أكلتْ منسأته التي كان متوكئا عليها فسقط على الأرض - وبذلك استبان لهم أنه ميت وهو قوله: {فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} أي لما سقط سليمان على الأرض وعلمت الجن بعد التباس الأمر عليهم أن سليمان قد مات تبين لهم أنهم لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون الناس بذلك، ولو كانوا يعلمون الغيب فعلموا بموت سليمان لما لبثوا بعد موته في الأعمال الشاقة ١٦.

١٥ - (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ}.

يبين الله في هذه الآية حال الذين يكفرون بنعمته منبها لقريش ومحذرا إياهم مما جرى لمن كفر بأنعم الله من الأمم السابقة فقال: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} وسبأ هم ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان من جملتهم كذلك - وقد كانوا في رخاء وسعة من العيش الراغد والرزق الواسع الكريم - وقد بعث الله لهم رسله مبشرين ومنذرين، يأمرونهم بشكر الله على ما رزقهم وامتنَّ به عليهم من الخيرات والثمرات وواسع الرزق، فأعرضوا عما أمرتهم به رسلهم فعاقبهم الله بإرسال السيل عليهم - وهو قوله: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} أي كان في مأواهم أو محل سكاهم، وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا يقيمون فيها باليمن {آيَةٌ} أي علامة دالة على عظمة الله وعلى قدرته البالغة وسلطانه العظيم - أو أن قصتهم قد جعلت لهم آية؛ إذ أعرضوا عن شكر الله فسلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى الجحود وغمط ١٧ النعمة؛ أي جحدها وكفرانها.

قوله: {جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} {جَنَّتَانِ}، مرفوعة على البدل من {آية} وقيل: خبر لمبتدأ مضمر ١٨ والمراد بالجنتين، جماعتان من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله، وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامّها كأنه جنة واحدة - وقيل: المراد بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، والمعنى الأول أظهر.

قوله: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} حكاية لما قالته لهم رسل الله وهو أن يأكلوا مما رزقهم الله فيشكروه على ما أنعم الله به عليهم من مختلف الخيرات.

قوله: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} أي هذه بلدتكم التي فيها رزقكم، بلدة طيبة لطيفة المسكن، مستطابة العيش والمقام، جيدة الماء والهواء، ليس فيها من عاهة ولا سقم ولا هامة ١٩ - وفوق ذلك كله أن الله غفور يستر عليكم الذنوب والسيئات فاعبدوه وحده واشكروه على ما أفاض عليكم من النعم.

١٦ - (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

قوله: {فأعرضوا} عن شكر الله؛ إذ جحدوا نعمته وكذبوا رسله وهذا أشد الكفران {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} أي السيل العرم - وذلك من باب إضافة الموصوف لصفته في الأصل؛ إذ الأصل العرم - و {العرم} معناه الشديد، من العرامة وهي الشراسة والصعوبة - وعرم

فلان فهو عارم وعرم - وقيل: العرم اسم للوادي الذي كان فيه الماء نفسه - وقيل: أرسلنا عليهم سيل المطر العرم أي الشديد ٢٠ فكثر الماء وملأ ما بين الجبلين وحمل الجنات وكثيرا من الناس ممن لم يمكنه الفرار - وهؤلاء هم الذين ضربت بهم العرب في المثل للفرقة فقالوا: تفرقوا أيدي سبأ.

قوله: {وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ} أي أذهبنا جنيتهم لمذكورتين بالسيل الشديد الجارف وآتيناهم بدلهما جنتين ذواتي {أُكُلٍ خَمْطٍ} الأكل: الثمر - والخمط: الحامض أو المرّ من كل شيء - وكل نبت أخذ طعاما من مرارة - والحمل القليل من كل شجر - وشجر كالسِّدر - وشجر قاتل - أو كل شجر لا شوك له - وثمر الأبرار ٢١

قوله: {وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} أثلٍ معطوف على أُكل - والأثل شجر يشبه الطرفاء أو هو الطرفاء - وأما السدر فهو شجر النبق.

١٧ - (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ)

قوله: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا} {ذَلِكَ} في موضع نصب مفعول ثان مقدم - والإشارة عائدة إلى ما ذكر من التبديل وما أجراه الله عليهم من تخريب بلادهم بالسيل الشديد وإغراق أكثرهم وتمزيقهم في البلاد شذر مذر وإبدالهم بالأشجار ذات الفواكه الطيبة المستلذة، الخمط والأثل والسِّدر، وسبب ذلك هو كفرهم بالله وإنكار نعمته - وهو قوله: {جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا} أي جزيناهم التمزيق والتفريق والقحوط بسبب تكذيبهم وجحودهم نعمة الله.

قوله: {وَهَلْ نُجَازِي إِلاّ الْكَفُورَ} {الْكَفُورَ}، مفعول به، أي هل نجازي مثل هذا الجزاء الشديد إلا المبالغ في الجحود والكفران - وما ينبغي أن يتوجه على ذلك إشكال بأن المؤمن قد يعاقب في العاجل - فإن ما يعاقب به المؤمن ليس بعقاب على الحقيقة بل هو تمحيص ٢٢

١٨ - (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}.

ذلك إخبار من الله عما أوتيه أهل سبأ من النعم في مساكنهم وإقامتهم ومتاجرهم وأسفارهم وما فعلوا بها من القرآن، وما حاق بهم بسبب ذلك من القلة والقحوط وذهاب النعمة والحرمان، وهو قوله: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} أي جعلنا بين سبأ وبين القرى التي بورك فيها بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه والخصب والرزق، وهي قرى الشام، وقيل: المراد بها قرى صنعاء - وبالأول قال أكثر المفسرين.

قوله: {قُرًى ظَاهِرَةً} أي متواصلة بقرب بعضها من بعض فيظهر لمن في بعضها مات في مقابلته من القرى الأخرى - وذلك لشدة القرب فيما بينها - فهي بذلك ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم فلا تخفي عليهم.

وقيل: ظاهرة مرتفعة وهي أشرف القرى - وقيل: ظاهرة بمعنى معروفة وذلك لحسنها ورعاية أهلها لمن يمر عليها.

قوله: {وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} أي جعلا هذه القرى على مقدار معلوم من السير حتى من سار قرية صباحا وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة - ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب فلا يحتاج بذلك إلى زاد ولا مبيت ولا يخاف من عدو ونحوه.

قوله: {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} وذلك أمر من الله على لسان أنبيائه - أي قلنا لهم سيروا في تلك القرى {لَيَالِيَ وَأَيَّامًا} أي متى شئتم من ليل أو نهار آمنين من كل مكروه، إذ لا خوف من عدو أو جوع أو عطش، وإنْ امتدت مدة سفركم.

١٩ - (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

قوله: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} {رَبَّنَا}، منصوب على النداء وهو قول أكثر المفسرين وأهل اللغة ٢٣ فقد بطروا النعمة وسئموا من طول العافية فطلبوا الكدّ والتعب وبعد الأسفار ليزداد نصبهم وشقاؤهم فيكون ما يجلبونه أشهى وأغلى - وذلك هو دأب البطرين

الفارهين الذين يملون النعمة وطول الرخاء والعافية فتجنح نفوسهم للشقاء والشظف بدلا من شكرهم لله على أنعمه وإفراده بالطاعة والعبادة.

قوله: {وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} وذلك بتعريض أنفسهم لعذاب الله وسخطه بسبب عصيانهم وتكذيبهم وجحدهم النعم؛ إذ بطروها وغمطوها.

قوله: {فَجَعَلْنَاهُم أَحَادِيثَ} أي يتحدث الناس بقصتهم وأخبارهم على سبيل التلهي والتعجب، معتبرين بعاقبتهم وما آلوا إليه من سوء المصير.

قوله: {وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} أي فرّقناهم بالتباعد كل تفريق فتبددوا في البلاد - وقال الزمخشري في ذلك: لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعُمان.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} يعني: إن في قصص هؤلاء البطرين الممزقين كل ممزّق لعظات وعبرا لكل امرئ شأنه الصبر عن المعاصي وعلى الطاعات، والشكر لله على ما أنعم به وتفضل ٢٤.

٢٠ - (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}.

{صَدَّقَ}، بالتشديد، و {ظَنَّهُ} مفعول به ٢٥ أي حقق إبليس ظنه على سبأ ومبعث ظنه مشاهدته أبيهم آدم؛ إذْ أصغى إلى وسوسته، فقاس الفرع وهم النسل والذرية على الأصل - أو قاس الولد على الولد - وقيل: أدرك إبليس ما رُكّب في بني آدم من الشهوة والغضب وهما مبعث الشرور.

قوله: {فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} المراد بالمتبعين سبأ أو بنو آدم فقد اتبعوا إبليس فيما أمرهم به من الشرك والمعاصي ومجانبة الحق والصواب - واستثنى فريقا من عباده لم يتبعوا إبليس في إغوائه، وهم المؤمنون - واستثناؤهم دليل قلتهم بالنسبة للكثرة الكاثرة من المشركين المكذبين.

٢١ - (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

قوله: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ} أي لم يكن لإبليس على متبعيه الغاوين من تَسلُّط أو استيلاء بالوسوسة والاستغواء - قال الحسن البصري في هذا المعنى: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأمانيّ دعاهم إليها فأجابوه.

قوله: {إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} أي لتمييز المؤمن من الشاك.

قوله: {وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} أي محافظ أو وكيل قائم على كل شيء ٢٦

٢٢ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ)

قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

الذين زعمتم من دون الله، مفعوله الأول محذوف عائد إلى الموصول - والمفعول الثاني محذوف كذلك قامت صفته {مِنْ دُونِ اللَّهِ} مقامه؛ أي زعمتموهم شركاء من دون الله ٢٧.

والمعنى: قل لمشركي قريش ادعوا الذي عبدتموهم من الأصنام والملائكة والتجئوا إليهم ثم انتظروا استجابتهم لدعائكم لتروا أنهم لا يستجيبون لكم بشيء؛ بل إنهم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرّا - وهو قوله: {لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ} أي

لا يملكون فيهما مثقال ذرة من خير أو شر أو نفع أو ضُر.

قوله: {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ} أي ما لهم في هذي الخلْقين، وهما السماوات والأرض من شركة.

قوله: {وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} أي ليس لله من معين فينصره أو يعينه على تدبير خلقه؛ بل إنهم مخلوقون كغيرهم من الخلائق - فهم عاجزون أن يخلقوا شيئا ولو كان في زنة ذرة فكيف تدعونهم أو تتخذونهم شركاء وأندادا من دون الله.

٢٣ - (وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

قوله: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} هذا تكذيب لقول المشركين عن معبوداتهم من الملائكة والأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فإن شفاعة هؤلاء لا تنفع المشركين الذين عبدوهم؛ بل إنهم ليست لهم شفاعة البتة - فالنفي منسحب على الشفاعة، أي لا شفاعة لهم تنفع {إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} أي لا يجترئ أحد أن يشفع لأحد في شيء يوم القيامة إلا بعد إذنه له في الشفاعة أو إلا لشافع أذن اللهُ له أن يشفع.

قوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} {فُزِّعَ} من التفزيع أي إزالة الفزع، و {حَتَّى} للغاية - وذلك لما فُهم من أن انتظارا للإذن وتوقعا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم بالشفاعة أو لا يؤذن لهم بها - فهم في حالهم من طول التربص وشدة الفزع حتى إذا كُشف الفزعُ عن قلوبهم سأل بعضهم بعضا {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ} أي قال القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى من عباده.

وقيل: المراد بذلك ملائكة السماوات والأرض؛ إذ يسمعون التكلم من الله بالوحي ارتعدوا وأخذتهم رجفة من هول الهيبة وعظيم الجلال حتى يلحقهم مثل الغشي.

قوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} الله ذو العلو والكبرياء وهو ذو الملكوت والجبروت وليس لأحد في هذا اليوم العصيب أن يتكلم أو يشفع لأحد إلا بإذنه سبحانه ٢٨.

٢٤ - (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقرِّر المشركين بأن رازقهم هو الله، لأنهم لا يمكن أن يقولوا إن آلهتهم ترزقهم فهي لا تملك الرزق ولا تملك مثقال ذرة في السماوات وفي الأرض - فهم كما يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره وأنه المعبود وحده وأم ما يعبدون من دونه إلا تماثيل موهومة.

قوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} يعني وإن أحد من الفريقين من المذعنين لله بالخضوع والطاعة، المقرِّين له بالإلهية والوحدانية، والمشركين الذين أشركوا به غيره من الأصنام والجمادات، والمتخذين الأنداد من دو الله، لعلى أحد الأمرين من الهدى، والضلال المبين - أي في حيرة وعمه وتخبط - وهذا من باب اللف والنشر - أي أن أحد الفريقين محق، والآخر مبطل ولا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، أما نحن فقد أقمنا الحجة على أن الله حق وأنه وحده المتفرِّد بالإلهية والخلْق والرزق، فدلَّ ذلك على بطلان ما أتم عليه من الشرك وعلى أننا نحن على الحق وجادة الصواب.

٢٥ - (قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

قوله: {قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} ذلك ترسيخ لحقيقة المفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل - وهو ما يحققه مدلول الآية وهو أنكم لستم منا ولا نحن منكم - بل نحن ندعوكم إلى الله وحده وإفراده دون غيره بالإلهية والربوبية والإذعان له بكامل

الطاعة والعبادة، فإن استجبتم لما ندعوكم إليه فنحن وإياكم ماضون على صراط الله إلى حيث الفوز والنجاة، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم برءاء منا.

٢٦ - (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

قوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} أي قل لهم: إن الله يجمع بين الخلائق كافة يوم القيامة ثم يحكم بينهم {بِالْحَقِّ} من غير جور ولا ميل فيجزي كل إنسان بما عمل وستعلمون يومئذ أننا المُحقّون وأننا أهل السعادة والنجاة، وأنكم أنتم المبطلون فأنتم صائرون إلى الهوان والتعْس والخسران.

قوله: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} الله الذي يفصل بين العباد، وهو سبحانه عليم بما أسلفوا من الأعمال فلا يخفى عليه منها شيء - و {الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} كلاما صيغة مبالغة وفي هذا توبيخ للظالمين المكذبين وتهديد لهم شديد.

٢٧ - (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} وفي هذا توبيخ بالغ وتبكيت شديد للمشركين الذين يعبدون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع - والمعنى: أروني بالحجة والدليل هذه الآلهة التي ألحقتموها بالله سبحانه فجعلتموها له شركاء وأندادا.

قوله: {كلاّ} وهذا ردع من الله لهم وتنبيه ليزدجروا إلى الصواب.

قوله: {بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الله القوي الذي لا يقهره أحد ولا يغلبه غالب - فهو وحده جدير بالعبادة والإخبات له وتمام الطاعة والاستسلام، وهو سبحانه {الْحَكِيمُ} أي ذو الحكمة البالغة والعلم المحيط بكل شيء ٢٩.

٢٨ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} {كافّة}، منصوب على الحال من كاف {أرسلناك} - والمعنى: إلا جامعا للناس في الإبلاغ - والكافة بمعنى الجامع، والهاء للمبالغة - وقيل: {كافّة} صفة لمصدر محذوف تقديره: إلا إرسالة كافة - وقيل: كافة، حال من الناس، أي للناس كافة ٣٠ يخاطب الله جل وعلا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم مبلغا إياه أنه أرسله لهداية الناس كافة، بل إنه مبعوث للعالمين من الثقلين جميعا وهما الإنس والجن {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي بشير الطائعين المستجيبين لدعوة الحق بالتوفيق والسعادة في الدنيا، وبالنجاة والفوز يوم القيامة - وهو كذلك نذير للعصاة الذي يخالفون أمر الله ولا يستجيبون لنداء الحق واليقين.

لقد أرسل الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ورسالة الحق للعالمين - وتلكم هي رسالة الإسلام العظيم الذي تتجلى فيه كل معاني الخير والحق والعدل والرحمة - وهو دين وسط مناف للإفراط والتفريط، وموافق للفطرة البشرية السليمة.

وهذه خصائص كبريات تحقق الصلوح الكامل لهذا الدين على مدى الأزمان كلها.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أكثر الناس سادرون في الغي والباطل ساربون في الجهالة والاعوجاج، جانحون للشهوات والأهواء - لقد أضلهم شيطان الجن بوسوسته التي تسري في ذهنه وخياله وأعصابه، فتُسوّل له الكفر والعصيان، وتكرِّهُ إليه الإيمان والاستقامة والفضيلة وكذلك شياطين الإنس قد أسهموا أعظم إسهام في إغواء البشرية واجتيال الناس عن عقيدة التوحيد وإضلالهم عن منهج الله وسَوْقهم سَوْقا إلى الفساد والإباحية والشر بكل صوره وأصنافه - من أجل ذلك فإن أكثر الناس موغلون في الضلال والباطل.

٢٩ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} يقول الكافرون على سبيل التعنت وفرط الجهالة والاستهزاء: متى الساعة التي وُعدنا بها {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} يخاطبون بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به.

٣٠ - (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ)

قوله: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ} {لكم ميعاد}، مبتدأ وخبر - والميعاد مصدر مضاف لظرفه، وهو يطلق على الوعد والوعيد، والوعد في الخير، والوعيد في الشر غالبا ٣١ فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب المشركين بقوله: لكم زمان مؤجل لا يزاد ولا ينقص - فإذا جاء هذا الزمان الموعود فإنه لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال - فهو يوم عصيب موعود آت لا محالة، يغشى الناس فجأة فيشير فيهم الفزع والذعر والذهول ٣٢

٣١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

هذه الآيات تصوّر للذهن حال المشركين وهم مجموعون ليوم الحساب؛ إذ يتلاومون فيما بينهم ويُنْحي كل فريق منهم باللوم على الآخر، وقد أيقنوا جميعا أنهم خاسرون وأنهم صائرون إلى النار وبئس القرار.

وفي هذه الآيات يخبر الله تعالى عن طغيان المشركين وإصرارهم على الجحود في معاندة بالغة ومكابرة عمياء، فهو يخبر عن مقالة المشركين من أهل مكة، وهم يتلبَّسون بالكفران الشديد من غير حجة ولا برهان؛ إذ قالوا: {لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} وذلك إصرارهم على التكذيب بكتاب الله الحكيم، وبما تقدمه من الكتب السماوية والنبيين عليهم الصلاة والسلام، وقيل: المراد بالذي بين يديه: يوم القيامة - فقد ذكر أن أهل الكتاب قد حدثوا المشركين عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم فطلبوا منهم أن يسألوه عن ذلك، فلما سألوه ووافق ما قاله أهل الكتاب، قال المشركون حينئذ: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل من قبله من التوراة والإنجيل، بل نكفر بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، وذلكم هو العناد البغيض، والضلال المعاني الذي يلفّ أذهان الضالين المضلين من الناس - أولئك الذين يتولون جامحين هربا من دعوة الحق، ويفرّون مستنفرين لجوجين كراهية أن يستمعوا لدين الله القويم، ومنهجه العظيم الذي يحمل للبشرية كل قواعد الخير والحق والعدل والفضيلة والرحمة، وذلكم هو الإسلام.

قوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} وذلك إخبار عن شدة الهول الذي يحيط بالكافرين يوم الحساب وهم محبوسون ذليلون خزايا؛ إذ ليس لهم حينئذ من ظهير ولا نصير ولا مجير، فيتلاومون فيما بينهم ويتحاجون متخاصمين {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ} أي يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في حياتهم الدنيا متحالفين أخلاء - وجواب لو محذوف، وتقديره: لرأيت أمرا هائلا جللا، وخَطْبا فظيعا مخوفا.

قوله: {يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} {أنتم} ضمير منفصل في موضع رفع مبتدأ وخبره محذوف ٣٣ وذلك من جملة المحاجَّة التي يتخاصم بها الظالمون الخاسرون، وهم فريقان: فريق المستضعفين الذين استذلهم السادة والكبراء واستضعفوهم في الدنيا فأضلوهم وأغووهم - ثم فريق المستكبرين، وهم القادة والرؤساء، وفي هذا التخاصم والتحاجج يتلاوم الفريقان تلاوما عنيفا وهم جميعا يحيط بهم الرعب والابتئاس المطبق، فيقول المستضعفون للمستكبرين: لولا أنكم كنتم تصدوننا عن دين الله الحق فأغويتمونا وأضللتمونا لكنا قد آمنا واهتدينا إلى الصواب واتباع الرسل فكنا من أهل النجاة.

٣٢ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ)

قوله: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} الاستفهام للإنكار، أي ما رددناكم عن اتباع الحق ولا أكرهناكم إكراها فمنعناكم من الإيمان بدين الله حين جاءكم الحق، بل إننا دعوناكم إلى الشرك فاتبعتمونا من غير حجج ولا أدلة، وهو قوله: {بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ} أي مُصرّين على التكذيب وعبادة الأصنام، والكفر بالله وبرسوله، فمنعكم ذلك من الإيمان بالله وحده واتباع ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

٣٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} المكر – في اللغة – بمعنى: الاحتيال والخديعة - وقد مكر به فهو ماكر ومكار ٣٤ أي يقول التابعون المستضعفون لرؤسائهم وكبرائهم الذين استذلوهم واستخفوهم في الدنيا، إن مكركم في الليل والنهار بائتماركم بنا وتمالئكم علينا لصدنا عن دين الله قد حملنا على التكذيب والإشراك بالله، وهو قوله: {إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} والأنداد بمعنى: النظراء والأمثال - وهو جمع ند أي نظير ٣٥ أي حي كنتم باحتيالكم علينا وخداعكم لنا تحملوننا على الكفر بالله ورسوله واتخاذ الآلهة المصطنعة لنعبدها من دون الله.

تلك هي حال المستضعفين والمنافقين من الناس في كل زمان، إذ يستخفّهم الغواة والطغاة من الكبراء والأمراء والسادة وهم يزينون لهم الكفر والعصيان وفعل المنكرات ويكرّهون إليهم الإيمان والاستقامة فيشاركونهم في الضلال والباطل.

ذلك هو ديدن المضلين المخادعين في كل زمان، إذ يضلون الخائرين المستضعفين اللاهثين وراء المفسدين من العتاة والمتجبّرين الذين يحملونهم على الفسق ومخالفة أوامر الله حتى إذا قضى الله بين الفريقين – الضالين والمضلين – يوم القيامة أفضوا جميعا إلى سوء المصير فكُبكبوا في النار خاسرين مدحورين.

قوله: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} إذا عاين الضالون والمضلون العذاب يوم القيامة، عضهم الندم وغشيت قلوبهم الحسرة على ما فرطوا في دين الله، إذ فسقوا عن أمر ربهم وركنوا في دنياهم للكفر والباطل وأوغلوا في الآثام والمعاصي.

قوله: {وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ} {الأَغْلالَ} القيود - أي لم يجد المجرمون الخاسرون من التابعين والمتبوعين مناصا من العذاب وإنما يساقون إلى النار مقهورين خزايا وقد غُلَّت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل والقيود.

قوله: {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} لم يفعل الله بهؤلاء التابعين والمتبوعين الخاسرين، مثل هذا التنكيل إلا جزاء بما كانوا يعملون في دنياهم من تكذيب وعصيان وصدٍّ عن دين الله، سواء في ذلك الضالون التابعون من المنافقين والأوباش، أو المضلون المتبوعون من السادة والقادة المجرمين ٣٦.

٣٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}.

ذلك تأنيس من الله وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم مما مُني به من قومه من شدة الإيذاء والصدّ والتكذيب، فقد كان الإيذاء للنبيين وتكذيبهم ديدنا للمترفين الفاسقين قد دأبوا عليه في كل زمان، وقد خصّ المترفين بالتكذيب والجحود والإيذاء، لأنهم أشد تلبُّسا بالشهوات وأكثر جنوحا لمتاع الحياة الدنيا بما أُتوه من مختلف الأسباب لذلك كالمال والجاه والرياسة وغير ذلك من ظواهر الاستعلاء والتمكين.

أما المترفون: فمن الترف، وهو الطغيان وغَمْطُ النعمة، والمراد بالمترفين: قادة الشر والطغيان من الرؤساء والكبراء والأغنياء - وهؤلاء إذا جاءهم من عند الله نذير من النُّذر يحذرونهم عقاب ربهم، بادروهم بالجحود والتكذيب وقالوا: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} أي إنا بما جئتمونا به من رسالة ونذارة وما بعثتم به من توحيد الله وإذعان لجلاله بالطاعة، ومن التبرؤ من عبادة الأنداد والشركاء {كَافِرُونَ} أي جاحدون مكذبون.

٣٥ - (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَموَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحن بِمعَذَّبِينَ)

قوله: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} افتخر المترفون الجاحدون بكثرة الأموال والأولاد مستدلين بذلك على أنهم مصيبون، وهو قولهم: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} أي أن الله راض عنا بسبب لزومنا لديننا وما نحن عليه من صحيح الملة، ومن أجل ذلك لن يعذبنا الله في الآخرة.

وهو قوله: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} قياسا على حسن حالنا في الدنيا، وربما كان ذلك إنكارا منهم لعذاب الآخرة التي يكذبون بها.

٣٦ - (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيقْدِر وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} الله الموسع في الرزق، والمقتر، فهو يعطي المال لمن يحب من عباده ومن لا يحب فيغني من يشاء ويفقر من يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك، وعلى هذا فإن سعة المال والرزق في الدنيا أو قلته وضيقه لا يدل على حال المحق والمبطل، فكم من موسر شقي ومعسر تقي.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أي لا يعلمون أن سعة الرزق في الدنيا لا تدل على السعادة والنجاة في الآخرة، فإن قلة الرزق وضنك العيش أو كثرة المال وبسطته لا يختص بالفاسق أو الصالح، وهذه حقيقة لا يعلمها أكثر الناس بل إن أكثرهم سادرون في الغي والضلال، ساربون في دروب الشهوات والباطل.

٣٧ - (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)

قوله: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} {بِالَّتِي} في موضع نصب خبر ما ٣٧ و {زُلْفَى} وزلفة بمعنى القربة والمنزلة، و {زُلْفَى} ههنا اسم مصدر، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا إزلافا ٣٨

يخاطب الله – جلت قدرته – المترفين الجاحدين المكذبين – على سبيل التوعّد والتهديد – بأن أموالكم هذه التي تفاخرون بها وكذلك أولادكم الذين تُباهون بهم الناس، كل ذلك لا يقربكم منا أيما قربة، ولا يقرِّبكم منا سوى الإيمان الصحيح والعمل الصالح المخلص، وهو قوله سبحانه: {إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان بالله إيمانا صحيحا مقرونا بعمل الصالحات - وفي الخبر مما رواه أحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ".

وقيل: المعنى أن من آمن وعمل صالحا فلن يضرّه ماله وولده في الدنيا فالمؤمنون الذين يعملون الصالحات تقرِّبهم أموالهم وأولادهم إلى الله، وذلك بطاعتهم لله فيما أوتوا وبأدائهم حق الله فيما أعطاهم من أموال.

قوله: {فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا} الضعف في كلام العرب بمعنى المثل، وهذا هو الأصل، ثم استعمل الضعف في المثل وما زاد، وليس للزيادة حد - أي أن الضعف زيادة غير محصورة ٣٩ فالمعنى: أن جزاءهم أن تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشرا أو أكثر.

قوله: {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} المؤمنون الذين يعملون الصالحات جزاؤهم يوم القيامة أن يقيموا في الغرفات من الجنة، وقيل: إنها غرف من الياقوت والدّر يقيم فيها الذين كتبت لهم السعادة والنجاة ليكونوا فيها آمنين من الموت أو العذاب أو الأسقام والأحزان.

٣٨ - (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)
قوله: {وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} {مُعَاجِزِينَ} أي معاندين، يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا بأنفسهم، وذلك تهديد من الله للمجرمين الظالمين الذين يعملون جاهدين على إبطال آيات الله بإثارة الشبهات والأباطيل من حولها، يريدون بذلك نقض كلام الله، وتكذيبه، وإشاعة الشكوك في أذهان الناس لينثنوا عن دين الله، وتلك هي غاية المجرمين الظالمين في كل زمان، إذ يصطنعون الأسباب والأباطيل والشبهات ليصدوا البشرية عن منهج الله، منهج الحق والعدل والإخاء والرحمة، منهج الإسلام.
قوله: {أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي يساقون إلى جهنم؛ إذ تسوقهم زبانية النار فلا يجدون من دونها مناصا ٤٠.
٣٩ - (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)
قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} الله هو الرازق، وهو بيده ملكوت كل شيء فهو يبسط رزقه على من يشاء من عباده ويقتره أو يضيقه على من يشاء لما له في ذلك من الحكمة البالغة.
قوله: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} ذلك تحضيض من الله على البذل والإنفاق في وجوه الخير طلبا لمرضاته، فما ينفقه العباد في وجوه الخير والطاعة يُخلِفُه الله عليهم؛ أي يعطيهم خلفه وبدله، إما في الدنيا أو في الآخرة - وفي ذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من يوم يصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعْطِ منفق خلفا ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكا تلفا ".
قوله: {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} الله خير مَنْ وُصف بأنه رزاق، وهو سبحانه وتعالى يرزق عباده من خزائنه الواسعة التي لا تفنى ولا تتناهى.
٤٠ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)
قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ}.
ذلك تذكير من الله بيوم القيامة حيث القواصم والأهوال، إذ يجمع الله الخلائق جميعا {ويوم} منصوب بفعل مقدر، أي واذكر يوم يحشرهم جميعا ليلاقوا الحساب - وهو قوله: {ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} الاستفهام لتوبيخ المشركين الذين كانوا يعبدون المخلوقات كالملائكة، إذ يسألهم الله {أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} أأنتم أمرتم هؤلاء المشركين بعبادتكم {سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ}
٤١ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)
{سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ} أي تقدست وتنزهت عن الشرك والشركاء ونعوذ بالله من أن نكون غير عبيدك الطائعين الخاشعين - فأنت معبودنا وخالقنا وناصرنا من دونهم ونبرأ إليك مما فعله المشركون والضالون والسفهاء.
قوله: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} أي كانوا يعبدون إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس الذين أضلوهم عن دين الحق والتوحيد.
قوله: {أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} أكثر هؤلاء المشركين كانوا يزعمون أن الجن بنات الله - تعالى الله عن هذا الافتراء الفظيع علوّا كبيرا.
٤٢ - (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)
قوله: {فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} ذلك تيئيس للمشركين الذين عبدوا الملائكة أو غيرهم من الأنداد؛ فإنهم يوم القيامة لا منجاة لهم من العذاب وسوء المصير، وفي هذه الآية يقول الله للملائكة يوم القيامة: اليوم لا ينفعكم الذين كانوا يعبدونكم من

المشركين ولا يضرونكم ولا أنتم تملكون لهم أيما نفع أو ضر - فقد فات وقت العمل، وإنما اليوم حساب ولا عمل {وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} يقول الله للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم غير الله واتخاذهم أندادا وشركاء من دون الله {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} يقال لهم ذلك على سبيل التقريع والتعنيف، وزيادة في التنكيل والتعذيب ٤١

٤٣ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}.

ذلك إخبار من الله عن ظلم الكافرين المكذبين وعن شدة جحودهم وعنادهم، إذ كانوا إذا تتنزل عليهم القرآن يبادرون بالتكذيب، لا يسعفهم في ذلك دليل ولا حجة إلا المكابرة والعناد، وهو قوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ} يعني: إذا تليت عليهم آيات القرآن واضحة جلية من لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، بادروا بالتكذيب والمعاندة فقالوا: ليس محمد إلا رجلا يريد أن يُضلكم عن دين الآباء والأجداد، أو يصدكم عن عبادة آلهتكم المصنوعة التي كان أسلافكم من المشركين الضالين يعبدونها {وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى} يعنون بذلك القرآن الكريم، والإفك المفترى يعني الكذب المختلق ٤٢ أي ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد، والله يعلم أنهم موقنون في قلوبهم بصدق هذا القرآن العظيم وأنه كلام الله الحكيم وأنه ليس من صنع بشر، بل إنه يفوق طاقة البشر، لكنه العناد والمكابرة وشدة الغيظ والحسد قد حملهم على تلفيق مقالة التكذيب.

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ} المراد بالحق القرآن، فلقد افترى عليه المشركون كذبا فظيعا، إذ قالوا: ما هذا القرآن يا محمد إلا سحر مبين، أي ظاهر - وهذه كذبة شنيعة ومكشوفة يهذي بها المشركون المعاندون ولقد كانوا فيما بينهم يتسارّون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق لا يكذب، وأن ما أنزل عليه من آيات قد خَلَبَ فيهم العقول وبَهَرَ فيهم الأذهان والجَنَان، وهم في هذه الغمرة من الحيرة والعجب والدهش يقولون مستنفرين مكابرين: إنه سحر ظاهر.

٤٤ - (وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

قوله: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ} يعني: لم نؤت هؤلاء المشركين المكذبين كتابا من لدنا يقرأون فيه بطلان ما جئتهم به يا محمد، ولم يسمعوا ما ادعوه من رسول بُعث إليهم من قبلك - فمن أين لهم ما زعموه من الإفك الذي افتروه على القرآن.

٤٥ - (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

قوله: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ} أي: كذّب من قبل هؤلاء أقوام آخرون كانوا أعظم من قومك هؤلاء قوة وأشد بطشا وأكثر أموالا وأولادا، فأهلكناهم ودمرنا عليهم، كقوم عاد وثمود، وغيرهم من المكذبين السابقين الذين لم يبلغ قومك معشار ما أتوه من القوة، وهو قوله: {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ} معشار الشيء يعني: عُشْره ٤٣ يعني لم يُعط الله قومك هؤلاء معشار ما أعطى السابقين المشركين.

قوله: {فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي كذّب السابقون رسلي وآذوهم، وصدوا الناس عن دين الحق وعن التوحيد فأهلكناهم وانتزعنا منهم ما أوتوه من الخيرات والنعم {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي انظر كيف كان نكيري، أنْ دمرناهم وأظهرنا عليهم المرسلين والمستضعفين الذين آمنوا بهم ٤٤.

٤٦ - (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينفذ بخطابه إلى قلوب السامعين لعلهم يتدبرون ويذّكرون أو يحدث لهم ذلك ذكرا وموعظة، والخطاب النافذ إلى أعماق النفس بأسلوب مؤثر نفّاذ ربما لامس شغاف القلب فاسترعى فيه من مكنونات الفطرة الراقدة ما يبعث على التململ والحركة واستجاشة الضمير كيما يفيق ويَرِفّ ويهتف بكلمة الحق والصدق.

وهذه الآية ضرب من النمط القرآني النفّاذ الذي يلامس أهداب الفطرة ويهتف الضمير ليصدع بمقالة اليقين ظاهرة مكشوفة، ومن هنا يأمر الله رسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه المشركين المكذبين: {إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} أي أُذكّركم بكلمة واحدة وهي طاعة الله، وقيل: بخصلة واحدة، وهذا القول أظهر فقد بيَّنه بقوله: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى} في موضع جر ورفع، أما الجر على البدل من قوله: {بِوَاحِدَةٍ} وتقديره: إنما أعظكم بأن تقوموا لله مثنى وفرادى - وأما الرفع فهو على أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف، وتقديره: وهي أن تقوموا لله {مَثْنَى وَفُرَادَى} ٤٥ أي اثنين اثنين، وواحدا واحدا - أو أن يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان فيما بينهما على الحديث، هل علمتم بمحمد أيَّما جنون أو من أحواله وسيرته وسلوكه أيَّما فساد، أو علمتم أنه تعلَّم السحر من أحد فيكون ساحرا، أو تعلَّم الكهانة من الكهان فيكون كاهنا، أو أنه تلقى العلوم من أهل العلم، أو أنكم قدرتم على معارضته في سورة واحدة، فإذا تبين لكم خلاف ذلك كله أفلا تعلمون إذن أنه صادق، وتستيقنون أنه نبي مرسل من ربه؟

وهو قوله: {إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} يعني: ما محمد صلى الله عليه وسلم إلا رسول مبعوث من ربه إليكم ليبلغكم دعوة الله ويحذركم بطش ربه وعقابه قبل أن يحيق بكم - ٤٦

٤٧ - (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}.

يأمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المشركين: {مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} أي لا أريد منكم جعلا أو مالا على تبليغي إياكم رسالة ربكم وما جئت به إليك من عند الله، وأيُّما جعل أو مال أطلبه منكم على تبليغكم دعوة الله، فهو لكم أنتم {إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ} أي: ما ابتغي ثوابا على تبليغكم ودعائكم إلى الإسلام إلا من الله الذي يجزي المؤمنين العاملين خيرا ومثوبة من عنده.

قوله: {اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} الله عليم بحالي وأعمالي وهو سبحانه يشهد لي على حقيقة ما أقوله لكم فإنه لا تخفى عليه من الخلق خافية.

٤٨ - (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} القذف في اللغة بمعنى الرمي - والمراد به هنا التنزيل أو الإرسال - أي ينزل الله الوحي من السماء إلى الأرض فيرسله إلى من يشاء من عباده - وقيل: المراد بالحق: الحجة، وقذفها إظهارها جلية واضحة - وذكر عن ابن عباس قوله في تأويل الآية: إن الله يقذف الباطل بالحق - أي يرميه به.

قوله: {عَلَّامُ الْغُيُوبِ} {عَلَّامُ} مرفوع على أنه خبر ثان بعد أول - فالأول {يقذف} والثاني {عَلَّامُ الْغُيُوبِ} وقيل: خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هو علام الغيوب ٤٧.

٤٩ - (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

قوله: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ} المراد بالحق القرآن، وفيه نبأ الأولين والآخرين، وفيه من قواعد الحق والعدل والفضل والرحمة ما لا تماسك أمامه ملة مبطلة أو عقيدة مفتراة.

قوله: {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} المراد بالباطل – في قول كثير من المفسرين – الشيطان - فما يستطيع هذا المخلوق الخبيث الآيسُ أن يخلق أحدا أو يعيده إلى الحياة بعد مماته - وقيل: زال الباطل وانمحق - فهو من طبيعته الزهوق والانمحاء؛ لأنه لا قوام له أمام سطعة الحق، بل ينطفئ ويفنى ويغيب ظله إذا طلعت عليه شمس الحق واليقين.

٥٠ - (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

قوله: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي} الضلال والضلالة، ضد الرشاد ٤٨ وذلك لما قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: تركت دين آبائك يا محمد فضللت - فأمره أن يرد زعمهم الباطل بقوله: إن ضللت كما تزعمون، فسلكت غير سبيل الحق والصواب فإنما ضلالي على نفسي {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} يعني: إن استقمت على صراط الله الحق دون زيغ أو ميل فإنما سبب نزول ذلك ما أوحاه الله لي من البيان والحكمة والتشديد.

قوله: {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} الله يسمع العابدين المنيبين إليه إذا دعوه وسألوه ما يريدون؛ فهو سبحانه قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه ٤٩

٥١ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ}.

جواب لو محذوف، وتقديره: لو تَرى لتعجبت - و {فَزِعُوا}: جملة فعلية في موضع جر بإضافة {إِذْ} إليها - {وَأُخِذُوا} جملة فعلية أخرى معطوفة عليها ٥٠ وذلك وصف لحال البشرية يوم القيامة؛ إذ تحيط بهم الأهوال العظام وتحيق بهم النوازل الجسام فيغشاهم من الذعر المريع والرعب الفظيع ما يغشاهم - وفي هذا الحال من الخوف والكرب والإياس لا يجد الناس لهم أيُّما مفرٍّ أو ملاذ أو مهرب - وهو قوله سبحانه: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} يعني لو ترى يا محمد حين يفزعُ هؤلاء الجاحدون المكذبون يوم القيامة ثم لا يجدون لهم ملاذا يَفرّون إليه فيوقنون حينئذ أنهم لا منجاة لهم من العذاب.

قوله: {وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} أخذهم الله من حيث كانوا، سواء كانوا في قبورهم أو في أي مكان، فهم من الله قريب لا يفوتونه ولا يُعجزونه.

٥٢ - (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

قوله: {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} حينئذ يعلون أهم آمنوا بالله ورسوله وكتابه، وبالبعث الذي كانوا يكذبون به.

قوله: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} {التَّنَاوُشُ}، معناه: التناول ٥١ والمعنى: أنَّى لهم تناول الإيمان يوم القيامة، وقد كفروا به في الدنيا؛ وذلك أن الكافرين من فرط إياسهم وشدة ما حلَّ بهم فإنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا الصالحات، وهيهات هيهات لما يتمنون ويرتجون، فقد بعدت عليهم الشقة وانقطعت عنهم التوبة بزوال الدنيا.

٥٣ - (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

قوله: {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} يعني أنّى لهم أن تنفعهم توبتهم في الآخرة وقد كفروا بالحق في الحياة الدنيا وكذبوا المرسلين {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} أي وهم يرجمون محمدا صلى الله عليه وسلم بالظن فيقول تارة: إنه ساحر، وتارة شاعر، وتارة كاهن، وتارة

مجنون.
٥٤ - (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)
قوله: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} أي حيل بين هؤلاء المشركين المكذبين وبين ما رغبوا فيه من الإيمان والتوبة لينجوا مما حل بهم من البلاء.
قوله: {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} الأشياع جمع شيع، وهذه جمع شيعة - فالأشياع جمع الجمع - وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره - وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع، والمراد بأشياعهم هنا: أمثالهم من الشيع الماضية ٥٢
والمعنى: أن الله فعل بهؤلاء المشركين المكذبين من التيئيس والحيلولة دون الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا كما فعل بالأمم الماضية التي كذبت المرسلين فإنهم لما حاق بهم بأس الله تمنوا أنهم لو آمنوا، فلم تنفعهم توبتهم ولم تغنهم أمانيهم من سوء المصير شيئا.
قوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} إنهم لفي شك من أمر الرسل وما أنزل الله إليهم من الحق، وفي شك من أمر البعث والمعاد {مريب} أي موقِع لصاحبه في الريبة، من قولهم: أراب الرجل إذا أتى ريبة وتلبّس بفاحشة ٥٣.

٣٥ سورة فاطر:

سورة فاطر:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها، وهي فيها من المعاني والأخبار والعبر وألوان الترهيب والتحذير ما هو كثير.
والسورة مبدوءة بذكر الملائكة الأطهار العظام على اختلاف هيئاتها وأجنحتها، وأولئك خَلْق أبرار يعبدون الله دوما لا ينقطعون ولا يفترون.
وفي السورة يحذر الله عباده من تغرير الشيطان لهم بما يزينه لهم من فتن الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها.
وتتضمن السورة بيانا بأجناس شتى من الخلائق التي ذرأها الله في هذا الكون مما يدل على عظمته سبحانه وجلال قدره، وذلك كخَلْق الإنسان من تراب، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر إلى أجل مسمى، وغير ذلك من الكائنات والأجرام في السماء والأرض.
وفي السورة إعلان رباني كريم بأن الناس جميعا فقراء إلى الله، وأنه سبحانه هو الغني وهو مالك كل شيء - وفيها ترسيخ لقاعدة من قواعد الحق والعدل، وهي أن النفس لا تحمل وزر نفس أخرى وإنما يناط بالمرء من المسئولية والحساب ما قدمته يداه.
وفي السورة وصف لحال الكافرين الخاسرين وهم خلود في النار فلا يبرحونها ولا يخفف عنهم من لهيبها واستعارها - إلى غير ذلك من المواعظ والعبر وألوان التخويف والتحذير.
١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}
ذلك ثناء من الله عز وجل على نفسه، فهو الخالق المعبود الجدير بالشكر الكامل، وهو سبحانه {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {فَاطِرِ} مجرور على أنه صفة لاسم الله تعالى - أو على البدل منه ١ و {فَاطِرِ} من الفطر أي الابتداء والاختراع ٢ - قال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي بدأتها - والمراد: أن الله وحده جدير بالعبادة والشكر الكاملين، فهو سبحانه بديع السماوات والأرض وخالقهما وما فيهما وما بينهما - وما ينبغي لأحد من

دون الله أن تذعن له القلوب وتخرَّ له النواصي - وهو سبحانه: {جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً} {رُسُلاً} مفعول ثان، أي جعل الله الملائكة رسلا إلى أنبيائه، أو لينيط بهم من الوجائب والمسؤوليات ما يبادرون بفعله سراعا {أُولِي أَجْنِحَةٍ} أي أصحاب أجنحة يطيرون بها سراعا خفافا ليبلغوا ما أمروا به، أو ليفعلوا ما يكلّفهم الله بفعله.

قوله: {مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ} هذه الأسماء في موضع زجر على الوصف، لأجنحة، وهي غير منصرفة لأنها صفات، ولكونها معدولة من جهة اللفظ والمعنى - أما العدل من جهة اللفظ: فإن {مثنى} معدول عن اثنين - {وثلاث}، معدول عن ثلاثة - {ورباع} معدول عن أربعة.

وأما العدل من جهة المعنى: فلأنه يقتضي التكرار، فمثنى عن اثنتين اثنتين، و {وثلاث} عن ثلاثة ثلاثة، و {رباع} عن أربعة أربعة ٣ والمعنى، أن من الملائكة من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة - ومنهم من له أربعة أجنحة - ومنهم من له أكثر من ذلك - وهم يهبطون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء.

قوله: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} والمراد زيادته خَلْقَ هذا الملك من الأجنحة على الآخر ما يشاء - ونقصانه عن الآخر ما يريد - والله له الخلْقُ والأمر والسلطان.

وهو قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الله قادر على فعل ما يشاء أو خلْق ما يشاء من الملائكة أو غيرهم - فهو الخلاّقُ المقتدر، لا راد لحكمه أو قضائه ٤.

٢ - (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

{مّا} شرطية في موضع نصب للفعل يفتح {فَلا مُمْسِكَ لَهَا} في موضع جزم جواب الشرط ٥ والمعنى: أن كل شيء كائن بإرادة الله وقدره فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن - فإن أراد الله بسط رحمته وفضله على العباد فلا يقدر أحد أن يحبس ذلك أو يمنعه، وإن أراد الله أن يمسك رحمته وفضله عنهم فليس من أحد بقادر على إرساله، وفي ذلك روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفعُ ذا الجد منك الجد ".

قوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الله القوي القاهر الذي لا يغلبه غالب وهو الجبار المقتدر الذي ينتقم من الظالمين المجرمين - وهو سبحانه الحكيم في أقواله وأفعاله ومقاديره.

٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}

{غير} يجوز فيه الرفع، لأنه بمعنى: هل من خالق إلا الله - أي ما خالق إلا الله ويجوز فيه النصب على الاستثناء.

وفي الآية يأمر الله عباده أن يذكروا نعمته عليهم وذلك بدوام شكره والثناء عليه لما منَّ به عليهم من وجوه النعم التي لا تحصى، وهي نِعَمٌ كثير وعديدة ومبسوطة ومختلفة، وهي مبثوثة في كل جوانب الإنسان والحياة.

قوله: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} لا يملك أحد أن يبسط للناس شيئا من الرزق أو أسبابه كإنزال المطر من السماء، وتسخير الرياح اللواقح المبشرات بالخير، أو إنبات النبات من الأرض - بل الله وحده قادر على ذلك، فهو بذلك جدير بإفراده بالعبادة والتوحيد والإذعان له دون غيره من الآلهة الموهومة والأنداد المفتراة - وذلكم هو الله الخالق الرزاق {لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي كيف تصرفون عن عبادة الله وحده وإفراده دون غيره بالإلهية وكمال الطاعة ثم تتخذون من دونه آلهة أخرى وأنتم تعترفون بأنه الخالق الرازق المقتدر؟!

٤ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}.

هذا تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، إذْ يواسيه ويسرِّي عنه كيلا يبتئس بتكذيب قومه المشركين وبصدهم الناس عن دين الله.

والمعنى: إنْ يكذبك هؤلاء المشركون الضالون يا محمد فلا يحزنك ذلك ولا يعظُم عليك، فذلك دأب أمثالهم من الأمم السابقة، أولئك الذين كفروا بربهم وعصوا رسلهم وصدوا عن سبيل الله - وليس قومك المشركون إلا نظراءَ أولئك الظالمين الفاسقين.

قوله: {وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} أي أن كل شيء صائر إلى الله، فهو سبحانه وتعالى جامع هؤلاء المشركين وأمثالهم ليوم القيامة ليناقشوا الحساب فيجازيهم ربهم بما عملوا من كفر وجحْدٍ وصد عن سبيله.

٥ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} يبين الله للناس محذرا: أن ما وعدكم ربكم من بعثكم من قبوركم لملاقاة الحساب وعظيم البلاء {حق} أي كائن لا محالة {فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي لا تنخدعوا بزينة الحياة الدنيا وزهرتها وما فيها من أوجُهِ اللذات والشهوات، ولا تتلهوا بذلك عن طاعة ربكم وعبادته واتباع أوامره - وما الدنيا في حقيقتها وهوانها وسرعة زوالها إلا السراب اللامع الخادع الذي ما يلبث أن ينقشع أو يتبدد.

قوله: {وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} {الْغَرُورُ} معناه الشيطان، فهو الذي يخدع الناس فيضلهم ويغويهم - والمعنى: لا يخدعنكم هذا الخبيث اللعين بوسوسته واحتياله وخداعه، إذ يزين لكم الشرور والمعاصي ويزهّدكم في سلوك الصواب والسداد وفعل الطاعات.

٦ - (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

قوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} الشيطان الغرور هو العدو الأول للإنسان - وهو لفساد خلقته وعظيم خبثه شديد الكراهية للإنسان، لما يجده في نفسه من أنه قد هوى في الضلال والجحيم عقب عصيانه أمرَ ربه بالسجود لآدم فأخرجه الله من رحمته مذموما مدحورا.

على أن الشيطان من الجن - فهو ذو جِبِلَّةٍ غريبة خلقت من نار مستعرة تلتهم كل شيء تمسه ليستحيل إلى رماد - وكذلك الشيطان فإنه كائن جِنّي مُبْغِض لآدم وذريته، وهو بذلك شديد العداوة للإنسان فما يَمَلُّ ولا يكَلُّ من طول الكيد لبني آدم من أجل أن يغويهم ويلهيهم عن دين الله ويغْرِقهم في اللذات والموبقات بما يفضي بهم إلى الخسران وسوء المصير - وبذلك يحذّر الله عباده من طغيان الشيطان عليهم وإغوائه لهم باتخاذه عدوّا لهم - لا جرم أن الشيطان عدو مضلّ مبين، لا مناص لمن يبتغي السلامة والسداد والنجاة من اتخاذه عدوّا لينجو من كيده وخداعه وإغوائه.

وحريٌّ بالذكر هنا أن من البشر أنفسهم شياطين أنجاسا ماكرين، وهم غواة أشرار، وأشقياء فجار يكيدون لدين الله الحق أبلغ كيد، ويتمالئون على الإنسانية لإطغائها وإغوائها وإغراقها في الكفر والمعاصي والفساد - أولئك صنف خبيث من طغاة الشر يدأبون في كل الآناء والأوقات على إفساد الأفراد وتدمير المجتمعات بما يسوّلونه لهم من الشرك والضلال وفعل الخطايا والمنكرات - أولئك شياطين أشرار ماكرون لُدٌّ، خليق بالعباد أن يحذروهم لينجوا من كيدهم وإفسادهم.

قوله: {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} حزب الشيطان: يعني أتباعه وأشياعه وأولياءه - وهم الذين سلكوا سبيل الضلال في الغيّ والخسران - أولئك الذين يدعوهم الشيطان ليطيعوه ويتبعوا خطواته ثم يسوقهم معه إلى النار ٦

٧ - (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}.

{الَّذِينَ} في موضع جر على البدل من {أصحاب} أو في محل نصب على البدل من {حزبه} أو في محل رفع على أنه مبتدأ، وخبره {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} ٧ وذلك بيان من الله عن حال الكافرين الذين عصوا رسول الله وكذبوا بما أنزل إليه من ربه، فأولئك قد أعدَّ الله لهم عذابا شديدا وهو التحريق في النار - ثم بين الله حال المصدقين الله ورسوله، الذين كانوا يعملون الصالحات بأن جزاءهم من الله أن يكفّر عنهم سيئاتهم وآثامهم، وأن يبوءوا بالسعادة في الجنة حيث النعيم المقيم.

٨ - (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

قوله: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} مَن: اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله: {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} فيكون المعنى: أفمن زيّن الشيطان له سوء عمله من الكفر والمعاصي فرآه حسنا، إذْ حسب سيئ ذلك حُسنا، وقُبحه جميلا، ذهبت نفسك عليهم حسرات؛ فالله جل وعلا نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شدة الاغتمام بكفر قومه وظلمهم، وعن فرط حزنه عليهم بسبب شركهم وإعراضهم ع توحيد الله - وقيل: نزلت في مشركي قريش؛ إذْ أعرضوا عن دين الله وصدوا عن سبيل الله وتمادوا في حب الأصنام وعبادتها.

قوله: {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} الله الهادي إلى سواء السبيل؛ فهو سبحانه يوفق من يشاء للهداية والرشاد، ويخذل من يشاء عن الإيمان، لحكمة مكنونة لا يعلمها إلا هو سبحانه {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} {حَسَرَاتٍ}، منصوب على وجهين - أحدهما: أنه مفعول له - وثانيهما: أنه مصدر ٨ والمعنى: لا تهلك نفسك حزنا واغتماما على كفرهم وضلالهم وتكذيبهم لك.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} ذلك تخويف من الله للعباد - فالله جلت قدرته يعلم ما يصنعه العباد، إذ لا يخفى عليه من أفعالهم شيء وهو سبحانه مطلع على ما يصنعه المشركون الضالون الذين زيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، فالله يجازيهم بذلك سوء الجزاء ٩.

٩ - (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)

قوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

هذا برهان من الله على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم لملاقاة الحساب يوم القيامة - وليس ذلك على الله بعزيز ولا عسير؛ فهو سبحانه {الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا} الله يهيج الرياح لتسوق الغيوم المحملة بقطرات الماء فتزجي بها إلى بلد ذات أرض جدبة وقفار حتى إذا أصابها الماء أنبت الله به الزروع والثمرات على اختلافها وهو قوله: {فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فالأرض حال جفافها وقحوطها ويبسها أشبه بالموتى الذين لا حَراكَ فيهم - بل هم خاوون هامدون - ثم يبعث الله فيهم الحياة والبهجة وحسن المنظر بما يثير فيها من الإنبات والاخضرار.

قوله: { كَذَلِكَ النُّشُورُ} أي هكذا يحيي الله الموتى بعد أن أتى عليهم البلى وكانوا رُفاتا رميما في قبورهم، كما أحيي هذه الأرض بالغيث

بعد مماتها؛ وفي هذا روي عن أبي رزين قوله: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال صلى الله عليه وسلم: " يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك ممحلا ثم مررت به يهتز خَضِرا؟ " قلت: بلى - قال صلى الله عليه وسلم: " فكذلك يحيي الله الموتى ".

١٠ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} منصوب على الحال - و {الْعِزَّةَ} معناها القوة والغلبة - والعز ضد الذل - وهو عزيز أي قوي ١٠؛ فلقد كان الكافرون يتعززون بالأصنام كقوله سبحانه وتعالى: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزّا} وكذلك الخائرون والضعفاء والمنافقون، فإنهم يتعززون بالكافرين من أعداء الله ورسوله كقوله تعالى: {الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا} وبذلك فإنه لا عزة إلا لله ولأوليائه المؤمنين المتقين - فمن ابتغى العزة فلا يطلبها إلا من الله؛ لأن العزة كلها مختصة به سبحانه - سواء في ذلك عزة الدنيا والآخرة - وإنما يتعزز المرء بطاعة الله والتزام شرعه وأوامره وأحكام دينه دون تفريط أو تقصير؛ فإن من يعتصم بحبل الله ولا يزيغ عن منهج الله الحق إلى ملل الكفر والباطل أو الهوى والشهوات فإن الله يعزُّه في الدنيا؛ إذ يجعله مكرما مفضالا في المؤمنين - وكذلك يُعزّه في الآخرة؛ إذ يرفعه إلى مراتب الأبرار الآمنين في عليين.

وفي هذا النص الرباني ما لا يخفى من التنبيه على الاعتزاز بالله وذلك بالإذعان لجلاله العظيم بتمام الخضوع له والطاعة لأمره؛ فالله وحده مصدر العزة في هذه الدنيا ويوم الأشهاد فما ينبغي للمؤمن بعد رسوخ هذه الحقيقة أن يذل خاويا لغير ربه فيسأله الغلبة والاعتزاز وعلو الشأن - إنه لا يستجير بالكافرين الخاسرين طلبا للعزة منهم إلا الخائرون المستضعفون من الناس.

قوله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} و {الْكَلِمُ} جمع كلمة وهو الكلام ١١ وقد اختلفوا في المراد بالكلم الطيب؛ فقد قيل: هو قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - وقيل: هو لا إله إلا الله - وقيل: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك - وهذا أولى بالصواب - فإن كل ذكر لله من تلاوة ودعاء واستغفار وتهليل وإنابة، لهو كلم طيب يصعد إلى الله؛ أي يرتفع إليه - وهو من الصعود بمعنى العروج إلى فوق.

أما العمل الصالح: فهو كل عمل وافق السنة وقُصِد به مرضاة الله - وقوله: {يَرْفَعُهُ} الرافع هو الله - والتقدير: والعمل الصالح يرفعه الله - كما أن الله، سبحانه، إليه يصعد الكلم الطيب - وقيل: الهاء في قوله: {يَرْفَعُهُ} تعود على {الْكَلِمُ} - والتقدير: والعمل الصالح يرفع الكلم ١٢ وهو قول ابن عباس: وفي الحديث: " لا يقبل الله قولا إلا بعمل، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة ".

وجدير بالبيان هنا أن الذي يذكر الله فيقول كلاما طيبا وهو مؤدٍّ لفرائض الله فلا ريب في ارتفاع ما يقوله من طيب الكلام وما يقوم به من عمل - أما إذا لم يؤد فرائض الله من عبادات ونحوها وقد ذكر الله وقال كلاما طيبا من تلاوة وتسبيح وتهليل ونحو ذلك، فما ينبغي القول إن ذلك كله مردود أو غير متقبَّل، وإنما يقال متقبَّل، وهو مكتوب له بالرغم من كونه عاصيا بتركه فرائض الله - وهو بذلك له حسناته وعليه سيئاته، والله يتقبَّل من المرء ما قدَّم من صالح القول والعمل، إن اجتنب الشرك.

قوله: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} {السَّيِّئَاتِ} منصوب على أنه مفعول لقوله: {يَمْكُرُونَ} أي يعملون السيئات - وقيل: صفة لمصدر محذوف وتقديره: يمكرون المكرات السيئات: ثم حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ١٣ والمراد بالذين يمكرون السيئات، أهل الشرك - وقيل: هم المراؤون بأعمالهم؛ فهم بذلك يمكرون بالناس؛ إذ يوهمونهم أنهم طائعون لله - وهم في الحقيقة بغيضون إليه، بعيدون من رحمته ورضوانه - وقيل: المراد بهم المشركون - والصواب أنها عامة لتشمل المشركين والمنافقين والمرائين والماكرين الذين يمكرون بالإسلام والمسلمين - أولئك جميعا {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي عذاب جهنم.

قوله: {وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} {مَكْرُ} مبتدأ، وخبره {يبور} هو ضمير فصل بين المبتدأ وخبره ١٤ {يبور} من البوار وهو الهلاك - والرجل البور: هو الفاسد الهالك الذي لا خير فيه - وكذلك المرأة البور - وقوم بور: أي هلكى - وأباره الله: أي أهلكه - وبار المتاع إذا كسد - وبارت البياعات: كسدت - وبارت الأيّم إذا لم يُرغَب فيها - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ من بوار الأيم، وبارت الأرض: إذا لم تزرع - وبار عمله: أي بطل ١٥ والمراد: أي الرياء، فإنهم ماكرون يخادعون الناس بأعمالهم، فإن أعمالهم صائرة إلى البوار، وهو الهلاك والبطلان.

وقيل: هم الذين مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم: فإما إثباته، أي حبسه - وإما قتله، أو إخراجُه - وقد مرَّ بيان ذلك في سورة الأنفال.

١١ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} ذلك برهان آخر من الله على بالغ قدرته وعظيم صفته وجزيل نعمته على العباد - فقد خلق الله الإنسان من تراب وهو أصل أبيه آدم، خلقه الله من طين ثم أمر ملائكته بالسجود له تعظيما وتكريما {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} وهي الماء قل أو كثر ١٦، وهي مزيج مختلط من ماء الرجل والمرأة ليتخلَّق منهما الولد ذكرا كان أو أنثى.

قوله: {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} أي زوَّج بعضكم بعضا، أو جعلكم أصنافا، أي ذكرانا وإناثا لتستوي الحياة على وجه الأرض فتظل عامرة بأهلها من الأناسي حتى يأتي وعدُ الله بزوال الدنيا.

قوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} أي يزوج الذكران من الإناث فيتناسلان بعلم الله بعد إلقاء النطف في الأرحام، ثم حصول الحمل، ثم التناسل، كل ذلك بعلم؛ فهو سبحانه لا يفوته من ذلك شيء ولا يعزب عن علمه بذلك أيما خبر.

قوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ} سماه معمرا بما هو صائر إليه - والمعنى: أن من قضيت له أن يعمَّر حتى يدركه الكبر، أو يعمَّر أنقص من ذلك، فكل بالغ أجله الذي قضي له، وكل ذلك في كتاب - فلا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب وهو اللوح المحفوظ؛ إذ هو مكتوب عند الله، قد علمهُ وأحصاه.

قوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} العلم بالآجال والأعمار، ما طال منها ومالا قُصر، وإحصاء ذلك كله على الخلْق سهل على الله غير متعذر عليه ١٧.

١٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

المرتد بالبحرين: النهر والبحر، فماء النهر عذب فرات - والفرات أعذب العذب - وهو سائغ شرابه أي سهل مدخله في الحلق ١٨ - وماء البحر ملح أُجاج؛ أي مرّ - وهذان صنفان من الماء مختلفان غير مستويين - وهذه ظاهرة من ظواهر الطبيعة العجاب التي تزجي بالدليل المستبين على عظيم قدرة الله وبالغ حكمته.

قوله: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} والمراد به السمك - وهو من الكائنات التي تعيش في الماء سواء فيه العذب أو الملْح - والسمك طعام نافع مستطاب جعله الله نعمة للعباد يصطادونه في الماء بغير عسر ولا مشقة.

قوله: {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} وهي اللؤلؤ والمرجان؛ إذْ يُستعملان للبس أو الافتراش أو غير ذلك من وجوه الزينة.

قوله: {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ} {الْفُلْكَ} السفن - و {مَوَاخِرَ}، يعني جواري - مَخَرت السفينة إذا جرت تشقُ الماء مع صوت ١٩، أي السفن الجواري في البحر تشق الماء بصدورها شقا وهي تخرُق عُباب البحر {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي ترمون التجارة في أسفاركم فتقطعون المسافات النائية والأقاليم الواسعة طلبا للرزق وتحقيقا للمعاش.

قوله: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي تشكرون الله على ما خوَّلكم من نعمة الطفْوِ على سطح الماء - فقد سخَّر الله لكم البحر ليحمل بكم السفائن فتبلغوا بها ما تريدون من البلدان حيث تقضون فيه حوائجكم ومصالحكم المختلفة.

وهذه ظاهرة عظيمة من ظواهر الطبيعة سخرها الله لنبي آدم ليسيروا على سطح لماء بمراكبهم وأمتعتهم الثقال وهم آمنون مطمئنون - وهذه ظاهرة فريدة خص الله بها الماء دون غيره من المائعات ٢٠.

١٣ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

قوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}.

هذا دليل آخر يسوقه الله – عز وعلا – مبينا فيه عظيم سلطانه وبالغ اقتداره، فإنه سبحانه {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أي يدخل الليل في النهار، وذلك بما ينقصه من الليل فيدخله في النهار، وهو كذلك يولج النهار في الليل، فما ينقصه الله من أجزاء النهار يدخله في الليل فيزيد في أجزائه - وهو انتقاص أحدهما من الآخر، وذلك بزيادة هذا في نقصان هذا - ونقصان هذا في زيادة هذا.

قول: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} وهذان جُرمان عظيمان سخرهما الله لعباده لما فيهما من جزيل المنافع؛ فالشمس جرم كوني هائل متوقّد أو هو كتلة هائلة من النار المتأجّجة الملتهبة يعدل حجمها مليونا وثلثا من المليون من أضعاف حجم الأرض - وهي بذلك تفيض على الدنيا بالدفء والحرارة والنور والضياء وكل أسباب البقاء والعيش على وجه هذه الأرض - وكذلك القمر؛ فإنه كوكب دائر سيّار حول الأرض، وقد جعله الله في مكانه المعتدل الموزون لتستوي الحياة على الأرض فتظل منسجمة معتدلة - وأيما اختلال في حجم القمر أو في مسافته وبُعْده عن الأرض سوف يفْضي لا محالة إلى اختلال مذهل واضطراب عظيم في وضع الأرض برمتها - ويضاف لذلك ما أودعه الله في القمر من بهجة السطوع الباهر الذي يملأ جوانب الأرض إشراقا وضياء - ويثير في نفوس العباد إحساسا غامرا بروعة الإيناس وجمال السكون المشعشع - لا جرم أن الشمس والقمر آيتان كبريان من آيات الله في الكون الواسع - آيتان تَشْدَهانِ الحس تديران الرأس وتَبعثان على اليقين بعظمة الخالق البديع المقتدر.

قوله: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} كلاهما يجري إلى وقت معلوم وهو يوم القيامة - وحينئذ تتوقف عجلة الحياة عن الحَراك والدوران، ويأخذ الزمان في لفظ أنفاسه الأخيرة - وذلك إيذان بفناء الحياة وفناء الزمان.

قوله: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ} هذا هو الله الخالق المقتدر الذي صنع كل ذلك وهو بديع السماوات الكائنات، وما حوته الأرض من كنوز ومذخورات، بيده مقاليد كل شيء، فهو وحده المعبود دون سواه من الشركاء والأنداد.

قوله: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} القطمير: القشرة الرقيقة التي على النواة، كاللفافة لها ٢١ يعني ما تعبدونه – أيها المشركون – من الآلهة المصطنعة كالأصنام والأوثان ٢٢ لا يقدرون على شيء ولا يملكون مثقال قشرة أو لفافة تحيط بالنواة وهي في غاية البساطة والامتهان.

١٤ - (إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

قوله: {إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ} يعني إن تنادوهم مستغيثين بهم عند النائبات فهم لا يسمعون نداءكم؛ لأن ما تعبدونهم ليسوا

غير جمادات لا تسمع ولا تعقل ولا ترى.

قوله: {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} أي لو سمعوا نداءكم أو دعاءكم إياهم وفهموا ما تبتغون منهم لما استجابوا لكم وما نفعوكم؛ لأنهم عاجزون عن نفعكم وكشف الضر والنوائب عنكم - فما ينبغي لكم بعد أن أيقنتم بهذه الحقيقة أن تعبدوا غير الله الخالق المقتدر؛ فهو المعبود وحده دون سواه من المخاليق.

قوله: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} يبين الله للمشركين الغافلين السادرين في الضلالة والتيه أن هذه الآلهة المزعومة التي عبدتموها من دون الله تتبرأ منكم يوم القيامة منكم ومن إشراككم إياها، وتتبرأ من أن يكون شركاء لله في الدنيا - ويومئذ يعضكم الندم ويحيط بكم اليأس والخسران فتبوءون بالويل والوبال وسوء المصير.

قوله: {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم قائلا له: إنه ليس من أحد يخبرك يا محمد بمثل هذه الحقائق والأخبار وبما تصير إليه الأمور في الدنيا والآخرة مثل ذي خبرة عليم بذلك - والمراد هو الله سبحانه؛ فهو العليم الخبير بما يجري وبما هو آتٍ ٢٣

١٥ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}.

ذلك إعلان من الله لعباده يخبرهم فيه أنهم محتاجون إلى ربهم؛ فهو المالك القادر الذي خلق كل شيء وقدّره تقديرا - وهو الذي أوجد الناس وجعل لهم القدرات والطاقات والأسباب؛ ليحيوا على هذه الأرض آمنين مستقرين؛ فهو سبحانه مصدر بقائهم ووجودهم - وهم بذلك فقراء إلى جلاله بالغ الفقر، ومحتاجون دوما إلى رحمته وفضله - وهو سبحانه {الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} الله الغني بملكوته وجبروته وعظيم سلطانه، المهيمن على الوجود كله، وهو سبحانه المحمود الذي يستحق الثناء والشكران والعبادة على ما منَّ به على الخلْق من جزيل النعم.

١٦ - (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

قوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} إن يشأ الله ببالغ اقتداره ومطلق إرادته – أن يهلككم أيها الناس أو يفنيكم فإنه قادر على فعل ذلك - وهو إهلاككم وإفناؤكم - فهو الذي أوجدكم وأنشأكم {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} أي يأت بخلْق آخرين سواكم وهم أطوع منكم؛ إذ يأتمرون بأمره وينتهون عن نواهيه.

١٧ - (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

قوله: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} أي ليس إذهابكم وإفناؤكم والإتيان بآخرين سواكم مما يصعب على الله فعله؛ بل إن ذلك على الله سهل ويسير - فخير لكم أن تخشوا ربكم وتبادروا لطاعته وتذعنوا له وحده بالامتثال والإنابة دون غيره من المخاليق.

١٨ - (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

قوله: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {تزر} من الوزر، بكسر الواو، وسكون الزاي، وهو الإثم أو الحمل الثقيل - ومنه وزر يزر إذا حمل الإثم - والوزارَة: النفسُ المثقلة بالحمل ٢٤؛ أي لا تحمل نفس آثمة إثمَ نفس أخرى غيرها - وذلك يوم القيامة - يوم التلاقي والفرار والفزع - حينئذ لا يجير أحد غيره من العذاب ولا يدفع عنه شيئا مما هو نازل به ولا يحمل عنه من الذنب ولو بمثقال حبة من خردل

- فما يحمل إنسان من غيره شيئا من وِزْر.
قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ يعني: إنْ تسألْ نفس مُثْقلةٌ بالذنوب والآثام، من يحمل عنها ذنوبها وآثامها أو بعضا منها فإنها لا تجدُ من يحملُ عنها شيئا منها ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي ولو كان الذي سألته ذا قرابة منها كأب أو أم أو أخ أو غيره من أولي القربى - فكل امرئ يوم القيامة مشغول بنفسه، مذهول من فرْط همومه وفزعه وما ينتظره من مصير.
وقيل: المراد بهذه الآية أن المرأة تَلقى ولدها يوم القيامة فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاءً، ألم يكن ثدي لك سقاءً، ألم يكن حجري لك وطاءً، فيقول: بلى يا أُمّاه - فتقول: يا بني، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنبا واحدا، فيقول: إليك عني يا أُمّاه، فإني بذنبي عنك مشغول.
قوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ يعني إنما يتقبّلُ منك الإنذار والموعظةُ وما جئت به من عند الله، الذين يخافون ربهم ويخشون عذابه ويوقنون يوم القيامة، والذين يقيمون الصلاة محافظين عليها مفرطين - وقد خصَّ الصلاة من بين العبادات: بالنظر لأهميتها البالغة، فهي ركن الدين وعماده.
قوله: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن تطهّر من الأدناس والأرجاس والخطايا وخشي الله في نفسه فأطاعه والتزم شرعه وأناب إليه فإنما يعود جزاء ذلك كله على نفسه فهو الفائز والمأجور.
قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ سائر الخلْق صائرون إلى الله، فإليه المرجعُ والمآب، ليجزي كل نفس بما عملت من خير أو سوء ٢٥.
١٩ - (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)
قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.
ضرب الله هذه الأمثلة ليبين فيها سعة البون والاختلاف بين أهل الجنة وأهل النار أو بين الحق وأهله وأشياعه، والباطل وجنده وأعوانه - لا جرم أنهما فريقان متباينان مفترقان افتراق النور والظلمة، أو الهداية والعماية.
لقد ضرب الله مثلا الأعمى والبصير، للكافر والمؤمن، وهما لا يستويان، فإنه لا يستوي من عمي قلبه وعقله عن سبيل الحق، ومن آمن واهتدى، وسلك سبيل الرشاد - إنهما لا يستويان بل إنهما مختلفان متباينان وبينهما من سعة البَوْن ما بين المشرق والمغرب، أو ما بين الحق والباطل.
٢٠ - (وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ)
وكذلك الظلمات، فإنها صورة عن الكفر والضلال والباطل - فالساربُ في ذلك سادر في التيه والعمى - بخلاف النور فإنه يراد به الحق واليقين، وإنما يتجلى ذلك في دين الله المستقيم ومنهجه الحق لهداية الناس والعالمين وهما كلاهما متفرقان مختلفان لا يستويان.
٢١ - (وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ)
وكذلك الظل وهو معروف - وهو غير الفيء الذي لا يكون إلا بعد الزوال، فلا يقال لما قبل الزوال فيء، لكن الظل ما يكون بالغُدوّ والعشي، وقيل: من الطلوع إلى الزوال ٢٦ - أما الحَرور، بالفتح، فهو الريح الحارة وهي كالسموم - ولا يكون الحرور إلا مع شمس النهار، فهو كائن بالنهار خاصة - وقيل: يكون الحرور بالليل والنهار ٢٧ - وهذان صنفان من الزمان والطبيعة لا يستويان، بل إنهما مختلفان، وهما في اختلافهما وتباينهما مثلان للحق والباطل - فإن الحق يفضي إلى الجنة حيث النعيم المقيم - بخلاف الباطل، فإنه يصير بأهله إلى الرذيلة والضلال والفحش في الدنيا - ويوم القيامة يردون إلى النار.
٢٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

قوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ} الأحياء مثلٌ للمؤمنين فقد أحيا الله بصائرهم بنور الإيمان، وأرشدهم إلى ما فيه الهداية والسداد، وألهمهم الخير والرشد والصواب - وأما الأموات فهم مثل للكافرين الخاسرين، فإن قلوبهم كزّة وغُلْف لا يفضي إليها الإيمان بما خُتم عليها - وهذان الصنفان من الأناسي لا يستويان - بل إنهما مختلفان اختلافا ظاهرا وكبيرا.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ} الله يُسمع آياته وحججه وعباده الطيبين الذين علم أنهم مؤمنون، فيهديهم لطاعته - قال الزمخشري في تأويل هذه الآية: يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه - فيهدي الذي قد علم أن الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه.

قوله: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} الكافرون الخاسرون بمنزلة الموتى من أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه من الآيات و العظات - فهم خامدو هامدون رِمَم وكذلك الكفرة الجاحدون، فإن قلوبهم قد طبع عليها، فهي لا تعي ولا تستجيب ولا تريم ٢٨.

٢٣ - (إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ)

قوله: {إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ} أي ليس عليك هداهم وإنما يناط بك وجيبة التبليغ فما أنت إلا مُبلّغ والله وحده الهادي إلى سواء السبيل.

٢٤ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)

قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أرسل الله رسوله محمدا بالحق وهو الإيمان بالله واتباع منهاجه الذي افترضه على عباده - فذلكم حق جيء به من عند الله - والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الناس إلى الإسلام يبشر المؤمنين المهتدين بالنجاة والفوز برحمة الله ورضوانه والجنة - وكذلك فإنه ينذر الظالمين المكذبين الذين يرفضون مفارقة الأوثان والأوهام والباطل، أي يحذرهم ويخوّفهم عقاب الله.

قوله: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} أي ليس من أمة من الأمم إلا سلف فيها نبي ينذرهم بأس الله ويخوفهم عقابه ويحذرهم سوء المصير.

٢٥ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

قوله: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} وهذا تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول له مسليا كيلا يبتئس بكفر قومه: إنْ يكذبك هؤلاء المشركون يا محمد فقد كذّب الذين خلوا من الأمم السالفة أنبياءهم {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي جاءوهم بالدلائل الواضحة والمعجزات الباهرة {وَبِالزُّبُرِ} أي الصحف المكتوبة يدعوهم فيها أنبياؤهم إلى دين الله الحق {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} مثل التوراة والإنجيل والزبور - وهي كتب كريمة فيها هدايتهم إلى الله وترشيدهم إلى ملة التوحيد.

٢٦ - (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

قوله: {ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي بعد الذي جاءهم من الحق والدلائل، الواضحة والمعجزات الظاهرة التي حملها إليهم المرسلون، فإنهم مع ذلك كله كفروا ونكَلوا عن الحق، وأبوا إلا التكذيب والجحود وعبادة الأوثان - من أجل ذلك أخذهم الله بالعقاب الشديد والنكال الأليم {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي انظر يا محمد كيف كان عقابي لهم أليما وجيعا ٢٩.

٢٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}.

يبين الله كمال قدرته وبالغ إرادته، إذ ينشئ في الخلق ما يشاء من الكائنات والمخلوقات، كإنبات الزروع والثمرات عقب نزول الماء من

السماء - وهو قوله سبحانه عن عظيم شأنه وجلال قدره: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} خلق الله من الماء الواحد أصنافا شتى من النبات بألوانه المختلفة وطعومه المتنوعة وروائحه المتعددة العجاب، والماء الساقي واحد - كقوله: {يُسقى بماء واحد ونُفضل على بعض في الأكل}.

قوله: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} الجدد جمع جدة بضم الجيم وتشديد الدال، وهي الطريقة - والجُدَد، بمعنى الطرائق المختلفة الألوان والتي تخالف لون الجبل ٣٠.

قوله: {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} الغرابيب: الجبال السود الطوال - ومفردها غِربيب - وقيل: غربيب، شديد السواد - والسّود في الآية بدل من غرابيب؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم ٣١ وفي الخبر: " إن الله يكره الشيخ الغِربيب " يعني الذي يخْضِب بالسواد.

٢٨ - (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

قوله: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} أي وكذلك الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها - فالناس فيهم السود والبيض والسمر - وفيهم أولو بشرة صفراء وحمراء، وفيهم ما بين ذلك من الألوان وكذلك الدواب: جمع دابة، وهي كل حيوان دبّ على الأرض ٣٢، والأنعام من باب عطف الخاص على العام - والمراد بها الإبل والبقر والغنم - فذلك كذلك ألوانه مختلفة كاختلاف ألوان الناس - والهاء في قوله: {أَلْوَانُهُ} تعود على موصوف محذوف وتقديره: خَلْق مختلف ألوانه - و {أَلْوَانُهُ} مرفوع على أنه فاعل لاسم الفاعل، {مُخْتَلِفٌ} ٣٣.

على أن ما ذُكر في الآية من إخراج الثمرات بألوانها وطعومها وروائحها المختلفة، وما في الجبال من طرائق مختلفة الأشكال والألوان، فإن ذلك كله يدل على قدرة الصانع الحكيم ذي القوة والجلال والملكوت الذي تذعن له القلوب والنواصي بالخشية والخضوع والطاعة والعبادة.

قوله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} أولئك أهل النباهة والفطانة والتقوى الذين آمنوا بالله ورسوله، وأيقنوا بالمعاد في اليوم الآخر وأن الله جامع الناس ليوم لا ريب فيه - أولئك الذين يخشون الله ويحرصون أشد الحرص على طاعته والتزام أوامره وشرائعه سبحانه.

قال ابن عباس في تأويل الآية: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئا وأحل حلاله وحرّم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله.

وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه.

وقال الزمخشري في تأويل الآية: المراد بالعلماء به الذين علموه صفاته وعدله وتوحيده، وما يجوز عليه وما لا يجوز، فعظموه وقدروه حق قدره وخشوه حق خشيته.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} الله قوي ذو بأس شديد، قاهر للعصاة والمستكبرين - ومنتقم من الطغاة المتجبرين - وهو سبحانه غفار لذنوب عباده التائبين المستغفرين ٣٤

٢٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}.

يبين الله حقيقة ما يبتغيه عباده المؤمنين الذين يتلون كتاب ربهم ويتدبرون آياته، والذين يقيمون الصلاة وما كان منها مفروضا أو مندوبا، وينفقون مما رزقهم الله سرّا، والمراد بذلك صدقة التطوع، أو ما كان منها علانية وهي الزكاة المفروضة، فأولئك المؤمنون العابدون {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} {يَرْجُونَ} خبر إن، و {تَبُورَ} من البوار وهو الكساد ٣٥، والمراد بالتجارة هنا طلب الثواب ببذل الطاعات وعمل الصالحات - أولئك يبتغون بذلك المثوبة من الله وحسن الجزاء.

٣٠ - (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

قوله: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ} يرتجي المؤمنون الصالحون تجارة ينتفي عنها الكسادُ وتنفق عند الله ليوفيهم بنَفاقها عنده ما يستحقونه من الأجر وعظيم الجزاء {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي يجزيهم الله من المثوبة والأجر أضعافا كثيرة.

قوله: {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} الله غفار لذنوبهم متجاوز عن سيئاتهم - وهو سبحانه {شَكُورٌ} يتقبل منهم من الأعمال ما قلَّ ويثيبهم عليه جزيل الثواب ٣٦.

٣١ - (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ}.

أي ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب يراد به القرآن، وهو الحق الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه بما تضمنه من جليل المعاني والأحكام والآيات والعبر - وذلكم كله حق من عند الله يهدي به الله عباده إلى الصواب والسداد.

قوله: {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} {مُصَدِّقًا}، حال مؤكدة - أي أنزلهُ الله مصدقا لما مضى من الكتب السماوية المتقدمة.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} الله لذو علم بما يفعله العباد - وهو سبحانه بصير بما يصلحهم وبما تستقيم عليه أحوالهم.

٣٢ - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}.

المراد بالكتاب في الآية، كل كتاب أنزله إلى عباده - وقيل: المراد به القرآن الحكيم، فقد اصطفى الله من عباده هذه الأمة المباركة الفضلى، لتقوم بكتابه الحكيم فتبشر الناس بعلومه وأخباره وأحكامه، وما تضمنه للعالمين من منهج قويم تهتدي به البشرية، لتحيى به آمنة مطمئنة، مبرأة من الأمراض والمفاسد والشرور، ثم قسَّم الله هذه الأمة من حيث احتمالها لكتابه الحكيم ومدى التزامها بشريعته وأحكامه فجعلهم أصنافا ثلاثة.

أما الصنف الأول: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} واختلفوا في تأويله - فقيل: ذلكم المفرِّط في دينه، المخالف أمر ربه - وقيل: الكافر أو الفاسق - وقيل: هو المؤمن العاصي - وهو الأولى بالصواب، لأن الكافرين المفرطين الفاسقين عن أمر الله لا يكونون في زمرة المسلمين الذين اصطفاهم الله لحمل كتابه وتبليغه للناس.

وأما الصنف الثاني: {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} عرّفه ابن كثير رحمه الله بقوله: هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات.

وأما الصنف الثالث: {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} وهو الذي يفعل الواجبات والمندوبات ولا يأتي المناهي والمكروهات قال ابن عباس في تأويل قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ} الآية: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ورَّثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقُهم يدخلُ الجنة بغير حساب.

وذكر عن عبد الله بن مسعود أنه قال في ذلك: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب - وثلث يحاسَبون حسابا يسيرا، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول ما هؤلاء – وهو أعلم تبارك وتعالى – فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يُشركوا بك فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي.

قوله: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} {ذَلِكَ}، في موضع رفع مبتدأ - وخبره {الْفَضْلُ} و {هو} ضمير فصل بين المبتدأ وخبره - و {الْكَبِيرُ}

صفة للخبر - ويجوز أن يقال: {ذَلِكَ}، مبتدأ أول - و {هو} مبتدأ ثان - و {الفضل} خبر المبتدأ الثاني - والمبتدأ الثاني وخبره، خبر عن المبتدأ الأول ٣٧.

والمعنى: أن إيتاء الكتاب لهذه الأمة فضل كبير من الله لهم - ما وعدهم الله به جميعا من الجنة له فضل من الله كبير - وقيل: الإشارة عائدة إلى السابق بالخيرات - فسَبْقُهُ بالخيرات وما أعده الله له من عظيم الجزاء لهو فضل من الله كبير فُضِّلَ به على من دونه في المنزلة.

٣٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

قوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} جنات إقامة دائمة يدخلها هؤلاء الذين اصطفيناهم وأورثناهم الكتاب، جزاء بما عملوا من الطاعات ومجانبة المعاصي ثم {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} أي يلبسون في جنات الخلد والإقامة المستديمة أسورة من ذهب كان لبسها محرما عليهم في الدنيا - وكذلك اللؤلؤ والحرير لباس لهم في الجنة، يتنعمون بهما ويجدون بهما من حسن الهيئة وجمال المنظر ما يزيدهم حبورا وابتهاجا.

٣٤ - (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

قوله: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} يحمدون الله أن أذهب عنهم الحزن - وقيل: المراد به الخوف من النار - وقيل: الموت - وقيل: هموم الدنيا والآخرة وأحزانهما - وهو الأولى بالصواب؛ فقد روى الطبراني بسنده عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور وكأني أنظر إليهم ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}.

قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات.

٣٥ - (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

قوله: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ} يحمدون الله الذي أنزلهم {دَارَ الْمُقَامَةِ} أي دار الإقامة الدائمة التي لا نقلة منها ولا تحوّل عنها وهي الجنة، دار البقاء المستديم الذي لا يفنى ولا يزول {مِنْ فَضْلِهِ} أي من إفضاله وجزيل عطائه وواسع رحمته.

قوله: {لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} النصب، معناه التعب ٣٨ واللغوب، معناه الإعياء والعناء ٣٩ - أي يحمدون الله أنْ أنزلهم الجنة حيث الأمن والسعادة والقرار الدائم فلا يصيبهم فيها تعب من أتعاب الدنيا - قال الزمخشري في الفرق بين النصب واللغوب: النَصَب نفس المشقة والتعب - أما اللغوب فما يلحق الناصب المتْعَب من الفتور بسبب النصب - أو ما يعقب التعب من الكلال ٤٠.

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}.

بعد أن ذكر الله حال المؤمنين من أهل النجاة الذين يسعدون بدخول الجنة، فيمكثون لابثين في نعيمها الدائم – شرع سبحانه في بيان أهل الشقاء والتعْس من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما قدموا من الكفران والمعاصي - أولئك يكبكبون في النار على وجوههم ليجدوا فيها الهوان والعذاب وفظاعة التحريق - وهو قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} يعني الذين كفروا بالله ورسوله والدار الآخرة أعدَّ لهم نار جهنم يلبثون في سعيرها المتأجج اللاهب خالدين لا يبرحون {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا} {فَيَمُوتُوا} منصوب على جواب النفي بالفاء بتقديره " أن " ٤١ - أي لا يموتون في جهنم، فإنهم لو ماتوا استراحوا ولكنهم لابثون دائما {وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} أي لا يخفف عنهم من فظاعة النار واشتداد لهيبها المتوقد ولو بمقدار طرفة عين.

قوله: {كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} الكاف في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف والتقدير: مثل ذلك الجزاء نجزي كل كفور - وهو الجحود لنعم الله، فالله يكافئه مثل ذلك العذاب الحارق الأليم الذي يجد فيه الجاحدون العصاة من فظاعة التنكيل وشدة اللظى المستعر ما لو أصاب الجبال لا نماعت فيها انمياعا.

٣٧ - (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

قوله: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} أي يجأرون على الله بالصراخ العالي، مستغيثين يطلبون الرحمة والتخفيف من فظاعة الويل والتحريق، قائلين: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} ينادون ربهم سائلينه إخراجهم من النار وإرجاعهم إلى الدنيا ليعملوا غير ما عملوه من الشرك والمعاصي في السابق بل يفيئون إلى الإيمان وعمل الصالحات لكن هذه الاستغاثة وذلكم الصياح لا يغنيهم من العذاب شيئا، فإنهم في النار لابثون ماكثون ويقال لهم: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} وذلك توبيخ من الله لهم - فقد جعل لهم من العمر في الدنيا ما يكفي للإيمان والتذكر والإنابة وعمل الصالحات لكنهم فرّطوا فيما جعل الله لهم من العمر - والمعنى: أو لم نجعل لكم أعمارا في الدنيا لو انتفعتم فيها بعبادة الله لنجوتم.

وقد اختلفوا في مقدار العمر المراد هنا - فقد قيل: إنه أربعون سنة وهي رواية عن ابن عباس - وفي رواية عنه أخرى وهي أصح، على أن المراد ستون سنة - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لقد أعذر الله تعالى إلى عبدٍ أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة - لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر اللهُ تعالى إليه " وروى البخاري كذلك عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة " وأعذر إليه معناه، بلغ به أقصى العذر - ومنه قولهم: قد أعذر من أنذر - والمعنى: أن من عمَّره الله ستين سنة أو سبعين لم يبق له عذر.

قوله: {وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} النذير معناه الإنذار، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المنذر المبلغ الأمين - وقيل: المراد به الشيب - والأول أظهر قوله: {هذا نذير من النذر الأولى}.

قوله: {فذوقوا} أي اصلوا نار جهنم {فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} أي ليس لهم من مغيث ولا معين يجيرهم من النار أو يخفف عنهم ما هم فيه من سوء العذاب ٤٢.

٣٨ - (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا}.

ذلك تخويف من الله لعباده، إذ يحذرهم بأسه وبطشه، ويبين لهم أنه عليم بكل خبر، سرّا كان أو علانية - وهو سبحانه محيط علمه بكل ما حوته السماوات والأرض من أخبار وأسرار وأستار - وهو يعلم ما تكنه صدور العباد من خفايا - فما يكون لأحد ذي عقل أن يستتر من رب العالمين، فإنه لا تخفى عليه خافية - وما على الناس بذلك إلا أن يخشوا ربهم فيراقبوه في السر والعلن ويتجنبوا ما نهى عنه أو حذر منه أو زجر.

٣٩ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا)

قوله: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ} أي جعلكم خلفا بعد خلف، أو أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن.

قوله: {فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} من أعرض وأدبر عن صراط الله ودينه الحق فإنه لا يجني بكفره وعصيانه إلا على نفسه ولا يضيرُ ذلك

أحدا غيره فهو الذي يحيق به العذاب.

قوله: {وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا} المقت، معناه البغض الشديد ٤٣ يعني: الكافرون الجاحدون لنعمة الإيمان، العاصون لأمر الله لا يزيدهم ذلك من الله إلا بغضا شديدا وبعدا من رحمته.

قوله: {وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا} أي لا يزيدهم جحودهم وإشراكهم إلا إيغالا في الضلال الذي يفضي بهم إلى الهلاك وسوء المصير في النار.

٤٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا)

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

أي قل للمشركين من قومك يا محمد: أرأيتم أصنامكم هذه التي تعبدونها من دون الله أروني ما الذي خلقوه من الأرض - هل يستطيعون أن يخلقوا شيئا وهم ليسوا إلا أشباحا وتماثيل لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل {أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ} أم لهذه الأصنام التي تعبدونها أيما شركة مع الله في خلق السماوات.

قوله: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ} أم أنزلنا على هؤلاء المشركين الضالين كتابا من السماء فيه خبر هذه الشركة فهو يأمرهم أن يشركوا أصنامهم في عبادة الله.

قوله: {بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا} أي بل ما يعدُ المشركون بعضهم بعضا إلا الأباطيل والضلالات والزور - وهو قول السادة والكبراء للدهماء والرعاع - إن هذه الأصنام تقرّبنا إلى الله زُلفى أو إنها لها شركة مع الله في خلق السماوات والأرض - وليس ذلك إلا الزور والإيغال في الباطل.

٤١ - (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} {يُمْسِكُ} من الإمساك وهو المنع - نقول: مسك الله الغيث أي حبسه ومنع نزوله ٤٤ و {أن}، بمعنى كراهة أن، أو لئلا - والمعنى: أن الله مانع السماوات والأرض من الزوال والاضطراب والتداعي - أو هو سبحانه يمنعهما بقدرته العظيمة من الزوال من أماكنهما {وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ} أي لو زالت السماوات والأرض من أماكنهما ما منعهما من أحد غير الله من ذلك - فليس من أحد سوى الله بقادر على إبقائهما على حالهما من كمال البناء وقوة التماسك.

قوله: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} لا يعاجل الله الكافرين بالعقوبة بما فعلوه من كفر وعصيان وبما قالوه من شرك عظيم - فإن ما قالوه من الشرك كاتخاذ الآلهة والأنداد مع الله ونسبة الولد له والصاحبة، كل ذلك تكاد السماوات يتفطرن منه أو تزول من أماكنها بسببه أو تخرَّ به الجبال انهدادا أو تنشق الأرض انشقاقا، لكن الله بحلمه ومغفرته منعهما من ذلك ٤٥.

٤٢ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُم نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا)

قوله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا}.

قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، كان قد بَلَغَ المشركين العرب أن أهل الكتاب كذبوا أنبياءهم ولعنوا من كذَّب منهم نبيه

وأقسموا بالله أشد الأيمان {لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ} أي لئن بعث الله إليهم رسولا مبلّغا وهاديا ليكونن أكثر إيمانا به وأعظم قبولا لدين الله من سائر الأمم الذين أرسل الله إليهم رسله.

قوله: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا} النفور، معناه الإعراض والصدّ ٤٦ يعني لما جاءهم رسول من عند الله يبلغهم رسالة ربه ويدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالإلهية والتحرر كليّا من أوضار وضلالات الجاهلية، ولّوْا مدبرين معرضين وما زادتهم دعوته إلا بعدا عن الحق ومجانبة لصراط الله القويم {اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ}.

٤٣ - (اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا)

{اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ} {اسْتِكْبَارًا} مفعول له ٤٧ أي لم يزدهم مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم إلا نفورا {اسْتِكْبَارًا} أي علوا في الأرض وعتوّا عن أمر الله {وَمَكْرَ السَّيِّئِ} مكر، منصوب على المصدر ٤٨ والمكر ههنا بمعنى الشرك - أي مكروا مكر السيئ وهو الكفر وصد الناس عن الإيمان - وبذلك قد مكروا بالناس بصدهم عن دين الله.

قوله: {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ} يحيق بمعنى ينزل أو يحيط، أي لا تنزل عاقبة الظلم إلا بالظالم نفسه - أو لا ينزل وبال المكر السيئ إلا بالذين يمكرونه - فلا يحل مكروه ذلك المكر إلا بهؤلاء المشركين الماكرين.

ويُفهم من ذلك التنبيه على مجانبة الخداع والمكر والخيانة - فإن هذا الدين قائم على طُهر السريرة من الأرجاس النفيسة كالغل والحسد والغدر والخديعة - فإن هذه خسائس ليست من أخلاق المؤمنين الذين التزموا الإسلام عقيدة ومنهاجا - بل إن تلكم من أخلاق الكافرين والمنافقين والمرائين والماكرين.

قوله: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ} المراد بسنة الله، إنزال العقاب بالمكذبين المدبرين العصاة - وهذا تهديد من الله يتوعد به كل أمة تعرض عن صراطه المستقيم وتضل عاتية مستكبرة، فإنه مصيبها من العقاب المدمِّر ما أصاب السابقين الجاحدين - وهو قوله: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ} أي هل ينتظر هؤلاء المشركين الجاحدون إلا أن يحيط بهم عذاب الله كما أحاط بالمكذبين من قبلهم. وهذه سنة الله في العتاة العصاة الذين يخالفون عن أمره.

قوله: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} أي جعل الله العقاب في المخالفين الجاحدين سنة مقدورة فيهم بسبب تكذيبهم وعصيانهم - وهي سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا} أي لا تحويل لسنة الله في عقاب الظالمين المجرمين، فهو حائق بهم ولن يتحول عنهم إلى غيرهم ٤٩

٤٤ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}

أي قل لهؤلاء المشركين المكذبين يا محمد: أو لم تروا في أسفاركم ما حلَّ بالذين خلوا من قبلكم من الأمم الكافرة، من العقاب - فقد أهلكهم الله ودمَّر عليهم وأذهب سلطانهم ووجودهم - وهذه بيوتهم الخاوية ومساكنهم التي أتى عليها الخراب والتدمير تشهد بما حاق بهم من سخط الله وعقابه الماحق، وقد كانوا أشد قوة وبطشا من هؤلاء المشركين.

قوله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ} أي لن يُعجز اللهَ تعذيب هؤلاء المشركين الضالين إن أراد الله أن يعاقبهم أو ينتقم منهم.

إنهم لا يعجزونه هربا من سلطانه وملكوته فهو سبحانه محيط بهم وهو قادر على إفنائهم وقطع دابرهم - وليس من قوة أو شيء في السماوات والأرض بقادر على دفع البلاء أو العقاب عن الظالمين إن أراد الله أن يحله بهم {إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} الله عليم بأحوال عباده وبما هم عليه من الضلال أو الهداية - وهو سبحانه قادر أن ينتقم من الظالمين المكذبين فيهلكهم أو يذلهم.

٤٥ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

قوله: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} يعني لو يعاقب الله الناس بما فعلوه من الذنوب والمعاصي لأهلك كل ما على الأرض من نسمة تدب عليها سواء في ذلك بنو آدم وغيرهم من سائر الدواب وقيل: المراد بنو آدم دون غيرهم من الدواب التي لا تعقل - والمعنى الأول أظهر للآثار الواردة في ذلك - منه قول ابن مسعود: كاد الجُعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم.

قوله: {وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي يؤخر اللهُ عقاب العصاة والمذنبين إلى أجل معلوم عند - وقيل: يؤخر ذلك إلى يوم القيامة فإن عذابهم فيها أليم شديد.

قوله: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} إذا جاء أجل العقاب فإن الله عليم بمن يستحق العقاب من المجرمين، وبمن كان مطيعا لله فينجو.

٣٦ سورة يس:

سورة يس:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها، وفيها من جليل المعاني والأمثال وألوان التذكير والتحذير والعبر ما فيه للناس من بالغ المزدجر وما به ينبهر أولو النُّهى ويزداد به النابهون الذاكرون يقينا بأن هذا القرآن معجز وأنه منزّل من لدن حكيم خبير مقتدر.

وتعْرِضُ هذه السورة لفيض من الحقائق والمشاهد والعبر المختلفة التي تلتئم فيما بينها وتنسجم لتتكون من مجموعها هذه السورة المباركة الفضلى وهي سورة تفيض بالبركة والعظة والنور، وفيها من بالغ المواعظ ما يمسُّ الحس والوجدان أوقع حس.

وفي بركة هذه السورة وعظيم شأنها أخرج أبو يعلى عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ يس في ليلة، أصبح مغفورا له " وروى الإمام أحمد عن معقل بن يسار (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اقرؤوها على موتاكم " يعني يس - والمراد قراءتها عند الاحتضار تسهيلا لخروج الروح، ولهذا قال بعض العلماء: إن من خصائص سورة يس أن لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسَّره الله تعالى، وذلك لأن قراءتها عند الميت تتنزل بها الرحمة والبركة، فيسهل عليه خروج الروح.

١ - (يس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}.

اختلفوا في المراد بقوله: {يس} على عدة أقوال منها: أن هذا قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله تعالى - ومنها: أن {يس} يعني: يا إنسان بلسان الحبشة، أو يا رجل - ومنها: أنه كنّى به النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: يا ياسين - أي يا سيد - ومنها: أنه اسم من أسماء القرآن - ومنها: أنه مفتاح كلام افتتح الله به كلامه - والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

٢ - (وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ)
قوله: {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} ذلك قسم من الله جل جلاله بقرآنه الحكيم؛ أي المحكم في بيناته ودلائله وأحكامه، فلا يأتي عليه بطلان ولا وهن ولا تناقض - وإنما هو الكلام المتقن الرصين القوي في معناه ومبناه، العجيب في لفظه وما حواه من بالغ الحكمة وكمال المضمون.
٣ - (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)
قوله: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} يُقسم الله بقرآنه الحكيم على أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أرسله للناس بشيرا ومبلغا للعالمين - فهو أحد النبيين المرسلين الذين نطت بهم وجيبة النبوة وتبليغ الناس دعوة الله.
٤ - (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
قوله: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هذه شهادة إلهية جليلة قدسية بأن محمدا صلى الله عليه وسلم مبعوث من ربه هداية للعالمين، وأنه على طريق الله الحق المبين الذي لا زيغ فيه ولا اعوجاج - وذلكم هو طريق الإسلام، دين الله القويم.
٥ - (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)
قوله: {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} {تَنْزِيلَ}، منصوب على المصدر - وهو مصدر نزَّل، بالتشديد - يقال: نزَّل تنزيلا - مثل رتّل ترتيلا، وقتّل تقتيلا - وهو مضاف إلى الفاعل - وقرئ (تنزيلُ) بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو تنزيل ١
قال الإمام الطبري رحمه الله في ذلك: والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ، فمصيب الصواب.
والمعنى: أن هذا الصراط المستقيم، وهو دين الله المتين ومنهجه الحق للعالمين الذي جاءك يا محمد، لهو تنزيل من الله {الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي القوي المنتقم من العصاة والظالمين، الرءوف بالتائبين المنيبين.
٦ - (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)
قوله: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} المراد بالقوم في أظهر الأقوال، هذه الأمة؛ فإنهم كانوا أهل فترة ولم يأتهم نذير حتى بعث الله إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم مبشر ونذيرا.
وقوله: {فَهُمْ غَافِلُونَ} أي كانوا أهل فترة لم يأتهم فيها رسول فكانوا في غفلة عن الهدى وملة التوحيد، وكانوا سادرين في الشرك والضلال.
٧ - (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} {حَقَّ الْقَوْلُ}، أي وجب العقاب من الله على أكثر الناس؛ لأنهم لا يؤمنون - فقد علم الله أنهم غير مؤمنين به وحده، وأنهم غير مصدقي رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بل إنهم ضالون مكذبون سادرون في ضلالة الجاهلية والوثنية.
٨ - (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ)
قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}.
الأغلال جمع غل بالضم وهو الطوق من الحديد في العنق ٢ فالأغلال بمعنى القيود والأصفاد - والأذقان جمع ذقن وهي مجمع اللحيين - و {مُقْمَحُونَ}، جمع مقمح من الإقماح وهو رفع الرأس وغض البصر - أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه ٣، والمعنى: أن هؤلاء الضالين المشركين الذين ختم الله على قلوبهم مبعدون من الإيمان والرحمة مغلولون عن كل خير فهم كمن جُعل في عنقه غُل

فجُمعت به يداه في عنقه تحت ذقنه فصار رأسه مُقحما أي مرتفعا - وهذا مثل ضربه الله لهؤلاء المشركين المكذبين، في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول من بسط يديه بخير.

٩ - (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)

قوله: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} السدّ، معناه الحاجز - فقد جعل الله من أمام هؤلاء الضالين حاجزا ومن خلفهم حاجزا - والمراد به الضلالات - فهم مترددون في الضلالات، زائغون بها عن الحق.

قوله: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} يعني أغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة فلا ترى شيئا - أو ألبسنا أبصارهم غشاوة كيلا يروا.

وقيل: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه - فخرج عليهم الصلاة والسلام وهو يقرأ {يس} وفي يده تراب فرماهم به وقرأ {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} فأطرقوا حتى مر عليهم عليه السلام.

وذكر محمد بن إسحق في السيرة عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن - وإنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها، وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وفي يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دون فجعل يذرّها على رؤوسهم ويقرأ {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} حتى انتهى إلى قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمدا - قال: وقد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه ترابا ثم ذهب لحاجته - فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب.

١٠ - (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} أي ختم الله على قلوب الكافرين بالضلالة فما ينفعهم الإنذار ولا يؤثر فيهم - بل إن الإنذار وعدمه سيان في عدم وقوع الإيمان منهم

١١ - (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

{إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} يعني إنما ينتفع بإنذارك أولو الطبائع السليمة والفِطر المستقيمة الذين آمنوا بالقرآن وأيقنوا بأنه حق وعملوا بما فيه - وهم الذين يخشون الله حين غيابهم عن أبصار الناظرين، عندما لا يراهم أحد إلا الله سبحانه، أولئك هم المؤمنون الذين تنفعهم الذكرى وتؤثر فيهم الموعظة.

قوله: {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} أي بشر هؤلاء المتقين الذين يخشون ربهم بالغيب بأن الله غافر لهم ذنوبهم فساترها وأنه مجزيهم حسن الثواب من في الآخرة.

١٢ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

قوله: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} ذلك واحد من المعاني العظيمة المكررة في الكتاب الحكيم التي يؤكد الله فيها على إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم ليلاقوا الحساب يوم القيامة.

أما قوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} أي أن الله يحصي عليهم أعمالهم من خير أو شر فيكتبها جميعا.

أما قوله: {وَآثَارَهُمْ} أي آثار خطاهم بأرجلهم؛ فقد روي عن أبي سعد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: " إن آثاركم تكتب فلم تنتقلون؟ " ٤

وقيل: تكتب لهم أعمالهم بأنفسهم، وما ترتب عليها من آثار بقيت من بعدهم، فإن الله مجازيهم عنها إن خيرا فخير، وإن شرّا فشرّ - وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: " من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ".

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا مات ابن آدم اقطع عمله من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده ".

قوله: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} {وَكُلَّ}، منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه الفعل بعده {أَحْصَيْنَاهُ} والتقدير: وأحصينا كل شيء أحصيناه - والإمام المبين ههنا يراد به أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ وفيه علم الله وعلمه محيط بكل شيء - فما من كائن ولا حدث إلا علمه مسطور في هذا الكتاب - وقيل: المراد بالإمام هنا صحائف الأعمال - وذلك هو كتاب أعمالهم يشهد عليهم بما عملوه من خير أو شر ٥.

١٣ - (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)

قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً} أي مثل لهم - وذلك من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا - أي من هذا المثال - وهذه الأشياء على ضرب واحد، أي على مثال واحد.

والمعنى: ومَثِّل لهؤلاء المشركين يا محمد مثلا مثل أصحاب القرية - و {أَصْحَابَ}، منصوب على البدل من قوله: {مثلاً} أو منصوب على أنه مفعول ثان للفعل اضرب ٦ والمراد بالقرية: أنطاكية، فقد كان فيها ملك ظالم مشرك، إذ كان يعبد الأصنام فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم هو وقومه المشركون - ومن هؤلاء الرسل اثنان أرسلهما الله إلى أهل أنطاكية فكذبوهما {فعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} أي قوّيناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث أرسلناه إليهم {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} قال المرسلون لأهل أنطاكية: أرسلنا الله إليكم لهدايتكم، ولإبلاغكم دعوة ربكم، دعوة الحق والتوحيد - لكن المشركين بادروهم بالجحود والتكذيب، إذ {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا} كيف نؤمن لكم وأنتم بشر كالبشر، ليس لكم مزية علينا تقتضي اختصاصكم بما تزعمونه من النبوة {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} لم ينزل الله من وحي على أحد من الناس - ويفهم من ذلك إقرارهم بالألوهية، وإن كانوا ينكرون الرسالة ويكذبون النبيين ويعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى {إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ} أي ما أنتم إلا كَذَبَة فيما تدعونه وتزعمونه من النبوة.

١٤ - (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣]

قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً} أي مثل لهم - وذلك من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا - أي من هذا المثال - وهذه الأشياء على ضرب

واحد، أي على مثال واحد.

والمعنى: ومَثِّلْ لهؤلاء المشركين يا محمد مثلا مثل أصحاب القرية - و {أَصْحَابَ}، منصوب على البدل من قوله: {مثلاً} أو منصوب على أنه مفعول ثان للفعل اضرب ٧ والمراد بالقرية: أنطاكية، فقد كان فيها ملك ظالم مشرك، إذ كان يعبد الأصنام فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم هو وقومه المشركون - ومن هؤلاء الرسل اثنان أرسلهما الله إلى أهل أنطاكية فكذبوهما {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} أي قوّيناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث أرسلناه إليهم {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} قال المرسلون لأهل أنطاكية: أرسلنا الله إليكم لهدايتكم، ولإبلاغكم دعوة ربكم، دعوة الحق والتوحيد - لكن المشركين بادروهم بالجحود والتكذيب، إذ {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا} كيف نؤمن لكم وأنتم بشر كالبشر، ليس لكم مزية علينا تقتضي اختصاصكم بما تزعمونه من النبوة {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} لم ينزل الله من وحي على أحد من الناس - ويفهم من ذلك إقرارهم بالألوهية، وإن كانوا ينكرون الرسالة ويكذبون النبيين ويعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى {إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ} أي ما أنتم إلا كَذَبَة فيما تدعونه وتزعمونه من النبوة.

١٥ - (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣]

قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً} أي مثل لهم - وذلك من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا - أي من هذا المثال - وهذه الأشياء على ضرب واحد، أي على مثال واحد.

والمعنى: ومَثِّلْ لهؤلاء المشركين يا محمد مثلا مثل أصحاب القرية - و {أَصْحَابَ}، منصوب على البدل من قوله: {مثلاً} أو منصوب على أنه مفعول ثان للفعل اضرب ٨ والمراد بالقرية: أنطاكية، فقد كان فيها ملك ظالم مشرك، إذ كان يعبد الأصنام فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم هو وقومه المشركون - ومن هؤلاء الرسل اثنان أرسلهما الله إلى أهل أنطاكية فكذبوهما {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} أي قوّيناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث أرسلناه إليهم {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} قال المرسلون لأهل أنطاكية: أرسلنا الله إليكم لهدايتكم، ولإبلاغكم دعوة ربكم، دعوة الحق والتوحيد - لكن المشركين بادروهم بالجحود والتكذيب، إذ {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا} كيف نؤمن لكم وأنتم بشر كالبشر، ليس لكم مزية علينا تقتضي اختصاصكم بما تزعمونه من النبوة {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} لم ينزل الله من وحي على أحد من الناس - ويفهم من ذلك إقرارهم بالألوهية، وإن كانوا ينكرون الرسالة ويكذبون النبيين ويعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى {إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ} أي ما أنتم إلا كَذَبَة فيما تدعونه وتزعمونه من النبوة.

١٦ - (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

قوله: {قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} استشهد المرسلون بعلم الله على صدقهم فيما جاءوهم به، وأنهم مرسلون من الله إليهم - وذلك تأكيد على حقيقة رسالتهم وصدق ما دعوهم إليه من عقيدة التوحيد وإفراد الله وحده بالإلهية دون غيره من المخاليق.

١٧ - (وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

قوله: {وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} أي ليس علينا إلا تبليغكم دعوة الله الظاهرة المكشوفة المعززة بالأدلة والحجج والبينات على صدقها وصحتها.

١٨ - (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} {تَطَيَّرْنَا} من الطيرة - وهي ما يُتشاءم به من الفأل الرديء ٩ وأصل التطير التفاؤل بالطير البارح والسانح ثم عم - فقد قال هؤلاء المشركون الضالون لرسلهم لما جاءوهم بدعوة التوحيد: تشاءمنا بكم، جريا على عادة الجاهلين والسفهاء، إذ يتيمنون (من اليُمن) بكل شيء قبلته طباعهم ومالت إليه نفوسهم، ويتشاءمون بما لا يوافق أهواءهم وشهواتهم وإن كان مستتبعا للخير فيما بعد - فكانوا بذلك إذا أصابهم بلاء أو نقمة قالوا: هذا بشؤم كذا - وإن أصابهم خير ونعمة، قالوا هذا ببركة كذا - وذلك هو ديدن المغفّلين الواهمين من أهل الضلال في كل زمان إذ يركنون إلى التطير، ويغفلون عن حقيقة القدر المسطور في علم الله، وأنه ما من شيء قلَّ أو كثر، صغر أو كبر إلا وهو مقدور مسطور في كتاب الله ١٠

قوله: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ} قالوا لهم متوعدين: لئن لم تكفوا عن مقالتكم وعن دينكم الذي جئتمونا به لنقتلنكم أو لنشتمنكم أو لنطردنكم - والرجم في اللغة معناه القتل والقذف والظن والغيب واللعن والشتم والطرد والرمي بالحجارة فقد هددوهم بقتلهم رجما بالحجارة أو بضربهم بها، أو بطردهم وشتمهم أو غير ذلك من احتمالات الرجم.

قوله: {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} أرادوا بالعذاب الأليم التحريق في النار وهو أشد العذاب.

١٩ - (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

قوله: {قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} ردّت الرسل مقالتهم مجيبين: سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم وضلالكم، وليس من قبلنا نحن كما تزعمون بل هو سوء عقيدتكم وفساد أعمالكم.

قوله: {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ} الهمزة الأولى للاستفهام - والثانية همزة (إن) الشرطية - يعني: أئن دعيتم إلى الإسلام، ووعظتم بما في منجاتكم وسعادتكم تطيرتم وتوعدتم - وهذا جواب الشرط المقدر.

قوله: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} بل أنتم متجاوزون الحد في ضلالكم وعصيانكم - ومن هنا أتاكم الشؤم وليس من قبل رسل الله الذين يدعونكم إلى السعادة والسداد والنجاة ١١.

٢٠ - (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ}.

ذكر أهل القرية وهي أنطاكية قد همّوا بقتل الرسل الثلاثة فجاءهم رجل مؤمن من أقصى مواضع المدينة {يسعى} أي يعدو عدوا ويسرع الخُطا حرصا على هداية قومه ولكي يذب عن أنبياء الله ويدفع عنهم الأذى والشر.

وما ينبغي الإعباء كثيرا بمعرفة من هو هذا الرجل وما هو اسمه؛ فقد ذكره الله بصيغة التنكير منونا، وذلك للتعظيم - فكفى بذكره على أنه رجل مؤمن غيور على دين الله وعلى أنبيائه - إذا فزع فزعا مما سمعه أو علم به من تمالؤ قومه على رسل الله نخفَّ مسرعا لاستنقاذهم ولنصح قومه بتصديقهم وعدم إيذائهم - وهو قوله تعالى: {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}.

٢١ - (اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

{اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} دعا الرجل المؤمن قومه إلى اتباع الرسل الذين لا يسألونهم على التبليغ أجرا ولا غيره من ضروب الجاه والمنزلة - وهو دليل صدقهم وإخلاصهم - فهم إنما يبتغون بذلك هدايتكم وسعادتكم {وَهُمْ مُهْتَدُونَ} الجملة في موضع نصب على الحال؛ أي وهم ثابتون على صراط الله الحق المستقيم وعلى الاهتداء إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة.

٢٢ - (وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} الأصل في قوله: {وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ} وما لكم لا تعبدون - فقد صرف الكلام عنهم ليكون ذلك أبلغ في نفوسهم وأشد تأثيرا فيهم ١٢؛ إذ تلطف في إرشادهم بما أراهم أنه اختار لهم ما اختاره لنفسه - ثم حذرهم بأس الله وخوّفهم من شديد عقابه وبقوله: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي إلى الله مرجعكم فاخشوه واجتنبوا عصيانه ومخالفة أمره فتنجوا.

٢٣ - (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ)

قوله: {أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} الاستفهام للإنكار، والنفي لاتخاذ جنس الآلهة من دون الله إطلاقا - وفي ذلك من تحميق من يعبد الأصنام ما لا يخفى.

قوله: {إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا} أي ما تعبدون من آلهة مزعومة فإنها قاصرة عن كل شيء، وهي لا تنفع ولا تضر - ولئن أرادكم الله بضُر فإن آلهتكم هذه لا تغنيكم من عذاب الله شيئا، إذ لا تملك أن تؤدي لكم نفعا أو تدرأ عنكم شيئا من العذاب إن حلَّ بكم {وَلا يُنْقِذُونِ} أي لا تستطيع أصنامكم وآلهتكم الموهومة أن تستنقذكم مما يحيق بكم من البلاء.

٢٤ - (إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله: {إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} إذا لم أعبد الله وحده واتخذت من دونه آلهة فإني إذا في حيرة واضحة وعمه ظاهر لا يخفى على كل ذي عقل سليم.

٢٥ - (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)

قوله: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} صَدَعَ الرجل المؤمن بالحق ولم يخش فيه لومة لائم؛ إذ جهر بالإيمان وكلمة التوحيد والإخلاص ظاهرة مكشوفة، معلنا أنه قد آمن بالله وحده لا شريك له {فَاسْمَعُونِ} أي فاسمعوا قولي؛ فإني لا أبالي بما يحيق بي منكم مما تبتغونه لي من مكروه - وقيل: أراد بذلك إغضابهم لينشغلوا به عن الرسل كيلا يؤذوهم أو يمسوهم بسوء وذلك لما رآهم لم يؤثر فيهم الوعظ والتذكير، وقد عزموا على الإيقاع برسل الله ١٣

٢٦ - (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) *وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}.

لقد طغى الظالمون المجرمون من أهل أنطاكية فقتلوا ولي الله الذي نصح لهم ودعاهم إلى عقيدة التوحيد مبتغيا بذلك سعادتهم ونجاتهم وصلاح حالهم - قتلوه رحمه الله فكان جزاؤه عند الله عظيما، إذ أدخله الجنة وهو قوله تعالى له: {ادْخُلِ الْجَنَّةَ} فلما عاين نعيمها وما فيها من أوجه الخير والرخاء والهناء والسعادة قال {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}.

٢٧ - (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

{بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} {بِمَا غَفَرَ لِي} ما مصدرية، أي يعملون بغفران ربي ١٤ - فبعد أن رأى ما أعدّه الله له من جزيل النعم وحسن الثواب وعظيم الكرامة في الجنة، تمنى أن يعلمَ قومه بما أسبغ الله عليه من هذه النعم؛ ليحملهم ذلك على التوبة والطاعة ومجانبة الكفر والإشراك بالله.

وذلك يشير إلى مبلغ إخلاص هذا المؤمن وحسن سيرته وقصده، إذ تمنى لهم الهداية والنجاة بعد قتلهم له، والتحاقه بالرفيق الأعلى، مثل تمنيه لهم في الدنيا من الإيمان والطاعة والاستقامة - وذلك هو شأن المؤمنين الذين يدعون الناس إلى منهج الإسلام؛ فإنهم يبتغون للبشرية الهداية والتوفيق والسعادة في الدارين ويتمنون لهم كل وجوه الخير والسلامة والنجاة، لا يبتغون بذلك من أحد ثناءً ولا شكورا

إلا الجزاء الكريم من الله.

٢٨ - (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ)

قوله: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ} ما: نافية، وذلك إخبار من الله – عز وعلا – أنه قد انتقم لعبده المؤمن من هؤلاء الطغاة الظالمين، الذين كذبوا رسله وقتلوا وليه - وأخبر أيضا أنه لم ينزل عليهم ملائكته من السماء لإهلاكهم وتدميرهم؛ فقد اقتضت حكمة الله البالغة أن يعذب مختلف الأمم من المشركين بمختلف الوجوه من العذاب - وقد أخذ الله هؤلاء المجرمين من أهل أنطاكية بالصيحة، وهو قوله: تعالى: {إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً}.

٢٩ - (إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

{إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً} أي: صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة فأخذهم الله بها أخذا شديدا، {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} من الخمود - كنّي به عن سكوتهم بعد حياتهم، كالنار تخمد بعد توقدها - كذلك يأخذ الله الظالمين المجرمين الذين يحادون الله ورسوله، ويتمالئون على الإسلام لاجتثاثه من الأذهان والقلوب، أو يأتمرون بالمسلمين ليبيدوهم إبادة أو يقتّلوهم تقتيلا - وليس الله بغافل عن أفاعيل الظالمين المجرمين ظ، ولكنه يُملي لهم ويمدُّ لهم من وجوه الخير والمنعة والسلطان والملذات ما يتنعّمون به، ويتيهون خيلاء وغرورا، حتى إذا حان القدر، وحق عليهم القول بالعذاب أخذهم الله شر أخذه، كما فعل بأهل أنطاكية - وفي ذلك تخويف لمشركي قريش وتلويح لهم بالانتقام والعقاب الأليم، إنْ لم يبادروا بالإيمان والطاعة والتحرر من إسار الوثنية والضلال - ١٥

٣٠ - (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

قوله تعالى: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} الحسرة: شدة الندم والتحسُّر: بمعنى التلهف.

والتحسير معناه: الإيقاع في الحسرة ١٦ - وحسرة منصوبة على المصدر، والمنادى محذوف، وتقديره: يا هؤلاء تحسَّروا حسرة ١٧ وهذا نداء للحسرة على هؤلاء الظالمين الخاسرين فهم كأنهم أحقّاءُ بأن يَتَحَسَّر عليهم المتحسّرون، ويتلهّف عليهم المتلهفون لما يصيرون إليه من شديد الوبال وسوء المآل.

قوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} الظالمون الخاسرون أحقاء بالتحسُّر عليهم بما ضيعوا من أمر الله وبما فرَّطوا في جنبه - ويدل على تقصيرهم الشديد، وتفريطهم البالغ أنهم ما كان يأتيهم من رسول يدعوهم إلى الهدى إلا سخروا منه وأذوه وكادوا له أشد الكيد.

٣١ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ)

قوله: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ} {كَمْ} ههنا خبرية، فهي مفعول به للفعل {أَهْلَكْنَا} - والتقدير: كثيرا من القرون أهلكنا - وقوله: {أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ} بدل من قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا} ١٨

والمعنى: ألم ير هؤلاء المشركون كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم - فقد زعم كثير من جهلة العرب المشركين أنهم راجعون إلى الدنيا - فردَّ الله مقالتهم وافتراءهم بهذه الآية ليبين لهم أنهم ليس لهم أيما كَرَّةٍ أو رجعة إلى هذه الدنيا، وإنما هم راجعون إلى الله يوم القيامة حيث الحساب والجزاء.

٣٢ - (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

قوله: {وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} {إِنْ}، نافية، و {لَمّا}، بالتشديد بمعنى: إلا، و {كُلٌّ} مبتدأ، وخبره {جَمِيعٌ}، و {مُحْضَرُونَ} خبر ثان ١٩.

والمعنى: ما كلٌّ إلا جميع لدينا محضرون - أي: محشورون مجموعون للحساب.
٣٣ - (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)
قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ}.
{وَآيَةٌ} مبتدأ، وخبره {لهم} ويجوز أن تكون {وآية} مبتدأ، و {لهم} صفتها - وخبرها {الأرض} والآية بمعنى: الدلالة - فتلك دلالة لهم على وجود الصانع جل جلاله، وعلى قدرته العظيمة وأنه محيي الموتى - وهي {الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا} الأرض اليابسة القفر يأتيها المطر من السماء فتسري فيها الحياة بإنبات النبات على اختلاف أصنافه.
قوله: {وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ}: أخرج الله من النبات حبّا مختلف الأنواع والألوان والطعوم، ليكون ذلك رزقا لهم فمنه يأكلون، وتأكل منه أنعامهم.
٣٤ - (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)
قوله: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ}: جعل الله في الأرض بساتين فيها من أصناف الثمرات كالنخيل والأعناب وغيرهما بعد أن كانت الأرض مجدبة مقفرة {وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ} أي: جعلنا فيها أنهارا جارية سائحة {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ}.
٣٥ - (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ)
{لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ} الضمير في ثمره، عائد إلى الله، فهو مالك الخيرات والثمرات وكل شيء، فقد أنبت الله لهم ذلك ليأكلوا مما خلقه لهم من نعيم الزرع والثمر - وقيل: الضمير عائد على النخيل؛ لأنه أقرب مذكور - وقيل: عائد على جنات.
قوله: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} ما: اسم موصول؛ أي ومن الذي عملته أيديهم من الغرس والحصاد والقطاف والمعالجة.
وقيل: ما، هنا نافية؛ أي: لم يعملوه هم، بل الفاعل له هو الله تعالى ٢٠.
قوله: {أَفَلا يَشْكُرُونَ} ذلك تحضيض لهم من الله تعالى على شكر أنعمه.
والمعنى: فهلا يشكرون الله على ما امتنَّ به عليهم من هذه النعم الكثيرة المختلفة التي تزجي بالدليل الظاهر الساطع على أن الله حق وأنه خالق كل شيء؟
٣٦ - (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ)
قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ}: تجلّى الله في عليائه وكماله وتنزه في جلال قدْره عن النقائص والعيوب؛ فقد خلق الأصناف جميعا مما تنبته الأرض من الزروع والثمار والأشجار على اختلاف أصنافها {وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ} أي: وخلق الأولاد من أنفسهم؛ ذكورا وإناثا.
قوله: {وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ} أي: وخلق الله من أصناف الخلائق والأحياء ما لم تطّلعوا عليه ولم تتوصلوا إلى معرفته مما يستكنّ في جوف الأرض وفي أعماق البحار - ٢١
٣٧ - (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)
قوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.
هذه جملة بينات كبريات، ودلائل عظيمات على وجود الصانع العليم المقتدر - وهي آيات من الكون والطبيعة تزجي بالبرهان المستبين

على أن الله حق، وأنه موجد الوجود وصانع الأشياء جميعا - يتجلّى ذلك في هذه الآيات القليلة ذات النظْم الرصين المعجز في عظيم إيقاعه وبالغ تأثيره، وفي مضمونه العجيب مما انطوى عليه من حقائق كونية ما كانت تتصوره الأذهان الماضية ولا كانت تحلم به الأمم الخالية - لكن القرآن سبق الأجيال والأدهار والأذهان وسائر التصورات في التنبيه على مثل هذه الحقائق العظيمة المركوزة في سن هذا الكون الحافل المنتظم، الكون المعمور الرتيب - لا جرم أن القرآن معجز، وأنه من لدن إله قادر حكيم.

قوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} {نَسْلَخُ}، استعارة بديعة؛ شبَّه فيها انكشاف ظلمة الليل بكشط الجلد عن الشاة ٢٢، والسلخ معناه الكشط والنزع - سلخ الله الليل من النهار، أي استله فانسلخ - ٢٣

والمعنى: وعلامة لهم على عظمة الصانع الحكيم، أنه يخرج النهار من الليل إخراجا حتى لا يبقى مع شيء من ضوء النهار - وذلك كبيت بسراج فإذا غاب السراج أو انطفأ أظلم البيت.

وقوله: {فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} أي: داخلون في الظلام - نقول: أعتمنا وأسحرنا، يعني دخلنا في العتمة وفي السَّحَر.

٣٨ - (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

قوله: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} اللام بمعنى إلى - يعني إلى مستقر لها وفي قراءة بعضهم (إلى مستقر) ٢٤ والمراد: مستقر الشمس المكاني وهو تحت العرش، إذ تخرّ الشمس ساجدة لله في كل ليلة بعد غروبها - وقيل: المراد بمستقرها: منتهى سيرها وذلك يوم القيامة؛ إذ ينقطع جريها وتسكن حركتها وتكوَّر ثم ينتهي هذا العالم إلى غايته - وهذا هو مستقرها الزماني.

قوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} الإشارة بذلك عائدة إلى جري الشمس؛ أي ذلك الجري على ذلك التقدير المحكم والحساب الدقيق، المنضبط الذي لا يتخلف ولا يتبدل {تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {العزيز}، أي القوي القاهر الذي يغلب بقدرته كل شيء - وهو سبحانه محيط علمه بكل شيء.

٣٩ - (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

قوله: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} {القمر} منصوب على الاشتغال - وذلك بفعل يفسره قوله: {قَدَّرْنَاهُ} و {مَنَازِلَ} منصوب على أنه مفعول ثان لقدرناه، بمعنى صيرناه - وقيل: منصوب على الحال ٢٥ أي صيرنا القمر ذا منازل - ومنازله ثمانية وعشرون منزلا - ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتجاوزه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ ليس فيه تفاوت - فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس واصفرَّ - ولذلك شبهه بالعرجون القديم وهو قوله: {حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} ذلك أنه يطلع القمر في أول ليلة من الشهر، ضئيلا قليل النور ثم يأخذ نوره في الازدياد حتى يتكامل في الليلة الرابعة عشرة ثم يأخذ في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير {كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} والعرجون عود الشمراخ أو العذق وهو القنو من النخلة، والعنقود من العنب - والمراد به هنا العِذق إذا يبس واعوجّ - وهو من الانعراج، أي الانعطاف ٢٦ قال ابن عباس: العرجون القديم، أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى - وقد شبه به القمر في ثلاثة أشياء وهي: دقته، واستقواسه، واصفراره.

٤٠ - (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

قوله: {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} أي لا يستقيم للشمس ولا يتسهَّل لها ولا يصح أن تلحق القمر فتجتمع معه في وقت واحد، أو تُداخله في مجاله وسلطانه فتطمس نوره؛ فإن كل واحد منهما له سلطان على حياله فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل.

قوله: {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} لا يسبق الليلُ النهارَ - ويُفهم من ذلك أن الليل مسبوق وليس سابقا - وقيل المراد من الليل هنا سلطان الليل وهو القمر وهو لا يستبق الشمس بالحركة اليومية السريعة، ويُفهم أيضا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ - فهما مسخران، دائبين إلى قيام الساعة وحينئذ تفضي الكائنات والأجرام وسائر الخلائق إلى نهايتها المحتومة وهي

الفناء والانهيار أو الانقلاب الكوني الشامل.

قوله: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} {وكلّ}، أي وكلهم - والتنوين عوض المضاف إليه - والضمير للشموس والأقمار - فإن اختلاف الأحوال يوجب تعددا في الذات - أو للكواكب، أو الليل والنهار والشمس والقمر، فكلهم {فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} أي يسيرون أو يدورون في فلك السماء - وهو مدار النجوم وجمعه أفلاك - والفلك من كل شيء: مستداره ومعظمه - وتفلَّكَ أي استدار - ومنه فَلْكَةُ المغزل ٢٧ قال ابن عباس وغيره من السلف: كل يدور في فلكةٍ كفلكة المغزل ٢٨.

هذه دلائل ظاهرة وآيات بينات تشهد بأن هذا القرآن حق وأنه معجز فلا يقوى على معارضته بشر - وهو بما حواه من مثل هذه الحقائق الكونية التي ما كانت الأذهان في غابر الأزمان لتتصورها – يكشف إعجازه البالغ وعن سمو مستواه الرفيع الذي يفوق الأزمان والأذهان والأحوال - إن هذه الآيات العظيمة التي تتجلى فيها مَزِيَّة الجِدّةِ والنضارة والنصوع وانتفاء البِلى والخُلوق حتى لكأنما أُنزلت الساعة – لهي دليل مجلجل على أن القرآن منزل من لدن إله مقتدر حكيم.

٤١ - (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}.

{وَآيَةٌ} خبر مقدم للمبتدأ {أَنَّا حَمَلْنَا} ٢٩ وهذا دليل آخر من ظواهر الطبيعة ومكوِّناتها، يسوقه الله لعباده مبينا عظيم قدرته، وهو تسخيره البحر ليحمل على ظهره السفائن المشحونة بالبضائع والأمتعة والأناسي - وقد كان أول السفائن سفينة نوح عليه السلام، التي أنجاه الله فيها وأنجى الذين معه من المؤمنين، وهو قوله: {أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} والمراد بذريتهم آباؤهم المحمولون في سفينة نوح عليه السلام - وقيل: ذريات جنسهم، على حذف مضاف - وأريد بالذرية كل محتاج للركوب غير مطيق للمشي - وبذلك يمنُّ الله على عباده بما يسَّرهُ لهم من ركوب السفن التي تجري على سطح الماء بقدرته سبحانه، وذلك فضل عظيم من الله خوَّل عباده إياه تسهيلا لهم وتيسيرا عليهم في التنقل والأسفار إلى بلاد الله الواسعة من أجل التجارات أو الزيارات أو غير ذلك من مختلف الحاجات.

قوله: {فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أي السفن الحافلة بالناس والموقرة بمختلف الأمتعة والأشياء.

٤٢ - (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

قوله: {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} أي خلقنا لهم سفنا من مثل سفينة نوح ليركبوها - وقيل: المراد بذلك سفن البر من الإبل وغيرها من البهائم مما يركبونها ويحملون عليها أثقالهم وأمتعتهم.

ويستفاد من عدم تخصيص المراد بالسفن البر والبحر، أن يتسع المراد ب {مثله} ليعم كل أنواع الحوافل التي تمخر البحار، أو تقطع البراري والأمصار أو تجوب أجواز الفضاء - كل ذلك من فضل الله ومن تيسيره لعباده، إذ سخَّر لهم صناعة ذلك - والله تعالى أعلم.

٤٣ - (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ)

قوله: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ} الصريخ، المغيث ٣٠ - أي إن يشأ الله إغراق السفن ومن عليها في البحر فإنه لا راد لمشيئته، إذْ لا ينفعهم معين ولا مجير - وهو قوله: {فَلا صَرِيخَ لَهُمْ} أي لا مغيث لهم ولا إغاثة {وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ} ليس من أحد يستنقذهم أو ينجيهم من الغرق {إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا}

٤٤ - (إلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

{إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا} {رحمةً} منصوب على أنه مفعول له، وهو استثناء منقطع، وقيل: منصوب على المصدر بفعل مقدر، أي: إلا برحمة - وكذلك {ومتاعا} ٣١.

والمعنى: إذا ركبوا البحر أحاطت بهم أهواله وأخطاره فإنهم لا ينجون من الغرق إلا لرحمة ما {وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} أي: وليتمتعوا بالحياة إلى انقضاء الأجل ٣٢.

٤٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}.

ذلك إخبار من الله عن إعراض المشركين وعن تماديهم في الكفر والضلال وما كانوا عليه من العُتوّ والتمرد - وهو قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ} أي إذا قيل لهؤلاء المشركين الضالين: اتقوا ما حلّ بالأمم السابقة من أنواع العقاب وما أعده الله لكم من عذاب أليم منتظر ينزل بكم يوم تقوم الساعة بسبب شرككم وعصيانكم - وقيل: المراد نوازل السماء ونوائب الأرض - والأظهر عموم أنواع البلاء من الله سواء في الدنيا أو في الآخرة - فإن – الله عز وعلا – يخوفهم عقابه في كل الأحوال ويحذرهم سوء المصير يوم القيامة إذا لم يتعظوا ويزدجروا.

قوله: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أي اتقوا الله واعبدوه وحده وأطيعوه واجتنبوا معصيته ومخالفة أمره لعله يرحمكم برحمته الواسعة فينجيكم من نوازل الدنيا وأهوال يوم القيامة.

والظاهر أنهم لجوا في الإعراض والضلالة ولم ينتهوا عن الكفر والباطل - ويفهم ذلك من قوله: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}.

٤٦ - (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} أي: ما تأتيهم آية منزلة من عند الله فيها خيرهم وهدايتهم وصلاحهم إلا بادروا بالإعراض والجحود والمخالفة - فكأن دأْبهم أن يُعرضوا عن كل آية تأتيهم.

٤٧ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} إذا أمر المؤمنون المشركين بالإنفاق من أموالهم على الفقراء والمحتاجين، بخلوا واستنكفوا، وأجابوا – وهم يُغلّفُ قلوبهم الشحُّ واللؤم والخسة وقَسْوةُ الطبع – قائلين {أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ} أي أنعطي من حرمه الله - فلو شاء الله لأعطاهم من رزقه فلأغناهم عن صدقتنا وإنفاقنا - فكيف نعطي من لم يعطه الله؟ - وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كان بمكة زنادقة فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أيُفقرهُ الله ونطعمه نحن؟.

قوله: {إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} ذلك من جملة جوابهم للمؤمنين، إذ قالوا: ما أنتم إلا في ضلال ظاهر مكشوف إذ تأمروننا أن نخالف مشيئة الله في إفقار هؤلاء - وقيل: ذلك من قول الله لهم - وهو أنكم بشُحّكم وضَنّكم بالتصدق والإنفاق على الفقراء فإنكم تائهون في الباطل، بعيدون عن الحق والسداد - والمعنى الأول أظهر لموافقته السياق ٣٣.

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}.

يحكي الله ما يقوله المشركون مستهزئين مستعجلين الوعد بالبعث وقيام الساعة وهو قولهم {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: متى تقوم الساعة التي تتوعدوننا بها، أو متى هذا العذاب الذي تخوفوننا منه {إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي صادقين فيما تقولونه وتزعمونه - وهم

يخاطبون بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التكذيب والاستسخار والتهكم.
٤٩ - (مَا يَنظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)
قوله: {مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً} وهذا جواب من الله لهم فيه وعيد لهم وتهديد؛ أي وما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الأولى، وهي نفخة الفزع، إذ ينفخ الملك العظيم في الصور نفخة الفزع الأكبر والناس في أسواقهم ومعايشهم وتجاراتهم يختصمون ويتشاجرون في أموالهم ومصالحهم - نوا كل ذ
وقيل: هذه نفخة الصَّعْق، إذ يهلك الناس والأحياء جميعا ولم يبق إلا الله الواحد القهار - ويعزز الله هذا قوله تعالى: {تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ} أي تهلكهم صرعى وهم يخصم بعضهم بعضا في معاملاتهم وبياعاتهم.
٥٠ - (فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)
قوله: {فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً} لا يملكون التوصية بشيء؛ فهم مشغولون بما دهمهم من فزع فظيع مرعب، أو صَعْق أفضى إلى الموت والخمود.
قوله: {وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} لا يستطيعون الرجوع إلى منازلهم بل إن الموت قد غشيهم بمجرد النفخة الرعيبة ليظلوا جاثمين في قبورهم حتى تؤزهم نفخة البعث للقيام - فنسأل الله النجاة.
٥١ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)
قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.
الصور معناه البوق أو القرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل إيذانا بالبعث وقيام الساعة - و {الْأَجْدَاثِ} جمع جدث وهو القبر - و {يَنْسِلُونَ} أي يسرعون ٣٤.
الله جل جلاله يخبر عن قيام الساعة عقيب النفخة الثانية أو الأخيرة وهي نفخة الإحياء والبعث، فإذا نفخ إسرافيل في القرن وهو الصور المعدّ للنفخ أحيا الله العباد من قبورهم {يَنْسِلُونَ} أي يعْدون مسرعي لمواجهة الحساب في يوم حافل رعيب مشهود، يجمع الله فيه الخلائق وقد غشيهم من الذعر والفزع والجزع ما غشيهم - وفي هذا الحال من الدهش والذهول والحيرة - يتساءل الناس قائلين {يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}.
٥٢ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)
{قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} المرقد: مصدر، أي من رقادنا - وهو استعارة عن مضجع البيت، أي ينادون حائرين مذعورين مدهوشين: يا ويلنا من أنشرنا من قبورنا بعد أن كنا فيها رفاتا - {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} ذلك من كلام الملائكة لهم أو المتقين، أو الكافرين، إذ يتذكّرون ما كانوا سمعوه من الرسل فيجيب بعضهم بعضا بذلك - و {هذا}، مبتدأ، وخبره ما بعده - و {ما} مصدرية - والمعنى: هذا وعدُ الرحمن والذي صدق فيه المرسلون.
٥٣ - (إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)
قوله: {إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً} أي ما كانت هذه النفخة الأخيرة إلا صيحة واحدة يصيحها إسرافيل في الصور فإذا العباد كلهم مجموعون محشورون لرب العالمين ليلاقوا الحساب.
٥٤ - (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله: {فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} اليوم منصوب على الظرفية - واليوم هو يوم القيامة - و {شيئا} مفعول به ثان ٣٥ والخطاب من الله

للعالمين وهو أهم لا يصيبهم ظلم في هذا اليوم المشهود {وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} لا يُجازى العباد إلا بما قدموه من أعمال، فإن خيرا فخير، وإن شرا فشرٌّ - ولا يظلم الله أحدا من العالمين ٣٦.

٥٥ - (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ)

قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}.

{فِي شُغُلٍ} خبر إن - و {فَاكِهُونَ} خبر ثان - و {فَاكِهُونَ} أي طربون فرحو متنعمون بأنواع اللذائذ والطيبات - والفاكه والفكه بمعنى المتلذذ المتنعم ٣٧.

الله جل جلاله يصف حال المؤمنين الذين ارتحلوا عن أرض المحشر حيث الأهوال والعرصات الشداد - فقد فازوا بمرضاة الله وحسن جزائه بدخولهم جنات النعيم، فهم حينئذ في روضات الجنات في شغل عما فيه أهل النار - أو شغلهم النعيم عن كل ما يخطر بالبال فهم مشغولون بالبهجة والنعيم المقيم - وهم فيه {فَاكِهُونَ} أي مبتهجون محبورون متنعمون.

٥٦ - (هُمْ وَأَزْوَاجهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ)

قوله: {وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ} {هم} في موضع مبتدأ، و {أَزْوَاجُهُمْ} معطوف عليه - وفي {فِي ظِلالٍ} خبره - أو {مُتَّكِئُونَ} خبره ٣٨ و {الأرائك} جمع أريكة وهي السرير - وذلك وصف من الله للنعيم الذي يقيم في المؤمنون وأزواجهم، فهم جميعا مبتهجون سعداء في ظلال الجنة حيث الأرائك التي يتكئون عليها وغير ذلك من أسباب السعادة والرخاء والاستقرار {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعونَ}

٥٧ - (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)

{لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعونَ} يتلذذون بنعيم الجنة ذات الفواكه والثمرات والطيبات {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} أي لهم في الجنة كل ما يطلبونه ويتمنون من أصناف الملذات والخيرات.

٥٨ - (سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

قوله: {سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} {سلام}، بدل من قوله: {مَا يَدَّعُونَ} وقيل: خبر لمبتدأ مضمر، أي هو سلام - و {قَوْلاً}، منصوب على أنه مصدر يُسلِّمون سلام - وقيل: منصوب على الاختصاص ٣٩.

والمعنى: أن الله جل جلاله يسلِّم على أهل الجنة بواسطة الملائكة أو يسلم عليهم من غير واسطة، تعظيما لهم وتكريما - قال ابن عباس: الملائكة يدخلون على أهل الجنة بالتحية من رب العالمين ٤٠.

٥٩ - (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجرِمُونَ)

قوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}

يخبر الله عن حال الظالمين الخاسرين يوم القيامة، إذ يصيبهم من المهانة والإذلال والترعيب ما يصيبهم - ثم يأمرهم الله بالانفصال عن المؤمنين، فقد كانوا هم وإياهم مجتمعين في المحشر دون تمييز - وهو قوله: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} أي انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة - وذلك حين يساق المؤمنون إلى الجنة ويبقى الكافرون وحدهم فيزدادون بذلك ذعرا وخشية ويغشاهم مزيد من اليأس والابتئاس فتتقطع قلوبهم من فرط الذعر والفزع واشتداد الكرب.

٦٠ - (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)
قوله: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} ذلك تقريع من الله لهؤلاء المجرمين الخاسرين - و {أَعْهَدْ} من العهد وهو الوصية - وعهد إليه أي أوصاه - وعهدُ اللهِ إليهم، ما نَصَبَهُ لهم من الحجج العقلية والسمعية التي تأمر بعبادته دون سواه، والزاجرة عن عبادة الشيطان {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} الشيطان عدو للإنسان، سواء في ذلك شيطان الجن وهو الكائن الخفي المستور الذي لا يراه البشر بحاسة البصر - وهو كائن شقي آيِسٌ من فضل الله، مبعد من رحمته - وهو على الدوام يوحي للإنسان بوساوسه الخفية فيزيّن له الكفر والمعاصي - وكذلك شيطا الإنس وهو كنود ومنكود وأثيم يجهدُ بغير انقطاع منن أجل إضلال الإنسان وإفساده فيزين له الشرك وفعل المنكرات والرذائل.
وينفّرُه تنفيرا من الإيمان الصحيح وفعل الصالحات لينأى به بذلك عن الهداية والاستقامة والخير فيبوء معه بالخسران ثم يهويان معا في جهنم - لا جرم أن الشيطان على اختلاف صوره عدو ماكر وخبيث للإنسان وهو ظاهر مستبين يعرفه كل ذي عقل.
٦١ - (وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
قوله: {وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {وَأَنِ اعْبُدُونِي} معطوف على قوله: {أَنْ لا تَعْبُدُوا} أي أطيعوني فيما أمرتكم به من توحيدي في العبادة، وإفرادي بالألوهية والربوبية، واجتنبوا ما نهيتكم عن فعله من المناهي {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} الإشارة، {هذا} عائدة إلى ما عهد الله إليهم، أو إلى عبادته - فهذا طريق الله القويم الحق وما دون من السبل فهو الزيغ والاعوجاج.
٦٢ - (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)
قوله: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا} الجبل والجبلة، بكسرين وتشديد، بمعنى الجماعة أو الأمة من الناس ٤١
لقد أغوى الشيطان خلْقا عظيما من ذرية آدم، إذْ أضلهم واجتالهم عن دين الله وأفسدهم أيّما إفساد - وذلك بمختلف أساليبه من الإيحاءات والوسوسات وكل أسباب الفتة والإغراء والإغواء والتغرير والخداع.
قوله: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} استفهام توبيخ وتقريع، أي أفلم تنتفعوا بعقولكم، إذْ خوَّلكم الله إياها لتكشفوا عن وجه الصواب وتميزوا بين الحق والباطل.
٦٣ - (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)
قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ}.
إذا بُرِّزت الجحيم يوم القيامة للمجرمين الخاسرين من الكافرين والمنافقين فنظروا إليها وهي تتوقد وتتأجج مضطرمة مستعرة، حينئذ يخاطبهم الله مقرّعا موبّخا زيادة لهم في التنكيل والتعذيب {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} هذه النار التي وُعدتموها من قبل وأنتم في الدنيا، وقد حذرناكم بالغ التحذير من أهوالها وويلاتها.
٦٤ - (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)
قوله: {اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} أي ادخلوا النار بسبب كفركم وعصيانكم وما قارفتموه من الخطايا والمنكرات.
٦٥ - (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
قوله: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ} {اليوم} مصوب على الظرفية، أي في يوم القيامة يساق المجرمون إلى جهنم زُمَرًا ليلاقوا جزاءهم الأليم، فينكرون ما اكتسبوه في الدنيا من المعاصي والآثام فيختم الله على أفواههم فلا تنطق، ثم يستنطق الله جوارحهم بما عملته من سوء الفعال

والآثام - وهو قوله: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} بعد أن ينكر المجرمون ما فعلوه في دنياهم يُنطِقُ الله جوارحهم من الأيدي والأرجل وغيرها لتكشف عما فعلوه واجترحوه، وتلك شهادة من نفس المجرمين ومن أعضائهم وجوارحهم حتى لا تبقى لهم بعد ذلك حجة - وحينئذ يستيقن المجرمون أنهم الأخْسَرون وأنهم الأذلون.

٦٦ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)

قوله: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} طمسنا: من الطمس، والطُّموس بمعنى الإمِّحاء والدُّروس - ويطمس يعني يمحو - وانطمس: امِّحى واندرس - وطمست الشيء أي محوته واستأصلت أثره ٤٢.

والمعنى: لو شاء الله لأعمى هؤلاء المجرمين فأذهب أبصارهم {فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ} أي فاستبقوه إلى الصراط وهو طريقهم الذي اعتادوا أن يسلكوه.

قوله: {فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} أي فكيف يبصرون الطريق وقد ذهبت أبصارهم وعموا.

٦٧ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ)

قوله: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ} أي لو شاء الله أن يمسخهم بتغيير صورهم أو بجعلهم قردة أو خنازير أو حجارة {عَلَى مَكَانَتِهِمْ} أي على مكانهم لمسخناهم في منازلهم وأمكنتهم التي يجترحون فيها المآثم والمنكرات {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ} أي لم يقدروا على ذهاب أو مجيء - أو ما استطاعوا ذهابا أو رجوعا ٤٣

٦٨ - (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}.

{نُنَكِّسْهُ} من التنكيس وهو القلب - أو جعل الشيء أعلاه أسفله - نكسه، أي قلبه على رأسه - ويقرأ القرآن منكوسا: أي يبتدئ به منن آخره ويختم بالفاتحة، أو من آخر السورة فيقرأها إلى أولها مقلوبا ٤٤

ذلك بيان من الله عن بالغ إرادته وعظيم قدرته في الخلق، وهو هنا تنكيس المعمَّر، وهو قلبه وجعله على عكس ما خلقه أولا؛ وذلك أن الله – عز وعلا – خلق الإنسان ضعيفا في الجسد خُلوا من العقل والفهم والعلم - ثم جعله يمر في أطوار وينتقل من حال إلى حال حتى يبلغ أشده ويستكمل قوته من بسطة الجسم والعقل ثم يأخذ في تنكيسه في الخلق فيأخذ في التناقص والضعف شيئا فشيئا حتى يعود إلى حال شبيهة بحاله في الصبا من حيث الضعف في الجسد وهوان العقل وبساطة الفهم.

إن ذلك كله دليل ظاهر على أن الله – جلا وعلا – هو القوي المقتدر وأنه الصانع الحكيم الذي يفعل ما يشاء - وهو قوله: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ} أي من نطلْ عمره {نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ} يعني نقلبه فلا يزاد ضعفه في تزايد، وقواه في انتقاص حتى يُفْضي إلى الهرم الشديد ثم الموت المحتوم.

قوله: {أَفَلا يَعْقِلُونَ} أفلا يتدبرون هذه الظاهرة ليعلموا أن الله قادر على كل شيء، وأنهم مخلوقون للحياة الآخرة وهي دار القرار والبقاء عقب رحيلهم عن هذه الدار وهي دار الزوال والفناء.

٦٩ - (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ)

قوله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعرا وما يستقيم له ولا يليق به أن يكون كذلك؛ فأغراض الشعر جلُّها مذموم، كالغزل والهجاء والافتخار ووصف الخمر والعورات وغير ذلك من وجوه الشعر وأغراضه المستهجنة - ولئن جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم من الكلام ما كان موزونا فإنما ذلك من جنس كلامه الذي كان يتكلم به على طبيعته من غير صنعة فيه ولا تكلف ولا قصد لوزن - وذلك كما كان يتفق في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم في أحاديث موزونة ولا يسميها

الناس شعرا - وبذلك فإن فِرية المشركين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم شاعر لهي محض باطل وظلم - وهم بذلك إنما يقولون زورا؛ لأنهم أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأنه لم يَقْرِض الشعر، ولو تكلف قَرْضَه لما استطاع؛ لأنه غير مطبوع على قرض الشعر ولا الشعر من سجيته أو طبعه - والافتراء عليه بأنه شاعر لا يقل زورا ونكرا عن الافتراء عليه بأنه كاهن وساحر.
أما القرآن العظيم نفسه فهو من حيث النَّظْمُ والمعنى فذو شأن عجيب ومميز؛ فإنه من حيث النَّظْمْ ليس بالشعر؛ لأنه في مزايا نظمه وأسلوبه مختلف تماما عن الشعر ذي الكلام الموزون المقفى، وليس القرآن كذلك بل إن القرآن لذو أسلوب خاص ليس له في أصناف الكلام نظير - وما عرفت العربية له مثيلا من قبل ولا من بعد - وفي ذلك يذهب فريق من أقطاب البيان والبلاغة ومصاقع الخطابة والفصاحة من أفذاذ العربية إلى أن القرآن ليس على ضرب من ضروب النظم في لغة العرب - فليس هو بالشعر ولا بالنثر ولا بالسجع ولا بالخطابة ولا بالرسالة - وما يستقيم له شيء من ذلك، إنْ هو إلا القرآن وكفى.
أما القرآن من حيث المعنى فإن فيه من روائع الأغراض والمقاصد، ومن عجائب المعاني والأحكام والعبر ما يستثير الخواطر والأذهان، ويشدَهُ الوجدان والجنان لبالغ حججه ودلالاته، وبما حواه من عظيم المشاهد والأخبار والأسرار والحكم، فأين ذلك كله من الشعر في أغراضه المعلومة من الهجاء والرثاء والإطراء والفخر ووصف النساء والخمر؟! وذلك كله تأويل قوله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} أي لا يستقيم له ولا يليق به ولا يتأتى له إن أراد قرضه - وقد عرفتموه وأخبرتم طبعه؛ إذ لبث فيكم أربعين سنة فما كان ليقرض الشعر ولا الشعر بمتسهِّل له.
قوله: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ} أي ليس القرآن إلا عظة بالغة وإرشادا ونورا تهتدون به إلى سواء السبيل {وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} أي ليس هو بالشعر ولا غيره من ضروب البيان بل إنه قرآن ظاهر ومعلوم بأسلوبه الخاص ونظمه الفريد، وطريقته المميزة.
٧٠ - (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)
قوله: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} الضمير في قوله: {لِيُنْذِرَ} عائد على القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم ٤٥ وعَوْدهُ على القرآن أظهر فهو أقرب مذكور - والقرآن أنزله الله نذيرا لكل ذي عقل وفطنة؛ فإنما يتعظ به من كان ذا بصر وتأمل فهو الحي - أما معدوم البصيرة والبصر، الذي لا يتدبر ولا يتذكّر ولا يتعظ فإنه أشبهُ بالموتى الذين لا تنفعهم الموعظة ولا تؤزُّهم الذكرى.
قوله: {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي يجب العذاب على المكذبين الغافلين الذين لا يتعظون ولا يتفكرون في آيات الله كأنهم ميتون خامدون ٤٦.
٧١ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)
قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ}.
ذلك توبيخ لمشركي قريش والذين على شاكلتهم من الكافرين والمنافقين - وهؤلاء جميعا يقول لهم الله جل جلاله: أو لم يعلم هؤلاء المكذبون الغافلون ما خوّلناهم من النعم وما مننّا به عليهم من مختلف الأرزاق والمنافع - وهو قوله: {أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} أي خلقنا لهم مما تولينا إحداثه ولم يقدر غيرنا أن يُحْدِثه {أَنْعَامًا} أي خلقنا لهم الأنعام من إبل وبقر وغنم {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} أي خولناهم امتلاكها والتصرف فيها تصرّف الملاك - وقد خصّ الأنعام بالذكر؛ لأنها كانت جلَّ أموالهم.
٧٢ - (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)
قوله: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ} أي سخرناها لحاجاتهم ومنافعهم وصيرناها منقادة لهم فلا تمتنع منهم - بل لو جاء صغير إلى بعير كبير لأناخه ولو شاء أن يقيمه لأقامه وساقه فهو بذلك مذلل منقاد له.
قوله: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} {رَكُوبُهُمْ} أي مركوبهم - يعني: من هذه الأنعام ما يصلح للركوب فتحملهم وتحمل أثقالهم في

أسفارهم إلى مختلف الجهات - وكذلك يأكلون مما خلق الله لهم من هذه الأنعام - فإن شاءوا نحروا وأكلوا حلالا طيبا.

٧٣ - (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ)

قوله: {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ} أي ينتفعون من أصوافها وأوبارها وأشعارها فيتخذون منها اللباس والأثاث والزينة وكذلك يشربون من ألبانها شرابا سائغا مستطابا.

قوله: {أَفَلا يَشْكُرُونَ} يعني أفلا يعبدون الله وحده دون غيره من الأنداد والشركاء، فيذكروا أنعُمَهُ عليم وما منَّ به عليهم من وجوه الرزق والفضل ٤٧

٧٤ - (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ)

قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}.

ذلك تنديد بالمشركين السفهاء الذي ركبوا الضلالة وسدروا في العماية والتيه وذلك بعبادتهم أصناما جامدة خاوية لا ترى ولا تسمع ولا تفقه، فاتخذوها من دون الله آلهة لهم لتنصرهم إذا حزبتهم الشداد، ولتدرأ عنهم النوازل والنائبات.

٧٥ - (لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)

قوله: {لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} لا تملك الأصنام نصر أحد؛ بل لا تقدر أن تدفع عن نفسها الشر والأذى؛ فهي أعجز وأحقر من اقتدارها على صنع شيء.

قوله: {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} ما كان يعبده المشركون من أصنام وأوثان، كل أولئك مُحضرون يوم القيامة ليتبرؤوا ممن عبدوهم من الضالين والسفهاء، زيادة في تعذيبهم واستيئاسهم والتنكيل بهم.

٧٦ - (فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

قوله: {فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} أي لا تبتئس ولا تحزن بتكذيبهم وجحودهم ونكولهم عن عقيدة التوحيد.

قوله: {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} ذلك تهديد من الله للضالين المكذبين في كل زمان، مبينا لهم أنهم لا يخفون عليه؛ بل إنه سبحانه عليم بما يخفونه في قلوبهم من مقاصد السوء ونوايا الشر والظلم - وعليم بما يظهرونه من الأفعال والأقوال، والله جلت قدرته يستوي عنده الباطن والظاهر، والسر والعلن.

٧٧ - (أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ}.

جاء أُبيّ بن خلف وفي يده عظم رميم وهو يفُتّهُ ويذروه في الهواء ويقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعم ويبعثك ويدخلك جهنم " فنزلت الآية {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} أي من ماء قليل مستقذر خارج من الإحليل وهو قناة النجاسة {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} أي فإذا هو ظاهر الخصومة بالرغم من مهانة أصله وقذارة أوله، ويجترئ على الجحود وإنكار البعث وإحياء الموتى بعد أن صاروا رفاتا، وقد أتى عليهم البلى وهو قوله: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ}.

٧٨ - (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)

{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ} المراد بالمثل المضروب، تفتيت العظام - فقد فتّه بيده وذَراهُ في الهواء مستنكرا مكذبا وقد نسي أن خَلْقَه

من ماء مهين مستقذر لهو أشدُّ هوانا من العظام النَّخِرة البالية، وهو يسأل {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} الرميم، اسم لما بَلِيَ من العظام، أي يسأل الإنسان الجاحد في تكذيب واستسخار: من ذا الذي يحيي هذه العظام بعد أن رمَّت وصارت رفاتا.

٧٩ - (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

قوله: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} الذي يرد الناس أحياء بعد أن ينشر فيهم أرواحهم فيجمعهم ليوم الحساب، لهو الله جلت قدرته، فإنه خالق قاهر مقتدر لا يعز عليه فعل أي شيء - وهو من صفاته البالغة والخلْق المطلق، فهو الذي بدأ خلْق الإنسان من طين ثم خلق نسله من ماء مستقذر مستهجن، فهو بكماله وبالغ اقتداره لا يستعصي عليه أن يعيد الإنسان حيا مكتملا بعد أن صار رميما مختلطا بالتراب.

قوله: {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} الله يعلم تفاصيل المخلوقات، ويعلم أجزاءها المتفتتة المبعثرة في ذرات الثرى، ويعلم كيفية خلقها من جديد.

٨٠ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

قوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} خلق الله الشجر وجعله خضرا ذا نُضْرة ويَنْعٍ ثم يصير حطبا يابسا توقد به النار - إن هذه الصفة الكامنة في الشجر طبيعة مقدورة فيه، وهي من صنع الله وقدرته، إذْ خلقَ الأشياءَ وما يُجلّيها من صفات - والصفة المقصودة هنا هي الاشتغال والتوقد أو الاحتراق - وهذه ظاهرة من ظواهر الطبيعة تجلى فيها قدرة الصانع الحكيم.

وقيل: المراد بذلك شجر المرْخ ٤٨ والعفار ٤٩، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معه نار فيأخذ منه عودين مثل السّواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيَسْحَقُ أحدهما الآخر فتتولد النار من بينهما بإذن الله - فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قادر على إحياء الموتى وبعثهم من جديد.

٨١ - (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

ذلك برهان من الله للمشركين والمرتابين والمنافقين الذين يكذبون بيوم القيامة، وما فيها من بعث للموتى وتلاقيهم في الحشر للحساب - برهان ظاهر ومعقول تعيه القلوب والفِطَر وتستيقنه الأذهان والمدارك - برهان ساطع وميسور لا لبس فيه ولا تعسير {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} ومعلوم لكل ذي عقل أن السماوات والأرض شيء عظيم - بل إنهما في غاية السعة والضخامة وذلك بما فيهما وما بينهما من خلائق وكائنات وأشياء لا تحصى عددا - وكذلك ما يشدهما ويجمعهما ويؤلف بينهما من نظام كوني مذهل ونواميس أساسية مركوزة لا تتخلف - كل أولئك يدل على عظمة السماوات والأرض وأن خلقهما يفوق تصور البشر - أفليس الذي خلق ذلك بقادر على خلق الإنسان من جديد، وإعادته كرة ثانية بعد الموت - بل إن خلْقَ الإنسان مرة أخرى وإحياؤه من الرميم والرفات يوم المعاد لهو أهون وأصغر من خلْق هذا الكون الهائل الشامل المديد.

قوله: {بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} ذلك جواب من الله يدفع فيه تخريص الكافرين المكذبين بيوم الدين، ويؤكد فيه قدرته على الإعادة في يوم المعاد - فهو سبحانه {الْخَلَّاقُ} صيغة مبالغة لكثرة مخلوقاته {الْعَلِيمُ} عليم بكل شيء وعليم بخلق الكائنات وخلْق الإنسان ولا يفوت علمه من ذلك شيء.

٨٢ - (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

قوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا} المراد بأمره: شأنه العظيم، فإنه إن أراد أن يخلُق شيئا {أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ} أي تكوَّن {فَيَكُونُ} أي فيحدث - فأمر الله سبحانه نافذ لا يُرد، وحصول المأمور واقع لا محالة دون امتناع.

٨٣ - (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} يُنزّه الله نفسه عن سائر العيوب والنقائص فله وحده الكمال وبالغ الجلال - وهو الخلاق المقتدر العليم {بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} {مَلَكُوتُ} بمعنى ملك، وزيادة الواو والتاء للمبالغة - مثل رحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت؛ فالملك والملكوت واحد في المعنى؛ أي أن الله مالك كل شيء وبيده مقاليد السماوات والأرض - وما من شيء في الكون إلا وهو مملوك لله، مندرج في ملكوته وتحت قهره وسلطانه.

قوله: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} كل شيء هالك إلى الله الواحد القهار - والناس حين تقوم الساعة صائرون إلى البعث والحشر من بعد ممات فهم جميعا عائدون إلى الله لملاقاة الحساب والجزاء، وحينئذ ينجو المؤمنون المصدقون، ويبوء المكذبون الجاحدون بالوبال والخسران ٥٠.

٣٧ سورة الصافات:

سورة الصافات:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية، وفيها من ألوان التحذير والتنذير والتخويف ما فيها - وكذلك من صور التنبيه والتنديد والزجر ما يهيج الحس والوجدان ويستديم الحذر والوجل مما هو قادم ومنتظر.

والسورة مبدوءة بالقسم العظيم من الله ذي الجبروت، بالصافات وهي الملائكة المصطفة للصلاة، الزاجرات عن المعاصي، على أن الله واحد لا شريك له، وهو سبحانه رب كل شيء وخالقه وموجده.

وفي السورة تنديد بالمشركين المكذبين الذين يستسخرون من آيات الله ويتخذونها هزوا، أولئك قد أعدَّ الله لهم سوء العذاب يوم القيامة؛ حيث النار اللاهبة المستعرة، وحيث الزّقوم، ذلكم الطعام الخبيث المسموم، طعام الآثمين الخاسرين.

وفي السورة ذكر مقتضب لبعض المرسلين، ومن أظهرهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ إذ رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل عليه السلام فاستجاب الولد الزكي البارُّ الطهور لأمر ربه ولم يتردد، فلما تلَّه للجبين وأراد أن يذبحه فداه الله بذِبْحٍ عظيم.

وفيها قصة يونس عليه السلام الذي تولى عن قومه مُغاضبا فيمم شطر البحر فركب السفينة مع طائفة من الناس فقارعهم فكان من المغلوبين في القرعة فالتقمه الحوت عقيب إلقائه في البحر.

إلى غير ذلك من الأخبار والمواعظ والقصص.

١ - (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}.

أقسم الله بالصافات وهي الملائكة تصف أقدامها في الصلاة، وقيل: تصف أجنحتها في الهواء تنتظر الأمر من الله و {صفًّا} مصدر مؤكد.

٢ - (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا)

{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} من الزجر، وهو الدفع بقوة؛ أي الملائكة تزجر الناس عن المعاصي بإلهامهم الخير - أو تزجر الشياطين عن التعرض لهم و {زَجْرًا} مصدر مؤكد.

٣ - (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} أي الملائكة تتلو آيات الله وغير ذلك من تسبيح وتحميد - و {ذِكْرًا} مفعول به.
٤ - (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)
قوله: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} جواب للقسم؛ فقد أقسم الله - وهو الصادق الخالق ذو الملكوت - بملائكته الصافات في الصلاة، أو الصافات أجنحتها في الهواء، الزاجرات عن المعصية والشر، التاليات كلام الله - والمسبحات بحمده، الذاكرات لجلال وجهه الكريم - على الحقيقة اليقينية الكبرى وهي أن الله واحد لا شريك له فليس من إله سواه - وهو سبحانه {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}.
٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)
{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} {ربُّ}، خبر بعد خبر أي خبر ثان - أو بدل من قوله: {لواحد} أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي هو رب - والمعنى: أن الله وحده لا شريك له وهو مالك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من خلائق وكائنات وأجرام.
قوله: {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} والمراد بالمشارق: مطالع الشمس، وهي ثلاثمائة وستون مشرقا، وذلك بعدد أيام السنة - وكذلك المغارب؛ وبذلك تشرق الشمس كل يوم في مشرق، وكذلك تغرب كل يوم في مغرب - فلا تطلع الشمس من مشرق واحد يومين ولا تغرب من مغرب واحد يومين - وأما {ربُّ المشرقي وربُّ والمغربين} فإنه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما - وأما {رب المشرق والمغرب} فإنه أراد به الجهة؛ فالمشرق جهة، والمغرب جهة.
٦ - (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)
قوله: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} {الدُّنْيَا} مؤنث الداني - {بِزِينَةٍ} بالكسر المنون، و {الْكَوَاكِبِ} بالكسر على أنها بدل أو بيان للزينة - والزينة، ما يزان به الشيء - والمعنى: أن السماء الدنيا قد زينتها الكواكب بضيائها وإشعاعها - وثمة قراءات أخرى غير هذه القراءة ١.
على أن الكواكب السيارة والنجوم الثابتة كثيرة بالغة الكثرة - وهي في عددها الكاثر المنتشر في أنحاء السماء تعزّ على العدّ - وهي في أحجامها وأبعادها ومساحاتها مختلفة ومتفاوتة بالغ التفاوت - ولا يتسع المجال للحديث عن حقائق مذهلة في الكواكب والنجوم، وذلك من حيث أحجامها الضخام ومسافاتها الموغلة في البعد عن سطح الأرض - وهي مسافات كبيرة وفي غاية الإيغال حتى إنها لا تقاس إلا بالمئات أو الآلاف من السنوات الضوئية.
٧ - (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)
قوله: {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} {حفظاً}، منصوب على المصدر بإضمار فعل؛ أي حفظناها حفظا - وإما على المفعول لأجله؛ فيكون المعنى: إننا خلقنا السماء الدنيا زينة وحفظا ٢ والمارد: معناه العاتي الخارج عن طاعة الله ٣؛ فإن السماء محفوظة من الشياطين العاتية المتمردة أن تلج إلى الملأ الأعلى وذلك بتسليط الشهب عليها لتحرقها.
٨ - (لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)
قوله: {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الْأَعْلَى} الكلام هنا مستأنف لبيان حال الشياطين بعد ما حفظ الله السماء منهم - و {يَسَّمَّعُونَ} أصله يتسمَّعون - والتسمع طلب السماع - والمراد بالملأ الأعلى الملائكة؛ فقد نفى حصول السماع منهم؛ إذ لا يقدرون أن يستمعوا لأنهم مقذوفون بالشُهب، مبعدون عن بلوغ الملأ الأعلى أو السماع منهم إلا من خطف منهم خطفة فاسترق شيئا تعاجله الملائكة بإتباع الشهاب لحرقه - وهو قوله: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} أي يرمون بالشهب من جميع الجهات من السماء التي يصعدون منها للاستراق.
٩ - (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)
قوله: {دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} {دُحُورًا} مفعول لأجله؛ أي لأجل الطرد - أو مصدر لمقدر؛ أي يُدحرون دحورا - وقيل: منصوب على الحال أي مدحورين ٤

و {دُحُورًا}، من الدحْر، وهو الطرد والدفع والإبعاد ٥؛ أي يرمون مطرودين مبعدين {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أي دائم، وذلك في الآخرة؛ فهم بذلك معذبون في الدنيا بالطرد والإبعاد والإحراق بالشهب - ويوم القيامة يلبثون في النار دائمين مقيمين.

١٠ - (إلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

قوله: {إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} {مَنْ} في محل رفع بدل من واو {لا يَسَّمَّعُونَ} وقيل: منصوب على الاستثناء، أي أن الشياطين لا يسمعون الملائكة في السماء إلا الذي {خَطِفَ الْخَطْفَةَ} من الخطف وهو الاختلاس - والمراد اختلاس كلام من الملائكة مسارقة.

قوله: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} الشهاب، شعلة من نار ساطعة ٦؛ أي فلحقه شهاب نافذ بضوئه وشعاعه المنير ٧.

١١ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ)

قوله تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ}.

استفتهم: من الاستفتاء وهو نوع من السؤال - والهمزة للاستفهام التقريري؛ أي استخبرهم، والضمير لمشركي قريش أو مكة - وقد عادل في هذا الاستفهام التقريري في القوة الأشدية بين خلْق المشركين المكذبين بيوم القيامة، وخَلْق غيرهم من الأمم والجن والملائكة والأفلاك، والأرضيين - وهو قوله: {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} {أَمْ} استفهام تقريري ثان؛ أي هل هم أقوى خلْقا أو أصعب خلْقا وأشقه أم من خلقنا غيرهم من السماوات والأرض وما فيهما من أفلاك وأجرام وخلائق - وذلك رد لإنكارهم البعث؛ فإن من هان عليه خلْق هذا الكون الهائل العجيب لم يصعب عليه خلق البشر وإعادة إحيائهم من التراب من جديد - وهو قوله: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ} واللازب: اللاصق، من اللزوب وهو اللصوق والثبوت ٨

والمعنى: لماذا يعجبون من البعث وإحيائهم كرة أخرى بعد الموت - فقد أنشأهم الله من التراب ولا يعزّ عليه إنشاؤهم ثانية من الترب، ويستفاد من الآية أيضا: التنبيهُ على ضعف بني آدم ورخاوتهم؛ لأنهم مصنوعون من الطين الرخو الطري فهم لا يوصفون بالصلابة والقوة.

١٢ - (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

قوله: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} عجبت بتاء الخطاب؛ أي بل عجبت أنت يا محمد من قدرة الله على خلائقه العظام، وهؤلاء المشركون المكذبون يسخرون منك ومن تعجبك - أو عجبت من إنكارهم البعث وإعراضهم عن دين الله أم من ضلالتهم وعمايتهم عن الحق والهدى، وهم يسخرون من البعث والإحياء بعد أن كانوا رميما.

١٣ - (وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ)

قوله: {وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ} {ذُكِّرُوا} من التذكير وهو الوعظ، وطريقه الترغيب في الهداية، والترهيب من العصيان والضلالة - وهؤلاء المشركون العصاة دأبهم العتوّ والتمرد؛ فهم إذا وُعظوا موعظة لا يتعظون ولا يخشون ولا يزدجرون.

١٤ - (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

قوله: {وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ} إذا رأى المشركون المكذبون شيئا من الخوارق المعجزة، كانشقاق القمر ونحوه فإنهم {يَسْتَسْخِرُونَ} السين والتاء للطلب؛ أي يستدعي بعضهم من بعضهم أن يسخر من هذه الخوارق {وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ}

١٥ - (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

{وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ} الإشارة بهذا إلى ما ظهر من الخوارق المعجزة على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهم إذا رأوا

شيئا من ذلك أو عاينوه معاينة قالوا مستكبرين مكذبين: ما هذا إلا سحر ظاهر - وذلك هو دأب الجاحدين الضالين، فإنهم لا يرون الحقائق واضحة ساطعة بلجة حتى يبادروا معاندين مكابرين بالتكذيب والاستنكاف.

١٦ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

قوله: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} الاستفهام للإنكار، أي أنُبعث من قبورنا أحياء بعد أن كنا ترابا ورفاتا.

١٧ - (أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ)

قوله: {أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ} الهمزة للاستفهام، دخلت على واو العطف - {آبَاؤُنَا} معطوف على الضمير المستتر في قوله: {لَمَبْعُوثُونَ} ٩ والمعنى: أيُبعث أيضا آباؤنا، يريدون بذلك أن آباءهم أقدم، فبعثهم أشد بعدا.

١٨ - (قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ)

قوله: {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بنعم {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} جملة حالية لعامل محذوف - وتقديره: نعم تبعثون وأنتم صاغرون ذليلون خزايا ١٠

١٩ - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ)

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ}.

يبين الله سرعة أخذه للبشرية - فإذا نُفخ في الصور النفخة الأخرى وهي نفخة البعث والإحياء سارع المكذبون مذعورين إلى الحشر لملاقاة الحساب - وذلك هو قوله: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} وذلك جواب لشرط مقدَّر، تقديره: إذا كان ذلك فما هي إلا زجرة واحدة ١١ والزجرة تعني الصيحة - ويراد بها النفخة الثانية التي تبعث فيها الخلائق من مراقدها {فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} أي يُبعثون عقب النفخة الثانية أحياء فينظرون إلى ما قدّموه من سوء الأعمال - أو قاموا من قبورهم فَزِعين ينظرون ما هو واقع بهم {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}

٢٠ - (وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

{وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} الويل كلمة يقولها الهالك وقد أحاط به اليأس والمنون وظن أنه غير ناج؛ يعني يقول المشركون المكذبون لما رأوا اليقين وعاينوا الساعة وعلموا أنهم خاسرون لا محالة: هذا اليوم الذي وُعدنا به من قبل لنجازى فيه بأعمالنا.

٢١ - (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

قوله: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} {يَوْمُ الْفَصْلِ} أي يوم القضاء الذي يفصل الله فيه بين أهل الحق وأهل الضلال {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} هذا هو اليوم الذي توعدناكم به وحذّرناكُموه لكنكم كذبتم به ونكلتم عما يقتضيه من إيمان وحسن الفعال - وذلك تقريع للكافرين وتوبيخ على تكذيبهم ونكولهم عن الإيمان.

٢٢ - (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)

قوله: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} أزواجهم: منصوب على العطف على الموصول {الذين} وقيل: الواو بمعنى مع فهو منصوب على أنه مفعول معه ١٢

وهذا خطاب من الله للملائكة، إذ يأمرهم: أن اجمعوا الكافرين المكذبين {وَأَزْوَاجَهُمْ} أي ونظراءهم وأشباههم وقرناءهم من الشياطين والعصاة والمجرمين، أو ونساءهم الكافرات {وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ}

٢٣ - (مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

{وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي اجمعوا معهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله وهم الأصنام والأنداد والشركاءُ على اختلاف أنواعهم وأجناسهم، فأولئك جميعا يحشرون مع المشركين الذين عبدوهم أو اتخذوهم آلهة من دون الله ليُساقوا جميعا إلى النار - وذلك هو قوله: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} أي دُلوهم وقودوهم إلى طريق الجحيم، وهي النار الشديدة التأجج - وكل نار بعضها فوق بعض ١٣ وذلك حتى يصطلوها.

٢٤ - (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

قوله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} أي احبسوهم في الموقف ليُسألوا عن عقائدهم وأعمالهم.

٢٥ - (مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ)

قوله: {مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ} وهذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر هن بعد ما كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين.

٢٦ - (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

قوله: {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} أي منقادون مستيئسون وقد أسلم بعضُهم بعضا وخذله عن عجز - وكل واحد منهم مستسلم غير منتصر ١٤.

٢٧ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

قوله تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}.

هذا تخاصم بين التابعين والمتبوعين - فالتابعون كانوا يوالون متبوعيهم المضلين المفسدين من شياطين الإنس والجن ويعملون ما يسولونه لهم من المعاصي والآثام ويقلدونهم في سلوكهم وأهوائهم وتصوراتهم أشنع تقليد؛ فهم جميعا يُقبل بعضهم على بعض يتخاصمون ويتلاومون ويوبّخ بعضهم بعضا وكل الفريقين يلحي بالملائمة على الآخر - فيقول الأتباع من المخدوعين والمضللين والرعاع، للمتبوعين من الرؤساء والكبراء والمضلين {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ}

٢٨ - (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)

{إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} أي تأتوننا عن القوّة والقهر - فإن اليمين موصوفة بالقوة وهي بها يقع البطش - والمعنى: أنكم كنتم تحملوننا على الضلال حملا، وتقسروننا على الكفر قسرا.

٢٩ - (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

قوله: {قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} ذلك جواب المضلين المتبوعين من الرؤساء والكبراء والساسة: بل أنتم أعرضتم ونكلتم عن الإيمان، وكان في مقدوركم أن تؤمنوا بالله وحده، إذ لم تكونوا ملجئين على الكفر.

٣٠ - (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

قوله: {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} يقول المتبوعون المضلون للتابعين الضالين: لم يكن عليكم تسلّط فنسلبكم به إرادتكم واختياركم بل كنتم أنتم مختارين للضلال والطغيان وهو قوله: {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ}.

٣١ - (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)

قوله: {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} أي لزمنا قول ربنا وهو وَعيدُهُ بأنا ذائقون لعذابه لا محالة، وذلك لعلمه بحالنا.

٣٢ - (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

قوله: {فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} أي دعوناكم إلى الغي – وكنتم راغبين فيه – فغويتم {إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} فأردنا إغواءكم لتكونوا شركاءنا

في الغي.
٣٣ - (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)
قوله: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} إنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية والضلال - أولئك هم الأتباع الضالون، والمتبوعون المضلون، إنهم شركاء في الدنيا حيث الضلال والغي والإعراض عن دين الله، وهم كذلك شركاء في الآخرة حيث النار يقذفون فيها جزاء وفاقا بما عملوا جميعا من الشرك والعصيان.
٣٤ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)
قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} الكاف صفة لمصدر محذوف، أي إنا مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم فسق عن أمر الله ١٥.
٣٥ - (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)
قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}
يخبر الله عن هؤلاء المجرمين بأكبر إجرامهم وهو شركهم بالله وإعراضهم عن كلمة التوحيد وهي {لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} فإنهم إذا دُعوا إلى الإقرار بوحدانية الله بنطق هذه الشهادة العظمى أبوا واستكبروا وأصروا على الإشراك واتخاذ الأنداد {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}
٣٦ - (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)
{وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} أما قولهم إنه شاعر فذلك ما لم يصح عنه صلى الله عليه وسلم وما كان ينبغي له أن يقرض الشعر - وقد بينا في تفسير سورة يس أن رسول الله ما كان شاعرا وما كان بمستطيع أن يقرض الشعر وتلك سجيته وجِبِلّته لحكمة ربانية مقدورة - وهذه حقيقة لا ينكرها إلا الجاحدون المعاندون.
أما قولهم: إنه مجنون فذلك قدحٌ مُسْتهجَن، وطعن مقبوح مشين، وافتراء ظالم وسقيم على خير الأولين والآخرين الذي شهدت له الدنيا بالصدق والأمانة وبالغ الذكاء والفطانة - شهد له المشركون من خصومه ومبغضيه إبانَ جاهليتهم بأنه الصادق الأمين، إذ لم يجرِّبوا عليه الكذب ولم يجدوا فيه أيّما ذميمة من الذُّموم وسوء الخصال - وكذلك قد شهد له المتعلمون والدارسون والمصلحون من مختلف الأمم في كل الأزمنة، وفي زماننا هذا أنه الإنسان المميَّزُ الفذ بما أوتيه من كمال العبقرية وروعة الخلق وجمال الطبع والفطرة وسلامة الخصال والسيرة.
أما افتراء الظالمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجِنة فذلكم هذيان فاضح ومستقبح لا يجترئ على التلعثم به إلا كل مأفون مضلَّل قد أكل قلبه الحسد والضِّغْن وفرط التعصب والكراهية لنبي الإنسانية ورسول العالمين عليه الصلاة والسلام.
على أن ثمة تخليطا في افتراء المشركين وكذبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذْ يرمونه بالشعر والجنون في آن - فكيف يتيسر للشاعر أن يكون مجنونا - وهل يصدق من ربه مِسْكةٌ من عقل أن المجنون يقرضُ شعرا؟؟ فإنه معلوم أن الشعر في ذاته براعة وإبداع من النظْم الموزون المقفى، وهو ضرب من ضروب التفنّن في الكلام المرصوف المنتظم - فأنّى للمجنون أن يقرض الشعر؟؟ إنَّ ذلكم إيغال من المشركين الظالمين، في الحماقة والسفه والمكابرة.
٣٧ - (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)
قوله: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ} أضرب عن كلامهم المستنكر، وأخبر بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاء بالحق من ربه، إذ آتاه القرآن العظيم وهو ليس بالشعر ولا بغيره من ضروب الكلام ولكنه النظم الفريد المميَّز الذي لا يضاهيه في النظم كلام.
قوله: {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} جاء محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا للنبيين من قبله - وقد أمر أمته أن يؤمنوا بالنبيين والمرسلين جميعا وأن

لا يُفرِّقوا بين أحد منهم كما يفعل الظالمون من أهل الكتاب، إذْ فرّقوا في الإيمان بين النبيين، فآمنوا ببعضهم وكفروا بآخرين جريا وراء أهوائهم وضلالاتهم وما مَرَدوا عليه من التعصُّب والجنوح للاعوجاج.

والظالمون من أهل الكتاب قد ضلوا أفظع ضلال باتفاقهم على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمالئهم عليه وعلى دينه وقرآنه وأمته ليضعفوهم أو يذلوهم أو يبيدوهم إن استطاعوا.

٣٨ - (إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ)

قوله: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ} ذلك تهديد من الله ووعيد للكافرين الظالمين الذي يفترون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأنهم سيصلون النار بعذابها الوجيع الشديد.

٣٩ - (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي لا تصلون النار فتعذبون بعذابها الشديد إلا جزاءَ عملكم الذي قدمتموه في الدنيا وهو الشرك والعصيان ١٦

٤٠ - (إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

قوله تعالى: {إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ}.

استثنى من حال الكافرين وخسرانهم وتعذيبهم، المؤمنين بقوله: {إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} وذلك استثناء منقطع ١٧ فإنه لما ذكر شيئا من أحوال الكافرين وما يجزوْنه من العذاب، ذكر شيئا من أحوال المؤمنين وما يفيض الله به عليهم من أصناف النعم، وهؤلاء هم المؤمنون الذين استخلصهم الله للإيمان والامتثال وحسن المصير.

٤١ - (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

قوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} لقد منّ الله عليهم بالجنة وفيها من ألوان النعيم ما تقرُّ به عيونهم، وتبتهج به نفوسهم، ويجدون فيه الرخاء والسعادة وطِيب المقام - وقد فسَّر الرزق بقوله: {فواكه} وهي بدل من رزق، أو خبر لمبتدأ مضمر؛ أي: ذلك الرزقُ فواكهُ ١٨ وهي كل ما يُتلذذ به وليس قوتا لحفظ الصحة - وذلك يعني أن رزقهم كله فواكه؛ فهم بذلك مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسامهم قوية ومحكمة ومخلوقة للأبد، فما يأكلونه إنما هو على سبيل التلذذ.

٤٢ - (فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

قوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} لقد منّ الله عليهم بالجنة وفيها من ألوان النعيم ما تقرُّ به عيونهم، وتبتهج به نفوسهم، ويجدون فيه الرخاء والسعادة وطِيب المقام - وقد فسَّر الرزق بقوله: {فواكه} وهي بدل من رزق، أو خبر لمبتدأ مضمر؛ أي: ذلك الرزقُ فواكهُ ١٩ وهي كل ما يُتلذذ به وليس قوتا لحفظ الصحة - وذلك يعني أن رزقهم كله فواكه؛ فهم بذلك مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسامهم قوية ومحكمة ومخلوقة للأبد، فما يأكلونه إنما هو على سبيل التلذذ.

قوله: {وَهُمْ مُكْرَمُونَ} أي متنعّمون محبورون

٤٣ - (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

{فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} حيث القرار والهناء والسعادة وكل أنواع النعيم الذي لا يتحوّل ولا يزول

٤٤ - (عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)
{عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} يجلس المؤمنون في الجنة على الأسرة متقابلين، لما في التقابل لدى الجلوس من إحساس مستطاب بالأنس والسكينة والسرور، خصوصا إن كان المتقابلون من المؤمنين المخلصين أولي القلوب النيرة والسرائر النقيَّة البيضاء لا جرم أن مجالستهم تثير في النفس البهجة والراحة وكامل الحبور.
٤٥ - (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)
قوله: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} المراد بالكأس هنا الخمر، فإنه يطاف بكؤوس الخمر وهي شراب أهل الجنة - وهو {مِنْ مَعِينٍ} أي من شراب معين - والمعين: السائح الجاري على وجه الأرض، فإن أنهار الخمر في الجنة تجري كما تجري مياه الأنهار.
٤٦ - (بيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)
قوله: {بيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} {بيْضَاءَ} صفة للكأس - و {لَذّة} كذلك صفة على حذف المضاف، أي ذات لذة ٢٠ أو وصفت بالمصدر {لَذَّةٍ} للمبالغة، فهي شراب من أشربة الجنة الشهية المرغوبة يتلذذ بها المؤمنون إذا شربوها.
٤٧ - (لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)
{لا فِيهَا غَوْلٌ} الغول، معناه الصداع أو كل ما زال به العقل ٢١.
والمعنى: أن خمر الجنة لا تغتال عقول الشاربين كخمور الدنيا التي تذهب بالعقول وتفسد الأعصاب والأجساد وتفضي إلى المعاصي وارتكاب الفواحش.
لكن خمر الجنة مستلذّ مستطاب يهنأ به المؤمنون الشاربون.
قوله: {وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} أي لا يسكرون ولا تذهب عقولهم بشربها، من نزف الشارب إذا ذهب عقله.
٤٨ - (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ)
قوله: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} الزوجات اللواتي يقصرن أبصارهن على أزواجهن فلا يمددن أبصارهن إلى غير أزواجهن - و {عِينٌ} جمع عَيناء: أي واسعة العين في جمال - والذكر أعْين.
٤٩ - (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)
قوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} المراد بذلك بيض النعام - والمكنون بمعنى المصون - من كننته أي جعلته في كِن، وكانت العرب تشبهُ المرأة بها في لونها ٢٢.
٥٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)
قوله تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}.
(أقبل) معطوف على {يُطاف} - و {يتساءلون} في موضع نصب على حال من فاعل (أقبل) أي يشربون فيتحدثون ٢٣ - وذلك إخبار من الله عن حال أهل الجنة وهم يتنعّمون ويتقلّبون في السعادة وطيب العيش - ومثال ذلك أن إقبال بعضهم على بعض وهم جلوس على الأسرّة يتلذذون ويتحادثون على الشراب ويتساءلون فيما بينهم عن أحوالهم وعما أنعم الله به عليهم، إذ أدخلهم الجنة، وعما كانوا عليه في الدنيا وكيف كانوا يعانون من ضروب المتاعب والهموم، وغير ذلك من صور الحديث في المجالس المحببة الحانية حيث الأنس والهناء والرخاء والأمن والسعادة الكاملة.

٥١ - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)
قوله: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} ذلك مما يقوله بعض المؤمنين في الجنة وهم يتحدثون في مجالسهم متقابلين {إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} أي جليس أو مصاحب في الدنيا، وهو شيطان غويّ مضل - سواء كان شيطانا من الجن فيوسوس لصاحبه في نفسه فيزين له الكفر ومجانبة الإيمان والتوحيد - أو كان من الإنس فيجهد بالغ الجهد لإغوائه وإضلاله؛ وكلاهما قرين سوء لا يروم للإنسان المسلم إلا السقوط في الكفر والمعاصي.
٥٢ - (يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ)
قوله: {أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} يقول قرين السوء للمسلم سواء بالوسوسة أو الكلام المسموع: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء وذلك على سبيل التوبيخ والتقريع والتكذيب والاستبعاد.
٥٣ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)
قوله: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} كذلك يقول القرين على سبيل التوبيخ والتهكم والعناد: أئذا متنا وأتى علينا البلى وأصبحنا ترابا ورُفاتا {أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} من الدين وهو يعني الجزاء - وفي الحديث: " والكيِّسُ من دان نفسه " يعني أئنا لمبعوثون من قبورنا فمحاسبون ومجازون.
٥٤ - (قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ)
قوله: {قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} قائل ذلك هو الذي كان له قرين، قال لجلسائه وهم يتحادثون في الجنة {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} أي على أهل النار لأريكم ذلك القرين الغويّ المضل وهو يذوق العذاب في الجحيم - والمراد من حديثه لجلسائه بذلك إيناسهم، وإشعارا برحمة الله بهم وفضله عليهم، إذ أنجاهم من النار وأدخلهم الجنة.
٥٥ - (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)
قوله: {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} أي رأى قرينه في وسط الجحيم.
٥٦ - (قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ)
قوله: {قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ} {تَاللَّهِ}، قَسَم فيه معنى التعجب، و {إِن} مخففة من الثقيلة، وهي تدخل على كاد كما تدخل على كان، واللام فارقة بينها وبين إن النافية ٢٤ - وتردين من الإرداء وهو الإهلاك؛ والردى معناه الهلاك؛ أي يقول المؤمن وهو في الجنة للذي كان قرينه وهو في النار: واللهِ إن كدت لتهلكني لو أطعتك.
٥٧ - (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)
قوله: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} لولا أن منَّ الله علي بالعصمة والنجاة والتوفيق لكنتُ من الذين أُحضروا للعذاب كما أحضرت له أنت وأمثالك من الهالكين الذين استنزلهم قرناء السوء من شياطين الإنس والجن.
٥٨ - (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ)
قوله: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ} الفاء للعطف على محذوف، وتقديره: نحن مخلدون منعّمون فما نحن بميتين ٢٥ وذلك من كلام القائل؛ إذ يخاطب به قرينه على سبيل التوبيخ وزيادة له في الالتياع والتحسُّر والإياس.
والمعنى: أننا نحن أهل الجنة لسنا بميتين {إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى} التي فارقنا فيها الدنيا
٥٩ - (إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمعَذَّبِينَ)
{إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}

والمعنى: أننا نحن أهل الجنة لسنا بميتين {إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى} التي فارقنا فيها الدنيا {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} لسنا كأصحاب النار اللابثين في العذاب الدائم؛ بل نحن متقلّبون في نعيم الجنة.

٦٠ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} الإشارة عائدة إلى الإخبار بنفي الموت ونجاتهم من النار وإلى ما هم فيه من النعيم في الجنة - وذلكم هو الفوز الأكبر الذي لا يضاهيه فوز - وقيل: إن قائل هذا الكلام هو الله جل وعلا، فقد قاله تقريرا لقول ذلك القائل وتصديقا له، وخطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته.

٦١ - (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

قوله: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} أي لنيل مثل هذا النعيم الذي نحن فيه، ينبغي أ يَنْصَبَ العباد ويبذلوا قصارى طاقاتهم ومقدورهم لفعل الطاعات والقُربات، وليس للحظوظ الدنيوية السريعة الزوال ما ينبغي لذي عقل سليم ونفس سوية مستقيمة أ يُجهد نفسه كثيرا للحصول على حظوظ الدنيا ولذاتها، فما الدنيا إلا حُطام داثر، ما يلبث أن يتبدّد ويزول وإنما النباهة والسداد في ابتغاء مرضاة الله - وذلك يقتضي حرصا حقيقيّا كاملا، وعملا متواصلا لا ينقطع من العبادة والطاعة للظفر برضوان الله والنجاة من غضبه وعقابه والفوز بنعيمه في الجنة مع النبيين والصديقين والأبرار وحَسُنَ أولئك رفيقا - ٢٦

٦٢ - (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)

قوله تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ}.

اسم الإشارة {ذلك} عائد إلى الرزق المعلوم الذي جعله الله للمؤمنين في الجنة، فقد أسبغ الله عليهم فيها من النعم ما لم يخطر على قلب بشر، وذلك لفرط ما أعدّ الله لهم من جزيل النعم والخيرات واللذات - و {نُزُلاً} تمييز لقوله: {خيرٌ} - و {الزَّقُّومِ} شجرة مسمومة يخرج لها لبن إذا مسَّ جسد أحد تورَّم منه ومات - والتزقُّم، البلع بشدة وجهد للأشياء الكريهة - وقد قال أبو جهل - وهو من العرب العرباء -: لا نعرف الزقوم إلا التمر والزبد - وذلك من باب العناد والكذب ٢٧

وفي هذه الآية يعادلُ الله بين الرزق الكريم والنعيم المقيم في الجنة، وبين شجرة الزقوم ذات الطعام الخبيث المسموم، سيء الطعم والريح والمنظر، فقال سبحانه: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} والنزل معناه العطاء وما يُعد للأضياف من الرزق.

والمعنى: أنعيم الجنة وما فيها من اللذات والثمرات وألوان النِّعم {خَيْرٌ نُزُلاً} أي خير ضيافة وعطاء أم شجرة الزقوم خير - وهي شجرة خبيثة الثمر، صغيرة الورق، شديدة المرارة، كريهة الرائحة والطعم.

٦٣ - (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)

قوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} جعل الله شجرة الزقوم محنة وابتلاء للظالمين الخاسرين في الدنيا ثم يبوءون بالأكل منها في النار يوم القيامة - والمشركون لما سمعوا أن شجرة الزقوم تنبت في النار قالوا متهكمين مستسخرين: كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر - وكذا قال أبو جهل - وقال أيضا على سبيل الإنكار والتكذيب والاستخفاف بها: والله ما نعلم ما الزقوم إلا التمر والزبد فتزقَّوا - وهذا من حماقة المشركين وسخفهم - فلو تفكروا قليلا لأيقنوا أن الله قادر على إنبات الشجر في النار من غير أن تحرقه - فإن الله بثَّ في النار صفة الحرق، وهو سبحانه قادر على نزع هذه الصفة متى شاء؛ فهو خالق الأشياء والذوات والصفات وهو بقدرته وعلمه تجري الأمور والأحداث والظواهر.

وكذلك فإن الزقوم ضرب من البلاء والتعذيب يُسامُهُ الظالمون الخاسرون وهم يتقاحمون في النار.
٦٤ - (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)
قوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} أي منبتها في قعر النار وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.
٦٥ - (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)
قوله: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} طلعها أي حملها - وأصله طلع النخل وهو أول ما يبدو - فاستعير الطلع وهي النخلة لما تحمله شجرة الزقوم وشَبَّهُ برؤوس الشياطين - وذلك في تناهي الكراهة وقبح المنظر - والعرب من عاداتهم تشبيه قبيح الصورة بالشيطان فيقولون: كأنه وجه شيطان أو رأس شيطان - وذلك لاعتقادهم أن الشيطان شرّ محض فهو مرتسم في خيالهم على أشنع صورة.
٦٦ - (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)
قوله: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} يُضطَّرون للأكل من هذه الشجرة الخبيثة بصورتها المستقبحة ومذاقها المرّ، وريحها الكريه - سوف يأكلون منها ويملئون منها بطونهم لغلبة الجوع عليهم أو، لأنهم يُقْسَرون على الأكل منها قَسْرا.
٦٧ - (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)
قوله: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ} الشوب بفتح الشين معناه الخلط والمزج - ومنه شاب اللبن يشوبه أي خلطه ومزجه ٢٨ - والحميم: الماء الساخن جدا - ولما ذكر أنهم يملئون بطونهم من شجرة الزقوم بسبب الجوع الذي أصابهم، ذكر ما يُسْقونه – لغلبة العطش – وهو ما يمزج لهم من الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة الذي يحرق بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم.
٦٨ - (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)
قوله: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} أي أن هؤلاء الظالمين الضالين يُذهَب بهم من منازلهم وأماكنهم في الجحيم وهي الدركات التي أُسكِنوا فيها، إلى شجرة الزقوم فيأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم ويُسقَون بعد ذلك من الحميم ثم يُرجعون إلى دركاتهم في الجحيم.
٦٩ - (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)
قوله: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} من الهرع وهو المشي في اضطراب وسرعة ٢٩
والمعنى: أن المشركين كانوا مولعين بتقليد آبائهم في الضلال والكفر، فقد وجدوا آباءهم على الضلالة والباطل فاتبعوهم ومشوا على آثارهم جامحين مسرعين من غير حجة ولا دليل فجازاهم ربهم بذلك ما يستحقونه من سوء الجزاء - أي أن تقليدهم إياهم كان سببا في ما وقعوا فيه من الأهوال والشدائد ٣٠
٧٠ - (فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]
قوله: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} من الهرع وهو المشي في اضطراب وسرعة ٣١
والمعنى: أن المشركين كانوا مولعين بتقليد آبائهم في الضلال والكفر، فقد وجدوا آباءهم على الضلالة والباطل فاتبعوهم ومشوا على آثارهم جامحين مسرعين من غير حجة ولا دليل فجازاهم ربهم بذلك ما يستحقونه من سوء الجزاء - أي أن تقليدهم إياهم كان سببا في ما وقعوا فيه من الأهوال والشدائد ٣٢
٧١ - (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ)
قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} - ذلك تأنيس من الله، إذ يواسي به رسوله صلى الله عليه وسلم كيلا يبتئس بإعراض قومه المشركين وتكذيبهم له وهو

قوله: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ}
أي أن أكثر السابقين من الأمم الغابرة من قبل هؤلاء المشركين قد أضلوا واتبعوا الباطل وزاغوا عن عقيدة التوحيد وسلكوا سبيل الشيطان بعد أن أرسل الله فيهم أنبياءه ليبلغوهم دعوة ربهم ويحذروهم عاقبة كفرهم وإعراضهم عن دين الله.
٧٢ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]
قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} - ذلك تأنيس من الله، إذ يواسي به رسوله صلى الله عليه وسلم كيلا يبتئس بإعراض قومه المشركين وتكذيبهم له وهو
قوله: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ}
أي أن أكثر السابقين من الأمم الغابرة من قبل هؤلاء المشركين قد أضلوا واتبعوا الباطل وزاغوا عن عقيدة التوحيد وسلكوا سبيل الشيطان بعد أن أرسل الله فيهم أنبياءه ليبلغوهم دعوة ربهم ويحذروهم عاقبة كفرهم وإعراضهم عن دين الله.
٧٣ - (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)
قوله: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} أي انظر ما حل بأولئك الظالمين المتمردين من الهلاك والانتقام بسبب إعراضهم عن الإنذار وموالاتهم الشيطان وإيغالهم في المعاصي.
٧٤ - (إلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)
{إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} استثناء من {الْمُنْذَرِينَ} وهو استثناء منقطع؛ لأنه وعيد وهم لم يدخلوا في هذا الوعيد ٣٣، فقد استثنى من إهلاك السابقين الظالمين، عباده المؤمنين الذين أخلصهم بتوفيقهم للإيمان والطاعة وصالح الأعمال.
٧٥ - (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)
قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}.
{نادانا} من النداء وهو الالتماس والاستغاثة، أي سألنا نوح أن نهلك قومه لفرط عتوهم وكفرانهم وشدة إعراضهم وعنادهم {فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} والمخصوص بالمدح محذوف، وتقديره: فلنعم المجيبون نحن ٣٤ - والمعنى: فلنعم المجيبين كنا له - فقد أجبنا له دعاءه فأهلكنا قومه بالطوفان والتغريق.
٧٦ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)
{وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} المراد بأهله: أهل دينه الذين آمنوا معه واتبعوه، وهم قلة قليلة من قومه الظالمين الذين طغوا في الأرض وعتوا عُتُوّا شديدا - لقد نجّى الله نوحا والمؤمنين معه من الكرب العظيم وهو الغرق.
٧٧ - (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)
قوله: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} أي جعل الله ذرية نوح هم الباقين في الأرض من بعد مهلك قومه الظالمين الذين أتى عليهم الطوفان فقضى عليهم - وبذلك فإن الناس كلهم من بعد مهلك نوح إلى اليوم إنما هم ذرية نوح.
٧٨ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ)
قوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} يعني أبقينا على نوح ذكرا جميلا وثناء حسنا فيمن جاء بعده من الأمم، فهم جميعا يثنون عليه خيرا ويسلمون عليه تسليما، وذلك فضل من الله كبير، ومنة عظمى يهبها لعباده المصطفين الأخيار.

٧٩ - (سَلامٌ عَلَى نوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)
قوله: {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} {سلام} مرفوع على أنه مبتدأ، وعلى نوح في موضع رفع خبر المبتدأ - وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأنه في معنى الدعاء كقوله: {ويل للمطفّفين} ٣٥.
والمعنى: تركنا عليه هذه الكلمة وهي أن يُسلم الناس عليه تسليما ويذكرونه الذكر الجميل إلى يوم القيامة.
وقيل: المراد بالسلام هنا الأَمَنَةُ والسلامة له من أن يذكره أحد بسوء.
٨٠ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} الكافي في {كذلك}، صفة لمصدر محذوف - أي جزاء كذلك الجزاء الذي جزيناه نوحا والذين آمنوا معه، نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا ويصبرون على المكاره والشدائد فينا.
٨١ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} ذلك ذكر من الله لنوح عليه السلام؛ فإنه كان من المؤمنين الأخيار الذين أخلصوا لله العبادة وأفردوه بالإلهية.
٨٢ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ)
قوله: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} بعد أن نجى الله نوحا والفئة القليلة معه أهلك الباقين، وهم الكثرة الكاثرة من قومه الذين أبوا إلا الضلال والشرك فأخذهم الله شرَّ أخْذَةٍ وانتقم منهم أشد انتقام ٣٦
٨٣ - (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ)
قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ}.
{شِيعَتِهِ} في اللغة بمعنى أتباعه وأنصاره ٣٧ والمراد بشيعة نوح في الآية، أهل دينه - والمعنى: وإن من أهل دين نوح، الذين هم على ملته ومنهاجه لهو إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}
٨٤ - (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)
{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} أي سليم من الشرك، مخلص لله التوحيد.
٨٥ - (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ)
{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ} {إِذْ}، في موضع نصب على الظرفية - يعني وقت قال إبراهيم لأبيه آزر وقومه المشركين الضالين مستنكرا موبخا: أي شيء تعبدون.
٨٦ - (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)
{أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} الاستفهام للتوبيخ {أَئِفْكًا} منصوب على أنه مفعول للفعل {تُرِيدُونَ} والإفك معناه أشد الكذب - والمراد به هنا: الأصنام المصطنعة المعبودة من دون الله - و {آلهة} بدل من {أَئِفْكًا} والمعنى: أكذبا آلهة معبودة من دون الله تريدون.
٨٧ - (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} يحذر إبراهيم قومه بقوله لهم: فما ظنكم بالله إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.
٨٨ - (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)
قوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} ذُكِرَ أن قوم إبراهيم كانوا أهل تنجيم فرأى نجما قد طلع فعصب رأسه وقال: إني

مطعون، أي مصاب بالطاعون ٣٨، وكان قومه يهربون من الطاعون، فأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم ويخرجوا عنه ليخالفوهم إليها فيكسّرها - وذلك قوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}

٨٩ - (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)

{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} السقيم: المطعون، أي نظر إبراهيم إلى نجم طالع فقال: إن هذا النجم يطلع مع سقمي، فأوهمهم بذلك وأراد لنفسه عذرا مما اعتقدوه - قال سعيد بن جبير: أشار لهم إبراهيم إلى مرض يُسْقِمُ ويُعْدي، وهو الطاعون وكانوا يهربون من ذلك، ولهذا قال {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ}

٩٠ - (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

{فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} أي فارّين منه خوفا من العدوى ٣٩

٩١ - (فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

قوله تعالى: {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ}.

راغ يروغ روغا وروغانا، أي مال أو أقبل ٤٠ أي مال إبراهيم إلى آلهة القوم بعد خروجهم عنه {فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} قال ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء فهو يعلم أن هذه الأصنام صماء لا تبصر ولا تسمع - وكذا قوله: {مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ}

٩٢ - (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)

{مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ} والاستفهام للتهكم، فقد خاطبهم خطاب من يعقل وهو يعلم أنها تماثيل فارغة لا تنطق - وقيل: إن المشركين تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها وليأكلوه إذا رجعوا من عندهم.

٩٣ - (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

قوله: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} {ضربا} منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أي فمال عليهم يكسِّرهم بفأس في يده - وخص الضرب باليمين، لأنها أقوى - وقيل: اليمين بمعنى القوة والقدرة - وقيل: المراد باليمين هنا اليمين التي حلفها بقوله: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} والمقصود أنه كسَّر أصنامهم بفأس في يده اليمنى تكسيرا حتى جعلها جُذاذا.

٩٤ - (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ)

قوله: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} أي يسرعون في مشيتهم، فقد أقبلوا عليه مسرعين وهم يُرعدونَ غضبا، لما حصل لآلهتهم المفتراة من تكسير وتحطيم

٩٥ - (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

{قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} من النحْت والنحاتة، وهي البراية - نحته أي براه ٤١ - قال لهم إبراهيم مُوبِّخا، مستهجنا: أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم

٩٦ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} ما: بمعنى الذي، وهي في موضع نصب بالعطف على الكاف والميم في {خَلَقَكُمْ} أي والله خلقكم والذي تعملونه من الأصنام وهو الخشب والنحاس وغير ذلك - وقيل: ما مصدرية، أي خلقكم وعملكم ٤٢.

٩٧ - (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)

قوله: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} لما خاطبهم إبراهيم زاجرا موبّخا مستهجنا وقد غلبهم بالحجة وعرفوا أنه كسّر أصنامهم، لجئوا إلى البطش والانتقام معتمدين على كثرة جموعهم وقدرتهم على البطش وتلك حيلة المفلسين من الطغاة والعتاة والمتجبرين في كل زمان؛ فإنهم إذا ما أعوزتهم الحجة والحكمة والبرهان لجوا معاندين فاجرين حمقى ليصدوا عن سبيل الله بالبطش والتنكيل.

لقد تشاور المشركون الظالمون في أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقالوا: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا} وقد ذُكر أنهم بنوا له بنيانا يشبه التنور ثم نقلوا إليه الحطب وأوقدوا عليه، فألقوه فيه - وهو قولهم: {فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} و {الجحيم} اسم من أسماء النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم ٤٣ وذُكر أيضا أن إبراهيم لما صار في البنيان، ذي النار المتأججة قال: حسبي اللهُ ونعم الوكيل.

٩٨ - (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ)

قوله: {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} الكيد: معناه المكر والاحتيال - والمعنى: أن الظالمين قد أرادوا بإبراهيم الكيد وهو مكرهم واحتيالهم وائتمارهم به ليهلكوه بإحراقه في النار - لكن الله عز وعلا، ظهير النبيين والمرسلين ونصير المؤمنين المستضعفين قد أذل القوم الظالمين وأخزاهم وجعلهم المقهورين الخاسرين، وأظهر رسوله الكريم، خليله العظيم على القوم المجرمين ٤٤.

٩٩ - (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

قوله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}.

لما نجّى الله إبراهيم من كيد قومه المشركين الذين أخزاهم الله وأفشل مكرهم وسوء قصدهم قال عليه الصلاة والسلام: إني مهاجر من بلدة قومي إلى الله، إلى الأرض المقدسة فمفارقهم ومعتزلهم لعبادة الله، أو إلى حيث أتمكن من عبادة الله - أو إني ذاهب الله بقلبي ونيتي وعملي.

قوله: {سَيَهْدِينِ} أي إلى ما قصدته من الحق والصواب، أو سيجزيني الجزاء على نيتي وقصدي ويعينني على ذلك.

١٠٠ - (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} سأل إبراهيم ربه أن يرزقه ولدا صالحا مطيعا لله، مصلحا في الأرض، ينشر في الناس عقيدة التوحيد.

١٠١ - (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ)

قوله: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} بشّر الله نبيه إبراهيم بغلام ذي حلم إذا هو كبر - أما في طفولته فإنه لا يوصف بالحلم - وهذا الغلام الذي بُشّر به إبراهيم عليه السلام لهو إسماعيل؛ فهو أول ولد بُشّر به إبراهيم وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب - وكان مما ذكره أهل الكتاب أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده - وفي نسخة أخرى بكره - ثم أقحموا بعد ذلك اسم إسحاق على أنه الذبيح، افتراء على الله وجنوحا للتعصب والباطل وجريا خلف الهوى الجامح، ولقد أقحموا اسم إسحاق؛ لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك على أنه يعي الذي ليس عنده غيره؛ فإن إسماعيل كان قد ذهب أبوه به وبأمه إلى مكة - لا جرم أن هذا تأويل سقيم، وتحريف ظالم وهو في غاية العوج والبطلان؛ فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره - وذهب آخرون إلى أن الذبيح

هو إسحق - وليس لهم في ذلك دليل ظاهر في كتاب ولا سنة - قال ابن كثير في هذا المعنى: وما أظن ذلك تُلُقِّي إلا عن أحبار أهل الكتاب وأُخِذ ذلك قسما مُسلَّما من غير حجة.

والأولى بالصواب أن الذبيح هو إسماعيل - ويُحتج لذلك من الكتاب الحكيم بقوله سبحانه: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا، والله جل وعلا صادق الوعد، وكذلك قوله سبحانه: {فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب} أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عَقِبٌ ونسل فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب.

وذُكِر عن ابن عباس قوله في هذه المسألة: المفدي إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود - وروى عنه كثيرون أنه قال: الذبيح إسماعيل.

١٠٢ - (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

قوله: {فلما بلغ معه السعي} أي العمل - وقيل: المشي، والمراد: أنه بلغ مع أبيه المبلغ الذي يسعى معه في أمور دنياه معينا له على أعماله، أو أنه كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه.

قوله: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى} رأى إبراهيم في منامه أنه مأمور بذبح ولده إسماعيل؛ وذلكم ضرب من ضروب الوحي فقد كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى إيقاظا ورقودا؛ فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم وإن كانت تنام أعينهم - قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، واستدل بهذه الآية - وقد أعلم إبراهيم ابنه إسماعيل بذلك؛ ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى - فبادر الولد الكريم المبرور، للإجابة بالطاعة دون تردد أو تلعثم وهو قوله: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} أي امض لما أمرك الله من ذبحي {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله جل وعلا - كذلك كان جواب إسماعيل - هذا التقي الزكي المختار، الذي فاق ببالغ عزمه وعظيم إرادته وروعة طبعه المفضال كل آفاق الذهن والخيال فكان مثالا لا يبلغه إلا الرفّافون الأبرار من النبيين الأخيار والصِّدِّيقين الأطهار وحَسْب - صلى الله على إسماعيل وأبيه وسائر النبيين والمرسلين صلاة وسلاما إلى يوم البعث والدين.

١٠٣ - (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

قوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا} جواب لما محذوف، وتقديره: فلما أسلما رُحِما وسعدا ٤٥ و {أسلما} أي انقادا واستسلما، أو سلما لله الأمر {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه - قال ابن عباس وآخرون: يعني أكبه على وجهه ليذبحه، وحينئذ نودي {يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}.

١٠٤ - (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٣]

قوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا} جواب لما محذوف، وتقديره: فلما أسلما رُحِما وسعدا ٤٦ و {أسلما} أي انقادا واستسلما، أو سلما لله الأمر {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه - قال ابن عباس وآخرون: يعني أكبه على وجهه ليذبحه، وحينئذ نودي {يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}.

{يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك إسماعيل للذبح وعزمك على ذلك - وذكر أن إبراهيم قد أمرَّ السكين على رقبة ولده فلم تقطع شيئا بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيضُ أقرَنَ أعْيَن.

١٠٥ - (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

{يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك إسماعيل للذبح وعزمك على ذلك.

قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي كما جزيناك بطاعتك لنا يا إبراهيم كذلك نجزي من أحسن واستسلم لأمرنا وعمل بطاعتنا، فنصرف عنه كل المكاره والشدائد ونجعل له من أمرنا فرجا ومخرجا وننجيه من الشدائد والأهوال يوم القيامة.

١٠٦ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ)

قوله: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ} هذا الأمر لإبراهيم بذبح ولده لهو الاختبار الظاهر الشديد، والمحنة العسيرة العظمى - لا جرم أن هذا امتحان صعب ومريع، يعزُّ على الصناديد من المؤمنين أن يطيقوه أو يتجاوزوه إلا أن يكونوا من صفوة البشر الأخيار، كإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام - جعلنا الله من المنيبين الخاشعين الصابرين المخلصين.

١٠٧ - (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

قوله: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} {وَفَدَيْنَاهُ} من الفدية وهي الجزاء، أي جزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ذبح كبش عظيم فأنقذناه من الذبح - والذبح بكسر الذال، اسم المذبوح وجمعه ذبوح، والذبح بالفتح مصدر ذبح - قال القرطبي: أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة - وإنما عَظُم قدره، لأنه فُديَ به الذبيح، أو لأنه متقبَّل.

١٠٨ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ)

قوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} يعني أبقينا عليه الثناء الحسن في الأمم من بعده إلى يوم القيامة، فما من أمة أُنزل إليها كتاب من السماء إلا تُحِبهُ وتثني عليه خيرا {سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}

١٠٩ - (سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

{سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} يعني: أمنةٌ من الله على إبراهيم أن لا يُذكر من بعده في الأرض إلا بالجميل من الذكر وحسن الثناء.

١١٠ - (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي كما جزينا إبراهيم على طاعته وعظيم امتثاله وإذعانه لنا، كذلك نجزي كل من أطاع الله واستسلم لأمره دون سواه.

١١١ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} ذلك إعلان من الله بأن إبراهيم من عباده الأخيار الذين أخلصوا دينهم لله كامل الإخلاص وأطاعوه تمام الطاعة.

١١٢ - (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} أنعم الله على خليله إبراهيم بولده إسحاق، إذ جعله نبيا من الصالحين

١١٣ - (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)

{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ} بارك الله على إبراهيم وعلى ولده إسحاق بالذكر الحسن وجميل الثناء - وقيل: بارك الله على إبراهيم بكثرة الذرية والولد، وعلى إسحاق، إذ أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه.

قوله: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} المراد بالمحسن: المؤمن المطيع لله - والظالم لنفسه المبين الذي استبدل الكفر بالإيمان فكان من الخاسرين - والمعنى: أن من ذرية إبراهيم وإسحاق مؤمنين ومجرمين - أما المؤمنون: فهم الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله ولم يُفرّقوا بين أحد من رسله بل صدّقوا النبيين المرسلين أجمعين - وأما المجرمون: فهم الفاسقون عن أمر الله، المخالفون لشرعه، المشاقّون لمنهج الله، فإنهم لا تنفعهم صلة النسب والقربى بالنبيين - فالمكذّبون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، المحادّون لشريعة

الإسلام، الخائنون لعقيدة التوحيد وللمسلمين، أولئك لا يجديهم أنهم من نسْل إسحاق ويعقوب وداود وسليمان؛ بل إنهم من الضالين الخاسرين الذين يصلون جهنم مذمومين مدحورين ٤٧

١١٤ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

بعد أن ذكر الله امتنانه على إبراهيم بإنجاء ولده إسماعيل من الذبح وجعله نبيّا مباركا بعد تنجيته - ذكر ما تفضّل به على موسى وهارون ابني عمران، إذ جعلهما نبيين كريمين ونجاهما وقومهما المؤمنين المستضعفين {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} وهو الغرق - أو هو ظلم فرعون وجنوده الذين استعبدوا بني إسرائيل وألحقوا بهم الهوان والإذلال.

١١٥ - (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٤]

قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

بعد أن ذكر الله امتنانه على إبراهيم بإنجاء ولده إسماعيل من الذبح وجعله نبيّا مباركا بعد تنجيته - ذكر ما تفضّل به على موسى وهارون ابني عمران، إذ جعلهما نبيين كريمين ونجاهما وقومهما المؤمنين المستضعفين {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} وهو الغرق - أو هو ظلم فرعون وجنوده الذين استعبدوا بني إسرائيل وألحقوا بهم الهوان والإذلال.

١١٦ - (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)

قوله: {وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} أي نصر اللهُ موسى وهارون وقومهما المؤمنين الصابرين من بني إسرائيل على فرعون الخاسر المتجبِّر، وملئه الطغاة المفسدين بتغريقهم وإهلاكهم في البحر فكتب الله الغلبة بذلك للفئة المؤمنة الصابرة من قوم موسى وهارون.

١١٧ - (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

قوله: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} أي آتاهما الله التوراة وهي كتابه {الْمُسْتَبِينَ} أي الظاهر في هداه وأحكامه.

١١٨ - (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

قوله: {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} أي هدينا موسى وهارون الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا زيغ، وهو الإسلام الحنيف.

١١٩ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

قوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ} أبقينا عليهما حُسن الذكر، وجميل الثناء من بعدهما وذلك أن يقال {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}

١٢٠ - (سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

{سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}

فإن سائر الأمم من أهل الديانات السماوية يثنون عليهما ويُسلّمون عليهما، تسليما

١٢١ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي هكذا نجزي أهل الإيمان والطاعة الذين أخلصوا لله دينهم.

١٢٢ - (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} إنهما نبيان كريمان ورسولان عظيمان من عباد الله المخلصين الأبرار.
١٢٣ - (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)
{إِلْيَاسَ} نبي من بني إسرائيل، وهو من نَسل هارون بن عمران - وقيل: إلياس هو إدريس - والأول أولى بالصواب فقد بعثه الله في بني إسرائيل، يدعوهم إلى عقيدة التوحيد والانتهاء عن الشرك والباطل، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له بعل.
١٢٤ - (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)
{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ} ألا تخشون الله وتحذرون عقابه فتبادرون بطاعته وعبادته وحده
١٢٥ - (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)
{أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} والمراد بالبعل ههنا الصنم؛ أي كان لهم صنم يسمى بعلا - والمعنى: أتعبدون ربّا غير الله وتتركون عبادة ربكم الذي خلقكم وخلق كل شيء.
١٢٦ - (اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)
قوله: {اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} {اللَّهَ رَبَّكُمْ} كل منهما منصوب على البدل من قوله: {أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} ٤٨ والمعنى: أتتركون عبادة الله وهو أحق بالعبادة، فهو ربكم ورب آبائكم من قبلكم
١٢٧ - (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)
{فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} أي كذب إلياس قومُه المشركون فهم بذلك مُحضرون للعذاب يوم القيامة
١٢٨ - (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)
{إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} استثنى الله عباده المؤمنين من قوم إلياس؛ إذ أنجاهم من العذاب الذي ينتكس به المجرمون المكذبون.
١٢٩ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)
قوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} يعني أبقينا عليهم الثناء الحسن فيذكرهم الناس ذكرا جميلا إلى يوم القيامة.
١٣٠ - (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)
قوله: {سَلَامٌ عَلَى آلْ يَاسِينَ} {سلام} مرفوع على أنه مبتدأ والجار والمجرور بعده خبر ٤٩ وياسين، وإلياسين وإلياس شيء واحد، وعليه وقع التسليم، والأَمَنَة من الله.
١٣١ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} تقدم تفسيره ٥٠.
١٣٢ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣١]
قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} تقدم تفسيره ٥١.
١٣٣ - (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)
قوله تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}.
يبين الله للناس أن عبده لوطا نبي مرسل من ربه إلى قومه لهدايتهم وتقويم أحوالهم وأخلاقهم فقد كانوا قوما مجرمين يعملون الخبائث ويأتون في نواديهم المنكر - لكنهم تمردوا وطغوا طغيانا شنيعا بكفرهم وعصيانهم، وخِسَّتهم؛ إذ تلبَّسوا بأقبح الفواحش وأشدها نكرا فأخذهم الله بالتدمير والإبادة والرجم بالحجارة، ونجّى الله منهم نبيهم لوطا وأهله الذين آمنوا معه جميعا

١٣٤ - (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣٣]
قوله تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

يبين الله للناس أن عبده لوطا نبي مرسل من ربه إلى قومه لهدايتهم وتقويم أحوالهم وأخلاقهم فقد كانوا قوما مجرمين يعملون الخبائث ويأتون في نواديهم المنكر - لكنهم تمردوا وطغوا طغيانا شنيعا بكفرهم وعصيانهم، وخِسَّتهم، إذ تلبَّسوا بأقبح الفواحش وأشدها نكرا فأخذهم الله بالتدمير والإبادة والرجم بالحجارة، ونجّى الله منهم نبيهم لوطا وأهله الذين آمنوا معه جميعا

١٣٥ - (إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)
{إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} أي في الباقين الهالكين، فقد أهلك الله امرأة لوط بكفرها وخبث سريرتها وتمالئها على لوط مع القوم المجرمين.

١٣٦ - (ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ)
قوله: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} أهلكنا قومه باستثناء لوط وأهله المؤمنين، فقد أخذ الله هؤلاء الظالمين المجرمين بعذاب بئيس مُهين، إذْ جعل فيهم عاليَ الأرض سافلها وأمطرهم من فوقهم بحجارة، زيادة في إبادتهم والتنكيل بهم، فقُطِّعوا ومُزِّقوا شر ممزَّق - وهذه بعض آثارهم من الأطلال الدوارس والبيوت الخاوية والقرى الخرِبة المغمورة في بحيرة لوط، تشهد على ما نزل بهم من البلاء والتدمير.

١٣٧ - (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ)
قوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)} أي تمرون على قرى قوم لوط المدمَّرة فترون آثارهم وأشلاءهم المبعثرة، وذلكم في أسفاركم من مكة إلى الشام.

١٣٨ - (وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
{و بالليل أَفَلَا تَعْقِلُونَ} في الصباح وفي المساء أفلا تتدبَّرون وتعتبرون مما حل بقوم لوط من الإبادة والتدمير، فتخشوا أن يصيبكم ما أصابهم؟.

١٣٩ - (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)
قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

يخبر الله عن نبيه يونس ذي النون - وهو ابن متى بعثه الله إلى أهل نينوى من قرى الموصل على دجلة ومن داناهم فكذبوه على عادة الأمم مع الرسل - وقد أنذرهم بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم مغاضبا وقصد البحر وركب السفينة فكان بذهابه إلى البحر من غير إذن ربه كالفارّ من مولاه فوصف بالإباق ٥٢ وهو قوله: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}

١٤٠ - (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)
{إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} {أَبَقَ} يعني هرب، من الإباق، وهو الهرب أو الفرار ٥٣ - وقد قيل ليونس أبق، بسبب خروجه بغير أمر الله جل وعى مستترا من الناس {إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أي السفينة المملوءة بالأمتعة.

١٤١ - (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)
قوله: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} {فَسَاهَمَ} من السهام، أي قارع {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} أي المغلوبين، أو المقروعين - وذلك أن السفينة قد تلعَّبت بها الأمواج من كل جانب حتى أشرف من فيها على الغرق فقارعوا فيما بينهم ليلقوا في البحر من تقع عليه القرعة كي تخف السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنُّون به أن يُلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه في البحر،

١٤٢ - (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

وقد سخّر الله له الحوت فالتقمه - وهو قوله: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} (التقمه) أي ابتلعه - و {مُلِيمٌ} أي مكتسب اللوم - أو أتى ما يلام عليه، وقيل: مذنب.

١٤٣ - (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)

قوله: {فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} يعني لولا أن يونس كان من المصلين لله لبقي رهين الحبس في بطن الحوت حتى تقوم الساعة - وقيل: لولا ما تقدم له من صالح الأعمال في الرخاء، أي قبل ابتلائه بالحوت للبث في بطنه إلى يوم القيامة عقوبة له، فيكون بعض الحوت له قبرا إلى يوم البعث.

واللهُ جل جلاله يدفع الشدائد والنائبات عن عباده المؤمنين الذين سبقت لهم الطاعات والصالحات في أوقات الرخاء - فما يكون العبد المؤمن منيبا إلى ربه مطيعا لأمره في أحواله المعتادة من الراحة والأمن إلا كفّ الله عنه البلايا والمحن أو هونها عليه تهوينا - وفي حديث ابن عباس: " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ".

١٤٤ - (لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٣]

قوله: {فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} يعني لولا أن يونس كان من المصلين لله لبقي رهين الحبس في بطن الحوت حتى تقوم الساعة - وقيل: لولا ما تقدم له من صالح الأعمال في الرخاء، أي قبل ابتلائه بالحوت للبث في بطنه إلى يوم القيامة عقوبة له، فيكون بعض الحوت له قبرا إلى يوم البعث.

واللهُ جل جلاله يدفع الشدائد والنائبات عن عباده المؤمنين الذين سبقت لهم الطاعات والصالحات في أوقات الرخاء - فما يكون العبد المؤمن منيبا إلى ربه مطيعا لأمره في أحواله المعتادة من الراحة والأمن إلا كفّ الله عنه البلايا والمحن أو هونها عليه تهوينا - وفي حديث ابن عباس: " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ".

١٤٥ - (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

قوله: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ}: نبذناه: يعني ألقيناه - والعراء: الأرض التي لا نبات فيها ولا بناء، وهو قول ابن عباس، وقيل: قذفه بالصحراء، وقيل: قذفه الحوت بساحل قرية من الموصل ثم أنبت الله عليه يقطينة، وقيل: خرج به الحوت حتى لفظه في ساحل البحر فطرحه، {وَهُوَ سَقِيمٌ}: من السقم وهو المرض، والمراد به هنا أنه ضعيف البدن، وقيل: كهيئة الصبي المنفوس أي حين يولد.

١٤٦ - (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ)

قوله: {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}: واليقطين معناه شجرة القرع أو الدباء - وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الدُّبّاء - وقيل: هو كل شيء ينبت على وجه الأرض ليس له ساق.

١٤٧ - (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)

قوله: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}: {أَوْ} للتخيير، أي إذا رآهم الرائي تخيَّر في أن يعدهم مائة ألف أو يزيدون - وقيل: بمعنى بل - وقيل: بمعنى الواو.

وقد ذكر أن رسالة يونس عليه الصلاة والسلام كانت بعد ما نبذه الحوت - والأولى بالصواب أن الذين أرسل إليهم يونس في أول الأمر قد أرسل إليهم ثانية بعد خروجه من بطن الحوت فآمنوا به كلهم وصدَّقوه وكانوا مائة ألف من الناس أو يزيدون على مائة ألف.

١٤٨ - (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

قوله: {فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}: أي إلى وقت آجالهم أو منتهى آجالهم وهو الموت.

١٤٩ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)

قوله تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ}: ذلك احتجاج على المشركين في قولهم: إن الملائكة بنات الله - وهو قول فاسد يكشف عن بالغ الحماقة والجهالة والسفه - وهم أنفسهم كانوا من الزاهدين في الإناث فكانوا يكرهون البنات ويستاءون بولادتهن؛ فهم بذلك يودون لأنفسهم ما يحبون ويشتهون، ويجعلون لله ما يكرهون؛ فأي قسمة ظالمة هذه وأي تفكير سقيم عجيب هذا؟! لذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل هؤلاء المشركين موبّخا مستهجنا ما ظنوه وما قالوه {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} أي سلهم واستخبرهم مستنكرا عليهم ظلمهم وضلالهم {أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} فقد كانوا يقولون: الملائكة بنات الله وكانوا يعبدونها، فكيف يجعلون لله البنات وهم يكرهونهن ويحتقرونهن، ويختارون لأنفسهم أرفع الجنسين وهم الذكور؟ وهذه واحدة من الحماقات الغائرة في أعماق الضلال والتي انحدر فيها المشركون الظالمون.

١٥٠ - (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

قوله: {أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ}: وهذا سؤال توبيخ؛ أي كيف حكموا بأن الملائكة إناث وهم لم يحضروا خلْقهم؟.

١٥١ - (أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)

قوله: {أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ} الإفك: أسوأ الكذب - فقد قالوا ظلما وزورا واجترؤوا على التَّقَوُّل بأشنع افتراء وكذب، إذ قالوا إنّ لِلّهِ ولدا - والله عز وعلا لا يلد ولا يولد - وهو سبحانه منزَّه عن هذه النقائص {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فيما قالوه وافتروه - وبذلك حُسِبَت على هؤلاء المشركين ثلاثة افتراءات على الملائكة، كل واحد منها يصمهم بالكفر الشنيع والخلود في النار - أما الأول: فهو أنهم جعلوا الملائكة بنات الله فجعلوا لله ولدا، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

وأما الثاني: فهو أنهم جعلوا ذلك الولد أنثى - وأما الثالث: فهو أنهم عبدوهم من دون الله.

١٥٢ - (وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥١]

قوله: {أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ} الإفك: أسوأ الكذب - فقد قالوا ظلما وزورا واجترؤوا على التَّقَوُّل بأشنع افتراء وكذب، إذ قالوا إنّ لِلّهِ ولدا - والله عز وعلا لا يلد ولا يولد - وهو سبحانه منزَّه عن هذه النقائص {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فيما قالوه وافتروه - وبذلك حُسِبَت على هؤلاء المشركين ثلاثة افتراءات على الملائكة، كل واحد منها يصمهم بالكفر الشنيع والخلود في النار - أما الأول: فهو أنهم جعلوا الملائكة بنات الله فجعلوا لله ولدا، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

وأما الثاني: فهو أنهم جعلوا ذلك الولد أنثى - وأما الثالث: فهو أنهم عبدوهم من دون الله.

١٥٣ - (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)

قوله: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}: الهمزة للاستفهام، أي اختار الله البنات وترك البنين؟!

١٥٤ - (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أي: بئس حكمكم بأن الله اختار البنات وأن لكم البنين، وأنتم لا ترضون لأنفسكم البنات بل تكرهونهن وتهينونهن.

١٥٥ - (أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

{أَفَلا تَذَكَّرُونَ}: أفلا تتدبرون ما تَتَقَوَّلونَهُ وتفترونه فتعلموا أنكم مبطلون فيما تزعمون؟!

١٥٦ - (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ)

قوله: {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ}: يعني هل لكم حجة ظاهرة أو برهان واضح على صحة ما تزعمون وتفترون.
١٥٧ - (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)
{فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}: يعني هاتوا برهانكم من كتاب أنزل إليكم من ربكم يشهد بصدق ما تقولون من أنَّ الله اصطفى البنات وجعل لكم البنين؛ بل إن ذلك مَحْضُ تخريص من تخريصكم وافتراء على الله بغير حق ولا دليل ولا حجة إلا السفه والحماقة.
١٥٨ - (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)
قوله: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً}: قال المشركون: الجنة هي الملائكة والملائكة بنات الله، تقدس الله تعالى عن ذلك علوّا كبيرا.
قوله: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}: أي علمت الجنة أن للذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم القيامة بسبب كذبهم وافترائهم وقولهم الباطل.
١٥٩ - (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)
ثم نزّه الله نفسه عما ينسبه إليه المجرمون - {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}: تقدس الله وتنزّه عما يقوله المشركون الضالون الذين ينسبون لله الولد واتخاذ الصاحبة، الله أعلى وأجلُّ مما يفتريه المبطلون السفهاء.
١٦٠ - (إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)
قوله: {إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} استثناء منقطع - والمعنى: لكن عباد الله المخلصين براء مما يقوله المشركون وينسبونه لله ظلما وكذبا.
١٦١ - (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)
قوله: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ}: ما: بمعنى الذي - وقيل: مصدرية، أي فإنكم أيها المشركون وعبادتكم لهذه الأصنام.
١٦٢ - (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ)
{مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ}: يعني: ما أنتم وما تعبدون من الأصنام، أو ما أنتم وعبادتكم الأصنام بمضلّين أحدا من العباد.
١٦٣ - (إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)
{إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ}: {مَنْ} في موضع نصب بقوله: {بِفَاتِنِينَ}، يعني: إلا من سبق عليه القول بالضلال في علم الله - أو علم الله في الأزل أنه من أهل الجحيم.
١٦٤ - (وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)
قوله: {وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ}: ذلك إخبار من الله عن قيل الملائكة أنهم قالوا: وما منا معشر الملائكة إلا من له مقام معلوم في السماء - وقد قالوا ذلك تعظيما لله سبحانه، وإنكارا منهم لعبادة من عبدهم، وقد روي عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أم قائم " وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماءُ وحُقَّ لها أنْ تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله - والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " - أخرجه الترمذي.
١٦٥ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ)
قوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} يخبر الله عن قيل الملائكة الأطهار، وهو أنهم يقفون صفوفا في طاعة الله - وقيل: صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض - وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المساجد فقال: " ألا تصفّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟ " فقلنا: يا رسول الله، كيف تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قال " يتمون الصفوف الأُولَ، ويتراصّون في الصف ".

١٦٦ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

قوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}: أي المصلون، أو الذين ينزِّهون الله عما وصفه به المشركون، فهم بذلك يخبرون أنهم عاكفون على عبادة الله صلاة وتسبيحا وأنهم ليسوا معبودين ولا بنات الله.

١٦٧ - (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ)

قوله: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إنْ: مخففة من الثقيلة - والتقدير: وإنهم كانوا ليقولون - ودخلت اللام فارقة بين إنْ المخففة من الثقيلة وذلك إخبار من الله عن قيل المشركين، إذ كانوا يقولون – إذا عُيِّروا بالجهالة والسفه قبل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كان عندنا نبي يأتينا بكتاب من عند الله ويذكّرنا بأمره وما كان من أمر القرون الأولى لاتبعناه وأخلصنا لله العبادة، فها قد جاءهم رسول من عند الله يذكّرهم بدين الله وشرعه ومنهاجه وينذرهم لقاءه يوم الحساب، لكنهم كفروا وأعرضوا وهو قوله: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وذلك وعيد وتهديد من الله لهؤلاء المكذبين الناكلين عن الحق.

١٦٨ - (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٧]

قوله: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إنْ: مخففة من الثقيلة - والتقدير: وإنهم كانوا ليقولون - ودخلت اللام فارقة بين إنْ المخففة من الثقيلة وذلك إخبار من الله عن قيل المشركين، إذ كانوا يقولون – إذا عُيِّروا بالجهالة والسفه قبل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كان عندنا نبي يأتينا بكتاب من عند الله ويذكّرنا بأمره وما كان من أمر القرون الأولى لاتبعناه وأخلصنا لله العبادة، فها قد جاءهم رسول من عند الله يذكّرهم بدين الله وشرعه ومنهاجه وينذرهم لقاءه يوم الحساب، لكنهم كفروا وأعرضوا وهو قوله: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وذلك وعيد وتهديد من الله لهؤلاء المكذبين الناكلين عن الحق.

١٦٩ - (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٧]

قوله: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إنْ: مخففة من الثقيلة - والتقدير: وإنهم كانوا ليقولون - ودخلت اللام فارقة بين إنْ المخففة من الثقيلة وذلك إخبار من الله عن قيل المشركين، إذ كانوا يقولون – إذا عُيِّروا بالجهالة والسفه قبل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كان عندنا نبي يأتينا بكتاب من عند الله ويذكّرنا بأمره وما كان من أمر القرون الأولى لاتبعناه وأخلصنا لله العبادة، فها قد جاءهم رسول من عند الله يذكّرهم بدين الله وشرعه ومنهاجه وينذرهم لقاءه يوم الحساب، لكنهم كفروا وأعرضوا وهو قوله: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وذلك وعيد وتهديد من الله لهؤلاء المكذبين الناكلين عن الحق.

١٧٠ - (فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٧]

قوله: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إنْ: مخففة من الثقيلة - والتقدير: وإنهم كانوا ليقولون - ودخلت اللام فارقة بين إنْ المخففة من الثقيلة وذلك إخبار من الله عن قيل المشركين، إذ كانوا يقولون – إذا عُيِّروا بالجهالة والسفه قبل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كان عندنا نبي يأتينا بكتاب من عند الله ويذكّرنا بأمره وما كان من أمر القرون الأولى لاتبعناه وأخلصنا لله العبادة، فها قد جاءهم رسول من عند الله يذكّرهم بدين الله وشرعه ومنهاجه وينذرهم لقاءه

يوم الحساب، لكنهم كفروا وأعرضوا وهو قوله: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وذلك وعيد وتهديد من الله لهؤلاء المكذبين الناكلين عن الحق.

١٧١ - (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

ذلك وعد من الله لأنبيائه المرسلين والذين آمنوا بدعوتهم وناصروهم واتبعوا النور الذي أنزل إليهم - بالنصر والتأييد وأن تكون لهم الغلبة والعزة والظفر - ذلك أنهم على الحق المبين المنزل من عند الله، والله - عزّ وعلا - خير ظهير ومعوان لعباده المؤمنين الصابرين - وهو قوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ}.

١٧٢ - (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)

{لهم} فصل بين اسم أن وهو " هم " وخبرها وهو {الْمَنْصُورُونَ} وأُدخلت اللام على الفصل أي سبق من الله القضاء والحكم في أم الكتاب أن الغلبة والنصر لعباده المرسلين.

١٧٣ - (وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

{وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} جند الله: حزبه من النبيين والمتقين السائرين على شرعه ومنهجه للعالمين فقد سبقت كلمة الله في الأزل أن هؤلاء المؤمنين المخلصين، لهم الغلبة والظهور على الكافرين الظالمين وهذه سنة الله في عباده أن جعل النصر والغلبة لجنده المتقين، وجعل الذلة والخزي والصَّغار على المجرمين الذين يُحادّون الله ورسله ويتصدون لدين الله ومنهجه وشرعه بالتكذيب والتشكيك والصَّدّ - ذلك وعد من الله لجنده المؤمنين الصادقين، السائرين على صراطه المستقيم، ولا ينافي ما يصيب المسلمين من هزائم ونكسات في كثير من الأحوال؛ فسنة الله أن يبتلي المسلمون في أنفسهم وأموالهم وأوطانهم وكراماتهم في أحوال عصيبة مريرة - وما كان ذلك ليكون لولا تفريط المسلمين في دينهم، ونكولهم عن فريضة الجهاد وانشغالهم بزينة الحياة الدنيا.

وكيفما تكن الأمور والأحداث والابتلاءات فإن العاقبة لعباد الله المؤمنين المتقين الصابرين؛ فهم الغالبون لا محالة، وهم الوارثون لنصر الله، لتكون لهم الهيمنة والغلبة في النهاية وتكون لهم العزة والاستعلاء ويكون الدين كله لله.

١٧٤ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

قوله: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ}: أي أعرض عنهم إلى مدة معلومة وهي مدة الكف عن القتال - أو حتى نأمرك بالقتال - وقيل: إلى يوم بدر.

١٧٥ - (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

{وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} وذلك وعيد من الله للظالمين؛ أي انظر يا محمد فسوف يرون ما يحلُّ بهم من العقاب والخزي وحينئذ لا ينفعهم إبصار ولا إنظار.

١٧٦ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

قوله: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}: كانوا يستعجلون العذاب والعقوبة ويقولون: متى هذا الوعد - وذلك لفرط جحودهم وتكذيبهم

١٧٧ - (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

{فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}: يعني إذا نزل العذاب بدار هؤلاء الظالمين المكذبين، فبئس صباح القوم الذين أنذرهم رسول الله بطش ربهم وانتقامه - أو فساء الصباح صباحهم.

١٧٨ - (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

قوله: {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} أي: أعرض عن هؤلاء المكذبين الضالين حتى يأذنَ الله بإهلاكهم سواء في الدنيا؛ إذْ يبطش الله بهم بطشة الدنيا أو في الآخرة حين يبطش بهم بطشته الكبرى.

١٧٩ - (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)
قوله: {وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} أي وانظر فسوف يرون ما يحل بهم من العقاب الأليم.
١٨٠ - (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)
قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}: ينزه الله نفسه وهو رب العزة، أي ذو القوة والعظمة والسلطان {عَمَّا يَصِفُونَ} أي عما يصفه به المشركون الضالين من اتخاذ الولد والصاحبة.
١٨١ - (وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)
قوله: {وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} يسلم الله على عباده المرسلين المبعوثين رحمة للعالمين - وقيل: سلام بمعنى أَمَنة أو أَمْن، لهم من الله عز وعلا يوم الفزع الأكبر فلا يصيبهم يومئذ مكروه ولا شدة.
١٨٢ - (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الله المحمود في علاه، المستحق لكل الثناء وبالغ الشكران على ما مَنَّ به على الناس من جزيل النعم ومن بينها وأعظمها إرسال النبيين مبلّغين، مبشرين ومنذرين، لهداية الناس إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم، وليستنقذوهم من ضلال الدنيا إلى حيث العدل والفضل والاستقامة، ومن أفْزاع الآخرة إلى السعادة والنجاة.

٣٨ سورة ص:

سورة ص:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية كلها - وهي مبدوءة بحرف من حروف التهجّي، التي يعلم الله وحده حقيقة المراد منها - ثم يُقسم الله بقرآنه الكريم ذي الدرجة العليا والشرف العظيم - وفي المحلوف عليه خلاف.
على أن السورة فيها تنديد شديد بالكافرين الذين عجبوا أن يأتيهم رسول منهم يبلغهم دعوة الله ويدعوهم إلى عبادة ربهم وحده دون غيره من الشركاء فأعرضوا وقالوا: {إِنَّ هَذَا شَيْءٌ عُجَابٌ}.
وفي السورة مقتضب عن أخبار لفيف من النبيين وأقوامهم الظالمين، كقوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، أولئك جميعا عتوا عن أمر الله ونكلوا عن عقيدة التوحيد، فأخذهم الله بالنكال الشديد في هذه الدنيا قبل يوم القيامة حيث العذاب البئيس - وفي السورة إخبار عن نبي الله داود، إذ سخّر الله الجبال معه يسبِّحْن بالعشي والإشراق.
وفيها قصة الملك المؤمن نبي الله الكريم داود عليه السلام، فقد آتاه الله المُلْك وأمره بالعدل ونهاه عن اتباع الهوى والشطط، ووهب له الولد الصالح سليمان الذي ورث عنه النبوة وأمانة التبليغ.
وفي السورة قصة النبي الصابر أيوب عليه السلام - فقد أصابه من شديد السقم وبالغ الضَّرَّاء ما لا يطيقه غير أولي العزم من أعاظم الصناديد الأبرار - إلى غير ذلك من قصص النبيين المرسلين كإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل، ثم أخبار القيامة وأهوالها وقواصمها.
١ - (ص وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قوله تعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)}: {ص} من الحروف المقطعة التي تفتتح بها سور من الكتاب الحكيم - وقد تقدم الكلام عن هذه المسألة.
قوله: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} يُقْسِم الله بكتابه القرآن {ذِي الذِّكْرِ} أي ذي الشرف العظيم والمكانة العالية، وما اشتمل عليه من تذكير للعباد.

أما جواب القَسَم، فقيل: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا} الآية - وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها - وقيل غير ذلك.
٢ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)
قوله: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} العزّة: تعني القوة والغلبة.
والمعنى: أن الذين كفروا بالله ورسوله مستكبرون ممتنعون من التصديق بدعوة الله أو الجنوح للحق - وهم أيضا في شقاق؛ أي مخالفون للحق، مفارقون لدين الله.
٣ - (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ)
قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ}: {كَمْ} للتكثير، أي: كثيرا أهلكنا من الأمم الكافرة الضالة من قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم {فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} لما نزل بهم العذاب وأحاط بهم العقاب المحتوم فعاينوه معاينة استغاثوا بربهم ولجوا بالتوبة والاستغفار وطلب العون والاستنقاذ {وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} {وَلاتَ}، حرف بمعنى ليس وله اسم وخبر مثل ليس - وتقديره: ولان الحين حين مناص - ولا يكون اسمه وخبره إلا الحين - ولا يجوز إظهار اسمه؛ أي ليس الوقت حينئذ وقت فرار فقد فات زمن التوبة والاستغفار والآن أوانُ الحساب والجزاء.
٤ - (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)
قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}: عجب مشركو العرب من أن يأتيهم مُبلّــغ من البشر يبلّغهم دعوة ربهم ويحذرهم بأس الله بكفرهم وإشراكهم مع الله آلهة مزعومة وموهومة {وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} أرادوا بالإشارة محمدا صلى الله عليه وسلم فقد كذبوه ورموه بالسحر؛ إذ قالوا إنه يفرِّق بين الوالد وولده وبين المرء وزوجه.
٥ - (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)
قوله: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} الآلهة، وإلها، مفعولان لجعل، وهو بمعنى صيَّر - فهم بسفاهتهم وضلالتهم يستنكرون جعل الآلهة إلها واحدا ويقولون: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} أي عجب بالغ أو في غاية العجب - وذُكر في سبب نزول هذه الآية أنه لما أسلم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – شقَّ على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقضِ بيننا وبين أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء – أي العدل – فلا تمِلْ كل الميل على قومك - قال " وماذا يسألوني؟ " قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندرك وإلهك - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أتعطونني كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم " - فقال أبو جهل: لله أبوك! لنعطينّكهَا وعشْر أمثالها - فقال النبي صلى الله عليه وسلم " قولوا لا إله إلا الله " فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} فكيف يسع الخلْق كلهم إله واحد - فأنزل الله فيهم هذه الآيات.
٦ - (وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)
قوله: {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ}: {أَنِ} مفسرة، وتقديره أي امشوا.
المراد بالملأ، أشراف القوم وسادتهم؛ فقد ذهب هؤلاء مسرعين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول بعضهم لبعض: امضوا على ما أنتم عليه من عبادة الأصنام واصبروا على دينكم وعبادة آلهتكم.
قوله: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} أي هذا الذي جاء به محمد، وما يدعونا إليه من عبادة إله واحد، إنْ هو إلا شيء يريده منا محمد يبتغي به الظهور والاستعلاء علينا لنكون له تبعا، فاحذروا طاعته وتصديقه.
٧ - (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ)
قوله: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ}: أرادوا بالملة الآخرة، النصرانية وهي آخر الملل: يعني ما سمعنا بهذا الدين الذي جاء به محمد والذي

يدعونا فيه إلى التبرؤ من جميع الآلهة إلا من الله - في ملة عيسى وهي النصرانية، ولو كان ما جاءنا به حقّا لأخبرنا به النصارى.
{إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ}: يعني ما هذا الذي جاء به محمد إلا كذب وتخريص اختلق محمد من عنده - هكذا المشركون السفهاء يؤفكون عن دين الله وعن سبيله المستقيم كراهية في الحق وجنوحا للهوى والباطل الذي أُشْرِبَتْهُ نفوسهم السقيمة.
٨ - (أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)
قوله: {أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا}: الاستفهام للإنكار - والمراد بالذكر ههنا القرآن، فقد أنكر المشركون تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه من بينهم جميعا.
قوله: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي} أي: ليست هذه حجتهم الحقيقية فهم يعلمون أنك صادق فيهم ولكنهم يشكون في نزول القرآن إليك.
قوله: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} يعني: أهم لم يجترئوا على مثل هذا القول من الكفر والجحود إلا، لأنهم لم يذوقوا العذاب والنكال بعد، فقد غرتهم زينة الحياة الدنيا وغرهم الشيطان في دينهم فعموا وصمّوا - ويوم يذوقون العذاب المهين ويُدعّون إلى نار جهنم دعّا، حينئذ لا ينفعهم إيمان ولا تصديق، ولا تجديهم توبة أو حسرة.
٩ - (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)
قوله: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} يعني: أم عند هؤلاء المشركين المكذبين مفاتيح رحمة الله ذي القوة والجبروت، الوهاب لمن يشاء من عباده فيمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما منَّ الله به عليه من نبوة وكرامة.
١٠ - (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ)
قوله: {أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}: إنْ كان المشركون يملكون السماوات والأرض وما بينهما فليصعدوا في الأسباب، وهي طرق السماء، أو ليصعدوا إلى السماوات فيحولوا دون نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم.
١١ - (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ)
قوله: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ}: {جند} مرفوع على أنه مبتدأ - و {مّا} زائدة - و {هنالك}، صفة لجند - و {مهزوم} خبر لمبتدأ، يعني هؤلاء المشاقون الذين يحادون الله ورسوله إن هم جند من الأحزاب مهزوم - وذلك تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم كيلا يبتئس بتكذيبهم وإعراضهم فإنهم مغلوبون ومقهورون.
١٢ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ)
يخبرُ الله عن حال الكافرين من الأمم الماضية الذين جحدوا ربهم وكذبوا رسله وأعرضوا عن دين الله معاندين مستكبرين، وهم قوم نوح فقد أخذهم الله بالطوفان، وقوم عاد الين أُخُذوا بالصيحة، وقوم فرعون ذي الأوتاد - وسمي بذي الأوتاد بمعنى البنيان - وقيل: كانت له ملاعب من أوتاد يُلْعَب له عليها فأخذه وملأه بالتغريق لشدة ظلمهم وعتوهم وفسادهم في الأرض - ثم قوم ثمود، ولوط وقد تقدم الكلام عنهما في آيات مضت - ثم أصحاب الأيكة، أي الغيضة، وهي الشجر الكثير الملتف من السدر والدوم وغيرهما {أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} تلك الأمم الظالمة الكافرة التي طغت وعتت وفسقت عن أمر ربها كانت أقوى من مشركي العرب وأكثر منهم أموالا ونفيرا فلم يجو من عقاب الله، ولم تمنعهم قوتهم من عذاب الله الذي نزل بهم فأهلكهم.
١٣ - (وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
يخبرُ الله عن حال الكافرين من الأمم الماضية الذين جحدوا ربهم وكذبوا رسله وأعرضوا عن دين الله معاندين مستكبرين، وهم قوم

نوح فقد أخذهم الله بالطوفان، وقوم عاد الين أُخذوا بالصيحة، وقوم فرعون ذي الأوتاد - وسمي بذي الأوتاد بمعنى البنيان - وقيل: كانت له ملاعب من أوتاد يُلْعَب له عليها فأخذه وملأه بالتغريق لشدة ظلمهم وعتوهم وفسادهم في الأرض - ثم قوم ثمود، ولوط وقد تقدم الكلام عنهما في آيات مضت - ثم أصحاب الأيكة؛ أي الغيضة، وهي الشجر الكثير الملتف من السدر والدوم وغيرهما {أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} تلك الأمم الظالمة الكافرة التي طغت وعتت وفسقت عن أمر ربها كانت أقوى من مشركي العرب وأكثر منهم أموالا ونفيرا فلم ينجو من عقاب الله، ولم تمنعهم قوتهم من عذاب الله الذي نزل بهم فأهلكهم.

١٤ - (إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

قوله: {إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ} يعني ما كل هؤلاء الأمم إلا كذَّب الرسل {فَحَقَّ عِقَابِ} أي فنزل بهم العذاب بسبب تكذيبهم وعصيانهم - وذلك تهديد من الله لمشركي العرب وتحذيرا لهم من عذاب الله أن يحل بهم.

١٥ - (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

قوله: {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً} يعني ما ينظر هؤلاء المشركون المعاندون {إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً} وهي النفخة الأولى، نفخة الفزع {مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ} يعني ما لتلك النفخة من ارتداد ولا رجوع إلى الدنيا - أو ما ينتظر هؤلاء الضالون المكذبون إلا أن ينفخ إسرافيل في الصور نفخة تأخذهم فلا يفيقون فيها.

١٦ - (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

قوله: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}: القط، معناه الحظ والنصيب - أو هو الكتاب والصك بالجائزة؛ أي قال المشركون على سبيل السخرية والاستهزاء: يا ربنا عجل لنا حظنا ونصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة.

قوله: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} أي: اصبر يا محمد على اجتراء قومك على تكذيبك والاستسخار منك؛ فإنما العاقبة لك وللمؤمنين المتقين من أمتك.

١٧ - (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}: ذلك ذكر من الله لنبيه ورسوله داود عليه الصلاة والسلام؛ فقد كان ذا الأيدي أي القوة في العبادة والطاعة - وقيل: في العلم والعمل.

قوله: {انهُ أَوَّابٌ} أي رجاع - أو تواب كثير الإنابة والاستغفار.

١٨ - (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ)

قوله: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} سخر الله الجبال مُسبِّحة مع داود عند إشراق الشمس وفي آخر النهار، فكان داود إذا ذكر الله ذكرت معه الجبال - وكان عليه الصلاة والسلام يفقه تسبيح الجبال - ويستدل من قوله: {بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} على صلاة الضحى، فقد روي عن ابن عباس قوله: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن - على أن صلاة الضحى نافلة مستحبة وأقلها ركعتان - وقيل: واحدة، وهي تؤدى في الغداة عند ابيضاض الشمس عقب طلوعها وإشراق نورها - وفي صحيح مسلم: عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " صلاة الأوابين حي ترمَض الفصال " والفصال والفصلان جمع فصيل، وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل - والرمضاء شدة الحرّ في الأرض.

وفضل صلاة الضحى عظيم وأجرها كبير - وفي ذلك روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من حافظ على شَفْعة الضحى غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ".

١٩ - (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ)

قوله: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} {وَالطَّيْرَ}، معطوف على {الجبال}، أي وسخرنا الطير يسبِّحن معه محشورة يعني مجموعة له، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا سبح أجابته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبَّحت معه.

قوله: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} أي راجع إليه، فترجِّع معه وتسبح بتسبيحه وتحن إلى صوته الحسن.

٢٠ - (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ)

قوله: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} أي: قويناه بالعون والنصرة حتى كان مكينا ثابتا - وكان في الناس مهيبا مطاعا وأوتي من كثرة الجنود لحراسته ما أثار الرهبة في القلوب، ويستدل من ذلك أيضا أن النبي يجوز أن يسمى ملكا.

قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} اختلف في المراد بالحكمة - فقيل: معناه النبوة - وقيل: العلم بكتاب الله - وقيل: العلم والفقه - وأما {وَفَصْلَ الْخِطَابِ} فهو الفصل في القضاء - وقيل: هو الإيجاز بجعْل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

٢١ - (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}: {الْخَصْمِ} يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع والتثنية والإفراد، لأنه في الأصل مصدر والمراد بالخصم ههنا ملكان {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} أي وقت تسور المحراب - و {تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}، يعني أتوه من أعلى سوره - نقول: تسور الحائط، أي تسلّقه - و {الْمِحْرَابَ} معناه هنا الغرفة، فقد تسلقوا على داود وهو فيها - وهو قوله: {إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ}

٢٢ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

{إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ} {إِذْ} بدل من {إذ} الأولى فقد كان داود في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد في ذلك اليوم، ثم فوجئ باثنين قد تَسوّرا عليه الدار ليسألاه عن شأنهما {فَفَزِعَ مِنْهُمْ} لأنهما أتياه ليلا في وقت لا يأتي فيه الخصوم، وقد دخلوا عليه بغير إذنه وكان ذلك من غير الباب الذي يدخل من الناس بل دخلوا تسلّقا من فوق المحراب - وكان محرابه من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرقى إليه أحد بحيلة إلا ببالغ المشقة والجهد.

قوله: {قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ} {خَصْمَانِ} خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: نحن خصمان - يعني: قال الملكان لداود كيلا يفزع منهما: نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض - أو تعدى أحدنا على الآخر - وذلك على سبيل الفرض والتقدير، أو التعريض، لأن الملائكة لا تبغي - ثم طلبا منه أن يقضي بينهما بالحق وأن لا يجور - وهو قوله: {فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ} تُشطِط من الشطط، وهو مجاوزة القدر في كل شيء والمراد به هنا الجور والعدل، أي اقضِ بيننا بالعدل ولا تجر في قضائك ولا تَمِلِ فيه مع أحد.

قوله: {وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} يعني أرشدنا إلى الطريق المستقيم.

٢٣ - (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

قوله: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ} كنّى بالنعجة عن المرأة لما هي عليه من السكون وضعف الجانب، فقد قال أحد الملكين لصاحبه: {إِنَّ هَذَا أَخِي} أي صاحبي أو أخي في الدين {لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً} وهذا من التعريض، إذْ كنّى بالنعاج عن النساء - وقد أراد الملَك بذلك داود، إذ كان له تسع وتسعون امرأة وأراد أن ينكح امرأة رجل ليس له من الزوجات سواها وهو

قوله: {فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا} أي ضمها إلي، أو خلِّ سبيلها إلي، أو أعطينها.

قوله: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} أي غلبني أو قهرني بسلطانه وبيانه.

٢٤ - (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ

مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

قوله: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ} قال داود للخصم المتظلّم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك هذا بسؤال امرأتك الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائه.

قوله: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} {الْخُلَطَاءِ} جمع خليط، وهو لشريك أو الصاحب يعني: وإن كثيرا من الشركاء أو الأصحاب يتعدى بعضهم على بعض أو يظلم بعضهم بعضا {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فإن المتقين الذين يخشون الله ولا يبرح قلوبهم الخوف من جلاله وعظيم سلطانه لا يظلمون الناس {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} {همْ}، مبتدأ - {وَقَلِيلٌ}، خبره - و {مَا} زائدة؛ أي وقليل هم الذين لا يبغون.

قوله: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} يعني أيقن داود بعد الذكرى أنما ابتلاه ربه بذلك {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ} سأل الله أن يغفر له الذنب {وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} أي سقط ساجدا لله منيبا إليه خاشعا متذللا.

٢٥ - (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

قوله: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ} {ذلك} في موضع نصب للفعل، غفرنا؛ أي فغفرنا له ذلك الذنب.

واختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر له داود وتاب عنه - وفي ذلك جملة أقوال عن حقيقة هذا الذنب، ما نظن أن واحدا منها يصح - فمثلها من الذنوب لا يقع فيها المتقون الصالحون، فكيف بالنبيين أولي العصمة والدرجات العلا من الإيمان والتقى؟!

إن داود عليه السلام طلب من زوج المرأة فراقها ليتزوجها ويضمها إلى نسائه وهن تسع وتسعون واحدة - فنبهه الله على ذلك بإرسال الملكين إليه ليتخاصموا في مثل قصته تذكيرا وتنبيها.

وما ينبغي أن نركن في مثل هذه المسألة إلى كثير من الأقوال التي جُلُّها من الإسرائيليات، وهذه مزيج من الأخبار والقصص التي يخالطها الغلو وشطحات الخيال التائه فلا ينبغي التعويل عليها ما لم يعززها شيء من كتاب ربنا الحكيم أو سنة نبيه الصحيحة.

قوله: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى} أي القربة والدنو من الله يوم القيامة {وَحُسْنَ مَآبٍ} أي حُسن مرجع ومنقلب إليه يوم القيامة.

٢٦ - (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

يخاطب الله نبيه داود بقوله: إننا استخلفناك في الأرض من بعد النبيين الذين خلوا من قبلك لتحكم بين الناس - فاحكم بينهم بالعدل والنَّصَفَة {وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى} أي احذر الهوى أن يقودك إلى الميل والجور في الحكم فتكون من الزائغين التائهين عن طريق الله المستقيم.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي الذين يحيدون عن الحق والعدل ويميلون عن سبيل الله أعدّ الله لهم شديد العقاب {بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} أي بتركهم الإيمان والطاعة، وإيثارهم الجور في القضاء والميل عن سبيل الله؛ فهم كالناسين ما ينتظرهم من حساب يوم القيامة.

٢٧ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}: ذلك إعلان من الله للناس يبين لهم فيه أنه لم يخلق السماء والأرض عبثا وما أنشأهما للهو أو لغير حكمة ربانية بالغة - حكمة مقدرة مسطورة من وراء الوجود كله ومن وراء الكائنات جميعا؛ ليبين للعالمين أن السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من خلائق وأحياء لم يكن ذلك باطلا، بل خلقهم الله ليعبدوه ويوحدوه ويفردوه في الإلهية والربوبية ثم يجمعهم يوم القيامة ليلاقوا الحساب، فيجازى المحسن بإحسانه

والمسيء بإساءته وعصيانه - وهذه حقيقة مقدورة كبرى منافية لما يظنه الكافرون الضالون الذين يحسبون أن المؤمن والجاحد سواء وأنهم جميعا صائرون إلى نتيجة واحدة وهي الموت، الذي لا بعث بعده ولا حياة وهو قوله سبحانه: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} أولئك سادرون في الضلال، مكذبون بيوم الدين فلهم الويل وسوء المصير.

٢٨ - (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

قوله: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} ذلك عدل الله المطلق وحكمته البالغة العظمى - فلا يساوي الله بين المؤمنين والكافرين - ولا يعدلُ العبدَ المنيبَ الصالح بالشقي الطالح، فكل سارب في سبيله سواء في الدنيا أو في الآخرة التي يساق فيها المؤمنون إلى الجنة ويساق المجرمون المكذبون إلى الجحيم.

٢٩ - (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

قوله: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ} أي هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد {مبارك} فيه البركة والخير والبهجة والسعادة للعالمين {لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} أي ليتعظ ويعتبر أصحاب العقول النيرة ما في هذا الكتاب الحكيم من روائع المعاني والبينات، فيستقيموا ويسلكوا بذلك سبيل الرشاد.

٣٠ - (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

قوله: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}: ذلك إخبار من الله تعالى بأنه وهب لنبيه داود سليمان نبيّا؛ فقد منَّ به عليه بكونه نبيا وقد كان لداود بنون آخرون؛ إذ كان له مائة زوجة.

قوله: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} المقصود بالمدح محذوف وتقديره سليمان وذلك ثناء من الله على هذا النبي الكريم سليمان عليه الصلاة والسلام؛ إذ كان أوّابا أي مسبّحا كثير العبادة والإنابة إلى الله.

٣١ - (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

قوله: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}: (العشي) بعد الزوال، و {الصَّافِنَاتُ} جمع صافنة، والمذكر صافن، والصافن من الخيل: القائم على ثلاث وطرف حافر الرابعة - و {الْجِيَادُ} السراع - فقد عُرض على سليمان الخيل الصامتات الجياد، وكانت عشرين فرسا ذات أجنحة - وقيل: مائة فرس، وقيل: كانت عشرين ألفا.

٣٢ - (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

قوله: {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}: {حُبَّ} مفعول به - وقيل: مصدر، فقد ذُكر أنه اشتغل بعرض الخيل الجياد حتى فات وقت صلاة العصر فتركها نسياننا لا عمدا، كما شغل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر فصلاها بعد المغرب.

والمعنى: إني آثرت حب الخير وهي الخيل فألهاني ذلك عن ذكر ربي أي غفل سهوا عن ذكر ربه وأداء فريضته: وقيل: إن ذلك صلاة العصر {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} حتى غابت الشمس في مغيبها - أو استترت بالليل فهو يستر ما فيه.

٣٣ - (رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

قوله: {رُدُّوهَا عَلَيَّ} أي ردوا على الخيل التي عرضت عليّ فشغلتني عن الصلاة.

قوله: {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} يعني أمر بها - فعقرت، أو ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف؛ لأنها شغلته عن عبادة الله وكان ذلك في شرعهم جائزا إن كان غضبا لله - وقيل: إن سليمان عرقبها ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز.

٣٤ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ)

قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}: فَتَنَ الله سليمان عليه السلام؛ إذ ابتلاه أو اختبره - أما حقيقة

هذا الابتلاء: فقد ذكر فيه أقوال كثيرة لا نطمئن إلى جلِّها لاختلاطها بالإسرائيليات من الأخبار - ومن جملة ذلك: أن سليمان عليه السلام تزوج امرأة من بنات الملوك فعبدت في داره صنما وهو لا يعلم، فامتحن بسبب غفلته عن عبادتها الصنم - وقيل: ابتلاه الله بشيطان جلس على كرسيه أربعين يوما - وكان لسليمان عليه الصلاة والسلام مائة امرأة وقيل: كانت له ثلاثمائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي آثَرُ نسائه عنده - وكان إذا أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأمن عليه أحدا من الناس غيرها فأعطاه يوما خاتما ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته - فقال: هاتي الخاتم فأعطاه فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا وخرج كأنه تائه - ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما فأنكر الناس أحكامه فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا لهن: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه، ثم أقبلوا يمشون فأحدقوا به ثم نشروا يقرأون التوراة فطار من بين أيديهم حتى وقع على شُرفة والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم في البحر، فقام سليمان إلى شاطئ البحر فوجد الخاتم في بطن حوت فأخذه فلبسه فردّ الله عليه مُلكه وسلطانه - وقيل غير ذلك مما هو نظير لما ذكرنا - وكله في الغالب – من الإسرائيليات التي لا يُركن إليها.

قوله: {ثُمَّ أَنَابَ} أي رجع إلى الله تائبا.

٣٥ - (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

قوله: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي} أي استر علي ذنبي الذي فعلت {وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} أي اعطني من الملك ما ليس لأحد من بعدي - أو لا يُسلب مني كم سُلب {إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} الله الذي يهب الملك لمن يشاء من عباده وهو سبحانه بيده مقاليد كل شيء.

وإذا قيل: كيف يطلب سليمان الدنيا مع ذمّها من الله تعالى؟ - أجيبَ بأن المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من أداء حقوق الله وإقامة حدوده وإنفاذه شرعه وأحكامه وتعظيم شعائره - ولا يتحقق ذلك إلا من جهة السلطان، فإنه بهيبته وجاهِهِ وبما لديه من قوة الدولة وسلطانها وعزها وعساكرها، تسير الأمور والأحوال في ظل شريعة سيرا موصولا مستقيما وعلى ما يُرام.

٣٦ - (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)

{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} استجاب الله دعاء سليمان فأعطاه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، إذْ سخّر له الريح فهي {تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً} من الرخاوة - أي تسير الريح بأمر سليمان طيبة لينة مع قوتها وشدتها كيلا تضر بأحد {حَيْثُ أَصَابَ} أي أراد وقصد.

٣٧ - (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

قوله: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ}: {كُلَّ} بدل من الشياطين، أي سخر الله لسليمان الشياطين فسلَّطهُ عليها تسليطا، فاستعملها فيما شاء من أعماله، من بناء وغوص، أي استعملهم بناءين وغواصين، فالبناءون يصنعون المحاريب والتماثيل - والغواصون يستخرجون الحلي من البحار.

٣٨ - (وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ)

{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ} والمراد بالآخرين مردة الشياطين، فقد قرنهم في قيود الحديد وسلاسله.

٣٩ - (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

قوله: {هَذَا عَطَاؤُنَا} الإشارة عائدة إلى الملك الذي أعطاه الله إياه.

قوله: {فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي اعط من شئت ما شئت من الملك الذي أوتيته، وامنع من شئت ما شئت منه فليس عليك في ذلك تبعة ولا حساب.

٤٠ - (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)
قوله: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}: له عند الله قربة وحُسن مرجع يوم القيامة.
٤١ - (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)
قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}:
يذكر الله نبيه الصابر أيوب عليه الصلاة والسلام وما أصابه من عظيم البلاء في الولد والجسد والمال، فقد كان ذا أولاد وعيال وقد أخذهم الله فبقي وحيدا بغير ولد ولا أهل ولا جليس، وكان ذا مال وثراء فأهلك الله ماله كله - ثم أصابه البلاء في جسده كله فانقلب عليلا سقيما - وقيل: لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه - فنفر منه الناس وتركوه وحيدا باستثناء زوجته المؤمنة الصالحة الرؤوم رضي الله عنها، فإنها لم تفارقه ولم تفرط فيه، بل كانت تخدم الناس بالأجرة لتتمكن من إطعامه وخدمته - فظل على هذه الحال من السقم والكرب والفقر وهجر الصحب والناس والحيلان جميعا، مدة سبع سنين - وقيل: ثماني عشرة سنة حتى آل به الأمر إلى إلقائه فوق مزبلة من مزابل بني إسرائيل طيلة هذه المدة وقد رفضه الناس وزهدوا في محادثته أو الدنو منه - حتى إذا طالت الشدة وبلغ الكتاب أجله وجاء أمر الله بالفرج، دعا أيوب ربه أن يكشف عنه ما حل به من البلاء - والله جلت قدرته خير معين ومجيب - وفي ذلك كله يقول سبحانه: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} النصْب: بضم النون المشددة، وسكون الصاد - وهو ما يصيب البدن - أما العذاب: فهو ما يصيب المال والولد، فقد دعا أيوب ربه عسى أن يكشف عنه ما أصابه،
٤٢ - (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)
فاستجاب له ربه وهو قوله: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} أي حرّك الأرض وادفعها برجلك، ففعل أيوب ما أمره ربه من التحريك والدفع فانبجست من الأرض عين ماء فاغتسل به وشرب منه، فذهب الداء والسقم من ظاهره وباطنه - وهو قوله: {هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}
{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} أي حرّك الأرض وادفعها برجلك، ففعل أيوب ما أمره ربه من التحريك والدفع فانبجست من الأرض عين ماء فاغتسل به وشرب منه، فذهب الداء والسقم من ظاهره وباطنه - وهو قوله: {هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}
وذكر أنه بعد شفائه استبطأته امرأته، إذْ ذهب لقضاء حاجته فأقبل عليها بخير وجه وأحسن منظر - فالتفتت زوجته ناظرة إليه وقد أذهب الله عنه ما به من بلاء فقالت له: هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك قال: فأنا هو.
٤٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)
قوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا} وَهَبَهُ الله غير أهله مثلهم ثم زاده مثلهم معهم - وقيل: أحياهم الله بعد ما أماتهم {رَحْمَةً مِنَّا} مفعول لأجله، أي وهبنا له مثل أهله زيادة مثلهم آخرين برحمتنا له.
قوله: {وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} أي كانت الرحمة منا لأيوب تذكيرا لأولي العقول النيرة كي يعتبروا ويتدبروا ويعلموا أن الله لا يخذل عباده المتقين الصابرين - أولئك الذين إذا أصابتهم المحن لم يجزعوا ولم ييأسوا بل تضرعوا إلى الله منيبين متذللين عسى أن يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء والله جل جلاله يتولى كشف الضرِّ عنهم والبلاء.
وهو سبحانه نصير المستضعفين المكروبين وظهير المغلوبين المقهورين من المؤمنين، ومجيب الداعين الصابرين الثابتين على الحق، السائرين على صراط الله المستقيم.
٤٤ - (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)
قوله: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ} معطوف على {اركضْ} - والضغث، هو الحزمة أو القبضة الصغيرة من الحشيش -

وهذا يدل على سابق يمين من أيوب وهو مريض - إذ حلف على أن يضرب امرأته مائة جلدة - ولقد اختلفوا في السبب الذي جعله يحلف مثل هذه اليمين - وأصوب ما ذُكر في ذلك من أسباب أنها خالفته في بعض المهمات، إذ ذهبت في بعض شأنه فأبطأت فحلف، ليضربها مائة إذا برئ من مرضه - ولما كانت حسنة الخلق، صابرة مطيعة لله حلّل الله يمينه بأهون طريقة عليه وعليها وهي أن يضربها بقبضة من حشيش مختلط الرطب باليابس - وبذلك فقد برَّ أيوب بيمينه وَوَفّى بما ألزم نفسه به من قسم، فإنه ما كان ينبغي له أن يجازي هذه المرأة المؤمنة الصابرة الفضلى بالضرب المؤلم وقد كانت خير معوان له في حياته بعظيم خدمتها له وبالغ حَدْبها واصطبارها عليه في سنِّي الكرب والشدة.

قوله: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ذلك إكرام من الله لعبده ونبيه أيوب عليه السلام بثنائه عليه لصبره على البلاء، إذ لم يحمله ذلك على الجزع أو الخروج عن طاعة الله {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} رجّاع إلى الله بالإنابة والخشوع والطاعة.

٤٥ - (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ)

قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}: ذلك ثناء من الله تعالى على فريق من عباده الميامين الأطهار، وهم عباده المصطفون الأخيار، إبراهيم وولده إسحاق وولد إسحاق يعقوب، فقد ذكرهم الله جل وعلا وبيَّن علو منزلتهم وشأنهم بقوله: {أُولِي الْأَيْدِي} يعني أولي القوة في دين الله وطاعته {وَالْأَبْصَارِ} يعني البصائر في الدين والعلم.

وجملة القول أنهم أُعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين.

٤٦ - (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

قوله: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} {بِخَالِصَةٍ}، بالتنوين فتكون {ذِكْرَى} بدلا من خالصة - وتقديره: إنا أخلصناهم بذكر الدار. والمعنى: خصصناهم بخاصة هي ذكرى الدار، وذلك أنهم كانوا يذكِّرون الناس الدار الآخرة ويدعونهم إلى عبادة الله وطاعته والعمل لنيل مرضاته - وقيل: أخلصهم الله بخالصة هي ذكرى الآخرة فليس لهم هم غيرها.

٤٧ - (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ)

قوله: {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ}: {الْمُصْطَفَيْنَ} جمع مصطفى، وهو المختار - يعني أن هؤلاء لمن الذين اصطفاهم الله واختارهم من بين عباده ليكونوا رسلا للناس - وهم {الْأَخْيَارِ} جمع خيِّر - وقد سُمّوا بذلك لحصول الخيرية منهم في جميع الأفعال والصفات.

٤٨ - (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ)

قوله: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ}: يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بذكر هؤلاء النبيين المرسلين الأخيار لكي يتأسى بهم في عظيم الصبر وجميل الخصال والأفعال في الإنابة والطاعات واحتمال الشدائد.

٤٩ - (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)

قوله: {هَذَا ذِكْرٌ} يعني: هذا القرآن ذكر لكم - وقيل: هذا شرف وذكر جميل يذكر به المصطفون الأخيار أبدا - قال الزمخشري: هذا نوع من الذكر وهو القرآن.

قوله: {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} ذلك وعد من الله لعباده المتقين الذين يخشونه ويتقونه باجتناب معاصيه وأداء فرائضه بأن لهم حسن العاقبة والمصير، فهم صائرون في الآخرة إلى الفوز والسعادة وذلك في قوله: {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ}

٥٠ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ)

{جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ}: {جَنَّاتِ} منصوب على البدل من قوله: {لَحُسْنَ مَآبٍ} و {مُفَتَّحَةً} منصوب، لأنه وصف الجنات - و {الْأَبْوَابُ}، مرفوع على البدل من ضمير {مُفَتَّحَةً} - وذلك جزاء المؤمنين المتقين، وهي دار النعيم المقيم الذي لا يفنى ولا يزول - تلك هي جنة عدن بقصورها وبروجها وأبوابها الكثيرة الكبيرة الواسعة المفتحة.

٥١ - (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)

قوله: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا} من الاتكاء وهو الجلوس مع التمكن - أو القعود مع تمايل اعتمادا على أحد الجانبين - أي يدعون في الجنات – وهم جلوس على الأرائك – بألوان الفاكهة وألوان الشرب.

٥٢ - (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

قوله: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} يعني أكرم الله المؤمنين المتقين في الجنة بزوجات قاصرات الطرف، أي قصرت أطرافهن وقلوبهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم - وهن كذلك {أَتْرَابٌ} أي على سن واحد، أو مستويات الأسنان، فقد تساوين في الحُسن والشباب - و {أَتْرَابٌ} جمع ترب، وهو نعت لقاصرات.

٥٣ - (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ)

قوله: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ} أي: هذا هو ما وُعدتم به من عظيم الجزاء وحسن الكرامة في الجنة.

٥٤ - (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ)

قوله: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} يعني: هذا الذي أعطيناكموه في الجنة من ألوان الخيرات والنعم ومن عظيم الكرامة {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} أي ليس له زوال أو فناء أو انقطاع.

٥٥ - (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)

قوله تعالى: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}: اسم الإشارة {هذا} في موضع رفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف وتقديره: الأمر هذا - فيوقف على هذا.

وذلك إخبار من الله عن حال الخاسرين الأشقياء بعد أن ذكر حال المكرمين السعداء أهل النجاة - والوقوف على هذا لتمام المعنى، ثم الابتداء بقوله: {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ} ذلك وعيد شديد من الله لأهل الطغيان الذين ظلموا أنفسهم فخسروا الدار الآخرة بأن لهم شر مآب - أي شر مرجع ومُنقلب ينقلبون إليه.

٥٦ - (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ)

{جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} أي يدخلونها فيهوون في جحيمها المتوقد {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} أي بئس الفراش فراشهم.

٥٧ - (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

قوله: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ}: {هذا} في موضع رفع لأنه مبتدأ، و {حميمٌ} خبره {فَلْيَذُوقُوهُ}، جملة اعتراضية - وقيل: هذا مبتدأ وخبره {فَلْيَذُوقُوهُ} والفاء للتنبيه - وقيل: هذا خبر لمبتدأ، وتقديره: الأمر هذا.

والحميم، معناه الذي أُغلي حتى انتهى حرُّه فهو بذلك بالغ الحرارة - والغساق: ما يسيل من جلود أهل النار من الدم والصديد - وقيل: البارد، الشديد البرودة - فهو ضد الحميم الحار - والأول أظهر - وفي ذلك روى الترمذي عن أبي سعد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لو أن دلوا من غساق يهراقُ في الدنيا لأنتنَ أهل الدنيا ".

٥٨ - (وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ)

قوله: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}: {وَآخَرُ} مبتدأ - و {مِنْ شَكْلِهِ} صفة له - و {أَزْوَاجٌ}: خبر المبتدأ، أي: ولهم عذاب آخر من شكل

هذا العذاب {أَزْوَاجٌ} أي ألوان أو أصناف من العذاب في النار، كالزمهرير والسموم وشراب الحميم وأكل الزقّوم وغير ذلك من ألوان العذاب الذي يَصْلاه المجرمون الخاسرون في النار.

٥٩ - (هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)

قوله: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} الفوج، الجماعة من الناس - والمقتحم من الاقتحام وهو ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة بمعنى الشدة والسنة المجدبة - واقتحم عقبة أو وهْدة، رمى بنفسه فيها، وكذا تقحَّم.

ذلك إخبار من الله عن كلام رؤساء أهل النار من أكابر المجرمين والمكذبين، يقوله بعضهم لبعض؛ فهم في النار جميعا يتلاعنون ويتخاصمون ويكذب بعضهم بعضا.

فيقول الفوج من قادة الطغيان المتبوعين الذين تقدموا غيرهم من الطاغين الأتباع إلى النار {لا مَرْحَبًا بِهِمْ} وهذا دعاء من المتبوعين المضلين على أتباعهم الضالين؛ أي لا رحبت بهم النار - والرحب بمعنى السعة {إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} وهو من قول المتبوعين القادة؛ أي أن الأتباع الذين أغويناهم كما غوينا، صالوا النار كما صلينا.

٦٠ - (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ)

قوله: {بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ} وذلك من قول الأتباع لرؤسائهم المتبوعين - وهو أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الكبراء والرؤساء، أنتم أحق به؛ يعني لا رحبت بكم أنتم النار {أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} أنتم الذين أغويتمونا وأضللتمونا عن الحق وعن صراط الله المستقيم حتى أفضينا إلى هذا المصير {فَبِئْسَ الْقَرَارُ} أي بئس المنزل والمستقر والمقام لنا ولكم.

٦١ - (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)

قوله: {قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ} وهذا قول الأتباع الذين اقتحموا النار على المضلين المتبوعين الذين سبقوهم إلى الجحيم.

يقولون: ربنا من قدم لنا هذا العذاب بتغريرنا وإضلاله لنا وإغوائه إيانا {فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ} أي أضعِفْ له العذاب في النار على العذاب الذي هو بدعائه وصدّه لنا عن سبيل الله وبما سَوَّلَهُ لنا من الكفر والعصيان.

٦٢ - (وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ)

قوله: {وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} {ما}، في موضع رفع مبتدأ - وخبره {لنا} و {لا نرى}، جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير {لنا} يخبر الله عن الطاغين المضلين وهم أكابرُ المشركين في الدنيا الذين يتقدمون أتباعهم إلى النار فيقتحمونها؛ إذ يقولون: ما لنا لا نرى معنا رجالا كنا نعدهم في الدنيا من أشرارنا وأرذالنا - وهم بذلك يعنون صهيبا وخبَّابا وبلالا وسلمان.

٦٣ - (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ)

قوله: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} أي ما لنا لا نرى الذين كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار والأرذال وكنا نستهزئ بهم معنا اليوم في النار، كنا نسخر منهم في الدنيا فلا نراهم معنا اليوم في النار - أمفقودون هم؟ {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} أم مالت عنهم أبصارنا فلم نرهم؟.

٦٤ - (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

قوله: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} {تَخَاصُمُ} مرفوع على البدل من {لَحَقٌّ} أو خبر مبتدأ محذوف وتقديره هو تخاصم - والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم من الخبر عن تلاعن أهل النار ودعاء بعضهم على بعض في النار لهو حق يقين.

وفي هذه الآيات ونظائرها عما يلاقيه الأشقياء الخاسرون من عظائم الأمور في جهنم، ما يقرع القلوب ويؤزُّ الوجدان والمشاعر، ويستنفر

الجنان والأذهان - لا جرم أن هذه الأخبار عن أهوال أهل النار وعن شدائدهم وعظائمهم المُخوفة الرعيبة لتسْتوقف الذهن والنفس وتشْدهُ البال والخيال والحس، وتشغل القلب وتثير في النفس دوام الخوف والوجل.

٦٥ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

أي قل للمشركين إنما أنا نذير لكم أبلغكم رسالة ربي وأخوفكم سخطه وغضبه وأحذركم شديد بطشه وعذابه أن يحل بكم بكفركم وعصيانكم.

قوله: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} يعني أبلغكم أنه ليس من معبود تنبغي له العبادة والألوهية إلا الله الواحد الذي قهر كل شيء - وما من شيء إلا هو سبحانه آخذ بناصيته.

٦٦ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} الله جل جلاله له ملكوت كل شيء ولا يندُّ عن سلطانه وملكوته شيء - فما من شيء في السماوات والأرض وما بينهما إلا هو مملوك له سبحانه - وهو سبحانه: {الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} أي المنيع القوي الذي لا يُغلَب وهو الستار لذنوب عباده.

٦٧ - (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ)

قوله: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} {قُلْ هُوَ نَبَأٌ}، مبتدأ وخبر - و {عَظِيمٌ} صفة لنبأ - والنبأ معناه الخبر، والمراد به القرآن - لا جرم أنه كتاب الله العظيم فيه خبر الأولين والآخرين وفيه خير الدنيا والآخرة - وقيل: النبأ العظيم، يراد به ما أنذركم به من قيام الساعة حيث الحشر بأفزاعه وأهواله وما فيه من عظائم الأمور وقواصمها وحيث الحساب والعقاب فذلك كله نبأ هائل ومخُوف، ما ينبغي لكم أن تستهينوا به أو تغفلوا عنه.

٦٨ - (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

قوله: {أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} أنتم مدبرون عنه إدبارا، وغافلون عنه كل الغفلة - فلا تتدبرونه ولا تعتبرون بمعاينة زواجره وأحكامه وأخباره.

٦٩ - (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

قوله: {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} الملأ الأعلى، يراد بهم الملائكة، أي قل لقومك المشركين يا محمد: ما كان لي من علم بالملائكة وهو يختصمون في شأن آدم حين أُخبروا عن خلقه فاختصموا وقالوا: لا تجعل في الأرض خليفة، وذلك من قبلَ أن يعلمني ربي بذلك؛ فإن إخباري بذلك لهو دليل واضح على صدق ما أقوله لكم وأن هذا القرآن حق، وأنه وحي قد أوحى به الله إلي.

٧٠ - (إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله: {إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي قل للمشركين يا محمد: ما يوحى إلي من الله من علم ما لا أعلم؛ كاختصام الملأ الأعلى في شأن آدم، إلا لأني نذير لكم مبين، أبلغكم دعوة ربكم وأحذركم عذابه وانتقامه.

٧١ - (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ)

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}: عقِبَ الاختصام في الملأ الأعلى وهم الملائكة شرع هنا في تفصيل ذلك وهو قوله: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ} بدل من قوله: {إِذْ يَخْتَصِمُونَ} لاشتمال البدل على ما في هذه الخصومة من مضمون - والمعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى حين اختصامهم، حين قل الله للملائكة: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} أي خالق آدم من طين.

٧٢ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ} أي: جعلت خلْقه سويّا، وصورته حسنة مُعدَّلة لا عوج فيها ولا خلل ولا نشاز.

قوله: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}: نفخ الله من روحه في آدم وهو طين، فكان إنسانا سويّا ذا بصر وسمع وعقل وإرادة وحَراك

{فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}: {سَاجِدِينَ} منصوب على الحال، أي خروا لآدم ساجدين، وهو سجود تحية لا سجود عبادة، وإنما المعبود هو الله وحده.

٧٣ - (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

قوله: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} أي: خروا ساجدين لآدم امتثالا لأمر الله وإذعانا له بالخضوع والطاعة - و {كُلُّهُمْ} و {أَجْمَعُونَ} تأكيدان للمبالغة في تحقيق السجود من سائر الملائكة وأنهم لم يبق منهم أحد إلا سجد.

٧٤ - (إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

{إِلاَّ إِبْلِيسَ} استثناء منقطع، أي لكن إبليس {اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} لم يسجد إبليس تكبرا واستعظاما، فكان بذلك من الكافرين الجاحدين لأنعم الله، فإنه لا يجترئ أحد على معصية الله استكبارا عليه إلا خاسر كنود، وشقي جحود.

ويا ليت شعري كيف بهذا الشقي الخاسر لا يصيخ قلبه لأمر وهو سبحانه يخاطبه مباشرة، إن ذلك يكشف عن فظاعة الجحود في طبيعة إبليس الكزّة البور.

٧٥ - (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

قوله: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} أي ما صدَّك عن السجود لآدم الذي خلقته بنفسي - فقد نَسَب الخلْق إلى نفسه على سبيل التعظيم لآدم {أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} الهمزة للاستفهام، وهو استفهام توبيخ وتقريع - و {أَمْ}، متصلة. والمعنى: أستكبرت بنفسك إذْ أبيت السجود لآدم أم كنت من الذين يتكبرون على الله.

٧٦ - (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

قوله: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} زعم اللعين إبليس أنه أفضل من آدم، وعلل زعمه الكاذب بأفضلية النار وهي أصله، على الطين وهو أصل آدم، وذلك زعم فاسد ومستهجن ليس له مستند من صحة الدليل أو سلامة المنطق إلا الاجتراء المتوقّح الظالم، والعُتوّ الفظيع المغالي، فإنه ما من فضل لشيء من الأشياء أو أحد من الآحاد إلا بتفضيل الله له، وإنما التفاضل بين العباد والمخاليق بنقاوة الجوهر وسلامة الطبع وصدق الفطرة وحقيقة الإذعان لله الواحد القهار - والطين والنار كلاهما من خلْق الله ومن صنعه وتقديره، وإنْ من أحدهما إلا ويعبد الله ويسبح بحمده، فأنى لإبليس اللعين أن يفضّل أحدهما على الآخر؟!

٧٧ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

قوله: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} أمره الله بالخروج من الجنة مزجورا فإنه رجيم، أي وصم بوصمة الرجم وهو الطرد والشتم واللعن.

٧٨ - (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

{وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} أحاطت بإبليس اللعنة من الله وهي الطرد والإبعاد من رحمته إلى يوم القيامة، وحينئذ تقدم المجرمين الخاسرين إلى النار بسعيرها الدائم واضطرامها الذي لا يفتر.

٧٩ - (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

قوله: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} سأل إبليس ربه أن يؤخره في الأجل فلا يهلكه إلى يوم البعث.

٨٠ - (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

٨١ - (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

{إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} معناه المعين، والمعلوم عند الله فلا يستقدم ولا يستأخر - والمراد: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى، نفخة الفزع.

٨٢ - (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} ذلك قَسَمٌ من إبليس بعزة الله، أي بسلطانه وقهره وقدرته لأغوين ذرية آدم أجمعين - وذلك باجتيالهم عن دينهم وإيقاعهم في الغواية والباطل، وباستهوائهم وإغوائهم بفعل المعاصي والآثام، وإشاعة الظنون والأوهام والشبهات في أذهانهم ونفوسهم لينفروا من دين الله نفورا وليتيهوا في الضلال والشهوات.

٨٣ - (إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

قوله: {إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} استثنى اللعينُ مَن أخلَصَهم الله منهم لعبادته فعصمه من إضلاله وإفساده.

٨٤ - (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ)

{فَالْحَقُّ} الأول، يُقْرأ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: أنا الحق ويقرأ بالنصب على تقدير فعل، وتقديره: الزموا الحق أو اتبعوا الحق - أما الحق الثاني فهو منصوب بقول {أَقُولُ} وتقديره: أقول الحق - والمعنى: أنا الحقُّ، والحقَّ أقول، أو الحقُّ مني وأقول الحق

٨٥ - (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

{لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} قول الحق من الله أن يملأ جهنم من نفس إبليس ومن ذريته وممن تبعه من بني آدم أجمعين، أولئك الذين ضلوا فمضوا في طريق الغواية والباطل وزاغوا عن صراط الله المستقيم.

٨٦ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

قوله: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} أي قل لهؤلاء المشركين: لا أسألكم على إبلاغكم هذا القرآن الذي أتيتكم به من عند الله جُعْلاً أو جزاء {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} أي لست من الذين يتصنّعون ويتحلّلون بما ليسوا من أهله - وما عرفتموني متصنعا البتة، ولا مدعيا ما ليس عندي فأتكلف النبوة وأتصنع قول القرآن تصنعا.

٨٧ - (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} يعني ما هذا القرآن إلا ذكر، أو تذكير من الله للعالمين وهم الثقلان من الجن والإنس.

٨٨ - (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

قوله: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} أي لتعلمُنَّ نبأ هذا القرآن، فتظهر لكم حقيقة ما أقول بعد حين؛ فعند الموت يأتيكم الخبر اليقين - وقيل: يوم القيامة - وقيل: يوم بدر - والأظهر اشتمال المراد على ذلك كله - والله تعالى أعلم.

٣٩ سورة الزمر:

سورة الزمر:
بيان إجمالي للسورة:

هذه السورة مكية كلها في قول أكثر العلماء - وقيل: باستثناء آيتين فهم مدنيتان - وقيل: باستثناء سبع آيات.

وهذه السورة مما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأه من القرآن في كل ليلة - وهي سورة تتندّى منها الآيات والعبر وتفيض منها المواعظ والدلائل وألوان المعاني - ويأتي في طليعة ذلك كله التنديد بالشرك وعبادة الأوثان واتخاذ الأنداد والشركاء من دون الله.

وفي السورة تحضيض عظيم ومؤثر على الإيمان وحده وإفراده بالإلهية فالله وحده الخالق المعبود، وما سواه من أجزاء هذا الوجود خليق به أن يذعن لله بالخضوع والاستسلام.

وتتضمن السورة حججا وبينات شتى في الحياة والطبيعة على عظيم صنع الله وبالغ حكمته وقدرته.

وفي السورة إنذار من الله مجلجل ومخوف بأن الناس جميعا ميتون لا محالة.

فالخليقة صائرة إلى نهايتها المحتومة التي لا ريب فيها وهي الموت - {إنك ميِّت وإنهم ميّتون}.

وفي السورة بيان من الله مذهل بما هو آتٍ على الكون ثمن نفخ في الصور - وهما نفختان عظيمتان مريعتان - فنفخة الصعق لتموت الأحياء كافة، ثم نفخة البعث والنشور لملاقاة الحساب، ثم يساق بعد ذلك زمرا فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

١ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

{تَنْزِيلُ} مرفوع على أنه مبتدأ - و {مِنَ اللَّهِ} خبر - أو يكون {تَنْزِيلُ} خبرا لمبتدأ محذوف وتقديره: هذا تنزيل - والمراد بالكتاب القرآن، فهو تنزيل من عند الله {الْعَزِيزِ} أي القوي، المنيع الجناب {الْحَكِيمِ} في أقواله وأفعاله وأحكامه وتقديره وتدبيره.

٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

قوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} أنزل الله القرآن بالعدل والصدق ليكون هاديا ونذيرا للعالمين.

قوله: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} أمره الله بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، أو أمره بالخشوع له والطاعة وإفراده وحده بالعبادة.

٣ - (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

قوله: {أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} والدين بمعنى العبادة والطاعة - والمعنى: إن العبادة والطاعة والامتثال والإذعان إنما ذلك كله خالص لله وحده - فما ينبغي أن يكون لأحد غير الله شيء من ذلك.

قوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}: {وَالَّذِينَ} مبتدأ وخبره محذوف - وتقديره: يقولون: ما نعبدهم.

هؤلاء هم المشركون المبْطلون السادرون في غيهم وضلالهم كانوا إذا قيل لهم: من ربكم وخالقكم، ومن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله - فإذا قيل لهم: كيف تعبدون هذه الأصنام والله خالقها وخالق كل شيء؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، فيشفعوا لنا عنده في نصرنا ورزقنا وليكونوا لنا أعوانا لنا عند النائبات في هذه الدنيا - أما الآخرة فهم يجحدونها ويكذبون بها.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} الله يقضي بين العباد يوم القيامة فيجازي المحق بإيمانه واهتدائه، والمُبْطِل بما كان عليه من باطل وفساد.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} لا يجعل الله الهداية والرشاد لمن كان يفتري على الله الكذب ويتقول عليه الباطل ويصطنع له من الصفات ما الله منزه عنه - وذلكم الكاذب الكَفّار، شديد الجحود والافتراء الذي لا يهديه الله للحق.

٤ - (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قوله: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ} لو شاء الله اتخاذ الولد لاختار من خلقه ما يشاء - وهذا الشرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه - وما ينبغي لجلال الله أن يكون له ولد، فهو منزه عن الضعف والنقص والاحتياج - وما يرومُ الأولاد والصواحب غير الضعفاء وهم العباد.

قول: {هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ينزه الله نفسه عن النقائص والعيوب، كاتخاذ الولد أو الصاحبة، فإنه سبحانه الواحد المعبود الذي يدين له كل شيء بالتذلل والخضوع - وهو سبحانه القهار الذي يقهر العباد بقدرته وعظيم سلطانه وسطوته.

٥ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

يُخبرُ الله عن بالغ قدرته وعظيم عزته وملكوته وأنه الخالق القاهر القادر، إذ يبين في الآية أنه {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بالحَقِّ} أي لم يخلقهما باطلا ولا للهو والعبث بل خلقهما بعلمه وحكمته وتدبيره.

قوله: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ} أي يلقي هذا على هذا، وهذا على هذا - وهو من التكوير، ومعناه طرح الشيء بعضه على بعض - كار الرجلُ العمامة أي أدارها على رأسه - وكورت الشمس إذا لفقته على جهة الاستدارة فالمراد بتكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه - وتكوير النهار على الليل، تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، وذلك حدث كوني هائل لا يقدر على فعله غير الله الخالق المقتدر.

قوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} أي ذللهما لمنافع العباد وتحقيق الحياة فتكون صالحة سوية، بجريان كل منهما؛ فالشمس تجري في دورتها المنسجمة المطردة حتى تستقر وتسكن بقيام الساعة - وكذا القمر يدور دورته في الفضاء من حول الشمس بجرمها الهائل العظيم حتى يأذن الله بنهاية العالمين واندثار النظام الكوني كله - وهو قوله: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}.

قوله: {أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} {ألاَ} أداة تنبيه، يعني: تنبهوا فإن الله {هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} أي الغالب القوي الذي لا يُقهر - وهو سبحانه {الْغَفَّارُ} يستر ذنوب عباده وإساءاتهم.

٦ - (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

قوله: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} خلق الله العباد جميعا من نفس واحدة وهو آدم أبو البشر، إذْ خلقه الله من طين ثم نفخ فيه من روحه فجعله إنسانا مكتمل الصورة والهيئة، حسن البنية والمنظر {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} خلق الله من آدم زوجه حواء ليسكن إليها ويستأنس بها وتكون له خير صاحبة ومعوان.

قوله: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} أنزل بمعنى قضى أو خلق لكم من الأنعام، وقيل: الأنعام لا تعيش إلا بالنبات، والنبات لا يقوم إلا بالماء وقد أنزل الله الماء فكأنه أنزل الأنعام {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} أي ذكر وأنثى، من الإبل والبقر والضأن والمعز - والزوج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووتر - فالمراد بخلْقه من الأنعام ثمانية أزواج، أنه خلق من الإبل زوجين، ومن البقر زوجين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين.

قوله: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي خلقكم أجنة في بطون أمهاتكم أطوارا - فيكون أحدكم أولا نطفة مهينة قذرة، ثم يصير علقة، ثم يكون مضغة فعظاما ثم تُكسى العظام لحما وأعصابا وعروقا وغير ذلك من مركبات الجسد الكثيرة العجيبة - ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، أي خلقا ذا روح.

وذلك كله {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ} والظلمات في قول المفسرين هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم: وظلمة المشْيمة.

وقد وجد بعض المعاصرين المتخصصين في علوم الطب والتشريح في هذه الآية متسعا لما أدلَوا به من وصف لطبيعة الرحم في المرأة؛ إذ قالوا: إنه يتكون من ثلاثة أغشية صمّاء لا يتخللها شيء من ماء أو ضوء أو حرارة، صونا للجنين أن يتأذى أو ينفذ إليه أذى.

قوله: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} ذلكم الذي فعل كل هذه العجائب في الخلْق والإنشاء والتكوين هو الله خالقكم ومالككم وهو وحده المتفرد بالإلهية، وليس من إله سواه {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} كيف تُصرفون عن عبادة الله الذي هذه بعض صفاته في الخلق والتكوين، وتعبدون معه آلهة مزعومة موهومة أخرى؟!.

٧ - (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

يخاطب الله عموم الناس مبينا لهم أنهم إن يكفروا فإن الله غني عنهم وعن إيمانهم وأعمالهم - وهو سبحانه لا يرضى لهم أن يكفروا به، رحمة لهم؛ لأن الكفر يفضي بهم إلى الهلكة والخسران.

قوله: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} أي إن تؤمنوا بالله وتطيعوه وتذكروا نعمته عليكم فإنه يرضى ذلك لكم؛ لأنه سبب نجاتكم وفلاحكم؛ فالله جل جلاله لم يكره كفركم ولم يرض شكركم إلا من أجلكم ولما في ذلك من صلاح لكم.

قوله: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس آثمة أخرى غيرها ولا تؤاخذ إلا بإثم نفسها - أو أن على كل نفس ما جَنَتْ وأنها لا تؤاخذ بذنب غيرها.

قوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ثم إنكم أيها الناس راحلون عن حياتكم الدنيا فصائرون إلى الله يوم القيامة فيخبركم يومئذ بكل ما اجترحتموه من السيئات والحسنات أو من الخير والشر {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} الله يعلم ما يستكنُّ في القلوب من خفايا وأسرار، فهو سبحانه عليم بكل شيء ولا يخفى عن علمه وإحاطته أيُّما شيء.

٨ - (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

قوله: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ} ذلك هو الإنسان الظالم لنفسه، التائه عن دين الله، السارب في مسالك الباطل والشرك، فإنه إذا أصابه ضُرٌّ في نفسه من مرض أو عاهة أو بلاء أو شدة أو نحو ذلك من وجوه البلاء والمحن، لجَّ إلى الله بالدعاء راجعا عن شركه وعصيانه مستغيثا به، مخبتا له في إزالة ما أصابه من الشدة والبلاء {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} خوَّله الله نعمة، أي أعطاه أو ملكه إياها - يعني إذا منحه الله نعمة منه فكشف عنه ما نزل به من البلاء والشدة وأبدله بهما الصحة والسلامة والعافية والرخاء {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} أي ترك دعاءه وتذلله واستغاثته التي كانت من قبل أن يكشف عنه الضُرَّ - فعاد إلى الشرك والمعصية واتخاذ الأنداد والشركاء من دون الله {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} أي ليفتن الناس عن دين الإسلام بعد أن نسي الدعاء وكشف البلاء.

قوله: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً} أي قل لهذا الجاحد المضل الذي فَسَقَ عن أمر الله وأوغل في الشرك والمعاصي {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ} حيث الشهوات واللهوات والسيئات واتباع الهوى - وذلك كله قليل عارض؛ فإن أجلك آتٍ، وكل آتٍ قريب - وذلك أمر تهديد ووعيد {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} أي إن مصيرك إلى النار لتكون فيها من اللابثين الماكثين.

٩ - (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)

قوله: {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ} قرئ {أَمْ مَنْ} بالتخفيف والتشديد - فبالتخفيف تكون الهمزة للاستفهام بمعنى التنبيه - ويكون في الكلام محذوف وتقديره: أَمَنْ هو قانت بفعل كذا كمن هو على خلاف ذلك - ومن قرأ بالتشديد فإنه أدخل (أم) على من بمعنى الذي، وليس بمعنى الاستفهام؛ لأن أم للاستفهام فلا يدخل على (أم) هو استفهام - وفي الكلام محذوف تقديره: العاصون ربهم خير أم من هو قانت {قَانِتٌ} من القنوت وهو الطاعة، والقانت، المطيع - و {آنَاءَ اللَّيْلِ} أي ساعات الليل - وقيل أوله وأوسطه وآخره.

والمعنى - على التشديد -: العاصون الذي تقدمت صفتهم خير، أم الذي هو مطيع لربه، منيب إليه بالدعاء والخشوع في كل أوقات الليل {سَاجِدًا وَقَائِمًا} أي يقنت ساجدا أحيانا، ويقنت قائما أحيانا {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ} أي يحذر العقاب في الآخرة {وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} أي يرجو من الله رحمته فيجزيه الجنة.

قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} ذلك ثناء من الله عظيم على أهل العلم وهم الذين يؤمنون بالله ويخشونه ويذعنون له بالطاعة والخضوع والامتثال وهم موقنون أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها - أولئك يطْريهم الله ويثني عليهم ويذكرهم أحسن الذكر فهم أولو أذهان مدّكرة فَطِينة، وطبائع مستوية سليمة - وخلافهم الجاحدون المدْبرون عن جلال الله، الزائغون عن صراط

المستقيم الناكلون عن دينه القويم نكولا أفضى بهم إلى الضلال والخسران.

فهم الذين لا يعلمون - وقيل: المراد العلماء المدَّكرون المعتبِرون، والجاهلون الضالون المتخبطون - لا جرم أن الفريقين لا يستويان، كما لا يستوي العلم والجهل، ولا يستوي العالم والجاهل - وكذلك لا يستوي الطائعون والعصاة.

قوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} إنما يتعظ ويعتبر ويدَّكر ولو الحِجى والعقول المستنيرة من المؤمنين - أما الجاحدون المكذبون فهم ضالون سادرون في الغفلة والعماية والتيه لا يعتبرون ولا يدَّكرون.

١٠ - (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}:

يأمر الله عباده المؤمنين أن يتقوا ربهم، وذلك بعبادته وحده لا شريك له، فيطيعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه.

قوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} أعدَّ الله للمحسنين الذين أخلصوا دينهم لله وبادروا فعل الطاعات والصالحات واستقاموا على صراط الله القويم ومنهجه الحكيم – أعدَّ الله لهم حسنة وهي الجنة.

قوله: {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ} فلا عذر للمفرطين المتخاذلين الذين يتعللون بأنهم مقهورون في بلادهم وأوطانهم فلم يتمكنوا من عبادة الله وطاعته ودعوة الناس إلى الإسلام بما يجدونه في أوطانهم من ظلم الظالمين الذين يصدونهم عن دين الله - بل عليهم أن يبادروا القرار بدينهم وترك الأوطان التي لا يستطيعون فيها أن يعبدوا الله أو يوشك أن تغشاهم فيها غاشية من الفتنة، ينزلقون فيها عن الإسلام فينقلبون فاسقين مشركين - فلا جرم أنهم في مثل هذه الحال مكلفون بالهجرة إلى بلاد الله الواسعة التي يجدون فيها الأمن فيعبدون الله طُلقاء ويدعون الناس إلى منهج الحق، منهج الإسلام.

قوله: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ذلك ثناء من الله عظيم على الصابرين الذين يصبرون على فراق الوطن والأهل والعشيرة والخلان، ويصبرون على بلاء الغربة وهم بعيدون عن بلادهم وأهليهم فرارا بدينهم من أرض القهر والصدّ والفتنة - أولئك يوفّيهم الله أجورهم بغير حساب؛ أي يعطون في الآخرة من جزيل الأجر والجزاء ما لا يحصره حساب من الكثرة.

١١ - (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

قوله: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بإخلاص العبادة لله وحده عبادة خالصة لله مبرأة مما يخل بها من ضروب الشرك والرياء أو ألوان الجهالات والضلالات.

١٢ - (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

قوله: {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} أي وأمرت بالطاعة وإخلاص العبادة لله لكي أكون في مقدمة المخلصين لله من المسلمين - أو أن أفعل من الطاعات لله وإخلاص العبادات له ما استحق به الأولية في الإيمان والإخلاص وعمل الصالحات أو أن أكون أول المسلمين من هذه الأمة وقد كان ذلك؛ فهو صلى الله عليه وسلم أول من ندد بالأصنام والشرك ودعا إلى توحيد الله.

١٣ - (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}: يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعلان عن خوفه من عصيان ربه، وعصيانه بالزيغ عن دينه وشرعه، والنكول عن صراطه المستقيم، وبمفارقة المعاصي والموبقات فيقول لقومه: إني أخاف – إن فعلت ذلك – عذاب يوم القيامة، وهو يوم عظيم البلايا والدواهي والفظائع.

١٤ - (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي)

قوله: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} قدّم لفظ الجلالة إظهارا للاهتمام بمن يعبد وهو الله سبحانه وتعالى، أي اللهَ أعبدُ لا غيره من الشركاء والأنداد {مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} خَصَّ الله وحده بالعبادة وإخلاص الطاعة له بعيدا عن الشرك الظاهر والخفي.

١٥ - (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

قوله: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} أي اعبدوا ما طاب لكم أن تعبدوه من دون الله - وفي ذلك ما يدل على شدة الغضب عليهم من الله، وفيه كذلك من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

قوله: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} إنما الخاسرون كل الخُسران، الجامعون لوجوه الخسران وأسبابه هم الذين خسروا أنفسهم بإهلاكها في جهنم، وكذلك خسروا أهليهم وأتباعهم إذا أضلوهم وفتنوهم عن الحق فصاروا يوم القيامة إلى النار.

قوله: {أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {أَلَا} أداة تنبيه، فقد نبَّه إلى حقيقة الخسران الظاهر يوم القيامة فإنه هو الخسران الفظيع، لما يجده المفرّطون الهلكى من شديد البلايا وعظيم الويلات في النار.

١٦ - (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

قوله: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} ذلك وصف لحال الأشقياء الخاسرين يوم القيامة فإنهم تحيط بهم النار من كل الجوانب فهي لهم ظُلل، أي طبقات من النار المستعرة التي تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل مكان.

قوله: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ} الإشارة عائدة إلى وصف العذاب أو الظلل منن النار، أي ينذر الله عباده بآياته في الوعيد والعذاب الشديد ليخشوه ويطيعوه ويزدجروا تمام الازدجار عن مناهيه.

قوله: {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} وذلك نداء كريم ودود من الله، ينادي به عباده ليؤمنوا ويتقوا ويبادروا بالطاعة والإنابة غير مضطرين ولا مترددين ولا مستنكفين لينجوا من غضب الله وينأوا بأنفسهم من عذاب النار.

١٧ - (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

{الطَّاغُوتَ} بوزن فعلوت، من الطغيان، وهو يطلق على الكاهن والشيطان والصنم وكل رأس في الضلال وعلى كل شيء معتد ومعبود من دون الله - وكذا سمي به الساحر والمارد من الجن وكل شقي مُضل صارف عن الحق والخير.

هذه الآية محكمة في المؤمنين إلى يوم القيامة - أولئك الذين يعبدون الله وحده ولا يعبدون أحدا من خلْقه سواء كان المعبود شيطانا من الجن أو الإنس - وذلك هو قوله: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} الضمير عائد على الطاغوت، لأنها مؤنث - وأن يعبدوها في محل نصب على البدل من الطاغوت، أي اجتنبوا عبادة الطاغوت - والجمع طواغيت على اختلاف أجناسها ومسمياتها سواء في ذلك السحرة والكهنة أو الأصنام أو المردة من شياطين الجن وغير ذلك من وجوه الأنداد ورؤوس الكفر والضلال من عتاة البشر وطواغيتهم الذين يفتنون الناس ويضلونهم عن دينهم بمختلف الأسباب والوسائل - أولئك جميعا طواغيت يضلون الناس عن دين الله ويسوقونهم بالإغراء والإغواء سوقا إلى الكفر والضلال والمعاصي - فليس على المؤمنين في كل زمان إلا أن يحذروا الطواغيت الكثيرة المختلفة وأن يكونوا دائما على بينة من إضلالهم وإفسادهم فيبادروا على عبادة الله وحده وطاعته والإنابة إليه وأولئك {لَهُمُ الْبُشْرَى} يبشرهم الله بحسن الجزاء وتمام السعادة والفوز يوم القيامة.

١٨ - (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

قوله: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} يسوق الله البشرى بالنجاة وحسن العاقبة لعباده المؤمنين المخْبتين الطائعين - ثم قال مُعرّفا بهم {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي يستمعون القرآن وغير القرآن فيتبعون القرآن - أو يستمعون الحق والسداد وغيرهما من القول المخالف فيتبعون الأحسن وهو الحق والسداد.

قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ} أولئك المؤمنون الطائعون لله، المتبعون أحسن القول قد كتب الله لهم التوفيق؛ إذ هداهم الله إلى دينه {وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} أ هم أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، النزاعة للحق واليقين، النافرة من الشرك والضلال والباطل.

١٩ - (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

قوله تعالى: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}: الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر - و {مَن}، شرطية وجوابها: أفأنت - وقيل: اسم موصول في محل رفع بالابتداء - وخبره محذوف وتقديره: كمن نجا؟ أو أفأت تخلِّصه؟ أو يتخلّص من العذاب؟ والفاء الثانية، فاء الجواب.

والمعنى: أمَن وجب عليه عذاب النار أأنت تنقذه منها؟ أو هل من أحد بقادر أن ينقذ من أحاطت به خطيئته فكان من الظالمين وسبق في علم الله إنه من أهل النار؟ فلست أنت تملك أمر الناس، ولا أنت بقادر على إنقاذهم منها بل القادر على ذلك هو الله عزّ وجل.

٢٠ - (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)

قوله: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}: لكن استدراك بين شيئين نقيضين أو ضدين وهما المؤمنون والكافرون - وذلك إخبار من الله عن أهل السعادة والنجاة في الآخرة؛ إذ أعدّ الله لهم في الجنة منازلا وقصورا شامخات، طباقا فوق طباق، محكمات مزخرفات - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قلنا: يا رسول الله، حدّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: " لبنةَ ذهب ولبنة فضة، وملاطها المْسك الأزفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران، مَن يدخلها ينعم ولا يبأس ويخلدُ ولا يموت ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه - ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماوات ويقول الربُّ تبارك وتعالى: " وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين ".

قوله: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}: تنساب الأنهار جارية سائحة من تحت المنازل في الجنة وبين خلالها.

قوله: {وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ}: {وَعْدَ} مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله يعني هذا الذي ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين - وهو سبحانه {لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ}.

٢١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}:

ذلك خطاب من الله عظيم يستوقف المسامع وينبِّه الأذهان للأحداث الكونية التي تدل في جريانها المقدور على سرعة فناء الدنيا واضمحلالها - وكثيرا ما يضرب الله لذلك مثلا من الماء النازل من السماء إلى الأرض فيخرج به النبات حتى إذا نما واخضرّ وأينع صار بعد ذلك إلى لذبول والجفاف واليبس والتفتُّت - وكذلك الإنسان يولد صغيرا لا يعي ولا يعقل ثم يمرّ في مراحل من التطور بدءا بالطفولة فاليفاع فالشباب فالشيخوخة ولهرم الذي يُفضي لا محالة إلى الموت والبلى - وهو قوله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} يعني أنزل بقدرته ومشيئته المطر من السماء وهو العلو من الفضاء الواسع {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} أي أدخله في الأرض ينابيع وهي العيون والمسالك والمجاري الكائنة في الأرض كالعروق في الأجساد {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} يخرج الله بواسطة الماء زرعا مختلف الأنواع والأصناف والطعوم والروائح والألوان من خُضرة وحمرة وصفرة وبياض {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} أي بعد ذلك يجف وييبس فينقلبُ لونه أصفر بعد أن كان نضرا أخضر {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} أي فُتاتا متكسرا - وهو ما تفتَّت وتكسر من النبات وغيره.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} الإشارة عائدة على ما ذُكر من تفصيل عن نزول المطر وإنبات الزرع ذي النضارة والجمال

والاخضرار ثم صيروته حطاما يابسا مُتفتتا، فإن في ذلك {لَذِكْرَى} أي لتذكيرا {لِأُولِي الْأَلْبَابِ} أي لأصحاب العقول النيرة الذين يتذكرون ويعتبرون بذلك وينتبهون إلى أن الدنيا شأنها هكذا، إذ تكون خضرة حسناء ثم تنقلب هرمة واهية شوهاء - وكذلك الإنسان يكون شابا مكتمل القوة والهمة والبأس ثم يعود شيخ كبيرا هرما وقد أتى عليه الضعف والهزل ثم يُقْضي بعد ذلك كله إلى النهاية المحتومة الموت.

٢٢ - (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} الهمزة للإنكار، وشرح الصدر جعله واسعا، وهو استعارة عن قبول الإيمان والخير والهداية.

والمعنى: أفمن وسع الله صدره فجعله مستعدا لقبول الإسلام بفطرته السليمة كمن قسا قلبه؟! أو كالناسي المعرض عن الخير والهدى، أو كمن طبع على قلبه فقسا؟!

قوله: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} القلوب القاسية هي الغليظة الكزّة التي لا تلين للذكرى ولا تخشع للآيات والعظات - وأولو القلوب القاسية غلاظ الطباع، غُلْفُ القلوب لا يعتبرون ولا يدكّرون ولا تستجيب نفوسهم لهتاف الحق والخير - وهم إذا ذُكِر الله عندهم أو ذكرت آياته اشمأزت قلوبهم وتولوا جامحين مدبرين - وهذا الصنف من الناس قد طبع على قلبه فبات مسدودا أصم لا خير فيه ولا لين - فويل لهؤلاء من عذاب الله ونكاله.

قوله: {أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} الإشارة إلى الموصوفين بقساوة القلوب، فهم غاوون سادرون في العماية والظلام.

٢٣ - (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

قوله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}.

ذلك ثناء من الله عظيم على كتابه الحكيم، القرآن، الذي أنزله هداة وتبصرة للناس إلى يوم الدين وهو قوله: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا} {كتاباً} بدل من {أَحْسَنَ} وقيل: حال منه.

قوله: {مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} {مُتَشَابِهًا} يشبه بعضه بعضا في الصدق والبيان والوعظ والحكمة والإعجاز، وغير ذلك من مختلف المعاني - وبذلك إذا كانت سياقات القرآن في معنى واحد يشبه بعضه بعضا فهو التشابه.

وأما المثاني: فهو جوع مثنى، بمعنى مردد ومكرر لما ثني من قصصه وأخباره وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعيده ومواعظه.

فسياقات القرآن تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين - وكوصف الجنة ثم وصف النار - ونحو ذلك - فهذا من المثاني.

قوله: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} جملة {تَقْشَعِرُّ} صفة لكتاب، أو حال منه، أو مستأنفة - والمصدر اقشعرار، وقشعريرة - والمعنى: أن المؤمنين المتقين إذا سمعوا القرآن وما فيه من القوارع وآيات الوعيد والتهديد وأخبار الساعة وأهوالها أصبهم لفزع وغشيهم من الرهبة والخشية ما تقشعرّ به جلودهم، وتضطرب منه قلوبهم وأبدانهم.

قوله: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} يعني إذا ذكرت آيات الرحمة سكنت قلوبهم واطمأنت، وزال عنها ما كان بها من الفزع والقشعريرة - وليس في الآية أكثر من نعت المؤمنين الخاشعين باقشعرار القلوب والجلود من آيات الكتاب الحكيم ثم سكونهم وطمأنينتهم إلى رحمة الله سبحانه - فلن تنعتهم الآية بالصعق والغشيان كما يفعله أهل البدع وبعض المتصوفة، إذ يُصرعون عند قراءة القرآن، ويفقدون عقولهم ويضربون رؤوسهم الأرض - وذلك ضرب من الابتداع المستهجن الذي يتلبس به المبتدعون الجهال - وهم في ذلك ليسوا بأخشع وأورع من الصحابة الكرام وهم خير جيل أقلّتهُ هذه الغبراء فما كانوا يُصعقون ولا يسقطون وما كانت عقولهم

لتذهب بسماع القرآن - وإنما كانوا يسكنون ويطمئنون وتخشع قلوبهم وتبكي عيونهم وهم حينئذ في غاية التنبه والادكار والتيقظ.

قوله: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ} {ذلكَ}، إشارة إلى الكتاب الذي هو أحسن الحديث، فهو هدى الله يهدي به من يشاء هدايته بتوفيقه للتذكر والتدبر والاعتبار.

قوله: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} يضلل الله من العباد من ساء استعداده وفسدت فطرته فنفر من الحق والهداية - ومن كان كذلك {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} ليس له من أحد غير الله يرشده ويدله إلى الهداية والصواب.

٢٤ - (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}: ذكر الوجه للاتقاء به من سوء العذاب، وهو (الوجه) أشرف الأعضاء في الإنسان، فإن الخاسر الذي يلقى في النار تكون يداه مغلولتين إلى عنقه فلا يستطيع أن يتقي النار حينئذ إلا بوجهه - فمن كان شأنه هكذا وهو اتقاؤه النار وسوء العذاب يوم القيامة بوجهه، ويداه مغلولتان، كمن و آمن لا يصيبه مكروه ولا أذى بل هو ناج مطمئن.

قوله: {وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} معطوف على {يَتَّقِي بِوَجْهِهِ} أي يتقي النار وسوء العذاب بوجهه، ويقال لهم من خزنة جهنم على سبيل التعنيف والتقريع وزيادة في التنكيل {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} أي ذوقوا وبال كسبكم للكفر والعصيان في الدنيا.

٢٥ - (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)

قوله: { كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} يعني أهلك الله القرون الماضية الذين سبقوا هؤلاء بسبب كفرهم وتكذيبهم، إذْ أتاهم عذاب الله فجأة ومن حيث لم يحتسبوا.

٢٦ - (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

{فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أذاق الله المجرمين المكذبين {الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} كالذال ولصغار والمسخ والخسف والقتل والجلاء والتغريق وغير ذلك من وجوه النكال.

قوله: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} ما أعدَّ الله للظالمين الخاسرين يوم القيامة من سوء العذاب والنكال، وشديد البلاء والهوان لهو أعتى وأفظع من عذاب الدنيا - فعذاب الآخرة أليم شديد، ودائم سرمدي لا يزول.

قوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي لو كانوا من أهل العلم والنظر لعرفوا ذلك فاعتبروا به وآمنوا.

٢٧ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

يبين الله للناس آيات بضرب الأمثال {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي ليتعظوا ويعتبروا، فإن الأمثال تُقرِّبُ المعاني إلى الأذهان.

٢٨ - (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

قوله: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} {قرآناً} منصوب على المدح - أو منصوب أو منصوب بقوله: {يَتَذَكَّرُونَ} و {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} في موضع نصب نعت لقوله: {قرآناً} وذلك ثناء من الله عظيم على قرآنه الحكيم، فقد أنزله لله بلسان عربي ظاهر ميسور لا اعوجاج فيه ولا لبس - بل هو واضح وجَلِّي ومستبين - وفيه من الآيات والدلالات والحجج ومختلف الأحكام والأخبار والمعاني ما يعتبر به كل ذي عقل مُدَّكِر.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي يجتنبون الكفر والمعاصي ويحذرون الآخرة، فإن عقابها أليم وشديد.

٢٩ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} {مثلاً}، مفعول لضرب - و {رجلاً} بدل منه، والمراد به عبد {فِيهِ شُرَكَاءُ

مُتَشَاكِسُونَ} أي متنازعون متخاصمون في ذلك العبد المشترك بينهم {وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ} أي سالما له، خالصا من الاشتراك فيه، فلا يملكه أحد غير رجل واحد.

قوله: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} {مثلاً} بمعنى صفة، وهو تمييز - أي هل يستوي هذان الرجلان في حالهما وصفتهما؟! وهو استفهام إنكار واستبعاد لاستوائهما - والمراد من المثل: أنه لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي يعبد الله وحده لا شريك له.

فالمشرك يتيه في ضلاله حائرا بين الشركاء والأنداد، وهي كثيرة ومختلفة وصماء يتخبط الجاهلون في تعظيمها والتخشُّع أمامها - لكن المؤمن الذي أخلص دينه وعبادته لله وحده دون غيره من الشركاء، لا جرم أنه مستقر في سكينته وراحته وطمأنينته.

قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} ذلك تنبيه من الله للموحدين على ما امتنَّ به عليهم من توفيقهم لتوحيده وطاعته - لا جرم أن هذه نعمة جليلة تقتضي دوام الحمد لله تعالى بالخضوع له وعبادته وتمام طاعته.

قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أضرب عن بيان عدم الاستواء بين الرجلين المملوكين إلى بيان أن {أكثر الناس لا يعلمون} أي لا يعلمون الحق، وهم ناكبون عن صراط الله السويِّ وناكلون عن منهجه الحكيم.

٣٠ - (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)

قوله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} وهذه حقيقة راسخة كبرى لا يستيقنها الناس جميعا ولا يملكون الفكاك من تصورها و معاينتها أو التملص والفرار من مقتضاها.

وذلك هو الموت؛ فإنه مصير رهيب متربص سيفضي إليه كل كائن مهما طال أجله أو امتد به العمر - إنما الناس كافة، صغيرهم وكبيرهم، عظيمهم وحقيرهم، عالمهم وجاهلهم، مؤمنهم وكافرهم، سعيدهم وشقيهم – صائرون جميعا إلى النهاية المحققة المشتركة وهي الموت.

٣١ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

قوله: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} يختصم الناس فيما بينهم يوم القيامة أمام لحضرة الإلهية حيث الجلال والكمال والرهبة - وحينئذ يتميز الحق من المبْطل، ويستبين المصلحون من المجرمين والمفسدين - فتحتج أنت يا محمد على قومك بأنك قد بلَّغت فكذَّبوا، واجتهدت في دعوتهم إلى الحق وهم لجّوا في المعاندة، ويعتذرون بما لا يجديهم نفعا - ويقول الأتباع: أطعنا سادتنا وكبراءنا - وتقول السادة والكبراء: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأولون - ثم يفصل بينهم جميعا وهو الفتّاح العليم فينجي الله المؤمنين المتقين ويهلك الكافرين المكذبين.

٣٢ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢)}.

ذلك خطاب من الله للمشركين يتوعدهم فيه ويُندّدُ بهم وبظلمهم، ذلك أنهم تلبسوا بخطيئتين كبريين أولاهما: افتراؤهم على الله الكذب، إذ اتخذوا مع الله آلهة أخرى وزعموا أن لله ولدا - والثانية: تكذيبهم بالحق، إذ جاءهم على ألسنة النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين - وهو قوله: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ} أي لا احد أظلم وأعتى من هذا الذي أضاف إلى الله الولد أو الشريك {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} أي كذّب بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم {إِذْ جَاءَهُ} يعني وقت مجيئه فاجأه بالتكذيب من غير روية ولا تدبُّر ولا نظر - بل كذَّب به وقت مجيئه - ثم توعد الله هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب والذين كذَّبوا بالصدق وهو الإسلام – بجهنم تكون مثوىً لهم فبئس المقام والقرار - وهو قوله: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} وهم الذين افتروا على الله الكذب، إذ نسبوا له الولد وكذَّبوا بالصدق وهو الإسلام.

٣٣ - (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

قوله: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} اختلف المفسرون في المراد بالذي جاء بالصدق وصدَّق به، على عدة أقوال، أظهرها وأسدُّها أن الذي جاء بالصدق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم - والذي صدَّق به المسلمون {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} أي الذين اجتنبوا الشرك والمعاصي.

٣٤ - (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} ذلك بيان من الله عما يسأله هؤلاء الذين ذكرهم الله، وهم الصادقون المصدقون، بأن لهم ما يبتغونه يوم القيامة من النجاة والأمن من الفزع الأكبر وسائر الأهوال يوم القيامة، فضلا عن دخول الجنة.

قوله: {ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} الإشارة عائدة إلى ما ذكر من حصولهم على ما يشاءونه - وذلك كله جعله الله جزاء للمؤمنين المتقين الذين أحسنوا أعمالهم لله.

٣٥ - (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} متعلق بمحذوف - أي وعدهم الله كل ما يشاءون من زوال المضار وحصول المسارّ ليكفر عنهم بموجب ذلك أسواء الذي عملوا والمراد به كفر أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام، وفي قول الجمهور من المفسرين أن {أسوأ} فعل تفصيل - فيكون المعنى: إذا كفّر أسوأ أعمالهم فتكفير ما هو دونه أحرى - وكذلك قوله: {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} فإن أحسن، أفعل تفصيل - أي لينظر إلى أحسن طاعاته فيجزي الباقي في الجزاء على قياسه - وقيل: يُجزون بأحسن ثواب أعمالهم - وقيل: يجزون بأحسن من عملهم وهو الجنة ¹.

٣٦ - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ}.

قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن تعييب آلهتنا وتعييبنا لنسلطنها عليه فتصيبه بخبل وتعتريه بسوء فأنزل الله {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} دخلت الهمزة الإنكار على النفي لتقرير الكفاية وإثباتها - أي هو كاف عبده - وفي إضافة عبده إليه تشريف له عظيم - والمراد بعبده هو رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذلك كقوله: {إنّا كفيناك المستهزئين} أي حفظناك بعنايتنا وكفيناك شرهم وأذاهم.

قوله: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} أي يُخَوفك المشركون بالأوثان - فقد ذكر أن قريشا قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وتصيبك معرتها لتعيبك إياها فزلت وفي رواية: لتكفّنّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبك منها خبل فنزلت - ذلك تصور الجاهليين الضالين، وذلك هو مَبلَغهم من العلم، إذ يظنون أن تماثيل بلهاء من أحجار صماء تصيب أحدا بضُرٍّ أو شر - فقد غفل هؤلاء الموغلون في الضلالة أم الأحجار الموهومة والتماثيل الخرساء المركومة لا تضر ولا تنفع - وكذلك غفلوا عن أن الله يكفي عبده المؤمن فيدفع عنه كل وجوه الشر والمكر.

قوله: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} من لم يكتب الله له التوفيق والهداية فغفل عن أن الله كاف نبيه صلى الله عليه وسلم، راح يخوف بالأصنام الجاحدة الخاوية {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} ليس له من أحد يهديه للحق ويرشده للسداد.

٣٧ - (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

قوله: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} أي من يوفقه الله للهداية والسداد فيوقن أن الله كاف عبده المؤمن وحافِظُهُ من الشرور والمكائد

{فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} ليس من أحد يملك أن يصيبه بسوء أو ضلاله.

قوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} استفهام تقرير، فإن الله جل وعلا غالب لا يغلبه أحد - وهو منيع قوي لا يقهره أحد - وهو سبحانه منتقم لأوليائه المؤمنين من أعدائه الظالمين المجرمين.

٣٨ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

قوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} كان المشركون يعترفون أن الله خالق كل شيء، وهم مع ذلك يشركون به فيتخذون معه الآلهة والأنداد، معاندة ومكابرة وجنوحا إلى ما ألْفَوا عليه آباءهم الأقدمين، إذ يقلدونهم في الضلال والباطل.

قوله: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} الفاء مقترنة بجواب شرط مقدر - أي قل لهم يا محمد – على سبيل التبكيت لهم والتوبيخ: أخبروني إن كانت آلهتكم المفتراة – إن أرادني الله بضُر، من مرض أو فقر أو غيره – يدفعن عني ذلك الضر {أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} أو إن أرادني الله بنفع أو خير هل أصنامكم وأندادكم المزعومة تمسك عني ذلك فيمنعه الله عني - وفي الخبر عن عبد الله بن عباس مرفوعا: " احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعِنْ بالله - واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك - جَفَّت الصحف ورُفعت الأقلام - واعملْ لله بالشكر في اليقين - واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا - وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ".

قوله: {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ} أي اللهُ كافيَّ في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر {عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} إنما يتوكل المؤمنون المتقون على الله وحده - فإنما عليه الاعتماد والتكلان وليس على أحد غيره من المخاليق - فكل شيء من أناسي وجنٍّ وطير وكائنات، مملوك لله - فما ينبغي التوكل والاعتماد إلا على الله.

٣٩ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

قوله: {يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ} المكانة بمعنى المكان، أي اعملوا على حالتكم وطريقتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها، أو اعملوا على حسب تمكنكم واستطاعتكم - والأمر ههنا للتهديد والوعيد {إِنِّي عَامِلٌ} أي على طريقتي ومنهجي - وفي ذلك زيادة الوعيد ما لا يخفى، لما فيه من إشعار بأن حالته تزداد كل يوم قوة، فالله عز وعلا ناصره ومؤيده - وهو قوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وهذا يدل على ثقته صلى الله عليه وسلم بربه وان الله ناصره على القوم الكافرين - ويتبين ذلك من قول سبحانه: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ}.

٤٠ - (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

{مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي في الدنيا حيث الصغار لهم والذل والقتل، فقد كتب الله لرسوله والمؤمنين النصر على أعدائهم المجرمين فرفع الله راية الإسلام وأعزّ شأن المسلمين وأذلَّ لكفر والكافرين فانقلبوا مهزومين خزايا.

قوله: {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} أي عذاب دائم لا يخفف ولا يزول، وهو عذاب النار في الآخرة ٢.

٤١ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ}.
أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الكتاب وهو القرآن - أنزله للناس متلبسا بالحق ليكون هاديا ونذيرا - وليكون رحمة للعالمين، فإنه مناط مصالحهم ومنافعهم في معاشهم على هذه الأرض وفي معادهم يوم القيامة.
قوله: {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} أي من اختار الهدى وسلك سبيل المؤمنين المتقين والتزم منهج الله وشرعه فإنما ينفع بذلك نفسه، إذ يستقيم ويرشد فيكون من الناجين المفلحين في الدنيا والآخرة.
قوله: {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي من زاغ عن صراط الله وتنكّب عن طريقه القويم فتولى مدبرا عن دينه فإنما يبوء بالخزي والخسران ولا يحيق وبال كفره وضلاله إلا بنفسه.
قوله: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} أي لست عليهم بحفيظ فتجبرهم على الإيمان والهدى فما أنت إلا نذير ووظيفتك البلاغ وقد بلغت.
٤٢ - (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
قوله: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} المراد بالأنفس الأرواح وقيل: النفس غير الروح، فالروح لها تدبير عالم الحياة، وأما النفس فلها تدبير عالم الإحساس - وهو قول ابن عباس وغيره - والأظهر أنهما اسمان مترادفان فهما شيء واحد - وإن فراق ذلك من الأجساد يعني موتها وهو تأويل قوله: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلّقها عنها وتلك هي الوفاة الكبرى.
قوله: {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} أي يتوفى الأنفس حين تنام – تشبيها للنائمين بالموتى – وتلك هي الموتة الصغرى التي يُسلبْ فيها النائم القدرة على الإدراك والإحساس والوعي، مع أنه يتنفس، وقلبه خافق ينبض - ويصطلح الباحثون في الدراسات النفسية الحديثة على عبارة اللاشعور، ويسمون ذلك بالعقل الباطن - وذلك شطر أساسي وكبير يجد الإنسان فيه متنفسه أثناء النوم - وهو الشطر الواسع من النفس، الذي تحتشد في خضمّه كل الرغبات المكبوتة للإنسان، والتي عجز الإنسان عن تحقيقها وبلوغها في حال اليقظة أو الشعور فانحشرت جميعها في عالم اللاشعور من نفس الإنسان - وذلك هو الكبت - فما يجد المرء المكبوت بذلك من متسع للتنفيس عن هذه الرغبات المضغوطة المكبوتة إلا في الأحلام عند المنام - ويبقى مثل هذا التحليل للنفس الإنسانية مجرد تصوّر يتخيله الباحثون في علم النفس - وهو تصوّر يحتمل الخطأ والصواب، في حق شطر من الأحلام، لا كلها - فشطر من الأحلام – قلّ أو كثر – ربما كان نتيجة لإحساسات مختلفة من الأفراح والأحزان أو لرغائب محبوسة لم يتيسر لها التحقق والنفاذ، أما أن تُفسَّر الأحلام على أنها كلها تعبير عن رغبات مكبوتة فذلك إسراف في الهوى والخطأ ومجانبة للحق والصواب، وركون للخيال والتخريص الواهم؛ بل الصحيح أن شطرا عظيما من الأحلام لهو تجليات روحية صادقة وارتباط وثيق حقيقي بالملأ الأعلى في السماء - وهذا الشطر من الأحلام سماه النبي صلى الله عليه وسلم بالمبشرات وهي جزء من النبوة الكريمة.
ومن أصدق الاحتجاج لهذه الحقيقة رؤى النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت ما تلبث أن تتحقق وتستبين في الواقع - وكذلك المؤمنون من بعده يرى كثير منهم الرؤى ثم يجدون تفسيرها في حياتهم وقد ظهر تأويلها واضحا لا شك فيه.
قوله: {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} أي يقبضها فلا يردها وذلك هو الموت الحقيقي {وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى} أي يطلق النفس الأخرى وهي النائمة {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي على الوقت المؤجل حتى تموت.
قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} الإشارة، إلى توفّي الأنفس، وفاتين: وهما وفاة الموت ووفاة النوم؛ إذ يمسك الله الأولى بقبضها، وإرسال الأخرى النائمة؛ فإن في ذلك آيات ظاهرة على قدرة الصانع العظيم - وهي آيات مكشوفة يتدبرها أولو العقول السليمة، الذين يُجيلون فيها أفكارهم فيعتبرون كل الاعتبار ٣
٤٣ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ (٤٣)}.

ذلك تنديد من الله للمشركين الذين يعبدون من دونه أصناما لا تضر ولا تنفع، وهي كذلك لا تجدي ولا تشفع - وهو قوله: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ} يعني بل اتخذ هؤلاء المشركون شفعاء لهم، أي آلهة يعبدونها من دو الله" {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ} الاستفهام للإنكار، أي قل لهم يا محمد، أتتخذون هذه الأصنام آلهة شفعاء، وإن كانوا لا يملكون نفعا ولا شفاعة {وَلاَ يَعْقِلُونَ} فهذه أصنام جامدة عمياء لا تعي ولا تفهم.

٤٤ - (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} أي ليس من أحد يملك عند الله الشفاعة إلا من أذن الله له بذلك وكان عند الله مرضيا - و {جميعا} منصوب على الحال من الشفاعة.

قوله: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الله مالك كل شيء، وهو بيده مقاليد السماوات والأرض - فهو حقيق أن يُعبد وحده دون غيره من آلهتكم المزعومة.

قوله: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} يخوّفهم الله بالموت فإنهم جميعا صائرون إلى الله فملاقوه يوم القيامة ليجازيهم بما فعلوه من شرك وعصيان.

٤٥ - (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

قوله: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} {وَحْدَهُ}، منصوب على المصدر - وقيل: على الحال ٤

والمعنى: إذا أُفرد الله وحده بالذكر وقيل: لا إله إلا الله {اشْمَأَزَّتْ} أي انقبضت أو نفرت واستنكرت قلوب المشركين المكذبين بيوم الدين - وذلك هو دأب الظالمين المشركين المكذبين بيوم الدين؛ فإنهم لا يَبَشّون بذكر الحق والإسلام في عقيدته السليمة وتشريعه الكامل

- إنهم إذا ذكر الحق أو الإسلام انقبضت قلوبهم فاغتموا واغتاظوا ونفروا نفورا وذلك لسوء طبائعهم وفساد فطرهم التي أُشربت الشرك والضلال والباطل.

قوله: {وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} إذا ذكرت آلهتهم المزعومة المصطنعة على اختلاف أجناسها ومسمياتها فإنهم يبتهجون بها ويفرحون وتغشاهم غاشية من الهشاشة لفرط ابتهاجهم بتلك الآلهة المكذوبة المفتراة - إن ذلك لهو دأب المشركين الضالين في كل زمان - أولئك الذين يغتاظون بذكر الله وحده أو ذكر دينه الإسلام - لكنهم يفرحون ويَهَشّون بذكر ما ابتدعوه من آلهة مكذوبة أقزام يقدسونها تقديسا ويعبدونها وتعلو وجوههم بذكرها غمرة من البشاشة والسرور - أولئك هم الجاحدون الضالون السفهاء في كل زمان؛ الذين ينفرون جامحين من الحق ويستبشرون فرحين بالباطل ٥.

٤٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)}

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو بهذا الدعاء معلنا فيه وحدانية الله وانفراده بالإلهية والخلق وأنه سبحانه يحيط بكل شيء علما - وهو قوله: {اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق - وأنه سبحانه {عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي لا يخفى عليه شيء وهو سبحانه عليم بالظاهر والباطن ما من شيء إلا هو معلوم لديه وظاهر بين يديه، لا يخفى عليه.

قوله: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أي تقضي بينهم بالحق يوم القيامة فيما كانوا في الدنيا يختلفون فيه من القول فيك وفي عظيم سلطانك وغير ذلك من وجوه الاختلاف.

٤٧ - (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

قوله: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي لو كان لهؤلاء الكافرين المكذبين

مِلكُ ما في الأرض من الأموال والزينة ومثل ذلك معه مضاعفا فقُبل منهم عوضا لينجوا به من العذاب لفدوا بذلك أنفسهم.
قوله: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} أي ظهر لهم يوم القيامة من عذاب الله ونكاله الذي أعده لهم ما لم يكن في حسبانهم ولم يخطر لهم على بال.
٤٨ - (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
قوله: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي ظهر لهم جزاء ما كسبوا من الشرك والمعاصي {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي نزل بهم، أو أحاط بهم جزاء استهزائهم واستسخارهم - فقد كانوا يسخرون من تعاليم الإسلام ويستهزئون بالإيمان بيوم القيامة ٦.
٤٩ - (فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)}.
ذلك هو الإنسان في ضعفه واغتراره وقلة حيلته وهوان عزمه واصطباره، فإنه إذا أصابه ضُر، أي سوء ومكروه من بؤس أو شدة أو فقر أو سقَم أو جزع، بادر بالاستغاثة بالله داعيا إياه أن يدفع عنه ما أصابه من ضرٍّ {ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا} يعني إذا بدلناه بالضُر رخاء وسعة وعافية {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} يعني إنما أعطيت هذه النعمة من الرخاء والخير والسعة والعافية على علم من الله بفضلي وبأني أهل لذلك من أجل شرفي ورضاه عني - أو بعلم علمني الله إياه - أو على علم عندي بوجوه المكاسب وتحصيل الخير.
قوله: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ} أي ما أوتيته في الدنيا من نعمة إنما هو امتحان لك، واختبار اختبرناك به، أو بلاء ابتليناك به.
قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أكثر الناس لا يعلمون أن ما خوَّلهم الله إياه من نعمة المال وزينة الحياة الدنيا، اختبار لهم وابتلاء من الله يبلوهم به - فهم بذلك غافلون عن توحيد الله وشكره، سادرون في الغي والجهالة موغلون في الشهوات وما في الحياة الدنيا من متاع وزينة.
٥٠ - (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
قوله: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} قال هذه المقالة، وهي {أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} المشركون من الأمم الخالية الذين كذبوا رسلهم وسخروا منهم ما جاءوهم به - ومن جملة الظالمين الطاغين الأقدمين قارون - فقد قال مثل هذه المقالة، إذ قال {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}.
قوله: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} {مَّا}، نافية، أي لم تُجْدِهم شيئا أموالهم ومكاسبهم من عذاب لما حاق بهم ولم تنفعهم آلهتهم المزعومة حينئذ بل تخلت عنهم وأَسْلمتهم للتعْس وسوء المصير.
٥١ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)
قوله: {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أصاب الظالمين المكذبين من الأمم السابقة جزاء تكذيبهم وعصيانهم وما عملوه من السيئات، كقارون الذي تولى غرورا واستكبارا فذاق وبال أمره، إذ خسف الله به وبداره الأرض.
قوله: {وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي الذين أشركوا بالله من قومك يا محمد وقالوا هذه المقالة سيصيبهم جزاء كفرهم وما عملوه من سيئات مثلما أصاب الذين من قبلهم من الظالمين من وبال {وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي لا يفوتون الله ولا يسبقونه هربا من عذابه إذا حاق بهم بل إنهم مصيبهم ما أصاب أولئك من شديد الوبال.
٥٢ - (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
قوله: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أو لم يعلم المشركون أنه لا باسط ولا قابض للرزق إلا الله، فهو سبحانه يوسّعه على من يشاء من عباده أو يضيقه عليهم.
قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} الإشارة عائدة إلى بسط الرزق وتقتيره على من أراد سبحانه، فإن في ذلك دلالات وحُججا

لقوم يؤمنون - وقد خص المؤمنين بالذكر، لأنهم أجدر أن ينتفعوا بالآيات والبراهين، وأحرص على الاعتبار والاتعاظ ٧.

٥٣ - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)}. نزلت الآية في أهل مكة، إذ قالوا: يزعم محمد أن من عَبَدَ الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يُغفر له - وكيف نهاجر ونُسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله؟ فأنزل الله هذه الآية - وقيل: نزلت في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة وخافوا ألاَّ يتقبَّل منهم لذنوب سبقت لهم في الجاهلية - وقال ابن عباس: نزلت في وحشيّ قاتل حمزة، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ٨ لا جرم أن هذه الآية أكثر الآيات في الكتاب الحكيم فرحا، لما فيها من إعلان رباني كريم يفيض بالإحسان والفضل والرحمة، فإن فيها بيانا بأن الله غفار لسائر الذنوب عقب التوبة والندم إذا ما اجتُنب الإشراك بالله وهو قوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} وتقنطوا، من القنوط، بضم القاف وهو الإياس من رحمة الله ٩ - وذلك إعلان من الله داوٍ ينادي فيه عباده من الكافرين وغيرهم، الذين أسرفوا على أنفسهم بكثرة المعاصي والذنوب أن يبادروا بالتوبة والإنابة إلى الله - وفيه إخبار منه سبحانه بأنه يغفرُ الذنوب جميعا لمن تاب منها وإنْ كانت مثل زبد البحر - فما ينبغي لأحد بعد هذا الكرم الرباني الفياض، وهذه الرحمة الدافقة الغامرة أن ييأس من رحمة الله فيسْدُرُ في الإياس والعصيان.

وفي عظيم رحمة الله بعباده وبالغ كرمه ولطفه بهم كيلا ييأسوا من رحمة الله روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم " وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كفارة الذنب الندامة " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم ".

وعن عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب (رضي الله تعالى عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى يحب العبد المفتن التواب ".

٥٤ - (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ)

قوله: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} أنيبوا من الإنابة وهي الرجوع إلى الله بالإخلاص أي ارجعوا إلى الله تائبين مخلصين، واخضعوا له وأطيعوا {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ} أي بادروا بالتوبة والإنابة قبل أن يحل عليكم غضب الله وانتقامه فلا تجدون لكم حينئذ من ناصر يستنقذكم من عذاب الله النازل بكم.

٥٥ - (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)

قوله: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} أي اتبعوا ما أمركم به ربكم في كتابه الحكيم واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه فهو أحسن ما أنزل الله إليكم - وذلك من الأوامر والنواهي والأمثال والأخبار والأحكام والعبر والقصص والوعد والوعيد - وقيل: أحسن ما أنزل إليكم هو القرآن، وكله حسن، فقد أنزل الله كتبا وهي التوراة والإنجيل والزبور ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن بكماله وإعجازه وهو ناسخ لكثير من الكتب السابقة فضلا عن صلاحه لكل زمان ومكان بخلاف الشرائع السابقة فما كان يصلح كثير منها إلا لأمة معلومة في أزمان محدودة.

قوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ} أي أطيعوا الله واعبدوه وحده والتزموا ما أمركم به في منهاجه العظيم لكم من قبل أن يفاجئكم عذاب الله، إذ يغشاكم بغتة وأنتم لا تعلمون به.

٥٦ - (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

قوله: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} أن بمعنى لئلا، أو كراهية، أي لئلا تقول نفس - وقد نكَّر النفس، لأن المراد بها بعض الأنفس وهم الظالمون الخاسرون، إذْ يقول الهالك الخاسر يوم القيامة حيث العذاب المباغت الداهم والإياس الكامل {يَا حَسْرَتَا} والأصل: يا حسرتي - ولكن العرب تحوّل الياء ألفا لأنها أمكن في الاستغاثة - ي يا ويلتا ويا ندما {عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} على ما ضيعت من أوامر الله - أو على ما قصرت في طاعة الله {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} أي وما كنت من المستهزئين بدين الله وبكتابه الحكيم وبما جاء به المرسلون وبالمؤمنين.

٥٧ - (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

قوله: {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} أي لئلا تقول نفس أخرى لو أن الله أرشدني للحق فوفقني إليه {لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} أي من الذين يخشونه فيطيعونه فيما أمر ويجتنبون ما نهى عنه وزجر.

٥٨ - (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي تقول عند معاينة العذاب وفظاعة الأهوال: لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من المهتدين الطائعين الذين يعملون الصالحات.

٥٩ - (بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

قوله: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي} {بَلَى}، يأتي في جواب النفي، لأن المعنى: ما هداني الله وما كنت من المتقين، فقيل له {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ} ١٠ أي أتتك آياتي، وهو القرآن بحججه الظاهرة وروائعه العجاب وإعجازه الباهر - أو المراد بالآيات، المعجزات الدالة على قدرة الصانع الحكيم، فأنكرتها وتوليت عنها عاصيا مستكبرا {وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي من الجاحدين لها، المكذبين بها ١١.

٦٠ - (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)}.

{الذين} في موضع نصب، مفعول للفعل {تَرَى} - والجملة الاسمية من قوله: {وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ} في موضع نصب على الحال - وقيل: مفعول ثان ١٢ - ذلك إخبار من الله عن أهوال يوم القيامة وما فيها من شديد القوارع والأفزاع - وحينئذ يكون الناس فريقين - فريق المؤمنين الطائعين المذعنين لله - وفريق المكذبين برسل الله، الجاحدين لدينه، الذين افتروا على الله الكذب والباطل، إذ نسبوا له الولد والشريك وأوغلوا في الضلال والباطل فأولئك تسودُّ وجوههم يوم القيامة مما نزل بهم من غضب الله وانتقامه ومما أحاط بهم من شديد الذعر والإياس.

قوله: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} المتكبرون، هم المعرضون عن منهج الله، المستكبرون عن دينه، الجاحدون لآيات الله ظلما واستكبارا - أولئك يتبوأون مأواهم في جهنم لابثين فيها مقيمين لا يبرحون.

٦١ - (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} أي يجعل الله النجاة من عذاب جهنم للذين اتقوه بطاعته وعبادته وأداء فرائضه واجتناب معاصيه {بِمَفَازَتِهِمْ} أي بفوزهم وسعادتهم، أي أن النجاة يوم القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات وفعل الصالحات.

قوله: {لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ} أي لا يمس المؤمنين المتقين من عذاب جهنم شيء من أذى {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي لا يبتئسون ولا يحزنون على ما فاتهم من زينة الحياة الدنيا ومن مفارقة الأهل والصحب والخلان، فهم صائرون إلى الكرامة الأبدية المثلى والسعادة الكاملة العظمى في جوار الملك الديّان حيث النعيم الواصب المقيم ١٣.

٦٢ - (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)}.

يبين الله لعباده عن بالغ قدرته وعظيم سلطانه فهو خالق الأشياء كلها وهو مالكها ومُدبّرها - وما من شيء في السماوات والأرض إلا هو تحت قهره وملكوته وكلاءته.

٦٣ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} المقاليد بمعنى المفاتيح - وقيل: الخزائن - وقيل: أزمّة الأمور بتشديد الميم، وهي جمع زمام - فالله جلت قدرته هو المتصرف في الكون، القائم بتدبيره وكلاءته، وبيده أزمّته جميعا.

قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الذين كذّبوا بحجج الله وأنكروا دلائله الظاهرة ومعجزاته الباهرة، أولئك هم الذين خسروا حظهم من نعيم الله فخسروا بذلك أنفسهم فكانوا مع الهالكين الغاوين.

٦٤ - (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

قوله: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} غير، منصوب بالفعل {أَعْبُدُ} وتقديره: أعبد غير الله فيما تأمروني - أو منصوب بالفعل {تَأْمُرُونِّي} لأنه يقتضي فعلين ١٤ وذكر في سبب نزولها عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن المشركين السفهاء دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا هم معه إلهه فنزلت {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} يعني أفغير الله من الآلهة المستهجنة المفتراة أعبد بأمركم أيها الجاهلون بالله - فقد وصفهم بالجهل لفرط سخفهم وهوان عقولهم، إذ يعبدون أجساما باهتة فارغة صماء ويذرون رب العالمين خالقهم وخالق آلهتهم المفتراة.

٦٥ - (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} ذلك تحذير من الله لرسوله والمؤمنين من الشرك، إذ يبين فيه أنه أوحى إليك يا محمد وإلى الرسل من قبلك: لئن أشركت بالله ليبطُلنّ عملك فلا تدرك به جزاء ولا أجرا {وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} أي لتكونن ممن يبوء بالهلاك والخسران في الآخرة بسبب الإشراك بالله إن أشركت به شيئا - على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته فالله يعلم أن رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم لا يشرك ولا يقع منه إشراك.

٦٦ - (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

قوله: {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ} {فَاعْبُدْ} أو منصوب، بتقدير فعل ١٥ والمعنى: لا تعبد يا محمد ما أمرك به هؤلاء الضالون المشركون من قومك بل الله فاعبدْ دون أحد سواه من الآلهة المزعومة والأنداد الموهومة {وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} الذين يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من جزيل الخيرات والنعم والفضائل - وفي طليعة ذلك، هدايتهم للإيمان بالله وحده وعبادته دون غيره من الأصنام والشركاء ١٦.

٦٧ - (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

يبين الله أن الكافرين بجحودهم وتكذيبهم لم يقدروه بما هو أهله من التقدير - وهو قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} أي ما عظّموه حق تعظيمه - تعظيم يليق بكماله وجلاله وعظيم سلطانه - لا جرم أن الله حقيق بالطاعة والعبادة وجميل الثناء والشكران - وهو مستوجب الإفراد بالإلهية والربوبية ليكون له وحده كامل الطاعة والإذعان - ومن لم يؤمن بهذه الحقيقة فعصى ربه أو استكبر عن عبادته أو اتخذ معه آلهة أخرى، فما عظّمه بما هو أهله.

قوله: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} {وَالْأَرْضُ}، مبتدأ مرفوع - و {قَبْضَتُهُ} خبر، و {جَمِيعًا}، منصوب على الحال ١٧ أي

الأرض يوم القيامة في إحاطته وملكوته وتحت قدرته وإرادته {وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} {مَطْوِيَّاتٌ} من الانطواء وهو الفناء والذهاب - والمراد باليمين هنا القوة والقدرة - وقيل: مطويات، من الطيِّ وهو ضد النشر - ومطويات بيمينه؛ أي في قدرته - قال ابن عباس في ذلك: ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم.

قوله: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ينزّه الله نفسه ويتعالى علوًّا عظيما عما يشرك به المشركون من اتخاذ الآلهة معه والأنداد ١٨.

٦٨ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)}.

ذلك إخبار من الله عن أهوال القيامة وعما يجري فيها من قوارع وقواصم كونية ترتج من أجلها الأرض والسماوات وتتزلزل من شدتها سائر الخاليق والكائنات ويكشف عن ذلك هذه الآيات المريعة العظام التي تأخذ بالقلوب وتقرع المشاعر والوجدان والأبدان - وهو قوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} وهو قرن هائل، الله أعلم ماهيته وحقيقة تكوينه ومدى حجمه وعظمته - وقد وُكِّل بالنفخ فيه ملك عظيم وهو إسرافيل عليه السلام؛ فإنه قد انتقم هذا القرن منذ خلق - ومازال ينتظر أن يأمره الله بالنفخ إيذانا بالموت والفناء - وهو قوله: {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} وهذه هي النفخة الأولى، وهي نفخة الموت التي تسبق نفخة البعث - وقيل: هذه هي النفخة الثانية التي تأتي عقب نفخة الفزع - وكيفما تكن، فإن هذه النفخة تموت فيها الأحياء كافة وتضطرب بها نواميس الحياة والكون كله ويتبدل كل شيء تبديلا.

قوله: {إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ} واختلفوا في المستثنين من الصعق عقب النفخ - فقيل: المراد بهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت - وقيل: المراد بهم الشهداء؛ فهم أحياء عند ربهم يرزقون - وهم يومئذ لا يفزعون بل هم حول العرش آمنون ساكنون.

قوله: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} وتلك هي نفخة البعث والنشور والقيام من القبور - فإذا وقعت قام الأموات من أهل الأرض والسماء من قبورهم وأماكنهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ينظرون أمر الله فيهم أو ينتظرون ما يفعله الله بهم.

٦٩ - (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} أشرقت بمعنى أضاءت، وذلك حين يبرز الرحمن لفصل القضاء بين خلْقه فتسطع الأرض بنور الله ويغشاها الإشراق والضياء بعدله وقضائه بين العباد بالحق.

قوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} المراد بذلك، الكتب والصحف التي فيها أعمال بني آدم فمنهم آخذ كتابه بيمينه فهو من أهل النجاة ومنهم آخذ بشماله فهو من الخاسرين الأشقياء.

قوله: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} يجاء بالنبيين ليشهدوا على أممهم بأنهم بلّغوهم رسالات الله إليهم - ويجاء كذلك بالشهداء وهم الملائكة ليشهدوا على أعمال العباد من خير و شر - وقيل: المراد بهم الشهداء من الأمم يشهدون للرسل بتبليغ الرسالات - وقيل: هم الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

٧٠ - (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

قوله: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} يعني وفّى الله كل إنسان جزاء عمله من خير وشر {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} الله عليم بما يفعله العباد في الدنيا من الأعمال على اختلافها - وهو سبحانه مجازيهم على كل ذلك يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ١٩.

٧١ - (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}.

ذلك بيان من الله عن حال الخاسرين يوم القيامة وهم يساقون إلى جهنم مذعورين آيسين خزايا وقد أحاط بهم الإياس والفزع وهول المشهد، وأيقنوا أنهم صالوا النار لا محالة - نسأل الله السلامة والنجاة والعافية - وهذا قوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا} {زمرا}، جماعات متفرقة، جمع زمرة، أي يُساقون إلى النار بعنف وشدة فلا يرون حينئذ غير البطش والتنكيل وشديد الانتقام.

قوله: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} إذا وصل هؤلاء الخاسرون جهنم فتحت لهم أبوابها ثم نادتهم الملائكة من زبانية جهنم، القائمين عليها {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} نادوهم بزجر وتعنيف وتنكيل: ألم يأتكم رسل مُبلّغون من جنسكم تعرفون حسن أخلاقهم وكمال صدقهم وأمانتهم {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} أي يتلون عليكم ما أنزل الله إليكم من الكتب والبينات التي فيها هدايتكم ورشادكم {وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} أي يبلغونكم أنكم ملاقوا ربكم في هذا اليوم الرعيب - أو يحذرونكم من فظاعة هذا اليوم العصيب.

قوله: {بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} قالوا مجيبين لخزنة جهنم: بلى جاءتنا الرسل فبلَّغتنا وحذرتنا هذا اليوم ولكن وجب عذاب الله علينا بسبب كفرنا وتفريطنا وسوء فعالنا في الدنيا.

٧٢ - (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

قوله: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} بعد ذلك تقول خزنة جهنم للكافرين الخاسرين: ادخلوا أبوب جهنم السبعة لابثين ماكثين لا تبرحون ولا تخرجون {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي بئس المقيل والمأوى للذين تكبروا على عبادة الله وعلى إفراده وحده بالإلهية فتاهوا وضلوا وعضوا، فبئس حالهم، وبئس مصيرهم.

٧٣ - (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

بعد الإخبار عن سوْق المجرمين الأشقياء إلى جهنم وهم تزجرهم الملائكة زجرا وتدعُّعهم إلى نار جهنم دعّا، ذليلين مذعورين عِطاشا – يخبر عقب ذلك عن السعداء الفائزين، وهم المؤمنون المتقون، إذ يساقون إلى الجنة زمرا، أي جماعة بعد جماعة، أولهم المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم - فالنبيون مع النبيين، والصدِّيقون مع الصدِّيقين، والشهداء مع الشهداء، والعلماء مع نظرائهم، فيساق الجميع مكرمين مبجلين وهم تحفُّهم ملائكة الرحمة من كل جانب حتى يبلغوا الجنة {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} جواب إذا محذوف وتقديره: حتى إذا جاءوها فازوا ونعموا ٢٠ والمعنى: حتى إذا وصلوا الجنة وقد فتحت لهم أبوابها إكراما وتعظيما وتلقتهم الملائكة بالبشرى والسلام والثناء – فازوا فوزا عظيما ووجدوا من البشائر والمسرات وأوجه النعم وطيب العيش والمقام ما لم يخطر على بال أحد - أما إثبات الواو في سَوْق أهل الجنة عند قوله: {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} فقد دل على أن الجنة كانت مُفتّحة قبل أن يجيئها المؤمنون - أما حذفها في سَوْق أهل النار فيدل على أنها كانت مغلقة - وقيل: إنها واو الثمانية - فقد كان من عادة قريش أن يعدّوا من الواحد فيقولون: خمسة ستة سبعة وثمانية - أي إذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية - والمعنى الأول أظهر.

قوله: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} تحييهم الملائكة وهم خزنة الجنة بالسلام والإكرام ويقولون لهم في تودد

ورحمة: طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطابت عاقبتكم وما كتب الله لكم من حسن الجزاء {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} أي ماكثين فيها، لابثين لا تخرجون ولا تبرحون.
٧٥ - (وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} ذلك وصف لحال الملائكة إذ يُحدِقون من حول العرش العظيم يسبحون بحمد ربهم فيعظمونه ويمجّدونه ويذكرونه ذكرا مستديما.
قوله: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أي قضى الله بين عباده بالعدل والصدق {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذه شهادة حق ينطق بها الكون كله بما فيه من مختلف الخلائق والكائنات والأجناس على أن الله له الحمد والثناء وهو المستحق لبالغ الشكر والتقديس والإذعان ٢١.

٤٠ سورة غافر:

سورة غافر:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية، وهي في جلال شأنها وعظيم قدرها، فياضة بالمعاني والأخبار والعبر، حافلة بألوان الترهيب والتحذير والتذكير مما فيه موعظة بالغة ومزدَجَر - ويأتي في طليعة ذلك كله بيان كريم بصفة الله جل وعلا على أنه {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}.
وفي السورة إخبار عن الأمم السابقة الذين نكلوا عن دين الله، وآذوا النبيين الذين أرسلوا إليهم وهمّوا بقتلهم.
وفي السورة تذكير بأهوال يوم القيامة، يوم التلاق؛ إذ تتلاقى الخلائق في يوم عصيب بئيس، فظيع الكرب، شديد الزحام؛ إذ الناس فيه مضطربون وجلون مذعورون.
وتتضمن السورة إنباءً عن قصة فرعون وظلمه وطغيانه وتجبره وفساده في الأرض - إن ذلكم شقي أثيم أسرف في الكفر والعتو وهَمَّ بقتل موسى عليه السلام لولا أن تجرجر ذلك الطاغوت خاسئا مدحورا غريقا وقومه المجرمون في البحر.
وفي السورة لون من ألوان التخاصم والتلاوم في النار بين الكبراء المضلين والأتباع الضالين - وثمة إعلان رباني داوٍ بأن الله ينصر رسله والذين آمنوا معهم في هذه الحياة ويوم يقوم الأشهاد.
وفيها تحضيض كريم من الله على الدعاء - لا جرم أن الدعاء ضرب عظيم من ضروب العبادة التي تكشف عن شديد الإخلاص لله وصادق الإنابة إليه.
إلى غير ذلك من البراهين والعبر وألوان الإنذار والترهيب والتخويف والذكر ما فيه موعظة لكل متدبّر مدَّكر.
١ - (حم)
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قوله تعالى: {حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ}.
{حم}، من فواتح السور - وهي وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم ما يراد بها.
٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)
قوله: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ} أي أن القرآن منزّل من عند الله، فهو ليس من صنع بشر ولا يقدر أن يعارضه إنس ولا جن - و {الْعَزِيزِ} معناه القوي القاهر الذي لا يغلبه أحد - وهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء، فقد أحاط بكل شيء علما.
٣ - (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

قوله: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} {غافر} {وقابل} و {شديد}: نُعوت للفظ الجلالة - وقيل: مجرورة على البدل ١ و {غَافِرِ الذَّنْبِ}: أي لمن قال لا إله إلا الله - أو يستره على أوليائه - و {وَقَابِلِ التَّوْبِ}: أي من الشرك والمعاصي - و {التَّوب}: مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب توبة وتوبا - وقيل: جمع توبة {شَدِيدِ الْعِقَابِ} لمن لم يقل لا إله إلا الله، أو للعصاة غير التائبين.

قوله: {ذِي الطَّوْلِ} أي ذي النعم - واصل الطول: الإنعام والتفضّل - وقيل: المن.

قوله: {لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} الله وحده المعبود، لا شريك له - إليه تصير الأمور كلها فإليه يرجع المآب.

٤ - (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ)

قوله: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} الجدال معناه الخصام - والمراد ههنا: الذي يخاصم في تكذيب آيات الله، وذلك هو الجدال بالباطل ابتغاء الطعن في دين الله أو تنفيذ آياته ودحضها، وإطفاء نور الله سبحانه، وذلك هو ديدن الأشقياء المضلين في كل زمان - أولئك الذين يخاصمون في آيات الكتاب الحكيم أو في دينه العظيم سواء في ذلك عقيدة الإسلام أو تشريعه أو ما ارتبط به من القيم والأحكام والمعاني والأخبار والسِّيَر، فالأشقياء من المتربصين والحاقدين والمتعصبين يكيدون للإسلام بالطعن في أحكامه وآياته ومقاصده وتاريخه، يريدون بذلك تشويه الإسلام لينفر منه الناس نفورا ويزهدوا فيه ويجتنبوه أيما اجتناب - وذلكم هو خصام المضلين المغرضين في آيات الله - وذلك بخلاف الجدال في آيات الله من أجل إيضاح ما التبس منها أو أشكل، ولتفنيد ما يفتريه المبطلون من خصوم الإسلام على هذا الدين، أو ما كان للبحث عن الراجح والمرجوح أو لتبيين المحكم والمتشابه فمثل ذلك جهاد عظيم في سبيل الله.

قوله: {فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} ينهى الله رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عن الاغترار بتصرف هؤلاء في البلاد فيما يفعلون من التجارب وتحصيل الأرباح وجمع الأموال الكثيرة وما هم فيه من الخير وسعة الحظوظ الدنيوية، فذلك كله متاع صائر إلى زوال ٢.

٥ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)}.

يبين الله في ذلك حال المشركين السابقين من الأمم الغابرة - وأن هؤلاء المشركين الذين جاءوا من بعدهم قد سلكوا طريقهم في الكفر والزيغ عن منهج الله والصَّدِّ عن دينه - وفي ذلك تسلية من الله لرسوله في تكذيب المشركين من قومه له، بأن له أسوة في الذين سلفوا من النبيين، فقد كذبتهم أممهم وتحزّبوا عليهم بالصدّ والجحود وهو قوله: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ} والأحزاب من بعد نوح، كقوم عاد وثمود وغيرهم من المكذبين الذين جحدوا ما جاءهم به المرسلون {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} أي همت كل أمة من هذه الأمم الجاحدة برسولهم المبعوث فيهم لهدايتهم {لِيَأْخُذُوهُ} أي ليأسروه أو ليحبسوه ويعذبوه أو ليقتلوه.

قوله: {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} أي خاصموا رسولهم بغير حق، بل خاصموه بالشرك والضلال والتكذيب {لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} أي ليزيلوه - وذلك هو ديدن المشركين المكذبين في كل زمان، إذ يصطنعون الحجج الفاسدة والمخاصمة الشريرة ليبددوا دعوة الحق والهدى وليزيلوا منهج الله من الأرض أو ليُلبِسوه على الناس إلباسا فيظل في أذهانهم مشوّها مستهجنا.

قوله: {فَأَخَذْتُهُمْ} أي أهلكت هؤلاء المخاصمين المبطلين بالعذاب {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} أي فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به - ألم يروا أنه حق وأنه شديد - وأنتم تمرون على مساكنهم وأرضهم فتعاينون أثر التدمير والعقاب.

٦ - (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

قوله: {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} الكاف في اسم الإشارة صفة لمصدر محذوف - وحقت بمعنى

وجبت ولزمت، أي مثل ذلك الوجوب من العقاب وجب على الكافرين كونهم من أصحاب النار ٣
والمعنى: وكما وجب إهلاكهم في الدنيا بالاستئصال بسبب كفرهم وجدالهم بالباطل وجب إهلاكهم وتعذيبهم بالنار يوم القيامة.
٧ - (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

قوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} {الذين} مبتدأ، وخبره {يُسَبِّحُونَ} والجملة مستأنفة وقد تمَّ من قبلها الكلام - وهي مسوقة تأنيسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له - والمعنى: أن الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن – هذا البناء الهائل المذهل – وكذلك الملائكة الذين من حول هذا العرش، هم جميعا يسبِّحون بحمد ربهم؛ أي ينزهونه عن النقائص والعيوب وهم يحمدونه على أنعمه {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي يسألون الله للمؤمنين المغفرة.

ثم يبين الله كيفية استغفار الملائكة للمؤمنين، فإنهم يستغفرون لهم قائلين {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} {رَحْمَةً وَعِلْمًا} منصوبان على التمييز، أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ٤.

قوله: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} يسألون التوبة للتائبين من الشرك والمعاصي والمتبعين سبيل الحق وهو الإسلام {وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} يسألون الله أن يصرف عن المؤمنين المتقين عذاب الجحيم - والمراد بالجحيم، النار الشديدة التأجّج - وكل نار بعضها فوق بعض ٥.

٨ - (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ} يسألون الله أن يدخل المؤمنين المتقين جنات عدن - وهي دار النعيم الدائم والإقامة الأبدية {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} يسألون الله أن يدخل الجنة مع المؤمنين، من كان صالحا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم - وذلك من الصلاح وهو الإيمان بالله إيمانا صحيحا صادقا مقترنا بصالح الأعمال والطاعات - ومن كان كذلك فقد صلح لدخول الجنة - وتلكم هي غاية السعادة والهناء والحبور، وهي أن يفوز المرء بالجنة حيث الإقامة الأبدية السَّرْمَدية ومعه أهله وأحباؤه الصالحون من الوالدين والزوجات والأولاد - لا جرم أن هذا هو الفوز الأكبر والقرار الأعظم الكريم.

قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} يعني القوي القاهر الذي لا يُغْلَب، والحكيم في أقواله وأفعاله وتدبيره.

٩ - (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} يسألون الله أن يصرف عنهم جزاء السيئات والمراد بها صغائر الذنوب، أو كبائرها المتوب عنها.

قوله: {وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ} يعني من تصرف عنه جزاء السيئات يوم القيامة أو تحفظه من العذاب {فَقَدْ رَحِمْتَهُ} غشيته برحمتك الواسعة ونجيته من العذاب وجزيته الجنة {وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} الإشارة إلى ما تقدم من تجيتهم من العذاب وإدخالهم الجنة؛ فإنه هو الجزاء الكريم الذي لا يعدله في الحسن والكمال جزاء ٦.

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)}.

المَقْتُ: أشد الغضب - وهنا يبين الله حال الخاسرين في النار وما يغشاهم من التعْس والتعنيف والتوبيخ ومقت الله إياهم، حتى إنهم أنفسهم يمقتون أنفسهم - فقد قال المفسرون: لما رأى الكافرون أعمالهم يوم القيامة ونظروا في كتاب أعمالهم وأدخلوا النار فعاينوا العذاب الشديد مقتوا أنفسهم بما أسلفوه من سوء الفعال وقبيح الأعمال.

وحينئذ ينادون وهم في النار: لَمَقْتُ الله إياكُم في الدنيا أشدُّ من مقتكم أنفسكم اليوم - وهذه زيادة في التنكيل بالمكذبين الخاسرين وقد طرحوا في النار جزاء نكولهم عن دين الله - وقيل: معناه، لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض.

قوله: {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ} منصوب بمقدر، وتقديره: اذكروا حين تدعون ٧ وذلك تعليل لمقتهم بما قدموه من الكفر وسوء الفعال؛ أي واذكروا حين دعائكم إلى الإيمان بالله فتجحدون وتكذبون وتأبون إلا الشرك والباطل.

١١ - (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

قوله: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} {اثْنَتَيْنِ}، نعت لمصدر محذوف، أي أمتنا إماتتين وأحييتنا إحياءتين اثنتين - والمراد بالإماتتين، خَلْقهم أمواتا أولا، إذ كانوا نُطفا لا روح فيها، ثم إماتتهم عند انقضاء آجالهم بعد أن كانوا أحياء في الدنيا - وأما المراد بالإحياءتين: الإحياءة الأولى في الدنيا، ثم إحياءة البعث.

قوله: {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا} ذلك اعتراف منهم بذنوبهم بعد أن عاينوا عذاب النار وأيقنوا أنهم مكبكبون في الجحيم، فقالوا: اعترفنا بما أسلفنا من الذنوب والسيئات في الدنيا من تكذيب وإشراك وتلبُّس بالسيئات والمعاصي - يقولون ذلك وقد غشيهم من الندامة والحسرة ما غشيهم وهم حينئذ موقنون أنهم لا ينفعهم الاعتراف أو الندم.

قوله: {فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} يعني هل من سبيل إلى خروج لنا من النار ورجوع إلى الدنيا - ذلك هو تمنِّي الخاسرين يوم القيامة عند معاينة العذاب، وذلك لفرط ما يصيبهم من الذعر، وفرط ما يحيط بهم من شدة البأس والقنوط.

١٢ - (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

قوله: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} الإشارة عائدة إلى ما هم فيه من الفزع والعذاب والقنوط - وذلك سببه أنكم إذا دُعيتم إلى عبادة الله وحده كفرتم وأعرضتم عن دينه وأشركتم معه غيره من الأصنام والأنداد.

وهو قوله: {وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} وقوله: {وحده} منصوب على أنه مصدر في موضع الحال ٨.

قوله: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} الحكم حينئذ لله وحده دون غيره؛ فهو وحده الذي حكم عليكم بالخلود في النار، وأنكم في العذاب السَّرْمد ماكثون لا تخرجون وهو سبحانه {الْعَلِيِّ} المتعالي عن الشركاء والأنداد - وهو الكبير، له الكبرياء في عظمته وجبروته وبالغ قدرته وسلطانه ٩.

١٣ - (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ)

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (١٣)}.

يبين الله للناس علامات قدرته البالغة وأنه الصانع المقتدر الحكيم - ومن آياته الدالة على ذلك: الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحو ذلك.

قوله: {وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا} المراد بالرزق ههنا، المطر؛ فالله يأتي بالرزق بسبب المطر.

قوله: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ} أي ما يتعظ وما يعتبر بآيات الله الكثيرة الدالة على عظمته وتوحيده وتفرّده في الخلْق إلا من خشع قلبه لله ورجع عن الشرك والعصيان إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته.

١٤ - (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

قوله: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} يخاطب الله المؤمنين الطائعين من عباده الذين صلحت نفوسهم واستقامت فطرتهم فيأمرهم بالإيمان به وحده مخلصين له العبادة المبرأة من الشرك {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} أي اعبدوا الله وحده واخلصوا له الطاعة والعبادة وابتغوا مرضاته في القول والعمل ولو كره الكافرون ذلك - ودأب الكافرين الحقد وكراهية الحق، والصدّ عن منهج الله - الكافرون على اختلاف أهوائهم ومللهم ودياناتهم يكرهون الإسلام والمسلمين، وهم يغتاظون ويحنقون أيَّما حَنَق أن يروا في المسلمين إخلاصا لربهم واستمساكا بعقيدتهم أو التزاما حقيقيا لشريعة الإسلام - من أجل ذلك ينبه الله عباده المؤمنين لكي يبادروا طاعته والتزام منهجه وأن لا يعبئوا بما يُكنه الظالمون من الكافرين والمنافقين والمتربصين من الكراهية لهم.

١٥ - (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ)

قوله: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} {رفيع}: مبتدأ، وخبره: {ذو العرش} ويجوز أن تكون {رفيعُ} و {ذُو الْعَرْشِ} خبرين لمبتدأ محذوف، أي هو رفيع الدرجات، وهو ذو العرش ١٠ والمعنى: أن الله رفيع الشأن والسلطان، عظيم الجلال والمقام - والمراد بذلك: التنبيه على رفعة شأنه وعلو سلطانه وأنه سبحانه مالك العرش وخالقه ومدبره.

قوله: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} المراد بالروح: الوحي - وقد سمي روحا بما يتنزل به من آيات الله التي تثير في الناس الهداية والنور وحسن التوجه إلى الله بعد أن كانوا موتى لا خير فيهم ولا حياة - أو لأن الناس يَحْيَوْنَ بالوحي من موت الكفر كما تحيى الأبدان بالأرواح، فالله يُلقي ذلك {مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} يُلْقِي الله وحيه بقضائه وحكمه – على النبيين المصطفين الذين يختارهم من عباده.

قوله: {لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ} وذلك يوم القيامة، إذْ تتلاقى فيه الخلائق كافة - وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض في المحشر.

١٦ - (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

قوله: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ} بدل من قوله: {يَوْمَ التَّلاقِ} وقيل: يوم منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر ١١ وبارزون: أي خارجون من قبورهم، فهم ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمةٍ أو بناء عال، فالأرض بارزة بهم، لأنها قاع مستوية صفصف - وحينئذ يحشرون عراة لا يسترهم شيء من ثياب أو غواش ولا ينفعهم شيء إلا الإيمان وعمل الصالحات.

قوله: {لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} ذلك بيان من الله لعباده أن الناس بارزون يوم القيامة لا يحجبهم ولا يسترهم شيء ولا يخفى منهم على الله شيء، بل هم ظاهرون مكشوفون، مستبينون لله في أقوالهم وأعمالهم.

قوله: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} ينادي يوم القيامة منادٍ بذلك - وذلك إذا هلك أهل السماوات والأرض فليس حينئذ من حيٍّ موجود إلا الله الخالق الموجد - وقيل: قائل ذلك هو الرب سبحانه وليس حينئذ من مجيب، بل الله وحده يجيب نفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} الملك لله وحده، فهو سبحانه له ملكوت كل شيء وليس له في ذلك شريك ولا نديد - وهو سبحانه القوي الغالب الذي لا يقهره أحد بل هو القاهر الجبار، المنتقم من الظالمين والخاسرين والأشرار.

١٧ - (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

قوله: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} قائل ذلك هو المجيب وهو المنادي في الأظهر - وذلك نداء رعيب ومزلزل من الواحد القهار يعلن فيه للخلائق أن كل نفس إما تُجزى بما عملت من خير وشر وأنه {لا ظُلْمَ اليَوْمَ} ليس من ظلم البتة - ولا يحيق بأحد جور فما الله بظلام للعبيد.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} الله سبحانه يقضي بين العباد في الآخرة سريعا وهو يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد من غير إبطاء في ذلك ولا إنظار، إذ لا يشغله حساب عن حساب - وهو سبحانه لا يحتاج إلى تفكُّر في القضاء بين الخلْق أو تدبُّر كالذي يحتاج إليه القضاء من العباد - بل الله خبير مقتدر لا يعزّ عليه فعل ما يشاء وهو أسرع الحاسبين.

١٨ - (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

قوله: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ} {يوم} مفعول به، أو ظرف - و {الْآزِفَةِ} بمعنى القريبة من أزف الشيء أي قرب ١٢ والمراد بالآزفة: القيامة، سميت بذلك لقربها - وأزفت الآزفة أي قربت الساعة - وقيل: المراد بالآزفة يوم حضور الموت - والمعنى الأول أظهر وأولى بالصواب - وحين تقوم الساعة تضطرب القلوب وتذل النواصي ويشيب من فرط الهول الولدان.

ويأتي وصف الرحمن للساعة على أكمل وأروع ما يكون عليه البيان المؤثر النافذ إلى أعماق القلوب وذلك في قوله: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} {كَاظِمِينَ}، منصوب على الحال، أي مغمومين مكروبين ممتلئين غمّا - والمعنى: أن قلوب الظالمين الخاسرين يوم القيامة

تزول عن مواضعها من شدة الخوف ومن فظاعة المشهد المرعب حتى تصير إلى الحناجر - ومفردها حنجرة - وقيل: إن ذلك إخبار عن فظاعة الخوف ونهاية الشدة والذعر.

قوله: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ} الحميم، القريب المحب أي ليس للخاسرين يوم القيامة حيث الفزع والإياس واشتداد الهول، من قريب مشفق محب ينفعهم، ولا ذو شفاعة يطاع في شفاعته لهم.

١٩ - (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

قوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} الله يعلم مسارقة النظر إلى ما لا يحل لنظر إليه، أي يعلم الله الأعين الخائنة - وقيل: المراد النظرة بعد النظرة - والمعنى الأول أولى بالصواب لشموله، فالله – جل وعلا – يعلم ما تسترقه الأنظار مما لا يحل النظر إليه مما فيه انتهاك لحرمات المسلمين واطلاع على أستارهم وعوراتهم وهو ما يفعله أهل الرِّيب {وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} الله عليم بما تكنه قلوب الناس من خفايا، فإنه سبحانه عليم بالأسرار والنوايا، إذ يستوي لديه الظاهر والباطن.

٢٠ - (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

قوله: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ} الله جل وعلا يقضي بين عباده بالصدق والعدل - وهو سبحانه لا يحيف في قضائه وليس لعدله البالغ المطلق أيما نظير.

قوله: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} يعني ما تعبدونه من آلهة مصطنعة مفتراة لا تقضي بشيء - وذلك من باب التهكم بهم لفرط سفاهتهم وجهالتهم، فإن ما يعبدونه من أصنام صماء لا يوصف بالقدرة وليس من شأن هذه المعبودات المفتراة أن تقضي -

قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ذلك تقدير لوصفه سبحانه بأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالله عز وجل يسمع ما تنطق به الألسن من كلام مسموع أو خفي - وهو سبحانه بصير يرى ويعلم ما يجري في الوجود من أحداث وأشياء - وفي ذلك من الوعيد والتهديد ما لا يخفى ١٣.

٢١ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١)}.

الاستفهام للتوبيخ والتعنيف لهؤلاء المشركين الخاسرين - والمعنى: أو لم ير هؤلاء المشركون في أسفارهم للتجارات ما حلَّ بالأمم الظالمة المكذبة من قبلهم من سوء العاقبة - فقد أتاهم من الله العذاب والتدمير والاستئصال - وتلك مساكنهم الخاوية وآثارهم الدوارس تدل على ما نزل بهم من الإهلاك والإبادة - وقد كانوا أشد من هؤلاء المشركين قوة وذلك في كثرة الأعداد والأموال وشدة البأس - وكانوا كذلك أشد منهم آثارا - والمراد بالآثار، الحصون المنيعة، والقصور الحصينة وغير ذلك من وجوه الآثار التي تدل على قوة الأمم السابقة وأنهم أشد بأسا من هؤلاء المشركين - وهم مع شديد قوتهم وبأسهم وظاهر منعتهم، فقد أخذهم الله بعقابه بسبب كفرهم بالله ورسله وصدهم عن دين الله - وهو قوله: {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} دمَّر الله عليهم وأهلكهم بشركهم وما تلبسوا به من الذنوب والمعاصي - وما كان لهم من أحد يدفع عنهم البلاء أو يقيهم مما حلَّ بهم من عقاب الله.

٢٢ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا} لقد كان سبب إهلاكهم وتدميرهم أنهم جاءتهم رسل الله يبلغونهم دعوة ربهم وينذرونهم لقاء الله يوم البعث ويحذرونهم الكفر والنكول عن منهج الله {فَكَفَرُوا} جحدوا ما أتتهم به رسل الله وأعرضوا عن الحق وأبوا إلا التلبُّس بالشرك وعبادة الأصنام واتخاذ الآلهة المفتراة المزعومة من دون الله {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ} أهلكهم بعقابه {إِنَّهُ قَوِيٌّ

شَدِيدُ الْعِقَابِ} الله القوي الغالب، المنيع الجناب، يأخذ الظالمين المجرمين بعقابه الشديد ١٤.
٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}.

ذلك بيان من الله عن المستكبر الخاسر فرعون - هذا الطاغوت العاتي الذي طغى في البلاد وأكثر في الأرض الفساد وزعم لنفسه من الصفة المفتراة ما يزلزل القلوب لفظاعته وشدة إجرامه ونكره، إذ ادعى لنفسه الإلهية - وذلكم غاية الطغيان والعتوّ والكفران، وأشنع ما يصخ الأسماع من شنيع الاجتراء والظلم.

يُبيّن الله حال هذا المتجبّر العُتُلِّ الذي عتا عن أمر الله واستكبر عن دينه وكذَّب رسوله وآذى المؤمنين من بني إسرائيل أفظع إيذاء من غير ذنب ولا جريرة - وهو قوله سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أرسل الله رسوله موسى عليه السلام بالآيات البينات من عنده إلى فرعون وهامان وقارون وجنودهم لهدايتهم وتبليغهم {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} وهو الحجة الظاهرة والمراد به هنا المعجزات الحسية المنظورة التي لا ينكرها إلا مكابر جهول أو مستكبر غاشم.

فكذب بها فرعون وقومه الطغاة {فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} سموا الحجة الصادقة والمعجزة الباهرة سحرا وكذبا، ورموا النبي وكليمه موسى بأنه ساحر كذاب.

٢٤ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]
قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}.

ذلك بيان من الله عن المستكبر الخاسر فرعون - هذا الطاغوت العاتي الذي طغى في البلاد وأكثر في الأرض الفساد وزعم لنفسه من الصفة المفتراة ما يزلزل القلوب لفظاعته وشدة إجرامه ونكره، إذ ادعى لنفسه الإلهية - وذلكم غاية الطغيان والعتوّ والكفران، وأشنع ما يصخ الأسماع من شنيع الاجتراء والظلم.

يُبيّن الله حال هذا المتجبّر العُتُلِّ الذي عتا عن أمر الله واستكبر عن دينه وكذَّب رسوله وآذى المؤمنين من بني إسرائيل أفظع إيذاء من غير ذنب ولا جريرة - وهو قوله سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أرسل الله رسوله موسى عليه السلام بالآيات البينات من عنده إلى فرعون وهامان وقارون وجنودهم لهدايتهم وتبليغهم {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} وهو الحجة الظاهرة والمراد به هنا المعجزات الحسية المنظورة التي لا ينكرها إلا مكابر جهول أو مستكبر غاشم.

فكذب بها فرعون وقومه الطغاة {فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} سموا الحجة الصادقة والمعجزة الباهرة سحرا وكذبا، ورموا النبي وكليمه موسى بأنه ساحر كذاب.

٢٥ - (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلَالٍ)

قوله: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا} لما جاءهم موسى برسالة التوحيد ودين الحق من عند الله استكبروا وعتوا عتوا وقالوا في طغيان ولجوج: {اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ} أمر قومه وجنوده المجرمين وجنوده المجرمين بقتل أبناء بني إسرائيل واستبقاء بناتهم - وهذا قتل آخر غير القتل الأول الذي أمر فرعون بإنزاله ببني إسرائيل بعد أن أنذرته الكهنة بزوال ملكه على يد مولود من بني إسرائيل - وذكر عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله في ذلك: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولا - يريد بذلك أن هذا القتل غير القتل الأول.

قوله: {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ} أي أن كيد هؤلاء الطغاة المجرمين ومكرهم الظالم ببني إسرائيل؛ إذْ قتلوا أولادهم الذكور واستحيوا نساءهم، إنْ هو إلا عبث لا يغنيهم وهو باطل لم يُجْدهم نفعا ولم يدفع عنهم قدر الله بهلاكهم مغرقين في البحر - وبذلك قد ذهب كيد فرعون وانقضى فكان ضربا من المكر الخبيث الضائع الذي لا يغيِّر قدرا لله مسطورا في علمه القديم - ومضت سنة الله بتدمير الباطل وأهله واستعلاء الفئة المؤمنة المستضعفة من بني إسرائيل.

٢٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ)

قوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} كانوا إذا همّ فرعون بقتل موسى كفّوه ع ذلك وقالوا له: ليس هذا ممن تخافه فهو أضعف من ذلك، وما هو إلا ساحر لا يقاومه إلا مثله - وإنْ أنت قتلته أدخلت على الناس الشبهة واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة - والظاهر أن فرعون كان يعلم أن موسى نبي وأن ما جاء به لهو معجزات وما هو بسحر، فكان خائفا من قتله مع رغبته في ذلك لهول الجزع - وكان اللعين مُحبّا للقتل وسفك الدماء.

قوله: {وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} يدل على خوف فرعون من موسى لكونه نبيّا، وهذا من تمويهاته؛ إذ يُظهر لقومه قلة احتفاله به فيوهمهم أنهم هم الذين يكفونه - والصواب أنه ما كان يكفّه إلا ما في نفسه من شديد الفزع.

قوله: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ} ذلك تعليل فاسد لقتل موسى وهو زعْم فرعون: إني أخاف أن يغيّر ما أنتم عليه من دين، وقد كانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام.

قوله: {أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} أي أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه أو يفسد عليكم دنياكم بإشاعة الفتن بينكم وبين والاقتتال الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المعايش ويهلك الناس.

٢٧ - (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

قوله: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} لما سمع موسى عن حديث فرعون بقتله قال مستعينا بالله مستعيذا من ظلم الظالمين وشر الأشرار {إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ} إنما ألجأ إلى الله وحده وأعتصم به متوكلا عليه {مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} أي من كل ظالم مستكبر عن الإذعان لله مكذب بيوم القيامة - وذلكم أشد الجرائم نكرا - فإذا اجتمع في الرجل الطغيان والتجبر والظلم والتكذيب بيوم البعث فقد استجمع أسباب الكفر والفساد والشر - وذلك الذي عليه فرعون من الجحود والفسق والاستكبار والغفلة عن شدائد اليوم الآخر.

وكذلك غيره من الطغاة والعتاة والمتجبرين في كل زمان - أولئك الذين يكفرون بدين الله الحق، ويصدون عن منهجه القويم ويثيرون في الأرض الخراب والفساد بإشاعة الكفر والإلحاد والإباحية وتدمير القيم والأخلاق ومقتضيات الفطرة السليمة.

أولئك هم شياطين البشرية في كل زمان - وأولئك هم الأخسرون الأذلون الأشقياء حَصَبُ جهنم ووقود النار ١٥.

٢٨ - (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

قوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ}.

الظاهر أن الرجل المؤمن كان قبطيّا من آل فرعون وقد آمن بموسى سرّا - وقيل إنه من بني إسرائيل وكونه قبطيّا أولى بالصواب.

وقوله: {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} صفة لرجل.

قوله: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} الاستفهام للإنكار والتعنيف الشديد وأن يقول، يعني كراهية أن يقول ربي الله، فقد أنكر عليهم الرجل المؤمن عزمهم على قتل موسى لقوله: {رَبِّيَ اللَّهُ} والمعنى: أتفعلون هذه الفعلة الفظيعة الشنعاء وهي قتل نفس مؤمنة محرمة دون علي أو سبب إلا قول كلمة الحق ودعوتكم إلى توحيد الله وعبادته وحده - وقد استدرجهم هذا المؤمن إلى الاعتراف بنبوة موسى عليه السلام لتليين قلوبهم القاسية وكسر سَوْرَتِهم الجامحة وترغيبا لهم في الإيمان بالله ورسوله.

قوله: {وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} بيَّن لقومه جملة البراهين من المعجزات الظاهرة التي جاءهم بها موسى فشاهدوها وعاينوها - وهي تشهد بصدق رسالته وأنه مبعوث أمين قد جاءهم برسالة الحق واليقين من عند الله.

قوله: {وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ} احتج عليهم بأن هذا الذي جاءكم يدعوكم إلى دين الله، لا يخلو من كونه كاذبا أو صادقا، فإن كان كاذبا فإنما يعود ضرر كذبه عليه {وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} يعني إن تعرضتم له بالسوء يصبكم بعض الذي يعدكم، فقد ذكر {بعضُ} مع تقديره أنه نبي صادق في كل ما يقوله، وهو يبتغي بذلك أن يسلك معهم سبيل المناصحة والبرهان بما يبين لهم أنه لا يتعصب لهذا الرجل فيكون ذلك أقرب إلى تسليمهم له وقبولهم به.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} لا يجعل الله الهداية والتوفيق للذي يشتط ويفتري الكذب، ومن كان كذلك لا يستقيم أمره بل إن الله خاذله ومهلكه - أو لو كان ذا إسراف وكذب فيما يقول لما عضده الله بالبينات الظاهرة والمعجزات العجاب - وكذلك قال لهم: {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ}.

٢٩ - (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

{يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ} حال من ضمير {لكم} وفي ذلك ينبههم الرجل المؤمن إلى أنهم في زمامهم أولو مُلك ومنعة وشوكة {ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} يعني أولي بأس وقوة في أرض مصر، عالين فيها على بني إسرائيل - أي لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لعذاب الله وشديد بأسه وانتقامه - وهو قوله: {فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا} يحذّرُ قومه بأس الله وأليم عقابه وانتقامه فإنه إن نزل بهم فلا طاقة لهم بدفعه أو احتماله وليس لهم من أحد يغنيهم أو يمنعهم من البلاء إن حاق بهم - لكن فرعون ذو طبع غليظ كزّ، وقلب شديد القسوة بور، لا يصيخ لموعظة ولا يرق لعبرة أو نصح - بل ظل موغلا في الجحود والتكذيب والصدّ عن دين الله بالقهر والتجبر فقال: {مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} يعني ما أشير عليكم بما أراه وهو قتل موسى ولا أستصوب غير قتله - وما تقولونه أنتم خلاف ذلك فهو غير سديد {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} يعني ما أدلكم برأيي هذا إلا سبيل الصواب والسداد ١٦.

٣٠ - (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}.

قال الرجل المؤمن لقومه ناصحا محذرا إياهم {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} أي مثل أيامهم التي غشيهم فيها من الانتقام ما غشيهم - وفي ذلك إشعار لهم بأنه يحب لهم الخير والنجاة ويخشى عليهم مما يسيئهم أو يكرهونه - والمراد بالأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم الكافرة الضالة؛ فقد كان لكل حزب منهم يوم دمار أهلكهم الله فيه؛ فمرة هلك قوم نوح بالطوفان، ومرة أهلك عادا بالريح العاتية، وكذلك أهل ثمود بالصيحة، وأهلك الذين من بعدهم من الضالين الخاسرين - وهو بذلك يحذر قوم فرعون مما حاق بأولئك السابقين ويخوفهم نزوله بهم لكي ينزجروا عن طغيانهم وباطلهم، فيفيئوا إلى الحق والصواب بعبادة الله وحده لا شريك له.

قوله: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} أي أن تدمير أولئك الظالمين، وأخْذَهم بالعقاب والانتقام كان عدلا من الله؛ لأنهم استوجبوا ما نزل بهم من الانتقام الشديد بسبب كفرهم وعتوهم وإيغالهم في الضلال والباطل وصدهم عن دين الله.

وما يريد الله سبحانه ظلما لعباده.

٣١ - (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}.

قال الرجل المؤمن لقومه ناصحا محذرا إياهم {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} أي مثل أيامهم التي غشيهم فيها من الانتقام ما غشيهم - وفي ذلك إشعار لهم بأنه يحب لهم الخير والنجاة ويخشى عليهم مما يسيئهم أو يكرهونه - والمراد بالأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم الكافرة الضالة؛ فقد كان لكل حزب منهم يوم دمار أهلكهم الله فيه؛ فمرة هلك قوم نوح بالطوفان، ومرة أهلك عادا بالريح العاتية، وكذلك أهل ثمود بالصيحة، وأهلك الذين من بعدهم من الضالين الخاسرين - وهو بذلك يحذر قوم فرعون مما حاق بأولئك السابقين ويخوفهم نزوله بهم لكي ينزجروا عن طغيانهم وباطلهم، فيفيئوا إلى الحق والصواب بعبادة الله وحده لا شريك له.

قوله: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} أي أن تدمير أولئك الظالمين، وأخْذَهم بالعقاب والانتقام كان عدلا من الله؛ لأنهم استوجبوا ما نزل بهم من الانتقام الشديد بسبب كفرهم وعتوهم وإيغالهم في الضلال والباطل وصدهم عن دين الله.

وما يريد الله سبحانه ظلما لعباده.

٣٢ - (وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

قوله: {وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} أي التنادي؛ وهو تصايحهم بالويل والثبور، من هول العذاب وفظاعة التحريق في النار وقرئ بالتشديد وهو أن يندَّ بعضهم من بعض - كقوله سبحانه: {يوم يَفِرُّ المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه} وقيل: إذا سمعوا زفير النار

ندّوا هربا فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا، فبينما هم يموج بعضهم في بعض، إذ سمعوا مناديا: أقبلوا إلى الحساب.

٣٣ - (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

قوله: {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} تولون منصرفين فرارا من موقف الحساب، أو فارّين عن النار غير معجزين - فكيفما توليتم أو أدبرتم أو فررتم هربا من العذاب فلستم بخارجين من ملكوت الله وسلطانه {مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} ليس لكم من أحد يعصمكم من بأس الله إ نزل بكم، ومن شديد عقابه إن أحاط بكم.

٣٤ - (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

قوله: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ} يوسف: هو نبي الله ابن يعقوب عليهما الصلاة والسلام، فقد وبخهم الله توبيخا، إذ بيّن لهم أن يوسف قد أتاكم من قبل بالمعجزات فشككتم فيها وارتبتم وما تزالون شاكين مكذبين ما جاءكم به من عند الله حتى إذا مات {قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً} وذلكم قولكم بأفواهكم من غير حجة لكم فيه ولا برهان، إلا أنكم جامحون للظلم والضلال وتكذيب المرسلين.

قوله: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} الكاف في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي مثل هذا الإضلال أو الخذلان يخذلُ الله كل مسرف في عصيانه وعتوه، مرتاب في دينه لحق المنزل عليه من عند الله.

٣٥ - (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

قوله: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ}، مسرفا واحدا بل يريد كل مسرف - ويجوز رفع {الذين} على الابتداء ١٧.

والمعنى أن جدال المكذبين الجاحدين الذين يخاصمون في آيات الله بغير حجة ولا برهان {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} فاعل {كَبُرَ}، هو الضمير العائد على {من هو مسرف} وقيل: راجع إلى مصدر الفعل المتقدم وهو قوله: {يجادلون} وتقديره: كبر جدالهم مقتا عند الله وعند الذين آمنوا أي يمقته الله ويبغضه أشد البغض وكذلك الذين آمنوا يمقتونه ويبغضونه - ويراد بذلك التعجب ولاستعظام لجدالهم بغير حق ولا برهان إلا العناد والرغبة في الباطل.

قوله: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} أي مثل ذلك الختم على قلوب المسرفين المرتابين والذين يجادلون في آيات الله بالباطل والهوى، يختم الله على كل ذي قلب مستكبر عن الحق، متجبِّر لا يلين بحجج الله وآياته.

وقرئ (قلبٍ)، بالتنوين، فوصف بالتكبر والتجبر، لأنه مركزهما ومنبعهما ١٨.

٣٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ)

قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ}.

يخبر الله فرعون، هذا الطاغوت المتجبر العاتي، إذ قال لوزيره الأثيم هامان على سبيل التجبر والتكبر والغرور {ابْنِ لِي صَرْحًا} والصرح معناه القصر العالي المنيف من الآجر المضروب من الطين المشوي.

٣٧ - (أَسْبَابَ السَّموَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ)

{لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ} {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ} بدل من {الْأَسْبَابَ} أو عطف بيان له ١٩ و {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ} أي طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها - فكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه وذلك كالرشاء ونحوه.

والفائدة من تكرير الأسباب تفخيم شأنها، والتأكيد على أنه قصد أمرا عظيما.

قوله: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} جواب الأمر في قوله: {ابْنِ لِي} فنصب بأمن مضمرة بعد الفاء ٢٠ والمعنى: فأنظر إلى إله موسى - وهذا من فرط طغيانه وبالغ عتوه وتمرده {وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} أي في كونه نبيا وفي زعمه الإلهية لغيري.

قوله: {وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ} الكاف صفة لمصدر محذوف، أي ومثل ذلك التزيين والصد عن سبيل الله {زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ} فقد زيّن له الشيطان بوسوسته سوء فِعاله من الكفر والاستكبار وفرط الغرور وزعمه أنه إله - فقد كان عاتيا متجبرا مضلاًّ، إذ صد عن سبيل الحق، سبيل الله المستقيم.

قوله: {وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ} التباب، الهلاك والخسران أي ما يكيده فرعون لدين الله بالصد وللمستضعفين بالقهر والإذلال، إنما مصيره الخسران ولن يدفع عنه ذلك من ينتظره من سوء المصير، في الدنيا حيث التغريق الشنيع، وكذلك في الآخرة حيث النار وبئس القرار.

٣٨ - (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ}.

دعا الرجل المؤمن قوم فرعون إلى استماع نصحه لهم وإلى طاعته فيما دلَّهم عليه {أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} أي أسلكم في طريق الحق ولهداية والنجاة.

٣٩ - (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

ثم وضّح لهم ذلك بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأن الإخلاد إلى الدنيا أو الركون إليها أصل الشر كله - فقال: {إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ} إنها متاع يتلهّى به الناس فيغفلون عن دين الله ويزيغون عن سبيله المستقيم ليسلكوا سبل الضلال والباطل فيبوءون بسخط الله وغضبه ثم يصيرون بعد ذلك إلى النار {وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} ذلك تعظيم لشأن الآخرة فإنها الدائمة الباقية التي لا تفنى ولا تزول - وهي المستقر الذي لا يتغير ولا يتحول.

٤٠ - (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

قوله: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا} يحذر الله عباده من فعل المعاصي فإنها سبيل الهلاك والخسران، وإنه لا يجزي المسيئون منن جزاء السوء إلا بمثل إساءتهم؛ لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة ظلم وما الله بظلام للعبيد.

قوله: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ} ذلك ثناء من الله على عباده المؤمنين، وفيه تحريض لهم على الإيمان وفعل الطاعات والصالحات التي تفضي بهم إلى الجنة - فما يبادر المرء للإيمان والطاعة إلا جوزي خير الجزاء من الله سواء كان المبادر ذكرا أو أنثى - على أنه يشترط لصحة العمل وقبوله أن يكون العامل مؤمنا، وهو قوله: {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} فإنما الإيمان الصحيح سبيل القبول والنجاة ولن تغني العاملين أعمالهم إن لم يكونوا مؤمنين.

على أن جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات {الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} بغير تقدير، لفرط كثرته وزيادته - بخلاف السيئة فإن جزاءها مثلها بغير زيادة.

٤١ - (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

قوله: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ} كَرَّر نداء قومه زيادة في تنبيههم وإيقاظهم من الغفلة - وفي ذكر قومه ما يكشف عن شدة حرصه على إيمانهم وخلاصهم، وعلى تَحَزُّنه لهم وتلطفه بهم عسى أن يتعظوا ويبادروا الإيمان والإذعان لله؛ إذ يقول لهم: {مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ} في مقابلة دعائي لكم أن تسلكوا سبيل الرشاد فتحظوا بالنجاة والجنة، أنتم تدعونني إلى خلاف ما أدعوكم إليه - تدعونني للكفر والباطل، وهما السبيل إلى النار.

٤٢ - (تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

وقد بيَّن سبيل النار بقوله: {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}

والمراد بنفي العلم، نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله - وما ليس بإله كيف يصح أن يُعلم إلها؟.

قوله: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} أدعوكم إلى عبادة الله وحده وهو القوي القاهر الذي يغفر الذنوب ويسترها وإنْ كانت كثيرة، فهو وحده الإله المقتدر المستحق للعبادة والإذعان دون غيره من الشركاء والأنداد ٢١

٤٣ - (لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

قوله تعالى: {لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)}

سياق لا جرم: أن تكون لا، ردًّا لما دعاه قومه من إشراك بالله - وجرم بمعنى حق ووجب؛ أي حق ووجب بطلان دعوته - ويجوز أن يكون لا جرم، نظير لابد - من الجرم وهو القطع، فكما أنك لابدّ لك أن تفعل - والبُدّ من التبديد الذي هو التفريق - ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا؛ فكذلك لا جرم معناه: لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام {أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الْآخِرَةِ} أي أن الذي تدعونني إليه من الأصنام والشركاء ليس له دعوة إلى نفسه قط، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته - وما تدعو إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، أو لا يجيب داعيه في الدنيا ولا في الآخرة؛ فهو في الدنيا جماد لا يستطيع شيئا من دعاء أو غيره، وفي الآخرة يتبرأ من الدعاء ومن عبدته.

قوله: {وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ} نحن جميعا صائرون إلى الله يوم القيامة، محشورون بين يديه لملاقاة الحساب والجزاء {وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} المراد بالمسرفين، المشركون المكذبون بيوم الدين - وقيل: هم الذين غلب شرهم خيرهم - فأولئك يصار بهم إلى النار لتكون لهم مستقرا ومقاما.

٤٤ - (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

قوله: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ} أي سوف تتذكرون يوم القيامة إذا عاينتم العذاب، ما أقوله لكم اليوم من النصح والتبليغ ودعوتكم للإيمان ومجانبة الشرك والباطل {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ} توعده المشركون الظالمون بالإيذاء والاعتداء فسلم أمره إلى الله بتمام التوكل عليه، والركون إلى جنابه المنيع الذي لا يُغلب ولا يقهر.

قوله: {اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} الله سبحانه مطلع على أفعال العباد وأقوالهم وأسرارهم وما تخفيه صدروهم؛ فهو سبحانه لا تخفى عليه الخوافي ولا تعزب عن علمه الغيوب والأسرار.

٤٥ - (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

قوله: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} أي حفظه الله من شدائد مكرهم وسوء كيدهم وتربصهم وما هموا به من إلحاق العذاب بمن خالفهم في شركهم وباطلهم وذلك عقب نصحه لهم ودعوته إياهم إلى عقيدة التوحيد ثم توكّله على الله حق التوكل.

قوله: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}

٤٦ - (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

نزل فرعون وملئه المجرمين الظالمين عذاب من الله شديد وهو {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}
{النَّارُ} بدل من سوء العذاب - أو خبر لمبتدأ محذوف - تقديره: هو النار، فهم يعرضون عليها - وعرضهم عليها معناه إحراقهم بها {غُدُوًّا وَعَشِيًّا} أي يعرضون على النار بحرقهم ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قال لهم خزنة جهنم {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} يعني عذاب جهنم - وهذه الآية مما استدل به أهل السنة على عذاب القبر، ويعزز هذه الحقيقة من السنة ما أخرجه الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق " ٢٢.

٤٧ - (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ)

قوله تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧)}.

{إِذْ} منصوب بإضمار فعل تقديره اذكر ٢٣ يعني: واذكر وقت يتحاجّون في النار، أي يتخاصمون ويتجادلون وتُنْحِي كل فئة باللائمة على الأخرى أنهم هم الذين أضلوهم وفتنوهم عن الحق فيقول الضعفاء الأتباع وهم المقلدون الخائرون من الناس – للسادة والكبراء الذين كانوا متبوعين في الدنيا {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} جمع تابع، أي كنا لكم أتباعا أو خدما فتتبع خطاكم في الأقوال والأفعال، إذ نعبد ما تعبدون ونصنع ما تصنعون {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} أي هل أنتم دافعون عنا جزءا من عذاب النار - يقولون ذلك في حال من الهوان الكامل والاستيئاس المطبق.

٤٨ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

والتابعون والمتبوعون جميعا يعلمون – وهم في النار – أنهم غير قادرين على دفع العذاب عن أنفسهم أو غيرهم - وهو قوله: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا}

أي كلنا في النار فنحن وإياكم معذبون ولا يغني أحد منا عن أحد شيئا - يقولون ذلك وهم آيسون من الرحمة أو تخفيف العذاب، موقنون بأنهم ماكثون في النار لا يبرحون - وذلك هو حكم الله وقضاؤه - وهو قوله: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} أي قضى بينهم وبينهم وفصل بأن أدخل المؤمنين الجنة، والخاسرين النار.

٤٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ)

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} خزنة جهنم: هم الملائكة الموكلون بعذاب الكافرين والعصاة - والمعنى: أن أهل النار من الخاسرين المعذبين يصطرخون جميعا وهم في النار، إذ ينادون الخزنة القائمين على النار مستغيثين أن اسألوا الله أن يكف عنا عذاب جهنم ولو يوما واحدا.

٥٠ - (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ)

ثم تجيبهم ملائكة النار الخزنة {أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} استفهام توبيخ وتعنيف وإلزام للحجة وإشعار بعدم الجدوى من التذلل والندامة، فقد مضى وقت التضرع والدعاء، إذ كانت الدنيا زمانا لذلك فهي دار اختبار وابتلاء وعمل وتبليغ، فقد بعث الله فيهم رسله يبلغونهم دعوته وينذرونهم لقاء يومهم هذا فأعرضوا وجحدوا واستكبروا فإذا نقضت الحياة الدنيا ووقعت الواقعة فحينئذ لا ينفع العمل أو الدعاء ولا تجدي الضراعة والتوبة.

قوله: {قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا} أقروا بتفريطهم وخطيئتهم، إذ جحدوا نبوة المرسلين وكذبوا بما جاءوهم به - فقالت لهم الملائكة على سبيل التهكم والتيئيس زيادة في التنكيل بهم {فَادْعُوا} أي ادعوا أنتم أن يخفف عنكم شيئا من العذاب فإن لا نجترئ على مثل هذا الدعاء {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ} لا يستجاب للكافرين في النار دعاء - وأيما دعاء لهم حينئذ إنما هو ضرب من اليأس والعبث وهو صائر إلى البطلان والخيبة ٢٤.

٥١ - (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)

قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)}.

ذلك إخبار من الله ووعد صِدْق، ووعدُهُ حق ولن يخلف الله وعده، فإنه جل وعلا ينصر عباده المرسلين الذين أرسلهم للناس هداةً منذرين، وينصر الذين آمنوا معهم من عباده الطيبين المتقين - ينصرهم الله جميعا في الدنيا، إذ يجعل لهم الغلبة والاستعلاء والهيمنة - أو يكتب الله لدينه الظهور والشيوع والانتشار - وذلك نصر من الله، إذ يوفق الله عباده للإقبال على دينه الحق - الدين المبرأ من الشرك والزيف والضلال - وهو الذي بني على التوحيد وإفراد الله وحده بالإلهية والربوبية والحاكمية والإذعان لجلاله بالخضوع والاستسلام، وذلكم هو الإسلام الذي اجتمعت على أركانه وقواعده الثوابت كلمة النبيين والمرسلين جميعا - أولئك الذين اجتمعوا على التوحيد وعبادة الله وحده دون غيره من الأرباب والأوثان والأنداد على اختلاف صورها ومسمياتها.

فإذا كتب الله لدينه الظهور والشيوع والانتشار فلا جرم أن يكون ذلك نصرا عظيما من الله كتبه لرسله والذين آمنوا معهم، وذلك في الحياة الدنيا، سواء كان هذا النصر في حياتهم أو عقب مماتهم وغيابهم عن هذه الدنيا - وبذلك لا ينبغي أن يقال: إن بعض النبيين عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيي وزكريا وشعيبا.

ومنهم من خرج من بين أظهرهم: إما مهاجرا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى ابن مريم، فأين النصرة في الدنيا؟ فالمراد بالنصر هو الانتصار لهم ممن أذاهم سواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم فإن الله منتقم لعباده المؤمنين ممن آذاهم وظلمهم فيأخذهم بالنوازل والنقم جزاء اعتدائهم على أنبياء الله والمؤمنين - وإذا أخذ الله قوما بسبب ظلمهم وطغيانهم وعدوانهم على المسلمين فلا جرم أن يكو أخْذُه أليما شديدا، وأن ينتقم من الطغاة والمستبدين والمجرمين أفظع انتقام، فضلا عما يكتبه الله لدينه الحق، دين التوحيد – من الشيوع والظهور والانتشار.

قوله: {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} {الأشهاد} يجوز أن يكون جمع شهيد - وأن يكون جمع شاهد ٢٥ والمراد بهم الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب، وأما الحفظة فيشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال في الدنيا - وحينئذ تكون النصرة من الله لرسله والمؤمنين أجلَّ وأعظم.

٥٢ - (يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

قوله: {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} بدل من قوله: {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} أي يوم القيامة حيث الإياس والحسرات والفزع وشهادة النبيين والملائكة على الناس بأعمالهم – لا يقبل الله من المشركين والظالمين الخاسرين عذرا بل إنهم صائرون لا محالة إلى النار.

قوله: {وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} يلحق المجرمين يوم القيامة اللعنُ من الله وهو الإبعاد والطرد من رحمته وفضله {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} أي لهم بئس المنزل والمقام في النار.

٥٣ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى} أي ما يهتدي به من النبوة والمعجزات والشرائع {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} {الكتاب} اسم الجنس، أي أورثناهم التوراة والإنجيل والزبور وقيل: جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وخزائنه وأرضه بصبرهم على دين الله واتباعهم رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام.

والأظهر المعنى الأول ويعززه قوله: {هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

٥٤ - (هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)

{هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} {هُدًى وَذِكْرَى}، منصوبان على المفعول لأجله أو على الحال - والمراد: أن فيما أورثه الله بني إسرائيل من الكتاب، إرشادا وتذكرة لأولي العقول المستنيرة - العقول التي لا تميل صوب الهوى ولا تجنح للباطل، بل تتدبر وتفكر تفكيرا سليما

مستقيما.
٥٥ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ)

قوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} ذلك تحريض من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم على الصبر على البلاء واحتمال المكاره وما يضعه الظالمون والمشركون في طريقه من أسباب الصد والأذى، فإن الله مُنجزٌ له ما وعده من النصر والغلبة وظهور دينه الإسلام.

قوله: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} استغفر الله لذنب أمتك {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} أمره الله بالديمومة على عبادته والثناء عليه - أو أن يقول: سبحان الله وبحمده - وذلك بالعشي أي أواخر النهار وأوائل الليل - {والإبكار} أي أوائل النهار وأواخر الليل - وقيل: عبّر بالطرفين وأريد جميع الأوقات.

٥٦ - (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} ذلك تنديد من الله بالمشركين الظالمين الذين يخاصمون في آيات الله وهي كتبه المنزلة من عند الله وما فيها من أحكام وأخبار وأدلة ومعجزات {بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} أي يخاصمون في كل ذلك بغير برهان ظاهر ولا حجة نيّرة - وهذا عام في كل مجادل مُبْطل يخاصم في آيات الله سفها بغير علم ولا حجة {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ} الجملة في موضع رفع خبر {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ} و {إن} نافية، أي ما في قلوب هؤلاء المخاصمين الذين يحاجّون بالباطل إلا الغرور والاستكبار عن الحق وعن التعلم والاستفسار وطلب المعرفة - أو هو إرادة الرياسة أو أن تكون لهم النبوة دون رسول الله صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا من عند أنفسهم.

قوله: {مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} أي ما هم ببالغي موجب كبرهم وما يقتضيه وهو متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من طمع في الرياسة أو النبوة - وقيل: المعنى ما يحملهم على تكذيبك يا محمد إلا ما في صدورهم من الكبر عليك، وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله قد أذلهم وأخزاهم.

قوله: {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} أي احْتَمِ بالله والتجئ إليه من كيد الذين يحسدونك ويبغون عليك - والله جل وعلا يسمع ما تقولون ويقولون - وهو كذلك بصير بكم وبما تفعلون ويفعلون، لا يخفى عليه من ذلك شيء - والله جل جلاله ناصرك ومؤيدك وعاصمك من كيد الظالمين والمتربصين والحاقدين ومكرهم ٢٦.

٥٧ - (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٧)}.

ذلك تنبيه من الله على حقيقة كونية مذهلة، وهي زوال الدنيا وفناء العالمين وقيام الساعة ليقوم الناس للحساب والجزاء - وهذه حقيقة أساسية مركوزة في صميم العقيدة الإسلامية، بل هي ركن أساسي ركين أجمعت عليه الأديان السماوية كافة وجاء بها النبيون والمرسلون - فما يكذّب بهذه الحقيقة الركينة الكبرى إلا كل خاسر ظلوم أو غافل تائهٍ جهول قد أودى بنفسه في الأذلين الأخسرين والله جل وعلا يؤكد على حقيقة القامة تأكيدا، إذ يبين للناس أن بعث العالمين وإحياء الموتى للحساب أمر هين يسر على الله، بل ذلك أهون على الله م خلق هذا الكون الهائل المثير - وهو قوله سبحانه: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} كلا المصدري وهما: خلق السماوات والأرض، وخلق الناس، مضاف لمفعوله، والفاعل محذوف وهو لفظ الجلالة ٢٧ والمعنى: أن خَلْقَ الله تعالى السماوات والأرض أعظم من خَلْقِهِ الناس، لأن الناس بالنسبة إلى السماوات والأرض وما فيهما من الخلائق والأجرام العظام كأنهم لا شيء - والمراد من ذلك: أن من قدر على خلق الخلائق العظام والأجرام الهائلة الجسام لهو أقدر على خلق ما هو دو ذلك مما هو بالغ الهوان والبساطة.

قوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أكثر الناس ضالون غافلون عن هذه الحقيقة المبيَّنة في الآية فهم سادرون في الغفلة والعِماية،

لاهون عن التفكر في جلال الله وفي عظيم شأه وجبروته.
٥٨ - (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلا مَا تَتَذَكَّرُونَ)
قوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} لا يستوي من كان غافلا عن جلال الله وعظيم قدره وعن حقيقة البعث والمعاد، ومن هو مؤمن بأن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، فهو ذو بصيرة يدرك بها الحق والصواب - وبذلك شَبَّهَ المؤمن المستيقن المتذكر بالبصير الذي يمشي مهتديا لا يضل ولا يتعثر.
قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولاَ الْمُسِيءُ} لا: زائدة للتوكيد، لأنه لما طال الكلام بالصلة أعاد معه {وَلاَ} توكيدا ٢٨ والمعنى: أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات محسنون، وخلافهم الكافرون الفجار وهم مسيئون، ولا يستوي الفريقان {قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ} {قليلا} صفة لمصدر محذوف، أي تذكُّرًا قليلا تتذكرون - و {مَّا} صلة زائدة - وذلك هو دأب الإنسان في طول غفلت وكثرة إعراضه عن الحق وسرعة إقباله على الشهوات ومتاع الدنيا.
٥٩ - (إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: {إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا} ذلك إعلان رباني مجلجل يبين الله فيه حقيقة مزلزلة كبرى، وهي قيام الساعة وفناء العالمين - وذلك حدث شامل مذهل، وانقلاب كوني رعيب يأتي على الوجود كله فيحيله إلى يباب صفصف - وهذه حقيقة مسطورة كبرى، وخَطْبٌ جلل رهيب يشهد الله أنه واقع لا محالة {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} أكثر الناس تائهون سادرون في الضلالة، فقد غشيتهم الغفلة وأذهلهم النسيان وأعمتهم الحياة الدنيا بزخرفها وزينتها، وأضلهم الشيطان بتزيينه وإغوائه - وهو قوله: {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} ٢٩.
٦٠ - (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)
قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}.
اختلف المفسرون في تأويل قوله: {ادْعُونِي} وفي المراد بالاستجابة - فقد قيل: ادعوني بمعنى اعبدوني فيكون معنى الآية: اعبدوني أثبكم وأغفر لكم، فالدعاء معناه العبادة ويؤيد هذا التأويل ورود الدعاء في كثير من الآيات بمعنى العبادة - وكذلك سياق الآية هنا وهو قوله بعد ذكر الدعاء {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} وفي ذلك روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الدعاء هو العبادة ".
وقيل: المعنى اسألوني أعطكم - فالدعاء معناه السؤال والطلب.
والصواب: شمول الدعاء للعبادة والسؤال - على أن التوجه إلى الله بالسؤال والطلب لهو ضرب من العبادة، بل إنه أعظم العبادة وأجلُّها - وفي الحديث الصحيح " الدعاء مخ العبادة " ولا يستنكف عن التضرع إلى الله بالطلب أو يستكبر عن السؤال لدفع الشر وتحقيق الخير إلا خاسر أثيم - وهو قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} أي صاغرين ذليلين - وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لم يسأل الله يغضب عليه " ٣٠.
والمؤمن مدعُوٌّ في كل الأوقات أن يستعين بالله فيرتجيه ويسأله مستغيثا به، طالبا منه العون والصون والتوفيق لدفع المكاره والشرور واستجلاب الحسنات والخيرات والمسرات - وليس للمرء أيًّما غنى عن التضرع إلى الله بالدعاء وهو الطلب المكرور المتواصل في كل الأحيان، ليدعوه بقلبه الخاضع الخاشع، ولسانه الذاكر الشاكر من غير أن يستشعر في ذلك ملالة ولا سأما بل يدعو الله ويُلِحُّ عليه في الدعاء والرجاء حتى يقضي له بُغيته إن شاء سبحانه - والله جل جلاله يفيض على عباده المؤمنين المخبتين المتضرعين من واسع ملكوته وعظيم فضله ورحمته ما يقضي به حاجات عباده المكروبين ويكفكف عنهم المكاره والنائبات ويُجَنِّبهم المزالق والعثرات.

٦١ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (٦١)}. يبين الله نعمته على خلقه - وأنعهم كثيرة ومختلفة ومبسوطة في سائر أنحاء السماء والأرض، فهو سبحانه {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} أي خلق الله الليل لعباده من أجل السكينة والاستقرار، إذ يهجعون فيه فيجدون فيه الراحة والطمأنينة عقب السعي والكد والنصب طلبا للأرزاق والمعايش في النهار.

قوله: {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} أي جعله مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتسعوا في طلب معايشكم.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} الله المتفضل على العباد بما أسبغ عليهم من جزيل النعم وعظيم الآلاء {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} أكثر الناس يجحدون نعمة الله عليهم فلا يشكرونه بالطاعة والخضوع وإفراده بالعبادة والإذعان وذلك إما بسبب كفرهم وجحودهم، أو لطول غفلتهم عن ذكر الله وشكره.

٦٢ - (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

قوله: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} يبين الله أنه هو المنعم المتفضل على عباده بما امتنَّ به عليهم من جزيل النعم، فذلكم هو الخالق والمالك والمتفضل الذي لا تنبغي الإلهية والعبادة إلا له وحده دون غيره من المخاليق فهو سبحانه: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}.

قوله: {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي كيف تنقلبون عن دين الله الحق، وتنصرفون عن عبادة الله وحده إلى غيره من الشركاء والأنداد المصطنعين بعد أن تبين لكم من الدلائل أن الله هو الخالق المنعم المقتدر.

٦٣ - (كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

قوله: {كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} الكاف في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك الإفك يؤفك الجاحدون الذين كذبوا بآيات الله واتخذوا من دونه أندادا آلهة مفتراة، والمعنى: مثل ضلالكم عن الحق إلى الباطل وانصرافكم عن عقيدة التوحيد إلى الشرك ضل الجاحدون من قبلكم وانصرفوا عن سبيل الله وعن دينه القويم.

٦٤ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} يعني من فضل الله عليكم أن جعل لكم الأرض مستقرّا ممهدا تعيشون على ظهرها وتسعون في مناكبها لتجدوا فيها معايشكم وأرزاقكم {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} أي رفع السماء فوقكم وزيَّنها بالكواكب ومختلف الأجرام وجعلها في تماسكها العجيب، ومتانتها المكينة، واتساقها المنتظم أية عظيمة تستدلون بها على عظمة الصانع القدير وعلى أنه موجِدُ الوجود.

قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} أي خلقكم في أحسن خلقة وجعلكم في أحسن هيئة من جمال الشكل والمنظر، وبديع السمت والتناسق في الأجزاء والأعضاء والقسمات والمركبات {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} رزقكم من مختلف المطاعم والمشارب ما تنعمون وتتلذذون.

قوله: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} الذي لا تنبغي الإلهية والعبادة والإذعان إلا لجلاله، فهو الخالق المالك المقتدر المنّان.

قوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} تعظم الله وتقدس في عليائه فهو خالق كل شيء وهو مالك ما في العالمين من إنس وجن وغيرهم من أجناس الخلق.

٦٥ - (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} من صفات الله الحياة، فهو سبحانه الدائم الباقي الذي لا يموت - وما من شيء سواه إلا زائل صائر إلى

الفناء - والله سبحانه المتفرد في الإلهية؛ فليس من معبود سواه ولا تصلح الألوهة والعبادة إلا له سبحانه.

قوله: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي أفردوه وحده في الإلهية ولا تتخذوا من دونه شركاء وأندادا - فاعبدوه مخلصين له الطاعة والعبادة؛ فإنه الإله الخالق المالك رب كل شيء وإليه المآب.

قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} لله الثناء الحسن وله وحده الشكر الكامل على ما أنعم به وتفضل؛ فله الحمد والمنّةُ دائمين لا ينقطعان - وفي ذلك روي عن ابن عباس أنه قال: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين - ٣١

٦٦ - (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس: إنني نهاني ربي أن أشرك به شيئا أو أتخذ معه أندادا آلهة مما تعبدونهم أنتم من مختلف الأوثان {لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي} أي جاءني من الله آيات واضحات وهي آيات الكتاب الحكيم، أو دلائل وحجج على وحدانية الله، وأنه المتفرّد بالخلْق والإلهية.

قوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أمرني ربي، وهو رب كل شيء ومالكه والمتصرف بتدبيره – أن أخضع له وحده وأذعن لجلاله بالطاعة والعبادة والإخبات - وهو سبحانه الجدير بالإذعان والاستسلام دون غيره؛

٦٧ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

فهو الإله القادر المتفضل الذي بدأ خلق الإنسان من تراب وهو آدم أبو البشر، ثم خلق نسله من ماء مهين، وهي النطفة؛ أي الماء القليل المهين يكون في الأرحام ثم يصير بعد ذلك علقة، وذلك في حجمها وشكلها من البساطة والهوان، ثم يخرجكم عقب ذلك أطفالا صغارا لا تعقلون شيئا، ثم تبلغون بعد ذلك أشدكم من سن الشباب حيث القوة والمتانة في الجسم، واستكمال الوعي والإدراك والعقل، ثم تصيرون بعد ذلك شيوخا - ومفرد شيخ وهو من جاوز سن الأربعين - ويقال للأنثى شيخة - وذلك كله بتقدير الله وإرادته وتدبيره؛ إذ جعلكم تتقلّبون في هذه المراحل، واحدة بعد أخرى {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ} أي من قبل أن يصير شيخا - أو من قبل هذه المراحل جميعها إذا خرج من بطن أمه سقطًا.

قوله: {وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى} أي لتبلغوا أجلا محدودا لا تجاوزنه ولا تسبقونه وهو الموت؛ فهو مصير كل واحد، لا يستأخر عنه ولا يستقدم.

قوله: {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي بيَّن الله لكم هذه الأخبار عن خَلْقكم؛ إذْ تصيرون خلقا من بعد خلْق سواء في الأرحام أو خارجها، لتتعظوا بذلك وتعتبروا فتوقنوا أن الله حق، وأنه وحده خَليقٌ بالعبادة والطاعة.

٦٨ - (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

قول: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} ذلك تنبيه من الله إلى أن الإحياء والإماتة بيده؛ فهو سبحانه قادر على ذلك وهو بيده مقاليد كل شيء ولا يعجزه صنع شيء.

قوله: {فَإِذَا قَضَى أَمْرًا} إذا أراد أن يخلق شيئا أو يفعل أمرا من الأمور {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} أي يقول للذي يريد تكوينه أو خلْقه {كُنْ} فإنه يكون دون تردد أو تخلف - ودون نَصَب من الله أو معاناة - ٣٢

٦٩ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}.

يندّد الله بالظالمين الذين يُمارون في آيات الله الباطل - وهو قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ} استفهام تعجيب من هؤلاء المشركين المكذبين الذين يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في آيات الله وحججه ودلائله الواضحة - وعن شرعه السديد - وقيل: المراد بهم القدرية - وهم أهل القدر - وهذه فرقة من الفرق الإسلامية كانوا يزعمون أن الإنسان قادر على إتيان ما يفعله.

والصواب أنها في المشركين المكذبين بآيات الله - ويستدل على هذه الآية التي بعدها وهي قوله: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ}

٧٠ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

{الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ} فهم مكذبون بما أنزل إليهم وهو القرآن {وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} أي كذّبوا – مع تكذيبهم بكتاب الله – بما أرسلنا به المرسلين من الهدى والبينات والتبرؤ من الشرك، وإخلاص العبادة لله.

قوله: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وذلك وعيد وتهديد من الله لهؤلاء المشركين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ويكذبون بما جاء به المرسلون.

٧١ - (إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ)

وبيَّن ذلك بقوله: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ} {إذ} ظرف متعلق بقوله: {يَعْلَمُونَ} {وَالسَّلَاسِلُ}، معطوف على {الأغلال} - أي سوف يعلم هؤلاء المكذبون الذين يخاصمون في آيات الله بالباطل عاقبة كفرهم وجحودهم - حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم، مسحوبين.

٧٢ - (فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)

{في الحميم} وهو ما بلغ حرُّه غايته ونهايته {ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} أي يحرقون في النار ويكونون لها وقودا - سَجَر التنور - أي أحماه وأوقده - ٣٣ -

٧٣ - (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

قوله: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ} يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ - أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الشركاء والآلهة المفتراة حتى يستنقذوكم مما أنتم فيه الآن من شديد الوبال والنكال - فأجابوا في استيئاس وحسرة {ضَلُّوا عَنَّا} أي ذهبوا عنا وتركونا في العذاب من غير نصير ولا مجير {بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا} أي ما كنا نعبد في الدنيا شيئا فقد كانت عبادتنا باطلة؛ إذ كنا نعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُغْني شيئا.

قوله: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} أي مثل ذلك الإضلال يضل الله كل كافر به، مكذب بآياته ورسله.

٧٤ - (مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٣]

قوله: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ} يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ - أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الشركاء والآلهة المفتراة حتى يستنقذوكم مما أنتم فيه الآن من شديد الوبال والنكال - فأجابوا في استيئاس وحسرة {ضَلُّوا عَنَّا} أي ذهبوا عنا وتركونا في العذاب من غير نصير ولا مجير {بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا} أي ما كنا نعبد في الدنيا شيئا فقد كانت عبادتنا باطلة؛ إذ كنا نعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُغْني شيئا.

قوله: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} أي مثل ذلك الإضلال يضل الله كل كافر به، مكذب بآياته ورسله.
٧٥ - (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)
قوله: {ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} الإشارة عائدة إلى العذاب؛ أي ذلك العذاب الذي حاق بكم سببه ما كنتم تفرحون به من إتيان المعاصي والسيئات وبكثرة المال والمتاع والزينة؛ إذ كنتم لاهين غافلين عن ذكر الله وهن لقائه {وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ} من المرح وهو شدة الفرح والنشاط ٣٤ والمراد به هنا البطر والأشر.
٧٦ - (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)
قوله: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} يقال لهم حينئذ: ادخلوا جهنم من أبوابها السبعة، لكل باب منها جزء مقسوم منهم.
قوله: {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي بئس منزل المتكبرين عن دين الله ومقامهم في جهنم ٣٥.
٧٧ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)
قوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}.

يدعو الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصبروا - فما من مؤمن إلا هو مدعوٌّ للصبر على البلاء والمكاره - والصبر خصلة عظيمة حميدة من خصال المؤمنين الذين يدعون الناس إلى منهج الإسلام الحق - وهو عدة المؤمنين المتقين؛ إذ تنزل بهم النوائب وتجتاحهم المحن ويعتدي عليهم الظالمون والمجرمون - وههنا يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم آمرا إياه بالصبر وهو قوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي اصبر يا محمد على خصومة المشركين وإيذائهم لك وعلى تكذيبهم إياك فإن الله منجز لك ما وعدك من الغلبة والظهور عليهم وإنزال العقاب بهم في الدنيا والآخرة، ووعد الله حق وصدق ولن يخلف الله وعده.
قوله: {فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} يعني إما {نُرِيَنَّكَ} في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من الانتقام أن يحل بهم - وما، في قوله: {فَإِمَّا} زائدة على الشرط للتأكيد - والأصل: فإن نرك ولحقت بالفعل نون التوكيد {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} معطوف على {نُرِيَنَّكَ} أي نتوفينك قبل إنزال العقاب بهم {فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} أي مصيرهم إلينا يوم القيامة وحينئذ نحكم بينك وبينهم بالحق؛ إذ يكبكبون في النار ويكرمك الله في جنات النعيم.
٧٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)
قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} ذلك إخبار من الله بأنه أرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم رسلا آخرين إلى أممهم - ومن أولئك الرسل من قصَّ الله نبأهم على رسوله، ومنهم من لم يقصص نبأهم عليه - وهم في الحقيقة كثيرون ولا يعرف حقيقة عددهم إلا الله سبحانه - والمراد من هذا الإخبار تأنيس الرسول صلى الله عليه وسلم، وتسليته بما يثبت فؤاده ويزيد من قوة احتماله واصطباره على الأذى والمكاره.
قوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ} أي ليس لرسول من المرسلين أن يأتي قومه بمعجزة من المعجزات أو خارق من الخوارق إلا أن يأذن الله له في ذلك فيتبين أنه صادق {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ} أي إذا جاء الوقت المسمى لإهلاكهم قضى الله حينئذ بالعدل وهو أن ينجي رسله والذين آمنوا معهم {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} وهم أهل الباطل من الظالمين والجاحدين والمكذبين، فإنهم يبوءون بالهلاك وسوء المصير ٣٦.

٧٩ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ}.

يمنُّ الله على عباده أنه خلق لهم الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم {لِتَرْكَبُوا مِنْهَا} أي لتركبوا بعضا منها مما يصلح للركوب {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} أي ولتأكلوا من بعضها مما يصلح للأكل - فالإبل تركب ويؤكل لحما ويحمل عليها الأثقال في الأسفار البعيدة وقطع المسافات النائية - والبقر يؤكل لحمها ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض - والغنم يؤكل لحمها ويشرب لبنها.

٨٠ - (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

قوله: {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} منافع الأنعام كثيرة وقد سخرها الله لعباده لينتفعوا بها كالاستفادة من أصوافها وأشعارها وأوبارها، إذ يُتخذ منها الأثاث واللباس والفراش والزينة.

قوله: {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ} أي لتبلغوا بالحمولة على بعضها وهي الإبل ما لا تستطيعون بلوغه من دونها إلا بشق النفس.

قوله: {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} أي وعلى هذه الإبل وغيرها من الأنعام الحوامل وعلى الفلك وهي السفائن تُحملون أنتم وأمتعتكم وحاجاتكم.

٨١ - (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)

قوله: {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ} أي يريكم الله بما خلق لكم من الأنعام والسفن حججه وبراهينه في الحياة وفي الكائنات لتوقنوا بأن الله حق وأنه الخالق الصانع المقتدر.

قوله: {فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ} أيَّ، استفهام منصوب بقوله: {تُنْكِرُونَ} ٣٧.

٨٢ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}.

ذلك توبيخ وتعنيف لهؤلاء المشركين المكذبين الذين كانوا يخاصمون في دين الله بالباطل وكانوا يكذبون بيوم القيامة، فيقول الله لهم: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}

يعني أفلم يسر هؤلاء المشركون الذين يجادون في آيات الله من مشركي قومك - في البلاد، فهم أهل سفر وتجارات وتجوال {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي فيروا ما حل بالجاحدين من سوء العاقبة حيث البلاء والنكال بسبب كفرهم وتكذيبهم، مع أنهم {كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ} كان المشركون الأقدمون أكثر من هؤلاء عددا وتنفيرا وكانوا أعظم منهم بأسا وقوة في الأجساد والأموال وقد أثاروا الأرض وعمروها، إذْ شادوا فيها المصانع والعمائر والبنيان {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} {مَّا}، نافية، أي لم يغن عنهم ما اكتسبوه شيئا ولا دفع عنهم من بأس الله وانتقامه مثقال ذرة - وقد تكون {مَّا} استفهامية - فيكون المعنى: ماذا أغنى عنهم ما كسبوه من الأموال والخيرات والعمران والقوة حين نزل بهم الهلاك؟!

٨٣ - (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

قوله: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} لما جاءهم المرسلون بالآيات من عند الله، وبالحجج والبراهين الظاهرة {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} {مِنَ} للتبيين، وفيه وجهان: أحدهما، أنه تبيين لقوله: {ما} أي فرحوا بالشيء الذي عندهم من العلم - وثانيهما: أنه تبيين للبينات - والوجه الأول أولى بالصواب ٣٨.

والمراد بالذين فرحوا، الكافرون من الأمم السابقة، فقد أخذهم الغرور والجهالة وظنوا أنهم أولو علم يستغنون به عما جاءهم به النبيون، فلم يلتفتوا إليهم بل كذبوهم وأذوهم وتولوا عنهم مدبرين - وظنوا – واهمين – أنهم مستغنون بعلمهم عنهم - من أجل ذلك أخذهم الله بالعذب والنكال - وهو قوله: {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي نزل بهم، أو أحاط بهم ما كانوا يستهزئون به ويستبعدون وقوعه وهو العذاب.

٨٤ - (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

قوله: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} لما عاينوا وقوع العذاب بهم وأن نقمة الله قد نزلت بهم ولم يجدوا من دون ذلك أيّما ملجأ أو مهرب يفرون إليه أظهروا الإيمان لينجوا به من العذاب وهو قوله: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} آمنوا بالله وحده دو غيره من الشركاء، وكفروا بما كانوا يعبدونه من الأوثان والأنداد.

٨٥ - (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

ومثل هذا الإيمان لا يعني صاحبه ولا ينفعه وهو لا يدفع عن المشركين داهية العذاب الأليم - وهو قوله سبحانه {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} {سُنَّةَ} منصوب على المصدر - وفعله سنّ يسنُّ سنًّا وسنةً.

والمعنى: أن الله قد سنّ في الكافرين، أو حكم فيهم أنه لا ينفعهم الإيمان إذا عاينوا العذاب - وبذلك فإن التوبة عقب رؤية العذاب لا تقبل - وفي الحديث: " إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " وذلكم هو حكم الله في الذي يتوب عند معاينة العذاب، فإن توبته لا قيمة لها.

وقيل: {سُنَّةَ} منصوب على التحذير، أي احذروا سنة الله في إهلاك الكافرين.

قوله: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} إذا نزل العذاب بالكافرين فرأوه وعاينوه أيقنوا حينئذ أنهم خاسرون هلكى وأنهم صائرون إلى العذاب المقيم في النار، فبئس النُّزُلُ والقرار - ٣٩

٤١ سورة فصلت:

سورة فصلت:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية، وعدد آياتها أربع وخمسون - وهي سورة عظيمة تمتاز بكثرة ما حوته من صور الوعيد والتهديد والتخويف والتنذير، فهي ما يتدبرها القارئ ويتلاها حتى تأخذه غمرة من الرهبة والادّكار والوجل، من شدة ما حوته مع بليغ الآيات والعظات والأخبار، وصور التنبيه والتذكير التي تستديم في الذهن والخيال دوام الترقب والخشوع والحذر.

ويشير إلى هذه الحقيقة أبلغ إشارة قصة ذلك العربي القرشي اللسِنِ عتبة بن ربيعة، وهو من أفذاذ البلاغة والبيان، فإنه لدى سماع بضع آيات من مطلع هذه السورة، غشيه من الذهول والفزع ما غشيه حتى مكث ساكتًا مضطربا يتلعثم، مع أنه جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاحدا ومنددا ومحذرا - ثم تولى مدبرا مذعورا من هول ما سمع.

وفي السورة، يقص الله عن نبأ قوم عاد، إذ أعرضوا وجحدوا فأخذهم الله بريح قاصف عاصف مدمّر - وكذلك قوم ثمود الذين ظلموا وطغوا وعقروا ناقة الله فأخذتهم الصيحة والرجفة حتى زلزلوا وهلكوا.

وفي السور إخبار عن شهادة جلود الظالمين الخاسرين، إذ تشهد عليهم بما فعلوه من المعاصي والسيئات، إذ أنطقها الله الذي أنطق كل

شيء.

ويبينُ اللهُ لنا في السورة تمالؤ المشركين على كتابه الحكيم باللغو فيه إذا سمعوه يُتلى كيلا يفهموه ولا يتدبروه - إلى غير ذلك من ألوان التبشير والتنذير والتحذير والوعيد والترشيد مما حوته هذه السورة الحافلة العجيبة.

١ - (حم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: {حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}.

تتضمن هذه الآيات وما بعدها تقريعا وتوبيخا وتهديدا للمشركين الذين أعرضوا عن عقيدة التوحيد وأدبروا عن سماع القرآن وما فيه من العظات والحجج والشواهد والمعاني - مع أنه كتاب نزل ميسورا مفصلا بلغتهم، يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر والظلم والباطل ويبشرهم بخير الدنيا والآخرة {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}.

وقد روي عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرَّق جماعتنا وشتَّت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ماذا يرد عليه فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أن عبد الله؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ - وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، وإنّا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرَّقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا، والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى - أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فرغت؟ " قال نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} حتى بلغ {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندهم غير هذا؟ وفي رواية عن جابر بن عبد الله، إذا ذكر الحديث إلى قوله: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمدا أبدا، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

وأورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثتُ أن عتبة بن ربيعة – وكان سيدا – قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم على محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفَّ عنا؟ - وذلك حين أسلم حمزة (رضي الله عنه) ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون – فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمهُ - فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا

تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قل يا أبا الوليد أسمع " - قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا - وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك - وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده على نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال: " أفرغت يا أبا الوليد؟ " قال: نعم، قال " فاستمع مني " قال: أفعل، قال: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال: " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك " فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة - يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبهُ العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزُّهُ عزكم وكنتم أسعد الناس به - قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ١.

٢ - (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قوله تعالى: {حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {تنزيل} مرفوع من وجهين - أحدهما: أنه مبتدأ، وخبره، كتاب - وثانيهما: أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هذا تنزيل ٢ والمعنى: أن هذا القرآن منزل من عند الرحمن الرحيم - أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}.

٣ - (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

{كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} أي بيِّنت وفُسِّرت فكانت واضحة ظاهرة ميسورة لمن يريد أن يتدبر أو يتذكر.

قوله: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} {قرآنا} منصوب على الحال - ويجوز نصبه على المدح - وتقديره: أمدحُ قرآنا عربيا ٣ والمعنى: أن هذا الكتاب المنزل من عند الله وُضِّحَتْ آياته قرآنا عربيا لقوم عرب يعلمون اللسان العربي فيعجزون عن معارضته - ولو كان غير عربي لما علموه.

٤ - (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)

قوله: {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} منصوبان على الحال، يعني أنزل الله كتابه الحكيم مبشرا لعباده المتقين، بالصلاح في هذه الدنيا وبالسعادة والنجاة في الآخرة - ومنذرا لأعدائه الجاحدين بأنهم صائرون إلى الخسران والهوان {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} أعرض أكثر العرب عن سماع القرآن سماع تدبر، واستفادة فتولوا عنه عصاة مدبرين.

٥ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)

قوله: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} {أكنّة} يعني أغطية والواحد، كنان - كنَّ الشيء أي ستره وصانه من الشمس - وأكنّهُ في نفسه أي أسرَّهُ - واكتنَّ واستكنَّ بمعنى استتر - ٤

قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا القرآن: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي في غلاف فهي مغطاة لا يصل إليها كلامك ولا نفقه ما تقول {وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} أي صمم، أو ثقل فلا نسمع ما تدعونا إليه، وذلك لفرط كراهيتهم للحق ونفورهم من عقيدة التوحيد.

قوله: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} أي بيننا وبينك ساتر أو مانع يحول دون تلاقينا أو اجتماعنا معا - والمراد بالحجاب، اختلافهم في الدين، فدينُ رسول الله صلى الله عليه وسلم التوحيد الخالص لله، وإفراد الله وحده بالإلهية والعبادة والإذعان، ودين الكافرين الإشراك بالله واتخاذ الآلهة الموهومة المفتراة أربابا من دون الله.

قوله: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} أي اعمل على طريقتك ونحن نعمل على طريقتنا - أو اعمل بما يقتضيه دينك فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا ٥.

٦ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}.

أي قل لهؤلاء المشركين من قومك: إني لست بملك بل أنا بشر من بني آدم فأنا مثلكم في الجنس والصورة {يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي أوحى إلي ربي عن طريق الملائكة أنه واحد لا شريك له وأنه المعبود وحده دون سواه من الخالئق {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ} أي توجهوا إليه بوجوهكم وقلوبكم ومقاصدكم، بالطاعة والعبادة والدعاء، فهو الخالق المقتدر الموصوف بصفات الكمال فما تنبغي الألوهية إلا لجلاله وحده {وَاسْتَغْفِرُوهُ} أي اسألوه أن يغفر لكم خطاياكم وما سلف من شرككم، وأن يعفو عن سيئاتكم ومعاصيكم.

٧ - (الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

قوله: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} - ذلك تهديد ووعيد من الله للمشركين المكذبين الذين لا يقرون بوجوب الزكاة في أحوالهم - وهذه خسيسة من خسائس الكافرين في كل زمان، إذ يعظِّمون المال أشد تعظيم ولا يعبئون بغير جمعه وتكثيره والاستئثار به ليحرم من المحاويج والمساكين - فم بذلك أشحة مناكيد يخلون عن بذل المال في وجوه الخير وفي دفع غوائل الفقراء والمعوزين لفرط حبهم للمال والمتاع والشهوات {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} المشركون سادرون في غفلتهم وضلالهم، لاهون عن ذكر الآخرة، لأنهم مشغولون بحطام الدنيا وزينتها فلا يعبئون بأخبار الآخرة ولا يوقنون بها.

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} ذلك وعد من الله لعباده المؤمنين الذين يفعلون الطاعات على اختلاف وجوهها، ومن بينها أداء الزكاة، فإن لهم من عظيم الجزاء في الآخرة ما لا ينقطع ولا يزول وهو قوله: {غَيْرُ مَمْنُونٍ} أي غير مقطوع - من المن وهو القطع، وقيل: النقص ٦.

٩ - (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

همزة الاستفهام للتوبيخ، فقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتوبيخ المشركين والتعجب من فعلهم، إذْ يكفرون بالله البارئ المقتدر الذي {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} أي تكفرون بالله وهو الإله القادر الذي خلق الأرض في يومين، وهو سبحانه أعلم بحقيقة هذين اليومين من حيث مداهما ومدتهما {وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا} الواو، في قوله: {ويجعلون} واو الحال من ضمير خلق ٧ - أي وتشركون معه آلة أخرى وهي أنداد مصطنعة وأرباب موهومة، والله وحده خالقهم ومالكهم وبيده مقاليد كل شيء {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

١٠ - (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)

قوله: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا} الرواسي، الجبال الثوابت الرواسخ، واحدتها راسية - رسا الشيء أي ثبت ٨ وقد ذكر أنه لما خلق الله الأرض مادت واضطربت لخفتها في هذا الفضاء الهائل الشاسع فأرساها الله أي رسّخها وثبتها بالجبال الثقال.

قوله: {وَبَارَكَ فِيهَا} أي بارك الله في هذه الأرض، إذ جعلها دائمة الخير والمنافع لأهلها فقد أخرج منها الماء وأنبت فيها الشجر وجعل فيها الهواء والغذاء وكل أسباب العيش والاستقرار.

قوله: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} أقواتها تعني أرزاق العباد ومعاشهم وما يصلحهم، وما يقتضيه ذلك من الأمطار والأنهار وصلوح الأرض للسعي والزرع، والمراد بأربعة أيام: أي اليومين الأولين المذكورين وبذلك بارك في الأرض وقدّر فيها أقواتها من الأرزاق والخيرات والمعايش في تتمة أربعة أيام - قال القرطبي مثالا على ذلك: ومثاله، قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشرة يوما - أي في تتمة خمسة عشرة يوما.

قوله: {سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} {سواء} منصوب على لمصدر بمعنى استواء وتقديره: استوت استواءً، ويقرأ مرفوعا، على أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هي سواءٌ - والقراءة المشهورة هي النصب - ٩

والمعنى: في أربعة أيام مستوية تامة - وقيل: قدّر أقواتها سواء للمحتاجين - وقيل: خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل.

١١ - (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} أي عمد إلى خلقها، وقصد لتسويتها - وقيل: صعد أمره إلى السماء {وَهِيَ دُخَانٌ} والمراد بالدخان ههنا بخار الماء، وهكذا كانت السماء في أول نشأتها - كانت طبقات كثافا من بخار الماء قبل أن يبرد وييبس ويصير أجراما سماوية مختلفة الأشكال والأحجام، وقد ذكر الباحثون في علوم الطبيعة أن الكون كله كان في بداية تكوينه ونشأته سديما واحدا مختلطا من كتلة هائلة من الغاز شديد الحرارة حتى إذا برد تحوّل إلى مختلف الأجرام السماوية من الكواكب والنجوم والأرض وغير ذلك من مركبات هذا الفضاء الواسع.

قوله: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أمر الله السماء والأرض أن يجيئا بما خلقه فيهما، {طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}، أي طائعين أو مكرهتين، فالسماء تجيء بما خلق فيها من شمس وقمر ونجوم وكواكب، والأرض تجيء بما خلق فيها من خيرات وثمرات ونباتات وأنهار وجبال وسهول؛ فقد أمرهما الله أن يجيئا بما خلق فيهما من أسباب الرزق والعيش ومن كمال الصورة والهيئة وتمام الاتساق والانسجام طائعتين أو مكرهتين {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} جمعهما جمع من يعقل؛ لأنه وصفهما بالقول والطاعة وذلك من صفات من يعقل ١٠ فقد بادرت الأرض والسماء الجواب قائلين {أَتَيْنَا طَائِعِينَ} أي أعطينا طائعين من غير إكراه، أو أتينا أمرك طائعين - والمراد بالقول منهما: ظهور الطاعة منهما، إذ انقادا وامتثلا للأمر فقم ذلك مقام قولهما.

وقيل: كان ذلك قولا منطوقا تكلمتا به بتقدير الله.

١٢ - (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

قوله: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} {سَبْعَ} منصوب على البدل من الهاء والنون في قوله: {فَقَضَاهُنَّ} ١١ أي أكمل خلقهن وأحكمهن في يومين سوى الأيام الأربعة التي أتم فيها خلق الأرض، فكان خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والله سبحانه وتعالى أعلم بطول الواحد من هذه الأيام ومداه.

قوله: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} خلق كل سماء خَلْقَها من الملائكة ومختلف الأجرام من شموس وأقمار وكواكب ونجوم وأفلاك.

قوله: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا} جعل الله في كل سماء ما يزينها من الكواكب المضيئة التي تفيض عليها بالجمال والبهاء والإشراق {وَحِفْظًا} أي وحفظها الله حفظا من الشياطين أن يسترقوا السمع فيستمعوا إلى الملأ الأعلى.

قوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} أي ما تقدم ذكره من جلال الخلق وعظمة الصنع والبناء لهو تقدير الله ذي القوة البالغة والاقتدار

العظيم الذي يحيط علمه بكل شيء ١٢.

١٣ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

يتوعد الله المشركين الظالمين على لسان رسول الله صلى الله علي وسلم، لئن أعرضوا عما جاءهم به من عند الله من الحق المبين فإنه منتقم منهم أشد انتقام، وهو قوله سبحانه: {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} أي فقد خوفتكم نقمة الله بكم كالذي حلَّ بالأمم السابقة من قبلكم، قوم عاد وثمود أولئك الذين استكبروا وأعرضوا عن دين الله وتولوا جاحدين مدبرين.

١٤ - (إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

قوله: {إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} أي جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون، أو الذين أرسلوا إليهم وإلى من قبلهم {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} أمروهم أن لا يعبدوا أحدا سوى الله، وحذروهم بأس الله وشديد بطشه وانتقامه - ومع ذلك كذبوا وأعرضوا وقالوا: {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} أي لو كان الله مرسلا رسلا حقا لأرسل ملائكته من عنده فآمنا بهم وصدقنا بما جاءوا به؛ وبذلك لسنا بمؤمنين لبشر، وهو قوله: {فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} أي لسنا مؤمنين لبشر مثلنا فقد كذبنا بما جئتمونا به.

١٥ - (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

قوله: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي عصوا ربهم وعتوا عن أمره وتولوا معرضين معاندين {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} كانوا مغترين بصلابتهم وقوة أجسادهم - فاعتقدوا بغرورهم هذا أنهم ممتنعون من بأس الله إذا نزل بهم.

قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} استفهام توبيخ وتعنيف لهؤلاء الضالين المغرورين - أفلا يعلمون أن الله الذي يبارزونه بالعداوة والاستكبار لهو أشد قوة من قوتهم؛ فهو خالقهم ومالكهم وإن شاء أهلكهم ودمّر عليهم بعد أن تمردوا وولوا معاندين جاحدين بآيات الله وهي دلائله وحججه ومعجزاته.

١٦ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ)

قوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} وذلك تفسير للمراد بالصاعقة التي أرسلها على قوم عاد وهي هنا الصرصر، أي ريح شديد البرد والصوت والهبوب؛ فقد أرسلها عليهم لإهلاكها {فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ} أي مشئومات وقيل: متتابعات - وقيل: شداد.

قوله: {لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} دمر الله عليهم بالريح العقيم، أتت عليهم فأهلكوا عن آخرهم.

قوله: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى} عذاب الله يوم القيامة أعظم وأنكى وأشد خزيا وإذلالا لهم {وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} أي ليس لهم في الآخرة من أحد ينصرهم أو يدفع عنهم البلاء وشديد الهوان.

١٧ - (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} أما، حرف معناه التفصيل وفيه معنى الشرط ١٣ فلقد هدى الله ثمود، إذ بيَّن لهم الهداية والضلالة، وذكر

لهم الحق والصواب وحذرهم الشرك والباطل {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} يراد بالعمى الكفر، وبالهدى الإيمان، فقد اختارت ثمود بضلالها وظلمها الكفر والمضي في طريق الشيطان حيث العصيان والشر، وتنكبوا عن طريق الرحمن حيث السداد والرشاد والتوحيد {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ} {الهون} بضم الهاء، يعني الهوان أو المهانة، أي أخذهم الله بالعذاب المهين فأهلكهم إهلاكا {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي بسوء أفعالهم وجرائمهم من تكذيب نبيهم صالح وعقرهم الناقة التي جعلها الله لهم آية.

١٨ - (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

قوله: {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} نجى اللهُ نبيه صالحا والذي آمنوا معه إذْ مَيَّزهم الله عن الكافرين الظالمين فلم يحل بهم ما حلَّ بالظالمين من عذاب، وفي ذلك تحذير للظالمين من هذه الأمة، وتخويف لهم مما يحتمل نزوله بهم كالذي نزل بالمشركين السابقين إذا لم يهتدوا ويذعنوا لله وحده بصدق الإيمان والإذعان ١٤.

١٩ - (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ}.

يبين الله للناس في هذه الآيات ما يصير إليه الظالمون المكذبون من سوء العاقبة حيث الأهوال الجسام والنكال الشديد والذل والهوان، ويكشف عن فظاعة ذلك كله بقوله سبحانه: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ} أي واذكر لهؤلاء المشركين المكذبين يوم يحشرهم الله {فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي ساقون إلى النار ثم يدعون إليها دعّا - أو يُحبس أولهم على آخرهم حتى إذا اجتمعوا وتكامل عددهم بدئوا بإلقائهم في النار، أولهم الكبراء والرؤساء ثم الذين دونهم من المشركين والخاسرين.

٢٠ - (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي إذا وقفوا على النار شهدت عليهم جوارحهم وجلودهم بما عملوا في حياتهم الدنيا من الكفر والفساد والعصيان.

٢١ - (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} أي لاموا جوارحهم وأعضاءهم بما شهدوه عليهم فأجابتهم الجوارح والجلود {أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} أي لا خيار لنا في النطق ولا إرادة وإنما أنطقنا الله فشهدنا عليكم راغمين مقهورين، فو سبحانه الذي ينطق كل شيء {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي وقد خلقكم الله الخلق الأول، إذْ لم تكونوا شيئا {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} وأنتم صائرون إلى الله لتلاقوا الحساب والجزاء.

٢٢ - (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ)

قوله: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ} القائل لهم ذلك الله عز وعلا، وقيل: الملائكة، وقيل: جوارحهم وجلودهم - فإنها تقول لهم ذلك حين يلومونها بما شهدت عليهم من فعل السيئات والمعاصي: لم تكونوا تكتمون منا ما كنتم تفعلونه من الكفر والباطل بل كنتم تجاهرون الله بذلك ولا تخشونه، إذ كنتم تظنون أنه لا يعلم جميع أفعالكم.

٢٣ - (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قوله: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ} أي ظنكم الفاسد هذا وهو اعتقادكم أ الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذي أهلككم وأودى بكم إلى الخسران - وهو قوله: {فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} خسرتم أنفسكم فتبوأتم منازلكم من النار.

٢٤ - (فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)

قوله: {فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} أي فإن يصبر هؤلاء الخاسرون في النار أولا يصبروا فيجزعوا {فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} أي فإنهم ماكثون في النار لا يبرحونها ولا يخرجون منها.

قوله: {وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} أي إن يطلبوا الرجوع إلى الدنيا لا يجابوا ولا هم براجعين، والاسم العُتْبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب، واستعتب وأعتب بمعنى، أي طلب أن يُعْتب، تقول: استعْتَبْتَه فأعْتَبه، أي استرضاه فأرضاه ١٥.

وعلى هذا فإن المعنى {وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا} أي إن يطلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل إن مصيرهم إلى النار لا محالة ١٦.

٢٥ - (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

قوله تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ}.

قيض أي أتاح ١٧ والمعنى: أن الله هيأ للكافرين والعصاة قرناءهم الشياطين، أو سلطهم عليهم تسليطا، والمراد بهم شياطين الجن والإنس الذين يفتنون الناس عن دينهم ويُغْرونَهم بكل وجوه الإغراء والفتنة ليضلوهم عن منهج الله وعن سبيله المستقيم.

قوله: {فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} أي زينوا لهم الدنيا وما فيها من متاع ولذائد وزخرف فآثروا ذلك على الآخرة، وكذلك زينوا لهم ما بعد الممات؛ إذ دعوهم إلى التكذيب باليوم الآخر وأنّ من هلك منهم فلن يبعث وأنه لا ثواب ولا عقاب، فصدَّقوهم على ذلك فضلوا وفعلوا الفواحش والمنكرات وتلبَّسوا بالشر والباطل.

وقيل: زينوا لم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم أن الدنيا قديمة وأنها لا تفنى ولا تزول.

قوله: {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} أي وجب على هؤلاء المشركين المكذبين من العذاب مثل الذي وجب على الأمم السابقة من قبلهم من الكافرين من الجن والإنس أي أنهم داخلون في الكفر مع الذين من قبلهم من مشركي الجن والإنس، فكانوا جميعا في العذاب سواء بسبب كفرهم {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} لقد خسروا أنفسهم يوم القيامة فكانوا من الهالكين المعذبين.

٢٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} ذكر عن ابن عباس قوله: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول، وقيل: إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن، وهذه هي سبيل المكذبين الظالمين الذين يجحدون آيات الله وينكرون منهجه العظيم، فهم ليس لهم في ذلك من حجة ولا برهان يدفعون به ما جاءهم من الحق من ربهم إلا المكابرة والمعاندة وتكلف الافتراء والتشويش لا جرم أن ذلك دليل ظاهر على أن القرآن حق وأنه الكلام المعجز المنزل من عند الله، لكن الظالمين العصاة تشمئزّ قلوبهم المريضة من سماع الحق فما تستبشر إلا بالزيف والهراء والباطل.

لقد كان العرب مستيقنين في أعماقهم أن القرآن معجز وأنهم عاجزون عن معارضته البتة لكنهم بالرغم من ذلك غُلاة في العناد والاستكبار والتكذيب فأبوا إلا التمرد والجحود، ولما كان القرآن قد ملك فيهم القلوب والألباب واستحوذ على مشاعرهم وأذهانهم أيَّما استحواذ، بادروا التمالؤ عليه فيما بينهم بأن لا يسمعوا القرآن وأن يثيروا من حوله التشويش واللغط كيلا يسمعه أحد من العرب فينبهر

أو يستجيب، وهو قوله: {لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} من اللغو وهو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته، أي صيحُوا لدى سماعه كيلا يدري به أحد - وقيل: تصايحوا بالمكاء (الصفير) والتصفيق، والتخليط في الكلام ليصير لغوا - وقيل: أكثروا الكلام لدى سماع القرآن ليختلط على محمد ما يقول، أو عارضوه بكلام لا يفهم.

قال الرازي في ذلك: قال بعضهم لبعض: إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه وتغلبوا على قراءته، كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضا - والمراد، افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغوا وباطلا لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس فبهذا الطريق تغلبون محمدا صلى الله عليه وسلم.

قوله: {لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} أي لتكونوا أنتم الغالبين فلا يظهر عليكم محمد بقرآنه الذي يستميل القلوب.

٢٧ - (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا} ذلك وعيد مؤكد من الله للكافرين المكذبين الذين يصدون عن دين الله وعن قرآنه الحكيم بأهم صالوا العذاب الدائم الشديد وهي النار بسعيرها المتوقّد اللاهب {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أسوأ أعمالهم التي عملوها في الدنيا إشراكهم مع الله آلهة أخرى، وكذلك صدُّهم عن دين الله وعن قرآنه الحكيم بمختلف الأسباب والأساليب.

أولئك يجازيهم ربهم في مقابلة ذلك أسوأ الجزاء يوم القيامة.

٢٨ - (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

قوله: {ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ} {النَّارُ} مرفوع على أنه بدل من جزاء.

أو خبر لمبتدأ محذوف وتقديره هو النار ١٨ يعني هذا الجزاء الذي يجزون به هو جزاء أعداء الله، ثم بيَّن جزاءهم على أنه النار {لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ} أي لهؤلاء المشركين المكذبين دار الخلد في النار فهم ماكثون لابثون لا يبرحون {جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} أي فعلنا بهم ما فعلناه من مجازاتهم النار جزاء منا بجحودهم وتكذيبهم بما جاءهم من الآيات والحجج.

٢٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ)

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} يقول الذين كفروا بعد ما أدخلوا جهنم: يا ربنا أرنا من أضلنا من خَلقك من الجن والإنس لنجعلهما أسفل من النار - ذلك أن النار دركات بعضُها فوق بعض، وهم بذلك يريدون التشفي ممن أضلهم في الدنيا عن الحق واجتالهم عن ملة التوحيد فارتكسوا في الشرك والباطل، وهو قوله: {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} أي لنجعلهما أسفل منا فيكونا في الدرك الأسفل من النار وهو أشد العذاب ١٩.

٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}.

ذُكر عن ابن عباس قوله: نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه - وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله، والملائكة بناته، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا - وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله فاستقام - وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي معنى {اسْتَقَامُوا} ففي صحيح مسلم عن سفيان ابن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: " قل: آمنت بالله ثم استقم " وروي عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أنه قال: {ثم استقاموا} لم يشركوا بالله شيئا - وقيل: استقاموا على أداء فرائضه وأخلصوا له الدين والعمل.

قوله: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} أي تتنزل عليهم عند الموت، وقيل: إذا قاموا من قبورهم - وقيل: البشرى للمؤمنين في ثلاثة مواطن: عند

الموت، وفي القبر، وعند البعث.
قوله: {أَلاَّ تَخَافُوا} تقول لهم الملائكة على سبيل البشرى لهم: لا تخافوا الموت - أو لا تخافوا ما أنتم قادمون عليه في الآخرة - أي لا تخافوا ما أمامكم {وَلاَ تَحْزَنُوا} على ما بعدكم، أو على ما خلَّفتموه في دنياكم من الأهل والولد والمال، فإنا نخلفكم فيه.
قوله: {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} تبشرهم الملائكة بما وعدهم الله به في الآخرة من النعيم المقيم في الجنة جزاءً بما عملوا في الدنيا من أوْجُه الطاعة والاستقامة.
٣١ - (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)
قوله: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ} بسط الله للمؤمنين في الجنة كل ما اشتهته أنفسهم من أجناس الطعام والشراب وغير ذلك من وجوه النعم {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} يُجاء إليهم بكل ما يطلبونه مما تلذُّ به نفوسهم وتقر به عيونهم.
٣٢ - (نُزُلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)
قوله: {نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} {نزلاً} منصوب على المصدر، وقيل: على الحال ٢٠ والنُزُل: معناه رزق النزيل وهو الضعف، أي أنزلكم ربكم فيما تشتهون من النعيم رزقا وضيافة {مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} غفور لذنوبكم، رحيم بكم فلا يعاقبكم عقب توبتكم ٢١.
٣٣ - (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)
قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.
تتضمن هذه الآية تنديدا بالمشركين الذين تواصوا باللغو في القرآن، وتوبيخا لهم فيقول الله لهم مُوبخا معنِّفا: أي الكلام أحسن من القرآن، وهو الكلام الرباني الفذ الذي يهدي الناس إلى سواء السبيل ويستنقذهم من الضلال والعثار والباطل إلى نور الهداية والاستقامة والحق، إذ قال سبحانه: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً} والمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد دعا الناس إلى دين الحق وعقيدة التوحيد والتبرؤ من الوثنية والأباطيل، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، وقيل: نزلت في المؤذنين - والصحيح أنها عامة في كل من دعا إلى الله فدعا الناس إلى عبادة ربهم وحده ومجانبة الأنداد والشركاء دونه، والإذعان له بالطاعة والخضوع.
قوله: {وَعَمِلَ صَالِحاً} أي أدى الفرائض وفعل الواجبات والمندوبات واجتنب المحرمات والمحظورات {وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أعلن مجاهرا بأنني من المستسلمين لأمر الله، المذعنين له بتمام الخضوع والطاعة، المقرين له بالوحدانية فلا نعبد إلا إياه ولا نذعن لشيء من الملل أو المناهج أو الأناسي سواه، فهو الإله الذي تخرُّ له الجباهُ والنواصي، وتلين له القلوب والمشاعر وتَضْرع إليه البصائر خاشعة متذللة.
٣٤ - (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)
قوله: {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ} أي لا يستوي التوحيد والشرك، ولا تستوي الطاعة والمعصية، أو لا يستوي الحق والباطل ولا الهدى والضلال - وقيل: الحسنة ههنا بمعنى العفو والرفق، والسيئة: الفحش والغلظة، والأولى بالصواب أن الآية تعم كل هذه المعاني فإنه لا تستوي الحسنة بكل وجوهها، من توحيد وعدل وفضيلة واستقامة ورحمة، ولا السيئة بكل صورها وأجناسها من الإشراك والعصيان والضلال والظلم والفحش فهما كلاهما لا يستويان.
قوله: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من جهل عليك، وقال: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم - وعنه أيضا: هو الرجل يسبُّ الرجل

فيقول الآخر: إن كنت صادقا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك، وروي في الأثر: أن أبا بكر قال ذلك لرجل نال منع شرا - أي عفا عنه وقال له خيرا، وقيل: التي هي أحسن، يعني السلام إذا لقي من يعاديه - وقال ابن العربي: المراد به المصافحة، وفي الأثر: " تصافحوا يذهب الغلُّ " وقد صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرا حين قدم من أرض الحبشة - وبذلك فإن المصافحة ثابتة ولا وجه لإنكارها، وقد سئل أنس: هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم - وفي الأثر: من تمام المحبة، الأخذ باليد، ومن حديث محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجرُّ ثوبه، فاعتنقه وقبَّله.

وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما ".

قوله: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} يعني: بهذا الذي أمرتك به من دفع الإساءة بالعفو والإحسان يصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة، كأنه قريب صديق، وهذه معلومة لا شك فيها، وهي أن العفو والصفح عن المسيء ثم الإحسان إليه يسوقه – طواعية – إلى الندم ومراجعة النفس ليبادر خصمه المودة والملاطفة بعد ضغينة وجفاء، وهذه حقيقة تتجلى ظاهرة مكشوفة في المتخاصمين المتباغضين من الناس إذا بادر أحدهم الآخر، الإحسان والصفح - لا جرم أن الإحسان للآخرين من الخصوم وملاطفتهم بالمودة والرحمة يفجّر في أعماقهم نوازع الخير التي جُبل عليها الناس، على تفاوت بينهم.

وتلكم هي طبيعة الإنسان المشحونة بنوازع الخير والرحمة والجنوح للندامة والحياء، ظواهر إنسانية كريمة تثيرها وتهيجها بواعث كثيرة وفي طليعتها العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ على أن ذلك يقال في الأسوياء من البشر أولي الطبائع السليمة والفِطر السَّوية المستقيمة، أما الجانحون للخسَّة والإيذاء والشر، أولو الطبائع المعوجة، والفطر المنحرفة السقيمة، والنفوس التي استحوذ عليها الرانُ والشذوذ والانحراف، فإنها أبعد الخلق عن التأثر بالإحسان والاستجابة لخصال اللين والرأفة والتسامح.

٣٥ - (وَمَا يُلَقَّاهَا إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

قوله: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا} أي ما يلقى هذه الخصلة الحميدة من دفع السيئة بالحسنة أو دفع الإساءة بالتي هي أحسن، إلا الصابرون على المكاره والمساءات، القادرون على احتمال الإساءة وكظم الغيظ.

وقيل: المراد بالضمير في قوله: {يلقَّاهَا} الجنة.

قوله: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} أي لا يلقى ذلك إلا من كان ذا نصيب عظيم من الخير والمبرات وسلامة السريرة والفطرة، وقيل: الحظ العظيم معناه الجنة.

٣٦ - (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} يعني: إما يُلقينَّ الشيطانُ في نفسك شيئا من وساوسه لإثارة الغضب فيك وحَمْلِكَ على مقابلة الإساءة بالإساءة فالجأ إلى الله واعتصم به من خطوات الشيطان ووساوسه ونزغاته.

قوله: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الله يسمع تعوذك من وسوسة الشيطان والتجاءك إليه، وهو سبحانه يعلم بما ينزغه الشيطان في قلوب العباد وما يحدّث به أنفُسَهم، والله جل وعلا يعصم المستجبرين بالله المستعيذين به من همز الشيطان ومن نفخه ونفثه.

ومن لطيف ما ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله في هذا الصدد – وهو يبين أن شيطان الجن لهو أشد بلاء وخطرا على الإنسان من شيطان الإنس – إذْ قال في تأويل هذه الآية: إن شيطان الإنس ربما يخدع بالإحسان إليه – أي بالحيلة – وأما شيطان الجن فإنه لا حيلة للمرء فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يقول: " أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " ٢٢.

٣٧ - (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)
قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.
{وَمِنْ آيَاتِهِ} في موضع رفع خبر مقدم، و {الليل} مبتدأ مؤخر، {وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} عطف على الليل - ٢٣
يبين الله حججه على خلقه وما ذكره لهم من البراهين الظاهرة الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته وسلطانه وتفرده في الخلق، وهو قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} وهاتان آيتان من آيات الله الدالة على عظيم صنعه وعلى قدرته البالغة في الخلْق والتكوين، فالليل بسكونه الصامت الوادع، والنهار وما يدور فيه من أوجه الحركة والجدّ والنشاط والكسب لتحقيق المصالح والمعايش والحاجات في كل مناحي الحياة، وكذلك الشمس والقمر آيتان أخريان من آيات الله تُزْجي بقاطع الدلالة والبرهان على عظمة الخالق الصانع المقتدر، فالشمس بلهيبها المتأجج المضطرم، وجُرمها الهائل الكبير ذي الحرارة والدفء والضياء، وكذلك القمر هذا الكوكب القريب العجيب الأخّاذ، الكوكب الساطع المشرق السيَّار، الذي يبهر القلوب والألباب بعجيب إشراقه وضيائه وجماله المنسكب على وجه الأرض فيثير فيها البهجة والحبور والإيناس، لا جرم أن ذلك يكشف عن عظمة الصانع الحكيم وعن بالغ قدرته التي تهونُ دونها كل القدرات والطاقات.
قوله: {لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ} لا ينبغي لأحد أن يعبد هذين الجرمين فيسجد لهما من دون الله اغترارا وضلالا بما أذهله من جمال الصورة وروعة المنظر - لا ينبغي أن تثير هذه الصفات في الناس أيَّما اغترار من فرط الإعجاب فتنفتل قلوبهم وعقولهم عن ذكر الله إلى عبادة هذين الجرمين، فهما ليسا إلا مخلوقين من مخلوقات الله الكثيرة، وما من أحد يستحق العبادة والطاعة والإذعان سوى الله الواحد الخالق، وهو قوله سبحانه: {وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} يعني إن كنتم تُخلِصون لله العبادة ولا تشركون في عبادته شيئا، فإن أناسا كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لله فنُهوا عن هذه الواسطة وأُمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه المعبودات المصطنعة وخلق كل شيء - ٢٤
٣٨ - (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ)
قوله: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} يبين الله حقارة المشركين وهوانهم عليه وأنهم لن يضروه بكفرهم شيئا، والمعنى ههنا، أنّ المشركين إنْ استكبروا عن عبادة الله وحده فإن عتوهم أو استكبارهم لن ينقص من ملكوت الله مثقال ذرة - والله لا يعبأ بعباده إن عتوا عن مره أو استكبروا عن عبادته، إنما يحيق كفرهم وإشراكهم بهم أنفسهم، ويبين أن هنالك عبادا أطهارا مكْرَمين، وهم الملائكة، يعبدون الله ويسجدون له في الليل والنهار لا يملون ولا يفترون.
٣٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} خشوع الأرض معناه هنا يبسها وجدبها، أي من حجج الله على قدرته البالغة وأنه محيي الموتى أنك ترى الأرض غبراء يابسة جدبة لا نبات فيها {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} إذا أنزل الله على الأرض ماء المطر تحركت بالنبات {وَرَبَتْ} أي انتفخت وعلت قبل أن تُنبت، وعلى هذا فإن في الكلام تقديما وتأخيرا وتقديره: ربت واهتزت، أي أن الأرض تصير مزهوّة بالزرع والخِصْب وكل أنواع النبات بعد أن كانت راكدة ميتة لا حياة فيها ولا حركة، لا جرم أن هذه صورة عن حقيقة الإحياء وبعث الموتى من قبورهم بعد الرفات والبلى - وذلك قوله: {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} - ٢٥
٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ)

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}.

{يُلْحِدُونَ} يميلون إلى الحق، من الإلحاد وهو الميل والعدول، ومنه اللحد في القبر وهو الحفر في شق، وألحدَ في دين الله أي أحاد عنه وعدل، ويراد بالملحد المنحرف عن الحق إلى الباطل - ٢٦ وذلك تهديد من الله للمشركين الذين يميلون عن الإيمان بالله ورسوله ويجتنبون عقيدة التوحيد الخالص وُحادُّون الله ورسوله والمؤمنين ويتمالئون على كتاب الله بالتشكيك والتكذيب والتشويش؛ أولئك يتوعدهم الله بقوله: {لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} الله يعلمهم، ويعلم كيدهم ومكرهم؛ إذْ لا يخفى منم أحد على الله الذي لا يخفى عليه شيء، وهو لهم بالمرصاد، ثم أخبر تعالى عما هو فاعل بهم مما تهددهم به من سوء العذاب فقال: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} استفهام تقرير ينبِّهُ الله به إلى أن الجاحدين المكذبين الذي يكيدون لدين الله ولكتابه الحكيم صائرون إلى النار، إذ يلقون فيها على وجوههم لينالوا فيها العذاب الأليم، وذلك بخلاف المؤمنين المخبتين الذين استسلموا لأمر الله واخلصوا له الطاعة والعبادة فإنهم يأتون يوم القيامة آمنين مطمئنين فلا يمسهم العذاب ولا هم يحزنون.

على أن المراد بذلك العموم، فالآية تعم سائر المكذبين الجاحدين الذين يُلْحِدُون في آيات الله بالتكذيب والصدِّ والإعراض، وكذلك تعم سائر المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله والتزموا شرع الله ومنهجه العظيم وهو الإسلام.

قوله: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} وهذا وعيد آخر لهؤلاء المكذبين الذين يُشاقّون الله ورسوله والمؤمنين؛ أي اعملوا ما شئتم من سوء الأعمال التي تُفْضِي بكم إلى النار {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

٤١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ} خبر {إِنَّ} فيه وجهان - أحدهما: أن خبره {أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} - وثانيهما: أنه محذوف، وتقديره: إن الذين كفروا بالذكر يعذبون ٢٧ والمراد بالذكر القرآن، وفي ذلك تهديد ووعيد من الله للجاحدين المكذبين الذين يكذبون بكتابه الحكيم فيتمالئون عليه بالتشويش والصدّ، بأنه مهلكهم ومعذبهم.

قوله: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} ذلك تعظيم من الله لقرآنه الكريم؛ فإنه عزيز على الله، كريم عليه؛ إذ منعه من كل عابث ماكر خائن أن يصيبه بتغيير أو تبديل أو تحريف - لقد حفظ الله قرآنه من كل عبث أو زيف؛ فهو باق على حاله من السلامة والنقاء منذ أنزل من السماء حتى زوال الدنيا.

٤٢ - (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

{لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ} أي لا ينفذُ إليه بطلان من نقص أو زيادة، ولا تغيير أو تبديل، ولا تحريف أو تزييف؛ فهو كتاب محفوظ بعناية الله ورعايته، مصون من كل إساءة أو تلاعب أو تزوير بالرغم من تمالأ المشركين والمتربصين الذين يصلون الليل بالنهار وهم يأتمرون بالقرآن ليبدلوه تبديلا، وينصبون له المؤامرات والمكائد ليغيروه تغييرا أو ليغيروا من حقيقة معانيه ومقاصده فيثيروا من حوله الشكوك والظنون والشبهات فيرتاب فيه الناس ويزهد فيه المسلمون، لكنه مصون من كل هاتيك الدسائس والمكائد والمؤامرات، محفوظ بعون الله وتقديره طيلة الدهر حتى قيام الساعة؛ فهو {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} الله حكيم في أفعاله وأقواله وتدبيره شؤون خلقه، وهو سبحانه حميد: أي محمود على آلائه وما أسبغ على العباد من النعم، فيحمده ويثني عليه كل المؤمنين من ملائكة الأرض والسماء آمنوا إيمانا صحيحا مستقيما من ذرية آدم.

٤٣ - (مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

قوله: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} هذا تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ومواساة له منه بسبب إيذاء قومه له وتكذيبهم ما جاءهم به، والمعنى: أن ما يقال لك يا محمد من تكذيب قومك وإيذائهم وإعراضهم عنك، فنظيره ما قيل للرسل من قبلك من التكذيب والإعراض، فاصبر على أذى المشركين كما صبروا على أذى قومهم.

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ} الله غفار للذنوب، فهو يغفر لمن تاب من عباده وأناب إلى الله لا يعبد إلا إياه {وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} وهو سبحانه يعاقب المجرمين من عباده الذين أبوا إلا النكول والإعراض عن دين الله الحق والتلبس بالشرك والباطل - أولئك عقابهم شديد وجيع ٢٨.

٤٤ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُه آعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ}.

أنزل الله القرآن بلغة العرب وجعله في غاية الفصاحة والبلاغة، وفي الذروة السَّامِقة من روعة النظْم وعجيب الأسلوب، فما سمعت به العرب حتى شُدِهُوا شَدْها، وغشيهم من البُهْر والذهول ما غشيهم.

على أن القرآن تتجلى فيه ظواهر الإعجاز المذهل؛ لكونه عربيّا أنزله الله بلسان العرب فصيح جَليّا ليفهموه ويتدبروه ويعوا ما فيه من الحقائق والأحكام والمعاني - ولو جعله الله أعجميا، أي بلغة غير العرب {لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} أي هلا بُيِّنَتْ آياته فجاء واضحا مستبينا بلغتنا؛ لأننا عرب لا نفقه الأعجمية.

قوله: {أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} الأعجمي الذي لا يُفصح ولا يبين كلامه سواء كان من العرب أو من غير العرب، نقول استعجم عليه الكلام أي استبهم ٢٩ والاستفهام للإنكار، والمعنى: أقرآن أعجمي غير فصيح ولا مفهوم، والذي أنزل إليه عربي؟

قوله: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ} يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس أن القرآن هداية لهم ليرشدهم إلى الحق ويقودهم على سواء السبيل فينجون به من الشقاء والتعثر والباطل، ويسعدون بالنجاة يوم القيامة.

وكذلك فإن القرآن شفاء للناس، إنه شفاء لهم من كل الأمراض، وهو شفاء للقلوب من الرِّيب والوساوس والظنون والشبهات استبراء لها من الأدران والأمراض والمفاسد على اختلاف أنواعها وظواهرها.

إن القرآن نور إلهي مشعشع يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين، ليستنقذهم به من سائر الأمراض والعقابيل الأليمة والممضَّة - لا جرم أن المؤمنين الذين أخلصوا لله دينهم وأذعنوا له بكل الطاعة والخضوع، يتلذذون بسعادة الأمن والراحة في نفوسهم، وينعمون ببرد السكينة والرضى وهو على الدوام مبرئون من مختلف الأمراض النفسية التي تفتك بالمجتمعات الضالة السادرة في تيهِ الكفر وفي ظلام المادية الجاحدة، المجتمعات التي ما فتئت تتجرع كؤوس المرارة والشقاء والظلم والقلق.

قوله: {وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} الذين، اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره، الجملة الاسمية من المبتدأ وخبره وهي {فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} ٣٠ الوقر - بالفتح - معناه: الثقل في الأذن، - وبالكسر - الحمل ٣١ - والمعنى: أن الجاحدين المكذبين في آذانهم ثقل أو صمم فلا يستمعون هذا القرآن؛ لأنهم مفرّطون فيه، معرضون عنه؛ لسوء طبعهم وفساد فطرتهم وشدة عنادهم {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} أي أنهم عمي عن هذا القرآن فلا يبصرون ما فيه من دلائل وبينات أو أن قلوبهم عمياء عن هذا القرآن وما فيه من عظيم المعاني ومن ظواهر

الإعجاز.
قوله: {أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} يقال ذلك لمن لا يفهم، على سبيل التمثيل - فالذي يفهم يقال له: أنت تسمع من قريب - والذي لا يفهم يقال له: أنت تنادي من بعيد، فهو كأنه ينادي من مكان بعيد منه، لأنه لا يسمع النداء ولا يفهمه، وقيل: من دُعي من مكان بعيد لم يسمع وإن سمع لم يفهم، وذلك حال هؤلاء المكذبين المعرضين عن القرآن.
٤٥ - (ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)
قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ} وهذا تأنيس وتسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، إذْ يواسيه بكلماته الكريمة كيلا يحزن، والمعنى: لقد آتينا موسى التوراة من قبلك فآمن بها من آمن وكفر بها من كفر فلا تبتئس بتكذيب قومك يا محمد وبكفرانهم.
قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي لولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم بإمهال عذابهم إلى يوم القيامة لعجل الله الفصل بينهم، فأخذهم العذاب.
قوله: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} المبطلون الظالمون لم يكن تكذيبهم عن بصيرة منهم وتحقق لما يقولون بل كانوا شاكين فيما قالوه من إنكار وتكذيب، وقوله: {مُرِيبٍ} أي مُوقِعٌ لهم في الريبة، لأنهم كذَّبوا بغير تثبّت، وما قالوه من تكذيب وجحود إنما كان ظنًّا ٣٢.
٤٦ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)
قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ}.
من أطاع الله فالتزم شرعه وانتهى عن ما نهى عنه باجتنابه المعاصي والمناهي فإنما يعود جزاء ذلك على نفسه، أما من أساء بعصيان ربه وفعل المحرمات والفواحش، فإنما يعود وبالُ ذلك من سوء الجزاء عليه نفسه {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} لا يعذب الله أحدا من العباد إلا بما قدم من الخطايا والذنوب، وذلك عقب إرسال الرسول لتبليغهم ما أنزل إليهم.
٤٧ - (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)
قوله: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} أي لا يعلم الساعة أحد سوى الله، فهو سبحانه قد استأثر بالعلم بها فلا يجليها لوقتها إلا هو سبحانه.
قوله: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا} الأكمام، جمع كِم وهو وعاء الثمرة أو وعاء الطلع ٣٣ والمعنى: ما تخرج ثمرة من أوعيتها {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} كل ذلك علمه عند الله، ولا يقع شيء مما ذكر إلا بعلمه سبحانه فإنه لا يخفى عليه شيء.
قوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي} يوم القيامة، يوم الفزع الأكبر، والإياس الرعيب، ينادي الله الظالمين الذين اتخذوا من دونه شركاء وأندادا: أين شركائي الذين عبدتموهم معي، يناديهم بذلك على رؤوس الخلائق، فيجيبون مستبئسين مذعورين {قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} {مَا} نافية - يعني: أعلمناك ما منا من أحد يشهد أن لك شريكا.
٤٨ - (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ)
قوله: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ} أي بطل عنهم وذهب ما كانوا يعبدونه في الدنيا مع الله فلم ينفعهم شيء من ذلك، وتلك هي حال المشركين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة، فإنهم نتبرأ منهم ومن عبادتهم آلهتهم المزعومة {وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي أيقن المشركون الخاسرون يوم القيامة أنهم ليس لهم من مفر ولا محيد من عذاب الله ٣٤.

٤٩ - (لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

قوله تعالى: {لاَ يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}.

ذلك بيان من الله يكشف فيه عن حقيقة الإنسان في طبْعِهِ الجزوع، وفي جنوحه للإسراع والعجلة وإسرافه الملحّ في دعاء الخير، وذلك قوله: {لاَ يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ} الإنسان دأْبُهُ الإلحاح في المسألة والاستكثار من الخير، فهو على الدوام لا يمل {مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ} والمراد هنا بالخير والعافية والجاه والسلطان، أما المراد بالإنسان، فقيل: الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة، أو عتبة بن ربيعة - والأولى بالصواب أن يراد بذلك أكثر الناس سواء منهم الكافرون والمنافقون أو ضعاف الإيمان والعقيدة من كثير المسلمين، أولئك جميعا مجبولون على الهلع والجزع والإفراط في حب الدنيا والاستكثار من زينتها ومباهجها من المال والصحة والعز وحب الشهرة والاستعلاء.

قوله: {الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} الإنسان الخائر على اختلاف حقيقته من الكفر أو النفاق أو الضعف أو التهافت، فإنه خائر مضطرب فهو إن أصابه الشر من فقر أو مرض أو خوف أو غير ذلك من وجوه البلاء صار آيسا قانطا، إذ ييأس من فرج الله ويقنط من رحمته في كشف البلاء والضرِّ عنه، وذلك هو دأب الإنسان الخاوي، الذي خلا قلبه من الإيمان أو من عقيدة الإسلام، وذلك بخلاف المؤمنين الثابتين على الحق في كل الأحوال والظروف، أولئك الذين يخشون الله، ويرجون منه العون والرحمة والمدد - ويسألونه في سائر الملابسات والتقلبات أن يشدّ أزرهم ويقوي عزائمهم ويرسّخ فيهم القدرة على الاصطبار وأن يبدد من أمامهم المكاره والغُموم والكربات والمخاوف، وأولئك هم المؤمنون الثابتون على منهج الله، وهم على حالهم من الرسوخ والصبر والطمأنينة حتى يلقوا ربهم.

٥٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

قوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} إذا مَنَّ الله على هذا الإنسان فكشف عنه الكرب والشدة والبلاء ثم أبدله بذلك رحمة منه فوهب له العافية والرزق والراحة والسعة في العيش والرزق {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} أي إني أستحق هذا الخير وهذه الرحمة، لأن الله راضٍ عني وعما أعمله، والصحيح أن ذلك ابتلاء له من الله، فالله يبتلي عباده بالمحنة والنعمة ليستبين الشاكرون والصابرون من الجاحدين الجزوعين.

قوله: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} ذلك إعلان صريح بالكفر وإنكار القيامة عقب ما أصابه من النعمة بعد انكشاف النقمة، وذلك دأب الظالمين والغافلين والمستكبرين الذين يتيهون في الأرض غرورا وبطرا وضلالا وقد أعمتهم الغفلة وأضلهم الشيطان عن دين الله وعن لقائه يوم الحساب فأسرفوا في الكفر والتكذيب حتى جحدوا اليوم الآخر، مع أنهم موقنون أنهم ميتون وأنهم صائرون إلى الزوال والفناء لا محالة - لكنه الضلال والاستكبار والاغترار والغفلة عن سواء السبيل.

قوله: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} يقول الخاسر الظالم لنفسه: ما أحسبُ القيامة قائمة، ولئن قامت ورددتُ إلى الله حيّا بعد الممات فإن لي عنده خيرا من المال والغنى والسعة والعافية، أو لي عنده الجنة.

قوله: {فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا} ذلك وعيد من الله لهؤلاء الظالمين الخاسرين الذين يتمنون على الله الأباطيل – بأنه مُخْبِرُهم يوم القيامة بما عملوه في الدنيا من المعاصي والسيئات، وهو سبحانه مجازيهم على ذلك بما يستحقونه من سوء الجزاء وغليظ العقاب في النار.

٥١ - (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

قوله: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} إذا أنعم الله على الإنسان الخاسر الظالم لنفسه بشيء من النعمة تولى معرضا عن طاعة الله وصَدَّ بوجهه عما دعوناه إليه من إيمان وتوحيد {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أي بعد بناحيته، نأى ينأى نأيًا أي بعد، وتناءوا أي تباعدوا

٣٥ والمعنى: أنه تباعد وذهب بنفسه مستكبرا متعظما.
قوله: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} إذا أصاب الظالم الخاسر شيء من المكاره والنقم لجَّ في التضرع والاستغاثة فهو ذو {دُعَاءٍ عَرِيضٍ} يطيل في الدعاء إلى الله إذا حزبه البلاء أو أصابته شدة من الشدائد ٣٦.

٥٢ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}.

أي قل لهؤلاء المكذبين الخاسرين يا محمد: أرأيتم إن كان هذا القرآن حقا وأنه من عند الله ثم كفرتم به، أفَلَسْتم حينئذ مجانبين للحق، ومبتعدين عن الصواب؟
وكيف ترون حالكم وأنتم مبطلون ظالمون؟.

قوله: {مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أي إذا كانت هذه حقيقة حالكم من المعاندة والغرور والاستكبار عن اليقين فمن إذن أشد ذهابا عن سواء السبيل، وأعظم بعدا من الطريق الحق المستقيم؟ أو من هو أشدّ مفارقة لعقيدة التوحيد وأعظم مخالفة لمنهج الله الحكيم، وبعيدا من الرشاد والسداد؟ إنه ليس من أحد أضل منكم - وذلك لفرط شقاقكم وعنادكم وتفريطكم فيما أنزل إليكم من الحق الساطع المستبين.

٥٣ - (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قوله: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ} {الآفاق}، جمع أفق وهو الناحية ٣٧ يعني سنري الناس دلائل وحدانيتنا وقدرتنا المطلقة في آفاق السماء وسائر نواحي الأرض وأطرافها، أما الآيات في آفاق السماء فهي العلامات الفلكية من الكواكب والنجوم والليل والنهار والبرق والرعد والأضواء والظلمات، وكذلك الآيات في مناحي الأرض من البحار والأنهار والأشجار والأمطار والصواعق والسهول والجبال والأودية والوهاد والصحاري، وغير ذلك من الدلائل والآيات التي تقرع الحس وتدير الرأس فينقلب مبهوتا مذهولا، قوله: {وَفِي أَنْفُسِهِمْ} وفي نفس الإنسان آيات مذهلة ومثيرة وعجاب، وهي كثيرة وكبيرة ومختلفة، منها تكوين الأجنّة في الأرحام بعد أن كانت نطفا قليلة مهينة - ثم ما يمرّ به ذلك من مختلف المراحل من التطور انتهاء بالخروج إلى الدنيا عن طريق الولادة ليتقلب الإنسان بعد ذلك في مدارج النمو والتطور، من الطفولة والرضاع ثم الشباب والكهولة ثم الكبر والهرم ثم الموت والبلى إلى ذلك من آيات في مركبات الإنسان البدنية والعصبية والنفسية والروحية والذهنية، لا جرم أن ذلك كله آيات ظاهرات باهرات تشهد بعظمة الصانع الحكيم وأنه الخالق الموجد المقتدر.

قوله: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} الضمير في {أنّه} يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى الله عز وجل، وقيل: إلى الإسلام، وقيل: إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - والأظهر أن المراد هو القرآن؛ فإنه فيما ينتشر في آفاق الكون والطبيعة والنفس الإنسانية من آيات عجاب ودلائل كبريات، يزجي بقاطع البرهان على أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله ليكون هداية للناس وليستنقذ البشرية من ظلمات الباطل إلى نور الحق والعدل واليقين.

قوله: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} الجملة مسوقة لتوبيخ الظالمين والمشركين الغافلين عن الحق، فالهمزة للإنكار والتوبيخ، والباء في قوله: {بربِّك} زائدة، وربك، فاعل للفعل {يَكْفِ} ٣٨.

والمعنى: أو لم يكفهم ربك بما بيَّنَهُ لهم من الأدلة والحجج في الكون والطبيعة وفي أنفسهم على أن الله حق وأنه شاهد على أعمالهم وأفعالهم وعلى صدق ما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم، أو على أن ربك عليم بالأشياء ولا يغيب عنه منها شيء في الأرض ولا في السماء.

٥٤ - (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ)

قوله: {أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ} إن هؤلاء المشركين في شك من قيام الساعة، فهم لا يحذرون الآخرة ولا يعبئون بقيامها؛ لأنهم مرتابون فيها.

قوله: {أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} الله محيط علمه بكل شيء، أو أحاطت قدرته بكل شيء، فسائر الأشياء والخلائق في قبضته وتحت علمه وقهره وقدرته - وفي ذلك من التخويف والوعيد ما لا يخفى ٣٩.

٤٢ سورة الشورى:

سورة الشورى:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية باستثناء أربع آيات - وهي تتضمن فيضا من عظيم الحقائق والأوامر والعبر والأخبار، كالتذكير بجلال الله وعظيم شأنه وسلطانه، والتنبيه إلى جلال القرآن الذي أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لينذر به يوم الجمع لا ريب فيه - وفي السورة بيان باتفاق النبيين وأديانهم على عقيدة التوحيد الخالص لله وحده، وإنْ اختلفت شرائعهم ومناهجهم تبعا لاختلاف الأعراف والملابسات والأزمان.

وفي السورة تنديد بالذين يستعجلون بقيام الساعة، على سبيل الإنكار والاستسخار - مع أن الساعة حقيقة كونية راسخة لا ريب فيها.

وتتضمن السورة بيانا بأن الناس من حيث الاهتمامات والأهواء قسمان:

أولهما: الذين يبتغون حرث الآخرة: فأولئك يضاعف الله لهم حرثهم ويزيدهم من فضله.

وثانيهما: الذين يبتغون حرث الدنيا، أي زينتها ومتاعها، فأولئك يعطيهم الله منها ما شاء، وهم من نعيم الآخرة محرومون - وتتضمن السورة قاعدة الشورى بين المسلمين لترسّخ فيهم مبدأ التشاور وعدم الاستئثار بالرأي.

وفي السورة تقرير راسخ لحقيقة العدل وما يتلوه من جمال الفضل، في العقوبات؛ فقد شرع الله عقوبة القصاص حقًّا للمعتدى عليه إلا أن يعفو عن المعتدي الجاني - ومجرد الاقتصاص من الجاني عدل، لكن العفو عنه سخاء وصبر وترفع واستعلاء على الهوى وحفظ النفس وذلك فضل - وهو قوله عزّ من قائل: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} إلى غير ذلك من عظيم المعاني والأخبار والحكم كالتنبيه إلى يوم القيامة وما يتخللها من البلايا والأحزان والأفزاع.

١ - (حم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: {حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}.

تقدم الكلام عما قيل في معاني حروف الهجاء من فواتح بعض السور - وجملة القول في ذلك أن الله أعلم بما يراد في هذه الحروف.

٢ - (عسق)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: {حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}.
تقدم الكلام عما قيل في معاني حروف الهجاء من فواتح بعض السور - وجملة القول في ذلك أن الله أعلم بما يراد في هذه الحروف.
٣ - (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
والكاف، في اسم الإشارة {كذلك} في موضع نصب صفة لمصدر محذوف؛ أي مثل ذلك الإيحاء الذي أوحي إلى سائر النبيين من الكتب السماوية يوحى إليك في هذه السورة - أو مثل ذلك الوحي، أو القرآن يوحي إليك وإلى الرسل من قبلك {اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} على أن قوله: {يُوحى} يقرأ بكسر الحاء - ولفظ الجلالة {الله} مرفوع على أنه فاعل ١ - والمعنى: ما تتضمنه هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحى مثله إلى الرسل من قبلك - و {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، صفتان لله عز وجل؛ فهو سبحانه القوي القاهر، منيع الجناب، وهو سبحانه ذو الحكمة البالغة في أقواله وأفعاله وتدابيره.
٤ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)
قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} الله الذي بيده ملكوت كل شيء؛ فهو مالك السماوات والأرض وهن جميعا تحت قهره وقدرته {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} الله سبحانه عالي الشأن، رفيع الدرجات، وله العظمة والكبرياء.
٥ - (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
قوله: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ} {يَتَفَطَّرْنَ} أي يتشققن، من الانفطار وهو الانشقاق - أو من الفطر، وهو الشق - وتفطّر بمعنى تشقق ٢ والمعنى: أن السماوات والأرض يَكَدْنَ يتشققن من علوّ شأن الله وبالغ عظمته - وقيل: تكاد كل سماء تتفطر فوق التي تليها من فظاعة قول المشركين: {اتخذ الله ولدا} وقيل: يتشققن من ثقل الملائكة عليها - وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد " وأطّت، بالتشديد أطًّا وأطيطا؛ أي صوَّتت قالوا: شجاني أطيط الركاب - وأطّ البطن أي صوّت من الجوع، أو من شرب الماء عند الامتلاء - وأطّ الظهر، أي صوّت من ثقل الحمل - وأطّت الإبل: أنَّت من تعب أو ثقل حمل ٣.
ولئن قيل: لم قال: من فوقهن؛ فإنه يُجاب بأن أعظم الآيات وأدلها على جلال الله وعظمته، فوق السماوات، وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجَّة بالذكر والتسبيح والتقديس من حول العرش - فلذلك قال: {يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ} كذلك قال الزمخشري في الكشاف.
قوله: {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} الملائكة عاكفون على التسبيح لا يفترون - وتسبيح الله يراد به تنزيهه عما لا ينبغي لجلاله من النقائص والعيوب - وهم كذلك يحمدون الله على الدوام لا يسأمون - وذلك من التحميد، وهو عبارة عن وصف الله بأنه المحمود الذي ينبغي له دوام الشكر والثناء والتمجيد؛ فهو سبحانه المتفضل المنَّان بكل الخيرات والبركات والنعم.
قوله: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} الملائكة عباد الله مكرمون، وهم أطهار أبرار، مخلوقون من نور، فهم بذلك مجبولون على الخير والبرّ والطهر والتقوى، وهم من دأبهم الاستغفار للذين في الأرض من المؤمنين، يسألون الله لهم التوبة والمغفرة والتجاوز عن سيئاتهم وذنوبهم، والله جلت قدرته أكرم الأكرمين؛ فهو غفار للذنوب والخطايا، قابل للتوب من عباده المنيبين المستغفرين {أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الله غفّار للذنوب جميعا، وهو سبحانه رحيم بعباده فلا يعاجلهم، بالعقاب قبل التوبة، ولا يعاقبهم بعد أن يتوبوا.
٦ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)
قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} يريد بذلك المشركين أن يتخذوا من دون الله آلهة مزعومة مفتراة، يتولونها ويعبدونها {اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} الله يحفظ أعمال هؤلاء المشركين ويحصيها عليهم ليجازيهم بها يوم القيامة {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} أي

لست أنت يا محمد حفيظا على أعمالهم ولا رقيبا عليها - إنما أنت منذر، فليس عليك إلا البلاغ وإنما علينا الحساب ٤.

٧ - (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}.

الكاف في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك الإيحاء أوحينا إليك هذا القرآن - والمعنى: أنزلنا إليك قرآنا عربيًّا ليكون بلسان قومك كما أرسلنا كل رسول من قبلك بلسان قومه {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} أي لتبلّــغ أهل مكة دعوة الحق فتدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده، ومجانبة الشرك والوثنية - وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أفضل مما سواها من المدن - وذلك لشرفها وقداستها وعظيم حرمتها - ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو واقف في سوق مكة: " والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت " فالله عز وجل يبين في ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه وقد أوحى الله إليه القرآن بيّنا جليًّا لينذر به أهل مكة ومن حولها من سائر البلاد شرقا وغربا.

قوله: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} أي لتحذّر الناس يوم القيامة فيخشعوا ربهم ويبادروا بطاعته وتوحيده والتزام شرعه ومنهاجه - وسمي يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين على صعيد واحد، من أجل الحساب - وهو يوم حافل ومشهود وكائن لا محالة فلا شك في وقوعه البتة - وإذا وقع كان الناس فريقين: فريق ناج وسعيد - وفريق هالك وخاسر - وهو قوله: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} ففريق النجاة والسعادة يلجُون الجنة ليقيموا فيها آمنين منعَّمين - وفريق الخسران والشّقوة يلبثون في السعير ماكثين حيث النار الحارقة والعذاب الواصب.

٨ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

قوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} الأمة، يراد بها ههنا الطريقة والدين والنحلة ٥ - يعني: لو شاء الله لجعل الناس كلهم على دين واحد، إما على الهداية أو على الضلالة - ولكن الناس مفترقون على أديان وملل مختلفة من الهدى والضلال تبعا لمشيئة الله الأزلية التي تسبق كل عزم أو إرادة - ولله في ذلك الحجة البالغة والحكمة التي لا يدركها سواه - وهو ما يقتضيه قوله: {وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}.

قوله: {وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} {الظالمون} مرفوع على أنه مبتدأ، وخبره {مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} أي ليس للكافرين الخاسرين يوم القيامة من ولي وهو المحب أو الصديق أو التابع أو الحليف ٦ ليس لهم من مثل هؤلاء من يتولاهم ويدفع عنهم العذاب {وَلاَ نَصِيرٍ} ولا معين ينصرهم أو ينجيهم من العقاب ٧.

٩ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُ وا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)}.

ذلك إنكار من الله على المشركين الذين يعبدون من دونه آلهة مزعومة مفتراة، مبيّنا أنه هو وحده الولي القادر الذي لا تنبغي العبادة أو الإلهية لأحد سواه - وهو قوله: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} {أَمِ} المنقطعة بمعنى بل، والهمزة المفيدة للإنكار أي بل اتخذ هؤلاء الكافرون أولياء من دون الله يتولونهم وذلك على سبيل الاستفهام الإنكاري.

قوله: {فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ} الله وليُّ أوليائه فليتخذوه وليًّا - وليس ما اصطنعوه من آلهة مفتراة، تجديهم نفعا، أو تدفع عنهم ضرًّا أو شرًّا؛ بل الله هو الولي وهو الحافظ والنصير {وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى} الله الذي يبعث الموتى من قبورهم يوم القيامة ليلاقوا الحساب {وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الله الخالق القادر، لا يعجزه شيء في هذا الكون، ولا يعزُّ عليه أن يفعل ما يريد.
١٠ - (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)
قوله: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} يبين الله قول رسوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين: إذا خالفكم المشركون وأهل الكتاب في شيء أو في أمر من أمور الدنيا فقولوا لهم: إنما حكم ذلك إلى الله وهو وحده يقضي بيننا وبينكم وقد قضى سبحانه أن الدين عند الله الإسلام.
وقيل: هذا عام في كل ما اختلف فيه الناس من أمر الدين، فحكمه ومرجعه إلى الله ورسوله؛ يعني: ما اختلفتم فيه من أمر أو تأويل آية فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
قوله: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي} {ذلكم} في موضع رفع بالابتداء - و {اللَّهُ}، عطف بيان - و {ربي} صفة لله - وخبر المبتدأ {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} ٨ الله الذي هذه صفاته من إحياء الموتى والحكم بين المختلفين، والقادر على كل شيء هو وحده ربي وليس ما تزعمونه من آلهة موهومة مفتراة.
قوله: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} إنما اعتمادي عليه دون غيره من العباد فقد فوضت أمري كله إليه وعليه وحده الاعتماد والتكلان {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي أرجع إليه في كل أمري وأبوء إليه بذنوبي.
١١ - (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)
قوله: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فاطر، بالجر، بدل من الضمير في {عليه} وبالرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هو فاطر السماوات الأرض ٩ أي خالقهما ومبدعهما.
قوله: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} أي خلق لكم من أنفسكم إناثا - والمراد بذلك حواء، فقد خلقت من نفس آدم - وقيل: خلق لكم من أنفسكم نسلا بعد نسل {وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} والمراد بالأزواج الثمانية؛ إذ جعل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، ذكورا وإناثا من كلا الصنفين.
قوله: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} أي يخلقكم في ذلك الخلق ذكورا وإناثا نسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل من الناس والأنعام - قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الكاف، زائدة للتوكيد؛ أي ليس مثله شيء؛ فهو خالق الأزواج كلها؛ ولأنه الفرد الأحد الصمد الذي ليس له في الكون نظير.
قال القرطبي في هذا الصدد: والذي يعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعَلِيّ صفاته لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يُشَبَّهُ به.
ونقل عن الواسطي قوله: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ - وجَلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة - وهذا مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم.
وقال الرازي في ذلك: احتج علماء التوحيد قديما وحديثا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسما مركبا من الأعضاء والأجزاء، وحاصلا في المكان والجهة - وقالوا: لو كان جسما لكان مثلا لسائر الأجسام فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل بصريح قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.
قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} يصف الله نفسه بأنه سميع لكل ما ينطق به الخلق، وأنه البصير فيرى ما يقع من أعمال وأحداث ولا يخفى عليه من ذلك شيء فيحاسب العباد على كل ما فعلوه من الإحسان والإساءة.
١٢ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {مقاليد} جمع مقليد، وهو المفتاح ١٠ أي بيده مفاتيح السماوات والأرض أو خزائنهما - فهما في قبضته وتحت قهره وسلطانه.

قوله: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي يوسع الله الرزق من فضله على من يشاء من عباده، فيزيد له في الخير والبسطة {ويقدر} أي ويقتّر على من يشاء منهم فيضيّق عليه ويفقره.

قوله: {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} الله عليم بمن يصلحه البسطة في الخير والسعة في الرزق، ومن يفسده ذلك - ويعلم من يصلحه التقتير والتضييق في الرزق، ومن يفسده ذلك - إن الله لذو علم بذلك كله؛ فهو سبحانه خالق الإنسان وهو عليم بحقيقة طبعه، بل هو أعلم بالإنسان من نفسه ويعلم ما يصلحه من الغنى أو الفقر ١١.

١٣ - (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ)

قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ}.

{شرع} أي سنّ وأوضح، شرع في الأمر أي خاض فيه - والشريعة، وهي مورد الناس للاستفتاء، سميت بذلك لوضوحها وظهورها، وجمعها شرائع - وشرع الله لنا كذا يشرعه: أظهره وأوضحه ١٢.

فقد شرع الله لهذه الأمة ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وشرع لهم أي سنّ ونهج لهم - ثم فسَّر الشروع الذي اشترك فيه هؤلاء المرسلون من أولي العزم بقوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} في موضع نصب، بدل من قوله: {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} ١٣ والمراد إقامة دين الله وهو الإسلام - وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وسائر أركان العقيدة وأجزائها وغير ذلك من ضروب العبادات الأساسية مما يكون المرء بإقامته مسلما - ولم يرد الشرائع التي هي مصالح العباد فإنها مختلفة متفاوتة - فقد قال فيها: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} وكأن المعنى: ووصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم القتل والزنا وإذاية الخلق وغير ذلك من وجوه الأخلاق والعبادات الأساسية الثابتة - فقد شرع الله ذلك كله دينا واحدا وملة متحدة اتفقت عليها كلمة الأنبياء ومللهم جميعا - ولذلك قال سبحانه {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} أي اجعلوه قائما، واعملوا بما فيه دائما أبدا، من غير خلاف فيه ولا اضطراب - فهو واحد ثابت متجانس لا يتغير ولا يختلف - وبذلك وصى الله جميع النبيين عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والاتفاق والجماعة - ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، فدينهم من حيث معانيه الركينة الثوابت واحد لا يختلف - وفي الحديث: " نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد " والمراد به القدر المشترك بين النبيين جميعا وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله سبحانه: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}.

قوله: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} أي شق على المشركين المكذبين، وعَظُمَ عليهم {مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} يا محمد من توحيد الله ومجانبة الشرك والأوثان - وقيل: اشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله.

وذلك هو ديدن الظالمين في كل زمان؛ فإنهم يشقُّ عليهم أن يسمعوا كلمة الحق والتوحيد والإخلاص، أو تشمئز قلوبهم وطبائعهم السقيمة المعوجة من دعوة الإسلام - أولئك هم الأشرار التائهون من مرضى الطبائع، والنفوس الشوهاء.

١٤ - (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا

الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)
قوله: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} المراد بالعلم ههنا، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان المشركون يتمنون أن يُبعث فيهم نبي - فلما بعث الله فيهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وذلك هو تَفَرُّقهم - وكان ذلك منهم {بَغْيًا بَيْنَهُمْ} فهم أهل ظلم وإيذاء وكيد - وقيل: المراد أمم النبيين السابقين، فقد اختلفوا فيما بينهم لما طال عليهم الأمد، فآمن قوم وكفر قوم - وقيل: المراد أهل لكتاب من اليهود والنصارى فقد كذّبوا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم لما جاءهم - كما قال سبحانه: {وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة} فقد قال المشركون: لم خُصَّ محمد بالنبوة؟ أما أهل الكتاب فقد حسدوه {بَغْيًا بَيْنَهُمْ} يعني بغيا من بعضهم على بعض حبًّا في الظهور والاستعلاء وطلبا للرياسة - فما كان تفرُّقهم لقصور في الحجة والبيان - فقد كانت الحجة ظاهرة جَلِيَّة، والبيان واضحا ساطعا - ولكن كان تفرّقهم للظلم وإيثارا للشهوة والاستعلاء بالباطل.
قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي لولا قول من الله سبق أن لا يعاجلهم بالعذاب في الدنيا بل يؤخره {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} وهو يوم القيامة {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي لعجل بينهم العذاب - أو لأنزل عقابه بهؤلاء المتفرقين المختلفين في الحق فعُوقبوا قبل الممات جزاء ظلمهم وضلالهم.
قوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ} وهم أهل الكتاب الذين آتاهم الله التوراة والإنجيل من بعد هؤلاء المختلفين في الحق {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} إنهم لفي شك من دين الله الحق وهو دين التوحيد، الذي وصّى به نوحا وأوحاه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم {مُرِيبٍ} أي موقع في الريبة والشك ١٤.

١٥ - (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}.
هذه الآية من عظيمات الآيات المشتملة على فيض من المعاني الجليلة العظام - وهي تتضمن عشرا من المعاني المستقلة - فقالوا: لا نظير لها في هذه الصفة إلا آية الكرسي، فهي كذلك عشرة فصول كهذه - وتلكم هي الآيات وهي: قوله: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ} أي ادع إلى ما أوحينا إليك من الكتاب الحكيم، والدين القويم، دين الإسلام الكامل العظيم، فهو جماع الخير والحق والصلاح والرحمة بما حواه من قواعد وأسس ثوابت تراعي فطرة الإنسان وتحقق للبشرية كامل السعادة والنجاة والصلاح في المعاش والمعاد.
قوله: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} أي استقم على عبادة الله وطاعته والامتثال لأوامره - أو استقم على تبليغ الرسالة - رسالة الإسلام العظيم، بعقيدته الراسخة المرغوبة وتشريعه الكبير الشامل.
قوله: {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} يحذِّر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في كل زمان، أهواء المشركين والظالمين والمضلين - يحذِّرُ الله عباده المؤمنين على مرِّ الزمن شرَّ الافتتان بالطغاة والمفسدين والمجرمين من الناس - أولئك الذين يريدون للإسلام أن يتزعزع ويتبدَّد وينهار، وللمسلمين أن يضعفوا ويتهافتوا تحت ضربات الضلال والفتنة والإغواء لكي يزيغوا عن دينهم الإسلام فيركبوا متن الباطل والإباحية والردة جريا وراء الكافرين على اختلاف مللهم وأهوائهم وأحزابهم ومسمياتهم.
يحذّر الله المؤمنين على الدوام أهواء الكافرين المضلين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين بالغ الكيد.
قوله: {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ} أي صدَّقت بسائر الكتب السماوية المنزلة من عند الله على النبيين والمرسلين - فلا نفرِّقُ

في ذلك بين أحد منهم؛ فكلهم مرسلون صادقون مؤتمنون.
قوله: {وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} أمرني ربي أن أعدل بينكم في الحكم فأقضي بالحق والصدق - ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا تحتذي به البشرية في العدل وإحقاق الحق بين الناس - فقد كان أبعد الخلْق عن الحيف والجور - ولم يعرف الثَّقَلان من أهل هذه الأرض أحدا أعدل وأصدق وأعظم استقامة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قوله: {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} أي الله مالكنا ومالككم - وهو يخاطب بذلك أهل الكتابين، والتوراة والإنجيل - والمراد أن يقال لهم: إننا مقرّون لله بالوحدانية والربوبية فهو وحده المعبود لا إله غيره.
قوله: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} أي لنا جزاءُ ما اكتسبنا ولكم جزاء ما اكتسبتم - فنحن براء من أعمالكم وأنتم براء من أعمالنا.
قوله: {لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} أي لا خصومة بيننا وبينكم - فقد ظهر الحق واتضح البرهان فلم يبق بعد ذلك إلا العناد منكم - وليس بعد العناد من حجة أو خصومة أو جدال.
قوله: {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} إلى الله المرجع والمعاد يوم الحساب ١٥.
١٦ - (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)
قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ}.
ذلك وعيد من الله للمشركين الذين يصدون الناس عن عقيدة التوحيد، ويفتنون المسلمين عن دين الإسلام - أولئك الظالمون الفتانون حجتهم باطلة وسقيمة وهم هالكون خاسرون - وذلك قوله: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} أي الذين يخاصمون المؤمنين بعد ما استجابوا لله فأسلموا – ويجادلونهم بالحجج الكاذبة الواهية ليضلوهم ويصدوهم عن دينهم، دين التوحيد والطهر والفضيلة، دين الإسلام {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} أي حجتهم عند الله باطلة؛ فهي مستهجنة وزائلة؛ لأنها لا ثبات لها - دحضت الحجة دحضا أي بطلت، ودحض الرجل أي زلق ١٦.
قوله: {وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ} أي غضب من الله ينزل بهم في الدنيا {وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي يعذبهم الله عذابا شديدا يوم القيامة.
وقيل: إن هؤلاء المشركين الذين جادلوا المؤمنين ليصدوهم عن الإسلام، قوم توهموا أن الجاهلية تعود - وقيل: المراد بهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانت محاجتهم للمسلمين قولهم لهم! نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم - وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة على غيرهم؛ لأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد النبيين - وكان المشركون من غير أهل الكتاب يقولون للمسلمين: أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديًّا فنزلت الآية.
١٧ - (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)
قوله: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} أنزل الله القرآن وسائر الكتب السماوية {بالحقّ} أي بالصدق {والميزان} يعني: وأنزل الميزان وهو العدل ليقضي بين الناس بالحق والإنصاف وبما أمر الله به في كتابه الحكيم.
قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} أي ذات قُرب - أو لعل وقت الساعة قريب ١٧.
والمعنى: وأي شيء يعلمك، لعل الساعة قد دنا قيامها - ولم يُخبره أَيانَ تقوم لما في إخفاء أوانها من ترهيب منها وتزيد في الحياة الدنيا وزينتها، وترغيب في طاعة الله والسعي الحثيث لنيل مرضاته.
١٨ - (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ)

قوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا} والمراد ههنا المشركون المكذبون بيوم الدين، فإنهم يستعجلون بقيام الساعة على سبيل التهكم والاستسخار، وهم يظنون أن الساعة غير قائمة - وذلك بخلاف المؤمنين الصادقين فإنهم موقنون بقيام الساعة وأن الناس مجموعون لرب العالمين ليلاقوا الحساب والجزاء - وهو قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا} أي وَجِلون من مجيئها، خائفون من قيامها - وهذه هي حال المؤمنين الصادقين، إذ يخشون ربهم على الدوام ولا يبرح الخوف قلوبهم من هول القيامة وفُجاءتها ومن شدة يوم الحساب - وهم لا يدرون ما الله حينئذ فاعل بهم - نسأله سبحانه النجاة.

قوله: {وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} المؤمنون موقنون أن الساعة قائمة، وأنها آتية لا ريب فيها.

قوله: {أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ} ذلك تأكيد من الله بأن الذين يخاصمون في قيام الساعة ويرتابون في حقيقتها، أولئك سادرون في الغي والباطل، تائهون في الجهالة والضلالة، موغلون في الغرور ومجانبة السداد ١٨.

١٩ - (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

قوله تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}.

يبين الله لطفه بعباده وإحسانه إليهم، إذ رزقهم من واسع فضله وجزيل بركاته وكرمه - وأنزل إليهم الكتاب فيه تبصرة لهم وهداية وبعث فيهم نبيين من أنفسهم لينذروهم لقاء الله ويحذروهم يوم المعاد وليستنقذوهم من خُسران الدنيا والآخرة.

فقال سبحانه في كلماته الربانية العجيبة: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} {لطيفٌ} من اللطف وهو الرفق - واللطف من الله معناه التوفيق والعصمة - ١٩

وهذه حقيقة راسخة تنطق بها كلمات الله الفُضلى، ويفيض بها قوله الحق والصدق وهو أن الله رفيق بالعباد وحفيٌّ بهم فلا يظلمهم ولا يحيف عليهم؛ بل إنه عز وعلا قد أسبغ عليهم رحمته وفضله وإحسانه ما أقام به عليهم الحجة - ومن جملة لطف الله بالعباد وبالغ رأفته لهم، ذلك الرزق الذي جعله لهم ليقتاتوا ويعيشوا مطمئنين في الأرض، فلا تَقُضُّهم القلة ولا يعُضُّهم الجوع، سواء فيهم المؤمنون والكافرون - فكلهم ينالون حظهم من الرزق الذي كتب الله لهم في هذه الدنيا.

وهذا هو قوله: {يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ} يرزق الله جميع الناس - ورزقُهُ لهم على أقدار متفاوتة - فيوسع على هذا ويضيّقُ على هذا - وفي ذلك حكمة لله بالغة يعلمها هو سبحانه.

قوله: {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} الله القوي الجبار، الذي تهبط تحت قهره وجبروته كل القوى - وهو سبحانه العزيز - أي المنيع الجناب الذي لا يغْلبُهُ غالب.

٢٠ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)

قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} الحرث معناه كسب المال - وجمعه أحراث ٢٠ وفي الأثر: احرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.

والمعنى: من كان يبتغي بعمله وما رزقناه من الكسب، الدار الآخرة فأطاع الله وأدى ما عليه من حقوق، نزدْ له من الثواب أضعافا كثيرة فنجعل له بالواحد عشرا إلى سبعمائة ضعف.

قوله: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا} من كان يبتغي بما آتاه الله من المال وسعة الرزق، رياسة الدنيا وزينتها ومتاعها ولا يسعى إلا من أجل هذه العاجلة {نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} أي لا يحرم منها بل يُعطى منها ما شاء الله أن يعطيه، ولكنه لا حظ له في

الآخرة.

قال قتادة في هذا الصدد: إن الله يُعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يُعطي على نية الدنيا إلا الدنيا.

وجملة القول في ذلك، أن من ابتغى الدنيا وحدها أعطاهُ الله منها ما شاء، دون الآخرة فهو محروم منها - ومن ابتغى الآخرة وحدها أعطاه الله حسن جزائها وأُعطيَ من الدنيا ما شاء اللهُ له أنْ يُعطى.

٢١ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} همزة {أَمْ} للاستفهام والتقرير والتقريع - والمراد بشركائهم هنا آلهتهم المزعومة - وقيل: الشياطين الذين زينوا لهم الشرك وإنكار القيامة، والعمل للدنيا، وقيل: شركاؤهم، يعني أوثانهم.

والمعنى: أم لهؤلاء المشركين بالله شركاءُ مضلون ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح اللهُ لهم ابتداعه - إن هؤلاء المشركين المكذبين لا يتبعون ما شرع الله من الدين الحق بل إنهم يتبعون ما شرعه لهم شركاؤهم من الشياطين على اختلافهم سواء كانوا من الجن أو الإنس.

قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي لولا قضاء الله السابق بتأجيل العقاب، أو لولا وعد الله بأن الفصل بين العباد يكون يوم القيامة {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي لعجل العقوبة للظالمين في الدنيا {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أعد الله للمشركين المكذبين عذابا أليما يصلونه يوم القيامة.

٢٢ - (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

قوله: {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا} {مُشْفِقِينَ} منصوب على الحال من الظالمين؛ لأن {تَرَى}، هنا من رؤية العين لا القلب ٢١ - وذلك وصف لحال الخاسرين يوم القيامة؛ إذ يغشى قلوبهم الخوف والذعر جزاء كفرهم وعصيانهم.

والمعنى: ترى الكافرين المكذبين يوم القيامة يا محمد خائفين وجلين من عذاب الله بسبب كفرهم وعصيانهم في الدنيا {وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ} وما يخشونه من العذاب نازل بهم ليصلوه لا محالة.

قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ} المؤمنون المطيعون لله، المذعنون لجلاله بالخضوع، يقيمون في روضات الجنات فيهنئون فيها ويتنعَّمون - وروضات الجنات جمع روضة وهي الموضع الذي يكثر فيه النبات والخضرة {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} لهم في الجنة ما تشتهيه أنفسهم وتلذُّ به أعينهم من الطيبات والنعم.

قوله: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} الإشارة عائدة إلى ما ذكر من التنعم والتلذذ والسرور في روضات الجنات - وذلك هو الفضل من الله وقد وصفه بأنه كبير؛ لأنه في غاية الكمال من النعمة؛ إذ لا يعْدِله فضل ولا تساويه نعمة من نعم الدنيا - ٢٢

٢٣ - (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

قوله تعالى: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

يبشر الله عباده المؤمنين الصالحين بالنعيم المقيم في روضات الجنات - وهو قوله: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} والإشارة عائدة إلى الفضل الكبير - وثمة حذف - والتقدير هو: ذلك الذي يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فقد عجَّل الله لهم البشرى ليتعجلوا السرور ويزدادوا رغبة في الطاعة وعمل الصالحات.

قوله: {قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} قال ابن عباس: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس في يديه لذلك سعة فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله تعالى به وهو ابن أختكم وتنوبه نوائب وحقوق وليس في يده لذلك سعة، فاجمعوا له من أموالكم ما لا يضرُّكم ففعلوا ثم أتوا به فقالوا: يا رسول الله إنك ابن أختنا وقد هدانا الله تعالى على يديك وتنوبك نوائب وحقوق، وليست لك عندنا سعة فرأينا أن نجمع لك من أموالنا فنأتيك به فتستعين على ما ينوبك وهو هذا فنزلت هذه الآية.

وقيل: اجتمع المشركون ف مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون محمدا صلى الله عليه وسلم يسأل على ما يتعاطاه أجرا - فأنزل الله تعالى هذه الآية ٢٣ {قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لقريش: لا أسألكم على دعائي لكم وتبليغي إياكم رسالة الله أجرا أو جعلا - والجعل بالضم، هو ما جُعل للإنسان من شيء على فعل - وكذا الجعالة - ٢٤

قوله: {إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} {المودّة} منصوب على الاستثناء من غير الجنس ٢٥ والمعنى: إلا أن تودوني لقرابتي منكم فتحفظوني - قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسط الناس في قريش - فليس بطن من بطونهم إلا قد ولده - فقال الله له: {قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي لا أسألكم ثوابا ولا نفعا إلا أن تودوني في قرابتي منكم فتراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني - والمراد بالقربى هنا، قرابة الرحم - فكأنه قال لقريش: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة وتذكّرنا هذه الآية بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجوب حبهم وإكرامهم وعدم الإساءة إليهم بقول أو فعل - وأيما إساءة من ذلك على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الأبرار الأطهار، فإنها (الإساءة) عصيان وخطيئة - وأهل بيته عليه الصلاة والسلام من ذرية طاهرة فُضْلى بل إن هذا البيت المصون الطهور لهو أشرف بيت على وجه الأرض، ولاسيما إن كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة، ملتزمين شرع الله وأحكام دينه الحنيف.

قوله: {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا} {يَقْتَرِفْ} من الاقتراف وهو الاكتساب - يعني ومن يكتسب حسنة، وهو أن يعمل عملا فيه طاعة لله {نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا} أي نضاعف له الحسنة بعشر أمثالها فأكثر {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} غفور لذنوب عباده، شكور لحسناتهم وطاعاتهم.

٢٤ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} {أَمْ} هي المنقطعة، أي بل أيقولون افترى محمد على الله كذبا بدعواه النبوة - والاستفهام للإنكار والتوبيخ - وافترى من الافتراء وهو الاختلاق - وافتراء الكذب اختلاقه - وهكذا يهذي المشركون المكذبون إذ يقولون إن محمدا – بما ادعاه من نبوة – قد اختلق الكذب على الله.

قوله: {فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} ذلك جواب من الله لهؤلاء المكذبين السفهاء - والمعنى: لو افتريت على الله كذبا يا محمد – كما يزعم هؤلاء الضالون – لطبع الله على قلبك فأنساك القرآن.

قوله: {وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ} أي يذهب الله بالباطل ويمحقه {وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} المراد بالحق دين الإسلام، وهو دين الله القويم جعله الله هداية للعالمين ورحمة - والله يثبت هذا الحق بكلماته وهي القرآن الكريم - هذا الكلام الرباني المعجز الذي جعله الله نورا تستضيء به البشرية في هذه الدنيا كيلا تضلَّ أو تعثر أو تشقى.

قوله: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} الله يعلم ما تكنه صدور عباده فلا عليه من ذلك شيء - وفي ذلك إشعار من الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه لو حدثته نفسه أن يفتري على الله كذبا لطبع الله على قلبه وأذهب منه ما آتاه من وحي - وذلك ليستيقن المؤمنون، ويعلمَ الكافرون أن القرآن منزل من عند الله وليس في مستطاع أحد أن يفتري على الله منه شيئا - ٢٦

٢٥ - (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)}.

يخبر الله في هذه الآيات عن عظيم فضله وبالغ مَنّه وكرمه ورحمته بالعباد، إذ يعفو عن الذنوب والخطايا ويتجاوز عن سيئات المذنبين ويغفر للنادمين التائبين ما قارفوه من المعاصي والزلات مهما كثرت - ذلكم الله المتفضل الرحيم المنّان - وهو قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} يقبل الله توبة التائبين الذين قارفوا ذنوبا ثم رجعوا إليه نادمين مستغفرين - والتوبة تعني الندم على فعل المعاصي، والعزم على عدم الرجوع إليها {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} العفو، معناه التَّرك والمحو - عفا عن ذنبه أي تركه ولم يعاقبه عليه - عفا الله عنك أي محا ذنوبك - وعفوت عن الحق أي أسقطته - عافاه الله أي محا عنه الأسقام - ٢٧

قوله: {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} الله عليم بكل ما يفعله العباد أو يقولونه من خير أو شر - وهو جل وعلا لا يعزب عن علمه أيُّما خبر من قول أو فعل أو خَبْءٍ مستور.

٢٦ - (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

قوله: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} {الذين} في موضع نصب على أنه مفعول يستجيب، أي ويستجيب الله للذين آمنوا، أي يجيب لهم ٢٨.

والمعنى: أن الله يستجيب الدعاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات وقيل: يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم ولإخوانهم، أي يجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض.

قوله: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي يعطيهم الله من حسن الجزاء ما لم يسألوه وقيل: يعطيهم الشفاعة في إخوانهم، وإخوان إخوانهم.

وروي عن عبد الله (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} قال: " الشفاعة لمن وجبت لهم النار، ممن صنع إليهم معروفا في الدنيا ".

قوله: {وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} ذلك وعيد من الله للكافرين المكذبين الذين تولوا معرضين عن دين الله وعن منهج الحق، فأولئك لهم عذاب من الله موجع يوم القيامة.

٢٧ - (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

قوله: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} نزلت الآية في قوم من أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الدنيا والغنى - قال خباب بن الأرتّ: فينا نزلت هذه الآية - وذلك أنا بطِرْنا إلى أموال قريظة والنضير فتمنيناها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ٢٩ {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ} أي لو وسَّع الله على عباده في الرزق فأعطاهم مالا كثيرا {لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} (بغوا) من البغي وهو الظلم والتعدي - وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء ٣٠ والمعنى: لو أن الله وسع على عباده في الرزق فأعطاهم المال الكثير لطغوا وعصوا وتجبروا وتولوا بطِرين أشِرين.

وقيل: لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه لقوله صلى الله عليه وسلم: " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا " وهذا هو معنى البغي - وقيل: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا.

قوله: {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} ينزل الله لعباده من الأرزاق ما يختاره لهم مما فيه صلاحهم - وهو سبحانه أعلم بذلك - فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر - وقد جاء في الحديث: " إن من عبادي من لا يصلحهُ إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ".

قوله: {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} الله خبير بما يصلح عباده وبما يفسدهم من الغنى والفقر، أو من السعة والإقتار، فهو يعلم كل ما يصلحهم أو يضرهم - وهو سبحانه بصير بتدبيرهم وتصريف أمورهم بما فيه خيرهم وصلاحهم.

٢٨ - (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)

قوله: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} من العلامات الدالة على قدرة الله الصانع الحكيم أنه ينزل الغيث وهو المطر - ينزله من السماء إلى الأرض ليغيث به العباد {مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} أي يصيبهم المطر فيحيي به الله الأرض بعد موتها فيشيع فيها الخير والخصب والنماء من بعد أن يئس الناس من نزوله {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} المراد بالرحمة الغيث وهو المطر النزل من السماء، فإن الله ينشره على العباد ليعم به الأقطار والبلاد - قوله: {وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} أي المستحق للحمد من عباده على ما أسبغ عليهم من جزيل الخيرات والعطايا ٣١.

٢٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)}.

يبين الله بعض آياته الدالة على عظمته وبالغ قدرته ورفيع سلطانه، فإنه خلق السماوات والأرض - وهذان خلْقان هائلان عظيمان لا يدرك مدى اتساعهما وعظمتهما غير الله - وهو سبحانه الذي خلق فيهما وما بينهما كل دابة - وهو قوله: {وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ} ذرأ السماوات والأرض كل ذي دبيب يتحرك أو يدب على الأرض وغيرها من الأجرام - وذلك يشمل الملائكة والأناسي والجن وسائر البهائم والحيوانات على اختلاف صورها وأشكالها وأجناسها وطبائعها وأحجامها.

لقد ذرأهم الله جميعا ووزعهم توزيعا ليكونوا منتشرين في أقطار السماوات والأرض {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} يجمع الله بمشيئته وقدرته سائر المخلوقات يوم القيامة فيجمع الأولين والآخرين من الناس وغيرهم من الخلائق في صعيد واحد - وذلكم صعيد الحشر، استعدادا لملاقاة الحساب والجزاء فيحكم الله فيهم بحكمه العدل الذي لا يجوز ولا يزيغ.

٣٠ - (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

قوله: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} أي ما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم أو أهليكم أو أموالكم أو غير ذلك من وجوه المصائب فإنما ذلك عقوبة لكم من الله بما اجترحتم من السيئات والذنوب.

وذلك فضل من الله ورحمة منه بعباده، إذْ يعاقبهم في الدنيا ببعض العقوبات جزاء آثامهم وسيئاتهم ومعاصيهم بدلا من معاقبتهم على ذلك في النار يوم القيامة - ولا شك أن عقاب النار في الآخرة أليم وجيع وأنه أشد ويلا وفظاعة - وفي المعاقبة في الدنيا على السيئات، جاء في الصحيح: " والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وصب ٣٢ ولا هم ولا حزن، إلا كفَّر اللهُ عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يُشَاكها ".

وذكر عن الحسن البصري في قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} قال: لما نزلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده ما من خَدْشٍ عودٍ ولا اختلاج عِرْق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ".

وروى الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها ".

وذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال ف هذا الصدد: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ فتلا هذه الآية: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلمُ من أن يثني عليه بالعقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرمُ من أن يعود في عفوه يوم القيامة.

قوله: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} أي يعفو الله عن كثير من ذنوب عباده وسيئاتهم فلا يعاقبهم بها.

٣١ - (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

قوله: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} أي لا تفوتون الله بأنفسكم إذا أراد أن يعاقبكم على ذنوبكم فلا تعجزونه هربا من عقابه فأنتم في قبضته وتحت قهره وسلطانه {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} أي ليس لكم من دون الله أيُّما ولي يلي أمركم فيدفع عنكم عقابه

إذا نزل بكم - وليس لكم كذلك من دون الله من نصير ينصركم من عذابه إذا حاق بكم فاتقوا الله وحده واحذروه ٣٣.

٣٢ - (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ)

قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)}.

ذلك بيان من الله عن آية من آياته، أي علاماته الدالة عن عظيم قدرته وسلطانه - وذلك في قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} (الجواري) هي السفن التي تجري في البحر ومفردها جارية - وقد شبهها لعظمها وضخامتها بالأعلام، وهي الجبال.

وهذه ظاهرة من ظواهر الطبيعة التي أبدعها وهي ظاهرة الطَّفْو على سطح الماء - وهي خصيصة من خصائص الماء وميزة من ميزاته، لا تتحقق في غيره من السوائل أو المائعات - فأيما جسم تقل كثافته عن كثافة الماء، فإنه يطفو على وجه الماء بقدرة الله الذي ذرأ في الأشياء طبائعها وخصائصها وصفاتها.

٣٣ - (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

قوله: {نْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ} إن يشأ الله يجعل الريح ساكنا هادئا فتركد السفن على ظهر الماء لتظل فوقه سواكن ثوابت لا تتحرك.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} إن فيما ذكر من أمر السفن الجاريات في البحر بتقدير الله لدلالات وعلامات ظاهرة {لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي كثير الصبر على البلوى، كثير الشكر على النعماء قال قُطرب: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

٣٤ - (أَوْ يوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)

قوله: {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا} أي يهلكهن بالغرق بما كسبه أهلها من الذنوب والمعاصي - أو إن يشأ الله يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد السفن الجواري على متن البحر - وإما أن يرسل الريح عاصفة شديدة هوجاء فيهلكهن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب.

قوله: {وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} أي ويصفح عن كثير من ذنوبهم - وقيل: يصفح عن كثير من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم فينجيهم من الغرق - وقراءة الجمهور بالجزم، عطفا على جواب الشرط - ومن قرأ (يعفو) بالرفع، فقد استأنف الكلام.

٣٥ - (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ)

قوله: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي ويعلمَ المشركون الذين يخاصمون في دلائل الله وحججه على وحدانيته وصدق ما أنزله إليهم أنه ليس لهم محيد ولا مهرب من عقاب الله وشديد بأسه ٣٤.

٣٦ - (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

قوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)} تتضمن هذه الآيات جملة أحكام ومواعظ، خليق بالمسلمين أن يُمعنوا فيها النظر والتَّبصُّر، وأن يتدبروها خير تدبر؛ ليأخذوا بما حوته من المعاني الخيرة النافعة والمقتضيات الجليلة - وذلك في قوله: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يعني ما أُعطيتم من الغنى والسعة والخير في حياتكم هذه إنما هو متاع هيِّن وزائل - عما قليل يذهب ويفنى وهو بهذه الصفة من سرعة التبدد والزوال لا يستحق منكم أن تهتموا به كل هذا الاهتمام أو تعبئوا به مثل هذا الإعباء.

قوله: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ما عند الله من حسن الجزاء والثواب على طاعته، وما يدخره لعباده المؤمنين من عظيم الأجر في الآخرة لهو خير وأفضل وأدوم للمؤمنين الطائعين المخبتين لربهم المتوكلين عليه دون غيره من المخاليق.

٣٧ - (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)

قوله: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} المراد بكبائر الإثم الكبائر من الذنوب - والجمهور على القراءة بالجمع - وقرأ بعضهم على الإفراد، أي كبير الإثم - وقيل: المراد به الشرك - والفواحش يراد بها الكبائر وهي داخلة فيها لكنها أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنا بالنسبة إلى المراودة - وقيل: الفواحش والكبائر بمعنى واحد - وقيل: الفواحش موجبات الحدود.

وهذه صفة للمؤمنين الصادقين وهي أنهم يجتنبون المعاصي الكبيرة أو الفواحش.

قوله: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} ذلك إطراء من الله للمؤمنين الذين يتجاوزون عن الإساءات إليهم فيكظمون الغيظ ولا يغضبون إذا ما استُغضبوا - وهذه مَزيّة عظمى تتجلى في خلق المؤمن الصابر ذي الهمة العالية، والعقيدة الراسخة.

إنها مَزيّة حميدة فضلى ينميها الإسلام بعقيدته وتعاليمه في المسلم، ليستعلي على شدة الانفعال وعلى سَوْرة الغضب فيجنح للصفح والتجاوز عن أسباب الإثارة والاستفزاز إذا ما انتابته بواعث الإثارة والاستغضاب - وضبط النفس في ساعة الغضب سجية كريمة وخصلة عظيمة أثنى عليها الإسلام أيما ثناء، لأنها تكشف عن شجاعة المرء وعن مبلغ حلمه وسعة صدره ومدى اصطباره وهو يمسك بخطام نفسه كيلا يستخفه الغضب فيزلّ ويضلّ ويهوي - وفي هذا الصدد من إطراء المؤمن الصابر الصافح عن الإساءة، أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ".

٣٨ - (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

قوله: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} المؤمنون يستجيبون لله فيبادرون بالطاعة وفعل الصالحات - وفي مقدمة ذلك أن يقيموا الصلاة {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} وهذه واحدة من خصال المؤمنين الصادقين الطائعين، فإنهم يتشاورون فيما بينهم في سائر أمورهم سواء في أحوال السلم أو في أحوال الحرب - فديدن المؤمنين الصادقين الأوفياء أنهم يتشاورون في سائر أمورهم ليخلُصوا إلى القول السديد، أو الرأي السليم النافع بعيدا عن ظواهر الطغيان في الرأي والاستبداد به والاستئثار.

قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} أي يبذلون مما أعطاهم الله من أموال في وجوه الخير فيتصدّقون به على الفقراء والعالة والمحاويج - وهذه واحدة من خصال المؤمنين المتقين الذين يَسْتَعْلُون على الأثرة والشح وعلى الضن بالمال على الضعفاء، إنهم أسخياء كرماء يبذلون أموالهم في سبيل الخير على اختلاف وجوهه ومناحيه، وهم في ذلك لا يبتغون من الناس ثناءهم وشكرهم، وإنما يبتغون به مرضاة الله وحده والفوز بالسعادة والنجاة في الآخرة.

٣٩ - (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

قوله: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} البغي معناه الظلم والتعدي وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي ٣٥ وهذه واحدة أخرى من صفات المؤمنين الراسخين في العقيدة والإيمان وهي العزة والاستعلاء على الباطل والمبطلين - وعلى هذا إذا أصابهم من المشركين ظلم أو عدوان انتصروا منهم لأنفسهم ولم يستيئسوا أو يهنوا أو يذعنوا للذل والاستكانة والضعف وغير ذلك من وجوه الاستسلام والخور التي تنافي عقيدة الإسلام وأخلاق المسلمين الصادقين، فقد بغى المشركون الظالمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين معه إذْ آذوهم وأخرجوهم من وطنهم فمكّن الله لهم في الأرض تمكينا ثم أذن لهم بقتال الظالمين لبغيهم عليهم وانتصارا لأنفسهم منهم - وهو قوله: {أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا}.

ويفهم من ذلك أن يكون المسلمون أقوياء في أنفسهم - أقوياء في عقيدتهم وكل مقوماتهم النفسية والروحية والعلمية والمادية، كيلا يكونوا عاجزين ولا مقهورين ولا مستذلين للطغاة والكافرين، بل قادرين على الانتقام ممن بغى عليهم من الكافرين الظالمين.

على أن المسلمين إذا جنحوا للعفو والصفح عمن بغى عليهم وكان فيهم القدرة على الانتقام من الظالم المعتدي، فلا جناح عليهم في ذلك

بل إن ذلك من شيم المؤمنين الأقوياء الأعزاء - وذلكم هو العفو عند المغفرة - وهو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الأنام وخير من حملت الغبراء على متنها من أبرار أفذاذ عظام؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يعفو عمن أساء إليه مع قدرته على الانتقام منه - ومن جملة ذلك: أنه عفا عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام منهم - وكذلك عفوه صلى الله عليه وسلم عن غورث بن الحارث، الذي أراد أن يفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في يده صلتاً ٣٦ فانتهره فوضعه من يده وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه - وكذلك عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة اليهودية – وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن سلمة - وكانت هذه المرأة قد وضعت السمّ في ذراع شاة قُدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال صلى الله عليه وسلم: " ما حملك على ذلك؟ " قالت: أردت إن كنت نبيًّا لم يضرك وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك - فأطلقها عليه الصلاة والسلام - ولكن لما مات منه بشر بن البراء (رضي الله عنه) قتلها به - إلى غير ذلك من وجوه العفو عن الباغين والمعتدين كيفما تكن أوجه الاعتداء ما دام المسلمون العافون قادرين على الانتقام منهم ٣٧.

٤٠ - (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُه عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}.

شرع الله القصاص لعباده وهو عدل - فمن وقع عليه اعتداء مُتعَمَّد من غيره، كان للمعتدى عليه أن يقتص من الجاني بمثل جنايته لا أنْقَص ولا أزْيَد - وقد نَدَب الله لفعل ما هو أفضل وهو العفو والصفح عن مساءات المسيئين - وبذلك فإن الفضل خير وأحب إلى الله من العدل - فالفضل وهو العفو مندوب إليه شرعا، وبذلك فإن فاعله مأجور - أما الاقتصاص من أجل التشفي والانتقام للنفس من المعتدي فهو في حق المعتدى عليه مباح - والمباح قسم من أقسام الحكم لا يؤجر فاعله ولا يأثم تاركه - وعلى هذا يجدر القول إن العفو عن المسيء خير وأفضل من أخذ الحق منه بالانتقام - وهو قوله سبحانه: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} فيكتب الله الأجر وحسن المثوبة للعافين عن المسيئين إليهم، شريطة أن يكون عفوهم عن مقدرة، وهو أنهم قادرون على الانتقام.

وذلك يكشف عن حقيقة ساطعة ظاهرة وهي أن شريعة الإسلام أكمل الشرائع كافة؛ فهي الشريعة المثلى التي تناسب البشر على اختلاف طبائعهم وتفاوت أهوائهم وفِطَرهم - لا جرم أن هذه سمة هامة من سمات الصلوح في الإسلام؛ أي صلوحه للإنسانية في كل زمان ومكان - وقد بينا فيما مضى أن الشرائع والملل السابقة كانت تتأرجح بين الإفراط والتفريط، أو بين المغالاة والتنطُّع بعيدا عن ظاهرة الوسط الذي تصلح عليه البشرية على الدوام - فتلكم شرائع بني إسرائيل لا تُقرُّ العفو عن الجاني بل توجب القصاص دون غيره، خلافا لأناجيل النصارى الأربعة فإنها توجب العفو وحده وتأبى لمقلديها أن يقتصوا من الظالمين المعتدين - وكلا السبيلين مخالف للسداد والاعتدال؛ فإن التشريع السديد هو الذي يأخذ في الاعتبار طبائع الناس جميعا - وهي طبائع كثيرة ومختلفة ومتفاوتة - فمن الناس من يجنح للاقتصاص والانتقام وإشفاء الغليل عقب الاعتداء عليه - وذلك حق - ومنهم من يجنح للصفح والإحسان مترفعا عن شهوة الانتقام، فله ذلك وهو عند الله خير وأفضل.

قوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} أي المعتدين المبتدئين بالسيئة - فإنه ليس المبتدئ بالظلم والعدوان بمحمود.

٤١ - (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)

قوله: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} {ظُلمه} مصدر مضاف إلى المفعول - أي بعد أن ظلمه الظالم له، أو بعد أن ظَلَمَه ظالمه - واللام لام الابتداء - ومن شرطية، وجواب الشرط {فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} أي ليس عليهم من مؤاخذة أو جُناح في الانتصار ممن ظلمهم.

٤٢ - (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ} إنما المؤاخذة والجناح والبأس على الذين يبتدئون الاعتداء على الناس فأولئك هم المؤاخذون الخاطئون المتلبسون بإثم العدوان على الآخرين وظلمهم، وليس على الذين انتصروا ممن ظلمهم فأخذوا منهم حقهم.

قوله: {وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي يتجاوزون في أرض الله الحد الذي أباحه الله لهم فيفسدون ويؤذون ويعيثون في البلاد خرابا {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} هؤلاء الذين يظلمون الناس ويعيثون في البلاد فسادا وظلما ويشيعون فيها الشرك والمعاصي، لهم من الله يوم القيامة شديد العذاب وهي جهنم.

٤٣ - (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

قوله: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} اللام، لام الابتداء - ومن، شرطية وقيل: اسم موصول - يبين الله في ذلك فضل الصبر على الإساءة والأذية عند الاقتدار على الانتقام - والمعنى: أن من صبر على إساءة المسيء إليه فغفر له جُرمه ولم يأخذ لنفسه منه وهو قادر على الانتصار منه، مبتغيا بذلك وجه الله وجزيل ثوابه {إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} يعني ذلك الصبر على الإساءة والعفو عن المسيء لمن عزم الأمور الجيدة أو من عزائم الله التي أمر بها - أو من الأمور التي ندب الله إليها عباده وعزم عليهم العمل بها - ٣٨

٤٤ - (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ}.

يبين الله أنه هو الهادي إلى سواء السبيل فهو الموفق عباده لسلوك الخير وسبيل الرشاد، فمن يرد الله أن يهديه يوفقه لسلوك سبيل الهداية - ومن يرد أن يضله يخذله فيتيه ويشقى وهو قوله: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ} أي من يخذله الله عن الصواب والسداد فليس له من وليٍّ يليه فينفعه أو يهديه إلى سبيل الحق.

قوله: {وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} أي ترى الكافرين الذين أشركوا بربهم لما عاينوا عذاب جهنم يوم القيامة يقولون لربهم وهم وجلون مذعورون مستيئسون: هل لنا يا ربنا من رجوع إلى الدنيا؟ أو هل لنا من طريق إلى رجوعنا للدنيا؟ فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا فرارا من هول ما رأوه من عذاب جهنم.

٤٥ - (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ)

قوله: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} أي ترى هؤلاء المشركين الخاسرين يعرضون على النار يوم القيامة خاضعين خاسئين ذليلين، آيسين من كل عون أو رحمة - نسأل الله النجاة والرحمة.

قوله: {يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} أي يسارقون إليها النظر مسارقة من فرط خوفهم منها.

قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يعني يقول المؤمنون يوم القيامة وهم آمنون سالمون مطمئنون: إن الخاسرين أشد الخسارة هم الذين خسروا أنفسهم؛ لأنهم مخلَّدون في النار - وخسروا أهليهم؛ لأن الأهلين إن كانوا في النار فلا ينتفع بهم أحد البتة - وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبين الخاسرين الذين هووا في النار.

قوله: {أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} الظالمون ماكثون في العذاب أبدا سرمدا يوم القيامة فلا يبرحون ولا يخرجون.

٤٦ - (وَمَا كَانَ لَهُم مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

قوله: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ} أي ليس للخاسرين الذين سقطوا في النار من أعوان ولا أنصار من دون الله ينفعونهم أو ينقذونهم مما هم فيه من شديد العذاب والنكال.

قوله: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} أي من يخذله الله ولم يوفقه للسداد فما له من طريق يفضي به إلى الصواب والحق والنجاة في الآخرة ٣٩.

٤٧ - (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ)

قوله تعالى: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ}.

هاتان آيتان عظيمتان حافلتان بجليل المعاني، كالتذكير بيوم القيامة وما فيها من شديد الأهوال، والأمور المخُوفة الجسام - إلى غير ذلك من التنبيه إلى أن نبي الله محمدا صلى الله عليه وسلم ما أرسل إلى الناس وكيلا أو رقيبا - وإنما هو منذر وهاد - وأن الإنسان بسجيته المفطورة على الضعف، لهو شديد الفرح بالنعمة، سريع النسيان والجحود إذا دهمته المصائب.

قوله: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} يقول الله لعباده: أجيبوا دعوة الله إليكم، إذْ دعاكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر وحذركم من عصيانه ومخالفة أمره من قبل أن تقوم القيامة وهو حدث كوني هائل رعيب يتزلزل به الوجود كله ولا يره أحد بعد ما قضى الله بحدوثه.

قوله: {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ} أي ليس لكم حينئذ من مهرب أو معقل تلجأون إليه فتعتصمون به مما هو نازل بكم يوم القيامة {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} أي ليس لكم من ناصر ينصركم - وقيل: ليس لكم من إنكار يومئذ؛ إذ تعترفون بذنوبكم فلا تستطيعون أن تنكروا شيئا مما اقترفتموه من الذنوب في دنياكم.

٤٨ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ)

قوله: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} إن أعرض هؤلاء المشركون عن دعوة الحق فلم يستجيبوا ولم يؤمنوا وأبوا إلا الإعراض والشرك والضلال فإنا لم نرسلك رقيبا عليهم تحفظ عليهم أعمالهم فتحاسبهم عليها، ولا موكلا بهم فلا تفارقهم حتى يؤمنوا أي ليس لك أن تكرههم على الإيمان إكراها {إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ} أي ليس عليك يا محمد إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم من دعوة الإيمان والتوحيد.

قوله: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا} إذا أُعطي الإنسان شيئا من نعم الدنيا وزينتها بَطِرَ بها وسُرَّ بها بالغ السرور بما رزقه الله من السعة والمال وغير ذلك من وجوه النعمة والرخاء.

قوله: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} إن أصاب المشركين والعصاة بلاء من فاقة أو ضيق أو شدة في العيش بسبب معاصيهم وما أسلفوا من السيئات جحدوا نعمة الله ونسوا ما مَنَّ الله به عليهم من وجوه الخير والرزق - وذلك هو وضع الإنسان

في سرعة نسيانه للمصائب وشدة جحوده لنعم الله ٤٠.
٤٩ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ)
قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}.
يبين الله في هذه الآية أنه مالك السماوات والأرض، فهو خالقهما ومالكهما وبيده مقاليدهما - وهو المتصرف فيهما، القائم على أمورهما بالتدبير والرعاية وهو سبحانه يفعل في الخلق ما يشاء، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} يعني يؤتي من يشاء من عباده بنات ليس معهن ذكر - ومثال ذلك نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام، فإنه لم يولد له ذكر - وهو كذلك يؤتي من يشاء بنين ليس معهم أنثى - ومثال ذلك خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لم يولد له أنثى - وكذلك غير النبيّين من عباد الله - وتلك هي سنة الله في عطائه الذرية لعباده - فمنهم من يؤتي البنين فقط، ومنهم من يؤتى البنات فقط.
٥٠ - (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)
{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا} {يُزَوِّجُهُمْ} من التزويج وهو الجمع بين البنين والبنات فيعطي من يشاء من عباده، الزوجين الذكر والأنثى ومثال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أعطي من البنين ثلاثة وهم القاسم وعبد الله وهو المسمى بالطيب والطاهر - ثم إبراهيم وأعطي من البنات أربعا وهن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.
قوله: {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} والعقيم الذي لا ولد له ٤١ أي يخلق الله من الناس صنفا لا يولد له البتة - ومثال ذلك نبي الله يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام وغيره من عباد الله كثيرون ذوو عقم لا يولد لهم.
فالناس بذلك أصناف أربعة: منهم من يرزق البنات، ومنهم من يرزق البنين، ومنهم من يرزق الصنفين الذكور والإناث، ومنهم من يمنعه الله هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد.
قوله: {إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} الله ذو علم بما يخلق، وقدرته بالغة على صنع ما يشاء فهو لا يعجزه شيء ولا يعز عليه أن يفعل كل شيء ٤٢.
٥١ - (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)
قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}.
قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تكلِّم الله وتنظر إليه وإن كنت نبيًّا كما كلم الله موسى ونظر إليه؟ فإنا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك - فقال: " لم ينظر موسى إلى الله " وأنزلت الآية ٤٣ {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا} يعني ما ينبغي لبشر من ذرية آدم أن يكلمه ربه إلا أن يوحي إليه وحيا - والمراد بالوحي هنا: نفث يُنفَثُ في قلبه فيكون إلهاما - وجاء في ذلك صحيح ابن حبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " والرُّوع، بالضم معناه القلب والعقل - والروع بفتح الراء معناه الفزع - والروعة، الفزعة - ٤٤
قوله: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} يعني أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه كما كلَّم نبيه موسى عليه الصلاة والسلام - وقد ذكر أن موسى سأل ربه الرؤية بعد التكلم فحجب عنها - قوله: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} يعني أو يرسل الله من الملائكة رسولا كجبريل أو غيره فيوحي هذا الرسول بإذن الله على المرسل إليه ما يشاء اللهُ أن يوحيه إليه من أمر أو نهي أو خبر أو تحذير أو غير ذلك.

قوله: {إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} يعظّم الله نفسه مبيّنا أنه رفيع الدرجات والمعالي - وما من شيء إلا هو هابط دون عليائه وجبروته - وهو كذلك ذو حكمة بالغة في قوله وفعله وتدبيره.

٥٢ - (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا} يعني، ومثل الذي أوحيناه إلى النبيين من قبلك أوحينا إليك يا محمد {رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} أي رحمة من عندنا، وقيل: المراد بالروح القرآن - وقيل: جبريل - وقيل غير ذلك - والأظهر أن المراد به القرآن؛ فقد سماه الله روحا؛ لأنه ينشر في الناس الحياة والمعرفة بعد أن كانوا من قبله جهالا يشبهون الموتى؛ لفساد تفكيرهم وسلوكهم، وسوء صنعهم، وتخبطهم تائهين مضطربين حيارى - فلا شك أن القرآن أشبه بالروح السارية في أعماق الإنسان لتبعث فيه الحياة والحركة وتثير فيه الإحساس والقدرة على أداء الخير والمعروف.

قوله: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ} اختلف العلماء في المراد بالكتاب والإيمان ههنا، مع إجماعهم على أنه لا يجوز القول عن الأنبياء أنهم كانوا قبل الوحي على الكفر؛ بل كانوا طيلة حياتهم على الإيمان بالله - وفي المراد بالكتاب والإيمان أقوال كثيرة، أظهرها أنك يا محمد كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان - وذلك برهان على أنه لم يأخذ منهم ما جاءهم به عن أحد منهم - وقيل: المراد بالكتاب القرآن - وأما الإيمان فيراد به تفاصيل الشرائع - وقيل: دين الإسلام.

قوله: {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} أي جعلنا القرآن نورا وضياءً يستدل العباد بكماله وجماله وإعجازه وما حواه من عظيم المعاني والأخبار والحجج – على وحدانية الله وإنه الواحد الخالق المقتدر، فيهتدي به من عبادنا من وفّقناه للهداية والإيمان والسداد.

قوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي إنك يا محمد لتدعو الناس إلى صراط الله المستقيم وهو دينه القويم الذي لا زيغ فيه ولا عوج وهو الإسلام.

٥٣ - (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)

{صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {صراط} بدل، من {صراط} الأول - والمراد به القرآن، أو الإسلام فهو طريق الله المستقيم يهتدي به السالكون فيأمنون وينجون، فلا يتعثرون ولا يضلون؛ لأنه دين الحق المبين، دين الله مالك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من ملائكة وأناسي وجنٍّ وخلائق آخرين.

قوله: {أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} ذلك وعيد من الله للعباد، يدركه كل بصير حاذر مدّكر - وذلك في بضع كلمات سريعة قلائل، لهن من روعة التأثير وقوة النفاذ إلى الذهن والجنان ما يستنفر في النفس دوام الفزع والحذر والترقب من هول ما هو آتٍ، حين تصير الأشياء والخلائق كلها إلى الله يوم القيامة ٤٥.

٤٣ سورة الزخرف:

سورة الزخرف:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية كلها، وآياتها تسع وثمانون - وهي تتضمن فيضا من المعاني الجليلة الخيرة، والأخبار العظيمة المؤثرة - ومن جملة ذلك الإخبار عن تكذيب أكثر الأمم السابقة الذين أعرضوا وتولوا عن عقيدة التوحيد، ولجوا في الكفرمعاندين متلبسين بالوثنية والشرك وغير ذلك من ضلالات الآباء والأجداد فكان جزاؤهم الإهلاك والاستئصال، ويوم القيامة يردون إلى الناروبئس القرار.

وفي السورة كثير من الأدلة والبينات على عظيم قدرة الله وأنه الإله الموجد الحق - وفيها تنديد شديد بالمشركين السفهاء الذين زعموا أن الملائكة بنات الله مستأثرين لأنفسهم بالبنين - تعالى الله عن افتراء الظالمين علوا كبيرا.

وتبين السورة أن الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات تبعا لاختلاف طبائعهم وتفاوت طاقاتهم وقدراتهم واستعداداتهم البدنية والعقلية - وبناء على هذه القاعدة سيتخذ الناس بعضهم بعضا سخريا وهو ما لا بأس فيه ولا غرابة.

وفي السورة إخبار عن نبي الله موسى عليه السلام، إذ دعا فرعون وقومه إلى دين الله ومجانبة الظلم والطغيان والغرور - لكن فرعون طغى وبغى، وتجبر واستكبر فأخذه الله بالتغريق نكال كفره وعتوه وطغيانه.

وفي السورة إخبار عن المسيح ابن مريم عليه السلام - وأن ولادته وبعثه إيذان للساعة وإعلام من الله بدنو قيامها.

وفيها بيان بأحوال الظالمين الخاسرين في النار وما يلاقونه فيها من شديد الأهوال وفظاعة التحريق والاصطراخ والاستيئاس.

إلى غير ذلك من ضروب الأخبار والأفكار والمعاني وألوان التحذير والتهديد والتخويف.

١ - (حم)

بسم الله الرحمن الرحيم

}حم ١ والكتاب المبين ٢ إنا جعلناه قرآنان عربيا لعلكم تعقلون ٣ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ٤ أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ٥ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ٦ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون ٧ فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين{

تقدم الكلام عن بعض فواتح السور من حروف التهجي المقطعة مثل }حم{ وخير ما قيل في المراد بها، إن ذلك مرده إلى الله فهو سبحانه العليم بما أراد.

٢ - (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

قوله: }والكتاب المبين{ الواو للقسم، فالله جل جلاله يقسم بكتابه المبين، وهو قرآنه الواضح في معانيه، الظاهر في مقاصده وأخباره ومراميه، على إنزال هذا القرآن عربيا ليتدبره الناس - وهو قوله: }إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون{

٣ - (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

}إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون{ أي سميناه أو أنزلناه }قرآنا عربيا{ فقد نزل القرآن بلسان العرب، لا جرم أن لغة العرب كريمة وعذبة ومميزة، فهي لسان أهل السماء، ولسان أهل الجنة في الجنة - فضلا عما يتجلى في لغة العرب من حلاوة النظم والأسلوب، وجمال الإيقاع والنغم، وجرس الألفاظ والحروف، وسرعة التأثير والنفاذ إلى الأذهان والقلوب - كل هاتيك الحقائق والمزايا التي تجلّي اللغة العربية، قد خولتها أن تتصدر اللغات جميعا في مدى الصلوح للتخاطب والتبليغ والتذكير.

ولئن باتت لغة العرب في عصرنا الراهن هذا مسبوقة بكثير من اللغات الأجنبية الأخرى من حيث الشيوع والتقدم والاهتمام فرد ذلك إلى التسلط أو الهيمنة التي جعلت لدول الظالمين في هذا الزمان ليعبأوا بلغاتهم دون غيرها فتكون لغاتهم هي السائدة والشائعة وموضع الاهتمام والإكبار خلافا للغة القرآن - اللغة الرفيقة الفضلى التي تصدى لها الظالمون من المشركين الماكرين، والمنافقين الأتباع، بالإزراء والغض والتناسي.

قوله: }لعلكم تعقلون{ أي تتفكرون فيه وتتدبرون أحكامه ومعانيه.

٤ - (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)

قوله: }وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم{ الضمير في }وإنه{ عائد إلى الكتاب وهو القرآن، فهو }في أم الكتاب{ وهو اللوح المحفوظ وهو أصل الكتاب (القرآن) وأصل كل شيء، أي أن هذا الكتاب وهو القرآن في أصل الكتاب الذي نسخ منه هذا الكتاب }لدينا لعليّ حكيم{ أي إنه عندنا لذو منزلة رفيعة وقد أحكمت آياته فكان محكما لا اختلاف فيه ولا تناقض في معانيه ولا اضطراب في نظمه ولا

خلل.

٥ - (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ)

قوله: {أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين} {صفحا} منصوب على المصدر - والتقدير: أفنصفح عنكم صفحا - أو لأن معنى {أفنضرب} أفنصفح ١ والصفح معناه الإعراض - صفح عنه: أعرض عنه: أعرض عن ذنبه، وضرب عنه صفحا أي أعرض عنه وتركه ٢.

وفي تأويل هذه الآية أقوال كثيرة لعل أصوبها قول ابن عباس وآخرين وهو: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به - وقيل: تكذبون بالقرآن ثم لا تعاقبون عليه - وقيل: أفنضرب عنكم العذاب فنترككم ونعرض عنكم لأنكم كنتم قوما مسرفين لا تؤمنون بربكم - وفي ذلك وعيد من الله للمخاطبين به من المشركين، إذ سلكوا في تكذيب رسولهم مسلك الغابرين، قبلهم، أولئك الذين عصوا رسل ربهم ونكلوا عن دين الله فأخذهم الله بنكولهم وإعراضهم.

٦ - (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ)

قوله: {وكم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين} كم، هنا الخبرية ويراد بها التكثير، أي ما أكثر ما أرسلنا من النبيين في الأمم السابقة.

٧ - (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

قوله: {وما يأتيهم من نبيّ إلاّ كانوا به يستهزءون} أي ما كان يأتيهم نبي من النبيين إلا استهزأوا به كما استهزأ بك قومك هؤلاء - وفي ذلك تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وتسلية، كيلا يبتئس أو يحزن.

٨ - (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ)

قوله: {فأهلكنا أشدّ منهم بطشا} {بطشا} منصوب على التمييز أو الحال، أي باطشين - والمعنى: أننا أخذنا بالإهلاك والتدمير من كان أقوى من هؤلاء المشركين، وهم أضعف من الكافرين السابقين، أحرى ألا يقدروا على الامتناع من عقابنا وانتقامنا.

قوله: {ومضى مثل الأوّلين} المثل، معناه الوصف والخبر - ومثل الشيء صفته ٣ والمعنى: ومضت سنة المشركين السابقين في انتقامنا منهم فليتوقع هؤلاء المشركون المستهزئون أن يحل بهم من العقاب ما أحللناه بأولئك السابقين ٤.

٩ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

قوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم ٩ الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلّكم تهتدون ١٠ والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة مّيتا كذلك تخرجون ١١ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ١٢ لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ١٣ وإنا إلى ربنا لمنقلبون}.

يتبين من آيات الله هذه أن المشركين الأولين ما كانوا ينكرون وجود الله، بل كانوا موقنين بهذه الحقيقة الكبرى، وهي أن الله حق وأنه الخالق الموجد، فهم بذلك لم يأت على فطرتهم من المسخ والإفساد مثل الذي أتى على كثير من الكافرين الملحدين الذين ينكرون وجود الله ويجحدون الإلهية كليّا، كالشيوعيين والوجوديين وآخرين غيرهم من مناكيد البشر وأشقيائهم، أولئك الذين انمسخت فيهم الفطرة الإنسانية انمساخا وانقلبت فيهم الطبائع الأساسية رأسا على عقب، وانتكست نفوسهم وأذهانهم أشنع انتكاس فصاروا يجترون مقالة الإلحاد اجترار الأشقياء المماسيخ، خلافا للمشركين السابقين الذين كانوا يقرون بوجود الله الخالق البارئ بالرغم من اتخاذهم الشركاء والأرباب مع الله - وذلك يستبين من قوله سبحانه: {ولئن سألتهم مّن خلق السّماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم} أي لئن سألت هؤلاء المشركين يا محمد عمن خلق السماوات والأرض لسوف يجيبونك مقرين بأن خالقهن الله العزيز العليم، فهم بذلك مقرون لله بالخلق والإيجاد بالرغم من اتخاذهم مع الله شركاء وأندادا جهلا منهم وضلالا.

١٠ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قوله: {الّذي جعل لكم الأرض مهدا} وهذا إخبار من الله عن نفسه بأنه جعل الأرض لعباده مهادا، أي فراشا وقرارا ثابتة، فتقومون عليها وتنامون وتتصرفون في قضاء أموركم ومعايشكم {وجعل لكم فيها سبلا لعلّكم تهتدون} أي جعل لكم في الأرض طرقا ومسالك مختلفة، وذلك في السهول والجبال والوديان لكي تهتدوا في سيركم وأسفاركم فلا تضلوا.
١١ - (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)
قوله: {والذي نزل من السماء ماء بقدر} أي بحسب حاجتكم وما يكفيكم لشربكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، فهو بذلك غير مغرق ولا قاصر عن الحاجة بل هو بقدر حاجتكم.
قوله: {فأنشرنا به بلدة ميّتا} أي أحيينا الأرض بماء المطر بعد أن كانت ميتة مقفرة لا نبات فيها {كذلك تخرجون} أي مثل هذا الإنشار أو الأحياء يحييكم الله بعد مماتكم فيبثعكم من قبوركم للحساب - أو كما أخرجنا بهذا الماء المنزّل من السماء النبات والزرع من هذه البلدة الميتة بجدوبها وقحوطها كذلك نخرج الناس من بعد مصيرهم في الأرض رفاتا، فإن القادر على مثل هذا الإحياء قادر على كل إحياء، ومنه إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة.
١٢ - (وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ)
قوله: {والذي خلق الأزواج كلها} أي خلق الله سائر الأصناف مما تنبت الأرض ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها - وقال ابن عباس: {الأزواج}، الضروب والأنواع كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى.
قوله: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} أي سخر الله لكم السفن لتركبوها في البحر وسخّر لكم من الأنعام ما يصلح للركوب في البر، كالإبل.
١٣ - (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)
قوله: {لتستوا على ظهوره} أي لتستعلوا متمكنين على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام.
قوله: {ثم تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه} إذا استعليتم راكبين على ظهور السفائن في البحر، أو الأنعام في البر، فإنه ينبغي أن تذكروا الله بدوام شكره وذكر نعمته عليكم بما ذلله لكم من أسباب الركوب والسفر {وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا} أي تذكرون الله وتسبحونه بتنزيهه عن النقائص والعيوب، وتقرون له بكامل المنّة، إذ ذلل لكم هذه الأسباب أو الركائب {وما كنّا له مقرنين} أي ما كنا مطيقين له في القوة - نقول: قرنت كذا وكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه - وأقرنت كذا بكذا إذ أطقته وحكمته، كأنه جعله في قرن وهو الحبل فأوثقه به وشده فيه - وأقرن له: أي أطاقه وقوي عليه ٥ - والمعنى: لا نطيق هذا إلا بك ولولا أنت ما قوينا عليه ولا أطقناه - أو لولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه - قال الرازي: المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نضبطها، فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته.
١٤ - (وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)
وقوله: {وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون} أي لصائرون إلى الله بعد الممات.
ويسن للراكب دابته أو غيرها من وسائل الركوب والمطايا أن يدعو بهذا الدعاء إذا ركب، وخاصة في السفر - وفي ذلك روى الإمام مالك عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا ركب راحلته كبّر ثلاثا ثم قال: {سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين ١٣ وإنّا إلى ربنا لمنقلبون} ثم يقول: " اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى - اللهم هوّن علينا السفر واطو لنا البعيد - اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل - اللهم أصبحنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا " وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى أهله قال: " آيبون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون " ٦.
١٥ - (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ)
قوله تعالى: {وجعلوا له من عباده جزءا إنّ الإنسان لكفور مبين ١٥ أم اتّخذ ممّا يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ١٦ وإذا بشّر أحدهم

بما ضرب للرّحمان مثلا ظلّ وجهه مسودّا وهو كظيم ١٧ أومن ينشّؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين ١٨ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ١٩ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مّا لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يخرصون}.

ذلك تنديد شديد بالمشركين السفهاء الذين اتخذوا مع الله آلهة من عباده كالملائكة وزعموا أنها بنات الله - وهو قوله سبحانه: }وجعلوا له من عباده جزءا{ والمراد بالجزء الولد، فقد أثبت المشركون الولد لله - وبيان ذلك: أو ولد الرجل جزء منه - وفي الخبر: " فاطمة بضعة مني " فالولد ينفصل عن الوالد فهو جزء من أجزائه - فيكون المعنى: أنهم أثبتوا أو حكموا أن لله جزءا وذلك الجزء هو عبد من عباده وقصدوا به البنات - وهذا الزعم الفاسد الذي يهذي به الجاهليون السفهاء متصل بقوله: }ولئن سألتهم مّن خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم{ أي لئن سألت هؤلاء المشركين عمن خلق السموات والأرض ليعترفن بأنه الله، فهم يقرون بأن الله الخالق - ومع ذلك جعلوا له جزءا، أي ولدا أو شريكا لله أفلا يعلمون أن خالق السماوات والأرض غير محتاج لشيء يتقوّى به أو يستأنس به؟ لأن هذا من صفات النقص والله منزه عن صفات النقص.

قوله: }إنّ الإنسان لكفور{ المراد بالإنسان ههنا المشرك الموغل في الضلال والوهم والباطل، فإنه شديد الجحد لنعم الله التي أنعمها عليه }مّبين{ أي ظاهر الكفران لما منّ الله به عليه من النعم.

١٦ - (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ)

قوله: }أم اتخذ ممّا يخلق بنات وأصفاكم بالبنين{ }أم{ المنقطعة بمعنى بل والهمزة - وتقديره: بل أاتخذ مما يخلق بنات - ولا يجوز أن يكون بمعنى بل وحدها ٧ والاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمعنى: أاتخذ ربكم لنفسه البنات واختصكم أنتم بالبنين فجعل بذلك لنفسه ما تكرهون، ولكم أنتم ما تحبون، كقوله تعالى: }ألكم الذكر وله الأنثى ٢١ تلك إذا قسمة ضيزى{ وذلك تعجيب من إضافتهم البنات إلى الله وهن مكروهات لديهم.

١٧ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

قوله: }وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرّحمان مثلا ظل وجهه مسودّا وهو كظيم{ أي إذا بشر أحد هؤلاء الجاهليين السفهاء بما جعله لله من البنات اغتمّ واربدّ وجهه }وهو كظيم{ أي مكروب و مكتئب من فرط ما يخفيه في نفسه من التغيظ والسخط.

١٨ - (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

}أومن ينشّؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين{ من، في موضع نصب بتقدير فعل - وتقديره: أجعلتم من ينشّأ - وقيل: في موضع رفع مبتدأ، وخبره محذوف ٨ يعني: أو يجعلون لله من يربّى وينشّأ في الزينة من الذهب والحرير وغير ذلك مما تتزين به النساء }وهو في الخصام غير مبين{ أي وهو في المجادلة والاحتجاج عند من يخاصمه عاجز عن التحاج أو الإدلاء بالبرهان لضعفه - أفتجعلون من هذه صفاتهن بنات لله وأنتم تستهجنوهم وتأنفون أن يكن لكم.

وقد يتساءل معترض قائلا: إن في النساء من تقدر على المخاصمة، والمواجهة والتحاجّ أمام الرجال - والجواب أن المراد في المسألة ههنا، الأغلب، فلا شك أن غالب النساء أضعف من غالب الرجال في ظواهر شتى منها: شدة البأس، وقوة العزيمة، وصلابة الإرادة والأعصاب، وسعة الأفق في امتداد البصيرة والتفكير، والقدرة على المحاجّة والتحيّل، فالنساء في هذه الأوصاف أضعف من الرجال في الغالب - وهن في معظمهن أشد جنوحا للرقة واللين والنعومة والتلبّس بمظاهر الزينة خلافا لأغلب الرجال فهم أميل للغلظة والصلابة والخشونة وأقدر على الخصام.

١٩ - (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

قوله: }وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم{ أي اعتقد المشركون الجهلة أن الملائكة بنات فهم بذلك إناث فأنكر الله عليهم هذا الزعم المستهجن فقال: }أشهدوا خلقهم{ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي أشاهدوهم، إذ خلقهم الله إناثا أو أحضروا

خلق الله إياهم، لأن قوله: {أشهدوا} من الشهادة وهي الحضور.
قوله: {ستكتب شهادتهم} وذلك وعيد من الله لهم وتهديد - وهو أن هذه الشهادة الظالمة التي شهدوا بها سيكتبها الله في أعمالهم ليجازيهم عليها يوم الجزاء {ويسئلون} أي يسألون يوم القيامة عما كانوا يفترون ويزعمون من الأباطيل.
٢٠ - (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)
قوله: {وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم} قال المشركون الضالون: لو أراد الله أن لا نعبد هذه التماثيل التي هي على صورة الملائكة لما عبدناها، ولكان قد حال بيننا وبين أن نعبدها، أو لأنزل بنا عقابه بعبادتها - وإنما لم ينزل بنا عقابه لرضاه بعبادتنا إياها.
تلك كانت حجة المشركين السفهاء فرد الله احتجاجهم الباطل بقوله: {مّا لهم بذلك من علم} أي ليس لهم فيما قالوه من أن الله لو شاء أن لا يعبدوا الملائكة ما عبدوها، من علم، بل قالوا ذلك جهلا وسفها بغير علم وهو قوله: {إن هم إلاّ يخرصون} أي ما قالوا ذلك إلا تقولا وافتراء وتخريصا ٩.
٢١ - (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ)
قوله تعالى: {أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ٢١ بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ٢٢ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون ٢٣ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون ٢٤ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين}.
ذلك إنكار من الله على المشركين إشراكهم معه آلهة أخرى، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، فقال عز من قائل: {أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون} {أم} المنقطعة، وهي بل وهمزة الاستفهام، أي بل أعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن فيه عبادة غير الله فيجعلونه لهم دليلا يحتجون به على صدق إشراكهم بربهم؟!
٢٢ - (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)
قوله: {بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّة} الأمة، الطريقة والنحلة والدين - وذلك إقرار منهم بأنهم لا يملكون لقولهم برهانا ولا حجة - وليس لهم في إشراكهم مع الله أوثانا، وزعمهم أن الملائكة بنات الله إلا التقليد الفاسد الأعمى - تقليد الآباء الغابرين، فقد وجد هؤلاء آباءهم الأقدمين على ملة الوثنية والشرك وتقديس الأصنام فاتبعوهم وهو قوله: {وإنّا على آثارهم مهتدون} أي ونحن في ذلك نقتفي آثارهم ونتبعهم في عبادتهم وما كانوا به يدينون.
٢٣ - (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)
قوله: {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّة} أي مثل الذي فعله هؤلاء المشركون من قومك فعل من كان قبلهم من المشركين السابقين وقالوا مثل قولهم - وبيان ذلك: أننا ما أرسلنا إلى أهل قرية من رسول ينذرهم سوء العذاب ويحذرهم عقاب الله وغضبه إلا قال لهم المترفون وهم ههنا أشراف القوم وسادتهم وكبراؤهم في الكفر والضلال –قالوا: إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ونحن مقتفون آثارهم في ذلك ومتبعوهم في مناهجهم وطريقتهم فنفعل كما فعلوا ونعبد ما كانوا يعبدون، فهم بذلك مقلدون في الباطل لا ينفكون عن اتباع الآباء والأجداد في مللهم وعبادتهم وليس لهم في ذلك من حجة ولا برهان.
٢٤ - (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)
قوله: {قال أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدّتم عليه آباءكم} قال النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين من قومه الذين يقتدون بأسلافهم من عبدة الأوثان ويمضون على خطاهم في الضلال والشرك وتعظيم الأصنام – قال لهم: أو لو جئتكم من عند الله بما هو أصوب لكم أهدى إلى طريق الحق وأصدق لكم في الدلالة على الطريق المستقيم مما وجدتم عليه آباءكم من الملل الضالة الخاطئة {قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون} يعني إننا بالذي جئتمونا به من دين جاحدون مكذبون - وهي مقالة الكافرين السابقين الذين آذوا رسل الله وكذبوا بما أرسلوا

به وأعلنوا لهم الكفر بدعوة التوحيد - أعلنوا ذلك في اجتراء ظالم وفي غاية العتو والاستكبار.
٢٥ - (فَٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: {فانتقمنا منهم} لقد انتقم الله من الظالمين المجرمين السابقين الذين كذبوا رسل الله وتولوا عن دين الله عصاة مدبرين فأنزل الله بهم عقابه الأليم - قوله: {فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين} أي انظر يا محمد ما صار إليه السابقون الظالمون من سوء العاقبة، إذ أهلكاهم إهلاكا جزاء كفرهم وتكذيبهم فكانوا عبرة للمعتبرين ١٠.
٢٦ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ)
قوله تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني براء مما تعبدون ٢٦ إلاّ الذي فطرني فإنّه سيهدين ٢٧ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون ٢٨ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جآءهم الحق ورسول مبين ٢٩ ولماّ جاءهم الحقّ قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون ٣٠ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٣١ أهم يقسمون رحمت ربّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضا سخريّا ورحمت ربّك خير ممّا يجمعون ٣٢ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضّة ومعارج عليها يظهرون ٣٣ ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتّكئون ٣٤ وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين}.
يبين الله للناس صدق هذا النبي العظيم وجرأته العظيمة في الصدع بقول الحق، وهو خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد أعلن لأبيه وقومه الضالين براءته من شركهم وما هم موغلون فيه من الضلال والباطل وهو قول سبحانه: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون} أي واذكر حين قال إبراهيم لأبيه وقومه المشركين إنه براء من عبادتهم وشركهم - و {براء} مصدر وضع موضع النعت فلا يثنى ولا يجمع لا يؤنث ١١ وهو يستعمل للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث - لقد أعلن إبراهيم براءته من عبادة قومه المشركين ومما هم سادرون فيه من الضلال والغواية.
٢٧ - (إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)
قوله: {إلاّ الّذي فطرني فإنّه سيهدين} أي إنني أتبرأ من شركم وما تعبدون، إلا من الله عز وعلا، فيكون استثناء بذلك متصلا، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام مع عبادتهم لله - ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا فتكون إلا بمعنى لكن - ويكون المعنى بذلك: لكن الذي فطرني فإنه سيهديني، أي سيرشدني لدينه القويم وطريقه الحق المستقيم.
٢٨ - (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
قوله: {وجعلها كلمة باقية في عقبه} الضمير في قوله: {وجعلها} عائد على قوله: {إلاّ الّذي فطرني} وتعني التوحيد - يعني وجعل كلمة التوحيد {باقية في عقبه} وهم ذريته - وفاعل قوله: {وجعلها} عائد إلى الله عز وجل، أي وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم وهم ولده وولد ولده - والمراد بالكلمة ههنا: توحيد الله جل وعلا، أو شهادة لا إله إلا الله - وقيل: المراد بالكلمة الإسلام - وقيل: النبوة، فلم تزل باقية في ذرية إبراهيم - والمعنى: أن مقالة الحق والتوحيد وإفراد الله بالعبادة والإلهية دون غيره من الأنداد، باقية في عقب إبراهيم وهم خلفه من بعده، فقد توارثوا البراءة من عبادة غير الله وأوصى بعضهم بعضا بذلك.
قوله: {لعلّهم يرجعون} أي يرجعون إلى طاعة الله وعبادته وحده ويتبرأون من الشرك واتخاذ الآلهة والأنداد.
٢٩ - (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ)
قوله: {بل متعت هؤلاء وآباءهم} متّع الله هؤلاء المشركين والذين من قبلهم من السالفين الذين عبدوا من دون الله آلهة- متعهم جميعا بالحياة والأهل والأولاد والأموال وضروب النعم ولم يعاجلهم بالعقاب {حتّى جاءهم الحقّ ورسول مبين} أي متّعهم الله بما ذكر حتى نزّل عليهم القرآن وهو الحق من ربهم وجاءهم من عند الله رسول كريم يدعوهم إلى دين الله ويبين سبيل السعادة والنجاة.

٣٠ - (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)

قوله: {ولمّا جآءهم الحق قالوا هذا سحر} لما جاء القرآن قريشا قالوا في عتوّ واستكبار واستسخار: هلا أنزل هذا القرآن على رجل عظيم من أهل إحدى القريتين وهما مكة والطائف المراد بالرجلين الوليد بن المغيرة عم أبي جهل وهو من مكة - أما الذي من الطائف فهو أبو مسعود، عروة بن مسعود الثقفي - وكان ابن المغيرة يقول في اغترار وصلف: لو كان ما يقوله محمد حقّا لنزل علي أو على أبي مسعود - لا جرم أن ما يقولونه باطل وهم يعلمون في أنفسهم أنهم مبطلون - وما كانت أمنيتهم هذه إلا هراء وضربا من الثرثرة الفارغة واللغط الأعمى - وهم في أعماقهم موقنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه وأنه الصادق الأمين الذي ما كذب طيلة حياته البتة - فما قاله المشركون إن هو إلا زور ومنكر أفرزته قلوبهم المضطغنة الغلف.

٣٢ - (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

قوله: {أهم يقسمون رحمت ربّك} الاستفهام للإنكار - وذلك رد لاعتراض المشركين على بعث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله وحده الذي يصطفي من عباده من يشاء لحمل الرسالة، وليكون للناس بشيرا ونذيرا، و الله جل وعلا أعلم حيث يجعل رسالته، فليس ذلك من شأن هؤلاء المشركين الجاهلين.

قوله: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا} أي كما قسم الله رحمته وكرامته بين من شاء من عباده الأخيار ليكونوا نبيين ومرسلين كذلك قسم الله بين العباد معيشتهم في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأموال ومختلف أنواع النعم، فيكون فيهم الكيّس والخامل، والغبي والفطن، والعيي واللّسن، والأغنياء والفقراء - فكان الناس بذلك مختلفين في الطاقات والقدرات، والمواهب والاستعدادات، ليكونوا بذلك متفاوتين في الدرجات - وهو قوله سبحانه: {ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات} أي فاضل الله بين عباده فجعل بعضهم أفضل من بعض في حاجات الدنيا وفي مظاهرها ومتاعها، كالرزق والرياسة والعلم والفهم، فهم في ذلك كله متفاوتون متباينون، فإن فيهم الغني والفقير، والذكي والغبي، والعالم والجاهل، والناشط والعاجز،، والشجاع والخائر - وفيهم ذو الهمة المترفع والصفيق المتبلّد - وهكذا الناس جميعا مختلفون في جبلاتهم وطبائعهم واستعداداتهم - وذلك يفضي بالضرورة إلى الاختلاف والتفاوت في أرزاق العباد، وفي درجاتهم في الحياة الدنيا {ليتّخذ بعضهم بعضا سخريّا} أي ليستخدم بعضهم بعضا، فيستخدم الغني الفقير، والرئيس المرءوس، والقوي الضعيف، والعالم الجاهل، والذكي من دونه من أولي الغباوة وهوان العقل.

قوله: {ورحمت ربّك خير مما يجمعون} المراد بالرحمة ما كتبه الله لعباده الصالحين من وجوه النعم وعظيم الجزاء في الآخرة - لا جرم أن ذلك خير مما يجمعه الغافلون من الأموال وأوجه المتاع في حياتهم الدنيا.

٣٣ - (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

قوله: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضّة} {أمة}، بمعنى دين أو ملة - و {لبيوتهم}، بدل اشتمال من الموصول {لمن} وسقف بالضم جمع سقف ١٢ {ومعارج}، جمع معراج وهو السلم أو الدرج - والمعارج بمعنى المراقي والسلاليم - وعليها يظهرون، أي يرتقون ويصعدون على المراقي والسلاليم.

وهذه الآية تدل على هوان الدنيا على الله وأنها لبالغ حقارتها وبساطتها لا تزن عند الله جناح بعوضة - ولولا اغترار الناس بزينة الحياة الدنيا وشدة تلبسهم بها وبشهواتها، وإدبارهم عن الله والدار الآخرة وفرط جنوحهم للكفر طمعا في نعيم الدنيا ولذائذها لأفاض الله على الكافرين من وافر الخيرات والنعم، فلجعل سقف بيوتهم ومراقيهم ومتكآتهم من الفضة والذهب مبالغة في إسباغ الخير والزينة عليهم - فإذا رأى الناس ذلك سارعوا في الكفر ولجوا في الطغيان والضلال والفسق عن دين الله طلبا لزهرة الحياة الدنيا ومتاعها مما حظي به الكافرون - وحينئذ يصير الناس جميعا إلى ملة واحدة، وهي ملة الكفر - قال المفسرون في معنى الآية: لولا أن يكفر الناس

جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطى الله الكافرين في الدنيا ما وصفه في الآية، وذلك لهوان الدنيا عند الله، فقد ذكر الله حقارة الدنيا وهوانها بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على الآخرة فيحمل ذلك على الكفر، قال الرازي في معنى الآية: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم.

وقال صاحب الكشاف: لولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفا، أي زينة من كل شيء - والزخرف: الزينة والذهب - فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها فهلا وسّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين.

٣٤ - (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ)

قوله: {ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتّكئون} وهذه الآية تدل على هوان الدنيا على الله وأنها لبالغ حقارتها وبساطتها لا تزن عند الله جناح بعوضة - ولولا اغترار الناس بزينة الحياة الدنيا وشدة تلبسهم بها وبشهواتها، وإدبارهم عن الله والدار الآخرة وفرط جنوحهم للكفر طمعا في نعيم الدنيا ولذائذها لأفاض الله على الكافرين من وافر الخيرات والنعم، فلجعل سقف بيوتهم ومراقيهم ومتكئاتهم من الفضة والذهب مبالغة في إسباغ الخير والزينة عليهم - فإذا رأى الناس ذلك سارعوا في الكفر ولجوا في الطغيان والضلال والفسق عن دين الله طلبا لزهرة الحياة الدنيا ومتاعها مما حظي به الكافرون - وحينئذ يصير الناس جميعا إلى ملة واحدة، وهي ملة الكفر - قال المفسرون في معنى الآية: لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطى الله الكافرين في الدنيا ما وصفه في الآية، وذلك لهوان الدنيا عند الله، فقد ذكر الله حقارة الدنيا وهوانها بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على الآخرة فيحمل ذلك على الكفر، قال الرازي في معنى الآية: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم.

وقال صاحب الكشاف: لولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفا، أي زينة من كل شيء - والزخرف: الزينة والذهب - فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها فهلا وسّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين.

٣٥ - (وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

قوله: {وزخرفا} منصوب بفعل مقدر، وتقديره: وجعلنا لهم زخرفا ١٣ والزخرف الذهب - ثم يشبّه به كل مموه مزور - والمزخرف معناه المزين ١٤ وقال ابن العربي " معنى الآية: أن الدنيا عند الله تعالى من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفار ودرجها وأبوابها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب فيحمل ذلك على الكفر - قوله: {وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا} {إن}، المخففة بمعنى ما - و {لمّا} المشددة بمعنى إلا - يعني: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ١٥.

قوله: {والآخرة عند ربّك للمتّقين} جعل الله الجزاء العظيم في الآخرة للمؤمنين المتقين الذين اجتنبوا الشرك والمعاصي وأخلصوا دينهم لله، فأطاعوه وأنابوا إليه خاشعين مذعنين والتزموا شرعه ومنهاجه - لا جرم أن الدار الآخرة لهي دار البقاء والقرار - الدار التي لا يفنى نعيمها ولا يزول ١٦.

٣٦ - (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)

قوله تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين ٣٦ وإنّهم ليصدّونهم عن السّبيل ويحسبون أنّهم مهتدون ٣٧

حتّى إذا جآءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ٣٨ ولن ينفعكم اليوم إذ ظّلمتم أنّكم في العذاب مشتركون ٣٩ أفأنت تسمع الصّمّ أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين ٤٠ فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم مّنتقمون ٤١ أو نرينّك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ٤٢ فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ٤٣ وإنّه لذكر لّك ولقومك وسوف تسئلون ٤٤ وسأل من أرسلنا من قبلك من رّسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون}.

{يعش} بمعنى يعمى، ومنه عشا عشا إذا عمي - والعشا مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار - والمرأة عشواء، وعشا عنه أي أعرض ١٧ ومعنى الآية: من يعرض عن القرآن وما فيه من جليل المعاني والأحكام والعبر فيعتاض عن ذلك بالأباطيل والضلالات يعاقبه الله بشيطان يقيضه له - وهو قوله: {نقيّض له شيطانا} {نقيّض له}، أي نقدر له ونسبب - نقول: قيّض الله فلانا بفلان، أي جاء به وأتاحه له - {وقيّضنا لهم قرنآء} أي سبّبنا لهم من حيث لا يحتسبون ١٨.

فالله جل وعلا يتوعد من أعرض عن دينه وقرآنه بعقابه بشيطان يقيضه له فيلازمه ويضله {فهو له قرين} أي ملازم له ومصاحب، فهو يتبعه في الدنيا ولا يفارقه ليوحي إليه الكفر وفعل المعاصي والسيئات، ويكرّه إليه الإيمان والطاعات - وهو كذلك قرينه في الآخرة - فإذا خرج من قبره فإنه يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار معا بخلاف المؤمن، فإنه يشفع بملك حتى يقضي الله بين العباد.

٣٧ - (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

قوله: {وإنهم ليصدّونهم عن السبيل} الشياطين الذين يلازمون أتباعهم من فسقة الإنس يوحون إليهم دائما حب الكفر والعصيان ويزينون لهم فعل المعاصي والموبقات، فهم بذلك يصدونهم عن التوحيد وعن دين الله وما فيه من الأحكام والأوامر والعبر {ويحسبون أنهم مّهتدون} وذلك هو ديدن الظالمين الفاسقين عن أمر الله في كل زمان فإنهم مما غشيهم من الغرور وفرط الجهالة والضلال يحسبون أنهم على حق وأنهم على الصراط السوي المستقيم - وهم في الحقيقة ضالون تائهون موغلون في العصيان والباطل.

٣٨ - (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)

قوله: {حتّى إذا جآءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين} هذا الغافل عن دين الله، السادر في الكفر والباطل إذ جاء ربه يوم القيامة ومعه قرينه الشيطان يلازمه ولا يفارقه تمنى لو أن بينه وبين قرينه الشيطان بعد المشرقين، أي بعد ما بين المشرق والمغرب - أو ما بين مشرق الشتاء ومشرق الصيف.

قوله: {فبئس القرين} أي بئس الصاحب أنت، فهو ملازمه ومصاحبه يوم القيامة دون مفارقة حتى يصير به إلى النار.

٣٩ - (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

قوله: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} {أنكم} في

محل رفع على الفاعلية، يعني: ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب والسبب في ذلك أن الناس يقولون: إن المصيبة إذا عمت طابت لتعاون الجميع في حمل أعبائها - فالصحيح أن كل واحد منهم به من العذاب مالا يطيقه - وقرأ بعضهم (إنكم) بالكسر.

٤٠ - (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

قوله: {أفأنت تسمع الصّمّ أو تهدي العمي} الهمزة لإنكار التعجب، وفي ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإخبار له بأنه لا يملك القدرة على إسماع من سلبه الله الاستطاعة لسماع الحجج والدلائل، ولا هداية من أعمى الله قلبه عن إبصار الحق والهدى، فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله الخالق - فما ينبغي أن يضيق صدرك يا محمد بضلال هؤلاء المشركين وعدم اهتدائهم للحق وشدة جموحهم نحو الباطل {ومن كان في ضلال مبين} معطوف على ما قبله، أي إنك لا تهدي من حاد عن صراط الله أو سلك غير سبيل الحق - إن هؤلاء الكافرين جميعا أشبه بالصّم الذين لا يعقلون ما جئتهم به، وأشبه بالعمي الذين لا يبصرون الحق والنور لإفراطهم في الضلالة وإيغالهم في الجهالة.

٤١ - (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ)

قوله: {فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم مّنتقمون} يعني إن نذهب بك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين فنخرجك من بينهم فإنا منتقمون منهم كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأقوام السابقين الذين كذبوا رسلهم.

٤٢ - (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ)

قوله تعالى: {أو نرينّك الّذي وعدناهم فإنّا عليهم مّقتدرون} يعني نريك ما وعدناهم من ظفرك بهم وانتصارك عليهم، فإنا مقتدرون على إعلاء شأنك وإظهار دينك عليهم - قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر - فقد أظهر الله فيه الإسلام والمسلمين، وأعز الله دينه وأعلى من شأن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

٤٣ - (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

قوله: {فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم} ذلك تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيت لقلبه، كيلا يعبأ أو يبتئس أو يتزعزع من كيد الكافرين وإعراضهم وصدهم عن دينه فيقول له: تمسّك بما أوحي إليك يا محمد وهو القرآن فإنك على الصراط الحق صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام العظيم.

٤٤ - (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)

قوله: {وإنّه لذكر لك ولقومك} يعني القرآن، فهو شرف لك يا محمد ولقومك من قريش، فقد نزل القرآن بلسان قريش فاحتاجت العرب على اختلاف قبائلها إلى أن تتعلم لسان قريش ليتدبروا معاني القرآن فيقفوا على بلاغته وروائع إعجازه وظواهر كماله، وبذلك شرفت قريش على سائر أهل اللغات.

قوله: {وسوف تسئلون} يعني سوف يسألك الله وإياهم عما عملتم في هذا الكتاب الحكيم الذي فيه ذكركم، هل التزمتم أحكامه وأوامره وازدجرتم عن زواجره، وتجنبتم مناهيه ومحاذيره، وهل عملتم على إشاعة معانيه وأفكاره ومقاصده بين العباد ترغيبا لهم فيه.

٤٥ - (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)

قوله: {وسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} يعني سل المؤمنين من أهل الكتابين، التوراة والإنجيل: هل جاءتهم رسلهم إلا بالتوحيد وعبادة الله وحده - والمراد التأكيد على أن جميع الرسل قد دعوا إلى ما دعوت أنت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة الأصنام والأنداد ١٩.

٤٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإيه فقال إنّي رسول ربّ العالمين ٤٦ فلمّا جآءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ٤٧ وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلّهم يرجعون ٤٨ وقالوا يآأيّه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ٤٩ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون}.

ذلك إخبار من الله عن نبيه وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام، إذ أرسله الله {إلى فرعون وملإيه} وهم أشراف قومه وكبراؤهم وسادتهم.

أرسله إليهم بالمعجزات الخوارق وهي تسع آيات بينات يستيقنها كل ذي لب وبصر، ولا ينكرها أو يكذب بها إلا كل جحود عتلّ مستغرق في الضلالة والعتوّ {فقال إني رسول رب العالمين} نبّههم موسى إلى أنه مرسل إليهم من ربه وقد جاءهم بهذه المعجزات الخوارق التي لا يؤتى مثلها إلا نبي مبعوث من رب العالمين.

٤٧ - (فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ)

{فلمّا جآءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون} ضحك فرعون ومن حوله من الأتباع والرعاع والمنافقين من قومه القبط – استهزاء وسخرية من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي تقرع الأذهان وتفزع القلوب إفزاعا - لكن القوم وفي رأسهم الطاغية الأكبر فرعون،

قد سخروا من آيات الله ومعجزاته مكابرة وعنادا وإفراطا في التجبر والاستكبار - وهم في ذلك يبتغون إيهام شعبهم الخائر المستخفّ أن ما جاءهم به موسى من المعجزات ليس إلا ضرباً من السحر والتخييل.

٤٨ - (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله: {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها} أتتهم الآيات الخوارق من عند الله، الواحدة تلو الأخرى - وما من آية معجزة بينة من هذه الآيات تأتيهم إلا كانت أعظم مما قبلها من المعجزات مع أن تلك المعجزات جميعا عظيمات ويشهدن بصدق نبوة موسى وأنه مرسل من ربه - لكن القوم، وفي رأسهم الطاغوت الأثيم المتجبر فرعون، موغلون في الغفلة والعناد والتمرد - وبذلك استحقوا من الله أن يأخذهم بعذاب من عنده بسبب تكذيبهم وعتوهم - ولقد كان ذلك.

وهو قوله سبحانه: {وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون} أنزل الله بهم عذابا، جزاء كفرهم وظلمهم واستسخارهم بآيات الله، فقد أخذهم بالسنين ونقص من الثمرات وبالجراد والقمل والضفادع والدم، وهو ما بيناه سابقا {لعلّهم يرجعون} أي يتذكرون ويكفّون عن ظلمهم وتكذيبهم فيبادرون الإيمان والطاعة وحسن المتاب.

لقد بيّن الله ذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية، كيلا يحزن أو يبتئس من تكذيب قومه وصدّهم عن دين الله وعن سبيله المستقيم.

٤٩ - (وَقَالُوا يَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)

قوله: {وقالوا ياأيّه السّاحر ادع لنا ربّك بما عهد عندك إنّنا لمهتدون} لما عاين فرعون وقومه العذاب وكابدوا من شدة ما نزل بهم أشد المكابدة، حفوا مسرعين إلى موسى يسألونه في تكريم له وتوقير أن يتضرع إلى ربه عسى أن يكشف عنهم البلاء، فقالوا له: {ياأيّه الساحر} وليس وصفه بالسحر من باب الذم بل من باب المدح له و الثناء - و المراد بالساحر في زمانهم، العالم - فقد كان الساحر عظيما وهو فيهم موضع توقير و إجلال - ثم قالوا له: {ادعوا لنا ربك بما عهد عندك} أي ادع الله بعهده الذي عهد إليك أننا إن آمنا بك و اتبعناك كشف عنا الرجز (العذاب) فاسأل الله عسى أن يكشف عنا ما نزل بنا من البلاء {إننا لمهتدون أي لمصدقون فيما جئتنا به فمتبعوك في دينك.

٥٠ - (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

قوله: {فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون} ينكثون من النكث وهو النقض ٢٠ والمعنى: أن موسى عليه السلام دعا ربه أن يكشف العذاب عن القوم لعلهم يتوبون إلى الله فيؤمنون بدعوة للتوحيد ويصدقون بما جاءهم من الوحي - فاستجاب الله سؤال موسى، إذ كشف عنهم العذاب - لكنهم نقضوا عهدهم مع الله ولجوا في الغدر وسوء الخصام - ٢١

٥١ - (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ)

قوله تعالى {ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ٥١ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ٥٢ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ٥٣ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ٥٤ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ٥٥ فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين}.

خشي فرعون أن يشيع موسى وينتشر فيميل إليه الناس، فبادر لجمع القوم فنادى فيهم قائلا {ياقوم أليس لي ملك مصر} قال فرعون متبجحا مستكبرا وهو يغشاه الغرور و الإنتفاش والصلف: أليست المالك لمصر ولا ينازعني في ذلك أحد {وهذه الأنهار تجري من تحتي} يريد بذلك أنهار النيل وقد أعماه الغرور والطر والاستكبار و يدل على ذلك قوله لهم {أفلا تبصرون} قال لهم ذلك موبخا مستعليا مستخفا - وهو: أفلا ترون عظمتي وقوتي و قدرتي على حكمكم و رعايتكم - أو أفلا ترون ما أنا فيه من النعيم والخيرو العز، وما عليه موسى من الفقر والضعف وعيّ اللسان.

٥٢ - (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ)

قوله: {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين} {أم} المنقطعة وهي ها هنا بمعنى بل ٢٢ أي بل أنا خير من هذا الضعيف الممتهن الذي لا عز له ولا ملك ولا سلطان - ذلك هو قول الطاغوت الشقي فرعون، إذ يصف فيه نبي الله موسى بما ذكر من الوصف الباطل - وإنه كفى بموسى عليه الصلاة والسلام أن يشهد الله له بصدق النبوة الطاهرة والتكليم الرباني الرفيع المشرّف.

قوله: {ولا يكاد يبين} أي لا يكاد يظهر كلامه من عيّ لسان - يسخر الطاغية الأثيم المتجبر فرعون من كليم الله موسى لعقدة في لسانه وهي خصلة خلقية قدرها الله كما قدر كل الخصال الخلقية في العباد.

٥٣ - (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

قوله: {فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب} (لولا) بمعنى هلا، وهي أداة تحضيض و {أسورة} جمع سوار - وقرأ بعضهم أساور، جمع إسوار - وقرأ آخرون أساوير - وكانت الأسورة في ذلك الزمان زيّ شرف وعلامة سيادة - فكانوا إذا سودوا رجلا ألبسوه سوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته - والمعنى: هلا ألقى إله موسى عليه أسورة من ذهب ليتبين بذلك صدقه {أو جآء معه الملائكة مقترنين} أي متتابعين - والمعنى: هلا جاء معه الملائكة متتابعين وقد اقترن بعضهم ببعض فيكون ذلك شهادة له بأنه صادق وأنه مرسل من ربه.

٥٤ - (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

قوله: {فاستخفّ قومه فأطاعوه} أي حملهم فرعون بكيده وغروره وطغيانه على السفه والخفة والجهل فاستجابوا له - وقيل: وجدهم خفاف العقول، ضعاف الأحلام فدعاهم إلى الضلالة فأطاعوه {إنهم كانوا قوما فاسقين} أي خارجين عن طاعة الله.

وذلك هو ديدن الطغاة المجرمين من الساسة الظلمة في كل زمان - أولئك الذين يستخفون عقول مستخدميهم من الزبانية المتجبرين الجلادين ليحملوهم على التصدي للداعين إلى دين الإسلام بالقمع والقهر والصد والتنكيل.

إن الحكام الطغاة من جبابرة الأرض المتسلطين على رقاب المسلمين يستغلون في موظفيهم ومستخدميهم من العساكر والمستخبرين والمأمورين الجهلة تفاهة هممهم - ومروءاتهم وهوان عقولهم فضلا عن موات الضمائر في صدورهم ليسخروهم في تحطيم الدعوة إلى دين الإسلام، والقضاء على الدعاة إلى الله ليبيدوهم أو ينكلوا بهم تنكيلا.

٥٥ - (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: {فلما آسفونا انتقمنا منهم} أي لما أغضبونا بطغيانهم وشدة جحودهم وصدهم عن دين الحق {انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين} انتقم الله من فرعون وملئه المجرمين بعذابه الشديد، إذ أغرقهم في البحر فأخذهم جميعا شر أخذة ونكل بهم أفظع تنكيل.

٥٦ - (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ)

قوله: {فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} السلف، معناه المتقدم - والمثل، العبرة والعظة، أي جعل الله فرعون وقومه المجرمين مقدمة يتقدمون كفار قريش إلى النار {ومثلا} أي وعبرة وعظة بما حل بهم من الإغراق والإهلاك لمن يتذكر أو يعتبر من الأجيال من بعدهم ٢٣.

٥٧ - (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)

قوله تعالى: {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ٥٧ وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ٥٨ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ٥٩ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ٦٠ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ٦١ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ٦٢ ولما جآء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ٦٣ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ٦٤ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم}

ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت في خصومة ابن الزبعري مع النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى: {إنكم وما تعبدون

من دون الله حصب جهنم} فقال ابن الزبعري: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيرا، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته " فأنزل الله عز وجل قوله: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} أي المسيح وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان، وروي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش: " يامعشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله " قالوا: أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيا وعبدا صالحا، فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله فأنزل الله {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون} مريم، لا تنصرف للتعريف والعجمة - وقيل: للتعريف والتأنيث ٢٤ و {يصدون}، بكسر الصاد يضجون - نقول: يصدون صديدا ٢٥ والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلا وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه {إذا قومك} قريش من هذا المثل {يصدون} أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وجذلا وضحكا بما ظنوه واهمين سفهاء أن ابن الزبعري قد حج رسول الله صلى الله عليه وسلم {وقالوا ءآلهتنا خير أم هو}.

٥٨ - (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

قوله: {وقالوا ءآلهتنا خير أم هو} أي: آآلهتنا خير أم المسيح - فقد خاصموا النبي قائلين: إن كان كل من عبد غير الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة - وقيل: يريدون بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم يعني: آآلهتنا خير أم محمد؟ وقد ذكروا ذلك لأنهم قالوا: إن محمدا يدعونا إلى عبادة نفسه، وأباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام - وإذا كان لابد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى.

قوله: {ما ضربوه لك إلا جدلا} {جدلا} منصوب على الحال، أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا ابتغاء الجدل وبفرط جنوحهم للتخاصم {بل هم قوم خصمون} أي شديدو الخصومة واللدد.

٥٩ - (إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

قوله: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه} يعني ما المسيح عيسى ابن مريم إلا عبد من عبادنا أنعمنا عليه بالإيمان والنبوة {وجعلناه مثلا لبني إسرائيل} أي جعلناه آية لبني إسرائيل وحجة لنا عليهم، فقد ولد من غير أب، وخاطب الناس في المهد صبيا، ثم أرسلناه إليهم رسولا فأخرجنا على يديه معجزات كبريات، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك.

٦٠ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ)

قوله: {ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون} يعني لو نشاء لأهلكناكم أيها الناس ثم جعلنا بدلا منكم ملائكة في الأرض يخلفونكم فيها فيعبدون الله - كقوله عز وعلا: {إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء}.

٦١ - (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

قوله: {وإنه لعلم للساعة} المراد خروج عيسى عليه الصلاة والسلام إلى الدنيا وذلك شرط من أشراط الساعة، فإن الله ينزله من السماء إلى الأرض قبيل قيام الساعة - وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمام عادلا وحكما مقسطا - قوله: {فلا تمترن بها} أي لا تشكوا في قيامها فإنها واقعة لا محالة - قوله: {واتبعون} أي فيما أمرتكم بفعله وانتهوا عما نهيتكم عنه {هذا صراط مستقيم} أي ما أدعوكم إليه من الحق والتوحيد والإذعان لله بالطاعة لهو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه والذي يفضي إلى السعادة والنجاة.

٦٢ - (وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

قوله: {ولا يصدنكم الشيطان} أي لا يحملنكم الشيطان على العدول عما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده وطاعته فيما أمركم به.

قوله: {إنه لكم عدو مبين} الشيطان شديد العداوة والكراهية لذرية آدم، فهو يحرض دون ملل أو انقطاع على إضلالكم وإهلاككم.

٦٣ - (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

قوله: {ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة} لما جاء عيسى بني إسرائيل بالحجج الظاهرة والمعجزات الباهرة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من هيئته من الطين وإنزال المائدة من السماء والإخبار بالغيوب {قال قد جئتكم بالحكمة} أي جئتكم بالنبوة - وقيل: الإنجيل - وقيل: الحكمة هي المعرفة بذات الله وصفاته وأفعاله، أو هي أصول الدين.

قوله: {ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه} يعني لأبين لبني إسرائيل بعض ما اختلفوا فيه من أحكام التوراة - أو مما اختلفوا فيه من الأمور الدينية والدنيوية - قوله: {فاتقوا الله وأطيعون} أي خافوا ربكم واعبدوه وحده واجتنبوا معاصيه وأطيعوني فيما أمرتكم به ودعوتكم إليه من إفراد الله وحده بالعبادة والإذعان والخشوع.

٦٤ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

قوله: {إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه} الله رب كل شيء وخالقه ومدبر أمره، فأفردوه بالألوهية وإخلاص الطاعة له ولا تشركوا به شيئا.

قوله: {هذا صراط مستقيم} أي هذا الذي أمرتكم به من إفراد الله وحده بالعبادة والاستسلام والإذعان، وطاعته فيما أمر والانتهاء عما زجر، لهو الطريق القويم الذي لا زيغ فيه ولا عوج، وهو الدين الحق المستقيم الذي فيه منجاتكم وسعادتكم وصلاحكم في الدنيا والآخرة.

٦٥ - (فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

قوله: {فاختلف الأحزاب من بينهم} المراد بالأحزاب فرق النصارى المختلفة بعد المسيح، فقد تحزبوا واختلفوا ما بينهم في حقيقة المسيح، فكانوا فرقا ونحلا متباينة شتى وهم الملكانية إذ قالوا: ثالث ثلاثة، أحدهم الله، واليعقوبية إذ قالوا: المسيح هو الله، والنسطورية إذ قالوا: إنه ابن الله - وإن ذلكم لهو افتراء باطل وتخريص موهوم شنيع تعالى الله عما يتقوّله المشركون علوا عظيما.

قوله: {فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم} ذلك وعيد شديد من الله لهؤلاء المشركين، إذ يتوعدهم بعذابه الأليم يوم القيامة بسبب ظلمهم وافترائهم على الله، إذ اصطنعوا له الشريك والولد ٢٦.

٦٦ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

قوله تعالى: {هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ٦٦ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ٦٧ ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ٦٨ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ٦٩ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ٧٠ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ٨١ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ٨٢ لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون}

ماذا ينتظر الظالمون والمشركون الذين أضلوا أنفسهم وباءوا بالهلاك والخسران، غير العذاب البئيس، يحيق بهم يوم القيامة فيذوقون حينئذ ألوان التنكيل والفظائع {هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون} هل ينتظر الظالمون والمشركون الخاسرون إلا أن تفجأهم الساعة بقيامها المباغت وهم لاهون ساهون غافلون - لا جرم أن قيام الساعة فجاءة والناس في غفلة لهو أشد ترويعا وتنكيلا بالخاسرين المفرّطين.

٦٧ - (الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ)

قوله: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ذكر أن هذه الآية نزلت في أمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط، فقد كانا خليلين وهما من رؤوس الطغاة والمجرمين - وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبي معيط، فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تتفل في وجهه، ففعل عقبة ذلك، فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بدر صبرا ٢٧ وقتل أمية في المعركة - والصحيح أن الآية عامة في سائر الأخلاء الظالمين المتحابين في الدنيا، فإنهم يوم تأتيهم الساعة ينقلب

بعضهم لبعض عدوا - أي يعادي بعضهم بعضا.
وهو قوله: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو} الأخلاء جمع خل وخليل وهو الصديق من المخالة، والخلة بالضم والفتح وهي الصداقة ٢٨ فهم يوم القيامة متنافرون، إذ يكره بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا بعد أن كانوا في الدنيا متحابين تجمع بينهم علائق شتى من أمور الدنيا ومصالحها وغير ذلك من قضايا الشر والظلم والباطل والإيذاء، فضلا عما كان يجمع بينهم من شديد المكائد والمؤامرات للإسلام والمسلمين، فإن اشتداد الكراهية والأحقاد المحتقنة في قلوب الظالمين على اختلاف مللهم وعقائدهم ومذاهبهم تدفعهم للتلاقي بينهم ليكونوا أخلاء متحدين من أجل التصدي للإسلام والمسلمين، والكيد لهم - أولئك المتحابون في الدنيا، المجتمعون على العدوان والكيد للإسلام والمسلمين لإضعافهم وإذلالهم وإبادتهم، إنما ينقلبون يوم القيامة متباعضين متلاعبين بعد أن انقطعت بينهم أسباب المودة والتلاقي، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا ما كان يجعلهم أخلاء، أسبابا لهلاكهم وخسرانهم فصار بعضهم لبعض عدوا {إلا المتقين} فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة، لأن ما كان يجمعهم في الدنيا من أسباب الخير وعلائق الدين والعقيدة لم ينقطع يوم القيامة - بل بقيت خلّتهم على حالها من ثبات التوثيق ومتانة الرباط.
٦٨ - (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)
قوله: {ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون} ذلك نداء من الله يوم القيامة، يوم الفزع الأكبر حيث الأهوال المخوفة والبلايا التي تقصم القلوب- إذ ينادي به عباده المؤمنين المتقين وقد غشى الناس من الهم والترويع واليأس ما غشيهم: أن يا عبادي الذين آمنوا واتقوا وأخلصوا دينهم لربهم {لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون} أي لا تخافوا مما ترونه من الأفزاع والأهوال فأنتم آمنون مطمئنون {ولا أنتم تحزنون} على فراق الدنيا وما فيها من الأصحاب والأحباب والخلان والمصالح والأموال والقربات والذكريات، فإن الذي قدمتم عليه لهو خير لكم مما فارقتموه في الدنيا.
وذكر أن الناس ينادون هذا النداء يوم القيامة فيطمع فيها من ليس من أهلها حتى يسمع قوله: {الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين} فييأس منها عند ذلك.
٦٩ - (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)
قوله: {الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين} {الذين} في موضع نصب على أنه نعت للمنادى المضاف {ياعباد} وقيل: في موضع رفع على أنه مبتدأ، وخبره محذوف وتقديره: هم الذين آمنوا - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، والأول أظهر - فيكون المعنى: يا عبادي الذين آمنوا وصدقوا بكتب الله ورسله وكانوا مذعنين لله - بخضوعهم لجلاله وطاعتهم لأوامره، أولئك يناديهم ربهم يوم القيامة {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون}.
٧٠ - (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ)
قوله: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون} ينادي الله المؤمنين المتقين، أن ادخلوا الجنة أنتم وزوجاتكم المؤمنات فأنتم جميعا في الجنة {تحبرون} أي تسرون وتفرحون وتنعمون - من الحبور، وهو السرور ٢٩.
٧١ - (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
قوله: {يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب} الصحاف جمع صحفة وهي إناء كالقصعة - وقال الزمخشري: الصحفة: قصعة مستطيلة ٣٠ والأكواب، جمع كوب وهو كوز مستدير الرأس لا أذن له - ويقال: قدح لا عروة له ٣١.
والمعنى: أن المؤمنين في الجنة يطاف عليهم بصحائف الطعام وأكواب الشراب وهم آمنون مطمئنون وفي غاية النعيم والابتهاج، لا يشقون ولا يشكون من حر ولا قر ولا شدة، ولا يؤزهم هم ولا غم ولا نصب ولا كرب، بل يجدون فيها من وجوه النعيم والراحة والهناء ما لا يتصوره بشر.
على أن الذهب والفضة يحرم استعمالها في الأكل والشرب.

فقد ثبت في الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب و الفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة ".
وروى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم "، وقال: " لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها ".
ويستدل من ذلك على تحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة وهو مالا خلاف فيه - أما استعمالهما في غير فإنه غير ذلك جائز للرجال على الراجح، وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير: " هذان حرامان على ذكور أمتي حل لإناثها " والنهي عن الأكل والشرب فيها يدل على تحريم استعمالها، لأنه نوع من المتاع فلم يجز، ولأن العلة في ذلك استعجال أجر الآخر - ويستوي في ذلك الأكل والشرب وسائر أوجه الانتفاع.
قوله: {وفيها ما تشتهيه الأنفس تلذ الأعين وأنتم فيها خالدون} في الجنة من الخيرات والثمرات وأصناف النعم ما تشتهيه أنفس المؤمنين المحبورين المنعمين وما تستلذ به أعينهم أو يسعدون باشتمامه لفرط حسنه وبهائه وجماله - وهم في هذا الحال من النعم واللذائذ والمباهج قائمون دائمون لا يبرحون ولا يموتون.
٧٢ - (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله: {وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون} يقال للمؤمنين الذين سعدوا بالجنة يوم القيامة: هذه الجنة التي أورثكم الله إياها عن أهل النار الذين أدخلوا جهنم - وذلك بسبب ما قدمتموه في حياتكم الدنيا من الطاعات وعمل الصالحات - وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة ".
٧٣ - (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)
قوله: {لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} من أطيب الثمرات الفواكه - وهي في الجنة كثيرة ومختلفة ومستطابة، قد أفاض الله بها من فضله على عباده المؤمنين في الجنة ليأكلوا منها ما يشاءون ٣٢.
٧٤ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)
قوله تعالى: {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ٧٤ لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون ٧٥ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ٧٦ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ٧٧ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثرهم للحق كارهون ٧٨ أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون ٧٩ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}.
بعد أن ذكر أحوال أهل الجنة وما هم فيه من النعيم والحبور، ذكر أحوال أهل النار حيث التحريق والتنكيل والإياس من الرحمة - فقال سبحانه: {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون} أولئك هم المشركون الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة فباءوا بالعذاب المقيم في جهنم ليكونوا فيها لابثين مقيمين لا يخرجون.
٧٥ - (لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)
قوله: {لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون} هؤلاء الظالمون الخاسرون يصلون النار الحامية بعذابها الأليم الدائم الذي لا يخفف عنهم {وهم فيه مبلسون} يعني آيسون من رحمة الله.
٧٦ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)
قوله: {وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون} أي لم نظلم هؤلاء المجرمين الخاسرين بتعذيبهم في جهنم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم فذاقوا وبال أمرهم من سوء العذاب.
٧٧ - (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

قوله: {ونادوا يامالك ليقض علينا ربك} عقب دخول المجرمين الخاسرين النار واصطراخهم فيها من هول العذاب وفظاعة التنكيل، ينادون الملك الهائل المخوف، خازن النار وهو مالك، متوسلين به إلى الله عسى أن يقضي عليهم بالموت فيستريحوا، فأجابهم مالك إجابة ملؤها التيئيس والغضب {إنكم ماكثون} أي مقيمون دائمون في النار لا تبرحون ولا تخرجون.

٧٨ - (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

قوله: {لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون} أي أرسلنا إليكم رسلنا وأنزلنا عليهم آياتنا بينات فدعوكم إلى الحق والتوحيد والمنهج المستقيم {ولكن أكثركم للحق كارهون} أي أكثركم يكرهون ما جاءهم به الرسل من عند الله فأبوا إلا الشرك والضلال - وقيل: المراد بأكثرهم رؤساؤهم وقادتهم.

٧٩ - (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

قوله: {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون} {أم} المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة، أي بل أبرموا أمرا - و {أبرموا}، من الإبرام وهو الإحكام - أبرمت الشيء، أي دبرته وأحكمته ٣٣ والمعنى: أم أبرم المشركون أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله فإنا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم - أو: أم أحكموا كيدا فإنا محكمون لهم كيدا.

وقيل: نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه فنزلت هذه الآية، وقتل الله جميعهم ببدر.

٨٠ - (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)

قوله: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم} يعني: بل أيحسبون أنا لا نسمع ما يستسرونه أو يخفونه في أنفسهم أو ما يتناجون به فيما بينهم سرا {بلى} إننا نسمع ما يسرون فلا يخفى علينا من ذلك شيء {ورسلنا لديهم يكتبون} {رسلنا}، الملائكة الحفظة عندهم يكتبون ما يصدر عنهم من قول أو فعل ٣٤.

٨١ - (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)

قوله تعالى: {قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين ٨١ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ٨٢ فذرهم يخوضوا ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ٨٣ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ٨٤ وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ٨٥ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ٨٦ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ٨٧ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ٨٨ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون} - نزه الله نفسه عن اتخاذ الشركاء، فهو الإله الأحد المقتدر، خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق وعجائب وكائنات، فهو سبحانه مستغن عن الشريك أو الولد، فإنه لا يحتاج لشيء من ذلك إلا من كان يعوزه الإيناس من الوحشة، أو العون من الضعف - والله عز وعلا منزه عن هاتيك النقائص - قال سبحانه {قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين} {إن}، شرطية - والتقدير: إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده، على أنه لاولد له - وقيل: تقديره: إن كان للرحمان من ولد فأنا أول الآنفين من العبادة - وقيل: {إن}، بمعنى ما النافية - أي ما كان للرحمان من ولد - وكونها شرطية أظهر وأولى بالصواب ٣٥.

وإيراد هذا الكلام لهو على سبيل الفرض والتمثيل لغرض المبالغة في نفي الولد - والمعنى: لو صح أن للرحمان ولدا فأنا أول من يعظم هذا الولد وأسبقكم على طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه.

٨٢ - (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

قوله: {سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون} ينزه الله ذاته الموصوفة بربوبية السماوات والأرض والعرش، عن اتخاذ الولد، لأن ذلك من صفات المخاليق.

٨٣ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

قوله: {فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون} أي دع هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب وينسبون له الولد زورا وظلما {يخوضوا ويلعبوا} وذلك تهديد للمشركين المعرضين الناكلين عن عقيدة التوحيد - يعني قد تبينت لهم الحجة وظهر لهم البرهان على صدق ما أنزل إليهم فأبوا واستكبروا، فاتركهم يا محمد يخوضوا في أباطيلهم ويلعبوا في ضلالاتهم {حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون} وهو يوم القيامة حيث الحساب الرهيب و العقاب الوجيع جزاء عصيانهم وتكذيبهم.

٨٤ - (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

قوله: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} أي أن الله الذي له الإلهية، والمتفرد بالوحدانية لهو معبود في السماء ومعبود في الأرض، فهو بذلك يعبد فيهما - ولا تتجلى هذه الصفة الكبرى لأحد سوى الله، وهي دليل عظمته البالغة وأنه الصانع الحكيم الذي لا تنبغي العبادة ولا الإذعان إلا لجلاله العظيم - ومما يقتضيه مفهوم هذه الآية أن نوقن أن الله وحده الحاكم المشرع لأهل الأرض - لا جرم أن هذه واحدة من خصائص الإلهية العظمى، فالله الذي خلق السماوت فأبدعهم إبداعا وأنشأ فيهن روعة البناء والخلق، وبث فيهن مالا يحصى من الأجرام والكائنات فكان ذلك كله في غاية القوة والاتساق والانتظام والترابط، لهو جدير به ألا يدع البشرية على الأرض مضطربة بغير نظام ولا تشريع - لقد وضع الله للبشرية تشريعها المناسب في الأرض، لأنه سبحانه الأقدر على ذلك، فهو العالم بالأحوال والحقائق والطبائع {وهو الحكيم العليم} الله الحكيم في تدبير شؤون خلقه، العليم بما يصلحهم وينفعهم في دينهم ودنياهم.

٨٥ - (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

قوله: {وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما} أي استقر لله السلامة من النقائص والعيوب، فهو الرب العلي الأعظم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض {وعنده علم الساعة} الله وحده العليم بالساعة وأيان مرساها - قوله: {وإليه ترجعون} الناس جميعا صائرون إلى ربهم فملاقوه يوم الحساب، يوم تقوم الساعة فتفجأ الكون بخبرها الداهم المزلزل.

٨٦ - (وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

قوله: {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} يبين الله سبحانه أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون الله، الشفاعة عنده لأحد - أو لا يملك المعبودون من دون الله أيما شفاعة لأحد عند الله - ثم استثنى بقوله: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} أي الذين يشهدون شهادة الحق ويخلصون لله الوحدانية وهم موقنون بحقيقة ما شهدوا فأولئك يملكون الشفاعة عند الله بإذنه لهم، لقوله سبحانه: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} فأثبت الله الشفاعة للملائكة وعيسى وعزير وملّكهم من الشفاعة ما نفاه عن الأوثان والآلهة المزعومة.

٨٧ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

قوله: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله} أي لئن سألت هؤلاء المشركين من قومك عمن خلقهم لأجابوا بأن الله هو الذي خلقنا، أي أنهم مقرون بأن الله هو الخالق بالرغم من شركهم واتخاذهم من دون الله الخالق أندادا يعبدونهم مع الله.

قوله: {فأنى يؤفكون} كيف ينقلبون عن عبادة الله وحده إلى عبادة غيره مع إقرارهم بأن الله هو الخالق؟ فهم بذلك في غاية السفاهة والجهالة.

٨٨ - (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ)

قوله: {وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون} القيل والقال، اسمان للمصدر وهو القول ٣٦ ويقرأ {قيله} بالنصب والرفع والجر - أما النصب: فهو أن يكون منصوبا على المصدر - وتقديره: ويقول قيله - وأما الرفع: فلكونه معطوفا على {علم}، في قوله: {وعنده علم الساعة} أي وعلم قبله - وأما الجر: فهو للعطف على الساعة - وتقديره: (وعند علم الساعة وقبله) ٣٧ والقراءتان المشهورتان هما النصب والجر فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب - وبذلك يكون تأويل الكلام: وقال محمد قيله شاكيا إلى ربه جل وعلا قومه الذين كذبوه وآذوه: يا رب إن هؤلاء قومي الذين أنذرتهم وأبلغتهم رسالة الحق والتوحيد قوم لا يؤمنون، أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو قومه

إلى الله لسوء ردهم وشديد إعراضهم وتكذيبهم.
٨٩ - (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)
قوله: {فاصفح عنهم وقل سلام} أي أعرض عن أذاهم يا محمد {وقل سلام} {سلام} مرفوع، لأنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمري سلام، أي مسالمة منكم ومتاركة لكم، وليس من السلام بمعنى التحية ٣٨.
قوله: {فسوف يعلمون} وهذا تهديد من الله للمشركين، إذ يتوعدهم بالعذاب والنكال على كفرهم فضلا عما في ذلك من تأنيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٩.

٤٤ سورة الدخان:

سورة الدخان:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية، وآياتها تسع وخمسون - وهي كغيرها من السور المكية من حيث السمات الوجدانية، والتأثير الشديد، ومن حيث الطابع الذاتي النافذ إلى أعماق المشاعر والقلوب وهي في جملة آياتها وعباراتها وألفاظها وما يجلل ذلك من عجائب النغم وشديد الإيقاع وما تقضي إليه الآيات من خواتيم مميزة مصطفاة- كل ذلك يشده الحسّ ويقرع القلب وينفذ إلى الوجدان أيما نفاذ - ويأتي في طليعة هاتيك المعاني الحقائق والأفكار، ما سميت به السورة وهو الدخان، وذلك في قوله: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ١٠ يغشى الناس هذا عذاب أليم} وظهور الدخان ليغطي الآفاق علامة مثيرة من علامات الساعة التي تنبه الأذهان إلى أن الطامة قد أزفت - ثم يعقب ذلك البطشة الكبرى وهي الساعة بذاتها المذهلة، وفظاعتها المزلزلة.
وفي السورة بيان بأهوال جهنم وهي كثيرة وفظيعة ومريعة - ومن جملة ذلك الزقوم، هذا الطعام الخبيث الشنيع في منظره ومذاقه وهو طعام أهل النار يقسرون على أكله قسرا - وغير ذلك من الأخبار والمواعظ والمشاهد التي تضمنتها هذه السورة الكريمة.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم ١ والكتاب المبين ٢ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ٣ فيها يفرق كل أمر حكيم ٤ أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين ٥ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ٦ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ٧ لا إلاه إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين}.
يقال في {حم} ما قيل في فواتح بعض السور من حروف التهجي المقطعة، فالله جل وعلا أعلم بحقيقة المراد من ذلك.
٢ - (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)
قوله: {والكتاب المبين} أقسم الله بكتابه وهو القرآن وقد وصفه بالمبين، أي الواضح في بيانه ومعناه، الظاهر في دلائله وإعجازه وأحكامه.
٣ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)
قوله: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} جواب للقسم، فقد أنزل الله كتابه الحكيم وهو القرآن في ليلة وهي ليلة القدر - وهذه الليلة في فضلها وجلالها خير من ألف شهر - قال ابن العربي: البركة هي النماء والزيادة - وسماها مباركة لما يعطي الله فيها من المنازل ويغفر من الخطايا، ويقسّم من الحظوظ ويبث من الرحمة وينيل من الخير.
لقد أنزل القرآن العظيم جملة واحدة في هذه الليلة العظيمة الفضلى - أنزله إلى السماء الدنيا ثم أنزل نجما نجما في سائر الأيام تبعا للأسباب والحوادث والوقائع.
قوله: {إنا كنا منذرين} جواب ثان للقسم، أي أنزلنا القرآن لنبلغهم رسالة الحق ونبين لهم ما ينفعهم وما يضرهم.

٤ - (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

قوله: {فيها يفرق كل أمر حكيم} أي في ليلة القدر يقضي الله ما يكون من السّنة إلى السّنة من رزق أو مصيبة - قال ابن كثير في تأويل ذلك: أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها.

٥ - (أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

قوله: {أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين} {أمرا}، منصوب على المصدر - وقيل: منصوب على الحال - وقيل: منصوب بفعل مقدر، أي أعني أمرا - والمراد بالأمر القرآن فقد أنزله الله من عنده - وقيل: الأمر ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده {إنا كنا مرسلين} أي من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا.

٦ - (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قوله: {رحمة من ربك} {رحمة} منصوب على أنه مفعول به، أي للرحمة - وقيل: منصوب على الحال ١ أي إنا كنا مرسلين راحمين {إنه هو السميع العليم} يصف الله نفسه بأنه السميع لما يقوله المشركون فيما أنزله إليهم من كتاب وما أرسله إليهم من رسول - وهو سبحانه العليم بما تخفيه صدور هؤلاء المشركين وغيرهم من المقاصد والخفايا.

٧ - (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

قوله: {رب السماوات والأرض وما بينهما} تقرأ {رب} بالجر على أنه بدل من {ربك} وبالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هو رب السماوات والأرض - والمعنى: أن الذي أنزل الكتاب على رسوله ليكون لهؤلاء المشركين رحمة من ربه {رب السماوات والأرض وما بينهما} أي خالقهما ومالكهما والمتصرف في تدبير أمرهما وما بينهما من أشياء وكائنات.

قوله: {إن كنتم موقنين} أي إن كنتم متحققين من أن الله رب السموات والأرض وأن هذا القرآن منزل من عنده وأن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه.

٨ - (لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ)

قوله: {لا إله إلا هو يحيي ويميت} أي لا معبود سوى الله، فهو الخالق السماوات والأرض وخالق كل شيء فلا تصلح العبادة إلا له وهو سبحانه المحي الذي يبعث الحياة في الخلائق فيكون لها سعي وحركة و دبيب - وهو سبحانه المميت الذي ينزع من الخلائق ظاهرة الحياة والحركة والحس لتموت وتفنى.

قوله: {ربكم ورب آبائكم الأولين} الله الذي له ملكوت كل شيء، فهو مالك الناس وآبائهم السابقين ومالك من بعدهم إلى يوم الدين - فلا جرم أنه أحق أن تفردوه وحده بالعبادة دون غيره من الأنداد المزعومة والآلهة المصطنعة ٢.

٩ - (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

قوله تعالى: {بل هم في شك يلعبون ٩ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ١٠ يغشى الناس هذا عذاب أليم ١١ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ١٢ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ١٣ ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون ١٤ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ١٥ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون}.

المشركون مرتابون مضطربون في إيمانهم، فهم ليسوا موقنين ولا جادين فيما يظهرونه من الإيمان إذ قالوا: إن الله خالقهم، بل إن قولهم هذا يخالطه اللعب والتردد والاستسخار.

١٠ - (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)

قوله: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} ارتقب معناه انتظر - ويقال ذلك في المكروه - والمعنى: انتظر يا محمد بهؤلاء المشركين يوم تغشاهم السماء بدخان ظاهر يراه كل أحد - وفي حقيقة الدخان قولان:

القول الأول: إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قومه المشركين بمكة لما كذبوه فقال: " اللهم اجعل سنيهم كسنيّ يوسف " فارتفع المطر وأجدبت الأرض وأصابت قريشا شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف - فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان - وهذا قول ابن عباس في رواية عنه وقال به ابن مسعود - وجملة ذلك أن هذا الدخان إنما يراد به الظلمة التي في أبصارهم من شدة الجوع - وذكر في تفسير الدخان بهذه الحالة أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال سنة المجاعة الغبراء.

القول الثاني: إن هذا الدخان من أشراط الساعة وهو لم يجئ بعد، وإنه يمكث في الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام - وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم وهو من آثار جهنم يوم القيامة - وهو قول كثيرين من السلف فيهم ابن عمر وأبو هريرة والحسن وابن عباس في رواية عنه - وهذا القول أولى بالصواب - وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذكرون؟ " قالوا: نذكر الساعة - قال: " إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات " فذكر: " الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم " وفي رواية عن حذيفة قال: قلت: يا نبي الله، وما الدخان؟ قال: " هذه الآية {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} ".

١١ - (يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {هذا عذاب أليم} أي يقول الظالمون الخاسرون إذا رأوا الدخان يملأ الآفاق: هذا عذاب موجع شديد - وذلك ما ينالهم من الكرب الشديد والجهد البالغ.

١٢ - (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

قوله: {ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون} والمراد بالعذاب على القول الأول هو القحط الشديد - والمراد به على القول الثاني، ما يملأ الآفاق من الدخان المهلك إيذانا بقيام الساعة {إنا مؤمنون} أي بكتاب الله وبما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو وعد منهم بالإيمان إن كشف الله عنهم العذاب.

١٣ - (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ)

قوله: {أنّى لهم الذكرى وقد جآءهم رسول مبين} يعني كيف يتذكرون ويتعظون وقد جاءهم ما هو أعظم في وجوب الطاعة، مما ظهر على رسول الله من المعجزات الباهرات والبينات الساطعات.

١٤ - (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ)

قوله: {ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجّنون} أي أعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يقولون: إنما يعلم محمدا بشر أو تعلمه الكهنة ثم إنه مجنون وليس برسول - ذلك كان قول هؤلاء الفجار المعاندين، مع أنهم كانوا في أعماق قلوبهم موقنين أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق أمين وأنه ما كذب قط.

١٥ - (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

قوله: {إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عآئدون} ذلك تنبيه من الله على أن هؤلاء المشركون لا يوفون بعهدهم وهم إنما يتضرعون إلى الله في حال العجز فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الآباء والأجداد في مللهم الضالة - وقد وعد الله في هذه الآية أن يكشف عنهم ذلك العذاب زمانا قليلا ليبين أنهم لا يفون بما وعدوا بل يعودون إلى الكفر بعد كشف العذاب - وهذا التأويل على قوله من ذهب إلى أن المراد بالدخان القحط والشدة - أما من قال إن الدخان منتظر إيذانا بقيام الساعة أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين علامة وأخرى من علامات الساعة - فمن قضى عليه بالكفر استمر على كفره.

١٦ - (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)
قوله: {يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} {يوم} منصوب على الظرف - وتقديره: ننتقم يوم نبطش - وقيل: منصوب بإضمار فعل والتقدير: اذكر يا محمد يوم نبطش ٣ وفي المراد بالبطشة الكبرى قولان:
أحدهما: أنه يوم بدر - وهو قول ابن مسعود وابن عباس وآخرين - قالوا: إن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا إلى التكذيب فانتقم الله منهم يوم بدر.
ثانيهما: أنه يوم القيامة - وهذه رواية عن ابن عباس - فقد قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول، هي يوم القيامة - وهذا القول أولى بالصواب، لأن يوم بدر لا يبلغ مبلغا يوصف فيه بهذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة - ولأن هذه البطشة قد وصفت بأنها كبرى فوجب أن تكون أعظم أنواع البطش ولا يكون ذلك إلا يوم القيامة ٤.
١٧ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)
قوله تعالى: {ولقد فتنّا قبلهم قوم فرعون وجآءهم رسول كريم ١٧ أ دّوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين ١٨ وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين ١٩ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ٢٠ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ٢١ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ٢٢ فأسر بعبادي ليلا إنكم متّبعون ٢٣ واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون ٢٤ تركوا من جنات وعيون ٢٥ وزروع ومقام كريم ٢٦ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٧ كذلك وأورثناها قوما آخرين ٢٨ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ٢٩ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ٣٠ من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين ٣١ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ٣٢ وآتيناهم من الأيات ما فيه بلاؤ مبين}.
ذلك إخبار من الله عما نزل بفرعون وقومه المجرمين من البلاء العظيم، بعد أن أنذرهم موسى عليه السلام وحذرهم بطش الله وشديد عقابه في الدنيا والآخرة - لكن فرعون علا في الأرض وتجبر واستكبر، واصطنع لنفسه من فظاعة الكفر- بدعوى الألوهية- ما يثير في النفس السخط والاشمئزاز ويستوجب من الله المقت والغضب، فأخذه الله وملأه وجنوده أخذة شديدة أليمة قطعت دابرهم بالكلية - وهو قوله سبحانه: {ولقد فتنّا قبلهم قوم فرعون} أي امتحنا وابتلينا قوم فرعون من القبط من قبل هؤلاء المشركين من قومك يا محمد فقد {جآءهم رسول كريم} أي أرسلنا إليهم رسولنا موسى وهو كريم على ربه، إذ اختصه بالنبوة والرسالة - وقيل: كريم الأخلاق بطول الصبر والاحتمال والصفح.
١٨ - (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)
قوله: {أن أدّوا إلي عباد الله} {أن} المفسرة - وقيل: المخففة من الثقيلة - و {عباد} مفعول به للفعل {أدّوا} والمراد بهم بنو إسرائيل يعني، ادفعوهم إلي فأرسلوهم معي وأطلقوهم من المهانة والعذاب - وقيل: المراد أدوا إلي يا عباد الله - فعباد منصوب على أنه منادى مضاف أي اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق والدين {إني لكم رسول أمين} أي إني مبعوث إليكم من ربي وقد ائتمني على دينه ورسالته.
١٩ - (وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
قوله: {وأن لا تعلوا على الله} أي لا تطغوا ولا تتكبروا على الله فتعصوه بإهانة دينه ورسوله {إني آتيكم بسلطان مبين} آتيكم ببرهان ظاهر على أن ما جئتكم به حق وصدق.
٢٠ - (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ)
قوله: {وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون} يعني إني اعتصمت بربي وربكم واستجرت به منكم {أن ترجمون} من الرجم، وهو الشتم باللسان أو تقولوا إني ساحر - وقيل: المراد بالرجم، الضرب بالحجارة، فقد اعتصم بالله من أن يرجموه بالحجارة - والأولى بالصواب أن موسى قد استعاذ بالله من كل ما احتمله رجمهم له من المعاني سواء كان ذلك باللسان أو باليد على سبيل الضرب أو القتل.

٢١ - (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ)
قوله: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون} اللام في قوله: {لي} هي لام الأجل - يعني إن لم تؤمنوا بي ولم تصدقوني لأجل برهاني {فاعتزلون} أي دعوني مكفوفا عني شركم - أو كونوا بمعزل مني وأنا بمعزل منكم حتى يحكم الله بيني وبينكم.
٢٢ - (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ)
قوله: {فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون} استيأس موسى من إيمان فرعون وقومه المجرمين الذين طغوا وبغوا ولجوا في العصيان والاستكبار وأبوا أن يطلقوا بني إسرائيل من إسار الذل والقهر، وهموا بقتل موسى عليه السلام، حينئذ دعا موسى ربه أن هؤلاء {قوم مجرمون} موغلون في الكفر والعصيان والباطل.
٢٣ - (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)
فاستجاب الله دعاءه وتوعد الظالمين المجرمين بالإهلاك - فقال سبحانه: {فأسر بعبادي ليلا إنكم متّبعون}.
بعد أن استجاب الله دعاء نبيه موسى أوحى إليه أن أسر {بعبادي ليلا} أمره بالخروج ليلا ومعه بنو إسرائيل الذين آمنوا به واتبعوه فخرجوا على خوف من فرعون وجنوده الظالمين الطغاة.
قوله: {إنكم متّبعون} يعني أن فرعون وقومه من القبط متبوعكم وهم ساربون في أثركم ليردوكم أو يقتلوكم إذا خرجتم من بين أظهرهم ومن بلدهم.
٢٤ - (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ)
قوله: {واترك البحر رهوا} {رهوا} منصوب على الحال ٥ أي اتركه ساكنا على حاله وهيئته التي كان عليها قبل انفلاقه - لكي يدخلوه ولا ينفروا عنه - وقيل: أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان قبل انفلاقه مخافة أن يدركهم فرعون وجنوده، فقيل له: {واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون} أي اتركه قارا ساكنا فهم صائرون إلى الغرق فيه - وقد أخبره ربه بذلك ليسكن قلبه.
٢٥ - (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)
قوله: {كم تركوا من جنات وعيون} {كم} الخبرية للتكثير، أي كم ترك فرعون وقومه الظالمون بعد مهلكهم في البحر غرقى، من البساتين ذات الأشجار والثمرات والخصب {وعيون} يعني منابع تتفجر خلال جنانهم وقصورهم.
٢٦ - (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)
قوله: {وزروع ومقام كريم} أي تركوا وراءهم الزروع القائمة في مزارعهم - و المراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس و المنازل الحسنة.
٢٧ - (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)
قوله: {ونعمة كانوا فيها فاكهين} النعمة، بالفتح، اسم من التنعّم والتمتع وهو النعيم ٦ أي أخرجوا مما كانوا فيه من السعة والدعة والنعيم {فاكهين} أي كانوا فيه متنعمين لاهين بطرين - لقد أخرجهم الله من كل هاتيك النعم والخيرات، إذ أغرقهم في البحر إغراقا فقطع دابر الظالمين المجرمين.
٢٨ - (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)
قوله: {كذلك وأورثناها قوما آخرين} الكاف، في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف وتقديره: يفعل فعلا كذلك بمن يريد إهلاكه - وقيل: في موضع رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: الأمر كذلك ٧ - والمراد بالقوم الآخرين بنو اسرائيل فقد ملّكهم الله عز وجل أرض مصر من بعد ما كانوا فيها مستعبدين مقهورين - لقد أصبحوا لما في مصر وارثين، أي ورثوا الملك والنعيم والكنوز والقصور والمقامات وسائر أنواع الخيرات والثمرات عن الطاغية اللعين فرعون، وقومه المتجبرين.
٢٩ - (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)
قوله: {فما بكت عليهم السماء والأرض} لم تحزن بفراقهم سماء ولا أرض بسبب كفرهم وطغيانهم - فما تحزن الكائنات أو تبتئس إلا

بفقد المؤمنين الصالحين الأبرار الذين كانوا يمرون في الأرض مصلحين داعين للهداية والخير - أما الظالمون الفجار، والمفسدون الأشرار فأنى لشيء في الكائنات أن يحزن لفراقهم أو يوجد ملتاعا من غيابهم وعكس ذلك هو كائن - فلا تبكي الكائنات على العتاة المجرمين في الأرض الذين عتوا عن أمر الله وسلكوا سبيل الشيطان - وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة " قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: " هم الذين إذا فسد الناس صلحوا " ثم قال: " ألا لا غربة على مؤمن ومن مات مؤمنا في غربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم {فما بكت عليهم السماء والأرض} ثم قال: " ألا إنهما لا يبكيان على الكافر ".

قوله: {وما كانوا منظرين} أي ما كان قوم فرعون مؤخّرين بالغرق في البحر.

٣٠ - (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

قوله: {ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين} لقد دفع الله البلاء المهين الذي كان يحيق ببني إسرائيل في مصر من فرعون وقومه الطاغين الذين قتّلوا أبناءهم واستخدموا نساءهم واستعملوا رجالهم للسخرة والأعمال الشاقة فضلا عن امتهانهم لهم واحتقارهم إياهم - وذلك كله {من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين}.

٣١ - (مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)

قوله: {من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين} {من فرعون} بدل من قوله: {من العذاب المهين} وقيل: في موضع نصب على الحال من {العذاب المهين} ٨.

لقد أوذي بنو إسرائيل من فرعون، فقد كان مغاليا في الكفر والظلم، وهو لفرط غروره واستكباره ادعى الإلهية واصطنعها لنفسه ظلما وإيغالا في الحماقة والتكبر والإحساس الفارغ بالعظمة الموهومة والمزيفة.

٣٢ - (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

قوله: {ولقد اخترناهم على علم على العالمين} يعني اخترنا بني إسرائيل على علم منا بهم، أي بحقيقة أمرهم، وحقيقة طبائعهم وجبلاّتهم وما هم صائرون إليه في مختلف الأزمان والأحوال من عجيب التحول والانعطاف الفكري والتبدل النفسي، ليصبحوا مجموعات متفرقة منكودة مبعثرة في سائر أنحاء الأرض - وقوله: {على العالمين} أي اختارهم الله على أهل زمانهم يومئذ وذلك زمان موسى عليه الصلاة والسلام وليس على أهل الزمان في كل زمان كما يظن بعض الناس - فقد كان يقال لكل زمان عالم - كقوله تعالى: {قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس} أي على أهل زمانه وليس على سائر النبيين والمرسلين - وذلك قول أكثر المفسرين.

٣٣ - (وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ)

قوله: {وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاؤ مبين} يعني أعطينا بني إسرائيل من العبر والعظات وجزيل الخيرات والنعم ما فيه اختبار يختبرهم الله به، أيشكرون أم يكفرون - وقيل: المراد بالآيات تنجيتهم من فرعون وفلق البحر لهم وتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى عليهم - وغير ذلك من وجوه الخوارق والمعجزات ٩.

٣٤ - (إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ)

قوله تعالى: {إن هؤلاء ليقولون ٣٤ إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ٣٥ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ٣٦ أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين}.

يخبر الله عن مقالة المشركين الذين يكذبون بالبعث والنشور.

٣٥ - (إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ)

قوله: {إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين} يعني ما هي إلا موتتنا الوحيدة التي نموتها ثم لا نحيى بعدها ولا نبعث، فهم بذلك ينكرون الساعة ويكذبون بيوم الحساب.

٣٦ - (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين} قيل: إن قائل ذلك من مشركي قريش أبو جهل، إذ قال: يا محمد إن كنت صادقا فيما تقول من بعثنا يوم القيامة من بعد الموت فابعث لنا رجلين من آبائنا، أحدهما: قصي بن كلاب فإنه كان رجلا صادقا، لنسأله عما يكون بعد الموت.

ومثل هذا القول من أبي جهل أو غيره من المشركين سخف وجهالة، فإن إعادة الخلق إنما يكون من أجل الجزاء يوم القيامة وليس للتكليف في الدنيا.

٣٧ - (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

قوله: {أهم خير أم قوم تّبع والذين من قبلهم} استفهام إنكاري - والمراد بقوم تّبع ملوك اليمن - فقد كانوا يسمون ملوكهم التبابعة - فتبع لقب للملك مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم - وقيل: تبع يراد به الحميري، سار بالجيوش حتى الحيرة ثم أتى سمرقند فهدمها - والمعنى أن هؤلاء المشركين من قومك يا محمد ليسوا خيرا من التبابعة والأمم المهلكة الأخرى - فإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء - ذلك تهديد من الله لمشركي العرب إذ يتوعدهم بالإهلاك والإبادة كما فعل بالمشركين السابقين كقوم تبّع وغيرهم فقد أهلكهم الله ودمّر عليهم وشردهم في البلاد، وفرقهم وشتت شملهم وهو قوله: {أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين} أي أهلكناهم بسبب إجرامهم وكفرهم.

٣٨ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

قوله: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ٣٨ ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ٣٩ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ٤٠ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ٤١ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم}.

يخبر الله عن مطلق عدله وعن تنزيهه الكامل لنفسه عن اللعب والعبث، فقال سبحانه: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين} أي ما خلق الله هذين الخلقين الهائلين وما بينهما من الأجرام والخلائق على اختلافها وكثرتها للهو والعبث أو لغير غاية.

٣٩ - (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

ومراد {ما خلقناهما إلا بالحق} أي من أجل الحق، أو لإقامة الحق وإظهاره بإفراد الله بالعبادة والإذعان له بالخضوع والطاعة.

قوله: {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة فهم
لاهون غافلون، سادرون في الضلال، موغلون في حب الشهوات وزينة الحياة الدنيا.

٤٠ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: {إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين} {يوم الفصل} هو يوم القيامة وهو اليوم الموعود الذي يوقف فيه الناس على الله كافة ليناقشوا الحساب - وهنالك يفصل الله بين العباد فيميز المؤمن من الجاحد، والمحسن من المسيء، ثم يفصل بينهم ليكونوا فريقين، فريق يساق إلى الجنة، وفريق يصار به إلى النار - وفي هذا الخطاب من التحذير والوعيد للناس ما لا يخفى.

٤١ - (يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

قوله: {يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا} {يوم} منصوب على البدل من {يوم} الأول ١٠ والمولى، معناه ابن العم، والناصر، والجار، والحليف ١١ يعني في يوم الفصل، الذي يقضي فيه الله بين العباد لا يغني قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ولا صاحب عن صاحبه شيئا من البلاء أو العذاب، إنه في هذا اليوم المخوف المذهل لا تملك نفس لنفس شيئا {ولا هم ينصرون} لا ينصر أحد غيره، ولا يجزي عنه من الله شيئا.

٤٢ - (إِلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

قوله: {إلا من رحم الله} {من} في موضع رفع على البدل من الضمير في قوله: {ينصرون} وتقديره: ولا ينصر إلا من رحم الله - وقيل: في محل رفع على البدل من {مولى} أي لا يغني إلا من رحم الله - أو على الابتداء وتقديره: إلا من رحم الله فيعفى عنه - وقيل في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ١٢ وقيل: استثناء متصل، فيكون المعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم بشفاعة بعضهم لبعض.

قوله: {إنه هو العزيز الرحيم} الله الغالب المقتدر، القوي الجناب، المنتقم من الظالمين المجرمين - وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين ١٣.
٤٣ - (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ)
قوله تعالى: {إن شجرت الزقوم ٤٣ طعام الأثيم ٤٤ كالمهل يغلي في البطون ٤٥ كغلي الحميم ٤٦ خذوه فاعتلوه إلى سوآء الجحيم ٤٧ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ٤٨ ذق إنك أنت العزيز الكريم ٤٩ إن هذا ما كنتم به تمترون}.
ذلك وعيد من الله مرعب للمجرمين الخاسرين من عباده الذين ضلوا في حياتهم الدنيا فسلكوا سبيل الشيطان واتبعوا الباطل والشهوات - أولئك قد أعد الله لهم يوم القيامة من ألوان العذاب ما تعجز عن وصفه وتبيانه كلمات البشر - لكن كلمات الله العليا التي نزل بها الوحي لهي تحمل في مضمونها للأذهان معاني العذاب الشديد - يضاف إلى ذلك هذا النظم الرباني المميز بعجيب ألفاظه المصطفاة، وحروفه الساحرة النافذة المختارة، وما يجلل ذلك كله من روعة الأسلوب وجمال الإيقاع والنغم - لا جرم أن ذلك كله يفضي للنفاذ إلى صميم القلب فيفزع ويوجل، وإلى الخيال فيأخذه الدهش والبهر، إن ذلكم لهو الإعجاز.
قوله: {إنّ شجرت الزقوم} هي شجرة خبيثة الطعم والثمر، خلقها الله في جهنم وسماها الشجرة الملعونة وجعلها طعاما للظالمين والفاسقين في النار، فهي {طعام الأثيم}.
٤٤ - (طَعَامُ الأَثِيمِ)
قوله: {طعام الأثيم} {الأثيم} الكثير الإثم - وقيل: الفاجر - وقيل: الذي إثمه الكفر بربه دون غيره من الآثام.
٤٥ - (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)
قوله: {كالمهل يغلي في البطون} المهل، بالضم، اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد ونحوهما وكذلك القطران وما ذاب من نحاس أو حديد أو درديّ الزيت ١٤ أي أن شجرة الزقوم ذات المذاق الخبيث جعلت طعاما للظالمين الخاسرين في النار، إذ يقسرون على الأكل منها، وهي لفرط رداءتها وشدة حرارتها كالرصاص المذاب في النار الذي تناهت حمّته وسواده فهو يغلي في بطونهم غليا.
٤٦ - (كَغَلْيِ الْحَمِيمِ)
قوله: {كغلي الحميم} وهو الماء الحار إذا اشتد غليانه.
٤٧ - (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ)
قوله: {خذوه فاعتلوه إلى سوآء الجحيم} يقال لزبانية جهنم: خذوا هذا الأثيم وهو الظالم لنفسه، الفاجر {فاعتلوه} من العتل، وهو الجذب بعنف ١٥ أو هو أن تأخذ بتلابيب الرجل فتجرّه إليك جرّا وتذهب به إلى حبس أو محنة - والمراد جذب هذا الشقي الخاسر ودفعه بغلظة وعنف {إلى سوآء الجحيم} أي إلى وسط النار.
٤٨ - (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ)
قوله: {ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم} أي صبوا على رأس هذا الأثيم الخاسر من الماء المتناهي الحرارة - وقيل: يضرب خازن جهنم على رأس أبي جهل أو غيره من الأشقياء الكافرين بمقمع من حديد فيتفتت رأسه على دماغه ثم يصب الملك فيه ماء حميما قد انتهى حره لفرط حمته وسخونته فيقع في بطنه.
٤٩ - (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)
قوله: {ذق إنك أنت العزيز الكريم} ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم التقى وأبو جهل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله أمرني أن أقول لك {أولى لك فأولى ٣٤ ثم أولى لك فأولى} فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني - والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية - والصواب أنها بعمومها تشمل سائر الظالمين المجرمين في النار - فالمعنى، أن الملك من زبانية جهنم يقول للشقي الخاسر وهو في النار: {ذق إنك أنت العزيز الحكيم} أي

بزعمك - وذلك على سبيل التوبيخ والاستهزاء والاحتقار والتهكم، أي لست بعزيز ولا كريم بل إنك المحتقر المهين - وهذه زيادة في التنكيل بالخاسرين الذين يصيرون إلى جهنم فيجدون فيها من ألوان العذاب والهوان والتنكيل وما لا تتصوره الأذهان والأخيلة لفرط فظاعته وشديد بشاعته - نسأل الله العافية والنجاة.

٥٠ - (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ)

قوله: {إن هذا ما كنتم به تمترون} أي أن هذا العذب الذي تعذبونه اليوم هو العذاب الذي كنتم تشكون فيه وتجادلون فيه ١٦.

٥١ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)

قوله تعالى: {إن المتقين في مقام أمين ٥١ في جنات وعيون ٥٢ يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ٥٣ كذلك وزوّجناهم بحور عين ٥٤ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ٥٥ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ٥٦ فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ٥٧ فإنما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ٥٨ فارتقب إنهم مرتقبون}.

بعد أن ذكر الله حال الأشقياء، أهل التعس والخسران، عطف بذكر أهل السعادة من المؤمنين المتقين الذين يلجون الجنة آمنين مكرمين - فقال سبحانه: {إن المتقين في مقام أمين} أولئك الذين آمنوا بربهم واتقوه باجتناب معاصيه واتباع أوامره والتزام شرعه ومنهاجه، فإنهم يوم القيامة في {مقام أمين} أي منزلة رفيعة كريمة، آمنون من كل مكروه وإساءة - فلا حزن إذ ذاك ولا جزع ولا نصب ولا وصب ولاهمّ - وهم حينئذ {في جنات وعيون}.

٥٢ - (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

قوله: {في جنات وعيون} حيث الزرع والثمر والبهجة والمياه الثجاجة المنسابة - وذلك في مقابلة ما يجده الأشقياء في النار من شنيع الطعام وهو الزقوم.

٥٣ - (يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ)

قوله: {يلبسون من سندس وإستبرق} السندس،، ما رق من الديباج - والإستبرق، ما غلظ منه - وقيل: تعريب إستبرك، وهو لما عرّب صار عربيا - والمعنى أنهم منعمون بلبس الفاخر من رقيق الحرير وغليظه {متقابلين} أي يجلسون على الأسرّة يقابل بعضهم بعضا بغية الاستئناس وزيادة في الراحة والحبور.

٥٤ - (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

قوله: {كذلك وزوّجناهم بحور عين} الكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف وتقديره: يفعل بالمتقين فعلا كذلك - أو آتيناهم مثل ذلك - وقيل: في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: الأمر كذلك ١٧ - {وزوّجناهم بحور عين} وهن نساء الجنة الحسان أي قرناهم بهن فليس من عقد تزويج - والحوار معناه البياض والتحوير معناه التبيض - وعين حوراء إذا اشتد بياض بياضها، واشتد سواد سوادها.

٥٥ - (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)

قوله: {يدعون فيها بكل فاكهة آمنين} أي يؤتون من الثمار كل ما يطلبونه أو يشتهونه وهم حينئذ آمنون من كل المتاعب والمصائب والمكاره - أو أنهم آمنون من انقطاع النعيم بأنواعه وأجناسه الكثيرة المختلفة.

٥٦ - (لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

قوله: {لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى} الاستثناء هنا منقطع وتقديره: لكن ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا - وقيل: إلا بمعنى سوى ١٨ أي سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا، و على هذا فإن أهل الجنة منعّمون محبورون، خالدون آبدون لا ينامون ولا يموتون - فقد روى الطبراني عن جابر (رضي الله عنه) قال: سئل نبي الله صلى الله عليه وسلم: أينام أهل الجنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون ".

قوله: {ووقاهم عذاب الجحيم} أي نجاهم الله من النار بعذابها الوبيل ودركاتها الفظيعة الرهيبة، فوق ما هم فيه من النعيم المقيم.
٥٧ - (فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)
قوله: {فضلا من ربك} أي عطاء من ربك وثوابا - فكل ما أعطيه المتقون من نعيم الجنة والنجاة من عذاب النار، هو تفضل من الله.
قوله: {ذلك هو الفوز العظيم} ذلك هو الظفر الأعظم والسعادة الكاملة الكبرى بما يتحقق لهؤلاء المؤمنين الفائزين من النعيم المستديم الذي يحيون فيه آمين محبورين سعداء وقد أعطوا كل ما سألوه - أما ما سوى ذلك من وجوه الخير والسعادة في الدنيا فإنه بالغ البساطة والهوان.
٥٨ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
قوله: {فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون} أي جعلنا هذا القرآن بلسانك عربيا واضحا جليا مستبينا لكي يفهمه الناس ويتدبرونه، ويتعظوا به ويزدجروا.
٥٩ - (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)
قوله: {فارتقب إنهم مرتقبون} أي انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم بالحق وهم ينتظرون قهرك - أو انتظر ما سيجعله لك الله من النصر والغلبة والظهور عليهم - وهم منتظرون ما ينزل بك من البلاء أو متربصون بك الدوائر ١٩

٤٥ سورة الجاثية:

سورة الجاثية:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وآياتها سبع وثلاثون - وهي كغيرها من السور المنزلة في مكة لتدعو الناس إلى التحرر من إسار الوثنية وباطل الشرك، فيوقنوا أن الله وحده الخالق المعبود وأن ما دونه من الأنداد ضلال وعمه وباطل.
وفي السورة تركيز على سوق الأدلة والحجج من الطبيعة والحياة مما يجده المشركون ويعاينونه ليستيقنوا بأن الله حق وأنه الخالق الموجد.
ويبين الله في السورة شطرا من قصة بني إسرائيل، إذ آتاهم الله التوراة والنبوة وفضلهم على العالمين في زمانهم.
وفي السورة تنديد من الله بمن اتبع هواه في كل أموره فلم يعبأ بما يقتضيه دين الله وشرعه، بل يزيغ عن منهج الله وهداه جريا وراء الشهوات وسفاسف الحياة الدنيا وزينتها، فهو بذلك إنما يعبد هواه - وذلك هو قوله: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه} إلى غير ذلك من الأخبار والدلائل والعبر.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم ١ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ٢ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ٣ وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ٤ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون}.
{حم} حروف من حروف التهجي المقطعة في فواتح السور، التي يعلم الله حقيقة ما يراد بها.
٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
{تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} {الكتاب} القرآن - وهو منزل من لدن إله قوي قاهر منتقم (حكيم) في قوله وفعله و تدبيره.
٣ - (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {إن في السماوات والأرض لأيات للمؤمنين} هذان الخلقان الهائلان، وهما السموات والأرض، وما ذرأ الله فيهما من مختلف الأنواع من الملائكة والجن والإنس، وما بث في البحر من مختلف الأجناس، وكذلك اختلاف الليل والنهار في تعاقبهما على الدوام لا يفتران، فإن في ذلك كله من الدلائل والعجائب والآيات ما فيه تنبيه للأذهان فتتفكر وتتدبر وتوقن أن ذلك بقدرة الصانع الخالق.

٤ - (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

قوله: {وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون} هذان الخلقان الهائلان وهما السموات والأرض وما ذرأ الله فيهما من مختلف الأنواع من الملائكة والجن والإنس وما بث في البحر من مختلف الأجناس، وكذلك اختلاف الليل والنهار في تعاقبهما على الدوام لا يفتران، فإن في ذلك كله من الدلائل والعجائب والآيات ما فيه تنبيه للأذهان فتتفكر وتتدبر وتوقن أن ذلك بقدرة الصانع الخالق.

٥ - (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قوله: {واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح} يعني في تعاقب الليل والنهار، هذا بظلامه، والآخر بضيائه، وما أنزل الله من السماء من غيث مغيث يجعل الله منه رزقا للعباد وقوتا وشرابا، ويحيي به الله الأرض فيثير فيها الخصب والنماء والخضرة والبركة، بعد أن كانت قفرا يبسا لا ماء فيها ولا نبات ولا حياة - وكذلك تصريف الله للرياح فتهب من الشمال تارة، ومن الشرق ثانية، ومن الغرب ثالثة وغير ذلك من أنواع الرياح على اختلاف هبوبها وجهاتها ومنافعها فنها المبشرات التي تحمل الأمطار فتبشر بالخير والسعة والرزق، ومنها الساخنة التي تحمل للأرض الحرارة فينضج الزرع وينع الثمر - ومنها الريح الطيبة التي تحمل النسائم المرغوبة المستطابة فتهيج في الحياة النشاط والبهجة والحركة، وفي ذلك كله {آيات لقوم يعقلون} فيما تبين من الظواهر الكونية العجاب علامات وبراهين يستدل بها أولو العقول النيرة على قدرة الله الصانع الحكيم ١.

٦ - (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

قوله تعالى: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ٦ ويل لكل أفّاك أثيم ٧ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ٨ وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ٩ من ورآئهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ١٠ هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم}.

يبين الله للناس أن ما أنزل إليهم من ربهم لهو الحق، وأن ما يدعو الناس من دونه هو الباطل - فأنى لهم بعد ذلك أن يكذبوا ويعرضوا؟ وهو قوله سبحانه: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق} يعني هذه آيات القرآن التي تحمل للناس الدلائل والحجج بما تضمنته من جليل الأخبار والمعاني، وروعة النظم والأسلوب والمباني {نتلوها عليك بالحق} أي بالصدق الذي ليس فيه باطل، والسداد الذي لا زيغ فيه.

قوله: {فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون} يعني إن كان الناس لا يصدقون أو يوقنون بهذه الآيات والدلائل والحجج فبأي كلام بعد ذلك يصدقون أو يوقنون؟ وإن كانوا غير موقنين بآيات القرآن المعجز المنزل من عند الله الخالق الحكيم، فبأي حديث أو نظم أو كلام بعد ذلك يصدقون؟ لا جرم أن القرآن لهو أكرم وأكمل ما عهده الكون كله من ظواهر - إن القرآن حدث رباني هائل جعله الله للعالمين هداية ونورا، فإذا لم تهتد به البشرية، فبأي شيء بعد ذلك تؤمن أو تهتدي.

٧ - (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

قوله: {ويل لكل أفّاك أثيم} {ويل} يراد به الهلاك - وقيل: واد في جهنم - وهذا وعيد من الله مرعب يتوعد الله به كل أفاك، أي كذاب، وكل أثيم وهو الذي يأتي الآثام والمنكرات.

٨ - (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله: {يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها} ذلك الجاحد الفاجر المتلبس بالشرك والمعاصي، دأبه الإعراض عن دين الله والنكول عن آياته وعن قرآنه الحكيم المعجز - فإذا سمعه تمادى في الاستكبار والتكذيب {كأن لم يسمعها} يتكلف النسيان والإعراض وهو موقن في نفسه أن هذا القرآن معجز وأنه لا يضاهى، لكنه يتولى مستنكفا مستكبرا كأنه ما سمع من آيات الله شيئا

- قوله: {فبشره بعذاب أليم} وعيد من الله لهذا المكذب المتكبر بأن له النار وبئس المصير والمقام.

٩ - (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

قوله: {وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا} إذا علم هذا الكذاب المستكبر الفاجر شيئا من آيات القرآن أخذ يسخر منها ويستهزئ بها،، كما قال أبو جهل عن شجرة الزقوم، إذ دعا بتمر وزبد فقال: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهدا - وهذا من تماديه في التهكم والاستسخار.

قوله: {أولئك لهم عذاب مهين} أولئك المجرمون العتاة صائرون إلى شديد الذل والهوان والخزي.

١٠ - (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

قوله: {من ورآئهم جهنم} أولئك المجرمون الفاسقون صائرون إلى عذاب جهنم بما فعلوه في الدنيا من تكذيب واستسخار من آيات الله {ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا} إذ نزل بهم العذاب، وأحاطت بهم جهنم واستيأسوا لن تغني عنهم حينئذ أموالهم ولا أولادهم ولا ما اكتسبوه من الجاهات والمنازل الدنيوية شيئا - قوله: {ولا ما اتخذوا من دون الله أوليآء} لن تنفعهم يوم القيامة آلهتهم المزعومة ولا أولياؤهم من دون الله، فهم يوم القيامة يكذب بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، والخاسرون المكذبون هم أصحاب النار ليبوءوا بالعذاب الدائم المهين.

١١ - (هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مَنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

قوله: {هذا هدى} المراد باسم الإشارة {هذا} القرآن، فقد أنزله الله للعالمين ليكون لهم {هدى} يستدلون به على الحق ويستضيئون به لبلوغ السداد والرشاد - إن القرآن أو الإسلام هداية للناس يبصّرهم بالطريق السوي المستقيم ويستنقذهم من الضلال والباطل والنار ليبوءوا بالسعادة والنجاة {والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم} الذين جحدوا القرآن وكذبوا به لهم من الله سوء الجزاء إذ أعد لهم عذابا من رجز أليم وجيع - والرجز معناه العذاب أو القذر ٢.

١٢ - (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قوله تعالى: {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ١٢ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ١٣ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون ١٤ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون}.

يبين الله نعمته على عباده ليتذكروا ويعتبروا ويبادروا بعبادته وشكره، فهو سبحانه قد ذلل لعباده البحر بما ذرأه في الماء من مزية خاصة يحمل بمقتضاها الأجسام الثقال على ظهره - ذلكم هو البحر تسير على متنه السفائن المحملة بالبضائع والحاجات والراكبين من الناس والدواب فتمخر بهم في البحر بأمر الله وتقديره من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم بغية اكتساب المعايش والأرزاق وغير ذلك من حاجات السفر {ولعلكم تشكرون} أي لكي تشكروا الله على تذليل البحر لكم فتسير على ظهره السفن الجواري فتبادروا بالطاعة والعبادة لله وحده دون غيره من الأنداد.

١٣ - (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله: {وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه} يمن الله على عباده بما ذلّله لهم من السماوات من مخلوقات كالشمس والقمر والنجوم والأمطار والرياح - وكذلك سخر لكم ما في الأرض من البحار والأنهار والهواء والفضاء والزروع والثمرات، وما حوته في باطنها من معادن ومذخورات {جميعا منه} واقعة في موقع الحال - والمعنى: أن الله سخر لكم هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة بفعله وحكمته فهو مكونها وموجدها بقدرته ثم مسخرها لخلقه - وقيل: {جميعا منه} في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هي جميعا منه - وقيل: تأكيد لما في السماوات وما في الأرض.

قوله: {إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} يعني فيما سخره الله لكم مما بيّنه في هاتين الآيتين من مختلف الخلائق والأشياء والأجرام، لهي

دلالات وعلامات تكشف عن عظيم قدرة الله وأنه هو الخالق الصانع الحكيم دون غيره من الأرباب والأنداد.

١٤ - (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

قوله: {قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله} {يغفروا} مجزوم، لأنه جواب أمر محذوف وتقديره: قل لهم اغفروا يغفروا. وفي هذه الآية يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين الذين صدقوه واتبعوا ما أنزل إليه من ربه، ليغفروا للذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يخشون بأس ربهم وانتقامه إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه، أي ليصفحوا عنهم ويحتملوا منهم الأذى ويصبروا على إساءاتهم - وكان هذا في ابتداء الإسلام إذ كان المسلمون مأمورين بالصبر على الشدائد والمكاره من المشركين وأهل الكتاب حتى أذن الله لهم بالجهاد فجاهدوا، وبذلك فإن حكم هذه الآية منسوخ بآيات القتال.

قوله: {ليجزي قوما بما كانوا يكسبون} الجملة لتعليل الأمر بالمغفرة - والمراد بالقوم، المؤمنون، فقد أمرهم الله أن يغفروا للمشركين فيصفحوا عن إساءاتهم لهم ليجزيهم الله بما كسبوا في الدنيا من صالح الأعمال، وذلك كصبرهم على أذى الكافرين واحتمال إساءاتهم، وشرورهم.

١٥ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

قوله: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها} أي ما من عمل يعمله ابن آدم إلا هو ملاقيه فمجازى به من خير أو شر - وذلك ترغيب من الله في فعل الصالحات، وتخويف من فعل المعاصي والسيئات - قوله: {ثم إلى ربكم ترجعون} إنكم جميعا صائرون بعد الفناء إلى الله لتلاقوا الحساب والجزاء ٣.

١٦ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

قوله تعالى: {ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ١٦ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جآءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ١٧ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهوآء الذين لا يعلمون ١٨ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ١٩ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون}.

يبين الله ما منّ به على بني إسرائيل من جزيل العطايا والنعم وابتعاث النبيين الكثيرين منهم - فقال سبحانه: {ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة} آتاهم الله الكتاب، وهو التوراة، لتكون هداية للناس ونورا - وآتاهم الحكم أي العلم والفقه ليحكموا بين الناس في خصوماتهم - وقيل: المراد أنهم أوتوا القضاء والحكم على الناس {والنبوة} أي جعل منهم أنبياء ورسلا إلى الناس فقد كان النبيون من زمن يوسف عليه السلام إلى عيسى عليه السلام من بني إسرائيل - قوله: {ورزقناهم من الطيبات} آتاهم الله من الطيبات والخيرات ما لم يؤت غيرهم من الأمم وذلك كالمن والسلوى وغير ذلك من صنوف الثمرات والأقوات والأطعمة.

قوله: {وفضلناهم على العالمين} أي فضلهم الله على عالمي زمانهم وذلك بكثرة ما أوتوه من النعم والتنجية من كيد فرعون وزبانيته وجنوده، فقد فلق الله لهم البحر ليمضوا فيه ساربين آمنين مطمئنين - ثم أخذ الله الظالمين بالتغريق والإهلاك والاستئصال، حتى إذا خرج بنو إسرائيل إلى البر سالمين أظلهم الله بالغمام في الصحراء وقاية لهم من لظى الشمس بحرارتها البالغة - ثم سخر الله لهم طعام المنّ، إذ يجدونه ظاهرا مكشوفا بين أيديهم وكذلك السلوى وهي أسراب كاثرة دانية من طير السماني يهبط نحوهم ليأكلوه في سهولة وبركة وهناء - وذلكم الذي فضل الله به بني إسرائيل في دنياهم على غيرهم من الناس - ولن يغنيهم مثل هذا التفضيل وأضعافه في أمور دنيوية ومعاشية عما جنوه في حق النبيين من تقتيل وتكذيب وما فعلوه في حق المسلمين من كيد وتربص وتمالؤ وتحريض.

١٧ - (وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

قوله: {وآتيناهم بينات من الأمر} قال ابن عباس: يعني يبين لهم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإظهاره لشواهد نبوته، أنه يهاجر

إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب - وقيل: المراد بالبينات ما أوتي موسى من المعجزات والأحكام والشرائع الواضحات - قوله: {فما اختلفوا إلا من بعد ما جآءهم العلم بغيا بينهم} المراد ههنا التعجيب من حال هؤلاء القوم - فحصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، لكن مجيء العلم إليهم صار سببا لحصول الاختلاف بينهم، لأن مقصودهم كان طلب الرياسة والرغبة في الظهور والشهرة فتنازعوا بينهم فبغى بعضهم على بعض، وظلم بعضهم بعضا بالإيذاء والقتل - قوله: {إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} يحكم الله بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة، فينصر المحق، ويذل المبطل.

١٨ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

قوله: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها} الشريعة، ماشرع الله لعباده من الدين - والمعنى: جعلناك يا محمد على طريقة ظاهرة ومنهاج واضح من أمرنا الذي أمرناك به {فاتبعها} أي اتبع تلك الشريعة التي أمرتك بها {ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون} أي احذر واجتنب أهواء الذين لا يعلمون الحق من الباطل - أولئك الذين يبتغون لك الضلالة، ويريدون أن تضل السبيل وتتيه غاويا متعثرا.

وما أجدر المسلمين في كل زمان أن يحذروا المضلين من أهل الضلال والغواية الذين يريدون للمسلمين أن يزيغوا عن دينهم ويستعيضوا عن منهج الله بشرائع الضلال والكفر على اختلاف صورها ومسمياتها.

ما أجدر المسلمين أن يحرصوا على التمسك بشريعة الإسلام فيعضّوا عليها بالنواجذ، ويأخذوا بكل ما فيها من الأحكام والأوامر لكي يرضى الله عنهم وليكتب لهم الهداية والتوفيق والغلبة والسعادة في الدنيا والآخرة.

١٩ - (إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

قوله: {إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا} يعني إن اتبعت أهواء هؤلاء المضلين الأشرار الذين يبتغون لك الزيغ عن دين الله، فإنهم لن يدفعوا عنك عذاب الله ولن ينقذوك من بأس الله أو بلائه إن نزل بك - فما هم إلا مضلون مغوون.

قوله: {وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض} الظالمون الكفرة بعضهم أنصار بعض، وهم فيما بينهم أعوان متحدون وأنصار متحابون، يظاهر بعضهم بعضا على الإسلام والمسلمين ليقضوا عليهم أو يضعفوهم ويستذلوهم {والله ولي المتقين} يراد بالمتقين، المؤمنون الذين يجتنبون الشرك والمعاصي، فالله ولي هؤلاء أي نصيرهم ومؤيدهم وغير خاذلهم.

٢٠ - (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

قوله: {هذا بصائر للناس} يعني هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد {بصائر للناس} دلائل وبينات ومعالم للناس تبصرهم بالحق، وتسلك بهم سبيل السداد والرشاد {وهدى ورحمة} أي رشاد لهم يفضي بهم إلى النجاة والسعادة - وهو كذلك رحمة من الله بهم من العذاب - وذلك {لقوم يوقنون} المؤمنون الموقنون بصحة ما جاءهم من عند الله أولى الناس بالانتفاع بهذا الدين بسبب إيمانهم ويقينهم ٤.

٢١ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

قوله تعالى: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم سآء ما يحكمون ٢١ وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ٢٢ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون}.

{أم} هي المنقطعة بمعنى بل، والهمزة لإنكار الحسبان - و {اجترحوا} بمعنى اكتسبوا، من الاجتراح وهو الاكتساب ٥.

والمعنى: أم يظن هؤلاء المشركون الذين كذبوا نبيهم، واتخذوا من دون الله اندادا، واكتسبوا الآثام والمعاصي في هذه الدنيا – أن نجعلهم في الآخرة كالمؤمنين المتقين - أو أن نسوّي بين الظالمين الفجار، والمتقين الأبرار فيكونوا في الآخرة سواء.

قوله: {سوآء محياهم ومماتهم} {سوآء} بالنصب، على الحال من ضمير {نجعلهم} أي نجعلهم سواء - و {محياهم ومماتهم} مرفوع على الفاعلية، وتقرأ (سواء) بالرفع، على أنها خبر مقدم، و {محياهم} مبتدأ مؤخر، {ومماتهم} معطوف عليه ٦.

وقد نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين هم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أننا أفضل حالا منكم في الدنيا - فأنكر الله عليهم هذا الكلام وبين أنه لا يستوي حال المؤمن المطيع وحال المشرك العاصي عند الله في الآخرة - فالمشركون فاسقون ضالون، ظالمون لأنفسهم، فهم صائرون إلى النار، أما المؤمنون فهم مصدقون بالنبيين، موقنون بيوم القيامة، مذعنون لله بالطاعة والامتثال، فإنما يجزون الجنة ورضوان ربهم - واختلفوا في المراد بقوله: {محياهم ومماتهم} فقال ابن عباس: يعني أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم، كلا فإنهم يعيشون كافرين، ويموتون كافرين - والمؤمنون يعيشون مؤمنين، ويموتون مؤمنين، ذلك لأن المؤمن ما دام في الدنيا فإنه يكون وليه هو الله، وأنصاره المؤمنون - أما الكافر فهو خلاف ذلك - وعند الدنوّ من الموت فحال المؤمن كما ذكره الله {الذين تتوافهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة} أما حال الكافر فهو ما ذكره الله في قوله: {الذين تتوافهم الملائكة ظالمي أنفسهم} أما في الآخرة فقال الله في التمييز بين الصنفين {وجوه يومئذ مسفرة ٣٨ ضاحكة مستبشرة ٣٩ ووجوه يومئذ عليها غبرة ٤٠ ترهقها قترة} وذلك يشير إلى التفاوت بين المؤمنين السعداء، والظالمين الأشقياء - وقيل: المراد إنكار التسوية بين الفريقين في الممات كما استووا في الحياة، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوي محياهم في الصحة والرزق والكفاية بل ربما يكون الكافر أرجح حالا من المؤمن، وإنما يظهر الفرق بينهما في الممات.

قوله: {سآء ما يحكمون} إن جعلت {ما}، معرفة فهي في موضع رفع، فاعل {سآء} وإن جعلت نكرة كانت في موضع نصب على التمييز ٧ وذلك إنكار من الله لهذه التسوية المزعومة، أي بئس الحكم الذي ظنوا أنا نجعل الذين اكتسبوا السيئات والمؤمنين الذين عملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم، أو ساء حكمهم الذي حكموا به - فأنّى للفريقين المتضادين المختلفين أن يستويا.

٢٢ - (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله: {وخلق الله السموات والأرض بالحق} لم يخلق الله السماوات والأرض للجور والباطل بل خلقهما للعدل والحق - ومن الحق والعدل أن يخالف في الحكم بين المسيء والمحسن، أو بين المبطل والمحق، فإنهما لا يستويان - لا في المحيا ولا في الممات ولا في المواقف والمشاهد يوم الحساب - قوله: {ولتجزى كل نفس بما كسبت} أي ليثاب كل امرئ بما قدم فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فلا يبخس المحسن من أجره شيئا ولا يعطى المسيء جزاء من أحسن {وهم لا يظلمون} لا يظلم الله أحدا من عباده بل يجازي كل امرئ بما عمل.

٢٣ - (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

قوله: {أفرأيت من اتخذ إلاهه هواه} الهوى، بالألف المقصورة معناه العشق، وهو يكون في الخير والشر وإرادة النفس ٨.

وبذلك فإن الهوى إحساس عميق يستشري في صميم الكينونة البشرية، ويترسخ في صميم الجهاز النفسي لدى الإنسان - وأيما إنسان فإنه يهوى، أي يعشق ويحب ويتمنى العديد من الأماني على اختلافها - وإذا ما تمنى الإنسان لنفسه فعل الخيرات والطاعات كان هواه طيبا صالحا - وإذا تمنى فعل الموبقات والمعاصي مما تستطيبه وتتلذذ به نفسه الجانحة الضالة كان هواه مغويا مرديا، بل إن هواه حينئذ شيطان غويّ مضل مبين.

وللعلماء في المراد بهذه الآية أقوال، فقد قال ابن عباس: المراد به الكافر قد اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئا إلا ركبه - وقال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر - وقال ابن عباس أيضا: ما ذكر الهوى في القرآن إلا ذمه - واختار ابن جرير أن المعنى هو: أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه فيعبد ما هوى من شيء دون إله الحق الذي له الألوهة من كل شيء.

وجملة ذلك: أن الهوى يستميل الإنسان ليجنح للشهوات وما تعشقه نفسه من المفاسد والشرور والآثام وغير ذلك من المحظورات والأباطيل - والإنسان في غالب أمره جانح للهوى، سارب خلف ما تشتهيه النفس ويميل إليه الطبع - ولا يستثنى من ذلك إلا من

رحم الله فهداه، وخوّله التوفيق والسداد والاستقامة ومجانبة الهوى المردي.
وليت شعري هل تفيض الحياة الدنيا بالمعضلات والبلايا والأرزاء النفسية والاجتماعية والشخصية والسياسية والاقتصادية إلا بضلال الإنسان وظلمه لأخيه الإنسان بغية الشهوات الضالة العمياء - أو ليس سبب ذلك كله اتباع الهوى أو عبادته من دون الله، فإن اتباع الهوى بغير حق، والإفراط في طاعته والانقياد خلفه من غير قيد ولا تورع ولا ضوابط، لهو صورة من صور العبادة لغير الله - ولا جرم أن ذلك ضلال وغواية وتجاوز يفضي إلى الشقاء والتعس في الدنيا حيث الظلم والطمع والبطر والطغيان والجور والهموم والمكابدة - وكذلك في الآخرة، إذ يصير الظالم الخاسر، الذي اتخذ إلهه هواه إلى جهنم.
إن ما تتجرعه البشرية في هذا الزمان وكل زمان من كؤوس المرارة والشقاء والهوان، كان سببه عبادة الإنسان لهواه، وجنوحه للشهوات، والمنافع الذاتية - وهي منافع في إسفافها وخساستها دائمة التغير والتبدل تبعا لاختلاف الأهواء وتبدلها - فما كان هذا الإنسان الضال بذلك إلا عابدا لهواه أو متخذا إلهه هواه.
وقد ندد النبي صلى الله عليه وسلم باتباع الهوى، لأنه يودي بصاحبه إلى الخسران والهاوية - قال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " وقال أبو أمامة: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى " وقال صلى الله عليه وسلم: " ثلاث مهلكات وثلاث منجّيات - فالمهلكات: شحّ مطاع وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه - والمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب ".
قوله: {وأضله الله على علم} أي خذله الله عن المحجة البيضاء وعن سبيل الحق المستقيم في سابق علمه - إذ يعلم الله أنه لا يهتدي ولو جاءته كل آية {وختم على سمعه وقلبه} أي طبع الله على سمعه فلا يسمع المواعظ أو العبر ولا يتفكر أو يتدبر - وكذلك طبع على قلبه فلا يعي به حقا أو يقينا {وجعل على بصره غشاوة} فلا يرى الآيات والدلائل على وحدانية الخالق، وعلى أنه الصانع الموجد الحكيم.
قوله: {أفلا تذكّرون} أفلا تتدبرون وتتعظون فتعلموا أن من خذله الله بالختم على سمعه وقلبه وبما جعل على بصره من الغشاوة فليس من أحد بعد الله يهديه ٩.
٢٤ - (وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ)
قوله تعالى: {وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ٢٤ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ٢٥ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.
يخبر الله عن مقالة المشركين الذين يكذبون بيوم القيامة، إذ كانوا يقولون: {ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا} يعني ليس من حياة غير حياتنا الدنيا هذه التي نحن فيها، فإنه لا حياة أخرى سواها، فهم بذلك يكذبون بيوم البعث والحساب - وقالوا أيضا: {نموت ونحيا} أي نموت نحن ويحيا أبناؤنا، فهم بحياة أبنائهم أحياء.
قوله: {وما يهلكنا إلا الدهر} أي ما يفنينا أو يميتنا إلا مرّ الأيام والليالي،، فهم بذلك يكذبون بالبعث ويجحدون يوم الحساب - قوله: {وما لهم بذلك من علم} أي ليس لهؤلاء المشركين المكذبين فيما يقولونه من علم أو دليل وإنما يقولون ما يقولون تخريصا وظنا ما لهم به من حجة ولا برهان {إن هم إلا يظنون} أي ينكرون البعث بعد الممات ظنا وارتيابا، فهم بذلك حائرون مترددون.
٢٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
قوله: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين} إذ تليت على المشركين المكذبين بيوم الدين، آيات الله البينات الواضحات التي تنبئ بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الناس ملاقو ربهم للحساب لم تكن حجتهم فيما يقولون من تكذيب وجحود إلا قولهم: ائتنا بآبائنا الذين هلكوا من قبلنا ليبرزوا أمامنا أحياء إن كنت تصدق فيما تحدثنا به عن يوم القيامة وأننا مبعوثون من بعد الموت.

٢٦ - (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه} أي قل لهؤلاء المشركين المكذبين بيوم القيامة إن الله يحييكم في هذه الدنيا ما شاء أن يحييكم ثم يميتكم بعد ذلك ثم يجمعكم أحياء ليوم القيامة وهو يوم آت لاريب فيه {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} أكثر الناس غير موقنين بيوم القيامة، لأنهم موغلون في الجهالة والضلالة ١٠.

٢٧ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

قوله تعالى: {ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ٢٧ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ٢٨ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ٢٩ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ٣٠ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين}

الله الذي يملك السماوت والأرض وما فيهن من مختلف الخلائق والعجائب والأجرام، فهو سبحانه مالك كل شيء، ولا يملك الذين يعبدون من دونه من الآلهة والأنداد أيما شيء، بل الله وحده صاحب الملكوت والجبروت لا ينازعه في شيء من ذلك أحد من خلقه.

قوله: {ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون} {يوم}، الأول منصوب بالفعل {يخسر} و {يومئذ} للتأكيد ١١ والمعنى: إذا قامت الساعة وجمع الله الأولين والآخرين ليلاقوا الحساب، حينئذ يخسر الظالمون وهم أهل الباطل الذين جحدوا وارتابوا وكذبوا بالساعة، لا جرم أنهم هم المفرطون الأخسرون.

٢٨ - (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {وترى كل أمة جاثية} {جاثية} أي باركة على الركب - جثا جثوا وجثيّا بضمهما أي جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه - وهو جاث - وقيل: مستوفزة - واستوفز في قعدته إذ قعد قعودا منتصبا غير مطمئن ١٢ والمعنى: ترى يوم القيامة، أهل كل ملة أو دين {جاثية} أي جالسة على ركبها وجلة - وذلك من هول القيامة الرعيبة، وما يأتي على الكون حينئذ من أحداث جسام، وخطوب هائلة مروعة - يومئذ تفزع القلوب وتضطرب الفرائص، وتشخص الأبصار.

قوله: {كل أمة تدعى إلى كتابها} {كل} تقرأ بالرفع على أنها مبتدأ وخبره {تدعى} وتقرأ بالنصب على البدل من {كل} الأولى - {تدعى}، في موضع نصب على الحال ١٣ - يعني: كل أهل ملة أو دين يدعون إلى كتاب الحفظة ليقرأوه - وقال الجاحظ: تدعى كل أمة إلى كتاب نبيها فينظر هل عملوا به أم لا - وقيل: تدعى أمة قبل أمة، وقوم قبل قوم، ورجل قبل رجل - وذكر من حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: " يمثل لكل أمة يوم القيامة ما كنت تعبد من حجر أو وثن أو خشبة أو دابة ثم يقال: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فتكون، أو تجعل تلك الأوثان قادة إلى النار حتى تقذفهم فيها ".

قوله: {اليوم تجزون ما كنتم تعملون} يقال لكل أمة من الأمم عقب ندائها إلى كتاب أعمالها: اليوم تعطون جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، فتجزون الإحسان بالإحسان، والإساءة بالإساءة - أو تثابون الخير بالخير، والشر بالشر - فلا ظلم يومئذ ولا بخس ولا جور.

٢٩ - (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق} {هذا} مبتدأ - و {كتابنا} خبره: وقيل: {كتابنا} بدل من {هذا}، و {ينطق} خبر المبتدأ ١٤ والمراد بكتاب الله، الكتاب الذي تحفظ في أعمال العباد - فقد أمر الله الملائكة بكتابته - وهو يوم القيامة يشهد بالحق على أصحابه بما فعلوه إن أنكروا منه شيئا - وقيل: كتاب الله الذي ينطق عليهم بالحق يوم القيامة هو أم الكتاب، فإن فيه أعمال بني آدم كلها.

قوله: {إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} {نستنسخ} من النسخ وهو النقل والكتابة ١٥ والمعنى: كنا نستكتب الحفظة أعمال العباد فتثبتها في الكتب - أو أن الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم.

٣٠ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

قوله: {فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته} ذلك وعد من الله لعباده الذين آمنوا واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، فالتزموا منهج الإسلام واجتنبوا سبل الشياطين من الإنس والجن، بأن لهم من الله الرحمة، وهي الجنة {ذلك هو الفوز المبين} ذلكم هو الظفر الكامل بما تتمناه القلوب - وتلكم هي السعادة العظمى التي لا تعدلها سعادة من سعادات الدنيا.

٣١ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

قوله: {وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين} أي يقال للكافرين المكذبين يوم القيامة على سبيل التقريع والتوبيخ: ألم تأتكم آيات الله وفيها لكم منه السعادة والنجاة، فتوليتم مدبرين مستكبرين، وكنتم بذلك مجرمين بما كنتم تفعلون من المعاصي والذنوب ١٦.

٣٢ - (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

قوله تعالى: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ٣٢ وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ٣٣ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ٣٤ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ٣٥ فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ٣٦ وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}.

يبين الله في ذلك حال المشركين من الشك والارتياب في الساعة وهم في ذلك غير موقنين، فهم بذلك صائرون إلى النار بسبب تكذيبهم وعدم يقينهم من هذه الحقيقة الساطعة الكبرى وهي الساعة - فقال سبحانه: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها} الساعة تقرأ بالرفع على أنها مبتدأ - وتقرأ بالنصب على العطف على اسم إنّ ١٧.

والمعنى: إذا قيل لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث والمعاد: إن وعد الله بإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم أحياء وعد حق، والساعة آتية لا شك فيها، والناس مجموعون ليوم الحساب، فكان جوابهم أن قالوا: {ما ندري ما الساعة} أي لا نعرف الساعة ولا ندري أحق هي أم باطل، فهم بذلك مرتابون متحيرون - وقالوا أيضا: {إن نظن إلا ظنا} أي نظن قيام الساعة إلا ظنا لا يؤدي إلى العلم واليقين {وما نحن بمستيقنين} أي لسنا على يقين أن الساعة جائية أو أنها تكون.

٣٣ - (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

قوله: {وبدا لهم سيئات ما عملوا} أي ظهر لهؤلاء المشركين المكذبين يوم القيامة آثامهم وقبائح أعمالهم لما قرأوا كتب أعمالهم التي كانت الحفظة من الملائكة يستنسخونها لهم في دنياهم {وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون} أي أحاط بهم، أو نزل بهم العذاب الذي توعدهم الله به بسبب تكذيبهم، وهو ما كانوا يتخذونه في الدنيا هزوا.

٣٤ - (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

قوله: {وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا} يعني يقال لهؤلاء المشركين المكذبين بيوم القيامة: اليوم نترككم في جهنم كما تركتم العمل لهذا اليوم الموعود {ومأواكم النار} أي النار مقامكم الذي تأوون إليه دائمين ملازمين {وما لكم من ناصرين} أي ليس لكم من معين ولا نصير ولا مجير يستنقذكم من العذاب ولا من أهوال هذا اليوم الرهيب.

٣٥ - (ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

قوله: {ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا} أي ذلكم العذاب الذي حاق بكم اليوم سببه اتخاذكم آيات الله، وهي قرآنه، هزوا، فقد سخرتم منه ولم توقروه {وغرتكم الحياة الدنيا} أي خدعتكم مباهج الحياة الدنيا وما فيها من متاع وزينة وآثرتم الاستمتاع بذلك على الآخرة.

قوله: {فاليوم لا يخرجون منها} أي لا يخرجون من النار بل هم ماكثون في العذاب لا يبرحون {ولاهم يستعتبون} أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا.

٣٦ - (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين} الله وحده المستوجب الحمد على عباده، لكبير فضله وعظيم آياديه ونعمه - فله وحده الحمد والثناء دون غيره من المخاليق - وهو سبحانه مالك الوجود كله، فله ملكوت السماوات والأرض وما فيهن من أصناف الخلق.
٣٧ - (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
قوله: {وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} أي أن لله العظمة والجلال والكمال وبالغ القدرة والهيمنة، وعظيم العزة والسلطان في الكون كله - وهو سبحانه القوي الذي لا يغلب والحكيم في مقاديره وأحكامه وتدبيره لشؤون الخلق ١٨.

٤٦ سورة الأحقاف:

سورة الأحقاف:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية، وآياتها خمس وثلاثون - وفيها كثير من الأخبار والمواعظ والتذكير والدلائل التي تبين للناس حقيقة وحدانية الله وتفرده بالخلق وأن ما يدعون من دونه من الأنداد ليس إلا أوهاما وأباطيل.
وفي السورة تنديد كبير بالمشركين الظالمين الذين قالوا: {للحق لما جآءهم هذا سحر مبين} والله جل جلاله يشهد لكتابه الحكيم أنه الحق المنزل من عنده، ولرسوله الأمين أنه مبعوث من لدنه، فهو ليس بدعا من الرسل، وفي السورة توصية من الله للإنسان بوالديه إحسانا مع التنبيه الظاهر إلى عظيم قدر الأم بما كابدته في أمر الولادة والأولاد من شديد العناء والشقاء.
وفي السورة تهديد مرعب ووعيد مخوف للكافرين المكذبين بأنهم يعرضون يوم القيامة على النار، ويجزون عذاب الهون بسبب استكبارهم في الأرض وفسقهم عن دين الله.
وفي السورة ذكر لنبي الله هود عليه السلام المبعوث إلى قوم عاد بالأحقاف من أرض اليمن، إذ كذبوا نبيهم تكذيبا فأخذهم الله نكال تكذيبهم، إذ أرسل عليهم ريحا عاتية تدمر كل شيء - إلى غير ذلك من الأخبار والعبر وألوان التذكير والتنبيه والتحذير.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم ١ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ٢ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ٣ قل أرءيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ٤ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٥ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين}.
يبين الله لعباده أنه هو منزل القرآن وأنه خالق السموات والأرض بالعدل والحكمة لا للعبث واللهو، وأن ما يعبده المشركون من آلهة مزعومة لهو افتراء وباطل - وهو قوله: {حم ١ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} {حم} من فواتح السور - وذلك من متشابه القرآن الذي يوكل علمه إلى منزله سبحانه.
٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
قوله: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} ذلك بيان من الله ظاهر بأن هذا القرآن منزل من لدنه، واصفا نفسه بأنه {العزيز}، أي قوي الجناب الذي لا يغلب، وأنه {الحكيم} في مقاديره واحكامه وتدبيره.
٣ - (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ)

قوله: {ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى} يعني أحدث الله هذا الكون لإقامة الحق والعدل فيه ليس للعب واللهو والباطل - وقد خلق الله ذلك كله لأجل معلوم، تفنى ببلوغه الحياة والأحياء والكائنات جميعا.

قوله: {والذين كفروا عما أنذروا معرضون} يعني هؤلاء الكافرون المكذبون قد تولوا معرضين عما أنذروا من تخويف وتحذير - فلم يعبأ بذلك بل لجوا في تكذيبهم وجحودهم.

٤ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله} أي قل لهؤلاء المشركين المكذبين: أرأيتم ما تعبدون من دون الله من الأنداد والشركاء {أروني ماذا خلقوا من الأرض} أي أخبروني ما الذي خلقوه من الأرض، إنهم لم يخلقوا شيئا البتة بل إنهم هو المخلوقون {أم لهم شرك في السماوات} {أم}، هي المنقطعة المقدرة من بل والهمزة - والاستفهام للتوبيخ والتقريع - والمعنى: بل ألهم شرك، أي نصيب مع الله في خلق السماوات {ائتوني بكتاب من قبل هذا} أي ائتوني بكتاب من كتب النبيين السابقين يشهد بما تزعمون.

قوله: {أو أثارة من علم} {أثارة من علم} أي بقية من علم - وقيل: أو علم يؤثر - أو يؤثر وينقل وإن لم يكن مكتوبا - وقيل: أو علامة - وأصل الكلمة من الأثر وهي الرواية - أثرت الحديث إذ ذكرته عن غيرك - حديث مأثور، أي نقله خلف عن سلف - وقيل: أو خاصة من علم أوتيتموه وأوثرتم به على غيركم - واختار الإمام الطبري رحمه الله المعنى الأول على أنه الصواب وهو: أو بقية من علم، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب - فيكون المعنى: ائتوني بكتاب من قبل هذا الكتاب يشهد بصدق ما تدعون لآلهتكم أو ببقية من علم يوصل بها إلى صحة ما تزعمون {إن كنتم صادقين} في دعواكم لآلهتكم ما تدعون.

٥ - (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

قوله: {ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة} يعني ليس من أحد أضل وأجهل من عبد يدعو آلهة مزعومة مصنوعة من الخشب أو الحجر أو نحوهما لا تستجيب دعاء من يدعوها وإن طال الدعاء أو امتد إلى يوم القيامة، لأنها آلهة مصطنعة مفتراة لا تملك لأحد ضرا ولا نفعا {وهم عن دعائهم غافلون} لأن ما يدعون من الآلهة، معبودات مختلفة من التماثيل البلهاء الصم، فهي لا تعي ولا تنطق ولا تسمع ولا تبصر - فأنى لها أن تستجيب لأحد دعاءه - وذلكم توبيخ شديد لهؤلاء المشركين الغافلين الجاهلين الذين يعكفون على عبادة آلهة مصنوعة مفتراة لا تغني من الحق شيئا.

٦ - (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

قوله: {وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء} يعني إذا جمع الناس يوم القيامة للحساب، كانت هذه الآلهة المزعومة أعداء لمن كان يعبدها في الحياة الدنيا - وبذلك تكون الملائكة أعداء للمشركين - وكذلك الجن والشياطين يصيرون أعداء لعبدتها من البشر، وحينئذ يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا {وكانوا بعبادتهم كافرين} أي جاحدين عبادة الذين عبدوهم في الدنيا ويقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا فإنا نتبرأ إليك يا ربنا منهم ١.

٧ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جآءهم هذا سحر مبين ٧ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ٨ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين}.

يبين الله حال الكافرين من الحيرة والتردد والمكابرة لما غشي القرآن قلوبهم وأذهانهم بروعة نظمه الباهر، وكمال مضمونه العجيب فبادروا بالإنكار والتكذيب إذ رموه بالسحر - وذلك لفرط اندهاشهم وإعجابهم في قرارة نفوسهم ولشدة ما أحدثه القرآن في وجدانهم وخيالهم

من شديد الهزة والذهول - وذلك قوله سبحانه: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جآءهم هذا سحر مبين} يعني إذا تليت آيات القرآن واضحات نيرات على هؤلاء المشركين المعاندين قالوا {للحق لما جآءهم} أي قالوا للقرآن لما أنزل إليهم - وهوالحق من ربهم-: {هذا سحر مبين} قالوا: إن القرآن سحر يأخذ بقلوب الذين يسمعونه فهو يفعل في الناس فعل السحر وهو مبين، أي يتبين لمن يتأمله أنه سحر - وذلك افتراء مستهجن يتقوّله المشركون المعاندون الذين ضاقت بهم سبل التحيّل والاتهام لكتاب الله الحكيم فلم يجدوا غير سبيل السحر حجة يتشبثون بها - لا جرم أن هذا إيذان واضح منهم بأن القرآن عجيب ومميز وفذ - وهم موقنون في قلوبهم بأن القرآن لا يعارض ولا يضاهي فهو ليس له نظير في النظم أو الكليم.

٨ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

قوله: {أم يقولون افتراه} {أم} المنقطعة بمعنى بل أيقولون افتراه - والاستفهام للإنكار والتعجيب من صنعهم - وبل، للإضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا، إلى ذكر قولهم إن محمدا افتراه - وفي ذلك توبيخ لهم شديد، وتقريع.

قوله: {قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا} أي قل لهم يا محمد إن افتريت هذا القرآن من تلقاء نفسي أو تخرّصته على الله كذبا فإنكم لا تغنون عني من الله شيئا إن عاقبني جزاء افترائي وتخريصي، ولستم بقادرين على أن تدفعوا عني ما ينزل بي من عذاب الله إن أصابني.

قوله: {هو أعلم بما تفيضون فيه} {تفيضون} من الإفاضة وهي الاندفاع - أفاضوا في الحديث أي اندفعوا فيه ٢، والمعنى: هو أن الله أعلم ممن سواه بما تخوضون فيه من التكذيب بينكم لهذا القرآن - أو بما تقولونه فيه من الافتراء الباطل.

قوله: {كفى به شهيدا بيني وبينكم} {شهيد} منصوب على التمييز، أي كفى بالله شاهدا علي وعليكم بما تقولونه من تكذيب لي فيما جئتكم به من عند الله، ومن افترائكم الباطل على القرآن، فالله جل وعلا يعلم أني صادق فيما جئتكم به وأنكم أنتم المبطلون {وهو الغفور الرحيم} الله يغفر الذنوب للتائبين عن الشرك والمعاصي - وهو الرحيم بعباده المؤمنين فيكتب لهم التوفيق و السعادة في الدنيا والآخرة.

٩ - (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله: {قل ما كنت بدعا من الرسل} أي ما كنت أول رسل الله الذين أرسلهم إلى الناس، فقد كان من قبلي مرسلون كثيرون أرسلهم الله إلى أمم مختلفة من قبلكم فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم، ودعائي لكم أن تفردوا الله وحده بالعبادة والإذعان، فإن الرسل جميعا إنما بعثوا من أجل ذلك - وقيل: كان المشركون يعيبون الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأن الذين اتبعوه هم من الفقراء، فبين الله لهم أن المرسلين كلهم كانوا على هذه الصفة ولا يقدح ذلك في نبوته وصدقه فيما يقوله لهم.

قوله: {وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} أي لا علم لي بالغيب عما يفعله الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان - فما أدري ما يصر إليه أمري وأمركم في هذه الدنيا؟ فمن الغالب منا ومن المغلوب؟ وهل تؤمنون أم تكفرون؟ وهل تعاجلون بالعذاب أم تمهلون؟ وذلك كله من أمر الدنيا - أما في الآخرة فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه في الجنة حقا، بل إنه في الذروة السامقة من الفردوس الأعلى يوم القيامة.

قوله: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي} يعني ما أتبع فيما أبلغكم به وأدعوكم إليه وأحذركموه إلا يوحي به إلي ربي {ومآ أنا إلا نذير مبين} أي لست إلا مبلغا لكم دعوة ربي ومحذركم عصيانه وشديد عقابه ٣.

١٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم

الظالمين ١٠ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ١١ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ١٢ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ١٣ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون}.

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: أرأيتم إن كان هذا القرآن منزلا من عند الله وكذبتم به فما ظنكم أن الله صانع بكم بسبب جحودكم وتكذيبكم؟ {وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله} أي شهد بصدق هذا الكتاب وأنه منزل إلي من عند الله {شاهد من بني إسرائيل} المراد بالشاهد عبد الله بن سلام - فقد قال ابن عباس: رضيت اليهود بحكم ابن سلام وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إن يشهد لك آمنا بك فسئل فشهد ثم أسلم - وبذلك فإن هذه الآية مدنية بخلاف السورة فإنها مكية - وفي ذلك نظر لأن السورة كلها مكية، وعبد الله بن سلام كان إسلامه في المدينة بعد الهجرة - وقيل: المراد بالشاهد رجل من بني إسرائيل آمن بالقرآن في مكة وصدّق برسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: {على مثله} أي شهد شاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن من المعاني الموجودة في التوراة والمطابقة لها من حيث التوحيد والبعث و النشور والحساب وغير ذلك من معاني العقيدة - قوله: {فآمن واستكبرتم يعني آمن الشاهد من بني إسرائيل سواء كان عبد الله ابن سلام أو رجلا غيره من أهل الكتاب - فقد شهد بأن القرآن حق وأن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه للعالمين وأن اليهود يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة {واستكبرتم} أي جحدتم وكذبتم أنتم معشر اليهود برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل إليه من ربه وهو القرآن.

قوله: {إن الله لا يهدي القوم الظالمين} أي لا يجعل الله الهداية والتوفيق والسداد للمشركين الجاحدين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم بعد أن قامت الحجة الظاهرة البلجة على صدق هذا الكتاب وصدق الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.

١١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)

قوله: {وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه} قال المشركون السفهاء، التائهون في غرورهم وضلالهم -قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان هذا القرآن خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء الأراذل والعالة - وهم يريدون بذلك بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا (رضي الله عنهم) وأشباههم ونظراءهم من الفقراء والمستضعفين والعبيد - وذلكم خطأ فاحش وتصور مستهجن كان يغشى أذهان الجاهلين السفهاء وهم يحسبون أنهم بوجاهتهم المصطنعة الموهومة وبضلالهم وحماقتهم وما جمعوه من المال، خير من الفقراء والمستضعفين المؤمنين.

قوله: {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم} أي أن هؤلاء الضالين الجاهلين لما لم يقفوا على كمال القرآن لعجزهم وضلالهم ولم يصيبوا به الهدى عادوه ونسبوه إلى الكذب وقالوا إنه {إفك قديم} أي أكاذيب قديمة من أخبار الأولين - أو هو أساطير الأولين.

١٢ - (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ)

قوله: {ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة} {كتاب} مرفوع لأنه مبتدأ {ومن قبله} خبره {إماما ورحمة} منصوبان على الحال ٤ - والمعنى: من قبل هذا القرآن {كتاب موسى} وهو التوراة، جاءكم إمام يقتدى بما فيه {ورحمة} من الله لكم - ومع ذلك لم تهتدوا ولم تستجيبوا لهذا الكتاب الذي أنزل على موسى - ذلك أن التوراة مشتملة على صفة النبي صلى الله عليه وسلم والبشارة به ووجوب تصديقه والإيمان به - فإذا سلمتم أن التوراة إمام يقتدى به فاقبلوا حكمه في كون محمد صلى الله عليه وسلم مرسلا من ربه.

قوله: {وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا} {لسانا عربيا} منصوبا على الحال - والمعنى: هذا قرآن مصدق للتوراة ولما قبله من الكتب - أو مصدق للنبي صلى الله عليه وسلم لسانا عربيا فصيحا واضحا {لينذر الذين ظلموا} أي لينذر هذا القرآن الظالمين المشركين فيخوفهم بأس ربهم وشديد عقابه {وبشرى للمحسنين} القرآن بشرى للمؤمنين الذين أحسنوا طاعتهم وعبادتهم لله.

١٣ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قوله: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} يبشر الله بذلك عباده الذين آمنوا به وحده ثم استقاموا

على التوحيد الخالص لله فلم يخلطوا أيمانهم وعبادتهم بشيء من الشرك، واتبعوا أمر ربهم وانتهوا عما نهى عنه من المعاصي والآثام - أولئك جزاؤهم أنهم لا خوف عليهم من أفزاع يوم القيامة وما فيه من الأهوال، {ولا هم يحزنون} على فراق الدنيا وما فيها من الأهل والأولاد والأصحاب والأموال.

١٤ - (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها} {خالدين}، منصوب على الحال ٥ والإشارة عائدة إلى القائلين، {ربنا الله}، المستقيمين على دينه ومنهاجه وطاعته - أولئك يجزون الجنة ليقيموا فيها آبدين لا يخرجون {جزاء بما كانوا يعملون} {جزاء}، منصوب على المصدر - وقيل: منصوب على أنه مفعول له ٦ أي بوأهم الله الجنة ثوابا منه لهم على إيمانهم وإحسانهم وصالح أعمالهم في الدنيا ٧.

١٥ - (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قوله تعالى: {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ١٥ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون}.

هذه آيات بينات يوصي الله فيهن بالوالدين إحسانا - وفي ذلك من بالغ التكريم والتعظيم للآباء والأمهات ما ليس له في الملل والعقائد والفلسفات نظير - وذلكم هو القرآن الحكيم بآياته العجاب، وإعجازه الباهر، وأسلوبه المميز الفذ، يحرض على الاهتمام بالوالدين، ببذل الخير والتبجيل لهما، ودفع الأذى والشر وكل وجوه الإساءة عنهما، وذلك ليتبوأ الوالدان في كنف الأولاد خير منزلة من منازل الاحترام والإكرام والتقدير: وأيما إساءة بعد ذلك أو بذاءة من لسان أو إهانة لأحدهما أو كلاهما فإنه فسق عن دين الله وعصيان لرب العباد.

وتكريم الوالدين يأتي في ذروة العبادات التي يتقرب بها العبد من ربه، وذلك بجم التواضع لهما وعظيم الإحسان إليهما وأرقى الدرجات من التأدب في مخاطبتهما - وإذا لم يكن المرء مع أبويه كذلك فيوشك حينئذ أن يهوي بنفسه في جهنم - وذلكم قوله سبحانه: {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا} {إحسانا} منصوب على المصدر، وتقديره: ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن إحسانا ٨ فقد أمر الله الإنسان أن يحسن إلى والديه بالحنو عليهما والرأفة بهما وبتكريمهما - وفي سبب نزول هذه الآية روى أبو داود عن سعد (رضي الله عنه) قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين؟ فلا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا - ونزلت هذه الآية.

قوله: {حملته أمه كرها ووضعته كرها} حملت الأم ولدها جنينا في بطنها في مشقة ووضعته لدى الولادة في مشقة، وفي ذلك من شديد العسر والكرب والإيلام على الأمهات ما لا يخفى - ويراد بذلك، التذكير بعظيم فضل الأم على ولدها لكي يحسن إليها ويحدب عليها بالغ الحدب وأن يبذل لها من وجوه التعظيم والاحترام ما يولجه في زمرة المؤمنين الصادقين.

قوله: {وحمله وفصاله ثلاثون شهرا} أي أن مدة حمل الإنسان في بطن أمه ومدة فصاله وهو فطامه من الرضاع {ثلاثون شهرا} وبذلك فإن ثلاثين شهرا هي المدة من عند ابتداء الحمل إلى أن يفصل من الرضاع، أي يفطم عنه.

ويستدل بهذه الآية على أن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر، لأن مدة الرضاع الكامل سنتان لقوله سبحانه: {يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أ ن يتم الرضاعة} قال ابن عباس في ذلك، إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا - وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا - وروي أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر فأراد أن يقضي عليها بالحد فقال له علي (رضي الله عنه): ليس ذلك عليها - قال الله تعالى: {وحمله وفصاله ثلاثون شهرا} وقال تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين} فالرضاع أربعة وعشرون شهرا، والحمل ستة أشهر - فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها.
قوله: {حتى إذا بلغ أشده} الأشد، واحد جاء على بناء الجمع - وقيل: هو جمع لا واحد له من لفظه مثل أبابيل ومذاكير ٩ - والأشد، هو تناهي قوة المرء واختلفوا في مدة الأشد - فقد قيل: ثلاث وثلاثون سنة - وقيل: الحلم - وقيل: ثماني عشرة سنة {وبلغ أربعين سنة} وذلك تناهي عقل الإنسان واكتمال فهمه وحلمه وتدبيره.
روى الحافظ أبو يعلى بإسناده عن عثمان (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه - وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبّت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفّعه الله تعالى في أهل بيته وكتب في السماء أسير الله في أرضه ".
قوله تعالى: {قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي} إذا بلغ المرء سن الأربعين وفيها يكتمل الفهم والتدبير والإرادة – دعا ربه أن ألهمني شكر نعمتك علي وعلى والدي بالهداية والتوفيق وغير ذلك من وجوه النعم.
قوله: {وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي} يعني وألهمني أن أعمل الصالحات التي ترضاها وأصلح لي أموري في ذريتي بأن تجعلهم صالحين مهديين عاملين بشرعك، مبتغين مرضاتك.
قوله: {إني تبت إليك وإني من المسلمين} أي تبت إليك من ذنوبي التي سبقت مني في سالف أيامي وإني من المستسلمين لأمرك الخاضعين لك بالطاعة والإذعان.
١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)
قوله: {أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة} الإشارة عائدة إلى الإنسان الذي سبقت صفته، فالله جل وعلا يتقبل عنهم أحين ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم يعني يتقبل الله منهم الحسنات وما عملوه من الصالحات والطاعات، ويصفح عن سيئات أعمالهم بمنه وفضله {في أصحاب الجنة} أي مع أصحاب الجنة - أو نفعل بهم ذلك مثل فعلنا بأهل الجنة.
قوله: {وعد الصدق الذي كانوا يوعدون} {وعد} منصوب على المصدر، مؤكد لما قبله، أي وعدهم الله وعد الحق أو الصدق {الذي كانوا يوعدون} أي الذي كانوا يوعدونه وهم في الدنيا ١٠.
١٧ - (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)
قوله تعالى: {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ١٧ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ١٨ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ١٩ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون}.
بعد أن ذكر الله حال المؤمنين المقتين الذين يحوطون آباءهم وأمهاتهم بالرعاية والعناية والتكريم ويفيضون عليهم من بالغ الحدب والتبجيل والصون – شرع يبين حال الأشقياء من الناس التاعسين الساقطين في وهدة العقوق للآباء والأمهات فيعصونهم أو يؤذونهم بالقول أو الفعل أو يسخرون من دعائهم إياهم للإيمان بيوم القيامة - وهو قوله سبحانه: {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج} اسم الموصول {والذي} يراد به الجنس القائل ذلك القول فأخبر عنه بالجمع - فليس المراد بذلك شخص معين بل المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة من الكفر والعقوق وهو كل من دعاه أبواه إلى دين الإسلام فأبى واستكبر وكذب بيوم القيامة - يعني: والذي قال لوالديه، إذ دعواه إلى الإيمان بالله والتصديق بيوم القيامة وبعث الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء {أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي} {أف}، اسم من أسماء الأفعال بمعنى أتضجر - وهي مبنية على الكسر ١١ يقول لهما في استكبار وتوقح

وجحود {أف لكما} أتضجر وأتقذر وأجد ما تعدانني به {أتعدانني أن أخرج} أتعدانني بالخروج من القبر بعد الممات والرفات وبعد البلى والحطام {وقد خلت القرون من قبلي} أي مضت أجيال وأمم من قبلي فهلكوا ولم أجد أحدا منهم قد بعث.

قوله: {وهما يستغيثان الله} والداه يستصرخان الله عليه من كفره ويدعوان الله له بالهداية والإقرار بالبعث ويقولان له {ويلك آمن} {ويلك}، منصوب على المصدر، وهو من المصادر التي لا أفعال لها وهي: ويحك، وويسك، وويبك ١٢، وليس المراد هنا الدعاء على ولدهما الظالم لنفسه بل يبتغيان التحضيض له على الإيمان - أي، صدق بيوم القيامة ولا تجحد البعث والحساب {إن وعد الله حق} وعد الله صدق لا ريب فيه وهو كائن لا محالة {فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين} يقول الولد الشقي الجاحد لوالديه المؤمنين الحريصين على هدايته وإيمانه: ما تقولان من قيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم إلا أحاديث الأمم السابقة وخرافاتهم مما ليس له أصل.

١٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

قوله: {أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس} أولئك الذين ذكرت صفتهم من تكذيب بيوم القيامة هم الذين وجب عليهم عذاب الله وحل بهم عقابه وغضبه فيمن حل بهم مثل ذلك من الأمم السابقة من الجن والإنس الذين كذبوا بالله ورسله وفسقوا عن أمر ربهم {إنهم كانوا خاسرين} خسروا رضوان الله والجنة وباءوا بالنار والعذاب المهين.

١٩ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

قوله: {ولكل درجات مما عملوا} لكل فريق من الفريقين، وهما فريق المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر، وفريق الجاحدين المكذبين المتلبسين بالفسق والإشراك وعقوق الوالدين، منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم التي عملوها في الدنيا - فمن عمل حسنا جوزي النجاة والسعادة، ومن عمل سوءا جوزي المهانة والعذاب.

قوله: {وليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون} أي ليجزي كل واحد من الفريقين، المؤمنين والكافرين بما عمل من إحسان أو سوء دون أن يحيق بواحد منهم ظلم، فلا يبخس محسن ولا يزاد على مسيء.

٢٠ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

قوله: {ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا} يوم، ظرف منصوب بفعل محذوف، أي اذكر لهم يا محمد يوم يكشف الغطاء عن جهنم ثم يقرّبون منها وينظرون إليها وهي تتلظى وتضطرم من فرط الاستعار والتأجج - لا جرم أن هذا مشهد مخوف رعيب تطير من هوله القلوب وتتزلزل من فظاعته الأبدان - وحينئذ يقال للظالمين الخاسرين: {أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا} الاستفهام بالهمز للتقريع والتوبيخ، والمراد بالطيبات ما كانوا فيه من اللذات وطيب المعايش في الدنيا - يعني: اتبعتم الشهوات واللذات وعصيتم أمر ربكم ولم تعبأوا بدينه واليوم الآخر - فكل ما قدر لكم من الطيبات والراحات قد استوفيتموه في الدنيا وأخذتموه فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من الحظ في الخير والطيبات - وعن عمر رضي الله عنه قال: لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكني أستبقي طيباتي.

قوله: {فاليوم تجزون عذاب الهون} {الهون} بضم الهاء ومعناه الهوان، أي المهانة - استهان به أي استحقره ١٣، يعني: اليوم جزاؤكم العذاب والمهانة والخزي {بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق} يعني سبب عذابكم وخسرانكم وما أنتم فيه الهوان هو استكباركم في دنياكم عن عبادة الله والإذعان لجلاله العظيم {وبما كنتم تفسقون} أي بسبب عصيانكم أمر ربكم وخروجكم عن طاعته ١٤.

٢١ - (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قوله تعالى: {واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم

عذاب يوم عظيم ٢١ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٢٢ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنني أراكم قوما تجهلون ٢٣ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ٢٤ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين}.

ذلك تأنيس من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بسبب تكذيب المشركين له، فيذكّره الله بالنبيين من قبله فقد أوذوا في سبيل الله ولاقوا من قومهم المشركين الأذية والعنت - وهو كذلك تحذير من الله لهؤلاء المشركين أن يحل بهم من العقاب ما حل بمن سبقهم من الظالمين كقوم عاد، إذ كانوا موغلين في الشرك والطغيان وكانوا أشد قوة من هؤلاء المشركين - فقال سبحانه في ذلك: {واذكرإذ أنذر قومه بالأحقاف} أي واذكر لقومك المشركين يا محمد، أخا عاد، وهو نبي الله هود عليه الصلاة والسلام، وقد كان أخاهم في النسب لا في الدين {إذ أنذر قومه بالأحقاف} والأحقاف جمع حقف وهو المعوج من الرمل - أو هو الكثيب المكسّر من الرمل غير الكبير وفيه اعوجاج ١٥ والمراد بالأحقاف: ديار عاد - واختلفوا في موضعها - فقد قيل: واد بين عمان ومهرة - وقيل: واد بحضرموت من اليمن.

والمعنى: واذكر لهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها فيخشوا أن يحل بهم ما حل بعاد قوم هود فينقمعوا عن كفرهم وعصيانهم - أو أن يتذكر هو في نفسه قصة أخيه هود فيهون عليه تكذيب المشركين له - قوله: {وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه} {النذر} جمع نذير وهو المبلغ رسالة ربه إلى الناس، أي وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده {ألا تعبدوا إلا الله} فقد كانت وجيبة الرسل نحو قومهم أن يحذروهم أي إشراك في عبادة الله بل عليهم إخلاص العبادة لله وحده وإفراده بالإلهية والتوحيد فهو لا إله غيره ولا رب سواه.

قوله: {إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم} ذلك من قيل هود لقومه، وهو: إني أخاف عليكم أيها القوم بسبب شرككم وعصيانكم أمر ربكم عذاب يوم يشتد فيه الهول وتعظم فيه البلايا والخطوب وهو يوم القيامة.

٢٢ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

قوله: {قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا} قالت عاد لنبيهم هود، عقب تخويفهم من بطش الله وتحذيرهم عقابه: أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة إلهك الذي تدعونا إليه، {فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} أي ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت تصدق فيما تقول.

٢٣ - (قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

قوله: {قال إنما العلم عند الله} يعني العلم بوقت مجيء العذاب إنما هو عند الله - وإنما أنا نذير لكم أبلغكم ما كلفت بتبليغكم إياه وهو قوله: {وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون} يعني سؤالكم استعجال العذاب يشعر بأنكم جاهلون فلستم من أهل الجد أو النباهة أو الإعتبار.

٢٤ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا} الضمير في قوله: {رأوه} يعود إلى غير مذكور والمراد به العارض وهو السحاب.

و {عارضا} منصوب على الحال، يعني لما استعجلوا عذاب الله على سبيل الإنكار والجحود – فرأوه سحابا معترضا في الأفق متوجها نحو أوديتهم {قالوا هذا عارض ممطرنا} استبشروا به وحسبوه سحابا ممطرهم.

قوله: {بل هو ما استعجلتم به} يعني هو الذي استعجلتموه، حيث قلتم من قبل {فأتنا بما تعدنا}.

قوله: {ريح فيها عذاب أليم} {ريح}، بدل من " ما " أو خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هو ريح - وجملة {فيها عذاب أليم} صفة لريح - ثم وصف تلك الريح التي تحمل العذاب الماحق {تدمر كل شيء بأمر ربها}.

٢٥ - (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {تدمر كل شيء بأمر ربها} أي تهلك كل شيء من الناس والحيوان والنبات بإذن الله وتقديره - فما يكون من عقاب ولا عذاب ولا جزاء إلا بإرادة الله القادر.

قوله: {فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم} دمرت عليهم الريح العاتية تدميرا فجعلتهم صرعى وأمالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما ١٦ فباتوا بعد ذلك أثرا بعد عين، فأصبحوا لا يرى منهم أحد إلا مساكنهم الخاوية، فبادوا جميعا ولم تبق منهم باقية - من أجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه الكراهية خشية أن يكون ذلك عذابا لا رحمة - وكان يقول: " مايؤمنني أن يكون فيه عذاب - قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا " وروى مسلم في صحيحه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: " اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به - وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ".

قوله: {كذلك نجزي القوم المجرمين} الكاف في اسم الإشارة في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي مثل هذا العقاب يعاقب الله الظالمين العتاة الذين فسقوا عن أمر الله ١٧.

٢٦ - (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

قوله تعالى: {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ٢٦ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ٢٧ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون}.

{إن} تحتمل وجهين - أحدهما: أنها زائدة - وتقدير الكلام: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه - وثانيهما: أنهما: أنها بمعنى ما، النافية - أي ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من المال والسعة وقوة الأبدان وطول الأعمار - وهذا المعنى أظهر.

قوله: {وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة} يعني أنعمنا عليهم بأسباب التأمل والاعتبار والنظر فما آمنوا ولا اتعظوا - فقد وهبناهم السمع ليستمعوا الذكر والموعظة - ووهبناهم الأبصار ليروا آيات الله في الآفاق وفي الحياة ليستيقنوا - ووهبناهم العقول ليتفكروا ويتدبروا ويوقنوا أن الله حق - وهبناهم ذلك كله ليؤمنوا ويعتبروا ويزدجروا لكنهم صرفوا كل هذه القوى في طلب اللذات والشهوات فما أغنى عنهم ما وهبناهم من عذاب الله شيئا {إذ كانوا يجحدون بآيات الله} وذلك تعليل لعدم استفادتهم من القوى المذكورة، أي لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله.

قوله: {وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون} كانوا يسخرون من العذاب الذي توعدهم به نبيهم فنزل بهم ما كانوا به، وهو العذاب، وفي ذلك تخويف لهؤلاء المشركين أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم عاد من العذاب.

٢٧ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله: {ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى} يحذر الله المشركين بأسه وعظيم بطشه أن يحل بهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، مبينا لهم أنه أهلك ما حولهم من القرى الكافرة المجاورة لبلاد الحجاز، الذين كانت أخبارهم لدى العرب المشركين معروفة.

قوله: {وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون} أي بينا لهل تلك القرى مختلف الحجج والدلائل والبينات ليتعظوا ويزدجروا لكنهم أبوا واستكبروا، فأهلكناهم بكفرهم وذنوبهم.

٢٨ - (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

قوله: {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة} {فلولا} بمعنى هلا - و {قربانا} مفعول للفعل اتخذوا - وقيل: منصوب على أنه مصدر - قيل: منصوب على أنه أن مفعول له ١٨، والقربان: ما يتقرب به إلى الله بشيء تطلب به القربة عنده ١٩.

والمعنى: هلا نصرهم آلهتهم المزعومة التي تقربوا بها إلى الله – بزعمهم- لتكون لهم عنده شفعاء فتنقذهم من بأس الله وعذابه إذا نزل

بهم - والمراد أن هؤلاء المشركين العرب لو كانت آلهتهم تنفعهم أو تغنيهم من الله شيئا لنفعت الذين من قبلهم من الأمم لما أتاهم بأس الله - قوله: {بل ضلوا عنهم} أي تركتهم آلهتهم وخذلتهم فلم تنفعهم ولم تغن عنهم من عذاب الله شيئا.

قوله: {وذلك إفكهم وما كانوا يفترون} الإفك معناه الكذب ٢٠، أي ذلك هو كذبهم وافتراؤهم، إذ كانوا يفترون الكذب بقولهم عن آلهتهم وأوثانهم إنها شفاء لهم عند ربهم تقربهم إلى الله زلفى ٢١.

٢٩ - (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)

قوله تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ٢٩ قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ٣٠ ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ٣١ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين}.

الجن صنف من خلق الله خلقهم من نار، ففيهم المؤمنون وفيهم الكافرون، فهم بذلك كبني آدم، فيهم الذين آمنوا والذين كفروا - وفي هذه الآية توبيخ لمشركي قريش وتقريع لهم بسبب كفرهم بما آمنت به الجن - وفيها إخبار من الله بأن نفرا من الجن استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم نخفّوا إلى قومهم من الجن مسرعين مدهوشين مما سمعوا وهو قوله: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن} يعني واذكر يا محمد حين وجهنا إليك نفرا من الجن {يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا} يعني لما حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعض: اسكتوا، لكي يسمعوا {فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} لما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من تلاوة القرآن انصرفوا مبادرين إلى قومهم ليحذروهم عصيان ربهم وإنكار قرآنه - وهذا يدل على إيمانهم بالله وتصديقهم بكتاب الله بعد أن بهرتهم آياته العجاب.

٣٠ - (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: {قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاب أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه} يريدون أنهم سمعوا القرآن الذي أنزل من بعد موسى {مصدقا لما بين يديه} أي مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة {يهدي إلى الحق} يعني يهدي إلي دين الله الحق {وإلى طريق مستقيم} أي طريق الله الذي لا عوج فيه.

٣١ - (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله: {ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم} المراد بداعي الله: القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد دعوا قومهم أن يستجيبوا لنداء الله بتوحيده وطاعته والإذعان لجلاله العظيم، ليغفر لهم بعض ذنوبهم، وهي ما عدا حق العباد - وقيل: {من} زائدة.

قوله: {ويجركم من عذاب أليم} أي وينقذكم من عذاب وجيع إن أنتم آمنتم وأنبتم إلى ربكم طائعين مذعنين.

٣٢ - (وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

قوله: {ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض} ذلك تحذير لمن يعصي أمر ربه ويستنكف عن طاعته فلا يستجيب لدعوة الله ورسوله، فإنه لا يعجز الله بهربه {وليس له من دونه أولياء} ليس له من دون الله أنصار يمنعونه من عقاب الله.

قوله: {أولئك في ضلال مبين} الإشارة عائدة إلى الذين لا يجيبون داعي الحق ويستنكفون عن طاعة الله، فهؤلاء موغلون في الباطل سادرون في غيهم الظاهر.

٣٣ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ٣٣ يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ٣٤ فاصبر كما صبر أولوا العزم

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لو يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القول الفاسقون}.
ذلك برهان من الله يبين فيه أن الساعة حق وأنه سبحانه محيي الموتى ليلاقوا الحساب - ذلك أن الله خلق السموات والأرض، وهذان خلقان هائلان عظيمان، وفيهما من كبير الأجرام والأشياء ما يثير العجب ويدهش البال - لا جرم أن خالق ذلك لهو قادر على إحياء الموتى - فقال: {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى} الهمزة للإنكار، والوار للعطف على مقدر - والمراد من هذه الآية إقامة الدلالة على أن الله تعالى قادر على إقامة الساعة وبعث الموتى، فهو خالق السموات والأرض، وخلقهما أعظم وأنخم من إعادة الحياة للأموات - ذلك أن الله القادر على الأقوى لهو أقدر على الأقل والأضعف - والمعنى: أو لم ير هؤلاء المكذبون بيوم القيامة المنكرون لبعث الناس من قبورهم أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعجزه خلقهن – لهو قادر على إحياء الموتى {بلى إنه على كل شيء قدير} بلى إن الله قادر على فعل ما يشاء وهو سبحانه لا يعجزه شيء.

٣٤ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

قوله: {ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق} يعني ذكّرهم يا محمد يوم يعرضون على النار وذلك بمعاينتها والدنوّ منها، فحينئذ يقال لهم على سبيل التقريع والتنكيل: أليس هذا الذي ترونه من نار وعذاب بحق؟ {قالوا بلى وربنا} أقر الكافرون المكذبون، مؤكدين إقرارهم بالحلف على حقيقة الحساب والعذاب، حين لا ينفعهم إقرار ولا توبة ولا ندامة - ثم يقال لهم عقب ذلك {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} أي اصلوا عذاب جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم بهذا اليوم.

٣٥ - (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)

قوله: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} ذلك أمر من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالتأسي بإخوانه المرسلين الذين احتملوا المكاره والشدائد وصبروا على مساءات أقوامهم وشرورهم - وخص منهم أرباب الثبات والبأس وقوة الاحتمال وهم أولو العزم، أي الحزم والصبر والثبات، وهم على الراجح خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

قوله: {ولا تستعجل لهم} أي بالدعاء عليهم أن يحيق بهم العذاب بل اصبر واحتمل كما صبر المرسلون المقربون أولو الجد والهمم العالية، فعسى أن يؤمنوا فتنشأ عنهم أمم وأجيال على منهج الله وعقيدة الإسلام.

قوله: {كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} إذا عاين الخاسرون النار وأيقنوا أنها مستقرهم ومأواهم أحسوا حينئذ كأنهم لم يلبثوا في دنياهم غير ساعة من ساعات النهار {بلاغ} مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: هذا بلاغ - ويجوز النصب على أنه مصدر ٢٢ يعني هذا الذي وعظتم به فيه كفاية لكم من الذكرى.

قوله: {فهل يهلك إلا القوم الفاسقون} أي هل يهلك إلا الخارجون عن أمر الله أو عن الاتعاظ بهذا البلاغ والعمل بمقتضاه - وبذلك لا يهلك بعذاب الله إلا الضالون الخارجون عن طاعة ربهم - وقيل: لا يهلك على الله إلا هالك - وقيل: هذه الآية أقوى آية في الرجاء ٢٣.

٤٧ سورة محمد - صلى الله عليه وسلم -:

سورة محمد - صلى الله عليه وسلم -:

بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية، وآياتها تسع وثلاثون آية - وهي فيها من عظيم الأحكام والأخبار والواعظ ما فيه مزدجر وذكرى لأولى الطبائع السليمة - فضلا عن حلاوة النغم الذي يتجلى في حرف الميم من خواتيم الآيات في هذه السورة - لا جرم أن هذا الجرس الموحي ينشر في أطواء النفس ظلالا من نسائم شتى من البهجة والرهبة والإدّكار.

على أن السورة مبدوءة بالإشارة إلى حبوط الأعمال للكافرين، وإن صلحت أو كثرت فإنه ما من عمل من الصالحات يأتيه كافر إلا كان صائرا إلى البطلان والحبوط - بخلاف المؤمن فإنه يجزى بعمله خير الجزاء - وتتضمن السورة تحريضا للمؤمنين على قتال الكافرين في ساحات الجهاد ليثخنوا فيهم القتل وليشدوا فيهم وثاق الأسارى منهم - ولهم بعد ذلك الخيار في المن أو المفاداة أو القتل، تبعا لما يقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

وفي السورة وصف للجنة ونعيمها الدائم، فإن فيها من الخيرات والطيبات ومحاسن العيش الراغد ما تعجز عن تصوره أذهان البشر ويعز على القلم أن يصفها - وفي مقابلة ذلك عذاب جهنم وما فيها من شديد الويلات وعظائم الأمور - وتتضمن السورة كذلك كشفا لحقيقة المنافقين الذين فسدت فيهم الأرواح والطبائع وتبلدت فيهم الضمائر والقلوب فما يستمرئون بعد ذلك الخداع والغش والتحيّل - إلى غير ذلك من الحقائق والأفكار والأخبار والمواعظ والتحذير.

١ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ١ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ٢ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم}.

يبين الله في ذلك أن الكافرين لا قيمة ولا وزن لأعمالهم وإن كانت في الخير، فإنهم مع كفرهم وتكذيبهم بدين الله وبعقيدة التوحيد، وإنكارهم لليوم الآخر لن يتقبل الله منهم عملا فما جزاؤهم عقب ذلك كله إلا النار - وهو قوله: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم} والمراد بذلك عموم الكافرين الذين يصدون الناس عن دين الله وهو الإسلام، ويكرّهون إلى البشرية عقيدة التوحيد، ومنهج الحق ليجتنبوه اجتنابا، ولينحرفوا عنه أيما انحراف - أولئك الأشقياء المضلون عن سبيل الله وهو الإسلام {أضل أعمالهم} أي جعل الله أعمالهم ضلالا وضياعا فلا وزن لها ولا اعتبار - وهي بذلك هباء منثورا ليس لها في ميزان الله أيما قيمة ولو بمثقال قطمير، لأن شرط القبول معدوم من أعمالهم وهو الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق الكامل بمنهج الله وهو الإسلام - فما يعلمه المرء في كفره أو نفاقه من وجوه الأعمال النافعة كصلة الأرحام وإطعام الجياع والأضياف والمحاويج وبناء الدور لأهل الحاجة وغير ذلك من وجوه الخير والمعروف، كل ذلك ليس له عند الله أيما وزن أو اعتبار.

وقيل: أبطل الله كيد الكافرين الذين يمكرون بالإسلام والمسلمين، وجعل الدائرة عليهم.

٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيآتهم} وذلك في مقابلة الكافرين الذين أضل الله أعمالهم وجعلها هباء منثورا - فههنا المؤمنون الذين يعملون الصالحات من الأعمال على اختلافها وكثرتها، وهم مصدقون موقنون بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن - وقد خص هذا بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور تنبيها على شرفه وعظيم منزلته وفضله {وهو الحق من ربهم} أي القرآن، فإنه حق منزل من عند الله هداية للناس، ودليلا يستضيئون به في حياتهم.

قوله: {كفر عنهم سيئاتهم} أي محا الله عنهم ما كانوا يفعلونه من السيئات {وأصلح بالهم} أي أصلح الله شأنهم وحالهم في الدنيا والآخرة - والبال، معناه القلب - يقال: ما يخطر فلان ببالي - والبال، رخاء النفس - يقال: فلان رخي البال - والبال، الحال - يقال: ما بالك؟ ١.

٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)

قوله: {ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل} اسم الإشارة {ذلك} عائد إلى ما فعله الله بالكافرين من إضلال أعمالهم، وما فعله بالمؤمنين

من تكفير سيئاتهم - وسبب ذلك أن الكافرين اتبعوا الشرك والضلال والباطل، وأن المؤمنين اتبعوا عقيدة التوحيد ومنهج الله وهو الإسلام.

قوله: {كذلك يضرب الله للناس أمثالهم} الكاف، في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي مثل ذلك الضرب أو التبيين يبين الله للناس أمثالهم - أي أمثال الكافرين وما فعلوه من الشرك والسيئات، وأمثال المؤمنين وما فعلوه من الصالحات والحسنات، وما فعله الله بكل من الفريقين ٢.

٤ - (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)

قوله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ٤ سيهديهم ويصلح بالهم ٥ ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ٦ ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ٧ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ٨ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم}.

ذلك تحريض من الله للمؤمنين على قتال الكافرين الذين يحادون الله ورسوله ويستنكفون عن طاعة ربهم واتباع منهجه القويم - أولئك الذين يصدون عن دين الله ويريدون للبشرية أن تضل السبيل وتزيغ عن منهج الله الحق فتمضي في طريق الشر والباطل، طريق الشيطان - على أن قتال الكافرين يكون عقب دعوتهم إلى دين الله بالتي هي أحسن وعقب الكشف لهم عن جمال الإسلام وما بني عليه من قواعد الحق والعدل والرحمة، ترغيبا لهم فيه - وإنما يكون ذلك بالحكمة واللين والبرهان، فإن آمنوا واهتدوا فهم إخوة في العقيدة والملة، وإن أبوا واستكبروا وجنحوا للشر والعدوان والتخريب والإفساد في الأرض فلا مناص حينئذ من دفع شرورهم ومكائدهم ومفاسدهم عن البشرية ولا يتحقق ذلك بغير العنف والشدة - وهو قوله: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} (ضرب) منصوب على أنه مصدر - وتقديره فاضربوا ضرب الرقاب ٣ - واختلفوا في المراد بالذين كفروا الذين أمر بضرب رقابهم، فقيل: المراد بهم المشركون عبدة الأوثان، أولئك التائهون، الموغلون في العماية والحماقة وتبلد الأذهان - وقيل: المراد بهم كل من خالف دين الله وهو الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد أو ذمة، فهو كل مشرك غير معاهد ولا ذمي - والمعنى: إذا لقيتم المشركين من غير أولي العهد أو الذمة فاضربوا رقابهم - وخص الرقاب بالذكر على سبيل الغلظة والشدة - قوله: {حتى إذا أثخنتموهم} من الإثخان وهو المبالغة في الجراحة - وأثخنتموهم أي غلبتموهم وأكثرتم فيهم الجراح ٤ والمعنى المقصود: إذ أكثرتم في المشركين القتل {فشدوا الوثاق} {الوثاق} بالفتح والكسر: ما يشد به، أوثقه ووثقه توثيقا، يعني أحكمه بما يوثق به كالرباط ٥ أي إذا أسرتم من لم يقتل منهم فأحكموا رباطه كيلا يهرب.

قوله: {فإما منا بعد وإما فداء} {منا} و {فداء} منصوبان على المصدر - يعني: إما أن تمنوا على هؤلاء الأسارى بإطلاقهم من غير فدية، وإما أن تفادوهم فداء، أي إطلاقهم في مقابل مال يؤدونه إلى دولة الإسلام - على أن الآية محكمة - وهو قول أكثر المفسرين والعلماء - وهو مروي عن ابن عباس - وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وغيرهم - وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الإمام مخير بين المن على الأسارى، ومفاداتهم فقط - وليس له أن يقتلهم استنادا إلى ظاهر الآية - وقال آخرون: بل له أن يقتل الأسير إن وجد في ذلك مصلحة للمسلمين، بإضعاف المشركين وتبديد شوكتهم، أو كان الأسير واحدا من الأشقياء الموغلين في الإجرام والإفساد وإيذاء المسلمين، فقد قتل النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر.

وذهب الإمام الشافعي إلى أن الإمام مخير بين قتل الأسير أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه.

قوله: {حتى تضع الحرب أوزارها} اختلفوا في تأويل ذلك - فقد قيل: حتى يظهر الإسلام على الدين كله - وقيل: حتى يضع المشركون المحاربون أوزارهم - والمراد بالأوزار ههنا السلاح والكراع وأسباب القتال، أي يضعوا سلاحهم على سبيل الهزيمة أو الموادعة.

قوله: {ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم} {ذلك} في موضع رفع، لأنه خبر لمبتدأ محذوف - وتقديره: الأمر كذلك ٦ والمعنى: هذا الذي أمرتكم به هو حكم الله في المشركين من حيث إلزامكم قتالهم وأسرهم أو المن عليهم ومفاداتهم - ولو أراد الله لأهلكهم بغير قتال فكفاكم قتالهم {ولكن ليبلوا بعضكم ببعض} أي أمركم الله بقتال الكافرين وجهادهم ليمتحن بعضكم ببعض فيستبين المجاهدون والصابرون من القاعدين المتخاذلين، وليكون عقاب الكافرين في هذه العاجلة على أيديكم.

قوله: {والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم} أي أن الذين يقتلون في سبيل الله له يضيّع الله أجرهم بل إن جزاءهم يكبر ويضاعف طيلة لبثه في البرزخ.

٥ - (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

قوله: {سيهديهم ويصلح بالهم} أي سيرشدهم الله يوم القيامة إلى طريق الجنة {ويصلح بالهم} يصلح أمرهم وحالهم فيكون ذلك في غاية السعادة والبهجة والرضوان.

٦ - (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

قوله: {ويدخلهم الجنة عرّفها لهم} إذا دخل المؤمنون الجنة يقال لهم: تفرقوا إلى منازلكم فيهتدون إلى بيوتهم ومساكنهم فلا يخطئونها كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون أحدا عليها - وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا ".

٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

قوله: {ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم} يعني إن تنصروا دين الله بجهادكم في سبيله وذبّكم عن شرفه وكرامته، وقتالكم الظالمين والمتربصين من العداء دفعا لأذاهم وكيدهم عن الإسلام والمسلمين، فإن الله ينصركم على أعدائكم بقهرهم وإذلالهم وإظهاركم عليهم {ويثبت أقدامكم} تثبيت الأقدام يحتمل عدة معان، منها: أنه يثبت قلوبكم عند القتال: يثبتكم على الصراط يوم القيامة - وقيل: يثبت قلوبكم بالأمن والسكينة.

٨ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

قوله: {والذين كفروا فتعسا لهم} (تعسا) منصوب على المصدر - وتقديره: تعسهم تعسا - ويقال: أتعسهم إتعاسا، والأظهر النصب ٧ والتعس معناه الهلاك - يقال: أتعسه الله - وتعسا لفلان، أي ألزمه الله هلاكا ٨ وهو في معنى الدعاء، أي أتعسهم الله، أو خزيا لهم وشقاء {وأضل أعمالهم} أي أحبطها وأبطلها.

٩ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

قوله: {ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله} يعني هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاس، وإضلال الأعمال (إبطالها) إنما سببه أنهم كرهوا كلام الله وهو القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فجحدوه وتمالأوا على تكذيبه وإشاعة الشكوك من حوله {فأحبط أعمالهم} أي أبطلها، فإن سائر أعمال الكافرين لا وزن لها عند الله فهي صائرة إلى الحبوط والبطلان - ٩.

١٠ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)

قوله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ١٠ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ١١ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ١٢ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم}.

يحذر الله الكافرين شديد بطشه وانتقامه وأن يحل بهم من العذاب ما حل بالظالمين من قبلهم - والمعنى: ألم يسر هؤلاء المشركون

المكذبون في أرض الكافرين الغابرين الذين سبقوهم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم لكي يتعظوا ويعتبروا }فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم{ أي فينظروا ما حل بالذين كفروا من قبلهم من العقاب، فإن آثار العقاب والتدمير في ديارهم باقية ومنظورة - ثم بين الله ما حل بأولئك فقال: }دمر الله عليهم{ أي أهلكهم الله ودمر عليهم منازلهم تدميرا واستأصلهم بقطع دابرهم }وللكافرين أمثالها{ ذلك وعيد من الله لهؤلاء المشركين وهم كفار مكة - فقد توعدهم الله بمثل ما حل بالكافرين السابقين من البلاء إن لم يؤمنوا.

١١ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ)

قوله: }ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم{ أي فعلنا بالمؤمنين ذلك النصر والتثبيت، لأن الله ناصرهم ومؤيدهم وكذلك فعلنا بأولئك الكافرين من الاستئصال والتدمير، لأن الله خاذلهم، ولأنهم لا ينصرهم من الله أحد - وقيل: نزلت يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب إذ صاح المشركون: يوم بيوم بدر، لنا العزى ولا عزى لكم - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ".

١٢ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

قوله: }إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار{ ذلك وعد من الله لعباده المؤمنين الذين يطيعون ربهم فيأتمرون بأوامره ويلتزمون شرعه وأحكام دينه، أن يجزيهم خير الجزاء وهي الجنة بخيراتها وبركاتها وأنهارها السائحة المناسبة تحت قصورها ومن بين أشجارها.

قوله: }والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام{ الكافرون لا همة لهم ولا بغية إلا اللذات والشهوات والاستمتاع بالطيبات وجمع الأموال والثروات بعضها فوق بعض، فهم لا يعبأون بغير الحياة الدنيا وزينتها وأثاثها ورياشها وإطالة المقام فيها، فهم بذلك لاهون تمام اللهو عما وراء ذلك من حساب يوم القيامة حيث الأهوال والأفزاع وعظائم الأمور - وشأن الكافرين في ذلك كله شأن الأنعام التي لا تعي ولا تعقل، فهي إنما يهمها الأكل والشرب والاعتلاف والنزو - وبقدر ما يتزود المؤمنون من زاد العقيدة والتقوى والإعداد ليوم الحساب، فإن الكافرين لا تنشغل قلوبهم وعقولهم إلا في لذة البطون والفروج والاستمتاع بكثرة الأموال المركومة، والمباني المنيفة، والمراكب الفارهة الفاخرة - فمثلهم في ذلك مثل الأنعام التي تأكل وتشرب وترتع حتى تساق إلى الذبح أو الهلاك - وكذا الكافرون يأكلون ويتمتعون حتى يصيرون إلى حطام القبور.

١٣ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ)

قوله: }وكأين من قرية هي أشد من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم{ يعني، وكم من أهل قرية يا محمد }أشد قوة من قريتك التي أخرجتك{ أي أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا وعددا من أهل قريتك وهي مكة التي أخرجك أهلها، وقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما- أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه، فالتفت إلى مكة وقال: " أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلي، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك " فأنزل الله الآية.

قوله: }أهلكناهم فلا ناصر لهم{ وذلك تهديد من الله يتوعد به المشركين الذين أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بلده مكة، فلئن أهلك الله الأمم الظالمة السابقة بكفرهم وتكذيبهم رسلهم وقد كانوا أشد قوة من مشركي مكة هؤلاء، فما ظن المشركين من أهل مكة أن يفعل الله بهم في الدنيا من العذاب؟ وإذا أتاهم بأس الله وانتقامه فليس لهم من دون الله حينئذ أيما نصير أو مجير ١٠.

١٤ - (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

قوله تعالى: }أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهوآءهم ١٤ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم

كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم}.

يميز الله في هذه الآيات بين أهل الحق وأهل الباطل، فالأولون ضالون، تائهون موغلون في الفسق والعصيان، والآخرون مهتدون ساربون على صراط الله المستقيم - فقال سبحانه {أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهوآءهم} الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر - والبينة بمعنى البرهان والحجة - والمعنى: لايستوي من كان على بصيرة ويقين من أمر الله وأمر دينه القويم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن زين له سوء عمله وهي عبادة الأصنام وفعل المنكرات والمعاصي وهو أبو جهل، والذين هم على شاكلته من المشركين المكذبين، فإن الفريقين لا يستويان - لا يستوي أهل الحق والهدى، وأهل الباطل والضلال الذين لا يتبعون غير أهوائهم وضلالاتهم وشهواتهم.

١٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

قوله: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن} {مثل الجنة} مبتدأ و خبره محذوف - و {مثل الجنة} يعني وصفها، وهي التي وعدها الله المتقين، وهم المؤمنون الذين يجتنبون المعاصي والآثام وما يسخط الله، ويفعلون الطاعات والصالحات وما أمرهم به ربهم - لقد أنعم الله على هؤلاء المؤمنين المتقين بالجنة بوصفها العظيم، فهي {فيها أنهر من ماء غير آسن} والآسن، المتغير الرائحة ١١ والأنهار من الماء النقي العذب عظيمة المنافع، عظيمة البهاء والجمال بمنظرها الساحر المثير، وصورتها المشرقة الخلابة.

قوله: {وأنهار من لبن لم يتغير طعمه} لأنه من لبن الجنة بمذاقه الممتع وطعمه اللذيذ الذي لا يتغير ولا يأتي عليه فساد أو نتن، كلبن الدنيا - فما في الجنة من خيرات وثمرات وطعوم لهو أكمل وأطيب وأنفع.

قوله: {وأنهار من خمر لذة للشاربين} {لذة} ولذيذه بمعنى ١٢، فقد وصف خمر الجنة بأنها لذيذة الطعم، طيبة الشرب، يلتذ بها الشاربون المنعمون في الجنة - وهي ليست كخمر الدنيا التي تستر العقول وتفسد الأعصاب، وتفضي إلى الأمراض والأسقام البدنية والنفسية الكثيرة.

قوله: {وأنهار من عسل مصفى} العسل، هو لعاب النحل - وهو شراب نافع وشهي وعظيم الفوائد، وفيه شفاء للناس - وهو في الجنة مصفى، أي نقي مما يخالطه من الشمع والقذى والكدر.

قوله تعالى: {ولهم فيها من كل الثمرات} أي خولهم الله في الجنة كل ما يشتهون من الثمرات على اختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها وطعومها {ومغفرة من ربهم} فوق ما أنعم الله به على عباده المتقين من عظيم الخيرات وألوان النعيم في الجنة، قد غفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم، إذ عفا عنهم وتجاوز لهم عن خطاياهم عقب توبتهم وإنابتهم إلى ربهم.

قوله: {كمن هو خالد في النار} يعني، أفمن هو في الجنة يتنعم في طيباتها وخيراتها ومباهجها، كمن هو صال النار خالدا في جحيمها ولظاها {وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم} أي سقي هؤلاء المعذبون المخلدون في النار ماء حارا شديد الغليان فقطع أمعاءهم إذا شربوه من شدة حرارته ١٣.

١٦ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

قوله تعالى: {ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ١٦ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ١٧ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ١٨ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم}.

ذلك إخبار من الله، يبين فيه حقيقة المنافقين وما هم عليه من بلادة الضمير، وصفاقة الحس، وكزازة الطبع - أولئك صنف من البشر ماكر ومراوغ وبور، لا خير فيه، فلا يعطف قلبه وعظ أو تذكير ولا يثني سماعه للقرآن عن لجوجه في الجحود والتكذيب والخداع.

فقال سبحانه: {ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا} والمراد بهم المنافقون كعبد الله بن أبي ابن سلول وأمثاله، فقد ذكر أنهم كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه - وقيل: كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فيستمعون منه ما يقول فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر.

قوله: {ماذا قال آنفا} الآنف معناه، الماضي القريب - يقال: فعله آنفا أي قريبا - أو أول هذه الساعة - أو أول وقت كنا فيه ١٤ يعني، قال المنافقون لأهل العلم من الصحابة كابن عباس وابن مسعود، لدى خروجهم من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا قال الآن؟ وذلك على سبيل التهكم والاستهزاء.

قوله: {أولئك الذين طبع الله على قلوبهم} أي هؤلاء المنافقون بصفاتهم الخبيثة من فساد الطبائع وسوء الفطر، قد ختم الله على قلوبهم فلا يهتدون إلى الحق وإنما يتبعون ما تسوّله لهم أهواؤهم من الجحود والتكذيب.

١٧ - (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

قوله: {والذين اهتدوا زادهم هدى} يعني والذين شرح الله صدورهم للإيمان وكتب لهم التوفيق والهداية وحب الحق، زادهم سماع القرآن إيمانا إلى إيمانهم أو يقينا إلى يقينهم {وآتاهم تقواهم} أي ألهمهم خشيته ليجتنبوا نواهيه ويأتمروا بأوامره وأحكام دينه.

١٨ - (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ)

قوله: {فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة} هل ينظر هؤلاء الجاحدون المكذبون بآيات الله من الكافرين والمنافقين إلا أن يأتيهم وعد الله بقيام الساعة فجأة لا يشعرون بمقدمها - وذلك وعيد شديد من الله للكافرين المكذبين بيوم القيامة.

قوله: {فقد جاء أشراطها} أي أماراتها وعلاماتها، أو أدلتها ومقدماتها - وقد ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة، لأنه خاتم النبيين والمرسلين، أكمل الله به الملة وأقام به الحجة على العباد أجمعين، فقد روى البخاري عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها " بعثت أنا والساعة كهاتين ".

قوله: {فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم} {فأنى لهم} خبر مقدم - و {ذكراهم} مبتدأ مؤخر - يعني أنى لهؤلاء الجاحدين المكذبين أن يتذكروا ما فرطوا فيه من طاعة الله إذا دهمتهم الساعة فجأة وحينئذ لا تجديهم ذكرى ولا تنفعهم توبة أو ندامة.

١٩ - (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

قوله: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} يبين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم على سبيل التأكيد والتعظيم لجلاله وكماله أنه لا تصلح الإلهية إلا له وحده، وما ينبغي لأحد أن يكون معبودا سواه - وقيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته.

قوله: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} والذنب بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يراد به ترك الأفضل - على أن الاستغفار في ذاته عبادة عظمى يتقرب بها المؤمن من ربه - لا جرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب المقربين إلى الله بعظيم تقواه و بالغ طاعته و استغفاره - وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: " اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي " - وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت " وفي الصحيح أنه قال: " يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ".

وروى أبو يعلى بإسناده عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالإغواء فهم يحسبون أنهم مهتدون ".

قوله: {والله يعلم متقلبكم ومثواكم} أي يعلم تصرفكم في النهار ومستقركم في الليل - وقيل: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة ١٥.

٢٠ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ)

قوله تعالى: {ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم ٢٠ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ٢١ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ٢٢ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم}.

يبين الله جل جلاله ههنا حال المؤمنين الصادقين الذين يتمنون نزول آية من عند الله تأمرهم بالجهاد طلبا لرضى الله وثوابه ورغبة في دفع الظلم والظالمين - وذلك بخلاف المرتابين والخائرين المنافقين فإنهم إذا أنزلت آية في القتال غشيهم من الرعب والجزع ما غشيهم - وذلك لفرط جبنهم وخورهم وفساد قلوبهم - وهو قوله سبحانه {ويقول الذين آمنوا نزلت سورة} أي يقول المؤمنون المخلصون: هلا نزّلت من عند الله سورة تأمر بقتال الكافرين، وذلك بسبب عشقهم نزول القرآن ولعظيم حبهم للجهاد في سبيل الله - وذلك كله يكشف عن حقيقة الإخلاص في نفوس هؤلاء المؤمنين الصادقين المخبتين إلى ربهم.

قوله: {فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال} إذا أنزل الله سورة محكمة لا نسخ فيها، أو مبيّنة غير متشابهة وقد فرض فيها الجهاد وقتال المشركين {رأيت الذين في قلوبهم مرض} أي رأيت المرتابين من الناس الذين ران على قلوبهم الشك والنفاق {ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت} يعني تشخص أبصارهم من فرط الهلع والجزع، فهم ينظرون إليك نظر من يشخص بصره عند الموت {فأولى لهم} وذلك تهديد لهؤلاء الجبناء الخائرين الذين في قلوبهم مرض، أو الذين يعبدون الله على حرف - و المعنى: فويل لهم.

٢١ - (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)

قوله: {طاعة وقول معروف} وهذا كلام مستأنف، أي طاعة وقول معروف خير لهم {فإذا عزم الأمر} أي إذا جد الأمر، أو وجب القتال {فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم} أي لو صدقوا في إيمانهم وعزمهم على الجهاد لكان ذلك خيرا لهم في الدنيا والآخرة.

٢٢ - (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)

قوله: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم} اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية - فقد قيل: المعنى: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم؟ أو فهل عسيتم إن توليتم الحكم فكنتم حكاما أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا؟ وقيل: فهل عسيتم إن توليتم عن الجهاد وأعرضتم عن طاعة ربكم أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في جاهليتكم من الإفساد في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام وقتل بعضكم بعضا؟

٢٣ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)

قوله: {أولئك الذين لعنهم الله} الإشارة عائدة إلى الذين تقدمت صفتهم من التولي – على الخلاف في تأويله - وعن الإفساد في الأرض وقطع الأرحام - وهؤلاء جميعا قد لعنهم الله بطردهم وإبعادهم من رحمته {فأصمهم} عن سماع الحق والموعظة والذكرى {وأعمى أبصارهم} أي سلبهم عقولهم فلا يتدبرون آيات الله ولا يعتبرون مما يرونه من الأدلة والعبر.

وقد وردت نصوص من السنة كثيرة توجب صلة الأرحام ورعاية أولى القربى، وتحذر من قطع الرحم أشد تحذير، فقد روى الإمام أحمد عن أبي بكرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى اله عليه وسلم: " ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم " وروى أحمد أيضا عن ثوبان (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من سرّه النسأ ١٦ في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه " ١٧.

٢٤ - (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

قوله تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ٢٤ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم

وأملى لهم ٢٥ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ٢٦ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ٢٧ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم}.

يأمر الله عباده أن يتدبروا القرآن فيفهموا ما فيه من الآيات والأحكام والدلائل، محذرا عاقبة الإعراض عن هذا الكتاب الحكيم، فإنه لا يعرض عن تدبر آيات الله إلا من ران على قلبه الضلال والغشاوة والعمى، وسول له الشيطان الجحود والعصيان - فقال سبحانه: {أفلا يتدبرون القرآن} الاستفهام للإنكار - والمعنى: أفلا يتفهمون القرآن فيعلموا ما فيه من المواعظ والأدلة والبراهين، فيستيقنوا أنه الحق من ربهم - {أم على قلوب أقفالها} الأقفال، جمع قفل، بالضم ثم السكون - أقفل الباب وقفّل الأبواب تقفيلا - مثل أغلق وغلّق ١٨ - والمعنى: بل على قلوبهم أقفالها فهم لا يفهمون ولا يتدبرون ما أنزل الله في كتابه من الآيات والعبر، فهم بذلك لا يفضي الإيمان إلى قلوبهم بما عليها من الختم والإقفال.

٢٥ - (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ)

قوله: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى} قيل: المراد بهم أهل الكتاب، فقد وجدوا اسم الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم وأيقنوا في أنفسهم أنه نبي صادق مبعوث من ربه، ثم كذبوه وجحدوا نبوته - وقيل: المراد بهم أهل النفاق، فقد سمعوا الآيات تتلى عليهم وأيقنوا حقيقة ما فيها من المواعظ والعبر والآيات، لكن طبائعهم الكزّة الغلف لم تستمرئ ذلك فلم يغض الإيمان إلى قلوبهم فهم بذلك قد {ارتدوا على أدبارهم} أي رجعوا القهقرى مرتكسين إلى الكفر بعد ما استبان لهم الحق مما سمعوه من الكتاب الحكيم - الكتاب الرباني الفذ الذي تضمن من الآيات والدلالات والمعجزات ما يحمل الأذهان والقلوب على الدهش والبهر والاستيقان.

وذلكم هو حكم الله في كثير من الناس المرتكسين المرتدين على أدبارهم - أولئك الذين سمعوا آيات الكتاب الحكيم وما تضمنته من عجائب الإعجاز المميز وكمال المعاني والأخبار والأحكام والأفكار مما ليس له في الكتب والديانات والمذاهب نظير - إن ذلكم هو القرآن بجماله الباهر وكماله المذهل وعجائبه المثيرة، لا يستنكف عن تدبره والانتفاع به والاتعاظ بروائعه إلا كل جحود منغلق القلب.

قوله: {الشيطان سول لهم وأملى لهم} {سول} أي زين ١٩ - و {أملى لهم}، أي أمهلهم وطول لهم - أملى له في غيه، أي أطال له فيه ٢٠ - والمعنى: أن الشيطان بكيده وخداعه سهل لهؤلاء المرتكسين المرتدين على أدبارهم ركوب المعاصي، وزين لهم الفسق عن أمر الله، واتخاذ الأولياء والأنداد من دونه {وأملى لهم} أي مد لهم في الآمال والأماني مدا.

٢٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

قوله: {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} الإشارة {ذلك} عائدة إلى ما تقدم ذكره من ارتداد المنافقين على أدبارهم خاسرين مرتكسين، وتركهم للشيطان ليسول لهم ويملي لهم - وسبب ذلك كله أنهم قالوا لمن كره دين الله وكتابه ورسوله وهم المشركون {سنطيعكم في بعض الأمر} أي في الصد عن دين الإسلام وفي مخالفة محمد والتظاهر على عداوته والقعود عن الجهاد معه والتمالؤ عليه في السر لإضعافه وخذلانه - قوله: {والله يعلم إسرارهم} الله يعلم ما يستسرون من سوء النوايا وخبيث المقاصد، فإنه لا يخفى على الله أمر هؤلاء المنافقين المخادعين وما يتمالأون عليه من كيد للإسلام ورسوله والمسلمين.

٢٧ - (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

قوله: {فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} كيف، في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف - وتقديره فكيف حالهم - و {يضربون}، جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الملائكة ٢١ يعني: فكيف تكون حال هؤلاء المنافقين الماكرين الذين يكيدون للإسلام ورسوله، إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون بالسياط وجوههم وأدبارهم، وهي أعجازهم - وفي ذلك من التخويف والتهديد ما فيه - قال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه.

٢٨ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

قوله: {ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله} الإشارة عائدة إلى ضرب الملائكة وجوه المنافقين وأدبارهم عندما تتوفاهم - وسبب ذلك هو

اتباع هؤلاء المنافقين ما يسخط الله من إضمارهم الكفر وإسرارهم الكيد والكراهية للإسلام والمسلمين {وكرهوا رضوانه} أي كرهوا ما يرضى الله من طاعته والتزام شرعه وأحكام دينه.

قوله: {فأحبط أعمالهم} يعني أبطلها فلم تنفعهم ولم تغنهم من سوء مصيرهم، شيئا لأنهم لم يبتغوا بها رضوان الله بل كانوا يبتغون بها الرياء والشهرة والمفاخرة ٢٢.

٢٩ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

قوله تعالى: {أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ٢٩ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ٣٠ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم}.

يبين الله للناس أن المنافقين لا يخفون على ربهم، فهو سبحانه مطلع على أسرارهم وخفاياهم، عالم بأستارهم وما تكنه صدورهم من الغل والضغينة للإسلام ولرسوله وللمسلمين - فقال سبحانه {أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم} يعني أحسب هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك فيكيدون للإسلام ولرسوله وللمسلمين كيدا ويسرون في قلوبهم الكراهية والحسد والغل والباطل {أن لن يخرج الله أضغانهم} أضغان جمع ضغن، وهو الحقد، أي أحسبوا أننا لن نكشف ما تنطوي عليه قلوبهم من الكراهية والحقد والحسد للإسلام والمسلمين.

٣٠ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

قوله: {ولو نشاء لأريناكهم} لو نشاء لعرفناك أشخاص هؤلاء المنافقين فعرفتهم عيانا {فلعرفتهم بسيماهم} أي فلتعرفنهم بعلامات النفاق التي تبدوا من سلوكهم وتصرفهم، في نظراتهم وخطابهم وقسمات وجوههم {ولتعرفنهم في لحن القول} و {لحن القول} فحواه ومعناه ٢٣ أي فلتعرفنهم مما يبدو من كلامهم الذي يكشف عن مقاصدهم وأسرارهم - قال عثمان بن عفان (رضي الله عنه): ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

قوله: {والله يعلم أعمالكم} الله خبير بما يعلمه الناس من خير أو شر فلا يخفى عليه من ذلك شيء.

٣١ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)

قوله: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين} يخاطب الله المؤمنين بقوله: ولنمتحننكم بألوان البلاء من القتل ومجاهدة الأعداء حتى يتميز الصابرون الصادقون من الخائرين الكاذبين، أو يتبين المخلصون من الكاذبين {ونبلوا أخباركم} أي نكشفها بالابتلاء فيتبين المطيع من العاصي ٢٤.

٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ)

قوله تعالى: {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ٣٢ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ٣٣ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ٣٤ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم}.

ذلك تنديد من الله بأعداء الإسلام والمسلمين من المنافقين والمشركين وأهل الكتاب الذين يحادون الله ورسوله ويكيدون للإسلام والمسلمين كيدا - وهو قوله: {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى} المراد بذلك الظالمون الخاسرون على اختلاف مللهم ومذاهبهم وأهوائهم، وأساليبهم في الكيد والكفر، فإنهم جميعا يصدون الناس عن دين الله، إذ يمنعونهم من الإقبال على الإسلام أو فهمه وإدراكه والتعرف عليه كيلا يدخلوا فيه، وكذلك فإنهم يشاقون الرسول بمعاداته ومخالفته والتصدي له بالكيد والمكر والعدوان {من بعد ما تبين لهم الهدى} لقد تبين لهؤلاء أن رسول الله صادق أمين وأنه لا يقول على الله إلا الحق، ويعلمون كذلك أن الإسلام حق وأنه يتضمن كل معاني الخير والعدل والمساواة والرحمة، فهم لا يصدهم عن قبول الإسلام والدخول فيه إلا حقدهم واضطغانهم على الإسلام والمسلمين وفرط كراهيتهم لهذا الدين المبارك الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولأن

طبائعهم كزة وبور قد ران عليها التبلد والكفر والجحود.

قوله: {لن يضروا الله شيئا} لا يعبأ الله بكفر من كفر ولا بجحد من جحد - وإنما ضرر الكفر والجحود والصد عن دين الله عائد على الكافرين أنفسهم، فهم قد خسروا أنفسهم لما حجبوا عنه شمس الإسلام الساطع المنير فباءوا بالخسران في هذه الدنيا حيث الظلم والفساد والحيرة والفوضى - وفي الآخرة حيث النار.

قوله: {وسيحبط أعمالهم} لا قيمة لأعمال الكافرين والمنافقين الذين يصدون عن دين الله ويكرهون البشرية في الإسلام - إنه لا وزن ولا قيمة لأعمالهم وإن كانت في صورتها خيّرة نافعة، فهي جميعها صائرة إلى البطلان، كالهباء المتناثر ذارت في الفضاء.

٣٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)

قوله: {ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} يأمر الله عباده بطاعته فيما أمرهم به من الأحكام في قرآنه الكريم، وأن يطيعوا رسوله الأمين بالتزام ما جاءت به السنة العظيمة - وهي فيها من غزارة الأحكام والآداب والمواعظ والعبر ما يفيض على الدنيا بخير ملة وأعظم نظام تستظل به البشرية فتحظى بالسعادة والنجاة في الدارين.

قوله: {ولا تبطلوا أعمالكم} أي لا تجعلوا أعمالكم باطلة بما يبطلها من الردة أو الرياء أو المن أو الصد عن دين الله.

٣٤ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

قوله: {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم}

٣٥ - (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

قوله: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم} {تهنوا} من الوهن، ومعناه الضعف ٢٥ أي لا تضعفوا وتلينوا وتدعوا أعداءكم إلى الصلح والموادعة {وأنتم الأعلون} أي العالون عليهم، الغالبون بالكثرة والحجة واليقين - فما بال المسلمين، وهم الأكثرون والأعلون بقوة عقيدتهم وكمال دينهم، الإسلام، وعظيم كتابهم، القرآن، يضعفون ويلينون ويسالمون الأعداء الكافرين على اختلاف مذاهبهم ومللهم - وما ينبغي للمسلمين البتة- وهم الأكثرون والأصدقون والأعظمون خيرا ونفعا للبشرية ورحمة بها أن يواعدوا الأعداء المجرمين ويسالموهم - بل عليهم أن يستعدوا للقائهم من أجل قهرهم وإضعاف شوكتهم وإذهاب شرهم وفسادهم، ما داموا لا ينثنون ولا يرتدعون عن عدوانهم وباطلهم وتخريبهم وعبثهم إلا بالحزم والقوة.

قوله: {والله معكم} الله مع عباده المؤمنين المجاهدين الصابرين، فهو ناصرهم مؤيدهم وخاذل أعدائهم.

قوله: {ولن يتركم أعمالكم} {يتركم} ينقصكم - يقال: وتره حقه يتره وترا بكسر التاء، أي نقصه ٢٦ والمعنى: لن ينقصكم الله أجور أعمالكم ٢٧.

٣٦ - (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ)

قوله تعالى: {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسئلكم أموالكم ٣٦ إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ٣٧ هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم مّن يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم}.

يبين الله لعباده هوان الدنيا ليحذرهم الاغترار بها أو التلهي بمتاعها الفاني، فإن الدنيا بما فيها من زينة وأموال ومباهج، كل ذلك صائر إلى زوال وحطام - وهو قوله: {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو} ليست الدنيا بزينتها وزخرفها وخيراتها غير لهو يتلهى به الناس وهم ساهون تائهون، وغير لعب يتفنن في التلبس به الغافلون السادرون في الضلالة والعماية والهوى.

قوله: {وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتيكم أجوركم} يعني إن تؤمنوا بالله ورسله واليوم الآخر وتجتنبوا الكفر والمعاصي يؤتكم جزاء ذلك خيرا وثوابا.

قوله: {ولا يسألكم أموالكم} الله غني عن أموالكم فلا يطلبها منكم أجرا على تبليغ الرسالة - وقيل: لا يأمركم بإخراج أموالكم كلها - بل يأمركم بإخراج القليل منها وهي الزكاة - والمعنى الأول أظهر.

٣٧ - (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ)

قوله: {إن يسألكموها فيحفكم} يعني إن يسألكم ربكم أموالكم {فيحفكم} أي يجهدكم في الطلب - من الإحفاء وهو المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء أحفاه في المسألة، إذا بالغ في الإلحاح وألح عليه في السؤوال وجهده ٢٨ والحفي المستقصي في السؤال.

قوله: {تبخلوا ويخرج أضغانكم} أي لو سألكم أن تخرجوا أموالكم كلها تبخلوا ويخرج البخل أضغانكم - أو يخرج بمسألته أضغانكم، أي تظهر بذلك أحقادكم.

٣٨ - (هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

قوله: {هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله} يعني ها أنتم هؤلاء أيها الناس يدعوكم ربكم لتنفقوا في مجاهدة أعداء الله ونصرة دينه، وفي غير ذلك من وجوه الخير {فمنكم من يبخل} أي يبخل عن النفقة فيضن بالبذل في سبيل الله {من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه} من يبخل دون بذلك المال في سبيل الله أو في وجوه الخير فإنه لا يبخل إلا عن نفسه، بحرمانها الثواب وحسن الجزاء.

قوله: {والله الغني وأنتم الفقراء} لا حاجة لله في أموالكم، فهو سبحانه مالك الملك وهو الغني عن العالمين - وهو الذي يمن عليكم أن رزقكم الخير من فضله وملكه، فأنتم المحتاجون لعطاء الله، الفقراء إليه.

قوله: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم} يعني: وإن تعرضوا عن دين الإسلام، وهو دين الحق والعدل والرحمة والتوحيد فتنقلبوا مرتكسين خاسرين فإن الله يذهب بكم ويأت بآخرين بدلا منكم وهم خير منكم - وهو قوله: {ثم لا يكونوا أمثالكم} أي لا يشبهونكم في الإعراض عن دين الله - أو في البخل بالنفقة وبذلك المال في سبيل الله.

٤٨ سورة الفتح:

سورة الفتح:

بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وآياتها تسع وعشرون - وقد أنزلت كلها في شأن الحديبية بين مكة والمدينة - وهي تتناول في معظم آياتها قصة الحديبية وما حولها من أحداث وأحكام وملابسات وعبر.

على أن السورة مبدوءة بالامتنان من الله على عباده المؤمنين بالفتح المبين وهو صلح الحديبية {إنا فتحنا لك فتحا مبينا}.

وفي السورة إعلان من الله للبرية أنه أرسل رسوله للعالمين، ليكون شاهدا عليهم يوم القيامة، وليكون مبشرا للمؤمنين بالخير والنجاح والفلاح ونذيرا للعصاة والكافرين، إذ يحذرهم بأس ربهم وشديد عقابه.

وفي السورة إطراء كبير من الله للفئة المؤمنة الثابتة الصابرة مع رسول اللله صلى الله عليه وسلم - أولئك الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على الجهاد في سبيل الله وعلى المضي في الدعوة إلى دين الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى النهاية.

وفي السورة تنديد بالأعراب والمنافقين والخائرين من الناس الذين كانوا يصطنعون المعاذير للتخلف عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم - وليس لهم في ذلك من عذر صحيح إلا الجبن و الخور و هوان العزيمة و الإيمان.

وفي السورة إخبار برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبشرهم بأن المؤمنين سيدخلون المسجد الحرام آمنين فاتحين ظاهرين بمشيئة الله وعونه وتوفيقه.

وفي السورة ذكر كريم للمؤمنين، يبين الله فيه حال رسوله والذين آمنوا معه، من الشدة على الكفار، والتراحم والتعاون فيما بينهم - إلى غير ذلك من الأنباء والأخبار والمواعظ.

١ - (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إنا فتحنا لك فتحا مبينا ١ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ٢ وينصرك الله نصرا عزيزا}.
نزلت هذه السورة العظيمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك ثم جنحوا بعذ ذلك إلى المصالحة والمهانة وأن يرجع عامة هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك على مضض وتثاقل من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) - فلما نحر النبي صلى الله عليه وسلم هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله (عز وجل) هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه - وقد روي في ذلك عن ابن مسعود (رضي الله عنه) وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.
وكذلك ذكر عن جابر (رضي الله عنه) قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.
وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وسلم: " نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها {إن فتحنا لك فتحا مبينا ١ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} " ١.
والمراد بالفتح ههنا -على الأظهر- أنه الحديبية، فقد كانوا يقولون: أنتم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، وكان الصلح من الفتح - ولقد كان فتح الحديبية آية عظيمة، وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: " بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا ".
وقال الزهري: لقد كان الحديبية أعظم الفتوح - وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة - فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف.
٢ - (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)
قوله: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} اختلف العلماء في تأويل ذلك، وهل كان للنبي صلى الله عليه وسلم ذنب فيغفر له؟ فقد قيل: المراد بذنبه، هو تركه للأفضل - وقيل: فعل الصغائر، فإنها جائزة على النبيين بالسهو والعمد - وقيل {ما تقدم من ذنبك} أي قبل الرسالة {وما تأخر} يعني بعدها - وقيل غير ذلك.
قوله: {ويتم نعمته عليك} وذلك برفع ذكرك في الدنيا والآخرة، والظهور على عدوك ظهورا عاليا مؤزرا - وقيل: بالنبوة والحكمة.
قوله: {ويهديك صراطا مستقيما} أي ويرشدك إلى الحق والهدى وهو صراطه الثابت المستقيم الذي لا زيغ فيه ولا عوج.
٣ - (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)
قوله: {وينصرك الله نصرا عزيزا} أي ينصرك نصرا ظاهرا مؤزرا لا يغلبه غالب بما أيدك الله به من البأس والظفر ٢.
٤ - (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)
قوله تعالى: {هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما ٤ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما ٥ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانّين بالله ظن السّوء عليهم دائرة السّوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ٦ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما}.

أنزل الله سكينته على رسوله والمؤمنين يوم الحديبية إذ صدهم المشركون عن بلوغ البيت الحرام فأصابهم من الحزن والكآبة والارتباك ما أصابهم - وراودت بعض نفوس المسلمين الشكوك، ورأى المنافقون في ذلك منفذا للطعن وإشاعة الظنون والأراجيف والفوضى - لكن الله بفضله ورحمته قد سلّم، إذ أفاض على المؤمنين بشؤبوب رخيّ مستعذب من الأمن والطمأنين والراحة - وهو قوله: {هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين} أنزل الله على المؤمنين السكينة وهي الطمأنينة والرحمة تمس قلوبهم فتسكن وترتاح ويتبدد منها الإحساس بالضيق والكرب والحزن والعنت.

قوله: {ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم} لقد أمرهم الله بتكاليف، واحدا بعد آخر، فآمنوا بكل واحد منها - فقد أمروا بالتوحيد فآمنوا واستقاموا، ثم أمروا بالصلاة والصيام والزكاة والحج والقتال فاستجابوا وأطاعوا، وبذلك ازدادوا بما جدد لهم من الفرائض إيمانا مع إيمانهم - وقيل: ازدادوا إيمانا بالاستدلال والبرهان والنظر مع إيمانهم الفطري الذي جبلوا عليه.

قوله: {ولله جنود السماوات والأرض} وذلك تهديد من الله يخوف به المشركين ويحذرهم شديد بأسه وعظيم انتقامه، فهو سبحانه بيده القوة والسلطان والجبروت - وعنده جنود السماوات والأرض من الملائكة العظام - لو أراد الله أن يهلك المشركين لأرسل إليهم واحدا من ملائكته فأهلكهم وقطع دابرهم.

قوله: {وكان الله عليما حكيما} الله عليم بحال عباده ويعلم ما يصلح عليه حالهم - وهو سبحانه حكيم في شرعه وتدبيره وتقديره - فلم يشأ الله أن ينتقم من المشركين بتسخيره الملائكة ليفنوهم ويستأصلوهم استئصالا، ولكن شرع الجهاد ليتميز الصالحون من الخائرين، وليكتب الله الخير وحسن الجزاء للطائعين الصابرين المخلصين، ويبوء الظالمون والمنافقون والعصاة بالخسران المبين وهو

قوله: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}.

٥ - (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)

قوله: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} ذلك هو جزاء المؤمنين المخلصين أهل الطاعة والصبر والإذعان لله، فقد جزاهم الله الجنة ليمكثوا فيها سعداء آمنين منعمين خالدين {ويكفر عنهم سيئاتهم} ويمحو الله عنهم ما قدموا من السيئات والمعاصي.

قوله: {وكان عند الله فوزا عظيما} الإشارة عائدة إلى العدة التي وعد الله المؤمنين بها، من إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار وتكفير السيئات والذنوب عنهم، فإن ذلك هو الفوز العظيم - أي السعادة العظمى والنجاة التي تفوق كل نجاة.

٦ - (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

قوله: {ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات} معطوف على قوله: {ليدخل} يعني وليعذب النافقين والمنافقات الذين يتكلفون المودة ويصطنعونها في الظاهر اصطناعا فيظهرون لرسول الله والمؤمنين الإسلام ويخفون في أنفسهم الضغينة والكفر ويتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر - وكذلك يعذب الله المشركين والمشركات الذين يحادون الله ورسوله ويصدون الناس عن دين الله، أولئك جميعا سيعذبهم الله، بقهرهم وكبتهم وإذلالهم، وبإظهار الحق عليهم وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين في الآفاق ليذوقوا في أنفسهم مرارة الهوان والاغتمام.

قوله: {الظانّين بالله ظن السّوء} وذلك وصف للفريقين من أهل النفاق والشرك الذين كان ظنهم أن النبي والذين آمنوا معه لن يرجعوا إلى المدينة بل يستأصلهم المشريكون فلا تبقى منهم باقية - وذلك هو السوء من ظنهم الخبيث الكاذب {عليهم دائرة السّوء} و {السوء} معناه العذاب والهلاك، أي تحيق بهم دائرة العذاب والهوان والخسران في الدنيا حيث الذل والهزيمة والقهر، وفي الآخرة حيث النار وبئس القرار.

قوله: {وغضب الله عليهم ولعنهم} لقد نالهم الله بمقته الشديد وأبعدهم من رحمته وفضله {وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} أعد الله لهم النار يوم القيامة ليصلوها وساءت لهم منزلا مقاما يصيرون إليه.

٧ - (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

قوله: {ولله جنود السماوات والأرض} وجنود الله من الملائكة وهم كثيرون لا يعلم عدّهم إلا هو سبحانه - وهم يملأون جنبات السموات والأرض، فإن يشأ الله سلطهم على من يشاء من أعدائه المجرمين الأشقياء فأبادوهم وأهلكوهم إهلاكا {وكان الله عزيزا حكيما} الله القوي القاهر المقتدر، لا يمتنع عليه صنع ما أراد وهو لا يغلبه غالب لعظيم قدرته وسلطانه - وهو سبحانه حكيم في أقواله وأحكامه وتدابيره ٣.

٨ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

قوله تعالى: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ٨ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقّروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ٩ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما}.

ذلك إخبار من الله عن رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم إذ أرسله الله للعالمين ليدعوهم إلى عقيدة التوحيد وإفراد الله بالإلهية والربوبية وليرشدهم إلى صراط الله المستقيم - إلى دين الإسلام الكامل العظيم - لا جرم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الأنام وهادي البشرية إلى النجاة والأمان، ومستنقذهم من الباطل والتعثر والتخبط في ديجور الظلام - وكفى به صلى الله عليه وسلم أن يشهد له ربه بمثل هذه الحقيقة، وهو قوله: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} هذه الأسماء الثلاثة، شاهدا ومبشرا ونذيرا، منصوبات على الحال ٤.

يعني: أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم شاهدا على الأمة يوم القيامة بما فعلته في الدنيا - وقيل: يشهد للعالمين أنه لا إله إلا الله {ومبشرا} أي يبشر المؤمنين المطيعين الذين أخلصوا دينهم لله، بالجنة والرضوان {نذيرا} يحذر العصاة والناكبين عن صراط الله، العذاب وسوء المصير.

٩ - (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

قوله: {لتؤمنوا بالله ورسوله} أرسل الله رسوله للناس ليدعوهم إلى الإيمان بالله وحده وليوقنوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه {وتعزّروه} من التعزيز وهو التوقير والتعظيم ٥ أو تنصروه وتمنعوه من الشر والأذى {وتوقّروه} أي تعظموه - وهو من التوقير ويعني التعظيم والترزين، والوقار يعني الحلم والرزانة - ٦

قوله: {وتسبحوه بكرة وأصيلا} أي تنزهوه عن كل عيب أو نقيصة.

وقيل: تصلوا له الصلوات بالغدوات والعشيات في أول النهار وآخرة.

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

قوله: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله} أي الذين يبايعونك بالحديبية يا محمد من المؤمنين {إنما يبايعونك الله} إنما بيعتهم لله - والمراد بها بيعة الرضوان.

قوله: {يد الله فوق أيديهم} أي نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله - وقيل: نصرة الله إياهم أقوى وأعظم من نصرتهم إياه - وقيل غير ذلك - قوله: {فمن نكث فإنما ينكث على نفسه} أي فمن نقض العهد بعد البيعة فإنما ينقض على نفسه - يعني ضرر ذلك النكث يرجع على نفسه بحرمانه حسن الجزاء وإلزامه العقاب.

قوله: {ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما} يعني ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الطاعة لله ورسوله والصبر على مجاهدة العدو لنصرة دين الله فسوف يؤتيه الله عظيم الثواب والجزاء.

على أن هذه البيعة، وهي بيعة الرضوان كانت تحت شجرة بالحديبية وكان الصحابة (رضوان الله عليهم) الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألفا وأربعمائة على الراجح - وفي ذلك روى البخاري عن جابر (رضي الله عنه) قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ٧.

١١ - (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

قوله تعالى: {سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعلمون خبيرا ١١ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ١٢ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا ١٣ ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما}.

يبين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يبديه له المنافقون الأعراب من المصانعة والمداهنة، وهم في الحقيقة يكنون في أنفسهم النفاق والضغينة لرسول الله ولدينه وللمؤمنين - وهم لتحقيق بغيتهم الفاسدة لا يعبأون بحلف الأيمان الفاجرة على سبيل التقية والتكلف بالظهور بمظهر الصادقين الأوفياء، والله يشهد لنبيه وللمؤمنين بأن هؤلاء منافقون مخادعون.

وذلكم هو قوله: {سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا} المراد بالأعراب، الذين كانوا حول المدينة، كغفار ومزينة وجهينة وغيرهم - فقد تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح بعد أن استنفرهم ليخرجوا معه حذرا من قريش - وكان عليه الصلام والسلام قد أحرم بعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يبغي من سفره هذا حربا أو قتالا - لكن الأعراب من حول المدينة قد تثاقلوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واصطنعوا لأنفسهم المعاذير متعللين بها لعدم الخروج وهو قوله: {شغلتنا أموالنا وأهلونا} تعللوا بانشغالهم في الأهل والأموال زاعمين أنه ليس لهم من يقوم بهم إذا خرجوا من المدينة {فاستغفر لنا} يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسغفر لهم الله - وليس ذلك منهم على سبيل الاعتقاد واليقين أو الخوف من الله - بل على سبيل التّقية والمصانعة والنفاق، فهم يخفون في أنفسهم غير ما تبديه ألسنتهم - وهو قوله: {يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم} لا جرم أنهم منافقون مخادعون كاذبون، يظهرون خلاف ما يبطنون، والله جلا وعلا عليم بأسرارهم وحقيقة أخبارهم وما تنطوي عليه صدورهم فكشفهم حتى افتضح أمرهم.

قوله: {قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا} يعني: فمن يمنعكم من الله إن أراد بكم خيرا أو شرا، أو أراد بكم نصرا أو هزيمة - فليس فراركم أو تخلفكم عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمنجّيكم مما هو مكتوب لكم في قدر الله - فليس من أحد بقادر على رد ما أراده الله لكم من حياة أو موت، أو من نجاة أو هلاك.

قوله: {بل كان الله بما تعملون خبيرا} ذلك رد لما أظهروه من رقيق الكلام ولما تكلفوه من لين الحديث المصطنع، فقد كشف الله حقيقتهم إذ بين لهم أنه يعلم ما تخفيه صدورهم ويعلم حقيقة أمرهم وأفعالهم ومقاصدهم.

١٢ - (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)

قوله: {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا} وهذه مفسرة للجملة التي قبلها - فقد كشف الله هؤلاء المنافقين المخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فضحهم وأظهر ما تكنه صدورهم من سوء النوايا - والمعنى: أنكم أيها المخلفون المنافقون ظننتم أن لن يرجع محمد وأصحابه عقب هذه السفرة بل سيستأصلهم المشركون بالكلية فلا يرجع منهم أحد - وكانوا يقولون: إن محمدا وأصحابه أكلة رأس لا يرجعون.

قوله: {وزين ذلك في قلوبكم} الإشارة عائدة إلى نفاقهم وما يخفونه في نفوسهم من الظنون والأماني باستئصال المسلمين - والمعنى: وزين هذا النفاق والظن في قلوبكم، إذ زينه لكم الشيطان فرأيتموه حسنا.

قوله: {وظننتم ظن السّوء} أي ظننتم أن الله لن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا معه، وأن المشركين سوف يستأصلون شأفتهم البتة - {وكنتم قوما بورا} البور معناه الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه - وكذا المرأة البور التي لا خير فيها ٨، أي كنتم قوما هلكى، أو فاسدين أشرارا لا خير فيكم.

١٣ - (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)

قوله: {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ذلك وعيد من الله لهؤلاء المنافقين الذين يخفون في نفوسهم الكفر، بأنه أعد لهم عذاب السعير، أي النار المتوقدة المتأججة ليصلوها ويذوقوا فيها الوبال والنكال.

١٤ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

قوله: {ولله ملك السماوات والأرض} كل شيء مملوك لله، فهو سبحانه بيده ملكوت كل شيء وهو غني عن العالمين - وهو لا يعبأ بإيمان من آمن أو كفران من كفر - وهو سبحانه يغفر لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب من يشاء أن يعذبه، لا يسأل عما يفعل {وكان الله غفورا رحيما} الله يغفر الذنوب لعباده التائبين المنيبين إليه وهو سبحانه رحيم بعباده التائبين فلا يؤاخذهم بذنوبهم التي كفوا أنفسهم عنها - وذلك ترغيب من الله لهؤلاء في التوبة عما تلبست قلوبهم من النفاق وسوء الأماني والظنون ٩.

١٥ - (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا)

قوله تعالى: {سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا}.

المراد بالمغانم ههنا، مغانم خيبر، لأن الله (جل وعلا) قد وعد أهل الحديبية فتح خيبر وانها لهم خاصة سواء فيهم الغائب أو الحاضر - ولم يغب منهم عن خيبر سوى جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر - والمعنى: سيقول لكم المخلفون عند انطلاقكم إلى خيبر لتفتحوها وتأخذوا مغانمها {ذرونا نتّبعكم} أي دعونا أو اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر - وكانوا من قبل قد تخلفوا عن الخروج إلى مكة والاستعداد للقاء المشركين.

قوله: {يريدون أن يبدلوا كلام الله} يعني يريد هؤلاء المخلفون المنافقون أن يغيروا وعد الله الذي وعده أهل الحديبية دون غيرهم - وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم خاصة.

قوله: {قل لن تتبعونا} وهذا النفي في معنى النهي، فقد منعهم الله من الخروج إلى خيبر، أي: قل لهؤلاء المخلفين لن تتبعونا إلى خيبر إذا ذهبنا لقتالهم {قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل} أي مثل ذلك القول قال الله لنا من قبل أن نرجع إليكم من الحديبية - وهو أن غنيمة خيبر لمن شهد معنا الحديبية خاصة، ولستم أنتم ممن شهدها.

قوله: {فسيقولون بل تحسدوننا} أي سيقول المخلفون عن الخروج ليس ذلك بقول الله كما تزعمون - بل ما يمنعكم من الإذن لنا بالخروج معكم إلا حسدكم لنا كيلا يكون لنا معكم في الغنائم نصيب.

قوله: {بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا} وذلك رد لزعمهم الباطل، فهم لا يعلمون من الحقيقة أو من دين الله إلا يسيرا.

١٦ - (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله تعالى: {قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ١٦ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما}.

يبين الله في آياته هذه أن المسلمين مقبلون على قتال المشركين على اختلاف أهوائهم وضلالاتهم، وأنهم ظاهرون عليهم وعلى الناس جميعا وحينئذ يكون لهم النصر والغلبة - ويأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمخلفين المنافقين: ستدعون لقتال قوم أشداء أولي قوة وبأس - واختلفوا في المراد بهؤلاء القوم فقد قيل: المراد بهم فارس - وقيل: الروم - وقيل: فارس والروم - والأولى بالصواب

أنهم المشركون أو المرتدون من نبي حنيفة وهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة - الذين قاتلهم أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، وقد ذكر ذلك عن كثير من المفسرين - فهذا الصنف من الكافرين الذين لا يقبل منهم غير الإسلام أو القتال - وهو قوله: {تقاتلونهم أو يسلمون} أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أو الإسلام - ولا ثالث لهذين.

قوله: {فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا} إن تقبلوا مؤمنين صادقين لقتال هؤلاء القوم أولي البأس الشديد وتكونوا في صف المجاهدين غير مجانبين ولا مخلفين {يؤتكم الله أجرا حسنا} يجعل الله لكم في مقابلة ذلك حسن الثواب والجزاء وهي الجنة.

قوله: {وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما} إن أعرضتم عن دعوتنا لكم بالخروج معنا مؤمنين صادقين للقاء المشركين أولي البأس الشديد كما أعرضتم عام الحديبية فسوف يجازيكم الله الجزاء الأليم في الدنيا حيث الخزي لكم والإذلال، وفي الآخرة يصليكم النار.

١٧ - (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله: {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج} الحرج معناه الإثم ١٠ أي لا إثم على هؤلاء المذكورين في التخلف عن الجهاد لما بهم من أعذار أو زمانة تمنع من الكر والفر مما يقتضيه فن الحرب في ساحات القتال.

وفي الآية بيان لثلاثة أصناف من المعذورين وهم: الأعمى، فإنه لا يستطيع مزاولة الجهاد أو الإقدام على العدو ولا يمكنه الاحتراز والحذر.

ثم الأعرج، الذي يعجزه العرج عن مزاولة القتال وما يقتضيه ذلك من قدرة على الحركة والسعي وسرعة التنقل - أما إن كان عرجه هينا بسيطا لا يعجزه عن المجاهدة فلا يعذر في ترك الجهاد - وفي معنى الأعرج، الأقطع وهو المقطوع اليد - وكذلك المقعد وهو أولى بالعذر.

ثم المريض الذي لا يستطيع الكر والفر وسرعة الحركة والتنقل ولا يقدر على ملاقاة العدو بالضرب والطعن ونحوهما لما به من مرض - أما إن كان مرضه هينا كالسعال أو الصداع الخفيف أو نحو ذلك مما لا يعجز صاحبه عن الجهاد فليس بمعذور.

قوله: {ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار} يرغب الله المؤمنين في قتال المشركين الظالمين الذين يجحدون آيات الله، ويصدون الناس عن دين الإسلام - والمعنى: من يطع الله ورسوله في الدعوة إلى جهاد المشركين وإلى القتال في صفوف المؤمنين دفعا لشرور الظالمين وفتنتهم، وابتغاء مرضاة الله وسعيا لإعلاء كلمة الإسلام، أولئك يجزيهم ربهم خير الجزاء يوم القيامة حيث النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار {ومن يتول يعذبه عذابا أليما} من يعرض عن طاعة الله ورسوله فيتخلف عن الجهاد مع المؤمنين فلسوف يبوء بعذاب الذل والخزي في الدنيا، وبالعذاب الوجيع في الآخرة ١١.

١٨ - (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

قوله تعالى: {لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ١٨ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما}.

ذلك إخبار من الله عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وهي سمرة، بأرض الحديبية وكانوا ألفا وأربعمائة وهي المسماة بيعة الرضوان - وقصتها باقتضاب: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعي رسولا إلى أهل مكة فهموا به، فمنعه الأحابيش - فلما رجع دعا بعمر (رضي الله عنه) ليبعثه فقال: إني أخافهم على نفسي لما من عداوتي إياهم وما بمكة عدو يمنعني - ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم عثمان بن عفان - فبعثه فأخبرهم أنه لم يأت بحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فشاعت أراجيف بأنهم قتلوه - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لانبرح حتى نناجز القوم " ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة.

قوله: {فعلم ما في قلوبهم} من الإخلاص والوفاء والصدق والتقوى {فأنزل السكينة عليهم} أي نزل في قلوبهم الأمن والطمأنينة.

قوله: {وأثابهم فتحا قريبا} أي فتح خيبر.

١٩ - (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

قوله: {ومغانم كثيرة يأخذونها} المراد بها أموال خيبر وهي كثيرة وقد جعلها الله خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم {وكان الله عزيزا حكيما} الله قوي غالب منتقم من أعدائه الظالمين وهو سبحانه حكيم في تدبيره خلقه، وتصريفه أمورهم كما يشاء ١٢.

٢٠ - (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

قوله تعالى: {وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما ٢٠ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا ٢١ ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ٢٢ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ٢٣ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا}.

المغانم الكثيرة وعد الله المؤمنين بأخذها هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة - وهو قول ابن عباس.

قوله: {فعجل لكم هذه} أي عجل لكم فتح خيبر قبل أن تظفروا بفتح مكة - وقيل: المراد صلح الحديبية.

قوله: {وكف أيدي الناس عنكم} المراد بالناس هنا أهل مكة، فقد كفهم الله عن المسلمين بالصلح - وقيل: كف أيدي المشركين واليهود عن أهليكم وعيالكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم.

قوله: {ولتكون آية للمؤمنين} أي ليكون كفه أيدي الكافرين عن عيال المسلمين وأهليهم الذين خلفوهم وراء ظهورهم في المدينة، ورعاية الله لهم من كل أذى ومكروه، آية وعبرة للمؤمنين فيوقنوا أن الله هو الذي يدفع عنهم الشرور والمكاره وأنه الذي يحوطهم بكلاءته ورعايته - فهو سبحانه الحافظ لعباده المؤمنين أن تنال منهم مكائد المجرمين من أعداء الله والدين.

قوله: {ويهديكم صراطا مستقيما} أي ويرشدكم إلى طريق الحق والسداد - طريق الله المستقيم الذي لا زيغ فيه ولا عوج.

٢١ - (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

قوله: {وأخرى لم تقدروا عليها} أخرى، في موضع نصب بالعطف على {مغانم} ١٣ يعني: فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى {لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها} أي أعدها الله لكم، فأنتم لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم - أو حفظها الله عليكم ليكون فتحها لكم.

واختلفوا في المراد بالمغانم الأخرى التي لم يقدروا عليها - فقيل: ما فتح الله على المسلمين من فتوح كأرض فارس والروم - وجميع ما فتحه المسلمون، وقيل: ما يفتحه المسلمون من البلاد إلى قيام الساعة.

قوله: {وكان الله على كل شيء قديرا} لا يتعذر على الله أن يفعل ما يشاء لبالغ قدرته وعظيم سلطانه.

٢٢ - (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

قوله: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار} يخبر الله عباده المؤمنين من أهل بيعة الرضوان: أنه لو قاتلكم الكافرون لولوا على أدبارهم هاربين منهزمين {ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا} لا يجد هؤلاء الهاربون المنهزمون الذين ولوكم أدبارهم وأعجازهم ١٤ وليا يواليهم ضدكم ولا نصيرا يؤيدهم أو يعينهم عليكم، فإن الله معكم ولن يخذلكم.

ويستفاد من الآية أن الغلبة دائما للمسلمين الصادقين المتقين - وذلكم قضاء إلهي حكم الله فيه أن تكون الدائرة على الكافرين المعتدين، الذين يعتدون على المسلمين الصالحين - فكلما تربص المجرمون بالمسلمين ظلما واضطغانا أو عزموا على النيل منهم وإيذائهم بالباطل والعدوان، رد الله كيدهم في نحورهم وهيأ لهم من أسباب البطش والانتقام ما يدمر عليهم أو يدفع مكائدهم واعتداءاتهم، إلا أن

يكون المسلمون لاهين غافلين موغلين في النسيان واللهو وزينة الحياة الدنيا - أو مزقهم الانشقاق والخلافات ما بينهم فكانوا مفرقين أشتاتا - أولئك لا يجد الكافرون المعتدون ما يحول دون الانقضاض عليهم لتدميرهم والقضاء عليهم.

٢٣ - (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا)

قوله: {سنة الله التي قد خلت من قبل} {سنة} منصوب على مصدر بفعل محذوف - يعني هذه سنة الله في خلقه، وهذا شأنه في عباده، فإنه لا يتقابل الكافرون الظالمون والمؤمنون الصادقون إلا كانت الغلبة لعباد الله المتقين المجاهدين الصابرين، ليعلوا بذلك شأن الحق والفضيلة، شأن الهداية والتوحيد، ويتداعى الظلم والظالمون {ولن تجد لسنة الله تبديلا} تلك هي سنة الله في إعلاء الحق وإبطال الباطل - وهي سنة ربانية راسخة لا تقبل التغيير أو التبديل.

٢٤ - (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

قوله: {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم} يمتن الله على المؤمنين، إذ كف أيدي الأعداء المشركين عنهم فلم يصبهم منهم سوء - وكذلك كف الله أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام بل حفظ الله كلا من الفريقين وأوجد بينهم صلحا كان فيه الخير والمصلحة للمسلمين.

قال ابن جرير الطبري في تأويل الآية: يعني أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتي بهم أسرى فخلى عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم ولم يقتلهم.

وفي كف المشركين عن المسلمين ودفع أذاهم عنهم روى الإمام أحمد بإسناده عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة ١٥ رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم فأخذوا، فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية.

وروى أحمد عن عبد الله بن مغفل المدني (رضي الله عنهما) قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وسهيل بن عمرو بين يديه - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي (رضي الله عنه): " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فأخذ سهل بيده - وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم - اكتب في قضيتنا ما نعرف - فقال: " اكتب باسمك اللهم " - وكتب: " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة " - فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف - فقال: " اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله " - فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أمانا؟ " فقالوا: لا، نخلي سبيلهم فأنزل الله تعالى الآية.

قوله: {وكان الله بما تعملون بصيرا} الله عليم بأعمال العباد، لا يخفى عليه منها شيء ١٦.

٢٥ - (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله تعالى: {هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ٢٥ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما}.

يبين الله في ذلك ظلم المشركين وشديد لؤمهم وغلظة قلوبهم، إذ تمالأوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، وصدوهم عن المسجد الحرام وهم أهله وأحق الناس به وبزيارته - وذلك هو دأب المجرمين الكافرين في كل زمان - أولئك الذين تتقطع قلوبهم تغيظا واضطغانا وكراهية للإسلام والمسلمين.

فقال سبحانه: {هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام} يعني هؤلاء كفار قريش الذين جحدوا ربهم وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنعوكم أن تدخلوا المسجد الحرام عام الحديبية إذ أحرم النبي صلى الله عليه وسلم، ومنعوكم أن تدخلوا المسجد الحرام عام الحديبية إذ أحرم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه بعمرة.

قوله: {والهدي معكوفا أن يبلغ محله} الهدي، منصوب بالعطف على الكاف والميم في {وصدوكم} و {معكوفا} أي محبوسا أو موقوفا، و {أن يبلغ}، مفعول لأجله والمعنى: صدوكم وصدوا الهدي كراهية أن يبلغ محله ١٧ - وقد فعلوا ذلك ظلما وعنادا - وكان الهدي سبعين بدنه - وفي ذلك روى البخاري عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنه وحلق رأسه - قيل: إن الذي حلق رأسه يومئذ خراش بن أمية ابن أبي العيص الخزاعي - وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلوا، ففعلوا بعد توقف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالت له أم سلمة: لو نحرت لنحروا، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه، ونحروا بنحره - وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، ودعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة.

قوله: {ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم} {رجال}، مرفوع على أنه مبتدأ، {ونساء} عطف على {رجال} ١٨ {أن تطئوهم} أن تقتلوهم - بدل اشتمال من {هم} أو من ضمير {تعلموهم} والمعرة تعني العيب - والمعنى: أنه كان بمكة قوم من المسلمين المختلطين بالمشركين غير متميزين منهم ولا تعرفونهم أنتم - فلولا كراهة أن تقتلوا أناسا مؤمنين بين ظهراني المشركين فيصيبكم بإهلاكهم عيب ومشقة لما كف الله أيديكم عنهم لقتلهم - والمعرة أو العيب يحتمل وجوب الدية والكفارة بقتل المؤمنين، فضلا عن سوء القالة من المشركين أنهم فعلوا ذلك بأهل دينهم.

قوله: {ليدخل الله في رحمته من يشاء} وذلك متعلق بمحذوف، أي لولا أن تقتلوهم فتصيبكم بقتلهم معرة من غير علم لأذن الله لكم في دخول مكة - ولكن الله حال بينكم وبين دخولها، ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها.

قوله: {لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما} أي لو تميز المؤمنين في مكة من المشركين المختلطين بهم ففارقوهم أو خرجوا من بين أظهرهم لقتلنا الكافرين منهم بالسيف.

ويستدل من هذه الآية على أن الكافر لا يؤذي إذا كان إيذاؤه يفضي إلى إيذاء المسلم حتما - فحرمه المسلم معتبرة ومقدمة على قتل العدو - وعلى هذا لو أن قوما من المشركين في حصن لهم وفيهم قوم من المسلمين أسارى وقد حصرهم المسلمون جميعا فما يجوز للمسلمين أن يقتلوهم لئلا يفضي ذلك إلى قتل الأسارى المسلمين - وكذلك لو تترس كافر بمسلم فإنه لا يجوز في الكافر، لأن ذلك يفضي إلى إصابة - ولو فعل ذلك أحد فأصاب مسلما كان عليه الدية والكفارة - فإن لم يعلم فلا دية ولا كفارة.

أما إذا كان في قتل الترس مصلحة ضرورية للمسلمين صار قتله جائزا شرعا، لأنه لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس - وإذا لم يقتل الترس تمكن الكافرون من المسلمين فاستولوا على بلادهم وأفنوهم جميعا.

٢٦ - (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

قوله: {إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية} {الحمية}، تعني الأنفة ١٩ - أي تشبث الكفار بالحمية الراسخة في قلوبهم، وحميتهم أو أنفتهم حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم - وأبوا أيضا أن يقروا للنبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة، وكذلك

قد منعوا المسلمين من دخول مكة فصدوهم عن البيت الحرام - لقد فعلوا كل ذلك أنفة وعنادا ولجوجا في العصيان والاستكبار.
قوله: {فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين} أنزل الله عليهم الطمأنينة - وقيل: ثبتهم على الرضا والوقار {وألزمهم كلمة التقوى} وهي لا إله إلا الله، فهذه الشهادة الكبرى رأس كل تقوى {وكانوا أحق بها وأهلها} يعني كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه أحق بكلمة التقوى وهي شهادة أن لا إله إلا الله وكانوا أهل هذه الشهادة دون المشركين.
قوله: {وكان الله بكل شيء عليما} الله يعلم ما في ضمائر الخلق ويعلم ما تكنه صدور العباد ويعلم ما يصلح عليه حال الناس ٢٠.
٢٧ - (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)
قوله تعالى: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ٢٧ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا}.
كا ن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه أنه يدخل مكة ويطوف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة - فلما صالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون وأشاعوا بين الناس الأراجيف والظنون، ووقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيء حتى سأل عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: " بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ " قال: لا - قال النبي صلى الله عليه وسلم: " فإنك آتيه ومطوف به " وبهذا أجاب الصديق (رضي الله عنه) أيضا - ولهذا أنزل الله قوله: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله} فأعلمهم الله بذلك أنهم سيدخلون في غير ذلك العام وأن رؤيا نبيه صلى الله عليه وسلم حق.
قوله: {آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين} هذه الأسماء الثلاثة كلها منصوبات على الحال ٢١ و {آمنين}، لا تخافون من عدو حال دخولكم، أما دخولهم محلقين رؤوسهم ومقصرين، فذلك من التحليق والتقصير وهو للرجال، والحلق أفضل من التقصير - فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " رحم الله المحلقين " قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: " رحم الله المحلقين " قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم " والمقصرين " قوله: {لا تخافون} الجملة في موضع نصب على الحال - والتقدير: غير خائفين ٢٢ فقد أثبت الله لهم الأمن حال دخولهم مكة وأذهب عنهم الخوف حال قرارهم فيها فلا يخشون أحدا إلا الله - وقد كان ذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع - ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذي الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه، بعضها عنوة وبعضها صلحا - وخيبر أقليم عظيم الخصب كثير النخل والزروع، فاستخدم النبي صلى الله عليه وسلم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه (رضي الله عنهم) - فلما كان ذو العقدة من سنة سبع خرج صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي، فلبى صلى الله عليه وسلم وسار معه أصحابه يلبون فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين فذهبوا فأخبروا أهل مكة - ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه - فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش من يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بغيته، فبين لهم أنه لم يبغ قتالا بل جاء - معه المؤمنون إلى مكة معتمرين، على الشرط الذي بينه وبينهم - فقال له مبعوث قريش وهو مكرز بن حفص: بهذا عرفناك بالبر والوفاء - ثم خرجت رؤوس المشركين من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غيظا وحنقا - وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم وأصحابه ٢٣.
قوله: {فعلم ما لم تعلموا} يعني علم الله ما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لا تعلمونهم أنتم - ولو دخلتم مكة في ذلك العام لوطئتموهم فلقتلتموهم فأصابكم بذلك معرة من غير علم منكم - وقيل: علم الله ما في تأخير الدخول إلى مكة من خير لكم وصلاح لم تعلموه أنتم - ذلك أنهم عقب رجوعهم مضوا إلى خيبر ففتحوها فرجعوا بأموال كثيرة وازدادوا بذلك من القوة والعدة أضعافا، فأقبلوا على مكة بقوة وأهبة أضعاف ما كانوا عليه قبل ذلك.
قوله: {فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} المراد بالفتح صلح الحديبية في قول أكثر المفسرين - وقيل: فتح خيبر - والأول أولى بالصواب - فإنه ما من فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية - لأنه لما كانت الهدنة بين الفريقين وقد أمن الناس بعضهم بعضا، التقوا فيما بينهم فتناظروا وتبادلوا الحديث والمناظرة - فما من أحد ذي عقل وفطرة سليمة، خوطب بالإسلام إلا دخل فيه - وبذلك دخل في هاتين السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر، فقد كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفا وأربعمائة - وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان، عشرة آلاف.
٢٨ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)
قوله: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} أرسل الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس مرشدا ومعلما ليهديهم سواء السبيل وليستنقذهم من ظلمة الباطل والضلال إلى نور الحق والهداية واليقين {ودين الحق} وهو الإسلام، الدين الذي جاء بالحق وفيه من عظيم الأحكام والمعاني والعبر، ومن حقائق العدل والخير والبر والفضل والرحمة ما تستقيم عليه حال البشرية في هذه الدنيا، وما تنجو به يوم الحساب.
قوله: {ليظهره على الدين كله} أي ليعليه على سائر الأديان في الأرض وعلى الأمم والشعوب كافة - والله جل وعلا إنما يريد بذلك للبشرية الخير والأمن والهداية والسعادة - وهذه حقائق كبريات ليس لها وجود حقيقي معاين إلا في ظل الإسلام، فإنه الدين السماوي الوحيد الذي يشيع في الدنيا المن والحق والعدل والرحمة، ليكون الناس جميعا إخوانا مؤتلفين متوادين متعاونين - وذلك بما بني عليه الإسلام من قواعد عظيمة في غاية الكمال والجمال، ترسخ في الأرض كل معاني الخير والصلاح والسعادة، وتثير في النفس البشرية الإحساس الرهيف بالعطف والرأفة والإيثار وحب الآخرين.
والناس في ظل غير الإسلام لا يبرحهم الشقاء والتعس ولا تفارقهم المعضلات النفسية والاجتماعية، الفردية منها والعامة، وما ينشأ عن ذلك من مختلف الآلام والهموم والويلات وألوان المعاناة والأزمات وكل ذلك إنما يقع في معزل عن دين الإسلام - دين المودة والرحمة والبر والتعاون والإيثار - الدين الذي يمحو من النفس الكراهية والغلظة والأثرة (الأنانية) والتعصب - من أجل ذلك كتب الله أن يكون الإسلام ظاهرا ومهيمنا على الأديان وعلى الناس أجمعين ليكونوا بذلك سعداء آمنين راغدين غير ظالمين ولا مظلومين، وقد حفتهم من الله الرحمة والبركة والطمأنينة وطيب المقام في الدنيا والآخرة.
قوله: {وكفى بالله شهيدا} الباء حرف جر زائد - و {شهيدا} منصوب على التمييز أو الحال - والتقدير: كفاكم الله شهيدا ٢٤ - والمعنى كفى الله شهيدا لنبيه صلى الله عليه وسلم - وتلك أكرم شهادة له بصحة نبوته وصدق ما جاء به - أو كفى الله شاهدا على أنه مظهر دينه على الأديان كافة ٢٥.
٢٩ - (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)
قوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب

الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما}.
ذلك وصف من الله للمؤمنين الصادقين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم خير قرن في القرون، وأشرف طائفة من الناس في البرايا أقلتهم هذه الأرض وذكرهم التاريخ - ذلكم وصفهم في تلكم الآية الفضلى بكلماتها الموحية الضخمة، وعباراتها الرصينة العذاب - وهو قوله سبحانه: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم} {محمد}، مرفوع على أنه مبتدأ - و {رسول الله} خبره - أو {محمد} مبتدأ و {رسول الله} صفته - والذين معه عطف على {محمد} - و {أشداء} خبر عن الجميع - و {رحماء} خبر ثان ٢٦.
هذا وصف لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم من المؤمنين في كل زمان، في حقيقة خلقهم وسلوكهم مناقبهم، فإنهم قساة غلاظ على الكافرين حتى يؤمنوا - فالكافرون بظلمهم وجحودهم وفساد مقاصدهم وسلوكهم واتباعهم للشهوات والأهواء والضلال، وفرط حنقهم على الإسلام والمسلمين لا يستحقون العطف واللين بل الشدة والعنف - وفي مقابل ذلك فإن المؤمنين رحماء بينهم - فهم متوادون متحابون متعاونون لا تخالط قلوبهم أوشاب من أدناس اللؤم والأثرة والحسد والضغينة - وفي الحديث: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر " وقال صلى الله عليه وسلم: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " وشبّك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه.
قوله: {تراهم ركعا سجدا} {ركعا سجدا} منصوبان على الحال، لأن ذلك من رؤية البصر ٢٧، فقد وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال {يبتغون فضلا من الله ورضوانا} يبتغي المؤمنون بكل ما يفعلونه من صلاة وغيرها من أوجه العبادة {فضلا من الله ورضوانا} أي جنته ورضاه - وهذه غاية ما يرتجيه المؤمنون الصادقون المخلصون لله في أعمالهم وعباداتهم.
قوله: {سيماهم في وجوههم من أثر السجود} {سيماهم} مبتدأ، وخبره {في وجوههم} أو خبره {من أثر السجود} والسيما، والسيمة والسيماء والسيمياء، العلامة - والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة الساجدين من كثرة السجود - وفسر ذلك قوله: {من أثر السجود} أي من التأثير الذي يحدثه السجود في الوجه - وقيل: معناه السمت الحسن - وقيل: المراد، أثر الإسلام يظهر على وجوه المؤمنين المخلصين من خشوع وزهد وسكينة وتواضع وتقوى.
قوله: {ذلك مثلهم في التوراة} يعني هذه الصفة المذكورة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هي صفتهم في التوراة {ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه} الشطء معناه الفراخ - شطأ الزرع أو النبات فراخه - وقد أشطأ الزرع أي خرج فراخه ٢٨ يعني: ووصفهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه - وقد وصفهم بذلك، لأنهم ابتدأوا في دخول الإسلام وهم قلة ثم تزايدوا، إذ دخلوا في دين الله جماعة بعد جماعة حتى كثروا - على أن الراجح أن مثلهم في التوراة غير مثلهم في الإنجيل، وأن الخبر عن مثلهم في التوراة متناه عند قوله: {ذلك مثلهم في التوراة} فهنا الوقف - ثم يستأنف قوله: {ومثلهم في الإنجيل}.
قال القرطبي: هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون - فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوي حالا بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه.
قوله: {فآزره} يعني قواه وأعانه، أي قوّى الزرع شطأه أو فراخه وأعانه - وهو من المؤازرة بمعنى المعاونة {فاستغلظ} أي صار الزرع غليظا بعد دقته وضعفه {فاستوى على سوقه} جمع ساق - وساق الزرع، عوده الذي يحمله، ويقوم عليه، أي استقام الزرع على أعواده.
قوله: {يعجب الزراع} يعني: هذا الزرع بإفراخ شطئه واستغلاظه واستوائه على أعواده وحسن منظره، يعجب الزراع الذين زرعوه.
قوله {ليغيظ بهم الكفار} أي مثّل الله هذا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى نموا وازدادوا و كثروا واشتد أمرهم وقويت شوكتهم ليغيظ بهم الكفار - قوله: {وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ذلك وعد من الله للمؤمنين المذعنين لله بالخضوع والطاعة، بأن يستر عليهم ما اجترحوه من السيئات والذنوب وأن يجزيهم الأجر العظيم وهو الجنة - وليست {منهم} للبعضية، بل لبيان الجنس، كقوله: {فاجتنبوا الرجس من الأوثان} فالمراد، من هذا الجنس، أي جنس الصحابة وسائر الداخلين في

دين الإسلام المتمسكين بشريعة الله، المعتصمين بعقيدة الإيمان والتوحيد، المستسلمين لأوامر الله وأحكام دينه ٢٩.

٤٩ سورة الحجرات:

سورة الحجرات:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية وعدد آياتها ثماني عشرة، وهي - على قلة آياتها- جاءت زاخرة بمختلف المعاني في السلوك والآداب والأحكام والمواعظ، وقد جاءت السورة مبدوءة بوجوب التأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومخاطبته في غاية التوقير والتعظيم.
وقد تضمنت السورة تنديدا بأولي الطبائع الغليظة من قساة الأعراب وأجلافهم الذين لم يوقروا النبي صلى الله عليه وسلم، إذ كانوا ينادونه من وراء بيوته بأصوات مستهجنة لا أدب فيها ولا تواضع.
وفي السورة يأمر الله عباده المؤمنين أن يتثبتوا لدى سماعهم أخبارا يحملها فاسقون، فلا يبادروا التصديق واليقين لما سمعوه لاحتمال الكذب أو الخطأ، ومن شأن ذلك أن يورث الزلل والندامة.
ويأمر الله عباده المؤمنين أن يصلحوا بين إخوانهم المقتتلين بالعدل، والمؤمنون في ميزان الإسلام أخوة على الدوام.
وفي السورة نهي عن جملة رذائل قد ندد بها الإسلام تنديدا، وهي السخرية من الناس، والتنابز بالألقاب، وكذلك الكثير من الظن ثم التجسس والغيبة، وهذه رذائل وصفات ذميمة تذهب بالحسنات وتورث السيئات والمباغضات وفساد ذات البين.
وفي السورة إعلان من الله ظاهر يرسخ فيه المساواة بين الناس وأنه ليس من تفاضل بينهم لسبب من الأسباب التي يعتبرها البشر، وإنما التفاضل في ميزان الله، بالتقوى دون غيره - إلى غير ذلك من الأحكام والمعاني.
١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ١ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ٢ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم}.
هذه جملة آداب، خليق بالمؤمنين أن يتأدبوا بها لدى تعاملهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في فعل أو خطاب، فيكون ذلك في غاية التكريم له والتوقير والتعظيم وهو قوله سبحانه: {ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله} أي لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء أو أمر من الأمور حتى يحكم الله على لسانه صلى الله عليه وسلم أو لا تبادروا القول أو الفعل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كونوا تبعا له في كل ذلك.
قوله: {واتقوا الله إن الله سميع عليم} أي اخشوا ربكم وافعلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه، فإنه يسمع ما تقولون وتعلنون ويعلم ما تخفون وتكتمون.
٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)
قوله: {ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} ذلكم أدب ثان خليق بالمؤمنين أن يتأدبوا به لدى خطاب بعضهم بعضا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فلا يصخبون أمامه ولا يعلو صياحهم بل يتكلمون في أدب جم واستحياء بالغ واحترام له عظيم - وقد روي أن الآية نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) فقد روى البخاري بإسناده عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا: أبو بكر وعمر (رضي الله

عنهما) رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر برجل آخر - فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي - قال: ما أردت خلافك - فارتفعت أصواتهما في ذلك فنزلت الآية فيهما، فما كان عمر (رضي الله عنه) يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

والمعنى: لا تجهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغليظ الخطاب ولاتتصايحوا أمامه في صخب وتتنادوا بالأصوات العالية من غير حاجة {ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض} الكاف في {كجهر} في موضع نصب صفة لمصدر محذوف - والتقدير: لا تجهروا له جهرا كجهر بعضكم لبعض ١ أي لا تنادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينادي بعضكم بعضا، وذلك بقولكم: يا محمد، يا محمد - ولكن قولوا في أدب وتوقير وتبجيل وتواضع: يا رسول الله، يا نبي الله، وأن لا تعلو أصواتكم في النداء فوق ما يحتاجه السامع للسماع {أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} أي لأن تبطل أعمالكم وقيل: لئلا تبطل أعمالكم فلا يكون لكم عليها أجر ولا جزاء، وذلك برفعكم أصواتكم فوق صوت النبي، وجهركم له بالقول كجهر بعضكم لبعض وأنتم لا تعلمون ولا تدرون.

٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

قوله: {إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله} {يغضون} من الغض: وهو الخفض ٢ - وذلك إطراء من الله للمؤمنين الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له وتكريما، واستحياء منه وتعظيما، سواء كان خطابهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أو كانوا يخاطبون غيره بين يديه.

قوله: {أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} أي أخلص قلوبهم للتقوى وجعل فيها الخوف من الله {لهم مغفرة وأجر عظيم} يعفو الله لهم عن ذنوبهم ويجزيهم خير الجزاء وهو الجنة ٣.

٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

قوله تعالى: {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ٤ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم}.

ذلك تنديد من الله بأولئك الأجلاف الذين ينادون النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه، وذلك في غلظة مستهجنة ما ينبغي أن تصدر عن مؤمنين كرام ولا يليق أن ينادي بها سيد الثقلين والأنام صلى الله عليه وسلم - وقد روى في سبب نزول الآية عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة: يامحمد يا محمد - فأنزل الله الآية.

وذكر أنها نزلت في جفاة بني تميم، إذ قدم وفد منهم على النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد فنادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين - فآذى ذلك من صياحهم النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم، فقالوا: جئناك يا محمد نفاخرك، ونزل فيهم قوله: {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات} وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ٤.

و {الحجرات} جمع حجرة وهي البيت أو الغرفة ٥ وفي هذه الآية يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم مبينا له أن هؤلاء الغلاظ الأجلاف الذين ينادونك من وراء البيوت من غير أدب ولا توقير ولا تواضع {أكثرهم لا يعقلون} يعني أكثرهم جاهلون بدين الله لغلبة السفاهة والجفاء على عقولهم وقلوبهم.

٥ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم} أي لو أنهم حبسوا أنفسهم عن ندائك من وراء الحجرات في جفاء مستقبح وغلظة ممجوجة وأسلوب مستهجن وانتظروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك أصلح لهم في دينهم ودنياهم {والله غفور رحيم} الله يعفو

لهؤلاء الجفاة عن ذنوبهم وسيئاتهم إن تابوا عقب نداءاتهم المزعجة الذميمة من وراء الحجرات - وهو سبحانه رحيم بهم فلا يعاقبهم بعد أن يتوبوا ٦.

٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ٦ واعلموا أن فيكم رسول الله ولو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ٧ فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم}.

يأمر الله عباده المؤمنين أن يتثبتوا فيما يردهم من أخبار يقولها فاسقون أو مريبون أولو ثرثرة ولغط وتهويش فما ينبغي للمؤمنين في كل زمان أن يصدقوا أمثال هؤلاء فيبنوا أحكامهم على ما يسمعونه منهم فيضلّوا ويزلّوا ويصبحوا من النادمين - والفاسق هو الكاذب، أو الذي لا يستحيي من الله.

وقد نزلت الآية في الوليد بن أبي معيط إذ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليجمع منهم الزكاة، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية - فلما سمع القوم تلقّوه تعظيما لله تعالى ولرسوله، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا، سمعنا برسوله فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى - فبدا له في الرجوع فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى {ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} وقيل: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك، وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد (رضي الله عنه) إليهم وأمره أن يتثبت ولا يعجل فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالدا (رضي الله عنه) أنهم مستمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم - فلما أصبحوا أتاهم خالد (رضي الله عنه) فرأى الذي يعجبه فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فأنزل الله الآية - فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الله يقول: " التثبت من الله والعجلة من الشيطان " ٧.

قوله: {فتبيوا أن تصيبوا قوما بجاهلة} أي تثبتوا واحتاطوا، أو أمهلوا حتى تعرفوا صحة النبأ ولا تعجلوا {أن تصيبوا قوما بجهالة} أي كراهية، أو لئلا تصيبوا قوما برآء مما قذفوا به بخطأ منكم {فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} أي فتندموا على ما أصبتم به غيركم من الجناية.

٧ - (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

قوله: {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم} يقول الله لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم: اعلموا أيها المؤمنون أن فيكم رسول الله فهو بين أظهركم والله يخبره أنباءكم فتفتضحون فاحذروا أن تفتروا الكذب وتتقوّلوا ما هو زيف وباطل فإن الله منبئ به نبيه - ولو كان رسول الله يعمل بآرائكم ويقبل منكم ما تقولون وتبتغون {لعنتّم} أي لأصابكم الإثم ونالكم المشقة والجرح - وذلك من العنت وهو الإثم والخطأ والمشقة ٨ وذلك كما لو قبل النبي من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق أنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة وجمعوا جموعهم لقتال المسلمين، فقاتلهم النبي والمؤمنون وأصابوا من دمائهم وأموالهم بغير حق فلكان قد نالهم من الله العنت وهو الإثم والحرج والمشقة.

قوله: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} يخاطب الله عباده المؤمنين الصادقين المخلصين ليبين لهم ما امتن به عليهم من النعم، وهو الإيمان - فقد رسخ الله في قلوبهم الإيمان وجعل ذلك في قلوبهم محببا {وزينه في قلوبكم} أي حسنه في قلوبكم تحسينا لتذوقوا

به حلاوة العقيدة والقوى {وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} أي بغض الله الجحود والشرك لعباده المؤمنين الصادقين المخلصين فجعله بغيضا إلى قلوبهم - وكذا الفسوق وهو الخروج عن طاعة الله والتلبّس بالخطيئة والعصيان، كل ذلك بغيض - بفضل الله - إلى قلوب المؤمنين المتقين المخبتين لله بالطاعة والإنابة.

قوله: {أولئك هم الراشدون} المتصفون بالرشد وهو الاستقامة على طريق الحق، فهم ساربون على طريق الله المستقيم، ومتبعون منهجه الرباني القويم غير زائغين ولا متعثرين.

٨ - (فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله: {فضلا من الله ونعمة} {فضلا} منصوب على أنه مفعول له - وقيل: مصدر مؤكد لما قبله ٩ يعني أنعم الله عليكم بذلك فضلا منه ونعمة لكم ١٠.

٩ - (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

قوله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ٩ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون}. ذلك أمر من الله لعباده المؤمنين بالإصلاح بين الفئتين المقتتلتين منهم، فدين الإسلام رحمة من الله للعالمين، يرسخ فيهم المودة والتعاون والإخاء ويحذرهم العداوة والبغضاء وسوء الخصام ويوجب أن يغيض كل أسباب الشقاق والنزاع والمباغضة وإذا وقع شيء من ذلك بين فئتين من المؤمنين أن يبادروا سراعا للتوفيق والإصلاح بين الفئتين المتخاصمتين المقتتلتين - لا جرم أن الإصلاح بين المسلمين عمل جليل ومبارك يكتب الله فيه حسن الجزاء للأبرار الذين يصلحون بين إخوانهم المسلمين، فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي بكر (رضي الله عنه) قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي (رضي الله عنه) فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: " إن ابني هذ سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، إذ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الذي وقع بينهم من حرب تثير في النفس الألم والحزن.

أما في سبب نزول الآية: فقد روي عن أنس قال: يا نبي الله لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه - وغضب لكل واحد منهما أصحابه، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنه أنزلت فيهم: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} ١١ وقيل غير ذلك من الأسباب.

والمستفاد: وجوب الإصلاح بين المسلمين إذا ما وقع بينهم نزاع أو شقاق أو اقتتال - والطائفة: تعني الواحد فما فوقه، والطائفة من الشيء: القطعة منه ١٢.

قوله: {فأصلحوا بينهما} أمر بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله فهو يقضي لهما أو عليهما.

قوله: {فإن بغت إحداهما على الأخرى} بغت من البغي وهو العدول عن القصد - بغى على الناس بغيا، أي ظلمهم واعتدى عليهم فهو باغ، وجمعه بغاة - وبغى: سعى بالفساد ١٣ - والمراد: إذا اعتدت إحدى الطائفتين ولم تستجب لنداء الحق أو حكم الله فأبت إلا التطاول والفساد {فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله} أي قاتلوا هؤلاء البغاة حتى يثوبوا إلى الحق والصواب ويقبلوا بحكم الله في كتابه الكريم.

قوله: {فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل} {فاءت} من الفيء وهو الرجوع، أي إن رجعت الفئة المتعدية المتجاوزة عن بغيها ورضيت بالاحتكام إلى كتاب الله، فأصلحوا بين الطائفتين بتحري الحق والصواب والأخذ للطائفة المظلومة من الظالمة حتى يزول ما أصابها من

حيف وبغي.
١٠ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)
قوله: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} المؤمنون إخوة في العقيدة والدين - وهذه حقيقة كبرى رسخها الإسلام لتكون خير رباط يؤلف بين الناس.
وعلى هذا فإن المسلمين جميعا إخوان متحابون متعاونون وذلك على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأوطانهم، ومهما تناءت بينهم البلدان والأقاليم، وهم لا تفرق بينهم الحواجز المصطنعة التي أوجدها الظالمون المخالفون لأمر الله، الرافضون لعقيدة الإسلام ومنهج الله للعالمين، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه " وعنه صلى الله عليه وسلم من رواية أحمد عن سهيل بن سعد الساعدي (رضي الله عنه) " إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس " {فأصلحوا بين أخويكم} أي أصلحوا بين المسلمين سواء كانوا اثنين أو فئتين أو طائفتين إذا وقع بينهم نزاع أو خصومة أو اقتتال، ليفيئوا جميعا إلى حكم الله العادل وليزول من بين المسلمسن كل وجه من أوجه الشقاق والخلاف.
قوله: {واتقوا الله لعلكم ترحمون} أي خافوا ربكم بأداء فرائضه واجتناب عصيانه ونواهيه والإصلاح بين إخوانكم المسلمين بالعدل يبسط الله عليكم رحمته وتحظوا بالمغفرة والأجر والإحسان ١٤.
١١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)
قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون}.
ذلك نهي من الله شديد عن السخرية من الناس - فأيما استهزاء أو استسخار من أحد أو جماعة أو طائفة، حرام مهما كان السبب لدى الساخر المستهزئ كما لو سخر من غيره لكونه قصيرا أو فقيرا أو دميما أو صعلوكا ذليلا أو أسود اللون أو عييا
لا يحسن الخطاب أو غير ذلك من الأسباب والصفات، فلا يسخر أحد من أحد لشيء مما ذكر إلا طوّقه الإثم وأحاطت به الخطيئة وباء بالذنب الكبير ووقع فيما نهى الله عنه، وهو قوله: {لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن} ربما كان المستهزأ به خيرا من الساخر المستهزئ عند الله فيكون أفضل منه بطيب نيته وحسن سريرته وتقواه - وفي ذلك روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ".
وفي التنديد الشديد بالسخرية من عباد الله، وتغليظ النكير عليها، روى الترمذي عن عائشة قالت: حكيت للنبي صلى الله عليه وسلم رجلا ١٥، فقال: " ما يسرني أني حكيت رجلا وأن لي كذا كذا " فقلت: يا رسول الله إن صفية امرأة – وقالت بيدها- هكذا، يعني أنها قصيرة - فقال: " لقد مزجت بكلمة لو مزج بها البحر لمزج ".
قوله: {ولا تلمزوا أنفسكم} تلمزوا من اللمز، وهو الإشارة بالعين ونحوها كالرأس والشفة مع كلام خفي - واللّمزة: العيّاب للناس ١٦.
والمراد: لا يطعن بعضكم بعض - أو لا يعب بعضكم بعضا بيد أو لسان أو عين أو إشارة، فكل ذلك إهانة للمسلم واستخفاف به وتحقير له، وذلك كله حرام - وقوله: {أنفسكم} كقوله: {ولا تقتلوا أنفسكم} أي لا يقتل بعضكم بعضا، لأن المسلمين جميعا كنفس واحدة، فكأن قاتل أخيه المسلم قاتل لنفسه - وكذلك الذي يلمز أخاه المسلم بعيب أو طعن أو إهانة وتحقير فكأنما لمز نفسه.
قوله: {ولاتنابزوا بالألقاب} أي لا تعايروا ولا تداعوا بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها ١٧ - وقد روى الإمام أحمد عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة {ولا تنابزوا بالألقاب} قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت الآية {ولا تنابزوا

بالألقاب} وقيل: كان الرجل يعيّر بعد إسلامه بكفره: يا يهودي، يا نصراني - فنزلت - وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق - والصواب عموم النهي عن التنابز بالألقاب على اختلاف صوره ومعانيه - وحقيقته دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة - فلا يجوز لمسلم أن يعيّر أخاه أو يناديه باسم يكرهه أو بصفة يغتاظ بها.

قوله: {بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} يعني بئس أن يسمي الرجل الرجل باسم يكرهه - كما لو نعته بالكفر بعد أن أسلم، أو نعته بالزنا بعد أن تاب أو نحو ذلك من وجوه التنابز بعد الدخول في الإسلام فمن فعل ما نهى الله عنه من النبز بسوء الأسماء فقد تلبس بالفسق، أي من سخر من أخيه فلقبه بما يغيظه من الأسماء والأوصاف فهو فاسق - وفي الحديث الصحيح: " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه " وروي أن أبا ذر (رضي الله عنه) كان عند النبي صلى الله عليه وسلم فنازعه رجل فقال له أبو ذر: يا ابن اليهودية - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما ترى ههنا أحمر وأسود ما أنت بأفضل منه " يعني بالتقوى - وفي الحديث: " من عيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة ".

قوله: {ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون} يعني من لم يتب من تعيير أخيه بما يكرهه من الأسماء والألقاب، ونبزه إياه بما يسيئه من الأوصاف مما نهى الله عنه فأولئك قد ظلموا أنفسهم بما اكتسبوه من الإثم ليبوءوا بالعقاب ١٨.

١٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم}.

هذه جملة من المنكرات البغيضة، قد نهى الله عنها بشدة وحذر من فعلها أو التلبس بها أبلغ تحذير - وذلك في كلمات بينات قوارع - كلمات باهرات عجاب تقرع بجرسها الحس، وتثير بروعة ألفاظها الذهن والوجدان.

وأول المنكرات هذه كثرة الظن بغير حق، وهي التهمة من دون سبب ظاهر يوجبها كالذي يتهم بشرب الخمر أو الزنا أو غير ذلك من وجوه الفواحش وليس ثمة أدلة ظاهرة تقتضي ذلك - ومثل هذا الظن حرام ومنهي عنه في دين الله - فما ينبغي لمسلم يقظ نبيه أن يسارع في اتهام المسلمين، وقذفهم بالسوء من المنكرات والفواحش - وإنما المسلم بطبعه وحقيقته لهو خاشع حريص، آخذ بالاحتياط والحذر، مجتنب لسوء الظن بإخوانه المسلمين، بل إنه يبادر بتلمس المعاذير لإخوانه عما يقال في حقهم أو ينسب إليهم من سوء الأقاويل والشبهات - وفي ذلك روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا وأنت تجد لها في الخير محملا - وروى ابن ماجه عن عبد الله ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: " ما أطيبك وأطيب ريحك - ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمه المؤمن أعظم عند الله تعالى منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ".

وفي التنديد بالظن والتحذير من التلبس به روى أبو هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا ".
وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن " فقال رجل: وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال صلى الله عليه وسلم: " إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض " وروى الإمام أحمد عن عقبة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موءودة من قبرها ".

قوله: {إن بعض الظن إثم} فهو لم ينه عن الظن كله، فقد أذن الله للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض خيرا - بل نهى الله عن بعض

الظن وهو ما كان في الشر - فيكون المعنى: إنّ ظن المؤمن بالمؤمن الشر لا الخير، إثم منهي عنه.
قوله: {ولا تجسسوا} من التجسس - وهو تتبع الأخبار لمعرفتها - أو الفحص عن بواطن الأمور - والجاسوس الذي يتجسس الأخبار ليأتي بها ١٩ والمعنى المقصود: خذوا ما تبدى لكم من ظواهر الأمور ولا تتبعوا عورات المسلمين لمعرفتها أو كشفها - أو لا يبحث المسلم عن أخيه المسلم ليطلع عليه بعد أن ستره الله - وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته ".
هذه هي محجة ٢٠ الإسلام الناصعة البيضاء، وطبيعته المميزة الفضلى، القائمة على العقيدة الثابتة والخلق الكريم مهما تكن الأحوال والأعراف والظروف - تلك هي طبيعة الإسلام التي لا تتغير ولا بتبدل الأحوال والأزمان والمصالح، بل إن الأحوال والأعراف والملابسات والتصورات جميعا هي التي تدور مع الإسلام حيث دار.
ومثلبة التجسس واحدة من مثالب شتى خسيسة، قد ندد بها أبلغ تنديد، وهي أن يتتبع المرء عورات الناس من المسلمين وغير المسلمين من أجل الوقوف على أخبارهم وأستارهم، وللاطلاع على أسرارهم التي ما ينبغي أن يطلع عليها الآخرون.
إن هذه لهي حقيقة الإسلام العظيم الذي ينفذ إلى دخائل النفس البشرية فيطهرها بالعقيدة تطهيرا ويهذبها بأحكامه وآدابه أكمل تهذيب، لتكون نقية سليمة من الغش والكذب والخداع والنفاق وأدران القلوب - ويخالف ذلك تماما هذه الحضارات المادية المعاصرة الكنود التي تستند في بقائها وثباتها ومكثها وقوتها -إلى حد عظيم- على التجسس والخيانة والاحتيال وتتبع عورات البشر وكشف عيوبهم وأخبارهم، والغوص إلى صميم أستارهم وأسرارهم التي فرض الله أن تستر - ومن أفظع ما اصطلحت عليه أعراف الدول المادية في العصر الراهن هذا المصطلح الرهيب المقبوح المسمى (المخابرات) لا جرم أنه مصطلح مشؤوم ومنكود تنزف منه أخلاط شتى من معاني الشر والشؤم والإرهاب والخيانة والعار والفضائح وكشف العورات والأستار للبشر - إن ذلكم لهو عنوان الحضارات المادية الظالمة في هذا الزمان - حضارات جاحدة جائرة لا تستند إلى حق أو منطق أو ضمير أو عقيدة صحيحة سليمة إنما تستند إلى القوة والإرهاب والبطش والتنكيل والإباحية والشهوات - وذلك كله بخلاف الإسلام الذي يرسخ الواقع البشري على قواعد من الحق والعدل والصدق والبر والرحمة والوضوح في غير ما خداع ولا جور ولا نفاق ولا كذب ولا تجسس.
قوله: {ولا يغتب بعضكم بعضا} وهذه ذميمة أخرى نكراء بالغة الفحش والسوء، قد نهى الله عنها أشد النهي وتوعد المتلبسين بها بالنكال وسوء المصير - وهي أن يذكر المرء بما فيه مما يحزنه أو يغضبه، فإن ذكر بما ليس فيه فذلك البهتان وهو أشد وأنكى - وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أتدرون ما الغيبة؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم - قال: " ذكرك أخاك بما يكره " قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه " فتكلم هي الغيبة، وأشد منها الإفك والبهتان - فأما الغيبة، فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه - وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه - وأما البهتان فهو أن تقول فيه ما ليس فيه.
والغيبة: وهي من أشد الكبائر وأفحشها قد شدد الإسلام عليها النكير وندد بالمغتابين الآثمين أعظم تنديد، فقد روي عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة - فقال صلى الله عليه وسلم: " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " قوله: {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه} لقد شبه الله الغيبة بأكل الميتة - قال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة، لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس - والمعنى: كما تكرهون الأكل من لحم إخوانكم ميتين فاكرهوا غيبتهم أحياء - والمراد بهذا المثل، التنفير من الغيبة والتحذير من الخوض في أعراض الناس فإن ذلك فظيع الإثم، شديد النكر، فقد روى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه: " كل المسلم على المسلم حرام، ماله وعرضه ودمه " - وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه

ولو في جوف رحله " - وروى أبو هريرة أن ماعزا الأسلمي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنا فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم - فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب فسكت عنهما - ثم سار ساعة حتى مرّ بجيفة حمار شائل برجله فقال: " أين فلان وفلان؟ " فقالا: نحن ذا يا رسول الله - قال: " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا؟! - قال: " فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " على أن غيبة الفاسق المجاهر بفسقه غير منهي عنها - وإنما الغيبة في المرء الذي يصون نفسه عن الفواحش ويستر نفسه عن الموبقات والشبهات - وروي عن الحسن البصري أنه قال: ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر - وعنه أنه قال: ليس لأهل البدع غيبة - وفي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " مطل الغني ظلم " - وقال: " ليّ الواجد يحل عرضه وعقوبته ".

وكذلك الاستفتاء فإنه ليس بغيبة، كقول هند للنبي صلى الله عليه وسلم: " إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فآخذ من غير علمه؟ - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " نعم فخذي ".

قوله: {واتقوا الله إن الله تواب رحيم} أي خافوا الله وامتثلوا ما أمركم به واجتنبوا مانهاكم عنه - وهو سبحانه يتوب على من تاب فيغفر الذنوب والخطايا لمن أناب إلى ربه مستغفرا - وهو رحيم بالمؤمنين التائبين فلا يعاقبهم بعد أن تابوا وأنابوا ٢١.

١٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: {ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير}.

قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس، وقوله في الرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من الذاكر فلانة؟ " فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله - فقال: " انظر في وجوه القوم " فنظر، فقال: " ما رأيت يا ثابت؟ " فقال: رأيت أبيض وأحمر وأسود - قال: " فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى " فأنزل الله تعالى الآية.

وقيل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا حتى أذّن على ظهر الكعبة - فقال عتّاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم - وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا؟ وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء - فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا، فأقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية - وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ٢٢.

والمعنى المراد - أن الناس جميعا أصلهم واحد، فأبوهم آدم وأمهم حواء فلا يفضل أحد الناس غيره إلا بالتقوى - وإنما المدار في كل الأحوال والأزمان والأعراف على التقوى دون غيرها من قياسات البشر وأهوائهم واعتباراتهم - وفي هذا روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال: " يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها - فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله - والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب " - قال الله: {ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} والشعوب جمع شعب وهو ما تشعب من قبائل العرب والعجم - وهو أيضا القبيلة العظيمة - وقيل: أكبرها الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ٢٣.

لقد جعل الله الناس هكذا ليتعارفوا أو ليعرف بعضهم بعضا في النسب والقرابة فيتسمى كل واحد باسمه ونسبه ويرد إلى قبيلته أو شعبه أو فصيلته فيقال: فلان ابن فلان من كذا أو كذا، أي من قبيلة كذا و كذا - فما ينبغي أن يكون ثمة فوضى في الذراري والقربات والأنساب بل يرجع كل واحد إلى من ينتسب إليهم من الآباء والقبائل والعائلات دون لبس أو خلط أو تدليس أو فوضى - وذلكم هو الوضع الحقيقي السليم للبشر ومن بعد ذلك إنما تكون المقادير والاعتبارات والقياسات تبعا للتقوى - وهو قوله سبحانه: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} فخير الناس وأفضلهم وأقربهم إلى الله أكثرهم تقوى - والمراد بالتقوى: الخوف من الله ثم التزام أوامره واجتناب

نواهيه - وهذه حقيقة تتجلى كثيرا فيما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث - منها ما روي أنه صلى الله عليه وسلم خطب بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: " أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى - ألا هل بلّغت؟ " قالوا: نعم - قال: " ليبلغ الشاهد الغائب " وروى مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ".

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله ".

وروى البزار في مستنده عن حذيفة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان ".

قوله: {إن الله عليم خبير} الله عليم بأحوال العباد وأخبارهم وما تكنه صدورهم من الخوافي وما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال وهو سبحانه لا تخفى عليه البواطن والظواهر ٢٤.

١٤ - (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم ١٤ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ١٥ قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ١٦ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ١٧ إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون}.

نزلت في أعراب من نبي أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر وأفسدوا طرق المدينة بالغدرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ٢٥ {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} يعني دخلنا في الملة لحفظ الأنفس والأموال بالشهادة - أو دخلنا في السلم وتركنا المحاربة والقتال وذلك بقبولهم: لا إله إلا الله - فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " فهؤلاء الأعراب قد دخلوا في الإسلام وزعموا أنهم آمنوا ولم يتمكن الإيمان واليقين في قلوبهم ولم تترسخ العقيدة في أعماقهم.

ويستفاد من ذلك أن الإيمان أخص من الإسلام وهو الذي عليه أهل السنة - وفي الحديث الذي رواه أنس ما يؤيد ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " الإسلام علانية والإيمان في القلب ".

قوله: {وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا} إن أطعتم الله فيما أمر وانتهيتم عما نهى عنه وزجر واتبعتم رسوله وأطعتموه في أوامره ونواهيه فإنه سبحانه يجزيكم ثوابكم كاملا ولا ينقصكم منه شيئا.

قوله: {إن الله غفور رحيم} الله جل جلاله، يعفو عن المذنبين التائبين من عباده - وهو رحيم بهم فلا يعاقبهم بعد متابهم من الذنوب.

١٥ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

قوله: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} يبين الله

للأعراب في هذه الآية أن المؤمنين الصادقين هم الذين تتجلى فيهم جملة حقائق من اليقين والطاعة والجهاد في سبيل الله - والمعنى: أن المؤمنين الصادقين هم الذين وقر الإيمان بالله في قلوبهم وصدّقوا رسول الله فيما أنزل إليه من ربه ولم يخالط قلوبهم في ذلك شيء من شك أو ارتياب والتزموا شرع الله ومنهجه للعالمين وجاهدوا في سبيل الله لإظهار دينه وإعلاء شأن الإسلام فبذلوا في ذلك الأموال والمهج - أولئك هم المؤمنون الصادقون في قولهم {آمنا}.

١٦ - (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: {قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات و ما في الأرض} أي قل لهؤلاء الأعراب الذين يزعمون أنهم مؤمنون: أتعلمون الله أنكم مؤمنون؟ أو أتخبرون الله بحقيقة أمركم وما أنتم عليه وهو سبحانه عليم بما في قلوبكم وبما تخفونه في صدوركم من نوايا - وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء، العليم بكل أخبار السماوات والأرض {والله بكل شيء عليم} عليم بما في الضمائر والأسرار لا يخفى عليه من أخبار الكون شيء.

١٧ - (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {يمنون عليك أن أسلموا} يعني يمن عليك هؤلاء الأعراب بإسلامهم وعدم مقاتلتهم لك {قل لا تمنوا علي إسلامكم} أي لا تمنوا علي بأنكم أسلمتم وإنما جزاء إسلامكم وعاقبته من الخير والنفع، والسداد كل ذلك عائد إليكم {بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان} ما ينبغي أن تكون لكم المنة علي بإسلامكم وإنما الذي يمن عليكم هو الله، فهو المنان بذلك، إذ وفقكم للهداية والإيمان {إن كنتم صادقين} إن كنتم تصدقون فيما تزعمون بأنكم آمنتم.

١٨ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله: {إن الله يعلم غيب السماوات والأرض} الله عليم بأخبار السماوات والأرض وهو سبحانه علام الغيوب ويعلم ما تخفونه في صدوركم من إيمان أو نفاق {والله بصير بما تعملون} الله يبصر ما تعملونه من طاعة أو معصية، في السر أو العلن ٢٦.

٥٠ سورة ق:

سورة ق:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية، وآياتها خمس وأربعون - وهي حافلة بألوان التذكير والتحذير والترهيب - وفيها من مختلف العبر والمواعظ والمشاهد والآيات ما يقرع القلب والوجدان ويزلزل الفرائض والأبدان، ويأتي في طليعة ذلك كله التنبيه إلى أحداث يوم القيامة وما يقع حينئذ من شديد الأهوال والفظائع - لا جرم أن هذه أحداث كونية رهيبة تفوق التصور والحس وهي آتية لا محالة.

إلى غير ذلك من الأخبار والمواعظ التي تضمنتها آيات ربانية فذة يتدفق منها جمال النظم الباهر، وتتقاطر منها روعة الأسلوب العجيب المذهل، إن ذلكم لهو الإعجاز.

١ - (ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ق والقرآن المجيد ١ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ٢ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ٣ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ٤ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج}.

يبين الله في هذه الآيات خفة أحلام المشركين وسرعة نكولهم عن الحق لما جاءهم نبي من أنفسهم يدعوهم إلى توحيد الله ويحذرهم الشرك والتكذيب بيوم الحساب لكنهم مع ذلك لجوا في الكفر والتمرد والتكذيب - وفي ذلك يقول سبحانه: {ق والقرآن المجيد} قيل في تأويل " ق " عدة أقوال ليس لها مستند من دليل مقبول - والأصوب من هذه الأقوال أن هذا الحرف كغيره من حروف الهجاء من

فواتح السور، الله أعلم بمراده منها - قوله: {والقرآن المجيد} المجيد: من المجد وهو الكرم، فقد أقسم الله بقرآنه الكريم ذي القدر العظيم، والمنزلة الرفيعة - وجواب القسم محذوف وتقديره: ليبعثن، وقيل: جوابه: لقد علمنا ٠.١

٢ - (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

وقوله: {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم} أي عجب هؤلاء المشركون السفهاء من أن يأتيهم رسول من جنسهم يبلغهم رسالة ربهم ولم يأتهم ملك من الملائكة بهذه الوجيبة {فقال الكافرون هذا شيء عجيب} عجبوا مما جاءهم به من دعوة للإيمان بالله وحده والإيمان بيوم البعث والنشور والحساب - رأوا مثل هذه الحقائق أمرا يتعجب منه - وقيل: كان عجبهم أن يبعث الله إليهم رسولا من البشر وليس من الملائكة.

٣ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

قوله: {أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} الهمزة للإستفهام، وجواب إذا مقدر دل عليه الكلام - وتقديره: أنبعث إذا متنا وكنا ترابا ٢ والمعنى: أن هؤلاء المشركين المكذبين بيوم القيامة يقولون منكرين مكذبين: أئذا متنا وكنا في التراب نخرة وصرنا حطاما ورفاتا، هل نبعث بعد ذلك لنكون أحياء كما كنا قبل الممات {ذلك رجع بعيد} إن ذلكم بعيد الحصول - أو بعيد عن الأفهام والعقول.

٤ - (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)

قوله: {قد علمنا ما تنقص الأرض منهم} أي نعلم ما تأكل الأرض من أجساد هؤلاء الجاحدين المكذبين، وإذ تبلى وتتفرق وتتبدد - نعلم إلى أين يصير رفاتهم وذرات أجسادهم {وعندنا كتاب حفيظ} كتابنا يحفظ أسماءهم وعدتهم وأين تفرقت أبدانهم وجسومهم في الأرض - وهو كتاب باق لا يفنى ولا يضيع.

٥ - (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

قوله: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم} المراد بالحق، القرآن، أو الإسلام أو رسول الله صلى الله عليه وسلم - لقد كذبوا بذلك كله لما جاءهم لهدايتهم وإرشادهم إلى الحق والصواب.

قوله: {فهم في أمر مريج} {مريج} يعني مختلط ٣ - لقد كذب هؤلاء المشركون بما جاءهم من عند الله فهم بذلك مضطربون تائهون سادرون في اللبس والعماية والضلال ٤ وتلك هي حال المكذبين بيوم الدين، الناكبين عن شريعة الله ومنهجه للعالمين، لا جرم أن يذوقوا وبال أمرهم من الضلال والحيرة والاضطراب، وفي الآخرة يردون إلى عذاب الجحيم.

٦ - (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

قوله تعالى: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ٦ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ٧ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ٨ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ٩ والنخل باسقات لها طلع نضيد ١٠ رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج}.

ذلك تنبيه من الله للناس على بالغ قدرته وأنه فعال لما يريد، فهو سبحانه خالق السماء ذات البناء المنتظم المكين، وباسط الأرض وما عليها من أصناف النبات - وهذه الإشارة جلية إلى إحياء الموتى الموتى وبعثهم للحساب - وهو قوله سبحانه: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها} أفلا يتدبرون ويتفكرون في خلق السماء ببنائها الرصين الهائل وما بث في أرجائها من كواكب ونجوم وغير ذلك من مختلف الأجرام والخلائق وذلك في غاية الانتظام والإحكام {وما لها من فروج} ليس في خلق السماء من شقوق ولا اضطراب وإنما جاء خلقها بقدرة الله البالغة في غاية الدقة والصيانة والإحكام.

٧ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

قوله: {والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي} أي بسطنا الأرض وجعلنا فيها جبالا مركوزة ثوابت لتستقر الأرض وتثبت فلا تضطرب

أو تمور {وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج} أنبت الله في الأرض من جميع أصناف النبات والزرع والثمر وبمنظره الحسن وصورته الخلابة.
٨ - (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

قوله: {تبصرة وذكرى لكل عبد منيب} {تبصرة} منصوب على أنه مفعول له ٥ أي سخرنا ذلك كله لعقولكم وأفهامكم فتتفكروا وتتدبروا ويكون ذلك دلالة لكم وبرهانا على كمال قدرتنا، وتنبيها {لكل عبد منيب} أي لكل امرئ مؤمن متدبر خائف من الله، راجع إليه بقلبه.
٩ - (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

قوله: {ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد} يمن الله على عباده أن نزل إليهم من السماء {ماء مباركا} أي مطرا يفضي إلى الخير والسعة والنماء والبركة فأنبت به البساتين ذات الثمرات البهيجة {وحب الحصيد} وهو الزرع الذي يحصد فيدخر ويقتات.
١٠ - (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

قوله: {والنخل باسقات لها طلع نضيد} {باسقات} طوال ٦ والطلع ما يطلع من النخلة ثم يصير ثمرا إن كانت أنثى ٧ والنضيد، يعني المحمول بعضه على بعض ٨ والمعنى: وأنبت الله بالماء المبارك، هذه النخل بأشجارها الطوال ذات الطلع النضيد، أي المتراكب الذي يحمل بعضه على بعض وهو في أكمامه.
١١ - (رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)

قوله: {رزقا للعباد} {رزقا} منصوب لوجهين: لكونه مفعولا له - ولكونه مصدرا ٩ أي أنبتنا ذلك رزقا لهم - أو أنبتناه لرزقهم فينتفعون به {وأوحينا به بلدة ميتا} يعني أحيي الله بماء السماء والأرض بعد جدبها وقحوطها فأنبت فيها الزرع والثمر.

قوله: {كذلك الخروج} الكاف في محل رفع على الابتداء، أي كما أحيينا هذه البلدة الميتة بالمطر كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ١٠ وذلك برهان من الله ظاهر للعيان، يدركه كل ذي عقل ونظر - وهو أن محيي الأرض بالزرع والخضرة والحياة بعد قحطها ويبسها، لهو الذي يحيي العظام وهي رميم ليبعث الناس من قبورهم يوم الحساب.
١٢ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)

قوله تعالى: {كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود ١٢ وعاد وفرعون وإخوان لوط ١٣ وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ١٤ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد}.

يحذر الله هؤلاء المشركين أن يضلوا كما ضل المشركون السابقون من قبلهم فيحيق بهم العذاب والنكال كما حق بأولئك السابقين.

والمعنى: كذبت قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، أمم سابقة، إذ جحدت رسلها واتخذت مع الله آلهة وأندادا وهم: قوم نوح الذين أخذهم الطوفان، وأصحاب الرس الذين رسوا نبيهم في بئر فقتلوه، وثمود، قوم صالح الذين عقروا الناقة وعصوا رسول ربهم فجاءهم من الله ريح عاصف تدمر عليهم كل شيء - وقوم لوط الذين أهلكهم الله وقطع دابرهم، وأصحاب الأيكة وهي الغيضة ذات الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، وقوم تبع، وهو تبع الحميري.
١٣ - (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ)

قوله: {وعاد وفرعون وإخوان لوط} يحذر الله هؤلاء المشركين أن يضلوا كما ضل المشركون السابقون من قبلهم فيحيق بهم العذاب والنكال كما حق بأولئك السابقين.

والمعنى: كذبت قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، أمم سابقة، إذ جحدت رسلها واتخذت مع الله آلهة وأندادا وهم: قوم نوح الذين أخذهم الطوفان، وأصحاب الرس الذين رسوا نبيهم في بئر فقتلوه، وثمود، قوم صالح الذين عقروا الناقة وعصوا رسول ربهم فجاءهم من الله ريح عاصف تدمر عليهم كل شيء - وقوم لوط الذين أهلكهم الله وقطع دابرهم، وأصحاب الأيكة وهي

الغيضة ذات الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، وقوم تبع، وهو تبع الحميري.
١٤ - (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)
قوله: {وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد}{ يحذر الله هؤلاء المشركين أن يضلوا كما ضل المشركون السابقون من قبلهم فيحيق بهم العذاب والنكال كما حق بأولئك السابقين.
والمعنى: كذبت قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، أمم سابقة، إذ جحدت رسلها واتخذت مع الله آلهة وأندادا وهم: قوم نوح الذين أخذهم الطوفان، وأصحاب الرس الذين رسوا نبيهم في بئر فقتلوه، وثمود، قوم صالح الذين عقروا الناقة وعصوا رسول ربهم فجاءهم من الله ريح عاصف تدمر عليهم كل شيء - وقوم لوط الذين أهلكهم الله وقطع دابرهم، وأصحاب الأيكة وهي الغيضة ذات الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، وقوم تبع، وهو تبع الحميري - قوله: {كل كذب الرسل فحق وعيد} كل أولئك الأمم والأقوام كذبوا رسل الله - فتكذيب الأمة رسولها معناه تكذيبهم المرسلين أجمعين - وبذلك وجب لهم من الله الوعيد بالنكال وسوء المصير.
١٥ - (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)
قوله: {أفعيينا بالخلق الأول} الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ - والمعنى: أفعجزنا عن إنشاء الخلق الأول من قبل أن يكون شيئا حتى نعجز عن خلقهم مرة أخرى بعد موتهم لنبعثهم للحساب {بل هم في لبس من خلق جديد} بل هم في شك من البعث أو من قدرة الله على خلقهم من جديد.
١٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)
قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ١٦ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ١٧ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ١٨ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ١٩ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ٢٠ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ٢١ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}.
هذه جملة آيات تحمل في مضمونها فيضا من مختلف المشاهد والأخبار والمعاني، ما بين تحذير وتنبيه وترهيب وتذكير.
آيات بينات تثير اليقظة في الذهن، وتنشر الذهول في النفس والخيال، وتنفذ إلى أعماق الفطرة لتؤزها وتهيج فيها التنبه والذعر - آيات مثيرة عجاب يفيض منها الجمال والعذوبة والترويع في آن - وذلكم هو القرآن بأسلوبه الفريد وخصائصه العجيبة، إن ذلكم لهو الإعجاز -
قوله: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه} الوسوسة هي حديث النفس ١١ فالله خالق الإنسان وهو أعلم بمن خلق - وهو سبحانه علام الغيوب فلا يخفى عن علمه وإحاطته شيء - وما يستكن في أعماق الإنسان من أسرار وخفايا لا يعزب عليه منه شيء، حتى الوسوسة وهي ما تتحدث به النفس لذاتها يعلمها الله.
قوله: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} الله أقرب للإنسان من كل شيء، بل إنه أقرب من نفسه لنفسه - و {الوريد}، معناه الوتين وهو عرق موصول بالقلب إذا انقطع مات صاحبه - وقيل: هو الودج ١٢ وهذا تمثيل يبين مدى القرب، أي أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل وريده أو من قلبه إلى نفسه، فالله محيط بالإنسان كله، عليم بأحواله وأسراره جميعا.
١٧ - (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)
قوله: {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد} {المتلقيان} هما الملكان عن يمين الإنسان وشماله، يكتب أحدهما حسناته ويكتب الآخر سيئاته - والتلقي معناه الأخذ - و {قعيد} أي قاعد أو مقاعد أو مترصد، أي كل من الملكين مجالس للإنسان يرقب سلوكه وتصرفاته فيكتب ما يقول وما يفعل من خير أو شر، والمعنى: أننا قريبون من ابن آدم، مطلعون على أحواله وأفعاله وأخباره، وإن حفظتنا الكتبة موكلون به وهم يلازمونه ولا يبرحونه ويكتبون كل ما يصدر عنه من قول أو فعل - و {قعيد}، مرفوع على أنه خبر عن الثاني - وحذف {قعيد} من الأول - وتقديره: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد - فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه - وقيل

غير ذلك ١٣.
١٨ - (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)
قوله: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} يعني ما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ومعه {رقيب}، وهو ملك يرقب قوله فيكتبه - و {عتيد}، وهو الحاضر المهيأ ١٤.
واختلف أهل التأويل، هل يكتب الملك كل شيء من الكلام - ثمة أقوال في ذلك - فقد قيل: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى الأنين في مرضه، فقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله - وقيل: لا يكتب إلا ما يؤجر به المرء أو يؤزر عليه - وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به حتى إذا كان آخر النهار محي عنه ما كان مباحا مما لا علاقة له بالأجر أو الوزر.
١٩ - (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)
قوله: {وجاءت سكرة الموت بالحق} {سكرة الموت} أي غمرته وشدته وما يغشى المرء من فظاعة الكرب إذا أتته الملائكة لانتزاع روحه - وحينئذ يظهر له اليقين وينكشف له الحق الذي كان يماري فيه - وهو وعد الله ووعيده.
قوله: {ذلك ما كنت منه تحيد} يقال للمرء إذا غشيه الموت بسكراته الفظيعة: ذلك الذي كنت تعدل عنه وتفرّ منه ولا تعبأ به - فها هو قد جاءك فلا مناص عنه ولا محيد - وقيل: {ما} نافية، أي ذلك ما لا يستطيع مجانبته والحيدة عنه.
فهذه هي غمرة الموت بشدتها وفظاعتها تغشى الناس عند الاحتضار فتذهب بالعقول وتثير الهول والذهول - ويكشف عن هذه الحقيقة الرهيبة ما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول " سبحان الله، إن للموت سكرات ".
٢٠ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)
قوله: {ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد} ينفخ الملك في البوق، إيذانا بزوال الدنيا وقيام الساعة - والمراد بالنفخة هنا - على الأظهر- الثانية - وهي النفخة التي يبعث الله الناس فيها أحياء، إذ يخرجون من قبورهم ثم يساقون إلى الحشر ثم إلى الحساب - ولا جرم هذا أوان الشدائد والأهوال التي تغشى البشرية كافة ليجد الناس من ألوان الذعر والأفزاع والبلايا ما يشيب لهوله الولدان {ذلك يوم الوعيد} أي اليوم الذي توّعد الله فيه المجرمين بالعقاب وسواء الجزاء.
٢١ - (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)
قوله: {وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} السائق والشهيد ملكان من الملائكة، أحدهما: يسوق الإنسان إلى الحشر، أو يسوقه إلى الله - وثانيهما: يشهد عليه بما عمل.
٢٢ - (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)
قوله: {لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك} والمخاطب الإنسان سواء كان برا أو فاجرا، إذ يقال له إذا سيق إلى الحشر: لقد كنت غافلا عن هذا اليوم وما فيه من الأهوال فأظهرناه لعينيك فعاينته فأنت اليوم نافذ البصر - أو ذو بصر نافذ قوي ١٥.
٢٣ - (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ)
قوله تعالى: {وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد ٢٣ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ٢٤ مناع للخير معتد مريب ٢٥ الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد ٢٦ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ٢٧ قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد ٢٨ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}.
ذلك كله كائن يوم الحساب يوم يصير الخاسرون الأشقياء إلى مصيرهم الرهيب - وحينئذ لا يجدون لأنفسهم مفرا ولا منجاة - وذلك قوله سبحانه: {وقال قرينه هذا ما لدي عتيد} والمراد بقرينه، الملك الموكل به إذ يقول: {هذا ما لدي عتيد} يعني هذا الذي وكلت به من كتابة أعماله معد ومحفوظ.

٢٤ - (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)
قوله: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} المخاطبان، السائق والشهيد، فالسائق جاء به إلى الحساب، والشهيد يشهد عليه بما عمل في الدنيا - وعقب ذلك يأمرهما الله بإلقاء هذا الشقي الخاسر في جهنم - وهو قوله: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} أي كثير الكفر، شديد المعاندة.
٢٥ - (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ)
قوله: {مناع للخير} شحيح كزّ لا يؤدي ما عليه من حقوق مفروضة كالزكاة والإنفاق وغير ذلك من واجبات {معتد} أي يعتدي على الناس بفحش كلامه وبذاءة لسانه وسوء بطشه بيده {مريب} يعني مرتاب في وحدانية الله - ويدل على ذلك قوله تعالى: {الذي جعل مع الله إلها آخر}.
٢٦ - (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)
قوله: {الذي جعل مع الله إلها آخر} أي عبد مع الله آلهة أخرى {فألقياه في العذاب الشديد} تأكيد للأمر الأول وهو إلقاؤه في جهنم.
٢٧ - (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)
قوله: {قال قرينه ربنا ما أطغيته} هذا قول قرينه من شيطان الجن، إذ يتبرأ منه ومما عمل بعد أن أضله وأراده في الهاوية.
قوله: {ولكن كان في ضلال بعيد} لقد كفر وأعرض عن الحق باختياره، وإنما دعوته فاستجاب لي.
٢٨ - (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)
قوله: {لا تختصموا لدي} بعد أن يختصم الآدمي الظالم لنفسه، وقرينه الشيطان إذ يقول الأول: هذا الذي أضلني عن الذكر، ويتبرأ منه الآخر، يقول الرب جل وعلا: {لا تختصموا لدي} يخاطب بذلك المشركين الخاسرين وقرناءهم من الشياطين الذين أضلوهم {وقد قدمت إليكم بالوعيد} يعني وقد أعذرت إليكم بما بينته لكم من البراهين والدلائل مما حوته الكتب المنزلة وما جاء به النبيون المرسلون الذين أنذروكم لقاء يومكم هذا.
٢٩ - (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)
قوله: {ما يبدل القول لدي} أي لا تبديل لقولي {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}.
قوله: {وما أنا بظلام للعبيد} أي لا أعذب أحدا بغير ذنب، أو لا أعذب أحدا بجرم غيره بل بما اكتسب من الإثم ١٦.
ثم يتوعد الله الظالمين بعذاب جهنم - وهي نار الله الحامية المتسعرة التي تزداد على مر الزمان لهيبا واضطراما، والتي لا تفتأ تلح في الطلب أن يلقى فيها وقودها من البشر فتقول {هل من مزيد} ثم يبشر الله المؤمنين المتقين بالجنة ليخلدوا فيها آمنين منعمين مطمئنين - وذلك كله في الآيات التالية وهي:
٣٠ - (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)
قوله تعالى: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ٣٠ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ٣١ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ٣٢ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ٣٣ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ٣٤ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد}.
قوله: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت} {يوم} منصوب بفعل مقدر، أي وأنذرهم {يوم نقول لجهنم هل امتلأت} وذلك أن جهنم موعودة من الله أن يملأها من أعدائه الجاحدين - والنار بتوقدها المتسعّر ولظاها المتأجج المضطرم دائمة التغيظ من الجاحدين المكذبين فهي تتربص بهم لالتهامهم وتحريقهم - وهي كلما ألقمت فوجا من العصاة المكذبين استزادت وهتفت {وتقول هل من مزيد}.
٣١ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)
قوله: {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} أي أدنيت الجنة من المؤمنين أهل التقوى، فهي غير بعيدة منهم.
٣٢ - (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

قوله: {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ} يقال لهم: هذا العطاء العظيم ما وعدتموه في الدنيا جزاء إيمانكم وطاعتكم {لكل أواب حفيظ} الأواب، معناه التائب الرجاع إلى الله عن المعاصي - وقيل: الكثير التوبة والاستغفار - والحفيظ، الذي يحفظ ما استودع من الحقوق والأمانات - وقيل: الذي يحفظ حق الله فيعترف لله بفضله، ويشكره على أنعمه.

٣٣ - (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

قوله: {من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب} {من} مبني على السكون في موضع جر، على البدل من {لكل أواب} وقيل: في موضع رفع، على الاستئناف - وخشية الرحمن بالغيب: أن يخشى المرء ربه ولم يره {وجاء بقلب منيب} أقبل على الله بقلب خاشع راجع مخلص.

٣٤ - (ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

قوله: {ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود} يقال يوم القيامة للمؤمنين المتقين الذين أخلصوا دينهم لله: ادخلوا الجنة آمنين سالمين من العذاب - فذلك اليوم الذي تدخلون فيه الجنة لتقيموا فيها آبدين، وتمكثوا فيها لابثين لا تخرجون.

٣٥ - (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

قوله: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} لهم من النعم والخيرات والبركات في الجنة ما لم يخطر على قلب بشر - ولهم فوق ذلك {مزيد} والمزيد معناه النظر إلى وجه الله تعالى - لا جرم أن النظر إلى وجهه الكريم لهو غاية التنعم والابتهاج، وخير ما يجده المحبورون في جنات الخلد ١٧.

٣٦ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

قوله تعالى: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص ٣٦ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ٣٧ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب}.

ذلك تحذير من الله يخوف به المشركين مما حل بالمكذبين من قبلهم أولئك الذين جحدوا الرسالات وكذبوا باليوم الآخر فأتاهم العذاب والتدمير - وهو قوله: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا} يعني أهلكنا من قبل هذه الأمة كثيرا من الضالين السابقين وقد كانوا أعظم قوة وبطشا من هؤلاء {فنقبوا في البلاد} أي طافوا البلاد مدبرين هاربين يلتمسون المفر والملجأ ليقيهم من العقاب {هل من محيص} أي انظروا هل كان لهم من مهرب من الموت أو العقاب.

٣٧ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

قوله: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب} يعني فيما ذكرناه في هذه الآيات من عظيم الأخبار والمواعظ، وألوان الترهيب والتحذير، لتذكرة وعبرة لكل ذي عقل يتفكر به ويتدبر {أو ألقى السمع وهو شهيد} أي استمع القرآن وهو حاضر القلب والذهن - فما في هذه السورة وغيرها من القرآن من صور التخويف والتحذير والترشيد، وألوان الزجر والتنبيه إنما ينتفع به ويتعظ منه الذين يستمعون القرآن في تدبر وادراكا واستبصار - أما الذين يسمعونه وقلوبهم لاهية عنه إلى التفكر في أمور الدنيا ومشاغلها ومشكلاتها، فأنى لهم أن ينتفعوا بالقرآن أو يتعظوا به أو يزدجروا.

٣٨ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

قوله: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ذكر أن هذه الآية نزلت في يهود المدينة، إذ زعموا أن الله سبحانه خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فجعلوا السبت راحة - وسبحانك اللهم، هذا كذب وافتراء - وحاشا لجلاله سبحانه أن يعيا بخلق السماوات والأرض أو يمسه بخلقهن شيء من تعب - فقد خلق الله الخلق كله وما مسه في ذلك {من لغوب} وهو الإعياء والتعب ١٨.

٣٩ - (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

قوله تعالى: {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ٣٩ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود}.
يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله الظالمون المكذبون من أقاويل شتى في السفاهة والبذاءة والإيذاء والافتراء وغير ذلك من ضروب الفحش والشرك وإساءة الكلام - والصبر خلق طيب كريم وشيمة رفيعة فضلى، خليق بكل مسلم يدعو إلى دين الله أن يتجلى فيه ذلك، فيحتمل الشدائد ويصبر على البلايا وما يخترصه الجاحدون والسفهاء من مختلف البذاءات والافتراءات والأكاذيب وما يخترصونه على الإسلام والمسلمين من وجوه الباطل والتشويه والافتراء.
قوله: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} أراد بذلك الصلوات الخمس - وقيل: قبل طلوع الشمس يعني صلاة الصبح - وقبل الغروب، صلاة العصر - والمقصود ذكر الله وتسبيحه والصلاة بين يديه في خشوع وإنابة وطاعة.
٤٠ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)
قوله: {ومن الليل فسبحه} المراد بذلك تسبيح الله في الليل وذلك بالإكثار من ذكره ودعائه والصلاة بين يديه {وأدبار السجود} يعني الركعتين بعد المغرب - فقد روي عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين " قال أنس: فقرأ في الركعة الأولى {قل ياأيها الكافرون} وفي الثانية {قل هو الله أحد} وعن ابن عباس أيضا أن المراد بذلك، الوتر ١٩.
٤١ - (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)
قوله تعالى: {واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ٤١ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ٤٢ إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير ٤٣ يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ٤٤ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}.
هذه آيات عجاب يتفجر منها التخويف والترهيب وتحمل في نظمها المميز، وكلماتها المثيرة من أخبار القيامة وأهوالها وفظائعها ما يفزع القلوب ويزلزل الجسوم والأبدان ويهيج الرهبة والوجوم - أخبار مذهلة مثيرة، وأحداث كونية عجاب تغشى الوجود كله عقب النفخة الثانية إيذانا بنهاية الدنيا وقيام الساعة - كل ذلك تحمله هذه الآيات الربانية بعباراتها النفاذة المصطفاة وأسلوبها الباهر المذهل الذي ينفذ إلى أعماق الإنسان فيهزه ويؤزّه ويرهبه - وفي ذلك يقول سبحانه: {واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب} أي استمع النداء أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية - والمنادي هو جبريل - وقيل: إسرافيل - وقيل: إسرافيل ينفخ في الصور، وجبريل ينادي لاجتماع العالمين في المحشر - وذلك كله {من مكان قريب} أي سائر الأحياء يسمعون النداء أو الصيحة تصخ آذانهم صخا وتفزع قلوبهم إفزاعا.
٤٢ - (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)
قوله: {يوم يسمعون الصيحة بالحق} وهي صيحة البعث ليساق الناس إلى المحشر حيث الزحام والتنادي والحساب {ذلك يوم الخروج} أي خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الممات ليناقشوا الحساب.
٤٣ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)
قوله: {إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير} الله الذي يميت ثم يحييهم ليبعثهم من قبورهم بعد أن كانوا حطاما - فهم بذلك صائرون إلى الله لا محالة.
٤٤ - (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)
قوله: {يوم تشقق الأرض عنهم سراعا} أي نفخ الملك في الصور نفخة البعث تشققت الأرض عمن فيها من الخلائق فخرجوا مسرعين مذعورين متوجهين نحو الصيحة.
قوله: {ذلك حشر علينا يسير} إحياء الناس وجمعهم إلينا أمر هين علينا وسهل.
٤٥ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

قوله: {نحن أعلم بما يقولون} الله عليم بما يقولونه من تكذيبك وإيذائك بالشتم والافتراء والتقوّل والتخريص.
قوله: {وما أنت عليهم بجبار} أي لست يا محمد بمتسلط على الناس فتحملهم على الدخول في الإسلام حملا أو تقسرهم على ذلك قسرا - فلست إلا منذرا فتبلغهم دعوة الحق وتبين لهم ما أنزل إليهم من ربهم وتحذرهم الكفر والعصيان وسوء المصير.
قوله: {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} القرآن أعظم ما أنزل على البشرية من وجوه الذكرى - بل إنه أكبر ما حواه الوجود من صور التذكير للإنسان - ذلك أن القرآن بأسلوبه الخاص وبنظمه الكريم المعجز، وكلماته الموحية النفاذة وإيقاعه الشجي العذب وجرسه الخفي الأخاذ وغير ذلك من وجوه الأخبار والترويع والتحذير والترهيب، كل أولئك ينبغي أن يتذكر به من يخشى الله ويخاف عذابه ليتعظ به ويستقيم ٢٠.

٥١ سورة الذاريات:

سورة الذاريات:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية، وآياتها ستون - وفيها تركيز على الإيمان بالله خالق كل شيء، والتحذير من عقابه الذي يصيب به الفاسقين المعرضين عن منهج الله - والسورة مبدوءة بالقسم العظيم من الله بأجزاء من خلقه على أن وعده من الثواب والعقاب والحساب حق وصدق لا ريب فيه.
وفي السورة وصف سريع ومقتضب لأحوال الظالمين السابقين الذين عصوا رسل ربهم وضلوا السبيل فأهلكهم الله بذنوبهم وعصيانهم - ومنهم قوم لوط الذين جعل الله عاليهم سافلهم، وقوم فرعون الذين أخذوا بالتغريق، وقوم عاد الذين أهلكوا بالريح العقيم، قوم ثمود الذين أخذتهم الصيحة، وقوم نوح الذين أتى عليهم الطوفان فقطع دابرهم.
وفي السورة إعلان من الله يبين فيه علة خلق العالمين وهي عبادة الله وحده والإذعان لجلاله بالخضوع والطاعة {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} إلى غير ذلك من صور التذكير والعبر والأخبار.
١ - (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والذاريات ذروا ١ فالحاملات وقرا ٢ يوم فالجاريات يسرا ٣ فالمقسّمات أمرا ٤ إنما توعدون لصادق ٥ وإن الدين لواقع ٦ والسماء ذات الحبك ٧ إنكم لفي قول مختلف ٨ يؤفك عنه من أفك ٩ قتل الخراصون ١٠ الذين هم في غمرة ساهون ١١ يسئلون أيان يوم الدين ١٢ يوم هم على النار يفتنون ١٣ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون}.
يقسم الله بأجزاء من خلقه - فقد أقسم ههنا بالذاريات وهي الرياح - وأقسم بالحاملات وقرا، وذلكم السحاب الذي يحمل قطرات المطر ليسوقه إلى مختلف البلدان والأقاليم - وكذلك أقسم بالجاريات يسرا، وهي السفن المحملة بالعباد والأمتعة، والتي تجري على سطح الماء في سهولة ولين، وذلك بما بثه الله في الأجسام من خاصية الطفو على سطح الماء - ثم أقسم الله بالمقسّمات أمرا، وهي الملائكة تحمل الأمر من السماء إلى الأرض على اختلافه ما بين خصب وقحط وسعة وفقر ونصر وهزيمة وولادة وموت، وغير ذلك من وجوه الحوادث والأمور - ويدل على هذا التأويل مما تقدم ما روي عن علي (رضي الله عنه) أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنبأتكم بذلك فقام إليه الكواء فقال: يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى: {والذاريات ذروا}؟ قال علي (رضي الله عنه): الريح.
٢ - (فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا)
قال: {فالحاملات وقرا}؟ قال علي (رضي الله عنه): السحاب.

٣ - (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا)
قال: {فالجاريات يسرا}؟ قال (رضي الله عنه): السفن.
٤ - (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا)
قال: {فالمقسمات أمرا}؟ قال (رضي الله عنه): الملائكة.
٥ - (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)
قوله {إنما توعدون لصادق} يقسم الله جل جلاله بما تقدم من مذكورات على أن ما توعدونه من قيام الساعة والحساب والثواب والعقاب لهو حق وصدق، لا ريب فيه.
٦ - (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)
قوله: {وإن الدين لواقع} الدين، معناه الجزاء النازل بالناس يوم القيامة - فهو كائن أو حاصل لا محالة.
٧ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)
قوله: {والسماء ذات الحبك} وذلك قسم آخر - إذ يقسم الله بجزء من خلقه وهي السماء {ذات الحبك} أي ذات الطرائق كالذي يصيب الماء والرمل إذا أصابته الريح - والحبك، جمع ومفرده حباك وحبيكة وهي الطريقة في الرمل ونحوه - وقيل: الحبك، تكسر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح - وقيل: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته - وقد روي أن عائشة (رضي الله عنها) كانت تحتبك تحت الدرع في الصلاة - أي تشد الإزار وتحكمه ١.
ويمكن الخلوص إلى القول في المراد بالسماء ذات الحبك، أنها السماء المرفوعة ذات البناء المتين والمنظر الحسن والخلق المستوي، الذي لا عوج فيه ولا نفور ولا تفاوت - قال ابن عباس (رضي الله عنهما) في تأويل {والسماء ذات الحبك}: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء.
٨ - (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)
قوله: {إنكم لفي قول مختلف} وهذا جواب القسم - وهو أنكم {لفي قول مختلف} أي إنكم أيها الناس لفي قول مضطرب مختلف في رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه من الحق - فأنتم بين مصدق ومكذب - وقيل: اختلفوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم على أقوال - فقد قيل: إنه شاعر - وقيل: إنه ساحر وقيل: إنه كاهن - وقيل: إنه مجنون - وقيل: بل افتراه بل هو أساطير الأولين.
٩ - (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)
قوله: {يؤفك عنه من أفك} يعني يصرف عن الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن المجيد من صرف - وقيل: يصرف عن الإيمان بذلك أولو القول المختلف الذين قالوا: إنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين.
١٠ - (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)
قوله: {قتل الخراصون} وهذا دعاء على المكذبين المبطلين أي لعن الكذابون الذين يتقولون الأباطيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - والخراصون جمع ومفرده الخراص وهو الكذاب - والخرص، معناه الكذب، وتخرص، كذب ٢.
١١ - (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)
قوله: {الذين هم في غمرة ساهون} أي في جهل وضلالة لاهون غافلون.
١٢ - (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)
قوله: {يسألون أيان يوم الدين} أي يسأل هؤلاء الجاحدون المكذبون، متى يوم الحساب والجزاء - أو متى تقوم القيامة؟ يقولون ذلك على سبيل التكذيب والاستهزاء.
١٣ - (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ)

قوله: {يوم هم على النار يفتنون} يفتنون، من الفتن وهو الإحراق بالنار ٣ يعني، هذا الجزاء الذي يسألون عن زمان وقوعه مكذبين ساخرين، يوم احتراقهم في النار.

١٤ - (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)

قوله: {ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون} أي ذوقوا عذابكم من الحريق فهذا جزاؤكم الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا ٤.

١٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

قوله تعالى: {إن المتقين في جنات وعيون ١٥ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ١٦ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ١٧ وبالأسحار هم يستغفرون ١٨ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ١٩ وفي الأرض آيات للموقنين ٢٠ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ٢١ وفي السماء رزقكم وما توعدون ٢٢ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون}.

يبين الله في هذه الآيات ما أعده للمتقين من حسن الجزاء في جنات النعيم - وذلك بما أحسنوا في حياتهم الدنيا وبما كانوا يعبدون الله ويستغفرونه وبما بذلوه من أموالهم للفقراء والمحاويج - فقال سبحانه: {إن المتقين في جنات وعيون ١٥ آخذين ما آتاهم ربهم} الذين اتقوا ربهم فخافوه وأطاعوه واجتنبوا معاصيه، أولئك يجزيهم ربهم جنات الخلد في الآخرة.

١٦ - (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

قوله: {آخذين ما آتاهم ربهم} فهذه حالهم في الجنة، أنهم يتنعمون فيما أسبغ الله عليهم من وجوه الخير والنعمة في الجنة {إنهم كانوا قبل ذلك محسنين} أي كانوا في الدنيا يؤدون ما عليهم من وجوه الطاعات والقربات - وقد بين ذلك بقوله: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون}.

١٧ - (كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

قوله: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون} يهجعون، ينامون - من الهجوع وهو النوم ليلا - والتهجاع والهجعة يعني النومة الخفيفة في الليل - وقليلا، منصوب، لأنه صفة لمصدر محذوف - وتقديره: كانوا يهجعون هجوعا قليلا.

وما، زائدة - وقيل: مصدرية أو موصولة - أي كانوا قليلا من الليل في هجوعهم - أو ما يهجعون فيه - وقيل: ما، نافية - أي كانوا ينامون قليلا من الليل - أو كانوا قليلا من الليل لا يهجعون ٥ - قال ابن عباس (رضي الله عنهما) في ذلك: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا.

١٨ - (وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

قوله: {وبالأسحار هم يستغفرون} والأسحار جمع سحر، وهو بالفتح، قبيل الصبح ٦ وذلك إطراء من الله لعباده المحسنين فهم يستيقظون آخر الليل من وقت السحر ليستغفروا ربهم ويصلوا خاشعين منيبين ثم يجتهدون في الدعاء فإن الدعاء مع العبادة.

١٩ - (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

قوله: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ذلك إطراء آخر للمؤمنين المحسنين - وهو أنهم يبذلون حقا من أموالهم للسائل والمحروم - والمراد بالحق في أموالهم: الزكاة المفروضة - وقيل: كل حق سوى الزكاة - والأولى أنه ما يفرزه المحسن من ماله فيجعله للسائل والمحروم وغيرهما ممن يجب بذل المال إليه كالرحم والضيف والجار المحتاج.

أما السائل، فهو الذي يسأل الناس لما به من فاقة وعوز، وله حق فقد روى الإمام أحمد عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " للسائل حق وإن جاء على فرس ".

وأما المحروم، فهو المحارف – بفتح الراء- أي المحدود المحروم وهو ضد المبارك - وقد حورف كسب فلان إذا شدد عليه في معاشه كأنه ميل برزقه عنه ٧ والمراد به ههنا الذي ليس له سهم في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها - وقالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه - وقيل: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا، ولا يعلم الناس بحاجته - وفي الحديث: " ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه

ولا يفطن له فيتصدق عليه ".
٢٠ - (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)
قوله: {وفي الأرض آيات للموقنين} يبين الله أن في الأرض علامات ودلائل كثيرة مما خلقه من أصناف النبات والحيوان ومختلف الأجناس والألوان واللغات لدى البشر - وغير ذلك من ظواهر الطبيعة كالجبال والقفار والسهول والأنهار والبحار - كل أولئك دلائل وبينات على عظمة الخالق وعلى بالغ قدرته، يدركها الموقنون وهم أهل اليقين من العارفين المصدقين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم - وقد خص الله الموقنين بالذكر، لأنهم أجدر أن ينتفعوا بالبينات والبراهين، وذلك لرجاحة عقولهم وسلامة طبائعهم وفطرهم.
٢١ - (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ)
قوله: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون} وفي كيفية خلقكم آيات بينات ودلائل ظاهرة على عجيب صنع الله وبالغ قدرته - فقد خلقكم الله من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة وما يعقب ذلك من مراحل الحياة في بطون الأمهات،، ثم خروجكم إلى الدنيا بشرا تنتشرون على اختلاف ألوانكم وصوركم وألسنتكم - إلى غير ذلك من عجائب التكوين في باطن الإنسان كاختلاف الطبائع والفطر، وتفاوت العقول والفهوم والفطن - كل ذلك آيات في النفس البشرية {أفلا تبصرون} أي أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا وتوقنوا أن الله لهو الخالق وحده - فهو المتصف بصفات الكمال الذي لا معبود غيره ولا رب سواه.
٢٢ - (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)
قوله: {وفي السماء رزقكم وما توعدون} المراد بالرزق هنا المطر، فهو بسببه يخرج النبات والزرع والثمرات مما يطعم الناس ويقتاتون - وذلكم الرزق - {وما توعدون} أي ما توعدون من خير وشر - وقيل: الجنة والنار - وقيل: جزاء الأعمال من الثواب والعقاب.
٢٣ - (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)
قوله: {فورب السماء والأرض إنه لحق} يقسم الله بنفسه وهو خالق السماء والأرض ومالكهما على أن ما قاله للناس من أن رزقهم في السماء وما يوعدون من خير وشر، لهو حق {مثل ما أنكم تنطقون} مثل، منصوب على الحال - وما زائدة ٨ - والمعنى أن هذا لهو الحق كما أنكم تتكلمون أو كمثل نطقكم.
وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع - قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن - فقال: اتل علي منه شيئا - فقرأت {والذاريات ذروا} إلى قوله: {وفي السماء رزقكم} فقال: يا أصمعي حسبك! فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر - وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى - فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف - فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم علي واستقرأ السورة - فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا - ثم قال: وهل غير هذا - فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون} فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى لجأوه إلى اليمين - قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه ٩.
٢٤ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)
قوله تعالى: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ٢٤ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ٢٥ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ٢٦ فقربه إليهم قال ألا تأكلون ٢٧ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ٢٨ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ٢٩ قالوا كذلك قال ربك إنه الحكيم العليم}.
يقص الله علينا في هذه الآيات خبر خليله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) لما جاءته الملائكة على هيئة شبان حسان فلم يعرفهم وبادر لإكرامهم وحسن استقبالهم وضيافتهم نخف مسرعا لصنع الطعام لهم - وهو قوله سبحانه: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين} وهذا تحذير للمشركين أن يحل بهم من العقاب ما حل بالأمم الظالمة من قبل - أولئك الذين كذبوا برسل الله وعتوا عن أمر ربهم.

أما ضيف إبراهيم فهم الملائكة العظام وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - وقيل: كان جبريل ومعه تسعة من الملائكة - وقد سماهم مكرمين، لما لهم من عظيم الكرامة ورفيع المنزلة - أو لما أكرمهم به إبراهيم بنفسه من حسن الضيافة وكريم الاستقبال.

٢٥ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

قوله: {إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما} سلاما، منصوب على المصدر - أي أسلموا سلاما {قال سلام} سلام، مرفوع على أنه مبتدأ وخبره محذوف وتقديره: سلام عليكم - أو خبر لمبتدأ محذوف وتقديره: أمري سلام ١٠.

قوله: {قوم منكرون} يعني أنتم غرباء لا نعرفكم.

٢٦ - (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

قوله: {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين} راغ بمعنى مال - راغ إلى كذا مال إليه سرا وحاد ١١ من الروغان وهي السرعة - والمعنى أن إبراهيم قد انسلّ إلى أهله في خفة وسرعة - أو عدل إليهم مسرعا، ثم رجع إلى ضيفه يحمل لهم طعاما من عجل سمين من أجود ما عنده من العجول - وقد شواه في الرضف مبتغيا بذلك إكرام ضيفه وإتحافهم.

٢٧ - (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ)

قوله: {فقربه إليهم قال ألا تأكلون} قدم إليهم الطعام وهو العجل المشوي وخاطبهم متلطفا متوددا {ألا تأكلون} عرض عليهم الطعام في ترغيب وتودد ليأكلوا، لكنهم لا يأكلون بطبيعتهم - فهم من الملائكة الأطهار الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يشتهون كما يشتهي الآدميون أولو الشهوات والغرائز.

٢٨ - (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)

قوله: {فأوجس منهم خيفة} أي أحس إبراهيم منهم في نفسه خوفا - أو أضمر في نفسه الخوف منهم لعدم أكلهم {قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم} بينوا له أنهم ملائكة الرحمن فما ينبغي أن يخاف منهم وذلك ليأمن ويطمئن ثم بشروه بولد يولد له من زوجته سارة وهو ولد صالح وعليم - أي كائن بعد البلوغ من أهل العلم بدين الله.

٢٩ - (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

قوله: {فأقبلت امرأته في صرة} الصرة - بالفتح - الصيحة ١٢ لما سمعت سارة بالبشارة أدهشها ذلك فأقبلت في صيحة، أو رنة وتأوه {فصكت وجهها} أي لطمته بيدها متعجبة مما سمعته {وقالت عجوز عقيم} والعقيم التي لا تلد - أي كيف ألد وأنا عجوز وقك كنت في الصبا عقيما لا ألد.

٣٠ - (قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

قوله: {قالوا كذلك قال ربك} الكاف في قوله {كذلك} صفة لمصدر محذوف، وتقديره: قال ربك قولا كذلك - أي مثل ذلك ١٣ يعني: كما أخبرناك وقلنا لك {قال ربك إنه هو الحكيم العليم} الله حكيم في تدبير خلقه، عليم بما ينفعهم ويصلحهم ١٤.

٣١ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

قوله تعالى: {قال فما خطبكم أيها المرسلون ٣١ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ٣٢ لنرسل عليهم حجارة من طين ٣٣ مسومة عند ربك للمسرفين ٣٤ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ٣٥ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ٣٦ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم}.

لما أيقن إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) أن ضيفه من الملائكة قال لهم: {فما خطبكم أيها المرسلون} أي ما شأنكم أيها المرسلون؟

٣٢ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)

قوله: {قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين} والمراد بالمجرمين قوم لوط الذين قارفوا الفاحشة النكراء فاستحقوا العقاب الشديد - فقد أنيط بالملائكة الأبرار إنزال العقاب بهم وهو قوله: {لنرسل عليهم حجارة من طين}.

٣٣ - (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ)
قوله: {لنرسل عليهم حجارة من طين} أي حجارة أصلها من طين ثم صارت حجارة من حرارة الشمس الشديدة على مر الزمان.
٣٤ - (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)
قوله: {مسوّمة عند ربك للمسرفين} مسومة أي معلمة بالسواد والبياض - وقيل: مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهلك به - فهي معدة للمسرفين الذين كفروا بربهم وكذبوا رسوله وتجاوزوا حدود الله وهم قوم لوط.
٣٥ - (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
قوله: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين} أخرج المؤمنين وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، من قرية قوم لوط وهي سدوم.
٣٦ - (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)
قوله: {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} وهم أهل بيت لوط يعني لوطا وابنتيه - فسماهم في الآية الأولى مؤمنين، وفي الثانية سماهم مسلمين ولا تعارض في ذلك فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا، فإنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم - وقيل: المؤمنون والمسلمون سواء فاستعمل اللفظين، لئلا يتكرر اللفظ الواحد منهما.
٣٧ - (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)
قوله: {وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم} أي تركنا في موضع القرية التي أهلك أهلها علامة من بعدهم ليعتبر بها من يعتبر وهو
قوله: {للذين يخافون العذاب الأليم} أي الذين يخشون أن يحل بهم من العقاب ما حل بالسابقين من قبلهم - وقيل: المراد بالآية الدالة على هلاك قوم لوط، أن جعل الله محلتهم بحيرة منتنة وهي بحيرة لوط - ويشهد بذلك ما يجده الباحثون في الزمن الراهن من آثار الهالكين ومساكنهم الغائصة في أعماق البحر الميت ١٥.
٣٨ - (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
قوله تعالى: {وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ٣٨ فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ٣٩ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليّم وهو مليم ٤٠ وفي عاد أذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ٤١ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ٤٢ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ٤٣ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ٤٤ فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ٤٥ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين}.
يبين الله في هذه الآيات ما حل بالظالمين من الأمم السابقة الذين جحدوا دعوة ربهم وعتوا عن أمر الله وكذبوا بما جاءهم به المرسلون فانتقم الله منهم أشد انتقام - وهم فرعون وقومه، إذ أخذهم الله بالتغريق - ثم عاد قوم هود الذين أخذهم الله بالريح العقيم التي دمرتهم شر تدمير - ثم ثمود قوم صالح الذين عقروا الناقة وكذبوا رسول ربهم فأتت عليهم الصيحة حتى قطع دابرهم، ثم قوم نوح الذين أتى عليهم الطوفان فاستؤصلوا استئصالا.
قوله: {وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين} يعني وفي قصة موسى مع فرعون وقومه المجرمين آية {إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين} أرسل الله رسوله موسى إلى الطاغية المتجبر فرعون بالحجة الظاهرة والبرهان الساطع - والمراد بذلك ما أظهره الله على يديه من خوارق عظام ومعجزات عجاب.
٣٩ - (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)
قوله: {فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون} ركنه أي جنده وملئه ومنعته - يعني أعرض فرعون مدبرا متعزرا بعساكره ومنعته وما لديه من عزة وسلطان - وقيل: تولى بجموعه الكثيرة من الأجناد والعشيرة والأعوان {وقال ساحر أو مجنون} وهذه حيلة الظالم المتعجرف الفارغ الذي ليس في جعبته شيء من دليل أو حجة إلا المعاندة والغرور والانتفاش الموهوم - فلم يبرح هذا الطاغوت الشقي حتى قذف كليم الله موسى بالسحر لما أجراه الله على يديه من المعجزات، أو الجنون، وهو النبي العالم الفطن - وذلكم ضلال فاضح واستكبار صارخ

لا يجدي أمامه إلا العقاب النازل من عند الله ليحل بالطغاة المجرمين - وقد كان ذلك - وهو قوله سبحانه: {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ وهو مليم}.
٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)
قوله: {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ وهو مليم} أخذهم الله بكفرهم وعتوهم، إذ طرحهم ليهلكوا تغريقا {وهو مليم} أي ملوم - أو أتى من المنكرات وسوء الأفعال ما يلام عليه فاستحق العقاب الشديد.
٤١ - (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)
قوله: {وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} أي في قصة عاد وما فعلنا بهم من تدمير آية وعبرة لمن يتعظ أو يعتبر {إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} وهي الريح التي لا خير فيها ولا بركة ولا رحمة، ولا ينتفع بها بشر ولا شجر ولا ثمر - فهي بذلك عقيم، لأنها لا تنفع بل تضر - فقد أرسل الله هذه الريح الشديدة المفسدة على قوم عاد بسبب كفرهم وجحودهم.
٤٢ - (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)
قوله: {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} فهي ريح عاتية مدمرة لا تصيب شيئا {إلا جعلته كالرميم} والرميم، العظام البالية أو الرفات ١٦ أي جعلته كالشيء الهالك البالي: أو كالهشيم المتفتت.
٤٣ - (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ)
قوله: {وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين} يعني وفي قصة ثمود وما حل بهم من هلاك آية وعبرة لمن يعتبر إذ قيل لهم تمتعوا بعيشكم في هذه الدنيا حتى يحين هلاككم في الوقت الموعود.
٤٤ - (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)
قوله: {فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون} عتوا بمعنى استكبروا وتجبروا، والعاتي، هو المجاوز للحد في الاستكبار والتجبر أو المتمرد ١٧ والمعنى أن قوم ثمود خالفوا أمر الله بعقرهم الناقة التي نهوا عن قتلها أو مسها بأذى لكنهم طغوا واستكبروا وقتلوا ناقة الله فأخذهم الله بالانتقام الشديد وذلك بالصاعقة أي العذاب النازل من السماء أو الصيحة الشديدة المهلكة {وهم ينظرون} أخذهم العذاب فجأة وهم ينتظرون - فقد انتظروا نزول العذاب بهم ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع.
٤٥ - (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)
قوله: {فما استطاعوا من قيام} أي ما استطاعوا أن ينهضوا بالعقاب الذي نزل بهم أو يحتملوه أو يدفعوه عن أنفسهم {وما كانوا منتصرين} أي لم تكن لهم حينئذ قوة يمتنعون بها ممن أصابهم - أو ما كان لهم من ناصر ينصرهم أو يجيرهم من البلاء الذي نزل بهم.
٤٦ - (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
قوله: {وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} قوم، منصوب بفعل مقدر، وتقديره: أهلكنا قوم نوح - وقيل: تقديره: واذكر قوم نوح ١٨ أي وفي قصة قوم نوح من قبل وما حل بهم من التغريق بالطوفان آية وعبرة لمن يتعظ أو يتدبر - أو اذكر لهم ما حل بقوم نوح من الاستئصال، إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله، مخالفين لأمره ١٩.
٤٧ - (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)
قوله تعالى: {والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون ٤٧ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ٤٨ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ٤٩ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ٥٠ ولا تجعلوا مع الله إلاها آخر إني لكم منه نذير مبين}.
يبين الله في هذه الآيات عظيم قدرته الدالة على وحدانيته وأنه خالق كل شيء لا شريك له في الملك - وفي ذلك من البرهان الظاهر ما يسترعي دوام التفكر والنظر في عظمة الخالق - وهو قوله سبحانه: {والسماء بنيناها بأييد} بأيد، أي بقوة - فقد خلق الله السماء

على هيئتها العجيبة فكانت في غاية المتانة والتماسك والإحكام، وأروع ما يكون عليه من الحسن والجمال وكمال الصنع والخلق، بما يزجي بالدليل الساطع على كمال الخالق المقتدر العظيم.

قوله: {وإنا لموسعون} ذكر في تأويل ذلك عدة أقوال - فقد قيل: لموسعون، أي لقادرون - وقيل: لمطيقون - وقيل: وسعنا أرجاءها ورفعنا بناءها على أن كلمة {لموسعون} تشير إلى السعة والاتساع، مما يبين مدى الامتداد المذهل والسعة الهائلة لهذه السماء في عظيم امتدادها وبالغ إحاطتها ودقة تناسقها وروعة تماسكها وكثرة ما ينتثر فيها من الكواكب والنجوم، ومختلف الأجرام التي لا تتصور كثرتها وعظمة أحجامها، العقول.

٤٨ - (وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

قوله: {والأرض فرشناها فنعم الماهدون} أي جعلنا الأرض منبسطة ممدوة تفترشها المخلوقات - أو جعلناها فراشا ممهدا {فنعم الماهدون} أي فنعم الماهدون نحن - يضاف إلى ذلك ما تشير إليه النظريات الفلكية الحديثة التي تذهب إلى أن هذا الكون الرحيب بما حواه من مختلف الخلائق والأجرام والمجرات والنجوم لهو آخذ في الامتداد المستمر والاتساع المطرد - فالكون بذلك غير ثابت في مداه وفي مقدار حجمه، بل إن ذلك كله موغل في الامتداد والازدياد إلى الأمام من كل الجهات - وفي ذلك تنبيه مذهل يكشف عن عظمة هذا الكون المريع - فسبحان الله الخالق القادر ذي الجبروت والملكوت.

٤٩ - (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

قوله: {ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} أي خلق الله صنفين مختلفين من كل شيء في الوجود - فسائر المخلوقات أصناف وأنواع مختلفة ومتكاملة - وذلك كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنور والظلام، والسهل والجبل، والبر والبحر، والحلو والمر، والخير والشر، والحياة والموت، والحق والباطل، والسعادة والشقاء، والإيمان والكفر، وغير ذلك من المعاني المتقابلة والخلائق المختلفة التي يكمل بعضها بعضا، أو يتمم الواحد منها الآخر - لا جرم أن ذلك برهان أكبر على قدرة الصانع الحكيم الذي لا إله غيره وهو قوله: {لعلكم تذكرون} أي لتتدبروا وتوقنوا أن الله حق وأنه خالق كل شيء وأنه البديع المقتدر.

٥٠ - (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله: {ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين} أي فروا إلى الله بالتوبة من الذنوب والمعاصي - أو ألجأوا إليه بالتوكل عليه في شأنكم كله، واعلموا أنه خير معوان لكم وأنه الحفيظ المجير.

٥١ - (وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله: {ولا تجعلوا مع الله إلاها آخر إني لكم منه نذير مبين} لا تشركوا بالله شيئا ولا تتخذوا من دونه آلهة أخرى فإني أحذركم بأس الله وبطشه أن ينزل بكم فإن عقابه أليم شديد ٢٠.

٥٢ - (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

قوله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ٥٢ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ٥٣ فتول عنهم فما أنت بملوم ٥٤ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ٥٥ وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدون ٥٦ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ٥٧ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ٥٨ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ٥٩ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون}.

في هذه الآيات جملة من المعاني العظام، جديرة بالتدبر، للإعتبار والادكار وأول ذلك ما يفيض الله به من رحمته على نبيه صلى الله عليه وسلم إذ يسرّي عنه، كيلا يبتئس ولا يحزن بتكذيب قومه وإيذائهم له - ثم الأمر من الله بتذكير عباده بالموعظة الحسنة والقرآن الحكيم لكي يرشدوا ويهتدوا - ثم الإعلان من الله بأنه خلق الجن والإنس ليعبدوه.

قوله: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} الكاف في قوله: {كذلك} في موضع رفع، لأنها خبر لمبتدأ

محذوف، وتقديره: الأمر كذلك ٢١ أو في موضع نصب، صفة لمصدر محذوف - أي أنذركم إنذارا كإنذار من تقدمني من الرسل - وهذه تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، إذ يبين له أنه كما كذبك قومك المشركون وافتروا عليك بفحش القول من القذف بالسحر والكهانة والكذب والجنون وغير ذلك، فقد كذب المشركون السابقون رسلهم وقالوا مثل قولهم.

٥٣ - (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

قوله: {أتواصوا به} الاستفهام للتوبيخ والتقريع - يعني: أأوصى أولهم آخرهم بالتكذيب فتواطأوا جميعا على الجحود والتكذيب - ثم أضرب عن ذلك وقال: {بل هم قوم طاغون} أي ما أوصى بعضهم بعضا ولا أوصى أولهم آخرهم بذلك ولكنهم قوم موغلون في الظلم والطغيان، متجاوزون للحد في الكفر.

٥٤ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

قوله: {فتول عنهم فما أنت بملوم} يعني فأعرض عن هؤلاء المشركين يا محمد واصفح عنهم {فما أنت بملوم} لا يلومك الله على إعراضك عنهم فإنك لم تقصر ولم تفرط بل إنك أنذرتهم وبلغتهم ما أرسلت به من ربك.

٥٥ - (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعظ الناس بالموعظة الحسنة أو يعظهم بالقرآن فإنه خير ذكرى لأولي الأبصار من ذوي الطبائع السليمة والفطر السوية المستقيمة - وهو قوله: {فإن الذكرى تنفع المؤمنين} ذلك أن المؤمنين أجدر الناس بالانتفاع بالتذكير - فما ينبغي بعد ذلك للذين يدعون إلى منهج الله أن يكلوا أو يستيئسوا من دعاء الخير وإنما يجدر بهم أن لا يضنوا بدعوة الناس إلى دين الله بالموعظة الحسنة والأسلوب المحبب الحاني، والمنطق الحكيم السليم - ولسوف يستجيب لذلك، أولئك الطيبون الأسوياء من عباد الله.

٥٦ - (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)

قوله: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية، فقد قيل: ما خلقتهم إلا لأمرهم بعبادتي - وقيل: إنما خلقتهم ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها - وقيل: إن هذا خاص بمن سبق في علم الله أنه يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص وعلى هذا فإن المعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا لعبادتي - والأظهر عندي القول الأول، فقد خلق الله عباده من الجن والإنس ليأمرهم بعبادته فيؤمنوا به ويوحدوه ويجتنبوا الإشراك به، فمن أطاع فقد اهتدى - ومن فسق عن أمره ضل وغوى - أما العبادة فمعناها: الطاعة، والتعبد، معناه التنسك ٢٢.

٥٧ - (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ)

قوله: {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون} يعني ما أريد من الجن والإنس الذين خلقتهم أيما رزق لخلقي وما أريد منهم أيما طعام أو قوت لهم - أو إنما خلقتهم لعبادتي وإني غير محتاج إليهم بل هم الفقراء المحتاجون إلي فإني خالقهم ورازقهم - وهو قوله: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين}.

٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

قوله: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} المتين، بالرفع على أنه صفة لقوله: {ذو} ويقرأ بالجر على أنه صفة للقوة ٢٣ فالله هو صاحب الرزق والملكوت والقوة وهو المتين أي الشديد القوة ٢٤.

٥٩ - (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ)

قوله: {فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم} الذنوب، معناه النصيب - والمراد به ههنا النصيب من العذاب - والمعنى: أن لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد نصيبا من العذاب مثل نصيب أصحابهم الكافرين من الأمم السابقة - فهؤلاء الظالمون المكذبون لهم من العذاب ما لنظرائهم الأولين الذين شابهوهم في الكفر {فلا يستعجلون} أي لا يستعجلون نزول العذاب بهم فإنه سيحيق بهم لا محالة

- فقد عاقبهم الله في بدر، إذ هزموا شر هزيمة ونزل بهم من الذل وانكسار الشوكة ما نزل.
٦٠ - (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)
قوله: {فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} ذلك وعيد مخوف من الله للكافرين بالويل وهو العذاب الشديد في جهنم - العذاب الرهيب الموعود - يوم القيامة - حيث النار والخزي والعار للظالمين والمجرمين والمنافقين ٢٥.

٥٢ سورة الطور:

سورة الطور:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وعدد آياتها تسع وأربعون - وهي سورة عجيبة في إيقاعها وروعة أجراسها التي تلامس الحس والوجدان أيما ملامسة، فضلا عن حرف الراء المكرور بصداه الشجي المستطاب، وذلك في جملة في أواخر الآيات الباهرة العجاب.
وفي السورة تأكيد من الله بالغ على أن عذابه نازل بالظالمين لا محالة - ويضاف إلى ذلك، هذا الإيحاء من التهديد المخوف، والوعيد المرعب الذي ينذر الله به الخائضين السادرين في الغفلة واللهو من الناس - أولئك يتوعدهم الله بعذاب بئيس يصلونه يوم القيامة وهم يقهرون على دخول النار قسرا ودعّا - ويكشف عن مثل هذه الحقيقة المرعبة كلمات الله الموحية المؤثرة التي يفيض من أحرفها وشديد جرسها طيف التحذير المخوف والترويع الذي يأخذ بالقلوب - وهو قوله: {يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا} لا جرم أن هذه الآية وما يتلوها من الآيات في هذه السورة لهي تقرع نواقيس القلوب وتنشر في الخيال صورا من مشاهد اليوم الآخر لا تمحي ولا تتبدد.
إن هذه السورة بأوزانها وأنغامها وأجراسها وحقائقها المريعة المذهلة لا يتملاّها ذو نظر وتدبر إلا أخذته غاشية من الدهش والفزع، والشخوص - وقد ذكر في هذا الصدد أن جبير بن معطم - وهو واحد من فصحاء البيان ومصاقع الخطابة وقد كان مشركا- كان قد سمع النبي صلى الله عليه وسلم يتلو في صلاته سورة الطور فأنصت له بتدبر واعتبار شديدين وقد تملكه الدهش والارتياع فما لبث أن أسلم وقال: كاد قلبي يطير - خفت على نفسي - خشيت أن يدركني العذاب ١.
١ - (وَالطُّورِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والطور ١ وكتاب مسطور ٢ في رق منشور ٣ والبيت المعمور ٤ والسقف المرفوع ٥ والبحر المسجور ٦ إن عذاب ربك لواقع ٧ ما له من دافع ٨ يوم تمور السماء مورا ٩ وتسير الجبال سيرا ١٠ فويل يومئذ للمكذبين ١١ الذين هم في خوض يلعبون ١٢ يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا ١٣ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ١٤ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ١٥ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعلمون}.
ذلك قسم من الله شديد على أن الساعة آتية وأن العذاب واقع لا محالة، وأن الكافرين والمكذبين بيوم الدين لا مفر لهم مما هم صائرون إليه، وهي النار يدعّون إليها زجرا وقسرا - وذلك قوله سبحانه: {والطور ١ وكتاب مسطور} الواو الأولى في أول السورة للقسم، والواو الثانية واو العطف - وجواب القسم {إن عذاب ربك لواقع} ٢ والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى فقد أقسم الله به على سبيل التشريف له والتعظيم لما وقع فيه من الآيات - وقيل: المراد به طور سينا.
٢ - (وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ)
قوله: {وكتاب مسطور} والكتاب معطوف على الطور والمراد به القرآن الكريم - والمسطور، المكتوب - فقد أقسم الله بقرآنه المجيد الذي يقرأه المؤمنون، إذ يجدونه مكتوبا في المصاحف، وتقرأه الملائكة في اللوح المحفوظ.
٣ - (فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ)

قوله: {في رق منشور} والرق، ما يكتب فيه وهو جلد رقيق ٣ فيحلف الله بكتابه الذي كتب في ورق أو جلد رقيق، فهو فيه منشور أي مبسوط.

٤ - (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)

قوله: {والبيت المعمور} وكذلك يقسم الله بالبيت المعمور وهو كعبة الملائكة في السماء السابعة - فثمة كعبة في الأرض تهوي إليها قلوب المؤمنين من بني آدم، وأخرى في السماء السابعة وهي البيت المعمور الذي تعمره الملائكة بكثرة دخولهم فيه لعبادة الله - - وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء " ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم " والمعنى أنهم يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم - وكذلك البيت المعمور فإنه هو كعبة أهل السماء السابعة.

٥ - (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)

قوله: {والسقف المرفوع} والمراد بالسقف هنا، السماء - وهي بالنسبة للأرض كالسقف للبيت - وقد وصفه الله بأنه مرفوع لسمو موضعه وبالغ ارتفاعه وعن ابن عباس قال: المراد به العرش.

٦ - (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

قوله: {والبحر المسجور} وكذلك يقسم الله بالبحر المسجور - أي الموقد المتأجج نارا - وذلك كائن يوم القيامة، إذ تجتمع البحار لتصبح بحرا واحدا هائلا هادرا ثم يسجّر أي تضرم مياهه فتصير نارا متأججة.

٧ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

قوله: {إن عذاب ربك لواقع} هذا هو المقسم عليه - فقد أقسم الله بما تقدم ذكره على أن العذاب نازل بالكافرين المجرمين لا محالة.

٨ - (مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

قوله: {ما له من دافع} أي ليس من أحد في الكائنات من يستطيع أن يدفع العذاب عن المجرمين الخاسرين الذين أحاط بهم كفرهم وأحاطت بهم خطيئاتهم فحاق بهم العذاب.

٩ - (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا)

قوله: {يوم تمور السماء مورا} المراد بالسماء سائر الأفلاك فإنها تمور مورا - وهذا كائن يوم القيامة، يوم يقع العذاب - وحنئذ تمور السماء بأجرامها وأفلاكها وفضائها مورا - أي تتحرك وتدور دورا، أو يموج بعضها في بعض وتضطرب أيما اضطراب.

١٠ - (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)

قوله: {وتسير الجبال سيرا} أي تسير الجبال عن أماكنها في الأرض وتنسف نسفا فتصير هباء منثورا - وهذه أحداث كونية مريعة تقع يوم القيامة، إذ يرتج الكون كله ارتجاجا، وتتصدع السماوات والأرضون أيما تصدع - فتكلم أحداث رعيبة، وخطوب مزلزلة جسام تأتي على الكون فتهزه من أقصاه إلى أقصاه هزا فإذا هو يموج في الاضطراب والتزلزل - وحينئذ يبلس المجرمون وييأسون ويوقنون أنهم صائرون إلى جهنم وهو قوله: {فويل يومئذ للمكذبين}.

١١ - (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {فويل يومئذ للمكذبين} وذلك وعيد من الله بالعذاب الشديد للمكذبين بيوم القيامة.

١٢ - (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

قوله: {الذين هم في خوض يلعبون} الخوض، الاندفاع في الباطل - فهم ماضون في الغي والباطل، سادرون في اللهو والغفلة.

١٣ - (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)

قوله: {يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا} يوم، بدل من قوله: {يومئذ} أي يدفعون يوم القيامة بعنف وشدة إلى جهنم ليصلوها معذبين خزايا

- وقيل: الدع: جمع نواصيهم إلى أقدامهم ثم تدفعهم خزنة جهنم في النار على وجوههم - على أن التعبير بالدع، يوحي بفظاعة الغلظة والعنف، وشدة التنكيل والقسوة التي يجدها المعذبون الخاسرون على أيدي الملائكة الغلاظ.

١٤ - (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

قوله: {هذه النار التي كنتم بها تكذبون} تقول الملائكة من خزنة جهنم للمكذبين الخاسرين إذا دنوا من النار {هذه النار التي كنتم بها تكذبون} يقولون لهم ذلك زيادة في التنكيل والتعذيب.

١٥ - (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ)

قوله: {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون} الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وهذا في موضع رفع مبتدأ مؤخر - وسحر خبر مقدم - أم، ههنا المنقطعة بمعنى بل والهمزة - وتقديره: أفسحر هذا بل أنتم لا تبصرون ٤ أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون، إذ كنتم سادرين في الضلال والغفلة.

١٦ - (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {اصلوها} ذلك من قول خزنة جهنم للمكذبين زيادة في التنكيل بهم، إذ يقولون لهم: ادخلوا النار وذوقوا حرها ولظاها {فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم} أي سواء عليكم صبرتم على الجزع والنكال أو لم تصبروا {إنما تجزون ما كنتم تعملون} أي لا تعذبون في النار ولا تعاقبون إلا على ما قدمتموه في الدنيا من الكفر والعصيان ٥.

١٧ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

قوله تعالى: {إن المتقين في جنات ونعيم ١٧ فاكهين بما آتاهم ربم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ١٨ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ١٩ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين}.

ذلك وعد من الله لعباده المؤمنين الذين يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه - أولئك لهم من الله جنات ونعيم.

١٨ - (فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

قوله: {فاكهين بما آتاهم ربهم} أي متلذذين بما آتاهم الله من صنوف الخيرات والنعم {ووقاهم ربهم عذاب الجحيم} وهذا وحده فضل من الله متميز، وهو تنجيتهم من النار وزحزحتهم عنها.

١٩ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعلمون} هنيئا، منصوب على الحال من ضمير كلوا أو اشربوا ٦ - يعني يقال لهؤلاء المتقين المنعمين في الجنات: كلوا من ثمار الجنة واشربوا من شرابها هانئين منعمين لا يصيبكم فيها كدر ولا نصب ولا اغتمام ولا أذى - وذلك جزاء ما قدمتموه في الدنيا من إيمان بالله وطاعة لأمره.

٢٠ - (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

قوله: {متكئين على سرر مصفوفة} أي جالسين متمكنين على نمارق سرر جعلت لهم صفوفا - أو وصل بعضها إلى بعض فتصير صفا -

قوله: {وزوجناهم بحور عين} أي قرنا ذكورهم بزوجات لهم من الحور العين - والحور جمع ومفرده حوراء - من الحور وهو اسوداد المقلة كلها كعيون الظباء ٧.

٢١ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

قوله تعالى: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ٢١ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ٢٢ يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ٢٣ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ٢٤ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ٢٥ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ٢٦ فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ٢٧ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم}.

يبين الله حال أهل السعادة في الجنة وهو يتقلبون في النعيم والخيرات والبركة، فضلا عما يغشى قلوبهم من البهجة والسرور والأمن - ويكتمل ذلك إذا لحقت بهم ذرياتهم لتقر بهم عيونهم فكانوا جميعا سعداء منعمين في الجنة - لا جرم أن هذه السعادة المثلى والفوز الكامل المبين.

قوله: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم} هذه رحمة من الله بعباده المؤمنين، إذ يدخلهم الجنة ويلحق بهم ذريتهم من الأولاد والنسل المؤمنين، وإن كان دونهم في مراتب الإيمان والعمل الصالح، وذلك لتكتمل بهجتهم وسعادتهم وتقر بهم عيونهم - وفي ذلك روي عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه - وفي رواية عنه في تأويل الآية قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئا وهو قوله جل وعلا: {وما ألتناهم من عملهم من شيء} يعني ألحق الله الذريات بآبائهم في الجنة ولم ينقص الآباء شيئا من أعمالهم - وهذا فضل الله على الأبناء ببركة عمل آبائهم - أما فضل الله على الآباء ببركة دعاء أبنائهم فهو ظاهر ومعروف - وفي ذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له ".

قوله: {كل امرئ بما كسب رهين} يعني لا يؤاخذ الله أحدا بذنب غيره بل كل واحد مؤاخذ بذنب نفسه ومرتهن بعمله الذي عمله من خير وشر.

٢٢ - (وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

قوله: {وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون} أمد الله المؤمنين في الجنان بكل صنوف الخير والنعمة وما يستطيبونه من الفاكهة واللحم.

٢٣ - (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ)

قوله: {يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم} أي يتداولون فيما بينهم في الجنة كؤوس الشراب المستلذ المستطاب {لا لغو فيها ولا تأثيم} أي لا يقع بينهم عند الشراب لغو - وهو الباطل من القول الذي لا خير فيه - ولا تأثيم - وهو الكذب - فلا يتسابّون في مجالس شرابهم ولا يتصايحون بالفاحش البذيّ من القول، كعادة المخمورين السكارى من أهل الشراب في الدنيا.

٢٤ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ)

قوله: {ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون} يطوف على المؤمنين في الجنة بكؤوس الشراب وغيره من صنوف الطعام {غلمان لهم} وهم خدم لهم خلقوا في الجنة ليقوموا على خدمتهم - وهم في إشراقهم وصباحة وجوههم كاللؤلؤ اللامع المصون في كنّه - وأولئك غلمان صغار أولو بهاء وصفاء وصباحة تحنو عليهم قلوب الكبار وتنظر إليهم بإشفاق ورحمة - والصغير من الأولاد ذو الوجه الصبيح المسفر، والطبع الكريم المميز والفطرة الناصعة البيضاء لا جرم ينشر في القلب الرحمة والحبور والتحنان - وأولئك هم غلمان الجنة بوجوههم الطيبة المشرقة وطبائعهم النقية البيضاء ينشرون في جلسات الكبار من الرجال ظلالا مباركة من نسائم الرحمة ونداوة الطهر والراحة والإيناس.

٢٥ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

قوله: {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} المؤمنون في الجنة يتذاكرون فيما بينهم ما كانوا عليه في الدنيا من التعب والشقاء والخوف من المصير وقيل: إن ذلك كائن إذا بعثوا من قبورهم يوم البعث فإنهم يسأل بعضهم بعضا.

٢٦ - (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

قوله: {قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين} مشفقين، من الإشفاق وهو الحذر والخوف ٨، أي قال بعضهم لبعض: إنا كنا في الدنيا خائفين من عذاب الله أن يحيق بنا.

٢٧ - (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ)

قوله: {فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السّموم} منّ الله علينا بفضله وواسع رحمته فنجانا من عذاب السموم وهي النار وأدخلنا الجنة.
٢٨ - (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)
قوله: {إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} أي كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه بالدعاء لغفر لنا وليكتب لنا النجاة {إنه هو البر الرحيم} البر بمعنى الصادق، من البر، بالكسر وهو الخير والفضل ٩ والبر الرحيم، أي اللطيف أو الصادق فيما وعد، والرحيم بعباده المؤمنين فلا يعذبهم عقب توبتهم ١٠.
٢٩ - (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ)
قوله تعالى: {فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ٢٩ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ٣٠ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ٣١ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ٣٢ أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون ٣٣ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ٣٤ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون}.
يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالمضي في تبليغ الرسالة للناس فلا يعبأ بافترائهم عليه ولا يكترث مما ينسبونه إليه من أباطيل الكلام فقال سبحانه: {فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون} أي ذكر الناس بالقرآن وبلغهم ما أنزل إليك من ربك فلست أنت بنعمة ربك وهي الإسلام، بكاهن - وهو الذي يأتيه الجانّ بالكلمة يسترقها من أخبار السماء - ولست كذلك بمجنون كما يهذي الظالمون السفهاء - وهم في الحقيقة موقنون في قرار أنفسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وأنه ما كذب قط، وأنه مبعوث من ربه إلى الناس، لكنهم هم الظالمون الموغلون في العناد والمكابرة.
٣٠ - (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)
قوله: {أم يقولون شاعر} يعني بل يقول هؤلاء المشركون إن محمدا شاعر {نتربص به ريب المنون} المنون، الموت - أي ننتظر بمحمد حوادث الدهر وقوارع الزمان حتى يموت فنستريح منه.
٣١ - (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)
قوله: {قل تربصوا فإني معكم من المتربصين} أي انتظروا فإني منتظر معكم وستعلمون من تكون له الغلبة وحسن العواقب في الدنيا والآخرة.
٣٢ - (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)
قوله: {أم تأمرهم أحلامهم بهذا} يقول الله على سبيل التوبيخ لهؤلاء المشركين والإنكار: أتأمرهم عقولهم بهذا الافتراء والتقوّل الباطل فيما يزعمونه عنك من الزور والباطل {أم هم قوم طاغون} أي بل هم قوم متجاوزون موغلون في الضلال والباطل.
٣٣ - (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: {أم يقولون تقوّله} تقوّله، من التقول وهو الكذب ١١ أي يقول المشركون إن محمدا اختلق القرآن من تلقاء نفسه {بل لا يؤمنون} يعني إنما يقولون مقالتهم الباطلة عن محمد صلى الله عليه وسلم لكفرهم وفرط عنادهم وكراهيتهم للحق، وهم يعلمون ويوقنون أن قولهم باطل وزور وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بمتقول ولا مفتر بل هو معروف عندهم بصدقه وأمانته وحميد أخلاقه.
٣٤ - (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)
قوله: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} يتحدى الله جل جلاله المشركون الذين يفترون الكذب على رسوله ويقولون إن محمدا قد اختلق القرآن من تلقاء نفسه – يتحداهم الله أن يأتوا بشيء من الكلام يضاهون به القرآن أو يعارضونه بحديث مثله {إن كانوا صادقين} أي صادقين أن محمدا قد افتراه من تلقاء نفسه - وهم في الحقيقة لو استطاعوا أن يضاهوا القرآن فيأتوا بمثله لفعلوا وأراحوا أنفسهم من عناء الخصام، وأخطار المواجهة ولما اضطروا للبروز للحرب لقتال النبي صلى الله عليه وسلم، فحفظوا بذلك أنفسهم من الإزهاق، وأموالهم من الاغتنام والتلف، لكنهم موقنون أن القرآن معجز وأنه ليس من صنع بشر وأنهم عاجزون عن اصطناع شيء مثله.

٣٥ - (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)
قوله: {أم خلقوا من غير شيء} يعني أخلقوا من غير أب ولا أم فهم كالجماد لا يعقلون ولا يفهمون لله حجة ولا يتعظون بموعظة - أو خلقوا من غير إله أوجدهم {أم هم الخالقون} يعني، أيقولون إنهم خلقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون بأمر الله ولا ينتهون عما نهى عنه، وهم لا يقولون ذلك فإذا كانوا مقرين أن الله وحده خالقهم فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون غيره من الأنداد ١٢.
٣٦ - (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ)
قوله تعالى: {أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ٣٦ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ٣٧ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ٣٨ أم له البنات ولكم البنون ٣٩ أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ٤٠ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ٤١ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ٤٢ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون}.
ينكر الله في آياته هذه جحود الكافرين وتكذيبهم رسوله وهم ليس لهم في ذلك حجة ولا برهان إلا المعاندة والرغبة في التكذيب - فيقول سبحانه: {أم خلقوا السماوات والأرض بل يوقنون} يعني أخلقوا السماوات والأرض فكانوا بذلك خالقين؟! والمراد أنهم لم يخلقوا السماوات والأرض ولم يخلقوا شيئا وهم يقرون بأنهم ليسوا خالقين ذلك {بل لا يقنون} أي عدم ائتمار هؤلاء المشركين بشرع الله والتزامهم دينه ومنهجه، لأنهم ليسوا مصدقين بيوم الدين ولا موقنين بوعد الله ووعيده وما أعده للظالمين من سوء العذاب.
٣٧ - (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)
قوله: {أم عندهم خزائن ربك} يعني، أعند هؤلاء الظالمين المكذبين بآيات الله {خزائن ربك} أي مفاتيح رحمته من الرزق والمطر وغير ذلك من المذخورات والمقدورات {أم هم المصيطرون} يعني أم هم الجبارون المتسلطون - وقيل: أم هم أرباب قاهرون - وسيطر عليه أي تسلط عليه، وأشرف عليه وتعهد أحواله وأحصى أعماله ١٣.
٣٨ - (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
قوله: {أم لهم سلّم يستمعون فيه} يعني أم لهم مرقاة أو مصعد يرتقون فيه فيستمعون عليه أخبار الوحي والسماء {فليأت مستمعهم بسلطان مبين} يعني فليأت من يزعم منهم أنه يستمع أخبار الوحي والسماء، بحجة أو برهان يبين صدق ما يزعم.
٣٩ - (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)
قوله: {أم له البنات ولكم البنون} ذلك تنديد من الله بالمشركين السفهاء، إذ يوبخهم الله توبيخا، لأنهم ينسبون الإناث لله وهم يكرهونهن ويحتقرونهن - والمعنى: أتجعلون البنات لله وأنتم تزدروهن وتأنفون منهن، وتجعلون لأنفسكم البنين؟! إن ذلكم سفه كبير وحماقة بالغة يتلبس بها الضالون الموغلون في الجهالة والسفاهة.
٤٠ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)
قوله: {أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون} يعني أم تسأل هؤلاء المكذبين جزاء وعوضا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله وعبادته وحده فهم مما كلفتهم به من الأجر والجزاء مجهدون غير مستطيعين.
٤١ - (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)
قوله: {أم عندهم الغيب فهم يكتبون} يعني، أهم مطّلعون الغيب، فيكتبوا للناس ما غاب علمه عنهم.
٤٢ - (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)
قوله: {أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون} الكيد، معناه المكر - يعني: أيريد هؤلاء الظالمون أن يمكروا بك، فإن الماكرين المتآمرين هم الممكور بهم، وهم الذين يحيق بهم المكر السيئ {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} وهذه حقيقة تغيب عن أذهان المجرمين من أعداء الله، السادرين في غيهم وباطلهم، أولئك الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين الشر والأذى، فأولئك يحيق بهم البلاء من الله

ويحيق بهم سوء العواقب في الدنيا والآخرة، وما كانوا يدبرونه في الظلام من مكائد ومؤامرات.

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {أم لهم إله غير الله} يعني ألهم معبود سوى الله يستحق العبادة فيخلق ويرزق ويبسط ويمنع.

قوله: {سبحان الله عما يشركون} ينزه الله نفسه عن الشركاء، فهو الخالق القادر المعبود لا شريك له ١٤.

٤٤ - (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ)

قوله تعالى: {وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ٤٤ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ٤٥ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون ٤٦ وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ٤٧ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ٤٨ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم}.

يبين الله حال الكافرين من العناد والعتو والجنوح للتقليد والتكذيب، فإنهم مهما يروا من الآيات والحجج فإنهم سادرون في الضلال والباطل ولا يبرحون الشرك والأصنام - فقال سبحانه: {وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم} الكسف جمع كسفة وهي القطعة من الشيء ١٥ والمعنى أن هؤلاء المشركين إن يروا قطعا ساقطا من السماء لقالوا: إن ذلك سحاب يركم فوق بعض - وإنما قال الله ذلك جوابا لقول المشركين {فأسقط علينا كسفا من السماء} فإن ير هؤلاء المشركون ما سألوا من الآيات فعاينوا الكسف الساقط من السماء لما باءوا بذنبهم ولما تابوا إلى ربهم وأنابوا.

٤٥ - (فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

قوله: {فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون} يصعقون، من الصعق وهو الموت ١٦ - يعني دع هؤلاء المشركين المعاندين وما هم فيه من التكذيب والضلال والمكابرة حتى يأتيهم اليوم الذي فيه يموتون أو يهلكون بنفخة الصعق.

٤٦ - (يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

قوله: يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا} يوم منصوب على البدل من {يومهم الذي فيه} يعني في هذا اليوم لا ينفعهم مكرهم الذي مكروه بالإسلام ورسوله وبالمؤمنين ولا يدفع عنهم شيئا من عذاب الله {ولا هم ينصرون} أي ليس لهم من ناصر يدفع عنهم البلاء أو ينجيهم من عذاب الله.

٤٧ - (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك} ذلك وعيد من الله للظالمين المكذبين، بعذابه قبل يوم القيامة وهو ما ينزل بهم من صنوف البلايا والنوائب في هذه الدنيا كالأسقام والأمراض والعاهات والقلق وغير ذلك من مختلف الأمراض النفسية، الفردية والاجتماعية - وقيل: المراد بذلك عذاب القبر فهو دون العذاب في الآخرة {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أي ليسوا موقنين أنهم ذائقوا هذا العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

٤٨ - (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

قوله: {واصبر لحكم ربك} أي اصبر على أذى المشركين وامض لما أمرك الله به من تبليغ الرسالة للناس فلا تعبأ بكيدهم وتكذيبهم وبما يواجهونك به من الصدود والجحود والمكاره.

قوله: {فإنك بأعيننا} أي بكلاءتنا ورعايتنا فنحوطك ونحرسك وندفع عنك شرور الظالمين المعتدين {وسبح بحمد ربك حين تقوم} أي يقول حين يقوم من نومه من فراشه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، والحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله - وقيل: يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله وبحمده - أو سبحانك اللهم وبحمدك - وفي ذلك أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك ".

٤٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ)
قوله: {ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} إدبار بكسر الهمزة منصوب على أنه ظرف زمان - وتقديره: وسبحه وقت إدبار النجوم ١٧. والمعنى: اذكر الله واعبده في الليل وذلك بالصلاة والدعاء والاستغفار {وإدبار النجوم} أي صلاة الركعتين اللتين قبل صلاة الفجر - وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها " وروى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعا " لاتدعوهما وإن طردتكم الخيل " يعني ركعتي الفجر ١٨.

٥٣ سورة النجم:

سورة النجم:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وفيها من الآيات اثنا وستون آية - وهي حافلة بألوان التذكير والتحذير مما يريع ويثير.
والسورة بآياتها القصيرة، وكلماتها المؤثرة العذاب، وإيقاعها الشجي النفاذ، كل ذلك يحيط النفس والخيال والذهن بظلال من الترويع والذكرى - على أن السورة مبدوءة بالقسم من الله - جل جلاله - بجزء من خلقه على صدق رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم وحقيقة نبوته الميمونة، وأنه لا ينطق عن الهوى وإنما يأتيه الوحي من السماء بالآيات والأخبار من ربه.
وفي السورة تنديد بعبادة الأصنام كاللات والعزى ومناة - وتلك أصنام مصطنعة بلهاء عكف المشركون على عبادتها سفها وضلالا إلى غير ذلك من المعاني والعبر مما فيه موعظة وذكرى للمعتبرين.
١ - (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والنجم إذا هوى ١ ما ضل صاحبكم وما غوى ٢ وما ينطق عن الهوى ٣ إن هو إلا وحي يوحى ٤ علّمه شديد القوى ٥ ذو مرة فاستوى ٦ وهو بالأفق الأعلى ٧ ثم دنا فتدلى ٨ فكان قاب قوسين أو أدنى ٩ فأوحى إلى عبده ما أوحى ١٠ ما كذب الفؤاد ما رأى ١١ أفتمارونه على ما يرى ١٢ ولقد رآه نزلة أخرى ١٣ عند سدرة المنتهى ١٤ عندها جنة المأوى ١٥ إذ يغشى السدرة ما يغشى ١٦ ما زاغ البصر وما طغى ١٧ لقد رأى من آيات ربه الكبرى}.
أقسم الله بجزء من خلقه وهو النجم إذا هوى أي إذا سقط إلى أسفل - والمراد بالنجم ههنا الثريا إذا سقطت مع الفجر - والثريا من حيث العدد جملة نجوم - وقيل: المراد نجوم السماء جميعا حين تغرب، فقد أقسم الله بالنجوم إذا غابت - وقيل غير ذلك.
وقد روي في هذا الصدد عن عروة بن الزبير (رضي الله عنه) أن عتبة بن أبي لهب وكان زوجا لبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتينّ محمدا فلأوذينّه - فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى - ثم تفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورد عليه ابنته وطلقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك " وكان أبو طالب حاضرا فوجم ١ لها وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة - فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره - ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة (تكثر فيها السباع) - فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة - فإني أخاف على ابني من دعوة محمد - فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتبة فجاء الأسد يتشمّم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله.
٢ - (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)
قوله: {ما ضل صاحبكم وما غوى} وهذا جواب القسم - وضل، من الضلال وهو ضد الرشاد ٢ وغوى، من الغي، وهو الانهماك في الجهل وهو خلاف الرشد - والإسم الغواية ٣ والمعنى: ما حاد محمد عن سبيل الحق وما مال عن الصواب وهو طريق الله المستقيم

{وما غوى} يعني ما صار غاويا وما تلبس بضلال أو غواية ولكنه رشيد سديد، فما ضل عن الحق ولا تكلم بالباطل.
٣ - (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)
قوله: {وما ينطق عن الهوى} يعني ما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه.
٤ - (إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)
قوله: {إن هو إلا وحي يوحى} أي ما هذا القرآن إلا وحي يوحى إليه من ربه - فالله جل وعلا يوحي بالقرآن إلى جبريل ثم يوحى جبريل به إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول للناس إلا ما أمره الله به فيقوله لهم كاملا دون نقص أو زيادة.
ويستفاد من الآية أن السنة من جملة الوحي الذي أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم - فهي وحي من الوحي، وذلك من حيث المضمون والمعنى - أما النظم والمبنى فهو من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف أنواعها يجب العمل بها والتزام أحكامها كالقرآن - ومما يؤيد هذه الحقيقة ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه - فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق ".
٥ - (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)
قوله: {علمه شديد القوى} المراد بشديد القوى جبريل (عليه السلام) فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن - وقد وصفه ربه بأنه {ذو مرة فاستوى}.
٦ - (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى)
قوله: {ذو مرة فاستوى} ذو مرة أي ذو قوة - وقيل: ذو منظر حسن - والأول أولى بالصواب، لما ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سويّ " {فاستوى} أي ارتفع واعتدل.
٧ - (وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى)
قوله: {وهو بالأفق الأعلى} أي جبريل فقد ارتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علم محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن - وقيل {فاستوى} أي قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها، لأنه كان يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التي جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض - ومرة في السماء - فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى - وكان النبي صلى الله عليه وسلم بحراء، فطلع له جبريل من المشرق فسدّ الأرض إلى المغرب - فخرّ النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فنزل إليه في صورة الآدميين وضمه إلى صدره وجعل يمسح الغبار عن وجهه - فلما أفاق النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحدا على مثل هذه الصورة ".
وأما في السماء فعند سدرة المنتهى - ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا صلى الله عليه مسلم.
قوله: {وهو بالأفق الأعلى} أي استوى جبريل بالأفق الأعلى وهو مطلع الشمس على صورته الحقيقة المريعة - فقد كان جبريل يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة في صورة إنسان - فأحب النبي أن يراه على صورته الحقيقية فاستوى جبريل في الأفق الأعلى فملأ مطلع الشمس أو سده.
٨ - (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)
قوله: {ثم دنا فتدلى} أي دنا جبريل من الأرض بعد استوائه بالأفق الأعلى " فتدلى " أي نزل من السماء على النبي صلى الله عليه وسلم

في الأرض بالوحي.
٩ - (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)
قوله: {فكان قاب قوسين أو أدنى} أي فكان جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم لما هبط عليه إلى الأرض على قدر قوسين عربيتين، أو أقرب من ذلك.
١٠ - (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)
قوله: {فأوحى إلى عبده ما أوحى} أي فأوحى جبريل إلى عبد الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله إلى جبريل - أي أوحى الله إلى جبريل فأوحى به جبريل إلى محمد - والوحي في اللغة معناه الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي - وأوحى إليه أي بعثه وألهمه ٤ والمراد بالوحي إلقاء الشيء بسرعة كالإشارة.
١١ - (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)
قوله: {ما كذب الفؤاد ما رأى} كذب، بالتخفيف - وما، في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر - وتقديره: ما كذب الفؤاد فيما رأى - وما موصولية بمعنى الذي - أومصدرية ٥ والمعنى: ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذي رآه ليلة المعراج ولكنه صدّقه فقد رأى ربه بقلبه ولم يره بعينه - وهو قول أكثر المفسرين ويؤيد ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه؟ " يعني غلبني نوره الساطع وبهرني منه ما منعني من رؤيته - وفي رواية " رأيت نورا ".
١٢ - (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى)
قوله: {أفتمارونه على ما يرى} أفتمارونه يعني أفتجادلونه - والاستفهام للإنكار والتوبيخ - وذلك أن المشركين كانوا قد جحدوا المعراج وكذبوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أسري به وأنه قد رأى ما رآه ليلة الإسراء - فخاصموه في ذلك معاندين مكذبين - فقال الله لهم موبخا إياهم: أفتجادلون محمدا على ما أراه الله من الآيات؟!
١٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى)
قوله: {ولقد رآه نزلة أخرى} نزلة، منصوب على المصدر في موضع الحال - والتقدير: رآه نازلا نزلة أخرى ٦ - والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الحقيقية التي خلق عليها مرة أخرى وذلك في ليلة الإسراء.
١٤ - (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)
قوله: {عند سدرة المنتهى} السدرة، شجرة النبق وهي في السماء السابعة - وقيل لها سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها علم كل عالم مقرب، أو نبي مرسل - وقيل: لأنها ينتهي إليها أرواح الشهداء وقيل: ينتهي إليها أرواح المؤمنين وقيل غير ذلك.
١٥ - (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)
قوله: {عندها جنة المأوى} وهي منازل الشهداء عن يمين العرش - وقيل: هي التي تأوي إليها أرواح المؤمنين.
١٦ - (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)
قوله: {إذ يغشى السدرة ما يغشى} أي غشيها نور رب العالمين فاستنارت - وقيل: غشيها نور الله، وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجرة.
١٧ - (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)
قوله: {ما زاغ البصر وما طغى} يعني ما مال البصر يمينا ولا شمالا {وما طغى} أي ولا جاوز الحد الذي أمر به - وهو قول ابن عباس.
١٨ - (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)
قوله: {لقد رأى من آيات ربه الكبرى} أي رأى جبريل في صورته الحقيقية وقد سد بجانحيه الأفق - وقيل: المراد بآيات الله الكبرى

ما رآه في تلك الليلة في ذهابه وفي إيابه من عجائب الخلائق في ملكوت الله ٧.
١٩ - (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى)
قوله تعالى: {أفرأيتم اللات والعزّى ١٩ ومناة الثالثة الأخرى ٢٠ ألكم الذكر وله الأنثى ٢١ تلك إذا قسمة ضيزى ٢٢ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى النفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ٢٣ أم للإنسان ما تمنى ٢٤ فلله الآخرة والأولى ٢٥ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى}.
يندد الله أشد تنديد بالمشركين السفهاء الذين رسخوا في الضلالة وأوغلوا في التقليد والتعصب والجهالة إيغالا، إذ اتخذوا الأصنام والأوثان والأنداد آلهة مع الله، وقد اتخذوا لها البيوت وأقاموا لها المقامات يضاهون بها الكعبة - فقال سبحانه موبخا مقرعا تقريعا: {أفرأيتم اللات والعزى} والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع - أما اللات فهي صخرة بيضاء وعليها بيت له أستار وسدنة وقد كان يتوجه إليها أهل الطائف وهم ثقيف بالعبادة والتقديس - وقيل: إن اسم اللات مشتق من اسم الله - وقيل: إن رجلا كان في الجاهلية يلتّ السويق للحجيج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.
وأما العزى، فهي من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار- بنخلة- وهي ما بين مكة والطائف - وكانت قريش يعظمونها فقد قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزّى ولا عزّى لكم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم ".
٢٠ - (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)
قوله: {ومناة الثالثة الأخرى} وأما مناة، فكانت بالمشلّل عند قديد، بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة - وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها سبحانه في كتابه الحكيم، وإنما أفرد هذه الثلاثة بالذكر، لأنها أشهر من غيرها - وأما اللات، فقد كانت لثقيف بالطائف وقد بعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها وجعلا مكانها مسجدا بالطائف.
وأما العزى، فقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فهدمها، وجعل يقول:
يا عزّ كفرانك لا سبحانك - - - إني رأيت الله قد أهانك
وأما مناة، فقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها - ويقال علي بن أبي طالب.
على أن الكلام فيه محذوف دل عليه سياق الآية - والتقدير هو: أفرأيتم هذه الآلهة المفتراة التي اصطنعتموها وعبدتموها هل تملك نفعا أو ضرا فتتخذوها آلهة من دون الله.
٢١ - (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى)
قوله: {ألكم الذكر وله الأنثى} الاستفهام للتوبيخ والتقريع - فهو يرد بذلك عليهم افتراءهم، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، فقال الله لهم موبخا مقرعا: أتجعلون لله الولد وتجعلون ولده أنثى وتستأثرون بالذكور لأنفسكم وأنتم تأنفون من البنات وتزدرونهن ازدراء؟ أفتجعلون لله ما تزدرون وتكرهون، ولأنفسكم ما تحبون؟
٢٢ - (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)
{تلك إذا قسمة ضيزى} أي هذه القسمة جور وباطل - نقول ضاز في الحكم أي جار - وضازه حقه أي نقصه وبخسه - وضيزى، يعني جائرة ٨.
٢٣ - (إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)
قوله: {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم} يقول الله منددا مستنكرا ما ابتدعه المشركون من الافتراء والشرك وتسميتهم الأصنام

بأسماء مكذوبة: ما هذه الأسماء التي سميتموها وهي اللات والعزى ومناة إلا أسماء مفتراة سميتموها بأسمائها المصطنعة أنتم وآباؤكم من قبلكم {ما أنزل الله بها من سلطان} يعني لم يأذن الله لكم بذلك ولا أنزل لكم بذلك حجة أو برهانا.

قوله: {إن يتبعون إلا الظن} يعني ما يتبع هؤلاء المشركون السفهاء وآباؤهم الضالون في اختلاف هذه الأسماء لآلهتهم إلا التخمين والوهم وما تميل إليه أنفسهم الجانحة من ضلال وباطل - قوله: {ولقد جاءهم من ربهم الهدى} أي جاءهم من الله البيان: إذ أرسل لهم رسوله الأمين مبينا وهاديا ونذيرا.

٢٤ - (أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

قوله: {أم للإنسان ما تمنى} أم، المنقطعة، والهمزة فيها للإنكار - أي لا يتحصل للإنسان كل ما يتمناه من الخير، وإنما كل شيء من خير أو شر بقدر.

٢٥ - (فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى)

قوله: {فلله الآخرة والأولى} الله مالك كل شيء - وله ملكوت الدنيا والآخرة فهو سبحانه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

٢٦ - (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)

قوله: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ذلك توبيخ من الله للمشركين وتسفيه لأحلامهم، إذ كانوا يعبدون الملائكة والأصنام وهم يزعمون أنها تقربهم إلى الله، فبين الله لهم أن الملائكة بالرغم من كرامتهم على الله وكونهم أطهارا أبرارا عابدين لله، فإنهم لا يملكون الشفاعة لأحد، إلا أن يأذن الله لهم بالشفاعة ٩.

٢٧ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى)

قوله تعالى: {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى ٢٧ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ٢٨ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ٢٩ ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى}.

ذلك إنكار من الله شديد على المشركين السفهاء، إذ تلبسوا بجريمتين شنيعتين كبريين، الأولى: تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى - فهم بذلك يعتقدون أن الملائكة إناث وهم لم يشهدوا خلقهم فأنى لهم أن يفتروا مثل هذا الإفتراء.

والثانية: أنهم جعلوا الملائكة بنات الله - تعالى الله عن اتخاذ الولد علوا كبيرا - فقال سبحانه موبخا منكرا: {وما لهم به من علم}.

٢٨ - (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

قوله: {وما لهم به من علم} أي ليس لهم بما يفترونه ويزعمونه من مستند ولا دليل، وإنما يقولون الكذب والزور والباطل {إن يتبعون إلا الظن} والظن، خلاف اليقين ١٠ أي ما يتبعون في قولهم المفترى، وزعمهم الباطل إلا الوهم والتخمين.

قوله: {وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} لا يقوم الظن مقام اليقين، وهو لا ينفع ولا يجدي شيئا، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الظن فهو طريق الضلال والزلل، ويفضي إلى الخطيئة والباطل - فقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ".

٢٩ - (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

قوله: {فأعرض عن من تولى عن ذكرنا} يعني دع من أدبر عن الحق، واستكبر عن منهج الله {ولم يرد إلا الحياة الدنيا} يعني لا يبتغي ولا يهوى إلا الحياة الدنيا وما فيها من متاع وشهوات وزخرف، وبذلك يأمر الله عباده المؤمنين المخلصين أن يتركوا الظالمين المكذبين، الناكبين عن شرع الله، المعرضين عن منهج الإسلام، ولا يريدون غير المتاع والتلذذ بالشهوات وطيبات الحياة الدنيا.

٣٠ - (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)

قوله: }ذلك مبلغهم من العلم{ وهذا تسفيه لأحلام المشركين المعرضين عن دين الله، وتحقير لقدرهم واستخفاف بهم وبعقولهم فإنهم لا يتدبرون الآيات ولا يتجاوزون الدنيا وزينتها في اهتماماتهم وانشغال أذهانهم.

والمعنى: ذلك هو قدر عقولهم ونهاية علمهم وفهمهم، إذ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة واختاروا الضلال والباطل، ونبذوا الهداية والسداد والحق - وفي هذا الصدد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له " وفي الدعاء المأثور: " اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ".

قوله: }إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى{ يعني إن ربك يا محمد أعلم- في سابق علمه القديم - بمن مال عن الحق وعن طريق الله المستقيم فهو لا يؤمن - وهو سبحانه أعلم- في سابق علمه - بمن اهتدى أي سلك سبيل السداد والرشاد وهو الإسلام ١١.

٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

قوله تعالى: }ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ٣١ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى{.

الله مالك كل شيء، وهو مالك السماوات و الأرض وخالقهما - فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء ليجزي المحسنين بإحسانهم ويجزي المسيئين بإساءاتهم.

٣٢ - (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

قوله: }الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش{ الذين في موضع نصب على أنه بدل أو صفة لقوله: }الذين أحسنوا بالحسنى{ ١٢ أي هم لا يفعلون كبائر الإثم وهو الشرك فإنه أكبر الكبائر جميعا وأما الفواحش فالمراد بها الزنا.

قوله: }إلا اللمم{ استثناء منقطع ١٣ والمراد باللمم صغائر الذنوب - واللمم أيضا طرف من الجنون - ورجل ملموم أي به لمم - ويقال: أصابت فلانا من الجن (لمة) وهو المسّ - والملمة بمعنى النازلة من نوازل الدنيا - والعين اللامة، التي تصيب بسوء - يقال: أعيذه من كل هامة ولامّة ١٤ - والمراد به في الآية صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال التي لا ينجو منها إلا صانه الله بعصمة أو رعاية - واللمم في قول كثير من العلماء أنه ما دون الزنا - وقيل: ما دون الوطء، من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة - وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله كتب على آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه " قال القرطبي في تفسير ذلك: والمعنى أن الفاحشة العظيمة والزنا التام الموجب للحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج، وغيره له حظ من الإثم - وذكر عن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الفم التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه - فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللمم - وسئل أبو هريرة عن قول الله }إلا اللمم{ فقال: القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة - فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا.

وقيل: اللمم كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة - فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش - وقيل: هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه.

فقد روي عن ابن عباس قال: اللمم الذي يلم المرة - أي يلم بالذنب الكبير ثم يتوب - قوله: }إن ربك واسع المغفرة{ الله غفار للذنوب وإن كثرت، إذا اجتنبت الكبائر - فما كان من لمم وهي الصغائر والمحقرات من السيئات إذ تلبس بها المرء فإن الله يعفو عن ذلك

بواسع رحمته وعظيم فضله وكرمه لمن تاب وأناب.
قوله: {هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض} يبين الله للناس أنه علمه محيط بهم - فهو عليم بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم وما هم صائرون إليه - فقد خلق الله الناس من الأرض وذلك بخلق أبيهم آدم الذي خلق من طين ثم خلق منه نسله فجعلهم مختلفين متفاوتين في الطبائع والصفات والأهواء - فالله عليم بذلك كله - عليم باختلافهم في الإيمان والكفر، وفي السعادة والشقاء، وفي السواد والبياض، وفي الحسن والقبح، وفي الفطنة والبغاء، وغير ذلك من وجوه الصفات المختلفة.
قوله: {وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم} أجنة، جمع جنين وهو الولد ما دام في بطن أمه - وسمي جنينا، لاجتنابه أي استتاره - أي أن الله (جل وعلا) أعلم بالإنسان وقت اجتنابه مستترا في بطن أمه ويعلم رزقه وأجله وعمله في هذه الدنيا، ويعلم مصيره الذي يؤول إليه من حيث السعادة والشقاوة - فالله لا يعزب عن علمه شيء من ذلك.
قوله: {فلا تزكّوا أنفسكم} أي لا تمدحوها وتثنوا عليها، فإن مدح النفس يفضي إلى الرياء والمنّة والغرور - وهذه محاذير خطيرة تفضي إلى حبوط الأعمال والخسران.
قوله: {هو أعلم بمن اتقى} الله أعلم بالمتقين المخلصين الذين يطيعون الله، خوفا من عذابه وطمعا في رضاه.
قال صاحب الكشاف: وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء - فأما من اعتقد أن ما علمه من العمل الصالح، من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدّح لم يكن من المزكين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر - ويؤيد هذا القول، ما رواه الطبراني عن أبي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم: " من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ".
ويستفاد من الآية كراهية امتداح المرء صاحبه وهو يرى ويسمع - فقد روى الإمام أحمد عن أبي بكرة قال: مدح رجل رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ويلك قطعت عنق صاحبك " مرارا " إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدا أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك ".
وروى أحمد كذلك عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه - فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقينا المدّاحين أن نحثو في وجوههم التراب " ١٥.
قوله تعالى: {أفرأيت الذي تولى ٣٣ وأعطى قليلا وأكدى ٣٤ أعنده علم الغيب فهو يرى ٣٥ أم لم ينبّأ بما في صحف موسى ٣٦ وإبراهيم الذي وفّى ٣٧ ألا تزر وازرة وزر أخرى ٣٨ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ٣٩ وأن سعيه سوف يرى ٤٠ ثم يجزاه الجزاء الأوفى}.
ذكر في سبب نزول هذه الآيات عدة أقوال منها ما ذكر أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيّره بعض المشركين وقال: لم تركت دين الأشياخ وضلّلتهم وزعمت أنهم في النار؟! قال: إني خشيت عذاب الله - فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله - فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه، فأنزل الله هذه الآية - وقيل: كان الوليد بن المغيرة قد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل {وأعطى قليلا} أي من الخير بلسانه {وأكدى} أي قطع ذلك وأمسك عنه.
قوله: {أفرأيت الذي تولى} ذلك تعجيب من الذي أعرض عن دين الله وأدبر عن طاعته.
٣٤ - (وَأَعْطَى قَلِيلا وَأَكْدَى)
قوله: {وأعطى قليلا وأكدى} أكدى الرجل، أي قل خيره وأكدى، أي قطع القليل وأمسك ١٦.
٣٥ - (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)
قوله: {أعنده علم الغيب فهو يرى} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - والمعنى: أعند هذا المكدي الممسك عن الخير والعطاء، علم الغيب فعلم ما قيل له من أن احتمال أوزاره يجديه أو ينفعه.

٣٦ - (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى)
قوله: {أم لم ينبأ بما في صحف موسى} أم، ههنا فيها وجهان - أحدهما: أن تكون المنقطعة، بمعنى (بل والهمزة).
ثانيهما: أن تكون المتصلة بمعنى (بل) ١٧ يعني: أم لم يخبر بما في صحف موسى، أن لا تؤخذ نفس بدلا عن نفس أخرى - وكذلك إبراهيم {الذي وفّى}.
٣٧ - (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)
قوله: {الذي وفّى} أي قام بتبليغ الرسالة على التمام واضطلع بأعباء النبوة والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمروذ وغير ذلك من وجوه الصبر والاحتمال والطاعة.
٣٨ - (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)
قوله: {ألا تزر وازرة وزر أخرى} ذلك مما أخبر الله أنه في صحف موسى وإبراهيم - وهو أن كل نفس ظلمت نفسها بإثم أو ذنب أو شرك فإنما عليها وزر ذلك ولا يحمله عنها أحد غيرها - فكل نفس آثمة إنما إثمها عليها.
٣٩ - (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى)
قوله: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} أي لا يحصل للإنسان من الأجر إلا ما فعله هو لنفسه - وقد استدل الإمام الشافعي (رحمه الله) من هذه الآية أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأن ذلك ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حثهم عليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، ولو كان خيرا لسبقونا إليه - والقربات إنما يقتصر فيها على النصوص ولا يستند فيها على الآراء الأقيسة - أما الدعاء والصدقة فقد أجمعوا على وصولهما إلى الموتى وقد نص الشارع على ذلك - أما ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أوصدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به " - فهذه الثلاثة إنما هي من سعي الإنسان ومن كده وعلمه وقد جاء في الحديث: " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه " وإن ولده من كسبه، والصدقة الجارية هي أثر من آثاره، وكذلك العلم الذي نشره وعمل الناس بمقتضاه، هو أيضا من سعيه وعلمه.
٤٠ - (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)
قوله: {وأن سعيه سوف يرى} أي كل عامل سوف يرى جزاء عمله يوم القيامة من خير أو شر.
٤١ - (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى)
قوله: {ثم يجزاه الجزاء الأوفى} أي ثم يثاب بسعيه الثواب الأتم ١٨.
٤٢ - (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)
قوله تعالى: {وأنّ إلى ربك المنتهى ٤٢ وأنه هو أضحك وأبكى ٤٣ وأنه هو أمات وأحيا ٤٤ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ٤٥ من نطفة إذا تمنى ٤٦ وأنّ عليه النشأة الأخرى ٤٧ وأنه هو أغنى وأقنى ٤٨ وأنه هو رب الشّعرى ٤٩ وأنه أهلك عادا الأولى ٥٠ وثمودا فما أبقى ٥١ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ٥٢ والمؤتفكة أهوى ٥٣ فغشاها ما غشى ٥٤ فبأي آلاء ربك تتمارى}.
هذه جملة دلائل وآيات في الطبيعة والخلق والكائنات تحمل الأذهان على التدبر والذكرى لتستيقن أن الله حق وأنه خالق كل شيء وأنه الحكيم المقتدر - وذلك كله مبدوء بالتأكيد على أن كل شيء صائر إلى الله وأن نهايته إليه سبحانه حيث الحساب والجزاء وهو قوله: {وأن إلى ربك المنتهى} والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء - أي ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله سبحانه: {وإلى الله المصير}.
٤٣ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)
قوله: {وأنه هو أضحك وأبكى} هذه خصّيصة لا تجلى في غير الإنسان من الخلائق - ومزيّة الضحك والبكاء اللتين انفرد بهما الإنسان لا جرم أنهما من تقدير الله ومشيئته، إذ ذرأ في ابن آدم مركبات الضحك والبكاء العضوية والنفسية والفطرية، تلك المركبات التي تهيجها

أسباب الضحك والبكاء الخارجية، كالأفراح والأتراح، والمباهج والأحزان، والتغيظ والسرور، والاغتمام والحبور - وتلكم خصائص وأسباب ومركبات لم تكن في غير الإنسان من أصناف الخلق وهذه ظاهرة من ظواهر كثيرة عجاب تزجي بالدليل على عظمة الخالق الصانع الحكيم.

٤٤ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

قوله: {وأنه هو أمات وأحيا} الله الذي يميت الخلق - بما أنشأ فيهم من أسباب تفضي إلى الموت - وهو سبحانه الذي يحيي عباده بنفخ الأرواح في الأجنة لدى استتارها في الأرحام فتسري فيها الحياة.

٤٥ - (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)

٤٦ - (مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

قوله: {من نطفة إذا تمنى} النطفة هي الماء القليل - والمراد ما يقذف من ذلك من ماء الرجال في الأرحام - والمعنى: أن الله خلق الصنفين من بني آدم من الذكور والإناث {من نطفة} أي من ماء قليل مهين، في غاية البساطة والمهانة {إذا تمنى} إذا أريقت في الأرحام - أمنى إمناء، يعني أراق منيه إراقة ١٩.

٤٧ - (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى)

قوله: {وأن عليه النشأة الأخرى} النشأة الأخرى يعني الإعادة يوم القيامة - فالله الذي ذرأ بداءة الخلق لا جرم قادر أن يعيدهم أحياء يوم البعث لملاقاة الحساب والجزاء.

٤٨ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)

قوله: {وأنه هو أغنى وأقنى} الله الذي يعطي من يشاء من عباده المال، فيغنيه به ويجعل منه ما يقتنيه - أي أعطاكم المال وجعله لكم قنية تقتنونها.

٤٩ - (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

قوله: {وأنه هو رب الشّعرى} الشعرى هو النجم الهائل والقاد، الذي خلف الجوزاء كان الجاهليون يعبدونه مع الله - وهو في حجمه وسعته أثقل من الشمس بعشرين مرة - ونوره أعظم من نور الشمس بخمسين مرة - وهو أبعد من الشمس بمليون ضعف ما بين الشمس والأرض، فالله جل جلاله يبين لهؤلاء المشركين أن الشعرى مخلوق مربوب، وأن الله لهو ربه - وخالقه، فهو أحق أن يعبدوه وحده دون غيره من المخاليق.

٥٠ - (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى)

قوله: {وأنه أهلك عادا الأولى} يبين الله للمشركين منذرا محذرا – مهلك عاد قوم هود، وذلك ليعتبروا ويزدجروا عن غيهم وضلالهم - وقد سمى عادا، بالأولى، لأنهم كانوا من قبل ثمود فقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

٥١ - (وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)

قوله: {وثمودا فما أبقى} وثمود، قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة، فدمر عليهم وقطع دابرهم.

٥٢ - (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

قوله: {وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى} أي أهلك الله قوم نوح بالطوفان من قبل مهلك عاد وثمود - وقد كانوا أشد من الذين جاءوا من بعدهم كفرا وجحودا وأفظع عتوا وتمردا - وفي ذلك تأنيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ليبصر وليعلم أن الله المنتقم الجبار مهلك الظالمين والمجرمين، وأن العاقبة للمؤمنين المتقين الصابرين.

٥٣ - (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى)

قوله: {والمؤتفكة أهوى} المؤتفكة، من الأفك، بفتح الهمزة وسكون الفاء، وهو القلب - أفكة أي قلبه - ائتفكت البلدة بأهلها أي

انقلبت ٢٠ والمؤتفكة، منصوب، لأنه مفعول {أهوى} ٢١ والمراد بالمؤتفكة مدائن قوم لوط التي ائتفكت بأهلها أي انقلبت - فقد رفعها جبريل إلى السماء ثم أهواها إلى الأرض أي أسقطها وجعل عاليها سافلها.

٥٤ - (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى)

قوله: {فغشّها ما غشّى} أي غشاها من البلاء ورمي الحجارة ما غشاها - وذلك تهويل وتعظيم لما نزل بقوم لوط من العذاب.

٥٥ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى)

قوله: {فبأي آلاء ربك تتمارى} آلاء، نعم، وهو جمع ومفرده: إلى وألى، وإلي - والمعنى: فبأي نعم الله تجادل وترتاب أيها الإنسان، وهي نعم كثيرة ومبسوطة ومختلفة ٢٢.

٥٦ - (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى)

قوله تعالى: {هذا نذير من النذر الأولى ٥٦ أزفت الأزفة ٥٧ ليس لها من دون الله كاشفة ٥٨ أفمن هذا الحديث تعجبون ٥٩ وتضحكون ولا تبكون ٦٠ وأنتم سامدون ٦١ فاسجدوا لله واعبدوا}.

النذر، جمع نذير، وهو من الإنذار أي الإبلاغ ولا يكون إلا في التخويف ٢٣ والمراد بالإشارة {هذا} الرسول صلى الله عليه وسلم فهو منذر من المنذرين أرسله الله للناس ليبلغهم دعوة الحق والتوحيد، ويحذرهم الشرك، والنكول عن دينه، أو الإعراض عن منهجه العظيم - وقيل: المراد بهذا، القرآن، فهو إنذار من جنس الإنذارات السابقة الأولى التي أنذر الله بها العباد - وقيل: هذا الذي أخبرتكم به من أخبار الأمم الماضية مما حل بهم من التدمير وسوء العقاب إنما هو تخويف لكم أن ينزل بكم ما نزل بهم.

٥٧ - (أَزِفَتِ الآزِفَةُ)

قوله: {أزفت الأزفة} أزفت، بمعنى قربت - والآزفة، هي الموصوفة بالقرب وهي القيامة أي قربت القيامة - وسميت بالآزفة، لدنو موعدها وشدة قربها من الناس، فأجدر بالناس أن يحذروا الآخرة، وأن يتعظوا ويتقوا ربهم ويجتنبوا معاصيه.

والتعبير بمثل هذه العبارة لا جرم يثير الانتباه ويبعث على الاهتمام والتيقظ والحذر - فما يتلو القارئ المتدبر هذه العبارة إلا ويستشعر في خياله وعميق إحساسه ظلال الساعة وأن أوانها قد دنا واقترب.

٥٨ - (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

قوله: {ليس لها من دون الله كاشفة} كاشفة، مبينة - أي ليس من أحد يبين متى تقوم الساعة أو يكشف عنها سوى الله - كقوله: لا يجليها لوقتها إلا هو}.

٥٩ - (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

قوله: {أفمن هذا الحديث تعجبون} الاستفهام للإنكار والتوبيخ - يعني: أفمن هذا القرآن تعجبون إنكارا وتكذيبا.

٦٠ - (وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ)

قوله: {وتضحكون ولا تبكون} أي أتضحكون استهزاء بكلام الله ولا تبكون خوفا من وعيده ومن عاقبة تكذيبكم وجحودكم.

٦١ - (وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

قوله: {وأنتم سامدون} أي لاهون غافلون معرضون.

٦٢ - (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)

قوله: {فاسجدوا لله واعبدوا} المراد بالسجود ههنا، سجود التلاوة وقيل: سجود الفرض في الصلاة، {واعبدوا} أي: أخلصوا لله العبادة والطاعة دون أحد غيره من المخاليق والأنداد ٢٤.

٥٤ سورة القمر:

سورة القمر:

بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وآياتها خمس وخمسون - وهي سورة عجيبة بفرط إيقاعها وحلاوة رنينها المثير - وهي فيها من عظيم المعاني وألوان التذكير ما يستنفر الحس، ويثير المشاعر، ويهيج القلب والوجدان.
والسورة بعجيب إيقاعها وروعة أجراسها وجمال ألفاظها ومقاطعها وخواتيم آياتها العجاب تثير البال وتستوقف الخاطر وتشده الحس شدها - ويأتي في طليعة ذلك كله حرف الراء - هذا الحرف الشجي النفاذ الذي يمس بجرسه الخيال والجنان فيهيج فيهما الإيناس والسكينة والحبور مما ليس له في الكلام نظير - إنه إيناس وسكينة وجمال لا يجده المتدبر في أنغام الملاهي وآلات الموسيقى المصنوعة - وذلك ضرب من ضروب الإعجاز في هذا الكاب الحكيم.
وقد تضمنت السورة من أخبار القيامة وأهوالها وشدائدها ما ينشر في الذهن والخيال ظلالا من الترويع والفزع.
إلى غير ذلك من أخبار الأمم السالفة التي طغت وفسقت عن مر الله فحق عليها القول من الله بالتدمير والاستئصال.
على أن السورة مبدوءة بخير مطلع وأكرم استهلال وذلك بالإخبار عن دنو الساعة وانشقاق القمر.
١ - (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{اقتربت الساعة وانشق القمر ١ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ٢ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ٣ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ٤ حكمة بالغة فما تغن النذر ٥ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ٦ خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ٧ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر}.
يخبر الله عن دنو الساعة وأن وقوعها بات قريبا - وهو قوله سبحانه: {اقتربت الساعة وانشق القمر} وقد أخبرت السنة كذلك بدنو الساعة واقتراب أجلها - فقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " بعثت أنا والساعة هكذا " وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى.
أما انشقاق القمر، فهذه واحدة من المعجزات الحسية المنظورة التي تحقق وقوعها زمن النبوة، ليستيقن المشركون ويعلموا أن النبي حق وأنه مبعوث إليهم من ربه - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فريقين، فرقة على هذا الجبل - فقالوا: سحرنا محمد - فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.
وفي رواية عن عبد الله مسعود قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اشهدوا اشهدوا "
وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة - يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم - انظروا السّفّار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به - فسئل السفار وقد قدموا من كل جهة فقالوا: رأينا - وغير ذلك من الأخبار في انشقاق القمر كثير.
٢ - (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)
قوله: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} يعني إن ير المشركون آية أو معجزة تدل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه مرسل من ربه فإنهم يعرضون عن الإيمان ويتولون عن توحيد الله وطاعته {ويقولوا سحر مستمر} يعني ما رأيناه إنما هو سحر ذاهب أو زائل وباطل - مر الشيء واستمر، أي ذهب ١.
ويستدل من الآية على أنهم رأوا انشقاق القمر - فقد قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قبيس ونصف على قعيقعان، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن فعلت تؤمنون " قالوا: نعم - وكانت ليلة بدر - فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما قالوا: فشق القمر فرقتين، ورسول

الله ينادي المشركين " يا فلان يا فلان اشهدوا ".
٣ - (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)
قوله: {وكذبوا واتبعوا أهواءهم} يعني كذب المشركون ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحدوا ما رأوه من الآيات الظاهرة الباهرة بعد معاينتهم انشقاق القمر فلقتين - واتبعوا الضلال والباطل مما دعتهم إليه أهواؤهم الجانحة السقيمة.
قوله: {وكل أمر مستقر} أي كل أمر واقع لا محالة، أو صائر إلى غاية يستقر عليها من خير أو شر، أو كل أمر منته إلى غاية، فالخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر - كل مبتدأ، ومستقر خبره.
٤ - (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)
قوله: {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر} ما، في موضع رفع فاعل لقوله: {جاءهم} ٢ ومزدجر، من الزجر وهو المنع والنهي - يقال: زجره وازدجره فانزجر وازدجر ٣ والمعنى: لقد جاء هؤلاء المشركين المكذبين من أخبار الأمم السابقة عما حل بهم من أصناف العذاب والنكال {ما فيه مزدجر} أي ما يزجرهم ويخيفهم ويردعهم عما هم فيه من الشرك والضلال والعصيان.
٥ - (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)
قوله: {حكمة بالغة فما تغن النذر} حكمة، مرفوع على أنه بدل من " ما " أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: حكمة بالغة ٤ والمراد بالحكمة البالغة القرآن - فهو الحكيم بكل ما تضمنه من عظيم الأخبار والأفكار والأحكام والعبر فليس له فيه من خلل ولا نقص ولا ضعف بل إنه الغاية في سمو الأحكام والمعاني وكمال المواعظ والمقاصد - قوله: {فما تغن النذر} ما، نافية - أي فليست تغني عنهم النذر شيئا - فهم لا ينتفعون بالنواهي والزواجر والمواعظ والآيات لشدة إعراضهم و فرط تكذيبهم - و قيل: ما، استفهامية - فيكون المعنى: فأيّ شيء تغني عنهم النذر وهم معرضون، موغلون في الشرك، جامحون نحو الطغيان والباطل - والنذر، جمع نذير، وهو من الإنذار أي الإبلاغ في تحذير وتخويف.
٦ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ)
قوله: {فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر} أي أعرض عن هؤلاء المشركين المكذبين يا محمد وانتظر يوم يدعو داعي الله {إلى شيء نكر} إلى شيء فظيع ومذهل ومخوف، وهو ما يكون يوم القيامة من الزلازل والأهوال وألوان البلاء.
٧ - (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)
قوله: {خشعا أبصارهم} خشعا، منصوب على الحال ٥ أي أذلة مذعورين وقد أحاط بهم الوجل والفزع، وغشيهم من الرعب ما غشيهم - قال صاحب الكشاف في ذلك: وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخذال، لأن ذل الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما.
قوله: {يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر} الأجداث، القبور، جمع جدث - أي يبعثهم الله من قبورهم أحياء فيخرجون إلى موقف الحساب مذعورين مدهوشين منتشرين انتشار الجراد في كثرته وتموجه - فهم كثيرون مائجون مبثوثون في كل مكان.
٨ - (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)
قوله: {مهطعين إلى الداع} مهطعين منصوب على الحال ٦ بمعنى مسرعين - يقال: أهطع الرجل إذا مد عنقه وصوب رأسه - وأهطع في عدوه أسرع ٧ والمقصود: أنهم يخرجون يوم القيامة من قبورهم مسرعين ناظرين إلى الداعي الذي يناديهم، وهم شاخصة أبصارهم إلى السماء.
قوله: {يقول الكافرون هذا يوم عسر} أي وصفوا يوم القيامة بالعسر، لشدة ما فيه من الفظائع والأهوال ٨.
٩ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)
قوله تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ٩ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ١٠ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ١١ وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ١٢ وحملناه على ذات ألواح ودسر ١٣ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر

١٤ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ١٥ فكيف كان عذابي ونذر ١٦ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}.
يبين الله للناس ما حل بالظالمين السابقين من قبل هذه الأمة، لما في ذلك من تأنيس لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قوله: {كذبت قبلهم قوم نوح} أي كذب من قبل هذه الأمة، قوم نوح {فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون} أي كذبوا رسولنا نوحا لما دعاهم إلى عبادة الله وحده وحذرهم الشرك والظلم والعصيان، فآذوه وعذبوه ونكلوا به تنكيلا، وقالوا إن نوحا مجنون {وازدجر} أي زجروه وانتهروه وصدوه عن دعوتهم إلى دين الله وتوعدوه بالقتل.
١٠ - (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)
قوله: {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} دعا نوح ربه ضارعا إليه شاكيا ظلم قومه وعتوهم واستكبارهم، مبينا أنه {مغلوب} أي ضعيف مقهور لا يستطيع التصدي لهؤلاء العتاة المجرمين {فانتصر} أي فانصرني وانتقم لي منهم بعذاب من عندك.
١١ - (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)
قوله: {ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر} استجاب الله دعاء نوح – عليه السلام- وأمره ربه أن يصنع السفينة لينجو على متنها هو والذين آمنوا معه وهم قلة - ثم أمر الله السماء أن تمطر، فنزل منها الماء غزيرا منسكبا - فانهمر، أي نزل منسكبا دفاقا - والمنهمر، المتصبب - والهمرة، الدفعة من المطر - وانهمر الماء أي انسكب وسال ٩.
١٢ - (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)
قوله: {وفجرنا الأرض عيونا} أمر الله الأرض أن تخرج ماءها، فتفجر سائر الأرض بالعيون، حتى تنانير النيران قد انبجست منها المياه جارية دفاقة {فالتقى الماء على أمر قد قدر} أي التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر مقدور - أو على أمر قد قدره الله وقضاه - فليس من مصادفة ولا عشوائية ولا فوضى وإنما تجري أمور الكون كله بنظام منضبط مقدور كتبه الله وقدره تقديرا.
١٣ - (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)
قوله: {وحملناه على ذات ألواح ودسر} الدسر هي خيوط تشد بها ألواح السفينة - وقيل: هي المسامير - والدسر جمع ومفرده الدسار ١٠ يعني: وحملنا نوحا والذين نجيناهم معه من المؤمنين على السفينة ذات ألواح مشدود بعضها إلى بعض بخيوط أو مسامير.
١٤ - (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ)
قوله: {تجري بأعيننا} أي تجري السفينة وسط المياه العظيمة المائجة المضطربة {بأعيننا} أي بحفظنا وكلاءتنا، وعلى مرأى منا فلا يمسهم سوء ولا أذى - وهذه واحدة من معجزات كونية مقدورة قد كتبها الله لتنجيه الفئة القليلة من المؤمنين - وذلكم النصر يكتبه الله لعباده المؤمنين المتقين الصابرين الذين تحيط بهم الشدائد والمخاوف والمكاره من كل جانب، وهم بالرغم من كل ذلك سائرون على هدى من الله، ما ضون على طريقه المستقيم، يدعون الناس إلى منهج الله القويم، ثابتين صابرين غير مرتابين ولا مترددين.
قوله: {جزاء لمن كان كفر} جزاء، منصوب على أنه مفعول لأجله - أي فعل الله بقوم نوح ما فعل من التغريق والاستئصال بالطوفان، عقابا لهم على كفرهم بالله وجحودهم آلاءه ونعمه وتكذيبهم ورسوله، وصدهم عن سبيله صدودا.
١٥ - (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)
قوله: {ولقد تركناها آية} الهاء في قوله: {تركناها} ضمير يعود على ما حل بقوم نوح من إهلاك واستئصال بالتغريق والطوفان - فقد جعل الله ذلك آية للناس أي عبرة لهم فيعتبرون ويتعظون - وقيل: الضمير عائد على السفينة، فقد أبقاها الله دهرا طويلا حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة {فهل من مدكر} المدكر، المعتبر، المتعظ، الخائف - وأصل مدكر، مذتكر - قلبت التاء دالا وأدغمت فيها للثقل ١١ - يعني: هل من يتذكر ما حل بتلك الأمة الطاغية الظالمة من العقاب بالطوفان والتغريق والاستئصال، فيعتبر بهم، ويحذر عقاب ربه أن يحيق به بسبب كفره وفسقه عن دين الله؟.
١٦ - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

قوله: {فكيف كان عذابي ونذر} النذر والإنذار مصدران - والاستفهام للتعجيب والتخويف - يعني: فكيف كان عذابي للظالمين وإنذاري لهم؟ - لقد كان ذلك هائلا ومخوفا.

١٧ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

قوله: {ولقد يسرنا القرآن للذكر} أي سهلنا القرآن وجعلناه هينا ميسورا {للذكر} لمن أراد أن يتذكر ويعتبر بما فيه من الآيات والبينات والعبر فإنه لا يسلك سبيل القرآن الحكيم فيتبع منهجه وأحكامه وهداه إلا الراشدون المهتدون الذين كتب الله لهم السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة ١٢.

١٨ - (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

قوله تعالى: {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ١٨ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ١٩ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ٢٠ فكيف كان عذابي ونذر ٢١ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}.

يخبر الله عن عاد، قوم هود، أولئك الذين طغوا وبغوا وكذبوا نبيهم هودا – عليه السلام – فأخذهم الله بالعذاب الشديد، إذ كان عذابه هائلا ووجيعا ومخوفا هو قوله: {فكيف كان عذابي ونذر}.

١٩ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

قوله: {إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا} أرسل الله على عاد قوم هود ريحا عاتية شديدة البرودة تدمر كل شيء بأمر الله - وذلك {في يوم نحس مستمر} النحس ضد السعد - أي دمرتهم الريح تدميرا وقلعتهم قلعا في يوم كان مشؤوما عليهم {مستمر} أي استمر العذاب عليهم ودام حتى أهلكهم وقطع دابرهم.

٢٠ - (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

قوله: {تنزع الناس} الجملة الفعلية في موضع نصب صفة للريح - أي تقلعهم من مواضعهم أو تقلعهم من الأرض، إذ ترفعهم ثم تنكسهم على رؤوسهم فتندق رؤوسهم وأعناقهم فيبقون جثثا بلا رؤوس {كأنهم أعجاز نخل منقعر} الكاف، في موضع نصب على الحال - أي تنزع الريح الناس وتنكسهم وتدق أعناقهم، فكانوا يتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال عظام {كأنهم أعجاز نخل منقعر} أعجاز النخل، أصولها أي يشهدون أصول النخل المنقعر - أي المنقلع عن مغارسه - أو المنقلع من أصوله.

٢١ - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

قوله: {فكيف كان عذابي ونذر} أي فكيف كان عذابي وإنذاري لهم - والاستفهام للتهويل والتخويف - أي كان كل من عذابي لهم وإنذاري شديدا هائلا مخوفا.

٢٢ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

قوله: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} أي جعلنا القرآن للناس سهلا واضحا وميسورا فهل من متذكر متعظ يتدبره ويعيه ويهتدي بهديه ١٣.

٢٣ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)

قوله تعالى: {كذبت ثمود بالنذر ٢٣ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ٢٤ أءلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ٢٥ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ٢٦ إن مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ٢٧ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ٢٨ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ٢٩ فكيف كان عذابي ونذر ٣٠ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ٣١ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}

يخبر الله عن ثمود، قوم صالح الذين كذبوا بالنذر - أي كذبوا بما جاءهم من إنذار من ربهم - أو جمع نذير - أي كذبوا بالرسل الذين يبلغون الناس دعوة ربهم - فتكذيبهم صالحا وهو رسول الله، تكذيب لسائر المرسلين، لأن من كذب واحدا من أنبياء الله كان كمن كذب النبيين جميعا.

٢٤ - (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ)

قوله: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه} الاستفهام للإنكار - فقد استنكروا لفرط جهالتهم وضلالهم أن يتبعوا واحدا من جنسهم - وهم يريدون بذلك أن يبعث الله إليهم نبيا من الملائكة وليس من البشر أو أنهم استنكروا إرسال واحد من أدناهم وليس من أشرفهم.

قوله: {إنا إذا لفي ضلال وسعر} السعر، معناه الجنون - وقيل: العناء والعذاب ١٤ يعني: إنا إذا اتبعنا واحدا من جنسنا أو من أدنانا حسبا وفضلا فإنا باتباعنا إياه لضالون مائلون عن الصواب وإنا لفي جنون أو شده وعذاب.

٢٥ - (أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

قوله: {أألقي الذكر عليه من بيننا} الاستفهام للإنكار - أي اختصه الله بالرسالة والوحي من بين آل ثمود وفيهم من هو خير منه مالا وحسبا وشرفا.

قوله: {بل هو كذاب أشر} الأشر معناه البطر ١٥ وبل للإضراب عن كون صالح نبيا صادقا أرسله الله إليهم، وإنما هو كذاب بطر، حمله بطره أن يطلب التعظم علينا والتكبر من غير استحقاق لذلك.

٢٦ - (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ)

قوله: {سيعلمون غدا من الكذاب الأشر} ذلك وعيد من الله للظالمين المكذبين الذين جحدوا نبوة صالح - والمعنى: سيعلمون غدا – على سبيل التقريب - من هو الكذاب البطر الذي يحل عليه العذاب يوم القيامة أو في الدنيا، أهو صالح أم معشر ثمود.

٢٧ - (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)

قوله: {إنا مرسلون الناقة فتنة لهم} إن الله مخرج لهم ناقة من الهضبة وهي صخرة صماء، إذ دعا صالح ربه أن يخرج لهم من جوف هذه الصخرة ناقة فاستجاب الله دعاءه، إذ انصدعت الصخرة وخرجت منها الناقة تصديقا لنبوة صالح (عليه السلام) وكذلك {فتنة لهم} أي اختبارا لهم وامتحانا لتستبين حالهم من الكفر أو الإيمان.

قوله: {فارتقبهم واصطبر} أي انظر ماذا يصنعون بناقة الله، واصبر على أذاهم وكيدهم وتكذيبهم فإن العاقبة والنصر لك في الدنيا والآخرة.

٢٨ - (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

قوله: {ونبئهم أن الماء قسمة بينهم} أي أخبرهم أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة فلهم يوم يشربون فيه الماء، ولها يوم تشربه كذلك - أي لها شرب يوم ولهم شرب يوم - قال ابن عباس في تأويل ذلك: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبنا وكانوا في نعيم - وإذا كان يوم الناقة - شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا.

قوله: {كل شرب محتضر} الشرب، بكسر الشين، أي الحظ من الماء ١٦ والمعنى: أنه يحضر الماء من هو له، فتحضره الناقة يوم وردها وتغيب عنهم يوم وردهم - وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم ويحضرون اللبن في نوبتها فيشربونه.

٢٩ - (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

قوله: {فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر} أي نادت ثمود صاحبهم الشقي الأثيم ليعقر ناقة الله فحضّوه على هذه الفعلة النكراء {فتعاطى فعقر} أي تناول الفعل وهو العقر - أو اجترأ على تعاطي الأمر العظيم - والعقر معناه، الضرب بالسيف ١٧.

٣٠ - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

قوله: {فكيف كان عذابي ونذر} وذلك تخويف لقريش من أن يحل بهم من العقاب ما حل بالمكذبين السابقين - أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم يا معشر قريش.

٣١ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

قوله: {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة} أرسل الله جبريل العظيم فصاح فيهم صيحة أتت عليهم فأهلكتهم إهلاكا {فكانوا كهشيم المحتظر}

الهشيم، الشجر اليابس المتهشم المتكسر - والمحتظر، الذي يعمل الحظيرة - وقال ابن عباس: المحتظر، الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم - واحتظر على إبله أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع به الريح والسباع عن إبله - وقيل: المحتظر، المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح.

٣٢ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

قوله: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} جعل الله القرآن بينا ميسورا - فهو واضح النظم والمبنى، عظيم المدلول والمعنى لمن أراد أن يتدبر أو يتفكر فينتفع بآياته واحكامه وعلومه ١٨.

٣٣ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ)

قوله تعالى: {كذبت قوم لوط بالنذر ٣٣ إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر ٣٤ نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ٣٥ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ٣٦ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ٣٧ ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر ٣٨ فذوقوا عذابي ونذر ٣٩ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}.

يخبر الله أمة أثيمة أخرى من الأمم الضالة - أمة من الغابرين الهالكين الذين أوغلوا في الفحش والشذوذ والقذر - وهم قوم لوط - أولئك الأشقياء الخاسرون الذين كانوا يأنفون من نكاح النساء ويرغبون في إتيان الذكور - وهذه جريمة بشعة من الجرائم النكراء المستقذرة لا يتلبس بها الشذاذ الضالعون في الخطيئة والرجس.

ولقد كذب قوم لوط بإنذار الله، إذ جحدوا نبوة رسولهم لوط (عليه السلام) وعتوا عن دينه وعما دعاهم إليه من الإيمان والطهر والعفة، لكنهم عصوا وطغوا وآثروا الاستغراق في الرذيلة الشنيعة التي تثير الامتعاض والتقزز والنفور.

٣٤ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

قوله: {إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آآل لوط} الحاصب، معناه الريح الشديدة تثير الحصباء وهي الحصى ١٩ - لقد أرسل الله على قوم لوط حجارة من السماء فأبيدوا جميعا باستثناء نبي الله لوط وآله وهما بنتاه المؤمنتان، إذ لم يؤمن معه من قومه أحد البتة - وكذا امرأته الشقية الأثيمة لم تؤمن فأصابها من البلاء ما أصاب قومها المجرمين.

٣٥ - (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

قوله: {نعمة من عندنا} نعمة منصوب على أنه مفعول له ٢٠ يعني نجى الله الفئة المؤمنة القليلة وهم لوط وابنتاه، نعمة أنعمها الله عليهم وكرامة أكرمهم بها.

قوله: {كذلك نجزي من شكر} الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف - أي مثل ذلك الجزاء الذي جزيناه آآل لوط، نجزي من شكر نعمة ربه ولم يكفرها.

٣٦ - (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)

قوله: {ولقد أنذرهم بطشتنا} أي لقد حذرهم لوط بأس الله وخوفهم من شديد عقابه وانتقامه ليزدجروا ويتوبوا {فتماروا بالنذر} أي ارتابوا فيما أنذرهم به نبيهم لوط ولم يصدقوه.

٣٧ - (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

قوله: {ولقد راودوه عن ضيفه} لقد جاء لوطا ملائكة الله وهم جبريل وميكائيل، وإسرافيل، في صورة شبان مرد حسان، على سبيل الفتنة لهم والامتحان من الله - فاستقبلهم لوط بما يستقبل به الأضياف المكرمون - فأعلمت امرأته قومها المجرمين بخبرهم فهرعوا إليه من كل مكان يراودونه عنهم - أي طلبوا منه أن يمكنهم منهم رغبة منهم في الفاحشة، وهم يظنون أنهم من البشر - فأغلق لوط الباب دونهم، لكنهم ألحوا من أجل الدخول فحاولوا كسر الباب - فوجد لوط في نفسه منهم حرجا بالغا وكادوا يغلبونه على الدخول - وحينئذ خرج عليهم جبريل – عليه السلام- فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست وهو قوله: {فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر}

أي أذهب أبصارهم تماما فلم يروا البتة، ورجعوا على أدبارهم خاسئين يتحسسون الحيطان - وقيل: لم يبق لهم عيون بالكلية، وذلكم الطمس.

٣٨ - (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

قوله: {ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر} يعني أتاهم عذاب الله بكرة أي عند طلوع الفجر، إذ قلب الله الأرض بهم فجعل عاليها سافلها ثم أتبعهم برمي الحجارة زيادة في التنكيل - وذلك عذاب من الله مستقر، لا مفر منه ولا محيد عنه - وقيل: استقر فيهم ذلك العذاب إلى يوم القيامة حتى يوافوا العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم.

٣٩ - (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

قوله: {فذوقوا عذابي ونذر} أي ذوقوا يا معشر القوم الظالمين ما أنزلته بكم من العذاب الأليم.

٤٠ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

قوله: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} كرر هذه الآية جملة مرات زيادة في التأكيد على الإستفادة من آيات الكتاب الحكيم، إذ جعل الله القرآن سهلا وميسورا لمن أراد أن يتدبر ويتذكر ويتعظ وينتفع مما فيه من بلاغ وعلم حكمه ٢١.

٤١ - (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

قوله تعالى: {ولقد جاء آل فرعون النذر ٤١ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ٤٢ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ٤٣ أم يقولون نحن جميع منتصر ٤٤ سيهزم الجمع ويولون الدبر ٤٥ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر}.

يخبر الله في هذه الآيات عن أمة ظالمة أثيمة أخرى، وهم فرعون وقومه من القبط، فقد كانوا فاسقين طغاة، وقد جاءهم من الله النذر أي الإنذار وهو الإبلاغ - والمراد بذلك رسول الله موسى وأخوه هارون، إذ أرسلهما الله إلى فرعون وملئه لتحذيرهم الكفر والباطل ودعوتهم إلى دين الله الحق - ولقد أيد الله نبيه موسى بجملة من الخوارق وهي معجزات حسية ظاهرة توجب التصديق واليقين - وذلك كمعجزة العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وغير ذلك من الآيات المحسوسة الواضحة التي لا يجحدها إلا مأفون خاسر - لكن القوم الظالمين كذبوا بذلك كله فأهلكهم الله بعقاب أليم وهو قوله: {كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر}.

٤٢ - (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

قوله: {كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} أخذهم أخذ قوي غالب قهار {مقتدر} قادر على فعل ما يشاء.

٤٣ - (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

قوله: {أكفاركم خير من أولئكم} يخاطب الله المشركين المكذبين من العرب بقوله لهم على سبيل الإنكار والنفي: ليس كفاركم خيرا من الكافرين السابقين كقول نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، أولئك الذين أحللت بهم عقابي وانتقامي بسبب كفرهم وضلالهم واستكبارهم {أم لكم براءة في الزبر} أم لكم أيها المشركون براءة في كتب الله أن يصيبكم عقاب بكفركم وتكذيبكم فأمنتم بتلك البراءة.

٤٤ - (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ)

قوله: {أم يقولون نحن جميع منتصر} يعني، أم يقول هؤلاء الكافرون الظالمون نحن جماعة وأمرنا مجتمع {منتصر} أي قوي ممتنع لا يغلبنا من قصدنا بسوء أو أراد أن يفرق جمعنا.

٤٥ - (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)

قوله: {سيهزم الجمع ويولّون الدبر} والمراد بالجمع كفار مكة - فقد أخبر الله بانهزام جمعهم وانكسار شوكتهم وتفريق شملهم وتوليهم هاربين في بدر - وقد كان ذلك - وهذه واحدة من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم - فقد روي عن سعد بن أبي وقاص: لما نزل قوله تعالى: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} كنت لا أدري أي الجمع ينهزم، فلما كان بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع ويقول:

" اللهم إن قريشا جاءتك تحادك وتحاد رسولك بفخرها وخيلائها فأخنهم ٢٢ الغداة " ثم قال: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} فعرفت تأويلها - وقال ابن عباس كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين، فهذه الآية مكية.

وهذه حقيقة يستيقنها كل متدبر مدكر من المسلمين - وهي حقيقة ما ينبغي أن تغيب عن أذهان الداعين إلى دين الله على بصيرة - وهي أن الكفر مهما طغى واشتد وبغى فإنه لا محالة صائر إلى التبدد، والاندثار - وكذلك المشركون الظالمون من أعداء الله والحق، أعداء الإسلام والمسلمين فإنهم مهما اشتدت صولتهم واستطالت شوكتهم واستطار شأنهم وعزهم، وهاج فيهم الغرور والاستكبار وحب السيطرة والاستعلاء فإنهم مهزومون مدبرون أنذال إذا اصطدم غرورهم وعجرفتهم بوحدة المسلمين واستمساكم بعقيدة الإسلام الراسخة المتينة - لا جرم أن المسلمين وهم يمضون متوادين متعاونين متآزرين وقد غمرت قلوبهم نفحة العقيدة والتقوى، ولم يرتضوا عن منهج الإسلام بديلا ولم تفرقهم الأهواء والخلافات والخصومات، فإنهم منصورون بعون الله وتوفيقه، وأن جحافل الكافرين على اختلاف أجناسهم ومللهم، وعلى تعاظم جموعهم وأعدادهم وعساكرهم، لا محالة صائرون إلى الخزي والهزيمة والتبدد - وليس على المسلمين في ضوء هذه الحقيقة إلا أن يتنادوا متماسكين فيتلاقوا حول عقيدتهم الصلبة ومنهج الله العظيم القويم، فإنهم والحالة هذه منصورون ظاهرون أعزة، وأن الكافرين الظالمين المعتدين مهزومون مولون الدبر، يجرجرون الخسران والعار.

٤٦ - (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

قوله: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} يعني بل الساعة موعد هؤلاء المشركين المكذبين لبعثهم وعقابهم - والساعة بما فيها من ألوان العذاب أشد وأفظع وأمر عليهم من هزيمتهم في الدنيا - وأدهى، من الداهية وهي الأمر العظيم ٢٣ ودواهي الدهر ما يصيب الناس من عظيم النوائب ٢٤.

٤٧ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ)

قوله تعالى: {إن المجرمين في ضلال وسعر ٤٧ يوم يسبحون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر ٤٨ إنا كل شيء خلقناه بقدر ٤٩ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ٥٠ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ٥١ وكل شيء فعلوه في الزبر ٥٢ وكل صغير وكبير مستطر ٥٣ إن المتقين في جنات ونهر ٥٤ في مقعد صدق عند مليك مقتدر}.

يبين الله حال المجرمين الخاسرين من الشقاوة والتعس والإيغال في الخسران وسوء المصير - فقال سبحانه: {إن المجرمين في ضلال وسعر} أي مائلون عن الحق، سادرون في الباطل، وهم كذلك في سعر أي في عناء ونصب، أو في جنون مما هم فيه من الضلال والتكذيب.

٤٨ - (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

قوله: {يوم يسبحون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} أي يسحب هؤلاء المجرمون إلى النار على وجوههم - وفي ذلك من فظاعة التنكيل ما يروع القلوب ترويعا - وهو تنكيل شديد تكشف عنه كلمات القرآن النفاذة بظلالها الموحية وأجراسها العجاب - يتراءى ذلك للخيال من خلال التعبير بسحب المجرمين في النار على وجوههم، ثم يقال لهم عقب ذلك، زيادة في التنكيل والتعذيب: {ذوقوا مس سقر} وفي الأمر بذوق المس لسقر ما يثير النفور والانقباض والصدمة - وسقر، اسم من أسماء النار.

٤٩ - (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

قوله: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} يعني: إن كل شيء من الأشياء مخلوق بتقدير الله وقضائه السابق في علمه، المكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه - وبذلك فإن قدر الله سابق لخلقه - وقدره معناه علمه الأشياء قبل أن تقع - أي أن الله قدر الأشياء وعلم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، فلا يحدث شيء أو حدث في الوجود إلا وهو صادر عن علم الله تعالى وقدرته وإرادته - فقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ".

وفي الحديث الصحيح: " استعن بالله ولا تعجز فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا فإن لو

تفتح عمل الشيطان " وفي حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف ".

٥٠ - (وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

قوله: }وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر{ يعني ما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا قولة واحدة - أو نأمر به مرة واحدة من غير أن نؤكده مرة ثانية فيكون ما أردناه حاصلا موجودا {كلمح بالبصر} يعني كسرعة اللمح بالبصر، أو كطرفة العين لا يبطئ ولا يتأخر.

٥١ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

قوله: }ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر{ يعني لقد أخذنا بالعذاب والاستئصال أشباهكم في الكفر من السابقين، فهل من متعظ أو معتبر بما حل بالمجرمين الغابرين من الهلاك.

٥٢ - (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

قوله: }وكل شيء فعلوه في الزبر{ أي كل ما فعلته الأمم من السابقين واللاحقين من أعمال في الخير والشر إلا هو مكتوب عليهم في كتب الحفظة من الملائكة - أو في اللوح المحفوظ.

٥٣ - (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ)

قوله: }وكل صغير وكبير مستطر{ يعني ما من صغير ولا كبير من أعمالهم إلا هو مستطر، أي مكتوب عليهم في صحائف أعمالهم.

٥٤ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

قوله: }إن المتقين في جنات ونهر{ المتقون، وهم المؤمنون الذين يخشون الله ويأتمرون بأوامره ويجتنبون نواهيه ومعاصيه، فأولئك منعمون في الجنات ومن تحتها الأنهار جارية سائحة.

٥٥ - (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

قوله: }في مقعد صدق عند مليك مقتدر{ أي منعمون في الجنة، إذ لا لغو فيها ولا تأثيم، بل هي دار كرامة لهم ورضوان من الله {عند مليك مقتدر} أي عند إله خالق مالك قادر على كل شيء ٢٥.

٥٥ سورة الرحمن:

سورة الرحمن:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية، وآياتها ثماني وسبعون - وهي تتجلى فيها جملة من السمات التي تفيض عليها بسحائب كثاف من مباهج الجمال، وروعة البناء والتركيب، فضلا عن عجائب المضمون والمعنى الذي يتخلل السورة من أولها إلى آخرها.

وفي السورة من عجائب النظم وزاهر النغم والإيحاء ما يثير في نفس القارئ المتدبر أو السامع المتفكر فيضا من التّملي والبهجة مما يشده إلى معاودة التلاوة في تكرار مستديم، لا تجد فيه النفس شيئا من ملال أو سأم كالذي يقع للمرء في تكرار أيما كتاب آخر - وهذه واحدة من ظواهر الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم.

ويتجلى في السورة آية خاصة مميزة مكرورة يقرأها المتدبر باستمرار مستديم، فلا يسأم أو يضجر أو يعاف، بل يستأنس ويبهج ويتلذذ مما يجده في نفسه من إيحاء مثير.

على أن السورة مبدوءة باسم أعظم من أسماء الله وهو " الرحمن " وفي ذلك ما لا يخفى من الإشارة إلى رحمة الله الكبرى - الرحمة الواسعة الفضلى التي تتجلى وتتسع لتشمل الكون كله.

١ - (الرَّحْمَنُ)

بسم الله الرحمن الرحيم
{الرحمن ١ علم القرآن ٢ خلق الإنسان ٣ علمه البيان ٤ الشمس والقمر بحسبان ٥ والنجم والشجر يسجدان ٦ والسماء رفعها ووضع الميزان ٧ ألا تطغوا في الميزان ٨ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ٩ والأرض وضعها للأنام ١٠ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ١١ والحب ذو العصف والريحان ١٢ فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
يعدد الله نعمه على الخلق في السورة كلها - وهي نعم دنيوية وأخروية كثيرة مصدّرة بذكر الرحمن - فهو سبحانه رؤوف بعباده رحيم بالخلق جميعا - والرحمن، مبتدأ، وخبره ما بعده من الأفعال مع ضمائرها.
ثم ذكر الله ما هو أصل النعم وأكرمها وأعظمها، وأشرف ما عرف الكون من حقائق وأشياء، وذلكم هو القرآن، وهو قوله: {علم القرآن}.
٢ - (عَلَّمَ الْقُرْءَانَ)
قوله: {علم القرآن} فقد يسره للناس، ليفهموه، ويتدبروه، ويقفوا على معانيه، فيعتبروا بها، وليكون لهم على مر الزمان هداية ونورا فيظفروا بسعادة الدنيا، والنجاة يوم القيامة.
٣ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ)
قوله: {خلق الإنسان} هذا الكائن العاقل المميز بما يتجلى فيه من خصائص الفكر والنطق والوجدان والضمير والفطرة.
٤ - (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)
قوله: {علمه البيان} والمراد به النطق والتعبير عما في النفس والذهن من مقاصد وأفكار، وهذه سمة فضلى اختص الله بها الإنسان، إذ جعله ناطقا متكلما، وذلك بما أودعه من جهاز عضوي وعصبي وعقلي تحقق به ظاهرة الكلام.
٥ - (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)
قوله: {الشمس والقمر بحسبان} هذان الجرمان العظيمان وهما الشمس والقمر يجريان في الفضاء بحساب دقيق مقنن، ونظام مطرد موزون لا يختلف ولا يضطرب.
٦ - (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)
قوله: {والنجم والشجر يسجدان} المراد بالنجم، ما نجم، أي ظهر، من النبات على غير ساق وذلك كالبقول ١ - أما الشجر، فهو الذي له ساق من النبات - وهما كلاهما {يسجدان} أي ينقادان لله فيما خلقا له - فانقيادهما لأمره ليكونا على الكيفية التي ذرأهما الله عليها هو المراد بسجودهما، أو أنهما يسجدان على هيئة أو كيفية لا يعلمها إلا الله.
٧ - (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)
قوله: {والسماء رفعها ووضع الميزان} خلق الله السماء مرفوعة من حيث المحل والقدر والشرف، فهي منشأ الوحي ومنزل الكتب الربانية ومقام الملائكة الأطهار - والمراد بالميزان العدل، فقد أوجب الله إحقاقه في الأرض ليقوم للناس بالقسط بعيدا عن الحيف والميل والجور، وقيل: الميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما.
٨ - (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)
قوله: {ألا تطغوا في الميزان} أي لئلا تميلوا عن الحق فتجنحوا للزيغ والباطل.
٩ - (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)
قوله: {وأقيموا الوزن بالقسط} يعني أقيموا وزنكم بالعدل {ولا تخسروا الميزان} أي لا تنقصوا الميزان، بل زنوا بالحق والعدل دون طغيان أو نقصان.
١٠ - (وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ)
قوله: {والأرض وضعها للأنام} أي خفض الأرض في مقابل رفع السماء، ثم أرساها بالجبال الشامخات وجعلها ممهدة مناسبة {للأنام}

وهم الخلائق والدواب على اختلاف أنواعهم وأجناسهم وألوانهم وأشكالهم.
١١ - (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ)
قوله: {فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام} في الجنة أجناس مختلفة من الفواكه مما يتفكه به المنعمون السعداء، وفيها {النخل ذات الأكمام}: والأكمام، أوعية الطلع وهو الثمر - ومفرد الأكمام، الكم بكسر الكاف ٢.
١٢ - (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)
قوله: {والحب ذو العصف والريحان} العصف معناه ورق الزرع الذي على السنبلة إذا يبس، أو التبن - والريحان، هو الورق الملتف على ساق الزرع - وقيل: اللب الذي يتلذذ به من الفواكه.
١٣ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} آلاء جمع ومفرده: إلي وألي وإلى وألو ٣ والآلاء، النعم والخيرات مما منّ الله به على العالمين من وجوه الرزق والخير والنعمة في مختلف مناحي الحياة والطبيعة، فضلا عما ذرأه الله في نفس الإنسان من النعم الكثيرة كنعمة العقل والسمع والبصر والشم والذوق والحس والمشي، وما ذرأه لذلك كله من أسباب ووسائل في غاية الكمال من حسن الهيئة والصورة وتمام التناسق والانسجام - والمعنى: فبأي أنعم الله أيها الثقلان تكذبان وهي أنعم جزيلة وهائلة ومبسوطة في أرجاء الكون والحياة جميعا - وإذا قرأنا هذه الآية بادرنا القول كما قالت الجن المؤمنون: اللهم ولا بشيء من آلائك نكذب ٤.
١٤ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)
قوله تعالى: {خلق الإنسان من صلصال كالفجار ١٤ وخلق الجان من مارج من نار ١٥ فبأي آلاء ربكما تكذبان ١٦ رب المشرقين ورب المغربين ١٧ فبأي آلاء ربكما تكذبان ١٨ مرج البحرين يلتقيان ١٩ بينهما برزخ لا يبتغيان ٢٠ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٢١ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ٢٢ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٢٣ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ٢٤ فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
يبين الله خلق الإنسان والجان - فقد خلق الإنسان من صلصال، وهو الطين اليابس ما لم يحرق ويكن خزفا - وهو من الصلصلة أي الصوت عند القرع ٥ والفخار معناه الخزف ٦ وذلكم هو الإنسان، إذ خلقه ربه من تراب مختلط بالماء - فهو بذلك من معدن الطين وهو معدن وسط، فلا هو بالرفيع كأصل الملائكة من نور، ولا هو بالوضيع الخسيس كالدواب العجماوات، وإنما هو متأرجح متوسط بين العلو والهبوط - وذلك بالنظر لطبيعة تكوينه التي تمتزج فيها الروح الشفيفة الرقيقة، بالطين المنتن الثقيل.
١٥ - (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)
قوله: {وخلق الجان من مارج من نار} أي من لسان من نار، أو هو من طرف لهبها - وقيل: من اللهب الصافي الذي لا دخان فيه، فهو بذلك ذو طبيعة اقتضاها تكوينه من النار المتأججة التي تحرق كل ما تصيبه أو تأتي عليه - وكذا الجان غير المؤمن فإنه من نسل إبليس هذا المخلوق المنكود الشقي الذي لا يستقر ولا يسكن ولا يبرح حتى يغوي بني آدم إغواء فيضلهم عن سبيل الله إضلالا، أما المؤمنون من الجن فهم كإخوانهم المؤمنين من الإنس، فإنهم جميعا عابدون مخبتون لله مقرّون له بالإلهية والوحدانية.
١٦ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} فبأي أنعم الله تكذبان يا معشر الثقلين من الجن والإنس - فقد أنعم الله عليكم بنعمة الخلق والوجود وبما بث فيكما من مختلف القدرات والاستعدادات كالحركة والسعي والوعي والفهم والنطق والتناسل.
١٧ - (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)
قوله: {رب المشرقين ورب المغربين} الله مالك كل شيء وهيمنته وسلطانه منبسطان على الوجود كله - وهو سبحانه {رب المشرقين ورب المغربين} والمراد بالمشرقين، مشرق كل من الصيف والشتاء وكذلك المراد بالمغربين، مغرب كل واحد من الصيف والشتاء.
قوله: {رب المشرقين ورب المغربين} يعني بالمشرقين، مشرقي الصيف والشتاء ويريد بالمغربين، مغربي الصيف والشتاء أيضا - فثمة

تفاوت بين مكان المشرق والمغرب في كل من الصيف والشتاء نظرا للاختلاف في المدة الزمنية لليل والنهار في الفصلين، وفي ذلك من بالغ الرحمة والنعمة بالخلق ما يعلمه أولو العلم من الناس.

١٨ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

وهذه نعمة ما ينبغي لأحد من الثقلين أن يجحدها فقال سبحانه في ذلك: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

١٩ - (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

قوله: {مرج البحرين يلتقيان} مرج بمعنى أرسل - والمراد بالبحرين ماء النهر العذب الفرات وماء البحر الملح الأجاج - فقد أرساهما الله متجاورين متلاقيين ليس بينهما من فصل،

٢٠ - (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ)

لكن الله حال بينهما ببرزخ فلا يلتقيان وهو قوله سبحانه: {بينهما برزخ لا يبغيان} - والبرزخ معناه الحاجز - أي بين البحر والنهر حاجز أو مانع فلا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة فكل واحد منهما لا يجاوز حده، وذلك بما خلق الله من أسباب تحول دون تلاقي البحر والنهر أو تمازجهما معا.

ومن جملة الأسباب طبيعة الأرض في شكلها الكروي ليكون كل جزء من أجزاء الأرض في معزل عن الآخر - وكذلك الجاذبية المطردة المتبادلة بين الأرض والقمر ليستديم التجاذب والانشداد المتوازن بين القمر، وأجزاء الأرض فلا يمتزج واحد من أجزائها بغيره - وبذلك يستقر كل واحد من الخلقين في مكانه المعلوم فلا يلتقيان ولا يبغيان،

٢١ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

لا جرم أن هذه نعمة كبرى من أنعم الله العظام يبينها لخلقه، ليعلموا أنهم موجودون نعمة من الله وفضل، وأنهم سائرون على الأرض الممهدة الصالحة ليتيسر لهم العيش والحياة في أمن ويسر وراحة من غير خلل ولا اضطراب فقال سبحانه مذكّرا للثقلين بأنعمه عليهم: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

٢٢ - (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

قوله: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} اللؤلؤ معناه الدرّ - والمرجان، صغار الدر ٧ - وكلا اللؤلؤ والمرجان من الجواهر الثمينة، وهما مما يسخرج من الماء الملح وهو البحر - وقد ذكرهما على التثنية إذ قال: {منهما}، لأنه يخرج من مجموعهما - فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى - وذلك كقوله سبحانه: {يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم} والرسل لم يبعثوا إلا من الإنس خاصة دون الجن.

٢٤ - (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ)

قوله: {وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام} والمراد بالجواري السفن التي تجري في البحر، وقد وصفها بالمنشآت أي المصنوعات، أو المخلوقات - وقيل: المرفوعات المشرعات {في البحر كالأعلام} أي كالجبال الشامخات في علوها وعظيم أحجامها - فهي سائرة تمخر عباب البحر كالجبال الشواهق.

٢٥ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} وهو يشير بذلك إلى نعمة الله في السفن التي سخرها الله لعباده، إذ تجري على سطح البحر أو النهر بما خص الله به الأجسام من خاصية الطفو على وجه الماء لتسير على متنه السفائن العظام وهي موقرة بمختلف الأرزاق والأمتعة والحاجات، فيسهل على الناس التنقل من بلد إلى آخر طلبا للكسب أو التجارة أو الزيارة ٨.

٢٦ - (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

قوله تعالى: {كل من عليها فان ٢٦ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ٢٧ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٢٨ يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن ٢٩ فبأي آلاء ربكما تكذبان} ذلك إعلان من الله كبير لا يحتمل الظن أو التردد، يبين الله فيه أن كل من على الأرض من الأحياء صائر إلى الموت والفناء - ومما يعلم من الأدلة الأخرى أن سائر الأحياء في السماوات والأرض صائرون

إلى الفناء - كقوله تعالى: {كل شيء هالك إلا وجهه} قال ههنا: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}.
٢٧ - (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)
قوله: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ليس من أحد يبقى سوى الله - فهو سبحانه الأجل الأعظم الباقي - وهو ذو السلطان والكبرياء.
٢٨ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} وهذا تذكير بنعمة الله على عباده، إذ ساوى بينهم جميعا في الموت، فما من أحد، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى، عظيما أو صعلوكا، غنيا أو فقيرا، مؤمنا أو فاجرا إلا هو صائر إلى الموت، كالحطام والرفات - لا جرم أن ذلكم العدل الأكمل المطلق حتى إذا صار العباد جميعا إلى الله يوم الحساب جوزي المؤمنون الجنة، وجوزي المجرمون والظالمون جهنم، وهذه من أنعم الله على عباده المؤمنين.
٢٩ - (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)
قوله: {يسأله من في السماوات والأرض} الله كبير في علاه عظم قدره وجل جلاله، وهو سبحانه غني عن العالمين، ولكن العالمين جميعا محتاجون لرحمته وإحسانه، فقراء إليه - فهم يسألونه على الدوام أن يقضي حاجاتهم من الدين والدنيا - وهو سبحانه: {كل يوم هو في شأن} كل، ظرف زمان منصوب - والمعنى: أن الله من شأنه إجابة الملهوفين، وإغاثة السائلين، وعون المكروبين، وإبراء المرضى والمسقومين - وفي ذلك روي عن أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال الله عز وجل: {كل يوم هو في شأن} قال: " من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين "
٣٠ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
وهذه نعمة من الله ينبّه عباده إليها، ليعلموا أن الله عونهم ومجيرهم ومغيثهم وكاشف الضراء والبلاء عنهم - فقال عز وعلا: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٩.
٣١ - (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ)
ذلك وعيد من الله للعباد يوم القيامة بأنه سيفرغ لهم وليس به شغل - وقيل: {سنفرغ لكم} يعني سنقضي لكم - وقال البخاري: سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء - وهو معروف في كلام العرب - يقال: لأتفرغنّ لك، وما به شغل - والمراد بالثقلين الإنس والجن وقد سمّيا بذلك، لأنهما يثقلان الأرض.
٣٢ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} سيقضي الله بين العباد يوم القيامة، وسيجزون بأعمالهم من خير أو شر ولو كان مثقال ذرة - وذلكم عدل من الله كبير - وهي نعمة يمنّ الله بها على معشر الثقلين من الجن والإنس.
٣٣ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ)
قوله: {يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا} تنفذوا، تخلصوا أو تخرجوا ١٠ - والمعنى: إذا قدرتم أيها الجن والإنس أن تفروا من سلطان الله وهيمنته أو تخرجوا من أطراف خلقه من السماوات والأرض هربا من قضاء الله وقدرته {لاتنفذون إلا بسلطان} أي لا تستطيعون أن تخرجوا أو تفروا هربا من ملكوت الله {إلا بسلطان} أي بقدرة أو قوة أو برهان أو بينة من الله تمكنكم من النفوذ في أقطار السماوات والأرض - وإنما ذلك كائن بأمر الله وإرادته وتمكينه إياكم من ضرب من ضروب النفوذ في محيط هذا الكون.
وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحدق بهم الملائكة فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون جهة من الجهات إلا وجدوا الملائكة قد أحاطت به.

٣٤ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} أيما سلطان من قوة أو قدرة أو بينة من علم ونحوه للنفوذ في إطار السماوات والأرض، فإنه نعمة من أنعم الله يمن بها على عباده - فما ينبغي لهم أن يجحدوا نعمه.

٣٥ - (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ)

قوله: {يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران} الشواظ معناه لهب لا دخان فيه: أو دخان النار وحرها ١١ وقيل: شواظ من نار أي سيل من نار - ونحاس معناه دخان النار - وقيل: المراد به النحاس المذاب - والمعنى، أنكم لو توليتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة وزبانية جهنم، فهم بإرسال اللهب من النار والدخان أو النحاس المذاب عليكم يردونكم {فلا تنتصران} أي فلا تمتنعان من الوقوع في العذاب.

٣٦ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ذلك أن الإخبار عن جزاء الكافرين وعما يصير إليه المجرمون الظالمون من تعس وخسران وعما توعدهم الله به من عذاب الحريق لا جرم أنه حق وعدل - وذلكم ضرب من ضروب الآلاء التي يمن الله بها على عباده ١٢.

٣٧ - (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

قوله تعالى: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ٣٧ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٣٨ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ٣٩ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٤٠ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ٤١ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٤٢ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ٤٣ يطوفون بينها وبين حميم آن ٤٤ فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

ذلك إخبار من الله عن أحداث جسام من أحداث يوم القيامة وما يأتي على المجرمين حينئذ من شديد النكال - فقال سبحانه: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان} وهذا حدث جلل من أحداث الساعة، وهو تشقق السماء أي انفكاك بعضها من بعض {فكانت وردة كالدهان} أي صارت كلون الورد الأحمر {كالدهان} وهو اسم لما يدهن به - وقيل: الأديم الأحمر - وقيل: تذوب عقب تشققها كما تذوب درديّ الزيت، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها - فتارة تكون حمراء ثم صفراء ثم زرقاء ثم خضراء - وذلك من شدة ما يقع من أهوال في هذا اليوم.

٣٩ - (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ)

قوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} أي يوم تنشق السماء وتتلون كالأصباغ من هول الأحداث لا يسأل أحد من الإنس أو الجن عن ذنبه، بل سائر الخلق من الثقلين صامتون لا يتكلمون - والتوفيق بين هذه الآية وغيرها من الآيات الدالة على سؤال العباد عن أعمالهم كقوله سبحانه: {فوربك لنسألنّهم أجمعين} أن يوم القيامة يوم طويل وفيه مواطن كثيرة، فيسأل الناس في مواطن ولا يسألون في موطن آخر.

٤٠ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} وآلاء الله في هذا اليوم الرعيب أن كتب النجاة لعباده المؤمنين ليكونوا من الفائزين السعداء.

٤١ - (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ)

قوله: {يعرف المجرمون بسيماهم} أي يعرفون بعلامات تظهر عليهم كاسوداد الوجوه وما يصيبها من قتر، ويغشاها من وجوم.

قوله: {فيؤخذ بالنواصي والأقدام} يؤخذ المجرمون تارة من نواصيهم، وتارة من أقدامهم ثم يلقون في النار - وقيل: تجمع الزبانية نواصيهم إلى أقدامهم ثم يلقون في النار.

٤٣ - (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

قوله: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون} يشار إلى جهنم التي كان المجرمون يكذبون بها، فها هم اليوم يجدونها ويشاهدونها عيانا -

فيقال لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع، وزيادة لهم في التنكيل والتعذيب.
٤٤ - (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)
قوله: {يطوفون بينها وبين حميم آن} آن، يعني حار بلغ غاية الحرارة - فهم تارة يصلون النار، وتارة أخرى يسقون من الحميم وهو ماء يغلي، أو هو شراب شديد الحرارة كالنحاس المذاب يقهرون على شربه قهرا، فتتقطع به أمعاؤهم وأحشاؤهم.
٤٥ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} إن تعذيب المجرمين عدل من الله، وتنعيمه المؤمنين المتقين فضل منه ورحمة - وذلك كله حق وعدل ورحمة فهو من آلاء الله ١٣.
٤٦ - (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)
قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان ٤٦ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٤٧ ذواتا أفنان ٤٨ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٤٩ فيهما عينان تجريان ٥٠ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٥١ فيهما من كل فاكهة زوجان ٥٢ فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
ذلك وعد من الله لعباده المؤمنين الذين يخشونه فيبادرون لطاعته واجتناب معاصيه - أولئك جزاؤهم الجنة وما فيها من أصناف النعيم - وهو قوله سبحانه: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} مقام ربه يراد به موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، فمن خشي الله واتقاه وحذر لقاءه يوم الحساب فله {جنتان} جنة للإنس، وجنة للجن، فهذه الآية عامة في الإنس والجن، لأن الخطاب للثقلين - وبذلك يستدل من الآية على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتنّ الله سبحانه على الثقلين بقوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
٤٧ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} والخطاب لكلا الإنس والجن.
٤٨ - (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)
قوله: {ذواتا أفنان} أفنان، جمع فنن، وهو الغصن - فقد وصف الجنتين بأنهما ذواتا أغصان نضرة حسان، تحمل الثمار النضيجة على اختلاف أصنافها، فضلا عن ظلها الوارف الظليل، ونسيمها المستطاب العليل - وهذه نعم جزيلة أعدها الله للفائز بالجنة لتكون لهم خير الجزاء والآلاء - وهو قوله سبحانه: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
٥٠ - (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)
قوله: {فيهما عينان تجريان} في الجنتين عينان ينساب منهما الماء ثم ينساح في سائر الأنحاء والأطراف - وقيل: إحدى العينين يقال لها: التسنيم، والأخرى السلسبيل.
٥١ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} بأي أنعم الله الكثيرة والكبيرة تكذبان يا معشر الثقلين من الإنس والجن.
٥٢ - (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)
قوله: {فيهما من كل فاكهة زوجان} في هاتين الجنتين صنفان من كل أنواع الثمر مما يعلمه الناس ومما لا يعلمونه - أو هما صنف معروف وصنف غريب - وذلك فضل من الله يمنّ به على عباده المتقين الذين سعدوا بدخول الجنة فقال سبحانه: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ١٤.
٥٤ - (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
قوله تعالى: {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ٥٤ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٥٥ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ٥٦ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٥٧ كأنهن الياقوت والمرجان ٥٨ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٥٩ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ٦٠ فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
ذلك وصف لحال السعداء المنعّمين في الجنة، إذ هم في دار كرامة ونعيم، فيها ما لاعين رأت ولا خطر على قلب بشر - وفي ذلك

يقول سبحانه: {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق} متكئين، منصوب على الحال ممن خاف مقام ربه - أو منصوب على المدح - أي مضطجعين أو جالسين {على فرش بطائنها من إستبرق} أي من ديباج غليظ.
قوله: {وجنى الجنتين دان} الجنى، اسم بمعنى المجني وهو الثمر، فإنه قريب يمسكه القاعد والقائم والمتكئ لدنوه - وذلك كقوله: {قطوفها دانية} وذلك من آلاء الله وما امتنّ به على عباده المؤمنين من أصناف النعم فقال سبحانه: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
٥٦ - (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ)
قوله: {فيهن قاصرات الطرف} أي نساء فضليات عفائف قد قصرن أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال.
قوله: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} يطمثهن، من الطمث، وهو المس، أي الجماع ١٥ - فهن بذلك أبكار لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن - وهذا دليل آخر على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة - وهذه نعمة أخرى مضافة إلى نعم الله وما امتنّ به على عباده من الأيادي والآلاء فقال: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
٥٨ - (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)
قوله: {كأنهن الياقوت والمرجان} يصف الله نساء الجنة بذلك فهن لكمال حسنهن وفرط جمالهن، كأنهن الياقوت في صفائه، والمرجان في بياضه وهو أبيض من اللؤلؤ - إن ذلكم لهو العطاء الجزيل من رب رحيم كريم يستوجب الحمد له وبالغ الشكران - فقال سبحانه {فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
٦٠ - (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)
قوله: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} هل جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب والجزاء - فليس لمن أحسن العمل في الدنيا بأداء الفرائض والطاعات لله إلا أنه يجزى الخير والإحسان من الله في الآخرة.
وذلكم فضل عظيم من الله يفيض به على عباده المؤمنين المتقين، إذ يسبغ عليهم من جزيل نعمه وآلائه ما هو أهله - فما ينبغي لمثل هاتيك النعم والأيادي أن يجحدها ذو مسكة من عقل - وهو قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ١٦.
٦٢ - (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)
قوله تعالى: {ومن دونهما جنتان ٦٢ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٦٣ مدهامتان ٦٤ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٦٥ فيهما عينان نضّاختان ٦٦ فبأي آلالاء ربكما تكذبان ٦٧ فيهما فاكهة ونخل ورمان ٦٨ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٦٩ فيهن خيرات حسان ٧٠ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٧١ حور مقصورات في الخيام ٧٢ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٧٣ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ٧٤ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٧٥ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ٧٦ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٧٧ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام}.
ذلك تفضيل ثان لما أنعم الله به على فئتين أخريين من أهل الجنة، إذ أنعم الله عليهما بجنتين دون الجنتين السابقتين الموعودتين - فقال سبحانه وتعالى: {ومن دونهما جنتان} أي دون الجنتين الموعودتين للمقربين وهما دونهما في الدرجة والفضل - فالأوليان للمقربين، وهاتان الأخريان لأصحاب اليمين - وذلكم كله فضل من الله وإنعام.
٦٤ - (مُدْهَامَّتَانِ)
قوله: {مدهامتان} أي خضراوان - أو سوداوان من شدة الخضرة والمداهمة، الخضراء تضرب إلى السواد نعمة وريا ١٧.
٦٦ - (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ)
قوله: {فيهما عينان نضاختان} أي فوارتان أو فياضتان بالماء لا تنقطعان.
٦٨ - (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)
قوله: {فيهما فاكهة ونخل ورمان} في الجنتين سائر أصناف الفواكه - وقد أفرد النخل والرمان بالذكر لفضلهما كأنهما جنسان آخران مميزان.
٧٠ - (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)

قوله: {فيهن خيرات حسان} والمراد نساء صالحات فضليات، حسان الأخلاق.
٧٢ - (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)
قوله: {حور مقصورات في الخيام} أي نساء مقصورات الطرف على أزواجهن - أو مخدرات، أي يستترن في خدورهن وهي الخيام، وهي من اللؤلؤ أو الدر المجوف.
٧٤ - (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ)
قوله: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} فنساء الجنة أبكار لم يطأهن أحد من قبل أزواجهن المؤمنين.
٧٦ - (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)
قوله: {متكئين على رفرف خضر} متكئين، منصوب على الاختصاص - أي مضطجعين، أو جالسين {على رفرف خضر} والرفرف في تأويله عدة أقوال - فقد ذكر أنه رياض الجنة - وقيل: النمارق - وقيل: ضرب من البسط - والرفرف، جمع رفرفة - وعبقري، يعني الزرابي - وقيل: الديباج وقيل: العبقري، الكامل من كل شيء، والسيد، والذي ليس فوقه شيء ١٨ وفي الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في عمر: " فلم أر عبقريا يفري فريه " وكل ذلك فضل وإنعام من رب العالمين يمن به على عباده الصالحين في الجنة.
٧٨ - (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)
قوله: {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} {تبارك} أي تعالى وتقدس {ذي الجلال} أي العظمة والكبرياء {والإكرام} أي يكرم أولياءه بما ينعم به عليهم من وجوه النعم في الدنيا والآخرة ١٩.

٥٦ سورة الواقعة:

سورة الواقعة:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وآياتها ست وتسعون، وهي حافلة بأخبار القيامة وما يقع فيها وبين يديها من الأهوال الجسام والبلايا الرعيبة، ومثل هذه الحقائق المذهلة تتراءى للخيال من الآيات والكلمات التي تضمنتها هذه السورة، وهي آيات وكلمات تثير من عجائب الذكرى ما ينشر في النفس الفزع والرهبة، وهذه حقيقة يستيقنها المتدبر وهو يتلو كلمات ربه في قوله: {إذا رجت الأرض رجا ٤ وبسّت الجبال بسّا ٥ فكانت هباء منبثا} وفي السورة بيان بفئات العباد الثلاث يوم القيامة وهم أهل اليمين، وأهل الشمال، والسابقون المقربون، وما أعده الله لكل فئة من الجزاء، إلى غير ذلك من ألوان المواعظ والترهيب.
١ - (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا وقعت الواقعة ١ ليس لوقعتها كاذبة ٢ خافضة رافعة ٣ إذا رجت الأرض رجا ٤ وبست الجبال بسا ٥ فكانت هباء منبثا ٦ وكنتم أزواجا ثلاثة ٧ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ٨ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ٩ والسابقون السابقون ١٠ أولئك المقربون ١١ في جنات النعيم}.
ذلك إعلان من الله بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن هذه حقيقة كائنة لا محالة فلا يصرفها صارف ولا يدفعها دافع، وأن الناس حينئذ أصناف ثلاثة، صنفان في الجنة وثالث في النار - وهو قوله: {إذا وقعت الواقعة} والواقعة اسم من أسماء القيامة - وقد سميت بذلك لتحقق وقوعها إذا شاء الله لها أن تقع - على أن التعبير باسم الفاعل في الواقعة ينبه إلى القيامة كائنة حقا وأن وقوعها آت لا شك فيه.
٢ - (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

قوله: {ليس لوقعتها كاذبة} حين تقوم القيامة ليس من نفس تكذب على الله كما كانت تكذب في الدنيا - وقيل: كاذبة، يعني لابد أن تكون.

٣ - (خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

قوله: {خافضة رافعة} أي ترفع أقواما وتخفض آخرين، أو تخفض أقواما إلى الجحيم وإن كانوا أعزة في الدنيا - وترفع آخرين إلى جنات النعيم وإن كانوا في دنياهم من العالة والبائسين - أو أن ما يصيبها من خفض ورفع بسبب ما يأتي على الكون من اضطراب وارتجاج وزلزال، وحينئذ تضطرب الأجرام وتنتثر الكواكب والنجوم - وتلكم أحداث كونية هائلة لا جرم أن تضطرب الأرض فيصيبها من الخفض والرفع ما يصيبها ويؤيد ذلك قوله سبحانه: {إذا رجت الأرض رجا}.

٤ - (إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا)

قوله: {إذا رجت الأرض رجا} أي اهتزت وزلزلت زلزالا شديدا فينهدم كل ما عليها من بناء وجبال ونحوهما.

٥ - (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)

قوله: {وبست الجبال بسا} من البس، أو اتخاذ البسيسة وهو أن يلتّ السويق أو الدقيق أو الأقط المطحون بالسمن أو الزيت ١ أي، فتتت فتا فصارت حبات مبعثرة كحبات السويق.

٦ - (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)

قوله: {فكانت هباء منبثا} أي صارت غبارا متفرقا تذروه الرياح.

٧ - (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً)

قوله: {وكنتم أزواجا ثلاثة} أي تكونون يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفان في الجنة وصنف في النار - ثم بين ذلك بقوله: {فأصحاب الميمنة}.

٨ - (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

قوله: {فأصحاب الميمنة} مبتدأ - والمراد بهم المؤمنون الذين يؤتون صحائف أعمالهم بأيمانهم {ما أصحاب الميمنة} جملة اسمية من مبتدأ وخبره - والجملة في موضع رفع خبر المبتدأ الأول - والاستفهام للتعجيب من عظيم شأنهم وما هم فيه من السعادة.

٩ - (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

قوله: {وأصحاب المشأمة} وهم الأشقياء الذين يؤتون صحائف أعمالهم بشمائلهم {ما أصحاب المشأمة} تعجيب مما هم فيه من التعس والشقاء.

١٠ - (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

قوله: {والسابقون السابقون} السابقون، مبتدأ - والسابقون بعد خبره - وقيل: السابقون، الثاني تأكيد للأول - والخبر، الجملة بعده - أما السابقون فهم الذين يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات ويعلمون الصالحات من أمر بمعروف، ونهي عن منكر، وجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من وجوه العبادات والقربات - أولئك السابقون إلى السعادة والنجاة والفوز بجنة الله ورضوانه.

١١ - (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

قوله: {أولئك المقربون} وهم أولو الدرجات الرفيعة والمراتب العالية في الآخرة وذلك بسبقهم في الطاعات والخيرات في الدنيا.

١٢ - (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

قوله: {في جنات النعيم} ذلك جزاء المؤمنين السابقين فإنهم صائرون إلى جنات النعيم ٢.

١٣ - (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: {ثلة من الأولين ١٣ وقليل من الآخرين ١٤ على سرر موضونة ١٥ متكئين عليها متقابلين ١٦ يطوف عليهم ولدان مخلدون ١٧ بأكواب وأباريق وكأس من معين ١٨ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ١٩ وفاكهة مما يتخيرون ٢٠ ولحم طير مما يشتهون ٢١ وحور

عين ٢٢ كأمثال اللؤلؤ المكنون ٢٣ جزاء بما كانوا يعملون ٢٤ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ٢٥ إلا قيلا سلاما سلاما}.
الثلة بمعنى الجماعة الكثيرة - فقد أخبر الله أن السابقين المقربين ثلة، أي جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين: واختلف أهل التأويل في المراد بالأولين والآخرين وثمة قولان في ذلك: أحدهما: أن المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين هذه الأمة، أي أن المقربين أولي الدرجات العالية في الجنة، كثير منهم من الأولين وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، وقليل منهم من الآخرين أي من هذه الأمة - ونجد بعد التأمل أن في هذا القول نظرا، لأن هذه الأمة خير الأمم فيبعد أن يكون المقربون في غيرها من الأمم السالفة أكثر منها.
القول الثاني: وهو الراجح - وخلاصته أن الثلة من الأولين، من صدر هذه الأمة - وأن القليل من الآخرين، من هذه الأمة أيضا - فالثلة من الأولين والقليل من الآخرين جميعهم من هذه الأمة - والله تعالى أعلم.
١٤ - (وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ)
قوله: {وقليل من الآخرين} الثلة بمعنى الجماعة الكثيرة - فقد أخبر الله أن السابقين المقربين ثلة، أي جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين: واختلف أهل التأويل في المراد بالأولين والآخرين وثمة قولان في ذلك: أحدهما: أن المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين هذه الأمة، أي أن المقربين أولي الدرجات العالية في الجنة، كثير منهم من الأولين وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، وقليل منهم من الآخرين أي من هذه الأمة - ونجد بعد التأمل أن في هذا القول نظرا، لأن هذه الأمة خير الأمم فيبعد أن يكون المقربون في غيرها من الأمم السالفة أكثر منها.
القول الثاني: وهو الراجح - وخلاصته أن الثلة من الأولين، من صدر هذه الأمة - وأن القليل من الآخرين، من هذه الأمة أيضا - فالثلة من الأولين والقليل من الآخرين جميعهم من هذه الأمة - والله تعالى أعلم.
١٥ - (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ)
قوله: {على سرر موضونة} يعني منسوجة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت - والموضونة المنسوجة حلقتين حلقتين أو بالجواهر - وضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين أي ثنى بعضه على بعض ٠٣.
١٦ - (مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ)
قوله: {متكئين عليها متقابلين} متكئين منصوب على الحال - أي استقروا عليها جالسين ينظر بعضهم في وجوه بعض وهم في غاية المودة والاستئناس.
١٧ - (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)
قوله: {يطوف عليهم ولدان مخلدون ١٧ بأكواب وأباريق وكأس من معين} ولدان، جمع وليد - وهم غلمان في الجنة مخلدون - أي باقون أبدا على شكل الولدان لا يتغيرون ولا يشيبون، وهم على الدوام قائمون على خدمة المؤمنين، إذ يدورون عليهم بأكواب وهي آنية لا خراطيم لها، وأباريق جمع إبريق وهو ماله خرطوم وعروة {وكأس من معين} أي من خمر من عين جارية.
وهذه حال المؤمنين المنعمين في الجنة وهم جالسون متقابلين، تحفهم من الله العناية والسلامة من كل مكروه وتغشاهم السكينة والرحمة، ومن بين أيديهم الغلمان المخلدون يدأبون على خدمتهم - وهم صنف كريم مميز من غلمان الجنة أولو صباحة وإشراق، يشيعون في الجلسات ظلالا من نسائم الرحمة والبركة.
١٨ - (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)
قوله: {بأكواب وأباريق وكأس من معين} ولدان، جمع وليد - وهم غلمان في الجنة مخلدون - أي باقون أبدا على شكل الولدان لا يتغيرون ولا يشيبون، وهم على الدوام قائمون على خدمة المؤمنين، إذ يدورون عليهم بأكواب وهي آنية لا خراطيم لها، وأباريق جمع إبريق وهو ماله خرطوم وعروة {وكأس من معين} أي من خمر من عين جارية.

وهذه حال المؤمنين المنعمين في الجنة وهم جالسون متقابلين، تحفهم من الله العناية والسلامة من كل مكروه وتغشاهم السكينة والرحمة، ومن بين أيديهم الغلمان المخلدون يدأبون على خدمتهم - وهم صنف كريم مميز من غلمان الجنة أولو صباحة وإشراق، يشيعون في الجلسات ظلالا من نسائم الرحمة والبركة.

١٩ - (لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ)

قوله: {لايصدعون عنها ولا ينزفون} لا يصدعون، أي لا يجدون منها الصداع في رؤوسهم - وقد روي عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع والقيء والبول - فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال، {ولا ينزفون} أي لا تذهب الخمرة بعقولهم - نزف الرجل إذا ذهب عقله بالسكر.

٢٠ - (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

قوله: {وفاكهة مما يتخيرون} يأكلون من الفاكهة ما يختارون فهي كثيرة ومستطابة.

٢١ - (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

قوله: {ولحم طير مما يشتهون} - ويتناولون من الطير ما يحبون ويتمنون.

٢٢ - (وَحُورٌ عِينٌ)

قوله: {وحور عين} حور، جمع حوراء - وعين، جمع عيناء، وهؤلاء صنف من النساء في الجنة جعلهن للمؤمنين جزاء بما كانوا يتقون ويطيعون، وقد وصف نساء الجنة من الحور العين باللؤلؤ في صفائه وبياضه {المكنون} أي المصون مما يغير صفاءه ونقاءه.

٢٣ - (كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ)

قوله: {كأمثال اللؤلؤ المكنون} حور، جمع حوراء - وعين، جمع عيناء، وهؤلاء صنف من النساء في الجنة جعلهن للمؤمنين جزاء بما كانوا يتقون ويطيعون، وقد وصف نساء الجنة من الحور العين باللؤلؤ في صفائه وبياضه {المكنون} أي المصون مما يغير صفاءه ونقاءه.

٢٤ - (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {جزاء بما كانوا يعملون} جزاء منصوب على أنه مفعول لأجله، أي جزاهم الله كل هذا الجزاء بسبب ما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال والطاعات.

٢٥ - (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا)

قوله: {لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما} أي لا يسمع المؤمنون في الجنة كلاما باطلا أو مهينا أو عبثا لا فائدة فيه ولا معنى {ولا تأثيما} يعني ولا كلاما مستقبحا.

٢٦ - (إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا)

قوله: {إلا قيلا سلاما سلاما} قيلا، مستثنى منصوب - وهو استثناء منقطع - وسلاما، بدل من {قيلا} أي لا يسمعون إلا التسليم، وهو ان يسلم بعضم على بعض في الجنة فيشيع فيهم الإيناس والمودة ٤.

٢٧ - (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

قوله تعالى: {وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ٢٧ في سدر مخضود ٢٨ وطلح منضود ٢٩ وظل ممدود ٣٠ وماء مسكوب ٣١ وفاكهة كثيرة ٣٢ لا مقطوعة ولا ممنوعة ٣٣ وفرش مرفوعة ٣٤ إنا أنشأناهن إنشاء ٣٥ فجعلناهن أبكارا ٣٦ عربا أترابا ٣٧ لأصحاب اليمين ٣٨ ثلة من الأولين ٣٩ وثلة من الآخرين}.

ذلك إخبار من الله عما أعده لأصحاب اليمين من أصناف النعيم في الجنة - فقال سبحانه: {وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين} ذكر أصحاب اليمين وهم صنف من المؤمنين المتقين.

٢٨ - (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ)

ثم ذكر مايصيرون إليه يوم القيامة فقال: {في سدر مخضود} - والسدر، شجر النبق - والمخضود الذي ليس له شوك أو المقطوع، خضد الشجر أي قطع شوكه ٥.

٢٩ - (وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ)

قوله: {وطلح منضود} الطلح، شجر الموز - والمنضود، المتراكم الثمر - نقول: نضد متاعه ينضده، أي جعل بعضه فوق بعض ٦.

٣٠ - (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)

قوله: {وظل ممدود} أي ممتد منبسط لا ينقطع، فإن الجنة لا شمس فيها ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر.

٣١ - (وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ)

قوله: {وماء مسكوب} أي سائح يجري على الأرض في غير أخدود.

٣٢ - (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ)

قوله: {وفاكهة كثيرة ٣٢ لا مقطوعة ولا ممنوعة} فواكه الجنة على اختلاف أصنافها وألوانها وروائحها وطعومها كثيرة، لا تنقطع صيفا ولا شتاء، ولا يمنع أهلها من تناولها مانع.

٣٣ - (لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ)

قوله: {لا مقطوعة ولا ممنوعة} فواكه الجنة على اختلاف أصنافها وألوانها وروائحها وطعومها كثيرة، لا تنقطع صيفا ولا شتاء، ولا يمنع أهلها من تناولها مانع.

٣٤ - (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ)

قوله: {وفرش مرفوعة} المراد بالفرش النساء - ويدل على هذا قوله: {إنا أنشأناهن إنشاء}.

٣٥ - (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً)

قوله: {إنا أنشأناهن إنشاء} أي ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا من غير ولادة وقيل: أعدنا إنشاءهن أبكارا.

٣٦ - (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا)

فبعد ما كن عجائز صرن أبكارا - وهو قوله: {فجعلناهن أبكارا ٣٦ عربا أترابا} - أي ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا من غير ولادة وقيل: أعدنا إنشاءهن أبكارا - فبعد ما كن عجائز صرن أبكارا.

٣٧ - (عُرُبًا أَتْرَابًا)

قوله: {عربا أترابا} عربا، أي متحببات إلى أزواجهن بالظرافة والملاحة والرشاقة والأناقة - وأترابا، أي على ميلاد واحد، فهن مستويات في السن - فقد روي أن عجوزا أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال: " إن الجنة لا تدخلها عجوز " فولت تبكي - فقال: " أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: {إن أنشأناهن إنشاء ٣٥ فجعلناهن أبكارا} ".

٣٨ - (لأَصْحَابِ الْيَمِينِ)

قوله: {لأصحاب اليمين} أي جعلهن الله أبكارا {لأصحاب اليمين} ثم بين من هم أصحاب اليمين بقوله: {ثلة من الأولين ٣٩ وثلة من الأخرين}.

٣٩ - (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ)

قوله: {ثلة من الأولين ٣٩ وثلة من الأخرين} أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين - وروي عن ابن عباس في قوله: {ثلة من الأولين ٣٩ وثلة من الأخرين} قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هما جميعا من أمتي ".

على أنه قال قبل هذا: {وقليل من الأخرين} ثم قال هنا: {وثلة من الأخرين} لأن ذاك في السابقين وهذا في أصحاب اليمين وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا ٧.

٤٠ - (وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ)
قوله: {وثلة من الأخرين} أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين - وروي عن ابن عباس في قوله: {ثلة من الأولين ٣٩ وثلة من الأخرين} قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هما جميعا من أمتي ".
على أنه قال قبل هذا: {وقليل من الأخرين} ثم قال هنا: {وثلة من الأخرين} لأن ذاك في السابقين وهذا في أصحاب اليمين وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا ٨.
٤١ - (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)
قوله تعالى: {وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ٤١ في سموم وحميم ٤٢ وظل من يحموم ٤٣ لا بارد ولا كريم ٤٤ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ٤٥ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ٤٦ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنّا لمبعوثون ٤٧ أو آباؤنا الأولون ٤٨ قل إن الأولين والأخرين ٤٩ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ٥٠ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ٥١ لأكلون من شجر من زقوم ٥٢ فمالئون منها البطون ٥٣ فشاربون عليه من الحميم ٥٤ فشاربون شرب الهيم ٥٥ هذا نزلهم يوم الدين}.
وذلك إخبار عن حال الأشقياء الخاسرين وما يصيرون إليه من التعس وسوء العذاب حيث السموم والحميم واليحموم والزقوم بما كانوا يكفرون بآيات الله ويتخذون من دونه آلهة وأربابا - وهو قوله: {وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال} يبين الله ما يصير إليه أهل الشمال وهم أهل المشأمة والخسران، فيقول: {في سموم وحميم}.
٤٢ - (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)
قوله: {في سموم وحميم} والسموم هو الهواء الحار الذي يصعد من النار - والحميم هو الماء الشديد الحرارة.
٤٣ - (وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ)
قوله: {وظل من يحموم} وهو الدخان الأسود.
٤٤ - (لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ)
قوله: {لابارد ولا كريم} إنه ظل ولكن ليس كسائر الظلال بل إنه ظل حار وضار، فهو ليس طيب الهبوب ولا كريم المنظر.
٤٥ - (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)
قوله: {إنهم كانوا قبل ذلك مترفين} أي كانوا في الدنيا لاهين غافلين منعمين في الشهوات واللذات فأعماهم ذلك عن الحق وعن منهج الله العظيم، وطريقه المستقيم.
٤٦ - (وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)
قوله: {وكانوا يصرون على الحنث العظيم} الحنث في اللغة بمعنى، الإثم، والحلف في اليمين ٩ والمراد في الآية الشرك، واتخاذ الأوثان والأنداد أربابا من دون الله.
٤٧ - (وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)
قوله: {وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنَّا لمبعوثون} هؤلاء المشركون الجاحدون كانوا يقولون: أنبعث عقب الموت بعد أن كنا رفاتا وحطاما.
٤٨ - (أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ)
قوله: {أو آبائونا الأولون} الهمزة للإستفهام والإنكار، والواو للعطف - فهم بذلك يكذبون بالساعة، لكن الله يؤكد أنهم مبعوثون لا محالة ليوم القيامة، وهو قوله: {قل إن الأولين والأخرين ٤٩ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم}.
٤٩ - (قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ)
قوله: {قل إن الأولين والأخرين ٤٩ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم} إن الله جامع الناس جميعا- الأولين والآخرين {إلى ميقات يوم

معلوم} أي إلى ما حد من يوم معين عند الله، معلوم له سبحانه.
٥٠ - (لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)
قوله: {لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم}{ إن الله جامع الناس جميعا- الأولين والآخرين {إلى ميقات يوم معلوم} أي إلى ما حد من يوم معين عند الله، معلوم له سبحانه.
٥١ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)
قوله: {ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ٥١ لأكلون من شجر من زقوم} الزقوم شجرة في جهنم ثمرها خبيث يأكل منه أهل النار.
٥٢ - (لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ)
قوله: {لأكلون من شجر من زقوم} الزقوم شجرة في جهنم ثمرها خبيث يأكل منه أهل النار.
٥٣ - (فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)
قوله: {فمالئون منها البطون} تمتلئ بطونهم من الزقوم فيعطشون، فيضطرون لشدة عطشهم أن يشربوا من الحميم وهو ماء بالغ الحرارة.
٥٤ - (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)
قوله: {فشاربون عليه من الحميم} تمتلئ بطونهم من الزقوم فيعطشون، فيضطرون لشدة عطشهم أن يشربوا من الحميم وهو ماء بالغ الحرارة.
٥٥ - (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)
قوله: {فشاربون شرب الهيم} الهيم، الإبل العطاش - وهو جمع ومفرده أهيم، وهيمان - أي عطشان - والأنثى هيماء ١٠ فهم عقب أكلهم من الزقوم وقد امتلأت منه البطون يصيبهم من شديد الظمأ ما يصيبهم، فيشربون من الماء الحار شرب الإبل الظّمأ التي تغبّ لفرط عطشها غبا - إن ذلكم تصوير ظاهر ومريع يكشف عن حال الخاسرين في النار وهم يغبّون من الحميم الذي تناهت فيه الحرارة فتتقطع به أمعاؤهم.
٥٦ - (هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)
قوله: {هذا نزلهم يوم الدين} الإشارة، إلى ما ذكر من عذاب الخاسرين في النار، فإنه: نزلهم أي ضيافتهم عند ربهم يوم القيامة ١١.
٥٧ - (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)
قوله تعالى: {نحن خلقناكم فلولا تصدقون ٥٧ أفرأيتم ما تمنون ٥٨ ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ٥٩ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ٦٠ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ٦١ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون}.
ذلك تقرير لحقيقة المعاد الذي لا ريب فيه، إذ يرد الله مقالة الكافرين الذين يكذبون بيوم القيامة ويجحدون البعث والنشور بعد الموت، وقد صاروا عظاما نخرة - فقال سبحانه: {نحن خلقناكم فلولا تصدقون} يعني نحن بدأنا خلقكم ولم تكونوا شيئا - فلئن كنا قادرين على البداءة، فأحرى أن نقدر على الإعادة {فلولا تصدقون} لولا، أداة تحضيض بمعنى هلا، أي فهلا تصدقون بأنكم مبعوثون ليوم القيامة.
٥٨ - (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)
قوله: {أفرأيتم ما تمنون} يعني أفرأيتم ما تقذفونه من الأرحام من النطف المستقذرة المهينة لتمرّ في مراحل متطورة من النمو، مرحلة عقب مرحلة، فتصير بعد ذلك بشرا يمشون على الأرض، بشرا يفكرون ويدبرون ويعلمون.
٥٩ - (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)
قوله: {أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون} أأنتم الذين جعلتم النطف المستقدرة المهينة بشرا سويا منتشرا في الأرض، مختلف الأجناس والألوان واللغات والطبائع والأهواء والصفات، أم الله الخالق المقتدر.
٦٠ - (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

قوله: {نحن قدرنا بينكم الموت} أي كتبنا الموت عليكم جميعا وجعلنا لكل منكم وقتا ينتهي فيه أجله، وجعلناه بينكم مختلفا متفاوتا فتتفاوت بذلك آجالكم وأعماركم {وما نحن بمسبوقين} أي لا يقدر أحد أن يسبقنا فيهرب من الموت ويتجاوز أجله المحتوم، أو وما نحن بعاجزين {على أن نبدل أمثالكم}.

٦١ - (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ)

قوله: {على أن نبدل أمثالكم} أي نبدل مكانكم أشباهكم من الخلق يوم القيامة،، وأمثال جمع مثل - قوله: {وننشئكم في ما لا تعلمون} أي نحن قادرون على أن ننشئكم في خلق لا تعلمونه - وبذلك فإنا قادرون على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فأولى أن نكون قادرين على بعثكم وإعادتكم يوم الحساب.

٦٢ - (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ)

قوله: {ولقد علمتم النشأة الأولى} أي أنتم تعلمون وتوقنون أن الله خلقكم من ماء مستقذر مهين فجعلكم بشرا سويا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة {فلولا تذكرون} أي هلا تتذكرون وتوقنون أن الذي قدر على نشأتكم الأولى هذه وهي البداءة لقادر على إعادتكم وبعثكم يوم القيامة ١٢.

٦٣ - (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

قوله تعالى: {أفرأيتم ما تحرثون ٦٣ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٦٤ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ٦٥ إنا لمغرمون ٦٦ بل نحن محرومون ٦٧ أفرأيتم الماء الذي تشربون ٦٨ أأنتم أنزلتموه من المزن أو نحن المنزلون ٦٩ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ٧٠ أفرأيتم النار التي تورون ٧١ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ٧٢ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ٧٣ فسبح باسم ربك العظيم}. هذه جملة أدلة من ظواهر الطبيعة تشير إلى عظمة الخالق القادر، إذ قال الله عز و علا: {أفرأيتم ما تحرثون} تحرثون من الحراثة وهي إثارة الأرض بشقها لإلقاء البذر فيها.

٦٤ - (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

قوله: {أأنتم تزرعونه} يعني أأنتم الذين تنبتون الزرع ليخرج في الأرض ناميا قائما على ساقه بعد أن كان صنفا من الحب اليابس {أم نحن الزارعون} يعني أم نحن المنبتون، إذ نخرج الزرع من الحبة اليابسة الملقاة في الأرض المشقوقة بالحراثة، فأنتم لا تستطيعون غير إلقاء البذار في الأرض ولا تملكون بعد ذلك إنبات الحبة فتكون زرعا ناميا مخضرا، وإنما منوط بقدرة الله فهوالذي ينبت الزرع - وفي هذا روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يقولن أحدكم: زرعت ولكن قل: حرثت ".

٦٥ - (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

قوله: {لو نشاء لجعلناه حطاما} لقد أنبتنا لكم الزرع بقدرتنا ورحمتنا، ولو شئنا لما أنبتناه بل لجعلناه هشيما يابسا قبل إدراكه واستحصاده.

قوله: {فظلتم تفكّهون} أي تعجبون مما حصل ومما أصاب زرعكم من التحطيم والتهشيم، أو تندمون على ما أصبتم من المعاصي التي كانت سببا في عقابكم هذا - ثم تقولون: {إنا لمغرمون ٦٦ بل نحن محرومون}.

٦٦ - (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)

قوله: {إنا لمغرمون ٦٦ بل نحن محرومون} - لمغرمون، أي لملزمون غرامة ما أنفقنا، أو إنا لمهلكون بهلاك رزقنا - ومغرمون، من الغرام وهو الشر الدائم، والهلاك، والعذاب، والغرامة، ما يلزم أداؤه، كالغرم ١٣.

٦٧ - (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

قوله: {بل نحن محرومون} أي لا يثبت لنا مال، وليس لنا حظ، أو حرمنا الرزق.

٦٨ - (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

قوله: {أفرأيتم الماء الذي تشربون} أي الماء العذب الطهور الذي يصلح للشرب.

٦٩ - (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

قوله: {أأنتم أنزلتموه من المزن} المزن، معناه السحاب أو أبيض السحاب، والقطعة الواحدة منه، المزنة ١٤ أي أأنتم أنزلتم ههذا المطر النقي الطهور من السحاب في السماء، إنكم لا تقدرون على شيء من ذلك {أم نحن المنزلون} نحن أنزلنا إليكم من السماء وليس من أحد غيرنا، قادرا أن ينزله من السماء إلى الأرض.

٧٠ - (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

قوله: {لو نشاء جعلناه أجاجا} أي لو أردنا أن نجعله ملحا زعاقا لجعلناه وحينئذ لا يصلح لشرب ولا زرع.

قوله: {فلولا تشكرون} لولا، أداة تحضيض - يعني شكرتم الله على ما أنعم به عليكم من خيرات الأرض وبركات السماء، إذ أنبت لكم من الأرض الزرع وأنزل إليكم من السماء ماء نقيا طهورا تشربونه وتسقون منه زرعكم.

٧١ - (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

قوله: {أفرأيتم النار التي تورون} {تورون} من الوري والورية أي النار - روى الزند وريا إذا خرجت ناره، والمعنى: أرأيتم النار التي تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد.

٧٢ - (أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

قوله: {أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون} أأنتم أودعتم هذه النار في مواضعها، بل الله يفعل ذلك بما أودعه في صنفين من الشجر وهما المرخ والعفار - فإذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر ظهر من بينهما شرر النار - وكذلك أودع الله هذه الخاصية في غير هاتين الشجرتين، فقد أودعها في الأحجار والحديد، حتى إذا تحاكت قطعتان منهما خرج من بينهما الشرر وأوقدت النار.

وهذه من جملة الخصائص الكثيرة التي جعلها الله من أجزاء الطبيعة ومنها خاصية الكهرباء التي تتولد من الأجسام بطرق معلومة لتتولد من ذلك طاقات هائلة يسخرها الإنسان المعاصر في غالب شؤون الحياة - إن ذلكم مما أودعه الله من خصائص كامنة في كثير من أجزاء الطبيعة - وهي خصائص لا تكون إلا بقدرة الله ومن خلقه.

٧٣ - (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ)

قوله: {نحن جعلناها تذكرة} أي جعلنا هذه النار التي تورونها في الدنيا {تذكرة} أي تذكر الناس بالنار الكبرى وهي نار جهنم - فقد أنيط بنار الدنيا أكثر أسباب الحياة والمعاش، فهي بذلك حاضرة للناس ينظرون إليها في كل حين فيتذكرون نار جهنم ليعتبروا ويتعظوا، أو ليتذكر الناس عظيم قدرة الله وأنه لا يعز عليه إحياء الموتى وبعث الناس من قبورهم ليلاقوا الحساب يوم القيامة.

قوله: {ومتاعا للمقوين} من القواء والقي، بكسر القاف، يعني قفر الأرض - وأقوات الدار أي خلت من أهلها ١٥ - أي وجعلناها منفعة للمسافرين الذين ينزلون القواء وهي الأرض القفر، أو للذين خلت بطونهم من الطعام فجاعوا - وقيل: للمقوين يعني المستمتعين من الناس أجمعين سواء فيهم الحاضر أو المسافر، فالجميع محتاجون للنار من أجل الطبخ والاصطلاء والاستضاءة والاستئناس وغير ذلك من وجوه المنافع.

٧٤ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

قوله: {فسبح باسم ربك العظيم} أي نزهه عما لا يليق به من الصفات، وعظّمه في نفسك تعظيما بما سخره لك من جزيل النعم والآلاء المبثوثة في كل جوانب الحياة والطبيعة ١٦.

٧٥ - (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

قوله تعالى: {فلا أقسم بمواقع النجوم ٧٥ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ٧٦ إنه لقرآن كريم ٧٧ في كتاب مكنون ٧٨ لا يمسه إلا المطهرون ٧٩ تنزيل من رب العالمين ٨٠ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ٨١ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون}.

يقسم الله بأجزاء من خلقه على أن هذا القرآن حق وأنه كتاب كريم ومبارك أنزله على رسول الأمين - وهو قوله سبحانه: {فلا أقسم

بمواقع النجوم} لا، زائدة للتأكيد، أي أقسم بمواقع النجوم، واختلفوا في المراد بمواقع النجوم، فقد قيل: مواقع النجوم، يعني نجوم القرآن - فقد نزل منجما أي مفرقا - وقيل: مواقع النجوم، مساقطها، ومغاربها ففي هذا الوقت من مغيب النجوم في آخر الليل يعظم أجر المتهجدين وتتنزل الرحمة على المؤمنين - فلذلك أقسم الله بمواقع النجوم على هذا المعنى.

وقيل: مواقعها، أي منازلها، ولعل هذا هو الصواب، وذلك بما نستقرئه عن حقيقة هذا الكون الهائل في سعته العظيمة وانبساطه المديد، فما تكشف عنه الدراسات الفلكية الحديثة من حقائق عن مساحة هذا الكون الرحيب لا جرم تثير الذهول والعجب، وذلك لفرط اتساعه، وعظيم حجمه، فقد أقسم الله بهذه المواقع مما يشير إلى سعة الكون وعظيم امتداده.

٧٦ - (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

قوله: {وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} يعني إن هذا القسم الذي أقسمت به لكم لقسم عظيم، ولو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه وهو قوله: {إنه لقرآن كريم}.

٧٧ - (إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)

قوله: {إنه لقرآن كريم} كريم في نفسه وكريم على الله، وهو مبارك عظيم المنافع، لاشتماله على أصول المعارف والحقائق والأحكام التي يصلح عليها العباد في معاشهم ومعادهم.

٧٨ - (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

قوله: {في كتاب مكنون} وهو اللوح المحفوظ فإنه مكنون أي مصون فلا يأتيه الباطل ولا يطلع عليه غير الملائكة المقربين.

٧٩ - (لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ)

قوله: {لا يمسّه إلا المطهرون} الجملة صفة، والموصوف يحتمل وجهين: أحدهما: أنه الكتاب المكنون وهو اللوح المحفوظ - فإنه لا يمسه إلا من كان مطهرا من الأدناس وهم الملائكة المقربون - وثانيهما: أنه القرآن، فيكون المعنى: لا ينبغي أن يمس القرآن من الناس إلا من كان مطهرا من الجنابة والحدث، ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب، وهذا هو الأظهر والراجح - فقد روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو " وكذلك ما أخرجه مالك في موطئه عن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم " أن لا يمس القرآن إلا طاهر ".

٨٠ - (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {تنزيل من رب العالمين} وهذه صفة أخرى للقرآن العظيم - فإنه منزل من عند الله رب العالمين، وهو ليس كما يفتري المكذبون وأهل المراء بأنه سحر أو كهانة أو شعر - فما هو بشيء من ذلك بل إنه كلام حق مستقل مميز في نظمه وأسلوبه وعظيم مدلوله ومعناه.

٨١ - (أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

قوله: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون} الاستفهام للإنكار، ومدهنون أي متهاونون - والمعنى: أبهذا القرآن العظيم المعجز تتهاونون، فما ينبغي لكم أن تتساهلوا في كلام الله فإنه الكلام الكريم المشتمل على معاني الحق والفضيلة، وأصول العلم واليقين من العقيدة والحكمة والتشريع، ومدهنون من المداهنة وهي إظهار خلاف ما يضمر - ودهن، بمعنى نافق ١٧.

٨٢ - (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

قوله: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} أي تجعلون شكر رزقكم التكذيب أي وضعتم التكذيب موضع الشكر - وقيل: رزقكم بمعنى شكركم، أي وتجعلون شكركم أنكم تكذّبون، أي تكذبون بدل الشكر - ويقوي هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن علي (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " {وتجعلون رزقكم} يقول: شكركم - {أنكم تكذّبون} تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا " ١٨.

٨٣ - (فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

قوله تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم ٨٣ وأنتم حينئذ تنظرون ٨٤ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ٨٥ فلولا إن كنتم غير مدينين ٨٦ ترجعونها إن كنتم صادقين}.

ذلك ضرب من التعجيز والتحدي لأولئك المشركين المكذبين الذين لم تعطف قلوبهم الموعظة ولم تثنهم الآيات والدلائل عن الضلال والشرك والتلبس بالباطل - فقال سبحانه: {فلولا إذا بلغت الحلقوم} لولا، للتخضيض - يعني، هلا إذا بلغت الروح الحلقوم حين الاحتضار.

٨٤ - (وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ)

قوله: {وأنتم حينئذ تنظرون} أي وأنتم تنظرون إلى المحتضر وهو يكابد الموت وسكراته فلا يملك أحد ممن حوله من الأهل والصحاب أن يساعفه بشيء أو يدفع عنه غمرة من غمرات الموت وشدائده.

٨٥ - (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ)

قوله: {ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون} نحن أقرب بقوتنا وقدرتنا إلى المحتضر الذي يكابد آلام الموت، أو أقرب إليه بملائكتنا، ولكنكم لا ترون ذلك، أو لا تدركونه ولا تعلمونه.

٨٦ - (فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

قوله: {فلولا إن كنتم غير مدينين} لولا، للتحضيض - أي هلا، إن كنتم غير محاسبين ولا مقهورين، أو غير موقنين أنكم مبعوثون ومجازون.

٨٧ - (تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {ترجعونها إن كنتم صادقين} أي تردون هذه الروح التي بلغت الحلقوم لصاحبها المحتضر، إن كنتم صادقين في أباطيلكم ١٩.

٨٨ - (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

قوله تعالى: {فأما إن كان من المقربين ٨٨ فروح وريحان وجنّت نعيم ٨٩ وأما إن كان من أصحاب اليمين ٩٠ فسلام لك من أصحاب اليمين ٩١ وأما إن كان من المكذّبين الضالين ٩٢ فنزل من حميم ٩٣ وتصلية جحيم ٩٤ إن هذا لهو حق اليقين ٩٥ فسبح بسم ربك العظيم}.

يبين الله في هذه الآيات أحوال الناس عند احتضارهم، وهي أحوال ثلاثة: حال كل من المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين - وفي ذلك يقول الله سبحانه: {فأما إن كان من المقربين} يعني إن كان المتوفى من المقربين وهم السابقون من الأزواج الثلاثة الذين ذكروا في أول السورة.

٨٩ - (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)

قوله: {فروح وريحان} يعني فله روح، أي راحة وفرح ورحمة، وله كذلك ريحان، أي رزق طيب حسن {وجنت نعيم} له بعد ذلك جنة يتنعم فيها.

٩٠ - (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

قوله: {وأما إن كان من أصحاب اليمين} يعني إن كان المتوفى من أصحاب اليمين- وهم دون السابقين المقربين مرتبة - بشرته الملائكة بقولها له: {فسلام لك من أصحاب اليمين}.

٩١ - (فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

قوله: {فسلام لك من أصحاب اليمين} أي سلام لك فإنك ناج وأنت من أصحاب اليمين - يعني تسلم عليه الملائكة وتبشره بأنه من أصحاب اليمين.

على أنه لا يموت أحد من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو أم من أهل النار - فإذا أيقن أنه من أهل الجنة زهد في الدنيا وأحب الرحيل عنها للقاء الله، وإذا أيقن أنه من أهل النار كره مفارقة الدنيا وأحب أن لا يبرحها البتة - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن

عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: رأيت شيخا أبيض الرأس واللحية على حمار وهو يتبع جنازة فسمعته يقول: حدثني فلان ابن فلان سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " قال: فأكبّ القوم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: إنا نكره الموت، قال: ليس ذاك ولكنه إذا احتضر {فأما إن كان من المقربين ٨٨ فروح وريحان وجنت نعيم} فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحب {وأما إن كان من المكذبين الضالين ٩٢ فنزل من حميم ٩٣ وتصلية جحيم} فإذا بشر بذلك كره لقاء الله، والله تعالى للقائه أكره.

٩٢ - (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)

قوله: {وأما إن كان من المكذبين الضالين} يعني إن كان المتوفى من الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة وهم أهل الشمال، أي: {من المكذبين الضالين} أي من الذين يجحدون النبوة ويكذبون بيوم الدين، ومن السادرين في الضلال والباطل.

٩٣ - (فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ)

قوله: {فنزل من حميم} أي ضيافتهم الحميم وهو الماء الساخن المتناهى الحرارة الذي يقطع الأمعاء والأحشاء، لفرط حرارته.

٩٤ - (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)

قوله: {وتصلية جحيم} أي يقهر على دخول النار لتغمره من جميع جهاته.

٩٥ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)

قوله: {إن هذا لهو حق اليقين} أي لهو الحق الثابت من اليقين الذي لا ريب فيه ولا محيد لأحد عنه.

٩٦ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

قوله: {فسبح باسم ربك العظيم} أي فنزهه بذكر اسمه عما لا يليق بجلال وجهه وعظيم شأنه، وفي هذا روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم "، وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله صلى اله عليه وسلم: {فسبح باسم ربك العظيم} - قال: " واجعلوها في ركوعكم " ولما نزلت {سبح اسم ربك الأعلى} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اجعلوها في سجودكم " ٢٠.

٥٧ سورة الحديد:

سورة الحديد:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وقيل مكية وآياتها تسع وعشرون - وقد جاءت متضمنة كثيرا من مختلف المعاني والأخبار والحجج - منها التأكيد على وحدانية الله وجلال قدره وعظيم سلطانه وجبروته، وأنه سبحانه {الأول والآخر والظاهر والباطن} لا جرم أن هذه الآية بعظيم مدلولها تذكّر بأن الله له ملكوت كل شيء وأن قدرته وعلمه وسلطانه محيط بكل شيء.

وفي السورة بيان بحال المؤمنين السعداء يوم القيامة، وحال المنافقين المذعورين المستيئسين يومئذ، وما يضربه الله بين الفريقين من سور فاصل بينهما ظاهره فيه الرحمة وباطنه يفضي إلى العذاب.

وفي السورة تحذير شديد للمؤمنين أن تقسو قلوبهم فيغشاها ركام من الزيغ والرّان والغفلة، كما قست قلوب أهل الكتاب لما طال عليهم الأمد فبدّلوا كتاب الله تبديلا.

وفيها كذلك تحذير للمؤمنين من الاغترار بالدنيا كيلا تلهيهم وتزيغ بها قلوبهم، وما الدنيا إلا سحابة غيم تمطر الزرع فينمو ويهيج ويعجب به الناس ثم يصفر ويذبل ثم يصير هشيما تدوسه الدواب والأنعام وتذروه الرياح السوافي.

وفي السورة تذكير بأهمية الحديد الذي سميت به السورة فمن الحديد تصنع آلالات الحرب ليرد بها المسلمون كيد المعتدين الظالمين بعد أن لم تفلح معهم أساليب الحكمة والموعظة والبرهان - إلى غير ذلك من جليل المعاني والمواعظ.

١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

}سبّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ١ له ملك السماوات والأرض يحي ويميت وهو على كل شيء قدير ٢ هو الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم{.

ذلك إخبار من الله حق بأن الوجود كله وما فيه من أجسام وأجرام ونبات وحيوان، يسبح بحمد ربه ولكن الناس لا يعلمون كيف يسبح - ذلك أن الله خالق كل شيء وأن قدرته وعلمه وسلطانه محيط بالكون كله.

فقال سبحانه: }سبّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم{ كل شيء يسبح بحمد الله ولا نفقه كيف يسبح الخلق من غير بني آدم - وهو سبحانه العزيز، أي القوي، المنيع الجانب الذي لا يغلبه غالب، المنتقم من المدبرين عن طاعته وعبادته - وهو سبحانه الحكيم، في تدبيره وتقديره وشرعه وأمره كله.

٢ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: }له ملك السماوات والأرض{ الله مالك الحياة والطبيعة والكون، وهو المتصرف في ذلك كله وهو القادر على الإحياء والإماتة - وذلك بإحياء الموتى للبعث وإماتتهم بقبض أرواحهم في الدنيا إلى أجل معلوم }وهو على كل شيء قدير{ لا يعز عليه فعل ما يشاء - فهو بيده المقاليد والنواصي وله ملكوت كل شيء.

٣ - (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: }هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم{ الله، هو الأول يعني القديم الذي لا يسبقه شيء - وهو سبحانه الآخر يعني الدائم الذي يبقى بعد هلاك كل شيء - وهذا مالا خلاف فيه ولا إشكال في فهمه، لكن الخلاف في تأويل الظاهر والباطن - أما الظاهر: فهو ظهوره بفيض الأدلة الدالة عليه - وأما الباطن: فلأنه لا تدركه الأبصار ولا الحواس.

وقيل: الظاهر، يعني العالي على كل شيء، فهو يعلوه وغالب عليه والباطن الذي يعلم بواطن الأشياء - وقيل: الظاهر، على كل شيء علما - والباطن، على كل شيء علما - وقيل: الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس تحته شيء، فهو المحيط بقدرته وعلمه وسلطانه بكل شيء - وهذا الأظهر والأولى - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند النوم " اللهم رب السماوات السبع رب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شركل شيء أنت آخذ بناصيته - أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن ليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر " ١.

٤ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله تعالى: }هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ٤ له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ٥ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور{.

يبين الله في ذلك عظيم سلطانه وبالغ قدرته وعلمه فهو خالق كل شيء ولا يخفى عليه من أخبار الكون أيما شيء - فقال سبحانه: }هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام{ خلق الله كل شيء وخلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما في ستة أيام - وقيل:

هي من أيام الدنيا - وقيل غير ذلك - والله قادر أن يخلق ذلك كله في طرفة عين وذلك بقوله: {كن} لكن الله له في كيفية الخلق ما يشاء من الحكمة، لا يسأل عما يفعل.

قوله: {ثم استوى على العرش} وهذا من متشابه القرآن، وقد قيل في تأويله عدة أقوال منها أنه استولى على العرش.

قوله: {يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها} الله يعلم ما يلج في الأرض من الماء والبذر والمعادن والكنوز والموتى - وهو سبحانه يعلم كذلك ما يخرج من الأرض من زروع وثمار وغير ذلك من الهوام ونحوها.

قوله: {وما ينزل من السماء} أي من الأمطار والأقدار والملائكة والأحكام وغير ذلك.

قوله: {وما يعرج فيها} الله يعلم ما يصعد في السماء من الأعمال والدعوات والملائكة.

قوله: {وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} الله رقيب على العباد، وهو سبحانه شهيد على أقوالهم وأعمالهم، عليم بما تكنه صدورهم من الأسراروالخفايا، ولا يعزب عن علمه من أخبارهم شيء - وهو سبحانه معهم بعلمه وقدرته حيثما كانوا: في البر أو البحر أو القفر، في السماء أو الأرض أو تحت الأرض، في الليل أو النهار، يستوي ذلك كله في علم الله.

٥ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

قوله: {له ملك السماوات والأرض} الله خالق كل شيء وهو بيده ملكوت كل شيء - وهو سبحانه مالك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن {وإلى الله ترجع الأمور} إلى الله المرجع والمآب وكل شيء صائر إليه وموقوف بين يديه - والخلائق والأحياء صائرون إلى ربهم يوم القيامة لا محالة ليقضي بينهم بالحق.

٦ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله: {يولج الليل في النهار} أي يدخل الليل في النهار بأن يأخذ من وقت الليل ويجعله في النهار ليزداد بقدر ما أخذ من الليل {ويولج النهار في الليل} أي يدخل النهار في الليل بأن يأخذ من وقت النهار ويجعله في الليل ليزداد بقدر ما أخذ من النهار - فهو بذلك يأخذ من هذا ليجعله في الآخر، وينقص من هذا ليزداد به هذا - وبذلك يطول الليل تارة ويقصر النهار، وتارة أخرى يقصر الليل ويطول النهار، وتارة يعتدلان - وهو سبحانه يقلب الليل والنهار، ويدبر شؤون خلقه بحكمته وإرادته {وهو عليم بذات الصدور} الله علام الغيوب وهو سبحانه أعلم بالأستار والأسرار وما تكنه القلوب من المقاصد والطوايا ٢.

٧ - (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

قوله تعالى: {آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ٧ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ٨ هوالذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ٩ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ١٠ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم}.

يأمر الله عباده أن يؤمنوا بالله وبرسوله إيمانا صحيحا صادقا مستديما، وأن ينفقوا مما خولهم من الأموال التي استخلفهم فيها استخلافا - فقال سبحانه: {آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه} يعني أنفقوا من الأموال التي في أيديكم فإنما هي أموال الله، إذ خلقها وجعلها في حوزتكم لتنتفعوا منها وتستمتعوا بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة ليست بأموالكم وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب - وبعبارة أخرى فإن الأموال مملوكة لله على الحقيقة، ومليكة الناس لها إنما هي على المجاز لا الحقيقة، فالمالك الحقيقي للمال هو الله، والناس من بعده وكلاء فيه، ولذلك لزمهم أن ينفقوا مما في أيديهم من المال في حقوق الله وفي مختلف وجوه الإنفاق من زكاة وصدقة ونحوهما من وجوه البذل، وذلك دون إبطاء ولا تردد ولا اتثناء - قوله: {فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر

كبير} أولئك يجزيهم الله جزاءهم من الجنة بنعيمها الكريم الدائم.

٨ - (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قوله: {وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم} ما الذي يمنعكم من الإيمان الصحيح الصادق، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى الحق ويبين لكم - بما لديه من الأدلة والحجج - صدق ما جاءكم به، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكريم خصاله وحسن فعاله وروعة أخلاقه وشمائله وفرط عبقريته وصفاء فطرته لهو دليل مكشوف مستبين على أنه رسول أمين وأنه مبعوث من رب العالمين {وقد أخذ ميثاقكم} والمراد بالميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم - وقيل: بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

٩ - (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} المراد بالآيات البينات القرآن، بما تضمنه من فيض الدلائل الظاهرة والبراهين الساطعة ووجوه الإعجاز المذهل - فقد أنزله الله على رسوله ليستنقذهم من ظلمات الجهالة والضلالة والباطل إلى نور الحق والعلم والهداية والاستقامة والفضيلة، إلى الإسلام.

قوله: {وإن الله بكم لرؤوف رحيم} رؤوف من الرأفة وهي أشد الرحمة أو أرقّها ٣ والله جل جلاله أرحم الراحمين بعباده - وهو بعظيم رحمته بهم أنزل إليهم آياته الظاهرات الباهرات بما تضمنته من عظيم الأحكام والعبر التي تفضي بالإنسان إلى السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة.

١٠ - (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

قوله: {وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض} يعني ما الذي يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله وأنتم صائرون لا محالة إلى الهلاك والفناء فتاركو أموالكم من بعدكم فردها إلى وارث السموات والأرض.

قوله: {لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل} أي لا يستوي هذا المؤمن الذي أنفق ماله في سبيل الله وقاتل المشركين من قبل فتح مكة وعزة الإسلام {أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا} يعني أولئك الذين أنفقوا أموالهم قبل فتح مكة وهم السابقون من المهاجرين والأنصار أعظم درجة من المؤمنين الذين أنفقوا وقاتلوا المشركين بعد فتح مكة، فثمة تفاوت بين الفريقين المنفقين المجاهدين من قبل الفتح ومن بعده - وذلك أن أمر المسلمين من قبل الفتح كان شديدا عسيرا - وكانت حالهم يظلها الخوف والإرهاب وطغيان المشركين الظالمين عليهم - لا جرم أن التمسك بالعقيدة الصحيحة والتزام شرع الله وأحكام دينه في مثل تلك الظروف القاسية أعظم قدرا من مثله بعد الفتح حيث الأمن والقوة والمنعة للمسلمين.

قوله: {وكلا وعد الله الحسنى} كلا، مفعول أول لوعد - والحسنى، مفعوله الثاني - يعني كل واحد من الفريقين {وعد الله الحسنى} وهي دخولهم الجنة مع تفاوت الدرجات بين المؤمنين الداخلين.

ويستفاد من هذه الآية أن الفريقين من الصحابة أبرار كرماء عند الله، فما ينبغي الغضّ من قدر فريق منهم، وإنما هم جميعهم طيبون عظماء يفضلون من بعدهم من المؤمنين على مرّ الزمن بفضل شرف الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم التي قدّر لهم أن يحظوا بها، مع التذكير بأنهم من مراتب الإيمان وحسن الجزاء يوم القيامة متفاوتون - وذلك هو شأن المؤمنين في كل زمان ومكان - وذلك من حيث التفاوت في درجات إيمانهم وعزائمهم وما يؤدونه من إنفاق وتضحيات وجهاد، فإن فيهم العظيم وفيهم الوسط وفيهم دون ذلك - وفي الحديث الصحيح: " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ".

قوله: {والله بما تعملون خبير} الله يعلم ما أنتم عليه من تفاوت في الإيمان والإخلاص والعمل، فجازى كلا بما يستحق من الثواب.

١١ - (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

قوله: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم} المراد بالقرض ههنا الإنفاق في سبيل الله - أو هو بذل المال

في وجوه الخير طلبا لمرضاة الله.
وفي الآية تحضيض مؤثر وكريم على إنفاق المال في وجوه الخير كبذله في سبيل الله وإنفاقه على الأهل والأولاد والعيال والأرحام وغيرهم من المحاويج ومن ينفقه يكن له أجر عظيم وهو قوله: {فيضاعفه له} أي يعطيه من الأجر أضعافا مضاعفة {وله أجر كريم} أي وله فوق تلك الأضعاف المضاعفة أجر عظيم وكريم في نفسه وهي الجنة - وقد روي عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له} قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: " نعم يا أبا الدحداح " قال: أرني يدك يا رسول الله - قال: فناوله يده - قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح - قالت: لبيك - قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل - وفيه رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح - ونقلت منه متاعها وصبيانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كم من عذق رداح في الجنة ودار فياح لأبي الدحداح " ٤.
١٢ - (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)
قوله تعالى: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ١٢ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ١٣ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ١٤ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير}.
ذلك إخبار من الله عن أحوال الناس يوم القيامة وما يكابدونه حينئذ من صنوف الأهوال والأفزاع والبلايا - ويكتب الله النجاة والسلامة يومئذ للمؤمنين ليسلكوا سبيلهم إلى الجنة آمنين سعداء - ثم يبقى المنافقون الخاسرون في ظلمات الحشر يكابدون الشدة والخوف والحر والظمأ واليأس – نجّانا الله من ذلك.
وفي هذا يقول سبحانه: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} يوم، منصوب على أنه ظرف - أو منصوب بإضمار الفعل (اذكر) تعظيما لذلك اليوم - وفي هذه الآية يخبر الله عن المؤمنين الصادقين أنهم يوم القيامة {يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} أي يمضي نورهم أمامهم وبأيمانهم.
وذلك على قدر أعمالهم فيمرون به على الصراط - وقيل: ليس من أحد إلا ويعطي نورا يوم القيامة فإذا انتهوا إلى الصراط انطفأ نور المنافقين فأشفق المؤمنون أن ينطفئ نورهم كما انطفأ نور المنافقين فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا - وقوله: {بين أيديهم وبأيمانهم} لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم فجعل النور في الجهتين شعارا لهم وعلامة.
قوله: {بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم} يقال يومئذ {بشراكم} أي لكم البشارة بجنات {تجري من تحتها الأنهار} لابثين ما كثين فيها أبدا لا تبرحون ولا تتحولون {ذلك هو الفوز العظيم} إنه الفوز الأكبر والسعادة الكبرى التي لا يعدلها فوز ولا سعادة.
١٣ - (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)
قوله: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم} وذلك مما يقع يوم القيامة من شديد الأهوال وفظيع المشاهد، وحينئذ لا يجو من البلاء والكرب إلا من كتب الله له نجاة - وقد قيل: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة شديدة لا يرون فيها شيئا فيعطي المؤمنون نورا يستضيئون به، ويترك الكافرون والمنافقون من غير نور، فيتيهون ويخبطون لا يرون شيئا فيلجّون حائرين مذعورين فيقولون

للذين آمنوا: {انظرونا نقتبس من نوركم} أي انتظرونا لكي نصيب من نوركم فنستنير به ونستضيء - وقال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نورا فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا من الله إلى الجنة - فلما رأى المنافقون والمنافقات المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ {انظرونا نقتبس من نوركم} فإنا كنا معكم في الدنيا فقال لهم المؤمنون: {ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا} أي ارجعوا وراءكم، من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور.

قوله: {فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب} والمراد بالسور، حائط يحول بين شق الجنة وشق النار، قيل هو الأعراف - ولهذا السور باب لأهل الجنة يدخلون منه، وباطن السور وهو الشق الذي يلي الجنة {فيه الرحمة} أي الجنة - {وظاهره} يعني ما ظهر لأهل النار منه، من جهته {العذاب} أي النار.

فالمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليفصل بين المؤمنين والمنافقين ويكون بينهم حاجزا - فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلام والعذاب، وقد كانوا في الدنيا في جهالة وكفران وباطل.

١٤ - (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

قوله: {ينادونهم ألم نكن معكم} ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدنيا رفاقا صحابا نشهد معكم الصلوات ونعمل وإياكم الواجبات {قالوا بلى} بلى قد كنتم معنا {ولكنكم فتنتم أنفسكم} أركستم أنفسكم في فتنة النفاق فهلكتم {وتربصتم} بالإسلام والمسلمين الدوائر {وارتبتم} أي شككتم في البعث وفي قيام الناس من قبورهم للحساب {وغرّتكم الأماني} أي غركم الطمع وطول الآمال والرغبة في امتداد الآجال وخدعتكم الدنيا بمتاعها وزخرفها وزينتها {حتى جاء أمر الله} يعني جاءكم الموت {وغركم بالله الغرور} غركم، أي خدعكم، وأطمعكم بالباطل - والغرور، بفتح الغين، معناه الدنيا ٥ والمراد به ههنا الشيطان.

والمعنى المراد للآية، أنه قد خدعكم الشيطان، إذ فتنكم عن دين الله وسول لكم النفاق وفعل المنكرات والمعاصي وأوهمكم بأنه لا بعث ولا حساب.

١٥ - (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله: {فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا} أي لا يؤخذ منكم أيها المنافقون ما يفتدى به من المال ولو كان ملء الأرض ذهبا فإن ذلك: لا ينفعكم ولا يدفع عنكم شيئا من العذاب ولا يقبل منكم {ولا من الذين كفروا مأواكم النار} النار مستقركم ونزلكم {هي مولاكم} أي هي أولى بكم من كل منزل {وبئس المصير} بئس المرجع تؤولون إليه وهو منزلكم الثابت الدائم حيث النار وسوء العذاب ٦.

١٦ - (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

قوله تعالى: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ١٦ اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بيّنّا لكم الآيات لعلكم تعقلون}.

كان المسلمون في مكة مجدبين فقراء فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه من الخشوع فنزلت الآية: وقال ابن مسعود (رضي الله عنه): ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين - وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله} ألم يأن، من أنى الأمر يأنى، إذا جاء إناه، أي وقته - والمعنى: أما آن للمؤمنين أن تلين قلوبهم لذكر الله وهو سماع القرآن وما فيه من المواعظة وضروب التذكير والآيات {وما نزل من الحق} أي القرآن - وهو معطوف على الذكر - فقد عطف أحد الوصفين على الآخر - ويجوز أن يراد بالذكر الموعظة والعبرة.

قوله: {ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم} ولا يكونوا معطوف على {تخشع} ويجوز أن يكون

نهيا للمؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب - وذلك أن اليهود والنصارى لما تطاول علهم الأمد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم، لأنه يحول بينهم وبين شهواتهم وأهوائهم وأقبلوا على ما اصطنعه لهم أحبارهم ورهبانهم من ضلالات الأفكار والقناعات {فطال عليهم الأمد} أي طال عليهم الأجل والزمان وهم على حالهم هذه {فقست قلوبهم} صارت قلوبهم غليظة كزّة لا يعطفها التذكير والتحذير ولا تنفذ إليها المواعظ ولا تلين لوعد أو وعيد - فيحذر الله المسلمين أن يكونوا أمثال هؤلاء الغلاظ البور.

قوله: {وكثير منهم فاسقون} كثير من أهل الكتاب خارجون عن حقيقة دينهم، رافضون لما في التوراة والإنجيل الأصليين من توحيد كامل لله ودعوة حقيقية لمكارم الأخلاق وتحذير شديد من الاستسلام للشيطان والشهوات.

١٧ - (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

قوله: {اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها} يشار بذلك إلى أن القلوب الغليظة ربما تلين بالذكرى وحسن الموعظة أو ترق وتخشع بسماع الدلائل والآيات - فما ينبغي الاستيئاس من إيمان الشاردين عن منهج الحق، الجامحين نحو الشهوات والملذات - فإن القلوب الغافلة ربما تنفذ إلى أعماقها آيات الهداية فتخشع وتنقلب راجعة إلى الصواب واليقين - وذلك كما أحيي الأرض الهامدة اليبس بالغيث الهاطل المدرار فأنبت الله فيها الزرع والثمر ولبست الأرض حلة زاهية من الخضرة والجمال - قوله: {قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون} بين الله لعباده الآيات لكي يفهموها ويتدبروا مدلولاتها ومعانيها فيعتبروا ويستيقنوا ٧.

١٨ - (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

قوله تعالى: {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم ١٨ والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصادقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم}.

ذلك إطراء من الله كريم على عباده المؤمنين، المصدقين والمصدقات والصديقين والشهداء - أولئك أصناف أبرار من عباد الله بما أنفقوا من أموالهم وبما أقرضوا الله قرضا حسنا وبما جاهدوا في سبيله حتى قتلوا - وهو قوله: {إن المصّدّقين والمصّدّقات} بتشديد الصاد والدال، من التصدق وهو بذل المال للفقراء والمحاويج طلبا لمرضاة الله {وأقرضوا الله قرضا حسنا} أي تصدقوا من المال الطيب عن طيب نفس وصدق نية {يضاعف لهم} أولئك يجزون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر حتى السبعمائة ضعف {ولهم أجر كريم} يعني الجنة حيث النعيم المقيم والرحمة المستفيضة.

١٩ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

قوله: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّدّيقون والشهداء عند ربهم} يعني أولئك المؤمنون بالله ورسوله إيمانا صادقا فهم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء - والمراد بالصديقين، المبالغون في صدق القلوب وإخلاص النوايا - والشهداء هم القائمون بالشهادة لله، أو هم الذين استشهدوا في سبيل الله - وقيل: هذه الجملة {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّدّيقون} جملة مفصولة - ثم استأنف الكلام في قوله: {والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} فالشهداء مبتدأ وخبره {لهم أجرهم ونورهم} - قوله: {والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم} ذلك وعيد شديد من الله للجاحدين المكذبين بآياته، المعرضين عن دينه، بأنهم صائرون إلى الجحيم حيث النار المتسعّرة والعذاب المهين ٨.

٢٠ - (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

قوله تعالى: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الأخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ٢٠ سابقوا إلى

مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}.

يبين الله للناس حقيقة الحياة الدنيا على أنها حطام زائل داثر وأنها سراب خادع ما يلبث أن ينقشع ويتبدد - وكذا الدنيا ما تلبث أن تفنى وتزول حتى لا يبقى منها عين ولا أثر - فما ينبغي للناس- وهم يعلمون هذه الحقيقة - أن تخدعهم الدنيا وأن يغرهم الشيطان غرورا - وذلك هو قوله سبحانه: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد} ذلك تزهيد في الحياة الدنيا، إذ شبهها في سرعة زوالها وهوان شأنها وحقارة متاعها، بلعب الصبيان في الملاعب، إذ يتبعون أنفسهم، فيركضون ويكدون لا هثين لا يجنون غير العبث والنصب وضياع الوقت - وهي كذلك لهو، فإنها تلهي الناس عن ذكرى الآخرة وتثنيهم عن فعل الفرائض والواجبات من خشوع لله وأمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد في سبيل الله وإصلاح بين الناس.

وهي كذلك زينة - وهي ما يتزين به الغافلون اللاهون، من فاخر الملابس والمراكب والبيوت والأثاث والرياش وغير ذلك من وجوه الزينة {وتفاخر بينكم} يفاخر الناس بعضهم بعضا بما أوتوه من مال وكراع وزينة أو جاه وغير ذلك من ضروب التفاخر والتباهي بلعاعات الدنيا ومباهجها الواهية الزائلة {وتكاثر في الأموال والأولاد} أي يتباهون بكثرة المال والولد ولا يغنيهم ذلك من الله شيئا ولا يستنقذهم من عذابه إذا أحاط بهم - وإنما يجديهم الإيمان والإخلاص لله في الطاعة والعبادة.

قوله: {كمثل غيث أعجب الكفار نباته} الكاف في قوله: {كمثل} في موضع رفع من وجهين - أحدهما: أن يكون وصفا لقوله: {وتفاخر بينكم} وثانيهما: أن يكون في موضع رفع، لأنه خبر بعد خبر وهي {الحياة} في قوله: {أنما الحياة الدنيا} ٩.

والمراد بالكفار ههنا الزراع الذين يغطون البذر بالتراب عقب حراثته - قوله: {ثم يهيج} أي يجف بعد خضرته وييبس {فتراه مصفرا} أي يأخذ في الاصفرار والذبول بعد الاخضرار والنّضرة {ثم يكون حطاما} أي هشيما متكسرا متفتتا - وهكذا الحياة الدنيا في متاعها وغرورها وسرعة زوالها كالزرع، إذ يكون مخضرا نضرا فيعجب الزراع والناظرين ثم ما يلبث أن ييبس ويتكسر ويصير هشيما فيدوسه الناس والدواب ثم يتبدد ويزول ليصبح أثرا بعد عين.

قوله: {وفي الأخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان} يبعث الناس من قبورهم يوم القيامة ثم يصيرون إلى الوقوف بين يدي الله فإما العذاب الشديد وهي النار، يصلونها ويذوقون فيها الوبال والنكال وإما أن يغفر الله لهم ثم يدخلهم الجنة رحمة منه بهم وفضلا.

قوله: {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} يعني ليست الحياة الدنيا بزينتها ولذاتها إلا المتاع الخادع الذي يغتر به الخاسرون الغافلون فيذهلون عن منهج الله ثم ينقلبون إلى الهوان والخسران.

٢١ - (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

قوله: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض} يعني بادروا بالتوبة إلى الله واعملوا الصالحات وافعلوا الطاعات، وذلك يقتضي المغفرة لكم من ربكم {وجنة عرضها كعرض السماء والأرض} أي لو وصل بعضها ببعض لكانت في امتدادها مثل عرض الجنة التي وعدها المؤمنون المتقون وهو قوله: {أعدت للذين آمنوا بالله ورسله}.

قوله: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء} الإشارة عائدة إلى الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض فإنها فضل من الله تفضل به على المؤمنين والله يؤتي فضله من يشاء من عباده وهو المتفضّل العظيم ١٠.

٢٢ - (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

قوله تعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ٢٢ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ٢٣ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد}.

ذلك إخبار من الله عما قدّره لعباده من المقادير المسطورة في علمه القديم - ليبين لهم أن كل شيء بقدر وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم - وهو قوله: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم} يعني ما يصيبكم من مصيبة في الأرض كالقحط والجدب وجوائح الزروع والثمرات {ولا في أنفسكم} من الأسقام والأوجاع وضيق المعاش وغير ذلك من أوجه الكروب والهموم.

قوله: {إلا في كتاب} كل ما يصيب الناس من ضروب البلاء مكتوب في علم الله القديم، في اللوح المحفوظ {من قبل أن نبرأها} أي من قبل أن يخلق الأنفس أو المصيبة - فما يصيب الإنسان من فقر ولا نصب ولا وصب ولا وجع ولا غم ولا كرب ولا خدش إلا هو مسطور في علم الله من قبل أن يخلق الإنسان والمصيبة.

قوله: {إن ذلك على الله يسير} يعني علمه بذلك من قبل أن يخلقه ويكتبه وفق حصوله في حينه أمر هين على الله.

٢٣ - (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

قوله: {لكيلا تأسوا على ما فاتكم} يعني حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا من خيراتها ومتاعها - فإن ذلك لم يقدّره الله لكم ولو قدّره لكم لما فاتكم - وقد روي عن ابن مسعود في هذا الصدد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ".

قوله: {ولا تفرحوا بما آتاكم} أي لا تفرحوا بما أعطاكم الله في الدنيا من الرزق والعافية والخصب فتفاخروا به على الناس وانتم بطرون أشرون {والله لا يحب كل مختال فخور} مختال، من الاختيال والخيلاء وهو التكبر والتفاخر ١١ يعني: إن الله لا يحب كل متكبر مباه بنفسه وماله وما أوتيه من أوجه النعم، مفاخر بذلك على الناس.

٢٤ - (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

قوله: {الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل} الذين، في موضوع جر صفة مختال - والمعنى أن هؤلاء المختالين المتكبرين الذين يفاخرون على الناس بأموالهم ومكاناتهم وجاههم يبخلون بإخراج حق الله في أموالهم من زكاة وغيرها - وهم مع بخلهم يأمرون غيرهم أن يبخلوا فيشحوا كما شحّوا - وقيل: المراد بهم رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وصفته مبينة في كتبهم لكنهم أخفوها، كيلا يعلمها الناس فيؤمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك إلا حسدا من عند أنفسهم - وقيل: المراد بهم الذين يبخلون بالعلم عن الناس.

قوله: {ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} من يعرض عن الإيمان بالله وطاعته فإن الله غني عنه - وهو سبحانه الغني في ملكوته، المحمود في خلقه من الملائكة والمؤمنين من الثّقلين ١٢.

٢٥ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

قوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} يبين الله للناس أنه أرسل إليهم رسلا لهدايتهم وقد أرسل معهم الدلائل والحجج من معجزات وأحكام - وكذلك أنزل الله الحديد ليتخذ منه المؤمنون السلاح فيردوا كيد الظالمين المجرمين، وليدفعوا عن أنفسهم وعن دينهم عدوان المعتدين وطغيان المفسدين المتجبرين - وهو قوله: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} أي بالمعجزات الباهرة والدلائل الظاهرة {وأنزلنا معهم الكتاب} أي الكتب التي فيها أخبار الآخرة وشرائع الدين {والميزان} أي العدل {ليقوم الناس بالقسط} يعني ليقوم الناس بينهم، في معاملاتهم وشؤونهم بالحق والعدل.

قوله: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد} خلق الله الحديد ليصنع منه المسلمون ما يتقوون به ويعظم به بأسهم وشوكتهم وهو السلاح

فيكفّون عن أنفسهم الشر والضّرّ والعدوان - وذلك عقب البيان للمشركين والتوضيح لهم بالحكمة والأسلوب الحسن أن منهج الله لهو الحق وأن ما دونه من مناهج لهي الضلال والباطل، كيما يصدقوا ويوقنوا وتستقيم أحوالهم وأوضاعهم وتصلح حياتهم ومعايشهم، فإذا لم تجد أسباب الحجة والبرهان في إقناعهم ودفع عدوانهم وكيدهم عن الإسلام والمسلمين فما حيلة المسلمين بعد ذلك إلا أن يزجروا المعتدين الأشرار بالحديد وما يستفاد منه من مختلف أصناف السلاح وفقا للأحوال والأعراف والظروف التي تتغير وتتطور - فقد كانت السيوف والأسنّة عماد الآلات للحرب في الأزمنة السالفة - أما في العصر الراهن فليس من بد من الاستفادة من الحديد في المخترعات الحديثة ومنها آلالات الحرب المستعملة في البر والبحر والجو - وإذا تخلف المسلمون في الاستفادة من الحديد وتطويره لأحدث الأسلحة النافعة الرادعة حتى فاتهم المشركون الظالمون، واستغفلهم الطغاة والمعتدون، فليس للمسلمين بعد ذلك إلا أن يلوموا أنفسهم، ثم يعاودوا محاسبة أنفسهم في تخلّفهم وتقصيرهم وتفريطهم حتى إذا استحرّت فيهم حرارة العقيدة، وهاجت في ضمائرهم جذوة العزم والجد والغيرة والحماسة انتقلوا بأنفسهم أعظم نقلة كيما يزهقوا الباطل ويدمروا الطغيان والشر تدميرا ويعرضوا ما فاتهم من تقصير وتفريط.

قوله: {ومنافع للناس} منافع الحديد المستفادة كثيرة وهي مما يستعمله الناس في بيوتهم من الأواني، وفي مصانعهم ومزارعهم من آلالات والمعدات على اختلاف أشكالها ومنافعها ومسمياتهم.

قوله: {وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب} معطوف على قوله: {ليقوم الناس بالقسط} أي أرسل الله رسله للناس وأنزل معهم الكتب والحق والعدل وجعل لهم من الحديد ما فيه سلاح وبأس ليستبين المؤمنون الذين ينصرون الله ورسله بالغيب عنهم - أي وهم لا يرونهم - قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه {إن الله قوي عزيز} الله قوي على أخذ من خالفه وبارزه بالمعصية والظلم وشاقّه بالجحود والعتو والفسق عن دينه وشرعه {عزيز} أي منيع الجانب لا يغلبه غالب ١٣.

٢٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

قوله تعالى: {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ٢٦ ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون}.

أرسل الله للناس رسلا مبشرين ومنذرين وهم من نسل نوح وإبراهيم إذ جعل في ذرتهما الكتاب، فآمن في الناس من آمن وأعرض من أعرض وهم الأكثرون.

وهو قوله سبحانه: {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} لقد أرسل الله نوحا وإبراهيم لهداية الناس ولتبصيرهم بدين الحق واستنقاذهم من الغيّ والضلال - ثم جعل النبوة والكتب المنزلة على النبيين منهم - وكذلك كانت النبوة في ذريتهما، وعليهم أنزلت الكتب: وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وسائر الكتب المنزلة {فمنهم مهتد} أي فمن ذرية نوح وإبراهيم مهتدون إلى الحق ملتزمون عقيدة التوحيد {وكثير منهم فاسقون} كثير من ذرية نوح وإبراهيم خارجون عن طاعة الله جامحون للضلال والمعصية.

٢٧ - (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

قوله: {ثم قفينا على آثارهم برسلنا} يعني، ثم أتبعنا على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم من بعدهما، كموسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم من المرسلين {وقفينا بعيسى ابن مريم} أي أتبعنا على آثارهم بعيسى ابن مريم، فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه مريم {وآتيناه الإنجيل} وهو الكتاب الذي أنزله الله هداية لبني إسرائيل.

قوله: {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة} جعل الله في قلوب الذين آمنوا به واتبعوا ما جاءهم به وهم الحواريون، رأفة وهي أشد الرحمة، أو الرفق واللين - والرحمة، الشفقة {ورهبانية ابتدعوها} رهبانية، منصوب بفعل مقدر - وتقديره: ابتدعوا رهبانية ابتدعوها

١٤ أي أحدثوها من قبل أنفسهم {ما كتبناها عليهم} أي ما افترضنا عليهم تلك الرهبانية {إلا ابتغاء رضوان الله} أي لكنهم أحدثوها من عند أنفسهم طلبا لمرضاة الله فالاستثناء منقطع - والرهبانية والترهب بمعنى التعبد - ومن مظاهرها الاختصاء واعتناق السلاسل ولبس المسوح وترك اللحم ونحو ذلك من وجوه التقشف وحرمان النفس ١٥.

قوله: {فما رعوها حق رعايتها} أي ما قاموا بها حق القيام - أو لم يرعوا الرهبانية التي ابتدعوها حق الرعاية - ولكنهم بدّلوا وخالفوا دين الله الذي بعث به عيسى فتنصروا وتهودوا ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا وتركوا الترهب.

قوله: {فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم} أي أعطينا الذين آمنوا بالله ورسوله من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية ورعوها، ثوابهم لصدق إيمانهم وابتغائهم رضوان الله - قوله: {وكثير منهم فاسقون} كثير منهم خارجون عن دين الله الحق وعن طاعته سبحانه ١٦.

٢٨ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ٢٨ لئلاّ يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء ومن فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}.

يخاطب الله الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، يدعوهم للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ليجزيهم الله بذلك مثلين من الجزاء وهو قوله سبحانه: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته} فالآية محمولة على مؤمني أهل الكتاب، إذ يدعوهم ربهم أن يؤمنوا بمحمد ليؤتيهم أجرهم مرتين وهو قوله: {يؤتكم كفلين من رحمته} أي مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام - والكفل، معناه الحظ والنصيب - وقيل: لما نزل قوله: {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية.

قوله: {ويجعل لكم نورا تمشون به} والمراد بالنور، القرآن، فإنه المشعل الذي يستضيئون به فلا يتعثرون ولا يضلون أو يتيهون - أو المراد به الإسلام، إذ يدعون الناس إليه فيكونون رؤساء في هذا الدين الحنيف ولا تزول عنهم رئاسة كانوا فيها - وذلك أنهم كانوا يخشون أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: {ويغفر لكم والله غفور رحيم} الله جل جلاله يصفح عنكم ويستر عليكم ذنوبكم وهو سبحانه موصوف بالرحمة والمغفرة للمسيئين المذنبين.

٢٩ - (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

قوله: {لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله} لا، في قوله {لئلا} زيادة وهي للتأكيد - يعني ليعلم أهل الكتاب – وكانوا قد حسدوا المسلمين – أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي خص به أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعل لهم من التكريم والتعظيم ما ليس لهم.

قوله: {وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء} ليس الفضل بأيدي أهل الكتاب إذ كانوا يبتغون أن تكون النبوة فيهم دون غيرهم وقد اغتاظوا أشد الغيظ لما بعث الله في العرب رسولا منهم ثم جعل أمته خير أمة أخرجت للناس - وذلكم فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده {والله ذو الفضل العظيم} الله الكريم المنان ذو الفضل على عباده ١٧.

٥٨ سورة المجادلة:

سورة المجادلة:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وعدد آياتها اثنتان وعشرون - وهي مبدوءة بسبب نزولها وهي المرأة التي جاءت تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجادله في زوجها فأنزل الله قوله: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله

سميع بصير} وعقب ذلك يأتي البيان بحقيقة الظهار من حيث معناه وحكمه وما يجب فيه من كفارة.
وتتضمن السورة نهيا عن التناجي والاستسرار بالإثم والعدوان مما يثير الريبة والرهبة في نفوس المسلمين.
وفي السورة تعظيم للعلم وتوقير للعلماء إذ {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}.
وفي السورة نهي للمسلمين عن موادة المشركين الذين يحادون الله ورسوله ولو كانوا أقرب الأقربين إليهم - إنما ينشدّ المسلم برباط العقيدة إلى إخوانه المسلمين - فلا يعبأ بغير ذلك من روابط العصبية والنسب - إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من المعاني والحقائق والعبر.
١ - (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير}.
روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات - لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} إلى آخر الآية.
وفي رواية عن عروة عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خويلة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذ كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك - قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله} فالمشتكية إلى الله هي خولة بنت ثعلبة في الأصح - وزوجها هو أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت - ذكر أن خولة قالت: دخل علي ذات يوم وكلمني بشيء وهو فيه كالضجر فراددته فغضب فقال: أنت عليّ كظهر أمي - ثم خرج في نادي قومه ثم رجع إلي فراودني عن نفسي فامتنعت منه، فشادّني فشاددته فغلبته بما تغلب به المرأة الرجل الضعيف - فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تصل إليّ حتى يحكم الله تعالى فيّ وفيك بحكمه ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أشكو ما لقيت - فقال: " زوجك وابن عمك اتقي الله وأحسني صحبته " - فما برحت حتى نزل القرآن {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} إلى قوله: {إن الله سميع بصير} حتى انتهى إلى الكفارة قال: " مريه فليعتق رقبة " - قلت: يا نبي الله والله ما عنده رقبة يعتقها - قال: " مريه فليصم شهرين متتابعين " قلت: يا نبي الله شيخ كبير ما به من صيام، قال: " فليطعم ستين مسكينا " قلت: يانبي الله والله ما عنده ما يطعم، قال: " بلى سنعينه بعرق من تمر مكتل يسع ثلاثين صاعا " قلت: وأنا أعينه بعرق آخر، قال: " قد أحسنت فليتصدق " ١.
قوله: {والله يسمع تحاوركما} الجملة في موضع نصب على الحال - أو مستأنفة، والتحاور بمعنى التجاوب ٢ أي والله يسمع ما جرى من تراجع في الكلام ومن تحاور بين رسوله صلى الله عليه وسلم وخولة بنت ثعلبة - قوله: {إن الله سميع بصير} الله يسمع ويرى - فما من صوت ولا همس ولا نبس ولا حركة ولا سكنة ولا حدث إلا يسمعه الله أو يراه.
٢ - (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)
قوله تعالى: {الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاّئي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ٢ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ٣ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ٤}.
هذه الآية أصل الظهار، وهو مشتق من الظهر - وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها أنت علي كظهر

أمي - وقد كان الظهار في الجاهلية طلاقا فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقا كما كانوا عليه في جاهليتهم.
وقد أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت علي كظهر أمي أنه مظاهر - أما إن قال لها: أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غيرهما من ذوات المحارم فإنه مظاهر كذلك في قول أكثر العلماء - وهو مذهب الإمامين مالك وأبي حنيفة وآخرين - وروي عن الشافعي قوله مثل ذلك - ووجهه أنه شبّه امرأته بظهر محرم عليه على التأبيد كالأم - وفي رواية عنه أخرى أنه لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها.
على أن ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية - أما الصريح فقوله لها: أنت علي كظهر أمي - أو أنت عندي وأنت مني وأنت معي كظهر أمي - وكذلك أنت علي كبطن أمي أو كرأسها أو فرجها أو نحو ذلك - وكذلك قوله لها: فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علي كظهر أمي فهو مظاهر - كما لو قال لها: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق فإنها تطلق عليه - وهو قول المالكية والشافعية - أما الحنيفة فقالوا: إذا قال لها أنت عليّ كيد أمي أو كرأسها - أو ذكر شيئا يحل له النظر إليه منها لم يكن مظاهرا - وإن قال لها: أنت علي كبطنها أو فخذها ونحو ذلك كان مظاهرا، لأنه لا يحل له النظر إليه كالظهر - أما الكناية فقوله لها: أنت علي كأمي أو مثل أمي فإنه ينظر إلى نيته - فإن أراد الظهار كان ظهار - وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهرا.
أما الظهار بغير ذوات المحارم كما لو ظاهر بالأجنبية فإنه ليس بشيء وهو قول الحنفية والشافعية وبعض المالكية - ووجه ذلك أن الأجنبية قد تحل له بتملك بعضها فتكون مثل زوجته وفي حكمها - وفي رواية عن مالك أن ذلك ظهار - وروي عنه أيضا أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء.
أما النساء فليس عليهن ظهار وإنما الظهار على الرجال فقط، لصريح قوله: {الذين يظاهرون منكم من نسائهم} ولم يقل " اللاتي يظاهرن منكن من أزواجهن " وقد ذهب إلى ذلك عامة أهل العلم - وعلى هذا لو قالت المرأة لزوجها: أنت علي كظهر أمي فلا تكون متظاهرة وليس ذلك بشيء.
واختلفوا فيما يحرمه الظهار - فقد ذهبت الحنفية والمالكية وآخرون إلى أن المظاهر لا يلمس ولا يقبّل ولا ينظر إلى فرجها لشهوة حتى يكفر - وقال مالك: لا ينظر إلى شعرها ولا إلى صدرها حتى يكفّر - وقيل: يأتيها فيما دون الفرج - ولو ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة كان مظاهرا من كل واحدة منهن وليس له أن يطأ إحداهن حتى يكفر، وتجزئه كفارة واحدة - وعند الإمام الشافعي أنه تلزمه أربع كفارات ٣.
قوله: {ما هن أمهاتهم} يعني ما نساؤهم اللاتي يظاهرون منهن بأمهاتهم بل هن زوجاتهم وهن لهم حلال {إن أمهاتهم إلا اللآئي ولدنهم} يعني ما أمهاتهم إلا اللائي ولدوا منهن أو والدتهم وليس اللائي ظاهروا منهن {وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا} منكرا وزورا منصوب على الوصف لمصدر محذوف وتقديره: وإنهم ليقولون قولا منكرا وقولا زورا ٤ يعني وإن هؤلاء الرجال المظاهرين ليقولون قولا مستقبحا لا تعرف صحته في الشرع {وزورا} أي كذبا {وإن الله لعفو غفور} الله يصفح عن ذنوب عباده ويستر عليهم سيئاتهم وقد جعل لهم الكفارة سبيلا للتخلص من هذه الخطيئة - وكذلك يعفو الله عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم كما روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول لامرأته: يا أختي - فقال: " أختك هي؟ " فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك، لأنه لم يقصده ولو قصده لحرّمت عليه.
٣ - (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
قوله: {والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا} يعني الذين يقولون لنسائهم: أنتن علينا كظهور أمهاتنا {ثم يعودون لما قالوا} وقد اختلف العلماء في المراد بالعود المذكور في الآية - وثمة أقوال في ذلك.
القول الأول: المراد بالعود هو أن يعود المظاهر إلى لفظ الظهار فيكرره وهو قول أهل الظاهر - وهو غير صحيح، لأن الله وصف الظهار بأنه منكر من القول وزور - فكيف يقال للمظاهر بمعاودة المحرم المحظور نفسه.
القول الثاني: أن يمسك المظاهر زوجته مدة بعد الظهار يكون فيها قادرا على الطلاق، لأنه بإمساكه عن الطلاق يكون قد عاد إلى ما كان عليه قبل الظهار.

القول الثالث: أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة - وهو قول أحمد بن حنبل.
القول الرابع: أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه - فإذا ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريما لا يرفعه إلا الكفارة - وهو مذهب الحنيفة، وقال به الليث بن سعد.
قوله الخامس: أن يعزم على الإمساك بعد أن يظاهر منها - وهو قول الإمام مالك - وروي عنه أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عودا.
قوله: {فتحرير رقبة} يعني على المظاهر من امرأته أن يعتق رقبة، جزاء تلبسه بالمحظور وهو الظهار - ويشترط في الرقبة أن تكون مسلمة في قول المالكية والشافعية، خلافا للحنيفة إذ لم يشترط إسلام الرقبة في الظهار، فالرقبة في الكفارة تجزي.
قوله: {من قبل أن يتماسا} والمراد بالتماس الجماع، في قول الجمهور أي يكفّر المظاهر بالعتق قبل أن يجامع زوجته التي ظاهر منها - وبذلك ليس للمظاهر الوطء قبل التكفير - فإن جامع قبل أن يكفّر فقد عصى الله وكان آثما ولا يسقط عنه التكفير بالعتق - وقيل: إذا جامع قبل التكفير لزمته كفارة أخرى - وليس على ذلك دليل.
قوله: {ذلكم توعظون به} الإشارة عائدة إلى ما تبين من حكم وهو إيجاب الكفارة بسبب الظهار {توعظون به} أي تزجرون به لتنتهوا عن ارتكاب الظهار فهو منكر وزور {والله بما تعملون خبير} الله مطلع على أعمالكم وأقوالكم وما تقارفونه من محظور كالظهار فاحذروا وانتهوا.
٤ - (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
قوله: {فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا} إذا لم يجد المظاهر من امرأته رقبة يعتقها وليس عنده ثمنها، أو كان عنده ثمنها وهو محتاج إليه لنفقته على نفسه وعياله فله أن يصوم، وهو قول الشافعية، وعند الحنفية لا يجزيه غير العتق ما دام يجد الرقبة.
وبذلك على المظاهر غير الواجد للرقبة أن يصوم شهرين متتابعين من غير فصل بينهما بإفطار، فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنف صيام الشهرين وإن أفطر لعذر كمرض أو سفر أو نحوهما فإنه يبني على صيامه ولا يستأنف وهو الصحيح من مذهب الشافعية، وعند الحنفية يستأنف الصيام سواء أفطر بينهما أو بغير عذر، وهو أحد القولين للإمام الشافعي.
قوله: {فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا} من لم يطق من المظاهرين من نسائهم الصيام فعليه إطعام ستين مسكينا، لكل واحد منهم مدّان بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم وهو قول المالكية، وعند الشافعية لكل مسكين مدّ من طعام بلده المقتات سواء كان حنطة أو شعيرا أو أرزا أو تمرا أو إقطا، وعند الحنفية، لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من تمر أو شعير.
قوله: {ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله} أي هذا الذي فرضه الله على المظاهر من الكفارة الغليظة، لتوقنوا أن الله قد أمر به وشرعه وكيلا تعودوا للظهار وهو منكر من القول وزور.
قوله: {وتلك حدود الله} حدود الله،، أحكامه من الفروض والنواهي، فقد بينها الله لكم فلا تعتدوها {وللكافرين عذاب أليم} ذلك وعيد من الله لمن جحد أحكام ربه فلم يطع أمره، وعصاه فإنه يصلى العذاب في جهنم ٥.
٥ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)
قوله تعالى: {إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ٥ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ٦ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ٧}.
ذلك تحذير للكافرين المكذبين الذين يشاقون الله ورسوله فإنهم بكفرهم وعصيانهم مصيبهم ما أصاب الظالمين السالفين من الخزي والخسران في الدنيا والآخرة - وهو قوله سبحانه وتعالى: {إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم} يحادون، من المحادّة وهي المخالفة، ومنع ما يجب فعله ٦.

يعني: إن الذين يخالفون أوامر الله وأحكام دينه ولا يرعون حدوده ويجعلون لأنفسهم حدودا غير حدود الله {كبتوا كما كبت الذين من قبلهم} أي ذلوا وخزوا وأذاقهم الله من الهوان ما أذاق الخاسرين من قبلهم - ولقد أذلّ الله سائر الطغاة والمجرمين والفاسقين من الأمم السابقة الذين شاقوا الله ورسوله وفسقوا عن دينه وأذوا أولياءه.

قوله: {وقد أنزلنا آيات بينات} أنزلنا إليكم أيها الناس علامات ودلالات ظاهرة تبين لكم صدق ما جاءكم به الرسول الأمين - أو بينا لكم الآيات في الذين خلوا من قبلكم من الفاسقين الذين حادوا الله ورسوله وما نزل بهم من سوء العقاب {وللكافرين عذاب مهين} ينذر بذلك، الكافرين المكذبين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه من الحق، فإنهم بتكذيبهم سيصلون العذاب الأليم في النار.

٦ - (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قوله: {يوم يبعثهم الله جميعا} يوم، منصوب على أنه ظرف، أو بإضمار فعل، وتقديره واذكر يوم يبعثهم الله - و {جميعا} منصوب على الحال، فإن الله باعث جميعا يوم القيامة {فينبئهم بما عملوا} أي يخبرهم الله بما فعلوه في الدنيا من خير أو شر وهذا تحذير للناس وتذكير لهم باليوم الآخر وما فيه من النوازل والنوائب والزلازل، ليتعظوا ويتدبروا ويبادروا بالطاعة والإنابة.

قوله: {أحصاه الله ونسوه} أحصى الله على الناس أعمالهم وحفظها في صحائفهم ليذكرهم بها يوم المعاد - وهم قد نسوا ما قد فعلوه في الدنيا.

قوله: {والله على كل شيء شهيد} الله يعلم ما يأتيه العباد من قول أو عمل وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أخبارهم وأسرارهم.

٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض} الله عليم بأخبار الكون كله، فما من شيء ولا خبر ولا حدث ولا سر ولا علن إلا والله مطلع عليه، خبير بحقيقة أمره.

قوله: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم} من، حرف جر زائد ويكون تامة، ونجوى فاعل يكون - والنجوى بمعنى السرار وهي مصدر، والنجو معناه السر بين اثنين - يقال نجوته نجوا، أي ساررته - وانتجى القوم وتناجوا أي تساروا، أو ناجى بعضهم بعضا ٧ وثلاثة، مجرور بالإضافة، أو مجرور على البدل، أي ما يكون من متناجيين ثلاثة ٨ - والمعنى: ما يقع من سرار ثلاثة أو مسارّة ثلاثة إلا كان الله رابعهم يسمع إسرارهم وما يتناجون به {ولا خمسة إلا هو سادسهم} فليس من خمسة يتناجون بينهم في السر إلا كان الله سادسهم. والعدد هنا غير مقصود - وإنما المراد التذكير بأن الله مع كل عدد من العباد قلّ العدد أو كثر - فالله يعلم ما يقولون أو يخفون أو يستسرون وهو قوله: {ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة} إن ذلكم خطاب كريم مؤثر، وكلمات ربانية بلغية نفّاذة تثير في الأذهان والقلوب دوام اليقظة والحذر، ليستيقن الإنسان أنه محوط بقدرة الله وسلطانه، وأنه ينفذ إلى أعماقه علم الله المحيط، فلا يخفى عليه من أخباره أو أسراره شيء - ويوم القيامة يخبرهم الله بما قدموه في الدنيا من عمل، خيرا أو شرا ليجدوا في مقابلة الجزاء - قوله {إن الله بكل شيء عليم} الله عليم بأخبار الكون كله ولا يغيب عن علمه شيء من أخبار العباد وما قدموه من عمل ٩.

٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٨)}.

ذكر عن ابن عباس قوله في سبب نزول الآية: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين يتغامزون بأعينهم

فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقراباتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم للنبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت.

وقيل: كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت ١٠.

قوله: {ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول} أي يتسارّون بينهم بالظلم والكذب ومخالفة الرسول، أو يتناجون بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول.

قوله: {وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله}، روي عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم - فقالت عائشة: وعليكم السام: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ياعائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش " فقالت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أو ما سمعت أقول وعليكم؟ " فأنزل الله قوله تعالى: {وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله} ١١، يعني إذا جاءك هؤلاء الماكرون الخبثاء من أهل الكتاب والمنافقين الذين نهوا عن النجوى، حيوك بغير التحية المشروعة المعروفة التي يحييك بها الله وهي السلام عليكم، بل كانوا يحيونه بقولهم له: السام عليك يا محمد، والسام معناه الموت - {ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول} يقول هؤلاء الذين يحيون النبي بهذه التحية الخبيثة من اليهود والمنافقين في أنفسهم: هلا عاقبنا الله بما نقول لمحمد فعجل لنا العقاب على ذلك، أو لو كان محمد نبيا لعذبنا الله جزاء قولنا له: السام عليك - وهم في الحقيقة موقنون في أنفسهم أن الأنبياء، يستغضبون فلا يجعل الله العذاب لمن يستغضبهم، إنما يعذبهم الله في الدنيا إن شاء، وهم في الآخرة حصب جهنم يصلونها مذمومين خزايا، وهو قوله: {حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} أي كافيهم جهنم يعذبون فيها يوم القيامة فبئس المرجع والمآب والمأوى.

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قوله: {ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول} يعني إذا تساررتم أيها المؤمنون المصدقون فلا تتساروا بالكذب والباطل والكيد والتمالؤ على فعل الشر والعدوان على المؤمنين والرسول، {وتناجوا بالبر والتقوى} أي تسارّوا بينكم بالخير والمعروف والصلاح والسداد، وبطاعة الله والخشية منه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

قوله: {واتقوا الله الذي إليه تحشرون} أي خافوا ربكم الذي ترجعون إليه لتلاقوا الحساب والجزاء، فاعملوا بأوامره وانتهوا عن معاصيه وزواجره.

١٠ - (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قوله: {إنما النجوى من الشيطان} يعني إنما تصدر المناجاة أو المسارة بين المنافقين عقب تسويل الشيطان لهم، فإنه لمن طبع الشيطان الخبيث أن يزين لأتباعه من الظالمين والمنافقين فعل المنكرات والمعاصي - وههنا يزين الشيطان اللعين للمنافقين أن يتناجوا بينهم بالشر والمكر والأذى {ليحزن الذين آمنوا}، كانت المناجاة أو المسارة بين المنافقين تغيظ المسلمين أو تثير في نفوسهم الخوف والقلق والريبة، إذ يتوهمون حصول المكاره لهم {وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله} أي أن التناجي بين المنافقين لا يضر المسلمين شيئا إلا أن يشاء الله، فما يقع للمرء من أمر ولا حدث ولا خطب في الخير أو السوء إلا مما قدره له الله.

قوله: {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} على المؤمنين في كل الأحوال أن يعتمدوا على ربهم فيعولوا عليه تعويلا، ويفوضوا أمرهم كله إليه فعليه الاعتماد والاستناد والتكلان ١٢.

وقد وردت السنة الكريمة بالنهي عن التناجي والمسارة إن علم المتناجون أن ذلك يحزن من كان بجانبهم من الناس، فيتأذون أو يرتابون ويتوهمون - فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه " وفي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا كان ثلاثة فلا يتناجى

اثنان دون الواحد " يتبين من ذلك النهي عن التناجي بين اثنين في حضرة ثالث، لما في ذلك من إحزان له أو إثارة للشك والقلق في نفسه - ويستوي في هذا النهي ما إذا كان المتناجون كثرة أو قلة، ثلاثة أو عشرة أو ألفا، فما ينبغي لهم أن يتناجوا في معزل عن واحد منهم وهو يراهم يتناجون ويتسارون، فيقع في قلبه الخوف والارتياب منهم.

١١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير}.

يأمر الله عباده المؤمنين بحسن الأدب في مجالس العلم والذكر، فما ينبغي أن تكون بينهم أثرة أو فظاظة في الأسلوب والتخاطب، وإنما يأمرهم ربهم بالتعاطف والتآلف والتواضع فيما بينهم، ليكونوا على الدوام إخوة مؤتلفين متحابين.

وفي سبب نزول هذه الآية قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقيل: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ في الصفة وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فأتى ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: " قم يا فلان فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهة في وجوههم فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ ١٣ فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم، وأحبهم القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وهو قوله: {ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم} تفسحوا، من الفسحة وهي السعة - وفسح له في المجلس أي وسع له، وتفسحوا في المجلس وتفاسحوا أي توسعوا ١٤.

والآية عامة في سائر المجالس التي يجتمع فيها المسلمون للخير والبر والصلاح سواء جلسوا للذكر أو العلم أو الحرب - فكل مسلم هو أحق بمكانه الذي سبق إليه، وفي الحديث: " من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به " ومع ذلك فإن على المسلم أن يفسح لأخيه في المجلس وهو أن يوسع له، ليمكنه الجلوس فيه من أجل الاستفادة وكسب الأجر، وفي النهي عن أن يقام المرء من مجلسه ليجلس فيه آخر، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ليجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا " وعلى هذا إذا قعد الرجل في موضع من المسجد فليس لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه، وفي ذلك روى مسلم عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول: " افسحوا ".

قوله: {يفسح الله لكم} أن يوسع الله منازلكم في الجنة، أو في قبوركم، أو يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة.

قوله: {وإذا قيل انشزوا فانشزوا} انشزوا، من النشز وهو المكان المرتفع من الأرض - ونشز الرجل، أي ارتفع في المكان، وإنشاز عظام الميت رفعها إلى مواضعها وتركيب بعضها على بعض، ونشزت المرأة، أي استعصت على بعلها وأبغضته ١٥.

والمعنى: إذا دعيتم إلى خير أو معروف أو إصلاح فأجيبوا، أو إذا قيل لكم: انهضوا إلى الصلاة أو إلى قتال العدو، أو قيل لكم: تفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوموا.

قوله: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات} وذلك تكريم من الله للعلم وأهله، فهم أولو درجات عالية في الآخرة ولهم

من الله في الدنيا حسن الثواب.
وإنما يكون التكريم والاعتبار للناس بحسب ما في قلوبهم من الإيمان والعقيدة والتقوى، وبما أوتوه من رصيد العلم في مختلف علوم الإسلام، وغير ذلك من العلوم الكونية التي لا مناص للمسلمين من تعلمها والاستفادة منها لتقووا بها على رد العدوان من المعتدين، ودفع الشر والكيد عن أنفسهم من الظالمين المتربصين.
ويستفاد من الآية أيضا أن المؤمن العالم خير من المؤمن غير العالم، وإن كان في كل منهما خير - وبذلك فإن العالم لذو شأن عظيم في ميزان الله، وكذلك العلماء المؤمنون فإنهم أولو كرامة ظاهرة ومميزة يفوقون بها غيرهم درجات، وفي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وعنه صلى الله عليه وسلم: " يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء ".
قوله: {والله بما تعملون خبير} الله خبير بأهل الإيمان والعلم والطاعة الذين يخشون ربهم ويخافون عقابه ويبتغون بعلمهم وجه ربهم ١٦.
١٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ١٢ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون}.
قال ابن عباس (رضي الله عنهما): نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها {أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات}، وقيل: نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئا وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الرخصة ١٧.
وذكر عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي {ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول} كان لي دينار فبعته وكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نفد، فنسخت بالآية الأخرى {أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات}.
قوله: {يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة} يأمر الله المؤمنين أنه إذا أراد أحدهم أن يناجي الرسول - أي يسارّه فيما بينه وبينه - أن يتصدق قبل المسارة بصدقة على المساكين والمحاويج {ذلك خير لكم وأطهر} فإن تقديمكم الصدقة لأهل الحاجة قبل المسارة أطهر لقلوبكم، فالصدقة طهرة للنفس من الذنوب ثم تكونون بعد ذلك أكفياء للوقوف في هذا المقام الكريم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قوله: {فإن لم تجدوا فإنّ الله غفور رحيم} يعني من عجز عن التصدق لفقره فما عليه بعد ذلك من بأس، وإنما يؤمر بالصدقة من له القدرة عليها.
١٣ - (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)
قوله: {أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات} الاستفهام للتقرير - يعني أخشيتم وشق عليكم أن تقدموا صدقات قبل مناجاتكم الرسول - والمراد أخشيتم الفقر والحاجة من هذا التقويم {فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم} فنسخ بذلك هذا الحكم وهو التصدق بين يدي المنجاة - وما كان ذلك إلا ليلة واحدة - وقيل: ساعة من نهار.

قوله: {فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله} يعني إذ لم تقدموا صدقات من قبل مناجاتكم الرسول ومن الله بالتوبة من تركم ذلك فأدوا ما عليكم من فرائض أوجبها الله عليكم وهي الصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله في أوامره ونواهيه {والله خبير بما تعملون} الله عليم بأمركم كله - فهو يعلم ما تفعلون وما تقولون وما تخفون في صدوركم من المقاصد والنوايا ١٨.

١٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ١٤ أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون ١٥ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ١٦ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ١٧ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ١٨ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون}.

ذلك تنديد بليغ بالمنافقين الذين يوالون الكافرين من أهل الكتاب، ويمالئونهم على المسلمين الذين يخفون لهم في قلوبهم الحقد والكراهية - أولئك هم المنافقون الموغلون في الخطيئة والرجس وفساد القلوب، أولئك الذين يأتون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وهم في الحقيقة ليسوا من أحد الفريقين وإنما يتلبّسون بهذه الصفة الخسيسة لفرط كراهيتهم للإسلام والمسلمين وبالغ حسدهم لهم - فقال سبحانه: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم} المراد بهم المنافقون فقد تولوا قوما غضب الله عليهم وهم اليهود، إذ كانوا يوالونهم ويمالئونهم على الإسلام والمسلمين، وهم في الحقيقة ليسوا من اليهود ولا من المسلمين، ولكنهم كانوا مذبذبين بين ذلك وكان من عادتهم أن يحملوا أخبار النبي والمسلمين إلى اليهود.

قوله: {ويحلفون على الكذب وهم يعلمون} يحلفون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لم يمالئوا عليه أحدا ولم يبتغوا له وللمسلمين الأذية، وهم موقنون في قرار أنفسهم أنهم كاذبون - وقد روي عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل حجرة وعنده نفر من المسلمين قد كان الظل يقلص عنهم، فقال لهم: " إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان وإذا أتاكم فلا تكلموه " فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه فقال: " علام تشتمني أنت وفلان وفلان " نفر دعا بأسمائهم - فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه فأنزل الله هذه الآية.

١٥ - (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {أعد الله لهم عذابا شديدا} أعد الله لهؤلاء المنافقين الخاسرين شديد العذاب، وهو الدرك الأسفل من النار لموالاتهم اليهود ونصحهم لهم، وخداعهم المسلمين وغشهم لهم، {إنهم ساء ما كانوا يعملون} بئس العمل الذي عملوه في الدنيا وهو النفاق.

١٦ - (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

قوله: {اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله} الجنة، بمعنى السترة ١٩ يعني اتخذ المنافقون من إظهارهم الإسلام وحلفهم الأيمان الكاذبة الفاجرة ستارا يستترون به لينجوا من القتل، وليصدوا الناس عن دين الله بما يثيرونه من الأراجيف والأكاذيب والظنون - وهم يبتغون بذلك منع الناس من دخول الإسلام وليفتنوا المسلمين عن دينهم ويثنوهم عن موالاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد اغتر بهم بعض المسلمين وافتتنوا بهم من كثرة ما أثاروه من الإشاعات الكاذبة المضللة لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرد المسلمين إلى جادة الحق بما يتنزل عليه من وحي من السماء.

قوله: {فلهم عذاب مهين} أعد الله لهم عذاب جهنم يوم القيامة حيث الهون والذل والنكال.

١٧ - (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

قوله: {لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا} لن تنفع هؤلاء المنافقين الكاذبين أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة، ولن تدفع عنهم يومئذ شيئا من العذاب أو النكال، وقد كانوا يفاخرون الناس في الدنيا بما أوتوه من الأموال والأولاد، {أولئك أصحاب النار هم

فيها خالدون}، هؤلاء المنافقون هم أهل النار فهم بذلك ما كثون فيها فلا يغادرون ولا يبرحون - ذلك بأنهم كانوا يخفون في أنفسهم الكفر ويعلنون أنهم مسلمون وهم كاذبون - لا جرم أنهم أشد نكرا من الكافرين.

١٨ - (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

قوله: {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم} يوم، منصوب على الظرفية أو بفعل مقدر، أي واذكر يوم يبعث الله هؤلاء المنافقين من قبورهم أحياء يوم القيامة ولم يغادر منهم أحدا - وهنالك عقب المساءلة والحساب، يحلفون لله كاذبين كما كانوا يحلفون للمسلمين في الدنيا وهم كاذبون، {ويحسبون أنهم على شيء} أي يظنون في أيمانهم الكاذبة أنهم على شيء من الحق، {ألا إنهم هم الكاذبون} وذلك تأكيد من الله على أن هؤلاء المنافقين كاذبون في أيمانهم التي يحلفونها في الدنياة والآخرة.

١٩ - (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله: {استحوذ عليهم الشيطان} استحوذ، أي غلب واستولى، يعني استولى عليهم الشيطان وذللهم لطاعته في كل ما يريده منهم من الإشراك والضلال والفسق وفساد القلوب، {فأنساهم ذكر الله} أغفلهم عن توحيده وطاعته فعصوا أمر ربهم وانحازوا لجانب الشيطان فكانوا أهله ورعيته وأتباعه وهو قوله:، {أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون} والحزب، معناه الطائفة من الناس، والجمع، أحزاب ٢٠ أي أن هؤلاء المنافقين الكاذبين هم أتباع الشيطان وهم جنوده ورهطه ألا إنهم صائرون إلى الخسران، إذ باعوا الدين بالدنيا وباعوا الحق بالباطل واستعاضوا عن الهداية بالضلال والباطل فكانوا هم الأخسرين ٢١.

٢٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ)

قوله تعالى: {إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلّين ٢٠ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ٢١ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون}.

يبين الله في ذلك أنه خصيم للكافرين الذين يحادون الله ورسوله وذلك بعصيانه ومخالفة أمره فيكونون في حد، ودين الله ومنهجه للعالمين في حد آخر، {أولئك في الأذلّين} يعني المرتكسين في الذل.

٢١ - (كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

قوله: {كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي} كتب الله، أي خط أو قضى في علمه القديم - وذلك إعلان رباني مجلجل يبين الله فيه أن الغلبة والنصر له ولعباده من الرسل والمؤمنين، فهم المنصورون في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد - إنهم منصورون في الحرب عند لقاء العدو، أو منصورون بقوة الحجة الظاهرة والبرهان الأبلج الساطع.

قوله: {إن الله قوي عزيز} الله ذو قوة بالغة لا تعرف القيود وهو المنتقم من الظالمين الخاسرين الذين يحادون الله ورسله بصريح المشاقة والتمرد والعصيان - وهو سبحانه عزيز، أي منيع الجناب لا يغلبه غالب.

٢٢ - (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الأخر يوادون من حاد الله ورسوله} يعني لا تجد قوما مؤمنين بالله مقرين بيوم القيامة يوادون الكافرين الذين يشاقون الله ورسوله ويصدون عن دين الحق ولو كان المحادون المشاقون آباء المؤمنين أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم - ما ينبغي للمؤمن الصادق الذي يخشى الله أن يوالي الكافرين والظالمين الذين يعادون الله ورسوله ويسعون في الأرض بالباطل فيصدون

الناس عن منهج الله ويفتنون المسلمين عن دينهم ليضلوهم ضلال - ما ينبغي لمسلم صادق العقيدة والإيمان أن يتّبع خصوم الإسلام على اختلاف مللهم وأديانهم فيمالئهم ضد المسلمين ولو كان هؤلاء المشاقون أقرب الأقربين للمسلم - إنما يوالي المسلم إخوانه في الدين والعقيدة - عقيدة الحق والتوحيد والفضيلة، عقيدة الإسلام.

ولئن كان هذا التنديد الشديد بالذين يوالون أعداء الله وهم أولو قرابة في النسب منهم، فكيف بمن يوالي أعداء الله الكافرين وهم عنه غرباء في النسب والأصل والجنس فضلا عن غرابة الدين، كمن يوالي الصليبيين من النصارى أو الصهيونيين من اليهود أو الوثنيين من المشركين وغيرهم من الملحدين، فيسارونهم مسارة ويوادونهم موادة ويمالئونهم على المسلمين، كأولئك الجواسيس الخائنين الذين يحملون للكافرين في الظلام أخبار المسلمين وأسرارهم، من أجل أجر ممتهن نجس، دراهم معدودة، أولئك نفر ممتهن مستقذر من سقط الأوباش، لا جرم أنهم قد خانوا الله ورسوله والمسلمين - فهم في الأذلين الأخسرين في الدنيا والآخرة.

قوله: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان} اسم الإشارة عائد إلى المؤمنين الذين يتصفون بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الأقربين إليهم كالآباء والأبناء والإخوان والعشيرة، فأولئك ممن أثبت الله في قلوبهم الإيمان وجعله مستقرا في صدورهم، فهم مؤمنون صادقون قد أخلصوا دينهم لله، {وأيّدهم بروح منه} أي قواهم ونصرهم بفيض رحمته ونوره، {ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} وهذا جزاؤهم في الآخرة، أن لهم جنات النعيم بظلها الناعم الوارف الظليل، ومائها العذب السائح الجاري، مقيمين فيها آبدين ماكثين لا يبرحون، {رضي الله عنهم ورضوا عنه} أي تقبّل الله منهم أعمالهم وسعدوا أكمل السعادة بما أعطوه في الآخرة من النعيم المقيم ٢٢.

قوله: {أولئك حزب الله} هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين لا يوادون غير المؤمنين، هم جند الله وأولياؤه وأنصاره، قوله: {ألا إن حزب الله هم المفلحون} هؤلاء المؤمنون الصادقون هم الفائزون السعداء المنصورون في الدنيا والآخرة - جعلنا الله منهم.

٥٩ سورة الحشر:

سورة الحشر:
بيان إجمالي للسورة:

هذه السورة مدينة وآياتها أربع وعشرون - وهي سورة بني النضير، وذلك لكبير المجال الذي احتله الحديث عنهم في السورة، على أن بني النضير فئة من اليهود أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى خارج المدينة، إذ ذهب بعضهم إلى خيبر، وذهب آخرون إلى أرض الشام وهي من أرض المحشر يوم القيامة - ولقد أخرجهم النبي صلى الله عليه وسلم بما نقضوه من المواثيق وخيانتهم للعهود.

وفي السورة بيان بالفيء من حيث معناه وحكمه وكيفية تقسيمه - وهو المال المأخوذ من المشركين من غير قتال، إذ ينتزع المسلمون منهم المال الفاضل عن حاجتهم عقب قتالهم والتغلب عليهم - وذلك لإضعافهم وثنيهم عن قتال المسلمين، ذلك أن الظالمين يتقوون بالمال على حرب الإسلام والمسلمين - فهم بالمال يستطيعون أن يملكوا وسائل الحرب والقتال من السلاح بمختلف أصنافه وغير ذلك من أسباب القتال ولوازمه لا جرم أن المال في أيدي المشركين الظالمين لهو وسيلة أساسية وكبرى تمكنهم من العدوان على المسلمين وإشاعة الشر والأذى والإرهاب والأراجيف في الأرض، فإذا انتزعت منهم هذه الوسيلة المؤثرة الخطيرة، قبعوا خاسئين خاضعين خانعين وقد سكنت فيهم بواعث الشر وأخرست فيهم ألسنة السوء من الدعاية الفاجرة الظالمة، والتحريض المدمّر الشرير ومن أجل ذلك كله شرع الإسلام انتزاع المال من أيديهم إلا ما كانوا يحتاجون إليه ليعيشوا في ظل الإسلام آمنين سالمين.

١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

بسم الله الراحمان الرحيم:

{سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ١ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول

الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار ٢ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ٣ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ٤ ما قطعتم من لّينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين}.

يبين للناس أن كل شيء في السماوات أو في الأرض يعظمه تعظيما ويمجّده تمجيدا، وهو مذعن له بالوحدانية والإلهية وأنه الرب القادر ذو الملكوت، {وهو العزيز الحكيم} العزيز يعني القوي القاهر المنتقم من الظالمين المتجبرين، وهو الحكيم في تدبير أمور خلقه، وهو قوله سبحانه: {سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم}.

٢ - (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ)

قوله: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر} قال المفسرون: نزلت هذه الآية في بني النضير - وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وظهر على المشركين قالت بني النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية - فلما غزا أحدا وهزم المسلمون نقضوا العهد وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صالحهم على الجلاء من المدينة.

وذكر محمد بن إسحاق في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في ديه ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما - وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم- فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه - فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، (رضي الله عنهم) فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة.

فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلا المدينة - فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة - يعني السلاح - ففعلوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل - فكان الرجل منهم يهدم بيته على نجاف ١ بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ٢.

قوله: {لأول الحشر} يعني أخرجهم عند أول الحشر فكان هذا أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام، فقد كانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط - وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام - قال ابن عباس: من شك في أن أرض المحشر ههنا الشام فليقرأ هذه الآية {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر} قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " اخرجوا " قالوا: إلى أين؟ قال: " إلى أرض المحشر " وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة، لأن المحشر يكون بالشام.

قوله: {ما ظننتم أن يخرجوا} ما ظن المسلمون أن تخرج يهود بهذه السهولة في هذه المدة القصيرة من محاربتهم وهي ستة أيام ومع تمكنهم في حصونهم المنيعة {وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله} ظنت يهود - واهمين - أن حصونهم القوية البنيان تمنعهم من أمر الله إن

نزل بهم بأسه - وقد كان المنافقون بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول يحرّضونهم على الثبات في وجه المسلمين وقد وعدوهم بالتأييد والمناصرة لكنهم سرعان ما تخلوا عنهم فلم يغنوا عنهم من بأس الله شيئا {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا} أي أتاهم من بأس الله وشديد بلائه ما لم يخطر لهم على بال {وقذف في قلوبهم الرعب} ألقى الله في قلوبهم الجزع والفزع وغشيهم من الترعيب والهلع ما غشيهم.

قوله: {يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين} كان المسلمون يهدمون ما يليهم من حصون يهود للدخول عليهم - وكان اليهود يخربونها من داخلها قبل رحيلهم عنها - فكان أحدهم ينظر إلى ما يستحسنه في بيته من الخشبة أو العمود أو الباب فينزعه - فاحتملوا من أموالهم وأمتعتهم ما أقلّته افبل فكانوا بذلك يهدمون بيوتهم عن نجاف أبوابها فيضعونها على ظهور الإبل ثم ينطلقون بها راحلين - وذلكم تخريبهم بيوتهم بأيديهم.

قوله: {فاعتبروا ياأولي الأبصار} يعني اتعظوا يا أهل العقول والنهى واعتبروا مما حل بهؤلاء الظالمين، إذ لم تغنهم حصونهم المنيعة شيئا من بأس الله لما نزل بهم - وقد هدموا بيوتهم فخربوها بأيديهم تخريبا - والله عز وعلا ولي عباده المتقين فهو ناصرهم ومؤيدهم ومخزي الظالمين.

٣ - (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

قوله: {ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا} لولا أن الله كتب على هؤلاء اليهود من بني النضير الجلاء وهو الانتقال أو إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى لعذبهم في الدنيا بالقتل، ولكن الله رفع عنهم العذاب بالقتل في الدنيا وجعل بدلا منه الجلاء، {ولهم في الأخرة عذاب النار} وذلك وعيد من الله لهم بأنهم صائرون إلى النار وبئس المستقر والنّزل.

٤ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله} الإشارة عائدة إلى ما حل بهم من قذف الرعب في قلوبهم وإخراجهم من أرضهم وتعذيبهم بالنار في الآخرة، فقد جعل الله ذلك جزاء لهم بسبب مشاقتهم لله ولرسوله بضلالهم وعصيانهم وفسقهم عن سبيل الحق، {ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب} يشاق بالتشديد أو يشاقق بالتخفيف - والمشاقة والشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ٣ أي من يعص الله ويخالف أمره ويعاد أولياءه المؤمنين، {فإن الله شديد العقاب} توعد الله الذين يخالفون أمره ويسلكون سبيل الضلال والباطل بأن لهم شديد العقاب في النار.

٥ - (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {ما قطعتم من لّينة أو تركتموها قائمة على أصولها} اللينة مفرد وجمعه اللين - وهو كل نوع من أنواع النخل سوى العجوة ٤ والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل حصون بني النضير عقب نقضهم العهد أمر بقطع نخيلهم وإحراقها - واختلفوا في عدد النخلات التي قطعت أو حرقت - فقيل: إن مجموع ما قطعه المسلمون من نخيلهم وأحرقوه ست نخلات - وقيل: قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة وقد أقرّهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك.

على أن المقصود من قطع النخيل لبني النضير، هو إضعافهم والتضييق عليهم من أجل الخروج - فأخبر الله بعد ذلك أن قطع النخل إنما كان بإذن الله أي بأمره وقدره - وقد كان ذلك ردا لمقالة يهود، إذ بعثوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله الآية {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين} أي أن قطعها لم يكن فسادا وإنما كان بأمر الله ليذل الخارجين عن طاعته وهم بنو النضير ٥.

٦ - (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله تعالى: {وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل

شيء قدير ٦ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب}.

يبين الله في هذه الآية حقيقة الفيء وحكمه، فهو المال المأخوذ من الكافرين من غير قتال كأموال بني النضير فإن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ولم يقاتلوهم عليها بالمبارزة أو اللقاء، بل خرج بنو النضير إلى الشام وخيبر بعد أن قذف الله في قلوبهم الرعب فتولوا تاركين وراءهم أموالهم - وبذلك لم يأخذها المسلمون بالحرب والقتال والشدة - فهذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها في وجوه الخير من مصالح المسلمين ويأخذ هو منها ما يكفيه وعياله قوت عامه - وهذا الضرب من المال المأخوذ، بخلاف الغنائم التي يستولي عليها المسلمون بالحرب والقتال.

٧ - (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

قوله: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل}، سأل المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم أموال بني النضير لهم فنزلت هذه الآية - فجعل النبي صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير لنفسه خاصة يضعها حيث شاء في مصالح المسلمين فقسمها (عليه الصلاة والسلام) بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين وهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصّمّة - ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان وهما: سفيان بن عمير وسعد بن وهب، فقد أسلما على أموالهما فأحرزاها.

وروى مسلم في صحيحه عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب وكانت للنبي خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله تعالى ويستدل من الآية أن الفيء هو المال الذي رده الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أو رجعه عليه من بني النضير وأمثالهم من غير إيجاف ولا قتال فحكمه أن يصرف في وجوهه التي بينتها الآية، فهي لله، وهو سبحانه مالك كل شيء، يحكم في ملكوته كما يشاء، ثم للرسول صلى الله عليه وسلم ينفق منه في قوت نفسه وعياله - ثم لذي القربى، وهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب، لأنهم قد منعوا من الصدقات فجعل لهم الحق في الفيء - ثم اليتامى وهم المحاويج من أطفال المسلمين - ثم المساكين وهم أهل الفاقة الذين لا يملكون شيئا - ثم ابن السبيل وهو المنقطع في بلاد الله من المسافرين في غير معصية لله سبحانه - وقيل: ثمة سهم لله سادس، يصرف في وجوه القرب كعمارة المساجد وبناء القناطر و الجسور وغير ذلك من مصالح المسلمين.

قوله: {كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم} يعني قسمنا هذا الفيء الذي أخذتموه من غير قتال لهذه الأصناف المبيّنة في الآية كيلا يكون هذا الفيء متداولا بين الأغنياء من الناس يستأثرون به لأنفسهم دون غيرهم من الفقراء والعالة والمحاويج.

ويستدل من ذلك: كراهة الحصر للأموال فتكون كثيرة مركومة لدى قلة قليلة من الناس دون الأكثرين الفقراء الذين يكابدون القلة والجوع والمسألة - وذلكم تشريع عظيم ومميز لسياسة المال في الإسلام، إذ يستطيع الحاكم بموجبه أن يصطنع من الأساليب في الاقتصاد وتوزيع الثروة ما يحول دون حصر المال والثراء لدى فئة قليلة في المجتمع - لا جرم أن نظام الإسلام في هذه المسألة وغيرها من المسائل، مغاير كليا للنظام الرأسمالي، الذي يقيم الحياة على الحرية المطلقة أو الانمياع في التصرف والسلوك والعلاقات الاجتماعية برمتها - وهو في تصوره للمال يعتمد النظام الربوي أسلوبا أساسيا للكسب وجمع الثروة.

قوله: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} وهذا بعمومه يوجب أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم فهو أمر من الله، وأن ما نهى عنه فهو نهي من الله كذلك - وعلى هذا مهما أمر به النبي فإنه يجب فعله، ومهما نهى عنه فإنه يجب اجتنابه - فلا يأمر النبي إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر - وهو (عليه السلام) مخوّل من ربه أن يبين للناس ما نزل إليهم من عند الله - فما يصدر عنه من شيء في ذلك إلا هو وحي أوحى الله به إليه، فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: " لعن الله الواشمات والمستوشمات

والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل " فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت - قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كتاب الله - فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته - فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} قالت: بلى - قال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه ".

قوله: {واتقوا الله إن الله شديد العقاب} أي خافوا الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه وزواجره، فإن عقابه شديد، وأخذه أليم وجيع لمن عصاه ونكل عن طاعته نخالف أمره ٦.

٨ - (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

قوله تعالى: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ٨ والذين تبوّءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتو ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ٩ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ١٠}.

ذلك ثناء من الله وإطراء للمهاجرين والأنصار - فالأولون تركوا الأهل والديار طلبا لمرضاة ربهم، والآخرون استقبلوهم في دارهم وأحسنوا استقبالهم فكانوا بعظيم تكريمهم لهم وبالغ إتحافهم إياهم، مثالا للكرم والتواضع والإيثار والمناصرة مما ليس له في تاريخ الأمم والشعوب نظير.

وههنا يقول الله عز وجل وعلا: ائتمروا بما أمركم به الله من صرف الفيء وجوهه المذكورة كيلا يكون متداولا بين الأغنياء منكم بل يكون للفقراء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم وعشيرتهم - وإنما خرجوا من ديارهم ابتغاء مرضاة الله وحبا في الله ورسوله واستنقاذا لأنفسهم من الشرك والفتنة وظلم الظالمين.

قوله: {أولئك هم الصادقون} أي الصادقون في أقوالهم وأفعالهم، ذلك أنهم التزموا عقيدة التوحيد قولا وإيمانا واتخذوا دين الله شرعة لهم ومنهاجا.

٩ - (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله: {والذين تبوّءو الدار والإيمان من قبلهم} التبوؤ معناه النزول - أي والذين سكنوا المدينة واتخذوها لهم منازل {والإيمان} منصوب بفعل مقدر - أي وقبلوا الإيمان ٧ وأخلصوا لله دينهم وإيمانهم - والمراد بهم الأنصار، فهم الذين استوطنوا المدينة من قبل أن يهاجر إليها المؤمنون من أهل مكة - ثم وصف الله هؤلاء الأنصار بصفات مميزة ثلاث على سبيل الإطراء لهم والثناء عليهم بما هم أهله من الصدق والبر والسخاء وبذل العون والمساعدة لإخوانهم المهاجرين فقال: {يحبون من هاجر إليهم} أي أن الأنصار يحبون الذين أتوهم مهاجرين من مكة وقد تركوا وراءهم المال والأهل والوطن - فهم يحبونهم حبا خالصا لوجه الله وذلكم هو الحب الكريم الذي يخالج قلوب المؤمنين الصادقين وهم يحب بعضهم بعضا في الله.

وقال: {ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا} يعني لا يجد الأنصار وهم الذين نزلوا المدينة من قبل المهاجرين شيئا من الحسد في قلوبهم مما أعطي المهاجرون من الفيء، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم الفيء بين المهاجرين دون غيرهم من الأنصار باستثناء اثنين أعطاهما لفقرهما، وقيل: باستثناء ثلاثة.

وقال: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} الخصاصة والخصاص بمعنى الفقر ٨، أي يقدمون الفقراء والمحاويج على حاجة

أنفسهم {ولو كان بهم خصاصة} يعني ولو كان بهم حاجة أو فاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم - وقد روى الترميذي عن أبي هريرة: أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته: نوّمي الصّبية وأطفئي السراج وقرّبي للضيف ما عندك فنزلت هذه الآية {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} - وروي عن أبي هريرة أيضا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع إلى رجل من الأنصار رجلا من أهل الصّفّة فذهب به الأنصاري إلى أهله فقال للمرأة: هل من شيء؟ قالت: لا، إلا قوت الصبية - قال: فنوّميهم، فإذا ناموا فأتيني فإذا وضعت فاطفيء السراج، ففعلت، وجعل الأنصاري يقدم إلى ضيفه ما بين يديه، ثم غدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " لقد عجب من فعالكما أهل السماء " ونزلت الآية ٩.

تلك هي شيمة الإيثار المرغوب التي تتجلى في خلق المؤمنين الأتقياء الصادقين الذين أخلصوا دينهم لله وحده فغشي قلوبهم من برد اليقين ما كانوا به أوفياء مخلصين أبرار - إن هذه الفضلية الكريمة، فضيلة الإيثار على النفس إنما تتجلى في خلق المسلمين الغيورين من الطيبين - أولئك الذين صنعهم الإسلام بعقيدته الراسخة السمحة، وتشريعه الوارف المبارك.

إن ذلكم هو الإسلام العظيم الذي يصنع الإنسان الصالح الرفّاف ويخلق الحياة الكريمة الطاهرة الفضلى.

قوله: {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} يوق، من الوقاية والشح، في اللغة بمعنى البخل من حرص ١٠ - على أن المراد بالشح ههنا في قول العلماء أنه أكل أموال الناس بغير حق - قال ابن مسعود: الشح أن تأكل مال أخيك ظلما أو بغير حقه - وقيل: معناه الظلم - وقيل: ترك الفرائض وانتهاك المحارم - والأظهر من الآية أن المراد بالشح: الضّنّ بالخير وعدم أدائه في وجوهه كالزكاة والصدقة وقرى الضيف وغير ذلك من وجوه الأداء والبذل فيما ينفع الناس أو يدفع عنهم الكروب والحوائج - وفي الخبر عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة ": وفي التنديد بالشح روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم " وروى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش، وإياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ".

قوله: {فأولئك هم المفلحون} وهم الذين تبرأوا من ذميمة الشح فغلبوا ما أمرتهم به أنفسهم وخالفوا هواهم بإذن الله وتوفيقه فأولئك هم الظافرون الفائزون.

١٠ - (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قوله: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} وهؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم التابعون للمهاجرين والأنصار بإحسان إلى يوم الدين، فهم المسلمون الذين يدخلون في الإسلام إلى يوم القيامة - وقد قيل: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوءوا الدار والإيمان أي الأنصار، ثم الذين جاءوا من بعدهم - وهؤلاء قد مدحهم الله بدعائهم لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان - وهو قوله: {يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} فهم يستغفرون لأنفسهم وللسابقين من المؤمنين - قال ابن عباس: أمر الله بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يعلم أنهم سيفتنون - وقالت عائشة (رضي الله عنها): أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فسببتموهم - سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: " لاتذهب هذه الأمة حتى يعلن آخرها أولها ".

وعلى هذا فإنه لا يسب الصحابة أو أحدهم إلا فاسق ضال أو كاذب مغرور، فإن من تقوى القلوب أن تذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وألا يذكر ما شجر بينهم على سبيل التجريح أو التنديد أو التشهير.

قوله: {ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا} يعني طهر قلوبنا من الحقد والحسد فلا تجعل فيها بغضا أو حسدا لأحد من المؤمنين {ربنا

إنك رؤوف رحيم} إنك يا ربنا شديد الرحمة بعبادك ترحم التائبين منهم والمستغفرين ١١.

١١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنهم لكاذبون ١١ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار ثم لا ينصرون ١٢ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ١٣ لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتّى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ١٤ كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ١٥ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ١٦ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاؤا الظالمين}.

يبين الله في ذلك حقيقة المنافقين الكاذبين الذين يكنون في صدورهم الغيظ والكراهية للإسلام والمسلمين فهم يحرّضون الكافرين من أهل الكتب على قتال الرسول والمسلمين، ويعدونهم بالنصرة والتأييد ويحلفون لهم أنهم لن يتخلوا عنهم إذا حوربوا، والله يشهد إنهم لكاذبون - أولئك هم المنافقون المذبذبون الذين يتدسّسون في الظلام ليكيدوا للإسلام والمسلمين كيدا - وهم في كل الأحوال مخذولون مفضوحون، فما يلبثون أن يظهروا وينكشفوا فيعلمهم الناس - فقال سبحانه: {ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب} يبين الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن المنافقين وفي طليعتهم عبد الله بن أبي ابن سلول - بعثوا ليهود بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتالهم - أن اثبتوا لقتال محمد والمسلمين فإنا مؤيدوكم وناصروكم ولن نتخلى عنكم - فلئن قاتلكم المسلمون قاتلنا معكم ولئن أخرجوكم فإنا خارجون معكم - فاغترّ اليهود بهذا القول من المنافقين وانتظروا منهم أن يعينوهم ويقاتلوا معهم لكنهم لم يجدوا منهم شيئا وقد قذف الله في قلوبهم الرعب فتولوا هاربين - وهو قوله: {لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا} يعني لا نطيع أحدا يسألنا أن نخذلكم ونتخلى عنكم، ولكننا معكم في التأييد والمناصرة، {وإن قوتلتم لننصرنكم} يعني إن قاتلكم محمد والمسلمون فلسوف نكون معكم لمناصرتكم وتأييدكم - {والله يشهد إنهم لكاذبون} الله جل جلاله يشهد أن هؤلاء المنافقين كاذبون فيما وعدوا به بني النضير من العون والنصر.

١٢ - (لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ)

قوله: {لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم} يعني: لئن أخرج بنو النضير من ديارهم فأجلاهم المسلمون عنها فإن المنافقين غير خارجين معهم - ولئن قاتلهم النبي والمسلمون فإن المنافقين لا يقاتلونهم فينصرون بني النضير - بل إنهم كاذبون فيما وعدوهم به من الخروج معهم والقتال في صفهم {ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار} أي لئن نصر المنافقون بني النضير فقاتلوا معهم فلسوف يولون الأدبار هاربين مهزومين {ثم لا ينصرون} أي لا ينصر الله بني النضير وإنما الله خادلهم وهازمهم - وقد حصل ذلك كله، إذ لم ينصرهم المنافقون ولم يقدموا لهم نفعا بل أسلموهم وخذلوهم وتخلوا عنهم فكان عاقبتهم الهزيمة والجلاء.

١٣ - (لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

قوله: {لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله} يعني لأنتم أيها المسلمون أعظم خشية وخوفا في قلوب بني النضير من الله - فهم لقلة يقينهم وهوان عقيدتهم وخور عزائمهم يخشونكم أنتم يا معشر المسلمين أكثر مما يخشون ربهم {ذلك بأنهم قوم لا يفقهون} وسبب ذلك أنهم لا يقدرون الله حق قدره ولا يجدون لله سلطانا ومهابة في قلوبهم وإنما هم يستخفون بعظمة الله وكبير شأنه وجلاله.

١٤ - (لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)

قوله: {لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة} يعني لا يقاتلكم اليهود مجتمعين إلا وهم متمكنون في حصونهم المنيعة التي يصعب اقتحامها أو اختراقها والسيطرة عليها إلا بسلطان من الله وعونه ومدده {أو من وراء جدر} يعني أو يقاتلونكم من خلف حواجز قوية مكينة، يستترون بها ليقاتلوكم من ورائها.

وفي قوله ههنا {جدر} بالتنكير لا التعريف ما يثير الانتباه ويلفت النظر.

فهؤلاء القوم لا يجرؤون على قتال المسلمين إلا من خلف جدر صلبة تقيهم الضربات من أمامهم - ولئن كانت الجدر الواقية فيما مضى تعني الحيطان الواقية، فهي في العصر الراهن صفائح سميكة ومتينة من الحديد الصلب الذي تتركب منه الحافلات والناقلات والدبابات - فما كان ليهود أن يجرؤوا على قتال المسلمين في معركة من المعارك إلا أن يحسبوا لذلك كل حساب ثم يقاتلون وهم محصنون في أجواف الدبابات المنيعة الصلبة، يستترون بجدرها الواقية القوية.

قوله: {بأسهم بينهم شديد} يعني عداوة بعضهم لبعض شديدة فهم فيما بينهم متدابرون وإنما يتناسبون مباغضاتهم فيما بينهم إذا دهمهم العدو لقتالهم أو حزبتهم الشدائد من الخارج.

قوله: {تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى} أي تحسب أن هؤلاء اليهود مؤتلفون متوادون فيما بينهم ولكنهم في الحقيقة، قلوبهم متنافرة متباغضة - فهم أولو أهواء كثيرة ومختلفة فتختلف بذلك قلوبهم - وهم لا يجتمعون إلا ليواجهوا المسلمين في قتال أو حرب وحينئذ يتعارفون ويتلاقون ثم تنقلب قلوبهم في أحوال السلم لتكون متفرقة شتى.

قوله: {ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} سبب ضلالهم وفسقهم وما بينهم من المباغضات وتفرق القلوب أنهم {قوم لا يعقلون} لا يعلمون أن الصواب في منهج الله الحق وفي سبيله المستقيم - وإنما يتبعون أهواءهم وما تحفزهم إليه شهواتهم ومصالحهم.

١٥ - (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قوله: {كمثل الذين من قبلهم قريبا} كمثل، جار ومجرور، في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: مثلهم كمثل الذين من قبلهم ١٢ - والمراد بالذين من قبلهم بنو قينقاع فقد أمكن الله منهم - وقيل: مشركو قريش، فقد أمكن الله منهم ببدر، أو غيرهم ممن أذاقهم الله العقاب بسبب كفرهم وعدوانهم على المسلمين - فالله فاعل ببني النضير ما فعله بمن قبلهم من الذين أهلكهم الله - فقد {ذاقوا وبال أمرهم} أي نكّل الله بهم جزاء كفرهم وعصيانهم {ولهم عذاب أليم} أعد الله لهم عذاب النار يصلونها يوم القيامة.

١٦ - (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

قوله: {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين} هذا مثل ضربه الله لليهود ومن وعدهم بالعون والنصرة من المنافقين - حتى إذا ألمت باليهود الصعاب والشدائد وأحاط بهم الحصار من كل جانب تركهم أعوانهم من المنافقين والمنتفعين والعملاء والأتباع، فتخلوا عنهم وأسلموهم لقدرهم القادم المحتوم وأدبروا عنهم إدبارا - وهم في ذلك كمثل الشيطان، إذ يسول للإنسان الشرك والباطل والعصيان وفعل المنكرات حتى إذا دخل هذا الإنسان المغرور فيما سوّله له الشيطان من الكفر والمعاصي تبرأ منه الشيطان وقال: {إني أخاف الله رب العالمين} يعني أخافه في عونك ونصرتك وتنجيتك مما وقعت فيه من الضلال والعصيان.

١٧ - (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

قوله: {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها} أي عقبى الشيطان والإنسان المغرور الذي أضله الله وأغواه فأطاعه وغوى أنهما ماكثان في النار أبدا {وذلك جزاؤا الظالمين} الإشارة عائدة إلى خلود الفريقين في النار جزاء كفرهم وإضلالهم - أو جزاء كفر أهل الكتاب وإضلال المنافقين وإغوائهم ١٣.

١٨ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ١٨ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ١٩ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون}.

يأمر الله عباده المؤمنين أن يخشوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه والعمل لما بعد الموت وهو قوله: {ولتنظر نفس ما قدمت لغد} والمراد بغد، يوم القيامة - وقد ذكرت القيامة بغد لشدة قربها ودنو أجلها - وهذه حقيقة لا ريب فيها، فإن الموت آت لا محالة - وإن كل ما هو آت آت - وما على الناس - وهم موقنون بهذه الحقيقة- إلا أن يتقوا ربهم بالتزام شرعه والإذعان لجلاله بالطاعة والامتثال وأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

قوله: {واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} كرر الأمر بالتقوى لعظيم أهميته وتأثيره ليبين لهم بعد ذلك أنه يعلم ما يفعلون أو يقولون وهو يعلم سرهم ونجواهم.

١٩ - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قوله: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم} نسوا الله أي تركوا حقه الذي أوجبه عليهم {فأنساهم أنفسهم} أي أنساهم حق أنفسهم، إذ لم يسعوا لها بما ينجيها أو يستنقذها من سوء المصير {أولئك هم الفاسقون} أي العاصون الخارجون عن طاعة الله ١٤.

٢٠ - (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

قوله: {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة} أصحاب النار كافرون فاسقون عصاة، وأصحاب الجنة مؤمنون، ولا يستوي الفريقان - أي لا يستوي هذا وهذا {أصحاب الجنة هم الفائزون} الناجون من النار، المكرمون بالجنة.

٢١ - (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢١ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ٢٢ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشكرون ٢٣ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}.

يبين الله علو قدر القرآن وعظيم شأنه وأنه ينبغي أن تتدبره العقول وتخشع منه القلوب - فهو الكلام الرباني المعجز بعجيب أسلوبه ونظمه، وجمال وصفه وتركيبه، وكمال مضمونه ومعناه، وحلاوة جرسه وإيقاعه ما يشده البال ويأخذ بالقلوب، ويملك الأسماع - فقال سبحانه: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله} خاشعا متصدعا، منصوبان على الحال، لأن (رأيت) ههنا من رؤية البصر ١٥ المعنى: لو أننا أنزلنا هذا القرآن - بجلال قدره وعظيم شأنه وسمو معناه على جبل ذي عقل وفهم لخشع هذا الجبل وتشقق بالرغم من كبير حجمه وصلابة صخره - وذلك مما يجده في القرآن من عجائب تثير في النفس الخشوع والرهبة والورع - لخليق بالإنسان ذي العقل والفهم أن يتفكر في هذا القرآن ليتدبر معانيه فيتعظ ويخشع.

قوله: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} المراد بالأمثال، تعريفه جل وعلا بأن الجبال شديدة التعظيم للقرآن وأنها لو أنزل عليها هذا الكتاب الحكيم لخشعت وتصدعت خوفا ورهبة من الله {لعلهم يتفكرون} أي ليتفكروا في مثل هذه الأمثال فينيبوا إلى الله مذعنين منقادين.

٢٢ - (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

قوله: {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة} الذي يخشع ويتصدع من خشيته الجبل هو الله المعبود الذي ليس من إله معبود سواه - وهو سبحانه الذي يعلم السر والعلن، ويعلم المستور والمشهود، {هو الرحمن الرحيم} الله رحيم بالخلق، عظيم الرحمة بعباده المؤمنين وهو سبحانه رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

٢٣ - (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

قوله: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر} هذه جملة من أسماء الله الحسنى - فهو الله الذي لا معبود سواه وهو، {الملك} أي المالك كل شيء ودونه الملوك والجبابرة، {القدوس} أي المبارك، الطاهر، {السلام} السالم من

كل النقائص والعيوب - أو الذي سلم الخلق من ظلمه، {المؤمن} الذي يؤمّن المؤمنين من العذاب ويؤمّن خلقه من الظلم، {المهيمن} الشهيد على عباده بأعمالهم أو الرقيب عليهم، {العزيز} أي القوي الذي لا يغلب {الجبار} أي ذو الجبروت والعظمة - أو الذي يجبر خلقه على ما يشاء {المتكبر} الذي لا تنبغي الكبرياء لأحد غيره {سبحان الله عما يشركون} ينزه الله نفسه عن شرك المشركين.

٢٤ - (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى} الخالق، من الخلق ومعناه التقدير ١٦ فالله الذي يقدر الأشياء على نحو ما يشاء - وهو سبحانه {البارئ} يعني المنشئ الموجد - وهو {المصور} من التصوير وهو التخطيط والتشكيل - فالمصور الذي يجعل صور الخلق على هيئات مختلفة، {له الأسماء الحسنى} وهي الأسماء التي سمى الله بها نفسه - وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعا وتسعين اسما، مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة - وهو وتر يحب الوتر ".

قوله: {يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} كل شيء في الوجود يسبح بحمد الله فينزهه عن النقائص والعيوب - وهو سبحانه {العزيز الحكيم} أي القوي الذي لا يغلب، والحكيم في أفعاله وأقواله وتدبير خلقه ١٧.

٦٠ سورة الممتحنة:

سورة الممتحنة:
بيان إجمالي للسورة:

هذه السورة مدنية وآياتها ثلاث عشرة آية - وسميت بالممتحنة بفتح الحاء - نسبة إلى النساء المؤمنات اللواتي يفارقن أزواجهن الكفرة فرارا بدينهم إلى دار الإسلام وقد أمر الله بامتحانهن للوقوف على حقيقة إيمانهم، فإن علم أنهن مؤمنات فلا مساغ بعد ذلك لإرجاعهن إلى الكفار.

والسورة مبدوءة بسبب نزولها وهي قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي حاول مصانعة قريش وملاطفتهم ليحفظوا له ماله وولده في مكة - فما ينبغي لمؤمن أن يصانع الكافرين أو يمالئهم من وراء إخوانه المؤمنين خوفا على خاصة نفسه، وحرصا على مصالحه - والله جل وعلا يحذر المؤمنين في كل زمان أن يلينوا للكافرين على حساب دينهم وعقيدتهم، ولئن كان ثمة مهادنات أو مصالحات مع الكافرين فإنما يكون ذلك على سبيل الإيقاف للقتال لمصلحة يجدها المسلمون في ذلك شريطة ألا يكون في ذلك أيّما مساس بعقيدتهم ودينهم، وفي السورة يوجب الله على المسلمين أن يبرّوا بالكافرين الموادعين الذين لا يؤذون المسلمين، أولئك لهم من المسلمين البر والإحسان والتكريم.

١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

بسم الله الرحمن الرحيم:

{ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ١ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ٢ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير}.

وسبب نزول هذه الآيات هي قصة حاطب بن أبي بلتعة، فقد كان حاطب رجلا من المهاجرين، وكان من أهل بدر، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان - ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعد أن نقض أهلها العهد مع المسلمين فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتجهزوا لغزوهم وقال: " اللهم عمّ عليهم خبرنا " فعمد حاطب فكتب

كتابا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوهم وليتخذ بذلك عندهم يدا فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم استجابة لدعائه فبعث في إثر المرأة فأخذ الكتاب منها.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي رافع أنه سمع عليا (رضي الله عنه) يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها " فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة - قلنا: أخرجي الكتاب - قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن: الكتاب أو لتلقين الثياب - فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا حاطب ما هذا؟ " قال: لا تعجل عليّ - إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه صدقكم " فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ١.

قوله: {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} ذلك نهي من الله للمؤمنين عن اتخاذهم أعداء الله من الكافرين {أولياء} يعني أصدقاء وأخلاء {تلقون إليهم بالمودة} الجملة الفعلية في موضع نصب على الحال والباء زائدة ٢ - أي توصلون إليهم المودة - أو سببية - فيكون المعنى: توصلون إليهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسرار المسلمين بسبب المودة التي بينكم وبينهم.

قوله: {وقد كفروا بما جاءكم من الحق} الجملة في موضع نصب على الحال - أي تصانعونهم بالمودة وهم كافرون بدينكم ونبيكم وبما جاءكم من عند الله من الحق وفي ذلك من التوبيخ ما لا يخفى - وهم كذلك {يخرجون الرسول وإياكم} وذلك بيان لكفر قريش وعداوتهم لله ولرسوله وللمسلمين {أن تؤمنوا بالله ربكم} وذلك بيان لسبب إخراجهم، وهو إيمانهم بالله وحده لا شريك له.

قوله: {إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي} أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله، وتبتغون مرضاة ربكم فلا تصانعوا المشركين أو توالوهم أو تلقوا إليهم بالمودة.

قوله: {تسرّون إليهم بالمودة} جملة استئنافية - أي توادونهم وتصانعونهم وتخبرونهم بأسرار المسلمين {وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم} يعني أنا عالم بأسراركم وضمائركم، مطلع على ما تكنّه صدوركم، خبير بظواهركم وما تفعلون.

قوله: {ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل} يعني من يتخذ أعداء الله أولياء وأخلاء ثم يصانعهم ويسارّهم من وراء المسلمين وفي غيابهم فقد ضل سبيل الحق وأخطأ الطريق المستقيم.

٢ - (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

قوله: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء} يثقفوكم، من الثقف، وهو الإدراك والظفر ٣، يعني إن يظفر بكم المشركون أعداء الله أو يتمكنوا منكم بالتسلط عليكم، {يكونوا لكم أعداء} تظهر عداوتهم لكم فيبادروكم العدوان والأذى والشر والفتنة ولا يكونوا لكم أولياء كما تظنون واهمين، {ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء} المراد ببسط أيديهم إليكم: ضربكم وقتالكم، فهم إن يظفروا بكم يقاتلوكم بأيديهم، ويؤذوكم بألسنتهم بالشتم والتشويه والإرجاف وإشاعة الظنون والأكاذيب والفتن لصدكم عن دينكم، وإرجاعكم من بعد إيمانكم كافرين وهو قوله: {وودّوا لو تكفرون} إذ يحرص الكافرون على كفركم وردكم إلى الباطل فتنقلبوا كافرين فتكونوا وإياهم في الكفر سواء.

٣ - (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

قوله: {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم} يبين الله للمؤمنين أنهم لن تنفعهم قراباتهم ولا أولادهم ولن يغنيهم هؤلاء من الله شيئا، إن

هم - يعني المؤمنين- ضلوا سواء السبيل فوالوا الكافرين وصانعوهم وألقوا إليهم بالمودة.
قوله: {يوم القيامة يفصل بينكم} هذه الجملة مستأنفة - ويوم منصوب على أنه ظرف - يعني يوم القيامة يفرق الله بين عباده - ففريق المؤمنين يصار بهم إلى الجنة، وفريق المشركين والعصاة يصار بهم إلى النار {والله بما تعملون بصير} الله عليم بأعمالكم ولا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ٤.

٤ - (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ٤ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ٥ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد}.

يحذر الله المؤمنين من موادعة الكافرين وموادتهم أو الإسرار إليهم بأخبار إخوانهم خشية على أقاربهم وأموالهم ومصالحهم - فليس على المؤمنين المتّقين الذين أخلصوا دينهم لله إلا أن يجافوا أعداء الله فلا يوادوهم ولا يصانعوهم - وإنما عليهم أن يقتدوا بخليل الله إبراهيم (عليه السلام) والذين آمنوا معه، إذ تبرأوا من قومهم الكافرين - وإنما يتبرأ المؤمن الصادق من الكفر والكافرين فيتخلص بقلبه وإحساسه ومشاعره وهواه من أحوالهم وأوضاعهم وأهوائهم وتصوراتهم - فلا يوالي حينئذ غير الؤمنين وهم إخوانه في الدين والعقيدة.
وهو قوله سبحانه: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه} يعني لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في خليل الله إبراهيم فتقتدون به وبالذين آمنوا معه {إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله} قالوا لقومهم الكافرين عبدة الأوثان والطواغيت: لقد تبرأنا منكم ومن عبادتكم الباطلة - ومما تعبدون من الأرباب المصطنعة {كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا} أي أنكرنا ما أنتم عليه من الشرك والباطل وجحدنا كفركم وضلالكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا بسبب كفركم وجحودكم ومجانبتكم سبيل ربكم وتلبسكم بالضلال والباطل، فنحن أبرياء منكم ومما تعبدون {حتى تؤمنوا بالله وحده} لا موادة بيننا وبينكم حتى تفيئوا إلى عقيدة الحق، عقيدة التوحيد الخالص لله، وعبادته وحده دون غيره من الشركاء والأنداد.
قوله: {إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك} قول، منصوب، لأنه مستثنى من قوله: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم} ٥ يعني كانت لكم في إبراهيم، والذين معه من المؤمنين قدوة حسنة في مجانبة قومهم الكافرين ومعاداتهم وعدم موالاتهم باستثناء قول إبراهيم لأبيه {لأستغفرن لك} فإنه لا أسوة لكم في مثل هذا الاستغفار فتستغفروا للمشركين، لأن استغفار إبراهيم إنما كان عن موعدة وعدها إياه ثم ما لبث أن تبرأ منه لما استبان له أن أباه عدو لله بكفره - وعلى هذا ليس للمسلمين أن يتأسوا بإبراهيم في الاستغفار لأبيه المشرك.
قوله: {وما أملك لك من الله من شيء} يعني وما أغني عنك من الله شيئا أو ما أدفع عنك شيئا من عذاب الله إن أراد الله أن يعذبك.
قوله: {ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير} وهذا من دعاء إبراهيم وتضرعه وإنابته إلى ربه، إذ قال: {ربنا عليك توكلنا} أي اعتمدنا عليك وفوضنا كل أمورنا إليه {وإليك أنبنا} من الإنابة أي الرجوع - يعني رجعنا إلى جنابك طائعين تائبين منقادين {وإليك المصير} إليك المآب والمرجع يوم القيامة.

٥ - (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا} يعني لا تسلطهم علينا فيفتنونا وهو قول ابن عباس - وقيل: لا تظهر الكافرين علينا فيظنوا بذلك أنهم على حق وأنا على باطل {واغفر لنا} أي واستر علينا بعفوك ورحمتك ذنوبنا وسيئاتنا، {إنك انت العزيز الحكيم} إنك أنت القوي

القاهر المنتقم ذو البطش الشديد وأنت الحكيم في تدبير أمور خلقك لما فيه خيرهم وصلاحهم.

٦ - (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

قوله: {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة} كرر ذلك ذلك للتوكيد - أي لقد كان لكم قدوة حسنة في إبراهيم والذين آمنوا معه - وذلك لمن كان يرجو لقاء الله ويرجو النجاة من حسابه وعذابه يوم القيامة وذلك تهييج للمؤمنين كي يتأسوا بخليل الله إبراهيم في مباينته المشركين وفي تركهم وعدم موالاتهم أو موادعتهم.

قوله: {ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} يعني من يعرض عن الإسلام ولم يقبل النصيحة والموعظة فوالى أعداء الله وصانعهم وألقى إليهم المودة فإن الله غني عنه وعن إيمانه وطاعته - وما يعبأ الله بالخلق لو كفروا كلهم - والله عز وعلا {الحميد} أي المحمود في ذاته وصفاته وآلائه ٦.

٧ - (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ٧ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ٨ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون}.

بعد إعراض المسلمين عن الكافرين وتركهم موادتهم واجتناب مصانعتهم وملاينتهم بين الله لهم أنه عسى أن يجعل بينهم وبين هؤلاء الذين عادوهم من المشركين مودة وألفة، ففعل الله بهم ذلك، إذ أسلم كثير من مشركي قريش فصاروا لهم إخوانا وأولياء وأعوانا.

قوله: {والله قدير} الله مقتدر أن يقرب بين المتاعدين فيشد قلوبهم بعضها إلى بعض بعد تنافر وتباغض - إنه سبحانه قادر أن يؤلف بين القلوب بعد ما غشيها من الضغينة والجفوة ما غشيها - وفي الحديث " أحبب حبيبك هونا ما، فعسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما، فعسى أن يكون حبيبك يوما ما " وقال الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما - - - يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

قوله: {والله غفور رحيم} الله يغفر الذنوب لمن تاب من المشركين فآمن وأناب إلى ربه مؤمنا طائعا مستقيما - وهو سبحانه رحيم بعباده المؤمنين فلا يعذبهم بعد متابهم.

٨ - (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

قوله: {لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين} هذه رخصة من الله للمسلمين بموادعة الذين لم يقاتلوهم من الكافرين ولم يخرجوهم من ديارهم، {ولم يظاهروا} أي لم يساعدوا على إخراجهم، والمراد بهم الضّعفة من نساء الكافرين وصبيانهم وغيرهم من الضعفة الذين لا يملكون حيلة ولا يقدرون على إيذاء المسلمين لضعفهم وعجزهم وانشغالهم في خاصة أنفسهم، فى ينهى الله عن مبرّة هؤلاء ليحسنوا إليهم وليعاملوهم بالرفق واللين والرحمة وأن يقسطوا إليهم، وهو أن يعاملوهم بالعدل والوفاء، {إن الله يحب المقسطين} الله يحب الذين يعدلون فلا يجورون أو يميلون، وذلك تهييج للمؤمنين ليعدلوا ويستقيموا في أقوالهم وأفعالهم.

٩ - (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قوله: {إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم} يعني ينهاكم ربكم أيها المؤمنون عن موالاة الكافرين الذين أخرجوكم من دياركم وساعدوا على إخراجكم، أولئك ينهاكم الله أن تكونوا لهم أولياء وأخلاء وأعوانا، وما ينبغي لمسلم أن يوالي المشركين الظالمين الذين تمالئوا على قتال المسلمين وعلى إخراجهم من أوطانهم أو عانوا على إخراجهم وتشريدهم - وما ينبغي لمسلم فيه بقية من إيمان أو مروءة أن يوالي الكافرين الظالمين المعتدين فيناصرهم ويسارّهم ويمالئهم على أهله وإخوانه من المسلمين،

{ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون} ومن يتخذهم لنفسه أولياء وأخلاء فيوادّهم ويناصرهم ويمالئهم على المسلمين فإنه ظالم لنفسه بمخالفة أمر الله وخروجه من زمرة المؤمنين ليكون في صف الكافرين من أعداء الله ٧.

١٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وسئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ١٠ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون}.

قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآيات: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم - وكتبوا بذلك الكتاب وختموه فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فأقبل زوجها وكان كافرا فقال: يا محمد ردّ عليّ امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل: كان مما اشترط سهيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل، يومئ إلى أن الشرط في رد النساء نسخ بذلك ٨.

قوله: {يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن} قال ابن عباس في كيفية امتحانهن: أن تستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا التماس دنيا ولا عشقا لرجل منا بل حبا لله ولرسوله، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها.

وقيل: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وقيل: امتحنوهن، يعني سلوهن ما جاء بهن، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن - قوله: {الله أعلم بإيمانهن} الله أعلم بما في قلوبهن، فهو عليم بالسرائر، عليم بإيمان من جاء من النساء مهاجرات إليكم.

قوله: {فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار} يعني إن علمتم بعد الامتحان أنهن مؤمنات بإقرارهن بالإيمان والدخول في الإسلام فلا تردوهن عند ذلك إلى الكفار، {لا هن حل لهم وهم يحلون لهن} يعني لا المؤمنات حل للكفار ولا الكفار يحلون للمؤمنات - وقيل: إن هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزا في ابتداء الإسلام زواج المشرك من المؤمنة - على أن السبب في فرقة المسلمة من زوجها الكافر هو إسلامها لا هجرتها - وقيل: السبب اختلاف الدارين - والصحيح الأول فإن المراعى في صحة الزواج من المرأة المسلمة كون الناكح لها مسلما فما يصح بحال أن ينكح الكافر المسلمة، ولا اعتبار للدار في ذلك - قوله: {وآتوهم ما أنفقوا} يعني أعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات، وقد امتحنتموهن فعلمتم إيمانهن، {ما أنفقوا} أي في نكاحهن من الصداق - وذلك من باب الوفاء بالعهد - فلئن منع الكافر من أهله من أجل حرمة الإسلام فما ينبغي أن يحرم من ماله.

قوله: {ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن} يعني لا حرج عليكم أن تنكحوا هؤلاء المهاجرات اللواتي أتين من دار الحرب مفارقات لأزواجهن إذ أعطيتموهن مهورهن - فتزوجهن بذلك إن أردتم - وذلك بشرطه من انقضاء العدة والولي.

قوله: {ولا تمسكوا بعصم الكوافر} العصم، جمع ومفرده العصمة وهي ما يعتصم به من عقد وسبب - والمراد بها هنا النكاح - والكوافر جمع كافرة - يعني: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعبأ بها فليس هذه له زوجة فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدين - وهذا

نهي من الله للمؤمنين عن نكاح المشركات من أهل الأوثان - وهو أمر لهم بفراق الزوجات المشركات - وقد طلق عمر امرأتين كانتا له بالشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان وتزوج الأخرى صفوان بن أمية.
قوله: }وسئلوا ما أنفقتم{ أي طالبوا أيها المؤمنون بما أنفقتم على أزواجكم اللواتي ذهبن إلى الكفار لحاقا بهم في دار الكفر، }وليسألوا ما أنفقوا{ أي وليطالب المشركون بما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي هاجرن إلى دار الإسلام مفارقات أزواجهن المشركين.
قوله: }ذلكم حكم الله يحكم بينكم{ الإشارة، عائدة إلى إرجاع المهور من الجهتين - فإن ذلكم الحكم العدل الذي حكم الله به بينكم وهو
قوله: }يحكم بينكم والله عليم حكيم{ الله عليم بما ينفعكم وما فيه خيركم وما تصلحون عليه من الأحكام - وهو سبحانه حكيم في تدبيره وتقديره، وتصرفه في شؤون خلقه.
١١ - (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)
قوله: }وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا{ يعني إن ذهبت امرأة من أزواج المسلمين إلى المشركين مفارقة زوجها المسلم، رد المسلمون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليه من الغنيمة التي يغنمها المسلمون من الكافرين - وهو قوله: }فعاقبتم{ أي أصبتم من الغنيمة من المشركين }فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا{ يعني أعطوهم مهور أمثالهن.
قال ابن عباس في ذلك: إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة وليس بينكم وبينهم عهد ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فأعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمّس - وعنه أيضا: أنهن ست نسوة رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة.
قوله: }واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون{ أي خافوا الله الذي أنتم به مصدقون فأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه ٩.
١٢ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
قوله تعالى: }ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم{.
روى البخاري عن عروة أن عائشة (رضي الله عنها) أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية - قالت عائشة: فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قد بايعتك " كلاما - ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط - ما يبايعهن إلا بقوله: " قد بايعتك على ذلك " - وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئا - الآية - وقال: " فيما استطعتن وأطقتن: قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا - قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: " إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة " وعلى هذا جاءت المؤمنات لمبايعة الرسول على أن لا يشركن بالله شيئا وأن لا يسرقن ولا يزنين، }ولا يقتلن أولادهن{ أي لا يئدن الموءودات ولا يسقطن الأجنة }ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن{ أي لا يلحقن برجالهن أولادا من غيرهم - فما بين يديها ورجليها كناية عن الولد - فإلحاق ولد الزنا بالزوج، بهتان مفترى وهو أساسه الزنا.
قوله: }ولايعصينك في معروف{ أي لا يعصينك فيما أمرتهن به من معروف وما نهيتهن عنه من منكر - وقيل: المراد به النياحة - والصواب أنه عام في جميع ما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم وينهى عنه ويدخل فيه النوح وغيره مما حرم فعله - قوله: }فبايعهن واستغفر لهن الله{ ذلك جواب الشرط يعني إذا بايعنك على ما ذكر فبايعهن واطلب لهن من الله المغفرة }إن الله غفور رحيم{ الله بليغ المغفرة والرحمة بالعباد ١٠.
١٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

قوله تعالى: {يأأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الأخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور}.
نهى الله عباده المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم من اليهود - وقيل: إن أناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك - فليس لمسلم بعد ذلك أن يصانع الكافرين على اختلاف مللهم وأديانهم أو يوادهم ويلاطفهم وهم يظهرون العداوة والكراهية للإسلام، ويعلنون على المسلمين الحرب والمناهضة لإضعافهم وإذلالهم.
قوله: {قد يئسوا من الأخرة} يئس هؤلاء الكفار أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم وجحدهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه عندهم في التوراة - قوله: {كما يئس الكفار من أصحاب القبور} في تأويل ذلك قولان.
أحدهما: كما يئس الأحياء الكافرون من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد أن ماتوا، لأنهم ينكرون البعث ويكذبون بيوم التلاق.
ثانيهما: كما يئس الكفار الذين في القبور من كل خير أو منجاة - لأن الكافرين إذ ماتوا وأيقنوا أنهم خاسرون وعاينوا منازلهم في النار حينئذ يبلسون وييأسون من كل خير ١١.

٦١ سورة الصف:

سورة الصف:
بيان إجمالي للسورة:
هذه السورة مدنية وآياتها أربع عشرة آية - وهي مبدوءة بالإيذان من الله بأن كل شيء في الوجود مسبح لله فهو مقدّسه ومنزّهه عن كل نقيصة أو عيب.
وفي السورة ينهى الله عن القول الذي لا يتبعه فعل - أو الوعد الذي لا يعقبه وفاء - ثم يندد الله تنديدا شديدا بالذين يتحدثون عن الخير أو المعروف ولا يأتونه أو يأتون خلافه من المعاصي.
وفي السورة تأنيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يبين الله له ما لقيه موسى كليمه من أذى قومه وسوء فعالهم وكذلك ما لقيه عيسى ابن مريم من المكاره والأذى وسوء القول فتحمل واصطبر ولم يتزعزع.
ثم يبين الله لعباده أفضل تجارة فيها التنجية والاستنقاذ من سوء العذاب، وهي الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالمال والنفس.
١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
بسم الله الرحمن الرحيم:
{سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ١ يأأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ٢ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ٣ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص}.
كل شيء في هذا الكون ذاكر لله بتسبيحه وتنزيهه والإذعان له بالإلهية والربوبية، {وهو العزيز الحكيم} الله القوي الغالب الذي لا يغالب - وهو سبحانه الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبيره أمور خلقه.
٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)
قوله: {يأأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون} استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ - إذ ينكر الله أن يقول المرء من الخير أو المعروف مالا يفعله - فإن كان قد قاله عن الماضي فهو كذب - وإن كان قاله عن المستقبل ولم يأته فهو خلف وكلاهما مذموم - وقد كان المسلمون - قبل نزول هذه الآية - يقولون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا} فابتلوا يوما بذلك فولوا مدبرين فأنزل الله تعالى: {لم تقولون ما لا تفعلون} - ٠١.
٣ - (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)

قوله: {كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} مقتا، منصوب على أنه تمييز، وتقديره كبر المقت مقتا ٢ والمقت معناه البغض - أي عظم بغضا عند الله {أن تقولوا ما لا تفعلون} وهو المخصوص بالذم - وذلك تأكيد للإنكار على القول أو الوعد الذي لا يعقبه عمل أو وفاء - وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أوتمن خان "، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعال أعطك - فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وما أردت أن تعطيه؟ " قالت: تمرا - فقال: " أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة " وقد ذهب الإمام مالك إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به - كما لو قال لغيره: تزوج ولك علي كل يوم كذا فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي - فالوعد يجب الوفاء به إلا لعذر.

٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

قوله: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} صفا منصوص على المصدر في موضع الحال - وكأنهم بنيان مرصوص، في موضع نصب على الحال - أي يقاتلون مشبهين بنيانا مرصوصا ٣، وذلك إطراء من الله للمؤمنين المجاهدين الذين يقاتلون أعداء الله مصطفين متراصين وهم في تراصهم وتكاتفهم وتماسكهم كأنهم حيطان مبنية قد رص بعضها إلى بعض - وذلك كناية عن بالغ التآخي والتعاون وتآلف القلوب في ساحات القتال - فلا يتخلل المؤمنين المجاهدين في هذه الساعات شيء من الوهن أو الاختلاف أو الاضطراب أو خور العزائم ٤.

٥ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

قوله تعالى: {وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ٥ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين}.

يعني واذكر يا محمد قول موسى بن عمران لقومه بني إسرائيل: لم تفضون إلي بالأذى وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من النبوة والرسالة - وفي هذا تأنيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من المشركين من قومه، وتخضيض له على الصبر.

قوله: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} أي لما مالوا عن الحق أو عن سبيل الله المستقيم فجنحوا للشرك والضلال والباطل، وهم يعلمون صدق نبيهم موسى {أزاغ الله قلوبهم} أي أمالها عن الهداية والحق وأثار فيها الشك والخذلان.

قوله: {والله لا يهدي القوم الفاسقين} أي لا يجعل الله الهداية والسداد والتوفيق للخارجين عن طاعة ربهم، الذين يختارون الكفر على الإيمان.

٦ - (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قوله: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم} يعني واذكر قول عيسى ابن مريم لبني إسرائيل: إني مرسل إليكم من ربي أبلغكم دين الحق وأنهاكم عن الشرك والباطل وأتلو عليكم الإنجيل، {مصدقا لما بين يديّ من التوراة} أي جئت مصدقا لكتاب الله التوراة الذي أنزله الله من قبلي على رسوله موسى، {ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} أي وأحمل لكم البشرى بالنبي العربي الأمي من بعدي واسمه أحمد - فقد كان عيسى (عليه الصلاة والسلام) خاتم النبيين من بني إسرائيل - وقد قام في بني إسرائيل مبشرا برسول الله محمد، وهو أحمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين والمرسلين - وأحمد اسم تفضيل ومعناه أحمد الحامدين لرب العالمين وأكثر النبيين والمرسلين حمدا لله.

ونبوته صلى الله عليه وسلم حقيقة لا شك فيها - إنها حقيقة ساطعة بلجة استيقنتها قلوب أهل الكتّاب أنفسهم فما يجحدها الجاحدون منهم إلا استكبارا وحسدا ونفورا من الحق واليقين ورغبة في الضلال والشر، وإذعانا للهوى الذي يركب النفس المريضة.

قوله: {فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} لما جاء أحمد صلى الله عليه وسلم قومه بالدلالات الظاهرة والحجج الباهرة بادروه التكذيب وقالوا: إن ما جاءهم به إن هو إلا سحر ظاهر - ذلك قولهم بألسنتهم التي تصطنع الكذب والجحود اصطناعا، وهم موقنون أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ويقين، ليس بالعبث ولا باللغو أو الهزل - فهم لا يكذبون إلا عتوّا ومكابرة وظلما ٥.

٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قوله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ٧ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ٨ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}.

ذلك نكير شديد من الله على أعدائه الظالمين الذين يريدون للإسلام أن يتبدد ويتداعى، ويعلمون في كل الأحايين لإطفاء نور الإسلام كيما تغيب شمسه وينقشع ضياؤه عن وجه الأرض فما يبقى بعد ذلك إلا الظلم والظلام، والشر والباطل والعدوان - فقال سبحانه: {ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام} يعني ليس من أحد أشد نكاوة وظلما وتلبسا بالباطل ممن اختلق الكذب على الله فأشرك به سبحانه واتخذ معه الآلهة والأنداد، أو طعنوا في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنه ساحر، أو إن ما جاءهم به كهانة أو شعر {وهو يدعى إلى الإسلام} أي يفتري الكذب على الله وهو يدعى إلى دين الحق والتوحيد، دين الإسلام.

قوله: {والله لا يهدي القوم الظالمين} لا يجعل الله الهداية والتوفيق للذين يجنحون للشر والباطل ويختارون الشرك والجحود على الإيمان بالله وحده.

٨ - (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

قوله: {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم} ذلك تهكم بالكافرين السفهاء في إرادتهم القضاء على الإسلام بافتراءاتهم وأكاذيبهم عليه وبإثارة الظنون والأقاويل والأباطيل من حوله - وقد شبّه حالهم من الكيد للإسلام لإذهابه واستئصاله من الأرض بمن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه - فما يستطيع النافخ بفيه أن يطفئ ضياء الشمس المشرق المشعشع الذي يملك بسطوعه وشديد إشراقه آفاق الدنيا.

على أن المراد بنور الله، القرآن أو الإسلام أو نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، أو آيات الله من الدلائل والحجج الظاهرة - والأظهر أن يكون المراد بنور قرآنه الحكيم وما يصدر عنه من دين عظيم شامل وهو الإسلام بعقيدته الراسخة السمحة، ونظامه الوارف الشاسع الذي جاء متضمنا لكل معاني الخير والرحمة والعدل والبر والفضيلة وفيه من أسباب العلاج والهداية والتوفيق ما تهتدي به البشرية على مرّ الزمن، لتكون آمنة سالمة راضية مطمئنة - وذلكم هو نور الله الذي يريد الظالمون الخاسرون من دعاة الشر والرذيلة والباطل أن يطفئوه بأفواههم لتتبدد حقيقته ومعالمه، وتمحي عينه وظواهره وآثاره، وتتكسر شوكته أيما انكسار، وذلك بمختلف الأساليب من التشويه والتشكيك والافتراء والأراجيف وغير ذلك من أسباب القمع والتنكيل والتقتيل للمسلمين.

قوله: {والله متمّ نوره ولو كره الكافرون} الله مظهر دينه الإسلام - دين الحق والعدل والتوحيد - مظهره في العالمين ليشرق ضياؤه في الآفاق وليشعشع نوره الساطع يملأ الدنيا - وذلكم وعد من الله غير مكذوب ولن يخلف الله وعده، فلقد ملأ الإسلام الأرض والآفاق وشاعت معانيه وأحكامه وكلماته حتى عمت سائر أنحاء العالم - وإذا ما انتكس المسلمون في كثير من الأحوال والمراحل نخبا بانتكاسهم نور الإسلام، فإن هذا الدين العظيم ما يلبث – بخصائصه المميزة الكبرى- أن يعلو ويشيع ويستطير ليتجدد فيه الظهور والاستعلاء والشموخ من جديد فيعم الدنيا بنوره وعدله وفضله - وذلك بالرغم من كراهية المشركين الظالمين المتربصين - وبالرغم مما يكيدونه للإسلام من مختلف المكائد والمؤامرات والحيل لإضعافه وتدميره - فما يبوء تربصهم اللئيم ومكائدهم وأساليبهم الماكرة الخبيثة إلا بالخسران والفشل.

٩ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

قوله: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} الله أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم للناس ومعه الهداية والرشاد ودين الحق وهو الإسلام، {ليظهره على الدين كله} أي ليكون الإسلام مهيمنا على الأديان كلها، وليكون هو الغالب في العالمين، وذلك بأمر الله الذي بيده المقاليد والمقادير جميعا، وبما يتجلى في الإسلام من خصائص الكمال والاستقامة والصلوح، فإنه بذلك كله ظاهر وغالب ومهيمن على الدين كله بالرغم من تربص المشركين وكراهيتهم لهذا الدين وفظيع تمالئهم عليه ٠٦.

١٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ١٠ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ١١ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ١٢ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين}.

ذكر أن هذه الآية نزلت في عثمان بن مظعون - وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أذنت لي فطلقت خولة وترهّبت، واختصيت وحرّمت اللحم ولا أنام بليل أبدا ولا أفطر بنهار أبدا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم - ومن سنتي أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني " فقال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأتّجر فيها: فنزلت، الآية خطابا للمؤمنين {هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم} فقد شبه الله الأعمال الصالحة التي تفضي إلى الخير والنجاء وحسن المصير – بالتجارة السليمة القويمة التي تفضي إلى البركة والربح الكبير - وقد فسر التجارة بقوله: {تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم}.

١١ - (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قوله: {تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم} فالتجارة القويمة الرابحة التي تفضي إلى التنجيه من العذاب يوم القيامة لهي الإيمان بالله إلها واحدا مقتدرا، وبرسوله الأمين، مبعوثا للعالمين، والجهاد بالمال والنفس لقتال الظالمين المعتدين، من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ودفع الشر والعدوان عن البشرية.

قوله: {ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} الإشارة عائدة إلى ما ذكر من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالمال والنفس - وذلك، في موضع رفع مبتدأ وخبره، {خير لكم} يعني هذا الذي أشير إليه خير لكم وأنفع وأدوم، {إن كنتم تعلمون} فإن كنتم من أهل التفكر والبصر فأنتم موقنون بذلك، وإن كنتم من أهل العماية والضلال وانغلاق البصيرة فإنكم لا توقنون بما ذكر.

١٢ - (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله: {يغفر لكم ذنوبكم} يغفر، مجزوم، لأنه جواب شرط، وتقديره: إن تؤمنوا وتجاهدوا يستر الله ذنوبكم وزلاتكم، {ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار} يجعل الله جزاءكم الجنات حيث الإقامة الخالدة والخيرات الحسان، {ذلك الفوز العظيم} الإشارة إلى الفوز بالجنات حيث العيش الكريم المقيم، والنعيم الخالد المستديم، وذلكم هو الفوز الذي لا يعدله فوز.

١٣ - (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

قوله: {وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب} أي لكم – فضلا عن النعمة المذكورة- نعمة عاجلة أخرى محبوبة إليكم وهي {نصر من الله وفتح قريب} نصر، خبر لمبتدأ مضمر - أي تلك النعمة نصر - ومن الله صفة له ٧ أي لكم من الله نصر وفتح قريب يفتحه عليكم وقيل: المراد النصر على قريش وفتح مكة - وقيل فتح فارس والروم.

قوله: {وبشر المؤمنين} أي بشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح القريب في الدنيا، والجنة في الآخرة - ٠٨.

١٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ

طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين}.

يأمر الله عباده المؤمنين أن يكونوا أنصارا لله - أي ينصرون دينه بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم وفي كل أحوالهم وبكل ما يستطيعون كما استجاب الحواريون لعيسى ابن مريم، إذ قال لهم: {من أنصاري إلى الله} أي من ينصرني ويعينني على طاعة الله والدعوة إلى دينه {قال الحواريون نحن أنصار الله} الحواريون جمع، ومفرده الحواري وهو الناصر، أو ناصر الأنبياء، والحميم، والقصار ٩.

والمراد بالحواريين في الآية، أتباع عيسى (عليه السلام) وهم أعوانه ومؤيدوه وكانوا اثني عشر رجلا - فاستجابوا لدعائه مؤيدين {نحن أنصار الله} يعني نحن الذين ينصرون الله فيؤيدون دينه وينشرون دعوته، دعوة الحق والتوحيد.

قوله: {فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة} ذهب الحواريون في البلاد يدعون بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده والإيمان بما جاءهم به نبيهم عيسى (عليه السلام) فاهتدى بهديهم وآمن بدعوتهم طائفة من بني إسرائيل، وكفر آخرون {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم} كتب الله النصر والظفر للفئة المؤمنة بتأييد من لدنه، والله (عز وعلا) مع المؤمنين الصابرين، إذ يجعل النصر لعباده الذين يؤمنون به وينصرون دينه {فأصبحوا ظاهرين} صار المؤمنون الذين نصروا دين الله بأقوالهم وأفعالهم هم الغالبين المنصورين، وذلك بتأييد الله لهم ونصره إياهم ١٠.

٦٢ سورة الجمعة:

سورة الجمعة:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وآياتها إحدى عشرة آية - وهي مبدوءة بالإخبار عن تسبيح الكون وما فيه لله - فكل شيء في السماوات أو الأرض يسبح بحمد الله الخالق الغالب الحكيم.

وفي السورة تنديد شديد ونكير بالغ على الذين أعطوا التوراة ليلتزموا أحكامها ويعلموا بما فيها من الأوامر والنواهي والمواعظ والعبر لكنهم اثّاقلوا إلى الشهوات والضلالات وأهواء النفس فآثروا الحياة الدنيا على الآخرة وجنحوا للباطل والهوى، تاركين وراء ظهورهم كتاب ربهم فضلوا بذلك ضلالا بعيدا - وكان مثلهم في ذلك مثل الحمير العجماوات تحمل على ظهورها كتب العلم وهي لا تدري عن مضمونها شيئا.

وفي السورة إيجاب للجماعة إذا تودي للصلاة من يوم الجمعة - وهذه فريضة عينية منوطة بكل مسلم بشروطه من البلوغ والعقل والذكورة وعدم الأعذار.

١ - (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ١ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ٢ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ٣ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}.

ذلك إخبار من الله عن تسبيح الكون وما فيه لجلاله وعظيم سلطانه - فما من شيء في السماوات أو في الأرض إلا يسبح الله فينزهه عن النقائص {الملك القدوس العزيز الحكيم} هذه الأسماء منصوبة على النعت لله - وقيل على البدل ١ والملك، المالك لكل شيء في السماوات والأرض - والقدوس، يعني المنزه عن النقائص والعيوب، الموصوف بصفات الكمال - والعزيز: القوي الغالب الذي لا

يغلبه غالب - والحكيم: أي في قوله وفعله وتدبيره.
٢ - (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
قوله: {هو الذي بعث في الأميّين رسولا منهم} الله الرحيم المنّان، قد منّ بفضله على الأميين وهم العرب، إذ بعث فيهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ونذيرا، ليستنقذهم من وهدة الضلال والباطل إلى ذرا العلم والهداية والنور - والمراد بالأميين: الذين لا يقرأون ولا يكتبون - ومفرده الأمّي - وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أميّا من الأميين - وهذا دليل قائم أبلج على صدق نبوته وأنه رسول من ربه إلى العالمين.
قوله: {يتلوا عليهم آياته} الجملة الفعلية في موضع نصب نعت لرسول ٢ فهو صلى الله عليه وسلم يتلو على الناس آيات الله وهو القرآن - هذا الكتاب الكريم الفذّ الذي ليس له في عجيب النّظم نظير - والذي لا يعارضه أو يضاهيه في الكلام أيما كلام - إنه الكلام الرباني المعجز في نظمه وأسلوبه وفيما تضمنه من جليل المعاني والأفكار والأخبار، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف بأنه أمّي - فما كان قارئا ولا كاتبا ولا أخذ عن أحد من الناس أيّما درس في العلم - لا جرم أن هذه حقيقة كبرى تشهد بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن كلام الله المعجز.
قوله: {ويزكيهم} أي يطهر الناس من أدناس الشرك ومن أوضار الجاهلية على اختلاف مفاسدها وآثامها {ويعلمهم الكتاب والحكمة} أي يعلمهم القرآن، والحكمة، وهي السنة المطهرة أو الفقه في الدين {وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} يعني وإن كانوا من قبل أن يبعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تائهين في الجهالة، مائلين عن الحق والصواب، متلبّسين بالشرك والباطل.
٣ - (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
قوله: {وآخرين منهم لما يلحقوا بهم} آخرين، فيه وجهان - أحدهما: أنه معطوف على الأميين، أي بعث في الأميين وبعث في آخرين منهم {لما يلحقوا بهم} أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم وهم الذين بعد الصحابة (رضي الله عنهم) - أو هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين - الوجه الثاني، وهو أنه معطوف على الضمير المنصوب في قوله: {يعلمهم} أي يعلمهم ويعلم آخرين ٣.
قوله: {وهو العزيز الحكيم} يصف الله نفسه بالعزة والحكمة، فهو القوي المقتدر، الحكيم في أفعاله ومقاديره، إذ اختار محمدا صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ليكون للعالمين هاديا ومرشدا، وهو الأمّي الذي ما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه.
٤ - (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)
قوله: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء} الإشارة عائدة إلى ما تقدم ذكره وهو الفضل الذي أعطاه الله محمدا صلى الله عليه وسلم، إذ جعله نبي البشرية ومرشدها إلى الهداية والصواب - والله جل وعلا يعطي فضله لمن يشاء من عباده - وهو سبحانه، فضله عظيم لا يدانيه أو يضاهيه أيما فضل ٤.
٥ - (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: {مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ٥ قل ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ٦ ولا يتمنّونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ٧ قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون}.
يندد الله بهذه الفئة من بني إسرائيل وهم اليهود إذ آتاهم الله التوراة فيها هداية للناس وفيها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فلم يطيقوا التزامها ولم يعلموا بما فيها من الأوامر والنواهي والأحكام، بل استنكفوا ومالوا إلى ما تستمرئه أهواؤهم وطبائعهم من الشهوات والضلال، فضلا عما فعلوه من تحريف لكلام الله وتبديل لكلماته ومعانيه، وإخفاء لذكر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وطمس

لاسمه من التوراة - فمثلهم في ذلك مثل السوء إذ شبههم الله بالحمار يحمل على ظهره أسفارا أي كتبا - والمفرد، سفر، وهو الكتاب الكبير، أو جزء من أجزاء التوراة ٥.
والحمار البهيم يمشي على الأرض ساربا لا يعي ولا يفهم ولا يدري ما الذي على ظهره - وهو يستوي عنده أن يحمل على ظهره كتبا في الخير والعلم أو أحمالا ثقالا من الحجارة والطين - وهذه حقيقة الذين يزعمون أنهم متدينون بدين الله ومن حولهم وفي أيمانهم كتاب الله فيصطنعون الإيمان به والغيرة عليه اصطناعا وهم مجافون لأحكامه متحللون مما فيه من الأوامر والزواجر - فأولئك حالهم كحال الحمار يقلّ على ظهره الكتب وهو لا يعلم ما يحمل {بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله} مثل، فاعل بئس - والمخصوص بالذم، الإسم الموصول بعده - وقيل: محذوف، وتقديره: بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء ٦ {والله لا يهدي القوم الظالمين} أي لا يجعل الله الهداية والتوفيق للذين يظلمون أنفسهم باختيارهم الباطل واستبدالهم الضلال بالهدى.
٦ - (قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
قوله: {قل ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} الذين هادوا أي تهودوا وهم اليهود - فقد كانوا يفاخرون الناس بأنهم أولياء الله وأحباؤه - وذلك ضرب من الاغترار الموهوم والتباهي المضلل - فما ينبغي لأحد ذي عقل وإيمان سليمين أن يزعم أنه وليّ الله أو حبيبه.
وإنما ينبغي للمؤمن ذي العقيدة الصادقة الراسخة والعقل السليم أن يكون في غاية التواضع والتذليل لله، والخوف من جلاله وهول بطشه وانتقامه - أما أن يزعم أنه ولي لله، وقريب من جنابه فذلكم القول المصطنع الذي لا يهرف به غير واهم مأفون - ولئن زعم اليهود ذلك فقد تحداهم ربهم بقوله: {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} يعني فتمنوا على الله أن يميتكم لتفضوا إلى دار الكرامة وهي الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين، إن كنتم تصدقون فيما تزعمون بأنكم أحباء الله من دون الناس.
٧ - (وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
قوله: {ولا يتمنّونه أبدا بما قدمت أيديهم} لا يتمنى اليهود الموت البتة فهم أحرص الناس على حياة وأشد العالمين حرصا على الدنيا وزينتها ومتاعها - ولسوف يكون جوابهم لمن يتحداهم بتمني الموت، الرفض والإعراض عن هذا التمني، وذلك {بما قدمت أيديهم} أي لن يسألوا الله إماتتهم بسبب ما قدموه من المعاصي وما تلبسوا به من تحريف للتوراة، فضلا عن قتلهم الأنبياء بغير حق {والله عليم بالظالمين} وذلك وعيد من الله للمشركين الذين يفسقون عن أمر الله ويسعون في الأرض إضلالا وإفسادا.
٨ - (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
قوله: {قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم} الفاء في قوله: {فإنه} متضمنة معنى الشرط - وقيل: مزيدة ٧ يعني: قل لهؤلاء الذين يفرون من الموت فرار المضطرب المذعور، لا مناص لكم من الموت، فإنه نازل بكم وكلكم صائرون إليه لا محالة ولسوف تردون إلى ربكم يوم القيامة، وهو سبحانه عليم بكل شيء فيعلم الحاضر المشهود والخفيّ المستور {فينبئكم بما كنتم تعملون} أي يخبركم يومئذ بما عملتموه من سوء الفعال فيجازيكم على ذلك ٨.
٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ٩ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله لعلكم تفلحون}
الجمعة: من الجمع، إذ يجتمع المسلمون في كل أسبوع مرة في المسجد الكبير - ويوم الجمعة، يوم كريم ومبارك - فقد ثبت في الأحاديث الصحاح أن الجمعة سيد الأيام، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه.

قوله: {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله} يعني إذا نادى المؤذن للصلاة في يوم الجمعة فامضوا أو اذهبوا {إلى ذكر الله} أي أداء الصلاة - على أن المراد بالنداء ههنا، النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج فصعد المنبر ثم جلس فكان حينئذ يؤذن بين يديه - أما النداء الأول فهو الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان - وإنما فعل ذلك لكثرة الناس - فقد روى البخاري عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر - فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء - يعني يؤذن به على الدار التي تسمى الزوراء وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد - وقال مكحول: كان في الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام ثم تقام الصلاة، وذلك النداء الذي يحرم عنده الشراء والبيع إذا نودي به، فأمر عثمان (رضي الله عنه) أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس.

على أنه يستحب للمصلي يوم الجمعة قبل أن يأتي إلى الصلاة أن يغتسل - فقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل " وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده ".

والجمعة مفروضة على كل مسلم ذكر مكلف - وهو قول عامة العلماء، خلافا لمن يقول: إنها فرض على الكفاية - والصواب وجوبها على العين لقوله تعالى: {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله} وإنما يؤمر بصلاة الجمعة كل رجل عاقل بالغ حر غير ذي عذر - وبذلك لا تجب الجمعة على الصبيان والعبيد والنساء وأولى الأعذار كالمرضى والزمنى والمسافرين والكبار الذين يصعب عليهم المشي إلى المسجد، والعميان الذين لا يجدون من يقودهم.

واختلفوا فيمن يأتي الجمعة من القريب والبعيد - فقد قيل: تجب الجمعة على من في المصر على ستة أميال من المسجد - وهو قول عمر وأنس وأبي هريرة - وقيل ثلاثة أميال، وهو قول مالك والليث - وقال الشافعي: المعتبر في ذلك سماع الأذان فمن سمعه وجب في حقه الحضور لصلاة الجمعة - وإنما الاعتبار في ذلك عند أبي حنيفة وأصحابه، الدخول في المصر - فتجب الجمعة على من كان في المصر، سمع النداء أو لم يسمعه - أما من كان خارج المصر فلا تجب عليه الجمعة وإن سمع النداء.

ولا تسقط الجمعة عن المكلف، لكونها في يوم عيد، خلافا للإمام أحمد إذ قال: إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة لتقدم العيد عليها واشتغال الناس بالعيد عن الجمعة.

قوله: {وذروا البيع} أي اتركوا البيع وامضوا إلى الصلاة إذا نودي لها، واختلوفوا في وقت النهي عن البيع - فقد قيل: يحرم البيع بزوال الشمس - وقيل: يحرم بالنداء - واختلفوا أيضا في جواز البيع عند النداء للصلاة - فقد ذهبت الحنيفة والشافعية إلى وقوع البيع مع النهي - وعند المالكية: يجب ترك البيع إذا نودي للصلاة، ويفسخ إذا وقع في ذلك الوقت.

قوله: {ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} الإشارة عائدة إلى السعي إلى ذكر الله وترك البيع - فذلك خير لكم عند ربكم، إذ يجزيكم بذلك خير الجزاء.

١٠ - (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قوله: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض} يعني إذا فرغتم من صلاة الجمعة {فانتشروا في الأرض} أي امضوا في مناكب الأرض لقضاء حوائجكم {وابتغوا من فضل الله} أي اطلبوا الرزق، والمكاسب من فضله بانتشاركم في الأرض عاملين ناشطين {واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} أي أكثروا ذكر الله بألسنتكم وقلوبكم، ولا تشغلنكم الدنيا عن طاعة ربكم {لعلكم تفلحون} أي تفوزون بجنة الله ورضوانه .٩

١١ - (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

قوله تعالى: {وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضّوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين}.

ذلك عتاب من الله للمؤمنين على ما وقع منهم، إذ انصرفوا عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب، فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها

حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا - فنزلت الآية ١٠ {وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها} المراد باللهو هنا الطبل أو المزامير - وقد كانوا إذا حصل نكاح لعب أهله وضربوا بالطبل وعزفوا على المزامير ومروا بذلك على المسجد فإذا رأى الناس عير التجارة أو صوت اللهو {انفضوا إليها} أي انصرفوا إلى التجارة - وقد كنّى بالتجارة دون اللهو لدخوله في حكمها أو لأنها أهم - أو لأنها آخر الاسمين.

قوله: {وتركوك قائما} أي انصرفوا إلى التجارة وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائما على المنبر يخطب ولم يبق معه إلا قليل منهم.

قوله: {قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة} أي قل لهم يا محمد: ما عند الله من حسن الجزاء وجميل العطاء أفضل وأحسن مما انصرفتم إليه - وإنما انصرفتم نحو متاع زائل ما ينبغي لكم أن تخفّوا إليه ذاهبين تاريكين الخطبة وسماع الموعظة والذكرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم {والله خير الرازقين} الله جل وعلا هو المالك وهو الرازق فاسألوه يعطكم من فضله وهو سبحانه خير رزاق.

ومن أحكام الجمعة انعقادها بجماعة - واختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة - فقيل: تنعقد باثنين، وهو قول الحسن البصري - وقيل: تنعقد بثلاثة وهو قول الليث ابن سعد - وقيل: تنعقد بأربعة وهو قول الإمام أبي حنيفة - وقيل: تنعقد باثني عشر رجلا - وعند الإمام الشافعي، تنعقد بأربعين رجلا - وعلى هذا قالوا: كل قرية فيها أربعون رجلا بالغين عقلاء أحرارا مقيمن لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء إلا ظعن حاجة وجبت عليهم الجمعة.

واشترط الإمام أبو حنيفة لوجوبها وانعقادها، المصر الجامع والسلطان - وعلى هذا لا تصح الجمعة عند الحنيفة بغير إذن الإمام وحضوره، خلافا لجمهور العلماء إذ قالوا: تجب الجمعة ولو لم يأذن الإمام أو يحضر - وهو الصحيح استنادا إلى ظاهر الآية فإنها بإطلاقها تفيد الوجوب.

أما الخطبة، فهي شرط في انعقاد الجمعة فلا تصح إلا بها - وهو قول الجمهور من العلماء - وقيل: إنها مستحبة - والصحيح وجوبها ويدل على هذا قوله: {وتركوك قائما} فقد ذم الانفضاض عن النبي صلى الله عليه وسلم وترك السماع لخطبته وهو (عليه الصلاة والسلام) لم يصل الجمعة إلا بخطبة - وتصح الخطبة يوم الجمعة من غير وضوء مع الكراهة ولا تجب إعادتها - واشترط الإمام الشافعي في الجديد الطهارة.

وإذا دخل المصلي المسجد والإمام يخطب فإنه لا يصلي، بل يجلس ليستمع وهو قول الإمام مالك، خلافا للشافعي وآخرين إذ قالوا: يصلي ركعتين خفيفتين ثم يجلس - وذلك لما رواه مسلم عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما " ١١.

٦٣ سورة المنافقون:

سورة المنافقون:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وآياتها إحدى عشرة آية - وهي في معظمها تتناول الحديث عن حقيقة المنافقين - وهؤلاء صنف ماكر أثيم من الناس الذين يظهرون خلاف ما يبطنون - يظهرون في حديثهم من الرقة الكاذبة و اللين المصطنع ما يخدع به كثير من السامعين، فهم بذلك كاذبون مخادعون يستمرئون الختل والغش والاستكان في الجحور من خلف المجتمع - وهم ديدنهم الكيد للإسلام وأهله كل كيد، ويعلمون في الظلام لنسف هذا الدين من القواعد - ذلك أن المنافقين بارعون في التدسيس للنيل من الإسلام متعاونين في ذلك مع قوى الشر من الكافرين على اختلاف مللهم وعقائدهم - وقضية النفاق من المعظلات الكبرى التي تواجه المسلمين الصادقين على مرّ العصور - وعلى المسلمين بذلك أن يأخذوا حذرهم وأن يحسبوا للمنافقين المخادعين كبير الحساب.

١ - (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ١ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن

سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ٢ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ٣ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنّدة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فأحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون}.

يبين الله حقيقة المنافقين المخادعين فيكشف عن فساد طبائعهم وعما تكنّه قلوبهم من الكراهية والضغن للإسلام ورسوله - فهم ديدنهم الكذب وحلف الأيمان الفاجرة ليستتروا بها ويتقوا بها القتل أو العقاب - أولئك هم المنافقون الأشرار الذين يحذر الله منهم ورسوله والمؤمنين.

وفي سبب نزول السورة روي عن زيد بن أرقم قال: غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم وكان معنا ناس من الأعراب وكنا نبدر الماء، وكان الأعراب يسبقوننا، فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل النطع ١ عليه حتى يجيء أصحابه فأتى رجل من الأنصار فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه الأعرابي فأخذ خشبة فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه فأتى الأنصاري عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبيّ ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - ثم قال لأصحابه: إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل - قال زيد بن أرقم: فسمعت عبد الله فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق وكذبني، فوقع عليّ من الغم ما لم يقع على أحد قط - فبينا أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أتاني فعرك أذني وضحك في وجهي - فما كان يسرني أن لي بها الدنيا - فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين ٢.

قوله: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله} يعني إذا جاءك المنافقون يا محمد شهدوا أمامك بألسنتهم أنك رسول الله {والله يعلم إنك لرسوله} وهذه جملة اعتراضية يبين الله فيها أنك رسوله سواء شهد المنافقون أو لم يشهدوا {والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} يشهد الله على كذب المنافقين في إخبارهم عن أنفسهم، فأنفسهم إنما تخفي الكفر والتكذيب ولا تؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهم يظهرون الإيمان به بألسنتهم عن سبيل التقية - فهم بذلك كاذبون بالنسبة لاعتقادهم الذي يخفونه في قلوبهم.

٢ - (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قوله: {اتخذوا أيمانهم جنة} الأيمان، جمع يمين وهي الحلف - والجنة، بضم الجيم يعني سترة أو وقاية - أي حلفوا الأيمان على أنهم منكم وأن محمدا رسول الله على سبيل الله الوقاية التي تقيهم منكم ويستترون بها من القتل أو الأسر.

قوله: {فصدوا عن سبيل الله} صدوا، من الصد - أي صرفوا الناس عن الدخول في الإسلام بتثبيطهم وبما يشيعونه في نفوسهم من الشكوك والأراجيف - أو من الصدود وهو الإعراض - أي أعرضو عن دين الله وسلكوا سبيل الشيطان في الإفساد والفتنة {إنهم ساء ما كانوا يعملون} أي بئست أعمالهم من النفاق والكذب والصد عن دين الله.

٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)

قوله: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا} الإشارة عائدة إلى ما تقدم ذكره من حلفهم الكاذب وصدهم عن دين الله - وسبب ذلك إيمانهم في الظاهر على سبيل النفاق، وكفرهم في الباطن - فهم أقرّوا بلا إله إلا الله بألسنتهم وقلوبهم جاحدة منكرة {فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} أي ختم الله بالكفر على قلوبهم فهم بذلك لا يعلمون الحق من الباطل، ولا الخير من الشر.

٤ - (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

قوله: {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم} كان المنافقون أولي هيئات حسنة ومناظر بهية وكانوا أولي فصاحة وبيان فإذا تكلموا أجادوا في الكلام فأصغى إليهم سامعوهم لحسن قولهم وبلاغة حديثهم - وقيل: المراد بذلك عبد الله بن أبي ابن سلول - وقد قال عنه ابن عباس: كان عبد الله من أبيّ وسيما جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان - فإذا قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم مقالته - وقيل الخطاب لكل من يصلح له من المنافقين - وهو الأظهر.

قوله: {كأنهم خشب مسنّدة} يعني كأن هؤلاء المنافقين خشب مسندة إلى الحائط، لأنها لا قلوب فيها ولا عقول - فهي جوفاء، فارغة من كل وعي أو خير أو وازع - فهم أشبه بصور عمياء، وأشباح خرساء ليس فيها أرواح {يحسبون كل صيحة عليهم} هؤلاء المنافقون جبناء خائرون مهزومون - وهم موغلون في الاضطراب والهلع والجزع والخور - فهم بذلك كلما حصل أمر أو نزلت حادثة أو غشي الناس خبر، ظنوا - واهمين مذعورين - أن ذلك نازل بهم أو من أجلهم لفضحهم وكشف أستارهم.

قوله: {هم العدو فاحذرهم} يبين الله في ذلك أن هؤلاء المنافقين أولو عداوة كاملة، لأنهم يخفون في قلوبهم الكفر فهم خبيثون، ماكرون مخادعون - نخذ حذرك منهم يا محمد أن يثبّطوا أصحابك ويشيعوا فيهم الشكوك والأراجيف ويمالئوا عليك الأعداء من الكافرين.

قوله: {قاتلهم الله} يعني أخزاهم الله، كيف يصرفون عن الحق، وتميل قلوبهم عن الإيمان الصحيح مع وضوح دلائله وبيناته ٣.

٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

قوله تعالى: {وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ٥ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ٦ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ٧ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون}.

ذكر أن ذلك كان في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم هناك اقتتل على الماء جهجاه الغفاري وكان أجيرا لعمر بن الخطاب، وسنان بن يزيد وهو حليف لعبد الله بن أبي، فقال سنان: يا معشر الأنصار، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل - ثم أقبل على من عنده وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو كففتم عنهم لتحوّلوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها زيد بن أرقم (رضي الله عنه)، فذهب بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غليم، وهو عنده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأخبره الخبر فقال عمر (رضي الله عنه): يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا ولكن ناد يا عمر في الرحيل " فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - فقال قومه: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال - وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم مهجرا في ساعة كان لا يروح - فلقيه أسيد بن الحضير (رضي الله عنه) فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبيّ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل " قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل - ثم قال: أرفق به يا رسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه - فإنه ليرى أن قد سلبته ملكا فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل الناس ليشغلهم عما كان من الحديث ثم ناموا، ونزلت سورة المنافقين ٤.

قوله: {وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله} إذا قام إلى المنافقين عشائرهم يحذرونهم ويقولون لهم: إنكم افتضحتم وانكشف نفاقكم فأتوا رسول الله واطلبوا منه أن يستغفر لكم الله، لكنهم {لوّوا رؤوسهم} أي أعرضوا معاندين مستكبرين وحركوا رؤوسهم يمينا وشمالا عتوا وسخرية واستهزاء.

قوله: {ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون} أي يعرضون عن رسول الله مستكبرين عن الإيمان.

٦ - (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

قوله: {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم} يعني الاستغفار لهم وعدمه سواء، فإن الله لن يغفر لهم، لأنهم

مصرون على النفاق وقلوبهم متلبّسة بالكفر {إن الله لا يهدي القوم الفاسقين} لا يجعل الله الهداية والسداد والتوفيق للمستنكفين عن الإيمان، الخارجين عن طاعة ربهم.

٧ - (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ)

قوله: {هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا} ينفضوا من الفضّ والانفضاض يعني التفرق ٥ أي يقول المنافقون لمن حولهم من الناس: لا تنفقوا على الذين عند محمد من أصحابه المهاجرين حتى يتفرقوا عنه.

قوله: {ولله خزائن السماوات والأرض} الله مالك كل شيء، وبيده مقاليد السماوات والأرض - فهو الباسط الرازق المعطي كيف يشاء ولن يستطيع أحد أن يدفع الرزق من الله عن عباده {ولكن المنافقين لا يفقهون} لا يعون هذه الحقيقة ولا يدركونها لغفلتهم وضلالهم وفساد قلوبهم وكفرهم بالله ورسوله.

٨ - (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} يريد المنافقون بذلك أنهم هم الأعزاء أي الأشداء والأقوياء - وأن نبي الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أذلاء - وقائل ذلك عبد الله بن أبيّ وهو رأس المنافقين في المدينة وهم راضون عن مقالته هذه وهي: لئن رجعنا من هذه الغزوة إلى المدينة {ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} ذلك إعلان من الله كبير، يبينه للناس، وهو أن القوة والمنعة والغلبة لله وحده ولمن يكتبها له من عباده المرسلين والمؤمنين - فلا ريب أن الله لهو القوي القادر القاهر الغالب وأن أولياءه من النبيين والصالحين أقوياء في يقينهم وعزائمهم وهممهم وإرادتهم - فليست العزة بكثرة المال أو الجاه وإنما العزة بقوة العقيدة الراسخة والإيمان الوطيد، وما ينشأ عن ذلك من طمأنينة ويقين يجدهما المؤمن في قلبه فيستشعر بذلك - يرد السكينة والرضى - وبغير ذلك لا يكون الناس إلا واهمين واهنين مهزومين.

قوله: {ولكن المنافقين لا يعلمون} المنافقون بسبب ضلالهم وفساد قلوبهم، الجاحدة لا يوقنون أن العزة لله وحده ولرسوله والمؤمنين - فهم إنما يظنون أن العزة إنما سببها متاع الحياة الدنيا وزينتها من المال والأولاد والجاه ٦.

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ٩ وأنفقوا من مّا رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ١٠ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون}.

يحذر الله عباده المؤمنين أن تشغلهم الأموال والأولاد والمنافع الدنيوية عن عبادة ربهم وطاعته - فهذه الأسباب ملهاة كبيرة تنشغل بها القلوب والعقول عن الطاعات وعن كل وجوه التقرب إلى الله من صلاة وزكاة وجهاد وحج وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

وهو قوله: {لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون} يعني من يلهه ماله وولده ومنفعته عن عبادة الله وعن أمور دينه وواجباته فقد خسر نفسه بحرمانها الخير والنجاة في الآخرة وتصليتها العذاب الأليم.

١٠ - (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قوله: {وأنفقوا من مّا رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت} يعني أنفقوا من مال الله الذي أتاكم وابذلوه في وجوه الخير والطاعة كأداء الزكاة والجهاد وغير ذلك من ضروب البر والمعروف، من قبل أن ينزل الموت بأحدكم وحينئذ يغشاه من الندامة والحسرة ما يغشاه - وذلك بسبب غفلته وتفريطه في عبادة ربه {فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب} يقول حينئذ وقد عرف مصيره المخوف وأيقن أنه هالك خاسر: يا رب هلا أمهلتني فأخرت أجلي إلى أمد قريب - فهو بذلك يتمنى أن يعيده الله إلى الدنيا ليتدارك ما فاته فيها فيعمل صالحا {فأصدق وأكن من الصالحين} أي أتصدق بمالي في وجوه الخير والطاعة وأكن من أهل الصلاح والتقوى.

١١ - (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قوله: }ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها{ يعني إذا حان الأجل وهجم الموت فلن يكون بعد ذلك تأخير أو إمهال، ولا تجدي المرء أمانيه وتمنياته بالرجوع إلى الدنيا أو بتأخير الموت عنه إلى أمد قريب - وإنما هو صائر لا محالة إلى مصيره المحتوم الذي لا يتغير ولا يتأخر.
قوله: }والله خبير بما تعملون{ الله يعلم ما تعملون من قول أو فعل، وهو مجازيكم بذلك كله ٠٧.

٦٤ سورة التغابن:

سورة التغابن:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية وآياتها ثماني عشرة آية - وقد تضمنت جملة من الحقائق والأفكار في الحياة والكون، أولها الإخبار بأن كل شيء في السموات والأرض عاكف على التسبيح لله، وذلك بذكره والإقرار له بالإلهية والربوبية وبتنزيهه عما لايليق به من الصفات.
وفي السورة بيان من الله بأنه خلق العباد متفاوتين في فطرهم وفي طبائعهم، وبذلك فإن فيهم المؤمنين والكافرين - والله جل وعلا عليم بما في الكون من علوم وأخبار وهو سبحانه عليم بالسر والعلن، وبما تخفيه الصدور من القصود والنوايا.
وفي السورة تنديد بالكافرين الذين يكذبون بيوم القيامة، وهي قائمة لا محالة، وآتية لا ريب فيها }قل بلى وربيّ لتبعثنّ{ وفي السورة تحذير من التلهي بالأزواج والأولاد والانشغال بهم عن عبادة الله وطاعته.
١ - (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}يسبح لله ما في السموات والأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ١ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ٢ خلق السماوات والأرض بالحق وصوّركم أحسن صوركم وإليه المصير ٣ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور{.
كل شيء في هذا الوجود دائم الذكر لله فيعظمه ويقدسه وينزهه عن غير أوصاف الكمال }له الملك وله الحمد{ الله جل جلاله بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه مختص بالحمد وبالغ الثناء، لأنه المتفضل على الخلق بنعمه وآلائه }وهو على كل شيء قدير{ الله الخالق المقتدر، لا يعز عليه فعل ما يشاء.
٢ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
قوله: }هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن{ الله ذو علم في الأزل بكل ما يجري وكل ما هو آت - فما من شيء واقع في هذا الكون إلا يحيط به علم الله في الأزل، حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر واقع بعلم الله - قال القرطبي في تأويل ذلك: والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق الكفر - وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان - والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه، لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه - ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما غير الذي قدّر عليه وعلمه منه، لأن وجود خلاف المقدور عجز، ووجود المعلوم جهل، ولا يليقان بالله تعالى، وفي هذا سلامة من الجبر والقدر.
قوله: }والله بما تعملون بصير{ الله عليم بأعمالكم لا يخفى عليه منها شيء.
٣ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)
قوله: }خلق السماوات والأرض بالحق{ خلق الله ذلك كله بالعدل والحكمة البالغة }وصوّركم فأحسن صوركم{ أي أحسن خلقكم وهيئاتكم وجعلكم على أحسن صورة من تكامل الأعضاء وانسجام الأجزاء وجمال الخلقة والمنظر }وإليه المصير{ إلى الله المرجع والمآب

وحينئذ يجزي كل إنسان بما عمل.
٤ - (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
قوله: {يعلم ما في السماوات والأرض} الله عليم بما في السماوات والأرض من أشياء وأحداث وأخبار {ويعلم ما تسرّون وما تعلنون} الله عليم بما تخفونه وما تظهرونه ويعلم فيكم السر والجهر، لا يخفى عليه من ذلك شيء {والله عليم بذات الصدور} الله ذو علم بما يستكن في الصدور من أسرار وخفايا ١.
٥ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
قوله تعالى: {ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ٥ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد}.
يحذر الله عباده من عاقبة التكذيب والعصيان فتحل بهم نقم الله كما حل بالأمم الظالمة السابقة، أولئك الذين عصوا رسلهم وعتوا عن أمر ربهم فأخذهم الله بعقابه وانتقامه، وهو قوله: {ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم} يخاطب الله مشركي العرب فيذكرهم بما حل بالأمم الظالمة من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط {فذاقوا وبال أمرهم} الوبال، معناه العذاب الثقيل الوخيم - أي مسّهم العقاب الشديد الوخيم من الله بسبب كفرهم وعصيانهم {ولهم عذاب أليم} توعدهم الله بعذاب النار يصلونها يوم القيامة.
٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)
قوله: {ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا} الإشارة عائدة إلى ما ذكر من العذاب في الدنيا والآخرة - فذلك من أجل أنه كانت تأتيهم رسلهم بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة {فقالوا أبشر يهدوننا} قالوا لرسلهم مكذبين معرضين: أبشر مثلنا، أو من جنسنا يهدوننا - قالوا ذلك مستنكرين أن يبعث الله إليهم رسلا من جنسهم من البشر {فكفروا وتولّوا} أي جحدوا رسالة ربهم وتولوا معرضين مدبرين عن دين الله {واستغنى الله} والله غني عن هؤلاء وعن إيمانهم - فإنه ليس لله حاجة بهم {والله غني حميد} الله مستغن عن العالمين وعن عبادتهم وطاعتهم وهو سبحانه محمود من خلقه بعظيم أياديه وآلائه وكريم صنعه وفعاله ٢.
٧ - (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)
قوله تعالى: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربيّ لتبعثن ثم لتنبّؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ٧ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ٨ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفّر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ٩ والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير}.
يخبر الله عن عتوّ الكافرين، إذ جحدوا القيامة وكذّبوا بالبعث والحساب وأنكروا إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم بعد أن كانوا رفاتا - وهو قوله: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا} الزعم، ادعاء العلم - وقيل: كنية الكذب قولهم: زعموا - فقد زعم الكافرون - من غير حجة ولا برهان إلا الظن والتخريص والهذيان - أن لن يبعثهم الله ليوم القيامة وأن الساعة غير قائمة {قل بلى وربيّ لتبعثن} بلى، لإيجاب النفي - أو هي إثبات لما بعد، لن وهو البعث - أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث: بلى تبعثون - مقسما على ذلك بربه - يعني: بلى وربي لتخرجن من قبوركم أحياء {ثم لتنبّؤن بما عملتم} أي لتخبرن بأعمالكم التي قدمتموها في الدنيا {وذلك على الله يسير} أي إحياؤكم وبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء، أمر يسير على الله، فإن الله لا يعز عليه أن يفعل في الخلق ما يشاء.
٨ - (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
قوله: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا} الفاء دالة على شرط مقدر - فبعد أن أكد لهم قيام الساعة وأنهم مبعوثون من قبورهم،

أمرهم أن يؤمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم {والنور الذي أنزلنا} وهو القرآن فإنه النور الذي تستضيء به الأجيال لتهتدي وتستقيم، فلا تضل أو تتيه أو تتعثر.

قوله: {والله بما تعملون خبير} الله محيط بأعمالكم، لا يخفى عليه منها شيء.

٩ - (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قوله: {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن} يوم منصوب على أنه ظرف وهو متعلق بقوله: {لتبعثن} أو {لتنبّؤن} وقيل: بإضمار فعل وتقديره: واذكر يوم ٣ يعني واذكر يوم يجمعكم الله ليوم الجمع وهو يوم القيامة، إذ يجمع الله فيه الأولين والآخرين أجمعين في المحشر للحساب والجزاء {ذلك يوم التغابن} والتغابن من الغبن وهو النقص، غبنه في البيع أي نقصه فهو مغبون، أي منقوص في الثمن أو غيره ٤.

قال الزمخشري في الكشاف: التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضا، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء - وفيه تهكم بالأشقياء، لأن نزولهم ليس بغبن - وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا - وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة ".

قوله: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفّر عنه سيئاته} وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويؤدون الطاعات بأن يمحو عنهم الذنوب {ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم} الإشارة إلى محو الخطايا وستر الذنوب ودخول الجنات حيث النعيم الخالد المقيم، فإن ذلكم لهو الفوز العظيم الذي لا يضاهيه فوز.

١٠ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله: {والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ذلك وعيد من الله للكافرين المكذبين بقرآنه الحكيم وبدلائله وحججه الظاهرة بأنهم صائرون إلى النار يصلونها ما كثين لابثين لا يبرحون {وبئس المصير} يعني ساء المصير الذي يصيرون إليه وهو جهنم ٥.

١١ - (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

قوله تعالى: {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ١١ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ١٢ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

ذلك إعلان من الله للناس بأنه لا يصيب أحدا من الخلق بلاء أو مصيبة إلا كان ذلك بأمر الله، أو بقضائه وقدره ومشيئته.

قوله: {ومن يؤمن بالله يهد قلبه} أي من يصدق ويستيقن أنه لا يصيبه شيء إلا بأمر الله وتقديره فإن الله يهدي قلبه لليقين فيوفّقه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه.

قوله: {والله بكل شيء عليم} الله يعلم ما تخفيه القلوب من رضى وتسليم بقدر الله أو تخفي خلاف ذلك من التبرم والتسخط.

١٢ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

قوله: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين} أطيعوا الله باتباع ما أنزله إليكم في قرآنه المجيد من الآيات والأحكام فأتمروا بأوامره وانتهوا عن زواجره، وأطيعوا رسوله الأمين فهو الهادي إلى سواء السبيل - فإن نكلتم عن طاعة الله ورسوله وأبيتم إلا الجنوح للهوى والباطل فإنما عليكم ما حمّلتم من الآثام وسوء العواقب، وما على رسولنا بعد ذلك إلا وجيبة التبليغ وليس عليه من آثامكم وأوزاركم من شيء.

١٣ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قوله: {الله لا إله إلا هو} الله خالق كل شيء، ليس من أحد معبود سواه، فهو له الإلهية المطلقة، وبيده ملكوت كل شيء، وهو القاهر القادر الذي شرع لعباده من الدين ما يصلحون عليه تمام الصلاح.

قوله: {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} إذا أيقن المؤمنون بوحدانية الله وعظيم سلطانه وقدرته وأنه لا يندّ عن إحاطته ومشيئته شيء فإن عليهم بعد ذلك أن يعتمدوا على الله أيما اعتماد وأن يتكلوا عليه بالغ التكلان ٦.

١٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ١٤ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ١٥ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ١٦ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ١٧ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم}.

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): كان الرجل يسلم فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده وقالوا: ننشدك الله أن تذهب فتدع أهلك وعشيرتك وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال، فمنهم من يرقّ لهم ويقيم ولا يهاجر - فأنزل الله هذه الآية.

وذكر عن ابن عباس أيضا قوله: هؤلاء الذين منعهم أهلهم عن الهجرة لما هاجروا ورأوا الناس قد فقهوا في الدين، همّوا أن يعاقبوا أهليهم الذين منعوهم فأنزل الله {وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم} ٧ فإن الله جل جلاله يحذر عباده المؤمنين الافتتان بالأزواج والأولاد والأهل والعشيرة - فإذا ما اعتزم المؤمنون الأوفياء أن يمضوا لأمر الله في هجرة أو جهاد أو غير ذلك من وجوه التضحية وقف في وجوههم الأزواج والأولاد والأهل والعشيرة ليصدوهم عن ذلك أو يثنوهم ويثبطوهم عما هم ماضون فيه من طاعة الله - وما ينبغي للمسلم الوفي الصادق الذي سلك سبيل الرحمن والتزم منهج الحق أن تثنيه نداءات الأهل والعشيرة أو الأصدقاء والخلان - إنما ينبغي للمسلم الصادق الذي يدعو إلى الله على بصيرة، أن يمضي لأمر الله غير مضطرب ولا متزعزع ولا متحرّج.

وهو قوله سبحانه: {ياأيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم} عدواة الأزواج والأولاد للرجال والآباء بصدهم عن سبيل الله وبفتنهم عن دينه وتثبيطهم عن طاعته - وبذلك يحذر الله المؤمنين أن يفتنهم الأزواج والأولاد أو يضلوهم عن صراط الله المستقيم وعن منهجه القويم الحكيم، إنه لا ينبغي لمؤمن وفيّ صادق أن يغتر بنداء الأهل وأولي القربى إذا ما أرادوا له أن يثني عن عبادة الله وطاعته - وكذلك عداوة الأزواج والأولاد للزوجات والآباء بإغوائهم أو صدهم عن دين الله أو تثبيطهم عن القيام بطاعة الله - فما ينبغي لامرأة مسلمة صادقة تخشى الله أن تعبأ بإغواء زوجها أو تثبيطه لها إذا ما أراد أن يفتنها أو يضلها عن سبيل الله المستقيم - وما ينبغي للأب كذلك أن يحمله الحنين للولد على الجنوح والانثناء عن دين الله وعن منهجه الكريم.

قوله: {وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم} كان الرجل إذا ثبّطه أزواجه وأولاده عن الهجرة ورأى الناس قد سبقوه إليها وتفقهوا في دينهم سخط منهم لتثبيطهم إياه، فهمّ أن يعاقبهم أو يوبخهم، فأرشده الله إلى أن يعفو عما اقترفوه من صدّه عن الطاعة - فيصفح عن معاقبتهم ويستر عليهم إساءتهم فلا يعنفهم أو يبكّتهم {فإن الله غفور رحيم} الله يستر على ذنوب عباده وهو بهم رحيم فلا يعاقبهم عقب توبتهم.

١٥ - (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

قوله: {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} يعني ما أموالكم وأولادكم إلا بلاء عليكم ومنحة، في الدنيا إذ يحملونكم على فعل الإثم، والتفريط في حق الله وطاعته فالأموال تجنح بها القلوب نحو الدنيا وزينتها للاستزادة والاستكثار - أما الأولاد فإنهم يرققون القلوب أيما ترقيق ليعطفوها عن الاستقامة والعدل - فما تلبث هاتيك القلوب أن تجنح للحيف أو التفريط في حق الله - وفي ذلك روى الترمذي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب - فجاء الحسن والحسين (عليهما السلام) وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: " صدق الله عز وجل {إنما أموالكم وأولادكم فتنة}

- نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما " ثم أخذ في خطبته.

قوله: {والله عنده أجر عظيم} المراد بالأجر العظيم الجنة - فإن الله يؤتيها المؤمنين من عباده الذي آثروا طاعة ربهم على الجنوح للمعصية والافتتان بالأموال والأولاد.

١٦ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

قوله: {فاتقوا الله ما استطعتم} أي اخشوا ربكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه قدر طاقتكم وجهدكم - وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " وقيل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته}.

قوله: {واسمعوا وأطيعوا} أي اسمعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظكم به، وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه {وأنفقوا خيرا لأنفسكم} خيرا، منصوب من أربعة وجوه:

الوجه الأول: أن يكون منصوبا بالفعل {أنفقوا} - والوجه الثاني: أن يكون منصوبا بفعل مقدر دل عليه قوله: {أنفقوا} وتقديره: وآتوا خيرا.

والوجه الثالث: أن يكون وصفا لمصدر محذوف وتقديره: وأنفقوا إنفاقا خيرا - والوجه الرابع: أن يكون خبر كان ٨ والمراد بالخير، المال - والمعنى: أنفقوا من أموالكم على الفقراء والمساكين والمحاويج فإن ذلك خير لكم، إذ تستنقذون أنفسكم من النار.

قوله: {ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون} يعني من يقه الله شحّ نفسه وهو هواها الذي يفضي إلى المعاصي {فأولئك هم المفلحون} أي الفائزون بخير الجزاء، الناجون من سوء العذاب.

١٧ - (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

قوله: {إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم} المراد بالإقراض ههنا، بذل المال في وجوهه من أفعال الخير - أي إن تنفقوا أموالكم في سبيل الله تريدون بذلك وجهه ومرضاته فإن الله يضاعف لكم الأجر والمثوبة، إذ يجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف {ويغفر لكم} أي يكفّر عنكم سيئاتكم فيمحها ويسترها عليكم.

قوله: {والله شكور حليم} الله يشكر للمؤمنين المنفقين الذين استبرأت نفوسهم من خسيسة الشح - بذلهم وإنفاقهم - وهو سبحانه حليم بعباده المؤمنين فلا يعاجلهم العقاب.

١٨ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قوله: {عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم} الله عليم بالظاهر والباطن، ويستوي في علمه وإحاطته السر والعلن - وهو سبحانه القوي الذي لا يغلب، الحكيم في تدبيره وتقديره وتصرفه في خلقه ٩.

٦٥ سورة الطلاق:

سورة الطلاق:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية وآياتها اثنا عشرة آية - وقيل: اثنتا عشرة آية ويحتل الحديث عن الطلاق والعدة وأحكامهما شطرا كبيرا من السورة - ونبين كلا من ذلك حينه إن شاء الله.

وفي السورة تعظيم لشأن التقوى وهي ما يستكن في القلوب من مخافة لله وما يستشعره المرء في أعماقه من رقابة لله عليه ليظل بهذا الشعور رهيف الحس والضمير، مستديم الرهبة والخوف من الله - ثم يأتي الإعلان عقب ذلك عن أن تقوى الله منجاة للمرء من الكروب ومخرج له من الضيق والعسر - إلى غير ذلك من أحكام المطلقات وعدتهن والإنفاق عليهن.

١ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا}.

روي عن أنس قال: طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأنزل الله تعالى هذه الآية - وقيل له: راجعها فإنها صوّامة قوّامة وهي من إحدى أزواجك ونسائك في الجنة.

وروى البخاري عن سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: " ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل " ١.

والله (جل وعلا) يخاطب في هذه الآية رسوله صلى الله عليه وسلم أولا تشريفا له وتعظيما ثم يخاطب أمته من بعده بقوله: {ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن} أي لا يطلق أحدكم امرأته وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه - ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها طلقة واحدة - وعلى هذا فإن الطلاق من حيث حكمه قسمان، وهما طلاق السنة وطلاق البدعة: أما طلاق السنة: فهو أن يطلقها وهي طاهرة من غير جماع - أو يطلقها وهي حامل قد استبان حملها - وأما الطلاق البدعي: فهو أن يطلقها وهي حائض أو في طهر جومعت فيه ولا يدري هل حملت أم لا - وثمة طلاق ثالث ليس فيه سنة ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها.

وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حلالان، ووجهان حرامان - فأما الحلال: فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع - وأن يطلقها حاملا مستبينا حملها - وأما الحرام: فأن يطلقها وهي حائض أو يطلقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرحم على ولد أم لا.

وعلى هذا، من طلق زوجته في طهر لم يجامعها فيه فقد نفذ طلاقه وأصاب السنة - أما إن طلقها وهي حائض أو في طهر قد جومعت فيه، فقد نفذ طلاقه وأخطأ السنة - وقيل: لا يقع الطلاق في الحيض، لأنه خلاف السنة وهو قول الشيعة - والصحيح الأول وهو قول أكثر أهل العلم، فمن طلق امرأته حائضا وقع طلاقه وخالف السنة - وفي ذلك ثبت في الصحيحين - واللفظ للدارقطني - عن عبد الله ابن عمر قال: طلقت امرأتي وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا من حيضتها قبل أن يمسها فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله " وكان عبد الله بن عمر طلقها تطليقة، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذكر عن عبد الله بن مسعود أنه قال: طلاق السنة أن يطلقها في كل طهر تطليقة واحدة - وهو مذهب أكثر أهل العلم - وهو قول الحنفية والمالكية وآخرين - واستندوا في ذلك إلى حديث عبد الله بن عمر المتقدم - وعند الشافعية، لو طلقها ثلاثا في طهر واحد لم يكن بدعة، واحتج لذلك بما رواه الدارقطني بسنده أن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته تماضر بنت الأصبغ الكلبية ثلاث تطليقات في كلمة واحدة فلم يعبه أحد من أصحابه واحتج أيضا بحديث عويمر العجلاني لما لاعن قال: يا رسول الله، هي طالق ثلاث - فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ٢.

قوله: {وأحصوا العدة} أي اضبطوا العدة بحفظ الوقت الذي وقع فيه الطلاق، وأكملوها ثلاثة أقراء كاملات لا نقصان فيهن.

أما المخاطب بأمر الإحصاء فهم الأزواج، لأن الضمائر في قوله: {طلقتم} وقوله: {وأحصوا} وقوله: {لا تخرجوهن} ترجع كلها إلى

الأزواج - على أن الزوجات يدخلن في المخاطبين على سبيل الإلحاق - فهن يشتركن مع الأزواج في بعض الأمور كالإحصاء للمراجعة، وإلحاق النسب أو انقطاعه - وقيل: المخاطب، المسلمون.
قوله: {واتقوا الله ربكم} أي خافوا الله ربكم فاحذروا أن تعصوه أو تتعدوا حدوده {لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن} أي ليس لكم أيها الأزواج أن تخرجوا زوجاتكم المطلقات من بيوتهن التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق، ما دمن في عدتهن - وليس لهن أن يخرجن وذلك لحق الزوج، إلا لضرورة ظاهرة - فإن خرجت من بيتها في حال عدتها من غير ضرورة فهي آثمة ولا تنقطع عدتها - ويستوي في ذلك، الرجعية والمبتوتة.
على أن المطلقة ليس لها أن تخرج من بيتها لا في الليل ولا في النهار، رجعية كانت أو مبتوتة - وهو قول الحنيفة - وقالوا في المتوفى عنها زوجها: لها أن تخرج نهارا لكسب رزقها ولا تبرح بيتها ليلا - وذهب جمهور الشافعية والمالكية والحنبلية وآخرين إلى أن المعتدة تخرج بالنهار من أجل حوائجها ثم تلزم بيتها ليلا - واستدلوا بما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله قال: طلقت خالتي فأرادت أن تجدّ نخلها فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " بلى فجدّي نخلك فإنك عسى أن تصدّقي أو تفعلي معروفا " ويستوي عند المالكية ما لو كانت المطلقة رجعية أو بائنة - وقالت الشافعية: لا تخرج الرجعية ليلا ولا نهارا - وإنما تخرج نهارا المبتوتة.
قوله: {إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} المراد بالفاحشة كل معصية كالزنا والسرقة وبذاءة اللسان على الأهل - أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن يفعلن شيئا من ذلك.
قوله: {وتلك حدود الله} الإشارة إلى الأحكام التي بينها الله فهي حدوده التي حدها لعباده ولا يجوز لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها {ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه} يعني من يتعدّ أحكام الله التي حدها لخلقه فيتجاوزها إلى غيرها فقد أورد نفسه مورد الهلاك.
قوله: {لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا} الأمر الذي يحدثه الله، هو أن يقلب قلب الزوج من بغض زوجته إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن العزم على الطلاق إلى الندم ثم مراجعتها فالمراد بالأمر، في الجملة الرغبة والرجعة ٣.
٢ - (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)
قوله تعالى: {فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الأخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ٢ ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا}.
المراد ببلوغ الأجل، قرب انقضاء العدة - يعني إذا شارفت المطلقات على انقضاء عدتهن {فأمسكوهن بمعروف} يعني راجعوهن بالرغبة والرفق والتسامح والإحسان من غير مضارّة أو مشاتمة أو مقابحة - وعلى هذا إذا شارفت المطلقة على انقضاء عدتها فالزوج حينئذ بالخيار - فإما أن يعزم على إرجاعها إلى عصمة نكاحه فيحسن صحبتها وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف دون إساءة أو تعنيف أو إيذاء، بل يطلقها بالرفق والحسنى.
قوله: {وأشهدوا ذوي عدل منكم} يعني أشهدوا على إمساكهن - وهي المراجعة - شاهدي عدل من المسلمين، موصوفين بالدين والأمانة والصدق احتياطيا من التجاحد بينهما - وروي عن ابن عباس قوله: إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين - وقيل: الأمر بالإشهاد هنا يراد به على الطلاق - لكن الأظهر رجوعه إلى الإمساك وهو الرجعة وليس الطلاق.
على أن الإشهاد على الرجعة أو الفرقة مندوب إليه عند الحنفية، فأيتهما اختيار الزوج ندب له أن يشهد ذوي عدل من المسلمين - وإذا لم يشهد على الفرقة أو الإمساك (الرجعة) صح منه ذلك وخالف به السنة، وذهب الإمام الشافعي إلى وجوب الإشهاد على الرجعة، ومندوب إليه في المفارقة - على أن الإشهاد مندوب إليه عند أكثر العلماء.
أما كيفية الرجعة إنما تتم بالكلام عند الشافعي - فلا تصح عند المراجعة إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها - وتتم المراجعة عند الإمام مالك بغير القول مما يدل على إرادة الرجعة - وذلك كما لو قبّل أو باشر، يريد بذلك، الرجعة - وعند أبي حنيفة، لو قبّل أو لامس بشهوة أو

نظر إلى الفرج فذلك كله رجعة.

قوله: {وأقيموا الشهادة لله} يعني اشهدوا على الحق، وأدوا الشهادة إذا استشهدتم بصدق واستقامة {ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر} الإشارة إلى ما تقدم ذكره من الأحكام عند الفراق والإمساك، من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله - فذلك موعظة من الله لعباده يتعظ بها المؤمنون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر فهم الذين ينتفعون بها دون غيرهم من غير المؤمنين.

قوله: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا} نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي - وذلك أن المشركين أسروا ابنا له فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفاقة - وقال: إن العدو أسر ابني وجزعت الأم فما تأمرني؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " اتق الله واصبر، وآمرك وأياها أن تستكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله " فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله - فقالت: نعم ما أمرنا به - فجعلا يقولان، فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة، فنزلت الآية ٤.

ويستفاد من عموم الآية أن التقوى سبيل الخلاص والنجاة من الآفات والأزمات والكروب - والمؤمن الموصول القلب بالله فلا يذعن لأحد سواه ولا يرتضي بغير شرعه ودينه أيما شرع أو منهاج، لا جرم أن الله منجّيه من محن الدهر ونائبات الأيام.

قال ابن عباس في تأويل قوله: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا} أي مخرجا من كل كرب في الدنيا والآخرة - وقيل: {يجعل له مخرجا} من النار إلى الجنة - وقيل: {يجعل له مخرجا} أي مخرجا من كل شدة - أو من كل شيء ضاق على الناس على أن عموم الآية يتناول كل هذه المعاني - فالمؤمن التقي ذو القلب الخاشع لله، المنيب إليه لا يخذله الله ولا يسلمه للشدائد والنوائب، وإنما ينجيه مما ينزل به من الكروب والمصائب.

٣ - (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِـغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

قوله: {ويرزقه من حيث لا يحتسب} أي يؤتيه الله من فضله ما لم يكن يدري، أو يرجو أو يؤمل.

قوله: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} يعني من يعتمد على الله في شأنه كله ويفوض كل أموره إلى الله كافيه ما أهمه {إن الله بالغ أمره} الله بالغ ما يريد من الأمر فلا يفوته أو يعجزه شيء.

قوله: {قد جعل الله لكل شيء قدرا} أي جعل لكل شيء مقدارا أو وقتا لا يتعداه - فجعل لكل من الشدة والرخاء أجلا ينتهي إليه ٥.

٤ - (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

قوله تعالى: {والآئي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر والآئي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ٤ ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجرا}.

يبين الله في هذه الآية عدة صنفين من النساء، فالصنف الأول، النساء الآيسات وهن اللواتي انقطع عنهن الحيض فلا يحضن - والصنف الثاني، النساء الصغيرات اللواتي لم يبلغن سن الحيض - فعدة هذين الصنفين من النساء ثلاثة أشهر - وهو قوله: {والآئي يئسن من المحيض من نسائكم} يعني اللاتي انقطع عنهن الحيض لكبرهن {إن ارتبتم} أي إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن أو كيفية عدتهن {فعدتهن ثلاثة أشهر} وذلك بدلا من الثلاثة قروء في حق النساء والحوائض.

وقيل: إن أبي بن كعب قال: يا رسول الله إن عددا من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال - فأنزل الله عز وجل الآية.

قوله: {والآئي لم يحضن} مبتدأ وخبره محذوف لدلالة خبر الأول عليه: يعني والصغيرات من النساء اللاتي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر ٦.

قوله: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} أولات الأحمال مبتدأ، ومفرد أولات، ذات - وأجلهن، مبتدأ ثان، و {أن يضعن

حملهن} خبر المبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره، خبر عن المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون أجلهن بدلا من أولات ٧.
والمعنى أن كانت حاملا فعدتها بوضع حملها ولو كان عقيب الطلاق أو الموت بوقت قصير - وهو قول الجمهور من علماء السلف والخلف وذلك لعموم هذه الآية والحديث سبيعة الأسلمية - فقد أرسل ابن عباس إلى أم سلمة يسألها عن ذلك فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأخرج الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل فلم يمكث إلا ليالي حتى وضعت فلما تعلّت من نفاسها خطبت فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النكاح فأذن لها أن تنكح فنكحت.
وروي عن علي وابن عباس (رضي الله عنهم) أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر عملا بهذه الآية والتي في سورة البقرة - والصحيح قوله الجمهور بما بيناه من دليل.
قوله: {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا} من يخش الله فيهتد بهديه ويلتزم أوامره وأحكام دينه - ويجتنب معاصيه فإن الله (جل وعلا) يسهّل له أمره ويجعل له فرجا ومخرجا من كروبه ومشكلاته ويكتب له التوفيق والخير والنجاة.
٥ - (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)
قوله: {ذلك أمر الله أنزله إليكم} الإشارة إلى ما بينه الله من أحكام الطلاق والرجعة والعدة - فذلك أمر الله أنزله إليكم لتلتزموه وتعملوا به.
قوله: {ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} يعني من يخش الله فيجتنب معاصيه ويؤدّ فرائضه، يمح الله عنه ذنوبه وسيئاته ويجزل له الثواب والأجر ٨.
٦ - (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)
قوله تعالى: {أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضارّوهن لتضيّقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ٦ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا}.
هذه جملة من أحكام المرأة المطلقة حال اعتدادها - وهي أحكام ربانية تفيض بالعدل والرحمة والرفق والحسنى التي يفرضها الإسلام على الرجال للنساء دفعا للحيف عنهن ودرءا للأذى والإضرار أن يحيق بهن - فأيما إضرار يقع على المرأة في نفسها أو مالها أو سمعتها وكرامتها فإنه محظور وينبغي دفعه وإزالته - قال سبحانه: {أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم} من وجدكم، يعني من سعتكم وطاقتكم وذلك في المطلقات وهن يقضين عدتهن فعلى الأزواج أن يسكنوهن عندهم حال اعتدادهن مما يجدونه من السعة، من غير حرج في ذلك حتى تنتهي عدتهن.
قوله: {ولا تضارّوهن لتضيّقوا عليهن} المضارة، إلحاق الضرر بها - فيحرم على من طلّق زوجته أن يضارها أو يضاجرها فيؤذيها بوجه من وجوه الإضرار والأذى ليضطرها بذلك أن تخرج من مسكنها أو تفتدي من زوجها المضارّ بمالها.
قوله: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن} وهذا في البائن إن كانت حاملا فإنها تجب لها النفقة حتى تضع - أما الرجعية فإنها تجب نفقتها سواء كانت حاملا أو حائلا - قال ابن عباس في ذلك: هذا في المرأة يطلقها زوجها فيبتّ طلاقها وهي حامل فيأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع.
قوله: {فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن} يعني إذا وضعت نساؤكم حملهن وهن طوالق، فقد بنّ منكم بانقضاء عدتهن - ولهن حينئذ الخيار بإرضاع أولادهن منكم أو عدم إرضاعهم - لكنهن عليهن إرضاعهم اللبأ وهو بكسر اللام ومعناه أول اللبن في النّتاج ٩ أو هو باكورة اللبن، وهو غذاء لا يستغني عنه الطفل في الغالب - وعلى هذا إذا أرضعت البائن الولد فقد استحقت بذلك أجر مثلها ولها أن تعاقد ولي أمر الولد على ما يتفقان عليه من أجرة في مقابلة إرضاع الولد.

قوله: {وأتمروا بينكم بمعروف} والخطاب للآباء والأمهات، أو للأزواج والزوجات، وائتمروا من الائتمار وهو أن يأمر بعضكم بعضا {بمعروف} أي بالجميل والمسامحة من غير إضرار أو مضارة، فإن الرضيع ولدهما وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق عليه.

قوله: {وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى} يعني إذا اختلف الأب والأم في أجرة الرضاع فطلبت الأم أجرة كبيرة ولم يجبها الأب أو ضنّ بذلك فلم يعطها إلا نزرا فليستأجر الأب لولده مرضعة أخرى - ولو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية كانت هي أحق بإرضاعه لإشفاقها عليه.

٧ - (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

قوله: {لينفق ذو سعة من سعته} يعني لينفق الزوج الذي بانت منه امرأته على امرأته البائنة وعلى ولده منها إذا كان ذا سعة أو غنى من المال {ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله} يعني من ضيّق عليه رزقه فلم يوسّع عليه فلينفق على قدر طاقته مما أعطاه الله.

قوله: {لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها} أي لا يكلف الله الزوج من الإنفاق إلا بحسب وسعه وطاقته {سيجعل الله بعد عسر يسرا} أي يغير الله من حال العسر إلى حال اليسر - أو سيجعل الله للمقلّ الذي قدر عليه رزقه بعد الشدة رخاء وبعد الضيق سعة وغنى ١٠.

٨ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)

قوله تعالى: {وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نّكرا ٨ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ٩ أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله ياأولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ١٠ رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبيّنات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا}.

يخوّف الله عباده مما حل بالأمم السابقة من الهلاك والتدمير بسبب فسقهم وعتوهم عن أمر ربهم واتباعهم سبيل الشيطان - فقال سبحانه: {وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله} عتت، يعني عصت أمر الله - من العتو وهو الاستكبار - والعاتي المجاوز للحد - أو هو المغالي في ركوب المعاصي ١١ - والمعنى: وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله وأعرضوا عن دين ربهم، دين الحق والعدل والفضيلة {فحاسبناها حسابا شديدا} أي لم نعف عنهم ولم نرحمهم في حسابنا لهم، بل جازيناهم بالعذاب الشديد في الدنيا {وعذبناها عذابا نّكرا} أي عذبنا هؤلاء الفاسقين عن أمر الله عذابا منكرا في الآخرة.

٩ - (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

قوله: {فذاقت وبال أمرها} يعني ذاقت بسبب ما قدمت من الكفر والمعاصي وبال أمرها - أي وخيم العاقبة من سوء العذاب.

قوله: {وكان عاقبة أمرها خسرا} يعني كان عاقبتها الهلاك في الدنيا وعذاب النار في الآخرة.

١٠ - (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

قوله: {أعد الله لهم عذابا شديدا} وذلك تأكيد من الله على أن عذاب الظالمين العصاة أليم شديد.

قوله: {فاتقوا الله ياأولي الألباب} يخاطب الله أولي العقول الراجحة النيّرة فهم خليق بهم أن يوقنوا ويبادروا التصديق والطاعة بما أوتوه من نعمة العقل المستنير - وبذلك يأمر الله عباده من أولي العقول والنّهى أن يخشوه ويطيعوه ويجتنبوا معاصيه.

قوله: {الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا} الذين بدل من أولي الألباب - أو نعت لهم - يعني يا أولي الألباب الذين آمنتم بالله، اتقوا الله الذي أنزل إليكم القرآن - أي خافوه وأطيعوا أمره واجتنبوا معاصيه.

١١ - (رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

قوله: {رسولا يتلوا عليكم آيات مبيّنات} رسولا، منصوب من عدة وجوه - فقد قيل: منصوب بفعل مقدر، وتقديره: وأرسل رسولا - وقيل: بدل، من {نكرا} ويكون رسولا بمعنى رسالة، وهو بدل الشيء من الشيء - وقيل: منصوب على الإغراء - أي اتبعوا رسولا

- وقيل: منصوب بتقدير، أعني ١٢ أي أعني رسولا يتلوا عليكم آيات من الله ظاهرات لمن تدبرها وتفكر فيها.
قوله: {ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور} يعني أرسل الله رسوله للناس ليخرج به أهل الإيمان والتصديق والطاعة من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان واليقين والاستقامة.
قوله: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} ذلك وعد من الله لعباده المؤمنين الطائعين الذين لا يعصون الله ويفعلون ما أمرهم به، بأن يجزيهم خير الجزاء وهي جنات النعيم تجري خلالها ومن تحت أشجارها الأنهار السائحة العذبة، وهم ماكثون فيها مقيمون لا يبرحون {قد أحسن الله له رزقا} أي وسّع الله لهم في الجنات ما أعطاهم من أصناق المطاعم والمشارب وغير ذلك من وجوه الخير والنعمة ١٣.
١٢ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)
قوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} يبين الله للناس بالغ قدرته وعظيم سلطانه وجبروته، فهو الخالق المهيمن المقتدر الذي خلق سبع سماوات طباقا، أي بعضها فوق بعض {ومن الأرض مثلهنّ} مثلهن، منصوب بتقدير فعل - أي ومن الأرض خلق مثلهن ١٤ يعني وخلق من الأرض سبعا - واختلفوا في هيئة هذه الطبقات السبع من الأرض - فقد قيل: سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض، وبين الواحدة والتي تليها مسافة عظيمة - وقيل: خلق الله سبعا من الأرضيين مطبق بعضها على بعض من غير فتوق بينها أو مسافات - و الله أعلم بالحقيقة والصواب.
قوله: {يتنزّل الأمر بينهن} المراد بالأمر المنزّل بين السماء والأرض، قضاء الله وقدره - أو تصرفه في شؤون خلقه أو تدبير أمرهم من إنزال المطر وإخراج النبات وخلق الليل والنهار والحيوان والإنسان وغير ذلك من وجوه التدبير والخلق.
قوله: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير} أي ليستبين لكم وتوقنوا أن الله قادر على فعل ما يشاء {وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} أي ولتعلموا وتوقنوا بأن الله محيط علمه بكل شيء.

٦٦ سورة التحريم:

سورة التحريم:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مدنية، وهي اثنتا عشرة آية - وهي مبدوءة بالعتاب من الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حرّمه على نفسه من الحلال استرضاء لبعض زوجاته - وما ينبغي أن يحرّم النبي على نفسه الحلال ليرضين عنه.
ويأمر الله عباده المؤمنين أن يصونوا أنفسهم ومن يلون من الأهلين من العذاب الحارق في نار متسعرة متأججة وقودها الناس والحجارة فيتقون ربهم ويأتمرون بأوامره ويفعلون الخير لعلهم ينجون.
ويأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمجاهدة الكافرين والمنافقين - فيجاهد الأولين الظالمين بالقتال، ويجاهد الآخرين المخادعين بالحجة والمجادلة والبرهان - ثم يضرب الله لعباده مثلين من النساء - فمثل من النساء الكوافر، زوجات لمؤمنين، ومثل من النساء المؤمنات، زوجات لكافرين.
١ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ياأيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم ١ قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم

الحكيم ٢ وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبّأني العليم الخبير ٣ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ٤ عسى ربه إن طلّقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا}.

في سبب نزول هذه الآيات روى ابن عباس عن عمر قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم ولده، مارية القبطية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها - فقالت: لم تدخلها بيتي، ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك - فقال لها: " لا تذكري هذا لعائشة، وهي عليّ حرام إن قربتها " - قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك - فحلف لها لا يقربها وقال لها لا تذكريه لأحد - فذكرته لعائشة - فأبى أن يدخل على نسائه شهرا واعتزلهن تسعا وعشرين ليلة - فأنزل الله تبارك وتعالى: {لم تحرّم ما أحل الله لك} الآية ١.

وروى مسلم عن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا - قالت: فتواطأت أنا وحفصة أنّ أيّتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير - أكلت مغافير ٢؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك - فقال: " بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له " فنزل {لم تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك} يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم معاتبا: لم تحرم على نفسك الحلال الذي أحله الله لك، تلتمس بتحريمك ذلك مرضاة زوجاتك {والله غفور رحيم} الله يغفر الذنوب لعباده المؤمنين، وقد غفر لك هذه الزلة وهي تحريمك على نفسك ما أحله الله لك - والله جل وعلا رحيم بعباده أن يعاقبهم بعد أن يتوبوا.

٢ - (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

قوله: {قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم} أي شرع الله لكم كفارة أيمانكم فالكفارة تحلّة لليمين لأنها تحل للحالف ما حرمه على نفسه - ويستدل من هذا العتاب على أن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه لأن التحليل والتحريم مردهما إلى الله سبحانه وليس لأحد سواه.

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن تحريم الحلال يمين في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه الإنسان على نفسه - فإذا حرم طعاما فقد حلف على أكل هذا الطعام - وإذا حرم أمة فقد حلف على وطئها، وإذا حرم زوجة فقد آلى منها إذا لم يكن له نية - وإن نوى الظهار فهو ظهار - وإن نوى الطلاق فهو طلاق بائن - وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثا فكما نوى - وإن قال: كل حلال عليّ حرام، كان ذلك على الطعام والشراب إذا لم ينو، وإلا فعلى ما نوى - أما الشافعي فلا يرى ذلك يمينا، بل يراه سببا في الكفارة في النساء وحدهن - وإن نوى الطلاق فهو عنده طلاق رجعي - وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد (رضي الله عنهم) أن الحرام يمين ٣.

قوله: {والله مولاكم} أي سيدكم ومتولّي أموركم {وهو العليم الحكيم} الله العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم - وهو سبحانه الحكيم فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما تقتضيه الحكمة مما فيه مصلحتكم ونفعكم.

٣ - (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)

قوله: {وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا} يعني واذكر إذ أسر النبي إلى حفصة حديثا وهو تحريم مارية القبطية على نفسه وأمرها بكتمان ذلك، لكن حفصة أخبرت عائشة بذلك فأظهر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ما أخبرتها به، وهذا هو قوله سبحانه: {فلما نبّأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض} أي أخبر الله نبيه ببعض ما أخبرت حفصة به عائشة مما نهاها عن الإخبار به، وأعرض عن إخباره ببعضه تكرّما منه {فلما نبّأها به قالت من أنباك هذا} لما أخبر النبي حفصة بما أظهره الله عليه {قالت

من أنبأك هذا} قالت حفصة: من أنبأك هذا عني يا رسول الله - فقال لها الرسول: {نبّأني العليم الخبير} نبأني بذلك علاّم الغيوب الذي لا تخفى عليه الخوافي والأخبار.

٤ - (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

قوله: {إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما} المراد بذلك حفصة وعائشة، إذ يحثهما الله على التوبة مما كان منهما من ميل إلى خلاف ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله {فقد صغت قلوبكما} أي مالت أوزاغت عن الحق والاستقامة - فقد سرهما أن يحرم النبي على نفسه ما أحله له، وهي أم ولده مارية القبطية أو اجتناب العسل.

قوله: {وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين} يعني إن تتظاهرا و تتعاضدا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء وإفشاء السر {فإن الله هو مولاه} أي ناصره ومؤيده فلا يصيبه شيء من تظاهركما وتعاونكما عليه - وكذلك يظاهره ويؤيده جبريل عظيم الملائكة، والصالحون من المؤمنين {والملائكة بعد ذلك ظهير} أي أن الملائكة بعد تأييد الله له وتأييد جبريل وصالح المؤمنين أعوان له يظاهرونه ويؤيدونه.

٥ - (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

قوله: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا} وهذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم – وفيه تخويف لنسائه – بأنه لو طلقهن فإنه مزوّجه في الدنيا نساء خيرا منهن {مسلمات} وذلك وصف للأزواج اللواتي هن خير من نسائه فهن {مسلمات} - أي ممتثلات أمره وأمر رسوله {مؤمنات} أي مخلصات موقنات مصدقات بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره {قانتات} أي طائعات، من القنوت وهي الطاعة {تائبات} أي منيبات إلى الله تائبات من الذنوب {عابدات} أي يكثرن العبادة لله بدوام ذكره وتوحيده والعمل بأوامره {سائحات} أي صائمات {ثيبات وأبكار} ثيبات، جمع ثيب، وهي المرأة المدخول بها، وأبكارا جمع بكر وهي العذراء ٤.

٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ٦ يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ٧ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير}.

يأمر الله عباده المؤمنين أن يدرأوا عن أنفسهم النار بإيمانهم الراسخ وبفعلهم الطاعات ومجانبتهم السيئات - وكذلك أن يدرأوا عن أهليهم وأولادهم وزوجاتهم النار، إذ يأمرونهم بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ومعاصيه - وهو قوله: {يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا} أي قوا أنفسكم النار بحسن فعالكم وصالح أعمالكم - وكذلك قو أهليكم النار بإصلاحهم وبأمرهم أن يتقوا الله فيخشوه ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا معاصيه وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم " وقال عليه الصلاة والسلام: " حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويعلمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ " وعنه صلى الله عليه وسلم: " ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن ".

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم: " مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع " وكذلك يؤمر الصغار بالصوم قدر طاقتهم لينشأوا على العبادة عن رغبة وطواعية.

قوله: {وقودها الناس والحجارة} حطب جهنم من جثث بني آدم ومن الحجارة الضخمة - وقيل: الأصنام التي أشركها الظالمون مع الله في العبادة.

قوله: {عليها ملائكة غلاظ شداد} ذلك وصف لزبانية جهنم من الملائكة فهم غلاظ الطباع وقد خلت قلوبهم من الرحمة بالمجرمين - وهم كذلك شداد أي أقوياء أشداء في هيئاتهم وأبدانهم وفظاعة جسومهم المخوفة - قوله: {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} يعني لا يخالفون الله فيما أمرهم به ويبادرون طاعته وامتثال أوامره دون تمهل أو وناء - فهم طائعون منيبون مذعنون لله بالخضوع والامتثال.

٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله {ياأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون} اليوم يعني يوم القيامة حين يصلى الكافرون النار - والنهي عن الاعتذار في هذا اليوم يراد به التيئيس للكافرين الذين خسروا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم - وهم حينئذ إنما يجزون سوء العذاب بسبب ما قدموه في الدنيا من سوء الفعال.

٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قوله: {ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا} يأمر الله عباده المؤمنين بالتوبة إليه في كل الأحيان لينيبوا إليه طائعين مخبتين وأن يرجعوا عن ذنوبهم جازمين عازمين على أن لا يعودوا إليها عقب توبتهم وندمهم واستغفارهم - وهو قوله: {توبة نصوحا} واختلفوا في تأويل التوبة النصوح على عدة أقوال - منها: أنها الصادقة الناصحة - ومنها أنها: الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة - وقيل: هي التي لا يثق بقبولها ويكون على وجل منها.

قوله: {عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم} عسى من الله واجبة، يعني توبوا إلى الله يوجب لكم تكفير سيئاتكم وإدخالكم جنات شاسعة عظام بظلها الوارف الظليل، وأنهارها الجارية السائحة ونعيمها الدائم المقيم - وهو قوله: {ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار}.

قوله: {يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه} يوم، منصوب على أنه ظرف متعلق بقوله: {ويدخلكم} أي ويدخلكم {يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه} فالله ينجي رسوله والمؤمنين من العذاب والخزي فلا يخزيهم كما خزى المجرمين لحل بهم العذاب والخزي والافتضاح.

قوله: {نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا} يسأل المؤمنون ربهم يوم القيامة أن يبقى لهم نورهم فلا ينطفئ كما انطفأ نور المنافقين عند تجاوز الصراط - وقيل: ليس من أحد إلا يعطى نورا يوم القيامة فيطفأ نور المنافق فيمشي تائها هائما على وجهه يتخبط وحينئذ يخشى المؤمن أن ينطفئ نوره كما انطفأ نور المنافق فيسأل الله أن يتم له نوره فلا يطفئه.

وكذلك يسأل المؤمنون ربهم يوم القيامة أن يعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم وهو قوله: {واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} أي استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا بها فإنك يا ربنا مقتدر على فعل ما تشاء من غفران الذنوب والستر على العيوب والتنجية من البلايا والكروب ٥.

٩ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ٩ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار ما الداخلين}.

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار بكل أوجه الجهاد المشروعة، وأولها أن يدعوهم إلى الله وأن يفيئوا إلى دين الحق - وذلك بالحجة القاطعة والبرهان الساطع، حتى إذا استبان أنهم معاندون متربصون موغلون في الجحود والعتو قاتلهم بالسلاح لكسر شوكتهم وفض جمعهم وكلمتهم، وإزالة عدوانهم وطغيانهم - وأمره أيضا أن يجاهد المنافقين بالتحذير والوعيد عسى أن يرعووا ويزدجروا.

قوله: {واغلظ عليهم} أي واشدد عليهم في القتال إن كانوا كافرين وفي الموعظة والتخويف وإقامة الحدود إن كانوا منافقين.

قوله: {ومأواهم جهنم وبئس المصير} أي مقامهم النار بكفرهم ونفاقهم، فساء المستقر والمرجع.

١٠ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)
قوله: {ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين} هذان مثلان يضربهما الله للناس، للاستفادة والموعظة وليعلموا أن العقيدة أساس العلائق والروابط بين العباد - فمن كان جاحدا، مكذبا، لا يغنيه أهلوه وذووه وصحبه من عذاب الله شيئا - وهو لا محالة في الأخسرين - ومن كان مؤمنا موقنا موصول القلب بالله لا تضره مكائد المجرمين والمتربصين ولا تزعزعه النوائب والفتن من حوله مهما عتت واشتدت - فقد مثّل الله المثل {للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما} كانتا زوجين لنبيين كريمين صالحين، فخانت كل واحدة منهما زوجها - فزوجة نوح كانت كافرة، وكانت تقول للمشركين إن نوحا مجنون فتغريهم به وتحرّضهم عليه - أما امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، فما يأتيه من أحد إلا وتشير إلى المشركين لتنبئهم بذلك.
وليس المقصود بخيانتهما اقتراف الزنا - فما كان لامرأة نبي أن تزني البتة - ولكن خيانتهما كفرهما وتمالؤهما مع الكافرين على زوجيهما النبيين الصالحين {فلم يغنيا عنهما من الله شيئا} أي لم يغن نوح ولوط - عن امرأتيهما الخائنتين من عذاب الله شيئا - فالنبيان الكريمان لا يملكان دفع العذاب عن المرء إلا بالطاعة وإخلاص العبادة لله.
ثم قيل للزوجين الظالمتين {ادخلا النار مع الداخلين} وهذه عاقبة الذين يخونون النبيين بمعاداتهم والكيد لهم والتمالؤ عليهم مع الكافرين - إن عاقبتهم النار يصلونها مقهورين مذمومين ٦.
١١ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)
قوله تعالى: {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ١١ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين}.
وهذا مثل ثان ضربه الله للمؤمنين الموقنين القانتين الثابتين على الإيمان والحق الذين لا يضرهم من خالفهم من الظالمين والطغاة - ضرب الله لذلك امرأة فرعون - هذه المرأة التقية الصابرة الفضلى التي احتملت من نكال فرعون وقهره وتعذيبه ما لا يطيقه إلا الصادقون الأبرار، وأولئك هم أولو العزم المكين والإيمان المتوطد الراسخ الذي لا يهون ولا يضطرب.
تلك هي امرأة فرعون، وهي آسية بنت مزاحم، كانت زوجة لواحد من أعتى العتاة وأظلم الجبابرة في الأرض - وذلكم هو فرعون الطاغوت الشقي الأثيم، الذي زعم - بفرط غروره وجهالته وكبريائه - أنه إله، ثم استخف قومه من حوله فأطاعوه وعبدوه من دون الله - لكن امرأته آسية آمنت بالله وحده وصدقت بدعوة موسى عليه والسلام - فلما علم فرعون بإيمانها نكّل بها تنكيلا وعذبها أشد العذاب - فدعت ربها {رب ابن لي عندك بيتا في الجنة} ذكر أنها كانت تعذّب بالشمس فإذا آذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها.
وقيل: سمّر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى، فأطلعها الله حتى رأت مكانها في الجنة - ومن دعائها أيضا {ونجني من فرعون وعمله} أي خلصني من كيد فرعون واكتب لي النجاة من شره وعدوانه {ونجني من القوم الظالمين} وهم القبط، أو المشركين من قوم فرعون - سألت ربها أن يدفع عنها كفر هؤلاء الظالمين وكيدهم وفسادهم.
١٢ - (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)
قوله: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها} مريم، منصوب بالعطف على {امرأت فرعون} ٧ يعني وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران {التي أحصنت فرجها} أحصنت، أي عفت ٨ من الإحصان وهو العفاف - يعني، وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران فقد حفظت فرجها وصانته عن الفواحش {فنفخنا فيه من روحنا} وذلك بواسطة جبريل (عليه السلام) إذ بعثه الله إليها وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها فحملت بأمر الله وقدرته، بعيسى عليه السلام.

قوله: {وصدّقت بكلمات ربها وكتبه} المراد بكلمات ربها عيسى وأنه نبي - فقد أيقنت مريم بذلك تمام اليقين {وكتبه} وهي الكتب الأربعة المنزلة على النبيين {وكانت من القانتين} أي العابدين المخبتين الخاشعين لله ٩.

٦٧ سورة الملك:

سورة الملك:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وهي ثلاثون آية واسمها الواقية والمنجية والمانعة - فهي تقي صاحبها وتنجيه من عذاب النار وتمنعه من عذاب القبر - والسورة حافلة بألوان مثيرة وعجاب من المواعظ وصور التذكير والتحذير - وفيها من أخبار النار وما يكابده فيها العصاة والخاسرون من ضروب التنكيل ما يخيف القلب ويستديم في النفس طول التذكير والحذر - وهي مبدوءة بالإخبار من الله عن عظيم صنعه وبالغ قدرته في هذا الكون المنتظم الرتيب الذي لا خلل فيه ولا نشاز ولا تفاوت - كون هائل شاسع مديد، في غاية التماسك والتكامل والانسجام - وفي ذلك من عظيم البرهان ما يكشف عن عظمة الخالق المقتدر وأنه الإله الصانع الحكيم، المنفرد في الخلق والإلهية.
١ - (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ١ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ٢ الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ٣ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ٤ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير}.
ذلك تعظيم من الله لنفسه المباركة، فهو الله الغالب المقتدر، الذي خلق الكون والحياة والإنسان، وخلق السماوات السبع في غاية الإحكام والانتظام والجمال - وهو قوله سبحانه: {تبارك الذي بيده الملك} يعني تقدس الله وتعاظم، الذي بيده مقاليد كل شيء وفي قبضته وسلطانه ملكوت السماوات والأرض - وهو سبحانه لا يعز عليه أن يفعل في الخلق ما يشاء.
٢ - (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)
قوله: {الذي خلق الموت والحياة} وهاتان ظاهرتان كونيتان عظميان في غاية العجب - وهما ظاهرتا الموت وما يعنيه من حقائق مثيرة من الركود والجمود والهمود - ثم ظاهرة الحياة وما تعنيه من الحركة والسعي والجد وغير ذلك من وجوه النشاط والكد والنصب والتصرف - لقد خلق الله هاتين الظاهرتين {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} ذلك قدر الله في خلقه - وهو سبحانه لا يسأل عما يفعل - فقد خلق الناس للامتحان والمساءلة ليستبين أيهم خير عملا {وهو العزيز الغفور} الله القوي الغالب، المنيع الجناب، الذي لا يغالب، وهو سبحانه يغفر الذنب لمن تاب إليه وأناب.
٣ - (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)
قوله: {الذي خلق سبع سماوات طباقا} طباقا صفة لسبع جمع طبق - يعني طبقا فوق طبق، بعضها فوق بعض - وذلك من تقدير الله وعظيم صنعه في الخلق - إذ خلق السماوات طباقا سبعا وجعلها في غاية القوة والصلابة والإحكام، وفي غاية الاتساق والانسجام {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} ليس فيما خلق الله من تنافر أو اختلاف أو اعوجاج أو تناقض أو خلل - بل هو خلق مستو منسجم مستقيم، يدل على عظمة الله الصانع الخالق.
قوله: {فارجع البصر هل ترى من فطور} يعني اردد بصرك في السماء المنسجمة المتسقة، هل ترى فيها من صدوع أو شقوق أو خروق أو خلل أو غير ذلك من وجوه الوهن والاختلال.
٤ - (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)
قوله: {ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} يعني اردد البصر وقلبه في السماء مرتين، أو مرة بعد أخرى، فانظر

هل ترى من شقوق أو فتوق أو خلل، {ينقلب إليك البصر خاسئا} أي يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا مبعدا من رؤية أي تفاوت، {وهو حسير} من الحسور، وهو الإعياء - وحسير بمعنى كليل - أو بلغ الغاية في الإعياء من فرط النظر في السماء فلم يجد فيها أيما خلل أو اضطراب - بل سماء متينة التركيب، بالغة القوة والتماسك والتكامل، مما يدل على عظمة الصانع المقتدر ذي الجلال.

٥ - (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

قوله: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح} مصابيح، جمع مصباح وهو السراج ١ ويراد بالمصابيح هنا كواكب السماء ونجومها التي تضيء، فتملأ الآفاق ضياء وإشعاعا، وتثير في الحياة والكائنات آيات من الجمال والبهاء - ومن جملة ما سخّرت له الكواكب والنجوم، أن جعلها الله {رجوما للشياطين} أي ترجم الشياطين بشهبها المنفصلة عنها كلما دنت من السماء لتسترق السمع من الملأ الأعلى - وهي كلما اقتربت من قضاء بغيتها في الاستراق، دهمتها الشهب بسرعتها الخاطفة فاحترقت - وفي الآخرة أعد الله لها عذاب السعير - أي النار المتوقدة المستعرة يصلاها الشياطين، ثم يظلون فيها ماكثين دائمين ٢.

٦ - (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قوله تعالى: {وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ٦ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ٧ تكاد تميّز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ٨ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ٩ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ١٠ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير}.

يتوعد الله الكافرين الذين كذبوا بدينه وجحدوا رسله واتخذوا من دونه آلهة أخرى - أولئك لهم عذاب جهنم وساءت منقلبا ومآلا.

٧ - (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)

قوله: {إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور} إذا ألقي الكفار في النار- وهي تتأجج وتتسعر وتضطرم- {سمعوا لها شهيقا}، والشهيق والشهقة كالصيحة ٣، والمراد به الصوت أو الصياح الذي يصدر من النار لدى إلقاء الخاسرين فيها، {وهي تفور} أي تغلي بهم كغلي القدور أو الماء في المرجل.

٨ - (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

قوله: {تكاد تميّز من الغيظ} أي تكاد النار تتقطع أو ينفصل بعضها من بعض، لشدة غيظها منهم وغضبها عليهم، {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير} كلما ألقي في النار طائفة من الظالمين الخاسرين، سألهم زبانية جهنم على سبيل التوبيخ وزيادة في التنكيل: ألم يأتكم رسل يبلّغونكم دعوة ربكم ويحذرونكم مثل هذا اليوم البئيس.

٩ - (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ)

قوله: {قالوا بلى قد جاءنا نذير} بلى جاءنا الرسول فحذرنا وخوفنا {فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء} أي جحدنا نبوة المرسلين وكذبنا بما جاءوا به وأنكرنا نزول الوحي عليهم وقلنا لهم {إن أنتم إلا في ضلال كبير} يعني ما أنتم إلا تائهون سادرون في البعد عن الحق.

١٠ - (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

قوله: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} أي لو كانت لنا أسماع فنعي بها ما أنزل إلينا من الحق، أو كانت لنا عقول فنتدبر بها ونفهم ما كان يقوله النبيون، لما كنا اليوم من الكافرين فنصلى معهم عذاب السعير.

١١ - (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

قوله: {فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير} أقروا أنهم خاطئون وأنهم يستحقون العذاب في السعير {فسحقا لأصحاب السعير} سحقا منصوب على المصدر - أي أسحقهم سحقا ٤ والمعنى: بعدا لأهل النار - أو بعدا لهم من رحمة الله ٥.

١٢ - (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

قوله تعالى: {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ١٢ وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ١٣ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ١٤ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور}.

ذلك تذكير بأهمية التقوى واستدامة الخوف من الله، والاستشعار بأن الله رقيب عليم بالسر والعلن - وبذلك يبادر المرء لاجتناب المعاصي والمحظورات في غفلة الناس وغياب الناظرين - وهو قوله سبحانه: {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} يبين الله لعباده المؤمنين الذين يخافونه ويعبدونه ويطيعونه وهم لا يرونه، أولئك يستر الله عليهم الذنوب بالعفو عنها، ويجزيهم حسن الجزاء.

١٣ - (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله: {وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور} سواء عليكم أأسررتم كلامكم فقلتموه في خفية واستتار، أو قلتموه في إعلان وجهار، فإن الله عليم بذلك كله - وهو سبحانه يستوي عنده السر والعلن، وهو عليم بما تكنه القلوب من خفايا وأسرار.

١٤ - (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

قوله: {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} الاستفهام للإنكار - ومن، في موضوع رفع فاعل {يعلم} والمفعول محذوف - أي ألا يعلم الخالق خلقه؟ ٦ فالله خالق كل شيء، وخالق الناس، أفلا يعلم ما تخفيه صدورهم وهو خالقهم، {وهو اللطيف الخبير} الجملة في محل نصب حال: أي وهو العليم بلطائف الأمور ودقائقها، الخبير بما يفعله العباد أو يسرّونه.

١٥ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

قوله: {وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا} ذلولا، من الذّلة بكسر الذال أي اللين - ذلت الدابة ذلاّ بالكسر وذللت تذليلا أي سهلت وانقادت ٧ والمعنى أن الله سهّل لكم الأرض وسخرها لكم تسخيرا، إذ جعلها سهلة مستقرة لا تميد بكم ولا تضطرب، وهيأ لكم فيها أسباب الحياة والعيش والقرار، من الماء والهواء والتراب، والجبال والسهول، والنار والمعادن، وغير ذلك من لوازم الحياة والاستقرار على هذه الأرض - {فامشوا في مناكبها} أي امشوا في أطراف الأرض ونواحيها، أو في طرقها وفجاجها، {وكلوا من رزقه} والأمر للإباحة، أي كلوا من رزق الله الذي آتاكم، وأخرجه لكم من مناحي الأرض، ومن فجاجها وسهولها وجبالها، {وإليه النشور} أي يخرجكم الله من القبور أحياء، ثم تنتشرون في المحشر لتلاقوا الحساب والجزاء ٨.

١٦ - (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

قوله تعالى: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ١٦ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ١٧ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ١٨ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير}.

ذلك تخويف من الله للمكذبين الجاحدين، إذ ينذرهم عقابه بخسفهم وتدميرهم - فقال سبحانه: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض} يعني أأمنتم عقوبة من في السماء وهو الله، أو قدرته وسلطانه {أن يخسف بكم الأرض} من الخسف وهو الذهاب في الأرض - خسف الله به الأرض أي غاب به فيها ٩ {فإذا هي تمور} أي تذهب وتجيء من المور وهو الاضطراب.

١٧ - (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

قوله: {أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا} حاصبا أي ريحا فيها حصباء صغار، أو حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل - {فستعلمون كيف نذير} يعني: إذا نزل بكم العذاب فعاينتموه فستعلمون حينئذ كيف عاقبة إنذاري ووعيدي لكم بالعقاب.

١٨ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

قوله: {ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير} يعني لقد كذب المشركون من الأمم السالفة، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم

لوط وأصحاب مدين وغيرهم من الظالمين المكذبين: {فكيف كان نكير} أي فكيف كان إنكاري عليهم، وعقابي لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم.

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

قوله: {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن} صافات، أي باسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران، {ويقبضن} أي يضممن أجنحتهن إذا ضربن بها جنوبهن، {ما يمسكهن إلا الرحمن} أي ما يمسكهن في الهواء عند الطيران إلا الله - وذلك بما بث في الطير من القدرة على الطيران، وبما ركب فيهن من أسباب تمكنهن من ذلك - كالهواء الذي يحمل الطير فيسبح فيه، وبما خوّلها الله من أجنحة فتبسطها وتضمها لتمكث في الجو وقتا غير قصير - إن هذه العجيبة لهي من صنع الله الذي خلق كل شيء، {إنه بكل شيء بصير} الله مطلع على الأسرار والخفايا، فلا يعزب عن علمه أيما شيء.

٢٠ - (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلا فِي غُرُورٍ)

قوله تعالى: {أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ٢٠ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجّوا في عتو ونفور ٢١ أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صرط مستقيم ٢٢ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ٢٣ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ٢٤ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ٢٥ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ٢٦ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون}.

يندد الله بالمشركين الخاطئين الساربين في الجهالة والضلالة، إذ يرجون النصر والعون والرزق من غير الله - أولئك خاطئون متشبثون في الباطل، موغلون في الوهم والغرور - فقال سبحانه: {أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن} أم، حرف عطف، ومن، في موضع رفع مبتدأ - وهذا مبتدأ ثان، والذي خبره والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول ١٠ والاستفهام في الآية يراد به الإنكار والتوبيخ للمشركين الجاهلين، الذين يظنون أن آلهتهم المزعومة، تهرع لنجدتهم ونصرتهم إذا نزل بهم بلاء - والمعنى: من ذا الذي يستطيع من الخلق أن يدفع عنكم عذاب الله إن أحاط بكم - إنه ليس لكم أيها المشركون الضالون من جند، أي حزب ومنعة ينصرونكم من بأس الله إن جاءكم.

قوله: {إن الكافرون إلا في غرور} يعني ما الكافرون إلا واهمين وقد غرهم الشيطان، إذ سوّل لهم أن آلهتم المزعومة تنصرهم من بأس الله وعذابه إن نزل بهم.

٢١ - (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

قوله: {أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه} يعني أم من ذا الذي يعطيكم طعامكم وشرابكم وأقواتكم إن أمسك الله ذلك فمنعه عنكم {بل لجّوا في عتو ونفور} يعني بل تمادوا في الطغيان والتمرد والاستكبار عن الحق.

٢٢ - (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قوله: {أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم} - ذلك مثل ضربه الله للكافر والمؤمن - فالأول مكبّ على وجهه يمشي معتسفا في مكان مضطرب غير مستو ولا مستقيم، فيه انخفاض وارتفاع - فما يمشي فيه ساعة حتى يعثر ويخرّ على وجهه ساقطا - وهذا نقيض الثاني الذي يمشي سويا، أي قائما معتدلا سالما من التعثر والخرور، أو السقوط على وجهه - فهو مستقيم في مشيه، غير معتسف ولا مضطرب ولا متعثر - أو أنه يراد بالأول، الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق، فهو بذلك يعتسف في مشيه ويتخبط وينكب على وجهه ساقطا - وهو ليس كالثاني السوي البصير، الذي يمشي في طريقه ضالا هائما متلجلجا.

وتلك هي حال الكافرين في كل زمان - فإنهم ضالون يساقون في حياتهم الدنيا إلى ما تسوّله الأهوال والشهوات - فما يطغى على أنفسهم وطبائعهم إلا الأثرة والطمع والغريزة - أولئك هم الضالون من الناس الذين تسوقهم الشياطين إلى الضلال والمفاسد والشرور وظلم

الإنسان للإنسان، أما المؤمنون الصادقون الذين يستضيئون بنور العقيدة الربانية السمحة، ويستظلون بظل الإسلام الرخيّ الحاني، لا جرم أنهم في حياتهم آمنون سالمون أسوياء، غير مضطربين ولا متعثرين ولا مذعورين.

٢٣ - (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)

قوله: {قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة} يبين الله لعباده مننه عليهم، إذ بدأ خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا، ثم جعل لهم السمع ليسمعوا به، والأبصار ليبصروا بها، والعقول ليتفكروا بها ويفهموا.

قوله: {قليلا ما تشكرون} قليلا، منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف - وما، زائدة، للتأكيد - والمعنى: لا تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من صنوف النعم، إلا شكرا قليلا - فأنتم تكفرون نعم الله عليكم، وتسخّرونها في العصيان والباطل.

٢٤ - (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قوله: {قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون} أي أخبرهم يا محمد بأن الله هو الذي خلقهم وبثهم في أقطار الأرض على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وصورهم، ثم يحشرهم إليه يوم القيامة للحساب والجزاء.

٢٥ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قوله: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} يسأل المشركون على سبيل التكذيب والاستسخار: متى تقوم القيامة، ومتى يكون العذاب الذي تخوفوننا به - وهم بذلك يخاطبون الرسول والذين آمنوا معه.

٢٦ - (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قوله: {قل إنما العلم عند الله} أي لا يعلم أوان الساعة أحد غير الله، فهو سبحانه مستأثر بعلمها لنفسه وحده - {وإنما أنا نذير مبين} لست إلا مبعوثا لكم من الله، أبلغكم رسالة ربي، وأحذركم الكفر والضلال والعصيان.

٢٧ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ)

قوله: {فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا} يعني لما رأى الكافرون الوعد، وهو قيام الساعة أو العذاب {زلفة} أي قريبا فعاينوه {سيئت وجوه الذين كفروا} أي ساءت معاينة العذاب وجوه الكافرين المكذبين، فغشيها من الاغتمام والكلوح والعبوس والتجهم ما غشيها {وقيل هذا الذي كنتم به تدعون} أي تقول لهم زبانية جهنم: هذا العذاب الذي كنتم تطلبونه وتستعجلونه ١١

٢٨ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله تعالى: {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ٢٨ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين ٢٩ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين}.

كان المشركون من أهل مكة يتربصون بالنبي صلى الله عليه وسلم الموت ويدعون عليه وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: إن أماتني الله أيها الناس ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا فأخّر آجالنا، فمن ذا الذي يمنعكم من عذاب الله إن جاءكم - فلا فائدة لكم في التربص بنا، أو استعجال الموت لنا، وإنه لا مناص لكم من نزول النكال الأليم بكم.

٢٩ - (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

قوله: {قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا} يعني ربنا الرحمن، صدّقنا به واعتمدنا عليه، وفوضنا كل أمورنا إليه {فستعلمون من هو في ضلال مبين} سوف تعلمون أيها المشركون المكذبون المتربصون، يوم الحشر، من هو تائه عن الحق، موغل في الضلالة والعماية، ومن هو مهتد رشيد، ماض في طريق الله المستقيم.

٣٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

قوله: {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين}، غورا أي غائر، وصف بالمصدر للمبالغة ١٢ يعني، قل لهم: أرأيتم أيها المشركون إن أصبح ماؤكم الذي تشربونه غائرا، ذاهبا في الأرض حتى عزّ عليكم إخراجه أو بلوغه، {فمن يأتيكم بماء معين} من ذا الذي يأتيكم بماء ظاهر سائح جار قريب، تشربون منه وتسقون حرثكم وأنعامكم - فإن أقروا أنه لا يأتيهم به إلا الله، فَلِمَ يشركون به ويتخذون معه أو من دونه الأنداد والأرباب ١٣

٦٨ سورة القلم:

سورة القلم:

بيان إجمالي للسورة:

هذه السورة مكية وآياتها ثنتان وخمسون - وهي مبدوءة بالقسم من الله، إذ يقسم بالقلم وبما يكتبه الكاتبون، على صدق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأمانته وأنه غير مجنون، كما يهذي السفهاء والجهلاء من المشركين الضالين - بل إنه في غاية الحسن والكمال من الخلق البشري المفضال بشهادة الله الخالق {وإنك لعلى خلق عظيم}.

وفي السورة تحذير من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من الاغترار بالمشركين المكذبين، ومن مداهنتهم وكيدهم وإضلالهم - وفيها تخويف من أهوال القيامة وما يقع فيها من أحداث مخوفة جسام - ويتجلى ذلك في قوله سبحانه: {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون} لا جرم أن الساعة رعيبة مخوفة، وفيها من البلايا والنوازل والفظائع ما يزلزل القلوب والأبدان.

وفي السورة بيان بحقيقة العين الحاسدة، التي تزلق المصابين المحسودين، لنبين عند ذلك أن سبيل التحرز من حسد الحاسدين، قراءة القرآن، ثم الضراعة إلى الله بالدعاء.

إلى غير ذلك من المعاني والمواعظ التي تفيض بها هذه السورة في آياتها العجاب، وعباراتها المثيرة الحسان، وألفاظها الربانية العليا.

١ - (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ن والقلم وما يسطرون ١ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ٢ وإن لك لأجرا غير ممنون ٣ وإنك لعلى خلق عظيم ٤ فستبصر ويبصرون ٥ بأيكم المفتون ٦ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}.

{ن} حرف من حروف التهجي كغيره من فواتح السور وقد سميت به السورة، وما ينبغي أن نذهب بعيدا في تأويل هذا الحرف، كي لا نوغل أو نتيه في الشطحات من الإسرائيليات - فالله أعلم بما يريده من مثل هذه الحروف.

قوله: {والقلم وما يسطرون} أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وما يناط به من التبيين - وهو في ذلك كاللسان ينطق بالمعاني فتعيها الآذان وتدركها الأذهان - وفي القسم من الله بالقلم ما يدل على الأهمية البالغة للقلم الذي تخطّ به العلوم والمعارف وكل الدروس والأخبار والحكم - والمراد به كل قلم مما يكتب به الكاتبون سواء في الأرض أو السماء {وما يسطرون} ما، اسم موصول - أي والذي يسطرون - والضمير عائد إلى أصحاب القلم الذين يكتبون به - والمعنى: وما يكتبه الكاتبون من الناس أو الملائكة الحفظة.

٢ - (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

قوله: {ما أنت بنعمة ربك بمجنون} وهذا جواب القسم - ما نافية - وأنت اسمها، وخبرها {بمجنون} والله بذلك ينفي الجنون عن رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ رماه به المشركون الظالمون، فقد كانوا يقولون: إن محمدا مجنون - إن ذلكم افتراء وباطل، يهذي به الأفاكون السفهاء على خير الأنام ورسول البشرية، أكمل الناس صفاتا، وأكرمهم أخلاقا، عليه أفضل الصلاة والسلام.

والمعنى: أنت لست بنعمة الله عليك، ورحمته بك، بمجنون يا محمد.

٣ - (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

قوله: {وإن لك لأجرا غير ممنون} يعني لك من الله ثواب جزيل غير مقطوع بما اضطلعت به من أداء الأمانة، واصطبارك على المكاره والأذى في تبليغ الحق للناس.

٤ - (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

قوله: {وإنك لعلى خلق عظيم} وهذه شهادة كريمة عليا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه ذو خلق عظيم - لقد كان (عليه الصلاة والسلام) تتجلى فيه كل المحاسن من الآداب وكريم الصفات والخصال، من حياء ومروءة وشجاعة وسخاء وتضحية، وإيثار وبر ورحمة ولين ونظافة، فضلا عما يرسخ في أعماقه من طهارة السريرة وسلامة النية، فكان أخشع الناس قلبا وأصدقهم طوية، إلى غير ذلك من عظيم الخلال مما لا يتسع لذكره المجال.

وفي حقيقة خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، روى الإمام أحمد عن السيدة عائشة أنها سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: " كان خلقه القرآن ".

وثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط - ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته - وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، ولا مسست خزّا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكا ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خيّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله فينتقم لله عز وجل.

وروى الإمام أحمد أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق ".

٥ - (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

قوله: {فستبصر ويبصرون} يعني سوف تعلم يا محمد ويعلمون يوم الحساب، وحينئذ يوقن المجرمون أنهم صالوا الجحيم، وأنهم هاوون في الخسران والعذاب الأليم.

٦ - (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ)

قوله: {بأيّكم المفتون} الباء زائدة للتأكيد - يعني ستعلم ويعلمون من الذي فتن، أو مال عن الحق وضل عن سبيل الله المستقيم - وقيل: المفتون معناه المجنون.

٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

قوله: {إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله} الله عليم بمن مال عن سبيله وهو دينه الحق، دين الإخلاص والتوحيد والنجاة {وهو أعلم بالمهتدين} الله عليم بمن اهتدى فسلك سبيل الحق والصواب، وسار في درب الهداية والرشاد - وهذه شهادة من الله لرسوله والمؤمنين، بأنهم على الحق والهدى، على طريق الله المستقيم، ودينه القويم، وما من غيره إلا الشرك والضلال والاعوجاج ٠١.

٨ - (فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)

قوله تعالى: {فلا تطع المكذبين ٨ ودوا لو تدهن فيدهنون ٩ ولا تطع كل حلاف مهين ١٠ هماز مشّاء بنميم ١١ منّاع للخير معتد أثيم ١٢ عتلّ بعد ذلك زنيم ١٣ أن كان ذا مال وبنين ١٤ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ١٥ سنسمه على الخرطوم}.

يحذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من الاغترار بالكافرين المكذبين ومطاوعتهم، أو ممالأتهم والميل إليهم فيما كانوا يدعونه إليه، من الكف عن دينه ليكفوا عنه، أو فيما كانوا يدعونه إليه من دين آبائهم، دين الشرك والضلال.

٩ - (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)
قوله: {ودوا لو تدهن فيدهنون} تدهن من الإدهان والمداهنة - وهي المصانعة أو المواربة ٢ يعني: ود المشركون لو تصانعهم في دينك يا محمد فيصانعونك في دينهم - أو ودوا لو تعبد آلهتهم مدة من الوقت ليعبدوا إلهك مدة - فقد طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يداهنهم أو يصانعهم في دين الله، فيتخلى عن بعضه ليتخلوا هم عن بعض دينهم - وذلك هو اللين أو المصانعة والمجاملة للكافرين على حساب دين الله - وذلك هو ديدن الكافرين وأعوانهم في كل زمان - فهم يودون أن يداهنهم دعاة الإسلام ليكفوا عن الدعوة إلى دين الله، أو لينكفّوا ويحجموا عن بعض قواعده وأحكامه، ومنها قضايا السياسة والجهاد وغير ذلك من قضايا الأحوال الشخصية، أو رفض المفاصلة الواضحة بين عقيدة التوحيد الخالص وغيره من ملل الهوى والشرك.
فما يجوز لمسلم البتة أن يلاين الكافرين أو يداهنهم، فينكفّ عن شيء من أحكام الإسلام، ليرضى عنه الكافرون الظالمون وأعوانهم من المتمالئين، وإنما يبتغي المسلم في كل الأحوال مرضاة الله وحده، فهو بذلك لا يرتضي بغير منهج الله وشرعه بديلا، ويأبى التنازل عن شيء من أحكامه مهما قل.
١٠ - (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)
قوله: {ولا تطع كل حلاف مهين} الحلاف كثير الحلف بالباطل - والمهين من المهانة، وهي ضعف العقل وهوان التمييز والفهم - والمراد به الكذاب الأشر، والوضيع الفاجر المحتقر عند الله - وذلك الذي نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن طاعته أو الاستماع إليه.
١١ - (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ)
قوله: {هماز مشاء بنميم} الهماز الذي يغتاب الناس فيذكرهم بالسوء وفاحش القول في غيابهم - أما المشّاء بنميم، فهو الذي يمشي بين الناس بالنميمة ليفسد بينهم، فيوقع بينهم الخصومة والعداوة - وفي الحديث " لا يدخل الجنة قتّات " والقتات، النمام.
١٢ - (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)
قوله: {مناع للخير معتد أثيم} المناع للخير، الذي يبخل بالمال فلا يؤدّيه في وجوه الخير، من صدقة ونفقة ونحوهما - أو هو الذي يصدّ الناس عن فعل المعروف، ويمنعهم من فعل الخير، ويكرّه إليهم الدخول في الإسلام، {معتد أثيم} المعتدي، المتجاوز للحد في الظلم، والأثيم هو كثير الإثم والمعاصي.
١٣ - (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)
قوله: {عتلّ بعد ذلك زنيم} اختلف المفسرون في تأويل العتل - فقد قيل: العتلّ، الشرير الفاحش الخلق - وقيل: الشديد الخصومة في الباطل - وقيل: هو الغليظ الجافي - وقيل: الأكول المنوع - وأما الزنيم فهو الدعيّ الملصق بالقوم، وهو ليس منهم - وقيل: الظلوم.
١٤ - (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)
قوله: {أن كان ذا مال وبنين} أن كان، مفعول لأجله، وتقديره: لأن كان ذا مال وبنين ٣ والمعنى: لا تطعه لماله وبنيه.
١٥ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
قوله: {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} هذا الشرير الظلوم الشقي، إذا سمع آيات القرآن تتلى عليه، بادر التكذيب والجحود على سبيل المكابرة والاستنكاف، فقال: ذلك ضرب من قصص الأولين السابقين وخرافاتهم.
١٦ - (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)
قوله: {سنسمه على الخرطوم} والمراد بالخرطوم، الأنف - أي سنلحق به عيبا في أنفه يظل يشينه ولا يفارقه - وقيل: سنخطمه على أنفه بالسيف ٤.
١٧ - (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

قوله تعالى: {إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ١٧ ولا يستثنون ١٨ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ١٩ فأصبحت كالصّريم ٢٠ فتنادوا مصبحين ٢١ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ٢٢ فانطلقوا وهم يتخافتون ٢٣ أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين ٢٤ وغدوا على حرد قادرين ٢٥ فلما رأوها قالوا إنّا لضالون ٢٦ بل نحن محرومون}.

ذلك إخبار من الله عن فئة من الناس استأثرت لنفسها بالمال، فضنت به عن أداء الحق منه للفقراء بعد أن استحوذت عليهم لوثة الشح وفرط الحب للمال - فما لبثوا أن انقلبوا محزونين حائرين بعد أن ألفوا زرعهم وثمارهم قد أتت عليها آفة من السماء فأحرقتها بالكلية، انتقاما منهم لبخلهم ومنعهم حق الفقراء، وذلك هو قوله: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة} والذين ابتلاهم الله كفار مكة، فقد ابتلوا بالجوع والقحط عقب بطرهم وكفرانهم نعمة ربهم عليهم، وتكذيبهم نبيهم صلى الله عليه وسلم - لقد ابتلاهم الله بالقلة وسوء العيش، كما ابتلى أصحاب الجنة، وخبر هؤلاء معروف لدى أهل مكة - والجنة المذكورة في الآية كانت بأرض اليمن، على مقربة من صنعاء، وكان صاحبها يؤدي حق الله فيها حتى إذا مات وصارت الجنة لأولاده، منعوا الفقراء منها وبخلوا بحق الله فيها - وقيل: المراد بهم قوم من ثقيف، كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظّا للمساكين عند الحصاد والصرام - فقال بنوه: المال قليل، والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا - وعزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم أن بعث الله على زرعهم وثمرهم آفة من السماء جعلته خرابا - وقيل: كان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير.

قوله: {إذ أقسموا ليصرمّنها مصبحين} الصرم معناه القطع، ومصبحين منصوب على الحال - يعني حلفوا ليقطعن ثمار جنتهم وزرعها في وقت الصباح.

١٨ - (وَلا يَسْتَثْنُونَ)

قوله: {ولا يستثنون} أي لا يقولون إن شاء الله - أو لا يستثنون للمساكين شيئا من زرعهم وثمارهم كما كان يفعل أبوهم.

١٩ - (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

قوله: {فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون} المراد بالطائف نار - أي أتت على جنتهم من عند الله نار أحرقت كل زرعهم وثمارهم حال كونهم نائمين.

٢٠ - (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

قوله: {فأصبحت كالصريم} أي كالشيء الذي صرمت ثماره أي قطعت - وقيل: أصبحت كالليل الأسود المظلم بعد أن أتت عليها النار فصيّرتها رمادا أسود.

٢١ - (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ)

قوله: {فتنادوا مصبحين} يعني نادى بعضهم بعضا في الصباح {أن اغدوا على حرثكم} أن، المفسرة - يعني قال بعضهم لبعض: اخرجوا غدوة، أي في الصباح- على ثماركم وزرعكم {إن كنتم صارمين} أي إن كنتم قاصدين للقطع عازمين عليه.

٢٣ - (فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ)

قوله: {فانطلقوا وهم يتخافتون} يتخافتون من الخفت وهو السكون - وخفت أي سكن ولم ينبس - والمعنى: ذهب أصحاب الجنة إلى جنتهم وهم يسرّون الكلام بينهم، كيلا يعلم بهم أحد.

٢٤ - (أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ)

قوله: {أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين} أن، المفسرة للتخافت المذكور - أي يسرّ بعضهم إلى بعض هذا التخافت وهو: لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيسألكم إعطاءه منها ما كان يعطيه أبوكم.

٢٥ - (وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ)

قوله: {وغدوا على حرد قادرين} الحرد، معناه القصد ٥ أي ذهبوا إلى جنتهم في الصباح مستسرّين، قادرين على جنتهم عند أنفسهم أو

على قدرة في أنفسهم وجدّ أو قادرين على المساكين.

٢٦ - (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)

قوله: {فلما رأوها قالوا إنا لضالون} لما رأوا ما حل بجنتهم من الآفة السماوية الحارقة التي أذهبت ثمارهم وزرعهم وأحرقته إحراقا، قالوا وهم يعتصرهم اليأس والندم {إنا لضالون} قال ذلك بعضهم لبعض، وهو: أنا قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه هي.

٢٧ - (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

ثم لما نظروا وأيقنوا أن هذه جنتهم ورأوا ما حل بها من إفناء الزرع والثمر قالوا: {بل نحن محرومون}.

أي حرمنا الله الاستفادة من جنتنا عقابا لنا بما عزمنا عليه من منع المساكين وصدهم عن الانتفاع منها ٦.

٢٨ - (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ)

قوله تعالى: {قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون ٢٨ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ٢٩ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ٣٠ قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين ٣١ عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ٣٢ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}.

أوسطهم يعني، أمثلهم وخيرهم وأسدّهم قولا ورأيا - قال هذا لبقيتهم {ألم أقل لكم لولا تسبّحون} أي تستثنون - أو تشكرون الله على ما أنعم به عليكم.

٢٩ - (قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

قوله: {قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين} أي تنزه الله عن الظلم فيما صنع بجنتنا من الإفناء أو الحرق - فإنما كان ذلك بسبب ذنبنا وهو الشح والأثرة ومنع الفقراء من الخير.

٣٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ)

قوله: {فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون} أي يلوم بعضهم بعضا على منعهم المساكين من الخير، وعزمهم على صدهم عن الانتفاع من الجنة - ثم نادوا على أنفسهم بالويل، إذ قالوا {ياويلنا إنا كنا طاغين}.

٣١ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)

قوله: {ياويلنا إنا كنا طاغين} أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء والتمالؤ على صدهم عن خير الجنة.

٣٢ - (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

قوله: {عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها} بعد إقرارهم بالخطيئة أنابوا إلى ربهم تائبين نادمين وسألوه أن يدلهم جنة خيرا من جنتهم المحترقة {إنا إلى ربنا راغبون} أي راغبون في طاعة ربنا وفي الإنابة إليه، طالبون منه العفو والخير.

٣٣ - (كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

قوله: {كذلك العذاب} كذلك في موضع رفع خبر مقدم، والعذاب مبتدأ مؤخر - يعني مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به، عذاب الدنيا.

قوله: {ولعذاب الأخرة أكبر} ذلك تأكيد من الله على أن عذاب الآخرة أشد وأفظع وأنكى {لو كانوا يعلمون} لو كان المشركون يعلمون ذلك - لكنهم لفرط ضلالهم وغفلتهم لا يعلمون ذلك ٧.

٣٤ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

قوله تعالى: {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ٣٤ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ٣٥ ما لكم كيف تحكمون ٣٦ أم لكم كتاب فيه تدرسون ٣٧ إن لكم فيه لما تخيّرون ٣٨ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ٣٩ سلهم أيّهم بذلك زعيم ٤٠ أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين}.

يذكر الله جلا جلاله حال المتقين يوم القيامة وما وعدهم به من خير الجزاء وهو قوله: {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} أي للمتقين الذين يخشون ربهم فيجتنبون عصيانه ويلتزمون شرعه وأحكام دينه {جنات النعيم} أعد الله لهم عنده في جواره وتحت رحمته جنات يقيمون فيها لابثين ما كثين ليجدوا فيها من الخير والبهجة والبركة وصنوف اللذات ما ليس له نظير.

٣٥ - (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

قوله: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين} الإستفهام للإنكار - والفاء للعطف على مقدر - فقد كان صناديد قريش المشركون يرون أنهم محظوظون في الدنيا وأن المسلمين غير أولي حظوظ فيها، فلما سمعوا بذكر الآخرة وما أعدّ فيها للمسلمين قالوا: إن صح ما يزعمه محمد فلن يكون حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا.

فرد الله مقالتهم وكذبهم تكذيبا في قوله: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين} الاستفهام للإنكار - أي لن يجعل الله المسلمين كالمجرمين العصاة يوم القيامة - فالمؤمنون لهم الجنات خالدين فيها، والكافرون العصاة يصلون النار لابثين فيها لا يخرجون.

٣٦ - (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قوله: {ما لكم كيف تحكمون} ذلك توبيخ من الله لهؤلاء المجرمين السفهاء - أي كيف تحكمون هذا الحكم الباطل، إذ تزعمون أنكم في الآخرة محظوظون كحالكم من وفرة الحظ في الدنيا.

٣٧ - (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)

قوله: {أم لكم كتاب فيه تدرسون} وذلك توبيخ آخر للمشركين السفهاء، إذ يسألهم الله موبخا مستنكرا: أم لكم كتاب تقرؤون فيه فتجدون أنكم أولو حظ كريم في الآخرة.

٣٨ - (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)

{إن لكم فيه لما تخيّرون} كسرت همزة إن لدخول اللام في الخبر - يعني إن لكم في ذلك ما تختارون لأنفسكم من الأمور.

٣٩ - (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)

قوله: {أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة} يعني أم لكم إلى يوم القيامة عهود ومواثيق على الله {بالغة} مؤكدة استوثقكم بها في أن يدخلكم الجنة {إن لكم لما تحكمون} أي بأن لكم حكمكم.

٤٠ - (سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)

قوله: {سلهم أيهم بذلك زعيم} يعني سل يا محمد هؤلاء المشركين المتقوّلين على الله ما ذكر، أيهم كفيل بصدق ما يزعمون ويتقوّلون.

٤١ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

قوله: {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} يعني ألهؤلاء المتقولين المبطلين شركاء يؤيدونهم في افترائهم ويشهدون لهم بصدق ما يزعمون، فليأتوا بهؤلاء الشركاء ليشهدوا لهم {إن كانوا صادقين} فيما يزعمون - والأمر هنا للتعجيز ٨.

٤٢ - (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ)

قوله تعالى: {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ٤٢ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ٤٣ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ٤٤ وأملي لهم إن كيدي متين ٤٥ أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ٤٦ أم عندهم الغيب فهم يكتبون}.

يوم، منصوب من وجهين - أحدهما: أن يكون العامل فيه: فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق - وثانيهما: أن يكون العامل فيه فعلا مقدرا، وتقديره: واذكر يوم ٩، والكشف عن الساق مثل يضرب في شدة الأمر وفظاعة الخطب وهول المنظر وأصل ذلك في الروع والهزيمة وتشمير النساء ذوات الخدور عن سوقهن في الهرب - والمعنى: يشتد أمر الرحمن يوم القيامة حيث الفزع الأكبر، إذ تتفاقم الأهوال والزلازل والبلايا - أو يوم تشتد الحال أو الساعة، كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على سبيل المجاز {ويدعّون إلى

السجود فلا يستطيعون} تبقى أصلاب المنافقين والظالمين المكذبين طبقا واحدا يوم القيامة فلا يستطيعون السجود فإن قيل: لم يدعون إلى السجود وليس من تكليف يوم القيامة؟ فإنه يجاب عن ذلك، بأنه يطلب منهم السجود على سبيل التوبيخ والتعنيف على تركهم السجود في الدنيا - وفي ذلك تهييج للندم الشديد، والحسرة البالغة في نفوسهم على ما فرطوا في دنياهم - وفي ذلك من زيادة التنكيل بهم ما لا يخفى.

٤٣ - (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

قوله: {خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة} خاشعة، منصوب على الحال من ضمير {يدعون} - وأبصارهم مرفوع على الفاعلية ١٠.

يعني أبصارهم خاضعة ذليلة قد غشيها الذل والندم والاستيئاس {وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} كانوا يدعون إلى الصلاة في الدنيا وهم أصحاب معافون لا يمنعهم من ذلك مانع فيدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون - وقال ابن عباس: هم الكفار يدعون في الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعوهم وهم خائفون.

٤٤ - (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)

قوله: {فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث} ومن، في موضع نصب بالعطف على ضمير المتكلم في {فذرني} ١١.

يعني دعني ومن يكذب بهذا القرآن، فكله إلي فإني أكفيكه، فحسبك إيقاعا به أن تكل أمره إلي وتخلي بيني وبينه - أو لا تشغل قلبك بشأنه واعتمد على ربك في الانتقام منه - وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد شديد للمكذبين: فالله منتقم من أعداء دينه المجرمين، وهو سبحانه يملي لهم، ويمهلهم حتى إذا جاء وعدهم بالتدمير أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قوله: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون} الاستدراج معناه النقل من حال إلى حال - واستدراجه، أدناه منه على التدريج ١٢ واستدرجهم أي استنزلهم درجة فدرجة حتى يوقعهم في العقاب {من حيث لا يعلمون} أي وهم لا يشعرون بل يظنون أن في ذلك كرامة لهم وهو في الحقيقة توريط لهم وإهانة.

٤٥ - (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

قوله: {وأملي لهم إنّ كيدي متين} أي أمهلهم وأنسئ لهم في الأجل ليزدادوا إثما، كيدا لهم مني ومكرا بهم، فكيدي لهم قوي شديد.

٤٦ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

قوله: {أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون} يعني أتطلب من هؤلاء المشركين يا محمد جزاء وثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان والطاعة لله فهم من هذا الجزاء مثقلون - أي شق عليهم أن يبذلوه - إنك لم تسألهم شيئا على إيمانهم وعبادة ربهم.

٤٧ - (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

قوله: {أم عندهم الغيب فهم يكتبون} يعني أعندهم علم ما غاب عنهم، أو عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه علم الأولين والآخرين فهم بذلك يكتبون منه ما فيه من الغيب فيجادلونك به ويزعمون أنهم مستغنون عما تدعوهم إليه من الإيمان وأنهم عند ربك خير من المؤمنين ١٣.

٤٨ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

قوله تعالى: {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ٤٨ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ٤٩ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ٥٠ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ٥١ وما هو إلا ذكر للعالمين}.

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر على أذى المشركين ويحتمل مساءاتهم وسفاهاتهم وهو قوله: {فاصبر لحكم ربك} أي اصبر يا محمد لقضاء الله، وامض لما أمرك الله به، ولا يثنينك المشركون والظالمون بكيدهم وصدودهم وأذاهم عن تبليغ دعوة الحق للناس {ولا تكن كصاحب الحوت} وهو يونس بن متى - لا تكن مثله في الغضب والضجر والاستعجال بل اصطبر واحتمل وادع إلى دين الله مطمئن النفس راضيا بقضاء الله وقدره.

قوله: {إذ نادى وهو مكظوم} أي نادى يونس ربه خاشعا متضرّعا وهو في ظلمات البحر وقد ابتلعه الحوت قائلا {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} دعا يونس ربه بهذا الدعاء {وهو مكظوم} أي مكروب ومغموم.
٤٩ - (لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)
قوله: {لولا أن تداركه نعمة من ربه} اختلفوا في المراد بالنعمة ههنا - وأولى الأقوال بالصواب في ذلك على أنها الرحمة من الله، إذ أخرجه الله من بطن الحوت سالما آمنا برحمته.
قوله: لنبذ بالعراء وهو مذموم} يعني لألقي من بطن الحوت بالعراء، وهو الفضاء من الأرض {وهو مذموم} أي مليم - وقيل: مذنب.
٥٠ - (فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)
قوله: {فاجتباه ربه فجعله من الصالحين} أي اصطفاه واختاره للنبوة {فجعله من الصالحين} أي أرسله إلى الناس مبلغا دعوة ربه.
٥١ - (وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)
قوله: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر} نزلت هذه الآية حين أراد الكفار أن يعينوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصيبوه بالعين - فنظر إليه قوم من قريش فقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه - وكانت العين في بني أسد حتى أن الناقة السمينة والبقرة السمينة تمرّ بأحدهم فيعينها (يصيبها بعينه) ثم يقول: يا جارية خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر - وذكر أن رجلا كان معروفا بأنه عائن - أي يصيب بعينه الدابة أو الإنسان فما يلبث أن يهلك - فسأله المشركون أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين، فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل هذه الآية ١٤ {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر} إن، مخففة من الثقيلة - ليزلقونك، من الإزلاق وهو التنحية والإزالة - يقال: زلقه وأزلقه يزلقه تزليقا إذا نحّاه وأبعده، وزلق رأسه يزلقه زلقا إذا حلقه ١٥.
لقد أراد المشركون إزلاق النبي صلى الله عليه وسلم بإهلاكه وموته، وهو المستفاد من قوله: {ليزلقونك بأبصارهم} أي ليعتانونك - رجل معيان وعيون، أي شديد الإصابة بالعين ١٦ وقيل: يصرعونك أو يصرفونك {بأبصارهم} أي بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه لفرط عداوتهم لك - وجملة القول أنهم يبتغون أن يصيبوك بالعين لإهلاكك.
أما العين فإنها حق وهي تصيب المعيون فتودي به - وفي ذلك روى مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين " وعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين يقول: " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة ".
وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد أو جابر بن عبد الله أن رسول الله اشتكى فأتاه جبريل فقال: " بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل حاسد وعين، الله يشفيك " وروى الإمام أحمد أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن العين حق ". وروى ابن ماجه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " استعيذوا بالله فإن النفس حق " - وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " العين حق لتورد الرجل القبر والجمل القدر، وإن أكثر هلاك أمتي في العين ".
وروى عن علي (رضي الله عنه) أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقه مغتمّا فقال: يا محمد ما هذا الغم الذي أراه وجهك؟ قال: " الحسن والحسين أصابتهما عين " قال: صدّق بالعين فإن العين حق، أفلا عوّذتهما بهؤلاء الكلمات؟ قال: " وما هن يا جبريل " قال: قل اللهم ذا السلطان العظيم والمنّ القديم ذا الوجه الكريم وليّ الكلمات التامات والدعوات المستجابات عاف الحسن والحسين من أنفس الجن وأعين الإنس - فقالها النبي صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبان بين يديه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " عوذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله ".
قوله: {ويقولون إنه لمجنون} ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن - وذلك لفرط حسدهم وكراهيتهم له،

ولروعة ما سمعوا من الكلام العجيب الذي لم يسمعوا بمثله من قبل - فلم يجدوا من فرية يفترونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يرموه بالجنون وهم موقنون بصدقه وأمانته ورجاحة عقله وروعة ما جاءهم به.

٥٢ - (وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

قوله: {وما هو إلا ذكر للعالمين} يعني وما القرآن إلا موعظة وتذكير وبيان للثقلين من الإنس والجن ١٧.

٦٩ سورة الحاقة:

سورة الحاقة:

بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وآياتها إحدى وخمسون - وهي مبدوءة بذكر الحاقّة، وهي القيامة، إذ يتحقق فيها وعد الله ووعيده - وقد نبه الله إلى عظيم قدر الحاقة ليخشى الناس مما يستقبلهم من الأحداث العظام والنوازل المخوفة الجسام.

وفي السورة يقص الله علينا عن قوم ثمود وعاد - وهما أمتان ضالتان من الناس أخذهما الله بانتقامه الشديد جزاء عصيانهما وعتوهما وفسادهما في الأرض.

وفي السورة إخبار عن زلازل القيامة وأهوالها الشداد، وما يأتي على الكون فيها من شديد البلايا - والناس يوم القيامة صنفان مفترقان متباينان - فصنف ناج وسعيد يؤتى كتابه بيمينه ليعلم أنه من أهل السعادة - وصنف هالك خاسر يؤتى كتابه بشماله ليعلم أنه في الأذلين وأنه صائر إلى الجحيم والخسران المبين.

ويقسم الله في هذه السورة بآياته في الكون على أن القرآن حق وصدق وأنه تنزيل من رب العالمين فما هو بشعر ولا كهانة - إلى غير ذلك من الآيات والمعاني.

١ - (الْحَاقَّةُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{الحاقّة ١ ما الحاقّة ٢ وما أدراك ما الحاقة ٣ كذّبت ثمود وعاد بالقارعة ٤ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ٥ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ٦ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ٧ فهل ترى لهم من باقية ٨ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ٩ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ١٠ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية ١١ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية}.

{الحاقة}، الأولى مبتدأ.

٢ - (مَا الْحَاقَّةُ)

قوله: {ما} استفهامية وهي مبتدأ ثان - و {الحاقة} الثانية خبر المبتدأ الثاني - والمبتدأ الثاني وخبره في موضع رفع خبر للمبتدأ الأول.

٣ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

قوله: {وما أدراك}، ما استفهامية وهي مبتدأ - ما الثانية مبتدأ ثان، وخبره الحاقة - والمبتدأ الثاني وخبره في موضع نصب للفعل أدراك ١.

والحاقة، اسم من أسماء القيامة وهي يوم الحق - وقد سميت بذلك، لأن كل إنسان حقيق بأن يجزى بعمله - فهي التي تحق فيها الأمور ويجب فيها الجزاء على الأعمال - أو لأن وقوعها حق لا شك فيه {ما الحاقة} والاستفهام معناه التفخيم والتعظيم لشأن الحاقة، وهي الساعة، كأن تقول: زيد ما زيد {وما أدراك ما الحاقة} يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم: وأي شيء أعلمك ما هي الحاقة وذلك تعظيم ثان لها - وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عالما بصفات القيامة.

يضاف إلى ذلك شدة الإيقاع البليغ الذي يتجلى في كلمة {الحاقة} بحرف القاف فيها، وبمدها اللازم المثقل.

ومما يتجلى في القرآن من ظواهر الإعجاز، ملاءمة الألفاظ فيه للمعاني من حيث الرقة واللين، أو الفخامة والتهويل، أو الترغيب والتحضيض، أو الترهيب والتحريض - والحاقة بشدة وقعها على السمع والنفس تكشف لكل سامع متدبر أن أمر الساعة هائل وجلل، وأن الخطب فيها مذهل وجسيم ومروّع.

٤ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)

قوله: {كذّبت ثمود وعاد بالقارعة} ثمود قوم صالح - وعاد قوم هود فقد كذّب هؤلاء بالقارعة، وهي الساعة - فهي اسم من أسماء القيامة، والقارعة في اللغة هي الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية ٢ وسميت بالقارعة، لأنها تقرع قلوب الناس بأهوالها وشدائدها - فهي تأخذ الناس على غرّة وهم في غمرة لهوهم ساهون غافلون.

٥ - (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

قوله: {فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية} أهلك الله ثمود، قوم صالح بالطاغية وهي الصيحة الطاغية المجاوزة لحد الصيحات من الهول والشدة - وقيل: الطاغية معناها الصاعقة وقيل: بطغيانهم وكفرهم بآيات الله.

٦ - (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

قوله: {وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية} صرصر، من الصّر بالكسر وهو برد يضرب النبات والحرث ٣ - فقد انتقم الله من ثمود الذين عصوا رسول ربهم وعتوا عن أمر الله وقتلوا الناقة فسلط الله عليهم ريحا شديدة البرد {عاتية} أي شديدة العصوف والهبوب.

٧ - (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

قوله: {سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما} أرسل الريح الباردة العاصفة على هؤلاء المشركين الظالمين {سبع ليال وثمانية أيام حسوما} أي متتابعة لا تفتر ولا تنقطع - وقيل: حسوما نحسات مشائيم - وقيل: حسمت كل خير واستأصلت كل بركة {فترى القوم فيها صرعى} أي هلكى أو موتى - ومفرد صرعى، صريع.

قوله: {كأنهم أعجاز نخل خاوية} يعني كأنهم وهم ميتون هلكى أشبه بأصول نخل قد خوت.

٨ - (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

قوله: {فهل ترى لهم من باقية} يعني هل ترى لهم من نفس باقية - أو من بقية - والمقصود أنهم لم يبق منهم أحد أو ديّار فقد أهلكتهم الريح وقطعت دابرهم.

٩ - (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ)

قوله: {وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة} جاء فرعون ومن قبله من الأمم الظالمة المكذبة بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود {والمؤتفكات} أي قرى قوم لوط - سميت بذلك، لأنها ائتفكت بأهلها أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها {بالخاطئة} أي بالخطيئة الكبيرة وهي إتيانهم الذكور - أو بالمعصية والتكذيب بما أنزل الله.

١٠ - (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)

قوله: {فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية} انتقم الله منهم أشد انتقام وأخذهم أخذة شديدة أليمة.

١١ - (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

قوله: {إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية} لما علا الماء وكثر، وتجاوز حده المعروف، وذلك في الطوفان، إذ طغى الماء فأغرق الناس والأشياء جميعا {حملناكم في الجارية} حملناكم في السفينة التي تجري في الماء - والمراد بذلك سفينة نوح - والمخاطب ههنا الذين نزل فيهم القرآن وهم ولد الذين حملوا في السفينة، وإنما حمل فيها الأجداد وهم نوح والذين آمنوا معه.

١٢ - (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)

قوله: {لنجعلها لكم تذكرة} أي لنجعل تلك الفعلة وهي إغراق قوم نوح وإنجاء المؤمنين، موعظة لكم وعبرة لكي تتفكروا وتتعظوا وقيل: لنجعل ما بقي من سفينة نوح عظة لكم وعبرة - فقد بقي منها بعض الآثار من الألواح والأخشاب كيما تعتبروا بما حل بالظالمين السابقين من عقاب الله وشديد انتقامه.

قوله: {وتعيها أذن واعية} أي تحفظ الموعظة وتسمعها أذن حافظة عقلت عن الله ما سمعت - والواعية، الحافظة - وعى الحديث يعيه وعيا أي حفظه - وعيت كذا أي حفظته في نفسي وأوعى الزاد والمتاع، جعله في الوعاء ٤.

١٣ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)

قوله تعالى: {فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ١٣ وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة ١٤ فيومئذ وقعت الواقعة ١٥ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ١٦ والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ١٧ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية}.

ذلك إخبار من الله عن أهوال القيامة وما يقع فيها من أحداث كونية رهيبة مروعة - وأول هذه الأهوال والشدائد نفخة الفزع، ثم يعقبها النفخة الثانية وهي نفخة الصعق، إذ يموت من في السموات والأرض إلا من شاء الله - ثم يأتي بعد ذلك نفخة البعث والنشور وهي نفخة القيام لرب العالمين وذلك في قوله: {فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة} نفخة، مرفوعة على النيابة - واحدة صفة لنفخة على سبيل التأكيد ٥.

والمعنى: إذا نفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى إيذانا بفناء الدنيا وقيام الساعة.

١٤ - (وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)

قوله: {وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة} أي رفعت الأرض والسماء بفعل الملائكة أو بقدرة الله من غير سبب {فدكّتا دكّة واحدة} دكا، من الدك وهو الدق - ودكّه إذ ضربه وكسره حتى سواه بالأرض - والدكداك من الرمل ما التبد منه بالأرض ٦ والمعنى: ضرب بعضها ببعض حتى تندق فتصير كثيبا مهيلا مركوما وهباء منبثا منثورا.

١٥ - (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

قوله: {فيومئذ وقعت الواقعة} أي قامت القيامة.

١٦ - (وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

قوله: {وانشقت السماء فهي يومئذ واهية} أي انصدعت السماء وتشققت بقيام الساعة وشديد النوازل والزلازل {فهي يومئذ واهية} أي متخرقة مسترخية ضعيفة بعد أن كانت قوية مستمسكة.

١٧ - (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)

قوله: {والملك على أرجائها} يعني الملائكة على أطراف السماء ونواحيها وحافاتها {ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله - أو هم صفوف من وراء الصفوف.

١٨ - (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

قوله: {يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية} أي تعرضون على ربكم جميعا للحساب والجزاء ولا يخفى عليه شيء من أخباركم وأحوالكم وما تكنه صدوركم - والله عليم بأسراركم وأستاركم وما تخفيه ضمائركم ٧.

١٩ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

قوله تعالى: {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه ١٩ إني ظننت أني ملاق حسابيه ٢٠ فهو في عيشة راضية ٢١ في جنة عالية ٢٢ قطوفها دانية ٢٣ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية}.

يبين الله في ذلك حال السعداء والأشقياء يوم القيامة - أما السعداء فإنهم حينئذ آمنون راضون محبورون - واما الأشقياء فإنهم مذعورون منكوسون منقلبون على وجوههم، خاسرين وقد غشيهم من شدة الكرب والإياس ما غشيهم - وهو قوله: {فأما من أوتي كتابه بيمينه

فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه} وذلك لدى تسلم صحائف الأعمال والناس حينئذ واقفون واجفون وجلون - فإذا أعطي المرء كتاب أعماله بيمينه علم حينئذ أنه من أهل النجاة فانقلب إلى الناس في ذروة الفرح والسرور قائلا لهم: {هاؤم اقرؤوا كتابيه} أي تعالوا - أو خذوا {اقرؤوا كتابيه} والهاء للسكت.

٢٠ - (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ)

قوله: {إني ظننت أني ملاق حسابيه} أيقنت وعلمت أني يوم القيامة ملاق حسابيه - فهو لم ينكر البعث كما أنكره الكافرون والمنافقون بل إنه نجا بخوفه من يوم الحساب.

٢١ - (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

قوله: {فهو في عيشة راضية} أي في عيشة هنيئة مرضية لا نصب فيها ولا عناء ولا ظمأ ولا جوع ولا اغتمام ولا شقاء.

٢٢ - (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

قوله: {في جنة عالية} أي رفيعة المقام، عظيمة الشأن والقصور والبيان.

٢٣ - (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

قوله: {قطوفها دانية} ثمارها قريبة من قاطفها - فمن أراد ثمرها تناوله كيف شاء، قائما أو قاعدا لا يحول بينه وبينه حائل.

٢٤ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

قوله: {كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} يقول الله (جل وعلا) لأهل السعادة والنجاة: كلوا من طيبات ما في الجنة واشربوا من أشربتها هانئين منعّمين لا يمسكم فيها أذى ولا اغتمام ولا تنغيص {بما أسفلتم في الأيام الخالية} أي بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال في الدنيا ٨.

٢٥ - (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)

قوله تعالى: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ٢٥ ولم أدر ما حسابيه ٢٦ ياليتها كانت القاضية ٢٧ ما أغنى عني ماليه ٢٨ هّلك عني سلطانيه ٢٩ خذوه فغلّوه ٣٠ ثم الجحيم صلّوه ٣١ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ٣٢ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ٣٣ ولا يحضّ على طعام المسكين ٣٤ فليس له اليوم هاهنا حميم ٣٥ ولا طعام إلا من غسلين ٣٦ لا يأكله إلا الخاطئون}.

ذلك إخبار ثان مقابل للإخبار السابق، إذ يبين الله ههنا حال الظالمين الخاسرين، من أهل الشقوة والتّعس، الذين خسروا أنفسهم فباءوا بالويل وسوء المصير - وأولئك يؤتون صحائف أعمالهم بشمائلهم فيعلمون أنهم هالكون - وحينئذ تغشى قلوبهم ووجوههم غاشية من الفزع واليأس والسواد والقتر وغير ذلك من معالم الهوان والخسران الذي تكشف عنه هذه الآيات المثيرة بروعة نظمها الباهر، وحلاوة أجراسها الطنانة العجاب ذات الإيقاع المثير، والرنين المهيّج القارع، الذي يصخ الأسماع صخا - ويأتي في مقدمة ذلك كله، هاء السّكت عقب كل كلمة من أواخر هذه الآيات - وهذا الحرف في مثل هذا الموضع من الكلمة عقب كل آية لا جرم أنه مثير للحس بالغ الإثارة، مستنفر للوجدان أيما استنفار - وذلك قوله: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه} من أعطي حينئذ كتاب أعماله بشماله فإنه يغشاه من الندم والحسرة ما يغشاه ثم ينادي قائلا {ياليتني لم أوت كتابيه ٢٥ ولم أدر ما حسابيه}.

٢٦ - (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ)

قوله: {ولم أدر ما حسابيه} يعني لم أدر أي شيء حسابيه - يا ليت موتتي في الدنيا لم يكن بعدها حياة ولا بعث - فهو يتمنى الموت الذي لا حياة بعده كيلا يرى ما رآه من هول الحساب والعذاب.

٢٧ - (يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)

قوله: {ياليتها كانت القاضية} يا ليت موتتي في الدنيا لم يكن بعدها حياة ولا بعث - فهو يتمنى الموت الذي لا حياة بعده كيلا يرى ما رآه من هول الحساب والعذاب.

٢٨ - (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ)
قوله: {ما أغنى عني ماليه} أي لم يدفع عني مالي في الدنيا شيئا مما أكابده الآن من الأهوال.
٢٩ - (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)
قوله: {هلّك عني سلطانيه} ضلت عني حجبي فلم أجد حجة ولا بينة أحتج بها - أو ذهب عني جاهي ومنزلتي التي كنت أعتدّ بها في الدنيا فليس لي الآن مال ولا جاه ولا برهان.
٣٠ - (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)
ثم يقول الله لزبانية جهنم من الملائكة العظام: {خذوه فغلّوه} - أي شدوه بالأغلال.
٣١ - (ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)
قوله: {ثم الجحيم صلوه} يعني أوردوه نار جهنم ليصلى فيها.
٣٢ - (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)
قوله: {ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه} السلسلة، حلقات منتظمة من الحديد يمسك بعضها ببعض - وذرعها يعني طولها - أما المراد بالذراع في الآية، فالله أعلم بقدر طولها.
واسلكوه، يعني اجعلوه فيها - يقال: سلك الشيء في الشيء فانسلك أي أدخله فيه فدخل ٩ والمراد إدخاله في السلسة، وقيل: إنها تدخل من دبره وتخرج من منخريه - وقيل: تدخل من فيه وتخرج من دبره.
٣٣ - (إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)
قوله: {إنه كان لا يؤمن بالله العظيم} يعني فعلوا بهذا الشقي الذي أوتي كتابه بشماله ما فعلوا، جزاء له على كفره بالله فقد كان مشركا بالله أو جاحدا أو مكذبا برسوله واليوم الآخر أو منكرا لشيء من آياته.
٣٤ - (وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)
قوله: {ولا يحض على طعام المسكين} كان هذا الشقي الخاسر لا يحضّ الناس على إطعام المساكين والمحاويج وذلك ينبه إلى فظاعة جرم البخل وحجب المال عن مستحقيه من الفقراء وأهل الحاجة - فلئن كان هذا الوعيد المخوف بالعذاب لتارك الحضّ على الإطعام، فكيف بتارك الإطعام نفسه.
٣٥ - (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ)
قوله: {فليس له اليوم هاهنا حميم} ليس لهذا الشقي بما وصف به من حميم، أي صديق، فينفعه أو يجيره من العذاب.
٣٦ - (وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ)
قوله: {ولا طعام إلا من غسلين} الغسلين، معناه غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الدم والصديد، فذلكم طعام أهل النار.
٣٧ - (لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ)
قوله: {لا يأكله إلا الخاطئون} وهم أصحاب الذنوب والخطايا، وقيل: المشركون ١٠.
٣٨ - (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)
قوله تعالى: {فلا أقسم بما تبصرون ٣٨ وما لا تبصرون ٣٩ إنه لقول رسول كريم ٤٠ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ٤١ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكّرون ٤٢ تنزيل من رب العالمين}.
لا زائدة - أي فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه - وبذلك أقسم بالأشياء كلها ما يرى منها وما لا يرى - فيدخل في هذا جميع المخلوقات - وقيل: لا، رد لكلام سبق - أي ليس الأمر كما يقوله المشركون - فقد ذكر أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمدا ساحر -

وقال أبو جهل: إنه شاعر - وقال عقبة: إنه كاهن - فرد الله افتراءاتهم بقوله: }فلا أقسم{ الآية - يعني: أقسم بكل شيء في الوجود مما ترون ومما لا ترون.

٣٩ - (وَمَا لا تُبْصِرُونَ)

قوله: }وما لا تبصرون{ لا زائدة - أي فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه - وبذلك أقسم بالأشياء كلها ما يرى منها وما لا يرى - فيدخل في هذا جميع المخلوقات - وقيل: لا، رد لكلام سبق - أي ليس الأمر كما يقوله المشركون - فقد ذكر أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمدا ساحر - وقال أبو جهل: إنه شاعر - وقال عقبة: إنه كاهن - فرد الله افتراءاتهم بقوله: }فلا أقسم{ الآية - يعني: أقسم بكل شيء في الوجود مما ترون ومما لا ترون.

٤٠ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

قوله: }إنه لقوله رسول كريم{ والمراد بالرسول جبريل عليه السلام - وقيل: المراد به محمد صلى الله عليه وسلم - ونسب القول إليه، لأنه تاليه على الناس ومبلغه لهم.

٤١ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ)

قوله: }وما هو بقول شاعر{ ليس القرآن بالشعر وليس النبي صلى الله عليه وسلم بشاعر - فهو لا يحسن قول الشعر ولا يجيد قرضه بطبعه - والقرآن نفسه ليس من أصناف الشعر - فهو الكلام الفريد المميز الذي لا يضاهيه أو يماثله في الكلام أيما كلام }قليلا ما تؤمنون{ ما، زائدة - أي لا تؤمنون البتة - فالقلة، ههنا بمعنى العدم.

٤٢ - (وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ)

قوله: }ولا بقول كاهن{ ليس النبي بكاهن - فإن الكاهن يهذي هذيان المحموم الذي خالط عقله العته والجنون فما يفرز غير المكذوب من الكلام المضطرب - لكن النبي صلى الله عليه وسلم لهو في الذروة العليا من أولي النباهة والفطانة والخلق العظيم - والكهان ديدنهم الكلام المسجوع الفارغ من كل مضمون نافع والذي لا يعبأ قائله بالمعاني - فهو لا خير فيه ولا فائدة البتة - وإنما هو الكلام العشوائي المصفوف القائم على وحدة الحرف في أواخر الجمل والعبارات - لكن القرآن نظم مميز فذّ، فهو ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالسجع ولا بالخطابة ولا بالرسالة - فهو ليس على صنف من أصناف الكلام وإنما هو القرآن وكفى - وهو تجتمع فيه كل ظواهر الإعجاز من روعة المبنى وعظيم المعنى.

قوله: }قليلا ما تذكّرون{ أي لا تتذكرون إلا قليلا والمراد بالقلة ههنا النفي أو العدم - أي فهم لا يتذكرون البتة.

٤٣ - (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله: }تنزيل من رب العالمين{ تنزيل خبر لمبتدأ تقديره هو - فهذا القرآن ليس بالشعر أو الكهانة وما يقدر أن يأتي بمثله شاعر أو كاهن بل إنه منزل من عند الله أنزله على رسوله المبلّغ الأمين ١١.

٤٤ - (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ)

قوله تعالى: }ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ٤٤ لأخذنا منه باليمين ٤٥ ثم لقطعنا منه الوتين ٤٦ فما منكم من أحد عنه حاجزين ٤٧ وإنه لتذكرة للمتقين ٤٨ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ٤٩ وإنه لحسرة على الكافرين ٥٠ وإنه لحق اليقين ٥١ فسبح باسم ربك العظيم{.

ذلك تهديد مرعب يخوّف الله به نبيه صلى الله عليه وسلم تحذيرا من التقوّل عليه - وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز في الكتاب الحكيم - فأنّى لإنسان ذي تفكير وبصر يهدد نفسه ويتوعدها بمثل هذا التهديد المثير، والوعيد المخوف - وهو قوله: }ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل{ والتقوّل، معناه ابتداع الكذب ١٢ يعني لو ابتدع محمد صلى الله عليه وسلم بعض الأقاويل من عنده أو لو ادعى علينا شيئا لم نقله.

٤٥ - (لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

قوله: }لأخذنا منه باليمين{ أي لأخذناه بالقوة أو القدرة.

٤٦ - (ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)
قوله: {ثم لقطعنا منه الوتين} أي لقطعنا منه نياط القلب فأهلكناه - ونياط القلب، العرق المتعلق به القلب فإذا انقطع مات صاحبه.
٤٧ - (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)
قوله: {فما منكم من أحد عنه حاجزين} أحد، بمعنى الجمع - أي لا يقدر قوم منكم أن يدفع عنه عقابنا له لو تقوّل علينا ببعض الأقاويل - أو لا تستطيعون أن تحجزونا عنه أو تحولوا بينه وبين عقابنا له.
٤٨ - (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)
قوله: {وإنه لتذكرة للمتقين} يعني إن هذا القرآن لعبرة يتعظ بها المتقون الذين يخشون الله فيأتمرون بأوامره ويجتنبون معاصيه.
٤٩ - (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ)
قوله: {وإنّا لنعلم أن منكم مكذبين} الله يعلم أن منكم أيها الناس مكذبون بكتابه معرضون عن دينه.
٥٠ - (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)
قوله: {وإنّه لحسرة على الكافرين} يعني إن التكذيب بالقرآن لهو حسرة، أي ندامة على الكافرين.
٥١ - (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)
قوله: {وإنه لحق اليقين} يعني إن القرآن لعين اليقين أو محض اليقين الذي لا شك فيه - فهو الكلام الرباني المعجز المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم.
٥٢ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)
قوله: {فسبّح باسم ربك العظيم} أي فنزهه عن كل النقائص وعما لا يليق به من الصفات ١٣.

٧٠ سورة المعارج:

سورة المعارج:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية، وآياتها أربع وأربعون - ويقع الحديث عن القيامة وأهوالها وأحداثها في شطر عظيم من السورة - والحديث عن أمر الساعة وأخبارها وويلاتها ونوازلها يحتل من سور القرآن وآياته متسعا كبيرا - وذلك يكشف عن بالغ الأهمية لهذه الحقيقة الكونية العظمى وهي فناء العالم وقيام الناس لرب العالمين.
ويبين الله في السورة حقيقة الإنسان على أنه هلوع، فهو بذلك جزوع بالشر، منوع عند الخير - باستثناء المؤمنين الذين يخشون الله فيطيعون أوامره ويلتزمون أحكام دينه - وغير ذلك من ألوان التذكير والتحذير.
١ - (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{سأل سائل بعذاب واقع ١ للكافرين ليس له دافع ٢ من الله ذي المعارج ٣ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ٤ فاصبر صبرا جميلا ٥ إنهم يرونه بعيدا ٦ ونراه قريبا ٧ يوم تكون السماء كالمهل ٨ وتكون الجبال كالعهن ٩ ولا يسئل حميم حميما}.
ذكر أن السائل هو النضر بن الحارث إذ قال: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} فنزل سؤاله وقتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبي معيط، ولم يقتل صبرا ١ غيرهما وسأل، بالهمز معناه دعا - فالسؤال ههنا يراد

به الدعاء - والمعنى: دعا داع بعذاب - كما تقول: دعا على فلان بالويل أو بالعذاب - والمقصود بالسؤال هنا سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم لا محالة.

٢ - (لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)

قوله: {للكافرين ليس له دافع} لا يقدر أحد أن يدفع هذا العذاب الواقع.

٣ - (مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)

قوله: {من الله ذي المعارج} أي هذا العذاب واقع بأمر الله ذي المعارج، أي ذي الدرجات التي يصعد عليها الملائكة.

٤ - (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

قوله: {تعرج الملائكة والروح إليه} والروح هو جبريل (عليه السلام) وهو الوحي الأمين - فهو والملائكة جميعا يصعدون المعارج وهي الدرجات جعلها الله لهم ليصعدوا فيها إلى حيث يأمرهم الله {في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} يعني تصعد الملائكة وجبريل بأمر الله من منتهى الأرض إلى السماء السابعة في يوم كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة.

٥ - (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا)

قوله: {فاصبر صبرا جميلا} يأمر الله نبيه بالصبر على أذى قومه، كيلا ييتئس بكيدهم وصدّهم وسوء فعالهم، بل يمضي في طريق الله داعيا إلى دينه وأن يصبر في ذلك صبرا جميلا لا جزع فيه ولا تبرّم أو يأس.

٦ - (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا)

قوله: {إنهم يرونه بعيدا ٦ ونراه قريبا} يعني يرى المشركون أن عذاب النار في الآخرة بعيد، أي غير كائن - فهم لا يصدقون بعذاب جهنم وينكرون البعث بعد الموت.

٧ - (وَنَرَاهُ قَرِيبًا)

قوله: {ونراه قريبا} أي آت لا محالة وكل آت قريب.

٨ - (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

قوله: {يوم تكون السماء كالمهل} يوم، منصوب على أنه ظرف، وتقديره يقع العذاب بهم {يوم تكون السماء كالمهل} المهل، درديّ الزيت، وقيل: النحاس المذاب ٢.

٩ - (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ)

قوله: {وتكون الجبال كالعهن} والعهن، الصوف المصبوغ ألوانا، وقد شبّهت به الجبال في اختلاف ألوانها - أو لأن الجبال إذا بسّت وفتتت وتناثرت ذراتها في الفضاء أشبهت الصوف المنفوش إذا طيرته الريح.

١٠ - (وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)

قوله: {ولا يسئل حميم حميما} أي لا يسأل صديق صديقه عن حاله ولا يسأل قريب قريبه عن أمره وشأنه، وإنما كل امرئ مشغول بحاله وهمه - والناس حينئذ مع تلاقيهم وتعارفهم فإنهم عقب ذلك يبادرون الافتراق والتدابر فيفرّ بعضهم من بعض لهول الحساب وفظاعة العذاب ٣.

١١ - (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

قوله تعالى: {يبصّرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ١١ وصاحبته وأخيه ١٢ وفصيلته التي تؤويه ١٣ ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه ١٤ كلا إنها لظى ١٥ نزّاعة للشّوى ١٦ تدعوا من أدبر وتولى ١٧ وجمع فأوعى}.

اختلفوا في الذين عناهم الله بالهاء والميم في وقوله: {يبصّرونهم} - فقيل: يبصّر الأقرباء أقرباءهم، ويعرّف كل إنسان قريبه - وذلك هو تبصير الله إياهم - وقيل: يعرّف بعضهم بعضا فيتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض - وقيل: الضمير المرفوع يعود على المؤمنين

- والهاء والميم تعود على الكافرين - أي يبصّر المؤمنون الكافرين يوم القيامة - إذ ينظرون إليهم في النار ٤.
قوله: }يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه{ يعني يتمنى الكافر يوم القيامة عند اشتداد الهول وفرط الفزع والذعر، أن يفتدي من تعذيب الله له ببنيه وهم من النسل والذرية - وهؤلاء أحب الخلق إلى قلب الإنسان.
١٢ - (وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ)
قوله: }وصاحبته وأخيه{ وكذلك يتمنى هذا الظالم لنفسه أن يفتدي من عذاب الله بزوجته وأخيه فيكونا في موضعه من العذاب.
١٣ - (وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ)
قوله: }وفصيلته التي تؤويه{ أي عشيرته التي تنصره وتحميه وتضمه.
١٤ - (وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ)
قوله: }ومن في الأرض جميعا{ يعني يود هذا الكافر الخاسر المستيئس أن يفتدي بالناس جميعا، ليكونوا في موضعه من العذاب }ثم ينجيه{ أي ثم يخلصه هذا الافتداء فينجو من عذاب النار - وعلى هذا فإن الكافر الخاسر، من عظيم ما ينزل به من العذاب يفتدي نفسه لو استطاع إلى ذلك سبيلا – بأحب الناس ممن كانوا في الدنيا، وأقربهم إليه نسبا ومودة وهم الابن والزوجة والأخ، والأهل والعشيرة - وأنّى لهذا الخاسر ما تمنى والناس حينئذ قد افترقوا، فإما إلى الجنة وإما إلى النار - وإنما يجزى كل إنسان بما عمل - فلا يغنيه التمني والرجاء، ولا تنفعه علائق النسب والصهرية والمودة والقربى التي كانت في الدنيا.
١٥ - (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى)
قوله: } كلا إنها لظى{ كلا، ردع للمجرم عن تمنيه الافتداء، فإن ذلك لا ينفعه ولا ينجيه من العذاب - ثم أخبر عما أعد له من العذاب فقال: }إنها لظى{ ولظى، اسم من أسماء جهنم، وهو معرف لا ينصرف - والتظاء النار أي التهابها، وتلظيها أي تلهّبها ٥.
١٦ - (نَزَّاعَةً لِلشَّوَى)
قوله: }نزّاعة للشّوى{ نزاعة، مقروءة بالرفع عند أكثر المفسرين، على أنها خبر بعد خبر لأن - وقرأها بعضهم بالنصب على الحال ٦ - والشوى، اليدان والرجلان والأطراف من الإنسان وقحف الرأس - وقيل: جمع شواة، وهي جلدة الرأس ٧ إذ تنزعها النار نزعا ثم تعاد، مبالغة في التعذيب والتنكيل.
١٧ - (تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)
قوله: }تدعوا من أدبر وتولى{ أي تدعو لظى إليها وقودها من العصاة والمجرمين وهم كل من أدبر عن دين الله وطاعته، وتولى عن الإيمان بالله ورسوله - ودعاؤها إياهم أن تقول: إليّ يا مشرك - إليّ يا منافق - إليّ يا كافر.
١٨ - (وَجَمَعَ فَأَوْعَى)
قوله: }وجمع فأوعى{ أي جمع المال وجعله في وعاء ثم منع منه حق الله فلم يؤد زكاته ولم ينفق منه للفقراء والمحاويج ٨.
١٩ - (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)
قوله تعالى: }إن الإنسان خلق هلوعا ١٩ إذا مسه الشر جزوعا ٢٠ وإذا مسه الخير منوعا ٢١ إلا المصلين ٢٢ الذين هم على صلاتهم دائمون ٢٣ والذين في أموالهم حق معلوم ٢٤ للسائل والمحروم ٢٥ والذين يصدقون بيوم الدين ٢٦ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ٢٧ إن عذاب ربهم غير مأمون ٢٨ والذين هم لفروجهم حافظون ٢٩ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ٣٠ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ٣١ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ٣٢ والذين هم بشهاداتهم قائمون ٣٣ والذين هم على صلاتهم يحافظون ٣٤ أولئك في جنات مكرمون{.
ذلك إخبار من الله عن حقيقة الإنسان في جبلته وطبعه - فهو مبنيّ على الضعف وحب النفس والشهوات - وذلك يفضي إلى الهلع والخور والأثرة والجزع إلا من استثناه الله برحمته فعصمه من طغيان الخسائس ودنيء الصفات النفسية والخلقية - وفي ذلك قال الله

سبحانه: {إن الإنسان خلق هلوعا} والهلع، أفحش الجزع ٩ وقد فسره الله بقوله: {إذا مسه الشر جزوعا}.

٢٠ - (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

قوله: {إذا مسه الشر جزوعا} إذا أصاب الإنسان الشر كالفقر والمرض وفقد حظ من حظوظ الدنيا كان الإنسان بذلك جزوعا - وجزوعا في الآية، منصوب على الحال - والجزع ضد الصبر ١٠ والجزوع، الذي لا يصبر على البلاء - فإذا أصابه شيء من ضر، اضطرب وانخلع قلبه واستيأس أيما استيئاس.

٢١ - (وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

قوله: {وإذا مسه الخير منوعا} إذا أنعم الله عليه نعمة من عنده بخل بها ومنع حق الله فيها.

٢٢ - (إِلا الْمُصَلِّينَ)

قوله: {إلا المصلين} استثنى الله المصلين من خسيسة الهلع بمعناه المذكور:

فالمصلون الخاشعون تتبرأ طبائعهم ونفوسهم من مفاسد الخلق الذميم كالجزع عند البلاء، والشح عند الخير والنعمة.

٢٣ - (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ)

وقد بين حال المصلين من الحرص على هذه العبادة العظيمة بقوله: {الذين هم على صلاتهم دائمون} - أي مقيمون على الصلاة، محافظون على أوقاتها فلا يفرّطون بها ولا يضيعون شيئا منها - وقيل: الدوام عليها معناه الخشوع والطمأنينة.

٢٤ - (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

قوله: {والذين في أموالهم حق معلوم ٢٤ للسائل والمحروم} في أموالهم نصيب مفروض مقرر، وهي الزكاة.

٢٥ - (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

قوله: {للسائل والمحروم} يعني للمحتاج الذي يسأل الناس - والمحروم، الذي حرم الغنى فهو فقير لا يسأل الناس لتعففه أو هو المحارف الذي ليس له سهم في الإسلام - أو منقوص الحظ لا يمنى له مال وقيل: الذي ليس له أحد يعطف عليه أو يعطيه شيئا - وقيل: المحروم الذي اجتيح ماله.

٢٦ - (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

قوله: {والذين يصدقون بيوم الدين} أي الذين يوقنون بالبعث من بعد الممات وأن الناس مجموعون ليوم القيامة.

٢٧ - (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

قوله: {والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} أي خائفون وجلون من عذاب الله - فهم من خشيته يحرصون على طاعته واجتناب معاصيه.

٢٨ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

قوله: {إن عذاب ربهم غير مأمون} لا يأمن أحد عذاب الله - فالمؤمن الحريص دائم الخوف من الله فيحذر الآخرة ويتقي المعاصي.

٢٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

قوله: {والذين هم لفروجهم حافظون} أي يكفون فروجهم عن الحرام ويمنعونها أن توضع فيما حرم الله.

٣٠ - (إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

قوله: {إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين} استثنى من تحريم البضع، ما كان في الزوجات أو الإماء - أما غيرهن من النساء فلا مساغ لأحد أن يمسّهن بفاحشة - وهو قوله: {فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون}.

٣١ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

قوله: {فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون} من تجاوز الحلال إلى الحرام أو ترك المباح ليقع في المحظور من المناكح فقد التمس لفرجه منكحا غير زوجته أو أمته فقد تعدى ما أحل الله إلى ما حرم وذلك الذي يساءل ويؤاخذ بذنبه.

٣٢ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

قوله: {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون} وهؤلاء الذين يرعون الأمانات والعهود فهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، ولم ينقضوا العهود والمواثيق - ومن يخن أو يغدر فقد تلبّس بشيء من صفات المنافقين - وفي الحديث الصحيح: " آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان " وفي رواية: " إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر ".

٣٣ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

قوله: {والذين هم بشهاداتهم قائمون} أي يؤدونها على وجهها الصحيح من غير كتمان لها أو نقصان - ومن غير زيادة أو تبديل.

٣٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

قوله: {والذين هم على صلاتهم يحافظون} أي يقيمونها خير قيام من تمام أركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها - ويؤدونها في أوقاتها غير مضيعين لها ولا مفرطين فيها.

٣٥ - (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

قوله: {أولئك في جنات مكرمون} يعني هؤلاء الذين يتصفون بما تقدم ذكره من الخصال الحميدة، يكرمهم الله بكرامته، إذ يسكنهم جناته العظيمة حيث الخيرات الحسان والنعيم المقيم الذي لا يفنى ولا ينقطع.

٣٦ - (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

قوله تعالى: {فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ٣٦ عن اليمين وعن الشمال عزين ٣٧ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ٣٨ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ٣٩ فلا أقسم برب المشرق والمغرب إنا لقادرون ٤٠ على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ٤١ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ٤٢ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ٤٣ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون}.

هذه جملة آيات تتضمن طائفة من المعاني والحقائق المثيرة المذهلة عن أحداث الساعة وبعث الناس من قبورهم لينطلقوا مذعورين شاخصين صوب المحشر وقد غشيهم من الخوف والفزع ما غشيهم - وقد بدأ ذلك بالتعجيب من حال المشركين الذين يحادون الله ورسوله والذين سوّل لهم الشيطان أن يصدوا عن دين الحق حتى تفجأهم الساعة فيخرجوا من قبورهم أحياء ليجدوا حظهم من سوء الحساب وفظاعة المصير - وفي ذلك يقول سبحانه: {فمال الذين كفروا قبلك مهطعين} مهطعين مسرعين خائفين - هطع ههطعا وهطعا أي أسرع مقبلا وخائفا أو أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه وهو خاضع ذليل ١١ وفي ذلك إنكار من الله على المشركين الذين كانوا يرون النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمون أن ما جاءهم به حق، إذ أيده الله بالآيات والدلائل الظاهرة، فضلا عما سمعوه من آيات الكتاب الحكيم في روعة نظمها المعجز وهم مع ذلك كله نافرون شاردون في جموح.

٣٧ - (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ)

قوله: {عن اليمين وعن الشمال عزين} عزين منصوب على الحال، وهي بالرفع عزون - وهو جمع ومفرده عزة، بكسر العين - وهي العصبة من الناس - عزاه إلى أبيه أي نسبه إليه ١٢ يعني ما لهؤلاء المشركين عن يمينك وعن شمالك فرقا فرقا وحلقا حلقا - فقد كانوا يحتفّون حول النبي صلى الله عليه وسلم عصابة عصابة وجماعة جماعة، يسخرون ويتهكمون ويقولون مستهزئين: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزل قوله سبحانه: {أيطمع كل مرئ منهم أن يدخل جنة النعيم}.

٣٨ - (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

قوله: {أيطمع كل مرئ منهم أن يدخل جنة النعيم} الاستفهام للإنكار - يعني أيطمع هؤلاء المشركون الجامحون في الضلال والنفور

من دين الله أن يدخلهم الله {جنة نعيم ٣٨ كلا}.
٣٩ - (كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)
قوله: {كلا} بل إن مردهم إلى النار وسوء المصير - قوله {إنا خلقناهم مما يعلمون} أي يعلمون أنا خلقناهم من نطفة من ماء مهين مستقذر - أفلا يدل ذلك على أنا قادرون على إحيائهم بعد الممات وبعثهم للحساب.
٤٠ - (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)
قوله: {فلا أقسم برب المشرق والمغرب إنا لقادرون} لا، نافية لزعمهم أن الساعة غير آتية - أو زائدة - يعني أقسم {برب المشرق والمغرب} أي بمطالع الشمس ومغاربها {إن لقادرون ٤٠ على أن نبذل خيرا منهم}.
٤١ - (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)
قوله: {على أن نبذل خيرا منهم} يعني أن نعيدهم يوم القيامة بأجساد أقوى من أجسادهم هذه - أو أن نهلكهم ونأتي بأمة أفضل منهم وأعظم طاعة لله {وما نحن بمسبوقين} أي لسنا عاجزين عن فعل ذلك.
٤٢ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)
قوله: {فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون} يعني دع هؤلاء الضالين المكذبين يخوضوا في باطلهم وكفرهم ولهوهم {حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون} وهو يوم القيامة بأهوالها ومصائبها وما يعقب ذلك من سوء الحساب.
وحينئذ يعاينون العذاب ولات حين مناص أو ندامة.
٤٣ - (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ)
قوله: {يوم يخرجون من الأجداث سراعا} يوم، بدل من يومهم - وفي هذا اليوم العصيب يخرجون من قبورهم ناهضين {سراعا} أي مسرعين {كأنهم إلى نصب يوفضون} كأنهم إلى علم أو شيء منصوب للعبادة {يوفضون} يسرعون، كشأنهم في الدنيا إذا كانوا ينطلقون مهرولين صوب نصب إذا عاينوه ١٣.
٤٤ - (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)
قوله: {خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة} خاشعة، حال من فاعل {يوفضون} يعني ينطلقون من قبورهم ذليلة أبصارهم وقد غشيهم من الهوان والذل ما غشيهم جزاء كفرهم وتكذيبهم.
قوله: {ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} يعني هذا اليوم بويلاته ومصائبه هو الذي كانوا يوعدونه في الدنيا - وهو ما تكشف عنه الآيات العظام هنا من فظاعة الأهوال والمشاهد التي تعاينها البشرية يوم القيامة حيث الأفزاع والبلايا - تكشف الآيات عن ذلك كله بكلماته الربانية المصطفاة، وعجيب أسلوبها الذي لا يضاهى، وروعة نظمها المثير الباهر، الذي يجسد للخيال صورة مذهلة عن القيامة بأحداثها الجسام وكوارثها الرعيبة المزلزلة كأنما هي منظورة ومحسّة ١٤.

٧١ سورة نوح:

سورة نوح:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وآياتها ثمان وعشرون - وهي في جملتها نقص علينا خبر واحد من رسل الله أولي العزم وهو نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام - هذا النبي الصابر العظيم الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأن يجتنبوا الشرك والأصنام، ويحذرهم عذاب الآخرة، فلم يجد منهم إلا الآذان الصّم والقلوب الغلف - ولقي منهم في ذلك أشد البلاء والعنت إذ آذوه شديد الأذى وعذبوه بالغ التعذيب، من شتم وضرب وازدراء، وهو يقابلهم بالصبر وبالغ الصفح والاحتمال خلال هذه المدة الطويلة -

حتى إذا استيأس من إيمانهم وأيقن أنهم ساردون في الكفر والضلال وأن دعاءه إياهم لا يزيدهم إلا الإيغال في التكذيب والعصيان، هنالك دعا ربه أن يهلكهم ويقطع دابرهم فاستجاب الله دعاءه فأخذهم أخذ عزيز مقتدر واستأصلهم أيما استئصال.
١ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ١ قال ياقوم إني لكم نذير مبين ٢ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ٣ يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون}.
أرسل الله نبيه نوحا إلى قومه المشركين ليدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والباطل، فلبث فيهم قرونا، يبلغهم ويحذرهم وينصح لهم وهو قوله: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك} أن، المفسرة ويجوز أن تكون مصدرية - أي أرسلناه بالإنذار لقومه {من قبل أن يأتيهم عذاب أليم} وهو عذاب الآخرة أو الطوفان.
٢ - (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)
قوله: {قال ياقوم إني لكم نذير مبين} أضاف قومه إلى نفسه ليظهر لهم إشفاقه عليهم {إني لكم نذير مبين} أي مبلّغ ظاهر النذارة واضح البيان والتبليغ.
٣ - (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)
قوله: {وأن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} أن تفسيرية، أو مصدرية - أي أذعنوا لله وحده بالطاعة والانقياد {واتقوه} أي خافوه والتزموا أوامره وأحكام دينه {وأطيعون} أي أطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه.
٤ - (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
قوله: {يغفر لكم من ذنوبكم} من، فيها وجهان: أحدهما: أنها تبعيضية - أي يغفر بعض ذنوبكم وهي ما سبق - فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الآثام والمعاصي - ثانيهما: أنها مزيدة ١ أي يغفر لكم ذنوبكم {ويؤخركم إلى أجل مسمى} أي يؤخركم إلى وقت موتكم وهو الأجل المقدور المحتوم - فإذا جاء هذا الأجل فإنه {لا يؤخر لو كنتم تعلمون} إذا حان الأجل وجاءت ساعة الموت فإن ذلك لا يرد ولا يقوى على دفعه دافع {لو كنتم تعلمون} أي لو علمتم ما سيحل بكم من فرط الندامة والفزع لبادرتم إلى الإيمان ٢.
٥ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا)
قوله تعالى: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ٥ فلم يزدهم دعائي إلا فرارا ٦ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ٧ ثم إني دعوتهم جهارا ٨ ثم إني اعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ٩ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ١٠ يرسل السماء عليكم مدرارا ١١ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ١٢ ما لكم لا ترجون لله وقارا ١٣ وقد خلقكم أطوارا ١٤ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ١٥ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ١٦ والله أنبتكم من الأرض نباتا ١٧ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ١٨ والله جعل لكم الأرض بساطا ١٩ لتسلكوا منها سبلا فجاجا}.
يبين الله مقالة نوح لقومه وهو يبث حزنه وشكايته إلى ربه من سوء فعالهم وشديد جحودهم وعصيانهم وعظيم استكبارهم وعنادهم فقال شاكيا إلى الله همه وابتئاسه منهم {إني دعوت قومي ليلا ونهارا} دعوتهم إلى عبادة الله وحده وحذرتهم مخالفة أمره وعصيانه ونهيتهم عن الشرك والباطل.
٦ - (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا)
قوله: {فلم يزدهم دعائي إلا فرارا} دعوتهم إلى عبادة الله وحده دون سواه من الأنداد المفتراة أو الآلهة المصطنعة فما ازدادوا بدعائي لهم إلا استكبارا واستنكافا عن الحق والتوحيد.

٧ - (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)

قوله: {وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم} يعني كلما دعوت قومي للإيمان بالله وحده لكي يؤمنوا فتغفر لهم وتصفح عنهم ما فعلوه من الخطايا والذنوب سدّوا مسامعهم كيلا يسمعوا ما أدعوهم إليه {واستغشوا ثيابهم} غطوا وجوههم ورؤوسهم بثيابهم كراهة أن يروني أو لئلا أعرفهم فأدعوهم إلى دينك، دين التوحيد والحق {وأصروا واستكبروا استكبارا} أقاموا على كفرهم مصرين معاندين واستنكفوا عما دعوتهم إليه أيما استنكاف.

٨ - (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)

قوله: {ثم إني دعوتهم جهارا} جهارا، نعت لمصدر محذوف - أي دعاء جهارا - أو مصدر في موضع الحال، أي مجاهرا ٣ يعني أظهرت لهم دعوة الله في المجالس جهرة ليسمعها الناس.

٩ - (ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)

قوله: {ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} أي دعوتهم إلى دين الله في العلن ودعوتهم إليه أيضا في السر.

١٠ - (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)

قوله: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا} أي أمرتهم بالاستغفار من الشرك والخطايا، إذ كانوا يعصون الله ويعبدون من دونه الأصنام - {إنه كان غفارا} الله غفار للخطايا وهو سبحانه يعفو عن الذنوب مهما كثرت أو عظمت فاستغفروه ليغفر لكم.

١١ - (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)

قوله: {يرسل السماء عليكم مدرارا} مدرارا، حال من السماء - أي كثير الدرور - أو نعت لمصدر محذوف أي يرسله إرسالا مدرارا ٤ أي غزيزا متواصلا.

١٢ - (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)

قوله: {ويمددكم بأموال وبنين} يعني ويزدكم الله بالتوبة والاستغفار أموالا وبنين في الدنيا {ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا} يمن الله عليكم من فضله وواسع كرمه بجنات النعيم، تتفجر من خلالها ومن تحتها الأنهار سائحة جارية.

١٣ - (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)

قوله: {ما لكم لا ترجون لله وقارا} أي ما لكم لا تخافون لله عظمة - أو ما لكم لا تأملون له توقيرا وتعظيما - وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته - أي لا تخافون من بأسه ونقمته.

١٤ - (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

قوله: {وقد خلقكم أطوارا} أطوارا منصوب على الحال - أي ما لكم لا تؤمنون بالله وحده، وكيفية خلقكم تقتضي إيمانكم به - فقد خلقكم أطوارا إذ خلقكم أولا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم خلقكم عظاما ولحما - وفي ذلك تنبيه لهم على عظمة الخالق الصانع.

١٥ - (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

قوله: {ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا} ذلك تنبيه من الله للأذهان لكي تنظر في الآفاق وفي الكون فتتفكر وتتدبر ما فيه من عجائب الخلق المستمسك المتّسق - الخلق المحكم المتكامل المتين - فقد خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض وقد جعلهن في غاية العظمة والقوة والاتساع و الإحكام - وفي ذلك برهان ظاهر لكل ذي عقل على قدرة الصانع الحكيم.

١٦ - (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

قوله: {وجعل القمر فيهن نورا} جعل القمر في السماوات وهو في السماء الدنيا لجاز أن يقال فيهن وإن لم يكن في جميعهن - كما يقال: في المدنية كذا وهو في زاوية من زواياها ٥.

والقمر واحد من الكواكب السيارة التي تدور في أفلاكها المقدورة من هذا الفضاء الواسع في هذا الكون الهائل العجيب - وهو بنوره الساطع ينعكس على الأرض ليبعث فيها الضياء فضلا عما يثيره في واقع البشر من ظواهر الأنس والبهجة.

قوله: {وجعل الشمس سراجا} شبهها بالسراج، لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيل سراج البيت الظلمة عما حوله - والشمس مصدر الحياة والنشاط والنمو والخير للأرض ومن عليها، فهي تنشر في الدنيا الإشراق والضياء والدفء وغير ذلك من وجوه المنافع الكثيرة.

١٧ - (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

قوله: {والله أنبتكم من الأرض نباتا} الله أنشأكم من الأرض إنشاء، فقد استعار الإنبات للإنشاء.

١٨ - (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

قوله: {ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا} أي يعيدكم الله في الأرض مقبورين موتى، ثم يخرجكم منها أحياء لتساقوا إلى الحشر - وقد أكد ذلك بالمصدر {إخراجا}.

١٩ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

قوله: {والله جعل لكم الأرض بساطا} أي سخر الله للناس الأرض وجعلها لهم مبسوطة ممهدة ليتقلّبوا عليها مطمئنين مستقرين.

٢٠ - (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

قوله: {لتسلكوا منها سبلا فجاجا} أي طرقا واسعة فتمضوا إلى حيث شئتم من أرجائها وأقطارها ٦.

٢١ - (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)

قوله تعالى: {قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ٢١ ومكروا مكرا كبارا ٢٢ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ٢٣ وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا}.

ذلك مما بثه نوح إلى ربه من الشكاية والابتئاس بسبب إعراض قومه وإيذائهم له بالضرب والشتم واستنكافهم عن عقيدة التوحيد جانحين للأصنام واتباع السادة والكبراء المضلين وهو قوله: {قال نوح رب إنهم عصوني} وذلك فيما أمرتهم به من الإيمان بك وحدك، وبمجانبة الشرك والضلال {واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا} أي أعرضوا عما دعوتهم إليه واتبعوا الرؤساء والكبراء من أصحاب الأموال والأولاد التي لا يزدادون بها في الآخرة إلا الخسران وسوء العذاب.

٢٢ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)

قوله: {ومكروا مكرا كبارا} والمراد بهم الرؤساء والكبراء من المشركين المتبوعين فقد مكروا بنوح عليه السلام، إذ كادوا له كيدا وآذوه أشد الإيذاء وصدوا عن دينه صدودا - وكان مكرهم به {كبّارا} أي عظيما، وهو أكبر من الكبير - وهو بناء مبالغة فهو أبلغ من كبار، بالضم والتخفيف ٧.

٢٣ - (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

قوله: {وقالوا لا تذرنّ آلهتكم} قال الرؤساء والكبراء المتبوعون لعامة الناس وهم التابعون: لا تتركوا عبادة آلهتكم الأصنام {ولا تذرنّ ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} وهذا من باب عطف الخاص على العام - فهذه أسماء لأصنام كانوا يعبدونها من دون الله - فقد روى البخاري عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد - أما ودّ، فكانت لكلب بدومة الجندل - وأما سواع، فكانت لهذيل - وأما يغوث، فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ - وأما يعوق فكانت لهمدان - وأما نشر، فكانت لحمير، لآل ذي كلاع وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

أما، ود فهو صنم على صورة رجل - وأما سواع فهو على صورة امرأة - وأما يغوت، فهو على صورة أسد - وأما يعوق فهو على صورة فرس - وأما نسر، فهو على صورة نسر - فهذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فخصوها بعد العموم.

٢٤ - (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا)

قوله، {وقد أضلّوا كثيرا} الضمير للرؤساء - يعني أضل الرؤساء والكبراء بهذه الأصنام خلقا كثيرا من الناس ففتنوهم عن توحيد الله إلى الاغترار بالأصنام التي لا تضر ولا تنفع - أو يعود الضمير على الأصنام فقد ضل بسببها كثير من الناس، إذ اغتروا بها اغترارا فزاغوا عن التوحيد إلى الشرك والباطل.

قوله: {ولا تزد الظالمين إلا ضلالا} ذلك من دعاء نوح على قومه بالهلاك كقوله: {ولا تزد الظالمين إلا تبارا} أي هلاكا ٨.

٢٥ - (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا)

قوله تعالى: {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ٢٥ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا ٢٦ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ٢٧ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا}.

دعا نوح ربه أن يهلك قومه بسبب كفرهم وتكذيبهم وعتوهم وشدة عصيانهم وتمردهم، وبما فعلوه من الخطايا الكثيرة والكبيرة فاستجاب الله دعاءه وأخذ قومه أشد أخذ، إذ أغرقهم بالطوفان إغراقا وهو قوله: {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا} ما، مزيدة بين الجار ومجروره توكيدا - يعني من أجل خطيئاتهم وهي كثرة ذنوبهم ومعاصيهم وعتوهم وإصرارهم على الكفر والتكذيب {أغرقوا فأدخلوا نارا} أغرقهم الله بالطوفان ثم أحرقهم بالنار - والمراد بالنار عذاب القبر أو عذاب الآخرة {فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا} أي ليس لهم من دون الله من معين ولا مغيث ولا مجير، يدفع عنهم البلاء أو يستنقذهم مما نزل بهم من سوء العذاب ٩.

وهذه حال الظالمين السادرين في الغفلة والباطل، الذين يزيغون عن منهج الله ولم ينفعهم النصح والنهي والتحذير، فإنهم ما يلبثون أن يفجأهم الله بعقابه الشديد ليدمر عليهم تدميرا، وحينئذ يستصرخون وليس لهم من مغيث، ويندمون ولات حين ندم.

٢٦ - (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

قوله: {وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا} ديّارا، من الأسماء المستعملة في النفي العام - يقال: ما بالدار ديّار وديور - كقيام وقيّوم - وهو قول الزمخشري ١٠ - والمعنى: لا تترك على وجه الأرض من الكافرين أحدا ولا ديارا.

٢٧ - (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا)

قوله: {إنك إن تذرهم يضلوا عبادك} إن تتركهم ولا تهلكهم يدعوا عبادك الذين يأتون من بعدهم إلى الضلال ويفتنوهم عن الحق إلى الباطل {ولا يلدوا إلا فاجرا كفرا} يعني إن هؤلاء المشركين العتاة لا يلد الواحد فيهم إلا إذا بلغ فجر وكفر.

وإنما قال نوح ذلك لطول خبرته بهم ومكثه فيهم، إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما - أو أن الله أخبره بقوله: {لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن}.

٢٨ - (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا)

قوله: {رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا} دعا نوح ربه أن يغفر له ولكل مؤمن دخل مسجده أو سفينته أو بيته - وذلك هو شأن المؤمنين المتقين فإنهم لا يتخذون من غير المؤمنين الصادقين أصدقاء وخلاّنا - وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي ".

قوله: {وللمؤمنين والمؤمنات} دعا ربه أن يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات إلى يوم القيامة.

قوله: {ولا تزد الظالمين إلا تبارا} دعا الله على قومه الظالمين العتاة أن لا يزيدهم غير الهلاك والخسار في الدنيا والآخرة، وذلك لفرط عتوّهم وطغيانهم وشدة عنادهم وإعراضهم عن دين الله وإضلالهم الناس ١١.

٧٢ سورة الجن:

سورة الجن:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وآياتها ثمان وعشرون، ويحتل فيها الحديث عن خبر الجن شطرا كبيرا - فهم من خلق الله، ويدل على حقيقتهم تسميتهم بالجن - فهم الخلق المستور، المحجوبون عن الرؤية - وهم من حيث الإيمان شطران، مؤمنون وكافرون - فقد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم مرة وهو يقرأ القرآن فهالهم ما سمعوا وبهروا به أيما انبهار، ثم انقلبوا إلى قومهم من الجن يقصون عليهم ما سمعوه من الكلام الباهر العجيب، مما نبينه عند تفسير السورة عن هذه المسألة - إلى غير ذلك من المواعظ والتحذير والعبر.

١ - (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ١ يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ٢ وأنه تعالى جدّ ربنا ما اتّخذ صاحبة ولا ولدا ٣ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ٤ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ٥ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ٦ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا}.

الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية فهم مخلوقون من نار - وتدل الآيات هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله بذلك رسوله وهو قوله: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} والنفر، جماعة من الثلاثة إلى العشرة وهم من جن نصيبين فقد استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر فانطلقوا إلى قومهم من الجن قائلين لهم {إنا سمعنا قرآنا عجبا} العجب ما يكون خارجا عن العادة - أي سمعنا قرآنا عجيبا بديعا مباينا لكل كلام في روعة نظمه وكمال معانيه ومقاصده.

٢ - (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

قوله: {يهدي إلى الرشد} أي يدل على الحق والصواب والسداد {فآمنا به} أي آمنا بالقرآن وأنه القول الحق المنزل من عند الله {ولن نشرك بربنا أحدا} وهذا من مقتضى الإيمان الحق - وهو أن لا يشركوا بالله أحدا من خلقه بل يعبدوه وحده دون غيره من الآلهة والأنداد.

٣ - (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا)

قوله: {وأنه تعالى جدّ ربنا} جدّ ربنا، أي عظمته وجلاله وقدرته {ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} تنزه الله عن اتخاذ الزوجة والولد، فإنه لا يتخذهما أو يرغب فيهما إلا المخلوق لما جبل عليه من إحساس بالضعف وحاجة للإيناس والعون - فتعالى الله وتنزه عن مثل هذه النقائص.

٤ - (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)

قوله: {وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا} المراد بالسفيه هنا إبليس فهو رأس الشر والغواية - أو مردة الجن أو جاهلنا، كان يقول حال كفره {على الله شططا} والشطط معناه البعد عن الحق أو مجاوزة الحد في الظلم ١.

٥ - (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

قوله: {وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا} أي كان في ظننا أن أحدا لن يكذب على الله فينسب الزوجة والولد إليه سبحانه فكنا نصدقهم فيما كانوا يفترون على الله حتى سمعنا القرآن فآمنا به وأيقنا به وأيقنا أن ما قالوه أو نسبوه إلى الله كذب وباطل وتباعد عن الحق - قال ابن كثير (رحمه الله) في تأويل الآية: أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالأون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه - فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

٦ - (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

قوله: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن} يعوذون أي يلجأون، من العوذ والمعاذ والتعوّذ وهو الالتجاء ٢ فقد كان الرجل من الإنس إذا أمسى بقفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه {فزادوهم رهقا} والرهق، معناه، السفه والخفّة وركوب الشر وغشيان المحارم - ومنه الإرهاق وهو حمل الإنسان على ما لا يطيقه ٣ والمعنى: أن الإنس زادوا الجن باستعاذتهم بهم طغيانا وكبرا وسفها فازدادت الجن على الإنس بذلك جراءة - وقيل: إن الجن زادوا الإنس غيّا وإثما، إذ أضلوهم حتى استعاذوا بهم.

٧ - (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

قوله: {وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا} يعني وأن الإنس قد ظنوا كما ظننتم أيها الجن أن الله لن يبعث أحدا بعد الموت - أو العكس وهو أن الجن قد ظنوا كما كنتم تظنون أيها المشركون من الإنس أن الله لن يبعث أحدا بعد الموت - أي أن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم ثم بسماع القرآن اهتدوا وأقروا بالبعث فهلا أقررتم كما أقروا ٤.

٨ - (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)

قوله تعالى: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ٨ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ٩ وأنا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا}.

ذلك إخبار من الله عن الجن حين بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم للعالمين وأنزل عليه القرآن وكان من حفظ الله لكتابه الحكيم أن السماء قد ملئت حرسا وشهبا من كل أرجائها وطردت منها الشياطين كيلا يسترقوا شيئا من أخبار السماء فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر على الناس ويختلط، فلا يدرون الصادق من الكاذب.

وهو قوله: {وأنا لمسنا السماء} وهذا من قول الجن - يعني طلبنا أخبار السماء كما كنا نطلبها في العادة {فوجدناها ملئت حرسا شديدا} جملة {ملئت} في موضع نصب على الحال - وحرسا، مفعول ثان لملئت، وهو جمع ومفرده حارس - يعني ملئت السماء من سائر أطرافها وأنحائها حراسا من الملائكة أشداء أقوياء يحفظونها من استراق الشياطين {وشهبا} جمع شهاب وهو الشعلة الساطعة من النار ٥ فقد كانت الملائكة ترجمهم بالشهب الحارقة منعا لهم من الاستماع - أو كانت تنقضّ عليهم قذائف من نار الكواكب لتحرقهم وتحول بينهم وبين استراق السمع.

٩ - (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا)

قوله: {وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع} يعني كنا معشر الجن نقعد من السماء {مقاعد} أي مواضع نقعد فيها لنستمع الأخبار من السماء - وهؤلاء مردة الجن، كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقوها إلى الكهنة على الأرض وهؤلاء يضلون الناس ليلبسون عليهم دينهم - ومن أجل ذلك حفظ الله السماء بالشهب الحارقة ليصد بها المردة والشياطين عن بلوغ السماء وما فيها من أخبار - وهو قوله: {فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا} من يستمع أخبار السماء الآن، أي بعد بعث محمد صلى الله عليه وسلم سيجد شهابا حارقا من نار الكوكب أرصد له ليرجم به - والرصد في اللغة بمعنى القوم يرصدون كالحرس - ويستوي فيه الواحد والجمع - والراصد للشيء معناه الراقب - والترصد، الترقب ٦.

١٠ - (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

قوله: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} يخبر الله عن قيل هؤلاء النفر من الجن، إذ قالوا: وأنا لا ندري أعذابا أراد الله إنزاله بأهل الأرض، بمنعه إيانا السمع من السماء ورجمه من استمع منا بالشهب القافذة الحارقة أم أراد الله بهم خيرا وهداية بأن يبعث فيهم رسولا منهم يهديهم إلى الرشد وإلى سواء السبيل ٧.

١١ - (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا)

قوله تعالى: {وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ١١ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ١٢ وأنا لما

سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ١٣ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ١٤ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ١٥ وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ١٦ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا}.

ذلك إخبار من الله عما قالته الجن عن أنفسهم {وأنا منا الصالحون} يعني منا أهل الصلاح، المطيعون لله، المجانبون لنواهيه ومعاصيه {ومنا دون ذلك} أي ومنا غير أهل الصلاح {كنّا طرائق قددا} طرائق جمع طريقة وهي طريقة الرجل ومذهبه) وقددا جمع قدة، بتشديد الدال - أي كنّا فرقا مختلفة الأهواء - أو كنّا أهواء شتى متباينة - أو كنّا أديانا ومذاهب مختلفة متفرقة ٨.

١٢ - (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)

قوله: {وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض} أي علمنا وأيقنا مما تبين لنا من الدلائل الظاهرة أننا في قبضة الله وتحت قدرته وسلطانه ولن نفوت ملكوته وقهره بهرب أو حيلة {ولن نعجزه هربا} هربا، منصوب على المصدر في موضع الحال - وتقديره ولن نعجزه هاربين ٩.

١٣ - (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا)

قوله: {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به} يعني لما سمعنا القرآن صدقناه وأيقنا أنه من عند الله لهداية العالمين {فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا} من يؤمن بالله وحده لا شريك له ويطعه ويعمل صالحا {فلا يخاف بخسا} البخس معناه النقص - أي لا ينقص من حسناته {ولا رهقا} أي ولا يزاد في سيئاته - والرهق معناه العدوان والطغيان.

١٤ - (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

قوله: {وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون} وذلك إخبار آخر من الله عن قيل النفر من الجن وهو أنا منا المسلمون أي المستسلمون لله الخاضعون لأمره، المذعنون له بالطاعة والإنابة {ومنا القاسطون} أي الجائرون - أو المائلون عن الحق، الناكبون عن سواء السبيل - والقاسطون، من القسوط، وهو الجور والعدول عن الحق، بخلاف القسط وهو العدل ١٠.

قوله: {فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا} فمن رام الهدى والصواب فأطاع الله واستسلم لأمره فأولئك قصدوا الطريق المستقيم.

١٥ - (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

قوله: {وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا} أما الجائرون الزائغون عن دين الله، الفاسقون عن أمره فأولئك هم وقود النار، إذ تتسعر بهم جهنم وتضطرم بهم اضطراما.

١٦ - (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)

قوله: {وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} وهذا من قول الله سبحانه، وهو أن لو استقام هؤلاء القاسطون، الجائرون المائلون عن دين الله- على طريقة الحق والاستقامة فأطاعوا الله واجتنبوا عصيانه والإشراك به لأسقيناهم من السماء ماء كثيرا فوسعنا عليهم في الرزق وبسطنا لهم في الدنيا بسطا.

١٧ - (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

قوله: {لنفتنهم فيه} أي لنبتليهم أو نختبرهم به فنعلم شكرهم فيه على نعمة الله.

قوله: {ومن يعرض عن ذكر ربه} يعني من يعرض عن القرآن فلم يعبأ به ولم يعمل بمقتضاه {يسلكه عذابا صعدا} يعني يدخله عذابا شاقّا شديدا - أو عذابا ذا صعد - والمشي في الصعود شاق ١١ والصّعود، بفتح الصاد معناه العقبة الكئود ١٢.

١٨ - (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

قوله تعالى: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ١٨ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ١٩ قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحد ٢٠ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ٢١ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ٢٢ إلا بلاغا من الله ورسالته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ٢٣ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف

ناصرا وأقل عددا}.
يأمر الله عباده أن يوحّدوه في أمكن عبادته وهي المساجد وأن لا يعبدوا معه غيره من المخاليق في المساجد كما كان اليهود والنصارى يفعلون - كانوا إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا مع الله غيره في عبادتهم فقال سبحانه: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} يعني وأوحي إلي أن المساجد لعبادة الله خاصة فلا تعبدوا مع الله أحدا سواه ولا تشركوا بالله فيها شيئا، بل أفردوه بالتوحيد والعبادة مخلصين له الدين.
١٩ - (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)
قوله: {وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا} يعني لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم {يدعوه} أي يعبده، وذلك ببطن نخلة حين كان يصلي ويقرأ القرآن كان الجن حين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم {يكونون عليه لبدا} أي يركب بعضهم بعضا ازدحاما حرصا على سماع القرآن - أو كانوا يزدحمون عليه متراكمين إعجابا بما سمعوه من القرآن الذي لم يروا كمثله ولم يسمعوا بنظيره من الكلام كله - أو تعجبا مما رأوا من عبادته (عليه الصلاة والسلام) واقتداء أصحابه في القيام والقعود والركوع والسجود.
وقيل: لما قام نبي الله يعبد الله وحده مخالفا بذلك المشركين في عبادتهم كاد المشركون يركب بعضهم بعضا فيكونون عليه أعوانا متمالئين ليطفئوا نور الله ويفنوه - واللبد، هو الشيء الذي بعضه فوق بعض.
ويذكرنا ذلك بكراهية الكافرين جميعا للإسلام ولقرآن الله الحكيم فهم لا ينقطعون ولا يفترون عن الكيد للإسلام في كل زمان، إذ هم متعاونون متمالئون ما بينهم على تدمير الإسلام برمته كيلا يبقى منه غير الأثر - لكنه بالرغم من كل مكائد الظالمين وتمالئهم على استئصال دين الله الإسلام، فإن هذا الدين ما فتئ يشيع في الآفاق ويطرق القلوب بقوة يقينه وسطوع نوره المشعشع.
٢٠ - (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)
قوله: {قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا} لما آذى المشركون النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه تكذيبا وتمالئوا على صده عن الدعوة إلى الله، ليبطلوا ما جاءهم به من الحق أمره الله أن يقول لهم {إنما أدعوا ربي} أي إنما أعبد الله وحده فهو ربي وخالقي، أفوّض إليه أمري وعليه أعتمد وأتوكل {ولا أشرك به أحدا} لا أعبد أحدا سواه ولا أتخذ من دونه إلها آخر إنما هو الإله الخالق الواحد.
٢١ - (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)
قوله: {قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا} لا أستطيع أن أضركم أو أنفعكم إنما الضار والنافع هو الله - أو ليس لي أمر هدايتكم أو غوايتكم بل مرد ذلك كله إلى الله فهو الهادي وهو المضل.
٢٢ - (قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)
قوله: {قل إني لن يجيرني من الله أحد} أي لا يدفع أحد عني عذاب الله إن نزل بي - أو إن عصيته فليس من أحد يرد عني عقابه {ولن أجد من دونه ملتحدا} أي ليس لي من دون الله ملجأ أو مناص أو حرز آوي إليه.
٢٣ - (إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)
قوله: {إلا بلاغا من الله ورسالاته} بلاغا، في نصبه وجهان - أحدهما: أن يكون منصوبا على المصدر ويكون الاستثناء متصلا - أي إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إن لم أبلّغ رسالات ربي بلاغا، وثانيهما: أن يكون منصوبا، لأنه استثناء منقطع من قوله: {لا أملك لكم ضرّا ولا رشدا} إلا أن أبلغكم دعوة ربي وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم ١٣.
قوله: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خلدين فيها أبدا} يقول النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين منذرا ومحذرا: من يعص الله منكم فيما أمره به أو نهاه عنه أو يعص رسوله فيما جاءكم به من الحق فكذب به وجحد رسالات الله فإن مرده إلى جهنم يصلاها {خالدين فيها أبدا} أي ما كثين فيها آبدين لا يخرجون ولا يبرحون.

٢٤ - (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)
قوله: {حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا} يعني إذا عاين المشركون وقوع الساعة ورأوا العذاب، فسيعلمون حينئذ من أضعف جندا وأقل عددا، أهم المؤمنون المصدقون الموحّدون، أم المشركون المكذبون الجاحدون؟ بل إن المؤمنين حينئذ هم الأقوياء والأعزة والمنصورون ١٤.
٢٥ - (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا)
قوله تعالى: {قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ٢٥ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ٢٦ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ٢٧ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا}.
يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المشركين: إنني لا أدري أقريب ما وعدكم ربكم من قيام الساعة، أم يجعل الله لهذا الميعاد غاية يطول وقتها - أي إنه لا يعلم أيان ميقات الساعة - ولا يعلم إن كان ذلك قريبا أم بعيدا - وهذا يدل على بطلان ما يتداوله كثير من الجهلة من أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤلف تحت الأرض - فمثل هذا القول لا أساس له البتة.
٢٦ - (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)
قوله: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا} الله وحده الذي يعلم الغيب - فهو عليم بما غاب عن أبصار العباد وعن إدراكهم فلا يطلع أحدا من خلقه على الغيب.
٢٧ - (إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)
قوله: {إلا من ارتضى من رسول} لا يطلع أحد على الغيب إلا من ارتضى الله له ذلك من النبيين والملائكة فيطلعهم على ما يشاء من الغيب ويستدل من ذلك على أنه لا يعلم الغيب أحد سوى الله - ثم استثنى الله من ارتضاه من رسول - سواء كان الرسول ملكا، أو كان من البشر - هؤلاء قد أودعهم الله ما شاء من الغيب بطريق الوحي إليهم ليكون لهم معجزة تشهد على صدق نبوتهم - أما غير هؤلاء من الخلق فلم يؤت شيئا من علم الغيب.
قوله: {فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا} أي يرسل الله من أمام الذي ارتضاه لعلم الغيب أو الرسالة، ومن خلفه {رصدا} أي حرسا أو حفظة أو معقبات من الملائكة يحرسونه ويحفظونه من الشياطين، إذ يطردونهم عنه فيعصمونه من تخاليطهم ووساوسهم حتى يبلّغ ما حمّل من أمانة الرسالة والوحي - وقيل: ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك - والرصد معناه في اللغة الحرس - ويستوي فيه الواحد والجمع - والترصد معناه الترقب ١٥.
٢٨ - (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)
قوله: {ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم} اختلف المفسرون في المراد بقوله: {ليعلم} فقد قيل: المراد، الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون المعنى: وليعلم رسوله الله أن الرسل من قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، وأن الله قد حفظهم ودفع عنهم أذى الشياطين - وقيل: المراد المشركون - أي ليعلم المشركون أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم - وقيل: ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته أي ليعلم ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا.
قوله: {وأحاط بما لديهم} أحاط علم الله بما عند الرسل وما عند الملائكة - {وأحصى كل شيء عدد} عددا، منصوب على التمييز ١٦ يعني أحاط علم الله بعدد كل شيء - فما يخفى عليه علم شيء وجودا وموضعا وصفة وعددا ١٧.

٧٣ سورة المزمل:

سورة المزمل:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وعدد آياتها عشرون وذكر في سبب نزول آياتها أن قريشا اجتمعت في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما يصدر الناس - عنه - أي يصدرون عنه - فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر - فتفرق المشركون على ذلك - فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبريل عليه السلام فقال: {ياأيها المزّمل - ياأيها المدثر}.

١ - (يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ياأيها المزّمل ١ قم الليل إلا قليلا ٢ نصفه أو انقص منه قليلا ٣ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ٤ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ٥ إنّ ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ٦ إن لك في النهار سبحا طويلا ٧ واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلا ٨ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا}.

المزمل، أصله المتزمل - وهو المتلفف بثيابه - زمّله في ثوبه أي لفّه، زمّلته بثوبه تزميلا فتزمّل، أي لففته به فتلفف به - وزملت الشيء أي حملته - ومنه قيل للبعير الزاملة والهاء للمبالغة، لأنه يحمل متاع المسافر ١ فالمزمل هو المتلفف في ثيابه - وقد ذكر أن ذلك كان في ابتداء الوحي، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع قول الملك ونظر إليه هاله ذلك فأخذته منه رعدة فأتى أهله وقال: " زملوني دثروني فنزل قوله سبحانه: {ياأيها المزّمل} يعني يا من تلفف بثيابه أو في قطيفته - أو يا أيها النائم.

٢ - (قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا)

قوله: {قم الليل إلا قليلا} أي صلّ الليل كله إلايسيرا منه، فاستثنى من قيامه القليل منه ليستريح الجسد و يرقد - أما بقية الليل وهو الشطر الأكبر منه فقد كان قيامه فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته - وقد تشمّر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لذلك حق التشمّر فأقبلوا على إحياء الليالي متجافين عن الدعة والرقاد، وتجاهدوا في ذلك حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السّيمي في وجوههم، واستمروا على ذلك مدة سنة حتى رحمهم الله وخفف عنهم فيما نبينه في موضعه إن شاء الله.

٣ - (نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا)

قوله: {نصفه أو انقص منه قليلا} نصفه، منصوب على أنه بدل من الليل - وقليلا مستثنى من النصف ٢ والمعنى: قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث.

٤ - (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلا)

قوله: {أو زد عليه} يعني أو زد عليه قليلا إلى الثلثين - فيكون المعنى: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه - وبذلك يكون النبي صلى الله عليه وسلم مخيرا في ذلك بين أمرين: بين أن يقوم أقل من نصف الليل، وبين أن يختار أحد الأمرين، وهما النقصان من النصف والزيادة عليه.

قوله: {ورتّل القرآن ترتيلا} الترتيل في القراءة معناه، الترسّل فيها والتبيين بغير بغي ٣ والمعنى: اقرأ القرآن على ترسل وتمهل أو تؤدة - يتبيين حروفه وإشباع حركاته مع تدبر معانيه والابتهاج بجمال نظمه وجمال إعجازه - فلا يقرأه هذّا والهذّ معناه الهدرمة وهي السرعة في القراءة والكلام ٤.

فما ينبغي لقارئ أن يقرأه على عجل، غير متدبر ولا متذكر ولا مبتهج بل يقرأه متّئدا متمهلا وأن يحسّن الصوت في قراءته - وقد جاء في الحديث " زينوا القرآن بأصواتكم- وليس منا من لم يتغنّ بالقرآن- ولقد آوتي هذا مزمارا من مزامير آل دواد " يعني أبا موسى الأشعري - فقال: لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا ".

٥ - (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا)

قوله: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا} المراد بالقول هنا القرآن - وفي تأويل ثقله وجهان: الوجه الأول: أنه ثقيل وقت نزوله وذلك بسبب عظمته - فقد ذكر عن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) أنه قال: " أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونخذه على نخذي فكادت

ترضّ نخذي ".
وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله! هل تحس بالوحي؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض ".
وقالت عائشة (رضي اله عنها): ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وجبينه ليتفصّد عرقا.
وروى الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته فتضرب بجرانها - أي بصدرها - وفي رواية عن عروة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرّى عنه - وجرانها يعني صدرها، إذ تضعه على الأرض من فرط الثقل.
الوجه الثاني: أن المراد بثقل القرآن، العمل به - أي العمل بما يقتضيه من الأحكام والحدود والشرائع والفرائض - فهو في ذلك كله ثقيل لا يحتمله إلا المؤمنون المتقون الذين لا يرتضون عن دين الله وشرعه ومنهاجه أي بديل - يحتمله المؤمنون الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وآمنوا بقضاء الله وقدره خيرهما وشرهما.
أما غير هؤلاء من المشركين والمرتابين والخائرين والمنافقين فإنه يثقل عليهم العمل بما في القرآن من أحكام وفروض وحدود.
ويضاف إلى ذلك كله ثقل الدعوة إلى دين الله، ومنبعه القرآن - لا جرم أن الدعوة إلى التزام أحكام الإسلام وما حواه القرآن من المبادئ والأخلاق وقواعد الشريعة وأحكامها لهو أمر ثقيل، لما يواجه ذلك في الغالب من الصدود والجحود والعدوان من أكثر الناس - إن الدعوة إلى دين الإسلام وما تضمنه القرآن من منهج للحياة ليس بالأمر السهل اليسير، بل إنه ثقيل عسير لا يطيقه إلا الصابرون الراسخون في الإيمان من المسلمين.
٦ - (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلا)
قوله: }إن ناشئة الليل هي أشد وطئا{ ناشئة الليل هي أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أولا فأولا - واختلفوا في المراد بناشئة الليل - فقد قال ابن عمر وأنس بن مالك: ما بين المغرب والعشاء.
وعن عائشة وابن عباس (رضي الله عنهم) أن الناشئة هي القيام بالليل بعد النوم - فمن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة - وجاء في الصحاح أن ناشئة الليل أول ساعاته - وعن الحسن أنها ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح - وقيل: وقيل: هي القيام من آخر الليل.
قوله: }هي أشد وطئا{ وطئا، منصوب على التمييز ٥ يعني: أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص - وعن الحسن قال: أشد موافقة بين السر والعلن لانقطاع رؤية الخلائق - وقيل: أثقل على المصلي من ساعات النهار، لأن الليل وقت منام وراحة وسكينة فمن شغله بالعبادة فقد احتمل مشقة كبيرة.
قوله: }وأقوم قيلا{ ذكر في تأويل ذلك عدة أقوال، وهي في مدلولاتها متقاربة - فقد قيل: أصوب للقراءة وأثبت للقول - وهو قول قتادة ومجاهد - وقيل: عبادة الليل أتم نشاطا وأتم إخلاصا وأكثر بركة - وهو قول عكرمة - وقيل: أقوم قراءة لفراغه من الدنيا - وقال ابن عباس: أدنى من أن تفقهوا القرآن.
٧ - (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا)
قوله: }إن لك في النهار سبحا طويلا{ السبح، معناه الفراغ - وهو أيضا التصرف في المعاش - والمعنى: إن لك في النهار متقلبا طويلا - وقيل: هو الفراغ والمجيء والذهاب ٦.
٨ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا)
قوله: }واذكر اسم ربك{ أي أكثر من ذكر الله - وذكره يتناول كل ما كان من ذكر طيب كتسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة وقرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله في ساعات ليله ونهاره.
قوله: }وتبتّل إليه تبتيلا{ }تبتيلا{، منصوب على المصدر - وهذا المصدر غير جار على فعله ٧ والتبتّل معناه الانقطاع للعبادة ومنه سميت مريم البتول لانقطاعها لعبادة ربها - والمعنى: انقطع بعبادتك إليه مخلصا له فيها غير مشرك به في ذلك أحدا.

٩ - (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا)
قوله: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو} رب، مرفوع على الابتداء وخبره {لا إله إلا هو} فالله مالك كل شيء، وهو المتصرف في ملكوت المشارق والمغارب، وهو سبحانه الإله الأحد المتفرّد بالإلهية والربوبية {فاتّخذه وكيلا} أي قائما بأمورك، وعوّل عليه في أمرك كله ٨.
١٠ - (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا)
قوله تعالى: {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ١٠ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلا ١١ إن لدينا أنكالا وجحيما ١٢ وطعاما ذا غصّة وعذابا أليما ١٣ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ١٤ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ١٥ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ١٦ فكيف تتّقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ١٧ السماء منفطر به كان وعده مفعولا}.
تتضمن هذه الآيات جملة من عظيم المعاني، يأتي في طليعتها التحضيض على الصبر واحتمال الأذى مما يصدر عن المشركين من سوء الأقوال والفعال وتتضمن كذلك وعيدا مخوفا من الله يتهدد به الظالمين الذين يصدون عن دينه، يتهددهم بالأنكال والجحيم والطعام الذي يغصهم غصّا.
وفيها تذكير بأهوال القيامة وما يقع فيها من شديد الزلازل والنوازل وهو قوله سبحانه: {واصبر على ما يقولون} أي اصبر يا محمد على ما يقوله المشركون من الأذى والسب والاستسخار - ولا تبتئس من قولهم بل احتمل وامض لما أمرك الله من الدعوة لدينه العظيم {واهجرهم هجرا جميلا} الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه أو هو مجانبتهم بالقلب والهوى ومخالفتهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء - وعن أبي الدرداء قال: " إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم " أي تبغضهم.
١١ - (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا)
قوله: {وذرني والمكذبين أولي النعمة} يعني دعني والمكذبين الذين يجحدون بآيات الله ويكذبون بيوم القيامة، فإنني منتقم منهم وكافيك أمرهم.
قوله: {أولي النعمة} وهم المنعّمون المترفون من أرباب المال والغنى واليسار في هذه الدنيا {ومهّلهم قليلا} قليلا، نعت لمصدر محذوف - أي أمهلهم تمهيلا قليلا - وهو يعني أخرهم إلى انقضاء آجالهم أو حتى يبلغ الكتاب أجله - وذلك وعيد شديد لهم من الله يتهددهم به وهو التصلية في جهنم وهو قوله: {إن لدينا أنكالا وجحيما}.
١٢ - (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا وَجَحِيمًا)
قوله: {إن لدينا أنكالا وجحيما} يعني إن عندنا لهؤلاء الجاحدين المكذبين بيوم الدين قيودا - يمنعون بها من الحركة فيظلون في الأسفلين من الجحيم وهي النار المتسعّرة المضطرمة.
١٣ - (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)
قوله: {وطعاما ذا غصّة} يعني طعاما شنيعا يغتص به الآكلون فيثبت في حلوقهم فلا هو بداخل فيها ولا هو بخارج منها - قال ابن عباس: إنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج {وعذابا أليما} يعني عذابا آخر موجعا غير الذي ذكر - لا جرم أن هذه الآيات المذهلة بكلماتها المصطفاة، وحروفها المؤثرة ذات الجرس والرنين، كل أولئك يرسم للخيال صورة رهيبة تكشف للناظر البصير عن فظاعة العذاب الذي يحيط بالمعذبين في النار.
١٤ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا)
قوله: {يوم ترجف الأرض والجبال} يوم منصوب على الظرف - أي يجدون النكال والعذاب الأليم {يوم ترجف الأرض والجبال} وذلك يوم القيامة - ورجفان الأرض والجبال اضطرابهما اضطرابا شديدا - وذلك إذا وقعت الواقعة وجاء اليوم الموعود {وكانت الجبال كثيبا مهيلا} حينئذ تكون الجبال ككثبان الرمل المركوم بعد ما كانت حجارة صلبة صماء ثم تنسف نسفا لتصبح حبات متناثرة

في الفضاء تذروها الرياح فتصير الأرض بذلك قاعا صفصفا {مهيلا} أصله مهيولا - يقال: هلت عليه التراب أهيله هيلا إذا صببته - هال الدقيق في الجراب صبّه من غير كيل - وكل شيء أرسله إرسالا من رمل أو تراب أو طعام ونحوه فقد هاله فانهال أي جرى وانصبّ ٩ - وقيل: هو اللّين الذي إذا مسسته تتابع - وقيل: إذا أخذت أسفله انهال - وقال ابن عباس: المهيل: الرمل السائل المتناثر.

١٥ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا)

قوله: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا} يخاطب الله بذلك كفار قريش، والمراد سائر الناس، إذ يخبرهم أنه أرسل إليهم محمدا رسولا شاهدا عليهم بأعمالهم من الخير أو الشر، ومن الطاعة أو العصيان، كما أرسل رسوله موسى إلى الأثيم الشقي فرعون ليعظه وينذره ويحذره عذاب ربه.

١٦ - (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلا)

قوله: {فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا} عصا فرعون موسى وسخر منه وآذاه وصد عنه صدودا فأخذه الله بالتغريق أخذا شديدا أليما - فاحذروا أنتم أن تكذبوا رسول الله محمدا فيصيبكم من العذاب والخزي ما أصاب فرعون وقومه المجرمين، إذ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

١٧ - (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)

قوله: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا} يوما منصوب على أنه مفعول للفعل {تتّقون} ويجعل، جملة فعلية في موضع نصب صفة ليوم ١٠ يعني: كيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به - أو كيف يحصل لكم أمان من فزع هذا اليوم العظيم إن كفرتم {يوما يجعل الولدان شيبا} يعني يوم القيامة، وفيه يشيب الولدان من شدة الهول في هذا اليوم الرعيب.

١٨ - (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا)

قوله: {السماء منفطر به} السماء متصدعة متشققة بسبب هذا اليوم وما فيه من شديد الهوال وبالغ الكروب {كان وعده مفعولا} كان ما وعد الله من هذا اليوم العصيب واقعا لا محيد عنه والله لا يخلف وعده - فاحذروا ذلك اليوم فإنه آت لا محالة ١١.

١٩ - (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا)

قوله تعالى: {إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ١٩ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدّر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسّر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم}.

هذه طائفة من الأحكام والمواعظ والعبر يتدبرها المؤمنون ليزدادوا بها تذكرا واعتبارا - فقال سبحانه في ذلك: {إن هذه تذكرة} يعني هذه الآيات التي تضمنت أخبار القيامة وما فيها من الأهوال والشدائد {تذكرة} أي عبرة لمن يعتبر، وعظة لمن يتعظ ويدّكر {فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} يعني من شاء من العباد سلك إلى ربه طريقا مستقيما فيؤمن به ويعمل بطاعته ويجتنب معاصيه.

٢٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قوله: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه} يعني: إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وتقوم نصفه، وتقوم ثلثه - وقرأ آخرون (ونصفه وثلثه) بالجر، عطفا على ثلثي الليل - فيكون المعنى: إن الله يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل

من نصفه وأقل من ثلثه.
قوله: {وطائفة من الذين معك} طائفة معطوف على ضمير، تقوم يعني: وتقوم هذا القدر من الليل معك طائفة من أصحابك.
قوله: {والله يقدّر الليل والنهار} أي يقدرهما بالساعات والأوقات وهما تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا.
قوله: {علم أن لن تحصوه فتاب عليكم} يعني علم الله الذي فرض عليكم قيام الليل أنكم لن تطيقوا قيامه فتاب عليكم، إذ عجزتم وضعفتم عن قيامه، وخفف عنكم {فاقرأوا ما تيسر من القرآن} أي فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل - فقد عبّر عن الصلاة بالقراءة، لأنها بعض أركانها فعبّر عنها بالقيام والركوع والسجود.
وقد استدل الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) بهذه الآية {فاقرأوا ما تيسر من القرآن} على أن قراءة الفاتحة غير متعينة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية واحدة أجزأه ذلك وتمّت صلاته صحيحة - ويعزز ذلك ما جاء في الصحيحين " ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن " وأجيب عن ذلك بحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فهي خداج - فهي خداج غير تمام ".
وعلى هذا فثمة قولان في المراد بالقراءة - أحدهما: أن المراد بها الصلاة فهي تسمى قرآنا كقوله: {و {قرآن الفجر} أي صلاة الفجر - والمعنى: فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل - وهذا ناسخ للأول، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس.
ثانيهما: أن المراد نفس القراءة - أي فاقرأوا فيما تصلون بالليل ما خفّ عليكم من القرآن - وهذا تخفيف من الله عن عباده ما فرضه عليهم بقوله: {قم الليل إلا قليلا ٢ نصفه أو انقض منه قليلا} وقد قيل: يقرأ مائة آية - وقيل: يقرأ خمسين.
قوله: {علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} يبين الله في ذلك علة تخفيف قيام الليل إلى قراءة ما تيسر من القرآن - وهي أنه سيكون في الناس أولو أعذار في ترك قيام الليل، منهم المرضى الذين لا يطيقون القيام - ومنهم المسافرون في الأرض طلبا للكسب والارتزاق والمعايش ومنهم المجاهدون في سبيل الله - وهذه السورة مكية، والقتال قد شرع بعد ذلك في المدينة، فلا جرم أن هذا دليل ساطع ومشهور يشهد بصدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك من باب الإخبار عن المغيبات.
قوله: {فاقرأوا ما تيسر منه} الهاء في قوله: {منه} عائدة إلى القرآن - فقد افترض الله القيام في أول هذه السورة فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم، ثم أنزل التخفيف بعد ذلك فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة - وإذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض، كان قوله: {فاقرأوا ما تيسر منه} محمولا على ظاهره من القراءة في الصلاة - وقد اختلف العلماء في قدر ما يلزم من القراءة به في الصلاة - فقال الإمامان مالك والشافعي: إن فاتحة الكتاب واجبة على التعيين دون غيرها من السور أو الآيات ولا يجزي العدول عنها إلى غيرها من القراءة - وقدّر الإمام أبو حنيفة القراءة في الصلاة بآية واحدة سواء كانت من فاتحة الكتاب أو من غيرها من السور - والراجح القول الأول وهو وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة لما بيناه في حينه من أدلة على وجوبها وأن غيرها من الآيات والسور لا يجزئ عنها.
قوله: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} المراد بالصلاة هنا، المفروضة، وهي الصلوات الخمس في اليوم والليلة {وآتوا الزكاة} يعني أدوا الزكاة المفروضة في أموالكم.
قوله: {وأقرضوا الله قرضا حسنا} يعني وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم وقيل: المراد بالقرض النوافل من الصدقات سوى الزكاة.
قوله: {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله} ما تقدمونه في دار الدنيا من وجوه البر والخير كالنفقات والصدقات أو غير ذلك من وجوه الطاعة كالصلاة والصيام وغيرهما من أعمال الخير والصالحات، تبتغون بذلك وجه الله فإنكم ستجدون جزاء ذلك كله عند الله يوم القيامة {وهو خيرا وأعظم أجرا} هو، ضمير فصل لا محل له من الإعراب - خيرا، مفعول ثان للفعل {تجدوه} والهاء هي المفعول الأول ١٢.

قوله: {واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} أي سلوا الله أن يغفر لكم ذنوبكم ويعفو عنكم فهو سبحانه غفّار لذنوب عباده التائبين المستغفرين وهو ذو رحمة بهم فلا يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها ١٣.

٧٤ سورة المدثر:

سورة المدثر:
بيان إجمالي للسورة

في سبب نزول هذه السورة روى البخاري عن أبي سلمة قال: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك فقال: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت أمامي فلم أر شيئا ونظرت من خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماء باردا " قال " فدثروني وصبوا علي ماء باردا " فنزلت:

بسم الله الرحمن الرحيم

ياأيها المدثّر ١ قم فأنذر ٢ وربك فكبر ٣ وثيابك فطهر ٤ والرجز فاهجر ٥ ولا تمنن تستكثر ٦ ولربك فاصبر ٧ فإذا نقر في الناقورة ٧ فذلك يومئذ يوم عسير ٩ على الكافرين غير يسير}.

١ - (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)

{المدثّر} أصلها المتدثر - أبدلت التاء دالا وأدغمت في الدال بعدها فصارت المدثر ١ والمدثر، من الدثار وهو كل ما كان من الثياب أو الكساء فوق الشعار وهو ما يلي الجسد من الثياب - وقد تدثر أي تلفف في الدثار ٢ - والمعنى: ياأيها المتدثر بثيابه أو قطيفته عند نومه - أو ياأيها الذي تغشى بثيابه ونام - وهذا خطاب ملاطفة ورحمة من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم.

٢ - (قُمْ فَأَنْذِرْ)

قوله: {قم فأنذر} أي قم من نومك وبلّغ الناس دعوة الحق والتوحيد وحذرهم سوء عاقبة الشرك والباطل وخوفهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه.

٣ - (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)

قوله: {وربك فكبر} يعني وسيدك ومالكك فعظم بعبادته وحده لا شريك له وإفراده وحده بالإلهية والربوبية دون غيره من الأنداد والأرباب التي اصطنعها المشركون الضالون.

٤ - (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)

قوله: {وثيابك فطهر} اختلف أهل التأويل في المراد بتطهير ثيابه - فقد قيل: لا تلبسها على معصية - أو طهرها من المعاصي والذنوب وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات - يقال: فلان طاهر الثياب إذا وصف بالنقاء من المعايب والأدناس - وقيل: المراد طهارة الثياب من النجاسات - فطهارة الثياب شرط في صحة الصلاة وهي لا تصح إلا بها - وخليق بالمسلم الصادق أن يكون نقي الجسد والثياب، نظيفا، إن لم يكن أنظف من غيره من غير المسلمين - وما يليق بالمسلم أن يحمل في ثيابه أو بدنه الخبث أو النجاسة - فيكون المعنى بذلك: اغسلها بالماء ونقّها من الأدران وطهرها من النجاسة.

٥ - (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)

قوله: {والرّجز فاهجر} الرجز بضم الراء، يعني الأوثان - أي والأوثان فاهجر عبادتها - وذلك تنبيه لبشاعة الشرك وفظاعة التلبّس به - والرّجز، بالكسر معناه، القذر والعذاب ٣.

٦ - (وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)

قوله: {ولا تمنن تستكثر} تستكثر، جملة فعلية في موضع نصب على الحال - وتقديره: ولا تمنن مستكثرا ٤ وقد جاء في تأويل هذه الآية

عدة أقوال وهي متقاربة في المعنى - وجملة ذلك: لا تعط يا محمد عطية تلتمس بها أفضل منها - أو لا تعط شيئا لتعطى شيئا أكثر منه - قال ابن عباس في ذلك: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال - والمقصود أن تكون العطايا خالصة لله، فلا يبتغي بها المعطي جزاءه من الناس.
٧ - (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)
قوله: {ولربك فاصبر} أي اصبر على أداء الفرئض والطاعات وإتيان العبادات - أو اصبر على احتمال المكاره والشدائد وكل ضروب البلوى مما تمتحن به كإيذاء قومك لك وأنت تدعوهم إلى دين الله - والأظهر أن يكون المراد ذلك كله.
٨ - (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)
قوله: {فإذا نقر في النّاقور} يعني فإذا نفخ في الصور.
٩ - (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)
قوله: {فذلك يومئذ يوم عسير} أي يوم رهيب عصيب تشتد فيه الأهوال والمحن والبلايا ويجد فيه الخاسرون من ألوان الهوان والمذلة والعذاب ما يهزّ القلوب والأبدان - قال ابن عباس في هذا الصدد من الكلام عن فظائع القيامة: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أصحابه فقال: " كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ثم أقبل بأذنه يستمع متى يؤمر بالصيحة " فاشتد ذلك على أصحابه فأمرهم أن يقولوا: " حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ".
١٠ - (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)
قوله: {على الكافرين غير يسير} أي غير هين ولا سهل فيتحمل، بل إنه عصيب شديد على الكافرين إذ يجدون فيه المذلة والخزي وسوء المصير ٥.
١١ - (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)
قوله تعالى: {ذرني ومن خلقت وحيدا ١١ وجعلت له مالا ممدودا ١٢ وبنين شهودا ١٣ ومهدت له تمهيدا ١٤ ثم يطمع أن أزيد ١٥ كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ١٦ سأرهقه صعودا ١٧ إنه فكّر وقدّر ١٨ فقتل كيف قدّر ١٩ ثم قتل كيف قدر ٢٠ ثم نظر ٢١ ثم عبس وبسر ٢٢ ثم أدبر واستكبر ٢٣ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ٢٤ إن هذا إلا قول البشر ٢٥ سأصليه سقر ٢٦ وما أدراك ما سقر ٢٧ لا تبقي ولا تذر ٢٨ لوّاحة للبشر ٢٩ عليها تسعة عشر}.
روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآيات أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن وكأنه رقّ له - فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: أي عمّ إن قوم يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله - فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا - قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكرله وكاره - قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا - والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى - قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه - قال: فدعني حتى أفكر فيه - فقال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره - فنزلت الآيات.
وقيل: إن الوليد بن المغيرة كان يغشى النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر (رضي الله عنه) حتى حسبت قريش أنه يسلم - فقال له أبو جهل: إن قريشا تزعم أنك إنما تأتي محمدا وابن أبي قحافة تصيب من طعامهما، فقال الوليد لقريش: إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإنكم تزعمون أنه شاعر، هل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: لا - قال: فتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ قالوا: لا - قالت قريش للوليد: فما هو؟ قال: فما هو إلا ساحر، وما يقوله سحر - فذلك قوله: {إنه فكر وقدر} إلى قوله: {إن هذا إلا سحر يؤثر} ٦.
قوله: {ذرني ومن خلقت وحيدا} وحيدا، منصوب على الحال من الهاء المحذوفة في قوله: {خلقت} وتقديره: خلقته وحيدا ٧ وهذا وعيد من الله وتهديد - والمعنى: دعني وهذا الذي خلقته من بطن أمه وحيدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته بعد ذلك المال والثراء والنعمة والولد - والمراد به في قول أكثر المفسرين، الوليد بن المغيرة المخزومي - وقد خصّ بالذكر لفرط عتوه واستكباره وجحده نعمة

الله، ولإيذائه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في نفسه موقن أنه نبي صادق - وكان الوليد يسمى في قومه الوحيد - قال ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لأبي المغيرة نظير وكان يسمى الوحيد - فقال الله تعالى: {ذرني ومن خلقت} بزعمه {وحيد} لا أن الله صدّقه بأنه وحيد.

١٢ - (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا)

قوله: {وجعلت له مالا ممدودا} يعني أعطيته مالا مبسوطا كثيرا - فقد كان له بين مكة والطائف صنوف من المال.

١٣ - (وَبَنِينَ شُهُودًا)

قوله: {وبنين شهودا} يعني أنعم الله عليه بالبنين وكانوا حاضرين بقربه من حوله، لا يغيبون عنه في تصرف ولا يظعنون عنه في تجارة.

١٤ - (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)

قوله: {ومهدت له تمهيدا} أي بسطت له في العيش بسطا فكان في مكة مترفّها متنعّما وكان موضع تكريم الناس واعتبارهم.

١٥ - (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

قوله: {ثم يطمع أن أزيد} ثم للتعجيب - أي ثم يأمل ويرجو- وهو في حاله من العتو والجحود- أن أزيده من المال والولد أكثر مما أعطيته.

١٦ - (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا)

قوله: {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا} وهذا استبعاد واستنكار لطعمه - أي ليس له ذلك ولا مزيد له على ما أوتي من السعة والكثرة مع كفره بالنعم ومعاندته للنبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الحق - وروي أنه بعد نزول هذه الآية لم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلكا.

١٧ - (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا)

قوله: {سأرهقه صعودا} الصعود، بفتح الصاد، هو العقبة الكئود ٨ أي سأكلفه من العذاب الشاق ما لا يطاق - وقيل: الصّعود جبل من النار في جهنم يكلف المجرمون بصعوده تنكيلا بهم وتعذيبا لهم.

١٨ - (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

قوله: {إنه فكر وقدر} المراد بالمفكر المقدر، الوليد بن المغيرة فقد فكر وتروّى فيما يقوله في القرآن: {وقدر} أي قدر في نفسه ماذا يقوله فيه.

١٩ - (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

قوله: {فقتل} أي لعن {كيف قدر} تعجيب من تقديره وقوله في القرآن إنه سحر - أو على أي حال قدر ما قدر من الكلام في القرآن.

٢٠ - (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

قوله: {ثم قتل كيف قدر} كرر للمبالغة والتأكيد {ثم نظر} أي نظر بأي شيء يدفع القرآن ويطعن فيه - وذلك بعد أن استيقنت نفسه أنه حق وأنه لا يضاهى.

٢١ - (ثُمَّ نَظَرَ)

قوله: {ثم عبس} أي قطب وجهه {وبسر} أي كلح وجهه.

٢٣ - (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

قوله: {ثم أدبر واستكبر} أعرض عن الحق وتولى مستكبرا.

٢٤ - (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)

قوله: {فقال إن هذا إلا سحر يؤثر} يعني ما هذا القرآن إلا سحر يأخذه عن غيره - والسحر، كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع ٩.

٢٥ - (إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ)

قوله: {إن هذا إلا قول البشر} يعني ما هذا الذي يتلوه محمد إلا قول البشر - أو ما هو إلا كلام الآدميين - وكان ذلك بعد أن لامست روعة القرآن قلب الوليد فأيقن في قرارة نفسه أنه حق وأنه ليس قول بشر، وكاد يهتف بإعلان الإيمان لولا أن تملّكه الغرور والاستكبار وغشيته نخوة العصبية والتعاظم بأمجاد الآباء بعد أن استنفر في نفسه أبو جهل مشاعر الضلال والباطل ونفخ في أوداجه سورة الجاهلية العمياء.

وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: {حم ١ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} سمعه الوليد يقرأ ذلك فقال: والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر - ثم لامه أبو جهل من أجل ذلك ملامة شديدة وقرّعه تقريعا - فقال الوليد: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط - ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه - فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم نظر، ثم عبس - فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ - وذلك هو قوله تعالى: {إنه فكر وقدر} وما بعدها من آيات.

٢٦ - (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

قوله: {سأصليه سقر} أي سأدخله أو أورده سقر وهو اسم من أسماء جهنم.

٢٧ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

قوله: {وما أدراك ما سقر} وهذه كلمة تفخيم وتهويل لسقر ومبالغة في وصفها - يعني وما أعلمك أي شيء هي.

٢٨ - (لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ)

قوله: {لا تبقي ولا تذر} أي لا تبقي فيها شيئا إلا أهلكته وإذا هلك لم تتركه هالكا بل يعاد لتهلكه من جديد - فكل ما يطرح فيها هالك لا محالة.

٢٩ - (لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ)

قوله: {لوّاحة للبشر} لواحة، مرفوعة، لأنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هي لواحة ١٠ أي تظهر جهنم للبشر حتى يروها عيانا والمراد بالبشر في أحد القولين، الإنس من أهل النار - وقال أكثر المفسرين: البشر هنا جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، وعلى هذا فقوله: {لوّاحة للبشر} يعني حرّاقة للجلد - وقيل: تفلح جلودهم لفحة فتدعها أشد سوادا من الليل.

٣٠ - (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

قوله: {عليها تسعة عشر} يعني يلي أمر سقر ويتسلّط على أهلها تسعة عشر ملكا - وقيل: تسعة عشر نقيبا منهم - وقيل: تسعة عشر ملكا بأعيانهم - وقد جعلهم الله ملائكة، لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والشفقة ولأنهم أشد الخلق بأسا وأقواهم بطشا ١١.

٣١ - (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)

قوله تعالى: {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ٣١ كلا والقمر ٣٢ والليل إذ أدبر ٣٣ والصبح إذا أسفر ٣٤ إنها لإحدى الكبر ٣٥ نذيرا للبشر ٣٦ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر}.

روي أنه نزل قوله تعالى: {عليها تسعة عشر} قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر

وأنتم الدهم ١٢ أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشدّ بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين - فأنزل الله {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة} أي ما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون، بل جعلناهم ملائكة فهم خلق آخر ليسوا من جنسكم وهم غلاظ شداد لا تأخذهم فيكم رأفة أو لين.

قوله: {وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا} أي ما ذكرنا عدتهم لكم على أنهم تسعة عشر إلا ابتلاء وامتحانا للكافرين المكذبين {ليستيقن الذين أوتوا الكتاب} أي ليوقن أهل التوراة والإنجيل أن عدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم {ويزداد الذين آمنوا إيمانا} أي ويزداد المؤمنون إيمانا إلى إيمانهم بسبب ما شهدوه من صدق ما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم {ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون} أي ولا يشك أهل التوراة والانجيل والمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر {وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا} أي وليقول المرتابون والمنافقون والكافرون من مشركي قريش: ما الذي أراده الله بهذا العدد - أو وأي غرض قصد في جعل الملائكة تسعة عشر - ومرادهم إنكار هذا الكلام من أصله وأنه ليس من عند الله.

قوله: {كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء} الكاف في اسم الإشارة صفة لمصدر محذوف، وتقديره: مثل ذلك الإضلال يضل من يشاء - والمعنى: مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته.

قوله: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} يعني وما يدري عدد ملائكة ربك الذين أنيط بهم تعذيب الكافرين في النار إلا الله جل وعلا - فهم كثيرون غاية الكثرة - وهي كثرة لا يعلم حقيقتها وعدتها سوى الله - ويدل على ذلك ما رواه الطبراني عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كفّ إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع - فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئا ".

قوله: {وما هي إلا ذكرى للبشر} يعني وما نار سقر وصفتها التي ذكرت إلا تذكرة للبشر لكي يعتبروا ويتعظوا ويخشوا ربهم.

٣٢ - (كَلَّا وَالْقَمَرِ)

قوله: {كلاّ} رد للكافرين المكذبين الذين زعموا أنهم قادرون على دفع خزنة جهنم - يعني ليس الأمر كما يزعم الزاعمون أنهم يقاومون خزنة النار - وهذه حقيقة لا شك فيها فهم أهون وأحقر من اقتدارهم على مقاومة الزبانية الشداد - وقد أقسم الله على ذلك بأجزاء من خلقه إذ قال: {والقمر ٣٢ والليل إذ أدبر}.

٣٣ - (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ)

قوله: {والليل إذ أدبر} يعني والليل إذا ولى وغاب.

٣٤ - (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)

قوله: {والصبح إذا أسفر} ويقسم كذلك بالصبح إذا أقبل وأضاء.

٣٥ - (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

قوله: {إنها لإحدى الكبر} جواب القسم - يعني إن جهنم {لإحدى الكبر} جمع كبرى - أي لإحدى البلايا والدواهي العظام.

وروي عن ابن عباس {إنها} أي تكذيب المشركين بمحمد صلى الله عليه وسلم لكبيرة من الكبائر العظام - وقيل: إن قيام الساعة لكبرى من الكبريات الجسام.

٣٦ - (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ)

قوله: {نذيرا للبشر} نذيرا، منصوب على المصدر - أي إنذارا للبشر، أو منصوب على الحال - أو منصوب بتقدير الفعل، أعني ١٣ وقد اختلفوا في المراد بالنذير - فقيل: إنها النار - وقيل: إنه الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أرسله الله للناس ليبلّغهم دعوة الحق ولينذرهم شديد بأسه وعقابه - وقيل: المراد به القرآن - فهو نذير للناس بما تضمنه من الوعد والوعيد والمواعظ والعبر.

٣٧ - (لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

قوله: {لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر} اللام، متعلقة بقوله: {نذيرا} أي نذيرا لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر إلى الشر والمعصية ٠١٤.

٣٨ - (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

قوله تعالى: { كل نفس بما كسبت رهينة ٣٨ إلا أصحاب اليمين ٣٩ في جنات يتساءلون ٤٠ عن المجرمين ٤١ ما سلككم في سقر ٤٢ قالوا لم نك من المصلّين ٤٣ ولم نك نطعم المسكين ٤٤ وكنا نخوض مع الخائضين ٤٥ وكنا نكذب بيوم الدين ٤٦ حتى أتانا اليقين ٤٧ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ٤٨ فما لهم عن التذكرة معرضين ٤٩ كأنهم حمر مستنفرة ٥٠ فرّت من قسورة ٥١ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ٥٢ كلا بل يخافون الآخرة ٥٣ كلا إنه تذكرة ٥٤ فمن شاء ذكره ٥٥ وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة}

قوله تعالى: { كل نفس بما كسبت رهينة} يعني كل إنسان معتقل أو مأخوذ بعلمه عند الله يوم القيامة فإما أن ينقذه عمله أو يوبقه.

٣٩ - (إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

قوله: {إلا أصحاب اليمين} فإنهم لا يحاسبون - أو لا يرتهنون بذنوبهم بل يغفرها الله لهم - واختلفوا في المراد بأصحاب اليمين - فقيل: هم أطفال المسلمين - وهو قول علي (رضي الله عنه) - وقيل: هم الملائكة وهو قول ابن عباس - وقيل: هم المخلصون من المسلمين.

٤٠ - (فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ)

قوله: {في جنات يتساءلون ٤٠ عن المجرمين} أي يسألون المجرمين الذين في النار.

٤١ - (عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

قوله: {عن المجرمين} أي يسألون المجرمين الذين في النار.

٤٢ - (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)

قوله: {ما سلككم في سقر} أي ما أدخلكم سقر - ذلك أن الرجل من أهل الجنة يسأل الرجل من أهل النار: يا فلان، ما الذي أدخلك النار.

٤٣ - (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

قوله: {قالوا لم نك من المصلين} يعني لم نكن من أهل الإيمان الذين يصلون.

٤٤ - (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ)

قوله: {ولم نك نطعم المسكين} لم نتصدق على المساكين - وهو محمول على الصدقة الواجبة - وكذا الصلاة فإنها محمولة على الواجبة.

٤٥ - (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

قوله: {وكنا نخوض مع الخائضين} من الخوض وهو الشروع في الباطل وما لا ينبغي - يعني كنا نخوض في الباطل مع من يخوض فيه - أو كنا كلما غوى غاو غوينا معه.

٤٦ - (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)

قوله: {وكنا نكذب بيوم الدين} أي كنا نكذب بيوم القيامة وهو يوم الجزاء والحساب.

٤٧ - (حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)

قوله: {حتى أتانا اليقين} وهو الموت.

٤٨ - (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

قوله: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين} لا تنفع الشفاعة من اتصف بصفات الجحود والتكذيب بيوم القيامة - فإن هؤلاء لا يشفع فيهم شفيع - وإنما تنبغي الشفاعة للمؤمنين الذين سبقت لهم في الدنيا ذنوب وآثام.

٤٩ - (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)
قوله: {فما لهم عن التذكرة معرضين} ما، في موضع رفع بالابتداء، ولهم، خبره - ومعرضين، منصوب على الحال من ضمير {لهم} ١٥ والمعنى: فما لهؤلاء المشركين قد أعرضوا وتولوا عما جئتهم به من الحق - أو عن التذكير بهذا القرآن وما فيه من الآيات والدلائل والعبر.
٥٠ - (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)
قوله: {كأنهم حمر مستنفرة} الحمر، جمع حمار - ومستنفرة أي نافرة - نفرت الدابة تنفر نفارا ونفورا ١٦ - يعني ما لهؤلاء المشركين المكذبين معرضين عن دين الله وقرآنه، فارين منه فرار الحمر النافرة الجامحة في الشراد.
٥١ - (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)
قوله: {من قسورة} والمراد بالقسورة، الرماة الذين يتصيدون حمر الوحش - وقيل: القسورة بمعنى الأسد - فقد شبه المشركين النافرين عن قرآن الله، المعرضين عن دينه بالحمر الوحشية في شدة نفارها هاربة مذعورة من الرماة الصيادين أو الأسد - وفي تشبيههم بالحمر أو الحمير مذمة شديدة لهم وامتهان كبير، وشهادة عليهم بهوان عقولهم وفرط جهالتهم وضلالهم.
٥٢ - (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً)
قوله: {بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشّرة} ذكر المفسرون أن كفار قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ليصبح عند رأس كل واحد منا كتاب منشور من الله ورسوله - والصحف بمعنى الكتب وواحدتها صحيفة والمنشرة، المنشورة المفتوحة - وهذا من فرط عنادهم وشدة تكذيبهم - فرد الله بغيتهم وردعهم بقوله: {كلا}.
٥٣ - (كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ)
قوله: {كلا} يعني لا يكون ذلك {بل لا يخافون الآخرة} لقد أعرضوا عن دين الله وعن سماع القرآن والموعظة بسبب إنكارهم القيامة وعدم خشيتهم منها - أو إنما أفسدهم وأضلهم عن الحق أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين ولا يخافون عقاب الله في هذا اليوم المشهود.
٥٤ - (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)
قوله: {كلا إنه تذكرة} ذلك ردع لهم عن إعراضهم عن القرآن - أو ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أن القرآن سحر يؤثر، أو هو قول البشر - وإنما هو تذكير لهم عظيم وموعظة بليغة وكلام رباني معجز ليس له في النّظم نظير.
٥٥ - (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ)
قوله: {فمن شاء ذكره} فمن شاء من عباد الله اعتبر به وانتفع بأحكامه ومواعظه.
٥٦ - (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)
قوله: {وما يذكرون إلا أن يشاء الله} أي وما يتذكرون بهذا القرآن فيتعظون به وينتفعون بأحكامه إلا أن يشاء الله لهم ذلك - فإنه لا يقدر أحد أن يفعل شيئا من غير مشيئة الله وقدرته {هو أهل التقوى وأهل المغفرة} يعني هو أهل أن يخافه عباده فيخشوا عقابه وسوء عذابه، وأهل أن يغفر الذنوب للتائبين المنيبين إليه - قال الزمخشري في ذلك: هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا - وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا - وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " هو أهل أن يتّقى وأهل أن يغفر لمن اتقاه " ١٧.

٧٥ سورة القيامة:

سورة القيامة:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة بروعة نظمها وعجيب كلماتها المثيرة نمط فريد من أنماط التذكير بيوم القيامة - فهي ما يتلوها متدبّر أو يتلاها بصير مدّكر حتى تروعه غاشية داهمة من الذكرى الغامرة والخيال المتهيج المشبوب.

إن هذه السورة بآياتها الموحية وكلماتها العجاب تثير في نفس القارئ الحريص فيضا من الارتياع والفزع فيظل واجما مذعورا - وذلك بما تحمله للذهن والقلب من أخبار القيامة وشدائدها الجسام - ويتجلى ذلك في برق البصر، وخسف القمر، وجمع الشمس والقمر - وحينئذ يفزع المرء، ويذهل ويوجل فما يجد لنفسه من مناص ولا مهرب إلا أن يقول في ذهول واجم: " أين المفرّ ".

إلى غير ذلك من المعاني المخوفة الجسام التي تفيض بها هذه السورة العظيمة - وفي ذلك من عظيم البرهان على أن هذا الكلام معجز وأنه لا يقدر على مضاهاته بشر.

١ - (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{لا أقسم بيوم القيامة ١ ولا أقسم بالنفس اللوّامة ٢ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ٣ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ٤ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ٥ يسأل أيّان يوم القيامة ٦ فإذا برق البصر ٧ وخسف القمر ٨ وجمع الشمس والقمر ٩ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ١٠ كلا لا وزر ١١ إلى ربك يومئذ المستقر ١٢ ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ١٣ بل الإنسان على نفسه بصيرة ١٤ ولو ألقى معاذيره}.

ذلك قسم من الله مريع ومجلجل بيوم القيامة، هذا الحديث الكوني الرعيب المزلزل، وبالنفس التي تلوم صاحبها عقب كل تفريط، على أن الناس مبعوثون من قبورهم يوم القيامة ليلاقوا الحساب والجزاء - وفي ذلك قال سبحانه: {لا أقسم بيوم القيامة} لا، زائدة، للتأكيد - وقيل: لا، رد لكلام المشركين، إذ أنكروا البعث فرد الله زعمهم بقوله: ليس الأمر كما تزعمون، فيكون المعنى: أقسم بيوم القيامة.

٢ - (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

قوله: {ولا أقسم بالنفس اللوامة} القول في {ولا} هنا، كالقول في السابقة - يعني وأقسم بالنفس اللوامة - وبذلك أقسم الله جل وعلا بيوم القيامة وبالنفس اللوامة.

واختلفوا في المراد بالنفس اللوامة - وأصوب الأقوال في ذلك أنها نفس المؤمن، إذ لا تراه إلا يلوم نفسه قائلا: ما أردت بكلمتي هذه - ما أردت بأكلتي هذه - ما أردت بحديث نفسي - أما الفاجر فيمضي قدما ما يعاتب نفسه - وهو قول الحسن البصري - وقيل: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لما عملته؟ وعلى الخير لما لم تعمله أو تستكثر منه.

وجواب القسم محذوف وتقديره: لتبعثن - وقد دل عليه.

٣ - (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)

قوله: {أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه} الاستفهام لفنكار والمراد بالإنسان جنسه - وقيل: الإنسان الكافر - والمعنى: أيحسب الإنسان أنه عزيز علينا إحياؤه وبعثه بعد أن كانت عظامه نخرة رفاتا - فحسبانه باطل وظنه مردود.

٤ - (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)

قوله: {بلى قادرين على أن نسوي بنانه} بلى إيجاب لما بعد النفي - وقادرين، منصوب على الحال - أي بلى نجمعها قادرين ١ والبنان جمع، ومفرده بنانة، وهي أطراف الأصابع ٢ - فالله يبين لعباده أنه جامع الناس ليوم القيامة وباعثهم من قبورهم أحياء بل إنه قادر على إرجاع بنانه - فنبّه بالبنان على بقية الأعضاء - وهو لا يعزّ عليه - وهو الخلاق المقتدر أن يعيد خلق الإنسان من جديد بعد أن كان حطاما مختلطا بالتراب.

٥ - (بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)

قوله: {بل يريد الإنسان ليفجر أمامه} والمراد بالإنسان هنا الكافر فإنه يكذب بما أمامه من البعث والحساب - ويعزّز هذا التأويل قوله بعدها {يسأل أيّان يوم القيامة}.

٦ - (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)

قوله: {يسأل أيّان يوم القيامة} - أيان، مبني على الفتح لتضمنه معنى حرف الاستفهام لأنه بمعنى متى ٣ والمعنى: أن هذا الجاحد يسأل: متى يكون يوم القيامة، وذلك على سبيل التكذيب والاستبعاد.

٧ - (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ)

قوله: {فإذا برق البصر} أي تحير البصر من فرط الفزع - وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره - وقيل: لمع من شدة شخوصه - والمراد أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتذل من هول ما تراه من العظائم والبلايا.

٨ - (وَخَسَفَ الْقَمَرُ)

قوله: {وخسف القمر} أي ذهب ضوؤه.

٩ - (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

قوله: {وجمع الشمس والقمر} أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما فلا ضوء لواحد منهما، وقيل: يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في نار جهنم.

١٠ - (يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)

قوله: {يقول الإنسان يومئذ أين المفر} في هذه الأهوال الرعيبة من أحداث الكون المزلزل المضطرب في يوم القيامة وما يأتي على الوجود كله من شديد القوارع الجسام والبلايا العظام – في هذه الأجواء من غواشي الفزع والذهول والارتياع، ينادي الإنسان نداء الذاهل المتلجلج المذعور {أين المفر} أين الملجأ والمناص، أين الفرار من الله سبحانه - وذلك إذا أيقن أنه خاسر بسبب تفريطه في جنب الله أو أين الفرار من جهنم إذا عاينها ورآها تتأجج وتستعر - وذلك قول الكافر الخاسر لا محالة، لما يغشاه من فرط الحسرة واليأس المطبق - وقد يقول المؤمن ذلك كذلك إذا عاين أحداث الكون المتزلزل المضطرب لا جرم أن يتملكه الدهش والفزع.

١١ - (كَلَّا لا وَزَرَ)

قوله: {كلا لا وزر} كلا للردع، وهو رد من الله، وقد فسره بقوله: {لا وزر} أي لا ملجأ ولا مفر من النار أو العذاب - وقيل: لا محيص ولا مهرب يأوي إليه الهاربون المذعورون.

١٢ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

قوله: {إلى ربك يومئذ المستقر} إلى الله المصير أو المرجع والمآب - وهنالك {ينبّؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر}.

١٣ - (يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

قوله: {ينبّؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} يخبر الله ابن آدم حينئذ بكل أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها - وقيل: يخبر بأول عمله وآخره وقيل: بما قدم من المعصية أو أخّر من الطاعة.

١٤ - (بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

قوله: {بل الإنسان على نفسه بصيرة} بصيرة أي شاهد - فالإنسان شاهد على نفسه وحده، أو شاهد على نفسه بعلمها - وقال ابن عباس: جوارح الإنسان شهود عليه - فتشهد يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر بهما - وبذلك فإن البصيرة جوارح ابن آدم.

١٥ - (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

قوله: {ولو ألقى معاذيره} يعني: بل للإنسان على نفسه من نفسه شهود ولو اعتذر مما قد تلبس به من المعاصي والذنوب - فالمراد بالمعاذير الاعتذار - وهو لا يغنيه من الحساب والجزاء شيئا.

وقيل: المراد بالمعاذير الستور - وواحد المعاذير، المعذار - أي ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب مبتغيا بذلك إخفاء عمله - فكفى بنفسه شهيدا على نفسه - وهذه جوارحه تشهد عليه بما فعل فلا يجديه أو يغنيه حينئذ أيما اعتذار أو تحيّل ٤.

١٦ - (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)

قوله تعالى: {لا تحرّك به لسانك لتعجل به ١٦ إن علينا جمعه وقرآنه ١٧ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ١٨ ثم إن علينا بيانه ١٩ كلا بل تحبون العاجلة ٢٠ وتذرون الآخرة ٢١ وجوه يومئذ ناضرة ٢٢ إلى ربها ناظرة ٢٣ ووجوه يومئذ باسرة ٢٤ تظن أن يفعل بها فاقرة}.

قوله: {لا تحرك به لسانك لتعجل به} كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي بشيء من القرآن بادر إلى أخذه فكان يسابق الملك في تلقيه وقراءته ولم يصبر حتى يتم الوحي القراءة مسارعة منه إلى الحفظ، وخشية من أن يتفلّت منه، فأمره الله بالاستنصات للوحي ملقيا له إليه بقلبه وسمعه حتى يقضى إليه وحيه - والمعنى: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبيرل (عليه السلام) يقرأه عليك {لتعجل به} أي لتأخذه على عجلة وكيلا يتفلّت منك.

١٧ - (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ)

قوله: {إن علينا جمعه وقرآنه} علينا أن نجمعه في صدرك وأن نثبت قراءته في لسانك.

١٨ - (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ)

قوله - {فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه} يعني إذا أنزلناه إليك فاستمع له وأنصت فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذ نزل عليه الوحي بشيء من القرآن استمع وأنصت وإذا انقضى الوحي قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه.

١٩ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)

قوله: {ثم إن علينا بيانه} علينا تبيانه بلسانك - وقيل: علينا تفسير ما فيه من الأحكام وبيان ما فيه من الوعد والوعيد والحلال والحرام ونحو ذلك.

٢٠ - (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

قوله: {كلا بل تحبون العاجلة} يخاطب الله بذلك عباده الذين يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها على الآخرة بقوله: ليس الأمر كما تزعمون من أنكم غير مبعوثين بعد الممات - فإن الذي دعاكم إلى هذا القيل حبكم هذه الدنيا العاجلة الفانية وإيثاركم زينتها وشهواتها على الآخرة الخالدة الباقية.

وقيل: كلا، ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاستعجال وتحضيض له على التأني والاتئاد {بل تحبون العاجلة} يعني بل أنتم يا بني آدم لأنكم مخلوقون من عجل فإنكم تحبون هذه الدنيا العاجلة وتؤثرونها على الآخرة.

٢١ - (وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ)

قوله: {وتذرون الآخرة} يخاطب الله بذلك عباده الذين يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها على الآخرة بقوله: ليس الأمر كما تزعمون من أنكم غير مبعوثين بعد الممات - فإن الذي دعاكم إلى هذا القيل حبكم هذه الدنيا العاجلة الفانية وإيثاركم زينتها وشهواتها على الآخرة الخالدة الباقية.

وقيل: كلا، ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاستعجال وتحضيض له على التأني والاتئاد {بل تحبون العاجلة} يعني بل أنتم يا بني آدم لأنكم مخلوقون من عجل فإنكم تحبون هذه الدنيا العاجلة وتؤثرونها على الآخرة.

٢٢ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ)

قوله: {وجوه يومئذ ناضرة} ناضرة من النّضرة، بوزن البصرة - يعني الحسن والرونق - نضر وجهه ينضر أي حسن ٥ وفي الحديث " نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها " والمعنى: وجوه يوم القيامة حسنة جميلة تعلوها النضرة والصّباحة من فرط النعومة والبهاء وأولئك هم المؤمنون الفائزون برضوان الله والجنة - فإن أعظم ما يبتهجون به ويحبرون أن ينظروا إلى نور الله الساطع المشعشع فقد روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يتجلّى ربنا عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه فيخرجون له سجدا فيقول: ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة ".

٢٣ - (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

قوله: {إلى ربها ناظرة} ناضرة من النّضرة، بوزن البصرة - يعني الحسن والرونق - نضر وجهه ينضر أي حسن ٦ وفي الحديث " نضر

الله امرأ سمع مقالتي فوعاها " والمعنى: وجوه يوم القيامة حسنة جميلة تعلوها النضرة والصّباحة من فرط النعومة والبهاء وأولئك هم المؤمنون الفائزون برضوان الله والجنة - فإن أعظم ما يبتهجون به ويحبرون أن ينظروا إلى نور الله الساطع المشعشع فقد روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يتجلّى ربنا عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه فيخرجون له سجدا فيقول: ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة ".

٢٤ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ)

قوله: {ووجوه يومئذ باسرة} باسرة - أي شديدة العبوس والكلوح ٧ يعني، وجوه الكافرين يوم القيامة كالحة عابسة كاسفة، من فظاعة المشهد وهو الأحداث والنوازل.

٢٥ - (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

قوله: {تظن أن يفعل بها فاقرة} الفاقرة الداهية ٨ فنفس الكافر توقن يوم القيامة أنه سيفعل بها داهية أو أمر عظيم وهو إصلاؤها في النار ٩.

٢٦ - (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)

قوله تعالى: {كلا إذا بلغت التّراقي ٢٦ وقيل من راق ٢٧ وظن أنه الفراق ٢٨ والتفّت الساق بالساق ٢٩ إلى ربك يومئذ المساق ٣٠ فلا صدّق ولا صلّى ٣١ ولكن كذب وتولى ٣٢ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ٣٣ أولى لك فأولى ٣٤ ثم أولى لك فأولى ٣٥ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ٣٦ ألم يك نطفة من منّي يمنى ٣٧ ثم كان علقة فخلق فسوّى ٣٨ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ٣٩ أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى}.

ذلك إخبار من الله عن الإنسان المدنف ١٠ عند الاحتضار وما يكتنفه حينئذ من قسوة النزع وشديد الأهوال - نسأل الله الثبات حينئذ بالقول الثابت - فقال عز من قائل في تبيان هذه الحقيقة المريرة {كلا إذا بلغت التراقي ٢٦ وقيل من راق} كلا تحتمل وجهين - أولهما: أن تكون للردع والزجر - فيكون المعنى: لست مكذبا يا ابن آدم هناك ما تراه عيانا - وثانيهما: أن تكون بمعنى حقا - أي حقا إذا بلغت الروح التراقي - وهي جمع ترقوة، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال - والنحر هو الحلق من أعلى الصدر والمراد تذكير الإنسان بشدة الحال عند نزول الموت.

٢٧ - (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)

قوله: {وقيل من راق} يعني من راق يرقى - أي يطبّب ويشفي - أو هل من طبيب تشفيه - أو من يقدر أن يرقى وينجو من الموت - وذلك على سبيل الاستبعاد والتيئيس.

٢٨ - (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ)

قوله: {وظن أنه الفراق} يعني أيقن المحتضر الذي نزل به الموت أن هذا هو فراق الدنيا حيث الأهل والمال والصحب والولد.

٢٩ - (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)

قوله: {والتفّت الساق بالساق} جاء في تأويلها عدة أقوال - فقد قيل: التفت عليه شدة الدنيا بشدة الآخرة - والساق مثل في الشدة - وقيل: ماتت رجلاه فلم تحملاه وقد كان عليهما جوّالا، وقيل: هما ساقانه حينما تلفان في الكفن.

٣٠ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

قوله: {إلى ربك يومئذ المساق} إلى الله المرجع والمآب حيث الحساب والجزاء.

٣١ - (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى)

قوله: {فلا صدق ولا صلى} يخبر بذلك عن الكافر الجاحد الذي كذب بالله وبآياته ورسوله ولم يصلّ الصلوات التي أمر الله بها - فهو لم يؤمن بقلبه ولم تخشع جوارحه.

٣٢ - (وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

قوله: {ولكن كذب وتولى} أي كذب بآيات الله وأعرض عن دينه وطاعته.
٣٣ - (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى)
قوله: {ثم ذهب إلى أهله يتمطى} يتمطى من التمطي وهو التبختر ومدّ اليدين في المشي - وقيل: أصله التمطط ١١ والمعنى أنه ذهب إلى أهله يتبختر ويختال - وقيل: نزلت هذه الآية في عدو الله أبي جهل فقد كان يمشي متبخترا مختالا، لفرط غروره واستكباره وجحود قلبه.
٣٤ - (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)
قوله: {أولى لك فأولى ٣٤ ثم أولى لك فأولى} وهذا وعيد على وعيد من الله لأبي جهل وجميع نظرائه والذين هم على شاكلته من العتو وفرط الظلم والاستكبار والجحود الذين يمشون في الأرض طغاة مستكبرين والمعنى: ويل لك فويل لك - وهو دعاء عليه بأن يحيق به ما ينكل به تنكيلا - أو يحق لك أن تمشي هذه المشية من البطر والاختيال وكنت من الجاحدين المكذبين - على أنه يقال له ذلك على سبيل التهكم والتهديد - كقوله: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}.
٣٥ - (ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
قوله: {أولى لك فأولى ٣٤ ثم أولى لك فأولى} وهذا وعيد على وعيد من الله لأبي جهل وجميع نظرائه والذين هم على شاكلته من العتو وفرط الظلم والاستكبار والجحود الذين يمشون في الأرض طغاة مستكبرين والمعنى: ويل لك فويل لك - وهو دعاء عليه بأن يحيق به ما ينكل به تنكيلا - أو يحق لك أن تمشي هذه المشية من البطر والاختيال وكنت من الجاحدين المكذبين - على أنه يقال له ذلك على سبيل التهكم والتهديد - كقوله: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}.
٣٦ - (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)
قوله: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} الاستفهام للإنكار والتقريع - وسدى، في موضع نصب على الحال ١٢ يعني أيحسب الإنسان المكذب الخاسر أن يترك هملا في الحياة الدنيا فلا يؤمر ولا ينهى ولا يكلّف - أو، أيحسب أن يترك في قبره نسيا منسيا فلا يبعث ولا يسأل ولا يحاسب أو يعاقب - بل إنه مبعوث فملاق حسابه لا محالة.
٣٧ - (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)
قوله: {ألم يك نطفة من منيّ يمنى} النطفة، الماء القليل، والمراد بها هنا الماء القليل المستقذر الذي يقذف من الأصلاب في الأرحام ليخلق منه الإنسان - والمعنى ألم يكن أصل الإنسان من قطرة ماء مستهجن مهين أريق من الأصلاب في الأرحام.
٣٨ - (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى)
قوله: {ثم كان علقة فخلق فسوّى} أي ثم صار الماء دما ثم تطور إلى علقة ثم إلى مضغة على هيئة إنسان ثم عدّله الله تعديلا وسوّاه تسوية بنفخ الروح فيه فكان بأمر الله وتقديره إنسانا سوي الهيئة والخلقة والصورة.
٣٩ - (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)
قوله: {فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى} يعني: فجعل من هذا الإنسان الذي خلق من ماء مستقذر مهين فكان دما ثم علقة ثم مضغة ثم إنسانا مكتملا سويا- الصنفين من نوع الإنسان وهما: الذكر والأنثى الرجل والمرأة وما ينشأ عنهما من الأولاد والأحفاد والذراري.
٤٠ - (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)
قوله: {أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} أليس الذي خلق هذه النسائم البشرية المنتشرة في سائر الأرض من أصل ممتهن مستقذر بقادر على أن يبعث الخلائق الموتى من قبورهم بعد أن كانوا عظاما رفاتا - لا جرم أن الله قادر على ذلك - بل إن النشأة الأخرى عقب الموت والبلى لهي أهون من الأولى.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال: " سبحانك اللهم بلى " ١٣.

٧٦ سورة الإنسان:

سورة الإنسان:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية، وقيل مكية - وعدد آياتها إحدى وثلاثون - وهي مبدوءة بتذكير الإنسان بأصله، إذ خلقه الله ولم يك شيئا ثم خلقه من نطفة من ماء مهين مستقذر، فجعل من عقب مراحل متطورة شتى- بشرا سويا مكتمل الفطرة والهيئة وحسن الصورة.

وفي السورة وعيد للكافرين المكذبين ليعذبهم بالسلاسل والأغلال وعذاب السعير - وفيها بشرى للمؤمنين الأبرار من العباد إذ يتنعمون في الجنة حيث الطيبات والخيرات وكل وجوه الهناء والسعادة وغير ذلك من ألوان العبرة والتذكير والتحذير.

١ - (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

{هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ١ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ٢ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا}.

هل بمعنى قد، وقيل: استفهام بمعنى التقرير - أي نعم أتى، والمراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام - واختلفوا في المراد بقوله: {حين من الدهر} فقد قيل: أربعون سنة مرت بآدم قبل أن ينفخ فيه الروح - وقيل: المراد مدة خلقه من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار - فإنه خلال هذه المدة لم يكن آدم بعد شيئا مذكورا للخلق، وإن كان مذكورا عند الله.

٢ - (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

قوله: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه} أي خلق الله الإنسان من بني آدم من ماء {أمساج} أي أخلاط ممتزج بعضه ببعض، فقد امتزج الماءان وهما ماء الرجل وماء المرأة {نبتليه} أي نختبره بالخير والشر - وقيل: نختبره بالتكاليف، بالعمل والطاعة، وبالأوامر والنواهي.

قوله: {فجعلناه سميعا بصيرا} أي جعلناه ذا سمع وبصر ليتمكن بهما من الطاعة والتزام التكاليف تحقيقا للابتلاء.

٣ - (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

قوله: {إنا هديناه السبيل} يعني إنا بينا ووضحنا له طريق الحق والصواب - أو بينا له طريق الخير وطريق الشر ليهتدي وينجو فلا يضل أو يتعثر.

قوله: {إما شاكرا وإما كفورا} شاكرا وكفورا، منصوبان على الحال من الهاء في {هديناه} ١ والمعنى: إما شاكرا لأنعم الله بطاعته والإذعان لجلاله بالخضوع والاستسلام، فهو بذلك سعيد - وإما كفورا جاحدا لأنعم الله بعصيانه وفسقه عن أمره، فهو بذلك شقي خاسر - وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها " ٢.

٤ - (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالا وَسَعِيرًا)

قوله تعالى: {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا}.

ذلك إخبار من الله عما توعّد به المشركين الظالمين من سوء العذاب والنكال، وما وعد به المؤمنين الأبرار من كريم الجزاء في الجنة فقال سبحانه: {إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا} أرصد الله للجاحدين المكذبين {سلاسلا} يعني قيودا يوثقون بها في جهنم {وأغلالا} جمع غل وهو ما تغلّ به أيديهم إلى أعناقهم {وسعيرا} أي نارا متأججة متسعّرة.

٥ - (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)

قوله: {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا} الأبرار، أهل الصدق والبر والتقوى - وفي الحديث: " الأبرار الذين لا يؤذون أحدا " فهؤلاء جزاؤهم أنهم {يشربون من كأس} وهو إناء فيه شراب {كان مزاجها كافورا} أي كان ما تمزج به كافورا - والكافور، اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده.

٦ - (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)

قوله: {عينا يشرب بها عباد الله} عينا، بدل من كافور - فالكافور اسم لعين ماء في الجنة {يشرب بها عباد الله} أي يشربون بها الخمر - كما تقول شربت الماء بالعسل {يفجرونها تفجيرا} أي يجرونها من منالهم حيث شاءوا {تفجيرا} أي سهلا غير ممتنع عليهم.

٧ - (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا)

قوله: {يوفون بالنّذر} وهذه بعض خصال المؤمنين الأبرار - فهم لا يخلفون نذورهم بل إنهم يوفون بها - والنذر، ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله أو قول يقوله - أو هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه كما لو نذر أن يصلي أو يصوم أو يتصدق أو يعتمر أو غير ذلك من وجوه الطاعة أو المباح فما كان من نذر في طاعة أو مباح فقد لزم الوفاء به - أما ما كان في معصية فلا يجب الوفاء به بل يجب اجتنابه - وقد روي عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ".

قوله: {ويخافون يوما كان شره مستطيرا} فهم يأتمرون بأوامر الله ويجتنبون نواهيه خشية من سوء الحساب يوم القيامة - وهو اليوم الذي يستطير شره أي يعم ويشيع وينتشر ليعم أكثر العالمين.

٨ - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)

قوله: {ويطعمون الطعام على حبّه} يعني يطعمون المحاويج والعالة {على حبه} أي على قلته وحبهم إياه وحاجتهم له.

قوله: {مسكينا ويتيما وأسيرا} أما المسكين فقد ذكر في حقيقته جملة أقوال، منها: أنه الذي لا شيء له فهو بذلك أسوأ حالا من الفقير - وقيل: المسكين والفقير بمعنى - فهما في القلة وسوء الحال سواء - وقيل غير ذلك.

وأما اليتيم، فهو الطفل الذي مات أبوه ولا شيء له.

وأما الأسير، فهو المأسور من أهل الشرك لدى المسلمين، فإنه يجب الإحسان إليه - ويشهد لذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر بتكريم الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء - وقيل: المراد بهم العبيد أو الأرقاء فقد وصّى النبي صلى الله عليه وسلم بالإحسان إليهم - فقد روي أن آخر ما وصّى به النبي صلى الله عليه وسلم كان قوله: " الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم " - والأخبار في وجوب الإحسان إلى الأرقاء كثيرة.

٩ - (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا)

قوله: {إنما نطعمكم لوجه} يقول الأبرار للمساكين والأيتام والأسارى عند بذل الصدقة أو الطعام لهم: إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله وطمعا في ثوابه وخوفا من عقابه {لا نريد منكم جزاء ولا شكورا} لا نبتغي بذلك منكم أجرا أو مكافأة ولا ثناءكم علينا أو شكرانكم لنا.

١٠ - (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)

قوله: {إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} وصف اليوم بالعبوس على سبيل المجاز - والمراد صفة أهله من الأشقياء - ففي هذا اليوم العصيب تعبس الوجوه من شدة الأهوال والكروب - قال ابن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران - والقمطرير، معناه الطويل - وقيل: الشديد - أو كلا الوصفين يتصف به يوم القيامة - فهو يوم بالغ الطول، عظيم الشدة.

١١ - (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)

قوله: {فوقاهم الله شر ذلك اليوم} أي دفع الله عنهم في هذا اليوم الرهيب ما فيه من الشدائد وألوان العذاب، ونجاهم بفضله ورحمته.

قوله: {ولقّاهم نضرة وسرورا} أي أعطاهم حسنا في وجوههم وحبورا في قلوبهم - فوجوههم حينئذ مسفرة مستبشرة، تعلوها النضرة

والوضاءة، وقلوبهم آمنة مطمئنة وقد غمرها الحبور والبهجة.
١٢ - (وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا)
قوله: {وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا} أثابهم الله بصبرهم في الدنيا على طاعته والتزام شرعه وأحكام دينه {جنة وحريرا} أي أدخلهم الله الجنة وألبسهم فيها الحرير - وهو اللباس الناعم الفاخر الذي حرم عليهم لبسه في الدنيا ٣.
١٣ - (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا)
قوله تعالى: {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ١٣ ودانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلا ١٤ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ١٥ قواريرا من فضة قدروها تقديرا ١٦ ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ١٧ عينا فيها تسمى سلسبيلا ١٨ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ١٩ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ٢٠ عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ٢١ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا}.
ذلك إخبار من الله عن أهل الجنة وما يرتعون فيه من النعيم والطيبات مما لا يخطر على بال أو خيال - ولا يجد المرء من الكلمات البينات ما يكشف عن أنعم الجنة وطيباتها كالقرآن في آياته العجاب وكلماته المذهلة العذاب - وذلكم هو قوله: {متكئين فيها على الأرائك} متكئين منصوب على الحال من الهاء والميم في قوله: {وجزاهم} ٤ وذلك من الاتكاء وهو الجلوس أو الاضطجاع على الأرائك، ومفرده أريكة وهي السرير {لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا} ليس في الجنة حر شديد كحر الدنيا بشمسها الحارقة {ولا زمهريرا} وهو البرد المفرط، بل إن هواء الجنة معتدل ظليل - وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن هواء الجنة سجسج: لا حر ولا برد " والسجسج، الظل الممتد كما بين طلوع القمر وطلوع الشمس.
١٤ - (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا)
قوله: {ودانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلا} أي يستظلون بظلالها الوارفة الظليلة القريبة {وذللت قطوفها تذليلا} أي سخرت لأهل الجنة قطوفها وثمارها تسخيرا فيأخذون منها ما طاب لهم في سهولة ويسر ولين.
١٥ - (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا)
قوله: {ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب} يعني يدور على أهل الجنة خادمون بأواني الفضة وأكواب يشربون فيها شرابهم - والأكواب جمع كوب وهو الكوز الذي لا أذن له ولا عروة.
١٦ - (قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)
قوله: {كانت قواريرا ١٥ قواريرا من فضة} وصف الآنية والأكواب ببياض الفضة في صفاء القوارير وهي من الزجاج.
قوله: {قدّروها تقديرا} يعني قدرها لهم السّقاة الذين يطوفون بها عليهم فكانت على قدر شربهم وما يرتوون منه من غير زيادة ولا نقصان.
١٧ - (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا)
قوله: {ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا} يسقى المؤمنون في الجنة شرابا ممزوجا بالزنجبيل، لطيب ريحه، وطعمه المستلذ.
١٨ - (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا)
قوله: {عينا فيها تسمى سلسبيلا} عينا، منصوب على أنه بدل من {كأسا} يعني يسقون عينا في الجنة اسمها السلسبيل وهو الشراب اللذيذ المستطاب.
١٩ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا)
قوله: {ويطوف عليهم ولدان مخلدون} يبين في ذلك أن الخدم الذين يطوفون على المؤمنين في الجنة صغار الأسنان فهم {ولدان مخلدون} أي شباب غضاض، باقون على حال واحدة من النضرة والحسن، فهم لا يهرمون ولا يشيبون ولا يكبرون وإنما هم مستديمون على حالهم من الغضاضة وحسن الصّباحة - والولدان أجدر أن يكونوا خادمين للأبرار في الجنة - فهم في ذلك أنفع وأطوع وأسرع من كبار

السن الذين لا يمضون أو يسعون في الغالب إلا في تثاقل.
قوله: {إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا} يعني إذا نظرت إليهم في الجنة ظننتهم، في حسن صورهم وجمال هيئاتهم وكثرتهم أنهم لؤلؤ مبثوث مفرق في مجالس الجنة ومواضعها - وقد شبههم باللؤلؤ لبياضهم ونقائهم وصفاء ألوانهم وحسن صباحتهم والولد الوضيء الصبيح في جمال فطرته وبراءة طبعه وصباحة وجهه وطلعته لا جرم يثير في نفس الناظر فيضا من الرحمة والرّقة والبهجة والتحنان.
٢٠ - (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)
قوله: {وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا} يعني إذا نظرت يا محمد ببصرك {ثم} أي هناك في الجنة حيث السعة والنعيم وما فيها من الخيرات والبركات والحبور {رأيت نعيما وملكا كبيرا} أي واسعا هنيئا - وقيل: الملك الكبير، يراد به تسليم الملائكة على أهل الجنة واستئذانهم عليهم.
٢١ - (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)
قوله: {عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق} أي فوق هؤلاء الأبرار في الجنة ثياب سندس، أي ثياب من ديباج رقيق حسن {خضر} صفة للثياب {وإستبرق} معطوف على السندس، وهو ما غلظ من الديباج {وحلّوا أساور من فضة} أساور جمع أسورة - والمفرد سوار ٥ يعني، يلبسون في الجنة أسورة من فضة ليتحلوا بها، ويبتهجوا بها أيما ابتهاج.
قوله: {وسقاهم ربهم شرابا طهورا} أي سقى الله هؤلاء الأبرار في الجنة شرابا طهورا - أي يظل في أبدانهم طاهرا فلا ينجس ولا يصير بولا ولكنه يرشح من أبدانهم كرشح المسك - وقيل: يطهر بواطنهم من أدران الغل والحسد والحقد وغير ذلك من الصفات الذميمة.
٢٢ - (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)
قوله: {إن هذا لكم جزاء} أي هذا الذي رزقتموه في الجنة من النعيم الدائم كان ثوابا لكم من الله جزاء إيمانكم بربكم وطاعتكم له {وكان سعيكم مشكورا} لقد تقبل الله منكم الطاعة وصالح الأعمال في الدنيا - أو رضي الله منكم أعمالكم وطاعتكم في الدنيا فأثابكم عليها ما أثابكم من التكريم وجزيل النعم ٦.
٢٣ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنْزِيلا)
قوله تعالى: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ٢٣ فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا ٢٤ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ٢٥ ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلا طويلا ٢٦ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ٢٧ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ٢٨ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ٢٩ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ٣٠ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما}.
يمن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن نزل عليه القرآن فيحرضه بذلك على الصبر على أذى المشركين وصدهم وجهالتهم وأن يمضي لأمر ربه صابرا لا يلين ولا يتزعزع - وهو قوله سبحانه: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا} نحن، في موضع نصب على أنه صفة لاسم " إن " ونزلنا جملة فعلية في موضع رفع خبر إن ٧ ويخاطب الله بذلك رسوله الكريم مبينا له: أن القرآن تنزيل من رب العالمين وأنه متفرقا، يعني آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة - وذلك مستفاد من قوله: {نزلنا}.
٢٤ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا)
قوله: {فاصبر لحكم ربك} اصبر على ما ابتليت به من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة للعالمين ولا تبتئس مما يصيبك من أذى المشركين وافترائهم عليك وصدهم عن دينك {ولا تطع منهم آثما أو كفورا} الآثم، الفاجر المتلبّس بالإثم والخطيئة - والكفور، الجاحد المكذب - نزلت هذه الآية في العدو الأثيم الكفور أبي جهل، إذ قال: إن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه فأنزل الله الآية على رسوله محرضا له على الصبر واحتمال المكاره في سبيل الله وأن يمضي لما أمره الله به من وجيبة التبليغ.
٢٥ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

قوله: {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا} يعني صلّ لربك أول النهار وآخره - والمراد بذلك صلاة الصبح فهي أول النهار ثم صلاة الظهر والعصر فهي آخره.

٢٦ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا)

قوله: {ومن الليل فاسجد له} أي صل لله من النوافل في بعض الليل - أو المراد بذلك صلاة المغرب والعشاء {وسبّحه ليلا طويلا} أي تهجّد له من النوافل في أكثر الليل.

٢٧ - (إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا)

قوله: {إن هؤلاء يحبون العاجلة} يعني هؤلاء المشركين المعرضين عن عقيدة الحق والتوحيد يحبون الحياة العاجلة الزائلة الفانية وهي الدنيا، ويرغبون في زينتها وشهواتها ومتاعها، ويؤثرون ذلك على دار البقاء في الآخرة.

قوله: {ويذرون وراءهم يوما ثقيلا} ويتركون خلف ظهورهم العمل للآخرة حيث النجاة الدائمة والسعادة الأبدية، أو الشقاء المقيم والعذاب الواصب - واستعير الثقل ليوم القيامة لعظيم شدائده وأهواله.

٢٨ - (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلا)

قوله: {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم} الأسر معناه الخلق ٨ والمعنى: نحن خلقنا هؤلاء المشركين المكذبين من طين وشددنا خلقهم بتوصيل عظامهم وأعصابهم ومفاصلهم بعضها إلى بعض.

قوله: {وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} يعني لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم - وهو قول ابن عباس - أو لو شئنا لذهبنا بهؤلاء المشركين المكذبين وجئنا بآخرين سواهم من جنسهم وأمثالهم من الخلق لكنهم مؤمنون بالله مذعنون لجلاله.

٢٩ - (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا)

قوله: {إن هذه تذكرة} هذه السورة أو الآيات موعظة للمتعظين وعبرة للمعتبرين {فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} أي اتخذ طريقا أو وسيلة توصل إلى طاعة الله ورضاه - أو توصل إلى النجاة من العذاب والفوز بالجنة.

٣٠ - (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

قوله: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله} ما تشاءون أن تتخذوا ذلك السبيل المفضي إلى طاعة الله ورضاه، أو إلى النجاة والسعادة والجنة إلا أن يشاء الله لكم ذلك - فالأمر كله بين يديه وما من شيء إلا هو صائر إليه.

قوله: {إن الله كان عليما حكيما} الله عليم بأعمالكم وأحوالكم، ومصائركم، وهو سبحانه حكيم في تدبيره أموركم.

٣١ - (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله: {يدخل من يشاء في رحمته} يدخل الله من يشاء من عباده المؤمنين الطائعين المنيبين إليه في رحمته ليفوزوا برضاه والجنة {والظالمين أعد لهم عذابا أليما} الظالمين، منصوب بتقدير فعل، وتقديره: ويعذب الظالمين ٩ يعني أعد الله للظالمين عذابا وجيعا ١٠.

٧٧ سورة المرسلات:

سورة المرسلات:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وعدد آياتها خمسون - وهي مبدوءة بالقسم من الله بأجزاء من خلقه كالرياح العواصف، والملائكة الأطهار على أن الساعة قائمة وأنها حق لا ريب فيه.

ويبين الله في السورة ما يقع من أحداث كونية هائلة إيذانا بفناء العالم ووقوع الواقعة وانتصاب الميزان للحساب.

وفي السورة تذكير للعباد بمصيرهم الذي يؤولون إليه يوم القيامة فإما التعس والخسران والإفضاء إلى جهنم، وإما النجاة والفوز برضوان الله وجنته حيث النعيم الدائم المقيم.

١ - (وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً)

بسم الله الرحمن الرحيم

}والمرسلات عرفا ١ فالعاصفات عصفا ٢ والناشرات نشرا ٣ فالفارقات فرقا ٤ فالملقيات ذكرا ٥ عذرا أو نذرا ٦ إنما توعدون لواقع ٧ فإذا النجوم طمست ٨ وإذا السماء فرجت ٩ وإذا الجبال نسفت ١٠ وإذا الرسل أقّتت ١١ لأي يوم أجلت ١٢ ليوم الفصل ١٣ وما أدراك ما يوم الفصل ١٤ ويل يومئذ للمكذبين{.

يقسم الله بجزء مما خلق وهو قوله: }والمرسلات عرفا{ المراد بالمرسلات، الرياح في قول أكثر المفسرين - وقيل: المراد بها الملائكة - والقول الأول أظهر - ويدل عليه أن الرياح عواصف فهي تعصف عصفا - وأن الله ذكر الرياح بالإرسال كقوله: }وأرسلنا الرياح لواقح{.

وقوله: }عرفا{ منصوب على الحال - أي والرياح أرسلت متتابعة ١ والمعنى: أرسلنا الرياح فيتبع بعضها بعضا كعرف الفرس.

٢ - (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا)

قوله: }فالعاصفات عصفا{ عصفا، منصوب على أنه مصدر مؤكد يعني فالرياح العواصف الشديدات الهبوب.

٣ - (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا)

قوله: }والناشرات نشرا{ أي الرياح يرسلها الله لتنشر السحاب في آفاق السماء، للغيث.

٤ - (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا)

قوله: }فالفارقات فرقا{ أي الملائكة تفرق بين الحق والباطل، وقيل: المراد بهم الرسل، فقد بعثهم الله ليفرقوا بين الحق والباطل.

٥ - (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا)

قوله: }فالملقيات ذكرا{ أي الملائكة تلقي كتب الله إلى الأنبياء وقيل: المراد بهم الرسل فقد بعثهم الله ليلقوا إلى الناس ما أنزل الله إليهم.

٦ - (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا)

قوله: }عذرا أو نذرا{ عذرا، ونذرا، منصوبان على المفعول لهما، أي للإعذار والإنذار ٢ والمعنى: أن الملائكة تلقي الذكر أو الوحي إلى الرسل من الله إعذارا منه إلى خلقه أو إنذارا لهم من عذابه وانتقامه.

٧ - (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ)

قوله: }إنما توعدون لواقع{ وهذا جواب ما تقدم من القسم، أي ما وعدكم الله من قيام الساعة لهو كائن وواقع بكم لا محالة.

٨ - (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)

قوله: }فإذا النجوم طمست{ أي ذهب ضياؤها.

٩ - (وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ)

قوله: }فإذا السماء فرجت{ أي تشققت وتصدعت.

١٠ - (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)

قوله: }وإذا الجبال نسفت{ يعني من مواضعها وسوّيت بالأرض - وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح فتتناثر في الفضاء هباء منبثا.

١١ - (وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ)

قوله: {وإذا الرسل أقّتت} أقتت، من الوقت وهو الأجل يعني أجّلت لوقتها يوم القيامة - أو جعل لها وقت أو أجل ليقضي الله فيه بينهم وبين الأمم.

١٢ - (لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ)

قوله: {لأي يوم أجلت} استفهام على سبيل التعظيم ليوم القيامة، والتعجيب من هوله.

١٣ - (لِيَوْمِ الْفَصْلِ)

قوله: {ليوم الفصل} وذلك بيان ليوم التأجيل - وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين العباد.

١٤ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ)

قوله: {وما أدراك ما يوم الفصل} وذلك تعظيم آخر لهذا اليوم ذي الأهوال العظام والشدائد الجسام - يعني: وما أعلمك بيوم الفصل أنه فظيع مخوف.

١٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} ذلك وعيد مخوف من الله للذين يكذبون بيوم القيامة، فإن لهم الويل - وهو الهلاك - أو هو العذاب والتنكيل والخزي - وقيل: الويل، اسم واد في جهنم ٠٣

١٦ - (أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ)

قوله تعالى: {ألم نهلك الأولين ١٦ ثم نتبعهم الآخرين ١٧ كذلك نفعل بالمجرمين ١٨ ويل يومئذ للمكذبين ١٩ ألم نخلقكم من ماء مهين ٢٠ فجعلناه في قرار مكين ٢١ إلى قدر معلوم ٢٢ فقدرنا فنعم القادرون ٢٣ ويل يومئذ للمكذبين ٢٤ ألم تجعل الأرض كفاتا ٢٥ أحياء وأمواتا ٢٦ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ٢٧ ويل يومئذ للمكذبين}.

هذه ذكرى من الله للناس يذكرهم فيها بما نزل بالسابقين الظالمين من هلاك واستئصال، وأنه مصيب المجرمين من بعدهم ما أصاب الأولين من العذاب، ثم يصير الظالمون المكذبون جميعا إلى النار يوم القيامة - وهو قوله سبحانه {ألم نهلك الأولين} ألم نهلك السابقين من الأمم الضالة الذين كذبوا الرسل وأعرضوا عن دين الله، كقوم نوح وعاد وثمود، ثم أتبعناهم في الإهلاك من جاء بعدهم من المشركين المكذبين كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين.

١٧ - (ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ)

قوله: {ثم نتبعهم الآخرين} ألم نهلك السابقين من الأمم الضالة الذين كذبوا الرسل وأعرضوا عن دين الله، كقوم نوح وعاد وثمود، ثم أتبعناهم في الإهلاك من جاء بعدهم من المشركين المكذبين كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين.

١٨ - (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

قوله: {كذلك نفعل بالمجرمين} الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف - أي مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل ظالم لنفسه مجرم من التابعين اللاحقين من الأمم - وذلك إنذار للمشركين الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه وصدوا عن دينه صدودا.

١٩ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} هلاك حينئذ للمشركين الذين كذبوا بآيات الله ورسوله.

٢٠ - (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

قوله: {ألم نخلقكم من ماء مهين} هذا تذكير بأصل الإنسان، إذ خلقه الله من نطفة من ماء قليل مستقذر مستهجن.

٢١ - (فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)

قوله: {فجعلناه في قرار مكين} أي فجعلنا هذا الماء الضعيف المحتقر في مكان مصون حريز وهو الرحم ليستقر فيه.

٢٢ - (إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ)
قوله: }إلى قدر معلوم{ أي إلى وقت خروجه إلى الدنيا من الرحم بعد أن لبث فيه مدته المقدورة.
٢٣ - (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)
قوله: }فقدرنا فنعم القادرون{ أي فملكنا فنعم المالكون.
٢٤ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: }ويل يومئذ للمكذبين{ هلاك للمشركين المكذبين بآيات الله، المعرضين عن دينه وطاعته وقد خلقهم من أصلهم المهين المستهجن فجعلهم أناسيّ أولي أفهام وأبدان وجوارح يسمعون بها ويبصرون ويتصرفون.
٢٥ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا)
قوله: }ألم نجعل الأرض كفاتا{ كفاتا، منصوب على الحال ٤ والكفات، الموضع الذي يكفت فيه شيء - أي يضم - كفته، ضمّه إليه - وفي الحديث " اكفتوا صبيانكم بالليل فإن للشيطان خطفة " ٥.
والمعنى: ألم نجعل الأرض ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها - وذلك من الكفت وهو الضم والجمع - أو ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم، فتكفت أحياءكم في المساكن والمنازل، أي تضمهم فيها وتجمعهم - وكذلك تكفت أمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها وهو قوله: }أحياء وأمواتا{.
٢٦ - (أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]
قوله: }ألم نجعل الأرض كفاتا{ كفاتا، منصوب على الحال ٦ والكفات، الموضع الذي يكفت فيه شيء - أي يضم - كفته، ضمّه إليه - وفي الحديث " اكفتوا صبيانكم بالليل فإن للشيطان خطفة " ٧.
والمعنى: ألم نجعل الأرض ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها - وذلك من الكفت وهو الضم والجمع - أو ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم، فتكفت أحياءكم في المساكن والمنازل، أي تضمهم فيها وتجمعهم - وكذلك تكفت أمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها وهو قوله: }أحياء وأمواتا{.
٢٧ - (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)
قوله: }وجعلنا فيها رواسي شامخات{ أي أرسينا في الأرض جبالا مركوزات ثوابت }شامخات{ أي شاهقات طوالا.
قوله: }وأسقيناكم ماء فراتا{ أي ماء عذبا يخرج من ينابيع الأرض ومن أنهارها لتشربوا منه وتستقي منه أنعامكم وزروعكم - وذلك فضل من الله يمنّ به على عباده.
٢٨ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: }ويل يومئذ للمكذبين{ هلاك وعذاب من الله للجاحدين الذين يكفرون نعم الله ولا يشكرونها ٨.
٢٩ - (انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)
قوله تعالى: }انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ٢٩ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ٣٠ لا ظليل ولا يغني من اللهب ٣١ إنها ترمي بشرر كالقصر ٣٢ كأنه جمالت صفر ٣٣ ويل يومئذ للمكذبين ٣٤ هذا يوم لا ينطقون ٣٥ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ٣٦ ويل يومئذ للمكذبين ٣٧ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ٣٨ فإن كان لكم كيد فكيدون ٣٩ ويل يومئذ للمكذبين{.
يخبر الله بذلك عما يقال للمجرمين يوم القيامة، زيادة لهم في التنكيل - وهو قوله: }انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون{ أي سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من عذاب جهنم - فها أنتم قد عاينتموه.
٣٠ - (انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ)

قوله: {انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب} أي امضوا إلى دخان مرتفع متشعب إلى ثلاث شعب.
٣١ - (لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ)
قوله: {لا ظليل ولا يغني من اللهب} أي لا هو يظلهم من حر النار ولا يقيهم من اللهب فيدفع عنهم حره ولظاه.
٣٢ - (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ)
قوله: {إنها ترمي بشرر كالقصر} الشرر، جمع شررة وشرارة - وهي ما يتطاير من النار ٩ والقصر، معناه الحصون الكبيرة العالية أي أن جهنم لهول اضطرامها وفظاعة تأججها يتطاير منها الشرر الهائل الذي يشبه القصر في علوه ومقاديره.
٣٣ - (كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ)
قوله: {كأنه جمالت صفر} الجمالة يعني الحبال الغلاظ وقال ابن عباس: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال - وقرأها آخرون {جمالت} جمع جمال وهي الإبل السود.
٣٤ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} ويل للذين يكذبون بهذا الوعيد الذي توعّد الله به المجرمين المعرضين عن دينه.
٣٥ - (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ)
قوله: {هذا يوم لا ينطقون} يبين الله أن المجرمين الأشقياء لا يتكلمون في بعض الأحوال والعرصات من يوم القيامة - أي أن القيامة مواقف، ففي بعضها يتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون.
٣٦ - (وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)
قوله: {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} يعتذرون معطوف على {ينطقون} والتقدير: لا ينطقون ولا يعتذرون ١٠ والمعنى: أي ليس لهم من الله إذن فيكون لهم اعتذار.
٣٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} هلاك لهؤلاء الأشقياء الذين يكذبون بأهوال يوم القيامة وبما هو نازل بهم حينئذ من العذاب.
٣٨ - (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ)
قوله: {هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين} يقال لهم يوم القيامة: هذا اليوم الذي يفصل الله فيه بين العباد، جمعناكم فيه وسائر الأمم الهالكة من قبلكم.
٣٩ - (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)
قوله: {فإن كان لكم كيد فكيدون} يعني إن كانت لكم حيلة تحتالون بها للتخلص من عذاب يوم القيامة فاحتالوا.
٤٠ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} أي هلاك للذين يكذبون بأخبار الساعة وما يقع فيها من ألوان العذاب ١١.
٤١ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ)
قوله تعالى: {إن المتقين في ظلال وعيون ٤١ وفواكه مما يشتهون ٤٢ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ٤٣ إنا كذلك نجزي المحسنين ٤٤ ويل يومئذ للمكذبين ٤٥ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ٤٦ ويل يومئذ للمكذبين ٤٧ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ٤٨ ويل يومئذ للمكذبين ٤٩ فبأيّ حديث بعده يؤمنون}.
ذلك إخبار من الله عن عباده المتقين في الجنة وما يتقلّبون فيه من وجوه النعمة والسعادة جزاء بما أسلفوا في الحياة الدنيا من الإيمان ويالقين والإذعان لرب العباد بالخضوع والطاعة - فقال سبحانه: {إن المتقين في ظلال وعيون ٤١ وفواكه مما يشتهون} أي ينعمون في

الجنة بظلها الوارف الظليل، ومائها المتفجر العذب فمنه يشربون ومن فاكهتها المستطابة يأكلون {كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون} - يقال لهم ذلك وهم في الجنة زيادة لهم في الإسعاد والتكريم.

٤٢ - (وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

قوله: {وفواكه مما يشتهون} أي ينعمون في الجنة بظلها الوارف الظليل، ومائها المتفجر العذب فمنه يشربون ومن فاكهتها المستطابة يأكلون.

٤٣ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

قوله: {كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون} - يقال لهم ذلك وهم في الجنة زيادة لهم في الإسعاد والتكريم.

٤٤ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} أي مثل ذلك الجزاء من التكريم العظيم نجزي ونثيب أهل الإحسان بسبب طاعتهم وعبادتهم لنا في الدنيا.

٤٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} أي هلاك للذين يكذبون ما أخبر الله به من تكريم المتقين أهل الإيمان والإحسان.

٤٦ - (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ)

قوله: {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ذلك وعيد من الله وتهديد للكافرين المكذبين بيوم القيامة، إذ يقول لهم زجرا ومقرّعا: كلوا وتمتعوا بما في حياتكم الدنيا من متاع مدة أعماركم القصيرة وآجالكم التي تنقضي في عجل {إنكم مجرمون} إنكم طاغون عصاة، مكتسبون في حياتكم الدنيا أصنافا من المعاصي والخطايا فمردكم بذلك إلى النار.

٤٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} الويل والعذاب للخاسرين المكذبين بأخبار القيامة وعظائمها الجسام.

٤٨ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ)

قوله: {وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون} يخبر الله عن المشركين المكذبين الذين كانوا في الدنيا طغاة عصاة فلم يأتمروا بأوامر الله ولم يلتزموا أحكام دينه وأهم ما في دينه الصلاة - وقد عبّر عنها بالركوع، فهو ركن ركين في الصلاة ولا تنعقد الصلاة الصحيحة من دونه. وقيل: يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

٤٩ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} هلاك للمشركين الخاسرين الذين يكذبون بدين الله ويجحدون نبوة رسوله الأمين وأبوا إلا العتو والاستكبار في الأرض.

٥٠ - (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

قوله: {فبأيّ حديث بعده يؤمنون} إذا لم يؤمن هؤلاء المشركون الضالون بهذا القرآن الرباني المعجز، ذي النظم الكامل الفذ، والأسلوب العجيب الفريد الذي لا يدانيه أو يضاهيه حديث أو كلام، فبأي شيء بعذ ذلك يصدقون ١٢.

٧٨ سورة النبأ:

سورة النبأ:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وآياتها أربعون، وهي مبدوءة بالإنكار من الله على المشركين تكذيبهم بيوم القيامة - فضلا عن الوعيد الشديد من الله لهؤلاء المكذبين المعاندين وهو قوله: {كلا سيعلمون ٤ ثم كلا سيعلمون}.
ويبين الله في السورة جملة من الحجج والبراهين المنتزعة من الطبيعة المشهودة ليدل بذلك على قدرته المطلقة على بعث الناس ليوم الحساب وفي السورة حديث مثير عن الساعة وما يكتنف هذه الحقيقة الكبرى من أحداث كونية مريعة مزلزلة كالنفخ في الصور وانفتاح السماء وتسيير الجبال لتكون سرابا، وما يعقب ذلك من ألوان التنكيل الذي يصلاه المكذبون الخاسرون.
وفي يوم القيامة تشتد الأهوال وترتاع القلوب وتشخص الأبصار شخوصا - وحينئذ ينقلب الظالمون المكذبون إلى أنفسهم نادمين آيسين وقد غشيتهم الحسرة ودهمهم الذل والخزي والالتياع المطبق فيتمنون أن لو كانوا في عداد البهائم، ليكونوا ترابا.
١ - (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{عم يتساءلون ١ عن النبإ العظيم ٢ الذي هم فيه مختلفون ٣ كلا سيعلمون ٤ ثم كلا سيعلمون ٥ ألم نجعل الأرض مهادا ٦ والجبال أوتادا ٧ وخلقناكم أزواجا ٨ وجعلنا نومكم سباتا ٩ وجعلنا الليل لباسا ١٠ وجعلنا النهار معاشا ١١ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ١٢ وجعلنا سراجا وهّاجا ١٣ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ١٤ لنخرج به حبا ونباتا ١٥ وجنات ألفافا}.
يخبر الله عن المشركين المكذبين بالنبأ العظيم وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه.
فهم مختلفون فيما بينهم وقد تولوا في لجاجة وخصام، يسأل بعضهم بعضا عن هذا النبأ فيصدق واحد ويكذّب آخر - وهو قوله: {عم يتساءلون} وعم، لفظ استفهام، أصله (عن ما) وقد سقط ألف ما ليتميز الخبر عن الإستفهام ١ و المعنى: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون المكذبون، أو فيم يختصمون فيسأل بعضهم بعضا - وقيل: لما نزل القرآن كانت قريش تجلس فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق ومنهم المكذب - وهو قول ابن عباس.
٢ - (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)
قوله: {عن النبإ العظيم} أي يتساءلون {عن النبإ العظيم} وهو الخبر الهائل الكبير - واختلفوا في المراد بالنبأ العظيم - فقد قيل: معناه القرآن - وقيل: معناه البعث بعد الموت - وهذا الأظهر.
٣ - (الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)
قوله: {الذي هم فيه مختلفون} أي اختلفوا في حقيقة هذا النبأ فهم بين مصدق ومكذب فكانوا بذلك فريقين.
٤ - (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)
قوله: {كلا سيعلمون} ذلك تهديد ووعيد للمكذبين - أي سيعلمون البعث أحق هو أم باطل - أو سيعلمون أن ما يتساءلون عنه ويهزؤون به حق وأنه واقع لا محالة.
٥ - (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)
قوله: {ثم كلا سيعلمون} تكرير للردع مع الوعيد على سبيل التشديد والمبالغة في الزجر.
٦ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا)
قوله: {ألم نجعل الأرض مهادا} المهاد، الفراش ٢ ويخبر الله بذلك عن بالغ إحسانه إلى العباد وما أنعم به عليهم من عظيم الآلاء والأيادي ليبين لهم أنه الخلاق المقتدر، وأنه لا يعز عليه أن يبعثهم ليوم القيامة والمعنى: ألم نجعل لكم الأرض بساطا ووطاء تفترشونها لتعيشوا فوقها آمنين سالمين.
٧ - (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)
قوله: {والجبال أوتادا} يعني رسّخنا الجبال في الأرض أوتادا لكي تسكن فلا تتحرك أو تضطرب بأهلها - والأرض جرم من الأجرام الدائرة في هذا الكون الهائل الشاسع - وهي في صغرها وبساطة حجمها، بالقياس إلى الأجرام الهائلة الأخرى تكاد تميد أو تضطرب

لولا أن الله قد ثبتها بالجبال الثقال الرواسي.
٨ - (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)
قوله: {وخلقناكم أزواجا} أزواجا حال منصوب ٣ أي مختلفين - فجعلناكم ذكورا وإناثا، أو مختلفين في طبائعكم وصوركم وألوانكم فمنكم الطوال والقصار ومنكم السود والسمر والبيض - ومنكم الأذكياء والأغبياء ومنكم الأتقياء والأشقياء ومنكم أولو الوسامة والدمامة ومنكم الناشطون المحترّون - ومنكم الفاترون البليدون.
٩ - (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا)
قوله: {وجعلنا نومكم سباتا} السبات معناه النوم وأصله الراحة ٤ أي جعلنا النوم لكم راحة ودعة تسكنون فيه وتهجعون لتنهضوا بعده ناشطين أقوياء.
١٠ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا)
قوله: {وجعلنا الليل لباسا} أي جعلناه لكم غشاء تستترون بظلمته التي تغطيكم تغطية فتسكنون فيه وتستريحون بعد أن كنتم في النهار تكدون وتكدحون وهو قوله: {وجعلنا النهار معاشا}.
١١ - (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)
قوله: {وجعلنا النهار معاشا} أي جعلنا النهار لكم متصرّفا لطلب الرزق والمعاش وقضاء الحوائج.
١٢ - (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)
قوله: {وبنينا فوقكم سبعا شدادا} أي سبع سماوات محكمات مشدودات ثوابت - أو محكمة الخلق وثيقة البنيان.
١٣ - (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)
قوله: {وجعلنا سراجا وهّاجا} السراج معناه المصباح - أوقدت السراج يعني أوقدت المصباح ٥ والمراد بذلك الشمس فقد جعلها الله سراجا وهاجا أي متلألئا متوقدا مضيئا.
١٤ - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)
قوله: {وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا} اختلفوا في المراد بالمعصرات فقد قيل: إنها الرياح وهو قول ابن عباس - فكأن الرياح تعصر السحاب فينزل منها المطر الثجاج أي الضباب المتتابع - وقيل: المراد بها السحاب التي تحلب بالمطر ولما تمطر كالمرأة التي دنا أوان حيضها ولم تحض بعد - والسحاب جمع سحابة فهي تجمع على سحب وسحائب وسحاب.
١٥ - (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا)
قوله: {لنخرج به حبا ونباتا} أي لنخرج بالماء الغزير الصباب النازل من المعصرات حبا - والحب، اسم جنس للحنطة والشعير وغيرهما مما يكون في السنبل والأكمام ٦ أما النبات، فهو ما تأكله الدواب والأنعام من الكلأ والحشيش.
١٦ - (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)
قوله: {وجنات ألفافا} ألفافا، صفة لجنات، أي لنخرج بالماء الغزير الصباب النازل من المعصرات بساتين لكم {ألفافا} أي مجتمعة، ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها - وليس لألفاف مفرد - وقيل، مفرده لف بالكسر - وقيل بالضم ٧.
١٧ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا)
قوله تعالى: {إن يوم الفصل كان ميقاتا ١٧ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ١٨ وفتحت السماء فكانت أبوابا ١٩ وسيّرت الجبال فكانت سرابا ٢٠ إن جهنم كانت مرصادا ٢١ للطاغين مآبا ٢٢ لابثين فيها أحقابا ٢٣ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ٢٤ إلا حميما وغسّاقا ٢٥ جزاء وفاقا ٢٦ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ٢٧ وكذبوا بآياتنا كذابا ٢٨ وكل شيء أحصيناه كتابا ٢٩ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا}.
ذلك إخبار من الله عن يوم الفصل - وهو اليوم العصيب الذي يفصل الله فيه بين العباد - وذلكم يوم مشهود ومخوف يجمع الله فيه

الخلائق طرّا لتواجه الحساب - وفي هذا اليوم الرهيب يرتج الكون كله فيتغير فيه البناء والصورة ويقع فيه من الأحداث الرعيبة، والأهوال الجسام ما تزيغ منه العقول وتطير لفظاعته القلوب وتذل فيه الجباه والنواصي - ولا منجاة حينئذ للمرء إلا أن تدركه رحمة من الله.

وهذه المعاني العظيمة تتجلى ظاهرة في آيات الله القرآنية المجيدة - الآيات التي تفيض منها روعة التصوير وحلاوة النظم والتعبير - وذلكم الإعجاز - وهو قوله سبحانه: {إن يوم الفصل كان ميقاتا} يعني إن هذا اليوم كان في حكم الله وتقديره حدّا تؤقت به الدنيا، أو حدّا للخلائق ينتهون إليه أو ميقاتا لما وعد الله من الثواب والعقاب، أو ميقاتا لاجتماع الخلائق من أجل الفصل أو القضاء بينهم.

١٨ - (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

قوله: {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} يوم، منصوب على البدل من يوم الفصل ٨ وسمي اليوم بالفصل، لأن الله يفصل فيه بين العباد - والصور هو القرن الذي ينفخ فيه ليوم القيامة {فتأتون أفواجا} أي تأتون من القبور إلى الموقف أو العرض أمما، كل أمة مع إمامهم - وقيل: جماعات جماعات - وحسب المرء في هذا الصدد من ذكر الساعة وأهوالها وفظائعها عبرة وعظة، ما روي عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا معاذ لقد سألت عن أمر عظيم " ثم أرسل عينيه باكيا، ثم قال: " يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبدّل صورهم، فمنهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكّسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعبا يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار، وبعضهم أشد نتنا من الجيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القطران لا صقة بجلودهم، فأما الذين على صورة القردة فالقتّات ٩ من الناس - وأما الذين على صورة الخنازير، فأهل السّحت والحرام والمكس، وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم فأكلة الربا، والعمي: من يجور في الحكم، والصم البكم: الذين يعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصّاص الذين يخالف قولهم فعلهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان - والذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم - والذين يلبسون الجلاليب: فأهل الكبر والفخر والخيلاء ".

١٩ - (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا)

قوله: {وفتحت السماء فكانت أبوابا} أي شققت السماء وصدّعت فكانت {أبوابا} أي طرقا ومسالك - وذلك يفيد أن السماء بكليتها تصير أبوابا مفتّحة لتزول الملائكة.

٢٠ - (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)

قوله: {وسيّرت الجبال فكانت سربا} والجبال يوم القيامة تمر بعدة أحوال فأولها الاندكاك {فدكّتا دكّة واحدة} ثم صيرورتها كالعهن النفوش، ثم كالهباء المنثور في آفاق الفضاء {وبسّت الجبال بسا ٥ فكانت هباء منبثا} ثم تصير عقب ذلك سرابا، أي لا شيء - فالسراب يظنه الرائي ماء حتى إذا جاء موضعه لا يجد شيئا - وكذا الجبال.

٢١ - (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)

قوله: {إن جهنم كانت مرصادا} من الرصد والترصد وهو الترقب ١٠ والمعنى: أن جهنم ذات رصد لأهلها الذين كانوا يجحدون بآيات الله ويكذبون بيوم القيامة - فجهنم بذلك تترقب من يجتازها وترصدهم رصدا - والمرصاد، بوزن مفعال، فهو صيغة مبالغة - فكأن جهنم يكثر منها انتظار الكفار

٢٢ - (لِلطَّاغِينَ مَآبًا)

{للطاغين مآبا} مآبا، بدل من " مرصادا " والمآب معناه المرجع - فجهنم مرجع يئوب إليه الطغاه المجاوزون للحد في العصيان لتكون لهم

بذلك مأوى ومنزلا.
٢٣ - (لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا)
قوله: {لابثين فيها أحقابا} لابثين، منصوب على الحال - وأحقابا، منصوب على الظرف ١١ والأحقاب جمع حقب بضمتين وهو الدهر - يعني ماكثين في جهنم ما دامت الأحقاب وهي لا انقطاع لها ولا انقضاء.
٢٤ - (لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا)
قوله: {لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا} لا يجدون في النار بردا يبرد عليهم حر السعير، ولا شرابا يرويهم ويطفئ غلتهم.
٢٥ - (إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)
قوله: {إلا حميما وغسّاقا} ليس لهم في النار إلا الحميم وهو الماء الساخن الذي انتهى حره - فهو كالمهل يشوي الوجوه.
والغساق، ما يسيل من صديد أهل النار - وفي ذلك من فظاعة التنكيل بالمكذبين والعصاة ما لا يخفى.
٢٦ - (جَزَاءً وِفَاقًا)
قوله: {جزاء وفاقا} جزاء، منصوب على المصدر - وفاقا، صفة له - أي جازيناهم جزاء موافقا لأعمالهم - أو جوزوا جزاء وافق أعمالهم - وقيل: وافق العذاب الذنب - فليس من ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار.
٢٧ - (إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا)
قوله: {إنهم كانوا لا يرجون حسابا} كانوا لا يؤمنون بالبعث فهم بذلك ما كانوا في الدنيا يخافون محاسبة ربهم في الآخرة إياهم - أو أنهم ما كانوا يؤمنون بالبعث والحساب فما كانوا يرجون ثوابا ولا عقابا في الآخرة.
٢٨ - (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا)
قوله: {وكذّبوا بآياتنا كذابا} كذّابا، منصوب على أنه مصدر كذّب - يقال: كذب كذابا وتكذيبا ١٢ - أي كذب هؤلاء المشركون بآيات الله من دلائله وحججه تكذيبا شديدا أو كذبوا بما أنزل على رسوله من الآيات البينات أشد تكذيب.
٢٩ - (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا)
قوله: {وكل شيء أحصيناه كتابا} كل، منصوب بفعل مضمر دل عليه {أحصيناه} و {كتابا} منصوب على المصدر، لأن أحصيناه بمعنى كتبناه - والمراد بذلك، العلم - فإن ما كتب لا يأتي عليه نسيان - وقيل: كتبناه في اللوح المحفوظ - وقيل: ما كتبته الحفظة من أعمال العباد.
٣٠ - (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا)
قوله: {فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا} الفاء، للجزاء - فقد نبّه على أن الأمر بذوق العذاب علته ما ذكر من قبائح أفعالهم - والمراد بزيادة العذاب لهم، أنه كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها - أو كلما خبت النار زادهم سعيرا ١٣.
٣١ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)
قوله تعالى: {إن للمتقين مفازا ٣١ حدائق وأعنابا ٣٢ وكواعب أترابا ٣٣ وكأسا دهاقا ٣٤ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ٣٥ جزاء من ربك عطاء حسابا}.
يبين الله في هذه الآيات ما أعده للمؤمنين المتقين من وجوه السعادة والنعمة والتكريم في الجنة - وهو قوله: {إن للمتقين مفازا} أي فوزا بما يبتغون - أو نجاة من العذاب - أو موضع نجاة - وفسر ذلك بقوله: {حدائق وأعنابا}.
٣٢ - (حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا)
قوله: {حدائق وأعنابا} والحدائق بمعنى البساتين، فيها أنواع الشجر المثمر - والأعناب، الكروم.
٣٣ - (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا)
قوله: {وكواعب أترابا} الكواعب، جمع كاعب وهي الناهد - فالكواعب، الأبكار اللواتي ثديّهن نواهد لم يتدلين - والأتراب الأقران

في السن.

٣٤ - (وَكَأْسًا دِهَاقًا)

قوله: {وكأسا دهاقا} أي ملأى مترعة - أو ممتلئة متتابعة على شاربيها.

٣٥ - (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا)

قوله: {لا يسمعون فيها لغوا ولا كذّابا} والكذاب، بالتشديد يفيد المبالغة - والمقصود هنا المبالغة في أن أهل الجنة لا يسمعون الكذب البتة.

٣٦ - (جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا)

قوله: {جزاء من ربك عطاء حسابا} جزاء وعطاء وحسابا، منصوبات على المصدر ١٤ - يعني، جزى الله هؤلاء المتقين بإيمانهم وطاعتهم ثوابا من عنده - وأعطاهم عطاء كثيرا تفضيلا منه ومنّة، {حسابا} أي محاسبة لهم بأعمالهم في الدنيا - أو عطاء كافيا، أو أعطاهم ما يكفيهم ١٥.

٣٧ - (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا)

قوله تعالى: {رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ٣٧ يوم يقوم الروح والملائكة صفّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ٣٨ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ٣٩ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا}.

يبين الله في هذه الآيات بعض ما يقع يوم القيامة من أحداث مزلزلة تتبدل فيها ظواهر الكون ويرتج فيها الوجود كله أيما ارتجاج، إذ قال سبحانه {رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن} رب، مجرور على أنه صفة لقوله: {جزاء من ربك} وقيل: بدل من ربك، يعني جزاء من ربك رب السموات والأرض الرحمن {لا يملكون منه خطابا} أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبة الله يومئذ إلا بإذنه - أو لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه.

٣٨ - (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا)

قوله: {يوم يقوم الروح والملائكة صفّا لا يتكلمون} يوم، منصوب على الظرف - والروح يراد به جبريل الأمين عليه السلام - وقيل: ملك من أعظم الملائكة خلقا - والمعنى: في هذا اليوم المخوف يقوم الملك العظيم جبريل ومعه الملائكة جميعا صفا واحدا مذعنين لله خاشعين {لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن} أي لا يملك أحد منهم التكلم بين يدي الله إلا بإذن منه سبحانه {وقال صوابا} أي قال حقا أو سدادا من القول.

٣٩ - (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا)

قوله: {ذلك اليوم الحق} المراد بذلك اليوم - يوم القيامة، فإنه حق وإنه واقع لا محالة {فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا} أي اتخذ إلى الله بطاعته والإذعان له مرجعا - وقيل: سبيلا.

٤٠ - (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)

قوله: {إنا أنذرناكم عذابا قريبا} يخوف الله المشركين المكذبين بالعذاب القريب وهو عذاب يوم القيامة فإنه لا جرم قريب، لأنه لا محالة آت وكل ما هو آت قريب.

قوله: {يوم ينظر المرء ما قدمت يداه} يعرض على المرء يوم القيامة كل أعماله من خير أو شر {ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا} يتمنى الكافر بفرط إياسه وهول ما يرى من العذاب أن لو كان ترابا كالبهائم التي تصير يوم القيامة ترابا - وذلك بعد أن يحصل القصاص بينها فيقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء فإذا فرغ من القصاص من بعضها لبعض قال لها: كوني ترابا - فعند ذلك يقول الكافر مستيئسا متحسّرا {ياليتني كنت ترابا} ١٦.

٧٩ سورة النازعات:

سورة النازعات:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وآياتها ست وأربعون - وهي مبدوءة بجملة أقسام، إذ يقسم الله بأجزاء من خلقه على أن الساعة حق وأن الناس مبعثون من قبورهم ليساقوا إلى المحشر حيث الحساب والجزاء.

وفي السورة تذكير بقصة موسى {إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى} إذ أمره الله أن يذهب إلى فرعون فينذره ويحذره فظاعة ظلمه وطغيانه لكنه بشقوته أبى وعتا واستكبر، وقال مقالته الظالمة النكراء {أنا ربكم الأعلى} فانتقم الله منه بذلك أشد انتقام جزاء مقالته هذه والتي سبقتها وهي قوله: {ما علمت لكم من إله غيري}.

وفي السورة تذكير بجيئة الطامة الكبرى - لا جرم أن التسمية بهذا الاسم القارع المثقل، يصوّر للأذهان والأخيلة والجنان فظاعة هذا الحدث الكوني المرعب الذي توضع فيه الموازين، وتجتمع فيه الخلائق كافة لتناقش الحساب - وحينئذ تغشى الناس غاشية من الذعر والحسرة والندم، وليس لها من دون كاشفة ولا منجاة.

١ - (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنازعات غرقا ١ والناشطات نشطا ٢ والسابحات سبحا ٣ فالسابقات سبقا ٤ فالمدبرات أمرا ٥ يوم ترجف الراجفة ٦ تتبعها الرادفة ٧ قلوب يومئذ واجفة ٨ أبصارها خاشعة ٩ يقولون أإنّا لمردودون في الحافرة ١٠ أإذا كنا عظاما نخرة ١١ قالوا تلك إذا كرّة خاسرة ١٢ فإنما هي زجرة واحدة ١٣ فإذا هم بالساهرة}.

هذه أشياء من خلق الله قد أقسم الله بها على أن القيامة حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها فقال سبحانه: {والنازعات غرقا} فقد أقسم الله بالنازعات وهي الملائكة التي تنزع أرواح الأشقياء والظالمين بغلظة وفظاظة {غرقا} منصوب على المصدر - أي تقذفها في النار عقب انتزاعها من الأجساد.

٢ - (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا)

قوله: {والناشطات نشطا} والمراد بها الملائكة، فإنها تنزع أرواح المؤمنين بسهولة ولين ويسر - أو تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه - ونشط الرجل الدلو من البئر إذا أخرجها - وأنشطت العقال: حللته - وأنشطت البعير من عقاله: أطلقته ١ وقال ابن عباس: هي نفس المؤمن عند الموت تنشط للخروج لما يراه من حسن الجزاء وكريم المقام له في الجنة.

٣ - (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا)

قوله: {والسابحات سبحا} اختلفوا في المراد بالسابحات - فقد قيل: هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بعد أن تقبضها برفق ولين ورحمة، وقيل: الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، وقيل: الملائكة تسبح في نزولها وصعودها - وقيل: المراد بها النجوم تسبح في أفلاكها وكذا الشمس والقمر.

٤ - (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)

قوله: {فالسابقات سبقا} اختلفوا في تأويلها أيضا - فقد قيل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وبأرواح الكافرين إلى النار - وقيل: الملائكة سبقت بني آدم إلى الإيمان والطاعة - وقيل: الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى النبيين، لأن الشياطين كانت تسترق السمع.

٥ - (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)

قوله: {فالمدبرات أمرا} المراد بها الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر الله عز وجل.

٦ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

قوله: {يوم ترجف الراجفة} الراجفة هي القيامة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى.

٧ - (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)

قوله: {تتبعها الرادفة} وهي النفخة الثانية - فهما بذلك نفختان - أما الأولى فيموت فيها الأحياء - وأما الثانية: فيحيي بها الموتى - ويعزز ذلك قوله سبحانه: {ونفخ في الصورة فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون}.

والرادفة في اللغة من الترادف أي التتابع - والرّدف والمرتدف: هو الذي يركب خلف الراكب - وأردفه: أركبه خلفه ٢.

٨ - (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)

قوله: {قلوب يومئذ واجفة} أي خائفة وجلة مذعورة من شدة الهول النازل - ووجف يجف وجيفا ووجوفا، أي اضطرب ٣.

٩ - (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

قوله: {أبصارها خاشعة} أي خاضعة ذليلة يترقب صاحبها ما ينزل به من الأمر العظيم.

١٠ - (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

قوله: {يقولون أإنّا لمردودون في الحافرة} الحافرة: القبور - أو الأرض التي تحفر فيها القبور - والمراد الكافرون المكذبون، فإنهم إذ ذكروا بالآخرة وبعث الناس من قبورهم قالوا منكرين متعجبين: أئنا لمعادون أحياء كما كنا من قبل في الدنيا - أي مردودون خلقا جديدا.

١١ - (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً)

قوله: {أإذا كنا عظاما نخرة} نخرة أي بالية متفتتة وذلك على وجه التكذيب والجحود.

١٢ - (قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

قوله: {قالوا تلك إذا كرّة خاسرة} و الكرة، أي الرجعة إلى الحياة أو البعث من القبور - والمعنى: إن صحت هذه الرجعة وبعثنا من قبورنا فنحن إذا خاسرون، لتكذيبنا بيوم القيامة - وذلك على سبيل السخرية والاستهزاء.

١٣ - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

قوله: {فإنما هي زجرة واحدة} أي تحسبوا أن هذه الرجعة صعبة على الله بل إنها هينة عليه سبحانه - فما هي إلا نفخة واحدة في الصور.

١٤ - (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

قوله: {فإذا هم بالساهرة} والساهرة وجه الأرض ٤ وقيل: أرض بيضاء مستوية يجمع الله الخلائق عليها يوم البعث ٥.

١٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

قوله تعالى: {هل أتاك حديث موسى ١٥ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ١٦ اذهب إلى فرعون إنه طغى ١٧ فقل هل لك إلى أن تزكّى ١٨ وأهديك إلى ربك فتخشى ١٩ فأراه الآية الكبرى ٢٠ فكذب وعصى ٢١ ثم أدبر يسعى ٢٢ فحشر فنادى ٢٣ فقال أنا ربكم الأعلى ٢٤ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ٢٥ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}.

يبين الله في آياته هذه قصة موسى عليه السلام، إذ بعثه الله إلى الفاجر الخاسر المتجبر فرعون فأنذره موسى وحذّره بطش ربه وشديد انتقامه لعله يتذكر أو يخشع أو يزدجر عن طغيانه وظلمه، لكنه ازداد عتوّا واستكبارا فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر - فقال سبحانه مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية كيلا يبتئس بصدود قومه {هل أتاك حديث موسى} هل أتاك يا محمد حديث موسى بن عمران - أو هل سمعت خبره.

١٦ - (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

قوله: {إذ ناداه ربه بالواد} المطهر المبارك، واسمه طوى.

١٧ - (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

قوله: {اذهب إلى فرعون إنه طغى} أمره ربه في ندائه إياه أن يذهب إلى فرعون فينذره ويبلغه دعوة ربه ويحذره بطشه وانتقامه، لأنه طغى - أي جاوز الحد في الفسق والعصيان.

١٨ - (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)
قوله: {فقل هل لك إلى أن تزكّى} هل لك، يعني هل ترغب في كذا - والمقصود: أدعوك إلى الإيمان بالله وحده فتتطهر من خطيئة الشرك والذنوب.
١٩ - (وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)
قوله: {وأهديك إلى ربك فتخشى} يعني وهل لك أن أرشدك إلى الحق ومرضاة الله وطاعته فتخشى عقابه بأداء فرائضه ومجانبة معاصيه.
٢٠ - (فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى)
قوله: {فأراه الآية الكبرى} أرى موسى فرعون الدلالة الكبرى على صدق نبوته ورسالته إليهم فيما خوله الله من معجزة كبرى، وهي يده، إذ أخرجها فإذا هي بيضاء للناظرين - وكذلك عصاه، إذ ألقاها فإذا هي ثعبان ظاهر.
٢١ - (فَكَذَّبَ وَعَصَى)
قوله: {فكذّب وعصى} كذب فرعون موسى فيما جاءه به من معجزة كبرى، وعصاه فيما أمره به من الإيمان بالله وحده وطاعته إياه فيما أمر.
٢٢ - (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)
قوله: {ثم أدبر يسعى} أي تولى معرضا، يعمل بالمعصية والفساد في الأرض.
٢٣ - (فَحَشَرَ فَنَادَى)
قوله: {فحشر فنادى} أي جمع أصحابه وجنوده معتزا بهم - أو حشرهم ليحضروا ويسمعوا ما يقوله لهم ثم ناداهم قائلا لهم مقالة السوء والباطل.
٢٤ - (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)
قوله: {أنا ربكم الأعلى} أي ليس لكم من رب فوقي، بل كل رب دوني.
٢٥ - (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى)
قوله: {فأخذه الله نكال الآخرة والأولى} نكال منصوب على أنه مفعول له - وقيل: منصوب على أنه مصدر ٦ أي أهلكه الله جزاء مقالتين - الأولى منهما قوله: {ما علمت لكم من إله غيري} والثانية قوله: {أنا ربكم الأعلى}.
٢٦ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)
قوله: {إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} يعني فيما أنزله الله بفرعون من عقاب أليم في هذه الدنيا، لموعظة وذكرى لمن يعتبر ويزدجر ٧.
٢٧ - (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)
قوله تعالى: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ٢٧ رفع سمكها فسوّاها ٢٨ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ٢٩ والأرض بعد ذلك دحاها ٣٠ أخرج منها ماءها ومرعاها ٣١ والجبال أرساها ٣٢ متاعا لكم ولأنعامكم}.
هذه جملة من الحجج يخاطب الله فيها عقول المنكرين الذين يكذبون بيوم القيامة ليبين لهم فيها أنه قادر على إحيائهم وبعثهم من القبور للحساب - فليس ذلك على الله بعزيز - فقال سبحانه: {أأنتم أشد خلقا أم السماء} الاستفهام للإنكار، إذ يخاطب الله المشركين المكذبين بيوم الدين موبخا مقرّعا: أخلقكم بعد الموت للحساب أعظم أم خلق السماء الهائلة الرفيعة البديعة أعظم - أوأأنتم أصعب خلقا وإنشاء أم السماء أصعب - فالله خالق هذه وهي أكبر وأجلّ- لقادر على خلقكم كرّة أخرى يوم البعث - وذلك كقوله: {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس}.
ثم شرع في وصف السماء فقال: {بناها} أي جعلها فوقكم مبنية رصينة رفيعة.
٢٨ - (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

قوله: {رفع سمكها} سمك الشيء أي ارتفع - وسمك البيت أي سقفه ٨ والمعنى: جعل السماء عالية كالسقف الرفيع.
قوله: {فسوّاها} جعلها مستوية معتدلة لا عوج فيها ولا تفاوت ولا فطور.
٢٩ - (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)
قوله: {وأغطش ليلها} أي أظلمه أو جعله مظلما - يقال: أغطش الله الليل، أي أظلمه - وأغطش الليل أيضا بنفسه ٩.
قوله: {وأخرج ضحاها} أي أظهر ضوء شمسها وذلك وقت الضحى وهو حين تشرق الشمس.
٣٠ - (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)
قوله: {والأرض بعد ذلك دحاها} يعني دحى الله الأرض من بعد خلق السماء - ودحاها أي بسطها ومهدها للسكنى - والأدحية والأدحوة، مبيض النعام في الرمل ١٠ ولا إشكال فيما ذكره الباحثون في علوم الفلك من أن الأرض تشبه الكرة في هيأتها، فإن الجسم العظيم يكون ظاهره للناظرين كالسطح المستوي المبسوط وإن كان في حقيقته كالكرة - وهكذا الأرض فإنها لعظيم سعتها وضخامة حجمها ينظر إليها الرائي فيجدها أمامه مستوية مبسوطة بالرغم من افتراضها على هيأة الكرة في شكلها الأساسي - على أن المراد هنا أن الأرض قد جعلها الله صالحة ممهدة للعيش والقرار
٣١ - (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)
ثم فسّر هذا التمهيد والصلوح بما لابد منه للعيش السليم والاستقرار المكين على وجه الأرض وهو قوله: {أخرج منها ماءها ومرعاها} - يعني فجر فيها الأنهار والينابيع والعيون، وأخرج منها النبات بمختلف أصنافه وأشكاله وروائحه وألوانه - وفي ذلك كله قوام العيش السليم والاستقرار المكين للإنسان على الأرض.
٣٢ - (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)
قوله: {والجبال أرساها} أي أثبتها في الأرض وجعلها مركوزة فيها لكي تستقر فلا تميد أو تضطرب.
٣٣ - (مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)
قوله: {متاعا لكم ولأنعامكم} أي ذلك كله من إخراج الماء والنبات {متاعا} لتتمتعوا به وتنتفعوا أنتم وأنعامكم حتى تفنى هذه الدنيا ثم بعد ذلك تنقلبون إلى الدار الآخرة لتلاقوا الحساب والجزاء ١١.
٣٤ - (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)
قوله تعالى: {فإذا جاءت الطامة الكبرى ٣٤ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ٣٥ وبرّزت الجحيم لمن يرى ٣٦ فأما من طغى ٣٧ وآثر الحياة الدنيا ٣٨ فإن الجحيم هي المأوى ٣٩ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ٤٠ فإن الجنة هي المأوى ٤١ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها ٤٢ فيم أنت من ذكراها ٤٣ إلى ربك منتهاها ٤٤ إنما أنت منذر من يخشاها ٤٥ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها}.
الطامة هي القيامة - سميت بذلك، لأنها تطمّ على كل شيء فتعم ما سواها لعظيم هولها - يقال: طمّ الشيء إذا كثر حتى علا وغلب ١٢ وهي الداهية التي تطم على كل الدواهي وتعلو وتغلب على كل أمر فادح جلل وذلك بأهوالها المفظعة ونوازلها المفزعة - وحينئذ يفزع العباد ويشخصون ويذهلون عما سوى القيامة من أخبار وقوارع.
٣٥ - (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى)
قوله: {يوم يتذكر الإنسان ما سعى} إذا قامت القيامة وهي الطامة يتذكر الإنسان حينئذ ما قدم في الدنيا من خير العمل وشره.
٣٦ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)
قوله: {وبرّزت الجحيم لمن يرى} يعني أظهرت النار أمام أعين الناظرين فيبصرونها - أو يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذي بصر.
٣٧ - (فَأَمَّا مَنْ طَغَى)
قوله: {فأما من طغى} أي من تجاوز الحد في العصيان فضل ضلالا كبيرا وأوغل في الذنوب والمعاصي.

٣٨ - (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)
قوله: {وآثر الحياة الدنيا} أي آثر الشهوات والملذات وما حوته الدنيا من أوجه المتاع والزينة فرضي بذلك وآثره على الآخرة حيث الخلود والنعيم الدائم المقيم فعصى الله وأعرض عن دينه.
٣٩ - (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)
قوله: {فإن الجحيم هي المأوى} أي جزاؤه جهنم بنارها المتسعّرة المتوقدة يصلاها فتكون له المنزل والمثوى.
٤٠ - (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)
قوله: {وأما من خاف مقام ربه} من خشي مقام الله وهو عظيم شأنه وجلال قدره وسلطانه، أو خاف القيام بين يدي ربه يوم الحساب {ونهى النفس عن الهوى} والنفس مجبولة على حب الشهوات والجنوح للهوى، فمن زجرها عن المحارم والسيئات فارتدع بها عن الآثام والمعاصي.
٤١ - (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)
قوله: {فإن الجنة هي المأوى} أي المنزل والمقام - وذلك جزاء المؤمنين الذين يأتمرون بأوامر الله فيجتنبون عصيانه ولا يتجرجون بأنفسهم خلف الهوى ليقفوا في الفسق والعصيان.
٤٢ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)
قوله: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها} سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة {أيان مرساها} يعني متى إرساؤها، أو قيامها.
٤٣ - (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)
قوله: {فيم أنت من ذكراها} يعني ما أنت من ذكر الساعة لهم وتبيين وقتها في شيء - أو أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها {إلى ربك منتهاها} منتهى علم الساعة إلى الله وحده فإنه لم يؤت أحدا من خلقه علمها.
٤٤ - (إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
قوله: {فيم أنت من ذكراها} يعني ما أنت من ذكر الساعة لهم وتبيين وقتها في شيء - أو أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها {إلى ربك منتهاها} منتهى علم الساعة إلى الله وحده فإنه لم يؤت أحدا من خلقه علمها.
٤٥ - (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)
قوله: {إنما أنت منذر من يخشاها} إنما بعثت يا محمد لتنذر الناس أهوال القيامة وتحذر من يخاف عقاب الله فيها على كفره وعصيانه وما عليك من كفرهم بعد ذلك من شيء ولم تكلّف علم وقت قيامها.
٤٦ - (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)
قوله: {كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} كأن هؤلاء المكذبين بالساعة يوم يرون قيام الساعة ويعاينون فظائع الأهوال فيها والبلايا - لم يلبثوا في حياتهم الدنيا غير عشية، وهي ما بين الظهر إلى غروب الشمس، أو ضحاها وهي ما بين طلوع الشمس إلى الزوال. والمراد بذلك أنهم عند معاينة الساعة وأهوالها يدركون هوان الدنيا وحقارتها وقلة مدتها ١٣.

٨٠ سورة عبس:

سورة عبس:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وعدد آياتها ثنتان وأربعون - وهي يكشف عن عظيم مضمونها وروعة مدلولها تسميتها بهذا الإسم، ليتبين من ذلك أنه ما ينبغي لمسلم أن يعبس في وجه أخيه بسبب فقره أو ذله أو هوان حاله - وإنما يراعي فيه إيمانه وآدميته وصلوحه - وعلى هذا فإن السورة هنا مبدوءة بقصة ابن أم مكتوم الأعمى - هذا الذي عبس النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه لما جاءه يسترشده ويستهديه، وهو مشغول بالحديث إلى صناديد قريش المشركين رغبة في إسلامهم - لكن الله جل وعلا عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم عتابا شديدا لعبوسه في وجه المؤمن المستضعف الأعمى - فما كان بذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشغل عن إرشاد مؤمن كريم على الله، فيتهلى عنه بمخاطبة المشركين - وفي ذلك بيان ظاهر ساطع للناس طيلة الزمن أن الإسلام لا يحابي أحدا لعلو جاهه أو سيادته أو غناه - لا يعبأ الإسلام باعتبارات الناس وموازينهم الخاطئة ومن جملتها تكريم الناس بالنظر إلى منازلهم الاجتماعية من المال أو الجاه أو الزعامة والرياسة - لا يعبأ الإسلام بشيء من ذلك البتة - إنما يراعي الإسلام مقادير الناس تبعا لتقواهم {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} ويضاف إلى هذه الحقيقة ظاهرة العلم - لا جرم أن العلم والتقوى معا، هما ميزان الإسلام الذي تعرف به مقادير الناس واعتباراتهم، سواء كانوا من العظماء أو الأغنياء أو الفقراء أو الأراذل، رجالا أو نساء.

١ - (عَبَسَ وَتَوَلَّى)

بسم الله الرحمن الرحيم

{عبس وتولى ١ أن جاءه الأعمى ٢ وما يدريك لعله يزّكّى ٣ أو يذّكّر فتنفعه الذكرى ٤ أما من استغنى ٥ فأنت له تصدى ٦ وما عليك ألا يزّكّى ٧ وأما من جاءك يسعى ٨ وهو يخشى ٩ فأنت عنه تلهّى ١٠ كلا إنها تذكرة ١١ فمن شاء ذكره ١٢ في صحف مكرمة ١٣ مرفوعة مطهرة ١٤ بأيدي سفرة ١٥ كرام بررة}.

وسبب نزول هذه الآيات هو ابن أم مكتوم الأعمى - فقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبيّا بن خلف وأمية ابن خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم - فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله علّمني مما علمك الله - وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه - وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد - فعبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله تعالى هذه الآية - فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه - وإذا رآه يقول: " مرحبا بمن عاتبني فيه ربي " ١.

قوله: {عبس وتولى} عبس، أي كلح بوجهه أو قبضه تكرّها - من العبوس والتعبس وهو التجهم - ويوم عبوس أي شديد ٢ {وتولى} أي أعرض.

٢ - (أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى)

قوله: {أن جاءه الأعمى} أن جاء، في موضع نصب على أنه مفعول له - وتقديره: لأن جاءه ٣ - فقد جاءه الأعمى ابن أم مكتوم مسترشدا والنبي صلى الله عليه وسلم منشغل بنفر من صناديد قريش، وهو يدعوهم إلى الإسلام مؤملا أن يسلم بإسلامهم غيرهم - لكن النبي صلى الله عليه وسلم عبس في وجهه وأعرض عنه - فالآية بذلك عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتولّيه عن عبد الله بن أم مكتوم - أما ما فعله ابن أم مكتوم فإنه غير مؤاخذ به، لأنه لم يبصر انشغال النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث إلى المشركين - ولو كان ابن أم مكتوم عالما بانشغال النبي بالمشركين لكان ما فعله من سوء الأدب، فإنه ما ينبغي لامرئ أن يخاطب غيره وهو مشغول بأمر أو مسألة أو خطاب.

٣ - (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

قوله: {وما يدريك لعله يزّكّى} وأي شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى - أو ما يعلمك يا محمد لعله يتطهر من أوضار الإثم بما يتعلمه منك من أحكام.

٤ - (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)
قوله: {أو يذّكّر فتنفعه الذكرى} فتنفعه، منصوب بأن المضمرة بعد الفاء - يعني لعله يتعظ أو يعتبر بما تقول فتنفعه هذه العظة أو العبرة.
٥ - (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى)
قوله: {أما من استغنى} يعني أما من كان موسرا مستغنيا بماله وثرائه فأنت تصغي له.
٦ - (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى)
قوله: {فأنت له تصدّى} وتصدى من التصدي وهو الإصغاء ٤.
٧ - (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى)
قوله: {وما عليك ألا يزّكّى} يعني ما عليك من بأس في أن لا يتطهر هذا الأعمى بالإسلام - فإنما عليك البلاغ فقط.
٨ - (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى)
قوله: {وأما من جاءك يسعى} أما من جاءك مبادرا مسرعا يطلب الخير والعظة والإرشاد وهو يخشى الله، أو يخشى المشركين وأذاهم بسبب إتيانك.
٩ - (وَهُوَ يَخْشَى)
قوله: {وهو يخشى} أما من جاءك مبادرا مسرعا يطلب الخير والعظة والإرشاد وهو يخشى الله، أو يخشى المشركين وأذاهم بسبب إتيانك.
١٠ - (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)
قوله: {فأنت عنه تلّهى} فأنت متشاغل عنه بصناديد المشركين - وما ينبغي أن يلهيك مثل ذلك عن إجابة المؤمنين المستضعفين الذين يأتونك مسترشدين.
١١ - (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)
قوله: {كلا إنها تذكرة} كلا، كلمة ردع وزجر يعني ليس الأمر كما تفعل يا محمد، من أن تعبس في وجه المؤمن الأعمى باغي الخير والنصح، وتصغي للمشرك المستغني - أي لا تفعل بعذ ذلك مثله، من إقبالك على الغني وإدبارك عن المؤمن الفقير {إنها تذكرة} إن هذه السورة أو الآيات من القرآن موعظة لمن اعتبر أو تذكر.
١٢ - (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ)
قوله: {فمن شاء ذكره} أي اتعظ بالقرآن.
١٣ - (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ)
قوله: {في صحف مكرمة} يعني هذه الآيات أو هذا القرآن مثبت في صحف منتسخة من اللوح المحفوظ وهي مكرمة عند الله.
١٤ - (مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)
قوله: {مرفوعة مطهرة} أي عالية القدر والشأن، منزهة عن الشياطين فلا تمسها إلا أيدي الملائكة الأبرار الأطهار.
١٥ - (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)
قوله: {بأيدي سفرة} وهم الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله فهم أبرار مطهرون لم تدنسهم معصية ولا خطيئة - وقيل: سفرة، أي كتبة وهم الملائكة الكرام الذين يكتبون أعمال العباد في الأسفار وهي الكتب - والواحد سافر - والكتّاب هو السّفر وجمعه أسفار - ومنه السفير الذي يسعى بين الناس مصلحا وجمعه سفراء ٥.
١٦ - (كِرَامٍ بَرَرَةٍ)
قوله: {كرام بررة} أي كرام على الله بحسن أخلاقهم وكريم فعالهم، كرام عن السيئات والذنوب {بررة} أطهار أبرار لم يتلبسوا بإثم ولم يتدنسوا بخطيئة - ومفرده بار ٦.

١٧ - (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

قوله تعالى: {قتل الإنسان ما أكفره ١٧ من أي شيء خلقه ١٨ من نطفة خلقه فقدره ١٩ ثم السبيل يسّره ٢٠ ثم أماته فأقبره ٢١ ثم إذا شاء أنشره ٢٢ كلا لما يقض ما أمره ٢٣ فلينظر الإنسان إلى طعامه ٢٤ أنا صببنا الماء صبّا ٢٥ ثم شققنا الأرض شقا ٢٦ فأنبتنا فيها حبا ٢٧ وعنبا وقضبا ٢٨ وزيتونا ونخلا ٢٩ وحدائق غلبا ٣٠ وفاكهة وأبّا ٣١ متاعا لكم ولأنعامكم}.

قوله: {قتل الإنسان ما أكفره} يعني لعن الإنسان الجاحد المكذب {ما أكفره} ما، تحتمل وجهين - أحدهما: أنها التعجبية - فيكون المعنى: ما أشد كفره مع عظيم الإحسان إليه من الله وبالغ أياديه عنده - وثانيهما: أنها الاستفهامية - فيكون المعنى: ما الذي أكفره - أو أي شيء دعاه إلى الكفر والتكذيب.

١٨ - (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

قوله: {من أي شيء خلقه} من أي شيء خلق الله هذا الإنسان الكافر المكذب حتى يتكبر ويستنكف عن طاعة الله والإقرار له بالوحدانية وقد شرع في ذكر ما منّ به عليه من نعمة الخلق، إذ جمعه في بطن أمه جنينا أطوارا ثم يسّر له الخروج إلى الدنيا في يسر ولين فسلك سبيله إلى الدنيا مكتمل البنية والتركيب، منسجم الهيئة والصورة إلى أن يفارق الحياة بالموت فقال سبحانه: {من نطفة خلقه فقدّره}.

١٩ - (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)

قوله: {من نطفة خلقه فقدّره} أي خلقه من ماء قليل مهين مستقذر فقدره أحوالا، إذ كان نطفة تارة، ثم علقة تارة ثانية، ثم مضغة تارة ثالثة - حتى إذا اكتمل بناؤه في رحم أمه يسّر الله له الخروج إلى الدنيا - وهو قوله: {ثم السبيل يسّره}.

٢٠ - (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

قوله: {ثم السبيل يسّره} ثم يسّره للسبيل أي الطريق - والمراد به خروجه من بطن أمه في يسر وسهولة.

٢١ - (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)

قوله: {ثم أماته فأقبره} قبضت الملائكة روحه فمات ثم صيّره الله ذا قبر - أي استكنّ ميتا في القبر - والقابر، هو الدافن - والمقبر هو الله - وأقبر الميت، إذا أمر غيره بأن يجعله في القبر.

٢٢ - (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)

قوله: {ثم إذا شاء أنشره} إذا شاء الله أحياه للحشر والحساب من يوم القيامة بعد أن كان ميتا مقبورا.

٢٣ - (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

قوله: {كلا لما يقض ما أمره} كلا، ردع للإنسان عن كفره وتكبره وإنكاره البعث ليوم القيامة - أو ليس الأمر كما يقول الإنسان الجاحد من أنه أدى حق الله عليه {لما يقض ما أمره} أي لم يؤد هذا الإنسان ما فرض عليه من الفرائض وما ألزمه الله بفعله من الواجبات بل إنه جاحد مستكبر مفرّط.

٢٤ - (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

قوله: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} يمنّ الله على عباده بما خوّلهم من نعمة الطعام والشراب وكل أسباب القرار والعيش في هذه الأرض - فقال سبحانه: فلينظر هذا الإنسان الجاحد إلى طعامه كيف خلقه الله ويسّره له تيسيرا.

٢٥ - (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا)

قوله: {أنّا صببنا الماء صبا} أي أنزلنا الغيث من السماء هاطلا مدرارا.

٢٦ - (ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا)

قوله: {ثم شققنا الأرض شقا} شققناها بالنبات فانفتقت وانصدعت.

٢٧ - (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا)
قوله: }فأنبتنا فيها حبا{ أي حب الزرع وهو كل ما أخرجته الأرض من الحبوب كالحنطة والشعير وغير ذلك مما يأكله الناس ويقتاتونه.
٢٨ - (وَعِنَبًا وَقَضْبًا)
قوله: }وعنبا وقضبا{ العنب معناه الكرم - أما القضب فهو الرطبة وهي الفصفصة أو القتّ ٧.
٢٩ - (وَزَيْتونًا وَنَخْلا)
قوله: }وزيتونا ونخلا{ الزيتون، الشجر الأخضر البهيج الذي يعتصر منه الزيت المبارك، هذا الغذاء النافع البديع }ونخلا{ جمع نخلة وهي الشجرة الكريمة ذات الثمر العذب المرغوب.
٣٠ - (وَحَدَائِقَ غُلْبًا)
قوله: }وحدائق غلبا{ أي بساتين }غلبا{ عظيمة الأشجار.
٣١ - (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا)
قوله: }وفاكهة وأبّا{ الفاكهة، ما يأكله الناس من ثمار الأشجار كالعنب والتين والرمان وغير ذلك }وأبّا{ ما تأكله البهائم من العشب - قال ابن عباس: الأبّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس.
٣٢ - (مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)
قوله: }متاعا لكم ولأنعامكم{ متعا، منصوب على المصدر المؤكد - أي بينا لكم هذه الأشياء التي تأكلونها فتنتفعون وتتمتعون والتي تأكلها أنعامكم - أو متاعا لكم الفواكه والثمار، ولأنعامكم الكلأ والعشب، وفي ذلك تذكير من الله للعباد بإحياء الموتى - فإن الله الذي أنزل الغيث فأنبت به الزرع والثمر بعد قحط وقفر ويبس لقادر على بعث الموتى من قبورهم بعد أن أتى عليهم الدّثور والبلى ٨.
٣٣ - (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ)
قوله تعالى: }فإذا جاءت الصاخّة ٣٣ يوم يفر المرء من أخيه ٣٤ وأمه وأبيه ٣٥ وصاحبته وبنيه ٣٦ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ٣٧ وجوه يومئذ مسفرة ٣٨ ضاحكة مستبشرة ٣٩ ووجوه يومئذ عليها غبرة ٤٠ ترهقها قترة ٤١ أولئك هم الكفرة الفجرة{.
يبين الله في هذه الآيات المفزعة بعضا من أخبار القيامة وما يقع في هذا اليوم العصيب من أحداث عجاب وأهوال فظيعة مريعة يعجز عن شرحها القلم والبيان لدى الإنسان - لا جرم أن الساعة رهيبة مذهلة وفيها من جليل الخطوب وعظيم الدواهي ما تتزلزل منه القلوب، وتشخص من أجله الأبصار وتذل لهوله النواصي.
إن هذه الآيات العجيبة المذهلة من كتاب الله الحكيم لتبين للأذهان والأخيلة حقيقة الساعة تبيينا ظاهرا مشهودا، يعجز عن مثله النظم أو الكلم - إنها آيات مثيرة مريعة تصخّ الآذان وتشده الخيال والحس وتثير في النفس الخشية والارتياع والفزع - وهذه واحدة من ظواهر الإعجاز في القرآن الكريم.
قوله: }فإذا جاءت الصاخّة{ الصاخة من أسماء يوم القيامة - وهي صيحة القيامة عقب النفخة الأخيرة - وقد سميت بذلك لشدة صخها أو صخيخها - فهي تصخ الأسماع صخا فتبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها.
٣٤ - (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)
قوله: }يوم يفر المرء من أخيه{ ذلك يوم الفرار والرعب، إذ يفر كل إنسان من أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه، وذلك لانشغاله بخاصة نفسه - والناس حينئذ يتراءون فيرى المرء أخاه وأمه وأباه وزوجته وبنيه، فما يلبث أن يفر منهم ويتبعّد عنهم، لأن الهول فظيع والخطب جسيم وجلل - وهو ما يدل عليه قوله: }لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه{
٣٥ - (وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)
قوله: }وأمه وأبيه{ ذلك يوم الفرار والرعب، إذ يفر كل إنسان من أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه، وذلك لانشغاله بخاصة نفسه

- والناس حينئذ يتراءون فيرى المرء أخاه وأمه وأباه وزوجته وبنيه، فما يلبث أن يفر منهم ويتبعّد عنهم، لأن الهول فظيع والخطب جسيم وجلل - وهو ما يدل عليه قوله: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه}
٣٦ - (وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)
قوله: {وصاحبته وبنيه} ذلك يوم الفرار والرعب، إذ يفر كل إنسان من أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه، وذلك لانشغاله بخاصة نفسه - والناس حينئذ يتراءون فيرى المرء أخاه وأمه وأباه وزوجته وبنيه، فما يلبث أن يفر منهم ويتبعّد عنهم، لأن الهول فظيع والخطب جسيم وجلل - وهو ما يدل عليه قوله: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه}
٣٧ - (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)
قوله: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} كل إنسان يوم القيامة مشغول بأمره وهمه فما يعنيه أحد من الناس وإنما يعنيه نفسه دون سواها - وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة: " أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي لا أسألك إلا نفسي، حتى أن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي - لا أسأله مريم التي ولدتني ".
وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا " فقالت زوجته (عائشة): يا رسول الله! ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} - أو قال: " ما أشغله عن النظر ".
٣٨ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ)
قوله: {وجوه يومئذ مسفرة} من الإسفار وهو الإشراق والإضاءة - وأولئك هم المؤمنون الفائزون فإنهم يعلو وجوههم يوم القيامة الإشراق والبهاء والوضاءة لما تجده من عظيم البهجة والسرور.
٣٩ - (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)
قوله: {ضاحكة مستبشرة} ضاحكة من حلاوة الإحساس بالنّجح والسعادة فهي بذلك فرحة ومحبورة - وهي مستبشرة بما ترجوه من الكرامة والسعادة - جعلنا الله في زمرتهم.
٤٠ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)
قوله: {ووجوه يومئذ عليها غبرة} أي يغشى وجوههم الغبار من فظاعة الزحام وكثافة التراب المتناثر في أجواء المحشر.
٤١ - (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)
قوله: {ترهقها قترة} أي يغشى وجوههم السواد.
٤٢ - (أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)
قوله: {أولئك هم الكفرة الفجرة} فهم كفرة بجحودهم وتكذيبهم - وهم أيضا فجرة بفسقهم وكذبهم وميلهم عن الحق ٩.

٨١ سورة التكوير:

سورة التكوير:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وآياتها تسع وعشرون - وهي، حقا مرعبة مفزعة، فما يقرأها متدبر خاشع أو يتملاها وخياله وجنانه حتى تأخذه موجة من الذهول العارم، وتغشاه غاشية من الفزع والوجوم - ذلك ما يستشعره المرء وهو يتلو هاتيك الآيات المتتابعة من هذه السورة العجيبة - آيات مفعمة عجاب يتبع بعضها بعضا في تعاقب رتيب مثير، وفي إيقاع شديد بالغ يصخّ رنينه أعماق القلب و الحس فيشدهما شدها - ولا عجب فإنك ترى السورة بآياتها الندية وكلماتها المفخمة العذاب تنشر للخيال صورة وافية متكاملة عن أحداث القيامة وقوارعها العظام - فما يتلو القارئ هذه الآيات والكلمات حتى ليوشك أن ينظر إلى القيامة فيراها رأي العين - وفي ذلك أخرج أحمد والترمذي

والطبراني والحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: {إذا الشمس كوّرت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت} ".
أما يوم القيامة فإنه بفظاعته وجسيم أحداثه ونوازله لهو أشبه بانقلاب كوني رعيب مخوف يأتي على الوجود كله فيهدّه هدّا ويدركه أيما اندكاك ثم يبدل كل شيء فيه تبديلا.
١ - (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا الشمس كوّرت ١ وإذا النجوم انكدرت ٢ وإذا الجبال سيّرت ٣ وإذا العشار عطلت ٤ وإذا الوحوش حشرت ٥ وإذا البحار سجّرت ٦ وإذا النفوس زوّجت ٧ وإذا الموءودة سئلت ٨ بأي ذنب قتلت ٩ وإذا الصحف نشرت ١٠ وإذا السماء كشطت ١١ وإذا الجحيم سعرت ١٢ وإذا الجنة أزلفت ١٣ علمت نفس ما أحضرت}.
هذه جملة أحداث مريعة في يوم القيامة، وهي تكشف عن فظاعة هذا اليوم العصيب - لا جرم أن الساعة حدث مفظع هائل يفوق البال ويجاوز كل تصور وحسبان - إنه انفلات كامل لنواميس هذا الكون ونهاية عظمى لحركة الحياة في هذه الدنيا - بل إنه انقلاب شامل يأتي على الوجود كله فيبدله تبديلا - وهذه حقائق كبريات تكشف عنها هذه الآيات المؤثرة المصوّرة أيما تأثير وتصوير وهي
قوله: {إذا الشمس كوّرت} من التكوير وهو جمع الشيء بعضه على بعض - ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض - وكورت، أي جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمي بها وطرحت عن فلكها - وقيل: طرحت في جهنم لازدياد حرها ولهيبها.
٢ - (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)
قوله: {وإذا النجوم انكدرت} أي تناثرت، أوتساقطت فزالت من أماكنها وانكدر الشيء أي أسرع وانقضّ ٠.
٣ - (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)
قوله: {وإذا الجبال سيّرت} أي سيرها الله فذهبت من أماكنها فكانت سرابا وهباء منبثا في أجواء الفضاء، فعادت الأرض قاعا صفصفا لا عوج فيها ولا أمت.
٤ - (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)
قوله: {وإذا العشار عطّلت} العشار، جمع عشراء وهي التي أتى عليها عشرة شهور من حملها، فهذه النوق الحوامل التي يرغب فيها الناس ويتنافسون على امتلاكها، إذا وقعت الواقعة، أهملت وتركها أهلها لفرط الهول النازل بهم في هذا اليوم.
٥ - (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)
قوله: {وإذا الوحوش حشرت} الحشر، معناه الجمع، أي إذا جمعت الوحوش ليقتص لبعضها من بعض - فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها: كوني ترابا فتكون - كل ذلك يكشف عن شدة الهول وفظاعة المشاهد المنظورة في يوم القيامة.
٦ - (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)
قوله: {وإذا البحار سجّرت} أي فاضت وملئت، فيفيض بعضها إلى بعض لتصير بحرا واحدا - وقيل: سجّرت، من سجرت التنور أسجره سجرا إذا ملأته بالحطب وأحميته - قال ابن عباس: إذا انقضت الدنيا سجّرت البحار فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها - وبذلك فإن تسجير البحار، معناه تفجير بعضها إلى بعض لتكون بحرا هادرا واحدا ثم يصير نارا مضطرمة مستعرة.
٧ - (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)
قوله: {وإذا النفوس زوّجت} ذكر في تأويلها عدة أقوال، منها: أنها قرنت الأرواح بالأجساد - ومنها: أن الناس يصيرون ثلاثة أزواج وهم أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون - ومنها: أن تقترن كل نفس بمثلها من حيث الطاعة والمعصية فينضم كل واحد إلى طبقته في الخير والشر - ومنها: أن النفوس تقترن بأعمالها.

٨ - (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ)

قوله: {وإذا الموءودة سئلت} سئلت سؤال توبيخ وتعنيف لقاتلها، لأنه قتلها بغير ذنب - والموءودة، المدفونة حية - وأد بنته أي دفنها حية ٢ قال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة وتمخضت على رأسها - فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وردّت التراب عليها وإن ولدت غلاما حبسته.

وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغدو كلبه فعاتبهم الله على ذلك وتوعدهم بقوله: {وإذا الموءودة سئلت ٨ بأي ذنب قتلت} وهذه واحدة من العوائد الذميمة البشعة التي تلبست بها بعض قبائل العرب في جاهليتهم، إذ كانوا يدفنون بناتهم أحياء في التراب خشية الفقر والحاجة ومخافة السبي والاسترقاق والعار - إن هذه واحدة من أسوأ ما تتصوره الأذهان والأخيلة عن إجرام مفظع مقبوح تتلطخ به أيدي العتاة من المشركين وهم يجترأون على وأد بناتهم البريئات في التراب.

٩ - (بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)

قوله: {بأي ذنب قتلت} سألت الموءودة وائدها: بأي ذنب قتلتني - وذلك على جهة التوبيخ والتبكيت، وليس له حينئذ أيما عذر - ويستدل من ذلك على أن أطفال المشركين لا يعذبون يوم القيامة، لأن التعذيب لا يستحق إلا بذنب.

١٠ - (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

قوله: {وإذا الصحف نشرت} والمراد بذلك صحف الأعمال التي كتبت فيها الملائكة أعمال بني آدم من خير وشر - فإن هذه الصحف تطوى بالموت حتى إذا قامت القيامة فتحتها الملائكة ونشرت ما فيها من مضمون ليعلم ما فيها.

١١ - (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)

قوله: {وإذا السماء كشطت} الكشط معناه النزع والقلع والتنحية ٣.

والمراد أن السماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء - أو إذا نزعت - ثم طويت - أو كشفت وأزيلت عما فوقها وهو الجنة وعرش الرحمن كما يكشط الإهاب عن الذبيحة.

١٢ - (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)

قوله: {وإذا الجحيم سعّرت} سعّرت بالتشديد للمبالغة، يعني أوقدت إيقادا شديدا.

١٣ - (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

قوله: {وإذا الجنة أزلفت} أي أدنيت وقرّبت من المتقين وذلّلت لهم تذليلا.

١٤ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

قوله: {علمت نفس ما أحضرت} وهذا جواب لقوله: {إذا الشمس كوّرت} وما بعدها - والمعنى: أن لكل نفس حينئذ ما أحضرت من خير فتصير به إلى الجنة، أو شر فتصير به إلى النار ٤.

١٥ - (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

قوله تعالى: {فلا أقسم بالخنّس ١٥ الجوار الكنّس ١٦ والليل إذا عسعس ١٧ والصبح إذا تنفّس ١٨ إنه لقول رسول كريم ١٩ ذي قوة عند ذي العرش مكين ٢٠ مطاع ثم أمين ٢١ وما صاحبكم بمجنون ٢٢ ولقد رآه بالأفق المبين ٢٣ وما هو على الغيب بضنين ٢٤ وما هو بقول شيطان رجيم ٢٥ فأين تذهبون ٢٦ إن هو إلا ذكر للعالمين ٢٧ لمن شاء منكم أن يستقيم ٢٨ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين}.

يقسم الله بجملة أجزاء مما خلق على أن القرآن حق وأنه منزل من عند الله على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم - وهو قوله: {فلا أقسم بالخنّس} لا، زائدة - يعني أقسم بالخنس وهي الكواكب الخمسة: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة - وقيل: المراد بها النجوم التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل - والخنس جمع خانس، من الخنوس وهو الانقباض والاستخفاء - وقد سمي الشيطان بالخناس،

لأنه إذا ذكر الله، خنس أي انقبض - وقيل: المراد بذلك الكواكب السيارة دون الثابتة.
١٦ - (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)
قوله: {الجوار الكنّس} أي تجري في فلكها - والكنّس، جمع كانس وكانسة - يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو مقر الوحش، وتقول العرب: أوى الظبي إلى كناسه إذا تغيب فيه - والكانس، الظبي يدخل في كناسه وهو موضعه في الشجر يكتنّ فيه ٥.
والمراد النجوم الخمسة التي تخنس في مجراها وتكنس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار وهو الكناس.
١٧ - (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)
قوله: {والليل إذا عسعس} يقسم الله بالليل إذا عسعس - أي أدبر بظلامه - وقيل: عسعس من الأضداد - فيقال: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس الليل إذا أدبر.
١٨ - (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)
قوله: {والصبح إذا تنفّس} يقسم الله بالصبح إذا تنفس يعني إذا أسفر ولاح ضوؤه وإشراقه - والتنفس معناه خروج النسيم من الجوف - فإذا أقبل الصبح، أقبل بإقباله روح غامر فياض ونسيم رخيّ كريم - وجيء هنا بحرف السين الهامس الخافت ليناسب إقبال الصبح بنوره الساطع وإشراقه المضيء، والكون حينئذ هاجع وادع ساكن - وفي ذلك من حلاوة النغم وعذوبة البيان بحروفه الحلوة الشجية ما يدل على أن هذا الكلام، معجز وفذ.
١٩ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)
قوله: {إنه لقول رسول كريم} وهذا جواب القسم - والمراد بالرسول الكريم، جبريل - وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم - والأول أظهر - ويدل على هذا قوله: {ذي قوة عند ذي العرش مكين}.
٢٠ - (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)
قوله: {ذي قوة عند ذي العرش مكين} وقوة جبريل عظيمة فهو الذي قلع مدائن قوم لوط ثم جعل عاليها سافلها {عند ذي العرش مكين} منزلته عند الله مكينة فهو ذو مكانة عالية ودرجة رفيعة.
٢١ - (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)
قوله: {مطاع ثم أمين} ثم، ظرف - فجبريل مطاع في ملائكة الله المقربين، إذ يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه - وقد وصفه بأنه أمين أي مؤتمن على الوحي والرسالة.
٢٢ - (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)
قوله: {وما صاحبكم بمجنون} المراد بصاحبهم محمد صلى الله عليه وسلم أي ليس محمد بمجنون كما يتهمه السفهاء والحمقى.
٢٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ)
قوله: {ولقد رآه بالأفق المبين} أي رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل (عليه الصلاة والسلام) في صورته الهائلة {بالأفق المبين} أي بمطلع الشمس من المشرق.
٢٤ - (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)
قوله: {وما هو على الغيب بضنين} من الضّنّ، وهو البخل - أي لا يبخل محمد بالوحي فيخفي بعضه ولا يبلغه، أو يسأل عنه فلا يذكره - وقرأها آخرون " بظنين " من الظنة وهي التهمة - أي ليس محمد بمتهم.
٢٥ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)
قوله: {وما هو بقول شيطان رجيم} يعني ما هذا القرآن بقول شيطان لعين طريد مسترق للسمع في السماء - ولكنه تنزيل من رب العالمين.

٢٦ - (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)
قوله: {فأين تذهبون} يعني أين تعدلون عن هذا القرآن بنظمه الكريم الباهر ومضمونه الرفيع الظاهر.
٢٧ - (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)
قوله: {إن هو إلا ذكر للعالمين} يعني ما هذا القرآن إلا موعظة وعبرة لسائر العباد ليتدبروه ويعوه وينتفعوا به.
٢٨ - (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)
قوله: {لمن شاء منكم أن يستقيم} أي يستقيم على طريق الحق والسداد فيتبعه ويقيم عليه.
٢٩ - (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} يعني ما تشاءون الاستقامة على الحق إلا أن يشاء الله لكم ذلك - وبذلك لا يعمل العبد من خير إلا بتوفيق الله ولا يعمل من شر إلا بخذلانه ٦.

٨٢ سورة الانفطار:

سورة الانفطار:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وآياتها تسع عشرة آية - وهي شبيهة بسورة " التكوير " في مضمونها وطبيعة معانيها ومقاصدها - كذكر الساعة وأخبارها وأهوالها وما يقع فيها من أحداث جسام تأتي على الكون كله فيندكّ اندكاكا، ويتبدل تبديلا - ويكشف عن ذلك قوارع الكون في هذا اليوم العصيب كانفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجر البحار، وتبعثر القبور وغير ذلك من الأحداث والنوازل الكونية.
١ - (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا السماء انفطرت ١ وإذا الكواكب انتثرت ٢ وإذا البحار فجّرت ٣ وإذا القبور بعثرت ٤ علمت نفس ما قدمت وأخرت ٥ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ٦ الذي خلقك فسواك فعدلك ٧ في أي صورة ما شاء ركّبك ٨ كلا بل تكذبون بالدين ٩ وإن عليكم لحافظين ١٠ كراما كاتبين ١١ يعلمون ما تفعلون}.
هذه جملة أخرى من الأحداث والنوازل الرهيبة التي تأتي على الكون بنجومه وكواكبه وجباله وسائر أجرامه فتدكّه دكّا وتبدله تبديلا - كل ذلك نستشعره ونتخيله بما يتجلى في هاتيك الآيات من تصوير عجيب مذهل يزجي للذهن والخيال صورة مشهودة ومتخيلة عن حقيقة القيامة بأخبارها المخوفة وعظائمها الشداد - وقد تقدم في الخبر عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ {إذا الشمس كوّرت، إذا السماء انفطرت، إذا السماء انشقت}.
قوله: {إذا السماء انفطرت} أي تفطرت السماء من هيبة الله - من الفطر وهو الشق - فطره فانفطر وتفطّر الشيء أي تشقق ١.
٢ - (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)
قوله: {وإذا الكواكب انتثرت} انتثار الكواكب معناه تساقطها - فإنه عند انتقاض تركيب السماء تنتثر الكواكب في الفضاء.
٣ - (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)
قوله: {وإذا البحار فجرت} يعني ينفذ بعضها في بعض بزوال الحاجز الذي جعله الله برزخا بين البحار وحينئذ تصير البحار كلها بحرا هائلا واحدا - وإنما يرتفع الحاجز من بين البحار لتزلزلها وتصدعها.
٤ - (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)
قوله: {وإذا القبور بعثرت} أي قلب أسفلها أعلاها، وباطنها ظاهرها، فأخرج ما فيها من الموتى أحياء.

٥ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)
قوله: {علمت نفس ما قدمت وأخرت} وهذا جواب {إذا السماء انفطرت} وما بعده يعني: يعلم كل امرئ في هذا اليوم ما قدم لنفسه من طاعة الله وما أخر من الفرائض التي ضيعها - أو ما أخر من حق الله عليه لم يعمل به في الدنيا.
٦ - (يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)
قوله: {يأأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} ما، استفهامية في موضع رفع، مبتدأ - وغرك، خبره ٢ وذلك خطاب من الله لكل جاحد مكذب بيوم القيامة منكر للبعث - والمعنى: ما الذي غرّك حتى كفرت بربك ففسقت عن أمره وأعرضت عن طاعته - وفي ذلك من التهديد والتخويف ما لا يخفى.
٧ - (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)
قوله: {الذي خلقك فسوّاك فعدلك} الله الذي أنشأك من نطفة من ماء مهين {فسواك} جعلك سويا سالم الأعضاء من عينين وأذنين ويدين ورجلين وغير ذلك من الأعضاء {فعدلك} أي جعلك معتدل الخلقة متّسق الهيئة والصورة والأعضاء من غير تفاوت في ذلك ولا اضطراب.
٨ - (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)
قوله: {في أي صورة ما شاء ركّبك} ما، زائدة - والتقدير: ركّبك في أي صورة شاء ٣ والمعنى، أن الله ركبك يا ابن آدم في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من مختلف الصور في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة والشبه ببعض الأقارب.
٩ - (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)
قوله: {كلا بل تكذبون بالدين} أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت - أو أنكم محقون في عبادتكم غير الله {بل تكذبون بالدين} بل إنكم تكذبون بيوم الحساب والجزاء - فأنتم بذلك جاحدون منكرون.
١٠ - (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)
قوله: {وإن عليكم لحافظين} عليكم رقباء حافظين من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم.
١٢ - (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)
قوله: {يعلمون ما تفعلون} أي يعلم هؤلاء الرقباء الحافظون من الملائكة ما تفعلون من خير أو شر فيحصونه عليكم ٤.
١٣ - (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)
قوله تعالى: {إن الأبرار لفي نعيم ١٣ وإن الفجّار لفي جحيم ١٤ يصلونها يوم الدين ١٥ وما هم عنها بغائبين ١٦ وما أدراك ما يوم الدين ١٧ ثم ما أدراك ما يوم الدين ١٨ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله}.
يبين الله حال الفريقين المختلفين يوم القيامة - وهما فريق الأبرار فهم في الجنة، وفريق الأشقياء الفجار فهم في السعير - وهو قوله: {إن الأبرار لفي نعيم} وهذا ذكر من الله للأبرار الذين أطاعوا الله فيما أمر فلم يعصوه ولم يخالفوا عن أمره بل أذعنوا له طائعين منيبين - فأولئك يصيرون إلى النعيم الدائم في الجنة ثم بيّن حال الفجار الذين كفروا بربهم فعصوه وحادوا عن سبيله فأولئك يصيرون إلى الجحيم وهي النار اللاهية المتوقدة.
١٤ - (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)
قوله: {وإن الفجّار لفي جحيم} يبين الله حال الفريقين المختلفين يوم القيامة - وهما فريق الأبرار فهم في الجنة، وفريق الأشقياء الفجار فهم في السعير - وهو قوله: {إن الأبرار لفي نعيم} وهذا ذكر من الله للأبرار الذين أطاعوا الله فيما أمر فلم يعصوه ولم يخالفوا عن أمره بل أذعنوا له طائعين منيبين - فأولئك يصيرون إلى النعيم الدائم في الجنة ثم بيّن حال الفجار الذين كفروا بربهم فعصوه وحادوا عن سبيله فأولئك يصيرون إلى الجحيم وهي النار اللاهية المتوقدة.

١٥ - (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

قوله: {يصلونها يوم الدين} أي يلزمون حرها ولهيبها يوم القيامة حيث الحساب والجزاء.

١٦ - (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

قوله: {وما هم عنها بغائبين} لا يبرحون النار أبدا ولا يفارقونها البتة ولا يخفف عنكم من عذابها ولو بمقدار ساعة بل هم ماكثون فيها لابثون.

١٧ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

قوله: {وما أدراك ما يوم الدين} يعني ما أشعرك يا محمد ما يوم الدين، أي الحساب والمجازاة - ثم كرر للتأكيد {ثم ما أدراك ما يوم الدين}.

١٨ - (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

قوله: {ثم ما أدراك ما يوم الدين} ثم ما أشعرك أي شيء يوم الحساب والمجازاة - ثم فسر ذلك بقوله: {يوم لا تملك نفس لنفس شيئا}.

١٩ - (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

قوله: {يوم لا تملك نفس لنفس شيئا} في هذا اليوم الرهيب العصيب لا تغني نفس عن نفس شيئا فتدفع عنها شيئا مما هو نازل بها من البلاء.

قوله: {والأمر يومئذ لله} صار كل شيء يوم القيامة لله الذي لا يغلبه غالب ولا يقهره قاهر أو عزيز - فليس لأحد من خلقه حينئذ أمر ولا نهي - فقد ذهبت الدنيا وما فيها من ممالك ورياسات ٥.

٨٣ سورة المطففين:

سورة المطففين:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مدنية - وقيل: مكية - وآياتها ست وثلاثون - وهي مبدوءة بالتنديد بالمطففين الذي يخسرون الميزان - فإذا كالوا الناس نقصوهم حقهم - وإذا اكتالوا منهم أخذوا حقهم وافيا أو زائد وفي السورة تنديد كذلك بالمجرمين المكذبين الذين كانوا يستهزءون بالمؤمنين - فإذا مر بهم المؤمنون تغامزوا بهم ساخرين متهكمين إلى غير ذلك من المعاني والعبر.

١ - (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ويل للمطفّفين ١ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ٢ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ٣ ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ٤ ليوم عظيم ٥ يوم يقوم الناس لرب العالمين}.

روي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله تعالى: {ويل للمطففين} فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله هذه الآية ١ والتطفيف من الطفيف وهو القليل والغير التام وطفّ المكوك والإناء وطفافه ما ملأ أصباره أو ما بقي فيه بعد مسح رأسه وطفّف نقص المكيال ٢ والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن - وقد سمي بذلك، لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف - والتطفيف معناه نقص المكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره، أي جوانبه - وقد ندّد الله بالمطففين أشد تنديد وتوعدهم بالويل وهو الخسار والهلاك - وهو قوله: {ويل للمطففين} ثم فسّر ذلك بقوله: {الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون}.

٢ - (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

قوله: {الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون} يعني الذين إذا اكتالوا من الناس ما لهم عندهم من حق استوفوا لأنفسهم فيكتالون منهم وافيا.
٣ - (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)
قوله: {وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون} يعني إذا هم كالوا الناس أو وزنوا لهم نقصوهم.
٤ - (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)
قوله: {ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون} الاستفهام للإنكار والتعجيب الشديدين من حال هؤلاء المطففين في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطر ببالهم - {أنهم مبعوثون} ألا يوقن هؤلاء الذين يظلمون الناس باستراق حقوقهم عند الكيل والوزن أنهم مبعوثون ليوم القيامة، يوم الأهوال والكروب والشدائد، فموقوفون على ربهم ليسألهم عما فعلوا من تطفيف وأكل لحقوق الناس بالباطل ٣.
٥ - (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)
قوله: {ليوم عظيم} ألا يوقن هؤلاء الذين يظلمون الناس باستراق حقوقهم عند الكيل والوزن أنهم مبعوثون ليوم القيامة، يوم الأهوال والكروب والشدائد، فموقوفون على ربهم ليسألهم عما فعلوا من تطفيف وأكل لحقوق الناس بالباطل ٤.
٦ - (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
قوله: {يوم يقوم الناس لرب العالمين} ألا يوقن هؤلاء الذين يظلمون الناس باستراق حقوقهم عند الكيل والوزن أنهم مبعوثون ليوم القيامة، يوم الأهوال والكروب والشدائد، فموقوفون على ربهم ليسألهم عما فعلوا من تطفيف وأكل لحقوق الناس بالباطل ٥.
٧ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)
قوله تعالى: {كلا إن كتاب الفجّار لفي سجّين ٧ وما أدراك ما سجّين ٨ كتاب مرقوم ٩ ويل يومئذ للمكذبين ١٠ الذين يكذبون بيوم الدين ١١ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ١٢ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ١٣ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ١٤ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ١٥ ثم إنهم لصالوا الجحيم ١٦ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون}.
كلا، ردع للمطففين عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب - أو ليس الأمر كما يظن هؤلاء الكافرون أنهم غير مبعوثين ولا معذبين - ثم توعدهم بأن مصيرهم إلى سجّين - وهو قوله: {إن كتاب الفجّار لفي سجّين} أي كتابهم الذي كتبت فيه أعمالهم {لفي سجين} وهي الأرض السابعة السفلى - وسجّين بوزن فعّيل - من السجن وهو الحبس والتضييق - وقد جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم - قال الزمخشري: سجّين، كتاب جامع هو ديوان الشر دوّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس.
٨ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)
قوله: {وما أدراك ما سجين} يعني ما أعلمك يا محمد أي شيء ذلك الكتاب - ثم فسره بقوله: {كتاب مرقوم}.
٩ - (كِتَابٌ مَرْقُومٌ)
قوله: {كتاب مرقوم} أي مسطور، مستبين الكتابة - والمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في سجين، من أسفل الأرض.
١٠ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} أي هلاك وخسار للمكذبين.
١١ - (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)
قوله: {الذين يكذبون بيوم الدين} أي الذين ينكرون البعث ويكذبون بيوم الحساب والمجازاة.
١٢ - (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

قوله: }وما يكذب به إلا كل معتد أثيم{ أي لا يكذب بيوم القيامة إلا من يعتدي على حدود الله فيفعل المعاصي ويجترح السيئات والمنكرات - وأثيم، أي في أقواله، فإن حدث كذب، وإن خاصم فجر، وإن عاهد غدر.

١٣ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

قوله: }إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين{ إذا سمع كلام الله يتلى عليه من الرسول صلى الله عليه وسلم جحده وكذب به وقال: إنه مفتعل وإنه مجموع من أحاديث الأولين وخرافاتهم وأباطيلهم.

١٤ - (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

}كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون{ كلا، ردع وزجر - أي ما ذلك كذلك - أو ما هو أساطير الأولين كما افتروا }بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون{ أي ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها يعني غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت به بها الذنوب فغطتها - وران من الرين بفتح الراء وهو الطبع والدنس - يقال: ران ذنبه على قلبه رينا وريونا أي غلب عليه - وقيل: هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب ٦.

١٥ - (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

قوله: }كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون{ كلا ردع وزجر - أي ليس الأمر كما يقول هؤلاء الفجار المكذبون بيوم الحساب من أنهم مقرّبون إلى ربهم - فإنهم لمحجوبون عن ربهم فلا يرونه ولا يرون شيئا من كرامته - فهم يوم القيامة مخذولون خزايا لا ينظر الله إليهم وهم محجوبون عن رؤيته.

١٦ - (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ)

قوله: }ثم إنهم لصالوا الجحيم{ أي إنهم واردوا الجحيم فذائقو مسّ الحريق واللهب.

١٧ - (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

قوله: }ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون{ يقال لهؤلاء المكذبين بيوم القيامة: هذا العذاب الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به - وذلك زيادة لهم في التنكيل والتعذيب ٧.

١٨ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

قوله تعالى: }كلا إن كتاب الأبرار لفي عليّين ١٨ وما أدراك ما عليّون ١٩ كتاب مرقوم ٢٠ يشهده المقربون ٢١ إن الأبرار لفي نعيم ٢٢ على الأرائك ينظرون ٢٣ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ٢٤ يسقون من رحيق مختوم ٢٥ ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ٢٦ ومزاجه من تسنيم ٢٧ عينا يشرب بها المقربون{.

بعد أن بين أن كتاب أعمال الفجار في سجين حيث المهانة والخساسة والتحقير، ذكر ههنا كتاب الأبرار، وهو قوله: }كلا إن كتاب الأبرار لفي علّيين{ أي حقا، إن كتاب أعمال المؤمنين الأبرار وهم الذين يؤدون فرائض الله ويجتنبون محارمه }لفي علّيين{ من العلو وارتفاع المنزلة، أو في أعلى الدرجات من السماء السابعة - وعلّيون جمع، ومعناه شيء فوق شيء، وعلو فوق علو، وارتفاع بعد ارتفاع.

١٩ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)

قوله: }وما أدراك ما علّيون{ يعني ما أعلمك يا محمد أي شيء علّيون - وذلك على سبيل التفخيم والتعظيم.

٢٠ - (كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

قوله: }كتاب مرقوم{ ابتداء كلام - أي كتاب الأبرار كتاب مسطور بأمان من الله لصاحبه من النار يوم القيامة وبفوزه بالجنة.

٢١ - (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

قوله: }يشهده المقربون{ يشهد هذا الكتاب المرقوم ملائكة الرحمن المقربون من كل سماء من السماوات السبع.

٢٢ - (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

قوله: {إن الأبرار لفي نعيم} أي إن المتقين الذين أدوا فرائض ربهم واجتنبوا محارمه لفي نعيم مقيم لا يحول ولا يزول، وهم حينئذ في الجنة منعمون محبورون.
٢٣ - (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)
قوله: {على الأرائك ينظرون} إنهم على السرر منعمون، ينظرون إلى ما منّ الله به عليهم من عظيم النعمة وبالغ التكريم.
٢٤ - (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)
قوله: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم} نضرة النعيم يعني حسنه وبهاءه وصباحته ووضاءته - فإن ذلك كله يعرفه الناظر في وجوه الأبرار المنعمين المحبورين في الجنة.
٢٥ - (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ)
قوله: {يسقون من رحيق مختوم} الريحق صفوة الخمر - أي يسقون من خمر الجنة المستطاب {مختوم} أي ممزوج.
٢٦ - (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)
قوله: {ختامه مسك} أي ممزوج مخلوط بمسك.
قوله: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون} يعني في هذا بيّنّاه من نعيم الجنة والذي يرتع فيه الأبرار {فليتنافس المتنافسون} أي فليجتهد الناس في بلوغه وليستبقوا في طلبه وتحصيله - يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة أي ضننت به ولم أحب أن يبلغه - فكأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به - والمعنى: وفي ذلك النعيم فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله.
٢٧ - (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)
قوله: {ومزاجه من تسنيم} وهذه صفة أخرى لرحيق - يعني: ومزاج ذلك الرحيق {من تسنيم} والتسنيم علم لعين بعينها في الجنة وهو مصدر سنم - أي علا وارتفع، لأنها أرفع شراب في الجنة - أو لأنها تأتيهم من فوق فتنصب في أوانيهم.
٢٨ - (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)
قوله: {عينا يشرب بها المقربون} عينا، منصوب على التمييز.
وقيل: منصوب على الحال - فهي حال من تسنيم - وقيل: منصوب بفعل مقدر، وتقديره: أعني عينا ٨ فهي عين يشربها المقربون شرابا صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجا ٩.
٢٩ - (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)
قوله تعالى: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ٢٩ وإذا مرّوا بهم يتغامزون ٣٠ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ٣١ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ٣٢ وما أرسلوا عليهم حافظين ٣٣ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ٣٤ على الأرائك ينظرون ٣٥ هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون{.
يبين الله في ذلك ظلم المجرمين وسوء فعالهم وعدوانهم على المسلمين في الدنيا بالتهكم عليهم والاستسخار منهم والاستهزاء بهم - وهم في الآخرة منقلبون إلى النار والخسار وسوء القرار - فقال سبحانه: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون} الذين أجرموا يعني الذين اكتسبوا الآثام والمعاصي وكفروا بالله، فهؤلاء الكفرة العصاة {كانوا من الذين آمنو يضحكون} كانوا بكفرهم وعتوهم وظلمهم يسخرون من المؤمنين ويستهزءون بهم ويضحكون منهم تهكما واستكبارا، وذلك بسبب إيمانهم واستمساكهم بدين الله - دين التوحيد الخالص لله.
وقد روي عن ابن عباس أن نفرا من صناديد المشركين كالوليد بن المغيرة وعقبة ابن أبي معيط وأبي جهل والنضر بن الحارث، كانوا إذا مروا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخباب وصهيب وبلال {يضحكون} على وجه السخرية - والصواب أنها عامة في سائر المجرمين في كل زمان، أولئك الذين يسخرون من المسلمين بسبب إيمانهم واستمساكهم بدينهم وعقيدتهم.

٣٠ - (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

قوله: {وإذا مرّوا بهم يتغامزون} إذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين الموحدين {يتغامزون} أي يغمز بعضهم بعضا على سبيل السخرية والاستهزاء ويشيرون بأعينهم.

٣١ - (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)

قوله: {وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين} كان هؤلاء المجرمون الكفرة إذا رجعوا أو انصرفوا إلى أهلهم انصرفوا ناعمين مرحين بطرين.

٣٢ - (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ)

قوله: {وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} يعني إذا رأى المجرمون المؤمنين نسبوهم إلى الضلال قائلين لهم: إن هؤلاء لضالون تائهون عن الصواب وعن محجة الحق.

٣٣ - (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

قوله: {وما أرسلوا عليهم حافظين} يعني لم يجعلهم الله عليهم رقباء أو موكلين بهم يحفظون عليهم أعمالهم.

٣٤ - (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

قوله: {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون} فاليوم يعني يوم القيامة، الذين آمنوا بالله ورسوله في الدنيا يضحكون اليوم- أي يوم القيامة - من الكفار.

٣٥ - (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)

قوله: {على الأرائك ينظرون} فهم جالسون على الأسرة في الجنة ينظرون ما خوّلهم الله من صنوف النعمة، وينظرون أيضا إلى المجرمين وهم يعذبون في النار.

٣٦ - (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

قوله: {هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون} هل جوزي الكفار على سخريتهم من المؤمنين في الدنيا وضحكهم منهم، إذا عذبوا الآن في النار - والمقصود أنهم قد جوزوا أبلغ الجزاء وهو تعذيبهم في النار والتنكيل بهم ١٠.

٨٤ سورة الانشقاق:

سورة الانشقاق:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية، وآياتها خمس وعشرون - وهي مبدوءة بالحديث عن أخبار القيامة وما يقع فيها من شديد النوازل والبلايا - على أن الحديث عن أخبار القيامة قد احتل شطرا كبيرا من آيات الكتاب الحكيم - ولا عجب فإن القيامة مرعبة مخوفة - وفيها من عظيم الأهوال والشدائد والفظائع ما يفوق كل تصور، وما يشده البال ويستنفر الخيال - فضلا عن كثرة الزائغين عن السبيل المستقيم، المكذبين بهذا اليوم الحافل المشهود - فلا جرم أن ذلك يقتضي إكثارا من التحذير مما يجده المكذبون الجاحدون يوم القيامة من ألوان الهوان والتنكيل.

١ - (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا السماء انشقت ١ وأذنت لربها وحقّت ٢ وإذا الأرض مدّت ٣ وألقت ما فيها وتخلّت ٤ وأذنت لربها وحقت ٥ ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ٦ فأما من أوتي كتابه بيمينه ٧ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ٨ وينقلب إلى أهله مسرورا ٩ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ١٠ فسوف يدعوا ثبورا ١١ ويصلى سعيرا ١٢ إنه كان في أهله مسرورا ١٣ إنه ظن أن لن يحور ١٤ بلى إن ربه كان به بصيرا}.

ذلك إخبار من الله عن أحداث الساعة وعما يجري فيها من وقائع كونية تتغير فيها ملامح الوجود وتضطرب من شدتها أحوال الخلائق كافة - فيقول سبحانه: {إذا السماء انشقت} يعني إذا تصدعت السماء وتقطعت - وجواب الشرط محذوف وتقديره: بعثتم ٠١.

٢ - (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

قوله: {وأذنت لربها وحقت} أي سمعت السموات في تصدعها وتشققها، لربها وأطاعت له في أمره إياها بالتشقق والتصدع - أو أطاعت أمر ربها بذلك وحقيق بها أن تنقاد لأمره ولا تمتنع.

٣ - (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ)

قوله: {وإذا الأرض مدّت} أي بسطت وسوّيت.

٤ - (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

قوله: {وألقت ما فيها وتخلت} رمت ما في جوفها من الموتى وصارت خالية لم يبق في باطنها شيء.

٥ - (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

قوله: {وأذنت لربها وحقت} أي سمعت وأطاعت أمر ربها بإلقاء الموتى إلى ظهرها أحياء، وحقيق بها أن تسمع وتنقاد لأمر الله.

٦ - (يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)

قوله: {ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه} الإنسان ههنا اسم جنس والمراد به ابن آدم - والكدح معناه، العمل والسعي والكدّ والكسب - والمعنى: يا ابن آدم إنك ساع إلى ربك سعيا فملاقيه به سواء كان سعيك خيرا أو شرا، فاحذر الآخرة وسوء الحساب، واعمل من الخير والطاعة ما تنجو به يوم اللقاء.

٧ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

قوله: {فأما من أوتي كتابه بيمينه} وذلك في يوم الحساب والناس موقون واجمون شاخصون وقد غشيهم من الذعر والكرب ما غشيهم - فمن أعطي كتاب أعماله بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا - وذلك أن ينظر في أعماله فيتجاوز له عن سيئاته، لأنه من نوقش الحساب يومئذ هلك - فالمراد بالحساب اليسير عدم المناقشة أو المساءلة بل التجاوز عن الآثام - وفي ذلك روى البخاري ومسلم والترميذي عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من حوسب يوم القيامة عذّب " قالت: يا رسول الله، أليس قد قال الله {فأما من أوتي كتابه بيمينه ٧ فسوف يحاسب حسابا يسيرا}؟ فقال: " ليس ذاك الحساب إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذّب ".

٨ - (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)

قوله: {فسوف يحاسب حسابا يسيرا} وذلك في يوم الحساب والناس موقون واجمون شاخصون وقد غشيهم من الذعر والكرب ما غشيهم - فمن أعطي كتاب أعماله بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا - وذلك أن ينظر في أعماله فيتجاوز له عن سيئاته، لأنه من نوقش الحساب يومئذ هلك - فالمراد بالحساب اليسير عدم المناقشة أو المساءلة بل التجاوز عن الآثام - وفي ذلك روى البخاري ومسلم والترميذي عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من حوسب يوم القيامة عذّب " قالت: يا رسول الله، أليس قد قال الله {فأما من أوتي كتابه بيمينه ٧ فسوف يحاسب حسابا يسيرا}؟ فقال: " ليس ذاك الحساب إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذّب ".

٩ - (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

قوله: {وينقلب إلى أهله مسرورا} يعني يرجع إلى أزواجه في الجنة مغتبطا قرير العين محبورا، وقيل: إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا ليخبرهم بنجاته وفوزه.

١٠ - (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ)

قوله: {وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ١٠ فسوف يدعوا ثبورا} ذلك هو الشقي الخاسر الذي باء بالهلاك وسوء المصير يوم القيامة، فإنه تغلّ يمينه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيعطى كتابه بشماله من وراء ظهره - وحينئذ يوقن أنه خاسر وأنه في الأذلين - فما يلبث أن {يدعوا ثبورا}.

١١ - (فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا)

قوله: {يدعوا ثبورا} أي ينادي نداء الخاسر الهالك المستيئس: وا ويلاه - وا ثبوراه - وهو من قولهم: دعا فلان لهفه، إذا قال: وا لهفاه - والثبور معناه الهلاك والخسران ٢

وبمثل هذا النداء الحرور يصطرخ الخاسرون يوم القيامة اصطراخ اليائس المذعور - وهذه الحقيقة المريرة المرعبة عن حال الأشقياء يوم الحساب تتجلى في هاتيك الكلمات الربانية المفزعة، التي تثير بأجناسها وروعة حروفها كوامن الخشية، والفزع وتستنفر في الجنان والخيال فظاعة التصور والوجل.

إن ذلكم لهو القرآن بجلال نظمه وروعة أسلوبه.

١٢ - (وَيَصْلَى سَعِيرًا)

قوله: {ويصلى سعيرا} أي يردها فيحترق فيها.

١٣ - (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

قوله: {إنه كان في أهله مسرورا} كان في أهله في الدنيا ضاحكا منعّما مسرورا لا يعبأ بغير الشهوات ومتاع الحياة الدنيا.

١٤ - (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

قوله: {إنه ظن أن لن يحور} ظن هذا الشقي الخاسر وهو في الدنيا أنه لن يرجع إلى الله ولن يبعث بعد موته.

١٥ - (بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا)

قوله: {بلى إن ربه كان به بصيرا} أي ليس الأمر كما ظن هذا الخاسر - بل إنه يحور إلينا أي يرجع بعد الممات {إن ربه كان به بصيرا} الله عالم بأنه راجع إليه - أو عالم بأعماله في الدنيا من المعاصي وأنه صائر إليه في الآخرة ٣.

١٦ - (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

قوله تعالى: {فلا أقسم بالشّفق ١٦ والليل وما وسق ١٧ والقمر إذا اتّسق ١٨ لتركبن طبقا عن طبق ١٩ فما لهم لا يؤمنون ٢٠ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ٢١ بل الذين كفروا يكذبون ٢٢ والله أعلم بما يوعون ٢٣ فبشرهم بعذاب أليم ٢٤ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون}.

يقسم الله بأجزاء مما خلق وهي: الشفق، والليل، والقمر - وله جل شأنه أن يقسم بما شاء من خلقه - والمقسوم عليه أن الناس راكبون حالا بعد حال إلى أن يلقوا ربهم يوم الحساب - وهذه حقيقة جليلة تتجلى في كلمات الله العذاب - الكلمات القرآنية النفاذة العطرة التي يفيض منها جمال النظم وحلاوة النغم مما يهيج في القلب والذهن والخيال كوامن الإعجاب والبهر والذكرى - وهو قوله سبحانه: {فلا أقسم بالشفق} لا، زائدة - أي أقسم بالشفق - وهو الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة فإذا ذهب قيل: غاب الشفق وقيل: الشفق، النهار كله - والأول أظهر وهو قول أكثر العلماء.

١٧ - (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

قوله: {والليل وما وسق} يعني وما جمع وضم - ومصدره الوسق، بسكون السين - وسق الشيء أي جمعه وحمله فإذا جلّل الليل الجبال والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له فقد وسقها ٤.

والمعنى: والليل وما جمعه وستره وأوى إليه من الدواب وغيرها - وعن ابن عباس {وما وسق} أي وما جنّ وستر - وكل شيء حملته فقد وسقته.

١٨ - (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

قوله: }والقمر إذا اتسق{ أي إذا امتلأ واجتمع واستوى - او تكامل وتم واستدار.
١٩ - (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)
قوله: }لتركبن طبقا عن طبق{ الطبق، ما طابق غيره - فيقال ما هذا بطبق لهذا أي لا يطابقه - ومنه قيل للغطاء، الطبق - ثم قيل للحال المطابقة لغيرها، طبق، فالمعنى: لتركبن حالا بعد حال ومنزلة بعد منزلة، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول - وقيل: إن الناس يلقون يوم القيامة أحوالا وشدائد حالا بعد حال وشدة بعد شدة - فهم لما أنكروا البعث أقسم الله أن البعث قائم وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الناس يلقون فيها الشدائد والأهوال إلى أن يفرغ من حسابهم، فيصير كل واحد منهم إلى ما أعده الله له من جنة أو نار.
٢٠ - (فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
قوله: }فما لهم لا يؤمنون{ الإستفهام للإنكار والتعجيب.
يعني: ما لهؤلاء المشركين لا يقرون لله بالوحدانية ولا يصدقون بالبعث والحساب، وقد أقسم الله لهم أن ذلك حق، وقد رأوا من الدلائل والحجج والبينات ما يستوجب اليقين - ألا يصدقون الله في قوله وقسمه وهو سبحانه أصدق الصادقين.
٢١ - (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لا يَسْجُدُونَ)
قوله: }وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون{ أي لا يذعنون ولا يخضعون ولا تخشع له قلوبهم - وقد كان أحرى بهم وهم العرب لدى نزول القرآن أن يبادروا بالإستجابة والخشوع والتصديق، فهم أعظم الناس إدراكا لما تضمنه القرآن بروعة نظمه الباهر وكمال أسلوبه المميز الفذ من عظيم المعاني والأفكار والعبر.
٢٢ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ)
قوله: }بل الذين كفروا يكذبون{ أي يكذبون بآيات الله وبرسوله.
٢٣ - (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)
قوله: }والله أعلم بما يوعون{ الله أعلم بما يجمعونه في صدورهم، ويضمرونه من الكفر والتكذيب والحقد والحسد - أو بما يكتمونه من الأفعال - نقول: وعى الحديث، يعيه وعيا، أي حفظه ٥
٢٤ - (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)
قوله: }فبشرهم بعذاب أليم{ أي بشر هؤلاء المكذبين بآيات الله، بأن لهم من الله العذاب الموجع الشديد.
٢٥ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)
قوله: }إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات{ استثناء منقطع - أي لكن الذين آمنوا بالله وحده فشهدوا أنه الإله الواحد الخالق المقتدر، وأدوا ما فرضه عليهم، واجتنبوا ما نهاهم عنه من الذنوب والمعاصي }لهم أجر غير ممنون{ أي جزاء عند الله دائم غير منقوص ولا مقطوع ٠٦

٨٥ سورة البروج:

سورة البروج:
بيان إجمالي للسورة
هذه السورة مكية وهي ثنتان وعشرون آية - وهي تقص علينا خبرا من أخبار الطغاة الظالمين السابقين الذين نكلوا بالمؤمنين في اليمن أشد تنكيل، إذ شقوا لهم في الأرض أخاديد ثم أوقدوا فيها نارا متأججة فألقوهم فيها فاحترقوا.

وذلك لإيمانهم بربهم وإصرارهم على الثبات على عقيدة التوحيد - فلم يثنهم التهديد والتخويف بالتحريق، عن الاستمساك بدينهم حتى الموت، بل آثروا التعذيب بالنار على الكفر والزيغ عن دين الله.

وهذه فعلة بشعة نكراء تلبّس بارتكابها المجرمون من عتاة البشر، وهم في غاية الظلم المغالي الذي تغيض فيه كل أثارة من أثارات الرحمة، والذي يتقمّص فيه الظالمون الأشرار طبائع الوحوش الكاسرة في غابات الظلام.

ومن أجل هذا الإجرام الفظيع والعدوان الصارخ على المؤمنين المعذبين الصابرين يقسم الله بالسماء وبروجها وبالقيامة الموعودة وبالشاهد والمشهود على أن بطشه شديد أليم وأنه العزيز الجبار المنتقم لعباده المؤمنين المبتلين، من المجرمين الظالمين.

١ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{والسماء ذات البروج ١ واليوم الموعود ٢ وشاهد ومشهود ٣ قتل أصحاب الأخدود ٤ النار ذات الوقود ٥ إذ هم عليها قعود ٦ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ٧ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ٨ الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ٩ إن الذين فتنوا المؤمنين ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ١٠ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير}.

نزلت في نصارى نجران إذ دعاهم رجل ممن كان على دين عيسى (عليه السلام) فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير نخيّرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثنى عشر ألفا في الأخاديد - وقيل، سبعون ألفا ١.

وهذه فعلة أثيمة فظيعة تقشعر لبشاعتها الجلود والأبدان، وتنفر منها المشاعر والضمائر - وذلك هو ديدن الأشقياء الكفرة من أعداء الله في كل زمان، أولئك الذين يعذبون المؤمنين من عباد الله من أجل استمساكهم بعقيدة الحق - عقيدة التوحيد الخالص والإذعان الكامل لله وحده.

ومن أجل هذه الفعلة الأثيمة المنكرة أقسم الله قسمه الكريم العظيم ليبطشنّ بالقتلة المجرمين الذين عذبوا المؤمنين الموحدين من قوم عيسى (عليه السلام) فأحرقوهم إحراقا - وهو قوله سبحانه متوعدا متهددا هؤلاء الطغاة المجرمين {والسماء ذات البروج} أقسم الله بالسماء ذات البروج - والمراد بالبروج النجوم - أي: والسماء ذات النجوم - وقيل: البروج: منازل الكواكب وهي اثنا عشر برجا لاثني عشر كوكبا وهي: برج الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والعقرب، والجدي، والدلو، والحوت، والأسد، والسنبلة، والميزان، والقوس.

٢ - (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

قوله: {واليوم الموعود} المراد به يوم القيامة - وهو اليوم الذي وعد الله باجتماع الخلائق فيه من أجل الحساب.

٣ - (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

قوله: {وشاهد ومشهود} قيل في ذلك عدة أقوال - منها، أن الشاهد هو الله، والمشهود سائر الخلائق - ومنها: أن الشاهد من يحضر في اليوم الموعود من الخلائق - والمشهود، ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب - ومنها: أن الشاهد هو يوم الجمعة - والمشهود يوم عرفة وهو قول أكثر المفسرين.

٤ - (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)

قوله: {قتل أصحاب الأخدود} وهذا جواب القسم - وتقديره: لقد قتل أصحاب الأخدود - وهو يتضمن معنى الدعاء - أي لعن أصحاب الأخدود - فكأنه أقسم بذلك على أن أصحاب الأخدود ملعونون بفعلتهم النكراء وهي حرقهم المؤمنين بسبب إيمانهم - والأخدود معناه الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد، شقها الظالمون من يهود لتحريق المؤمنين الموحدين من قوم عيسى.

٥ - (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

قوله: {النار ذات الوقود} النار، بدل اشتمال من الأخدود، لأن الأخدود مشتمل على النار - وذات الوقود، صفة للنار بأنها عظيمة

التأجج - والوقود، هو الحطب المتوقد به.

٦ - (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)

قوله: {إذ هم عليها قعود} أي لعن هؤلاء الظالمون المجرمون حين أحدقوا بالنار قاعدين قريبا منها: كانوا قعودا على الكراسي عند الأخدود الذي سعّرت فيه النار وهم ينظرون إلى المعذبين في النار - وهو قوله: {وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود}.

٧ - (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

قوله: {وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود} والمراد الملك الظالم وجنوده المجرمون {شهود} أي حضور يشهدون ما فعلوه بالمؤمنين وهم يحترقون في النار بعد أن أرادوا صدهم عن دين الله.

٨ - (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

قوله: {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} يعني ما أنكروا عليهم ولا عذبوهم إلا بسبب إيمانهم بالله الغالب القاهر المحمود في كل الأحوال.

٩ - (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قوله: {الذي له ملك السماوات والأرض} يصف الله نفسه بأنه مالك كل شيء فهو مالك السماوات والأرض - ومن كان هذا شأنه من العظمة والجلال وعلو السلطان حقيق بإفراده بالإلهية، والإذعان له بالخضوع والطاعة {والله على كل شيء شهيد} الله يشهد ما فعله الظالمون المجرمون بالمؤمنين من تحريق في النار - وهو سبحانه لا يخفى عليه من أمر الخلائق شيء - وفي ذلك من بالغ الوعيد لأصحاب الأخدود ما لا يخفى.

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

قوله: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} يخبر الله عن الظالمين المجرمين الذين محنوا المؤمنين والمؤمنات ليصدوهم عن دينهم الحق فعذبوهم بالنار، إذ جعلوهم فيها فأحرقوهم إحراقا {ثم لم يتوبوا} لم يتوبوا من سوء صنعهم ومن فعلتهم البشعة ولم يرجعوا عن كفرهم وتعذيبهم المؤمنين {فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} أي جزاؤهم التعذيب في جهنم بسبب كفرهم، وتحريقهم بالنار بسبب ما فعلوه بالمؤمنين من تعذيب بالنار.

١١ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)

قوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار} المراد بذلك عموم المؤمنين والمؤمنات، ويدخل فيهم المؤمنون المعذبون بالنار دخولا أوليّا - وأولئك جميعا قد أعد الله لهم جنات - وهي حدائق وبساتين ذات بهجة وفيها من كل الثمرات، تتفجر من خلالها الأنهار الجارية السائحة {ذلك الفوز الكبير} الإشارة إلى ما تقدم ذكره مما أعده الله للمؤمنين لهو الفوز الذي لا يعدله فوز ٢.

١٢ - (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

قوله تعالى: {إن بطش ربك لشديد ١٢ إنه هو يبدئ ويعيد ١٣ وهو الغفور الودود ١٤ ذو العرش المجيد ١٥ فعّال لما يريد} البطش معناه الأخذ بعنف - فقد وصف الله نفسه بأنه منتقم من الطغاة الجبابرة الذين يصدون الناس عن دين الله ويعذبون المؤمنين وينكلون بهم بسبب إيمانهم وعقيدتهم - وانتقام الله من المجرمين العتاة أليم شديد.

١٣ - (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

قوله: {إنه هو يبدئ ويعيد} الله الذي يبدأ الخلق في الدنيا ثم يعيدهم بعد الممات في الآخرة ليلاقوا الحساب والجزاء.

١٤ - (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

قوله: {وهو الغفور الودود} الله رحيم بعباده، يتجاوز لهم عن السيئات ويستر عليهم الذنوب - وهو سبحانه شديد الرحمة بعباده المؤمنين التوابين.

١٥ - (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

قوله: }ذو العرش المجيد{ المجيد، نعت لذو - فإن الله يعظم نفسه إذ يصف نفسه بأنه صاحب العرش، هذا الخلق العظيم فهو صاحب الملك والسلطان - وهو سبحانه المجيد - أي ذو الفضل، الممجّد.

١٦ - (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

قوله: }فعّال لما يريد{ يفعل الله ما يشاء وهو المبدئ المعيد، فلا يعجزه شيء يريده ٠٣.

١٧ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)

قوله تعالى: }هل أتاك حديث الجنود ١٧ فرعون وثمود ١٨ بل الذين كفروا في تكذيب ١٩ والله من ورائهم محيط ٢٠ بل هو قرآن مجيد ٢١ في لوح محفوظ{.

يبين الله خبر الأمم السالفة الكافرة الذين كذبوا رسلهم وتمالأوا عليهم بالإيذاء والعدوان، فانتقم الله منهم وبطش بهم بطشه الأليم - وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لقي من قومه المشركين من الصدّ والأذى وهو قوله: }هل أتاك حديث الجنود{ هل أتاك يا محمد خبر الغابرين الظالمين الذين تجندوا على أنبيائهم فكذبوهم وصدوا الناس عنهم ثم بيّنهم بقوله: }فرعون وثمود{.

١٨ - (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

قوله: }فرعون وثمود{ بدل من الجنود - أما فرعون فقد كان عاتيا متجبرا وفي غاية الغرور والطغيان والعصيان - وكذلك قومه الظالمون الأشرار الذين استخفهم فرعون فأطاعوه وراحوا ينكّلون بالمؤمنين المستضعفين أشد تنكيل - ثم ثمود، قوم صالح الذين طغوا في الأرض وعتوا عن أمر الله وقتلوا الناقة فأخذهم الله بعذاب بئيس.

١٩ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)

قوله: }بل الذين كفروا في تكذيب{ بل، للإضراب - فقد أضرب عن مماثلة هؤلاء المشركين من العرب لمن سبقهم من المشركين الغابرين، فهؤلاء كفرهم بالغ وتكذيبهم شديد، إذ لم يعتبروا بمن سبقهم من الكفار وبما وقع بهم من الهلاك.

٢٠ - (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

قوله: }والله من ورائهم محيط{ محيط، من الإحاطة بالشيء - أي الحصر له من سائر جوانبه - وذلك تهديد وتخويف لهؤلاء المشركين المكذبين - فإن الله بقدرته وإرادته وبطشه محيط بالظالمين فلا مفر لهم ولا فوت ولا نجاة إذ نزل بهم عقابه الأليم وبطشه الشديد.

٢١ - (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ)

قوله: }بل هو قرآن مجيد{ ذلك تذكير من الله بعظيم قرآنه المبارك الممجّد - فهو قوله الكريم الحق الذي لا يضاهيه في الشرف والخير وعلو المنزلة والإعجاز، نظم ولا بيان - وليس هو بالشعر أو الكهانة كما يفتري السفهاء والجهلاء والضالون.

٢٢ - (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

قوله: }في لوح محفوظ{ أي هذا القرآن المبارك الممجّد مكتوب في لوح، وهو أم الكتاب }محفوظ{ مصون عند الله من عبث الشياطين ٠٤.

٨٦ سورة الطارق:

سورة الطارق:
بيان إجمالي للسورة

هذه السورة مكية وآياتها سبع عشرة - ويقسم الله فيها بأجزاء من خلقه على جملة حقائق لا ريب فيها - وهي أن كل امرئ من الناس يقوم عليه حفظة من الملائكة يحفظون عليه ما عمل من خير أو شر - وأن الإنسان راجع إلى ربه فمحاسبه ومجازيه بما قدم - وغير ذلك

من الحقائق مما تضمنته هذه السورة العظيمة بآياتها القصيرة العجاب وما انطوت عليه من أخبار الكون والكائنات مما هو كائن يوم المعاد.
١ - (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}والسماء والطارق ١ وما أدراك ما الطارق ٢ النجم الثاقب ٣ إن كل نفس لما عليها حافظ{.
أقسم الله بالسماء وبالطارق وهي الكواكب التي تطرق الليل فتطلع فيه، وفي النهار تختفي - وهو من الطروق أي الدق - وقد سمي الليل طارقا، وقيل: قد يكون الطروق نهارا - ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير ".
٢ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)
قوله: }وما أدراك ما الطارق{ أي ما أعلمك يا محمد ما الطارق - وذلك على سبيل التفخيم لشأنه - ثم فسّره بقوله: }النجم الثاقب{.
٣ - (النَّجْمُ الثَّاقِبُ)
قوله: }النجم الثاقب{ أي المتوهج المتلألئ - والنجم خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو.
٤ - (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)
قوله: }إن كل نفس لما عليها حافظ{ وهذا جواب القسم - وإن، نافية بمعنى، ما - ولما، المشددة بمعنى إلا - يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ - أي حفظة من الملائكة يحفظون عليها ما فعلت من خير أو شر - والحافظ على الحقيقة هو الله - فإنه سبحانه يحفظ عباده المؤمنين من السوء ومن شر الأشرار وكيد الكائدين - كما في وقوله: }فالله خير حافظا{ .١
٥ - (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)
قوله تعالى: }فلينظر الإنسان ممّ خلق ٥ خلق من ماء دافق ٦ يخرج من بين الصلب والترائب ٧ إنه على رجعه لقادر ٨ يوم تبلى السرائر ٩ فما له من قوة ولا ناصر{.
ينبه الله عباده للتفكر في يوم المعاد ليستيقنوا أن الساعة قائمة وأن بعثهم بعد الممات حق لا ريب فيه - فقال سبحانه: }فلينظر الإنسان ممّ خلق{ الفاء، عقب كل نفس عليها حافظ، لدلالة على وجوب التفكير في أصل الإنسان وكيفية خلقه ليوقن المتفكر أن الله قادر على إعادته يوم القيامة.
٦ - (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)
قوله: }خلق من ماء دافق{ خلق الإنسان من مني دافق، أو مدفوق أي مصبوب في الرحم - من الدفق وهو الصب.
٧ - (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)
قوله: }يخرج من بين الصلب والترائب{ يتكون الماء الذي يخلق منه الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة - فهما ممتزجان في ماء واحد - إذ يخرج ماء الرجل من بين الصلب - وهو صلب الرجل أي ظهره - والترائب - أي ترائب المرأة جمع تربية وهي موضع القلادة من الصدر، وقيل: الترائب، ما بين الثديين، وقيل: ما بين المنكبين والصدر.
٨ - (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)
قوله: }إنه على رجعه لقادر{ يعني إن الله لقادر على رجع الإنسان أي إعادته ببعثه بعد الموت.
٩ - (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)
قوله: }يوم تبلى السرائر{ يوم، ظرف - والعامل فيه مقدر - أي يرجعه الله يوم تبلى السرائر - وقيل: يوم، منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر وتقديره واذكر - أي واذكر يوم تبلى السرائر، والسرائر جمع سريرة وهي ما يستكنّ في القلوب من العقائد والنوايا - والمراد هنا عرض الأعمال ونشر الصحف وانكشاف ما كانت تخفيه طوايا الصدور - وحينئذ يستبين الحق من الباطل ويتميز الخبيث من الطيب.

١٠ - (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ)

قوله: {فما له من قوة ولا ناصر} أي: فليس للإنسان حينئذ من قوة ذاتية تنفعه أو تغنيه من عذاب الله شيئا {ولا ناصر} أي وليس له من حليف ولا حميم ولا مجير ينصره أو يدفع عنه شيئا من البلاء النازل في هذا اليوم العصيب الرهيب ٢.

١١ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

قوله تعالى: {والسماء ذات الرّجع ١١ والأرض ذات الصّدع ١٢ إنه لقول فصل ١٣ وما هو بالهزل ١٤ إنهم يكيدون كيدا ١٥ وأكيد كيدا ١٦ فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا} يقسم الله بالسماء ذات الرجع وهو المطر سمي بالرجع، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر أو أن السماء ترجع كل سنة بمطر بعد مطر وهو قول أكثر المفسرين - وقيل: الرجع معناه الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء، تطلع من ناحية وتغيب في أخرى.

١٢ - (وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

قوله: {والأرض ذات الصدع} وهذا قسم آخر بالأرض ذا الصدع، أي التي تتصدع عن النبات والشجر والثمر - والصدع معناه الشق.

١٣ - (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

قوله: {إنه لقول فضل} جواب القسم، والضمير يعود إلى القرآن فإنه يفصل بين الحق والباطل - وهو البيان الذي يفرق بين سبيل الله المستقيم وسبل الضلال والاعوجاج.

١٤ - (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

قوله: {وما هو بالهزل} أي ليس القرآن باللعب أو اللهو أو الباطل ولكنه الجد والحق.

١٥ - (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا)

قوله: {إنهم يكيدون كيدا} إن هؤلاء المشركين الظالمين يمكرون بالإسلام ليبددوه تبديدا وليمحقوه من أذهان الناس وقلوبهم، لكي يبقى أثر بعد عين - وهم كذلك يمكرون بالمسلمين ليذلوهم أو يفنوهم أو ليستأصلوهم استئصالا - وذلك ديدن المشركين الظالمين في كل زمان - أولئك الذين يكيدون للإسلام والمسلمين بالغ الكيد فيتمالأون في الليل والنهار على تدمير المسلمين والقضاء على دينهم الإسلام - وذلك بمختلف الحيل والمخططات الخبيثة الشريرة.

١٦ - (وَأَكِيدُ كَيْدًا)

قوله: {وأكيد كيدا} أمكر بهم مكرا وأستدرجهم استدراجا فأدمر عليهم وأهلكهم من حيث لا يعلمون - وهذه حقيقة ظاهرة بدليل النص والاستقراء وهي أن الله يستدرج الظالمين المجرمين من أعداء الإسلام والمسلمين فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر - وفي الحديث: " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ".

١٧ - (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)

قوله: {فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا} لا تستعجل العذاب لهم، ولا تسأل الله أن يعجّل هلاكهم، بل ذرهم لأمر الله وتدبيره، وما يعدّه لهم من سوء المصير - حتى إذا حان الأجل المقدور حاق بهم البلاء والتدمير {أمهلهم رويدا} أمهلهم، بدل من " مهّل " والإمهال معناه الإنظار: والتمهل معناه الاتئاد - ورويدا، منصوب على أنه مصدر مؤكد - أو صفة لمصدر محذوف - والمعنى: أمهل الكافرين الماكرين إمهالا قريبا ٣.

٨٧ سورة الأعلى:

سورة الأعلى:
هذه السورة مكية، وآياتها تسع عشرة.

١ - (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى)
بسم الله الرحمن الرحيم
{سبح اسم ربك الأعلى ١ الذي خلق فسوّى ٢ والذي قدّر فهدى ٣ والذي أخرج المرعى ٤ فجعله غثاء أحوى ٥ سنقرئك فلا تنسى ٦ إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ٧ ونيسّرك لليسرى ٨ فذكّر إن نّفعت الذكرى ٩ سيذّكّر من يخشى ١٠ ويتجنّبها الأشقى ١١ الذي يصلى النار الكبرى ١٢ ثم لا يموت فيها ولا يحيى}.

قوله: {سبح اسم ربك الأعلى} أي عظّم ربك الأعلى - وقيل: نزّه ربك عن السوء والنقص وعما لا يليق بجلاله العظيم - والأعلى من العلو وهو القهر والاقتدار - وقد روي عن الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني: لما نزلت {فسبح باسم ربك العظيم} قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اجعلوها في ركوعكم " فلما نزلت {سبح اسم ربك الأعلى} قال: " اجعلوها في سجودكم ".

٢ - (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)
قوله: {الذي خلق فسوّى} سوّى من التسوية وهي التعديل - يعني خلق الأشياء فسوى خلقها وعدّلها - أو خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية فلم يأت به متفاوتا غير ملتئم ولكن أتى به على إحكام واتساق يدل على أن ذلك صادر عن عالم مقتدر حكيم.

٣ - (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)
قوله: {والذي قدر فهدى} أي قدر لكل حيوان عاقل أو غير عاقل ما يصلحه فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به - فهداية الله للإنسان إلى مصالحه وحوائجه من الأغذية والأدوية وغير ذلك أمر لا يحصى ولا يحصر وإلهامه البهائم والطيور وهوام الأرض شيء لا يوصف.

٤ - (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)
قوله: {والذي أخرج المرعى} أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات والحشيش والكلأ ما بين أصفر وأخضر وأحمر وأبيض.

٥ - (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)
قوله: {فجعله غثاء أحوى} غثاء، منصوب على أنه مفعول ثان، لأن جعله ههنا بمعنى صيّره - أو على الحال إن كان جعله بمعنى خلقه ١ والمعنى أن الله جعله بعد خضرته وغضاضته ورفيفه {غثاء} أي هشيما جافا يابسا {أحوى} متغيرا إلى الحوّة وهي السواد من بعد البياض أو الخضرة من شدة اليبس - وقيل: الغثاء، معناه اليبس - والأحوى، المسودّ من القدم ٢.

٦ - (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى)
قوله: {سنقرئك فلا تنسى} وهذا إخبار من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيعلمه القرآن ويحفظه إياه فلا ينساه، إلا ما شاء الله أن ينسيه إياه فلا يذكره - وقيل: المستثنى ما نسخه الله من القرآن فرفع حكمه وتلاوته.

٧ - (إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)
قوله: {إلا ما شاء الله} إلا ما شاء الله أن ينسيه إياه فلا يذكره - وقيل: المستثنى ما نسخه الله من القرآن فرفع حكمه وتلاوته.

قوله: {إنه يعلم الجهر وما يخفى} الله يعلم كل أعمالك يا محمد، سرها وعلانيتها - ويعلم منها ما ظهر وما بطن - أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم - وقيل: يعلم أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل خشية التفلّت - والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يحملك على الجهر - فلا تفعل فإني كافيك ما تخافه.

٨ - (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)
قوله: {ونيسّرك لليسرى} معطوف على قوله: {سنقرئك فلا تنسى} والمعنى: نيسرك لعمل الخير - وقيل: نيسرك للجنة - وقيل: نيسرك أو نوفقك للشريعة الكريمة السمحة التي هي أيسر الشرائع وأكملها وأتمها وأسهلها للعمل والأخذ - وقيل: نوفقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر لحفظ الوحي.

٩ - (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)
قوله: {فذكّر إن نفعت الذكرى} أي فكر الناس يا محمد وعظهم بالقرآن وحذرهم عقاب ربهم {إن نفعت الذكرى} أي ذكرهم إن نفعت الذكرى أو لم تنفع - وقيل: المراد بالاشتراط الظاهر ههنا، الذم لهؤلاء الظالمين المعاندين، وذلك على جه الإخبار عن حقيقة حالهم، والاستبعاد لتأثير الذكرى فيهم - وقيل: إن بمعنى ما، وليس الشرطية - أي فذكر ما نفعت الذكرى.
١٠ - (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى)
قوله: {سيذّكّر من يخشى} سيتعظ وينتفع بالموعظة من يخشى الله ويخشى الدار الآخرة وما فيها من سوء الحساب فينظر ويتفكر ويتدبر حتى يهتدي ويستقيم - لكن هؤلاء العتاة الجانحين للضلال والعصيان فليسوا متعظين ولا متدبرين ولا خاشعين - وهو قوله: {ويتجنّبها الأشقى}.
١١ - (وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى)
قوله: {ويتجنّبها الأشقى} أي يتجنب الذكرى {الأشقى} وهو الموغل في الكفر والكيد والتربص للإسلام والمسلمين.
١٢ - (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)
قوله: {الذي يصلى النار الكبرى} أي يرد النار الكبرى وهي نار جهنم - أو هي النار السفلى من أطباق النار.
١٣ - (ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا)
قوله: {ثم لا يموت فيها ولا يحيى} لا يموت الشقي في النار فيستريح من العذاب - ولا يحيى حياة آمنة مريحة تنفعه - بل إنه خالد في النار يجد فيها على الدوام سوء الهوان ومس الحريق ٠٣.
١٤ - (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)
قوله تعالى: {قد أفلح من تزكّى ١٤ وذكر اسم ربه فصلّى ١٥ بل تؤثرون الحياة الدنيا ١٦ والآخرة خير وأبقى ١٧ إن هذا لفي الصحف الأولى ١٨ صحف إبراهيم وموسى}.
قوله: {قد أفلح من تزكّى} يعني فاز وأدرك مبتغاه من تطهر من دنس الشرك والمعاصي - وقيل: المراد بذلك صدقة الفطر فإنها طهرة لمن يؤذيها، إذ يتطهر بها من الذنوب - وقيل: المراد زكاة الأموال كلها - وقيل: المراد زكاة الأعمال وليس الأموال - والمعنى: طهّر أعماله من الرياء والتفريط.
١٥ - (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)
قوله: {وذكر اسم ربه فصلّى} أي خشي الله بقلبه فخشع وخشعت جوارحه وذكر المعاد والوقوف بين يديه فعبده واتقاه وأذعن لجلاله بالخوف والامتثال {فصلى} أي أدى الصلاة المفروضة، وهي الصلوات الخمس - وهو قول ابن عباس - وقيل: المراد بذلك صلاة العيد.
١٦ - (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)
قوله: {بل تؤثرون الحياة الدنيا} يعني بل تفضّلون الاستكثار من الدنيا بطيباتها وشهواتها ومتاعها على الآخرة وهي الباقية الدائمة - وقد روي عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها، والآخرة غيبت عنا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل.
١٧ - (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)
قوله: {والآخرة خير وأبقى} الآخرة أنفع وأدوم - فهي خير من الدنيا الفانية والزائلة - وما الدنيا في الآخرة إلا متاع هين داثر - أو سراب لامع خادع ما يلبث أن ينقشع ويتبدد - وبذلك فإن الدنيا دار ممرّ ما ينبغي لذي عقل أن يؤثرها على الآخرة أو يغلو في حبها والاستكثار منها - وفي ذلك روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له ".

١٨ - (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى)
قوله: {إن هذا لفي الصحف الأولى} الإشارة عائدة إلى الآيات في هذه السورة - وقيل: إلى قوله: {والآخرة خير وأبقى} وقيل: إلى قوله: {قد أفلح من تزكّى} حتى آخر قوله: {والآخرة خير وأبقى} يعني: إن معنى هذا الكلام وارد في الصحف الأولى وهي {صحف إبراهيم وموسى}.
١٩ - (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)
قوله: {صحف إبراهيم وموسى} أي الكتب المنزلة عليهما - وروي عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: " كانت أمثالا كلها: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور - إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض - ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر " قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: {" كانت عبرا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل " ٤.

٨٨ سورة الغاشية:

سورة الغاشية:
هذه السورة مكية وآياتها ست وعشرون.
١ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{هل أتاك حديث الغاشية ١ وجوه يومئذ خاشعة ٢ عاملة ناصبة ٣ تصلى نارا حامية ٤ تسقى من عين آنية ٥ ليس لهم طعام إلا من ضريع ٦ لا يسمن ولا يغني من جوع}.
يبين الله في هذه الآيات ما يغشى البشرية يوم القيامة من شديد البلايا وعظيم الدواهي، فترى الخلائق حينئذ من الأهوال والأفزاع وفظاعة المشاهد ما يعجز البيان عن وصف حقيقته، إلا كلمات الله، وهي آياته المثيرة الباهرة العجاب - فهي تخبرنا تمام الإخبار عن أحداث الساعة الجسام وذلك في تصوير كامل مستبين يثير في النفس الفزع - وذلك هو قوله سبحانه: {هل أتاك حديث الغاشية} يعني هل أتاك يا محمد حديث الغاشية وهي القيامة وقد سميت بالغاشية، لأنها تغشى الناس بأهوالها وعظائمها وفظائعها فيوجلون ويفزعون ويستحوذ عليهم يومئذ الذهول والحيرة.
٢ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)
قوله: {وجوه يومئذ خاشعة} أي ذليلة - فإن الناس حينئذ تدهمهم داهية القيامة فيهرعون مذعورين ذليلن من هول الموقف وفظاعة المشهد.
٣ - (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)
قوله: {عاملة ناصبة} أي عاملة في النار {ناصبة} تعبة فيها - فهم لم يعملوا في الدنيا لله فأعملهم الله في النار - أو أنهم تكبروا عن طاعة الله في الدنيا فأعملهم الله في الآخرة في النار وأنصبهم أي أتعبهم.
٤ - (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً)
قوله: {تصلى نارا حامية} أي ترد وجوه الكافرين نارا بالغة الحرار لفرط تأججها وتوقدها.
٥ - (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ)
قوله: {تسقى من عين آنية} يسقى أصحاب هذه الوجوه الخاشعة الذليلة {من عين آنية} أي من ماء شديد الحرارة والغليان.
٦ - (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ)

قوله: {ليس لهم طعام إلا من ضريع} الضريع نبات يقال له الشبرق وهو أشنع الطعام وأخبثه وهو سمّ.
٧ - (لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)
قوله: {لا يسمن ولا يغني من جوع} هذا الطعام الشنيع الخبيث غير مسمن ولا يدفع عن ذي جوع جوعه ١.
٨ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)
قوله تعالى: {وجوه يومئذ ناعمة ٨ لسعيها راضية ٩ في جنة عالية ١٠ لا تسمع فيها لاغية ١١ فيها عين جارية ١٢ فيها سرر مرفوعة ١٣ وأكواب موضوعة ١٤ ونمارق مصفوفة ١٥ وزرابي مبثوثة}.
في مقابلة الحديث عن الوجوه الخاشعة الذليلة التي يتسعّر أصحابها في النار الحامية - يبين الله بعد ذلك حال المؤمنين المحظوظين بالسعادة في الجنة وما يجدون فيها من أصناف النعيم والبهجة، وهو قوله: {وجوه يومئذ ناعمة} أي مبتهجة متنعمة - أو عليها نضرة الفرح والنعيم.
٩ - (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)
قوله: {لسعيها راضية} رضيت بعملها في طاعة الله في الحياة الدنيا، لما رأت جزاء ذلك في الجنة - وقد وصفها الله بأنها {عالية}.
١٠ - (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)
قوله: {عالية} أي عالية المكان والمنزلة.
١١ - (لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً)
قوله: {لا تسمع فيها لاغية} لا يسمع المؤمنون في الجنة كلمة لغو وهو الباطل - فليس في الجنة أيما لغو أو شتم أو كلام لا فائدة فيه إلا الذكر والحكمة والقول السديد.
١٢ - (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)
قوله: {فيها عين جارية} عين اسم جنس - أي في الجنة عيون ذات مياه متدفقة سائحة على وجه الأرض من غير أخاديد.
١٣ - (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)
قوله: {فيها سرر مرفوعة} يتكئون وينامون فوق أسرّة مرفوعة القدر والمكان ليرى المؤمن وهو جالس عليها جميع ما خوّله الله من الملك والنعيم.
١٤ - (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)
قوله: {وأكواب موضوعة} أي كيزان لا عرى لها {موضوعة} أي معدة لأهلها في الجنة أو موضوعة على حافات العيون الجارية ليشرب بها الشاربون فينعمون ويهنأون.
١٥ - (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)
قوله: {ونمارق مصفوفة} أي وسائد مصفوف بعضها إلى جانب بعض ليستند إليها الجالسون في الجنة والنمارق جمع نمرقة بضم النون.
١٦ - (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)
قوله: {وزرابي مبثوثة} أي بسط منشورة ومفرقة في المجالس ٢.
١٧ - (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)
قوله تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ١٧ وإلى السماء كيف رفعت ١٨ وإلى الجبال كيف نصبت ١٩ وإلى الأرض كيف سطحت ٢٠ فذكّر إنما أنت مذكّر ٢١ لست عليهم بمصيطر ٢٢ إلا من تولى وكفر ٢٣ فيعذبه الله العذاب الأكبر ٢٤ إنّ إلينا إيابهم ٢٥ ثم إن علينا حسابهم}.
هذه جملة دلائل من الواقع المدرك والمحسوس تشير إلى عظيم صنع الله وإلى بالغ قدرته المطلقة - وما على أولي العقول والأبصار إلا أن يتفكروا في خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من عجائب الخليقة ليستيقنوا أن الله حق وأنه الخالق البارئ المقتدر.

قوله: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت} ذكر جنس الإبل، لأنها كثيرة في العرب، إذ لم يروا غيرها من عجائب الدواب كالفيلة - على أن الإبل في عظيم أجسامها وطولها، وطول أعناقها وانبساط أخفافها وعجيب سيرها وقدرتها على التحمل وغير ذلك من أوصاف الإبل الخلقية لا جرم أنه مثير للدهش، منبّه للذهن مما يكشف عن قدرة الإله الصانع الحكيم.

١٨ - (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

قوله: {وإلى السماء كيف رفعت} السماء بنجومها وكواكبها المبثوثة في طبقات الفضاء، وغير ذلك من مختلف الأجرام والخلائق التي لا تحصى ولا تحصر - فأنّى لذلك كله أن يكون بغير قدرة الله ذي السلطان والجبروت.

١٩ - (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

قوله: {وإلى الجبال كيف نصبت} خلقت الأرض أولا من غير الجبال فمادت وتحركت واضطربت ثم ثبتها الله بالجبال الثقال الرواسي - وهي في أشكالها المذهلة من الطول والضخامة والكثرة والمهابة ما يثير البال ويستنفر الخيال والذهن للتفكير والصور، فيستيقن المرء بعذ ذلك أن ظاهرة الجبال القائمة المنصوبة قد أحكمتها إرادة الله الخالق القادر.

٢٠ - (وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

قوله: {وإلى الأرض كيف سطحت} وهذه الأرض بانبساطها وامتدادها واتساق أجزائها وما بنيت عليه من مختلف المركبات كالماء والتراب والرمال والمعادن والهواء والفضاء والسهول والبحار والوهاد والوديان، ثم الجبال الشواهق الرواسي من أجل أن تستقر الأرض فلا تضطرب أو تميل، كل ذلك يدل على أن الله لهو الحق وأنه الخالق الموجد.

٢١ - (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

قوله: {فذكّر إنما أنت مذكّر} أي عظهم يا محمد وأبلغهم وحذرهم عذاب الله وانتقامه ولا تعبأ بعد ذلك بكفرهم فما أنت إلا واعظ نذير لهم تبلغهم دعوة ربهم وتخوفهم شديد بأسه.

٢٢ - (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

قوله: {لست عليهم بمصيطر} وقرئت بالسين أي بمسيطر - أي لست عليهم بمتسلط ولا جبار فتحملهم على الإيمان حملا أو تكرههم عليه إكراها.

٢٣ - (إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

قوله: {إلا من تولى وكفر} اسثناء منقطع - أي لست بمسيطر عليهم يا محمد لكن من أعرض ولجّ في الكفر فللّه الولاية والقهر فهو يعذبه {العذاب الأكبر}.

٢٤ - (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ)

قوله: {العذاب الأكبر} أي في جهنم، وما دونه ذلك من عذاب الدنيا فهو بالغ البساطة والهوان.

٢٥ - (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

قوله: {إن إلينا إيابهم} يعني إن مرجعهم إلى الله المنتقم الجبار.

٢٦ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

{ثم إن علينا حسابهم} على الله حابهم هو مجازيهم بكفرهم وبما فعلوه من المعاصي فإلى الله الإياب وعليه الجزاء والحساب.

{ثم إن علينا حسابهم} على الله حسابهم فهو مجازيهم بكفرهم وبما فعلوه من المعاصي - فإلى الله الإياب وعليه الجزاء والحساب ٣.

٨٩ سورة الفجر:

سورة الفجر:

هذه السورة مكية وآياتها ثلاثون.
١ - (وَالْفَجْرِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}والفجر ١ وليال عشر ٢ والشفع والوتر ٣ والليل إذا يسر ٤ هل في ذلك قسم لذي حجر ٥ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ٦ إرم ذات العماد ٧ التي لم يخلق مثلها في البلاد ٨ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ٩ وفرعون ذي الأوتاد ١٠ الذين طغوا في البلاد ١١ فأكثروا فيها الفساد ١٢ فصبّ عليهم ربك سوط عذاب ١٣ إن ربك لبالمرصاد{.
هذه أقسام خمسة، أولها: الفجر - فقد أقسم الله به في قوله: }والفجر{ وهو الصبح - وقيل: المراد به صلاة الفجر.
٢ - (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)
وثانيها: الليالي العشر - فقد أقسم الله بها في قوله: }وليال عشر{ والمراد بها ليال عشر من ذي الحجة.
٣ - (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)
وثالثها ورابعها: الشفع والوتر - فقد أقسم الله بهما في قوله: }والشفع والوتر{ والشفع معناه الاثنان - وهو ضد الوتر - يقال كان وترا فشفعه ١ - والوتر معناه الفرد - وقيل: الوتر هو الله عز وجل - والشفع خلقه - فكل شيء خلقه الله سمي شفعا: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر ونحو ذلك.
٤ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)
وخامسها: الليل الساري - فقد أقسم به قوله: }والليل إذا يسر{ يعني إذا يمضي أو إذا ذهب أو سار.
٥ - (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)
قوله: }هل في ذلك قسم لذي حجر{ هل، استفهام يراد به التقرير - وقيل: التأكيد لما أقسم به - والمعنى: هل فيما أقسمت به من هذه الخلائق مقتنع لذي عقل - أو هل في إقسامي بهذه المذكورات إقسام مقنع لذي حجر، أي عقل - والمقسم عليه محذوف وتقديره: لتبعثن، أو لتعذبن ٢.
٦ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)
قوله: }ألم تر كيف فعل ربك بعاد{ قوم عاد كانوا عتاة جبابرة لجوا في الكفر والتكذيب فأهلكهم الله ودمر عليهم وجعلهم عبرا وأحاديث للناس - والمراد بهم عاد الأولى وهم من ذرية سام بن نوح.
٧ - (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)
قوله: }إرم ذات العماد{ وإرم مجرور على البدل أو عطف بيان ٣ والمعنى: ألم تنظر يا محمد كيف فعل ربك بقوم عاد - }إرم{ وهي قبيلة من عاد اسمها إرم }ذات العماد{ كانوا بدوا أهل عمد - فكانوا ينتجعون الغيث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم - والمعروف في كلام العرب من العماد، ما عمد به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء.
٨ - (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ)
قوله: }التي لم يخلق مثلها في البلاد{ أي لم يخلق مثل عاد أو مثل قبيلة إرم في البلاد قوة وبطشا وعظم أجسام.
٩ - (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)
قوله: }وثمود الذين جابوا الصخر بالواد{ ثمود، هم قوم صالح }الذين جابوا الصخر بالواد{ أي قطعوا الصخر أو خرقوه - من الجوب وهو القطع - وجاب: خرق وقطع، واجتبتها أي قطعتها ٤.
قوله: }بالواد{ أي وادي القرى - وقيل: الوادي بين الجبال - فقد كانوا ينقبون في تلك الجبال وينحتون فيها البيوت والمنازل والأحواض.
١٠ - (وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ)

قوله: {وفرعون ذي الأوتاد} فقد كان فرعون بعتوه وتجبره يوتد الناس بأوتاد من حديد في أيديهم وأرجلهم فيشدهم بها شدّا إلى أن يموتوا - وقيل: المراد بالأوتاد جنوده وعساكره وجيوشه التي تعضده وتشدّ ملكه - وهو قوله ابن عباس - والمعنى الأول أظهر.

١١ - (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ)

قوله: {الذين طغوا في البلاد} الذين، صفة للمذكورين، وهم عاد وثمود وفرعون، فقد طغوا أي غالوا في ظلمهم وعتوا عتوّا كبيرا تجاوزوا فيه القدر في الظلم.

١٢ - (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

قوله: {فأكثروا فيها الفساد} أكثر هؤلاء الظالمون في الأرض المعاصي والآثام وأشاعوا فيها الظلم والباطل والطغيان.

١٣ - (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

قوله: {فصبّ عليهم ربك سوط عذاب} انتقم الله منهم إذ أنزل بهم شديد عذابه وأحل بهم نقمته المفظعة من ضروب العذاب كالريح التي تدمّر، والرجفة التي تدمدم، والتغريق في البحر - وذكر السوط هنا إشارة إلى أن ما أحله الله بهم في الدنيا من العذاب بالقياس إلى ما أعدّه لهم في الآخرة من نار جهنم كالسوط في بساطته وصغره.

١٤ - (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

قوله: {إن ربك لبالمرصاد} المرصاد في اللغة بمعنى الطريق ٥ وهو المكان الذي يترقب فيه الراصد - والمراد أن الله يرصد (يرقب) أعمال بني آدم - قال ابن عباس: يعني: يسمع ويرى - فهو بذلك يرصد عباده فيما يعملون من خير أو شر ويجازي كل إنسان بسعيه في الدنيا والآخرة.

وفي كلمة المرصاد أو الرصد، من الإشارة إلى الوعيد والتهديد ما لا يخفى - فإن الله يرقب أعمال الطغاة والظالمين والمفسدين في الأرض ويعدّ لهم جزاء ذلك من شديد الانتقام ما يفضي بهم إلى الهوان والتنكيل في هذه الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين ٦.

١٥ - (فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

قوله تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن ١٥ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ١٦ كلا بل لا تكرمون اليتيم ١٧ ولا تحاضّون على طعام المسكين ١٨ وتأكلون التراث أكلا لمّا ١٩ وتحبون المال حبا جما}.

يبين الله في ذلك حال الإنسان الفاسق الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وسلك سبيل العصاة الزائغين عن دينه القويم - هذا الإنسان القانط البطر إذا امتحنه الله بالخير {فأكرمه ونعّمه} أي أكرمه بكثرة المال وامتنّ عليه بأوجه النعمة {فيقول ربي أكرمن} أي ينقلب فرحا بطرا مسرورا من غير أن يحمد ربه أو يشكره على ما أولاه من أوجه النعمة.

١٦ - (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

قوله: {وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه} إذا امتحن الله هذا الإنسان الفاسق الضال فضيّق علي رزقه ولم يعطه من الرزق أكثر مما فيه بلغة {فيقول ربي أهانن} ينقلب متبرّما ساخطا من قدر الله وقد أعماه الجهل والحماقة وغرق في لجاجة اليأس والعمه قائلا {ربي أهانن} أي أذاقني الهوان وأذلني بالفقر فلم يحتمل ولم يصطبر - وكان أحرى به أن يذعن لله بالشكر على ما وهبه من نعم العقل والقلب والإرادة والبصر وسائر الجوارح.

ذلك هو ديدن الفاسقين والكافرين من الناس - ويشبههم في هذه الذميمة كثير من ضعفة المسلمين الذين هان الإيمان في قلوبهم وفترت فيهم العزائم والهمم، فهم يظنون أن ما أعطوه من خير ونعمة إنما هو بما لهم من كرامة وفضيلة عند الله والصواب أن الكرامة عند الله بطاعته وتوفيقه والاستمساك بدينه والفوز بجنته ورضاه - أما الدنيا فإن الله يعطيها من عباده من يحبه ومن لا يحبه، لكنه لا يعطي الدين والهداية والتقوى إلا من أحبه.

١٧ - (كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)

قوله: {كلا بل لا تكرمون اليتيم} كلا، ردع للإنسان عن قوله: إن الله أكرمه بالمال وأهانه بالتضييق والإفقار - فإن الله لا يكرم من أكرم بكثرة الرزق ولا يهين من أهان بالتقتير وقلة النعمة وإنما الإكرام بالطاعة والإهانة بالمعصية - وإنما أهان من أهان، لأنه لا يكرم اليتيم ببره والإحسان إليه - ولأنه لم يحضّ الناس على بذل الخير والطعام للمسكين دفعا لذل الحاجة والقلة عنه - وهو قوله: {ولا تحاضّون على طعام المسكين}.

١٨ - (وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

قوله: {ولا تحاضّون على طعام المسكين} أي لا يحض بعضكم بعضا على إطعام المسكين.

وما ينبغي للمسلم – وهو في نفسه مستغن- أن يغض الطّرف عن المساكين وهم عالة لا يجدون كفافا أو مؤونة - بل عليه أن يسعى جادّا في ترغيب الآخرين وحثهم على بذل الخير والطعام لهؤلاء العالة المحاويج.

١٩ - (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا)

قوله: {وتأكلون التّراث أكلا لّمّا} أي تأكلون الميراث أكلا شديدا - أو تأكلون نصيبكم ونصيب غيركم - وكذلك كانوا في الجاهلية - كانوا يأكلون كل شيء يجدونه - فيأكلون ما لهم وما لغيرهم وكانوا لا يورثون النساء ولا الصغار.

٢٠ - (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

قوله: {وتحبون المال حبا جما} تحبون المال وتحبون اقتناءه وحوزه حبا شديدا ٧.

٢١ - (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)

قوله تعالى: {كلا إذا دكّت الأرض دكّا دكّا ٢١ وجاء ربك والملك صفا صفا ٢٢ وجيئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى ٢٣ يقول ياليتني قدمت لحياتي ٢٤ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ٢٥ ولا يوثق وثاقه أحد ٢٦ ياأيتها النفس المطمئنة ٢٧ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ٢٨ فادخلي في عبادي ٢٩ وادخلي جنتي}.

وهذه جملة أخرى من أخبار الساعة وما يقع فيها من شديد الأهوال - وهي اندكاك الأرض بتزلزلها ورجّها واضطرابها - ثم اصطفاف الملائكة صفا بعد صف مذعنين لله طائعين - ثم المجيء بجهنم على مشهد من العالمين أجمعين - وحينئذ يستيئس المجرمون وتتقطع فيهم القلوب من شدة الهول وفرط الخوف - وهو قوله: {كلا إذا دكت الأرض دكا دكا} كلا ردع لهم وإنكار لفعلهم - ثم توعدهم بما يعاينونه يوم القيامة من الشدائد - وهو قوله: {إذا دكت الأرض دكا دكا} دكا، منصوب على المصدر المؤكد - ودكا الثانية للتأكيد ٨ يعني: إذا رجّت الأرض وزلزلت زلزالا بعد زلزال.

٢٢ - (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

قوله: {وجاء ربك والملك صفا صفا} صفا صفا منصوب على المصدر في موضع الحال ٩ يعني جاء أمر ربك يا محمد بقهره وعظم سلطانه والملائكة صفوفا، صفا بعد صف.

٢٣ - (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

قوله: {وجيئ يومئذ بجهنم} يؤتى بجهنم يوم القيامة إذ تقودها الملائكة العظام وهي تتأجج وتستعر وحينئذ يغشى الناس من الهمّ والرعب والقلق ما يغشاهم.

قوله: {يومئذ يتذكر الإنسان} أي يتعظ ويخشع - أو يتذكر كل ما قدمه من عمل في حياته الدنيا {وأنّى له الذكرى} يعني وكيف تنفعه الذكرى وقد مضى زمن العمل والتوبة.

٢٤ - (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

قوله: {يقول ياليتني قدمت لحياتي} حينئذ يغشاهم الندم والحسرة والتلهف ثم يود لو قدم لنفسه في الدنيا من الطاعات والصالحات ما يدخره لهذا اليوم الرهيب المشهود - فلا يجديه حينئذ ندم ولا التياع ولا حسرة - وما له من سبيل إلا أن يقذف في النار فيصلاها خاسئا، وهو قوله: {فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد}.

٢٥ - (فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)
قوله: {فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد} يعني ليس من أحد أشد عذابا من عذاب الله حينئذ - فهو وحده الذي يتولى تعذيب الخاسرين الهلكى.
٢٦ - (وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)
قوله: {ولا يوثق وثاقه أحد} الوثاق، ما يشد به، وأوثقه فيه أي شدّه ووثقه توثيقا - أي أحكمه ١٠ يعني ليس من أحد أشد قبضا ووثقا من زبانية جهنم في قبضتهم ووثقهم المجرمين العصاة - وقال الزمخشري: لا يعذب أحد أحدا كعذاب الله ولا يوثق أحد أحدا كوثاق الله.
٢٧ - (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)
قوله: {ياأيتها النفس المطمئنة} يخاطب الله النفس المؤمنة تكريما لها - وهي هنا النفس المطمئنة أي الآمنة التي سكّنها برد الإيمان واليقين فلم يخالجها شك.
٢٨ - (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)
قوله: {ارجعي إلى ربك} أي إلى أمر ربك أو إلى نعيمه أو إلى موعده بالموت {راضية} بما آتاها الله {مرضية} عند الله بما قدمت من الإيمان والطاعة.
٢٩ - (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)
قوله: {فادخلي في عبادي} أي ادخلي في زمرة عبادي الصالحين.
٣٠ - (وَادْخُلِي جَنَّتِي)
قوله: {وادخلي جنتي} يقال لهم ذلك عند الاحتضار ويوم القيامة - وكذلك الملائكة يبشرون المؤمن لدى احتضاره وعند قيامه من قبره ١١.

٩٠ سورة البلد:

سورة البلد:
هذه السورة مكية وآياتها عشرون.
١ - (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{لا أقسم بهذا البلد ١ وأنت حلّ بهذا البلد ٢ ووالد وما ولد ٣ لقد خلقنا الإنسان في كبد ٤ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ٥ يقول أهلكت مالا لبدا ٦ أيحسب أن لم يره أحد ٧ ألم نجعل له عينين ٨ ولسانا وشفتين ٩ وهديناه النّجدين}.
أقسم الله بالبلد وهي مكة، لشرفها وقدسيتها وعظيم شأنها - ولا ههنا، زائدة.
٢ - (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)
قوله: {وأنت حلّ بهذا البلد} فقد قيّد قسمه بحلول النبي صلى الله عليه وسلم في مكة إظهارا لفضله الكبير وليبين بذلك أن شرف المكان بشرف أهله - وقيل: وأنت على عظيم حرمتك يا محمد فإنك تستحل في هذا البلد، فالمشركون يحرمون قتل الصيد ويستحلون إخراجك وقتلك في هذا البلد المحرم - وفي ذلك تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعجيب من حال المشركين في شدة عدواتهم للنبي صلى الله عليه وسلم - وقيل: حلال لك أن تفعل فيه من القتل والأسر ما تريد ساعة من نهار - وذلك وعد له من الله بما أحل له عام الفتح.
٣ - (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

قوله: {ووالد وما ولد} معطوف على هذا البلد - والمراد بالوالد آدم عليه السلام - وما ولد ذريته - أو محمد صلى الله عليه وسلم - والتنكير للتعظيم.

٤ - (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

قوله: {لقد خلقنا الإنسان في كبد} جواب القسم - وهو أن الله خلق الإنسان في كبد - أي في مكابدة وتعب ومشقة - والإنسان لا يزال يكابد الشدائد والمتاعب طوال حياته في الدارين - وأول ذلك، ظلمة الرحم في بطن أمه، ثم الخروج إلى الدنيا حيث الشقاء والكروب والهموم وغير ذلك من ألوان المكابدة - ثم الموت وما فيه من شدة النزع - وغلظة الملائكة الشداد - ثم القبر وما فيه من هول العذاب ومساءلة الملكين الهائلين وغلظتهما - ثم الدار الآخرة وما فيها من أهوال الحساب وعظائم الحشر الرعيب.

٥ - (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

قوله: {أيحسب أن لن يقدر عليه أحد} يقول سبحانه موبّخا: أيظن هذا الإنسان الظالم المكذب المغرور أن لن نقدر على الانتقام منه.

٦ - (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا)

قوله: {يقول أهلكت مالا لبدا} لبدا جمع لبدة، وهي ما تلبّد أي كثر - يعني: يقول أهلكت مالا كثيرا - يريد بذلك ما كان ينفقه على عادة الجاهليين، إذ كانوا ينفقون المال رياء وطلبا للسمعة والمكارم.

٧ - (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

قوله: {أيحسب أن لم يره أحد} أيظن هذا الإنسان المكذب المغرور أن الله لا يعلم أنه ما كان يبتغي بإنفاقه غير الرياء والمفاخرة وطلب المعالي والسمعة - فالله جل وعلا يراه وهو رقيب عليه ويعلم ما يبتغي بإنفاقه.

٨ - (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

قوله: {ألم نجعل له عينين} يمنّ الله على الإنسان إذ خلقه فسواه فعدله - وجاء به على أحسن هيئة وصورة من استواء البدن وانسجام الأعضاء فما فيه من خلل ولا اضطراب ولا نشاز - ومن جملة ذلك أن جعل الله له عينين يبصر بهما الأشياء فيمشي ويسعى ويتصرف مستهديا مستنيرا غير متعثر ولا متخبط.

٩ - (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

قوله: {ولسانا وشفتين} خلق الله للإنسان وسيلة للكلام والتعبير عما في نفسه من مقاصد وعما في ذهنه من أفكار - وذلكم هو اللسان الناطق، وسيلة التخاطب والتفاهم - إلى غير ذلك من منافع اللسان كالقدرة على الأكل وتمييز الطّعوم من عذوبة وملوحة ومرارة {وشفتين} وهما وسيلتان عظيمتان للكلام والطعام والشراب والستر، فضلا عما تضفيانه على الإنسان من جمال الهيئة والصورة.

١٠ - (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

قوله: {وهديناه النّجدين} هدى الله الإنسان النجدين - وهما طريق الخير وطريق الشر - فقد بيّن الله للإنسان هذين السبيلين تبيينا كاملا مستفيضا لا لبس فيه ولا نقص، وبيّن له أن أول هذين السبيلين يفضي إلى الجنة حيث النجاة والسعادة، وأن ثانيهما يفضي إلى النار حيث العذاب والنكال - وذلك كله بعد أن بثّ الله في الإنسان استعداده لفعل الخير والشر وقد حرّضه على فعل الخير تحريضا، وحذره من فعل الشر تحذيرا - وفوق ذلك كله فإن الله جل وعلا قد أودع الإنسان خصائص كبريات - أولها العقل المميز الممحّص الرادع، وغير ذلك من خصائص الحياء والمروءة والرأفة والشفقة والضمير الحافز المبكّت، اللوام - كل أولئك أسباب عظيمة للتحريض على فعل الخير، واختيار طريقه، ومجانبة الشر وفعله - وليس على الله لأحد بعد ذلك من حجة - فإن جنح الإنسان بعد ذلك كله للشر فلا يلومنّ إلا نفسه.

١١ - (فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

قوله تعالى: {فلا اقتحم العقبة ١١ وما أدراك ما العقبة ١٢ فكّ رقبة ١٣ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ١٤ يتيما ذا مقربة ١٥ أو مسكينا ذا متربة ١٦ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصو بالمرحمة ١٧ أولئك أصحاب الميمنة ١٨ والذين كفروا بآياتنا هم

أصحاب المشئمة ١٩ عليهم نار موصدة}
العقبة في اللغة، مرتقى صعب من الجبال ١ والمعنى أن الإنسان المفرط لم يسلك طريق الخير والنجاة ولم يشكر الله بما أنعم عليه من جزيل الأيادي - باقتحام العقبة وهو الدخول في شدائد الأمور ومجاوزتها.
١٢ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ)
قوله: {وما أدراك ما العقبة} جملة اعتراضية - والإستفهام على وجه التعظيم للعقبة واقتحامها يعني وما اقتحام العقبة - فإن اقتحامها صعب على النفس، وجزاء اقتحامها عند الله كبير، ثم فسر اقتحام العقبة بقوله: {فكّ رقبة}.
١٣ - (فَكُّ رَقَبَةٍ)
قوله: {فكّ رقبة} أي تخليص الرقبة من الرق وبذل الإعانة للرقيق في مال الكتابة - وثمة أخبار كثيرة في التخضيض على إعتاق الرقيق - منها ما أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار عضوا بعضو، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ".
وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار " وفي رواية عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار ".
١٤ - (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)
قوله: {أو إطعام في يوم ذي مسغبة} المسغبة، المجاعة يقال سغب أي جاع - والمراد أن من جملة اقتحام العقبة وهي المشقة ومجاهدة النفس، إطعام المفتقرين الجياع في الأيام التي يعزّ فيها الطعام ويعم فيها الجوع.
١٥ - (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)
قوله: {يتيما ذا مقربة} يتيما مفعول به للمصدر إطعام - وذا مقربة أي ذا قرابة من المطعم - وفي هذا روي الإمام أحمد عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة ".
١٦ - (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)
قوله: {أو مسكينا ذا متربة} أي فقيرا مدقعا، لا صقا بالتراب - يقال: ترب، إذا افتقر، ومعناه: التصق بالتراب - قال ابن عباس: ذا متربة هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب.
١٧ - (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)
قوله: {ثم كان من الذين آمنوا} مع ما ذكر من صفات طيبة فإن مؤمن بقلبه، يبتغي بعمله وجه الله - فإنه ما من عمل لا يبتغي به صاحبه وجه ربه إلا ليس له فيه من حسن الجزاء نصيب.
قوله: {وتواصوا بالصبر} يعني كان من المؤمن الذين يوصي بعضهم بعضا بالصبر على الطاعات وعلى احتمال الأذى والمكاره.
قوله: {وتواصوا بالمرحمة} أي يوصي بعضهم بعضا بالتراحم بينهم وبالرحمة بالعباد - لا جرم أن المسلمين رحماء بينهم - وهم كذلك رحماء بالعباد يدعونهم إلى الحق بالحكمة والرفق واللين وبالحجة الساطعة والبرهان الأتم - بل إن المسلمين رحماء بالخليقة كلها سواء منها الآدميون أو الدواب والبهائم - فإن المسلم حافل قلبه بمثل هاتيك الخلائق فلا يؤذيها أو يقسو عليها - وفي الحديث: " الراحمون يرحمهم الله - ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ".
١٨ - (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)
قوله: {أولئك أصحاب الميمنة} هؤلاء المؤمنون الذين سبق ذكرهم، هم من أهل اليمين أو اليمن و البركة - وأولئك هم الفائزون بحظهم من السعادة في الآخرة.
١٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

قوله: {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة} يعني أصحاب الشمال أو الشؤم.
٢٠ - (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ)
قوله: {عليهم نار موصدة} أي مطبقة - يقال: أوصدت الباب إيصادا أي أغلقته فهو موصد - والمعنى، أن النار مغلّقة الأبواب على المكذبين المعذبين، ومطبقة عليهم إطباقا فلا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها والعياذ بالله ٢.

٩١ سورة الشمس:

سورة الشمس:
هذه السورة مكية وآياتها خمس عشرة آية.
١ - (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والشمس وضحاها ١ والقمر إذا تلاها ٢ والنهار إذا جلاّها ٣ والليل إذا يغشاها ٤ والسماء وما بناها ٥ والأرض وما طحاها ٦ ونفس وما سوّاها ٧ فألهما فجورها وتقواها ٨ قد أفلح من زكّاها ٩ وقد خاب من دسّاها}.
أقسم الله في هذه الآيات بجملة أجزاء مما خلق - وله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه وأول هذه الأقسام قوله: {والشمس وضحاها} المراد بضحاها ضوؤها إذا أشرقت.
٢ - (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا)
قوله: {والقمر إذا تلاها} يعني إذا تلا طلوعه طلوع الشمس - أو خلف طلوع القمر طلوع الشمس بضيائه - فما تغرب الشمس عن حيز من الأرض حتى يسطع القمر بضيائه ونوره فيه.
٣ - (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)
قوله: {والنهار إذا جلاّها} يعني جلّى الشمس وأظهرها بارزة مسرجة للناظرين - فإنه بانبساط النهار تتجلى الشمس وتبرز للدنيا ظاهرة جلية.
٤ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)
قوله: {والليل إذا يغشاها} أي يغشى الليل الشمس فيستر ضوءها - أو يغطي الأرض والآفاق بظلمته.
على أن واوت العطف في هذه الآيات نوائب للواو الأولى القسمية الجارة.
٥ - (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)
قوله: {والسماء وما بناها} ما، تحتمل هنا وجهين - فإما أن تكون مصدرية فيكون المعنى: والسماء وبنائها - وإما أن تكون بمعنى من، فيكون المعنى: والسماء وبانيها - أو ومن بناها.
٦ - (وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)
قوله: {والأرض وما طحاها} أي وطحوها وهو بسطها، أو ومن طحاها - أي بسطها - وهو من الطحو أي البسط ١.
٧ - (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)
قوله: {ونفس وما سوّاها} أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة السليمة - وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه - كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها من جدعاء " والجمعاء من البهائم، التي لم يذهب من بدنها شيء ٢ وفي صحيح مسلم عن حماد المجاشعي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يقول الله عز وجل: {إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم} ".
٨ - (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

قوله: {فألهمها فجورها وتقواها} اختلفوا في تأويل ذلك فقد قيل: بيّن لها الخير والشر - وقيل: أعلمها أن أحدهما حسن والآخر قبيح - وقيل: ألهمها الخير والشر - أو مكّنها من الإتيان بهما - وهذا الأظهر والأولى بالصواب - ذلك أن الإنسان قد ركّب في طبعه الميل لما تهواه نفسه من خير أو شر - فهو قد ألهم ذلك إلهاما ومكّن من فعله تمكينا.

٩ - (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

قوله: {قد أفلح من زكّاها} جواب القسم - والتقدير: لقد أفلح من زكاها - وقيل: الجواب محذوف، وتقديره: ليدمدمنّ الله على المشركين الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهذا الأظهر.

والمعنى: لقد فاز ونجح من طهر نفسه بالإيمان بالله والعمل بما يرضيه فالتزم شرعه وأحكام دينه واجتنب المعاصي والرذائل.

١٠ - (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

قوله: {وقد خاب من دسّاها} دسّى، بالألف المقصورة، يدسّي - وأصلها: دسس يدسس - من الدس وهو الإخفاء ودفن الشيء تحت الشيء - يعني دسّ نفسه مع الصالحين وليس منهم - أو خابت نفس دساها الله - واندسّ بمعنى اندفن ٣.

والمعنى: وقد خسر من دسى نفسه أو دسسها أي أغواها وأخفاها بالفسوق والفجور والمعاصي - وقيل: الضمير عائد إلى الله - فالله جل جلاله طهر النفس وجعلها زكية بالإيمان وصالح الأعمال - وهو سبحانه دساها أي أغواها ٤.

١١ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

قوله تعالى: {كذبت ثمود بطغواها ١١ إذ انبعث أشقاها ١٢ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ١٣ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ١٤ ولا يخاف عقباها}.

يبين الله في ذلك ما حل بثمود قوم صالح - هؤلاء الطغاة العتاة الذين دعاهم نبيهم صالح إلى دين الله وحذرهم الضلال والشرك وقتل الناقة، لكنهم كذبوه وعتوا عن أمر الله وأبو إلا الطغيان في العصيان، فأخذهم الله ببطشه الشديد وانتقامه المفظع - وهو قوله: {كذبت ثمود بطغواها} أي كذبوا رسولهم صالحا بسبب طغيانهم وعتوهم - فالحامل لهم على التكذيب، ما كانوا عليه من شديد الطغيان والتمرد.

١٢ - (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

قوله: {إذ انبعث أشقاها} أي حين انبعث أو قام أشقاها - وهو أشقى ثمود - وقيل: اسمه قدار بن سالف - وقد ذكر أنه كان أشقر أزرق قصيرا - وكان هذا الشقي عزيزا في قومه، شريفا فيهم - وكان فيهم رئيسا مطاعا.

وروي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: " ألا أحدثك بأشقى الناس " قال: بلى - قال: " رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه " يعني لحيته.

١٣ - (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

قوله: {فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها} ناقة منصوب على التحذير أي احذروا ناقة الله ولا تمسوها بسوء {وسقياها} أي واحذروا سقياها وهو شربها فلا تذودوها عنه - فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم.

١٤ - (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

قوله: {فكذبوه فعقروها} كذبت ثمود نبيهم صالحا فيما أمرهم به وحذّرهم من فعله فقتلوا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة معجزة لهم وحجة عليهم {فدمدم عليهم ربهم بذنبهم} أي دمر الله عليهم أشد تدمير وأهلكهم إهلاك استئصال بسبب ذنبهم وهو تكذيبهم رسولهم وعقرهم ناقة الله {فسواها} أي أخذهم الله جميعا على السواء - أو سوّى الدمدمة عليهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير.

١٥ - (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

قوله: {ولا يخاف عقباها} لا يخاف الله عاقبة ما فعل بهم من الدمدمة والاستئصال - فإن الله لا يرهبه في الوجود شيء، وإنما هو العزيز الجبار الذي ذلت له الجباه، وخشعت له النواصي، وخشيت منه الملوك والجبابرة ٥.

٩٢ سورة الليل:

سورة الليل:
هذه السورة مكية وآياتها إحدى وعشرون.
١ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والليل إذا يغشى ١ والنهار إذا تجلّى ٢ وما خلق الذكر والأنثى ٣ إن سعيكم لشتّى ٤ فأما من أعطى واتّقى ٥ وصدّق بالحسنى ٦ فسنيسّره لليسرى ٧ وأما من بخل واستغنى ٨ وكذب بالحسنى ٩ فسنيسره للعسرى ١٠ وما يغني عنه ماله إذا تردّى}.
يقسم الله ببعض ما خلق وبجلال وجهه الكريم على أن أعمال العباد متخالفة وهو ما نبينه في الآية التالية وهي قوله: {والليل إذا يغشى} يقسم الله بالليل إذا يغشى الشمس أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه.
٢ - (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)
قوله: {والنهار إذا تجلّى} يعني إذا ظهر بزوال ظلمة الليل - أو تبين بطلوع الشمس.
٣ - (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)
قوله: {وما خلق الذكر والأنثى} يعني: والذي خلق بقدرته البالغة العظيمة كلاّ من الصنفين المتقابلين وهما الذكر والأنثى.
٤ - (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)
قوله: {إن سعيكم لشتّى} وهذا المقسوم عليه - وشتى جمع شتيت - يعني إن عملكم لمختلف، فمنكم من يعمل خيرا ومنكم من يعمل شرا.
٥ - (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)
قوله: {فأما من أعطى واتقى} وهذا تفصيل يبين تشتيت المساعي - والمعنى: أن من أعطى، أي قدم الطاعات لله أو أعطى ما أمره ربه بإعطائه {واتقى} أي اجتنب المعاصي.
٦ - (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)
قوله: {وصدق بالحسنى} أي أيقن بملة الإسلام أنها الحق أو صدّق بالكلمة الحسنى وهي لا إله إلا الله.
٧ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)
قوله: {فسنيسّره لليسرى} أي سنيسّر له فعل الخير - أو سنيسر له دخول الجنة.
٨ - (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)
قوله: {وأما من بخل واستغنى} أي بخل بماله فلم يبدله في وجوه الخير والطاعة، واستغنى عن ربه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة.
٩ - (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)
قوله: {وكذب بالحسنى} أي كذّب بملة الإسلام أو جحد الآخرة
١٠ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)
{فسنيسّره للعسرى} سنيسر له ما يفضي به إلى النار.
١١ - (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)
قوله: {وما يغني عنه ماله إذا تردّى} ما، للنفي - أي لم ينفعه ماله {إذا تردّى} أي هلك - من الردى، وهو الهلاك - أو تردى في القبر أو في قعر جهنم - أو تكون ما للاستفهام الإنكاري - أي، ماذا ينفعه ماله إذا في الهاوية وكان من الخاسرين ١.
١٢ - (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

قوله تعالى: {إن علينا للهدى ١٢ وإن لنا للآخرة والأولى ١٣ فأنذرتكم نارا تلظّى ١٤ لا يصلاها إلا الأشقى ١٥ الذي كذب وتولى ١٦ وسيجنّبها الأتقى ١٧ الذي يؤتي ماله يتزكّى ١٨ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ١٩ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ٢٠ ولسوف يرضى}

الله الهادي إلى سواء السبيل بما بيّنه لعباده من أصول العقيدة السليمة وشرائع الأحكام فقال سبحانه: {إن علينا للهدى} يعني علينا الإرشاد إلى الحق والسداد بإظهار الدلائل وتبيين الأحكام وما تضمنته من وجوه الحلال والحرام.

١٣ - (وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى)

قوله: {وإن لنا للآخرة والأولى} الله مالك كل شيء، وبيده مقاليد الوجود كله وهو المتصرف في خلقه كما يشاء.

١٤ - (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى)

قوله: {فأنذرتكم نارا تلظّى} أي خوفتكم نارا تتلهّب وتتسعّر.

١٥ - (لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى)

قوله: {لا يصلاها إلا الأشقى} لا يدخلها للتنكيل به فيها إلا الشقي الذي خسر الآخرة فكبكب في النار.

١٦ - (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

قوله: {الذي كذب وتولى} أي جحد رسالة ربه وأعرض عن دينه مستنكفا غير عابئ - فهو مصيره أن يقذف في النار اللاهية المتسعرة التي لا يتصور فظاعتها الخيال - وفي هذا أخرج الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه ".

١٧ - (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى)

قوله: {وسيجنّبها الأتقى} سيحظى بإبعاده عنها من كان تقيا نقيا يخشى الله ويحذر عقابه - ثم وصفه بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكّى}.

١٨ - (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

قوله: {الذي يؤتي ماله يتزكّى} أي يعطي ماله الفقراء {يتزكّى} مبتغيا بذلك الإعطاء أن تتطهر نفسه من الشح والأثرة، وأن يتطهر ماله من حقوق الفقراء والضعفاء.

١٩ - (وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى)

قوله: {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ليس لأحد من الناس عليه فضل فيبذل ماله وعطاءه في مجازاته - أو ليس بذله الخير في مقابلة ما أسدي إليه من معروف، وإنما كان ذلك {ابتغاء وجه ربه الأعلى}.

٢٠ - (إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى)

قوله: {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طلبا لمرضاة الله الذي تلين لجلال وجهه القلوب وتخشع لجبروته الجوارح - فلا يبتغي المؤمن التقي بأعماله غير مرضاة الله سبحانه.

٢١ - (وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

قوله: {ولسوف يرضى} يعني لسوف يرضى هذا المؤمن التقي الباذل بما تقرّ به عينه من جزيل الثواب وحسن الجزاء - وذلك وعد كريم من رب كريم لعبده المؤمن الكريم ولن يخلف الله وعده ٢.

٩٣ سورة الضحى:

سورة الضحى:

هذه السورة مكية وهي إحدى عشرة آية.

١ - (وَالضُّحَى)

بسم الله الرحمن الرحيم
}والضحى ١ والليل إذا سجى ٢ ما ودّعك ربك وما قلا ٣ وللآخرة خير لك من الأولى ٤ ولسوف يعطيك ربك فترضى ٥ ألم يجدك يتيما فآوى ٦ ووجدك ضالا فهدى ٧ ووجدك عائلا فأغنى ٨ فأما اليتيم فلا تقهر ٩ وأما السائل فلا تنهر ١٠ وأما بنعمة ربك فحدّث{.
روي أن الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه وقلاه - أي أبغضه وتركه فنزلت هذه الآيات تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتأنيسا - وهي قوله: }والضحى{ يقسم الله بالضحى - أي وقت الضحى وهو صدر النهار عند ارتفاع الشمس - وقيل المراد، النهار كله - وذلك في مقابلة القسم بالليل وهو قوله: }والليل إذا سجى{.
٢ - (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)
قوله: }والليل إذا سجى{ يعني إذا سكن - أي سكن أهله وركد ظلامه.
٣ - (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)
قوله: }ما ودّعك ربك وما قلا{ وهذا جواب القسم وما ودّعك، أي ما تركك ولا قطعك - وهو من التوديع بمعنى المفارقة والترك - }وما قلا{ أي وما أبغضك منذ بعثك إلى الناس رسولا - وهو من القلى والقلاء، أي البغض والكراهية ١
٤ - (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى)
قوله: }وللآخرة خير لك من الأولى{ يعني ما أعد الله لك يا محمد من المقام المحمود والخير الممدود والجزاء الموعود، خير لك مما حوته هذه الدنيا من زينة ومتاع فإن ذلك كله زائل، والدار الآخرة لهي دار القرار ونعيمها دائم لا ينقطع - ومن أجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها مجافاة ولما خيّر النبي عليه الصلاة والسلام بين الخلود في الدنيا فلا يموت فيها - وبين صيرورته إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا - وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فأثّر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه - وقلت يا رسول الله: ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما لي وللدنيا - إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها ".
٥ - (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)
قوله: }ولسوف يعطيك ربك فترضى{ لسوف يعطيك الله يا محمد من وجوه الكرامة وخير الجزاء في الآخرة ما ترضى به تمام الرضى فقد أعطاه الله الكوثر والشفاعة وغيرهما من ضروب الآلاء.
٦ - (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى)
قوله: }ألم يجدك يتيما فآوى{ يعدد الله نعمه على رسوله تنبيها له على إحسانه إليه في الآخرة كما أحسن إليه في الدنيا إذ كان يتيما فقد مات أبوه وهو في بطن أمه فآواه الله إلى جده عبد المطلب ثم إلى عمه أبي طالب فضمّه إليه وكفله ورعاه كامل الرعاية وكان يحدب عليه كثيرا ويحرص على سلامته بالغ الحرص.
٧ - (وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى)
قوله: }ووجدك ضالا فهدى{ ما كنت تدري ما العلم ولا الحكمة ولا النبوة إذ كنت غير عالم بعلوم الدين وأحكام الشريعة فعرّفك الله الشرائع وعلمك القرآن وأوقفك على الحكمة وألهمك الحق والسداد.
٨ - (وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى)
قوله: }ووجدك عائلا فأغنى{ أي كنت فقيرا ذا عيال فأغناك الله بالرزق الحلال.
٩ - (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ)
قوله: }فأما اليتيم فلا تقهر{ أي لا تغلب اليتيم على ماله وحقه لضعفه - ومثلما كنت يتيما يا محمد فآواك الله، فلا تقهر اليتيم بإذلاله

وإهانته بل أحسن إليه وتلطف به - وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم باليتيم عظيم التوصية، وحذر من إيذائه وإهانته والإساءة إليه - وفي الحديث: " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا " وأشار بأصبعيه، السبابة والوسطى.
١٠ - (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ)
قوله: {وأما السائل فلا تنهر} أي تزجر من جاءك سائلا ولا تنهر بغلظة أو فظاظة بل ابذل له شيئا ولو قليلا أو ردّه ردّا جميلا.
١١ - (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)
قوله: {وأما بنعمة ربك فحدث} أي حدث الناس بما منّ الله به عليك من مختلف النعم سواء في ذلك نعمة النبوة، أو القرآن، أو علوم الدين والأحكام، أو ما خوّلك من نعمة الحياة الدنيا كالمال - فإن إخفاء شيء من ذلك لهو ضرب من الشح وكفران النعمة - وقد روي عن الحسن بن علي قوله: ما عملت من خير فحدّث إخوانك ٢.

٩٤ سورة الشرح:

سورة الشرح:
هذه السورة مكية وآياتها ثمان.
١ - (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ألم نشرح لك صدرك ١ ووضعنا عنك وزرك ٢ الذي أنقض ظهرك ٣ ورفعنا لك ذكرك ٤ فإن مع العسر يسرا ٥ إن مع العسر يسرا ٦ فإذا فرغت فانصب ٧ وإلى ربك فارغب}.
قوله: {ألم نشرح لك صدرك} الاستفهام، إنكار لنفي الانشراح مبالغة في إثباته - والمقصود أن الله شرح لك صدرك يا محمد - فيكون المعنى: ألم نفسح لك صدرك يا محمد بما أودعنا فيه من العلوم والحكم حتى وسع هموم النبوة، وأزلنا عنه ضيق الجهل والحرج.
وقيل: إن ذلك إشارة إلى ما روي أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم في صباه فشق صدره وغسل قلبه من كل ما يجده الناس من أدران النفس كالغل والحسد ونحوهما - فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال: " لقد سألت يا أبا هريرة - إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا بكلام فوق رأسي - وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط - وثياب لم أرها على أحد قط - فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسّا - فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه فأضجعاني بلا قصر ١ ولا هصر ٢ - فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد - فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها - فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال: اغد واسلم، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير ".
٢ - (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)
قوله: {ووضعنا عنك وزرك} أي خفّفنا عنك حملك الثقيل الذي حمّلته - والمراد به أعباء النبوة والاضطلاع بأمرها - فقد أعنّاك على ذلك وأيدناك بقوتنا وفضلنا.
٣ - (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)
قوله: {الذي أنقض ظهرك} أي أثقلك حمله.
٤ - (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)
قوله: {ورفعنا لك ذكرك} رفع الله ذكر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم حتى شاع صيته الظاهر وسمعته الرفيعة في آفاق العالمين وفي ملكوت

السماوات حيث الملائكة المقربون الأطهار - لقد شاع ذكره في بطون الكتب وفي طوايا القلوب والأذهان وفي المجالس وعلى كل لسان، فضلا من الله لهذا النبي الكريم المفضال بما اتصف به من عظيم الشمائل وجليل الخصال.
ويأتي في طليعة هذا الذكر لخير الأنام أن يقترن اسمه في الشهادة العظمى التي يتحقق بها إيمان المرء وهي شهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.
٥ - (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)
قوله: {فإن مع العسر يسرا} ذلك تأنيس من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه من المؤمنين وتأنيس للمؤمنين في كل زمان، إذ بيّن لهم أن الشدة يعقبها الفرج، وأن الضيق والكرب يخلفهما اليسر وكشف البلاء - والله بفضله مجير لعباده المؤمنين الصابرين فيجعل لهم حسن العواقب في الدنيا والآخرة - وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لن يغلب عسر يسرين " ومعنى هذا أن العسر في الآية معرّف في الحالين فهو مفرد - وأما اليسر فهو منكّر فتعدد - أي أن العسر الأول عين الثاني، واليسر قد تعدد.
٦ - (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
قوله: {فإن مع العسر يسرا} ذلك تأنيس من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه من المؤمنين وتأنيس للمؤمنين في كل زمان، إذ بيّن لهم أن الشدة يعقبها الفرج، وأن الضيق والكرب يخلفهما اليسر وكشف البلاء - والله بفضله مجير لعباده المؤمنين الصابرين فيجعل لهم حسن العواقب في الدنيا والآخرة - وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لن يغلب عسر يسرين " ومعنى هذا أن العسر في الآية معرّف في الحالين فهو مفرد - وأما اليسر فهو منكّر فتعدد - أي أن العسر الأول عين الثاني، واليسر قد تعدد.
٧ - (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)
قوله: {فإذا فرغت فانصب} أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها {فانصب} أي اتعب بأداء العبادة شكرا لما أنعمه الله عليك - أو قم إلى العبادة نشيطا فارغ البال - وفي الحديث: " لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان " - وعنه صلى الله عليه وسلم: " إذا اجتمعت الصلاة وحضر العشاء فابدأوا بالعشاء ".
٨ - (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)
قوله: {وإلى ربك فارغب} أي ارغب فيما عند الله من الثواب وحسن الجزاء - أو اجعل رغبتك إلى الله وحده واجعل هواك تبعا لما أنزله الله على رسوله ٣.

٩٥ سورة التين:

سورة التين:
هذه السورة مكية وآياتها ثمان.
١ - (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والتين والزيتون ١ وطور سينين ٢ وهذا البلد الأمين ٣ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ٤ ثم رددناه أسفل سافلين ٥ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ٦ فما يكذّبك بعد بالدين ٧ أليس الله بأحكم الحاكمين}.
يقسم الله بهذين الصنفين من الثمار وهما التين والزيتون - وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: هو تينكم هذا وزيتونكم هذا - وقيل: المراد بهما مسجد دمشق والمسجد الأقصى - والمعنى الأول أولى بالصواب، استنادا إلى ظاهر الكلام.
وقد خصّ الله التين والزيتون من بين الثمار بالقسم لحكمة يعلمها هو سبحانه - ولا ندري أكثر من كونهما نافعين مرغوبين - فإن كلاً

منهما طيب ونافع - فالتين غذاء لطيف ومشتهى وهو سريع الهضم وذو فوائد للجسم كثيرة منها قطع البواسير، وتطهير الكليتين، والمثانة من الأدران - وكذلك الزيتون فإنه يعتصر منه الزيت، هذا الغذاء الطيب النافع المبارك الذي يستشفى به من كثير من علل الجسم.

٢ - (وَطُورِ سِينِينَ)

قوله: {وطور سينين} أقسم الله بطور سينين وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

٣ - (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)

قوله: {وهذا البلد الأمين} أي البلد الآمن، مكة - وهي البلد الذي يأمن فيه من دخله فلا يمسه أذى أو سوء.

٤ - (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

قوله: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} والإنسان، هنا اسم جنس - وهذا المقسوم عليه - وهو أنا خلقنا الإنسان في أحسن هيئة وأكمل صورة، من انتصاب القامة، وتمام النطق والكلام، وتسوية الأعضاء وانسجامها، واتساق النوازع والغرائز والميول وغير ذلك من مركبات النفس والبدن.

٥ - (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

قوله: {ثم رددناه أسفل سافلين} أي جعلناه في أسفل الدركات من النار بسبب عصيانه أمر ربه واستنكافه عن دينه وشرعه.

٦ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} استثنى الله من المتردين في النار والهاوين إلى أسفل الدركات فيها - الذين آمنوا بربهم وأطاعوه فيما أمر وانتهوا عما نهى عنه وزجر.

وقوله: {فلهم أجر غير ممنون} أي جزاؤهم عند الله عظيم وهو لا ينقطع ولا يزول.

٧ - (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

قوله: {فما يكذبك بعد بالدين} فما سبب تكذيبك بيوم القيامة الذي بيناه لك من الأدلة والمعالم التي تكشف عن عظمة الله وبالغ قدرته.

٨ - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

قوله: {أليس الله بأحكم الحاكمين} بلى، إن الله هو أحكم الحاكمين - فإنه لا يجور في حكمه، ولا يحيف في قضائه، ولا يظلم أحدا من خلقه - وفي الحديث " إذا قرأ أحدكم {والتين والزيتون} فأتى آخرها {أليس الله بأحكم الحاكمين} فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين " ١.

٩٦ سورة العلق:

سورة العلق:
هذه السورة مكية وآياتها تسع عشرة.

١ - (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقرأ باسم ربك الذي خلق ١ خلق الإنسان من علق ٢ اقرأ وربك الأكرم ٣ الذي علم بالقلم ٤ علم الإنسان ما لم يعلم}.

هذه السورة أول ما نزل من القرآن - وهذا قول ابن عباس وآخرين - والجمهور على أن فاتحة الكتاب أول ما نزل ثم سورة القلم.

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم - فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - ثم حبب إليه الخلاء - فكان يأتي حراء فيتحنث (يتعبد) فيه الليالي ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فاجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فقلت:

ما أنا بقارئ - فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني - فقال: اقرأ - فقلت: ما أنا بقارئ - فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني - فقال: اقرأ - فقلت: ما أنا بقارئ - فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} حتى بلغ {ما لم يعلم} فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: " زملوني زملوني " فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: " يا خديجة: ما لي؟ " وأخبرها الخبر - وقال: " قد خشيت على نفسي " فقالت له: كلاّ أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق - ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتّاب العربي، وكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك - فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعا ١ ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أو مخرجيّ هم؟ " فقال ورقة: نعم - لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا - ثم لم ينشب ورقة أن توفي ٢.

قوله: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} يعني اقرأ القرآن مفتتحا باسم الله ومستعينا به {الذي خلق} الله الذي له الخلق وهو خالق كل شيء.

٢ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

قوله: {خلق الإنسان من علق} خص الإنسان بالذكر، لشرفه ولما يتجلى فيه من عظيم الخصائص كالعقل والروح والضمير - وهي خصائص كبريات، من أجلها يناط بالإنسان أعظم الوجائب في هذه الحياة - وهي عبادة الله وحده وإفراده بالإلهية والربوبية والوحدانية - وقد خلق الله هذا الإنسان العجيب المميز من علق، وهي القطعة المستقذرة من الدم بعد أن كانت نطفة مهينة مستهجنة - وفي ذلك دلالة على قدرة الصانع الحكيم - وأنه الإله الأجل الأكرم الذي لا يعز عليه أن يفعل ما يشاء، ولا يعز عليه أن يبعث الإنسان ليوم الحساب.

٣ - (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)

قوله: {اقرأ وربك الأكرم} تكرير للمبالغة، والله سبحانه هو الأكرم الذي لا يضاهيه في الكرم أحد.

٤ - (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

قوله: {الذي علّم بالقلم} وذلك دليل على كمال كرمه سبحانه، إذ علّم الإنسان الكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم - وفي ذلك ما يشير إلى أهمية الكتابة وفضلها العظيم لما في ذلك من عظيم المنافع الدنيوية والأخروية - فإنه ما دوّنت العلوم، ولا سطّرت الحكم، ولا حفظت أخبار الأولين ولا ضبطت كتب الله المنزلة إلا بالكتابة - وهي لولاها لما استقامت أمور الدين والدنيا - وذلكم دليل ظاهر على بالغ حكمة الله سبحانه، إذ علم الإنسان الكتابة بالقلم.

والكتابة في كيفية تحققها وضبطها بالقلم تتضافر جملة من مركبات الذهن والأعصاب والإرادة والبصر لتأتي الأفكار والأخبار والعلوم والمقاصد مدونة ومضبوطة ومتسقة - وهذه القدرة لا تتسنى لغير الإنسان الذي علمه الله الكتابة بالقلم وعلمه ما لم يكن يعلم ٣.

٥ - (عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

قوله: {علم الإنسان ما لم يعلم}} وذلك دليل على كمال كرمه سبحانه، إذ علّم الإنسان الكتابة بالقلم وعلمه ما لم يكن يعلم - وفي ذلك ما يشير إلى أهمية الكتابة وفضلها العظيم لما في ذلك من عظيم المنافع الدنيوية والأخروية - فإن ما دوّنت العلوم ولا سطّرت الحكم، ولا حفظت أخبار الأولين، ولا ضبطت كتب الله المنزلة إلا بالكتابة - وهي لولاها لما استقامت أمور الدين والدنيا - وذلكم دليل ظاهر على بالغ حكمة الله سبحانه، إذ علم الإنسان الكتابة بالقلم.

والكتابة في كيفية تحققها وضبطها بالقلم تتضافر جملة من مركبات الذهن والأعصاب والإرادة والبصر لتأتي الأفكار والأخبار والعلوم

والمقاصد مدونة ومضبوطة ومتسقة - وهذه القدرة لا تتسنى لغير الإنسان الذي علمه الله الكتابة بالقلم وعلمه ما لم يكن يعلم ٤.
٦ - (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى)
قوله تعالى: {كلا إن الإنسان ليطغى ٦ أن رآه استغنى ٧ إن إلى ربك الرجعى ٨ أرأيت الذي ينهى ٩ عبدا إذا صلّى ١٠ أرأيت إن كان على الهدى ١١ أو أمر بالتقوى ١٢ أرأيت إن كذب وتولى ١٣ ألم يعلم بأن الله يرى ١٤ كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ١٥ ناصية كاذبة خاطئة ١٦ فليدع ناديه ١٧ سندع الزبانية ١٨ كلا لا تطعه واسجد واقترب}.
كلا، ردع لمن كفر بنعمة الله عليه فطغى وجحد - ويطغى، من الطغيان وهو مجاوزة الحد في العصيان.
٧ - (أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)
قوله: {أن رآه استغنى} أي يتجاوز الإنسان الشقي الحد في الطغيان، ويغلو في الكفر والجحود؛ لأنه رأى نفسه استغنى، أي: صار ذا مال وثراء.
٨ - (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)
قوله: {إن إلى ربك الرجعى} الرجعى أي المرجع أو الرجوع - يعني إن إلى ربك يا محمد مرجع هذا المكذب الطاغي ليبوء بسوء العذاب جزاء بجحده وتكذيبه - وفي ذلك من الوعيد ما لا يخفى.
٩ - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى)
قوله: {أرأيت الذي ينهى} المراد بالناهي أبو جهل - فهذا الشقي الخاسر كان قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، وقد قال قولته المقبوحة: لئن رأيت محمدا يصلي لأطأنّ عنقه - والاستفهام للتعجيب من فعل هذا الشقي الأثيم أبي جهل.
١٠ - (عَبْدًا إِذَا صَلَّى)
قوله: {عبدا إذا صلّى} المراد بالناهي أبو جهل - فهذا الشقي الخاسر كان قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، وقد قال قولته المقبوحة: لئن رأيت محمدا يصلي لأطأنّ عنقه - والاستفهام للتعجيب من فعل هذا الشقي الأثيم أبي جهل.
١١ - (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)
قوله: {أرأيت إن كان على الهدى} يعني أرأيت يا أيها الشقي الخاسر إن كان هذا الذي تنهاه عن الصلاة، على طريق الله المستقيم.
١٢ - (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)
قوله: {أو أمر بالتقوى} أي أمرك بالخوف من الله لتجتنب عصيانه وتحذر عقابه وانتقامه.
١٣ - (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)
قوله: {أرأيت إن كذب وتولى} أرأيت إن كذب أبو جهل بدين الحق الذي بعث به رسول الله {وتولى} أي أدبر عن دين الله، وفسق عن أمر ربه.
١٤ - (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)
قوله: {ألم يعلم بأن الله يرى} الاستفهام للتوبيخ - يعني ألم يعلم هذا الشقي الخاسر وهو ينهى نبي الله عن الصلاة ويتولى معرضا مستكبرا، بأن الله يرى فعله وإجرامه فيخشى بطشه وشديد عقابه.
١٥ - (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ)
قوله: {كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية} كلا، ردع لأبي جهل عن طغيانه وظلمه وإيغاله في الإجرام والجحود {لئن لم ينته} هذا الخاسر الكنود عما هو فيه من الإيذاء لرسول الله والاعتداء عليه {لنسفعا بالناصية} النون، في قوله: {لنسفعا} نون التوكيد الخفيفة، وتكتب بالألف والتنوين، عند البصريين، وبالنون عند الكوفيين - وهي مكتوبة في المصحف بالألف ٥ والمعنى: لنأخذن بناصية هذا الشقي فلنذلنّه - سفع بناصيته، أي أخذ بها ٦ والناصية، قصاص الشعر ٧ والمراد بالناصية شعر مقدمة الرأس - وقد خصّ الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته، مبالغة في إهانته والتنكيل به - وقيل: السفع معناه الجذب بشدة - أي لنجرنّ

بناصيته إلى النار - وقيل: السفع، الضرب واللطم - أي لنلطمن وجهه - وكل هذه المعاني نازلة بكل شقي هالك ينهى الناس عن دين الله.
ويحول بينهم وبين الأخذ بشريعة الله، وذلك بمختلف الأساليب من التحذير والتخويف والتشكيك والصد والقهر والتعذيب - أولئك جزاؤهم يوم القيامة أن يؤخذ بنواصيهم مضمومة إلى أقدامهم ثم يقذفون في جهنم قذفا.
١٦ - (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)
قوله: {ناصية كاذبة خاطئة} ناصية، بدل من الناصية، فقد وصفها بالكذب والخطيئة - والمراد صاحب الناصية وهو أبو جهل فهو الموغل في الكذب والخطيئة والطغيان.
١٧ - (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)
قوله: {فليدع ناديه} المراد بناديه أهل مجلسه - يعني فليدع أبو جهل أهل مجلسه وعشيرته فيستنصر بهم - وذكر ذلك على سبيل التهكم - أي اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك.
١٨ - (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)
قوله: {سندع الزبانية} أي زبانية النار وهم الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا تأخذ قلوبهم في المجرمين رأفة.
١٩ - (كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)
قوله: {كلا لا تطعه واسجد واقترب} كلا، ردع لأبي جهل - أي ليس الأمر كما يظن، فلا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة؛ بل صلّ لله {واقترب} أي تقرّب إلى الله بالطاعة والعبادة، وتذلل له بالدعاء في الصلاة، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ٨.

٩٧ سورة القدر:

سورة القدر:
هذه السورة مدنية، وآياتها خمس - وقيل: مكية.
١ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إنا أنزلناه في ليلة القدر ١ وما أدراك ما ليلة القدر ٢ ليلة القدر خير من ألف شهر ٣ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ٤ سلام هي حتى مطلع الفجر}.
ذلك إخبار من الله عن إنزال القرآن في ليلة القدر - وهي الليلة المباركة الفضلى، وفي بركتها يقول الله سبحانه: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} والمراد بها ليلة القدر - وهي من شهر رمضان - قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله - وسميت هذه الليلة المباركة بليلة القدر لشرفها وعظيم قدرها - وقيل: سميت بذلك، لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا - وقيل: سميت بذلك، لأن الله أنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذي قدر، وعلى أمة ذات قدر - ثم قال على سبيل التعظيم والتفخيم لهذه الليلة: {وما أدراك ما ليلة القدر}.
٢ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)
قوله: {وما أدراك ما ليلة القدر} يعني: وما أشعرك يا محمد أي شيء ليلة القدر.
٣ - (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)
قوله: {ليلة القدر خير من ألف شهر} واختلفوا في المراد بخيريّتها هذه - وجملة ذلك أن العمل بطاعة الله في ليلة القدر خير من العمل في غيرها ألف شهر، سواء في ذلك صيامها وقيامها وسائر العبادات فيها.

٤ - (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

قوله: {تنزّل الملائكة والروح فيها} أي إن الملائكة تهبط من السماء إلى الأرض في هذه الليلة المباركة وجبريل معهم وهو الروح - ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة تشريفه وتعظيم شأنه.

قوله: {بإذن ربهم من كل أمر} أي يتنزّلون إلى الأرض بإذن ربهم من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى مثلها من قابل، وذلك من رزق وأجل وغير ذلك.

٥ - (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

قوله: {سلام هي حتى مطلع الفجر} هي في محل رفع مبتدإ - سلام خبر مقدم ١ - والمعنى: إن ليلة القدر بفضلها وبركتها سلام من الشر كله، من أول الليلة إلى طلوع فجرها، فهي خير كلها إلى مطلع فجرها.

وقد اختلف العلماء في تعيين ليلة القدر - والذي عليه أكثرهم أنها ليلة سبع وعشرين - ومن علامات هذه الليلة المباركة أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ليلة القدر: " إن من أماراتها أنها ليلة سمحة بلجة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع ".

وفي الصحيحين في فضلها: " من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر الله له ما تقدم من ذنبه "، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر "، وقالت عائشة (رضي الله عنها): قلت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: " قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني " ٢.

٩٨ سورة البينة:

سورة البينة:

هذه السورة مدنية - وقيل: مكية، وآياتها ثمان.

١ - (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة ١ رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة ٢ فيها كتب قيّمة ٣ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ٤ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة}.

كان الكافرون من الفريقين وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وعبدة الأوثان المشركون، يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم: لا ننفكّ مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد صلى الله عليه وسلم - فحكى الله ما كانوا يقولون، وهو قوله سبحانه: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين} يعني لم يكن هؤلاء الكفار منتهين عن كفرهم أو مائلين عما هم فيه من العبادة الباطلة حتى يتبين لهم الحق وهو أن تأتيهم البينة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد فسره بقوله: {رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة}.

٢ - (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

قوله: {رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة} فالمراد بالبينة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما يتلوه على الناس من القرآن العظيم الذي هو مكتوب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة من الباطل والشك والضلال.

٣ - (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

قوله: }فيها كتب قيّمة{ يعني في هذه الصحف المطهرة كتب من الله قيمة - أي محكمة مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ، لأنها من عند الله.

٤ - (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

قوله: }وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة{ يعني ما تفرق اليهود والنصارى في أمر محمد صلى الله عليه وسلم فكذبوا به إلا من بعد ما جاءهم البيان من الله بإرساله إليهم رسولا - فهم قد اختلفوا فيه وكذبوه بعد أن جاءهم البيان من الله بأنه نبي مرسل، وقد كانوا من قبل يجدونه مكتوبا عندهم في التوارة والإنجيل، ويعلمون أنه مبعوث إلى الناس رسولا.

إنه ما إن بعث محمد إلى الناس رسولا حتى بادره أهل الكتاب - اليهود والنصارى- بالجحد والصد والعدوان والتشكيك، وليس لهم في ذلك من حجة أو سبب إلا الحقد والحسد، فضلا عن فساد الطبائع المعوجة التي استحوذ عليها المرض والضلال.

٥ - (وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

قوله: }وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين{ يعني ما أمر أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بعبادة الله وحده }مخلصين له الدين{ أي مفردين له بالطاعة والإذعان }حنفاء{ أي متبعين دين إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وهو دين التوحيد والاستقامة على عبادة الله وحده لا شريك له - والحنيف، الصحيح الميل إلى الإسلام، الثابت عليه ١ }ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة{ أي ليقيموا بكمال صفاتها من تمام الشروط والأركان والواجبات والمستحبات، وليؤدوا زكاة أموالهم للفقراء والعالة والمحاويج }وذلك دين القيمة{ أي وذلك الدين الذي أمروا به هو دين القيمة - أي العادلة المستقيمة - فهو الدين المستقيم الذي لا زيغ فيه ولا عوج ٢.

٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

قوله تعالى: }إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البريّة ٦ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة ٧ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه{.

ذلك إخبار من الله عن مصائر البشرية يوم القيامة - فمآل الكافرين من أهل الكتاب والمشركين من عبدة الأوثان على اختلاف أنواعها وأجناسها وأصنافها وصورها }في نار جهنم خالدين فيها{ خالدين منصوب على الحال ٣ فهم ماكثون في النار لا يخرجون منها - ولا يزولون، يتقاحمون فيها كما تتقاحم القردة }أولئك هم شر البرية{ أي شر الخليقة التي برأها الله - أما مآل المؤمنين العاملين الصالحات فهو الجنة حيث النعيم المقيم - وهو قوله: }إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية{.

٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

قوله: }إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية{ يعني الذين آمنوا بالله وحده لا شريك له، وآمنوا بمحمد نبيا ورسولا، وأخلصوا لله الدين والعبادة، وأفردوه وحده بالإلهية والربوبية، وعملوا الصالحات من صلاة وزكاة ونحوهما }أولئك هم خير البرية{ أي خير الخلق الذين ذرأهم الله - وهذه الخيرية إما على التعميم أو خير برية عصرهم.

٨ - (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

قوله: }جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار{ يعني، ثواب هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يتبوأوا منازلهم من الجنة ذات البساتين والأنهار والنعيم الذي لا يفنى ولا يزول - فهم فيها ماكثون أبدا لا يخرجون ولا يبرحون، بل منعّمون مكرمون.

قوله: }رضي الله عنهم{ أي رضي أعمالهم بما أطاعوه في الدنيا، إذ أفردوه بالعبادة وأذعنوا له بالخضوع والاستسلام }ورضوا عنه{ أي رضوا بما أعطاهم من حسن الثواب وبما جزاهم على طاعتهم له من الكرامة.

قوله: }ذلك لمن خشي ربه{ هذا الوعد الكريم من الله بعطاء المؤمنين وتخويلهم حسن الثواب والجزاء }لمن خشي ربه{ أي لمن خاف

ربه في الدنيا في السر والعلن فبادر لطاعته وأداء فرائضه واجتناب نواهيه ٤.

٩٩ سورة الزلزلة:

سورة الزلزلة:
هذه السورة مدنية - وقيل: مكية - وآياتها ثمان.
١ - (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا)
بسم الله الرحمن الرحيم
}إذا زلزلت الأرض زلزالها ١ وأخرجت الأرض أثقالها ٢ وقال الإنسان ما لها ٣ يومئذ تحدّث أخبارها ٤ بأن ربك أوحى لها ٥ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ٦ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٧ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره{

ذلك بيان من الله عن هول الساعة إذا قامت - فحينئذ تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وحشر الناس ليوم الجمع، يوم التلاقي - فقال سبحانه: }إذا زلزلت الأرض زلزالها{ أي تحركت الأرض ورجّت رجّا.
٢ - (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا)
قوله: }وأخرجت الأرض أثقالها{ يعني ألقت ما في بطنها من الموتى أحياء على ظهرها ليصار بهم إلى الحشر والحساب.
٣ - (وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا)
قوله: }وقال الإنسان ما لها{ إذا رأى الإنسان حال الأرض من الاضطراب والتحرك والارتجاج، صاح مفزعا مذعورا }ما لها{ يعني: ما للأرض وما قصتها، أو ما لها زلزلت وما لها أخرجت أثقالها - وهذا للتعجيب.
٤ - (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)
قوله: }يومئذ تحدّث أخبارها{ أي تخبر الأرض يومئذ بما عمل على ظهرها من طاعة ومعصية - وفي ذلك روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أتدرون ما أخبارها "؟ قالوا: الله ورسوله أعلم - قال: " فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها - تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا ".
٥ - (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)
قوله: }بأن ربك أوحى لها{ يعني تحدث الأرض أخبارها بسبب إيحاء الله لها، وأمره إياها بالتحدث - وفي معجم الطبراني من حديث أبي لهيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا وهي مخبرة ".
٦ - (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)
قوله: }يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم{ أي يومئذ يرجع الناس عن موقف الحساب أشتاتا، أي فرقا متفرقين، ففريق آخذ ذات اليمين إلى الجنة، وفريق آخذ ذات الشمال إلى النار.
قوله: }ليروا أعمالهم{ أي ليريهم الله أعمالهم في كتبهم - أو ليروا جزاء أعمالهم.
٧ - (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)
قوله: }فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره{ الذرة لا زنة لها لفرط صغرها وبساطتها - وهذا مثل ضربه الله سبحانه، وهو أنه لا يضيّع من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة - ولسوف يريه الله سائر أعماله من خير أو شر، ما قل من ذلك أو كثر - والمسلم المتعظ يحرص على فعل الخير مهما قل، وذلك محسوب له في سجل أعماله، يجده يوم الحساب - فقد روى البخاري في صحيحه عن عدي مرفوعا: " اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة "، وفي الصحيح كذلك " لا تحقرنّ من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منبسط ".

٨ - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]
قوله: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} الذرة لا زنة لها لفرط صغرها وبساطتها - وهذا مثل ضربه الله سبحانه، وهو أنه لا يضيّع من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة - ولسوف يريه الله سائر أعماله من خير أو شر، ما قل من ذلك أو كثر - والمسلم المتعظ يحرص على فعل الخير مهما قل، وذلك محسوب له في سجل أعماله، يجده يوم الحساب - فقد روى البخاري في صحيحه عن عدي مرفوعا: " اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة "، وفي الصحيح كذلك " لا تحقرنّ من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منبسط ".
وما ينبغي للمسلم الحريص أيضا أن يغفل عن محقرات الذنوب، فإن اجتماعها على المرء يفضي به إلى التردي في الخسار - فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه " ١.

١٠٠ سورة العاديات:

سورة العاديات:
هذه السورة مكية، وآياتها إحدى عشرة.
١ - (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والعاديات ضبحا ١ فالموريات قدحا ٢ فالمغيرات صبحا ٣ فأثرن به نقعا ٤ فوسطن به جمعا ٥ إن الإنسان لربه لكنود ٦ وإنه على ذلك لشهيد ٧ وإنه لحب الخير لشديد ٨ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ٩ وحصّل ما في الصدور ١٠ إن ربهم بهم يومئذ لخبير}.
ذلك قسم من الله بجزء مما خلق وهي الخيل - وهذا الصنف من الخلق كان عدة المجاهدين في الأزمنة الخالية في مجاهدتهم الكفر والكافرين - لقد كان هذا الصنف من المراكب وسيلة عظيمة يمتطيها الرجال وهم يغيرون على الظالمين لصدهم عن دين الله، ولكفّ أذاهم وعدوانهم عن بلاد المسلمين - يقسم الله بهذا الصنف من الخلق، وهي الخيل العادية الضابحة المغيرة بقوله: {والعاديات ضبحا} ضبحا منصوب على المصدر في موضع الحال ١ - والمراد بالعاديات، الخيل أو الأفراس التي تعدو {ضبحا} أي وهي تحمحم - وذلك من الضّبح، وهو صوت أنفاس الخيل إذا عدت ٢ وقيل: المراد بها الإبل - والمعنى الأول أظهر وهو الذي عليه أكثر المفسرين.
٢ - (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا)
قوله: {فالموريات قدحا} قدحا، مصدر مؤكد ٣، والمراد بها الخيل توري النار بحوافرها إذا صكّت الصخر بها وهي عادية مغيرة.
٣ - (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)
قوله: {فالمغيرات صبحا} أي تغير على العدو في وقت الصبح - وصبحا، منصوب على الظرف ٤، ويستوي في المغيرات الخيل أو غيرها من المركوبات - فإنه لم يخصص من ذلك مغيرة دون مغيرة، فكل مغيرة صبحا داخل في المقسوم به، سواء كان من الخيل أو الإبل أو الحافلات المصنوعة من مثال المراكب على اختلاف أصنافها وضروبها في العصر الراهن.
٤ - (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا)
قوله: {فأثرن به نقعا} النقع معناه الغبار ٥ أي الخيل تثير الغبار من شدة عدوها في المكان الذي تغير فيه.
٥ - (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا)
قوله: {فوسطن به جمعا} جمعا، مفعول به للفعل وسطن، والمعنى: فوسطن بركبانهن جمع الكفار.
٦ - (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

قوله: {إن الإنسان لربه لكنود} وهذا هو المقسم عليه، أو هو جواب القسم - والكنود، معناه الكفور - فلان كند النعمة أي كفرها - وأصل الكنود، منع الحق والخير - والأرض الكنود التي لا تنبت شيئا ٦ - والمعنى: إن الإنسان لنعمة ربه لشديد الكفران.
٧ - (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)
قوله: {وإنه على ذلك لشهيد} ذلك مقسم عليه ثان - يعني وإن الله جل وعلا لشهيد على ابن آدم بذلك، وهو كونه كنودا، وهو قول أكثر المفسرين - وقيل: إن الإنسان على كنوده {لشهيد} أي يشهد على نفسه بذلك ولا يجحده لظهوره، وهذا المعنى أرجح لدلالة السياق.
٨ - (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)
قوله: {وإنه لحب الخير لشديد} فالضمير راجع إلى الإنسان {وإنه لحب الخير لشديد} وذلك مقسم عليه ثالث - وهو أن الإنسان لشديد الحب للمال - فهو مفطور على هذا الطبع، وهو حبه المال حبا جما.
٩ - (أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)
قوله: {أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور} الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر - وتقديره: يفعل ما يفعل من السوء فلا يعلم - وبعثر، معناه نثر - أي: أفلا يعلم هذا الجاحد لنعمة ربه إذا نثر ما في القبور من الموتى وأخرجوا.
١٠ - (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)
قوله: {وحصل ما في الصدور} يعني، وأظهر ما كانوا يخفونه في قلوبهم من النوايا والأسرار.
١١ - (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)
قوله: {إن ربهم بهم يومئذ لخبير} أي عالم بهم، لا يخفى عليه من أخبارهم شيء - وخص هذا اليوم بالذكر؛ لأن الله مجازي العباد فيه ٠٧

١٠١ سورة القارعة:

سورة القارعة:
هذه السورة مكية، وآياتها إحدى عشرة.
١ - (الْقَارِعَةُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{القارعة ١ ما القارعة ٢ وما أدراك ما القارعة ٣ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ٤ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ٥ فأما من ثقلت موازينه ٦ فهو في عيشة راضية ٧ وأما من خفت موازينه ٨ فأمه هاويه ٩ وما أدراك ما هية ١٠ نار حامية}.
القارعة: من أسماء القيامة - وقد سميت بذلك؛ لأنها تقرع الخلائق بأهوالها ونوازلها وفظائعها - ومن أقوال العرب في هذا الصدد: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة، إذا نزل بهم أمر شديد - لا جرم أن الساعة خبرها داهم ومذهل، وأنها تفجأ الخلائق بشدائدها الجسام، فتقرع فيهم الأسماع والأذهان والقلوب، فيقفون شاخصين واجمين مذعورين.
٢ - (مَا الْقَارِعَةُ)
قوله: {ما القارعة} استفهام على سبيل التفخيم لأمر الساعة وشأنها العظيم - يعني: أي شيء هي القارعة.
٣ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)
قوله: {وما أدراك ما القارعة} يعني - وما أشعرك يا محمد أي شيء القارعة - ثم شرع في تبيان ذلك بقوله: {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث}.
٤ - (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

قوله: {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث} أي حال الناس يوم القيامة من الحيرة والذهول والتفرق والتشتت كالفراش المنتشر الذي يركب بعضه بعضا، إذ يتطاير في كل وجه وأفق - وكذا الناس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض عقب خروجهم من قبورهم منتشرين هائمين حائرين مفرقين.

٥ - (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)

قوله: {وتكون الجبال كالعهن المنفوش} وهذه واحدة من فظائع الساعة تقع في هذا اليوم الرهيب، وهي صيرورة الجبال يومئذ {كالعهن المنفوش} وهو الصوف المنفوش باليد، أي إن الجبال تصير هباء متناثرا في طبقات الفضاء.

٦ - (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

قوله: {فأما من ثقلت موازينه} في هذا اليوم الحافل المشهود توضع الموازين القسط، فتستبين بذلك أعمال العباد، من خير وشر - وفي معنى الموازين قولان: أحدهما: أنه جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن - وثانيهما: أنه جمع ميزان، وهو الذي توضع فيه صحائف الأعمال - والمقصود أن من رجحت حسناته على سيئاته.

٧ - (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

قوله: {فهو في عيشة راضية} أي يصار به إلى الجنة ليخلد فيها آمنا منعّما.

٨ - (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)

قوله: {وأما من خفّت موازينه} أي من رجحت سيئاته على حسناته.

٩ - (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)

قوله: {فأمه هاوية} أي فأمه التي يأوي إليها في المعاد هي هاوية - وهي اسم من أسماء النار - فقد شبّه الهاوية الحارقة المتوقدة بالأم التي تأخذ بابنها في حرص وإشفاق.

وكذا نار هاوية، فإنها تلقف وقودها من المجرمين الخاسرين بشغف وتشوّف - قال القرطبي: يعني جهنم - وسماها أمّا؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه - وقيل: لأنه يهوي فيها على أم رأسه.

١٠ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ)

قوله: {وما أدراك ما هيه} الأصل: ما هي، وأدخلت الهاء للسكت - والاستفهام للتعظيم والتهويل، ثم فسر ذلك بقوله: {نار حامية}.

١١ - (نَارٌ حَامِيَةٌ)

قوله: {نار حامية} أي شديدة الحرارة ١.

١٠٢ سورة التكاثر:

سورة التكاثر:
هذه السورة مكية، وآياتها ثمان.
١ - (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)
بسم الله الرحمن الرحيم

{ألهاكم التّكاثر ١ حتى زرتم المقابر ٢ كلا سوف تعلمون ٣ ثم كلا سوف تعلمون ٤ كلا لو تعلمون علم اليقين ٥ لترونّ الجحيم ٦ ثم لترونّها عين اليقين ٧ ثم لتسئلنّ يومئذ عن النعيم}.

يبين الله في هذه الآيات حال الإنسان الذاهل المنشغل بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عن الآخرة - فهو على حاله من اللهو والسهو والغفلة عن أمر ربّه حتى يفاجئه الموت، فيصار به إلى جهنم مع الخاسرين - فقال سبحانه: {ألهاكم التكاثر} أي شغلكم حبّ المال والمباهاة بكثرته عن دين الحق - أوأنساكم التفاخر بالأموال والأولاد طاعة الله.

٢ - (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)
قوله: {حتى زرتم المقابر} يعني حتى أتاكم الموت، وحينئذ ترون ما يحيق بكم من شديد العذاب - فما كنتم تفاخرون به الناس تركتموه وراء ظهركم لغيركم - وفي هذا روى مسلم في صحيحة عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى - وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس "، وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله ".
على أن زيارة القبور مندوب إليها، فهي تذكّر الموت والآخرة، وتدعو إلى الزهد في الدنيا - وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكّر الآخرة "، وكفى بالموت واعظا، فإنه هادم اللذات، ومفرّق الجماعات، وميتّم البنين والبنات، على أن زيارة القبور للرجال مندوب إليها - أما زيارة النساء للقبور فمختلف في حكمها - فقد قيل بحرمتها في حق النساء، وذلك لما رواه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لعن الله زوّارات القبور "، ولعل علة النهي عن زيارتهن القبور حصول الفتنة - فإذا لم يكن ثمة فتنة في زيارتهن فلا حرج عليهن في ذلك - وعلى هذا إذا انفردت النساء بالخروج عن الرجال فغابت أسباب الفتنة، أبيح لهن الخروج.
٣ - (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)
قوله: {كلا سوف تعلمون} كلا حرف معناه الزجر والردع - وهو ينبه إلى أنه لا ينبغي للمرء أن يكون جل همه في الدنيا ولا يعبأ بدينه - وسوف تعلمون أيها اللاهون الغافلون عن دينكم وآخرتكم فظاعة زيغكم وخطيئتكم إذا عاينتم هول ما ينتظركم من العذاب.
٤ - (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)
قوله: {ثم كلا سوف تعلمون} كلا حرف معناه الزجر والردع - وهو ينبه إلى أنه لا ينبغي للمرء أن يكون جل همه في الدنيا ولا يعبأ بدينه - وسوف تعلمون أيها اللاهون الغافلون عن دينكم وآخرتكم فظاعة زيغكم وخطيئتكم إذا عاينتم هول ما ينتظركم من العذاب.
٥ - (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)
قوله: {كلا لو تعلمون علم اليقين} كرر الردع والتنبيه - أي لو تعلمون علما يقينا أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم ما شغلكم المال والتكاثر به عن طاعة ربكم، وما ألهتكم الدنيا عن الآخرة؛ بل لبادرتم إلى عبادة الله، وامتثال أوامره وأحكام دينه، ولآثرتم الآخرة على الدنيا ومتاعها الداثر الفاني.
٦ - (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)
قوله: {لترونّ الجحيم} وهذا وعيد آخر، وجواب القسم محذوف، وهو لتوكيد الوعيد - أي لترون جهنم يوم القيامة،
٧ - (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)
ثم كرر معطوفا بثم على سبيل التغليظ والتهويل والتهديد، وهو قوله: {ثم لترونّها عين اليقين} - أي ثم لترون الجحيم عيانا لا تغيبون عنها ولا تفارقونها.
٨ - (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)
قوله: {ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم} أي ليسألنكم الله عن اللهو والتنعّم الذي شغلكم التلذذ به عن دينكم وطاعة ربكم .١

١٠٣ سورة العصر:

سورة العصر:
هذه السورة مكية، وآياتها ثلاث.

١ - (وَالْعَصْرِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{والعصر ١ إن الإنسان لفي خسر ٢ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}.
هذه السورة القصيرة في آياتها، القليلة في كلماتها، مثال على روعة القرآن وكمال معناه - لا جرم أن هذه السورة بعظيم اتساقها وترابطها، وقوة مبناها، ونخامة ألفاظها وحروفها، وحلاوة نظمها، وما هي عليه من سمو المعنى وجليل المقصود، لهي برهان ساطع يكشف عن حقيقة هذا الكتاب الحكيم، وأنه المعجز الفذ الذي لا يضاهى ولا يعارض.
لقد ذكر أن عمرو بن العاص- وكان مشركا - وفد على مسيلمة الكذاب بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة - فقال: وما هي؟ فقال: {والعصر ١ إن الإنسان لفي خسر ٢ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبر - إنما أنت أذنان وصدر - وسترك حفر نقر - ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب - والوبر، دويبة تشبه الهرّ أعظم شيء فيه أذناه، وصدره.
ذلك من هذيان هذا الكاذب الأفّاك مسيلمة، يريد به معارضة القرآن الكريم في كمال نظمه، وجمال أسلوبه، وسمو معناه، وإشراق كلماته وحروفه، لكن تخريصه المصطنع لم يرج على عمرو بن العاص إبان شركه وعبادته الأوثان في ذلك الزمان.
قوله: {والعصر} يقسم الله بالعصر، وهو الدهر، أو الزمان بأيامه ولياليه، وما يجري خلاله من مختلف التصرفات والأحوال، وتبدل الظروف والأحداث، وفي ذلك من الدلالة على قدرة الصانع ما لا يخفى - وقيل: المراد بالعصر صلاة العصر.
٢ - (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)
قوله: {إن الإنسان لفي خسر} جواب القسم، وهو أن جنس الإنسان لصائر إلى الخسران.
٣ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)
قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} استثناء من جنس الإنسان وهم الناس، فقد استثنى بذلك من الخاسرين الهلكى {الذين آمنوا وعملوا الصالحات} وهم الموقنون بوحدانية الله، المصدقون بنبوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأدوا ما عليهم من فرائض، فالتزموا شرع الله وأحكام دينه غير مفرطين ولا غافلين.
قوله: {وتواصوا بالحق} يعني حضّ بعضهم بعضا، وأوصى بعضهم بعضا بالحق - وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته، واتباع النور الذي أنزله على رسوله {وتواصوا بالصبر} يعني أوصى بعضهم بعضا بالصبر عن المعاصي وعلى فعل الطاعات والواجبات وما يتقربون به إلى الله ١.

١٠٤ سورة الهمزة:

سورة الهمزة:
هذه السورة مكية، وآياتها تسع.
١ - (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ويل لكل همزة لمزة ١ الذي جمع مالا وعدّده ٢ يحسب أن ماله أخلده ٣ كلا لينبذنّ في الحطمة ٤ وما أدراك ما الحطمة ٥ نار الله الموقدة ٦ التي تطّلع على الأفئدة ٧ إنها عليهم موصدة ٨ في عمد ممددة}.
الويل، معناه الخزي والعذاب والهلكة - وقيل: واد في جهنم - وقد توعد الله كل متصف بالهمز واللمز بالويل، حيث الهوان والعذاب

الأليم، وهو قوله: {ويل لكل همزة لمزة}، واختلف أهل التأويل في المراد بالهمزة واللمزة، فقد قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب - وفي الحديث " شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب "، وروي عن ابن عباس أيضا أن الهمزة القتات وهو النّمام، واللمزة العيّاب - وذكر عنه قوله: إن الهمزة اللمزة: الطعان المعياب - وقيل: الهمزة الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل - واللمزة الذي يغتاب من خلفه إذا غاب - وقيل غير ذلك.

٢ - (الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ)

قوله: {الذي جمع مالا وعدده} {الذي} بدل من كل - وقيل: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ١، فهو الذي يجمع المال بعضه على بعض - أو هو الذي يفاخر الناس بعدد ماله وكثرته.

٣ - (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)

قوله: {يحسب أن ماله أخلده} يعني يظن هذا المنشغل بجمع المال أن ما يجمعه من مال كثير، يجعل له الخلود في هذه الدنيا.

٤ - (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)

قوله: {كلا} ردع وزجر - أي ليس الأمر كما يظن هذا الواهم المغفل المغرور {لينبذنّ في الحطمة} أي ليطرحن وليلقين هذا الذي اغتر بماله وانشغل بجمعه وتكثيره {في الحطمة} وهي اسم من أسماء النار، سميت بذلك، لأنها تحطم وتهشم كل ما يقذف فيها من حصب (وقود) وأناسي.

٥ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)

قوله: {وما أدراك ما الحطمة} الاستفهام للتعظيم، والتفخيم والتهويل - يعني: وأي شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة - وقد فسرها بقوله: {نار الله الموقدة}.

٦ - (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ)

قوله: {نار الله الموقدة} أي النار التي أوقد عليها آلاف السنين حتى صارت في غاية الحرارة والاستعار.

٧ - (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ)

قوله: {التي تطّلع على الأفئدة} أي تأكل النار كل شيء من أجساد الخاسرين المعذبين حتى إذا بلغت أفئدتهم رجعت إلى أجسادهم.

٨ - (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ)

قوله: {إنها عليهم مؤصدة} أي مطبقة، أو مغلقة.

٩ - (فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ)

قوله: {في عمد ممددة} أي إن أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عمد - أي في سلاسل وأغلال مطولة - وقيل: يعذبون بعمد في النار - وقيل: العمد، القيود الثقال ٢.

١٠٥ سورة الفيل:

سورة الفيل:

هذه السورة مكية، وآياتها خمس.

١ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ١ ألم يجعل كيدهم في تضليل ٢ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ٣ ترميهم بحجارة من سجّيل ٤ فجعلهم كعصف مأكول}.

يمتنّ الله في هذه الآيات على قريش، إذ صرف عنهم أصحاب الفيل الذين جاءوا إليهم عازمين على هدم الكعبة وإزالتها من الوجود البتة - فأهلكهم الله أيما إهلاك، ومزقهم شر ممزّق، نخيّب مرادهم، وأضل سعيهم، وردهم خائبين خاسرين مخذولين خزايا.

وخلاصة ذلك أن أبرهة الأشرم وهو من نصارى الحبشة أرسل إلى النجاشي يقول له: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن مثلها قبلها - فشرع في بناء كنيسة عظيمة رفيعة البنيان بصنعاء - وكانت عالية هائلة مزخرفة الأركان - وقد سمتها العرب القليس، لارتفاعها - فقد كان الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها - وقد عزم أبرهة بذلك أن يصرف حجّ العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبا شديدا حتى قصد بعضهم ما بناه أبرهة، وتوصل إليها، إلى أن دخلها ليلا، فأحدث فيها ما أحدث، ثم كرّ راجعا - فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبا لبيتهم الذي ضاهيت به هذا - فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنّه حجرا حجرا - فتأهب أبرهة لذلك، ومضى إليهم في جيش كثيف عرمرم لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه بعضا من الفيلة عظيمة الأبدان - فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف، وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم وهو الذي يسمونه اللات - فأكرمهم وبعثوا معه أبا رغال ليدلهم على طريق الكعبة حتى أنزلهم المغمّس - وهو موضع قرب مكة في طريق الطائف - وهناك مات أبو رغال، فرجمت قبره العرب، وهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمّس - وقد أغار جيش أبرهة على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب - ثم بعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة ليأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة - هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه - وإن يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه - فقال له حناطة: فاذهب معي إليه - فذهب معه فلما رآه أبرهة أجلّه، وكان عبد المطلب رجلا جسيما حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط - وقال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يردّ علي الملك مائتي بعير أصابها لي - فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني - أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه - قال: ما كان ليمتنع مني - قال عبد المطلب: أنت وذاك ١.

قوله: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل} الخطاب عام - يعني ألم تنظروا ما فعل الله بأصحاب الفيل، وهم أبرهة وجيشه من الحبشة الذين جاءوا مكة يبتغون هدم الكعبة وتخريبها - والاستفهام للتقرير يعني، قد رأيتم ذلك.

٢ - (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

قوله: {ألم يجعل كيدهم في تضليل} يعني: ألم يجعل مكرهم وسوء تدبيرهم في تضييع وإبطال - فقد باءوا بالمذلة والخسران والهلكة جزاء قصدهم الخبيث ونيتهم الشريرة.

٣ - (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ)

قوله: {وأرسل عليهم طيرا أبابيل} أي حزائق - وهي جمع حزق أو حزقة - وهي جماعة من الناس والطير، والنحل وغيرها ٢ وأبابيل أي يتبع بعضها بعضا، ومفردها إبّالة، بتشديد الباء - وفي أمثالهم: ضغث على إبّالة وهي الحزمة الكبيرة - فقد شبهت الحزمة من الطير في تضامّها بالإبالة.

٤ - (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

قوله: {ترميهم بحجارة من سجّيل} يعني هذه الطير الأبابيل أرسلها الله على أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وهي طين في حجارة، وكانت واحدتها دون الحمصة وفوق حبة العدس - وقيل: خرجت الطير من قبل البحر مع كل طير ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره، ولا يصيب شيئا إلا هشمه - فما كانت الواحدة من الحجارة تصيب أحدا من جنود أبرهة إلا أهلكته - فأصابت منهم من

أصابت، وفرّ الآخرون هاربين، يبتدرون الطريق الذي جاءوا منه، نخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل ناحية، فأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم، فسقطت أنامله أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى تصدّع صدره عن قلبه.
٥ - (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)
قوله: {فجعلهم كعصف مأكول} العصف هو الزرع الذي أكل حبه وبقي تبنه ٣ وقيل: إنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي - وقيل: معناه التبن ٤.

١٠٦ سورة قريش:

سورة قريش:
هذه السورة مكية، وآياتها أربع.
١ - (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{لإيلاف قريش ١ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ٢ فليعبدوا رب هذا البيت ٣ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}.
اللام، في قوله: {لإيلاف} متعلقة بآخر السورة الفائتة، فيكون التقدير: أهلكت أصحاب الفيل لأجل إيلاف قريش - أي لتأتلف قريش - أو لكي تأمن فتألف رحلتيها - وقيل: هذه السورة متعلقة بالسورة الأولى؛ لأن الله جل شأنه ذكر أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعله بالحبشة من إبادة وتدمير، ثم قال: {لإيلاف قريش} أي أهلك الله أصحاب الفيل نعمة منه على قريش - فقد كانت قريش تخرج في تجارتها فلا يغير عليهم من العرب أحد، إذ كانوا يقولون: هؤلاء أهل بيت الله - وبذلك يذكّرهم الله نعمته، فقد أهلك من رام قتلهم وإيذاءهم ليألفوا الخروج ذاهبين آيبين، فلا يجترئ عليهم أحد.
٢ - (إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)
قوله: {إيلافهم رحلة الشيتاء والصيف} إيلافهم، مجرور على البدل من إيلاف الأولى - ورحلة مفعول به للمصدر {إيلافهم} ١ وهي بمعنى الارتحال - فقد كانوا يرتحلون في العام مرتين - إحداهما إلى اليمن في الشتاء؛ لأنها بلاد حارة، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام؛ لأنها بلاد باردة، وقد كانوا يرتحلون للتجارة، وذلك هو دأبهم في الجاهلية والإسلام.
٣ - (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)
قوله: {فليعبدوا رب هذا البيت} أمرهم الله بعبادته وحده لا شريك له، وأن يفردوه بالإلهية دون غيره - فهو رب هذا البيت، أي الكعبة المباركة التي أسكنهم الله بجوارها، فكانوا بذلك موضع تكريم الناس إياهم، وتبجيلهم لهم.
٤ - (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)
قوله: {الذي أطعمهم من جوع} يمنّ الله عليهم أن أطعمهم بعد جوع - وذلك بسبب دعوة إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) إذ قال: {وارزقهم من الثمرات}.
قوله: {وآمنهم من خوف} آمنهم الله مما كان الناس من غير أهل الحرم يخافون منه كالغارات والحروب - فكانوا بذلك آمنين مطمئنين ٢.

١٠٧ سورة الماعون:

سورة الماعون:
هذه السورة مكية، وآياتها سبع.

١ - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{أرأيت الذي يكذب بالدين ١ فذلك الذي يدعّ اليتيم ٢ ولا يحض على طعام المسكين ٣ فويل للمصلين ٤ الذين هم عن صلاتهم ساهون ٥ الذين هم يراءون ٦ ويمنعون الماعون}.
الاستفهام للتعجيب من حال الذي يكذب بالدين، وهو الجزاء والحساب يوم القيامة - والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟
٢ - (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)
قوله: {فذلك الذي يدعّ اليتيم} أي الذي يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وغلظة وقهر، أو يرده بقبح وخشونة وظلم.
٣ - (وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)
قوله: {ولا يحض على طعام المسكين} أي لا يحث غيره على بذل الطعام للمسكين، وذلك لفرط بخله وتكذيبه بيوم الحساب.
٤ - (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)
قوله: {فويل للمصلين} أي عذاب لهم وهلاك.
٥ - (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ)
قوله: {الذين هم عن صلاتهم ساهون} واختلفوا في المراد بذلك - فقد قيل: الذين يؤخرونها عن أوقاتها تهاونا بها - أو لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها - وقيل: هم المنافقون يتركون الصلاة في السر، ويصلونها في العلن - وليس المراد بالسهو عن الصلاة تركها بالكلية؛ بل المراد تأخيرها عن وقتها.
٦ - (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)
قوله: {الذين هم يراءون} المرائي، الذي يري الناس أنه يصلي طاعة لله، وهو في الحقيقة يصلي تقيّة - أو يصلي ليقال: إنه يصلي - والرياء هو ابتغاء ما في الدنيا بالعبادة طلبا للمنزلة بين الناس - ومن مظاهر الرياء: إظهار الصلاة أو الصدقة أو تحسين الصلاة لكي يراه الناس، فيطروه ويثنوا عليه - أو إظهار الوعظ والتأسف على ما فات من الخير والطاعة.
٧ - (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)
قوله: {ويمنعون الماعون} أي يمنعون الناس ما عندهم من منافع - واختلفوا في المراد بالماعون - فقيل: المراد به الزكاة، أي يمنعون زكاة أموالهم فلا يعطونها الفقراء - وقيل: هو القدر، والدلو، والفأس ونحو ذلك مما يتعاوره الناس ويتعاطونه بينهم - وقيل: المراد به العارية - فالناس يستعير بعضهم من بعض أغراضا من متاع البيت، كالفأس والقدر والكأس وغير ذلك من الأواني مما يحتاج إليه المرء، فما ينبغي للمسلم في مثل هذه الحال أن يخل ببذل ما يبتغيه أخوه من غرض.
ذلك أن المسلمين جميعا إخوة في العقيدة والدين - فهم بذلك متحابون متعاونون ما بينهم، ولا سلطان للشح على قلوبهم؛ بل يبادرون ببذل الخير أو المتاع لإخوانهم - وإذا لم يكن المسلم على هذه الصفة من أداء الخير للآخرين فما ينبغي له أن يكون في عداد المسلمين الصادقين ١.

١٠٨ سورة الكوثر:

سورة الكوثر:
هذه السورة مدنية، وقيل: مكية - وآياتها ثلاث.
١ - (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)
بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أعطيناك الكوثر ١ فصل لربك وانحر ٢ إن شانئك هو الأبتر}.
يخبر الله رسوله الكريم بما منّ عليه من جزيل العطاء يوم القيامة وهو نهر الكوثر - وفي ذلك روى مسلم في صحيحه عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: " نزلت علي آنفا سورة " فقرأ {إنا أعطيناك الكوثر ١ فصل لربك وانحر ٢ إن شانئك هو الأبتر} ثم قال: " أتدرون ما الكوثر؟ " قلنا: الله ورسوله أعلم - قال: " فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم - فيختلج العبد منهم فأقول: إنه من أمتي - فقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك ".
٢ - (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)
قوله: {فصلّ لربك وانحر} الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها - أي فاعبد ربك بما خوّلك من نعمة وشرف، وأقم الصلوات المفروضة - وقيل: أدّ صلاة العيد يوم النحر ثم انحر نسكك - فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينحر ثم يصلي، فأمر أن يصلي ثم ينحر - فالمراد بذلك صلاة العيد، ثم نحر الأضحية - وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر نسكه ويقول: " من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له ".
٣ - (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)
قوله: {إن شانئك هو الأبتر} شانئك يعني مبغضك - يقال: شنأه يشنأه شنئا وشنانا أي أبغضه بغضا - والشانئ، المبغض ١ والأبتر: الذي لا عقب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره ٢، وقد كانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقي البنات: أبتر - وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أن العاص بن وائل وقف مع النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفا؟ فقال: مع ذلك الأبتر - وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عيله وسلم وكان من خديجة، فأنزل الله جل جلاله {إن شانئك هو الأبتر} أي إن مبغضك يا محمد هو المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة.
وذكر عن ابن عباس قال: أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا: بتر فلان، فلما مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد - فأنزل الله سبحانه {إن شانئك هو الأبتر}، ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبتر - فهو سيد الأولين والآخرين، وهو إمام المهتدين والمتقين - وهو الذي ملأت الآفاق نسائم ذكره العاطر، واستحوذ اسمه وحبه على القلوب والألباب - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم معلم البشرية وهاديها إلى سواء السبيل، وإمامها في الدنيا والآخرة، لهو المكرم المفضال الذي حفل بذكره ملكوت السماء والأرض.
أما ذلك الشقي الأثيم المبغض- وكل من هو على شاكلته من المبغضين الحاقدين المتربصين برسول الله صلى الله عليه وسلم السوء- لهو المقطوع الأثر من الخير، أو الذكر الحسن في الدنيا حيث اللعائن تتوالى عليه، فهي تترا - ثم هو في الآخرة صائر إلى جهنم وبئس الورد المورود ٣.

١٠٩ سورة الكافرون:

سورة الكافرون:
هذه السورة مكية - وقيل: مدنية - وآياتها ست.
١ - (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ)
بسم الله الرحمن الرحيم
قل ياأيها الكافرون ١ لا أعبد ما تعبدون ٢ ولا أنتم عابدون ما أعبد ٣ ولا أنا عابد ما عبدتم ٤ ولا أنتم عابدون ما أعبد ٥ لكم دينكم ولي دين}.

هذه السورة تدعو إلى البراءة من الشرك، ومما يقوله المشركون أو يدعون إليه من كفر وباطل - وهي آمرة بتوحيد الله، وإخلاص العبادة والطاعة له وحده، دون أحد من خلقه.
وذكر في سبب نزول هذه السورة أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل وأمية بن خلف، لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله - فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه - وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله {قل ياأيها الكافرون} - وقيل: إن المشركين الجهلة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ١.
قوله: {قل ياأيها الكافرون} الخطاب من الله لرسوله في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم الله أنهم لا يؤمنون أبدا - أي إن المخاطبين هنا كفرة مخصوصون، علم الله منهم الكفر، وأنهم لا يؤمنون.
٢ - (لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)
قوله: {لا أعبد ما تعبدون} يعني قل لهؤلاء المشركين: لا أعبد ما تعبدونه من الآلهة والأنداد.
٣ - (وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)
قوله: {ولا أنتم عابدون ما أعبد} يعني إنكم لا تعبدون الذي أعبد وهو الله وحده لا شريك له - بل إنكم تعبدون آلهة مفتراة من دون الله، وهي الأوثان على اختلاف صورها ومسمياتها - وإنما أنا أعبد الله ربي لا إله غيره، ولا رب سواه.
٤ - (وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ)
قوله: {ولا أنا عابد ما عبدتم} يعني لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم.
٥ - (وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)
قوله: {ولا أنتم عابدون ما أعبد} يعني ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة الله وحده - وقيل: وجه التكرار هنا للتأكيد في قطع أطماعهم فيما راموه - وذلك كالتكرير في قوله: {فإن مع العسر يسرا ٥ إن مع العسر يسرا}.
٦ - (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)
قوله: {لكم دينكم ولي دين} أي لكم شرككم وضلالكم ولي توحيدي وإخلاصي وهداي - أو لكم دينكم فلستم بتاركيه؛ لأنه قد ختم على قلوبكم فلا تؤمنون أبدا - ولي أنا ديني، دين التوحيد لا أتركه أبدا ٢.

١١٠ سورة النصر:

سورة النصر:
هذه السورة مدنية، وآياتها ثلاث.
١ - (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا جاء نصر الله والفتح ١ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ٢ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}.
نزلت هذه السورة في منصرف النبي صلى الله عليه وسله من غزوة حنين ١.
وروى الإمام أحمد عن ابن عباس: لما نزلت {إذا جاء نصر الله والفتح} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعيت إليّ نفسي "، ومن أجل ذلك سميت هذه السورة سورة " التوديع "، وهي آخر سورة نزلت.

وثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح: " لا هجرة، ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استنفرتم فانفروا " ٢.
قوله: {إذا جاء نصر الله والفتح} النصر معناه الإعانة والتقوية أو الإغاثة ٣ - والفتح معناه الإظهار على العدو - ومنه نصر الله الأرض أي غاثها، والفتح: فتح البلاد - والمراد بالنصر في الآية هو نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين - والمراد بالفتح: فتح مكة.
٢ - (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا)
قوله: {ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا} يعني ورأيت الناس من صنوف قبائل العرب - بعد أن نصرك الله، وفتح عليك مكة - يدخلون في دين الإسلام أفواجا، أي زمرا زمرا - وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوازن - وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده " ثم قال: " يا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ " قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم - قال: " اذهبوا، فأنتم الطلقاء " فأعتقهم رسول الله - فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء، ثم بايعوه على الإسلام.
٣ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)
قوله: {فسبح بحمد ربك واستغفره} فسبح، من التسبيح وهو التنزيه - أي نزهه عما لا يليق بكماله من الصفات {واستغفره} أي سله الغفران {إنه كان توابا} الله تواب رحيم، يستر على التائبين المستغفرين ذنوبهم وسيئاتهم - وقد روي عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل أن يموت: " سبحانك الله وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك " ٤.

١١١ سورة المسد:

سورة المسد:
هذه السورة مكية، وآياتها خمس.
١ - (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{تبّت يدا أبي لهب وتبّ ١ ما أغنى عنه ماله وما كسب ٢ سيصلى نارا ذات لهب ٣ وامرأته حمالة الحطب ٤ في جيدها حبل من مسد}.
روي عن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم الصفا فقال: " يا صباحاه "، فاجتمعت إليه قريش - فقالوا: له: مالك؟ قال: " أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقون؟ " قالوا: بلى - قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " - فقال أبو لهب: تبّا لك - ألهذا دعوتنا جميعا ١، فأنزل الله عز وجل {تبّت يدا أبي لهب وتبّ} تبت، من التّباب وهو الخسران والهلاك - وتبت يداه تبا أي ألزمه الله هلاكا وخسرانا ٢.
والمراد بيدي أبي لهب نفسه، فإنه يعبر عن النفس باليد، كقوله سبحانه: {بما قدمت يداك} أي نفسك {وتبّ} أي هلك، فهي خبر، أما {تبت} الأولى فهي دعاء - أي أهلك الله أبا لهب وقد هلك - وأبو لهب اسمه عبد العزى، والعزى صنم - وذكر عن ابن عباس أنه قال: لما خلق الله عز وجل القلم، قال له: اكتب ما هو كائن - وكان فيما كتب {تبت يدا أبي لهب وتب}، وسئل الحسن البصري: هل كان أبو لهب يستطيع ألا يصلى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألا يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يخلق أبو لهب وأبواه.
وهذه الحقيقة عن كفران أبي لهب، وأنه لن يؤمن ولو مصانعة، برهان ساطع على أن القرآن حق، وأنه كلام الله المعجز الذي لا يأتيه

الباطل، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه، وأنه يأتيه الوحي من السماء - وأن أبا لهب لم يؤمن، ولو في الظاهر بلسانه أو مصانعة وعلى سبيل التكذيب لنبي الله وما أنزل إليه، ولو فعلها أبو لهب لأثار إيمانه المصطنع الريبة في قلوب الناس؛ لكن الله يعلم أنه لن يؤمن البتة.
٢ - (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)
قوله: {ما أغنى ماله وما كسب} يعني لم ينفعه ماله، ولم يدفع عنه شيئا من عذاب الله {وما كسب} أي ما كسب من الولد - فإن ولد الرجل من كسبه - قال ابن عباس: لما أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فنزل قوله: {ما أغنى عنه ماله وما كسب} و (ما) الأولى تحمل النفي والاستفهام - و (ما) الثانية: يجوز أن تكون موصولية بمعنى الذي، أو مصدرية، أي ما أغنى عنه ماله وكسبه ٣.
٣ - (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ)
قوله: {سيصلى نارا ذات لهب} أي سيدخل نارا متلهّبة متسعّرة.
٤ - (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)
قوله: {وامرأته حمّالة الحطب} امرأته، مرفوع بالعطف على الضمير في قوله: {سيصلى}، وحمالة منصوب على الذم، أي أذم حمالة الحطب ٤.
وامرأة أبي لهب هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان - فقد كانت تحمل الحزمة من الحطب والشوك فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقيل: كانت تمشي بالنميمة بين الناس - وقيل للمشاء بالنمائم، المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي يوقد بينهم العداوة، ويورث الشر والبغضاء.
٥ - (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)
قوله: {في جيدها حبل من مسد} جيدها، يعني عنقها - والمسد معناه الليف ٥، فقد ذكر أنها كانت تعيّر النبي صلى الله عليه وسلم وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله به فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار ٦.

١١٢ سورة الإخلاص:

سورة الإخلاص:
هذه السورة مكية، وآياتها أربع.
١ - (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{قل هو الله أحد ١ الله الصمد ٢ لم يلد ولم يولد ٣ ولم يكن له كفوا أحد}.
روي عن ابن عباس أنه قال: قالت قريش: يا محمد، صف لنا ربك الذي تدعونا إليه، فنزلت {قل هو الله أحد}.
على أن هذه السورة عظيمة القدر والشأن، فهي تعدل في فضلها وعظيم أجرها ثلث القرآن - فقد روى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: " أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ {قل هو الله أحد ١ الله الصمد} في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن "، وهو، ضمير الشأن، مبتدأ - والله، مبتدأ ثان، {أحد} خبر المبتدأ الثاني - والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول ١، ومعنى {هو الله أحد} أن الله هو الواحد الأحد، الذي ليس له نظير، ولا شبيه، ولا نديد، ولا نصير، وليس له شريك في الملك.
٢ - (اللَّهُ الصَّمَدُ)

قوله: {الله الصمد} الصمد، السيد الذي يصمد إليه في الحوائج، أي يقصد ٢، فالله جل وعلا مقصود في علاه، ترتجيه الخلائق وتقصده، وتسأله الخير والفضل والرحمة.
٣ - (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)
قوله: {لم يلد ولم يولد} الله جل جلاله منزه عن كل عيب أو نقيصة - وهو سبحانه في سموه وكماله ليس كمثله شيء، فهو بذلك لم يلد كشأن الخلق من الأحياء في هذه الصفة، وهي الولادة، فإنه سبحانه منزه عن ذلك - وهو كذلك لم يولد، فإنه الخالق البارئ المنشئ من العدم، وهو لم يولد كغيره من الأحياء المخاليق.
٤ - (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)
قوله {ولم يكن له كفوا أحد} والكفو والكفؤ والكفيء والكفاء بمعنى واحد - وهو يعني المثيل والشبيه، فإن الله جل وعلا ليس له كفاء ولا مثل في الوجود ٣.

١١٣ سورة الفلق:

سورة الفلق:
هذه السورة مكية، وآياتها خمس.
١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{قل أعوذ برب الفلق ١ من شر ما خلق ٢ ومن شر غاسق إذا وقب ٣ ومن شر النفاثات في العقد ٤ ومن شر حاسد إذا حسد}.
هذه السورة وسورة " الناس " تسميان بالمعوذتين - فإنهما يستعاذ بهما من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة - يستعاذ بهما من الحسد والحاسدين، ليدفع الله بفضل قراءتهما الشرور والمكاره عن المستعيذ.
قوله: {أعوذ برب الفلق} والفلق، معناه الصبح - وقيل: معناه الخلق كله ١، فإن الله يأمر نبيه أن يستعيذ بالله مالك الصبح والخلق أجمعين.
٢ - (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)
قوله: {من شر ما خلق} أي من شر كل مخلوق في هذه الدنيا يخشى وقوع شره وأذاه من الإنس والجن.
٣ - (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)
قوله: {ومن شر غاسق إذا وقب} الغاسق: الليل إذا هجم ظلامه - ووقب: أي دخل - والمعنى: أعوذ برب كل شيء من شر الليل إذا أقبل على الناس بظلامه - فإنه في مثل هذا الوقت من سواد الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من جحورها، وينفلب الأشرار ليعيثوا في الأرض الفساد - ومن أجل ذلك أمر الله نبيه أن يستعيذ بربه ورب كل شيء مما حواه الليل من أسباب الأذى والشر والمكروه.
٤ - (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)
قوله: {ومن شر النفاثات في العقد} يعني السواحر إذا رقين ونفثن في العقد - قال الزمخشري في تأويل النفاثات: النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها ويرقين - والنفث معناه، النفخ مع ريق.
٥ - (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)
قوله: {ومن شر حاسد إذا حسد} الحسد معناه تمني زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، أما تمني مثلها وإن لم تزل فهذه غبطة، وهي مباحة، لكن الحسد شر مذموم - فهو أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي الله به في الأرض - فقد حسد إبليس آدم، وحسد قابيل أخاه هابيل - لا جرم أن الحسد رذيلة ممقوتة وذميمة؛ بل إنه من أشد المفاسد شرا وقبحا - وليس

الحاسد إلا ممقوتا مبغوضا، قد حاقت به اللعنة، ونزل به الخسار - حفظنا الله من شر الحسد والحساد، ودفع عنا أذاهم وسوء نواياهم ٢.

١١٤ سورة الناس:

سورة الناس:
هذه السورة مكية، وآياتها ست.
١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{قل أعوذ برب الناس ١ ملك الناس ٢ إله الناس ٣ من شر الوسواس الخنّاس ٤ الذي يوسوس في صدور الناس ٥ من الجنة والناس}.

أمر الله عباده المستعيذين أن يستعيذوا برب كل شيء من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان - فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له فعل الفواحش والمنكرات - والمعصوم من عصمه الله - وفي الصحيح أنه " ما منكم من أحد إلا قد وكّل به قرينه "، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: " إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير ".

قوله: {قل أعوذ برب الناس} يعني: قل أستجير برب الناس، وهو مالكهم وخالقهم.

٢ - (مَلِكِ النَّاسِ)

قوله: {ملك الناس} أي إلههم - وهو بارئهم وخالق ملوكهم وعظمائهم - فهو الذي يستعاذ به، ويلجأ إليه دون غيره من الأعاظم والجبابرة.

٣ - (إِلَهِ النَّاسِ)

قوله: {إله الناس} أي معبودهم الذي تجب له العبادة دون أحد سواه.

٤ - (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

قوله: {من شر الوسواس الخناس} يعني من شر الشيطان ذي الوسواس، من الوسوسة، وهي حديث النفس - وذلك هو دأب الشيطان الرجيم مع ابن آدم، فإنه ينفث في قلبه في كل الأحوال من الحزن أو السرور، ليثير في نفسه الأوهام والظنون والأضاليل من التصورات، ثم يدعوهم إلى التلبس بالباطل، حتى إذا ذكر الله خنس - أي تأخر، وأخنسه غيره أي خلّفه ومضى - وسمي الشيطان خناسا؛ لأنه يخنس إذا ذكر الله ١، وفي الخبر: " إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا غفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس "، أي تأخر وأقصر.

٥ - (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)

قوله: {الذي يوسوس في صدور الناس} يدعوهم إلى طاعته، فيزين لهم الشر والمعصية - وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ".

٦ - (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

قوله: {من الجنة والناس} أي أن الموسوس قد يكون من الجن أو من الإنس، فهما بذلك شيطانان - أما شيطان الجن فإنه يوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فإنه يأتي علانية - قال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين - فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن.
وقيل: إن قوله: {من الجنة والناس} بيان للناس، وإن اسم الناس ينطلق على الجنة ٢.

تم هذا التفسير بعون الله ومشيئته وفضله وتوفيقه في العشاء الآخرة من ليلة الأربعاء في الرابع والعشرين من شهر صفر لعام سبعة عشر وأربعمائة وألف للهجرة - الموافق للعاشر من تموز عام ستة وتسعين وتسعمائة وألف للميلاد.

أسأل الله جلت قدرته أن يسهم هذا الجهد في الإعراب عن عظيم الشأن للقرآن الكريم، وفي إظهار ما تضمنه هذا الكتاب المعجز الفذ من عجيب المعاني والأخبار والحقائق، ليستيقن الناس أن هذا القرآن لهو أعظم الحقائق اليقينية في هذا الوجود.

ثم أسأله عز شأنه أن يكون ما بذلناه في هذا التفسير متقبّلا، وأن يدفع عنا به غوائل الشرور والموبقات والخطايا، وأن يكون لنا فرطا يوم التناد، فنظفر بالسعادة والنجاة والرضوان - والحمد لله رب العالمين.